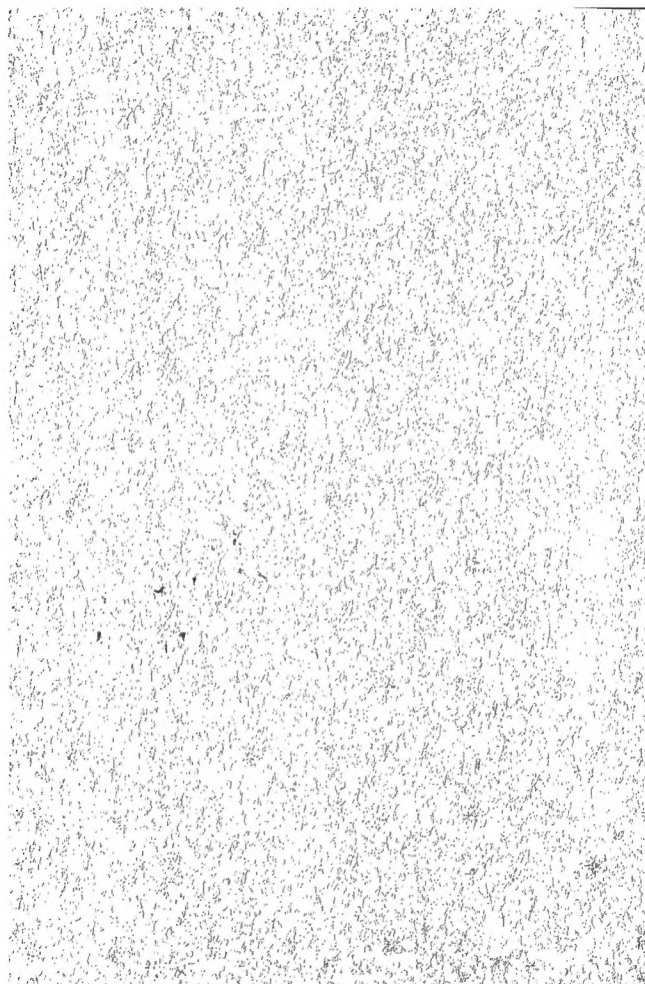
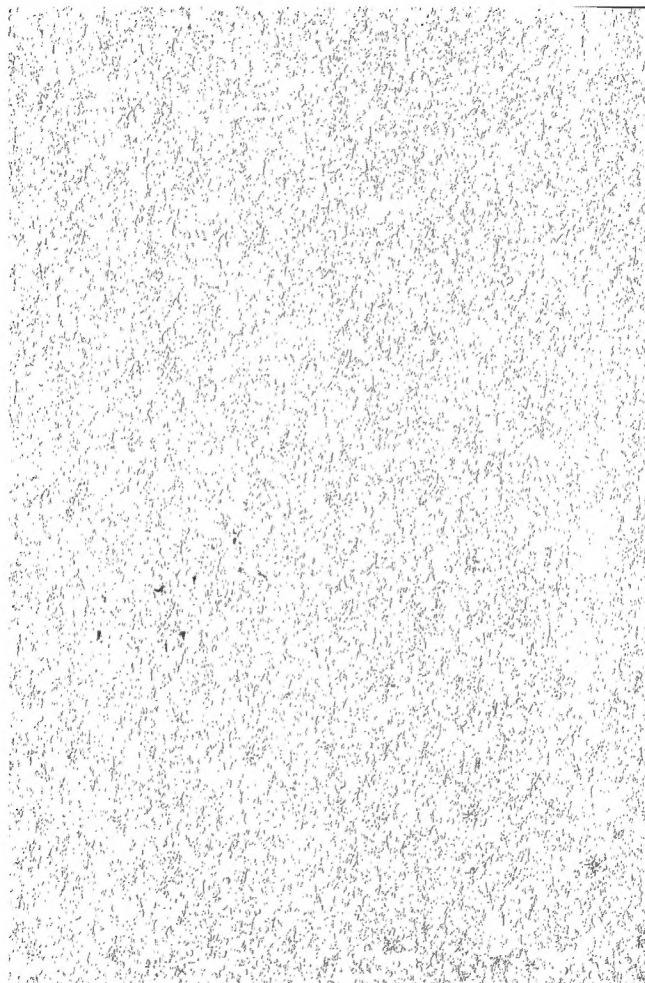


  
Bibliotheca Alexandrina  
0035854  







# عصر المأمون

بقلم

الدكتور

أحمد فريد زفاعي

المفتش بوزارة الداخلية

المجلد الأول

( حفرق الطبعة محفوظة المؤلف )

[ الطبعة الثالثة ]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٦ هـ - ١٩٢٨ م



# فهرست

## المجلد الأول من عصر المأمون

|      |                             |
|------|-----------------------------|
| صفحة |                             |
| (ط)  | كلمة العاد الأصفهاني ... .. |
| (ك)  | إهداء الكتاب ... ..         |
| (م)  | المقدمة ... ..              |

### الكتاب الأول - عصر بني أمية

#### الفصل الأول - تحول المدنية الإسلامية :

|   |  |
|---|--|
| ١ | توطئة ... ..                                   |
| ٤ | نظام الحكم في عهد الصحابة ... ..               |
| ٥ | حكومة عثمان ونظر الجماعات العربية إليها ... .. |

#### الفصل الثاني - الجهاد بين الخلافة والملك :

|    |                                    |
|----|------------------------------------|
| ١٠ | توطئة ... ..                       |
| ١١ | كلمة عن علي رضي الله عنه ... ..    |
| ١٣ | تحول الرأي العام ... ..            |
| ١٥ | معارية ... ..                      |
| ١٥ | سياسة معارية ... ..                |
| ١٦ | مميزات معارية ... ..               |
| ١٨ | مدارية والسياسة الميكافيلية ... .. |

#### الفصل الثالث - سياسة معاروية وخلفائه :

|    |                              |
|----|------------------------------|
| ٢٠ | توطئة ... ..                 |
| ٢٢ | اصطناع الأحزاب بالمال ... .. |
| ٢٥ | السمال ... ..                |
| ٢٨ | الرجحة الدينية ... ..        |
| ٣٥ | التصف المذهبي ... ..         |

| صفحة |   |
|------|---|
|      | الفصل الرابع — ولاية العهد :                                |
| ٣٨   | نظام ولاية العهد وابن خلدون .....                           |
| ٣٩   | خطر نظام ولاية العهد وأثر البطانات .....                    |
| ٤٣   | نظام ولاية العهد وملائته بالمصيبة العربية .....             |
|      | الفصل الخامس — الحياة العامة والأدبية للعصر الأموى :        |
| ٤٥   | توطئة .....   |
| ٤٦   | آثار الآداب والعلوم الفلاسفة والوثائق في العصر الأموى ..... |
| ٤٧   | حركة النقل .....  |
| ٤٩   | الخطابة ومحاضراتها .....                                    |
| ٥١   | المكتبات .....  |
| ٥٣   | حالة الشعر في العصر الأموى ونحوه .....                      |
| ٥٦   | الغزل .....   |
| ٥٩   | الشعر السياسي .....   |

## الكتاب الثاني — عصر بني العباس

### الفصل الأول — الوجهة السياسية :

|    |                      |
|----|----------------------|
| ٦٩ | توطئة .....          |
| ٦٩ | دور الانقلاب .....   |
| ٧١ | الشبهة السلوية ..... |

### الفصل الثاني — العصبية والمواالي في الدولة العباسية :

|    |                 |
|----|-----------------|
| ٧٤ | توطئة .....     |
| ٧٥ | المصيبة .....   |
| ٧٩ | المسواالي ..... |

### الفصل الثالث — الدولة العباسية :

|    |   |
|----|---|
| ٨٢ | توطئة .....                               |
| ٨٢ | تأليف الجمعيات السرية .....               |
| ٨٤ | الدعوة العباسية وأبو مسلم الخراساني ..... |
| ٨٨ | الفصل الرابع — أبو العباس السفاح .....    |

## فهرس المجال الاول

(٨)

|      |   |
|------|---|
| صفحة |   |
| ٩٢   | الفصل الخامس - أبو جعفر المنصور .....                 |
| ١٠١  | الفصل السادس - المهدي .....                           |
| ١٠٧  | الفصل السابع - الهادي .....                           |
| ١١٤  | الفصل الثامن - هارون الرشيد :                         |
| ١٢٢  | (١) السياسة الداخلية .....                            |
| ١٢٨  | (٢) السياسة الخارجية .....                            |
| ١٣٠  | (٣) التكلم عن البيئة .....                            |
| ١٣٥  | (٤) الدولة البرمكية والنكية البرمكية .....            |
|      | الفصل التاسع - الحياة العلمية في العصر العباسي :      |
| ١٦٠  | توطئة .....   |
| ١٦١  | حركة العقل .....                                      |
| ١٦٤  | العلوم القرآنية والفنوية والفقهية .....               |
|      | الفصل العاشر - الحالة الأدبية في صدر عصر بني العباس : |
| ١٦٦  | توطئة .....   |
| ١٦٧  | الخطابة والخطباء .....                                |
| ١٧٢  | الكتابة .....   |
| ١٧٤  | مجالس الخلفاء والمناظرة .....                         |
| ١٨٢  | الشعر .....   |

## الكتاب الثالث - عصر المأمون

### الفصل الاول - محمد الأمين :

|     |                     |
|-----|---------------------|
| ١٨٩ | توطئة .....         |
| ١٩١ | مولده .....         |
| ١٩٢ | نشأته وأخلاقه ..... |

### الفصل الثاني - المأمون :

|     |                     |
|-----|---------------------|
| ٢١٠ | توطئة .....         |
| ٢١٠ | مولده .....         |
| ٢١١ | نشأته وأخلاقه ..... |

صفحة

الفصل الثالث - التراع بين الامين والمأمون :

|     |  |
|-----|--|
| ٢١٩ | توطئة ... ..                                     |
| ٢٢٠ | بيعة الأمين وخلاته ... ..                        |
| ٢٢٢ | مبدأ النزاع وكيف تحول ... ..                     |
| ٢٢٨ | الوفود السياسية ... ..                           |
| ٢٣٦ | تطور الرأي العام واستقرار الوفود السياسية ... .. |
| ٢٤٥ | إحلاف الحرب ... ..                               |
| ٢٤٨ | انتصار الجيوش المأمونية ومقولات الشعراء ... ..   |
| ٢٥٢ | عرد على يد ، جهود الأمين في سبيل الفوز ... ..    |
| ٢٥٤ | مظاهر الثورة وخطاياها ... ..                     |
| ٢٥٥ | قتل الامين ... ..                                |

الفصل الرابع - الخليفة المأمون :

|     |   |
|-----|---|
| ٢٥٧ | توطئة ... ..                                  |
| ٢٥٨ | السياسة الداخلية ... ..                       |
| ٢٥٨ | ملخص الحالة العامة في المدة انطراسانية ... .. |
| ٢٦٩ | المدة البغدادية ... ..                        |
| ٢٧٣ | ثورة نصر بن شبث ... ..                        |
| ٢٧٧ | الوط ... ..                                   |
| ٢٧٨ | ثورة مصر ... ..                               |
| ٢٨١ | بابك الخرمي ... ..                            |
| ٢٨٦ | ملاحب ونحل ... ..                             |
| ٢٨٧ | اقتراضات ... ..                               |
| ٢٨٨ | السياسة الخارجية ... ..                       |
| ٢٩٠ | غزوة المأمون الروم ... ..                     |
| ٢٩٢ | كلمة ختامية ... ..                            |

الفصل الخامس - الوزارة والأعمال الحكومية في عصر المأمون ، تاريخ الوزارات المأمونية :

|     |                                       |
|-----|---------------------------------------|
| ٢٩٦ | توطئة ... ..                          |
| ٢٩٦ | وزارة الفضل بن سهل وأخيه الحسن ... .. |
| ٣٠٤ | وزارة أحمد بن أبي خاله ... ..         |

|      |   |
|------|---|
| صفحة |   |
| ٣٠٨  | رئاسة أحمد بن يوسف  |
| ٣٠٨  | وزارة يحيى بن أكثم  |
| ٣٠٨  | وزارات أخرى   |
| ٣٠٩  | البلد والقواد في عصر المأمون                              |
| ٣٠٩  | ديوان القضاء والحكام والحسبة                              |
|      | <b>الفصل السادس — خلاصة الحياة السياسية والاجتماعية :</b> |
| ٣١١  | توطئة   |
| ٣١١  | نصكة الوزراء  |
| ٣١٢  | الاستصفاء   |
| ٣١٧  | ثروة الخلفاء ورجال الدولة وبذخهم                          |
| ٣٢٠  | الخروج في عهد المأمون                                     |
| ٣٢٣  | الخروج في عهد المتصم                                      |
| ٣٢٧  | السماعات والجلسوسية                                       |
| ٣٢٨  | الهداية (البرهانية)                                       |
| ٣٣٠  | صعوبة مهمة الموقوف  |
|      | <b>الفصل السابع — شخصية المأمون :</b>                     |
| ٣٣١  | توطئة   |
| ٣٣١  | حسبه وسماته   |
| ٣٣٧  | كيف تمك المأمون قلوب بطائه                                |
| ٣٤٠  | لذره لرجال دولته  |
| ٣٤٢  | قدره للشجاعة الادبية                                      |
| ٣٤٥  | علمه واتصافه  |
| ٣٤٩  | فضوه  |
| ٣٥٢  | احتماله   |
| ٣٥٣  | بصره بالأدب   |
| ٣٥٩  | علم المأمون   |
| ٣٦٢  | احسنائه للدين   |
| ٣٦٤  | سياسته  |
| ٣٦٧  | مذهبه الدين   |
| ٣٧٢  | كلمة ختامية عن المأمون                                    |

صفحة

الفصل الثامن — الحياة العلمية في عصر المأمون :

|     |                             |
|-----|-----------------------------|
| ٣٧٥ | توطئة .....                 |
| ٣٧٩ | حركة الترجمة والفعل .....   |
| ٣٨١ | مكتب العصر .....            |
| ٣٩٤ | آثار النهضة المأمونية ..... |
| ٣٩٥ | القول بخلق القرآن .....     |

الفصل التاسع — الحياة الأدبية في عصر المأمون :

|     |                                  |
|-----|----------------------------------|
| ٣٩٩ | توطئة .....                      |
| ٤٠٢ | الحادثة أولفة الخطاطب .....      |
| ٤٠٣ | الخطابة .....                    |
| ٤٠٥ | المكتابة .....                   |
| ٤٠٦ | محاسن المناظرة وأجها الأدب ..... |
| ٤٠٦ | الشعر .....                      |

الفصل العاشر — نماذج لبعض الشخصيات البارزة في العصر المأموني :

|     |                                 |
|-----|---------------------------------|
| ٤١٧ | توطئة .....                     |
| ٤١٧ | جبرائيل بن بختيشوع .....        |
| ٤٢٠ | الجاحظ .....                    |
| ٤٢٩ | أبان بن عبد الحميد اللاحق ..... |
| ٤٣٤ | أحمد بن يوسف الكاتب .....       |
| ٤٤٠ | يحيى بن أسكنم .....             |
| ٤٥٢ | إسحاق بن إبراهيم .....          |





« إني رأيتُ أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال »  
« في غده : لو غيّر هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان »  
« يُستحسن ، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل ، ولو تُرك هذا لكان »  
« أجمل . وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء »  
« النقص على جملة البشر » .

العماد الاصفهاني



الى حضرة صاحب الدولة عبد الخالق ثروت باشا

## مولای

لله على نعمۃ التوفیق الى الاتصال بك، والانقطاع لخدمتك،  
والاستغلال بظلك، فانا أحد هؤلاء الكثيرين الذين تعهدهم فضلك،  
وثقتهم نصحك، وهذبهم أدبك . أولئك الذين أنت لهم أبٌ برٌّ،  
ومثقف حكيم، وأستاذ رشيد .

وكنْتُ قد أخذتُ نفسي بأن أقفَ على خدمتك ما أمك من  
وقت وجهد، ولكن الإنسان طَلْعَةٌ بَطْنُهُ، فاذا اتصل بك فلا حدَّ  
لرغبته في البحث، وحرصه على الجِدِّ، وطُمُوحه الى الكمال .  
وكذلك أراد الله أن أقتطعَ من هذا الوقت الذي وهبته لك خالصاً  
ما أمكنتني من وُضْع هذا الكتاب .

فهل تأذن لي يا مولای أن أرفع اليك "عصر المأمون" على  
أنه أثرٌ يَهْدِي الى مَنْشئهِ، وحقُّ يَرُدُّ الى أهله، واعترافٌ بالجميل من  
رجلٍ مَهْمًا يَقْعُل ومهما يَقْلُ فلن يوفيكَ بعض ما يَدِينُ به ضميره لك  
من حُبٍّ وإجلال .

مدَّ الله في حياة مولای، وجعل مستقبلها كإضيها حافلاً بالجِدِّ  
والتوفيق في خدمة أُمته وعصره ومليكته ما

أحمد فريد رفاعي

أول إبريه سنة ١٩٢٧



## مقدمة

# بسم الله الرحمن الرحيم

١ — الحمد لله، والصلاة والسلام على رسل الله . وبعد فإني أقدم بهذا الأثر الضئيل من "عصر المأمون" الى أمي، وإلى الناطقين بالضاد من أبناء لغتي . وأمل بفضل إرشاد العلماء والنقاد أن يوقفني الله الى إكمال النقص، وإصلاح الخطأ، وتلافي التقصير في الطبقات القادمة . معترفاً، في صدق وإخلاص، بأن طبعي هذه لا تمكن أن تكون "محاولة" لكتابة التاريخ العربي على النظم العلمية الحديثة . وأنت تعلم أن تاريخنا العربي لا يزال، بلا مبالغة ولا إغراق، مُعوّذ شئ المصادر كما يُعوّز التنظيم والترتيب والتحقيق والاستقراء . وإني أسأله تعالى أن يجعلني ممن يُدعى لكلمة الحق . فيرتقي حُرُمته، وينسدى بهديها، غير مفتون بمجد المادح، ولا مُبتسئ بقصد القادح . كما أسأله أن يُرشدني الى المُنهج موقفاً مسدداً فيما أخذتُ به نفسى من البحث عن عصور "معاوية" و"المنصور" و"الرشيد" و"عبد الرحمن الأندلسي" . وأملُ بمحوته تعالى، وإبرازها للعلماء والأدباء، ومُعوّنة المستشرقين والباحثين، وبما يهَبُّ لي الله من صبر وجلد، ومُواظبة ومُتَابرة، ومُتَابعة للدرس والاستقراء، وبما أوفَّق اليه من مصادر ونصوص، ومراجع ومُطالّن، أن أكون — عند الانتهاء من كتابة ما ارتنته به، لو كان في العمر بقية — قد وفَّقتُ الى تنظيم دراسة تلك البحوث تنظيلاً جزئياً، يتفق ووسائل ومقَدَوري، ويتِمَّتْ — الى حدٍّ ما — والطريقة التحليلية الحديثة في كتابة التاريخ، وأن يكون عملي حين ذاك مما يسمح لي أن أقول، في ثقة وإيمان، إنّي قد قمت

حقاً «بمحاولة» ذات أثر نافع تتجسّد في من اتخاذا أساساً لكتابة تاريخ المديّنات العربية الواسعة المدى ، البليغة الأثر في الثقافات الإنسانية عامة ، كتابةً تاريخيةً صحيحة .

٢ — وقد وقع «عصر المأمون» في مجلدات ثلاثة، خصصت. أولها بالتاريخ ومآل التاريخ ، وثانيها وثالثها بالأدب وما إلى الأدب ، واعتدلت في تلخيص الشعراء فيها على أمهات المظان الأدبية لإسحاق كساب الأغانى ، وأعترف — في صديقي وإخلاص — أنّ مهمتي في المجلدين الآخرين لم تخرج عن مهمة المتخيراً في تلك العصور الزاهية من ضررٍ ودررٍ، المنقّب عما فيها من طُرْفٍ ويلمح ، الملخص لحياة أدبائها وشعرائها ، المحتفظ بعبارات المعاصرين وشيوخ المؤلفين عنها . وقسمت المجلد الأول إلى كتب ثلاثة . عاجلتُ فيها البحث عن عصور بني أمية وبني العباس والمأمون . وقد توجّيت الإيجاز في فذلكتي التاريخية عن عصرَي الأمويين والعباسيين لأنهما بمثابة نُكَّاةٍ وأساس لموضوعنا ، كما لاحظتُ الاستمساك بالحيطة التامة وعدم التطوع مع أولئك المؤرخين والرواة الذين تأثروا بأهوائهم السياسية ومعتقداتهم المذهبية والذين نكبت بهم عن محبة الصواب مغالاتهم في الانتصار لفكرهم الحزبية . وقسمت المجلدين الثاني والثالث إلى ملحقات للكتب الثلاثة عن العصور الثلاثة ، نشرت فيها ما وسّعه المقام من المنشور والمنظوم والنصوص الطويلة والمقالات المستفيضة . وعُنيته عنايةً خاصة إلى جانب ذلك بذكر جملة صالحة من آثار كاتب خاص وشاعر خاص على أنهما نموذجان لتمثيل عصرهما . واتخذت من عبد الحميد الكاتب وعمر بن أبي ربيعة نموذجاً أمويّاً ، ومن أبي الربيع محمد بن الليث وبشار بن برد مثالا عباسياً ، ومن عمرو ابن مسعدة وأبي نوّاس نموذجاً لتصوير الحياة الكتابية والشعرية في عصر الأمين والمأمون ، إلى غير ذلك من النماذج والآثار مما يستدعيه المقام ، فجاء المجلدان الثاني والثالث بذلك مكملين للمجلد الأول .

وأعتقد اعتقاداً راسخاً أنّه لن يعترض على معترض لمتابعي العصر العباسي من وجهيته التاريخية والأدبية ، فلم يعد «عصر المأمون» عن كونه شرطاً يُحَقَّلُ به من العصر العباسي ، كما أعتقد أنّه مما لا مندوحة لنا عنه لفهم العصر العباسي أنّ نصوّر لك العصر الذي قبله

بما يسهل المقام . وهذا ما عالجناه لك في كتابنا بصورة متواضعة نأمل أن تكون فيها الفائدة والكفاية لما نروم تصويره .

ولقد عدلت عما كنتُ ذهبتُ إليه من بيان المصادر والمراجع في نهاية كل صفحة ، رغبة في ألا أشغلَ نظر القارئ بما لا يُجدي عليه ، وحرصاً على توحيد مجهوده في استيعاب الموضوع وفهم شتى نتائجيه ، مُلتصقاً في الوقت نفسه نهاية المجلد الثالث ببيان مصادر الكتاب لمن أراد توسعاً فتراجع ثمة .

٣ - وأحمد الله أن أبرز كتابي هذا في عصر النهضة الاستقلالية المصرية التي ازدانت برعاية مولانا الملك "فؤاد الأول" حفظه الله . كما ازدانت بناصعة خدم أقطابنا وزعمائنا ، ذوى الصحف البيضاء ، والآثار الخالدة الباقية ، وعلى رأسهم أصحاب الدولة الأجلاب ، فقيدنا المرحوم المبرور "سعد زغلول باشا" والقطبان الخطيران "عدي يكن باشا" و"عبد الخالق تروت باشا" . فهؤلاء الثلاثة ، قد وهب الله لهم أصالة الرأي ، وبآلة القصد ، وثروة الذهن ، وغنى العقل ، وحياهم سداداً في سياسة ، وتواضعاً مع رئاسة ، وحكمة في كياسة ، ونبرغاً مع ثقافة ، وحرماً في حصانة . وأمتهم بثقوب النظر ، ورجاحة الفكر ، وأفاض على أخصاصهم ليلاً ودمائهم ، وسماحة ووداعة ، حتى أجمع القوم على حجب إجماعهم على الاعتراف بأوفر فضلهم ، والإشادة بعطر ذكركم ، وتسابقوا إلى الاستفادة من سديد مواقفهم ، وحكيم صنعهم ، ونزبه أعمالهم ، استفادتهم من أقاويق عرفانهم ، وقبض بانهم ، ومقنن برهانهم . وهؤلاء الثلاثة قد نجحوا في تكوين الأمة من الوجهة المنبغية ، نجاحتهم في تكوينها من الوجهة القومية . فاللهم رحمة واسعة لزعمينا الراحل الكريم ، وعوضنا اللهم من خسارتنا الفادحة في فقده ، أحوج ما كنا إلى عظيم جهوده ، وهب اللهم حياة طويلة لقطيننا عظم الآمال ومعتد الرجاء .

وأحمد تعالى على أن دخلت البلاد عهداً جليداً من حياتنا العلية ، برعاية وزير معارفنا الهام ، مُرهف الذمات ، مسدد الوثبات ، صاحب المآلى "على الشمسي باشا" ومدير

جامعتنا المصرية العالم الجليل الأستاذ "أحمد لطفى السيد بك" وغيرهما من رجالات العلم والأدب في هذا الجليل .

٤ - وإننى أنتهز هذه الفرصة لأشيد بما لارحوم الأستاذ محمد الخضرى بك من فضل عظيم، ومعترفا بما لصديقى الدكتور طه حسين الأستاذ بالجامعة المصرية من مَعُونَةٍ قِيَمَةٍ في غير موضع من الكتاب، كما أنتهزها لأشكر لسادقى العلماء والأدباء، ورجال الصحافة والمجلات حسن استقبالهم لكتابى . كما أشكر لحضرات النقاد الأجلاء جميل تشجيعهم وحكيم أخذهم الأمور بهدوء ورفق . معترفاً بصداق رغبتهم فى الأخذ بناصر العلم والعلماء قادراً أعظم قدر روحهم العالية فيما دَبَّجُوهُ فَأَجَادُوهُ ، وكتبوه فارتفعوا بعلم النقد عندنا عما وُصِمَ به أختار من التَّطَاخُنِ وَالزَّيْمَاءِ ، وإجلال الشُّعْنَاءِ، والعمل على الهدم لا حل البناء، كما أشكر لسادقى الأستاذين الجليلين محمد عبد الوهاب النجار وعبد الخالق عمر والكتاتين الأديبين محمد المهيأوى ومحمد صادق عنبر، حُسِّنَ صنيعهم فى تهذيب "عصر المأمون" معترفاً بعظيم جهد ثانيهما اللغوى أحسن الله جزاءهم .

وإنى أخص بالشكر رجال دار الكتب المصرية وعلى رأسهم حضرات الأساتذة محمد أسعد برادة بك مدير الدار ذى الخلق والوديع والهمة الشَّهَاءَ . وأحمد زكى العدوى افندى رئيس القسم الأدبى بالدار وصاحب الهوامش الحسان . وعبد الرحيم محمود افندى ومحمد عبد الجواد الأصمى افندى المصححين به وصاحبى الأثر الطيب الجليل . ورجال هذا القسم كافة فلهم الفضل الكثير، بهمة رئيسهم الفاضل، فى ضبط الكتاب وتصحيح مسوداته . كما أشكر حضرة الفاضل محمد نديم افندى ملاحظ الطباعة بالدار المشهور بالدقة والإتقان . ويلوح لى أن الله تعالى أحسن جزاء المأمون على حدِّيه وكبير عنايته بدُّور الحكمة (دور الكتب) العديدة فى عصره، بأن وفق دار الحكمة فى مصر، فى هذا العصر، الى رعاية عصره، بهمة وإخلاص، وتدقيق وتحقيق ما

أحمد فريد رفاعى



# الكتاب الأول

## عمر بن أمية

### الفصل الأول

#### تحول المدينة الإسلامية

توطئة — نظام الحكم على عهد الصحابة — حكومة عثمان ونظر الجماعات العربية إليها .

#### (١) توطئة :

حل الفتح الإسلامي الذي فتحه الخلفاء الراشدون في سبيل الدعوة الدينية من العناصر المادية والاجتماعية والسياسية ما كانت له نتائج وآثاره ؛ فبعد أن كانت الأموال في أيام النبي صلى الله عليه وسلم نحو أربعين ألفا بين أبيي وخيلي ، وبعد أن كان عمر بن الخطاب ديهشاً مرتاباً حينما أبلغه أبو هريرة عند قدومه من البحرين أنه أتى بخمائة ألف درهم فاستكثرها عمر وقال : أتدري ما تقول ؟ قال : نعم ، مائة ألف خمس مرات . فصعد عمر المنبر وقال : «أيها الناس ، قد جاءنا مال كثير ، فإن شئتم كلنا لكم كيلا ، وإن شئتم عدنا لكم مداً» — بعد أن كان ديهشاً من هذه الثروة أصبحنا نرى ، بعد عهده بقليل ، جساماً الهيات مما لا تعد هذه الأموال في جانبه شيئاً مذكوراً .

ونحن لا نعترض الآن للقول فيما وصلت إليه الثروة الإسلامية في أيام المأمون ، ولا نعترض لفنون المديريات العديدة التي سادت في عهده ، لأننا رسمنا لأنفسنا خطة من لا يريد

استباق الحوادث وآثارها، ولا التاريخ ونتائجه. ولنا يجترئ الآن بكلامنا عن عصر قريب من عصر النبي صلى الله عليه وسلم، القريب العهد بتأثر الأذهان بالكل العليا: من أبي بكر الذي مات ولم يبدوا عنده من مال الدولة إلا ديناراً واحداً سقط من غرارة، والذي أوصى حينما دنا أجله بأن يُباع أرض كانت له ويُدفع ثمنها بدلاً مما أخذه من مال المسلمين، ومن عمر بن الخطاب الذي حرّم على المسلمين اقتناء الصبيّان والزراعة، لأن أرزاقهم وأرزاق عيالهم وما يملكون من عبيد وموَالٍ، كلّ ذلك يدفعه لهم من بيت المال، فما بهم إلى اقتناء المال من حاجة، وليس للسالك في نفوسهم من إغراء ولا إلى ضمائرهم من إفساد.

هذه حال المسلمين المادية والمعنوية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه، نظرنا فيها وبين ما جدّ بعد ذلك من كثرة في المال وإسراف في الترف مما كان له أعقّب الأثر في تغيّر أحوال المسلمين الاجتماعية والمعيشية والفكرية. يحدثنا ابن خلدون عن عامل أموي، ليس بملك ولا خليفة، يحدثنا عن خالد القسري أمير العراق في أيام هشام فيقول: إن غلته بلغت ثلاثة عشر ألف ألف درهم. ويثبت لنا ابن الأثير دليلاً ليس بأقل مما ذهب إليه ابن خلدون قيمة وخطراً، إذ يقول ما نصه: «إن طارقاً خليفة خالد حل الكوفة لما ختن ولده أهدى إليه خالد ألف وصيف وصيفة سوى الأموال والثياب». وذكر البغوي: أن خالدًا فرق أموالاً عظيماً مبلّغها ستة وثلاثون ألف ألف درهم.

أجل! لقد تحوّلت الاعتبارات الاجتماعية وفقاً للتغيرات المادية، فبعد أيام الورع وظلّة سلطان الدين والعدل في أعطيات المسلمين، بعد أيام عمر وصحابة عمر التي نعلم الشيء الكثير من وجهه نظر محمد الدين الاسلامي فيها إلى المال — وهو عنصر حيوي شديد الأثر في تحوّل النظم المعيشية والاجتماعية والسياسية أيضاً — وإلى ضرر اختراجه، فقد قال قائل لعمر بن الخطاب: «يا أمير المؤمنين، لو تركت في بيوت الأموال شيئاً يكون عدّةً لحادث إذا حدث! فزجره عمر وقال له: «تلك كلمة ألقاها الشيطان على فبك وقاني الله شرّها! وهي فتنة لمن بعدى. إني لا أجد لحادث الذي يحدث سوى طاعة الله ورسوله، وهي

عُدْنَا الّتي بَلَّغْنَا بها ما بَلَّغْنَا» — بعد هذه النظراتِ التقشّفية البريئة، نظراتِ الورع والزهد، سَرَطَانٍ ما حملتِ الفُرُوحُ معها ومع تلك الثروات الطائلة الّتي أُتت بها ما غيرَ عاصِرِ عِدَّةٍ، فاحترقَ المَالُ، وكانتِ الفتنةُ كما تَنَبَّأتْ نظراتُ عمرِ الصَّائِبَةِ إلى المَالِ واختراجه، وذهبتْ في آثارها إلى ما هو أعمقُ وأخطرُ، ذهبتْ إلى اليكَّانِ الخَلْقِيِّ للعرب، فبدلتْ من سيرة قَادَتِهِمْ وسيرة شُعْبِهِمْ : كانتِ سيرة قَادَتِهِمْ عدلاً وإنصافاً، وسيرة شُعْبِهِمْ أنفةً وأنصافاً، فتبدلتِ الحالُ غيرَ الحالِ، حتى أُتْبِعَ لمصعبِ بنِ الزبير مثلاً، وهو من بيتِ يُنَاوَى بنِ أمية وينافسهم في الملك، أن يبدّلَ ألف ألف درهمٍ في زواجه من سَكِينَةَ بنتِ الحسين، ومثلها في زواج عائشة بنتِ طلحة، في حين كان جندُ المسالمين يتضوّرونَ مسغبةً وجوعاً، حتى كتبَ عبدُ الله ابنُ مُصعبٍ إلى عبد الله بنِ الزبير لمناسبة ما يعانيه الجندُ وترَفَ شقيقه زعيمِ الجند :

بَلِّغْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ رسالةً \* من فاصح لك لا يريدُ خِطاباً  
بُضِعُ الفَتَاةُ بِألف ألفٍ كاملٍ \* وتبيّتْ ساداتُ الجنودِ جِيعاً  
لَوْلَا بِي حَفِصٌ أَقُولُ مَقَاتِي \* وأبث ما سَأَبْتُكُمْ لَأَكْرَاماً

صدق الشاعرُ في قوله، إن تلك الحالَ لبرئاع منها عمرُ حقاً، وَلَيُفَرِّقُ من ذكرها أبو بكر، ولينأخُ من سماعها عليّ. ولكن الحالَ تغيّرتْ إلى مدى بعيدٍ، حتى أصبحَ المَالُ غَرَضاً تشرّبُ لحيازته الأعدائُ، وتززع نحوُ تملكه النفوسُ، إلى أن رأينا فيما بعدُ أن المجاحِ بنَ يوسفَ لما حاصر الكعبةَ، وفيها ابنُ الزبير، وتردّد جندُه في ضربها بالمنجنيتي جاء بكريمي وجلس عليه وقال : «يا أهلَ الشام، قَاتِلُوا عَلَى أَعْطِيَاتِ عبدِ الملك» ؛ ففعلوا .

ذلك هو أثرُ المَالِ في الأخلاق والأحوال والنفوس طبقاً للتنبؤات الاجتماعية .

(١) هذه الأبيات من عروض الكامل ونظامها :

مضاعن مضاعن مضاعن

مرثب

وفي قوله : "لَوْلَا بِي" زحاف يقال له : انزل، وهو سكون التاء وسقوط الألف من مضاعن كما هو ظاهر في "لَوْلَا بِي" فين مضاعن وهذا البناء غير مقول فيصرف إلى بناء مقول وهو مفتعلن ؛ وانزل في الكامل فيصح .

ولنتحاول فيما سنعقده من الفصول الآتية تبيانَ حال الدولة العربية أيامَ عثمانَ، وكيف وصل الأمرُ إلى معاويةَ، وكيف خرج الملكُ من بني أميةَ حتى وصل إلى بني العباس . ولنتحاول بعد هذه التقديمِ دراسةَ الحياةِ الأدبيةِ إلى جانبِ دراستنا السياسيةِ الاجتماعيةِ، فإنَّ ذلكَ ينفعنا كثيرا فيما نرويه من التكلمِ ببسطةٍ في القولِ وتصويرِ صحيحٍ لعصرِ المأمونِ الذهبيِّ ولا سيما الحياةِ الأدبيةِ والعلميةِ فيه، ملاحظينَ في ذلكَ كلِّ جانبٍ القصيدِ والإيجازِ، مآزِينِ سِراعا على جُلِّ الحوادثِ الكبارِ في ذاتها، والتي لا نَعْنينا كثيرا في موضوعنا، مثلَ عصرِ معاويةَ، مما نزجوا أن نُوفِّقَ في المستقبلِ القريبِ فنكتبَ عنه وعما فيه من أسرارٍ وثوراتٍ .

### (ب) نظام الحكم في عهد الصحابة :

الناس من حيثُ ميولهم ومعتقداتهم، دينيةٌ كانت أو سياسيةٌ، لا يكادون يقدرونَ طبقةً من ثلاثٍ : محافظين، ومُعتدلين، ومُتطرفين . ولسنا آخذينَ بسبيلِ التوضيحِ لأحكامِ هذهِ الجماعاتِ أو الأحزابِ في حياةِ عثمانَ، ولا نَظَرُ كلِّ فئةٍ منهم إلى سياسةِ حكومتِهِ، وإنما يكفينَا أن نقولَ : إنَّ هذهِ الفئاتِ التي تكونُ دائما قوَّةَ الرأى العامِّ الذي كانَ له في حكوماتِ الصحابةِ صوتٌ يُؤبَهُ له وإرادةٌ مُحترَمٌ، مع مراعاةِ طبيعةِ النفسيةِ العربيةِ البدويةِ الشديدةِ الإباءِ والأنفَةِ — هذهِ الفئاتُ لم يكنِ شبابُها ولا كهولُها، زُهادُها ولا التقيُّونَ فيها، براضينَ عن حكومةِ عثمانَ .

كانَ نظامُ الحكمِ في عهدِ الصحابةِ من حيثِ توزيعِ السُّلطاتِ نظاما ثيوقراطيًّا — إذا صحَّ لنا هذا التعبيرُ، وهو صحيحٌ لا محالة — ذلكَ لأنَّهم بإيمانهم وتقواهم وكاملِ إسلامهم، جعلوا اللهَ تعالى مصدرَ السُّلطاتِ الدينيةِ والدنيويةِ، فكلُّ شيءٍ للهَ : المالُ مالُ اللهِ، والبلدُ جندُ الله . ومن هذهِ الناحيةِ توافرتِ الشُّورى وتوافرتِ الكرامةُ الدينيةُ . وربما كانَ المحافظون من رجالِ الدينِ يتهربون من هذهِ الناحيةِ أيضا بمنهجِ حكومةِ عثمانَ، التي لا نشكُ أن حزبَها أيامَ عثمانَ لم يكنِ بنىَ خطَرَ، اللهم في ماضيه من حيثِ الزعامةِ والسيادةِ

وما إلى ذلك في العصر الجاهلي . ولكنه فاز أخيراً ، ولعبت الجماعة العثمانية ومنهم الأمويون دورهم المعروف ذا الأثر الكبير في العقيدة العربية والمدنية الإسلامية .

### ( ج ) حكومة عثمان ونظر الجماعات العربية إليها :

وبعد ، فماذا تقم الشباب والشيوخ من حكومة عثمان ؟

أما نحن فلا نطلبُ منا أن نُبيدَ رأينا في عثمان ، فهو صحافي جليل ، وله أثره الخالد في جمع القرآن وغير القرآن ، وله دينه السَّمُح الذي لا تشوبه شائبة . وما كان الدين ليحتم على الناس جميعاً أن يكونَ نظرُهم إلى الحياة الدنيا نظراً للتشفيف والزهْد . ولا يُطلبُ منا أن نُثبتَ ضَعْفَ الحكومة العثمانية ، وإنما يُطلبُ منا أن نسرِّدَ الحوادث بإيجاز ، ولنا في تسلسل هذه الحوادث ودراستها وتقييدها آثارها ما قد يسمح لنا بالتعرض له حين معالجتنا الكلامَ من عصرنا فيما بعد .

نعودُ فنتساءلُ : ماذا تقم الشباب والشيوخ من حكومة عثمان ؟

يقول اليعقوبي : « إن عثمان آثر القرباء ، وحمى الحمى ، وبنى الدار ، واتخذ الضياع والأموال بمال الله والمسلمين ، ونفى أبا ذر صاحب رسول الله وعبد الرحمن بن حنبل ، وآوى الحكم بن أبي العاص وعبد الله بن مسعود بن أبي سرح طريدَي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأهدر دمَ المُرضات ولم يقتل عبيد الله بن عمر به ، وولى الوليد بن عُقبة الكوفة ، فأحدث في الصلاة ما أحدث ولم يمنعه ذلك من إحاذته إياه » .

ويذكر اليعقوبي في مكان آخر ما كان من إغضاب عثمان لعائشة أم المؤمنين ، ومكانة عائشة مكاتبا ، وأنه قص ما كان يعطيا عمر بن الخطاب ، وأنها تربصت بعثمان حتى رآته يخطبُ الناس فدألت قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنادت : « يا معشر المسلمين ، هذا جلبابُ رسول الله لم يَبَلْ وقد أبلى عثمانُ سنَّه » . وليس أدلَّ على شدة حفيظتها عليه من امتناعها أن تقومَ بالصلح بينه وبين الخارجيِّ عليه حين اشتدَّ عليه الأمرُ وصار إليها

مروان فقال لها : يا أم المؤمنين ، لو نلت فأصليت بين هذا الرجل وبين الناس ! قالت : قد فرغت من جهazy وأنا أريد الطبع ، قال : نبدفك اليك بكل درهم أنفقته درهمين ، قالت : « لعلك ترى أنى فى شك من صاحبك ! أما والله لو ددنت أنه مقطف فى غرارة من غرائرى ، وأنى أطيع حمله فأطرحه فى البحر » .

قلنا : إن نظام الحكم فى عهد الصحابة من حيث توزيع السلطات كان نظاماً ثيوقراطياً فى : ١- جماعه كل شىء الى الله تعالى ، وأن المال مأل الله ، وألحد جند الله ، وأن الحكم لله لا للناس . . ويقول لنا التاريخ : إنه كان بين عثمان وخازن بيت المال فى عهده مشادةً ومناقرةً ، وأن جل التقاد اتحدوا من هذه المشادة مطعناً فى سياسته المالية ، وتلمةً يتجهون منها عليه . وكانت هذه المشادة بينه وبين خازن بيت المال فى أمر عطائه ، حتى قال له عثمان : « إنما أنت خازن لنا إذا أعطيناك نفد ، وإذا سكتنا عنك فاسكت » . فقال : « كذبت والله ! ما أنا لك بخازن ولا لأهل بيتك إنما أنا خازن المسلمين » . وجاء بالفتح يوم الجمعة وعثمان يخطب فقال : « أيها الناس ، زعم عثمان أنى خازن له ولأهل بيته ، وإنما كنت خازناً للمسلمين ، وهذه مفاتيح بيت مالكم » ورمى بها . فأخذها عثمان ودفعها الى زيد بن ثابت .

وليس من شك فى أن شباب العرب عامةً وقريش خاصةً لم آملهم ولهم مطاعمهم وهم فى مقبل عمرهم حين يكون الطموح الى احتلاء المراتب الرفية مصطيداً بالوازع الدين ، وأنهم تألموا أن ينال عبد الله بن خالد بن أسيد خمسين ألف درهم ، ومروان بن الحكم خمسة عشر ألفاً مع أن عثمان استرقها ، هما لما عوتب وتوقش ، وتألموا أن يذهب آل عثمان بمناصب الدولة وهم يرون فى أنفسهم من الكفايات والمواهب ، ومن الحسب والنسب ما لا يقل عما هؤلاء .



وما لنا نذهب بعيداً فى الاستدلال على نظريتنا هذه والنفس الإنسانية هى هى الطموح الى زينة العاجلة وزخرفها . وقد جاء فى الأغاني فى مريض كلامه عن أبى قتيبة الشاعر :

”أن ابن الزبير مضى الى صِفَّة بنت أبي عبيد زوجة عبد الله بن عمر، فذكر لها أن خروجَه كان غضبا لله تعالى ورسوله عليه السلام والمهاجرين والأنصار من أثره معاوية وأبنه وأهله بالفء وسألها مسائله أن يُبَايَعَه . فلما قدّمت لزوجها عَشَاهُ ذَكَرَتْ لَهُ أَمْرَ ابْنِ الزُّبَيْرِ واجتهاده وأثنت عليه وقالت : ما يدعو إلّا الى طاعة الله جلّ وعزّ، وأكثرِ القول في ذلك؛ فقال لها : أما رأيتِ بَغْلَاتِ معاوية اللواتي كان يَمِجُّ عليهنَّ الشُّهْبُ ! فإنَّ ابن الزبير ما يريد غيرهنَّ“ .

هذا رأى كبير من رجال العصر في خروج ابن الزبير يكشف لك ما كان يخالف نفوس الشباب من طُحُوج الى السلطان ولذاته . مع أنَّ ابنَ الزبير كان خارجا على أهل بيت يرى جُلَّ الناس في ذلك العصر أنهم اغتصبوا الملك من أهله اغتصابا . ويظهر أنَّ معاوية نفسه كان قد اقتنع بأنه لم يكن على الحق حتى كاد يُغْتَضَبُ مناجرةً على ”الحرب والبيداء حين ذكره على بكلام للرسول صلى الله عليه وسلم، لولا مقالة ولده له : « كلا ! ولكلّك رأيت سيوف بني هاشم سداً تملأها شدادٌ » ، فنارت نائزته وقال : « ويلك ! ومثل يُعِيرُ لُجُن ! هلم الى الرخا » وأخذ الرخ وحمل على أصحاب عليّ .

فمقول أن يفضّب هؤلاء الشباب وأمثالهم من حكومة عثمان وهم يرون الفنائم والثروات تكتسح بلادهم ، ولال حكمة وسلطانهُ . ومقول أيضا أن يفضّب منها أمثال عمرو بن العاص الذي قال له عثمان ، يوم نذبه لِيُعَذَّرَه عند الناس فما كان منه إلّا أن أضرمَ سِجْلَه الحقد عليه : « يابن النابغة ، والله ما زدت أن حرّضت الناس على... يابن النابغة ، قِلْ دِرْطُكَ مذ هنَّ لك عن مصر » .

هذا من ناحية التفعين وفيهم المتطوفون . وهناك المعتدلون ، وهؤلاء قد ناوأ بجانبهم عن الفتنه واعتزلوا الناس من شرّها وآثارها ، وهم لها كارهون ومنها ناقدون . وهناك المحافظون الأتقياء حقا أمثال أبي ذر ورافع بن خديج وغيرهما من صحابة الرسول الذين نعلم من تقواهم وزهداهم ومن حبهم لآخرة وإعلاء كلمة الدين الشيء الكثير ، والذين

يقول فهم الجاحظ في رسالته عن بني أمية : « لانهم كانوا على التوحيد الصحيح والإخلاص المحض » . ولنوضح قليلا هذا النوع من المتقشفين حقا والمخلصين في عقيدتهم الدينية صدقا ، ولنتضرب مثلا بأبي ذر الغفاري ولننظر ما يحكيه لنا ابن الأثير في هذا السبيل ، فهو معتدل مستقر للحقيقة أكثر من سواه . يقول ابن الأثير : إن أبا ذر كان يذهب إلى أن المسلم لا ينبغي له أن يكون في ملكه أكثر من قوت يومه وليلته أو شيء ينفعه في سبيل الله أو يعبده لكرمه ، وكان يأخذ بظاهر القرآن : ((وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)) فكان يقوم بالشام ويقول : « يا معشر الأغنياء ، واسوا الفقراء ، بشر الذين يكتُمون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بكم من نار كوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » لما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأجابه على الأغنياء ، وشكا الأغنياء ما يلقونه منهم ، فأرسل معاوية إليه بألف دينار في جُحج الليل فأنفقها ، فلما صلى معاوية الصبح دعا رسوله الذي أرسله إليه ، فقال : اذهب إلى أبي ذر فقل له : أقد جسد من عذاب معاوية فإنه أرسلني إلى غيرك وإلى أخطأت بك ، ففعل ذلك . فقال أبو ذر : يا بني ، قل له : والله ما أصبح عندنا من دنائرك ديناراً ولكن أشرنا ثلاثة أيام حتى نجمعها . فلما رأى معاوية أن فعله يصدق قوله كتب إلى عثمان : إن أبا ذر قد ضيق على ، وقد كان كذا وكذا : للذي يقوله الفقراء . فكتب إليه عثمان : « إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعيلها ولم يبق إلا أن تلب ، فلا تنكأ القُرح وجوز أبا ذر إلى وآبعت معه دليلاً وكفكيف الناس ونفسك ما استعطت » . وبعث إليه معاوية بأبي ذر ، فلما قديم المدينة ورأى المجالس في أصل جبل سلع قال : بشر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار . ودخل على عثمان ، فقال له : ما لأهل الشام يشكون ذرب<sup>(١)</sup> لسانك فأخبره ، فقال : يا أبا ذر ، على أن أفضى ما على وأن أدعو الرعية إلى الاجتهاد

(١) راجع رسالة الجاحظ في بني أمية في باب المنور من ملحق الكتاب الثالث في المجاهد الثاني .

(٢) انظم : الأنف . (٣) ذرب اللسان : سآته .



والاقتصاد، وما على أن أجبرهم على الزهد، ثم انتهت المحاجة إلى أن نخرج أبو ذر من المدينة ونزل الريلة<sup>(١)</sup>.

فهذا النوع من التفشي المتبرم بحكومة عثمان، وذلك النوع من الشباب الطامع بعينه إلى ما أصاب سواه منها، وتلك الجماعة المعتزلة التاركة الحبل على الغارب — كل هذه العوامل تجعلنا نقتنع بنجاح الفتنة ضد حكومة عثمان وانتهائها بتلك المأساة المروعة التي كان فيها ما كان مما يحكيه لنا أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : من قتل عثمان رضي الله عنه، وما انتلكت منه، ومن خبطهم إياه بالسلاح، وبيع بطنه بالحرب، وقرى أوداجه بالمشايص<sup>(٢)</sup>، وشدخ هامة بالعمد، مع ضرب نسائه بحضرته وإلحاق الرجال على حرمة، مع انتفاء نائلة بنت الفرافصة عنه بيدها حتى أطنوا أصبعين<sup>(٣)</sup> من أصابعها<sup>(٤)</sup>.

كانت تلك المأساة المروعة التي تفتت القلوب الجلامد، وتفتجر لها العيون الجوامد، فلتقف عند ذكرها وألين أسفين.

(١) الريلة : من قرى المدينة على ثلاثة أميال قريبة من ذات عرق وبياً قرب أبي ذر الغفاري .

(٢) المشايص : جمع مشقص وهو تفصل عربض وقيل سهم . (٣) الفرافصة يفتح الفاء لا تفتح . وليس في العرب ما يسمى بالفرافصة بالألف واللام غيره كأن أبا علي قال ذكر أن كل ما في العرب فرافصة بضم الفاء إلا فرافصة هذا أبا نائلة امرأة عثمان رضي الله عنه . (٤) أطنوا : قطعوا .

## افصل الثباني

### الجهاد بين الخلافة والمملك

توطئة — كلمتنا من مل رضى الله عنه — تحوّل الرأى العام — معاوية — سياحة معاوية — عيزات معاوية — معاوية والسياسة المكيافلية .

#### (١) توطئة :

نحن الآن مقبلون على فترة جهاد عنيف بين الخلافة والمملك ، فترة لا يصح أن نعتبر الجهاد فيها جهادا بين عليّ ومعاوية ، أو بين عليّ وغير معاوية من منافسيه في الخلافة أو من الخارجين عليه ، وإنما يخلّق بنا أن نعتبرها بمثابة جهاد عنيف بين وجهات النظر العربية في الحياة ؛ فإن موت عثمان رضى الله عنه لم يمت الفتنة بل أذكأها وزادها ضرأما واشتعالا .

ولأنه لمن الميسور للناقد أن يتنمّس العلة في أن الأحراب العربية حين ذلك لم تجتمع على سيدنا عليّ ؛ ذلك إن الجماعة الراغبة في الوظائف والأموال لم تجد فيه طليتها وسؤلها ، ولم تعرّف فيه على أنشودتها ورجلها ، بل على التقيض قد لقيت منه حاكما صلبا لا تليق قنائه ، سار فيهم سيرة الحق لا تأخذه في الله لومة لائم ، وكانت حركاته وسكاته رضى الله عنه جميعها لله وفي الله لا يغمط بها حق أحد ، وكان لا يأخذ ولا يعطى إلا بالحق والعدل ، حتى إن أخاه عقيلا ، وهو ابن أبيه وأمه ، طلب من بنت المال شيئا لم يكن له بحق ؛ فنفعه رضى الله عنه وقال : يا أخى ، ليس لك في هذا المال غير ما أعطيتك ، ولكن أصبر حتى يحىء مالى وأعطيك منه ما تريد فلم يرض عقيلا هذا الجواب وفارقه وقصد معاوية بالشأم . وكان لا يعطى ولديه الحسن والحسين أكثر من حقهما . فأنظر الى رجل حمله ورّمه على هذا الصنيع بولديه وبأخيه من أبويه ! فلما سار فيهم هذه السيرة ثقل على بعض الناس فعله وكرهوا مكانه .

هذه خُطَّةٌ هؤلاء معه . أما خُطَّةُ الشيوخ فمنهم من آثر العزلة وترك جبل الأُمة على نارها ، لتطاحن أحرأها بين طُلاب الخلافة ، ومنهم الخوارج الذين غضبوا على عليّ كما غضبوا على معاوية ، وتدبوا من بينهم عبد الرحمن بن ملجم ليقنل عليا ، والبرك بن عامر ليخلصهم من معاوية ، وعبد الله بن مالك الصيداوي ليبريهم من حليف معاوية عمرو بن العاص . هؤلاء الخوارج كانت كلمتهم : « الحكم لله لا للناس » فنقموا من عليّ خضوعه للتحكيم ، وما خضع إلا مكرها مُعتما .

(ب) كلمتنا عن عليّ رضي الله عنه :

كان عليّ إماما دينيا ؛ كان مَوِيلا للشرعية ومظالا للورع والاستمسك بأحكام الكتاب ، كان مصدرا خصبيا من مصادر الفقه والتشريع ، وكان في حكمته وحروبه على السواء مؤثرا رضا الله ومُغضبا شهوات الناس وقادعا أطماعها ، وكان عنوانا كاملا لأسمى صفات الخلق الإسلامي من حيث النجدة والشجاعة لا الخدق والسياسة ؛ كان مُصليعا دينيا على أتم ما يكون عليه مصلح ديني ، يتفانى في هذا الإصلاح ويؤثر الآخرة على الأولى فيعمل لإرضاء الله لا لإرضاء الناس ، وكان كما وصفه عدي بن حاتم لمعاوية : « يقول عدلا ويحكم فصلا ، تنفجر الحكمة من جوانبه والعلم من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل وحشته ، وكان والله غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يحاسب نفسه إذا خلا ، ويُقلب كفيه على ما مضى ، يُعجبه من اللباس الفصير ، ومن المعاش الخشن ، وكان فينا كأحدنا ... كان يعظم أهل الدين ويُحبُّ إلى المساكين ، لا يخاف القوى ظلمه ولا يأس الضعيف من عدله ، فأُقيمَ لقدر أيتُّه ليلة وقد مثل في محرابه وأرعى الليل سرابه وغارت نجومه ؛ ودموعه تتحدر على لحية وهو يتأمل تأمل السليم ويبكي بكاء الحزين ، فكانت الان أسمعه وهو يقول : يا دنيا أإلى تمؤذيت أم إلى أقبلت ! غُرى فيرى لا حان حينك ، قد طلقك ثلاثا لا زجة فيها » .

هذا هو عليّ حقا ، عليّ الذي بالغ في التدقيق في محاسبة عماله حتى أغضب أكثرهم وحتى خسر نصرتهم ، وفي جهلهم مصقلة بن هبيرة الشيباني وابن عمه عبد الله بن عباس

بعد أن كان أكبر نصير له ، والذي أغضب الزبير وطلحة وكان في مقدوره أن يضمهما إليه ، والذي لم يكتسب إلى جانبه عمرو بن العاص ، ولم يقبل نصيحة ابن العباس ولا المغيرة ابن شعبة في إقارار معاوية وابن حاصر ومُحمّل عثمان على أعمالهم حتى تأتيه بيعتهم ويسكن الناس ثم يعزل منهم من يشاء ، وقال « لا أداين في ديني ولا أعطى الدنيا في أمري » ، فقبل له : انزع من شئت وأترك معاوية ، فأت في معاوية جرأة وهو في أهل الشام يُستمع منه وله حجة في إثباته بما كان من عمر بن الخطاب إذ قد ولاء الشام ، فأبى وقال : لا والله لا أستمع معاوية يومين . فلم تكن الحيل والحدع من مذهبه ، ولم يكن عنده ضمير الحق ، والذي يقول لأصحابه بعد أن أئخنوا في أعدائه : « لا تبعوا مؤلفاً ، ولا تُجهزوا على جريح ، ولا تنهبوا مالا » ، يفعلوا يُمرون بالذهب والفضة في مُعسكرهم فلا يعرض له أحد ، إلا ما كان من السلاح الذي قاتلوا به والدواب التي حاربوا عليها . فقال بعض أصحابه : يا أمير المؤمنين ، كيف حلّ لنا قتالهم ولم يحلّ لنا سبيهم وأموالهم ! فقال عليّ رضي الله عنه : « ليس على الموحدين سبي ولا يُغنم من أموالهم إلا ما قاتلوا به وعليه ، فدعوا ما لا تعرفون والزمو ما تؤمرون » .

أجل ! هذا هو عليّ حقا ، الذي أثبت رافته وأبى دينه أن يمنع أهل الشام من الماء كما منعه أئشاء منازلتهم حتى كاد يهلك جنده عطشا ، والذي منع شيعة وأنصاره من شتم معاوية ، ضارباً صفحا عن آثار استقلال ذلك في الدعوة السياسية لتأييد خلافته والخط من ملك منافسه ، فإنه لما بلغه أن عُمَير بن عبد عمرو بن الحقيق يُظهِر أن شتم معاوية ولعن أهل الشام أرسل إليهما : أن كفّا عما بلغني عنكما ، فأتيا فقالا : « يا أمير المؤمنين ، ألسنا على الحق وهم على الباطل ! قال : كرهت لكم أن تكونوا شتامين لآئنين ، ولكن قولوا : اللهم آحقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ، وأهدم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعى عن النّبيّ من ليج به » .

هذا هو عليّ حقا ، الشديد في محاسبة نفسه وعمله . أما محاسبة نفسه فظاهره خلقية واضحةً للوضوح كله . وأما محاسبته عماله فإن تاريخه مُعَمّم بمثل الأدلة والشواهد مما

أفاد منه معاوية أيمًا فائدة . وكان من آثار هذه المحاسبة هرب مصقلة بن هبيرة الشيباني من عليّ وانضمامه إلى معاوية ، وكذلك يزيد بن حجة التيمي الذي كان قد استعمله عليّ على الرى فكسر من خراجها ثلاثين ألفاً ، فكتب إليه عليّ يستدعيه لحضره ، فسأله عن المال قال : أين ما غلته من المال ؟ قال : ما أخذتُ شيئاً ، نفقته بالدرة حَقَقَاتٍ وحسبه . ووكل به سعداً مولاه ، فهرب منه يزيد إلى الشام ، فسوّغه معاوية المال ، فكان ينال من عليّ ، ويقب بالشام إلى أن اجتمع الأمر لمعاوية ، فسار معه إلى العراق فولاه العراق .

فهذه الشواهد وأمثالها فيما أقطع الدلالات على شدة محاسبته لعماله وإغضابه آل بيته تدنينا وورما ، وعملاً للائحة ، لا لبناء ملك في الدار الأولى .

فلنحفظ هذه الصورة جيداً ، ولنذكر أنها لم يَتَّح لها النور والنجاح في ذلك الجهاد السياسي ، وأن الكفة الراجحة في سياستنا الدنيوية كانت لمنازله الذي يجر بنا أن ندرسه بايجاز وأقتضاب .

### (ج) تحول الرأي العام :

صور الشاعر العبري "شكسبير" في روايته "يوليوس قيصر" تأثير الرأي العام ببلاغة زعمائه التي يستغلون بها سذاجة موقفه ، ويتكلمون بها عقول قومهم التي بها يفكرون ، ويسحرون بها عيونهم التي بها يبصرون ، فلا يصدّرون إلا عن إرادتهم ، ولا يفكرون إلا بقولهم . وقد أبدع أيمًا إبداع في موقف "بروتس" قاتل قيصر ومنقذ الرومان ، و"أنطونيوس" مؤبته وزائيه ، وأظهر إلى أي مدى أفتتن بهما الجمهور ، وإلى أي مدى تناقض في حبه وبغضه وإعجابه وتآلبه .

شكر الرومان "بروتس" قاتل قيصر لأجل الرومان وفي سبيل الرومان ، فأسلس له قيادهم وظلوا منه أن يتبوا العرش مكانه ، ومحل على الأعتاق بعد أن تبوا منهم حبات القلوب ، ثم استموا إلى "أنطونيوس" يرثي قيصر ، وما استموا له لأن "بروتس" طلب منهم أن

يَنْصِتُوا لِأَن قِصْرًا الطَّاعِيَّةَ غَيْرَ قِصْرِ الرَّاحِلِ؛ فَانصِتُوا وَتَكَلَّمُوا «أَنْطُونِيوس» فَتَوَلَّى مِنْ شَوْشُونِهِمْ وَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ، وَأَسْتَغْلَى فِي مَوْقِفِهِ مَا بَثَّابِ قِصْرِ مَنْ دُمَاءٍ وَتَقُوبٍ، وَمَا يَجْسَمُهُ مِنْ طَعْنَاتٍ وَجُرُوحٍ، حَتَّى اضْطَرَمَّتِ الْفِتْنَةُ، وَكَانَ نَصِيبُ «بَرْوِس» مَا تَعَلَّمَ بَعْدَ حِمْلِهِ عَلَى الْأَحْشَاقِ !

هكذا فعل معاوية في جهاده وجلاده علياً ؛ فقد صدع بما أشار به عليه عمرو ابن العاص إذ طلب اليه إظهار قيص الدم الذي قُتِلَ فيه عثمان وأصابع زوجته وأن يُعْلَقَ ذلك على المنبر فجمع الناس ويكبي عليه عازياً قتل عثمان الى علي مطالباً بدمه مستملاً بذلك أهل الشام وغيرهم من عامة المسلمين . أخرج معاوية التميمي والأصابع وطلّقه على المنبر ويكبي واستبكي الناس وذكّرهم بمصائب عثمان ، فاستدب أهل الشام من كل جانب وأيدهم الأشراف وذو النفوذ كشرحبيّل بن السميط وسواه ، وبدلوا له الطلب بدم عثمان والقتال معه على كل من أوى قتلته . ثم خالق لعلّ مُعْضِلَةً سياسة لا يهون على السياسي حلّها ؛ ذلك بأن بعث رسالة الى جماعة على ، وهذه الرسالة تحتوي على أُسُس المبادئ الثمانية وتقول : « أما بعد ، فإنكم دعوتكم الى الطاعة والجماعة ؛ أما الجماعة التي دعوتكم اليها فعنا ؛ وأما الطاعة لصاحبكم فلا زناها ؛ إن صاحبكم قتل خليفتنا وقرق جماعتنا وآوى ثأرنا وقتلنا ؛ وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله ، فنحن لا نرد ذلك عليه ؛ أرايتم قتلنا صاحبنا ؛ ألسن تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم ؛ فليدفعهم الينا فليقتلهم به ، ثم نحن نجيبكم الى الطاعة والجماعة » . وكيف يستطيع علي أن يدفع الى معاوية قتل عثمان ! وماذا يكون موقفه أمام ذلك الحزب القوي الناقم على الخليفة المقتول ! فلذلك كان من المعقول أن يقف رده أمام هذه المشكلة السياسية عند قوله : « أما ما سألت من دفعي اليك قتلته فأني لا أرى ذلك ، لعلي بأنك إنما تطلب ذلك ذريعة الى ما تأمله ومراقبة الى ما ترجوه ، وما الطلب بدمه تريد » .

### (د) معاوية :

لسنا نتعرض للحكم على دين معاوية ومبلغ تمشيه في تصرفاته السياسية وإقامته لحدود الله مع أحكام الشرع، فقد تكلم في ذلك فيه الشافعي والحنس البصري، وإنما زبد أن تمثل معاوية مؤسس الملكية في الإسلام، وواضع أسس السياسة الدنيوية، والذي قال فيه عمر بن الخطاب بلسانه : "تذكرون كسرى وقبصر ودهاءما وعندكم معاوية !".

### (هـ) سياسة معاوية :

كان معاوية ذا مواهب سياسية كبيرة، وكان داهية، ذهنا، بعيد مدى العقل، مالمكان قيادة أهوانه، كان "ذا مكر وذا رأى وحزم في أمر دنياه، اذا رأى الفرصة لم يترقب ولم يتوقف، واذا خاف الأمر توارى عنه، واذا خوصم في مقال ناضل عنه وقطع الكلام على مناظره". كان يعمل جهده ليشترى صفائر القبائل العربية، وكان كبير البذل في العطاء. وقد ذكر الطبرى حادثة تستطيع أن نستنبط منها نظر معاوية الى المال والى مبلغ استعماله إياه ليملك به صفائر أهل المكاة والنفوذ من معاصريه : ذكر أن أبا منازل قال له حينما أعطاه معاوية سبعين ألفا بينا أعطى جماعة من الزعماء ممن في مرتبته مائة ألف : فضمضى فى بنى تميم، أما حسبي فصحيح ! أولست ذاسن ! أولست مطاعا فى عشيرتى ! فقال معاوية : بلى، قال : فما بالك حسست بى دون القوم ! فقال : إنى اشتريت من القوم دينهم وولتلك الى دينك ورأيت فى عثمان بن عفان - وكان عثمانيا - فقال : وأنا فاشترى منى دينى، فأمر له بتقام جائزة القوم .

كان سياسيا بطبيعته، معطاء وهوبا بسجيته، وقد صدق فى صفته أبو الجهم الشاهر إذ قال :

نمىل على جوانبه كانا \* نمىل ولا نعين على أينا  
نقلبه لنخبر حالتيه \* فنخبر منها كرمًا وليا

وإنا نستطيع أن نفهم فهمًا صحيحًا : أكانت ثورة معاوية تقتل عثمان ثورة مصدرها إخلاصه العميق في العثمانية، وأنه كان يريد بها أن يُجْرَى حَكَمُ الشَّرْعِ فِي قَتْلِهِ عثمان، أم ثورة مصدرها طُموحه إلى الملك ليختصبه لنفسه ؟ — نستطيع أن نفهم ذلك من حديث جرى بينه وبين عائشة بنت عثمان، قالت عائشة بنت عثمان : « فإني سأخبرك بما حدث في دار عثمان، فقالت عائشة بنت عثمان : وا أبتاه ! وبكت، فقال معاوية : « يا بنة أُمِّي، إن الناس أعطونا وأعطيناهم أمانًا، وأظهرنا لهم جملنا تحتهم خُصْبٌ، وأظهروا لنا طاعةً تحتهم حَقْدٌ، ومع كلِّ إنسانٍ سيفه وهو يرى مكانَ أنصاره، فإن نكثنا بهم نكثوا بنا، ولا ندرى أعلينا نكون أم لنا، ولأن تكوني بنتَ عمِّ أمير المؤمنين خيرٌ من أن تكوني امرأةً من حُرُصِ المسلمين » .

وقد لا نجد تصوُّرًا أدقَّ لسياسة معاوية وطريقة حكمه من قوله : « لا أضح سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضح سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أتت بيني وبين الناس شعرة ما انقطعتم » قيل : وكيف ذلك ؟ قال : كنت إذا مدوها خَلِيمًا وإذا خلَّوها مددتها . فهذا القول يبيِّن حاتمَه وطولَ إقامته في السياسة، وهدوءه أعصابه إذا جابهته المشكلات، أو زلَّتْ بساحته الكوارث والمعضلات، ويُظهِرُ سعةَ عِطنه وحِزمه . واتَّهَدَ قال له يزيد يوم يبيع له على عهده فجعل الناس يمدحونه ويقترطونه : « يا أمير المؤمنين، والله ما ندرى أنخدع الناس أم يخدعوننا ! » فقال معاوية : « كلُّ مَنْ أَرَدَتْ خديعته فتخادعْ لك حتى تبلغَ منه حاجتَكَ فقد خدعته » .

ثم أنظر إلى مختلف تصرفات معاوية في حياته السياسية وغيرها، فإنك لتفتنَّ بعذوق حَكَمِ الشَّيْءِ الَّذِي قال فيه : « كان معاوية كالجمل الطَّبَّ إذا سِيكت عنه تقدم، وإذا رُدَّ تأخر » .

### (و) مميزات معاوية :

ولقد أمتاز معاوية إلى جانب إلمامه التام بميول كلِّ من له به علاقة من الناس، وصادق تقديره مع تقوب بصيرته بما فهم من نواحي الضعف يستطيع التسرُّب إليهم منها —



امتاز الى جانب هذا كله بصفات ثلاث لها مكانتها السامية في تكوين النُهاة من ساسة الوقت الحاضر، تلك الصفات الثلاث هي : أولا إيقاع أعدائه في مشكلات لا تقوم لهم من بعدها قائمة، بأفانين طريقة طالع عمد اليها الكثير من ساسة اليوم، مثال ذلك طريقته في إيقاع بطارقة الروم الذين يكيدون للإسلام، وذلك بمهاداتهم ومكابرتهم بطريقة مكشوفة، لإغراء الملك بهم .

الصفة الثانية من مميزات معاوية الخلقية هي حلمه، وهناك مَثَلُ الأمثال أُرثرت بها كتبنا الأدبية والتاريخية، مُشيدةً بحلمه مُطنيةً في فضائل سَمَةِ صدره . على أنا نجترئ هنا بمَثَلٍ عادي، ذلك أنه لما ألحق زيادا بأبيه دخل عليه بنو أمية وفيهم عبد الرحمن بن الحكم أخو مروان بن الحكم الأموي، فقال له : يا معاوية لو لم نجد إلا الزنج لاستكثرت بهم علينا قِلَّةً وذِلَّةً، فأقبل على أخيه مروان وقال : أخرج عنا هذا الخليج، فقال مروان : والله إنه خليج ما يطاق، فقال معاوية : والله لولا حلمي وتجاوزي لعلمت أنه يطاق ! ألم ييلغي شعره في وفى زياد ! ثم قال لمروان : أسمعني، فقال :

ألا أبلغ معاوية بن مضر \* لقد ضاقت بما أتى البدان  
أنتفضب أن يقال أبوك عَف \* وترضى أن يقال أبوك زاني

الصفة الثالثة هي نعمته السياسية، وهي غير الحلم، وقد تُعْتبر إلى حد ما من نوع المغالطات السياسية، مثال ذلك ما كان بينه وبين الحسن بن علي في شأن نزوله عن الخلافة له، إذ كتب اليه معاوية كتابا قويا جاء فيه : «أما بعد، فانت أولى بهذا الأمر وأحق به لقربتك، ولو علمت أنك أضبط له وأحوط على حريم هذه الأمة وأكيد لبايتك، فسل ما شئت» . وبعث اليه بصحيفة بيضاء مخنومة في أسفلها : أن أكتب فيها ما شئت . فكتب الحسن أموالا وضياعا وأمانه لشعبة علي .

أنصف الى هذه الصفات ما كتبت لمعاوية من توفيق وسداد في اختيار أكبر دُعاة الولاة كعمرو بن العاص وزياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة : ممن عملوا معه على توطيد

المملك له، والذين ارتسموا، الى حدّ غير قليل، خطوات زعيمهم السيامي في شراء الضمائر وسعة العَظَن ورُجُوح حَصَاة العقل . وهذا زياد المعروف بشدة الوطأة بلغة عن رجل يُكنى أبا الخير من أهل البأس والنجدة أنه يرى رأى الخوارج، فدعاه فولّاه جُنْدِيَسَابُور<sup>(١)</sup> وما يليها ورزقه أربعة آلاف درهم كلّ شهر، وجعل عَمَلاته في كلّ سنة مائة ألف . فكان أبو الخير يقول : « مارأيت شيئا خيرا من لزوم الطاعة، والتقلب بين أظهر الجماعة » . كذلك فعل المغيرة بن شعبة حين حصّبه مجرّبٌ عِدِيّ وهو على المبرق خطبة الجمعة، فإنه نزل مِسْرَطاً ودخل قصر الإمارة وبعث الى حجر بخمسة آلاف درهم ترصّاه بها . فقبل للغيره : لم فعلت هذا وفيه عليك ومن غضاضة ؟ فقال : « قد قتلته بها » ! !

الى جانب هذه العناصر المكوّنة لتلك الشخصية البارزة التي اعتمدت في تأسيس ملكها على ما اعتمدت عليه من ترصّي الأحزاب بالمال وطاعة الناس بالطعام، واستغلال العصبية العربية، والتساهل في إقامة الحدود الدينية اذا دعت الى ذلك طبيعة الأحوال السياسية، فإن معاوية يصف بنفسه سبب نجاحه على عليّ بقوله : « أُعِنْتُ على عليّ بن أبي طالب بأربع خصال : كان رجلا طهّرة علنة لا يكتم سرا، وكنتُ كنُوماً لسرى، وكان لا يسبى حتى يفاجئته الأمر مفاجأة، وكنتُ أبادر الى ذلك، وكان في أخبث جنيد وأشدهم خلافا، وكنتُ أحبّ الى قريش منه، فملت ما شئتُ، فله من جامع الى ومفوّق عنه ! » .

### (ز) معاوية والسياسة المكافئية :

وبعد، فإن السياسة الحديثة قد اباحت لرجالاتها في سبيل تحقيق غاياتهم أن يتهجروا من الوسائل ما يكفل لهم مُجْتَحُهُم السيامي . ويجب علينا أن نثبت أن جلهم، ولو أنهم يتظاهرون بنفوذهم من مدرسة « ما يكاثل » التي تُضْحِي بكل شيء تسويفا للوصول الى الغاية السياسية، يأخذون في الواقع بتعاليمها ويعملون على برأتيجها . هذه السياسة الإيجابية في نجاحها العملي، السلبية في إرضائها المناخي الخلقية، هي التي أخرجت لنا

(١) مدينة بخورستان بناها سابور بن أردشير فنسبت اليه واسكناسي الروم وطاعة من جنده . انظرهم باقوت .

«ماتريخ» و «كافور» و «دزرائي» و «بسموك» و «بت» ، وهي التي كان من أبطالها «جلادستون» ذو المواقف الغريبة في الإقناع واكتساب ثقة الجمهور ولو تحلّل من الشواهد واختلق من السابقات ما ليس له من وجود !

كذلك كان معاوية ، في جُلّ تصرفاته ، يحفل كثيرا بتحقيق غاياته في تشييد الملك ، فهو يُدبر أمور الناس لهذه الوجهة ، وهو يتنجس من الوسائل السياسية ما يكفل نجاحه في هذه الوجهة . وإنه خلّيق بنا وبسوانا ألا نعدّو بعيدا عن هذه الوجهة حين نظّرنّا الى معاوية في كتابه الى مروان بن الحكم بشأن حله شاعره الكبير ابن سبّاح ، وحين حكم لابن الزبير بنح داره المحترقة ، وحين أرضى عقيلًا ، واحتمل من الأحنف بن قيس ما احتمل ، وحين تخلّص من الاشر النخعي ومن عبد الرحمن بن خالد ، وحين فصل في منازعة عمرو ابن عثمان بن عفان وأمامه بن زيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم في حكاية الأرض التي قيل إن الرسول صلى الله عليه وسلم أقطعها أحدهما ، وحين كان يبدّل المسالك طبقا لمناهجه السياسية . وإنا نبيح لأنفسنا حين ننظر الى قول زين العابدين : « إن عليا كان يقاتله معاوية بذهبه » أن نقول : « إن معاوية كان يقاتل عليا بذهبه وذهنه » .

وإنا لنظنّ أنا قد صوّرنا معاوية بما هو أهله ، وأوضحنا ما كانت عليه تلك الشخصية الفدّة في مسaire الناس واحتمال الأذى منهم ، والتي يقول صاحبها : « ما من شيء عندى ألذ من غيظ أئمه » ، « وإني لا أحول بين الناس والستهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا » . والآن نستطيع ، بعد أن كشفنا القناع عن أخلاق معاوية ومميزاته ، أن نفهم قيمة قول علي رضي الله عنه في كتابه الى زياد بن أبيه حينما كان من ولايته يحذره من معاوية وهو ما نجتمت به كلمتنا فيه : « إني وليّك ما وليّك وأنا أراك له أهلا . وقد كانت من أبي سفيان فلة من أمانى الباطل وكذب النفس ، لا تُوجب لك ميراثا ولا تحلّ له نسبًا . وإن معاوية يأتي الإنسان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ، فاحذر ثم أحذر . والسلام » .

## الفصل الثالث

### سياسة معاوية وخلفائه

ترجمة — اصطلاح الأحزاب بالمال — المال — الوجهة الدينية — النصف المذهبي .

#### (١) توطئة :

إن معاوية الذي مرَّ على السياسة بنشأته وحَدَّقها بسجيته وأتقنها لمختلف أدوارها التي تقلَّب فيها ، فطُبع عليها وطُبِعَتْ عليه ، وأصبح منها وأصبحت منه ، لم يكن في مقدوره إلا أن يكون سياسياً فذاً موقفاً ، بل مصدر سياسات عبقرية طاملاً تَسُدُّها عصره وزمانه حتى بُعِثَ بها وبُعثَتْ له ، وخلق منها وخلقَتْ منه ، وكانت في نفسها وجوهرها خليفة للإجلال والإبكار ، كما كان صاحبها غنياً بالنجاح جذيراً بالتوفيق ؛ لأنه لم يكن في وسعه ، بطبيعته واستعداداته ومواهبه واستنماحه لأداة الحكم والسلطان ، إلا أن يُوفِّقَ مظهرًا في مختلف حُطَّطِه التي ارتسمها سديدة ناجحة ، لأنها قطعة من نفسه ؛ وكل ما كان من نفس معاوية فهو بمثابة أصول السياسة في تشييد الملك بمنجاة من الأعاصير التي تقتلع كل ملك قائم على غير طبيعة السنن الملكية الضرورية لها ولضمان حياتها ودوام قوة بيوتاتها .

إن معاوية ومن ضرب على قلبه وطراره علموا انطفايات من أهواء النفوس ، فم لهم تملُّكها وقيادتها ، وانهجوا بها من المسالك ما أشج هممتهم ونهمتها ، وحقق بُغْيَتهم وبغيتها ، ووجدوا بين تيار مصلحتهم السياسية ومختلف رغباتها ومُصطكدهم منازعها ، وقطنوا بشقوب بصائرهم إلى استخدام كل ما فيه القوة والحياة للملكهم من شئ العناصر في أنفسهم وولاتهم وسائر شعبيهم .

أما في نفوسهم فباخذها ، مكروهة أو طائفة ، بالتزام ما فيه النصح والتوفيق مع قصد واعتدال ، فاختار من الولاة والزماء والقواد والبطانة من فهم الغنية والكفاية وحسن

البلاء، يبحث عنهم أتى ويجدوا، مهما كانت عصبياؤهم وخفة ظلمهم أو كثافة نفوسهم، ويحصلون في مراكزهم بمنزلة عن التغيير والتبديل ما داموا من أوتاد الدولة وأركان الملك.

وأما في ولايتهم فبيعه عن جور الرعية وإنصافهم الناس جميعا، فلا يصيبهم من وراء لونهم السياسي أو مذهبهم الديني عسف ولا ظلم.

ولقد سأل الوليد عامله الحجاج المعروف بسفاهه وجبروته أن يكتب إليه بسببته، فكتب ما ثبتته هنا، وكذا نود أن يكون نريسا حقا للحجاج وغير الحجاج، قال :

”إني أيقظت رأيي وأنتع هواي، فاذنبت السيد المطاع في قومه، ووليت الحرب الحازم في أمسه، وقادت الخراج الموقر لأمانته، وقسمت لكل خصم من نفسي قسما يعطيه حظا من نظري ولطيف عنايتي، وصرفت السيف إلى النظيف المسيء، والثواب إلى المحسن البريء، تخاف المريب صولة العقاب، وتمسك المحسن بحظه من الثواب“.

وأما في سائر شعبيهم فبان يستمتوا بكل ما يرضى العدل والحق مع طمأنينتهم على ما لهم وأنفسهم، وأن تكون أبواب الولاية لشكائهم مفتوحة، وأذائهم لمطالبهم مصغية، وعيوبهم لخبرهم ناظرة. وكف نفيد تلك الصفات مع حزم في الولاية !

وهذا زياد بن أبيه كان مع شدته لا يحتاج عن طالب حاجة وإن أتاه طارقا بلبيل وهو الذي كانت عقوبته القتل للذلج، وأخذ المقبل بالمدير والمقيم بالظامن. وقد وثق زياد إلى استتباب الأمن في ربوعه حتى قال المداثني : « قديم قادم على معاوية بن أبي سفيان فقال له معاوية : هل من مقربة خير ؟ قال : نعم، نزلت بماء من مياه الأعراب فينا أنا عليه أورد أعرابي إبله، فلما شرب ضرب على جنوبها وقال : طليك زيادا، قلت له : ما أردت بهذا ؟ قال : هي سدى ما قام لي فيها راع منذ ولي زياد. فسر ذلك معاوية وكتب به إلى زياد ».

قلنا : إن معاوية ومن حُرِبَ على قِالبه وغيره قَطُنُوا بِقُوبِ بصائرهم الى استعمال كلِّ ما فيه القُوَّة والحياة لملئهم من شتى العناصر في أنفسهم وولاتهم وسائر شعوبهم ، والآن نريد أن ندرُسَ بِإيجاز الأسُسَ التي باتباعها تمَّ النجاحُ في تشييد البيت الأمويّ ، والتي باضطرابها والتنكُّب عن سبيلها وطبيعتها كان ضياعُها وفناؤه .

### (ب) اصطناع الأحزاب بالمال :

قال ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء : « إن أحمد بن يوسف الكاتب قال لأبي يعقوب الأنباري : مدّأحكّ محمد بن منصور بن زياد — يعني كاتب البرامكة — أشعرُ من مرثئيك فيه وأجودُ ؟ فقال : كلا يومئذ نعمل على الرجاء ، ونحن اليوم نعمل على الوفاء وبينهما بونٌ بعيدٌ » .

واستطرد ابن قتيبة فقال : « وهذه عندي قصّة الكُتَيْبِ في مدحه بنى أمية وآل أبي طالب فإنه كان يتشجّع ويخوف عن بنى أمية بالرأى والهووى ، وشعره في بنى أمية أجودُ منه في الطالبين ، ولا أرى حيلةً ذلك إلا قُوَّة أسباب الطمع وإثارة النفس لماعل الدنيا على أجل الآخرة » .

صدق ابن قتيبة فيما ذهب إليه ؛ فإن أثر المال في النفس الإنسانية غير قليل ، وإن أثره في اصطناع الأحزاب السياسية لما لا يحتاج الى تدليل ، وقد جُعِلَت النفوسُ على حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إليها وبغضِ مَنْ أَسَاءَ إليها .

ولقد كان معاوية كَيْسًا فذاً في استعمال المال واكتساب رضا الجمهور ، وكذلك كان كل من آتَمَ بهديه وسنته ، في البذل والعطاء ، وفي التوسعة على من آزرهم ، وعَمِلَ على نصرتهم ، ومدَّ ظلمهم وتثبيت عرشهم ؛ فقد زاد معاوية في العطاء لمن شهد مواقفه ، كما فرض الأعطية للشعراء ، غاضاً طريقة عما في ذلك من إغضاب المحافظين من رجال الدين ، إذ كان همه أن يخلق الأبقار المدّاحة ويسترضيها بهياته ونواله ، لِيَتَشَرَّفَ الآفاق ذكراً وترفع الى السماكين فضله ، حتى قصده الشعراءُ واتَّجِعوه ، وناصروه وظاهروه ، وحتى علم الخاص

والعالم أنه إن مدحه أثره، وإن استرفده أغناه، وإن ناصره رأسه وأعل مكانه، فاضحى  
تُجعة الرقاد ومقصدتهم، وموئل القُصَاد ومَنهلهم . وكانت الزوجة تستحث عَزَمَات زوجها  
أن يهرعَ إليه ليُصيبَ من نوافله ، وليُعودَ إليها بنوائله ، كما كانت تُرغِبُ بعلها أن يبيعَ إبله  
وأن يقرضَ في المعاء بشعره .

وقد حكى لنا أبو الفرج الأصفهاني شيئاً من ذلك في أخبار جبهة الأثمعي<sup>(١)</sup> في خبر  
طويل انتهى بأن قال جبهة الأثمعي قصيدته التي فيها :

قالت أَيْسَةُ دَعْ بِلادَكَ وَأَتَيْسْ \* داراً وَطَبِيَّةَ رَبِّي الاطام  
تُكْتَبُ عِيَالُكَ فِي المعاء وَتُقَرَضُ \* وكذلك يَقْعَلُ حَازِمُ الأَقْصَامِ

وهناك مسألة مهمة من سياستهم في اصطلاح الأحزاب، وإلغام الأقواء بالمال،  
وفرض المعاء للشعراء الذي ظل معمولاً به إلا في أيام عمر بن عبد العزيز، ذلك أنهم  
كانوا يملكون رقاب المسلمين بإقراض من شاءوا من مال الصدقة ويكتبون صكاً عليهم .  
ويحس أن الدين هم بالليل ومذلة بالنهار .

ويذكر لنا الأُفْطَى في باب أخبار جعفر بن الزبير ما فرضه له سليمان بن عبد الملك  
إذ أمر له بألف دينار في دينه ، وألف دينار معونة على عياله ، وربع من البيض  
والسودان ، وكثير من طعام الجارى ، وأن يُدَان من الصدقة بألف دينار .

على أنه قد يعترض علينا بأن اعادة التي قدمناها حادثة فردية لا يصح أن نَعْتَزَّ قاعده  
عامة أو أن يُستَبطَّ منها وقوع متيلامها وذيوخ نظيراتها .

بيد أن الأُفْطَى يُجْهِزُ على هذا الاعتراض، إذ يُبْهِتُ ما نصه : « كان السلطان بالمدينة  
إذا جاء مال الصدقة أدان من أراد من قرش منه، وكتب صكاً عليه يستعبد به ويخفقون  
إليه ويدارونه، فإذا غَضِبَ على أحد منهم أَسْتَخْرِجُ ذلك منه، حتى كان هارون الرشيد،

(١) قال شارح القاموس في مادة « جبة » : جبهة الأثمعي كثيره : شاعر معروف كافي السطاح .  
وقال ابن دريد : هو جبهة الأثمعي بالفتح .

فكله عبدُ الله بن مُصعب في صكوك بقيت من ذلك على غير واحد من قریش فأمر بها فأحرقت .

فثُل هذا التصرف في استرضاء الناس واستمادهم وفي إقراضهم المال ليكونوا أولياء وتمجيزهم وإرهاقهم أن جنحوا لمناوأة ولاية الأمور أو منافستهم ، له آثاره من خير وشر في المصلحة الحزبية لبيت بني أمية ، طبقا لما يديه الزعماء من حُكْمَةٍ وحزيم ، وإصابة لمواقع الصواب .

وبعد ، فإن هذا السلاح الماضي في يد الأقوياء لهو أشدّ مضاءً في القضاء على الضعفاء إذا أساءوا استعماله ، لأنه قد يبدّل لشراء مثل «الذلفاء» وغيرها من القيان ، ولأنه قد يبدّل الشباب من الخلفاء في ضروب الخلاعة والاستتار ، فيكون معول هدم ودمار ، كما حصل لـ محمد الأمين وأمثال محمد الأمين مما سنورده عليك .

وإنما لرى في أخريات هذا البيت ذى الأثر الكبير في تحوّل المدينة العربية أن بعض الخلفاء نقص الناس العطاء فهانوا ضيقا بعد سعة ، وشغلًا بعد رفاهة . وشر السياسات أن تُصيب صاحب عيش رغيد بإضاعة وحرمان ، وأن تُنزّل به غضاضة التفتير والعسر . ولننظر ما يقوله العنقوي عن خليفة من هذا الطراز : طراز الإضاعة في أرزاق الناس وعنوان اضمحلال الدولة إذا أذن بجُحها بالأفول ، وآل أمرها إلى الإفلاس .

يقول العنقوي عن يزيد بن الوليد بن عبد الملك : إنه سُمّي يزيد الناقص لأنه نقص الناس من أعطياتهم واضطربت عليه البلدان ، وكان ممن خرج عليه العباس بن الوليد يحمص وشاميه أهل حمص ، وبشر بن الوليد يقنسرين ، وعمر بن الوليد بالأردن ، ويزيد بن سليمان بفلسطين ، وساعد العباس أبو محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية وسليمان بن هشام . يريد العنقوي أن يقول من غير شك : إن هؤلاء الأمراء انتهزوا غضب أهلند لنقصان الأعطية فثاروا .



ليس هذا لحسب ، بل إن سياسة بعض الخلفاء دفعتهم الى حرمان مدُنٍ مجذا فيرها من عطائها ، كما حصل لأهل مكة والمدينة إذ حرّموا سنة كاملة ، في حين نرى معاوية قد زاد عطاء أهل البيت مثل الحسن والحسين وعبد الله بن عباس الى ١,٠٠,٠٠٠ درهم في السنة فضاء عنها مائتي مرة عن حساب ديوان عمر بن الخطاب .

أفلا يجدر بنا بعد ما أسلفناه أن نقنع بأن المال كان سببا قويا لبناء بيت معاوية ، وأن المال نفسه كان ، الى حدٍّ غير قليل ، سببا له خطره وقيمته في انهيار هذا البناء ! .

### (ج) العمال :

قال زياد : ما ظنني أمير المؤمنين معاوية قط إلا في أمر واحد : طلبتُ اليه رجلا من عمالي كسر عليّ الخراج فلجأ اليه ، فكتب اليه : "إن هذا فسادٌ على وعملك" . فكتب اليّ : "إنه لا ينبغي أن نسوس الناس سياسة واحدة : لآتين جميعا فيمرح الناس في المعصية ، ولا نشدّ فتحيل الناس على المهالك ، ولكن تكون أنت للشدة والفظاظة والغليظة ، وأكون أنا للرفقة والرحمة" .

وكتب عبد الملك بن مروان الى الحجاج حين استأذنه في أخذ تلك الصبابة من المال التي تُترك لأصحاب الأراضي يتعاملون بها ولكون لم ردها وظهيرا إذا تزلت بساحتهم النوائب والجوائح ، قال : "لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك ، وأبق لهم سُحوماً يقدون بها شعوماً" .

يمثل هذه السياسة بين المال والخلفاء ، ويمثل اختيار معاوية وغير معاوية ، كهشام وعبد الملك ، اعمال ذوى كفاية ودهاء ، وحذق وحسن بلاء ، كزياد ومن على شاكلته ، أتيح لمعاوية وخلفاء معاوية تبوؤ عرش المملكة العربية قوى الأركان لا تهتصره العواصف والأعاصير ، ثابتا لا تُزعزعه قوّرات انطوارج ولا حروب المنافسين .

كانت الدولة أيام معاوية ، أيام بنائها وتشييدها ، أيام تلك المصاعب الكئداء التي اعتورت سبيلهم ، وتلك الشدائد التي تُشيب وتُفزع ، وتقض المضاجع ، وتجثث من النفوس

أماها، ومن العزيمات مضاءها : ومن القلوب بأنسا — كانت الدولة يومئذ غنية بالكفايات ،  
يُخَصِّبُهُ بِمَهْرَةِ الْعَالِ وَحَذَائِقِ الْوَلَاةِ . ولعلها سنة طبيعية أن يكون دور بناء العروش والممالك  
يُخَصِّبُ بِرِجَالِهِ الْكِفَاةَ ، كما يكون دور انحلالها قاحلا عقيا في كل شيء ، وإن كانت الأمم ،  
وهي تنقطع أنفاسها ، قد لا تخلو من لا يالو جهدا في سبيل إقالتها من عثرتها ، وإنهاضها  
من سَقَطَتِهَا .

ألم يكن الى جانب معاوية في عصر البناء أصحاب الكفايات النادرة من المال والولادة  
أمثال عمرو بن العاص وزباد بن أبيه والمغيرة بن شعبة الذين يقول فيهم بعض النقاد :  
« ما رأيت أنقل حِلْمًا ولا أطول أناة من معاوية ، ولا رأيت أغلب للرجال ولا أبداً لهم حين  
يقتدعون من عمرو بن العاص ، ولا أشبه سراً بهلانية من زياد ، ولو كان المغيرة في مدينة  
لها ثمانية أبواب لا يُخْرِجُ من باب منها إلا بالكر نخرج من أبوابها كلها » .

على أنه يبدو لنا أن تصور حالة الولاة الكفاة أيام القوة ، وما آل إليه أمرهم بعد ذلك  
حتى أخفوا يتقربون الى الخلفاء بالهدايا والأعطاف والرثام مع حَسَفِ الرعية والكيد لها . ولنتذكر  
للبعقوبي التكم عن الحالة الأولى ، ولابن الأثير بيان الثانية ، ثم نُدِرْ ذلك ببعض الحقائق  
التاريخية لكي يتاح لنا بعدئذ أن نطمئن الى تقدير هذا العنصر — عنصر المال — وأنه  
لا يقل عن المال قوة وأثرا ، سواء أكان ذلك في البناء أم في الهدم ، أما البناء فيحسن اختيار  
المال وكفاياتهم ، وأما الهدم فيعسف الولاة وتُخْرِقُهُمْ ، وسوء اختيارهم وقلة بضاعتهم في تدبير  
الممالك وسياسة الناس .

قال اليعقوبي في معرض كلامه عن زياد بن أبيه بعد أن وصف ماله من دهاء وحيلة  
وصولة : « كان زياد يقول : مَلَأْتُ السُّلْطَانَ أَرْبَعُ خَلَال : العَفَافُ عن المال ، والقُرْب  
من المحسن ، والشَّتَّةُ على المسيء ، وصدقُ اللسان . وكان زياد أول من بسط الأرزاق على  
عَمَّالِهِ أَلْفَ دِرْهَمٍ أَلْفَ دِرْهَمٍ وَلِنَفْسِهِ خَمْسَةَ وَعِشْرِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ . وكان يقول :  
يُنْفِىَ لِلْوَالِي أَنْ يَكُونَ أَعْلَمُ بِأَهْلِ عَمَلِهِ مِنْهُمْ بِأَعْمَهُمْ » . وبعد أن ضرب اليعقوبي الأمثال

على معرفة زياد بدخائل رعيته قال مصوراً رأى زياد فيما يتطلبه بعض الشؤون العامة من الصفات فيمن يتولاه : كان زياد يقول : « أربعة أعمال لا يليها إلا المسنُّ الذي قد عصَّ على ناجذه : الثغرُ، والصائفة، والشرط، والقضاء . وينبغي أن يكون صاحبُ الشرط شديدَ الصولة قليلَ الغفلة، وينبغي أن يكون صاحبُ الحرس مُسَيِّئاً عفيفاً مأموناً لا يُطعنُ عليه . وينبغي أن يكون في الكاتب خمسُ خلال : بُعدُ غورٍ، وحسنُ مداراة، وإحكامُ للعمل، وألاً يؤخرَ عملَ اليومَ لغد، والنصيحةُ لصاحبه . وينبغي للحاجب أن يكون عاقلاً قِطناً قد خدَمَ الملوكة قبل أن يتولى حجابهم » .

ثم أنظر ما آل إليه الأمر أيام الوليد بن يزيد الذي رغب في اكتساب قلوب الناس بعد نفورها، وإرضائها بعد ترميها، وإناسها بعد وحشتها، بأن يزيد في أعطياتهم ويضاعف أرزاقهم . يريد أن يمينَ المال قد نضبَ أوكاد، وأنجزانة قد استنزفتها الملائد وحروبُ الطواجر وإحماد الفتن، فعمد إلى بيع الولایات . وإن أبى الأثير ليخبرنا، في حوادث سنة خمس وعشرين ومائة، أن الوليد قد ولى نصر بن سيار خراسان كلها وأفرده بها، ثم وقد يوسف بن عمر على الوليد فاشترى منه نصراً وعماله، فردَّ إليه الوليد ولاية خراسان، وكتب يوسف إلى نصر يأمره بالقدوم ويحمل معه ما قدر عليه من الهدايا والأموال وأن يقدم معه عماله أجمعين . ثم قال : وكتب الوليد إلى نصر يأمره أن يتخذَ له برابطاً وطنايرَ وأباريقَ ذهبٍ وفضية، وأن يجمع له كلَّ صنَّاعةٍ بخراسان، وكلَّ بايزٍ وريزونٍ فارٍ، ثم يسير بكل ذلك بنفسه في وجوه أهل خراسان .

ثم انظر ما يقوله الأغاني من عاملٍ لعبد الملك بن مروان على خراسان، وهو أمية ابن عبد الملك الذي كتب إليه يقول : « إنا تراجَّخ خراسان لا يفي بمطبعي »، وما أثبتته القاضي ابن خلِّكان في تاريخه عن أبي خالد يزيد بن أبي المنثى عمر بن هبيرة وإلى مروان ابن محمد على العراق : من أن رزقه كان ستمائة ألف درهم .

هذا إلى ما نزل بأهل الذمة وغيرهم من السَّيف وزيادة الضرائب، وما كان من تخليَّة أصحاب الأراضي لها بفير حرث ولا زرع، وما كان من مبالغة العيال في إهداء الخلفاء،

ونزوعهم الى جمع الثروة واختزان المال؛ فإنك بعد كل هذا تطمئنُ معي الى الاقتناع بأن العمال الكفأة مصدر قوة في بناء الممالك وعَصْرٌ يُحَقَّلُ به في مادة حياتها، وأنهم عنوان مهابتها وصولتها، وأن الولاة الظلمة الضعاف مصدر ويل وثبور، وأداة هديم وتخريب وانتكاس وفناء.

وإنا نسوق هنا كلمة لبعض بني أمية حين سئل عن سبب زوال ملكهم لا تغفلون عظة واعتبار، قال: «... قِلَّةُ التيقظ، وشغلنا بلداتنا عن التفريغ لمهامنا، ووثقنا بكفائتنا فأثروا مراقبهم علينا، وظلم عمالنا رعبنا ففسدت نيائهم لنا، ومجمل حل أهل نراجنا فقل دخلنا، وبطل عطاء جندنا فزال طاعتهم لنا، واستدعاهم أعداؤنا فأطوهم علينا، وقصدنا بغائنا فصجزنا عن دفعهم لقلة أنصارنا، وكان أقل زوال ملكنا استتار الأخبار عنا» فزال ملكنا عنا بنا.

#### (د) الوجهة الدينية :

إنَّ سُنَّةَ معاوية في بناء دولته لم تكن، مع ما نعلمه من ترخصه في إقامة الحدود في بعض الأحوال لضرورات سياسية، سُنَّةَ استهانة بالدين ولا إمعان في ازدياده أو الخروج عن جُلِّ مظاهر الاحتشام الديني، الخليفة بن يسوس أمور الدين والدنيا، هذه سُنَّةَ معاوية وطريقته في سياسة الملك. أما خلفاؤه فقد تنكب جُلُّهم سُنَّةَ الحكيم، وأطلقوا لشهواتهم العنان فيما ينبغي أن يكون خلفاء المسلمين وأئمتهم بخيرة منه. وقد كان لذلك آثاره في الدولة من حيث تأثر أخلاقها القومية، وما أصابها من انحلال وضعيف، ومن تفكك وفور. وستعالج تصوير هذه العوامل بأيامنا واقتضاب في كلمتنا هذه، فلا نُفَرِّدُ لكل منها بابا، وإن كنا نعلم أنه يترتب على توضيحنا لهذه الأصول فائدة جُلِّ، بيد أن اتساع نواحي الموضوع وتشعب فروعه ومختلف أبوابه — كل ذلك يُلْزِمُنَا إلزاما اتباع ما رسمناه لأنفسنا من القصد والاعتدال.

لست بحاجة، على ما نطق، الى تصوير أخلاق من فيهم الكفاية من خلفاء معاوية من ناحية الدين والخلق العام، لأن فيما جالناه من تحليل أخلاق معاوية الفنية والكفائية.

ونريد الآن أن ندرس تلك الناحية العكسية ، ناحية أولئك الخلفاء الذين لم يبالوا التقاليد الدينية فازدردوا طقوسها ، مع ما كان فيهم من ضعف وما بهم من سُخْرِق .

إن أمانا يزيد بن معاوية ، ويزيد بن عبد الملك ، والوليد بن يزيد ، أما ابن معاوية فقد أصاب العقوبى - سُدرة الصواب حين وصفه بأنه حُلُف فسوة وصاحب مَلَأه . ويكفى أن ندرس حياته - مع أن النبوة كانت في إبان قوتها ومِعة شبابها - لِنَتَنَبَّعَ بأنها كانت بمثابة معاوية هديم وتخريب ، وإن في المسامحة بما كان من مسلم بن عقبة الذي انتهك المدينة لمقتنماً بما نقول . لقد كان جند يزيد بعد واقعة الحزة وغيرها يطلبون الى الرجل القرشي أن يبايع ليزيد ، لامن ناحية اقتناعه الديني طبعاً ، ولا بدافع الترفيب والمسال ، ولا بسياسة الرقعة واللطف التي قد يُنَالُ بها أكثر مما يُنَالُ بالشدّة والعنف ، بل من ناحية السيف والإرهاب ، يجب أن يبايع وأفعه وأفعه ، ويجب أن يبايع مع ما يرى من انتهاكهم المدينة . كانت جند يزيد يقول للقرشي : بايع على أنك عبيد قن ليزيد ، فإن أبى حُرِبَ عَقْه ، فكانت مقتلة ذريعة . ثم انظر ما كان من حصارهم مكة التي إذا قال قائلها : « يا أهل الشام ، هذا حرم الله الذي كان مأمناً في الجاهلية يا من فيه الطير والصيد فانقوا الله يا أهل الشام » ، صاحب الشاميون « الطاعة الطاعة » .

لنترك يزيد جانباً ، محيلين القارئ الى ما في الأغاني وغيره من كتب الأدب والتاريخ ولنرصد الطرف في حياة يزيد بن عبد الملك ، فنجد أبا الفرج الأصفهاني يذكر لنا ، في غير موضع من حياة سَلَامَةِ النَّفْس ، وحجابه وغيرهما ، شيئاً لا يُسْتَمَان به عن إسراره في تنهكه ، فيقول لنا عن المدائني قوله : قَدِمَ يزيد بن عبد الملك المدينة في خلافة سليمان ، فتزوج مُعَدَّة بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان على عشرين ألف دينار ، ومُبيحة بنت محمد بن علي بن عبيد الله ابن جعفر على مثل ذلك ، واشترى الفالية بألف دينار . وفي رواية محمد بن سلام أنه اشتراها بأربعة آلاف دينار . ويقول في موضع آخر : إن رُسُلَ يزيد بن عبد الملك قَدِمَتِ المدينة فاشترى سَلَامَةَ المغنّية من آل رُمَانَة بعشرين ألف دينار .

ولمَّا تَمِيلُ إِلَى مَقَابِلَةِ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ مَعَ تَعَدُّدِ رَوَاتِبِهَا بِتَحْفِظِ الْمُرْخِ الْعَلَمِيِّ الَّذِي لَا يُقْنِعُهُ إِلَّا الْوَسَائِلُ التَّحْلِيلِيَّةُ الْمُؤَيَّدَةُ لِصَدَقِ الرِّوَايَةِ ، عَلَى أَنَّكَ تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ بِاطْلَاعِكَ عَلَى مَا يَقُولُهُ الْيَعْقُوبِيُّ مَثَلًا عَنْ طَرِيقَةِ جَبَايَةِ الْمَالِ ، وَعَلَى مَا كَتَبَهُ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ إِلَى عُمَرَ ابْنِ هُبَيْرَةَ ، وَهُوَ عَامِلُهُ عَلَى الْعِرَاقِ ، بِأَمْرِهِ : أَنَّ يَمْسَحَ السَّوَادَ فَسَحَهُ سَنَةَ ١٠٥ هـ وَلَمْ يَمْسَحَ السَّوَادَ مِنْذُ مَسَحَهُ عُثْمَانُ بْنُ حَنِيفٍ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ حَتَّى مَسَحَهُ عُمَرُ بْنُ هُبَيْرَةَ فَوَضَعَ عَلَى النَّخْلِ وَالشَّجَرِ وَأَحْرَصَ بِأَهْلِ الْخِرَاجِ وَوَضَعَ عَلَى الثَّانِيَةِ <sup>(١)</sup> وَأَعَادَ السُّخَّرَ وَالْهَدَايَا وَمَا كَانَ يُؤْخَذُ فِي الثَّيْرُوزِ وَالْمُهْرَجَانِ . لَيْسَ هَذَا خُفْسٌ بَلْ أَنْظُرْ إِلَى تَعَلُّهِ فِي فِرَاقِ الْغَرَامَاتِ الْمَسَالِيَةِ عَلَى كِبَارِ رِجَالِ الدَّوْلَةِ لَا يَحْرُمُ إِلَّا أَنْ نَفُوسُهُمْ حَدَّثَتْهُمْ أَنَّ يَتَرَقَّجُوا بَعْضَ آلِ الْبَيْتِ ؟ فَإِنْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الضَّحَّاكِ بْنُ قَيْسِ الْفَيْهَرِيِّ عَامِلُهُ عَلَى الْمَدِينَةِ كَانَ قَدْ خَطَبَ لِنَفْسِهِ فَاطِمَةَ بِنْتَ الْحُسَيْنِ بِطَرِيقَةِ جَافَةٍ ، فَعَزَلَهُ يَزِيدُ عَنْ الْمَدِينَةِ وَوَلَّاهَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّصْرِيُّ ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَهُ بِأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ وَيَعْدِّيهِ ، فَعَمِلَ ذَلِكَ ، وَيَقُولُ الْمُرْخُ الَّذِي نَقَلْنَا عَنْهُ : إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الضَّحَّاكِ قَدْ رَأَى فِي عُنُقِهِ خِرْقَةً صُوفٍ يَسْأَلُ النَّاسَ .

وَلَمْ يَكْتَفِ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بِهَذَا ، بَلْ عَزَلَ عَمَّالَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ جَمِيعًا . وَنَحْنُ نَعْلَمُ مَنْ هُوَ عَمْرُو مَا صَدَّقَهُ وَمَا رَقَابَتَهُ عَمَّالَهُ . وَبِكُفَيَاتِنَا أَنْ نَذْكُرَ مَا كَانَ مِنْهُ مَعَ يَزِيدِ ابْنِ الْمُهَلَّبِ عَامِلِهِ عَلَى خُرَاسَانَ ، فَقَدْ قَالَ لَهُ عَمْرُ : « إِنِّي وَجَدْتُ لَكَ كِتَابًا إِلَى مَلِكَيْنِ تَذْكُرُ فِيهِ أَنَّهُ اجْتَمَعَ قَبْلَكَ أَلْفُ أَلْفٍ ، فَأَيْنَ هِيَ ؟ فَأَنْكَرَهَا ثُمَّ قَالَ : دَعْنِي أَجْمَعُهَا ، قَالَ : أَيْنَ ؟ قَالَ : أَسْعَى إِلَى النَّاسِ » ، قَالَ : تَأْخُذُهَا مِنْهُمْ مَرَّةً أُخْرَى ! « . ثُمَّ وَجَدَ خُرَاسَانَ الْجَوَاحِرَ بْنَ الْحَكِيمِ . وَإِنَّهُ لَمِنْ الْمُنْتَجِعِ حَقًّا تِلْكَ الْمُنَاقَشَةُ الْوَرْدَةُ الْمَسَادَّةُ الَّتِي دَارَتْ بَيْنَ عُمَرَ وَيَزِيدَ ، وَبَيْنَ عُمَرَ وَتَحَلُّدِ بَنِي يَزِيدَ ، وَتِلْكَ الصَّرَامَةُ الَّتِي لَا تَعْرِفُ فِي سَبِيلِ الْمَحَافِظَةِ عَلَى مَالِ الْمُسْلِمِينَ لَيْتًا وَلَا هَوَادَةً ، وَقَدْ أَثْبَتَهَا إِبْنُ الْأَثِيرِ فِي كَامِلِهِ وَلَا حَاجَةَ بَنَاهَا إِلَى الْإِسْتِطْرَادِ بِذِكْرِهَا .

(١) الثَّانِيَةُ : الْجَاهَةُ الْمُتَقَبِّلُونَ فِي الْبِلَادِ الَّذِينَ لَا يَفْرُونَ مَعَ الْفَرَاةِ . أَنْظُرِ الْهَاسَانَ مَادَةَ « تَابًا » .



فمن أمثال ما قدّمناه نستطيع أن نقفّح بأن روايات صاحب الأغانى عن إمرائه قريبة من الواقع ، إن لم تكن صحيحة لا مبالغة فيها ولا غبار عليها . ثم لننظر الآن الى أى مدى كان هذا الصنف من الخلفاء تحت تأثير عشيقاتهم من القيان والمغنيات ، وما كان لهن من سلطان فى أمور الدولة وتولية العال وعزلهن ؛ فإن ذلك يفيدنا فى تفهّمنا دور الانتقال الذى نحن فيه تفهّمًا هو فى نظرنا أشدّ اعتبارًا من الاعتماد على رأى المؤرخين وسرّدهم للحوادث بغير عناية ولا استقراء للنفسية العربية وخاصة فى أبهاء الخليفة . وجبذا العناية بها ، سواء أكانت فى بيت الخليفة أم فى بيت العامل أم عند الرعية ، فإن لدراستها ومراقبتها نحوها نفعًا وكبير جدوى .

ينقل لنا أبو الفرج الأصفهاني عن المدائني أن حَبَابَةَ ، وهى حاليّة القَيْنَةُ ، «ظلت على يزيد وتبقي بها عمر بن هبيرة ، فملت منزلته حتى كان يدخل على يزيد فى أى وقت شاء . وحسد ناس من بنى أمية مسلمة بن عبد الملك على ولايته وقدحوا فيه عند يزيد ، وقالوا : إن مسلمة إن اقتطع الخراج لم يحسن يا أمير المؤمنين أن يعيشه ، وأن يستكشف عن شئء لِسِنِّهِ وخِفَّتِهِ ، وقد علمت أن أمير المؤمنين لم يدخل أحدًا من أهل بيته فى الخراج ، فوفر ذلك فى قلب يزيد وعزم على عزله . وعمل ابن هبيرة فى ولاية العراق من قبل حَبَابَةَ فعملت له فى ذلك . وكان بين ابن هبيرة والقمعاق بن خالد مداوةٌ ، وكانا يتنازعا من ويتحاسدان ، فقبل للقمعاق : لقد نزل ابن هبيرة من أمير المؤمنين منزلةً ، إنه لصاحب العراق خدًا ؛ فقال : ومن يطيق ابن هبيرة؟ حَبَابَةُ بالليل وهداياهِ بالنهار ! مع إنه وإن كان بلغ فانه رجل من بنى سكين . فلم نزل حبابة تعمل له فى العراق حتى وليها .»

مثل هذا الخبر له قيمته التاريخية فى تعرّف حال الدولة العربية فى ذلك الحين . ولو جازلنا أن نحلّل لنظرنا طويلا فى قول القمعاق بن خالد : «ومن يطيق ابن هبيرة ، حبابة بالليل وهداياهِ بالنهار مع أنه وإن كان بلغ فانه رجل من بنى سكين» فانه لا يفيدنا

في تفهم وقور الخليفة تحت سلطان عشيقته ، ولا في قبوله للرشا فحسب بل يفيدنا فهم تحول المصليات العربية الأخيرة ومبلغ نظر العربي إلى سواه .

أما استخفاف الوليد بن يزيد بالدين، ونهرياته التي فاقت نهريات يزيد بن معاوية، والتي نرى أن لها أثرا كبيرا في أبي نواس وحسين بن الضحاك ، وبركة النمر التي احتواها قصره، فإن أمهات كتب الأدب العربي ومطالع التاريخ مُفَعِّمَةٌ من ذلك بما لا نتعرض له في هذه المُجَالَة بأكثر من إحالة القارئ على ما قاله الوليد في القرآن، وما أحصاه بعضهم له من عدد الأقداح التي شربها في ليلةٍ من ليلاتي شربه، إذ أثبت صاحبُ الأُطْفَى أنها سبعون قدحا وإن كنا نفترض في مثل هذه الأحوال جنوح الرواة إلى المبالغة والإغراق . ثم لتنظر معنا فيما يقوله ابن الأثير عنه حين ولّاه هشام الجعفي، فانه يخبرنا : أنه لما أراد هشام أن يقطع عنه ندماءه ولّاه الجعفي سنة ست عشرة ومائة ، فحمل معه كلابا في صناديق وعمل قُبَّةً على قدر الكعبة ليضعها على الكعبة ، وحمل معه النمر وأراد أن تُصَبَّ القُبَّةُ على الكعبة وتُشَرَّبَ فيها النمر . وقد أيد المؤرخون هذه الحادثة . ويقول البهقي : إن الوليد بعث مهندسا ليقوم بذلك .

ثم أنظر إلى بيعه خالدا القسري إلى يوسف بن عمر بنحسين ألف ألف، وما رواه المؤرخون من إرساله إلى خالد قائلا له : «إِنَّ يَوْسُفَ يَشْتَرِيكَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ أَلْفٍ، فَإِنْ كُنْتَ تَضْمِنُهَا وَإِلَّا دَفَعْتُكَ إِلَيْهِ» فأجابه خالد بأحسن جواب إذ قال له : ما عهدت العربُ شَيْئًا ، والله لو سألتني أن أضمن عودا ما ضمته . ومع ذلك فقد دفعه إلى يوسف فمذبه وقتله !

ثم لننظر إلى نظر الرأي العام إليه وإلى تصرفاته . وأمامنا من ذلك شمر حمزة بن ببيض فيه إذ يقول :

يا وليدَ الخُلَا تَرَكْتَ الطَّرِيقَا • وَاخْضَا وَارْتَكَبْتَ بَلْغًا عَمِيقَا



وتماديت واعتديت وأسرف . متواغوت وانبعثت فسوقا  
أبدا هات ثم هات وهات . ثم هات حتى تحصر صعيقا  
أنت سكران ما تحيق فاستر . ثق فتقا وقد انتقت قسوقا

وإنما نشئت هنا أيضا ما دار بين الوليد بن يزيد حين حوصر في قصره ويزيد بن عنبسة السكسكي، فقد قال له الوليد : « يا أخا السكاسك، ألم أزد في أعطياتكم ! ألم أرفع المؤن عنكم ! ألم أعط فقراءكم ! ألم أخدم زمتاكم ! » قال : « إنا ما ننقم عليك في أنفسنا، وإنما ننقم عليك في انتهاك ما حرم الله، وشرب الخمر، ونكاح أمهات أولاد أبيك، واستخفافك بأمر الله ! » .

ولنتظرن معي أيضا الى عبد الملك بن مروان، وهو من الخلفاء الثلاثة المعدودين أقطابا لهذه الدولة، والى ما كان من جبروته وضعف الوازع الديني عنده، حتى استباح لنفسه أن يقول وهو على المنبر : « مَنْ قَالَ لِي بَعْدَ مَقَامِي هَذَا أَتَى اللَّهَ ضَرْبُ عُنُقِهِ » .

وبعد، فإنه ليخيّل الينا أن فيا قدسناه بعض المقنع، بما كان من استبانة الخلفاء بالدين ومن إمعانهم في التهلك والمخروج عليه . وزيد الآن أن ندرس تأثر الخلق العربي بما كان للخلفاء من تنكّب عن سنن الدين وإيمان في التهلك والاستتار . والناس على دين ملوكهم، والملوك على سنة رعيّتهم؛ أو كما يقول عبد الملك بن مروان : « تطلبون منا أن نسير فيكم بسيرة الشيخين أبي بكر وعمر ولا نسيرون أتم بسيرة الناس أيام أبي بكر وعمر ! » . على أنا نريهم أنفسنا إرغاما على أن نكتفي في هذا الفصل، الذي كادت لنشعب علينا فروعه ونواحيه، وكذا نقتل في فهمه وبواديه، بمشائير قد لا يخلو من النفع . وعمدنا في ذلك الأغاني، وصورنا الأخبار لآلئ قتيبة، وإن كان المثل الأخير هو الى الأدب والعظة، أقرب منه الى التاريخ والتحليل العلمي . بيد أنا آثرنا إيرادَه لأنه حسن في نفسه، ومصيب بحجة الصواب في جملة .

يقول أبو الفرج : إنه لما قدم عثمان بن حيان المزى والى يزيد بن عبد الملك المدينة قال له قوم من وجوه الناس : إنك وليت على كثرة من الفساد، فإن كنت تريد

أن تُصليحُ فطهرها من النِّناء والزاخ . ونفهم من جملة الرواية أنه لم يَفِزْ في مهمته بطلال ولم يُوقِ إلى ما كان يرجوه للناس من صلاح وتقويم .

أما ما يرويه لنا ابنُ قتيبة في عيون أخباره فيها هو ذا بنصبه وعبارته ، وهو ختام هذا الفصل بعد أن كدنا تطيل .

قال : « سَمَرَ المنصور ذات ليلة فذكر خلفاء بني أمية وسيرهم ، وأنهم لم يزالوا على استقامة حتى أفضى أمرهم إلى أبنائهم المترفين ، فكانت همهم من عِظَم شأن الملك وجلالة قدره قصدة الشهوات وإيثار اللذات والدخول في معاصي الله وتساخطه ، جهلا منهم باستدراج الله وأمانا لحركه ، فسلبهم الله العزَّ وقلَّ عنهم النعمة . فقال له صالح بن علي : يا أمير المؤمنين ، إن عبد الله بن مروان لما دخل أرض النوبة جازيا فيمن معه سال ملكُ النوبة عنهم فأخبر ، فركب إلى عبيد الله فكله بكلام عجيب في هذا النحو لا أحفظه ، وأدعجه عن بلده ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يدعو به من الحبس بحضرتنا في هذه الليلة ويسأله عن ذلك ! فأمر المنصور بإحضاره ، وسأله عن القصة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قدمت أرض النوبة بأثاثٍ سليمٍ لي فافتريشتُ بها وأقمتُ ثلاثا ، فأتاني ملكُ النوبة ، وقد خبر أمرنا ، فدخل على رجل أفنى طولاً حسن الوجه ، فقعده على الأرض ولم يقرب الثياب ، فقلت له : ما يمنعك أن تقعد على ثيابنا ؟ قال : لأني ملكٌ ، وحقٌ على كلِّ ملكٍ أن يتواضع لعظمة الله إذا رفعه ! ثم قال لي : لم تشربوا الخمر وهى محرمةٌ عليكم ؟ قلتُ : اجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا لأن الملك زال عنا ، قال : فلم تطؤون الزروع بدوابكم والفساد محرمٌ عليكم في كتابكم ؟ قلتُ : يفعل ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم ، قال : فلم تلبسون الديباج والحرير ، وتستعملون الذهب والفضة ، ذلك محرمٌ عليكم ؟ قلتُ : ذهب الملك منا وقلَّ أنصارتنا ، فانتصرةً بقوم من العجم دخلوا في ديننا ، فليسوا ذلك على الكُوفه منا ، قال : فاطرق ملياً وجعل يثلبُ يديه وينكتُ في الأرض ويقول : عبيدنا وأتباعنا ! دخلوا في ديننا ! وزال الملك عنا ! يركده مراراً ، ثم قال : ليس ذلك كما ذكرت ، بل أتم قوم استحلتم ما حرم الله

عليكم وركبتُم ما عنه نهاكم، وظلمتم فيا ملكتم، فسلبكم الله العز واليسم الذل بذنوبكم، والله فيكم نعمة لم تبلغ غايتها، وأخاف أن يصل بكم العذاب وأنتم ببلى فيصيبني معكم وإنما الضيافة ثلاثة أيام، فتزودوا ما احتجتم إليه وأرحلوا عن بلدى، ففعلت ذلك» .

### (هـ) التعسف المذهبي :

يزيد أن ننظر الآن نظرة تجلّ في أمر التعسف المذهبي . ونحن نعلم ما أصاب جماعة على أيام معاوية وهو هو في حكمه وحاميه ومروته، نعلم ما أصاب مجر بن عدى الكندى وجماعته، كما نعلم ما أصابها أيام يزيد من قتل هاني بن عروة ومسلم بن عقيل والحسين ابن علي وزيد بن علي الذي صُلب على شاطئ الفرات وذُرى رماده في الماء . ولننظر نظرة خاصة الى حياة بُسر بن أبي أرطاة وقته الأطفال والرجال والنساء، ولنتذكر معاوية هنا يصور لنا مبلغ تأثير نفوس بني هاشم من حُطة التعسف المذهبي هذه ؛ فإن أبا الفرج الأصفهاني يقول في كتابه : لما كانت الجماعة واستقر الأمر لمعاوية، دخل عليه عبيد الله بن العباس وعنده بُسر بن أبي أرطاة، فقال له عبيد الله : أنت قاتل الصبيين أيها الشيخ ؟ قال بُسر : نعم أنا قاتلها، فقال عبيد الله : أما والله لو ددْتُ أن الأرض كانت أُنبتني عندك ! فقال بسر : فقد أُنبتك الآن عندي، فقال عبيد الله : ألا سيف ؟ فقال له بسر : هاك سيفي، فلما أهوى عبيد الله الى السيف ليتناولهُ أخذه معاوية ثم قال لبسر : «أخرأك الله شيخاً ! قد كبرت وذهب عقلك ! وذلك رجل من بني هاشم قد وترته وقتلت أبنيه ، تدفع اليه سيفك ! إنك لغافل عن قلوب بني هاشم ! ولو تمكَّن منه لبدأ بي قبلك» . قال عبيد الله : «أجل ! وكنت أُنقي به» .

ثم انظر كيف انتقم من بسر رجل من اليمن اتصل به حتى وثق به ، ثم احتال لقتل ابنيه فخرج بهما الى وادي أوطاس فقتلها وهرب .

(١) أوطاس : واد في ديار هوازن فيه كانت دافقة حنين ويربطه قناتني على الله عليه وسلم : «حي الوطيس» وهو أول من قال ذلك . انظر معهم يافوت في أوطاس .

على أنه يجدر بنا أن نصوّر إلى أيّ مدى بلغت نتائج خطط الأمويين السياسية ، من حيث بثّهم البغضاء في النفوس لعلّ وشيعته ، وصرف الناس عن ذكركم ، وما كان من لعنهم على المنابر من تأثير خلقي بعنايتنا . ومراجعتنا في هذه الناحية عدّة مصادر ، بيد أنّنا نجترئ اجترأ ، ونجمل القارئ إلى ما رواه ابن عائشة عن شمعور رجل من الشام نحو حفيد عليّ وقد نقل ذلك المبرّد في الكامل .

ولننظر كذلك إلى مدى الأحزاب الدينية وأضدادها التي كانت نتيجة لازمة لآثار التمسك المذهبيّ والتحرّز الدينيّ ، وقد ذكر البيروني في « الآثار الباقية » طرفاً من ذلك . ونجترئ هنا بشيء مما جاء في « المواهب الفتحية » لأستاذنا المرحوم الشيخ حمزة قنص الله . قال : ما أحسن قول أبي الحسين الجزار خصوصاً في بيته الثالث والخامس :

ويعود عاشوراء يذكّرني \* رزء الحسين فليت لم يعبّد  
أم ليت حيناً فيه قد تحلّلت \* بياحمّد لم تحلّ من ربيد  
ويدا به لشامة خضبت \* مقطوعة من زندها بيدي  
يوم سبيل حين أذكّره \* ألا يدور الصبر في خلدي  
أما وقد قُتل الحسين به \* فأبو الحسين أحقّ بالكمد

ولبعض الهاشميين معذراً من الكهل يوم عاشوراء :

لم أكتحل في صباح يوم \* أهريق فيه دم الحسين  
إلا لحزني وذلك أفي \* سودت حتى بياض عيني

إلى غير ذلك مما أثبتته المؤلف لعارة اليمن والإمام ابن الجوزيّ مما لا سبيل إلى الاستطراد فيه ههنا .

ولننظر إلى حادثة رواها المسعوديّ في « مروج الذهب » قال : « لما طلب عبد الله ابن عليّ مروان ونزل بالشام ، وجه إلى أبي العباس أشياخاً من أهل الشام من أرباب النعم والرياسة ، خلفوا لأبي العباس البفاح ما صلوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قرابةً ولأهل بيت يروونه غير بني أمية حتى وليتم الخلافة ! فقال في ذلك إبراهيم بن المهاجر :

أيها الناس اسمعوا أخبركم \* عجباً زاد على كل العجب  
عجباً من عبيد شمس أنهم \* فتعوا للناس أبواب الكذب  
ورثوا أحمد فها زعموا \* دون عباس بن عبدالمطلب  
كذبوا والله ما تعلمه \* يُحرز الميراث إلا من قُرب

ولنلم الآن الإمامة محلي بما كان للتسف المذهبي من الأثر في نفوس الخوارج، محيلين إلى الكامل للبرد من أراد توسعاً وتبصراً، وتكتفي هنا بنقل مثل من الطبري يظهر لنا مقدار استماتتهم في سبيل نصرة مذهبهم مهما نالهم من تقصير. وأما ما حوادث سنة خمسين التي يقول فيها الطبري: إن عبيد الله بن زياد اشتد فيها على الخوارج فقتل منهم صبراً جماعة كثيرة وفي الحرب جماعة أخرى. ويقول عنهم في موضع آخر: خرج مرداس أبو بلال، وهو من بني ربيعة بن حنظلة، في أربعين رجلاً إلى الأهواز فبعت اليهم ابن زياد جيشاً عليهم ابن حصن التيمي فقتلوا في أصحابه وهزموه، فقال رجل من بني تيم الله بن ثعلبة:

أألفا مؤمن منكم زعمتم \* ويقتلهم بأسك<sup>(١)</sup> أرمونا  
كذبتم ليس ذالك كما زعمتم \* ولكن الخوارج مؤمنونا  
هي الفئة القليلة قد علمتم \* على الفئة الكثيرة نصرونا

(١) أسك: بلد من نواحي الأهواز قرب أذربان بن أذربان ورامهرمز، بينا وبين أذربان يومان وهي بلدة ذات نخيل ومياه. أنظر باقرت في أسك وكامل المبرد (ص ٨٧ طبعة أوروبا).

## الفصل الرابع

### ولاية العهد

نظام ولاية العهد وابن خلدون — خطر نظام ولاية العهد الثاني وأثر البطانات — نظام ولاية العهد وعلاقته بالعصبة العربية .

#### (١) نظام ولاية العهد وابن خلدون :

قال ابن خلدون في مقدمته : "إن معاوية عهد الى يزيد خوفا من اقتراق الكلمة بما كانت بنو أمية لم يرضوا تسليم الأمر الى سواهم . فلو قد عهد الى غيره اختلفوا عليه" ثم زاد هذا توضيحا في مكان آخر من مقدمته فقال : "إن الذي دعا معاوية لإثارة ابنه يزيد بالعهد دون سواه ، إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهواشهم ، بانفاق أهل الحلق والعقد عليه حينئذ من بنى أمية ، اذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم ، وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع وأهل الغلب منهم ، فأثره بذلك دون غيره من يُظنُّ أنه أولى بها ، وعدل عن الفاضل الى المفضل ، حرصا على الاتفاق واجتماع الأهواء" .

لسنا هنا في موقف الراغب في تحليل أقوال مؤرخنا الكبير ، وهل أصاب محجة الصواب في تعليقه ما دفع معاوية الى عقد البيعة ليزيد ، ولما صُدِّرتنا هذا الباب بكلمة ابن خلدون لنصوّر سرّ قبول العرب ، لأوّل عهدهم ، نظام ولاية العهد عامة والوراثي خاصة . وما قبلهم إياه إلا لأن شوكة يزيد يومئذ مستمدة من عصابة بنى أمية كلها ، وجمهور أهل الحلق والعقد من قريش ، وبذلك تستبج عصبية مضراجم ، وعصبيتهم أعظم من كلّ شوكة اذ لا تطاق مقاومتهم ، ومن هنا أقصى العرب عن يزيد وأقاموا على الدماء بهدايته والراحة منه . ولعل هذا يكشف عن سبب فشل الحسين بن علي وابن الزبير في مطالبتهما بالخلافة ، كما بين ذلك ابن خلدون مما لا حاجة بنا للتعرض له الآن .

على أن التاريخ يقتنعنا أن نظام ولاية العهد لم تقبله العقيلة العربية بسهولة مع اعتقادنا صحة ما ذهب إليه ابن خلدون من سبب انتشرت به فكرة ولاية العهد وهو اعتادها على العصبية، وربما جاز لنا أن نعزو سقوطها من بعض النواحي إلى هذه العصبية أيضا بما لا تعرض له هنا الآن .

أجل ، يخبرنا التاريخ بتلك الأدوار العديدة التي مرت بها مسألة البيعة ليزيد ، وأن السياسة نهضت بنصيب غير قليل في سبيل تذليل الصعوبات التي قامت بآدى ذى به دون أن تجعل البيعة ليزيد سهلة ميسورة ، توفى عمرها بغير عناء كبير .

يخبرنا التاريخ بما فعله المغيرة بن شعبة وغير المغيرة بن شعبة ، وإيقادهم الوفود إلى معاوية . ويخبرنا بمبلغ ما أنفق معاوية من المال وما أبداه من احتيال وحزم ، وما بذله ابنه يزيد من شدة وحسب ، وكل هذه العوامل تستدعي دراسة دقيقة لا تعرض لها لأنها لا تعيننا في هذه المقلمة كثيرا .

يزيد أن يقول شيئا واحداً ميسوراً فهمه ، ذلك أن نظام ولاية العهد — الذى ربما كان ضرورياً لا مندوحة عنه في أول عهد الدولة ، لما بينه لنا ابن خلدون — كان في نفسه سببا يمتد به من أسباب سقوط الدولة الأموية ، أو على أقل تقدير كان لنظام ولاية العهد أخيراً أثره الكبير في ضعف سلطان بنى أمية وذهاب ريحهم .

### ( ب ) خطر نظام ولاية العهد وأثر البطانات :

لنتنظر نظرة عجيلى في تاريخ هذا النظام لنفتح بما وصلت إليه بحوثنا ، فنرى مثلاً أن مروان بن الحكم جعل ولاية العهد من بعده لابنه عبد الملك بن مروان ثم من بعده لابنه عبد العزيز بن مروان ومهما يكن الباعث لمروان على أن يجعل ولاية العهد لولدين من أولاده ، فإن جلّ خلفاء بنى أمية من بعده اتخذوا صليبه سنة متبعة . سرى في كلامنا عن العصر العباسى إلى أى مدى كان خطر هذا النظام على حياة الدولة ، أو على الأقل ، مبلغ ما فيه من ضعف لها ، وإذنان باضمحلالها ، واضطراب لحبلها .

لم يكن هذا النظام شراً مستطيراً وعاملاً كبيراً من عوامل الضعف ؛ إلا لما يستلزمه من نكث العهد ، ثم من أنشقاق البيت المالكي على نفسه ، وترك المجال واسعاً لوشايات تسعى بها طنانات السوء ممن نرجو أن نصور مثلهم ومثل صنيعهم السوء ومثل خطرهم على الدولة حين نعرض للكلام من عصر المأمون وما شجر بين الأخوين من خلاف أو ما أذكت البطانة بينهما من خلاف — هذه البطانة رُقب دائماً أنشقاق البيت المالكي أو ما هو مرْكَب في الطبيعة البشرية وولادة العهد من رُقب لتسلم مقاليد الأمور وتعمل للذة الحكم والسلطان — فستغله لتفضي مآربها وتستمتع بأطباعها . وسرعان ما تجد الفرصة سانحة لها ومواتية لأطباعها ، إذا صار الأمر إلى ولي العهد الأول الذي حاول ما هو طبيعي من خلع من أشرك معه في ولاية العهد ، إما كراهية له ؛ أو إثارة لغيره عليه ، ممن هم أمس منه رحماً وأقرب مودة .

نعم قد يجدد ولي العهد كثيرين من الناصحين الذين يستنكرون الخلع ؛ بيد أنه لا يمدّم أيضاً كثيرين من هواهم مع غير هذا الذي يراذلهم يُزيّنون له ما يمايل ، حتى إذا صار الأمر إلى أن يبدلهم كانوا كلاً من الفريقين بما يستحق . وكانا أحياناً يُفتكُ بكثير من ذوى البلاء الحسن في تشييد الملك . وهذا الفتك على ما فيه من خسارة قوم من ذوى الرأي والتجارب ، قد كان يبدّر في قلوب أنصارهم وعشائهم بذور الحقد وحب الانتقام . وبذلك صار بنو أمية يقدّون العشائر عشيرة بعد عشيرة ، وأخذ ظلّ سلطانهم على النفوس يفسر شيئاً فشيئاً ، حتى إذا قام لهم منافس عظيم لم يجدوا لديهم من القوة والكفايات والأنصار ما يستطيعون به التغلب عليه .

قد تطلب إلى توضيح ما قدمته لك من المقدمات من حوادث التاريخ ؛ لأنك تعتبر الوشائج والصلات التي بين مانحن بصدده وبين عصرنا المأموني قوية من حيث ما وقع فيه الرشيد وضره من خطأ في نظام ولاية العهد . وقد تطلب مني أن أذكر أمراً مسرعاً بحسام الحوادث التي لها آثارها ونتائجها ، وأن أكون مجازاً لا مقصلاً وموجزاً لا مسهباً .



على أنى سائر الأكلة التي أفعم به الطبري- وآبن الأثير كل سنة من سنهما تُحدث وحدها بصدق ما ذهبتُ إليه . وأسمح لنفسي بأن أتساءل ملياً : ماذا فعل عبد الملك لما وصل الحكم إلى يده ؟ لقد حاول ما هو طبيعي من عزل أخيه عبد العزيز وتحويل عهده إلى الوليد . ولولا وفاة عبد العزيز لوقعت الأزمة وشجر الخلاف وعمد كل إلى سلاحه وحزبه .

ثم ماذا فعل عبد الملك ؟ لقد ولي الوليد وسليان . لمحاول الوليد ما هو طبيعي من عزل سليمان وتولية ابنه لولا أن عاجله القضاء .

ثم ما ذا فعل سليمان ؟ لقد وثق عهده عمر بن عبد العزيز ثم يزيد بن عبد الملك .

ثم ماذا فعل عمر بن عبد العزيز ، وماذا فعل يزيد ، وماذا فعل هشام ؟ إن التاريخ وختم عهد كل ليؤيدان ، بقوة ووضوح ، ليس بعدهما من مزيد ، صحة ما ذهبتا إليه مما يليق لنا أن نختصر الحوادث والأدلة اختصاراً .

على أنه قد يُطلب منا إثبات تلك الحلال المؤلة التي تنتج عن المباينة لأكثرين بولاية العهد ، ومبلغ خسارة الدولة من رجال الممدودين وأقطابها النادرين في هذا السبيل ، سبيل اصطدام صاحبي ولاية العهد . وسنُجمل ذلك إجمالاً يستدعيه مقامنا .

لأنه من الميسور أن يقرأ القارئ أن ولاية العهد كُتبت لحشام ثم الوليد من بعدهم . وربما فاته أن لكل حزباً يناصره ، وبطانة تنشر دعوتَه . وربما تطفزت في منبجها السياسي ، تطفزاً يؤكد العداوة في القلوب ، ويستثير السخائم في النفوس . ولماذا نذهب بعيداً وأماننا ما وقع بين هشام والوليد ، فإن هشام مات قبل أن يكمل الإنجاح مسعاه ، فمصرعان ما تمت أحوال الوليد عن شديد مقتنه لحشام ، فقال مثلاً :

هلك الأحوال المشو \* م وقد أرسل المطر  
وملأ كتنا من بعدنا \* لك فقد أورد الشجر  
فأشكر الله إنسه \* زائد كل من شكر

ولم يكتف الوليد بالقول دون الفعل، بل أندفع فيما يخبرنا المؤرخون مع تيار بطانته ومُشايحيه، وشمر عن ساعد الانتقام، ممن ناصرهم هشاماً مثل محمد وإبراهيم ابني هشام بن اسماعيل حيث عذبهما يوسف بن محمد الثقفي وإلى المدينة ويوسف بن عمر حاكم العراق حتى ماتا . ولم يكتف الوليد بن يزيد بذلك بل قبض على سليمان بن هشام فضر به مائة سوط ومثل به اذ حلق رأسه وطيته، كما حبس يزيد بن هشام والكثيرين من البيت المالكي . لم يكتف الوليد بن يزيد بذلك بل أخرج خالدا القسري، وهو من زعماء اليمن ورؤسائها، بأن يبيع لابنه الحكم وعثمان بولاية المهدي بعده، فلما أبى عليه ذلك بعث به إلى وإلى العراق يوسف بن عمر الثقفي فزعم ثيابه وعذبه عذاباً مبرحاً، وهو يحتمل ذلك كله بصمت وإباء، ثم حمله إلى الكوفة إلى من أنزلوا به كل لون من ألوان العذاب حتى مات . وما مات إلا بطن باهظ دفعه الوليد . ذلك أنه كتب على نفسه عداوة قضاعة واليمن، وجل جند الشام من قضاعة واليمن، وهم هم الذين مثلوا دورهم الخطير أخيراً مع الوليد، إذ بايعوا يزيد وثاروا معه، فكانت خاتمة الوليد ما قد علمناه من احتمائه بقصره وتفحمهم عليه داره، وفعلهم به ما أصاب عثمان من مأساة اذ حرّوا رأسه وهو يتلو القرآن ثم نصبوه على ربح وطيف به في دمشق .

على أننا نفترض المبالغة فيما ينسبه الرواة إلى هذا الخليفة المغلوب على أمره، ولكننا نؤمن مع ذلك إيماناً صادقاً بالتأنيج السيئة لنظام ولاية العهد الثاني أو الثلاثي .

وإنا نطق أن فيما قدّمناه لك غنية وكفاية . وإن أردت منا مزيداً فانظر ما نال به سليمان قادة الدولة أمثال محمد بن القاسم بن محمد الثقفي وقتيبة بن مسلم الباهلي وموسى بن نصير، وما كان يعدّ للحجاج وغيره : من قل أن يجتمع أمثالهم في عصر واحد . وإنا نحيل القارئ إلى آراء الأثيرليقدر معنا الأسس التي بنينا عليها رأينا فيهم، وليقف بنفسه على كبريات فتوحهم وجسام أعمالهم التي كانت غزوة في جبين عصرهم، بل في جبين تاريخ الدولة الأموية .

وبعد ، أفلس من العدل أن يستبظ القارئ معنا ما يصيب الدولة من المنازعات والشقاق ، ومن الضعف والإفلاس السياسي ، من جراء ذلك النظام المقوت ، نظام ولاية العهد على هذا النحو في غير قانون ولا سنة ، وأن يملأ معنا سببا لا يستهان به ، من أسباب سقوط البيت الأموي !

### (ج) العصبية العربية :

الذي يهمننا الآن هو أن نوجه النظر إلى تأثير نظام ولاية العهد في صورته التي صورناها لك من حيث مساهمة بالعصبية العربية التي كانت ، كما تعلم ، عينةً مخنّمة بين المضربة واليمنية . وأنت تعلم أن انطلاقاً من بني أمية كانوا يصهبون إلى قبائل مضركا كانوا يصهبون إلى قبائل اليمن ، فكانت هذه القبائل تجد في تأييد الأمير الذي يتصل بها نسبة ، وهذه الفكرة نفسها تعيننا على أن نفهم ، بنوع خاص ، موقف العرب أيام يزيد بن معاوية ، كما أنها تعيننا على أن نفهم ما دار حول هشام والوليد بن يزيد من الحصومات التي قلّمنا لك طرفاً منها ، ولم يكده ينتهي الأمر إلى مروان بن محمد حتى كانت الحصومة بين المضربة واليمينية قد انتهت إلى أقصاها بحيث عجز هذان الفريقان من العرب عن أن يكونا وحدة قوية تنهت للطوارئ ، فلم يظهر أمر الموالى حتى كان العرب مفترقين متخاذلين ، لا يستطيعون عن أنفسهم دفاعاً . وستتكلّم على العصبية وآثارها بسطّة في القول أكثر مما تكلمنا هنا في موضعها الطبيعي من الكتاب الثاني .

ولما كانت الدولة العباسية قد قامت بالموالى وبأسئمتهم ، ومحاولتهم الانتقام لأنفسهم وكرامتهم من بني أمية الذين ساموهم سوء المذاب ومساوهم شرّ مياسة فإننا نرجى كلامنا عن هذا العنصر القوي من أسباب اعتلاء الدولة الأموية سلطان الحكم وأسباب سقوطها إلى موضعه الطبيعي من تنظيم كتابنا ، وحين ذلك ، يتحقّق لنا أن نبين تحوّل العصبية العربية إلى تلك النواحي الشائكة الوعرة التي قضت على الدولة الأموية وأقامت دولة بني العباس والتي أدالت منها هي أيضا . وحين ذلك أيضا يحقّ لنا أن ندرس نظر

العربيّ الى غير العربيّ في العصر الأمويّ وفي غير العصر الأمويّ مما كانت له نتائجها الخطيرة في حياة العرب وفي تحوّل مدنيّات العرب .

فلتُريثُ إذا، وخير لنا والتاريخُ أن يكون موضعُ هذا الباب في كلامنا على الدولة العباسية . وخير لنا أيضا أن ننقلَ الآن الى تصوير الحياة الأدبية : من شعرٍ وخطابةٍ، والى تصوير الحياة العلمية بضروبها لذلك العصر الأمويّ، الذي كان يحمي نواةً طيبةً للعصر العباسيّ، متوخّينَ في ذلك الإيجازَ والإجمالَ . ولعلنا نُوفِّقُ الى حسنِ الإصاغةِ فيما نريدُ .

## الفصل الخامس

### الحياة العلمية والأدبية للعصر الأموي

توطئه — آثار الآداب والعلوم الفارسية واليونانية في العصر الأموي — حركة النقل — الخطابة وميزاتها —  
الكتابة — حالة الشعر في العصر الأموي ونحوه — النزول — الشعر السياسي .

#### (١) توطئة :

لسنا نريد أن نُسميَ في بيان الحياة العلمية والأدبية في العصر الأموي، لأن ذلك يكاد يفرح بنا عن مقصدنا الأساسي، من اقتصار مقدماتنا هذه على توضيح موجز، من غير إسراف ولا تطويل، للعصر السابق لعصرنا المأموني الذي كان نقيصة لازمة لما تقدمه واكتنفته من عوامل متعددة، توضيحاً معتدلاً يميلنا نظمنا، بعد تفهيمنا للآداب العباسية، إلى تبيين الفروق والميزات والآثار التي خلفها تاريخ المدينة الإسلامية، بل لتاريخ المدينة الإنسانية ذلك العصر الذهبي وهو عصرنا المأموني الخالد .

لقد تغيرت حالة اللغة وآدابها في العصر الأموي عما كانت عليه في الدور الجاهلي تغيراً عظيماً؛ إذ رقت الأساليب وقل الحوشي والمتناثر، واتسعت الأغراض وكثرت باتساع مطالب الحياة الجديدة ووفرتها . وهذا يتمشى بوجه عام مع تغير حياة العرب الاجتماعية والدينية والسياسية، وبعبارة أخرى : تغيرت حياة الآداب والعلوم في ذلك العصر طبقاً لما أفادته العرب في فتوحهم ومغازيمهم في غنائم وأموال، ووقوفهم على آثار المدنيات لأهم ذات حظ من العلم غير قليل . ولقد كان لكاتب الله، المعجز بآياته ومهر بلاغته (كاتب الحكيم آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) أثره في تفتح أذهانهم وصقل عباراتهم وتوحيد لهجاتهم، بل كان الكثر الذي يلجئون إلى ما فيه من أدب جم وعظمة بالغة وأساليب رائعة، ويستمدون منه ما ينفعهم في معاشهم وحياتهم الدنيا والآخرة .

وإنه ليجتنب أن نتساءل عن مدى ما أصاب الآداب العربية من تغيير في العصر الأموي، وهو تغير خطير يستدعي درسه عناية ودقيق ملاحظة، وتمزقاً غير قابل لمساكات عليه الآداب في العصر الجاهلي .



إن تحول الآداب العربية في ذلك العصر أصاب التراث الجاهلي القديم، من لغة وخطابة وشعر وأمثال، وما كان للقوم من علم بشؤون الحياة والوجود، كما أنه أحدث علومها وآدابها اقتضاها الإسلام . وقد كان لحجاب الله وسنة رسوله، وما للأئمة من تأويل في فهمهما، كان لذلك كله أثره في خلق علوم شرعية لم يكن للعرب منها حظ من قبل، فنشأ في هذا العصر علم التفسير ورواية الحديث وعلوم اللغة كالنحو وما إلى النحو . على أن هذه العلوم الإسلامية المحدثه، التي كانت وليدة العصر الأموي خاصة وعصر صدر الإسلام عامة، لم تكن مولود هذا العصر الوحيد الذي أصبحت فيه البصرة داراً للعلم والعرفان والمدينة وممرحاً للفرح والافتان، والشام مقر الملك والسلطان؛ بل كان إلى جانبها مولود آخر كان من شأنه وضع التاريخ والجغرافيا وغيرهما، واتخاذ ديوان الخاتم، ونقل الدواوين من لغة إلى أخرى . وقد كان هذا المولود الآخر نتيجة الفتح الإسلامية وخاصة تلك الأفطار التي كانت متأثرة بأداب الفرس والرومان واليونان، وبعبارة أدق: تلك العلوم التي أفادتها العرب أو الدولة الإسلامية من احتكاك الفرس وأهل الشام ومصر وغيرهم من أسرى الروم للإسلام . وقد تستدعي هذه النقطة توضيحاً، ونظن أننا إذا ما فسرناها بعض التفسير نتعجل بموضوعنا الذي سنقبل عليه أخيراً، وخاصة إذا علمنا أن عصر المأمون وما فيه من فلسفة وعلم ومن أديب وفن كان متأثراً بحركة النقل والترجمة، وأن تأثره هذا كان إلى مدى كبير يعطيه بطابع المدنية اليونانية والفارسية؛ ولكن هذا لا يمنعنا أن نلح به إلى ما .

(ب) آثار الآداب والعلوم الفارسية واليونانية في العصر الأموي

كانت آداب الفرس قبيل الإسلام آداباً يونانية في جملتها لأن التاريخ يُحدثنا أن آدابهم الفنية القديمة التي كانت مجموعة طيبة لتألق العقل الفارسي والهندي والأشوري —

هذه الآداب قد نقلها الاسكندر الأكبر الى بلاده، ثم تقلبت حياة الفرس بين ضعف وقوة وجهل وعلم، الى أن تسلم كسرى صولجات ملكه وألعب دوره العظيم في تاريخ بلاده. ولعل الأحوال العالمية عهدئذ ساعدته على مهمته في النهوض بالعقيدة الفارسية وفي تجديد مبها. ويقول لنا «جبون»: «إك «يوستيان» قيصر الروم حين أضطهد الفلسفة الأفلاطونية الجديدة أو الوثنية، أقفل أهيا كل والمدارس وطارد العلماء المفكرين، فأضطر جماعة من هؤلاء الفلاسفة، الى الرحيل الى بلاد الفرس حيث وجدوا من كسرى أنوشروان من قدرهم قدرهم. ويقول لنا الأستاذ «برون» في كتابه القيم عن تاريخ أدب الفرس حين تعرض لرأى المستشرق (نولدكه Noldke) في هذا الصدد: «إن شغف كسرى بالبحوث الدينية والمناظرات الفلسفية وما كان يبعد في ذلك من لاذعة وإمتاع ليعيد اليها ذكرى المأمون والأميراطور الأكبر بما تمسك عنه الآن».

على أن مع أساطير عن التبسط في القول لا يسعنا إلا أن نذكر في هذا المقام أن أنوشروان كان قد أسس مدرسة للطب والفلسفة في جُنْدِسَابُور كانت لها شهرة مدرسة الإسكندرية. وإانه ليجدر بنا هنا أن ننظر هل استفاد العرب حقاً من علوم الفرس عند ظهور الإسلام؟ وهل استفادوا من غزوه مصر وفيها مدرسة الإسكندرية؟ ومن إخضاعهم الشام المتأثرة بآثار العقيدة الرومانية؟ وهل وجدت حركة نقل في العصر الأموي؟ لأن في توضيحنا ذلك بعض النفع لنا في دراسة التحول العلمي والأدبي في تاريخ التمدن الإسلامي الذي وصل الى درجة خلقية بالاجلال والإبداع في عصر المأمون، العصر الذي نضج فيه مختلف الفنون والآداب. فَلْنَعْمَاوُلُ توضيح شيء من ذلك مُتَوَخَّينَ حدَّ القصد والإيجاز.

### (ج) حركة النقل في العصر الأموي :

يخبرنا ابن أبي أصيبعة في الباب الذي أفرده لأطباء العرب في إبان الإسلام : أن «الحارث بن كلدة» تعلم الطب بناحية فارس وتميز هناك وعرف الداء والدواء. ويخبرنا

أيضا أن عبد الملك بن أبحر الكافى، الذى أسلم على يد عمر بن عبد العزيز حينما كان اميرا على مصر، كان طبيا عالما ماهرا، وأنه كان فى أول أمره فى الاسكندرية لأنه كانت المتولى التدريس بها من بعد العلماء الاسكندريين، وزاد بأن عمر بن عبد العزيز، لما أفضت الخلافة إليه، نقل التدريس الى أنطاكية وحران وتفرق فى البلاد. ثم ذكر ابن أثال طبيب معاوية، وتكلم عن علمه بالأدوية المفردة والمركبة، وذكر أبا الحكم «وتمادوق» طبيب الحجاج، وحسبنا هذا دلالة على ما أفاد العرب أو ما يمكن أن يفيدوا من علم الطب. فلنتقل من هذا الى التكلم عن حركة النقل والترجمة. ويكفيها الآن أن ننظر فيها رواه صاحب الفهرست عن ذلك إذ يقول :

«كان خالد بن يزيد بن معاوية يسعى حكيم آل مروان، وكان فاضلا فى نفسه، وله همة وحبّة للملوم، خطر بباله الصنعة، فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر، وقد تفصّح بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانى والقطبى الى العربى، وهذا أول نقل كان فى الإسلام من لغة الى لغة، ثم نقل الديوان وكان باللغة الفارسية الى العربية فى أيام الحجاج والذى نقله صالح بن عبد الرحمن مولى بنى تميم، وكان أبو صالح من سبى بيجستان، وكان يكتب لزاد انفروخ بن يرى كاتب الحجاج يخط بين يديه بالفارسية والعربية تنف على قلب الحجاج، فقال صالح لزاد انفروخ : لئن كنت سبى الى الأمير، وأراه قد استخفى، ولا آمن أن يُقدّمنى عليك وأن تسقط متلّك، فقال: لا تفلن ذلك هو الى أحوج منى اليه لأنه لا يجد من يكفيه حسابا به غيرى، فقال: والله لو شئت أن أحول الحساب الى العربية لحولته، قال : فحول منه أسطراحقى أرى، ففعل، فقال له : تماض، قمارض، فبعث الحجاج اليه تيادروس طبيبه فلم يره علة، وبلغ زادانفروخ ذلك فأمره أن يظهر. وانفق أن قُتل زادانفروخ فى فتنة ابن الأشعث وهو خارج من موضع كان فيه الى منزله، فاستكتب الحجاج صالحا مكانه، فأعلمه الذى كان جرى بينه وبين صاحبه فى نقل الديوان، فعزم الحجاج على ذلك وقلّده صالحا، فقال له مردانشاه



ابن زاذانفزوج : كيف تصنع بدهويه وششويه ؟ قال : أكتب عشرا ونصف عشر ؛ قال : فكيف تصنع بويد ؟ قال : أكتب وأيضاً قال : والويد : النيف والزيادة تزداد ؛ فقال له : قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية . وبذلت له الفرس مائة ألف درهم على أن يَظْهِرَ العجز عن نقل الديوان ، فأبى إلا أن يَنْقُلَهُ فنقله . فكان عبد الحميد بن يحيى يقول : لله درُ صالح ! ما أعظم مته على الكتاب . وكان الجراح أجله أجلا في نقل الديوان » .

فأما الديوان بالشام فكان بالرومية ، والذي كان يكتب عليه سرجون بن منصور لمعاوية ابن أبي سفيان ، ثم منصور بن سرجون . ونقل الديوان في زمن هشام بن عبد الملك نقله أبو ثابت سليمان بن سعد مولى حسين وكان على كتابة الرسائل أيام عبد الملك . وقد قيل : إن الديوان نُقِلَ في أيام عبد الملك ، فإنه أمر سرجون ببعض الأمر قرائن فيه فأحفظ ذلك عبد الملك فاستشار سليمان ؛ فقال له : أنقل الديوان وأرجل منه .

ثم نجد أنه يتكلم في مكان آخر عن أصطفن القديم وأنه نقل لخالد بن يزيد بن معاوية كتب الصنعة وغيرها . فنحن نجد من هذا وغيره أن اللغة العربية أخذت تجري أشواطاً في حلبة العلوم في هذا العصر .



ونريد أن نشرح شرحاً بسيطاً حال الخطابة والكتابة في العصر الأموي متوخين الاختصار

على قدر الطاقة فنقول :

#### (د) الخطابة ومميزاتها :

لم تزهري الخطابة في عصر من عصور الآداب العربية ، كما ازدهرت في هذا العصر ، لاعتقاد الناس عليها في السياسة والدين . وقد جعلها الدين الإسلامي فرضاً من الفروض في الدعوة إليه ، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد كانت الوسيلة في قمع الفتن وردِّ البدع ، وكانت لسان القائد في جنده يستنهض بها عزائمهم ، والوالى في رعيته يستفز بها

حيثهم، والزعيم في شعبه يجمع بها شتاتهم، إذ لم يكن ضيؤها من وسائل التبليغ ميسورا،  
لذبيوع الأمية ويفقدان وسائل النشر.

وقد وجدت بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، بسبب اختلاف المسلمين، وتعدي الفرق  
واختلاف الأحزاب، مجالا واسعا للرفق والسبق، لاعتماد كل حزب عليها في نشر مصلحته،  
وتأييد دعوته.

يميز الخطابة في هذا العصر ما يميز الآداب عامة فيه : من غفامة الألفاظ ومنانة  
التركيب، والتباعد عن حوشي الكلام . ويميزها أيضا أنها اقتبست من القرآن كثيرا،  
ونجحت نهجه في الارشاد والافناع ، وأنها تبدأ بحمد الله والصلاة على رسوله ، حتى قبل  
خطبة زياد المشهورة التي خطبها في العراق : " الخطبة البتراء " إذ لم يحمد الله ولم يصل  
على نبيه فيها . وقد كان هذا العصر أحفل العصور بالخطباء، فقد كان جل الخلفاء والقواد  
وولاة الأمصار وزعماء الأحزاب المختلفة خطباء مصافح . وفيما يحفظه تاريخ الآداب من  
آثار الخلفاء، ولا سيما الإمام علي، ومن خطب الهجاج بن يوسف، وزباد بن أبيه، وطارق  
ابن زياد، مصادق ما نقول .

وننقل هنا خطبة الهجاج في أهل العراق بعد دير الجاهم فهي خير مثال لنضج الخطابة  
في العصر الأموي . قال :

« يا أهل العراق، إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم، والعصب والمسامع  
والأطراف والشغاف، ثم مضى إلى الأضغاخ والأصمخاخ، ثم ارتفع فمشش، ثم باش وفوش،  
لخشاكم نفاقا وشقاقا، وقد اتخذتموه دليلا تتبعونه، وقائدا تطيعونه، ومؤمرا تستشيرونه،  
فكيف تنفكم تجر به أو تعظكم وقعة أو يحجزكم إسلام أو يردكم إيمان ! أليس أمحاجي  
بالأهواز حيث رمتم المكر، وسعيتم بالقدرة، وظننتم أن الله يتخذ دينه وخلقه، وأنا أرميكم  
بطرف وأتم تسلون لوأذا وتنزموون سراعا . ويوم الزاوية وما يوم الزاوية ! بها كان  
فشلكم وتنازلكم، وبراءة الله منكم وكوص وليه عنكم، إذ ولّيتكم كالإبل الشاردة إلى أوطانها،

النوازع إلى إعطائها، لا يسأل المرء منكم عن أخيه ولا يلوي الشيخُ على بنيه، حتى عصمكم السلاحُ وقصمتكم الرماحُ . يومٌ دير الجماجم، وما دير الجماجم ! بها كانت المعاركُ والملاحمُ يضربُ يزيلُ الهام عن مقلبه، ويذهلُ الخليل عن خليله<sup>(١)</sup> .

«ياهل العراق أهل الكفريات والغدرات، والثورة بعد الثورات، إن أجتكم إلى ثغوركم عاتم وختم، وإن أمتنم أرجفتن، وإن خفتم نافتن لا تذكرن خشية ولا تشكرون نعمة، هل استخفكم ناكث، واستغواكم غاي، واستنصركم ظالم، واستعصدكم خالع، إلا ونقتموه وآتوكموه ونصرتموه ورضيتموه ! . هل شغبَ شاغبٌ أو نعبَ ناعبٌ أو نغقَ ناعقٌ أو زفرَ زافرٌ إلا كنتم أشياعه وأنصاره ! ألم تنهكم المواقفُ ! ألم ترَجرمَ الوقائعُ ! » .

ثم نظر إلى أهل الشام فقال :

«ياهل الشام إنما أنا لكم كالظلم الذاب عن فراخه، ينفي عنها المدرَ ويبعدُ عنها الحجرَ، ويكفيها من المطر . ياهل الشام أتم الجنة والرداء، وأتم العدة والقطاع . » .  
وقد يكون من المفيد حقاً أن ترجع إلى "صبيح الأعشى" وغيره من المظان الأدبية، لتقف بنفسك على خطب القوم المتمتع أسلوباً، الفخمة لفظاً، الغنية معنى، في ذلك العصر الزاهر .

### (هـ) الكتابة :

الكتابة — سواء أكانت في تدوين العلوم والفنون وضبط الشؤون العامة أم في إنشاء الرسائل ومعالجة الكلام المشهور — لا ترقى بل لا تكون إلا في الأمم التي أخذت بقسط من الحضرة، فكانت لها حكومة منظمة، ودواوين معددة، وصناعة منوعة، وزراعة نامية، وتجارة رائجة، لذلك لم يكن لأحد من الشعوب العربية في الجاهلية حظ من الكتابة إلا بمقدار ماله من حفظ من الحضارة .

(١) هاتان الفقرتان مقتبسَتان من قصيدة لسيدنا عبد الله بن رواحة التي أنشدها حين يدى النبي صل الله عليه وسلم عند دخوله مكة في عمرة القضاء وأصل البيت :  
ضرباً يزيلُ الهام عن مقلبه \* ويذهلُ الخليل عن خليله  
أه من سيرة ابن هشام .

وقد كانت الكتابة معروفة عند التبابعة جنوباً، والمناذرة والفساسنة في الشمال، حين كان لأولئك وهؤلاء من الحضارة نصيب. أما البدو من سكان أواسط الجزيرة فلم يعرفوا الكتابة إلا حين عرفوا الخط في أواخر العصر الجاهلي. وقد كان حفظ الكتابة فيهم حفظاً في أمة بادية قليلة الشؤون، لذلك لم ينلها في الرق ما نال أخويها الشعر والخطابة، فلما جاء الإسلام وصار للعرب حكومة منظمة وفتح الله عليهم أقطار الأرض، اشتدت حاجتهم إلى الكتابة، فاخذت سبيلها إلى الرق والكال، حين صارت حاجة من حاجات الدولة.

بيد أن الكتابة لم تبلغ كماها الممكن، في التنسيق وإبلاغ الحاجة، وفي اتساع ما تناولته من شؤون الدولة والناس، إلا بعد أن نقلت الدواوين التي كانت بالفارسية في فارس، والرومية في الشام، والقبطية في مصر، إلى العربية في عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد، وإلا بعد أن ظهر في العربية كتاب مقلهم الاطلاع على آداب الفرس وغير الفرس من الأمم التي كانت لها قدم راحضة في الحضارة: كبن المقفع وعبد الحميد الكاتب.

على أناسنا نرجي بذلك إلى أن لا بلاغة في ذلك العصر بغير اطلاع على بلاغة الأمم الأخرى، لأن في بلاغة القرآن وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وخطب الخلفاء وزرات الجاهلية، الكثر الذي لا ينضب، والمعين الذي ينهل من أفاويقه كتاب العصر غير منازع ولا مدافع. وإننا لنعثر في مغلطات الأدب العربي على أمثلة ناضجة لما نقول. فهذا كلام أُم الخير والزرقاء وعركشة بنت الأطلوس، فإنه لما يُخفد خير مثال للنثر في العصر الأموي.

وسئلت لك في باب المنشور من الكتاب الأول في المجلد الثاني رسالتين ممتعتين نعتبرهما بحق من خير المنشور العربي، إحداهما تلك الرسالة المنسوبة لأبي بكر الصديق والتي قيل إنه كتبها لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه فهي تمثل عصرها بلاغة ولغامة. والثانية رسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب قبل إنه كتبها عن مروان بن محمد لعبد الله ابن مروان حينما أرسله لقتال الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي، فهي فريدة في نوعها رشاقة أسلوب وشمع معنى.

(١) أنظر باب المنشور من ملحق الكتاب الأول في المجلد الثاني.

## (و) حالة الشعر في العصر الأموي ومحوّله :

لكن تلمّس بأيدينا محمّة قول أولئك الذين يذهبون الى أن العصر الأموي "، كان عصر تجديد في الآداب العربية، وأنه كان عصر تجديد قوى ظاهر في اللفظ والمعنى، يلزمنا أن نفهم فهما أوليا سداجة الشعر الجاهل" وصادق تبينه عن الحياة الجاهلية .

نعلم أن العصر الجاهل " للعرب كان في مجموعه، ككل المصور الأولية للعقل البشري، سادجا فطريا في علومه ونظمه وعاداته ولكنه لم يكن كذلك في آدابه، فإنّ عرب الجاهلية بدعوا في شعرهم وآدابهم، في ذلك الطور الأول، بما كان عليه غيرهم من الأمم السامية وكثير من الأمم الأخرى في أطوارها الأولى وعصورها الجاهلية، مع ملازمتهم للفطرة، وفقرهم من التكلف، وبعدمهم عن الصنعة الكلامية .

إن العرب في جاهليتهم نظموا الشعر في كل حاجتهم وأدعوا فيه بسليقتهم . ومع أنهم كانوا في دور فوضاهم فقد نضجت لهم أفانين كانت آية في بلاغة اللسان العربي . وكان الأدب الجاهلي فطريا ممثلا خلق العصر مبينا استقلال الفكرة البدوية، وكان في ضروبه كافة من وصف ومدح ورناء وهجاء ناطقا بما يجيش في نفس قائله حقا، كما كان في بلاغة تركيبه وبعده عن الأوضاع المدرسية من تكلف للبيان والبدع آية في بلاغة الفطرة وشاهدنا في مجموعه على مبلغ أثر بلاغة الفطرة المرسلة عن شعور صاحبها في النفوس والأفهام .

على أنه يجدر بنا أن نقول : إنّ الملاحظات وغيرها من آثار العقل العربي الجاهلي، قد لا تتأثر بها نفوس العصر الحاضر، لتغير اللغات والأفكار والمعتقدات، ولتشعب المدنيات والأديبات، ولأنّ أذناننا وأذواقنا قد تحكّم بنق الفأظها وخشوتها، فكأنّ الأدب الانكليزي قد لا يستعمل اليوم ألفاظا كان يستعملها شيوخ العقل الانكليزي « كما كون » و « شكسبير » و « ملثون » من خيرة نتاج عصر الزباث الذهبي وقبلها « شوسر » وشعره المغاني، ويعتبرها البعض نايبة جافية، وأنها بمثابة ألفاظ مدرسية تاريخية، كما هي الحال في نظر أدب العصر

الانكليزي أو الفرنسي أو الألماني في تراجمهم عن الكتاب المقدس، وإلى شعرائهم وأدبايهم المتقدمين، كذلك هو الحال في أحكامنا عن نتائج العصر العربي الجاهلي .



إن المدنية ما وثت ساعة ولا يوما، ولكن عاطفة الانسان تكاد تكون هي بنفسها في كل العصور : يحزنك لوانح الجبال، ويفطر قلبه ريب الزمان، ويثبت شكاته إلى أثرابه وإخوانه، ويحاول أن يبتوأ حبات الأفئدة بسحر بيانه، فهو يفخر ويشدو، وهو يمدح ويهجو، وهو يخطب وينظم ويضرب الأمثال . وهو صادق في ترجمة مشاعره، وتبيان مقاصده ما كان في دور سذاجته بعيدا عن ضروب المدينيات التي كثيرا ما تُلَازِمُها تقاليد خاصة وتصحبها آداب تُعَوِّفُ عليها ثقل صراحته وتقل من حدة شبابه، وتجعل له سلطانا على مبرله وأهوائه . واللسان علنة مصفاح إن تركت له عتائه، كسمة مضلل إن جعلت العقل والتقليد ميزانه .

من هنا نستطيع أن نفهم سذاجة العربي الجاهلي وجنوحه إلى صوت الطبيعة، على العكس من حال زميله الاسلاحي الذي قد صقلته بلاغة القرآن وتعاليمه، وشدبته سنة الرسول ومحامته، وأفسح المجال لخياله ما وقف عليه أثناء الفتوح العربية من تراث المدينيات الفارسية في العراق وفارس، والرومانية في الشام ومصر، وناهيك بآثار الفرس والرومان إلى ما خلف له آباءه العرب من حكمة وبيان .



كأن شعراء الجاهلية يسدون قولهم نحو كيد الحقيقة فلا يُخطئونها، ويقولون الشعر عن شعور حي، ولا يخطئون إلى ما وراء مشهودهم ومعقولهم، فجاء شعريهم مثلا صادقا لبدائيتهم وحضارتهم، حتى لو اندثرت جميع أخبارهم وآثارهم ولم يبق إلا شيء من شعريهم لتيسر للباحث أن يستخرج منه وصفا كاملا لجميع أحوالهم، كما استخرج الباحثون كثيرا من غوامض جاهلية اليونان من شعر «هوميروس» .

واليك مثالا قول المهلهل بعد وقعة السُلَين اذ حضرها مع أخيه كليب وفرّ ابن عتق الحية من وجههما :

لو كان ناهٍ لأبى حية زائراً \* لنهاء ذا عن وقعة السُلَين  
يومٌ لنا كانت رئاسةُ أهله \* دون القبائل من بني عدنان  
غضبتْ ممدٌ غنّاً وسميها \* فيه مملأةٌ على غسان  
فأزالهم عنّا كليبٌ بطعنٍ \* في عمرٍ بابل من بني قحطان  
ولقد مضى عنها ابنُ حية مذبراً \* تحت السّجّاج والخوفِ دواني  
لما رأنا بالكلاّب كانوا \* أسدٌ ملاءمةٌ على خفان  
ركبنا التي صعبتْ عليه ذيوها \* تحت المعراج بذلةٍ وهوان  
ونجا بمهجته وأسلم قومه \* مكرمين رواقف المزان  
يمشون في سلق الحديد كأنهم \* جُربُ الجمال طليق بالقطران  
نم الفوارسُ لافوارسٍ مذبج \* يوم المباح ولا بنو همدان  
هزموا العداة بكل أسمر مارين \* ومهتدي مثل النخدر يمان

وبعد، فإننا بعد ما قدّمنا من موجز كلامنا عن تصوير حالة الشعر في الجاهلية توطئة لبحثنا عن حالته في العصر الأموي، لا نرى مندوحة من الإشارة هنا الى أننا سنتقى عناية خاصة، بفرعي الفزل والشعر السياسي، لأنهما يجالتهما الأموية بكادان يكونان وليدَي العصر ونتأججه .

وليس معنى ذلك أننا ننكر تلك المعاني الجديدة التي دخلت على الوصف والمدح والثناء والهجاء، ولكنا نلاحظ أنّ الفرق لا يسدو التزامات المدنية، مع رقة اكتسبتها العصور الإسلامية، القرية العهد من نزول القرآن واشتغال الناس بتلاوته وإقبالهم على دراسته، حتى انطبعا على بلاغته وبيانه .

على أنه من المفيد أن نُشير إلى شيء جديد أصاب فنّ المديح في العصر الأموي، لأنه خاص بهذا العصر دون سواه .

قال ابن قتيبة في كتابه القيم «الشعر والشعراء»: «أتى بعض الرّجّاز نصربن سيار وإلى خراسان لبني أمية، فهدمه بقصيدة تشبيهاً مائة بيت ومدحها عشرة أبيات، فقال نصر: «والله ما بقيت كلمة عذبة ولا معنى لطيف إلا شغلته عن مدحى بتشبيك، فان أردت مدحى فاقصد في النسب، فإناه فأنشد:

هل تعرف الدار لأم الغمر \* دع ذا وجهر مدحة في نصر

فقال نصر: لا ذاك ولا هذا، ولكن بين الأمرين .

### (ز) الغزل :

كان غزل الجاهلية من عفو الخاطر وفيض البديهة، ناطقاً بصفاة قريحتهم، وكامل حريتهم، وتوقد أذهانهم وتأثر طباعهم، وكان بريثاً من الصنعة والكلفة .

ومع أنى من يذهبون إلى أن الشاعر الجاهلي، كان يبالغ الفنون الشعرية كافة غير مقصور على النسب بالذات، بيد أنى من يقول إن المعاني الغزلية وألفاظها تكاد تكون مُعادةً فيما بعد العصر الجاهلي، بتوسع تقضييه المدنية، وطلاوة اكتسبتها الألفاظ من بلاغة القرآن، وعذوبة انتخبها ثروة الأثخان من أفاديق العرفان .

ولقد صدق زهير إذ يقول :

ما أرانا نقول إلا معاراً \* أو مُعاداً من لفظنا مكوراً

أجل، لقد كان الغزل الأموي غنياً بما هو أكثر من ذكر الأطلال والديار، إذ أنما نجد فيه لوائح الحب ولقحاته، وشكايات الصبّ وأناته، وزفرات الماشق وعبراته .

ألسنا نلحس التوجع والأسى في قول ابن الدمينه الخثعمي :

ألا يا صبا نجد متى هجيت من نجد \* لقد زادني مسرك وجداً على وجد

وفي قول الصمة بن عبد الله بن طفيل :

حتت إلى رياء ونفسك باعدت \* مزارك من رياء وشعبكاً معاً



نريد أن ندرس حالة الغزل في العصر الأموي الذي هو عصر الترف والنسج والثروة، عصر القصور والملاد، عصر الاندماج في غير المرب وأخذ السراي والسبايا، تكاد ماتت ووصيقات وزوجات .

لقد كثرت الترف كثرة حمل معها الاندفاع مع الغزل وما يجزه الغزل، وخلق أنواعا صريحة من المناحي الشعرية في الحب والتشبيب بالنساء، رغبة في الحب من حيث هو، وفي التشبيب من حيث هو : بمعنى أنا كنا في العصر الجاهلي قلما نجد شاعرا وقف حياته الشعرية على معالجة فن الغزل بحسب، لا يتكلف غيره ولا يُعنى بسواه، فإذا بنا في العصر الأموي نجد من الشعراء من يتخذ من الغزل صناعة وفنا .

وظاهرة أخرى نلاحظها في الغزل الأموي تظهر بجملة مقدار اختلافه عما كان عليه في العصر الجاهلي، تلك أنواعه المتباينة التي يصبح لنا أن نقسمها إلى أربعة أبواب : غزل إباحي، ويصح لنا أن نتخذ من عمر بن أبي ربيعة زينا لهذا النوع الذي يجمع إلى وصف المرأة والتشبيب بها، معاني العبث بها والاستمتاع بالآلة المسادية مما ينفرد منه الأدب الجاهلي وما حفظه عليه الكثيرون من خلفاء الإسلام وأئمة .

ولقد صدق ابن جريح إذ يقول : "مادخل على المواق في خدورهن شيء أضر عليهن من شعر ابن أبي ربيعة" . ونحيل الفارئ إلى حديث الزبير بن بكار عن حمه مصعب في صفة هذا الشاعر الكبير، على أن تلاب الأظاني وغيره من أمهات كتب الأدب العربي متعة بشعره وتشبيهه مما لا يدع مجالاً للشك في أنه كان تبع نساء وحلّس غانيات، وصافا لأحاديث، واقفا على دخائلهن، مطلعا على هوى نفوسهن . ولا حاجة بنا إلى التطويل هنا فيما هو مشهور متعارف، خصوصا أنك ستجد طرفا من شعره، في باب المنظوم من الكتاب الأول في المجلد الثاني، فراجعه شمة .

على أنه مع ذلك يذوب رقة وحنانا في بعض مقطعاته، ولا سيما مع الثريا بنت علي، فإنه يلوح لنا أنه لم يفتح قلبه لأحد سواها .

كتب ابن أبي ربيعة الى الثريا وهى بالين يقول :

كنتُ إليك من بلدى \* كتاب مؤلّه صكّيد

ولقد كانت مكة والمدينة مسرحاً لهذا النوع فى العصر الأموى . وسبب ذلك ميسور فهمه ، معقول تعليله ، ذلك أن الخلفاء تعمد جلهم الإغداق على أهل الحجاز وأبناء المهاجرين والأنصار بالأموال والهدايا فوق ما وزّتهم آباؤهم ، ليحولوا بينهم وبين ما يطمحُ اليه أمثالهم من «نافسة فى الملك ، أو مشاكسة للسلطان ، وليشغلوهم عن أمور الدولة بإرخاء العنان لهم فى لذاتهم ومناعمهم .

وهناك الغزل العُذرى البرىء ، غَزَلَ الحب الصادق ، والمواطف المتأججة ، والنفس المتألمة المعناة ، تلك النفسُ التي تجسد لثمتها فى الكلف بمن تحب والتعلق به والشعور بالسعادة فى الفناء بحبه ، حباً يملك عليه ليه ويعذب روحه ويفنى جسمه كغزل جميل . وليس أدل على صدق حبه مما أثبتته صاحب الأغاني فى الجزء السابع ، إذ حاول أبوه أن يصرفه عن حبه وحاجته فى ذلك أجل حاجة ، فكان من جميل ما كان مما نجده مفصلاً (١) فى موضعه .

وغزل صناعى بين هذا وذاك ، هم الإجابة فى الشعر من حيث هو شعر ، لا فى الحب من حيث هو حب ، ولنا فى كُثير عزة زعيم لهذا النوع الثالث (٢) .

وغزل قصصى ، خلقه الرواة لأنهم رأوا ميل الناس الى الغزل والى حياة القصف وما يتبع حياة القصف ، فنظموا قصائد تحلوها لشعراء لانستطيع أن نحتمل تبعه القول بوجودهم فى الحياة أو القول بأنهم أشخاص خيالون خلقهم الرواة أو زادوا من عندهم مقطعات نسبوها لهم وأضافوها الى شعرهم . وزعيا هذا النوع . قيس بن الملقح ولبلاد ، وقيس بن ذريح ولُبناه (٣) .

(١) د(٢) و(٣) و(٤) أنظراب المنظوم من ملحق الكتاب الأول فى المجلد الثانى .

## (ح) الشعر السياسي .

بداية عصر بني أمية معركة سياسية، لعب فيها معاوية وأنصاره دوراً محمياً طريفاً في سبيل استلاب الخلافة من عليّ، وتأسيس ملك بني أمية، على قواعد وسنن تحالف قبلاً أو كثيراً ما كانت عليه الحال في عصر الخلفاء الراشدين .



الإنسان في سبيل تحقيق أطماعه السياسية، هو بعينه في عصر معاوية، وفي عصر يوليوس قيصر، وفي عصر بونابرت، وفريدريك الأكبر أول عاهل لألمانيا، هو بعينه إنسان اليوم، هو بعينه كرئيس الولايات المتحدة وغيرها، يستعمل المال في شراء الضمير الإنساني، ويعمل جهده على إذاعة دعوته، وتبيان فضائله، وتصويب خطئه، بإتخاذ الحملات الصحفية والخطابية وغيرها من وسائل الدعوة التي وصلت إليها المدنية الحديثة، والتي كانت في عصر معاوية وخلفاء معاوية وفي عصر المأمون وخلفاء المأمون، تستخدم السنة الشعراء، وهي أسرع انتشاراً، وأعمق أثراً، وأكثر رواية، وأطول عمراً، مما يكتب اليوم، فلا يرويه من الناس إلا قليل .

إنك تعلم ما لاستخدام الشعر من أثر في كثير من الحركات السياسية، واستحداث العزومات وإنهاض الجيوش في الانقلابات الاجتماعية، وما «لورسلين» من أثر في نفوس الجنود الفرنسيين، إذا جيئ وطيس الحرب واشتد أوارها . وأنت جِدُّ عالم بما كان قصائد «الورد بيرن»، الواحدة تلو الأخرى، في سبيل استقلال اليونان الحديثة، وفي سبيل اجتذاب عطف أوروبا وساستها وجمهورها وملوكها وتوابها وصحفها، لياخذوا بنصر أمية مهيضة عُليت على أمرها .

أنت جِدُّ عالم بأن قصائد «بيرن» هذه قُملت في المعركة السياسية ما لم تفعله جيوش مصر وأساطيلها وذخيرة الترك وانتصارها، فكان الحكم «لبيرن» وكان الانتصار لشعره .



كذلك كان الحال في عصر بني أمية، وكذلك كان أثر الشعران لم يكن أبلغ وأوسع نطاقاً. ألم يُعزَّز معاوية، في رواية يزيد أبنيه، إلى مسكين الدارمي أن يقول أبياتا في معنى المباينة ليزيد ويُشدّها إياه في مجلسه وهو حافل بالوجوه والأشراف ! .

وتقول رواية الأغاني : إن معاوية لما أراد البيعة ليزيد، تهيّب ذلك وخاف ألا يملكه عليه الناس لحسن الثقة فيهم وكثرة من يُرجّح للخلافة، وبلغه في ذلك ذرّو كلام<sup>(١)</sup>، كرهه من سعيد بن العاص ومروان بن الحكم وعبد الله بن عامر، فأمر يزيد مسكينا، وكان يؤثّر وبصله ويقوم بمحاجاته عند أبيه، أن يقول أبياتا وينشدّها معاوية في مجلسه إذا كان حافلا وحضره وجوه بني أمية، فلما اتفق ذلك دخل مسكين إليه وهو جالس وأبنيه يزيد عن يمينه وبنو أمية حواليه وأشراف الناس في مجلسه، فذلّ بين يديه وأنشأ يقول :

إن أدع مسكينا لأبيّ معشير \* من الناس أحمى عنهم وأذود  
إليك أمير المؤمنين رحمتها \* تثير القطا ليلا ومن هجود  
وهاجرة ظلت كأن ظبأها \* إذا ما آتتها بالقرون بهجود  
ألا ليت شعري ما يقول ابن طامير \* ومروان أم ماذا يقول سميد  
بني خلفاء الله مهلا فلانما \* يوثبها الرحمن حيث يريد  
إذا المنبر الفريّ خلاه ربه \* فإنت أمير المؤمنين يزيد  
على الطائر الميمون والجذّ صاعد \* لكل أناس طائر وجود  
فلا زلت أعل الناس كعبا ولا تزل \* وفودك تُساميها إليك وفود  
ولا زال بيت الملك فوقك طالبا \* تُسيّد أطناب له ومُحمود  
قدور ابن حرب كالمجواي وتحثها \* أناف كأمثال الرمال رمود

(١) ذرّو كلام : طرف منه .

فقال له معاوية: «ننظر فيما قلتَ يا مسكينُ ونستخبر الله». قال: ولم يتكلم أحد من بني أمية في ذلك إلا بالإقرار والموافقة، وذلك الذي أراده يزيد، ليعلم ما عندهم، ثم وصله يزيد ووصله معاوية فأجرا صلبه اهـ.

وأنتك لا تطلب منا حين مطالعتك هذه القصيدة تحليلاً لإقامة الدليل على صدق ما ذهبنا إليه، فيما أسلفناه لك من القول بأن شعر العصر الأموي عربي جاهلي في منجاء وأسلوبه، وأنه يتميز بروح جديدة، ويختلف بأغراض ومقاصد تكاد تكون جديدة بالنسبة للعصر الجاهلي. وذلك لوضوح التحليل وخوف الإطالة فيما لا يعنيننا كثيراً.

عل أنه لزامٌ في عقتنا أن نصور، الى مدى أوسع، استخدام الشعر الأموي في الأغراض السياسية، لأن هذا النوع الطريف نتائجه وآثاره في هذا العصر والعصور التي تلت، ولأن لهذه الميزة ميزة اصطباغ الشعر بالفرض السياسي واندفاع صاحبه في سبيل نصرة دعوته مبعداً ما قد يتورط طريقه من صعياب، مُثلاً ما يترضه من عقاب، منتهكاً حرمة التقاليد والأشخاص، بل خارجاً الى حيز لا يرضى عنه فقهاء الدين كثيراً، وبما لا يرضى عنه الشرع حقاً، نزم أن لهذه الميزة آثارها ونتائجها. ولستنا بسبيل تفصيل ذلك الآن، ولكننا بموقف المقيّد للحوادث نحسب، المثبت لمبدأ وقوعها، ولها مع الزمن وتكرر وقوعها ونشاط ميسداها ما سيتأتى لنا تفصيله فيما بعد، من اتساع نطاق السياسة الشعرية خاصة، ودولة الأدب عامة، وتهديدها حرمة العادة وإطلاق الدين.



مثل آخر ذكره صاحب الأخبار الطوال وهو بمثابة معركة مذهبية سياسية بين نصير معاوية ونصير علي، بين كعب بن جعيل والنجاحي. وهالك قصيدة كل منهما، قال كعب بن جعيل:

أرى الشام تكوهُ ملك العسرا \* ق وأهل العراق لهم تاركونا  
وكلّ لهابجه بُيُض \* يرى كلّ ما كان من ذلك ديناً

وقالوا عليّ إمام لنا \* فقلنا رضيّا ابنَ هند رضيّا  
 وقالوا نرى أنّك تكذبوا لنا \* فقلنا لم لا نرى أنّك تدبّنا  
 وكلّ يُسرّب ما عنده \* يرى غثّ ما في يديه مميّنا  
 وما في عليّ يستعيب \* مثال مسوى ضمه المهدينا  
 وليس براض ولا ماضيط \* ولا في النهاية ولا الأمرينا  
 ولا هو ساء ولا هو مسرّ \* ولا بدّ من بعد ذا أن يكونا  
 فلما قرأه عليّ رضي الله عنه قال للنجاحيّ: أجب؛ فقال :

دعني مُساويّ ما لن يكونا \* فقد حقّق الله ما منحذرونا  
 أنا كم عليّ بأهل السرا \* ق وأهل الجحاز فاصنعونا  
 يرون الظلمان خلال العبا \* ج وضرب القوائس في النقع دينا<sup>(١)</sup>  
 هم همزوا الجمع جمع الزير \* وطلحة والمعشر التاكينا  
 فان يكره القوم ملك العراق \* فيسندنا رضيّا الذي تزهونا  
 فقولوا لـكعب أحمي وإثلي \* ومن جعل الفث يومنا مميّنا  
 جعلتم عليّا وأشياعه \* نظير ابن هنيذ ألا تستحوّنا



وهالك مثلاً أنشد كره صاحب الأغاني في ترجمة النعمان بن بشير قال: تشبّب عبد الرحمن

ابن حسان برملة بنت معاوية فقال :

رَمَلْ هَلْ تَذَكِّرِينَ يَوْمَ خُرَال \* إِذْ قَطَعْنَا مَسِيرَنَا بِالْقَمَى  
 إِذْ تَقُولِينَ عَمْرَلَهُ اللهُ هَلْ شَى \* وَإِنْ جَلَّ سَوْفَ يُسْلِيكَ عَنَى  
 أَمْ هَلْ أَطْمَعْتَ يَا ابْنَ حِسانٍ فِذَا \* لَكَ كَأَنَّكَ أَرَأَكَ أَطْمَعْتَ مَنَى

قال: فبلغ ذلك يزيد بن معاوية فغضب، ودخل على معاوية فقال: يا أمير المؤمنين،

ألا ترى إلى هذا الملح من أهل يثرب يتهمك بإعراضنا ويُسبّب بنسائنا! فقال: ومن هو؟

(١) القوائس: جمع قوس وهو أطل الراس، وأهل بيضة الحديد أو منقدها.

قال : عبد الرحمن بن حسان فأثبده ما قال ؛ فقال ، يا يزيد ليست المقوبةُ من أحد أفصح منها بذوى المقدرة ، ولكن امهل حتى يقدم وفدُ الأنصار ثم ذكّرني به ؛ فلما قدموا ذكّره به ؛ فلما دخلوا قال : يا عبد الرحمن ، ألم يلفني أنك تُسبِّبُ برملة بنت أمير المؤمنين ! قال : بلى ولو علمتُ أن أحدا أشرفُ بشعري منها لذكّره ؛ قال : أين أنت عن اختها هند ! . قال : وإن لها لأختا يقال لها هند ؟ قال : نعم ! وإنما أراد معاوية أن يشببَ بهما جميعا فيكتب نفسه ؛ فلم يرض ذلك يزيد بن معاوية وما كان منه معه ، فأرسل إلى كعب بن جعيل فقال له : أئجج الأنصار ؛ فقال : أفرق من أمير المؤمنين ، ولكن أدلك على الشاعر الكافر الماهر الأخطل ، قال فدعاه فقال له ؛ أئجج الأنصار ؛ فقال : أفرق من أمير المؤمنين ؛ قال : لا تخف شيئا أنا لك بذلك ؛ فهجاهم فقال :

واذا نسبتَ ابنَ القريةِ خِلته • كالجش بين حمارة وحمار  
لعنَ الآله من المهصور حصاة • بالجزع بين صليهيل وصنار  
قوم إذا هدر المصير رأيتهم • حمرا عيونهمو من المصطار  
خلو المكارم لستموا من أهلها • وخذوا مساحيكم بنى النجار  
إن الفوارس يرفون ظهوركم • أولاد ككل مقبح أكار  
ذهبت قريش بالمكارم كلها • والسؤم تحت عمام الأنصار

فلعل ذلك التهان بن بشير ، فدخل على معاوية لحسَّ عمامته عن رأسه وقال : يا أمير المؤمنين ، أترى لو ما ؟ قال : لا بل أرى كرا وخيرا ، فلماذا ؟ قال : زعم الأخطل أن اللؤم تحت عمام الأنصار ! قال : أو فعل ذلك ؟ قال : نعم ، قال : لك لسانه ، وكتب فيه أن يؤق به ، فلما أتى به سأل الرسول أن يذخله إلى يزيد أولا ، فأدخله عليه ، فقال : هذا الذي كنت أخاف ؛ قال : لا تخف شيئا ، ودخل على معاوية فقال : علام أرسل إلى هذا الذي يمدحنا ويرمي من وراء هجرتنا ؟ قال : ها الأنصار ؛ قال : ومن زعم ذلك ؟ قال : التهان بن بشير ؛ قال : لا تقبل قوله وهو المدعى لنفسه ، ولكن تدعوه بالبينسة وإن أثبت شيئا أخذت له ؛ فدعاه بالبينسة فلم يأت بها بخلافه ؛ فقال الأخطل :

وإني وإن استعرت أم مالك \* لراضٍ من السلطان أن يتهدأ  
ولولا يزيدُ ابن الملوِك وسعيه \* تحلَّتْ جرباً ذَا من الشر أنكنا

أما ردّ النعمان على الأخطل فهاكه كما نقله أبو الفرج الأصبهاني عن خالد بن كلثوم :  
مُعَاوِيَ إِلَّا تَعَطَّنَا الْحَقُّ تَعْرِفُ \* لِيَلْحَى الْأَزْدُ مَشْدُودَا عَلَيْهَا الْعَاهُ  
حتى قوله :

اليهم يصير الأمر بعد شتاته \* لمن لك بالأمر الذي هو لازم  
بهم شرعاً فلهدي فاهتدى بهم \* ومنهم له هادي إمامٌ وخاتمٌ

وإنما نُحْمِلُ الْفَارِيَّ إِلَى الْكَتَابِ الْأَوَّلِ مِنَ الْمَجْلَدِ الثَّانِي لِيَقِفَ عَلَى قَصِيدَةِ النُّعْمَانِ  
هذه، وليقف كذلك على قصيدته الرائية الأخرى التي أنشدتها معاوية لما ضُربَ  
مروانُ بن الحكم، عبدُ الرحمن بن حسان الحِمْيَرِ ولم يضرب أخاه حين تهاجبا وتقاذفا .  
وتحور رايه فيها : أنه لما كثرت الهجاء بين عبد الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن الحكم  
ابن أبي العاصي وتفاحشا، كتب معاويةُ إلى سعيد بن العاصي، وهو عامله على المدينة،  
أن يجلد كل واحد منهما مائة سوط . وكان ابنُ حسان صديقاً لسعيد وما مدح أحداً  
غيره قط، فكره أن يضرب أو يضرب ابن عمه فأسك عنها، ثم وكى مروانُ، فلما قَدِمَ  
أخذ ابنُ حسان فضربه مائة سوط ولم يضرب أخاه، فكتب ابنُ حسان إلى النعمان  
ابن بشير وهو بالشام، وكان كبيراً أميراً مكيئاً عند معاوية، قال :

لَيْتَ شِعْرِي أَغَاثِبُ أَنْتَ بِالشَّ \* إمام خليلي أم رافدٌ تَعَارُفُ  
أَيُّهُ مَا يَكُنْ لَفَدَ يَرْجِعُ النَّدَّ \* نائب يوما ويوقظ الوسنانُ  
لَانتَ عَمراً وطامراً أبوينَا \* وحرماً قَدِمْنَا عَلَى الْعَهْدِ كَانُوا  
أَفْهَمُ مَا يَمُوكَ أَمْ قَلَّةُ الْكَدِّ \* إباب أم أنت عاتِبٌ غَضِبَانُ  
أَمْ جَفَاءَ أَمْ أَعَزَّتْكَ الْقِرَاطِلُ \* من أم أمري به عليك هَوَانُ  
يَوْمَ أَنْبَأْتَنِي أَنَّ سَاقِي رَضَّتْ \* وَأَنْتَ عِصْمٌ بِذَلِكَ الرِّبَاكُ



ثم قالوا إن ابن عمك في بلد - سوى أمور آتى بها الحديثان  
ففسيت الأرحام والوَدَّ والصبح \* بية فيما أنت به الأزمأرُ  
إنما الرمح فأعلمسُ قنأة \* أو كيمض الميلاق لولا السنأرُ

وهي قصيدة طويلة . فدخل النعمان بن بشير على معاوية فقال : يا أمير المؤمنين ، إنك  
أمرت سعيداً بأن يضرب ابن حسان وابن الحكم مائة سوط فلم يفعل ، ثم وليت مروان  
فضرب ابن حسان ولم يضرب أخاه ! قال : تريد ماذا ؟ قال : أريد أن تكتب إليه  
بمثل ما كتبت إلى سعيد ، فكتب إليه معاوية يرمز عليه أن يضرب أخاه مائة ، فضربه  
نحسين وبعث إلى ابن حسان بحلة وسأله أن يعفو عن نحسين ، ففعل وقال لأهل  
المدينة : إنما ضربني حد الحز وضربه حد العبد نحسين ، فشاعت الكلمة حتى بلغت  
ابن الحكم ، فجاه إلى أخيه فأخبره وقال : « لا حاجة لي فيما عفا عنه ابن حسان » ، فبعث  
إليه مروان : « لا حاجة لنا فيما تركت ، فهلم فاقصص من صاحبك » . فحضر فضربه مروان  
نحسين أخرى اه .



ويجدر بنا الآن ، بعد أن أوضحنا ميزة استعمال الشعر في الأغراض السياسية في الدولة  
الأموية ، أن نسمع لأنفسنا بتقيد ملاحظة قد لا تخلو من نفع فيما ستعالجه ، وهي أن تلك  
الأغراض السياسية سمحت للشعراء بما لم تسمح به لسواهم من إعفائهم من إقامة الحدود .  
وقد سبق لنا أن أشرنا إلى كتاب معاوية إلى مروان بن الحكم في صدد حثه للشاعر  
الناصر لسياسة بني أمية وهو عبد الرحمن بن أوطاة المعروف بابي سبيحان وكان حده ليشرب  
الخمر . وأبو سبيحان هذا هو الذي قال في صفته أبو الفرج الأصفهاني : « كان عبد الرحمن شاعراً  
مُقلاً إسلامياً ، ليس من الفحول المشهورين ، ولكنه كان يقول في الشراب والقرنل ومديج  
أحلافه من بني أمية ، وهو أحد المفاقرين للشراب والمحدودين فيه ، وكان مع بني أمية كواحد  
منهم ، إلا أن اختصاصه بال أبي سفيان وآل عثمان خاصة كان أكثر ، وخصوصه بالوليد  
ابن عثمان ومؤاخسته إياه أزيد من خصوصه بسائرهم ، لأنهما كانا يتناولان على الشراب » .

وزيد الآن أن تفسر هذه الحادثة تفسيراً معتدلاً لتخرج منها بما عساه يمدنا وينفعنا فيما سنقدم عليه من مناقشة العصور التي تلت هذا العصر، تلك العصور التي تغدّت من غير شك، بأفوابي العصر الأموي الذي تقدّمها، فنبت فيها بذوره حتى كادت تنمو في حديقته الأنف الحساسة دوحات خطيرة على الاعتبارات الخلقية التي توضع عليها .

وإنك إذا رجعت الى كتاب معاوية، ورجعت الى كتاب الأغانى نفسه، ومولفه أموى كما تعلم، وجدته قد أقام الحجة في غير موضع على أن هذا الشاعر عاقر النحر . وهالك ما يؤيد ذلك ويعززه :

قال : « كان الوليد بن عثمان ، ذا غلّة في الجحاز ، يخرج إليها في زمان الثربنفر من قومه ، يمينون له ويعاونونه ، فكان إذا حضر خروجهم دفع إليهم ثقبات لأهلهم الى رجعتهم ، فخرج بهم مرة كما كان يخرج وفيهم ابن سيحان ، فأتى ابن سيحان كتاب من أهله يسألونه القدوم لحاجة لا بد منها ، فاستأذنه فأذن له ، فقال له ابن سيحان : زودنى من شرايك هذا ، فزودوه إداوة ملائها له من شرايهم ، فكان يشربها في طريقه حتى قدم على أهله ، فالتقاها في جانب بيته فارعة ، فكث زمانا لا يذكرها حتى كلسوا البيت فراها ملقاة في الكاسة فقال :

لا تبعلني إداوة مطروحة \* كانت حديقاً للشراب العاتق  
 إن تصبى لشيء فيك ربما \* أترعت من كأس تلذذ لذائق  
 بابي الوليد وأتم قضى كتاب \* بدت الهجوم ونزقن الشارق  
 كم عنده من نائل وسماحة \* وشمال ميمونة وخلائق  
 وكرامة للعتفين إذا احتفوا \* في ماله حقاً وقول صادق  
 أئوى فأكرم في التواء وقضيت \* حاجاتنا من عند أروع باسق  
 لما أتيناه أئينا ما جدد السخا خلق سباقاً لقرم سابق  
 قال الوليد يدى لكم رهن بما \* حاولتم من صاميت أو ناطق  
 فإلى الوليد اليوم حنت ناقي \* تهوى بمغبر المتون سمالي  
 حنت الى برق قفلت لها قرى \* بعض الحنين فإن شجوك شافى

فهذا اعتراف صريح بمعاقرته لحمر . ثم لُتِثَتْ هنا قصيدته التي مدح بها معاوية :

إني أمرؤ أئمى إلى أفضل الورى • عديداً اذا ارفضت عصا المتخلف  
إلى نضد من عبد شمس كأنهم • هضاب أبجاً أركلتها لم تُقصِف  
ميامين يرضون الكفاية إن كفوا • ويكفون ما ولّوا بنير تكلف  
غطّارفه ساسوا البلاد فأحسنوا • سياستها حتى أقرت لمردف  
فن يك منهم موسراً يُفشّ فضله • ومن يك منهم معسراً يتقصِف  
وإن تبسط النعمى لم يسطوا بها • أكفأ سياطا قطعها غير مُقرِف  
وإن تروّ عنهم لا يضحّوا وتلفهم • قليل التشكى عندها والتكلف  
إذا انصرفوا للحق يوماً تصرّفوا • إذا الجاهل الحيران لم يتصرِف  
سَمَوْا فَمَلَّوْا فوق البرية صكّلتها • بلبان عالي من مُنيّف ومُشْرِف

وكان من حظها أن كتب معاوية أن يعطى أربعمائة شاة وثلاثين لقعة ، مما يوطن السبالة غير ما أعطاه سواء .

ومهما يكن الواقع الذي حدا أبى الحكم إلى حده فإن السياسة الحزبية ومداخل ابن سبطان في معاوية ، واستعمال الأخير الشعراء في مناصرة بيته — كل ذلك دفع معاوية إلى كتابة ما كتب لابن الحكم أولاً ، ثم للوليد بن عتبة ثانية ، حتى اضطره لرفده بمسبأته دينار مما وصفه صاحب الأغاني ؛ فكانت الغلبة للشعر لا للشرع ، وللغاية السياسية لا الدينية ، فلنقيد هذه الملاحظة فقط ، بلا توسع ولا إسهاب .



وبعد ، فلنلخص ما تقدّم عن شعراء السياسة ، وهم العنصر الهام الذي لعب دوراً بارزاً في الأدب العربي في العصر الأموي ، والذي كان له أثره ونتائج في العصر العباسي ، في كلمة ختامية في هذا الموضوع نبين فيها جماعة الشعراء السياسيين وألوانهم السياسية .

كان جلُّ شعراء هذا الدور أمويين ؛ فانا نجد الى جانب شعراء الدور الأول من أنصار بني أمية شعراء آخريين أخذوا بناصرهم ودافعوا عن مكانهم مثل أبي العباس الأعمى وهبّاء ابن الزبير، وأبي قطيفة طريد ابن الزبير، وأبي محضر الهذلي المنتعصب لآل مروان وهبّاء ابن الزبير، وصدى بن الرقاع، والوليد بن أمية بن عائذ الهذلي ، وجديباء الأشجعي والحكم بن عبدل الأسدي، والسلولي، وموسى شنوات، وغيرهم .

والشعراء العلويون، وفي طليعتهم النعمان بن بشير الأنصاري ، والكثير بن زيد، وأمين ابن خريم . على أن الآخرين اضطروا الى امتداح بني أمية ومسايرتهم؛ فانا نجد الكيث قد مدح هشاماً، كما نجد أمين مدح عبد الملك . ثم نجد شعراء دون ذلك مثل أنصار آل المهلب ابن أبي صفرة كزياد الأعمى وثابت قطننة وحمزة بن بيض وكعب الأشقرى وغيرهم . وأخيراً نجد حزب آل الزبير ومن شعرائه عبد الله بن الزبير الأسدي .

وصفوة القول أن الحركة السياسية بين بني أمية ومنافسهم في الملك أو إلهاء وما يتبعهما : من إغراق الأموال والعطايا على أنصار كل فريق، جعلت هوى الشعراء مع من أحسن إليهم، واللهات تفتحُ اللهات .



من كل هذا يتبين ما اتسع أمام الآداب العربية من ميدانٍ فسيح في ضروب شتى من ألوان الحياة لم تكن تعرفها من قبل .

وقد آن لنا أن ننتقل الى الكتاب الثاني من موضوعنا، ونرجو أن نُوفِّق الى إيضاح ما أوجزناه، وبسط ما أجهلناه، مبتليين الى الله ألا نضلَّ في شُعبه ومهامه ، وبُهمه ومفاوزه، بمنه وكرمه .

# الكتاب الثاني

عصر بني العباس

## الفصل الأول

الوجهة السياسية

توطئة — دور الانتقال — الشجعة العلوية .

### (١) توطئة :

رأينا كيف كانت الحياة السياسية والعلمية والأدبية في العصر الأموي، وكيف ظهرت مواطن الضعف وعوامل الانحطاط، وكيف وقع بنو أمية بين الساعطين من العرب والآخرين من الموالى، وكيف انحرف خلفاء معاوية عن خطته السياسية، وكيف عُرف فريق منهم بالدين وشغل آخرون بالعبث والمجون . وزيد الآن أن نلم المسألة قصيرة بدور الانتقال إلى العصر العباسي، قبل التكلم عن العصر نفسه، لئلا نرى كيف كان اتجاه الأفكار في ذلك الحين .

### (ب) دور الانتقال :

إن الذي ينظر في كتب التاريخ الإسلامي عامة، ثم يراجع ما كتبه المستشرقون خاصة عن الدولة الفارسية في دور انحطاطها وضباب استقلالها وفناء أهلها في الإسلام، مع رسوخهم في المدنية وسبقهم إلى العلوم الاجتماعية وسياسة الشعوب، ليذكر حياة اليونان وعلماهم الهولاء، حين دالت دولتهم وطمعوا للرومان وهم دمرتهم في العلوم والفنون .

ولسنا هنا بصدد الإنفاضة في بيان المناحي التي تغلب فيها الموالى على العرب فإن لذلك مكانه الطبعي في هذا الكتاب . وقصارانا الآن أن نحيل القارئ إلى الجزء الأول من كتاب الأستاذ «ادوارد برون» الذي وضعه عن التاريخ الأدبي للفرس ، وهو من مجلدات «مكتبة تاريخ الآداب» فإن فيه الكفاية لمن يريد تفصيل .

أذعن الموالى صاغرين لغلبة العرب عامة والأمويين خاصة ، وذاقوا ماذاقوا من الذلة والمسكنة ، وعانوا ماعانوا من ضروب الهوان ، فكان من المعقول أن يترقبوا الفرص لينقضوا على سادتهم العرب ، وأن ينظروا أولاً بارقة تلوح في أفق السياسة ليناصروا الناقين على المملكة الأموية : فقد كانت دولة بني أمية مكروهة عند الناس ، ملعونة مذمومة ثقيلة الوطأة ، مستهترة بالمعاصي والقبائح ، فكان الناس من أهل الأمصار ينتظرون زوال هذه الدولة صباح مساء .



أضف إلى ما تقدم أن الشيعة كانت ، إلى جانب قوة الحجة في أنها أحق بالخلافة ، إذ كان أنصارها يدعون إلى بيعة صهر النبي أو أبناء بنت النبي ، تنضم إلى رجاليتها شخصيات بارزة في الدين والكفاية والصلاح ، فكان خيار الناس يطيعونها تدينًا ، وكان غيرهم يطيعها رغبة أو رهبة ، وكان العلويون لا يفترون عن بث دعاتهم في العراق وفارس وخراسان وغيرها من البلاد النائية عن مركز الخلافة التي انفصلت عروشها وكان من أنحلها ما وصفناه . وكان الفرس يستخدمون زملاءهم المنتشرين في البقاع العربية في الدعوة إلى مبايعة خصوم الأمويين ومناصرتهم ، رغبة في التخلص من ظلم بني أمية وعسفهم ، وطمعًا في أن يكون لهم من ثبيل الحلال حظ من العزة والسلطان .

ولندكر مع هذا ثورة الممالك الإسلامية عامة على الأمويين ، تلك الثورة الهادئة الخفية ، التي كان من آثارها أن قُتِل بعض وُلائهم في الأمصار وأن نخرج فريقاً على الخليفة . ولندكر كذلك انشقاق البيت الأموي نفسه وتصدع أركانه ، فإن لذلك أثره الفعال في ثلث عرش الأمويين . وقد كانت بداية ذلك الانشقاق ، خروج يزيد بن الوليد على

عمه الوليد بن يزيد وتشهيره إياه أسوأ تشهير ووصمه بأفحج الوصحات ، حتى تمثل بعض بني أمية بقول الشاعر :

إني أعيدُكم بالله من قتي \* مثل الجبال نَسَاى ثم تدنِع  
إنت البرية قد ملّت سياستكم \* فاستمسكوا بسمود الدين وأرْتدّحو  
لا تُلجِعُنّ ذنابَ الناس أنفسكم \* إن الذناب إذا ما ألحمت رُئُوعُ  
لا تبقرُتْ بأيديكم بطونكمو \* فتم لا حمرةً تُفنى ولا جنزِع

ولما تمّ ليزيد الأمرُ نرج عليه مروان بن محمد ، وكان أميرَ الجزيرة وأرمينية ، ومعه جيشُ جرّارٍ يأتمر بأمره ، ومعه الثغرُ بن يزيدٍ للطالبة بدم أخيه ، فغلبَ يزيدُ على أمره وانسبطت في البيت المالك يدُ الفرقة والانشقاق .

### (ج) الشيعة العلوية :

لم تصل الخلافةُ إلى معاوية إلا بدّهانه وسعة حيلته وبُعد نظره وحُسن تصرفه للأُمور ، وإلا فقد كان هناك حربٌ قويّةٌ الشكيمة عِزُّ المكانة ، يرى على بن أبي طالب أحقُّ بالخلافة : ولولا دهاء معاوية ما نزل الحسنُ بن علي ولا أُخلى لخصمه الميسدان في سنة ٤١ هجرية ، وقد كان من نتيجة ذلك أن تهيّطت الأحزابُ العلوية من نصرته ، فجمعوا الجُوع وجندوا الجنودَ ، وثاروا على أمير الكوفة الأموي وهو زيادُ بن أبيه — وكان يدُ معاوية التي بها يصلو — ولكن زيادا يعرف كيف تُمخّذُ الفتنة ، وتُطغى الثورة ، فبادر إلى استئصال الداء ، وقَتَلَ منهم خلقا كثيرا ، أشهرهم مُجَرَّب بن عدى وأصحابُ حجر ابن عدى . بيد أن إراقة الدماء تهيّجُ الحماسة وتؤجج نارَ العداوة والبغضاء في قلوب المغلوبين ، وكذلك ظلت الفتنة تُشِيرُ بالشّر المستطير .

رأى الدعاةُ العلويون أنه لا قِبَلَ لهم بمعاوية ولا برجاله ، فقبصوا بهم ربّ المنون وعلاوا النفسَ بتقلباتِ الحوادث وعَنَتِ الأيامُ راجزين أن تعود الخلافةُ إلى بيت النبي ،

ولكن شدة ما فزعوا يوم أخذ معاوية البيعة لأبنته يزيد المعروف بالميل الى اللهو والقصف والتلوى بالصيد عن شؤون المسلمين . وفيه يقول عبد الله بن همام السلولي :

حُشِنَا الْغَيْظَ حَتَّى لَوْ شَرِينَا \* دِمَاءَ بَنِي أُمَيَّةَ مَا رَوَيْنَا  
لَقَدْ ضَاعَتْ رِعْيَتُكُمْ وَأَنْتُمْ \* تَصِيدُونَ الْأَرْنَابَ غَافِلِينَ

وإنما لتعلم أنه لما مات معاوية سنة ٦٠ هـ . وتولى بعده ابنه يزيد ، أبى الحسين أن يبايع له بالخلافة ، بل رأى أكثر أهل التقي في مبايعة يزيد نزعاً لحمة الدين . ثم قُتِل الحسين في كربلاء سنة ٦١ هـ . فألفت الشيعة «حزب التوايين» بعد وفاة يزيد وبيعة مروان ابن الحكم سنة ٦٤ هـ ، وأخرجوا وإلى الكوفة الأموي عبيد الله بن زياد ، وولوا عليهم رجلا منهم . ثم تألف حزب «شُرط الله» بزعامة المختار بن أبي عبيد الله الثقفي . وانقسمت الشيعة العلوية الى فرقتي عترة ، أهمها الفرقة الإمامية ، وهي التي ترى أن أحق الناس بالخلافة هم ولد علي من فاطمة بنت النبي ، والأئمة في نظريهم اثنا عشر إماما ، وهم : علي ، والحسن ، والحسين ، وزين العابدين ، ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق ، وموسى الكاظم ، وعلي - الرضا ، ومحمد التقي ، وعلي - التقي ، وحسن العسكري ، ومحمد المهدي . ومنها الفرقة الكيسانية ، وهي التي تقول بتعاقب الخلافة بسند الحسن والحسين الى أخيهما محمد بن الحنفية . ومنها الفرقة الزيدية نسبة الى زيد بن علي بن الحسين . والفرقة الاسماعيلية نسبة الى إسماعيل ابن جعفر الصادق . وفرق أخرى أصغر من تلك شائنا وأقل أمرا .



على أنه كان يوجد بجانب أولئك الولاة المخلصين لبني أمية والمعرفين في مطاردة الحزب العلوي ، فريق آخر ، على رأسه خالد القسري ، يعمل لمناصرة العلويين سرا ولا علانية ، كما يعمل ، في العادة ، فريق من موظفي الحكومة لحزب الأقلية المضطهد طسما في المناصب ، أو نصرا للسلطة السياسية ، أو إظهارا للميل والإلتصاف ،



على أن الدعوة العلوية كانت فائزة ضعيفة ، اذا قُوِّرت بالدعوة العباسية التي ستكلم عليها في الكلمة الآتية . ولعلّ من أكبر أسباب ضعف الدعوة العلوية مبايعة زعماء العباسيين محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية ، فقد بايعه أبو العباس السفاح كما بايعه أبو جعفر المنصور وضمّهما من أئمة الحزب العباسي .

وكذلك سارت الدعوة لآل محمد شوطا بعيدا ، وظاهرتها شخصيات بارزة ، قوية الشوكة ، وفيرة المال والحياه : أمثال أبي سلمة الخليل الفارسي المعروف ،

وسترى كيف تحوّلت الدعوة العلوية الى وجهة أخرى ، وكيف استُغِلَّت لمصاحبة العباسيين .

(١) يخالفنا أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار فيا ذهبنا اليه ورى : « أن الطرفين كانوا يتهافون على الخروج على الخلفاء ، فكثرت القتل فقيم فقتلوا بخلاف أولاد علي بن عبد الله » فقد كثروا ولم يتارل القتل منهم أحدا الى ذلك العهد ، عهد القيام بالدمرة .

## افصل الثمانى

### العصبية والموالى فى الدولة العباسية

توطئة — العصبية — الموالى .

#### (١) توطئة :

لقد مرت بك إشارة بسيطة حين تكلمنا عن العصر الأموى الى حَقِّى الموالى الذين نالهم فى ذلك العصر من الاحتقار والازايه حَقٌّ غير قليل ، وبيننا لك أن هذه الناحية من المعاملة، التى لا تنطبق على المذهب الحديث « حرية . إخاء . مساواة » كانت عاملا قويا من عوامل الضعف والانحطاط فى دولتهم ، ووجدناك أن ندرس حال العصبية والموالى فى هذا الفصل من الكتاب ، تمشيا مع النظام الذى وضعناه له .

والآن تعرض عليك حال الشعوب التى كانت خاضعة لسلطان بنى أمية حتى نبين أحوالها النفسية والأهواء التى كانت غالبية عليها ، فإنه لا يكفى فى انتقال الملك من شخص الى شخص أو من بيت الى بيت بث الدعوة وتنظيمها وحزم القائمين بها وإخلاص المشيرين وكفاية القوادى ، بل لابد مع هذه الأمور أن تصادف الدعوة الجديدة نفوسا مستعدة لها ، راغبة فيها ، حاملة على إيمانها ، لى تُجهر وتُكرى ثمارها .

والحق أن الدعوة العباسية قامت فى وقت كانت قد نوزعت فيه الحواضر الإسلامية أهواء مختلفة ، وتقسمت القبائل العربية عوامل العصبية ، وأخذت الشعوب المغلوبة على أمرها والتى أصبحت خاضعة للنفوذ العربى ، تستفيق من النهضة التى استولت عليها من القوة العربية التى أخضعتها لسلطان العرب المسلمين .

أما الحواضر الإسلامية فكان قد غلب على كل حاضرة هوى أسرة أو شخص معين ، ولم يكن ليخضع للسلطان العربى الأموى لولا القوة القاهرة ، ولهذا لم يكد يضطرب أمر

بنى أمية في الأطراف، ويظهر الخارجون من الدعاة على ولائهم، حتى أخذت هذه الحواضر تنسل عن طاعة بنى أمية واحدة بعد أخرى. وتستطيع أن تلتئم هذه الظاهرة بنية واحدة من تقاعد الولايات عن ثورة آخر خلفاء بنى أمية عند ما حربه الأمر وتعبه مطاردوه.

### (ب) العصبية :

العصبية هي مناصرة من يمت اليك بصلة من صلات الحياة : كان مجمعا رحم قرية أو بعيدة، أو عقيدة دينية، أو هوى سياسى، فيظهر أنها من طبيعة الوجود، إذ لا تختص بها قبيلة دون قبيلة، ولا أمة دون أمة، ولا جنس دون جنس، ولا عصر دون عصر. وكما توجد في الأمم البادية، كذلك توجد في الأمم الحاضرة. وما الدعوات القومية والنعرات الجنسية إلا نوع من العصبية بمعنى أوسع.

والعصبية العربية، التي نحن بسبيل القول فيها، والتي كانت من الأسباب التي اضمحلت بها سلطان بنى أمية، قديمة في القبائل العربية : كانت في الجاهلية قبل الإسلام، وكانت تضيّق وتسع بحسب الظروف والمناسبات، فبينما نراها بين العدنانية والقصطانية، وهو أوسع معانيها من الوجهة التاريخية العربية، نراها بين ربيعة ومضر وهى قبائل عدنانية، ونراها بين بنى أمية وبنى هاشم، وقد يكون هذا من أضيق مبادئها. وكانت هذه العصبيات تشتد حيناً وتفتتر حيناً.

فلما جاء الإسلام ودخل الناس فيه أفواجا وتم له السلطان في جزيرة العرب، ألف بين القبائل وأزال ما في صدورهم من أحقاد، وذلك ما يشير إليه قول الله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَبْدَلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَفْقَتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا آفَقَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. ألف الإسلام بين قلوب العرب، وأزال كل أثر للعصبية القديمة في نفوسهم، ولكنه استبدلها بعصبية واسعة شاملة هي عصبية الإسلام، وجعل المؤمنين جميعاً إخوة.

وبقي أمرُ العرب كذلك الى عهد الخلفاء الراشدين، وذلك راجع لاهمالة ابي عواملٍ شديدة الأثر في نفوسهم، كهيمنة الروح الدينية عليهم، وكأنشغالهم بالفتح وما استتبع الفتح من خاتم، وكبحزم الخلفاء وحكمتهم وشدة الولاء وقسوتهم .

فلما كان العصرُ الأمويّ واستقرّ الناس في الحواضر الإسلامية وسُغِلُوا ببعض الثروة عن الفتح، وراجعتمهم الشنشنة القديمة، فأخذ بعضهم يفتخر على بعض بما كان لأبائهم من مجيد في الجاهلية وبلاء في الإسلام، وما لقبائلهم من قوة وأيد . وقد أدرك بعض شعرائهم النتائج السيئة لذلك ، فقال الحارث بن عبد الله بن الحنجر بن المغيرة بن الورد الجهمدي :

أبيتُ أرى العجومَ مرتفلاً \* إذا استقلّت تبحرى أوائلها  
من فتنة أصبحت مجلّة \* قد عم أهل الصلاة شاملها  
من بخراسان والعراق ومن \* بالشام كل شعباء شاعلها  
فالناس منها في لون مظلمة \* دهباء ملجئة غيطلها  
يُمسى السفیه الذي يمتقها بال \* جهول سواء فيها وعافلها  
والناس في كربة يكادها \* تبتدأ أولادها حواملها  
يفدون منها في كل مبهمية \* عمياء تنفي لهم غوائلها  
لا ينظر الناس في عواقبها \* إلا التي لا يبين قائلها  
كرفوة البكر أو كهبيحة جب \* على طرقت حوقاً قوابلها  
بهاء فينا أزرى بوجهته \* فيها خطوبٌ ممرزلازلها

ولقد زاد في إذكاء العصبية بين القبائل العربية حمق بعض الولاة، وعدم أخذهم الأمور التي تقع بين أيديهم بالحزم والحكمة ، وأيضاً استهانة بعض الخلفاء الأمويين ببعض الأمور وضرورتهم بما لهم من سلطان، فكانوا لا يبالون شعور الناس في تعيين الولاة عليهم، مما كان له أهدأ أثر في صرف النفوس عنهم واستعجالها لكل دافع الى الخروج عليهم . وحسبك

أن ترى هشام بن عبد الملك، مع حزنه وبُعد نظره، يُعين نصر بن سيار والياً على خراسان، وهو يعلم أن عصيته بها ضعيفٌ، فإنه لما استشار فيمن يوليه خراسان بعد أسد بن عبد الله القسري، كان مستشاره يُسمي له أشخاصاً بما لهم من محامد ومذام؛ فلما جاء ذكر نصر بن سيار قال: إن اغترت له واحدة فإنه عفيف مجرب عاقل؛ قال هشام: وما هي؟ فقال المشير: عشيرته بها ضعيف؛ فقال هشام: «أو تريدُ عشيرة أقوى مني! أنا عشيرته!» .

على أن كلمة هشام قد تُخفف من آثارها السيئة مثانةً حكومته، ونفاذُ صولته؛ وقوة شوكته، ولكن الخلفاء جميعاً ليسوا كهشام حزمًا واقتدارًا، وليست أيامهم كأيام هشام نجما وانتصارا .

ومهما يكن من شيء فإن تولية نصر بن سيار على خراسان، كانت في الواقع شؤماً على بني أمية .

وقد بلغت العصية بين مصر واليمن في خراسان طوراً عتيقاً، جعل التراوح بين الفريقين موضع اضطهادٍ ومُخربةٍ وازدراء .

ولقد قالت أم كثير الضبيّة لما هدم اليمينيون دُورَ المضربة أثناء الحروب التي كانت بين نصر والكرماني بسبب العصية :

لا بارك الله في أئني وصلبها • تزوجت مُفسراً آخر الدهر  
أبلغ رجال تميم قولٌ مُوجبة • أحلتموها بدار النلّ والفقر  
إن أنتم لم تكروا بعد جوثكم • حتى تعيلوا رجال الأزد والظهير  
إني استحييت لكم من بذل طاعتكم • هذا المزوني يجهنم على فهير

وقال شاعر آخر :

ألا يا نصر قد برح الخلفاء • وقد طال الفتي والرجاء  
وأصبحت المزونُ بأرض مَرَو • تُقضى في الحكومة ما تشاء  
يمسوز قضائهما في كل حُكم x على مُخبر وإن جار القضاء

وَجِيرُ فِي جَالِهَا قَعُودٌ \* تَفَرَّقَ فِي رِقَابِهِمُ الدَّمَاءُ  
فَإِنْ مُضِرٌّ بِذَا رَضِيَتْ وَذَلَّتْ \* فَطَالَ لَهَا الْمَذَلَّةُ وَالشَّقَاءُ  
وَإِنْ هِيَ أَعْتَبَتْ فِيهَا وَلَا \* خَلَّ عَلَى عِصَاكُهَا الْعَفَاءُ

ولقد استغلَّ الدعاة العباسيون العصبية، التي فُتت في عَصِيدِ الأمويين ومزقتهم أشتاتا وطرائق قديدا، خيرا استغلالا، وهو ما كان له أبلغ أثر في القضاء على سلطان بني أمية .  
ذلك أن نصر بن سيار، وهو عامل نراسان، قد تحامل على الإيْن وريسة وقدم المضربة فوثب به جديع بن علي الكرمانى الأزدي، وكان رئيس الأزد يومئذ ورجلهم، وقال له : ندك وفلك ومالت معه إيمانية وريسة فأخذه نصر وحبس به؛ فأتى الإيْن وريسة حتى أخرجوه من بحرى كنيف ! ثم اجتمعوا . ورأى نصر أن يخذله فيصير إليه، فلم يفعل . وكان في نصر بعض الخرق . فلما علم جديع أن الإيْن وريسة قد اجتمع رأبها معه على نصروثب فخاربه، وكان له العلو على نصر، فقال أبو مسلم إلى الكرمانى فقال : ادع إلى آل مجد، وجعل يُبَايِل أصحابه ويدعوهم إلى ذلك، حتى أظهروا دعوة بني هاشم بخراسان .

هذا ما كان من أمر العصبية بين العرب واستغلالها في إظهار الدعوة لبني العباس .

على أنه يجدر بك، ألا يمزب عن ذهنك، أن العصبية وإن كانت قد خدمت العباسيين أجل الخدم فكانت معول هديم وعادِل فناء في صريح الأموية، كان ضرامها وأجيجها وحروبها وفتنها لم تُخمد سراجا، ولم ترجع أمور العباد إلى نصابها من المواقمة وحسن المصانة بتيسير حال، بل أخذت دورها المحتوم، وكانت حنكا وقنادا، الفينة بعد الفينة، في بعض الولايات والأصهار، لبني العباس أنفسهم، كما ستقف عليه فيما سنمرده عليك، من خلاصة أخبارهم، ومجمل تاريخهم .

## (ج) الموالى :

لما فضفت الخلافة الى الأمويين، كان عددُ الموالى آخذًا فى الازدياد، بسبب ما جلبته الفتوحُ الإسلامية من الأسرى، وما كان يُهديه الولاة الى الخلفاء من الرقيق، فإن الولاة كثيرا ما كانوا يبعثون الى الخليفة جمات أو ألوف من الرقيق الأبيض أو الأسود هديةً أو بدلًا من الخراج أو نحوه .

ومن كان يحرم من هؤلاء يمتق أو مكتنية أو تدبير يصير مولى، وينسب الى أسرة معتقه أو قبيلته، مع ملاحظة عدم أهليته للبناء على قرشية أو عصرية .

كثُر عددُ الموالى جدًا، فانصرف فريقٌ منهم الى الصناعة، وآخرون الى الزراعة أو غيرها من شؤون الحياة، وانصرف فريقٌ آخر الى العلوم والفنون والآداب، فكان منهم جملةُ الفقهاء ورواة الحديث، كما كان منهم الشعراء والكُتّاب والمفتون، وتولت طائفةٌ منهم المناصب السامية فى الدولة كالقضاء والجمابة وما الى ذلك .

على أنه مع ما كان لكثيرين من الموالى من قدِيم راحية، ومنازلة رفيعة، فى العلم والأدب والفنون، كان العرب ينظرون اليهم دائمًا نظرة احتقار وازدراء .

وكان هذا الاحتقار والازدراء . يظهر فى معاملة العرب للموالى وأحاديثهم عنهم . ولما كان الموالى أهل علم وأدب، ويشمى كثيرٌ منهم الى دول كان لها من السلطان ومظاهر الحضارة حفظٌ عظيمٌ، بل كان للفرس وجلُ الموالى منهم سيادة ظاهرة على العرب قبل الإسلام - لما كان كلُّ هذا عظم على الموالى أن يحتملوا كلَّ هذا الضيم من العرب فاندفعوا يذودون عن شرفهم وكرامتهم . ومن هنا نشأت الشعوبية . والشعوبية مذهب من يرى تفضيل العجم على العرب أو التسوية بين الفريقين . ثم أخذ الشعراء وغير الشعراء من الفريقين يتبارون فى إكبار كلِّ لفريقه والخط من الفريق الآخر .

. وكان نصيبُ الموالى فى حالة تمتدحهم لقومهم من الخلفاء الأمويين مدعاة الى زيادة مقترهم لهم وزيادة السخيمة فى قلوبهم عليهم . وإنا نثبت لك هنا مثالا استشهد به الأستاذ

«برون» في كتابه عن أدب الفرس نقلا عن الأغانى قال : «إن إسماعيل بن يسار دخل على هشام بن عبد الملك في خلافته، وهو بالرصافة جالس على بركة له في قصره، فاستنشه وهو يرى أنه يشد مديحا له ؛ فأشده قصيدته التي يفخر فيها بالعجم :

ياربع رامة بالعلاء من ريم \* هل ترجع إذا حيت تسليمي  
ما بال حى غدت بزل المطى بهم \* تحدى لغريتهم سيرا بتفحيم  
كأننى يوم ساروا شارب سلبت \* فؤاده قهوة من نمر داروم  
حتى انتهى الى قوله :

أتى وجدك ما عودى بذى خور \* عند الحفاظ ولا حوضي بمهدوم  
أصلى كريم ومجدى لا يقاس به \* ولى لسان كحد السيف مسموم  
أحى به مجد أقوام ذوى حسب \* من كل قرم بشاج الملك معموم  
بحاجج سادة بلج مرايزة \* جرد عشاق مسامح مطاعيم  
من مثل كسرى وسابور الجنود معا \* وأطرمزانت لفخري أو لتعطيم  
أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا \* وهم أذلوا ملوك الترك والروم  
يمشون في حلقى الماذى ساجدة \* مشى الضراخمة الأسد اللهايم  
هناك إن تسألى تلهي بأن لنا \* جرثومة قهرت عز الجرائم

قال : فغضب هشام وقال له : يا حاض بظر أمه ، أعلّ تفخر ، وإياى تشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك ! غطوه في الماء، فغطوه في البركة، حتى كادت نفسه تخرج، ثم أمر بإخراجه وهو يشتر، ونفاه من وقته، فأخرج من الرصافة متفيا الى الجمار. قال : وكان مبتلى بالعصية للعجم والفخر بهم، فكان لا يزال محروما مطرودا .

ولما كان شأن الخلفاء الأمويين شأن سائر العرب في التعصب على الموالى حتى كانوا يستعملونهم في الحروب مشاة ولا يعطونهم شيئا من الثنائم والقيء، نفرت نفوسهم منهم



وأصبح سلطانهم بغيرها اليهم، وصاروا عوناً لكل من خلع الطاعة، أو طلب الخلافة من العلويين أو الخوارج .

ولقد كان العباسيون يُدركون هذا الشعور فى الموالى، فاستغلوه خيراً استفلاي، إذ أخذوا حيلة المشرى بدعوتهم منهم، واعتمدوا كل الاعتماد عليهم . ورأى الموالى فى الدعوة الجديدة شفاء لما فى صدورهم من حقد على بنى أمية خاصة وعلى العرب عامة، فأخلصوا للدعوة الجديدة، وبذلوا فى تحقيقها كل ما يملكون من نفوس وأموال .

على أن لهذا الموضوع نواحى متشعبة، يحول دون التحدث فيها ما رسمناه لأنفسنا من التزام القصد والإيجاز .

## الفصل الثالث

### الدعوة العباسية

توطئة — تأليف الجماعات السرية — الدعوة العباسية وأبو مسلم الخراساني .

#### (١) توطئة :

كانت الدعوة العلوية تسير جنباً إلى جنب مع الدعوة العباسية ، فقد كان الفريقان مضطهدين مغلوبين على أمرهما ، وكان من المقول والطبي أن ظلم بني أمية لهؤلاء وهؤلاء يجمع ما تنفرد من أهوائهم ويُفقد حدة ما بينهم من عوامل التنافس والخلاف . وقد كان بنو هاشم أعداء للأُمويين قبل الإسلام بسبب التراحم على السيادة في قريش . ولشدة ما كان طلبُ السيادة والزعامة مدعاةً إلى المداوة والشحناء وسبباً إلى التناحر والتقاتيل بين بني الإنسان !

جد العباسيون في دعوتهم السياسية وهم في الحميمية من أعمال البقاء بالشام ، وزادوا حميةً وحاسةً بتزل أبي هاشم بن محمد بن الحنفية العلوي زعيم الحزب الكيساني لمحمد بن علي بن عبد الله بن عباس حين دس إليه سليمان بن عبد الملك من سمه ، إذ رأى فيه من المهابة والوقار ما يؤهله للخلافة ويقوّبه من قلوب الجماهير . وقد كان في تزل أبي هاشم هذا صاحب الدعوة العباسية توحيداً لحزبين قويين : هما الحزب العباسي<sup>(١)</sup> والشعبة الكيسانية . وهذا التوحيد أو التقريب بين الحزبين كانت ثمرة الحزب العباسيين .

#### (ب) تأليف الجماعات السرية :

عمل العباسيون في تأليف الجماعات السرية للدعوة ، واختاروا من الدعاة اثني عشر تقبياً وهم : سليمان بن كثير الخزازي ، ومالك بن الحيثم ، وطلحة بن زريق ، وعمر بن أعين ،  
(١) هذا رأينا وروى استاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار : « أنه لم يكن لبني العباس حزب قبل أبي هاشم » .

وعيسى بن أمين، وقطبة بن شبيب الطائي، ولاهر بن قريظ التميمي، وموسى بن كعب، والقاسم بن مجاشع، وأبو داود خالد بن إبراهيم الشيباني، وأبو علي الحروري شبل ابن طهمان الحنفي، وعمران بن اسماعيل الميضي .

واختار محمد بن علي سبعين رجلاً يأترون بأمر هؤلاء الدعاة . وكتب إليهم كتاباً يُوصيهم فيه بما يرجو أن يوقفوا إلى العمل به وهم يوجهون الدعوة ويمارون الأحزاب .

وهذا الكتاب يدل على ما كان عليه هذا الزعيم العباسي من علم بأحوال الناس في عصره، وبصير بأخلاق الشعوب التي كانت خاضعة للسلطان الإسلامي، وبما كانت تجيش به النفوس في كل صُقع وحاضرة . وبمثل هذا الزعيم الداهية ومن اجتباها للدعوة العباسية ، قد كُتِبَ الفوز لهذه الدعوة آخر الأمر . ومما قاله هذا الزعيم في كتابه :

« أما الكوفة وسوادها فشيعة علي وولده . وأما البصرة وسوادها فمثنائية تُدِين بالكُف يقول : كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل . وأما الجزيرة فحرورية مارقة وأعراب كاعلاج ومسامون في أخلاق النصارى . وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبي سفيان وطاعة بني مروان، وعداوة راسخة وجهلاً متراكماً . وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر . ولكن عليكم بغراسان، فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر، وهناك صدور سليمة، وقلوب فارغة لم تنقسمها الأهواء ولم يتوزعها الدُّل، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ويلي وشوارب، وأصوات هائلة، ولغات نغمة تخرج من أجواف منكرة ... وبعد، فإنني أتأمل إلى المشرق، وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق » .



### (ج) الدعوة العباسية وأبو مسلم الخراساني :

كان الدعاة العباسيون يتنقلون في مختلف الأمصار ، وكانوا في ظاهر الأمر طلاب رزق يزاولون التجارة ، وكانوا في الواقع رجال سياسة ودهاء يثبون الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويدعون الناس الى مناصرتهم بشئ الأساليب .

وظلوا كذلك الى أن توفى محمد بن علي ، وعهد بالأمر من بعده الى ابنه ابراهيم الإمام . فكتب هذا مشايخ خراسان ودهاقينها ، وبعث اليهم الدعاة ، وأرسل أبا مسلم خراساني لبث الدعوة هناك ، فكان يدعو الى آل محمد ، يريد أهل البيت ، من غير أن يعين العباسيين ولا العلويين .

وقد كان أبو مسلم من أبطال الحرب والسياسة ، شديداً للإخلاص للعباسيين ، مُمرقاً في خدمتهم ، كثير الدماء ، واسع الحيلة ، خبيراً بما يقتضيه عمله من الحزم والقسوة ، فلا تعرف الرحمة قلبه ، ولا يتناول الأمور إلا بالحزم والبأس الشديد .

ونستطيع أن نتبين مرمى السياسة العباسية من الكتاب الذي بعث به ابراهيم الإمام الى أبي مسلم الخراساني ، فيما يرى أن عمله لتأييد الدولة الجديدة . قال : « إنك رجل منا أهل بيت ، احفظ وصيتي : انظر هذا الخي في اليمن فالزمهم وأسكن بين أظهرهم ، فإن الله لا يؤتم هذا الأمر إلا بهم . وأنتهم ربيعة في أمرهم . وأما مضرفانهم العدو القريب الدار . واقتل من شككت فيه . وإن استطعت ألا تدع بخراسان من يتكلم بالعريسة فافعل . وأيام غلام بلغ خمسة أشبار تهمه فأقتله » .

وقد حرص أبو مسلم على تنفيذ هذه الوصية ، فكان يسرع الى قتل كل من يهيمه ، ويقضي على كل من يرتاب في أمره ، حتى بلغت صفحايا هذه الخطبة فيما يقول المؤرخون العرب ، ستمائة ألف نفس قُتلت صبرا .

ومهما اقتضت المبالغة والغلو في إيرادهم هذا العدد، فإن الواقع أن أبا مسلم قد أسرف أَيْماً إسرائيف في القتل وسفك الدماء تنفيذاً لوصية الإمام .

حلَّ أبو مسلم نحرسان سنة ١٢٨ هـ فساسها بحزمه ودهائه وقوته، وأقام بقرية من قرى مرو يقال لها "سفيدنج"، وقد كثُر أنصاره وأنشأ الناس عليه من كل صوب، فاعلن فيهم لبس السواد واتخذ شعاراً للعباسيين، ثم غيّر شكل صلاة العيدين بأن بدأ بها قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة، وكانت بنو أمية تبدأ بالإقامة كهلاة يوم الجمعة، وأمر بأن يُكبر ست تكبيرات تبعاً، وكاتب نصر بن سيار الوالي الأموي . ولما ضاقت "سفيدنج" عليه ولم تسع لأنصاره، رحل إلى الماخوان، وكانت عدّة رجاله، فيما يقول المؤرخون، سبعة آلاف رجل . ثم احتال في التفرقة بين نصر ورجاله، حتى أخذ بناءً خصمه بنهار، ويقتل عنه أنصاره واحداً بعد واحد . وفي هذا يقول نصر شعراً بعث به إلى مروان الحمار الخليفة الأموي :

أَرَى بَيْنَ الزَّهَادِ وَمِیْضِ نَارٍ • وَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لَهَا ضِرَامُ  
فَإِنْ لَمْ تُطْفِئْهَا عَقْلًا قُومَ • يَكُونُ وَقُودُهَا جُثَّتْ وَهَامُ  
فَإِنْ النَّارَ بِالْعُودَيْنِ تُدَكِّي • وَإِنَّ الْحَرْبَ أَوَّلُهَا كَلَامُ  
فَقُلْتُ مِنَ التَّعْجَبِ لَيْتَ شَعْرِي • أَلْأَيْقَاطُ أُمِيَّةٌ أَمْ نِيَامُ

فلما ورد هذا الشعر على مروان لم يُحب عليه بما يجب أن يُحب به الملك الحازم الحريص على ملكه المبق على عرشه : من مبادرته بإرسال الكاتب والجيش لكبح الثارين على الملك أو إعداده المدات لإرسالها، وإنما كتب إلى نصر كتاباً يمثل الضعف والاستسلام، ويُنبئ بيمينه إلى سياسة القول والكلام، في موضع يتطلب تقليد الرمح والحسام، يقول فيه :

(١) الماخوان يضم الخاء، المسجدة وكثرة نون : ثمرة كبيرة ذات ثمانية وجامع من قرى مرو ومنها خرج أبو مسلم صاحب الدعوة إلى الصراة .

« إن الحاضر يرى ما لا يرى الغائب ، فاحسب أنت هذا الداء الذي قد ظهر عندك »  
فقال نصر لأصحابه : « أما صاحبكم فقد أعلمكم أنه لا نصر عنده » .



يجب ألا يفوتنا أن تُشيرَ هنا الى ناحية مهمة في خلق أبي مسلم تمثل ما يجب على  
القواد من الحزم والكتيان ، فقد جاء في « كتاب المحاسن والمساوي » للبيهقي ما نصه :  
« قيل لأبي مسلم صاحب الدولة : بأي شيء أدركت هذا الأمر ؟ فقال : أدركت  
بالكتيان ، وأترت بالحزم ، وحالفت الصبر ، وساعدت المقادير ، فأدركت ظني وحزني حد  
بقي . وأشد :

أدركت بالحزم والكتيان ما عجزت \* عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا  
ما زلت أسمى عليهم في ديارهم \* والقوم في غفلة بالشام قد رقدوا  
حق ضربتهم بالسيف فانتبهوا \* من نومة لم ينمها قبلهم أحد  
ومن دعى غنا في أرض مبيعة \* ونام عنها تولى رعيها الأسد اهـ

على أن مروان استيقظ أخيراً من غفوته ، وانتبه من غفلته ، وأمر بأخذ إبراهيم بن  
محمد ، فلما قبض عليه في الحبيسة بالبقاء أوصى بالأمر الى أخيه أبي العباس ، وأمر أهله  
وأنصاره بالمسير الى الكوفة ، وحضهم على السمع والطاعة لأبي العباس .

وقد حُسِبَ إبراهيم بن يحيى « حزان » مع جماعة من خصوم مروان من بني أمية ، وظلَّ  
في سجنه حتى مات . وقد اختلف المؤرخون في كيفية موته ، فمنهم من قال : إنه سُقِيَ سُمًّا ،  
ومنهم من قال : هُذِمَ عليه بيتٌ فمات .

على أن المؤرخين وإن اختلفت أقوالهم في كيفية موته قد أجمعوا على أنه قد مات  
غيلةً وانتقاماً . وقد رثاه بعض الشعراء فقال :

قد كنت أحسبني جليلاً فضعفني \* قبرٌ بجوانٍ فيه عصمة الدين  
فيه الإمام وخير الناس كلهم \* بين الصفايح والأبحار والعطين

فيه الإمام الذي عمت مصيبتُهُ \* وعملت كل ذى مال ومسكين  
فلا عفا الله عن مروان مظامة \* لكن عفا الله عن قال آمين

ثم انتقل الأنصار إلى الكوفة، وقد ساعدتهم أبوسامة الخلال المعروف "بوزر آل محمد"،  
ولكنه عدل عنهم أخيراً . وقيل : إنه كاتب ثلاثة من أعيان بني علي : يعرض الخلافة  
على أحدهم وهم : جعفر الصادق بن محمد الباقر، وعبدالله المحض بن حسن، وعمر الأشرف  
ابن زين العابدين ، وكانت خاتمة حياته القتل .

وزيد بعد الذي قدمناه أن نلم بحياة الخلفاء العباسيين الذين سبقوا المأمون، نرى كيف  
كانت الحياة السياسية في عهدهم الذي كان بلا شك نواة صالحة لعصر المأمون . وإنا  
نرجو، إذا وقفنا إلى بيان المناحي التي امتاز بها هؤلاء ، أن ينكشف الغطاء عن حقيقة  
أمرهم ومكائهم التاريخية ، كما نرجو أن نطلع من وراء تفهم أقدارهم وحقيقة عصورهم  
بتفهم الأصول التي كونت العصر الذي من أجله وضع هذا الكتاب .

## افصل الرابع

### أبو العباس السفاح

كان أبو العباس السفاح أوّل من تولى الخلافة العباسية ونقل الملك من بني أمية الى بني العباس . وقد أجمع المؤرخون على أنه كان وافر الكرم ، ظاهر المروءة ، جليل الوقار ، كثير الحياء ، حسن الأخلاق ، وصوّلاً لذوى الأرحام .

وكان الى جانب هذه الأخلاق السميحة الرضية ، يجمع قلباً ذكياً وأنفاً حياً ، في تعقب الأمويين وتبديد شملهم ، في كل بقعة يخشى أن تُسمع لهم فيها كلمة ، أو يطلع لهم رأى ، أو يؤثّر عنهم صليحٌ . وكانت هذه الدولة الناشئة تحتاج الى مثل هذه القسوة من مثل أبي العباس السفاح .

ويجب أن نذكر ، دائماً في مثل هذه الظروف ، أنّ جلّ الملوكة الذين يُعنوا لإنشاء دول جديدة ، وممالك جديدة ، وأسرار ملكية جديدة ، مثل أبي العباس السفاح وغيره ، هم مُكرهون لا محالة على استعمال القسوة وأخذ الأمور بالحزم والشدّة ، دون إغفالهم المودعة والملائنة فيما لا يهدد عروش ملكهم وصروح سلطانهم .

قالوا : إنه كان في بعض أيامه جالساً في مجلس الخلافة وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك وقد أكرمه وتوسط معه حتى دخل عليه سديف الشاعر وأنشده :

لا يفتونك ما ترى من رجال \* إنّ تحت الضلوع داءً دويّاً

فضبح السيف وأرفع السوط حتى \* لا ترى فوق ظهرها أمويّاً

فقال له سليمان : قتلتني يا شيخ ! ودخل السفاح وأخذ سليماناً فقتل .

وهذا الذي صنعه السفاح أصبح سنة عباسية في تأييد الملك . وكان قليل من الإغراء كافيّاً في حق من تقع عليه العين من خصوم الخلافة ، فقد دخل شبيل بن عبد الله مولى



بنى هاشم على عبد الله بن علي، وعنده من بنى أمية نحو تسعين رجلا على الطعام، فأقبل عليه فقال :

أصبح الملك ثابت الأساس \* بألها ليل من بنى العباس  
طلبوا وتر هاشم فشقوها \* بعد ميل من الزمان وياس  
لا ثقيل عبد شمس عثارا \* واقطنن كل رقلة وغراس  
خوفهم أظهر التوقد منهم \* وبهم منك كثر المواسي  
ولقد ساءنى وساء قبيل \* قربهم من تحاريق وكراي  
أزلسوها بحيث أزلى الله \* بدار الموانئ والإساس  
واذكروا مصرع الحسين وزيد \* وقتيلًا بجانب المهراس  
والقتيل الذى يحزان أمسى \* رهن ريس فى غربة وتاسى

فأمر بهم عبد الله فضرىوا بالعمد حتى قتلوا، وبسط النطوع عليهم، فأكل الطعام عليها وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعا .

ولم تقف هذه الوحشية عند حد التنكيل بالأحياء، بل تعدت إلى الأموات، فقد ذكر أن عبد الله بن علي أمر بنيش قبور بنى أمية بدمشق، فنُيش قبر معاوية بن أبي سفيان فوجدت فيه عظام كأنها الرماد . ونُيش قبر عبد الملك بن مروان فوجدت فيه جميعته . وكان لا يوجد في القبر إلا العضو بعد العضو، غير هشام بن عبد الملك فقد وجد صحيفا لم يزل منه إلا أرنبة أنفه، فضره بالسياط وصلبه وأحرقه وذراه في الريح . ثم تعقب أولاد الخلفاء من بنى أمية فلم يُلُت منهم إلا من كان في المهدي صلبا . وأدرك بعض الحارثيين إلى الأندلس فقتلهم بنهر أبي قطرس<sup>(١)</sup>، وكان فيمن قتل محمد بن عبد الملك بن مروان، والغمر

(١) نهر أبي قطرس يضم الفناء وسكون الطاء وضم الراء وسين مهمل : موضع قرب الرملة من أرض فلسطين به

كانت رقعة عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس مع بنى أمية فقتلهم في سنة ١٣٢ هـ .

ابن يزيد بن عبد الملك ، وعبد الواحد بن سليمان ، وسعيد بن عبد الملك ، واستصفي بعد ذلك ما كانوا يملكون من نَسَبٍ وِمالٍ ؛ فلما فرغ منهم تفتى بهذه الأبيات :

بني أمية قد أفنيت جميعكو \* فكيف لي منكوب بالأول الماضي  
يُطَيَّبُ النَّفْسُ أَنْ النَّارَ تَجْمَعُ \* عَوْضَتُهُ مِنْ لُظَاهَا شَرُّ مُنَاطِضِ  
مُنِيْمُو - لَا أَقَالَ اللَّهُ عَثْرَتَكُمْ - \* بليت غاب الى الأعداء نَهَاضِ  
إِنْ كَانَ حِطْيُ لَمَوْتٍ مِنْكَو فَقَدْ . \* مُنِيْتُ مِنْكُمْ بِمَا رُبِي بِهِ رَاضِي

قلنا : إن السفاح كان الى جانب هذه القسوة بَرًّا ببنوي رحمه ، وَصُولًا لَهُمْ . ولنذكر مثالا لذلك : تصرفه مع آل الحسن بن عليّ الذين بايع بعضُ العباسيين رجلاً منهم هو محمد ابن عبد الله كما بينا من قبل ؛ فقد روى عبد العزيز بن عبد الله البصري عن عثمان بن سعيد ابن سعد المدني : أنه لما وَجَّهَ الخِلافةَ أبو العباس السفاح قدم عليه بنو الحسن بن علي بن أبي طالب فاعطاهم الأموال وقطع لهم القطائع ، ثم قال لعبد الله بن الحسن : احْكَمْ عَلَيَّ ؛ قال : « يا أمير المؤمنين بألف ألف درهم ، فإنني لم أرها قط » ، فاستقرضها أبو العباس من ابن مقرن الصيرفي وأمر له بها . قال عبد العزيز : لم يكن يومئذ بيت مال ، ثم إن أبا العباس أتى بجوهر مروان فجعل قلبه وعبد الله بن الحسن عنده فبكى عبد الله ؛ فقال له : ما يُبْكِيكَ يا أبا محمد ؟ قال : هذا عند بنات مروان وما رأيت بنات عَمَلِكِ مثله قط ؛ قال : فخباه به ، ثم أمر ابن مقرن الصيرفي أن يصل اليه ويتابعه منه فاستتراه منه بمائتين ألف دينار .

عل أن هذا الرفق واللين ، وهذه السياسة والحكمة ، لم تُبْسِ أبا العباس السفاح ما يجب عليه من مراقبة الطالبين ، والتسمع لما قد يجيش في خواطرهم ، من الخروج عليه أو الكيد له ؛ فإن صلة الرحم من مثل السفاح لا تكون ظاهرة خَلْقِيَّةً بقدر ما تكون حيلةً سياسيةً ؛ وكذلك رأياه يقول لبعض نفعاته وقد خرج من عنده بنو الحسن :

« قُمْ بِإِزَاهِمٍ وَلَا تَأَلْ فِي لِطَافِهِمْ ، وَأَظْهَرِ الْمَيْلَ إِلَيْهِمْ وَالتَّحَامَلَ عَلَيْنَا وَعَلَى نَاحِيَتِنَا ، وَأَنْهُمْ

أحقُّ بالأمر منا كما خلوت بهم، وأحسُّ لى ما يقولون وما يكون منهم فى مسيرهم ومقدِّمهم» .

وبما ذكرناه يرى القارئ معنى أن السفاح قد جمع حقًّا بين القسوة واللين، وأنه لم يكن فى حُفِّه بأخطر منه فى رفقته، وإنما كان يلين ليستلَّ بخيعة مدفونة أو ليستدرج بعض الحافدين، ويقسوليرى أعداءه أن لا أمل لهم فى الكيد لذلك السيف المسلول .

ومهما يكن من شئ، فإن خلافة أبى العباس كانت أقصر من أن تسمحَ لخصاله وأخلاقه بالظهور والتأثير القويِّ فى سياسة الدولة وسيرة خلفائها .

ولو عمَّر السفاح لكان من الممكن أن يرسم خلفائه خطةً تُجنِّبهم بعض ما توزَّعوا فيه من الاضطراب .

## الفصل الخامس

### أبو جعفر المنصور

كان المنصور ملكاً، شديد الرأي، مُحْكَم التدبير، وكان قوًى العزيمة، جرىء القلب، يمضى الى غايته مُضَيِّ السهم الى الرميّة لا يثنيه عنها شيء. سياسياً حاذق لا يقبل أن تتدخل في سياسته عاطفة ولا خُلق ولا اعتبار آخر إلا فوزه السياسى ليس غير. وهو الى ذلك داهية، وربما اضطره الدهاء الى شيء إن لم يكن الإثم الخلقى فهو يشبهه في كثير من الأحيان.

وهو من هذه الناحية أحد أولئك الساسة الذين عرّفهم التاريخ من حين الى حين بالإقدام غير تردد ولا لين ولا تهيّب للوسائل، والذين مثّلهم «ميكافلي» أحسن تمثيل. فقد ذكر ابن الأثير أنه أحضر مرة ابن أخيه عيسى بن موسى وأمره بالمسير الى المدينة لقتال محمد بن عبد الله، فقال: شاور همومك يا أمير المؤمنين، قال المنصور: فأين قول ابن هرمة:

نور أمراً لا يَنْفُض القوم سِرَّهُ \* ولا يتجى الأدين فيما يحاول  
إذا ما أتى شيطاً مضى كالذى أتى \* وإن قال إلى فاعل فبسو فاعل

ثم قال: امض أيها الرجل! فوالله ما يراد غيرى وغيرك، وما هو إلا أن تشخص أنت أو شخص أنا، فسار وسير معه الجنود. وقال المنصور لـ سار عيسى: «لا أبالي أيهما قتل صاحبه!».

وكان الى جانب ذلك، كما قال الجاحظ،: مُقَدِّماً في علم الكلام ومُكثِّراً من كتاب الآثار، وللكلامه كتاب يدور في أيدي العارفين والوزّاقين معروف عندهم.

وفي وصف المنصور يقول يزيد بن هبيرة : « ما رأيت رجلا قط في حرب ولا سمعت به في سلم أمكر ولا أبدع ولا أشد تيقظا من المنصور، لقد حصرني في مدينتي تسعة أشهر وسعى فرسان العرب، بلفهدنا كل الجهد أن ننال من عسكره شيئا نكسره به فإتينا ، ولقد حصرني وما في رأسي بيضاء، فخرجت إليه وما في رأسي سوداء » .

وكان المنصور يعطى في موضع العطاء ويمنع في موضع المنع، ولكن المنع كان أغلب عليه، حتى ضرب المثل بشحه وسمى « أبا الدوايق » ، لشدة في محاسبة العيال والصناعات على الحبة والدنانير .

وقد يكون من المستطرف أن نذكر شيئا مما رواه الطبري في تمثيل هذه الناحية من أخلاق المنصور، فقد جاء فيه : أن واحدا مولاة قال : « إني لواقف يوما على رأس أبي جعفر إذ دخل المهدي وعليه قباء أسود جديد، فسلم وجلس، ثم قام منصرفا وأتبعه أبو جعفر بصرة، لحبه له وإعجابه به، فلما توسط الرواق عتر بسيفه فتخزق سواده، فقام ومضى لوجهه غير مكترث لذلك ولا حافل به ، فقال أبو جعفر : ردوا أبا عبد الله فرددناه ، فقال : يا أبا عبد الله، أستقللا للواهب ! أم بطرا بالنعمة ! أم قلة علم بالمصيبة ! كأنك جاهل بما لك وما عليك ! » .

فانظر إليه كيف لام ابنه ولى عهده، وقد كان عنده أثيرا، ولأمله بمحض من حاشيته في شيء ليس ذا بال عند أوساط الناس فضلا عن انخلاء ! .

ومهما يقتدرُ للمنصور بحرصه على الاقتصاد في أحوال دولة ناشئة، وأخذ ولى العهد بتجنب الإسراف والإهمال، فقد نرى أن هذه الحادثة وأمثالها مما سنويه لك ، تُظهرُ ناحيةً صغيرةً من نفسية المنصور، فقد كانت أمامه جلائل الأعمال في الدولة يستطيع أن يُظهرَ فيها ميله إلى الحرص والاقتصاد، دون أن يُسيءَ إلى هذه الصفات .



على أننا لا نستطيع أن نمتنع عن ذكر معاوية مؤسس الدولة الأموية والمقارنة بينه وبين المنصور مؤسس الدولة العباسية حقا من هذه الناحية؛ فقد كان معاوية، كما رأيت،

أكرم الناس، وأشدّهم تسخيماً للأموال العامة والخاصة، في الأغراض السياسية. وكان المنصور أشجع الناس بالأموال العامة والخاصة، يؤثّر التضحية بالدماء والكفالات في سبيل أغراضه السياسية على التضحية بالأموال.

ولعل من الإنصاف أن نلاحظ الفرق بين المصريين، وبين الدطام التي اعتمد عليها الرجال في إقامة ملكهما. فقد كان معاوية في بيئة عربية، لم تحلّص بعد من البداوة ولا من سماعة الدين، فكان الحلم والكرم أليق به وأنفع، بينما كان المنصور في بيئة من الفرس والموالي، تأثراً بالحضارة شديد، وحفظها من الدين قليل.

ولو بسط معاوية سلطانه بالسيف لقتل، ولكننا نرى أن لو بسط المنصور سلطانه بالمال في شيء من الحزم لوفّق ولحقن الدماء ورسم خلفائه خطة أقرب إلى الدين والعافية من هذه الخطة العنيفة التي سترها في سيرة أكثرهم.

وحدث الوضين بن عطاء قال: «استتراني أبو جعفر، وكانت بيني وبينه خلالة قبل الخلافة، فصرّت إلى مدينة السلام، نفقونا يوماً فقال لي: يا أبا عبد الله، ما مالك؟ فقلت: الخيل الذي يعرفه أمير المؤمنين؟ قال: وما عيالك؟ قلت: ثلاث بنات والمرأة وخادم لمن؟ فقال لي: أربع في بيتك؟ قلت: نعم. قال: فوالله لردّد ذلك عليّ حتى ظننت أنه سيموتني. قال: ثم رفع رأسه إلى فقال: أنت أيسر العرب، أربع مغازل يدرن في بيتك!»

على أن فتح المنصور لم يكن يخلو أحياناً من بعض الظرف والفكاهة؛ فقد ذكر إبراهيم ابن عبد الرحمن أن أبا جعفر كان نازلاً على رجل يقال له أزهري السمان قبل خلافته، فلما ولي الخلافة زاره الرجل وطلب صلبته، فوصله ثم عاوده فوصله، وجاءه في الثالثة فقال له المنصور: يا أزهري ما جاء بك؟ قال: دعاء سمعته منك أحببت أن آخذه عنك، قال: لا تردّه فإنه غير مستجاب، لأنّي قد دعوت الله أن يريني من خلقك فلم يفعل! وصرفه ولم يعطه شيئاً.

وربما كان من العدل التاريخي أن نخطأ أمام هذه الروايات الكثيرة التي أسرف المؤرخون في روايتها إثباتاً لبطل المنصور ونجته ؛ فقد يكون مصدرها ما ألقوه من إسراف الخلفاء ، ولعل المنصور لم يبلغ أكثر من أنه كان شديد الميل الى الحريص والتدبير ، والنفرة من الملحقين ، وأخذ أهل بيته بذلك كله .

ولم يفت المنصور أن يعلل ذلك البطل ؛ فقد جاء في عيون الأخبار أنه قال في مجلسه لقواده : « صدق الأعرابي حيث يقول : أجمع قلبك بقلبك » فقام أبو العباس الطوسي وقال : « يا أمير المؤمنين ، أخشى أن يلوح له غيرك برغيف فيتبعه ويدلك ! » . وقد كان أبريز أحكم من المنصور ، إذ قال لابنه شيرويه وهو في حبسه « لا تؤسعن على جندك فيستغنوا عنك ولا تُصَيِّقن عليهم فيضجوا منك ، أعطهم عطاء قصدا ، وأمتهم متعا جميلا ، ووسع عليهم في الرعاء ، ولا تُسِرِف عليهم في العطاء » .



وليس أدل على الشخصية السياسية لهذا الخليفة من سيرته مع ثلاثة ، هم في حقيقة الأمر أكبر زعماء الدولة في عصره . فهذه السيرة تُبين لك ، في وضوح وجلاء ، ما قدمناه من أن المنصور كان « ميكافلي » السياسة ، لا يُحجِمُ عن الفدر وقطع الرحيم وكفر النعمة ، إذا رأى منفعتَه في ذلك .

وهؤلاء الزعماء هم أولا : أبو مسلم الذي أخلص في نُصرة المنصور والسمير على ملكه ، فلم يألُ جهداً في تعقب الخارجين على الملك ، لا يفرق في ذلك بين أشياخ المنصور وأهله من بني العباس ، ولا خصومه الذين يكيدون له في السر أو في العلانية ، فقتل الشيباني والكرماني وأبا سلمة الخلال ، وحارب عم المنصور عبد الله بن علي وأستولى على ما في عسكره من الفاتم والأسلحة . وثانيا : عمه عبد الله بن علي ، وهو الذي فعل ما فعل في نُصرة الدعوة العباسية وتحتيل خصومها من بني أمية ، فضلا عن حروبه الموفقة في صدّ جيوش مروان ؛ ومع ذلك فقد سَلَط عليه المنصور أبا مسلم فخار به وقهره ، ولما لم يصل الى قتله ، كلف ابن عمه عيسى

ابن موسى وإلى الكوفة أن يقتله، فلما لم يقتله تولى المنصور قتله بنفسه، ليأمن ما قد يحدثه من الثورة والاضطراب. وثالثا: ابن عمه ووليّ عهده عيسى بن موسى، وقد رأيت كيف أنخصه المنصور لقتال محمد بن عبد الله ملما في ذلك، حتى إذا أنخص قال المنصور: «لا أبالي أهما قتل صاحبه!». ثم ما زال المنصور يكيد لهذا الأمير حتى خلعه من ولاية العهد، وبايع مكانه لابنه المهدي، ثم مضى في الكيد له. وقد يكون من المفيد أن ننقل ما جاء في المستطرف عن خلق عيسى بن موسى من ولاية العهد بمعرفة المنصور، وما قاله ابن الأثير عن قتل عمه عبد الله بن علي، فإن فيا قالاه تصويراً دقيقاً لسياسة المنصور، وتمثيلاً لحرصه على الملك الذي كان لا يسالي في سبيل توطيده أن يتكث بما عقد من عهد، أو ينقض ما أبرم من ميثاق.

جاء في المستطرف: أن عيسى بن موسى لما غدر به المنصور ونقل ولاية العهد منه إلى المهدي ابنه أنشد:

أبلى بنو العباس ذيقَ ظهرو • بسيفي وثأر الحرب زاد سعيها  
فصحت لم شرق البلاد وغيرها • فندل معاديا وعمر نصيرها  
أقطع أرحاما على حربة • وأبدي مكيدات لها وأثيرها  
فلما وضعت الأمر في مستقره • ولاحث له شمس نلالاً نورها  
دُفئت عن الأمر الذي استحقه • وأوسق أوساقا من القدر ميرها

وجاء في ابن الأثير: أن المنصور أحضر عيسى بن موسى بعد أن خلع نفسه وسلم إليه عمه عبد الله بن علي وأمره بقتله وقال له: إن الخلافة صائرة إليك بعد المهدي فاضرب عقه، وإياك أن تضعفت فتنتقض على الأمر الذي دبرته. ثم مضى إلى مكة وكتب إلى عيسى من الطريق يستعلم منه عما فعل في الأمر الذي أمره، فكتب عيسى: «قد أنفذت ما أمرت به»، فلم يشك في أنه قتله. وكان عيسى حين أخذ عبد الله من عند المنصور دعا كاتبه يونس بن فروة وأخبره الخبر، فقال: أراد أن يقتله ثم يقتلك، لأنه أمر بقتله



سراً ثم يَدْعِيهِ عَلَيْكَ مَلَائِيَةً ، فَلَا تَقْتُلْهُ وَلَا تَدْفِنْهُ إِلَيْهِ سِرّاً أَبَداً وَأَكْتَمَ أَمْرَهُ ؛ فَعَمِلَ ذَلِكَ عِيسَى . فَلَمَّا قَدِمَ الْمَنْصُورُ وَضَعَ عَلَى أَعْيَانِهِمْ مَنْ يَمْزِجُكُمُ عَلَى الشَّفَاعَةِ فِي أَخِيهِمْ عَبْدِ اللَّهِ فَعَمِلُوا وَشَفَعُوا ، فَشَفَعَهُمْ ، وَقَالَ لِعِيسَى : إِنِّي كُنْتُ دَفَعْتُ إِلَيْكَ عَمِّي وَعَمَّتُ لِي كُنْتُ فِي مِثْلِكَ وَقَدْ كَلَّمَنِي عَمُّوئِيلُ فِيهِ ، وَقَدْ صَفَحْتُ عَنْهُ فَأَتَانَا بِهِ ؛ قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَلَمْ تَأْمُرْنِي بِقَتْلِهِ فَقَتَلْتُهُ ؛ قَالَ : مَا أَمَرْتُكَ ؛ قَالَ : بَلْ أَمَرْتُنِي ؛ قَالَ : مَا أَمَرْتُكَ إِلَّا بِحَبْسِهِ وَقَدْ كَذَبْتَ .

ثُمَّ قَالَ الْمَنْصُورُ لِعَمُّوئِيلَ : إِنَّ هَذَا قَدْ أَقْبَرَ بِقَتْلِ أَخِيكَ ؛ قَالُوا : فَاذْفَنْهُ إِلَيْنَا نَقْبِسْهُ بِهِ ؛ فَسَأَلَهُ الْبَيْتُ وَخَرَجُوا بِهِ إِلَى الرَّجَّةِ وَاجْتَمَعَ النَّاسُ وَشُهِرَ الْأَمْرُ وَقَامَ أَحَدُهُمْ لِقَتْلِهِ ، فَقَالَ عِيسَى : أَفَأَصِلُّ أَنْتَ ؟ قَالَ : إِي وَاهٍ ! قَالَ : رَكُونِي إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَرَدَّوهُ إِلَيْهِ ؛ فَقَالَ لَهُ : إِنَّمَا أُرِيدُ بِقَتْلِهِ أَنْ تَقْتُلَنِي ، هَذَا عَمَلُكَ حَتَّى سَوِيءَ ؛ قَالَ : أَتُنَا بِهِ فَأَتَاهُ بِهِ ؛ قَالَ : يَدْخُلُ حَتَّى آتَى رَأْيِي ، ثُمَّ انْصَرَفُوا فَأَمَرَ بِجَعْلِ فِي بَيْتِ أَسَاسِهِ مَلِيحٌ ، وَأُجْرِى الْمَاءُ فِي أَسَاسِهِ فَسَقَطَ عَلَيْهِ فَاتَ » .

وهذه الرواية يؤيدها أكثر المؤرخين من العرب . وقد فعل أبو مسلم مع سليمان بن كثير، وكان من أركان هذه الدولة، ما يُضَيِّفُ حَلَقَةً ، إِلَى سِلْسِلَةِ الْأَضْطِهَادَاتِ الَّتِي ارْتَبَكَتْ تَابِعًا لِهَذَا الْمَلِكِ ، فَقَدْ أَحْضَرَهُ إِلَيْهِ وَقَالَ لَهُ : أَنْحَفُظُ قَوْلَ الْإِمَامِ لِي : « مَنِ اتَّهَمْتُهُ فَاقْضِهِ ؟ » قَالَ : نَعَمْ ؛ قَالَ : فَإِنِّي قَدْ اتَّهَمْتُكَ ؛ خَافَ سُلَيْمَانُ وَقَالَ : أَنَا شِدْكُ اللَّهِ ! قَالَ : لَا تُتَاشِدُنِي فَأَنْتَ مَنْطُوعٌ عَلَى غُشِّ الْإِمَامِ ، وَأَمَرَ بِضَرْبِ عَقْبِهِ .

وقد سَمَّ النَّاسُ هَذِهِ الْحَالَةَ ، وَتَرَ بَعْضُ أَمْرَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ أَنْفُسَهُمْ احْتِجَاجًا عَلَى مَا رَأَوْا مِنْ الدِّمَاءِ ، فَقَدْ جَاءَ فِي الْأَغَانِي فِي إِخْبَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو الْعَقِيلِ الشَّاعِرِ الْخُضْرَمِيِّ : أَنَّ مُحَمَّدَ ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ لَمَّا سَمِعَ لِلْعَقِيلِ قَصِيدَتَهُ الَّتِي مَطَّلَعَهَا :

تَقُولُ أَمَامَةً لَمَّا رَأَتْ \* تُسَوِّرُ عَنْ الْمَضْجِعِ الْأَفْنِسِ

وَالَّتِي خَتَمَهَا :

فَمَا أَنَسَ لَا أَنَسَ قَتْلَاهُمْ \* وَلَا طَاشَ بَعْلُهُمْ مِنْ نَبِيٍّ

بكى واستعبر، فقال له عمه الحسن بن الحسن بن علي : أتبكي على بنى أمية، وأنت تريد ببنى العباس مارتد ! فقال : « والله يا عم لقد كنا نَقَمْنَا على بنى أمية ما نَقَمْنَا، فما بنو العباس إلا أقلُّ خوفاً لله منهم، وإنَّ الحجة على بنى العباس لأوجبُّ منها عليهم، ولقد كانت للقوم أخلاقٌ ومكارمٌ ليست لأبي جعفر ». وذكر الأصفهاني أيضاً : أن عمداً وآله وهبوا للشاعر مالا لمسته تلك، وهكذا تغيّرت نفوس آل البيت من إصراف العباسيين في الفتك والقتل.<sup>(١)</sup>

وماذا كان حظُّ أبي مسلم وكيف كان جزاءه على ذلك الإخلاص الدموى ؟  
كان جزاءه أن قُتل بيد الخليفة نفسه عملاً بسنته المعروفة : « أقتل من آتبعته »، مع أنه كان لا يقطع أمراً دونَه .

وقد ذكر الجاحظُ : أن المنصور لما هم بقتل أبي مسلم ، سقط بين الاستبداد برأيه والمشاورة فيه ، فأرق في ذلك ليته ، فلما أصبح ، دعا باسحاق بن مسلم العقيلي ، فقال له : حدثني حديثُ الملك الذي أخبرني عنه بجوان ، قال : أخبرني أبي عن الحصين بن المنذر : أن ملكاً من ملوك فارس ، يقال له سابور الأكبر ، كان له وزير ناصح ، قد اقتبس أدبا من آداب الملوك ، وشاب ذلك بهم في الدين ، فوجهه سابور داعية إلى نراسان ، وكانوا قوماً عجباً يعظمون الدين جهالةً بالدين ، ويحتلون بالدين استكانة لقوة الدنيا وذُلّاً لجبارتها ، بهمهم على دعوة من الهوى يكيد به مطالب الدنيا ، واعتز بقتل ملوكهم لهم وتخوّلهم إياهم ، وكان يقال لكل ضعيف صولةٌ ، ولكل ذليل دولةٌ . فلما تلاصحت أعضاء الأمور التي لقع ، استعالت حرباً حوثاً ، شالت أسافلها بأعاليها ، فانتقل العز إلى أرضهم ، والنباهة إلى أمحلهم ، فأشربوا له حبا مع خفض من الدنيا افتتح بدعوة من الدين ، فلما استوسقت له البلاد ، بلغ سابور أمرهم وما أحال عليه من طاعتهم ، ولم يامرُ زوال القلوب وغدرات الوزراء ، فأحتال في قطع رجائهم ، وكان يقال :

وما قُطِعَ الرجاء بمثل يأس \* تُبَادِده القلوب على اختار

(١) يخالفنا أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار في هذا الرأي بقوله : ( أحسب أن تغيّر آل البيت على بنى العباس إنما كان سببه أنهم تقسوا عليهم ما أتبع لهم من ملك مع احتقادهم أنهم أحق بذلك منهم ) .

فصنم على قتله عند وروده عليه برؤساء أهل نهرسان وفرسانهم، فقتله فبنتهم بجلت فلم يرعهم إلا ورأسه بين أيديهم، فوقف بهم بين الغربة، ونأي الرجعة، وتخطف الأعداء، وتفترق الجماعة، واليأس من صاحبهم، فرأوا أن يستموا الدعوة بطاعة سابور، ويتوضوه من الفرقة، فاذعنوا له بالملك والطاعة، وتبادروه بمواضع النصيحة، فلكنهم حتى مات حنّف أنه . فاطرق المنصور ملياً ثم رفع رأسه وهو يقول :

لذي الحلم قبل اليوم ما تُفزعُ العسا \* وما علم الإنسان إلا لبعسا

وأمر إصحاق بالخروج، ودعا بأبي مسلم فلما نظر إليه دخلا قال :

قد اكتشفتك خلأت ثلاث \* جلين طبعك محنور الحام

خلافك وامتناك ترمي \* وقودك للجاهل العظام

ثم وثب إليه ووثب معه بعض حشمه بالسيف، فلما رآهم وثب فبدره المنصور فضربه ضربة طوَّحه منها، ثم قال :

اشرب بكأس كنت تسقى بها \* أمرت في الحلق من العلقم

زعمت أن الدين لا يقتضى \* كذبت فاستوف أبا مجرم

ثم أمر لحز رأسه وبعث به إلى أهل نهرسان وهم ببابه، بغالوا حوله ساعة ثم ردهم عن شغبهم أقطاعهم عن بلادهم وإحاطة الأعداء بهم، فذلّوا وسألو له . فكان إصحاق إذا رأى المنصور قال :

وما ضربوا لك الأمثال إلا \* لتحذو إن حنوت على مثال

وكان المنصور إذا رآه قال :

وخلفها سابور للناس يُتدى \* بأمثالها في المضلات العظام

وما أجمل تلك الجملة التي قالها محمد بن عبد الله العلوي حين آمنه المنصور على نفسه فقد قال : أى أمان تعطينى : أمان ابن هبيرة، أم أمان عمك عبد الله، أم أمان أبى مسلم !

ولقد تنفس المنصور حين قَتَلَ أبا مسلم، حتى قال له بعض أقربائه ساعة قَتَلِه : عُدَّ هذا اليومَ أوَّلَ يومٍ من خلافتك !



على أنه من الحق أن نقدر أن عدوانَ المنصور وإسرافَه في التنكيل بخصومه له قيمته في الدلالة على عِرفانه بحق الملك وحرصه على نجاة الدولة من أخطار البغي، والخروج على النظام، ففي سبيل هذه الغاية أسرفَ في سفك الدماء وتقطيع الأرحام وقتل أمثال بنى الحسن والحسين، والديباج الأصفر، والنفس الزكية، وقتل عمه وقائده، وترك نِزَانَه وروس فيما ترك ميراثا لابنه المهدي .

ولقد كان مع هذه القسوة ثاقبَ الرأي محكمَ التدبير، وهو الذي يقول لابنه المهدي : «يا أبا عبد الله، ليس العاقلُ الذي يمتثلُ للأمر الذي وقع فيه حتى يخرج منه، ولكنه الذي يمتثلُ للأمر الذي حَشِيه حتى لا يقع فيه» .

وقد ذكر المؤرخون أنه كان إذا جنى على أحد جنايةً أو أخذ من أحد مالا جعله في بيت المال مفردا وكتب عليه اسمَ صاحبه، فلما أدركته الوفاة قال لابنه المهدي : «يا بني إني قد أفردت كلَّ شيء أخذته من الناس على وجه الجناية والمصادرة، وكتبت عليه أسماء أصحابه، فإذا وليت أنت فأعده على أربابه، ليدعوك الناس ويحبوك» . وفي عهد المنصور أنشئت «مهداد» موئل العلم ودار السلام .

## افضل الباس

المهدى

عيناي واحدة تُرى مَسْرُورَةً • بأمرها جُدُّى وأخرى تُذَرِّفُ  
تبكى وتضعك تارة ويسومها • ما أنكرت ويسرها ما تعرفُ  
فيسومها موتُ الخليفة مُحَرِّمًا • ويسرها أن قام هذا يخلِّفُ  
ما إن رأيتُ كما رأيتُ ولا أرى • شعرا أَسْرَحَه وأُخْرَأتُ  
هذا حياه الله فضلُ خلافةٍ • ولذلك جنأتُ النعيمَ تُرْتَعَفُ

بهذه الأبيات الرقيقة كان أبو دلّامة أوّل من تقدّم بتعزية المهديّ بوفاة والده المنصور  
وتهنئته بارتقاء عرش الخلافة سنة ثمان وخمسين ومائة للهجرة :

وقد كان المهديّ ، لِمَا أجمع عليه الرواة ، شَهِمًا قَاطِنًا كريما ، شديدَ البأس في تعقب  
المالعين والزنادقة ، لا تأخذه في إهلاكهم لومة لائم .

وكان كثيرا ما يجلس لردّ المظالم . وقد عُرِفَ عنه أنه كان إذا جلس للمظالم قال :  
« أدخلوا على القضاة ، فلو لم يكن ردّى للمظالم إلا للحياء منهم لكنى » . وروى الطبريّ  
في حوادث سنة تسع وستين ومائة أنّ مسوّر بن مساور قال : « ظلمنى ويكيل للمهدى  
وغصبني ضيعتي ، فأتيتُ سلّاما صاحبَ المظالم فتظلمت منه ، وأعطيتُه رُفعةً مكتوبةً  
فأوصل الرُفعة إلى المهديّ وعنده عمه العباس بن محمد وابنُ علامة وعافية القاضي ، قال  
فقال لي المهديّ : أدنّه فدنوتُ ؟ فقال : ما تقول ؟ قلتُ : ظلمتني ؛ قال : ترضى بأحد  
هذين ؟ قلتُ : نعم ؛ قال : فادنّ مني ؛ فدنوتُ منه ، حتّى الترفتُ بالقراش ؛ قال : تكلم ؛  
قلتُ : أصليح الله القاضي ، إنه ظلمني في ضيعتي هذا ؛ فقال القاضي : ماتتول يا أمير المؤمنين ؟  
قال : ضيعتي وفي يدي ؛ قال : قلتُ أصليح الله القاضي ، سله صارت الضيعَةُ إليه قبل

الخليفة أو بعدها؟ قال : فسأله ما تقول يا أمير المؤمنين؟ قال : صارت إلى بعد الخلافة؛ قال : فأطلقها له؛ قال : قد فعلت؛ فقال العباس بن محمد : والله يا أمير المؤمنين هكذا المجلس أحب إلى من عشرين ألف ألف درهم !



أما كرمه فسجية قديمة فيه، وبسببه نال عتب المنصور غير مرة . وقد ذكر الطبري أن المؤمل بن أميل قال : قدمت على المهدي بالري وهو ولي عهد، فأمر لي بعشرين ألف درهم لأبيات امتدحتني بها، فكتب بذلك صاحب البريد إلى المنصور، وهو بمدينة السلام، يخبره أن المهدي أمر لشاعر بعشرين ألف درهم؛ فكتب إليه المنصور بعدله ويقول له : إنما كان ينبغي لك أن تعطى الشاعر بعد أن يُقيم ببابك سنة أربعة آلاف درهم . قال المؤمل : فكتب إلى كاتب المهدي أن يوجه إليه الشاعر، فطلب فلم يُقدّر عليه، فكتب إليه : إنه قد توجه إلى مدينة السلام، فوجه المنصور قائدا من قواده، فأجلسه على جسر النوروان، وأمره أن يتصفح الناس رجلا رجلا ممن يتز به حتى يظفر بالمؤمل، فلما رآه قال له : من أنت؟ قال : أنا المؤمل بن أميل من زوّار الأمير المهدي؛ قال : لما لك طلبت؟ قال المؤمل : فكاد قلبي ينصدع خوفا من أبي جعفر، فقبض عليّ ثم أتى بي باب المقصورة وأسلمني إلى الربيع، فدخل إليه الربيع فقال : هذا الشاعر قد ظفّرنا به؛ فقال : أدخلوه عليّ؛ فأدخلت عليه، فسلمت فردّ عليّ السلام، فقلت : ليس هاهنا إلا خير؛ قال : أنت المؤمل بن أميل؟ فقلت : نعم، أصلح الله أمير المؤمنين؛ قال : هيه ! أتيت غلاما غرا فخذته، فقلت : نعم، أصلح الله أمير المؤمنين، أتيت غلاما كريما فخذته فأنخدع، قال : فكأن ذلك أعجبه فقال : أنشدني ما قلت فيه؛ فأنشدته :

هو المهديّ إلا أنّ فيه \* مثابة صورة القمر المنير  
تشابه ذا وذا فهما إذا ما \* أنارا مشكلان على البصير  
فهذا في الظلام سراج ليل \* وهذا في النهار سراج نور

ولكن فضّل الرحمن هذا \* على ذا بالنسب والمير  
وبالمك العزّز فذا أمير \* وما ذا بالأمير ولا الوزير  
وقصّ الشهر فمجد ذا وهنا \* مُنير عند قصص الشهور  
فابن خليفة الله المصطفى \* به تعلو مقامرة الفخور  
لئن فت الملوك وقد توافوا \* إليك من السهولة والوعور  
لقد سبق الملوك أولك حتى \* بقوا من بين كاي أو حير  
وجئت وراه تجرى حيثنا \* وما بك حين تجرى من فتور  
فقال الناس ما هذان إلا \* بمنزلة الخلق من الجدير  
لئن سبق الكبير فأهل سبي \* له فضل الكبير على الصغير  
وإن بلغ الصغير مدى كبير \* لقد خلق الصغير من الكبير

فقال : والله لقد أحسنت ! ولكن هذا لا يساوي عشرين ألف درهم ! ثم قال لي :  
أين المال ؟ قلت : ها هو ذا ، قال : ياربج أنزل معه فأعطه أربعة آلاف درهم ، وخذ  
الباقى ، قال : نخرج الربيع فخط قلمي ووزن لي أربعة آلاف درهم وأخذ الباقى . فلما  
صارت الخلافة الى المهدي وثى ابن ثوبان المظالم ، فكان يجلس للناس بالرافضة ، فاذا ما  
كساه رقاها رفعها الى المهدي ، فرفعت اليه يوما رقعة أذكره قصتي ، فلما دخل بها  
ابن ثوبان جعل المهدي ينظر في الرقاع ، حتى اذا نظرت في رقعتي صمكت ، فقال له ابن ثوبان :  
أصلح الله الأمير ! ما رأيتك ضحكت من شيء من هذه الرقاع إلا من هذه الرقعة ! قال :  
هذه رقعة أعرف سببها ، ردوا اليه العشرين ألف درهم ، فودت الى وانصرفت .

ولترك هذه السباحة في إجازة الشعراء لئرى كيف كانت أريحية المهدي في الإحسان  
الى الجماهير ، فقد ذكر الطبري في حوادث سنة ستين ومائة أن المهدي قسم في تلك السنة  
مالا عظيما في أهل مكة وفي أهل المدينة كذلك ، وأنه نظر فيما قسم في تلك السفرة ، فوجد  
ثلاثين ألف ألف درهم حملت معه ، ووصلت من مصر ثلثمائة ألف دينار ، ومن اليمن  
مائتا ألف دينار ، فقسّم ذلك كله ، ووفّق من الثياب مائة ألف ثوب وخمسين ألف ثوب .



وكان المهدي إلى جانب جوده ومخائه حياً نجولاً وبراً رحياً . دخل عليه رجل فقال :  
« يا أمير المؤمنين ، إن المنصور شتمني وقذف آتى ، فأما أمرتني أن أحله ، وإما عوّضتني  
وأستغفرت الله له ؟ قال المهدي : ولم شتمك ؟ قال : شتمت عدوّه بحضرته فغضب ؛ قال :  
وَمَنْ عَدُوّه الَّذِي غَضِبَ لَشْتَمِهِ ؟ قال : إبراهيم بن عبد الله بن حسن ؛ قال : إن إبراهيم  
أُسِسَ به رحماً ، وأوجب عليه حقاً ، فإن كان شتمك كما زعمت فمن رحمه ذب ، وعن عريضه  
دفع ، وما أساء من انتصر لابن عمه ؛ قال : إنه كان عدواً له ؛ قال فلم ينتصر للعداوة وإنما  
انتصر للرحم ؛ فأسكت الرجل ؛ فلما ذهب ليؤتى قال : لعلك أردت أمراً فلم تجده ذريعة  
عندك أبلغ من هذه الدعوى ؛ قال : نعم ، قال : فتبسم المهدي وأمر له بخمسة آلاف  
درهم . »

ولننظر إلى ما رويته الربيع عنه ، قال : رأيت المهدي يصلّي في بيته في ليلة مُعَمَّرَةٍ  
فأدري أهو أحسن أم الهوام القمراً أم ثيابه ؛ قال : فقرأ هذه الآية : ﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ أَنْ  
تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّلُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ قال : فأنتم صلاته والثقت إلى فقال :  
يا ربيع أقلت : لبيك يا أمير المؤمنين ؛ قال : علي موسى ؛ وقام إلى صلاته قال : فقلت  
من موسى ؟ أأنه موسى أم موسى بن جعفر وكان محبوباً عندي ، قال : فجعلت أفكر قال  
فقلت : ما هو إلا موسى بن جعفر . قال : فأحضرتة ، قال : فقطع المهدي صلاته وقال :  
يا موسى ؛ إنى قرأت هذه الآية : ﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ أَنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّلُوا  
أَرْحَامَكُمْ ﴾ نفخت أن أكون قطعت رحمتك ، فوثق لي أنك لا تخرج علي ؛ قال : فقال نعم ؛  
فوثق له وخلاه . »

ومثل هذا ما حدث به علي بن صالح قال : غضب المهدي على بعض القواد ، وكان  
صب عليه غير مرة فقال له : إلى متى تُكذِّبُني وأعفو ! قال : إلى أيدي نبي ، ويؤتيك  
الله فتعفو منا ؛ فكرها عليه مرات ، فاستعفى منه ورضى عنه .



ثم انتقل الى حوادث سنة ثمان وخمسين ومائة فترى التوفل يمحّثنا عن البيعة للمهدي وما كان من أمر الربيع فيها فيقول : إن الربيع تناول يد الحسن بن زيد فقال : قم يا أبا محمد فبايع ، فقام معه الحسن فأتته به الربيع الى موسى فاجلسه بين يديه ، فتناول الحسن يد موسى ثم نفث الى الناس فقال : يا أيها الناس ، إن أمير المؤمنين المنصور كان ضربني واستعصى مالي ، فكلمه المهدي فرفض حتى وكّبه في رد مالي عليّ فابي ذلك ، فأخلفه المهدي من ماله وأضعفه مكان كلّ عليّ علقين ، فمن أولى بأن يبايع لأمر المؤمنين بصديّ منشرج ونفيس طيبة وقلب ناصح مني ، ثم بايع موسى للمهدي ثم مسح على يده .



وبعد ، فالمهدي من الخلفاء العباسيين في الدولة . وقد صدق الأستاذ «ميور» اذ يقول : إن المهدي كان في إدارته لشؤون رعيته كمن يعمل بوجه عايم على رفاحية الأمة وإسعادها ، وكان معيّنا ومعجلاً للمصر الذهبي الذي تلا أيامه . وما أخذ عليه من بعض الهتات لا يمنع المؤرخ المنصف أن يرى في عصره ترفها للناس ، مما كانوا يعانون من الشدة أيام المنصور . كان المهدي موفقاً في اختيار وزرائه ، وإن كانت السعاية أحلت ببعضهم العذاب وسوء المصير ، وكان دقيقاً في نظره للأشور . وقد بدأ خلافته بإطلاق من كان في سجن المنصور ، إلا من كان قبلة تباة من دم أوقتل ومن كان معروف أنه يسي في الأرض بالفساد أو كان لأحد قبلة مطلية ، وإنما أطلق من كان جرمهم سياسياً .

وكان محبا للأدب ، مشجعا على التأليف فيه ، جادا في طلب الزنادقة والبحث عنهم في الآفاق ، محبا للغزوات والفتوح . وقد قيل : إنه كان لا يشرب النبيذ وإن كان شماره يشربونه في مجلسه ، وكان محبا للمبايع ، ونجبرنا الطبري في حوادث سنة تسع وستين ومائة ، أن المهدي مات مسموما وقد تيسر عليه قيّاه المسوخ ، فقال أبو العتاهية في ذلك :

رُحِنَ في الوُتَى وأصبحه . من عليّ المسوخ  
كلّ نطاح من الدهر . سر له يوم نطوخ

لَسْتَ بِالْباقِ وَلَوْ عُمَ • رَتَ مَا عَمَّرَ نَوْحُ  
فَعَلَى نَفْسِكَ عُمُ إِنْ • صَكَّتْ لَا بَدَّ تَشْوُحُ



والظاهر مما قد سناه أن المهدي كان يخالف أباه المنصور مخالفة شديدة من بعض النواحي، ويلائمه مُلاءمة ما من نواحٍ أُخر: كان كريماً مُهيناً للعال، بينما كان أبوه بخيلاً ضيقاً، ولكنه ورث عن أبيه بعض القسوة والميل إلى سفك الدماء.

ولم تكن السياسة تُعينه على ذلك، فقد ثبت له المنصور أركان الملك فالتمس الدماء في تتبع الزنادقة والفتك بهم، وأسرف في ذلك، حتى قتل بعض الأبرياء في قسوة تُمثّلها قصته مع ابن وزيره أبي صيد الله.

وفي المهدي ناحية جديدة في خلفاء العباسيين، هي الميل إلى الاعتدال السياسي في معاملة الطالبيين، فقد كان على شيء من الرقيق بهم والعطف عليهم، لا يمنعه من اتقائهم والإشفاق منهم.

وهذه السياسة الرقيقة الهازمة تذكّرنا بعض التذكير بما سيكون من سياسة المأمون. ومن أظهر خصال المهدي الشخصية غيْرته على النساء. تلك التي أضرت به بدشيار فضر به حتى مات، متعللاً بزندقته، وإن كانت العلة الحقيقية هي استهتار بدشيار بالفضل. وقد أورث المهدي غيْرته هذه ابنه الهادي كما سترى.

(١) يهاكم أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار في هذا الرأي بقوله: «قسوة المهدي في سفك الدماء» لم تكن عامة وإنما كان ذلك في الزنادقة خاصة.

(٢) يرى أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار: «أن قتل بدشيار يمكن سببه الغيرة على النساء وإنما كان بدشيار يعقوب بن داود الوزير ودسسته. وبشار هو الذي يقول:

بني أمية هبوا طال فرسكم • إن الخليفة يعقوب بن داود

صاحت خلافتكم بالفرم فاقسوا • خليفة الله بين النأي والورد

وكانت حيلة يعقوب بن داود على الخليفة أن أخبره بأن بشاراً وقع في الخليفة وهما. فاستنشد المهدي هجاء فامتنع ففرم عليه فأقتلته:

خليفة يزني بهاته • يضرب بالدف والصورجان

أبد لنا الله وغسيرة • ودس موسى في حر الخيزران

## الفصل السابع

### المهادى

قال محمد بن على بن طَبَّاطْبا في كتاب «الآداب السلطانية»: كان المهادى مُتَقَطِّا غيورا  
 كريما شديداً البطش جرىء القلب، يجتمع الحسن ذا إقدام وعزم وحزم .  
 ونحن نخشى أن يكون في هذا النشاء إسرأف كثير، فلم يطل عهد المهادى بالخلافة  
 بيمين الحكم له أو عليه، وإنما مرّ بها مرور الطيف .  
 ومع ذلك فقد أكثر المؤرخون من التحدث عنه بالخير . وليس يستوفينا من سيرته كلها  
 إلا ثلاثة أمور :

الأول ما ذكره عنه عبد الله بن عبد الملك قال : كنتُ أنوبى الشرطة للمهدى وكان  
 المهدى يبعث الى ندماه المهادى ومُعتبه، وأمرنى بضربهم ، وكان المهادى يسألنى الرق  
 بهم والترفية لهم ، ولا ألتفتُ الى ذلك، وأمضى لِمَا أمرنى به المهدى . قال : فلما ولى  
 المهادى الخلافة أيقنتُ بالثلف ، فبعثتُ إلى يوماء ، فدخلتُ عليه متكففاً متحفظاً، وإذا  
 هو على كرسى، والسيف والنَّطْعُ بين يديه ، فسألتُ ؛ فقال : لا سلمَ الله على الآخر !  
 تذكرُ يومَ بعثتُ اليك فى أمر الخزانة وما أمرُ أمير المؤمنين به من ضربه وحبسهِ  
 فلم تُجِبنى ؟ وفى فلان وفلان، وجعل يُبدد ندماءه، فلم تلتفتْ الى قولى ولا أمرى ؟ قلت : نعم  
 يا أمير المؤمنين، أفتأذن لى فى استيفاء الحجة ؟ قال : نعم ؛ قلت : ناشدتك بالله يا أمير المؤمنين ،  
 أيسرك أنك وليتى ما ولانى أبوك ، فأمرتنى بأمرى فبعثتُ إلى بعض بنيك بأمرى يخالف به  
 أمرك، فاتبعتهُ أمره وعصيتُ أمرك ؟ قال : لا ؛ قلت : فكذلك أنا لك وكنا كنتُ لأبيك ؛  
 فاستدناى فقبلتُ يديه ، فأمر يَحْلِعُ فُصِبْتُ على، وقال : قد وليتكَ ما كنتُ تتولاه فأبض  
 راشداً، فخرجت من عنده فصرت الى منزلى ، مفكراً فى أمرى وأمره ، وقلت : حَدَّثُ  
 يشرب، والقوم الذين عصيته فى أمرهم ندماءه ووزرائه وكُتَّابه، فكأنى بهم حين يغلبُ

عليهم الشرابُ قد أزالوا رأيَه في وحلوه من أمرى على ما كنت أكره وأتخوف . قال :  
 فإني لحالس وبين يديّ بُليّةٌ لي ، في وقتي ذلك ، وكانون بين يديّ ، ورفاقُ أشطره بكاح  
 وأحفنه وأضعه للصبيّة ، وإذا خجعةٌ عظيمةٌ ، حتى توهمتُ أن الدنيا قد اقتلعت وتزلزلت ،  
 بوقع الخوافر وكثرة الضوضاء ، فقلت : هاهنا كان والله ما ظننتُ ووافاني من أمره  
 ما تخوفتُ ، فإذا البابُ قد فُتِح ، وإذا الخدمُ قد دخلوا ، وإذا أمير المؤمنين الهادي على حمار  
 في وسطهم ، فلما رأيته ، وثبتتُ عن مجلسي مُبادراً ، فقبلتُ يده ورجله وحافر حماره ،  
 فقال لي : يا عبدَ الله ، إني فكرتُ في أمرك ، فقلتُ بسبق إلى قلبك أني إذا شربتُ وحولى  
 أعدائك ، أزالوا ما حسن من رأيي فيك ، فأفلقك وأوحشك ، فصرت إلى منزلك لأؤنسك  
 وأعليك أن السخيمة قد زالت عن قلبي لك ، فهاتِ فاطمعي مما كنت تأكل فأفعل فيه  
 ما كنت تفعل ، لتعلم أني قد تحومتُ بطعامك ، وأُنسيتُ بمنزلك ، فيزول خوفك ووحشتك ،  
 فأنيتُ إليه ذلك الرفاق والسُّكرجة التي فيها الكناخُ فأكل منها ، ثم قال : هاتوا الزُّلّة التي  
 أنزلتها لعبيد الله من مجلسي فأدخلتُ إلى أربعمائة بغلة موقرة دراهم ، وقال : هبْه ذلك  
 فاستعين بها على أمرك ، واحفظ لي هذه البغال عندك ، لعل أحتاج إليها يوماً لبعض أسفاري ،  
 ثم قال : أظنك الله بخير ، وانصرف راجعاً . ونحن وإن كنا نفترض في هذه الرواية وأمثالها  
 المبالغة نرى أنها تدلّ على جهلها على بصير بالسياسة ، وفطنة في العلم بالناس ، والانتفاع بكفائاتهم .

الأمر الثاني وقوفه موقف حزم نمتقد أنه أنفذ القصر العباسي ، من شرّ عظيم ، أفسد  
 على ملوك القرس قصورهم ، كما أفسد على العباسيين أنفسهم أمور الخلافة بعد عصر المأمون ،  
 ذلك هو تدخلُ النساء في أمور الدولة .

لقد ذكر الطبري أن الخليفة المأمون والد الهادي ، كانت في أول خلافته ، ففتت عليه  
 في أموره ، وتسلك به مسلك أبيه من قبله ، في الاستبداد بالأمر والتهى ، فأرسل إليها :  
 ألا تخرجي من حَقَر الكفاية إلى بدأة التبذل ، فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض  
 في أمر الملك ، وعليك بصلاتك وتسبحك وتبذل ، ولك بعد هذا طاعة مثلك فيما يجب لك .

قال : وكانت الخيزرانُ في خلافة موسى كثيرا ما تكلمه في الحاجات ، فكان يجيبها الى كلّ ما تسأله ، حتى مضى لذلك أربعة أشهر من خلافته ، وانتال الناس عليها وطعموا فيها ، فكانت المواكبُ تندو الى بابها ؛ قال : فكلمته يوما في أمر لم يجد الى إجابتها اليه سبيلا فاعتلّ بعلة ؛ فقالت : لا بد من إجابتي ؛ قل : لا أقبل ؛ قالت : فإني قد تضمنتُ هذه الحاجة لعبد الله بن مالك ؛ قال : فغضب موسى وقال : ويلٌ على ابنِ الفاعلة ! قد علمتُ أنه صاحبها ، والله لا قضيتها له ! قالت : إذا والله لا أسألك حاجة أبدا ؛ قال : إذا والله لا أبالي ، وحسبي وغضب ؛ فقامت مُغضبةً ؛ فقال : مكأنك تستوعى كلامي ، والله وإلا فانا نقي من قراحي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادى أو أحد من خاصى أو خدى لأضرب عنقه ولا يقضى ماله ، فمن شاء فليزلم ذلك ! ما هذه المواكبُ التى تندو وتروح الى بابك في كل يوم ! أما لك مغزلٌ يَسْغُلُكِ ، أو مصحفٌ يذكرك ، أو يدٌ يصوتك ! إياك ثم إياك ما فتح بابك لى - أو لذي ! فانصرفت ما تعقل ما تها ، فلم تنطق عنده بحلوة ولا مرّة بعدها .

ولم يكنف الحادى بكلامه معها ، بل جمع قواده يوما وقال لهم : أيما خير أنا أم أمّهم ؟ قالوا : بل أنت يا أمير المؤمنين ؛ قال : فأيا خبر أتي أم أمهاتكم ؟ قالوا : بل أمك يا أمير المؤمنين ؛ قال : فأيكم يجب أن تحسب الرجال بحسب أمه فيقولوا فعلت أم فلان وصنعت أم فلان وقالت أم فلان ؟ قالوا : ما أحد منا يجب ذلك ؛ قال : فما بال الرجال يأتون أمي فيتحدثون بحدثها ! فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها آتية ، فشق ذلك عليها ، فاعتزلت وحلفت لا تكلمه ، لما دخلت عليه حتى حضرته الوفاة . وقد قالوا : إن الحادى حاول ستمها فلم يفلح . على أن الخيزران أفلحت في القضاء عليه حين مرض ، فقد ذكروا أنها دسّت اليه من جواربها من قتلته بالجلوس على وجهه .

لنتقل الآن الى الأمر الثالث وهو محاولته الغدر بأخيه الرشيد .

ولننظر في حوادث سنة سبعين ومائة، لنرى كيف أخلص آل برمك الرشيد، فقد هم الهادي بتحويل الخلافة عنه لابنه جعفر، ولكن يحيى بن خالد ثبت في المحافظة على ولاية هارون، فحتملا في ذلك كل مكره. وكان لبطانة الهادي أثر سيء في تشجيعه على خلع الرشيد ومبايعه جعفر، وكان فيمن بايعه يزيد بن مزيد وعبد الله بن مالك وعلى بن عيسى، ومن أشبههم، من أصحاب الأضرار.

ولم تزد الحوادث يحيى بن خالد إلا حرصاً على حق الرشيد، فصار يملأه ويسرى عنه، ولولا خلع الرشيد نفسه، بعد أن تنقصوه في مجلس الجماعة، وقالوا لا نرضى به، وصعب أمرهم حتى ظهر، وأمر الهادي ألا يسار قدّم الرشيد بحرية، فاجتنبه الناس.

أما الأخبار عن كرمه فكثيرة. فن ذلك ما رواه الطبري في حوادث سنة سبعين ومائة أنه أمر ذات ليلة بثلاثين ألف دينار لعيسى بن دأب أحد جلسائه وكان — كما وصفه الطبري — لذيذ الفكاهة، طيب المسامرة، كثير النادرة. ويقول على بن صالح: إنه كان يوماً على رأس الهادي وهو غلام، وقد كان جفاً المظالم عامة ثلاثة أيام، فدخل عليه الخزان فقال له: يا أمير المؤمنين إن العامة لا تنقاد على ما أنت عليه، لم تنظر في المظالم منذ ثلاثة أيام، فالتفت إلى وقال: يا علي! أئذن للناس على الجفلى لا بالنقري، فخرجت من عنده أطبر على وجهي، ثم وقفت فلم أدر ما قال لي، فقلت: أراجع أمير المؤمنين فيقول: أئصحبني ولا تعلم كلامي! ثم أدركني ذهني، فبعثت إلى أعرابي كان قد وفد، وسألته عن الجفلى والنقري فقال: الجفلى جفالة، والنقري بنقر خواصهم، فأمرت بالسور فرفقت، وبالأبواب ففتحت، فدخل الناس على بكره أيهم، فلم يزل ينظر في المظالم إلى الليل، فلما تقوض المجلس ثمتت بين يديه، قال: كأنك تريد أن تذكر شيئاً يا علي؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، كُتبتني بكلام لم أسمعه قبل يومى هذا، وخفت مراجعتك فنقول أئصحبني وأنت لم تعلم كلامي! فبعثت إلى أعرابي كان عندنا ففسر لي الكلام، فكافته عني يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، مائة ألف درهم فحمل إليه. قال: قلت يا أمير المؤمنين،

لأنه أعرابي جُلِّفَ وفي عشرة آلاف درهم ما أغناه وكفاه ! فقال : وبلك يا علي  
أَجُودُ وَتَجُلُّ !



وكان المهادي شديد الغيرة ، ظاهر الشماة ، وهالك حديثاً لا يفقه من الأدب والفكاهة ،  
حدث به السندی بن شاهك قال : كنت مع موسى بجرجان ، فأنابه نعي المهدي والخلافة ،  
فركب البريد إلى بغداد ومعه سعيد بن سلم ووجهي إلى نرمان ، فحدثني سعيد بن سلم  
قال : سرنا بين أبيات جرجان وبستانها قال فسمع صوفاً من بعض تلك البساتين من  
رجل يتغنى ، فقال لصاحب شرطته : علي بالرجل الساعة ، قال : فقلت يا أمير المؤمنين  
ما أشبه قصة هذا الخائن ، بقصة سليمان بن عبد الملك ! قال : وديف ؟ قال : قلت له :  
كان سليمان بن عبد الملك في منتهى له ومعه حرمه ، فسمع من بستان آخر صوت رجل  
يتغنى ، فدعا صاحب شرطته فقال : علي بصاحب الصوت فأبى به ، فلما مثل بين يديه  
قال له : ما حملك على الغناء وأنت إلى جنبي ومعى حرمي ؟ أما علمت أن الرمال إذا تيممت  
صوت الفحل حنت إليه ! يا غلام جبه ! بحب الرجل ، فلما كان في العام المقبل ، رجع  
سليمان إلى ذلك المتنزه فجلس مجلسه الذي جلس فيه ، فذكر الرجل وما صنع به ، فقال  
لصاحب شرطته : علي بالرجل الذي كان جبيناه ، فأحضره ، فلما مثل بين يديه قال له :  
إما بعثت فوقيناك ، وإما وهبت فكافأناك ؟ قال : فوالله ما دعاه بالخلافة ولكنه قال له :  
يا سليمان ! الله الله ! إنك قطعت نسل فذهبت بماء وجهي ، وحرمتني لذتي ، ثم تقول :  
إما وهبت فكافأناك وإما بعثت فوقيناك ! لا والله ! حتى أقف بين يدي الله ! قال : فقال  
موسى : يا غلام رد صاحب الشرطة فوته ، فقال : لا تعرض للرجل .



وأما حبه للتمجدة فيحدثنا به عمر بن شبة ، إذ ذكر أن علي بن الحسين بن علي بن الحسين  
ابن علي بن أبي طالب ، وكان يلقب بالجزري ، تزوج رقية بنت عمرو العنانية ، وكانت تحت

المهدي، فيبلغ ذلك موسى الهادي في أول خلافته، فأرسل إليه لجهله وقال : أعيالك النساء إلا امرأة أمير المؤمنين ! فقال : ما حرم الله على خلقه إلا نساء جدتي صل الله عليه وسلم ، فأما غيرهن فلا ولا كرامة ؛ فشبهه بمخضرة كانت في يده وأمر بضربه خمسمائة سوط فضرِبَ ، وأرادَه أن يُطلقها فلم يفعل ، فحُجِّلَ من بين يديه في نِطْع فَأُلْقِيَ ناحيةً ، وكان في يده خاتم سري ، فراه بعض الخادم وقد غُشِيَ عليه من الضرب ، فاهوى الى الخاتم فقبض على يد الخادم فدقها ، فصاح وأتى موسى فأراه يده ، فاستشاط وقال : يفعل هذا بخادمي مع استخفافه بأبي وقوله لي ! وبعت إليه : ما حملك على ما فعلت ؟ قال : قل له وسله ومره أن يضع يده على رأسك وليصدقك ؛ ففعل ذلك موسى فصدقه الخادم ؛ فقال : أحسن والله ! أنا أشهد أنه ابنُ عمي لو لم يفعل لانتفيت منه وأمر بإطلاقه .



وقد كان الهادي مثل أبيه مُحبًّا للآداب مُتَّجِعًا للشعراء ، وكان على سنه في بغض الزنادقة ومقتهم ، موقفاً في اختيار الوزراء ، مُصاباً بأكثية بيطانة سوء ، مُهماً بالوقعة والوشاية وإغراء الخليفة والبيت المسالك باجتراح المآثم واقتراف المظالم .

قال الطبري : إن عبسده الله بن محمد المقرئ حدث عن أبيه قال : دخل عيسى بن دأب على موسى بن عيسى عند منصرته من نِطْع<sup>(١)</sup> ، فوجده خالفاً يلتمس عذرا من قتل من قتل فقال له : أصلح الله الأمير ، أُنشدك شعرا كتب به يزيد بن معاوية الى أهل المدينة يعتذر فيه من قتل الحسين بن علي رضي الله عنه ؟ قال : أُنشدني ، فأنشده :

يا أيها الراكب القادى لِطِيبِهِ \* على عُدائِهِ في سيرها حَقَمُ

(١) نِطْع بفتح ألّه وتشديد نايه : وادي الزاهر ، روم نِطْع كان أبو حنيفة الله الحسين بن علي بن الحسن بن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه خرج يدعوا الى قتله في ذي القعدة سنة ١٦٩ هـ وبايعه جماعة من العلويين بالخلافة في المدينة وخرج الى مكة فلما كان بفتح قتيبه جيوش بني العباس وطهيم العباس بن محمد بن عبد الله بن عباس وغيره فالتقوا يوم الزورية سنة ١٦٩ هـ فقتلوا جماعة من عسكره وأهل بيته ، ولم تكن معيبة بذكر بلائه ، أشد وأبلغ من نِطْع وفيه دفن عبد الله بن عمر وقرن من الصحابة الكرام ا هـ ملخصا من باقوت مادة « نِطْع » .

(٢) المدافرة : النافذة الشديدة الالامية الرقيقة الظهيرة ، أنظر لسان العرب مادة « غفر » .



أبلغ قرينشا على تحيط المزار بها \* بنى وبين حسين الله والرحم  
وموقف بفناء البيت أفسده \* عهد الاله وما ترعى له الدم  
عنقم قومكم غمرا بأمكم \* أم حصان لعمري برة كرم  
هى التى لا يدانى فضلها أحد \* بلى النبي وخير الناس قد علموا  
وفضلها لكم فضلٌ وغيركم \* من قومكم لهم من فضلها قسم  
إنى لأعلم أو ظنا كماله \* والظن يصلى أحيانا فيتكلم  
أن سوف يترككم ما يطلبون بها \* قلى تنادىكم العيان والرحم  
يا قومنا لا تشبوا الحرب اذ تحدث \* وسكوا بحبال السلم واعتصموا  
لا تركبوا البنى إن البنى مصرعة \* وإن شارب كأس البنى يقيم  
قد جرب الحرب من قد كان قبلكم \* من القرون وقد بادت بها الأمم  
فانصفوا قومكم لا تهلكوا بذنبا \* فرب ذى بذخ زلت به القدم

قال : فُسرّى عن موسى بن عيسى بعض ما كان فيه .

وإذا لم يكن بد من اختصار حياة المهادى فى كلمة جامعة فنقل : إنه وُثِرَ عن أبيه  
المهدى كرمه وغيّره وجهه للأدب ، وُثِرَ عن جده المنصور حزمه وشيئا من ميله إلى الغدير .

## افضل الثمن هارون الرشيد

يَا خَيْرَ رَأَتْ هَتَاكَ ثُمَّ هَتَاكَ \* أُمِّي يَسُوسُ الْعَالَمِينَ أَبَاكَ

هذا يُعَانُ مروانُ بن أبي حفصة الشاعر الدابة تَبَوُّأَ الرشيد عرش الخلافة ، بعد أخيه الهادي ، بهدٍ من أبيه سنة سبعين ومائة هجرية . وبهذا يَهَيَّ الشاعرُ الخيزرانُ سَوَقَ الرشيد لعرش كانت الخيزرانُ معذبةً مُعْتَاةً بِن كَانَ يعتليه قبل الرشيد . وقد يكون من المستصوب أن تترك ليوسف بن القاسم بن صبيح كاتب الرشيد ، يعلُنُ لنا ما أعلنهُ بنفسه الى العالم العربي ، من خبر اعتلاء الرشيد للخلافة ، فإنه ، بأسلوبه الرشيقي وبلاغته السهلة ومكانته من الرشيد ، أحقُّ بذلك وأجدر ، ولا سيما وقد طُيِّرَتْ فطعته للخلافة ، مِنْبَغَةً بموت خليفة وتوحيج خليفة .

قال يوسف بن القاسم بعد حمد الله عز وجل والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم :  
«إِنَّ اللَّهَ بِمَنَّةٍ وَلُطْفِهِ ، مَنْ عَلَيْكُمْ مَعَاشِرَ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ ، بَيْتِ الْخِلَافَةِ وَمَعْدِنِ الرِّسَالَةِ ، وَأَمَّا كُمْ أَهْلُ الطَّاعَةِ ، مِنْ أَنْصَارِ الدَّوْلَةِ وَأَعْوَانِ الدَّعْوَةِ ، مِنْ نَمْعِهِ الَّتِي لَا تُحْصَى بِالْعَدَدِ ، وَلَا تُنْقَضَى مَدَى الْأَبَدِ ، وَأَيَادِيهِ التَّامَّةُ إِذْ جُمِعَ الْفَتْحُكُمْ ، وَأَعْلَى أَمْرُكُمْ ، وَشَدَّ عَضْدُكُمْ ، وَأَوْهَنَ عَدُوُّكُمْ ، وَأُظْهِرَ كَلِمَةُ الْحَقِّ ، وَكُنْتُمْ أَوْلَى بِهَا وَأَهْلُهَا ، فَأَعَزَّكُمْ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ؛ فَكُنْتُمْ أَنْصَارَ دِينِ اللَّهِ الْمُرتَضَى ، وَالذَّائِبِينَ بِسَيْفِهِ الْمُنتَضَى ، عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَبِكُمْ اسْتَفْقَظَهُمْ مِنْ أَيْدِي الظُّلْمَةِ أُمَمَةِ الْجُورِ ، وَالنَّاقِضِينَ عَهْدَ اللَّهِ ، وَالسَّافِكِينَ الدَّمَ الْحَرَامَ ، وَالْأَكْلِينَ النَّيَّءَ ، وَالْمُسْتَأْثَرِينَ بِهِ . فَادْكُرُوا مَا أَعْطَاكُمْ اللَّهُ مِنْ هَذِهِ التَّعْسَمَةِ ، وَاحْذَرُوا أَنْ تُفْسِدُوا فَيَغْيِرَ بِكُمْ . وَإِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ اسْتَأْثَرَ خَلِيفَتَهُ مُوسَى الْهَادِيَ الْإِمَامَ فَخَبَّضَهُ إِلَيْهِ ، وَوَلَّى بِصَدِّهِ رَشِيدًا مُرْضِيًا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِكُمْ رُؤُوفًا رَحِيمًا ، مِنْ مُحْسِنِكُمْ قَبُولًا ،

وعلى مسيبتكم بالعفو عَطُوتًا . وهو — أتمته الله بالنعمة ، وحَفِظَ له ما استرعاها إياه من أمر الأمة ، وتولاه بما تولى به أوليائه وأهل طاعته — يَعِدُكم من نفسه ، الرأفة بكم والرحمة لكم ، وقَسَمَ أَعْطَاكُمْ فيكم ، عند استحقاقكم ، وينذل لكم من الجائزة مما آفأ الله على الخلفاء مما في بيوت الأموال ، ما ينوبُ عربَ رزق كذا وكذا شهرا غير مُقَاصٍّ لكم بذلك فيما تستقبلون من أَعْطَاكُمْ ، وحاملاً باقٍ ذلك للدفع عن حُرْبِكُمْ ، وما إله أن يحدث في النواحي والأقطار من العصاة المارقين إلى يسوت الأموال ، حتى تعود الأموال إلى حَامِئِهَا وكثرتها والحال التي كانت عليها . فاحمدوا الله وجهتدوا شكرا يوجب لكم المزية من إحسانه إليكم بما جدد لكم من رأى أمير المؤمنين وتغفَّلَ به عليكم أيده الله بطاعته ، وأرغبوا إلى الله له في البقاء ، ولكم به في إدامة النماء ، لعلمكم تُرْمَحُونَ : وأعطوا صفقة إيمانكم وقوموا إلى بيعتكم ، حاطكم الله وحاط عليكم ، وأصاحبكم وعلى أيديكم ، وتولاكم ولاية عباده الصالحين .

بهذا الكتاب القسم البليغ ، أشعرَ العالمَ العربيَّ بابتداء خلافة هارونَ الذي نستطيع بحقي أن نقول إنه أضخمُ الخلفاء المسلمين اسماً ، وأبدعهم صوتاً ، وأشدُّهم في الخيال تأثيراً ، فأنْتَ لا تستطيع أن تسمع اسم هارون الرشيد ، حتى يُحْدِثَ في نفسك صوراً خياليةً ، مختلفة النوع ، ولكنها متفقَةٌ في القوة ، فهو يُنْشِئُ في نفسك حيناً صورة الخليفة المترَفِّ ، المسرف في الترف ، الذي بلغ منه ما لم يبلغه أحدٌ قبله ولا بعده . وينشئ في نفسك حيناً آخر صورة الخليفة القويِّ ، الذي أذلَّ أعداءَ الإسلام وبسطَ سلطانَ الخلافة على أطراف الأرض ، وأخذ مملوكَ الروم بدفع الجزية . وينشئ فيها مرةً أخرى صورة الخليفة الحذِرِ ، الذي بث الجواسيس ، ليعرِفَ من أمر الناس ما ظهر وما خفى ، ثم لم يكتف بذلك بل استحال هو جاسوساً ، يطوفُ في الأسواق ، ويُوَعِّلُ في البيوت ، ويفشي المحاسن والأندية ، حتى أَلَمَ بكل شيء ، وأحاط بكل خفية ، ثم بطش بأعدائه والمؤتمرين به بطشاً لم يستطع التاريخ أن ينساه . ثم يُنْشِئُ في نفسك صورة الخليفة العالم الأديب ، الفقيه بالوان

العلم والدين والأدب ، المشجع للفقهاء والعلماء والشعراء والكُتّاب تشجيعاً أصبح فيه مثلاً لمن جاء بعده من الخلفاء والملوك في الشرق والغرب . ويُشَى في نفسك أيضاً صورة الخليفة الوريث الزاهد ، المتهايك مُسكاً وطاعة وتبلاً لله ، كما ينشئ فيها صورة الخليفة الذي لا يكاد يخلو إلى نفسه ويسدل الستار بينه وبين رعيته حتى يأخذ مع المحبان في مجوهم ، فيُجسِّل اليك أنه لا يدع من سئل اللذة سبيلاً إلا سلكها وبجى ثمارها ، فن غناء ، إلى شرايب ، إلى عبيث ، إلى استمتاع بالنساء ، من حرار وإماء ، وهو بعد هذا كله سياحى ، ماهر ، بعيد النظر في تصريفه الأمور ، فيه حزم المنصور وعنفه وميله إلى القدر والأثرة ، وكل ما يُستخص سياسة « مكافئ » ، وفيه حلم معاوية ودهاؤه اللين المرث ، ومخافوه بالمال واصطناعه الناس .

ومن غريب الأمر أن كل هذه الصور المتناقضة التي لُتباين أشد التباين ، قد اجتمعت حقاً في شخص هذا الخليفة ، لا كما يصورها المؤرخون والرواة والقصاص وأصحاب الأساطير ، بل اجتمعت اجتماعاً يختلف قوة وضعفاً باختلاف الظروف والمؤثرات الكثيرة التي كوّنت مزاجه وشخصيته ، وقصره ، وبيته السيامية العامة ، فليس الرشيد في حقيقة الأمر ، شخصاً كثيراً من الأشخاص يمثل نفسه وما ورث عن أسرته ، ولكنه امرأة اجتمعت أمامها صور مختلفة من الناس والكفايات والظروف فانعكست فيها هذه الصور .

فالرشيد يمثل كل هؤلاء الناس ، وكل هذه الأشياء ، وكل هذه الظروف التي شهدتها بغداد قرب آخر القرن الثاني للهجرة . ومن هنا كان من العسير جداً أن نستخلص منه صورة تاريخية صادقة ، بريئة من الغلو والإسراف .

فأما المؤرخون من العرب فقد تأثروا حين كتبوا عن الخلفاء وخاصة أصحاب الشخصيات البارزة منهم بكل ما عرفت أنهم تأثروا به ، من الإغراق والمبالغة والغلو في المدح تحليصين في أكثر الأحيان .

وأما المؤرخون من الفريق فلم يسلم أشدهم احتياطا من التأثير هذه الطائفة الضخمة من الأساطير التي بثها في نفوس الجماعات كتاب "ألف ليلة وليلة" منذ زني طوبلي .

وقد ظهر هذا التأثير مظهرين مختلفين ، مظهر المدح والإسراف فيه عند قوم ، ومظهر الذم والإغراق فيه عند قوم آخرين . وأولئك وهؤلاء مخدوعون عن أنفسهم واحتياطهم ، بكل هذه المبالغات التي أحاطت بإحسان الرشيد وإساءته .

ونحن مجتهدون — لا في أن نمطيك هذه الصورة الصادقة من الرشيد التي لا يزال التاريخ محتاجا إليها ، فليس ذلك غرضنا في هذا البحث ، وليس في هذا الكتاب مُسَعِّ له ، بل في أن نمطيك صورة صادقة من فهم المؤرخين من العرب والفريقية لعصر الرشيد ، غير مهينين مع ذلك أن نُسَجِّلَ آراءَ لنا هنا وهناك حين نُشعرُ بالحاجة إلى ذلك ، لتوضيح مذهبنا في فهم عصر المأمون الذي نضع فيه هذا الكتاب .



يجمع المؤرخون العرب على ورع الرشيد وفضله وأدبه ، وسطة يده بالخير والعطاء ، وانطوائه على الجود والسخاء ، فقد ذكروا : أنه كان يصل في كل يوم مائة ركة إلى أن فارق الدنيا إلا أن تعرض له علة ، وكان يتصدق من صلب ماله في كل يوم بألف درهم بعد زكاته . وكان إذا حجَّ حجَّ معه مائة من الفقهاء وأبنائهم ، وإذا لم يحجَّ حجَّ ثلاثمائة بالفقة السابقة والكسوة الباهرة . وكان يقتني آثار المنصور ويطلب العمل بها إلا في بذل المال ، فإنه لم ير خليفة قبله كان أعطى منه لئال ثم المأمون من بعده . وكان لا يضع عند إحسان محسن ولا يؤخر ذلك في أول ما يجب ثوابه . وكان يحب الشعراء والشعر ، ويميل إلى أهل الأدب والفقه ، ويكره المرأة في الدين ويقول هو شيء ، لا نتيجة له وبالحرى ألا يكون فيه ثواب . وكان يحب المدح ولا سيما من شاعر فصيح ، ويشترى بالثمن العالي .

ولقد كانت دولة الرشيد — كما يقول الفخرى — : دولة من أحسن الدول وأكثرها وقارا وروفا وخيرا وأوسعها رقة مملكة ، جي الرشيد معظم الدنيا . ولم يجمع على باب

خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقضاة والكتّاب والندماء والمغنين من اجتمعوا على باب الرشيد، وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة، ويرفعه أعلى درجة. وكان فاضلا شاعرا راوية للأخبار والآثار والأشعار، صحيح الذوق والتمييز، مهيبا عند الخاصة والعامة.



ولقد حاول الهادي أن يرغم الرشيد على خلع نفسه من الخلافة بعده، وأن يكتب بولاية العهد لابنه جعفر، وقد تم له شيء من ذلك، وإنا لنجد في حوادث سنة سبعين ومائة هجرية الشيء الكثير من إخلاص آل برمك للرشيد لا سيما شدة محافظة يحيى البرمكي على حقوق الرشيد في ولاية العهد، فعذب وحبس وأودى في هذا السبيل إيذاء شديدا.

ولقد أظهر الرشيد، وهو ولي عهد، من الجرأة ومثانة الأخلاق والصرامة، ما هو حقيق بالإعجاب. ولستأ نرى مندوحة من ذكر الرواية التي ذكرها محمد بن عمر الرومي، فهي تعطينا صورة دقيقة لما نحن بسبيله، فقد حدثت عن أبيه قال: جلس موسى الهادي بعد ما ملك في أول خلافته جلوسا خاصا، ودعا إبراهيم بن جعفر بن أبي جعفر وإبراهيم بن سلم ابن قتيبة والحزاني بغلسوا عن يساره، ومعهما خادم له أسود يقال له أسلم ويكنى أبا سليمان، وكان يثق به ويقدمه، فبينما هو كذلك، إذ دخل صالح صاحب المصل فقال: هارون بن المهدي، فقال: أئذن له، فدخل فسلم عليه وقبل يديه وجلس عن يمينه بعيدا ناحية؛ فأطرق موسى بنظر إليه وأدمن ذلك ثم التفت إليه فقال: يا هارون كأي بك تحدثت نفسك بنام الرضا، وتقول ما أنت منه بعيد، ودون ذلك نحرط القناد، تؤمل الخلافة! قال: فبرك هارون على ركبتيه وقال: يا موسى إنك إن تجبرت وضعت، وإن تواضعت رفعت، وإن ظلمت خلت، وإني لأرجو أن يفيض الأمر إلى، فأضيف من ظلمت، وأصل من قطعت، وأصير أولادك أهل من أولادي، وأزوجهم بناتي، وأبلغ ما يجب من حق الإمام المهدي. قال: فقال له موسى: ذلك الظن بك يا أبا جعفر! أدن مني، فدنا

منه فقبل يديه ثم ذهب يعود الى مجلسه ؛ فقال له : لا والشيخ الجليل ، والملك النبيل ، أحق أبالك المنصور ، لا جلستَ إلّا معي ! وأجلسه في صدر المجلس معه . ثم قال : يا حرازيّ إحمل الى أخى ألف ألف دينار ، وإذا افتتح الخراج فأحمل اليه النصف منه وأعرض عليه ما في الخزائن من مالنا ، وما أخذ من أهل بيت اللعنة ، فيأخذ جميع ما أراد ؛ قال : ففعل ذلك . ولما قام قال لصاحبه : أدن دابته الى البساط .

قال عمرو الرومي : وكان هارون يأنس بن فقمته اليه فقلت : ياسيدي ما الرؤيا التي قال لك أمير المؤمنين ؟ قال : قال المهدي : أريت في منامي كأنني دققتُ الى موسى قضيباً والى هارون قضيباً ، فأورق من قضيب موسى أعلاه قليلاً ، فأما هارون فأورق قضيبه من أوله الى آخره ، فدعا المهدي الحكم بن موسى الضمري ، وكان يكنى أبا سفيان ، فقال له : عبر هذه الرؤيا ؛ فقال : يملكان جميعاً ، فأما موسى فتقل أيامه ، وأما هارون فيبلغ مدى ما عاش خليفة وتكون أيامه أحسن أيام ، ودهره أحسن دهر . قال ولم يلبث إلا أياماً يسيرة ثم احتل موسى ، ومات وكانت عظمته ثلاثة أيام .

قال عمرو الرومي : أفضت الخلافة الى هارون فزرج حمدونة من جعفر بن موسى ، وفاطمة من إسماعيل بن موسى ، ووفى بكل ما قال ، وكان دهره أحسن الدهور .



ولقد كان الرشيد مشغولاً بالفنون والعلوم ، وكان قصره الزاهي الزاهي مركزاً لمختلف الثقافات . وأما ولّمه بالشعر وضروب الآداب وإجازته الشعراء بسخاء فالحديث في ذلك طويل المناسي .

وكان الرشيد ، مع استمتاعه بمراغمة الحياة ومناعمها : تزوج ست زوجات وتسرّى عشرين أمة ذكر أسماءهن الطبري وأسماء أولاده منهن ، وكان ، مع ترحّج المدنية في أيامه ، ومع إحيائه أندية اللغة والآداب والمنادمة ، ورجاً متأثراً بالمواظع والزهديات . وسندكر لك طرفاً من مواقف الدلالة على خشيته لله ، وأدبه ، وورعه ، وتواضعه .

أما خشيتة لله وأدبه ، فقد ذكر بعضهم أنه كان من صحابة الرشيد بالرقّة بعد أن شخص من بغداد ، فخرج معه يوماً الى الصيد ، فعرض له رجلٌ من السّاسيّ فقال : يا هارون اتق الله ، فقال لإبراهيم بن عثمان بن نهيك : خذ هذا الرجل اليك حتى أنصرف ، فلما رجع دعا بغداده ، ثم أمر أن يُطعمَ الرجل من خاصّ طعامه ، فلما أكل وشرب دعا به فقال : يا هذا أنصفتني في المخاطبة والمسامحة قال : ذاك أقل مما يجب لك ، قال : فأخبرني أنا شر وأخبرت أم فرعون ؟ قال : بل فرعون ، قال : (( أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى )) وقال : (( مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي )) . قال : صدقت ، فأخبرني : فمن خير : أنت أم موسى بن عمران ؟ قال : موسى كليم الله وصفيّه اصطفاه لنفسه وأتمّنه على وحيه وكلمه من بين خلقه ، قال : صدقت ، أفأعلم أنه لما بعثه وأخاه الى فرعون قال لهما : (( فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَضْحَكُ )) . — ذكر المفسرون أنه أمرهما أن يكتباه — هذا وهو في عقوه وجبروته ، على ما قد علمت ، وأنت جفتي ، وأنا بهذه الحالة التي تعلم أؤذي أكثر فرائض الله عليّ ، ولا أعبد أحدا سواه ، أقف عند أكبر حدوده وأمره ونهيّه ، فوعظتني بألفاظ وأشنعها ، وأخشيت الكلام وأفظعه ، فلا بأدب الله تأديت ، ولا بأخلاق الصالحين أخذت ، فما كان يؤمنك ، أن أسطورك ، فإذا أنت قد عرضت نفسك لما كنت عنه غنياً ، قال الزاهد : أخطأت يا أمير المؤمنين وأنا أستغفرك ، قال : قد غفر لك الله ، وأمر له بعشرين ألف درهم ، فأبى أن يأخذها وقال : لا حاجة لي في المال ، أنا رجل سائح ، فقال هزيمة ونزده : ترق على أمير المؤمنين يا جاهل صلبته فقال الرشيد : أمسك عنه ، ثم قال له : لم تُعطِكَ هذا المال لحاجتك اليه ، ولكن من عادتنا أنه لا يضاطبُ الخليفة أحدٌ ليس من أوليائه ولا أعدائه إلا وصلة ومنعه ، فاقبل من صلبتنا ما شئت وضعها حيث أحببت ، فاخذ من المال ألّتي درهم وتوقها على الجحّاب ومن حضر الباب .

وأما روعه فقد ذكر ، أن أبا مريم المذني كان مع الرشيد وكان مضطجاً له بمخداً فكانها ، فكان الرشيد لا يصبر عنه ولا يملّ محادثته ، وكان ممن قد جمع الى ذلك المعرفة



بأخبار أهل الجواز، وألقاب الأشراف ومكابد المجان، فيبلغ من خاصته بالرشيد أن يؤاء منزلاً في قصره، وخطله بجرمه وبطائته وبواله وغلماته، بجاء ذات ليلة وهو نائم وقد طلع الفجر وقام الرشيد إلى الصلاة فألفاه نائماً، فكشف الحاف عن ظهره ثم قال له: كيف أصبحت؟ قال: يا هذا ما أصبحت بعد، اذهب إلى عمك؛ قال: ويلك! قم إلى الصلاة؛ قال: هذا وقت صلاة أبي الجسارود، وأنا من أصحاب أبي يوسف القاضي، فبضى وتركه نائماً وتأهب الرشيد للصلاة، بجاء غلامه فقال: أمير المؤمنين قد قام إلى الصلاة، فقام فآلني عليه ثيابه ومضى نحوه، فإذا الرشيد يقرأ في صلاة الصبح، فأتته إليه وهو يقرأ: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فقال ابن أبي مرزوم: لا أدري والله! فما تمالك الرشيد أن صحك في صلاته، ثم ألتفت إليه وهو كالمغضب فقال: يا ابن أبي مرزوم في الصلاة أيضاً! قال: يا هذا وما صنعت! قال: قطعت على صلاتي؛ قال: والله ما فعلت، إنما سمعت منك كلاماً غمى حين قلت: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فقلت: لا أدري والله، فعاد فضحك وقال: إياك والقرآن والدين ولك ما شئت بعدهما.

وأما تواضعه فنترك الكلمة فيه لأبي معاوية الضرير، وهو من علماء دولته، فإنه يقول: أكلت مع الرشيد يوماً، فصب على يدي الماء رجلاً فقال: يا أبا معاوية أتدري من صب الماء على يديك؟ قلت: لا يا أمير المؤمنين؛ قال: أنا؛ قلت: يا أمير المؤمنين أنت تفعل هذا إجلالاً للعلم؛ قال: نعم. فتصور إلى أي حد بلغ صليبه!.

ترك جانباً الآن التكلم عن البرامكة ونكة البرامكة إلى فصل مستقل. وربما كان من المصلحة الفنية للكتاب أن يُرد لكل بحث من بحوثه باب خاص، نستوعب فيه ما يجدر بنا استيعابه من تلك النواحي الهامة الشديدة الصلة بموضوعنا.

والآن نرى في عتقنا أن نتحدث إليك في أمور أربعة قد تفيدك في عهد الرشيد عامة وربما أفادت في تفهم عصر المأمون خاصة وهي: (١) حقيقة السياسة الداخلية في عصر الرشيد؛ (٢) السياسة الخارجية؛ (٣) التكلم عن بيعة الرشيد للأمين والمأمون والقاسم؛

(٤) التكلم عن الدولة البرمكية والتكبة البرمكية . وسنلتحق بالإيجاز المتعّ عن غير إخلال بما لا يليق بنا الإخلال به ، ولا سيما باب بيعات الرشيد ، فإننا لا نرى مندوحة من إثبات نصوصها لما لها من الخطر من حيث إنها أثر تاريخي خليل بالدراسة والبحث .

### ١ - السياسة الداخلية

أنت جدّ عالم بما كان من تطلّع الطالبيين للخلافة . وقد مرّ بك القول في تحفّراتهم ونروجهم وحروبهم لخليفة العباسي ، الجالس على العرش ، كما واتهم الفرص وأمكتهم الأحوال .

وأنت جدّ عالم أن الخلفاء ما كانوا يركنون إلى جانبهم نفاساً وتباغضاً ، واصطداماً للصحة الخاصة وتمازجاً ، بيد أن الرشيد وهو الرعوم بسجيته ، المحبّول على الخير بترعته ، رأى في أوّل عهده ، أن يحبّب عليهم ويسلّ ضخمة العداوة من قلوبهم ، فرفع الحجر عن كان منهم ببغداد ، وسيرهم إلى المدينة ، ما عدا العباس بن الحسن بن عبد الله ، وكان أبوه مع ذلك فيمن أنخصص إلى المدينة .

لم يجمع الطالبيون الرشيد على الاستمرار على خطّه تلك ، بل كان من بعضهم ما دفعه إلى تغيير خطّه السديدة ، إذ خرج عليه يحيى بن عبد الله أحد الناجين من وقعة « تلخ » التي كانت في أيام الهادي ، ونزح إلى بلاد الديلم ، حيث قويت شوكته واشتدّ ساعده ، وهرع إليه الناس من الأمصار والكور ، فاعتم الرشيد لذلك أيما اعترام وترك ، فيها يقول الرواة ، شرب النبيذ ، ثم تلبّ إلى قتاله الفضل بن يحيى بن خالد في خمسين ألفاً ، ومعه من القواد صناديدهم ومن الجند شجعانهم ، فسارتهم يحيى ، فكتبه ورفق به واستماله وبسط أمله ، وكتب صاحب الديلم وجعل له ألف درهم على أن يسهل له خروج يحيى وحملت إليه ، فأجاب يحيى إلى الصلح والخروج ، على أن يكتب له الرشيد أماناً يخطه ، فبادر الفضل برفع ذلك إلى الرشيد ، فأنجى نؤاده وعظّم موقعه لديه ، وكتب أماناً يحيى بن عبد الله وأشهد عليه القضاة والفقهاء وجلة بني هاشم ومشائخهم ، منهم عبد الصمد بن علي والعباس بن محمد ومحمد بن

إبراهيم ومن أشبههم ، ووجه به مع جوائز وكراماتٍ وهدايا ، فرجه الفضلُ بذلك اليه فقدم يحيى بن عبد الله عليه .

وفي رواية أخرى أن يحيى بن عبد الله لما رأى الرشيد قد كتب الى صاحب الديلم يطلبه منه ويتهدده ، وأنه قد اشتد في مطاردته ، واقتفاء أثره ، طلب الأمان من الفضل ، فأتته وحمله الى الرشيد .

ويحدثنا أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في حوادث سنة ست وسبعين ومائة : أنه لما ورد الفضل بن يحيى البرمكي يحيى بن عبد الله العلوي بغداداً ، لقيه الرشيد بكل ما أحب ، وأمر له بمالٍ كثير ، وأجرى عليه أرزاقاً سنويةً ، وأزله منزلاً مريباً بعد أن أقام في منزل يحيى بن خالد أياً ما ، وكان يتولى أمره بنفسه ولا يكل ذلك الى غيره ، وأمر الناس باتباعه بعد انتقاله من منزل يحيى والتسليم عليه ، وبلغ الرشيد الغاية في إكرام الفضل ، وفي ذلك يقول مروان ابن أبي حفصة :

ظَفِرَتْ فَلَا شَلَّتْ يَدُ بَرْمَكِيَّةٍ \* رَتَقَتْ بِهَا الْفَتَى الَّذِي بَيْنَ هَاشِمٍ

عَلَى حَرَبٍ أَحْيَا الرَّاقِصِينَ الثَّامَةَ \* فَكَفُّوا وَقَالُوا لَيْسَ بِالْمُسْلِمِ

فَأَصْبَحَتْ قَدْ فَازَتْ بِدَاكِ بَحْطَةٍ \* مِنْ الْمَجْدِ بَاقٍ ذِكْرُهَا فِي الْمَوَائِمِ

وَمَا زَالَ قَدَحُ الْمَلِكِ يَخْرُجُ فَائِزًا \* لَكُمْ كَمَا صَحَّحَتْ قِدَاحُ الْمُسَاهِمِ

ونوجه النظر هنا الى ظاهرة في شعر مروان وأبي قحافة الخطيب الذي أنشد في هذا المعنى أبياتاً له يُستدلُّ منها على اغتباط الشاعر ، وجمهرة الناس طبعاً ، بالوفاق بين العلويين والعباسيين والإشادة بذلك ، مخففةً للعاملين على رتقي الفتى والثام الصَّدْع . ولكن وأسفاه ! إن اللوحة النغمية خطرهما بين الملوك وبين السَّعَاة بالنغمة ، ولما أثرها السيء في الصاق نهم الأبرياء ، ولما مَّغْبَهَا الضَّارَّة في بذر بذور الكراهية والبغضاء ، بين الملوك والزعماء .

وقد بينا لك أن الأمان الذي كتبه الرشيد ليحيى بن عبد الله قد أشهد عليه الفقهاء والقضاة وزعماء الشعب . وقد يكون من المفيد في تصوير ناحية من نواحي العصر أن نذكر

لك هنا نصيب هذا الأمان وحظه من بعض الفقهاء ، في الدنيا بنقضه وأحمرين بالوفاء له . ولندع لأبي خطاب أحد المعاصرين الكلمة قال : إن جعفر بن خالد حدثه ليلة وهو في سمره قال : دعا الرشيد اليوم يحيى بن عبد الله بن حسن ، وقد حضره أبو البخترى القاضى ، ومحمد بن الحسن الفقيه صاحب أبي يوسف ، وأحضر الأمان الذى كان أعطاه يحيى ، فقال لمحمد بن الحسن : ما تقول فى هذا الأمان أصحح هو ؟ قال : هو صحيح ؛ فحاجه فى ذلك الرشيد ؛ فقال له محمد بن الحسن : ما تصنع بالأمان لو كان محاربا ثم ولى كان آمنا ! فاحتلمها الرشيد على محمد بن الحسن ؛ ثم سأل أبا البخترى أن ينظر فى الأمان ؛ فقال أبو البخترى : هذا الأمان مُنْقَضٌ من وجه كذا وكذا ! فقال الرشيد : أنت قاضى القضاة وأنت أعلم بذلك ! ومرتق الأمان وتفل فيه أبو البخترى !!

ولك أن تعلم ما شئت على تصرف أبي البخترى ، الفقيه الدبى ، الذى أصبح بفتياه تلك قاضى القضاة ، ولك أن تستنبط ما أحببت فى موقفه ومرونته حين مرتق الأمان ، ولم ترد قبمته فى نظره على "قصاصات الورق" حتى تفل فيه . ولك أن تقول ما أردت فى موقف زميله محمد بن الحسن الفقيه صاحب أبي يوسف وعدم ترخصه أو جموده .

أما نحن فإننا لا نعدو خطتنا التى رسمناها لأنفسنا ، فى مثل هذه المواقف ، من التزام الحيديّة التامة وعدم الرج بأففسنا فى المزالق الخطرة ، والاكتفاء من ناحيتنا بتقيد الحوادث لا أكثر ولا أقل .

ولقد سعى بالنيمة بين الرشيد ويحيى بن عبد الله الساعون ، وكلما رقى الرشيد له أثاروا فى نفسه السخيمة عليه ، فقد ذكر وأ أن يحيى بن عبد الله قال للرشيد : يا أمير المؤمنين ، إن لنا قرابة ورحما ولسانا بقرئ ولا ديلم ، يا أمير المؤمنين ، إنا وأتم أهل بيت واحد ، فاذكرك الله قرابتنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، علام تحبسنى وتعدننى ! قال : فرق له هارون ، ولكن الزيرى — وكان حاكما للدينه أيام الرشيد ، وهو يعد من الأحزاب المعادية للعلويين واشتهر بشدة البغض لهم ، وكان حاضرا مجلسهما — أقبل على الرشيد فقال : « يا أمير المؤمنين لا يترك كلام هذا ، فإنه شاق عاى ، وإنما هذا منه مكر وخيبت ، إك هذا أفسد علينا مدينتنا ، وأظهر

فيها العصيان؛ قال : فأقبل يحيى عليه ، فوالله ما استأذن أمير المؤمنين في الكلام حتى قال : أفسد عليكم مدينتكم ! ومن أتم عافاكم الله ! قال الزبيرى : هذا كلامه قدأمك ، فكيف إذا غاب عنك ! يقول : ومن أتم استخفافا بنا ؛ قال : فأقبل عليه يحيى فقال : نعم ومن أتم عافاكم الله ! المدينة كانت مهاجرة عبد الله بن الزبير أم مهاجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ومن أنت حتى تقول : أفسد علينا مدينتنا ! وإنما بآبائى وآباء هذا هاجر أبوك الى المدينة . ثم قال : « يا أمير المؤمنين إنما الناس نحن وأتم ، فان خرجنا عليكم قلنا : أكلتم واجتمعونا وبسّم وأعرّيتونا وركبتم وأرجعتمونا ، فوجدنا بذلك مقالاً فيكم ، ووجدتم بخروجنا عليكم مقالاً فينا ، فتكافأ فيه القول ، ويعود أمير المؤمنين على أهله بالفضل ، يا أمير المؤمنين فلم يَحْتَرِ هذا وضرباؤه على أهل بيتك يسمى بهم عندك ! إنه والله ما يسعى بنا اليك نصيحة منه لك ، وإنما يأتينا فيسعى بك عندنا عن غير نصيحة منه لنا ، إنما يريد أن يبعد بيننا ، ويَسْتَفِي من بعض ببعض ، والله يا أمير المؤمنين لقد جاء الى هنا حين قُتِلَ أخى محمد بن عبد الله فقال : لعن الله قاتله ! وأُسْدِنِي فيه مَرِثِيَةً قَالَهَا نَحْوُ مِنْ عَشْرِينَ بَيْتاً ، وقال : إِنْ تَحَزَّكَتْ فِي هَذَا الْأَمْرِ فَأَنَا أَقُولُ مَنْ يِيَابُكَ ، وما يَمْنَعُكَ أَنْ تَلْحَقَ بِالْبَصْرَةِ فَايْدِينَا مَعْ يَدِكَ ! فَتَنْصِيرُ وَجْهَ الزُّبَيْرِ وَأَسْوَدَ فَأَقْبِلَ عَلَيْهِ هَارُونُ فَقَالَ : « أَى شَيْءٍ يَقُولُ هَذَا ؟ » قَالَ : كَاذِبٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا كَانَ مِمَّا قَالَ حَرْفٌ ! قَالَ : فَأَقْبَلَ الرَّشِيدُ عَلَى يَحْيَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَقَالَ : تَرَوِى الْقَصِيدَةَ الَّتِي رَتَاهُ بَهَا ؟ قَالَ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَصْلَحَكَ اللَّهُ ! وَأَنْشَدَهَا لِإِيَّاهُ فَقَالَ الزُّبَيْرِى : وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ — حَتَّى أَتَى عَلَى أَحْرَاجِ الْبَيْتِ الْقَمُوسِ — مَا كَانَ مِمَّا قَالَ شَيْءٌ ، وَلَقَدْ يَقُولُ عَلَى مَا لَمْ أَقُلْ . قَالَ : فَأَقْبَلَ الرَّشِيدُ عَلَى يَحْيَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ : قَدْ حَلَفَ فَهَلْ مِنْ بَيْتَةٍ سَمِعُوا هَذِهِ الْمَرِثِيَةَ مِنْهُ ؟ قَالَ ، لَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَكِنْ أَتَحْلِفُ بِمَا أُرِيدُ ؟ قَالَ فَاسْتَحْلَفَهُ ؛ قَالَ : فَأَقْبَلَ عَلَى الزُّبَيْرِ فَقَالَ : قُلْ أَنَا بَرٌّ مِنْ حَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ مُوَكَّلٌ إِلَى جُودِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ ؛ فَقَالَ الزُّبَيْرِى : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَى شَيْءٍ هَذَا مِنْ الْحَلْفِ ! أَحْلَفَ لَهُ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَيَسْتَحْلِفُنِي

بشيء لا أدرى ما هو ! قال يحيى بن عبد الله : يا أمير المؤمنين إن كان صادقاً فما عليه أن يحلف بما استخلفه به ! فقال له هارون : إحلف له ويلك ! قال : فقال : أنا برىء من حول الله وقوته موكل الى حولى وقوتى . ويقول الطبرى : إنه اضطرب منها وأرجمد ، فقال : يا أمير المؤمنين ما أدرى أى شيء هذه اليمين التى يستحلفنى بها وقد حلفت له بالله العظيم أعظم الأشياء . قال : فقال هارون له : لتحلفن له أو لأصدقن عليك ولأعاقبنك ! فقال : أنا برىء من حول الله وقوته موكل الى حولى وقوتى إن كنت قتلته ؛ قال : فخرج من عند هارون فضر به الله بالقالج فمات من ساعته .

وقد روى المؤرخون العرب فى صدد موت ذلك الزيرى روايات لا نرى بأساً بإيرادها ؛ فقد ذكر الفخرى أنه ما انقضى النهار حتى مات ؛ فحملوه الى القبر وحطوه فيه وأرادوا أن يطمؤوا القبر بالتراب فكانوا كلما جعلوا التراب فيه ذهب التراب ولا ينظم القبر فعلموا أنها آية سماوية ، فسقفوا القبر وراحوا . وإلى ذلك أشار أبو فراس بن حمدان فى ميمته اذ يقول :

يا جَاهِدًا فى مَسَويِهِمْ يُكْتَمُهَا \* غدرُ الرَشِيدِ يَحْيَى كَيْفَ يَنْكُمُ  
ذاقَ الزيرى غُيبَ الحَنِثِ وانكشفت \* عَنِ ابْنِ فَاطِمَةَ الْأَفْوَالِ وَالنَّهْمُ

قالوا : ومع ظهور مثل هذه الآية العظيمة قُتل يحيى فى الحبس شر قتلة . عل أن هناك رأياً آخر فى موت يحيى بن عبد الله ، وهو أن الموكل به فى الحبس منعه الأكل فمات .

ولنتظّر ما يرويه لنا معاصِر وهو عباس بن الحسن عما كان من الرشيد بعد ما أصاب الزيرى مما أجمع رواة العرب على إصابته به إثر كذبه فى قسمة ؛ فقد قال : دخلنا على الرشيد ، فلما نظر إلينا قال يا عباس بن الحسن أما علمت بالخبر ؟ فقال أبى : بلى يا أمير المؤمنين ، فالحمد لله الذى صرّه بلسانه ، وقاله الله يا أمير المؤمنين قطع أرحامك ؛ فقال الرشيد : الرجل والله سليم على ما يحب ، ورفع الست فدخل يحيى وأنا والله اثنين الارتياح فى الشيخ ؛ فلما نظر إليه الرشيد صاح به : يا أبا محمد ، أما علمت أن الله قد قتل عدوك الجبار ! قال : الحمد لله

الذى أبان لأمر المؤمنين كذب عدوه على ، وأعانه من قطع رحمة ، والله يا أمير المؤمنين لو كان هذا الأمر مما أطلبه وأصلح له وأريد - فكيف ولست بطالب له ولا مریده - ولم يكن الظفر به إلا بالاستعانة به ، ثم لم يبق في الدنيا غيري وغيرك وغيره ، ما تقويت به عليك أبدا ، وهذا واقع من إحدى آفاتك - وأشار الى الفضل بن الربيع - والله لو وهبت له عشرة آلاف درهم ثم طمع معي في زيادة ثمرة لباعك بها ، فقال : أما العباسي فلا تقل له إلا خيرا وأمر له في هذا اليوم بمائة ألف دينار ، وكان حبسه بعض يوم . قال أبو يونس : كان هارون حبسه ثلاث حبسات مع هذه الـ سنة وأوصل اليه أربع مائة ألف دينار .



وبعد ، فقد عُنيّا بإثبات الروايات فيما كان من سيرة هذا الخليفة العباسي مع علوي من رجالات عصره لتبين نفسية المعاصرين والولاة ، وما انطوت عليه صدورهم من حب لآل علي وتوقير لأشخاصهم ، ونعتهم بالكرامات والمعجزات . وإذا اضريت أن هذا كله قد حصل في عهد خليفة عظيم بسخائه وفواضله ، محبوب لماثره ونوافله ، قوي في مملكته ، كثير الأنصار في شيعته ، أيقنت أن للحزب العلوي أنصارا يُعتمدُ بهم ، ومكانة في النفوس يُحفلُ بها . وهذا معقول جدا ، وإنك لتستسيغه من نفسك وفهمك إذا ذكرت أن أنصار هذه الدولة هم من الفرس . وأنت تعلم ما كان بين الفرس والعرب عامة وبين الموالي وبنو أمية خاصة من عداة وشجار ، ومقت وكراهية ، وأنت تعلم أن الدعوة في بداية أمرها كانت للعلويين دون غيرهم ، وأن القائمين بها كانوا من الفرس ، فمن المعقول أن تُسرّب قلوبهم حُب هذه الدعوة وأفراد هذه الدعوة ، والتغنى بمذهب هذه الدعوة ، منذ الساعة الأولى ، ولا يزيد مرور الزمان كل دعوة أو مذهب حزبي إلا قوة وانتشارا وكثرة أنصار وروسخ عقيدة . فلنلاحظ ذلك جيدا ، فإنه قد يفيدنا في تعليل بعض أفعال البرامكة .

ونرجع الى التحدث معك باختصار عن بقية الحوادث الداخلية في عصر الرشيد ، ولنقسم القول الى ناحيتين : أولاها ثوارت ناتجة عن العصبية ، وثانيهما فتوى وثوارت في شتى ولاياته .

أما الحوادث العصبية بين النزارية والبنمية وغيرهما ، فإن ابن جرير الطبري يتحدثنا أن قد وقع هياج في الشام سنة ست وسبعين ومائة بين النزارية والبنمية ، ورأس النزارية يومئذ أبو الهيثم ، فولى الرشيد موسى بن يحيى بن خالد ، وضم إليه القواد والأجناد ومشايخ الكلاب ، فذهب اليهم وأصلح بينهم حتى سكنت الفتنة .

وأما الثورات الأتروفا لنا نجد في أخبار سنة ثمان وسبعين ومائة ، وسنة ثمانين ومائة ، وسنة سبع وثمانين ومائة ، ما يدل على حصول فتن وحروب من جرّاء العصبية أيضا . ولقد حصلت حروب في ثراسان والطالقان وحوران والجزيرة واليمن ومصر وأرمينية وحاص لرافع بن ليث ، وكان النصر في أكثرها لحليف جيوش الرشيد وولائه . على أن جل هذه الثورات ناجم في الواقع عن اتساع رقعة المملكة ، وسرعة تبدل الولاة ، وسوء تصرف بعض هؤلاء الولاة ، ولا سيما في جباية الأموال ، ومحاولة إرضاء الخليفة من جهة ، ومطامعهم الخاصة من جهة أخرى . وإننا نلتقي بما قدمناه لك عن السياسة الداخلية أيام الرشيد ونتقدم الآن الى الكلام عن السياسة الخارجية .

#### ٣ السياسة الخارجية :

أما ملخص السياسة الخارجية أيام الرشيد فيمكن تقسيمه الى نقطتين : الأولى علاقته بالروم ، والثانية علاقته بالأندلس .

فأما علاقته بالروم فقد أشارت دائرة المعارف الإسلامية ، في مبحثها عن الرشيد ، الى أن حروبا بلغت نهاية الشدة قد وقعت بين الرشيد والبيزنطيين . وقالت : إن ولاية الرشيد عملوا منذ بداية عهده على تقوية الحصون التي على الحدود ، وأنهم كانوا يقومون بغزوات في البقاع المعادية من غير أن يربحوا غنائم مستديعة ، وأن الرشيد غزاهم بنفسه سنة ١٨١ هـ (٧٩٧-٧٩٨ م) ، بيد أنه عجل بعودته ، ثم شبت حرب في السنة التالية كالعادة ، وأذ كانت الأمباطورة إيرين كانت تعاني متاعب داخلية فقد عجلت بالصلح على أن تدفع الجزية .



على أن هذا الصلح لم يدم إلا ريثما تنبأ الأمباطور نيقفور أريكنه سنة ١٨٦ هـ (٨٠٢ م) فقد بعث الى الخليفة بكتاب مبهين طلب فيه أن يُعيد إليه الجزية التي أُدِّيت من قبل ، فلم يتقبل الخليفة بشروط الصلح فعاثت الحروب .

وفي سنة ١٩٠ هـ (٨٠٦ م) استولى هارون على "هرقلة" واضطر الأمباطور الى أن يدفع جزية جديدة ، عن نفسه وعن أسرته ، فوق الجزية العامة . وفي السنة التالية هزم البزنطيون يزيد بن مقلد ، وكانت أخلاط هرمة معهم مماثلة لأخلاط « ابن مقلد » .

ويقول بعض المؤرخين الغربيين : إن هارون كان على علاقة حسنة بـشـلـمان ، وقد ذكر أن كليما كان يبعث سفيرا عند الآخر . على أنه لم يرد ذكر لذلك في المراجع العربية ، وإنه ليشك كثيرا في صحة هذه الرواية . وأما علاقة بالأُمويين في الأندلس ، فلم يكن مرجحوا أن تكون علاقة صفاء ومودة ، فقد كان العباسيون يعدونهم خارجين على سلطانهم ، ولا يرون في دولتهم نظيرا يستحق أن يعيش وإياهم في سلام وهدوء .

وقد ظهرت أيام الرشيد دولة الأدارسة في المغرب الأقصى ، وذلك أن إدريس بن عبد الله كان ممن هرب من وقعة « فتح » وهو أخو يحيى بن عبد الله ، فسار الى مصر وشخص منها الى بلاد المغرب الأقصى ، حيث التفت حوله بآبرأة أوربة ، فأنشأ هناك أول خلافة للعلويين وهي دولة الأدارسة .

وظهرت كذلك أيام الرشيد دولة الأغالية في إفريقية ، فإنه ولأها إبراهيم بن الأغلب التميمي ، ليحصل من مملكته حاجزا منيعا بين الخلافة العباسية والأدارسية الذين بالمغرب الأقصى ، وكذلك بينه وبين الأندلسيين ، وكانت توليته سنة أربع وثمانين ومائة ، فعظم أمره ، وصار كملك مستقل ، إلا أنه كان يخضع للرشيد .

### ٣ - التكلم عن البيعة

والآن نتحدث اليك عن أكبر أخطأ الرشيد، وأبعدا أثرا في حياته وفي الدولة العباسية؛ بل في حياة المسلمين السياسية بوجه عام، وهي بيعته بولاية العهد الثلاثية لأبنائه الأمين والمأمون والقاسم .

وقد قدمنا لك في الكتاب الأول رأينا في هذا النوع من احتياط الخلفاء لأنفسهم ولأبنائهم، وما كان له من الأثر المهيئ في حياة القصور خاصة وفي السياسة عامة، ولا سيما البيعة بولاية العهد لأكثر من واحد، فقد كان ذلك ينشئ بطانات مختلفة، ويكوّن أحزابا لا تنتف حول مبدل أو فكرة وإنما تنتف حول الأشخاص والمنافع التي تُنتظر منهم .

وهذه البطانات والأحزاب، تُتنافس في القصر، فتُعيد على الخليفة والأمراء حياتهم الخاصة، وتقطع ما بينهم من وصلات كان يجب أن ترتج حوثها . كما أنها تُتنافس خارج القصر، فتُعيد على الدولة سياستها العامة فتصرفها عن مرافقها الداخلية، كما تصرفها عن الاحتياط لحماية الثغور والاحتفاظ بمهابتها الخارجية .

ومع أن هذا النوع من البيعة بولاية العهد الثانية أو الثالثة سنة أموية، آتت ثمرها الحبيث، وجرّت على الأمويين أنواع الوبال فرقتهم وأضاعّت ملكهم، كما قدمنا، وكان المقول أن يستفيد العباسيون من هذا الدرس، ويُعرضوا عن سنة منكّرة في نفيسها، وقد سبّها أعداؤهم السياسيون - مع هذا كله تورّط الرشيد فيما تورّط فيه عبد الملك، وخلفاء عبد الملك، وتعرضت الدولة العباسية لما تعرضت له الدولة الأموية، بل كان خطر هذه السنة على العرب أيام بنى العباس أشد منه أيام بنى أمية . ذلك أن سقوط الدولة الأموية قد قلّ السلطان من أسرة إلى أسرة واحتفظ به لقريش، فأما إثر هذه السنة أيام بنى العباس فهو تقلّ السلطان الفعلي من العرب إلى الفرس ثم إلى الترك، وجعل الخلافة نوطا من العبث والسخرية في أيدي المتغلذين من القواد والحلم والرقيق .

وبمهما تنتمس الأسباب لتورط الرشيد في هذه السنة التي كان يجب أن يتجنبها فلن نستطيع أن نُحمل سببين أساسيين : أحدهما تأثير القصر العباسي بسنن الملك الفارسي القديم وسياسته ، والآخر تأثير الخلفاء بما كان للنساء ، حرائرهن وإمائهن ، من سلطان وفوذ . فلولا هذان السببان لما تورط الرشيد في هذه السنة التي تورط فيها أبوه المهدي ، وذاق هو غير قليل من ثمرها .

ستقول : ولكن الرشيد احتاط ، فأخذ على أنبائه اليهود والمواثيق أن يني بعضهم لبعض ، وير بعضهم ببعض . ولكن ما قيمة هذا الاحتياط أمام سطوة الملك وسلطانه ، ومطامع الإنسان التي لا حد لها ؟ وما قيمة هذه اليهود والمواثيق وقد أثبت التاريخ في جل مراحلها أنها لا تعتبر عهدا ومواثيق إلا عند الضعفاء من الأمم والأفراد ، أما الأقوياء وذوى السلطان والبطش فهي عندهم ليست بيهود ولا مواثيق ، إنما هي « قِصَصَات ورق » لا أكثر ولا أقل ، وقد بقى بأنها « قصاصات ورق » أولئك الذين وكّدوها وشهدوا على صحتها ، وتضامنوا في البر بها والوفاء لأصحابها !

وقد كانت الخلفاء قبل الرشيد يمتاطون لكل بيعة فيها أخذ لليهود والمواثيق . ومع ذلك لم ينفع هذا الاحتياط أيام بنى أمية ولا أيام بنى العباس . وإليك الآن أحاديث المؤرخين من العرب وغير العرب في هذا الموضوع :

لما لاحظ الفضل بن يحيى سنة خمس وسبعين ومائة أن جماعة من بنى العباس قد مدّوا أعتاقهم إلى الخلافة بعد الرشيد لأنه لم يكن له ولي عهد ، أجمع على البيعة لمحمد ، ولما صار الفضل بن يحيى إلى خراسان فرق في أهلها أموالا وأعطى الجند أعطيات متتابعات ، ثم أظهر البيعة لمحمد بن الرشيد ، فبايع الناس له وسماه الأمين . وفي ذلك يقول الفري :  
أسمى بمرورى التوفيق قد صَفَقَتْ \* على يد الفضل أبدى العجم والعرب  
بيعة لولى المهد أحكمها \* بالنصح منه وبالإشفاق والحسب  
قد وكّد الفضل عهداً لا انتقاض له \* لمصطفى من بنى العباس متخف

ولما تنهى الخبر الى الرشيد بذلك وباع له أهل المشرق بايع، وصكتب الى الآفاق  
فبُويج له في جميع الأمصار . فقال أبان الاحق في ذلك :  
عَزَمَتِ أمير المؤمنين على الرشيد « رأى هدى فالحمد لله ذى الحمد

ويقول لنا يعقوب في هذا الصدد : إن هارون بايع لابنه محمد بالهد من بعده  
سنة ١٧٥ هـ وبمحمد آبن خمس سنين، وأعطى الناس على ذلك عطايا جمّة، وأخرج محمد الى  
القوّاد، فوقف على وسادة لحمد الله وصلى على نبيه، وقام عبد الصمد بن علي ، فقال :  
أيها الناس لا يفرنكم صغر السن ، فإنها الشجرة المباركة أصلها ثابت وفرعها في السماء .  
وجعل الرجل من بنى هاشم يقول في ذلك حتى انقضى المجلس ، وتبرّت عليهم الدراهم والدنانير  
وفار المسك وبيض المعبر .

ويقول لنا الطبري في حوادث سنة اثنتين وثمانين ومائة : أن فيها كان انصراف الرشيد  
من مكة، ومسيره الى الرقة، وبيعت به لابنه عبد الله المأمون بعد أبنه محمد الأمين، وأخذ  
البيعة له على الجند بذلك بالركة، وضمه إياه الى جعفر بن يحيى وأنه قد بويج له بمدينة السلام  
حين قدمها ، وولاه أبوه خراسان وما يتصل بها الى همدان، وسماه المأمون . وقد قال  
في ذلك سلم بن عمرو الخائسر :

بايع هارون إمام الهدى \* لذي الجبا والخلق الفاضل  
الخلف المتلف أمواله \* والضامن الأثقال للخاصل  
والعالم الناقد في صاحبه \* والحاكم الفاضل والعاقل  
والرائق الفائق جلف الهدى \* والفائل الصديق والفاعل  
نخير عباس اذا حصّلوا \* والمفضل المهدى على العاقل  
أبرهم بئرا وأولاهم \* بالعرف عند الحدث النازل  
لمشيه المنصور في ملكه \* اذا تدجّت ظلمة الباطل  
قم بالمأمون نور الهدى \* وانكشف الجهل عن الجاهل

وفي سنة تسع وثمانين ومائة بايع الرشيد لأبيه القاسم بعد المأمون ، وجعل أمر القاسم في خلعه وإقراره إلى عبد الله إن أفضت الخلافة إليه .

وأراد الرشيد أن يؤثّق الأمر بين بنيه في ولاية العهد ، حتى يسدّ دونهم باب الفتنة ، فرأى أن خير وسيلة لذلك هي ما يحدثنا عنها أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في حوادث سنة ست وثمانين ومائة إذ يقول : حج هارون ومحمد وعبد الله معه وقواده ووزرائه وقضاؤه في سنة ١٨٦ هـ ، وخلف بالرقّة إبراهيم بن عثمان بن نهيك العنكي على الحرم والخزائن والأموال والعسكر ، وأخصّص القاسم ابنه إلى منبج ، فأنزله إياها بمن ضمّ إليه من القواد والجند ، فلما قضى مناسكّه ، كتب لعبد الله المأمون ابنه كتابين جهّد الفقهاء والقضاة أراهم فيهما : أحدهما على محمد بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه من تسليم ما وليّ عبد الله من الأعمال وصير إليه من الضياع والغلات والجواهر والأموال . والآخر نسخة البيعة التي أخذها على الخاصة والعامة والشروط لعبد الله على محمد وعليهم ، وجعل الكتابين في البيت الحرام ، وبعد أخذه البيعة على محمد وإشهاده عليه بها الله وملائكته ومن كان في الكعبة معه من ساوئله وأهل بيته ومواليه وقواده ووزرائه وكتابه وغيرهم ، وكانت الشهادة بالبيعة والكتاب في البيت الحرام ، وتقدّم إلى الحجة في حفظهما ومنع من أراد إخراجهما والذهاب بهما ، فذكر عبد الله بن محمد ومحمد بن يزيد التميمي وإبراهيم المجبي : أن الرشيد حضر وأحضر وجوه بني هاشم والقواد والفقهاء وأدخلوا البيت الحرام وأمر بقراءة الكتاب على عبد الله ومحمد وأشهد عليهما جماعة من حضرة ، ثم رأى أن يعلّق الكتاب في الكعبة . فلما رُفِعَ لعلّقى وقع قتيل : إن هذا الأمر سريع انتقاضه قليل تمامه . وقد أثبتنا الكتابين ، لعظم خطرهما التاريخي ، في باب المنشور في الكتاب الثاني من المجلد الثاني .

وبعد ، فإن لعصر الرشيد مكانته وقدره ، فقد ازدهرت فيه الحضارة الإسلامية أيما ازدهار ، وظهرت فيه آثار تحول المدنية في العصور التي سبقتها ، كما أثمرت في العصور التي تلتها . ولقد صدق صاحب «النجوم الزاهرة» فيما رواه عن أبي علي صالح بن محمد الحافظ ،

قال : «اجتمع للرشد ما لم يجتمع لغيره : وزراؤه البرامكة، وقاضيه أبو يوسف، وشاعره مروان بن أبي حفصة، ونديمه العباس بن محمد عم أبيه، وحاجبه الفضل بن الربيع أنه الناس وأعظمهم، ومُتَنِيه إبراهيم الموصلي، وزوجته زبيدة بنت عمه جعفر»

وإننا لنختم مبحثنا في حياة الرشيد وعصره، بكلمة تين وجهة نظر مؤرخ كبير المكانة في الشريقات وهو الأستاذ «ميور» ، وتتقدم بملاحظة واحدة وهي شدته على هارون الرشيد. وقد يكون الذي دفعه الى ذلك تأثره بمرجه العظيم الذي وضعه الأستاذ «ويل» . وقد اعترف «ميور» نفسه بأن «ويل» كان بالغا في قسوته على هارون مبلغا عظيما على نقيض ما عهد فيه من الحيدة والهدوء في أحكامه، فقد اعتبره من الظلم في الذروة، ولم يكن الرشيد من الرذالة مبلغ من سبقه ومن أتى بعده . ويظهر أن الفاجعة البرمكية هي التي أعطته هذه الأسبقية التي لا يُبْطَل عليها في حكاية الشرق وتاريخه .

وسنرى مع محاولة الأستاذ «ميور» الرد على الأستاذ «ويل» في حاشية كتابه، أن كتابته عن الرشيد، مع حفظها العظيم من المثانة والإنصاف، لا تزال عليها غلالة من صرامة «ويل» وقواعد هذه .

تبرجم لك رأى « ميور » ، لأنه يكاد يكوّن صورة صحيحة للرأى العلمى الأخير في الرشيد، فهو لا يعدو الرأى الذى أبداه الأستاذ ك . ف . « زتوستين » في العدد الثانى والعشرين من دائرة المعارف الإسلامية . ونحن جدّ علّمين بخطير المراجع العديدة التى استند عليها « زتوستين » في رأيه في الرشيد . فلننقل لك الآن كلمة «ميور» فهى مثلُ الأخرى إن لم تكن أوسع وأبلغ .

قال الأستاذ «ميور» في كتابه عن الخلافة : «إن مكانة هارون الرشيد وأبيه المأمون في التاريخ لمى أسمى مكانة بلغها الخلفاء العباسيون ، وإن هارون لقيمٌ بأن يكون في الذروة مع الخيرة من أفاضل ملوك أميرة بنى أمية، لولا شائبة الفسادة المنظوية على الخلل التى وصمت سيرته جمعا .

لقد كان الرشيد في قصوره محوطاً بضروب الرفاهية والرغد، وكان ملكاً في مكارمه وجوده، ومع ذلك قد ترك في أقبائه خزائن عامرة بلغت تسعة مليون، جمعت بوسائل العسف وعدم التدقيق . وإذا استثنينا ما ذكرناه فإن إدارته كانت عادلة موقفة .

ولما كان الرشيد قد اعتاد منذ مئة شبابه الحياة الحربية فإنه كثيراً ما شاطر جنده ميدان القتال . وقد كان من جراء انتصاراته العديدة، لاسيما على اليونان (الروم) ، أن طبع عصره بطابع المجيد والصيت .

ولم يظهر خليفة من قبل أو بعد، ما أظهره الرشيد من الهمة والنشاط في مختلف حركاته، سواء أكانت في سبيل الحج أم الإدارة أم الحرب .

على أن أصل شهرة هذا الخليفة ، ومصدر صيته ، راجع إلى أن حكمه تجل بدخول عصر الآداب ، فقد كان قصره المنابة التي يجتمع إليها الحكماء والعلماء من أنحاء العالم، وكانت سوق البلاغة والشعر والتاريخ والفقه والطب والموسيقى والفنون نافذة، إذ يقابلها الخليفة مقابلة من في صحبته النبيل والكرم ، كل ذلك مما آتى أكله وثمره النافع في المصوّر الآتية .

لقد كان الرشيد يُجيز العلماء في كل فن جازاتٍ ملكية نبيلة ، على أن الشعراء كانوا موضع كرمه الخاص . وهاك مثلاً ما أجاز به مروان بن أبي حفصة حين مدحه بمدحه فيه ، فرفده الرشيد بكيس فيه خمسة آلاف دينار وكساه خلعتَه تزيّفاً له ، وأمر له بمشرة من رقيق الروم، وحمله على بردون من خاص مراكبه . ١٥

#### ٤ — الدولة البرمكية والتكبة البرمكية

صدق الفخري إذ يقول : إن دولة البرامكة كانت غرة في جبهة الدهر ، وتاجاً على مفرق العصر، ضربت بمكارمها الأمثال، وشدّت إليها الرحل، ونيطت بها الآمال، وبذلت

لها الدنيا أفلاذاً أكادها، ومنحتها أوفر إسماعدا، فكان يحيى وبنوه كالنجوم زاهرة، والبحور زاهرة، والسيول دافعة، والغيوث ماطرة؛ أسواق الآداب عندهم نافذة، ومرتائب ذوى الحرمات عندهم عالية، والدنيا في أيامهم عاصرة، وأبهة المملكة ظاهرة، وهم ملجأ اللهيئ ومعتصم الطريق، ولهم يقول أبو نواس :

سلام على الدنيا إذا ما فقدتهم • بنى بريك من راحين وزاد

ويؤخذ من المباحث التاريخية الحديثة للمستشرقين : أن البرامكة هم أسرة فارسية أنشبت أول الوزراء الفرس للخلافة . وليست لفظة بريك باسم لشخص ، وإنما تدل على رتبة وراثية خاصة برئيس الكهّان بمعبد «نوبهار» ببلخ . وكانت البرامكة تملك الأراضي التابعة للمعبد، وبلغ طولها ثمانية فراسخ وعرضها أربعة، فكانت مساحتها أربعين وسبعاً ميل مربع . ولم تزل هذه الممتلكات أو بعضها في حوزة البرامكة في الأيام التالية . ويقول ياقوت : إن قرية « روان » — الكريمة الفنية — وهى شرق بلخ كانت في حوزة يحيى ابن خالد .

ومعنى الاسم بالسندسكريتية : الدير الحديد . وكان هذا الدير عبارة عن دير بوذى . وقد وُصف كذلك بوساطة حاج صيني اسمه «هوان شانج» في القرن السابع لسيح في كتاب اسمه «ذكريات على البقاع الشرقية» وقد ترجمه الى الفرنسية «ست جوليان» . على أن هذا المعبد كان معروفاً لبعض الجغرافيين من العرب أمثال ابن الفقيه (أنظر طبعة جوج ص ٣٢٢) إذ قور أن النوبهار كانت مخصصة لعبادة الأوثان لا النار . وإذا تركنا جانباً بعض المبالغات في وصف ابن الفقيه، فإننا نجد وصفه مطابقاً للبودية .

فلنلاحظ هذه العبادة لأقطاب من زعماء الفرس لعبوا دوراً هاماً في التاريخ العباسي . ولنلاحظها جيداً، فربما أفادتنا في إمالة اللثام قليلاً عن عبادات لغات عديدة اعتبرت زنادقة أو أمانية أو ملحدية . ومهما كانت هذه الفئات موضع اضطهاد من خلفاء العصر، فإنه من المبالغة الكتابية التي لا ترضي العلم ولا التاريخ في شيء، ألا يُحفل بها



أولا يشار إليها إشارة طفيفة، اذا لم يكن لدينا من المواد ما يسمع لنا بأن تُقَرَّد لدراستها باباً، كما حفل بها الخلفاء فأفردوا لها إدارة استموا رئيسها «صاحب الزبادة» .

ولعل أول ذكر لبرمكي حفل به التاريخ وبعثه مؤسساً لتلك الأسرة البرمكية التي نبعت في تلك الأيام الزاهية الزاهرة والتي امتدت الى أن انقضت في أيام الرشيد، ونظر إليه باعتباره جد البرامكة، هو خالد بن برمك الذي استوزره السفاح بعد أبي سلمة الخلال وأبي الجهم . كان خالد بن برمك من رجال الدولة العباسية، فاضلاً جليلاً كريماً حازماً يقظاً، استوزره السفاح وخفف على قلبه، وكان يسمى وزيراً . وقيل : إن كل من استوزر بعد أبي سلمة كان يتجنب أن يسمى وزيراً، تطيراً مما جرى على أبي سلمة، ولقول من قال :

إله الوزير وزير آل محمد • أودى فمن يشاك كان وزيراً

قالوا : فكان خالد بن برمك يعمل عمل الوزراء ولا يسمى وزيراً . كان خالد عظيم المنزلة عند الخلفاء . قيل : إن السفاح قال له يوماً : يا خالد ما رضىت حتى استخدمتني؟ ففرح خالد وقال : كيف يا أمير المؤمنين وأنا عبدك وخادمك ! فضحك وقال : إن ربطة أبي، تنام مع ابنتك في مكان واحد، فأقوم بالليل فأجدهما قد سرخ الفطاء منهما، فأرده عليهما فقبل خالد يده وقال : مولى يكتسب الأجر في عبده وأمنته .

وكثر الوافدون على باب خالد بن برمك، ومدحه الشعراء، وانتجعه الناس . وكان الوافدون يسمون سُؤالا، فقال خالد : إني استعجب هذا الاسم لمثل هؤلاء وفيهم الأشراف والأكابر، فسأهم الزوار، وكان خالد أول من سماهم بذلك؛ فقال له بعضهم : والله ما ندرى أى أياديك عندنا أجل، أصلتنا أم تسميتنا ! .

ولقد مدحه بشر بن برد فقال فيه :

لعمري لقد أجدى على ابن برمك • وما كل من كان الغنى عنده يجدي  
حلبت بشعري راحتيه فدرنا • تماحكا دثر البساط مع الرمد  
اذا جتته لحمد أشرق وجهه • اليك وأعطاك الكرامة بالحمد

لَمْ نَقْسَمْ فِي الْقَوْمِ لَا يَسْتَيْبِهَا \* جزاءً وكيلاً التاجر المذموم بالمد  
مفيد ومتلافٍ سبيل ثرائه \* اذا ما غدا أوراخ كالبخز والمد  
أخالد إن المجد يبقى لأهله \* جمالا ولا تبقى الكنوز على الكد  
فأطعم وكل من عارة مسترددة \* ولا تُبْقِهَا إِنَّ الْعَوَارَى لِلسرد

فأعطاه خالد ثلاثين ألف درهم، وكان قبل ذلك يعطيه في كل وفادة خمسة آلاف درهم،  
وأمر خالد أن يكتب هذان البيتان، الآخرين، في صدر مجلسه الذي كان يجلس فيه.  
وقال أبنته يحيى: أكرما أوصاني به أبي العمل بهذين البيتين.

ولقد أشرنا في مخطبتنا عن الهادي الى مبلغ إخلاص يحيى بن خالد البرمكي للرشيد  
في أيام الهادي حينما شرع في خلع هارون من ولاية العهد، وإن الأخبار التي رواها الطبري  
في سنة سبعين ومائة ناطقة بولاء يحيى وصديق إخلاصه.

ويجدر بنا هنا أن نتطع موقفين كتيل لمواقف يحيى مع الهادي دوداً عن الرشيد  
وحقوق الرشيد، فإنهما يعطينا صورة من إخلاص آل برمك للرشيد ومبلغ ما روع به  
يحيى في سبيل الرشيد.

ذكر أبو حفص الكرواني أن محمد بن يحيى البرمكي حدثه قال: بعث الهادي الى يحيى  
ليلاً فأيس من نفسه وودع أهله وتحنط وجدد ثيابه ولم يشك في أنه يقتله؛ فلما أدخل عليه  
قال: يا يحيى مالي ولك! قال: أنا عبدك يا أمير المؤمنين، فما يكون من العبد الى مولاه  
إلا طاعته! قال: فلم تدخل بيني وبين أمي تفسده علي؟ قال: يا أمير المؤمنين من أنا  
حتى أدخل بينكما! إنما صيرني المهدي معه، وأمرني بالقيام بأمره، فقممت بما أمرني به،  
ثم أمرتني بذلك فأنتهيت الى أمرك؛ قال: فما الذي صنع هارون؟ قال: ما صنع شيئاً  
ولا ذلك فيه ولا عنده؛ قال: فسكن غضبه. وقد كان هارون طاب نفساً بالخلع فقال له  
يحيى: لا تفعل؛ فقال: أليس يُترك لي الهنيء والمرئى فهما يسعاني وأعيش مع أبنة عمي،

وكان هارون يجهد بأم جعفر وجهداً شديداً، فقال له يحيى : وأين هذا من الخلافة ! ولعلك ألا يترك هذا في يدك حتى يخرج أجمع، ومنعه من الإجابة .

وذكر الكرماني أيضاً عن خزيمة بن عبد الله قال : أمر الهادي بحبس يحيى بن خالد، حل ما أراده عليه من خلع الرشيد، فرفع اليه يحيى رقعة : إن عندي نصيحة فدعها به، فقال : يا أمير المؤمنين أخلني فأخلاه، فقال : يا أمير المؤمنين أرايت إن كان الأمر — أسأل الله ألا نبلفه وأن يقدمنا قبله — أنظن أن الناس يسأمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الحلم، ويرضون به لصلاتهم ومجهم وغزروهم ! قال : والله ما أظن ذلك، قال : يا أمير المؤمنين أقتامن أن يسمو اليها أهلك وجلتهم مثل فلان وفلان ويطلع فيها غيرهم فتخرج من ولد أهلك ! فقال له : نهتنى يا يحيى . قال وكان يقول : ما كنتُ أحداً من الخلفاء كان عقل من موسى . قال وقال له : لو أت هذا الأمر لم يقعد لأخيك أما كان ينبغي أن تقعه له ! فكيف بأن تحمل عقده وقد عقده المهدى له ! ولكن أرى أن تقر هذا الأمر يا أمير المؤمنين على حاله، فإذا بلغ جعفر وبلغ الله به أثبته بالرشيد فخلع نفسه وكان أقول من يبايعه ويعطيه صفقة يده، فقال : فقبل الهادي قوله ورأيه، وأمر بإطلاقه .

ولما ولي الرشيد الخلافة قلد يحيى بن خالد الوزارة، وقال له : قد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنق اليك، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب، واستعمل من رأيت، وأعزل من رأيت، وأمض الأمور على ما ترى . ودفع اليه خاتمته . ففي ذلك يقول إبراهيم الموصلي :

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة \* فلما ولي هارون أشرق نورها .

بين أمين الله هارون ذي الندى \* فهارون واليا ويحيى وزيرها

وليس في مقدورنا أن نصور شخصية يحيى بن خالد بن برمك بأحسن من إثبات رأيه في الأخلاقيات، فقد قيل له : أي الأشياء أقل؟ قال : قناعة ذي الهممة البعيدة بالعيش الدون، وصديق كثير الآفات قليل الإمتاع، وسكون النفس الى المدح . وقيل له :

ما الكرم؟ فقال : مَلِكٌ في زِيٍّ مَسْكِينٍ ، وقيل له : ما الجود ؟ فقال : عفوٌ بعد قدرة .  
وقال مرة : اذا فتحتَ بينك وبين أحدٍ باباً من المصروف فاحذرْ أن تُنقله ولو بالكلمة  
الجميلة . وقال : « أحسنُ جملةٍ إصالة السياسة ، ورأسُ إصابة السياسة العملُ بطاعة  
الله ، وفتحُ بابين للرعية ، أحدهما رَأْفَةٌ ورحمة وبذل وتحنن ، والآخر غِلظةٌ ومباعدةٌ  
وإمساكٌ ومنع » .

ويروي لنا "ياقوت الروي" في "معجمه" عنه : أنه لما كان الفضل بن يحيى والياً على  
خراسان ، كتب صاحبُ البريد الى الرشيد كتاباً يذكر فيه : إن الفضل تشاغلٌ بالصيد واللذات  
عن النظر في أمور الرعية ، فلما قرأه الرشيد رمى به ليحيى وقال له : يا أبت اقرأ هذا الكتاب  
وأكتب الى الفضل كتاباً يردعه عن مثل هذا ، فذهب يحيى يده الى دواة الرشيد وكتب الى  
ابنه على ظهر الكتاب الذي ورد من صاحب البريد :

"حفظك الله يا بني وأمتع بك . قد انتهى الى أمير المؤمنين ما أنت عليه من التشاغل  
بالصيد ومدامية اللذات ، عن النظر في أمور الرعية ما أنكره ، فعاد ما هو أزينُ بك ، فإنه  
من عاد الى ما يزينه لم يعرفه أهلُ زمانه إلا به والسلام" وكتب تحته هذه الأبيات :

إنصبَّ نهاراً في طَلاب العِلا \* وأصبر على فقسد لقاء الحبيب  
حتى إذا الليلُ بدا مُقْبِلًا \* وظاب فيه عنك وجهُ الرقيب  
فبادِر الليلَ بما تستوى \* فلأما الليلُ نهارُ الأريب  
كم من فقى تحسبه ناسكًا \* يستقبل الليلَ بأمرٍ عجيب  
ألقى عليه الليلُ أسناره \* فبات في لُهو وعيشٍ خصيب  
ولذَّة الأحمق مكشونةً \* يسعى بها كلُّ مدوِّ مرئيب

هذا هو يحيى الذي يقول عنه المأمون : « لم يكن كيعبي بن خالد وكولده أحدٌ في البلاغة  
والكفاية والجود والشجاعة » . وهذا هو يحيى الذي كان يُجِري على سفیان الثوري رضي

الله عنه ألف درهم في كل شهر ، فكان اذا صلى سفيان يقول في سجوده : « الله إن يحيى كفافاً أمرَ دنيائى فأكفه أمرَ آخرته » .

هذا ، واذا علمت أن أم الفضل بن يحيى ، وهى زينب بنت منير ، كانت ظفراً للرشيد فأرضعته بلبان الفضل وأرضعت الخيزران ، والدة الرشيد ، الفضل بلبان الرشيد ، استطعت أن تقدّر الى أى مدى كانت علاقة الرشيد بآل برمك ، وهو لم يدرج في مهده ، ولم يفرق بين أميه ويومه .

ونجد في أخبار سنة ست وسبعين ومائة أن الرشيد ولّى الفضل بن يحيى ثُغُور الجبال وطبرستان وهنابوند وقومس وأرمينية وأذربيجان ، وندبه لحرب يحيى بن عبد الله الطالبي حين نروجه بالديلم ، فوفّق الفضل لأخذ أمان له من الرشيد وأصلح أيمام إصلاح ونجح الناجح كلّ في غزواته وحروبه ، حتى قال فيه أبو تمام الخطيب :

للفضل يومُ الطّاقانِ وقيلهُ \* يومُ أنّاحَ بهِ على خاقان  
ما مثلُ يوميه اللّذينِ توالّيا \* في غَزَوَينِ توالّيا يومينِ  
سدّ النّورَ وردّ ألفَةَ هاشمٍ \* بعد الثّلاثِ فشمعها مُتدان  
عصمتُ حُكومتُ جماعةِ هاشمٍ \* من أن يُحسِرَ دَينها سيفان  
تلك الحُكومةُ لا آتى عن لَيسها \* عَظُمَ النّبا وتَفَوّقَ الحُكّان  
فأعطاه الفضلُ مائة ألف درهم وخلع عليه .

ونجد في أخبار السّنة نفيها أن الفتنه هاجت بالشّام بسبب العصبية التى بين التّزارية وإيمانية ، فولى الرشيد موسى بن يحيى بن خالد الشّام ، فهرع اليها موسى وأقام بها ، حتى أصلح بين أهلها وسكنت الفتنه واستقام أمرها ، فمدحه الشعراء . ومن قول بعضهم فيه :

قد هاجت الشّامُ هيجاً \* يُشيبُ رأسَ وليهِ  
فَصَبَّ موسى عليها \* بغضله وجنوده  
فدانت الشّامُ لنا \* آتى نسجُ وحيهِ

هو الجوادُ الذي بَدَّ كُلَّ جُودٍ بِجُودِهِ  
أُعْداهُ جُودُ أَبِيهِ \* بِحَيِّ وَجُودُ جُدُودِهِ  
بِفَادَ مُوسَى بْنِ يَحْيَى \* بِطَارِفٍ وَتَلِيدِهِ  
وَنَالَ مُوتَى ثَرَى الْحِجَةِ \* يَدٌ وَهَوْ حَشْوُ مُهَوِّدِهِ  
خَصَصَتْهُ بِمَدِينِي \* مَثْوَرُهُ وَقَصِيدِهِ  
مِنْ الْبَرَامِكِ حُودٌ \* لَهُ فَأَكْرَمُ بُعُودِهِ  
حَوَّوْا عَلَى الشَّعْرِ طُرًّا \* خَفِيفُهُ وَمَدِيدِهِ

وقد مدحه بمثل ذلك اصمحاق بن حسان الحريري .

ويقول الطبري في أخبار سنة ثمان وسبعين ومائة : إن الرشيد فوّض أموره كلها إلى يحيى ابن خالد بن برمك ، وقد ذكر فيها شغوص الفضل بن يحيى إلى نراسان وإلياً عليها ، فأحسن السيرة بها ، وبنى بها المساجد والرباطات ، وغزى ما وراء النهر ، فخرج إليه خازنوه ملك أشروسنة ، وكان ممتنعاً . وقد مدحه مروان بن أبي حفصة وغيره بقصائد عديدة ، وقد ذكر محمد ابن العباس أنه سمع مروان يقول : إنه أصاب في قَدَمَتِهِ تلك على الفضل سبعمائة ألف درهم .  
وقد مدحه سلم الخاسر فقال :

وكيف تخاف من بؤس بنار \* تكتفها البرامكة البحور  
وقوم منهم الفضل بن يحيى \* تسيّر ما يوازنه نفسيّر  
له يومان يومٌ نَدَى وَبَاسٍ \* كَأَنَّ الدَّهْرَ بَيْنَهُمَا أَسِيرُ  
إذا ما البرمكي فدا ابنَ عَشْرٍ \* فهِمَّتْهُ وَزِيرٌ أَوْ أَمِيرُ

ولننظر إلى مكانة الفضل وآل برمك من الرشيد ، فإن أبا جعفر محمد بن جرير الطبري يحدثنا أنه لما قدم الفضل بن يحيى من نراسان خرج الرشيد إلى بستان أبي جعفر يستقبله ،

وتلقاه بنوهاشم والناس من القواد والكُلاب والأشراف، فجعل يصل الرجل بألف الألف ونعمائة الألف . ومدحه مروان بن أبي حفصة فقال :

حَدَّثَنَا الَّذِي أَدَّى ابْنُ يَحْيَى فَأَصْبَحَتْ \* بِقُدْمِهِ تَجْرِي لَنَا الطُّيُورُ أَسْمَدًا  
وَمَا هَجَعَتْ حَتَّى رَأَتْهُ عِيُونُنَا \* وَمَا زَلْنَا ، حَتَّى آتَى ، بِالذَّمِّ حُسْدًا  
نَقَى عَنْ نُرَاسَانَ الْمُدُوكَا نِي \* نَحْنِي الصَّبِيحَ جِلْبَابَ الدَّجَى فَنَمُودَا  
لَقَدْ رَأَى مِنْ أُمِّهِ بَرِّوْمُسِيرُهُ \* إِلَيْنَا وَقَالُوا تَسُبُّنَا قَدْ تَبَدَّدَا  
عَلَى حِينٍ أَلْقَى قُفْلَ كُلِّ ظَلَامِيَةٍ \* وَأَطْلَقَ بِالْفَوْ الْأَسِيرَ الْمُقْبِدَا  
وَأَفْتَقَى بِلَا مَرٍّ مَعَ الْمَدَلِّ فِيهِمْ \* أَيَادِي شُرَفٍ بِاقْبَاتٍ وَغُودَا  
فَأَذْهَبَ رَوَاعِي الْمَخَافِ فِيهِمْ \* وَأَضْدَرَ بِأَعْيُ الْأَمْنِ فِيهِمْ وَأُورِدَا  
وَأَجْدَى عَلَى الْأَيْتَامِ فِيهِمْ بُعْرُهُ \* فَكَانَ مِنَ الْآبَاءِ أُنْحَى وَأُغُودَا  
إِذَا النَّاسُ رَامُوا غَايَةَ الْفَضْلِ فِي النَّبِيِّ \* وَفِي الْبَاسِ أَلْفَوْهَا مِنَ النُّجْمِ أَبْعَدَا  
سَمَا صَاعِدًا بِالْفَضْلِ يَحْيَى وَخَالِدٌ \* إِلَى كُلِّ أُمٍّ كَانَتْ أُمْنَى وَأُنْجَدَا  
يَلِينُ لَنْ أَعْطَى الْخُلَيْفَةَ طَاعَةً \* وَيُسْقِي دَمَ الْعَاصِي لِأَسَامِ الْمَهْنَدَا  
وَشَدَّ الْقَوَى مِنْ بَيْعَةِ الْمُصْطَفَى الَّذِي \* عَلَى فَضْلِهِ عَهْدُ الْخُلَيْفَةِ قَلْبَدَا  
سَمِيَ النَّبِيُّ الْفَاتِحَ الْحَسَامِ الَّذِي \* بِهِ اللَّهُ أَعْطَى كُلَّ خَيْرٍ وَمَسْنَدَا  
أَبْتَحَ بِجَاكِ الْكَأْبِيِّ وَلَمْ تَدْعُ \* بَهْتٌ لِنَبِيَّانِ الْغُبَالَةِ مُوقِنَدَا  
فَاظْلَمَتْهَا خَيْلًا وَطَنَ جَمُوعُهُ \* قَتِيلًا وَمَاسُورًا وَقَلًّا مُشْرَدَا  
وَوَادَّتْ عَلَى ابْنِ الْبَرِّمْ نَهْمَاكَ بِسَمَا \* تَحْصُوبٌ مَخْذُولًا يَرَى الْمَوْتَ مُفْرَدَا

وفي أخبار سنة ثمانين وائمة، حاجت العصبية بالشام، وتفاقم أمرها، واغتم الرشيد بذلك، فنفذ لجعفر بن يحيى على الشام، وقال له : إما أن تخرج أنت أو أخرج أنا ؛ فقال له جعفر : بله أفيك بنفسى . وخصص اليهم جعفر في جلة القواد والكُراع والسلاح،

فأصلح بينهم، وقتل زواجيلهم والمتلصصة منهم، فمادوا إلى الأمن والطمانينة، وأطفا تلك  
الثائرة. وقد مدحه منصور النمرى بقصيدة مطلعها :

لقد أوقدت بالشام نيران فتنة • فهذا أوان الشام تُحمَد نأرها  
إذا جاش موج البحر من آل بريك • عليها خبت شهبانها وشرارها

ولما عاد جعفر موفقا من سفرته هذه، وقد استخلف على الشام مكانه عيسى بن  
المكي، دخل على الرشيد فزاده إكراما وإجلالا .

وإنا لننقل لك هنا ما قاله جعفر للرشيد، حين شمل بين يديه، لأنه يُعتبر أثرا قديما من  
ناحية تحليل نفسية الطرفين، ورويته وبلاغته في أدب العصر، ولأنه في الوقت نفسه بمثابة  
نص تاريخي للعصر الذي ندرسه .

قال الطبري : لما دخل جعفر على الرشيد قبل يديه وبرجليه، ثم مثل بين يديه فقال :  
الحمد لله يا أمير المؤمنين الذي آتس وحشني، وأجاب دعوتي، ورحم تضرعتي، وأنسا  
في أجل حتى أراني وجه سيدي، وأكرمني بقربه، وأمنني على بتقبيل يده، وردني إلى  
خدمته، فوالله إن كنت لأذكر غيبتني عنه ويخرجني، والمتقادر التي أزعجتني، فأعلم أنها كانت  
بمعاص لحقتني، وخطايا أحاطت بي، ولو طال مقامى عنك يا أمير المؤمنين، جعلني الله  
فداعك، خلعت أن يذهب عقلي، إشفافا على قربك، وأسفا على فراقك، وأن يعجل بي عن  
إذلك الاشتياقي إلى رؤيتك . والحمد لله الذي عصمني في حال الغيبة، وأمتني بالعافية،  
وصرفني الإجابة، ومسكني بالطاعة، وحال بيني وبين استعمال المعصية، فلم أشغص إلا عن  
رايك، ولم أقلم إلا عن إذكائك وأمرتك، ولم يتخرفني أجل دونك، والله يا أمير المؤمنين،  
فلا أعظم من الجبن بالله، لقد عابنتُ فلو تُمرص لي الدنيا كلها، لا غفرت عليها قربك وكنا  
رأيها عوضا من المقام معك . ثم قال له بحقب هذا الكلام في هذا المقام : إن الله  
يا أمير المؤمنين لم يزل يُبليكي في خلافتك، بقدر ما يعلم من نيتك، ويُريك في رعتك، غاية

(١) الزواجيل : هم القصوص، كما في القاموس وشرحه في مادة «زجل» .



أمتيتك، فيصلح لك جماعتهم، ويجمع ألقبتهم، ولم شعبتهم، حفظاً لك فيهم، ورحمة لهم، وإنما هذا للتمسك بطاعتك، والاعتصام بمجمل مرضاتك. والله المأمود على ذلك، وهو مستحقه. وفارقت يا أمير المؤمنين أهل كور الشام وهم منقادون لأمرتك، نادمون على ما فرط من معصيتهم لك، ممتسكون بمجلك، نازلون على حركك، طالبون لعفوك، واثقون بمجلك، مؤمنون بفضلك، آمنون بأدركك، حالمون في اتلافهم كالحلم كانت في اختلافهم، وحالمون في ألقبتهم كالحلم كانت في امتناعهم. وعفو أمير المؤمنين عنهم، وتعمده لهم سابق لمعذرتهم، وصلة أمير المؤمنين لهم وعطفه عليهم متقدم عنده لمسألتهم. وأيم الله يا أمير المؤمنين لئن كنت قد شخصت عنهم، وقد أحمده الله شرارهم وأطفأ نارهم ونفى مرقهم وأصباح دهماءهم وأولادى الجبل فيهم ورزقنى الانتصار منهم، فما ذلك كله إلا ببركتك وبمناك وبريحك، ودوام دولتك السعيدة الميمونة الدائمة، وتحوفهم منك ورجائهم لك. والله يا أمير المؤمنين ما تقدمت إليهم إلا بوصيتك، وما عامتهم إلا بأمرتك، ولا سرت فيهم إلا على حد ما مثله لى ورسمته، ووقفنى عليه. والله ما أهادوا إلا لدعوتك وتوحيده الله بالصنع لك، وتحوفهم من سطوتك. وما كان الذى كان منى، وإن كنت قد بذلت جهدى وبلغت مجهودى، قاضياً ببعض حقلك على، بل ما ازدادت نعمتك على عظم إلا ازدادت عن شركك عجزاً وضعفاً. وما خلق الله أحداً من رعيته، أبعد من أن يطعم نفسه في قضاء حقل منى، وما ذلك إلا أن أكون باذلاً مهبتي في طاعتك، وكل ما يقرب الى موافقتك، ولكنى أعرف من أياذك عندى ما لا أعرف مثلها عند غيرى، فكيف بشكرى وقد أصبحت وأحد أهل دهرى فيما صنعتته فى وبى! أم كيف بشكرى وإنما أقوى على شركك بأكرامك إياى! وكيف بشكرى ولو جعل الله شكرى فى إحصاء ما أوليتنى لم يأت على ذلك عدى! وكيف بشكرى وأنت كهنى دور كل كهف لى: أوكيف بشكرى وأنت لا ترضى لى ما أرضاه لى! وكيف بشكرى وأنت تجتهد من نعمتك عندى ما يستغرق كل ما سلف عندك لى! أم كيف بشكرى وأنت تليسى ما تقدم من إحسانك بما تجتهد لى!

أم كيف بشكري وأنت تُقدِّمني بطوكِ على جميع أكفائي ! أم كيف بشكري وأنت وليّ !  
 أم كيف بشكري وأنت المكرم لي ! وأنا أسأل الله ، الذي رزقني ذلك منك من غير استحقاق  
 له ، إذ كان الشكر مُقَصَّرًا عن تأدية بعضه ، بل دون شقص من عُشر عشره ، أن يتولى  
 مكافأتك عني ، بما هو أوسع له وأقدر عليه ، وأن يقضى عني حَقُّك وجليلَ متكِ ، فإن ذلك  
 بيده وهو القادر عليه .

وفي أخبار سنة ثمانين ومائة نفسها وليّ الرشيدُ جعفر بن يحيى الحرّس . وهكذا تمجّد  
 في أخبار كلّ سنة نبأ عن آل برمك ، وتُمدّاحًا لآل برمك وأثرًا جليلًا في خدمة الدولة من  
 آل برمك ، ومكانة سامية تبوّأها آل برمك من الرشيد .

وإنا لا نرى ندحة من إيراد واقعة حال رواها القفخريّ بين جعفر بن يحيى البرمكي  
 وعبد الملك بن صالح الذي سعى به كاتبه قامةً وأبْنه عبد الرحمن عند الرشيد بتهمة طلبه  
 الخلافة لنفسه ، حتى حسبه الرشيد عند الفضل بن الربيع ، وهو منافس لآل برمك ، وكثيراً  
 ما سمى السامون بين صالح والرشيد . فإذا ما تعرّض البرمكيون بالخير لرجل من كبار  
 رجالات الدولة ، المتهمين بالتطلع إلى الخلافة ، وإذا ما نجح البرمكيون في إيصال الخير لهم ،  
 وفي إرضاء قلب الرشيد عليهم ، كان في ذلك أصلق دليل على مكاتبتهم الرقيقة من الرشيد ،  
 فما بالك إذا ما وصلوا إلى أن يبنّي أحد أولاد صالح على إحدى بنات الرشيد ، وإذا  
 ما اقتطعوا له الولايات ورقدوه بأجزل الأموال !

على أنا تترك الكلمة لابن طباطبائي ليقصّ عليك ما يرويه فيما نحن في صده — قيل : إن  
 جعفر بن يحيى البرمكي جلس يوماً للشرب ، وأحبّ الخلوة ، فأحضر ندماء الذين يأنس  
 بهم ، وجلس معهم وقد هيّئ المجلس ولبسوا الثياب المصبغة ، وكانوا إذا جاسوا في مجلس  
 الشراب واللاهو ، لبسوا الثياب الحمر والبصر والخضر . ثم إن جعفر بن يحيى تقدّم إلى  
 الحالج ألا يأنّز لأحد من خلق الله تعالى سوى رجلٍ من الندماء كان قد تاجر عنهم  
 اسمه عبد الملك بن صالح ، ثم جلسوا يشربون ، ودارت الكاسات ، وخفقت العيذان ،

وكان رجل من أقارب الخليفة يقال له عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس، وكان شديد الوفا والدين والحيثية، وكان الرشيد قد اتهم منه أن ينادمه ويشرب معه، وبذل له على ذلك أموالاً جلية فلم يفعل، فاتفق أن عبد الملك بن صالح حضر إلى باب جعفر بن يحيى ليخاطبه في حوائج له، فظن الحاجب أنه هو عبد الملك بن صالح الذي تقدم جعفر بن يحيى بالإذن له وألا يدخل غيره، فأذن الحاجب له، فدخل عبد الملك ابن صالح العباسي على جعفر بن يحيى؛ فلما رآه جعفر كاد عقله يذهب من الحياء، وفطن أن القضية قد اشتبهت على الحاجب، بطريق اشتباه الاسم، وفطن عبد الملك بن صالح أيضاً للقصة وظهر له الخجل في وجه جعفر بن يحيى، فانبطع عبد الملك وقال: لا بأس عليكم، أحضروا لنا من هذه الثياب المصبغة شيئاً، فأحضر له قميص مصبوغ، فلبسه وجلس يأسط جعفر بن يحيى ويمازحه، وقال: اسقونا من شرابكم، فسقوه رطلا وقال آرقوا بنا فليس لنا عادة بهذا، ثم بأسطهم ومازحهم، وما زال حتى انبطع جعفر بن يحيى وزال اقتباسه وحيائه، ففرح جعفر بذلك فرحاً شديداً وقال له: ما حاجتك؟ قال: جئت، أصلحك الله، في ثلاث حوائج أريد أن تخاطب الخليفة فيها: أولاً أن عليّ ديناً مبلغه ألف ألف درهم أريد قضاءه، وثانيها أريد ولاية لأخي يشرف به قدره، وثالثها أريد أن تزوج ولدي ابنة الخليفة لأنها بنت عمه وهو كفو لها، فقال له جعفر بن يحيى: قد قضى الله هذه الحوائج الثلاث. أما المال ففي هذه الساعة يحل إلى متلك، وأما الولاية فقد وليت أبنك مصر، وأما الزواج فقد زوجته ثلاثة ابنة مولانا أمير المؤمنين على صداق مبلغه كذا وكذا، فأصيرف في أمان الله. فراح عبد الملك إلى منزله فرأى المال قد سبقه. ولما كان من الند، حضر جعفر عند الرشيد وعرفه ما جرى وأنه قد ولّاه مصر، وزوجه ابنته؛ فعجب الرشيد من ذلك، وأمضى المقعد والولاية، فما خرج جعفر من دار الرشيد حتى كتب له التقليد بمصر، وأحضر القضاء والشهود وعقد العقد.

أرايت كيف لم ينقض الرشيد ما أمره جعفر في مسئلة خطيرة الخطر كله، لأنها لتعاقب بكرامة الرشيد، وأمرة الرشيد، وشؤون الرشيد الخاصة !

أليس في ذلك ما يقطع برفيع مكانة القوم وكبير قدرهم وسأى منزلهم ، عند الرشيد وفي الأدلة التي هم مفزع رجالها وموئل زعمائها ؟ .

وأرجو ألا يفوتك في المثل المتقدم ، ما جاء فيه خاصا بالملابس فإنه قد يعطيك فكرة ما عن تخصص بعضها للسهرات والرهات والمناديات مما لا يختلف عن نظام اليوم من « رديجوت » و « سموكتنج » و « فراك » الى غير ذلك مما يدل على مبلغ الثروة واستفعال أمر المدنية ، عند القوم في تلك الأيام الخالية ، فتأمل ... !



ربما تطلب الى مثالا على جودهم وتماق الناس بهم ، فأبلك ، أرشدك الله ، أن كتب الأدب مترعة بالمئات من ذلك ، بلا مبالغة ولا غلو ولا تهويل ولا إغراق .

وستترك الكلمة في هذا الباب لمعاصرين : أحدهما إصحاق الموصلي ، والآخر الاتليدي . فيما يرويه من حديث جرى بين المأمون والمنذر بن المغير . وإنا نكتفى بإيراد هذين المثلين للإفصاح عن جود البرامكة وبيان ما جُلبت عليه نفوسهم من المروءة وبعد الأهمية وجب الخير .

أما مسألة إصحاق الموصلي فتفصيل الخبر فيها أن الفضل بن الربيع دعا أحمد بن يحيى الحنكي وعلوية ومبارقا للاجتماع عنده ، وذلك أيام المأمون بعد رجوعه ورضاه عنه ، إلا أن حيلة الفضل كانت ناقصة متضعضعة ، فلما اجتمعوا عنده كتب الى إصحاق الموصلي يسأله أن يصير إليه ، ويعلمه الحال في اجتماعهم عنده ، فكتب إصحاق اليهم بحضوره ولكن جاءهم متأخرا ، وكان علوية يغني نائطا ، فقال له إصحاق : أخطأت ، فغضب علوية وعاتبه بكلام طويل ، ومنه قوله له : إنه من صنيعة البرامكة ، فقال إصحاق : أما البرامكة وملازميهم فاشهر من أن أجهده ، وإني لحقيق فيه بالمعيرة ، وأخرى أن أشكرهم على صنيعهم وبأن أذيعه وأنتشره ، وذلك والله أقل ما يستحقونه مني . ثم أقبل على الفضل ، وقد غاظه مدحه لهم ، فقال : أسمع مني شيئا أخبرك به مما فعلوه ، وليس هو بكبير في صنائعهم عندي ولا عند

أبي قبيلى ؟ فان وجدت لي عذرا وإلا فلم . كنت في ابتداء أمرى نازلا مع أبي في داره ، فكان لا يزال يجرى بين غلباني وغلباني وجواري وجواريه المخصوصة ، كما يجري بين هذه الطبقات ، فيشكونهم اليه ، فأتين الصجر والتكر في وجهه ، فاستأجرت دارا بقرنه ، وانتقلت اليها أنا وغلباني وجواري ، وكانت دارا واسعة ، فلم أرض ما مى من الآلة لها . ولا لمن يدخل الى من إخواني أن يروا مثله عندي ، ففكرت في ذلك وكيف أصنع ، وزاد فكري حتى خطر قلبي قبيح الأحذوية من زول مثل في دار بأجرة ، وإنى لا أمت في وقت ألف يستأذن علي ، وعندي من احتشمة ولا يعلم حالي ، فيقال صاحب دارك : أوبوّه في وقت فيطلب أجرة الدار وعندي من احتشمة ، فضاق بذلك صدرى ضيقا شديدا ، حتى جاوز الحد ، فأمرت غلامي بأن يسرع لي حمارا كان عندي لأمضي الى الصحراء ، أتفرج فيها عما دخل على قلبي ، فأسرجه وركبت برداء ونعل ، فانضى بي المسير ، وأنا مفكر لا أميز الطريق الى أسلك فيها ، حتى هم بي على باب يحيى بن خالد ، فتواشبه غلبانيه الى وقالوا : أين هذا الطريق ؟ فقلت : الى الوزير ، فدخلوا فاستأذنوا لي ، ونرجع الحاجب فأمرني بالدخول ، وقيت تحيلا قد وقعت في أمرين فاضحين : إن دخلت اليه برداء ونعل وأعلمته أني قصدته في تلك الحال كان سوء أدب ، وإن قلت له كنت مجنازا ، ولم أقصدك ، جعلتك طريقا ، كان قبيحا ، ثم حرمت فدخلت ، فلما رآني تبسم وقال : ما هذا الذي يا أبا محمد ؟ احتبستنا لك بالبر والقصود والتفقد ثم علمنا أنك جعلتنا طريقا ، فقلت : لا والله ياسيدي ، ولكني أصدقك ، قال : هات ، فأخبرته القصة من أولها الى آخرها ، فقال : هذا حق مستوف هذا شغل قلبك ؟ قلت : إني والله ، وزاد فقال : « لا تشغل قلبك بهذا ، يا غلام ردوا حماره ، وهانوا له خيلة » ، فجاءوني بخيلة تامة من ثيابه فلبستها ، ودعا بالطعام فأكلت ، ووضع النبد فشربت وشرب فغنيته ، ودعا في وسط ذلك بدواة ورقعة وكتب أربع رقاع فلتكت بعضها نوقعا لي بجائرة ، فاذا هو قد دعا بعض وكلامه فدفع اليه الرقاع وسأته بشئ فزاد طمعي في الجائرة ، ومضى الرجل وجلسنا نشرب ، وأنا أنتظر شيئا فلا أراه الى العتمة ثم اتكأ يحيى

فنام، ففعلت وأنا منكسر خائب، فخرجتُ وقدمتُ لي حارِي، فلما تجاوزتُ الدار قال لي غلامِي:  
 الى أين تضي؟ فقلتُ: الى البيت، قال: قد والله يبعثُ داركُ وأشهدُ على صاحبها  
 وأتبعُ الربُّ كله ووَزِنَ ثمنه، والمشتري جالسٌ على بابك ينتظرُك ليمزقك، وأظنه اشترى  
 ذلك للسلطان، لأنِّي رأيتُ الأمر في استعجاله واستحثائه أمرًا سلطانيًّا، فوقعْتُ من ذلك  
 فيما لم يكن في حسابي، وجئتُ وأنا لا أدري ما أعمل، فلما نزلتُ على باب دارِي إذا أنا  
 بالوكيل الذي سازه يحيى قد قام الىّ، فقال لي: ادخلْ أَيْدَكَ الله داركُ حتى أدخلُ الى  
 مخاطبتك في أمر أحتاج اليك فيه، فطابت نفسي بذلك، ودخلتُ ودخلُ الىّ فأقرأني  
 توقيع يحيى: يُطَلَّقُ لأبي محمد إصحاق بمائة ألف درهم يُتَّاعُ له بها دارُه وجميعُ ما يجاورُها  
 ويلاصقُها، والتوقيع الثاني الى ابنه الفضل: قد أمرتُ لأبي محمد إصحاق بمائة ألف  
 درهم يُتَّاعُ له بها دارُه، فأطْلُقُ اليه مثلها ليُنْفِقَها على إصلاح الدار كما يريد وبنائها على  
 ما يشتهي. والتوقيع الثالث الى جعفر: قد أمرتُ لأبي محمد إصحاق بمائة ألف درهم  
 يتَّاعُ له بها منزلٌ يسكنه، وأمر له أخوك بدفع مائة ألف درهم ينفقها على بنائها ومرتبتها  
 على ما يريد، فأطْلُقُ له أنت مائة ألف درهم يتَّاعُ بها فرشًا لمنزله. والتوقيع الرابع الى  
 محمد: قد أمرتُ لأبي محمد إصحاق أنا وأخوأك بثلاثمائة ألف درهم لمنزل يتناعه ونفقة ينفقها  
 عليه وفرش يتنذه، فمرَّ له أنت بمائة ألف يصرُفها في سائر نفقته. وقال الوكيل: قد حلتُ  
 أُمُالَ واشتريتُ كلَّ شيء جاوزك بسبعين ألف درهم، وهذه كتبُ الإتياعات باسمي  
 والإقرارك، وهذا المال بورك لك فيه فأقبضه؛ فقبضته وأصبحتُ أحسنَ حالًا من  
 أبي في منزلي وفرشي وآلتي، ولا والله ما هذا بأكبر شيء فعلوه لي، أفلأم على شكر هؤلاء!  
 فبكى الفضلُ بن الربيع وكلُّ من حضره، وقالوا: لا والله لا نلأمُ على شكر هؤلاء!

أرأيتُ الى أي مدَى بلغتُ مكانة البرامكة من رجالات العصر وأدبائه، حتى تمكَّنوا  
 من القلوب اعتبًا، ومن النفوس أذنتها، وكيف استحوذوا على السَّوِيءاء والمهيج، ولم  
 تهجِبتُ إلا السنَّة بتداحهم والإشادة بذكرهم!

أما حديث المأمون والمغيرة بن المشذر الذي رواه لنا الانبديّ فهاكه بمضافه : قال خادم المأمون : طليبي أمير المؤمنين ليلة وقد مضى من الليل ثلثه ، فقال لي : خذ مئلك فلانا وفلانا ، سماهما لي : وأحدهما علي بن محمد والآخر دينار الخادم ، وأذهب مسرعا لما أقول لك ، فإنه بلغني أن شيخا يحضر ليلا إلى آثار دور البرامكة ويُشيدُ شعرا ويدكرهم ذكرا كثيرا ويندبهم ويبيكي عليهم ثم ينصرف ، فامض أنت وعلني ودينار ، حتى تردوا تلك الانرابات ، فاستروا خلف بعض الجدر ، فاذا رأيتم الشيخ قد جاء وبكى وتذب وأنشد أبياتا ، فأنوفى به ، قال : فاخذتهما ومضينا حتى أتينا الانرابات ، فاذا نحن بفلام قد أتى ومعه بساط وكرسی حديد ، واذا شيخ قد أتى وله جمالٌ وعليه مهابة ولطفٌ ، بجلّس على الكرسي وجعل يبكي ويتنحب ويقول هذه الأبيات .

ولما رأيتُ السيف جلت جفيرا \* ونادى منادٍ للظيفة في يحيي

بعكيتُ على الدنيا وزاد تأسفي \* عليهم وقلت الآن لا تنفع الدنيا

مع أبيات أطالها . فلما فرغ قبضنا عليه وقتلنا له : أجب أمير المؤمنين ، ففرغ فزعا شديداً وقال : دعوني حتى أوصي بوصية ، فإني لا أوقن بعدها بحياة ، ثم تقدم إلى بعض الدكاكين ، واستفتح وأخذ ورقة وكتب فيها وصية وسلمها إلى غلامه . ثم سرنا ، فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين قال : من أنت ؟ وبما استوجبت منك البرامكة ما تفعله في حرائب دورهم ؟ قال الشيخ : يا أمير المؤمنين إن البرامكة أبادى خضرة عندي ، أفأذن لي أن أحدثك بحالي معهم ؟ قال : قل ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك ، وقد زالت عني نعمتي ، كما تزول عن الرجال ، فلما زكيت الدين واحتجت إلى بيع ما علي رأسي ورموس أهلي ، وبقى الذي ولدت فيه ، أشاروا عليّ بالخروج إلى البرامكة ، فخرجت من دمشق ومعى ثلاثون رجلا وثيقت من أهل وولدي ، وليس معنا ما يباع ولا ما يوهب ، حتى دخلنا بغداد وتزلنا في بعض المساجد ، فعدوت ببعض ثياب كنت أعددتها لأستقر بها ، فلبستها ونجست ، وتركتم جياعا لا شيء عندهم ، ودخلت شوارع

بغداد سائلا عن البرامكة، فإذا أنا بمسجد مزخرف، وفي جانبه شيخٌ بأحسن زىٍّ وزينة، وعلى الباب خادمان، وفي الباطن جماعة جلوس، فطعمت في القوم، ودخلت المسجد وجلست بين أيديهم، وأنا أقدم رجلاً وأخر أخرى والعرق يسيل مني لأنها لم تكن صناعتي، وإذا الخادم قد أقبل ودعا القوم فقاموا وأنا معهم، فدخلوا دار يحيى بن خالد فدخلت معهم، وإذا يحيى جالس على دكة له وسط بستان، فسألتنا وهو يعدنا مائة وواحداً وبين يديه عشرة من ولده، وإذا بمائة وأثنى عشر خادماً قد أقبلوا ومع كل خادم صبيّةٌ من فضة على كل صبيّة ألف دينار، فوضعوها بين يدي كل رجلٍ صبيّته، فرأيتُ الفاضلَ والمشايخَ يضعون الدنانيرَ في أكمامهم، ويحملون الصواني تحت آباطهم، ويقوم الأول فالأول، حتى بقيت وحدي لا أجسرُ على أخذ الصبيّة، فعمزني الخادمُ بغسرت وأخذتها، وجعلت الذهب في كفي والصبيّة في يدي، وقتُت وجعلت ألتفت ورأيتُ عذابةً أن أمتع من الذهب، فوصلت وأنا كذلك إلى صحن الدار ويحيى يلاحظني، فقال للخادم: اتّنى بهذا الرجل: فأناه بي فقال: مالي أولئك تلتقت بيننا وشمالاً؟ فقصصتُ عليه قصتي، فقال للخادم: اتّنى بولدي موسى، فأناه به، فقال: يا بنيّ هذا رجل غريب، نفذه اليك، واحفظه بنفسك ونعمتك، فقبض موسى ولده على يدي، وأدخلني إلى دار من دوره، فأكرمني غاية الإكرام، وأقمت عنده يومى وليتي في اللذّة عيش وأثم سرور، فلما أصبح دعا بأخيه العباس وقال له: الوزير أمرني بالعطف على هذا الفتى، وقد علمت اشتغالي في بيت أمير المؤمنين، فأقبضه اليك وأكرمه، ففعل ذلك وأكرمني غاية الإكرام، ثم لما كان من اللذّة تسألتني أخوه أحمد. ثم لم أزل في أيدي القوم يتبادلونني مدة عشرة أيام، لا أصرف خبر عيالي وصبيانى ألقى الأموات هم أم في الأحياء، فلما كان اليوم الحادى عشر جاءني خادم ومعه جماعة من الخدم فقالوا: قم فانرج إلى عيالك بسلام، فقلت: واويلاه! سلبت الدنانير والصبيّة وأخرجت على هذه الحالة! إنا لله وإنا إليه راجعون! فرفع الستر الأول ثم الثانى ثم الثالث ثم الرابع، فلما رفع الخادم الست الآخر قال لى: مهما كان لك من الحوائج فارفعها إلى، فأنى مأمور بقضاء جميع ما تأمرني به، فلما رفع الست



الأخير، رأيتُ حجرةً كالشمس حسناً ونوراً ، واستقبلني منها رائحةُ التّد والعود ونفحاتُ المسك ، وإذا بصلياني وعيالي يتقلبون في الحرير والديساج ، وحمل إلى مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار ، ومنشور بضيعتين وتلك الصبيلة التي كنت أخذتها بما فيها من الدنانير والبنادق ، وأقت يا أمير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أن أمير البرامكة أنا أم رجل غريب ، فلما جاءتهم البلية ، ونزل بهم يا أمير المؤمنين من الرشيد ما نزل ، أجهض عمرو بن مسعدة ، وأزمنى في هاتين الضيعتين من الخراج ما لا يفي دخلهما به ، فلما تحامل على الدهر كنتُ في آخر الليل أقصدُ خرابات دورهم ، فأُتدبهم وأذكر حسنَ صنيعهم إلى وأبكي على إحسانهم ، فقال المأمون : على عمرو بن مسعدة فلما أتني به قال له : تعرف هذا الرجل ؟ قال : يا أمير المؤمنين هو بعض صنائع البرامكة ؟ قال : كم أزيته في ضيعته ؟ قال : كذا وكذا ، فقال له : ردّ إليه كل ما أخذت منه في مدته وأفرغهما له ، ليكونا له ولعقبه من بعده ، قال : فعلا نجيب الرجل ، فلما رأى المأمون كثرةً بكائه ، قال له : يا هذا قد أحسنا إليك فما يبكيك ؟ قال : يا أمير المؤمنين وهذا أيضاً من صنيع البرامكة ! لو لم آت خراباتهم فأبكيهم وأندبهم حتى أتصل خبري إلى أمير المؤمنين ففعل بي ما فعل ، من أين كنتُ أصل إلى أمير المؤمنين ! قال إبراهيم ابن ميمون : فرأيت المأمون وقد دمعت عيناه وظهر عليه حزنه ، وقال : « لعمري هذا من صنائع البرامكة فعليهم فأبكيك ، وإياهم فأشكر ، ولهم فأوف ، وإحسانهم فاذكر » .

بما يدل على تقدير المأمون للبرامكة ما رواه القاضي يحيى بن أكرم قال : سمعت المأمون يقول : لم يكن كجحي بن خالد وولده أحدٌ في الكفاية والبلاغة والجرود والشجاعة ، قال القاضي : فقلتُ يا أمير المؤمنين أما الكفاية والبلاغة والمهاسة فتعرفها فيهم ، ففهم الشجاعة ؟ فقال : في موسى بن يحيى ، وقد رأيت أن أولاه تفر السند .



مكانة عالية بلا ريب مكانة آل برك، وسلطان لا حد له سلطانهم، وغنى فاحش قبل الاسلام، وصولة ونفوذ قول في دولة الرشيد، فما الذي يا ترى غير قلب الرشيد عليهم حتى نكسبهم ؟

لندكر ما يقوله المعاصرون ونعقب عليه بكلمة هادئة حكيمة لابن خلدون .

أما تختيشوع الطبيب المأموني، فانه يقول نقلا عن أبيه جبريل : إنه لقاعد في مجلس الرشيد، إذ طلع يحيى بن خالد، وكان فيما مضى يدخل بلا إذن، فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلم، رد عليه ردًا ضيقًا، فلم يحيى أن أمرهم قد تغير . قال : ثم أقبل على الرشيد فقال : يا جبريل يدخل عليك وأنت في متراك أحد بلا إذنك ! فقلت : لا ولا يقطع في ذلك ؟ قال : فما بالناس يدخل علينا بلا إذن ! فقام يحيى فقال : يا أمير المؤمنين قدمني الله قبلك، والله ما ابتدأت ذلك الساعة، وما هو إلا شيء كان خصني به أمير المؤمنين ورفع به ذكري، حتى إن كنت لأدخل وهو في فراشه مجردًا حينًا وحينًا في بعض إزاره، وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب، وإذا قد علمت فاني أكون عنده في الطبقة الثانية من أهل الإذن أو الثالثة إن أمرني سيدي بذلك ؟ قال : فاستعيا الرشيد، وكان من أرق الخلفاء وجهًا، وعينه في الأرض ما يرفع إليه طريقه، ثم قال : ما أردت ما تكره ولكن الناس يقولون ؟ قال جبريل : فظننت أنه لم يستح له جواب يرتضيه، فأجاب بهذا القول، ثم أمسك عنه وخرج يحيى .

أما أحمد بن يوسف كاتب عصرنا المأموني النابه، فانه يتحدثنا عن ممامة بن أشرس بحديث سنقله لك . وقبل إيراد هذا الحديث نود أن نذكر بأن محمد بن الليث الذي سيرد فيه هو محمد بن الليث الذي اختاره المهدي كاتبا للسر في مجلس مشاورته لندير رأى في حرب نخراسان، وأمره بحفظ مراجعة أعضاء المجالس وإبانت مقالاتهم في كتاب .

وربما كان من المفيد أن يزيد الفارسي محمد بن الليث معرفة<sup>(١)</sup>، لا لأنه من رجالات عصرنا ومن ذوى الأثر الادبي القيم فيه، ولا لأنه صاحب تلك الرسالة الشائعة التي يُبعت بها من الرشيد الى ملك الروم التي أثبتناها في المجلد الثاني من هذا الكتاب<sup>(٢)</sup>، بل لانا نرى في توضيح قدره توضيحا لقدرة البرامكة، ولأنك حينما ترى الرشيد يقبض على محمد بن الليث بسبب البرامكة وكرامتهم ومنزلتهم من نفسه، لنصح له بأن يضع حدا لاستفحال شأن البرامكة، وللرجل قدره ومنزلته، تستطيع أن تتصور تصورا صحيحا مكانة البرامكة من الرشيد ومن الدولة ومن العصر الذي هم فيه، ولأنك حينما تعلم أن الرشيد أطلق محمد بن الليث من حرسه واعتذر له قبيل نكبة البرامكة تستطيع أن تعلم اذا مقدار التحول الذي نال نفسية الرشيد.

سنرى في مشاورة المهدي التي ذكرها ابن عبد ربه في المقد والي أثبتناها لك في المجلد الثاني أن محمد بن الليث يتكلم في المجلس — وكان الرشيد بلا شك ولي العهد — كلاما يرضى الرشيد. اذا فمحمد بن الليث كلف الى جانب وظيفته كخاموس لمجلس المشاورة، صاحب رأي في مجلس الاستشارة نفسه يتد به. فهو ذو شخصية عظيمة من ذوى شخصيات الدولة الذين لكلامهم خطره وقلوبهم أثره.

قال: أول ما أنكر يحيى بن خالد من أمره أن محمد بن الليث رفع رسالة الى الرشيد يعظه فيها، ويذكر أن يحيى بن خالد لا يفني عنك من الله شيئا، وقد جعلته فيما بينك وبين الله، فكيف أنت اذا وقفت بين يديه، فسألك عما عملت في عبادته وبلاده، فقلت: يا رب انى استغنيت يحيى أمور عبادك، أترك تحتج بحجة يرضى بها مع كلام فيه توبيخ وتقرع<sup>(٣)</sup>، فدعا الرشيد يحيى، وقد تقدم اليه خبر الرسالة، فقال: تعرف محمد بن الليث؟ قال: نعم؛ قال فأي الرجال هو؟ قال: منهم على الإسلام، — لاحظ كيف يتهمون في الدين — فأمر به الرشيد فوضع في المطبقي دهرا. فلما تنكر الرشيد للبرامكة، ذكره فأمر بإنزاله

(١) و (٢) أنظر باب المتخوف في الكتاب الثاني من المجلد الثاني.

فأحضر، فقال له بعد مخاطبة طويلة: يا محمد، أتحبني؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين، قال: بهول هندا!! قال: نعم وضعت في رجلي الأكل وحللت بيني وبين العيال، بلا ذنب أتيت ولا حدث أحدثت، سوى قول حامد يؤكد للإسلام وأهله، ويحب الإلحاد وأهله، فكيف أحبك!! قال: صدقت، وأمر بإطلاقه، ثم قال: يا محمد أتحبني؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين ولكن قد ذهب ما في قلبي، فأمر أن يُعطى مائة ألف درهم فأحضرته، فقال: يا محمد أتحبني؟ قال: أما الآن فنعم! قد أنعمت علي وأحسنلت إلي، قال: إنني نعم الله من ظلمك وأخذ لك بحقك من بعني عليك، قال ثامنه: فقال الناس في البرامكة فاكثروا، وكان ذلك أول ما ظهر من تغير حالهم.

فإذا حدث بعد ذلك؟

حدث — كما نبهنا أحد المعاصرين، وهو محمد بن الفضل بن سفيان بن سليمان بن أبي جعفر — أن يحيى بن خالد دخل دار الرشيد في الآونة التي نحن في صدها، فقام الغلمان إليه احتراماً وإجلالاً، لما كان من الرشيد إلا أن قال لمسروور الخادم: صر الغلمان ألا يقوموا ليحيى إذا دخل الدار! قال: فدخل فلم يبق له أحد فأربد لونه، قال: وكان الغلمان والجناب بسد إذا رأوه أعرضوا عنه، قال: فكان ربما استسقى الشرية من الماء أو غيره فلا يسمونه، وبالطريق إن مرقوه أن يكون ذلك بعد أن يدعوها صراراً.

ولننظر في سبب آخر يرويه لنا أحد المطلعين على أخبار ذلك العصر، وهو أبو محمد البرزدي، قال: من قال إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سبب يحيى بن عبدالله بن حسن فلا تصدقه، وذلك أن الرشيد دفع يحيى إلى جعفر فحبسه، ثم دعا به ليلة من الليالي، فسأله عن شيء من أمره فأجاب، إلى أن قال: اتق الله في أمري ولا تتعرض أن يكون خصمك فداً نحمدك صل الله عليه وسلم، فواته ما أحدثت حديثاً، ولا أويت حديثاً، فرق عليه وقال له: اذهب حيث شئت من بلاد الله، قال: وكيف أذهب ولا آمن أن أؤخذ بعد قليل فأردك إليك أو إلى غيرك! فوجه معه من آداه إلى مأمنه. وبلغ الخبر الفضل بن الربيع من حين

كانت له عليه من خاص خدمه، قَبَلًا الأَمْرَ فوجدته حقا وانكشف عنده، فدخل على الرشيد فأخبره فأراه أنه لا يعبا بخبره، وقال : وما أنت وهذا ! لا أُمُّ لك ! فاعلم ذلك عن أمرى ! فأنكسر الفضل وجاءه جعفر فدعا بالفداء فأكلا، وجعل يلقيه ويماديه، الى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال : ما فعل يحيى بن عبد الله؟ قال : بحاله يا أمير المؤمنين في الحيسن الضيق والأكل؛ قال : بحياتي؟ فأحجم جعفر، وكان من أدق الخلق ذمنا وأصحهم فكرا، فهجس في نفسه أنه قد علم بشيء من أمره، فقال : لا وحياتك ياسيدي، ولكني أطلقته وصلمت أنه لا حياة به ولا مكروه عنده؛ قال : نعم ما فعلت، ما عدوت ما كان في نفسي؛ فلما خرج أتبعه بصره، حتى كاد يتوارى عن وجهه ثم قال : قتلتني الله بسيف الهدى على عملي الضلالة إن لم أقتلك ! فكان من أمره ما كان .

سبب رابع رواه أحمد بن زهير، ونذكره لك هنا على علته، استكمالاً للموضوع من بكل نواحيه . يقول الطبري : إنه يظن أن المصدر للرواية هو زاهر بن حرب، قال : « إن سبب هلاك جعفر والبرامكة أن الرشيد كان لا يصبر عن جعفر وعن أخته عباسية بنت المهدي ، وكان يحضرهما إذا جلس للشرب ، وذلك بعد أن أعلم جعفرا قلة صبره عنه وعنها ، وقال لجعفر تزوجها ليحل لك النظر إليها إذا أحضرتها مجلسي ، وتقدم إليه ألا يسما ولا يكون منه شيء مما يكون للرجل الى زوجته ، فزوجها منه على ذلك ، فكان يحضرهما مجلسه إذا جلس للشرب ، ثم يقوم عن مجلسه ويغليهما ، فيشملان من الشراب ، وهما شابان فيقوم إليها جعفر فيجامعها ، فحملت منه وولدت غلاما ، غافقت على نفسها من الرشيد أن علم بذلك ، فوجهت بالمولود مع حواضر له من مماليكها الى مكة ، فلم يزل الأمر مستورا عن هارون ، حتى وقع بين عباسية وبعض جواربها شر ، فانتهت أمرها وأمر الصبي الى الرشيد وأخبرته بمكانه ومع من هو من جواربها وما معه من الحل الذي كانت زينته به أمه ، فلما سمع هارون هذه الجملة — سنة سبع وعثمانين ومائة — أرسل الى الموضع الذي كانت الجارية أخبرته أن الصبي به ، من يأتيه بالصبي ، وبين معه من حواضته ، فلما أحضروا

سأل اللواتي معهن الصبي، فأخبرنه بمثل القصة التي أخبرته بها الراقصة على عياسة، فأراد، فيما زعم، قتل الصبي ثم تمحّوب عن ذلك، وكان جعفر يتخذ للرشد طعاما كلما حج بسفان فيقريه إذا أنصرف شاخصا من مكة الى العراق، فلما كان في هذا العام اتخذ الطعام جعفر كما كان يتخذ هنالك، ثم استأجره فاعتل عليه الرشيد ولم يحضر طعامه، ولم يزل جعفر معه حتى نزل منزله من الأتبار، فكان من أمره وأمر أبيه ما كان .

أما نحن فلا نريد القطع بأن نكبة البرامكة كانت أثرا لسبب بعينه من هذه الأسباب، وربما كانت نتيجة لطائفة من الأسباب مجتمعة، منها ما نعرفه، ومنها ما لم نعرفه بعد، ونحب ألا يفوتنا هنا أن نفترض فرضا نعتف بأنه فرض لا أكثر ولا أقل، ونعتف بأنه في حاجة الى التحقيق العلمي، ولكننا نعتف أيضا أن عرضه على علته لا يخلو من النفع، وهو أن البرامكة كانوا فيما يظهر متأثرين بالناحية السياسية للمذهب المعتزلة<sup>(١)</sup>، وهي الاعتدال بين أهواء الأحزاب السياسية المتطرفة وتلطيف الخصومة بين جناحي الحزب الهاشمي فلم يرش الرشيد عن هذا النحو من السياسة، ومالاه على ذلك النعميون من أنصار الجناح العباسي. وسنرى بعد قليل أن المأمون كان يرى رأى البرامكة، في هذا النحو من السياسة المعتدلة، الموقفة بين وجهات النظر المختلفة .



أما كيفية القبض على البرامكة، واحتياط الرشيد وحذره قبل قتلهم، ومصادرتهم لأموالهم، وما قالته الشعراء في رثائهم، فحديث طويل يتطلب رسالة خاصة، ووفقنا الله لدراسة موضوع البرامكة ونكتبتهم وأثرهم في الدولة العباسية في موضوعنا (عصر الرشيد) في القريب العاجل إن شاء الله .

(١) يخالفنا أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار في هذا بقوله : " ليس الاعتزال مذهبا سياسيا ولم ترج سوق الاعتزال في زمن الرشيد ولم يكن شيئا يمتد به على عهد " .

على أننا نرى من المستصوب قبل أن تم هذه الفذلكة الموجزة أن نحتّمها بكلمة لابن خلدون ، لا نخلو من تحاميل صحيح ، ومذهب في الموازنة رجيع ، وباب في التاريخ جليل المنهج ، معقول التعليل .

قال ابن خلدون : إنما نكّب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجازهم أموال الجبائية ، حتى كان الرشيد يطلب السير من المال فلا يصل إليه ، فغلبوه على أمره وشركوه في سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه ، فعظمت آثارهم وجمد صيبتهم وعصروا مرائب الدولة وخُططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتازوها عن سواهم : من وزارة وكابية وقيادة وحجابة وسيف وقلم . يقال : إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب سيف وصاحب قلم ، زاحوا فيها أهل الدولة بالمناكب ودفنهم عنها بالراح ، لمكان أبيهم يحيى من كفالة هارون ولي عهد وخليفة ، حتى شب في حجره ، ودرج من عشه ، وغلبه على أمره ، وكان يدعو يألوت ، فتوجه الإشار من السلطان إليهم ، وعظمت الدالة منهم ، وانبسط الجاه عندهم ، وانصرفت نحوهم الوجوه ، وخضعت لهم الرقاب ، وقصرت عليهم الآمال ، وتخطت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحنف الأمراء ، وتسربت إلى خزائهم ، في نبيل الترف والاستقالة أوّل الجبائية ، وأفاضوا في رجال الشيعة وعطاء القرابة المعطاء وطوّقهم المنن ، وكسبوا من بيوتات الأشراف المعدم ، وفكروا العاني ، ومُدحوا بما لم يمدح به خليفتهم ، وأسّوا لعقائهم الجوائر والصلوات ، واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والأمصاف في سائر الممالك ، حتى أسفوا البطانة وأحققوا الخاصة ، وأعصوا أهل الولاية ، فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ، ودبت إلى مهادهم الوثيرة من الدولة عقارب السعاية ، حتى لقد كان بنو خطبة أخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم ، لم تعطفهم ، لما وقر في نفوسهم من الحسد ، عواطف الرّحم ، ولا وزعتهم أوامر القرابة ، وقارن ذلك عند خدمهم نواشي الغيرة والاستنكاف من الجور والأنفة وكامن الحقوق التي يعتنقونها من صغائر الدالة ، وانتهى بهم الإصرار على شأنهم إلى كائن المخالفة .

## الحياة العلمية في العصر العباسي

توطئة — حركة النقل — العلوم الفرائضية والفقهية والفقهية .

### (١) توطئة :

هذه فذلكة مجملة بمثابة توطئة لما سنعرض له بما يقتضيه المقام من شرح وإيضاح في العصر المأموني . فلهذا الآن أن نلمّ ببيان العناصر المهمة في الحياة العلمية العباسية .

نعلم من تاريخ اليونان القديم أن أثر اليونان في الثقافة الإنسانية عظيم عميق ، لأنه إلى جانب إمداد العالم بمشجات فلاسفتهم وعلمائهم ومفكرهم قد أمدهم أيضاً بالتخّص والمُتّجّس مما وقف عليه اليونان من دُبة علوم الأشوريين والبابليين والفيثقيين والمصريين واليهود والفرس والرومان . فإذا ما قلنا : إن العرب وقفوا على الفلسفة اليونانية ، ودبّجوا العقول اليونانية ، فكأننا نقول ضمناً إنهم وقفوا على آثار العقليات الإنسانية العامة ، وآثار الثقافة القديمة والحضارات السالفة .

ونعلم أن الدولة العباسية كانت فارسية إلى حدّ ما ، أو على الأقل كانت مُسمّسة بالطابع الفارسي متأثرة به . ونعلم من تاريخ سقوط الدولة الرومانية للأستاذ «جيون» أن «جستيان» اضطهد مباهرين أئمة ، لأنه كان خصماً للفلسفة الوثنية ، وكانت الفلسفة الأفلاطونية حينئذ قد آتت ثمرتها ونفجحت ، ثم هرع أصحابها إلى الفرس ، واتصل بأنوشروان سبعة من علماء اليونان فأكرم وقادتهم ، وأفسح لهم مجال التاليف والنقل فيما هم أهله وأصحاب القُدَح المعلّ فيه . ويقول ابن النديم في الفهرست : إن الفرس نقلت في القديم شيئاً من كتب المنطق والطب إلى اللغة الفارسية ، فنقل ذلك إلى اللسان العربي عبد الله بن المقفع . فمن المعقول أدّا أن يكون



العرب حين اتصلت ثقافتهم بالثقافة الفارسية وتأثروا بها، تأثروا في الوقت نفسه بالثقافة اليونانية أيضا . ولم تكن الثقافة الفارسية مما يُستأنف بأمره أو يُضْمَطُّ قَدْرُهُ، لأنك اذا استقصيت تاريخ ملوكهم الكبار، مثل سابور بن أردشير، تجد أنه في خلال عهده بعث الى بلاد اليونان، وجلب كُتُبَ الفلسفة، وأمر بنقلها الى الفارسية، واحتفظها في مدينته وأخذ الناس في نسخها وتدارسها وهكذا . فالثقافة العربية أفادت أيما إفادة من مشجات الفرس وآثارهم وتراجمهم .

### (ب) حركة النقل :

لننزع الآن الى شيء من التوضيح، فنقل لك ما يقوله ابنُ صاعد الأندلسي في هذا الباب ، لأنه مختصرٌ مما تعرض له أمثال الأساتذة « ناليو » و « ابن أبي أصيبعة » و « القفطي » و « ابن النديم » وغيرهم ممن سيكونون عدتنا ومولتنا حين نعرض لهذه البحوث في العصر المأموني .

يقول ابن صاعد : « إن أول علم أعني به من علوم الفلسفة علم المنطق والنجوم . فاما المنطق فأقول من اشتهر به في هذه الدولة عبد الله بن المقفع الخطيب الفارسي ، فإنه ترجم كتب أرسطاطاليس المنطقية الثلاثة التي في صورة المنطق ، وهي كتاب « فاطاغورياس » وكتاب « باري أرمينياس » وكتاب « أتولوجيا » وذكر أنه لم يترجم منه الى وقته إلا الكتاب الأول ، وترجم ذلك المدخل الى كتاب المنطق المعروف « بإساغوجي » و « لفروفيوس الصوري » ، وصرحما ترجم من ذلك عبارة سهلة قريبة المأخذ ، وترجم مع ذلك الكتاب الهندى المعروف بكليلا وديمة ، وهو أول من ترجم من اللغة الفارسية الى اللغة العربية ....

وأما علم النجوم فأقول من عُني به في هذه الدولة محمد بن ابراهيم الفزاري ، وذلك أن الحسين بن حميد المعروف بابن الأدي ذكر في تاريخه الكبير المعروف بنظام العقد : « أنه قدم على الخليفة المنصور سنة ست وخمسين ومائة رجل من الهند عالم بالحساب المعروف

بالسند هندي في حركات النجوم مع تماثيل معلومة على كرجات محسوبة لنصف نصف درجة مع ضروب من أعمال الفلك ومع كسوفين ومطالع البروج وغير ذلك، في كتاب يحتوي على آثنى عشر باباً، وذكر أنه اختصره من كرجات منسوبة إلى ملك من ملوك الهند يسمى قبقر، وكانت محسوبةً لدقيقة؛ فأمر المنصور بترجمة ذلك الكتاب إلى اللغة العربية، وأن يؤلف منه كتابٌ تتخذ العرب أصلاً في حركات الكواكب؛ فتولى ذلك محمد بن إبراهيم الفزارى، وعمل منه كتاباً يسميه المنجمون "بالسند هند الكبير" وتفسير السند هند باللغة الهندية: البهر الناهر .»

وقد يكون من المستصوب أن نفهم حقيقة وجهة نظر العرب حين ذاك إلى علم الفلك، فهم كاليونانيين في زمن "بطليموس" كان غرضهم في الهيئة تبين الحركات السماوية مع كل اختلافاتها المرئية، بأشكال هندسية، تمكنهم من حساب أوضاع الكواكب لأى وقت فُرض، فإن كانت تلك الأشكال تصلح لحساب الظواهر رؤوا بها وما اهتموا بالبحث في حقيقة حركات الأجرام السماوية، وذلك لظنهم أن البحث عن حقيقة الحركات وعلاها يكون على المشتغلين بالحكمة والطبيعة والحكمة الالهية .

ومن نجد، بقطع النظر عن أحكام النجوم التي صارت غير مقبولة في أيامنا، أن الهيئة عند العرب كما يقول الأستاذ «نابليون»، قد اشغلت على علم الهيئة الكروى والعمل، وقسم صغير من النظرى يختص الكسوفات واستتارات الكواكب السيارة، مع علم التازيغ الرياضى وعلم أطوال البلدان وعروضها على طريقة كتاب الجغرافية لبطليموس، فقد خرج من علم الهيئة عند العرب علم الميكانيكا الفلكية وعلم طبيعة الأجرام السماوية وأكثر علم الهيئة النظرى، إذ إنه يبحث عن حقيقة حركات الكواكب .

فلا مِرَّة إذا في أن العرب، إلى جانب وقوفهم على الفلسفة الفارسية والحكمة اليونانية، قد وقفوا أيضاً على آخر الآراء العلمية الخاصة بعلم الفلك في ذلك الحين، وأهم وقفوا على آراء بطليموس فيما وقفوا عليه من الآراء . وبطليموس — كما قال البتاني — قد تقصى

علم الفلك من وجوهه، ودلّ على الملل والأسباب المعارضة فيه بالبرهان الهندسي والعديّ الذي لا يُدفعُ حُجَّتُهُ ولا يُشكُّ في حقيقته، فأمر بالحنة والاعتبار بعده، وذكر أنه قد يجوز أن يُستدركَ عليه في أرصاده على طول الزمان، كما استدرك هو على أبرخس وغيره من نظرائه، بلحالة الصناعة، ولأنها سماويةٌ جسيمةٌ لا تُدركُ إلا بالتقريب .

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى ترجمة كتاب زيج بطليموس المقول بأن أيوب وسمعان فسراه لمحمد بن خالد البرقي . ونرجو حين نعرضنا لهذه الموضوعات في العصر المأموني أن نلم بها إلى ما أدق وأوسع .

على أنه يجدر بنا في هذه الفذلكة أن نشير إلى الكتب البلوية الثلاثة التي استطاع الأستاذ « ناليو » أن يكتشف أثر نقلها فيما قبل انتهاء القرن الثاني للهجرة . فواحد منها في علم الهيئة الحقيقي وهو زيج الشاه أوزيع الشهريار، والآخرا في صناعة أحكام النجوم وهما المبريزج في المواليذ المنسوب إلى بُزْجِيَهْر، وكتاب صور الوجوه لتنكلوس ؛ وكذلك يجدر بنا أن نشير إلى أن كتاب المحسّطى نقل في أيام الرشيد .

وإنا نلخص لك هنا ما لاحظته المرحوم جورجي بك زيدان في أمر النقل من أن العرب ، مع كثرة ما نقلوه عن اليونان ، لم يتعرضوا لشيء من كتبهم التاريخية أو الأدبية أو الشعر، مع أنهم نقلوا ما يقابلها عند الفرس والهنود، فقد نقلوا جملةً صالحة من تاريخ الفرس وأخبار ملوكهم وترجموا الشاهنامه، ولكنهم لم ينقلوا تاريخ هيرودوتس ولا جغرافية استرابون ولا الإلياذة هوميروس ولا أوديسسته . وسبب ذلك أن أكثر ما بحث المسلمين على النقل رُغبتهم في الفلسفة والطب والنجوم والمنطق .<sup>(١)</sup>

(١) ويرى أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار: «أنه يمكن ادّعاء ذلك إلى سبب براه أم». وهو أن الراحين من اليونان أيام الاضطهاد الحمران لم يكونوا أدباء ولا مؤرخين وإنما كانوا فلاسفة وأطباء . فأسسوا في تلك البلاد «مدرستهم وأخذ أهل البلاد عنهم ما يعرفون . فالأدباء والتاريخ والجغرافيا لم يهاجروا إلى البلاد التي أخذ منها العرب وإنما هاجروا الطب والفلسفة والهندسة والرياضة» .

ولا يُستخَفُّ بما اقتضاه ذلك النقل، عن أشهر أم الأرض في ذلك العصر، من التأثير في الآداب الاجتماعية والآراء العامة ولا سيما ما نقل عن الفارسية، لأن معظمه في الأدب والتاريخ، فدخل الآداب العربية كثير من آداب الفرس الساسانية وأفكارهم، اقتبسها العرب من الكتب التي نُقلت عنهم، ولم يبق منها إلا ألف ليلة وليلة، وكنيلة ودمنة، وثبتت متفرقة في بعض الكتب. وقد درس في هذا الموضوع المُنشَرُّ «اينواستراتشيف» الروسي ووضِع فيه كتابا طبع في بطرسبرج سنة ١٩٠٩ م.

على أنا نلاحظ أن تأثير هذا النقل عن الفرس لا يزال قائما الى الآن في بعض الكتب العربية التي وُضعت في عصور قريبة من عصر المأمون. نذكر منها، على طريق التمثيل، كتاب «عيون الأخبار» لأبْن قتيبة، و«التاج» المنسوب للجاحظ. فعل هذه المقولات وأمثالها بنى المسلمون ما ألّفوه في هذه العلوم أثناء تمدنهم غير ما اختبروه وأضافوا إليها من عند أنفسهم.

وإن المطلع على ما جاء بالفهرست لأبْن التنديم خاصة بتلك المقولات يعلم، مع شديد الأسف، أن جلّها قد ضاع، على أنه كان للقليل الباقي منها أثره الفعّال في نهضة أوروبا. وأهم ما بقي من ذلك التراث القيم هو كتابُ التَجَمُّعِ لِبطليموس، ترجمه الجاحظ بن يوسف وكتاب السياسة في تدبير الرياسة، ترجمه يوحنا بن البطريق، وبعض آثار لقسطا بن لوقا البعلبكي وغيرها.

### (ج) العلوم القرآنية واللغوية والفقهية :

كان المؤرخون القدماء يقولون في العلوم القرآنية إنه قد تفرّع عن القرآن نحو ثلثمائة علم. ونحن نحيلك على أمثال "مفتاح السعادة" لأحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبرى زاده المطبوع بمطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدرآباد، ومقدمة أبْن خلدون و"مفاتيح العلوم" وغيرها. وأما النحاة وطبقاتهم واللغاة وما دخلها من الألفاظ المستحدثة في العصر العباسي، فأما لك أمثال "شفاء الغليل" فيما في كلام العرب من الدخيل، "لشهاب الدين

الخفافى "ودرة القواص" لفريرى، وكتاب "المعرب من الكلام الأعجى" لأبى منصور الجوالقى المتوفى فى منتصف القرن السادس وطبع فى ابيدك سنة ١٨٩٧ م وكتاب «طبقات النجاة» المعروف "بتزعة الألباء فى طبقات الأدياء" لأبى البركات عبد الرحمن ابن محمد الأنبارى، وضيها مما لا يقع تحت حصر .

وحسبنا أن نقول لك : إنه لم يكن فى الجاهلية ولا فى صدر الإسلام ذلك التراث العظيم من الألفاظ الطبية وأسماء الأدوية والجراحة وأسماء الأمراض والاصطلاحات الفلسفية وغير ذلك مما وُضع فى العصر العباسى خاصة أمثال قولهم صيدلية ، وتشريح ، ونهض ، وهضم ، ومبردات ، وقابض ، وسهل ، وتشنج ، وذات الرئة ، وبنج ، والهيولى ، والقاموس ، والقانون ، الى مئات الألفاظ من أمثال ذلك النوع الذى تجمده فى مظانه ، ولا نرى حاجة بنا الى الاستطراد فيه .

ويحذر بنا هنا أن نشير الى أثر من أجل الآثار الاقتصادية للدولة الإسلامية فى بداية العصر العباسى . ويمكن النظر اليه كما ينظر الاسكتلنديون الى كتاب "جون سنكلر" عن تاريخهم الاقتصادى . وهذا الأثر القيم انطالد الذى نظم جباية الدولة أجهل تنظيم وأدقه ، هو كتاب انخراج للفقهاء الأكبر أبى يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصارى صاحب الإمام أبى حنيفة النعمان .

## الفضل العباسي

الحالة الأدبية في صدر عصر بني العباس

توطئة — انطلاقة وانطلاق — الكتابة — مجالس الخلفاء والمناظرة — الشعر .

### (١) توطئة :

أسلفنا لك القول في الحالة الأدبية في عصر بني أمية التي كانت في الواقع، الى جانب ما يناهك لك من اختلافها عن العصر الجاهلي، قريبة في جملتها من غضاضة البدو وخشونة المدر، فلم تسع لها الاغراض ولم تنفجر لها الجوانب إلا بقدر ما تنطبق عليه جزيرة العرب وبادية الشام من الأفكار والأخيلة، وما توحى به غياض دمشق ونبرات معبد، من صفاء الفكري ووضوحه، وجلاء المعنى واقتضائه، لا يبالى القوم الإيمان في الآراء البعيدة والأفكار الدقيقة، وإنما كان همهم، كما يقول الرواة : أن يمجّدوا ألفاظهم، ويحلموا تراكيبهم . وفي الحقيقة أنهم قد اتعمدوا في ذلك من البلاغة ذرونها، وبلغوا من الجزالة غايتها، فكان الرجل منهم يضع لسانه حيث أراد ومتى شاء . وحسبك أن تنظر الى ما جاء به زياد وعبد الملك والجباج، وما أرسله جرير والأخطل والفرزدق، لتعرف أين كان القوم من البلاغة، وكيف تملكوا أعينهم في أيديهم . فلما جاءت دولة العباسيين وقامت أركانها على سواعد العجم، ودلّفت اليها السريان واليهود والفرس، وصنّتهم الدولة الى أحضانها، وأفرجت لهم بين ذراعها، وأزلتهم في كثير من أمور الدولة وشؤونها، وأجرت عليهم من الأرزاق والخلعيات، وتقدّموا لها بثرات آباءهم وعصارة قرائح حكامهم، وحولوا ميراثهم الى ميراثها، أفادت لغة العرب، وأمتزجت المدنية السامية بالآرية، وأتسمت دائرة المعارف، وتشتت أغراض اللغة . وتفرّج كل ذي فضل في تدوين العلوم واستنباط أحكامها ووضع الفنون واصطلاحاتها وترتيب الدواوين ومراسيمها، وترجموا كتب الحكمة والمنطق، وازدهرت الآداب ازدهار

الفتاء والقوة، فانتظمت رضاء الدين وسعادة الإنسان، وأزيت بالجميع الحكمة والبراهين العقلية. وتولى كبر ذلك بشار وأبن المقفع وأبو نواس وأضرابهم، وأدخلوا إليها الحديد عن طريق المجاز والقياس والاشتقاق، ولم يتخرجوا من استعمال الألفاظ الأعجمية في أسماء الأكران والانية والفرش، وتألقوا في صوغ العبارات وإحكامها، حتى مال بعضهم إلى السجع والأزدواج. ومن أمثلة ذلك ما كتبه أبو شراة إلى سعيد بن مسلم إذ يقول: «أَسْتَسِيُّ اللهَ أَجْلَكَ، وَأَسْتَعِيدُهُ مِنَ الْآفَاتِ لَكَ، وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى شُكْرِ مَا وَهَبَ مِنَ النِّعَةِ فَبِكَ إِلَهَ لَذَلِكَ وَلِيٌّ، وَبِهِ مَلِيٌّ». أثنى غلامك المليح قاده، السعيد بملكك جدّه، بكتاب قرأته، فير مستكره اللفظ ولا مُزور عن القصد، ينطق بمحملك ويُبَيِّنُ عن فضلك».

وجملة القول أن اللغة قد تمهد إهابها، وانفجرت شيعاتها، ونوّبت أساليبها، بما دخل عليها من نعيم الدولة وترف الحضارة، وما آتته من العلوم والفنون، حتى كانت سيّدة لغات العالم جميعا.

### (ب) الخطابة والخطباء :

كانت الدأية إلى الخطابة في العصر العباسي قوية متوافرة بليغة. كانت قوية لأن طبيعة الانقلابات السياسية الخطيرة، والدعوات المنهجية الحادة، والنورات الاجتماعية العنيفة، من شأنها خلقت مجالات التكلم وتقوية الملكات الخطابية وتمييزها وزيادة ثروتها والعمل على صقلها وبلاغتها. وكانت متوافرة لتعتمد موضوعاتها وتُسَبِّح مناحيها ولا تكتجب الدأية والضعفين عليها لاكتهاز أمثال تلك المواقف. وكانت بليغة لقرب العصر العباسي من عصر البلاغة الإسلامية الأموية من ناحية الحرارة والتشيع إلى بني العباس، وقوة الحاجة في إنكار ما آتته الأمويون من حرّيات الدين، ولتعتمد أسباب التفاضل بين آل العباس والعلويين.

وإن نظرة تحليلية إلى خطبة المنصور التي خطبها حينما أخذ عبد الله بن الحسن وإخوانه والنفر الذين كانوا معه من أهل بيته، تُعزّز قولنا وتؤكد حكمتنا. قال: «يا أهل مُرَّاسَانِ

أتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا، وإن اهل  
 بيتي هؤلاء من ولد علي بن أبي طالب تركناهم، والله الذي لا إله إلا هو، والخلافة فلم تعرض  
 لهم فيها بقليل ولا بكثير، فقام فيها علي بن أبي طالب فتطخَّع وحكم عليه الحكَّان،  
 فافترقت عنه الأمة، واختلفت عليه الكلمة، ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه  
 وبطائنته وثقاته فقتلوه. ثم قام من بعده الحسن بن علي فوالله ما كان فيها رجل! قد حُرِّضَتْ  
 عليه الأموال فقبلها فدنس إليه معاوية: إني أجمعك وليَّ عهدي من بعدي، نخذه  
 فانسَخ له ما كان فيه وسامه إليه، فأقبل على النساء يتزوج في كل يوم واحدة فيطلقها غدا،  
 فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه. ثم قام من بعده الحسين بن علي نخذه أهل العراق  
 وأهل الكوفة أهل الشقاق والنفاق والإغراق في الفتنة أهل هذه المدرة السوداء - وأشار  
 إلى الكوفة - فوالله ما هي بحرب فأحاربها ولا يسلم فأسالمها، فزق الله بيني وبينها، فخذلوه  
 وأسلموه، حتى قُتِلَ. ثم قام من بعده زيد بن علي نخذه أهل الكوفة وغرَّوه فلما أخرجوه،  
 وأظهروه أسلموه، وكان قد أتى محمد بن علي فناشده في الخروج وسأله ألا يقبل أقاويل  
 أهل الكوفة وقال له: إنا نجد في بعض علمنا أن بعض أهل بيتنا يُصلَّب بالكوفة وأنا أخاف  
 أن تكون ذلك المصلوب؛ وناشده حمى داود بن علي وحذَّره غدر أهل الكوفة، فلم يقبل  
 وهم على خروجه ففُجِعَ وصُلِبَ بالكُفَّة<sup>(١)</sup>. ثم وثب علينا بنو أمية فاماتوا شرفنا وأذلوا  
 عزنا، والله ما كانت لهم عندنا ترة يطلوبونها وما كان ذلك كالأفيم وبسبب خروجهم  
 عليهم، فغفونا من البلاد فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ومرة بالشرقة حتى أبتعثكم الله لنا  
 شيعة وأنصارا، فاحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان ودمع بحكمكم أهل الباطل وأظهر حقنا  
 وأصار إلينا نرياشنا عن نيننا صلى الله عليه وسلم، ففر الحق مقزّه وأظهر مناره واحز أنصاره  
 وقطع دابر القوم الذين ظالموا والحمد لله رب العالمين. فلما استقوت الأمور فينا على قرارها

(١) الكُفَّة بالضم: محلة بالكوفة.



من يقبل الله فيها وحكمه العادل لنا وشبوا علينا ظالمًا وحسدًا منهم لنا وبغيا لما فضلنا الله به عليهم وأكرمنا به من خلافه وميراث نبيه صلى الله عليه وسلم .

جهلاً على وجبتاً عن عقوبهم \* لبست الخلقان الجهل والجن

فأنى والله ياهل نحرسان ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة . بلغنى عنهم بعض السقم والتعزم ، وقد دسست لهم رجالاتي فقلت : قم يا فلان ، قم يا فلان فخذ منك من المال كذا ، وحدوت لهم مثالا يعملون عليه ، فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة ففسدوا اليهم تلك الأموال ، فوالله ما بقى منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير إلا بايهم بيعة استعلت بها دماهم وأموالهم وحلت في عند ذلك بنقضهم بيعتى وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج على فلا يرون أنى أتيت ذلك على غير يقين . ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية : ﴿ وَجِبِلَّ يَنْهَمُ وَيَنْهَى مَا يَسْتَهْوِي كَأَفْعَلٍ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَكُونُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴾ .

ولقد يلاحظ على الخطابة العباسية اتساعها بطابع النعمة الدينية لمباهاتهم بصلتهم من النبي ، كما يلاحظ عليها اللغة « الأتوقراطية » التي لا تختلف في شيء عن لغة باباوات رومة في العصور الوسطى ولغة الملوك الذين يدينون بنظرية « حقوق الملك المقدسة » وأنهم ورثة الله في أرضه وممثلوه بين خلقه ...

### خطبة للنصور الخليفة العباسي

خطب في مكة فقال :

أيها الناس ، إنما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوقيفه وتسديده وتأييده وحارمه على ماله أعمل فيه بمشيئته وإرادته وأعطيه بإذنه ، فقد جعلني الله عليه فقلاً إن شاء أن يفتحني فتحني لإعطائكم وقسم أرزاقكم ، وإن شاء أن يقفلني عليا أقفلني ، فارضوا إلى الله وساموه في هذا اليوم الشريف الذي وهب لكم من فضله ما أعطكم به في كتابه إذ يقول : ﴿ الْيَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ أن يوفقني للرشاد والصواب ، وأن يلهمني الرأفة بكم والإحسان إليكم . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم »

## خطبة للخليفة المهدي

الحمد لله الذي ارتضى الحمد لنفسه ، ورضى به من خلقه ، أحده على آلائه وأجده لبلائه ، وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه توكل راض بقضائه وصابر لبلائه . أوصيكم عباد الله بتقوى الله فإن الافتصار عليها سلامة ، والترك لها فداية . وأحثكم على إجلال عظمتهم وتوقير كبريائهم وقدرتهم ، والانتباه إلى ما يقرب من رحمتهم ، وينجي من سخطهم ، ويثاب به ما لديه من كريم الثواب ، ويزيل المآب . فاجتنبوا ما خوفاكم الله من شديد العقاب وأليم المذاب ووعيد الحساب ، يوم تُوقفون بين يدي الجبار ، وتعرضون فيه على النار . يوم لا تكلم نفس إلا بإذنه ، فمنهم شقي وسعيد . يوم يفز المرء من أخيه وأمه وبنيه لكل أمرئ يومئذ شأن يغنيه . يوم لا ينجى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون . يوم لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ، إن وعد الله حق فلا تفترق الحياة الدنيا ولا يفترق بالله الغرور . فإن الدنيا دارُ غرور وبلاء وشروء وأضمحلل وزوال وتقلب وانتقال . قد أفنت من كان قبلكم وهي عائدة إليكم وعلى من بعدكم . من ركن إليها صرعتهم ، ومن وثق بها خانتهم ، ومن أملها كذبته ، ومن رجاها خذلتهم . عزها ذل ، وفناها فقر . والسعيد من تركها والشقي من أثرها . والمغبون فيها من باع حظهم من دار آخرتهم بها . فالله عباد الله ! والتوبة مقبولة والرحمة مبسوطة : وبادروا بالأعمال الزكية في هذه الأيام الخالية قبل أن يؤخذ بالكفالم وتندموا فلا تآلون الندم يوم حسرة وتأشيف ، وكآبة وتلهيف . يوم ليس كالأيام وموقف ضحك المقام .

## خطبة لهارون الرشيد

الحمد لله الذي نحمده على نعمه ، ونستعينه على طاعته ، ونستنصره على أعدائه ونؤمن به حقاً وتوكل عليه مفوضين إليه . أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن في التقوى تكفير السيئات وتضييع الحسنات ، وفوزاً بالجنة ونجاة من النار ، وأحذركم يوماً تستخلص فيه

الأبصار وتبلى فيه الأسرار . يوم البعث ويوم التغابن ويوم التلاق ويوم التنادى . يوم لا يُستعْتَب من سيئة ولا يُزَاد في حسنة . يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حيم ولا شفيع يطاع ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ... فاتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت . حصنوا إيمانكم بالأمانة ودينكم بالورع وصلاتكم بالزكاة . وإياكم والأمانى فقد غرث وأردت وأوبقت كثيرا حتى أكذبتم منايهم ، فتناوشوا التوبة من مكان بعيد وحيل بينهم وبين ما يشتهون . فرغب ربكم عن الأمثال والوعود وقدم اليكم الوعيد . وقد رأيتم وقائعهم بالقرون الخوالى جيلا لجيل ، وعهدتم الآباء والأبناء والأحبة والمشار باخطاف الموت إياهم من بيوتكم ومن بين أظهركم لا تدفعون عنهم ولا تمولون دونهم ، فزالث عنهم الدنيا واقطعت بهم الأسباب ، فأسندتهم الى أعمالهم عند الموقف والحساب ليحجزى الذين أساءوا بما عملوا ويمجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

وإن نظرة تجللى الى التحبب الصغيرة التى اخترناها لك عن المنصور والمهدى والرشيد تعطيك فكرة صحيحة باننا لم نعد لباب الصواب فيما ذهبنا اليه من "أوقراطيتها" و "بابويتها" في طبيعة مناهها ، وطلاوتها وبلاغتها في ميناها .



على أن الخطابة العباسية لم تستمر على القوة التى كانت عليها في صدر تلك الدولة حينما استقرت ورسخت ، اذ قُترت عند ذلك الدواعى وهدأت النوافع ، وأخذت حائلها في الانحلال لاشتداد اختلاط العرب بالأعجم ولأن الشخصيات البارزة في الدولة كانت في الغالب من الفرس وغيرهم من الموالى الذين لم يتجردوا لستهم بالخطابة لما يصيبها أحيانا من لكنة العى وحصر المعجمة وإن سمحت معلوماتهم وارتقت في البلاغة أساليبهم .

وربما كان من المبعول أن نقول : إن الخطابة في العصر العباسى كانت بوجه عام أقل منها في العصر الأموى من ناحية البلاغة والأسلوب ، مع وجود بعض خطباء مصنف

لا يقولون عن إخوانهم الأمويين بلاغة واقتداراً، بيد أنها كانت متعددة الأبواب، لتشعب ما بيناه لك من الوجوه والمناحي ..

### (ج) الكتابة :

جرت الكتابة في العهد الأول من عصر العباسيين على ما كانت عليه عند بني أمية : من جودة اللفظ، ومثانة الأسلوب، وجلاء المعنى، ووضوح القصد وبساطته ، فلم يكن القوم يُعْمِنُوا في التصور والتفكير، أو ينظروا الى السماء فيستوحيوها ، أو الى الطبيعة فيستيقظوها، أو يستشفوا ما وراء العالم ، فإن الأفكار كانت لا تزال سهلةً يرمون فيها عن حاضر البدنية وعفو الخاطر، فلم يشاركوا الحكمة في تفكيرهم، ولا المناطقة في مجيهم ، انما استثنينا نفراً قليلاً أمثال ابن المقفع ، وإنما كانوا يدررون حول ما ترك آباؤهم من بنيت بدعي، أو مثل سائر، أو حكمة رائية، أو فكرة سامية، أو معنى يصل الى القلب بالاستئذان، وأولئك في ذلك حتى صاروا فصحاء الناس وأمرأة البيان . فكان الأديب منهم يُرسل الرسالة أمام مقصده تعمل في النفوس ما لا تحمله الأسته والرياح . وناهيك بما كانت تفعله تلك الرسائل في نفوس القوم ! . .

فلما حفلت بغداد، وأقبلت الدنيا وأوسع السلطان وأمتدت أطرافه، وضمّت الدولة الى أحضانها أبناء الفرس والسريان، وكانوا يحملون ثراث آباؤهم وطُرف علمائهم، وأوسع الخلائف رحابهم لكل ذى فضل من رجال الدولة، وعرفوا للعلم مقامه فرفوه، وللأدب صوته فأكرموه، وقرّوا العلماء والأدباء، وعقدوا مجالس المناظرة والمناذمة — كما سنبين لك — وأكبّ الناس على العلم والتأليف والترجمة ، وتكشف كل ذلك عن علوم وفنون لا عهد للعربية بها، فقلوا اليها الطب والسياسة والحكمة والفلك والمنطق والتنجيم، وألف المسلمون في الفقه والنحو والحديث والتفسير — كان لكل ذلك أثره في أخيلة الكتّاب وأَسْلَات الأعلام ووعي القرائع، فتملّدت الأغراض، ونوعت الأساليب، ومال الكتّاب الى السهولة في العبارة، والتأني في اللفظ، والجلود في الرصف، وأطالوا في المقدمات، وتوسعوا البدء

والختم والآلقاب والثناء، ومالوا إلى التلق والمبالغة، وهلك مثلاً ما كتب ابن ميادة إلى يحيى بن خالد من رسالة يقول فيها : «لأَصِيدَ الجِوَادَ ، الوَارِيَّ الزَّيَادَ ، المُسَاجِدَ الأَجَادَ ، الوزيرَ الفاضل ، الأَشْمَ البازل ، اللبابَ الحَلَّاحِلَ ، من المُسْتَكِينِ المُسْتَحِيرِ ، للبائس الضعير ، فإنني أحمَدُ اللهَ ذا العِزَّةِ القدير ، اليك وإلى الصغير والكبير ، بالرحمة العائمة ، والبركة التامة . أما بعد ، فأغنم وأسلم وأعلم ، إن كنت تعلم ، أن من يَرْحَمُ رَحِمَ ، ومن يَحْرِمُ حُرِمَ ، ومن يُحْسِنُ يَفْتَحَ ، ومن يَصْنَعُ المعروف لا يَعمَدُ ، قد سبق إلى تَغْضِبِكَ عَلِيٌّ ، وأطْرَاحُكَ لِي ، وغفلتكَ عَنِّي بما لا أقوم له ولا أقعد ، ولا أنتبه ولا أرقد ، فليست بحى صحيح ، ولا بيت مُستريح ، فردتُ بعد الله منك اليك ، وتحمَّلتُ بك عليك ... » .

أما الإطنابُ في الكتابة فكان صفةً غالبيةً في كل ما شمل بيعة ، أو عهداً ، أو احتجاباً ، أو انتصاراً ، أو تقريراً للمذهب أو استمراء ، أو دفعا لشبهة أو طلباً لنعمة ، أو ما يقوم نضالاً أو ما يدعو نزلاً . وسيجد طرفاً من رسائل القوم في ذلك العصر الإلهي الزاهر في باب المنشور بالكتاب الثاني من المجلد الثاني .

وقد بالغوا في تمديح ممدوحهم وذم مذمومهم . وحسبك من ذلك أن ترى ما دار بين المنصور العباسي والنفس الزكية ، فقد جاء مما كتبه الأول قوله : «أما بعد ، فقد أتاني كتابك وبلغني كلامك ، فإذا جُلَّ نورك بالنساء ، نُضِلَّ به الجُفَاءُ والفرطاء ، ولم يجعل الله النساء كالعمومة ، ولا الآباء كالعصبة والأولياء ، وقد جعل المِّمَّ أباً . وبدأ به على الوالد الأذني ، فقال جل ثناؤه عرب نبيه عليه السلام : ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ - ويعقوب ﴾ . ولقد حَامَيْتُ أَنَّ الله تبارك وتعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم وعمومته أربعةً ، فأجابه اثنان أحدهما أبي ، وكَفَّرَ به اثنان أحدهما أبوك ، فأما ما ذكرت من النساء وقرابتهن فلو أُعْطِينَ على قريب الإطناب وحقَّ الأحساب لكان الخير كله لآمنة بنت وهب ، ولكن الله يختار لدينه من يشاء من خلقه ... » .

غير أن ذلك لم يكن يمنع أن الميل إلى الإيصال له في نفوس القوم مقامه، وفي قلوب  
البلغاء عزه وسلطانه، لا سيما ما كان من قبيل التوقيع من أمير أو وزير أو ذي جاه  
وسلطان، فقد رُفِعَ إلى المنصور شكاة من أهل الكوفة لأعوجاج في عاملهم، فوقع عليها  
« كيفما تكونوا يؤلّ عليكم ». وكتب جعفر إلى عامل شيكّ له منه : « قد كثرت شاكوك وقل  
شاكروك، فأما أجهلت وإنا آصرت » .

وقد أجمع الرواة أن الحال قد بقيت على ذلك من المائة وحسن الإشارة ولطف المدخل  
وفرعاة المعنى وحسن الابتداء، حتى خلف من بعدهم خلف ضعفت فيهم ملكة اللغة  
وأعوزهم البيان، فإلوا إلى الألفاظ وصناعتها، والأصباح (وَزْنَرَقَاتُهَا) ، وبقيت الكتابة تهتلق  
في أفكهم وتدور حول نفسها حتى مال رأسها مع رأس العباسيين في القرون السبع الهجرى .

#### (د) مجالس الخلفاء والمناظرة :

لخلفاء العباسيين بحكم طبيعة دعوتهم السياسية واستفحال أمر المدنية في أيامهم مجالس  
حافلة بالأدباء والشعراء والمفكرين والمنادمين قد أترعت بذكرها كتب الآداب واستوعبت  
الشئ الكثير منها أبو الفرج الأصفهاني في أغانيه .

وكانوا يجلبون العلماء، كما ينالونك في موقف الرشيد مع أبي معاوية الضرير، ويتنون  
بالشعر واللغة، ويحرضون على تعليم أولادهم بوساطة نخبة من رجال عصرهم، فالمصور رُضِمَ  
الشرقي بن القطامي إلى ابنه المهدي وأوصاه أن يعلّمه أخبار العرب ومكارم الأخلاق وقراءة  
الأشعار . والرشيد عهد بتعليم ابنه الأمين إلى الأحمر النحوي ثم الكسائي، وعهد بتأديب  
المأمون إلى يزيد بن سبيويه وغيرهما . وللرشيد وصية يقال إنه أوصى بها الأحمر حينما عهد إليه  
بتأديب الأمين، ونحن ننبهنا هنا لتقف منها على نوع التربية التي كان يتطلبها خلفاء ذلك  
العصر لأبنائهم، ولأنها تدل في الوقت نفسه على مبلغ التحول الذي وصلت إليه المدنية العربية  
في العصر العباسي وكيف استفادت من نظم اليونان والفرس وغيرهم من وقف العرب على  
آرائهم ومؤلفاتهم .

• أما الوصية فهي : « يا أحمُر، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه، فصير يدك عليه مهسولة، وطاقته لك واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين . أقرئه القرآن وعرفه الأخبار، وروِّه الأشعار، وعلمه السِّنن، وبصِّره بمواقع الكلام وبذنه، وامتنعه من الضحك إلا في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه . ولا تمزج بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة نفيده إياها من غير أن تمزجه فتُصِيت ذهنه، ولا تُعِين في مسامحته فيستحل الفراغ ويألفه . وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة » .



وكانوا يعنون بالمسائل اللغوية واللفظية عناية عظيمة كما كانوا يعنون أتباً عناية يحفظ الأشعار وروايتها، ويعتبرون عدم حفظها مصيبة وكارثة؛ فقد روى الهيثم بن عدي عن ابن عياش قال: لما مات جعفر المنصور بن الأكرمشي المنصور في جنازته من المدينة إلى مقابر قريش ومشى الناس أجمعون معه حتى دفنه ثم أنصرف إلى قصره، ثم أقبل على الربيع فقال : يا ربيع أنظر من في أهل يُلشدني :

• أَمِنَ المَنونَ وَرَيبَهَا تُنوجُّ •

حتى أتسلَّ بها عن مصيبي، قال الربيع : فخرجتُ إلى بني هاشم وهم بإجمعهم حضور، فسألهم عنها فلم يكن فيهم أحد يحفظها، فرجعت فأخبرته فقال : والله لمصيبي بأهل بقي ألا يكون فيهم أحد يحفظ هذا لقلة رغبتهم في الأدب، أعظم وأشدَّ حل من مصيبي بأبي . ثم قال : أنظر هل في القواد والرواة من الجند من يعرفها، فإني أحب أن أسمعها من إنسان يُنشدُّها ؛ فخرجتُ فاسترضتُ الناس فلم أجد أحدا يُنشدُّها إلا شيخاً كبيراً مؤدباً قد أنصرف من موضع تأديبه، فسأته هل تحفظ شيئاً من الشعر؟ فقال : نعم شعراً بي ذؤيب فقلت : أنشدني ، فابتدأ هذه القصيدة العينية ، فقلت له : أنت بغيتي، ثم أوصلته إلى المنصور فاستنشد له إياها، ثم أجازها بمائة درهم .



أما التحوّل العظيم الذي حصل في أجهاد "صالونات" الخلفاء انطاسة بالمناذمة، فالحديث عنه يطول . وحسبك في ذلك ما يدل به إسحاق بن إبراهيم أحد المعاصرين العباسيين ، فإنه يحدثك بما يتّبع الغلة إذ قد سُئل عن أحوال الأمويين في الشراب واللهو فتكلم بما يجاز من حالتهم ؛ وسُئِلَ عن العباسيين فوصف وأجاد وصوّر وأغاد قال :

« أما معاوية ومروان وعبد الملك والوليد وسليان وهشام وسروان بن محمد فكان بينهم وبين الندماء ستار، وكان لا يظهر أحد من الندماء على ما يفعله الخليفة إذا طرب للفن والتدبّر حتى ينقلب ويمشي ويصترّك كسفيه ويرقص ويتجذّر حيث لا يراه إلا خواص جواربه ، إلا أنه كان إذا ارتفع من خلف الستار صوت أو نعر طرب أو رقص أو حركة بغير تجاوز المقدار قال صاحب الستار : حسبك يا جارية كفى ! انتهى ! أقصرى ! يوم الندماء أن الفاعل لذلك بعض الجوارى . فأما الباقيون من خلفاء بني أمية ، فلم يكونوا يتجاسسون أن يرقصوا ويتجذّروا ويحضّروا عُرّة بمحضرة الخلفاء والمغنين ، ومع ذلك لم يكن أحد منهم في مثل حال يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد في المجون والزفت بمحضرة الندماء والتجذّر ما يبالغان ما صنعا .

قلت : فعمد بن عبد العزيز ؟ قال : ما طلق في ممعه حرف غناء منذ أفضت الخلافة إليه إلى أب فارق الدنيا ، فأما قبلها ، وهو أمير المدينة ، فكان يسمع الغناء ولا يظهر منه إلا الأمر الجليل . وكان ربما صفق بيديه ، وربما تميّغ حل فراشه وضرب برجله وطرب ، فأما أن يخرج عن مقدار السرور إلى السخف فلا .

قلت : خلفاؤنا (خلفاء بني العباس) .

قال : كان أبو العباس في أقل أيامه يظفر للندماء ثم احتجب عنهم بعد سنة ، أشار بذلك عليه أسيد بن عبد الله الخزاعي . وكان يطرب ويتنّج ويصيح من وراء الستار :



« أحسنت والله ! أعِدْ هذا الصوت » فيعاد له مراراً ، فيقول في كلها : « أحسنت » . وكانت فيه فضيلة لا تجدُها في أحد ، كان لا يحضره نديم ولا مَنٌّ ولا مله فينصرف إلا بصلة أو كسوة قلت أو كثرت ، وكان لا يؤخر إحساناً محسنٍ لند ، ويقول : « العجب من يُفرِّح إنساناً فيتمجِّلُ السرور ويمجِّلُ ثواب من سرّه تسويفاً وعدة » فكان في كل يوم ليلة يقعد فيه لشغله لا ينصرف أحدٌ من حضره إلا مسروراً ، ولم يكن هذا العربي ولا عجمي قبله . غير أنه يحكى عن بهرام جُور ما يُقارب هذا .

« فاما أبو جعفر المنصور فلم يكن يظهر لنديم قط ، ولا رآه أحد يشرب غير الماء . وكان بينه وبين الستار عشرون ذراعاً ، وبين الستار والندماء مثلها . فاذا شاء المُغَيُّ فاطر به حركت الستار بعض الجوارى ، فأطلع إليه الخادم صاحب الستار فيقول : قل له « أحسنت بارك الله فيك » وربما أراد أن يصفق بيديه فيقوم عن مجلسه ويدخل بعض حجر نسائه فيكون ذاك هناك . وكان لا يثيب أحداً من ندمائه وغيرهم درهما فيكون له رثماً في ديوان . ولم يُقطع أحداً ممن كان يضاف إلى ملهية أو محبة أو هزل موضع قديم من الأرض ، وكان يحفظ كل ما أعطى واحداً منهم عُشر سنتين ويحسبه ويذكره له .

« وكان المهدي في أول أمره محتجب عن الندماء متشبهاً بالمنصور نحواً من سسة ثم ظهر لهم ، فأشار عليه أبو عَونَ بأن يحتجب عنهم فقال : « إليك عني يا جاهل ! إنما اللذة في مشاهدة السرور وفي الدُّنُوِّ من سرّي » ، فاما من وراء وراء فما خيراً ولذتها ! ولو لم يكن في الظهور للندماء والإخوان إلا أني أعطيهم من السرور بمشاهدتي مثل الذي يُعطونني من فوائدهم لجلست لهم في ذلك حظاً موقراً » . وكان كثير المطايا يوارثها ، قل من حضره إلا أغاه ، وكان تين العريكة ، سهل الشريعة ، لذية المنادمة ، قصير المناومة ، لا يملئ ندماً ولا يتركه إلا عن ضرورة ، قطع إلخنا صبوراً على الجلوس ، ضاحك السن قليل الأذى والبذاء .

« وكان الهادي شَكِسَ الأخلاق، صَمَبَ المرام، قَلِيلَ الإغضاء، سَيَّءَ الظَّنَّ، قَلَّ مَنْ تَوَقَّاهُ وعرف أخلاقه إلا أغناه، وما كان شيءٌ أبغضَ إليه من ابتدائه بسؤال، وكان يأمر للغي بالمال الخطير الجزيل فيقول : « لَا يُعْطِنِي بعدها شيئا » فيعطيه بعد أيام مثل تلك العطية .

« ويقال : إنه قال يوما وعنده ابن جامع وإبراهيم الموصلي ومعاذ بن الطبيب — وكان أول يوم دخل عليه معاذ وكان حاذقا بالأغاني عارفا بها — : مَنْ أطربني اليومَ منكم فله حُكْمُهُ فناده ابن جامع غناء لم يحجزه . وكان إبراهيمٌ قد فهم غرضه فناده :  
سَلِّمِي أَجَمْتُ يَلَنَّا \* قَاتِنَ تَقُولُهَا آيَتَا

فطرب حتى قام عن مجلسه ورفع صوته وقال : « اَعِدْ بالله وبمجاتي ! » فأعاد فقال :  
« أنت صاحبي فاحتكم » . فقال إبراهيم : يا أمير المؤمنين ، حائطُ عبد الملك بن مروان وعينه انخراط بالمدينة ؛ قال : فدارت عيناه في رأسه حتى صارتا كأنهما جمرتان . ثم قال : « يا ابن الخناء ! أردت انت تَسْمَعَ العامةُ أنك أطربتنى ، وأنى حُكْمُكَ فأقطعك ، أما والله لولا بادرة جهلك التي غلبت على مصحح عقلك وفكرك ، لضربت الذي فيه عيناك ! » ثم سكت هنيئة .  
قال إبراهيم : فرأيتُ ملكَ الموت قائما بيني وبينه يشظر امره . ثم دعا إبراهيم الحزاني ، فقال :  
« خُذْ بيد هذا الجاهلِ فأدْخِلْهُ بَيْتَ المسالِ فليأْخُذْ منه ما شاء ! » . فأخذ الحزانيُ بيدي حتى دخل بي بيتَ المسالِ ، فقال كم تأخذ ؟ فقلت مائة بدرية ، فقال : دعني أؤامره ؛ قلت : فأخذُ تسعين ؛ قال : حتى أؤامره ؛ قلت : فثمانين ؛ قال : لا ؛ فأبى إلا أن يؤامره ، فعرفتُ غرضه ، فقلت له : آخذ سبعين لي ولك ثلاثون ؛ قال : شَأْنُكَ ؛ قال : فانصرفتُ سبعين ألفا وانصرف ملكُ الموت عن الدار .

قال : وكان الرشيدُ في أخلاق أبي جعفر المنصور يتمثلها كلها إلا في العطايا والمصلات والخلع . فانه كان يفتقو فَعَلَّ أبي العباس والمهدي ، ومنَّ خبرك أنه رآه قط وهو يشرب

إلا الماء فكذبته، وكان لا يحضر تربيته إلا خاص جواريه، وربما طرب الغناء فتحرك حركة بين الحركتين في القلة والكثرة.

«وهو من بين خلفاء بني العباس من جعل للفنين مراتب وطبقات، على نحو ما وضعهم أردشير بن بابك وأنوشروان، فكان إبراهيم الموصلي، وإسماعيل أبو القاسم بن جامع، وزلز منصور الضارب في الطبقة الأولى، وكانت زلز يضرب ويغني ههنا عليه. والطبقة الثانية سليم بن سلام "أبو عبيد الله الكوفي"، وعمرو الغزال ومن أشبههما. والطبقة الثالثة أصحاب المعازف والصنح والطناير. وعلى قدر ذلك كانت تخرج جوائزهم وصلاحهم. وكان إذا وصل واحد من الطبقة الأولى بالمسالك الكثير الخطير جعل لصاحبه الذين معه في الطبقة نصيباً منه، وجعل للطبقتين اللتين تليانه منه أيضاً نصيباً. وإذا وصل أحد من الطبقتين الآخرين بصلة لم يقبل واحد من الطبقة العليا منه درهما، ولا يجترئ أن يعرض ذلك عليه.

«قال: فسأل الرشيد يوماً برصوما الزامر، فقال له: يا إسماع! ما تقول في ابن جامع؟ لحرك رأسه وقال: تحرق قطرب<sup>(١)</sup> بعقل الرجل ويذهب العقل. قال: ما تقول في إبراهيم الموصلي؟ قال: يستأن فيه خوخ وكثري وتفتاح وشوك وترويب. قال: فما تقول في سليم بن سلام؟ فقال: ما أحسن خطابه. قال: فما تقول في عمرو الغزال؟ قال: ما أحسن بئانه. قال: وكانت منصور زلز من أحسن وأدق من برأ الله بالحنس. فكان إذا جسد العود فلو سمعه الأحنف ومن تحالم في دهره كله لم يملك أن يطرب.

«قال إبراهيم: ففنيْتُ يوماً على ضربه، فخطأني، فقلت لصاحب الستار: هو والله أخطأ. قال: قرع الستار ثم قال: يقول لك أمير المؤمنين أنت والله أخطأت! فغمي زلز وقال: يا إبراهيم تخطئي! فوالله ما فتح أحد من المغنين فاه بغير لفظ إلا عرف غرضه.

(١) قطرب بالهم ثم السكون ثم فتح الراء وباء موحدة مشبدة مضمومة ولام: اسم قرية بين بغداد وكمال ينسب إليها الخروما زالت منزلها للبطالين وحانة الممارين وقد أكثر الشعراء من ذكرها. أنظر باقوت في قطرب.

فكيف أخطأً وهذه حالى ! فأذاها صاحب السار . فقال الرشيد : قل له صدقت ، أنت كما وصفتَ نفسك وكذب إبراهيم وأخطأ . قال إبراهيم : فغفنى ذلك ، فقلت لصاحب السار : أبلغ أمير المؤمنين سيدي ومولاي ، أن بفارس رجلاً يقال له سُبَيْدٌ ، لم يخاف الله أضرِبَ منه يعود ولا أحسنَ حِجْسًا ، وإن بعث إليه أمير المؤمنين لحمله عرفَ فضله وتغنيت على ضربه ؛ فإن زلزلًا يكادى مكيدةَ القصاص والفترادين . قال : فوجه الرشيد الى الفارسيّ حَمِيْلَ على البريد فألق ذلك زلزلًا وعمه . فلما قدم الفارسيّ ، أحضرنا وأخذنا مجالسنا وجاءوا بالعبدان قد سُويّت ، وكذلك كانت يفعل في مجلس الخلافة ليس يدفع الى أحد عورده فيحتاج الى أن يحرّكه لأنها قد سُويّت وعُظمت مثالتها مشاكلةً للزيرة على الدقة واللفظ . قال : فلما وُضع عودُ الفارسيّ في يديه ، نظر اليه منصور زلزل ، فأمر وجهه وأشرق لونه ، فضرب وتغنى عليه إبراهيم . ثم قال صاحب السار زلزل : يا منصور اضرب ! قال : فلما جسّ العود ما تمالك الفارسيّ أن وثب من مجلسه بغير إذن حتى حثى قبل رأس زلزل وأطرافه ، وقال : مثلك ، جُمِلتَ فذاك ! لا يُمتَنُّ ويُستعمل ، مثلك يُعبد . فعجب الرشيد من قوله وعرف فضيلة زلزل على الفارسيّ . فأمر له بصلة وردّه الى بلده . « وكان منصور زلزل من أخصى الناس وأكرمهم ، نزل بين ظهرائي قويم وقد كان يحلّ لهم أخذ الزكاة لما مات حتى وجبت عليهم الزكاة .

« وكان إسحاق برصومًا ، في الطبقة الثانية . قال : فطرب الرشيد يوما زمره ، فقال له صاحب السار : يا إسحاق أزمّر على غناء ابن جامع . قال : لا أفعل . قال : يقول لك أمير المؤمنين ولا تفعل ! قال : إن كنت أزمّر على الطبقة العليا رُفِئت اليها ، فاما أن أكون في الطبقة الثانية وأزمّر على الأولى فلا أفعل ! فقال الرشيد لصاحب السار : ارفعه الى الطبقة الأولى ، فإذا تمّت فادفع البساط الذي في مجلسهم اليه . فرفع إسحاق الى الطبقة العالية وأخذ البساط وكان يساوى أثنى دينار . فلما حمله الى منزله استبدرت به أمّه وأخواته وكانت أمّه نبطيةً لكناه فخرج برصوما عن منزله لبعض حاجاته ، (١) كذا ضبطه صاحب التماموس « كغدند » وضبطه ابن خلكان « كهدهد » .

وجاء نساء جيرانه يُهنّئنه أمه بما حُصّ به دون أحمابه ويدعون لها ، فأخذت سكبنا وجعلت تقطّع لكل من دخل عليها قطعة من البساط حتى أتت على أكثره . فجاء برصوما فاذا البساط قد قُسم بالسكاكين . فقال : ويلك ما صنعت . قالت : لم أدر ، ظننت أنه كذا يقسم . خلّفت الرشيد بذلك فضحك ووهب له آخر .

«وزعم سعيد بن وهب أن ابراهيم الموصلـي» غي أمير المؤمنين هارون صوتا فكاد يطير طربا فاستعاد عاتة ليلة ، وقال : ما رأيت صوتا يجمع السخاء والطرب وجودة الصنعة والخفة غير هذا الصوت ، فاقبل ابراهيم فقال : يا أمير المؤمنين ، لو وهب لك إنسان مائه ألف درهم أو لو وجدت مائة ألف درهم مطروحة ، كنت أسرها أو بهذا الصوت ؟ قال : والله لأنا أسرها هذا الصوت منى بألف ألف وألف ألف . قال : فلو فقدت من بيت مالك مائة ألف كان أشد عليك أو لو فقدت هذا الصوت وفاتك هذا السروء ؟ قال : بل ألف ألف وألف ألف أهون علي . قال : فلم لا تهب مائة ألف أو مائتي ألف لمن أتاك بشيء فقد ألقى ألف أهون عليك منه ! فأمر له بما بقى ألف درهم .



امتاز العصر العباسي بتقدم مجالس المناظرة وروفقا وتنظيمها وقيده المناقشات فيها . وقد يكون من المفيد إعطاءك صورة صحيحة للمناظرة وعظيمها ، واهتمامهم بترويق عبارتها ، وطلاوة أساليبها ، وبلاغة تراكيبها ، وملاحظة قوة الحجية فيها ، بأن نقل البك مشاوره المهدي لأهل بيته . وهي إن سمحت تمشير أثر أديب له قيمته وخطره ، وأثر سياسي لمناقشات القوم السياسية ولتضمنها خططاً ونصائح لا يزيد عليها إلا تلك النصائح التي تضمنها كتاب طاهر بن الحسين القائد المأموني لأبيه عبد الله ، وستراه في موضعه من باب المتشور بالكتاب الثالث في المجلد الثالث من هذا الكتاب . أما المشاورة فستجدها في الكتاب الثاني من المجلد الثاني .

## (٥) الشعر :

لا يُقدِّسُ العرب من علوم الحياة وفنونها شيئاً أكثر من تديسهم الشعر الذي استودعوه أفكارهم وأخبارهم ، وحفظوا به نغمهم ومناسبتهم وساقوا به الجيوش والمجاهل ، فدكت عروشاً وأبادت ممالك ، وضمنوه من أخلاقهم وعاداتهم وشؤون حياتهم ، أجمله مكان نغمهم ومفزع أمرهم ، فكنت تجمد العربي يسمع البيت من الشعر فيترنح ترنح النشوان ، ويتور حتى كأنه جبل نار وكثيراً ما سجدوا أمامه ، لمكانه من نفوسهم . وقد روى الأصمعي وغيره من ذلك شيئاً كثيراً .

وقد بقيت للشعر هذه المكانة في كلِّ عصوره العربية ، ولم يتل منه ان دولة العباسيين قامت على سواعد الفرس ، وحلوا منها مكان الصدور والحكام ، فإن الخلفاء والسادة وجمهرة الأشراف والأدباء ، كانوا يحملون فوق أكافهم رموساً عربية حفظوا فيها ثرات آبائهم ومفاخر أجدادهم ، وأقبلوا على الشعر وإنشاده ، وكانوا هم أنفسهم يقرضون الشعر . وإليك ما جاء في عيون الأخبار عن المنصور قال : " كان عمرو بن عُبيد إذا رأى المنصور يطوف حول الكعبة في قرطين يقول : إن يُرد الله بأمة مجد خيراً يؤل أمرها هذ الشاب من بني هاشم . وكان له صديقاً . فلما دخل عليه بعد الخلافة وكتبه وأراد الانصراف قال : يا أبا عثمان ، سل حاجتك ؛ فال : حاجتي ألا تبث إلى حتى آتيك ، وألا تعطيني حتى أسألك . ثم نهض فقال المنصور :

\* كلهم ماشى رُويد \* \* كلهم خائل صيد \*

\* خير عمرو بن عُبيد \*

فلما مات عمرو رثاه المنصور فقال :

صلى الإله عليك من مؤمنين \* قبرا مررت به على حزاب

قبر تضمن مؤمنا متحنفا \* صدق الإله ودان بالقرآن

وإذا الرجال تنازعوا في سنة \* فصل الحديث بحكمة وبيان

فلو أن هذا الدهر أبقى صالحا \* أبقى لنا حياً أبا عثمان



ولقد أحضروا لأبنائهم المؤدبين بقفونهم على الشعر وأستظهاره، وجلسوا للشعراء مجالس  
أثابوا فيها وأعطوا، ووهبوا من المنيع ماوهبوا . روى الفضل بن الربيع : « أن مروان بن  
أبي حفصة دخل على المهدي بعد وفاة معن بن زائدة الشيباني في جماعة من الشعراء فيهم  
سليم الخاسر وغيره، فأنشد مديحاً فيه، فقال له : ومن أنت ؟ قال : شاعرك يا أمير المؤمنين  
وعبدك مروان بن أبي حفصة، فقال له المهدي : ألسنت القاتل :

ألقنا باليمامة بعد معن \* مقاماً لا يزيد به زوالاً

وقلنا أين نزل بعد معن \* وقد ذهب النوال فلا نوالاً

قد ذهب النوال فيما زعمت، فلم جئت تطلب نوالنا ! لاشيء لك عندنا، جروا برجله  
بخروا برجله حتى أخرج . فلما كان من العام المقبل تطلف حتى دخل مع الشعراء فقتل  
بين يديه وأنشد :

طرقتك زائرة في خيالي \* بيضاء تخطط بالجمال دلالاً

قادت فؤادك فاستقادت ومثلها \* قاد القلوب الى الصبا فامالاً

قال : فانصت له الناس حتى بلغ قوله :

هل تطمسئون من السماء نجومها \* باكمكم أو تسترون هلالها

أو تجسدون مقالة من ربكم \* جبريل بلغها النبي فقمالها

شهدت من الأنفال آخر آية \* برأيتهم فأردعو إبطالها

قال : فرأيت المهدي قد زحف من صدر مصلاه حتى صار على البساط إعجاباً بما سمع،  
ثم قال : كم هي ؟ قال : مائة بيت، فأمر له بمائة ألف درهم .

هذه القصة وأمثالها وقعت لكثير من الأمراء والوزراء الذين عرفوا الشعر مترنمه،  
فاستعانوا به على أغراضهم السياسية، كما كان الأمويون يستعينون به فيها . وحسبك أن تقول  
لك : إنهم استعملوه في المفارقة وفي إثارة المصيبة واستحقاق الخلافة، وفي الهجاء

والتحريض ؛ فقد دخل سديفٌ على عبد الله بن علي العباسي وعنده جماعةٌ من بني أمية  
فأشده قوله :

لا يَفْرُتُكَ ما ترى من أناسٍ \* إن تحت الضلوع داءٌ دويًّا  
فَضَعَ السيفَ وارفعِ السوطَ حتى \* لا ترى فوق ظهرها أمويًّا  
فامر عبد الله فنُهبت أرواحهم هباء .

وكثيرا ما كانوا يستشفعون بالشعر والشعراء ويمتثلون به على قضاء حاجاتهم ، ويُقدمونه  
أمامهم لمخاطبة الملوك والأمراء عند الغضب ؛ فقد روى أن الرشيدَ عند رجوعه من حرب  
الروم أتاه كتاب ، وهو في الطريق ، من ملك الروم "نقفور" يفيد تقصُّ الصالح الذي عقد  
معه ، فهاب القومُ إخبار الرشيد وامتنعوا عن مكاشفته ، وقدموا لمكاملته من الشعراء  
المحتاج بن يوسف القبيسي واسماعيل بن القاسم أبا العناهية وغيرهما ، فأنشده الجحاج بن  
يوسف :

تقص الذي أعطيتَه نقفورُ \* وطيته دائرة البوارِ تدورُ  
أبشر أمير المؤمنين فإنه \* حُثِمَ أُنالك به الإله كبيرُ  
فلقد تهاشرت الرعيةُ أن أتى \* بالنقض عنه وأقْدَ وبشير  
ورجعت يمينك أن تُعجلَ غزوةً \* تشفى النفوس مكانها مذكورُ  
أعطاك جزيتَه وطامًا خذَه \* حذر الصوارم والردى محذورُ  
فأجرته من وقعها وكانها \* بأكفنا شعل الضرام تطيرُ  
وصرقت بالطول المساكِرَ فاعلا \* عنه وبارك آمِنٌ مَسرورُ  
نقفور إنك حين تغدرُ أن نأى \* عنك الإمام لجاهلٌ مفورُ  
أظننت حين غدرت أنك مفلتٌ \* هيلتك أملك ما ظننت غرورُ  
ألفاك حينك في زواجر بحره \* فطمت عليك من الإمام بحورُ  
إن الإمام على اقتسارك قادرٌ \* قرئت ديارك أم نأت بك دورُ



ليس الإمام وإن غفلنا غافلاً \* عما يسوس مجزمه ويدير  
ملك تجرد للجهاد بنفسه \* فسدقه أبداً به مقهور  
يا من يريد رضا الإله بسعيه \* والله لا يخفى عليه ضمير  
لا نصح ينفع من يثب إمامه \* والنصح من نصباؤه مشكور  
نصح الإمام على الأنام غريضة \* ولاهلها كفارة وطهور

فكر الرشيد راجعاً في أشد محنة وأغلظ كلفة حتى أناخ بفنائها، فلم يبرح حتى رضى وبلغ ما اراد . فقال أبو المتاهية :

ألا نادى جرقة بالخراب \* من الملك الموفق بالصواب  
هذا هارون يرحل بالمنايا \* ويرقى بالمدكرة القضاء  
ورايات يحل النصر فيها \* تزكأها قطع السحاب  
أمير المؤمنين ظفرت فاسلم \* وأبشر بالغبية والإياب



وكان الشعراء يلعبون دوراً هاماً في الحياة الحزبية . وحسبك أن تعلم أن خلفاء شعراء اختصوا بهم كأي دلامة، وحماد عجرد، وبشار بن برد، ومروان بن أبي حفصة، وسلم الخاسر، وأبي نواس، ومنصور الثمري، وغيرهم . وللبرامكة شعراء أمثال أبان بن عبد الحميد، وأبن مناذر والرقاشي وغيرهم ، ولسائر الأمراء شعراء . وهناك شعراء لم يكتسبوا بالشعر كصالح بن عبد القادوس ، وشعراء للشعبة كالسيد الحميري وسليمان قنص وديعلج ، وشعراء لم يتحضروا كربيعة الرقي وكنثوم بن عمرو العنابي وغيرهم . وإنا نحيلك هنا الى ما أثبتناه لك من منظوم العصر العباسي، في الكتاب الثاني من المجلد الثاني .

وجاء المقال أن الشعر العباسي قد تضمن فنونا عديدة، ولكنه لا يحتاج به في اللغة كالأموي . معلا، لأن النقدة في الشعر والأدب جعلوا حدهم بشاراً ولم يتعدوه بسبب تفشي الخفن واستفعال اختلاط الأعجام بالعرب .

على أن الشعراء العباسيين قد نفثوا في أنواعه أيما نفث من قول في المهاجاة إلى قول في الأخلاق، إلى مُلح إلى تَضَرُّع، إلى وصف، إلى هَيِّو الخلفاء برضاهم إلى مدحهم . وعلى الجملة فقد استعملوه في كل غرض من أغراض الحياة من مُفارقة ونعريات وزهرات ورناء، كما أن منهم من ذكر الوقائع العربية في شعره، فأنرى الشعراء وأنزفوا . وحسبك أن تعلم أن سُلماً الخاسر خُلف ثروة مقدارها ٥٠.٠٠٠ دينار، ٥٠٠.٠٠٠ درهم غير الضياع . ومثله مروان بن أبي حفصة وغيرهما . وسكن الشعراء الاطام والقصور، واقتنوا الأنثى الحسنة من الحدائق وشاهقات الدور، واستخدموا الجوارى والغلمان، وأمعنوا في شهواتهم ولذاتهم وتعموا بحطام الدنيا ومرافقها، فسهلت ألقاظهم، ورقت طباعهم، وقُل أقتضابهم، وحاولوا الخروج على الطريقة القديمة، وأرادوا أن يسبدلوا الخمر وساقيتها من الدار وبانيها . وتقدم في ذلك النواصي يحمل عليهم فقال :

صِفَةُ الطَّلُولِ بِلَاغَةُ الْقُدُم \* فاجعل صفاتك لأبنية الكرم

وقد بالغ في ذلك حتى مجبه الخليفة وأخذ عليه ألا يذكر الخمر في شعره، فقال :

أَعِزَّ شِعْرَكَ الْأَطْلَالِ وَالْمَنْزَلِ الْفَقْرَا \* فقد طالما أزرى به نعتك الخمر

دعاني إلى نعت الطلول مُسَكِّط \* تضيق ذراعي أن أرد له أمراً

فسمعاً أمير المؤمنين وطاعة \* وإن كنت قد جشمتني مربكاً وعراً

ونجح كثير من الشعراء نهج أبي نواس، وركبوا مركبه، وإن كان للطريقة القديمة مجبوها حتى الآن .



هذا الترف الذي شمل القوم، يضاف إليه اختلاطهم بالأعاجم، وما كان لهم في ذلك الوقت من حرية في التصور والتفكير، جعلهم يفتحون في اللغة العربية قنفاً جديداً يتناولون فيه أفكار الفرس واليونان، فيدخلونها في أشعارهم وآثارهم، ويمتد أيديهم إلى كثير من المفردات الأعجمية يصوّرون ما جاد به النعم وما استلزمته الحضارة . فيقول أبو نواس في ذلك :

وذاث خد مُؤَثِّدٌ \* قُوْهِيَّةُ المتجزؤ  
 تأمُّلُ العين منها \* محاسناً ليس تَقْد  
 ببعضها قد تنهى \* وبعضها يتوَلَّد  
 والحسنُ في كل عضو \* منها مُضادُّ مُرَدَّد

ولم يقفوا عند هذا، بل وصفوا مناظر الطبيعة وورغد العيش ونعيمه، وصحبة الإخوان  
 وغياء القيان، ومصايد الوحش والطير، ومجالس الأئس والسرور، وأشدعوا كثيراً من  
 المعاني الجديدة، كقول بشار :

يا قوم أذني لبعض الحى عاشقٌ \* والأذنُ تمشقُ قبل العين أحياناً  
 قالوا بن لا ترى تهذى فقلت لهم \* الأذنُ كالعين تُوفى القلب ما كانا  
 وقال أبو تمام :

وإذا أراد الله نشرَ فضيلةٍ \* طويّت أَلَحَ لها لسانٌ حَسود  
 لولا اشتعالُ النارِ فيما جاورتُ \* ما كان يُعرفُ طيبُ عَرَفِ العُود

بقيت هنالك أمورٌ جديدة بالاهتمام، كان يصح أن نقف عندها قليلاً، فقد بالغوا  
 في الوصف، وفتحوا باب القصص، وتفزلوا بالغلمان؛ ولكن المقام يضيق عن ذلك .



# الكتاب الثالث

## عصر المأمون

### الفضل الأول

#### محمد الأمين

توطئة - مولده - نشأته وأخلاقه .

#### (١) توطئة :

في التاريخ الأمويّ مأساةٌ مُروّعةٌ، وهي أن جند الوليد بن يزيد بن عبد الملك قتلوا خليفتهم، وحزوا رأسه، وذهبوا به الى يزيد، فنصبه على ربح وطيف به في دمشق !

كانت تلك المأساة المروّعة نتيجة دعوةٍ سياسيةٍ حاكمةٍ، على الخليفة الوليد الذي تُسيه حالته السياسية من جلّ وجوهها حالة الأمين؛ فقد كان من محمّايا نظام ولاية العهد الثاني، ذلك بأن والده يزيد بن عبد الملك أراد أن يجعله خليفةً بعده، فاضطر الى تولية أخيه هشام، ثم ابنه الصغير الوليد بعد هشام . لحاول هشام أن يولّي ابنه مسامة بدل الوليد، كما حاول يزيد من قبل تولية ابنه الوليد؛ فلم يُفلح هذا ولا ذاك . وكانت النتيجة المعقولة لخطئهما السياسية : من محاولة كليهما خلع وليّ العهد والبيعة لولده، أن انضم الى كلّ بعض القوّاد والزعماء والأنصار، تأييداً له فيما يريد . وكانت هؤلاء القوّاد والزعماء والأنصار يصيحون موضع المقت والاضطهاد من وليّ العهد المضطهد متى وليّ الخلافة وصار الأمر

إليه . فاذا ما اضْطَهَدَ الخليفةُ نفسه وِطِطَتْ خُطَّتُهُ كان نصيبُ سيرته من الرواة نصيبَ الوليد بن يزيد، وهو نصيب محمد الأمين .

نريد أن نقول، لإرضاءَ للعلم والتاريخ والمنطق، أن الرواة إذا قالوا مثلا : إن الوليد كان كافرا أو كان مجموعة قبائح، أو أنه سلم يوسف التقيّ - كلا من محمد وإبراهيم ابن اسماعيل المخزومي موثقين في عبادتين، وأن يوسف أقامهما للناس وجلدهما وعذبهما وأماتهما؛ أو قالوا : إنه حبس يزيد بن هشام، وفرق بين روح بن الوليد وبين امرأته؛ أو ذكروا أنه علّب خالد بن عبد الله القمريّ - سيدّ اليمن وأنه سلمه للتقيّ - فنزع ثيابه وعذبه مرّ العذاب حتى أماته؛ أو وصفوا مُتَأَفِّسَهُ يزيدَ بالنسك والورع - فإن من واجب المؤرخ المنصف، المتحرّي للحقائق التاريخية، والراغب في النصفة العلمية، والتمشي في أناة وترو وحكمة مع الافتراضات التحليلية، والخاضع لأحكام المنطق والحيطة والتعقل، أن ينظر بحفَظٍ وتحزّزٍ كبير، إلى مثل تلك الروايات التي يوصفُ بها الخليفةُ المضطَّهَدُ والمغلُوبُ على أمره، وكل من آثَلَ عرشه وضاع ملكه، وخُتِمَتْ بالقتل أو الحرمان حياته .

على أنه يجدر بنا أن نتساءل، قبل أن نقفم موضوعنا في هدوء وسكون : ما هو الروح الذي يثلب على الرواة المعاصرين، والشعراء المعاصرين، والكُتّاب المعاصرين، والمُحدِّثين المعاصرين؟ وما النهج الذي تسلكه الصحافة المعاصرة؟ أليس هو إلى حدٍّ غير قليل، مُنَاصَرَةُ الحزب القويّ أو الزعيم القويّ - مناصرةٌ حائزةٌ قويةٌ حادثة، وقد لا تخلو من مبالغة في تمسّحها بحاسنه، وإغراق في زوايتها على خصمه بتقالصه .

فهمة المؤرخ إذاً - حين يعرض لحياة خليفة مضطَّهَدٍ انتهت حياته بجزأ رأسه : مثل حياة الوليد بن يزيد الأمويّ، ومحمد الأمين العباسيّ، وحين يعرض لتحليل حياة خليفة مناصر : مثل حياة يزيد خصم الوليد في العصر الأمويّ، وحياة عبد الله المأمون خصم محمد الأمين في العصر العباسيّ - ليست ميسورةً معبّدة بل هي جدّ شائكة .

وقد يكون من الحصافة والنصفية العلمية أن يُعرَّض ما يرويه الرواة المعاصرون من مذجٍ للغالب وانتفاصٍ للغلوب، على بساط البحث التحليلي . ولستأ زعمي بذلك الى أن تُرَفَّضَ مقولاتهم وتُنَقَّصَ بلا حتى وجاهة رواياتهم ، وإنما نوصي بالحيلة والاحتباس لا أكثر ولا أقل .



### (ب) مولده :

بعد هذه التوطئة الوجيزة التي لم تُرَدِّدْ عن إثباتها في هذا الموضوع، نبدأ مآكلتنا عن محمد الأمين، من الناحية التحليلية لأخلاقه . أما ناحية النزاع الذي شجر بينه وبين أخيه المأمون، فلها موضعها التاريخي من كتابنا :

هو محمد الأمين بن هارون الرشيد، ولد سنة سبعين ومائة هجرية، وهي السنة التي استُخْلِفَ فيها والده الرشيد . وكان مولده بعد مولد أخيه عبد الله المأمون بستة أشهر . ووُلِدَ المأمون في الليلة التي استُخْلِفَ فيها والده .

وأم الأمين أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور، فهو هاشميّ الأب والأُم . وقيل إن ذلك لم يتفق لخليفة عباسيّ غيره .

وإذا كان أخواله هاشميّين ولهم في الدولة نفوذٌ قويٌّ وكلمةٌ مسموعةٌ، فقد سَعَوْا، فيها يَحْتَسِنُ التاريخ، حين مَدَّ جماعةٌ من بني العباسِ أعتاقهم الى الخلافة، الى أن يكون الأمرُ الى ابنِ أختهم، وقد مجَّحوا .

سمى خالُ الأمين عيسى بن جعفر بن المنصور الى الفضل بن يحيى الذي بعثه الرشيد على رأس جيش الى نراسان، لمحاربة بعض الخارجين على الخلافة، وتسكين الاضطراب في تلك النواحي، وقد كان التوفيقُ حليفه في ذلك الوجه، فقال عيسى للفضل : «أُنْشِدْكَ اللهَ كَمَا عَمِلْتَ في البيعة لابنِ أخني، فإنه ولدك وخلافته لك» يا فوعده الفضلُ أن يفعل .

فلما كان الفضل بخراسان ، يُدَلِّ بِمَا وَاثَاهُ فِيهَا مِنْ ظُهُورِ عَلَى الْخَارِجِينَ ، وَهُوَ بَعْدُ مِنْ آلِ بَرْمَكٍ وَزَرَاءِ الرِّشِيدِ ، وَأَصْحَابِ السُّلْطَانِ الْعَظِيمِ فِي الْمَوْلَةِ ، بَايَعَ لِمُحَمَّدِ الْأَمِينِ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْقَوَادِ وَالْجُنْدِ ، بَعْدَ أَنْ فَرَّقَ أَمْوَالًا عَظِيمَةً ، وَأَعْطَى أَعْطِيَاءَ كَثِيرَةً . وَتَفَقَّيَ ذَلِكَ شُعْرَاءُ الْعَصْرِ ، أَمْثَالُ أَبَانِ بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ الْلَاخِئِ ، وَالنَّخْرَى وَسَلَّمَ الْخَاسِرَ وَغَيْرِهِمْ . وَلِبَيَانِ وَجْهِهِ نَظَرِيهِمْ فِي الْبَيْعَةِ تَقْتَضِفُ لَكَ شَيْئًا مِمَّا قَالَهُ سَلَمُ وَالنَّخْرَى .

قَالَ سَلَمٌ :

قَدْ وَفَّقَ اللَّهُ الْخَلِيفَةَ إِذْ بَنَى \* يَتَى الْخَلِيفَةَ لِلْهَجَانِ الْأَزْهَرِ  
فَهُوَ الْخَلِيفَةُ عَنْ أَبِيهِ وَجَدَهُ \* شَهِدْنَا عَلَيْهِ بِمَنْظَرٍ وَبَحْجَرٍ  
قَدْ بَايَعَ الثَّقَلَيْنِ فِي مَهْدِ الْمَدِينِ \* لِمُحَمَّدِ بْنِ زُبَيْدَةَ ابْنَةِ جَعْفَرٍ

وَقَالَ النَّخْرَى :

أَسَسْتُ بِمَرْوٍ عَلَى التَّوْفِيقِ قَدْ صَفَقْتُ \* عَلَى يَدِ الْفَضْلِ أَيْدِي الْعُجَمِ وَالْعَرَبِ  
بِبَيْعَةٍ لَوْ أَنَّ الْعَهْدَ أَحْكَمَهَا \* بِالنَّصِيحِ مِنْهُ وَبِالْإِشْفَاقِ وَالْحَسَدِ  
قَدْ وَكَّدَ الْفَضْلُ عَقْدًا لَا آتِنَقَاضَ لَهُ \* لِمُصْطَفَى بْنِ الْعَبَّاسِ مُتَحَبِّ  
فَلَمَّا تَنَاهَى أَمْرُ الْبَيْعَةِ إِلَى الرِّشِيدِ ، وَوَجَدَ نَفْسَهُ أَمَامَ « الْأَمْرِ الْوَاقِعِ » ، إِذْ قَدْ بَايَعَ لِمُحَمَّدِ أَهْلِ الْمَشْرِقِ ، بَايَعَ لَهُ بِبُلَايَةِ الْعَهْدِ ، وَكُتِبَ إِلَى الْإِقَاقِ فَبَوَّعَ لَهُ فِي جَمِيعِ الْأَمْصَارِ .  
وَمِنْ هَذَا تَعَلَّمَ مَا يَصْحَحُ أَنْ يَتَبَسَّرَ فِي أَنْ الْأَمِينِ كَانَ وَلِيَّ عَهْدِ الرِّشِيدِ ، دُونَ أَنْ يَكُونَ أَكْبَرَ وَلَدِهِ سَنًا .



(ج) نشأته وأخلاقه :

نَقَرْنَا مَا سَطَرَهُ أَمْثَالُ «كَارِلِيل» عَنْ «كُروبول» وَ«فَرْدِيك الْأَكْبَر» وَمَا كَتَبَهُ «تَرْثِيَان» عَنْ «مَأكُول» وَ«بُزُول» عَنْ «جَوْسَمُون» وَ«اللَّوَرْد مَوْرَلِي» عَنْ



”جلادستون“، وغيرهم من الكتاب الذين يعرضون لكتابة تاريخ حياة الملوك أو الساسة أو البعيريين، فتلاحظ، في جل كتبهم، وفي الدقيق المستوفى منها على الأخص، أنهم يخلطون أيا احتفاءً، بقيسدا ملاحظاتهم عن تاريخ بطلهم في طفولته، وكيف كانت ثقافته في ميمية شبابه وطراوة إهابه، وما هي الأوابد والفرائب أيام كان حذفاً صغيراً. وقد لا تدهشك متانة ”ما كولي“ وقوة سبكه وارتفاعه الى ذروة البلاغة في أساليبه، ولا يهولك كثرة ما حفظ ووفرة ما أطلع، اذا علمت مثلاً أنه وهو لم يعد السادسة أو السابعة كانت محفوظاته في طفولته، تبشر بعبقريته في رجولته. وكذلك يقال عن ”شارلس دكنز“ وسبع الاطلاع في صباه على جل ما سطر وكتبه، حتى صار في مستقبل حياته وقد ملك ناصية البلاغة، وتسلم الذروة في تعرف النفسيات وتحليل روح الطبقات كافة: من بأسيين مؤيزين الى أشراف مترفين. وكذلك يقال عن ”سپسر“ الفيلسوف العظيم والمربي النابه الذي كان يحفل في مبدأ نشأته، وهو لم يعد العاشرة مثلاً، بالذويات وغريب الهوام التي كانت على شاطئ النهر، فمكف على دراستها، فتولدت في نفسه صفات الجلد والأناة والمواظبة، حتى أصبحت نراه، وهو في شيخوخته، يخرج للناس المعجز المطرب في علم النفس، وعلم الحياة، وعلم الأخلاق، وعلم التربية، وهكذا مما لا حد له ولا حصر. كذلك يقال عن ”جونسون“ في صباه، وكيف كان يغالب المرض والمرص يغالبه، وكيف كانت أحاديثه في مطامعه، وكيف كان يحبر بيانه وتدققه في مجالسه، وكيف كان أياً حيواً، مترفاً أنوفاً، فرفض في شتم وإياه حذفاً جديداً اشتراه له من لاحظ تخزق حذائه وقصره عن جديد... الى آخر ما يقيدته تلك العصر عن نشأة أبطالهم، مما نمسك القلم عن الاسترسال في إثبات شيعه ومثله، مما يفيد في تعرف أحوالهم، ويساعد على تفهم حقيقة أمورهم. لأن القارئ اذا زامل الزعيم في طفولته وصباه، ووقف على عبثه وبعده، وجلده أو تبرمه، وتعلمه أو تعلمه، ونشاطه أو نهوله، ووزانتة أو تبدله، ووقف كذلك

على نقائصه وفضائله ، وهو حَدَّثُ بعد ، يستطيع أن يفهمَ فهما صحيحا ، حكمة تصرفاته في مستقبل حياته ، كما يفهم الصديقُ صديقه والجلدُ خِدَنَه .

ولنتساءل الآن . هل يقول لنا التاريخ شيئا قيما عن نشأة الأئمين وطفولته ؟

أظن أنني لا أعدو الحق كثيرا إذا قلت لا ؛ إذ قلما يعرض المؤرخون القدماءُ لشيء من طفولة المظلي ورجال التاريخ .

على أننا قد وقفنا من طفولة الأئمين على شذرات ليست بذات غناء كبير ، نثبها لك وندرسها معك ، فربما ساعدتنا بعض المساعدة على تفهم حداثة الأئمين ، وأستخلص بعض الحقائق عنه .

يحدثنا البيهقي في «الحماسن والمساوى» بما سنلخصه لك خلافا بنشأة الأئمين التعلمية ، لتقف على البيئة التي كان فيها الأئمين ، ولأن روايته ، خصوصا ما جاء عن حلم زبيدة وفرضها منه ، مما رواه المسعودي في «مروجه» أيضا ، قد تجعلنا نعلم بمحى أثر الوسط والوراثة في خلق ما كان بالأئمين من استعداد لحب الاستخارة ، مما كانت له نتائج السيئة ، ولأنه يفهمنا بوجه عام لم كان الأئمين فصيحاً ، أدبياً ، بليغاً ، ولم كان عابثاً مستهتراً ، ولم كان وادعا متبها مر . الدماء ؛ ولأنه يفسر نشأته في ترف الخلافة ونعيمها ، ومرح الحداثة ونهيزها ، والاستمتاع بحال زبيدة والإدلال بها شيمتها !



أنت جد عالم أن الرشيد جعل الأئمين في حجر الفضل بن يحيى ، والمأمون في حجر جعفر بن يحيى . وأنت جد عالم أن الفضل بن يحيى قال لحشيم بن بشر الواسطي : «ليكن أكثر ما تأخذ به ولى العهد الأئمين تعظيم الدماء ، فإن أحب أن يُشرب الله قلبه الهيبة لها ، والعفاف عن سفكها » . وأنت جد عالم بوصية الرشيد للأحمر النحوي : «أخذ الأئمين بالشدة ، إن لم تنفع الملاينة في تقويمه . وقد آن لنا أن نترك للأحمر فرصة التكلم ، فيروى لك ما كان من أمره مع تلميذه الأئمين .

يقول الأحمر : « كنت كثيرا ما أشدد على الأمين في التأديب ، وأمنعه الساعات التي يتفرغ فيها للهو واللعب ، فشكا ذلك الى خالصة — ولعلها كانت كبيرة وصيفات أو أمينات القصر الزبدي — فأنقني برسالة من أم جعفر تعزم على بالكف عنه ، وأن أجعل له وقفا أجده فيه لتوديع بدنه ؛ فقلت : الأمير قد عظم قدره وبعده صوته ، وموقعه من أمير المؤمنين ومكانه من ولاية العهد ، لا يحتملان التقصير ، ولا يقبل منه الخطأ ، ولا يرضى منه بالزلل في المنطق ، والجهل بالشرائع ، والعمى عن الأمور التي فيها قوام السلطان وإحكام السياسة ؛ قالت : صدقت ، غير أنها والدة لا تملك نفسها ولا تقدر على كفف إشفاقها ، ومع حذرهما أمر أن شئت حدثت بك به ؛ فقلت : وما ذلك ؟ قالت : حدثني السيدة أنها رأت في الليلة التي حلت فيها به كأن ثلاث نسوة دخلن عليها ، فقعدت منهن ثننان ، واحدة عن يمينها ، وواحدة عن يسارها ، فأمرت إحدى الثلاث يدها على بطنها ، ثم قالت : ملك ربك عظيم البذل ، ثقل الحمل ، سريع الأمر ! وقالت الثانية : ملك قصير العمر ، سليم الصدر ، مهتاك السر ! وقالت الثالثة : ملك قصاب ، عظيم الإللاف ، يسير الخلاف ، قليل الإنصاف ! فانتبهت وأنا فزعلة فلم أحس لمن أثار ، حتى كانت الليلة التي وضعت فيها ، أتيتني في الخلق الذي رأيتن فيه ، فقعدت عند رأسه ، وأطلعن جميعا في وجهه ، ثم قالت واحدة منهن : شجرة نضرة ، وريحانة جنية ، وروضة زاهرة ، وعين غدقة ، قليل لبثها ، عجل ذهابها ! وقالت الثانية : سفيه غارم ، طالب للغارم ، جسور على المخاصم ! وقالت الثالثة : احفروا قبره ، وشسقوا لحده ، وقربوا أكفانه ، وأعدوا جهازه ، فإن موته خير له من حياته ! قالت : فبقيت متحيرة ، وبشتت الى المعجمين والمعبرين ومن بزجر الطير ، فكل يشترى بطول عمره ، ويمدني بقاءه وسعادته ، وقلبي يأبى إلا الحذر عليه ، والتهمة لما رأيت في منامي . وبكت خالصة وقالت : يا أحمر وهل يدفع الإشفاق والحذر والاستراق واقع التقدير ، أو يقدر أحد على أن يدفع عن أحبابه الأجل ! . قلت : صليت ، إن القضاء لا يدفعه شيء . »

ويحدثنا التاريخ أن الرشيد اتخذ فيمن اتخذ لتربية الأمين وتعليمه ، قطرباً النحوي . وكان حامداً مجرد يمشق الأمين ، ويطلع أن يتفذه الرشيد عليه مؤذبا . فلم يتهيا له ذلك لتهتكه وقبيح ذكره في الناس ؛ وقد كان رام ذلك فلم يُحِبَّ إليه . فلما سمع أن قطربا قد استوى أمره وأجيب الى ذلك استمر وعفاه ، أخذ حامداً المقيم المقعد ، حسدا على ما ناله قطرب من ذلك وبلغه من المنزلة الرفيعة والدرجة السليمة ، فأخذ رقعة وكتب فيها أبياتاً ، ودفعها الى بعض الخدم ، الذين يقومون على رأس الرشيد ، وجعل له على ذلك جُعلاً ، وسأله أن يُودِعَ الرقعة دواة أمير المؤمنين ، ففعل . فلما كان بأسرع من أن دعا الرشيد بالدواة ، فإذا فيها رقعة فيها هذه الأبيات :

قل للإمام جزاك الله مغفرة \* لا يُجَعِّع الدهر بين السخل والذبيب  
السخل غرر وهشم الذبيب غفلة \* والذبيب يعلم ما بالسخل من طيب

فلما قرأ الرشيد الرقعة قال : أنظروا ألا يكون هذا المعلم لوطياً ! أنفوه من الدار ، فانرجوه من تأديب الأمين . قيل : ثم جعل الرشيد على الأمين حراساً ، واتخذ عليه حامداً . وكان عليه رقباء سبعين أو ثمانين !

ربما كان من الحق أن تقول : إن هذه النشأة كانت لها آثارها السيئة ، خصوصاً أنا نلاحظ ، أن الأمين تنقصه الدربة السياسية . وأنت تعلم أن الدربة السياسية هي ناحية يُؤَبَّه لها كثيراً ، في تنمية روح الحكم ، وتقوية المواهب الإدارية ، وتنظيم ملكات السلطان في ولي العهد ، خصوصاً ذلك العصر الذي لم تكن فيه وسائل الثقافة المملكية متوافرة نوافرها اليوم . من سياحة لولي العهد الى المسالك المتعمدة ، ووقوف على مبلغ الحضارة العالمية ، كما هي حال ولي عهد إنجلترا ونظرائه مثلاً ؛ مع أن الحاجة الى الثقافة السياسية في ذلك العصر كانت أشد منها اليوم ، لأن الملك حين ذاك كان صاحب سلطان فعلي مطلق ، غير مقيد بقانون أو دستور إلا ما يرجع الى دينه وورعه .

زيد أن تقول إنه إذا كان نَدَبُ الهادي الرشيد، حين ولاة قيادة الجند لحرب الروم، قد أوجد الرشيد في مركز القيادة العامة، وفيها من الشيوخ المحنكين والقادة المدربين والزعماء المنظمين، مجموعة صالحة للثقافة السياسية، وفرض تسخ، في الفينة بعد الفينة، للرائة السياسية وتخرج خليفة مُدَرَّب في فنون الملك، وإذا كان المأمون قد نَدَبَ للحكم في نراسان وغير نراسان، حتى نَكَبَتْ به ظروف الأحوال عن مفاسد مال الخلافة ونعمة ابن زبيدة ودلال الهاشميين - زيد أن تقول إنه إذا كان ذلك كذلك، وكانت هذه هي نتائج الدُّرْبَةِ السياسية، فمن الميسور أن نفهم مقبلة انتقادها، كما أنها من الميسور أن نستنبط أن عنصراً هاماً من عناصر تكوين رجال السياسة والحكم كان ينقص الأمين الذي لم تستطع غاشيته من الخدم و بطانته من الموالى وأحواله من الهاشميين وأساتيده من المربين، أن يحولوا بينه وبين ما تشبهه نفسه وتهوى طفولته .

وهل تظن أنهم يستطيعون أن يكرهوه على أن يأخذ نفسه بحزم في أموره، وبمساند في تصرفه، ولحم لميله، وتقويم لأعوجاجه، وبما يجعله رجلاً كاملاً ! أظن لا، وأظن أنك محق في نفيك هذا عن كان في ظروفه وبيلته .

على أنه من العدل والحق، أن نقرر أن الأمين لم يكن بليد الذهن أو ثقیل الفطن، بل كان نقيض ذلك على حفظ من توقد الذهن وفصاحة اللسان، وخفة الروح والظن، وحسبك أن ترى شيئاً مما كان ينضح به في مجالس اللهو والمناذمة : من سرعة البديهة، وطلاقة النكتة، وحلاوة التندر، ورقة الدعاية، وعذوبة الفكاهة، لتؤمن بما تقول .

وكل ما أجمع عليه المؤرخون الفيرنجي « كيور » وكتاب دائرة المعارف الإسلامية، واتفقت عليه كلمة المؤرخين العرب جميعاً، أنه كان مستمراً، مسرعاً، مع تحور خلقه، وعدم تبصر في العواقب، ولا ترو في مهمات الأمور، مما يرجع في الواقع إلى خدم العناية بثقافته السياسية، كما أسلفنا .

وإنّا نحقون إذا ما قرنا أنه لو وجد الأمين بدأ حكمة تقسوطيه أحياناً تفصل من شبابة نفسه العابسة المريحة ، وتقوم اعوجاج خلقه الرخو ، وتقوى سجاياه المنحلة ، وتبعث به الى الحروب ، ليصمر بظئ أوارها ، ويصقل من جلادها وسجايلها ، ويفيد نفسه من خبرة كجتها ، وذربة شيوخها ، ويخدع مديريها ، ويخطط مشيريه ، وتولييه حكم صقع من الأصقاع ، لرائة فيه على معضلات الحكم ومشكلاته ، والأحصاك بقاته وقضاته ، إنّا لكان للمأمون منه خصم لا يستهان به ولا تين قناته لغامر .

على آت وإن قلنا إن الأمين كان مستهترا ، لا نستطيع مع ذلك أن نستسيغ الخبر الذى رواه الطبري وضره والذى ضربه الفخرى مثلاً على إهمال الأمين وغفلة وبجهله ، إلا بشيء من التحفظ كثير . وهالك خلاصة الخبر لكى تقدر معنا ما لهذه الملاحظة من وجهة قيمة :

لما اشتد الخلاف بين الأمين والمأمون ، حتى انتهى الى غايته ، أرسل الأمين لمحاربة أخيه جيشاً ، لم ير في بساد قبل ذلك أكتف منه ، قوامه أربعون ألفاً وقيل خمسون ، وزوده بالسلاح الكثير والأموال الوفيرة ، وعمل رأسه شيخ من شيوخ الدولة ، جليل القدر ، مهيب الجانب ، هو على بن عيسى بن ماهان . وقد نرج مع الأمين الى ظاهر المدينة شيئاً مودعاً . وكان في حكم اليقين أن الظفر سيكون حليفه ، لكثرة صديقه ، ووفرة سلاحه وذخيرته . فلبا التقي بجيش طاهر بن الحسين قائد المأمون — وعسكره في حدود أربعة آلاف — ثم كانت الغلبة لطاهر ، وورد الخبر بنعي على بن عيسى الى الأمين وهو يصيد ، قال للذى أخبره بذلك : دعنى فإني كوثراً قد اصطاد سمكتين وأنا الى الآن ما اصطدت شيئاً ! وكان كوثر هذا خادماً من الخصبان ، قيل إن الأمين كان يحبه كثيراً .

نقول — ولعلك توافقنا فيما نذهب إليه — إننا لا نستطيع أن نقبل هذا الخبر وأمثاله ، إلا بشئ من التحفظ كثير . فإن خليفة يسمع مثل هذا النبأ العظيم ويعلم أن وراء الفصل في مصير سلطانه ثم لا يابه له ، لا يكتفى أن يوصف بالإهمال والجهل ، بل هو جدير بما فوق ذلك ، بالسفه والبلاهة . والسفه الأبله أولى بالجر عليه منه بأن يكون ذا سلطان مطلق في دولة بعيدة الأطراف والنواحي . ومحال على الرشيد الذي عرف بالحزم ، وجودة الخديس ، والثاني في الأمور ، أن يُسند هذا السلطان العظيم من بعده لسفيه أبله .

لهذا تميل الى الافتراض كثيرا ، بل الى الترجيح ، بأن هذا الخبر ، والكثير من أمثاله ، ليس إلا أمراً من آثار الدعوة المأمونية التي كان لها من الأثر في تلّ عرش الأمين ، وتثبيت سلطان المأمون ، ما لا يقل عن أثر عساكر المأمون وحزم قواده وحكمة مشيريه .

ويقول "ميور" : إن أهل بغداد قد ندموا ، وأسقط في أيدي جنودها ، فتورهم في الدفاع عن الأمين وعدم استسالمهم في الذود عنه . ويعزو مؤرخه الأستاذ "ويل" أسباب ندمهم هذا الى سخاء الأمين وإسرافه فيما كان يُنفق عليهم من الأموال والتعيرات .

أما أنه كان سخياً بل مسرفاً في السخاء لما لا ريب فيه . ومهما افترضت المبالغة فيما سنزويه لك نقلاً عن المقاتل الأدبية والمصادر التاريخية ، فإن الصورة التي مستفح من نفسك ، مهما جعلتها متواضعة مقصودة — وهذا ما نوصيك به دائماً — كافية للاقتناع بأنه كان سخياً ، بل مسرفاً في السخاء .

يقول الأصفهاني في أغانيه : غنى إبراهيم بن المهدي ليلة محمد الأمين صوتاً في شعر أبي نواس :

يا كخير النوح في الدمن • لا عليها بل على السكين  
سبيته العشاق واحدة • فلذا أحبت فاستكين

ظَنَّ بِي مَنْ قَدْ كَلَّفْتُ بِهِ \* فَهُوَ يَغْفُونِي عَلَى الظَّانِّ  
رِشَاءً لَوْلَا مَلَا حِجَّهُ \* خَلَّتِ الدُّنْيَا مِنَ الْفَتَنِ

فأمر له بثلاثمائة ألف دينار، فقال إبراهيم : يا أئير المؤمنين ، قد أجزئني الى هذه الغاية بمشرين ألف ألف درهم، فقال الأمين : هل هي إلا نعراج بمض الكور ! . هكذا ذكر إصهاق :

أما محمد بن الحارث فقد روى لنا هذه الحكاية عن إبراهيم فقال : لما أردت الانصراف قال : أوفروا زورقي صبي دنانير ! فانصرفت بمال جزيل .  
ثم تمال ، أرشدك الله ، لتنظر معاً فيما يرويه أحد المعاصرين ، وهو سعيد بن حميد فإنه يقول :

لما ملك محمد وجهه الى جميع البلدان في طلب المهملين وصمهم اليه ، وأجرى عليهم الأرزاق ، ونافس في ابتغاء قُورِهِ الدواب وأحد الوحوش والسباع والطير وغير ذلك ، واحتجب عن إخوته وأهل بيته وقواده واستخف بهم ، وقسم ما في بيوت الأموال وما يحضرنه من الجوهر ، في خصيائه وجلسائه وعديته ، وحمل إليه ما كان في الرقة من الجوهر والخزائن والسلاح ، وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته وطوره ولعبه ، بقصر الخلد والعزيزانية ، وبستان موسى ، وقصر عبدويه ، وقصر المعلى ، وزقة كلواذى ، وباب الأتبار ، وتبارى المهوبنة وأمر بعمل حراقات في دجلة ، على خلة الأسد ، والغيل ، والمقاب ، والحية ، والفرس ، وأفق في عمتها مالا عظيماً . فقال أبو نواس يمدحه :

تَحَقَّرَ اللَّهُ لِلْأَمِينِ مَطَايَا \* لَمْ تُسَعَّرْ لِنَاصِحَتِ الْخَرَائِبِ  
فَإِذَا مَا رَكَّابُهُ يَمُرُّ بِرَا \* سَارَ فِي الْمَسَاةِ رَأً كَأَيْتِ ظَايِ  
أَسَدًا بِأَسْطَا ذِرَاعِيهِ يَبْوِي \* أَهْرَتِ الشَّدَقِ كَلَخِ الْأَنْبِيَايِ  
لَا يَبْأَتِيهِ بِالْجَبَامِ وَلَا السَّوْ \* طَ وَلَا غَمَزَ رِجْلَهُ فِي الرِّكَايِ  
عَجَبَ النَّاسُ إِذْ رَأَوْكَ عَلَى صَوْ \* رَةِ لَيْتَ تَمُزُّ مِنَ السَّحَابِ



سَبَّحُوا إِذْ رَأَوْكَ مَرَّتَ عَلَيْهِ \* كَيْفَ لَوْ أَبْصَرُوكَ فَوْقَ الْعُقَابِ  
ذَاتِ زَوِيرٍ وَمَلْسَرٍ وَجَنَاحِيْنٍ تَشْقَى الْعُقَابَ بِمَسَدِ الْعِبَابِ  
تَسْبِقُ الطَّيْرَ فِي السَّمَاءِ إِذَا مَا اسْتَمْتَعِلُوهَا بِمِيسِيَةٍ وَذَهَابِ  
بَارَكَ اللَّهُ لِلْأَمِيرِ وَأَبْقَا \* وَأَبْقَى لَهُ رِذَاءَ الشَّجَابِ  
مَلِكٌ تَقْصُرُ الْمَدَائِحُ عَنْهُ \* هَاشِمِيٌّ مُوَفَّقٌ لِلصَّوَابِ

على أنه يصحح التساؤل : من أين للخليفة ما يكفيه من الأموال الطائلة ، والثروات الوفيرة لسد مطالبه وإلجأته الى شتى مناعمه ؟

وإننا نظن أنه يكفيك أن تنظر أيضا ، فيما تنظر اليه من مختلف مصادر المال : من خراج ربما كان ظالما ، وجبايا هائلة مرققة ، وموازن غنية ، وضرائب مبالغ في فرضها ، الى باب الاستصفا وحده وما يفهم عنه وعن نكبة الوزراء والكبراء . وحيثما لو وفق للرأسنة بعض الباحثين في التاريخ الاسلامي فهو هام وهو خطير .

ثم انظر ما ذكره الحسين بن الضحاك ، وهو شاعر الأمين كما تعلم ، قال : ابقى الأمير سفينة عظيمة أفنى عليها ثلاثة آلاف ألف درهم ، وأخذ أخرى على خلقية شيء يكون في البحر يقال له «الدلفين» . فقال في ذلك أبو نواس :

قَدْ رَكِبَ الدَّلْفِينَ بِدُرِّ الدُّجَى \* مَقْتَحِمًا فِي الْمَاءِ قَدْ بَلَغَهَا  
فَأَشْرَقَتْ دِجْلَةٌ فِي حَسْبِهِ \* وَأَشْرَقَ السُّكُكُتُ وَأَسْتَهَبَا  
لَمْ تَرَعْنِي مِثْلَهُ مَرَكَبًا \* أَحْسَنَ إِنْ سَارَ وَإِنْ أَحْتَبَا  
إِذَا اسْتَحْتَمَ بِجَاذِبُفِهِ \* أَعْنَقَ فَوْقَ الْمَاءِ أَوْ هَلَبَا  
خَصَّ بِهِ اللَّهُ الْأَمِيرَ الَّذِي \* أَحْضَى بِسَاحِ الْمَلِكِ قَدْ تَوَجَّأَا

ثم لتندبر معي ما يرويه لنا أحد الأئمة بقصر الرشيد ، وهو حسين خادم الرشيد ، فإنه يقول : إن الخلافة لما صارت الى محمد هُيْ لَه متزل من منازله على الشط بفرش أجود ما يكون من فرش الخلافة وأمواء ، فقال : ياسيدي ، لم يكن لأبيك فرش يباهي

به الملوك والوفود الذين يردون عليه أحسن من هذا، فأحببت أن أفرسه لك، قال : فأحببت أن يفرس لي في أول خلأتي المردراج ! ! وقال : مَرْقُوه ! قال : فرأيت والله انلحدم الفواشين قد صيروهم ممزقا وفزقوه .

وهناك مئات من الشواهد التي يروها المعاصرون، أمثال مخارق المغني، وأبي عبادة البحرى عن مشيخته، والعباس بن الفضل بن الربيع، وكوثر وغيرهم، عن سرف الأيمن وبذخه ولطوه وعيته، يصح أن ترجع إليها في مغفلاتها، وكلها تؤيد صدق الباب والجمهور .

فمن ذلك ما يرويه لنا حميد بن سعيد، من أن محمدا الأيمن لما ملك، وكانته عبد الله المأمون، وأعطاه بيتمته، طلب الخصيان وأبتاعهم، وظل بهم، وصبرهم لحلوته، في ليله ونهاره، وقوام طعامه وشرابه، وأمره ونهيه، وفرض لهم فرضا، سبهم الجرادية، وفرضا من الخيشان، سبهم الغرابية، ورفض النساء الحرائر والإماء، حتى رمى بهم، وحتى قال في ذلك بعض شعراء العصر، وقد ذكر أسماء بعضهم وحال الأيمن معهم :

ألا يا مَرْمَنَ المشوى بطوس \* غريباً ما يقادى بالفوس  
لقد أبغيت الخصيان بملأ \* تحمل منهم شؤم السوس  
فأما نوفل فالشارب فيه \* وفي بدير فيا لك من جليس  
وما المصمى بشأراً له \* إذا ذكروا بذي سهم خسيس  
وما حسن الصبي أخس حالاً \* لديه عند غنق الكؤوس  
لمن من غمره شططر وشططر \* يعاقر فيه شرب الخندريس  
وما للغانيات لديه حظ \* سوى التفطيط بالوجه العربي  
إذا كان الرئيس كذا سقياً \* فكيف صلاحاً بعد الرئيس  
فلو علم المقسم بدار طوس \* لمر على المقسم بدار طوس



وفي الحق أنت قصف الأمين، وأنهما سكة في طوره، وظلوه في عيشه، وأستهتاره في مرجه، وأشتغاله بوجه خاص بخدمه، قد جرت عليه وبالأكثر، وشراً مستطيراً، وتفر منه قلوب العقلاء من مشايبه ومناصريه، والأقوياء من مؤيديه وذوي به .

من أمثال ذلك ما ذكره عن العباس بن عبد الله بن جعفر، وهو من رجالات بني هاشم، جليلاً وعقلاً، وصديقاً، وكان يتخذ الخدم، كطبيعة حياة المترفين في ذلك العصر، قالوا : كان له خادمٌ من آخر خدمه عنده، يقال له منصور، فوجد الخدم عليه فهرب إلى محمد، وأتاه وهو بقصر أتم جعفر المعروف بالفرار، فقبله محمد أحسن قبول، وحظي عنده حظوةً عجيبية . فركب الخادم يوماً، في جماعة خدم كانوا لمحمد يقال لهم السيفاء، فتر باب العباس بن عبد الله، يريد بذلك أن يرى خدم العباس هيئته وحاله التي هو عليها، وبلغ ذلك الخبر العباس فخرج إليه، وقامت معركة وكادوا يحرقون دار العباس، وقبض الأمين على العباس، وهو أن يقتله، لولا وساطة أتم جعفر من ناحية، وأشتغاله بخروج الحسين بن علي بن ماهان عليه وأفضاه إلى المأمون من ناحية أخرى .

ولموضوع خدم الخليفة وظائفته، ذوى السلطان، من المقربين والزعماء، والقادة والوزراء، بل الخدم والأمناء، أسوأ أثر في تاريخ المدنية الإسلامية .



وهناك ظاهرة خلقية في أخلاق الأمين، وهي حبه للاستغارة واحتفاله بالبحث عن أمر طالليه، وركونه، حتى في آخر لحظة من حياته وهي لحظة التفرير في مصيره أيسلم نفسه إلى طاهر أم إلى هرمة، إلى منام رآه . وربما كانت هذه الخلقة فيه، من أثر البيئة، كما أسلفنا، أو من روح العصر نفسه، وإن كان ابن ماهان قائده يحتقرها . وسنرى أن المأمون كان على عكس الأمين لا يهمل في مهام أموره بالاستغارة ووصى الأحرار، بل كان يجعل جلّ اعتياده على مشورة رجالاته وذوى النصيحة من أنصاره .

على أنه ليس معنى ذلك أن الأمين لم يكن يستشير، ولكنه كان في كل شؤنه يغلبه هواه على وجه الصواب من أمره. وكان لراء حاشيته وتأثير بطانته فيه النتيجة السيئة، فكان لا يعمل بما يدل به إليه من نصيح. وحسبك دليلا على ظهور هذه الخلة فيه ما رواه عمرو بن حفص مولى محمد، إذ يقول: «دخلت على محمد في جوف الليل، وكنت من خاصته، أصل إليه حيث لا يصل أحد، من مواليه وحشمه، فوجدته والشع بين يديه، وهو يفكر، فسلمت عليه، فلم يرد عليّ، فعلمت أنه في تدبير بعض أموره، فلم أزل واقفا على رأسه، حتى مضى أكثر الليل، ثم رفع رأسه إلى فقال: أحضرنى عبد الله بن خازم، فضيت إلى عبد الله فأحضرتة، فلم يزل في مناظرته، حتى انقضى الليل. فسمعت عبد الله وهو يقول: «أشكك الله يا أمير المؤمنين! أن تكون أول الخلفاء تكث عهدك، وتقض ميثاقه، وأستخف يمينه، وردّ رأى الخليفة قبله». فقال: «أسكت الله أبوك! فبعد الله كان أفضل منك رأيا وأكمل نظرا، حيث يقول: لا يجتمع خلان في هجمة». ثم جمع وجوه القواد، فكان يعرض عليهم واحداً واحداً ما أصقرمه فيأبونه، وربما ساعده قوم، حتى بلغ إلى نزيمة بن خازم، فشاورة في ذلك، فقال: «يا أمير المؤمنين لم ينصبك من كذبك، ولم يشك من صدقك، لا تجرئ القواد على الخلع فيخلعوك، ولا تجهلهم على تكث العهد فينكثوا عهدك ويبعثك، فإن الغادر مخذول، وإننا تكث مفلول!». »

ولكن الأمين — كما قلنا — كان هواه يعي عليه وجه الصواب من أمره، وكان واقعا تحت سلطان الفضل بن الربيع وعلى بن عيسى بن ماهان وغيرهما من بطانته، وهم الذين كان يراؤهم سماً زقاقاً، ونفاقهم وباء فتاكاً، ولين كلامهم حسكا وقاداً، والذين لم يخلصوا للملكهم أو بلادهم، فيما يدلون به من الآراء، وما يقدونه من النصائح، وإنما يخلصون لعاجل مصلحتهم، فزبنوا له تكث العهد، وسهلوا له أمره، حتى أقدم عليه، لو كان ما كان! من النزاع على ما يستصفه لك في بابه.

على أننا لا نغنى عما ذكرناه لك الآن ، أن الأمين كان يلبس الذهن ، وإنما نغنى أنه كان ضعيف الإرادة ، عديم الذرية . ونكرر لك هنا ما أسلفنا قوله لك : من اعتقادنا بشوقه . ذهنه ، وفصاحة لسانه ، ونقرر أيضا ، إحقاقا للحق وإنصافا للتاريخ ، أنه كان بليغا ، متمهدا ، إلى حد غير قليل ، قواده بالنصح والرأي ، فقد ذكر أحد معاصريه ، وهو عمرو ابن سميد ، أن محمدا الأمين لما جاز باب نراسان رجلا وأقبل يوصي على بن عيسى بن ماهان : « امتنع جندك من اللعب بالرمية ، والغارة على أهل القرى ، وقطع الشجر ، وإتھاك النساء ، وولّ الرئى يحيى بن عل ، وأضمت إليه جندا كثيفا ، ومُرّه ليدفع إلى جنده أرواقهم مما يبيع من خراجها . وولّ كل كورة رجل تحمل عنها رجلا من أصحابك . ومن خرج اليك من جند أهل نراسان ووجوهها فأظهر إكرامه ، وأحسن جائزته ، ولا تعاقب أحدا بأخيه ، ويضع عن أهل نراسان ربع الخراج ، ولا تؤمن أحدا رماك بهم ، أوطن في أصحابك برح » .

ولم يكن هذه الوصية هي الوصية الوحيدة للأمين فنقول : فلتة من عابث ، فإن هناك ثانية وثالثة وهلم جرا . وما هوذا أحمد بن مزيد أحد قواده يخبرنا أنه لما أراد الشخصوص في مهمته ، دخل على محمد الأمين فقال : أوصني أكرم الله أمير المؤمنين ! فقال : « أوصيك بنضالك عدة : إياك والبنى ، فإنه عقال النصر ، ولا تقدم رجلا إلا باستخارة ، ولا تشر سيفا إلا بعد إعدار ، ومهما قدرت عليه بالين ، فلا تمتد إلى الخرق والشر ، وأحسن صحابة من معك من الجند ، وطالمني بأخبارك في كل يوم ، ولا تخاطر بنفسك طلب الزلفة عندى ، ولا تستفها فيما تخاف رجوعه على ... » إلى آخر نصيحته .

ومن العدل أن نقرر أيضا أنه كان إلى آخر لحظة من حياته يحاول الانتصار ، بإذلا مقدوره في الحرب ، ولكن عبثه ولوه كانا يقعدان به .

وكان طبيب القلب ، ينفو حتى عن أطاريح عليه ، والمسيئين إليه . وإن موقفه مع حسين بن عل بن ماهان المعروف مشهور . وكذلك موقفه مع أسد بن يزيد أحد قادته ، حينما حلب إليه أن يدفع له عبد الله المأمون ليكونا أسيرين في يده ، فإن أعطاه المأمون

الطاعة فيها، وإلا عمل فيها بحكمه وأنفذ فيها أمره ! فقال له الأمين : « أنت أعرابي مجنون، أدعوك الى ولاء أئمة العرب والعجم، وأطعمك كور الجبال الى نحر اسان، وأرفع منزلك عن نظرائك، من أبناء القواد والملوك، وتدعوني الى قتل ولدى، وسفك دماء أهل بيتي ! إن هذا لفرقٌ وبخيل ! !

هذا الموقف النبيل، دليلٌ على سلامة طويته، وظهر بجمته . ولكن حظه الحالك، وبوجه الآفل، ورياء مشيريه، وضعف إرادته، وخور عزيمته، وهوى وعيته، ونصيب المغلوب من الدعوة عليه، والحيلة الموجهة اليه، قد ضربت بجرأتها على سيرته، فاذا بها شوهاه مُزنية، واذا بها مقبحة متفردة، حتى قيل فيه ما قيل مما يجدر بنا ألا نخل كتابنا من إثبات بعضه :

جاء في الجزء السادس من كتاب بغداد لأحمد بن أبي طاهر طيفور : « قال المأمون لطاهر بن الحسين : يا أبا الطيب ! صف لي أخلاق المخلوع، قال : كان يا أمير المؤمنين واسع الطرب، ضيق الأدب، يبيع نفسه ما تنافه هم ذوى الأقدار ! قال : فكيف كانت حروبه ؟ قال : كان يجمع الكتاب ويضها بسوء التدبير، قال : فكيف كنتم له ؟ قال : كنا أسدا تنبت وفي أشداقها أعناق الناكثين، وتصيح وفي صدورنا قلوب المارقين ؛ قال : أما إنه أول من يؤخذ بدمه يوم القيامة ثلاثة، لست أنا ولا أنت راجعهم ولا خامسهم، وهم الفضل بن الربيع، وبكر بن المتيمر، والسندی بن شاهك ! هم والله ثار أمي وعينهم دمه ... ! » .

وقال المسعودي في التنبيه والإشراف : « إن الأمين كان باسطاً يده بالعطاء، قبيح السيرة، ضيق الرأي، سفاكاً للدماء، يركب هواه، ويهمل أمره، ويتكل في جليات الخطوب على غيره، ويثق بمن لا ينصحه، واستوزر الفضل بن الربيع، الى أن استتر الفضل لما تبين من اختلال أمر محمد، وهوى أمره، فقام بوزارته من حضر من كتابه كإسماعيل بن صبيح، وغلب عليه عدة من الأولياء منهم علي بن عيسى، والسندی

ابن شاهك، وسليان بن أبي جعفر المنصور . وقال غيره: «إنه كان كثيرَ اللهو واللعب، متقطعاً الى ذلك مشتغلاً به، عن تدبير مملكته .

ويقول ابن الأثير: «لم نجد للأمين شيئاً من سيرته، نستحسنه فنذكره» . وهذا حق في جعلته عن الأمين كدبر مملكة وخليفة، فإن فتي غراً، لم يُثَقِّف الثقافة السياسية اللازمة، ثم يصبح ذا سلطانٍ مُطْلَقٍ، في ملكٍ كبيرٍ يشيع ذوى المطامع النهمة، ثم تحوطه حاشية من الدهاة، ذوى المطامع الواسعة، والأغراض الكبيرة: كالفضل بن الربيع، الذي أفسد ما بينه وبين أخيه، وبكر بن المعتمر الذي زين له حلمه، ثم هو فوق ذلك، ينصرف الى حد كبير، عن معالجة تدبير الملك، الى اللهو، والى اللهو بكل ألوانه وضروبه، فقد ذكر الطبري في حوادث سنة ثلاث وتسعين ومائة عن علي بن إسحاق أحد معاصريه: أنه لما أفضت الخلافة الى محمد، وبدأ الناس ببغداد، أصبح صبيحة السبت، بعد بيعته بيوم، فأمر ببناء ميدانٍ حول قصر أبي جعفر في المدينة للصوالة واللعب، فقال في ذلك شاعرٌ من أهل بغداد:

بني أميرُ الله ميداناً \* وصبر الساحةُ بُستاناً

وكانت الغزلائُ فيه يأتان \* يُهدى اليه فيه غزلائنا

نقول إن مثل هذا الفتي الذي يولى وجهه منذ الساعة الأولى الى مثل هذه الشؤون التي كان يحدر به ومن كان في مكانه ألا تكون صاحبة التصيب الأول من عنايته واهتمامه، خليق ألا يمد المؤرخ له عملاً صالحاً في شأن من شؤون الدولة، وقبر، على ذلك أن يكون موضع استغلال كبير للدعوة المأمونية .

وقال غير ابن الأثير: «كان الأمين فصيحاً بليغاً كريماً» . وكيف لا يكون تلميذُ الأحمر والكسائي وقطريب وحماد وغيرهم من تحول اللغة وجهابذة البيان وأساتذة الأدب من مثور ومنظوم فصيحاً بليغاً!

على أنه من الحق والعدل، أن نقرر أيضاً، أن هذه الصفات، تكاد تكون من بهجاء كل ناجم من هذه الأسرة الباسقة الفينانة . ومن أجل هذا، ذهبنا الى ما ذهبنا اليه، من

أن الأمين لم يكن كما صوّروه لنا من البَلَّة والسُّخف، ومن الخمول والبلادة . ومحال أن يكون كذلك، وتصرفاته في بعض شؤون الدولة على ما وصفنا . ومحال أن يكون بليداً بفطرته وأستعداده، أو جاهلاً غيياً، لأنه في الذروة من الهاشمية . وأنت تعلم مقدار اهتمام الخلفاء العباسيين، والأمراء الهاشميين، بالثقافة الأدبية، كما بينا لك ذلك في كلمتنا عن الحياة الأدبية والعلمية في العصر العباسي . وإنما ظروف حياة الأمين، والبيئة التي أحاطت به، وما إلى ذلك مما فصلناه لك، جعلت صورة الأمين كما أراها التاريخ، هم هي في الوقت نفسه جعلت به إلى الاستتار وإلى العبث والمجانة .

وقد يكون أحسن ما نختم به كلمتنا عن تحليل الأمين وسيرته، وأصدق وصف له، ما ذكره الفضل بن الربيع، وزيره ووزير أبيه من قبله، والذي سنعرض لشيء من دقيق تصرفاته، وحكم تديرانه، عند ما نعرض لتفصيل التزاح بين الأمين والمأمون، فهذا الوصف ربما كان أقلّ تحاملاً من غيره على الأمين، وربما كان خيراً من سواء في تصوير الأمين وتحليل أخلاقه ونفسيته .

ذكر الطبري: «دأن أسد بن يزيد بن مزيد حدثه أن الفضل بن الربيع بعث إليه بعد مقتل عبد الرحمن بن جبلة الأنباري، قال: فأتيته، فلما دخلت عليه، وجدته قاعداً في محض داره، وفي يده رقعة قد قرأها، وأحمرّت عيناه، وأشدت غضبه، وهو يقول: بنام يوم الظريان، لا يفكر في زوال نعمة، ولا يتوقى في إمضاء رأي ولا مكيده، قد ألماه كأسه، وشغلته قدسه، فهو يبرى في طوره، والأيام تسرع في هلاكه، قد تفرّج عبد الله له عن ساقه، وفوق له أصيب أسهمه، يرميه على بعد الدار بالخنف النافذ والموت القاصد، قد عمى له المنايا على متون التليل، وناط له البلاء في أسنة الرياح وشفار السيوف، ثم استرجع وتمثل بشعر البيهقي:

وتجسّدوليّ جثي العنان خريديّة \* لها شرّ جعد ووجه مقسم  
وتفرّنيّ اللون حذب مدّاقه \* تُضيء له الظلمات مساعة يّسيم



وَيَدِينُ كَالْحَقِّينِ وَالْبَطْنِ ضَامِرٌ \* تَمِيصُ وَجْهَهُ نَارُهُ تَنْتَضِرُ  
 هَوَتْ بِهَا لَيْلُ التَّامِ بْنِ خَالِدٍ \* عَلَى بَمَرِ الزُّوْذِ غِيظًا تَجْرُمُ  
 أَظْلُ أَنْعَابِهَا وَتَحْتَ ابْنِ خَالِدٍ \* أُمَيَّةَ نَهْدِ الْمَرْكَلَيْنِ عَنَمُ  
 طَوَاهَا طِرَادُ أَنْجِيلٍ فِي كُلِّ غَارِيَةٍ \* لَهَا عَارِضٌ فِيهِ الْأَسْنَةُ تُزِيْمُ  
 يُقَارِعُ أَتْرَاكَ ابْنِ خَافَانَ لَيْلَهُ \* أَلَى أَنْ يَرَى الْإِصْبَاحَ لَا يَتَلَعَّمُ  
 يُصْبِحُ مِنْ طُولِ الطَّرَادِ وَجَسْمُهُ \* نَحِيلٌ وَأُجْمِي فِي النِّعَمِ أَهْمُ  
 فَشْتَانٌ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ خَالِدٍ \* أُمَيَّةَ فِي الرِّزْقِ الَّذِي اللَّهُ قَاسِمُ

ثم التفت إلى فقال : « يا أبا الحارث ، إنا وليناك لعجری الى غايۃ ، إن قصرنا عنها  
 ذمنا ، وإن اجتهدنا في بلوغها انقطعنا ، وإنما نحن شعب من أصل ، إن قوى قويننا ، وإن  
 ضعف ضعفنا ، إن هذا قد ألقى بيسده ، إلقاء الأمة الوكحاء ، يشاور النساء ويعتزم على  
 الرؤيا ، وقد أمكن بمسامحه ما معه من أهل اللهو والفسادة ، فهم يعدونه الظفر ، ويمتونه  
 عقب الأيام ، والهلاك أسرع اليه من السيل الى قيمان الرمل . وقد خشيت والله أن  
 يهلك بهلاكه ونعطب بعطبه ١ » .

## أفصل الثاني

### المأمون

تريشة — مولده — نشأته وأخلاقه .

#### (أ) توطئة :

لنتقل الآن الى حداثه المأمون ، ولنتبع في دراستنا له نفس الطريقة التي ترسمناها حين دراستنا لحداثه الأمين ، فتتكم من مولده ، كما نتكلم عن نشأته وأخلاقه ، محاولين أن نجمع شتات المعلومات التاريخية في هذا الصدد ، وأن ننظر فيها نظرة تفهم واستيعاب وإيمان ومقارنة وموازنة بما يقتضيه المقام من إجمال وإيجاز .

#### (ب) مولده :

ولد عبد الله المأمون ، لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، سنة سبعين ومائة هجرية ، وهي التي استخلف فيها الرشيد ، فلما بُشِّرَ بمولده سرَّ به سروراً عظيماً ، وسماه المأمون تيمناً بذلك . وأمه أم ولد باذغشية تسمى «مرآجل» ويقال : إنها تمت إلى أسرة عربية في المهجد من الأسر الفارسية .

نشأ المأمون في حجر الخلافة وترباً له من وسائل التربية والتنشئة ما لم يتبها إلا لأخيه الأمين . وكانت ظاهرة عليه غايلاً النجابة والذكاء وبهد الأهمية والتعالي بنفسه عن سفساف الأمور .

ومع كبر سن المأمون ، وظهور هذه الخلال فيه ، وثقة الرشيد به ، ومحبة له لم يتَّح له ما أتيح للأمين ، من البيعة بولاية المهدي ؛ إذ كان لأم الأمين من المكانة لدى الرشيد ، وهي زوجه ، ما لم يكن لأم المأمون . وقد سبق أن بينا لك ، في كلامنا على الأمين ، ما قام به أخواله من المسمى الموفق ، في أن يكون أمر الدولة من بعد الرشيد ، لابن أختهم ،

وما قام به الفضل بن يحيى في خراسان : من البيعة للأميرين بولاية العهد، حتى أصبح الرشيد أمام الأمر الواقع، فأعلن بولاية العهد للأميرين راضياً أو مُكرهاً .

### (ج) نشأته وأخلاقه :

وَكَلَّ الرشيد بكفالة المأمون، والنظر في شؤونه، ومراقب أحواله، جعفر بن يحيى وزيره، كما جعل الأميرين، في كفالة الفضل أنى جعفر . ونحن نحس، عند ذكر كفالة الفضل للأميرين، إحساساً قد لا يعدو الواقع كثيراً، أن بين هذه الكفالة، وبين إعلان الفضل، بولاية العهد للأميرين في خراسان، صلة .

فلما نما المأمون وترعرع، أخذ المؤرخون يذكرون لنا من مظاهر نجاحه وحريته، وتقديره لنفسه وللناس، ومعرفة بن كانت أهوائهم معه أو عليه، ووقوفه على ما يجري حوله من شؤون وأحوال، مما سنقصه عليك، ما ينبغي بما سيكون لهذا الغلام من شأن عظيم . ولعل أظهر ما يدل على نجاح المأمون في صباه ما يقصّه علينا التاريخ عن أبي محمد الزبدي مؤدبه الذى يقول : « كنت أؤدّب المأمون، وهو في كفالة سعيد الجوهري »، بفتت دار الخلافة، وسعيد قادم إليها، فوجهت إلى المأمون بعض خدمه يعلمه بكافى، فأبطأ علىّ، ثم وجهت آخر فأبطأ، فقلت لسعيد : إن هذا الفتى ربما تشاغل بالبطالة وتأخر، فقال : أجل ! ومع هذا فإنه إذا فارقك <sup>سلط</sup> تعمر على خدمه، ولقوا منه أذى شديداً، فقومه بالأدب . فلما خرج تناوئته بعض التأديب، فإنه ليدلّك عينه من البكاء، إذ قيل : جعفر بن يحيى الوزير قد أقبل، فأخذ مندبلاً فمسح عينيه وجمع ثيابه، وقام إلى فراشه فتمد عليه متربهاً، ثم قال : ليَدْخُلْ . فمعت عن المجلس، وخِفْتُ أن يشكونى إليه، فأتى منه ما أكره . قال : فأقبل عليه بوجهه وحدته حتى أصغته، وصحك إليه . فلما هم بالحركة، دعا المأمون بداية جعفر ودعا غلماناً فسعوا بين يديه، ثم سأل عنى بفتت، فقال : خذْ علّ بقية حزبي ! فقلت : أيها الأمير، أطال الله بقاءك ! لقد خِفْتُ أن تشكونى إلى جعفر

ابن يحيى، ولو فعلت كنتكلى، فقال: تُراني يا أبا محمد كنت أطلع الرشيد على هذه ! فكيف يصغر بن يحيى حتى أطلعه على أنى أحتاج الى أدب ! خذ فى أمرك، عافاك الله ! فقد خطر ببالك ما لا تراه أبدا، ولو عدت الى تأديى مائة مرة !

وكذلك مما يدل على ذكاء المأمون، وتغوب بصيرته، وأصابعه وحصافته، منذ نعومة أظفاره، وميعة صباه، ما يحكى من أن أم جعفر عاتبت الرشيد، فى تفریطه للمأمون، دون الأمين ولدها، فدعا خادما وقال له : وَجَّهْ الى الأمين والمأمون خادما، يقول لكل واحد منهما على الخلوة : ما تفعل اذا أفضت الخلافة اليك ؟ فأما الأمين فقال للخادم : أَقِطْلُكَ وَأَعْطِيكَ، وأما المأمون فانه قام الى الخادم بدواة كانت بين يديه وقال : أَسْأَلُنى عما أفعل بك يوم يموت أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين ! إني لأرجو أن تكون جميعا فداء له ! فقال الرشيد لأم جعفر : كيف تَرَيْنِ؟ فسكتت عن الجواب .

وأعدل الشواهد على تقدير هذا الغلام لنفسه، كأمر وأمين خليفة، وشعوره بما له من منزلة اجتماعية خاصة، وبما ينبغي أن يكون له، فى نفوس الناس من إجلال واحترام، وما يجب لمثله، فى آداب التحية وحسن الخطاب، ما جبه به الحسن اللؤلؤى، وهو الذى اتخذه الرشيد مؤدبا للمأمون، بعد أبى محمد البزدي، حين كان بطارحة شيئا من الفقه، وأخذت المأمون سنة من النوم، فقال له اللؤلؤى: نمت أيها الأمير؟ فقال المأمون: سوفى ورب الكعبة خذوا بيده ! بغاء الغلمان فأقاموه، فلما بلغ الرشيد ماصنع قال مستنثلا: **وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطِيئَةَ إِلَّا وَشِيعُهُ** \* وَتُفَسِّرُ إِلَّا فى منابها الغُضْلُ

ويحدثنا التاريخ أيضا عن المأمون صبا، أن الرقاشى هجاه حين مدح الأمين بقوله :

لم تملبه أمة تعرف فى السوق التجارا

لا ولا حد ولا خا \* ن ولا فى الخزى جارا

يعرض بالمأمون، لأن الرشيد كان قد حمله فى جارية أو فى حمير .

ومهما يكن من شىء، فى صبا المأمون، فقد كانت ظاهرة فيه، غايل النجابة والذكاء والحزم، وحسن التدبير وجودة الحنن، والطموح الى الكمال .

وقد يحسد الذين يذهبون ، الى أن في تفتيح الأجناس تحسباً للنوع ، حجة ظاهرة في المأمون لمذهبهم ، إذ لا تُعوّضهم الوسيلة في أن يرجعوا نجابتهم الى أنه من أم فارسية وأب عربي ، أو بعبارة أخرى : الى أنه قد جمع بين الدم الأري والدم السامي .

هذه الخائيل حبيته الى الرشيد ، وجملته يقدّره قدره ، بفعله ولي عهد الخلافة بعد أخيه الأمين ، وجمعت حوله طائفة من ذوى الهمة الشاه الذين تومئوا فيه محققاً لأطماعهم الواسعة .

ومن أظهر هؤلاء الذين التفوا حوله ، لتحقيق مطامعهم ، الفضل بن سهل الذي اتخذ يحيى بن خالد البرمكي وسيلة الى الرشيد ، في أن يكون في خدمة المأمون . وحسبك أن تعلم من أمر الفضل هذا ، أنه القائل حين سئل عن السعادة : إنها أمر جائز وكلمة نافذة ! . وأنه الذي قال له مؤدّب المأمون يوماً في أيام الرشيد : إن المأمون لجبل الرأى فيك ، وإنى لا أستبعد أن يحصل لك من جهته ، ألف ألف درهم ، فاغناظ من ذلك وقال له : أك عني حقاً ! الى اليك إسماعيل ! فقال المؤدّب : لا والله ما قلت هذا إلا عجة لك ! فقال : أقول لى : إنك تحصل منه ألف ألف درهم ! والله ما صعبته لأكتسب مالا قل أو جل ، ولكن صعبته يضىحك خاتمي هذا في الشرق والغرب ! قال : فوائه ما طالت المسنة حتى بلغ ما أمل .

حسبك أن تذكر لك هذا ، من أمر الفضل بن سهل ، تعلم ما لهذا الرجل من همة وثابة ، وعزيمة مرهفة مضادة ، ومطالع واسعة . وحسبك أن تذكر لك ما وصفه به أحد معاصريه وهو إبراهيم بن العباس لتقدر الرجل وتقدر كفايته . قال :

يمضى الأمور على بسببته • وتريه فكركه عواقبها

فيظلل بضديرتها ويورثها • فيقيم حاضرها وغائبها

(١) كتب أساتذة الشيخ عبد الوهاب النجار من هذا عاصه : « كذلك كان الرشيد ، كان يجمع بين الدم الأري والدم السامي . فهل التحسين يجمع في الطبقة الأولى فقط ويسد في الثانية ؟ ومع هذا فان جزئات لوبرون يخالف هذا الرأى على الخلاهه . يقول : إن أمة كل أفرادها مولدون لأساس و يملئ ذلك بتضارب السجايا والخصال والعقائد التي ينشأ من أيويه واضطرابها في نفسه » .

وَإِذَا أَلَمْتُ صَعْبَةً عَظُمْتُ \* فِيهَا الرِّزْيَةُ كَانَ صَاحِبَهَا  
 الْمُسْتَقْلُ بِهَا وَقَدْ رَمَيْتُ \* وَلَوْتُ عَلَى الْأَيَّامِ جَانِبَهَا  
 وَعَدَدْتُهَا بِالْحَقِّ فَاعْتَدَلْتُ \* وَوَسَّعْتُ رَاغِبَهَا وَرَاهِبَهَا  
 وَإِذَا الْحُرُوبُ يَدَّتْ بَعَثْتُ لَهَا \* رَأْيًا تَقْلُ بِهِ كِتَابَهَا  
 رَأْيًا إِذَا نَبَتْ السُّيُوفُ مَضَى \* عَزَمْتُ بِهَا فَتَشَى مَضَارِبَهَا  
 وَإِذَا الْخَطُوبُ أَتَلَّتْ وَرَمَتْ \* هَدَيْتُ فَوَاضِلَهُ نَوَائِبَهَا  
 وَإِذَا جَوَتْ بِضَمِيرِهِ يَدُهُ \* أَبَدْتُ بِهِ الدُّنْيَا مَنَاقِبَهَا

يقول الفخرى: قالوا لما رأى رأى الفضل بن سهل نجابة المأمون في صباه، ونظر في طالعهِ، وكان خبيراً بعلم النجوم، فدلته النجوم على أنه سيصير خليفة، لزم ناحيته وخدمه وذرأه، حتى أفضت الخلافة إليه فاستوزره.

وسواء كان مرجع اتصاله بالمأمون، إلى خبرته بالنجوم، أم إلى جودة حدسه، فقد اتصل بالمأمون وهو صبي، وكان الحامل له على أن يكون في خدمته لتحقيق آمال كبار، رأى بكاسته وحذقه في نجابة المأمون غير كميل بتحقيقها.

ولقد كان استعداد المأمون الفطري منذ نشأته أن يكون رجل جماعة، وقائد أمة، إذ قد حبته الطبيعة فيما حبته من شتى المواهب موهبة الخطابة والتبريز فيها. فقد أخبرنا محمد بن العباس اليزيدي قال: حدثني عمي عبد الله وأخي أحمد قالوا: لما بلغ المأمون وصار في حد الرجال، أمرنا الرشيد أن نعمل له خطبة يقوم بها يوم الجمعة، فعملنا له خطبته المشهورة، وكان جهور الصوت، حسن اللهجة، فلما خطب بها رقت له قلوب الناس، وأبكى من سمعه، فقال أبو محمد اليزيدي يمدح المأمون:

تَهَنَّفَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَرَامَةً \* عَلَيْهِ بِهَا شُكْرُ الْإِلَهِ وَجُوبُ  
 بَأْنٍ وَلَّى الْعَهْدَ مَأْمُونٌ هَاشِمٌ \* بَدَأَ فَضْلُهُ إِذَا قَامَ وَهُوَ خَطِيبُ  
 وَلَمَّا رَمَاهُ النَّاسُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ \* بِأَيْصَارِهِمُ وَالْمُودُ مِنْهُ صَلِيبُ

رَبَاهُمْ يَقُولُ انصَبُوا عَجْبًا لَهُ • وَفِي دُونِهِ لِلسَّامِعِينَ عَجِبُ  
وَلَا وَعَتَّ أَذَانُهُمْ مَا أَتَى بِهِ • أَتَابَتْ وَرَقَتْ عِنْدَ ذَاكَ قُلُوبُ  
فَأَبْكَى عَمُونَ النَّاسِ ابْلُغْ وَأَعْظِ • أَحْمَرُ بِطَلْحَى النَّجَارِ تَجِبُ  
مَهِيْبٌ عَلَيْهِ لِلوَقَارِ سَكِينَةٌ • جَرَى جَنَانٍ لَا أَكْعُ هُيُوبُ  
وَلَا وَاجِبٌ فَوْقَ الْمُنَابِرِ قَلْبُهُ • إِذَا مَا اعْتَرَى قَلْبَ التَّغْيِبِ وَجِبُ  
إِذَا مَا عَلَا الْمَأمُونُ أَصَوَادَ مَنَبَرٍ • فَلَيْسَ لَهُ فِي الْعَالَمِينَ ضَرِبُ  
تَصَدَّعَ عَنْهُ النَّاسُ وَهُوَ حَدِيثُهُمْ • تَحَدَّثَ عَنْهُ نَارُحٌ وَقَرِيبُ  
شَيْبَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ حَرَامَةُ • إِذَا وَرَدَتْ يَوْمًا عَلَيْهِ خُطُوبُ  
إِذَا طَابَ أَصْلُ فِي عُرُوقِ مَشَاجِيهِ • فَأَغْصَانُهُ مِنْ طَيْبِهِ سَطْبُ  
فَقُلْ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي بِهِ • يُقَدِّمُ عَبْدُ اللَّهِ فَهُوَ أَدِيبُ  
كَانَ لَمْ يَتَّبِعْ عَنْ بَلَدِيَّةٍ كَانَ وَالِيَا • طَلِيهَا وَلَا التَّهْدِيرُ مِنْكَ يَغِيْبُ  
تَنْجَحْ مَا يُرِضِيكَ فِي كُلِّ أَمْرِهِ • فَسِيرَتُهُ شَخْصُ الْيَسْكَ حَبِيبُ  
وَرَيْتُمْ بَنِي الْعَبَّاسِ إِرِثَ مُحَمَّدٍ • فَلَيْسَ لِحَى فِي الثَّرَاثِ نَهْيبُ  
فَلَمَّا وَصَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ إِلَى الرَّشِيدِ أَمَرَ لِأَبِي مُحَمَّدٍ بِخَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ ، وَلَابَنَهُ مُحَمَّدَ  
ابْنَ أَبِي مُحَمَّدٍ بِمِثْلِهَا .



« وبعده » ، فَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ فِي نَجَاةِ الْمَأمُونِ وَتَبْرِيزِهِ . وَلَعَلَّ هَذِهِ النِّجَاةُ الْخَارِقَةُ ،  
كَانَتْ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي حَمَلَتْ الرَّشِيدَ ، عَلَى أَنْ يَسْتَوْثِقَ لَهُ الْأَمْرَ فِي وِلَايَةِ الْعَهْدِ مِنْ أَخِيهِ ،  
وَلَأَخِيهِ مِنْهُ ، بِجَمْعِهِمَا فِي بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ ، حِينَ حَجَّ عَامَ سِتٍّ وَثَمَانِينَ وَمِائَةٍ ، وَمَعَهُ كَبَّارُ  
رِجَالِ الدَّوْلَةِ ، وَجُلَّ الظَّاهِرِينَ مِنَ الْأَمْرَةِ الْمَسَالِكَةِ ، وَاسْتَكْتَبَ كِلَيْهِمَا عَهْدًا بِمَا لَهُ وَعَلَيْهِ  
قَبْلَ الْآخَرِ ، وَأَشْهَدَ عَلَيْهِمَا بِجَاهَةِ مَنْ ذُو الْمَكَايِدِ وَالنَّفُودِ ، ثُمَّ عَلَّقَ الْعَهْدَيْنِ فِي الْكِعْبَةِ ،  
لِيَكُونَا فِي مَكَانِ الْأَحْقَامِ الدِّيْقَةِ . وَقَدْ أَثْبَتْنَا لَكَ الْمَهْدِينَ فِي بَابِ الْمَثُورِ مِنَ الْكُتُبِ الثَّلَاثِ  
فِي مَجْلَدِنَا الثَّلَاثِ .

نقول : لعل هذه النجاة المخافة كانت من الأسباب التي حملت الرشيد على أن يفعل ما فعل ، من استيثاق الأمر بين الأخوين ، خوفاً على المأمون ومنه . ولسنا ننكر أن من جملة تلك الأسباب ما يصح افتراضه : من أن الرشيد كان يُقدّر قوة حزبي المأمون والأمين ، وبعبارة أخرى ، حزبي الفرس والعرب ، أو العلوية والهاشمية ، أو الشيعة والسنية .

ونحن لا نستطيع أن نرجع مظاهر العطف المختلفة ، وفي مناسبات كثيرة من الرشيد على المأمون ، إلى الأثرة وحدها ؛ فإن للرشيد أولاداً غير المأمون ، وغير الأمين ، لم ينالوا شيئاً من هذه الحظوة العظيمة لديه . لذلك نرى — وقد ترى معنا رأينا — أن هذه الحظوة ، التي ينالها المأمون من الرشيد ، في مناسبات كثيرة ، دون إخوته ، ترجع إلى ما امتاز به المأمون ، من نجابة خارقة ، وميل إلى جد الأمور ، وترفع عن سفاسفها ، وسمو عن دنايها ، واضطلاع بما يكلف القيام به من أعباء ومهام .

ولعل أظهر مظاهر العطف من الرشيد على المأمون ، ما فعله الرشيد حين وافته منيته "بطوس" ، من وصيته بجميع ما كان معه ، من جنود وسلاح ومال للمأمون ، دون أن يكون تلطيفته من بعده ، ليشد بذلك من أزر المأمون ، ويقوّي من جانبه . وأنت جد عالم بما قدمناه لك من الكلام في العصر الأموي ، عن أثر المال فتقدّر معنا ما كان يرومه الرشيد ، ولست في حاجة لأن أقول لك ، إن أثر المال وسلطانه في نفوذ الكلمة ، وقوة الشوكة ، ودونه كل أثر وكل سلطان !

ولعلنا لا نعدو الواقع كثيراً ، حين نذهب إلى القول بأن الرشيد كان يحذر الخلاف بين الأخوين ، ويخاف كليهما على الآخر : يخاف الأمين على المأمون ، لأن الأمين سيُصبح الخليفة الذي بيده قوة الدولة من جنود ومال ، وتصعبه مزاياها من عظم الهيبة ونفوذ الكلمة ، وسيكون مطمح آمال الأميين وموضع رجاء الراجين .

ومن شأن كل هذا أن يجعل الناس جميعاً ، أو الأكثرية الساحقة منهم يلتفتون نحوه ، رغبة أو رهبة . وجدير بمن كان هذا شأنه أن يُحتنى ويُنقى .



ويخاف المأمون على الأمين؛ لأن ما امتاز به المأمون، من نجابة خارقة، وجد وحكمة، وعرفان بشؤون الحياة واضطلاع، واعتدال بنفسه، يجعل منه خطراً شديداً على الأمين جداً بأن يخشى ويتقى أيضاً . ويظهر أن كل هذا وقرى نفس الرشيد الذي كان معروفاً بالحزم وجودة الحُدى، وقوة البصر بالعواقب، فأراد أن يتقيه، ورأى أن خير وسيلة لاثباته، أن يستكبهما المهدين، كما قدما، فيقطع بذلك أسباب الخلاف بين الأخوين، ويحول دون دسّ السياسين، وسعاية الساعين، ويفهم أنصار الفريقين ما للبيعة بين الأُميرين من حرمة وتوقير .

غير أن تصرفات الأيام، وآثار البطانة، ونتائج السعاية، ومغيبات الربا والمُتفاق، كانت فوق ما كان يقدر الرشيد، فوقع الخلاف بين الأخوين أعنف ما يكون . ولم يكن ما اتخذ الرشيد من وقاية وحيلة ليصده تياره الجارف .

وكان المأمون الشاب حسن التوفيق في اختيار حاشيته وشيخه، لجمع حوله طائفة من ذوى الدهاء والحكمة، وهؤلاء وإن كانوا من ذوى المطامع والأغراض، قد أخلصوا له النصيح، وثقفوه التثقيف الذى يكفل له النجاح، فإن تحقيق أطاعهم الواسعة، موقوف على نجاحه . فإخلاصهم له لإخلاص فى الواقع لأنفسهم أيضاً . ولما كانت أم المأمون فارسية فربما جاز لنا أن نقول : لعل لكونها فارسية أثراً فى أن يخلص له هؤلاء المشيرون إذ كانوا كلهم من الفرس وأذا كانت له بهم هذه القرابة .

وهذا يفسر لنا عاطفة من عواطف المأمون، وهى ميله الى خراسان، وتعصبه بعض التعصب للخراسانيين، إذ يتحدثنا التاريخ أن رجلاً من الشام أعترض طريقه مراراً وقال : « يا أمير المؤمنين ، انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان » فقال له : أكرت على والله ما أزلت قبساً عن ظهور خيولها إلا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد ، يعنى فتنة ابن العامرى ، وأما العرب فوالله ما أحببتها ولا أحببتى قط ، وأما قبضاعة فساداتها تنتظر السفيفاتى حتى تكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على ربه

مذبح الله تبارك وتعالى من مضر، ولم يخرج إثنان إلا خرج أحدهما شارباً . اعرف ! فعل الله بك ! »

وإنه ليجوز لنا أن نرجع هذا الميل، لا إلى ما ذكره المأمون وحده، بل إلى التربية وأثر البيئة الفارسية في نفسه ، وإلى مقابلة حسن الصنيع بمثله ، فأم المأمون فارسية ، والذين كفلوه وقاموا بتثقيفه فارسيون ، والذين أحاطوا به ونهروه فارسيون . ومن هنا نستطيع أن نفهم الرأي الذي يقول به بعض المؤرخين الفرنجة : إن انتصار المأمون على الأتراك كان أيضاً انتصاراً للفرس على العرب ، كما كان انتصاراً للفرس على العرب انتصاراً للباسيين على الأمويين . ومن هنا نستطيع أن نعلل أيضاً ما ذهب إليه بعض الباحثين ، من أن المأمون كان شيعياً وهو عباسي ، لأن البيئة الفارسية التي نشأ فيها كانت إلى حد غير قليل مهتمة التشيع للعلويين ، فيجوز أن تكون قد صبغت المأمون بشيء من ألوانها ، وقد كان لذلك آثاره ، لا في السياسة ونظام الملك لحسب ، بل في الآراء والمذاهب مما سنذكره حين نعرض للكلام على الخليفة المأمون .

ولعلنا نكون بما قدمناه لك عن نشأة المأمون وصباه ، قد رسمنا لك صورة واضحة لهذا الأمير الذي سيكافح كفاحاً شديداً في سبيل الملك ، والذي كان له أكبر أثر في الحضارة الإسلامية .

أما شتى مواهب المأمون وآراؤه ، وما اشتهر به من الحلم والعفو والكرم والبصر بالسياسة ، وجودة الحدس ، وكفاية البطانة ، وشغفه بالعلم والأدب والجدال ، وما كان لهذا الشغف من ثورة علمية وفكرية وكلامية في عصره ، فسندرجه الكلام فيما إلى موضعها من كتابنا ، وهو الكلام على الخليفة المأمون ، بعد أن استقر له الأمر في بغداد ، وحين فضحت فيه هذه الظلال وأنت كل ما لها من ثمرات .

(١) في ابن الأثير ( سائسا ) وهو غلط ، والصحيح ما أثبتناه عن أساذنا الشيخ عبد الوهاب النجار . والشراء هم الخوارج .

## الفصل الثالث

### النزاع بين الأمين والمأمون

توطئة — يمة الأمين وخلقه — مبدأ النزاع وكيف تحول — الوجود السياسية — شؤون الرأى العام واستمرار الولود السياسية — إعلان الحرب — استثمار الجيوش الأموية ومقولات الشراء — حود حل بد .  
مجهودات الأمين في سبيل الفوز — الثورة ونشاطها — قتل الأمين .

#### (١) توطئة :

عرفت مما ذكرناه لك في مجل كلامنا عن الرشيد والأمين، أن الرشيد أعلن ولاية العهد للأمين في سنة ١٧٥ هجرية، وسنّ الأمين فيما قبل وقتئذ خمس سنين، ثم أشركه معه المأمون في ولاية العهد سنة ١٨٣ هجرية، ثم استوثق لكلهما من أخيه سنة ١٨٦ هجرية وهو عام حج الرشيد : بأن استكتب كلا منهما عهداً بما عليه وله قبل الآخر، وعلق المهددين بالكعبة كما قدّمنا .

ويؤخذ من نصوص المهددين، وما تبديل بعد ذلك من الرسائل بين الأمين والمأمون، مما سنورد لك بعضه لما تضمنته من «الديلواماطيقية العباسية» : وهى لين في تحزم، ويتيسر في تأميل طويل الأجل، — ويؤخذ منها أن خراسان ونواحيها الى الرى كانت تحت إمرة المأمون، يتصرف في جميع شؤونها، من سياسية وحربية واقتصادية وقضائية تصرفاً تاماً، لا تربطه بمخاضة الخلافة إلا رابطة الدعاء للحليفة . وقد صارت اليه إمرة هذه النواحي في عهد الرشيد، وهى من الأمور التى أخذ الأمين بالوفاء بها، فيما أخذ به من عهد ومواثيق .

وكان الرشيد قد أشرك في سنة ١٨٨ هجرية ولده القاسم مع أخويه في ولاية العهد، وجعل من نصيبه العمل على الشام وقسرين والعواصم والشنوز .

وكانت الأمور جارية مجرداً الطبعي آخر أيام الرشيد، ثم شطراً كبيراً من السنة الأولى من خلافة الأمين، إلا ما كان من أشياء، طوى عليها المأمون كشعاً، دُرِبَ منه وسياسة، وحصافة وكياسة، وترتّباً وتعلّلاً، وحزماً وتمهلاً.

ولم تنقض السنة الأولى من خلافة الأمين حتى كانت الدسائس قد فعلت فعلها، وحتى كانت المنافسة العنيفة بين البطانتين قد بلغت غايتها، وأخذ كل من الأخوين يحدو أخاه ويتقي، وأمتلأت الصدور حفاظ وإحنا، ولم يبق إلا أن تُلمَس فتنفجر. وسنفصل لك كل ذلك تفصيلاً.



### (ب) بيعة الأمين وخلافته :

لما خرج رافع بن الليث بن نصر بن سيار بخراسان، وكنّف أنصاره، وقويت شوكتُه، وعظم خطره، رأى الرشيد أن يخرج إليه بنفسه لمحاربتَه وتسكين حبل الأمن الذي اضطرب في تلك النواحي. فأصابه من مشاق السفر، وتغير الطقس، وشدة التفكير، ما أعلّ صحته. وبدأ له من ظروف الأحوال ما حمله على تجديد البيعة للمأمون، الذي كان يبرو، وأوصى بأن يصير ما معه، من قوادٍ وجنودٍ وسلاحٍ ومالٍ إلى جانبه، وأخذ المواثيق كل من معه بأن يؤفوا بهذه الوصية.

ثم أخذت تشتدّ به العلة، حتى وافته منيته بطوس سنة ١٩٣ هجرية. وبيع لأمين بالخلافة، في عسكر الرشيد، ووصله نبي الرشيد في بغداد يوم الأربعاء عشرة ليلة، خلت من جمادى الآخرة، وقبل ليلة النصف من هذا الشهر، فكتب الخبر ببقية يومه وليته، ثم أظهره يوم الجمعة.

(١) هو خفيد نصر بن سيار آتو وال لبني أمية بخراسان إذ دالت بعد ذلك دولتهم. وسبب خروج رافع هذا أنه طمع في زواج امرأة يحيى بن الأعمش بن يحيى الطائي لشرفها ومالها وكانت مغاضبة لزوجها، غلبها على أن تمان الكفر لتطلق ثم تزوج منها. فبلغ أمره الرشيد الذي كلف عامه أن يفرق بينهما وأن يعاقب رافعا ويحبسه الحسد ويقتله ويطوف به في مدينة صمرقند مقيدا على حمار حتى يكون عظة للغير. ففدأ عنه العامل الحسد وطاف به ثم همه فهرب من الحبس فطارده عمال الرشيد. وما زال أمره يشتد حتى اضطر الرشيد إلى الذهاب إليه بنفسه.

ويحدثنا التاريخ أن الأيمن لما بلغه اشتداد المرض على الرشيد، وتوقع وفاته، بعث بركن المعتز رسولا إلى مقر الخليفة، ليوافيه بالأخبار كل يوم . وكتب معه كتابا، وجعلها في قوائم صناديق منقورة، ألصقها بجلد البقر، ليخفى أمرها، وكلفه ألا يظهر أحدا على شيء من أمره، وما توجه فيه ولو قتل، حتى إذا نفذ أمر الله في الرشيد، دفع إلى كل من له كتاب كتابه . فلما وصل رسول الأيمن، راب الرشيد قدومه، فسأله عما جاء به؛ فلبس لم يجد في جوابه ما يُزيل ريبه، أمر بتفتيشه وحبس . ولذلك تصيب لباب الصواب، أولا تصدوه كثيرا، إذا افترضت أن هذا الريب الذي خاضه من رسول الأيمن، كان من العوامل التي حملته على تجديد البيعة للمأمون، وأن يوصى له بما معه من جنود وسلاح ومال .

لبث رسول الأيمن في الحبس أشهرًا، إذ تاريخ الكتب التي يحملها إلى من أرسلت إليهم شوال سنة ١٩٢ هـ . و وفاة الرشيد كانت في جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ . ثم بدا للرشيد أن يحمل بركا على الإقرار، فكلف الفضل بن الربيع ذلك، وأن يتقدمه بالموت إذا لم يقتر . وقد حالت وفاة الرشيد في ذلك اليوم، دون تمام هذا الإقرار . ثم لما وثق الرسول من وفاة الرشيد دفع إلى كل كتابه .

وقد أثبتنا لك من هذه الكتب كتابه إلى أخيه المأمون و كتابه إلى أخيه صالح في موضعهما من المجلد الثالث من هذا الكتاب، لما لها من خطر في موضوع التزاع، فأنهما يدلان على أن الأيمن لم يكن لينكت ما عقد من عهود ومواثيق، وإنما بطانة السوء هي التي زينت له أن يفعل ما فعل؛ فراجعهما ثمة . وتأمل طويلا فيما لبطانات السوء من وخيم العواقب بين الأشقاء، والزعماء، والأمراء، وما تجره على البلاد من انتثار العقد وتشيت الشمل، وتشتت الألفة، وفرقة الجماعة، وسريان الفتن وذويع الفوضى، وانتشار الاضطرابات، واندلاع تيران الثورات، ومن ترجيع كفة الأشرار على الأبرار، إلى غير ذلك من شتى النتائج السيئة، والعواقب المهلكة، التي سحدثت عنها، وسراها واضحة جلية في كلمتنا الآتية .



### (ج) مبدأ النزاع، وكيف تقلب، ونتيجته :

قد تطلب الى ، وفقك الله ، أن تقف على ما كان لتلك الكتب ، من أثر في نفوس . من أرسلت إليهم ، وإني شافيتُ غلتك ، مجيئك الى سُؤلك ، محيئك الى الطبرى في هذا الصدد إذ يقول :

”لما قرأ الذين وردت عليهم كتب محمد بطوس ، من القواد والجند وأولاد هارون ، تشاوروا في الخفاق بمحمد ، فقال الفضل بن الربيع : لا أدع ملكاً حاضراً لا تحزلاً يذرى ما يكون من أمره ، وأمر الناس بالرحيل ففعلوا ذلك ، حجة منهم للحقوق بأهلهم ومنازلهم ببغداد ، وتركوا اليهود التي كانت أخذت عليهم المأمون “ .

أما المأمون - بعد أن انتهى إليه خبر نكت القوم لليهود التي أخذت عليهم ، وفراهم الى بغداد بما كان الرشيد أوصى بأن يكون له ، من جنيد ومال وسلاح - فقد اجتمعت كلمة الرواة على حسن تيقظه وسرعة مبادرته لشيء أموره ، وأنه شد لها حيازيمه ، وحسرها عن ساقه . ويحدثنا التاريخ أنه قد جمع من معه من قواد أبيه ، وأخبرهم انظروا وشاورهم في الأمر ، فأشاروا عليه أن يلحق القوم في أفنى فارس ، ويحول بينهم وبين ما أرادوا .

ولكن المأمون عمل بمشورة الفضل بن سهل ، الذي كان يثق به وبكفايته ، ويؤمن بكاسته وحسن سياسته ، ويقنع بثقوب بصره وصدق نظره ؛ فقد قال له الفضل : إن فعلت ما أشاروا به عليك جعلت هؤلاء هدية الى محمد ، ولكن الراى أن تكتب إليهم كتاباً ، وتوجه إليهم فتذكرهم البيعة ، وتسألهم الوفاء ، وتحذرهم الخنث وما يلزمهم في ذلك في الدنيا والدين ، وإن كتابك ورسلك تقوم مقامك ، فتستبرئ ما عند القوم . وتوجه سهل ابن صاعد - وكان يهوى قهرمته - فانه يأملك ، ويرجو أن ينال أمه ، فان يأولك نصحا ، وتوجه معه نوفلا الخادم مولى موسى أمير المؤمنين ، وكان عاقلاً . فلم ير المأمون ، وهو

الحافظ الفطن ، ندحة دون صدورهِ عن رأى ابن سهل ، فكتب كتاباً ووجه من أشار بهما الفضل الى القوم فلحقاهم بنيسابور ؛ فقال الفضل بن الربيع لما وصله كتاب المأمون معذراً متملاً : ” إنما أنا واحد منهم “ ! وقد نال بعضهم من المأمون وأغلظ لرسوليهِ ، ثم رجع الرسولان بالنهر .

وكان ممكناً ، بعد أن طوى المأمونُ كُشْحاً على ما وقع من القوم من نكثٍ للعهود واغتصابٍ لما أوصى به الرشيد له : من جند ومالٍ وسلاحٍ ، وبعد أن أخذ يُسَيِّدُ الى أخيه خيراً ما وصلت اليه يمناء من تحيف نراسان ونفائسها ، أن تسيير الأمور في مجراها الطبيعي ، وأن يستقر الأمر بين الأخوين على ما أراد الرشيد ، لولا أن بطانة الأمين أَوْعِزَّتْ صدره على أخيه ، ولولا أن بطانة المأمون حَفِزَتْهُ الى مقابلة العدوان بمثله ، وأفعمت قلبه ثقة بالغلبة والظفر وإيمانا بالفوز والنجح .

وإن كلمة الفضل بن الربيع ” لا أدع ملكاً حاضراً لآخر لا يُدْرِي ما يكون من أمرهِ ! “ فيها الغنبة والكفاية في تفهيمنا الأساس الذي بُنِيَتْ عليه تصرفاتُهُ بين الأخوين ، فهو ينظر لمصلحة من بيده الملك اليوم ، لا يحفلُ ببيعة ولا عهدٍ ، ولا يكثرُ لوحدة قومية ولا يحقتلُ بأجلال الوفاق بين العباد ، ولا يعمل على مضافة ولا وِثاقٍ ، وإنما همه الملك الحاضر ، والإمعانُ في إرضاء الملك الحاضر .

كذلك كانت حال الفضل بن سهل في موقفهِ مع عبد الله المأمون ! ومهما كانت صورة المأمون التي صوّرها لنا التاريخ بأنه المغلوب على أمرهِ ، في النزاع الذي نشب بين الأخوين ، وأن الأمين هو الناكث الغادر . ومهما كانت القلوب الإنسانية تنحو على المظلوم وتعطف على المغلوب — مهما كان كل ذلك ، مما يجعلنا نستسيغ تصرفات الفضل بن سهل مع المأمون ، بل مما يدفعنا الى الاقتناع بها وعزو الخصاصة ، والأصالة ، والكياسة ، الى صاحبها ، وأن ليس هناك من هو أنهى منه في مثل موقفهِ ولا أجزى ، ولا أحكم من تديراتهِ ولا أوفى ، ولا أدهف غراراً من عزمانهِ ولا أمضى ، ولا أقدر منه

في حُطْطِهِ وَلَا أُخِيَّ، بَيِّنَا أَنَا مَعَ ذَلِكَ، إِذَا جَرَدْنَا النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ مِنْ بَعْضِ صِفَاتِهَا، وَنَظَرْنَا "بِرُودٍ" — عَلَى حِدَةِ التَّعْبِيرِ الْإِنْجَلِيزِيِّ — وَبِحَيِّدِيَّةٍ وَنَصَفِيَّةٍ مِنْهُ وَلَهُ، فَأَنَا نَقُورُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ نَعْدُوَ الْحَقَّ وَالْوَاقِعَ، أَنَّ الْفَضْلَ بْنَ سَهْلٍ لَمَبٍ مَعَ الْمَأْمُونِ، ذَلِكَ الدَّورَ الْخَطِيرَ لِنَاثِهِ الَّذِي لَعِبَهُ الْفَضْلُ بْنُ الرَّيِّعِ مَعَ الْأَمِينِ، وَأَنَّ كَلَامًا قَدْ تَوَكَّلَ عَلَى أَمِيرِهِ لِنَاثِيَتِهِ، وَاسْتَعْمَلَهُ فِي سَبِيلِ نَجِّحِ سِيَاسَتِهِ، وَدَفَعَ بِهِ إِلَى حَيْثُ يَرِيدُ ! .

أَنْظُرْ إِلَيْهِ، وَقَدْ عَادَتْ وَفُودُ الْمَأْمُونِ مِنْ مُقَابَلَةِ الْفَضْلِ بْنِ الرَّيِّعِ وَمِنْ لَحْقِ بِهِ مِنْ جُنْدٍ وَسِلَاحٍ، تَرَى بِصَارِحِ الْمَأْمُونِ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ : أَعْدَاءُ قَدْ اسْتَرَحَتْ مِنْهُمْ ، وَلَكِنْ أَفْهَمَ عَنِّي مَا أَقُولُ لَكَ : إِنَّ هَذِهِ الدَّوْلَةَ لَمْ تَكُنْ قَطُّ أَعَزَّ مِنْهَا أَيَّامَ أَبِي جَعْفَرٍ، فَخَرَجَ عَلَيْهِ "الْمُقْتَع" وَهُوَ يَدْعِي الرُّبُوبِيَّةَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : طَلَبَ بِدَمِ أَبِي مُسْلِمٍ، فَتَضَمَّضَ الْمُسْكِرُ، فَخَرَجَ بِخُرُوجِهِ بِخُرَاسَانَ، فَكَفَى اللَّهَ الْمُؤْنَةَ ؟ ثُمَّ نَرَجَّعُ بَعْدَهُ يَوْسُفُ الْبُرْمِ، وَهُوَ عِنْدَ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ كَافِرٌ، فَكَفَى اللَّهَ الْمُؤْنَةَ ؟ ثُمَّ نَرَجَّعُ أَسْتَاذَ سَيْسٍ، يَدْعُو إِلَى الْكُفْرِ، فَسَارَ الْمُهْدِيُّ مِنَ الرِّيِّ إِلَى نَيْسَابُورَ فَكَفَى اللَّهَ الْمُؤْنَةَ . وَلَكِنْ مَا أَصْنَعُ أَكْبَرُ طَلَبِكَ، أَخْبَرَنِي كَيْفَ رَأَيْتَ النَّاسَ حِينَ وَرَدَ عَلَيْهِمْ خَبَرُ رَافِعٍ ؟ قَالَ الْمَأْمُونُ : "رَأَيْتُهُمْ اضْطَرَبُوا اضْطِرَابًا شَدِيدًا" فَقَالَ لَهُ الْفَضْلُ : وَكَيْفَ وَأَنْتَ نَازِلٌ فِي أَسْوَائِ الْخَوَالِكِ وَيَعْنُكَ فِي أَهْوَائِهِمْ، كَيْفَ يَكُونُ اضْطِرَابُ أَهْلِ بَغْدَادٍ ؟ أَصْبِرْ وَأَنَا أَصْبِرُ الْخِلَافَةَ ! قَالَ الْمَأْمُونُ : "قَدْ قُلْتُ وَجَعَلْتُ الْأَمْرَ إِلَيْكَ فَقُمْ بِهِ" .

عَلَى أَنَّهُ إِذَا صَدَّقَ الرِّوَاةُ فِيمَا يَرْوُونَهُ لَنَا : مِنْ أَنَّ الْفَضْلَ بْنَ سَهْلٍ قَالَ لِلْمَأْمُونِ فِي حَدِيثِهِ مَعَهُ : "لَأَصْدُقَنَّكَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَالِكٍ، وَيَحْيَى بْنَ مَعَاذٍ، وَمَنْ سَمِعْنَا مِنْ أَمْرَاءِ الرُّؤَسَاءِ، إِنْ قَامُوا لَكَ بِالْأَمْرِ كَانَ أَنْفَعَ مِنِّي لَكَ، بِرِيَاسَتِهِمْ الْمَشْهُورَةِ، وَلِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى الْحَرْبِ، فَمِنْ قَامَ بِالْأَمْرِ كُنْتُ خَادِمًا لَهُ، حَتَّى تُصِيرَ إِلَيَّ مَحْبُوكٌ، وَتَرَى رَأْيَكَ فِي" . وَصَدَّقُوا فِي أَنَّ الْفَضْلَ بْنَ سَهْلٍ لَقِيَ هَؤُلَاءِ الزُّعَمَاءَ فِي مَنَازِلِهِمْ، وَذَكَرَهُمُ الْبَيْعَةَ الَّتِي فِي أَهْوَائِهِمْ، وَمَا يُحِبُّ عَلَيْهِمْ مِنَ الْوَفَاءِ، وَأَنَّ الْخَلِيفَةَ كَانَتْ نَصِيبَ دَعْوَتِهِمْ لَمْ يَذْكُرْهُمْ إِلَّا بِهَامٍ، وَأَنَّهَا مَعَ ذَلِكَ لَمْ تَصْدُقْهُ عَنْ قَصْبِهِ الَّذِي نَهَدَ إِلَيْهِ، وَلَمْ تَحْمَلْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَضِيهِ قُدَمًا فِي سَبِيلِ نَاثِيَتِهِ، الَّتِي



تأدى لها إبادته، وتذرع لها بذرائعه، وأخذ لها عُدته، وأرهب لها عزيمته. وأنه قال لأماون: «لقد قرأت القرآن، وسمعت الأحاديث، وتفقهت في الدين، فالأرى أن تبعث إلى من بالحضرة من الفقهاء، فتدعوهم إلى الحق والعمل به، وإحياء السنة، وتقدم على اللبوء، وترد المظالم». وصدقوا حقاً في أن المأمون والفضل فعلاً ذلك، وأنهما بعثا إلى الفقهاء، وأكرموا القواد والمملوك وأبناء المملوك. وصدقوا في أن الفضل كان يقول للتميمي: «تُقيم مقام موسى بن كعب، ولربى مقام أبي داود خالد بن إبراهيم، وللمجاني مقام قطيبة ومالك ابن الهيثم». وصدقوا في أنهما كانا يدعوان كل قبيلة، إلى تقياء ورؤساء الدولة، كاستألتهم الرؤوس. وصدقوا في أن المأمون والفضل قد خطا عن نراسان ربع الخراج حتى حسن موقع ذلك من الخراسانيين وسروا به وقالوا: «ابن أختنا وابن عم نينا صلى الله عليه وسلم» وصدقوا في أن المأمون توارثت كنيته إلى أخيه محمد الأمين، بالتعظيم والهدايا إليه من طرف نراسان، من المتاع والآنية والمسك والدواب والسلاح، حتى أوائل سنة أربع وتسعين ومائة التي عزل فيها الأمين أخاه القاسم عما كان أبوه ولاءه من عمل قنشرين والشام والواصم والثغور، وولى مكانه خزعة بن خازم، والتي أمر فيها بالدعاء لابنه موسى على المنابر بالإمرة، وحتى مكر كل واحد منهما بصاحبه وظهر بينهما الفساد - إذا صدق الرواة في كل ذلك، فانا نرى من النصفة العلمية والتاريخية، أن نقرر حينئذ أن الفضل بن سهل كان ذمياً حقاً، ومعنا في الديبلوماسية، وكان موقفه لا يقل عن موقف «وارن هاستنج» و«كليف» في الهند، وغيرهما من جهائذة السياسة، وأقطاب الدهاء. وربما كانت مكانته أسمى منهما وأرفع وأخلق بمقارنتها بمن يشار إليه بالبنان من ساسة هذا الزمان!

ولننظر معاً، وهبنا الله وإياك الجسد والأناة، ووفقنا إلى ما نرومه من تمحيص وتحقيق، ونضمه وتدقيق، في حوادث سنة أربع وتسعين ومائة لتكون ملهمين بقول التزاع الذي شهر بين الأخوين، ولتؤمن الإيمان كله أن البطانة قد لعبت دوراً شديداً، في إشغال جذوة الحقد والسخيمة بينهما، وعملت على إضرام أوارها، وسعت جهدها في توسيع مسافة

التحلف بين الأخوين حتى كان ما كان، نجد أن الفضل بن الربيع، فيما يرويهِ لنا المؤرخون، سعى بعد مقدّمه العراق على محمد، متصرفاً عن طُوس، وناكثاً للعهد التي كان الرشيد أخذها عليه لأبنته عبد الله، وعلم أن الخلافة إن أفضت إلى المأمون يوماً وهو حيّ لم يُبق عليه، وكان يترقب في ظفريه به عطية - سعى جُهد في إغراء محمد به، وأعمل قريحته في حثه على خلعهِ، وزيّن له، بما في مقدوره، أن يصرف ولاية العهد من بعده إلى أبنته موسى. ولم يكن ذلك من رأى محمد ولا عزيمته، بل كان عزيمته، فيما ذكر الرواة عنه، الوفاء لأخويه عبد الله والقاسم بما كان أخذ عليه لها والده من العهد والشروط. فلم يزل به الفضل ابن الربيع يُصغّر في عينيه شارب المأمون، وزيّن له خلعهُ، حتى قال له: "ما تنتظر يا أمير المؤمنين بعبد الله والقاسم أخويك، فإن البيعة لك كانت متقدمة قبلهما، وإنما أدخلنا فيها بعدك، واحداً بعد واحد!" . قال ذلك ابن الربيع، وضم إلى رأيه معه على بن عيسى ابن ماهان والسندی وضيهرهما ممن بمحضرتة.

ومن المعقول أن تفترض أن الفضل مضى في الإيقاع على هذه النعمة، ثلثاً بعد شئ ومرة إثر أخرى، وقدح في ذلك قريحته، وأستخدم شئ وسائل أمثاله ونظرائه، حتى أزال محمداً عن رأيه. وقد ذكر المؤرخون: أن أول ما بدأ به محمد عن رأى الفضل بن الربيع فيما دبر من ذلك، أن كتب إلى جميع العيال في الأمصار كلها، بالدعاء لأبنته موسى بالإمرة بعد الدعاة له وللمأمون والقاسم بن الرشيد.

والآن، بعد أن وقفت على تصرف محمد وجماعة محمد مع المأمون وجماعة المأمون، لك أن تستببط ما يفعله الفريق الآخر، إجابةً على تصرف الفريق الأول. ولك أن تنتظر من المأمون أن يدبر أمره تدبير من يرى أن أخاه يدبر عليه خلعهُ. ولك أن تنتظر مثل ذلك من جماعة المأمون وأنصاره.

وهكذا نبشنا حوادث السنة نفسها، إذ نبشنا الطبري أن فيها قطع المأمون البريد عن محمد، وفيها أسقط أحسنه من الطرزي، وفيها لحق رافع بن الليث بالمأمون، وهو من سلالة

نصر بن سيار ، لما انتهى إليه من الخبر عن المأمون ، وحسن سيرته في أهل عمله ، وإحسانه إليهم ، فيما يرويه المؤرخون ، أوسى المأمون ورجالات المأمون ، كهرثمة وطاهر ، في إصلاح ما بينه وبين المأمون ، وطلب الأمان له ليكون عُدَّةً وظهرًا للحزب المأموني ، كما نستضيفه نحن ونستخلصه ؛ وفيها ولي المأمون هرثمة زباسة الحرس ، وهرثمة مكائنه وشهرته ، وله سيرته ونجدته ، وإرفع بيته وأنصاره ، وكلائه وفرسانه ، كما أن لظاهر ابن الحسين حمزه وشجاعته وفروسته وصرانه ، ولابن سهل بلا ريب حذقه في تصريفاته التي يمثها ثرد الأهواء الشاردة ، وتُستصرف الألبار الطامعة . وعلى رأسهم ، أو إلى جانبهم إن شئت المأمون ، وقد تسربل بالتوب الذي نصيح إليه بلبسه ، فاضى محمود الشيم مرضى الخلال ، وهو باستعداده وتزعه ذلك الرجل السيامي ، المعتدل المزاج ، الهادئ الأعصاب ، السديد التصرف ، السمع الأخلاق ، اللين العريكة ، الكريم المهزة ، مع أناة وجلية وعزم وحزم ، ونفاذ ومضاه .

ومن المعقول أيضا أن ينكر الأمين ذلك من ناحيته أيضا . والمعقول أن يبدأ بالثديير على المأمون ليصدف عنه قلوب رجاله ، وأن تتسلسل الحفقات ، وتستطرد الإجراءت ، المحتومة الوقوع ، في مثل هذه الحالات ! .

وربما كلا على حق ، إذا قلنا : إن التزاع أضى بين الفضيلين ابن سهل وابن الربيع . وأنقلب عنيفا أعظم العنف فقد كان بين كفتائين لا يعرفان الونية والتضجيع ، وطما من الحصافة وثقوب البصيرة ، ومن سعة الحيلة وفدح النحل ، ومن وفرة الحنكة وغناء الاختبار ، ومن مضاه العزيمة وثروة الذهن . لهما من ذلك كله ، وما إلى ذلك من شتى الصفات السياسية ، ما لا قبل لأحدهما به من صاحبه ، فلكل من صاحبه بواء ونديد ، ومنازل عتيد ، وكفى صنييد !

أنظر إلى الأمين ، قد كتب إلى العباس بن عبد الله بن مالك ، وهو عامل المأمون على الرى ، وأمره بأن يبعث إليه بفرايب غروس الرى ؛ فبعث إليه المسكين بما أمره ، به فخر

عالم أن لأمون ورجاله عيوناً وأرصادا، ولهم، قبل ذلك، يَظَنُّهُمْ التي لا تخطى ولا تنفل .  
فإذا كان من للأمون ؟

بلغ المأمون ما كان من عامله الساذج المسكين، فضله . ووجهه مكانه الحسن بن علي المأموني، وأردفه بالرُسْنِي، على البريد . وهكذا حاولت الديبلوماسية اتبقيّة "الربيعية" أن تصرف قلب عامل كبير عن أمر المأمون، والقضية المأمونية، نكايّة بالديبلوماسية اتبقيّة "السليّة" التي أكسبت رافعا وضمت الى حزبها بيت ابن سيار . وناهيك ببيت ابن سيار ! ولتطوّل الآن الى التكلّم عن الحرب الكلاميّة التي نشبت بين الأخوين . والتي كانت، بلا ريب، مقدّمة لوقوع الحرب العامّة . وبعبارة أدق لتتكلّم عن الوفود السياسيّة محاولين، حل قدر استطاعتنا، وأسنادا الى ما بين أيدينا من مصادر وثائق، وصف الكفّايّات السياسيّة في ذلك العصر الغنيّ حقا برجاله ودهاته .



#### (د) الوفود السياسيّة :

لنشأمل أوّلًا ماذا حدث في السنة التي نحن في صددّها وهي سنة أربع وتسعين ومائة، فإنّها مليئة، والحق يقال، بمنتجات هاتين العقليّتين، العائيتين حقًا، الجبارتين بلا مبالغة ولا إغراق، ونعني بهما عقليّتي الفضل بن الربيع، والفضل بن سهل .

حدث أن وجه الأمين وفدًا سياسيًا الى المأمون، قوامه العباس بن موسى، وصاحب المصل، ومحمد بن عيسى بن نهبك، وطلبوا اليه تقديم موسى بن الأمين الذي سماه "الناطق بالحق" على نفسه . وقد يكون من الطريف المتبع حقا، أن نوضح ما كان من أحر هذا الوفد، وهل وفق الحزب المأموني فيما حاول من الأخذ بقلوب رجاله . أو بعضهم على الأقل، فإن في توضيحنا لذلك ما يمتدّنا بصورة لا بأس في جملة ما، من صور الديبلوماسية اتبقيّة في ذلك العصر، وإن في تفهمنا هذه الصورة ووقوفنا عليها، نفعًا عظيمًا يبيّننا، بلا ريب، على تفهم العصر وروح سياسته .

يحدثنا التاريخ أن العباس بن موسى أحد رجال الوفد الأميني قال للمأمون : «وما عليك أيها الأمير من ذلك — أى من تقديم موسى عليه — فهذا جدى عيسى بن موسى قد خلع ، فلا ضررَه ذلك ! » ويحدثنا أيضا بأن الفضل بن سهل كان موجوداً ، كما هو المنتظر ، في ذلك المؤتمر السياسى ، وأنه لما سمع كلمة العباس هذه صاح به : «أسكت بحدك كان في أيديهم أميراً وهذا بين أخواله وشيعته ! » .

أمرُف ما ذا كان من أمرِ الوفد ؟ .

إنه قد أنصرف ، ولكن لا الى الأمين ، بل الى منازل خصصهم لهم المأمون ، حيث أفرد لكل واحد من أعضاء الوفد منزلاً ، وأكرمهم مثل ذلك النوع من الإكرام السياسى الذى تلتقى به الحكومات الحاضرة الوفود السياسية . فتأمل ! .

ثم لننظر ممّا — معتمدين بالأناة والصبر قليلا — فى تصرف الفريق الآخر فى السنة عينها . فزى أن الوفد قد عاد الى الأمين ، وأخبره باستنـاج المأمون ، فألح عليه الفضل بن الربيع وعلى بن ماهان ، فى البيعة لأبنه موسى «الناطق بالحق» وخلع المأمون ، فأجاب الأمين الى ذلك ، وأحضر ابنه على بن موسى الذى ولّاه العراق ، وتسارع بعض ولّاه الأمين فى انتهاز الفرصة ، للتقرب منه والتحبب اليه ، بالمبادرة بأخذ البيعة له قبلهم . وقد كان أول من فعل ذلك بشر بن السعيد الأزدي ، وصاحب مكة وصاحب المدينة .

لم يكن الفضل بهذا ، ولا بالكثير من أمثاله ، مما ينتظر من مثله فى مثل تلك الظروف ، من نبيه عن ذكر عبد الله المأمون والقاسم بن الرشيد ، وحظر الدماء لما على شئء من المنابر ، بل دس من ذكر المأمون بسوء ، وحط من قدره ، ولصق به أقيع القائلين والمثالب ، ووصمه بأشنع الوصمات والمعايب .

ولم يكن الفضل بهذا ، بل وجه الى مكة كتاباً مع محمد بن عبد الله ، أحد سدة البيت الحرام ، فأتاه بالكثابين اللذين كان الرشيد كتبهما لعبد الله المأمون على محمد الأمين ،

وكان حُظُّهما من الأُمِين ، لما صارا إليه ، حَقْدٌ غيرهما من اليهود في ذلك العصر، ”والمعاديات“  
و ”قصاصات الورق“ في عصرنا الحاضر فزَقَّهما وأبْطَلهما ، وأجاز سارقَهما !

ثم تسال معي لننظر معاً ، نظرةً إنَّام وتروى في مشاورة المأمون لشيعته ، حينما حزبه  
الأمر ، وضاق به السبيل ، فهى ، أَمْرُكَ ، آية في الحكمة والمهارة السياسية .

يقول الطبرى : ”كان محمد ، فيما ذكر ، كتب الى المأمون . قبل مكاشفة المأمون إياه  
بالخلاف عليه ، يسأله أن يتجاني له عن كور من كور نراسان سماها ، وأن يوجه العمل اليها  
من قبل محمد ، وأن يحتمل توجيه رجل من قبيله ، يولى البريد عليه ليكتب اليه بضمه .  
فلما ورد الى المأمون الكتابُ بذلك ، كبر ذلك عليه وأشدته ، فبعث الى الفضل بن سهل  
والى أخيه الحسن ، فشااورهما في ذلك ؛ فقال الفضل : ”الأمر خطير ، ولك من شيعتك  
وأهل بيتك بطانة ولهم تأنييس بالمشاورة ، وفي قطع الأمل دونهم وحشة وظهورُ قلة نقة ،  
فراى الأمير في ذلك“ ، وقال الحسن : كان يقال ”شاور في طلب الرأى من تثق بنصيحتك ،  
وتألف العدو فيما لا آكتنام له بمشاورته“ . فاحضر المأمون النخاسة من الرؤساء والأعلام ،  
وقرأ عليهم الكتاب ؛ فقالوا جميعاً له : ”أيها الأمير ! تشاور في خطر ، فاجعل لبدنيتنا حفظاً  
من الروية“ ، فقال المأمون : ذلك هو الحزم ، وأجلهم ثلاثاً . فلما اجتمعوا بعد ذلك قال  
أحدهم : ”أيها الأمير قد حملت على كرهين ، ولست أرى خطأ مدافعة بمكروه أولها مخافة  
مكروه آخرهما“ . وقال آخر : ”كان يقال ، أيها الأمير أسعدك الله ، انا كان الأمر مخطراً  
فأعطاك من نازعتك طرفاً من بغيته أمثل من أن تصير بالمنع الى مكاشفته“ . وقال آخر :  
”لأنه كان يقال : اذا كان علم الأمور مُتَبَيِّناً عنك ، نفذ ما أمرك ، من هدية يومك فانك  
لا تأمن أن يكون فسأد يومك راجعاً بفساد غديك“ . وقال آخر : ”لئن خفت للبدل عاقبة ،  
إن أشد منها لما بيعت ألا تأمن الفرقة“ . وقال آخر : ”لا أرى مفارقة منزلة سلامة ، فعلى  
أعطى معها العاقبة“ . فقال الحسن : فقد وجب حقكم باجتهادكم ، وإن كنت من الرأى  
على مخالفتكم . قال المأمون : فنناظرهم ؛ قال : لذلك ما كان الاجتماع . وأقبل الحسن

عليهم فقال : هل تعلمون أن محمداً تجاوز إلى طلب شيء ليس له بحق ؟ قالوا : نعم ، ويحتمل ذلك لنا تخاف من ضرر منعه . قال : تتقون بكفه بعد إعطائه إياها فلا يتجاوز الطلب إلى غيرها ؟ قالوا : لا ، ولعل سلامة تقع من دون ما نخاف ونتوقع . قال : فان تجاوز بعدها بالمسألة أفما ترونه قد توهن بما بذل منها في نفسه ؟ قالوا : ندفع ما يمرض له في عاقبته بمداخلة ما نتجزون في عاجله . قال : فهذا خلاف ما سمعنا من قول الحكماء قبلنا ، قالوا : استصالح عاقبة أمرك باحتيال ، اعرض من كره يومك ، ولا تنتمس هدية يومك بإخطار أدخلته على نفسك في ذلك . قال المأمون للفضل : ما تقول فيما اختلفوا فيه ؟ قال : ” أيها الأمير ! أسمعك الله : هل يؤمن محمد أن يكون طالبك بفضل قوتك ، ليستظهر بها عليك غداً على مخالفتك ! وهل يصير الحازم إلى فضيلة من عاجل الدعة ، بخطر يتعرض له في عاقبته ! بل إنما أشار الحكماء بحمل ثقل فيما يرجون به صلاح عواقب أمورهم “ . فقال المأمون : ” بل يائس العاجلة صار من صار إلى فساد العاقبة ، في أمر دنيا وآخرة “ . قال القوم : قد قلنا بمبلغ الرأي ، والله يؤيد الأمير بالتوفيق . فقال : اكتب يا فضل إليه فكتب “ .

ويستطرد الطبري بعد ذلك في القول بأن المأمون أمل على الفضل هذا الكتاب ليعث به إلى أخيه وهو : ” قد بلغني كتاب أمير المؤمنين ، يسأل النجاشي عن مواضع سماها ، مما أثبتته الرشيد في العقد ، وجعل أمره إلى “ ، وما أمر رآه أمير المؤمنين أحد يجاوز أكثره ، غير أن الذي جعل إلى الطرف الذي أنا به لاطنين في النظر لعامة ، ولا جاهل بما أسند إلى من أمره ، ولو لم يكن ذلك مثبته باليهود والمواثيق المأخوذة ، ثم كنت على الحال التي أنا عليها : من إشراف عنق بخوف الشوكية ، وعامة لا تتألف عن هضمها ، وأجناد لا يستتبع طاعتها إلا بالأموال ، وطرف من الإفضال ، لكان في نظر أمير المؤمنين لعامة ، وما يجب من لم أطرافه ، ما يوجب عليه أن يقسم له كثيراً من عنايته ، وأن يستصلحه ببذل كثير من ماله ، فكيف بمسألة ما أوجب الحق ، وكذته مأخوذة العهد . وإلى لأعلم أن أمير المؤمنين

لو علم من الحال ما علمتُ لم يطلع ما كتب بسأفه إلى . ثم أنا على ثقة من القبول بعد البيان إن شاء الله .

ألا يحدربنا — وقد أطلعنا على تلك المشاورة السياسية، التي يجوز لك أن تقول عنها، بالنسبة لوقتها وجيلها، وموضوعات وقتها وجيلها، إنها لا تنقل في دقتها، وحدقتها، وقوة نتائجها، عما يجري حول المسألة الخضراء، بين ساسة اليوم — أن تقول : إن المأمون قد حُصِّنَ بِسَاسَةِ عُنَاةٍ وَمَشِيرِينَ دَهَاءٍ !

ثم أنظر الى مباغلة المأمون في حدره، أو مباغلة حزبه في الحبيطة والحذر، فقد أثبت المؤرخون أنهم قد وجهوا حُرَّاسًا من قِيَلِهِمْ على الحدود، حتى لا يتركوا للأمن أولرجاله فرصة الاتصال برعية المأمون . وبالغوا أيا مباغلة في تدبيرهم، حتى جاء، كما يقول الرواة، « تدبيراً مؤبداً، وعقيداً مستحصداً متأكداً، فضمنوا بذلك ألا تحمل رصيتهم على منوال خلاف أو مفارقة » .

وهنا لا نرى مندوحة، من إثبات ذلك المجهود العظيم، الذي بذله الفضل بن الربيع أو الأمين، كيفما شئت التعبير، في استمالة القلوب النافرة من الجماعة المامونية؛ فقد كان، والحق يقال، طالقَ البدن، ندى الكفين، كثيرة جدواه، وأثرة حُذْيَاه، عظيمة عطائاه، ولم يأل جهداً في إرسال دعائه وأنصاره، لبث الدعوة الأمينية في العامة وإظهارهم على ربحانها وحققها وعدلها، وإظهار المحبة المفارقة، والدعاء لأهل القوة الى المخالفة . وكان هؤلاء الدعاء يبدلون المسأل، ويضمنون لأنصار معظم الولايات والقطائع . وصنفوة القول أن تصرف الأمين وجماعته، من هذه الناحية، كان قريب الشبه بتصرف المأمون وجماعته .

ولكن هؤلاء الدعاء وجدوا جميع ذلك ممنوعاً محسوماً، حتى صاروا الى باب المأمون . وهنا يجب أن نقول : إن الحرب الكلامية قد بدأت تَشْتَدُّ بين الأخوين، والحرب الكلامية، أيده الله، هي بئرة هامة من ميزات العصر العباسي . وقد صدق « كشاجم » في قوله مشيراً الى عداوة أصحاب الأعلام في تلك الدولة ومهادنة أصحاب السيوف :



هنيئاً لأصحاب السيوف بطلاناً » تنصّح بها أوقاتهم في التزم  
فكم فيهم من وادع العيش لم يهيج » لحرب ولم يتهد لقرن مصمم  
يروح ويفسدو عاقداً في نجاده » حُصاما سليم الحسد لم يتسلم  
ولكن ذنوب الأقدام في كل ساعة » سيوفهم ليست تجفّ من الدم

وانت المطلع على تاريخ العصر، المستقصى لدقائقه وجلالته، الواقف على أسرارهِ  
وخبائته وآدابه ومشاوراته، ليوافق أولئك الذين يذهبون في القول بأن قولاً السياسة في هذه  
الدولة كان على التحيل والمخادمة، أكثر مما كان على القوة والشدة .

لنتنقل الآن الى ذكر الكتاب الذي بعث به الأمين الى أخيه، مع رسله الذين بشم  
للدعوة، وإثارة رجال المأمون، قبل كل اعتبار، فهناك : « أما بعد، فإن  
أمير المؤمنين الرشيد، وإن كان أفرذك بالطرف، وضم ما ضم اليك من كور الجبل، تأييداً  
لأمرك، وتخصيصاً لطرفك، فإن ذلك لا يوجب لك فضلاً المال عن كفائتك، وقد كان  
هذا الطرف ونحاجه، كافياً لحديثه ثم يتجاوز بعد الكفاية الى ما يفضل من رده . وقد  
ضمم لك الى الطرف كوراً من أمهات كور الأموال، لاجابة لك فيها، فالحق فيها أن تكون  
مردودة في أهلها ومواضع حقها . فكتب اليك أسألك ردّ تلك الكور، الى ما كانت عليه  
من حالها، لتكون فضول ردها مصروفة الى مواضعها، وأن تأذن لقائم الخبر، يكون بمحضرتك  
يؤدى اليها علم ما نفي به، من خبر طرفك، فكتبك تلط دون ذلك، بما إن تم أمرك  
عليه، صبرنا الحق الى مطالبك، فائن عن همك أثن عن مطالبك، إن شاء الله . »

ورَدَ الكتابُ على المأمون، وقرأه المأمون وجماعته، فسرّعَ أن ما ردّ المأمون وحزبه عليه  
بهذا الكتاب : « أما بعد، فقد بلغني كتاب أمير المؤمنين، ولم يكتب فيما جهل فاكشف له  
عن وجهه، ولم يسأل ما لا يوجبهِ حق فيلزمني المجبة بترك إجابته، وإنما يتجاوز المناظران  
منزلة النصفية ما ضاقت النصفية عن أهلها، فتي تجاوزها متجاوز، وهي موجودة الوسع،  
لم يكن تجاوزها إلا عن نقضها، واحتال ما في تركها، فلا تبغني يابن أبي على مخالفتك،

وأنا مُدْعِن بطاعتك ، ولا على قطيعتك وأنا على إشاره انحب من صلتك ، وأرض بما حكم به الحق في أمرك ، أكن بالمكان الذي أترلى به الحق فيما بيني وبينك . والسلام .

ثم انظر الى نعومة المأمون السياسية - وتنق أنها ستروقت كثيرا ، وأنتك ستشهد بعلمو كعب صاحبها في الفنون السياسية - فان التاريخ يحسنا أنه أحضر رسلا أخيه ، وقال لهم : « إن أمير المؤمنين ، كتب اليه ، في أمر كتب الى جوابه ، فأبلغوه الكلب ، وأعلموه أني لا أزال على طاعته ، حتى يضطرني بترك الحق الواجب الى مخالفته » . فأراد أعضاء الوفد الأميني أن يذهبوا في أفانين القول ، وأرادوا المحاجة والمدافعة ، وأرادوا المفاوضة والمناقشة ، ولكن المأمون ، السياسي المتيقظ جبار العقل ، قطع عليهم سبيل القول وسبيل التفكير إذ جابههم بقوله : « ففأ أنفسكم حيث وقفنا بالقول بكم ! وأحسنوا تأدية ما سمعتم ، فقد أبلغتمونا من كتابنا ما لا صي أن نقولوه لنا » .

انصرف أعضاء الوفد ، ولم يستطيعوا أن يثبتوا لأنفسهم حجة قبل المأمون ، ولم يوفقوا الى حمل خبر يؤدونه الى صاحبهم ، ورأوا من المأمون وجماعة المأمون ، كما يقول الطبري ، « جددا غير مشوب بهزل ، في منع ما لم من حقهم الواقع برصهم » .

وصل الخبر الى الأمين فارغى وأزبد . واستمرت الحرب الكلامية على حدتها بين الأخوين ، بشأن المسال الذي تركه الرشيد ، وبشأن غير المسال ، مما يصح الاطلاع عليه ، وعلى مارواه سهل بن هارون وأضرابه وصفا لذلك في مظانته .

على أنه يحدربنا هنا أن نشير الى ما كان من نصيحة قدمها للأمين ، أحد رجالات عصره ، المشهود لهم بالخزم ونضوج الرأي ، وهو يحيى بن سليم ، حينما عزم على خلع أخيه ، لعلاقتها بما نحن في سبيل القول فيه من ناحية ، ولأنها تساعدنا فوق ذلك على فهم "الدبلوماسية العباسية" في ذلك العصر من ناحية أخرى ، وأخيرا لأنها تبين لنا فرق ما بين الأمين والمأمون في تقدير المشورة والأخذ بالنصيحة .

قال يحيى بن سليم للأئمين حين مشاورته له في خلع المأمون : « يا أمير المؤمنين ، كيف بذلك لك ! مع ما قد وكد الرشيد من بيعته ، وتوثق بها من عهده ، والأخذ للأئمين والشرائط في الكتاب الذي كتبه » فقال له محمد : « إن رأى الرشيد كان فلتة ، شبهها عليه جعفر بن يحيى بسحره ، وأسماله برفاه وعقده ، ففرس لنا غرسا مكروها ، لا ينبغي ما نحن فيه معه إلا بقطعه ، ولا تستقيم لنا الأمور إلا باجتنائه والراحة منه » ، فقال : « أما إذا كان رأى أمير المؤمنين خله ، فلا تجاهره بمجاهرة ، فيستنكرها الناس ، ويستشعنها العامة ، ولكن تستدعى الجند بعد الجند ، والقائد بعد القائد ، وتؤمسه بالأنطاف والهدايا ، وتفرق في قناته ومن معه ، وترغبهم بالأموال ، وتستميلهم بالأطعام ، فإذا وهنت قوته واستفرغت رجاله ، أمرته بالقدوم عليك ، فإن قدم صار الى الذي تريد منه ، وإن أبى كنت قد تنازلته ، وقد كَلَّ حُدَّه ، وهبط جناحُه ، وضعف ركنته ، وأقطع عَرَّه » . فقال محمد : « ما أقطع أمرا كعمره ! أنت مهذار خطيب ، ولست بذى رأي ، فزل عن هذا الزأى الى الشيخ الموفق والوزير الناصح ، قم فالحق بمدادك وأقلامك ! »

وترى من المستصوب ، بسد هذا الاستطراد ، أن نسير هنا الى ما رواه الطبري من أن الفضل بن سهل ، كان قد دس قوما اختارهم ممن يشق بهم من القواد والوجه ببغداد ، ليكتبوه بأخبار الأئمين وجماعته ، يوما فيوما . وكانت التجسس لذلك المهد ففا منظما متقدما ، فكان للأئمين ، وهو ولي عهد ، على والده الرشيد عيون ، وكان لأخيه حين ذاك عيون ، وكان للخليفة على ولاته وعماله وأولاده عيون ، ولولاته وعاله عليه عيون ، وكان للوزراء والكبراء والعلماء وغيرهم مثل ذلك من العيون والأرصاد بعضهم على بعض ، وكانت روح العصر تساعد على ذبوع الجاسوسية واستفحال أمرها . فمن المعقول إذا شاور الأئمين أو الفضل بن الربيع أحدا ، وقال بما فيه مصلحة القضية المأمونية ، أن يصل خبر ذلك من فوره الى المأمون ، فيقف بذلك المأمون وجماعته ،

على جليلة الخبر وحقيقة الحال عند خصومهم السياسيين . ونكاد نرجح من ناحيتنا أن لتقدم فنّ الجاسوسية عند المأمون أثره العظيم في غلبته وظهوره على أخيه .

ولنتقل الآن الى أخبار سنة خمس وتسعين ومائة ، ولننظر في حوادثها الحسام نظرة نحلى فيها جمعا مما نحن في صدد من بحثنا هذه ، فنجد أن الخصومة السياسية بين الأخوين حملت الأمين على أن يأمر بإسقاط ما كان ضُرب لأخيه عبد الله المأمون من الدنانير والدرهم بخراسان في السنة التي قبلها ؛ وذلك لأن المأمون كان أمر ألا يُثبت فيها اسم محمد . وقال بعض المؤرخين : إن تلك الدنانير والدرهم كانت لا تجوز في بعض الأحيان وكانت تدعى بالرابعية .

وقد سبق لنا القول إن الأمين أمر بالامتناع عن الدماء لأخويه : المأمون والقاسم ، وإنه أمر بالدماء لنفسه ولطفله الصغير من بعده . وإنه صدر في ذلك كله عن رأى الفضل ابن الربيع وجماعة الفضل بن الربيع ، مما كان من نتائجه نشوب الحرب الكلامية بين الأخوين ، وإنذارها بوقوع شر مستطير بين الأميرين .



#### ( ٥ ) نفور الرأى العام وأثر الوفود السياسية :

وزيد الآن أن تفقك على مبلغ نفور الرأى العام من فعل الأمين وجماعته ، مما رواه لنا المؤرخون ، وسنلخصه لك كطريقتنا ، التي أخذنا بها أنفسنا ، والتي لم نَحِد عنها ، إلا إذا دعت الضرورة والمصلحة الى تصوير امر هام يحتاج الى التشرح والإيضاح . ونعتمد في تلخيصنا هذا على مصادر عدة ، منها الطبرى وابن الأثير واليعقوبى وغيرهم من الفرنجة الذين كتبوا في التاريخ الاسلامى في العصر الذي نحن بسبيل القول فيه .

روى المؤرخون أن محمدا الأمين عقد في السنة التي نُسرد عليك مجمل أخبارها لعلى بن عيسى بن ما هان على كُور الجبل كلها : نِهَآوَنَد ، وَهَمَدَان ، وَنَم ، وَأَصَفَهَان ، حَرَبَهَا وخراجها ، وضم اليه جماعة من القواد وأمر له ، فيما ذكر بمائتى ألف دينار ، ولولده

بمخسین ألف دينار، وأعطى الجند مالا عظيما، وأمر له بألفي سيف من السيوف المحلاة وستة آلاف ثوب للخلع . وقيل : إن محمدا الأمين أحضر بعد ذلك رجال بيته ومشيديه، وتكلم فيهم بما كان بين الأخوين، وكان من المستظر، لو أن للأمين ظهيرا من الرأي العام، أن يجد من يمتدح فعلته، أو يخطب في نشر الدعوة له وبيان أنه على حق فيأريد أن يفعل، ولكننا نجد أنه انتهى إلى آخر كلامه فلم يتكلم بعده إلا ثلاثة من جماعته الظاهرين، من عرفنا مصالحيهم في الزلّقى اليه والتقرب منه، وهم سعيد بن الفضل الخليلي، ومحمد بن عيسى ابن نبيك، والفضل بن الربيع .

على أنا يجب أن نقول : إن الفضل بن الربيع كان ما كرا أعظم ما كر، ولكن مكروه كان مفضوحا في هذا الموقف، فقد قال في مَعْرِض كلامه : « إن الأمير موسى ابن أمير المؤمنين قد أمر لكم يا معاشر أهل خراسان من صُلب ماله بثلاثة آلاف درهم تقسم بينكم ! » .

نقول : إن مكروه كان مفضوحا، لأننا نعلم أن موسى كان طفلا غرا، لا يفهم هذه الأمور ولا يعقلها، ولكن الفضل أراد أن يُقَرِّعَ الأمين، ولا يمكن أن يكون جادا في رغبته في إثارة الخراسانيين بهذه الطريقة المكشوفة، ولكنها البطانة، يأبى عليها رايؤها ونفاقها وتزلفها إلا أن تصبور لولي نعمتها أمير المؤمنين أنه الحكمة والمصل، وأنه النباغة والعبقريّة، وأن سلالته قد جمع أحداثها مَرَانَةَ الشيوخ وكفايتهم، وأصالة المحجّز بين ودرايتهم، وذكاء النوايع ومواهيم . وهكذا تستمر البطانة على نعمتها هذه، لاصفة بين عداها وعدا حادّيته وخاصّته، ما شاء هوى الخليفة، حتى يقع في رُوعه أن حاشيته لا تنطق إلا حقا ولا تقول إلا صدقا ! .

ولنسأل الآن : ماذا كان من المأمون إزاء تصرفات أخيه ؟ .

إنه لم يتهاون ألبتة في أموره : صغيرها وكبيرها، وكان يقابل كل تصرف من أخيه ببشيلة ونظيره، مع وضع كل شيء موضعه، واستقصاء المصلحة والصواب في تصرفه .

وقد ترأس الأخوان بعد ذلك يكتب عدّة . وإنا ثبت هنا نص كتاب المأمون ردّا على كتاب بعث به إليه الأمين مع وفد سياحى فى شأن البيعة لابنه موسى ، قال : « أما بعد فقد آتتهى إلى كتاب أمير المؤمنين منكرا لإبائى منزلة تهضمنى بها وأرادنى على خلاف ما يعلم من الحق فيها . ولعمري أن أورد أمير المؤمنين موارد النصفة ، فلم يطالب إلا بها ولم يوجب نكوة تركها ، لأنبسط بالهجة مطالع مقائمه ، ولكنى محجوجا بفارقة ما يوجب من طاعته . فأتا وأنا مدّعيها ، وهو على ترك أعمالها ، فأولى به أن يدير الحق فى أمره ، ثم يأخذ به ويعطى من نفسه ، فان صرت إلى الحق فرغت عن قلبه ، وإن أثبت الحق قام بمعدرته . وأما ما وعد من برّ طاعته وأوعد من الوطاة بخالفته ، فهل أحد فارق الحق فى فعله ، فأبقى للبتين موضع ثقة بقوله ! والسلام » .

ولقد كان من تصرفات المأمون إزاء تصرفات أخيه وحاشيته ، أن كتب إلى علي بن عيسى ، قائد الجيوش الآرامية ، لما بلغه ما عزم عليه :

« أما بعد ، فإنك فى ظل دعوة لم تزل أنت وسلفك بمكان ذب عن حريمها ، وعلى العناية لحفظها ، ورعاية لحقها ، توجبون ذلك لأنفسكم ، وتعتصمون بجبل جماعتكم ، وتعطون بالطاعة من أنفسكم ، وتكونون بذا على أهل مخالفتكم ، وحزبا وإخوانا لأهل موافقتكم ، تؤثرونهم على الآباء والأبناء ، وتصرّفون فيما تصرّفوا فيه من منزلة شديدة ورعاه ، لا ترون شيئا أبلغ فى صلاحكم من الأمر الجامع لألفتكم ، ولا أجرى لبواركم مما دعا بشتات كلمتكم ؛ ترون من رغب عن ذلك جائزا عن القصد ، ومن أمة على منهاج الحق . ثم كنتم على منهاج الحق ، ثم كنتم على أولئك سيوفا من سيوف نعم الله . فكم من أولئك قد صاروا وديعة مسبية وحزرا جامدة ، قد سقت الريح فى وجهه ، وتداعت السباع إلى مصرعه ، غير مهتد ولا مومئد ، قد صار إلى أمة ... وغير عاجل حفظه . فمن كانت الأمة تنزلكم لذلك بحيث أنزلتم أنفسكم من الثقة بكم فى أمورها ، والتقديمه فى آثارها . وأنت مستشعرون كثير من نقاتها وخاصتها ، حتى بلغ الله بك فى نفسك

أن كنت قريبَ أهلي دعوتك ، والعالم القائم بمعظم أمري أتيتك ، إن قلتَ ادنُوا دَنُوا ، وإن أشرتَ أقبلُوا أقبِلُوا ، وإن أمسكتَ وقفُوا وقرُوا ، وإنما لك واستنصاحا ، وتزددُ نعمةً مع الزيادة في نفسك ، وتزدادون نعمةً مع الزيادة لك بطاعتك ، حتى حلتَ المحل الذي قُربتَ به من يومك ، وأنقرض فيما دونه أكثر مدتك ، لا يُنظر بعدها إلا ما يكون ختامَ عملك : من خير فيرضى به ما تقدّم من صالح فيك ، أو خلاف فيضِلُّ له متقدّم سعيك . وقد ترى يا أبا يحيى حالًا عليها جالوت أهل نعمتك ، والولاية القائمة بحق إمامتك ، من طعن في عُقدة كنت القائم بشئها ، وبمهود توليت معاهد أخذها ، يُبدَأُ فيها بالإخصيين ، حتى أفضى الأمر إلى العامة من المسلمين ، بالآيمان المُحرّجة والمواثيق المؤكدة ، وما طلع مما يدعو إلى نشر كلية ، وتفريق أمة ، وشتت جماعة ، وتعرض به لتبديل نعمة ، وزوال ما وطأت الأسلاف من الأئمة . ومتى زالت نعمة من ولادة أمركم ، وصل زوالها إليكم في خواص أنفسكم ؛ ولن يغير الله ما يقوم حتى يغيروا ما باعهم . وليس الساعي في نشرها بساجٍ فيها على نفسه ، دون السعي على حَمَلتها القائمين بحرمتها ، قد عرضوهم أن يكونوا جَزَأًا لأعدائهم ، وطُعمة قوم ، تنظف غلابلهم في دماهم . ومكانك المكان الذي إن قلت رُجع إلى قولك ، وإن أشرت لم تنهم في نصيحتك . ولك مع إثبات الحق الخطوة عند أهل الحق ، ولا سواء من حَفِلَ بما جِلَّ مع فراق الحق فأوبق نفسه في عاقبته ، ومن أعان الحق فأدرك به صلاح العاقبة مع وفور الحظ في عاجلته . وليس لك ما تُستدعى ، ولا عليه ما تُستعطف ، ولكنه حق من حق أحسابك يجب ثوابه على ربك ثم على من قت بالحق فيه من أهل إمامتك . فإن أعجزك قولٌ أو فعل ، فصر إلى الدار التي تأمن فيها على نفسك ، وتحكم فيها برأيك ، وتجاوز إلى من يحسن تقبلاً لصلاح فعلك ، ويكون مرجعك إلى عقلك وأموالك ، ولك بذلك الله . وكفى بالله وكيلاً . وإن تعذر ذلك بقية على نفسك فامساكاً بيدك وقولا بحق ، ما لم تحف وقومه بكرمك ، فلعن مقتدياً بك ، ومغتبطاً بنبيك .

ثم أعلين رأيك ، أعرفه إن شاء الله .

على أن ما يرى إليه الرواة من تحقير شأن الأئمة، لا يحول بينك وبين تبين حقيقة الأئمة ورجاله، لأنك ستلاحظ بلا ريب، في شأيا سطورهم، وقتلت الحوادث التي يروونها لك، ما قد يتيح لك أن تؤمن أنت عند الأئمة بعض رجالات أئمة، فان الطبري يمتدح في حوادث سنة خمس وتسعين ومائة: أن ابن الربيع أشار على الأئمة، بأن يكتب لأخيه كتاباً، تستطیع به نفسه، وتسكن وحشته، فان ذلك أبلغ في التدبير، وأحسن في القالة، من مكاتبة بالجنود، ومعالجة بالكيد، وإنه لذلك أحضر له إسماعيل بن صبيح، للكتابة إلى عبد الله، قال: «يا أمير المؤمنين، إن مسائلتك الصفع عا في يديه، توليد للظن، وتقوية للثمة، ومدعاة للغدر، ولكن آكتب إليه فأعلمه حاجتك إليه، وما تحب من قربه والاستعانة برأيه، وسله القدوم إليك فإن ذلك أبلغ وأحرى أن يبلغ فيما يوجب طاعته وإجابته»<sup>(١)</sup>.

فقال الفضل: القول ما قال يا أمير المؤمنين.

قال: فليكتب بما رأى. قال: فكتب إليه: «من عند الأئمة محمد أمير المؤمنين، إلى عبد الله بن هارون أمير المؤمنين».

أما بعد، فإن أمير المؤمنين، رأى في أمرك والموضع الذي أنت فيه من تقرك، وما يؤمل في قرك من المعاونة والمكانفة على ما حمله الله وقوله من أمور عباده وبلاده، وقتر فيما كان أمير المؤمنين الرشيد أوجب لك من الولاية، وأمر به من إفرادك على ما يصير إليك منه، فرجا أمير المؤمنين ألا يدخل عليه وكف في دينه ولا نكث في يمينه، إذا كان إقصاءه إياك فيما يعود على المسامون نفعه، ويصل إلى عاتمهم صلاحه وفضله.

(١) يرى أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار: «أن هذه المكيدة التي درها الفضل بن الربيع جاءت مفضوعة متهوكة الأستار. وكان أجدر بكاسة أن يرسل ذلك الخطاب أول الأمر بعد أن يرد على المأمون ما أرمى به الرشيد من مال وكراع وسلاح — فأما بعد تلك الجنود والوزير والأمراء — وبعد طلب الكور — وبعد طلب تقديم القائم على المأمون — بعد تلك الوفود السياسية وتميز في اليهود التي كانت في نظرهم مقدسة ومؤكدة بأخذها وتعليقها في جوف الكمية، فإن الأمر أتى بعد أرائه ولا يظلمه سوى التهمة والنقل».



وعلم أمير المؤمنين أن مكانك بالقرب منه أسد للنفور، وأصلح للجنود، وأكدُ للقيء، وأردُّ على العامة، من مقامك ببلاد خراسان مقطوعاً عن أهل بيتك، متنبياً عن أمير المؤمنين، وما يجب الاستماعة به من رأيك وتديرك. وقد رأى أمير المؤمنين أن يولي موسى ابن أمير المؤمنين، فيما يقلده من خلافتك، ما يحدث اليه من أمرك ونهيك، فأقدم على أمير المؤمنين على بركة الله وعونه، بأبسط أمل، وأفسح رجاء، وأحمد عاقبة، وأنفذ بصيرة، فإنك أولى من استعان به أمير المؤمنين على أموره، واحتمل عنه النصب فيما فيه صلاح أهل بيته وذمته. والسلام“.

ولننظر الى ما يرويه لنا ابن جرير الطبري عن أعضاء هذا الوفد، فإنه يقول:

لما وصلوا الى عبد الله أذن لهم، فدخلوا اليه كجلب محمد، وما كان يث به معهم، من الأموال والأطاف، ثم تكلم العباس بن موسى بن عيسى فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الأمير! أب أهلك قد تتجمل من الخلافة ثقلاً عظيماً، ومن النظر في أمور الناس عبثاً جليلاً، وقد صدقت نبؤته في الخير فأعوزه الوزراء والأعوان والكفاة على العدل، وقليل ما يأنس بأهل بيته، وأنت أخوه وشقيقه، وقد فزع اليك في أموره، وأتلك للأوزارة والمكافئة، ولسنا نستبطلك في بره اتهاماً لنصرك له، ولا تحضبك على طاعته خوفاً لخلافك عليه، وفي قدومك عليه أنس عظيم وصلاح لمولته وسلطانته، فأجب أيها الأمير دعوة أخيك، وأثر طاعته، وأعنه على ما استعانك عليه في أمره، فإن في ذلك قضاء الحق، وصلبة الرحم، وصلاح الدولة، وعز الخلافة. عزم الله للأمر على الرشد في أموره، وجعل له الخيرة والصلاح في عواقب رأيه.

وتكلم عيسى بن جعفر بن أبي جعفر فقال: إن الإكثار على الأمير، الله! الله! في القول تحرق، والاقتصار في تعريفه ما يجب من حق أمير المؤمنين تقصير، وقد غاب الأمير، أكرم الله، عن أمير المؤمنين، ولم يستغن عن قربه من شهد غيره من أهل بيته، ولا يجد عنده غنى، ولا يجد منه خلفاً ولا عوضاً. والأمير أولى من بر أخاه

وأطاع إمامه، فليعمل الأميرُ فيما كتب به إليه أمير المؤمنين بما هو أَرْضَى وأقرب، من موافقة أمير المؤمنين ومحبة، فإن القدوم عليه فضلٌ وحظٌ عظيم، والإبطاء عنه وكُفٌّ في الدين، وضررٌ ومكره على المسلمين.

وتكلم محمد بن عيسى بن نبيك فقال: أيها الأمير! أنا لا تزيدك بالإثثار والتطويل فيما أنت عليه من المعرفة بحق أمير المؤمنين، ولا تُسَخِّدُ نيتك بالأساطير والخُطَب فيما يلزمك من النظر والعناية بأمور المسلمين. وقد أعوز أمير المؤمنين الكُفَاة والنصحاء بمحضرتة، وتتأولك فزعاً إليك في المعونة والثَّوْبَةُ له على أمره. فان تُحِبَّ أمير المؤمنين فيما دعاك إليه فتنمة عظيمةٌ يَتَلَفَى بها رعيَتك وأهل بيتك، وإن تقعد يُقْنِ الله أمير المؤمنين عنك، ولن يَضُمَّ ذلك مما هو عليه من البرِّ بك، والاعتدائِ على طاعتك ونصيحتك.

وتكلم صالح صاحب المَصَلِّ، فقال: أيها الأمير، إن الخلافة ثقيلةٌ، والأعوان قليل، ومن يَكِيد هذه الدولة وينطوى على غشها والمعادنة لأوليائها من أهل الخلاف والمعصية كثيرٌ. وأنت أخو أمير المؤمنين وشقيقه، وصلاح الأمور وفسادها راجعٌ إليك وعليه، إذ أنت ولي عهدٍ والمشارك في سلطانه وولايته، وقد تناولت أمير المؤمنين بكابه، ووثق بمعاونتك على ما أَسْتَعَانَك عليه من أمور؛ وفي إجابتك إياه إلى القدوم عليه صلاحٌ عظيم. في الخلافة، وأنسٌ وسكونٌ لأهل الملة والذمة، وفقَّ الله الأمير في أموره، وقضى له بالذي هو أحب إليه وأنفع له.

ثم انظر، رطاك الله، إلى مبلغ دهاء الفضل، ودقة سياسته، وتحكم أمره، وما يرويه بنفسه عن صنيعه مع أحد أعضاء الوفد، في إحدى الدفَعَات التي أُرْسِلَ فيها إلى المأمون، لأننا نلاحظ وفود الأمين قد أُرْسِلَتْ إلى أخيه المأمون أكثر من مرة — قال: «أعجبني ما رأيت من ذكاء العباس بن موسى، تفلوت به فقلت: ينهب عليك بعقبك وسنك، أن تأخذ بحظك من الإمام! — أي المأمون، اذ تُنَمِّي بذلك بسبب خلع الأمين له — فقال له العباس: قد سَتَيْتُمُوهُ بالإمام! فأجابه الفضل: «قد يكون إمام المسجد والقبيلة!

فان وقَّمت لم يضركم، وإن غدرتُم فهو ذاك» . ثم وصل الى أن قال للعباس : « لك عدى ولايةُ الموسم ، ولا ولايةُ أشرف منها ، ولك من مواضع الأعمال بمصر ما شئت ... » .  
 وصل الفضل الى ذلك القوي وما يَرح به حتى أخذ عليه البيعةَ للمأمون بالخلافة .  
 وتحول الأمر الى أن أصبح للزبب المأموني من العباس العين التي تَلْنهم الأخبار ، والمتفاني في المأمونية يمدِّهم بالأفكار ويشير عليهم بالأراء ، وحتى أمْحى منه الشخص الذي يقول لعل بن يحيى السرخسي : إن ذا الراستين أكبر مما وصفت ، وإنه قد صالح المأمونَ الامام ، وإنه لذلك يمسح يده على رأس علي بن يحيى لتناوله البركة والخير . فأمل ! .

وإنه جميلٌ حقا أن نرى المأمون يترث في أمره تراث العاقل الحكيم ، لما جاءه الوفد الأمينى ، ويتصرف تصرف الكيس الحاذق ، إذ قال لهم ، فيما أثبت الرواة ، بعد أن حَاجَّوه وناقشوه في أمر الأمين : قد عرفتموني من حقِّ أمير المؤمنين ، أكرمه الله ، مالا أنكره ، ودعوتوني من الموالات والمُونة الى ما أؤثرو ولا أدفعه ، وأنا لطاعة أمير المؤمنين مقدم ، وعلى المسارعة الى ما سرّه وواقفه حريصٌ . وفي الرواية ثبات الرأي ، وفي أعمال الرأي نصيح الاعتزام . والأمر الذي دعاني اليه أمير المؤمنين أمرٌ لا أناخر عنه تلبُّطاً ومداغة ، ولا أتقدم عليه اعتسافاً وتَحَلَّة ، وأنا في نفر من ثغور المسلمين كيِّب عدوه شديد شوكته ، وإن أهملتُ أمره لم آمن دخولَ الضرر والمكره على الجنود والبيعة ، وإن أتمت عليه لم آمن فوتَ ما أحب من معونة أمير المؤمنين وعواذرتِه وإيثار طاعته . فانصرفوا حتى أنظر في أمري ونصيح الرأي فيما أعزَّم عليه من ميسرى أن شاء الله . ثم أمر بإتزامهم وإكرامهم والإحسان اليهم .

ترث المأمون مع الوفد تراث العاقل الحكيم ، وإن كان في الواقع قد هاله الأمر وخيَّس سوءَ عقْبته . ويذكر لنا أحدُ المعاصرين ، وهو سُفيان بن محمد ، أن المأمون لما قرأ الكتاب سَقَطَ في يده ، وتَمَاطَمه ما ورد عليه منه ، ولم يَدِرْ ما يرد عليه ، فدعا الفضل بن سهل فأقرأه الكتاب ، وقال : ما عندك في هذا الأمر ؟ قال : أرى أن تحسك بموضعك ، ولا

تجعل علينا سبيلا وأنت تجد من ذلك بدا . قال : وكيف يمكنني التمسك بموضعي ومخالفة محمد وعظم القواد والجناد معه ، وأكثر الأموال والخزائن قد صارت اليه ، مع ما قد فرق في أهل بغداد من صلاته وفوائده ، وإنما الناس ماثلون مع الدراهم متقادون لها ، لا ينظرون اذا وجدوها حفظت بئسة ولا يرغبون في وفاء عهد ولا أمانة ! . فقال له الفضل : اذا وقعت التهمة حق الاحتراس ، وأنا لقسدير محمد متخوف ، ومن شرهه الى ما في يدك مشفق ، ولأن تكون في جندك وعزتك مقبياً بين ظهراني أهل ولايتك أخرى ، فان دهمك منه أمر جردت له وتاجرته وكابدته ، فإما أعطاك الله الطفر عليه بوفائك ونيصك ، أو كانت الأخرى فت حافظاً مكرماً ، غير أني بيدك ولا يمكن صدوك من الاحتكام من نفسك ودمك . قال : إن هذا الأمر لو كان أناني ، وأنا في قوة من أمري وصلاح من الأمور ، كان خطبي يسيراً والاحتياك في دفعه محكماً ، ولكنه أناني بعد إفساد خراسان ، واضطراب طامرها وظامرها ، ومفارقة جيفويه الطاعة ، والتواء خاقان صاحب الثبت ، وتهويل ملك « كابل » للغارة على ما يليه من بلاد خراسان ، وامتناع ملك أترابنده بالضميريسة التي كان يؤذيها ، وما لي بواحدة من هذه الأمور بد . وأنا أعلم أن محمداً لم يطلب قدومي إلا لشر يرده ، وما أرى إلا تخليعة ما أنا فيه والمهاق بخاقان ملك الترك والاستجارة به وببلاد ، فبالحرى أن آمن حل نفسي وأمتنع عن أراد قهرى والفسد بي . فقال له الفضل : أيها الأمير ، إن عاقبة الغدر شديدة ، وتبعة الظلم والبغي غير مأمون شرها ، ورُب مستنل قد عاد عزيزاً ، ومقهود قد عاد قاهراً مستطيلاً ، وليس النصر بالقلة والكثرة ، وخرج الموت أسلم من حرج النل والضيم ، وما أرى أن تغارق ما أنت فيه ، وتصير الى طاعة محمّد ، متجزداً من قوادك وجندك كالرأس المختزل عن بدنه ، يجري عليك حكمه ، قددخل في جملة أهل مملكته ، من غير أن أنت شئني عدواً في جهاد ولا قتال ، ولكن اكتب الى جيفويه وخاقان ، فولهما بلادهما ، وعذهما التقوية لها في محاربة الملوك ، واجت الى ملك كابل بعض هدايا خراسان وطرفها وسله الموادة بجمده على ذلك حربصا ، وسلم الملك أترابنده ضريته في هذه السنة ، وصيرها صلة منك وصلته بها ، ثم اجمع اليك أطرافك ، واضم اليك من شد من جندك ، ثم

أضرب الخليل بالخيال والرجال بالرجال ، فإن ظفرت ، وإلا كنت على ما تريد من الخلق بخافان قادرا . فعرف عبد الله صدق ما قال ، فقال : اعمل في هذا الأمر وغيره من أمورى بما ترى ! فتدبر ، وفكك الله ، هذا التفكير البديق ، وهذه السياسة المحكمة الأطراف من كليهما .

ثم انظر الى تصرف المأمون الحكيم ، بعد ما قدمناه لك ، فإنه أخذ الكتب الى رجاله وأنصاره ، وعمل على لم شعثه ورأب صدعه ، واستقدم طاهر بن الحسين ، دام له على الرى ، ليعهد اليه في قيادة جنده ، ثم مكث يبرأ الرأى فيما يجيب به أخاه ، واستقر رأيه على مناجرة أخيه ومنازلته ، بعد أن أبده ابن سهل أن النصر له وأن النجوم تلي بذلك . وانظر ما يرويه لنا المؤرخون من أنه كتب الى الأمين : « أما بعد ، فقد وصل الى كتاب أمير المؤمنين ، وإنما أنا عامل من عماله وعضو من أعوانه ، أمرنى الرشيد ، صلوات الله عليه ، بلزوم هذا الثغر ، ومكيدة من كيد أهله من عدو أمير المؤمنين . ولعمري إن مقامى به أرد على أمير المؤمنين ، وأعظم خفاء عن المسلمين من الشخص إلى أمير المؤمنين ، وإن كنت مغتبطا بقربه ، مسرورا بمشاهدة نعمة الله عنده . فإن رأى أن يقرنى على عمل ويغفنى من الشخص اليه فقل إن شاء الله والسلام » . ثم دعا العباس بن موسى ، وعيسى بن جعفر ، ومحمدا ، وصالحا ، فدفع اليهم الكتاب ، وأحسن اليهم في جوائزهم ، وحمل الى محمد ما تبيأ له من ألقاف خراسان ، وسألم أن يحسنوا أمره عنده وأن يقوموا بهذره لديه .



### (و) إعلانات الحرب :

ولنتقل الآن الى الكلام عن الحرب العملية التى تلت هذه الحرب الكلامية ، كما هو المتظر : إن التاريخ يحدثنا أن الأمين ورجال الأمين ، بدءوا في تعبئة الجنود ، كما بدأ المأمون ورجال المأمون في حشد الكائب . وإنا لرتاب كثيرا ، في محبة ما ذكره الرواة : من أن طاهر بن الحسين القائد العام للجيش المأمونية كان في جيش مدته ثمانمائة وثلاثة آلاف ،

بنينا كلف على بن عيسى بن ماهان القائد العام للجيوش الأيمينية في زهاء أربعين ألفا !  
وزيغ كثيرا أن الرواة قد قصصوا عدد الجنود المأمونية، ليُظهروا للناس مبلغ كفاية طاهر،  
وأنه استطاع بجند قليل عددهم أن يُنازل جيوشا جرارة ويغلبها على أمرها، لأنهم  
كثيرون ما يمتحنون إلى الإغراق والمبالغة في مثل هذه المواقف: من مظاهرتهم للأقوياء،  
وانتقاصهم للضعفاء كما أسلفنا .

نشك في صحة ذلك كثيرا . ونشك كذلك فيما يروونه : من أن الجيوش المأمونية  
قد عثرت في سكر ابن ماهان على سبعمائة كيس ، في كل كيس ألف درهم، وأنها عثرت  
كذلك على صناديق عدة فيها نحر سوادى وقناني عدة !

قد يكون أمر الأموال صحيحا ، ولكنا نميل إلى الافتراض بأن أمر الصناديق العدة،  
إن لم يكن مكذوبا في جملته، بقصد الزبابة بالجماعة الأيمينية، فهو مغالى فيه كثيرا .

ويذهب ابن الأثير في بيان غرور على بن عيسى بن ماهان إلى أنه، لما قرب من  
الري، ظن أن طاهر بن الحسين قائد القوات المأمونية لا يثبت له، وإن طبا قال :  
« ما طاهر إلا شوكة من أغصاني وشرارة من ناري، وما مثل طاهر يؤمر على جيش،  
وما بينه وبين الأمين إلا أن تقع عينه على سوادكم، فإن السخال لا تقوى على نطاح الكباش،  
والتمالب لا تقوى على لقاء الأسد، وأن على بن عيسى بن ماهان قال لابنه، لما أشار عليه  
بأن يبعث خلائع ويرتاد موضعا لمسكره : ليس طاهر يستعد له بالمكائد والتحفظ، إن  
حال طاهر يؤدى إلى أمرين : إما أن يتحصن بالري، فيبى به أهلها، ويكفونا مؤنته،  
أو يخطبها ويذير ! . فقال له ابنه : إن الشرارة ربما صارت ضراها ! » فأجابته : « إن طاهرا  
ليس قرنا في هذا الموضع، وإنما تحتس الرجال من أقرانها ! » .

ونحن نقول : إن من الجائز أن يكون شيء من هذا قد وقع . ومن الجائز أن يكون  
بعل بن ماهان زهو وغرور، وقصر نظرسوء تدبير . وقد يكون على حين المقارنة والموازنة

أقل شأنًا من مُتَازِلِهِ وَخَصَمِيهِ طَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ . وَلَكِنَّا مَعَ ذَلِكَ نَحْسُ إِحْسَاسًا لَا يَدُلُّو  
الواقع كثيرا أن هذا الحديث المَعْرُودُ إليه من قبيل الروايات المُنْحَوَّلَةِ، وَالْقِصَصِ الْمُخْتَرَعِ،  
التي كثيرا ما تُخْتَرَعُ وَتُحْمَلُ في مثل تلك الظروف .

على أنّا مع ذلك نقرر أن الجيوش المأمونية كانت على أتمّ تعبئة، وأكمل كفاية، وأدقّ  
نظام، وأحسن حال، وأنّ خديعة طاهر وقواد طاهر : من حَمَلِ صورة البيعة على أَسَنَةِ  
رِمَاحِهِمْ يُعِيدُ إِلَى الْأُذْهَانِ مَا كَانَتْ بَيْنَ جُنْدِ معاوية وجند عليّ من حمل جند معاوية  
المصاحف على الرماح .

لنتقل الآن الى مسألة أخرى لها علاقة بعليّ بن عيسى بن ماهان من ناحية، كما أن  
لها علاقات بما يقع فيه القصاص والمؤرخون والرواة من تناقض من ناحية أخرى . تلك  
المسألة هي ما يُعزى إلى زُبَيْدَةَ من نصيحتها لابن ماهان باحترام المأمون وإجلاله، وأنها  
قالت له : « يا عليّ ! إن أمير المؤمنين وإن كان ولدي، إليه تناهت شفقتي، وعليه تكامل  
حذري، فإني على عبيد الله متعلّقة مُشْفِقة، لما يحدث عليه من مكروه وأذى، وإنما  
أبى ملكٌ ناقس أخاه في سلطانه، وغازه على ما في يده، والكريم يأكل لحمه ويمنع غيره،  
فأعزف لعبد الله حقّ والده وإخوته، ولا تجبه بالكلام، فانك لست نظيره، ولا تقسمه  
اقتسار العبيد، ولا ترهقه بغير ولا غلّ، ولا تمنع منه جارية ولا خادما، ولا تمنع عليه  
في السير، ولا تُساوِه في المسير، ولا تركب قبله، ولا تستقلّ على دابتك حتى تأخذ بركابه،  
وإن شئت فاحتمل منه، وإن سَفِهَ عليك فلا تُردّه » .

(١) يخالفنا أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار في هذا بقوله : « لم يكن كل الجند المأموني حاملا صورة البيعة  
ولا كثير منهم ولكن الأمر في ذلك أن أحد بن هشام على البيعة للأمن على رعه وكان على بن عيسى هو الذي أخذها  
لأمن على أهل خراسان أيام كان واليا بها ليقيم بذلك الجهة على بن عيسى فغدا منه أحد بن هشام بعد أن طلب  
الأمان وانه على بن عيسى وقال له أحد : ألا تنفى الله عن رجل ؟ أليس هذه نسمة البيعة التي أخذتها أنت خاصة  
أنت الله فقد بلغت باب قبرك ؟ فلم يأبه له على بن عيسى بل قال : من أتاني به فله ألف درهم فشتته أصحاب  
أحد ... الخ من أين الأخير » .

مقول أنت يكون ذلك من زُبَيْدة لابن زوجها الرشيد . ولكن التاريخ يتحدثنا عن قبيد من الفضة قيل إنها أعدته لقيده بالمأمون ، كما يتحدثنا أن المأمون نفسه اعترف بمسألة هذا القيد . بيد أن نص النصيحة ، وما اشتملت عليه من الأوامر ، وما جُبلت عليه نفسية السيدة زبيدة ، مما يرجح عدم صحة القول بإعدادها قيدَ فضة أو ذهب ، لقيده بالمأمون .



### (ز) انتصار الجيوش المأمونية ومقولات الشعراء :

وقد كتب الله للجيوش المأمونية الفَاحِشَ والنصر على الجيوش الأُمينية . وترك هنا الكلمة لطاهر بن الحسين قائد المأمون ، فانه بنى خليفته عن ذلك الانتصار بقوله :

«أطال الله بقاءك ، وكَبَتَ أعداءك ، وجعل من يَتَوَكَّلُ فِدَاءك ، كتبتُ إليك ورأس عليّ - ابن عيسى بن يدى» وخاتمته في أصبعي ، والحمد لله رب العالمين » .

وذكر بعض أهل نراسان أن المأمون لما أتاه كتاب طاهر بن خبزعلي بن عيسى بن ماهان ، وما نالته جيوشه من فوز وانتصار ، وما أوقع الله بجُند خصمه من قَتْل وانكسار ، فقد للناس ، فكانوا يدخلون عليه فيفتنونهم ويدعون له بدوام العز والنصر ، وأن المأمون ، في ذلك اليوم ، أعلن خلق محمد ، كما أعلن خلافتَه في جميع كُور نراسان وما يابها ، وسرَّ بذلك أهل نراسان ، وخطبت الخطباء ، وأشدت الشعراء . وفي ذلك يقول الشاعر :

أصبحت الأئمة في غِبْطَةٍ \* من أمرِ دُنْيائها ومن دينها  
أد حفظت عهداً امام الهدى \* خير بنى حَوَافِ مأمونِها  
عل شفا كانت ، فلما وقَّت \* تخلصت من سوء عيُنِها  
قامت بحق الله إذ دُرَّتْ \* في ولده كُتُب دواوِنِها  
ألا تراها كيف بعد الردى \* وفقها الله لمرِيتِها

وهي أبيات كثيرة .



وذكر عليّ بن صالح الحرّبيّ - أتب عليّ بن عيسى لما قُتل ، أُرِجَفَ الناسُ بيندَادٍ إرجافاً شديداً ، وندم محمد عليّ ما كان من نكته وقَدْرِهِ ، ومشي القواد بعضهم إلى بعض ، وذلك يوم الخميس للنصف من شَوَّال سنة ١٩٥ ، فقالوا : إن علياً قد قتل ، ولنا شك أن محمداً يحتاج إلى الرجال وأصطناع أصحاب الصنائع ، وإنما يترك الرجال أنفسهم ، ويرفعها بأُسُها وإقدامها ، فليأمر كل رجل منكم جنده بالشَّعْب بالثَّغْب وطلب الأرزاق والجوائز ، فلعلنا أن نصيب منه في هذه الحالة ما يصلحنا ويصلح جندنا .

خبرني ، لمَركُك ! أليست هذه بوادر الفوضى وعلامات الانتقاض ! أولست هذه هي هي بينهما مبادئ الثورة وأمارات زوال الملك وسقوط العروش ، وأقول نجم أصحابها ! أجل ! إنها كذلك ، وإن في أقسام كلمة الرعاه ، وإثارتهم النعوس بالاضطراب والقتال ، وإضرامهم نيران الفتن ، وتحريكهم الجند وما إلى الجند للشَّعْب والهياج ، تقطيعاً لأوصال البلاد ، ونذيراً بالهدم والقتل .

ولننظر ماذا كان من حماقات رجال الأيمن ؟

إن التاريخ ليحدثنا أن رأيهم قد اجتمع على الشغب والاصطياد في المساء العكر ، وأنهم أصبحوا قنوافوا إلى باب الجسر وكبروا ، فطلبوا الأرزاق والجوائز ، وبلغ الخبر عبد الله بن خازم ، فركب بهم في أصحابه وفي جماعة غيره من قواد الأعراب ، فقاموا بالشَّاب والمجاعة واقتلوا قتالا شديداً ، وسمع محمد الكبير والضجيج ، فأرسل بعض مواليه أن يأتيه بالخبر ، فرجع إليه فأعلمه أن الجند قد اجتمعوا وشغبوا لطلب أرزاقهم ، قال : فهل يطلبون شيئاً غير الأرزاق ؟ قال لا ، قال : ما أهون ما طلبوا ! أرجع إلى عبد الله ابن خازم فمرّه فليصرف عنهم ، ثم أمر لهم بأرزاق أربعة أشهر ، ورفع من كان دون الثمانين إلى الثمانين ، وأمر للقواد والخواص بالصلوات والجوائز !

ولنسمال الآن ، إزاء إجابة الأيمن لسؤال القادة والجند ، ومبادرته إلى رَفْدِهِمْ ، وإسراعه بمنحهم الأعطيات والهبات ، والجوائز والصلوات ، أكان في تصرفه حِكْماً ، وفي عمله مستقداً ، وفقاً ؟ .

لا نفلَ ذلك . وكان الحزمُ به أولى ، ليقْدَحَ الفتنة ، وليَصَبِّحَ حدًّا صارما لشبهوات ذوى الغايات والمتفعين الذين يكثُر وجودهم وتوافر جماعتهم في إبانها وقتراتها .



وقد كان اختيار الأمين الحسن بن عيسى بن ماهر ، خطأً سياسياً ؛ لأنَّ سابقة ابن ماهر في خراسان أيام الرشيد كانت سابقة سوء ، فهو محقوت أشدَّ المَقْتِ عندهم . ونقَرُ بهذه المناسبة ، أنه يحلُّ لنا ، الى حدٍّ غير قليل ، اختلاق تلك القصة التي تعزى الى الفضل بن سهل : من أنه كتب الى الديسيس الذي كان من مشاورهم الفضل بن الربيع في أمره : أنه ان أبى جماعة الأمين إلا عزيمة في الخلاف ، فالطيف لأن تجعل أمرهم لعل بن عيسى . وقال الطبري : وإنما خصَّ ذو الرياستين علماً بذلك ، لسوء أثره في أهل خراسان ، واجتماع رأيهم على كرهه ، وأن العامة قاتلة بحربه . فشاور الفضل الديسيس الذي كان مشاوره ؛ فقال : على بن عيسى ! وإنه إن فعل فلم يَرْتَهُمْ مثله في بعد صومعة ، ومخاطوة نفسه ، وكان في بلاد خراسان في طول ولايته وكثرة صناعته ، ثم هو شيخ الدعوة وبقية أهل المشايمة . فأجمعوا على توجيهه .

نحيل الى القول بأن نسبة اختيار ابن ماهر الى تدبير ابن سهل ، وإسناد كل فضل اليه ، من باب الدعوة لابن سهل . ونحن ممن يقتر بذكائه وسعة حيلته ، كما أسلفنا . ولكننا نقتر أيضاً أن صلة ابن ماهر بالأمين ، وبدولة الأمين ، وبابن الربيع ، كانت مما يحتم على الأمين لا محالة تقليده أمر جيوشه وتفضيله على غيره من القادة ، لأن ديسيس جماعة المأمون هو الذى أشار بنسبته واختياره . فالتحسُّر كثيراً من مبالغة المؤرخين والرواة ، ولتجعل من حقولنا ومنطقنا محكاً وحكماً .

ولتلتِ النظر هنا الى تناقض وقع فيه الرواة من الحزب المأموني ، فينا نراهم يقتررون أن جيش المأمون عثر على صناديق عدَّة من الخمر ، فيما غنمه من على بن عيسى بن ماهر ، إذ بالديسيس يصفه بقوله : « ليس مثله في بعد صومعة ومخاطوة نفسه ! » .

ومهما قيل بأن وصفه كذلك من باب الختل والحديمة ، وبأنه كان في حبة الأمر  
سِكِّيرًا مُعَرِّدًا ، فإنما نرى أثر التأليف القصصى في الروايتين ظاهرًا جليًا .

وسبق لنا أن قد فندنا ، حينما كنا بسبيل القول في الأمين ، ما رواه محمد بن يحيى بن  
عبد الملك النيسابورى من أن الأمين قال لما نعى الناعى إليه قائده : « ويلك دعنى فإن  
كوثرًا قد اصطاد سمكتين ، وأنا ما اصطدت شيئًا بعد ! » . وترك الناعى وخبره ، وأقبل  
على الصيد وكوثره ، فلنضم هذه إلى تلك .



ويحذر بنا الآن أن نطالعك على بعض مقولات الشعراء في موقف الأخوين ، مع  
ملاحظة ما لاحظناه من مبالغتهم في تمذاحهم للأقوى ، وغلوهم في ذراتهم على الضميف .  
قال أحد الشعراء البغداديين :

أضاع الخليفة غش الوزير \* وفسق الإمام وجهل المشير  
ففضل وزيرٌ وبرٌ مُشِيرٌ \* يريدان ما فيه حنف الأمير  
وما ذاك إلا طريقُ غُرورٍ \* وشُرُّ المسالك طرقُ الفسور  
لواطُ أنخليفة أعجوبةٌ \* وأعجبُ منه خلاقُ الوزير  
فهذا يدوسُ وهذا يداسُ \* كذلك لعمري اختلافُ الأُمُور  
فلو يستعينان هذا بذلك \* لكانا بِمُرضيةِ أمرٍ سَتِيرٍ  
ولكن ذابحٌ في كوثٍ \* ولم يَنفِ هذا دِعامُ الحُمير  
فشُخَّ فعلاهما منهما \* وصارا خلاقًا ككوبِ البير  
وأعجبُ من ذا وذا أننا \* نباحٍ للطفيلِ فينا الصُغِيرِ  
ومن ليس يُحسِنُ غسلَ آسِيهِ \* ولم يحلِ مِنهُ من عَجْرِ طِيرِ  
وما ذاك إلا فضيلٌ وبكرٌ \* يريدان قَصَّ الكتابِ المنيرِ  
وهذان لولا اهتلابُ الزمانِ \* أفى العيرِ هذان أم في التَّعِيرِ

ولسكنها قن كالجبال \* ترفع فيها الوضع الحفير  
فصبرا في الصبر خير جميل \* وإن كان قد ضاق صبرا المصور  
فيا رب فافضهما عاجلا \* اليك وأورد عذاب السعير  
ونكّل بفضل وأشياءه \* وصلّهم حول هذى الجصور



### (ح) عود على بدء ، مجهودات الأمين في سبيل الفوز :

ولقد سبق أن قلنا لك : إنه مع ما يرى اليه الرواه من تحقير شأن الأمين ورجالاته الأمين ، يمكننا مع ذلك تبين حقيقة أمره ، مما يلاحظ في ثنايا السطور وفتات الحوادث ، وقلنا : إن تلك الفتات قد تبع لنا أن نؤمن بأن عند الأمين بعض رجالايت أنفاد . ونرد الآن أن ثبت لك ذلك . وهذا الطبرى يمدّنا ، في حوادث سنة ست وتسعين ومائة ، أنه لما قوى طاهر واستولى أمره ، وهزم من هزم من قواد محمد وجيوشه ، دخل عبد الملك بن صالح على محمد — وكان عبد الملك مجبوسا في حبس الرشيد ، فلما توفى الرشيد وأفضى الأمر الى محمد ، أمر بتخليه سريله ، وذلك في ذى القعدة سنة ١٩٣ ، فكان عبد الملك يشكر ذلك لمحمد ، ويوجب به على نفسه طاعته ونصيحته — فقال : " يا أمير المؤمنين ! إني أرى الناس قد طمعوا فيك ، وأهل العسكرين قد اعتمدوا ذلك ، وقد بذلت سماحتك ، فان أتممت على أمرك أفسدتهم وأبطرتهم ، وإن كفت أمرك عن العطاء والبذل لخطبتهم وأغضبتهم ، وليست تملك الجنود بالإسالة ولا تبقى بيوت الأموال على الإنفاق والتسرف ، ومع هذا فان جنلك قد رعبتهم الهزائم ، وتكفتم وأضعفتم الحرب والواقع ، وامتلات قلوبهم هبة لعدوهم ، وتكولوا عن لقاءهم ومناهضتهم ، فإن سيرتهم الى طاهر ، غلب بقليل من معه كثيرهم ، وهزم بقوة نيته ضعف نصائحهم ونياتهم . وأهل الشام قوم قد صرستهم الحروب ، وأدبتهم الشدائد ، وجلبهم منقاد الى مسارع الى طاعتي ، فان وجهنى أمير المؤمنين ، اتفخت له منهم جندا ،

نظم نكايهم في عذوه ويؤيد الله بهم أوليائه وأهل طاهته . فقال محمد : إني مؤيِّك أمرهم ، ومُؤيِّك بما سألت من مالٍ وعُدَّة ، فصجِّل الشخوص الى ما هناك ، فاعمل عملا يظهر أثره ، وتُجد بركته ، برأيك ونظرك فيه ، ان شاء الله . فولاه الشام والجزيرة واستحثه بالخروج استحثا شديدا ، ووجه معه كَتَفًا من الجند والأبناء .

حاول الأيمن بعد ذلك أن يتصر على أخيه بكل ما في مقدوره ، وبعث له الجند يلو الجند . وإنا مع اعترافا بكفاية قادته ، أمثال عبد الرحمن بن جبلة الذي ندب أهل البأس والتجدة والفناء ، نفرر أن طريقة الإرجاف وبث الدعاة التي اتبها القادة المأمونيون كانت خطيرة جدا .

انظر الى من يقول لأهل حمص : " يا أهل حمص ! اهربُ أهون من العطب ، والموتُ أهون من الذل ! إنكم بعدتم عن بلادكم ، وخرجتم من إقاليكم ، ترجون الكثرة بعد القلة ، والعزة بعد الذلة ، ألا وفي الشرِّ وقعة ، وإلى حومة الموت أنتم . إن المنايا في شوارب المسودَّة وفلانهم ، الفير النير ! قبل أن ينقطع السبيل ، ويترل الأمر الجليل ، ويفوت المطلب ، ويعسر المذهب ، وبعد العمل ، ويقرب الأجل ! " ، وقام رجل من كلب في غرز ناقته ثم قال :

شؤبُوبُ حربِ خابٍ من يصبَّلاها • قد شرعت فرسانها قناها

فأوردَ الله لظى لقاها • إن عمَّرت كلبٌ بها لحاها

ثم انظر لمن يقول : " يا معشر كلب ! إنها الراية السوداء ، والله ما وَّلت ولا عُلَّت ، ولا ذلٌّ نصيرها ، ولا ضعف وليها ، وإنكم لتعرفون مواقعَ سيوفِ أهلِ نُرَّاسان في رقابكم ، وآثارِ أسنتهم في صدوركم ، إاعتزلوا الشرَّ قبل أن يعظم ، وتخطَّوه قبل أن يضطروم ، شامِك ! داركم داركم ! الموتُ الفلستيني خيرٌ من العيشِ الجزري ! ألا وإني راجعُ فمن أراد الانصرافَ فليصرف معي ! " ثم سار وسار معه عامة أهل الشام .

أرايت الى أى مدى كان أثر الدعاية المأمونية ؟ .

لقد كان المأمون موفِّقا بلا ريب ، وكانت ظروف النصر والاقبال تُؤاتيهِ من هنا ومن هناك ، وتُظاهِرُهُ على النجاح من جرّاء حِكْمَتِهِ وكفاية رجالائِهِ ، كما كانت تُظاهِرُهُ من جرّاء حِمَاةِ خَصْمِهِ وَقَلَّةِ غَنَائِهِمْ .

ثم انظر ما كان من أمر المصبيّة في حوادث سقّى خمس وتسعين ومائة وست وتسعين ومائة ، وما كان من اشتطاط جند الأُميين في طلب المال ، وما كان من عدم قدرته على إجابة طلبات القادة الكُجّة ، أمثال أسد بن يزيد ، وما كان من تقلُّب الحسين ابن عليّ معه وعليه ، وما كان من لَيّان الأُميين معه بعد أن حبسه ، فإن التاريخ يحدِّثنا بأن كل ما فعله الأُميين معه ، هو أن لآَمَهُ على خِلانِهِ ، وقال له : ” ألم أقدم أبالك على الناس ! وأوّلُ أعنة الحبل ! وأملأ يده من الأموال ! وأشرف أقدارك في أهل نحر اسان ! وأرفع منازلكم على غيركم من القوّد ا “ . فقال له : بلى ! قال : ” فما الذي استحققتُ به منك أن تخلع طاعتي وتؤلّب الناس عليّ “ ، وتندبهم الى قتالي ؟ ” قال : الثقة بعفو أمير المؤمنين ، وحسن الظن بصفحه وتفضّله . قال : ” فإن أمير المؤمنين قد فعل ذلك بك ، وولّاك الطلب بشارك ومن قتل من أهل بيتك ! “ ثم دعا له بخمعة غلغله عليه ، وحمله على مراكب ، وأمره بالمسير الى حلوان ، وولّاه ما وراء بابه .

انظر الى ذلك كله ، فانك تستطيع أن تقتنع معنا ، بأن اسوء التدبير حفظا غير قليل في خذلان الأُميين وضَيّاع ملكه .



### ( ط ) مظاهر الثورة وخطبائها :

على أن هناك ظاهرة في الجيش الأُميين والأطراف الأُمينية ، مثل ظاهرة الثورة الفرنسية من بعض وجوهها ، يجدر بنا أن نبيّنها لك ، ولو « على الهامش » كما يقولون . ذلك أن الزوّاقيل ، والاصوص ، والتوّار ، لعبوا دورهم الخطير ، كما أن القوضى ضربت

يجربونها على كل البقاع الأيمية ، ولم يكن ثمة من طاعة ولا نظام ، لا في الجند الأيمن ولا في قادة الجند الأيمن !

وقد كان هناك خطباء ، كما كانت في الثورة الفرنسية . وإن الطبرى لمحتشاً أن محمد بن أبى خالد قام بباب الشام ، فقال : أيها الناس ! والله ما أدرى بأى سبب يتأمر الحسين بن على علينا ! ويتولى هذا الأمر دوننا ! ما هو بأكبرنا شيئاً ، ولا أكرمنا حسباً ، ولا أعظمنا منزلة . وإن فينا من لا يرضى بالدنيسة ولا يقاد بالمخادعة ! وإن أولكم قضا لعهد ، وإظهارا للتغيير عليه والإنكار لفعله ، فمن كان رأيه رأيي ، فليمتلئ مني . وقام أسد الحرابي فقال : يا معشر الحرابية ! هذا يوم له ما بعده ، إنكم قد نمت وطال نومكم ، وتأخرتم فقدم عليكم غيركم ، وقد ذهب أقوامٌ بذكر خلق محمد وأسرته ، فأذهبوا بذكر فكهم وإطلاقه .

يمحتشاً التاريخ عن ذلك كله ، كما يمحتشاً بأن شيخاً كبيراً ، من أهل الكفاية ، قد أقبل على فارس ، فصاح بالناس : اسكتوا ! فسكتوا ، فقال : أيها الناس ! هل تعتدون على محمد بقطع منه لأرزاقكم ؟ قالوا : لا ! قال : فهل قصر بأحد منكم أو من رؤسائكم وكبرائكم ؟ قالوا : ما علمنا ! قال : فهل عزّل أحدًا من قوادكم ؟ قالوا : ماذا الله أن يكون فعل ذلك ! . قال : فما بالكم خذلتوه وأعنت صدوقه على اضطهاده وأسرته ! أما والله ما قتل قومٌ خليفتهم قط إلا سلط الله عليهم السيف القاتل والخنف الجارف ! إنهمضوا إلى خليفكم وادفعوا عنه ، وقاتلوا من أراد خلعته والعتك به ! — .

أما ما أصاب بندگان من سلب ونهب وتحريق وتخريب ، وقتل شعواء ، وقتل ودماء ، فإنما تترك الكلمة في ذلك لشعراء العصر ، مما أثبتناه لك في باب المنظوم من الكتاب الثالث من المجلد الثالث ، فتراجع ثمة .

### (ى) قتل الأيمن :

ولقد ضيق طاهر وهرثمة على الأيمن الخفاق ، وفكروا فيمن يتسلم الأيمن ليكون له قصب السبق . وإنه لمن المؤلم حقاً أن ترى الأيمن وهو يقبل أولاده . ومن المؤلم أن

تسمعه وهو يقول : «وددت أن الله قتل القريتين جميعا ! . فإياهم إلا صدو من معي ومن على» أما هؤلاء فيريدون مالي ، وأما أولئك فيريدون نفسي ! » وقال :

تَقَرُّقُوا وَدَعُونِي \* يَا مَعْشَرَ الْأَعْوَانِ

فَكُلُّكُمْ ذُو وَجْهِ \* كَثِيرَةُ الْأَلْوَانِ

وَمَا أَرَى غَيْرَ لَيْك \* وَتُرَّهَاتِ الْأَمَانِ

وَلَسْتُ أَمْلِكُ شَيْئًا \* فَسَاءَلُوا خُزَّائِي

فَالْوَيْلُ لِي مَا دَهَانِي \* مِنْ نَازِيَةِ الْبَسَاتِ

وإنه لمن المؤلم حق أن يتفقا على أن يأخذ أحدهما منه، والآخر خاتم الخلافة وشاراتها ! ومن المؤلم حق أن تحتم حياته بمأساته المروعة .



## الفصل الرابع

### الخليفة المأمون

توطئة — السياسة الداخلية — ملخص الحالة العامة في المسألة الخراسانية — الملة البغدادية : ثورة نصر ابن شيبه ، الزيد ، ثورة مصر ، بابك الخرمي ، مذاهب وتخل ، اقراضات — السياسة الخارجية : حزمة المأمون الروم — كلية عثمانية .

#### (١) توطئة :

من تحصيل الحاصل أن نقول ما يقوله الفخري وفيه: من أن المأمون كان من أفاضل الخلفاء وعلماهم ، وعلماهم وحكامهم ، أو أنه كان ديناً ، عارفاً بالعلم ، فيه دهاء وسياسة أو أنه كان قبطاً ذكياً ، أو أنه كان كاملاً عالماً جواداً ، عظيم العفو ، ميمون النسيبة ، حسن التدبير ، جليل الصنائع ، لا تتخذه الأمانى ، ولا تجوز عليه الخلدائم ، علمه بما بعد عنه كماله بما حضره ، أو أنه كان متصفاً بالعدل والحلم .

من تحصيل الحاصل أن نقول ذلك لأنه معلوم متعارف من ناحية ، ولأن خطتنا في كتابتنا ، ومنهجنا في بحثنا ، أن نترك للوحدات الكلمة الفاصلة في تحليل صفاته ، أتباع الطريقة التحليلية التي اتبناها فيما كتبناه عن سواه .

وقد أسلفنا لك القول في بيان حياة المأمون قبل الخلافة ، وفصلنا لك ما كان من أمر النزاع بين الأخوين ، ووصلنا بك الى أماسة تلك الحرب الشمواء والفتنة العياء ، ألا وهي قتل محمد الأمين في ٢٥ محرم سنة ثمان وتسعين ومائة والآف نتقدم الى القول بأن المأمون بُويع له بالخلافة العامة في ذلك التاريخ ، واستمر كذلك الى أن توفى غازیاً في ١٩ رجب سنة ٢١٨ هـ . فتكون خلافته ، قد أضافت على عشرين سنة . أقام منها في نراسان حتى منتصف صفر سنة ٢٠٤ ، حين انتقل الى بغداد ، مقر الخلافة العباسية .

فيمكننا إذاً أن نقسم كلامنا عن حكم المأمون الى مديتين: المدة الخراسانية، والمدة البغدادية .  
وفي بيان هاتين المديتين، بيانٌ للحالة السياسية الداخلية في عصره ؛ وهو ما سنعالج الكلام  
فيه الآن :



### (ب) السياسة الداخلية :

١ — ملخص الحالة العامة في المدة الخراسانية

اطلعنا في دور النزاع بين الأخوين على شيءٍ غير قليل من تصرفات الفضل بن سهل  
وتدبيراته، ووقفنا على أثره العظيم في الدولة؛ كما اطلعنا على ما كان من نجاح طاهر بن الحسين  
وهزيمة بن أعين، في حروبهما للجيوش الأرمينية .

ونتساءل الآن، بعد أن تم الأمر للمأمون وحزبه، وخلا الجوالى حذ كبير للفضل  
ابن سهل، أمن المقول أن تستطيع هذه الشخصية البارزة، الفارسية المنبت والزعة،  
ذات البيت الكبير، والحماء والأصدقاء، واللغة والأصهار، أن تحتمل أن يكون  
الى جانبها شخصيات بارزة من العرب كهرثمة بن أعين، وأبطل من ذوى الفضل العظيم  
والدور الأول في النجاح كطاهر بن الحسين ؟

نحن نعلم ما كان من أبي مسلم الخراساني مع أمثاله من القادة والحكام، كما نعلم ما كان  
نصيبه من الخليفة المنصور . نعلم ذلك، كما نعلم الكثير من أمثال ذلك . وإنه يلوح لنا،  
من غير أن نعدو الصواب كثيراً، أنه في مقدورنا أن نجيب عن تساؤلنا هذا . إن  
المقول، في طبيعة هذه الشخصيات الفذة، في تلك الأزمان المطلقة الحكم، أنها تعمل على  
إزالة كل الشخصيات البارزة من طريقها، ليكون ذلك لأطماعها مهيّداً، ونقطتها مهيّداً .

يلوح لنا أننا لا نعدو الصواب إذا قلنا ذلك . إذ أن هذا هو ما فعله الفضل بن  
سهل مع الظاهرين وأصحاب الكلمة في الدولة ؛ فإن التاريخ ينبئنا أنه رأى مستقبله  
ومستقبل حزبه، يكون مهيّداً ، إذا بقي طاهر وهرثمة في العراق، فاستصدر أمرين

ملكيين : أولها بتولية شقيقه الحسن بن سهل جميع ما فتح بمجهود طاهر ، وقادته الحكيم ، وإخلاصه للقضية المأمونية . ينبتا بأنه نصّب على كُور الجبال وفارس ، وعلى الأهواز والبصرة ، وعلى الكوفة والحجاز واليمن ؛ كما ينبتا بأنه ولّى طاهرا الموصل والحزيرة والشام والمغرب . ولكن يتم الأمر بإبعاده ، كتب إليه أن يسلم الحسن بن سهل جميع ما بيده من الأعمال ، وأن يبادر في الشخوص إلى الرقة لمحاربة نصر بن شُبث . وثانيهما إلى هُرْمُة ابن أعين بكلفه به أن يشخص إلى خراسان .

ولنتساءل الآن : هل كان من المصلحة السياسية ، هذه الصدمة العنيفة لرعيين قورين ، أحسن البلاء في الدولة ، ولها مآلها ، ولها حزمها ؟ وهل كانت من المصلحة السياسية إخلاء العراق ، وهو مصدر الشقاق والتفاق والعصيان والسدوان ، من هُرْمُة وطاهر ؟ وهل كان من المصلحة السياسية ، أن يترك المأمون مسألة ، كمسألة تعيين الحسن ابن سهل وإقصاء هُرْمُة وطاهر ، تمر هكذا ، فيسفلها الدعاة على ملكه من بني هاشم ممن لم يكن لهم حظ في دولته ، ومن غير بني هاشم ممن يودّون زوال الملك الهاشمي ، فيقول — فيما يقولون عنه — إنه قُلب على أمره ، أو أُنقِص ملكوا زيمانه ، أو أُنقِص الفضل بن سهل أنزله قصرا عجيبة عن رجالات دولته ، وأن السلطان ومقاليد السلطان ، قد نُزِحت منه ؟ .

نعود نتساءل : أكان ذلك كله من مصلحته السياسية ؟ .

لم يكن ذلك من المصلحة السياسية طبعا ، لا سيما أنه لم تسكن الفتن والثورات بعد في الأقطار المأمونية . ولكننا نميل إلى اعتقاد أن المأمون كان مرغما على الوقوع في هذه الغلطة السياسية ، وهو ذلك السياسي المحنك والداهية التقدير ، كما رأيت وكما ستري في موضعه ؛ لأن لظروف الأحوال نصيبها في ذلك التصرف منه ومن غيره ممن يكون في مكانه ؛ ولأنه ربما نحاشي بتصرفه ذلك خطراً أجسم ، وأوسع نطاقا ، وأبعد مدى ، وهو خطر اغتصاب الفضل بن سهل وجماعة الفضل بن سهل .

ومهما يكن من شيء، فإن هذه التصرفات التي كانت من الفضل بن سهل، وإقرار المأمون لها، وبقاء المأمون، بعد أن تم له الأمر، في مَرَوْ دُونَ بغداد عاصمة الخلافة العباسية، كانت لها نتائجها السيئة في شيعة المأمون وأنصاره من جهة، وفي أعدائه والراغبين عن سلطانه من جهة أخرى. ذلك بأن أنصار المأمون وقواده، ونحس بالذكر منهم طاهر ابن الحسين وهرثمة بن أعين، قد كسروا قلوبهم وقُلَّ من عزائهم، أن يكون جزأؤهم على فوزهم وحسن بلائهم وإخلاصهم، تلك التصرفات السيئة التي كانت نصيبهم من المأمون ومن حاشية المأمون.

لَٰهَذَا كَانَ أَمْرًا فِي شِيعَتِهِ وَخَاصَّةً أَنْصَارِهِ. وَأَمَّا غَيْرُ هَؤُلَاءِ، فَقَدْ جَعَلَتْ هَذِهِ التَّصَرُّفَاتُ أَلْسِنَتَهُمْ تَطْلُقُ بِاتِّهَامِ الْمَأْمُونِ بِأَنَّهُ يَمِيلُ إِلَى الْخُرَاسَانِيِّينَ، وَأَنَّهُ أَصْبَحَ آلَةً فِي أَيْدِيهِمْ يَحْتَكَوْنَهُ كَمَا يَشَاءُونَ وَقَدْ حَدَّثَ مِنْ جَزَاءِ هَذِهِ الْإِشَاعَاتِ وَقُورِ هِمَّةِ أَنْصَارِ الْمَأْمُونِ الَّذِينَ لَمْ يَجَازُوا الْجَزَاءَ الْأَوْفَى، أَنَّهُ اضْطُرَّتِ الْأُمُورُ، وَكَثُرَتِ الْفِتَنُ، وَوَجَدَ أَعْدَاءُ الْمَأْمُونِ الْفُرْصَةَ سَاحَةً لِّتَحْقِيقِ أطماعهم. وَمِنْ تِلْكَ الْفِتَنِ مَا يَحْدِثُنَا التَّارِخُ عَنْهُ: مِنْ خُرُوجِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْعُلُوِيَّ الْمَعْرُوفِ بِابْنِ طَبَاطَبَا بِالْكُوفَةِ، وَقَدْ قَامَ بِتَدْيِيرِ أَمْرِهِ رَجُلٌ مِنْ رِجَالِ هَرْثِمَةَ بْنِ أَعِينَ وَكَبَارِ أَنْصَارِهِ، وَقَدْ خَرَجَ لِأَنَّهُ حَسِبَ عَنْهُ مَا كَانَ يُعْطَاهُ مِنْ رِزْقٍ: هَذَا الرَّجُلُ هُوَ أَبُو السَّرَايَا السَّرِيُّ بْنُ مَنْصُورٍ، وَكَانَ هُوَ الْخَارِجُ عَلَى الْمَأْمُونِ فِي الْوَاقِعِ لِابْنِ طَبَاطَبَا وَقَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِهِ أَنَّهُ ضَرَبَ الدِّرَاهِمَ وَجَدَّدَ الْجُنُودَ، حَتَّى اضْطُرَّ الْحُسَيْنُ بْنُ سَهْلٍ أَنْ يَسْتَضِيَ هَرْثِمَةَ، وَيَسْتَعِينَهُ، لِيَكْفِيَهُ شَرُّ هَذَا الْخَارِجِ الْقَوِي.

وَيُظْهَرُ أَنَّ مَوْتَ الزُّعْمَاءِ، كَانَ طَلَسًا مِنَ الطَّلَامِ، أَوْ مَرًّا مِنَ الْأَسْرَارِ، أَوْ صِنَاعَةً مِنَ الصَّنَاعَاتِ الْخَفِيَّةِ فَإِنَّا نَجِدُ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ هَذَا، الَّذِي سَمَّيْتُمْ مَنَزَلَهُ بَيْنَ أَتْبَاعِهِ، وَعَظَّمْتُمْ طَاعَتَهُمْ لَهُ، قَدْ مَاتَ، بَعْدَ أَنْ كُتِبَ النَّصْرُ لِلْقَائِمِ بِتَدْيِيرِ أُمُورِهِ عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ جَعْفَرٍ وَإِلَى الْكُوفَةِ مِنْ قِبَلِ الْمَأْمُونِ، ثُمَّ نَرَى هَذَا الْمُتَصَرِّعَ يَوْنِي مَكَانَهُ غَلَامًا أَمْرُدَ حَدَثًا، هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ زَيْدِ الْعُلُوِيَّ.

وتَسَالَى مَعِي لِنَنْظُرَ فِي حَوَادِثَ مَسْنَةِ تَمِيعٍ وَتَسْعِينَ وَمِائَةً ؛ فَبَيَّاهَا يَكْشِفُ  
الْمِصَاعَ عَنْ أُمُورِ جِسَامٍ ، تُفْقِدُنَا فِي تَفْهَمِ الرُّوحِ الْحَزْبِيَّةِ بَيْنَ الْعُلُوِّينَ وَالْعِبَاسِيْنَ وَتُقِيدُنَا  
أَيْضًا فِي إِمَامَةِ الثَّنَامِ عَنْ سَبَبِ هَامٍّ مِنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا تَبَرُّمُ بَعْضِ الْوَلَاةِ الْكُفَاةِ  
بِدَوْلَةِ الْفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ وَانْفِرَادِهِ هُوَ بِجَاهَتِهِ بِمَرَاتِبِ الدَّوْلَةِ وَوِظَائِفِهَا .

تَعَالَى نَنْظُرُ فِي حَوَادِثِ تِلْكَ السَّنَةِ ، فَتَجِدُ فِيهَا أَنَّ هَرْمَةَ جَدِّ فِي طَلَبِ أَبِي السَّرَايَا صَدِيقِهِ  
بِالْأَمْسِ وَمُنَازِلَهُ الْيَوْمَ ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى قَصْرِ ابْنِ هُبَيْرَةَ ، فَكَانَتْ بَيْنَهُمَا وَقْعَةٌ شَدِيدَةٌ ، قِيلَ  
فِيهَا مِنْ أَصْحَابِ أَبِي السَّرَايَا خَلْقٌ كَثِيرٌ ، أَلَيْسَ فِي هَذَا مَا يَقْتَعِلُ بِأَنْ إِعْيَاضَةً رِصًا وَأَبْتَسَامَةً  
تَشْجِيعٍ ، لِجُلٍّ مِنْ رِجَالِ الدَّوْلَةِ ، كَافِيَةً لِأَنْ يَنْهَضَ فَيُجَارِبَ زَمِيلَهُ وَيَقَاتِلَ غَدَنَهُ . ثُمَّ نَجِدُ  
فِي تِلْكَ السَّنَةِ فِيهَا أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ مُحَمَّدٍ وَثَبَ ، وَمَعَهُ الْحَزْبُ الطَّالِبِيُّ ، عَلَى دُورِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَدُورِ  
مَوَالِيهِمْ وَأَتْبَاعِهِمْ بِالْكُوفَةِ ، فَاتَّبَعُوهَا وَخَرَّبُوهَا ، وَأَخْرَجُوهُمْ مِنَ الْكُوفَةِ ، وَاسْتَخْرَجُوا الْوُدَّاعَ  
الَّتِي كَانَتْ لَمْ عِنْدَ النَّاسِ فَاخْذَوْهَا ، وَعَمِلُوا فِي ذَلِكَ عَمَلًا قَبِيحًا . وَتَجِدُ كَذَلِكَ فِيهَا أَنَّ  
مَسْرُورًا الْكَبِيرَ الْخَادِمَ الرَّشِيدِيَّ ، قَدْ جَمَعَ تِلْكَ السَّنَةِ فِي مَائَتِي فَارِسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَأَنَّهُ عَقِيَ  
لِحَرْبٍ مِنْ يَرِيدُ دُخُولَ مَكَّةَ وَأَخْذَهَا مِنَ الطَّالِبِيِّينَ ، وَأَنَّهُ قَالَ لِعَامِلِ مَكَّةَ دَاوُدَ بْنِ عِيْسَى :  
أَقِمْ لِي شَخْصًا أَوْ تَخْصَّصْ لِي بَعْضَ وَلَدِكَ وَأَنَا أَكْفِيكَ قِتَالَهُمْ ! فَقَالَ لَهُ دَاوُدُ : لَا أَسْتَحِيلُ  
الْقِتَالَ فِي الْحَرَمِ ، وَاللَّهِ لَئِنْ دَخَلُوا مِنْ هَذَا الْفَجِّ ، لَأُخْرِجَنَّ مِنَ الْفَجِّ الْآخَرَ . فَقَالَ لَهُ  
مَسْرُورٌ : تُسَلِّمُ مَلِكُكَ وَسُلْطَانُكَ إِلَى عَدُوِّكَ وَمَنْ لَا تَأْخُذُهُ فَيْكَ لَوْمَةٌ لَأَمُّ فِي دِيْنِكَ  
وَلَا حُرْمَتٌ وَلَا مَالِكٌ ! قَالَ لَهُ : أَيْ- مَلِكٌ لِي ! وَاللَّهِ لَقَدْ أَهْلَتْ مَعَهُمْ حَتَّى شِخْتُ ، فَمَا  
وَأَرْنِي وَلَايَةً ، حَتَّى تَكْبُرَتْ سَنَتِي ، وَفَنِيَ عَمْرِي ، فَوَلُونِي مِنَ الْحِجَازِ مَا فِيهِ الْقُوَّةُ ، إِنَّمَا هَذَا  
الْمَلِكُ لَكَ وَلَا شُبَهَاكَ ! فَقَاتَلَ إِنْ شِئْتَ أَوْ دَعُ !

هَذِهِ حَالَةٌ تَفْسِيَّةٌ لِبَعْضِ الْوَلَاةِ الْعَرَبِ ، قَدْ يَكُونُ مِنَ النِّفْعِ أَنْ تُلَاحِظَ تَبَرُّمَهَا  
وَصَحْفَهَا مِنْ سِيَاسَةِ الْعَصْرِ ، أَوْ مِنَ الْهَيْئَةِ الْفَارِسِيَّةِ عَلَى شَيْءٍ أُمُورِ الدَّوْلَةِ عَامَةً وَالْجَسَنِيَّاتِ  
مَتْنَهَا خَاصَّةً فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ . وَرَبَّمَا كَانَتْ هَذِهِ الْحَالَةُ النَّفْسِيَّةُ تُمَثِّلُ لَكَ حَالَاتٍ كَثِيرَةً مِنْ  
نَفْسِيَّاتِ الْعَرَبِ لِلذَّكَاءِ الْعَمِيدِ .

ثم لننظر في حوادث سنة مائتين، فنجد أن زيد بن موسى الطالبي المعروف "زيد النار" كان بالبصرة، وإنما سُمي "زيد النار" لكثرة ما حرقه من دور العباسيين وأتباعهم في البصرة. وكان إذا أُتيَ برجل من المسوِّدة العباسية، كانت عقوبته عنده أن يحرق بالنار. ونجد فيها أن إبراهيم بن موسى الطالبي قد خرج باليمن. ونجد أيضا أن الكعبة وخزائنها وأحجارها الكريمة، لم تسلم من أبي السرايا وأتباعها العلويين، وكَمَ حبس من العباسيين وكَمَ أذى! حتى قدَّس محمد بن مسلمة الكوفي لتوَلَّى عذاب العباسيين، فأشرف في ذلك، حتى سُميت داره "بدار العذاب". ونجد أيضا أن خارجياً آخر، وهو حسن ابن حسين، أراد اقتفاء ما رَسَمه أبو السرايا، فذهب إلى علوى وداع محبَّ معروف في مكة والمدينة، وهو محمد بن جعفر، ونصَّبه خليفة له، وجعل السلطان بيده فعلا. ونجد فيها قبايح وفضائح لحسن بن حسين هذا، مع زوجة قرشية من بنى فهر، وزوجها من بنى عَنَزَم، ولها جمالٌ بارِعٌ، فاغتصبها من زوجها. ونجد فيها مثل ذلك الصنيع المعيب من علي بن محمد الخليفة المنصوب، مع ابن القاضي إسحاق بن محمد، وكان جبلا بارعا في الجبال.

نجد ذلك كله، ونجد الكثير من أمثاله، مما أدى إلى إثارة الرأي العام في مكة، فاحتجوا، حتى ردَّ الصبي لأبيه مكها مرعبا! ونجد فيها أمثلة عدَّة لاستلاب أموال الناس، كما نجد فيها رجلا عباسيا موتورا من العلويين، وهو محمد بن الحكيم، ممن كان الطالبيون قد اتَّهبوا داره وعذَّبوه عذابا شديدا، عثر على محمد بن جعفر الطالبي الخليفة المنصوب، وقد طُرِدَ ثمَّ طُرِدَ، وكان في مقدوره أن يقتله فلم يفعل. فلنقدِّ هذه الحادثة، فإنها تنفعنا في تفهيم السر الذي كان كثيرا ما يحدو بالمأمون إلى احترام العلويين، وتقدير مكاتبتهم والعمل على إرضائهم لأن لهم حرية في نفوس حزبي غير قليل من الشعب. ونجد في السنة ذاتها أن الحج قد تولاه أكثر من شخص، لتعدي السلطات. فنجد المأمونُ إبا إسحاق بن هارون الرشيد. ووجه إبراهيم بن موسى الطالبي، الذي نرج

بالعين، رجلا من ولد عقيل بن أبي طالب، كما وجه غيره من يمثله، مما يدل على الفقرة والاقسام، وعلى الفوضى والاضطراب. فلتتصرف ذلك جيدا.

ويسدربنا هنا أن نبين نتائج الحالة الحزبية بين الفريقين، فقد بلغ أبا اسحاق بن الرشيد أن الجماعة الطالبية اتى أتت من العين للنجح، قد صرت بها قافلة من الحاج والتجار، وفيها كسوة الكعبة وطبها، فاستلبت أموالهم وطبهم، فندب لهم محمد بن عيسى بن يزيد الجلودى الذى أحرق بهم فأمر أكثرهم، وهرب من هرب منهم، وأخذ منهم الطبيب وأموال التجار والحاج، فوجه به الى مكة، ودعا بن أسير من أصحاب العقبيل - العاكوى، فأمر بهم فقتل كل رجل منهم عشرة أسواط، ثم قال لهم: "أعزُّوا يا كلاب النار! فوالله ما قتلكم وعمر، ولا فى أسركم جمال". وخنل سيلهم. ولنا حفظ تسميته لهم "بكلاب النار"!

ولما نلخص لك الحوادث التى وقعت بعد أن قمع هرثة ثورة أبي السرايا، التى انتهت بقتله عام ٢٠٠هـ، وإنحدت فتته، معتمدين فى ذلك على الطبرى - والأستاذ «ميور» خاصة:

لما قمع هرثة ثورة أبي السرايا، عاد إلى نهر واد، دون أن يترج على وإلى بغداد، وهناك وافاه أمر الخليفة بتوليته حكم سوريا وبلاد العرب، وكان قد اعتم الزهاب بعد ذلك إلى «مرو» مباشرة، ليكشف الخليفة عن حقيقة الموقف وحرجه، الذى يخفيه عنه وزيره الفضل، بسبب بقائه الخليفة فى «مرو» وأن الغرب سيقض عليه سرعا، ويخرج من يده إذا هو لم يبادر إلى العودة إلى بغداد. فلما أحسن الفضل عزم هرثة على القدموم قطن إلى ما يتوهم، فدرس له عند المأمون، حتى أوغر صدره عليه، وكادت ألسنة تنتهى قبل أن يذهب هرثة إلى «مرو». فلما ذهب خشى أن يكتم الفضل خبر قدومه عن المأمون، فلقى الطبول عند دخوله المدينة. فلما علم الخليفة الموعر الصدر بقدمه أمر بإحضاره، فلما مئى بين يديه بالغ فى تقيعه وتأييه على توائيه فى تسكين ثورة أبي السرايا، وفى مخالفة ما أصدره إليه من أمره بالذهاب إلى ما ولأه من أعمال

وأكاد هذا القائد يهيم بالكلام ويشرح لمولاه الحالة، حتى همّ عليه الحرس الذين أسرّ بهم الفضل أن يُنظّطوا في تعذيبه، فأنهالوا عليه ضرباً وككاً، على وجهه وجسمه، ثم محبوبوه بسرعة إلى السجن حيث مات به بعد زمن قصير، متأثراً بجراحه . ولقد اعتقد عاقلة الناس أن الذي أماته هو الفضل .

وهكذا انطوت صحيفة هذا الباسل العظيم الذي ذبّ عن ملك المأمون، وكأخ في توطيد دعائم الدولة، من أفريقية إلى خراسان، والذي يرجع إليه الفضل الأكبر في انتصار المأمون على أخيه المخلوع . ومات هذا القائد العظيم صحبةً للسياحة ونكران الجبيل، كما مات أمثاله من قبل من صنديد هذه الدولة من جرّاء السعاية والمنافسة، ومن جرّاء أعمال البطانة ودسائس الحاشية .

ولتسأل ما ذا كانت نتيجة قتل هرثمة ؟

يبحثنا التاريخ أن هرثمة كان عبدياً في الغرب، وأن موته أحدث فتناً وقلاقل في بغداد، وثارَت الجنود في وجه الحسن بن سهل، إذ عدّوه آله في يد أخيه الفضل الذي كانوا ينعثونه بالمجوس . وبعد قتال دام ثلاثة أيام طردوا الحسن من المدينة، فلجأ إلى «المداين» ثم ارتد إلى «واسط» . واستمرت الفتن والقلاقل بعد ذلك قائمة ببغداد شهوراً عدّة، نشطت في خلالها عصابات اللصوص وشرافمة الصماليك، وشتمت عن ساعدها في أعمال النهب والسلب، حتى طوى سبل ظرائهم على تلك المدينة المنكودة، التي أصبحت تحت رحمتهم . ويبحثنا التاريخ أنهم قد أسرقوا في ذلك إسرافاً عظيماً، مما فزع له أعيان المدينة ووجهائها، فأجمعوا أسرهم على صدّ هؤلاء السفلة الأشرار ودفع ظالمتهم عن المدينة وأهلها . ولما تمّ لهم ما أرادوا، اختاروا من بينهم رجلين من ذوى الفضل والمكانة فيهم، وولّوها تدبير الحكم، ربما تستقر الحال ويعود الأمن إلى نصابه . ثم عرّضوا عرش الخلافة على المنصور بن المهدي والبيعة له، فتابى عليهم، ولكنه نادى وقيل أن يتولّى الحكم باسم الخليفة المأمون . ولم تُوشك هذه السنة أن تنتهي حتى كان قواد الجند في بغداد قد سموا القتلى،



فاتفقوا مع الحسن بن سهل الوالي فعاد الى بغداد بعد أن أصدر عفوا عاما ، ووعده بأنه يدفع للجنود رواتبهم عن ستة أشهر ، وبأن يدفع كذلك لذوى المعاشات أرزاقهم حسبما هو مُدرجٌ بقوائمهم .



ولنتسأل الآن ما ذا حدث بعد ذلك ؟ .

حدث أنه ما كاد الأمر ينتهى على هذه الشروط ، حتى عادت الفتنة والاضطراب أشدَّ مما كانا عليه . ذلك بأن المأمون ، لغرض سياسى ، أو لئلا يزعج الشيعة ، أو لتقدير كفاية خاصة ، استدعى واحداً من سلالة سيدنا عليّ ، وهو «علي الرضا» رضى الله عنه ، وهو ثامن أئمة الشيعة أو حزب العلويين ، الى «مرو» ، واختاره ولياً لمهد الخلافة ، مع أنه يكره بائنتين وعشرين سنة . وربما كان المأمون فى رأيه هذا صادرا عن رأى وزيره الفضل الذى زين له أن هذه المنهج وسيلة لتسكين ثورة العلويين فى الغرب . وربما كانت تتيج هذه الوسيلة فى التوايق بين البيتين العلوى والعباسى ، قبل استفحال الخلف بينهما . أما وقد استطاع الشر بينهم ، وقلب بعضهم لبعض ظهر المحرّ ، وليسوا جلد الثور ، وتحفّزوا للقتال ، وتدارأوا لليلاد ، فإن أمر الوفاق بينهم صار حلما ، وعاد الإقدام عليه صغفا وحماة مهلكة ! .

وما ذا ترتب على إسناد ولاية العهد لفرّد من العلويين ؟ .

إن التارىخ يحدّثنا أنه ترتب على إسناد ولاية العهد لعلّ الرضا أن أمر الخليفة وولايته فى جميع أنحاء الدولة بأخذ البيعة لولى عهده . ولكن يجعل المأمون الدولة تصطبغ بصبغة العلويين ، خلع الشعار الأسود ، شعار العباسيين ، وأرتدى الشعار الأخضر ، شعار الشيعة ، وأمر عمّاله بالاعتداء به . وفى أواخر هذه السنة تلقى الحسن بن سهل من أخيه الفضل أمرا بإعلان ذلك وتنفيذه ، فكانت لذلك الأمر أسوأ أثر فى أهل بغداد ، إذ وقع عليهم كالصاعقة ، لأن أهلها كانوا يخافون الشيعة ويمقتونهم ، وكذلك شمر العباسيون بأن الضربة موجّهة للقبض على خلافتهم ، فشكّوا عصا الطاعة ، وهبوا بجمل المأمون واختيار خليفته

سواء ، ولم يعارض زعماء البيت الملكي من العباسيين في ذلك . فلم تأت أترجة من هذه السنة حتى دعى لإبراهيم بن المهديّ عل المنابر خليفة بدلاً من المأمون ، وسرعان ما بُويع له بالخلافة . وكان إبراهيم بارعا في الموسيقى والغناء والشعر ، ولكن كانت تقصمه المؤهلات التي يستطيع بها أن يضطلع بأعباء الملك التي ألقيت على عاتقه ، والتي ناه بجلها مدة سنتين .

ثم ماذا كان بعد ذلك ؟

نشب القتال بين جنود المأمون وجنود إبراهيم المنتصب للخلافة ، فاضطر الحسن بن سهل نائب المأمون أن يبتدأ إلى واسط مرة أخرى ، وخيّل إليه أنه إذا جرى أهل الكوفة في مؤولم الشيعة ، يستطيع أن يضمها إليه ، وبدأ ذلك بأن ولي عليها أحد إخوة عليّ الرضا ولم يدرك أن التوفيق بين عائلتي عليّ والعباس في مدينة كهذه متقلبة الأهواء ، ضرب من المستحيل ، فإن أهلها كانوا على استعداد ، في أول أمرهم ، للقاء الحسن كقائد من صميم العلويين ، ولكنهم انتفضوا عليه باعتباره الوالي الفارسيّ من قبل المأمون ، وصل ذلك قامت الثورات في هذه المدينة أيضا كما قامت في غيرها .

ثم ماذا حدث بعد ذلك ؟

إن التاريخ يحدثنا أنه بينما كان الغرب طارفا في ليلج هذه الفوضى ، حدث في مرو تغييرٌ جديد ذو شأن : ذلك أن المأمون قد تنبه في آخر الأمر ، لخرج الموقف ، وخطورة الحالة ، ومن الغريب أن أول من نبّه الخليفة إلى هذا الخطر الحقيقيّ به ، وعرش آباءه وأجداده ، هو عليّ الرضا نفسه ، فبين المأمون أنّ ولايته للمهد كانت شؤما على الدولة ، إذ سارت الأمور فيها من سيء إلى أسوأ ، زهاء عام منذ توليه .

ويحدثنا التاريخ أن عليّ الرضا خلا بالخليفة ، وكاشفه أن الفضل وزيره يكتمه حقيقة الحلال ، ويخفي عنه أمور الدولة ، وأن أهل العراق يقولون عنه (أى الخليفة) : إنه مجنون أو مسجور ، وأن الخلافة توشك أن تُفقد من يده بين إبراهيم العلويين ، وأن الحسين

أخا الفضل يعمل في القضاء على الغرب ، بينما طاهر ذلك الفائدة الباسل الذي يستطيع أن يقود سفينة الدولة الى شاطئ النجاة منبذ في سوريا .

وقد أبدت هذه الحقائق للمأمون جماعة من قواد الدولة وزعمائها ، بعد أن أنتمهم المأمون من غضب وزيره ، ونصحوا اليه بأن خير علاج لسلامة الدولة أن يعمل بالعودة الى بغداد ، وقالوا له : إن هذه كانت نصيحة هَرَمَّة ، التي جاء من أجلها منذ ستين ليبرها اليه لو أنه أمهله واستمع له ! .

فابقن المأمون أخيرا أن استسلامه للفضل وانقباده له ، كانا سببا لكل ما حدث من الفتن والثورات ، فأمر بانتقال بيت الخلافة الى بغداد ، وما كادوا يحلّون بسرّس وهم في طريقهم الى بغداد ، حتى وجدوا الفضل قتيلا في حمّاه ، وكان الفضل ، قبل ذلك قد اضطهد جماعة القواد والزعماء الذين تشفوا أمره عند الخليفة ، فومد الخليفة بمكافأة لمن يأتيه بالقتلة ، ولما قبض عليهم دافعوا عن أنفسهم بأنهم لما قتلوه بأمر مولاهم الخليفة ، ولكن لم يُغنهم دفاعهم شيئا ، وضربت أعناقهم ، وبعث الخليفة به وسم الى الحسن بن سهل مشفوعة بكتاب تعزية منه ، ووعد به بأنه سيسنّزره خلفا من أخيه ، وبلغ من عطف الخليفة عليه ، أو من سياسته وحكيم تدبيره ، أن عقد زواجه من ابنته بوران ، التي كانت اذ ذاك فيما قيل طفلة في الحول العاشر من عمرها ، ولم يدخل بها إلا بعد ثمان سنين بعد ذلك . وفي الوقت نفسه زوج إحدى بناته لعلّ الرضا الذي كان في ذلك الوقت قد بلغ الرابعة والخمسين من عمره ، كما زوج بنتا له أخرى من ابن علي الرضا ، وكذلك ولّى أحد إخوة علي الرضا إمرة الحج . وبهذه المصاهرة تمت مظاهر حسن العلاقات وتوثيق الصّرا بينه وبين الحزب العلوي . وكانت هذه المصاهرة في ذاتها تصرفا سياسيا آية في الحكمة والسداد .

لم يمض بعد ذلك غير قليل حتى حدث حادث آخر لم يكن متوقعا : ذلك أنه في أثناء سفر الخليفة الى بغداد نزل بطّوس في فصل الخريف ، وهناك مات علي الرضا فجأة ، وقيل : إن

موته كان بسبب إفراطه في أكلة عنب، فدفنه المأمون بجوار قبر أبيه الرشيد، فاهتزّت الدولة لموته الصجائي الذي جاء عقب مقتل الفضل، وإنه لمن المعقول في مثل هذه الأحوال أن تنتشر الإشاعات، وتكثر الأراجيف في سبب موته. كما أنه من المعقول أيضا في مثل هذه الأحوال أن يصعب الوقوف على الحقيقة لتضارب الإشاعات وتناقض الأراجيف واختلاف وجهات النظر، وقد قيل نيا قيل: إن المأمون دس له السم في العنب، بيد أن الرأية التي أظهرها المأمون لعلّ الرضا، خصوصا بعد توثيق عرا العلاقات بعد المصاهرة، قد تدفع هذه الشبهة عن الخليفة.

إنا لا نملك من أن نفترض من جهة أخرى: أن الفضل وعليًا كانا عقبه كأداء في سبيل المأمون، لا يزيلها من سبيله إلا موتها، ويجوز لك أن تذهب في التدليل على أن المأمون كان يمدّ عليا عقبه في سبيل إرضاء أهالي بغداد، إلى أنه في الوقت الذي كتب فيه كتاب تعزية إلى الحسن بن مهمل يتّبع فيه موت علي أرسل كتابا آخر إلى أهل بغداد يقول لهم فيه: إن عليا الذي أظهرنا سحقهم وقهرهم من إسماعيل ولاية المهدي له قد قضى، فلا شيء إذاً يمنعهم الآن من العودة إلى طاعته وموالاته.

على أنا لا ننجاريك في هذا الافتراض، لما بيناه لك من ناحية، ولأن نفسية المأمون وخلقه، مما يستقف عليه قريبا، مما يجعل هذا الافتراض واهنا ضعيفا.

أما فيما يخص بكتاب المأمون إلى البغداديين بشأن موت علي الرضا فقول لك: إنه وإن لم يُحدث أثره المطلوب تماما في نفوس البغداديين، لأنهم أجابوا عنه بكتاب جاف نازي، إلا أنه قد خطا به خطوة ما في سبيل استئالة أهل بغداد، وفي هذا الوقت أخذ أنصار إبراهيم القلائل يتفصّون من حوله، لضعفه وسوء تديره في إدارة الحكم، وتحمّل عنه جنوده، ولم يتقدموا لمداغة جنود المأمون، وسقطت المبادئ التي كان فيها مقر خلافتهم، في أيدي جنود المأمون، وساعت أحواله، واضطرب نظام ملكه في فصل الشتاء. ولما دنا قواد المأمون وجنوده للعاصمة لمهاجمتها، نرج إليهم قواد المدينة وزعمائها، يظهرون ولائمهم وطاعتهم للمأمون.

وما كادت تنصف السنة حتى استولى قواد المأمون على المدينة ، وحتى اخفى ابراهيم كما اخفى غيره ، ممن كانوا قد خرجوا على المأمون ، وذلك بعد أن عانت ماعانت من ضروب القوضى واختلال الأمن وسقم الحال مدة سنتين تقريبا ، وبقي محتفيا فيها يقال ثمانى سنين ثم قُيِّض عليه متنكرا في زي امرأة ، هم عفا عنه المأمون وسند ذكر ذلك في موضعه .

٢ — ماخص الحالة العامة في المدة البذرادية — دخول المأمون بغداد

في صفر سنة ٢٠٤ هـ ( أغسطس سنة ٨١٩ م )

لما تحمدت ثورة بغداد ، وفر ابراهيم بن المهدي محتفيا ، واستقر النظام وباد أهلوهما الى الطاعة والولاء خلقتهم ، تقدم اليها المأمون مُتَيْدًا في سيره ، إذ كان يقف في أثناء سفره بالمداين التي يمز بها كي يعيد اليها الأمن ويُقر فيها النظام ، فأقام في جُرجان نهرا كما أقام في التَّهْرَوَانِ ثمانية أيام ، فخرج لاستقباله أهل بغداد ، يتقدمهم أهل بيته وقواده وجووه المدينة احتفاء بقدومه اليهم .

وكان المأمون قد كتب في أثناء سفره ، الى طاهر وهو في الرقة أن يوافيه في التَّهْرَوَانِ فوافاه بها ، ثم تقدم بعد ذلك ودخل بغداد في صفر سنة ٢٠٤ هـ ( أغسطس سنة ٨١٩ م ) .

وكان لا يزال الشَّعَارُ الأخضر ، شعار العلويين الذي اتخذهُ المأمون وهو في مَرْو ، شعار الدولة ، فما زال به بكار قواده وأهل بيته حتى طرحه ، واستبدل به الشَّعَارُ الأسود . شعار العباسيين . ويحدثنا يحيى بن الحسن : أن المأمون لبس الخُضْرَ بعد دخوله بغداد تسعة وعشرين يوما ثم مَرَّقَتْ ، ثم حُلِعَ الحُلْعُ السَّيِّئُ على من حضّر من القواد والأشراف ورجالات الدولة ، وعفا عن الفضل بن الربيع وزير الأمين ، الذي كان اخفى بعد مقتله ، ثم ظهر مساعدا لابراهيم بن المهدي في ثورته ، وكذلك عفا عن عيسى وزير ابراهيم ، مع انهما كانا رأسي الفتن والفلاقل التي أثبتت على حكم المأمون ، فكان موقف المأمون معها غاية في التسامح والكرم .

ولم يكن قد استقر الأمر والنظام في جميع أنحاء الدولة، بدخول المأمون بغداد، فقد كان لا يزال نصر بن سُبَيْت خارجاً في سوريا، وكانت لا تزال مصر مسرحاً للفتن والقتال، وبابك الخرمي يعظم خطره في شمال فارس، والزلط لا يزالون يعيشون في الأرض فساداً على الخليج الفارسي. وسنقص عليك في موضعه ما وصلت إليه هذه الثورات وكيف أنهت.

ثم ولّى المأمون طاهراً حاكماً على بغداد، وأقام ابنه عبد الله والياً على الرقة خلفاً من أبيه. غير أن المأمون لم يلبث أن تنكر لطاهر وأظهر له الجفوة. ثم رى بعد قليل أن طاهراً ولّى حاكماً على نخراسان.

وقد كما نكون في حيرة من أمر هذا التنكر التجاني من الخليفة على رجله العظيم من غير سبب ظاهر، ثم ينتهي ذلك بأن يكون حاكماً على نخراسان، لولا أن ابن طيفور يروي لنا أسباب كل هذا في قصة ممتعة مألوفة: أن طاهراً دخل على المأمون ذات يوم في حاجة، وكان المأمون فيما قيل في مجلس شراب، فأمر له برطلين من النبيذ ثم بكى المأمون وتفرغت عيناه، فقال له طاهر: يا أمير المؤمنين لم تبكي لا أبكى الله عينك! فوالله لقد دانت لك البلاد، وأذن لك العباد، وصرت إلى المحبة في كل أمرك، فقال: أبكى لأمر ذكره ذل، وسره حزن، ولن يخلو أحد من شجني: فتكلم بحاجة إن كانت لك. فلما زال طاهر بعد ذلك يتخذ الوسائل إلى معرفة السبب حتى وفق بالمال إلى إغراء ساق المأمون أن يتعرف كونه ذلك السبب. فلما تسدى المأمون ذات يوم قال لساقيه: يا حسين، اسقني، قال: لا والله لا أسقيك أو تقول لم بكيت حين دخل عليك طاهر! قال: يا حسين، وكيف صُنيت بهذا حتى سألني عنه؟ قال: لعمري بذلك؛ قال: هو أمر إن خرج من رأسك قتلتك، قال: ياسيدي، ومتى أخرجت لك سرّاً؟ قال: إني ذكرت محمداً أحمى، وما ناله من الذلة تخففتي العبء، فاسترحت إلى الإفاضة. ولن يفوت طاهراً متى ما يكره. قال: فاجهر حسين طاهراً بذلك؛ فركب طاهر إلى أحمد

ابن أبي خالد - وهو وزير المأمون - فقال له : إن الشاء متى ليس برخيص، وإن المعروف عندى ليس بضائع، فتنبئني عن عينه . فقال له : سأفعل فبكرت على غدا . قال وركب ابن أبي خالد إلى المأمون، فلما دخل عليه قال له : ما نمت الليلة ؟ فقال له : ولم يبك ! قال : لأنك وليت غسان خراسان، وهو ومن معه أكلة رأس<sup>(١)</sup>، فأخاف أن يخرج عليك خارجة من الترك فيصطلمه ؟ قال : لقد فكرت فيما فكرت فيه، قال : فن ترى ؟ قال : طاهر بن الحسين ؟ قال : وبلك يا أحمد ! أهو والله خالع ! قال : أنا الضامن له ؛ قال له : فأنفذه ؛ قال : فدعا بطاهر من ساعته .

ويظهر أن المأمون، فيما ذكر الرواة، لم يكن معطشاً، مع ضيق وزره لطاهر، إلى تعيينه حاكماً على خراسان، فإن بعض الرواة يقول : إن المأمون أسر إلى خصى له أمين يرافقه طاهر، حتى إذا رأى منه خروجاً دس له السم .

ثم لم يلبث طاهر بعد أن تولى شؤون خراسان، وأدارها بحزم وسداد رأى، حتى ظهر منه ما كان يخشاه المأمون، من خروج وعصيان، فقد أسقط اسم المأمون من خطبة الجمعة، وذكر دعاء مبهما لنصرة الدين، فأنفذ حين المأمون عامل البريد فوراً بكتاب إلى المأمون، يخبره فيه بما وقع من طاهر، ثم رى المأمون يتوقع جمع كتاب آخر وينظره بفارغ الصبر إلى اليوم التالي لورود الكتاب الأول، وقد جاءه هذا الكتاب فعلا بنى طاهراً الذى وجد ميتاً في فراشه .

وبنن نرى بعد أن ذكرنا ما ذكرنا أنه لم يبق شيء من الغموض في هذه الناحية من عصر المأمون، وأن تصرفات المأمون مع طاهر، ثم خروج طاهر عليه ثم موت طاهر بعد ذلك، كلها حوادث واضحة الأسباب معقولة النتائج . ولا نستطيع أن نغشى الأستاذ « ميور » الذى يرى أن على هذه الحوادث جميعها غشا من الغموض كثيفاً .

(١) يريد أنهم قتل عددهم يشبههم رأس واحد .

ثم رأى المأمون بعد موت طاهر أن يولى مكانه ابنه طلحة، وأن يستبقى ابنه عبد الله والياً على الجانب الغربي من الخلافة، ليقمع ما فيه من ثورات، ويسكن مابه من اضطراب. ثم أرسل وزيره مع طلحة ليقوى دعائم سلطانه في ولايته، فشحخص الوزير الى ما وراء النهر، وقام بجملته موقفة على بعض العصاة، ثم قفل راجعاً الى بغداد مزوداً — فيما يقول الرواة — بهدية نفيسة له من طلحة مقدارها ثلاثة آلاف ألف درهم وملكاته بأمرى مقدارها بمائة ألف درهم.

أما طاهر الذي توفي في فراشه، وربما كان الذي يعلم سر وفاته قبل سواء هو المأمون وطلحاته، فقد قدما لك شيئا في كلمتنا عن النزاع بين الأخوين عن عظيم خطره، وحسن بلائه وخبرته بالحروب، ولا يقل خطره في تدبير الحكم وشؤون السياسة عن خطره في الحرب، وكان مع ذلك مشغولاً بالعلم والأدب، مشجماً لأربابهما، حاثاً على تعلمهما. وليس أدل على تميزه في العلم والأدب، وخبرته بشؤون السياسة، وبصره بتصرف الأيام، من عهده الذي كتبه الى ابنه عبد الله. ولستأ نرى ما تقدم به اليك هذا العهد، خبراً من وصف المأمون له حين بلغه، وتقديره له، واحتفائه به، واستنساخه، ثم إرساله الى عماله في الولايات. قال ابن طيغور: لما عهد طاهر بن الحسين الى عبد الله ابنه هذا العهد، تنازعه الناس، وكتبوه وتدارسوه، وشاع أمره، حتى بلغ المأمون فهدأ به، وقرئ عليه وقال: ما بقى أبو الطيب شيئا من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى والسياسة وإصلاح الملك والرعية وحفظ البيعة وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا أحكمه وأوصى به وتقدم فيه، وأمر أن يكتب بذلك الى جميع العمال في نواحي الأعمال.

وكانت كتابة هذا العهد من طاهر لابنه عبد الله حين اختار المأمون عبد الله لولاية مصر ومحاربة نصر بن سبب لما رآه فيه من حزم وفطنة وكفاية وحسن بلاء. وكان عهد أبيه اليه قانوناً يطبقه على نفسه أحزم تطبيق، وكان لا يورد شيئا في شأن من شؤونه أو يعيدره إلا على منهجه وفي حدود إرشاداته.



ولما كان هذا العهد من الوثائق التاريخية التي لها قيمتها العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية أثرنا ذكره، وقد أشتناه في باب المنشور من الكلب الثالث في المجلد الثالث فراجعوه .

### ٣ - ثورة نصر بن شبيب

أما نصر بن شبيب ، الذي وجهه عبد الله بن طاهر لمحاربته بعد أن وجه إليه أبوه ، فقد كان من خرجوا حين اضطرب نظام الدولة ، وكثرت الأراجيف ، ونشط أعداء المأمون خاصة والعباسيين عامة لبقاء المأمون في مرو بعيدا عن عاصمة الملك وحاضرة الخلافة . وكان من الممكن أن يكون مصير ثورة نصر مصير غيرها من الثورات ، التي تحمّت بسرعة ، لولا أن طاهرا لم يجد في محاربته . وقد ذكر أنه قال للحسن بن سهل حينما نذبه للخروج الى محاربة نصر بن شبيب : حارب خليفه ، وسقت الخلافة الى خليفة ، وأؤمر بمن هذا ! وإنما كان ينبغي أن توجه لهذا قائدا من قوادى ! وذكر بعض المؤرخين أن طاهرا فر كلنهمز أمام نصر بعد معارك حامية بين جنديهما ولكنه حرص بعد ذلك على ما بقى في يده من البلاد أن يغير نصر عليها .

ويظهر أن ما يقوله بعض المؤرخين من أن ثور طاهرا في محاربة نصر بن شبيب ، يرجع الى الصدمة التي صدمه بها آل سهل : حين حرموه من ثمار فتوحه في العراق ، له حظ كبير من الحق ؛ فاننا لا ننسى عجز طاهرا عن مناهضة نصر ، واخضاعه ، مع ما هو معروف عنه من الدهاء ، والبصر بالحرب ، وحسن تهيئته للجيوش ، ووضع أدق الخطط لمحاربتها ، ومع أن وراء الدولة ثمة ما يحتاج اليه من جند وسلاح ومال .

وبهما يكن من شيء فقد كُتف أنصار نصر وعظم خطره ، حتى ذهب اليه نفر من شيعة الطالبيين فقالوا له : قد وُترت بنى العباس وقتلت رجالهم ، فلو ايمت ن خليفة لكان ذلك أقوى لأمرك ! فقال : من أى الناس ؟ فقالوا : يتابع لبعض آل حلّ بن أبى طالب ؛

قَالَ : أُبَاجِ بَعْضَ أَوْلَادِ السُّودَاوَاتِ فَيَقُولُ إِنَّهُ خَلَقَنِي وَرَزَقَنِي ! قَالُوا : نَبَاجِ بَعْضَ بَنِي أُمَيَّةٍ ؛ قَالَ : أَوْلَئِكَ قَوْمٌ قَدْ أَذْرَأَ حُرْمَهُمْ ، وَالْمُذْرِئُ لَا يَقُولُ أَبَدًا ، وَلَوْ سَلَّمَ عَلَى رَجُلٍ مَدِيرٍ لَأَمَدَانِي إِدْبَارُهُ ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي بَنِي الْعَبَّاسِ ، وَإِنَّمَا حَارِبَتُهُمْ عِمَامَةُ عَنِ الْعَرَبِ ، لِأَنَّهُمْ يَهْتَمُّونَ عَلَيْهِمُ الْعَجَمُ . فَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ هَذَا طَوِيلًا ، فَهُوَ يُحِيطُ لَنَا اللَّثَامَ عَنْ حَقَائِقٍ يَجِبُ أَنْ نَقِفَ عَلَيْهَا .

يُرَوِّى لَنَا التَّارِيخُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ طَاهِرٍ ، الَّذِي تَهَدَّى لِمَحَارِبَةِ نَصْرِيْنَ شَبَّتَ كُتُبَ إِلَى الْمَأْمُونِ يَعْلَمُهُ أَنَّهُ حَصَرَهُ ، وَضَيَّقَ عَلَيْهِ ، وَقَتَلَ رُؤَسَاءَ مِنْ مَعِهِ ، وَأَنَّهُ قَدْ هَازَ بِالْأَمَانِ وَطَلَبَتْهُ ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَكْتُبَ لَهُ كِتَابَ أَمَانٍ ؛ فَكُتِبَ إِلَيْهِ أَمَانًا نُسَخَتْهُ : «أَمَا بَعْدَ ، فَإِنَّ الْإِعْذَارَ بِالْحَقِّ حِجَّةُ اللَّهِ الْمُقْرُونِ بِهَا النَّصْرُ ، وَالِاحْتِجَاجُ بِالْعَدْلِ دَعْوَةُ اللَّهِ الْمُوَصَّوْلُ بِهَا الْعِزُّ . وَلَا يُزَالُ الْمُعْصِرُ بِالْحَقِّ ، الْمُحْتَجُّ بِالْعَدْلِ ، فِي اسْتِفْتَاخِ أَبْوَابِ التَّائِبِ ، وَاسْتِدْعَاءِ أَسْبَابِ التَّكْوِينِ ، حَتَّى يَفْتَتَحَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاتَحِينَ ، وَيَكُنَّ وَهُوَ خَيْرُ الْمَكْنُونِينَ . وَلَسْتُ نَعُدُّوْا أَنْ تَكُونَ فِيمَا لَهَجْتُ بِهِ ، أَحَدٌ ثَلَاثَةً : طَالِبَ دِينٍ ، أَوْ مُتَمَسِّسَ دُنْيَا ، أَوْ مُتَوَرِّدًا يَطْلُبُ الثَّغْلَةَ ظُلُمًا ، فَإِنْ كُنْتُ لِلدِّينِ نَسِيًّا بِمَا تَصْنَعُ فَأَوْضَحْ ذَلِكَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَنْتَهَ قَبُولُهُ إِنْ كَانَ حَقًّا ، فَلَعُمْرِي مَا هُمُّهُ الْكِبَرُ وَلَا ظَايَتُهُ الْقَصْوَى إِلَّا الْمِيلُ مَعَ الْحَقِّ حَيْثُ مَالٌ ، وَالزُّوَالُ مَعَ الْعَدْلِ حَيْثُ زَالٌ . وَإِنْ كُنْتُ لِلدُّنْيَا تَقْصِدُ ، فَأَعْلَمُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ظَايَتِكَ فِيهَا ، وَالْأَمْرَ الَّذِي تَسْتَحْقِقُهُ بِهِ ، فَإِنْ اسْتَحَقَّقْتُهَا وَأَمَكْنَهُ ذَلِكَ فَعَلَهُ بِكَ ؛ فَلَعُمْرِي مَا اسْتَجِيزَ مِنْ خَلْقٍ مَا يَسْتَحِقُّهُ وَإِنْ عَظُمَ . وَإِنْ كُنْتُ مُتَوَرِّدًا فَسَبِّحْنِي اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُؤْتَكِّدًا ، وَيُعْجَلْ ذَلِكَ كَمَا يُعْجَلُ كِفَايَتُهُ مَوْثِقٌ قَوْمٌ سَلَكُوا مِثْلَ طَرِيقِكَ ، كَانُوا أَقْوَى يَدَا ، وَأَكْثَفَ جُنْدَا ، وَأَكْثَرَ جَمْعَا وَعَدَدَا وَنَصْرًا مِنْكَ ، فِيمَا أَصَارَهُمْ إِلَيْهِ مِنْ مَصَارِعِ الْخُلَاسِرِينَ ، وَأُتْرَلَ بِهِمْ مِنْ جَوَائِحِ الظَّالِمِينَ . وَأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَنْتَهَ كِتَابُهُ بِشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنْ عَمِدَا عَيْدِهِ وَرَسُولُهُ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَضَائِحَانَهُ لَكَ فِي دِينِهِ وَذِمَّتِهِ الصَّفْحَ عَنْ سَوَالِفِ جَرَائِمِكَ ، وَمُنْقَذَاتِ جَرَائِمِكَ ، وَإِزَالُكَ مَا تَسْتَأْهِلُ مِنْ مَنَازِلِ الْعِزِّ وَالرِّفْعَةِ ، إِنْ أَنْبَتَ وَرَاجَعْتَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَالسَّلَامُ » .

وقد ذهب عبد الله بن طاهر إلى وجهه في محاربة نصر، ولبت في مناهضته، حتى اضطره إلى التسليم نحو خمس سنين، وفي أثناء هذه المدة سعى المأمون إلى إخماد الثورة من طريق الصالح، فدب جمعفر بن محمد العامري، ليؤدي رسالة منه إلى نصر، يطلب منه فيها ترك الحروب والجُحُوح إلى السلم.

وقد كاد يتم الصلح بين الفريقين، وتُحْمَنُ السماء، وينهب عن الناس في تلك النواحي ما أصابهم من فزع وهلع، لولا خُزْوانة<sup>(١)</sup> في رأس نصر قابلتها أخرى، فيما يقول الرواة، في رأس المأمون، حاثا دون هذه الغاية السامية: ذلك بأن نصرا قبل ما اقترحه المأمون، لكنه شرط ألا يطاء بساطه. فلما بلغ المأمون هذا الشرط قال: لا أجيبه والله إلى هذا أبدا ولو أفضيت إلى بيع قيصي حتى يطاء بساطي! ثم كتب إليه المأمون بعد ذلك كتابا هذه نسخته:

أما بعد، فانك يا نصر بن شيبث قد عرفت الطاعة وعرضا وبرد ظلمها وطيب مرتعها، وما في خلافتها من الندم والخسار. وإن طالت مدة الله بك، فإنه إنما يُعْلِي لمن يلمس مظاهرة الجبة عليه، لتقع عبء أهلها على قدر إصرارهم واستحقاقهم، وقد رأيت إذ كارك وتبصيرك، كما رجوت أن يكون لك أكتب به إليك موقع منك، فإن الصديق صادق والباطل باطل، وإنما القول بخارجيه وبأهله الذين يُعْتَوْنَ به، ولم يعاملك من عمال أمير المؤمنين أحد أضع لك في مالك ودينك ونفسك، ولا أحرص على استئذائك والانتبائش<sup>(٢)</sup> لك، من خطائك مني، فبأي أقل أو آخر أو سيطرة أو إمرة إقدامك يا نصر على أمير المؤمنين، تأخذ أمواله، وتتولى دونه ما وآله الله، وتريد أن تبيت آمنة أو مطمئنا أو وادعا أو سائكا أو هادئا، فوطأ السر والجهر، ثم لم تكن للطاعة مرأجا، وبها خائعا، لتستوي لمن وحم العاقبة، ثم لا بد أن بك قبل كل عمل، فإن قرون الشيطان إذا لم تقطع،

(١) الخزانة: الكبير.

(٢) استغناك من الهندكة.

كانت في الأرض فتنة وفسادا كبيرا، ولأطاعت بمن معي من أنصار الدولة ككاهل رِطَاع أصحابك ، ومن تأشَب اليك من أداني البلدان وأقاصيها ، وطغامها وأوابسها ، ومن انضوى إلى حوزتك من خُراب الناس ، ومن لفظه بلده ونفقه عشيرته لسوء موضعه فيهم ، وقد أصدَرَ من أُنذر، والسلام .

ثم أخذ نجيد الله يبيد في محاربتة وحصره حتى ضيق عليه ، واضطره إلى طلب الأمان ، وقد احتفى بنصره ، وهو ذاهب إلى بغداد خاضعا لخليفة ، احتفاء عظيما ، بيد أن جماعة ممن كانوا ناقلين على المأمون ، لم يفهم أن ينتهي الخلاف بينه وبين تائثر قوى ، فأرادوا أن يكذبوا صفاء السرور فذبروا مؤامرة ، وهي أن يقطعوا جسر الزوارق ، عند اقتراب نصر بموكبه الحافل ، فقبض عليهم ، ولأمر ما كان المأمون ، على غير عادته ، قاسيا في عقابهم . فقد جاء بزعيمهم ابن عائشة ، فيا قال الرواة ، وهو من بى العباس ، ووضعه على باب داره ، في أشعة الشمس المحرقة ثلاثة أيام ، ثم أمر بضربه بالسياط ثم أمر بضرب عنقه مع كثير ممن كانوا معه .

تقول لأمر ما كان المأمون قاسيا في عقابهم ، لأن الرجل الذي يصل به عفوه وحلمه إلى أن يعفو عن إبراهيم بن المهدي والفضل بن الربيع وغيرها ، من أصحاب الكبائر ومن كادوا له حقا ، وسعوا في ضياع ملكه ، وأسباب عرشه ، لا بد أن يكون الدافع له إلى القسوة في عقاب هؤلاء الأشخاص حاجة في نفسه عميت علينا . ونحن نعتز بأن المصادر التي بين أيدينا لم تفسر لنا تفسيراً مقننا ، السر في هذا الاشتطاط وهذه المبالغة في العقوبة من المأمون الوديع الحليم .

على أن هذه الحادثة تحتاج إلى تحقيق دقيق ولم تتجع لنا المصادر الحاضرة الفياح بتعريف وجه الحق فيها ، ولا يستبعد البتة أن يكون المأمون منها براءً . وليت أعضاء المجمع العلمي العربي - وغيرهم من رجال العلم والتاريخ والأدب يعنون بتحيص مثل هذه النقاط المهمة في تاريخ أزهي عصورنا الإسلامية .

(١) أي أخطأ بك وانضم اليك . (٢) الطغام : أوعاد الناس . (٣) جمع طارب وهو اللص . ونحسه الأصمى يسارق الليل .

## ٤ - الزط

أما الزط، فهم المعروفون بالثورة<sup>(١)</sup>، وقد قال ابن خلدون عنهم : إنهم قوم من أخلاط الناس غلبوا على طريق البصرة، وعاثوا فيها، وأفسدوا البلاد .

أما نحن فلا نستطيع من ناحيتنا أن نسلك هؤلاء القوم في سلك أصحاب الثورات ، أو الخارجين على الخليفة ، لِصِلَةِ دِينِيَّة ، أو مذهب سياسي ، وإنما هم طائفة من هندو آسيا كانوا يسكنون شواطئ الخليج الفارسي ، قد وجدوا به حين اضطراب الأمن في أطراف الدولة ، وضعف سلطان الحكومة ، وانصراف القائمين بتسيير الشؤون العامة ، الى أمر الفتنة القائمة بين الأمن والمأمون ، التي انتهزها الزط وأمثال الزط فرصة السلب والنهب والقيث في الأرض فسادا ، فجمعوا واستولوا على طريق البصرة ، فهم بقرصان البحر وقطاع الطرق أشبه منهم بالثاوين وأصحاب المبادئ ! .

ويظهر أنهم ، كما يقول الأستاذ المرحوم محمد الحضرى بك ، كانوا اذا أخرجهم الجند ، تفسر قوا في تلك القياقي ، فانتسبوا الى المأمون بكلف غير مرة أكثر من قائد أمر القضاء عليهم ، ثم زاهم لا يزالون يعيشون في الأرض فسادا ، حتى السنة الأولى من عهد المعتصم ، الذي كلف أحد قواده : تَجِيْفَ بَنِّ عُنْسَةِ القضاء عليهم ، فاهتم تَجِيْفَ بحربهم ، وضيق عليهم طريق البر والبحر ، وحصرهم من كل وجه ، ثم حاربهم وأسر منهم نحو ثمانمائة رجل ، وقتل منهم نحو ثلاثمائة ، وقطع رءوس الأسرى وبعث بالرموس جميعا الى المعتصم ، وجدة في حربهم حتى اضطروهم الى التسليم ، فاذا جَدَّتْهُمْ سبعة وعشرون ألف شخص بين رجل وامرأة وصبي ، وكان من هذا العدد اثنا عشر ألف مقاتل ، ثم حملهم في السفن

(١) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار : « إن التورخيلة من القبائل الأسبوية كالكافاجار الذين سمىهم الفير والتاتار والتر ، وهم يفرقون بالشلخت في انسا وألمانيا ، وفي بلاد الانكيز اسمهم جسون ، ويسمى الترك باسم (قبط) وفرق منهم يسمى سنجانه وهم سكان ترانيا ، وفي مصر يسمون تارة خبرا وتارة حليا » .

الى بغداد، فزوا على المعتصم بأوراقهم وھیئتهم الجریبة، ثم یقولوا أن الرامر الى قرية تسمى  
مین زربة<sup>(١)</sup> .

وقد ذکر ابن الاثیر فی حوادث سنة ٣٤١ هـ فی عهد المتوکل أن الروم أغارت علی  
عین زربة هذه، فأخذت من كان فیها أسیرا من الرط مع نسائهم وذرائعهم وذویهم .

### ٥ - ثورة مصر

أما مصر، فقد كانت مسرحا للقلقل والفتن، وكان رأس الفتنة وزعيمها عبيد الله  
ابن الشیرى بن الحكم الذى عظم خطره باشتغال عبد الله بن طاهر بمحاربة نصر بن شيث  
وإخضاعه، وما زاد فی اضطراب النظام فی مصر قدوم جماعة من أفاق الأندلس الى  
الاسكندرية، يحدثنا عنهم الطبرى بقوله : حدثني غير واحد من أهل مصر أن  
مراكب أقبلت من بحر الروم، من قبل الأندلس، فیها جماعة كبيرة، أيام شغل الناس قبلهم  
بفتنة الجریوی وابن الشیرى، حتى أرسوا مراكبهم بالاسكندرية، ورئيسهم يومئذ يدعى  
أباحفص، فلم يزالوا بها مقيمين، حتى قدم عبد الله مصر .

ويحدثنا عن الفتنة التي كانت بمصر بقوله : قال لي يونس بن عبد الأعلى : قدم علينا  
من قبل المشرق فتى حدث - یعنی عبد الله بن طاهر - والدنيا عندنا مقتونة، قد غلب  
عل كل ناحية من بلادنا غالب، والناس منهم فی بلاء، فأصلح الدنيا، وأمن البرىء،  
وأخاف السقیم، واستوثقت له الرجیة بالطاعة .

أما ما كان من أمر عبد الله بن طاهر فی مصر، فإن التاريخ يحدثنا أنه لما انتهى أمر  
نصر بن شيث، كما قدمنا، كتب المأمون الى عبد الله بأمره بالتوجه الى مصر لإنقاذ  
ما فیها من فتنة، فذهب اليها، وجاد الثائرين القتال، حتى اضطرتهم جميعا الى طلب الأمان،  
فأجابهم اليه .

(١) ضابطها باقوت بفتح الزاي وسكون الراء وباء موحدة وألف مقصورة وقال إنها بلف بالفر من فواح  
المحصنة بتاء الرشيد سنة ١٨٠ هـ وتذب اليها ندبة من أهل خراسان وغيرهم وأعطاهم إياها .

وأما الأندلسيون الذين حضرت جماعة كبيرة منهم إلى الإسكندرية، فقد طلبوا الإيمان، على أن يتركوا بيتهم إلى بعض أطراف الروم، فرحلوا إلى جزيرة إقريطش (كريت) فاستوطنوها وأقاموا بها .

وأما ما كان من ابن السري، فإنه طلب الإيمان إلى عبد الله وذلك بعد قتال عنيف، وانهزامه ثم هزيمة .

ولما أُنشئت الفتنة في مصر، وبلغ المأمون الخبر، كتب إلى عبد الله يهنئه، وجعل في أسفل كتابه أبياتا من الشعر، إن ثبت صدورها من المأمون حقا، ولم تكن من وضع القصاص والرواة، فإنها تعتبر آية في كرم أخلاق المأمون . وقد ذكرناها في علاقة المأمون مع عماله .

وقد كتب إليه أحمد بن يوسف وزير المأمون يهنئه بهذا الفوز كتابا بلغ اللفظ، وشيق الأسلوب، هذه نسخته : بلغني، أعز الله الأمير، ما فتح الله عليك، ونعروج ابن الميرى إليك . فالحمد لله الناصر لدينه، المعز لدولة خليفته على عبادته، المذل لمن عند عنة وعن حقه، ورغب عن طاعته، ونسال الله أن يظهر له النعم، ويفتح له بلدان الشرك، والحمد لله على ما وليك مذ طعنت لوجهك، فإننا ومن قبلنا نتذكر مسيرتك في حربك وسلمك، ونكثر التعجب لما وقفت له من الشدة واللبان في مواضعهما، ولا نعلم سائس جند وريعية عدل بينهم عدلك، ولا عفا بعد القدرة عن أسفه وأضغنه عفوك، ولقد رأينا ابن شرف لم يلق بيده متكيلا على ما قدمت له أبوته، ومن أوتي حظا وكفاية وسلطانا وللاية، لم يُخلد إلى ما عفا له حتى يُخل بساماة ما أمامه، ثم لا نعلم سائسا استحق النصح لحسن السيرة، وكلف معزة الأتباع استحقاقك، وما يستجيز أحد من قبلنا أن يقدم عليك أحدا يهوى عند الحاققة والتنازلة المعضلة، فليهلك منة الله ومزيده، ويُسوّك

(١) عذ عن الشيء : ماله منه وعذله .

(٢) أسفه : أفضبه .

الله هذه النعمة التي حوّاها لك ، بالمحافظة على ما به تمت لك ، من التمسك بجبل إمامك ، ومولائك ومولى جميع المسلمين ، وملّاك وإيانا العيش ببقائه ، وأنت تعلم أنك لم تزل عندنا وعند من قبلنا مكرّما مقدّما معظّما ، وقد زادك الله في أمين الخاصة والعامة جلالة وبجالة ، فأصبحوا يرجّونك لأنفسهم ويُدّونك لأعدائهم ونوائبهم ، وأرجو أن يوفقك الله لمحّابه ، كما وفق لك صنّعه وتوفيّقه ، فقد أحسنت جوار النعمة ، فلم تُطيقك ولم تزد إلا تذلا وتواضعا ، فالحمد لله على ما أنالك وأبلاك وأودع فيك ، والسلام .

وقد خرج المأمون الى مصر في ١٦ الحجة سنة ٢١٦ هجرية ، أثر شغفه الى دمشق لالة الثانية . وكان خروجه الى مصر ، فيما يقول الرواة ، لإنقاذ ما قام فيها من فتن واضطرابات ، وذلك أن أهالي الوجه البحري خرجوا ومعهم أقباط البلاد على عيسى بن منصور عامل مصر ، لسوء سيرته فيهم ، ولتجسّص صليبه معهم .

ويحدّثنا التاريخ أن عيسى هذا قد بدّل ما في مقدوره لإنقاذ الفتنة والقضاء على الثورة ، فلم يحالفه الظفر ، وأخرجه التوار أقيح محرّج من البلاد ، فقدم القائد التركي المعروف بالأفشين وعمل على قبح الفتنه وإنقاذ الثورة ، وقتل مقتلة ذريعة من الأهلين ، فسكنت الفتنة الى حين .

ثم عادت الفتنة ثانية واندلع لهيبها ، واستدعت خطورتها قدوم المأمون الى مصر ، فجاء إليها ، ونظر في شكاة الأهلين ، وعمل على إنصافهم ، وتخطّى على عيسى بن منصور ، ونسب اليه وإلى سبّاه أعماله كلّ ما حدّث في طول البلاد وعرضها من فتن وثورات .

ويظهر أن الثورة المصرية لم تُجتمد تماما ، وأنها تطلّبت من المأمون ، الى جانب ما أظهره من رغبة في إحقاق الحق وإجراء العدل ، شيئا من الحزم واستعمال القوة ، بخاذة الثائرين القتال ، حتى أذعنوا أخيرا : ويقول المؤرخون : إنه لبّث في مصر أربعين يوما أو يزيد ، إذ قدّمها في الخامس من محرم سنة ٢١٧ هـ . وبقي بها الى الثامن عشر من صفر .



ويظهر أنه قضى هذه المدة، الى جانب اشتغاله بحرب أهلها، بالنقل بين العاصمة وبعض الأعمال مثل (سجّار وطلوان وغيرهما) .

ومن أعماله في مصر تعمير مقياس النيل، وبعض إصلاحات أخرى بالجزيرة تجاه القسطنطينية . وعاد المأمون أخيراً الى دمشق بعد أن شهد المصريين مصرهم وعدم احتياهم ظلم الحكام والولاة .

#### ٦ - بابك الخرمي

يُعرفنا المؤرخون أن بابك الخرمي، قد ظهر من كورة في شمال بلاد فارس تُسمى «البذ»، وقد كان خروجه للدعوة الى مذهبه الإباضي سنة ٢٠١ هـ، وكان المأمون لا يزال في «مرور» قبل أن ينتقل الى عاصمة ملكه بغداد . وقد امتدت فتنة بابك عيفةً، طوَّال عهد المأمون، وصدرًا من عهد المعتصم .

وقال أبو سعيد عبد الكريم بن محمد السمعاني المروزي، في كتاب الانساب<sup>(١)</sup> هذه النسبة الى طائفة من الباطنية، يقال لهم : الخرمدينية، قوم يدعون بما يريدون ويشتهون، وإنما لقبوا بذلك لباحثهم المحرمات من الخمر وسائر اللذات ونكاح ذوات المحارم وفعل ما يتلذذون به، فلما شابهوا في هذه الإباحة المزدكية من المجوس، الذين خرجوا في أيام قبادز وأباحوا النساء كلهن وأباحوا سائر المحرمات، الى أن قتلهم أنوشروان بن قبادز، قيل لهم بهذه المشابهة تحميدية كما قيل للزديكية .

وقبل أن نخوض في تفصيل حوادث هذا الرجل، وما بذله المأمون، ثم المعتصم في قتاله، ثم ما كان من مصيره بعد ذلك على يد الأفيشين قائد المعتصم التركي سنة ٢٢١ هـ - قبل كل هذا، نحب أن نورد لك ما ذكره ابن النديم في فهرسته عن مذهب الخرمية الباطنية وما يتعلق به، لتكون على بصيرة من مذهب الرجل، وما كان يدعو اليه من تخليعة وبذعة .

(١) جاء في القاموس وشرحه : « خرمية » كسكرة قرية هاريس منها بابك الخرمي الطاغية الذي كاد أن يسقط على الهالك زمن المعتصم . ثم قال : وتخرم الرجل دان يدين الخرمية أصحاب التنج والخلج والإباحة .

قال محمد بن إسحاق : « الخزمية صنفان : الخزمية الأولون ، ويسمون المحمرة ، وهم منشثون بنواحي الجبال فيما بين أذربيجان وأرمينية ، وبلاد الديلم ، وهمذان ، وديزور ، وفيما بين أصفهان وبلاد الأهواز . وهؤلاء أهل مجوس في الأصل ثم حدث مذهبهم . وهم ممن يعرف باللقطة ، وصاحبهم مزدك القديم ، أمرهم بتناول اللذات ، والانعكاف على بلوغ الشهوات ، والأكل والشرب ، والمواساة والاختلاط ، وترك الاستبداد بعضهم على بعض ، ولهم مشاركة في الحرم والأهل لا يمتنع الواحد منهم من حرمة الآخر ولا يمنعه . ومع هذه الحال فيرون أفعال الخبير وترك القتل وإدخال الآلام على النفوس . ولهم مذهب في الضيافات ليس هو لأحد من الأمم : إذا أضافوا الإنسان لم يمنعه من شيء يلتمسه كالشاة ما كان . وعلى هذا المذهب مزدك الأخير الذي ظهر في أيام قباد بن فيروز وقتله أنوشروان وقتل أصحابه . وخبره مشهور معروف . وقد استقصى البلخي أخبار الخزمية ، ومذاهبهم ، وأفهامهم ، في شرحهم ولذاتهم وعبادتهم ، في كتاب «عيون المسائل والجوابات» ولا حاجة بنا إلى ذكر ما قد سبقنا إليه فيها » .

«فأما الخزمية البابكية، فإن صاحبهم بابك الخزمي . وكان يقول لمن استغفاه : إنه إله . وأحدث في مذاهب الخزمية القتل والفسب والحروب والمثلة ، ولم يكن الخزمية يعرفون ذلك .

ثم ذكر صاحب الفهرست بعد ذلك نشأته وما وقع له في بدء أمره حتى صار إمام هذه النحلة التي تنسب إليه نقلا عن وأحد بن عمرو التميمي الذي عمل أخبار بابك ، فقال : وكان أبوه رجلا من أهل المدائن دهانا ، نزع إلى شرأندربجان ، فسكن قرية تدعى «بلال آباد» من رستاق (مميند) ، وكان يحمل دهنه في وءاء على ظهره ويطوف في قرى الرستاق ، فهو امرأة عوراء ، وهي أم بابك ، وكان يفجر بها برهة من دهره ، فبينما هي وهو متبذنان عن القرية ، متوحذان في غيبة ، ومعهم شراب يتكفان عليه ، إذ خرج من القرية نسوة يستقين الماء من عين في الغيبة ، فسمعن صوتا يتعليا يترنم به فقصدن إليه ، فهجمن عليهما ، فهرب

عبد الله وأخذن بشعر أم بابك، وجئن بها إلى القرية وفضحنها فيها . قال واقد : ثم إن ذلك الدخان رغب إلى أبيها ، فزوجه منها فأولدها "بابكا" . ثم خرج في بعض سفرائه إلى جبل سيلان واعترضه من استغفاه وجرحه فقتله ، مات بعد مدينة موأقبلت أم بابك ترضع للناس بأجرة ، إلى أن صار لبابك عشر سنين ، فيقال : أنها خرجت في يوم من الأيام تلتمس بابكا ، وكان يرعى بقراً لقوم ، فوجدته تحت شجرة قائلًا وهو عريان ، وإنها رأت تحت كل شجرة من صدره ورأسه دماً ، فأنقته من نومه ، فاستوى قائماً وحال ما رأت من الدم فلم تجمده قالت : فعلمت أنه سيكون لابني نبياً جليل .

«قال واقد : وكانت أيضاً بابك مع الشبل بن المنق الأزدي برستاق سراً ، يعمل في سياسة دوابه ، وتعلم ضرب الطنبور من غلمانها ، ثم صار إلى تبريز من عمل أذربيجان ، فاشتغل مع محمد بن الرقاد الأزدي نحو ستين ، ثم رجع إلى أمه ، وله ثمان عشرة سنة ، فأقام عندها . قال واقد بن عمرو : وكان يجبل البذ وما يليه من جباله رجلاً من الملوح ، متحيزين ولها جنة وثروة ، وكان متشاجرين في التملك على من يجبال البذ من الخرومية ليتوحد أحدهما بالرياسة ، يقال لأحدهما « جاويدان بن سهرك » ، والآخر ظلت عليه الكنية يعرف « بأبي عمران » وكانت تقوم بينهما الحرب في الصيف ، وتحول بينهما الثلوج في الشتاء لانسداد المقاب . فإن جاويدان ، وهو أستاذ بابك ، خرج من مدينته بألف شاة ، يريد بها مدينة ونجان من مدائن ففورقزوين ، فسلخها وباع غنمه وانصرف إلى جبل البذ ، فأدركه الثلج والليل برستاق مميند ، فصاح إلى قرية "بلال أباز" ، فسأل جريحها إنزاله ، فحضر به ، بالاستخفاف منه بجاويدان ، فأنزله على أم بابك وما تستبيت من صنك وعظم ، فقامت إلى نار فأجمتها ، ولم تقدر على غيرها ، وقام بابك إلى غلمانها ودوابه فغدهم وأسقى لهم الماء ، وبعت به جاويدان ، فابتاع له طعاماً وشرباً وعلفاً وإياه به ، وخاطبته وناطقه ، فوجده ، على رداءة حاله وتعتقد لسانه بالأعجمية ، فهما ، ورآه خيثاً شهما ، فقال لأمه : أيتها المرأة ! أنا رجل من جبل البذ ، ولئى به حالٌ ويسار ، وأنا محتاج

إلى أبنك هذا، فادفعه إلى لأبني به معي، فأوكله بضياعي وأموالي، وأبست بأجرته اليك في كل شهر خمسين درهما، فقالت له: انتك لشبيه بالخير، وإن آثار السبعة عليك ظاهرة، وقد سكن هاهي اليك، فأثبضه معك إذا نهضت. ثم إن أبا عمران نهض من جبله إلى جاويدان فخاربه فهزيم، فقتل جاويدان أبا عمران، ورجع إلى جبله وبه طعنة أخافسه، فأقام في منزله ثلاثة أيام ثم مات. وكانت امرأة جاويدان تتمشق بالبكا، وكان يفجر بها، فلما مات جاويدان، قالت له: انتك جلد شهيم! وقد مات! ولم أرفع بذلك صوتي إلى أحد من أصحابه، فثبأ لقد، فاني جامعهم اليك، ومعلمهم أن جاويدان قال: اني أريد أن أموت في هذه الليلة، وإن روصي تخرج من بدني وتدخل في بدن بابك. وتشترك مع روصه، وانه سيلعب بنفسه ويكم أصرأ لم يبلغه أحد ولا يبلغه بعده أحد، وانه يملك الأرض، ويقتل الجبابرة، ويرد المزدكية، ويعز به ذليلكم، ويرتفع به وضيعكم؛ فطعم بابك فيا قالت له، واستبشر به وتبأ له. فلما أصبحت، تجع اليها جيش جاويدان، فقالوا: كيف لم يدع بنا ويوص اليها! قالت: ما منعه من ذلك إلا انكم كنتم متفرقين في منازلكم من القرى، وانه إن بعت وجمعكم انشترخيره، فلم يأمن عليكم شره العرب، فعهد إلى بما أنا إؤذيه اليكم ان قبضوه وعملتم به؛ فقالوا لها: قولي ما عهد اليك، فانه لم تكن منا مخالفة لأمره أيام حياته، وليس منا مخالفة له بعد موته؛ قالت: قال لي: اني أموت في ليلي هذه، وإن روصي تخرج من جسدي وتدخل بدن هذا الغلام خادمي، وقد رأيت أن أملكه على أصحابي، فإذا مث فاعلمهم ذلك، وإنه لا دين لمن خالفني فيه واختار لنفسه خلاف اختياري؛ قالوا: قد قبلنا عهدك اليك في هذا الغلام! فدعت بقرة فأمرت بقتلها وسلخها وبسط جلدها، وصيرت على الجلد طستًا مملوءًا نحرا وكسرت فيه خبزا، فصيرته حوالى الطست، ثم دعت برجل رجل فقالت: طأ الجلد برجلك، وخذ كسرة واغمسها في النحر وكفها، وقل: آمنت بك يا روح بابك كما آمنت بروح جاويدان، ثم خد بيد بابك فكفر عليها وقبها، ففعلوا ذلك إلى وقت ما ثبأ لها فيه طعام، ثم أحضرتهم

الطعام والشراب ، وأُقيمت على فراشها وقعدت معه ظاهرة لهم ، فلما شربوا ثلاثاً ثلاثاً ، أخذت طاقة ريماء ، فدفعها الى بابك ، فتناولها من يدها ، وذلك تزويجهم ، فنهضوا وكفّروا لها رضا بالتزويج ، والمسلمون غريبتهم ومواليهم .



وبعد ، فانا نستطيع أن نقول ، مستندين الى ما ذكره ابن النديم وغيره ، عن نشأة بابك ومذهبه وتعاليمه : إن الباعث الذي دفعه الى الخروج ، غير البواعث التي دفعت نصر ابن سبّث في الشام ، وابراهيم بن المهدي في بغداد ، ومحمد بن ابراهيم المعروف بابن طباطبا في الكوفة ، وغيرهم : ممن كانوا متقادين بفكرة سياسية أو عامل جنسي ، وإنما كان خارجا على النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية في ذلك العصر ، وكذلك كانت وجهة نظر بغداد في قتاله ومطاردته .

أجل ! لم تكن الغاية في نظر بغداد من قتاله ، إخضاعه لسلطان الخلافة ، حتى اذا أتبع لها إخضاعه رضية عنه وكفّت القتال دونه ، وإنما كانت الغاية التي ترى إليها القضاء على مذهبهِ وتعاليمهِ الضائرة بنظم الحياة والاجتماع .

وربما جاز لنا أن نقول : إن موقفه من الخلافة الاسلامية في ذلك العصر أشبه شيء بموقف البلاشفة من الأمم المتحضرة في عصرنا الحاضر .

وهناك ما فعله الخليفة المأمون مع بابك والبابكيين ، بعد ما عاثوا في الأرض فسادا وأخافوا السبل وأثاروا الاضطراب : بعث المأمون لمحاربتهم ، بعد أن انتقل الى بغداد ، يحيى بن معاذ ، فكانت بينهما وقعة ، لم ينتج الفوز فيها لأحدهما على الآخر . ثم اختار المأمون قائدا آخر هو عيسى بن محمد ، فولّاه أرمينية وأذربيجان ومخاربة بابك ، فنجب وقُتل . ثم وجه اليه صدقة بن علي المعروف بزريق ، وتنبّ للاقيام بأسره أحمد بن الجعيد الاسكافي ، فأسره بابك . ثم بعث اليه محمد بن حميد الطوسي ، فقتله بابك سنة ٢١٤ هـ بهشتادمر وفض عسكره ، وقتل جمعا كثيرا ممن كان معه .

وهكذا كان أمر بابك : كلباً وُجِّهَتْ إليه حملةٌ هَزَمَهَا ! لمكانه الحصين ، وقوّته الكبيرة ، وشدّة تأثيره في قلوب أتباعه وأنصاره . وأخيراً انصرف عنه المأمون لانشغاله بمناوأة الروم ، حتى إذا سَحَرَ بدق مِنبّه كُتب في وصيته إلى المعتصم بشأن بابك يقول : « وانظر ميسة فأغزهم ذَا حِزَامَةٍ وَصَرَامَةٍ وَجَلَدٍ ، واكْنُفْهُ بالأموال والصلاح والجنود ، من الفرسان والرجالَة ، فإن طالت مدّتهم ، تجوز لهم بمن مَعَكَ من أنصارِكَ وأولِيائك ، وأَعْمَلْ في ذلك مقدّم النية فيه ، راجياً ثواب الله عليه » .

وقد عظم خطر بابك ، وكثر الداخلون في مذهبه ، في أقلّ عهد المعتصم (سنة ٢١٨هـ) . وما زال به المعتصم يحزّذ إليه الحملات تلو الحملات ، حتى انتهى أمره في سنة ٢٢١هـ بأمره وقّله « بسرّ من رأى » ، هو ورهطاً من أتباعه ، على يد قائد المعتصم التركيّ العظيم حيدر بن كاوس الأشروسقي المعروف بالأنكشيين .



## ٧ - مذاهب ونحل

ويحسن بنا أن نشير هنا إلى أن هذا العصر من العصور الإسلامية ، قد كثرت فيه الاختلاط بين أُمم الشّرق والغرب ، فظهرت في العالم الإسلامي مقالات دينيّة وفلسفيّة كثيرة غربيّة ، أشار إليها مؤرّخو الآراء والمذاهب ، تجسد طرفاً منها في فهرست ابن النديم ، وطرفاً في كتب « الملل والنحل » ، وطرفاً في كتاب الأستاذ « برون » الذي وضعه عن « تاريخ الفرس الأدبي » ففيه شيء عن المانويّة<sup>(١)</sup> وغيرها . وقد وقف أبو العلاء المعزّي عند هذه الآراء والمذاهب في « رسالة التفردان » وقفة ممتعة .

(١) المانوية واتباعها يقال لهم المانويّة هي النحلة التي أتى بها ماني من وجود إلهين إله الخير وإله الشر ، وكان وجوده قبل الإسلام بمدة طويلة ، وقد أعتبر زنديقاً وقتل وسلخ وحشى جلدته وعقل على أحد أجرب نيسابور ويعرف باباب ماني ، ولكن نحلّه لم تكن تعدم أنصاراً بعد موته ، فكانت تظهر ويتبعها أناس في قرأت مخلطة :

وكم لتلازم الليل سنخك من يد \* بتحقيق أنّ المانويّة تصكّذب

وفلك ردى الأعداء تسمى إليهم \* وزارك فه ذر الدلال المحجب

على أنا لا نحب أن نعرض لهذه المقالات بشرح أو تفصيل ، لأننا نحس إحساساً صادقاً ، وربما تكافيه على حق ، أن الكثير من هذه الآراء والمذاهب لا يزال غامضاً ، لقلة النصوص وعدم غناء المصادر وكفايتها . ونظراً أن الاحتياط في مثل هذا الموقف أسلم وأبقى . وكل ما نأمل هنا ونرجوه حقاً ، أن يتجوز لمثل هذا البحث المتع النافع ، بعض الذين يُعتنون بتاريخ الآراء والمذاهب الفلسفية والدينية في الإسلام .



#### ٨ - افتراضات

أما وقد انتهينا من كلمتنا الموجزة عن السياسة الداخلية في عصر المأمون ، فقد حقي علينا أن نسأل : لماذا مكث المأمون شطراً طويلاً من مسن حكمة في نراسان دون بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية ؟

أما أن زعم لك أنا سنجيلك إجابة دقيقة مقنعة ، فهذا ما لا نقبله لك ولا لأنفسنا . لأن المصادر التي بين أيدينا لم تكشف لنا القناع عن وجه الصواب في ذلك . إذن فسنقدم لك آراءنا في هذا الصدد ، يصدر بنا أن ننتبها بمثابة افتراضات لا أكثر ولا أقل .

نفترض أن الفضل بن سهل وجماعة الفضل بن سهل ، وحويلهم وحويلهم وسلطانهم سلطانهم ، آثروا بقاء المأمون في "مرو" عاصمة نراسان حيث نجى أموال الدولة إليه ، ليكون نصيب البقاع الفارسية والشيعة الفارسية من هذه الأموال أوفر .

ونفترض أن المأمون وجماعته كانوا يحسون إحساساً ، ربما كان صادقاً ، أن جبار رجالات الدولة من العرب الفاطنين ببنداد ، لم يكن هوام مع دولته الفارسية الطابع والميل ، وأنهم كانوا لذلك يمشون النزوح الى بنداد قبل أن تمسهم وتقوية سلطانهم . ونفترض أنهم آثروا الفرب من الولايات التي تمسهم بجنداء ورجالها ، كما آثروا أن يكونوا في أواسطهم الفارسية التي من مصلحتها نصرة المأمون وتوطيد دعائم ملكه ، والعمل على خذلان منائويه .

هذه افتراضات رأينا أن هيدها لك لتأمل فيها . فربما كان بعضها سائغا معقولا ، على أن تكون جذرا لكل الحذر ، فلا تتورط في اعتبار كل فرض سائغ معقول ، لازم الوقوع في التاريخ . فكثيرا ما يقع في التاريخ غير المعقول من الحوادث ا



### (ج) السياسة الخارجية :

. نعتقد أن الوقت لم يأن بعد ، لدرس السياسة الخارجية في أيام المأمون وغيره من خلفاء المسلمين ، دراسة علمية محققة . ذلك لأن كل ما نعرف من أمر هذه السياسة إنما هو الروايات العربية التي تناقلها المؤرخون ، متأثرين بأشياء كثيرة . فقد كان الكثيرون من هؤلاء الرواة يجهلون لغات الأمم الأجنبية التي كانت العلاقات متصلة بينها وبين المسلمين ، كما كانوا متأثرين بالحرص على رفع شأن الدولة الإسلامية ، والتنويه بجهدها وسلطانها ، فاضطروا هذا كله الى الغلو حيناً ، وإلى التقصير حيناً آخر .

ولم يظفر البحث بعدُ بنصوص تاريخية واضحة معاصرة ، كتبت في غير اللغة العربية . ومع أن الباحثين في تاريخ الامبراطورية البيزنطية (الروم) جادون في التنقيب عن النصوص والآثار التي تجلوا تاريخ هذه الدولة في القرون الوسطى فهم لم يصلوا بعد ، الى شيء ذي غناء فيما يمس علاقتها بالدول الإسلامية . فأما الأمم الشرقية الأخرى التي كانت على اتصال بالمسلمين ، فلم تترك لنا شيئاً ، أو لم نلفظسرها آثارها التاريخية بشيء ذي قيمة . وأذا فنحن مضطرون الى أن نتمتع اعتماداً مؤقتاً ، بمؤه الاحتياط والتحفظ ، على ما كتبه العرب .

ونحن نعلم أن السياسة الخارجية في عصر المأمون كانت تنقسم الى قسمين متمازين : الأقل سياسته مع دول إسلامية مستقلة عن الخلافة . والثاني سياسته مع دول أجنبية غير إسلامية .



وليس هناك شك في أن سياسة المأمون، مع الدول الإسلامية المستقلة، كانت واضحةً بينةً الأسلوب، فقد اعتقدت الخلافة العباسية دائماً أن المسامحة يجب أن يُدعَوا لسلطانها، وإذا فلم تعترف، في وقتٍ من الأوقات، باستقلال الأمويين في الأندلس، ولا الأدارسة في المغرب الأقصى، وإنما اعتبرتهم بغاةً، وعجزت مع ذلك عن إخضاعهم لسلطانها، فعلاً أو اسماً، فاضطرت إلى أن تُقيمهم من ناحية، وتؤلّب عليهم من ناحية أخرى .

على ذلك نستطيع أن نفهم تشجيعها دولة بني الأغلب في إفريقية وعطفها عليها؛ فقد كانت هذه الدولة تستمتع بشيء من الاستقلال غير قليل، وتظفر بحماية الخلافة، لأنها كانت بمثابة الحرس الأمامي الذي يردّ عن الخلافة غارات هؤلاء البغاة، ويحول بينهم وبين التوسع على ساحل البحر الأبيض المتوسط .

نستطيع أن نفهم هذا، وأن نفهم أيضاً ما نلحه لها في القصص من اتصال علاقات ودية بين بغداد وملوك الفرنج الذين كانوا يناوئون بني أمية في الأندلس .

: أما القسم الثاني من السياسة الخارجية، فينقسم أيضاً إلى قسمين : أحدهما سياسة الخلافة مع أهل الشرق الذين لم يخضعوا لسلطان المسامحة، كالترك والديلم . وهذه السياسة واضحة أيضاً، على قلة النصوص، فقد كانت سياسة توسع وبسط للسلطان، ولصكّن في احتياطٍ وتحفّظ ومصانعة . وكانت بغداد تعتبر كل هذه الناحية من الشرق منطقة نفوذ، تسلك في استغلالها واتقانها عند الحاجة، طريقتاً كلها حكمة وفطنة . فبينما نراها تهاجم فتفتح وتأمّر، نراها مرة أخرى موادعة محالقة مستخدمة . وهي تستفيد في الحالين . ولكلّك تعلم حق العلم ما أُنجزته هذه السياسة، أتمر الأمر، حين ضعف الخلفاء، من تسلط أهل هذه المنطقة على أمور الدولة، وعيبتهم بمظلمة الخلافة .

والقسم الثاني هو سياسة الخلافة مع قياصرة « قسطنطينية » . وهذا القسم هو الذي نستطيع أن نقول، في غير تردّد، أنه احتاج حقاً إلى جهود الخلفاء وكفائاتهم . فقد كانت

العلاقة بين «قسطنطينية» و«دمشق» أيام الأمويين وبينها وبين «بغداد» أيام العباسيين ، شديدة الاضطراب والتعقيد ، لانتكاد تستقر على حال ، وإنما هي حربٌ حثيثاً وسلمٌ حيناً آخر . ومهما يكن من شيء ، فقد كانت القاعدة الأساسية لهذه السياسة ، أن الحرب هي الحال الطبيعية بين الدولتين ، فأما السلم فحال عارضة ؛ ولذلك كانت تسمى دائماً هدنةً . وربما كان من المعقول أن نقول : إن أصحاب «قسطنطينية» و «بغداد» كانوا يضطرون إليها اضطراراً .

### غزو المأمون للروم

فقدما لك في الكلام عن بابك الخرمي أن المأمون أرسل إليه آخر حملة ، بقيادة محمد ابن حميد الطوسي سنة ٢١٢ هـ ، وأن هذه الحملة باءت بالهزيمة والقشل ، كما بلاء غيرها ، مما سبقها من حملات ، وأن المأمون انصرف عن بابك مؤقتاً ، لأشتغاله بغزو الروم الذين يملئ بعضهم سبب تحفز المأمون الى غزوهم ، بعد أن ظل السلم المسلح بينه وبينهم زهاء ست عشرة سنة ، بما تأكده المأمون من مشايخهم لبابك وإمدادهم إياه بالمعونة .

ويقول الأستاذ «ميور» ، في بيان سبب هذه المهادنة الطويلة بين الخلافة والروم ، وعدم انتهاز المسلمين فرصة الثورة ، التي نشبت في بلاد الروم بين «توماس» و«ميخائيل» لغزو آسيا الصغرى : " إنه لاشك أن تربت العرب عن اقتحام بلاد الروم ، في ذلك الوقت ، يرجع الى أن بطريق أنطاكية ببلاد سوريا ، كان قد توجع توماس امبراطوراً ، ولو نجح في تأميره وسلطانه ، لكفى العرب مؤونة القتال ، وكان توماس هذا تابعا لخليفة المأمون " .

على أن المأمون قد تخصص سنة ٢١٥ هـ الى بلاد الروم ليفزوها سالكا اليها طريق الموصل ، ثم متنج ، ثم دابق ، ثم أنطاكية ، ثم المصيصة ، ومنها خرج الى طرسوس ، وهي الثغر الاسلامي ، ومن طرسوس دخل بلاد الروم ، في منتصف جمادى الأولى (يوليو سنة ٨٣٠ م) ، ففتح وغنم كثيراً من الحصون ، ثم تخصص الى الشام . وورد عليه

في دمشق انخرع بأن ملك الروم قتل قوماً من اهل طرمسوس والمصبصة ، فاعاد الكرة الى بلاد الروم ، وكان الظفر والتوفيق حليفه في هذه الكرة أيضا .

وفي المدة التي قضهاها المأمون بين مصر ودمشق ، بدأت المناوشات بين عماله وملك الروم ، ثم اشتدت حتى اضطرت الى أن يشخص الى بلاد الروم للمرة الثالثة ، وهي المرة التي توفي فيها .

وفيا هو سائر اليها ، معتزما بتحقيق خطية رسمها لنفسه ، إذ يقول : أوجه الى العرب ، فاتى بهم من البوادي ، ثم أنزلهم كل مدينة افتتحها ، حتى اضرب الى القسطنطينية ، إذ جاءه رسول ملك الروم يحمل اليه كتاب مولاه ، يطلب فيه الصلح والمهادنة . وهذه نسخته ، فيما يقول الرواة العرب : "أما بعد ، فإن اجتماع المختلفين على حفظهما ، أولى هما في الرأي مما عاد بالضرر عليهما . ولست حرياً أن تدع لحظ يصل الي فريك حظاً يحوزه الى نفسك ، وفي عالمك كاف عن اخبارك . وقد كنت كتبت اليك ، داعياً الى المسالة ، راعياً في فضيلة المهادنة ، لتضع أوزار الحرب عنا ، ونكون كل واحد لكل واحد وليا وحزباً ، مع اتصال المرافق ، والفسح في المتاجر ، وفك المستاسر ، وأمن الطرق والبيضة . فان أبيت ، فلا أدب لك في الخمر ، ولا أنصرف لك في القول ، فإني لخائض اليك غمارها ، أخذ عليك أسداها ، شأن خيلها ورجالها . وان أفضل فيعد أن قدمت المعينة ، وأقت بنى وبينك علم الجمعة . والسلام " .

أما رد المأمون عليه فيقول المؤرخون العرب إن نسخته كانت : "أما بعد ، فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة ، ودصوت اليه من المودعة ، وخطت فيه من اللين والشدّة ، مما استعطفت به من شرح المتاجر ، واتصال المرافق ، وفك الأسارى ، وبيع القتل والقتال . فلولا ما رجعت اليه من إعمال التؤدة والأخذ بالخط في تغليب الفكرة ، وآلا اعتقد

(١) انخرع : (بالصرك) ما وارى الشمس من هجره . يقال : دب له في انخر اذا تحنى له لخطه .

الرأى فى مستقبله إلا فى استصلاح ما أورثنى مُتَعَبَه ، بلجعتُ جواب كتابك خيلاً تحمل رجلاً من أهل اليأس والنجدة والبصيرة، ينازعونكم عن كُلكم، ويتقربون إلى الله بدمائكم، ويستقلون فى ذات الله ما نالهم من ألم شؤنكم، ثم أوصل إليهم من الأمداد، وأبلغ لهم كافيًا من العُدَّة والعَتَاد ، هم أظلموا إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة من مخوف معتزهم عليكم، موعدهم إحدى الحُسَيْنَيْن: عاجلُ غَلَبَةٍ، أو كريمُ مُنْقَلَب . غير أنى رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التى يُثَبِّتُ الله بها عليك الحجَّة من الدماء لك ولبن مملك إلى الوحدةانية ، والشريعة الحنيفية ؛ فإن أبيت، ففسدية توجب ذِقة، وتثبت نِظرة . وإن تركت ذلك ، ففى يقين المايسة لنعمتنا ما يغنى عن الإبرالغ فى القول والإغراق فى الصفة ، والسلام على من اتبع الهدى » .



#### (د) كلمة ختامية عن وفاة المأمون ورجالاته ومعاصريه ووصيته :

لقد عاجلتُ المنية المأمون ، دون تحقيق خطته ، بموضع يقال له « البستدود » بين « لؤلؤة » و « طرسوس » . وكانت وفاته لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢١٨ هـ وسنة ثمان وأربعين سنة وأربعة أشهر .

أما عن كبار رجالات المأمون وولائه، فيقول يعقوبى : وكان الغالب عليه فى خلافته ذوالرياستين ثم جماعة : منهم الحسن بن سهل ، وأحمد بن أبى خالد ، وأحمد بن يوسف ، وكان على شُرطته العباس بن المسيب بن زهير ، ثم عزله وولى طاهر بن الحسين ، ثم عبد الله بن طاهر الذى استخلف اصحاق بن ابراهيم ببغداد ، فوجه اصحاق بأخيه خليفة على شُرطته . وكان على حرسه شبيب بن حميد بن قحطبة ، ثم عزله وولاه قُومس ، واستعمل مكانه هرثمة بن أعين ، ثم عبد الواحد بن سلامة الطحلاوى ، قرابة هرثمة ، ثم على بن هشام ، ثم قتله وولى عُجَيْف بن عَنَسَة . وكانت حِجَابَتُهُ إلى أحمد ابن هشام ، وعلى بن صالح صاحب المصلى . قال : وخلف من الولد المذكور سنة عشر

ذكرا، وهم محمد، وإسماعيل، وعليّ، والحسن، وإبراهيم، ووسى، وهارون، وعيسى،  
 وإحمد، والعباس، والفضل، والحسين، ويعقوب، وجعفر، ومحمد الأكبر، وهو ابن  
 معللة وتوفى في حياته، ومحمد الأصغر، وعبيد الله، أمهما أم عيسى بنت موسى الهادي .

أما صاحب « نهاية الأرب » ، فقد ذكر في الجزء العشرين من كتابه : أن مُجابه هم  
 عبد الحميد بن شَيْث ، ثم محمد وعليّ ابنا صالح مولى المنصور ، ثم إسماعيل بن محمد بن  
 صالح . وذكر أن قُضاته هم : محمد بن عمر الواقدي ، ثم محمد بن عبد الرحمن الخزوي ، ثم بشر  
 ابن الوليد . وكان نقش خاتمه ، فيما ذكره المسعودي في التنبيه والإشراف : « الله معه  
 عبد الله به تؤمن » .



وقد يكون من المفيد لنا ، من وجهة نظر التاريخ المصري ، أن نقف على ولاية مصر  
 وقضايتها في عهد المأمون ؛ وذلك يسره لنا كتابان مُتِمَّمان وإفان في هذا الموضوع ،  
 وهما كتاب « النجوم الزاهرة » لابن تفرى بردى الأنابكي وكتاب « الولاية والقضاة »  
 الذين ولوا أمر مصر وقضاها للكيندي . ونمن ذاكرون لك هؤلاء الولاية والقضاة على  
 وجه الاختصار :

أ. الولاية فهم : مالك بن دلم ، وحاتم بن هرثمة ، وجابر بن الأشعث ، وعبد بن محمد ،  
 والمطلب بن عبد الله ، والعباس بن موسى ، والسريّ بن الحكم ، وسليان بن غالب ، ومحمد  
 ابن السريّ ، وعبيد الله بن السريّ ، وعبد الله بن طاهر ، وعيسى بن يزيد ، وعمر بن الوليد ،  
 وعبدويه بن جبلة .

ولقد حدثنا المؤرخون في أيامه عما سمى في مصر بالبدع المأمونية الأربع : فالبدعة  
 الأولى منها هي ليس الخُضرة وتقريبُ البلوية وإبعادُ بني العباس . والثانية أقول بخلق  
 القرآن . والثالثة ما كتبه المأمون الى نائبه ب بغداد أن يأخذ الجند بالتكبير إذا صلبوا الجمعة وبعد

الصلوات الخمس . ثم أباح المأمون في هذه السنة وهي سنة ٢١٥ هـ «المتعة» فقال الناس : هذه بدعة رابعة ، وبعد ولاية ابن جبلة هذا ، ولاية عيسى بن منصور ، ونصر بن عبد الله ، وشهرته كيدر ، والمظفر بن كيدر .

أما قضاة مصر في عهده فهم : عبد الرحمن العمري ، وهاشم بن أبي بكر البكري ، وإبراهيم بن البكاء ، وطبيعة بن عيسى الحضري ، والفضل بن غانم ، وإبراهيم بن اسحاق العاري ، وعطاف بن غزوان ، وجعله عبد الله بن طاهر على المظالم ، وبعث على القضاء من قبله عيسى بن المنكر ، وأخيرا هارون بن عبد الله .

أما معاصروه ، فقد كان يعاصره في الأندلس الحكم بن هشام ، ثالث أحرار بني أمية ، ثم ابنه عبد الرحمن . وفي عهدهما سمعنا رأى الأندلس ، في القول بخلق القرآن ، فقد قال أبو خلف الماعري :

لَا وَالَّذِي رَقَعَ السَّيَا • • بَلَا عَادَ لِلنَّظَرِ  
مَا قَالَ خُلِقَ فِي الْقُرْآنِ • • نَبْ يَخْلُقُهُ الْإِسْكَرُ  
لَكِنْ كَلَامٌ مَثَلٌ • • مِنْ عِنْدِ خَلْقِ الْبَشَرِ

وكان يعاصر المأمون في بلاد المغرب الأقصى : إدريس بن إدريس بن عبد الله ، ثم ابنه محمد بن إدريس . ويعاصره في إفريقيا من بني الأغلب : عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب ، ثم ابنه زيادة الله بن إبراهيم ، فاتح صقلية . ويعاصره في فرنسا « شارلمان » صديق أبيه ثم « لويز الأول » الملقب باللين . ويعاصره في القسطنطينية « لئون الأرمني » و « ميخائيل » الملقب بالتمام ، ثم ابنه « توفيل » .

أما صفته فهي ، كما ذكرها صاحب « نهاية الأرب » ، « كان المأمون ربة ، أبيض ، طويل الخامة ، رقيقها قد وخطه الشيب ، وقيل : كان أسمر ، تلووه صفرة ، أجنبي ، أجن ، ضيق الجبهة ، يحمه خال أسود » وكذلك وصفه الطبري وغيره .

ولما حضرته الوفاة أوصى لأخيه المعتصم من بعده . وعلى بعضهم أن الوصية كانت للمعتصم دون ابنه العباس بأن الثاني كان متغييا عنه ساعة وفاته .

ولقد أثبتنا لك في باب المنثور من الكتاب الثالث في مجلدنا الثالث وصيته التي أوصى بها حين مماته ، لقبحتها التاريخية ، ولأنها توضح بعض آرائه ، وتفصيح عن السر في بعض تصرفاته ، فراجعها ثمة .

## الفصل النجدي

### الوزارة والأعمال الحكومية في عصر المأمون

#### تاريخ الوزارات المأمونية

توطئة من تاريخ الوزارات المأمونية — وزارتا الفضل بن سهل وأخيه الحسن — وزارة أحمد بن أبي خالد — وزارة أحمد بن يوسف — وزارة يحيى بن أكرم — وزارات أخرى — الجند والقواد في عصر المأمون — القضاة وديوان الخاتم .

#### (١) توطئة :

لسنا نريد أن نتكلم عن تاريخ الوزارة ، ومكانتها في العصر العباسي ، فقد تعرض لدرسها كثيرون ، نذكر منهم على سبيل التمثيل الأستاذ « برون » في كتابه تاريخ الفرس الأدبي ، والمؤرخ ابن طباطبا في الآداب السلطانية ، وإنما قصارى ما نرى إليه ، كتابة فذلكمة موجزة عن حياة البارزين من وزراء المأمون ، حتى نقف بذلك على صورة كاملة قدر المستطاع ، عن العصر الذي تصدّرنا للكتابة عنه ، ومكانة رجاله البارزين فيه ، فنقول :

#### ١ و ٢ — وزارتا الفضل بن سهل وأخيه الحسن

يحدثنا التاريخ أن أول وزراء المأمون الفضل بن سهل ، وهو من رجال جعفر البرمكي ، فلا غرو إذا نزع في سياسة الملك مترع البرامكة ، ولا غرو إذا اتهم بهم وتلا تلويهم في تدبير أمور السلطان ، ولا غرو إذا كانت دولة بني سهل غيرة في جبين الدهر ، ودرّة على مفرق العصر ، لأنها كانت ، كما يقول القنخري ، مختصرة الدولة البرمكية .

أما طريقة اتصاله بالمأمون ، فإن المظان التاريخية والأدبية تحدثنا أن جعفر البرمكي لما عزم على استخدامه للمأمون ، وصفه يحيى بن خالد بحضرة الرشيد ، فقال له الرشيد : أوصله لي ، فلما وصل إليه أدركته حمرة فسكت ، فنظر الرشيد إلى يحيى نظراً منكراً



لاختياره ، فقال ابن سهل : يا أمير المؤمنين ، إن من أعدل الشواهد على قراءة المملوك أن يملك قلبه هبة سيده ، فقال الرشيد : لئن كنت سكت لتصوغ هذا الكلام ، فلقد أحسنت ، وإن كان بديهة إنه لأحسن وأحسن . ثم لم يسأله بعد ذلك عن شيء إلا أجابه بما يصدق وصف يحيى له .

ويروي لنا أبو حنّان عمرو بن بحر الجاحظ ، وهو كما تعلم ، شيخ من مشيخة الأدب والبيان في عصرنا المأموني ، في كتابه «الحيوان» : أن جعفرًا الضبي ، وصف الفضل بن سهل بقوله : أيها الأمير ، استكني عن وصفك تَسَاوَى أفعالك في السُّودُدِ ، وحيرني فيها كثرة عددها ، فليس إلى ذكر جميعها مسيل ، وإن أردتُ وصف واحدة ، اعترضتُ أختها إذ لم تكن الأولى أحق بالذكر ، ولستُ أصفها إلا باظهار المعجز عن وصفها .

ويقول ابن طباطبا : إن الفضل كان سخيا كريما ، يحارى البرامكة في جوده ، شديد العقوبة ، سهل الانعطاف ، حلما بليغا ، عالما بأداب الملوك ، بصيرا ، جيد الحديث ، محصلا للأموال ، وكان يقال له الوزير الأمير .

وكان الفضل بن سهل يتشيع كذهب غالب الفرس ، وكانت له إصابة حسنة ، بعلم النجوم كما أسلفنا لك القول في كلمتنا عن المأمون في صباه ، وبما يؤيد ذلك ما رواه أبو الحسين علي بن أحمد السلامي في تاريخ ولاية نراسان : أن المأمون لما عزم على إرسال طاهر بن الحسين إلى محاربة أخيه محمد الأمين ، نظر الفضل بن سهل في مسأله ، فوجد الدليل في وسط السماء ، وكان ذا يمينين ، فأخبر المأمون بأن طاهرا يظفر بالأمين ويلقب بذي اليمينين ، فتعجب المأمون من إصابة الفضل ولقب طاهرا بذلك .

وكان الفضل بن سهل شديدا بأساتذته البرامكة في رفق الشعراء ، وتشجيع الشعر ، وكان متجعج القصد منهم قبل وزارته ، فان كتب الأدب تحدثنا أن مسلم بن الوليد ، قال فيه حين ذاك ، وكان من نعمائه وتمامه :

وقائل ليست له همة \* كلا ولكن ليس لي مال  
وهمة المُفْتِرِ أُنْبِيَّةٌ \* عَوْنٌ عَلَى الدَّهْرِ وَأُنْقَالُ  
لَا جِدَّةٌ يَنْهَضُ عَنْ مِثْلِهَا \* وَالنَّاسُ سُؤَالٌ وَمُحَالُ  
فأصبر على الدهر إلى دولة \* يرفع فيها حالك الحالُ

ويقول لنا الصغرى : إن الفضل لما علتْ حاله وتولى الوزارة ، قصده مسلم بن الوليد ، فلما رآه سرَّ به ، وقال له : هذه الدولة التي يرفع فيها حالك الحال ، وأمر له بثلاثين ألف درهم ، وولاه برید جرجان ، فاستفاد من قَمٍّ مالا طائلا .

ويحدثنا ابن خلكان : أن الفضل بن سهل ، قال يوما لثُمَامَةَ بن الأشتر المتكلم المعروف : ما أدرى ما أصنع بطلاب الحاجات ، فقد كثروا على وأجبروني ! فقال له : زُلْ عن موضِعِكَ ، وعلى ألا يُقَالَ أَحَدٌ مِنْهُمْ ! فقال : صدقت ! وانتصب لقضاء أشغالهم ، وكان قد مرض بخراسان وأُشْفِيَ على التَّلف ، فلما أصاب العافية ، جلس للناس فدخلوا عليه وهشوه بالسلامة وتصرفوا في الكلام ، فلما فرضوا من كلامهم أقبل على الناس وقال : إن في المَلَأَ لَيْعًا لَا يَنْبَغِي لِلْعُقَلَاءِ أَنْ يَجْهَلُوا : تمحيص الذنوب ، والتعرض لشوَابِ الصبر ، والإيقاظ من الغفلة ، والإذكار بالنعمة في حال الصحة ، واستدعاء التوبة ، والحض على الصدقة .

وقد مدحه جماعة من أعيان الشعراء ، وفيه يقول إبراهيم بن عباس الصولي :

لِلْفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ يَدٌ \* تَقَاصَرُ عَنْهَا الْمُتَقَلُّ  
فَنَائِلُهَا لِلْفَنَى \* وَسَطَوْنُهَا لِلْأَجَلِ  
وَبَاطِنُهَا لِلنَّسَى \* وَظَاهَرُهَا لِلْقَبْلِ

ويقول ابن خلكان : إن ابن الرومي أخذ من قول الصولي هذا مدحَه التي صاغها في الوزير القاسم بن حبيب الله التي فيها :

أصبحت بين خصاصة ومجمل \* والحزبينهما يموت حزلاً  
فامدّد إلى دأ تمود بطئها \* بذلّ النّوال وظهرها التقيلاً  
وفيه يقول آخر:

لعمرك ما الأشراف في كل بلدة \* وإن عظموا للفضل إلا صانع  
ترى عظماء الناس للفضل حشماً \* إذا ما بدا والفضل لله خاشع  
تواضع لما زاده الله رفعة \* وكلّ جليل عنده متواضع

وحكى الجهشيارى : أن الفضل بن سهل أصيب بإرن له يقال له العباس فخرج عليه  
أشد الجزع ، فدخل عليه إبراهيم بن موسى بن جعفر العلوى وأثنى به :  
خير من العباس أبرك بعدة \* واقه خير منك للعباس

وقال فيه مسلم بن الوليد من قصيدة له :  
لو نطق الناس أو أثنوا بهم \* وثبتت عن معالي دهرك الكتب  
لم يسلخوا منك أدنى ما يمت به \* إذا غفرت الأملأك وانتسبوا  
فامر له عن كل بيت من هذه القصيدة بألف درهم .

وإنه يلوح لنا من قراءتنا الطويلة لكتب الأدب والتاريخ أن جماعة الشعراء الذين  
كانوا يندحدون البرامكة — وما أكثرهم — هم بأنفسهم الذين امتدحوا آل سهل ، واتخذوا  
منهم برامكة آخرين . كما يلوح لنا أن لمقولاتهم وقصائدهم في امتداحهم وإظهار قوتهم  
واستفحال سلطانهم ، بعض الأثر في نكبتهم ، لأنه غير معقول آلبنة أن يتر على المأمون قول  
مثل قول القائل :

ألت خلافة وأزلت أخرى \* جليل ما ألت وما أزلنا

من غير أن يترك في نفسه بعض ما كانت تتركه على البرامكة ، أمثال تلك الأقوال في نفس  
الرشيد ، وهما قليل عن حلم المأمون وعفوه واعتدال مزاجه وسعة صدره فإن النفس  
الإنسانية هي هي .

وقد مرّت بك فيما أجمعناه لك من الحوادث التي وقعت في حكم المأمون، أنه جعل في سنة ٢٠١ هـ عليّ بن موسى العلوي وليّ عهد المسلمين والخليفة من بعده، وسمّاه الرضا من آل عهد صلى الله عليه وسلم، وأنه أمر جنده بطرح السواد وليس الخضره وبيّنّا ما كان لذلك من ثورات وقتن لم تهدأ إلا بعد أن عاد إلى مقرّ ملكه، وأعلم آلّه وأنصاره بوفاته الرضا، وغاد إلى لبس السواد وهو شعار العباسيين .

وزيد الآن أنت تشير هنا إلى ما كان من الفضل بن سهل فيما نحن في صددده ، ونعتمد على ما رواه الطبريّ ، قال : إن عليّ بن موسى بن جعفر بن محمد العلويّ أخبر المأمون بما فيه الناس من الفتنة والقتال منذ قُتل أخوه ، وبما كان الفضل بن سهل يستر عنه من الأخبار، وإن أهل بيته والناس قد تقهّوا عليه أشياء ، وإنهم يقولون : إنه مسجور مجنون ، وإنهم لما رأوا ذلك بايعوا لعنه إبراهيم بن المهدي بالخلافة ، فقال المأمون : إنهم لم يبايعوا له بالخلافة، وإنما صيّروه أميراً يقوم بأمرهم ، على ما أخبر به الفضل ، فأعلمه أن الفضل قد كذّبه وغشّاه ، وأن الحرب قائمة بين إبراهيم والحسن ابن سهل ، وأن الناس يتّفقون عليك مكانه ومكان أخيه، ومكان بيتك لي من بعدك ، فقال : ومن يعلم هذا من أهل عسكري ؟ فقال له : يحيى بن معاذ، وعبد العزيز ابن عمران، وعدة من وجوه أهل العسكريّ، فقال له : أدخلهم عليّ حتى أسألهم عما ذكرت ، فأدخلهم عليه، وهم يحيى بن معاذ، وعبد العزيز بن عمران، وموسى، وعلي بن أبي سعيد، وهو ابن أخت الفضل ، وخاتم المصريّ، فسألهم عما أخبره، فأبوا أن يجنبوه حتى يجعل لهم الأمان من الفضل بن سهل، ألا يعرض لهم ، فضمن ذلك لهم ، وكتب لكل رجل منهم كتاباً بخطه ودفعه إليهم ، فأخبروه بما فيه الناس من الفتنة ، وبيّنوا ذلك له ، وأخبروه بغضب أهل بيته ومواليه وقواده عليه في أشياء كثيرة ، وبما مّوه عليه الفضل ، من امر هرّمة ، وأن هرّمة إنما جاء لينصحه وليبين له ما يعمل عليه ، وأنه إن لم يتدارك أمره خرجت الخلافة منه ومن أهل بيته ، وإن الفضل دسّ إلى هرّمة من قتله ، وأنه

أراد نصحه، وأن طاهر بن الحسين قد أُلِي في طاعته ما أُلِي، وافتتح ما افتتح، وقاد إليه الخلافة مزمومة حتى إذا وطأ الأمر أخرج من ذلك كله، وصبر في زاوية من الأرض بالزقة، قد حُظرت عليه الأموال حتى ضُف أمره، فشَغِب عليه جندُه، وأنه لو كان على خلافك ببغداد لضبط الملك ولم يُجترأ عليه بمثل ما اجترأ به على الحسن بن سهل، وإن الدنيا قد تفتتت من أقطارها، وإن طاهر بن الحسين قد تنوَس في هذه السنين، منذ قُتل محمد في الزقة، لا يستعان به في شيء من هذه الحروب، وقد استعين بمن هو دونه أضعافاً، وسألوا المأمون الخروج إلى بغداد، فإن بنى هاشم والموالي والقواد والجند لو رأوا غرتك سكتوا إلى ذلك، ويَحْمُوا بالطاعة لك . فلما تحقق ذلك عند المأمون، أمر بالرجل إلى بغداد . فلما أمر بذلك علم الفضل بن سهل ببعض ذلك من أمرهم، فتعتبهم حتى ضرب بعضهم بالسياط وحبس بعضاً وتَنَفَّحَ بعض، فعاوده على بن موسى في أمرهم، وأعلمه ما كان من ضيائه لهم، فأعلمه أنه يُدَارَى ماهوفيه، ثم ارتحل من مَرَّو، فلما أتى سَرَخس، شدَّ قوم على الفضل بن سهل وهو في الحمام فضرَّوه بالسيف حتى مات، وذلك يوم الجمعة لليلتين خلتا من شعبان سنة ٢٠٢ فأخذوا، وكان الذين قتلوا الفضل من حَسَم المأمون، وهم أربعة نفر: غالب المسمودي الأسود، وقُسَطُظَيْن الرومي، وتَرَجَّ الديلمي، وموفق الصَّقِيل، وقتلوه وله ستون سنة وهرَّبوا، فبعث المأمون في طلبهم وجعل لمن جاء بهم عشرة آلاف دينار، بغاء بهم العباس بن المهتَم بن بُرْجَمُهر النِّسَوري، فقالوا للمأمون: أنت أمرتنا بقتله، فأمر بهم فضرَّبَتْ أعناقهم، وقد قيل: إن الذين قتلوا الفضل، لما أُخِذوا سألهم المأمون، فمنهم من قال: إن علي بن أبي سعيد بن أخت الفضل دسَّهم، ومنهم من أنكر ذلك . وأمر بهم فقتلوا، ثم بعث إلى عبد العزيز بن عمران وعلى وموسى وخَلَف، فسألهم فأنكروا أن يكونوا علموا بشيء من ذلك، فلم يقبل ذلك منهم، وأمرهم فقتلوا، وبعث بره وسهم إلى الحسن بن سهل في واسط، وأعلمه ما دخل عليه من المصيبة بقتل الفضل، وأنه قد صيره مكانه . وتزوَّج المأمون من ابنة بُوران، وأظهر الحسن في حفلة

زواجها من الكرم الخارق ، والوجود الحلاتي ، ما دعا المأمون الى أن نسبه فيه الى السرف ،  
ولقد قِيمَ على الحسن بن سهل شاعر يلمس صيته وعارقته ، فاشتغل عنه مديدة فكتب اليه :

السال والعقل مما يُستعان به \* على المقام بأبواب السلاطين  
وأنت تعلم أنّي منهما عطل \* انا تأملتني يابن الدهاقين  
أما تبك أنوابي على حدي \* والوجه أني رئيس في المجانين  
والله يعلم ما لك من رجل \* سواك يصلح للدينا وللدن

ف قيل : إن الحسن أمر له ، بعشرة آلاف درهم ، ووقع في رقعته :

اعجلت فأتاك عاجل رثا \* قلأ ولو أنظرتنا لم يُقل  
نخذ القليل ونحن كأنك لم تنل \* ونكون نحن كأنك لم تُسال

ويظهر لنا مما قرأناه عن الحسن بن سهل في أمالي أبي علي الفسالي وغيره من مظان  
الكتب الأدبية ، أن له بصراً بالأدب عظيم ، ومكانة في الكتابة سامية ، وحفظاً بالفانين القول  
ومناحيه وفيرا .

فقد روى عنه أنه كتب الى محمد بن سيماعة القاضي : « أما بعد ، فاني احتجت لبعض  
أموري الى رجل جامع لخصال الخير ، ذي عفة ونزاهة طمعية <sup>(١)</sup> ، قد هدبته الأخلاق ،  
وأحكمته التجارب ، ليس يظنن في رأيه ، ولا يطمعن في حسبه ، إن آفتم على الأمرار  
قام بها ، وإن قلد مهتما من الأمور أجزأ فيه ، له سن مع أدب ولسان ، يُقصد الزانة ،  
ويسكنه الحلم ، قد فزع ذكاء وفطنة ، وصنع على قارحة من الكال ، تكتفيه الحظلة ، وترشده  
السكنة ، قد أبصر خدمة الملوكة وأحكما ، وقام في أمورهم تحمدا فيها ، له أناة الوزراء ،  
وصولة الأمراء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء ، وجواب الحكهاء ، لا يبيع نصيب يومه  
بجرمان غده ، يكاد يسترق قلوب الرجال بمجلاوة لسانه وحسن بيانه ، دلائل الفضل عليه

(١) الطلمة يضم العاء وكسرهما : وجه الحسب العليوب أو الخيث .

لائحة ، وأمارات العلم له شاهدة ، مضطجعا بما استنص ، مستغلا بما حُل ، وقد أثرتك بطلبه ، وحبوتك بارتياحه ، ثقة بفضل اختيارك ، ومعرفة بحسن تأنيك » .

ويقول ابن طباطبا : إن الحسن بن سهل كان أعظم الناس منزلة عند المأمون ، وكان المأمون شديد المحبة لمفاوضته ، فكان إذا حضر عنده طاوله في الحديث ، وكلما أراد الانصراف منه ، فانقطع زمان الحسن بذلك وثقلت عليه الملازمة ، فصار يترامى عن الحضور يجلس المأمون ، ويستخلف أحد كتابه ، كأحمد بن أبي خالد وأحمد بن يوسف وغيرهما ، ثم عرّضت له سؤداه كانت أصلها جرحه على أخيه ، فكانت سبب انقطاعه في داره واحتجابه عن الناس ، وقد هجم حين ذاك بعض الشعراء فقال :

تولّت دولة الحسن بن سهل • ولم أبلل لحاق من نأها

فلا تجزع على ما فات منها • وأبى الله عني من بكها

وقد قرأنا في كتاب الأغانى ما يستدل منه على أن الحسن بن سهل هو صاحب الوساطة في المعو عن إبراهيم بن المهدي ، وذلك يختلف مع ما رواه البعض من أن بوران ابتسه هي التي طلبت المعو عنه ، وما رواه البعض الآخر من أن طاهر بن الحسين هو صاحب الوساطة . وتفصيل الرواية : أن الحسن بن سهل دخل على المأمون ، وهو يشرب قدحا ، فقال له : بحياتي وبحقّ عليك يا أبا محمد ألا شربت معي قدحا ، وصب له من نبيذه قدحا ، فأخذ بهيده وقال : من تحب أن يغنيك ؟ فأومأ الى إبراهيم بن المهدي ، فقال له المأمون : غنّه يا مع ، فنأه : « تسمع للحلّ وسواسا إذا انصرف » . عرض به ، لما كان لحقه من السؤداه أو الاختلاط ، فغضب المأمون حتى ظنّ إبراهيم أنه سيوقع به ، ثم قال له : أبيت ألا تغفرا ، يا أكفر خلّف الله لنبيّه ، والله ما حقن دمك غيره ، ولقد أردت قتلك ، فقال لى : ان عفوت عنه فعلت فعلا لم يسبقك إليه أحد ، ففوت والله عنك لقوله ، فحقّه أن تُعرض به ! ولا تدع كيدك ولا دغلك ! أو أنفت من إمائه اليك بالغناء ! فوثب إبراهيم قائما وقال : يا أمير المؤمنين ، لم أذهب حيث ظننت ولست بمائد ، فأعرض عنه .



### ٣ - وزارة أحمد بن أبي خالد

يظهر أن المأمون كان قد صدم صدمة عفيفة، من وزارة الفضل بن سهل ومن أخيه، لاستبدادهما بِحُلِّ الأمور من دونه، ويظهر أنه فكرَ جدياً في ألا يستوزر بعد الفضل أحداً، ويقال: إنه لما دعا إليه أحمد بن أبي خالد - وكان أبوه كاتب سر ابن عبيد الله، كاتب المهدي ووزيره - قال له: إني كنت عزمت ألا أستوزر أحداً، ثم عرض عليه الوزارة، فتنصل أحمد منها، وقال يا أمير المؤمنين: أعفني من التسمي بالوزارة، وطالبي الواجب فيها، واجعل بيني وبين العامة منزلة يريجون لها صديقي، ويخافون لها عدوي، لما بعد الغايات إلا الأكفات.

وتدل هذه المناقشة، وإن كانت قصيرة، على أن أحمد بن أبي خالد قد وجد العبرة في تاريخ الفضل بن سهل، وأمثاله، فرأى أن يكون مقتصدًا في مكانته وسلطانه، وقد اعجب المأمون بكلامه واستوزره.

وسترى في كتابتنا المجلدة التي عقدناها عن تقدير المأمون للشجاعة الأدبية، طرفاً من تصرفات أحمد بن أبي خالد، وحسن تخلصه، في حادثة عمرو بن مسعدة، وكيف كان شجاعاً وصادقاً، وكيف كان مخلصاً للمأمون، عاملاً على إصلاح ما بينه وبين رجاله دولته.

ويقول صاحب الآداب السلطانية والدول الإسلامية: إن المأمون لما ولى طاهر ابن الحسين نرسان، استشار فيه أحمد بن أبي خالد، فصوّب أحمد الرأي في تولية طاهر، فقال المأمون لأحمد: إني أخاف أن يَغْدُرَ ويخْلَعُ ويفارق الطاعة، فقال أحمد: الدُّرُكُ في ذلك على - ويجب أن تُشِيرَها إلى ما جاء بكاتب عيون الأخبار عن دقة المأمون في مثل هذا الموقف، فإن المصلّي بن أيوب أحد المعاصرين يَحْتَشِبُ عن ذلك بقوله: سمعت المأمون يقول: من مدح لنا رجلاً، فقد تضمّنَ حِيَةً - فوله المأمون، فلما كان



بعد مدة، أنكر عليه المأمون أمورا، وكتب إليه كتابا يتهدده فيه؛ فكتب طاهر جوابا، أغلظ فيه للمأمون، ثم قطع ٨٣٠ من الخطبة ثلاث جمع، فبلغ ذلك المأمون، فقال لأحمد ابن أبي خالد: أنت الذي أشرت بتولية طاهر، وصحنت ما يصدر منه، وقد ترى ما صدر منه من قطع الخطبة ومفارقة الطاعة، فوافقه لئن لم تتلطف لهذا الأمر وتصلحه كما أفسدته وإلا ضربت عنقك؛ فقال أحمد: يا أمير المؤمنين، طِبْ نفساً، فبعد أيام يأتيك البريد بهلاكه. ثم إن أحمد بن أبي خالد أهدى لطاهر هدايا، فيها كوايخ مسمومة، — وكان طاهر يحب الكافخ<sup>(١)</sup> — فأكل منها ثلث من ساعته.

فان سمحت هذه الرواية دلت على أن المأمون ورجاله لم يصكروا قد صرفوا أنفسهم ويومئذ عن التذرع إلى الخلاص من بعض رجال الدولة بالقضاء على حياتهم.

قال المعزى: إن أحمد بن أبي خالد لما تولى طاهر خراسان، حسب هذا الحساب، فوهب له خادما وتواوله ستما، وقال له: متى قطع خطبة المأمون فاجعل له هذا السم في بعض ما يجب من المأكّل، فلما قطع طاهر خطبة المأمون جعل الخادم له السم في كافخ، فأكل منه ثلث من ساعته، ووصل الخبر على البريد بموته إلى المأمون بعد أيام، فكان ذلك مما عظم به أمر أحمد بن أبي خالد. فتأمل طريقة التخلص من الزعماء في ذلك الحين، ولا حظ كيف كانت عندهم خاتمة الحياة لمن يترمون لهم من كبار القواد والوزراء. وتأمل بعد ذلك لم أفقرت البلاد من قادتها وكجتها، ولم أئحت الكلمة النافذة فيها بعد لليلة الأثراك وغيرهم من الغفراء!

وكان أحمد بن أبي خالد، إلى جانب كفايته، وبصره بالأمور مصابا بالشرة. وقد

قال أحد المعاصرين — لما ناقب المأمون أحمد بن أبي خالد هذا —: ما ظن أن الله خلق

(١) هو إدام يقدّم به ويل هو خبز يملح. مريب كاه بالقارسية رخصه بعضهم بالخللات التي تسدل لتشمي الطعام.  
(٢) يقول أساذنا الشيخ عبد الوهاب النجار: «يلوح لي أن هذه الحكاية مصنوعة فكيف يجرى أحمد بن أبي خالد على هذا الأمر وهو يعلم مكانة عبد الله بن طاهر ومكانته وأقننه وحسن تأثيره للأمر. فويل من أن يترى عبد الله بما يورثه ويصبل هلاكه. وبعد فهذه الرواية تناقض الرواية الأخرى. وهي أن صاحب البريد كتب إلى المأمون بما كان من طاهر من ترك الدعاء له وكتب إليه في اليوم الثاني بموته»

في الدنيا نفساً أنبل ولا أكرم من نفس المأمون ، فلما سئل لماذا ؟ قال : لأنه صرف نفس الرجل - يعني أحمد بن أبي خالد - وشرفه فكان أذا وجهه الى رجل رسالة أو في حاجة ، قال : انتبه بالقدادة واحلّ ثيابك واطمئنّ عنده ، فان انصرفت وقد قتت فاكسب الى بيوهاب ما جئت به في رقعة وادفعها الى قنص يوصلها الى .

ومما ينسب اليه أنه ولّى رجلاً كورة عظيمة القدر ونحو أن فالوذج أهده اليه . وقيل : إن جماعة من أهل كورة الأهواز شكوا عاملاً كان عليهم ، فمزل وصار الى مدينة السلام ، فتكلموا فيه ، فأبى خبرهم الى المأمون ، فاحضرهم وخصمهم ، وأمر أحمد بن أبي خالد بالنظر في أمورهم ، فقال رجل من خصوم العامل : يا أمير المؤمنين ، جعلني الله فداءك ، تقدّم الى أحمد ألا يقبل من هذا الفاجر هدية حتى يقطع أمرنا ، فوالله لأن أكل من طعامه رغيفاً ومن فالوذه جاماً ، ليحضرن الله محبتنا على يديه ، وليطلق حقنا على يديه . فكان من جزاء ما قاله متكلم الجماعة أن المأمون طلب اليهم أن يحضروا اليه يوم الأربعاء ، لينظر في شكايهم بنفسه ، وكان من جزاء مثل هذه الشكاوى وما قيل في أبي خالد من أنه « يقتل المظلوم ويعين الظالم بأكلة » أن أجرى المأمون عليه في كل يوم ألف درهم لمساعدته ، لئلا يشره الى طعام أحد من بطانته أو من طعام الناس .

ومن طريق حوادثه مع المأمون - وهي تؤيد لنا صحة ما روي به من هذه الناحية وتدل على اقتناع المأمون بإصابته بها - ما يرويه لنا ابن طيفور في تاريخه ، قال : « حدثني بعض أصحابنا قال : قال المأمون يوماً لأحمد بن أبي خالد : أضد عليّ باكرًا لأخذ القصص التي عندك ، فانها قد كثرت لنقطع أمور أصحابها ، فقد طال انتظارهم إياها . فبكّر ، وقعد له المأمون ، بفعل يرضى عليه ويوقع عليها ، الى أن مرّ بقصة رجل من البريديين يقال له فلان البريدي فصحّف ، وكان جامعا فقال : البريدي ؟ فضحك المأمون ، وقال : يا غلام ! تريد مخمّة لأبي العباس ، فانه أصبح جامعا ! فغجل أحمد ، وقال : ما أنا بجامع يا أمير المؤمنين ، ولكن صاحب هذه القصة أحمق ، وضع نسبته ثلاث

نقط، قال : دَعُ هذا عنك فالجوع أضرَّ بك حتى ذكرت التريد، فجاءوه بصَحْفَةٍ عظيمة، كثيرة العُراق<sup>(١)</sup> والودك، فاحتشم أحمد، فقال المأمون : بحياى عليك ! لِمَا عَدَلَتْ نَحْوَهَا، فوضع القصص ووال إلى التريد، فأكل حتى انتهى والمأمون ينظر إليه، فلما فرغ دعا بطشست ففسل يده ورجع إلى القصص، فثرت به قصة فلان الجُمُي، فقال : فلان اتلِيسى ! فضحك المأمون، وقال : يا غلام ! جأماً سخياً فيه خَيْصٌ، فإن غَدَاءَ أبى العباس كان مبتورا، فنجيل أحمد، وقال : يا أمير المؤمنين، صاحب هذه القصة أحمق ! ففتح الميم فصارت كأنها سِتْنَان ! قال : دع عنك هذا، فلولا حمقه وحمق صاحبه لمت جوعاً، فجاءوه بجام خييص، فنجيل، فقال له المأمون : بحياى عليك ! لِمَا عَدَلَتْ نَحْوَهَا ! فأنحرف فأنثى عليه، وفسل يده، ثم عاد إلى القصص، لما أسقط حرفاً حتى أتى على آخرها .

«وبعد» فانا نستنبط — من هذه الرواية وما جرى من الحديث بينه وبين المأمون في شأن أكلة ابن أبي خالد عند دينار بن عبد الله التي كلفت المأمون ألف ألف — شَرَّةَ هذا الوزير الجليل . ويحذر بنا أن نعيد هنا ملاحظة أخرى، وهى طول احتيال المأمون، وكبير جلده، وقوة اصطباره، على مطالعة شكاوى الجمهور ومظالمهم، غير مكترث لآلم الجوع ولا جناح إلى الرغد والراحة، فى سبيل نظرها وإنصاف أصحابها .

على أن هذه الهنة فى هذا الوزير وإن كانت طائبة للرجل نافعة من كرامته، فكفايته مقطوع بها . وليس أدل على عظيم قدره، وسمو مكانته، من حضور المأمون جنازه، وصلاته بنفسه عليه، وقوله عنه، بعد أن دُلِّى فى حُفْرته وترحم عليه، أنت والله كمال القائل :

أخو الجند إن جدَّ الرجال وشمروا • وذو باطل إن كان فى القوم باطل

(١) الرارق : جمع عرق وهو القطعة من اللحم وهو أحد الجوع النادرة (وقد عدَّ هذه الجوع ابن السكيت فى لسان العرب مادة عرق فراجها) . والودك : الدسم .

(٢) نوع من الخمرى .

(٣) أنظر هذه الحكاية فى تاريخ بغداد لابن طيمورص ٢٢٢ — ٢٢٤



#### ٤ - وزارة أحمد بن يوسف

وقد استوزر المأمون بعد ابن أبي خالد أحمد بن يوسف الكاتب . ولما كنا نستعقد له بحثا خاصا في قسم الآداب والعلوم ، فستجد تمة طرفا عن حياته وأثره .



#### ٥ - وزارة يحيى بن أكرم النخعي

استوزر المأمون بعد أحمد يحيى بن أكرم . وهو من أصحاب ثمانية بن أشرس المتكلم المعروف ، ولآه المأمون وظيفتي الوزارة وقاضي القضاة .

ولم أجد اختلافا قويا ، هو اختلاف النقيضين ، كاختلاف القدماء في يحيى بن أكرم . ولما كان له مظهر بارز في الدولة المأمونية من الوجهة العلمية والأدبية — لأنه كان ، كما يقول أحمد بن حنبل رضى الله عنه ، متفنتا فيها : فكان إذا نظر الى رجل يحفظ الفقه سألته عن الحديث ، وإذا رآه يحفظ الحديث سألته في النحو ، وإذا رآه يعلم النحو سألته عن الكلام ، ليقطعه ويحججه — آثرنا أن نلم بحياته وأقوال الناس فيه من قادح ومادح ، ونبين قدره على وجه الإجمال لا التفصيل . وسنورد كلامنا فيه أيضا في قسم العلوم والآداب من هذا الكتاب .



#### ٦ ، ٧ ، ٨ - وزارات أخرى

وقد ذكرنا أن المأمون استوزر ، بعد من قدمناه لك ، أبا عبيد ثابت بن يحيى بن يسار ، وأبا عبيد الله بن زياد ، وقد آتينا في سيرتهما بمرس سبقهما ، كما أنه ذكر أنه استوزر عمرو بن مسعدة وهو صيتر أحمد بن يوسف ناهية وكفاية وكناية . وإنا لا نرى مدعاة لاثبات ما هو من لون واحد ، ففي ذلك إضاعة للوقت وتكرار للقول .



### (ب) الجند والقواد في عصر المأمون :

لا نريد هنا أن نتكلم عن ديوان الجند وتاريخه ، ولا عن مرتبات الجند وسوقهم ، منذ المهود الأولى ، فان ذلك يطول كثيرا . على أنا نحيلك مع ذلك الى ما جاء بالجزء الأول من تاريخ التمدن الاسلامي في هذا الباب . وقصارى ما نريد قوله الآن أن راتب الجندى الراجل ، وهو مثل « النفر » في النظام العسكري الحديث ، هو ٢٤٠ درهما في السنة ، فضلا عن حصته في الفئام عند الغزوات . ويظهر أن حصصة الجنود من الفئام كانت قد حُرِست عنهم ، حتى رُدّها عليهم الأمين سنة ١٩٨ هجرية ، فأصاب الرجل سنة دنانير .

ولما قام النزاع بين الأمين والمأمون جعل المأمون راتب الجندى ثمانين درهما في الشهر ، على أن هذا الراتب عاد الى ما كان عليه بعد انتهاء الفتنة . أما القواد العظام في هذا العصر ، فانا نكتفي بما وقفت عليه أثناء النزاع بين الأخوين ، لأن من التكرار في القول أن نعيد هنا ما قلناه هناك .



### (ج) ديوان القضاء والمظالم والحسبة :

سنقف من بحثنا التي أفردناها لتحليل أخلاق المأمون على شيء من سلطان القضاء في ذلك العهد . ونحيلك ها الى المحاضرة القيمة التي أقيمت في المجمع العلمي بدمشق عن تاريخ القضاء في الاسلام ، كما نحيلك الى الفصل المُسَمَّي الذي أفردته في هذا الموضوع صاحب التمدن الاسلامي .

ويكفيها هنا أن نقول : إن نظام الحكم أو الفصل في الدعاوى ، في ذلك العهد ، كان متشعبا بقدر ما كان محكما ، إذ قد كان يوجد الى جانب ديوان القضاء : ديوان المظالم وديوان نظر الحسبة ، وهذه الدواوين كلها كانت تنظر فيما يرفع اليها من دعاوى .

ويطول بنا الحديث، في هذا المقام لو أردنا استيعاب بيان كل نوع من هذه الدواوين وما يختص بالنظر فيه .

على أنه يجوز لك، أن تفترض الى حد ما، أن ديوان المظالم كان يشبه في بعض نظامه وسلطته المحاكم العليا كحكم الاستئناف والنقض والإبرام، كما يشبه الى حد غير قليل المجالس التأديبية .

وإذا تخيلك هنا الى الفصول المنوعة التي أفردتها أبو الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردي في كتابه القيم " الأحكام السلطانية " فقد عالج فيها الكلام عن القضاة وما يختصون به من الدعاوى، وعن ولاية المظالم وما يختصون به أيضا، وكذلك عن ولاية الحسبة وحدود سلطانهم، وقد نقل عنه صاحب نهاية الأرب في نهاية الجزء السادس جملة صالحة منه فراجعها .

أما راتب القضاة فنقول : إن راتب القاضي بلغ في أيام المأمون ٤٠٠٠ درهم في الشهر، أي حوالى ٣٧٠ ديناراً . وهذا الراتب في ذاته يدل على ما وصلت اليه الثروة في ذلك العصر . وقد كما نود أن نختص الولاية وراتبهم بكلمة لولا أن المصادر في ذلك تنقصنا . وفيما يتناهى عن القضاة مقياس لمن كان في مكائهم ولمن كان أرفع منهم أو أقل مرتبة . فعليك أن تفكر وتوازن .

## افضل التباين

### خلاصة الحياة السياسية والاجتماعية

نوطه — نكبة الوزراء — الاستصفا — ثروة الخلفاء ورجال الدولة وبذخهم — الخراج في عهد المأمون — الخراج في عهد المهدي — المعايير والجمهورية — الدعاية (البرجاند) — صعوبة مهمة الموثق .

#### (أ) نوطه :

أما أثر المال في النفوس ، وأثر الأحزاب السياسية ، وكيف تغيرت وجهات النظر في كثير من الأمور الدينية ، فانك قد وقفت على شيء من ذلك فيما سردناه لك .

على أنا نظن أنه قد آن لنا أن ندون بعض ملاحظاتنا في هذا العصر ، وأن لنا أن نتكلم من نصيب الوزراء والقواد والزعماء في هذه الدولة ، التي كان للوزراء والقواد والزعماء الأثر الكبير في تقدم بنائها ، وتقوية أركانها ، وتشديد سلطانها .

#### (ب) نكبة الوزراء :

زبد أن نلاحظ أن حياة الوزراء وحياة القواد والزعماء كانت تنتهي ، في الغالب ، بنكبتهم في حياتهم ، أو استصفا أموالهم .

ومع أنا نحيلك الى بعض المصادر القيمة في هذا الموضوع ، مثل كتاب تحفة الأعمراء في تاريخ الوزراء ، لأبي الحسن الهلالي بن المحسن بن ابراهيم الصبّابي الكاتب ، وإلى ما كتب من الفصول في غيره ، زبد أن نلاحظ أن مجملهم قد نكبه خليفته ، مثل نكبة المنصور لأبي مسلم ، وعبد الله بن علي ، وأبي سلمة الخليل ، وأبي الجهل ، ونكبة لأبي أيوب الموراني ، ونكبة الربيع بن يونس الذي سمّه الهادي ، ونكبة المهدي ليعقوب ابن داود ، ونكبة الرشيد للبرامكة ، والمأمون لمن رأيت .

نلاحظ ذلك . ونلاحظ أن غدر الخلفاء بوزرائهم في ذلك العهد قد لاكنه الألسنة وتمكنت فيه الشعراء ؛ فقد قال بعضهم حينما قتل المتوكل وزيره محمد بن عبد الملك الزيات :

يكاد القلب من جزع يطير • إذا ما قيل قُتل الوزير  
أمير المؤمنين قُلتَ شخصا • عليه رحاكم كانت تلور  
فهلاً يا بني العباس مهلاً • لقد كُويتَ بقدركم الصدور

كما نلاحظ أيضا تتصل شخصيات عظيمة من قبول الوزارة في ذلك العهد ، لما عهدوه من وخم عواقبها ، وسوء نية الاضطلاع بها . فقد ذكر ابن طيفور أن مُسامة ابن أشرس المتكلم المعروف ، قال : لما قُتل الفضل بن سهل بعث الى المأمون وكنت لا أنصرف من عنده إلا الوقعة الى منزل ، ثم يأتيني رسوله في جوف الليل يأتيه ، وكان قد أهلى لمكان الفضل بن سهل من الوزارة ، فلما رأيته قد ألح على ذلك تعالت عليه ؛ فقال لي : إنما أردت لك كذا وكذا ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ، إني لا أقوم بذلك ، وأحري أن أضن بموضي من أمير المؤمنين وحال أن تزول عنده ، فإني لم أر أحدا تموض للخدمة والوزارة ، إلا لم يكن لتسلم حاله ولا تدم متلته . ورشح له أحمد بن أبي خالد الأحول . ثم انظر الى اعتلاله عليه مرة أخرى حينما رشح له يحيى بن أكرم ؛ فانك توفن معنا بنفور رجال الدولة من الوزارة ، وهربهم من شركها وسوء عقابها .

### (ج) الاستصفاء :

هم ينفرون من الوزارة ، لأن خاتمة حياتهم كانت التقتيل كما رأيت . وينفرون منها ، لأن معيبراً وأموال ذويهم كان ، في الغالب ، الى الاستصفاء والاختصاب . ولقد عم الاستصفاء سائر رجال الحكومة حتى الرعية ، وأصبحت ، بتوالي الأيام ، المصدر الأول لتحصيل المال .



فالعامل يستعفى مما للرعية ، والوزير يستعفى مما للعال ، والخلقة يستعفى مما للوزراء ، ومما للناس على اختلاف طبقاتهم ، حتى لقد أنشأوا الاستصفاة ديوانا خاصا مثل سائر دواوين الحكومة ، فكان المال يتداول بالاستصفاة كما يتداول بالتاجرة .

أما أنواع الاستصفاة ومقاديره في ذلك العصر ، فنترك الكلمة في هذا للوزير ابن الفرات قريب العهد بالأمون ، قال : « تأملت ما صار الى السلطان من مالى ، فوجدته ١٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار ، وحسبت ما أخذته من الحسين بن عبد الله الجوهري بن الجصاص فكان مثل ذلك . فكأنه لم يخسر شيئا ، لأنهم كانوا يقبضون بالاستصفاة ويدفعون بالاستصفاة . وإذا استعفى أحدهم من مال لم يكن في وسعه أدائه كله معجلا ، أجلوه بالباقي وساعده على تحصيله أو جمعه برقه جأه وتغير زيته ، وإزاله في دار كبيرة فيما الغرش والآلة الحسنه ، ليستطيع التخل في جمع الأموال من الناس .

وتعددت أسباب الاستصفاة وجهاته ، حتى أصبح كل صاحب مال أو منصب عرضة له . وهالك بيانا لما قبضه ابن الفرات من الاستصفاة ، على أيام اراضى بالله ، نشروا لك لتكون أنموذجا لأنواع الاستصفاة ومقاديرها :

|        |  |
|--------|--|
| دينار  |  |
| ٧٣٠٠   | من أحمد بن محمد بن إبراهيم البساطي ، عن النصف مما بقي عليه من استصفاة في سنة ٥٣٠٠ هـ . |
| ١١٠٠٠  | من علي بن الحسين الباذي الكاتب ، مما تولاه من الموصل .                                 |
| ٣٠٠٠٠  | « محمد بن عبد الله الشافعي ، مما تصرف فيه لعلي بن عيسى .                               |
| ٨٠٠٠٠  | « محمد بن علي بن مقله ، مما تصرف فيه .   |
| ١٠٠٠٠٠ | « محمد بن الحسن المعروف بابي طاهر .  |
| ١٣٠٠٠  | « الحسن بن أبي عيسى النافذ ، مما ذكر أنه ودعة لعلي بن عيسى .                           |
| ٤٠٠٠   | ومنه أيضا صلحا عن نفسه .   |
| ٢٠٠٠٠  | من إبراهيم بن أحمد المسادراني .  |
| ٢٦٥٣٠٠ |  |

|   |   |                 |
|---|---|-----------------|
| • | ما قبله   | دينار<br>٢٦٥٣٠٠ |
| • | من عبد الواحد بن عبيد الله بن عيسى، من بقية استشفاء والده .   | ٣٦٣٣٠           |
| • | أحمد بن يحيى بن حاني الكاتب عن مصلحة وجبت .   | ١٠٠٠٠           |
| • | إبراهيم بن أحمد بن أدريس الجهمي، عن صلحه .  | ٦٠٠٠            |
| • | محمد بن عبد السلام بن سهل، عما عنده من الودعة لمحمد بن علي وإبراهيم بن أحمد المسدراي .                  | ٤٠٠٠            |
| • | عبد الوهاب بن أحمد بن ما شاء الله، عن صلحه .  | ٤٠٠٠٠           |
| • | محمد بن عبد الله بن الحارث، عن صلحه .   | ١٠٠٠٠           |
| • | محمد بن أحمد بن حماد، عما تصرف فيه بالموصل وغيرها .   | ٢٥٠٠٠٠          |
| • | إبراهيم بن أحمد المسدراي، عن الباقي عليه من جملة خمسين ألفاً .  | ١٥٠٠٠           |
| • | أبي عمر محمد بن أحمد الصباح الجرجلي، عن ضمانه الباقي على أبي العباس أحمد بن محمد بن علي المعروف بقرقر . | ٣٠٠٠            |
| • | علي بن محمد بن الخواري وقتل .   | ٧٠٠٠٠٠          |
| • | هارون بن أحمد الحمذاني .  | ٧٠٠٠            |
| • | عبد الله بن زيد بن إبراهيم .  | ٢٠٥٠            |
| • | عبد الله بن زيد، صلحا عن نفسه .   | ١٥٠٠٠           |
| • | علي بن مأمون بن عبد الله الاسمكاني كاتب ابن الخواري وقتل .  | ٦٠٠٠٠           |
| • | يحيى بن عبد الله بن إسحاق، عما تصرف فيه مع حامد .   | ٧٠٠٠٠٠          |
| • | حامد بن العباس، وقتل .  | ١٣٠٠٠٠٠         |
| • | محمد بن محمد بن حمدون الواسطي .   | ١٥٠٠٠٠          |
| • | أبي الحسن علي بن عيسى .   | ٣٢١٠٠٠          |
| • | إبراهيم بن يوحنا جهيز حامد بن العباس .  | ١٠٠٠٠٠          |
| • | أبي محمد الحسن بن أحمد المسدراي .   | ١٢٠٠٠٠٠         |

|  |                |                                      |
|--|----------------|--------------------------------------|
| دينار  | ٥٢٩٤٦٨٠        | ما قبله                              |
| ومنه أيضا .  | ١٠٠٠٠٠         |                                      |
| من أبي بكر محمد بن علي السادراني .   | ١٠٠١٠٠٠        |                                      |
| ومنه أيضا .  | ١٠٠٠٠          |                                      |
|  | <u>٧٣٠٥٦٨٠</u> |                                      |
| درهم   | ٥٠٠٠٠          | من أبي الفضل محمد بن أحمد بن بسطام . |
| » علي بن الحسن الباذيقي ، صلحا عما تصرف فيه بالموصل وقتل .                                     | ٢٠٠٠٠          |                                      |
| » أبي عمر محمد بن أحمد بن الصباح الجرجاني ، عن ضمان الباقي من استصفاة أبي ياسر إصهاق بن أحمد . | ١٠٠٠٠٠         |                                      |
| » حبيب الله بن أحمد البقوي .   | ١٠٠٠٠٠         |                                      |
| » الحسن بن إبراهيم الخراطي ، صلحا عما اقتطعه من مال الرئيس .                                   | ١٠٠٠٠٠         |                                      |
| » الحسين بن علي بن نصير أنى نصير بن علي .  | ١٠٠٠٠٠         |                                      |
| » علي بن محمد بن أحمد بن السمان ، عن وروثة قرقور .   | ٢٥٠٠           |                                      |
| » أبي بكر أحمد بن القاسم الأزرق الجرجاني ، عن ضياع علي بن عيسى .                               | ١٠٠٠٠          |                                      |
| » الحسين سمد بن القطرلي .  | ١٣٠٠٠٠         |                                      |
| » محمد بن أحمد .   | ١٥٠٠٠٠         |                                      |
| » أبي الحسن محمد بن أحمد بن بسطام .  | ٣٠٠٠٠٠         |                                      |
| » أحمد بن محمد بن حامد بن العباس .   | ٥٠٠٠٠          |                                      |
| » سليمان بن الحسن بن محمد .  | ١٣٠٠٠٠         |                                      |

ومن المعلوم أن تستبسط من ذلك أن الوزير أو العامل ، لا بد أن يمتنع إلى الرشوة ، فيعوض المال الذي سيستصفي منه ، والثروة التي ستقتصب منه . ومن المعلوم أيضا أن تغفل لم تعددت الثورات في بعض الولايات ، ولم كثرت الشكايات من بعض الولاة في ذلك العهد . وإنه وإن لم يتم المؤرخون القدماء بإثبات شكايات العامة

وأَسباب ثوراتهم، فقد عثرنا بين السطور على العبارة الآتية في الجزء الثاني من اليعقوبي<sup>(١)</sup>، تنبها لك بنصها : « أخذ الرشيد المال والتشاء<sup>(٢)</sup> والدهاقين<sup>(٣)</sup> وأصحاب الصياع والمبتاعين للغلات والمقبولين<sup>(٤)</sup>، وكان عليهم أموال مجتمعة، فولّى مطالبتهم عبد الله بن أبيهم ابن سام، فطالبهم بصنوف من العذاب، وكان ذلك سنة ١٨٤ واعتل الرشيد في تلك السنة علة شديدة وشفى منها، فدخل إليه الفضيل، فرأى الناس يعدّون في الخراج، فقال : ارفعوا عنهم، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من عذب النفس في الدنيا عذبه الله يوم القيامة » فأمر بأن يرفع عن الناس، فارتفع العذاب من تلك السنة<sup>(٥)</sup> . »

ويجوز لنا أن نستدل من هذه العبارة وبما ذكره الطبري وسواه : من تخفيض بعض الخلفاء خراج بعض البلدان عقب ثورة من الرعية أو زيارة ملكية، على أن المال كانوا يمنعون إلى الشدة والسف وجمع المال بشق الوسائل، وكل ذلك من جزاء النظام المتبع معهم كما أسلفنا . فتامل كيف يكون هسف الولاة للرعية بسبب هسف المملوك للولاة والمال .

يُسيِّفون ويظلمون<sup>(٥)</sup>، والرعية وحدها هي التي تحتمل وتصبر، بيد أن التاريخ يخبرنا دائماً، في كافة الدول وكافة الأجيال، أن نهاية هذا الاحتمال وذلك الصبر هي نقطة الأمم وانهايتها، ونهضة الشعوب ونضوجها، ورفضها في إياه وثميم وفي عقيدة وإيمان، وفي شجاعة وحرية، وفي تصميم وقوة إرادة، احتيال أمثال هذه الأدران والمآثم، وتلك الإساءات والمظالم، ممن تسلموا مقاليد الرعية : من الحكام ولوى السلطان .

(١) التمام (وزان سكان) جمع تائي، والتائي : الدهقان . أنظر القاموس . (٢) الدهاقين جمع دهقان وهو التجار ورؤس الأقطر وهو قاضي حرب . (٣) هم ملوك جبال الخراج للولاة . (٤) يرى الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار أن عمل الرشيد هذا لم يكن من قبيل الاستملاء وإنما هو من قبيل الإعانات في استيفاء الخفوق . (٥) يلاحظ الأستاذ النجار أيضاً أن كل ما ذكر في هذا الباب لا يتناول زمن المأمون وإنما كان ذلك بعده . والرشيد لم يحفظ عليه إلا الاستملاء البرائكة حين تكبهم وأن المأمون رنست إليه رقة فيها أن فلانا مات وترك لورثته كذا وكذا وكان المال يبلغ الملايين من الدراهم فكتب في الرقة : هذا قليل لمن تغلب في دولتنا وطالت خدمتنا لنا فبارك الله، ورحمه فما ترك لهم .

### (د) ثروة الخلفاء ورجال الدولة وبذخهم :

نريد أن نعيد ملاحظة أخرى، وهي نتيجة لازمة من نتائج الاستصفاء والاعتصاب . تلك الملاحظة هي استفحال ثروة الخلفاء طبعا ، واستفحال ثروة كبار رجالاتهم والمقررين من أفراد البيت الملكي من بطانة وحاشية، واستفحال بذخهم ، واستفحال أعبائهم . ونحن وإن كنا لم نجد مصدرا منطقي هذا الموضوع ، وخاصة في العصر المأموني ، فقد عثر في كتاب لطائف المعارف للثعالبي ، أن « المكتفى » وهو قريب الصلة بعصر المأمون ، قد خلف مائة مليون دينار ! وهذا تفصيلها :

دينار

٢٠,٠٠٠,٠٠٠ من العين والورق والأواني المعمولة .

٢٠,٠٠٠,٠٠٠ « الفرس » .

٢٠,٠٠٠,٠٠٠ « الكراع والسلاح والغلمان » .

٢٠,٠٠٠,٠٠٠ الضياع والمعار والأملاك .

٢٠,٠٠٠,٠٠٠ الجواهر والطيب وما يجري معها .

ومن المعلوم أن نخخذ من حالة هذا الخليفة العباسي مقياما لغيره ، وإن كنا نعلم أن غيره مثل الرشيد والمأمون كانا أبسط منه سلطانا وأكثر أهوانا ، فهما إن لم يكونا أرفع منه شأنًا ، ليسا بأقل منه بالثروة مكانا !

أما ثروة كبار رجالهم ، فإنا نذكر لك هنا على سبيل المثال نصبا هائلا ، يصح أن نخذه أساسا لتقدير ثروة أسرة الفضل بن سهل ، أو أسرة طاهر بن الحسين ، أو غيرهما من أساطين الدولة وأقطاب المملكة . وهو النص الذي رواه سهل بن هارون أحد المعاصرين خاصا بثروة البراءة . وكلامه حجة لا محالة ، لأنه إلى الجانب كونه من المعاصرين الواقفين على ما جرىأت الأمور وبواطنها في ذلك العهد ، فقد كان يشغل وظيفة خازن دار الحكمة في أيام المأمون . قال : « ... وأمر الرشيد بضم أموالهم ، فوجد من العشرين ألف ألف

التي كانت مبلغ جياتيسم ، اثني عشر ألف ألف مكتوبٌ على يَدِها صُكَّوكٌ مَحْضُومَةٌ  
تفسرها رقيقاً ، حَبُوباً ، فما كان منها حيَّاءٌ على غريبية أو استطرافٍ مُلَحَةٍ تَصَدِّقُ به  
يحيي ، وأثبت ذلك في ديوانها ، على تواريج أيامها ، فكان ديوانٌ إنفاقٍ واكتسابٍ فائدة ،  
وقبض من سائر أموالهم ثلاثين ألف ألف وستائة ألف وستة وسبعين ألفاً ، الى سائر  
ضبايعهم وغللتهم ودورهم ورياستهم والديق والجليل من مواعينهم ، فانه لا يصف أقله ،  
ولا يعرف أيسره ، إلا مَنْ أَحْصَى الأعمال ، وعرف منتهى الأجل » .

ويحوز لنا كذلك أن نستخلص مما صرف على زواج بُورَانَ بالمأمون ، مبلغ ثروة  
الحسن بن سهل . كما يحوز لنا أن نتبين مقدار ثروة عبد الله بن طاهر من رواية  
صاحب النجوم الزاهرة الخاصة بإحدى مواقفه في الكرم . ومؤداها : أنه اقتدى الأسرى  
من الترك بخور ألفي ألف درهم . ثم أنظر ما رواه المسعودي في مُروجه خاصاً بما  
فعله إبراهيم بن المهدي ، في زيارة للرشيد له ، اذ أصطحب له طَافِييسَه بِجِلَّةٍ أَطْعَمَهُ نَحْمَةً ،  
وكان من جملة جامُ سَمَكٍ مَقَطَّعٍ ، فاستصغر الرشيد قِطْعَةً ، واستفسر منه عن حقيقتها ،  
فأجابه إبراهيم بن المهدي : يا أمير المؤمنين ، هذه أَسَنَةُ السَمَكِ . وقدّرت نفقة ما في ذلك  
إلجام بألف درهم !

ثم أنظر بَنَاحَهُمْ في لباسهم . وقد سبق لنا أن أشرنا الى ما كانوا يلبسونه في المنادمة ،  
من مختلف الثياب ونالها . وزيد أن نبين هنا ما وقفنا عليه من عُلُقَات بعض المداشرين  
من الخلفاء والقواد ، ليكون مثالا تقريبياً لحالة مَنْ لم يهمل الى علمنا خبره . فقد ذُكِرَ أن  
ما خلفه المُكْتَفَى من الألبسة هو :

صدد

٤٠٠٠٠٠ من الثياب المقصورة سوى الخدامات .

٦٣٠٠٠ » الأثواب الخراسانية المَرْيُوتَةُ .

٨٠٠٠ » اللبائنات .

|       |   |
|-------|---|
| ١٣٠٠٠ | العام المروية .                               |
| ١٨٠٠  | الحلّ الموشاة العمانية وغيرها منسوجة بالذهب . |
| ١٨٠٠٠ | البطائن التي من كرمّان في أنابيب القصص .      |
| ١٨٠٠٠ | الأسطة الأرمنية .                             |

وذكروا أن ذا العيمين توفي وفي خزانته ألف وثلاثمائة سراويل ديبق لم يستعملها . وقيل  
إنهم وجدوا في كسوة بمختشوع الطيب ٤٠٠ سراويل ديبق .

وقد اطلعنا في الجزء العشرين من « كتاب نهاية الأرب » على أن ملك التبت قدّم  
على المأمون، ومعه صمّ من ذهب على سرير من ذهب مرصّع بالجوهر، فأسلم الملك،  
وأخذ المأمون الصنم وأرسله الى الكعبة . وطالما فيه أيضا أن ملك الهند أهدى اليه  
هدية نفيسة، وكتب اليه معلنًا أمواله وثروته، مما يدل على بذخ العصر وثروة الملوك فيه .

وقد استفحل أمر البذخ في ذلك العصر، حتى أصبحنا نرى أبا العتّادية مثلاً، وهو  
المعروف ببغله، يهدى الى الرشيد، في سبيل طلبه لعتبة، ثلاث مَراوَح، وكان العباسيون  
قد تمفّنوا فيها وفي المَذَاب التي اختُرعت في أيامهم، وكتب على كل مروحة بيتا، قال  
في مجموعها :

ولقد تنسّمتُ الرّيحَ لحاجتي \* فإذا لها من راحيته شَمَمٌ  
أعطتُ نفسي من رجالك ماله \* عني يَحُثُّ اليك في ورسم  
ولرّما استيأستُ ثم أقول لا ، \* إن الذي ضمن الرّيحَ كَرِيمٌ

ولعلك اذا تذكرت أمر سقن الأمين وبذخه وإسرافه مضافا اليه ما ذكرنا هنا وغيره،  
تؤمن بما نقول من بذخ العصر واستفحال ثروته . هل أنا قد عثرنا على مصدرين، نشرهما  
مع الحجة والحذر، لبيان ثروة العصر . يتضمن الاثنان بيان الحياة في أيام المأمون،  
ويتضمن الثاني حالتها في أيام أخيه المعتصم . مفترضين في كلتا الحالتين جواز المبالغة

في التقدير، ذلك لأن ديدن المؤرخين القدماء، أن يمتنعوا في الغالب الى المبالغة والفتور .  
 وإنما مع إقتراضنا المبالغة في التقدير في المصدرين، نرى مع ذلك أن أى تقدير متواضع  
 للخراج، في ذلك العصر، لابد أن يكون عظيماً ودالاً على الثروة والفنى والبذخ .

### (٥) الخراج في عهد المأمون :

يمتاز عهد المأمون بوجود أثر تاريخي يدل على مقدار الجباية الخراجية في جميع  
 الأقاليم التي كانت تحت حكم الدولة العباسية، وهو التثبيت الذي نقله العلامة ابن خلدون  
 في تاريخه، وقد أحببنا، لما في ذلك التثبيت من الفائدة، أن ننقله عنه . وهذا هو ذا :

| الإقليم               | الجبائية من الدراهم<br>والديناتير | الجبائية من المروض    |
|-----------------------|-----------------------------------|-----------------------|
| السواد ... ..         | درهم                              | حلة بخرانية ٢٠٠       |
| كسكر ... ..           | ٢٧٨٠٠٠٠٠                          | رطلا من طين الختم ٢٤٠ |
| كور دجلة ... ..       | ١١٦٠٠٠٠٠                          |                       |
| حلوان ... ..          | ٢٠٨٠٠٠٠٠                          |                       |
| الأهواز ... ..        | ٤٨٠٠٠٠٠                           |                       |
| فارس ... ..           | ٢٥٠٠٠٠٠                           | رطل سكر ٣٠٠٠          |
| كرمان ... ..          | ٢٧٠٠٠٠٠                           | قارورة ماء ورد ٣٠٠٠   |
| مكران ... ..          | ٤٢٠٠٠٠٠                           | رطل زيت أسود ٢٠٠٠     |
| السند وما يليه ... .. | ٤٠٠٠٠٠٠                           | ثوب متاع يمانى ٥٠٠    |
| بجستان ... ..         | ١١٥٠٠٠٠٠                          | رطل تمر ٢٠٠٠          |
|                       | ٤٠٠٠٠٠٠                           | رطل حود هندي ١٥٠      |
|                       |                                   | ثوب معين ٣٠٠          |
|                       |                                   | رطل من الفانيد ٢٠     |



(تابع) الخسارج في عهد المأمون

| الإقليم                           | الحياية من الفراهيم والدنانير | الحياية من العروض  |
|-----------------------------------|-------------------------------|--|
|                                   | درهم                          |  |
| نهرسان                            | ٢٨٠٠٠٠٠                       | ٢٠٠٠ نقرة فضة<br>٤٠٠٠ برقوق<br>١٠٠٠ رأس رقيق                   |
|                                   |                               | ٢٠٠٠٠ ثوب متاع<br>٣٠٠٠٠ رطل إهليلج                             |
| جرجان                             | ١٢٠٠٠٠٠                       | ١٠٠٠ شقة إبريسم  |
| قومس                              | ١٥٠٠٠٠٠                       | ١٠٠٠ نقرة فضة  |
| طبرستان والريان ودماوند           | ٦٣٠٠٠٠٠                       | ٦٠٠ قطعة فرش طبرى<br>٢٠٠ كساء و ٥٠٠ ثوب<br>٣٠٠ منديل و ٣٠٠ جام |
| الري                              | ١٢٠٠٠٠٠                       | ٢٠٠٠٠ رطل عسل  |
| همدان                             | ١١٣٠٠٠٠                       | ١٠٠٠ رطل رب الرمانين<br>١٢٠٠٠ رطل عسل                          |
| ماها البصرة والكوفة               | ١٠٧٠٠٠٠                       |  |
| ماسبدان والريان                   | ٤٠٠٠٠٠٠                       |  |
| شهرزور                            | ٦٧٠٠٠٠٠                       |  |
| الموصل وما يليها                  | ٢٤٠٠٠٠٠                       | ٢٠٠٠٠ رطل عسل  |
| أذربيجان                          | ٤٠٠٠٠٠٠                       |  |
| الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات | ٣٤٠٠٠٠٠٠                      | ١٠٠٠ رأس رقيق<br>١٢٠٠٠ زق عسل<br>١٠ براة<br>٢٠ كساء            |

## (تابع) انخراج في عهد المأمون

| الإقليم  | الجباية من الدراهم<br>والديناتير | الجباية من العروش  |
|--|----------------------------------|--|
| أرمينية  | ١٣٠٠٠٠٠                          | ٢٠ قسط عصفور<br>٥٣٠ رطل رقم<br>١٠٠٠٠ رطل من المساج<br>السرماهي<br>١٠٠٠٠ رطل صونج<br>٢٠٠ بفل<br>٣٠ مهرا |
| برقة   | ١٠٠٠٠٠٠                          |  |
| إفريقية  | ١٣٠٠٠٠٠                          | ١٢٠ بساط   |
| المجموع  | ٣١٨٦٠٠٠٠ درهم                    |  |
| قنسرين   | ٤٠٠٠٠٠ من الديناتير              | ١٠٠٠ حمل زيت   |
| دمشق   | ٤٢٠٠٠٠                           |  |
| الأردن   | ٩٧٠٠٠                            |  |
| فلسطين   | ٣١٠٠٠٠                           | ٣٠٠٠٠٠ رطل زيت   |
| مصر  | ٢٩٢٠٠٠٠                          |  |
| اليمن  | ٣٧٠٠٠٠                           | سوى المتاع (الذي لم يذكر)  |
| الحجاز   | ٣٠٠٠٠٠                           |  |
| فيكون المجموع بالدراهم ...                     | ٤٨١٧٠٠٠                          | دينار وتساوي ٧٢٢٥٥٠٠٠ درهم<br>باعتبار الدينار ١٥ درهما وهو<br>تقديره في ذلك العصر                      |
| يضاف اليه جباية الأقاليم<br>المذكورة أعلاه ... | ٧٢٢٥٥٠٠٠                         |  |
| الجملة   | ٣١٨٦٠٠٠٠                         |  |
|  | ٣٩٠٨٥٥٠٠٠ درهم                   |  |



### (و) الخراج في عهد المتعصم :

أما جباية الدولة في أيام المتعصم فهالك هي نقلا عن قدامة بن جعفر، كانت جباية السواد معظمها من الخنطة والشعير، وقد ذكر قدامة مقدار كل منهما مفصلا باعتبار طساسيج السواد، أي نواحيه في الشرق والغرب :

| اسم الناحية                      | مقدار الخنطة<br>بالكتر | مقدار الشعير<br>بالكتر | الدراهم |
|----------------------------------|------------------------|------------------------|---------|
| طساسيج السواد في الجانب الغربي : |                        |                        |         |
| الأنبار ونهر عيسى ... ..         | ١١٨٠٠                  | ٦٤٠٠                   | ٤٠٠٠٠   |
| طسوج مسكن ... ..                 | ٣٠٠٠                   | ١٠٠٠                   | ١٥٠٠٠   |
| » قطريل ... ..                   | ٢٠٠٠                   | ١٠٠٠                   | ٣٠٠٠٠   |
| » بادوريا ... ..                 | ٣٥٠٠                   | ١٠٠٠                   | ١٠٠٠٠٠  |
| بهر سبر ... ..                   | ١٧٠٠                   | ١٧٠٠                   | ١٥٠٠٠٠  |
| الرومقان ... ..                  | ٣٣٠٠                   | ٣٣٠٠                   | ٢٥٠٠٠٠  |
| صكوثي ... ..                     | ٣٠٠٠                   | ٢٠٠٠                   | ٣٥٠٠٠٠  |
| نهر درقيط ... ..                 | ٢٠٠٠                   | ٢٠٠٠                   | ٢٠٠٠٠٠  |
| نهر جوهر ... ..                  | ١٥٠٠                   | ٦٠٠٠                   | ١٥٠٠٠٠  |
| باروسما ونهر الملك ... ..        | ٣٥٠٠                   | ٤٠٠٠                   | ١٢٢٠٠٠  |
| الزواي الثلاثة ... ..            | ١٤٠٠                   | ٧٢٠٠                   | ٢٥٠٠٠٠  |
| بابل وخطونية ... ..              | ٣٠٠٠                   | ٥٠٠٠                   | ٣٥٠٠٠٠  |
| الفلوجة العليا ... ..            | ٥٠٠                    | ٥٠٠                    | ٧٠٠٠٠   |
| الفلوجة السفلى ... ..            | ٢٠٠٠                   | ٣٠٠٠                   | ٢٨٠٠٠٠  |

## (تابع) الخراج في عهد المعتصم

| الدراهم                                 | مقدار الشعير<br>بالكتر | مقدار الحنطة<br>بالكتر | أهم الناحية                 |
|---|------------------------|------------------------|-----------------------------|
| (تابع) طساسيج السواد في الجانب الغربي : |                        |                        |                             |
| ٤٥٠٠٠                                   | ٤٠٠                    | ٣٠٠                    | طسوج النهرين ... ..         |
| ٤٥٠٠٠                                   | ٤٠٠                    | ٣٠٠                    | » عين القمر ... ..          |
| ١٥٠٠٠٠                                  | ١٦٠٠                   | ١٥٠٠                   | » الحجة والبداءة ... ..     |
| ٢٥٠٠٠٠                                  | ٤٥٠٠                   | ١٥٠٠                   | سورا و برنسيا ... ..        |
| ١٥٠٠٠٠                                  | ٥٥٠٠                   | ٥٠٠                    | البرس الأعلى والأسفل ... .. |
| ٦٢٠٠٠                                   | ٢٥٠٠                   | ٢٠٠٠                   | قراة بإدقل ... ..           |
| ١٤٠٠٠٠                                  | ١٥٠٠                   | ١٠٠٠                   | طسوج السيلحين ... ..        |
| ٢٠٠٠٠                                   | ٥٠٠                    | ٥٠٠                    | روذستان وهرمز حرد ... ..    |
| ٣٠٠٠٠٠                                  | ٢٠٠٠                   | ٢٢٠٠                   | تستر ... ..                 |
| ٢٠٤٨٠٠                                  | ٢٠٠٠                   | ١٢٠٠                   | ايفار يقطين ... ..          |
| ٢٧٠٠٠٠                                  | ٢٠٠٠٠                  | ٣٠٠٠٠                  | كسكر ... ..                 |

## طساسيج السواد في الجانب الشرقي :

|        |      |      |                             |
|--------|------|------|-----------------------------|
| ٣٠٠٠٠٠ | ٢٢٠٠ | ٢٥٠٠ | طسوج بزر جسابور ... ..      |
| ١٢٠٠٠٠ | ٤٨٠٠ | ٤٨٠٠ | » الزاذاني ... ..           |
| ١٠٠٠٠٠ | ١٠٠٠ | ٢٠٠  | » نهر يوق ... ..            |
| ٣٣٠٠٠٠ | ١٥٠٠ | ١٦٠٠ | كلواندى ونهرين ... ..       |
| ٢٤٠٠٠٠ | ١٥٠٠ | ١٠٠٠ | جازر والمدينة المشقة ... .. |
| ٢٤٦٠٠٠ | ١٤٠٠ | ١٠٠٠ | روستقباد ... ..             |
| ١٥٠٠٠٠ | ١٥٠٠ | ٢٠٠٠ | سلسل ومهرود ... ..          |
| ١٠٠٠٠٠ | ١٠٠٠ | ١٠٠٠ | جلولا وجلالتا ... ..        |

## (تابع) الخراج في عهد المنصم

| اسم الناحية                           | مقدار الحنطة<br>بالكتر | مقدار الشعير<br>بالكتر | الدرهم  |
|---------------------------------------|------------------------|------------------------|---------|
| (تابع) طاسيج السواد في الجانب الشرق : |                        |                        |         |
| الذبيح ... ..                         | ١٩٠٠                   | ١٣٠٠                   | ٤٠٠٠٠   |
| الدمسكرة ... ..                       | ١٨٠٠                   | ١٤٠٠                   | ٦٠٠٠٠   |
| البندنجين ... ..                      | ٦٠٠                    | ٥٠٠                    | ٣٥٠٠٠   |
| طسوج براز الروذ ... ..                | ٣٠٠٠                   | ٥١٠٠                   | ١٢٠٠٠٠  |
| النهروان الأعلى ... ..                | ١٧٠٠                   | ١٨٠٠                   | ٣٥٠٠٠٠  |
| النهروان الأوسط ... ..                | ١٠٠٠                   | ٥٠٠                    | ١٠٠٠٠٠  |
| بدرايا وبكسايا ... ..                 | ٤٧٠٠                   | ٥٠٠٠                   | ٣٣٠٠٠٠  |
| كور دجلة ... ..                       | ٩٠٠                    | ٤٠٠٠                   | ٤٣٠٠٠٠  |
| نهر الصلة ... ..                      | ١٠٠٠                   | ٣١٢١                   | ٥٩٠٠٠   |
| النهروان الأسفل ... ..                | ١٧٠٠                   | ١٣٠٠                   | ٥٣٠٠٠   |
| مجموع خراج السواد ... ..              | ١١٥٦٠٠                 | ١٢٣٩٢١                 | ٨٨٢١٨٠٠ |

فمجموع جباية السواد باعتبار نواحيه ١١٥٦٠٠ كتر حنطة و ١٢٣٩٢١ كتر شعير و ٨٨٢١٨٠٠ درهم . على أن هذا المجموع يختلف عما قاله قدامة المذكور بعد أن أورد خراج كل ناحية بالتفصيل كما تقدمت ، فقد قال في إيراد المجموع « ذلك ارتفاع السواد سوى صدقات البصرة من الحنطة ١٧٧٢٠٠ كتر ومن الشعير ٩٩٧٢١ كتر ومن الورق ٨٠٩٥٨٠٠ درهم » وقد قال المرحوم جرجي بك زيدان : ولعل سبب هذا الفرق خطأ في قراءة بعض الأعداد ، على أن الفرق على كثرتة لا يعتد به فيما نحن فيه ، بقى علينا أن نحول الحنطة والشعير الى دراهم ، وقد فعل جعفر ذلك لحفظها باعتبار ثمن الكرين المقروين من الحنطة والشعير ٦٠ دينار والدينار على صرف ١٥ درهما يدينار فيبلغ ذلك

١٠٣٩١٨٥٠ درهما وقال : إن صدقات البصرة ترتفع في السنة ٢٠٠٠٠٠٠ درهم ، فإذا جمعت ذلك كله ، بلغ ١١٤٤٥٧٦٥٠ درهما على هذه الصورة :

|                             |           |
|-----------------------------|-----------|
| الدراهم المجموعة ورقا       | ٨٠٩٥٨٠٠   |
| قيمة الحنطة والشعير بالدرهم | ١٠٠٣٩١٨٥٠ |
| صدقات البصرة                | ٦٠٠٠٠٠٠   |
| درهما                       | ١١٤٤٥٧٦٥٠ |

هذا هو ارتفاع السواد ، فلنقتسم إلى إيراد جبايات سائر الأقاليم بالمشرق والمغرب وهي مع السواد :

| أقاليم المشرق | درهم      | أقاليم المشرق      | درهم      |
|---------------|-----------|--------------------|-----------|
| السواد        | ١١٤٤٥٧٦٥٠ | ما قبله            | ٢٤٢٢٥٧٦٥٠ |
| الأهواز       | ٢٣٠٠٠٠٠٠  | الري ودماوند       | ٢٠٠٨٠٠٠٠  |
| فارس          | ٢٤٠٠٠٠٠٠  | قزوین وزنجان وأبهر | ١٨٢٨٠٠٠   |
| كرمان         | ٦٠٠٠٠٠٠٠  | قومس               | ١١٥٠٠٠٠٠  |
| مكران         | ١٠٠٠٠٠٠٠  | جرجان              | ٤٠٠٠٠٠٠٠  |
| أصبهان        | ١٠٥٠٠٠٠٠٠ | طبرستان            | ٤٢٨٠٧٠٠   |
| مجنستان       | ١٠٠٠٠٠٠٠٠ | نكرت والطبرهان     | ٩٠٠٠٠٠٠   |
| خراسان        | ٣٧٠٠٠٠٠٠٠ | شهرزور والصامغان   | ٢٧٥٠٠٠٠٠  |
| حلوان         | ٩٠٠٠٠٠٠٠  | الموصل وما يليها   | ٦٣٠٠٠٠٠٠  |
| ماه الكوفة    | ٥٠٠٠٠٠٠٠٠ | قردي وبزیدی        | ٣٢٠٠٠٠٠٠  |
| ماه البصرة    | ٤٨٠٠٠٠٠٠٠ | ديار ريصة          | ٩٦٣٥٠٠٠٠  |
| همدان         | ١٧٠٠٠٠٠٠٠ | أرزن ومياقارقين    | ٤٢٠٠٠٠٠٠  |
| ماسبدان       | ١٢٠٠٠٠٠٠٠ | طروئ               | ١٠٠٠٠٠٠٠  |
| مهرجان قنق    | ١١٠٠٠٠٠٠٠ | آمد                | ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ |
| الاینارین     | ٣١٠٠٠٠٠٠٠ | ديار مضر           | ٦٠٠٠٠٠٠٠٠ |
| قم وقاشان     | ٣٠٠٠٠٠٠٠٠ | أعمال طريق الفرات  | ٢٩٠٠٠٠٠٠٠ |
| أذربيجان      | ٤٥٠٠٠٠٠٠٠ | المجموع            | ٣١١٥٨١٣٥٠ |
| نقل بصله      | ٢٤٢٢٥٧٦٥٠ |                    |           |

## (تابع) ارتفاع السواد وإيراد جبايات سائر الأقاليم

| أقاليم المغرب          | دنانير  | أقاليم المغرب           | دنانير  |
|------------------------|---------|-------------------------|---------|
| فلمسين والعواصم ... .. | ٣٩٠٠٠٠  | ما قبله ... ..          | ٣٥٩٢٠٠٠ |
| جند حص ... ..          | ٢١٨٠٠٠  | الحرمين ... ..          | ١٠٠٠٠٠  |
| » دمشق ... ..          | ١١٠٠٠٠  | العين ... ..            | ٦٠٠٠٠٠  |
| » الأردن ... ..        | ١٠٩٠٠٠  | اليمامة والبحرين ... .. | ٥١٠٠٠٠  |
| » فلسطين ... ..        | ٢٩٥٠٠٠  | عمان ... ..             | ٣٠٠٠٠٠  |
| مصر والاسكندرية ... .. | ٢٥٠٠٠٠٠ | المجموع                 | ٥١٠٢٠٠٠ |
| نقل بمسده ... ..       | ٣٥٩٢٠٠٠ |                         |         |

وإذا ما حولنا هذه الدنانير الى دراهم ، باختيار الدينار ١٥ درهما فانها تساوى ٧٦٧١٠٠٠٠ درهم وبإضافتها الى مجموع جباية أقاليم المشرق والجزيرة ، يكون مجموع ذلك كله ٣٨٨٢٩١٣٥٠ درهما وهو ارتفاع الخراج على تقدير قدامة .



## (ز) السعيات والجاسوسية :

وهناك ملاحظة أخرى جديرة بالفييد ، وهي انتشار السعيات والسماس في ذلك العصر انتشارا مرقطا . واصل سبب ذلك جنوح العباسيين الى استعمال الجواسيس والرقباء بكثرة هائلة ، فانظر مثلا ما جاء في الجزء العشرين من كتاب « نهاية الأرب » عن المأمون إذ يقول : إنه كان يجب سماع أخبار الناس حتى جعل يرسم الأخبار ببغداد ألف عجز وسبع مائة عجز . فنأمل جاسوسية مصر التي لا يبعد البتة أن تكون لها يومئذ إدارات خاصة !

وبعد ، فهما يكن من اقراضك للبالغة والفتق فيها يرويه لنا صاحب نهاية الأرب ، فان اطلعتك على كتاب ابن طيفور الذي كان معاصرا لكثير من رواته ، والذي كان

قريب العهد بالمأمون وعصره ، يقنمك بكثرة العيون وكثرة الأرصاد ، كثرة قد تهولك حقا وتهشك صدقا !! .

وقد سبق أن قلنا إن جل الساسة العباسيين كانوا يوصون بحفظ الأسرار ، ويحبون الرجل الكُتْمَةَ القَفْلَةَ . وكان لحفظ الأسرار عندهم مكانة عظيمة . وآنك إذا نظرت الى قول المأمون : « تتحمل الملوكة كل شيء إلا ثلاثة : إفشاء السر ، والقدح في الملك ، والتموض للهم » علمت حينئذ مكانة حفظ السر عندهم ، وأنها في المتزلة الأولى من اعتبارهم ، واستطعت أن تعزل لم كانت خططهم غير واضحة ولا جلية ، وربما كانت مُعَاة مبهمة .



### (ح) الدعاوة "البرويأچندأ" :

وهناك مسألة أخرى نحدثك بها ، وهي جديرة بالملاحظة قيينة بالبحث ، تلك هي عنايتهم بأمر الدعاوة وتقويتهم حملاتهم فيما يريدون الدفاع عنه . فقد كان إقناعهم لأمرها وعامهم بأفانيتها ووقوفهم على نُظْمِها ، بالغاً مبلغاً عظيماً ، إذ كان في مُكْتَبِهِمْ وطوع بانهم ، أن يصوروا الحق باطلاً والباطل حقاً . وإن فيما رواه الطبري وغيره الطبري عن سفي حياء المأمون ، واستخدامه للرقاع تعلق على ظهر من يقتل أو يُعاقب من رجالات دولته ، الغنية والكفاية فيما نحن بسبيل القول فيه .

وآنأ نسوق اليك مثلين لتأيد ما ذهبنا اليه :

فقد ذكر الطبري أن المأمون لما قتل علي بن هشام أمر أن تكتب رقعة وتعلق على رأسه ليقراها الناس ، فكتب - وقد ذكرنا هذا الكتاب فيما سبق لمناسبة أخرى - : « أما بعد ، فإن أمير المؤمنين كان دعا علي بن هشام فيمن دعا من أهل نراسان ، أيام الخلويع ، الى معاونته والقيام بحقه ، وكان فين أجاوب وأسرع الإجابة ، وعاون فأحسن المعاونة ، فرجى أمين المؤمنين ذلك له ، واصططنه ، وهو بطن به تقوى الله



وطاعته، والالتناء إلى أمر أمير المؤمنين في عمل إن أسند إليه في حسن السيرة وعفاف القطعة. وبدأ أمير المؤمنين بالإفضال عليه، فوَلَّاهُ الأعمال السنية، ووصله بالصلوات الجزيلة التي أمر أمير المؤمنين بالنظر في قدرها، فوجدها أكثر من خمسين ألف ألف درهم، فزيدته إلى الخيانة والتضييع لما استترعه من الأمانة، فباعده عنه وأقصاه، ثم استقال أمير المؤمنين عَثْرَتَهُ، فأقاله إياها، وولاه الجبل وأَذْرَجِيان وكور أَرْبِيبَةَ، وعاربة أعداء الله الخونة، على ألا يعودَ لما كان منه؛ فعاود أكثر ما كان بتقديمه الديار والدَهرم على العمل لله ودينه، وأساء السيرة، وسَفَسَ الرِّجَةَ، وسفك الدماء المحرَّمة، فوجه أمير المؤمنين بجيف بن عنبسة مباشرة لأمره، وداعيا إلى تلافى ما كان منه، فوشب بجيف يريد قتله، فقوى الله عجيفا بنيتَه الصادقة في طاعة أمير المؤمنين حتى دفعه عن نفسه. ولو تم ما أراد بجيف لكان في ذلك ما لا يُستدرَك ولا يُستقال، ولكنَّ الله إذا أراد أمرا كان مفعولا. فلما أمضى أمير المؤمنين حكم الله في علي بن هشام، رأى آلًا يُؤاخَذ من خلقه بذبذبه، فأمر أن يمرى لولده ولعياله ولمن اتصل بهم ومن كان يمرى عليهم، مثل الذي كان جاريا لهم في حياته. ولولا أن علي بن هشام أراد القُطْعَى بجيف لكان في عداد من كان في صكره ممن خالف وخان، كهيبي بن منصور ونظرائه والسلام» .

فأنت ترى من هذا إلى أية درجة من العناية والاهتمام وصلت الدعوة «البرواجندة» المأمونية !

ولا غرو فقد أفادت المأمون بما إفادة . وقد كان المسامون، بسبب نشاط العباسيين في الدعوة لأنفسهم، أطوع لهم مما كانوا إلى أُمية، واعتقدوا أن خلافتهم تبقى أبدا الدهر حتى يأتي السيد المسيح . وفُرسَ في أذهان الناس، بتوالي الأزمان، أن الخليفة العباسي إذا قُتل اختل نظام العالم واحتجبت الشمس وامتنع القطر وجف النبات ! كل ذلك من أثر عناية العباسيين بالدعوة لأنفسهم، واهتمامهم بأبائهم بتبرير تصرفاتهم وتركبة أعمالهم .

ثم أنظر ماذا حصل لإبراهيم بن المهدي، ترأى الدعوة المأمونية أبث إلا أن يقعد في دار المأمون لينظر اليه بنو هاشم والقواد والجند، وصير الدعاء المقتعة التي كان منتقبا بها في عنقه، والملحفة التي كان ملتحقا بها في صدره، ليراه الناس ويعلموا كيف أخذ.

وانظر أخيرا — رعاك الله ووفقك — الى «ا» يحتمسها به أحمد بن أبي دؤاد عن كلمة المأمون في هذا الصدد، قال : « قال لي المأمون : لا يستطيع الناس أن يُنصفوا المملوك من وزرائهم، ولا يستطيعون أن ينظروا بالعدل بين المملوك ومُجائبهم وكُفائتهم، وبين صنائعهم وبطائنتهم، وذلك أنهم يرون ظاهراً حمدة وخدمة واجتهاد ونصيحة، ويرون إيقاع المملوك بهم ظاهراً، حتى لا يزال الرجل يقول ما أوقع به إلا رغبة في «اله» أو رهبة في بعض مالا يجمود النفوس به؛ ولعل الحسد والملافة وشهوة الاستبدال اشتركت في ذلك. وهناك خيانات في صاب الملك أو في بعض الحرم، فلا يستطيع الملك أن يكشف للعامة موضع العورة في الملك، ولا أن يمتنع تلك العقوبة بما يستحق ذلك الذنب، ولا يستطيع الملك ترك عقابه، لما في ذلك من الفساد على عامه بأن عذره غير مبسوط للعامة، ولا معروف عند أكثر الخاصة ».



### (ط) صعوبة مهمة المسؤول :

والحق أنها مهمة صعبة أن تستكشف حقيقة الظالم من المظلوم، والغالب من المغلوب، والمهادى والضال، في هذه الدولة التي لعبت فيها الأقلام والألسنة دوراً عظيماً، ولولا ما جنحنا اليه من الاطلاع على شتى المصادر، وقضينا في ذلك تمهيدا طويلا ودرسا ممتعا، فطالعنا أقوال الأحزاب المتضاربة، ووازنا بين كلمة هذا ودفاع ذاك، لما كنا بالتين بعض ما بلغناه من إمالة اللثام عن بعض الحقائق التاريخية. وفي هذا القدر الكافية عن حياة المأمون الخليفة، وأن لنا أن نتكلم عن نواحيه الخلقية.

## الفصل السابع

### شخصية المأمون

توطئة — كرمه ومخافه — كيف ملك المأمون قلوب بنيائه — قدره لرجال دولته — قدره للشجاعة الأدبية — عدله وانصافه — عفوه — بصره بالأدب — علم المأمون — احترامه للدين — سياسته — مذهبه الديني — كلمة ختامية .

#### (١) توطئة :

نريد هنا أن نحلل أخلاق المأمون ، ونريد أن نستقصى كل ما قيل عنه وأن ندرس شتى نواحيه الخلقية بما تستحقه من العناية والتعليق والتوضيح . وسنعمد فيما سنكتبه على الحوادث وما رواه المعاصرون عنه . ونرجو أن نوفق فيما سنعائيه .

#### (ب) كرمه ومخافه :

يقول صاحب النجوم الزاهرة : انه لم يفوق ملك ولا سلطان في يوم واحد مثل ما فزقه المأمون يوم وثى ولده العباس على الجزيرة ، اذ أمر لكل من المعتصم والعباس بمجمائة ألف دينار، وأمر بمثل ذلك لعبد الله بن طاهر .

وقد يكون من نافلة القول أن نذكر أن المأمون كان من أكثر حلفاء العباسيين جوداً وأبسطهم يداً ، وأخصاهم نفساً ، بعد أن نرى كتب التاريخ والأدب مفعمة بما كان له من حوادث غريبة في السطاء والجود .

والذي يتبع ما ذكره المؤرخون من حوادث جوده وفيض إنصامه ، يرى أن كرم المأمون ومخافه يرجع الى عاصر مختلفة في نفسه ، فمنها ما يرجع الى ما في فطرته من أريحية واهتزاز معروف ، ومنها ما يرجع اليه كسياسي يريد أن يظفر ويملك القلوب ، ويوطد أركان سلطانه بالمال .

ونحن اذا نظرنا الى الدوحة الهاشمية التي تفرع عنها المأمون، وأنه نشأ في حجر الخلافة في النعم والترف، ومن هذا شأنه قل حربه على المال، واذا نظرنا ايضا الى أنه خاض معمعةً سياسيةً وحربيةً كان المال من أفضل آلاتها وأبعدها أثرا — وقد بينا لك في العصر الأموي ما كان لال من أرقوى في إقامة سلطان بني أمية وتوطيده — لم نرغلوا كبيرا فيما أترعت به كتب الأدب والتاريخ من حوادث جود المأمون وكرمه . ولننظر فيما يرويه لنا ابن طيفور في هذا السبيل، فانه قال : إن المأمون لما فتح « حصن فزة » وغنم ما فيه اشترى السبي بستة وخمسين ألف دينار، ثم خلى سبيلهم وأعطاهم دينارا دينارا .

وهاك مثالا مما يصح أن يكون من آثار أويحية المأمون وإرادته توطيد سلطانه :

يحدثنا ابن الأثير والطبري، أن العباسي صاحب اصحاق بن ابراهيم قال : كنت مع المأمون بدمشق، وكان قد قل المال عنده حتى اضاق وشكا ذلك الى أبي اصحاق المعتصم؛ فقال له : يا أمير المؤمنين، كأنك بالمال وقد واثقك بعد جمعة، وكان قد حل اليه ثلاثين ألف ألف درهم من خراج مايتولاه له . قال : فلما ورد عليه ذلك المال، قال المأمون ليحيى بن أكرم : أخرج بنا ننظر الى هذا المال، قال : نخرجنا حتى أمصرا ووقفا بنظرانه، وكانت قد هبطت بأحسن هيئة وحلت أباعره وألبست الإحلاس الموشاة والجلال المصبغة وقُدت العهن، وجعلت البدر بالحرر الصبغ الأحمر والأخضر والأصفر، وأبدت رؤسها، قال : فنظر المأمون الى شيء حسن، واستكثر ذلك فعظم في عينه، واستشفه الناس ينظرون اليه ويعجبون منه، فقال المأمون ليحيى : يا أبا محمد، ينصرف أصحابنا هؤلاء الذين تراهم الساعة خائنين الى منازلهم، وتنصرف بهذه الأموال وقد ملكوها دونهم، إنا إذا للتأم ! ثم دعا محمد بن يزيد، فقال له : وقع لآل فلان بألف ألف، ولآل فلان بمثلها، ولآل فلان بمثلها، قال : فوالله إن زال كذلك حتى فرق أربعة وعشرين ألف ألف درهم، ورجلته في الركاب، ثم قال : ادفع الباقي الى المعلى يعطى جنودنا . قال العباسي : فحدث (١) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار : « أحسب ان أما زائدة في إياهم المنقولة في حساب ذلك يؤول الى مليارين من الدراهم . وطع بن عباس في عشر سنوات لا تفي بذلك، فكيف بمصر وحدها . »

حتى قُتْ نُصِبَ عنده، فلم أرْدَ طرفي عنها لا يلحظني إلا رَأَى بِتلك الحال، فقال  
يا أبا محمد: وَقَّعَ لهذا بِمِئتين ألف درهم من ستة آلاف الألف؛ قال: فلم يَأْتِ عليّ  
ليلتان حتى أَخَذْتُ المالَ.»

ومما يدل على كرم نَفِيسِ المأمون وَحُسْنِ تَبَسُّطِهِ، ما رواه القاسم بن محمد الطيفوري،  
قال: «شكا إليّ يَزِيدُ إلى المأمون خَلَّةً أَصابَتْه ودَيْتًا لحقه؛ فقال: ما عندنا في هذه الأيام  
ما إن أعطيناكه بَلَعْتَ به ما تريد؛ فقال: يا أمير المؤمنين، إن الأمر قد ضاق عليّ، وإن  
عَرِمَ ما قد أُرْهِقُونِي؛ قال: «فَرُمْتُ لِنَفْسِكَ أمرًا تَنْتَلِ به نَفْعًا؛ فقال: لك منادمون فيهم  
مَنْ إن حركته تَلَتْ منه ما أَحَبَّ، فأطْلِقْ لي الحِلْيَةَ فيهم؛ قال: قل ما بدا لك؛ قال:  
فإذا حضروا وحضرت فُسرُ فلانا الخادم أن يُوصَلَ اليك رَقْعِي، فإذا قرأتها فأرسل إليّ»:  
«دخولك في هذا الوقت متعذر، ولكن اختر لنفسك من أحببت.» قال: فلما علم أبو محمد  
بمُلوَسِ المأمون واجتِماعِ ندمائه اليه وتيقُّنِ أنهم قد تَمَلَّوا من شَرِّهم، أتى الباب فدفَع  
إلى ذلك الخادم رَقْعَةً قد كتبها، فأوصلها إلى المأمون، فقرأها فإذا فيها:

يا خَيْرَ إِخْوَانِي وَأَحْسَنِي \* هَذَا الطُّفِيلُ لَدَى الْبَابِ  
خُبِّرْ أَرْبَ الْقَوْمِ فِي لَذَّةِ \* يَصْبُو إِلَيْهَا كُلُّ أَوَّلَابِ  
فَصَبِّرُونِي وَاحِدًا مِنْكُمْ \* أَوْ أُنْجِرْجُوا لِي بَعْضَ أَتْرَابِي

قال: فقرأها المأمون على من حضره؛ فقالوا: ما ينبغي أن يدخل هذا الطفيل على مثل  
هذه الحالة؛ فأرسل إليه المأمون: «دخولك في هذا الوقت متعذر، فاحتر لنفسك من  
أحببت تناديه.» فقال: ما أرى لنفسي اختياراً غير عبد الله بن طاهر؛ فقال له المأمون:  
قد وقع اختياره عليك فسر إليه؛ قال: يا أمير المؤمنين، فما أكون شريك الطفيل؛ قال:  
ما يمكن ردّ أبي محمد عن أمرين، فإن أحببت أن تخرج وإلا فافتد نفسك. فقال:  
يا أمير المؤمنين، له عليّ عشرة آلاف درهم! قال: لا أحسب ذلك يُقْنِصه منك ومن  
مجالستك؛ قال: فلم يزل يزيده، عشرة عشرة، وللمأمون يقول له: لا أرضى له بذلك،

حتى بلغ مائة ألف . قال : فقال له المأمون : فَعَبَّلْهَا لَهُ ؟ قال : فكتب له بها الى وكيله ،  
 ووجه معه رسولا . فأرسل اليه المأمون : « قَبِضْ هذه في هذه الحال أصلحُ لك من  
 منادمته على مثل حاله ، وأنفع عاقبة » .

ويَقْبَلُ مجيء المأمون ، مع الوفاء وطيب النفس ، في موقفه مع غلام سَعِيد الجوهري  
 الذي كان قد لَزَّ بالمأمون في السَّكَّاب ، فكان اذا احتاج المأمون الى مَحْو لَوْحِه يادر اليه  
 فاخذ اللوح من يده فحاه وغلب على غلبان المأمون ومسحه وجاء به فوضعه على  
 المنديل في حجره . فلما سار المأمون الى خراسان وكان من أخيه محمد الأمين ما كان ، نرج  
 اليه غلام سعيد هَذَا فوقف بالباب حتى جاء أبو محمد اليزدي ، فلما رآه عرفه ، فدخل  
 فأخبر المأمون ؛ فقال له مستبشرا بقدومه : لك البشرى ! ثم أذن له فدخل عليه ؛ فضحك  
 اليه حين رآه ، ثم قال : أتذكر وأنت تبادل الى محو لوحى ! قال : نعم يا سيدي . فوصله  
 بمسماة ألف درهم .

وانظريا يحدثنا به الطبري عن محمد بن أيوب ، قال : إنه كان بالبصرة رجل من  
 بني تميم وكان شاعرا ظريفا ، خيبتا ما كرا ، وكنت أنا وأبني البصرة آنس به وأستطيعه ،  
 فأردت أن أخدعه وأستزله ، فقلت له : أنت شاعر ، وأنت ظريف ، والمأمون أجود من  
 السحاب الحافل والريح العاصف ، فما يمنعك منه ؟ قال : ما عندي ما يُقَاتِي ، قلت : فانا  
 أعطيك نجيبا فارها ونفقة مائة ، وتخرج اليه وقد امتدحته ، فانك إن حَظِيتَ بلفاقه ،  
 صِرْتَ الى أُمْنيتك ؛ قال : والله أيها الأمير ، ما إخطاك أبعدت ، فأعد لي ما ذكرت ؛ قال :  
 فدعوت له بنجيب فاره ، فقلت : شأنك به فأمطيه . قال : هذه إحدى الحسنين ، فما بال  
 الأخرى ؟ فدعوت له بثلاثمائة درهم ، وقلت : هذه نفقتك ، قال : أحسبك أيها الأمير قصرت  
 في النفقة ، قلت : لا ، هي كافية إن قصرت عن السرف ، قال : ومضى رأيت في أكابر سعد  
 سرفا حتى تراه في أصابعها ! فأخذ النجيب والنفقة ، ثم عمل أرجوزة ليست بالطويلة ،  
 فأنشدنها وحذف منها ذكرى والثناء على ، وكان ماردا ، فقلت له : ما صنعت شيئا ؛ قال :

وكيف؟ قلت: تأتي الخليفة ولا تأتي على أمرك! قال: أيها الأمير أردت أن تحذني فوجدتني خذعا! أما والله ما لكراحتي حملتي على نجيبك ولا جئت لي بمالك الذي ما رماه أحد قط إلا جعل الله خذه الأسفل، ولكن لأذكرك في شعري وأمدحك عند الخليفة، أفهم هذا؟ قلت: قد صدقت؟ فقال: أيا أريدت ما في شعرك، فقد ذكرتك وأشيت عليك؟ قلت: فأنشدني ما قلت، فأنشدني، فقلت: أحسنت، ثم ودعني ونسج، فأتى الشام وإذا المأمون «بلسفوس». قال: فأخبرني، قال: «بيننا أنا في غزاة قزة، قد ركبني نجبي ذلك، ولبست مقلما وأنا أروم المسكر، فإذا أنا بكهلي على بصل فاره، ما بقدر قراره ولا تترك خطاه، قال: فتلفاني مكافئة ومواجهة وأنا أردد تنبذ أرجوزتي، فقال: سلام عليكم! بكلام جهوري ولسان بسيط فقلت: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته! قال: قف انت شئت، فوقفت، ففضوت منه رائحة العنبر والمسك الأذفر؟ فقال: ما أولك؟ قلت: رجل من مضر؟ قال: ونحن من مضر. ثم قال: ثم ماذا؟ قلت: رجل من بني تميم؟ قال: وما بعد تميم؟ قلت: من بني سعد؟ قال: هيه! لها أقدمك هذا البلد؟ قال: قصدت هذا الملك الذي ما سمعت بمثله أئدى رائحة، ولا أوسع راحة، ولا أطول باعا، ولا أمد يفا؟ قال: فإ الذي قصدته به؟ قلت: شعر طيب يذ على الأقواء وتفتيه الرواة ويملو في آذان المستمعين؟ قال: فأنشدني، فغضبت وقلت: ياريك! أخبرتك أني قصدت الخليفة بشعر قلته ومدبح خبرته، تقول أنشدني! قال: فتعاقل والله عنها وتطامن لها وألني عن جوابها؟ قال: وما الذي تأمل منه؟ قلت: إن كان على ما ذكر لي عنه، فألف دينار قال: فإنا أعطيك ألف دينار إن رأيت الشعر جيدا والكلام عذبا، وأضع عك العناء وطول الترداد، ومتى تصل الى الخليفة ويندك وبينه عشرة آلاف راح وتابل! قلت: فإي الله عليك أن تفعل؟ قال: نعم، لك الله على أن أفضل؟ قلت: ومعل الساعة مال؟ قال: هذا بعل، وهو خير من ألف دينار، أنزل لك عن ظهره؟ قال: فغضبت أيضا وعارضني تزق سعد وخفة أحلامها، فقلت: ما يساوي

هذا البغل هذا التجيب ؛ قال : فدع عنك البغل ، ولك الله على أن أعطيك الساعة  
ألف دينار ، قال : فأنشدته :

مأمونُ إذا المَينَ التَّيرِفَةُ \* وصاحبَ المرتَبَةِ المُنِيفَةُ  
وقائدَ الكَتِيبَةِ الكَثِيفَةُ \* هلَّ لك في أَرْجُوزَةٍ طَرِيفَةُ  
أُظَرِّفَ من فَقه أبي حَنِيفَةٍ \* لا والذي أنْتَ له خَلِيفَةُ  
ما ظَلِمْتُ في أرضنا ضَعِيفَةُ \* أَمِيننا مَوْتُهُ خَفِيفَةُ  
وما أَجَبْتِي شَيْئاً سِوَى الوَطِيفَةِ \* فالذُّبُ والتَمَجُّة في سَقِيفَةِ  
\* واللَّصُّ والتَّاجِرُ في قَطِيفَةِ \*

قال : فوالله ما عدا أن أنشدته ، فاذا زهاء عشرة آلاف فارس قد سدوا الأفق ، يقولون :  
السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ! قال : فأخذني <sup>(١)</sup> أَفْكَلٌ ، ونظر إلى بئلك  
الحالة فقال : لا بأس عليك أي أحمى ؛ قلت : يا أمير المؤمنين ، جعلني الله فداك ، أتعرف  
لغات العرب ؟ قال إى لَمَمْرَاهُ ! قلت : فمن جعل الكاف منه مكان القاف ؟ قال : هذه  
جَمِيرٌ ؛ قلت : لعننا الله ولعن من استعمل هذه اللغة بعد اليوم ! فضحك المأمون وعلم  
ما أردت ، وألقت إلى خادم إلى جانبه فقال : أعطه ما معك ، فأخرج إلى كيسا فيه  
ثلاثة آلاف دينار ، فقال : هالك ، ثم قال : السلام عليك وبمضى ، فكان آخر العهد به .

أما عن كرم نفسه فإن ابن طيفور يحدثنا أن بخارقا قال : كنا عند المأمون أنا والمفتون  
بدمشق وعريبُ معنا ، فقال : غَنَّ بِخَارِقٍ ؛ فقلت : أنا محوم ؛ فقال : يا عريب جُسيه ،  
فولمت يدها إلى عضدي ، فقال لها المأمون : قد اشتبهت ، تخمين أن أزورك ؟ قالت :  
نعم ! فقال من تريدن ؟ قالت : هذا ، وأومأت إلى محمد بن حامد ، فقال : اشدوا أي  
قد زوّجتها منه . ثم انظر ما يستطرد به بخارق من أن الممتصم لما ولي ، كتب إلى البخارق  
ابن إبراهيم : أن مَرَّ محمد بن حامد أن يُطَلَّقَ عَرِيْسًا ، فأمره فتأبى ، فكتب إليه : أن



أضرته، فضربه بالمقارع حتى طلقها . ففى هذه الرواية ما يساعد على الوصول الى تظير فى هذه الناحية بين المأمون وأخيه المعتصم .

أما كرم بطانته واقفاؤهم أثره، وترسمهم خطواته ، فإن الحديث فى ذلك يطول ، وقصارانا أن نغيل الى ما فعل طاحمة بن طاهر وعبد الله بن طاهر وغيرهما ، فاطلب ذلك فى مظانه .

« وبعد » فانه لمن الجميل المنع حقا أن يكون الملك كريما بسجيته ، جوادا بترعته ، وقد يكون أجمل وأمتع ، وأبلغ وأوقع ، أنت يكون من وراء قواضله وإناماته تشجيع الكفريات على الظهور ، واستحثاث أصحاب الهمم والعزمات ، والمواهب والعقريات ، على التبريز والإحسان ، والإجادة والإيقان ، خدمة لبنى الإنسان ، ورفعة للأوطان .



### (ج) كيف تملك المأمون قلوب بطانته :

زيد أن ترك الكلمة فى تصوير هذه الناحية ، لما يرويه لنا ولادة المأمون أنفسهم ، فقد قال رجل من إخوة المأمون للمأمون : يا أمير المؤمنين ، إن عبد الله بن طاهر يميل الى ولد أبى طالب ، وكذا كان أبوه قبله ، فدفع المأمون ذلك وأنكره ، ثم عاد بمثل هذا القول . فدرس اليه رجلا ثم قال له : امض فى هيئة القزاء والنسالك الى مصر ، فادع جماعة من كبارها الى الفاسم بن إبراهيم بن طباطبا ، وأذكر مناقبه وعلمه وفضائله ، ثم صر بعد ذلك الى بعض بطانة عبد الله بن طاهر ، ثم اتهمه فادعوه ورتبه فى استجابته له ، وأبحث عن دفين نيتة بعتا شافيا ، وأنتهى بما تسمع منه . قال : ففعل الرجل ما قال له وأمره به ، حتى اذا دعا جماعة من الرؤساء والأعلام ، فقد يوما بباب عبيد الله بن طاهر ، وقد ركب الى عبيد الله بن السرى بعد صلحه وأمانه ، فلما انصرف قام اليه الرجل فأخرج من كفه رقعة فدفعها اليه ، فأخذها بيده ، فها هو إلا أن دخل تفرج الحاجب اليه ، فأدخله عليه ، وهو قائم على بساطه ما بينه وبين الأرض غيره ، وقد مدّ رجله وحفاه فيها ، فقال له : قد فهمتُ ا فى رقتك

من جملة كلامك ، فهات ما عندك ؟ قال : ولى أمانك وزمة الله معك ؟ قال : لك ذلك . قال :  
 فأنظر له ما أراد ودعاه الى القاسم فأخبره بفضائله وعلمه وزهده ؛ فقال له عبدالله : أنصفني ؟  
 قال نعم ؛ قال : هل يجب شكر الله على العباد ؟ قال نعم ؛ قال : فهل يجب شكر بعضهم لبعض  
 عند الإحسان والمنة والتفضل ؟ قال نعم ؛ قال : فتجىء الى وأنا في هذه الحال التي ترى :  
 لي خاتم في المشرق جائز وفي المغرب كذلك ، وفيها بينهما أخرى مطاع وقول مقبول ، ثم  
 ما التفت يميني ولا شمالي وورائي وقדائي ، إلا رأيت نعمة لرجل أنعمها علي ومنة ختم  
 بها رقبتي ويدا لائحة بيضاء ابتدأتني بها تفضيلاً وكرماً ، فتدعوني الى الكفر بهذه النعمة  
 وهذا الاحسان ! وتقول اغدر بمن كان أولاً لهذا وآخر ! واسع في إزالة خيط عنقه وسقك  
 دمه ! تراك لو دعوتني الى الجنة عياناً من حيث أعلم أكان الله يجب أن اغدر به وأكفر  
 لإحسانه ومنه ، وأنك تبغته ! فسكت الرجل ؛ فقال له عبدالله : أما إنه قد بلغني  
 أمرك ، وثانته ما أخاف عليك إلا نفسك ، فارتحل عن هذا البلد ، فإن السلطان الأعظم إن  
 بلغه أمرك ، وما آمن ذلك عليك ، كنت الجاني على نفسك ونفس خريك . فلما أيس الرجل  
 مما عنده جاء الى المأمون فأخبره الخبر ، فاستبشر وقال : ذلك غرر يدي ، وإلّف أدي ،  
 وترب تلقيني ، ولم يظهر من ذلك لأحد شيئاً ولا علم به عبد الله إلا بعد موت  
 المأمون .

وانظر الى تلك النصيحة التي تقسم بها عبد الله بن طاهر لمصنوع بن طلحة ، ينهه  
 عن الكلام في الإمامة اذ يقول : " إنما نبت شعراً على رموسنا بنو العباس " . ثم انظر  
 الى ما كتبه المأمون الى عبد الله المذكور :

أنت ومولاي \* ومن أشكر نعمه  
 لما أحبت من أمر \* فإني النصر أهواه  
 وما تكره من شيء \* فإني لست أرضاه  
 لك الله على ذلك \* لك الله لك الله

وانظر الى ما رواه الطبري عما قاله عبد الله بن طاهر وهو محاصر بمصر عبيد الله ابن السري إذ قال :

بَكَرْتُ تُسْبِلُ دَمْعًا \* أَنْ رَأَيْتُ وَثْكَ بَرَاجِي  
وَتَبَدَّلْتُ صَقِيلًا \* بِمَيْثَا يَوْشَاجِي  
وَتَمَادَيْتُ بِسِيرٍ \* لِفُلْدُو وَرَوَاجِي  
زَعَمْتُ جَهْلًا بَانِي \* نَعِبْتُ عَيْرُ مُرَاجِي  
أَقْصِرِي عَنِّي فَاْنِي \* سَالِكُ قَصْدِ فَلَاحِي  
أَنَا لِلْأُمُونِ عَبْدٌ \* مِنْهُ فِي ظِلِّ جَنَاحِي  
إِنْ يُعَافِ اللَّهُ يَوْمًا \* فَغَرِيبٌ مُسْتَرَحِي  
أَوْ يَكُنْ هَلْكَ قُتُولِي \* بِعَسْوِيلِ وَصِيَّاحِي  
حَلَّ فِي مَصْرَ قَتِيلٌ \* وَدَعَى عَنْكَ التَّلَاحِي

ألا يجوز لنا أن نستخلص مما قدمناه لك أن المأمون كان محبوبا عند بطانته ! ولستنا ننفي بذلك أن الأمين لم يكن محبوبا ، وأن موته ألم أهل بغداد وجندها ، ولا ننكر أن بعضا من جنود طاهر بن الحسين انضم إلى الأمين طمعا في ماله وحبا في صفاته مما يلائمه لك في موضعه ، ولكنا الآن بموقف الذين يحملون أخلاق المأمون ، وفي عصفنا ألا تترك ناحية من نواحيه من غير أن نقفها حقها من البحث ، ونعطها نصيبها من الاستقراء .

« وبعد » فانه مما لا مندوحة لالملك عنه أن يكون وادعا محبا إلى بطانته وحاشيته ، بحاسانه اليهم ، وتعهده إياهم بعطفه ورعايته ، وأن يجذب عليهم ويراهم بناتية تسلمهم أطفافها وتقلد أعناقهم منها ، وتكون أشمل للرعية وأرعى للأفراد لحقهم من شخصه الجليل ، إذ هو ملك للرعية جميعها ، على اختلاف ألوانها وتباين مراتبها ، وهو عظيم التبعة أمام الله والتاريخ عن تملك عليهم وتولى أمر دنياهم وآخرتهم .



### (د) تقديره لرجال الدولة :

كان المأمون أكثر توفيقاً من أخيه الأمين ، في كفاية بطانته ، وقُدرة قادته ، وحرمة مشيريه ، وبصيرة ولاته . وكان ، مع ظفريه بالناحسين من خاصته ، كثير التأمل لما يجري في ملكه من مظاهر الضعف والقوة ، حرصاً على تدبر ما يترتب من مختلف الشؤون ، في تعزف الشخصيات القوية التي يرجو أن يستند إليها الملك ويتأيد بها النظام .

ولقد حدثنا الطبري في تاريخه عن إسحاق بن إبراهيم أن المعتصم قال له : يا إسحاق في قلبي أمرٌ أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة ، وإنما بسطتك في هذا الوقت لأفشي اليك ، فقلت : قل يا سيدي يا أمير المؤمنين ، فأنما أنا عبدك وابن عبدك ، قال : نظرت إلى أمي المأمون وقد اصطنع أربعة أنجبوا ، واصطنعت أنا أربعة لم يُفْلِح أحدٌ منهم ، قلت : ومن الذين اصطنعهم أخوك؟ قال : طاهر بن الحسين ، فقد رأيت وسمعت ، وعبدُ الله ابن طاهر ، فهو الرجل الذي لم يَرْمِثْهُ ، وأنت ، فأنت والله الذي لا يمتاض السلطان منك أبداً ، وأخوك محمد بن إبراهيم ، وأين مثلُ محمد ! وأنا فاصطنعتُ الأقيسين ، فقد رأيت إلى ما صار أمره ، وإشئنا فسُيْلَ رأيه ، وإيتاخ فلا شيء ، ووصيفا فلا مُغْنِي فيه . فقلت : يا أمير المؤمنين ، جعلني الله فداك ، أوجب عن أمان من غضبك؟ قال : قل ، قلت : يا أمير المؤمنين ، أعزك الله ، نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعهما ، واستعمل أمير المؤمنين فروعه لم تُنجَب ، إذ لا أصول لها . فقال : يا إسحاق ، لمقاساة ما مرَّ بي في طول هذه المدة أسهل على من هذا الجواب .

ولقد كان المأمون ، إلى جانب هذه النظرة بما يحتاج إليه من صفوة الرجال ، بصيراً بما في ملكه من ألوان المكر وصنوف الرياء . فقد حدثنا ابن طيفور عن إبراهيم بن المهدي ، قال : قال المأمون يوماً ، وفي مجلسه جماعة ، هاتوا من حُسْرانا مَنْ يطلب ما عندنا بالرياء ، قال : فقال كل واحد بما عنده : إما أن يقول في عدوِّ بما يُقدِّح فيه ، أو يقول

بما يعلم أنه يسرّ خليفته، فلما قالوا ذلك، قال : «أرى عند أحدٍ منكم ما يبلغ إرادتي، ثم أنشأ يتحدث عن أهل عسكره أهل الرياء، حتى والله لو كان قد أقام في رجلٍ كل واحد منهم حولاً محرماً ما زاد على معرفته . قال : فكان مما حفظت عنه في ثلث أصحابه أن قال، حين ذكر أهل الرياء وما يعاملون به الناس : تسبيح حميد الطوسي، وصلاة قطبجة، وصيام البوشنجاني، ووضوء المريسّي، وبناء مالك بن شاهي المساجد، وبكاء إبراهيم بن برية على المنبر، وجمع الحسن بن قريش اليتامى، وقصص منجا، وصديقة عليّ بن الجنيّد، وحمّان إسماعق بن إبراهيم في السبيل، وصلاة أبي رجاء الضحى، وجمع عليّ بن هشام القصاص، قال : حتى عددنا جماعة كثيرة، فقال لي رجل من عظامه العسكر، حين خرجنا من الدار، بالله هل رأيت أو سمعت بملك فقد أعلم برعيته ولا أشدّ تقبيرا من هذا ؟ قلت : اللهم لا ! فحدث بهذا الحديث رجلا من أصحاب الأخبار والعلم، فقال : وما نصنع بهذا، قد شهدت رسالته إلى إسماعق بن إبراهيم في الفقهاء، بخبر بما يهيم رجلا رجلا، حتى هو بها أعلم منهم بما في منازلهم . وإن في ذبوع هذه الأخبار عن المأمون دليلا على عنايته بنشر دعوة الملك الموطن الذي يهشم المخاتلون من التكرّله وانخروج عليه، فإن ظهور الملوك بالتفاد إلى سرائر الرعية، يزيدهم قوّة إلى قوّة، وسلطاناً إلى سلطان .

وإنّا إذا نظرنا إلى من استوزره وأعلى مكانه واستخلصه لنفسه من رجال دولته وقواد ملكه، لم تتردّد في الحكم للمأمون، وأنه كان الموفق المستند في اختيار أهل الكفايات والنبوغ .

وقد كان، إلى جانب هذا، يقدر الكفاية في خصومه . ونظرة فيما رواه ابن طيفور عن الحسن بن عبد الخالق خاصاً برأى المأمون في الفضل بن الربيع، وهو الذي تعلم مقدار إساءته إليه، تلك على هذا : فقد قال المأمون في معرض الحديث عن الفضل : «كان يدبّر الخطأ فيقع صواباً، ويبتع بالجيش الضعيف فيقع به النصر، وأدبراً أنا فيقع بغير ذلك . فلما وقعت على البصرية من أمرى، وفكرت في نفسي، وعملت بالأحرز

في ذلك، مات الى الحزم فوردت العراق . وإن الفضل بن الربيع بقية الموالي . فلا تخبره بذلك عني، فاني أكره أن يبأته عني ما يسره» .

ويؤيد صحة هذه الرواية ما ذكره بشر الساماني من المعاصرين اذ يقول : «سمعت أحمد ابن أبي خالد يقول : كان المأمون اذا أمرنا بأمر فظهر من أحدنا فيه قصيرٌ، يقول : «أترون أني لا أعرف رجلاً يبأني ، لو قلدته أموري كلها لقام بها ! » فقال بسر: فقلت لأحمد بن أبي خالد : يا أبا العباس، من يعني؟ قال : الفضل بن الربيع .

ويظهر أن خطة المأمون في تفسير الكفايات أتى ووجدت، قد اتبعتها قادة المأمون نفسه . فان ابن طيفور يتحدث أنه لما وُلى طاهر بن الحسين على شرطة المأمون سنة أربع وثمانين، وكان عليهما من قبل العباس بن المسيب بن زهير، كتب طاهر الى الفضل ابن الربيع : «إت في رأيك البركة، وفي مشورتك الصواب، فان رأيت أن تختار لي رجلين بخبر! » فكتب اليه ابن الربيع : «قد وجدتكما لك، وهما خيار السُندى بن يحيى وعياش ابن القاسم» . قولاهما طاهر الحسين .

«وبعد» فانا نظن أن في هذا القدر الكفاية لاثبات ما كان من تقدير المأمون ورجاله، لأهل الكفاية والافتداز، وحرصهم على استعمال أصحاب المواهب، والاستعانة بهم وبكفائاتهم، في خدمة الدولة .

### ٥) قدره للشجاعة الأدبية :

كان المأمون يرضيه أن يكون الرجل نقي الدريرة، رابط الجأش، يُقدم على كلمة الحق غير هَيَّاب . وقد حدثنا ابن أبي طاهر طيفور عن روى عنه قال : « حدثني أحمد بن أبي خالد الأحول بخراسان ، فيما كنت يخبرني به عن كرم المأمون وفضله واحتماله وحسن معاشرته ، أنه سمع المأمون يوماً، وعنده علي بن هشام وأخوه أحمد والحسين، ذكر عمرو بن مسعدة فاستبهاه، وقال : أيجسبُ عمرو أني لا أعرف أخباره

وما يُعجِبُ إليه وما يعامل به الناس ! بلى والله ! ثم بعثه ألا يسقط على منه شيء ! ونهض وانصرفنا فقصدت عمرا من ساعتي ، فغيرته بما جرى ، وأُسيئت أن أستحله من حكايته حتى . فراح عمرو الى المأمون ، فظن المأمون أنه لم يحضر إلا لأمرٍ مهم ، لموقعه من الرسائل والمظالم والوزارة ، فأذن له . فغيرنى عمرو أنه لما دخل عليه وضع سيفه بين يديه ، وقال يا أمير المؤمنين ، أنا عائد بالله من سخطه ، ثم عائد بك من سخطك يا أمير المؤمنين ، أنا أقل من أن يشكونى أمير المؤمنين الى أحد أو يُسَرَّ على سُبُغنا يبعثه بعض الكلام على اظهاره ما يظهر منه ! فقال لى : وما ذاك ؟ فغيرته بما بُلغنى ولم أسم له محبرى ، فقال لى : لم يكن الأمر كما بُلغك ، وإنما كانت جملة من تفصيل كنت على أن أخبرك به ، وإنما أخرج منى ما أخرج منى تجاريتاه ، وليس لك عندى إلا ما تحب ، فليقرخ رُومك وليحسن ظنك به فاعدت الكلام ، فما زال يسكن منى ويطيب من نفسى ، حتى تحلل بعض ما كان فى قلبى ، ثم بدأ فضمنى الى نفسه ، وقيلت يده ، فاهوى ليعانقني فشكرته ، وتيتبت فى وجهه الحياء والجل مما تأذى الى . قال أحمد : فلما غشوت على المأمون ، قال لى : يا أحمد أما لمجلى حرمه ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، وهل الحرم إلا لما فصل عن مجلسك ! قال : ما أراكم ترضون بهذه المعاملة فيما بينكم ! قلت : وأية معاملة يا أمير المؤمنين ؟ هذا كلام لا أعرفه ، قال : بلى ، أما سمعت ما كنا فيه أمس من ذكر عمرو ! ذهب بعض من حضر من بنى هاشم فغيره به ، فراح الى عمرو مظهرًا منه ماوجب عليه أن يظهره ، فدعت منه ما أمكن دفعه ، وجعلت اعتذر اليه منه بعذر قد تبين فى الخجل منه ! وكيف يكون اعتذار انسان من كلام قد تكلم به إلا كذلك يتبين فى عينيه وشفته وجهه ، ولقد أعطيتُه ما كان يقع منى أقل منه ، وما حدانى عليه إلا ما دخلنى من الخساسة ، وإنما كان تعلق به اللسان عن غير روية ولا احتمال مكروه به ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أنا أخبرت عمرا به لا أحد من ولد هاشم ، فقال : أنت ! قلت أنا ! فقال : ما حلتك على ما فعلت ؟ فقلت : الشكر لك والنصح والهمة لأن تم نعمتك على أوليائك وتخدمك ، أنا أعلم أن أمير المؤمنين يحب أن يصلح له الإعباء

والبعدهاء، فكيف الأولياء والأقرباء، ولا سيما مثل عمرو في دنوه من الخدمة وموقعه من العمل ومكانه من رأى أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه! سمعت أمير المؤمنين أنكر منه شيئاً، فغيرته به ليصلحه ويقوم من نفسه أودها لسبيده ومولاه، ويتلافى ما فرط منه ولا يفسده مثله ولا يبطل العناء فيه، وإنما كان يكون ما فعلت عيباً، لو أشعتُ سرّاً فيه قدحٌ في السلطان، أو نقصٌ تديير قد استتب، فأتا مثل هذا فما حديثه يبلغ أن يكون ذنباً على، فنظر إلى ملياً ثم قال: كيف قلت؟ فأعدت عليه، ثم قال: أعد، فأعدت الثالثة، فقال: أحسنت والله يا أحمد! لمّا خبرتني به أحبُّ إلى من ألف أئمة وألف ألف وألف ألف، وعقد خنصره وبصره والوسطى، ثم قال: أما ألف ألف فلنفيك عني سوء الظن وأطلق وسطاه، وأما ألف ألف فلصدّقك إياي عن نفسك، وأطلق البنصر، وأما ألف ألف فلحسن جوابك، وأطلق الخنصر، وأمر لي بمال.

وهذه الشجاعة من أتباع المأمون تدلنا على ما كان فيه من الاستعداد لقدركرامته الخصال. فلو أنه كان معروفاً بالاستبداد لما أمكن هذه النفوس أن يتابع ما كانت تطمح إليه من النبل والكرامة. وفي استأذنه لاحتجاج جلسيه حرص على استبقائه واستكناه ما في نفسه، فضلاً عما يتوقعه من عواقب هذا التشجيع المقصود، من الشاف حول شخصه، وتفاني في الوفاء له، وإيمان في خدمته وخدمة بلاده، خدمة الحزب لغير بيعات وجدائي، لخدمة العبد للسيد بعامل الإرهاب والإكراه. ولن تكون الخدمة الخالصة للبلاد بالارهاب والإكراه، ولن تكون خدمة المولوك على وجهها الصحيح بدافع العسف والإعنات، وإنما يكون ذلك جميعه بحسن الصنيع وجميل الأثر، والإحسان بالقول والفعل، وصفاء النفوس من عوامل البغضاء والغل والمعدوان.

ثم انظر فيما يرويه لنا أبو الشماخ، قال: "قال لي المأمون وعنده الزيدى والقنقى مولى الخيزران، واسماعيل بن توبخت، وقتلوا الشعراء، فقالوا: النابتة، وقالوا: الأعمش، وخابوا فيهم، فقال: لا أشعرهم إلا واحداً كان خليفاً: الحسين بن هاني، فقالوا:



صدق أمير المؤمنين ، قال : الصدق على المناظرة أحسن من الصدق على الهيبة ، فقالوا :  
فبم قدمت؟ قال بقوله :

يا شقيق النفس من حَكِّم \* نَمَتْ عَرَبَ لَيْلٍ وَلَمْ أُنَمِّ

ثم لم يسبقه الى هذا البيت أحد :

ثم دَبَّتْ في صروقهم \* كَدَيْبُ الْبَرِّ في السَّعِيمِ

وفي عبارة «الصدق على المناظرة أحسن من الصدق على الهيبة» دلالة على رغبته في إحياء الفرائز الأدبية التي تُثَبِّتُهَا المصانعة، وَيَقْبُرُهَا الرِّياءُ . ولا يفوتنا أن نشير الى أن تقديمه ابن هاني ، لتجويده في وصف الراح، له دلالة وله مغزاه ، فهو يدلُّ ، الى حد غير قليل ، الى جانب ما علمناه عن المأمون ، أصيدَ الهمة ، مستحصدَ العزم ، على أنه كان في أوقات أنسه ومرحه الرجل المرح الطروب ، الذي يتذوق المغانى الفرحة ، وما لها من مجاملات وأقانيين .

« وبسبب » فإن تربية الشعوب على قدر كرامتها الخاصة ورفعة شأنها بين الأمم ، لتتطلب تعهدًا خاصًا ممن يتولّى أمرها في هذا السبيل ، فيعمل على أن يُحْيِيَ الانفرادَ والحُكْمَ ، ممن هم في عنقه وتحت هيمنته ، ما لهم من مكانة ومنزلة ، وما لآرائهم وتصرفاتهم من احترام وقدر ، أخذًا لهم بالشجاعة في المجاهرة بمعتقداتهم ، وتنميةً للروح الذي تقيده هذه الألفاظ : « حرية . إخاء . مساواة » في نفوسهم . وإن في آتِهاجهم هذا السبيل لأجل خدمة لمالكهم وشعوبهم وعرشهم .



(و) عدله وإتصافه :

كان المأمون عدلاً منصفاً الى حد بعيد . وقد عَرَفَ فيه الناس هذه الخلقة ، فكانوا يعطّمون في أنصاره والمقَرِّبين اليه ، ويجهرون بالشكوى من كل من يسوءهم طمعه أو ينقُذ اليهم عدوانه .

حدث بعض المعاصرين قال : « شهدت المأمون وقد ركب الشَّيْشِيَّة وخلف ظهره أحمد بن هشام ، فصاح به رجلٌ من أهل فارس : الله يا أمير المؤمنين ! فان أحمد بن هشام ظلمني واعتدى عليّ ! فقال : كن بالباب حتى أرجع ، ثم مضى ، فلما جاز الموضع بعُدوة التفت الى أحمد ، فقال : ما أفتح بنا وبك أن تفك وصاحبك هذا رهوس هذه الجماعة ، ويقعد في مجلس خَصَمك ، ويُسمع منه كما يُسمع منك ، ثم تكون عملاً ، ثم تكون مبطلاً ، فكيف إن كنتَ في صفته لك ، فوجهُ اليك من يحوله من بابنا الى رحلك ، وأنصفه من نفسك وأعطيه ما أنفق في طريقه الينا ، ولا تجعل لنا ذريعة الى ما تكره من لا تمتك ، فوالله لو ظلمت العباس ابني كنتُ أقلّ نكيراً عليك من أن تظلم ضعیفا لا يمدني في كل وقت ، ولا تجلّوا وجهي ، سيما من تجسم السفر البعيد وكابد الحرّ الحوارج وطول المسافة » .

قال المحقق المعاصر : فوجه اليه أحمد بجاء به وكتب الى عامله يد عليه ما أخذ منه ، ويشتمة ويعتقه ، ووصل الرجل بأربعة آلاف درهم ، وأمره بالخروج من يومه .

وهناك الكثير من هذا المثل ، كوقفه مع موسى بن الحسن ، وإنصافه بأن أخذ حقه من محمد بن أبي العباس الطوسي ، وموقفه مع التصراف الذي من أهل كشكر<sup>(١)</sup> .

ثم انظر موقفه المشرف له وللقضاء في أيامه ، فقد قالوا : إن رجلاً دخل على المأمون ، وفي يده رقعة فيها مظلمة من أمير المؤمنين ، فقال : أمظلمة مني ؟ فقال الرجل : أفاخطبُ يا أمير المؤمنين سواك ! قال : وما هي ظلامتك ؟ قال : إن سعيداً ويكلك اشتري مني جواهر بثلاثين ألف دينار ، قال : فاذا اشتري سعيداً منك الجوهر تشكو الظلامة مني ! قال نعم ، اذ كانت الوكالة قد صحّت له منك ! قال : لعل سعيداً قد اشتري منك الجوهر وحلّ اليك المال أو اشتراه لنفسه ، وعليه فلا يلزمني لك حق ولا أصرف لك ظلاماً ، فقال له ( بعد كلام طويل ) : إن في وصية عمر بن الخطاب لقضائكم "الْبَيْتَةُ عَلَى مَنْ ادَّعَى ، وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ انْكَرَ" قال المأمون : إنك قد حِدَمْتَ البيعة ، فما يجبُ لك إلا حَقَّةٌ ، وإن حلقها لأنا

(١) انظر هذه الحكاية في الجزء السادس من تاريخ بغداد ص ١٠١

صديق اذ كنت لا أعرف لك حقاً بالزمن ؛ قال : فأذا أدعوك الى التفاوض الذى نصبته  
لرعيته ؛ قال : نعم ! يا غلام ، على يحيى بن أكرم ، فإذا هو قد مثل بين يديه ؛ فقال له المأمون :  
اقض بيننا ؛ قال : فى حكم وقضية ؛ قال نعم ؛ قال : إنك لم تجعل ذلك مجلس قضاء ؛ قال :  
قد فعلت ؛ قال : فأنى أبداً بالعامّة أولاً ليصلح المجلس للقضاء ، قال : افعل ؛ ففتح الباب  
وقعد فى ناحية من الباب وأذن للعامّة ، ثم دعى بالرجل المنتظم ، فقال له يحيى : ما تقول ؟  
قال : أقول أن عمرو بن يحيى أمير المؤمنين المأمون ؛ فنادى المنادى ، فإذا المأمون قد تخرج ،  
ومعه غلام يحمل مصلاً حتى وقف على يحيى وهو جالس ، فقال له : اجلس ، فطرح المصل  
ليقعد عليها ؛ فقال له يحيى : يا أمير المؤمنين ، لا تأخذ على خصمك شرف المجلس ، فطرح  
له مصلاً آخر ، ثم نظروا فى دعوى الرجل ، وطالب المأمون باليمين لحلف ، ووثب يحيى بعد  
فراغ المأمون من يمينه فقام على رجله ؛ فقال له المأمون : ما أقامك ؟ فقال : إني كنت  
فى حق الله جل وعز حتى أخذته منك ، وليس الآن من حق أن أتصدر عليك ، ثم  
أمر المأمون أن يحضر ما أذى الرجل من المال ، فقال له : خذ اليك ، والله ما كنت  
أحلف على بقرة ثم أسمع لك فأفسد ديني ودنياي ، والله يعلم ما دفعت اليك هذا المال  
إلا خوفاً من هذه الزمية ، لعلها ترى أنى تناولتك من وجه القدرة ، وإنها لتعلم الآن أنى  
ما كنت أسمع لك باليمين وبالمال .

ويحق لنا أن نستنبط من هذا الموقف قيمة القضاء فى تلك الأيام ، واحترام الخلفاء  
أو من يمت الى الخلفاء لشعائره وأحكامه . ولا نستبعد البتة صحة تلك الرواية ، لأن تصرفات  
المأمون العباسي تجعلنا نقترها ونؤمن بصحتها من جهة ، ولأننا قرأنا شهاداتها من جهة أخرى ؛  
فقد قيل : إن إبراهيم بن المهدي تنازع وآثر بنحو يسوع الطيب ، بين يدي أحمد بن أبي دؤاد  
فى مجلس الحكم فى عقار بناحية السواد ، فادعى عليه إبراهيم وأغلظ ، فأحفظ ذلك آثر  
أبي دؤاد ؛ فقال : يا إبراهيم اذا نازعت فى مجلس الحكم بحضورنا امراً فلا أعلن أنك  
رفعت عليه صوتاً ولا أشرت بسيد ، ولكن قصدك أمماً وريحك ساكنة ، وكلامك

معتدلاً، ووقف مجالس الخليفة حقوقها : من التعظيم والتوقير، والاستكانة والتوجه الى الواجب، فان ذلك أشكل بك وأشمل لمذهبك في محدك وعظيم خطره، ولا تجعل قرب عجلة تهب ريتاً، والله يصممك من خطل القول والعمل، وأن يتم نعمته عليك كما آتمها على أبويك من قبل إن ربك حكيم عليم، فقال ابراهيم : أصلحك الله تعالى، أمرت بسداد وحضضت على رشاد، ولست عائداً لما يتلهم مروق عندك ويسقطني من عينك ويخرجني من مقدار الواجب الى الاعتذار، فهأنذا معتذر اليك من هذه البادرة اعتذار مقرر بذنبه معترف بجرمه، ولا يزال الغضب يستغزني بمواده فيردني مثلك بحلمه وتلك عادة الله عندك وعندنا منك، وقد جعلت حتى من هذا المقار لابن يحنشوش فليت ذلك يكون وإفياً بأرش الحناية عليه، ولم يتلف مالٌ أفاد موعظة، وحسبنا الله ونعم الوكيل !

فقرى مما قدمناه لك مبلغ سلطان القضاء وحرمة عند البيت المسالك .

وقد يكون أجمل من هذا كله — فيما لو صح — ذلك الموقف الروائي الذي تقدمت الى المأمون فيه امرأة تشكو ظلم أبنته العباس فقد شكت اليه بأبيات رقيقة فلم يسعه إلا أن يعدها الإنصاف بأبيات رقيقة على الوزن والقافية، وكانت تلك الأبيات في خفتها وجودة انطاطها بها في ساعتها برداً وسلاماً على قلب تلك المرأة المظلومة .

قال الشيباني : جلس المأمون يوماً للظالم، فكان آخر من تقدم اليه، وقد هم بالقيام، امرأة عليها هيئة السفر، وعليها ثياب رثة، فوقفت بين يديه، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فنظر المأمون الى يحيى بن أسلم، فقال لها يحيى : وعليك السلام يا أمة الله، تكلمي في حاجتك، فقالت :

يا خير متصيف يهدي له الرشيد \* ويا إماماً به قد أشرق البلد  
تشكو اليك حميد القوم أرملة \* عدا عليها فلم يترك لها سبداً  
وابتر مسني ضياعي بعد متعتها \* ظلمنا وفوق مني الأهل والولد

فأطرق المأمون حيناً ثم رفع رأسه إليها وهو يقول :

في دُنيا ما قلت زال الصبرُ والجَلَدُ \* هُنَّ وأُفْرَحَ مَنِّي التَّغَبُّ والصَّكْبُ  
هَذَا أَذَانُ صَلَاةِ الْعَصْرِ فَاَنْصَرِفِي \* وَأَحْضِرِي الْخَصَمَ فِي الْيَوْمِ الَّذِي أُعِدُّ  
وَالْمَجْلِسَ السَّيِّئُ إِنْ بَقِيَ الْجُلُوسُ لَنَا \* تُصَيِّفُكَ مِنْهُ وَالَا الْمَجْلِسُ الْأَحَدُ

فلما كان اليومُ الأحدُ جلس ، فكان أولُ من تقدَّم اليه تلك المرأة ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال : وعليك السلام ، أين الخصم ؟ فقالت الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين ، وأومات إلى العباس ابنه ، فقال لأحد بن أبي طالب : خُذْ بِيَدِهِ فَاجْلِسْ مَعَهَا مَجْلِسَ الْخَصْمِ ، ففعل كلامها يعلو كلام العباس ، فقال لها أحد ابن أبي طالب : يا أمة الله ، إنك بين يدي أمير المؤمنين ، وإنك تكلمين الأمير ، فاحفظي من صوتك ، فقال المأمون : دَعَا يَا أَحْمَدُ ، فَإِنِ الْحَقُّ أَنْطَلَقَهَا وَأَحْرَسَهُ ! ثم قضى لها بردَ ضيعتها إليها ، وظلم العباس بظلمه لها ، وأمر بالكتاب لها إلى العامل ببلدها ، أن يقرها ضيعتها ويمسح معاوتتها وأمر لها بنفقة .

وبعد فإن المؤرخ المنصف ، بحذيره أن يشف أمام هذه المثل العليا وقفة احترام وإجلال ، وعظمية واعتبار ، وأن يرغب رغبة صادقة في إذاعة هذه المثل ونشرها ، والحمل على تداولها وذكرها ، لأنها قدوة صالحة لجملة التيجان ، في إنصاف زميلهم الإنسان . وإن قدس العدالة لواجب احترامه ، وأحق الناس باحترامه هم الولاء وجملة التيجان ، وإن في شعور الرعية وعامة الناس بأنهم وحكامهم سواسية ، لمدعاة للرضا والاعتباط ، والإيمان في خدمة الأوطان ، واللبُّ بأرواحهم وقلوبهم عن الملوك وأصحاب السلطان .



( ز ) عَفْوُهُ :

كان المأمون مضرب المثل في العفو ، حتى لقد كان يُحْثِي أَنْ لَا يُؤْجَر عليه ، إذ صار فِطْرَةً فِيهِ ، وأطرف أنواع عفوهِ تفاضيه عما كان يحدث في قصره .

قالت شكر مولاهُ أم جعفر بنت جعفر بن المنصور، سمعت المأمون أُمير المؤمنين :  
 وكانت عنده أم جعفر، فبدأ بمقَارِضَ<sup>(١)</sup>، فقال الغلام : قد ذهبَ بالمقَارِضِ الى الشَّيْأَةِ<sup>(٢)</sup>، ثم  
 قال يا غلام : بُلْ لنا الخَيْشَ قَوْقُ، فقال الغلام : لا، قال : بُلْ، فقالت أم جعفر : سبحان الله  
 يا أُمير المؤمنين !، ما هذا ! وأنكرتُ أن يكون سال عن شيئين فلم يُعْمَلَا، فقال المأمون :  
 من قدرت على عقوبته ، لسوء فعله ، وقبيح جرّمه ، فقد تركت عليه كافيتك نصراً لك منه ،  
 ولا معنى لمقوبة بعد قدرة ، الحلمُ عن الذنب أبلغ من الأخذ به .  
 وهو هنا يعلّل العقوبة تعليلاً مقبولاً جديراً بأن يكون درساً في الأخلاق .

ثم انظر مبلغ عفوه وحلمه وسماحة نفسه ، فيما يرويّه أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر  
 طيفور في كتابه ، قال : « كان للمأمون خادم يتولّى وضوءه ، فكان يسرق طَسَاسَه ، فيبلغ  
 ذلك المأمون فعاتبه ، ثم قال له يوما وهو يوضئه : وَيَحْك ! لم تسرق هذه الطَسَاسَ ،  
 لو كنت اذا سرقتها أتيتني بها اشتريتها منك ، قال : فاشتر هذا الذي بين يديك ، قال : بِكُمْ ؟  
 قال بدينارين ، قال المأمون : أعطوه دينارين ، قال : هذا الآن في الأمان .

ومهما يكن على هذه الرواية من مَسْحَةِ المبالغة ، أو أنها أقصوصة أكثر منها حقيقة ،  
 فإن طبيعة المأمون وسجيته ، وجُودَه الى العفو ، وأخذَه بالحلم ، لما يؤيد لُبَّابُهَا وعُصَابَتُهَا ،  
 ويُقرّر جوهرها وصلابتها ، ولها بصدق فيه قول من قال له :

أُمير المؤمنين عفوت حتى • كأن الناس ليس لهم ذنوب

أما حديث حمله مع عمه ابراهيم بن المهدي فتعارف مشهور ، ومُدَّاع مذكور ، فقد  
 أبى ابراهيم أن يبايعه ، ثم ذهب الى الرّى ، وأدعى فيها الخلافة لنفسه ، وأقام مالهكمَا ستة  
 وأحد عشر شهراً واتى عشر يوماً ، والمأمون يتوقع منه الانقياد الى الطاعة ، والانتظام

(١) جمع مقراض وهو ما يقطع به الثوب أو غيره وهو المعروف بالمقص .

(٢) العادة كانت جارية في العراق أن يوضع الخيش فوق سطح المنزل ويبل وقت الحر ليكون ناهياً للشمس  
 وأما طيه دون السقف وهكذا كانت تمل ملك فارس . فلبا كان زين المأمون حمل بلاطة للسقف استغنى بها  
 عن الخيش وبه وهى ما سببه (بندادلى) وفى بعض البلاد يسمى المأمون .

في سلك الجماعة ، حتى يش من عوده ، فركب بحيله ورجله ، وذهب الى الرى وحاصر المدينة وافتتحها ، فهرب ابراهيم وتكرّم أخذ بعد لأي ، وقدم الى المأمون في زى امرأة . فلما مثل بين يديه ، سلم عليه بالخلافة ، فقال المأمون : لاسلم الله عليك ، ولا حياك ولا رعاك ! فقال ابراهيم : مهلاً يا أمير المؤمنين ! ان ولّى الثار محمّك في الفصّاص ، ولكن العفو أقرب للتقوى ، ومن تناوله الاغترار بما مد له من أسباب الشقاء ، أمكن عادية الدهر من نفسه ، وقد جعلك الله فوق كلّ ذى ذنب ، كما جعل كلّ ذى ذنب دونك ، فان أخذت فيحققك ، وإن عفوت فبفضلك ، ثم أشد :

ذَنبِي إِلَيْكَ عَظِيمٌ \* وَأَنْتَ أَعْظَمُ مِنْهُ

نَفْسُكَ بِحَقِّكَ أَوْلَى \* فَاصْفَحْ بِفَضْلِكَ عَنْهُ

إِنْ لَمْ أَكُنْ فِي فَعَالِي \* مِنَ الْكَرَامِ فَكُنْهُ

فقال المأمون : شاورت أبا إسحاق والعبّاس في قتلك ، فأشارا به ، فقال : فما قلت لها يا أمير المؤمنين ؟ قال المأمون : قلت لها : نبذوه بإحسان ، ونستأمره فيه ، فإن غير فاته غير ما به . قال : أما أن يكونا قد نصحا في عظيم ما جرت عليه السياسة فقد فعلا ، وبأعنا ما يلزمهما ، وهو الرأى السديد ، ولكنك أبيت أن تستجلب النصر إلا من حيث عودك الله ، ثم استعبر بايكا ، فقال له المأمون : ما يُمكنك ؟ قال : جدّلاً اذ كان ذنبى الى من هذه صفتة في الإتمام . ثم قال : إنه وإن كان قد بلغ جوى استعلاّ دى ، فلم أمير المؤمنين وفضله يبلغانى عفوه ، ولّى بعدهما شفاعة الاقرار بالذنب ، وحق الأوبة بعد الأوب ، فقال المأمون : يا ابراهيم ، لقد حبّبت الى العفو حتى خفت ألا أؤجر عليه . أما لو علم الناس ما لنا في العفو من اللذة ، لتقرّبوا اليّنا بالجنائيات ! لا تُثَرِّبُ<sup>(١)</sup> عليك ، يفر الله لك . ولو لم يكن في حق نسبك ، ما يبلغ الصفيح عن جرمك ، لبأثك ما أثمت حسن تفضلك ولطف توصيلك . ثم أمر برّد ضياعه وأمواله ، فقال ابراهيم :

(١) التثريب : الغرم والتعير بالذنب .

رددت ما لي ولم تجعل علي به \* وقبل رذك ما لي قد حقت دمي  
وقام علمك بي فاحتج عندك لي \* مقام شاهد عدل غير متهم  
فلو بذلت دمي أبقي رضاك به \* والمال حتى أسل النعل من قدمي  
ما كان ذاك سوى عارية سلفت \* لو لم تهبها لكنت اليوم لم تلم

«وبعد» فشدة ما يحتاج الولاة والقادة والزعماء، الى حلة العفو والاحسان، في حزم وحسن موافاة، ليستلوا من القلوب عداوتها، وليستاصلوا من النفوس تحييمتها، وليضمنوا من الرعية والاتباع الاخلاص المحض والود الصريح .



### (ح) احتماله :

ومن الدلائل على صلاحية المأمون لما أعدته له الأيام اتصافه بالاحتمال الذي لا يقوم الملك إلا به ، ولا تسير الأمور بدونه ، وهو حقيق براه البص سماعه ، وزاه من المأمون سياسة ، هي من الصميم في آداب الملوك ، وإنه ليحتمل ، حتى لتحسبه من الغافلين ، ولكن الرجل كان يعرف أن الملك مصاعب ومتاعب ، أقلها منارة الناس ، والنزول لهم من بعض ما يشتهون .

روى بعضهم عن قثم بن جعفر أنه قال : قال المأمون في يوم الخميس ، وقد حضر الناس المدار لعل بن صالح : ادع اسماعيل قال : نخرج ابن صالح ، فادخل اسماعيل بن جعفر ، وأراد المأمون اسماعيل بن موسى ، فلما بصُر به من بعيد ، وكان أشد الناس له بغضا ، رفع يديه مازها الى السماء ، ثم قال : اللهم أبلي من ابن صالح مطيبا فانه لصداقته لهذا أثر هواه على هواي ، قال : فلما دنا اسماعيل بن جعفر ، سلم فرده عليه ثم دنا فقبل يده ، فقال : هات جوازك ، قال : ضيعتي بالمغيثة ، غصبته وقهرت عليها ، قال : نامر بردها عليك ، ثم قال : حاجتك ، قال : يا ذن لي أمير المؤمنين في الحج ، قال : قد آذنا لك ، ثم قال : حاجتك ، قال : وقف أبي أخرج من يدى وصار الى قثم والقاسم آخى جعفر ، قال : فتريد ماذا ؟ قال : يرذ الى ، قال :



أما ما كان يُمكننا من أمرك فقد جُذنا لك به ، وأما وقف أبك فذاك الى وراثته ومواليه ، فان رَضُوا بك واليا عليهم وقبلاً لم رددناه اليك ، وإلا أقرناه في يد من هو في يده ، ثم نخرج ، فقال المأمون لعل بن صالح : مالي ولك عافاك الله ، متى رأيتني نَشِطْتُ لاسماعيل بن جعفر وعُنيْتُ به وهو صاحبي بالأمس بالبصرة ! قال : ذهب عن فكري يا أمير المؤمنين ، قال : صدقت ، أمري ذهب عن فكري ما كان يجب عليك حفظه ، وحفظ فكري ، اكان يجب عليك ألا يخطُر به ، فاما اذ أخطأت فلا تُعلم اسماعيل ما دار بيني وبينك في أمره . فظن على أنه عني بقوله هذا اسماعيل بن موسى ، فأخبر اسماعيل بن جعفر القصة حرفاً حرفاً ، فأذاعها ، وبلغ الخبر المأمون فقال : الحمد لله الذي وهب لي هذه الأخلاق ، التي أصبحت أحتمل بها على بن صالح وابن عمران وابن الطوسي ومُحمَّد بن عبد الحميد ومنصور ابن النعمان ورطامش .

« وبعد » فلاحتمال خلة محبة الى النفوس ، تدعو الى الوفاق والوئام ، وهي بالملوك أولى وأجدر لمكانهم من الزمام والقيادة ، ولمازلتهم من الرياسة والسلطان . ولأنهم أحق الناس بكل محبة تحبهم الى الناس ، وتكون قدوة يرثيهم من عداهم ممن يتصرفون في شؤون العباد ومستقبل البلاد .



### (ط) بهصره بالأدب :

سترى فيما نعرض له ، نفي القسم الأدبي ، من آثار المأمون وكتابته ، مبلغ تميزه في الفنون الأدبية ، وتملكه أمانة البلاغة ، وحسن تصرفه لكل أفانين الثقافة العربية ، الى جانب حسن تصرفه ، لشئ أمور ملكه .

والآن — وسيلنا تحليل شخصية المأمون ، نرى من الواجب لتوفيق البحث حقه من مختلف وجوهه ، أن نشير الى كلفه بالأدب ، مفترضين على كل حال ، ما قد يكون بمثابة ، من تشجيع المغالين من الولاء له ، وماقد يضاف اليه من الآثار .

ولكن ذلك كله ، لن يؤثر في القلب والجواهر ، وهو أن المأمون كان أدبيا ، عالما بأفانين القول ومناحيه ، وليس ذلك ببعيد ، على من نأمله على شيوخ الأدب العربي ، كسيبويه واليزيدي ويحيى بن المبارك بن المغيره ، الذي أخذ العربية عن أمثال أبي عمرو ابن العلاء وابن أبي اسحاق الحنظلي ، وأخذ اللغة والعروض عن الخليل بن أحمد ، والذي ألف كتابا في النحو لبعض أولاد المأمون .

فقد أفاد المأمون من هؤلاء وأمثالهم من رجال الأدب والكفاية أيما إفادة .  
قال عمار بن عَـقِيل : أنشدتُ المأمونَ قصيدةً مائة بيت ، فأبتدئُ بصدر البيت ،  
فِيُبادِرُنِي إلى قافيتِهِ كما قَفَيْتِهِ ، فقلت : والله يا أمير المؤمنين ، ما سمعها مني أحد قط ! فقال  
هكذا ينبغي أن يكون ، ثم قال لي : أما بلذك أن عمر بن أبي ربيعة أنشدَ عبد الله بن عباس  
قصيدته التي يقول فيها \* تَشْطُ غَدًا دارُ جيراننا \* فقال ابن عباس \* وللدَّارِ بعدُ غداً أبعدُ \*  
حتى أنشدته القصيدة يقيها ابن عباس ثم قال : أنا ابنُ ذلك . ورووا أن المأمون قال :  
بِشِّكَ مُرَّ نادا ففُزْتُ بنظرة \* وأغفلتني حتى أسأتُ بك الظنَّ  
فناجَيْتَ مَنْ أهوى وكنْتُ مباعدا \* فإليت شعري عن دُوك ما أَغْفَى  
أرى أثرًا منه بيليكَ بيِّنًا \* لقد أخذتُ عيناك من عينه حسنا  
ومهما قيل إن المأمون أخذ هذا المعنى من العباس بن الأحنف الذي يقول :  
إن تَشَقَّ عيني بها فقد سَعَدْتُ \* حينَ رَسولِي وفُزْتُ بالخبر  
وكتبَ جاءني الرسولُ لها \* رَدَدْتُ عهدا في عينه نظري  
خذ مقلتي يا رسولَ عاريَّةً \* فانظُرْ بها واحْكَمْ كلَّ بهري  
فإن شمر المأمون يدل في جمته ، على تفوقه الحسين ، بالشعر الحسن ، والخيال الحسن .  
ثم لننظر معي في الحديث الذي دار بين عبد الله بن أبي السَّمُط وعمار بن عَـقِيل ، فإن  
أولهما يقول لهما : أعلمت أن المأمون لا يصر الشعر ؟ فقال عمار : ومن يكون أعلم منه ؟  
فوالله إنا لنشده أولَّ البيت فيسبقنا إلى آخره ، قال عبد الله : إني أنشدته بيتا أجذتُ  
فيه فلم يتحرك له ، فقال عمار : وما هو ؟ قال :

أنهى إمام الهدى المأمون مشتتلا \* بالدين والناس بالدنيا مشاغِلُ  
فقال عماره : والله ما صنعت شيئا ! هل زدت على أن جعلته عجوزا في محرابها ، فإذا مَن  
الذى يقوم بأمر الدنيا انا نساغل عنها ، وهو المطَّوَّق بها ؟ ألا قلت كما قال جدِّي جرير  
في عبد العزيز بن الوليد :

فلا هسو في الدنيا مضيقٌ نصيبه \* ولا عرَّض الدنيا عن الدين شاغله

فقال عبد الله : الآن عابتُ أنى قد أخطأت .

ولقد كان المأمون واقفا أتم وقوف وأكمله على شعر العصر ، ومقولات الشعراء ، مع  
حسن بصر ، وأتم حذق ، وأدق تفهم ، بذلك على ذلك ، ما ذكره أبو زرارٍ الضرير الشاعر قال :  
قال لى على بن جبلة : قلت لمحمد بن عبد الحميد : يا أبا غانم ، قد امتدحت أمير المؤمنين  
بمدح لا يُحسِّن مثله أحد من أهل الأرض ، فاذكرنى له ، فقال : أشدني ، فأشدته ، فقال :  
أشهد أنك صادق ، فأخذ المديح فأدخله على المأمون ، فقال : يا أبا غانم ، الجواب في هذا واضع ،  
إن شاء عفونا عنه ، وجعلنا ذلك ثوبا مديحه ، وإن شاء جمعنا بين شعره فيك وفى أبى دلف  
القاسم بن عيسى ، فإن كان الذى قال فيك وفيه أجود من الذى مدحتنا به ، ضربنا ظهوره  
وأطلقنا حبسه ، وإن كان الذى قال فينا أجود أعطيته بكل يات من مديحه ألف درهم ،  
وإن شاء ألقناه ، فقلت : يا سيدى ، ومن أبو دلف ومن أنا حتى يمدحنا بأجود من مديحك !  
فقال : ليس هذا الكلام من الجواب عن المسألة فى شيء ، فأعرض ذلك على الرجل . قال  
على بن جبلة : فقال لى محمد : ما ترى ؟ قلت : الإقالة أحب إلى ، فأخبر المأمون ، فقال :  
هو أعلم ، قال حميد ، فقلت لعلى بن جبلة : إلى أى شيء ذهب فى مدحك أبا دلف  
وفى مدحك لى ؟ قال : إلى قولى فى أبى دلف :

إنما الدنيا أبو دلف \* بين مبداه ومخضرة

فلذا ولَّى أبو دلف \* ولَّت الدنيا على أثره

والى قولى فيك :

لولا حميد لم يكن \* حسب بعد ولا نسب  
يا واحد العرب الذى \* عزت بعزته العرب

ثم انظر سعة عطفه، وكثير تسامحه، وما جبلت عليه نفسه من العفو والحلم، فيما رواه أحد قرابة دعبيل الشاعر، حيث قال : إن دعبلا هما المأمون بقوله :

أيسومنى المأمون خطئة عاجز \* أو ما رأى بالأمس رأس محمد  
يؤفى على هام الخلف مثل ما \* توفى الجبال على رموس القرد<sup>(١)</sup>  
وييسل في أكثاف كل ممنوع \* حتى يذل شاهقا لم يصمد  
إن التراث مسهد حلاها \* فاكفف لما بك من لعاب الأسود

فلم يتقدم المأمون بإيذاء دعبيل، وكل ما فعل أن قال : هو يهجو أبا عباد، ولا يهجونى .  
يريد دعبلة أبى عباد .

وكان بصيرا بأخبار العرب ، واقفا على تاريخ مجاويدهم وغطايرفهم ، فقد ذكر عمارة ابن عريق قال : « قال لى المأمون يوما ، وأنا أشرب عنده ، ما أخبتك يا أعرابي » قال قلت : وماذا لك يا أمير المؤمنين ، وهمنى نفسى ، قال كيف قلت :

قلت مفسدة لما أن رأيت أرقى \* والهزم يتأده من طيفه لم  
نهبت مالك فى الأدنين آصرة \* وفى الأبعاد حتى حقتك العدم<sup>(٢)</sup>  
فاطلب اليهم ترى ما كنت من حسن \* تُسدى اليهم فقد باتت لهم صرم<sup>(٣)</sup>  
فقلت صدك قد أكثرت لائتى \* ولم يمت حاتم هزلا ولا هرم

فقال لى المأمون : أين رميت بنفسك الى هريم بن سنان سيد العرب ، وحاتم الطائي .  
فعلا كذا وفعل كذا وأقبل يتألى<sup>(٤)</sup> على بفضلها ، قال : فقلت يا أمير المؤمنين : أنا خير منهما ،  
أنا مسلم وكانا كافرين وأنا رجل من العرب .

(١) القرد : ما ارتفع وغلظ من الأرض . (٢) العرم : جمع حرمة وهي القطعة من الإبل نحو الثلاثين .  
(٣) يلد محاسنها ويذكرها .

ثم انظر بلافته ومثانة عبارته ، في مشافهاته ومبادئه ، فقد روى ابراهيم بن عيسى قال : لما أراد المأمون الشخصَ الى دمشق هَيَّأَ له كلاما ، مكثت فيه يومين وبعض آخر ، فلما مثلتُ بين يديه ، قلت : أطال الله بقاء أمير المؤمنين في أدوم العزِّ وأسبغ الكرامة ، وجعلني من كل سوء فناء ، إنَّ مَنْ أَمسى وأصبح يتعزف من نعمة الله — له الحمد كثيرا — عليه برأى أمير المؤمنين أيداه الله فيه ، وحسن تأيسه له ، حقيق بأن يستديم هذه النعمة ، ويلتمس الزيادة فيها ، بشكر الله ، وشكر أمير المؤمنين — مد الله في عمره — عليها . وقد أُحِبَّ أن يعلم أمير المؤمنين أيداه الله ، أنى لا أرضب بنفسى عن خدمته ، أيداه الله بشئ من — الخَفِيزِ والدَّعةِ ، إذ كان هو أيداه الله ، يتجشَّم خشونة السفر ، ونَصَبُ الظَّمْنِ ، وأولى الناس بمواساته في ذلك ، وبذل نفسه فيه أنا ، لِمَا عرَّفني الله من رأيه ، وجعل عندي من طاعته ، ومعرفة ما أوجب الله من حقِّه ، فإن رأى أمير المؤمنين أكرمه الله ، أن يكرمنى بخدمته ، ولا يَكُونَتِ معه فعل . فقال لى المأمون مبتدئا من غير تروية : لم يعزم أمير المؤمنين في ذلك على شيء ، وإن استصحب أحدا من أهل بيتك ، بدأ بك وكنت المقسم عندك في ذلك . ولا سيما إذ أنزلت نفسك بحيث أنزلك أمير المؤمنين من نفسه ، وإن ترك ذلك فن غير قَلِّ لمكانك ، ولكن بالحاجة اليك . قال ابراهيم : فكان والله ابتداءه أكثر من ترويتي .

قال أبو العتاهية : وجه الى المأمون يوما ، فصرَّتْ اليه ، فلفينه مطرقا ، ففكر ، فاجمعت عن الدتو منه في تلك الحاي ، فرفع رأسه ، فنظر الى ، وأشار بيده أن آذن ، فدنوت . ثم أطرق مليا ، ووقع رأسه ، فقال : يا أبا اسحاق ، شأن النفس الممل ، وحب الاستطراف ، تأنس بالوحدة كما تأنس بالألفة . قلت : أجل يا أمير المؤمنين . ولى في هذا بيت قال : ما هو ؟ قلت :

لا يُصْلِحُ النفسَ إذ كانت مدبرة • إلا التبتُّلُ من حال الى حال

ثم انظر الى بلاغة المأمون ، التي كانت سليقة فيه ، وإنزلت بساحه المعلوم والقوادح ، فقد ذكر المؤرخون أنه أصيب بآفة له ، كان يحدُّ عليها وجدا شديدا . فخلص وأمر أن

يؤذن لمن بالبواب، فدخل عليه العباس بن الحسن العلوي، فقال له : يا أمير المؤمنين إنا لم نأتك مزينا، ولكن أتياناك مقتدين . ثم قال : يا أمير المؤمنين، إن لسانى يطلق بمدحك غائبا . وأحب أن يتريد عنك حاضرا ، أفأذن فأقول ، قال المأمون : قل فانك تقول فتحسن، وتشهد قترين، وتغيب فتؤتمن، فقال العباس له، وصدق فيايقول، : يا أمير المؤمنين ما أقول بعد هذا ! لقد بلغت من مدحى مالا أبلغه من مدحك .

وانظر الى حلاوته في بلاغته، وفرحته في طلاوته، ومناشاته في عبارته، حين نصبح لابنه العباس فقال له : ينبغي يا بني لمن أسبغ الله عليه نعمه، وشركه في ملكه وسلطانه، وبسط له في القدرة، أن يتنافس في الخير، بما يبق ذكره، ويجب أجره، ويرجى ثوابه . وأن يجعل همته في عدل ينشره، أو جور يذفنه، وسنة سالحة يحياها أو بدعة يميتها . أو مكرمة يعتفدها، أو صنعة يسديها، أو يد يودعها وبوليها، أو أثر محمود يتبعه .

ويقول لنا الملاحظ في البيان والتبيين : كان سهل بن هارون شديد الإطنا ب في وصف المأمون بالبلاغة والجهارة، وبالخلاوة والفخامة، وجودة اللهجة والطلاوة . ويقول ثمامة بن أشرس الغيري : ما رأيت رجلا أبلغ من جعفر بن يحيى والمأمون . وإن فيما ذكره ابن الجوزي والعالمى وغيرهما في طرب المأمون للطرف واللغة، لما يثبت بصره بالأدب وحذقه للغة، وممكنه في النحو . وإنا نختم كلمتنا هذه بما قاله المأمون لولده وعنده عمرو بن مسعدة ويحيى بن أكثم فانها في السهالك بلاغة ودقة معنى وحلاوة أسلوب وسمو بجايا وحسن تدبير ونضوج دُرْبة، ولا يقولها إلا من كان الى جانب ما وصفناه حال أعباء، نهاضا بيزلاء، قصيا مرعى همته، رفيعا متأط عزمته، وهى مع كل ذلك من عفو الخاطر، ونتاج البديهة .

قال : « اعتبروا في علو الهمة بمن ترون من وزرائى وخاصتى، إنهم والله ما بلغوا مراتبهم عندى إلا بأنفسهم . إنه من شيع منكم صغار الأمور، تبعه التصغير والتحقير وكان

(١) يقال : هو نهاض بيزلاء أى صاحب همة يقوم بالأمر العظيم .

قليل ما يقتد من كبارها أكثر من كثير ما يستدرك من الصغار ، فترفوا عن دناءة الهمة ،  
وتفرغوا لجلال الأمور والتدبير ، واستكفوا الثقات ، وكونوا مثل كرام السباع التي  
لا تستغل بصغار الطير والوحش بل يجليلها وكبارها . واعلموا أن أقدامكم إن لم تتقدم بكم ،  
فإن فائدتكم لا يقدمكم ولا يغني الولي عنكم شيئا ما لم تعطوه حقه . وأنشد :

نحن الذين اذا تمحط عصبية \* من معشر كما لها أنكالا  
وترى القروم خالة لقرومنا \* قبل اللقاء تقطر الأبرالا  
ترد المنية لا تخاف ورودها \* تحت العجاجة والعيون تلالا  
نعطي الجزيل فلا يمن عطاءنا \* قبل السؤال وبحمل الأثقالا  
واذا البلاد على الأنام تزلزلت \* ككنا لزلة البلاد جبالا

«وبعد» فشد ما يروق الرعية تبريز ولاتها في البلاغة والبيان ، وشد ما يتلج الأنفة  
ويبرز العيون تملكهم لأعنة القول ، وإطلاعهم على الفرر والمخع وتشجيعهم لدوى  
الاحسان .

وجميل جدا أن تنشر الكفايات ، وأن ينفذ الولاة من كلمة المأمون : « إن وزرائي  
وألقه ما بلغوا مراتبهم عندي إلا بأنفسهم » سنة يترجمونها ، وقاعدة يتبعونها ، وحكمة  
يذيعونها لترتفع النفوس وتسمو التراتزات ولينال الاحسان أهل الاحسان .

### (ى) علم المأمون :

كان المأمون وافر العلم ، غزير الاطلاع وليس ذلك بعزير على خافيه مأل عصره  
بأنواع المعارف الانسانية ، ونفع فيه من روحه القوى ، حتى استطاع الباحث أن يسميه  
بسميته ، وأن يرجع فضل الحضارة العباسية اليه .

ولكن المأمون في علمه وثقافته لم يقف عند حد الثقافة الذاتية ، وإنما وجه حرصه  
الى أن يثير في نفوس أصحابه كوامن الرغبة الى التعمق في الدرس ، والشوق الى إدراك  
حقائق الأشياء ، وكانت له في ذلك طريقة معروفة ، هي توجيه السمر والحديث الى فنون

العلم، وضروب العرفان، فكان حديث الليل وحديث المائدة يفتح جلساته أبواباً من القول  
ما كانت تخطر لهم ببال .

قال جعفر بن محمد الأتخايطي : إن المأمون لما دخل بغداد، وقربها قراره، وأمر  
أن يدخل عاييه من الفقهاء والمتكلمين وأهل العلم جماعة، يختارهم لجلالته ومحادثته، وكان  
يقعد في صدر نهاره على بُودٍ في الشتاء وعلى حصير في الصيف، ليس معها شيء من سائر  
الفرش، ويقعد للظالم في كل جمعة مرتين، لا يمتنع منه أحد، قال : واختير له من  
الفقهاء لجلالته، مائة رجل، فما زال يختارهم، طبقة بعد طبقة، حتى حصل منهم  
عشرة، كان أحمد بن أبي داود أحدهم، وشر الميرمسي . قال جعفر بن محمد الأتخايطي :  
وكنْتُ أحدهم، قال : فتفليتنا يوماً عنده، فظننت أنه وضع على المائدة أكثر من ثمانية  
لون، فكلمنا وضع لون، نظر المأمون إليه، فقال : هذا يصلح لكذا، وهذا نافع لكذا،  
فمن كان منكم صاحب بلغم ورطوبة، فليجتلب هذا، ومن كان صاحب صفراء فليأكل  
من هذا، ومن غلبت عليه السوداء فليأكل من هذا، ومن أحب الزيادة في لحمه فليأكل  
من هذا، ومن كان قصده قلة الغذاء فليقتصر على هذا، قال : فوالله إن زالت تلك حاله  
في كل لون يقدم، حتى رُفِعَت الموائد . قال فقال له يحيى بن أكرم : يا أمير المؤمنين،  
إن خضنا في الطلب كنت جالينوس في معرفته ! أو في النجوم كنت هيرمس في حسابه !  
أو الفقه كنت علي بن أبي طالب صلوات الله عليه في علمه ! أو ذكرنا السخاء فانت  
فوق حاتم في جوده ! أو ذكرنا صدق الحديث كنت أبا ذر في صدق لهجته ! أو الكرم  
كنت كعب بن مامة في إثباته على نفسه ! قال : فسر بذلك الكلام، وقال : يا أبا محمد،  
إن الإنسان إنما يُفْضَل على غيره من الهوام بفعله وعقله وتمييزه، ولولا ذلك لم يكن لحم  
أطيب من لحم، ولا دم أطيب من دم . واثق أنا قلت : إن يحيى بن أكرم، قد بالغ  
في تحميس المأمون، وغلا في صفته، فأنا معك في ذلك، ولكنني ألاحظ أن هذا الغلو  
لا يخلو من آثار من حق وصدق .



ولنتظر معى نظرة مُستَقْصِص لاطلاع المأمون ، وتَدَقُّق المعاني اليه ، ورواية الأفعاك له حينما ارتد رجل من أهل خراسان ، وأمر المأمون بحمله الى مدينة السلام، فلما أُدخل عليه أُقبل بوجهه اليه ، ثم قال له : « أخبرنى : ما الذى أوحشك مما كنت به آنسا من ديننا ، فوالله لأن أستحيك بحق أحب الى من أن أفتلك بحق ، وقد صرت مسلما بعد أن كنت كافرا ثم عدت كافرا بعد أن صرت مسلما . فإن وَجَدْتَ عندنا دواء دالك ، تعالجت به اذ كان المريض يحتاج الى مُشاورة الأطباء . فان أخطأك الشفاء ونبا عن دالك الدواء ، كنت قد أعدتْ ولم ترجع على نفسك بلأمة ، فان قلناك بحكم الشريعة ترجع أنت فى نفسك الى الاستبصار والتقىة ، وتعلم أنك لم تُفَقِّرْ فى اجتهاد ، ولم تَدَّجِ الأخذ بالحزم » . فقال المرتد : « أوحشنى ما رأيتُ من كثرة الاختلاف فى دينكم » فقال المأمون : « فإنا لنا اختلافين : أحدهما كالأختلاف فى الأذان وتكبير الحناظر، والاختلاف فى التشهد وصلاة الأعباد، وتكبير التشريق ووجوه القراءات، واختلاف وجوه الفُتُيا، وما أشبه ذلك، وليس هذا باختلاف إنما هو تخيير ونوسعة وتخفيف من الحُنة ، فمن أَدَنَ مَنًى وأقام فُرادى لم يُؤَمِّمْ من أَدَنَ مَنًى وأقام مَنًى، لا يتمايرون ولا يتمايسون، أنت ترى ذلك عيانا، وتشهد عليه بيانا، والاختلاف الآخر كنهو الاختلاف فى تأويل الآيه من كتابنا، وتأويل الحديث عن نبينا صلى الله عليه وسلم، مع إجماعنا على أصل التنزيل واتفاقنا على عين الخبر، فان كان الذى أوحشك هذا حتى أنكزت كتابنا، فقد ينبى أن يكون اللفظ بجميع ما فى التوراة والإنجيل متفقا على تأويله ، كالاتفاق على تنزيله ، ولا يكون بين الملتسين من اليهود والنصارى اختلاف فى شىء من التاويلات، وينبى لك ألا ترجع إلا الى لغة لا اختلاف فى ألفاظها، ولو شاء الله أن يتزل كُتُبُه ويجعل كلام أنبيائه وورثة رسله لا تحتاج الى تفسير لفعل؛ ولكنا لم نر شيئا من الدين والدنيا دُفع البنا على الكفاية، ولو كان الأمر كذلك لسقطت البُلُوى والحُنة، وذهبت المسابقة

والمنافسة ولم يكن تفاضل ، وليس على هذا بنى الله جل وعز الدنيا» فقال المرتد : « أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنت المسيح عبد الله ورسوله ، وأنت محمد صلى الله عليه وسلم صادق ، وأنت أمير المؤمنين حقاً ! » قال : فانحرف المأمون نحو القبلية فخر ساجداً ، ثم أقبل على أصحابه فقال : « وقرؤا عليه عريضه ، ولا تبرؤوا في يومه ، ريثما يعتق إسلامه ، كيلا يقول صدوق إنه يسلم رغبة ، ولا تنسوا نصيحتكم من يره ونصرته وتأييده والملائكة عليه » .

وهذا المنحى الذى نحاه المأمون ، فى إقناع ذلك المرتد يدلنا على ناحيتين من نواحي تفكيره :

الأولى : بصره بأسرار الشريعة ، وعلمه بدقائق الدين ، وتدقيقه فى فهم أنواع الخلاف بين المسلمين ، ويؤكد هذا التقسيم يقضى على كل شبهة ، عند من يربطهم هذا النزاع الذى طال بين الفرق الإسلامية ، وتشعبت به مذاهب الفقهاء .

الثانية : تعمقه فى درس النفسيات ، واستقصاء خلجات القلب ، وهيجات الضمير ، وذلك ظاهر فى مراجعته لحياة الرجل الروحية ، وتأمله لما ألفتته نفسه وسكن اليه وجدانه قبل إسلامه ، فقد بنى على هذه السابقة طريقة التألف والتسامح التى قضى بها على ما مضى به الرجل من الكفر بعد الإيمان .

« وبعد » فإن المأمون فى علمه وعرفانه أهل للاحتذاء والارتسام من أقرانه ، قين بالتأمل به والافتقار من أخصدائه ، ليكون زمانهم غرة فى جبين الدهر كزمانه ، ويكون نصيحتهم نصيبه فى مهاجته ورفعته شأنه ، ورسوخ عرشه وقوة بنيانه .



(ك) احترامه للدين :

كان المأمون شديد الاحترام للتقاليد الدينية ، يرى فيها صيانة لنفسه ، واستبقاء لقلوب رعيته ، ولكنه كان يستطع فى ذلك ، فيعاقب على حقوة مرت عليها عشرات السنين ، ويستقص عليك حادثته ، هى دلالة على هذا الإسراف ، وهى أيضاً عنوان على ذوقه فى نقد

الشعر، وإنا نرجح أن للظرف الذي وقعت فيه هذه الحادثة تبالياً اجترَحَ فيها، فلولا مجلس الغناء ولعبه بالنفس، لما عزل قاضٍ لحقوة لفظية، طال على عهدها الزمان، واليك الحديث :

ذكر أحد المعاصرين وهو أبو حشيشة محمد بن علي بن أمية بن عمرو قال : كما قدّام أمير المؤمنين المأمون بدمشق، ففنى علويّه :

بَرِثْتُ مِنَ الْإِسْلَامِ إِنْ كَانَ ذَا الَّذِي • أَتَاكَ بِهِ الْوَاشُونَ عَنِّي كَمَا قَالُوا  
وَلَكِنِّهِمْ لَمْ رَأَوْكَ سَرِيصَةً • إِلَى تَوَاصَوْا بِالنِّيمَةِ وَاحْتَالُوا

نقال : يا علويّه، لمن هذا الشعر؟ فقال: للقاضي، قال: أيّ قاضٍ ويحك؟ قال: قاضي دمشق، فقال : يا أبا الصّفاق، اعزّله، قال : قد عزّلتُه، قال : فيحضر الساعة، قال : فأحضر شيخٌ مخضوبٌ قميصيّ، فقال له المأمون : مَنْ تكون ؟ قال : فلان بن فلان الفلاني، قال : تقول الشعر؟ قال : قد كنتُ أقوله، فقال : يا علويّه، أُنشدَ الشعر فأنشده، فقال : هذا الشعر لك؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين، ونسأله طوالي وكل ما يملك في سبيل الله، إن كان قال الشعر منذ ثلاثين سنة إلا في زُهد، أو معاتبة صديق، فقال : يا أبا الصّفاق، اعزّله، فما كنتُ أوّلَ رقابِ المساميين من يبدأ في عزّله بالبراءة من الإسلام... ثم قال : يا علويّه، لا تهمل برث من الإسلام، ولكن قل :

حُرِمْتُ مَتَايَ مِنْكَ إِنْ كَانَ ذَا الَّذِي • أَتَاكَ بِهِ الْوَاشُونَ عَنِّي كَمَا قَالُوا

وهذا الموقوف من المأمون شبيه كل الشبه بموقفه مع يحيى بن أكثم وزيره وقاضيه، حيث قال له المأمون : «لا أترك قاضياً يشرب النبيذ!» .

ثم لننظر ما يروى عن سعيد بن زياد أحد المعاصرين، فانه يذكّر على تقدّيس المأمون لآثار النبي واحترامه لها، وتجنّبه بها، مع ورع وخشوع، فقد قيل : إنه لما دخل المأمون دمشق قال له : «أرأيت الكتاب الذي كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم لكم، فأراه سعيد إياها، فقال له : «إني لأشتهى أن أدري أيّ شيء هذا الفشاء على هذا الخاتم» فقال له أبو الصّفاق :

حُلِّ العُقْدَة حتى ترى ما هو فقال المأمون : ما أشكُّ أن النبي صلى الله عليه وسلم عقد هذا العُقْدَ ، وما كنت لأحلَّ عقداً عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال للوائق : خذوه فضمُّوه على عيذك ، لعل الله أن يَسْفِكَ ، وجعل المأمون يضعه على عينيه ويبيكى .

على أنا نرى من الوفاء للنقد العلمى أن نخيل القارئ هنا الى كلمتنا عن سياسة المأمون ، وإلى مذهبه الدينى فى الاعتزال ، كما نخيله الى مبحثنا فى الحياة العلمية والأدبية فى عصره ، ونظنُّ أنه سيلاحظ معنا أن هذه السناجبة الطيبة ، وذلك الإيمان الجميل فى تقدير المأمون للأثار النبوية لا تتفق فى حقيقة جوهرها مع ما أجمع عليه المؤرخون فى سياسته ، ولا مع اعتزاله <sup>(١)</sup> أو توغله فيما ترك الفلاسفة الأوَّلون ، ولا مع ما أخذ به المأمون بعض معاصريه من ألوان النقد فى شؤون دينهم ودنياهم .

والمأمون عند صحة هذه الرواية بين الاثنين : إما أن يكون قوى العاطفة الدينية ، رقيق الحس ، يخضع لوجدانه وإيمانه ؛ وإما أن يكون فى مثل هذه الأحوال رجلاً سياسةً ودهاءً ، يحسب ألف حساب لمواطف الجماهير ويحترم ميول الجماعات الدينية .

« وبعد » فالدين للديان جلَّ جلاله ، وأنعم بالوَلَاة الذين يحسرون ما للجماعات من آراء ومعتقدات وديانات .



### ( ل ) سياسته :

ولقد كان المأمون سياسياً فذاً ، وليس أدلَّ على « دبلوماسيته » من خطاته التى لا نجد لها فى عصره ما هو أحكم منها ولا أسد ، مع ركونه الى مُشاورة شيعته وأنصاره اذا حَزَبَ أمر . ولا أدلَّ على سياسته وكبير مهارته من تصرفاته مع سفراء أخيه الأمين مما وقَّعتك على طرف منه ، فى فصل التنازع بين الأخوين .

(١) يقول الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار : « الاعتزال مذهب من مذاهب التوحيد أراد القاعون به تنزيه الله عن الأشياء فنصروا أن يكون لله صفات لئلا يتأكد التقدم ، ثم انتقلوا الى الأفعال فنصروا أن يكون لله أثر فى فعل الشر فقالوا إن الله مزمع للشر وإن الإنسان يخلق أفعال نفسه الاختيارية بقدرة أودعها الله فيه فلم ما قالوا . وليس فى هذا ما ينافى إجلال المأمون لأكار رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وكان سياسياً فذاً ، في ترويجه من بُورَان بنت الحسن بن مهمل ليكتسب الحزب الفارسيّ، وفي ترويجه عليّ بن موسى الرضا ابنته أم حبيب ، ومحمد بن عليّ بن موسى ابنته أم الفضل ليكتسب الحزب العلويّ ، وأما بذلك كله إلى ضمان تأييد الأحزاب له ، عارفاً لنفسيات الجمهور وأمزجة الجماعات .

وكان سياسياً فذاً ، مصيباً لباب الصواب في قوله لأحمد بن أبي دواد عن أهل بغداد : « الناس على طبقات ثلاث في هذه المدينة ، ظالم ، ومظلوم ، ولا ظالم ولا مظلوم ، فاما الظالم فليس يتوقع إلّا عقوباً وإسكاتاً ، وأما المظلوم فليس يتوقع أن يُنصف إلاّ بيتاً ، ومن كان لا ظالم ولا مظلوماً فيبته يسعه » .

وكان سياسياً فذاً ، في مداراته عمّاله ، وليس أدلّ على ذلك من تصرفه مع إبراهيم بن السّديّ صاحب الأخبار ، وقد رَفَعَ إليه خبراً عن حادثة بمصر ، فكذّبه عبد الله بن طاهر ، فعنّف المأمون السّديّ آثم التعنيف ، أمام ابن طاهر ثم بعث إليه ، وقال له : « إلى أمر وأدأرى عمّاليّ وعمّالهم ، مداراة الخائف ، وإلّا ما أجد إلى حملهم على المحبة البيضاء سيلاً ، فاعملْ في عمل حسب ما ترى أعمل ، وإن لم تسلمْ لك أيامك ، ويفضّ دينك » .

وكان سياسياً فذاً ، حينما رَفَعَ إليه صاحب خبره « إنا أصبنا يا أمير المؤمنين رقاقاً ، فيها كلام السفهاء والسّفلة ، وفيها تهديدٌ ووعيد ، وبعضها عندنا محفوظ ، إلى أن يأمر أمير المؤمنين فيها بأمره ، فكتب المأمون بخطه : « هذا أمر إن أكبرناه كثر غمنا به ، واتسع علينا حرّقه ، فمرّ أصحاب أخبارك ، متى وجدوا من هذه الرّقاع رقعة أن يُرقّوها ، قبل أن ينظروا فيها ، فانهم إذا فعلوا ذلك لم يرّ لها أثر ولا عين » ففعلوا ذلك فكان الأمر كما قال .

وتعلّ نظراً نظرة تحليلية قصيرة ، فيما يرويه لنا زيد بن عليّ بن الحسين ، قال : « لما كان في العيد ، بعد قدوم المأمون سنة أربع ومائتين والمأمون يتغدى ، وعلى مائدة طاهر بن الحسين وسعيد بن سلّم ومُحمّد بن عبد الحميد وعلى رأسه سعيد الخطيب وهو يقزّظه ، ويذكر مناقبه ، ويصف سيرته ومجسده ، إذ أنهملت عينا المأمون بالدومج ، فرفع يده عن الطعام ، فأمسك القوم حين رأوه بتلك الحال ، حتى إذا كَفّ ، قال لهم : كلوا ، قالوا : يا أمير

المؤمنين، وهل تُسبغ طعاماً أو شرباً وسيدنا بهذه الحال. قال : أما والله ما ذلك من حدث ولا لمكروه هممت به بأحد، ولكنه جنس من أجناس الشكر لله اعظمته ، وذكر نعمته التي أنعمها عليّ، كما أتمها على أبويّ من قبلي، أما تزوّن ذلك الذي في صحن الدار ، يعني الفضل بن الربيع — قال : وكانت الستور قد رفعت ، ووُضعت الموائد للناس على مراتبهم ، وكان يجلس الفضل مع أصحاب الحرس — وكان في أيام الرشيد وحالُه حاله يراى بوجه أعرف فيه البغضاء والشأن ، وكان له عندى كالأذى لى عنده، ولكنى كنت أدار به خوفاً من سعايته وحذراً من أكاذيبه، فكنت إذا سأمت عليه، فردّ علىّ أَطْلُ لذلك فرحاً، وبه مبهجاً، وكان صغوه الى المخلوع، فحمله على أن أغراه بى، ودعاه الى قتل، وحركه الآخر بما يحرك القربة والرجم الماسة، فقال : أما القتل فلا أقتله، ولكنى أجعله بحيث اذا قال لم يُطع ، واذا دعا لم يُجب ، فكان أحسن حالاتى عنده، أن وجهه مع علىّ بن موسى قيد فضة، يمد مائتاً في القصة والحديد يُقيدنى به ، وذهب عنه قول الله جلّ وعزّ : ﴿ ثُمَّ بَيَّنَّا لِلَّهِ لِيُنْصَرَّتْهُ اللَّهُ ﴾ فذاك وضعه من الدار بأحسن مجالسها، وأدى مراتبها، وهذا الخطيب على رأسى ، وكان بالأمس يقف على هذا المنبر، الذى بإزائى مرة، وعلى المنبر الغربى أخرى، فيزعم أنى المأمون ولست بالمأمون، ثم هو الساعة يقتزنى بقرينة المسيح ومحمدا عليهما السلام، فقال طاهر بن الحسين : ياسيدنا، لما عندنا فيهما وقد أباحك الله إراقة دماهما، فخصتّهما بالعفو والحلم ! قال : فعلت ذلك لموضع العفو من الله . ثم قال المأمون : مُنُوا أيديكم الى طعامكم، فأكلوا وأكّلوا .

ألا يدورغ لنا أن نستنبط مما قدمناه لك أن المأمون كاتب سياسياً ذمناً، حافظاً في تصرفه مع الفضل ؟ ألم يكن للفضل مكانة عند الرشيد، وفؤاد بعيد المدى في الدولة؟ ألا يجوز أن سعايته بالمأمون وأكاذيبه عليه، إن لم يُبارِه، تجد أذانا مُصغية . وأنها قد تجر عليه من الشرور ما ليس في حاجة إليه ؟

ألم يكن خير سبيل لانتفاء شائته أن يدار به، عملاً بقول أبي الدرداء «إنا لنُبشّ في وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم» ؟

فهبل ترى سياسة أحكم ، وبصرا بالأمور أتم ، من تصرف المأمون ومدارائه ، ثم انظر ما كان من مبادئه للفضل بن سهل ، كما صرح بذلك لوليّ عهده عليّ بن موسى الرضا ، ومدارائه لظاهر الحسين قاتل أخيه ، وما كان من تصرفاته مع الوفود الأينية ، تؤمن معنا أن المأمون كان سياسيا ، ولعل لأطلاعه على مائتيم من المؤلفات اليونانية والفارسية ، مع استمداده الخالص ونزوعه الى البحوث الكلامية عاقبة ، وجبه للشاورة واكتشافه بالزهدوس المفكرة الناضجة ، لعل لهذا وأمثاله الفضل في تكوين المأمون على ما رأيت ، وتغريجه على ما شاهدت .

« وبعد » فلنت للحياة تقاليدنا ، وإن لسياسة الشعوب أسرارها ، كما أن للصراحة محامدنا ، وللدلالة ضرورتها ، وأنتم بمن يضع الأمور في مواضعها ، ويزن الموافق بميزانها ، ويطلب لكل حاجة دواعيها وعلاجها .



### (م) مذهب المأمون الديني :

أما مذهب المأمون الديني أو السياسي إن شئت ، وهل كان يميل للفرس حقا ويؤثرهم على غيرهم من العرب في خدمة الدولة ، وهل كان شيعيا علويا ، أو معتدلا في التشيع ، أو معتزليا ، فهذا باب يستفيض القول في شتى نواحيه ، وتزدحم معانيه ، لاختلاف وجهات النظر فيه . ولعلك تبيننت مما كتبناه عن المأمون السياسي ، بعض ما يساعدك على تفهم مذهبه الديني .

ولما كنا قد أرجأنا الكلام في موضوع المحنة والقول بخلق القرآن الى قسم العلوم والآداب ، فمنعت نلفت النظر هنا الى ذلك .

نيسد أنا نرى من واجبنا أن ننسرينا ، الى أن المأمون كان محوطا بشيوخ الاعتزال والكلام ، أمثال تمامه بن أثرس ويحيى بن المبارك وغيرهما . ويجوز لنا أن نفترض أن المأمون قد أخذ مذهب الاعتزال من يحيى بن المبارك مؤدبه ، فإن ياقوتا الرومي قد ذكر

عنه ، في الجزء السابع من معجمه ، : أنه كان يُتهم بالميل الى الاعتزال ، فلا يستبعد أذاً ، وصفته بالمأمون صلة الأستاذ بتلميذه ، أن يكون المأمون قد تأثر بميله خصوصاً ، أنه اتصل به منذ صباه في أيام الرشيد . وكذلك كانت محوطة بشيوخ آخرين ، لم آثارهم ومكاتبتهم في الدولة ، مثل يحيى بن أكنم وغير يحيى بن أكنم .

وكان على ذلك ، متأثراً بما تُزجَم من أخلاقيات فلاسفة اليونان وعلموهم ، وآداب الفرس وفنونهم . كما كان ، الى حدٍ غير قليل ، تحت سلطان الفرس ووزرائهم أمثال الفضل بن سهل . وكان يحسب للعلوين حسابهم ، وللعباسيين حسابهم . فلا غرو أذاً أن يكون لكل هذه العوامل أثر غير قليل في تكوين مزاجه الديني . وقد يفتقر بعض هذه العوامل حيناً وقد يشتد حيناً آخر ، طبقاً للأحوال .

هذا هو رأينا في مذهبه الديني أو السياسي على وجه عام . على أن هذا لا يمنعنا ، وقد اتخذنا لأفئسة خطة الحيدة في تدوين التاريخ ، من أن نثبت آراء القدماء فيه ، وأن نذكر طرقاً مما جاء منها في هذا الصدد .

قال ابن الأثير في كامله : « قال أبو العباس أحمد بن عبد الله بن عمار : كان المأمون شديد الميل الى العلويين ، والإحسان إليهم ، وخبره مشهور معهم ، وكان يفعل ذلك طبعاً لا تكلفاً ، فمن ذلك أنه توفى في أيامه يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين العلوي ، فحضر الصلاة عليه بنفسه ، ورأى الناس عليه من الحزن والكآبة ما تعجبوا منه ، ثم إن ولداً لزينب بنت سلمان بن علي بن عبد الله بن عباس ، وهي ابنة عم المنصور توفى بعده ، فأرسل له المأمون كفتاً ، وسير أخاه صالحاً ليصلي عليه ويعزي أمه ، فانها كانت عند العباسيين بمنزلة عظيمة ، فأتى إليها وحرأها عنه واعتذر عن تحلقه عن الصلاة عليه ، فظهر غضبها وقالت لابن ابنها : هتّم فصل على أبيك ، وتمثلت :

سَبَّكَاهُ وَنَحَسَّاهُ بِحَيَّتَا \* فَأَبْدَى الْكَبِيرُ مِنْ حَبِيبِ الْحَدِيدِ



ثم قالت لصالح : قل له يا بنَ سراجل ، أما لو كان يحيى بن الحسين بن زيد لوضعْتَ ذلك على فيك ، وعَدَوْتَ خلف جنازته .

ثم تَمَّالَ معي تَنَدَّبَ ما يرويه لنا الثغَلِيّ أحدُ المعاصرين ، قال : سمعت يحيى بن أكرم يقول : أصرنى المأمونُ عند دخوله بغداد ، أن أجمع له وجوهَ الفقهاء وأهل العلم من أهل بغداد ، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلاً وأحضرتهم وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائل ، وأفاض في فنون الحديث والعلم ، فلما انقضى ذلك المجلس ، الذي جعلناه للنظر في أمر الدين ، قال المأمون : يا أبا محمد ، كَرِهَ هذا المجلس الذي جعلناه للنظر طوائف من الناس ، بتعديل أهوائهم وتركيز آرائهم ، فطائفةٌ عابوا علينا ما نقول في تفضيل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وظنوا أنه لا يجوز تفضيل علي إلا بانتقاص غيره من السلف ! والله ما أستجيز أن أنتقص الجمَّاج فكيف السلف الطيب ! وإن الرجل ليأثني بالقُطَيْعة من العود أو بالخشبة أو بالشئ الذي لعل قيمته لا تكون إلا درهماً أو نحوهُ ، فيقول : إن هذا كان للنبي صلى الله عليه وسلم قد وضع يده عليه أو شرب فيه أو مسّه ، وما هو عندى بثقة ولا دليل على صدق الرجل ، إلا أتى بفرط النية والمحبة أقبل ذلك فاشتريه بألف دينار وأقل وأكثر ، ثم أضعه على وجهي وعيني ، وأتبرك بالنظر إليه وبمسّه ، فاستشفي به عند المرض يُصِيبني أو يُصيب من أهتم به ، فأصونه كصيانتي نفسي ، وإنما هو عود لم يفعل شيئاً ، ولا فضيلة له يستوجب المحبة ، إلا ما دُرِك من مس رسول الله صلى الله عليه وسلم له ، فكيف لا أرعى حق أصحابه وحرمة من قد صحبه ، وبذل ماله ودمه دونه ، وصبر معه أيام الشدة وأوقات العُسرة ، وعادى العائش والمائر والأقارب ، وفارق الأهل والأولاد ، وأعترب عن داره ليعز الله دينه ويُظهر دعوته ، يا سبحان الله ! والله لو لم يكن هذا في الدين معروفاً ، لكان في الأخلاق جميلاً ! وإن من المشركين لمن يرتضى في دينه من الحرمة ما هو أقل من هذا . معاذ الله ممّا نطق به الجاهلون . ثم لم ترّض هذه الطائفة بالعبس لم يخالفها ، حتى تَسَبَّهت إلى البدعة في تفضيله رجلاً على أخيه ونظيره ومن

(١) هذه القطعة منقولة كما هي عن تاريخ بغداد ج ٦ ص ٧٥ وما بعدها .

يقاربه في الفضل، وقد قال الله جل من قائل : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾ ثم وسع لنا في جهل الفاضل من المفضول، فما قرص علينا ذلك ولا ندبنا إليه، إذ شهدنا بجماعتهم بالنبوة، فمن دون النبيين من ذلك بعد إذ شهد لهم بالعدالة والتفضيل أمرؤ لوجهه جاهل رجونا ألا يكون اجترح إثمًا . وهم لم يقولوا بدعة فيمن قال بقول واحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وشك الآخر واحتج في كسره وإبطاله من الأحكام في الفسروج والذماء والأموال التي النظر فيها أوجب من النظر في التفضيل . فينلظ في مثل هذا أحد يعرف شيئاً ، أوله روية أو حسن نظر ، أو يدفعه من له عقل ، أو معاند يريد الإلطاط ، أو متبع هواه ، ذاب عن رياسة اعتقدها . وطائفة قد أخذ كل رجل منهم مجلساً ، اعتقد به رياسة ، لعله يدعو فئة إلى ضرب من البدعة ، ثم لعل كل رجل منهم يُعَادَى من خالفه في الأمر الذي قد عقده به رياسة بدعة ، ويُشَيِّطُ بدمه ، وهو قد خالفه من أمر الدين فيما هو أعظم من ذلك ، إلا أن ذلك أمر لا رياسة له فيه ، فساله عليه وأمسك عنه ، عند ذكر مخالفته إياه فيه ، فإذا خولف في نيته ، ولعلها تم وسع الله في جهله بها ، أو فيها اختلف السلف في مثله ، فلم يُعَادَ بعضهم بعضاً ، ولم يروا في ذلك إثمًا ، ولعله يُكَفِّرُ مخالفه ، أو يُبَدِّعه أو يرميه بالأمر التي حرّمها الله عليه من المشركين دون المسلمين ، بغياً عليهم ، وهم المترقبون الفتن ، والراصفون فيما ، لينهوا أموال الناس ويستحلوها بالغبلة ، وقد حال العدل بينهم وبين ما يريدون ، يترآون على الفتنة زئير الأسد على فرائسها . وإنّي لأرجو أن يكون مجلسنا هذا — بتوفيق الله وتأييده ، ومعونته على إتمامه — سبباً لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أَرْضَى وأصلح للدين ، إنا شاكّ فيّتين وبتتبت فينقاد طوعاً ، وإما معاند فبيرة بالعدل كرهاً . »

ولقد هم في سبيل عكوبته هذه أن يلعن معاوية ، وأن يكتب بذلك كتاباً ، يُقرأ يوم الدار ، وتُحلّ الناس ، فثناه عن ذلك يحيى بن أكرم ، وقد يكون من المجتمع الطريف حقاً أن نذكر لك ما قاله يحيى وغيره ، لتبين نفسية الزعماء فيما نحن بسبيلهم .

(١) الإلطاط : الاشتداد في الأمر والخصومة . (٢) يشيط بدمه : يهمله .

قال يحيى بن أكرم : يا أمير المؤمنين ، إن العامة لا تحتمل هذا ، ولا سيما أهل ثركسان ، ولا تأمن أن تكون لهم نفرة وإن كانت لم تدر ما عاقبتها ، والرأي أن تدع الناس على ما هم عليه ، ولا تظهر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفرق ، فإن ذلك أصلح في السياسة ، وأحرى في التدبير . فركن المأمون إلى رأيه ، ثم دخل عليه ثمة أحد المعاصرين ؛ فقال له المأمون : يا ثمة ، قد علمت ما كنا ندرناه في معاوية ، وقد طرأنا رأي هو أصلح في تدبير المملكة ، وأبني ذكراً في الساسة ، ثم أخبره أن ابن أكرم خوفه إياها ، وأخبره بنفورها عن هذا الرأي ؛ فقال ثمة : يا أمير المؤمنين ، والعامة في هذا الموضع الذي وصفها به يحيى ! والله لو وجهت إنساناً على عاتقه سواد ، ومعه عصا لساق اليك بمصاه عشرة آلاف منها ! والله يا أمير المؤمنين ، ما رضى الله جل ثناؤه أن سواها بالأنعام ، حتى جعلها أضل منها سبيلاً ؛ فقال تبارك وتعالى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ . إِنْ هُمْ إِلَّا كَآلَآتِمَ سَامٍ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ والله يا أمير المؤمنين ، لقد مررت منذ أيام في شارع الخلد ، وأنا أريد الدار ، فإذا إنسان قد بسط كساءه ، وألقى عليه أدوية ، وهو قائم ينادي عليها : هذا الدواء لياض العين والعمسا والفساوة والظلمة وضعف البصر ، وإني إحدى عيليه لمطموسة ، وفي الأخرى مؤسسى له ، والناس قد انثالوا عليه وأجفلوا إليه يستوصفونه ، فنزلت عن دابتي ناحية ودخلت في محارم تلك الجماعة فقلت : يا هذا ، أرى عينك أحوج هذه العين إلى العلاج وأنت تعصف بهذا الدواء وتخبر أنه شفاء لوجع العين ، فلم لا تستعمله ؟ فقال : أنا في هذا الموضع منذ عشرين ما صر بي شيخ أجهل منك ، فقلت له : وكيف ؟ قال : يا جاهل ، أين اشتكت عيني ؟ قلت : لا أدري . قال : بمصر ، فأقبلت على تلك الجماعة فقالوا : صدق الرجل ، أنت جاهل ، وهو أجي ، فقلت : لا والله ، ما علمت أنك عينه اشتكت بمصر ، فما تخلصت منهم إلا بهذه الحجة .

نريد بعد ما قدمناه لك أن نقول لك : إن مذهب المأمون الذي كان متشعباً تماماً مع مذهبه السياسي ، وإنه إذا كان يريد من وراء خطته السياسية من الترويج من هذا

الحزب وذلك، ومن إرضاء هذا الطرف وذلك، أن يظفر بتكوين وحدة سياسية من شتى الأحزاب ولو أدى ذلك أن يكون من العلويين خليفة، ثم من العباسيين خليفة ما دامت بغيته متحققة من استتباب الأمن، وامتزاج الأحزاب، وتوحيد القوى، فكذلك كان يريد أن يتخذ من مذهبه الدين مذهباً وسطاً، ويخيل لنا من النتائج التي وقفنا عليها من دراسة هذا العصر أن المأمون لم يظفر بغايته لا من الوجهة السياسية كما علمت من انتهاء حياة الرضا من آل محمد، ولا من الوجهة الدينية.

وبعد، فقد قلنا لك : إن الدين للديان جل جلاله، وأكبرنا وأكبرت معنا أولئك الولاء الذين يحترمون ما لمجاعات من آراء ومعتقدات وديانات، ويظهر أن المأمون لم يكن فيما رامه في هذا السبيل موفقاً توفيقه فيما عداه، وأن له زلةً كان يجدر ألا يقع مثله في مثلها، وسترى ذلك موضعاً في الفصل الذي عقدناه عن « محنة القرآن » .

### (ن) كلمة ختامية عن المأمون :

ولما بعد أن حللنا شخصية المأمون بما يجب من التفصيل والتوضيح، نرى من المستصوب أن نضم إلى آراء المؤرخين العرب وروايات المعاصرين للمأمون التي لا تخلو من مبالغة في تمديحهم بغضائله، رأي مؤرخ مشرق عكف على دراسة عصر المأمون وهو السيروليم مورير، فربما أفادنا كثيراً من ناحية استيعاب وجهات النظر عند الترجمة من المؤرخين، ذلك لأن الحقيقة العلمية لا تُخدم بمثل ما يخدمها تبأين الآراء وأختلاف المصادر وتناقض الروايات. وليس من مهتنا أن نعرض للرد على « السيروليم » وإنما نحن بسبيل إثبات وجهات النظر المختلفة كما قلنا.

قال الأستاذ مورير في كتاب الخلاف في مخزن بحثه عن المأمون ما ترجمه لك بنصه :  
« لهما لا نزاع فيه أن المأمون كان على وجه العموم متصفاً بالعدل والحلم، وإنما يؤخذ بأنه كانت متقلبا في آرائه وشعوره، سواء أكان ذلك في المسائل السياسية أم الدينية .

ويرجع السبب في ذلك الى نزعته الفارسية التي ورثها عن أمه ، والبيئة التي رُبِّي فيها من جهة ، وإلى غريزة حبه للاستسلام بتأثير من حوله كما كان حاله مع الفضل من جهة أخرى . على أننا مع اعترافنا بعدله ، لا نستطيع أن ننزهه عن الجنوح في بعض الأحيان الى الجور واستعمال القسوة من غير مسوغ ، فإنه قد تصرف في بعض الحوادث تصرف الجبارة والقساة من أسلافه الذين أتوا من المنكرات ما سؤدوا به صحائف تاريخهم . وسأذكر على سبيل المثال حادثة استعمل فيها المأمون وحشية غريبة ، ذلك أن أبا دلف - وكان بطلا من أشرف العرب وزعيما لإمارة همدان ، إذ كان من أسرة كريمة نالت شهرة عظيمة وصيتا واسما بين عشائرها وذوى البيوتات فيها - كان من الذين انضموا الى نصرة الأمين وشايعوه ، فلما قُتل المأمون بالخلافة ، أبى أبو دلف أن يدخل في طاعته ، وأثر العودة الى مسقط رأسه في فارس ، فمدحه شاعر أموى بقصيدة رائعة ، وغالى في مدحه وإطرائه ، ووصفه بأنه أشرف العرب والمقدم عليهم ، فاغتاظ المأمون من الشاعر غيظا شديدا ، إذ ظن أن الشاعر يقصد إهانته ، فأمر بتعذيبه وقتله شر قتلة ، ولكن لم يمض على ذلك غير قليل من الزمن حتى دخل أبو دلف في طاعة المأمون فاحتفل به وقرّبه اليه ، فان كان تجاوزه عن أبى دلف وسعة حلمه عليه بما يعظم شأن المأمون ويدل على رحابة صدره ، فهذا التجاوز لا يغير حكننا عليه بالقسوة الوحشية في قتل ذلك الشاعر الأعمى ، ولو أغضينا عن الشبهات التي حامت حول مقتل الفضل وموت عليّ الرضا ضدّا وغيبة ، فاننا لا نستطيع أن ننفي عن معاملته الحائرة لابن طائفة ، وما لقيه هزيمة وطاهر مع مخافيهما في نصرته وتوطيد حكمه ، واضطهاده لكثير من أجلة المفاكرين ، وأصحاب الآراء المخالفة لرأيه في بعض مسائل الدين ، في مجلس المناظرة ، مما يدل على قسوته ، إلا أننا إذا راعينا طول مدة حكمه وموقفه النبيل في عفوهِ عن الخارجين عليه في بغداد ، نرى كفة عدله وحلمه أرجح من كفة جورهِ وقسوته ؛

وقصارى القول أن عصر خلافته كان بوجه الإجمال من أزهى عصور التاريخ الاسلامي" اهـ .

♦ ♦

وبعد ، فلقد حللنا شخصية المأمون الفذة البارزة بما استحقته من الاستقصاء والاستيعاب ، والدرس والتحليل ، وأعقبنا كل كلمة عن مجاياه ما نعتبره موضع العظة والاعتبار من دراسة هذا العصر المتفرع بالمثل العليا . ونأمل أن نكون قد وقَّعنا فيما رُمناه من إصابة شاكلة الحق وأبواب الصواب .

## افضل النهن

### الحياة العلمية في عصر المأمون

موطه — حركة النقل — الترجمة — كتب العصر — آثار النهضة المأمونية — القول بخلق القرآن .

#### (١) قوطشة :

قيل : إن سهل بن هارون كان يتولى الهيمنة على إدارة دار الكتب الخاصة بالدولة المأمونية في بغداد، وكانت تعرف ببنت الحكمة، كما كان يتولى تنظيم نزارة المأمون . وقيل : إن بنت الحكمة هذا أنشئ في الغالب أيام الرشيد، حيث قد جمع له فيه البرامكة من الكتب ما وُقِّعوا إليه، هندية كانت أو فارسية أو يونانية .

وقيل : إن يحيى بن أبى منصور الموصلى المتعمم المعروف وأحد أصحاب الأرصاء في العصر المأمونى ، ومحمد بن موسى الخوارزمي صاحب الأرياح وصوره الأرض، كانا من نخبة دار الحكمة المأمونية، كما كان جده أحمد الطيبي المعروف بالصنوبري الحلي والفضل ابن توجت وأولاد شاكر وغيرهم من رجالات بنت الحكمة في العصر المأمونى ، أو من كان يتردد على هذه الدار للعمل فيها بصفة رسمية أو للطعالة أو للنسخ أو الترجمة أو التأليف .

وقيل : إن الراوية النسابة المعروف علان الشعوي الفارسي الأصل، كان من ينسخ في بيت الحكمة ، أو في أحد بيوت الحكمة هذه، إذ يلوح لنا أنها كانت على الأرجح أكثر من بيت، للرشيد والبرامكة والمأمون .

وقيل : إن المأمون بعث الى حاكم صقلية المسيحي أن يبادر بأن يرسل إليه مكتبة صقلية الشهيرة الغنية بكتبها الفلسفية والعلمية الكثيرة، وإن الحاكم تردد في إرسالها، وكان بين الضن بها والحرص عليها وانخوف من القوة المأمونية والهيبة المأمونية، ومن أجل ذلك جمع كبار رجالات الدولة وأدلى بهم بطلب المأمون، فأشار عليه المطران الأكبر بقوله :

« أرسلها إليه ، فواته ما دخلت هذه العلوم في أمة إلا أنشدتها » فأذن الحاكم لمشورته وعمل بها .

ويقول الأستاذ كرد علي : إن المأمون هو الذي جمع بعض حكماء عصره على صناعة الصورة التي نسبت إليه ، ودُعيت الصورة المأمونية ، صوّروا فيها العالم بأفلاكه ونجومه وبرّه وبحره وعاصره وغماره ومساكن الأمم والمدن إلى غير ذلك ، وهي أحسن مما تقدمها من جغرافية بطليموس ، وجغرافية مارينوس ، وقد وضع له علماء رسم الأرض - وقال الزهرى : إنهم كانوا سبعين رجلاً من فلامنفة العراق - كتاباً في الجغرافية أعان عمال الدولة على التمرّف إلى البلاد والأهم ، التي أطلتها الراية العباسية ، هذا إلى عنايته بالفلك ، وملكه الفسارى أول من استعمل الأسطرلاب من العرب ، وعنى بالطبيعة والرياضيات فوق عنايته بالطب ومعرفة المقاقير والنبات والحيوان ، إلى ما شاكل تلك العلوم مما كان له الأثر المحسوس في إدخال المدنية على دولة العرب ، وتفتح به المأمون باب العقل على مصراعيه في كل مطلب وشأن .

قيل هذا ، وقيل أكثر من هذا ، مما يدلنا دلالة صحيحة أو دلالة تقريبية على كثرة الكتب في العهد المأموني ، وما يشير إلى عدم قلتها في أيام من سبقه من الخلفاء العباسيين ، والان يحق لنا أن نسأل ، هل أفاد المأمون من هذه الكتب ؟ وماذا أفادنا المأمون

خاصة ؟ وما هي الحركة العملية المأمونية ، ومن هم رجالها وما هي مؤلفاتها ؟  
يحق لنا أن نسأل عن ذلك ، وعن مثل ذلك ، ويحق لنا أن نفرض لهذه البحوث ، وأن نفتح بعض ما كنا أجملناه في كلمتنا عن الحياة العلمية في العصر العباسي .

أما أن المأمون أفاد من كتب عصره ، سواء أكانت مترجمة عن اليونانية أو الفارسية ، أو غيرهما ، أم كانت مؤلفة موضوعة ، فهذا ما لا شك فيه مما قد شيعته فيما وضمناه لك عند تعرضنا لتحليل شخصية المأمون ، ونحن تكلمنا عنه تلميذاً ، وولي عهد ، وخليفة ، وأديباً ، وطالما ، وسياسياً ، وباحثاً دينياً .



وأما أن المأمون أفاد عصره بمؤلفاته الخاصة ، فهذا ما لا ريب فيه أيضا ، وهالك ابن النديم يحدثنا في فهرسته أن المأمون من الكتب كتاب جواب ملك البربر فيما سأل عنه من أمور الاسلام والتوحيد . ورسائله في إعلان النبوة .

وأما عن الحركة العلمية المأمونية ورجالها ومؤلفاتهم فهذا ما نحن مقبلون على بحثه . يحدثنا ابن أبي أصيبعة في طبقاته عن أوكيد الأسباب عند المأمون لاستخراج الكتب فيقول : قال يحيى بن عدي : قال المأمون : رأيت فيما يرى النائم : كأن رجلا على كرسى جالسا في المجلس الذي أجلس فيه فمأظمتُه وتهايتتُه وسألت عنه ، فقيل لي هو أرسطوطاليس . فقلت : أسأله عن شيء ، فسألته . فقلت : ما الحسن ؟ فقال : ما استحسنته العقول ، فقلت : ثم ماذا ؟ قال : ما استحسنته الشريعة ، قلت : ثم ماذا ؟ قال : ما استحسنته الجمهور . قلت : ثم ماذا ؟ قال : ثم لا ثم . فكان هذا المنام من أوكيد الأسباب في إخراج الكتب . فان المأمون ، كان بينه وبين ملك الروم مراسلات . وقد استظهر عليه المأمون . فكتب الى ملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المفزونة في بلد الروم . فأجاب الى ذلك بعد امتناع . فأنرج المأمون لتلك جماعة ، منهم الجيجاج بن مطر ، وابن البيريق وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم فآخذوا مما وجدوا ما اختاروا . فلما حملوه اليه أمرهم بنقله فنقل ، وقد قيل : إن يوحنا بن ماسويه ممن نفض الى بلد الروم . وأحضر المأمون أيضا حنين بن إسحاق وكان قتي السن وأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين الى العربي وإصلاح ما ينقله غيره فامتثل أمره .

ومما يحكى عنه أن المأمون كان يسطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب الى العربي مثلاً بمثل . وقال أبو سليمان المنطقي : إن بني شاذلي وهم محمد ، وأحمد ، والحسن ، كانوا يرزقون جماعة من النقلة . منهم حنين بن إسحاق ، وحبيش بن الحسن ، وثابت ابن قرة وغيرهم ، في الشهر نحو خمسمائة دينار للنقل والملازمة .

ويقول القاضي صاعد بن أحمد الأندلسي : إن العرب في صدر الإسلام لم تُنشِئ من العلوم ، إلا لِيَقْتِنَا ومعرفة أحكام شريعتهَا ، حاشا صناعة الطب . فانها كانت موجودة عند أفراد منهم غير متكررة عند جماهيرهم ، لحاجة الناس طُرَا إليها . فهذه كانت حال العرب في الدولة الأموية . فلما أدان الله تعالى للهاشمية ، وصرف الملك إليهم ثابت المهم من غفلتها ، وهبت الفطن من موتها ، فكان أول من عُني منهم بالعلوم الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور ، وكان مع براعته في الفقه ، كلفنا بالفلسفة وعلم النجوم . ثم لمّا أفضت الخلافة فيهم الى الخليفة الساج عبد الله المأمون بن هارون الرشيد ، تم ما بدأ به جده المنصور ، فأقبل على طلب العلم في مواضعه ، ودخل ملوك الروم وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا إليه بما حضروهم من كتب أفلاطون وأرسطوطاليس وأبقراط وجالينوس وأوقليدس وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة ، فاستجاد لما مهرة الترجمة وكلفهم لإحكام ترجمتها . فترجمت له على غاية ما أمكن ، ثم حصّ الناس على قراءتها ودرّجهم في تعليمها . وكان يخلو بالحكماء ويأمن بمنظرتهم ، ويتلذذ بمذاكراتهم ، علما منه بأن أهل العلم هم صفوة الله من خلقه ، ومُحِبُّته من عباده ، وأنهم صرفوا عنايتهم الى تيسل فضائل النفس الناطقة وزهّدوا فيما يَرِغِب فيه الصّين والترك ومن نزع مترعهم من التنافس في دقة الصناعة العمليّة ، والتباهى بأخلاق النفس والتفان بالقوى . إذ علموا أن البهائم تشركهم فيها وتفضّلهم في كثير منها . فلهذا السبب كان أهل العلم مصاييح الدجى ، وسادة البشر وأوحشت الدنيا لفقدهم .

فهذا الحلم الذى قيل إنه دفع بالمأمون الى الاستقامة بأرسطو ومؤلفات أرسطو ، أو عبارة علمية أدق ، هذا الميل الى الفلسفة والمنطق عند المأمون ، كان من آثاره حركة نقل وتأليف عينية قوية . ويحتمل بنا أن المأمون لا تساع دائرة معارفه العامة ، ورغبته في القياس العقلى ، وتأثره بمذهب الاعتزال كما سترى في كلماته التى عقدناها لك في القول بمخالف القرآن ،

كان لذلك كله وأمثاله أكبر رجل عمل في انتشار حركة الترجمة والتأليف، وخاصة في مؤلفات أرسطو، وكان من نتائج إقبال العرب وغيرهم على تلك المؤلفات وأمثالها أن تولد عندهم علم الكلام والفلسفة الأفلاطونية الجديدة .

### (ب) حركة الترجمة والنقل :

يقول الأستاذ «سنتلانه» في مفتتح محاضراته في تاريخ المذاهب الفلسفية بالجامعة المصرية : إن تاريخ الترجمة في عهد آل عباس على ثلاثة أدوار : فالدور الأول من خلافة أبي جعفر المنصور الى وفاة هارون الرشيد ، أى من سنة ١٣٦ الى سنة ١٩٣ وهى الطبقة الأولى من المترجمين ، منهم يحيى بن البطريق مترجم الخسفى فى أيام المنصور . وجورجيس بن جبرئيل الطيب عاش سنة ١٤٨ . وعبد الله بن المقفع الذى مات نحو سنة ١٤٣ وسنة ١٤٣ ترجم بعض الكتب المنطقية لأرسطوطاليس . ويوحنا بن ماسويه ، وكان فى أيام الرشيد ، وقد أدرك أيام المتوكل ، واعتنى فى الأغلب بالكتب الطبية . وسلام الأبرش ، وكان فى أيام البرامكة . وباسيل المطران .

والدور الثانى ، من ولاية المأمون سنة ١٩٨ الى سنة ٣٠٠ ، وهى الطبقة الثانية من المترجمين ، منهم يوحنا بن البطريق . والحجاج بن مطر الذى عاش سنة ٢١٤ . وقسطا ابن لوقا البعلبكي وعاش سنة ٢٢٠ . وعبد المسيح بن ناعمة الحمصي وعاش سنة ٢٢٠ . وحنين بن اسحاق وتوفى سنة ٢٦٠ وقيل سنة ٢٦٢ . وابنه اسحاق بن حنين ، وتوفى سنة ٢٩٨ . وثابت بن قرة الصابي المتوفى سنة ٢٨٨ . وحبيش بن الحسن ، ويدعى حبش الأعسم ابن أخت حنين ، وتوفى سنة ٣٠٠ ، ومما ترجم فى هذا العصر أغلب كتب أبقراط وجالينوس وأرسطوطاليس وثي . من كتب أفلاطون ومن التفاسير على الكتب المذكورة .

والدور الثالث من سنة ثلاثمائة للهجرة ، وهى تاريخ وفاة حبيش ، الى منتصف القرن الرابع ، ومن مترجمي هذه الطبقة ، متى بن يونس ، وتاريخ وفاته مجهول إلا أنه

يذكر عنه أنه كان ببغداد بين سنة ٣٢٠ وسنة ٣٣٠ . ومنهم من أن ثابت بن قرة ،  
 المتوفى سنة ٣٦٠ . ويحيى بن عدى وتوفى سنة ٣٦٤ . وأبو علي بن زرعة ، من سنة ٣٣١  
 إلى سنة ٣٩٨ . وهلال بن هلال الجعفي . وعيسى بن سهرنخت ، وكان أكثر اشتغالهم  
 بالكتب المنطقية والطبيعية لأرسطو ، وبالمفسرين كالاسكندر الأفروديسي ويحيى  
 النحوي وغيرهما اه .

وبعد ، فقد سبق لنا أن بينّا لك طرفاً عن الحياة العلمية في العصر الأموي وفي صدر  
 العصر العباسي ، وأن لنا الآن أن نذكر لك بعض أسماء أقطاب الحركة العلمية سواء أكانت  
 في علم الفلك أم الطب أم الفلسفة ، ترجمة وتالياً في العصر المأموني ، معتمدين في ذلك على  
 الفهرست لابن النديم ، وطبقات الأطباء لابن أبي أصديعة ، وكتاب أخبار الحكماء للقفطي .  
 وهالك جملة منهم وهم : أحمد بن محمد بن كثير القرطبي أحد منجمي المأمون ، وبختيشوع  
 جورجيس ، وجبرائيل بن بختيشوع ، وجبرائيل الكمال المأموني ، وإلخاركة المنجم صاحب  
 الحسن بن سهل ، والحسن بن سهل بن توتخت ، وزكريا الطيفوري ، وسهل بن سابور  
 ابن سهل المعروف بالكوخيم الذي كان يجتمع مع يوحنا بن ماسويه وجورجيس بن بختيشوع  
 وعيسى بن الحكم وزكريا الطيفوري ، ثم سنده بن علي المنجم المأموني ، وسامويه بن بنان  
 صاحب المتصم ، وصالح بن بهلة الهندي صاحب الرشيد ، والعباس بن سعيد الجوهري  
 المنجم صاحب المأمون ، وعبد الله بن سهل بن توتخت المنجم المأموني ، وأبو حفص عمر  
 ابن القرطبان الطبري أحد رؤساء الترجمة والمتحقيقين بعلم النجوم ، وموسى بن شاكر وبنوه  
 محمد وأحمد والحسن من منجمي المأمون ، وكان بنوه الثلاثة فيما ذكره القفطي " من أبصر  
 الناس بالهندسة وعلم الحيل ، وموسى بن إسرائيل صاحب أبي إسحاق بن إبراهيم بن المهدي ،  
 وما شاء الله المنجم اليهودي ، وميخائيل بن ماسويه ، ويحيى بن أبي منصور المنجم المأموني ،  
 ويعقوب بن إسحاق وتلاميذه : حسنويه وقطوبيه وسامويه ورحمويه وأحمد بن الطيب ،  
 ثم يوحنا بن البطريق الترجمان مولى المأمون ، ويوحنا بن ماسويه النصراني السرياني ،

وأبو قريش المعروف ببسبى الصيدلاني وغيرهم كآل ثابت وماسرجويه ، وآل الكرخي ، وابن دهن الهندى مدير بمارستان البرامكة ، وكان فيما يذكره ابن النديم ينقل من الهندية الى العربية ، ومنه طيب الرشيد الهندى ، وكان ينقل من الهندية (الاسكرينية) وعشرات غيرهم ممن لا يقع تحت حصر .

ولو أردنا أن نكتب عن واحد واحد من رجال هذه الحركة العلمية العنيفة لخرجنا عن وضع كتاب في العصر المأمونى ، الى وضع موسوعة أو معجم ، وإذا لم نكتب عنهم فقد رُغمنا بالتقصير المريب ولم نصور العصر بما ينبغي أن يصور به ، لذلك آثرنا أن نكتب كلمة عن جبرائيل بن بختيشوع ، وقدره في العصر قدرة ومثلثة منزله ، لتكون مثالا وتوضيحا لسواه من رجال العلم في ذلك العصر الغنى حقا ، والغنى برجاله صدقا ، وستقف على هذه الكلمة في موضعها من الفصل العاشر من هذا الكتاب .

### (ج) كتب العصر :

وإنا ننقل لك هنا طروفا من أسماء الكتب التى ترجمت في ذلك العصر من اليونانية ، والفارسية ، والهندية ، والقبطية ، والعبرانية ، واللاتينية ، وللبطية ، معتمدين في ذلك على البحث الطريف الذى كتبه صاحب التمدن الاسلامى ، ونلخص فيه ما كتبه ابن النديم ، وصاحب الطبقات ، وتراجم الحكماء ، مؤهين بجهده أمانة للعلم واعترافا بالفضل .

### أولا - الكتب المنقولة عن اليونانية

#### (١) كتب الفلسفة والأدب

كتب أفلاطون :

( ١ ) كتاب السياسة ... .. نقله حنين بن إسحاق

( ٢ ) » المناسبات ... .. يحيى بن عدى

( ٣ ) » النواميس ... .. حنين ويحيى

( ٤ ) » طيماوس ... .. ابن البطريق وأصلحه حنين

- (٥) كتاب أفلاطن الى أقرطن... نقله يحيى بن متى  
 (٦) » التوحيد... » » »  
 (٧) » الحسن واللذة... » » »  
 (٨) » أصول الهندسة... » قسطنطين لوقا

## كتب أرسطوطاليس :

- (١) فاطيغورياس (المقولات)... نقله حنين بن إسحاق  
 (٢) كتاب العبارة... » الى السريانية وإسحاق الى العربية  
 (٣) تحليل القياس... » ثيادورس وأصلحه حنين  
 (٤) كتاب البرهان... » إسحاق الى السرياني ومتى الى العربي  
 (٥) » الجندل... » » » ويحيى »  
 (٦) » المغالطات أو الحكمة المتوفاة » ابن ناعمة وأبو بشر الى السرياني ويحيى الى العربي  
 (٧) » الخطابة... » إسحاق وإبراهيم بن عبد الله  
 (٨) » الشعر... » أبو بشر من السرياني الى العربي  
 (٩) » السماع الطبيعي... » أبو روح الصباني وحنين ويحيى وقسطنطين ابن ناعمة  
 (١٠) » السماء والعالم... » ابن البطريق وأصلحه حنين  
 (١١) » الكون والفساد... » حنين الى السرياني وإسحاق والدمشقي الى العربي  
 (١٢) » الآثار العلوية... » أبو بشر ويحيى  
 (١٣) » النفس... » حنين الى السرياني وإسحاق الى العربي  
 (١٤) » الحسن والمحسوس... » أبو بشر متى بن يونس  
 (١٥) » الحيوان... » ابن البطريق  
 (١٦) » الحروف أو الإلهيات... » إسحاق ويحيى وحنين ومتى  
 (١٧) » الأخلاق... » إسحاق

(١٨) كتاب المرأة ... .. نقله الجمّاح بن مطر

(١٩) » أنولوجيا ... .. » » »

ولكتب أرسطو شروح وتعليق لبعض تلامذته، أو من جاء بعده، ثاوفوستس،  
وديدوخس برقاس، والاسكندر الأفروديسي، وفرفوريوس، وأمونوس، وتامسطيوس  
ونيقولاوس، وفلوطرخس، ويحيى النحوى وغيرهم . وبعض هؤلاء مؤلفات خاصة،  
وكلها في الفلسفة وفروعها، وقد نقل كثير منها إلى العربية ولم يعلم نقلها، فأغضينا عن  
ذكرها وقد ذكرها صاحب الفهرست .

وذكروا بطالينوس في جملة كتبه الطبية الآتي بيانا بضعة كتب في الفلسفة والأدب،  
وهي كتاب ما يعتقد رأيا، ترجمه ثابت، وكتاب تعريف المرء عيوب نفسه، نقله توما  
وأصلحه حنين، وكتاب الأخلاق نقله حنين، وكتاب انتفاع الأخبار بأعدائهم، نقله  
حنين، والمحرك الأول لا يتحرك، نقله حنين وعيسى، وغير ذلك .

## (٢) كتب الطب وفروعه

كتب أبقراط :

(١) كتاب عهد أبقراط ... .. نقله حنين إلى السريانية وحنين وعيسى إلى العربية

(٢) » الفصول ... .. » حنين لمحمد بن موسى

(٣) » الحكم ... .. » » » » »

(٤) » مقدمة المعرفة ... .. » وعيسى بن يحيى

(٥) » الأمراض الحادة ... .. » عيسى بن يحيى

(٦) » أيسديميا ... .. » » » » »

(٧) » الأخلاط ... .. » » » » » لأحمد بن موسى

(٨) » قاططيون ... .. » حنين لمحمد بن موسى

(٩) » الماء والهواء ... .. » » » » » وحنين

(١٠) » طبيعة الإنسان ... .. » » » » » وعيسى

## مكتب جالينوس :

وأشهر كتب جالينوس الكتب الستة عشر وهي : كتاب الفرق، الصناعة، كتاب النبض، شفاء الأمراض، المقالات الخمس، الاسطقصات، كتاب المزاج، القوى الطبيعية، العلل والأمراض، تعرف علل الأعضاء الباطنة، كتاب النبض الكبير، كتاب الحلييات، البُحْران، أيام البُحْران، تدير الأصحاء، حيلة البرء، وقد نقلها كلها حنين بن إسحاق إلى العربية إلا كتاب العلل الباطنة، وكتاب النبض الكبير، وكتاب تدير الأصحاء، وكتاب حيلة البرء فقد نقلها حبش، أما ما بقي من كتب جالينوس الطبية، فإليك أسماءها مع أسماء ناقلها :

|  |                             |               |
|--|-----------------------------|---------------|
| (١٧) الحث على تعليم الطب حَبِيش الأعمش | (١) التشریح الكبير          | حَبِيش الأعمش |
| (١٨) قوى النفس ومزاج البدن » »         | (٢) اختلاف التشریح          | » »           |
| تقلبه أصطفان                           | (٣) تشریح الحيوان الحی      | » »           |
| (١٩) حركات الصدر وأصلحه حنين           | (٤) » » الميت               | » »           |
| (٢٠) علل النفس أصطفان وأصلحه حنين      | (٥) علم أبقراط بالتشریح     | » »           |
| (٢١) حركة العضل » »                    | (٦) الحاجة إلى النبض        | » »           |
| (٢٢) الحاجة إلى النفس » »              | (٧) علوم أرسطو              | » »           |
| (٢٣) الامتلاء » »                      | (٨) تشریح الرحم             | » »           |
| (٢٤) المزة والسوء » »                  | (٩) آراء أبقراط وأفلاطون    | » »           |
| (٢٥) علل الصوت حَبِيش                  | (١٠) العادات                | » »           |
| (٢٦) الحركات المجهولة »                | (١١) خصب البدن              | » »           |
| (٢٧) أفضل الهيئات »                    | (١٢) المثی                  | » »           |
| (٢٨) سوء المزاج المختلف »              | (١٣) منافع الأعضاء          | » »           |
| (٢٩) الأدوية المفردة »                 | (١٤) تركيب الأدوية          | » »           |
| (٣٠) المولود لسبعة أشهر »              | (١٥) الرياضة بالكرة الصغيرة | » »           |
| (٣١) رداءة التنفس »                    | (١٦) » » الكبيرة            | » »           |



|                               |      |                        |              |
|-------------------------------|------|------------------------|--------------|
| (٣٢) الذبول                   | حنين | (٤١) أفلاطون في طبياوس | حنين وإسحاق  |
| (٣٣) قوى الأغذية              | »    | (٤٢) مقدمة المعرفة     | عيسى         |
| (٣٤) التدبير المثلث           | »    | (٤٣) الفصد             | عيسى وأصطفان |
| (٣٥) مداواة الأمراض           | »    | (٤٤) صفات لصبي يصرخ    | ابن الصلت    |
| (٣٦) أبقراط في الأمراض الخفية | »    | (٤٥) الأورام           | »            |
| (٣٧) إلى تراسبولوس            | »    | (٤٦) الكيموس           | ثابت وحيش    |
| (٣٨) الطبيب والفيلسوف         | »    | (٤٧) الأدوية والأدواء  | عيسى         |
| (٣٩) كتب أبقراط الصحية        | »    | (٤٨) الترياق           | ابن البطريق  |
| (٤٠) محنة الطبيب              | »    |                        |              |

وهناك كتب في الطب وتوابه ذكرها صاحب الفهرست ولم يذكر ناقلها .  
وأما مؤلفوها فمنها بضعة وعشرون كتابا لروفس من أهل أفسس كان قبل جالينوس ،  
ولعلها لم تنقل كلها . ومما ذكر ناقلوه بضعة كتب لأوريباسيوس ، وهي كتاب الأدوية  
المستعملة ، نقله أصطفان بن باسيل . وكتاب السبعين مقالة نقله حنين وعيسى بن يحيى إلى  
السرانية ، وكتاب إلى ابنه أسطاط نقله حنين ، وكتاب إلى أبيه أونافيس نقله حنين .  
ولديسقوريدس العرب زدي ، ويقال له السائح في البلاد لسياحته في طلب العقاقير  
والخشائش ، كتاب في الخشائش سياقي تاريخ نقله . ولاسكندروس كتاب الرسام نقله ابن  
البطريق . وغير هذه مما لم يعرف ناقلوها .

### ٣ — كتب الرياضيات والنجوم وسائر العلوم

ويشتمل النظر في ذلك على علم النجوم والهندسة والحساب والموسيقى والميكانيكات ،  
وهالك خلاصة الكلام فيها :

( ١ ) كتب أقليدس ، منها أصول الهندسة ، نقله الخجاج بن مطر نقلين الهاروني  
والمأموني ، ونقله إسحاق بن حنين ، وأصلحه ثابت بن قرة ، ونقله أبو عثمان الدمشقي ،  
ولا يزال هذا الكتاب باقيا إلى الآن . ومن كتب أقليدس التي لم يعرف مترجموها كتاب

الظواهرات، وكتاب اختلاف المناظر، وكتاب الموسيقى، وكتاب القسمة، وكتاب القانون، وكتاب الثقل والخفة .

(٢) كتب أرخيدس، وهي عشرة ولم يعرف ناقلوها .

(٣) بلونيوس، صاحب كتاب المخروطات، وكتاب قطع السطوح، وقطع انخروط، والنسبة المحدودة، والدوائر الخمسة، ولم يعرف ناقلوها .

(٤) متالاوس، له كتاب الأشكال الكروية، وكتاب أصول الهندسة، نقله الى العربي ثابت بن قرة .

(٥) بطليموس القلوزي، صاحب كتاب المجسطى الشهير، وقد تقدم خبر نقله وتفسيره على يد يحيى البرمكي . ولبطليموس أيضا كتاب الأربعة، نقله ابراهيم بن الصلت وأصلحه حين، وكتاب جغرافيا المعمور وصفة الأرض، نقله ثابت الى العربي ثقلًا جيدًا، ولبطليموس ١٥ كتابًا آخر في الجغرافيا وغيرها، لم يعرف ناقلوها .

(٦) أبرخس، له كتاب صناعة الجبر ويعرف بالحدود، وكتاب قسمة الأعداد لم يعرف ناقلهما .

(٧) ذيوفنطس، له كتاب صناعة الجبر، لم يعرف ناقله .

وهناك كتب عديدة في الرياضيات والهيئة والأزياج ونحوها ذكرها ابن النديم ولم يذكر ناقلها، منها: كتاب العمل بالأسطرلاب المسطح لأبيون البطريق، وكتاب جرم الشمس والقمر لأرسطرخس، وكتاب العمل بذات الحلق، وكتاب جداول زيج بطليموس المعروف بالقانون المسير، وكتاب العمل بالأسطرلاب، وكلها لتاون الاسكندري .

أضف الى ذلك كتب الرياضة التي تقدم ذكرها أثناء ذكر كتب الفلسفة وغبة في إيرادها لأصحابها مع سائر مؤلفاتهم . وقد نقل للسلمين من كتب الموسيقى عن اليونانية كتاب الموسيقى الكبير لنيقوماخس الجهراسيني، وكتاب الموسيقى المنسوب لأقليدس، وقد تقدم ذكره،

ومقالات في الموسيقى لفيناغورس وغيره، وكتاب الرموس، وكتاب الإيقاع لأرسطكاس، وكتاب الآلات المصنوعة الممماة بالأرضن البوق، والأرضن الزمرى، لمورطس .  
ونقل لهم من كتب الميكانيكات غير ما جاء في كتب أرميديدس ، وكتاب الحيل الروحانية ، وكتاب رفع الأثقال لأيرن، وكتاب استخراج المياه لبادروغويا ، وكتاب الآلات المصنوعة على ستين ميلا لمورطس .



### ثانيا - الكتب المنقولة عن الفارسية

أكثر الكتب المنقولة عن الفارسية في النهضة العباسية من قبل الآداب والأخبار والسير والأشعار وبعضها في النجوم مما نقله آل نوبخت وعلي بن زياد التميمي وغيرهم .  
أما ما بقي من كتبهم المنقولة الى العربية فهى مع أسماء نقلها .

( ١ ) كتاب رسم وأسفنديار ... .. جبلة بن سالم

( ٢ ) » بهرام شوس ... .. »

( ٣ ) » خدابينامه في السير ... .. عبد الله بن المقفع

( ٤ ) » آيين نامه ... .. »

( ٥ ) » كليله ودمنة ... .. »

( ٦ ) » مزدك ... .. »

( ٧ ) » التاج في سيرة أنوشروان ... .. »

( ٨ ) » الأدب الكبير ... .. »

( ٩ ) » الأدب الصغير ... .. »

( ١٠ ) » اليتيمة ... .. »

( ١١ ) » هنزار أفسانه ... .. لم يذكر ناقله

( ١٢ ) » شهرزاد مع أبرويز ... .. »

- (١٣) كتاب الكارناج أنوشروان... لم يذكر ناقله  
 (١٤) » دارا والصنم الذهب... »  
 (١٥) » بهرام وزبى... »  
 (١٦) » هنر اردستان... »  
 (١٧) » الأدب والتعلب... »

(١٨) سير ملوك الفرس ، وهى غير مكمل ، ترجم أحدها محمد بن جهم البرمكى ، وآخر ترجمه زادويه بن شاهويه الأصفهاني ، وآخر محمد بن بهرام بن مطيار الأصفهاني .

ومما يجب ذكره من مترجمات الفرس - وإن كان من مؤلفاتهم بعد نشوء التمدن الاسلامى - كتاب « شاهنامه » التى نظمها الفردوسى للسلطان محمود الغزنوى سنة ٣٨٤ هـ فى نحو ٦٠.٠٠٠ بيت على نسق إلياذة هوميروس ، وقد تضمنت تاريخ الفرس القديم ، نقلها الى العربية الفتح بن على البندارى الأصبهاني ثرا لالك المعظم عيسى الأيوبي . أتم ترجمتها سنة ٩٩٧ هـ . ولا ريب أن العرب نقلوا من اللغة الفارسية كتباً أخرى تاريخية وأدبية وخصوصاً مما يتعلق بالمذاهب القديمة ونحوها .



### ثالثاً - الكتب المنقولة عن اللغة الهندية

نقل العرب عن اللغة الهندية ( السنسكريتية ) كثيراً من كتب الطب والنجوم والرياضيات والحساب والأسماع والتواريخ . والكتب الطبية المنقولة عنها كثيرة وإن لم يصل اليها من أخبارها إلا القليل ، لأن بغداد كانت فى إبان الزهو العباسى ، كعبة العلماء والأطباء والتجار والسياح من كل الملل . وكان للبرامكة عناية باستقدام أطباء الهند اليها . وقد بعث يحيى بن خالد فاستقدم بضعة صالحة منهم : « كتكه » و « بازيكر » و « قليفل » و « سندايز » وغيرهم .

ويظهر مما كتبه المسامون بعد العصر العباسى فى الأدب أو الطب أو الصيدلة أو السير أنهم اعتمدوا فى جملة مصادروهم على كتب هندية الأصل ، فالتكاذب راجعت مثلاً قانون ابن سينا

أو الملكى للرازى أو غيرهما من كتب الطب الكبرى ، رأيتهم يذكرون بعض الأمراض ويشيرون الى أن الهند يسمونها مثلاً وكذا أو يعالجونها بكذا وكذا . وإذا قرأت القند الفريد لابن عبد ربه أو سراج الملوك للطرطوشى أو غيرهما من كتب الأدب المهمة ، رأيت مؤلفيها إذا ذكروا بعض الآداب أو الأخلاق أو نحوها قالوا : « وفي كتاب الهند كذا وكذا » .

### كتب الطب وفروعها

على أننا نعلم مما كتبه صاحب طبقات الأطباء أنه اشتهر حوالى العصر العباسى جماعة من علماء الهند فى الطب والنجوم والفلسفة وغيرها ، منهم كنىة الهندى ، وهو من متقدميهم وأكابرهم ، وخصوصاً فى علم النجوم فضلاً عن الطب ، وله مؤلفات كثيرة منها : كتاب النودار فى الأعمار ، وكتاب أسرار المواليد ، وكتاب القرائن الكبير والصغير ، وكتاب فى الطب يجرى مجرى الكاش ، وكتاب فى التوهم ، وكتاب فى إحداث العالم والدور فى القرآن ، ومنهم أيضاً صنجهل وبأكهر ، وغيرهما .

وقد نقل كثير من مؤلفاتهم فى النجوم والطب الى اللغة العربية ، إما رأساً أو بوساطة اللغة الفارسية ، بأن ينقل الكاتب من الهندى الى الفارسى ، ثم ينقل من الفارسى الى العربى ، منها كتاب سيرك الهندى ، وقد نقله من الفارسى الى العربى عبد الله بن على . وكتاب آخر فى علامات الأدوية ومعرفة علاجها ، أمر يحيى بن خالد البرمكى بنقله . وكتاب فيما اختلف فيه الروم والهند فى الحار والبارد ، وقوى الأدوية . وكتب أخرى فى فروع الطب .

ومن مشهورهم منك الهندى المتقدم ذكره بين المترجمين . وقد أتى بغداد بإشارة يحيى ابن خالد لمعالجة الرشيد فشفاه فأجرى عليه الرشيد رزقاً واسعاً . وكان منك يعرف الفارسية أيضاً ، فكان ينقل من الهندى الى الفارسى ، وله حديث طويل ذكره صاحب طبقات الأطباء . ومنهم صالح بن بهلة الهندى ، جاء العراق فى أيام الرشيد أيضاً ، ونال شهرة واسعة

وخالط أطباءها يومئذ واختلطوا به ، فان لم يكونوا نقلوا شيئا من كتبه فلا بد أن يكونوا قد اقتبسوا شيئا من آراء الهند فيه .

ومن مشهورهم أيضا شاناك ، وله كتاب في السموم نحس مقالات ، نقله من اللسان الهندى الى الفارسيّ متكه الهندى ، وأوعز يحيى بن خالد الى رجل يعرف بأبى حاتم البلخيّ بنقله الى العربى ، ثم نُقل للأمن على يد العباس بن سعيد الجوهريّ مولاه . وبلودر الحكيم كتاب في المواليد نقل الى العربى أيضا .

ومن الكتب الطبية التى نقلت من الهندية الى لسان العرب في العصر العباسيّ غير ما يتقدم ذكره :

- ( ١ ) كتاب سمرق في الطب نقله متكه .
- ( ٢ ) « أسماء عقاقير الهند نقله متكه لاصمقي بن سليمان .
- ( ٣ ) « استانكر الجامع » ابن دهن .
- ( ٤ ) « صفوة النجح » »
- ( ٥ ) « مختصر الهند في العقاقير لم يذكر ناقله .
- ( ٦ ) « علاجات الحبالى للهند » »
- ( ٧ ) كتاب روسا الهندية في علاجات النساء لم يذكر ناقله
- ( ٨ ) « السكر للهند » »
- ( ٩ ) « التوهم في الأمراض والطلل » »
- ( ١٠ ) « رأى الهند في أجناس الحيات وسمومها » »

### كتب النجوم والرياضيات

أما الرياضيات والكواكب فلهند شأن كبير فيه ، وقد ذكرنا خبر السندهند فيما تقدم ، وكان لنقل هذا الريح تأثير في علم النجوم عند العرب ، وقد قدّره وألقوا على مذهبه . فمن ألف على هذا المذهب محمد بن ابراهيم الفزارى ، وحش بن عبد الله البغدادى ،

ومحمد بن موسى الخوارزمي وغيرهم . والفزارى أول من عمل إسطرلابا في الاسلام . وما من فلكي من فلكيي المسلمين أراد التوسع في علم النجوم إلا طالع كتبهم ، إما في اللغة الهندية أو في ترجمتها الى العربية . وأكثر المسلمين عناية في ذلك واطلاعا على آداب الهند وعلومهم ، أبو ريحان البيروني المتوفى سنة ٤٤٠ هـ فإنه طاف بلاد الهند واطلع على علومهم وآدابهم ، ثم ألف كتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » ، وله من المؤلفات ما يعد بالمعشرات ، ومنها كثير في علوم الهند إما ترجمة أو تصحيحا أو نقدا .

وما ذكره من كتبه التي ألفها في هذا الصدد قوله : وعملت في السند هند كتابا سميته جوامع الموجود لطواطر الهند في حساب التنجيم جاء ما تم منه ٥٥٠ ورقة . وهذبت زيج الاركنند وجعلته بالفاظي اذ كانت الترجمة الموجودة منه غير مفهومة والفاظ الهند فيها متروكة لحالها . وعملت كتابا في المدارين المتحدن والمتساويين ، وسميته بحيال الكسوفين عند الهند ، وهو معنى مشتهر فيما بينهم لا يخلو منه زيج من أزيابهم وليس بعلوم عند أصحابنا . وعملت تذكرة في الحساب والعد بأرقام السند والهند في ٣٠ ورقة وكيفية رسوم الهند في تعلم الحساب ، وتذكرة في ألف رأى العرب في مراتب العدد أصوب من رأى الهند فيها . وفي راسيكات الهند وترجمة ما في إبرهم سندهند من طرق الحساب . ومقالة في تحصيل الآن من الزمان عند الهند . ومقالة في الجوابات على المسائل الواردة من متجعي الهند . ومقالة في حكاية طريقة الهند في استخراج العمر . وترجمة كلب بازه ، وهي مقالة للهند في الأمراض التي تجرى مجرى العقوبة وغير ذلك .

فيؤخذ من هذا أن الهند أهل علم ورأى في النجوم وعلومها وأن المسلمين نقلوا عنهم شيئا كثيرا .

### كتب الأدب

وأما ما نقل الى العربية منها : كتب الهند في الأدب والتاريخ والمنطق والاعتماد والخرافات : (١) كتاب كليله ودمنسة ، وقد قيل عن طريق الفارسية كما تقدم ، وبعد نقله الى العربية

نظموه شعرا كما نظمهم الفرس من قبلهم . ومن نظمهم في العربية أبان بن عبد الحميد ابن لاحق بن عفيف الرقاشي وعلى بن داود . (٢) كتاب سندباد الكبير (٣) كتاب سندباد الصغير (٤) كتاب البس (٥) كتاب يوزاسف (٦) يوزاسف مفرد (٧) كتاب أدب الهند والصين (٨) كتاب هابل في الحكمة (٩) كتاب الهند في قصة هبوط آدم (١٠) كتاب طرق (١١) كتاب ديك الهندى في الرجل والمرأة (١٢) كتاب حدود منطق الهند (١٣) كتاب ساديرم (١٤) كتاب ملك الهند القتال والسباح (١٥) كتاب بيدبا في الحكمة .

ومما نقله العرب عن الهندود: كتاب في الموسيقى اسمه في الهندية «بيافر» ومعناه ثمار الحكمة، وفيه أصول الألحان وجوامع تأليف النغم .



### رابعاً - الكتب المنقولة عن النبطية

قد رأيت فيما تقدم كتباً كثيرة فلسفية وطبية نُقلت من اليوناني إلى العربي بوساطة اللغة السريانية أخت النبطية أو هي عنها فلا تتعوض لذكرها ، وإنما زيد هنا الكتب التي كانت مكتوبة في اللغة الكلدانية أو النبطية، ونُقلت إلى العربية رأساً ، ولولا نقلها لضاعت . وأهم تلك الكتب : (١) كتاب الفلاحة النبطية ، فانه فريد في بابهِ ، وقد نقله إلى العربية أحمد بن علي بن المختار النبطي ، المعروف بابن وحشية سنة ٣٩١ هـ وظل معتمداً أهل الزراعة إلى أميد غير بعيد . وقد نُقل إلى اللغات الافرنجية ، ولولا نقله إلى العربية لضاع وخسر العالم كما يؤخذ من مطالعة مقدمته ، فقد قال ابن وحشية ، وهو يلى الكتاب على علي بن محمد بن الزيات سنة ٣١٨ هـ : «إعلم يا جني أني وجدت هذا الكتاب في كتب الكسدانيين (الكلدان أو النبط) يترجم معناه في العربية كتاب فلاحة الأرض وإصلاح الزرع والشجر والثمار ودفع الآفات عنها ، وكان هؤلاء الكسدانيون أشد حيرة عليهم ، فلما يظهر هذا الكتاب ، فكانوا يخفونه بجهدهم ، وكان الله عز وجل قد رزقني المعرفة بأنهم ولسانهم ، فوصلت إلى ما أردت من الكتب بهذا الوجه . وكان هذا الكتاب عند رجل



مميز، فأخفى عنى علمه، فلما اطلمت عليه لمته في إخفاء الكتاب عنى، وقلت له: إنك إن أخفيت هذا العلم دثر ومضى ولا يبق لأسلافك ذكر، وما يصنع الإنسان بكتب لا يقرؤها ولا يدع من يقرؤها، فهي عنده بمنزلة الحجارة والمدر؛ فصنعت في ذلك وأخرج إلى الكتب، فجعلت أنقل كتابا بعد كتاب، فكان أول كتاب نقلته كتاب دوانى البالي في معرفة أسرار الفلك والأحكام على حوادث النجوم، وهو كتاب عظيم المحل، ونقلت كتاب الفلاحة هذا بتمامه «الخ...» (٢) كتاب طرد الشياطين، ويعرف بالأسرار (٣) كتاب السحر الكبير (٤) كتاب السحر الصغير (٥) كتاب دوار على مذهب النبط (٦) كتاب مذاهب الكلدانين في الأصنام (٧) كتاب الإشارة في السحر (٨) كتاب أسرار الكواكب (٩) كتاب الفلاحة الصغير (١٠) كتاب في الطلسمات (١١) كتاب الحياة والموت في علاج الأمراض (١٢) كتاب الأصنام (١٣) كتاب الفرائين (١٤) كتاب الطبيعة (١٥) كتاب الخمسة، وأكثرها من نقل ابن وحشية، غير ما لا بد من نقله من كتب الذين وأخبار الكلدان القدماء.



### خامسا - الكتب المنقولة عن العبرانية واللاتينية والقبطية

لا ريب أن كثيرا من تعاليم اليهود وآدابهم المدونة في التامود وغيره من كتبهم قد نُقل إلى العربية، وإن كنا لا نرى شيئا منها مدقنا على أنه مترجم، لأنهم كانوا ينقلونها شفاهاً للصحابة وغيرهم على ما تقدم، وربما دقوا منها شيئا وضاع، وأما ما وصل إلينا خبره من المنقول عن العبرانية، فترجمة أسفار التوراة، نقلها سعيد الفيومى المتوفى سنة ٣٣٠ هـ، وهو أقدم من نقل التوراة إلى العربية، مما وصل إلينا خبره، وله أيضا شروح وتفسير عليها.

ولا يبعد أن يكون قد نُقل إلى العربية بعض الكتب عن اللاتينية، لأنها كانت تحوى كثيرا من العلوم الفلسفية والتاريخية والشرعية وغيرها، وربما فاتت نقله الأخبار ذكر ما نقل عنها، وقد رأينا في جملة المترجمين يحيى بن البطريق لا يعرف غير اللغة اللاتينية، وأنه ترجم عدة كتب، فالظاهر أنه ترجمها عن اللاتينية.

وأما القبطية فإذا لم ينقل العرب عنها رأسا . فلا ن شك في أنهم نقلوا كثيرا من علوم المصريين بوساطة اللغة اليونانية ، وخصوصا صناعة الكيمياء القديمة وغيرها مما برع فيه المصريون ، وأما الكيمياء فقد نقلت عن القبطي واليوناني معا بأمر خالد بن يزيد .

### ( د ) آثار النهضة المأمونية :

هذه هي بعض كتب العصر وكانت لها آثارها ونتائجها في العقلية العربية أولا ، وفي المدنية العربية ثانيا ، حتى أصبحنا نرى المأمون يُضرب به المثل في عظم الحركة العلمية ، وحتى نرى «نولدكا» وعمرى دائرة المعارف البريطانية وغيرهم ، يمثلون المأمون بأنوشروان وغيره من خدمة الإنسانية ووسل الثقافة العاقبة .

والحق أن المأمون وعصر المأمون كانا متسلسلين عن زمنهما ، إذ كانت حالة المأمون وحالة المملكة المأمونية في ذلك الحين ، أرقى بمراحل من حالة ملوك أوروبا وممالك أوروبا . ويقول الدكتور «طوطح» في رسالته الإنجليزية عن حالة التعليم عند العرب : «إنه بينما كان شارلمان يتعلم القراءة مكباً على مطالعة رسائله مع أتباعه في مدرسة القصر كان المأمون يعالج الفلسفة ومناقشة أفضيتها هناك في بغداد» . ويقول في مكان آخر من رسالته القيمة : «إن المأمون أوفد عميد بيت الحكمة إلى بلاد اليونان لنقل حكمة اليونان وعلوم اليونان إلى اللغة العربية» . وهناك أقوال كثيرة عن آثار النهضة المأمونية ، وهي لا تخرج عما قدمناه لك من رأى السير وليام ميور عن ازدهار العلوم والمعارف في عصر المأمون . فتكتفى بما قدمناه عن التبسط في القول في هذه الناحية الهامة حقا .

على أن لهذه النهضة المأمونية آثارها ونتائجها أيضا في زيادة الثروة اللفظية في اللغة العربية ، وقد بينا لك طرفا منه في كلمتنا عن حالتها في الصدر العباسي ، فلا حاجة أذنا بنا إلى تكراره هنا ، وقصارى ما نقوله أننا نحيلك إلى بعض المصادر القيمة فيما نحن في صدد من بيان تأثير اللغة بهذه النهضة التي تشبه في كل وجوها حركة التجديد «رينسانس» في أوروبا ، وهي : كتاب خطي منسوب للحافظ عن الألفاظ الفارسية في اللغة العربية ، وبحوث العلامة

أفستانس الكرملي<sup>١</sup> البغدادي في السنة الأولى من المشرق عن الكلم اليونانية في اللغة العربية، كما أحيلك الى بحوث «مجلة المجمع العلمي» في شأن تفسير الألفاظ العباسية الواردة في كتاب «نشوار المحاضرة» .

أما فن التاريخ والجغرافيا، فلم تبدأ العناية الجدية بهما إلا منذ أيام العيوني، وابن خردادويه في نهاية القرن الثاني .

وأما العلوم القرآنية وما تنفرع عنها، فقد سبق أن أشرنا إليها في بابها من العصر العباسي . ويظهر أن عناية المأمون بها لم تكن مثل عنايته بالفلسفة اليونانية، وما إليها، اللهم اذا كانت موجهة الى الناحية الاعتزالية الكلامية .

وقد آن لنا الآن أن نتكلم عن القول بخلق القرآن لاتصاله وكبير أثره في الحياة العلمية والعقلى في عصر المأمون .

### (هـ) القول بخلق القرآن :

يقول ابن الأثير في تاريخه عن هشام بن عبد الملك : إن الجعد بن درهم قد أظهر مقائلته بخلق القرآن أيام هشام، فأخذه وأرسله الى خالد القسري<sup>٢</sup>، وهو أمير العراق، وأمره بقتله، فحبسه خالد ولم يقتله، فبلغ الخبر هشاماً فكتب الى خالد يلومه ويمزح عليه أن يقتله، فأخرجته خالد من الحبس في وثاقه، فلما صلب العيد يوم الأضحى، قال في آخر خطبته : انصرفوا وضحوا يقبل الله منكم، فإنى أريد أن أضحى اليوم بالجعد بن درهم، فإنه يقول : ما كلم الله موسى، ولا اتخذ إبراهيم خليلاً، تعالى الله عما يقول الجعد عاواً كبيراً، ثم نزل وذبحه . ويقول ابن الأثير في حياة مروان بن محمد : إن سبب تسميته بالجعدى، ذهابه منذهب الجعد بن درهم في القول بخلق القرآن، والقدرة، وغير ذلك .

ومن هذا تعلم أن القول بخلق القرآن، بدعة نبئت في العصر الأموي، ثم لم يجد الحق الذي تنمونه وترعرع، حتى كان عصر المأمون فوجدت من شخصيته العاملة ومن هؤلاء العظيم ونفوذ علمائه، خير متعهد لنمائها، حريص على نصرتها، شديد اليد بالبطش على مخالفيها .

(١) أطار القاموس وشرحه في مادة «درهم» أنه خطبه بالياء المتأنة بعد الدال المعجمة وبعد الياء ها .

ولعلك تسأَل لم يَجِدَ القولُ بِخُلُقِ القرآن من المأمون الصِّدْرَ الرَّحْبَ والعاملَ على نصرتِهِ ؟ وهل كان مُوقفاً فيما أخذه على عاتقه أو قد اشتدَّ به الغلو في تأييد وجهته نظره حتى خرج به عن القصد ؟؟ .

ونحن قبل أن نُجيبك عن هذه الأسئلة ، وقبل أن نَعْرِضَ للموضوع من وجهاته المختلفة ، نريد أن ننقل لك كلمة للأستاذ «ميور» في هذا الصدد، وهي وإن لم تكن تتفق مع وجهة نظرنا في هذا المبحث ، تبين لنا وجهة نظر مُتَشَرِّفٍ بِحَاثَةٍ كَبِيرَةٍ فيما نحن بصدده .

يقول الأستاذ «ميور» في الفصل الذي عقده عن المأمون في كتابه المتع «الخلافة» :  
« وفي الحق أن المأمون كان متعصباً لفارس مسقط رأس أمه وزوجه ، شديد الميل إلى العلويين ، ونشأ عن ذلك في السنوات الأخيرة من حكمه ، مَنَيجٌ من حرية الأفكار والتعصب . وكان المأمون في بعض هذه المسائل واسع الحرية حفا لدرجة مذهبة . وقد أُلْغِيَ من بضع سنوات مضت ، الأمر الذي كان أسلافه قد أصدروه ، يَحْزَمُونَ فيه ذكر معاوية أو أحد الأمويين بغيره ، وأباح للمسيحيين حرية المناقشة في أيِّ الدِّينيين أفضل : الإسلام أم المسيحية . فیرَأَن مَبُولَ الفارسية التي كان يَمنَحُ إليها دائماً ، دفعته أخيراً أن يتناقص بحماسة في نظريات المعتزلة الذين أباحوا حرية التفكير . ثم أحاط المأمون نفسه بالفقهاء وعلماء الدين من كل فئة ، وأباح لهم المناقشة في حضراته في نظريات كان البحث ممنوعاً فيها ، ككلامه الإنسان بحالقه ، وطبيعة الألوهِية وغير ذلك . وأخيراً أعلن تحوُّله إلى عقائد تخالف تعاليم الدين الصحيحة ، فمن ذلك أنه كان يعتقد بمذهب الذين يقولون بالاختيار لا بالجبر ، وأن القرآن (١) وإن كان وحيًا إلا أنه مخلوق ، بدلاً من العقيدة التي كانت لا تُنَازَعُ وهي أن القرآن أُنْزِلَ

(١) يقول أستاذة الشيخ عبد الوهاب النجار : « ما كان عند المسلمين عقيدة بهذا الوصف ولكن القول بِخُلُقِ القرآن جاء بكراً لم يكن لرسول الله ولا لأصحابه ولا لتابعين قول بتأويله أو برفاهه فلما أغرم المأمون بهذه المقالة وصرحها على العلماء جازأوا إلى كتاب الله ينظرون فيه حكم المقالة التي لا عهد لهم بها فلم يجدوا . فظنوا إلى السنة فلم يجدوا . والقوم في ذلك العهد يرقون كل شيء إلى الكتاب والسنة . فلما لم يجدوا فيها حكماً توقفوا في هذا القول أحياناً لا دينهم أن يقولوا على الله ما لا يملون . فلم يرش المأمون هذا التوقف واعتقدوا أنهم يرمون بهذا الاعتقاد أن مع الله قد بجا سواه وأنه يوجد موجود ولا أثر لله في إيجادهم ورج في إعتابهم وتناولهم بالحس والإيذاء . »

غير مخلوق . وأعلن المأمون أيضاً أن علياً أشرف الخلق بعد النبي\*، وعلى هذه النظرية بُنيت نظرية الإمامة المقدسة أو الزعامة الدينية التي كانت تنتقل من عضو إلى آخر من بيت علي\* . وبدأ في تلقين الناس أنه يوجد مصادر أخرى غير القرآن والحديث يمكن الاسترشاد بها في مسائل الدين، وقسم القرآن تفسيراً من غير تقييد بلفظه، وبذلك دُلَّت صعوبات كثيرة كانت تعترض حرية التفكير أو تقف عثرة في تقدم العمران، كإباحة شرب الخمر (كذا!) وزواج المتعة<sup>(١)</sup> . وعلى عمر السنين تحولت فكرة المأمون في خلق القرآن من مجرد رأى إلى إعلانه المشعور الذي حُلَّ فيه رعاياه بالاضطهاد والعقوبات على اتخاذ عقيدة لهم . وقد أرسل إلى والى بغداد، وهو في حملته الأخيرة على الروم، أمراً بأن يجمع كبار العلماء والفقهاء ويمتحنهم في هذه المسألة الخطيرة ويرسل إليه إجاباتهم، وقد تأثر كثير من العلماء في مجلس المناظرة الذي كان أشبه بمحكمة التفتيش، حتى أظهروا القول بخلق القرآن، إلا أن البعض بقى ثابتاً على عقيدته بأن القرآن غير مخلوق، كأحمد بن حنبل صاحب المذهب الحنبلية، الذي حلّوه مكبلاً بالسديد إلى معسكر الخليفة . ولقد ذكر التاريخ أن اثنين من هؤلاء المخالفين هُذِّدَا بالقتل، وأُرْسِلَ عشرون منهم تحت خِمار حُرَّاس ليُنظَرُوا في "طَرَسُوس" عودة الخليفة من حروبه، ولكن جاءتهم الأنبياء في أثناء سيرهم في الطريق بموت المأمون . ولقد سُوِّدَت أمثال هذه الفظائع شُعبة المأمون في سنوات كثيرة « اهـ .

ذلك هو رأى المشرق « ميور » . ولنرجع الآن إلى معاملة الإجابة عما تساءلت عنه، فنقول : إنك جدُّ عالم بأن المأمون كان تلميذاً ليعحي بن المبارك الزُّيدى المتهم بالاعتزال . جدُّ عالم بصلته بمُجَمَّمة بن أئرس، زعيم المذهب النجاشي في الاعتزال، وإعجاب به، حتى عرض

(١) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار : « قد رجع المأمون من هذه القالة بعد أن أقام أحد من دراد الحجة عليه في ذلك بما ملخصه : أن زوجة المنة ليست الزوجة التي يجب تقبُّها وترث ويثبت نسب الولد منها ، شأن الزوجة الشرعية فهي ليست زوجة وليست ملك بين وافته تنسأ يقول : ( والمؤمن هم لقروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ) فهي بما وراء ذلك ويكون زواج المنة زنا — وطاعة أهل الإسلام على هذا سوى الشيعة الرافضة » .

عليه الوزارة مرتين، كما أسلفنا لك القول في باب الوزارة . جُدَّ عالم بأن المأمون كان يعقد مجالس للكلام في مختلف البحوث، وكان من نتائج هذه المجالس أن قُرب إليه كل متكلم حاذق، أو مُفكر بصير بمداخل القول ومخارجه، مثال أبي الهذيل العلاف، وإبراهيم ابن سيار وغيرهم . وأنت جُدَّ عالم بأن ثَمَّة العلاف وإبراهيم كانوا من مشيخة الاعتزال . أنت جُدَّ عالم بهذا كله، فلا غرو أن حُب هؤلاء القوم إلى المأمون مذهبهم، ولا غرو أن كانت مهمتهم ميسورة معبدة، لأنهم وجدوا من المأمون ذلك التبليذ المتأثر بمذهب أستاذه ابن المبارك .

كل هذه العوامل كانت في الواقع ناحية واحدة، ولما أثرا القوى في تنمية النزعة، الاعتزالية في نفس المأمون . بيد أن هنالك ناحية قوية أخرى لها أثرا القوى أيضا، تلك الناحية هي حركة النقل والترجمة، تلك الحركة التي حبت إلى المأمون الفلسفة وما إلى الفلسفة، ووجهت عنايته إلى المنطق وما إلى المنطق، وبعثت في نفسه حبَّ أرسططاليس، حتى أصبح موضع تفكيره في يقظته ونومه . وصفوة القول أن الناحية الثانية لم تكن لتقل عن الأولى أثرا، فقد هبأت منه ذلك التسامح الذي يتبع ما توحى به سلسلة أفكاره .

وسترى في أخذه بالقول بخلق القرآن إلى أي مَسَدَى دغمت به حرية التفكير حتى وصلت به إلى ما يناقض حرية التفكير؛ لأنه ليس من حرية التفكير في شيء تلك الطريقة الشاذة في إلزام العلماء ورجال الفقهاء الأخذ بمذهبه . وليس من حرية التفكير في شيء تلك النتائج السيئة التي انتهت إليها مأساة القول بخلق القرآن، في أيام المعتصم وأيام غير المعتصم .

وقد أثبتنا لك في باب المنشور في الكتاب الثالث من مجلدنا الثالث مثلا مما كتبه المأمون إلى ولاته في الأخذ بمذهبه في القول بخلق القرآن، وهو كتابه إلى إصحاق بن إبراهيم؛ كما أثبتنا لك ما رواه لنا الطبري مما حصل وقتئذ . فراجعهما تَمَّة .

## الفصل الرابع

### الحياة الأدبية في عصر المأمون

توطئة : المحادثة أو لغة التناطح، الخطابة، الكتابة، مجالس المناظرة وأنها، الأدب، الشعر .

#### (١) توطئة :

لكتاب الخلافة «للسير وليام ميور»، مكانة رفيعة في التاريخ العربي، ولا سيما عصرنا المأموني، بناحيته العلمية والأدبية . ذلك لأن الرجل، الى جانب دراسته الدقيقة لمؤلفات العرب وكتابات العرب ومُجُوت المؤرخين العرب، لم يترك مصدرا من مصادر المتشرقين أمثال : «نولدكه» و«كريم» و«هرزله» و«أمرز» و«برياد» و«مينارد» و«جوج» وغيرهم من عشرات المؤرخين إلا وقد استوعبه واستقصى البحث فيه . كذلك لم يترك مصدرا من مصادر التاريخ الفارسي، وهو كما نعلم، شديد الصلة بعصرنا المأموني، من غير أن يدرسه حق دراسته ويفهمه حق فهمه، فطالع نيا طالعه في ذلك الباب، آثار «ماكولم» و«فرازر» و«برون» و«سيكس» و«جوجيلس» وغيرهم .

من أجل هذا ومن أخذ ذلك المؤرخ البهائم بالدقة في كل ما تصدّر له، جاءت جُلُّ بحوثه أفضل من سواء وأرفع مكانة من غيره . ونحن نستطيع لأنفسنا أن ننقل اليك ما ذكره في هذا الباب . قال : «كان حكم المأمون مجيدا عادلا، وكان عصره مزدهرا بأنواع العلوم والفنون والفلسفة، وكان أدبيا مؤلما بالشعر متمكنا منه . ولقد حدث مرة أن شاعرا كان ينشد بين يديه قصيدة من مائة بيت، فكان الشاعر كلما أنشد شطر بيت بادره المأمون بشطره الآخر، حتى دهش الشاعر وحار في سرعة بديته . وكان مجلسه حافلا بالعلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة، إذ كان يقرّهم اليه ويجزل لهم العطاء، وكما كان عصره عامرا بالعباء والأدباء والنحاة فإنه كان كذلك حافلا بجماعة المحدثين والمؤرخين والفقهاء

(١) كالبخاري، والواقدي، الذي نحن مدينون له بأوثق السير عن حياة النبي، والشافعي وابن حنبل. وكان المأمون يُجَلِّ علماء اليهود والنصارى، ويَحْتَفِي بهم في مجلسه، لآلامهم بحسب، بل لثقافتهم في لغة العرب وحذقهم في معرفة لغة اليونان وآدابها. ولقد أخرجوا من أديرة سوريا وآسيا الصغرى وسواحل الشام وفلسطين، كتباً خطية في الفلسفة والتاريخ وعلم الهندسة لعلماء اليونان وفلاسفتهم، ثم ترجموها إلى العربية بدقة وعناية عظيمة. وبهذه الوسيلة انتقلت علوم الغرب إلى العالم الإسلامي. ولم تقتصر جهود هؤلاء الجهابذة على نقل هذه الكتب القديمة إلى اللغة العربية، بل توسعوا وأضافوا إليها ما اكتسبوه من مباحثهم وأطلاعهم. وأقاموا مرصداً في «سبل تدمر» مجهزاً بجميع الآلات التي تمكنهم من النجاح في دراسة علمي الفلك والهندسة والتوسع فيها. وقد صنفوا كتباً في الرحلات والتاريخ، ولا سيما كتب الطب، وعُتِبَتْ عناية كبيرة ببعض علوم تافهة، إلا أنها كانت أكثر ذيوفاً وانتشاراً، كالنجوم والكيمياء. وكان لجهود هؤلاء العلماء الأثر الأكبر في نهضة أوروبا التي كانت غارقة في بحار الجهالة في المصور الوسطى، حيث أيقظتهم من غفلتهم وأثارت لهم سبل علومهم التي كانوا أغفلوها، وهي علوم اليونان وفلسفتها» اهـ.

ويقول الأستاذ البهائي «وذكر على» في بحث طريف له: إن عصر المأمون قد ازدان بكثير من حكمة الشريعة والأدب، منهم: يحيى بن أكرم، وأبو محمد اليزيدي، والحسن ابن زياد، وأبو داود الطيالسي، وأبو حنبل القاسم بن سلام، وابن الأعرابي، والنضر ابن شميل، وأبو عمرو الشيباني، ومحمد بن عمر الواقدي، وأبو عبيدة، والفراء، والأخفش، والأصمعي، والصنفي، والضبي، والشافعي، وابن سعد، وأبو داود، وابن أبي داود، وابن حرب، وابن حنبل، والجاحظ، والقواريري، وثقبة، وسعدويه الواسطي، وابن الجعد، وابن عتبة الأكبر، وأبو نصر التمار، وأبو معمر القطيعي، وأبو العوام البرزنجي، وابن شجاع، وإشهر المريسي، وإشهر بن الوليد، ومحمدة، ومحمد بن نوح، وأبو هارون

(١) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار: «لم يكن للشافعي اتصال بالمأمون».



ابن البكّة، والمهذبل محمد بن المهذبل، وأبو زكريا المُرّي ومحمد بن ميسر، إلى مئات غيرهم، كانوا نَحْرَ الدولة وعنوانَ نبوغ الأمة. أما الشعراء والكُتّاب فكانوا طبقة عابية، كثيرة العدد كالخصى، جيّدة المتّحى والأسلوب، تغلب الرِّقّة والجزالة على أهل هاتين الصناعتين، تأثروا كلهم بالحضارة الجديدة، حتى غدا الشعر المندى البديع ظاهرة الاختلاف عن الشعر الجاهليّ، بعيداً عن وصف الأطلال والدّمن والركاب، وطلب النار، والمفاخرات الفارغة. وهذا، وكان الجمهور يُشارك الأدباء في فهم الشعر، وقدّر الخطيب والرسائل قدرها، فلم يكن الشعراء في وادٍ والأمة في آخر، بل كان الشاعر أو الكاتب، إذا قرّض شعراً أو حبر خطاباً، يُناقله الأُردى في الحال، وتُعاوره الرواة فيغشوا في الأمصار. وهذا ما كان يزيد في طلاوة أدب الأديب وشعر الشاعر وخطبة الخطيب، ويحمّته على تجويد مقاله. ١٠ هـ

وبعد، فقد بينّا في كلمتنا عن الحياة الأدبية في صدر العصر العباسيّ ما أخذت تُحوّل إليه الآداب العربية طامة في الألفاظ والأساليب والمعاني والأغراض، وبينّا لك الأسباب التي كانت تبعث على هذا التحوّل، من شدّة الامتزاج بين العناصر المختلفة التي خضعت لسلطان العرب بالغرب، وما آتت به هذا الامتزاج من إضافة ثقافات ومدنيّات جديدة، إلى ما كان للعرب من ثقافة ومدنيّة، ومن اتساع السلطان، واتساع أطرافه، ومن تشجيع الخلفاء لأهل العلم وإكرامهم لرجال الأدب، ومن انصراف هم أُولى الفضل إلى التأليف والترجمة، ومن كثرة حاجات الناس وتنوّعها، حتى اضطرت اللغة أمام هذه العوامل وغيرها، مما سبق أن بينّا لك، أن تنفّج جوانبها، لتسع هذه الأغراض، ولتقوم بمحاجات الناس، طبقاً لمقتضيات العصر، وخضوعاً لسنة التحوّل.

بينّا لك كلّ هذا. وقد يكون من التمسّيف أن تُعريض لتحوّل الآداب في أيام المأمون خاصّة، فانه إذا افترضنا أن الآداب تحوّلت تحوّلاً خاصّاً في أيام المأمون، فقد يكون من المسير تبين هذا التحوّل وتحديد مداه، ذلك بأن تحوّل الآداب بطل، ولا يمكن

تبيينه إلا بعد ظهور آثاره ظهوراً لا سبيل إلى الشك فيه ، بخلاف الحوادث السياسية ، فانك تستطيع أن تؤقت الحوادث السياسية بالسنة بل بالشهر بل باليوم ، ولا تستطيع ذلك في الآداب إلا بعشرات السنين .

إذاً رأينا في الآداب لعصر المأمون هو رأينا في الآداب لصدر العصر العباسي . وإنما الذي حدث أن السبيل التي سلكتها الآداب في صدر العصر العباسي قد بلغت غايتها في أيام المأمون ، فعصر المأمون إذاً هو الفترة الناضجة لتغير الآداب في العصر العباسي ، أو عبارة أخرى : يعتبر عصر المأمون العصر الذي بلغت فيه الآداب العربية الذروة من الكمال المقدور لها .

وسبيلنا الآن أن نورد لك من آثار عصر المأمون ما يقوم لديك دليلاً على هذه النتيجة . وقد أوردنا من هذه الآثار في المجلد الثالث ما فيه الكفاية .

### ( ب ) المحادثة أو لغة التخاطب :

بدأت لغة التخاطب تتحدر مدارجاً عن الفصحى منذ الفتوح الإسلامية ، بسبب اتصال العرب بغير العرب ، فمن دان لسلطانهم وانتظم في ملكهم .

ولقد لاحظنا أثناء مطالعتنا في الطبري وفي غير الطبري في الفترة المأمونية ، أن بعض جُند حُرَّاسان كانوا لا يفهمون العربية فيقولون مثلاً ( بُسرْ بيدة ) ( ويمكن ) وغيرها من الإلفاظ الفارسية التي أثبتتها المؤرخون .

وقد يكون من الممتع حقاً أن يُخصص باحث ممن لهم اطلاع على لغات البلدان التي فتحها العرب كتاباً لدراسة مبلغ تأثير اللغة العربية بلغات من خضع لسلطان العرب في الأجزاء المختلفة . وقصارى ما نقوله هنا أن اللغة العربية تأثرت حقاً من أثر الفتوح سواء أكانت فتوح سيف أم فتوح ثقافات وترجمات قد أضعفت من بلاغة اللسان ومثانة اللفظ بقدر ما أغنت من ثروة ذهنية عظيمة .

وإنك اذا ذكرت ما كتبناه في الفصل السادس وفي نظيره من كتابنا عن الصدر العباسي في شأن ما زيد في الألفاظ العربية، من ألفاظ المعلوم المترجم في ذلك العصر، وذُكرت أن الموالى الفرس وغيرهم، هم الذين قد عُهد إليهم بالترجمة والنقل والتحرير، اذا ذكرت هذا، الى جانب ما قدمناه لك، فانك تسوق معنا ما نذهب إليه من القول بتأثر اللغة في ذلك العصر.

وفي هذا القدر الكفاية، ولتندرج الى ذكر كلمة عن الخطابة.

### (ج) الخطابة :

قلنا فيما سبق : إن عصر المأمون كان الثروة الناصجة للاداب العربية في العصر العباسي، فهل كان الأمر كذلك في الخطابة أيضا ؟

أنت تعلم أن قوة الشيء ترجع الى قوة عوامله وأسبابه . ونحن نرى، معتمدين على ما لدينا من آثار خطابية لهذا العصر، أن أسباب الخطابة وعواملها، كانت ضعيفة ضعفا نسبيا، ومن ثم لم تُماشِ الخطابة سائر أنواع الآداب في سبيلها الى الكمال المقدور لها . ولعل ذلك يرجع الى ضيق مجالها وضعف الحاجة اليها، فبعد أن كنا نراها في العصر الأموي، الوسيلة الى قمع الفتن ورد البدع، ولسان الخليفة في رعيته، والقائد في جنده، والزعيم في أتباعه، وبعد أن كنا نرى حظها في عصر الانتقال وصدر العصر العباسي لا يقل عن حظها في العصر الأموي، حاجة الدعاية والرحماء اليها، أصبحت نرى مجالها في عصر المأمون يضيق، حتى كادت تُقصر على التهنئة والتعزية والتخطب الدينية كالجمعة واليدين . وضيق مجالها يرجع الى استغناء الخلفاء العباسيين وعُثماتهم وقوادهم عنها بالمشورات العامة، حيث يتسلطون فيها ويضمنونها ما يريدون من أغراض، ثم تُتلى على من يريد أن تُتلى عليهم . ولعل ذلك لاصطباح الخلافة العباسية بالصيغة الفارسية، واحتياج الخلفاء من غلاة الجاهل، ولأن جُلُّ عُثمالي بني العباس في ذلك العصر كانوا من الموالى وهؤلاء وإن أُوتوا

حفظاً عظيماً من بلاغة القول وحسن البيان ، فقد كانت لا تزال بالاستمهم لؤنته من  
الُسُخمة ، تحول بينهم وبين ما تقتضيه الخطابة من اندفاع الألفاظ وتدفعها .

لعل لكل هذا أو بعضه أثرًا ما في توضيق مجال الخطابة والاستغناء عنها بالرسائل والمنشورات العامة، ومهما يكن من شيء، فقد أُقيمت في عصر المأمون خُطْبُ قليلة القدر والواقعية، نشر لك منها على سبيل المثال خطبتين : إحداهما للمأمون في عيد الفطر، والأخرى تهنئة بمقدم المأمون إلى بغداد .

### خطبة المأمون :

أَلَا وَإِنْ يَوْمَكُمْ هَذَا يَوْمُ عِيدٍ وَسَنَةِ وَأَيَّامٍ وَرَقِيَّةٍ، يَوْمٌ خَتَمَ بِهِ اللَّهُ صِيَامَ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَاتَّسَحَبَ بِهِ حَجَّ بَيْتِهِ الْحَرَامِ، لَجَعَلَهُ أَوَّلَ أَيَّامِ شَهْرِ الْحِجِّ، وَجَعَلَهُ مَعْقَبًا لِلْمَغْرُوضِ صِيَامِكُمْ وَتَمْتَنُّ قِيَامِكُمْ، فَاطْلُبُوا إِلَى اللَّهِ حَوَائِجَكُمْ وَاسْتَغْفِرُوهُ لِفَرْطِكُمْ، فَاِنَّهُ يَقَالُ : لَا كَثِيرَ مَعِ نَدَمٍ وَاسْتَغْفَارٍ، وَلَا قَلِيلَ مَعَ تَمَادٍ وَإِصْرَارٍ . اتَّقُوا اللَّهَ عَبْدَ اللَّهِ، وَبَادِرُوا الْأَمْرَ الَّذِي لَمْ يَحْضُرِ الشُّكُ فِيهِ أَحَدًا مِنْكُمْ، وَهُوَ الْمَوْتُ الْمَكْتُوبُ عَلَيْكُمْ، فَانَّهُ لَا يَسْتَقِيلُ بَعْدَهُ عَثَرَةٌ، وَلَا يُحْطَرُّ قَبْلَهُ تَوْبَةٌ . وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا شَيْءَ بَعْدَ الْآفَاقِ، وَلَا يُبَيِّنُ عَلَى بَرْزَخِهِ وَطَرَفِهِ، وَكَرْبِهِ، وَعَلَى الْقَبْرِ وَظِلْمَتِهِ، وَوَحْشَتِهِ وَضَيْقِهِ، وَهَوْلِ مَطْلَعِهِ وَمَسَالِكِهِ، إِلَّا الْعَمَلُ الصَّالِحُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، فَمَنْ زَلَّتْ عِنْدَ الْمَوْتِ قَدَمُهُ، فَقَدْ ظَهَرَتْ نَدَائِسُهُ وَفَانَتْهُ اسْتِقَاتَتُهُ، وَدُمَا مِنَ الرَّجْعَةِ مَالًا يُبَيِّبُ إِلَيْهِ، وَبَذَلَ مِنَ الْقَدِيَةِ مَالًا يُقْبَلُ مِنْهُ، فَاللَّهُ عَبْدَ اللَّهِ، كَرُونَا قَوْمًا سَالُوا الرَّحْمَةَ فَأَعْطَوْهَا إِذْ مَنِيهَا الَّذِينَ طَلَبُوهَا، فَانَّهُ لَيْسَ يُخْفَى الْمُتَّقِدُونَ قَبْلَكُمْ، إِلَّا هَذَا الْأَجَلَ الْمَسْطُوعَ لَكُمْ . فَاحْذَرُوا مَا حَذَّرَكُمُ اللَّهُ مِنْهُ، وَاتَّقُوا الْيَوْمَ الَّذِي يَجْعَلُكُمْ اللَّهُ فِيهِ لَوْضَعَ مَوَازِينِكُمْ، وَنَشْرَحُكُمْ الْحَافِظَةَ لِأَعْمَالِكُمْ . فَلْيَنْظُرْ عَبْدٌ مَا يَضَعُ فِي مِيزَانِهِ مِمَّا يَسْتَقِلُّ بِهِ، وَمِمَّا يُعْلَى فِي صَحِيفَتِهِ الْحَافِظَةِ لِمَا عَلَيْهِ . وَلَسْتُ أَنَا كَمَنْ عَنِ الدُّنْيَا بِأَكْثَرِهَا يَنْتَهِكُمْ بِهِ الدُّنْيَا عَنْ فَعْمَا، فَانْ كُلِّ مَا يَحْذَرُ مِنْهَا وَيَنْتَهِي عَنْهَا، وَكُلِّ مَا فِيهَا يَدْعُو إِلَى غُرْبَاهَا . وَأَعْظَمُ مَا رَأَيْتُهُ أَعْيَنَكُمْ مِنْ لُجَائِمِهَا وَزَوَالِهَا ثُمَّ لَهَا وَاللَّهِ عَنْهَا، فَانَّهُ يَقُولُ تَبَارَكَ

وتعالى : ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرَبْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ وقال ﴿لَا تَتَّبِعُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لِئَلَّا تُكْفَرَ عَنْهُ وَرِزْقُهُ غَيْرُ زَائِلٍ وَتُفَاخَرُوا بِبَيْنِكُمْ وَتُكَادَّرُ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ . نأنتفعوا بمعرفتك بها وبإخبار الله عنها . واعلموا أن قوما من عباد الله ، أدركتهم عصمة الله ، لحذروا مصارعها ، وجانبوا خدائتها وأكروا طاعة الله فيها وأدركوا الجنة بما يتركون منها .

### خطبة التهنئة :

قال أبو طاهر : دخل المأمون بغداد فتلقاء وجوهها ، فقال له رجل منهم : يا أمير المؤمنين ، بارك الله لك في مقدّمك ، وزاد في نعمتك ، وشكرك عن رعيتك ، تتقدمت من قبلك ، وأتعبت من بعدك ، وأياست أن يُعائِنَ مثلك ، أما فيما مضى فلا نعرفه ، وأما فيما سبق فلا نرجوه ، فنحن جميعا ندعوك ونُثني عليك . خصّبت لنا جنابك ، وعذب ثوابك ، وحسنت نظرتك ، وكُرمَ مقدرك ، جبرت الفقير ، وفككت الأسير ، والخير بفنائك ، والشّر بساحة أعدائك ، والنصر منوط بلوائك ، والخذلان مع ألوية حُسادك ، والبر فعملك ، قد طمّخطع عدوك غضبك ، وهزّم مغايبتهم مشبهك ، وسار في لباس عدوك ، وشَسَّع بالنصر ذكرك ، وسكّن قواريع الأعداء ظفرك ، الذهب عطاؤك ، والدواة رمزك ، والأوراق لحظك وأطرافك .



### (د) الكتابة :

قلنا في كلمتنا عن الكتابة في صدر العصر العباسي : إن أسبابا كثيرة وقوية — ذكرناها هناك — دفعت الكتابة فتمددت أغراضها ، وتنوعت أساليبها ، ومال الكتاب إلى السهولة في العبارة ، والتأنيق في اللفظ ، والجودة في الرصف ، وأطالوا في المقدمات ، وتوسعوا المبدأ وانحلت ، والألقاب والدعاء ، ومالوا إلى القلق والمبالغة . ثم قلنا بعد كلام : أما الإطناب في الكتابة فكان صفة غالبية في كلّ ما قُيِّمَ بِنِجَّةٍ ، أو عهدا ، أو احتجاجة ، أو انتصارا ، أو تقريرا لمذهب ، أو استهواء أو دفعا لشبهة ، أو طلبا لنعمة ... الخ . وقد أثبتنا لك جملة ملاحظة

من آثار العصر المأموني مما يقوم حجة على ما ذهبنا إليه . ونحيلك الى رسالة أبي الريح محمد بن الليث ، الى قسطنطين ملك الروم ، وإلى رسالة يحيى بن زياد الخارن في تعريف أمير المؤمنين الرشيد ، وقد أثبتناها لك — نقلا عن النسخة الخطية من كتاب المنظوم والمتنور لابن طيفور — في باب المتنور في الكتاب الثاني من المجلد الثاني ، كما أثبتنا لك في الكتاب الثالث من المجلد الثالث رسالة قيصة للمأمون تسمى رسالة الخيس ، كان بعث بها الى أهل خراسان كمنشور من الخليفة ، ورسالة مُمْتَمعة لسهل بن هارون خازن بيت الحكمة في عهده ، فراجع ذلك ممة .

ولو قد ذهبنا نورد لك من آثار عصر المأمون الكتابية لعدونا الفصل وأملنا ، لحسبنا ما أحلناك الى مراجعته الآن ، وهو فيه الكفاية لاثبات ما ذهبنا إليه . وقد أوردنا هذه الرسائل من غير أن نعرض لها بتحليل أو بيان . فهي في وضوحها ودلائلها على ما أردنا من إيرادها غير محتاجة الى شيء .



### ( هـ ) مجالس المناظرة و "أهباء" الأدب والغناء والمنادمة :

أما مجالس المناظرة ومكاتها السامية في العصر المأموني ، فقد وقفت على طرف عظيم منه في الفصول التي عقدناها لك عن المأمون وعلمه ، وأدبه ، ودينه ، وسياسته . فمن نافلة القول وتكراره أن نقلها لك هنا . وقصارانا أن نقول : إن المناقشات الحادة بين سيدييه والكسائي في شأن مسألة نحوية ، وبين الشعراء والأدباء في تفضيل شاعر على شاعر ، وبين السنين والمعتزلة في القول بخلق القرآن ، وأهباء الأدب عند الأئمة والمأمون وأنصارهما ، وأمراء العرب كابن دلق وعبد الله بن طاهر وغيرهما ، تبدل أوضح الدلالة على ما كان للمناظرة في هذا العصر من مكانة ، حتى أصبحت من أهم مميزات وكبريات آثاره .

وأما المنادامة والغناء ، فقد سبق أن نقلنا لك ما رواه صاحب «التاج» عن حالة المنادامة في الصدر العباسي . وقد آن لنا أن نتم لك القول في حالتها في العصر المأموني ،

ومُحِبِّكَ في الوقت نفسه الى كَتَاب حَلَّةِ الكُتَيْت، والأغاني، ونهاية الأَرَب، وغيرها من كتب الأدب، فهي مُتَرَعَّة بأخبار الفناء والمُتَادِمَة، غنيةٌ بأخبار الماداميين والمُغَنِّين .

سئل إسماعيل بن إبراهيم الموصلي عن رأيه في حال المُتَادِمَة في تلك الأيام، فقال عن الأُميين: ما كان أعجب أمره كله، فاما تبدُّله لما كان يُبَالِي أين قَعَدَ ومع من قَعَدَ، وكان لو كان بينه وبين ندمائه مائةٌ حِجَابٍ نَرَقَها كُلُّها وألقاها عن وجهه، حتى يقعد حيث قعدوا، وكان من أعطى الخَلْقَ لذهيبٍ وفضية، وأنهمم للأموال اذا طَرب أو هَمَّ. وقد رأيته وقد أمر بعض أهل بيته في ليلةٍ يوقرُ زُورقٍ ذهباً فانصرف به، وأمر لي ذات ليلةٍ بأربعين ألف دينار فحُمِلَت أُمي. ولقد غناه إبراهيم بن المهدي غِناءً لم أرَ فضة، فقام عن مجلسه فأكبَّ عليه فقبل رأسه، فقام إبراهيم فقبل ما وطئت رجلاه من بساطه فأمر له بما تقي ألف دينار. ولقد رأيته يوماً وعلى رأسه بعضُ غلمانته فنظر اليه، فقال: وبلك! ثيابك هذه تحتاج الى أن تُغسل، إنطالق نفذ ثلاثين بَدْرَة فاغسل بها ثيابك .

ولقد حدثني علوية الأُصغر، وهو أبو الحسن علي بن عبد الله بن سيف عنه قال: لما أُحيط به وبلغت حجارةُ المُتَجَنِّقِ بساطه، كما عنده، ففتته جارية له بفناء تركت فيه شيئاً لم تُجِدْ حكايته، فصاح: يا زانية، تُغَيِّبُني الخطأ! خذوها فحُمِلَت، وكان آخر العهد بها .

وسئل عن حال المُتَادِمَة عند المأمون، فقال: أقام بعد قدومه عشرين شهراً، لم يُسمع حرقاً من الفناء، ثم سَمِعَه من وراء حِجَابٍ مَشَبَّهاً بالرشيد، فكان كذلك سبعَ سَبعٍ، ثم ظهر للندماء والمُغَنِّين. قال: وكان حين أحبَّ السماعَ ظاهراً بعينه، أكبر ذاك أهل بيته وبنو أبيه .

ويقال إنه سأل عن إسماعيل بن إبراهيم الموصلي، فغمره بعض من حضر وقالوا: ما يتأدر نيتهاً وبأوا، فأمسك عن ذكره. قال بخفاءه زُرُّرُ يوماً، فقال له: يا إسماعيل نحن اليوم عند أمير المؤمنين، فقال إسماعيل: فنته بهذا الشعر:

بِاسْرَاحَةِ الْمَاءِ قَدْ سُدَّتْ مَوَارِدُهُ \* أَمَا إِلَيْكَ طَرِيقُ غَيْرِ مَسْدُودِ  
لِحَاسِمٍ حَامٍ حَتَّى لَا حَرَكَتَ بِهِ \* مُحَلَّلًا عَنْ سَبِيلِ الْمَاءِ مَطْرُودِ

فلما غتاه به زُرْزُرُ أطرب به وبهجه، وحرك له جوارحه، وقال: ويلك! من هذا؟ قال: عبدك المحفوق المطروح. ياسيدى إسمحاق! قال يحضر الساعة! بغاءه رسوله، وإسمحاق مستعد، قد علم أنه إن سمع الغناء من مجيد مؤد أنه سيبعث إليه، بغاءه الرسول، فحدث أنه لما دخل عليه، ودأ منه، مديده إليه، ثم قال: أدن مني فأكتب عليه، واحتضنه المأمون وأدناه، وأقبل عليه بوجهه مصيئاً إليه، مسروراً به.

وحسبنا هذا القدر. وإن أردت زيادة وإفاضة فانا نحيلك الى بعض أخبارها في الجزء السادس من كتاب بغداد مع ما ذكرناه لك من المراجع.



### (و) الشعر:

أشرنا في كلمتنا عن حالة الشعر وفنونه في صدر العصر العباسي، الى ما أخذ يتحول هو اليه أيضاً، تبعاً لمقتضيات العصر وظروف الزمان، ومسيرة للحياة الاجتماعية والاقتصادية، ولما جدت على أحوال الناس ومعايشهم من الفخ والترف، وما يستلزمه الفنى والترف من الاستمتاع بالوان اللهو واللذات، والافتنان في بناء القصور والسفن وإنشاء الحدائق والمتنزهات، ولقد كان في مرجونا أن نفرّد لك فصلاً خاصاً ففحصته ما كان من الخلفاء في إفاضة مبان وقصور وحدائق ودور، لم يكن للعرب بها ولا بنظيراتها سابقة عهد، وإنما الجأهم اليها المدنية والبدخ، وما أصابوه فيها من رفاة عيش، وسعة يد، ووفرة غنى. بيد أن ذلك بطول، ويخرج بنا عما رسمناه لأحسننا من القصص والإيجاز، مع الإلمام بكافة النواحي لهذا العصر.



على أنه من الميسور لك أن تصوّر مبلغ ما وصل إليه الخلفاء العباسيون وأمراء البيت المالِك ورجال الدولة من الثروة والذخ، بما أومأنا إليه في كلمتنا عن نزاع الدولة، وما كان فيها من استصفاءٍ وأعطيّات عظيمة .

وقد كانت أيضا الحياة السياسية والفكرية حادثةً عنيفةً، فقد اشتدت الملاحاة بين شيعة العلويين والعباسيين، وبلغ النزاع غايته بين أصحاب المذاهب وزعماء الآراء . ولا تنس أن تضيف الى ما تقدّم ما كان لترجمة العلوم اليونانية وغير اليونانية من أثر بعيد في أفكار الناس وأخيلتهم وأساليبهم، والدقة في تعبيراتهم، والتنظيم فيما لهم من آثار .

وقد كانت الآثار الشعرية لهذا العصر، الى حدّ ما، مرآة صادقة لأحواله وما كان يجرى فيه من شؤون .

أسرف الناس في شرب الخمر فاقتن الشعراء في وصف الخمر ووصف كؤوسها . وتخيّر الناس السقاة من الغلمان ومن في زينة الغلمان، فوصف الشعراء السقاة وتقرّلوا في الغلمان . وولج الناس بالصيد، فوصف الشعراء الصيد وما يجري في مجال الصيد . واقتن الناس كما قلنا في بناء القصور وغير القصور، ففتحوا المجال واسعا لجال الشعراء في شقّ الأبراب . واشتدت المنافسة السياسية بين شيعة العلويين والعباسيين، فأخذ شعراء كل فريق يتضمّحون عن رأيهم ويؤيدون مذهبهم . وألّف العلماء في الفقه والأخلاق والكلام، فأخذ الشعراء يعالجون نظم الفقه والأخلاق والكلام . وهكذا تعددت أغراض الشعر وتنوّعت ألوانه . وتحضّر الناس في بغداد وغير بغداد من الحواضر الإسلامية، ففرقت طباعهم، ولانت أخلاقهم، ونبت عن الحوشية أدواقهم، فرق شعراء أهل الحواضر، وسليست ألفاظه، وبُعدت من الحوشية . وتُرجمت العلوم اليونانية وغير اليونانية، من فلسفة ومنطق وأخلاق، فكان لهذه العلوم أثرها في تنظيم أفكار الشعراء ودقّة خيالهم .

ولو ذهبنا نُورد لك شواهد على كلّ هذا وغيره، لأطلنا وأملنا . وإنما نخليك على آثار شعراء هذا العصر، كأبي نُوَيس في الخمر وكؤوسها، وأوقات شربها وسُفاتها، والغزل

بالغلمان، والصبي، والطرء، ووصف مظاهر الحضارة العباسية، وكدغيل الخُرَاعِيّ والسيد الحِمَيرِيّ في النزاع السياسي بين العلويين والعباسيين . وكأي المتأهية في الأخلاق، وأبان ابن عبد الحميد في نظم العلوم كالفقه وغير الفقه . وهذه الإحالة لا تمنعنا أن نورد لك أمثالا من آثار هذا العصر الشعرية .

وهنا تعرض لنا ملاحظة نرى إيرادها حتما علينا ، وهذه الملاحظة هي أن الشعر في عصر المأمون كان مرآة صادقة للحياة وما يجري فيها من شؤون الى حد ما .

نقول «الى حد ما» . ويدفعنا الى هذا القول معتقداً القوي الذي تكون لنا من دراستنا لروح هذا العصر . ذلك بأننا نرى كثيرا من شعراء الحضارة المجيد في هذا العصر وفي العصر الذي قبله ، يَحْمِلُونَ نتائج أفكارهم وما تجود به قرائحهم ، شعراء الجاهلية وأعراب البادية . ونرى أيضا أن كبار الرواة وأهل الأدب، يُشَدُّون الشعر الجيد مُخَدَّت، فيعجبون به على أنه قديم أو لأعرابي، حتى اذا تبين لهم أنه مُخَدَّت أنكروا وأزوروا عنه .

هذا يدلنا على أن جماعة قوية يُتَدِّبها في هذا العصر، كانت تميل الى إثارة الشعر القديم وشعر أعراب البادية على الشعر الجديد ورجال الشعر الجديد . وإذا كان هذا حقا كان من الطبيعي أن يعيش الشعراء من الناحية الشعرية في غير عصرهم، وأن يكونوا باخيلتهم في غير حاضرتهم، لكن يَحْمِلُوا الروح الغالبة وينطقوا بربما العلماء . وقد يكون لهؤلاء العلماء والرواة حظ كبير في صرف أذهان الناس الى الشعر القديم .

وليس معنى ذلك أن شعر المحدثين لم تكن له مكانة رفيعة عند القوم، بل على النقيض كانت له منزلة رفيعة في النفوس .

لذلك نحن نميل الى القول بأن خبر من يمثل هذا العصر أولئك المجددون الذين لم يتقيدوا ببكاء الأطلال، والحنين الى الرسوم، كأبي نواس وأضراب أبي نواس .

على أنه يجدر بنا أن نورد لك مثلين مما كانوا يتذوقونه في هذا العصر من شعر المحدثين، وما قاله أبو ذؤلف ناعيا منهج التقعر، بعد إيرادنا لك ما وعدناك بإيراده من شعر لهذا العصر في شتى الأنحاء .

وقد نثرنا لك في باب المنظوم من الكتاب الثالث من المجلد الثالث أمثلة من شعر هذا العصر كما نثرنا لك تلك القصيدة التي أنشدتها محمد بن عبد الملك للمأمون يحرضه فيها على قتل إبراهيم بن المهدي حين ظفر به ، فقال المأمون : لا ! والله أئتمته به بل أغفو عنه . وانظر الى مطلع القصيدة ، تر الفلسفة اليونانية جامعة فيه :

ألم تر أن الشيء للشيء علة \* يكون له كالتار تُفدح بالزبد

وكان للمأمون جارية تسمى عريب ، كانت تصفق جعفر بن حامد ، وكان يتعشقها ، فلما وجدت من المأمون غفلة ، وضعت على فراشها مثال رخام ، يحسب من وآه من بعيد أنها نائمة . وكان جعفر بن حامد قد نزل الى جانب قصر المأمون . فصعدت الى السطح ونزلت في زنبيل ، فلما قضى نهمته منها قعدت في الزنبيل فصعدت ورجعت الى مكانها . وطأها المأمون قبل أن ترجع الى فراشها فلم يجدها ، فعلم الى أين صارت . فقال أبو موسى حاكيا لهذه القصة :

قاتل الله عريباً \* فعلت فعلا عجيباً

ركبت والليل داج \* مر بها صعباً مريباً

فارتقت متصلاً بالنسيم أو منه قريباً

صبرت حتى اذا ما \* أقصده النوم الرقيب

مثلت بين حشايا \* ها لكي لا يسترها

خلقاً منها اذا نو \* دى لم يُلَفْ محيياً

ومضت يحملها الخو \* ف قضيباً وكثيراً

حمة لو حركت خضعت عليها أن تدوبا

فعدلت لمحب \* فلقاها حبيباً

جذلاً قد نال بالذ \* نيا من الدنيا رغباً

أيها الظي الذي تسحر عيناء القلوبا

والذي يأكل بعضاً \* بعضه حسناً وطيباً

كنت نهباً لذئاب \* فلقد أطمعت ذيباً  
وكذا الشاة لذالم \* يك راعياً لبيبا  
لا يبال وبأ المزر \* عى اذا كان خصيباً  
ولقد أصبح عبد \* الله كشيخاً حريفاً  
قد تعمى لعمى الخلد \* وقد شق الجيوباً  
وجرت منه دموع \* بلت الذقن الخضياً

ومما يعتبر من الهجاء السياسى قصيدة بحشويه الشاعر فى يحيى بن أكرم قاضى المأمون  
بالبصرة، إذ فيه أيضاً هجاء لآل العباس وخلائقهم . قال :

أطلقني الدهر بعد انحراس \* بمجادلات أطلت وسوايى  
يا بؤس للدهر لا يزال كما \* يرقع ناساً يحيط به نيس  
لا أظنحت أمةً وحق لها \* بطاول لعب وطول إتمام  
ترضى يحيى يكون مائتها \* وليس يحيى لها بسواس  
قايض يرى الخلد فى الزناء ولا \* يرى على من يلوط من ناس  
يحكم للأمرد الظريف على \* مثيل جوين ومثل مداس  
فالحمد لله قد ذهب السجود وقُل الوفاء فى الناس  
أميرنا جائز وقاضينا \* يلوط والرأس شر ما راس  
لو قصد الرأس واستقام لقد \* قام على القصد كل صرنايس  
ما حسب الجود يقضى وعلى الناس أمير من آل عباس

وقد أثبتنا لك فى باب المنظوم من الكتاب الثالث فى مجلدنا الثالث مثلاً آخر من  
الهجاء قاله بعض الشعراء فى يحيى بن أكرم، فراجعته ثمة .

(١) الكشخان بفتح الكاف وبكسر : الهوى .

(٢) كذلك فى تاريخ بغداد وفى ابن خلكان ج ٢ ص ٣٢٦ : « مثل جرير ومثل عباس » .

وهناك نوع من الشعر يمثل لك ناحية من نواحي المصيرية بين القبائل وهو الى حدّ ما يعتبر من الشعر السياسي . وهذا النوع مثل ما قاله مُسْلِم بن الوليد في هجاء قریش والانتخار بالأنصار، ورد ابن قنبر عليه . وإنا نحيلك على موضع ذلك من مجلدنا الثاني للاطلاع عليه، لضيق المقام عن إيرادها هنا .

وفي هذه القصة الآتية طرفة من الفِرَاسة في العصر، آثرنا إثباتها لذلك وهي :

قال أبو السَّمراء : خرجنا مع الأمير عبد الله بن طاهر متوجهين الى مصر، حتى اذا كنا بين الرَّملة ودَشَقْ ، إذ نحن بأعرابي قد اعترض ، فاذا شيخٌ فيه بَقِيَّةٌ ، على بعير له أَوْزَقٌ ، فسلم علينا فرددنا عليه السلام، قال أبو السمرءاء : وأنا وإسحاق بن إبراهيم الرافعي، وإسحاق بن أبي ربي، ونحن مُسَابر الأمير، وكنا يومئذ أقرّة من الأمير دَوَابٌّ ، وأجود منه كُفّاً . قال: فجعل الأعرابي ينظر في وجوهنا، قال : فقلت : يا شيخ، قد ألمحت في النظر! أعرفت شيئاً أم أنكرته؟ قال : لا والله ما عرفتمكم قبل يومى هذا ، ولا أنكرتكم لسوء أراء فيكم، ولكنى رجل حسن الفِرَاسة في الناس جيد المعرفة بهم ، قال : فأشرت له الى إسحاق بن أبي ربي، فقلت : ما تقول في هذا؟ فقال :

أرى كاتباً حَافِي الكُتابة يَنْ \* عليه وتأديب المواق منيرُ  
له حركاتٌ قد يشاهدن أنه \* عليمٌ بتسقيط الخراج بصيرُ

ونظر الى إسحاق بن إبراهيم الرافعي فقال :

وهظهر نسيك ما عليه ضميرُهُ \* بحسب الهدايا بالرجال مَكُورُ  
أخال به جُبناً وبخلاً وشمةً \* تخبر عنه أنه لسوزير

ثم نظر الى وأنا يقول :

وهذا نديم الأمير ومؤنس \* يكون له بالقرب منه سرور  
وأحسبه للشعر والعلم راوياً \* فبعض نديم مرةً وسيميرُ

ثم نظر الى الأمير وأفسأ يقول :

وهذا الأمير المُرَجَّى سَيَّبُ كَفِّه \* فإِنتَ لَهُ فِيمَن رَأَيْتُ نَظِيرُ  
 هَالِكُهُ رَدَاءُ مِنْ جَمَالِ وَهِيَّةٍ \* وَوَجْهُهُ بِإِدْرَاكِ النِّجَاحِ بِسِيرِ  
 لَقَدْ عِصَمَ الْإِسْلَامُ مِنْهُ بِذَانِدٍ \* بِهِ عَاشَ مَعْرُوفٌ وَمَاتَ نِكِيرُ  
 إِلَّا إِنَّمَا عَسَدُ الْإِلَهِ بْنِ طَاهِرٍ \* لَنَا وَالِدٌ بَرٌّ بَنَّا وَأَمِيرُ

قال : فوقع ذلك من عبد الله أحسن موقع ، وأعجبه ما قال الشيخ ، فأمر له بخمسمائة دينار وأمره أن يصحبه .

هذا ، وقد حدث بهمهم قال : احتج أصحاب المأمون عنده يوما ، فافاضوا في ذكر الشعر والشعراء ، فقال بعضهم : أين أنت يا أمير المؤمنين من مُسْلِمِ بْنِ الْوَلِيدِ حيث يقول ، قال : ماذا قال ؟ قال : حيث يقول ورثي رجلا :

أَرَادُوا لِيُخَفُّوا قَبْرَهُ عَنْ عَدُوِّهِ \* فَعَطِيبُ تَرَابِ الْقَبْرِ دَلَّ عَلَى الْقَبْرِ  
 وَهَجَا رَجُلًا بِقَبْحِ الْوَجْهِ وَالْأَخْلَاقِ فَقَالَ :  
 قُبُحَتْ مَنَازِلُهُ لَخِينِ خُبْرَتِهِ \* حَسُنَتْ مَنَازِلُهُ لَقَبْحِ الْغُفْرِ  
 ومدح رجلا بالشجاعة فقال :

يَعُودُ بِالنَّفْسِ إِنْ ضَنَّ الْجَوَادُ بِهَا \* وَالْجَوْدُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجَوْدِ  
 وتقرئ فقال :

هُوَ يَجِدُ وَجِيبٌ يَلْمُبُ \* أَنْتَ لِقَى بَيْنَهُمَا مُعْتَبُ<sup>(١)</sup>

وما كان يستحسنه المأمون من ذليل الخزاعي تجاه المأمون المعروف قَوْلُهُ :

أَلَمْ يَأْنِ لِلسُّفَرِ الَّذِينَ تَحَنَّنُوا \* إِلَى وَطَنِ قَبْلَ الْمَمَاتِ رَجُوعُ  
 فَقُلْتُ وَلَمْ أَمْلِكْ سِوَايَ صَبْرَةٍ \* نَطَقَنْ بِمَا ضَمَنْتَ عَلَيْهِ ضُلُوعُ

(١) اللق : الملق المطروح .

تَبَيَّنَ فَمَكَ دَارِ تَسْتَرْقَى شَمْلُهَا \* وَشَمْلُ تَسْتَبِيحِ عَادَ وَهُوَ جَمِيعُ  
طَوَالَ اللَّيَالِي صَرُفُهُنَ كَمَا تَرَى \* لِكُلِّ أَنَاثٍ جَدْبُهُ وَرَبِيعُ

وقد حدث ابن طيفور عن مشيخته أن منصوراً النخعي، والحسن بن هاني، وأبا العتاهية<sup>(١)</sup> وأبا زغبة اجتمعوا فتذاكروا أبا نانا على وزن واحد، ففُضِّلَ أبو العتاهية عليهم. فقال النخعي:

أَعْمِيرُ كَيْفَ بِحَاجَةٍ \* طُلَيْتُ إِلَى صَمِّ الْعَصْفُورِ  
لَهُ دَرْ حُدَاتِكُمْ \* كَيْفَ انْتَسَبَ إِلَى التَّرْوِودِ  
وَلَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَاثِلُ \* يَحْيِيَنَّ رُمَانَ النُّمُورِ

وقال أبو العتاهية :

هَلْجَى عَلَى الزَّمَنِ الْقَصِيرِ \* بَيْنَ الْخَوْدَقِيِّ وَالسَّيْدِ  
إِذَا مَحَنَ فِي حُرُوفِ الْجَنَانِ \* نَ تَمُومُ فِي بَحْرِ السَّرُودِ

وقال الحسن بن هاني :

وَعَفَلْتُكَ وَأَعْطَلْتُ الْقَتِيرِ \* وَعَفَلْتُكَ أَهْمَةُ الْعَكِيرِ<sup>(٢)</sup>  
وَرَدَدْتُ مَا كُنْتُ أَسْتَعْرِ \* تَ مِنْ الشَّبَابِ إِلَى الْمَعِيرِ  
وَلَقَدْ تَحْمَلُ بِقُوَّةِ الْبَابِ مِنْ بَقَرِ الْقُصُورِ<sup>(٣)</sup>  
صُورُ الْيَكِ مَوْثِقَا \* تَ الْبَلَّ فِي زَيْ الذِّكُورِ  
أُرْهِفَنَّ لِرَهَافِ الْأَعْنَةِ وَالْجَمَائِلِ وَالشُّيُورِ  
أَصْدَأْغُهُنَّ مَعْقَرَا \* تَ وَالشُّوَارِبِ مِنَ عَيْرِ

قال المحدث : ولا أحفظ ما قال أبو زغبة ، ففضلوا أبا العتاهية ، وأبو نواس عندي

أشعرهم .

(١) كذا في تاريخ بغداد، وحق عليه تاءه بأنه في ديوانه : « ابن زغب » .

(٢) القتيبي : الشيب .

(٣) العقوة : ساحة الدار .

وقد روى ابن طيفور أن عامل أبي دلف قد قصّر في أمره ، فبعث إليه من عزله  
وقيّده وحبسّه ، فكتب الى أبي دلف من السجن كتاباً تنطع فيه وقصّ وطول ، فكتب  
إليه أبو دلف :

يا صاحبّ الطويل في كُتْبِهِ • وصاحبّ التّقصير في فعلِهِ  
وراكب الغامض من جهله • وتارك الواضح من عقلِهِ  
لم يُخط من أزمه قيّدَهُ • بل صير القيّد الى أهله  
قيّدَهُ فليس تقصيرُهُ • فالقيّد لن يخرج من رجلِهِ  
والله لا فارقهِ قيّدُهُ • أو يقطع التقصير من أصلِهِ

وفي الختام نرى لزّاماً في عقبتنا ، أن نحيلك على ما قاله الشعراء وصفاً لثورة بغداد  
وحريقها ، وعلى رثائهم للأُميين ونماذج أخرى لمختلف مقولاتهم في مختلف المناسبات .  
وقد مرّنا لك من هذا بحملة صالحة في باب المنظوم من الكتاب الثالث من مجلّتنا الثالث ،  
فإنها تعطيك صورة صادقة لدرجة الشر في ذلك العصر فراجعهُ ثمّة .



## الفصل العاشر

### نماذج لبعض الشخصيات البارزة في العصر المأموني

توطئة — جبرائيل بن بختيشوع — الجاحظ — أبان بن عبد الحميد اللاحق — أحمد بن يوسف الكاتب — يحيى بن أكرم القاضي — اسحاق بن إبراهيم .

#### (١) توطئة :

أعترف أنه من الصعوبة بمكان أن أختار لك أشخاص هذه النماذج . لأن الكثرة من رجال العصر من الباهة والكفاية بمكان ، وقد كان يحلوني حقاً ويسرني أيما سرور لو أكتسعت رسالي للكثافة عن رجال العصر من وزراء وعلماء وقضاة وشعراء وكاتب وأطباء ومغنين وقدماء ، بيد أن ذلك يتطلب سعة لا يمتثلها هذا المقام .

على أننا قد رأينا أن نكتب لك كلمات مجملة عن « جبرائيل بن بختيشوع » من أطباء العصر ، وعن « الجاحظ » من ملوك الكتاب ورؤساء الاعتزال ، وعن « أبان اللاحق » الشاعر وصاحب نظم كيلة ودمنة ، وعن « أحمد بن يوسف » الوزير المأموني ومدبج رسالاته ، وعن « يحيى بن أكرم » قاضي قضائه وأخيراً عن « اسحاق بن إبراهيم » وهو مجموعة هؤلاء .

ونعترف لك بأن في كتابنا شيئاً من التقصير نحسّه ، وسببه حاجة هذه الموضوعات الى الإفاضة في الشرح والبيان وإلى التحليل والإسهاب مما لا قبل لرسالتنا به .  
« وبعد » فلنبداً بهذه النماذج فنقول :

#### (ب) جبرائيل بن بختيشوع الطبيب النسطوري :

لستنا نريد أن نستطرد في الحديث عن بختيشوع الطبيب الشهير وإنما نريد أن نلمّ الخاتمة به يتعرف منها القارئ ما كان للرجل من أثر في عصره فنقول : إن هذه

الأُسرة هي الأسرة الوحيدة النسطورية، التي استقام دور عزّها ثلاثة قرون، كان لها خلافاً حظّ وجاه، وكانت لأفرادها حُظوة، فاستعملهم الخلفاء العباسيون، فانتفعوا من الخلفاء، ونفعوا الطب وغير الطب من العلوم بأنارهم ومُنتجات حقولهم .

أما هذه التسمية فسرانية، وهي مركّبة من لفظتين سريانيّتين، بُحّث ومعناه العبد، ويُسّوع ومعناه يسوع أى عبد يسوع، وكانت هذه الأُسرة من مدينة جُنْدَيْسَابُور، وأوّل من عرفه التاريخ منها هو ديورجيس بن جبرائيل بن بختيشوع وكان يزاول مهنة الطب قُبْرَع فيها، وَبَهُ ذِكْرُه، وأقيم رئيساً لمستشفى مدينته حتى إن أبا جعفر المنصور قد أرسل وفداً من قبيله الى جنديسابور يستدعيه إليه إذ كان قد انتابه مرض فمجزت عن شفائه فطُلس الأطباء فتأبى بختيشوع بادئ الرأى حتى اعتقله العامل، ولكن أعيان بلده من مطّارَية وقساوسة وغير هؤلاء نصّحوا له بأن يمتثل للأمر، فانقاد لنصيحتهم وولّى وجهه شطر دار السلام، ثم كانت له حُظوة عند المنصور . وما كذا لنستطرد في الحديث عن هذه الأُسرة، وإتّما سقنا هذه الكلمة لتأتى على شيء من أخبار أسرة جبرائيل، نُظْهِرُ ما لهذا الرجل من المكانة في عالم الطب، وأنه من سُلالة كانت تنوارث أخلاقها عن أسلافها هذه الصناعة .

نقول : إن جبرائيل هذا، قد نبغ على مثال ذّويه، وظهرت فيه عوامل الوراثة، فورث عن آباءه الصفات الأدبية، وبرّح في صناعة الطب، وكان الى جانب هذا وديع الخلق، لطيف المحضّر، كريم السجايا، عُرف في جَزْ الطب سنة ١٧٥ هـ — سنة ٧٩١ م . ذلك بأن جعفر بن خالد بن بَرْمَك، بعد أن أبْل من مرضه باحتناء بختيشوع، رغب اليه أن يبق معه طبيباً له، فاعتذر وأتاب عنه ابنه جبرائيل هذا، فلقى منه كل رعاية . وكاشفه جعفر بدهاء خفيّ كان قد أصابه، فعالجه جبرائيل في ثلاثة أيام، وشفى جعفر فزادت مكانة جبرائيل عنده، وقربه منه فكان يجلسه، وكان نديمه، وكان لا يفارقه ساعة واحدة . وحَدَّث أن جارية من جواري هارون الرشيد قد بيست ذراعها، فأبرأها جبرائيل بحيلة لطيفة بعد أن

أخفق الأطباء في معالجتها، فقباه بخمسين ألف درهم، وقد عظم شأنه حتى قال الرشيد لأصحابه : كل من كانت له الـ حاجة فليخاطب بها جبرائيل لأني أقبل كل ما يسألني فيه ويطلبه مني، وكان في محبة الرشيد أينما حلّ وحيثما ارتحل، ففسد ذهب معه إلى الرقة وصار معه إلى الحجاز .

ولما تولى الأمين الخلافة عرض جبرائيل على الخليفة أن يكون له خادماً، فقبله ورحّب به، ولم يكن يأكل شيئاً إلا بإذنه، ولم يبلغ ذلك المأمون اعتقل جبرائيل ولم يطبق سراحه حتى شفع فيه الحسن بن سهل . وفي سنة ٢١٠ هـ — ٨٢٦ م مرض المأمون مرضاً أعجز أطباءه وكان في مقدّمهم ميخائيل صهر جبرائيل، فأخذ جبرائيل على نفسه شفاء المأمون، وكان موفقاً، فلم تمض أيام حتى شفى المأمون، فغمره بنعمائه واتخذة أليسا ونديما، ولم يقف احترام المأمون لجبرائيل وإكرامه له عند هذا الحد بل قد عدّاه إلى غيره من عمال الدولة، فقد أصدر المأمون أمره إلى الموظفين والعمال والقواد، بأن يوقروا جبرائيل ويحلّوه، وكان الرجل يتدخل في شؤون طائفته كلها، حتى الشؤون الكنسية، وبتأثيره أُنقِبَ البطريرك جيورجيس المعروف بأبن الصباغ فتولى الرئاسة الدينية في طائفته وهو في سنّ الشيخوخة . ولمّا كانت سنة ٢١٣ هـ — ٨٢٨ م . مرض جبرائيل، وانفق أن الخليفة المأمون كان في ذلك العهد قد سافر إلى بلاد الروم، فأقعد المرض جبرائيل عن ملازمته، ولكنه أناب عنه ابنه يحيى شوع، ولم يرجع المأمون ويحيى شوع من رحلتها حتى كان جبرائيل قد توفي . فاقبم له ماتم حافل، فلما كان ليلته في ذلك العصر . ودفن في مدفن القديس سرجيس بالمدينة، وترك مالا كثيراً، وملكاً واسعاً، فكانت له ضياع بمجنديسابور والسوس والبصرة والسواد . حصل عليها بما ناله من الخلفاء من التخصيصات الجزيلة، والهبات الكثيرة في المواسم والمعاشات . وله من الكتب رسالة في الطعام والمشرّب قدمها إلى المأمون، وكتاب المدخل إلى صناعة المنطق، ورسالة مختصرة في الطب وهي مختصر تأليف ديروكوريدس وجالينوس وبولس الأيجيني، وله أيضاً كتاب في صناعة السخّور وقد نسب إليه السمعاني في مكتبته الشرقية معجماً سريانياً على أن هذا مشكوك في روايته .



### (ج) الجاحظ :

«الكتاب وعاء مليء علمًا، وظرف حثيثي ظرفًا، وبستان يَجُلُّ في رُدنٍّ، وروضة تَقَلِّبُ في حجرٍ، ينطق عن الموتى، ويتجسم كلام الأحياء، ولا أعلم جارا أبرَّ، ولا خَلِيطا أنصف، ولا رفيقا أطوع، ولا معلمًا أخضع، ولا صاحبًا أظهر كفاية، وأقل جناية، ولا أقل أملًا وإِرْمامًا، ولا أقل خلافا وإِجْرامًا، ولا أقل غيبةً، ولا أبعد من عَظِيبة<sup>(١)</sup>، ولا أكثر أعجوبة وتصرفًا. ولا أقل صلَفاً وتكلفًا، ولا أبعد من مِرْءاء، ولا أكثر لُشْبًا، ولا أزهد في جَدال، ولا أكفَّ عن قِتال من كُاتب. ولا أعلم قرينا أحسن مواناة، ولا أعجل مكافأة، ولا أحضر مَعونة، ولا أقل مؤونة، ولا شجرة أطول عمرًا، ولا أجمع أمرا، ولا أطيب ثمرة، ولا أقرب مَجْتَنٍّ، ولا أسرع إدراكًا في كل أوان، ولا أوجد في غير إِيَّان من كُتاب. ولا أعلم نتاجًا في حدائث سنه، وقرب ميلاده، ورخص نمته، وإمكان جوده، يجمع من التداوير الحسنة، والعلوم الغريبة، ومن آثار العقول الصحيحة، ومحمود الأخبار اللطيفة، ومن الحكم الرقيقة، ومن المذاهب القويمة، والتجارب الحكيمة، والأخبار عن القرون الماضية، والبلاد المترامية، والأمثال السائرة، والأمم البائدة ما يجمع الكتاب».

بهذا الأسلوب الحسن في منجاء، الناصح البيان في مَبْناء؛ الداني القطوف، السيد في منبهه، العذب في مورده: يخاطبنا شيخ الكتاب غير مدافع، والمتفنن في الرسائل غير منازع؛ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ بعبارة تُستساغ في ضم مؤونة ولا كَدَ ذهن، وتُسْتَوْعَب بلا إِرْهاق خاطر ولا إِعْثات روية. والجاحظ أيك الله ليس وراء كتاباته — كما تعلم — مذهب لمُسْتَفِيد، ولا مَراد لراغب يقرأ متناسبة مترافعة، وألفاظها متنخلة متخيرة. وعبارة مُطَرِّدة منسجمة، وجملة مما يُوطأ له مهاد الطبع، ويرتفع له حجاب السمع، وهي — وأنت جِدُّ عليم — من ذلك النوع الذي يدخل الأذان بلا استئذان، لمكانها

من الألباب، وهو من أجل ذلك يتطلب منا درسا تحليليا مطولا، وليس هذا في مقدورنا  
تعمد الموضوعات التي نعالجها، ولأنها تستلزم عناية ببحثها، والاشارة إليها، بقدر ما يتطلبه  
الجاحظ من عناية ودرس، فلنكتف بلمسة موجزة عن حياة هذا النابغة الفذ الذي تسم  
ذروة الكمال، وبلغ غاية النضج في الأدب العربي وفنونه، وكان الى جانب هذا صاحب  
مذهب في الاعتزال، هو المذهب الجاحظي، معتمدين فيها على ما كتبه ابن خلكان  
وصاحب معجم الأدباء ومؤلفات الجاحظ نفسه .

### نشأته :

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ . ولم تكن أسرته برفيعة القدر ولا سامية  
المكانة، بل على التقيض كانت خدما وخولا لمولاهم أبي القاسم عمسرو بن قلع الكلابي  
ثم القيس السائب . وقد قيل : إن فزارا جده الجاحظ كان جمالا، وإن الجاحظ نفسه كان  
يلعب الخبز والسك بسبيحان .

قال الجاحظ : أنا أسن من أبي نواس بسنة، ولدت في أول سنة ١٥٠ هـ وولد  
في آخرها . وكتب الجاحظ على العلم منذ طفولته انكبا عظيما، وشغف بالمطالعة والقراءة،  
وعكف على الدرس والحفظ . وقد قال عنه أبو هفان أحد معاصريه : لم أر قط ولا سمعت  
من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فانه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته  
كلنا ما كان، حتى إنه كان يكثر دكاكين الزاوين ويبيت للنظر فيها، ثم تئى أبو هفان  
بالفتح بن خاقان، وذكر بعده اسماعيل بن إسحاق القاضي .

سمع الجاحظ من أبي حبيدة، والأصمعي، وأبي زيد الأنصاري . وأخذ النحو عن  
صديقه أبي الحسن الأخفش . وأخذ الحديث عن يزيد بن هارون، والبرقي بن عبدويه،  
وأبي يوسف القاضي، والجباجب بن محمد بن حماد بن سامة . والكلام عن أبي إسحاق  
ابراهيم بن سيار النظام المعتزلي النابذ الذكر، وبه تأثر، وعليه يخرج في مذهبه في الكلام  
والاعتزال .

وإذ كانت ميوله إلى الاطلاع واستيعاب ما يقع تحت يديه من المؤلفات على ما وصفنا ، وكان قصارى همه ، في مقدماته ومراحته ويكوره وأصالة ، أن يحفظ كتاباً أو يفهم باباً ، وكان العصر الذي فيه درج ونما على ما علمت من غزارة المسادة ، وتمتد التأليف ، وازدهام المعارف ، ووفرة مختلف الثقافات ، فلا غرو إذا أخبرنا الجاحظ عن نفسه بقوله : « لقد نسيتُ كثيرى ، لقد تغيبت ثلاثة أيام حتى أتيت أهلى فقلت لهم : بم أُنسى ؟ فقالوا : بأبى عثمان . » ولا غرو إذا كان الجاحظ قد اتصل بكثير من علماء ونوابغ عصره ، وشهريرى الكتاب والمترجمين من فرس وسُريان ، فتأثر بلاريب ذكاؤه بهذا الاختلاط ، وطالع جماع ما تُرجم في أزمان المنصور والرشد والمأمون ؛ فما كان يقع بيده كتاب إلا استوفى قراءته كالشامكان ، حتى إنه كان يكترى دكاكين الزواقين ويبيت فيها للنظر — كما قلنا آنفاً — فكان لذلك من نوابغ العالم .

وغلب عليه أمران اثنان : الكلام على طريقة المعتزلة ، والأدب ممزوجاً بالفلسفة والفكاهة . ولقد قضى عاقبة عمره بالبصرة موفور الكرامة ، محبوباً من خلائق الله ، سميّاً رؤساء المولى وأعيان الهاشمية والعتابية بالعطايا والمنع ، لما كان يصنّفه لهم من الرسائل التي كانت تعتمد في كتابتها التشيع لمذهبهم ومعاذرة مزاعمهم ونقض أقوال غفالقهم . وكانت له مهارة في التلاعب بقولهم وإبتزاز أمواهم ، وإقتدار على التعبير في كل ما يعالجه وفي كل موقف . وكان يحج كثيراً إلى بغداد في أواخر عصر المأمون وضره ، فكان المأمون يُريده . ثم انقطع إلى الاجتماع إلى محمد بن الزيات طوال وزاراته الثلاث ، ثم أقام بعد موت ابن الزيات بالبصرة حتى أصيب بالفالج ، فبقى مفلوجاً حتى أسلم الروح .

### ذكاؤه وخلقه :

كان له حظ كبير وقسط وفير من الذكاء ورقة الشعور ودقة العاطفة . وله في ذلك نوادر هي من خوارق الطبيعة . وكان غريب الأطوار ، به شذوذ في أحواله وأطواره . ذلك لأنه كان يجمع بين الجلد والفكاهة ، حاضر النكتة ، حاضر البديهة ، سريع

الجاحظ . وكانت به دُعاة وتظوف وتماجن . وكان لا يحتفل لما يأخذ الناس به أنفسهم وما يتواضعون عليه من الماديات والرسوم وأنواع العصبية والمنهية والجلسية . وكان كريم الأخلاق ، كريم اليد ، سخيًا سمحًا ، ولطيف المحضر ، خفيف الروح ، وكان على ما به من دَماة ، غايةً في الظُرف وحلاوة اللفظ ، وهو من أجل ذلك كان يجمع بين الضدين :

### اعتقاده ومذهبه :

قلنا إنه تخرج على أبي اسحق إبراهيم بن سيار النظام زعيم الفرقة التي تنسب إليه من المعتزلة ، وكان يلزم أستاذه هذا ويتوفر على دروسه . فن أجل ذلك كان الجاحظ معتزليًا ، وزعيم الفرقة الجاحظية في الاعتزال . وقد انتفع مواهبه وما حياه الله من نصاحة الكلام وطلاقة اللسان وحسن البيان ، في ترويح مذهبه والدعوة له ، فكان لسان المعتزلة الناطق ، وسلاحهم القاطع . وبرع في الكلام ، وغلطه بالفلسفة اليونانية . ويريه كثيرون بالضلالة ، وأنه مآجنٌ مهذار ، متناقض تقال ، يتلاعب بالناس ، وينقض اليوم ما بناه أمس . وقد دافع عنه أبو الحسن الخياط في كتابه "الانتصار" على انتقادات ابن الراوندي العنيفة المؤثرة التي تناول فيها عقيدة الجاحظ بالتجريح الشديد .

ومما قاله أبو الحسن الخياط فيما يشهد به هجمات ابن الراوندي : «وأما رعيك للجاحظ بينض الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو دليل على أنك لا تعرف الحب من المبغض ، ولا الولي من العدو ، لأنه لا يعرف المتكلمون أحدًا منهم نصر الرسالة وأُحتج للنبوة ، بلغ في ذلك ما بلغه الجاحظ ، ولا يُعرف كاتبٌ في الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه ، وأنه حجة لمحمد صلى الله عليه وسلم على نبوته غير كتاب الجاحظ . وهذه كتبه في إثبات الرسالة ، وكتبته في تصحيح محمى الأخبار مشهورة . وهل يُستدل على حب الرسول صلى الله عليه وسلم والإيمان به وتصديقه فيما جاء به بشيء أؤكد مما يستدل به على حب الجاحظ الرسول وتصديقه إياه ! » .

وقد تناول كبار المؤلفين من العرب : كابن قتيبة ، والأزهري ، والمسعودي ،  
والبيديع الهمداني ، وأبي العباس أحمد بن يحيى ، وأبي العباس محمد بن يزيد البربري ،  
والفتح بن خاقان ، والرئيس أبي الفضل بن العميد وغيرهم شخصية الجاحظ بما استحققه  
من العناية والدرس ومن النقد والتعريف ، مما لا تنته لك هنا مخافة الإطالة والملل ،  
فلترجع في مطالعتها ومواضعها .

عليه :

يقول صاحب المعجم : « كان الجاحظ من الذكاء وسرعة الخاطر والحفظ بحيث  
شاع ذكره ، وعلا قدره ، واستغنى عن الوصف » . وقال غيره : إنه كان واسع العلم بفنون  
الكلام ، كثير التبصر فيه ، شديد الضبط لحدوده ، ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم  
الدين والدنيا . ولا غرو فأن مؤلفاته العديدة تشهد بأنه كان واسع الاطلاع حقاً ، غزير  
المسادة ، يصبب الذهن ، كثير المحصول العقلي ، وقد أكثر التصنيف في الأدب واللغات  
والفكاهات ، وأتيح له أن يكون من أئمة الدين وكبار السُّهار .

ويقول الفتح بن خاقان في كتاب له إلى الجاحظ : « إن أمير المؤمنين يجِدُّ بك ، ويَسَّسُ  
عند ذكرك ، ولولا عَظَمَتُكَ في نفسه ، لهابك ومعرفتك ، لحال بينك وبين عُدُوك من  
مجلسه ، ولَقَصَبُكَ رأيك وتديرك فيما أنت مشغول به ومتوفر عليه . ولقد كان البقي إلى  
من هذا عنوانه ، فزدتُكَ في نفسه زيادة كَفَّ بها عن تَجَشُّيمِك ؛ فاعرف لي هذه الحال  
واعتقد هذه المنة على كتاب « الرد على النصارى » وأفرغ منه وعجل به إلى ، ونحن نحن  
جدا به على نفسه ، وتال مشاهرتك . قد استطلعت له مضى ، واستسلمت لك لسنة  
كاملة مستقبله ، وهذا مما لم يحتمك به نفسك . وقد قرأت رسالتك في « بصيرة غنام » ؛  
ولولا أني أزيد في حَيِّثُكَ لمررتُك ما يعتريني عند قراءتها ، والسلام » .

رسائله :

لجاحظ كثير من قصار الرسائل وطوالها ، منها : أنه كتب إلى عبد الله بن خاقان في يوم  
عيد : « أترخى العلة عن الوزير ، أعزّه الله ، لحضرت بالدعاء في كتابي لينوب عني ،



ويعمر ما أخلفت العوائق مني، وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا العيد أعظم الأعياد السالفة بركة على الوزير، ودون الأعياد المستقبلية فيما يحب ويحب له، ويقبل ما ما توسل به الى مرضاته، ويضاعف الاحسان اليه على الاحسان منه، ويمتعه بصحة النعمة ولباس العافية، ولا يرهبه في مسرة نقصا، ولا يقطع عنه مزيدا، ويجعلني من كل سوء فداءه، فيصرف عيون الغير عنه وعن حظي منه .

وكتب الى محمد بن عبد الملك الزيات يستعطفه: «أعذلك الله من سوء الغضب، وعصمك من سرف الهوى، وصرف ما أعارك من القوة الى حب الإنصاف، ورجع في قلبك لئلا تراه الأداة، فقد خفت، أياك الله، أن أكون عندك من المنسولين الى ريق السفهاء، ومجانبة الحكماء . وبعد، فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وإن أحرأ أمسى وأصبح سالماً \* من الناس إلا ما جئني لسعيد

وقال الآخر :

ومن دعا الناس الى ذمه \* ثموه بالحق وبالباطل

فان كنت اجتأت عليك، أصلحك الله، فلم اجتري إلا لأن دوام تعافلك عنى شبيه بالإهمال الذي يورث الإغفال، والعفو المتتابع يؤيس من المكافاة . ولذلك قال عينية ابن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله : عمر كان خيرا لي منك ! أرهني فاقفاتي، وأعطاني فأغفاني . فان كنت لا تهيب عقابي، أياك الله، لخدمة سلفت لي عندك، فهبه لأياديك عندي؛ فان النعمة تشفع في النعمة . وإلا تفعل ذلك لئلك، فعد الى حسن العادة، وإلا فافعل ذلك لحسن الأحذوة، وإلا فأيت ما أنت أهله من العفودون ما أنا أهله من العقوبة . فسبحان من جعلك تغفو عن المتعمد، وتثاقب عن عقاب الميصر، حتى إذا صرت الى من هفوته ذكرا، وذنبه نسيان ومن لا يعرف الشكر إلا لك، والانعام إلا منك، هجمت عليه بالعقوبة . واعلم، أياك الله، أن شين غضبك علي، كزين صفحك عني، وأن موت ذكري مع انقطاع سببي منك، لحياة ذكري مع اتصال سببي بك . واعلم أن لك فطنة عليم، وغفلة كريم . والسلام .»

وللملاحظ رسائل في الاستعطاف وشكوى الزمان آية في البلاغة أثبتناها في المجلد الثالث من هذا الكتاب .

وقد قال فيه بديع الزمان الهمذاني في المقامة الجاحظية : « إن الجاحظ في أحد شقّ البلاغة يقطف ، والآخر يقف ، والبلغ من لم يقصّر نظمه عن تثره ، ولم يزر كلامه بشعره ، فهل ترون للملاحظ شعراً رائقاً ؟ قلنا : لا . قال : فهلموا الى كلامه ، فهو بعيد الاشارات ، قريب العبارات ، قليل الاستعارات ، متقادّ لمرئان الكلام يستعمله ، نفور من متعاصه يميله ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة أو كلمة غير مسموعة ؟ » .

شعره :

قيل : إن للملاحظ شعراً ، ولكنا نظرنا فيما ينسبه له يموت بن المزع وأبو العيّن  
وأبو الحسن البرمكي وغيرهم فوجدناه أقل طبقة من بلاغته . فما ينسب اليه قوله :

يطيبُ العيش أن تلقى حكيماً \* فذاه العلم والفهم المصيبُ  
فيكشفُ عنك حيرة كل جهل \* وفضّلُ العلم يعرفه اللبيبُ  
سقامُ الحرص ليس له شفاء \* وذاهُ الجهل ليس له طيبُ

مصنفاته :

صنف الجاحظ أكثر من مائة كتاب . قال المسعودي : وكتب الجاحظ مع انحرافه  
تجملو صبدأ الأنهان ، وتكشف واضح للبهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن  
رصف ، وكساها من كلامه أحسن وأجزل لفظ . وكان اذا تخوف ملل القارئ وسامة  
السامع ، خرج من جدّ الى هزل ، ومن كلمة بلغة الى نادرة طريفة . وله كتب حسان فنها  
« البيان والبيان » وهو أشرفها ، لأنه جمع فيه من المنشور والمنظوم ، وغرر الأشعار ومستحسن  
الأخبار وبلغ الخطب ، ما لو اقتصر عليه مقتصر لا كفى . « وكتاب الحيوان » و « كتاب  
الطفيين » و « كتاب البخل » . وسائر كتبه في نهاية الكمال . ألم يقصد منها الى تصعيب  
ولا الى دفع حق . ولا يعلم من سلف وخلف أفصح منه .  
وقال ابن العميد : كتب الجاحظ تعلّم العقل أولاً والأدب ثانياً .

### أخباره :

حدثنا أبو معاذ عبد الله الحلو المتطّيب قال : دخلنا يوما «بُسْرَمَنْ رَأَى» ، على عمرو بن بَحْر المحافظ نعوذه وقد فُلّج ، فلما أخذنا مجالسنا ، أتى رسول المتوكل فيه ؛ فقال : وما يصنع أمير المؤمنين بشيئ مائل ، ولُعَابِ سائل . ثم أقبل علينا فقال : ما تقولون في رجل له شقان ، أحدهما لو غُرِزَ بالسَّال ما أَحْسَسَ ، والشق الآخر يتر به الذباب فيُفَوِّثُ ، وأكثر ما أشكوه الثمانون . ثم أنشدنا أبياتاً من قصيدة عَوْف بن عَلم الخُزَاعِي . قال أبو معاذ : وكان سبب هذه القصيدة أن عَوْفاً دخل على عبد الله بن طاهر ، فسلم عليه عبد الله فلم يسمع ، فأعلم بذلك ، فزعموا أنه ارتجل هذه القصيدة ارتجالاً :

يا ابن الذي دَانَ له المشرقان \* طُرّاً وقد دان له المَفرقان  
إِنَّ الثَّمانِينَ وَبَلَّتْهَا \* قد أحوجتُ همي إلى ترجمان  
وبلّنتي بالشَّطاط المَحْنا \* وكنتُ كالصَّعْدَةِ تحت السَّنان  
وبلّنتي من زَماع الفتى \* وهنتي همَّ الحَببانِ الهدان  
وقاربتُ مني حُطْطاً لم تكن \* مُقارباتٍ وثنت من عِنان  
وأنشأتُ بيني وبين الوري \* عَناةً من غير نَسج العِنان  
ولم تدعُ في السَّمِيعِ \* إلا لسانِي ، وبجسي لسان  
أدعو به الله وأثنى به \* على الأمير المُصمِّعِ الهِجَاجِ  
فقرَّباني ، بأبي أنعم ، \* من وطني قبل أصفار البَجان  
وقبل مَناعِي إلى نسوة \* أوطنها حِراُنَ والرَّغائِرِ

وبالمحافظ ، أيدك الله ، قد جمع إلى مواقف الكبار في الجدل والتناظر ، ومثانة الأسلوب وتدقيقه ، وسمو المنهج وبلاغته ، وقوة اللفظ ونفاخته ، جنوحاً إلى الدُّعابة والطلائف والتسدير والطرائف ، والمُلح والنَّحْب ، والتكت مع الأدب ، مع خفة ظن ، وظرف روح حيَّاه إلى النفوس ، ومع نباعة وعبقريّة جمعاه فوق الهام والرعوس ، وعذوبة عبارة ، ومائية أسلوب ، كأنهما الراح في الكؤوس !

ومن جملة أخباره أنه قال : ذُكرت للتوسل لتأديب بعض ولده ، فلما رأى استبشع  
منظري ، فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني ، فخرجت من عنده ، فلقيت مجدي بن إبراهيم ،  
وهو يريد الانصراف الى مدينة السلام ، فعرض علي الخروج معه والاتحاد في حراسته ،  
وكتا بسر من رأى ، فركبنا في الحفاقة ، فلما اتينا الى نهر القاطول ، ضرب ستارا وأمرنا  
بالغناء ، فاندفعت حوادة فننت :

صكّل يوم قطيعه عتاب • ينقض دهرنا ونحن غضاب  
ليت شعري أنا خيصة بهذا • دون ذا الخلق أم كذا الأحباب  
وسكنت ، فأمر الطنبورية فننت :

وآرحتنا للعاشقين • ما إن أرى لهم مئينا  
كم يهيجرون ويصرو • نوقطعون قيصرونا

قال : فقالت لها العوادة : فيصنعون ماذا ؟ قالت : هكنا يصنعون ، وضربت يدها  
الى السار فهتكته ، وبرزت كأنها قلقة قر ، فالتفت نفسها في الماء ، وعلى رأس محمد  
غلام يضاهيها في الجمال وبه مذبّة ، فأقى الموضع ونظر اليها وهى بين الماء وأنشد :

أنت التي غرقتني • بعد القضا لو تعلمينا

وألقى نفسه في آثرها ، فأدار الملاح الحواقة ، فاذا بهما متعاقبان ، ثم قاصبا فلم يرهما ،  
فاستعظم محمد ذلك وهاله أمرهما ، ثم قال : يا عمرو لتحدثني حديثا يسلي عن فعل هذين  
والأخفك بهما ، قال : فحضرني حديث يزيد بن عبد الملك وقد قعد للظالم يوما ، وعُرضت  
عليه القصص ، فترت به قصة فيها : « إن رأى أمير المؤمنين أن يخرج إلى جاريته فلانة  
حتى تتبني ثلاثة أصوات فل » فاغتاظ يزيد من ذلك وأمر من يخرج اليه ويأتيه برأسه ،  
ثم أتبع الرسولك رسولا آخر ، يأمره أن يدخل اليه الرجل فأدخله ، فلما وقف بين يديه قال له :  
ما الذى حملك على ما صنعت ؟ قال : الثقة بحملك والاتكال على عفوك ، فأمره بالجلوس

حتى لم يبق أحد من بني أمية إلا أخرج، ثم أمر فأخرجت الجارية ومعهما عودها، فقال لها  
الفتى غنى :

أَفَاطِلَمْ مَهْلًا بِمَعْضِ هَذَا التَّدْلِيلِ • وإن كنت قد أُرْمِيتَ صَرْحِي فَأَجْمَلِ  
فَعَتَّتَهُ ، فَقَالَ لَهُ يَزِيدُ : قل ، فقال : غنى :

تَأَلَّقَ الْبَرْقُ بِجَدِيًّا فَقُلْتُ لَهُ • يَا أَيُّهَا الْبَرْقُ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولٌ

فَعَتَّتَهُ ، فَقَالَ لَهُ يَزِيدُ : قل ، فقال : يا مولاي ، تأمر لي برطل شراب ! فأمر له به ،  
فما استتمَّ شربة حتى وثب وصعيد على أعلى قبة يزيد فرمى نفسه على دماغه فمات ، فقال  
يزيد : (إنا لله وأنا إليه راجعون) أنراه الأحق ابلهال ظن أنى أخرج اليه جارى وأرذها  
الى ملكي ! يا غلمان ، خذوها بيدها وأحملوها الى أهلها إن كان له أهل وإلا فيبيعوها  
وتصدقوا بثمنها ، فانطلقوا بها الى أهلها ، فلما توسطت الدار نظرت الى حفيرة في وسط دار  
يزيد قد أُعِدَّتْ لَطَرٍ ، فلهذبت نفسها من أيديهم وأنشدت :

مَنْ مَاتَ عَشَقًا فَلَيْمُتْ هَكَذَا • لا خير في عشق بلا موت

فألقت نفسها في الحفيرة على دماغها فمات ، فسرى عن محمد وأجل حياقي •

«وبعد» فان رسالتنا لاسع التبسط في القول، ولا سيما شخصية بارزة كشخصية الجاحظ،  
التي تطلب كما قلنا رسالة مُسَهَّبة، لمكانة الرجل، فنيا قدمناه لك عنه الغنية والكفاية، ونرى  
واجبا علينا قبل أن نختم كلمتنا أن نحملك هنا، على رسالة خطية مرسوبة إليه عثرنا عليها  
بدار الكتب المصرية، قيل إنه كتبها عن بني أمية : وسبق أن أشرنا اليها في كلمتنا عن  
العصر الأموي . وهي وحدها تنطق بوجهة نظر الرجل ومذهبه في الاعتزال، وتشهد بطول  
باضه في التبسط والإسهاب، مع نخامة اللفظ وحلاوته، وقراءة الأسلوب وطلاوته، وسوق البيان  
ومكانته . وقد أشرنا لها في باب المشور من الكتاب الثالث من المجلد الثالث، فراجعها ثمة .

## (د) أَبَان بن عبد الحميد اللاحق :

هو أَبَان بن عبد الحميد بن لَاحِق بن عفر مولى بني رَقَاش . كان بالبصرة، ثم رحل  
الى البرامكة ببغداد، فافصل بهم ومدحهم ونال جوائزهم، ثم قويت الصلة بينهم

وبيناه حتى اتخذوه لهم معلماً ونصيحاً ، يستشيرونه في مهمات أمورهم وتدير شؤونهم .  
 وبلغ من حقائدهم به وإكرامهم له ، أن جعلوا اليه امتحان الشعراء وتقدير ما يستحقون  
 من الجوائز والصلوات لكن هذا المنصب . جعله غرضاً لحجج الشعراء وذمهم ، لأنه  
 ليس في مقدوره أن يرضيهم جميعاً من جهة ، ولأنهم كانوا يرونه دون أن يكون لهم حججاً  
 من جهة أخرى .

وكان أبو نواس من أشد هؤلاء الشعراء نعمة على أبان ، فإن أبا الفرج الأصبهاني  
 يحدثنا أن أبا نواس لم يرض المرتبة التي جعله فيها أبان ، فقال يهجو هذه الأبيات :

جالستُ يوماً أبانا \* لادّرتُ أبان  
 ونحن حضرُّ رواق الـ \* أمير بالتهـرواق  
 حتى إذا ما صلاهُ الـ \* أولى دنت لأوان  
 فقام مُنذرٌ ربي \* بالبر والإحسان  
 فكلما قال قلنا \* الى آقضاء الأذنان  
 فقال كيف شهدتم \* بنا بشير حيات  
 لا أشهد الدهر حتى \* تُعارف العيانات  
 فقلت سبحان ربي \* فقال سبحان ماني<sup>(١)</sup>

وبقية القصيدة في ديوان أبي نواس .

فقال أبان يحميه : —

ان يكن هذا النوا \* سى بلا ذنب هجانا  
 فلقد ... حيننا \* وصَفَعناه زمانا  
 هاني الجوف أبوه \* زاده الله هوانا  
 سائل العباس وأسمع \* فيه من أمك شاننا  
 حَجَّنوا من جَلَنار \* ليكيذكوك عجانا

(١) امم لصاحب طائفة من الملحدين .

وَجُلُتَارَ هَذِهِ هِيَ أُمُّ أَبِي نُؤَاسٍ ، كَانَتْ قَدْ تَزَوَّجَهَا الْعَبَّاسُ بَعْدَ أَبِيهِ . وَرَبَّمَا كَانَ لِبَاعِثِ هَذِهِ الْمُهَاجَرَةِ بَيْنَ أَبِي نُؤَاسٍ وَأَبَانَ أَثَرُ كِبَرٍ فِيمَا كَانَ بَيْنَ أَبِي نُؤَاسٍ وَالْبَرَامِكَةَ مِنْ كَرَاهِيَةِ وَبُغْضَاءٍ ، فَإِنَّ أَبَا نُؤَاسٍ كَانَ مَعْرُوفًا بِسَمَوِّ الْمَكَانَةِ فِي الشَّعْرِ ، فَلَا يَسْتَطِيعُ مِثْلُ أَبَانَ أَنْ يُزِيلَهُ عَنْ مَنْزِلَتِهِ الَّتِي هُوَ جَدِيرٌ بِهَا ، إِلَّا إِذَا كَانَ فِي ذَلِكَ هَوًى لِلْبَرَامِكَةِ ، وَقَدْ يَكُونُ بَوَحًى مِنْهُمْ . لَكِنَّ أَبَا نُؤَاسٍ لَمْ يَجِدْ مَصْدَرًا لِلْحُكْمِ خِلافَ أَبَانَ فَهَجَاهُ ، وَلَمْ يَكُنْ هَجْوُهُ أَبَانَ لِيَشْفِي غَلِيلَهُ وَ إِنَّمَا يَشْفِي غَلِيلَهُ لَوْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَنَالَ بِالْهَجْوِ مِنْ رَاهِمِ خَلِيقَيْنِ بِهِجْوِهِ ، وَهَمَّ الْبَرَامِكَةُ ! وَلَكِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنَالَهُمُ بِالْهَجْوِ ، وَهَمَّ أَصْحَابُ الدَّوْلَةِ وَالسُّلْطَانُ .

كَانَ أَبَانَ شَدِيدَ الْإِعْجَابِ بِنَفْسِهِ ، مُدَلًّا بِعِلْمِهِ وَأَدَبِهِ . وَالْقَصِيدَةُ الَّتِي فَتَمَهَا لِلْبَرَامِكَةِ ، حِينَ حَاوَلَ أَنْ يَتَّصِلَ بِهِمْ ، عَلَى زَمَنِ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَفِيعٌ مِنْ تَرْغِبِهِمْ فِيهِ ، تُعْطِينَا صُورَةَ وَاضِحَةً عَنْهُ . وَهَذِهِ هِيَ الْقَصِيدَةُ : —

أَنَا مِنْ بَيْتِ بَغْيَةِ الْأَمِيرِ وَكَثُرَ • مِنْ كُنُوزِ الْأَمِيرِ ذُرُ الْأَرْجَاحِ  
كَاتِبُ حَاسِبٍ خَطِيبُ أَدِيبٍ • نَاصِحٌ زَائِدٌ عَلَى النَّصَاحِ  
شَاعِرٌ مُفْلِقٌ أَخْفَ مِنَ الرِّيشَةِ مِمَّا يَكُونُ تَحْتَ الْجَنَاحِ  
لِي فِي التَّحَوُّفِ طَنَّةٌ وَاقْتِنَادٌ • أَنَا لَيْسَ بِهِ قِلَادَةُ يَرْشَاحِ  
فَمِنْ أَرْوَى مِنْ ابْنِ سَيْرِينَ لِلْمُلُكِ بِقُيُوبِ مَنْشُورِ الْإِفْصَاحِ  
فَمِنْ أَرْوَى مِنْ ابْنِ سَيْرِينَ لِلشَّعْرِ وَقَوْلِ النَّسِيبِ وَالْأَمْدَاحِ  
وَنَظَرِي فِي الْحَدِيثِ فِي كُلِّ فَرْبٍ • وَتَصِيرُ بِتَرْهَاتِ الْمَلَاحِ  
كَمْ وَكَمْ قَدْ خَبَّاتٍ عِنْدِي حِدْبًا • هُوَ عِنْدَ الْمُلُوكِ كَالْتِفَاحِ  
فَبِمِثْلِ تَحْمُلُوا الْمُلُوكَ وَتَهْلُوْا • وَتَنَاجَى فِي الْمُشْكِالِ الْقَدَاحِ  
أَيُّمُ النَّاسِ طَائِرًا يَوْمَ صَيْدٍ • لَقَدْ قُذِيعْتُ أَوْ لَزَّاحِ  
أَبْصَرُ النَّاسَ بِالْجَوَاهِرِ وَالْمُجَسَّلِ وَبِالْحُرْدِ الْحَسَارِ وَالصَّبَاحِ  
كُلُّ ذَا قَدْ جَمَعَتْ وَالْجَمْدُ لَلَّهْ عَلَى أَنَّ ظَرِيفَ الْمَرْزَاحِ

لستُ بالناسك المشمّر نويحه ولا المالحن الخليج الوقاح  
 لودى بي الأمير أصلحه الله رباحاً تلت حذ الرماح  
 ما أنا واهن ولا مستكين \* لسوى أمر سيدى ذى السباح  
 لستُ بالضخم يا أميرى ولا القز \* م ولا بالهشدر الدحاح  
 ليبة جعدة وجهه صبيح \* واتخاذ ككشلة المصباح  
 إن دعاني الأمير ما ينقني \* شمرياً كالبلبل الصباح

على أن أبان ، مع إعجابه بنفسه ، وإدلاله بعلمه وأدبه ، لم يكن في مقدوره أن يسأري  
 بكآء معاصريه من الشعراء ، كأبي نؤاس وأضرابه ، في قوة الشعر واختلاف فنونه ،  
 وحسن لفظه ، ورقة معانيه .

ولعل ذلك يرجع الى أنه كان ينقصه خصب النفس ، وقوة الحس ، والخيال  
 المبدع للصور الشعرية ، أى قوة الابتكار والاختراع ، فان هذه القوى جميعاً لا بد منها  
 للشاعر ، لكي يحس ويترع ويصور . وهذا يفضى بنا الى إحدى نتيجتين : إما أن نشك  
 فيما وصّف به نفسه : من جمال القُرف ، وخفة الروح ، واتخاذ الذهن ، نشك في اتصافه  
 حقاً بهذه الصفات ، التى تملأ النفس شعوراً بما فى الحياة من صور للشعر ، وإما أنه  
 كان قصير الباع في تصوير ما تحسّه نفسه . وكلا الأمرين يبعد البون بينه وبين أبي نؤاس  
 وأضرابه أبي نؤاس . ولئن نقصته القوى التى تمتد بالصور الشعرية ، فقد وفق إلى  
 فن جديد نحسب أنه لم يسبق لأيسه ، وهذا الفن لا يضطره الى كد القريحة وإعمال الفكر  
 في تصيد المعانى الجبيلة ، وإبرازها فى أبواب زاهية جذابة ، بل لا يحتاج معه الى أكثر من  
 أن تكون لديه ملكة النظم ووزن الكلام ، اذ المعانى بين يديه ، لا يتكلف في سبيلها  
 سعيًا ، أو كد قريحة . وهذا الفن الجديد هو النظم التلميحى ، وهو أن يعتمد الشاعر  
 الى كتاب معروف متثور فينظمه ، أو الى قواعد عامة فى الشريعة أو فى اللغة أو فى فرع  
 من فروعها ، فينظمها أيضاً ، ليسهل حفظها ويقرب تناولها . وهذا ما فعله أبان ،



وما جعلنا نُؤثِّره بالكلام، فإن هذا النوع من التَّظْم، يُثَلِّ نَاحِيَةً طَرِيقَةً من نَوَاحِي الأدب الجديدة في عصرنا المأموني. فقد تكونت مُقَصِّرِينَ كُلِّ التَّقصِير، إذا أغفلنا ذكر مُبَدِّعِهِ ومُبتَكِرِهِ. نقول « وهذا ما فعله أَبَان » فإن الصَّوْلَى وأبا الفرج الأصفهانيّ يحدِّثَانَا بِأَن أَبَانًا نَظَّمَ للبرامكة كِتَابَ كَلِيلَةٍ وَدِيْمَنَةٍ، لِيَسْمُوَ عَلَيْهِمْ حَفَظُهُ، فَأَعْطَاهُ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ عَشْرَةَ أَلْفٍ دِينَارٍ، وَأَعْطَاهُ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى عَشْرَةَ أَلْفٍ دِينَارٍ، وَلَمْ يَعْطِهِ جَعْفَرُ شَيْثًا، وَقَالَ لَهُ: يَكْفِيكَ أَنْ أَحْفَظَهُ فَأَكُونَ رَاوِيَتَكَ. وقد نقل الأصفهانيّ من هذا الكتاب بِتَيْنِ هَا:

هذا كِتَابُ أَدَبٍ وَبَحِيْثَةٌ \* وهو الَّذِي يُدْعَى كَلِيلَةَ دِيْمَنَةٍ  
فِيهِ أَحْثَى أَلَاتٌ وَفِيهِ رُشْدٌ \* وهو كِتَابُ وَضَعَهُ الْحَفْظُ

وقد أبادت الأيَّام هذا الكتاب، كما أبادت كثيرًا غيره من الكتب العربية القيِّمة، حتَّى يَبْسُ الأَدْبَاءُ والمُؤَرِّخُونَ في العصر الحَدِيثِ، من الثَّوَرِ عَلَى تَبْيِئِ مِنْهُ. وقد يَكُونُ من حَسَنِ الْحَفَظِ أَنْ نَعْلَمَ سُرُورَنَا بِأَنَّا قَدْ وَفَّقْنَا إِلَى جِزَةٍ كَبِيرَةٍ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ، فِي جِزَةٍ أَوْ أَوْرَاقٍ مِنْ جِزَةٍ مِنْ كِتَابِ الْأَوْرَاقِ الْمُنْسُوبِ لِلصَّوْلَى، إِذْ عَثَرْنَا عَلَيْهِ بِدَارِ الْكُتُبِ الْمَصْرِيَّةِ مِنْذُ أَمَدٍ طَوِيلٍ حِينَمَا كُنَّا نَبْحَثُ فِيهَا عَمَّا وَضَعَهُ الْعَرَبُ مِنَ الْمَوْسُوعَاتِ وَالْمُعَلِّمَاتِ. وسنذكر في المجلد الثَّانِي مَا وَجَدْنَاهُ فِيهِ.

ويحدِّثُنَا أَبُو الْفَرَجِ بِأَنَّهُ عَمِلَ أَيْضًا الْقَصِيدَةَ الَّتِي ذَكَرْنَا فِيهَا مَبْدَأَ الْخَلْقِ وَأَمْرَ الدُّنْيَا وَشَيْئًا مِنَ الْمُنْطَقِ، وَسَمَّاها ذَاتَ الْحُلَلِ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَسْبُحُهَا إِلَى أَبِي الْعَتَّاهِيَّةِ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُمَا لِأَبَانٍ. وسيأتي أَبُو الْفَرَجِ هَذَا، لَا يَدْعُ سَبِيلًا إِلَى الشَّكِّ فِي وَجُودِ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ، وَمَعَ الْأَسَفِ لَمْ يَنْقُلِ إِلَيْنَا مِنْهَا شَيْئًا.

ويحدِّثُنَا الصَّوْلَى بِسَنَدِهِ أَنَّ أَبَانًا، لَمَّا عَمِلَ كِتَابَ كَلِيلَةِ وَدِيْمَنَةِ شِعْرًا، فِي قَصِيدَتِهِ الْمُزْدَوِجَةِ أَعْطَاهُ الْبَرَامِكَةَ عَلَى ذَلِكَ مَا لَا عَقْلِيًّا، فَقِيلَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ: أَلَا تَعْمَلُ شِعْرًا فِي الزَّهْدِ؟ فَعَمِلَ قَصِيدَةً مَزْدَوِجَةً فِي الصَّبَامِ وَالزَّكَاةِ، وَقَدْ وَجَدْتَ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ،

وترجمتها « قصيدة الصيام والزكاة نقل أبك من فم الرواة » ثم ذكر القصيدة . وقد نشرنا ذلك كله في موضعه من المجلد الثاني .



### ( هـ ) أحمد بن يوسف الكاتب :

هو أبو جعفر أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب من أهل الكوفة ومن موالي بني عجل . كان مذهبه الرسائل والإنشاء ، وزره المأمون بعد أحمد بن أبي خالد ، فقد كان يتولى ديوان الرسائل له ، وكان مصروفا بين أهل عصره بسمو المكانة في العلم والأدب ، والكأبة والشعر . حكى عن المأمون ، وعبد الحميد بن يحيى الكاتب ، وحكى عنه ابنه محمد بن أحمد بن يوسف ، وعلى بن سليمان الأقفش ، وغيرهما .

#### كتأبته :

أما مكانته في الكأبة فرسائله وتوقيعاته التي تحلت بها صدور الأدب ، وترأبت بها كتب التاريخ ، تجعله في مقدمة الكتاب ومن أئمتهم ، وهى بما فيها من جوة وإحكام ، وتغير الألفاظ ، وسلاسة في المعانى ، تدل على أنه كان خصيب النفس ، سريع الخطر ، وعلى أنه مالك أعنة المعانى ونواصى الكلام . ولقد شهد له بالسبق في الكأبة والرسائل كبار رجال عصره ومن جاء بعده .

قال الصولى : لما مات أحمد بن أبى خالد الأحول ، شاور المأمون الحسن بن سهل فيمين يكتب له ويقوم مقامه ، فأشار عليه بأحمد بن يوسف ، وبأبى عباد ثابت بن يحيى الرازى ، وقال : هما أعلم الناس بأخلاق أمير المؤمنين ، وخدمته ، وما يرضيه ، فقال له : اخترلى أحدهما ، فقال الحسن : إن صبر أحمد على الخدمة ، وجفا لذته قليلا ، فهو أحبهما الى ، لأنه أعرف في الكأبة وأحسنهما بلاغة ، وأكثر علما ! فاستكتبه المأمون .

وروى الصولى بسنده : أن الكأب اجتمعوا عند أحمد بن اسرائيل ، فذكروا الماضين من الكأب ، فأجمعوا أن أكتب من كان في دولة بنى العباس : أحمد بن يوسف ،

وابراهيم بن العباس؛ وأت أشعر كُتّاب دولتهم : ابراهيم بن العباس ، ومحمد بن عبد الملك الزيات ، فابراهيم أجودهما شعرا، ومحمد أكثرهما شعرا ، ثم الحسن بن وهب ، وأحمد ابن يوسف .

فأنت ترى - أعزك الله - أن هؤلاء الكُتّاب لم يقدموا أحدا من كُتّاب دولة بني العباس على أحمد بن يوسف في الكُتابة ، وإن قدموا عليه في الشعر . وإلحق أن نبوجه في الكُتابة هو الذي كان سببا إلى ظهوره ورفعته ؛ فقد روى العلماء أنه لما قُتل الأمين ، أمر طاهر بن الحسين الكُتّاب أن يكتبوا إلى المأمون فأطالوا ، فقال طاهر : أريد أقصر من هذا ! فوصف له أحمد بن يوسف فأحضره لذلك ، فكتب :

« أما بعد ، فإن المخلوع ، وإن كان قسيم أمير المؤمنين في النسب والحمّة ، فقد تفرق حكم الكتاب بينه وبينه في الولاية والحرمة ، لمفارقتة عصمة الدين ، وخروجه عن إجماع المساميين ؛ قال الله عز وجل لنوح عليه السلام في أمه : ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ ولا صلة لأحد في معصية الله ، ولا قطيعة ما كانت في ذات الله ؛ وكتبت إلى أمير المؤمنين ، وقد قتل الله المخلوع وأحصد لأمر المؤمنين أمره ، وأنجز له وعده ، فالأرض بأشكافها أوطأ مهاد لطاعته ، وأتبع ثمي لمشيئته ؛ وقد وجهت إلى أمير المؤمنين بالدنيا وهو رأس المخلوع ، وبالأخرة وهي البردة والقضيب ؛ والحمد لله الآخذ لأمر المؤمنين بحقه ، والكائد له من خان عهده ونكت عقده ، حتى رد الأئمة ، وأقام به الشريعة ، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » .

قيل : فرضى طاهر ذلك وأنفذه ، ووصل أحمد بن يوسف وقدمه .

وقيل : إن المأمون لما حُل رأس المخلوع إليه ، وهو يبرو ، أمر بإنشاء كتاب عن طاهر ابن الحسين ، ليقرأ على الناس فكُتبت عدة كتب لم يرضاها المأمون ولا الفضل بن سهل ، فكتب أحمد بن يوسف هذا الكتاب ، فلما عرضت النسخة على ذى الرياستين ، رجع نظره فيها ، ثم قال لأحمد بن يوسف : ما أنصفناك ، ودعا بقهرمانه ، وأخذ القلم والقرطاس .

وأقبل يكتب بما يقرع له من المنازل، وبعده له فيها من الفرش، والآلات، والكسوة، والكراع، وغير ذلك؛ ثم طرح الرقعة الى أحمد بن يوسف وقال له: اذا كان في غد، فاقعد في الديوان، وليقعد جميع الكتاب بين يديك، واكتب الى الآفاق.

قيل: وما كتبه للمأمون حين كثر الطلاب للصلوات ببابه: «داعي نداءك يا أمير المؤمنين، ومُنَادِي جَدْوَاك، جمعا الوفود ببابك يرجون نائلك المهود، فمنهم من يمت بحُرمة، ومنهم من يُبدل بخدمة، وقد أبجف بهم المقام، وطالت عليهم الأيام؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يُنعمهم بسببه، ويحقق حُسن ظنهم بطوِّله، فلي إن شاء الله تعالى». فوقع المأمون: «الخير مُتبع، وأبواب الملوك مغنا لطلابي الحاجات، ومواطن لهم؛ ولذلك قال الشاعر:

يَسْقُطُ الطَيْرُ حَيْثُ يَلْقَى حُبَّ وَتُفْتَى مَنَازِلُ الصَّكْرَاءِ

فاكتب أسماء من بيابنا منهم، وأحك مرابنهم، ليصل الى كل رجل قَدْرُ استحقاقه، ولا تكدر معروفنا عندهم بطول الحجاب، وتأخير الثواب؛ فقد قال الشاعر:

فَإِنَّكَ لَنْ تَرَى طَرْدًا لِحَسْرَةٍ \* كَالصَّبَاقِ بِهِ طَسَّرَ الْهَوَانَ

وقال ابراهيم بن العباس: سمعت أحمد بن يوسف يقول: أمرني المأمون، أن أكتب الى السواحى في الاستنكار من القناديل في المساجد، فيت لا أدري كيف أمتنع الكلام، ولا كيف أخذ به، فأني أت في منامى، فقال: قل: فإن في ذلك أنسا للسابلة، وإضاءة للتهجد، ونفيا لمكامن الرِّيب، وتزجيا لبيوت الله عن وحشة الظلم، فانتبهت وقد أفتتح لى ما أريد، فابتدأت بهذا وأتممت عليه.

ومن رسائله أيضا: "لقد أحلك الله في الشرف أعلى ذروته، وبلغك من الفضل أبعد غايته، فالأمان اليك مصروفة، والأعناق اليك معطوفة؛ عندك تنتهى الحميم الساءية، وطليق تفتظ الظنون الحسنة، وبك تلتقى الخناصر، وتُستفتح أغلاق المطالب؛ ولا يُستريث التَّجَمُّع من رجالك، ولا تمرره النوايب في دارك" وإنا نحملك على ما أثبتناه لك في المجلد الثالث من آثاره الممتعة.

### شعره :

كان أحمد بن يوسف شاعرا مُعَرِّفاً في الشعر كما كان مُعَرِّفاً في الكتابة، إلا أن حفلة من الشعر كان دون حفلة من الكتابة، فإنَّ مُقَادَ عصره لم يقدِّموا عليه أحداً في الكتابة من كتاب بني العباس ووزرائهم، وقد قدِّموا عليه كثيراً في الشعر. وقد ذكرنا فيما سبق من ترجمته إجماع فريق من الكتاب على سبقه في الكتابة دون الشعر. وقد روى الصولي بسنده أن قُتَيْبَ بْنَ مُحَرَّرِ الْبَاهِلِيِّ قَالَ: كُنَّا نَقُولُ لِمَ يَلِ الْوِزَارَةَ أَشْعَرُ مِنْ أَحْمَدَ بْنَ يَوْسُفَ، حَتَّى وَلِيَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَكَانَ أَشْعَرَهُ مِنْهُ !

ولم يكن المدح كثيراً في شعر أحمد بن يوسف، فإنه كان يحكم مركزه كوزير للأُمون ورئيس ديوان رسالته، غير محتاج إلى أن يتكسَّب بشعره، أو يمدح الناس، ولذلك لازى في شعره مدحا لغير الأُمون ولِئِهِ وَرَبِّ نَمَتِهِ. وكذلك كان هجاءه قليلا، فإنَّ مروءته، وأدبه، ومركزه، وأعداده بنفسه، كل ذلك كان يرفعه عن أن يكون هجاء مُقْدِمًا، وإنما كان يضطر أحيانا إلى ذم أعدائه ومنافسيه، في غير إقذاع ولا تحس. فمن ذلك قوله في سعيد بن سالم الباهلي وولده - وقد كانت بينهم وبينه عداوة - فذكرهم يوما فقال: "لولا أن الله عز وجل ختم رسالته بمحمد صلى الله عليه وسلم، وكُتِبَ بالقرآن، لبعث فيكم نبيَّ تَقَمَّة، وأنزل عليكم قرآنَ ضُفْر، وما عَسَيْتُ أن أقول في قوم، يحاسنهم مساوئُ السَّفَلِ، ومساوئهم فضائحُ الأُفْم". وقال يهجوهم:

أَبِي سَعِيدٍ إِنَّكُمْ مِنْ مَعْشَرٍ • لَا تُحْسِنُونَ كَرَامَةَ الْأَخْيَافِ  
قَوْمٌ لِبَاهِلَةٍ بَنَ أَهْصَرَ إِنْ هُمُو • تَغَرَّوْا حَسْبَهُمْ وَلَبِيدَ مَنْافِ  
مَطَلُوا الْغَدَاءَ إِلَى الْعِشَاءِ وَقَتَرُوا • زَادَا تَمَرُّ أَيْبِكَ لَيْسَ بِكَافِ  
بَيْنَا أُنَاكَ أَتَاهُمْ كِبَارُهُمْ • يَلْحَوْنَ فِي التَّبْذِيرِ وَالْإِمْرَافِ  
وَكَأَنِّي لَمَّا حَطَطْتُ إِلَيْهِمْ • رَخَلْتُ حَطَطْتُ بِأَبْرِقِ الْعِزَافِ

## أخلاقه وسيرته :

كان أحمد بن يوسف قُطنا ، بصيرا بأحوال الملك وآداب السلاطين ، ذكيا سريع الانطباع ذا مروءة وكرم ، وكان مع ذلك يضرب في المجون واللهو بسهم . وما يدل على عظيم مروءته ما قاله عبد الله بن طاهر حين خرج من بغداد إلى خراسان لأبيه محمد ، وما وقع بين محمد وهذا وبينه بعد ذلك . قال عبد الله لابنه : إن عاشرت أحدا بمدينة السلام فعليك بأحمد بن يوسف الكاتب فإنه له مروءة . فما عرج محمد حين أنصرف من توديع أبيه على شيء حتى هم على أحمد بن يوسف في داره ، فأطال عنده ، ففطن له أحمد فقال : يا جارية غلبنا ، فأحضرت طبقا وأرغفة نقيّة وقدمت ألوانا يسيرة وحلاوة وأعقب ذلك بأنواع من الأُمربة في زجاج فاخر وأتية حسنة وقال : يتناول الأمير من أيها شاء . ثم قال : إن رأى الأمير أن يُشرف عبده ويحيته في غد فأنعم بذلك ، فهض وهو متعجب من وصف أبيه له ؛ وأراد فضيخته ، فلم يترك قائدا جليلا ولا رجلا مذكورا من أصحابه ألا عرفهم أنه في دعوة أحمد بن يوسف وأمرهم بالغدوم معه ؛ فلما أصبحوا قصدوا دار أحمد بن يوسف وقد أخذ أهبطه وأظهر مروءته ، فرأى محمد من النضائد والقُرُش والستور والغلمان والوصائف ما أدهشه ، ونصّب ثلثائة مائدة وقد حُفّت بثلثائة وصيفة ، ونقل إلى كل مائدة ثلثائة لون في صحاف الذهب والفضة ومشارد الصين ، فلما رُفعت الموائد قال ابن طاهر : هل أكل من الباب؟ فنظروا ، فإذا جميع من الباب قد نُصبت لهم الموائد فأكلوا ؛ فقال : شتان بين يوميك يا أبا الحسن ! ( كذا في هذه الرواية كُناه بابي الحسن ) فقال : أيها الأمير ، ذاك قوتي وهذه مروءتي .

أما اللهو والمجون فقد كان حظّه منهما غير قليل . وحبينا أن نذكر ما قاله الحسن ابن سمل ، حين شاوره المأمون فيمن يختاره ، بعد أحمد بن أبي خالد ، فأشار عليه بأحمد ابن يوسف وبأبي عباد ثابت بن يحيى الرازي ؛ فقال له : اختر لي أحدهما ؛ فقال الحسن : إن صبر أحمد وجفا لذته قليلا فهو أحبهما إلى .

ولقد كان به ما كان ببعض معاصريه ، من الكُتّاب والشعراء والادباء ، من ميل الى الغلمان ... ! لذلك لم يكن غَزَلُه بريئا ، ولم يعالجه على أنه فنٌّ من فنون الشعر ، وإنما كان غَزَلُه يترجم ترجمة صادقة عن شعوره ونوازع نفسه ؛ فإِذْ لا تستطيع أن تسمع ما كان يذنه وبين موسى بن عبد الملك ثم تحكم له بأنه اصطنع الغزل فناً من فنون الشعر ؛ فقد كان موسى هذا في ناحيته ، وهو الذي قدّمه وخرّجه ، وكان يرى بما كان يُرى به مما نمسك عن ذكره .

حدثت موسى نفسه ، فقال : وهب لي أحمد بن يوسف ألف ألف درهم في مَرَات .

وقد لامه محمد بن الجهم على تقديمه موسى بن عبد الملك على صباه ؛ فكتب اليه أحمد ابن يوسف شعراً يلتمس اليه فيه أن يكفّ عن منله . وقد أمسكا عن ذكره أيضاً لما فيه من مجون .

ومن غزله ما قاله في محمد بن سعيد بن حماد الكاتب ، وكان يميل اليه ، وقيل عنه .

إِنَّهُ كَانَ صَبِيًّا مَلِيحًا :

صَدَّ حَتَّى مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدٍ \* أَحْسَنُ الْعَالَمِينَ ثَانِي جَيِّدٍ

صَدَّ حَتَّى لَفِيرُ جُرْمٍ إِلَيْهِ \* لَيْسَ إِلَّا حُسْنُهُ فِي الصَّلُودِ

وكان محمد بن سعيد يكتب بين يديه ، فنظر الى عارضه قد آخضت في خذه ، فأخذ رقعة وكتب فيها :

حَلَالُكَ اللَّهُ مِنْ شَعْرٍ وَزَادَا \* كَمَا أَلْبَسْتَ عَارِضَهُ الْحِلَادَا

أَغْرَسْتَ عَلَى تَوَرَّدِ وَجْهِهِ \* فَصَبَّرْتَ أَحْمَارَهَا مَوَادَا

ورمى بها الى محمد بن سعيد ؛ فكتب مجيباً : عَظَّمَ اللَّهُ أَجْرَكَ فِي يَاسِيدِي وَأَحْسَنَ لَكَ العَوْضُ مِنِّي !!

وكان لظفره وفطنته وبصره بالأمر موضعاً لرضا المأمون وعطفه عليه ، وبظهر أن علاقته بالمأمون وثقت به ومله يديه منه جعلته لا يتحيز في كلامه كثيراً ، فكان يسقط السقطة بعد السقطة حتى أتلف نفسه في بعض سقطاته ؛ فقصد حكي : أن المأمون كان اذا تجرّ

طُرح له العود والمئبر، فلذا تجرّ أمر بإخراج الحجّرة ووَضِعَها تحت الرجل من جلسائه إكراماً له . وحضر أحمد بن يوسف وتجفّر المأمون على عادته، ثم أمر بوضع الحجّرة تحت أحمد بن يوسف ؛ فقال : هانوا ذا المروءة ! فقال المأمون : ألنا يقال هذا ؟ ونحن نَقِيل رجلاً واحداً من خدمنا بسنة آلاف دينار ! إنما قصدنا إكرامك ، وأن أكون أنا وأنت قد اقتسمنا بخوراً واحداً ؛ يُحَضَّرُ عنبراً فأحضر منه شيء في الفاية من الجلوده ، في كل قطعة ثلاثة مثاقيل ، وأمر أن تُطرح القطعة في الحجّرة بتجفّرها أحمد بن يوسف ، ويُدْخِل رأسه في زيقه حتى يَنفَدَ بخورها ، وفُعل به ذلك بقطعة ثانية وثالثة ، وهو يستغيث ويصيح ، وانصرف إلى منزله وقد أحترق دماغه ، وأعتل سنة ٢١٣ وقيل سنة ٢١٤ هـ .

وكانت له جارية يقال لها تميم ، لها من قلبه مكان خطير ، فقالت تربيته :  
ولو أنّ مَيِّتاً هَابَهُ الموتُ قَبْلَهُ \* لما جاءه المِقْدَارُ وهو هَيَّوبٌ  
ولو أنّ حَيّاً قَبْلَهُ هَابَهُ الرِّدْهُ \* إذا لم يكن للارض فيه نصيبٌ  
وقالت أيضاً تربيته :

نَقِيصِي فَنَدَاؤُكَ لَوْ بِالنَّاسِ كُلِّهِمْ \* ما بي عليك تَمَنُّوا أَنَّهُمْ ماتوا  
وَلَوْلَوِي مَوْتُهُ فِي النَّهْرِ وَاحِدَةً \* وَلِي مِنَ الْحَمِّ وَالْأَحْزَانِ مَوَاتٌ

### (و) يحيى بن أكرم القاضي :

هو أبو محمد يحيى بن أكرم بن محمد بن قطن ينتهي نسبه إلى أكرم بن صبيح التميمي حكيم العرب المعروف .

عرف التاريخ يحيى بن أكرم حَدَّثَنَا في مجلس سفيان بن عُيينة ، المعروف بعامة وورعه ونفوذه ؛ إذ يقول ابن خَلِّكَان في كتابه "وفيات الأعيان" : ورأيت في بعض المجاليع أن سفيان نخرج يوماً إلى من جاءه يسمع منه وهو متجفّر ، فقال : أليس من الشقاء أن أكون جالساً متحفّزاً برئ سعيد وجالس هو أبا سعيد الخدرى ، وجالست عمرو ابن دينار ، وجالس هو عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، وجالست الزهري وجالست



هو أنس بن مالك، حتى عُدَّ جماعة، ثم أنا أجالسكم! فقال له حَدَّثْ في المجلس: اِشْصَفْ يا أبا محمد، قال: إن شاء الله تعالى، فقال: والله لَشَفَاءُ أصحاب أصحاب رسول الله بك أشدَّ من شفاك بنا! فأطرق سفيان وأشدَّ قول أبي نُوَّاس:

خَلَّ جَنَيْتِكَ لِرَامٍ • وَأَمِضْ عَنْهُ بِسَلَامٍ

مُتْ بِدَاءِ الصَّمْتِ خَيْرٌ • لَكَ مِنْ دَاءِ الْكَلَامِ

إِنَّمَا السَّالِمُ مِنَ النَّجَمِ فَأُوْهُ بِلِجَامٍ

تفتقر الناس وهم يتحدّثون برجاجة الحدّث، وكان ذلك الحدّث يحيى بن أكرم القميّ، فقال سفيان: هذا الغلام يصلح لصحبة هؤلاء، يعني السلاطين. اهـ

هذا كل ما نعلمه عن حدائمه يحيى بن أكرم. وهى حدائمه تبشر بما سيكون فهذا الناشئ من مكانة ونفوذ جديرين بما وهبه الله من ذكاء وسرعة خاطر، وقوّة قلب وسلطنة لسان. تلك المحاول كانت واضحة فيه، وقد جعلته حديث حاضري مجلس سفيان، وحملت سفيان حل أن يقول عنه: هذا الغلام يصلح لصحبة هؤلاء (مشيرا الى ولاية الأحكام)! لقد صدقت الأيام حدّس سفيان فيه، فقد انخرط يحيى في سلك القضاة صغيرا لتجاربته، ثم درج في مناصب القضاء حتى تبوأ أسمى مناصب الدولة؛ تبوأ منصب قاضي القضاة، ومنصب الوزارة للأُمون، منظورا اليه في كل ما تولّاه من المناصب بالتجلّة والإكبار من الخاصّة والعامة.

ونحن ذاكرين لك حياته وما تولّاه من مناصب، ومكانته العلمية والأدبية، وما كان متصفا به من الحزم وحسن السياسة، وأقوال الناس فيه وفي أخلاقه، ووجهة نظر كل فريق من الناس فيه، معتمدين في ذلك على ما بين أيدينا من مصادر تاريخية وأدبية، منبهين على ما يمكن أن يقع بينها من خلاف كثير أو قليل.

### أول عمل تولّاه :

أما أول عمل تولّاه فيحدثنا عنه ابن طيغور بقوله: «قال حدّثي أحمد بن صالح الأنضمي، قال: هل تدري ما كانت سبب يحيى بن أكرم؟ قلت: لا وإني أحب أن أعرفه.

قال : يحيى بن خاقان هو واصله بالحسن بن سهل وقربه من قلبه وكثر به صدره، حتى ولّاه قضاء البصرة ثم استوزره المأمون فقلب عليه . وحديث عبد الله بن أبي مروان الفارسي ، قال : كان تسمية سبب يحيى بن أكرم في قضاء البصرة مرتين وسبب تخلصه من الخادم الذي أمر بتكشيفه بالبصرة ، ويقال : إنه قطع خُصيتَه في تعذيبه بالقصب اه .

ويقول ابن خلكان في سبب اتصاله بالقضاء : أراد المأمون أن يوّلي رجلا القضاء ، فوُصِف له يحيى بن أكرم فاستحضره، فلما حضر دخل عليه، وكان دميم الخلق فاستحقره المأمون لذلك ، فعلم ذلك يحيى فقال : يا أمير المؤمنين سلني إن كان القصد علمي لا خلقي ؛ فسأله المأمون المسألة المعروفة في الميراث بالمسئلة المامونية ، وهي أبوان وبنتان لم تقسم التركة حتى ماتت إحدى البنين وحلفت من في المسألة ، فقال يحيى : يا أمير المؤمنين، الميت الأول رجل أم امرأة ؟ فعرف المأمون أنه قد عرف المسألة فقلّده القضاء .

ثم يذكر لنا ابن خلكان بعد ذلك نقلا عن تاريخ بغداد للخطيب : أنّ يحيى بن أكرم ولى قضاء البصرة وسنه عشرون سنة أو نحوها، فاستصغره أهل البصرة فقالوا : كم سنّ القاضي ، فعلم أنه قد استصغر فقال : أنا أكبر من عتاب بن أسيد الذي وجه به النبي صلى الله عليه وسلم قاضيا على مكة يوم الفتح ؛ وأنا أكبر من معاذ بن جبل الذي وجه به النبي صلى الله عليه وسلم قاضيا على اليمن ؛ وأنا أكبر من كعب بن سور الذي وجه به عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قاضيا على أهل البصرة ، فجعل جوابه احتجاجا .

قد مرّفت مما ذكرناه عن ابن طيفور المعاصر ليحيى وعن ابن خلكان أن بين روايتي المؤرخين في سبب اتصال يحيى بالقضاء خلافا ، فابن طيفور يروي لنا أنه اتصل أولا بالحسن بن سهل نائب الخليفة المأمون في بغداد ثم ولّاه قضاء البصرة . وابن خلكان يروي لنا أنه اتصل بالمأمون وبسد أن اءمجنه وعرف فضله ولّاه القضاء . فهل يمكن التوفيق بين روايتيهما .

يُخَيَّلُ البنا أنَّ كلَّتا الروايتين صحيحة، خصوصاً إذا ذكرنا مارواه ابن طيفور من أن ثمانية كان سبب يحيى بن أكرم في قضاء البصرة مرتين، إذ يمكن أن تكون توليته قضاء البصرة في المرة الأولى كانت عن طريق اتصاله بالحسن بن سهل، وأن توليته في المرة الثانية كانت عن طريق اتصاله بالخليفة المأمون، وأن ما ذكره ابن خلكان في تاريخه من استصغار أهل البصرة له ثم احتجابه عليهم بما فعله النبي صلى الله عليه وسلم وبما فعله عمر رضي الله عنه كان في المرة الأولى .

وبهذا التحليل نستطيع أن نفهم ما يذكره المؤرخون من أنه عزل من قضاء البصرة لأمره بتعذيب خادم بالقصب بعد تكشيفه حتى قطعت خصيته، ثم ما يذكره من أنه عزل لقوله أبياتا من الشعر تغزلا في ابني مسعدة، وكانا على نهاية الجلال .

ومهما يكن من شيء، فنحن نرجح أنه تولى قضاء البصرة مرتين : الأولى عن طريق الحسن بن سهل ثم عزل لأحد السببين المذكورين أو غيرهما مما لا نقطع به، والثانية عن طريق المأمون .

بقى شيء آخر فيا يرويه ابن خلكان نريد أن نلفت النظر إليه، فقد يكون فيه شيء من التناقض أو السهو . ذلك بأنه يروي لنا أن يحيى حين تولى قضاء البصرة كانت سنة نحو عشرين سنة وأن أهل البصرة استصغروه فاحتج عليهم بما فعله النبي وعمر . وسواء أكانت توليته عن طريق الحسن بن سهل أم عن طريق المأمون فهي لا تبدو أوائل القرن الثالث الهجري، ثم يذكر بعد ذلك أنه تولى بالربذة سنة اثنتين وأربعين ومائتين وقبل غمرة ثلاث وأربعين وعمره ثلاث وثمانون سنة، إذ مهما بالغنا في سنة تمثين مع رواية ابن خلكان نقلا عن تاريخ بغداد من أنه تولى قضاء البصرة وسنة نحو العشرين فلن ندو به الستين إلا قليلا، فكيف يمكن التوفيق بين هذا وبين ما يقوله ابن خلكان من أنه تولى وعمره ثلاث وثمانون سنة! ولو فرضنا صحة ما يقوله ابن خلكان في عمره حين الوفاة، وفرضنا أيضا صحة ما نقله عن تاريخ بغداد من أنه تولى قضاء البصرة وسنة نحو

العشرين لكانت توليته قضاء البصرة في النصف الأول من عهد الرشيد لا في عهد المأمون ، وهو خلاف الجمع عليه وخلاف ما ينقله هو أيضا من أن توليته البصرة كانت سنة اثنين ومائتين .

ثم نرى يحيى بعد أن عزل من قضاء البصرة في بغداد ثاوريا في دار شادها له صديقه الحميم كمامة بن أشرس بحضرته ؛ وكان كمامة بن أشرس هذا عالما متكلمًا سليط اللسان قوى الحجّة ذا آراء في الاعتزال واليه تنسب الطائفة الشامية من المعتزلة ، وكان متصلا بالمأمون ، محبًا إليه ، موثوقا به منه ، فكان خير وسيلة لاتصال صديقه يحيى بالخليفة المأمون ؛ ثم عرف المأمون ما في يحيى من علم وذكاة وحزم فأدناه إليه وقرب به منه وخصّه برعايته وعطفه حتى غلب عليه دون الناس جميعا .

ويحدثنا ابن طيفور أن يحيى بن أكرم قال للمأمون : أظهر لكل قاضٍ ما تريد أن توليه إياه وأمره بكنائه ، ثم أنظر أيفعل أم لا ، وضمّ عليهم أصحاب أخباره ؛ فقال له المأمون : أولئك قضاء القضاة ، وقال لغيره ما يريد أن يوليه ، فشاع ذلك كله إلا خبر يحيى فإنه أماه أن الناس ذكروا أنه يريد الخروج الى البصرة على قضائها ، فنقمهم وقال له : كيف شاع هذا وأمرت باكتراه السفن الى البصرة ؟ قال يحيى : يا أمير المؤمنين ، ليس يستقيم كتابان شيء إلا بإذاعة ضيره وإلا وقع الناس عليه ؛ قال : صدقت وحده .

من المجمع عليه أن يحيى بن أكرم كان قاضى القضاة للخليفة المأمون ، ولكن هل تَوَزَّر له ؟ لم يذكره الفخري في وزراء المأمون ، لكن ابن طيفور ذكر فيها نقلناه عنه أن المأمون استوزره ، فهل يمكن أن يكون المراد من استيزار المأمون له ما ذكره طلحة بن محمد بن جعفر إذ يقول في آخر وصفه لفضل يحيى بن أكرم وعلمه وأخلاقه : وكان المأمون ممن يرجع في العلوم فعرف من حال ابن أكرم وما هو عليه من العلم والعقل ما أخذ يجامع قلبه حتى قلّده قضاء القضاة وتدير أهل مملكته ، فكانت الوزراء لا تعمل في تدبير الملك شيئا إلا بعد

مطالعة يحيى بن أكرم . ليس يبعد أن يكون هذا هو المراد . على أن قد عددها من وزراء المأمون في كلمتنا المجملة من وزراءه .

ومهما يكن من شيء ، فقد كان يحيى بن أكرم قاضي القضاة وصاحب الكلمة العليا والأمر النافذ في الدولة ، وكانت مكانته من المأمون لا تدنو منها مكانة . ولكي تُقدَّر حظوته لدى المأمون وأدب المأمون معه نورد لك ما يروى عن يحيى بن أكرم نفسه . قال :

«مَت ليلة عند المأمون فانتبه في بعض الليل فظن أني نائم ، فمطش ولم يدعُ السلام لئلا أُنْتَبه ، وقيام متسللاً خائفاً هادئاً في خُطاه حتى أتى البرادة ، فشرب ثم رجع وهو يخفى صوته كأنه لصّ حتى اضطجع ، وأخذهُ سُعَالُ فَرَأَيْتَهُ يَجْمَعُ كَهْ فِي فَمِهِ كَي لَا أَسْمَعُ سَعَالَهُ ، وطلع الفجر فأرَاد القيام وقد تناومت فصَسَرَ إلى أن كادت تفوت الصلاة ، فتَحَرَّكَ ، فقال : الله أكبر ، يا غلام تَبَّه أبا محمد . فقلت : يا أمير المؤمنين رأيت بعيني جميع ما كان الليلة من صليمتك وكذلك جعلنا الله لكم عبيداً وجعلكم لنا أرباباً » .

وهناك حكاية أخرى تدلُّ على أدب المأمون وحُظوة يحيى لديه ، وهي مَرْوِيَةٌ عَنْ ثُمَامَةَ ابْنِ أَشْرَسَ صَدِيقِ يَحْيَى وَثِقَةِ الْمَأْمُون . قال ثُمَامَةُ : « كان يحيى بن أكرم يَأْشِي الْمَأْمُونُ يَوْمَا فِي بَسْتَانِ مُوسَى وَالشَّمْسُ عَنْ يَسَارِ يَحْيَى وَالْمَأْمُونُ فِي الظِّلِّ ، وَقَدْ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى عَاتِقِ يَحْيَى وَهُمَا يَتَحَادَثَانِ حَتَّى بَلَغَ حَيْثُ أَرَادَ ، ثُمَّ كَرَّ رَاجِعاً فِي الطَّرِيقِ الَّتِي بَدَأَ فِيهَا ، فَقَالَ لِيَحْيَى : كَانَتِ الشَّمْسُ عَلَيْكَ لِأَنَّكَ كُنْتَ عَنْ يَسَارِي وَقَدْ نَالَتْ مِنْكَ ، فَكُنِ الْآنَ حَيْثُ كُنْتُ وَأَتَحَوَّلُ أَنَا إِلَى حَيْثُ كُنْتَ ، فَقَالَ يَحْيَى : وَافَقَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَوْ أُمَكِّنِي أَنْ أَقْبِكَ هَوَّلَ الْمُطْلَعِ بِنَفْعِي لَفَعَلْتُ ، فَقَالَ الْمَأْمُونُ : لَا وَافَقَ مَا بَدُّ مِنْ أَنْ تَأْخُذَ الشَّمْسُ مِنِّي مِثْلَ مَا أَخَذَتْ مِنْكَ ، فَتَتَحَوَّلَ يَحْيَى وَأَخْذَ مِنَ الظِّلِّ مِثْلَ الَّذِي أَخْذَ مِنْهُ الْمَأْمُونُ » اهـ .

ولم يزل في هذه الرعاية من المأمون والخطوة لديه ، يفوض إليه المأمون جليل الأعمال ويرسله في مهمات الأمور ، حتى كانت سنة ٢١٦ هـ إذ نرى المأمون بمصر يَسْخَطُ عَلَى يَحْيَى بِنِ أَكْرَمِ الَّذِي كَانَ فِي حَاشِيَتِهِ وَيُرْسِلُهُ مَغْضُوباً عَلَيْهِ إِلَى الْعِرَاقِ ، ثُمَّ يَبْلُغُ مِنْ حَقِّقِهِ عَلَيْهِ أَنْ يَكْتُبَ

في وصيته الي وليّ عهده المعتصم محذراً إياه من اصطناع الوزراء والركون اليهم ضارباً بيحيى ابن أكرم مثلاً في سوء السيرة وقبيح الفعل . ونحن تلقى على مسامعك ما كتبته في وصيته متعلقاً بيحيى : «ولا نتخذن بعدى وزيراً تلقى إليه شيئاً ، فقد علمت ما نكتبني به يحيى بن أكرم في معاملة الناس وخبت سيرته ، حتى أبان الله ذلك منه في صفحة منى ، فصرّت الى مفارقتة قالاً له غير راض بما صنع في أموال الله وصدقاته ، لا جزاء الله عن الاسلام خيراً » .

ثم لم تزل تختلف الأحوال على يحيى بن أكرم بعد ذلك ، وتتقلب به الأيام حتى أيام المتوكل على الله ، فلما عزل القاضي محمد بن القاضي أحمد بن أبي دؤاد قوض ولاية القضاء الى القاضي يحيى وخلع عليه خمس خلع ، ثم غضب عليه المتوكل وعزله سنة أربعين ومائتين وأخذ أمواله وألزم منزله . ثم حج بعد ذلك وأخذ معه أخته واعترم أن يجاور ، ثم بلغه رضا المتوكل عنه ورجوعه له ، فبدا له في المجاورة ورجع يريد العراق ، فلما كان بالريّة في طريقه الى العراق واقعه المنية يوم الجمعة متصيف ذى الحجة سنة أربعين ومائتين ، وقيل غرة ثلاث وأربعين ومائتين ودفن هناك . وقد قدّمنا لك ما ذكره ابن خلّكان في عمره حين الوفاة وشفعناه بما يمكن أن يكون في كلامه من تناقض أو صهو أو تحريف .

كان يحيى بن أكرم فقيهاً طالماً بالفقه ، بصيراً بالأحكام ، وقد عدّه الدارقطني في أصحاب الشافعي رضي الله عنه ، راوياً للحديث ، أخذاً بحفظ كبير من كل فنّ ، سمع الحديث عن عبد الله بن المبارك وسفيان بن عيينة وغيرهما ، وروى عنه الترمذي وغيره من رجال السنّة وحفظة الحديث . وكانت له منزلة سامية لدى رجال الدين وعلما الجماعة . وما رفع منزلته لدى الناس جميعاً موقفه المشهور ، مع المأمون مما يدلّ على سعة علمه وقوة حجه وعظيم جراته . ذلك بأن المأمون رأى وهو في طريقه الى الشام جواز نكاح المتعة فوقف له يحيى موقفاً أكسبه حمد أئمة الدين وشامهم عليه . ونحن نرجى اليك هذا الحديث قللاً عن ابن خلّكان . قال : «حدثت محمد بن منصور قال : تكلم مع المأمون في طريق الشام فأمر فنودى بتحليل المتعة ، فقال يحيى بن أكرم لي ولأبي العيّن : بكرة غدا إليه فإن رأيتما للقول

وجها فقولاً وإلا فأمسكاً إلى أن أدخل، قال: فدخلنا عليه وهو يستاك ويقول وهو متعاط: متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى عهد أبي بكر رضى الله عنه وأنا أنهى عنها! ومن أنت يا جعل حتى تنهى عما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضى الله عنه! فأوما أبو العيئة إلى محمد بن منصور وقال: رجل يقول في عمر بن الخطاب ما يقوله نكله نحن! فأمسكاً، فجاء يحيى بن أكرم مجلس وجلسنا، فقال المأمون ليحيى: مالى أراك متغيراً؟ فقال: هو غم يا أمير المؤمنين لما حدث في الإسلام، قال: وما حدث فيه؟ قال: النداء بتحليل الزنا، قال: الزنا؟ قال: نعم، المتعة زنا، قال: ومن أين قلت هذا؟ قال: من كتاب الله عز وجل وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: ((قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)) إلى قوله ((وَالَّذِينَ هُمْ يُقْرُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَبَيْنَهُمْ صَبْرٌ مَوْجِبٌ، فَسَنُأْتِيَنَّكَ رَأً ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ السَّادُونَ)) يا أمير المؤمنين، زوجة المتعة ملك يمين؟ قال: لا، قال: فهى الزوجة التى عند الله ترث وتورث وتلحق الولد ولها شرائطها؟ قال: لا، قال: فقد صار متجاوز هذين من العادين؟ وهذا الزهرى - يا أمير المؤمنين روى عن عبد الله والحسن أبى محمد بن الحنفية عن أبيهما عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال: أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن أنادى بالنهى عن المتعة وتحريمها بعد أن كان قد أمر بها، فالتفت إليا المأمون فقال: أمحفوظ هذا من حديث الزهرى؟ قلنا: نعم يا أمير المؤمنين رواه جماعة منهم مالك رضى الله عنه، فقال: استغفر الله! نادوا بتحريم المتعة فنادوا بها. " اهـ

أما آراء يحيى الكلامية فإن المأخوذ يقف أمامها موقف حيرة وإحجام، ويحتاج إذا أراد أن يسدى رأياً فيها إلى شيء غير قليل من الأناة والروية. ذلك بأن يحيى كان يقف موقفاً قريباً من الفئدة العنيفة التى كانت مضطربة في وقته، فهو قاضى قضاء المأمون، ومنزلته منه منزلة يُغبط عليها، والمأمون زعيم الفائلين بخلق القرآن، وهى بدعة اعتزالية، ثم هو في الوقت نفسه مرضى عنه من الجماعة وأهل السنة، ثم نراه حيناً يقف موقف المعارضة من صديقه

وحجيمه ثُمَامَةُ بن أشرس المعتزلي وزعيم الطائفة الثُمَامِيَّة، معارضة قسَّدت في بعض الأحيان الى المخاشنة والمهادنة . وأنت تعلم مَنْ هو ثُمَامَةُ وما علاقته بالمأمون وثقة المأمون به ، ثم تعلم ما كانت علاقته بجيحي نفسه وكَمْ له من يدٍ عليه . أضف الى كل هذا ما يرويه ابن خلِّكان من أنه كان يقول : القرآن كلام الله ، فرب قال : إنه مخلوق يستتاب ، فإن تاب وإلا ضريت عنه . ولاحظ أنَّ المأمون زعيم الفاطنين بذلك .

فهل يمكن مع ذلك إبداء رأى في عقيدة جيحي الكلامية ؟ وهل يمكن أن تكون كل هذه الروايات صحيحة مع ما يبدو عليها من شبه تناقض ؟

نظن أنه باستعمال شيء من التعليل يمكن إبداء الرأى ، ويمكن التوفيق أيضا . ذلك بأن جيحي بن أكرم كان كَيْسًا حازما ، خفيف الروح حُلُو اللسان ، فاستطاع بذلك أن يدارى الناس جميعا ، خاصتهم وعامتهم ، وأن يكتسب رضاهم جميعا . فاذا حُوِّرَ وجُودَل فاشتدَّ أحيانا فأنما يكون ذلك الى الحدِّ الذى لا يمسُّ مكانته وفوقه ، فبقى في حُظُوة لدى المأمون وإخوان المأمون دونها كل حظوة ، وكان في الوقت نفسه بموضع الكرامة والرضا من أهل السنة والجماعة .

الى هنا لم نستطع أن نبدي شيئا في رأيه . وكل ما يمكن أن يستلبط مما تقدم أنه كان حسن التقية ؛ بارعا في المداواة والمصانعة والرِّياء . وكانت هذه الخلقة من أظهر مُمَيَّزَاتِ المصْرِءِ فالخليفة يدارى فيقابل فائق أخيه بالترحاب ، فاذا ما خرج القائد القاتل وسئل المأمون عن صَبْرَةِ استمberger كانت إجابته : « تقتلى الله إن لم أقتل طاهرا » ، ثم هو بعدُ يوصى صاحب أخباره بالرِّياء ، ويعتد لنا أهل الرِّياء في عصره ، وهالك مثلا قاضى قضائه ككارتى من سيده .

ولكن هل من الممكن أن نستسيغ مشادته العنيفة أحيانا في محاوردة صديقه ومصططحه ثُمَامَةُ بن أشرس ، مع ما في هذه المشادة من نُكْرَانٍ للجصيل ومن تعريض نفوذ الضبايع ، دون أن يكون على حُلف معه في الرأى ، ودون أن يميل الى صحة ما يرويه المؤرخون من أنه كان سليما من البدعة ، يتصل مذهب أهل السنة ؟



هذا ما يمكن أن تؤدى إليه المقدمات وإن كانت حياة يحيى والبيئة التى تحيط به تجعله الى الجانب الآخر أقرب . نريد من كل هذا أن نستنبط رأى يحيى الكلامى وإن كان وهو قاضى القضاة حريصا على أن يكون بنجوة عن منازعات الأحزاب الكلامية ، إذ نظن أن الذى ينصح الى المأمون حين أراد أن يلعب معاوية ، وأن يكتب بذلك كتابا يقرأ فى حفل من الناس بقوله : « يا أمير المؤمنين إن العادة لا تحتمل هذا ، ولا سيما أهل نراسان ، ولا تأمن أن تكون لم نفرة ، وإن كانت لم تدر ما عاقبتها ، والرأى أن تدع الناس على ما هم عليه ، ولا تظهر لهم أنك تميل الى فرقة من الفرق ، فإن ذلك أصلح فى السياسة ، وأحرى فى التدبير » .<sup>(١)</sup> نظن أن الذى يفعل ذلك هو من أحرص الناس .

هذا كله كان فى الفترة التى كان فيها متصلا بمناصب الدولة أو على أمل الاتصال بها . أما بعد أن تحيط عليه المأمون وأقصاه من مناصب الدولة ، وأوصى الى المتنصم بأن يتدزع بالحد من ومن أمثاله ، فقد ظهر يحيى بن أكرم معارضا عنيفا لبدعة خلق القرآن . ومن هنا نميل الى أن نفترض أن الجملة التى رواها ابن خلكان صحيحة النسبة اليه ، وأنها من آثاره بعد غضب المأمون عليه .

### أدبه :

ذكر أن يحيى بن أكرم كان فقيها بصيرا بالأحكام ، راويا للحديث ، آخذا من كل فن بطرف ، ويظهر أن حفظه من الأدب الإنشائى لم يكن يحفظه من غيره ؛ فإنه لم يؤثر عنه فى المصادر التى بين أيدينا من القطع الرائعة الثرية أو الشعرية إلا أبيات من الشعر نسبت اليه فى الغزل بالمذكر . من ذلك ما عرئ اليه حين دخل عليه ابن مسعدة ، وكانا فى نهاية الجبال ، وكانا كسبا يمشيان فى الصبح أنشد قوله :

يا زائرنا من الغليام • حياتكم الله بالسلام

(١) هذه السياسة حازية وهى التى يعمرى عليها الملوك فى الدول التى فيها أحزاب مختلفة يكون الملك فوق الأحزاب منازعتها ولا يظهر عليه حزب دون حزب .

لم تأتيني وبى نهوض \* الى حلال ولا حرام

يحصرنى أن وقفنا بى \* وليس عندى سوى الكلام

ويقال : إن هذه الأبيات كانت سببا لعزله كما قدمنا .

ومما ينسب اليه من الشعر قوله فى غلام جميل كان يكتب بين يديه ، ففرص القاضى خذ ، ليجل الغلام وطرح القلم من يده ، فأمل عليه هذه الأبيات :

أيا قرا بمشقة تفضضا \* وأصيح لى من يديه متجنباً

إذا كنت للتجيش والمضكارها \* فكأن أبدا ياسيدى متنبأ

ولا تظهر الأصداع للناس فتنة \* وتجل منها فوق خديك عقرأ

تقتل مسكينا وتفتن ناسكا \* وتترك قاضى المسابرين مأسأ

ويقول : إن هذه الأبيات قالها فى الحسن بن وهب وهو صبي ، وقد لاعبه وجهه فغضب الحسن .

### أخلاقه :

حسبنا أن نذكر لك دلالة على ما لهذا الرجل من فطنة وحزم وتدير وحسن سياسة أنه تملك قلب المأمون ، الذى قدمنا لك عنه ما قدمنا ، حتى غلب عليه دون الناس جميعا وكان مع ذلك مهيأ ، خفيف الروح ، سليط اللسان ، قوى القلب ، سريع الخاطر . وحسبك دلالة على قوة قلبه وسرعة خاطره ما روى من أن المأمون قال له معرضا به : من الذى يقول :

قاض يرى الحسد فى الزناء ولا \* يرى على من يلوط من يأس ؟ .

قال : أو ما يعرف أمير المؤمنين من الغائل ؟ قال : لا ، قال : يقوله الفاجر أحمد بن ب نعيم الذى يقول :

لا أحسب الجور ينقضى وعلى الأمة وآل من آل عباس

فأعلم المأمون نجلا وقال : يبنى أن يبنى أحمد بن أبى نعيم الى السند . وهذا البيتان من قصيدته التى قد ذكرناها فى الحياة الأدبية لعصر المأمون .

وقد جعل العلماء مقارنة بين أحد بن أبي دؤاد ويحيى بن أكرم في أخلاقهما وآرائهما ونفوذهما لدى الملوك فيقال: إن كليهما غلب على سلطانه في عصره . ووصفهما بعض البلغاء وقد سئل عن أيهما أنبل فقال : كان أحمد يجتهد مع جاريته وأبنته ، ويحيى يزل مع خصمه وعدوه .

### سيرته :

أما سيرته فلم نر رجلا في مركزه الديني والاجتماعي حامت حوله الرِّيب والإشاعات يثُل ما حامت حول هذا القاضي ، ومع هذه الرِّيب والإشاعات فقد كان مرعى الجانب ، موفور الكرامة . ويظهر أن جل الناس حتى أخص أصدقائه به ، كانوا يمنحون الى تصديق هذه الإشاعات ، إلا أئمة الدين فقد كانوا يكبرونه ويتكبرون أن يكون لهذه الاشاعات ظل من الحق ، فقد سئل أحد بن حنبل عن هذه الإشاعات فأنكرها إنكارا .

ولعل الذي يفسر موقف رجال الدين منه هذا الموقف ، وإنكارهم ما ينسب اليه من إشاعات ، موقف يحيى من المأمون يوم (المتعة) وغير يوم المتعة ، مما جعله في نظرهم بطلا من أبطال الدين ، وخليفة يمثل أن يكون بقوة من كل منكر .

أما يحيى نفسه فيحدثنا ابن خلكان نقلا عن ابن الأثيري أنه قال لرجل كان يأس به ويمازحه : ما تسمع الناس يقولون في ؟ . قال : ما أسمع إلا خيرا ، قال : ما أسالك لتزكيني . قال : أسمعهم يرمون القاضي ... قال : فضحك وقال : اللهم غفرا المشهور عنا غير هذا .

ويقال : إن المأمون لما توارثت هذه الإشاعات أراد أن يمتحنه فأخل له مجلسا وأستدعاه ، وكان قد أمر الى غلام تحريزي أن يكون في خدمتهما وحده ، حتى اذا خرج المأمون طاب القاضي ، فلما استقروا بهم المقام وخرج المأمون ، أخذ الغلام يعاتب القاضي ، فسمع المأمون — وكان يستمع حديثهما — القاضي يقول : ” لولا أنتم لكنا مؤمنين “ فدخل عليهما مدشدا قول أبي حكيمة راشد بن اسحاق الكاتب :

وَكَا تَزَيُّ أَنْ نَرَى الدِّلَّ ظَاهِرًا \* فَأَعَقَبْنَا بِسَدِّ الرِّجَاءِ قُؤُوطُ  
مَنْ تَصْلُحُ الدُّنْيَا وَيَصْلُحُ أَهْلُهَا \* وَقَاضَى قَضَاءَ الْمَسَابِينِ يَلُوطُ

وقد قلنا : إنَّ أخصَّ أصدقائه به كان يحنح الى تصديق هذه الإشاعات ، فقد قيل :  
 إنَّ صديقه : أبا عبد الله الحسين بن عبد الله بن سعيد اشتى بعد أن مات يحيى أن يراه  
 في المنام ليعلم ما فعل الله به ! فأوحى اليه الأحلام أن الله غفر له بعد أن وتجه على  
 تخليله ، وأن يحيى حاج ربه بالحديث المشهور : "إني لأستحي أن أعذب ذا شية بالنار"  
 فهل يستوحى الأحلام ليعلم ما فعل الله بصديقه من يعتقد براءته ! .

تأليفه :

يمتسأ المؤرخون أن يحيى بن أكرم ألف كتاباً في الفقه ، وأخرى في الأصول ، وله  
 كتاب أوردته على العراقيين أصحاب أبي حنيفة سماء : « كتاب التنبيه » . وهذا يؤيد  
 ما قاله الدارقطني من أنه كان من أصحاب الشافعي .



( ز ) إسحاق بن إبراهيم الموصلي :

قد يكون حظُّ المنين وأهل الموسيقى المسلمين من عناية المؤرخين في العصور  
 الإسلامية أكثر من حظِّ غيرهم ، وقد عني المؤرخون بتسجيل حوادثهم وألحانهم  
 وإيقاعاتهم ، وما كان يقع بينهم من خلاف مدشؤه المنافسة والحسد ، أو التقرب الى ذوي  
 السلطان ، وما كان يتفق لهم من مفاكهات لطيفة ، وبكات طريفة . وهذه العناية ظاهرة  
 من الكتب الكثيرة التي أُرصدت لهذه الناحية من تاريخ الحضارة الإسلامية ، وقد عيشت  
 الدهر يُمل هذه الكتب ، ولم يبق منها إلا القليل ، وعلى رأس هذا القليل الباقي ، وهو  
 المجلة في هذا الموضوع « كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني » .

وقبل أن نعرض للكلام على إسحاق وتفصيل حياته ، نقرر أننا عاجزون كلَّ العجز  
 عن أن نجلِّو الناحية الفنية من شخصيته ، فإن جلَّء هذه الناحية وكشفها لا يتسقى إلا  
 لرجل أوتي حظاً كبيراً من الموسيقى ، يستطيع به أن يقدر مواهب أهل الفن وما وفَّقوا اليه  
 من إجادة ، وزجوا أن يتباح لإسحاق من يتوافر له هذا الحظ ، فيجلِّو لنا شخصيته الفنية ، ومبلغ

المدى الذى قطعه فى سبيل الكمال الموسيقى، كما أتيح "لبتهوفن" وغير "بتهوفن" من أصحاب المواهب الكبيرة فى الموسيقى، من أبرز شخصياتهم الفنية للناس، وأبان ما لعبقرياتهم من آيات خالديات فى الفن .

وان يستطيع أحد مهما أوفى من مواهب، واتخذ من أسباب أن يحلوا شخصية إسحاق الفنية، ما بقيت مصطلحات الموسيقى العربية مُعلقة لم تفتح، وما بقيت تأليها أجازا لم تحل .

واذ كان هذا هو موقفنا من الناحية الفنية إزاء شخصية إسحاق، فلنكن مؤرخين ليس غير، نُورد لك الحوادث كما رواها المؤرخون، مع تحليل ما نُوفق الى تحليله من أخلاقه وأعماله، فنقول :

هو أبو محمد إسحاق بن إبراهيم بن ميمون بن بهن بن نسل . ووالده إبراهيم وهو ماهان، وسبب نسبته الى ميمون أنه كتب كتابا الى صديق له فعنونه : من إبراهيم بن ماهان ... فقال بعض إخوانه من قتيان الكوفة : أما تستحي من هذا الاسم؟ قال : هو اسم أبى قال : فسيّره ، قال : فكيف أغیره ، فأخذ الفقى الكوفى الكتاب فحما ماهان ، وكتب ميمونا فصار من ذلك الحين إبراهيم بن ميمون .

وأصل أسرة إسحاق من فارس، من بيت شريف فى المعجم، كان هرب جده ماهان من جور بعض عمال بنى أمية لخراج طولب بأدائه، فقتل الكوفة . وأتم إبراهيم والد إسحاق من بنات الدّهاقين الذين هربوا كما هرب ماهان، وتزوجها ماهان بالكوفة، فولدت له إبراهيم ثم مات وسن إبراهيم ستان أو ثلاث فكفل إبراهيم آل نزيمة بن خازم، ومن هنا صار ولأئله الى تميم .

وقد سأل الرشيد ابراهيم عن السبب بينه وبين تميم فقال له : ربونا يا أمير المؤمنين، فاحسنوا تربيتنا، ونشأت فهم وكان بيننا وبينهم رضاع فتولونا بهذا السبب . وقال إسحاق يفتخر بأصله وبنته وكافل أبيه :

إذا كانت الأشراف أصل ومتبعي \* ودافع ضمي حازم وابن خازم  
عطلت بأنف شاخ وتاولت \* بدأى الثريا قاطعا غير قائم

وسبب قولهم الموصلى أنه لما اشتد إبراهيم وأدرك حبيب الفتيان واشتبه الغناء  
وطلبه، فاشتد أخواله عليه في ذلك، وبلغوا منه، فهرب إلى الموصل، وأقام بها سنة، فلما  
رجع إلى الكوفة قال له إخوانه من الفتيان : مرحبا بالفتى الموصلى؛ فغلبت عليه .

ثم ما زال إبراهيم يأخذ بأسباب الغناء حتى حذقه، وأتصل بأحد عمال المهدي، ثم  
بلغ المهدي أمره، فطلبه إليه، وبقي بعد ذلك متصلا بالخلفاء ورجالات الدولة حتى توفى  
في عهد الرشيد سنة ١٨٨ هـ .

أما ابنه إسحاق الذي عقّدنا هذا الفصل لتحليل شخصيته، وللكشف عن مواهبه  
وأخلاقه، فولد سنة ١٥٠ هـ . ولم يظهر شأنه، وتم منزلته إلا في أيام الرشيد، ثم أخذ تجرّه  
يتألق في سماء الخلافة العباسية أيام الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق، ثم توفى  
سنة ٢٣٥ هـ في صدر أيام المتوكل . وكان يحلّ من هؤلاء الخلفاء جميعا بموضع العطف  
والتيعة، وسند ذكر شيئا من صلته بكل خليفة، وما كان يفدقه عليه كل خليفة من  
عطف ومال .

### نشأته :

كان حظ إسحاق من وسائل التهذيب والتخفيف خيرا من حظ والده إبراهيم، فإن  
والده نشأ يتيمًا فكفّله غير أبيه حتى إذا شبّ وترعرع، وظهر ميله إلى نوع خاص من  
الفنون، لم يجد من القائمين بأمره ومن لم سلطان عليه من يقدر استعداد الفطري،  
وتزاته النفسية، حتى أضطر من إلحاح ضغط أخواله عليه، ومطالبهم إياه أن يترك الغناء،  
وآلا يأخذ في شيء من أسباب الموسيقى أن يهيم على وجهه في الأرض، في سبيل تحقيق  
ما يحيل إليه نفسه، ويهيئه له استعداد .

(١)  
أما إسحاق فقد نشأ في بيت أبيه، وشب وترعرع بعينه، وقد وجد من أبيه الذي  
قيم الحياة والدعته الأمها، من يهتم بتتقيقه، ويعتزم نزاهته الفطرية، وميوله النفسية .  
وإسحاق يعد ابن رجل أمير عند الخلفاء، مُقدّم لدى رجال الدولة، وفي وفرة من الثراء،  
وحظّ عظيم من الترفّ، مما يصله به الخلفاء وغير الخلفاء، فاستطاع إسحاق بلقاء أبيه وماله  
أن يختلط إلى جلة العلماء، ويكابر رجال الفنّ، وأدب يرتاد خير البيئات والأوساط التي  
لا يقل أثرها في تهذيب النفوس عن أثر التعليم، وقد كان من حظّ الموسيقى والآداب أن  
تنبها الأبواب وتستوى الوسائل لرجلها الفذّ وتابعتها العظيم .

ويحدثنا إسحاق عن شيء من تربيته وتثقيفه، فيقول : «أُفْتُ دهرًا أغلُس كل يوم  
إلى هشيم، فأسمع منه ثم أصير إلى الكسائي أو إلى الفراء فأقرأ عليه جزءًا من القرآن،  
ثم آتي منصور زئلي، فيضاربني طريقتين أو ثلاثًا، ثم آتي طائكة بنت شهدة، فأخذ منها  
صوتا أو صوتين، ثم آتي الأحمسي وأبا عبيدة، فأنشدهما وأحادهما وأستفيد منهما،  
ثم أصير إلى أبي، فأُعَلِّمه بما صنعت وأخذت، وأتخذى معه وأروح معه عشاء إلى  
أمير المؤمنين» .

فأنت ترى من حديث إسحاق عن فترة من فترات نشأته وتثقيفه، أنه كانت يختلف  
كل يوم إلى رجال الحديث، ثم رجال القرآن والنحو، ثم أهل الفنّ الضاريين على الآلات  
والمُلتحنين، ثم يذهب بعد ذلك إلى أهل الأدب والرواية، فيناشدهم ويحادثهم، ويستفيد  
منهم، ثم يجتمع بأبيه بعد ذلك كله فيخبره بما صنع وأخذ، حتى إذا جاء المساء ذهب مع أبيه  
إلى دار الخلافة، وهي — أياك الله — خير مُتَدَيِّ لرجال العلم والأدب والسياسة في الدولة .

هذه التربية المنظمة، والبيئات الراقية، أخرجت من طفل إبراهيم الموصلي : ذلك  
الطفل الذكيّ النشيط، رجلاً يصفه صاحب الأغاني بقوله : «موضعه من العلم، ومكانه

من الأدب، وعلمه من الرواية، وتقدمه في الشعر، ومزنته في سائر الحاسن، أشهر من أن يدلّ عليها بوصف، وسترى في مقالري ما نورده عليك من أحاديثه، ونوادره أنه ما طالع حلما من العلوم، أو فنا من الفنون، إلا برّح فيه وبرّز .

فاما الغناء، فحدثنا أبو الفرج صاحب الأغاني : أنه كان أصغر علومه، وأدنى ما يؤمم به، وإن كان الغالب عليه وعلى ما كان يحسنه، فإنه كان له في سائر أدوائه، نظراء وأكفاء، ولم يكن له في هذا نظير لحقّ بن معّي فيه، وسبق من قدّنيّ، وسهل طريق الغناء وأثارها، فهو إمام أهل صناعته جميعا، وقدوثهم وأسمهم ومعلمهم، يعرف ذلك منه الخالص والعام، ويتشهد له الموافق والمفارق، على أنه كان أكره الناس للغناء، وأشدّهم بغضا له، لئلا يدعى عليه ويُسَمّى به .

وهذه الجملة الأخيرة، وهي أنه كان من أكره الناس للغناء ... الخ، تدلنا بوضوح على نفسية إسحاق ومطامحه من جهة، وعلى ما كان للفنين وأهل الموسيقى عامة من قيمة ومزلة من جهة أخرى، كما تدلنا على أن المغنين وأهل الموسيقى، كانت منزلتهم مهما نالوا من حظوة لدى الخلفاء وأرباب السلطان دون منزلة الرّواة وأهل الأدب، من الفقهاء ورجال الحديث، وتدلنا أيضا على أن إسحاق كان على النفس، بعيد الهمة، يكره أن يتصل بفن يقعد به دون ما هو خليق به من منزلة ومكانة، وماذا يصنع إسحاق وقد أوتى موهبة لم يؤتها أحد غيره، وهي موهبة تأتي إلا أن تعلن نفسها، كما يعلن الزهر نفسه بأريجها، والقمرى ببديله، وماذا يُجدي عليه كرهه للغناء وبغضه له، وقد يطالبه به من لا يرى سبيلا الى مخالفته ؟

ولقد كان إسحاق في كراهيته للغناء صادق الشعور، صادق الحس، فإنه لم يحل بين المأمون وبين أن يؤيّسه أسمى المناصب إلا شهرته بالغناء، إذ يقول المأمون : « أولا ما سبق لإسحاق على اللّسنة الناس وشهرته عندهم بالغناء، لو ليته القضاء بمحضرق، فإنه أولى به وأعف وأصدق وأكثر ديناً وأمانة من هؤلاء القضاة » . وقد يكون من حق إسحاق أن يكره الغناء، ولأنه لم يخاله به، إذ يرى المناصب السامية في الدولة، يبتوؤها قوم



هم دونه نيا وصلوا إليها به ، وهم وصلوا إليها بالعلم ، وقد كان هو عالم بالفقه والحديث وعلم الكلام ، وباللغة والشعر وأخبار الشعراء وأيام الناس ، وكانت لا يدع فرصة دون أن يعلن بخطئه وما ناله من ظلم ، فقد حدثنا ابن خلكان أن محمد بن عطية المصطوي الشاعر قال : كنت في مجلس القاضي يحيى بن أكثم ، فوافي إصْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْمَوْصِلِيُّ ، وأخذ يناظر أهل الكلام ، حتى انتصف منهم ثم تكلم في الفقه فأحسن ، وقاس واحتج ، وتكلم في الشعر واللغة ففاز من حضر ، ثم أقبل على القاضي يحيى فقال : أعز الله القاضي ، أتى شيء مما ناظرْتُ فيه وحكيته نقض أو مطنن ، قال : لا ، قال : لما بالى أقوم بسائر هذه العلوم قيام أهلها ، وأنسب إلى فن واحد ، قد اقتصر الناس عليه ، يعني الغناء ، قال المصطوي : فالتفت إلى القاضي يحيى ، وقال لي : الجواب في هذا عليك ، وكان المصطوي من أهل الجدل ، فقال للقاضي يحيى : نعم — أعز الله القاضي — الجواب على ، ثم أقبل على إصْحَاقُ فقال : يا إيا محمد ، أنت كالفراء والأخفش في النحو ؟ فقال : لا ، فقال : أنت في اللغة ومعرفة الشعر كالأشعري وأبي عبيدة ؟ قال : لا ، قال : فأنت في علم الكلام كأبي الهذيل والآلاف والنظام البليخي ؟ قال : لا ، قال : فأنت في الفقه كالقاضي ؟ — وأشار إلى القاضي يحيى — فقال : لا ، قال : فأنت في قول الشعر كأبي التمايمية وأبي نوح ؟ قال : لا ، قال : فمن هاهنا نُسِبَتْ إلى ما نُسِبَتْ إليه ، لأنه لا نظير لك فيه ، وأنت في خبره دون رؤساء أهله ، فصيحك وقام وانصرف ، فقال القاضي يحيى للمصطوي : لقد وقَّيتَ المجنَّةَ حقَّها ، وفيها ظلم قليل لإصْحَاقُ ، وإنه ممن يقلُّ في الزمان نظيره . اهـ .

ومهما يكن من شيء فقد اشتهر إصْحَاقُ بالغناء دون غيره ، مما كان يُحسِنُه من سائر العلوم ، وقد كان إصْحَاقُ مع ذكائه وعلمه ، وطق نفسه ، وبُعد همته ، مهيباً كريماً ، جَمُّ الأدب ، عفيف اللسان . أما عن كرمه فيروى لنا صاحب الأغاني ، أنه كان يُعزِّي على أبي عبيد الله الأعرابي في كل سنة ثلاثمائة دينار ، وأن ابن الأعرابي هذا وقف على

المدائن يوما، فقال له المدائن : الى أين يا أبا عبد الله ؟ فقال : أمضى الى رجل هو كما قال الشاعر :

تري بأشباحتنا الى ملك \* نأخذ من ماله ومن أدبه

قال : ومن ذلك ؟ قال : إسحاق بن إبراهيم .

وإنا نسوق اليك قصة أخرى وهى مع دلالتها على شَفَفِ إسحاق بالعلم ، والجُرْحِ على استنباطه ، تدل أيضا على سخاء نفسه وكرمه .

قال إسحاق : جئت يوما الى أبى معاوية الطيرى ، ومضى مائة حليث ، فوجدت حاجبه يومئذ رجلا ضيرا ، فقال لى : إن أبى معاوية قد ولانى حجابته ليتفنى ، فقلت له : معى مائة حليث ، وقد جعلت لك مائة درهم اذا قرأتها ، فاستأذن لى ، فدخلت على أبى معاوية فلما عرفتني دعاه ، فقال له : أخطأت ، إنما جعلت لك ذلك على الضعفاء من أصحاب الحديث ، فأما أبو محمد وأمثاله فلا ، ثم أقبل على رغبى فى الإحسان اليه ، ويذكر ضعفه ، وعنايته به ، فقلت له : احتكم فى أمره ، فقال : مائة دينار ، فأمرت الغلام بإحضارها ، وقرأت عليه ما أردت وانصرفت . وهذه القصة تدل على أريحيته الى جانب دلالتها على علمه .

قال أحمد بن الهيثم : كنت يوما جالسا «بسر من رأى» عند إخوان لى ، وكان طريق إسحاق فى مضيه الى دار الخليفة ، ورجوعه علينا ، فجاءه الغلام يوما ، وعندى أصدقائى ، فقال : إسحاق بن إبراهيم الموصلى بالباب ، فقلت : يدخل ، أوفى الأرض من يستأذن عليه لإسحاق ، فذهب الغلام يأذن له ، وبادرت الى تلقيه ، فدخل وجلس متبسطا آنسا ، فمرصنا عليه ما عندنا ، فأجاب الى الشراب ، فأحضرنا بيذا مشمسا ، فشرب منه ، ثم قال : أتحيون أن أغنيكم ؟ قلنا : إيا والله ! أطال الله بقاءك ، إنا نحب ذلك ؛ قال : فلم لا تسألوننى ؟ قلنا : هيئناك ، قال : فلا تفعلوا ، ثم دعا بعود ، فأحضرناه فاندفع يفتى ، فشربنا وطربنا ، فلما فرغ قال : أحسست أم لا ؟ قلنا : نؤلى والله ! جعلنا فداك ، لقد أحسست ؛ قال : فما

منعكم أن تقولوا لي أحسنتم؟ قلنا : أقيسة والإجلال لك ، قال : فلا تفعلوا هذا فيما تستأنفون ، فإن المُنقَى يحب أن يقال له : أحسنتم ، ثم غنى :

خَلِيلٌ هُبَا تَصْطَبِيعُ بِسَوَادٍ \* وَزَوْقُ لَوْبَا هَاهُتْ صَوَادِي  
وَقُولَا لِسَاقِنَا زِيَادُ يُرْقَهَا \* فَقَدْ هَدَّ بَعْضُ الْقَوْمِ سَبْقُ زِيَادِ

فقلتُ : يا أبا محمد ، فمن هو زياد؟ قال : غلامي الواقف على الباب ، أدعُه يا غلام ؟ فدخل فإذا هو غلامٌ خَلَّاسِيٌّ<sup>(١)</sup> ، قيمته عشرون ديناراً أو نحوها ، فقال : أتسألوني عنه ، فأعزكم إياه ، وأدخله إليكم ، ويخرج كما دخل ! وقد سمعتم شعري فيه وغنائى ! أشهدكم أنه حر لوجه الله تعالى ، وقد زوجته أختي فلانة ، فأعينوه على أمره ، قال : فلم يخرج حتى أوصلنا إليه عشرين ألف درهم . ولعل في هذه القصة المتقدمة أيضاً ، مقدماً لك بما كان لإسحاق في نفوس الناس من هيبة وكرامة .

#### منزلة إسحاق في الغناء :

قدما لك أننا نعتزف بالمعجز عن أن نجلو الناحية الفنية من حياة إسحاق ، وأن ذلك لا يتسق إلا لرحل أوتى من المواهب الفنية حظاً عظيماً ، وقدما لك أن إسحاق كان يُحسن كثيراً من العلوم إحساناً به قل أن يتسق لغيره ، وأنه كان مع إجادته الغناء وتبريزه فيه ، وسبقه أقرانه ، يكره أن ينتسب إليه أو يُسمى به ، لأنه كان على النفس ، بعيداً مراعى المهمة ، ويرى أن انتسابه إلى الغناء يقصر به عن بلوغ مراعى همته . والآن نقول : إنه كان مع هذا شديد الغيرة على الغناء ، كثير الذنب عنه ، وله العذر ، فإن صاحب الفن أيا كان الفن ، لا يجد إلى الصبر سبيلاً ، إذا حيث يفته العاشقون أو تهجم عليه المتجهمون .

وإذا كنا نعتزف بالمعجز عن أن نجلو الناحية الفنية لإسحاق ، فإن ذلك لا يمنعا من أن ننقل اليك شيئاً مما رواه المؤرخون ، لتعلم ما كان يُحيط به من إكبار وإعجاب من الخلفاء ، ووجالات الدولة ، وأصحاب الفن ، لتبوضه في قنء ، وتبريزه فيه ، ولتعلم — أيضاً عما كان

(١) الخَلَّاسِيٌّ : الولد بين أروين أسود وأبيض .

يُبدى من ملاحظات - مبلغ ما كان له من دقة حس ، وقوة ذوق ، وحدة شعور ، وسلامة فطرة .

ويعود بنا الكلام عن القصد ، لو أطلقنا لأنفسنا العنان ، في إيراد كل ما نراه حسنا وفريفا من أحاديث إسحاق ومجالسه ، وما كان يتفق له من مفاهيم ونوادر ، لذلك نكتفى بإيراد بعض حوادثه ، مما يتصل بالخلفاء الذين عاشهم ، وما كانوا يحيطونه به من عطف ورعاية .

وقدما لك أن إسحاق ظهر في عهد الرشيد ، وتوفي في صدر أيام المتوكل ، فلنذكر لك شيئا من تاريخه ، ونوادره مع كل خليفة من خلفاء هذه الفترة من العصر العباسي .

أما الرشيد فقد كان يُلقب من إعجابه به ، بأبي صفوان ، ولقبه «إسحاق أبو محمد» كما رأيت ، وقد بلغ من إعجابه به أن استأثر به لنفسه ، ونهاه عن أن يغنى أحدا غيره ، ويحدثنا إسحاق عن هذا بقوله : نهاني الرشيد أن أغنى أحدا غيره ، ثم استوهبني جعفر بن يحيى ، وسأله أن يأذن له في أن أغنيه ففعل ، واففقنا يوما عند جعفر وعنده أخوه الفضل ، والرشيد يومئذ عقيب صلاة قد عوفي منها ، وليس يشرب ، فقال لي الفضل : انصرف الليلة ، حتى أهب لك مائة ألف درهم ، فقلت له : إن الرشيد نهاني أن أغنى إلا له ولأخيك ، وليس يخفى عنه خبري ، وأنا منهم بالميل إليكم ، ولست أعرض له ولا أعرضك ، فلما تكلمهم الرشيد ، وقال : إليه يا إسحاق تركن بالرقعة ، وجلست ببغداد تفتي الفضل بن يحيى ، خلفت بجماته إنني ما جالسته قط إلا على الحديث والمذاكرة ، وإنه ما سمعني قط إلا عند أخيه وحلفته بترية المهدي أن يسأل عن هذا في دارهم من نسائهم ، فسأل عنه فحدثت بمثل ما ذكرته وعرف خبر المائة ألف الدرهم التي بذلها لي ورددتها ، فلما دخلت عليه ضحك ، ثم قال : سألت عن أمرك فعرفته مثل ما عرفتني ، وقد أمرت لك بمائة ألف درهم ، عوضا عما بذله لك الفضل .

ويقول الأصمعي : دخلت أنا وإسحاق بن إبراهيم الموصلي يوما على الرشيد، فرأيتاه نفس<sup>(١)</sup> النفس فأنشدته إسحاق :

وأمره بالبخل قلت لها أقصرى \* فذلك شيء ما إليه مسيل  
أرى الناس خلان الكرام ولا أرى \* بجيلا له حتى انمات خليل  
ورأيت البخل يزري بأهله \* فأكرمت نفسي أن يقال بخيل  
ومن خير حالات الفقى لو علمته \* إذا نال خيرا أن يكون يئيل  
فعلاني فسأل المكثرين تجملًا \* وبالي كما قد تعلّيت قليل  
وكيف أخاف الفقر أو أكرم الغنى \* ورأى أمير المؤمنين جميل

قال فقال الرشيد : لا تخف إن شاء الله، ثم قال : لله در أبيات تأتيها بها، ما أشدّ أصولها، وأحسن فصولها، وأقل فضولها، وأمر له بخمسين ألف درهم، فقال له إسحاق : وصفتك والله يا أمير المؤمنين أحسن منه ، فسلام آخذ الجائزة ؟ فضحك الرشيد، وقال : أجعلوها مائة ألف درهم، قال الأصمعي : فعلت يومئذ أن إسحاق أحذق بصيد الدراهم مني ! .

وكان من أشد منافسي إسحاق في الفناء إبراهيم بن المهدي أخو الرشيد الذي كان يعتز عليه بجباهه ، وباله من حفظ في الفن كبير، ومن أشد الملاحاة التي حدثت بينهما، ما كانت في مجلس الرشيد . قال إسحاق : كنت عند الرشيد يوما، وعنده ندماءؤه وخصته، وفيهم إبراهيم بن المهدي، فقال الرشيد غث :

أعاضل قد نُبئت فما اتبئت \* وقد طال العتاب لما أروعيت  
أعاضل ما كبرت وفي ملهى \* ولو أدركت فأيستك أنثيت  
شربت مدامة ومُقيت أخرى \* وراح المنقشون وما أنقشيت

(١) لقيت نفسه عن الشيء : عيبت وعشت .

فغنيته ، فأقبل على إبراهيم بن المهدي فقال لي : ما أصبت يا إصحاق ولا أحسنت ، فقلت له : ليس هذا مما تعرفه ولا تحسنه ، وإن شئت ففنه ، فإن لم أجِدْكَ أنكَ غطط في منة ابتدائك الى انتهائك ، فدى حلال ! ثم أقبلت على الرشيد فقلت : يا أمير المؤمنين ، هذه صناعتى ، وصناعة أبى ، وهى التى قرئتنا منك ، وأوطأنا بساطك ، فإذا نازعنا أحد بلا علم ، لم نجد بداً من الإيضاح والذنب ، فقال : لا لوم عليك ، وقام الرشيد ليبول فأقبل إبراهيم بن المهدي على وقال لي : وبك يا إصحاق ، أجتري على وتقول ماقلت يا ابن الزانية ! فداخلى ما لم أملك نفسى معه ، فقلت له : أنت تشتمنى ، ولا أقدر على إجابتك وأنت ابن الخليفة ، وأخو الخليفة ، ولو لا ذلك لقلت لك : يا ابن الزانية ، كما قلت لى يا ابن الزانية ، أو ترانى لأحسب أن أقول لك يا ابن الزانية ، ولكن قولى لك ذلك ينصرف الى خالك ، ولو لا ذلك لذكرت صناعته ومذهبه ، قال : وكان يطارا ، ثم سكت ، وعلمت أن إبراهيم يشكونى الى الرشيد ، وسوف يسأل من حضر عما جرى ، فيخبرونه فتلافيت ذلك بأن قلت : أنت تظن أن الخلافة لك ، فلا تزال تهدنى بذلك ، وتعادى كما تعادى سائر أولياء وغلمان أخيك حسداً له ولولده على الأمر ، وأنت تضعف عنه وضعهم وتستهجن بأوليائهم تسقيفاً ، وأرجو ألا يخرجها الله تعالى عن الرشيد ولا عن ولده ، وأن يقتلك دونها ، فان صارت اليك — والعاذ بالله تعالى — فخرام على العيش حينئذ ! والموت أطيب من الحياة معك ، فأصنع حينئذ ما بدا لك ! فلما خرج الرشيد وشب إبراهيم جلس بين يديه فقال : يا أمير المؤمنين ، شتمنى وذكر أسمى واستخف بى ! فغضب الرشيد ، وقال لي : وبك ما تقول ؟ قلت : لا أعلم ، فسأل من حضر ، فأقبل على مسرور وحسين ، فسألها عن القصة ، فجعلتا يجبراناه ووجهه يتربد الى أن انتبيا الى ذكر الخلافة ، فمرى عنه ورجع لونه ، وقال : لا ذنب له ، شتمته فمرفك أنه لا يقدر على جوابك ، ارجع الى موضعك ، وأمسك عن هذا ! فلما انقضى المجلس وانصرف الناس ، أمر بالآبرج ، وخرج كل من حضر حتى لم يبق غيرى ، فساء ظنى وأوهنتى نفسى ، فأقبل على

وقال : يا إسحاق أتراني لم أفهم قولك ومراذك ! وقد زينت ثلاث مرات ، أتراني لا أعرف وقائمتك وإقدامك وأين ذهبت ! وملك لا تعد ! حدثني عنك : لو ضربك إبراهيم أكنث أضربه وهو أحن يا جاهل ! أتراه لو أمر غلامه فقتلوك أكنث أقتله بك ! فقلت : والله يا أمير المؤمنين ، قتلني بهذا الكلام وإن بلغه ليقتلني ، فما أشك في أن بلغه الآن ، فصاح بمسرور وقال : عليّ إبراهيم ، فأحضر فقال لي : قم فانصرف فقلت لجماعة من الخدم — وكلهم كان لي حبيبا ، وإلى ما تلا ، ولي مطيعا — : أخبروني بما يجري ، فأخبروني من غد ، أنه لما دخل عليه وجهه وجهه وقال له : استخف بخادمي وصليقي ، وابن خادمي وصليقي ، وصبيعة أبي في مجلسي ! وتقدم عليّ وتستخف بمجلسي وحضرتي ! هاهاه ! وتقدم عليّ هذا وأمثاله ! وأنت مالك وما للفناء ! وما يدريك ما هو ؟ ومن أخذك به وطارك إياه حتى تسوهم أنك تبلغ فيه مبلغ إسحاق الذي غدي به وعلته ، وهو من صناعته ؟ ثم تظن أنك تحطه فيما لا تدريه ويدعوك إلى إقامة الحجة عليه ، فلا تثبت لذلك ، وتمنم بشمه ، هذا مما يدل على السقوط وضعف العقل ، وسوء الأدب ، من دخولك فيما لا يشبهك وغلبة لذلك على مروءتك وشرfk ، ثم إظهارك إياه ولم تحكه ، وإدعائك ما لا تعلمه حتى يسبك إلى إفراط الجهل ، ألا تعلم أن هذا سوء أدب ، وقلة معرفة ، وعدم مبالاة للخطأ والرد القبيح والتكذيب ثم قال : والله العظيم ، وحق رسوله ، وإلا فانا برىء من المهدي إن أصابه أحد بمكره ، أو سقط عليه حجر من السماء أو وقع من دابته ، أو سقطت عليه سقيفة ، أو مات بغاة ، لأقتلك به ، والله والله وأنت أعلم . قم الآن فأخرج ولا تعرض له . فخرج وقد كاد أن يموت ، فلما كالت بعد ذلك ، دخلت عليه وإبراهيم عنده ، بفعل ينظر إليه مرة ، وإلى مرة ، وبضحك ، ثم قال له : إني لأعلم شئتكم لإسحاق وميلك إليه ، وإلى الأخذ عنه ، وإن هذا لا يمحى من جهته كما تريد ألا بعد أن يرضى ، والرضا لا يكون بمكره ، ولكن أحسن إليه وأكرمه ، وأعترف حقه وصبله ، فانا فعلت ذلك ، وخالف ما تنهواه ، عاقبتك بيد

مستطيلة ولسان منطوق، ثم قال لي : قم الآن الى مولاك ، وابن مولاك ، فقبل رأسه ، فقامت اليه ، وقام اليّ وأصطلحنا .

ولعل ما قدّمناه لك يعطيك صورة واضحة ، عما كان لاصحاق من مكانة لدى الرشيد ، وما كان للرشيد من حذب عليه وير به .

أما مكانة إصحاق عند الأمين وبطانتة ، فأنها لا تقبل ، أبداً الله ، عن مكانته عند الرشيد وبطانة الرشيد ، ولا نرى خيراً في الهلالة على هذه المكانة ، من كلام إصحاق نفسه قال إصحاق : استنداني الأمين يوما ، وهو مُستلقٍ على فراش ، حتى صارت ركبتي على القراش ، ثم قال : يا إصحاق ، أشكو اليك أحماسي ، فعلت بفلان كذا ففعل كذا ، وفعلت بفلان كذا ففعل كذا ، حتى عدت جماعة من خواصه ، فقلت له : أنت يا سيدي تفضل عليّ وتحمسن رأيك فيّ ! ظننت أنّي من يُشاور في مثل هذا الحديث ، تجاوزت بي حدّي ومقداري ، وهذا رأى يَجهل ولا يبلغه قدرى ، فقال : ولم ؟ أنت عندي عالم عاقل ناصح . قلت : هذه المثلة عند سيدي ! ما بُعِثني إلّا أقول إلّا ما أعرف ، ولا أطلب إلّا ما أنال ، فضحك وقال : بلغني أنك عملت في هذه الأيام لحناً في شعر الراعى ، فلم أسمع منك ، فقلت : يا سيدي ما سمعه أحد إلا جَوَّاريّ ، ولا حضرتُ عندك منذُ صنعته . فقال : عنه فقلت : الهيبة والصَّخو يَمنعاني من أن أُؤدِّيه كما أريد ، فلو أنس أمير المؤمنين عبده بشئ ، يُطربه ويُقوى طبعه كان أجود . قال : صدقت ، ثم أمر بالفسادة فتغنينا ، وأمر بالسائر تُحدث ، وغنى من وراءها وشربنا أقداحاً ، فقال : يا إصحاق ، ما جاء أوان الصوت ؟ فقلت : بلى يا سيدي ، وغنيتُ في شعر الراعى :

ألم تسأل بسلامة الدِّيَّارِ \* عن الحى-المُفارق أين سارا

بلى ساءلُها فأبَّتْ جواباً \* وكيف تسأل الدَّمَنَ القفارا

فاستحسنه وطرب عليه ، وقال : يا إصحاق ، لا تطالب بعد البُغية ووجود المُنيّة ، وما أشربُ بقية يومى إلا على هذا الصوت ، ووصلنى وخلع على من ثيابه .



ومما حدث بين الأمين وإسحاق أن الأمين اصطحب ذات يوم ، وأمر بالتوجيه الى إسحاق ، فوجه اليه عدة رُسل كلهم لا يصادفه ، حتى جاء أحدهم به ، بقاء مُتَشَبِّهاً ومحمد مُغَضَّب ، فقال له : أين كنت ؟ ويليكَ ! قال : أصبحتُ يا أمير المؤمنين مُتَسَبِّطاً ، فبكرتُ الى بعض المنتزهات ، فاستطبتُ الموضع فأنفت فيه ، وسقاني زياد فذكرتُ أربابنا للأخطل وهو يسقيني ، فذارك فيها لحناً حسن ، فصنعتُه وقد جئتُك به ، فتبسم وقال : هاته ، فما تزال تأتي بما يرضى عنك عند السُّخط ، ففناه :

إذا ما زيادٌ علّني ثم علّني \* ثلاث زباجات لهن هدير  
نرجعتُ أجر الذيل حتى كَأْتَيْ \* عليك أمير المؤمنين أمير

فقال : بل على أريك قبح الله فعلك ! فما زال إحسانك في غناك يحو إساءتك في فعلك ، وأمر له بألف دينار . وأصل قول الأخطل :

\* إذا ما نديى علّني \*

وزياد هذا غلام لإسحاق . وقد ذكرنا فيما سبق أنه اعتقه وزوجه من أخته بدافع من أريحيته وأثر الشراب فيه .

أما جبد الله المأمون ، فيحدثنا إسحاق عن ناحية من شخصيته ، وهي موقفه من الفناء وسماعه ، وقد ألمعنا إليها حين عرضنا للكلام عن المنادمة في عصره ، ثم نسوق اليك بعد هذا الحديث ما كان لإسحاق من مكانة لدى المأمون أيضاً .

قال إسحاق : أقام المأمون بعد قدومه بغداد عشرين شهراً لم يسمع حرفاً من الأغاني ، ثم كان أول من تغنى بحضرته أبو عيسى بن الرشيد ، ثم واطب على السماع مُستتراً ، متشبهاً في أول أمره بالرشيد ، فأقام على ذلك أربع جميع ، ثم ظهر للنساء والمُتَنِين . وكان حين أحب السماع سأل عني ، فخرجتُ بحضرته ، وقال الطاعن عليّ : ما يقول أمير المؤمنين في رجل يتبه على الخلالة ، وما أبقى من التيه شيئاً حتى استعمله ! فأمسك المأمون عن ذكرى ، وجفاني من كان يصانئ لسوء رأيه في ، فأضرت ذلك بي ، حتى جاءني علويته يوماً فقال لي :

أتأذُنُ لي في ذكرك عند المأمون؟ فإنَّا قد دُعينا اليوم، فقلتُ : لا ولكن غُثِّ بهذا الشعر، فإنه سيمنعه على أن يسألك لِمَ هذا الشعر، فإذا سألك فتح لك ما تُريد، وكان الجواب أَسْمَلَ عليك من الابتداء، فقال : هاتِ؛ فألقيتُ عليه لحى في شعري :

بِأَسْرَحَةِ الْمَاءِ قَدْ سُدَّتْ مَوَارِدُهُ \* أَمَا إِلَيْكَ طَرِيقُ خَيْرِ مُسْدُودِ

لِحَاثِمِ حَامٍ حَتَّى لَا تَرَاكَ بِهِ \* مُخَلِّجٍ عَنِ طَرِيقِ الْمَاءِ مَطْرُودِ

ومضى علويته، فلما استقرَّ به المجلس غناه، فما عدا المأمون أن يسمع الغناء حتى قال : ويحك يا علوية ! لِمَ هذا الشعر؟ قلتُ : يا سيدي لعبد من عبيدك جفوتُه وأطرحته بغير جرم، فقال : إصحاقي تعني؟ فقلتُ : نعم، فقال : يحضر الساعة، بجفاء في رسوله، فحضرتُ فلما دخلت، قال : أدنُ قدنوتُ، ورفع يديه مَدَّهما إليّ، فأكبَّته عليه فاحتضنتني بيديه، وأظهر من يرئى ما لو أظهره صديقٌ مؤانسٌ لصديقه لمره .<sup>(١)</sup>

ثم ما زالت تعظم مكانته عند المأمون، حتى سأله يوما أن يكون دخوله مع أهل العلم والأدب والرِّواية لا مع المغنين، فإذا أراد الغناء غناه؛ فأجابه إلى ذلك . ثم سأله بعد مدة طويلة أن يأذن له بالدخول مع الفقهاء فأذن له، فدخل يوما مع يحيى بن أكرم متمسكين، وعلويته ومضارقي في حُجرة لها جالسين ينتظران جلوسَ المأمون، فرأياهما وقد دخلا حتى جلسا بين يدي المأمون، فكاد علويه أن يُخَيَّنَ، وقال : يا قوم سمعتمُ بأعجب من هذا ! بدخل قاضي القضاة ويده في يد مُغَنٍّ حتى يجلسا بين يدي الخليفة ! ثم مضت مدة فسأل إصحاقي المأمون في لبس السواد يوم الجمعة والصلاة معه في المقصورة، فضحك المأمون وقال : ولا كلَّ هذا يا إصحاقي ! وقد اشتريتُ منك هذه المسألة بمائة ألف درهم، وأمر له بها، وهذا الخبر يُؤيِّد ما ذكرناه في أوَّل كلامنا على إصحاقي من أنه كان يطمع إلى أن يكون في مرتبة غير مرتبة المغنين .

(١) أنظر تلخيص بغداد (ج ٦ ص ٢٢٨) وقد سبق أن ذكرنا هذه القصة في فصل المأدبة صبيحة أخرى :

تقلا عن كتاب التاج .

وانظر الى دقة إحساس إصهاق وقوة ذوقه في تبينه الخطأ في وَتَرٍ واحد من ثمانين وَتَرًا، وكان ذلك في مجلس المأمون، قال إصهاق : دعاني المأمون يوما، وعنده إبراهيم بن المهدي، وفي مجلسه عشرون جارية، قد أجلس عَشْرًا عن اليمين وَعَشْرًا عن يساره، فلما دخلت، سمعتُ من الناحية اليسرى خطأ فأنكرته؛ فقال المأمون : أسمعْتَ خطأ؟ فقلتُ : نعم يا أمير المؤمنين، فقال لإبراهيم بن المهدي : هل تسمعُ خطأ؟ قال لا؛ فأعاد عليّ السؤالَ فقلتُ : بلى يا أمير المؤمنين، فإنه لفي الجانب الأيسر؛ فأعاد إبراهيم سمعه الى الناحية اليسرى، ثم قال : لا، والله يا أمير المؤمنين ماني هذه الناحية خطأ ! فقلتُ : يا أمير المؤمنين مُر الجوارى اللائى على اليمين يُمسِكْنَ، فأمرهنّ فأمسكنَ، ثم قلتُ لإبراهيم : هل تسمعُ خطأ؟ فتسمعُ ثم قال : ما هنا هنا خطأ؛ فقلتُ : يا أمير المؤمنين، يُمسِكْنَ وتضرب الثامنة، فأمسكن وضربت الثامنة، فعرف إبراهيم الخطأ، فقال : نعم يا أمير المؤمنين هاهنا خطأ؛ فقال المأمون عند ذلك لإبراهيم ابن المهدي : لا تُمارِ إصهاقَ بعدها، فإن رجلا عرف الخطأ بين ثمانين وَتَرًا وعشرين حلقًا بلحدرٍ الأُتْمَارِية ! قال : صدقتُ يا أمير المؤمنين؛ وكان في الأوتار كلها منقوشة فاسد التسوية، فطُرب المأمون وقال : لله درك يا إِبْرَاهِيمُ ! فكأن يومئذ .

وخبر آخر يدل على حدِّق إصهاق بفنه في مجلس آخر للمأمون، قال إصهاق : دخلت على المأمون يوما، وعقيد يُفْنِيهِ مُرْتَجِلًا وغيره يضرب عليه، فقال : يا إصهاق كيف تسمعُ مُفْنِيًا هذا؟ فقلتُ : هل سأل أمير المؤمنين غيري عن هذا؟ فقال : نعم، سألت عمي إبراهيم فقرطه، واستحسنه؛ فقلتُ : يا أمير المؤمنين — أدام الله سرورك، وأطاب عيشك — إن الناس قد أكثروا في أصرى، حتى نسبتي فرقة الى التزيُّد في علمي؛ قال : فلا يمنعك ذلك من قول الحق إذا لزمك؛ فقلت لعمري : أردت الصوت الذي غنيتَه، فردّه وتحفظ فيه وضرب عليه ضاربُه، فقلتُ لإبراهيم بن المهدي : كيف رأيته؟ فقال : ما رأيْتُ شيئاً أنكرُ، مما سمعته، فأقبلت على عقيد، وقلتُ له : لا استوفاه : في أيّ طريقة غنيت؟ فقال : في الرَّمَل؛ فقلت للضارب : في أي طريقة ضربت؟ فقال : في المَرْتَجِ الثقيل؛ فقلت : يا أمير المؤمنين، ما عسى أن أقول

في صوت يُغنيهِ مُغَنِّيهِ رَمَلًا ، ويضربه ضاربه هَزْجًا ثَقِيلًا ، وليس هو مصيحا في إيقاعه الذي ضُرب عليه ؟ قال وتَقَهَّمه إبراهيم بن المهدي : فقال : صدَّق يا أمير المؤمنين ، والأمر فيه يَبْنُ ! فَيَجِبُ المأمون من ذلك كيف خَفِيَ على كل من حضر .

أما مَنَزِلُهُ عند الوراق ، فيقول ابن حَمْدُون : سمعت الوراق يقول : ما غَنَّاني إِسحاق قط إلا ظننْتُ أَنَّهُ قد زِيدَ في مَلْعَكِي ، ولا سمعته قط يُغْنِي غِنَاءَ ابن سُرُجٍ إلا ظننْتُ ابن سُرُجٍ قد نُشِرَ ، وأتى لِيَحْضُرُنِي غيره إذا لم يكن حاضرا فَيَتَقَدَّمُهُ عندي بطيب الصوت ، حتى إذا اجتمع عندي رأيت إِسحاق يَلُوحُ ورأيت من ظننْتُ أَنَّهُ يَتَقَدَّمُهُ يَتَقَدَّمُ بِنَقْصٍ ، وإن إِسحاق لِنِعْمَةٍ من نعم الملوك التي لم يَحْظَ أحدٌ بمثلها ، ولو أُنِ أَمْرُ العُمر والشباب والشَّباطِ مما يُسْتَرَى لِاشْتِرَائِهِمْ لَهُ بِشَطْرِ مَلِكٍ .

أما المتوكل الذي تَوَقَّى إِسحاق في أوَّلِ عصره ، فيحدثنا ابن حَمْدُون أَنَّهُ سأل عن إِسحاق ، فعرف أَنَّهُ كُفَّ وَأَنَّهُ يَمْتَزِلُهُ بِبَغْدَادَ ، فكُتِبَ في إحصاءه ، فلما دخل عليه رَفَعَهُ حتى أَجْلَسَهُ قُدَّامَ السَّرِيرِ ، وأعطاه مَحْذَةً ، وقال : بلغني أَنَّ المَتَمِّمَ دفع اليك في أوَّلِ يومِ جَلَسْتُ بين يديه مَحْذَةً ، وقال : إِنَّهُ لَا يَسْتَجِيبُ ما عند حُرْمَلٍ إِكْرَامِهِ ، ثم سأله : هل أَكَلْتُ ؟ فقال : نعم ، فأمر أَن يُسْقَى ، فلما شرب أَقْداحا قال : هاتوا لأبي محمد عودا ، يَخِي به فاندفع يُغْنِي بِشِعره :

ما عِلَّةُ الشَّيْخِ حيناه بأَرْبَعَةٍ \* تَفَرُّوقَانِ بدمعٍ ثم تَلَسَّكِبُ

قال ابن حَمْدُون : لَبَّ ابْنُ غَلامٍ من العِلَّامِينَ الوُفُوفِ إلا وَجِدْتُهُ بِرُقْصٍ طَرَبًا ، وهو لَا يَعْلَمُ بما يفعل ، فأمر له بمائة ألف درهم . ثم انحدر المتوكل إلى الرِّقَّةِ ، وكان يَسْتَطِيبُها لكثرة تَفْرِيدِ الطَّيْرِ فيها ، فغَنَّا إِسحاق :

أَنَّ هَتَفَتْ وَرَقَاءُ في رَوِّقِ الضُّحَى \* على قَتْنٍ غَضُ النَّبَاتِ مِنَ الزَّيْتِ

بَكَيْتُ كَمَا يَكِي الِوَلِيدُ فلم تكن \* جليلا وأبديت الذي لم تكن تُبْدِي

فصلحك المتوكل ، ثم قال : يا إِسحاق ، هذه أَخْتُ قَلْبِكَ بالوراق لَمَّا غَنَيْتَهُ بِالصَّاحِيَةِ :

طَرِبْتُ إلى أَصْبَحِيَّةٍ صِغَارٍ \* وَذَكَّرَنِي الهوى قُرْبَ المَزَارِ

فَكَمِ اعْطَاكَ لِمَا أَذِنَ لَكَ فِي الْانْصِرَافِ؟ قَالَ : مِائَةُ أَلْفِ دِينَارٍ ، فَأَمَرَ لَهُ بِمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَأَذِنَ لَهُ بِالْانْصِرَافِ .

وَأَنَا أَوْ ذَهَبْنَا نَذْكُرُكَ مِنْ أَخِي . إِسْحَاقُ ، وَمَا كَانَ لَهُ مِنْ نَوَادِرٍ فِي مَجَالِسِ الْخُلَفَاءِ وَغَيْرِ مَجَالِسِ الْخُلَفَاءِ مِنْ رِجَالِ الدُّوَلِ لَعَدُّوْنَا حَدَّ الْقَصْدِ ، وَإِنَّمَا يُحِيلُ مَنْ يَرِيدُ التَّرِيدَ مِنْ أَمْرِ إِسْحَاقَ عَلَى كِتَابِ الْأَغَانِي . وَتَحْتَمُّ هَذَا الْفَصْلُ مِنْ أَخْبَارِ إِسْحَاقَ بِمَا قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ عِمْرَانَ الْجُرْجَانِيُّ ، حِينَ ذُكِرَ عَنْدهُ . قَالَ : كَانَ وَاللهُ إِسْحَاقُ غُرَّةً فِي زَمَانِهِ ، وَوَاحِدًا فِي عَصَرِهِ ، عَلَمًا وَفَهْمًا ، وَأَدَبًا وَوَقَارًا ، وَجُودَةً رَأَى ، وَصِحَّةَ مَوَدَّةٍ ، وَكَانَ وَاللهُ يُفْرَسُ النَّاطِقُ إِذَا نَطَقَ ، وَيُخْبَرُ السَّمَاعُ إِذَا تَحَدَّثَ ، لَا يَمَلُّ حَلِيسُهُ فِي مَجْلِسِهِ ، وَلَا تَمُجُّ الْأَذَانُ حَدِيثُهُ ، وَلَا تَبْؤُ النَّفْسُ عَنْ مَطَاوِلَتِهِ ، إِنْ حَدَّثَكَ أَلْسَاكَ ، وَإِنْ نَاطَرَكَ أُنَادَكَ ، وَإِنْ غَنَّاكَ إِطْرَاكَ ، وَمَا كَانَتْ خَصْلَةُ مِنَ الْأَدَبِ وَلَا يَجْلُسُ مِنَ الْعِلْمِ ، يَتَكَلَّمُ فِيهِ إِسْحَاقُ فَيُقَدِّمُ أَحَدًا عَلَى مُسَاجَلَتِهِ أَوْ مَنَاوَلَتِهِ فِيهِ !

قَالَ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ : رَأَيْتُ فِي مَنَايِ جَرِيرٍ جَالِسًا يُشَدُّ وَأَنَا أَسْمَعُ ، فَلَمَّا فَرَّخَ أَخَذَ كُبَّةً مِنْ شَعْرَى فَأَلْقَاهَا فِي " فَاتَبَلَعَهَا ، فَأَوَّلَ ذَلِكَ بَعْضُ مَنْ ذَكَرْتُهُ لَهُ أَنَّهُ وَرَيْتِي الشَّعْرَ . قَالَ زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمُهَلَّبِيُّ : وَكَذَلِكَ كَانَ ، لَقَدْ مَاتَ إِسْحَاقُ وَهُوَ أَشْعَرُ أَهْلِ زَمَانِهِ .

وَقَالَ أَبُو الْفَرَجِ الْأَصْفَهَانِيُّ : وَكَانَ إِسْحَاقُ جَيِّدَ الشَّعْرِ ، كَانَ يَقُولُ وَيُنْسِبُهُ لِلْعَرَبِ ، لَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ :

لَقَطَ الْخُلُودُ حُورًا عَيْنًا \* أَتَسْبِي مَا جَمَعَ الْكَائِسُ قَطِيئًا  
فَإِذَا بَسَمَنَّ فَمَنْ كَبَّلَ غَمَامِيَّةً \* أَوْ أَلْغَسَوْنَ الرِّبْلَ بَاتَ مِيعِيَا  
وَأَمَّعَ مَا رَأَتْ الْعَيُونُ مَجَاجِرَا \* وَلَقَدْ أَمْرُشُ مَا رَأَيْتُ عَيُونَا  
فَكَأَنَّمَا تِلْكَ الْوَجْهِيَّةُ أَهْلِيَّةٌ \* أَقْرَنَ بَيْنَ الْمُتَمَرِّ وَالْعَمِيرِيَا  
وَكَأَنَّهُنَّ إِذَا تَهَضَّنَ لِحَاجِيَةٍ \* يَنْهَضْنَ بِالْمَقْدَاتِ مِنْ يَمِينِنَا

وأشاره في هذا النوع كثيرة. ولعل الذي كان يدفع أولئك الشعراء الى أن ينسبوا خير ما تجود به قرائحهم الى العرب الجاهليين أو أعراب الصحراء، رُوح ذلك العصر، وأنها كانت رُوحاً تميل الى القديم، ولا سيما اذا دُيّن هذا القديم بإطار من خيال الرواة والقصاصين ويظهر أن ما كانوا يظفرون به رِوَاة للشعر العربي أكثر مما كانوا يظفرون به شعراء مجيدين، وإلا فهل يتصور أن ينسب المرء نتاج قريحته الى غيره، ما لم يكن ممن ذلك عطيًا ؟ .

ومن شعر إصحاق ما اعتذر به الى الواقعي حين عتب عليه في تأخره عنه، وهو قوله :

أشكو الى الله بُدَى عن خليفته \* وما أطلع من سُقم ومن كبر  
لا أستطيع رَحِيلًا إن هَمَمْتُ به \* اليه يومًا ولا أقوى على السُفَرِ  
أنوى اليه رَحِيلًا ثم يَمْنَعِي \* ما أَدَّتْ الدهرُ والأيامُ في بَصَرِي

ومن شعره أيضا عند علو سنه :

سَلَامٌ على سِرِّ القَلَاصِ مع التَّركِبِ \* ووصيل الغواني والمُدَامَةِ والشَّرِبِ  
سَلَامٌ أَمْرِي لم يَبْقَ منه بَقِيَّةٌ \* سوى نَظَرِ البَيْتَيْنِ أو شَهْوَةِ القَلْبِ

ومن جيد شعر إصحاق ما كان يستحسنه ابن الأعرابي ويعجب به أيما إعجاب، وهو قوله :

هَلْ الى أن تَنَامَ عيني سَبِيلُ \* إنا عهدي بالنوم عهدٌ طويل  
فاب حَيَّ، مَنْ لا أَمْتِي فَمَعْنِي \* كلَّ يومَ وَجَدًا عليه كَسِيلُ  
إنا ما قَلَّ منك يَكْثُرُ عِنْدِي \* وَكثيرٌ مَن نَحَبُ القَلِيلِ

وكان إصحاق اذا غنى هذه الأبيات تَفِيضُ عِيَاهُ . ولما سُئِلَ عن بُكَايِهِ أجاب :

تَعَشَّقْتُ جارية فقلت لها هذه الأبيات، ثُمَّ مَلَكْتُهَا، فَكنت مَشْغُوفًا بِهَا، حَتَّى كَثُرْتُ وَاعْتَلَّتْ عيني، فإذا غَنَيْتُ هذا الشعر ذكرت آيَهِ المُنْقَدِمَةِ، وأنا أبكي على دهرِي الذي كُنْتُ فِيهِ .

وقال إسحاق: أنشدت الأصمعيّ الأبيات الثلاثة، فجعل يعجب بها ويرددها، فقلت له: إنما بنت ليبتها، فقال: لا بحرّ أن أثر التوليد فيها ظاهر، فقال إسحاق: ولا بحرّ أن أثر الحسد فيك ظاهر! ولعل هذا هو سبب الحقوة التي كانت بين إسحاق والأصمعيّ. فإن ابن منظور يروي لنا في مختصره: أن إسحاق كان يأخذ عن الأصمعيّ ويذكر عنه الروايات، ثم فسد ما بينهما، فهجاه إسحاق وتلبّه، وذكر عند الرشيد أنه قليل الشكر، بخيل، ساقط النفس، لا تزكو الصنعة عنده، وذكر له أبا عبيدة معمر بن المثنى بالثقة والصدق والسباحة، واشتماله على جميع علوم العرب، وفعل مثل ذلك عند الفضل بن الربيع، ولم يزل بهما حتى وضع منزلة الأصمعيّ عندهما، ثم أنفذا إلى أبي مبيدة مالا جليلا واستقدماه، فكان إسحاق سبب ذلك. وكان إسحاق قليل الحجو، فإذا هاجأ رأيت في حموه عفة اللسان، وبجمال التعريض. وزيد أنت نذكر لك من هذا الباب قوله في أحمد بن هشام، وكان إسحاق يأنف أحمد هذا وأخاه عليا وسائر أهله إلفا شديدا، ف وقعت بينهم نبوة ووحشة فهجاهم. وهذا مما قاله في أحمد:

وصافية تُعشى العيونَ رقيقة • رهينة عام في الدنانير وطام  
أدركنا بها الكأس الروية موهنا • من الليل حتى انجأب كل ظلام  
فما ذرّ قرْنُ الشمس حتى كأننا • من الريح تحكي أحمد بن هشام

ويقال إن أحمد سأله ما ذبح؟ فقال: لأني قصدت على طريق القافية...

وكان إسحاق يسأل الله ألا يتلبّسه بالقولنج، ليأري من صُوبته على أبيه، فرأى في منامه كأن قائلا يقول: قد أُجِيتَ دعوئك، ولست تموت بالقولنج، ولكلّ موت بضدّه، ثم أصابه ذرّب في شهر رمضان سنة ٢٣٥ هـ فكان يتصدق في كل يوم يمكنه صومه بمائة درهم، ثم ضعف عن الصوم فلم يطقه ومات في الشهر.

ولمّا نبي إلى المتوكل تمّه وحزرت عليه، وقال: ذهب صدر عظيم من جمال الملك وبهائه وزينته.

## مؤلفاته :

علمت مما أوردناه لك في الكلام على إصحاق أنه كان يُحسن كل ما كان جالسه من العلوم إحساناً قل أن يستوى لغيره ، ولكنه قصر تأليفه على ما قصرته عليه وظيفته ، وعمله ، فألف في الأغاني ، والإيقاع والنغم ، وآداب الشرب ، والندماء . والمُنَادِمَات ، وأخبار الشعراء ، وأهل الفن من المغنين والمُغَنِّيَات . فَمِنْ مؤلفاته : كتاب الأغاني الكبير ، وكتاب المحظ والإشارات ، وكتاب الرقص والزفن ، وكتاب النغم والإيقاع ، وكتاب الندماء والمُنَادِمَات . وله مؤلفات تَمُنُّ سبقه من أهل الفن ، رجالاً ونساءً ، أمثال : مَعْبُد ، وابن مِسْجَع ، وعَمْرَةَ المَيْلَا ، وغيرهم . وله أيضاً كتاب المَدَلِّين ، وكتاب تفضيل الشعر ، وكتاب أخبار ذي الرمة ، وكتاب جواهر الكلام . وله كتاب مُنَادِمَةُ الإِخْوَان ، وتَسَامُرُ الْخِلَآن ، وكتاب الْقِيَّان ، وغير ذلك مما ينطق بعلو كعبه في شتى الفنون ، ويشهد بأنه دائرة معارف هامة .



# عصر المأمون

بقلم

الدكتور

أحمد فريد زفاعي

المفتش بوزارة الداخلية

المجلد الثاني

(حقوق الطبع محفوظة المؤلف)

[الطبعة الثالثة]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٤٦م - ١٩٢٨م



# فهرست

## المجلد الثانى من عصر المأمون

### ملحق الكتاب الأول - عصر بنى أمية

| صفحة      | باب المشور :  |
|-----------|---|
| ١ ... ..  | رسالة أبي بكر بن عبد الله                                   |
| ١٢ ... .. | كلام عائشة رضي الله عنها في الانتصار لأبيها                 |
| ١٤ ... .. | كلمة أم الحسير بنت الحرث                                    |
| ١٧ ... .. | كلمة الزباء بنت عبد الله                                    |
| ١٨ ... .. | كلمة عكرمة بنت الأبرش                                       |
| ٢٠ ... .. | رسالة لبيد الجدي الكاتب كتبها عن مروان بن محمد لبعض من ولده |
| ٥٣ ... .. | رسالة ثانية لبيد الجدي الكاتب أوصى فيها الكاتب              |
| ٥٧ ... .. | رسالة ثالثة لبيد الجدي الكاتب في الشطرنج                    |
| ٦٠ ... .. | رسالة رابعة لبيد الجدي الكاتب وصف بها العبد                 |

### باب المنظوم :

|            |   |
|------------|---|
| ٦٣ ... ..  | أنواع النزل وزعم كل نوع                 |
| ٦٤ ... ..  | النزل الإباحي - عمر بن أبي ديمة         |
| ١٠٣ ... .. | النزل المذموم - جميل                    |
| ١٢٤ ... .. | النزل الصناعي - كثير                    |
| ١٣٨ ... .. | النزل القصصي - قيس بن الخثعم ( المهجر ) |
| ١٥٢ ... .. | قيس بن ذريح                             |
| ١٦٤ ... .. | الشعر السياسي - النعمان بن بشير         |

### ملحق الكتاب الثاني - عصر بنى العباس

### باب المشور :

|            |  |
|------------|--|
| ١٦٩ ... .. | مشاورة المهدي لأهل يه في حرب خراسان                                    |
| ١٨٨ ... .. | رسالة أبي الربيع محمد بن الليث التي كتبها الرشيد إلى قسطنطين ملك الروم |

| صفحة |   |
|------|---|
| ٢٢٧  | رسالة يحيى بن زياد في تقريب الرشد                               |
| ٢٤٤  | كتب الرشد   |
| ٢٤٤  | تتلب عهد الية   |
| ٢٤٧  | نسخة الشرط الذي كتب عبد الله بن أمير المؤمنين بخط يده في الكعبة |
| ٢٤٩  | نسخة كتاب الرشد الى العمال                                      |
|      | باب المنقوسوم :   |
| ٢٥٢  | بشارين برد  |
| ٢٧٧  | حام مجرد  |
| ٢٨٧  | مرمان بن أبي حفصة   |
| ٣٠٠  | أبر دلالة   |
| ٣١٧  | أبان بن عبد الحميد الاحق  |
| ٣٢٦  | أخبار جندان بن أبان   |
| ٣٣٣  | منصور النوى   |
| ٣٣٩  | السيد الجهرى  |
| ٣٤٩  | سلم بن عمرو الخاسر  |
| ٣٥٤  | ربيعة الرق  |
| ٣٥٩  | الرفاقى   |
| ٣٦١  | أبر الناهية   |
| ٣٧٤  | سلم بن الوليد   |
| ٣٩٣  | العباس بن الأخضف  |
| ٤٠٠  | أبر مناذر   |
| ٤٠٣  | صالح بن عبد القدوس  |
| ٤٠٧  | سعيد بن وهب   |
| ٤١١  | الحسن بن وهب  |
| ٤١٩  | أحمد السلى  |
| ٤٢٣  | علي بن الجهم  |
| ٤٣١  | علي بن جبلة   |

# مُلْحَقٌ الكتاب الأول

## باب المنشور

ذكرنا في مقدمة المجلد الأول من "عصر المأمون" أننا قسمنا المجلد الثاني الى ملحقات للكتب الثلاثة عن العصور الثلاثة ، وعُنيّا عناية خاصة الى جانب ذلك بذكر جملة صالحة من آثار كاتب خاص وشاعر خاص لتمثيل عصرهما . واتخذنا من عبد الحميد الكاتب وعمر بن أبي ربيعة نموذجاً أمويّاً ، ومن أبي الربيع محمد بن الليث وإسحاق بن برّدة مثلاً عباسياً ، ومن عمرو بن مسعدة وأبي نؤاس نموذجاً لتصوير الحياة الكتابية والشعرية في عصر الأمين والمأمون ، الى غير ذلك من التمازج والانتازم مما يستدعيه المقام ، وقد أوردناها من غير أن نعرض لها بتحليل أو بيان — اللهم إلا تفسير بعض ألفاظها الغريبة وشرح كلماتها الغامضة — فهي في وضوحها ودلائها على ما أردنا من إيرادها غير محتاجة الى شيء .  
وها نحن أولاء نذكر ما وعدناك به .

### ١ - رسالتا أبي بكر وعليّ

قال أبو حيان على بن محمد التّوحيدى البغداديّ : سمّينا ليلةً عند القاضي أبي حامد أحمد بن بشر المروزيّ ببغداد ، فنصرف في الحديث كلّ متصرف ، وكان غزير الرواية ،

(١) انظر كتاب صبح الأعشى ص ٢٣٧ ج ١

لطيف الدّراية، بغرى حديث السّقيفة، فركب كلّ مركباً، وقال قولا، وعوض بشيء،  
وترجّع الى فنّ . فقال : هل فيكم من يحفظ رسالة لأبي بكر الصّدّيق<sup>(١)</sup>، رضى الله عنه، الى  
على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وجواب على عنها، ومبايسته إياه حفيظ تلك المناظرة ؟  
فقال الجماعة : لا والله ؛ فقال : هي والله من بنات الحقائق، وعجبات الصّناديق، ومنذ  
حفظتها ما رويتها إلا لأبى محمد المهلّبيّ في وزارته، فكتبها عني بيده . وقال : لا أعرف  
رسالة أعقل منها ولا أئين، وإنّا لندلّ على علم وحلم، وفصاحة ونباهة، وبُعد غور، وشدة  
غوص . فقال له العبادانيّ : أيها القاضي، فلو اتّهمت المنّة علينا بروايتها ! اتّمتهاها ،  
فتحنّ أوعى لك من المهلّبيّ، وأوجب ذمّاً ما طيك، فاندفع وقال :

حدثنا الخُزاعيّ بمكة عن أبي ميسرة، قال حدثنا محمد بن أبى قُليّج عن عيسى بن  
دوّاب بن المتّاع، قال سمعت مولاي أبا عبيدة يقول : لما استقامت الخلافة لأبى بكر  
رضى الله عنه بين المهاجرين والأنصار، بعد فتنة كاد الشيطان بها، فدفع الله شرّها وبسّر

(١) هو أبو بكر عبد الله بن أبى طحّانة حنّان بن حاصر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة صاحب رسول  
الله وأول خليفة له في الإسلام وخليفة يوم السقيفة .

ويجتمع نسبه مع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرة بن كعب . ولد بعد مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم  
بستين وبضعة أشهر . ونشأ من أكرم قريش خلقاً، وأرجمهم حلماً، وأسمهم فقه . وكان أعظمهم بالأنساب  
وأيام العرب ومقاترها . مصعب رسول الله قبل النبوة . وكان أول من آمن به من الرجال وصدّقه في كل ما جاء به .  
وذلك سمى الصّدّيق، وأحقّ أمواله في تأييد دعوته، وهاجر معه الى المدينة مؤثراً مصعبه على كل أهله وولده، وشهد معه  
أكثر الغزوات . وما زال يثق ماله وقوته في معاونة رسول الله حتى انتقل صلى الله عليه وسلم الى الرّيق الأجل .  
واخذت العرب، وارتدت عن الإسلام، ومنعت الزكاة إلا أهل المدينة ومكة وتقريباً بالخائف، فجزّو عليهم  
الجيش حتى قهروهم، وجمع العرب على الإسلام، وساقهم قوا إلى فتح عاتك كسرى وقبصر . وما مات إلا وجيوشه  
تبرز جيوش الفرس والروم ويستولون على مدائنهم وحصونهم . وكان رحمه الله ضميماً بلغنا، خطيباً مقفوها، حاضر  
البدية، قوياً أجباً، شديد التأثير، شديد الخطبة يوم السقيفة، وذلك أنه لما مات رسول الله اختلقت الصّحابة  
ممن يبايعونه خليفة له عليهم، فأبى الأنصار إلا أن يكون الخليفة منهم، وأبى المهاجرون من قريش إلا أن يكون  
منهم . واشتدّ النزاع حتى كادت تقع الفتنة، فخطبهم خطبة لم يلبث الجليج بعدها أن يابسه خليفة . وكانت وفاته  
سنة ١٣ هـ وخلافة ستين وثلاثة أشهر وعشر ليال .

خيرها ، بلغ أبا بكر عن عليّ <sup>(١)</sup> تلکؤ وشماس ، وتهم ونفاس ، فكره أن يتبادى الحال فيبدو العورة ، وتشتعل الجهرة ، وتُتفرق ذات البين ، فدعا في محضرته في خلوة ، وكان عنده عمر ابن الخطّاب رضى الله عنه وحده ، فقال : يا أبا عبيدة ، ما أئمن ناصيتك ، وأئمن الخير بين عبيدك ، وطالبا أعز الله بك الإسلام وأصلح شأنه على يدك ، ولقد كنت من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكان المخطوط ، والمحّل المغبوط ؛ ولقد قال فيك في يوم مشهود : " لكل أمة أمينٌ وأمينُ هذه الأمة أبو عبيدة " ، ولم تزل للدين ملتجأ ، وللمؤمنين مُرتجى ، ولأهلك ركا ، ولإخوانك رذما . قد أردتُك لأمرٍ خطره مخوف ، وإصلاحه من أعظم المعروف ، ولئن لم يتدمل جرحه يسارك ويرفكك ، ولم تجب حيتة برقيتك ، وقع الياس ، وأعضل اليأس ، وأحتجج بعد ذلك الى ما هو أمرٌ منه وأعلق ، وأضر منه وأفاق ؛ والله أسأل تمامه بك ، ونظامه على يدك . فتأت له أبا عبيدة وتلطّف فيه ، وأنصح لله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وهذه العصابة غير آل جهدا ، ولا قائل حذبا ، والله كاللئك وناصرك ، وهاديك ومبصرك ، ان شاء الله . امض الى عليّ وأخفّض له جناحك ، وأغضّض عنده صوتك ، واعلم أنه سلالة أبي طالب ، ومكانه ممن فقدناه بالأمس — صلى الله عليه وسلم — مكانه ، وقل : البحر مفرقة ، والبر مفرقة ، والجو أكلف ، والليل أضل ، واليهاء جلواء ، والأرض صلعاء ، والصعود متعذر ، والهبوط متعسر ، والحق خطوف رؤوف ، والباطل عنوف عسوف ، والعجب قذاحة الشر ، والضغن رائد البوار ، والتعريض شجار الفتنة ، والفتنة تقوُب العداوة ، وهذا الشيطان متكئ على شمالك ، متحيل بينه ، نافع حضنة لأهله ، ينتظر الشتات والفرقة ، ويدب بين الأمة بالشحناء والعداوة ، عنادا لله عز وجل

- (١) التماس : المائدة والمائدة . (٢) تهم النفي : طيه وتحسه . (٣) تأس في الشيء : مغاضة : رغب فيه على وجه المبالاة والمقارنة . (٤) تجب : تخطع . (٥) تأتي فلان للأمر : تهيأ له وأتاه من وجهه .  
(٦) الجوز أكلف : أسود كملوه حمرة . (٧) الليل أضل : مرخ سدة نظم . (٨) اليهاء جلواء : مصيبة . (٩) خالية لا يجر فيها . (١٠) أي مستعد لأن يعمل عمله من الشر .

أولاً، ولآدم ثانياً، ولنبيه - صلى الله عليه وسلم - ودينه ثالثاً، يُوسُوسُ بِالْفُجُورِ، وَيُدْخِلُ  
 بِالْفُورِ، وَيُنْجِي أَهْلَ الشُّرُورِ . يُوحِي إِلَى أُولِيائِهِ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً بِالْبَاطِلِ، دَابَّاً لَهُ  
 مِنْذُ كَانَ عَلَى عَهْدِ أَبِينَا آدَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَادَةً لَهُ مِنْذُ أَهَانَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي سَالَفِ  
 الدَّهْرِ، لَا يَنْجِي مِنْهُ إِلَّا بَعْضُ النَّاجِذِ عَلَى الْحَقِّ، وَغَضُّ الطَّرْفِ عَنِ الْبَاطِلِ، وَوَطْءُ هَامَةِ  
 عَدُوِّ اللَّهِ بِالْأَشَدِّ فَالْأَشَدِّ، وَالْإِكْدَ فَالْإِكْدَ، وَإِسْلَامُ النَّفْسِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي آيْتَاءِ رِضَاهِ .  
 وَلَا بَدَّ الْآخَنَ مِنْ قَوْلِ يَنْفَعُ إِذَا ضَرَّ السَّكُوتُ وَيَخِفُّ غَيْبُهُ؛ وَلَقَدْ أُرْشِدَكَ مِنْ أَهَاءِ ضَالَّتِكَ<sup>(١)</sup>،  
 وَمَصَافِكَ مِنْ أَحْيَا مَوَدَّتِهِ بِنَاتِكَ، وَأَرَادَ لَكَ الْخَيْرَ مِنْ أَثَرِ الْبَقَاءِ مَعَكَ؛ مَا هَذَا الَّذِي تُسَوِّلُ  
 لَكَ نَفْسُكَ، وَيَتَوَّى بِهِ قَلْبُكَ، وَيَتَوَّى عَلَيْهِ رَأْيُكَ، وَيَتَخَاوُصُ دُونَهُ طَرْفُكَ، وَيَسْتَرِي فِيهِ  
 طَعْنُكَ، وَيَتَرَادُّ مَعَهُ تَفْسُكَ، وَتَكْثُرُ عِنْدَهُ صُدُوكُ، وَلَا يَقْبِضُ بِهِ لِسَانُكَ . أَتَجْمَعُ بَعْدَ  
 إِنْصَاحِ ! أَتَلْبِسُ بَعْدَ إِضْبَاحِ ! أَدِينُ غَيْرُ دِينِ اللَّهِ ! أُلْخِيقُ غَيْرُ خَلْقِ الْقُرْآنِ ! أَهْدِي غَيْرُ  
 هَدْيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ! أَمُتِلُ<sup>(٢)</sup> مِمَّا تَمْنِي لَهُ الصَّرَاءُ وَتَدْبُّ لَهُ الْخَرَّ !<sup>(٣)</sup> أَمْ مِثْلُكَ  
 يَنْقِضُ عَلَيْهِ الْفُضَاءُ، وَيُكْشِفُ فِي عَيْنِهِ الْقَمَرُ ! مَا هَذِهِ الْقَمْعَةُ بِالشَّيْثَانِ ! وَمَا هَذِهِ الْوَعُوعَةُ  
 بِاللِّسَانِ ! إِنَّكَ وَاللَّهِ جِدُّ عَارِفٍ بِاسْتِجَابَتِنَا لَهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،  
 وَمِنْخُورِجِنَا عَنْ أَوْطَانِنَا وَأَمْوَالِنَا وَأَوْلَادِنَا وَأَحِبَّتِنَا، هَجْرَةً إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَفَصْرَةً لِدِينِهِ  
 فِي زَمَانٍ أَنْتَ فِيهِ فِي كِنِّ الصَّبَا، وَخِذِرِ الْفَرَاةِ، وَغُفْوَانِ الشَّيْبَةِ، غَافِلٌ عَمَّا يُثِيبُ  
 وَرَبِّبَ، لَا تَبِيَّ، لَا يُرَادُّ وَبُسَادٌ، وَلَا تَحْصُلُ مَا يُسَاقُ وَيُقَادُّ، سِوَى مَا أَنْتَ جَارٍ عَلَيْهِ إِلَى  
 غَايِكَ الَّتِي إِلَيْهَا عُذِلَ بِكَ، وَعِنْدَهَا حُطُّ رَحْلِكَ، غَيْرُ مَجْهُولِ الْقَسْدِ وَلَا مَجْهُودِ الْفَضْلِ،  
 وَنَحْنُ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ نُمَآئِي أَحْوَالاً تُزِيلُ الرُّوَامِي، وَتُقَاسِي أَهْوَالَ كُتُيبِ النَّوَاصِي،  
 خَالِضِينَ غِمَارَهَا، رَاكِبِينَ تَيَّارَهَا، تَجْعَزِعُ صَابَهَا، وَتُشْرِجُ عِيَابَهَا، وَتُحَكِّمُ آسَاسَهَا، وَنَبْرِمُ

(١) أَهَاءُ : أَرْجِعْ . (٢) يَخَاوُصُ : يَنْقُصُ مِنْ بَصَرِهِ . (٣) الصَّرَاءُ : الاستغناء . وَالْخَرَّ :  
 مَا وَارَاكَ مِنْ شَجَرٍ، وَهُوَ مِثْلُ يَضْرِبُ لِمَنْ يَضْدَعُ صَاحِبَهُ . (٤) الشَّيْثَانُ : جَمْعُ شَيْءٍ وَهُوَ الْقَرِيْبَةُ الْخَلْقُ  
 الصَّغِيرَةُ . وَالْقَمْعَةُ : الصَّوْتُ، يُرِيدُ أَنَّهُ لَا يَخُوفُ مِثْلَ هَذَا . (٥) تُشْرِجُ عِيَابَهَا : تَنْضُدُّهَا وَتَضْمُ بَعْضَهَا  
 إِلَى بَعْضٍ . وَالْيَابُ : جَمْعُ حَبَّةٍ، وَهُوَ زَنْبِيلٌ مِنْ أَدَمَ يُجْعَلُ فِيهِ الثِّيَابُ .



أمر أسبأ، والعيون تُعْدَجُ بالحسد، والأَنْوُفُ تَعْطِشُ بالكِبَر، والصدور تَسْتَعِرُ بالنَيْط، والأُغْثَانِ تَتَطَاوَلُ بالفخر، والشَّفَارُ تُشْحَذُ بالمَكْر، والأَرْضُ تَجْمِدُ بالخوف، لا تنظر عند المساء صباحاً، ولا عند الصباح مساء، ولا تدفع في تحرٍ أمر إلا بعد أن تحسب الموت دونه، ولا تبلغ مُرَاداً إلا بعد الإياس من الحياة عنده، فَاذِينَ في جميع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأب والأُم، والخال والعم، والمسال والنسب، والسبب واللبد، والجليلة واليالة، يطيب أنفس، وقرة أعين، ورحب أعطان، وثبات عزائم، وصحة عقول، وطلاقة أوجه، وذلاقة أنسن، هذا مع خفيات أسرار، ومكنونات أخبار، كنت عنها غافلاً، ولولا سنك لم تكن عن شيء منها غافلاً، كيف وفؤادك مشوم، وعُودك معجوم<sup>(١)</sup> .

والآن قد بلغ الله بك وأنض الخير لك، وجعل مرادك بين يديك، وعن علم أقول ما تسمع، فارتقب زمانك، وقص أردانك، ودع التقمس والتجسس لمن لا يطلع لك اذا خطا، ولا يترجح عنك اذا عطا<sup>(٢)</sup>، فالأمر قص، والنفس فيها مص، وإنك أديم هذه الأمة فلا تعلم جلاًجاً، وسيفها العضب، فلا تلأب أعوجاجاً، وماؤها العذب فلا تحمل أجاجاً. والله لقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا الأمر، فقال لي: « يا أبا بكر هو لمن يرغب عنه لا لمن يُجَاهِش عليه، ولن يتضامل عنه لا لمن يتفجع إليه<sup>(٣)</sup>، هو لمن يقال هو لك لا لمن يقول هو لي » .

ولقد شاورني رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصبر، فذكر قتياناً من قريش، فقلت: أين أنت من علي؟ فقال صلى الله عليه وسلم: إلى أكره لفاطمة مئة شاباً به، وحدائة سنة. فقلت له: متى كنته يدك، ورعته عينك، حفت بهما البركة، وأسبغت عليهما العمة مع كلام كثير خاطبته به رغبة فيك، وما كنت عرفت منك في ذلك لا حوجاه<sup>(٤)</sup>

(١) جمع مرس كتف وهو الحبل . (٢) السبد: الشعر. والبد: الصوف . (٣) يقال: جاءنا فلان فلم يأنا بيلة ولا بلة أي لم يأنا بشيء، فالحة من الفرح والاستبلال، والبدن البلى والخير. (٤) مشوم (بالسين المحجمة): ذك متوقد . (٥) عطا: مذهبك حقه وأقبل بحوك . (٦) حلم الجلد (من باب فرح): فسد وتغيب . (٧) أي طلبه وداعه . (٨) يتلعج إليه ويختبر به . (٩) أي ما كنت عرفت منك شيئاً .

ولا لوجه، فقلتُ ما قلتُ وأنا أرى مكانَ غيرك، وأجد رائحةَ سواك؛ وكنتُ إذ ذاك خيراً لك منك الآن لى . ولئن كان عرض بك رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر، فلم يكن مُرضياً عن غيرك؛ وإن كان قال فيك فما سكت عن سواك؛ وإن تلجأ في نفسك شيء، فهُلِّمْ، فالهكُم مرضي، والصواب مسموع، والحق مطاع . ولقد نُقل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى الله عز وجل، وهو عن هذه العصابة راض، وعليها حذر، يسره ما سرها ويسوءه ما ساءها، ويكيده ما كادها، ويُرضيه ما أرضاها، ويُسيِّطه ما أخطأها. أمّا تعلم أنه لم يدع أحدا من أصحابه وأقاربه ومُجربائه، إلا أبانه بفضيلة، وخَصَّه بمزية، وأفرده بماله! أنظن أنه صلى الله عليه وسلم ترك الأمة سُدىً بدءاً، عيَّاهل مباهل، طَلَّاحي مفتونة بالباطل، مغبونة عن الحق، لا رائد ولا ذائد، ولا ضابط ولا حائط، ولا ساق ولا واق، ولا هادي ولا حادي! كلا! والله ما أشنق إلى ربه تعالى ولا سألُه المَصِير إلى رضوانه وقُربه، إلا بعد أن ضُربَ المَدَى، وأُوضِعَ الهدى، وأبان الصُّوى، وأُخْرِجَ المسالك والمطارج، وسهل المبارك والمعْيَج، وإلا بعد أن شَدَّخَ يافوخَ الشرك بإذن الله، وشَرَمَ وجهَ النفاق لوجه الله سبحانه، وجَدَّعَ أنفَ الفتنة في ذات الله، وتَقَلَّ في عين الشيطان بهون الله، وصَدَّعَ مِله في يده بأمر الله عز وجل .

وبعد، فهؤلاء المهاجرون والأنصار عندك ومعك في بقعة واحدة ودار جامعة، إن استفالوني لك وأشاروا عندى بك، فانا واضح يدى في يدك، وصائر إلى رأيهم فيك . وإن تكن الأخرى فادخل فبا دخل فيه المسلمون، وكن المون على مصالِحهم، والقائِم لتلغفهم، والمرشد لضابَّتهم، والراذع لتغوياتهم . فقد أمر الله تعالى بالتعاون على البر والتقوى، والتأصُّر على الحق . ودعنا نَقْضِ هذه الحياة الدنيا بصدر بريئة من الغل، ونلقِ الله تعالى بقلوب سليمة من الضيق .

(١) مجربائه: أعدائهم . (٢) عيَّاهل مباهل (بالاء الواحدة في الكلين): مهمة . (٣) الصوى: الأعلام . (٤) المعْيَج: الطريق . (٥) يافوخ (يبرز ولا يبرز) جزء الرأس الذى يترك في الطفل . (٦) في صبح الأعشى: «هذه» .

وبعد، فالناس ثَمَامَةٌ فارقُهم وآحَنُ عليهم وإنْ لم، ولا تُشَقِّ نفسُك بنا خاصة فيهم،  
وأتراك ناجِمَ الحقدِ حصيِداً، وطائرَ الشرِّ واقفاً، وبابَ الفتنة مغلِقاً، فلا قال ولا قيل ولا لوم  
ولا تبيح، والله على ما نقول شهيد، وبما نحن عليه بصير.

قال أبو عبيدة : فلما تاهبْتُ للنهوض، قال عمر رضى الله عنه : كُنْ لَدَى البابِ  
هَنِيئَةً فلى معك دورٌ من القول ؛ فوقتُ وما أدري ما كان بعدى ، إلا أنه لحنى بوجه  
يَسْدَى تَهْلًا، وقال لى : قل لعل : الرقادُ حَمَامَةٌ، والهُوى مَقْحَمَةٌ، ومامتُ إلا له مقامٌ  
معلوم، وحق مشاعٌ أو مقسوم، ونبا ظاهري أو مكتوم ؛ وإن أكيَس الكَيْس من متع  
الشاردة تألقاً، وقاربَ البعيدَ تَلَقُّفاً، ووزنت كلَّ شيء بميزانه، ولم يخلطُ خبره ببيانه،  
ولم يجعل قِتره مكانَ شِبره، ديباً كان أو دُنْياً، ضلالاً كان أو هُدًى . ولا خير في علم  
مستعملٍ في جهل، ولا خير في معرفة مشوبة بئُكْر . ولستنا بجلدة رُفغ البعير بين العِجان  
والذنب، وكلُّ صَالٍ فيناره <sup>(١)</sup>، وكل سبيلٌ إلى قراره . وما كان سكوت هذه العصاة إلى  
هذه العناية لى وشئ ، ولا كلامها اليوم لقرني أوفى . وقد جدد الله محمد  
صلى الله عليه وسلم أنف كل ذي كبر، وقصم ظهر كل جبار، وقطع لسان كل  
كذوب، فإذا بعدَ الحق إلا الضلال . ما هذه الخُتْرَانَةُ التي في قرأش رأسك ! ما هذا  
الشَّجَا المَعْتَرِض في مدارج أنفاسك ! ما هذه القُدَاة التي تَفَشَّت ناظرُك ! وما هذه  
الوَحْرَةُ التي أكلت شَرَّاسِيكَ ! وما هذا الذي لَيْسَتْ بسببه جلدُ النمر، وأَشْمَلَتْ عليه  
بالشَّحْنَاء والنُّكْر ! ولستنا في كِثْرِيَّة كِثْرَى، ولا في قِصْرِيَّة قِصْر ! تأمل لإخوان فارَس  
وأبناء الأصفر ! قد جعلهم الله جَزْراً لسبوننا، ودريةً لِمَاحنا، ومرمى لبطاننا، وتبماً  
لسلطاننا ؛ بل نحن في نور نبوة، وضياء رسالة، وثمرة حكمة، وأثر رحمة، وعنوان إيمعة،

(١) الرفق : أصل الفقه من باطن . والعبان : الامت . يريد أن يوتهم بين الأحياء والعائز ليست  
حقيرة مهينة . (٢) التي بالكسر إتياع على . (٣) الخنزرة : الكبر . (٤) الوحرة  
(بالشرع) : والحقد البدادة والشراسيف : جمع فرسوف، والشرسوف مقط الصلح .

وظلَّ عَصْمَةٌ، بين أئمة مهديَّة بالحق والصدق، مأمونيَّة على الرِّقِّ والفتق، لها من الله قلبٌ أُنِيٌّ، وساعدٌ قوىٌّ، ويدٌ ناصرةٌ، وعينٌ باصرةٌ. اتظنَّ ظنًّا ياعلى أن أبا بكر وثبَّ على هذا الأمر مُقْتَنًا على الأمة خادعًا لها أو متسلطًا عليها ! أنزاه حلَّ عقودها وأحال عقولها ! أنزاه جعل نهارها ليلا، ووزَّنها كيلا، وقَفَّظَها رقادًا، وصلَّاحها فسادًا ! لا والله ! سلَّا عنها قولها وتَّ له، وتطامنَّ لها فليصقتْ به، ومال عنها فالتَّ إليه، وآشماز دونها فأشقتْ عليه، حَيوةٌ حَبَّاه الله بها، وعاقبةٌ بلغه الله إليها، ونعمةٌ سرَّبله جمالها، ويدٌ أوجب الله عليه شكرها، وأئمةٌ نظر الله به إليها. والله أعلم بخلفه، وأرأف بعباده، يختار ما كان لهم الخيرة. وإنك بحيث لا يُجْهَل موضعك من بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ولا يُجْعَد حَقُّك فيما آتاك الله، ولكن لك مَنْ يزاحك بمنكِبِ أَعْظَمَ من منكبك، وقُرْبِ أَمْسٍ من قرابتك، وسنَّ أعل من سننك، وشيئةٌ أروع من شديتك، وسيادةٌ لها أصلٌ في الجاهلية وفرعٌ في الإسلام، ومواقفٌ ليس لك فيها جملٌ ولا ناقة، ولا تُذَكَّرُ منها في مقدمة ولا ساقَّة، ولا تُضْرَبُ فيها بذراع ولا أصبع، ولا تخرج منها بياض ولا هِج. ولم يزل أبو بكر حبة قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلاقة نفسه، وصية سره، ومقرَّع رأيه ومشورته، وراحة كفه، وصرمق طرفه. وذلك كله بمحض المصادر والوارد من المهاجرين والأنصار، شهرته مغنية عن الدليل عليه. ولعمري إنك أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابةً، ولكنك أقرب منك قرابةً، والقرابةُ لحم ودم، والقربةُ نفس وروح. وهذا فرق عرَّفه المؤمنون، ولذلك صاروا إليه أجمعون. ومهما شكَّكت في ذلك، فلا تشك أن يدَّ الله مع الجماعة، ورضوانه لأهل الطاعة. فادخلْ فيما هو خيرُك اليوم وأنفع لك غدا، وألفِظْ مَنْ فيك ما يعلِّقُ بِلَهَاتِكَ، وأنفِثْ عَظِيمَةَ صَدْرِكَ عَنْ تَقَاتِكَ، فإن يك في الأمد طولٌ، وفي الأجل نُسْجَةٌ، فسلكا مريثًا أو غيرَ مريء، وستشربه هنيئًا أو غيرَ هنيء، حين لا رادَّ لقولك إلا من كان آيسًا منك، ولا تابعٌ لك إلا من كان طامعًا فيك، يَمُضُّ إهابك، ويعرك أديمك،

(١) البازل: الجمل القوي الذي دخل في سكة الناس. والمهج: الفصيل الذي ينتج في الصيف فيكون ضئيلاً.

(٢) يعض إهابك : يجرق جلده . (٣) يمرك : يذلك .

وَيُزَيِّرُ عَلَى هَذِك . هتالك تَقَرَّعَ السَّنَّ من ندم ، وَتَجَرَّعَ الْمَاءَ مَزْجِوْجَا بدم ، وَحَيْثُذَ تَأْتِي  
عَلَى ١٠ مَضَى من عَمْرُكَ وَدَارِجَ قَوْتِكَ ، فَتَوَدَّ أَنْ لَوْ سُقِيَتْ بِالْكَاسِ الَّتِي أَبَيْتَهَا ، وَرُدِدَتْ  
إِلَى حَالَتِكَ الَّتِي أَسْتَفْوَيْتَهَا . وَيَلَهُ تَعَالَى فِينَا وَفِيكَ أَمْرٌ هُوَ بِاللَّهِ ، وَغَيْبٌ هُوَ شَاهِدُهُ ، وَعَاقِبَةُ  
هُوَ الْمَرْجُو لَسَرَاتِهَا وَضَرَاتِهَا ، وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ، الْغَفُورُ الْوَدُودُ .

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : فَنَمَشَيْتُ مَتَرِيلاً أَنْتَوَ كَأَنَّمَا أَخْطَلُو عَلَى رَأْسِي ، فَرَفَّقًا مِنَ الْفُرْقَةِ ، وَشَفَقًا  
عَلَى الْأُمَّةِ ، حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى عَلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي خَلَاءٍ ، فَأَبَانَتْهُ بَقِيَّ كَلِّهِ ، وَرَبَّرْتُ إِلَيْهِ مِنْهُ ،  
وَوَفَّقْتُ بِهِ . فَلَمَّا سَمِعَهَا وَوَعَاها ، وَسَرَتْ مِنْ مَفَاصِلِهِ حُمَيَّاهَا ، قَالَ : « حَلَّتْ مَعْلُوطَةٌ <sup>(١)</sup> ،  
وَوَلَّتْ مَعْرُوطَةٌ <sup>(٢)</sup> ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

إِحْدَى لِيَالِيكَ فَيَهِيهِ هَيْبِي \* لَا تَتَمَعَّى اللَّيْلَةَ بِالتَّعْرِيسِ <sup>(٣)</sup>

نَعَمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ ، أَكُلُّ هَذَا فِي أَنْفُسِ الْقَوْمِ ، وَيُحْسِنُونَ بِهِ ، وَيَضْطَلِفُونَ عَلَيَّ ! قَالَ  
أَبُو عُبَيْدَةَ : فَقُلْتُ : لَا جَوَابَ لَكَ عِنْدِي ، إِنَّمَا أَنَا قَاضٍ حَقَّ الدِّينِ ، وَرَأَيْتُ فَقَّ الْمَسْلَمِينَ ،  
وَسَادَّ ثُلَمَةُ الْأُمَّةِ ، يَعْلَمُ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْ جُلُجْلَانِ قَلْبِي ، وَقَرَارَةِ نَفْسِي .

(١) هُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ . وَابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَزَوْجُ  
ابْنَتِهِ . وَرَأْيِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ ، وَإِمَامِ الْخُلَفَاءِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

وَلَهُ وَجْهٌ اللَّهُ بِهِدِ مَوْلِدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَتَمِّينَ وَخَلَّافِينَ سَنَةٍ . وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ آمَنَ مِنَ الْعِبَادِ . وَكَانَ  
جَمَاعًا لَا يَسْقُ لَهْ خَبَارٍ . أَيْدَا جَلِيدًا . شَدِيدَ الْفَزَوَاتِ كَلَامًا مَعَ النَّبِيِّ إِلَّا غُرُورَةَ تَبَوَّكَ . وَأَبْلَى فِي نَصْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا مِثْلَهُ أَحَدٌ . وَلَمَّا قَتَلَ عِمَّانَ بِأَمْرِ النَّاسِ بِالْجَبَّارِ وَاسْتَحَبَّ يَمِينَهُ مَعَاوِيَةَ وَأَخْلَى الشَّامَ شَيْعَةً  
بَنِي أُمَيَّةٍ خَضِيََا مِنْهُمْ لِقَتْلِ عِمَّانَ وَقَتْلَهُ عَتَائِشَهُ بِالْبَحْثِ عَنْ الْقَتْلَةِ عَلَى حَسَبِ احْتِفَادِهِمْ ، لَحِثَتْ مِنْ بَرَاءَةِ ذَلِكَ  
الْفِتْنَةِ الْعَظِيمِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَاقْتِرَافِهِمْ إِلَى طَائِفَتَيْنِ تَتَنَادَرَا بِرَأْمَةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَنْبِ الْأَمْرَ لِمَنْ أَوْ مَدَارِيهِ حَتَّى قَتَلَ  
أَحَدَ الْخَوَارِجِ طَلْحًا خَلِيفَةً بِمَسْجِدِ الْكُوفَةِ . وَكَانَ كَرَمَ اللَّهِ وَجْهَهُ أَضْحَحَ النَّاسَ بِهَدْيِ رَسُولِ اللَّهِ . وَأَكْثَرَهُمْ طَلْحًا وَنَهَذَا  
رَشْدَةً فِي الْحَقِّ : وَهُوَ إِمَامُ الْخُلَفَاءِ مِنَ الْعَرَبِ عَلَى الْإِطْلَاقِ بِهَدْيِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَكَانَتْ وَفَاتُهُ سَنَةَ ٤٠ هـ وَبَدَأَتْ خِلَافَتُهُ نَحْوَ سِتِينَ إِلَّا ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ .

(٢) مَعْلُوطَةٌ : مُقْتَنَعَةٌ مِنْ غَيْرِ رُويَةٍ . (٣) مَعْرُوطَةٌ : مَسْرُوعَةٌ . (٤) هَيْبِي : سِرِّي أَيْ سِرِّكَانَا .

(٥) أَيْ يَنْطَوِّرُونَ عَلَى الْغُفْنِ وَهُوَ الْخَلْفُ . (٦) جُلُجْلَانِ قَلْبِي : أَيْ حَبِي .

فقال عليّ رضي الله عنه : والله ما كان قُعودي في سِكنِ هذا البيت قصداً للخلاف ، ولا إنكاراً للعروف ، ولا زِرايةً على مسلم ، بل لما قد وقَدَرَنِي به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فراقه ، وأودعني من الحزن لفقدته . وذلك أني لم أشهد بعده مثبداً إلا جدد عليّ حزناً ، ودَسَّغَنِي شُجْبَةً . وإن الشوق إلى المَلَأَقِ به كَأَفْ من الطمع في غيره . وقد عكفتُ على عهد الله أنظر فيه ، وأجمع ما تفرَّق ، رجاء ثواب مُعَدٍّ لمن أخلص لله عمله ، وأسلم لعلمه ومشيئته ، وأمره ونهيهِ . على أني ما علمت أن النظار عليّ واقع ، ولا عن الحق الذي سبق إلى دافع . وإذا قد أُفِيقَ الوادي بي ، وحشد النادى من أجلى ، فلا مرحباً بما ساء أحدًا من المسلمين وسرّي . وفي النفس كلامٌ لولا سابقُ عهد وسالف عهد ، أَشْفَيْتُ غِيظِي بِخُصْرِي وَبِنَصْرِي ، وَخُضْتُ بِحُتَّةِ بَأْتَمِي وَمَقَرِّي ، وَلَكِنِّي مُلِمٌّ إِلَى أَنَّ إِلَهِي اللهُ رَبِّي ، وَعِنْدَهُ أَجْنِسُ مَا نَزَلَ بِي . وَإِنِّي غَادٍ إِلَى جَمَاعَتِكُمْ ، فَبِأَيْحُ صَاحِبِكُمْ ، صَابِرٌ عَلَى مَا سَاءَنِي وَسَرَّكُمْ ، يَقْضِي اللهُ أَمْرًا كَانَ مَقْعَرًا .

قال أبو عبيدة : فعدتُ إلى أبي بكر رضي الله عنه فقَصَصْتُ عليه القولَ على غُمره ، ولم أحتفل شيئاً من حُلُوهِ ومُمرِّهِ ، وبَكَرْتُ غُدُوَّةً إِلَى الْمَسْجِدِ ، فَلَمَّا كَانَ صَبَاحُ يَوْمِئِذٍ وَإِذَا عَلِيٌّ عَتِيقُ الْجَمَاعَةِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فَبَايَعَهُ ، وَقَالَ خِيْرًا ، وَوَصَفَ جَمِيلاً ، وَجَلَسَ زَمِيْنًا ، وَأَسْتَاذَنَ لِلْقِيَامِ فَهَضَى وَتَبِعَهُ عَمْرُؤُكُمْ مَا لَهُ ، مُسْتَأْذِنًا لِمَا عِنْدَهُ .

فقال عليّ رضي الله عنه : ما قبلتُ من صاحبكم كارهاً ، ولا أتينتهُ فِرْقًا ، ولا أقول ما أقول لَعَلَّةً . وَإِنِّي لَا أَعْرِفُ سِتْهِي طَرَفِي ، وَحِطَّةَ قَدَمِي ، وَمَتَرَجَّ قَوْسِي ، وَمَوْجِعَ مِصْبِي ؛ وَلَكِنْ قَدْ أَزَمْتُ عَلَى قَائِسِي ثِقَّةً بِرَبِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

فقال له عمر رضي الله عنه : كَفَيْكَ قَرَبُكَ ، وَأَسْتَوْقِفُ سِرَّكَ ، وَدَعِ الْعِصْيَ بِلِحَاظِنَا ، وَالذَّلَالَ عَلَى رِشَاظِنَا . فَإِنَّا مِنْ خُلَفَايَا وَوَرَاثِنَا ، إِن قَدَحْنَا أَوْ رَيْنَا ، وَإِنْ مَتَحْنَا أَوْ رَيْنَا ،

(١) حل لغز ، أي كما هو كما قص علي . (٢) زينا ، حلما وقورا . (٣) يقال :

أَذَمَ الْقَوْمُ عَلَى فُلَانٍ إِذَا جَاهُوا إِذَا ضَعُفَ قَبْضُ فُلَانٍ . وَأُثْلَسَ الْجَاهُ : الْحَدِيدَةُ الْمُرْتَضَةُ مِنْهُ فِي الْحَنَكِ . يَرِيدُ أَنَّهُ أَلْجَمَ قِسْمَهُ ثِقَةً أَلْجَمَ .

وإن قَرَحْنَا أَدَمِيْنَا . ولقد سمعتُ أمائِكَ التي لَفَزَتْ بها عن صدرِ أكلٍ بالجوَى ، ولو شئتُ لقلتُ على مقالِكَ ما إن سمعته تَدِمْتَ على ما قلت . وزعمتُ أنك قعدتُ في كِبَرٍ بِبِكَ لِمَا وَقَدْكَ به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من فسيده ، فهو وَقَدْكَ ولم يَقْدُ فَيَك ! بل مصابه أعظم وأعم من ذلك ، وإن من حقِّ مصابه ألا تصدع شملَ الجماعة بفرقة لا عصام لها ، ولا يؤمن كيدُ الشيطان في بقائها . هذه العرب حولنا ، والله لو تداعَتْ علينا في صبح نهار لم نلتقي في مسانه . وزعمتُ أن الشوق إلى الخلق به كلف من الطمع في غيره ! فمن علامة الشوق إليه نصرته دينه ، ومؤازرة أوليائه ومعاونتهم . وزعمتُ أنك عكفتُ على عهد الله جميع ما تفرق منه ، فمن المكوف على عهد الله النصيحة ليعاد الله ، والرأفة على خلق الله ، وبذل ما يصلحون به ، ويرثون عليه . وزعمتُ أنك لم تعلم أن الظاهر واقعٌ عليك ، وأنى حقُّ لُطْدِ دونك ! . قد سمعتُ وعلمتُ ما قال الأنصار بالأمس ميرًا وجهرًا ، ونقبتُ عليه بطلنا وظهرا ، فهل ذكرتُ أو أشرتُ بك ، أو وجئتُ رضاهم عنك ؟ هل قال أحد منهم بلسانه إنك تصلح لهذا الأمر ؟ أو أوما بعينه أو هم في نفسه ؟ أظن أن الناس ضلُّوا من أجلك ، وعادوا كفارا زهدًا فيك ، وباعوا الله بمحاملٍ عليك ؟ ، لا والله ! لقد جاءني عَقِيل ابن زياد الخَزَرَجِي في تَقَرٍّ من أصحابه ومعهم شُرَحْبِيل بن معقوب الخَزَرَجِي وقالوا : إن علينا ينتظر الإمامة ، ويزعم أنه أولى بها من غيره ، ويُكره على من يَقْدُ الخلافة ، فأنكرتُ عليهم ، ورددتُ القول في تحرهم حيث قالوا : إنه ينتظر الوحي ويتوكف مناجاة الملك ، فقلت : (١) ذلك أمر طواه الله بعد نبيه عهد صلى الله عليه وسلم أكان الأمر معقودًا بالأنسولة ، أو مشدودًا بأطراف ليطَّه (٢) كلاً ! والله لا عجماء يبعد الله إلا أفصحته ، ولا شوكة إلا وقد نفتحت . ومن أعجب شأنك قولك : « ولولا سالف عهد وسابق عقد ، لشفت غيظي » وهل ترك الدين لأهله أن يَسْمُوا غيظهم بيد أو لسان ؟ تلك جاهلية وقد استأصل الله شأفتها وأقتل جُرُومَتها ، وهور ليلها ، وغور سيلها ، وأبدل منها الروح والريحان ، والهدى والبرهان .

(١) لئ : عهد .

(٢) يتوكف : يخطر .

(٣) الأنسولة : عقدة يبل اتصالها ،

إذا أخذ بأحد طرفيها اقتضت . (٤) المنيعة غمرة القصة التي تليد بها أي تفرق .

وزعمت أنك مُلجَمٌ، ولعمري إني من أتَى الله، وآثر رضاه، وطلب ما عنده، أمسك لسانه وأطبق فاه، وجعل سعيه لما وراءه .

فقال على رضى الله عنه : مهلاً يا أبا حفص، والله ما بذلتُ ما بذلتُ وأنا أريد نكته، ولا أفررتُ ما أفررتُ وأنا أبتنى حولاً عنه . وإن أخسر الناس صفقةً عند الله من أثر التفائق، وأحضرن الشقاق، وفي الله سلوةٌ عن كل حادث، وعليه التوكل في جميع الحوادث . ارجع يا أبا حفص الى مجلسك ناقيع القلب، مبرود الغليل، فسبح اللبان<sup>(١)</sup>، فصيح اللسان، فليس وراء ما سمعت وقلت إلا ما يشد الأزر، ويحطّ الوزر، ويضع الإصر، ويجمع الألفة بمشيئة الله وحسن توفيقه .

قال أبو عبيدة رضى الله عنه : فانصرف على وعمر رضى الله عنهما . وهذا أصعب ما صرّ على بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .



## ٢ - ومن كلام عائشة رضى الله عنها في الانتصار لأبيها

يروى أنه بلغ عائشة رضى الله عنها أن أقواماً يتناولون أبا بكر رضى الله عنه، فأرسلت إلى أزفلة<sup>(٢)</sup> من الناس، فلما حضروا، أسدلت أسنارها، وعلت وسادها، ثم قالت : إني، وما أبينة<sup>(٣)</sup> أئى والله لا تعطوه الأيدي، ذاك طود منيف، وفرع مديد، هيمات، كذبت الظنون! ألجج إذ أكذبتم، وسبق إذ وتيتم، سبق الجواد إذا استولى على الأمس . ففى

(١) اللبان : الصند . (٢) هى عائشة بنت أبي بكر الصديق بن أبي حنيفة، عقد عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة وهى بنت ست سنين، ودخل بها فى المدينة وهى بنت تسع، وكان مولدها سنة أربع من النبوة، وأما أم رومان بنت حارث بن عويمر، وكان صداقتها أربهاة درهم، وكانت أحب نساءه إليه، وكنيتها أم عبد الله، كعبت بآبى أختها أسماء، ولها غلب ووقائع . وكانت من أكبر العائلات فى وقعة الجمل المشهورة فى الاسلام مصيبة الزبير وطلحة . وكانت أنصح أهل زمانها بأبيهم متعلفاً وأحفظهم للحديث وأقدهم . توفيت سنة سبع وخمسين ودفنت ليلاً بالقيع وصلى عليها أبو هريرة رضى الله عنه . راجع ترجمتها فى طبقات ابن سعد (ج ٨ ص ٣٩) .

(٣) الألفة : الجملة . (٤) لا تسطرو : لا تباله .



قرينش ناشتا، وكهفها كهلا، يَفُكْ عَيْنَهَا، وَيَرِيش مُلَقَّهَا، وَيَرَاب شَعْبَهَا، وَلَمْ شَعَتْهَا، حَتَّى  
 حَلِيَّتْهُ فُلُوْهَا، ثُمَّ اسْتَشْرَى فِي دِينِ اللَّهِ مَا يَرِحْتُ شَكِيمَتُهُ فِي ذَاتِ اللَّهِ عَنْ وَجَلٍ حَتَّى اخْتَذَ  
 بِضَانَتِهِ مَسْجِدًا يُحْيِي فِيهِ مَا أَمَاتَ الْمُبْطُلُونَ . وَكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ غَزِيرَ النِّعْمَةِ، وَقَيْدَ الْخَوَانِعِ،  
 حَيَّيْ النَّشِيْجَ، فَانْقَضَتْ إِلَيْهِ نِسْوَانُ مَكَّةَ وَلِدَانُهَا يَسْعَوْنَ مِنْهُ وَيَسْتَرْثَوْنَ بِهِ (اللَّهُ يَسْتَرْثِي  
 بِهِمْ وَيَبْدُئُهُمْ فِي طُفْيَانِهِمْ يَعْصِمُوْنَ) فَكَبُرَتْ ذَلِكَ رِجَالَاتُ مَنْ قَرِيشُ لَحْنَتْ قَيْسِيًّا، وَفَوْقَتْ  
 سِبَامِيًّا، وَأَنْتَلَوْهُ غَرَضًا، فَأَقْلَوْا لَهُ صَمَاءَ، وَلَا قَصَبُوا لَهُ قَنَاءَ، وَصَرَّ عَلَى سَيْسَانِهِ، حَتَّى  
 إِذَا ضَرَبَ الدُّيْنَ بِجِرَانِهِ، وَرَسَتْ أَوْتَادُهُ، وَدَخَلَ النَّاسُ فِيهِ أَفْوَاجًا، وَمِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ أَرْسَالًا  
 وَأَشْنَاتًا، اخْتَارَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ مَا عِنْدَهُ، فَلَمَّا قَبِضَ اللَّهُ نَبِيَّهَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَرَبَ الشَّيْطَانُ  
 رَوَاقَهُ، وَمَدَّ طَبْعَهُ، وَنَصَبَ حَبَائِلَهُ، وَأَجْلَبَ بَحْيِلَهُ وَرَجَلَهُ، وَأَضْطَرَبَ حَيْلُ الْإِسْلَامِ،  
 وَصَرَجَ عَهْدُهُ وَمَاجِ أَهْلُهُ، وَبَغَى الْقَوَائِلَ، وَظَنَّتْ رِجَالٌ أَنْ قَدْ أَكْثَبَتْ أَطْلَاعُهُمْ نَهْزَهَا،  
 وَلَاَتَ حِينَ الَّذِي يَرْجُونَ، وَأَوَّى وَالصَّدِيقَ بَيْنَ أَطْلَعِهِمْ ! فَقَامَ حَاسِرًا مَشْتَمًا، جُمِعَ  
 حَاشِيَتِيهِ وَرَفَعَ قُطْرَبِهِ، فَدَرَسَ الْإِسْلَامَ عَلَى غَرَبِهِ، وَلَمْ شَعْتَهُ يَطْلُبُهُ، وَأَتْنَأَشَ الدِّينَ  
 فَنَعَشَهُ، فَلَمَّا أَرَاكَ الْحَقُّ عَلَى أَهْلِهِ، وَقَوَّرَ الرُّمُوسَ عَلَى كَوَاهِلِهَا، وَحَقَّنَ الدَّمَاءَ فِي أَهْمِهَا،  
 أَنَّهُ مَنِيَّتُهُ، فَسَدَّ ثَلَمَتَهُ بِنَظِيرِهِ فِي الرَّحْمَةِ، وَشَقِيقِهِ فِي السَّيْرِ وَالْمَعْدَلَةِ، ذَاكَ ابْنَ الْخَطَابِ،  
 اللَّهُ دَرَأَ أَمَّ حَمَلَتْ بِهِ وَدَرَزَتْ عَلَيْهِ ! لَقَدْ أَوْحَدَتْ بِهِ، فَفَتَحَ الْكَفْرَةَ وَدَيَّحَهَا، وَشَرَّدَ الشَّرْكَ  
 شَدَرًا مَدَرًا، وَبَعِجَ الْأَرْضَ وَجَمَعَهَا، فَقَاءَتْ أَكْلَهَا، وَلَقَطَتْ خَبَاءَهَا، تَرَامَهُ وَيَصِيدُ عَنْهَا،  
 وَتَصَدَّى لَهُ وَيَأْبَاهَا . ثُمَّ وَزَعَ قَبَا فَيْتَهَا وَوَدَّعَهَا كَمَا صَحَّحَهَا . فَأَرُونِي مَاذَا تَرْتَنُونَ، وَأَيُّ  
 يَوْمِي أَرَى تَتَقِمُونَ : أَيُّ يَوْمٍ إِقَامَتُهُ إِذَا عَدَلَ فِيكُمْ، أَمْ يَوْمٌ ظَلَعْتُهُ إِذْ نَظَرْتُ لَكُمْ؟ أَقُولُ قَوْلِي هَذَا  
 وَأَسْتَغْفِرُ لِي وَلَكُمْ . ثُمَّ أَقْبَلْتُ عَلَى النَّاسِ بِوَجْهِهَا فَقَالَتْ : أَتَشْكُرُونَ اللَّهَ هَلْ أَتَكْرِمُ مِمَّا  
 قُلْتُ شَيْئًا ؟ قَالُوا : أَلَلَّهُمْ لَا .

(١) عَلَى سَيْسَانِهِ، أَيْ عَلَى دَأْبٍ وَعَادَةٍ . (٢) فَتَحَ : غَلَبَ وَفَهَرَ . (٣) خَبَاءُهَا :

مَاطَاتُهَا .



### ٣ - كلمة أم الخير بنت الحرث<sup>(١)</sup>

ومن كلام أم الخير بنت الحرث البارقية يوم صفين في الانتصار لعلّ رضى الله عنه :  
 يروى أن معاوية كتب إلى واليه بالكوفة أن يحمل إليه أم الخير بنت الحرث البارقية  
 برسلها، وأعلمه أنه يُجَازيه بقولها فيه بالخير خيرا وبالشر شرا . فلما ورد عليه كتابه ، ركب  
 إليها فافراها الكاتب ، فقالت : أنا أنا فغير زائفة عن طاعة ولا معتلة بكذب ! ولقد كنتُ  
 أُحِبُّ لقاء أمير المؤمنين لأمر تختلج في صدرى . فلما شيعمها وأراد مفارقتها قال لها :  
 يا أم الخير، إن أمير المؤمنين كتب إلى أن يجازينى بقولك في بالخير خيرا وبالشر شرا ؛  
 لما عندك ؟ قالت : يا هذا لا يطعمتك رُكْبُ بى أن أترك بياطل ، ولا تؤسِّك معرفى بك  
 أن أقول فيك غير الحق . فسارت خير مسير حتى قبلت حل معاوية ، فأنزلها مع حريمه ثلاثا ،  
 ثم أدخلها عليه في اليوم الرابع ، وعنده جلساؤه ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين  
 ورحمة الله وبركاته ؛ قال لها : وعليك السلام يا أم الخير ، وبالزعم منك دعوتى بهذا الاسم ؛  
 قالت : مه يا أمير المؤمنين ! فإن بلبسة السلطان مدحضة لما يجب علمه ولكل أجل كتاب ؛  
 قال : صدقت ، فكيف حالك يا خالدة ؟ وكيف كنتِ في مسيرك ؟ قالت : لم أزل في عافية  
 وسلامة حتى صرتُ إليك فأنا في مجلس أنيق ، عند ملك رقيق ؛ قال معاوية : بحسن نيق  
 ظفرتُ بكم ؛ قالت : يا أمير المؤمنين أصيدك بالله من دحس المقال وما تُردى عاقبتُه ،  
 قال : ليس هذا أردنا ، أخبرينى كيف كان كلامك يوم قبِلَ عمار بن ياسر ؟ قالت :  
 لم أكن والله زورته قبل ولا رويته بعد ، وإنما كانت كلمات نقشن لسانى حين الصدمة ،  
 فان شئت أنت أحدثك مقللا غير ذلك فعلتُ ؛ قال : لا أشاء ذلك . ثم التفت إلى  
 أصحابه فقال : أيُّكم يحفظ كلام أم الخير ؟ فقال رجل من القوم : أنا أحفظه يا أمير المؤمنين  
 تكلفى سورة الحمد ؛ قال : هايت ؛ قال : نعم كأتى بها يا أمير المؤمنين في ذلك اليوم طليها

(١) مقولة عن صبح الأضى ج ١ ص ٢٤٨ (٢) زور الكلام في نفسه : هياه .

بِرَبِّهِ دِي كَثِيفِ الْحَاشِيَةِ، وَهِيَ عَلَى جَهْلِ أَرْمَكُ وَقَدْ أَحِيطَ حَوْلَهَا، وَبَيْدَهَا سَوَاطٍ مُنْتَشِرِ  
الضَفَرِ، وَهِيَ كَالْفَحْلِ يَهْدُرُ فِي شِقَاقَتِهِ يَقُولُ :

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ)) ! إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْضَحَ الْحَقَّ، وَأَبَانَ  
الدَّلِيلَ، وَتَوَرَّدَ السَّبِيلَ، وَرَفَعَ الْعَلَمَ، فَلَمْ يَدْعَكُمْ فِي عَمِيَاءٍ مُبْهِمَةٍ ! وَلَا سَوْدَاءٍ مُدْهِمَةٍ، فَالَى  
أَيْنَ تَرِيدُونَ رَحِمَكُمُ اللَّهُ ! أَفِرَارًا عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، أَمْ فِرَارًا مِنَ الرَّخْفِ، أَمْ رَغْبَةً عَنْ  
الْإِسْلَامِ، أَمْ ارْتِدَادًا عَنِ الْحَقِّ ! أَمَّا سَمِعْتُمْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : ((وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ  
الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ)) .

ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول :

قَدْ عَجِلَ الصَّبْرُ، وَضَعُفَ الْيَقِينُ، وَانْتَشَرَ الرَّعِبُ، وَبِيدَكَ يَا رَبُّ أَرْمَةُ الْقُلُوبِ، فَاجْمَعْ  
الْكَلِمَةَ عَلَى التَّقْوَى، وَأَلْفِ الْقُلُوبَ عَلَى الْهَدَى . هَلُمُّوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ إِلَى الْإِمَامِ الْمَعْدِلِ،  
وَالْوَصِيِّ الْوَفِيِّ، وَالصَّادِقِ الْأَكْبَرِ ! إِنَّا إِحْسَنُ بَدْرِيَّةٍ، وَأَحْفَادُ جَاهِلِيَّةٍ، وَضَفَائِنُ أُحْدِيَّةٍ،  
وَتَبَّ بِهَا مَعَاوِيَةٌ حِينَ الْغَفْلَةِ لِيُذْرِكَ بِهَا ثَارَاتُ بَنِي عِيدِ شَمْسٍ .

ثم قالت : قَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا إِيمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنبَغُونَ . صَبْرًا مَعِشَرِ الْمَاهِجِينَ  
وَالْأَنْصَارِ، قَاتِلُوا عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، وَثَبَاتٍ مِنْ دِينِكُمْ، وَكَأَنِّي بَيْنَكُمْ غَدًا قَدْ لَقِيتُمْ أَهْلَ  
الشَّامِ كُفْرًا مُسْتَفِيرَةً، فَزَتْ مِنْ قَسْوَةٍ، لَا تَدْرِي أَيْنَ يُسَلِّكُ بِهَا مِنْ بَحَاجِ الْأَرْضِ، بِأَعْوَا  
الْأَنْعَرَةِ بِالدُّنْيَا، وَاشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَى، وَبَاعُوا الْبَصِيرَةَ بِالْعَمَى، وَعَمَّا قَلِيلٍ لِيُصْبِحُنَّ  
نَادِمِينَ، حِينَ تُحْكَلُ بِهِمُ النَّدَامَةُ، فَيَطْلُبُونَ الْإِقَالَ ! إِنَّهُ وَاللَّهِ مَنْ ضَلَّ عَنِ الْحَقِّ وَقَعَ فِي الْبَاطِلِ،  
وَمَنْ لَمْ يَسْكُنِ الْخَنَسَةَ نَزَلَ فِي النَّارِ . أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الْأَكْبَاسَ اسْتَقْفَرُوا عَمَرَ الدُّنْيَا  
فَرَفَضُوهَا وَاسْتَطَبُّوا مَدَّةَ الْآخِرَةِ فَسَمَوْا لَهَا . وَاللَّهِ أَيُّهَا النَّاسُ لَوْلَا أَنْ تَبْطُلَ الْحَقُوقُ، وَتُطْغَلِ  
الْخُلُودُ، وَيُظْهَرَ الظَّالِمُونَ، وَتَقْوَى كَلِمَةُ الشَّيْطَانِ، لَمَا اخْتَرْنَا وَرُودَ الْمَنَابِإِ عَلَى خُفْضِ الْعِيشِ  
وَعَلِيهِ، فَالَى أَيْنَ تَرِيدُونَ — رَحِمَكُمُ اللَّهُ — عَنْ ابْنِ عَمْرِو رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وزوج ابنته وأبى آلبه؟ خلق من طيبته، وتفرع عن نبعته، وخصه بسره، وجعله باب مدينته، وأعلم بحبه المسلمين، وأبان بغضه المنافقين. فلم يزل كذلك يؤيده الله بموته، ويمضي على سنن استقامته، لا يعجز لراحة اللذات. وهو مُفَاتِّ الهام، ومكسر الأصنام، إذ صلب الناس مُشْرِكُونَ، وأطاع والناس مرتابون. فلم يزل كذلك حتى قتل مُبارِزى بدر، وأفنى أهل أحد، وغرق جمع هوازن، فإلهها وقائع زرعت في قلوب قوم نفاقا، ورذة وشقاقا. وقد آجتهدت في القول، وبالنسبة في النصيحة، وبالله التوفيق. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فقال معاوية: والله يا أم الخير ما أردت بهذا إلا قتلى! والله لو قتلني ما خرجت في ذلك.

قالت: والله ما يسوءني أبى هند أن يجري الله ذلك على يدي من يُسَمِّنِي الله بشقائه؛ قال: هيات يا كثيرة الفضول، ما تقولين في عثمان بن عفان؟ قالت: وما عسيبُ أن أقول فيه، استخافه الناس وهم كارهون، وقتلوه وهم راضون؛ فقال: أيها أم الخير، هذا والله أصلك الذي تبين عليه؛ قالت: لكن الله يشهد وكفى بالله شهيدا، ما أردتُ بعثمان نقصا، ولقد كان سباقا إلى الخيرات، وإنه لرفيع الدرجة. قال: فما تقولين في طلحة بن عبيد الله؟ قالت: وما عسى أن أقول في طلحة، إغتيال من مأمته، وأني من حيث لم يتحذر، وقد وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة. قال: فما تقولين في الزبير؟ قالت: يا هذا لا تدعني كترجيع الصبيخ بعرثك في المِرْكَن<sup>(١)</sup>؛ قال: حقا لتقولن ذلك وقد عزمْتُ عليك؛ قالت: وما عصيتُ أن أقول في الزبير ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه، وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة، ولقد كان سباقا إلى كل مكرمة في الإسلام. وإني

(١) المِرْكَن: الإِجَاة وهي إزاء تفصل فيه الثياب. ويرك: يحك. والرجع المردود. أي لا تغطي كالثوب المصبوغ يحك في الإثاء مرة بعد أخرى لإخراج صبه منه: تشبه محاورة ساوية إياها وسؤاله لها مرة بعد مرة لاستخراج ما في نفسها بما ينسل من الثياب المصبوغة لاستخراج صبغها منها.

أسألك بحق الله يا معاوية، فإن قرشنا تحدث أنك من أحملها، أن تَسْعِي بفضل حملك، وأن تُعْفِي من هذه المسائل، وأميض لما شئت من غيرها، قال: نعم وكرامة، قد أعفيتك، وودها مكرمة إلى بلدها .



### ٣ - كلمة الزرقاء<sup>(١)</sup> بنت عدي

ومن كلام الزرقاء بنت عدي بن قيس الهمدانية ما قالته يوم صرّفين أيضا :

يروى أنها دُرِثَتْ عند معاوية يوما، فقال لجلسائه: أَيْكُمْ يَحْفَظُ كلامها؟ قال بعضهم: نحن نحفظه يا أمير المؤمنين؛ قال: فأشيروا عليّ في أمرها، فأشار بعضهم بقتلها، فقال: بئس الرأي! أَيْحَسُنُ بِمَنْ أَنْ يَقْتُلَ امرأة! ثم كتب إلى عامله بالكوفة أن يؤثما إليها مع ثقة من ذوى تحرّرها وعتة من قُرْسان قومها، وأن يمهّد لها وطاءً لينا، وبسترها بستر خَصِيف<sup>(٢)</sup>، ويوسّع لها في النفقة. فلما دخلت على معاوية، قال: مرحباً بك وأهلاً! قَدِمْتَ خيرَ مُقَدَّمٍ قَدِمه وافد، كيف حالك؟ قالت: بخير يا أمير المؤمنين، أدام الله لك النعمة! قال: كيف كنت في مسيرك؟ قالت: ربيبة بيت أو طفلًا ممهدًا؛ قال: بذلك أمرناهم. أتدريين فيم بعثت إليك؟ قالت: وأنى لي بعلم ما لم أعلم؟ وما يعلم الغيب إلا الله عز وجل؛ قال: أليس الراكبة الجمل الأحمر، والواقفة بين الصّفين يصفّين مُحَضَّين الناس على القتال، وتوقدين الحرب؟ لها حملك على ذلك؟ قالت: يا أمير المؤمنين، مات الرأس، وبُرِّ الذّنب، ولن يعود ما ذهب، والدهر نوحيل، ومن تفكّر أبصر، والأمرُ يحدث بعده الأمر؛ قال

(١) هي الزرقاء بنت عدي بن غالب بن قيس الهمدانية، كانت من أهل الكوفة، وكانت ذات حجة فاقته، وبلغة نادرة، فهديت مع قومها واقعة صفين، ولها عدة خطب تحرض الناس لها على القتال ضد معاوية. وبعد أن تم لمعاوية ما أراد كتب إلى عامله بالكوفة باستدعائها، فأحضرت إليه، وبعد محاورته رتبها ما لها حاجتها، فقالت: « يا أمير المؤمنين، أليت على نفسي ألا أسأل أميرا أعت عليه أبداً » ثم انصرفت، وبعد ذلك أرسل لها معاوية جارية .

(٢) خَصِيف : طليخ .

لها معاوية : أتخفظين كلامي يوثق؟ قالت : لا والله ، ولقد أنسيته ؛ قال : لكني أحفظه ،  
له أبو بكر حين نقول :  
:

أيها الناس ، إرجعوا وأرجعوا ! إنكم أصبحتم في فتنة غشتكم جلايب الظلم ، وجارت  
بكم عن قصد المحبة . فإلها فتنة عياء ، عياء بكاء ، لا تسمع لنا عنها ، ولا تأسل لنا عنها .  
إن المصباح لا يضيء في الشمس ، والصكواكب لا تثير مع القمر ، ولا يقطع الحديد  
إلا الحديد . ألا من أسترشد أرشدناه ، ومن سألنا أخبرناه .

أيها الناس ، إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها ! فصبأ يامعاشر المهاجرين والأنصار  
على الفصص ؛ فكان قد آدمل شعب الشتات ، وأتامت كلمة التقوى ، ودمغ الحق باطله !  
فلا يجهل أحد فيقول : كيف العدل وأنى ! ليقضى الله أمراً كان مفعولاً . ألا وإن خضاب  
النساء الحناء ، وخضاب الرجال الدماء ! ولهذا اليوم ما بعده ، والصبر خير في عواقب  
الأمر . أيها إلى الحرب قداماً خيرنا كهيبن ولا متشاكسين .

ثم قال لها : يا زرقاء ، لقد شيركت طيلاً في كل دم سفقك ؛ قالت : أحسن الله بشارتك ،  
وأدام سلامتك ؛ فمثلك من بشر بخير ومير جليسه ؛ قال : ويشترك ذلك ؟ قالت : نعم سريرت  
بالخير فأنى لي بتصديق الفعل ! فضحك معاوية وقال : آؤفاؤكم له بعد موته أعجب عندي  
من حبكم له في حياته ! أذكرى حاجتك ؛ قالت : يا أمير المؤمنين ، آليت على نفسي ألا  
أسأل أميراً أعنت عليه أبناً ، ومثلك من أعطى من خير مسألة ، وجاد من خير طلبة ؛ قال :  
صديقت ، وأمر لها وللذين جاموا معها بجوارثوكسا .

#### ٤ — عكرشة بنت الأطرش

ومن كلام عكرشة بنت الأطرش ما قالته يوم صغين أيضا :

بروى أنها دخلت على معاوية متوكلت على حكاها ، فسلمت عليه بالخلافة ثم جلست ؛  
فقال لها معاوية : الآن صرت عندك أمير المؤمنين ؟ قالت : نعم إذ لا على شيء ! قال :

ألسيت المتقلبة حائل السيف بصفين وأنت واقفة بين الصفين تقولين : أيها الناس ، عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا أهديتكم . إن الجنة لا يحرز من قطنها ، ولا يرم من سكنها ، ولا يموت من دخلها ، فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها ، ولا تنصرم همومها . وكونوا قوماً مستبصرين في دينهم ، مستظهرين على حقهم ؛ إن معاوية دلف إليكم بعجم العرب ، لا يفقهون الإيمان ، ولا يدرون ما الحكمة . دعاهم إلى الباطل فأجابوه ، واستنداهم إلى الدنيا فلبّوه . فآله الله عباد الله في دين الله ! وإياكم والتواكل فإن ذلك ينقض عرى الإسلام ، ويطفئ نور الحق . هذه بذرة الصغرى ، والمقبة الأخرى . يا معشر المهاجرين والأنصار ، أمضوا على بصيرتكم ، وأصبروا على عزيزتكم ، فكأنى بكم غداً وقد لقيتم أهل الشام كالحمر الناهقة تقصع تقصع البعير<sup>(١)</sup> .

ثم قال : فكأنى أراك على عصاك هذه قد انكفأ عليك العسكران يقولون هذه عكرشة بنت الأعرس ، فإن كدت لتقتلين أهل الشام لولا قدر الله ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، فما حملك على ذلك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ، يقول الله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ ﴾ الآية ، وإن اللبيب إذا كره أمراً لا يحب إعادته ، قال : صدقت ، فاذكري حاجتك ، قالت : كانت صدقاتنا تؤخذ من أغنيائنا فترد على فقرائنا ، وقد فقدنا ذلك ، فما يجبر لنا كسير ، ولا ينشئ لنا فقير ؛ فإن كان عن رأيك فمثلك من أنتبه من الغفلة وراجع التوبة ، وإن كان عن غير رأيك فما مثلك من استمان بالخطوة ، ولا استعمل القلابة ؛ قال معاوية : يا هذه ، إنه ينوبنا من أمور رعبتنا نفور نشفق ، وبحور نشدق ؛ قالت : سبحان الله ! والله ما فرض الله لنا حقاً بفعل فيه ضرراً لغيرنا وهو عالم الغيوب ، قال معاوية : هيات يا أهل العراق ، نهبكم على فلن تطأقوا . ثم أمر برذ صدقاتهم فيهم وإنصافهم .

(١) يقال : قصع البعير يجره قصع قصعاً : مضطراً .

## ٦ - رسالة لعبد الحميد الكاتب<sup>(١)</sup>

كتب عبد الحميد بن يحيى الكاتب عن مروان بن محمد لبعض من ولّاه<sup>(٢)</sup> :

أما بعد ، فإني أمير المؤمنين - عند ما أعتزمت عليه من توجيهك الى عدوّ الله الخلف الجاني الأعرابي ، المتسكّع في حيرة الجهالة ، وطُلم الفتنة ، ومهاوى الحكمة ، ورعاية الذين طافوا في أرض الله فساداً ، وأتبعوا حرمة الإسلام استخفافاً ، وبدلوا نعمة الله كفرًا ، وأستحلوا دماء أهل سلّمه جهلاً - أحب أن يعهد اليك في لطائف أورك ، وعوام شؤونك ، ودخائل أحوالك ، ومصطرف تنفك عهداً يحملك فيه أدبه ، ويشرح لك به

(١) هذه الرسالة منقولة عن صبح الأعيان ج ١٠ ص ١٩٥ . (٢) هو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد الماسريّ ولّاه ، الثاني داراً ، شيخ الكتّاب الأرائل ، وأول من أطال الرسائل .

كان عبد الحميد من أهل الشام من موالى بنى عامر ، وتخرج في البلاغة والكتابة على ختّه أبي السلاء مالم مولى هشام بن صد الملك وكاتب دوله واحد بلباء العالم والفتنة من البيوتية . وكان عبد الحميد في أول أمره معلم صبيان يتغل في البلدان حتى فطن له مروان بن محمد أيام توليته أرمينية وانتدبه لتسكين فشتها ، فكتب له مئة ولايته ، حتى إذا بلغه ما به أهل الشام له بالخلافة عبد مروان لله عكراً ومجد أصحابه إلا عبد الحميد ، فقال له مروان لم لا تسجد؟ فقال : ولم أجد؟ أعل أن كنت مما طهرت منا ! قال : إذا طهرت مني ؟ قال : الآن طاب لي السجود وسجد ، فاتخذ مروان كاتب دوله ، فصدره من الرسائل ما صار نموذجاً يحاكيه من بعده من البلاد .

ولما دهمت مروان جيوش خراسان أنصار الدعوة العباسية وتوالت طيبه الهزائم كان عبد الحميد يلازمه في كل هذه الفتنة ، فقال له مروان : قد أحسنت أن تحمى مع عتري وتظهر التدبّر ، فإن إيجابهم بأدبك ، وساجبتهم الى كتابتك ، تحمىهم الى حسن الفن بك ، فإن استطعت أن تخفى في حياقي وإلا لم تعجز عن حفظ حرمي بسد رفاقي ، فقال له : إن النوى أغرت به على أقنع الأمرين لك وأبجها بي ، وما عندي إلا الصبر حتى يفتح الله عليك أرائل منك . وأئند :

أمر واه ثم أظهر غشدة = فنزل بعدد يوسع الناس ظاهره

وبقي معه حتى قتل مروان سنة ١٣٢ هـ فزارعياً عند مدبته ابن المقفع فجاباه الطلب وهو في يده ، فقال الذين دخلوا طليما : أياكم عبد الحميد ؟ فقال كل منهما : أنا ، عرفنا حل صاحبه ، وخاف عبد الحميد أن يسرهوا إلى ابن المقفع فقال : ترقوا بنا فإني كلاً منا له علامات ، فركلوا بنا بعضكم وبعضاً ثم يذكر تلك السلطات لمن دبركم ففعلوا وأخذ عبد الحميد إلى السجاق فقتله سنة ١٣٢ هـ . انظر ترجمته في ابن خلكان (ج ١ ص ٤٢٦) . (٣) هو عبد الله بن مروان أرسله لقتال الفضل بن قيس الشيباني المازجي .



عِفَّتَهُ ، وإن كنت بحمد الله من دين الله وخلافته بحيث أصطنعك الله لإلابة العهد غنصاً  
لك بذلك دون مُجْتَنِك وتبني أيسك . ولولا ما أمر الله تعالى به دألاً عليه ، وتقدمت فيه  
الحكماء أميرين به : من تقديم العظة ، والتذكير لأهل المعرفة ، وإن كانوا أولى ساجدة  
في الفضل وخصيصاء في العلم ، لا تعتمد أمير المؤمنين على أصطناع الله إياك وتفضيله لك  
بما رآك أهله في محلك من أمير المؤمنين ، وسبقك إلى رغائب أخلاقه ، وأتزعاج محمود شيعه ،  
وأستيلائك على مثابه تدييره . ولو كان المؤدبون أخذوا العلم من عند أنفسهم ، أو لقنوه  
إلهاً من تلقائهم ولم يُصبهم تعلموا شيئاً من ضيعهم ، انتحلأهم علم النيب ، ووضعناهم بمنزلة  
قصر بها عنهم خالفهم المستأثر بعلم النيب عنهم بوحدايته في فردانيته وسابق لاهوريتيه ،  
احتجاباً منهم لتعقيب في حكمه ، ونشئت في سلطانه وتنفيذ إرادته ، حل سابق مشيتيه .  
ولكن العالم الموفق للخير ، المخصوص بالفضل ، المحبوب بمنزلة العلم وصفوته ، أدركه معاناً عليه  
بلطف بحمته ، وإذلال كنفه ، ورحمة فهمه ، وقهر ساميته .

وقد تقدم أمير المؤمنين إليك ، آخذاً بالحمية عليك ، مؤدباً حق الله الواجب عليه  
في إرشادك وقضاء حَقِّك ، وما ينظر به الوالد المُنَى الشفيق لولده . وأمير المؤمنين يرجو أن  
ينزهك الله عن كل قبيح يهش له طمع ، وأن يعصمك من كل مكروه حاق بأحد ، وأن  
يحصنك من كل آفة استولت على أمرئ في دين أو خلق ، وأن يبلغه فيك أحسن ما لم يزل  
يعوده ويريه من آثار نعمة الله عليك ، سامية بك إلى ذروة الشرف ، متبججة بك بسطة  
الكرم ، لائحة بك في أزهر معالي الأدب ، مودعة لك أنفس ذخائر العز ، والله يستخلف  
عليك أمير المؤمنين ويسأل حياطك ، وأن يعصمك من زيف الهوى ، ويحضرك داعي  
التوفيق ، معاناً على الإرشاد فيه ، فإنه لا يُعين على الخير ولا يوفق له إلا هو .

إعلم أنت للكمة مسالك تضي مضائق أوائها بن أنهما سالكا ، وركب أخطارها  
قاصدا ، إلى سعة عاقبتها ، وأمن سرحها ، وشرف عزمها . وأنها لا تُمار بسُف الخلق ،  
ولا تُنشأ بتفريط الغفلة ، ولا يُتعدي فيها بأمرئ حده . وربما أظهرت بسطة النى

مستور العيب . وقد تَلَقَّسَتْ أخلاقُ الحكمة من كل جهة بفضلها ، من غير تعيب البحث في طلبها ، ولا مُتَطَاوِلَ لمساولة ذُرُوتها ؛ بل تأملت منها أكرم نَبَاتِها ، واستخلصت منها أعتق جواهرها ؛ ثم سموت إلى لباب مُصَاصِها ، وأحرزت مُنْفَسَ ذخايرها ، فأقتعد ما أحرزت ، ونافس فيما أصبت .

وأعلم أن احتواءك على ذلك وسبقك إليه بإخلاص تقوى الله في جميع أمورك مؤثراً لها ، وإضمار طاعته منطقياً عليها ، وإعظام ما أنعم الله به عليك شاكراً له ، مرتبطاً فيه للزيد بحسن الجباة له والدب عنه من أن تدخلك منه سامة ملال ، أو غفلة ضياع ، أو سنة تهاون ، أو جهالة معرفة ، فإن ذلك أحق ما يبدى به ونظر فيه ، معتمداً عليه بالقوة والآلة والمدة والافتراق به من الأصحاب والحلقة . فتمسك به لاجئاً إليه ، واعتمد عليه مؤثراً له ، واكتسح إلى كنفه متعيناً إليه : فإنه أبلغ ما طُلب به رضا الله وأجبه مسأله ، وأجزله نواباً ، وأعوذه قسماً ، وأعنه صلاحاً ؛ أرضيك الله لحظك ، وفهمك سداده ، وأخذ قبلك إلى محوده . ثم أجمعل لله في كل صباح بنعم عليك ببلوغه ، ويظهر منك السلامة في إشراقه ، من نفسك نصيباً يجعله له شكراً على إبلاغه إياك يومك ذلك بصحة جوارح وعافية بدن ، وسبوغ نيم ، وظهور كرامة ، وأن تقرأ فيه من كتاب الله — تبارك وتعالى — جزءاً تردّد رأيت في آيه ، وترتل لفظك بقرائه ، وتحضره عقلك ناظراً في مُحكمه ، ولتفهّمه مفكراً في مُتشابهه : فإن في القرآن شفاء الصدور من أمراضها ، وبراءة وساوس الشيطان وصعاصيه ، وضياء معالم النور ، تبيان لكل شيء وهدى ورحمة لقرم يؤمنون . ثم تعهّد نفسك بمجاهدة هواك ، فإنه مغلاق الحسنات ، ومفتاح السيئات ، وتخصم العقل .

وأعلم أن كل أهوائك لك عدو يحاول هلكتك ، ويسترض غفلتك ، لأنها خُدع إبليس ، وخَوَائِل مكره ، ومصائد ميكيدته ؛ فاحذرْها مجانباً لها ، وتوقها محترساً منها ؛ واستعِذ

(١) المصاحف : خالص كل هي .

(٢) كذا في صبح الأحرار وفي مفتاح الأنكار (٢٨٢) وفيه « وترين » . (٣) المصاحف : جمع مصحف وهو طائر أعقب يصد الجنادب ، شبه دوسة الشيطان به . وفي بعض المؤلفات « وسفاسفه » .

بالله عز وجل من شرها، وجاهدتها إذا تناصرت عليك بعزم صادق لا وتية فيه، وحزم  
 نافذ لا مثنوية لرأيك بعد إصداره، وصدق غالب لا مطمع في تكذيبه، ومضائة صارمة  
 لا أناة معها، ونية صحيحة لا خلجة شك فيها: فإن ذلك ظهري صدق لك على ردعها  
 عنك، وقيعها دون ما نتطلع إليه منك، فهي واقية لك من خطئة ربك، داعية إليك رضا  
 العاتية عنك، ساترة عليك عيب من دونك، فازدئ بها متحلياً، وأصب بأخلاق مواضعها  
 الحميدة منها، وتوق عليها الآفة التي تقتطعك عن بلوغها، وتقصر بك دون شأوها: فإن  
 المؤونة إنما أشتدت مستصعبة، وقدحت باهظة أهل الطلب لأخلاق أهل الكرم المتحليين  
 سمو الصدر، بجهالة مواضع ذميم الأخلاق ومجودها، حتى تترط أهل التقصير في بعض  
 أمورهم، فدخلت عليهم الآفات من جهات أمونها، فلبسوا إلى التفریط، ورضوا بذلك  
 المنزل، فأقاموا به جاهلين بموضع الفضل، يحرمين عن درج الشرف، ساقطين دون منزلة  
 أهل الجاه. فحاول بلوغ غاياتها محمراً لها بسبق الطلب إلى إصابة الموضع، محصناً  
 أعمالك من العجب: فإنه رأس الهوى، وأول القواية، ومقادير الحكماء، حارماً  
 أخلاقك من الآفات المتصلة بمساوي الألقاب وذميم تأثرها، من حيث أنت الغفلة،  
 وانتشر الضياع، ودخل الوهن. فتوق غلوب الآفات على عقلك، فإن شواهد الحق  
 ستظهر بآماراتها تصديق آرائك عند ذوى الجاه حال الرأي وتخص النظر. فاجتنب  
 لنفسك محمود الذكر وباقي لسان الصدق بالخطر لما تقدم إليك فيه أمير المؤمنين،  
 متحرراً من دخول الآفات عليك من حيث أمتك وقيلة فتتك بمحكمها: من ذلك أن تملك  
 أمورك بالقبض، وتدارى بجنبك بالإحسان، وتصور بترك الكتمان، وتداوى بجدك  
 بالإتصاف، وتذلل نفسك بالعدل، وتحصن عيوبك بتقويم أودك، وتمنع عقلك من دخول  
 الآفات عليه بالعجب المرئى. وأنتك فوقها المألل وفوت العمل، ومضامتك فدرعها  
 روية النظر واكتنفها بأناة الحليم. وخلوتك فأحرمها من الغفلة وأعياد الراحة، وصنعتك

(١) لا وتية: لا توافق. (٢) أى لا استثناء.

فأنف عنه عي اللفظ ، وخف سوء القالة ؛ واستماعك فأرعه حسن التفهم ، وقوه بإشهاد الفكر ، وعطامك فأمهد له بيوتات الشرف وذوى الحسب ، وتمحز فيه من السرف واستطالة البذخ وأمتنان الصليحة ؛ وحيامك فأمنه من التبحل وبلادة الحصر ؛ وجملك فزعه عن التهاون وأخضره قوة الشكيمة ؛ وعقوبتك فقصر بها عن الإفراط ، وتعمد بها أهل الاستحقاق ؛ وعفوك فلا تدخله تعطيل الحقوق ، وخذ به واجب المفترض ، وأقيم به أود الدين ؛ وأستئناسك فأمنع منه البداء وسوء المناقضة <sup>(١)</sup> . وتمهلك أمورك لحده أوقاتا ، وقدره ساطات لا تستفرغ قوتك ، ولا تستدعي سامتك ؛ وعزمايك فأنف عنها عجلة الرأي ، ولحاجة الإقدام ؛ وفرحاتك فأشكها عن البطر ، وقسدها عن الزهو ؛ وروعاتك لحظها من دهم الرأي وأستسلام الخضوع ؛ وحدراتك فأمنها من الجبن ، وأعمد بها الحزم ؛ ورجاعتك فقيده بخوف الفات ، وأمنه من أمني الطلب .

هذه جوامع خلال ، دخال النقص منها واصل إلى العقل بلطائف أبته ، وتصاريف حويله ، فأحكيها عارفا بها ، وتقدم في الحفظ لها ، معترما على الأخذ بمراشدها والانهاء منها إلى حيث بلغت بك عظة أمير المؤمنين وأدبه إن شاء الله .

ثم تكن بطانتك وجلسائك في خلواتك ودخلائك في سرك ، أهل الفقه والورع من خاصة أهل بيتك ، وعامة قوادك ممن قد حنكته السن بتصارييف الأمور ، وخبطته فصالحا بين فرائس البزل منها ، وقلبته الأمور فنونها ، وركب أطوارها ، عارفا بجاسن الأمور ومواضع الرأي وعين المشورة ؛ مأمون النصيحة ، منطوي الضمير على الطاعة . ثم أخضرهم من نفسك وقارا يستدعي لك منهم أهلية ، وأستئناسا يعطف إليك منهم المودة ، وإنصاتا يفعل إفاضتهم له عندك بما تراه أن يثثرتك من مخافة الرأي وضباع الحزم . ولا يثليلت عليك هواك فيصرفك عن الرأي ويقتطعك دون الفكر . وتعلم أنك وإن خلوت بيسر

(١) يقال : نأمت فلان فلانا بالكلام : آذاه . (٢) الحويل : الخلق والقدرة على التصرف . (٣) القراس : واحده قرسن وهو طرف خف البعير .

فألقيتْ دونه سُتورك، وأغلقتْ عليه أبوابك، فذلك لأعالة مكشوفٍ للعامة، فظاهرُ  
 عنك وإن استترت برحمة وإسلّ ودا أرى إذاعة ذلك وأعلم، بما يرون من حالاتٍ من  
 ينقطع به في تلك المواطن . فتقدم في إحكام ذلك من نفسك، وأسدد خلاله عنك : فإنه  
 ليس أحدٌ أسرع إليه سوء القالة ولغط العامة بخير أو شرٍّ من كان في مثل حالِك ومكانِك  
 الذي أصبغت به من دين الله والأمل المرجو المتظير فيك . وإياك أن يغمز فيك أحدٌ  
 من حاشتك وبطانة خدمتك بضغفةٍ يجد بها مساعدا إلى النطق عندك بما لا يمترك عيهُ،  
 ولا تخلو من لائمتِهِ، ولا تأمن سوء الأحدثوة فيه، ولا يرخص سوء القالة به إن نجم ظاهرا  
 أو علن باديا، ولن يجترئوا على تلك عندك إلا أن يروا منك إصفاء إليها وقبولها لها  
 وترخيصا لهم في الإفاضة بها . ثم إياك وأن يُفاض عندك بشيء من الفكاهات والحكايات  
 والمزاح والمضاحك التي تستخف بها أهل البطالة، وتسترع نحوها ذنوبا لجهالة؛ ويجد فيها  
 أهل الحسد مقالا لعب يذيعونه، وطمعا في حق يمحسونه، مع ما في ذلك من نقص الرأي،  
 ودرن العرض، وهدم الشرف، وتائيل الفعلة، وقوة طبايع السوء الكامنة في بني آدم  
 كككون النار في الحجر الصلب، فاذا قُدح لاح شره، وتلهب ويضسه، وقد تضرره .  
 وليست في أحد أقوى سطوة، وأظهر توقدا، وأعلى كونا، وأسرع إليه بالعب وتطسرق  
 الشئين منها لمن كان في مثل سنك : من أغفال الرجال وذوى العُنفوان في الحداثة الذين  
 لم يقع عليهم يَمَات الأمور، ناطقا عليهم لائمتها، ظاهرا فيهم وضمها، ولم تحضهم شبايمها،  
 مظهرة للعامة فضائلهم، مُذبة حسن الذكر عنهم، ولم يبلغ بهم الصبب في الحنكة مستمعا  
 يدفعون به عن أنفسهم نواطق السن أهل البني، ومواد أبصار أهل الحسد .

ثم تمهّد من نفسك لطيف عيب لازم لكثير من أهل السلطان والقدرة : من  
 (٢) إبطار الذرع ونخوة الشرف والتّيه وعيب الصلّف ؛ فإنها تُسرّع بهم إلى فساد وتهجين

(١) الأنفال جمع فغل وهو الذي لم يجرب الأمور . (٢) يقال : أبطره ذره إذا حله فرق  
 ما يطيع . وفي صحيح الأعمش ( ج ١ ص ٢٠١ ) « إبطال الذرع » . وقد توفت فيها مصححه .

عقولهم في مواطنَ جمة ، وأنحاءَ مضطربة ، منها قلةٌ أقْدَرهم على ضبط أنفسهم في مواكبتهم ومسايرتهم العامة : فمن مُقَلِّل شخصه بكثرة الالتفات عن يمينه وشماله ، تَرْدِيهِ الخِفة ، ويُسْطِرُهُ لِجَلَابِ الرجال حوله ، ومن مُقَلِّل في موكبه على مداعبة مُسَايرِهِ المفاكهة له والتضاحك إليه ، والإيجاف في السير مَرَحًا ، وتغريك الجوارح منسرحًا يقال أنت ذلك أسرع له وأحسُّ لطيئه . فلتُحَسِّنْ في ذلك هيئتَكَ ، وتُجَمِّلْ فيه دَعَتَكَ ؛ وَلْيَقَلِّ عَلَى مُسَايرِكَ إقبالَكَ إلا وأتَ مطرقَ النظر ، غير ملتفتٍ إلى محدث ، ولا مقبل عليه بوجهك في موكبك لمحادثته ، ولا مُوجِف في السير مُقَلِّل لجوارحك بالتحريك والاستنهاض ؛ فإن حسنَ مسَايرة الوالي وأتداعه في تلك الحالة دليلٌ على كثير من غيوب أمره ومستترِ أحواله .

وَأَلَمْ أَنْ أَوَّامًا يَسْرِعُونَ إِلَيْكَ بالسَّعاية ، وبأتؤنك على وجه النصيحة ، ويستميلونك بإظهار الشفقة ، ويستدعونك بالإغراء والشبهة ، ويوظفونك حَسْوَةَ الحيرة : ليجعلوك لهم ذريعة إلى استيْثَالِ العامة بموضيهم منكَ في القبول منهم والتصديق لهم على من قرؤوه بتهمة ، أو أسرعوا بك في أمره إلى الظنَّة ؛ فلا يَصِلُ<sup>(١)</sup> إلى مشافهتك ساجٍ بَشْبَةٍ ، ولا معروفٌ بتهمة ، ولا منسوبٌ إلى بدعة فيعرضُكَ لِإِيتَاغِ دينك ، ويَجْعَلُكَ على رعيته بما لاحقيقة له عندك ، وَيُلْحِمُكَ أمراضَ قومٍ لا علم لك بدخلهم ، إلا بما أقدم به عليهم ساعيًا وأظهر لك منهم مُتَصِصًا . ولكن صاحبُ شُرْطَتِكَ المتوفى لإنهاء ذلك هو المنصوب لأولئك ، والمستمع لأقاويلهم ، والفاحص عن نصائحهم ، ثم لَبَّيْهِ ذَلِكَ إِلَيْكَ على ما يُرْفَعُ إليه منه لتأمره بأمرك فيه ، وتَقِفْهُ على رأيك من غير أن يَظْهَرَ ذَلِكَ للعامة : فإن كان صوابًا نالتك خَيْرَتُهُ ، وإن كان خطأ أقدم به عليك جاهل ، أو قَرِطَةٌ سعى بها كاذب ، فنالت الساعي منها أو المظلوم عقوبةً ، أو بَدَرَ مِنْ إِلَيْكَ إليه عقوبةً وَتَكَال ، لم يَمُصِبْ ذَلِكَ انْخِطًا<sup>(٢)</sup> بك ولم تُنْتَسَبْ إلى تفريط ، وخلوت من موضع الذم فيه مُحْضِرًا إِلَيْهِ يَهْجُوكَ وصوابَ رأيك .

(١) أرتفع دية بالإثم : أسفه . (٢) ألمه مرض فلان : أمته مه يشمه . (٣) دخل الزحل (بالفتح والكسر) : نجه وملعبه . (٤) لم يصب أي لم يلق .

وتقدّم إلى من تَوَلَّى ذلك الأمرَ وتعتمد عليه فيه ألا يُقَدِّم على شيء ناظرًا فيه ، ولا يحاول أخذ أحد طارقًا له ، ولا يُعاقِب أحدًا مُتَكَلِّبًا به ، ولا يُتَحَلَّى سَبِيلَ أحدٍ صَالِحًا عنه لِإِصْحَار<sup>(١)</sup> براءته وِصْفَةِ طَرِيقَتِهِ ، حتى يَرَفَعَ إِلَيْكَ أَمْرَهُ ، وَيُنْهِيَ إِلَيْكَ قَضِيَّتَهُ على جِهَةِ الصَّدَق ، وَمَنْحَى الْحَقِّ ، وَيَقِينُ الْخَبَرَ ؛ فَإِنْ رَأَيْتَ عَلَيْهِ سَبِيلًا تَحْيِسُ أَوْ مَجَازًا لِعُقُوبَةٍ ، أَمَرْتَهُ بِتَوَلَّى ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ إِدْخَالِهِ عَلَيْكَ ، وَلَا مِشَافَهَةِ لَكَ مِنْهُ ؛ فَكَانَ الْمُتَوَلَّى لَذَلِكَ وَلَمْ يَحْيِرْ عَلَى يَدَيْكَ مَكْرَهُ رَأَى وَلَا غِلْظَةً عَقُوبَةٍ . وَإِنْ وَجَدْتَ إِلَى الْعَفْوِ عَنْهُ سَبِيلًا ، أَوْ كَانَ مِمَّا قُرِفَ بِهِ خَلِيًّا ، كُنْتَ أَنْتَ الْمُتَوَلَّى لِلْإِنْعَامِ عَلَيْهِ بِخَلِيلِيَّةٍ سَبِيلَهُ ، وَالصَّفْحِ عَنْهُ بِإِطْلَاقِ أَمْرِهِ ؛ فَتَوَلَّيْتَ أَجْرَ ذَلِكَ وَأَسْتَحَقَّقْتَ دُخْرَهُ ، وَأَنْطَقْتَ لِسَانَهُ بِشُكْرِكَ ، وَطَوَّقْتَ قَوْمَهُ حِمْدَكَ ، وَأَوْجَبْتَ عَلَيْهِمْ حَقَّكَ ؛ فَفَرَّقْتَ بَيْنَ خَصْمَتَيْنِ ، وَأَحْرَزْتَ حُظُوتَيْنِ : ثَوَابَ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ ، وَمَجْدُودَ الذِّكْرِ فِي الدُّنْيَا .

ثم إِنَّا لَكُ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ جَنْدِكَ وَجُلَسَائِكَ وَخَاصَّتِكَ وَبِطَانَتِكَ بِمَسْأَلَةٍ يَكْتَسِفُهَا لَكَ ، أَوْ حَاجَةٍ يَسْتَكْتُهَا بِطَلِبِهَا ، حَتَّى يَرْفَعَهَا قَبْلَ ذَلِكَ إِلَى كَاتِبِكَ الَّذِي أَهْدَفْتَهُ لَذَلِكَ وَنَصَبْتَهُ لَهُ ، فَيَعْرِضُهَا عَلَيْكَ مِنْهَا لَهَا عَلَى جِهَةِ الصَّدَقِ عَنْهَا ، وَتَكُونُ عَلَى مَعْرِفَةٍ مِنْ قُدْرَتِهَا ؛ فَإِنْ أَرَدْتَ إِسْمَاعَافَهُ بِهَا وَيُجَاجِحَ مَا سَأَلَ مِنْهَا ، أَذْنْتَ لَهُ فِي طَلِبِهَا ، بِاسْطِغَا لَهَا كَتَفَكَ ، مُقْبِلًا عَلَيْهِ بِوَجْهِكَ ؛ مَعَ ظُهُورِ سُرُورِكَ بِمَا سَأَلَكَ ، وَتُسْعَةِ رَأْيِ وَبَسْطَةِ ذَرْعٍ ، وَطِيبِ نَفْسٍ . وَإِنْ كَرِهْتَ قَضَاءَ حَاجَتِهِ ، وَأَحْبَبْتَ رَدَّهُ عَنْ طَلِبَتِهِ ؛ وَثَقُلَ عَلَيْكَ إِجَابَتُهُ إِلَيْهَا وَإِسْمَاعَافُهَا ، أَمَرْتَ كَاتِبَكَ قَصْفَافَةً عَنْهَا ، وَمَنْعَهُ مِنْ مُوَاجَهَتِكَ بِهَا ؛ نَخَفْتَ عَلَيْكَ فِي ذَلِكَ الْمُؤَوَّنَةُ ، وَحَسَّنَ لَكَ الذِّكْرُ ، وَلَمْ يُنْشَرْ عَنْكَ تَجْهِيمُ الرَّدِّ ، وَبَيْنَكَ سُوءُ الثَّقَالَةِ فِي الْمَنْعِ ، وَجُمِلَ عَلَى كَاتِبِكَ فِي ذَلِكَ لِأَثْمَةٍ أَنْتَ مِنْهَا بِرَأْيِ السَّاحَةِ .

وكذلك فليكن رَأْيُكَ وَأَمْرُكَ فِيمَنْ طَرَأَ عَلَيْكَ مِنَ الْفَوُودِ وَأَتَاكَ مِنَ الرُّسُلِ ، فَلَا يَصِلَنَّ إِلَيْكَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا بَعْدَ وَصُولِ عَالِمِهِ إِلَيْكَ ، وَعِلْمَ مَا قَدِمَ لَهُ عَلَيْكَ ، وَجِهَةً مَا هُوَ مُكَلِّمُكَ

(١) أى لوضوح براءته ، ففى حديث علّ : فأصبر لمدتك ، أى كن من أمره على أمر راض .

(٢) صفحه عنها ، ودهنها .

به ، وقدر ما هو سائلك إياه إذا هو وصل إليك ، فأصدرت رأيك في حوائجه ، وأجملت فكرك في أمره ، وأخترت معتمداً على إرادتك في جوابه ، وأنشدت مصدور رويته في مرجوع مسأله قبل دخوله عليك ، وعليه بوصول حاله إليك ، فرفعت عنك مؤونة البديهة ، وأرغيت عن نفسك خناق الروية ، وأقلمت على ردة جوابه بعد النظر وإجالة الفكر فيه . فإن دخل إليك أحد منهم فكذلك بخلاف ما أنهي إلى كاتيك وطوى عنه حاجته قبلك ، دفعته عنك دفعا جميلا ، ومنعته جوابك منعا وديعا ، ثم أمرت حاجبك بإظهار الجفوة له والنظرة عليه ، ومنعه من الوصول إليك ، فإن ضبطك لذلك مما يحكم لك تلك الأسباب ، صارتا عنك مؤونة ، ومهلا عليك مستصمها .

احذر تضيق رأيك وإهمالك أدبك في مسالك الرضا والغضب وأعتوارهما إليك ، فلا يزدريهك إفراط عجب تستخفك رواثمه ، ويستويك منظره ، ولا يبدرك منك ذلك خطأ وتزق خفة لمكروه إن حل بك ، أو حادث إن طرأ عليك . وليكن لك من نفسك ظهري ملجأ تحوز به من آفات الردى ، وتستعصده في مهم نازل ، وتستعقب به أمورك في التدبير . فإن أحتجت إلى مادة من عقلك ، وروية من فكرك ، أو أنيساط من منطقتك ، كان أخصارك إلى ظهريك مندادا مما أحببت الإمتياح منه والاعتبار ، وإن استدبرت من أمورك بوادر جهل أو مضى زلل أو معاندة حق أو غطل تدبير ، كان ما أحتجت إليه من رأيك عذرا لك عند نفسك ، وظهريا قويا على ردة ما كرهت ، وتخفيفا لمؤونة الباغي عليك في القالة وأنتشار الذكر ، وحصنا من غلوب الآفات عليك ، وأستعلاها على أخلاقك .

وأمن أهل بطانتك وخاصة خديك من استلحام أعراض الناس عندك بالنية ، والتفريب اليك بالسماية ، والإغراء من بعض ببعض ، أو النجاسة اليك بشئ من أحوالهم

(١) في صبح الأعشى : « وتستعبد في مهم النازل » . وفي رسائل البلاه : « وتستعبد في مهم نازل » . وأخرتا من البارزين ما يناسب المقام . (٢) كذا في صبح الأعشى والمحتاج ورسائل البلاه ، ولعله وإن ابتدئت ... الخ .



المسترة عنك ، أو التجميل لك على أحد منهم بوجه النصيحة ومذهب الشفقة : فإن ذلك أبلغ بك سموًا إلى منالة الشرف ، وأعوذُ لك على محمود الذكر ، وأطلق لعنان الفضل في جمرالة الرأي وشرف الهمة وقوة التدبير .

وأملك نفسك عن الإنبساط في الضحك والافتهاق ، وعن القطوب بإظهار الغضب وتغله : فإن ذلك ضعف عن ملك سيرة الجهل ، وخروج من أتمثال آسم الفضل .  
وليكن صيحتك تدبًا أو كثرة في أحيان ذلك وأوقاته ، وعند كل رافع مستخف مطرب ، وقطوبك إطرافا في مواضع ذلك وأحواله ، بلا عجلة إلى السطوة ، ولا إسراع إلى الطيرة ، دون أن تكثفها روية الحلم ، وتملك عليها بادرة الجهل .

إذا كنت في مجلس ملك ، وحيث حضور العانة مجلسك ، فإياك والزمي بنظرك إلى خاص من قوادك ، أو ذى أثره عندك من حشمك . وليكن نظرك مقسومًا في الجميع ، وإراعتك سمك ذا الحديث بدعة هادئة ، ووقار حسن ، وحضور فهم مجتمع ، وقلة تضجر بالحدث ، ثم لا يبرح وجهك إلى بعض حرمك وقوادك متوجها بنظر ركين ، وتفقد محض . وإن وجه اليك أحد منهم نظره محذفا ، أو رماك بصره ملها ، فاخفض عنه إطرافا جميلا بالتداع وسكون . وإياك والتسرع في الإطراق ، والخفة في تعريف النظر ، والإلحاح على من قصد اليك في مخاطبته إياك رافعا نظره .

واعلم أن تصفحك وجوه جلسائك وتفقدك مجالس قوادك من قوة التدبير ، وشماية القلب ، وذكاء الفطنة ، وآتيابه السنة . فتفقد ذلك عارفا بمن حصرك وفاب عنك ، عاليا بمواضيعهم من مجلسك ، ثم أعد بهم عن ذلك سائلا لهم عن أشغالهم التي تمتهم من حضور مجلسك ، وعاقبتهم بالتخلف عنك .

إن كان أحد من حشمك وأعوذك يتق منه بغيب ضير ، وتعرف منه لين طاعة ، ومُشرف منه على حجة رأى ، وتأمينه على مشورتك ، فإياك والإقبال عليه في كل حادث يريد عليك ، والتوجه نحوه بنظرك عند طوارق ذلك ، وإن ثريه أو أحدا من أهل مجلسك أن

بك حاجة إليه مُوحشة ، أو أن ليس بك عنه غنى في التدبير، أو أنك لا تقضى دونه رأيا ،  
إشراكا منك له في رويتك ، وإدخلا منك له في مشورتك ، وأضطرابا منك الى رأيه  
في الأمر يعرّوك : فإن ذلك من دخائل العيوب التي ينتشر بها سوء القالة عن نظرائك ، فانفها  
عن نفسك خافا لاعتلاقها ذكرك ، وأجّجها عن رويتك قاطعا لأطماع أوليائك عن مثلها  
عندك ، أو غلوهم عليها منك .

وأعلم أن للشورة موضع الخلوّة وأضراد النظر ، ولكل أمر غاية تُحيط بمحدوده ، ويجمع  
معالمه . فانفها محمّزا لها ، ومُهما طالبا لنيلها ، وإليك والقصور عن غايتها أو العجز عن  
دركها ، أو التصرّط في طلبها . إن شاء الله تعالى .

إليك والإغرام عن حديث ما أعجبك ، أو أمرا ما أزدحماك بكثرة السؤال ، أو القطع  
لحديث من أراذك بمحدثه حتى تنقّضه عليه بالخواص في غيره أو المسألة عما ليس منه : فإن  
ذلك عند العامة منسوب الى سوء الفهم وقصر الأدب عن تناول محاسن الأمور والمعرفة  
بمساوئها ، ولكن أنصت لمحدثك وأرعه سمعك حتى يعلم أن قد فهمت حديثه ، وأحطت  
بمعرفة بقوله ؛ فإن أردت إجابته فمن معرفة بم حاجته وبعد علم بطلّيته ؛ وإلا كنت عند  
أنقضاء كلامه كالمتعجب من حديثه بالتبسم والإغضاء ، فأجزى عنك الجواب ، وقطع عنك  
السُّنَّ العُتْب .

إليك وأن يظهر منك تبرّم بطول مجلسك ، أو تضجر من حضرك ، وعليك بالثبّت  
عند سورة الغضب ، وحيمة الأتق ، ولّال الصبر : في الأمر تستعجل به والعمل تأمر  
بإفادته ؛ فإن ذلك تخفّ شائئ ، وخفّة مُردّية ، وجهالة بادية . وعليك بثبوت المنطق ،  
ووقار المجلس ، وسكون الريح ، والرّيف لحشو الكلام ، والتّرك لفضوله والإغرام  
بالزّادات في منطقك ، والتّرديد للفظك : من نحو أسمع ، وأفهم عني ، ويا هناء ، وألا ترى ،  
أو ما يُلْهِج به من هذه الفضول المقصورة بأهل العقل ، الشائنة لذوى الجمّ في المنطق ،  
المسوبة لإيهم بالي ، المُردّية لهم بالذّكر . ويخصّال من معائب الملوك ، والسوقة عنها غيبة

النظر إلا من عرفها من أهل الأدب ، وقلماً حاملاً لها ، مضطجلاً بها ، صابراً على حفظها ، أخذ لنفسه بجوامعها ، فأفهمها عن نفسه بالحفظ منها ، وأملك عليها أعتيادك لإياها معنيها بها ، منها كثرة التثخيم ، والتبصق ، والتنعش ، والتؤاء ، والتمطى ، والجشأ ، وتحريك القدم ، وتقيض الأصابع ، والعبث بالوجه والخفة أو الشارب أو المخضرة أو ذؤابة السيف ، أو الإيماض بالنظر ، أو الإشارة بالطرف إلى بعض خدمك بأمر إن أردته ، أو المزار في مجلسك ، أو الاستعجال في طعمك أو شربك . ولكن طعمك متدحا ، وشربك أنفاسا ، وجرك مصاً . وإياك والتسرع إلى الأيمان فيما صغر أو كبر من الأمور ، والشئمة بقول : يأرن الهأه ، أو الغيبة لأحد من خاصتك بتسويغهم مقارفة القسوق بحيث محضرك أو دأرك وفناؤك : فإن ذلك كله مما يهيج ذكره ، ويسوء موقع القول فيه ، ويحمل عليك معايبه ، وبنالك شينته ، وينتشر عليك سوء النبا به . فاعرف ذلك متوقياً له ، وأحذره بجانباً لسوء عاقبته .

أستكثر من فوائد الخير : فإنها تنشر المحمدة ، وتقبل العثرة ، وأصبر على كظم الغيظ : فإنه يورث الراحة ، ويؤمن الساحة ، وتعهد العامة بمعرفة دخلهم ، وتبطن أحوالهم ، واستشارة ذلائهم ، حتى تكون منها على رأى عين ، ويقين خبرة ، فتنتش عديهم ، وتجبر كسبرهم ، وتقيم أودهم ، وتعلم جاهلهم ، وتستصلح فاسدهم : فإن ذلك من فعلك بهم يورثك العزة ، ويقدمك في الفضل ، ويبنى لك لسان الصدق في العاقبة ، ويبرز لك ثواب الآخرة ، ويرد عليك عواطفهم المستنفرة منك ، وقلوبهم المتتعبة منك .

فيس بين منازل أهل الفضل في الدين والجمها والرأى والعقل والتدبير والصبيت في العامة ، وبين منازل أهل التقص في طبقات الفضل وأحواله ، والحوول عند مباحاة النسب ، وأنظر بصحبة أيهم تنال من مودته الجليل ، وتستجمع لك أقاويل العامة على التفضيل ، وتبلغ درجة الشرف في أحوالك المتصرف بك . فاعتمد عليهم مُدخلاً لهم في أمرك ، وآثرهم بحالستك لهم مستعياً منهم ، وإياك وتضييعهم مفزطاً ، وإهمالهم مضياً .

(١) يقال : أقض أصابه : صوّت بها وليس في كتب اللغة تقض بالضميف . (٢) الصيرة : المعلن .

هذه جوامع خصال قد تلخصها لك أمير المؤمنين مفسراً، وجمع لك شواذها مؤلفاً، وأهداها إليك مرشداً، خفف عند أوامرها، وتناه عن زواجرها، وتثبت في مجامعها، وأخذ بوثائق عمارها، تسلم من معاطب الردى، وتسل أنفس الحفظوظ ورغيب الشرف، وأعلى درج الذكر، وتأمل سطر العز. والله يسأل لك أمير المؤمنين حسن الإرشاد، ونسائج الزيد، وبلوغ الأمل، وإن يعمل طاعة ذلك بك إلى غبطة يسوئك إياها، ورافية يحملك أكافها، ونعمة يلهمك شكرها: فإنه الموفق للخير، والمعين على الإرشاد؛ منه تمام الصالحات، وهو مؤتي الحسنات، عنده مفاتيح الخير، وبيده الملك وهو على كل شيء قدير.

فاذا أفضيت نحو مؤذك، وأعترمت على لقائهم، وأخذت أهبة قتالهم، فاجعل دعامتك التي تلجأ إليها، وتفنتك التي تأمل النجاة بها، وركك الذي ترتجى منالة الظفر به (١) وتكثيفه به لمعالني الحذر، تقوى الله مستشيراً لها بمراقبته، والاعتصام بطاعته متبهاً لأمره، محتجباً لسخطه، مخذياً سنته، والتوقى لهاصيه في تعطيل حدوده، أو تمدى شرايمه، متوكلًا عليه فيما حذمت له، واقفاً بنصره فيما توجهت نحوه، متبرئاً من الحول والقوة فيما نالك من ظفر فثقلك من عز، راغباً فيما آهاب بك أمير المؤمنين إليه من فضل الجهاد، ورمى بك إليه بحمد الصبر فيه عند الله من قتال علق المسلمين، أكلهم عليه وأظهره عداوة لهم، وأفنده ثقلاً لعانتهم، وأخذ به بريقهم، وأعلاه عليهم بقاء، وأظهره عليهم فسقا وبخوراً، وأشده على فيهم الذي أصاره الله لهم وفتحهم عليهم مؤونة (٢) وكلاً. والله المستعان عليهم، والمستنصر على جماعتهم، عليه يتوكل أمير المؤمنين، وإياه يستصرخ عليهم، وإليه يفوض أمره، وكفى بالله ولياً وناصراً ومعيناً، وهو القوى العزيز.

ثم خذ من معك من ثألك وجندك بكف معرفتهم، ورد مشتعل جهلهم، وإحكام ضياع علمهم، وضم منتشر قواصمهم، ولم شعث أطرافهم، وتقبيدهم حين مرور به من

(١) تأمل : ثبت . (٢) اكتف الكهف : دخله . (٣) آهاب بك : دخله .  
(٤) من قلم كلب الدهر على أهله إذا اشتد راح . (٥) الكل : القتل .

أهل دِيَمَتِكَ ومَلَّتْ بِحُسْنِ السَّيْرِ، وَعَفَافِ الطَّعْمَةِ، وَدَعَةِ الْوَقَارِ، وَهَدَى الدَّعَا، وَجَمَعَ  
المُسْتَجِمَّ، عَمَّا ذَلِكَ مِنْهُمْ، مُتَّفَقًا لَمْ تَقْدِرْ إِيَّاهُ مِنْ نَفْسِكَ . ثُمَّ أَحْمَدُ لَعْدُوكَ الْمُسْتَعَى  
بِالإِسْلَامِ، الْخَارِجِ مِنْ جَمَاعَةِ أَهْلِهِ، الْمُتَحِلِّ لِوَلَايَةِ الَّذِينَ مُسْتَحْلًا لِدِمَائِهِمْ أَوْلِيَاءَهُ، طَاعَنَا  
عَلَيْهِمْ، رَاغِبًا عَنْ سُنَّتِهِمْ، مُفَارِقًا لَشِرَائِقِهِمْ، يَتَّبِعُهُمُ الْغَوَائِلُ، وَيَنْصِبُ لَهُمُ الْمَكَايِدَ، أَضَرَمَ  
حَقْدًا عَلَيْهِمْ، وَأَرْصَدَ عِدَاوَةً لَهُمْ، وَأَطْلَبَ لِفِتْرَاتِ فُرْصِهِمْ مِنَ التُّرْكِ وَأَمَمِ الشُّرْكِ وَطَوَاغِي  
الْمَلِيلِ، يَدْعُو إِلَى الْمَعْصِيَةِ وَالْفُرْقَةِ، وَالْمُرُوقِ مِنْ دِينِ اللَّهِ إِلَى الْفِتْنَةِ، مَخْتَرًا بَهْوَاءَ الْأَذْيَانِ  
الْمُتَحِلَّةِ وَالْيَدِيعِ الْمُتَفَرِّقَةِ خَسَارًا وَتَحْسِيرًا، وَضَلَالًا وَتَضْلِيلًا، بِغَيْرِ هَدًى مِنَ اللَّهِ وَلَا بَيَانٍ .  
سَاءَ مَا كَسَبَتْ لَهُ يَدَاهُ وَمَا اللَّهُ يُظْلِمُ لِلْعَبِيدِ، وَسَاءَ مَا سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ الْأَمَارَةَ بِالسُّوءِ،  
وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِ بِالْمُرْصَادِ : (( وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ )) .

حَصَّنَ جَنْدَكَ، وَأَشْكَمَ نَفْسَكَ بِطَاعَةِ اللَّهِ فِي مَجَاهِدَةِ أَعْدَائِهِ، وَأَرْجَحَ نَصْرَهُ، وَجَمَزَ  
مَوْعِدَهُ، مُنْقَدِمًا فِي طَلَبِ نَوَائِهِ عَلَى جِهَادِهِمْ، مُعْتَمِدًا فِي ابْتِغَاءِ الْوَسِيلَةِ إِلَيْهِ عَلَى لِقَائِهِمْ :  
فَإِنْ طَاعَتَكَ إِيَّاهُ فِيهِمْ، وَمَرَاتِبَتَكَ لَهُ وَرِجَالَكَ نَصْرَهُ مَسْبُورًا لَكَ وَعُورَهُ، وَعَاصِيَتَكَ مِنْ كُلِّ  
سُبَّةٍ، وَمُنْجِيَتَكَ مِنْ كُلِّ هُوَةٍ، وَنَاعِيَتَكَ مِنْ كُلِّ صَرْعَةٍ، وَمُقِيلَتَكَ مِنْ كُلِّ كَبُوءَةٍ، وَدَارِيَتَكَ  
عَنْكَ كُلِّ شَبْهَةٍ، وَمُذْهِبَ عَنْكَ لَطَافَةَ كُلِّ شَيْءٍ، وَمُقَوِّكَ بِكُلِّ أَيْدٍ وَمِكِيدَةٍ، وَمُعِزَّكَ  
فِي كُلِّ مُعْتَرِكَ قِتَالٍ، وَمُوَيْدَكَ فِي كُلِّ تَجَمُّعٍ لِقَاءٍ، وَكَائِلَتَكَ عِنْدَ كُلِّ فِتْنَةٍ مُفْضِيَةٍ، وَحَاطِطَكَ  
مِنْ كُلِّ شَبْهَةٍ مُرْدِيَةٍ، وَاللَّهُ وَلِيُّكَ وَوَلِيُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِيكَ، وَالْمُسْتَخْلَفُ عَلَى جَنْدِكَ  
وَمِنْ مَعِكَ .

إِعْلَمْ أَنَّ الظُّفْرَ ظَفَرَانِ : أَحَدُهُمَا - وَهُوَ أَعَزُّ مُنْفَعَةٍ، وَأَبْلَغُ فِي حَسَنِ الذِّكْرِ قَالَةً - وَأُحَدِّثُكَ  
سَلَامَةً، وَأَتَمُّهُ طَافِيَةً، وَأَحْسَنُهُ فِي الْأُمُورِ وَأَعْلَاهُ فِي الْفَضْلِ شَرْفًا، وَأَمَحُّهُ فِي الرُّبُوبَةِ حَزْمًا،  
وَأَسَامُهُ عِنْدَ الْعَامَّةِ مَصْدَرًا - مَا نَبِيلُ بِسَلَامَةِ الْجُنُودِ، وَحُسْنِ الْحِيلَةِ، وَلُطْفِ الْمِكِيدَةِ  
وَيُبْنِي النَّيْبِيَّةَ، وَاسْتِثْنَالَ طَاعَةِ ذَوِي الصُّدُوفِ بِغَيْرِ إِخْطَارِ الْجِيُوشِ فِي وَقْدَةِ جَمْرَةِ الْحَرْبِ،

(١) الأيد : القوة .

(٢) أي مدبنة سوداء، من قرطم : أعشى الليل إذا أظلم .

ومبارزة الفرسان في معركتك الموت؛ وإن ساعدتك طُلُوقُ الظفر، وذاك مزيدُ السعادة في الشرف، ففي مخاطرة التلف مكروه المصائب، وعضاضُ السيوف وآلم الجراح، وقصاص الحروب ويحبالها بمقاورة أبطالها. على أنك لا تدري لأشئ يكون الظفر في البنية، ومن المغلوب بالدولة، وأملك أن تكون المطلوب بالتمحيص. خافول إصابة أبلغهما في سلامة جندك ووعيتك، وأشبههما صيتًا في بدو تدبيرك ورأيك، وأجمعهما لألفة وإليك وعدوك، وأعوينهما على صلاح رهيتك وأهل ملكك، وأقوأهما شككة في خزيك، وأبعدهما من وضم عزمك، وأعلقهما بزام النجاة في آخرتك، وأجرلها ثوابا عند ربك.

وأبدأ بالإعذار إلى عدوك، والدعاء لهم إلى مراجعة الطاعة وأمر الجماعة وعز الألفة، أخذًا بالجمعة عليهم، متقدمًا بالإندار لهم، بأسطًا أمانك لمن جلا إليك منهم، داعيًا لهم إليه بالزب لفظك والطف حيئك، متعطفًا برأفتك عليهم، مترفقًا بهم في دطالك، مشفقًا عليهم من غلبة الفؤاية لهم وإحاطة الهلكة بهم، منفذا رُسلك إليهم بعد الإندار: تعيدهم إعطاء كل رغبة ينش إليها طمعههم في موافقة الحق، وبسط كل أمان سألوه لأنفسيهم ومن معهم ومن تبعهم؛ موطنًا نفسك فيما تبسط لهم من ذلك على الوفاء بعهدك، والصبر على ما أعطيتهم من وثائق عقدك؛ قابلًا توبة نازعهم عن الضلالة، ومراجعة مسيئتهم إلى الطاعة؛ مُرصدا للثعاز إلى فسة المسادين وجماعتهم إجابة إلى مادعوته إليه وبصرته إياه من حَقك وطاعتك، بفضل المنزلة، وإكرام المتوى، وكثريف الجاه. وليظهر من أترك عليه وإحسانك إليه ما يرغب في مثله الصادف عنك، المُصِر على خلافك ومعصيتك؛ ويدعو إلى اعتلاق جبل النجاة وما هو أملك به في الاعتصام حايلا، وأنجي له من العقاب أجلا، وأحوطه على دينه ومهجته بدئا وعاقبة؛ فإن ذلك مما يستدعي به من الله نصره عليهم، ويتضد به في تقديمه الجمية إليهم، مُعذرا أو مُنذرا، إن شاء الله.

(١) المخادعة : الخاتلة . (٢) كنا في صبح الأضنى ويظهر أن السياق يقتضى معدولا لهذا الفعل

أما ضميرا أو اسما ظاهرا .

ثم أَذْلِكَ عَيْنُكَ عَلَى عِدْوِكَ مُطْلَعًا لَعْلِمِ أَحْوَالِهِمِ الَّتِي يَقْبَلُونَ فِيهَا، وَمَنْزِلُهُمِ الَّتِي هُمْ بِهَا، وَمَطَامِعِهِمِ الَّتِي قَدْ مَدُّوا أَعْنَاقَهُمْ نَحْوَهَا، وَأَيُّ الْأُمُورِ أَدْعَى لِمِ إِلَى الصِّلَحِ، وَأَقْوَدُهَا لِرِضَاهُمْ إِلَى الْعَافِيَةِ، وَأَسْهَلُهَا لِاسْتِثْنَالِ طَاعَتِهِمْ، وَمِنْ أَيِّ الْوُجُوهِ مَأْتَاهُمْ : أَمِنْ قَبْلِ الشَّدَةِ وَالْمُنَافَرَةِ وَالْمَكِيدَةِ وَالْمُبَاعَدَةِ وَالْإِرْهَابِ وَالْإِيَادِ، أَمْ التَّرْغِيبِ وَالْإِطْلَاعِ، مَثْبُتًا فِي أَمْرِكَ، مُتَغَيِّرًا فِي رُؤْيَيْكَ، مُسْتَمِيكًا مِنْ رَأْيِكَ، مُسْتَشِيرًا لِنُورِ النَّصِيحَةِ الَّذِينَ قَدْ حَنَّكَتْهُمْ السَّنُّ، وَخَبَّطَتْهُمْ التَّجَرِبَةُ، وَنَجَّدَتْهُمْ الْحُرُوبُ، مُتَنَبِّهًا فِي حَرْبِكَ، آخِذًا بِالْحَزْمِ فِي سَوَاءِ الظَّنِّ، مُعَدًّا لِلْحَذَرِ، مُعْتَرِسًا مِنَ الْغَرَةِ، كَأَنَّكَ فِي مَسِيرِكَ كَلَّةٌ وَزُرُوكَ أَجْمَعُ مَوَاقِفَ لِعِدْوِكَ رَأْيَ عَيْنٍ تَنْظُرُ حُلُمَاتِهِمْ، وَتَحْتَفِزُ كَرَاهَتِهِمْ، مُعَدًّا أَقْوَى مَكَائِدِكَ، وَأَرْهَبَ عَتَائِكَ، وَأَنكَاحَ جَنَّتِكَ، وَاجِدًا تَسْمِيرِكَ، مَعْقِلًا أَمْرَ عِدْوِكَ لِأَعْظَمِ مَا بِلَيْكَ، حَذَرًا يَكَادُ يَفْرِطُ : تُعَدُّ لَهُ مِنَ الْإِحْتِرَاسِ عَظِيمًا، وَمِنْ الْمَكِيدَةِ قَوِيًّا، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَفْتَاكَ ذَلِكَ عَنْ إِحْكَامِ أُمُورِكَ، وَتَدِيرِ رَأْيِكَ، وَإِصْدَارِ رُؤْيَيْكَ، وَالتَّاهِبِ لِمَا يَحْزَنُكَ، مُصَغِّرًا لَهُ بَعْدَ اسْتِثْنَائِ الْحَذَرِ، وَأَضْيَاطِ الْحَزْمِ، وَإِهْمَالِ الزُّوْبَةِ، وَاعْدَادِ الْأَهْبَةِ . فَإِنْ أَلْفَيْتَ عِدْوَكَ كَالَيْلِ الْحَدِّ، وَقَمَّ الْحَزْمُ، نَضِيضُ الْوَقْرِ، لَمْ يَضُرْكُ مَا اعْتَدَدْتَ لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَأَخَذْتَ لَهُ مِنْ حَزْمٍ، وَلَمْ يَزِدْكَ ذَلِكَ إِلَّا جُرْأَةً عَلَيْهِ، وَتَسْرَعًا إِلَى لِقَائِهِ . وَإِنْ أَلْفَيْتَهُ مُتَوَقِّدًا الْحَرْبِ، مُسْتَكْنِفًا الْجَمْعَ، قَوِيًّا التَّبِعَ، مُسْتَعْلِي سَوْرَةَ الْجَهْلِ، مَعَهُ مِنْ أَعْوَانِ الْفِتْنَةِ وَتَبِعِ إبْلِيسَ مِنْ يُوقِدُ لَهَبَ الْفِتْنَةِ مُسْعِرًا، وَنَقْصَدُ إِلَى لِقَاءِ أَبْطَالِهَا مُتَسْرِعًا، كُنْتَ لِأَخْذِكَ بِالْحَزْمِ، وَاسْتِعْدَادِكَ بِالْقُوَّةِ، غَيْرَ مُهَيِّئِ الْجَنْدِ، وَلَا مَفْرُطٍ فِي الرَّأْيِ، وَلَا مُتَلَهِّفٍ عَلَى إِضَاعَةِ تَدْيِيرٍ، وَلَا مُعْتَاجٍ إِلَى الْإِعْدَادِ وَحِيلَةِ التَّاهِبِ مُبَادِرَةً تَدَهَشُكَ، وَخَوْفًا يُهْلِكُكَ . وَمَتَى تَغْتَرَّبَ بِتَرْقِيقِ الْمَرْقُوقِينَ، وَتَأْخُذَ بِالْهُوْنِيَا فِي أَمْرِ عِدْوِكَ لَتَصْغِيرِ الْمُصْغَرِّينَ، يَنْتَشِرُ عَلَيْكَ رَأْيُكَ، وَيَكُونُ فِيهِ انْتِقَاضُ أَمْرِكَ وَوَهْنُ تَدْيِيرِكَ، وَإِهْمَالُ الْحَزْمِ فِي جَنْدِكَ،

(١) تَحْزَنُ لِلْأَمْرِ : اسْتَعَدَّ لَهُ .

(٢) يَفْتَاكَ (بِالْفَاءِ وَالْهَاءِ الْمُتَلَفَتَيْنِ) أَيَّ يَكْسِرُكَ وَيُزِيلُكَ . (٣) كَمَا فِي صَبِغِ الْأَحْمَرِ . وَلِهَا وَاقِعُ الْحَزْمِ أَيَّ مَقْهُورَةٍ أَوْ لَهَا مَحَرَّةٌ عَنْ كُلِّ أُخْرَى بِمَعْنَى الضَّعْفِ أَوْ الْقِلَّةِ . (٤) نَضِيضُ : قَلِيلٌ . وَالْوَقْرُ : الْمَالُ .

وتضيق له وهو يُمكن الإحصار، رَحْبُ المَطْلَب، قُوَى العَصَةِ، فسيحُ المضطرب، مع ما يَدْخُل رَحِيَّتِكَ من الاعتذار والغفلة عن إحكام أحراسهم، وضبط مراكرهم، لا يرون فيه من استئناسك إلى الفِزَّة، وركونك إلى الأمن، وتهاونك بالتدبير، فيعود ذلك عليك في انتشار الأطراف، وضياح الأحكام، ودخول الوهن بما لا يستقل عنوره، ولا يُدْفَع عُقُوبُهُ.

احفظ من عيونك وجواسيسك ما يأتونك به من أخبار عدوك. وإياك ومعاينة أحدٍ منهم على خبر إن أذاك به أتمته فيه أو سؤت به ظناً وأناك غيره بخلافه، أو أن تكذبه فيه فترده عليه، ولعله أن يكون قد مخضك النصيحة وصدقك الخبر وكذبك الأول، أو خرج جاسوسك الأول متقدماً قبل وصول هذا من عند عدوك، وقد أبرموا لك أمراً، وحاولوا لك مكيده وأرادوا منك غيرةً فازدلفوا إليك في الأبهة، ثم انتقض بهم رأيهم واختلف عنه جاحضهم، فأرادوا رأياً، وأحدثوا مكيده، وأظهروا قوة، وضرىوا موعداً، وأثروا مسلماً لئدب أناهم، أو قوة حدثت لهم، أو بصيرة في ضلالة شغلتم، فالأحوال بهم متقلبة في الساعات، وطوارق الحادثات. ولكن ألهمهم جميعاً على الانتصاح، وأرضخ لهم بالمطامع، فإنك لن تستعيدهم بمثلها. وعدهم جزالة المتأويل، في غير ما استئامية منك إلى ترفيقهم أمر عدوك، والاعتذار إلى ما يأتونك به دون أن تُعمل رويتك في الأخذ بالحزم، والاستكثار من العدة. وأجعلهم أوتق من تقدير عليه، وآمن من تسكن إلى ناحيته، ليكون ما يُبرم عدوك في كل يوم ليلة عندك إن استطعت ذلك، فنقض عليهم برايك وتديرك ما أبرموا، وتأتيهم من حيث أمِنُوا، وتأخذ لهم أهبة ما عليه أقدموا، وتستعد لهم بمثل ما حذروا.

وأعلم أن جواسيسك وعيونك ربما صدقوك وربما غشوك، وربما كانوا لك عليك؛ فنصحوا لك وغشوا عدوك، وغشوك ونصحوا عدوك؛ وكثيراً ما يصدفونك ويصدفونه. فلا تبهرت بك قرطة عقوبة إلى أحد منهم، ولا تهمل بسوء الظن إلى من أتمته على.



ذلك ، واستنزِلَ نصائحهم باليَاحة والمَنالة <sup>(١)</sup> ، وأبسط من أمانهم فيك من غير أن يرى أحدٌ منهم أنك أخذت من قوله أخذَ العامل به والمُتَّبِع له ، أو عَمِلت على رأيه حَتَّى الصادر عنه ، أو ردَّذته عليه ردَّ المكذَّب به ، المتهم له ، المستخفِّ بما أنك منه ، فَنَصِيذَ ذلك نصيحته ، وتُستدعى غِشُّه ، وتُجتَرَّ عداوته . وأحذَر أن يُعرفوا في عسرك أو يُسار إليهم بالأصابع . ولكن متزَّهم على كاتب رسائلك وأمين سِرِّك ، ويكون هو الموجه لهم ، والمُدْخِل عليك من أردت مشافهته منهم .

وأعلم أن لعدوك في عسرك عيوناً راصدة ، وجواسيس متجسِّسة <sup>(٢)</sup> ، وأنه إن يقع رأيه عن ميكيدتك بمثل ما تُكايده به ، وسيحتمل لك كَأَحْيَاكَ له ، ويُعدُّ لك كاءداديك فيها تراوله منه ، ويُحاوِلُك كما حاولتِك إِياءه فيما تقارعه عنه ؛ فأحذر أن يُشهر رجُلٌ من جواسيسك في عسرك فيبلغ ذلك عدوك ويعرف موضعه ، فيعدُّ له المراسد ، ويحتمل له بالكَيْد . فإن ظُفِرَ به فاطَّهر عقوبتَه ، كَمَرَّ ذلك نِجاتِ عيونك ، وخدَّهم عن تطلُّب الأخبار من معادِنها ، وأسْتَقْصَانِها من عيونها ، وأسْتَعْدَابِ أَجَنَاتِها من يثايبها ، حتى يصيروا إلى أخذها مما عَرَضَ من غير الثقة ولا المَمانَةِ ، لَقَطًا لها بالأخبار الكاذبة ، والأحاديث المُرْجفة . وأحذر أن يعرف بعضُ عيونك بعضاً : فإنك لا تَأْمَنُ تَوَاطُؤَهم عليك ، ومُحالَّتَهم عدوك ، وأَجْتَمَاعَهم على غِشِّك ، وتطالُّقَهم على كذِّبك ، وإصْفَاقَهم على خِيَانَتِكَ ، وأن يورط بعضهم بعضاً عند عدوك . فأحْكِم أمرهم لأنهم رأس ميكيدتك ، وقِوَامُ تدبيرك ، وهديم مدار حركك ، وهو أوَّل ظفرك . فاحتمل على حَسَبِ ذلك وحيث رجالوك به ، تَسَلَّ أملك من عدوك ، وقوتك على قتاله ، وأحْيَاكَ لإصابة غِرَّاته وآتِهازِ قُرُصه ، إن شاء الله .

فإذا أحكمت ذلك وتقدَّمت في إتقانه ، واستظهرت بالله وعونه ، فوَلَّ شُرتك وأمر عسرك أوثق قَوايدك عندك ، وأظهرهم نصيحةً لك ، وأغذهم بصيرةً في طاعتك ، وأقوام

(١) المياعة : الإغواء .

(٢) في مفتاح الأفكار رسائل البلاء : « كائنة » . (٣) في رسائل البلاء : « وإن رأيه

في ميكيدتك مثل ما تُكايده به » . (٤) إصفاقهم : اجتماعهم .

شكيمة في أمرك، وأمضاهم صريعة<sup>(١)</sup>، وأصدقهم عفافا، وأجراهم غناء، وأكفاهم أمانة، وأصحهم ضميرا، وأرضاهم في العاقبة ديناً، وأحدهم عند الجماعة خلقاً، وأعطفهم على كآبتهم رافة، وأحسنهم لهم نظراً، وأشدهم في دين الله وحققه صلابة. ثم فوض إليهم مقرباً له، وأبسط من أمله مظهرها عنه الرضا، حامداً منه الأتساع. وليكن عالم بمرأى الخنود، بصيرا بتقدم المنازل، مجرباً، ذا رأى وحنن في المكيمة؛ له نباهة في الذكر، وصيت في الولاية؛ معروف البيت، مشهور الحسب. وتقدم إليه في ضبط معسكره، وإذكاء أحراسه في آناء ليله ونهاره؛ ثم حذر أنه يكون منه إذن لخنوده في الانتشار والأضطراب، والتقدم لطلالهم، فتصاحب لهم غزاة يجترئ بها عدوك عليك، ويسرع إقداما إليك، ويكسر من إيراد جندك ويوهن من قوتهم: فإن الصوت في إصابة عدوك الرجل الواحد من جندك أو عبيدك مضيع لهم فيك، مقو لهم على تحذير أتباعهم عليك وتصغيرهم أمرك، وتوحيثهم تدبيرك. فحذر ذلك وتقدم إليه فيه، ولا يكون منه إفراط في التضييق عليهم، والخصم لهم، فيعصمهم أزلهم، ويسلمهم ضحكهم، وتسوء عليهم حاله، وتشتد المؤونة عليهم، وتحيث له ظنونهم. وليكن موضع إنزاله إياهم ضاماً لجماعتهم، مستديراً بهم جامعاً لهم؛ ولا يكون منبسطاً منتشراً متبديداً، فيشتق ذلك على أصحاب الأحراس، وتكون فيه التهمة للعدو، والبعد من المأذنة إن طار في ليلته الليل وبقائه. وأوعز إليه في أحراسه، وتقدم إليه فيهم كأشد التقدّم وأبلغ الإيعاز. ومرة فليول عليهم رجلا ركبنا مجراً جرى الإقدام، ذاكي الصرامة، جلد الجوارح، بصيراً بمواضع أحراسه، غير مصانع ولا مشفق للناس في التنصت إلى الزاهية والسعة، وتقدم العسكر والتأخر عنه، فإن ذلك مما يضعف الوالي ويوهنه لاستقامته إلى من ولّاه ذلك وأمنه به على جهشه.

وألهم أن مواضع الأحراس من معسكرك، ومكانها من جندك، بحيث الفناء عنهم والزرط عليهم، والحفظ لهم، والكلالة لمن يفتهم طارفاً، أو أرادهم خائلاً، ومراصدتها المُنشَل.

(١) الصريعة: الزريعة. (٢) في مناجاة الأفكار وغيره: «أهدة». وإياد كل شيء: ما يقوى به من جانيه ومنه إياداً العسكر وما يحميه ويمسره. (٣) الصوت: كالميت والصاوت. الفكر والتفكير. (٤) الأزل: الضيق والشدة. (٥) المأذنة: كل مددتين به في حجب أو غيره.

منها والآتي من أرقامهم وأعبدتهم، وحفظها من الميؤن والجواسيس من عدوهم. وأحذر أن تضرب على يديه أو تسكبه عن الصرامة بمؤامراتك في كل أمر حادث وطارئ إلا في المهم النازل والحدث العام : فإنك إذا فعلت ذلك به ، دعوته إلى نصحك ، وأستوليت على محصول ضميره في طاعتك ، وأجهدت نفسه في ترتيبك ، وأعمل رأيه في بلوغ موافقتك وإعانتك ، وكان يفتك ويدألك وقوتك وديانتك ، وتفوت أنت لمكيدة عدوك ، مريحا لنفسك من هم ذلك والعناية به ، ملقيا عنك مؤونة باهظة وكلفة فادحة .

وأعلم أن القضاء من الله بمكان ليس به شيء من الأحكام ، ولا بمثل عمله أحد من الأولاد : لما يجرى على يديه من مبالظ الأحكام ومجاري الحدود . فليكن من تولية القضاء في عسكريك [من ذوى] الخبير والقناعة والعفاف والتزاهة والفهم والوقار والعصمة والورع ، والبصيرة بوجوه القضايا ومواقفها ، قد حنكته السن وأيدته التجربة وأحكمته الأمور ، من لا يتصنع للولاية ويستعمل للنزعة ، ويبتري على الحسابات في الحكم ، والمداينة في القضاء ، عدل الأمانة ، عفيف الطعمة ، حسن الإنصاف ، فهم القلب ، ورع الضمير ، متخشع السميت ، إدى الوقار ، محتسب للخير . ثم أحر عليه ما يكفيه ويسعه ويصلحه ، وفرغه لما حمله ، وأعنه على ما وليته : فإنك قد عوضته لهلكة الدنيا وبوار الآخرة ، أو شرف الدنيا وحظوة الآجلة ، إن حسنت نيته ، وصدقت رويته ، وصححت سريره ، وسلط حكم الله على رعيته ، مطلقا عنه ، منفذا قضاء الله في خلقه ، تاملا بسنته في شرائعه ، أخذا بمحدوده وفرائضه .

وأعلم أنه من جندك بحيث ولايتك ، الجارية أحكامه عليهم ، النافذة أفضيته فيهم ، فأعريف من توليه ذلك وتسنده إليه . ثم تقدم في طلائك فإنها أول ميكيدتك ، ورأس حربك ، وديعامة أمرك ، فأنتخب لها من كل قادة وصحابة رجالا ذوى نبهة وبأس ، وصرامة وخبرة ، حاسة كفاة ، قد صلبوا بالحرب وذاقوا بحملاتها ، وشربوا مرار كؤوسها ، وتجزعوا

(١) الزيادة عن مفتاح الأفكار (ص ٢٥٠) وفيه . (٢) العلمية بالفهم والكسر وبه الكسب الطيب أو التخييل . (٣) في مفتاح الأفكار وفيه : « بحيث ولايتك وفي الموضع الجارية » الخ .

عَصَصَ دِرْتِيَا؛ وَزَبَلْتَهُمْ بِتَكَارُ عَوَاطِفِهَا، وَحَمَلْتَهُمْ عَلَى أَصْعَبِ مَرَاكِبِهَا، وَذَلَّلْتَهُمْ بِتَقَافِ أَوْدِهَا. ثُمَّ أَتَقَتَهُمْ عَلَى عَيْنِكَ، وَأَعْرَضَ كُرَاهَتَهُمْ بِنَفْسِكَ؛ وَتَوَخَّى فِي أَنْتِقَالِكَ ظُهُورَ الْجِلْدِ، وَشِهَامَةَ الْخَلْقِ، وَكَيْالَ الْآلَةِ. وَإِيَّاكَ أَنْ تَقْبَلَ مِنْ دَوَابِّهِمْ إِلَّا الْإِنَاثَ مِنْ الْجِلْبِ الْمَهْلُوبَةِ، فَإِنَّهُنَّ أَسْرِعُ طَلْبًا، وَأَغْنَى مَهْرًا، وَأَلَيْنَ مَعْقَفًا، وَأَبْعَدُ فِي الْخُوقِ غَايَةً، وَأَصْبَرُ فِي مَعْرَكِ الْأَبْطَالِ إِهْدَامًا. وَخَذَهُمْ مِنَ السَّلَاحِ بِأَبْدَانِ الدَّرُوعِ، وَأَذِيَةِ الْحَدِيدِ، شَاكَّةَ النَّسِجِ، مُتَقَارِبَةَ الْحِلَاقِ، مِتْلَاجِمَةَ الْمَسَايِرِ وَأَسْوَقَ الْحَدِيدِ، عُمُوهَ الرِّكَبِ، مُحْكَمَةَ الطَّيْعِ خَفِيفَةَ الصَّوْغِ، وَسَوَاعِدَ طَبْعِهَا هَنْدِيًّا، وَصَوْنَهَا فَارِسِيًّا؛ رِقَاقِي الْمَاطِيفِ بِأَكْثَفِ وَاقِيَةٍ وَعَمَلِيٍّ مُحْكَمٍ. وَبَلَقِيَ الْبَيْضَ مُذْهَبَةً وَمِجْرَدَةً، فَارِسِيَّةَ الصَّوْغِ، خَالِصَةَ الْجَوْهَرِ، سَائِقَةَ الْمَلْهَسِ، وَاقِصَةَ الْجَنْفِ، مُسْتَدِيرَةَ الطَّيْعِ، مُبْهَمَةَ السَّرْدِ، وَأَفِصَةَ الْوِزْنِ كَثَرِيكَ النَّعَامِ فِي الصَّنِيعَةِ وَأَسْتَدَارَةَ التَّقْيِيبِ، وَأَسْتَوَاءَ الصَّوْغِ، مُعَلَّمَةً بِأَصْنَافِ الْحَرِيرِ وَأَلْوَانِ الصَّبْغِ؛ فَإِنَّهَا أَهْيَبُ لِعَدُوِّهِمْ، وَأَفْتَى لِأَعْضَادِ مَنْ لَيْقِيهِمْ، وَالْمَلَمَّ مَحْشَى عَذُورٍ، لَهُ يَدِيَّةٌ رَادِعَةٌ، وَهِيَّةٌ هَائِلَةٌ؛ مَعَهُمُ السِّيُوفُ الْهِنْدِيَّةُ، وَذُكُورُ الْبَيْضِ الْيَمَانِيَّةُ؛ رِقَاقِي الشَّقَرَاتِ، سُنُونُةُ الشَّعْذِ، مَشْطَبَةُ الضَّرَائِبِ. مَعْتَدِلَةُ الْجَوَاهِرِ، صَافِيَّةُ الصَّفَاغِ؛ لَمْ يَدْخُلْهَا وَهْنُ الطَّيْعِ، وَلَا عَابَا أَمْتُ الصَّوْغِ، وَلَا شَانِبَا خِفَةِ الْوِزْنِ، وَلَا فَتَحَ حَامِلُهَا يَهُورُ الثَّقَلِ؛ قَدْ أَشْرَعُوا لَدُنَ الْقَنَاءِ طَوَالَ الْمَوَادِي، مُقَوِّمَاتِ الْأَوْدِ، زُرْقِي الْأَسِنَّةِ، مُسْتَوِيَّةُ التَّعَالِبِ؛ وَمِيضُهَا مُتَوَقِّدٌ، وَسَيْحُهَا مُتَلَهَّبٌ، مَعَاقِصُ عَقْدِهَا مَنَحُوتَةٌ، وَوُصُومُ أَوْدِهَا مَقْوِّمَةٌ، وَأَجْنَسَاتُهَا مُخْتَلِفَةٌ، وَكُتُوبُهَا جَعْدَةٌ، وَعَقْدُهَا حِكْمَةٌ؛ شَطْبَةُ الْأَسْنَانِ، عُمُوهَ الْأَطْرَافِ، مُسْتَحْدَةُ الْجَنْبَاتِ، دِقَاقِي الْأَطْرَافِ، لَيْسَ فِيهَا أَلْتَوَاءُ أَوْدٍ، وَلَا أَمْتُ وَصَمٍ، وَلَا بَها مَسْقَطُ عَيْبٍ، وَلَا عَنَّا

- (١) المهلوبة : المستوفة الهلب، وهو شعر الذئب أو الشعر كله . (٢) أى خالصة وحيدة .  
 (٣) البلق : القبا، المحشو . (٤) التريك : بيضة النعام خاصة، ومنه قوله :  
 \* وتلق بها بيض النعام تالكا \*  
 (٥) سيف شطب : ذو شطب وهي طراقة التي في مته . (٦) الأمت : العوج والاختلاف .  
 (٧) الضلب : طرف الخ الداخل في جية السنان . (٨) في مفتاح الأفكار ونوره : «ومطبعها منطب»  
 وسنخ الزمل : الحفيدة التي تدخل في رأس السهم . (٩) المعاقص : السهام المروجة .

وقوع أُمّية؛ مُستحقّين كلَّتا النِّيلِ وقبى الشُّوْطِ<sup>(١)</sup> والنَّبعِ؛ أصرَّايةَ التعقيبِ ، رُويّةِ النُّصُولِ ، مسمومةِ الصَّوْغِ؛ ولتكنَّ سِماها على خمسِ قبضاتِ سِوى النُّصُولِ ، فإنَّها أبلغُ في الغاية ، وأنفذُ في الدُّرُوعِ ، وأشدُّ في الحديدِ سامِطِينِ حقائِمهم على مُتُونِ خيولهم ، مُستخِفِّين من الآلةِ والأُمّةِ والزَّادِ ، [إلا ما لا غناءَ بهم عنه] <sup>(٢)</sup> .

وأحذر أن تكِلَ مباشرةَ عَرَضهم وأتقاهم إلى أحد من أعوانك وتكالبك : فإنَّك إن وكلَّته إليهم أضعتَ مواضعَ الحزمِ ، وفزلتَ حيثَ الرأى ، ووقفتَ دونَ عزمِ الرُويّةِ ، ودخلَ عَمَلُكَ ضياعُ الوهنِ ، وخلصَ إليك عيبُ المحاباةِ ، وثاله فسادُ المُداهنةِ ، وظلَّ عليه من لا يصلحُ أن يكونَ طليعةَ للمُسلمين ولا عُدَّةَ ولا حصناً يَدْرُئونَ به ، ويكتفون بموضعه . والطلائعُ حصونُ المُسلمينَ وعيونهم ، وهم أقلُّ مكيذك ، وعُروَةُ أَمْرِكَ ، وزمامُ حركِ . فليكنَ اعتناؤُك بهم ، وانتقاؤُك أيَّاهم بحيث هم من مُهمِّمِ عَمَلِكَ ، ومكيذكِ حركِ ؛ ثم اتَّخِذْ لِلوِلايةِ عليهم رجلاً بعيدَ الصوتِ ، مشهورَ الأيمِ ، طاهرَ الفضلِ ، نبيهَ الذِّكرِ ؛ له في العُدقِ وقعاتُ معروفاتٍ ، وأيامٌ طوالٌ وصولاتٌ متقدِّماتٌ ؛ قد عُرِفَتْ نكايَتُهُ ، وحُدِثَتْ شوكتُهُ ، وهبَّ صوتهُ ، وتُتَكَبَّرُ لقاؤه ؛ أُميرُ السَّريّةِ ، ناصحُ الجَيْبِ ؛ قد بلوتَ منه ما يَسْتَحْكُك إلى ناحيته : من لينِ الطَّاعةِ ، وخالصِ المودَّةِ ، ورُكَّانةِ الصَّرامةِ ، وغُلُوبِ الشَّهامةِ ، واستعجابِ القُوَّةِ ، وحَصافةِ التَّديبِ . ثم تَقَدَّمْ إليه في حَسَنِ سياستهم ، واستِئْزَالَ طاعتهم ، واجتلابِ مودَّاتهم واستِعْذابِ ضمايرهم ؛ وأجرِ عليهم وعليه أرْزاقاً تَسْمَعُهم ، وتمُدُّ من أطلعهم سِوى أرْزاقهم في السَّاعةِ ، فإنَّ ذلك من القُوَّةِ لك عليهم ، والاستِئْمانِ إلى ما يَليهم .

وأعلِّمهم في أهمِّ الأماكنِ لك ، وأعطيها غناءَ عنك وعن مَعْلِكَ ، وأَقْبِعها كَبْناً لِحُدُوك ، وأُجْجِها غِيظاً لِعُدُوك ؛ ومَنْ يكنِ في الثَّقةِ والجَلَدِ ، والبأسِ ، والطَّاعةِ ، والقُوَّةِ ، والنَّصيحةِ والعدَّةِ ، والنَّجدةِ حيثَ وصفَ لك أميرُ المُؤْمِنينَ وأَمْرَكَ به ، يَضَعُ عنكَ مؤونةَ الهِمِّ ، ويُرْخِ

(١) الشُّوْط : مجرَّ نَفْذَ مَه النَّفْذِ . (٢) الزَّيادة من ضلعِ الأُنْكَاد (ص ٢٥١) .

(٣) يقال : فلان ناصح الجيب يرد ببلوك قلبه ومصدره أى أمين .

من خِناقك رُوح الخوف ، وتنتجى إلى أمرٍ مَنِيع ، وظَهَر قُوى ، ورأى حَازِم ، تَأَمَّن به  
بِجَأتِ صدُوك ، وَغِراتِ بَنَاتِهِمْ ، وطوارِقُ أَعْدائِهِمْ ؛ وَيَصِيرُ إِلَيْكَ عِلْمُ أحوالِهِمْ ، وَمُنْقِذاتِ  
خِيولِهِمْ ، فَاتَّقِهِمْ رَأْيَ عَيْنٍ ، وَقُوِّمْ بِمَا يُبْصِلُهُمْ مِنَ المَنَالَاتِ وَالْأطَاعِ وَالْأَرْزَاقِ ، وَأَجْلِهِمْ  
مِنَكَ بِالْمَنْزِلِ الَّذِي هُمْ بِهِ مِنْ مَحَارِزِ عِلَاقَتِكَ ، وَحِصَانَةِ كِهْوَكَ ، وَقُوَّةِ سَيَّارَةِ عَسْكَرِكَ .  
وَلِمَّا كَانَ أَنْ تَدْخُلَ فِيهِمْ أَحَدًا بِشَفَاعَةٍ ، أَوْ تَحْتَمِلَهُ عَلَى هَوَادَةٍ ، أَوْ تَقْدِمَهُ لِأَثَرَةٍ ؛ أَوْ أَنْ يَكُونَ  
مَعَ أَحَدٍ مِنْهُمْ بِثَلٍّ نَقْلٍ ، أَوْ فَضْلٍ مِنَ الظُّهْرِ ، أَوْ ثَقَلٍ فَادِحٍ ، فَتَشْتَدَّ عَلَيْهِمْ مَوْثُونَةُ أَنْفُسِهِمْ ،  
وَيَدْخُلُهُمْ كَلَّالُ السَّامَةِ فَيَا يَمْلُطُونَ مِنْ أَتْقَالِهِمْ ، وَيَسْتَنْفِلُونَ بِهِ عَنْ عُدُوِّهِمْ إِنْ دَمِيهِمْ مِنْهُ  
رَاحٍ ؛ أَوْ بِلْغَاهُمْ مِنْهُ طَلِيمَةٌ . فَتَفْقُدُ ذَلِكَ مَحْكَمًا لَهُ ، وَتَقْدَمُ فِيهِ أَخَذًا بِالْحَزْمِ فِي إِمضَائِهِ ؛  
أَرْضِدَكَ اللَّهُ لِإِصَابَةِ الْخَطِّ ، وَوَقِّفَكَ لِيُنْزِلَ التَّدْيِيرَ ، وَتَقْصِدَ بِكَ لِأَسْهَلِ الرَّأْيِ وَأَعْوَدِهِ نَفْعًا  
فِي الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ ، وَأَكْبِيَهُ لِعُدُوكَ وَأَهْجَاهُ لَمْ ، وَأَرْدِمِهِ لِعَادِيَتِهِمْ .

وَلِئَلَّا دَرَجَةَ عَسْكَرِكَ وَإِخْرَاجَ أَهْلِهِ إِلَى مَصَافِهِمْ وَمَصَارِيحِهِمْ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ بِيَوَاتِ  
الشَّرَفِ ، مَحْمُودِ الْخُبْرَةِ ، مَعْرُوفًا بِالنَّجْدَةِ ، ذَا سِنٍّ وَتَجْرِبَةٍ ، لِيَنَّ الطَّاعَةَ ، قَدِيمِ النُّصِيحَةِ ،  
مَأْمُونِ السَّرِيَّةِ ، لَهُ بِصِيْرَةٍ بِالْحَقِّ نَافِذَةٌ تَقْدِمُهُ ، وَنِيَّةٌ صَادِقَةٌ عَنِ الْإِدْهَانِ تَحْجُزُهُ . وَأَضْمُمْ  
إِلَيْهِ عِدَّةَ نَفَرٍ مِنْ ثِمَاتِ جَنْدِكَ وَدَوَى أَسْنَانِهِمْ يَكُونُونَ مُرْطَلَةً مَعَهُ ؛ ثُمَّ تَقْدَمُ إِلَيْهِ فِي إِخْرَاجِ  
الْمَصَافِ ، وَإِقَامَةِ الْأَحْرَاسِ وَإِذْكَاءِ الْعُيُونِ ، وَحِفْظِ الْأَطْرَافِ ، وَشِدَّةِ الْحَدَرِ ، وَمُرَّةِ  
فَلْيَضْحَجِ الْقُوَادُ بِأَنْفُسِهِمْ مَعَ أَصْحَابِهِمْ فِي مَصَافِهِمْ ، كُلُّ قَائِدٍ بِإِزَاءِ مَكَانِهِ ، وَبِحَيْثُ مَنْزِلِهِ ،  
قَسْدٌ سُدًّا بِمَنْدِهِ وَبَيْنَ صَاحِبِهِ بِالرَّاحِ شَارِعَةٌ ، وَالتَّرْسَةُ مَوْضُونَةٌ ، وَالرَّجَالُ رَاصِدَةٌ ، ذَاكِيَّةُ  
الْأَحْرَاسِ ، وَجِلَّةُ الرُّوْعِ ، خَائِفَةٌ طَوَارِقَ الْعَدُوِّ وَبَيَّاتِهِ . ثُمَّ مُرَّةِ فَلْيُخْرِجْ كُلَّ لَيْلَةٍ قَائِدًا  
فِي أَصْحَابِهِ أَوْ عِدَّةٍ مِنْهُمْ إِنْ كَانُوا كَثِيرًا ، عَلَى غَلْوَةٍ أَوْ اثْنَتَيْنِ مِنْ عَسْكَرِكَ ، مُنْتَبِذًا عَنْكَ مِيطًا  
بِمِثْرَتِكَ ، ذَاكِيَّةَ أَحْرَاسِهِ ، قَلِيلَةَ التَّرَدُّدِ ، مُرْطَلَةَ الْحَدَرِ ، مِعْتَدَةً لِلزُّوْعِ ، مُتَأَهِّبَةً لِلْقِتَالِ ، أَخَذَةً  
عَلَى أَطْرَافِ الْمَعْسَكِ وَنَوَاحِيهِ ، مُتَفَرِّقِينَ فِي آخْتِلَافِهِمْ كُرْدُوسًا كُرْدُوسًا ؛ يَسْتَقْبِلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا  
(١) الظِّل بِمَحْرَكَةٍ : النِّيَّةُ وَالْهَلَاةُ . (٢) الثَّقَلُ : مُتَاعُ الْمَسَافِرِ . (٣) الْإِدْهَانُ : الْمَدَامَةُ وَهِيَ أَنْ يَظْهَرَ  
الْإِنْسَانُ خِلَافَ مَا يَظُنُّ . (٤) التَّرْسَةُ مَوْضُونَةٌ ، أَيْ مَنَسُوجَةٌ خَلْقَتَيْنِ خَلْقَتَيْنِ . (٥) أَيْ كِتَابَةِ كِتَابَةٍ .

[في الاختلاف<sup>(١)</sup>] وَيُكْسَعُ تَالِيٌ مُتَقَدِّمًا فِي الرِّقْدِ ؛ وَاجْعَلْ ذَلِكَ بَيْنَ قُودَاكِ وَأَهْلِ عَسْكَرِكَ نَوْبًا مَعْرُوفَةً ، وَحِصَصًا مَقْرُوضَةً ، لَا تُعْرِضُ مِنْهَا مُزْدَلِفًا مِنْكَ بِمَوْتَةٍ ، وَلَا تَحْتَمِلْ فِيهِ عَلَى أَحَدٍ بِمَوْجِدَةٍ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

فَوُضَّ إِلَى أَمْرَاءِ أَجْنَادِكَ وَقُودَ خَيْلِكَ أُمُورَ أَهْوَائِهِمْ ، وَالْأَخْذَ عَلَى قَافِيَةِ أَيْدِيهِمْ ، رِيَاضَةً مِنْكَ لِمَنْ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِأَمْرَائِهِمْ ، وَالِاتِّبَاعِ لِأَمْرِهِمْ ، وَالْوُقُوفَ عِنْدَ نَهْمِهِمْ ؛ وَتَقَدَّمَ إِلَى أَمْرَاءِ الْأَجْنَادِ فِي النَوَائِبِ الَّتِي أَلَزَمَتْهُمْ إِيَّاهَا ، وَالْأَعْمَالِ الَّتِي اسْتَجَدَّتْهَا لَهَا ، وَالْأَسْلِحَةِ وَالْكَرَاعِ الَّتِي كَتَبَتْهَا عَلَيْهِمْ ؛ وَأَحْذَرِ اعْتِلَالَ أَحَدٍ مِنْ قُودَاكِ عَلَيْكَ بِمَا يَحْتَمِلُ بِئْسَكَ وَبَيْنَ تَأْدِيبِ جُنْدِكَ ، وَتَقْوِيمِهِمْ لَطَاعَتِكَ ، وَقَمْعِهِمْ عَنِ الْإِخْلَالِ بِمَرَكَزِهِمْ لَشَيْءٍ مِمَّا يَكُونُ لَهُ عَيْنٌ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مَقْسَدَةٌ لِلجُنْدِ ، مَقْنَنَةٌ لِلْقُودَادِ عَنِ الْخِلْدِ وَالْإِيثَارِ لِلنَّاصِحَةِ ، وَالتَّقَدُّمِ فِي الْأَحْكَامِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ فِي اسْتِخْفَافِهِمْ بِقُودَاهُمْ وَتَضْيِيعِهِمْ أَمْرَ رُؤُسَائِهِمْ دُخُولًا لِلضَّبَاعِ عَلَى أَعْمَالِكَ ، وَاسْتِخْفَافًا بِأَمْرِكَ الَّذِي يَأْمُرُونَ بِهِ وَرَأْيِكَ الَّذِي تَرْثِي . وَأَوْعِزْ إِلَى الْقُودَادِ أَلَّا يَقْدِمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى عَقُوبَةِ أَحَدٍ مِنْ أَهْوَائِهِ ، إِلَّا عَقُوبَةً تَأْدِيبٍ فِي تَقْوِيمِ مَيْلٍ ، وَتَنْقِيفِ أَوْدٍ ؛ فَمَا عَقُوبَةُ تَبْلُغُ تَلَفَ الْمُهْجَةِ ، وَإِقَامَةُ حَدٍّ فِي قَطْعٍ ، أَوْ إِفْرَاطٌ فِي ضَرْبٍ ، أَوْ اخْذُ مَالٍ ، أَوْ عَقُوبَةُ فِي شَعَرٍ ، فَلَا يَلَيِّنُ ذَلِكَ مِنْ جُنْدِكَ أَحَدٌ غَيْرَكَ ، أَوْ صَاحِبُ شُرْطَتِكَ بِأَمْرِكَ وَعَنِ رَأْيِكَ وَإِذْنِكَ ؛ وَمَتَى لَمْ تَذَلَّ الْجُنْدَ لِقُودَادِهِمْ ، وَتَضْرِبَهُمْ لِأَمْرَائِهِمْ ؛ تَوْجِبْ لَهُمْ طَلِيكَ الْحِجَّةَ بِتَضْيِيعٍ — إِنْ كَانَ مِنْهُمْ — لِأَمْرِكَ ، أَوْ خَلَّلَ — إِنْ تَهَاوَنُوا بِهِ — مِنْ عَمَلِكَ ، أَوْ عَجَزَ — إِنْ قَرَطَ مِنْهُمْ — فِي شَيْءٍ مِمَّا وَكَّلْتَهُمْ بِهِ أَوْ أَسْنَدْتَهُ إِلَيْهِمْ ؛ وَلَا تَجِدْ إِلَى الْإِقْدَامِ طَلِيَهُمْ بِاللَّوْمِ وَعَصْصِ الْعُقُوبَةِ عَلَيْهِمْ حَتَّى لَا يَتَّصِلَ بِهِ إِلَى تَعْنِيفِهِمْ ، بِتَغْيِيرِ طَلِيكَ فِي تَذْلِيلِ أَهْوَائِهِمْ لَهُمْ ، وَإِفْسَادِكَ إِيَّاهُمْ عَلَيْهِمْ . فَأَنْظُرْ فِي ذَلِكَ نَظْرًا مُحْكَمًا ، وَتَقَدَّمَ

(١) الزيادة من مفتاح الأفكار (ص ٢٥٢) . (٢) أى يقدمهم من الجند الخ .

فيه برّفك تقدما بليغا، وإيّاك أن يدخل حرمك وهنّ، أو يسوّب عزّمتك إيتار، أو يخلط رأيك ضياع، والله يستودع أمير المؤمنين نفسك ودينك.

إذا كنت من عدوك على مسافة دانية وسنّ لقاء مختصر، وكان من عسكريّ مقتريا قد شامت طلائفك مقدمات ضلّاته وحمّة فتته، فتأهب أهبة المناجز، وخذ اعتداد الحذر، وكثّب<sup>(١)</sup> خيولك، وصبّ جنلك. وإيّاك والمسير إلا في مقدّمة ومنيّة وميسرة وساقية، قد شهروا الأسلحة، ونثروا البنود والأعلام. وعرفّ جنلك مراكزهم بسائر تحت ألويتهم قد أخذوا أهبة القتال، واستعدّوا للقاء، ملتجئين إلى مواقيفهم، تارفين بمواضعهم في مسيرهم ومُعسكرهم. وليكن ترسلهم وتزّلهم على راياتهم وأعلامهم وفي مراكزهم، قد عرفّ كلّ قائد منهم مصابة مواقفهم : من المنيّة والميسرة والقلب والساقية والطليعة، لازمين لها، غير مُخلّين بما استنجدوا له، ولا مُتباوين فيها أُهيب بهم إليه، حتى تكون عساكرُك في منبّل تصل إليه، ومسافة تختارها، كأنها عسكرٌ واحد في آجتاعها على العدو، وأخذها بالحزم، ومسيرها على راياتها، وزولها في مراكزها، ومعريقها بمواضعها : إن ضلّت دابة من موضعها، عرف أهل العسكر من أي المراكز هي، ومرت صاحبها، وفي أي المحلّ حلوله منها، فردّت إليه، هداية معروفة بسمت صاحب قيادتها، فإن تقدّمك في ذلك وإحكامك له طارح عن جنلك مؤونة الطلب، وعناية المعرفة، وأبتقاء الضلالة.

ثم اجعل على ساقك أوتق أهل عسكريّك في نفسك صرامة ونفاذا ورضا في العامة، وإنصافا من نفسه للرجية، وأخذا بالحق في المعدلة، مستشعرا تقوى الله وطاعته، آخذا بهديك وأدبك، واقفا عند أمرك ونهيك، معتريا على مناصحتك وتزيينك، نظيرا لك في الحال، وشيئا بك في الشرف، وصيدلا في الموضع، ومقاربا في النسب، ثم اكثف معه الجمع، وأبده بالقوة، وقوّه بالظهور، وأعنه بالأموال، وأحمده بالسلاح، وصره بالتعطف على ذوي الضعف من جنلك ومن أرحفت به دابّته وأصابته نكبة : من مرض أو رُجِل<sup>(٢)</sup> أو آتية،

(١) كتب الجيش أرائيل : جعلها كتاب . (٢) في فتح الأفكار وغيره : « في الصيت » .

(٣) الرجلة بالضم : أن يشكو رجله وقد رَجِلَ كفرّج أحابه في رجله ما يكره .



من خير أن يأذن لأحد منهم في التنحي عن عسكره، أو التخلّف بعد تركه، إلا ليهود سقيا، أو لمطروقي بأفة جائحة. ثم تقدّم إليه مخدّرا، ومُره زاجرا، وأنته مُغلظا في الشدّة على من مرّ به منصرفا عن معسكرك من جنسك بغير جوازك، شادا لهم أسرا، وموقرهم حديدا، ومعاقرهم موجعا، وموجّههم إليك فتنهكهم عقوبة، وتجعلهم لغيرهم من جنسك عظة.

وأعلم أنه إن لم يكن بذلك الموضع من تسكن إليه واقفا بنصيبته قد بلوت منه أمانة تُسكّلك إليه، وصرامة تؤمنك مهاتته، وضادا في أمرك يرمى عنك خنقا الخوف في إضاعته — لم يأمن أمير المؤمنين تسأل الجند عنك لوإذا<sup>(١)</sup> وقضهم مراكرهم، وإخلاصهم بمواضيعهم، وتخلّفهم عن أعمالهم، آمين تغيّر ذلك عليهم، والشدّة على من أجترمه منهم، فأوشك ذلك في وهنك، وتخلّل من قوتك، وقُلّ من كرتك.

اجعل خلف ساقك رجلا من وجوه قوادك، جليدا، ماضيا، عفيقا، صارما، شهيم الرأي، شديد الحسدر، شيكيم القوة، غير مُداهن في عقوبة، ولا مهين في قوة، في خمسين فارسا يحشروا إليك جندك، ويُلحق بك من تخلف عنك بعد الإبلاغ في عقوبتهم، والنهك لهم، والتنكيل بهم. وليكن بمقوتك في المنزل الذي ترسل عنه، والمنزل الذي تنقض منه، مُفريطا في النقص له، والتبّع لمن تخلف عنك به، مشتتا في أهل المنزل وساكبه بالثقت، موعزا بهم في إزعاج الجند عن منازلهم، وإخراجهم عن مكائهم، وإبعاد العقوبة الموجبة والنكال المُبيل في الأشعار والأبشار، وأسبغ الأموال وهدم المقار لمن أرى منهم أحدا أو ستر موضعه، أو أخفى محله. وحذره عقوبتك إياه في الترخيص لأحد، والحماية لذي قرابة، والاختصاص بذلك لذي أثره وهوادة. ولكن فوسائه متخين في القوة، معرفين بالنجدة، عليهم سوايخ الدروع دونها شعائر الحشو وجبب الاستيجان، متقلّين سيوقهم، سامطين كائهم، مستعدين لهيج إن بدّهم [أو كين إن يظهر لهم<sup>(٢)</sup>]. وإياك

(١) لوإذا : مرادفة أى مستحقين يستربضهم بعض . (٢) القوة : ما حول الدار وأواسعها .

(٣) سامطين : مطلقين . (٤) الزيادة من مفتاح الأفكار وغيره .

أن تقبل منهم في دوابهم إلا فرسا قويا أو برذونا<sup>(١)</sup> ويحيا : فإن ذلك من أقوى القوة لهم ، وأعون الظهورى على عدوهم ، إن شاء الله .

ليكن رحيلك إباناً واحداً ، وقتاً معلوماً : لتخف المؤونة بذلك على جندك ، ويعلموا أن رحيلهم ، فيقدّموا فيما يريدون من معالجة أطعمتهم ، وأغلاف دوابهم ، وتسكن قلوبهم الى الوقت الذى وقفوا عليه ، ويطمئن ذوو الرأى الى إبان الرحيل . ومتى يكن رحيلك مختلفاً ، تعظم المؤونة عليك وعلى جندك ولا يزال ذوو السّفه [والترق] يترحلون بالإرجاف ويترجلون بالثوم ، حتى لا يتفجع ذوراي بنوم ولا حُماينة .

إياك أن تظهر استقلاً ، أو تُنادى برحيل من منزل تكون فيه ، حتى تأمر صاحب تميتك بالوقوف بمحابه على معسكرك أخذاً بمحنتي فوخته ، بأسلحتهم عدة لأمر إن حضر أو مفاجأة من طليعة العدو إن رأت منك نهزة ، أو لحقت عندكم غيرة . ثم مرّ الناس بالرحيل وخيلك واقفة ، وأهبت معدة ، وجئتك واقية ، حتى إذا استقلت من معسكرك ، ونوجهم من منزلك ، سرتم على تميتك بسكون ريح ، وهدو حمله ، وحسن دعة . فاذا انتهيت الى منزل أردت نزوله أو همت بالمعسكر به ، فإياك ونزوله إلا بعد العلم بأهله ، والمعرفة بمراقبه ، ومرّ صاحب طليعتك أن يعرف لك أحواله ، ويستشيرك علم دينه ، ويستبين علم أموره ثم ينهبها اليك على ما صارت اليه : لتعلم كيف احتماله لعسكرك ، وكيف ماؤه وأغلافه وموضع معسكرك منه ، وهل لك — إن أردت مقاماً به ، أو مطاولة عدوك أو مكايده فيه — قوة تحملك ومدد يأتيه ، فإياك إن لم تفعل ذلك ، لم تأمن أن تهجم على منزل يعجزك ويريجك عنه ضيق مكانه ، وقلة مياهه ، وانقطاع موائده ، إن أردت بعدوك ميكيدة ، أو احتجت من أمورهم الى المطاولة ، فإن ارحلت منه كنت غرضاً لعدوك ، ولم تجد الى المحاربة والإخطار سبيلاً ، وإن أقت به أقت على مشقة وحصر وفى أزل

(١) برذونا ويحيا : كثير الهم .

(٢) كذا فى صبح الأعشى (ج ١٠ ص ٢٢٦) ولعل فيه تحريفاً صوابه : قوة تصلك ومدد يأتيك .

وضيق ، فأعترف ذلك وتقدم فيه . فإن أردت نزولاً أمرت صاحب الخيل التي وكلت بالناس فوَقفت خيلَه متَّحِيَةً من معسكرك ، عُدَّةً لأمرٍ إن ظالك ، ومُعَزَّةً لليسبة إن راعاك ، فقد أمنت بحمد الله وقوته بغاة عدوك ، وعرفت موقعها من جزرك ، حتى يأخذ الناس بمنازلكم ، وتوضع الأنفال مواضعها ، ويأتيك خبر طلائعك ، وتخرج دبابتك من معسكرك دزاجةً ودباباً مُحِيطِينَ بمعسكرك ، وعُدَّةً إن احتجبت إليها . ولكن دبابات جندك أهل جَلَدٍ وقوة ، قائداً أو اثنين أو ثلاثة بأصحابهم ، في كل ليلةٍ ويومٍ نوباً بينهم . فإذا غربت الشمس وجب نورها ، أخرج إليهم صاحبُ تيمتك أبدالهم ، حساساً بالليل في أقرب من مواضع دبابي النهار ، يتساور ذلك قوادك جميعاً بلا محابةٍ لأحدٍ فيه ولا إدهان .

إياك وإن يكونَ منزلك إلا في خندقٍ وحِصنٍ تامين به بيأت عدوك وتستعينُ فيه إلى الحزم من مكيدتك . إذا وضعت الأنفال وحطت أبنية أهل العسكر ، لم يُمدد طَبَقٌ ، ولم يُقعِ خِياباء ، ولم يُنصب بناء حتى تقطع لكل قائد ذرعاً معلوماً من الأرض بقدر أصحابه ، فيحفره عليهم خندقاً يُطغفونه بعد ذلك بخنادق الحسك<sup>(١)</sup> ، طارحين لها دون أشجار الرياح ، وتُصب الرِّسَّة ، لها بابان قد وكلت بحفظ كل باب منهما رجلاً من قوادك في مائة رجلٍ من أصحابه ، فإذا فرغ من الخندق كان ذاك الرجلان القائدان بمن معهما من أصحابهما أهل ذلك المركز ، وموضع تلك الخيل ، وكانوا هم البوابين والأحراس لذئك الموضوعين ، قد كفَّوْهُما وضبطوهما وأعطوا من أعمال العسكر ومكروهه غيرها .

وأعلم أنك إذا كنت في خندق ، أمنت بإذن الله وقوته طوارق عدوك وبتأنيهم ، فإن راموا تلك منك ، كنت قد أحكمت ذلك وأخذت بالحزم فيه ، وتقدمت في الإمداد له ، ورتقت مخوف الفتى منه ، وإن تكن العافية استحققت حمد الله عليها ، وأرتبطت شكره بها ، ولم يضررك أخذك بالحزم : لأن كل كلفة ونصب ومؤونة إنفاق وشقة عمل مع

(١) أي ذهب ونقاب . (٢) الحسك : أسلاك كالشوك تصنع من الحديد تلقى حول المعسكر لتشتب

في رجل من يدها من الخيل والناس الطارئين له ، وهي المعروفة الآن : « بالأسلاك الشائكة » .

السلامة عُمٌّْ وغير حَظَرٍ بالعاقبة، إن شاء الله . فإن أَبْطَلَيْتَ بَيَاتِ عَدُوِّكَ أَوْ طَرَفَكَ رَافِعًا فِي لَيْلِكَ، فَلْيَلْفِكَ حَيْدَرًا مُشْعِرًا عَنِ سَائِقَتِكَ، حَاسِرًا عَنِ ذِرَاعِكَ، مُتَشَرِّفًا<sup>(١)</sup> لِحَرْبِكَ، قَدْ تَقَدَّمْتُ دَرَجَتُكَ إِلَى مَوَاضِعِهَا عَلَى مَا وَصَفَهُ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَدَبَّابَتُكَ فِي أَوْقَاتِهَا الَّتِي قَدَّرَ لَكَ، وَطَلَاتُكَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ، وَجَنَدُكَ عَلَى مَا عَيَّا لَكَ، قَدْ حَظَرْتُ عَلَيْهِمْ بِنَفْسِكَ، وَتَقَدَّمْتُ إِلَى جَنَدِكَ، إِنْ طَرَفَهُمْ طَارِقٌ أَوْ فَاجَأَهُمْ عَدُوٌّ، أَلَا يَتَكَلَّمُ مِنْهُمْ أَحَدٌ رَافِعًا صَوْتَهُ بِالتَّكْبِيرِ مُغْرِقًا فِي الإِجْلَابِ، مُهْلِكًا بِالْإِرْهَابِ لِأَهْلِ النَّاحِيَةِ الَّتِي يَقَعُ بِهَا الْعَدُوُّ طَارِقًا، وَلِيُشْرِعُوا رِمَاحَهُمْ نَاشِطِينَ بِهَا فِي وُجُوهِهِمْ، وَيرْشِقُوهُمْ بِالنَّبْلِ مَكْنَتِينَ يَتَرَسَّسُهُمْ، لَا يَزِيمِينَ لِمَرَكَهُمْ، غَيْرَ مُزِيلِي قَدَمٍ عَنْ مَوْضِعِهَا، وَلَا مُتَجَاوِزِينَ إِلَى غَيْرِ مَرْكَهُمْ، وَلِيكْبُرُوا ثَلَاثَ تَكْبِيرَاتٍ مُتَوَالِيَاتٍ وَسَائِرُ الْجُنْدِ هَادُونَ، لِتَعْرِيفِ مَوْضِعِ عَدُوِّكَ مِنْ مَعْسَرِكَ، تَقْدَمُ أَهْلُ تِلْكَ النَّاحِيَةِ بِالرَّحَالِ مِنْ أَعْوَانِكَ وَشُرَطِكَ، وَمَنْ أَتَخَفَيْتَ قَبْلَ ذَلِكَ صَدَّةً لِلشَّدَائِدِ بِحَضْرَتِكَ، وَتُدْسُ إِلَيْهِمُ الشَّابَّ وَالرَّمَاحَ .

وإِذَا كَانَ يُشْهَرُونَ سَيْفًا يَتَعَالَدُونَ بِهِ، وَتَقَدَّمُ إِلَيْهِمْ أَلَا يَكُونُ قِتَالُهُمْ فِي تِلْكَ الْمَوَاضِعِ لِمَنْ طَرَفَهُمْ إِلَّا بِالرَّمَاحِ مُسْنِدِينَ لَهَا إِلَى صُدُورِهِمْ، وَالنَّشَابِ رَاشِقِينَ بِهِ وَجُوهِهِمْ، قَدْ أَلْبَدُوا بِالْأَتْرِسَةِ، وَأَسْتَجَنُوا بِالْبَيْضِ، وَأَلْقَوْا عَلَيْهِمْ سَوَاسِغَ الدَّرُوعِ وَجِبَابَ الْحَشْوِ . فَإِنْ صَدَّ الْعَدُوُّ عَنْهُمْ حَامِلِينَ عَلَى جِهَةِ أُخْرَى، كَبُرَ أَهْلُ تِلْكَ النَّاحِيَةِ الَّتِي يَقَعُ فِيهَا كِفْعَلُ النَّاحِيَةِ الْأُولَى، وَبَقِيَّةُ الْمَسْكِرِ سَكُوتٌ وَالنَّاحِيَةُ الَّتِي صَدَّ عَنْهَا الْعَدُوُّ لِأَزْمَةِ مَرَكَهُمْ مُتَعَلِّقَةٌ أَلْهَدُوقُ سَاكِنَةُ الرِّيحِ، ثُمَّ تَحْمِلَتِ فِي تَقْوِيَتِهِمْ وَإِمْدَادِهِمْ بِمَثَلِ صَنِيعِكَ فِي إِخْوَانِهِمْ .

وَمَا يَكُ أَنْ تُعْجِدَ نَارَ رُؤُوفِكَ، وَإِذَا وَقَعَ الْعَدُوُّ فِي مَعْسَرِكَ فَاجْتَبِهَا سَاعِرًا لَهَا وَأَوْقِدْهَا حَقَبًا تَحْرَأُ بِعَرِيفٍ بِهِ أَهْلُ الْمَسْكِرِ مَكَانَكَ وَمَوْضِعَ رُؤُوفِكَ، فَيَسْكُنُ نَافِرُ قُلُوبِهِمْ، وَيَقْوَى وَاهِي قُوَّتِهِمْ، وَيَسْتَدُ مَنْخَذُ ظُهُورِهِمْ، وَلَا يَرْمُجُونَ بِكَ الظُّنُونَ، وَيُجْعَلُونَ لَكَ آرَاءَ

(١) مُتَشَرِّفًا : مُتَجَبِّزًا .

السوء، ويرجعون بك آناه الخوف؛ وذلك من فعلك راء عدوك فيظهلم لم يستغل منك ظفراً، ولم يسلم من نكايتك سرورا . وإن أنصرف عنك عدوك وتكل عن الإصابة من جندك وكانت بجيالك قوة على طلبه أو كانت لك من فرسانك خيل معدة وكتيبة متخبة، [و] قدرت على أن تركب بهم أكسامهم<sup>(١)</sup>، وتعلمهم على ستنهم؛ فأنهم جربة خيل عليها الفقات من فرسانك وأولو النجدة من حماك؛ فإنك ترهق عدوك وقد أمن من بياتك، وتُسفل بكالاه عن التحزب منك والأخذ بأبواب معسكه والقبض لمخارسه عليك، موهنة حماهم لئيبه أبطالهم؛ لما القوم عليه من التشمير والجد، قد عقر الله فيهم، وأصاب منهم، ورجح من مقاتلتهم، وكسر من أمانى ضلالهم، ورد من مستعلي حماهم .

وتقدم إلى ما توجه في طلبهم، وتنبه أكسامهم : في سكون الرمح، وقلة الرقت، وكثرة التسبيح والتهليل، وأستنصار الله عز وجل بألستهم وقلوبهم سرا وجها، بلا لحب خفية، ولا ارتفاع وضوءاء، دون أن يرقوا على مطلبهم، ويتنزهوا فرصتهم . ثم ليظهروا السلاح، ويتضوا السوف، فإن لها هبة رائحة، وبديهة غوفة، لا يقوم لها في هبة الليل وحيدسه إلا البطل الحارِب، وذو البصيرة الحامي، والمستيت المقاتل، وقليل ما هم عند تلك الحمية وفي ذلك الموضع .

ليكن أول ما نتقدم به في التهيؤ لعدوك، والاستعداد للقائه، انتخابك من فرسان عسكرك ومما جندك ذوى البأس والحكمة والجلد والصرامة، ممن قد أعاد طراد الكفاة، وكثر عن ناجذه في الحرب، وقام على ساق في منازلة الأقران، تحف الفروسية، مجتمع القوة، مستحصد الميرة، صبوراً على هول الليل، عارفاً بمنهزة القوس؛ لم تمتهد الحكمة ضمناً، ولا بلغت به السن كلالاً، ولا أسكرته غيرة الحداثة جهلاً، ولا أبطرته نجدة الانحمار صلفاً، جريئاً على مخاطرة التلف، مُقديماً على أذراع الموت، مكابراً لمهيب الهول، متفحفا غيئ الحنوف، خائضاً غمرات المهالك؛ برأى يؤده الحزم، ونية لا يتأجلها الشك،

(١) الأكسام : الأبار، واحدها كسم . (٢) ترهق عدوك : تفتشه .

وأهواء مجتمعة، وقلوب مؤلفة؛ عارفين بفضل الطاعة ويحرمها وشرفها، وحيث محل أهلها من التأييد والظفر والتمكين - ثم أعيرهم رأى عين على كراهم وأسلحتهم، ولكن دوابهم لئانث عناق الخيل، وأسلحتهم سوانح الدروع وكال آلة الحرب، متقلدين سيوفهم المستخلصة من جيد الجوهر وصافي الحديد، المتخيرة من معادن الأجناس، هندية الحديد يمانية الطبع، رفاق المضارب، مسمومة الشحذ، مشطبة الضريبة؛ ملدين بالترسة الفارسية، صيلية التعقب، معلقة المفايض يخلق الحديد، أنحاؤها هربية، وعارزها بالتجليد مضاعفة، تحملها مستخف، ويخائن النبل ويجعاب القسي قد استحقبها، وقسي الشريان<sup>(١)</sup> والنبيع أعرابية الصنعة، مختلفة الأجناس، محكمة العمل، مقومة التنقيف، ونصول النبل مسمومة، وعملها مصبى، وتركيبها مراقي، وتريدشها بدوى؛ مختلفة الصوغ في الطبع، شقي الأعمال في التشطيط والتجنيع والإمندارة. ولتكرت الفارسية مقلوبة المفاض، منبسطة السية، سهلة الانعطاف، مقربة الاختباء، ممكنة المرمى، واسعة الأسمم؛ قرصها سهلة الورد، ومعاطفها غير مقربة المواناة. ثم ول على كل مائة رجل منهم رجلا من أهل خاصتك وثقاتك ونصحاك، له صيت في الرئاسة، وقدم في السابقة، وأولية في المشايعة. وتقدم إليه في ضبطهم، وكف معزتهم، وأستترال نصائحهم، وأستعداد طاعتهم، وأستخلاص ضمائرهم، وتعاهد كراهم وأسلحتهم: مغبيا لهم من النوايب التي تلزم أهل عسكرك وطانة جنديك، وأجعلهم عدة لأمر إن حرك، أو طارقي إن أذاك، ومرهم أن يكونوا على أهبة معدة، وحذر نافي لينة الفتيلة عنهم؛ فإنك لا تدري أى الساعات من ليك ونهارك تكون إليهم حاجتك. فليكونوا كرجل واحد في التشمير والتأدب وسرعة الإجابة؛ فإنك عسيت ألا تجد عند جماعة جنديك في مثل تلك الزوعة والمباغنة - إن أحتجت إلى ذلك منهم - معونة كافية، ولا أهبة معدة. بل ذلك كذلك فليكن هؤلاء القوم الذين تنصّب عدتك وقوتك، بعوناً قد وظفتها على القواد الذين وليتهم أمورهم، فسيت أولاً وثانياً وثالثاً ورابعا وخامسا وسادسا؛ فإن أكثفيت فيا يطرقك ويسدك

(١) الشريان يفتح الشين وكسرهما : مجرم من عصاه الجبال تعمل من القس .

بَيْعٌ وَاحِدٌ، كَانَ مُعَسِّدًا لَمْ تَحْتَجْ إِلَى اتِّخَاظِهِمْ فِي سَاعَتِكَ تِلْكَ، فَقَطَّعَ الْبَيْعَ طَلِيمٍ عِنْدَ مَا يَرْتَفِقُ. وَإِنْ أَحْتَجْتَ إِلَى أَتْسِنٍ أَوْ ثَلَاثَةٍ، وَجِئْتَ مِنْهُمْ إِرَادَتَكَ أَوْ مَا تَرَى قُوَّتَكَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَكُلُّ بِخْرَانَتِكَ وَدَوَاوِينِكَ رَجُلًا نَاعِمًا أَمِينًا، ذَا وَرَعٍ حَاجِرٍ، وَدِينٍ فَاصِلٍ، وَطَاعَةٍ خَالِصَةٍ، وَأَمَانَةٍ صَادِقَةٍ؛ وَأَجْمَلُ مَعَهُ خِيَلًا يَكُونُ مَسِيرَهَا وَمَنْزِلَهَا وَمَرْحَلَهَا مَعَ خِرَاتِكَ وَحَوْلَهَا. وَتَقْدَمُ إِلَيْهِ فِي حِفْظِهَا، وَالتَّوَقُّعِ طَلِيمًا، وَأَتْيَاهُمْ كُلَّ مَنْ تُسَيِّدُ إِلَيْهِ شَيْئًا مِنْهَا عَلَى إِضَاعَتِهِ وَالتَّهَاقُوتِ بِهِ، وَالشَّدَّةِ عَلَى مَنْ دَنَا مِنْهَا فِي مَسِيرِهِ أَوْ ضَامَهَا فِي مَنْزِلٍ، أَوْ خَالَطَهَا فِي مَنَهِلٍ. وَلَيْكِنْ عَاقِبَةُ الْجَنْدِ وَالْجَيْشِ — إِلَّا مَنْ اسْتَخْلَصْتَ لِلسَّيْرِ مَعَهَا — مُنْتَجِبِينَ عَنْهَا، مُجَانِبِينَ لَهَا فِي الْمَسِيرِ وَالْمَنْزِلِ؛ فَإِنَّهُ رُبَّمَا كَانَتْ الْجَوْلَةُ وَحَدَّثَتِ الْفَرَقَةَ، فَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْفَرَائِضُ مِنْ يَوْمٍ كُلِّ يَوْمٍ حِفْظُهَا وَذَبُّ عَنْهَا، وَحِرَاطَةُ دُونِهَا، وَقُوَّةٌ عَلَى مَنْ أَرَادَ أَتْيَاهَا، أَسْرَعَ الْجَنْدُ إِلَيْهَا وَتَدَاعَوْا نَحْوَهَا، حَتَّى كَادَ يَتَرَى ذَلِكَ بِهِمْ إِلَى أَتْيَائِهِ الْعُسْكَرَ وَأَضْطِرَابِ الْفَتْنَةِ؛ فَإِنَّ أَهْلَ الْفِتَنِ وَسُوءَ السَّيْرِ كَثِيرٌ، وَإِنَّمَا هِمَّتُهُمُ الشَّرُّ؛ فَإِيَّاكَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ فِي خِرَاتِكَ وَدَوَاوِينِكَ [وَبُيُوتِ أَمْوَالِكَ<sup>(١)</sup>] مَطْمَعٌ، أَوْ يَجِدَ سَبِيلًا إِلَى اغْتِيَالِهَا وَمَرْزَأَتِهَا.

وَاعْلَمْ أَنَّ أَحْسَنَ مَكِيدَتِكَ أَثَرًا فِي الْعَامَةِ، وَأَبْدَهَا صِيغَةً فِي حَسَنِ الْقَالَةِ؛ مَا نِلْتَ الظَّفَرَ فِيهِ بِحِزْمِ الرُّيَّةِ، وَحَسَنِ السَّيْرِ، وَلَطْفِ الْحِيلَةِ. فَتَكُنْ رُيُوتُكَ فِي ذَلِكَ وَجِرْصُكَ عَلَى إِصَابَتِهِ بِالْحِيلِ لَا بِالْقِتَالِ وَأَخْطَارِ التَّلَفِ؛ وَأَدُسُّ إِلَى عَدُوِّكَ، وَكَاتِبُ رُؤُسَائِهِمْ وَقَادَتِهِمْ وَعِدَّتِهِمُ الْمَنَاطِلَ، وَمَنْتَهُمُ الْوَلَايَاتِ، وَسَوْفَهُمُ الثَّرَاثِ، وَضَعَّ عَنْهُمْ الْإِسْنَ، وَأَقْلَعَ أَعْنَاقَهُمْ بِالْمَطَامِعِ، وَاسْتَدْعَاهُمْ بِالْمَتَاوَبِ؛ وَأَمْلَأْ قُلُوبَهُمْ بِالْتَرْهيبِ إِنْ أَمَكَّتَكَ مِنْهُمْ الدَّوَارُ، وَأَصَابَتْهُمْ إِلَيْكَ الرَّوَاجِعُ؛ وَأَدْعُهُمْ إِلَى الْوُثُوبِ بِصَاحِبِهِمْ أَوْ أَعْتَرَاهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بِالْوُثُوبِ عَلَيْهِ طَاقَةٌ؛ وَلَا عَلَيْكَ أَنْ تَطْرَحَ إِلَى بَعْضِهِمْ كِتَابًا كَأَنَّهُ جَوَابُ كِتَابٍ لَهُمُ إِلَيْكَ، وَتَكْتُبَ عَلَى أَلْسِنِهِمْ كِتَابًا إِلَيْكَ تَدْفَعُهَا إِلَيْهِمْ وَتَحْمِلُ بِهَا صَاحِبَهُمْ طَلِيمًا، وَتُزَيِّمُ عَنْدهُ بِمِزْلَةِ التَّهْمَةِ وَحَقْلَ

الظُّنَّة؛ ففعل مَكِيدَتَكَ في ذلك أن يكون فيها أَقْرَأُ كَلِمَتِهِمْ، وَتَشَيْتُ جَمَاعَتِهِمْ، وَاحْنُ قُلُوبِهِمْ، وَسَوْءُ الظَّنِّ مِنْ وَالِيهِمْ بِهِمْ، فَيُوحِشُهُمْ مِنْهُ خَوْفُهُمْ إِيَّاهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ إِذَا أَيْقَنُوا بِأَسَاسِهِ إِيَّاهُمْ، فَانْ بَسَطَ يَدَهُ فَقَتَلَهُمْ، وَأَوْلَعَ سَيْفَهُ فِي دِمَائِهِمْ، وَأَسْرَعَ الْوُثْبَ بِهِمْ، أَشْرَعَهُمْ جَمِيعًا انْخَوْفَ، وَتَمَلَّيْلَهُمُ الرُّعْبَ، وَدَعَاهُمْ إِلَيْكَ الْمَرْبَ، فَهَاقُوا نَحْوَكَ بِالنَّصِيحَةِ وَأُمُوكَ بِالطَّلَبِ. وَإِنْ كَانَ مَتَابُيَا مُحْتِمِلًا رَجَوْتَ أَنْ يَسْتَمِيلَ إِلَيْكَ بَعْضُهُمْ، وَيُسْتَدْعَى الطَّلَعَ ذِي الشَّرِّ مِنْهُمْ، وَتَنَالُ بِذَلِكَ مَا تُحِبُّ مِنْ أَخْبَارِهِمْ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

إِذَا تَنَاقَى الصَّفَّانِ، وَتَوَاقَفَ الْجَمْعَانِ، وَاحْتَضَرَتِ الْحَرْبُ، وَجَبَتْ أَهْمَابُكَ لِقِتَالِ عَدُوِّهِمْ، فَأَكْثَرُ مِنْ قَوْلٍ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَالتَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ مِنْ وَجَلِ وَالتَّقَوُّضُ إِلَيْهِ، وَمَسَائِلُهُ تَوْفِيقَكَ وَإِرْشَادَكَ، وَأَنْ يَمُزَّجَ لَكَ عَلَى الرُّشْدِ الْمُتَجَنِّي، وَالْعِصْمَةِ الْكَائِلَةِ، وَالْحِيلَاطَةِ الشَّامِلَةِ. وَمُرَّ جَنْدُكَ بِالصِّمْتِ وَقَلَّ التَّلَفُّتُ عِنْدَ الْمُصَاوَلَةِ، وَكَثُرَتِ التَّكْبِيرُ فِي أَنْفُسِهِمْ وَالتَّسْبِيحُ بِضَمَائِهِمْ، وَلَا يُظْهِرُوا تَكْبِيرًا إِلَّا فِي الْكَرَّاتِ وَالْحَلَّاتِ، وَعِنْدَ كُلِّ زُلْفَةٍ يَزْدَلِفُونَهَا، فَأَمَّا وَهْمُ وَقُوفٍ فَانْ ذَلِكَ مِنَ الْفُشْلِ وَالْجَلْبَنِ؛ وَلِيَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَنْفُسِهِمْ وَيَسْأَلُوهُ نَصْرَهُمْ وَإِعْزَازَهُمْ، وَلِيُكْثِرُوا مِنْ قَوْلٍ: "لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، اللَّهُمَّ أَنْصُرْنَا عَلَى عَدُوِّكَ وَعَدُوِّنَا الْبَاغِي، وَآكِفْنَا شَوْكَتَهُ الْمُسْتَحِدَّةَ، وَأَيِّدْنَا بِمَلَائِكَتِكَ الْغَالِيَيْنِ، وَأَعِصِمْنَا بِعَوْنِكَ مِنَ الْفُشْلِ وَالْعِجْزِ إِنَّكَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ".

وَلِيَكُنْ فِي مَعْسَرِكَ الْمَكْبُورُونَ فِي اللَّيْلِ وَالتَّهَارِقُ قَبْلَ الْمَوَاقِعَةِ، وَقَوْمٌ مُوقِفُونَ بِمُحْضُونِهِمْ عَلَى الْقِتَالِ وَيَحْضُونَهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ، وَيَصِفُّونَ لَهُمْ مَنَازِلَ الشَّهْدَاءِ وَتَوَابِهِمْ، وَيَذْكُرُونَ فِي الْجَنَّةِ وَدَرَجَاتِهَا، وَنِعْمَ أَهْلِهَا وَسَكَنَاتِهَا، وَيَقُولُونَ: أَذْكُرُوا اللَّهَ يَذْكُرْكُمْ، وَأَسْتَنْصِرُوهُ يَنْصُرْكُمْ، وَالتَّجِدُّوْا إِلَيْهِ يَنْعَمْكُمْ. وَإِنْ أَسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ أَنْتَ الْمُبَاشِّرُ لِقِيَابَةِ جَنْدِكَ وَوَضِيْعِهِمْ مَوَاضِعَهُمْ مِنْ رَأْيِكَ، وَمَعَكَ رَجُلٌ مِنْ ثِقَاتِ فِرْمَانِكَ ذُو سُنَّةٍ وَنَجْرَةٍ وَتَجْدِيدَةٍ عَلَى التَّعْبِيَةِ الَّتِي أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَصْفَقَهَا لَكَ فِي آتَرِ كِتَابِكَ فَافْعَلْ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.



أَيْدِكَ اللَّهُ بِالنَّصْرِ، وَغَلَبَ لَكَ عَلَى الْقِسْوَةِ، وَأَعَانَكَ عَلَى الرَّشْدِ، وَعَصَمَكَ مِنَ الزَّيْغِ،  
وَأَوْجِبَ لِمَنْ اسْتَشْهَدَ بِمَعْلِكَ ثَوَابَ الشَّهَدَاءِ وَمَنَازِلَ الْأَصْفِيَاءِ، وَالسَّلَامَ عَلَيْكَ وَرَحْمَةَ اللَّهِ  
وَبَرَكَاتِهِ .

وكتب سنة تسع وعشرين ومائة .

## ٧ - رسالة ثانية لعبد الحميد الكاتب

ومن رسائل عبد الحميد الرسالة التي أوصى فيها الكتاب<sup>(١)</sup>

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أما بعد؛ حَفِظَ اللَّهُ بِأَهْلِ صِنَاعَةِ الْكِتَابَةِ، وَحَاطَكَمُ وَفَّقَكُمْ وَأَرْشَدَكُمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ  
وَجَلَّ جَعَلَ النَّاسَ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَبَعْدَ الْمُلُوكِ  
الْمَكْرُمِينَ أَصْنَافًا، وَإِنْ كَانُوا فِي الْحَقِيقَةِ سَوَاءً؛ وَصَرَّفَهُمْ فِي صُنُوفِ الصِّنَاعَاتِ، وَضُرُوبِ  
الْمَحَاوِلَاتِ، إِلَى أَسْبَابِ مَعَايِشِهِمْ، وَأَبْوَابِ أَرْزَاقِهِمْ، لِيُفْلِكَكُمْ مَعِشَرَ الْكُتَّابِ فِي أَشْرَفِ  
الْجِهَاتِ، أَهْلَ الْأَدَبِ وَالْمُرُوءَاتِ وَالْعِلْمِ وَالزَّانَةِ بِكُمْ تَنْظِيمَ لِمَخْلَافَةِ مَحَاسِنِهَا، وَتُسْقِمْ  
أُمُورَهَا، وَبِنَصَائِحِكُمْ يُصْلِحَ اللَّهُ لِفُلُقِ سُلْطَانَتِهِمْ، وَتَعْمُرَ بِلْدَانَهُمْ؛ لَا يَسْتَفْتِيَ الْمَلِكُ عَنْكُمْ،  
وَلَا يُوجِدُ كَافًا إِلَّا مِنْكُمْ؛ فَمَوْقِعُكُمْ مِنَ الْمُلُوكِ مَوْقِعُ أَسْمَاعِهِمْ الَّتِي بِهَا يَسْمَعُونَ، وَأَبْصَارُهُمْ  
الَّتِي بِهَا يُبْصِرُونَ، وَالسُّلْطَانُ الَّتِي بِهَا يَنْطِقُونَ، وَأَيْدِيهِمْ الَّتِي بِهَا يَنْطِشُونَ؛ فَاثْمَنَ اللَّهُ بِمَا خَصَّكُمْ  
مِنْ فَضْلِ صِنَاعَتِكُمْ، وَلَا تَزَعْ عَنْكُمْ مَا أَضْفَأَ مِنَ التَّعَمُّعِ عَلَيْكُمْ؛ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ أَهْلِ  
الصِّنَاعَاتِ كُلِّهَا أَحْوَجَ إِلَى اجْتِمَاعِ خِلَالِ الْخَيْرِ الْمَحْمُودَةِ، وَخِصَالِ الْفَضْلِ الْمَذْكُورَةِ الْمَعْدُودَةِ  
مِنْكُمْ . أَيُّهَا الْكُتَّابُ إِذَا كُنْتُمْ عَلَى مَا يَأْتِي فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنْ صِفَتِكُمْ، فَإِنَّ الْكُتَّابَ يَحْتَاجُ  
فِي نَفْسِهِ، وَيَحْتَاجُ مِنْهُ صَاحِبُهُ الَّذِي يَتَّقِي بِهِ فِي مُهِمَّاتِ أُمُورِهِ، أَنْ يَكُونَ حَلِيمًا فِي مَوْضِعِ  
الْحِلْمِ، فَهِيمًا فِي مَوْضِعِ الْحُكْمِ، يَدَّأَمًا فِي مَوْضِعِ الْإِقْدَامِ، يَحْتَبَا فِي مَوْضِعِ الْإِحْجَامِ، مُؤَثِّرًا

(١) هذه الرسالة من مقدمة ابن خلدون (ص ٢٠٦ طبعة بلاق) . (٢) أضفاه : أنه .

للصفات والعدل والإنصاف، كثر ما للأشعار، وفيما عند الشرائع، عالم بما يأتي من التوازل؛  
يضع الأمور مواضعها، والطوارق في أماكنها؛ قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحسَّه،  
وإن لم يُحسَّه أخذ منه بمقدار ما يكتفي به؛ يعرف بغريزة عقله، وحسن أدبه، وفنَّسَل  
تجربته، ما يرد عليه قبل وروده، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره؛ فيعد لكل أمر عُدته  
وعتاده، ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته. فتأنسوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب،  
وتفهموا في الدين، وأبدؤا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض، ثم العربسة فإنها ثقافت  
النسبكم، ثم أجيذوا الخط فإنه حليسة كتبكم، وأرووا الأشعار وأعرفوا غريبها ومعانيها،  
وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها؛ فإن ذلك معين لكم على ما تسموا إليه همكم،  
ولا تضيعوا النظر في الحساب، فإنه قوام كتاب الخراج، وأزغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها  
ودنيا، وسفاسف الأمور وعافرها؛ فإنها مثلة للرقاب، مفسدة للكتاب، وزرخوا صناعكم  
عن الدنائة، وأزبوا بأنفسكم عن السعاية والهميمة وما فيه أهل الجهالات.

وأيامكم والكبر والسُخف والعظمة، فإنها عداوة مُجْتَلَبَة من غير إحتة، وتحابوا في الله  
عز وجل في صناعكم، وتواصوا عليها بالذي هو أليق لأهل الفضل والعدل والنبل من  
سلفكم؛ وإن نأ الزمان برجل منكم، فأعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع إليه حاله، ويثوب إليه  
أمره، وإن أقعد أحدًا منكم الكبر عن مكتبته ولقاء إخوانه، فزوروه وعظموه وشاوروه؛  
وأستظفروا بفضل تجربته، وقديم معرفته؛ وليكن الرجل منكم على من أصطنعته وأستظفروا  
به ليوم حاجته إليه أحوط منه على ولده وأخيه، فإن عرَضَتْ في الشغل محمدة فلا يصرفها  
إلا إلى صاحبها، وإن عرَضَتْ مدمة فليحملها هو من دونه؛ وليحذر السقطلة والزلة والملل  
عند تغير الحال، فإن العيب اليكم معشر الكتاب أسرع منه إلى الفراء، وهو لكم أفسد منه  
لها؛ فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبه من يتدل له من نفسه، ما يجب له عليه من حقه؛  
فواجب عليه أن يمتد له من وفائه وشكره، وأحاطه ونصيحته، وكتان سره وتدير أمره،

ما هو جزاءُ حَقِّه ، ويصِلُك ذلك فعَلُه عند الحاجة إليه ، والأَضطرار إلى ما لديه ؛ فاستشعروا ذلك — وفقكم الله — من أنفسكم في حالة الرِّخاء ، والسَّدة والحِرمان والمُواساة والإحسان والمراء والضراء ؛ فنعمت الشبهة هذه لمن وسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة ؛ وإذا ولىَّ الرجلُ منكم أو صير إليه من أمرٍ خلق الله وعياله أمرٌ ، فلراقب الله عز وجل ولْيُؤثِر طاعته ؛ وليكن على الضعيف رفيقا ، وللظَلوم مُنصفا ؛ فإنَّ الخلق عيالٌ الله ، وأحبهم إليه أرفقهم بعياله ؛ ثم ليكن بالعدل حاكما ، وللأشراف مُكرما ، وللقبي موقرا ، وللبلاد عامرا ، وللأريفة مُتألِّفا ، وعن أذاهم متخلفا ؛ وليكن في مجلسه متواضعا حلوا ، وفي محلات خراجه واستقبضاه حقوقه دقيقا ؛ وإذا صحب أحدكم رجلا فليختبر خلقه ، فإذا عَرَفَ حَسَبًا وقبيحها أمانه على ما يوافقه من الحَسَن ، وأختال على صرفه عما يهواه من القبيح بالطف حيلة وأجل وسيلة .

وقد علمت أن سائس البهيمة إذا كان بصيرا بسياستها التمس معرفة أخلاقها ، فإن كانت رُموحا لم ينجحها إذا ركبها ، وإن كانت سَبوبا آفأها من بين يديها ، وإن خاف منها شُرودا تَوَقَّأها من ناحية رأسها ، وإن كانت حَرَونا قَع برفق هواها في طُرُقها ، فإن استمرت عَطْفها يسيرا ، فبَسَّس له قيادها ، وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجرهم وداخلهم .

والكاتب لفضل أدبه وشريف صنعه ولطيف حيلته ، ومعاملته لمن يحاوله من الناس وينظره ، ويفهم عنه أو يخاف سَطَوته ، أو يرق لصاحبه ومداراته وتقويم أمره ، من سائس البهيمة التي لا تُحبر جوابا ، ولا تُعرف صوابا ، ولا تفهم خطايا ، إلا بقدر ما يُصيرها إليه صاحبها الزاكب عليها ؛ ألا فارقوا رحمت الله في النظر ، وأعملوا ما أمكنكم فيه من الروية والفكر ، تأمنوا بإذن الله ممن تحببتموه الثبوة والاستئفال والجفوة ؛ وبصير منكم إلى الموافقة ، وتصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة ، إن شاء الله ؛ ولا يُجاوزن الرجل منكم في هيئة مجلسه ، ومجلسه ومركبه ، ومطعمه ومشربه وخدمه ، وغير ذلك من فنون أمره قدر حَقِّه ؛ فإنكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعتكم ، خدمة لا يُحْمَلون في خدمتكم على التقصير ، وحفظه

لَا تَحْتَمِلُ مِنْكُمْ أَعْمَالُ التَّضْيِيعِ وَالتَّبْذِيرِ ، وَأَسْتَعِينُوا عَلَى أَعْمَالِكُمْ بِالْقَصْدِ فِي كُلِّ مَا ذَكَرْتُمْ لَكُمْ ، وَقَصَصْتُمْ عَلَيْكُمْ ، وَأَحْذَرُوا مَتَالِفَ السَّرَفِ ، وَسَوْءَ عَاقِبَةِ التَّرَفِ ؛ فَإِنَّهَا يُعْقِبَانِ الْفَقْرَ ، وَيُذَلِّلَانِ الرِّقَابَ وَيَقْضِيَانِ أَهْلَهُمَا ، وَلَا سِوَا الْكَثَابِ وَأَرْبَابِ الْآدَابِ . وَالْأُمُورُ أَشْيَاءُ وَبَعْضُهَا دَلِيلٌ عَلَى بَعْضٍ ؛ فَاسْتَدَلُّوا عَلَى مُؤْتَنَفِ أَعْمَالِكُمْ ، بِمَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ تَجَرُّبَتُكُمْ ؛ ثُمَّ أَسْأَلُكُمْ مِنْ مَسَالِكِ التَّدْبِيرِ أَوْحَظَهَا حَجَّةً ، وَأَصْدَقَهَا نَجَّةً ، وَأَحْمَدُهَا عَاقِبَةً .

وَأَعْلَمُوا أَنَّ لِلتَّدْبِيرِ آفَةً مُتَلَفَةً ، وَهِيَ الْوَصْفُ الشَّاعِلُ لِمُصَاحِبِهِ ، عَنْ إِنْجَازِ عِلْمِهِ وَرَوِيَّتِهِ ؛ فَلْيَقْصِدِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي مَجْلِسِهِ ، قَصْدَ الْكَافِي فِي مَنَظِقِهِ ، وَلْيُوجِزْ فِي أَبْتِدَائِهِ وَجَوَابِهِ ، وَلْيَأْخُذْ بِجَمَاعِ حُجَّتِهِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ لِنَفْسِهِ ، وَمَدْفَعَةٌ لِلشَّاعِلِ مِنْ إِفْخَارِهِ ؛ وَلْيَضْرَعْ إِلَى اللَّهِ فِي صَلَةِ تَوْفِيْقِهِ ، وَإِمْدَادِهِ بِتَسْديدِهِ ؛ حَقَافَةً وَقُوعَهُ فِي الْفَلْطِ الْمَضْرِبِ بِهِ ، وَعَقْلَهُ وَأَدَبَهُ ، فَإِنَّهُ إِنْ ظَنَّ مِنْكُمْ ظَانًّا أَوْ قَالَ قَاتِلًا : إِنَّ الَّذِي بَرَزَ مِنْ جَمِيلِ صُنْعَتِهِ وَقُوَّةِ حَرَكَتِهِ ، إِنَّمَا هُوَ بِفَضْلِ حِيلَتِهِ وَحُسْنِ تَدْبِيرِهِ ؛ فَقَدْ تَعَرَّضَ بِحُسْنِ ظَنِّهِ أَوْ مَقَالَنَّهُ إِلَى أَنْ يَكْفُلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى نَفْسِهِ ، فَيَصِيرُ مِنْهَا إِلَى غَيْرِ كَافٍ ، وَذَلِكَ عَلَى مَنْ تَأَمَّلَهُ غَيْرُ خَافٍ ؛ وَلَا يَقُولُ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِنَّهُ أَبْصَرَ بِالْأُمُورِ ، وَأَحْمَلَ لِأَعْيَانِ التَّدْبِيرِ ؛ مِنْ مُرَافِقِهِ فِي صِنَاعَتِهِ ، وَمُصَاحِبِهِ فِي خِدْمَتِهِ ؛ فَإِنَّ أَغْفَلَ الرَّجُلَيْنِ عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَابِ مَنْ رَمَى بِالسُّجْبِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ، وَرَأَى أَنَّ أَصْحَابَهُ أَغْفَلُوا مِنْهُ وَأَجْمَلُوا فِي طَرِيقَتِهِ ؛ وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ أَنْ يَعْرِفَ فَضْلَ نِعَمِ اللَّهِ جَلَّ شَأْنُهُ مِنْ غَيْرِ اقْتِرَارِ بَرَايَةِ ، وَلَا تَرْكِيَةِ لِنَفْسِهِ ؛ وَلَا يُكَاتِرْ عَلَى أَخِيهِ أَوْ نَفْسِهِ ، وَمُصَاحِبِهِ وَعَشِيرَتِهِ ؛ وَحَمْدُ اللَّهِ وَاجِبٌ عَلَى الْجَمِيعِ .

وَذَلِكَ بِالْتِّوَاضِعِ لِعَظَمَتِهِ ، وَالتَّذَلُّلِ لِعَزَّتِهِ ، وَالتَّحَنُّنِ بِنِعْمَتِهِ ؛ وَأَنَا أَقُولُ فِي خِتَابِي هَذَا مَا سَبَقَ بِهِ الْمَسَلُ : " مَنْ تَلَزَّمَهُ النَّصِيحَةُ يَلَزَّمَهُ الْعَمَلُ " وَهُوَ جَوْهَرُ هَذَا الْكَتَابِ وَغُرَّةُ كَلَامِهِ ، بِسَدِّ الَّذِي فِيهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَلِذَلِكَ جَمَعْتُهُ آخِرَ وَتَمَمْتُهُ بِهِ . تَوَلَّوْنَا اللَّهُ وَإِلَيْهِ يَا مَعْشَرَ الْعُلَمَاءِ وَالْكَتَبَةِ بِمَا يَتَوَلَّى بِهِ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ بِإِسْعَادِهِ وَإِرْشَادِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِلَيْهِ وَيُهِدِيهِ . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ،

## ٨ - رسالة ثالثة لعبد الحميد الكاتب

ومن رسائل عبد الحميد رسالة في الشطرنج<sup>(١)</sup> :

أما بعد ، فإن الله شرع دينه بإنهاج سُبُلِهِ ، وإيضاح مَعَالِيهِ بإظهار فرائضه ، وبعث رسَلَهُ الى خلقه دلالةً لهم على رُبوبيته ، واحتجاجاً عليهم برسالته ، ومقدماً اليهم بإنذاره ووعيده ، ليهلِكَ من هَلَكَ عن بَيْتِهِ ؛ ويحيى من حَيَّ عن بَيْتِهِ ؛ ثم ختم بنبيه صلى الله عليه وسلم وحيه ، ووقى به رسَلَهُ ، وآتبعته لإحياء دينه الدارس مرَضِيّاً له على حين انطمست الأعلامُ مخفيةً ، وتشتت السبل متفرقةً ، وعَفَّتْ آثارُ الدين دارةً ، وسطع رَجَحُ الفِتنِ ، واحتل قَتَامُ الظُّلْمِ ، واستند الشرُّ ، وأسدف الكُفْرُ ، وظَهَرَ أوليَاءُ الشيطان لطموس الأعلام ، ونطق زعيمُ الباطل بسكينة الحق ، وأستطرق الجور وأستنكح الصدوق عن الحق ، وأفطر سَلْبُ الفتنَةِ ، وأستعير لِقَاحُهَا ، وطَبَّتْ الأرض ظلمة كُفْرٍ وَخِيَاةٍ فساد ؛ فصَدَعَ بالحق مأمورا ، وأبلغ الرسالةً معصوما ، ونصح الإسلام وأهلكه ، دالًّا لهم على المرآشد ، وقائداً لهم الى الهداية ، ومنيراً لهم أعلام الحق ضاحية ، مرشداً لهم الى استفتاح باب الرحمة وإعلاق حُرُوةِ النجاة ؛ موضحاً لهم سُبُلَ القَوَاية ، زاجراً لهم عن طريق الضلالة ، محذراً لهم المللكة ، مُوعِزاً اليهم في التقيسة ، ضارياً لهم الحدود على ما يتقون من الأمور ويخشون ، وما اليه يسارعون ويطلبون ؛ صابراً بنفسه على الأذى والتكذيب ، داعياً لهم بالترويب والترهيب ؛ حريصاً عليهم ، متحنناً على قائلهم ،

(١) هذه الرسالة من كتاب « اغيار المنظر والمنثور » لأبن طيفر الحفوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ( ٨١ هـ أدب ) ومراجعة على نسخة أخرى من محفوظه برقم ( ١٨٦٠ أدب ) .  
(٢) وجدت هذه الجملة في رسائل البلاء هكذا : « على حين انطمست له الأعلام ... » بزيادة " له " وليس لها محل من السياق ظاهراً من زبادات النسخ .

(٣) أسداف الكفر : أظلم رم النواحي والأرجاء كالليل . (٤) القفا : اشتد .

(٥) القياية ، ما أغفل الانسان من فرق كالسحابة والعبرة ونحوها .

(٦) في رسائل البلاء ، وإعلان بالثبوت بدل الغاف ، وهو يحرف :

عزیزاً علیہ عتہم ، رەوفاً بہم رحیماً ، تقدمه شفقتہ علیہم وعنايتہ برشدہم الى تجريد  
الطلب الى ربہ فیا فیہ بقاء النعمۃ علیہم ، وسلامۃ أديانہم ، وتخفيف آصار الأوزار عنہم ،  
حتى قبضہ اللہ الیہ - صلی اللہ علیہ وسلم - ناصحاً متنصحاً ، أميناً مأموناً ، قد بلغ الرسالة ، وأدى  
النصيحة ، وقام بالحق ، ومدل عمود الدين ، حتى اعتدل ميلہ : وأذل الشرك وأهلہ ، وأنجز  
اللہ لہ وعدہ ، وأراه صدق أنبائه في إكمالہ للسامین دينہ ، وأستقامۃ سنتہ فیہم ، وظهور  
شرائعہ علیہم . قد أبان لهم موبقات الأعمال ، ومفططات الذنوب ، ومهبطات الأوزار ،  
وظلم الشبهات ، وما يدعو الیہ نقصان الأديان ، وتسہویرہم به الفوايات . وأوضح لهم أعلام  
الحق ، ومنازل المرائد ، وطرق الهدى ، وأبواب النجاة ، ومناقب العصمة ، غير مدحرج لهم  
نصحا ولا يمتنع في إرشادهم غمناً . فكان مما قدم الیہم فيه نبيہ ، وأعلمہم سوء عاقبتہ ،  
وحذرہم إضرہ ، وأوعز الیہم ناهياً وواعظاً وناجراً ، الاعتكاف علی هذه التماسيل من  
الشطرخ والمواصلۃ علیہا ، لما في ذلك من عظیم الإثم ، ومورق الوزر ، مع شغلها  
عن طلب المعاش ، وإضرارها بالقول ، وتمتعها من حضور الصلوات في موافقتها مع جميع  
المسلمين .

وقد بلغ أمير المؤمنين أن ناساً ، ممن قبلك من أهل الاسلام ، قد ألجهم الشيطان  
بہا ، وجمعہم علیہا ، وآلف بينهم فیہا ، فهم معتكفون علیہا من لدن صبيحہم الى  
مُمامہم ، مُلبية لهم عن الصلوات ، شاعلة لهم عما أُرُوا به من القيام بسُنن دينہم ،  
وافترض عليهم من شرائع أعمالہم ، مع مداعتہم فیہا ، وسوء لفظہم علیہا . وإن ذلك من  
فعلہم ظاہر في الأندية والمجالس ، غير منكّر ولا معيب ولا مُستفطع عند أهل الفقه ،  
وذوی الورع والأديان والأستات منهم ؛ فأكبر أمير المؤمنين ذلك وأعظمہ ، وكرهہ

(١) آصار : جمع إضر وهو القتل . وفي رسائل البلاء واختيار المظنوم والمختول لابن طيفور « أراصر » بدل  
آصار ، وهو صريح . (٢) في رسائل البلاء واختيار المظنوم والمختول لابن طيفور « أسابہ » وهو محريف .

وأستكره، وعلم أن الشيطان عندما يئس منه من بلوغ إرادته في معاصي الله عز وجل،  
بمصر المساكين ويجمعهم صُراخاً وجهاراً، أقدم بهم على شُبُهة مُهلكة، وزَيَّن لهم وَرَعَةً  
مُوبقة، وغرهم بمكيدة حيلة، إرادة لاستوائهم بالخدع، وأجتاحهم بالشُبُه والمراسد  
الخلقية المشككة . وكلُّ مقيمٍ على معصية الله، صغرت أو كبرت، مستجلاً لها مُشيداً بها،  
مظهراً لارتكابه إياها، غير حذرٍ من عقاب الله عز وجل عليها، ولا خائفٍ مكرهاً فيها،  
ولا راهبٍ من حلول سَطوته عليها، حتى تلحقه المنية، تختلج به وهو مُصرٌّ عليها، غير  
تائب إلى الله منها، ولا مستغفر من ارتكابه إياها؛ فكَم من أقام على مَوَاقِات الآثام  
وكبائر الذنوب، حتى مدته وتحرَّم أيامه .

وقد أحبَّ أمير المؤمنين أن يتقدم إليهم، فيما بلغه عنهم، وأن يُنذِرهم ويوعزَّ إليهم،  
ويُباهمهم ما في أعناقهم عليها، وما لم في قبول ذلك من الحفظ، وعليهم في تركه من الوذر،  
فَآذِنَ بذلك فيهم، وأشدّه في أسواقهم وجميع أنديةهم، وأوعزَّ إليهم فيه . وتقدَّم إلى عامل  
شُرطتك في إناك العقوبة لمن رُفِع إليه : من أهل الاعتكاف عليها والإظهار للعب بها،  
وإطالة حبسه في ضيق وضنك، وطَرَج اسمه من ديوان أمير المؤمنين . وأفطمهم عما  
تَحَوَّاه به من ذلك . وألغس بشدتك عليهم فيه وإناكك بالعقوبة عليه، ثواب الله  
وجزاه، وأتباع أمير المؤمنين ورأيه . ولا يحدن أحد عندك هواده في التقصير في حق الله  
عز وجل، والتعدي لأحكامه، فتُجَلِّ بنفسك ما يسوءك طافيةً مغتبه، وتعرض به  
لغير الله عز وجل ونكاله . وأكتب إلى أمير المؤمنين ما يكون منك، إن شاء الله  
والسلام .

(١) اجتماع : حوّل من طريق قصده ويحصل أن يكون : واجتاحهم، والاحتبال : الاستيلاء .

(٢) آذنه الأمر به : أهله .

## رسالة رابعة لعبد الحميد الكاتب

٩ - ومن رسائل عبد الحميد هذه الرسالة التي وصف بها الصيد <sup>(١)</sup> :  
أطال الله بقاء أمير المؤمنين مؤيداً بالعز، مخصوصاً بالكرامة، ممتعاً بالنعمة، إنه لم يلق أحد من المقتنصين، ولا مَنع متطوِّف من المتصيدين، إلا دون ما لقانا الله به من إين والبركة، ومتجنا من الظفر والسعادة في مسيرنا من كثرة الصيد، وحسن المقتنص، وتمكين الجلاسة، وقرب الغاية، وسهولة المورد، وعموم القدورة، إلا ما كان من محاربة الطلب، وشدة التعب، لنافر الصيد، وقائد الطريدة التي أمعن في الطلب لها، وأعجزنا البهر عن الحاق بها، لتفاوت سبقها، ومنقطع هربها، ومتفرق سبلها، ثم آل بنا ذلك إلى حسن الظفر، وتناول الأرب، ونهاية الطرب.

وإني أخبر أمير المؤمنين أننا نخرجنا إلى الصيد بأعدى الجوارح، وأتقف الضواري، أكرمها أجناساً، وأعظمها أجساماً، وأحسنها ألواناً، وأحدثها أطرافاً، وأطولها أعضاءً، قد تفتت بحسن الأدب، وعودت شدة الطلب، وسببت أعلام المواقف، وخبرت المحامم، مجبولة على ما عودت، ومقصورة على ما أدبت. ومعنا من نفائس الخيل المخبورة الفروا، من الشريفة الموصوفة بالنجابة، والجرى والصلابة. فلم نزل بأخفص سير، وأتقف طلب، وقد امطرنا السماء مطراً متداركاً، فربت منه الأرض، وزهر البقل، وسكن القتات من مئار السنايك، ومتشعبات الأعاصير، مهلة أن سيرنا غلوات، ثم برزت الشمس طالعة، وأنكشفت [من] السحاب مسفرة، فتلاأت الأشجار، وضحك التوار، وأجملت الأبصار، فلم نر منظرًا أحسن حسناً، ولا مرموقاً أشبه شكلاً، من ابتسام نور الشمس عن اخضرار

(١) هذه الرسالة من كتاب «اختيار المظوم والمشود» لابن طيفور.

(٢) في الأصل: "يفت". (٣) في الأصل: "القاء". (٤) كذا في الأصل ولعلها محرفة عن الجلالة. (٥) القدورة: القدرة، وفي الأصل: "القدرة". (٦) الترامعة: النشاط في السير. (٧) الشريفة: البراذين. (٨) في الأصل: هكذا "سما". (٩) في الأصل: "مستسات".



زهرة الرياض . والحليل ترحب بنا نشاطا ، وتجذبنا أعتما أنبساطا ؛ ثم لم نلبث أن علنا ضبابا<sup>(١)</sup> تقصر طرف الناطر ، ونحني سبل السلام ، تنشانا تارة وتكشف أخرى ، ونحن بارض ديمة التراب ، أشية الأطراف ، مُغْدِقَةُ الفجاج ، مملوءة صيدا من الظباء والتعالب والأرانب ؛ فأذانا المسير إلى غاية دونها مائل الصيد ، وجمتمع الوحش ، ونهاية الطلب ، قد جاوزناها ونحن على سبيل الطلب مغمون ، وبكل حرة جوية متفرقون ، فرجع بنا العود على البدء ، وقد أجملت الضباية ، وأمدت البصر ، وأمكن النظر ، فأذا نحن برعة<sup>(٢)</sup> من ظباء ، وخلفة آرام يرتعن آسناد ، قد أحالتن الضباية عن شخصنا ، وأذهلن أنيق الرياض عن استماع حسنا ، فلم نسمع إلا والضواري لأشعة<sup>(٣)</sup> لمن بعد الغاية ، ومشي نظار الشاخص ، ثم مدت الجوارح أجنتها ، وأجذبت الضواري مقاوذا ، فأمرت بإرسالها على الثقة بمحضرها ، وسرعة الجوارح في طلبها ، فزت تخف خفيف الريح عند هبوبها ، تُسِفُ الأرض سفا ، كاشفة عن آثارها ، طالبة نيلها ، حارشة بأطفارها ، قد مزقنا تمزيق الريح الجراد ، فمن صاح بها وناعر ، وهاتف بها وناعق ، يدعو الكلب باسمه ، ويفديه بأبيه وأمه ، وراكض تحت مؤفره ، وخافق يطلبه الريح ، وطامع بمنعه ، وسامح قد عارضه بارح ، قد حيرنا الكثرة ، وهيجتنا القدرة ، حتى أمثلت أيدينا من صنوف الصيد ، وأقه المنعم الوهاب .

ثم ملنا يا أمير المؤمنين بهداية دليل قد أحكته التجارب ، وسخر أعلام المذائب ، إلى غدير أفجع ، وروضة خضرة ، مستأجرة بتلاوين الشجر ، ملقاة بصنوف الخمر ، مملوءة من أنواع الطير ، لم يذعروا صائد ، ولا اقتنصن قانص ، نطق لها بطول ، وصغر بنير الحنف ، فنار منها ما ملأ الأفق كثرتها ، وراعت الجوارح خفقات أجنتها ، ثم أبرت البراة

(١) في الأصل : "عصر" . (٢) في الأصل : "ويحي" .

(٣) الأشية : اللقطة الشجر . وفي الأصل «آسه» . (٤) الحرة : أرض ذات جارة نخرة سود ،

وفي الأصل «ح» . (٥) الجوية : السوداء ، وفي الأصل هكذا : «سومة» . (٦) دقة : جماعة

منطرة . (٧) في الأصل : «منح» . (٨) انخر : الشجر .

لها صابئة، والصقور كاسرة، والشواهيئ ضارية، يرفعن الطلب لما، ويخفيضن الظفر بها،  
حتى سبنا من الدبح، وأمتلأنا من النصيح<sup>(١)</sup> كأننا كتيبة طفرت ببغيها، وسيرة نصرت على  
عدوها، وألحقت ضيعتها بقويها، وغلبت محبتها بمسيتها؛ لا تملك أنفسنا مراحا،  
ولا نستفيق من الجدل بها فرحا، بقيّة يومنا، والله المنعم الوهاب .

ثمّ زدونا يا أمير المؤمنين الى أرض وُصف لنا صيدها بالكثرة، ورياضها بالزعة،  
فزل وأصفها عن الطريقة، وأعتمد بنا على غير الحقيقة؛ فأتيناها فلم نر صيدا ولا عُشبا،  
ولا زهرة ولا حسنا، فعملنا نسلك منها حُرونا ووعورا، وجدوبا وقفرا، حتى قصّر بنا اليأس<sup>(٢)</sup>  
عن الطلب، وقطّع بنا عن الطمع النَّصب . فبينما نحن كذلك، إذ بدا لنا جاب قد أوفى<sup>(٣)</sup>  
بنا على حائل دلّ على عابه من ورائها حير وحش كثيرة، فأتمناها، فلما تطرّقا شيئا وتربّيا<sup>(٤)</sup>  
الى ما ناله، توالى نهيقه، وكثر شهيقه، فالتفتن اليه، فرعن بأعينهنّ منا ما استكثرن شخصه،  
واستولن أمره، حتى اذا كما برأى وسمع أنجذبن موليّات، وهربن مسييات، فأجهدنا  
الركض في طلبهنّ، نتبع آثارهنّ، ونستشّف بلاء بين أحفار وذكايد، ونخاذايد، حتى أشقى<sup>(٥)</sup>  
بنا الطلب لها على وادٍ هائل سائل، ينجبته غابة أشبه قد سبقن اليها، واستخفين فيها،  
فنفطمتها بالليل نطم الحرز، ثم أوغلت عتة فرسان في نفثها ومعرفة أحوالها، والطبول  
خافقة، والأصوات شامقة، فكان وكان؛ والحمد لله على كل حال .

(١) النصيح : الفرق .

(٢) في الأصل : "قلب" . (٣) الجاب : الليط من حر الوحش . (٤) في الأصل :

"ميسا" . (٥) القريب : ضرب من الدو . (٦) العاة : القطيع من حر الوحش .

(٧) الأحفار جمع حفروها التراب المخرج من الحفور . (٨) الذكايد : جمع ذكك وذكاك وهو أرض فيها  
فظ . (٩) الخاذايد : جمع خثيد وهو رأس الجبل المشرف ، والذي يتفق والباقي "أخاديد" ،  
وهي جمع أعداد : الحفرة المستطيلة في الأرض .

## باب المنظوم

### الغزل

ذكرنا في المجلد الأول حالة الغزل في العصر الأموي، وكثرة ما نجد فيه من لوائح الحب ولقحاته، وشكايات الصب وأثاته، وزفرات العاشق وعبراته . وبيننا أنواعه المتباينة التي قسمناها الى أربعة أقسام :

(أ) غزل إباحي : ويصح لنا أن نقصد من عمر بن أبي ربيعة زعياً لهذا النوع الذي يجمع الى وصف المرأة والتشبيب بها، معاني العبت والاستمتاع باللذة المادية مما ينفرد منه الأدب الجاهلي، وما حظره عليه الكثيرون من خلفاء الاسلام وأئمة . وقد كانت مكة والمدينة مسرحاً لهذا النوع في العصر الأموي . وقد شرحنا سبب ذلك في المجلد الأول فراجعهم تمة .

(ب) غزل عذري : وهو غزل الحب الصادق ، والمواطف المتأججة ، والنفس المتألمة المعناة ، تلك النفس التي تجد لذتها في الكلف من تحب والتعلق بها والشعور بالسعادة في الفناء في حبها ، حباً يملك عليه ليه ويعذب روحه ويفنى جسمه ، كغزل جميل زعيم هذا النوع . وليس أدل على صدق حبه مما أثبتناه عن كتاب الأغاني اذ حاول أبوه أن يصرفه عن حبه وسأجه في ذلك أجمل مُحاجة ، فكان من جميل ما كان مما نحمد مفصلاً في هذا الباب .

(ج) غزل صناعي : بين هذا وذاك، همه الإيجاد في الشعر من حيث هو شعر، لا في الحب من حيث هو حب ، ولنا في كثير عزة زعيم لهذا النوع الثالث .

(د) غزل قصصي : خلقه الرواة لأنهم رأوا ميل الناس الى الغزل والى حياة القصف وما يتبع حياة القصف ، فنظموا قصائد تحلوها لشعراء لا نستطيع أن نختمل تيمة

القول بوجودهم في الحياه، أو القول بأنهم أشخاص خياليون خلقهم الرواة، أو زادوا من عندهم مقطعات نسبوا لهم وأضافوها الى شعرهم . وزعيا هذا النوع : قيس بن الملوّح وليلاه، وقيس بن ذريح وليناه .

ولإيهاء بما وعدناك به نذكر زعيم كل نوع من هذه الأنواع مع ذكر ترجمته والمختار من شعره .

## (١) الغزل الاباحي

عمر بن أبي ربيعة<sup>(١)</sup>

« راقٍ عمر بن أبي ربيعة الناس وفاق نُظراءه وبرّهم بسمولة الشعر وشدة الأسر، وحسن الوصف، ودقة المعنى، وصاب المصنوع، والقصد للحاجة، واستنطاق الرّبع، وإنطاق

(١) هو أبا الخطاب عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة القرقي الخزرجي، أشهر غزّيل راقٍ أصحاب الغزل، وأوصف الشعراء لأحوال النساء .

ولد بالمدنية ليلة مات عمر بن الخطاب وشوان الله عليه ، وكانت أمه نصرانية ، وكان أبوه تاجرا مومرا ، وعاملا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللفداء الثلاثة من بعده ، فشب في تميم وتربّ ، وقال الشعر صغيرا ، وسلك فيه طريق الغزل ، ووصف أحوال النساء وتزاوجهن ومداعبة بعضهن لبعض ، وما يمتدّن قوله من الكلام ، مما يتوقّر الشعراء الفحول عن الخوض فيه ، ولذلك لم يحتفلوا بشعره وقدمه من هدايا غناء المدينة ، فما زال يعالج الشعر والشعر يتنادى ، حتى ملك ناصبه ، وقبض على زمامه ، وبرز الشعراء ، وقال رائيته المشهورة على طريقته المبكرة وهي التي أوتىها :

أمن آل نهم أنت ظاد فبكر \* ضداة غدا أم راقٍ فهجسر

والقي قال فيها جرير حين سمعها : ما زال هذا القرقي يحدّى حتى قال الشعر .

ثم استطاع شرّه في التشبيب بالنساء ، من يعرفها ومن لا يعرفها ، وتوضّح للخصومات المتصعفات من نساء قومه ومن غيرها ، فوقع منه في بلاد حليم وصرن يحضن الخرج الى الحج لأنه كان يتلقاها من مكة ، ويزرع خروجهن للطواف والسبي ويصفهن وهنّ عريجات . وحطبت عليه رجالات قرشي لشكاته نسبه منهم وتلقب بونه وإفلاسه ، فلما تآدى في أمره وتعب بينات السادات والخلقاء ، غضب عليه عمر بن عبد العزيز ونهاه الى ذلك ، (وهي بنيرة أمام مدينة مصرع) ، ثم رأى ابن أبي ربيعة أن يكفر عن سيئاته بالثورة والجهاد فغزا الى البحر فاستقرت السفينة التي كان فيها واحترق هو أيضا سنة ٩٣ هـ وقد اقتبنا قصيدته بحسبنا عنه عن أبي الفرج الأصفهاني وتعد ترجمته مطبوعة في الأغاني ج ١ ص ٦١ — ٢٤٨ (طبعة دار الكتب المصرية) والشعر والشراء ص ٣٤٨ وابن خلكان (ج ١ ص ٧٨٣) والدميري (ج ١ ص ٢٢٦) والقصد الفريد (ج ٣ ص ١٣٢) وله ديوان مطبوع في لبيدج سنة ١٨٩٣ وفي مصر سنة ١٣١١ وبه استثنان خطيتان بدار الكتب المصرية .

القلب، وحسن الغراء، ومخاطبة النساء، وعفة المقال، وقلة الانتقال، وإثبات المجبة، وترجيح الشك في موضع اليقين، وطلاوة الاعتذار، وفتح الغزل، ونهج العِلل. وعطف المساء على العُدال، وحسن التفجع، ومجمل المنازل، واختصار الخبر، وصدق الصفا، وإن قدح أورى، وإن اعتذر أبرأ، وإن نسكى أُنحى، وأقدم عن خبرة، ولم يتنذر بفترة، وأسر النوم، وغم الطير، وأغد السير، وسير ماء الشبَاب، وسهل وقول، وقاس الهوى فأرني، وعصى وأخل، وحالف بسمعه وطريقه، وأرتم نعت الرُّسل وحذر، وأعلن الحب وأسر، وبطرن به وأظهر، وألح وأسف، وأنكح النوم، وجنى الحديث وضرب ظهره لبطينه، وأخذل صمبه، وقنع بالرجاء من الوفاء، وأعلى قاتله، وأسنبك عائلته، ونقض النوم وأخلق رهن يتي وأهدر قتلاه؛ وكان بعد هذا كله فصيحاً.

فمن سهولة شعره وشدة أمره قوله<sup>(١)</sup>:

فلما توافقنا وسلمتُ أشرقتُ \* وجوه زهاها الحسن أن تستقما  
تباهن بالعرفان لما رأيته \* وقُلْن أمرٌ باغٍ أكل وأوضا<sup>(٢)</sup>

ومن حسن وصفه قوله:

لها من الرِّيم حياء ولقنته<sup>(٣)</sup> \* ونحوه السابق المختل إذ صهلا

ومن دقة معناه وصواب مَصَدْرِهِ قوله:

عوجاً نحى الظِّلُّ المَحْصُولُ<sup>(٤)</sup> \* والرِّيع من أحسنه والمترلاً  
بسايف البوابة لم يسده<sup>(٥)</sup> \* تقادُم المهيد بأن يؤهلا

(١) المراد من شدة الأسرحتا إحكام التسج ومناطة التركيب. (٢) أكل: أمارا وضع: أصرع

في السير. (٣) الرِّيم: الظلي. (٤) عوجا: قفا. (٥) الهول والمهيل: القى أنت

عليه أحوال كثيرة فغيره. (٦) البوابة: القسلة باسم لصراع أرض تامة إذا خرجت من أعلى

وادی النخلة الجانيقوى بلاد بن سعد بن بكر بن هوازن. (مجمع البلدان لابن قوت).

ومن قصيده الحاجة قوله :

أيها المُنْجَحُ الثَّرِيَّ <sup>(١)</sup>مَيْلًا • عَمَّرَكَ اللَّهُ كَيْفَ يُلْقِيَانِ  
هي شامية إذا ما استقلت • ومُهِيلٌ إذا استقلَّ يَتَأَنَّى

ومن أسنطاطيه الريح قوله :

سَأَلَا الرِّيحَ بِالْبَلَى <sup>(٢)</sup>وقولا • هَيْتَ شَوْقًا لِي الْغَدَاةَ طَوِيلًا  
أَيْنَ حَيَّ حُلُوكَ إِذْ أَنْتَ نَعْفُو • فَكَيْفَ بِهِمْ أَهْلُ أَرَاكَ جَمِيلًا  
قَالَ سَارُوا فَاثْمَنُوا وَاسْتَقْلُوا <sup>(٣)</sup> • وَبُرْغَمِي وَلَوْ وَجَدْتُ سَبِيلًا  
سَتَيْسُونَا وَمَا سَتَيْنَا جِسُورًا • وَأَحْبَسُوا دِمَائَهُ <sup>(٤)</sup>وَسُهِولًا

قال إسحاق : أشد جريره هذه الأبيات فقال : إن هذا الذي تكلم تدور عليه فأخطأناه .

ومن إنطافه القلب قوله :

قَالَ لِي فِيهَا حَقِيقٌ مَقَالًا • بَلَّغْتُ مِمَّا يَقُولُ السَّوْعُ  
قَالَ لِي وَدَعْ سُلَيْمِي وَدَعْهَا • فَأَجَابَ الْقَلْبُ : لَا أَسْتَطِيعُ

ومن حسن عزائه قوله :

أَلْحَقْ إِن دَارَ الرَّيَابِ تَبَاعَدْتُ • أَوْ أَتَيْتُ حَبْلُ أَنْ قَلْبِكَ طَائِرُ  
أَفَقٌ قَدْ أَفَاقَ الْعَاشِقُونَ وَفَارَقُوا <sup>(١)</sup>ال • هَوَى وَاسْتَمَرَّتْ بِالرَّيَالِ الْمَرَارُ  
زَجَّ النَّفْسُ وَاسْتَبَقَ الْحَيَاءُ فَلَمَّا <sup>(٢)</sup> • تَبَاعَدَ أَوْ تَدْنَى الرَّيَابِ الْمَقَادِرُ  
أَمِيتُ حُبًّا وَأَجْعَلُ قَدِيمَ وَصَالِهَا • وَعَشْرَتِيَا كَشَلِ مَن لَا تُعَاشِرُ

- (١) هي الثريا أبنة عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر بن عبد شمس بن عبد مناف الأموية . ترجمها مهيل  
ابن عبد الرحمن بن حوف الأزهرى رضي الله عنه ونقلها إلى مصر فقال عمر هذا الشعر . (٢) اللب — يضم  
رفع راء . مثله — : تل نصير أسفل حاذة بينا وبين ذات صرق (يا فورت) . (٣) استقلوا : واصلوا  
السير وجدوا في الأرحال . (٤) يقال : دشت الأرض دماثة : سهلت ولانت . (٥) انتهت :  
انقطع . (٦) المراد أن الرجال قد أفاقوا واستحكمت عزائمهم وهو يريد أن يسار سلقهم .  
(٧) زع النفس : أي أزعجها وكفها عن هواها .

وهبها كشيء لم يكن أو كالأزج \* به الدار أو من غيبتها المقابر  
 وكالناس علقّت الرأب فلا تكن \* أحاديث من يتدوون هو حاضر<sup>(١)</sup>  
 وهذه الأبيات يروها بعض أهل الجواز لكثير، ويروها الكوفيون للكثير بن معروف  
 الأسدي، وذكر بعضها الزبير بن بكار عن ابن عبيدة لكثير في أخباره .  
 ومن حسن غزله في مخاطبة النساء - قال مصعب الزبيري : وقد أجمع أهل بلدنا  
 ممن له علم بالشعر أن هذه الأبيات أغزل ما سمعوا - قوله :

تقول غداة ألقينا الرأب \* أيذا أقلت أقول السالك  
 وكففت سوابق من قبرة \* كما أرقص نظم ضعيف السالك  
 فقلت لما من يبع في الصديق أصداءه يخفيه كذاك  
 أغرك أني عصيت الملا \* ثم فيك وأنت هوانا هواك  
 وأنت لا أرى لذة في الحياة \* تقر بها العين حتى أراك  
 فكان من الذنب لي عندكم \* مكانتي وأتباعي رضاك  
 فليت الذي لأم في حُبكم \* وفي أن تباري بقرب وقالك<sup>(٢)</sup>  
 هموم الحياة وأسمامها \* وإن كان حنق جهنم فذاك<sup>(٣)</sup>  
 ومن عفة مقالهِ قوله :

طال ليلى وأعتادني اليوم سقم \* وأصابني مقاتل القلب نغم  
 حرّة الوجه والثمايل وابسو \* هم تكليمها لمن نال غم  
 وحديث بمثله قُزل العَص \* ثم رَخيم يسوب ذلك حلم<sup>(٤)</sup>  
 هسكنا وصفت ما بدا لي منها \* ليس لي بالذي تغيب علم  
 إن تجودى أو تجفلى فبحمد \* لست يا نعم فهما من يلم

(١) أي من يقيم في البسر والحضر . (٢) المراد به نون المازل، وكثيرا ما يذكر في شعره .

(٣) جهنم : مرج . (٤) الغم : جمع أحصم وهو من القباء والرعول ما في ذراعيه يباين ،

وهو متمم غالباً بقية الجبال .

ومن قلة آتقاه قوله :

أَيُّهَا التَّائِلُ غَيْرَ الصَّوَابِ = أَمْسِكِ النَّصِيحَ وَأَقْلُ عِثَابِي .  
وَأَجْتَنِبِي وَأَعْلَمِي أَنْ سَتَمَعِي \* وَتَلِي لَكَ طَوْلُ اجْتِنَابِي  
إِنْ تَقُلْ نَصِيحًا فَمِنْ ظَهْرِ عِشْ \* دَائِمَ الْفَيْسِ بِمَيْدِ الذَّهَابِ  
لَيْسَ بِي عِيٍّ بِمَا قُلْتُ إِنْ \* عَالَمُ أَفْقِهِ رَجَعَ الْجَوَابِ  
إِنَّمَا قُرَّةُ عَيْنِي هَوَاهَا \* فَدَعِ الْوَمَّ وَكُنِّي لِيَابِي  
لَا تُلْهِي فِي الرَّبَابِ وَأَمْسَتْ \* عَدَلْتُ لِلْفَيْسِ بَرْدَ الشَّرَابِ  
هِيَ وَاللَّهِ الَّذِي هُوَ رَبِّي \* صَادِقًا أَحْلَفُ غَيْرَ الْكِتَابِ  
أَكْرَمُ الْأَحْيَاءِ طَرًّا عَلَيْنَا \* عِنْدَ قَرِيبٍ مِنْهُمْ وَأَجْتَنَابِ  
خَاطِبَتِي سَاعَةً وَهِيَ تَبْكِي \* ثُمَّ عَزَتْ خُطْبِي فِي الْخُطَابِ  
وَكُنِّي بِي رِيحًا نَحْصَبُومَ \* لِسِوَاهَا عِنْدَ حَدِّ تَبَايِ

ومن إثباته الجملة قوله :

خَلِيلِي بَعْضَ الْوَمِّ لَا تَرَحَّلَا بِهِ \* رَفِيقًا حَتَّى تَقُولَا عَلَى عِلْمِ  
خَلِيلٍ مِنْ يَكْتَفِ بِأَنْتِ كَالَّذِي \* كَلِّفْتُ بِهِ يَدْمَلُ فَوَادًّا عَلَى سَقِيمِ  
خَلِيلٍ مَا كَانَتْ تُصَابُ مَقَاتِلِي \* وَلَا عِزِّي حَتَّى وَقَعْتُ عَلَى نَعِيمِ  
خَلِيلٍ حَتَّى لَفَّ حَيْلِي بِخَادِجِ \* مُوَقِّ إِذَا يُرْمَى صَبُودًا إِذَا يُرْمَى  
خَلِيلٌ لَوْ يَرِقُّ خَلِيلٌ مِنَ الْهَوَى \* رُقِيتُ بِمَا يَدْنِي النَّوَارُ مِنَ الْعَصِيمِ  
خَلِيلٍ إِنْ بَاعَدْتُ لَأَنْتَ وَإِنْ أُنِ \* مُبَاعِدٌ فَلَمْ أَتَبَلَّ بِحَرْبٍ وَلَا سَلَمِ

- (١) الفهم (بكر العين) : الحلقه والقل . والفهم (فتح العين) : الماء الكثير ، وكلا المعنيين يحتمله البيت .  
(٢) عدلت : سارت . (٣) أى ظبتي صدقتى فى الخطاب قال تعالى : (ومزنى فى الخطاب) .  
(٤) يريد : صهي غالباً لكل خصم سواها الى حد هلاكى . (٥) يقال : رجل فلان فلانا بما يكره ،  
وامراد أنه يتقسه باسمه إياه . (٦) يدمل : يطرى . قال فى اللسان : ويقال : آدمل القوم ،  
أى أطروهم على ما فهم . (٧) يكى بهذا عن الوقوع فى شركها . (٨) التوار : النافرة من الظباء .  
(٩) لم أنبل : لم أصب ، أو لم أحسن الرى .



ومن ترجيحه الشك في موضع اليقين قوله :

نظرتُ إليها بالْحَصْبِ مِنْ يَمِيْنِ \* ولى نظراً لسولا التحرج عارِمُ<sup>(١)</sup>  
فقلت : اشمسُ أم مَصَابِيحُ يَمِيْنِ \* بدتْ لك خَلْفَ السَّجْفِ أم أنتَ حالمُ<sup>(٢)</sup>  
بعيدةٌ مَهْوَى القُرْطِ إنا لنوفلُ \* أبوها وإما عبدٌ خَمِيْسٌ وهائِمُ<sup>(٣)</sup>  
ومدَّ عليها السَّجْفُ يَوْمَ لِقَيْتِهَا \* على عَجَلٍ تَبَاعُهَا والخِوَادِمُ<sup>(٤)</sup>  
فلم أستطعْها غيرَ أنْ قد بدا لنا \* عشيةً راحتَ وجهُها والمعاصِمُ<sup>(٥)</sup>  
معاصمُ لم تضربْ على البَهِيمِ بالضَّحَى \* عصاها ووجهُ لم تلحه السَّائِمُ<sup>(٦)</sup>  
نُضَارٌ تَرى فيه أَسَارِيْعَ مائه \* صَبِيحٌ تَسَادِيهِ الأَكْفُ النُّوَامِ<sup>(٧)</sup>  
إذا مادعتْ أترابها فأكتنفتها \* تمايلنَ أو مالتَ بهنَّ المَائِمُ<sup>(٨)</sup>  
طلبتُ الصَّبَا حتى إذا ما أصبته \* زَرَفَ وَهْنُ المَسَائِلِ الظُّوالمُ<sup>(٩)</sup>  
ومن حلاوة اعتذاره قوله :

عاودَ القلبَ بعضُ ما قد ضَيَّاهُ \* من حبيبٍ أُمسى هوانا هَوَاهُ<sup>(١)</sup>  
بالْقَوِي فكيف أصبَرُ عَمَّنْ \* لا ترى النفسُ طيبَ عَيْشٍ سَوَاهُ<sup>(٢)</sup>  
أرسلتُ إذ رأتَ بَعَادَى الْآ \* يَقْبَلُنَّ بِي مَحْرُشًا إِنِ أَنَا<sup>(٣)</sup>  
دونَ أنْ يسمعَ المُقَالَمةَ مِنَا \* وليُطعنِي فَإِنَّ عِنْدِي رِضَاهُ<sup>(٤)</sup>  
لا يُطِيعُ بِي قَدْتُكَ نَفْسِي عُلُوًّا \* لحديثٍ على هَوَاهُ أَفْرَاهُ<sup>(٥)</sup>  
لا يُطِيعُ بِي مَنْ لَوْ رَأَى وَلِيًّا \* لك أَسِيرٌ ضَرُورَةٌ مَا عَنَاهُ<sup>(٦)</sup>  
مَا ضَرَّارِي نَفْسِي بِهَجْرِي مِنْ لَدِ \* سَسُ مُسِيئًا وَلَا بِمِثْلِ أَثَرُهُ<sup>(٧)</sup>  
وأجتنابي بيتَ الحبيبِ وما الخُلْدُ \* لَدُ بَاشِي إِلَى مَنْ إِنْ أَرَاهُ<sup>(٨)</sup>

(١) عارِم : حاد . (٢) السجف : السر . (٣) تكمية عن طول النقي ، وهو فسر في المثل  
السائر (طبعة بولاق ص ٣٨٣) . (٤) البهيم : جمع بهيمة ، وهي الصنبر من أولاد الفئان والحمر والبقر .  
(٥) لم تلحه : لم تفرقه . (٦) أساريع الماء : طرائقه . والمراد أنه يتفرق فيه ماء الشباب .  
(٧) المائِم : جمع مأكمة وهي العجيزة . (٨) المحرّش : المفري ، من التحريش وهو الاغراء ، والانسداد .  
(٩) الزرى : الخير .

ومن تَهَبِه اللَّيْلُ قَوْلُهُ :

وَأَيَّةُ ذَلِكَ أَنْ تَسْمَعِي \* إِذَا جُئْتُمْ نَاشِدًا يَنْشُدُ  
فُرُحَنَا مِرَاثًا وَرَاحَ الْهَوَى \* دَلِيلًا إِلَيْهَا يَبْنِي يَقْصِدُ  
فَلَمَّا دَنَوْنَا لِحَرْسِ الْنَّبَا<sup>(١)</sup> \* حِجَابِ الصَّوْتِ، وَالْحَى لَمْ يَرْقُدُوا  
بَعْثًا لَهَا بِأَغْيَا نَاشِدًا \* وَفِي الْحَى يُغَيِّةٌ مِنْ يَنْشُدُ

ومن قَتَعَه الْفَرْزُ قَوْلُهُ :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْشِقْ وَلَمْ تَدِرْ مَا الْهَوَى \* فَكُنْ هَجْرًا مِنْ يَابِسِ الصَّبْرِ جَلَامِدًا

ومن عَطَفَه الْمَسَاءَ عَلَى الْمُدَّالِ قَوْلُهُ :

لَا تَلْهِي عَتِيقُ حَسْبِي الَّذِي بِي \* إِنْ بِي يَاحْتِيقُ مَا قَدْ كَفَّيَانِي  
لَا تَلْهِي وَأَنْتَ زَيْتُونَا لِي \* أَنْتَ مِثْلُ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ

ومن حُسِّنَ تَفْجِئِهِ قَوْلُهُ :

هَجَرْتُ الْحَبِيبَ الْيَوْمَ مِنْ غَيْرِ مَا أَجْتَرْتُ \* وَقَطَعْتَ مِنْ ذِي وَدَّكَ الْحَبْلَ فَأَنْصَرْتُ  
أَطَعْتُ الْوُشَاةَ الْكَافِرِينَ وَمِنْ يُلُغُ \* مَقَالَةَ وَاشِ يَقْرَعُ السَّنَّ مِنْ نَدَمِ  
أَتَانِي رَسُولٌ كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّهُ \* شَفِيقٌ طَلِبًا نَاصِحٌ كَالَّذِي زَمِ  
فَلَمَّا تَبَايَعْنَا الْحَدِيثَ وَصَرَحْتُ<sup>(٢)</sup> \* سَرَائِرُهُ عَنْ بَعْضِ مَا كَانَتْ قَدْ كَتَمْتُ  
تَبَيَّنَ لِي أَنَّ الْخُشْرَ كَكَاذِبٍ \* فَمَنْدِي لَكَ الْمُتَنَهَى عَلَى رَغَمٍ مِنْ رَغَمِ  
فِي لَأَنَّ لَمْتُ النَّفْسَ بَعْدَ الَّذِي مَقَى \* وَبَعْدَ الَّذِي آلَتْ وَأَلَيْتُ مِنْ قَسَمِ  
ظَلَمْتُ وَلَمْ تُعْتَبْ وَكَانَتْ رَسُولُهَا \* إِلَيْكَ مَرِيضًا بِالرِّضَا لَكَ إِذْ ظَلَمْتُ

(١) الجرس : الصوت . (٢) بث الحديث : إلفاظه . (٣) الخوض : الغمر ، يقال :

خَرَسَ بَيْنَ الْقَوْمِ : أَحْمَدَ بَيْنَهُمْ .

ومن تحجبه المنازل قوله :

ألم تسأل الأطلال والمتربعا \* بيطر حبايات دوارس بلقا<sup>(١)</sup>  
إلى السرح من وادي المغيس بثلث<sup>(٢)</sup> \* معاملها وبلا ونكباء زعزعا<sup>(٣)</sup>  
فيبتلن أو يخرن بالعلم بعد ما \* نكان فؤادا كان قدما منجما<sup>(٤)</sup>

ومن اختصاره الخبير قوله :

أمن آل نعيم أنت غاد فبيكر \* عذلة غد أم رايح فهججر  
بحاجة نفيس لم تقل في جوابها \* فتبلغ عذرا والمقالة تعذر  
أشارت بمنراها وقالت لثريا \* أهذا المنيى الذى كان يذكر  
لئن كان إياه لقد حال بعدنا \* عن العهد والإنسان قد يتغير

قال الزبير حدثني إصحاق الموصلي قال : قلت لأعرابي : ما معنى قول ابن أبي ربيعة :

بحاجة نفيس لم تقل في جوابها<sup>(٥)</sup> \* فتبلغ عذرا والمقالة تعذر  
فقال : قام كما جلس .

ومن صيدقه الصفاء قوله :

كل وصل أسمى لديك لأنتى \* غيرها وصلها إليها أداء  
كل أنتى وإن دنت ليوصالي \* أو نأت فهى الرباب الفداء

- (١) حليات (بضم الحاء المهملة وفتح الهمزة وتشديد الياء) : اسم موضع ذكره البكري وياقوت ولم يبيناه ، ولعله موضع قرب مكة بقرينة ذكره مع المنفس الوارد في البيت بسده . (٢) السرح : موضع .  
(٣) المنفس (بتشديد الميم وفتحها كما في ياقوت ، وضبطه البكري في مصحبه بكر الميم وتشديدها) : موضع قرب مكة في طريق الطائف ، مات فيه أبو ذؤانق وقبره يريم لأنه كان دليل أبرهة صاحب الفيل . (٤) النكباء : الريح التي تنكب عن مهاب الرياح . (٥) يقال : دج زعزم ، أى شديدة ، وكذلك زعزاع وزعزع .  
(٦) يقال : نكا الجرح : قشره قبل أن يشفى . (٧) المدي والمدرة : حديدة يحك بها الرأس .  
(٨) أى هى في غاية من السر لا يجاب عليها إذا سئل عنها ، والإطدار : نفي العذر .

وقوله :

أَحِبُّ حَبِيبِكَ مَنْ لَمْ يَكُنْ • صَفِيًّا لِنَفْسِي وَلَا صَاحِبًا  
وَأَبْلُلُ مَالِي لِمَرْضَاتِكُمْ • وَأُعْتَبُ<sup>(١)</sup> مِنْ جَاءِكُمْ عَاتِبًا  
وَأَرْغَبُ فِي وَدِّ مَنْ لَمْ أَكُنْ • إِلَى وَدِّهِ قَبْلَكُمْ رَاغِبًا  
وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ فِي جَانِبِ • مِنْ الْأَرْضِ وَأَعْتَلَّتْ جَانِبًا  
لَبِمَمْتُ طِبَّتَهَا<sup>(٢)</sup> إِنْسِي • أَرَى قُرْبَهَا الْمَجِبَ الْعَاجِبَا

ومما قدَحَ فِيهِ فَأَوْرَى قَوْلُهُ .

طَالَ لَيْلِي وَتَمَنَّا<sup>(٣)</sup> فِي الطَّرِبِ<sup>(٤)</sup> • وَأَعْتَرَانِي طَوْلُ هَمٍّ وَوَصَبِ  
أُرْسَلْتُ أَسْمَاءَ فِي مَعْتَبَةٍ • عَتَبَتْهَا وَهِيَ أَهْلِي مِنْ عَتَبِ  
أَنْ أَتَى مِنْهَا رَسُولُ مُوَهَّبًا • وَجَدَ الْخِيَّ نِيَامًا فَأَتَقَلَّبِ  
ضَرَبَ الْبَابَ فَلَمْ يَشْعُرْ بِهِ • أَحَدٌ يَفْتَسِحُ بَابًا إِذَا ضَرَبَ  
قَالَ : أَيَقَاطُ، وَلَكِنْ حَاجَةٌ • عَرَضَتْ تُكَلِّمُنَا فَأَحْتَجِبِ  
وَلَمَمْنَا رَدِّي، فَاجْتَهَدْتُ • بَيْنَ حَلَقَةٍ عِنْدَ الْغَضَبِ  
يَشْهَدُ الرَّحْمُ لَا يَجْمَعُنَا • سَقَفُ بَيْتِ رَجَبَا بَعْدَ رَجَبِ  
قُلْتُ حِلًّا فَأَقْبَلَ تَمَازِيْرِي • مَا كَذَا يَحْزِي حُبَّ مَنْ أَحَبَّ  
إِنْ كُنَى لَكَ رَهْنٌ بِالرِّضَا • فَأَقْبَلِي يَا هِنْدُ، قَالَتْ قَدُوجِبَ

قالوا : ومن شعره الذي آخَذَ فِيهِ فَأَبْرَأَ قَوْلُهُ :

فَأَتَقَبَّلْنَا فَرَجِيَّتَ حَيِّنٍ سَلَّمَ • سَتَ وَكَفَّتْ دُمْعَا مِنْ الْعَيْنِ مَا رَأَى<sup>(٥)</sup>  
ثُمَّ قَالَتْ عِنْدَ الْعِتَابِ رَأَيْتَا • مِنْكَ عَنَّا تَجَلُّدًا وَأُزُورَارَا<sup>(٦)</sup>

(١) يقال : أحبه إذا أطعاه النبي وأرضاه . (٢) طيبها : ناحيتها وقصدها . (٣) تمنائي : أرتفعني في المناء . (٤) الطرب : غبطة تفري الإنسان عند شدة الفرح أو الخلو والمهم . (٥) الموهن : نحو من نصف الليل . (٦) مار : جرى وسال . (٧) الاندوار : الإهراض .

قُلْتُ كَلَّا لِأَنَّهُ عُنِيَكَ بِرَحْمَةٍ • مَا أَمُورًا كُنَّا بِهَا أَهْمَارًا<sup>(١)</sup>  
 بَجَعَلْنَا الصَّدُودَ لَنَا خَشِينًا • قَالَةَ النَّاسُ لِلْهَوَى أَهْمَارًا  
 لَيْسَ كَالْمَهْدِ إِذْ عَيْنَتِ وَلَكِنْ • أَوْقَدَ النَّاسُ بِالنِّيمَةِ نَارًا  
 فَلِذَاكَ الْإِعْرَاضُ عَنْكَ وَمَا آ • تَرَقَّلِي عَلَيْكَ أُخْرَى اخْتَارًا  
 مَا أَبَايَ إِذَا التَّوَى قَرَّبْتُمْ • فَنَدُونُكُمْ مَنْ حَلَّ أَوْ مَنْ سَارًا  
 فَالْيَالِ إِذَا تَأَيَّتْ طُلُوكُ • وَأَرَاهَا إِذَا قُرْبَتْ قِصَارًا  
 وَمَنْ تَسْتَكِيهِ الَّذِي أَهْنَى فِيهِ قَوْلُهُ :

لَمَعْرُكُ مَا جَاوَرْتُ عُجْدَانُ طَائِمًا • وَقَصَرَ شَعْرُوبُ أَنْ أَكُونَ بِهِ صَبَاً<sup>(٢)</sup>  
 وَلَكِنْ حُمَّى أَضْرَعَتْنِي ثَلَاثَةٌ • بَجُرْمَةٍ ثُمَّ أَسْفَرْتُ بِنَا غَيْبًا<sup>(٣)</sup>  
 وَحَقِّي لَوْ أَنَّ الْخُلْدَ يَعْزِضُ إِنْ مَشَتْ • إِلَى الْبَابِ يَجْعَلِي مَا نَقَلْتُ لَهَا إِرْبًا<sup>(٤)</sup>  
 فَإِنَّكَ لَوْ أَبْصَرْتَ يَوْمَ سَوْفَةٍ • مُنْأَنِي وَجَّهْتَنِي إِلَيْهِ دَائِمَةً حَذْبًا<sup>(٥)</sup>  
 وَمَصْرَعُ إِخْوَانٍ كَكَأَنَّ أَتَيْنَهُمْ • أَنْيُنْ مَكَائِي فَارَقْتُ بِلْدًا خَضْبًا<sup>(٦)</sup>  
 إِذَا لَا كَشَعْرَ الْخُلْدِ مِنْكَ صَبَابَةٌ • وَلَا سَفَرْتُ عَنْكَ مِنْ عِبَةٍ سَجْبًا<sup>(٧)</sup>  
 وَمَنْ لِقَادِمِهِ عَنْ خَيْرَةٍ وَلَمْ يَتَذَرَّ بَرَّةً قَوْلُهُ :

صَرَمْتُ وَوَاصَلْتُ حَتَّى عَرَفْتُ • سَتُ أَيْنَ الْمَصَادِرُ وَالْمَوْرِدُ  
 وَجَرَّبْتُ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى عَرَفْتُ • سَتُ مَا أُنَوِّقُ وَمَا أَحْمِدُ

- (١) لاه بمعنى قد • (٢) الصدر يضم اللين ويضمها مع سكون الميم، وضمتين، وفتح مكسر •  
 التزاحمال الذي لم يجزب الأود • (٣) أي ليس الأمر كما تهللن من قبل •  
 (٤) عجدان : قصر يالين بناء « شريح بن يحصب » • (٥) قصر شعوب : قصر عال مرتفع يالين •  
 (٦) أضرعتني : أضمتني وأذنتني • (٧) مجزئة كقطعة : ثابة ، يريد ثلاثة أحوال كاملة •  
 (٨) اللب من الحن : ما تأخذ يوما وتدع يوما • (٩) أي ما حركت له حضوا • (١٠) سوفة :  
 موضع • (١١) حذبا جمع حذباء ، وأصل الحذب : ما أرتفع من الأرض ، يريد أنه أحياء السرى هي دامية  
 متقوسة الظهور حزالا • (١٢) المكائي : جمع مكاء ، وهو طريقه القبرة إلا أن جناحه بلقا ، وهو حسن  
 الصوت في تغريده •

ومن أسره النوم قوله :

نام صهي ويات نومي أسيرا • أرقب النجم موهنا أن يفسورا

ومن غمه الطير قوله :

فرحتنا وقلنا للسلام أقيص حاجة • لنا ثم أدركنا ولا نتغير<sup>(٢)</sup>  
سراما نغم الطير<sup>(١)</sup> إن سكت لنا • وإن تلقنا الركبان لا تتغير

نتغير من قولهم : غبوفلان ، أى ليث .

ومن إغذائه السير قوله :

قلت سيرا ولا تقيأ بيمري<sup>(٤)</sup> • وحفير<sup>(٥)</sup> فما أحب حفيرا<sup>(٦)</sup>  
وإذا ما مررت<sup>(٧)</sup> بمكارب • فأقلا به الشواء وسيرا<sup>(٨)</sup>  
إنما قصرنا إذا حصر السب • رُبعيرا أن تستجد بعيرا

ومن تحيره ماء الشباب قوله :

أبرزوها مثل الماهة تبادى • بين تحمين كواهب أتراب  
ثم قالوا تحبها قلت بهرا • عند القطر والحصى والتراب  
وهي مكنونته تحير منها • في أديم الخدين ماء الشباب

ومن تقويله وتسهيله قوله :

قالت على رقية يوما لجارتها • ما تأخرين فإن القلب قد تبال<sup>(٣)</sup>  
وهل لي اليوم من أخت مواخية • منك أن أشكو إليها بعض ما فعلا

- (١) لعله يريد : تحزنها بالسبق ، أو يهرها ونظما ، من قولهم : غم القدر النجوم : يهرها وكاد يسترضوها .  
(٢) التغير : السؤال عن التغير . (٣) أغذ السير وأغذ فيه : أسرع . (٤) بصرى : بلد بالشام .  
(٥) حفيو : نهر بالأردن ببلاد الشام . (٦) معان : مدينة في طرف بادية الشام تلقاه الحجاز من نواحي  
البلقاء . (٧) قصرنا ، أى قصاراتنا وقائنا . (٨) حصر السير بعيرا : أجهده وأعياه .  
(٩) المتبول : من أسقمه الحمى وظله الحب على أمره .

فراجعتُها حصانٌ غيرُ فاحشيةٍ \* برجع قولٍ وأبٍ لم يكن خطيلاً<sup>(٢)</sup>  
لا تذكرى حبه حتى أراجعه \* إني سأثبته إن لم أمت محلاً  
فألقى حياك في ستر وفي كرم \* فليس أولُ أنى علفت رجلاً  
وأما ما قاس فيه الهوى نقوله :

وقربن أسباب الهوى لشميم \* يقيس ذراعاً كلما قسن إصبعاً  
ومن عصيانه وإخلائه قوله :

وأص الملقى يتبين بالرك \* حى سراً نواجم الأطنان<sup>(٤)</sup>  
فنيصبه الغير من بقى الوحد \* ش وتلوه بلذة الفتيان<sup>(٥)</sup>  
في زمان لو كنت فيه صبيعي \* غير شك عرفت لي عصيان  
وتقلبت في الفراش ولا تد \* رين إلا الظنون أين مكاني  
ومن مخالفته بسمعه وطرفه قوله :

تسمي وطرفي حليفاً على جسدي \* فكيف أصبر من سمي وعن بصري  
لو طاولاني على ألا أكتمها \* إذا لغضبت من أوطارها وطري  
ومن إبرامه نعمت الرسل قوله :

فبعثت كلمة الحديد \* حث رقيقةً بجوارها  
وحشيةً إنسية \* تحاجة من باجها  
فرقت فسهلت المما \* رض من سبيل يقامها  
ومن تحذيره قوله :

لقد أرسلت جارقي \* وقلت لها خذني حذرَكَ  
وقولي في ملاطفة \* لرب نوب نولي عَمَرَكَ

(١) حصان : طيفة . . (٢) التطلع : القاسد المضطرب . (٣) ألقى حياك : الزميه .  
(٤) نص الملقى : استخراج أقصى مامعها من السير . (٥) الغير : الغائل .

فإن داوودَ ذا سقيم \* فأنزى الله من كفرِكَ

فهزّت رأسها عجباً \* وقالت من بدأ أمرَكَ

أهكذا يصيركَ النّسوا \* ن، قد خبرتني خبرَكَ

وقلن إذا قضى وطرا \* وأدرك حاجةَ همزِكَ

ومن إعلانه الحب وإسراره قوله :

شكوتُ إليها الحبُّ أطنُ بعضه \* وأخفيتُ منه في الفؤاد خليلاً

وما أطن فيه وأظهر قوله :

حبُّكم يا آلَ لَيْلى قاتلي \* ظهرَ الحبُّ بجسمى وبطنِ

ليس حبُّ فوق ما أحبُّكم \* غيرَ أنْ أقتل نفسى أو أجنُ

وما ألحَّ فيه وأسفَّ قوله :

لستَ حظيَ كطرفة العين منها \* وكثيرٌ منها القليلُ المُننا

أوحديتُ على خلايَ يُسلى \* ما يُجِرُّ الفؤادُ منها ومنا

كبرتُ ربَّ نعمةٍ منك يوماً \* أنْ أراها قبلَ الماتِ ومنا

ومن إنكاسه النومَ قوله :

حتى إذا ما الليلُ جنَّ ظلامه \* ونظرتُ غفلةً كاشعُ أنْ نيقلا

واسنكعَ النومُ الذينَ تخافهم \* وسقَى الكرى بوابهم <sup>(١)</sup> فاستغفلا

نرجحتُ لأطُرُ في الثيابِ كأنها \* أيمُ يسيبُ على كتيبِ أهبالِ <sup>(٢)</sup>

ومن جَنِّه الحديثِ قوله :

وجوارِ مساعفاتِ على الله \* ومُسرَّاتِ باطنِ الأضغانِ

صبيدٍ للرجالِ يرشِقن بالطرُ \* في حِسانِ تُخْضِلُ <sup>(٣)</sup> الفِزْلاينِ

(١) يقال : أغمى النومُ فهو مستقلٌ بصيئة المغمول . (٢) تأطراعه تأطرها فالتفت إحدى تاهيه ومناه

نشق . والأيم : الأذى . ويسيب : يمشي . والكاتب الأصيل : الزيل المتبال . (٣) انخل : جمع

خازل وهي التلية تختلف عن صواحباتها أو أولادها .



قد دَعَانِي وقد دَعَاهُنَّ لَهُ • وَ يُخَيِّونُ مِهْمَةً الْأَعْيَانِ  
فَأَجْتَنَيْتُنَا مِنَ الْحَدِيثِ إِيمَارًا • مَا جَنَى مَثَلُهَا لِعَمْرُكَ جَانِي  
ومن ضربه الحديث ظهره بطنه قوله :

فِي خَلَاءٍ مِنَ الْأَيَّاسِ وَأَمِينٍ • قَبِئْنَا غَلِيلًا وَأَشَقَّيْنَا  
وَضَرَبْنَا الْحَدِيثَ ظَهْرًا لِبَطْنِ • وَأَتَيْنَا مِنْ أَمْرِنَا مَا أَشْتَيْنَا  
فَكُنَّا بِذَلِكَ حَسْرًا لِيَالٍ • فَفَضِينَا دِيُونَنَا وَأَقْضَيْنَا

ومن إزاله صعب الحديث قوله :

فَلَبَّ أَقْضَيْنَا فِي الْهَوَى نَسْتَيْنُهُ • وَعَادَ لَنَا صَعْبُ الْحَدِيثِ ذُلُولًا  
شَكَوْتُ إِلَيْهَا الْحُبَّ أَظْهَرُ بَعْضِهِ • وَأَخْفَيْتُ مِنْهُ فِي الْفَوَادِ غَلِيلًا  
ومن قناعته بالرجاء من الوفاء قوله :

فَعِيدِي نَائِلًا وَإِنْ لَمْ تُلَيْلِي • إِنَّهُ يَنْفَعُ الْحُبَّ الرَّجَاءُ

قال الزبير : هذا أحسن من قول كثير :

وَلَسْتُ بِرَاضٍ مِنْ خَلِيلِ بَنَائِلِ • قَلِيلٌ وَلَا أَرْضَى لَهُ بَقِيلِ

ومن إصلاطه قاتله قوله :

لَبِغْتُ جَارِيٍّ وَقُلْتُ لَهَا أَذْهِي • فَأَشْكِي إِلَيْهَا مَا حَلَمْتُ وَسَائِي  
قُولِي يَقُولُ تَحْسَرِي فِي حَاشِي • تَكْلِفُ بِكُمْ حَقَّ الْمَاتِ مَنِي  
وَيَقُولُ إِنَّكَ قَدْ حَلَمْتَ بِأَنْكَمْ • أَضْبَعُهُمْ بِأَيْشُرُ أَوْجَهَ ذِي دَمِ  
لُكِّي رَهِيئَتَهُ فَإِنْ لَمْ تَقْعَلِ • فَأَعْلِي عَلَى قَتْلِ ابْنِ عَمِّكَ وَأَسْلَمِي  
فَضَاحَكَ حَتَّى عَجَبًا وَقَالَتْ حَقَّهُ • إِلَّا يَسْأَلُنَا بِمَا لَمْ نَعْمَلِ

(١) أى ميثرة الأعيان • (٢) أى كفى من المخرج والاثم •

(٣) أى أحق إنسان أخذه به دى •

علمي به والله يغفر ذنبه \* فيما بدا لي ذو هوى متقسم  
طريف بنزعته الى الأذى الهوى \* وبنت حلة ذى الوصال الأقدم

ومن شفيضه النوم قوله :

فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت \* مصابيح شئت بالعيشاء وأنور  
وغاب قمر كنت أرجو غيوبة \* وروح روعات ونوم سمر  
ونفضت عني النوم أقبلت مشية الى \* حجاب وركني خشية القوم أنزور

ومن إخلاقه رهن يني وإهانته قتلاه قوله :

فكم من قتييل ما يبأ به دم \* ومن قتييل رهنًا إذا لعمري  
ومن مالي عليه من شيء غيره \* اذا راح نحو الجمره البيض كالدمي  
وكان بعد هذا كله فصيحًا شاعرًا ميقولاً :

ومن شعره المشهور قوله :

أمن آل نعيم أنت فايد ليكر \* غداة غيد أم راح لمهجّر  
لحاجة نفس لم تقبل في جوابها \* فتبلغ عنرا والمقالة تسيّر  
أشارت بمدرأها وقالت لأختها \* أهذا المغيري الذي كان يذكّر  
فقال نعم لا شك غير لونه \* مري الليل يطوى نصه والتهجّر  
أنت رجلاً أما إذا الشمس عارضت \* فيضسحي وأما بالعشيّ فيخصر

- (١) الطرف : من لا يثبت على امرأة ولا صاحب . (٢) وقع من الراح وهو رقت العشي . والرحبان : جمع راح كراثة بالراء والراء . ونوم الرجل نوما : مبالغة في نام . (٣) الحباب : الحية . وأنزور كاحسن : ما لي من نور يزور إذا مال . (٤) يقال : أباء القاتل بالقتيل : قتله به ، والمراد هنا : فكم من قتيل يطل دمه ولا يؤخذ له ثأر . (٥) يقال : غلق الرهن في يد المرحمن يطلق علقا : لم يقدّر الرامن على أخفائه في الوقت المشروط . يريد : وكم من قلوب أسيرة لا يقدر أصحابها على أخفائها . (٦) الدمى : جمع دبة وهي الصورة الخشنة من الباج ونحوه . (٧) المقول : الحسن القول المقصع الميز . (٨) نص السري : إسراره ، وأصله حب القباية واستفراج أقصى ما عتدها من السري .

أحاسفني جَوَابَ أرضٍ تماذفت \* به قَلَوَاتٌ فهو أَشْمَتُ أَفْرُ  
 قليسلاً على ظهير المطيَّةِ ظِلُّه \* سوى ما تقي عنه الرِّداءُ المُخِيرُ<sup>(١)</sup>  
 وأُحِبُّهَا مِنْ عَيْشِهَا ظِلُّ عُرْفَةٍ \* وَرَيَانُ مُتَفٍّ الحِداثي أَخْضَرُ  
 وَوَالٍ كَكْفَاهَا كُلَّ شَيْءٍ بِمِمْهَا \* فليست لشيءٍ آخرَ اللَّيْلِ نَسِيرُ  
 وليلة ذى دَوْرَانٍ جَشْمَنِي الشَّرَى \* وقد يَحْمِئُ الْهَوَلُ الْحُبَّ الْمَفْرُ<sup>(٢)</sup>  
 ومن شعره قوله في فاطمة بنت محمد بن الأشعث الكندي :

تَشَطُّ غَدَاً دَارُ جِيرَانِيَا \* وَلَدَارُ بَمَدَّ غَدِ ابْعَدُ<sup>(٣)</sup>  
 إِذَا سَلَكْتَ غَمْرَ ذِي كِنْدَةٍ \* مع الرِّكْبِ قَصْدُهَا الْفَرْقَدُ<sup>(٤)</sup>  
 وَحَثَّ الْحِداثَةُ بِهَا صِيرَهَا \* مِرَاعَا إِذَا مَا وَتَتْ تُطْرَدُ<sup>(٥)</sup>  
 هُنَالِكَ إِنَّمَا تُعْزَى الْفَوَادُ \* وَإِنَّمَا عَلِ إِثْرَهَا تَكْمَدُ  
 وَلَيْسَتْ بِسَدِجٍ إِذَا دَارُهَا \* نَأَتْ وَالْعَزَاءُ إِذَا أَجْلَدُ  
 صَرِيَتْ وَوَاصَلَتْ حَتَّى طَلَمَ \* تَأْتِ أَيْنَ الْمَصَادِرُ وَالْمُورِدُ  
 وَجَرِيَتْ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى عَرَفَ \* تَأْتِ مَا أَتَوْقَى وَمَا أَحْمَدُ  
 فَلَمَّا دَنَوْنَا بِحَرَسِ النَّبَاِ<sup>(٦)</sup> \* جِجَ وَالضُّوْعُ وَالْحَيُّ لَمْ يَرْفَعُوا  
 نَأَيْتَا عَنْ الْحَيِّ حَتَّى إِذَا \* تَوَدَّعَ مِنْ نَارِهَا الْمَوْقِدُ<sup>(٧)</sup>  
 وَنَامُوا بِهَيْئَتَا نَائِسِدَا \* وَفِي الْحَيِّ يَحْمِئُهُ مِنْ يَشَدُ<sup>(٨)</sup>

- (١) المخبر : المزين الحسن . (٢) خردوران — يفتح أوله ويهد الوارد مهمة وآثره  
 نون — موضع بين قنيد والبقعة ( ياقوت ) . (٣) أى كلفنى السير ليلا .  
 (٤) تشط : تيمد . (٥) غمردى كندة : موضع وراء واحة بينه وبين مكة مسيرة يومين .  
 (٦) كذا في ديوانه ، وفي الأماص « الصبح » . (٧) الفرقد : بجان في السماء من نجوم الدب الأصغر  
 وهي في الشمال ، ويقال لها : الفرقد بالإنفراد ، والفرقدان بالثنية . ولعله يريد أنها تسير بهبه ، لأن العراق التي  
 تقصده في الشمال للشرق من مكة . (٨) الحداة : جمع حاد وأصله المعنى للابل لتشط في السير ، وقد يراد به  
 الواجر والساقي . والبعر : الإبل ، ولا واحد له من لفظه . وبيت : ضعف وتباطأت . وتطارد : أساق .  
 (٩) الجرس : الصوت . (١٠) تودع : سكنت ناره وأنطفأت .

أَتَيْتُ تَهَادَى عَلَى رَقَبَةٍ <sup>(٢)</sup> \* من الخوف أحشاؤها تُرْعِدُ  
تَقُولُ وَتُظْهِرُ وَجْداً بِنَا \* وَوَجِدِي وَإِنْ أَظْهَرْتُ أَوْجِدُ  
لَمَّا شَقَايَ تَلَقُّنَّكُمْ \* وَقَدْ كَانَ لِي عَنْكُمْ مَقْعَدُ <sup>(٣)</sup>  
وَكَفْتُ مَوَاقِي مِنْ عَيْتٍ \* عَلَى الْمَدِّ جَالٍ بِهَا الْإِثْمُ <sup>(٤)</sup>  
فَإِنَّ لِي شَيْئَتَنَا الْقَدَاةَ \* مَعَ الْفَجْرِ قَلْبِي بِهَا مُقَصِّدُ <sup>(٥)</sup>

وَشَبَّ عَمْرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ زَيْنَبَ بِنْتُ مُوسَى الْجَمَحِيَّةِ فِي قَصِيدَتِهِ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

يَا خَلِيلُ مِنْ مَلَامٍ دَعَانِي \* وَأَيُّ الْقَدَاةِ بِالْأَطْلَعَانِ  
لَا تَلُومُوا فِي آلِ زَيْنَبَ إِنْ أَلِ \* قَلْبٌ رَهْبٌ بِآلِ زَيْنَبَ طَانِي  
مَا أَرَى مَا بَقِيَتْ أَنْ أَذْكُرَ الْمَو \* قَفَّ مِنْهَا بِالْخَلِيفِ إِلَّا شَجَانِي <sup>(٦)</sup>  
لَمْ تَدْعُ لِلنِّسَاءِ عِنْدِي حَفْلًا \* غَيْرَ مَا قُلْتُ مَا زِلْتُ بِلِسَانِي  
هِيَ أَهْلُ الصَّمَاءِ وَالْوَدِّ مَتْنِي \* وَإِلَيْهَا الْمَوَى فَلَا تَمُدُّ لِي  
حِينَ قَالَتْ لِأَخْتِهَا وَلَا عَمْرِي \* مِنْ قَطِينٍ مُؤَلَّدٍ : حَدَّثَانِي <sup>(٧)</sup>  
كَيْفَ لِي الْيَوْمَ أَنْ أَرَى عَمْرَ الْكُرْ \* مِلَّ سِرًّا فِي الْقَوْلِ أَنْ يَلْقَانِي  
قَالَتْ : تَبْقَيْنِي رَسُولًا إِلَيْهِ \* وَتُمَيِّتُ الْحَسَدِيتَ بِالْصِّكْتَانِ  
إِنَّ قَلْبِي بَعْدَ الَّذِي نَلْتُ مِنْهَا \* كَالْمَعْمَى عَنْ سَائِرِ النَّسَوَانِ <sup>(٨)</sup>

- (١) تَهَادَى : تَمَشَّى فِي تَهَادُلٍ وَسُكُونٍ . (٢) الرِّقْبَةُ : التَّحْفِظُ وَالْفَرْقُ . (٣) الْوَجْدُ : الشَّغْفُ وَالشُّوقُ الشَّدِيدُ . (٤) الْمَرَادُ : قَدْ كَانَ لِي غَيٌّ مِنْ حِكْمٍ . (٥) الْإِثْمُ : جَهْرُ الْكَمَلِ وَأَجْرُهُ بِأَصْحَابِهِ .  
(٦) أَهْلُهُ : رِيَاءُ بِهِمْ قَتْلُهُ . (٧) الْخَلِيفُ : مَا أَرْتَقِعُ عَنْ جَهْرِ السَّيْلِ وَالْكَهْدَرِ عَنْ غِلْظِ الْجَبَلِ .  
قَالَ ابْنُ سِيدَةَ : وَخِيفَ مَكَّةَ مَوْضِعٌ فِيهَا عَتَمَةُ ، سَمِيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ دَارُهُ عَنْ الْغِلْظِ وَأَرْقَاهُ عَنْ السَّيْلِ .  
(٨) الْقَطِينُ : الْخَلْمُ وَالْإِتْيَاعُ وَالْحُثْمُ ، وَالْمَوَدَّةُ مِنَ السَّيِّدِ وَالْإِمَامِ ، مِنْ وَدَّ يَرْبُ الْعَرَبِ وَنَشَأَ مَعَ أَوْلَادِهِمْ .  
(٩) كَذَا فِي الْأَغَانِي . وَفِي دِيْوَانِهِ "كَالْمَعْمَى" أَيْ الْمَأْسُورُ الْخَبِيرُ عَنْ صَرْمَا .

وكان سبب ذكره لها أن ابن أبي عتيق ذكرها عنده يوما لأطراها ووصف من حفلها وأدبها وجمالها ما شغل قلب عمر وأماله إليها ، فقال فيها الشعر وشبب بها ، فبلغ ذلك ابن أبي عتيق ، فلامه فيه وقال له : أنتطيق الشعر في أبتة عمي ؟ فقال عمر :

لا تلمني حقيق حسبي الذي بي \* إك بي يا عتيق ما قد كفاني  
لا تلمني وأنت زيتها لي \* أنت مثل الشيطان للإنسان  
إك بي داخلا من الحب قد أب \* لي عظامي مكنونه وبراني  
لو بعيليك يا عتيق نفلنا \* ليلة السفع قوت العيان  
إذ بدا الكشح والوشاح من اللد \* وقصّل فيه من المرجان<sup>(١)</sup>  
وقلّ قلبي النساء سواها \* بعد ما كان مفرما بالفوانى  
لم تدخ للنساء عندي نصيبا \* غير ما قلت ما زعا بلساني

وأنشد ابن أبي عتيق قول عمر :

من لستقيم يكتم الناس ما به \* لزيّب تجوى صدره والوساوس  
أقول لمن يبغي الشفاء مني تجي \* لزيّب تدرك بعض ما أنت لايس  
فإنك إن لم تشف من سقي بها \* فإني من طب الأطباء آيس  
ولست بناس ليلة الدار مجلسا \* لزيّب حتى يسلو الرأس راس<sup>(٢)</sup>  
خلاء بدت قراؤه وهكشفت \* دجته وذاب من هو حارس  
وما نلت منها محرما غير أنسا \* كلاتا من الثوب المسود لايس<sup>(٣)</sup>  
تجيزت تقضى اللهوف في غير ماثم \* وإن رعيت مكايحين المعاطس

(١) الكشح : ما بين الجبة - وهي رأس البركة التي يشرف على الخاضرة - إلى الإبط . والوشاح :

شبه قلادة ينسج من أديم مريض يرصع بالجواهر ، تشبه المرأة بين طاقيا .

(٢) هذا البيت دخل عليه الخمر وهو حلف الفاء من فعلان . (٣) الرأس : المكان في الراس وهو القبر .

(٤) الحورّد : الذي صبغ على لون الوردة .

قال : فقال أربُّ أبي حَتِيق : أَيْمًا يَسْخَرُ ابنُ أبي رَيْسَمَةَ ؟ فأى مُحَرَّمٍ يَحْيَى ! ثم أتى عمرُ فقال له : يا عمرُ، ألم تُخَبِّرني أنك ما أتيت حرامًا قطُّ ؟ قال : بلى، قال : فأخبرني عن قولك :

« كَلَّانا من التَّوْبِ المورِدِ لا بَسْ »

ما معناه ؟ قال : والله لأخبرنَّك : نرجعتُ أريد المسجدَ وخرجتُ زَيْنَبُ تريدُه ، فالتقينا فأتصدنا لبعضِ الشَّعَابِ ، فلما توسَّطنا الشَّعْبَ أخذتنا السماءُ ، فكريهتُ أن يرى بياها بلالُ المطر ، فيقال لها : ألا استترتِ بِسَقَائِفِ المسجدِ إن كنتِ فيه ! فأمرتُ غلمانِي فسترونا بِكساءٍ تَرَكنا على<sup>١</sup> ، فذلك حين أقول :

« كَلَّانا من أنوابِ المَطَّارِيفِ لا بَسْ »

فقال له : أربُّ أبي حَتِيق : يا حاهرُ ! هذا البيتُ يحتاج إلى حاضنة<sup>٢</sup> !

ومن جيد شعره قوله في زَيْنَبِ بنتِ موسى :

يا مَنْ لِقَلْبٍ تَسْتَمُ كَكَلِيفٍ \* يَهْدِي بِمَجْدٍ مَرِيضَةَ النَّظَرِ<sup>(١)</sup>  
تَمْشِي الهَوَيْنَا إِذَا مَشَتْ فَضْلاً \* وَهِيَ كَيْلُ السُّلُوجِ فِي الشَّجَرِ<sup>(٢)</sup>  
ما زال طَرَفِي يَحَارُ إِذْ بَرَزْتُ \* حَتَّى رَأَيْتُ النِّقْصَانَ فِي بَصَرِي  
أَبْصَرْتُهَا لَيْلَةً وَنُسُوتَهَا \* يَمْشِينَ بَيْنَ الْمَقَامِ وَالْجَحْرِ<sup>(٣)</sup>  
ما إِنْ طَمِعْنَا بِهَا وَلَا طَمِعَتْ \* حَتَّى آتَيْنَا لِبَلًا عَلَى قَدَرِ<sup>(٤)</sup>  
يَبْقَى حِسَانًا تَرَانِيدًا قَطْفًا \* يَمْشِينَ هَوْنًا كِبْشِيَةَ الْبَقْرِ<sup>(٥)</sup>  
قَدْ أَقْزَنَ بِالْحَسَنِ وَالْجَمَالَ مَعًا \* وَفُزْنَ رِسَالًا بِاللَّذْلِ وَالْفَقْرِ<sup>(٦)</sup>

(١) الخود : الفتاة الحسنة الخلق الشابة مالم تصرِّفها ، والتصف : المرأة بين الحدة والمسة .

(٢) الفضل بضمتين : الخفة التي تفصل من ذيلها . ويرى : « قطعاً » والمراد به تقارب الخطى .

(٣) السلوج : النصف البين الأخضر . (٤) حل للدر : حل خير موعده . والوجه فيه أن التقاءهما كأنه مقتدر في الأزل لا علم له به ولا سعى إليه كما قيل :

جاء انفصاله أركاناً له قدسدا \* حككا أتى ربه موسى على قدسدا

(٥) جمع قطوف وهي الطليحة في السير . (٦) الرمل بالكسر : الرق والورد . والخفر : شدة الاستعجال .

يُنْصِتَن يَوْمًا لَهَا إِذَا نَطَقَتْ \* كَيَّا يُتَرَفَّتَا عَلَى الْبَاسِرِ  
 قَالَتْ لَتُرِيبَ لَهَا مُحَلَّتَهَا \* لَتُنْصِتَنَّ الطَّوَالَ فِي عُمَرِ  
 قَوْمِي تَصَدَّقِي لَهُ لِيَعْرِفَنَا \* ثُمَّ أَعْمَزِيهِ بِأَخْتِ فِي خَفِيرِ  
 قَالَتْ لَهَا قَدْ غَمَزْتُهُ فَأَيَّ \* ثُمَّ أَسْبَطَرْتُ نَسَى عَلَى أُتْرَى  
 مِنْ يُسَقِّ بِهَذَا الْمَنَامِ رِقَّتَهَا \* يُسَقِّ بِمِسْكِكَ وَبَادِي خَيْرِ<sup>(١)</sup>  
<sup>(٢)</sup>

وقوله فيها أيضا :

أَلَيْمَ زَيْنَبُ إِنْ الْبَيْتِ قَدْ أَفْدَا \* قَلَّ التَّوَاهُ لَيْتَ كَانَ الرَّحِيلُ غَدَا  
 قَدْ حَلَقْتُ لَيْلَةَ الصُّورَيْنِ جَاهِدَةً<sup>(٤)</sup> \* وَمَا عَلَى الْمَرْءِ إِلَّا الْخُلْفُ مَجْتَهِدَا  
 لِأَخْتَهَا وَلَا أُخْرَى مِنْ مَتَاصِفِهَا<sup>(٥)</sup> \* لَفِدَ وَجِهَتُ بِهِ فَوْقَ الَّذِي وَجِدَا  
 لَوْ جَمَعَ النَّاسُ ثُمَّ أَخْتِيرَ صَفْوُهُمْ \* تَخَفَصَّا مِنَ النَّاسِ لَمْ أَجِدْ لَهُ أَحَدَا

ومن شعر عمر في تشوقه إلى مكة بعد أن خرج منها إلى اليمن قوله :

هِيَا تَ مِنْ أَمَةِ الْوَهَابِ مِزْلُنَا \* إِذَا حَلَلْنَا بِسَيْفِ الْبَحْرِ مِنْ حَدَيْنِ<sup>(٦)</sup>  
 وَأَحْتَلَّ أَهْلُكَ أَجْيَادًا \* وَلَيْسَ لَنَا \* إِلَّا التَّذَكُّرُ أَوْ حِطُّ مِنَ الْجَزَنِ  
 لَوْ أَنَّهُ أَبْصَرْتُ بِالْمَسْزُوعِ مَبْرَتَهُ \* مِنْ أَنْتَ يُفَرِّدُ لِيُرِيَّ عَلَى فَنَيْنِ  
 إِذَا رَأَتْ غَيْرَ مَا ظَلَمْتُ بِصَاحِبِهَا \* وَأَيْقَنْتُ أَنْ تَجْعَلَ لِي مِنْ وَطْنَيْنِ  
 مَا أَكُنْ لَا أَكُنْ يَوْمَ الْخَلِيفِ مَوْقِفَهَا<sup>(٨)</sup> \* وَمَوْقِفِي وَكَلَا تَمَّ ذُو تَجْنَيْنِ<sup>(٩)</sup>  
 وَقَوْلَهَا لِلثُّرَيَّا وَهِيَ بِأَكْبَرِيَّةٍ \* وَالِدَعْمُ مِنْهَا عَلَى الْخَلْدَيْنِ ذَوْسِنِ

- (١) أسطرت : أسرع . (٢) الخصر : البارد . (٣) أقد كحفر : عمل وأسرع .  
 (٤) الصوران : موضع بالمدينة باليمن ، وقد ذكره ياقوت وأسنده بالبيت . (٥) المصنف كبير  
 ومقدم : الخادم ، والألق بالهاء ، جمعه مئاصف .  
 (٦) سيف البحر : ساحله . (٧) أجباد : موضع بمكة ، سمى بذلك لأن تبعا لما قدم مكة ربط  
 خوله فيه نسي بذلك ، وهما موضعان : أجباد الكبير وأجباد الصغير . (٨) الخليف : موضع بين وبه  
 سمى مسجد الخليف . (٩) ذوسن : ذوطرائق .

بإله قسولى له فى غدير معتبىة \* ماذا أردت بطول المكث فى اليمن  
إن كنت حاولت دنيا أو ظفرت بها \* فما أخذت برك الحج \* من  
وقال أيضا :

خليل ما بال المكاي كأميا \* نراها على الأدبار بالقوم تكس<sup>(١)</sup>  
وقد قطعت أعناقهن صباة \* فأنسنا مما يلاقين شقص  
وقد أنعب الحادى سرائن وأنحى \* بهن فما يالو عجول مقلص<sup>(٢)</sup>  
يزدبن بنا قريبا فيزداد شوقنا \* إذا زاد طول المهد والبعد ينقص  
ومن شعره قوله :

جرى ناصع بالود بينى وبينها \* فقرئنى يوم الحصاب إلى قتلي<sup>(٣)</sup>  
فطارت يحك من فؤادى وفارنت \* قربتها جبل الصفاء إلى جبل  
فلما توافقنا عرفت الذى بها \* كمثل الذى فى حدودك النمل بالنمل  
فقلن لها هذا عشاء وأهنا \* قريب ألسنا نسمى مرقب البهل  
فقال لها شئن قلن لها أنزلى \* فلأرض خير من وقوف على رحل  
فجسوم درارى تكفن صورة \* من البدر وأنت فيروج ولا تجل<sup>(٤)</sup>  
فسألت وأسألت خيفة أن يرى \* عدو مقامى أو يرى كاشع فغسل  
فقال وأزحت جانب الشرائع \* معى فتكلم فيردى رقبته أهلي  
فقلت لها ما بى لهم من ترقب \* ولكن مرى ليس بحسلة مثل  
فلما أقصرنا دونهن حديثنا \* وهن طيبات بحاجة ذى الشكل  
عرافن الذى تنوى فقلن أئذنى لنا \* نطلف ساعة فى برد ليل وفى سبل

(١) تكس : ترجع وتولى وتحمى . (٢) مقلص : مشرجا فى السير . (٣) الحصاب  
كالهضب : موضع روى الجمار . (٤) درارى ممنوعة من الصرف ولزمت لضرورة الشعر . (٥) هوج :  
جمع هرجاء وهى المسبلة فى السير كان عا هرجاء وحقا .



فَقَالَتْ فَلَا تَلْبِثَنَّ قُلْنَ تَحْدِثِي \* وَأَنْتَ يَا أَسْبَابَ الْمَاءِ الرَّيْلِ  
فَقَمْنَ وَقَدْ أَنْهَمْنَ ذَا اللَّبِّ أَمَّا \* أَهْوَى الَّذِي يَأْتِيَنَ مِنْ ذَاكَ مِنْ أَجْلِ  
وقد كان عمر حين أَسَنَّ حَلْفَ الْآلِ يَقُولُ بَيْتَ شَعْرٍ إِلَّا أَعْتَقَ رِقَبَةً، فانصرف عمرُ  
إلى منزله يحدث نفسه، بفعلتُ جاريةً له تكلمه فلا يرد عليها جواباً، فقالت له : إن لك  
لأمرأاً، وأراك تريد أن تقول شعراً، فقال :

تَهَوَّلَ وَلِبْدَتِي لِمَا رَأَيْتِي \* طَرِيتُ وَكُنْتُ قَدْ أَقْصَرْتُ حِينَا  
أَرَاكَ الْيَوْمَ قَدْ أَحْدَثْتَ شَوْقًا \* وَهَاجَ لَكَ الْمَوَى دَاءً دَفِينَا  
وَكُنْتُ زَعَمْتُ أَنَّكَ ذُو عَرَءٍ \* إِذَا مَا شِلْتُ فَارَقْتَ الْقَرِينَا  
بِرِّكَ هَلْ أَتَاكَ لَهَا رَسُولٌ \* فَشَاكَ أَمْ لَقِيتَ لَهَا خَلِيلًا<sup>(١)</sup>  
فَقُلْتُ شَكَا إِلَى أَخِي عَجَبٌ \* كَكَيْفِ زَمَانِنَا إِذْ تَعَالَيْنَا  
فَقَصَّ عَلَيَّ مَا يَلْقَى بَهْدٍ \* فَذَكَّرَ بَعْضَ مَا كُنَّا نَسِينَا  
وَذُو الشُّوقِ الْقَدِيمِ وَإِنْ تَمَزَّى \* مُشَوِّقٌ حِينَ يَلْقَى الْعَاشِقِينَ  
وَكَمْ مِنْ خُلَّةٍ<sup>(٢)</sup> أَعْرَضَتْ عَنْهَا \* لِفِرْقَانٍ وَكُنْتُ بِهَا ضَيِّقًا  
أَرَدْتُ بِمَادَهَا فَصَدَدْتُ عَنْهَا \* وَلَوْ جُنَّ النَّفْثُادُ بِهَا جُنُونًا  
فَمَدَا تَسْمَعَةً مِنْ رَقِيقَةٍ فَأَعْتَقْتَهُمْ بِكُلِّ بَيْتٍ وَاحِدًا .

وله :

يقولون : إني لستُ أصدقُكَ الموى \* وَأَلْقَى لَا أَرَاكَ حِينَ أُغِيبُ  
فَمَا بِالْ طَرْفِ مَفٍّ عَمَّا تَسْأَلُطُ \* لَهُ أَعْيُنٌ مِنْ مَعْتَشِرٍ وَقُلُوبُ  
عَشِيَّةٍ لَا يَسْتَأْنِكُفُ الْقَوْمُ أَنْ يَرَوْا \* مَسْفَاهَ آمَرِيٍّ مِنْ يَسَالِيبُ

(١) الخليلي : الصديق الذي يتبادلك فيكون معك في كل أمر ظاهر وباطن ، ومنه خلدن الجارية : جهنمها ،  
وكان العرب في الجاهلية لا يمتنعون من خلدن يحدث الجارية بجاه الاسلام بينهم . وفي التزويل العزيز : (اليوم أصل  
لكم الطيبات) الى قوله : (والمحضات من الذين أدنوا الكتاب من قبلكم إذا أوصوهن أجورهن محصنين مبرسطين  
ولا متخذين أهدان) الآية . (٢) الخلة : الخلية .

ولا فتنة من ناسك أومضت له • بين الصبا كنى القيام لموب  
 تروح يرجوان تحط ذنوبه • قاب وقد زيدت عليه ذنوب  
 وما الشك أسلاني ولكن للهوى • على العين منى والفساد رقيب  
 وله :

ألم تسال المنزل المقيرا • بيانا فيكم أو محيرا  
 ذكرت به بعض ما قد جهلك • وحق لذي الشجون أن يدركا  
 ميت الحيين قد ظاهرا • كساء ويردين أن يمتطرا  
 ومضى الثلاث به موهنا • نخرج إلى زائر زورا  
 إلى جلس من وراء القبا • يب سهل الرب طيب أعفرا  
 غفلن عن الليل حتى بدت • تبشير من واضح أسفرا  
 فقم من يمين آهنا • بأكسية الخزان تحفرا  
 مهاتار شيمتا جودرا • أسيل مقلده أحورا  
 ولئن قلن لو أن لها • رمد له الليل فاستنرا  
 قضينا به بعض أنجناننا • وكان الحديث به أجدرأ

وله :

أفي رسم دار جمعك المترقي<sup>(١)</sup> • سفاها ! وما استنطاق ما ليس ينطق !  
 بحيث ألقى "جمع" وأقصى "محسر"<sup>(٢)</sup> • مما لسه كادت على العهد تحسني  
 ذكرت به ما قد مضى من زماننا • وذكرك رسم الدار مما يسوق

(١) أومضت له : سارته النظر .

(٢) يقال : ظاهر بين التوبين إذا ليس أحدهما على الآخر . (٣) أخضر : ذي رد أحمر .

(٤) يقال : نفر الأثرقرا : اتقاء وتبته . (٥) الجودز (بضم أوله وضم الدال وفتحها) : مد البقرة .  
 والربوب : القطيع من بقر الوحش وقيل من النباء ، ولا واحد له من لفظه . (٦) المقلد : موضع القلادة

ويراد به الجيد . (٧) ترقق الدمع : سال . (٨) جمع ، هي المزدلفة . (٩) محسر : موضع  
 بين منى والمزدلفة .

لَيْسَ مَنْ دَهَى إِذْ الْحَى جِيرَةٌ \* وَإِذْ هُوَ أَهْوَى الْخَيْلَةَ مَوْئِي  
مَقَامًا لَنَا عِنْدَ الْعِشَاءِ وَجَلَسَا \* بِهِ لَمْ يُكَدِّرْهُ عَلَيْنَا مُعْصَوِي<sup>(١)</sup>  
وَمَتَّى قَضَا بِالْكَسَاءِ تَكُنَّا \* بِهِ تَحْتَ حَيْبٍ بِفُهَا يَتَالِقُ<sup>(٢)</sup>  
يَبْلُ أَعَالَى الشَّوْبِ قَطَرٌ وَتَحْتَهُ \* سُمَاعٌ بِدَا يَعْشَى الْعِيُونَ وَيُتَرَّقُ  
فَأَحْسَنُ شَيْءَ بَدَأَ أَوَّلَ لَيْلِنَا \* وَآخِرَهُ حُرْبٌ إِذَا تَنْفَرَقُ

وروى أن ليلي كانت جالسة في المسجد الحرام، فرأت عمر بن أبي ربيعة فوجهت  
إليه مَوْئِي لها بغاءها به، فقالت له : يابن أبي ربيعة، حتى متى لا تزال سادرا في حرم الله<sup>(٣)</sup>  
تُسَبِّبُ بالنساء وتُشِيدُ بذكرهن ! أما تخاف الله ! قال : دعيني من ذالك وآسئى ما قلتُ ،  
قالت : وما قلتُ ؟ فأنشدتها الأبيات المذكورة، فقالت له القول الذى تقدم أنها أجابته به .  
قال : وقال لها : آسئى أيضا ما قلتُ فيك، ثم أنشدتها قوله :

أَيْنَ الرِّسْمِ وَأَطْلَلِ الدَّنَنَ \* عَادِلَى وَجِدَى وَمَا وَدَّتْ الْحَزَنَ  
إِنِ حَيَّ آلَ لَيْلٍ قَاتِلَى \* ظَهَرَ الْحُبُّ بِعَمَى وَبَطَنَ  
يَا أَبَا الْحَارِثِ قَلْبِي طَائِرٌ \* فَأَتَمِّرُ أَمْرَ رَشِيدٍ مَوْئِي<sup>(٤)</sup>  
إِلَّيْسَ لِلْقَلْبِ وَصَلًا عِنْدَهَا \* لَأَنْ خَيْرَ الْوَصْلِ مَا لَيْسَ مِنْ<sup>(٥)</sup>  
عَلَقَ الْقَلْبِ، وَقَدْ كَانَ صَحَا، \* مِنْ بَنَى غَزَا لَأَقْدَ شَدَنَ<sup>(٦)</sup>  
أَحْوَرَ الْمُقْلَةِ كَالْبَدْرِ، إِذَا \* قُلْدَ الدَّرَقَلِسِيِّ مُمْتَحَنَ<sup>(٧)</sup>  
لَيْسَ حُبٌّ فَوْقَ مَا أَحْبَبْتُمْ \* غَيْرَ أَنْ أَقْصَلَ نَفْسَى أَوْ أَجَنَ  
خَلَقْتُ لِلْقَلْبِ مَوْئِي فِتْنَةً \* هَكَذَا يُخَلِّقُ مَعْرُوضُ الْفِتَنِ

(١) مَوْئِي : مائق ومانع . (٢) العَيْن : السحاب .

(٣) السادر : الذى لا يهتم ولا يبال ما صنع .

(٤) كذا في الديوان ، ومناه ما ليس يقطع ، ومنه قوله تعالى : ( وَإِذْ ذَكَرْنا لَأَجْرَ غَيْرِ مَمْنُونِ ) .

(٥) شَدَنَ : شَبَّ وَنَزَعَ . (٦) مَمْنُون : واقع في محبة .

وفيها يقول :

إِنَّ لَيْسَ وَقَدْ بَلَغْتُ الْمَشْيَا \* لَمْ تَدْعُ لِلنَّسَاءِ عِنْدِي نَصِيحًا  
هَاجِرٌ يَتَّبِعُنِي لِأَنْفِي عَنْهَا \* قَوْلَ ذِي الْعَيْبِ إِنْ أَرَادَ عِيوبًا

وله في النّوادر وقد شغلت قلبه :

صَلَّى النَّوَارَ فَوَادُّهُ جَهْلًا \* وَصَبَّأَ فَلَمْ تَرْكُ لَهُ عَقْلًا  
وَتَوَضَّعْتُ لِي فِي الْمَسِيرِ لَهَا \* أَمْسَى الْفَوَادُّ يَرَى لَهَا مِثْلًا  
مَا نَجَعَةٌ مِنْ وَحْشٍ ذِي بَقَرٍ <sup>(١)</sup> \* تَفْدُو بِسَقَطِ صَرِيحَةٍ <sup>(٢)</sup> طِفْلًا  
بِالَّذِ مِنْهَا إِذَا تَمَسَّوْا لَنَا \* وَأَرَدْتُ كَشَفَ قَنَاعِهَا مَهْلًا  
دَعَا فَاثَكَ لَا مُعْكَارَةً \* تَجْزِي وَلَسْتُ بِوَاصِلٍ حَبْلًا  
وَعَلَيْكَ مَنْ تَبَلَّ الْفَوَادُّ وَإِنْ \* أَمْسَى لِقَابِكَ ذِكْرُهُ شُغْلًا  
فَاجِبْتُهَا إِنْ الْهَبَّ مَكْلَفٌ \* فَدَعَى الْعَنَابَ وَاحِدٌ بِذَلَا

اجتمع نسوة من أهل المدينة من أهل الشرف فتذاكرن عمر بن أبي ربيعة وشعره  
وظرفه وحسن حديثه فتشوقن إليه وتمنينه ، فقالت سَكِينَةُ بنت الحُسَيْن عليهما السلام :  
أنا لكنّ به ، فأرسلت إليه رسولا وواعدته الصّورين ، وسمّيت له الليلة والوقت وواعدت  
صواحباتها ، فوافاهنّ عمر على راحلته ، فغذّتهنّ حتى أضاء الفجر وحين أنصرفهنّ ، فقال لهنّ :  
والله إني لاحتاج الى زيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم والمصلاة في مسجده ولكن  
لا أخطئ بزيارتكن شيئا ، ثم أنصرف الى مكة وقال :

(١) ذوقر : موضع . (٢) سقط الصرية : منبأها . والصرية : الرملة المنصورة من الزمان ذات  
الشجر . (٣) مكلف : هجج بالحج ، يقال : مكلف بالشيء مكلفا ، أى هجج به فهو مكلف بمكلف ، والآيات  
من الكامل الأعداء ، وهو ما حلف من مروضه وضربه الوليد الجميع «عنان» من «مفطمان» . وقد جاء مروض  
هذا البيت تاما على خلاف بقية الآيات ، وظاهر أن حلف الوليد في أمطلاح هذا المروض طع ، والعلّة إذا خلعت  
بمرض أو ضرب ثم استعملها في سائر الآيات ولو قال : \* فأجبتها إلى بك مكلف \* خللت القصيدة  
من هذا العيب .

قالت مُكِنَّةٌ والدموعُ دَوَارِفُ \* منها على الخدين والحُلباب<sup>(١)</sup>  
 ليت المُنِيرَى الذى لم أجْزه \* فنيا أطال تَصْيِيسَى وِطْلَايِ  
 كانت تَرُدُّ لَنَا الْمَتَى إِيَامِنَا \* إذْ لَا نَلَامُ عَلَى هَوَى وَتَصَايِ  
 خُبْرَتُ مَا قَالَتْ قَبْتُ كَأَمَّا \* رَبِّى الْحَشَا بِنَوَائِذِ النَّشَابِ<sup>(٢)</sup>  
 أَسْكِنِ مَا مَاءُ الْهَرَاتِ وَطِيئِهِ \* مَتَى عَلَى طَمِيٍّ وَقَدْ شَرَابِ  
 بِالَّذِ مِنْكَ وَإِنِ نَأَيْتِ وَقَلْبَا \* تَرَى السَّاءُ أَمَانَةَ الْغِيَابِ

وقال فيها :

أُحِبُّ لِحْبِكَ مَنْ لَمْ يَكُنْ \* صَفِيًّا لِنَفْسِي وَلَا صَاحِبًا  
 وَأَبْذُلُ نَفْسِي لِمَرْضَاكَ \* وَأُعْجِبُ مَنْ جَاءَكَ عَاتِبًا<sup>(٣)</sup>  
 وَأَرْغَبُ فِي وَدِّ مَنْ لَمْ أَكُنْ \* إِلَى وَدِّهِ قَبْلَ بَعْضِكُمْ رَاغِبًا  
 وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ فِي جَانِبِ \* مِنْ الْأَرْضِ وَأَعْتَلَّتْ جَانِبَا  
 لِيَمْتَنُ طِيئَهَا ، إِنْسَى \* أَرَى قَرِيْبًا الْمَحَبَّ الْعَاجِبَا  
 فَطَلِيْبَةٌ مِنْ ظِلَاءِ الْأَرَا \* لَكَ تَقَرُّو دَمِيثَ الرِّمَى عَاشِبَا<sup>(٤)</sup><sup>(٥)</sup>  
 بِأَحْسَنِ مِنْهَا غَدَاةَ الْفَعْمِ<sup>(٦)</sup> \* وَقَدْ أَبَدْتَ الْخَلْدَ وَالْحَاجِبَا  
 غَدَاةٌ تَقُولُ عَلَى رَقِيْبَةٍ \* خَلَادِمَهَا : يَا أَحْيِيْىِ الرَّاكِبَا<sup>(٧)</sup>  
 فَقَالَتْ لَهَا : فِيمَ هَذَا الْكَلَامُ \* وَأَبَدْتَ لَهَا حَاجِبًا قَاطِبَا<sup>(٨)</sup>  
 فَقَالَتْ كَكْرِيْمٍ أَتَى زَائِرًا \* يُسْرِ بِكُمْ هَكَذَا جَانِبَا  
 شَرِيْفٍ أَتَى رَبَّنَا زَائِرًا \* فَأَكْرَهُ رَجْعَتَهُ خَاطِبَا

- (١) الحُلباب : التقيص أو هو الخمار ، وهو ما تغطي به المرأة رأسها . (٢) النشَاب : النبل .  
 (٣) أعجب : أزال سبب التبع ، فلهذا القلب . والمضى أطول . (٤) قرأه يقرؤه : تبعه .  
 (٥) دميث الرمي : سهلها ولينها . (٦) الفم كأمير : موضع بين مكة والمدينة . (٧) الخادم :  
 واحد الخدم غلاما كان أو جاريا . (٨) قاطبا من القطوب : وهو ترتدى ما بين البيتين من العيوس .

وقال في جاريته بثوم :

صرمت حبلك البقوم وصدت \* عنك في غير رية أسماء  
والقواني اذا رأيتك كهلًا \* كان فيهن عن هوائك أنواء  
حبذا أنت يا بثوم وأسماء \* ء وعيص يهكننا وخلاء  
ولقد قلت ليلة الحزل ما \* أخضلت ريعتي على السماء<sup>(١)</sup>  
ليت شعري وهل يركن ليت \* هل لهذا عند الرباب جزء  
كل وصل أسمى لدى لائق \* فغيرها وصلها إليها أداء  
كل خلق وإن دنا لوصال \* أو نأى فهو للرباب الفداء  
فيسدى نالًا وإن لم تليل \* إنما يتنفع المحب الرجاء

وكان يهوى حميدة جارية ابن تفاعذة وفيها يقول :

حمل القلب من حميدة يفلًا \* إن في ذاك للفؤاد لشغلا  
إن فعلت الذي سألت فقول \* حمد خيرًا وأنبى القول فضلا  
وميلني وأشهد الله آتى \* لست أضنى سؤالك ما عشت وملا

وفيها يقول :

يا قلب هل لك عن حميدة زاجر \* أم أنت مذكر الحياه فصاير  
فالقلب من ذكرى حميدة موجد \* والدمع منعدر وعظمى فائر  
قد كنت أحسب أنى قبل الذى \* فعلت على ما عند حمدة قادر  
حتى بدا لى من حميدة خلقى \* بين وكنت من الفراق أحاذر

(١) الحزل : موضع قرب مكة . وأخضلت : بل . والريقة : ملاء كلها لسبح واحد وقطعة

وله في هند :

أَرَبْتُ إِلَى هِنْدٍ وَتَرَبَّيْتُ مَرَّةً \* لَهَا إِذَا تَوَاقَفْنَا بَقَرَعُ الْمُقَطَّعِ  
لِتَعْرِيجِ يَوْمٍ أَوْ لَتَعْرِيسِ لَيْلَةٍ \* عَلَيْنَا بَجْعَ الشَّمْلِ قَبْلَ التَّصَدُّعِ  
فَقُلْنَا لَهَا لَوْلَا أَرْتَابُ حَصَابَةٍ \* لَنَا خَلْقُنَا عَجَبًا وَلَمْ تَسَوِّعِ  
فَقَالَتْ فَتَاةٌ كُنْتُ أَحْسَبُ أَنهَا \* مُفْقَلَةٌ فِي مَرَدٍّ لَمْ تُدْرِعِ  
لَهْنًا - وَمَا شَاوَرْتَهَا - لَيْسَ مَا أَرَى \* بِمُحْسَبٍ جَزَاءَ لِحْيَابِ الْمَوْدِعِ  
فَقُلْنَا لَهَا لَا شَبَّ قَرْنُكَ فَافْتَحِي \* لَنَا بَابَ مَا يَحْتَقِي مِنَ الْأَمْرِ تَسْمَعِ

- (١) يقال : أرب بكذا : كلف به ، وأرب إلى كذا : احتاج إليه . ولعل المراد : دغان الشوق إليه .  
(٢) التعريس : قيل هو نزول القوم في السفر آخر الليل يستريحون قليلا ثم يرحلون مع الصبح . وقيل : هو الزنل أول الليل . وقيل : الزنل في أي وقت كان من ليل أو نهار . والمراد هنا : لإقامة يوم أو لإقامة ليلة .  
(٣) لم تدع : لم تلبس الدرع ، يقال : حذمت الصدة إذا ألبست الدرع ، والدرع : جبة مشقوفة المقسم .  
(٤) قال الأصمى : يقال أخبه الله وأشبه الله قرنه بمعنى واحد (وهو الدماء له بأن يشب ويكبر) ، والقرن زيادة في الكلام اهـ . والقرن : الضيقة . والمراد الصبغ من حديثها كما يقال في هذا المقام : تأنك الله .  
(٥) الباءة : الوجه والطريق ، قال تميم بن مقبل :

بني طامر ما تأمرون بشاعر \* تخبر بآيات الكتاب عينايا

أي تخبر بآيات من وجوه الكتاب ، كما فسره صاحب السان . والباءة معان أخرى لا بأس من إيرادها وهي : القيل والنهي - كما قال الجاحظ في «كتاب الحيران» ج ٢ ص ٤٥ : «فليس الديك من بآية الكتاب لأنه إن سامره قطه فلا ذريما» وقال أيضا في ج ٧ ص ٤٣ : «وقد أيقنا أنها ليس من بآية» . وقال في «كتاب البطلان» ص ٤٥ : «أنت من ذى البآية ... وأما سائر حديث هذا الرجل فهو من هذه البآية» . ومثل ذلك في نصح الطبيب ج ١ ص ٥٥٩ طبع ليدن ، ج ١ ص ٣٩٨ طبع بولاق سنة ١٢٧٩ هـ قول القاضي محمد بن بشير الأندلسي :

إنما أزرى يندى أنى \* لست من أبه أهل البلد

وإذا قال الناس : «من بآية» فمناه من الوجه الذي أريد به ويسلع لى .

والشرط — ومثله ما في «تاج المروس» : هذا بآية أى شرطه .

والقاية — ويستعمل ذلك في الحساب والحديد . وفي «شفاء العليل» أنهم يقولون لعب خيال الفيل بآية فيقولون : بآيات خيال الفيل ، ومثل ذلك قول ابن رياس المؤرخ المصرى : فكانوا مثل بآيات خيال الفيل معنى . وفي «مروج» (بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ١ ص ٢٤٧) .

ويجوز أن يسمى به كل فصل من فصول التمثيل المسماة الآلة فصول الرواية . (انظر كتاب التاج الجاحظ ص ٣٨

وله :

لَيْتَ هَذَا أَجْزَيْتَا مَا بَعْدَ • وَشَقَّتْ أَنْفُسَا عَمَّا يَجِدُ<sup>(١)</sup>  
وَأَمْسَيْتُ مَرَّةً وَاحِدَةً • إِنْما الْعَاجِزُ مِنْ لَا يَسْتَيْدُ  
وَلَقَدْ قَالَتْ بِلَارَاتٍ لَهَا • ذَاتَ يَوْمٍ وَتَعَرَّتْ تَبْتَرِدُ<sup>(٢)</sup>  
أَكْمًا يَنْتَهَى تَبْصِرَتِي • عَمْرُكَ اللهُ أَمْ لَا يَقْتَصِدُ  
قَهَّانُفْنَ وَقَدْ قُلْنَ لَهَا • حَسَنٌ فِي كُلِّ عَيْنٍ مِنْ تَوَدُّ<sup>(٣)</sup>  
حَسَدًا حَمَلْتَهُ مِنْ أَجْلِهَا • وَقَدْ يَمَّا كَانَ فِي النَّاسِ الْحَسَدُ

وله :

يَا مَنْ لِقَلْبٍ دَنِيْفٍ مُغْرِمٍ • هَامٌ إِلَى هِنْدٍ وَلَمْ يَظْلَمِ<sup>(٤)</sup>  
هَامٌ إِلَى رَيْمٍ هَضِيمٍ الْحَقِي • عَذِبُ الثَّنَا طِيْبُ الْمُنِيْمِ<sup>(٥)</sup>  
لَمْ أَحْسِبِ الشَّمْسَ بَلْبِلًا بَدَتْ • قَبْلِي لَدَى سَلَمٍ وَلَا ذِي دَعِ<sup>(٦)</sup>

- (١) وحده به يمسد وحده : أحده حيا شديداً، وحده عليه يوجد وحده : حزن . (٢) تبتد : تفصل بالماء البارد . (٣) كذا في الكمال ليرد طبع لينج ص ٩٤ . وهي رواية جيدة . والتأنيف كالأهتاف والمهاققة : ضحك فيه فنور كضحك المستهزئ . وفي الأغانى والديوان : « فضا حكن » . وقد رجعت الراجية الأولى لأنها تقرأ تمام الحق المراد . (٤) هام يمتد إلى البلاء . وقد ضمنت هنا معنى صبا ولهذا تعدت إلى . (٥) كذا في الأغانى ، وفي ديوانه : « ريم » بالهمز . والريم : الظبي الأبيض الخالص البياض ، وقيل ولد الظبي ، يميز ولا يميز . (٦) كذا في الأغانى ، وبين هذا البيت والذي قبله في ديوانه :  
كالشمس بالأسد إذ أشرقت • في يوم دجى بارد مقسم  
يريد بالأسد هنا سعد النجوم ، وهي عشرة : أربعة منها في برج الجدى والدرية زلها القمر وهي سعد الداج وسعد بلع وسعد الأضحية وسعد السعد وهو كوكب منفرد نير . وأما الستة التي ليست من المنازل فسطر تأخرة وسعد الملك وسعد الهام وسعد الهام وسعد البارع وسعد مطر . وكل سعد من هذه الستة كوكبان بين كل كوكبين في رأى العين قدر ذراع وهي متسقة . وأما سعد الأضحية فثلاثة أنجم كأنها ألقى دراج تحت واحد منهم . أنظر المرتضى والمقاصد النورية في شرح شواهد شروح الألفية للإمام العيني المطبوع بجامع الخزانة ح ١ ص ٨ . في الكلام على البيت :  
إذا دربان منك يوما قضيه • أزلت أذا فاك ظفرا بالأسد  
وقال في اللسان في مادة « سعد » بعد أن ذكر هذه السعد : فأحسن ما تكون الشمس والقمر والنجوم في أباها  
لأنك لا ترى فيها غيره ، وقد ذكرها النابتة الديباني فقال :  
فأنت تراه بين معنى كذا • كالشمس يوم طلوعها بالأسد  
وقد ضبط خطأ في اللسان بفتح الباء . وقال :  
يضاء كالشمس وأنت يوم أسدها • لم تؤذ أحدا ولم تغمش على جار



قالت ألا إنك ذو مَلَّة • يَصْرِفُكَ الْأَدْنَى عَنِ الْأَقْدَمِ  
قلتُ لها بل أنتِ مَحَلَّة • في الوصلِ يَاهِنْدُ لَكَ تَصْرِيرِي

بيننا عمر بن أبي ربيعة يطوف بالبيت إذ رأى عائشة بنت طلحة بن عبيد الله ،  
وكانت من أجمل أهل دهرها ، وهي تريد الركن تستلمه ، فبهت لما رآها ورأته ، وعلمت  
أنها قد وقعت في نفسه ، فبعثت إليه بجمارية لها وقالت : قولي له : أتني الله ولا تقل هجراً ،  
فلما كان هذا مقام لا بد فيه مما رايت ، فقال للجمارية : أقرئها السلام وقولي لها : ابن عمك  
لا يقول إلا خيراً ، وقال فيها :

لعائشة أبنية التيمي عندي • يمي في القلب ، لا يمتي جمها  
يذكرني أبنية التيمي ظي • يرود بروضة سهل رباها  
قلتُ له وكاد يُبَاغِ قلبي • فلم أر قط كالיום أنسبها  
سوى حمشٍ بساقك مسنين • وإن شواك لم يُسبِه شواها  
وأنت عاقلٌ ما رِ وليس • بصارية ولا عطل يدها  
وأنت غير أفرع وهي ثدي • على المتنين أحم قد كساها  
ولو قعدت ولم تكلف بود • سوى ما قد كلفت به كذاها  
أقل إذا أكلها كاني • أكلكم حية غلبت رقدا  
تبيت إلى بعد النوم تسي • وقد أسيئت لا أخفى سرها

وله :

إني وأول ما كلفتُ به • تحب وهل في الحب من متعجب  
نعت النساء فقلت لست بمبصر • شهبأ لها أبداً ولا بمقرب

(١) الحبش : دقة الساقين • (٢) الشوى : الأطراف • (٣) الأنوع : طويل شعر الرأس •

(٤) الأحم : الأسود ، يريد به الشعر •

فَكَتَنَ حِينَئِذٍ ثُمَّ قَلَنَ تَوَجَّهَتْ \* لَلْحَجِّجِ ، مَوْعِدُهَا إِقَاءَهُ الْأَخْشَبِ<sup>(١)</sup>  
 أَقْبَلْتُ أَنْظُرَ مَا زَعَمَنَ وَقَلَنَ لِي \* وَالْقَلْبُ بَيْنَ مُصَلِّقٍ وَمُكَلِّبِ  
 فَلَقِيْنَهَا تَمَشَّى بِهَا بَغْلَاهُ \* تَرَى الْجَمَارَ عَشِيَّةً فِي مَوْكِ  
 غَرَاءَ يَمْنَى النَّاظِرِينَ بِيَاضُهَا \* حَوْرَاءَ فِي قُلُوبِهِ عَيْشٌ مُعْجِبِ<sup>(٢)</sup>  
 إِذَا اتَى مِنْ أَرْضِهَا وَسَمَائِهَا \* جُلَيْتَ لِحَنِّكَ لَيْتَهَا لَمْ تُجَلِّبِ

وكان عمر بن أبي ربيعة يهوى كَلَمَ بنتَ سعدِ الخزَرميَّةِ ، فأرسل إليها رسولا فضربتها  
 وحلققتها واحلققتها ألا تَعَاوِدَ ، ثم أعادها ثانية ففعلت بها مثل ذلك ، فتصامها رسله ، فابتاع  
 أمة سوداء لطيفة رقيقة وأتى بها منزله فأحسن إليها وكساها وآنسها وعرفها خبره وقال لها :  
 إن أوصلت لي رُقعةً إلى كَلَمَ فقرأتها فانتِ حرةٌ ولكِ معيشتك ما بقيت ، فقالت : اكتب لي  
 مَكْتَابَةً وأكتب حاجتك في آخرها ، ففعل ذلك ، فأخذتها ومضت بها إلى باب كَلَمَ  
 فاستأذنت فخرجت إليها أمة لها فسألتها عن أمرها ، فقالت : مَكْتَابَةٌ لبعض أهل مَوْلَانِكَ  
 جئتُ أَسْتَعِينُهَا في مَكَاتِبِي ، وحادثتها وناشدتها حتى ملأت قلبها ، فدخلت إلى كَلَمَ وقالت :  
 إن بالباب مَكْتَابَةً لم أر قط أبجل منها ولا أكل ولا أدب ، فقالت : إِيذْنِي لها ، فدخلت ،  
 فقالت : من كَاتِبِكَ ؟ قالت : عمر بن أبي ربيعة الفاسق ! فافترى مَكَاتِبِي ، فهدت يدها  
 لتأخذها فقالت لها : لي عليك عهدٌ الله أن تقرَّيها ، فإن كان منك إلى شيء مما أُحِبُّهُ وَإِلَّا  
 لم يلحقني منك مكروهٌ فعاهدتها وقطعت وأعطتها الكتاب ، فإذا أوله :

من عاشقٍ صَبَّ يُبْرِهُمُوهِي \* قد شَقَّه الوجدُ إلى كَلَمِ  
 وأليك عيني فدعاني الهوى \* إليكِ للحرِّين ولم أعلم

- (١) الأخشب : مفرد الأخشين وهما جبلان بمكة أحدهما أبرقيس والآخر قيقدان ، ويقال : هما أبرقيس  
 والجبل الأحمر المشرف هناك ، وقد همد هذه التثنية فيقال لكل واحد منهما : الأخشب ، قال ساعدة بن جوية .  
 ويقامهن إذا حبسن بأزمن \* خيل ألف وصدرُ الأخشب  
 (٢) في غراء عيش : في أنصره وأرقده . (٣) المَكَاتِبَةُ : أن يكتب الرجل حبه على مال يوقيه إليه منجبا  
 (مقسما) فإذا آذاه مارحرا ، وصيحت كذلك لأنه يكتب على فسه لولاء نحه ، ومولاه يكتب له طية عتقه .

قَتَلْنَا ، يَا حَبِذَا أَنْتُمْ • فِي غَيْرِ مَا جُرِمَ وَلَا مَاتُمْ  
وَاللَّهُ قَدْ أَنْزَلَ فِي وَجْهِهِ • مُبِينًا فِي آيَةِ الْحُكْمِ  
مَنْ يَقْتُلِ النَّفْسَ كَذَا ظَالِمًا • وَلَمْ يُقْضَ نَفْسَهُ بِظُلْمٍ  
وَأَنْتَ تَأْرَى قَتْلَاقِي دَمِي • ثُمَّ أَجْعِلْهُ نِعْمَةً تُنْعِمُ  
وَحِكْمِي عَدْلًا يَكُونُ بَيْنَنَا • أَوْ أَنْتَ فِيمَا بَيْنَنَا فَأَحْكُمِي  
وَجَالِسِيْنِي مَجْلِسًا وَاحِدًا • مِنْ غَيْرِ مَا طَارَ وَلَا مَحَرَمٍ  
وِخْبَرِي مَا الَّذِي عِنْدَكُمْ • بِاللَّهِ فِي قَتْلِ أَمْرِي مُسْلِمٍ

فلما قرأت الشعر قالت لها : إنه خُدَاعٌ مَلِكِي وليس لما شكاه أصلٌ ، قالت : يا مولائي ،  
فما عليك من أمتحانه ؟ قالت : قد أَذِنْتُ له وما زال حتى ظَفَرَ يَبِيَّتِي ! فقول له : إذا كان  
المساء فليجلس في موضع كذا وكذا حتى يأتيه رسول ، فأنصرف الجارية فأخبرته فذهب لها ،  
فلما جاءه رسولها مضى معه حتى دخل إليها وقد تهيأت أجل هيئة ، وزينت نفسها وجلستها  
وجلست له من وراء ستر ، فسلم وجلس ، فتركته حتى سكن ثم قالت له : أخبرني عنك  
يا فاسق ! أَلَسْتَ القاتل :

هَلَا أَرْعَوَيْتَ قَتْلِي صَبَا • صَدِيدَانِ لَمْ تَدْعِي لَهُ قَلْبَا  
جَسَمُ الزَّيَارَةِ فِي مَوَدَّتِكُمْ • وَأَرَادَ الْآ تَرْفِي ذَنْبَا  
وَرَجَا مُصَالَحَةً فَكَانَ لَكُمْ • سَلَامًا وَكَيْتَ تَرْبَنَهُ حَرَبَا  
يَا أَيُّهَا الْمُصْنِفِي مَوَدَّتِهِ • مَنْ لَا يَرَاكَ سُبَايَا خَطْبَا<sup>(١)</sup>  
لَا تَجْعَلُنْ أَحَدًا عَلَيْكَ إِذَا • أَحْبَبْتَهُ وَهَوَيْتَهُ رَبَا  
وَصِلِ الْحَبِيبَ إِذَا شَفِغَتْ بِهِ • وَأَطِوِ الزَّيَارَةَ دُونَهُ غِيَا  
فَلَذَلِكَ أَحْسَنُ مِنْ مُوَاطَّئِهِ • لَيْسَتْ تَرْبُذُكَ عِنْدَهُ قُرْبَا  
لَا بَلْ يَمْلِكُكَ عِنْدَ دَعْوَتِهِ • فَيَقُولُ هَاهُ وَطَالَمَا لَيَّا<sup>(٢)</sup>

(١) انطلب : انطلب . (٢) وهاء : كلمة وحيد ، وترك لفردة الشعر وقد روى البيت في ديوانه :

لَا بَلْ يَمْلِكُكَ تَمَّ دَعْوَايَا • يَقُولُ هَاهُ وَطَالَمَا لَيَا

ورأى عمرُ لَبَّاءَ بنتَ عبد الله بن العباس امرأةَ الوليد بن عُتبَةَ بن أبي سفيان تطوفُ  
بالبَيْتِ فرأى أحسنَ خلقِ الله ، فكاد عقلُه يذهبُ ، فسأل عنها فأخبر بنسبها ، فنسب بها  
وقال فيها :

ودَّعَ لَبَّاءَ قَبْلَ أَنْ تَرْحَلَا • وَأَسْأَلَ فَإِنْ فُلَانُهُ أَنْ تَسْأَلَا  
إِلَيْتِ بِعَمْرِكَ سَاعَةً وَتَأْتِيَا • فَكُلُّ مَا يَخْتَلُتُ بِهِ أَنْ يُسْأَلَا  
قَالَ أَتَمَّرَ مَا شِلْتُ غَيْرَ خَالِفٍ • فِيهَا هَوَيْتُ فَإِنَّا لَبَّ تَمَجَّلَا  
لَسْنَا بُنْيَالِي حِينَ تَقْضِي حَاجَةً • مَا بَاتَ أَوْ ظَلَّ الْمَطِيُّ مُعَقَّلَا  
حَتَّى إِذَا مَا اللَّيْلُ جَنَّ ظَلَامُهُ • وَرَقَبْتُ غَفْلَةً كَأَنِّي إِنْ يَحْتَلَا  
خَرَجْتُ تَأْطُرُ فِي الثَّيَابِ كَأَنِّي • أَيْمُ يُسَيِّبُ عَلَى كَيْتِيبِ أَهْيَلَا  
رَجَعْتُ حِينَ رَأَيْتُهَا تَهَبَّسْتُ • لَتَحْتِجِي لِي رَأَيْتِي مُقْبِلَا  
وَجَلَّ الْفَنَاءُ مَحَابُهُ مَشْهُورَةٌ • غَرَاءُ تَمْنَى الطَّرْفِ أَنْ يَتَأَمَّلَا  
فَلَيْتُ أَرْقِيهَا بِمَا لَوْ عَاقَلْتُ • يَرْقِي بِهِ مَا اسْتَطَاعَ إِلَّا يَنْزَلَا

وَحَثَّتْ رَمْلَةً بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَلْفٍ الْخَزَاعِيَّةُ فَقَالَ فِيهَا :

أَصْبَحَ الْقَلْبُ فِي الْحَبَالِ رَغِيئًا • مُقَصِّدًا يَوْمَ فَارَقَ الطَّاعِنِيْنَا  
عَجِلْتُ حُمَةً الْقِرَاقِ عَلَيْنَا • بِرَحِيلٍ وَلَمْ تَخَفِ أَنْ تَبِيدُنَا  
لَمْ يَرْضَنِ إِلَّا الْفَنَاءَ وَالْإِلَا • دَمْعُهُ فِي الرِّدَاءِ مَعَا سَنِينَا  
وَلَقَدْ قُلْتُ يَوْمَ مَكَّةَ سِرًّا • قَبْلَ وَشَلِكِ مِنْ بَيْنِكُمْ تَوَلِينَا  
أَنْتِ أَهْوَى الْعِبَادِ قُرْبًا وَدَلًّا • لَوْ تَبْلِيغِ طَاشِقًا مَحْزُونَا  
قَادَهُ الطَّرْفُ يَوْمَ مَرٍّ إِلَى الْحَبِ • بِنِ جِهَارًا وَلَمْ يَخَفْ أَنْ يَحِينَا

(١) اللؤلؤ كثراب ومعاب : القليل . (٢) التمر ما شلت : اغفل ما شلت فإننا لا نغمى لك أمرا .

(٣) تأطر : معلقة إحدى تأبي ، أى تنقى . (٤) الأيم : الحية . (٥) يقال : عقل الرجل يعقل ضرولا : استبح في الجبل ، وبه سمى الرجل طافلا على حد التسمية بالصفة ، ومنه الخيل : « إنما هو يجارح الأروى قليلا ما يرى » . والأروى : جمع أروية وهى نبوس الجبل البرية .

فاذا نَجْمَةٌ نَرَايَ نِعَابًا \* وَيَهَا يَهَجُ المناظر عِينَا  
 فُلْتُ مَنْ أَتَمُّ فَصَدْتُ وَقَالَتْ \* أَمِيدُ سِوَالِكَ الْعَالِيَا  
 قُلْتُ يَا هَذَا ذِي الْجِلَالَةِ لِمَا \* أَنْ تَبْلُغَ الْفَوَادِ أَنْ تَصْدُقِيَا  
 أَيْ مَنْ تَجْمَعُ الْمَوَاسِمُ قَوْلِي \* وَأَيُّنِي لَنَا وَلَا تَحْكُمِينَا  
 نَحْنُ مِنْ سَاكِنِي الْمِرَاقِ وَكُنَّا \* قَبْلَهُ قَاطِنِي مَكَّةَ حِينَا  
 قَدْ صَدَقْنَاكَ إِذْ سَأَلْتَ فَنَ أَنْ \* تَصْعَى أَنْ يَخْرُشَ شَأْنُ شُؤُونَا  
 وَنَرَى أَتَا عَرَفْنَاكَ بِالْعَدَا \* يَتَبَطَّنُ وَمَا تَقَلَّنَا بِقَيْنَا  
 بِسُرُودِ الثِّيَابِ وَنَيْتِ \* قَدْ تَرَاهُ الْمُنَاطِرُ مُسْتَيْتَا  
 وقال في الثريا وقد صرّته .

مَنْ رَسُوْنِي إِلَى الثَّرِيَا فُلِّي \* ضِيقْتُ دَرَجَاتًا يَهْجُرُهَا وَالْكَثَابِ  
 سَلْبَتِي سَجَاجَةً الْمُسْكِ عَقْلِ \* فَسَلُّوْهَا مَاذَا أَحَلَّ أَخْصَابِي  
 وَهِيَ مَكْنُونَةٌ تَحْيَرُ مِنْهَا \* فِي أَيْمٍ انْخَلَّتْ مِنْهُ الشَّابِ  
 أَرْزُوهَا مِثْلَ الْمَهَاةِ تَهَادِي \* بَيْنَ تَمِيمِ كَوَاكِبِ أَثَرَابِ  
 ثُمَّ قَالُوا نَحْبُهَا قُلْتُ يَهْرَأُ \* عِنْدَ الْقَطْرِ وَالْحَصَى وَالتَّرَابِ  
 أَزْهَقْتُ أَمْ تَوْفَلُ إِذْ دَهَمَهَا \* مُهَجَّتِي، مَا لِقَائِي مِنْ مَتَابِ  
 حِينَ قَالَتْ لِمَا أَجِيبِي فَقَالَتْ \* مَنْ دُمَانِي قَالَتْ أَبُو الْخَطَّابِ  
 فَاسْتَجَابَتْ عِنْدَ الدَّهَادِ كَمَا لَمْ يَكُنْ \* رَجُلًا يَرْجُوْنَ حَسَنَ الثَّوَابِ

(١) قال في اللسان مادة يد « أن أورد هذا الشعر : « حسان أقسم أنت سؤالك على الناس واحدا حتى تصيبهم » . من البداد وهو أن يبدأ المسأل القوم فيقسم بينهم ، وأيقم المسأل والمطالع : فرفه فيهم ، والمراد : لماذا تمأنا ! ألك حق السؤال على جميع الناس ! . أو معناه : « أنت ملزم سؤالك الناس ، من قولهم : مالك منه يد » ، والمراد : أنت ملزم الإجابة عن سؤالك ! إنا لانجيبك . (٢) مجابة المسك ، يريد بذلك وصفها بطيب ديقها وبأه كالمسك . (٣) تمادى ، يريد يبدى بعضها بعضا في مشيتها (الكامل للبرد طبع ليزج ص ٣٧٩) . (٤) في الكامل للبرد طبع ليزج ص ٣٧٩ : أزفقت : أبلقت وأذهبت قال الله من وصل : (يهدمته فاذا هو زاهق) له . يريد : أذهبت أم توفل قسى إذ دعت الثريا لوصالي فلم يجيبها .

ومن شعره :

كُنْتُ إِلَيْكَ مِنْ بَلَدِي \* كَتَبْتُ مَوْلاهُ يَكِيدُ  
 كَيْفَ وَأَكَيْفَ الْعِيَالِ \* مِنْ بِالْحَسَرَاتِ مَنْفَرِدِ  
 يُرْقِهُ لَيْبُ الشَّو \* فِي بَيْنِ السَّحْرِ وَالْكَدِ  
 فِيمَنْ لِقَبْلِهِ بَيْدِ \* وَيَمْسُحُ عَيْنَهُ بَيْدِ

لما تزوج سُبُلُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الثُّرَيَّا ونقلها الى الشام ، بلغ عمرَ بْنِ أَبِي رِيعة الخُبْرُ ، فأقْبَى المَنْزِلَ الذي كانت الثُّرَيَّا تنزلُهُ ، فوجدَها قد رحلت منه يومئذٍ ، فخرج في أثرها فليحَقَّها على مَرَحَلَتَيْنِ ، وكانت قبل ذلك مُهَاجِرَتَهُ لأمرٍ أنكرته عليه ، فلما أدركهم نزلَ عن فرسه ودفعه الى غلامه ومشيَّ مُتَنَكِّراً حتى مَرَّ بِالْعَلِيمَةِ ، فعرقته الثُّرَيَّا وأثبتت حركته ومشيَّته ، فقالت لحاضنتها : كَلِّبِيهِ ، فسألت عليه وسألتُه عن حاله وعاتبته على ما بلغ الثُّرَيَّا عنه ، فاعتذر وبكى ، فبكت الثُّرَيَّا ، فقالت : ليس هذا وقت العتاب مع وشك الرِّجُلِ ، فحادثها الى وقت طلوع الفجر ثم ودَّعها وبكى طويلاً ، وقام فركب فرسه ووقف ينظر اليهم وهم يرحلون<sup>(٥)</sup> ، ثم أتبعهم بصره حتى غابوا ، وأُشْأَ يقول :

يَا صَاحِبِي قَفَا تَسْتَبْخِرُ الظَّلَالَ \* عَنْ حَالِ مَنْ حَلَّه بِالْأَمْسِ مَا تَعْلَمُ  
 فَقَالَ لِي الرَّبُّ لَمَّا أَنْتَ وَقَفْتُ بِهِ \* إِنَّ الْخَلِيطَ أَجَدَ الْبَيْنِ<sup>(٦)</sup> فَاحْتَمَلُ<sup>(٧)</sup>  
 وَخَادَعْتُكَ النَّوَى حَتَّى رَأَيْتَهُمْ \* فِي الْفَجْرِ يَحْتَشُّ حَادِي عِيَسَهُمْ<sup>(٨)</sup> زَجَلًا

(١) يُقَالُ : وَكَفَّتَ الْعَيْنُ : سَالَتْ دُمُوعَهَا . (٢) السَّحَرُ : الرِّقَّةُ .

(٣) أَيْ عَرَقْتُهَا حَتَّى الْمَرَقَةِ . (٤) لِحَاضِنَتِهَا ، لِمَرْبِيتِهَا . (٥) يَرْحَلُونَ يَتَنَدُّونَ عَلَى إِبْطِهِمُ الرِّجَالِ . (٦) أَجَدَ الْبَيْنِ : أَتَمَّزَهُ . (٧) احْتَمَلُ : ارْتَحِلْ . (٨) النَّوَى : الْفَرَاقُ وَالْبَعْدُ . وَيَحْتَشُّ : يَسُوقُ . وَزَجَلًا : رَافِعًا صَوْتَهُ فِي حِدَاةِ الْإِبِلِ لَتَسْرِعَ فِي السَّيْرِ ، وَأَعْلَى الزَّيْلِ الْجَلْبَةِ وَوَفْعُ الصَّوْتِ وَغَمْسُ بِهِ الصَّارِبِ ، وَأَشْدَّ سَبْوِهِ فِي وَفْعٍ حَارٍ وَحَشٍّ :

لَهُ زَيْلٌ كَأَنَّهُ صَوْتُ حَادٍ \* إِذَا طَلَبَ الْوَسِيقَةَ أَوْ زَيْرَ

وذكره في باب ما يحتمل الشعر من استباحة الضرورة ، وهي هنا حلف الوار الميعة لحركة الهاء في قوله : كانه . والوسيقة : أُنْثَى الْتِي يَحْمِلُهَا وَيَحْمِلُهَا ، مِنْ وَسَقَتِ النَّوَى : جَمَعَتْ .

لما وقفنا نحبيهم وقد صرخت \* هوانفُ اليَينِ وأستوت بهم أوصلا<sup>(١)</sup>  
صَدَتْ بِمَادَا وَقَالَتْ لَاتِي مَعَهَا \* باللهِ لُوبِيهِ فِي بَعْضِ الَّذِي فَصَلَا  
وَحَدِيثِهِ بِمَا حَدَّثَتْ وَأَسْتَمِي \* مَاذَا يَقُولُ وَلَا تَعْنِي بِهِ جَدَلَا<sup>(٢)</sup>  
حَتَّى يَرَى أَنْتَ مَا قَالَ الْوَشَاةُ لَهُ \* فِينَا لَدَيْهِ إِلَيْنَا كُلُّهُ يُقَلَا  
وَصَرَفِيهِ بِهِ كَاهَزِبٍ وَأَحْفِظِي \* فِي بَعْضِ مَعْتَبَةٍ أَنْ تُنْفِضِي الرَّجُلَا  
فَإِنَّ عَهْدِي بِهِ وَاللَّهُ يَحْفَظُهُ \* وَإِنْ أَقَى الذَّنْبُ مِنْ يَكْرِهِ الْقَدَلَا  
لَوْ عِنْدَنَا أَغْيَبَ أَوْ نَيْكَتَ قَيْصُهُ \* مَا آبَ مُشَابُهُ مِنْ عِنْدِنَا جَدَلَا  
قُلْتُ أَسْمِي فَلَقَدْ أَبْلَغْتَ فِي لَطْفِ<sup>(٣)</sup> \* وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَى ذِي اللَّبِّ مِنْ هَزَلَا  
هَذَا أَرَادَتْ بِهِ بِحُلَا لَاغْنِزَهَا \* وَقَدْ أَرَى أَنَّهُ إِنْ تَكَلَّمَ الْعَمَلَا  
مَا سَمِيَ الْقَلْبُ إِلَّا مِنْ تَقَلُّبِهِ \* وَلَا الْفَوَادُ فَوَادًا فَيَرَأَنَّ عَقَلَا<sup>(٤)</sup>  
أَمَا الْحَدِيثُ الَّذِي قَالَتْ أُتَيْتَ بِهِ \* فَا حَيَاتُ بِهِ إِذْ جَاءَنِي حِسْلَا  
مَا إِنْ أَطْلَعْتُ بِهَا بِالْيَبِّ قَدْ حَلِمْتُ \* مَقَالَةَ الْكَاشِحِ الْوَاشِي إِذَا عَحَلَا  
إِنِّي لَأَرْجِعُهُ فِيهَا بِسَخَطَتِهِ \* وَقَدْ يَرَى أَنَّهُ قَدْ هَرَى زَلَا  
وَهِيَ قَصِيدَةُ طُوبَلَا مَذْكُورَةُ فِي شِعْرِهِ .

(١) فِي دِيْوَانِهِ :

لما وقفنا نحبيهم وقد سخطت \* نامة الين فاستوت بهم أصلا  
وسخطت نامة الين : ارتحلوا وفزعهم الين ، وفي اللسان مادة نم وشال : يقال لقوم إذا ارتحلوا من منزلهم  
أو تفزقوا : قد فحخت نعامهم وشالت نعامهم ، والأصل : جمع أصبل وهو الشيء وقيل هو مفرد ، أشد تلب :  
وتسدرت قسي لذلك ولم أزل \* بدلا نهاري كله حتى الأصل  
قوله : بدلا نهاري لله ، يدل على أن الأصل هاجعا واحد . (٢) لا تعني به جدلا : لا تعجزى في مجادله .  
(٣) اللطف لغة في اللطف . (٤) قال في اللسان : والتفؤد : التوقد ، والفؤاد : القلب نفؤده  
وتوقده . وقال في القاموس وشرحه : والتفؤد : التجوف والتوقد ، ومنه الفؤاد للقلب ، لأن أصل الفؤاد العلويات  
نتيجة اشتغاله وتوقده وتحركه وجعله فيها حتى يحصها ، ويميز الصحيح من الفاسد واسلق من الباطل .

وله :

هل تعرف النار والأطلال والدننا • زينت الفؤاد على علايته حنا<sup>(١)</sup>  
 دار لاسماء قد كانت تحمل بها • وانت إذ ذاك قد كانت لكم وطنا  
 لم يحجب القلب شيئا مثل حبكم • ولم تر العيب شيئا بعدكم حسنا  
 ما لبث أبالي أدام الله قربكم • من كان شط من الأحياء أوطنا  
 فإن تأيم أصاب القلب تأيمكم • وإن دنت داركم كنتم لنا سكا  
 إن يغفل لا يسأل القلب بكم • وإن تجودي فقد عنتني زنا  
 أمسى الفؤاد بكم يهند مرثنا • وانت كنت الهوى وألم والوسنا  
 إذ استيتك بمصقول عوارضه • ومقلق جودك لم يعد أن شدنا

وقال :

أعبدة ما يندى مودك القلب • ولا هو يسليه رخاء ولا كرب  
 ولا قول وإش كاضع ذى مداوة • ولا بعد دار إن نأيت ولا قرب  
 وما ذاك من نعتي لديك أصابها • ولكن حبا ما يقاربه حب  
 فإن تقبلي يا عبد توبة تأيم • يئ ثم لا يوجد له أبدا ذنب  
 أذل لكم يا عبدة نيا هويم • وإن إذا ما رامني فيركم صعب  
 وأعد نفسي في الهوى فتعوقني • ويأمرني قلب بكم كلف صعب  
 وفي الصبر عن لا يؤاتيك راحة • ولكنه لا صبر عندي ولا لب  
 وعبدة بضياء المحابر طفلة • منعمة نفسي الحليم وما تصبو  
 قطوف من الحور والأانس الضحى • متى تمش قيس الباع من بهر ترو  
 فلست بناس يوم قالت لأريم • نوايم شر كلهم لها زرب  
 ألا ليت شعري فيم كان صؤوده • أعلق أخرى ! أم على به عتب

(١) كذا في ديوانه وفي الأمان ج ١ ص ٢٧٩ « على ما عتده » .



وقال :

إِنْ طَلَفَ الْخَيْالَ حِينَ أَلَمَا ٥ هَاجَ لِي دُكْرَةٌ وَأَحْدَتْ هَمًّا  
جَدَدِي الْوَصْلَ بِأُسْكُنَ وَجُودِي ٥ يُحِبُّ رَجِيلُهُ قَدْ أَمَمَا  
لَيْسَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ إِلَّا ٥ أَنْ يَرِدُوا رَحْمَلَهُمْ فَمَتَمَا  
وَلَقَدْ قُلْتُ مُخْفِيًا لِقَرِيضٍ ٥ هَلْ تَرَى ذَلِكَ الْغَزَالَ الْأَمَمَا  
هَلْ تَرَى فَوْقَهُ مِنَ النَّاسِ تَخَفُّصًا ٥ أَحْسَنَ الْيَوْمِ صُورَةً وَأَمَمَا  
إِنْ تُلَيْسِي بِأَعَشَى بِخَيْرٍ وَإِنْ لَمْ ٥ تَبْذُلِي الْوَدَّ مَتَّ بِالْهَمِّ غَمًّا

وله أيضا :

أَمَا مَنْ كَانَتْ لِي بَصَرًا وَتَمَمًا ٥ وَكَيْفَ الْعَبْرُ عَنْ بَعْرِي وَتَمَمِي  
وَعَمَّنْ حِينَ يَذْكُرُهُ فُؤَادِي ٥ يَفِيضُ كَمَا يَفِيضُ الْفَرْبُ دَمَمِي  
يَقُولُ الْعَاذِلُونَ نَأَتْ قَدَمَهَا ٥ وَذَلِكَ حِينَ تَهْبِئِي وَوَلَمِي  
أَأَهْرُهَا فَأَقْصِدْ لَا أَرَاهَا ٥ وَأَقْطَعُهَا وَمَا هَمَّتْ بِقَطْعِي  
وَأَصْرِمُ حَبْلَهَا لِمَقَالٍ وَائِش ٥ وَأَجْعَلُهَا وَمَا هَمَّتْ بِفَجْعِي  
وَأَقِيمُ لَوْ خَلَوْتُ بِهِجْرٍ هِنْدِي ٥ لَضَاقَ بِهِجْرُهَا فِي النَّسْوِمِ ذَرَمِي

وهو القائل :

مَا كُنْتُ أَشْعُرُ إِلَّا مُدَّ عَرْنُوكُمْ ٥ أَنَّ الْمَصَاحِبَ تُنَمِّي شُبُهَتِ الْإِرَامِ  
لَقَدْ شَقِيتُ وَكَانَ الْحَيْنُ لِي سَبَبًا ٥ أَنْ عَلِقَ الْقَلْبُ قَلْبًا تُشْبِهُ الْجَهْرَامِ  
قَدْ كُنْتُ قَلْبِي تَأَعْبَانِي بِوَاحِدَةٍ ٥ وَقَالَ لِي لَا تَأْتَنِي وَأَذْهَقِ الْقَدَرَامِ  
إِنْ أُنْكِرْهُ الطَّرْفَ يَحْسَرُونَ غَيْرَكُمْ ٥ وَلَسْتُ أَحْسِنُ إِلَّا تَحْوِيكَ النُّظْرَامِ  
قَالُوا صَبَوْتَ فَلَمْ أَكْذِبْ مَقَالَتَهُمْ ٥ وَلَيْسَ يَنْبَغِي الصَّبَا إِنْ وَالَهُ كُفْرَامِ

(١) الحين : الحنة .

وقال أيضا :

ألا لَيْتَ قَبْرِي يَوْمَ تُقَضَّى مَنَاقِبِي \* بئسَ الذي مِن بَيْنَ عَيْلَتِكَ وَالْقَمِي  
وَلَيْتَ طَهْوَرِي كَانَ رِيْقَكَ كُلَّهُ \* وَلَيْتَ حَنُوطِي مِن مُشَاشِكَ وَالْدَمِي  
ألا لَيْتَ أُمُّ الْفَضْلِ كَانَتْ قَرِيْبِي \* هُنَا أَوْ هُنَا فِي جَنَّةٍ أَوْ جَهَنَّمِ

نظر عمر بن أبي ربيعة في الطواف إلى امرأة شريفة فرأى أحسن خلق الله صورةً  
فذهب عقله عليها وكلها فلم يُجِبْهُ ؛ فقال فيها :

الرَّيْحُ تَسْحَبُ أَذْيَالًا وَتَنْشُرُهَا \* يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مِمَّنْ تَسْحَبُ الرِّيحُ  
كَيْفَا تَجْرُبُنَا ذَيْلًا فَتَطْرَحُنَا \* عَلَى الَّتِي دُونَهَا مُغْبِةٌ سَوِيحُ  
أَيُّ بُقْرِكُمْ أَمْ كَيْفَ لِي بِكُمْ \* هَيَّاتِ ذَلِكَ مَا أَمْسَتْ لَنَا رُوحُ  
فَلَيْتَ ضِعْفُ الَّذِي أَلْقَى يَكُونُ بِهَا \* بَلْ لَيْتَ ضِعْفُ الَّذِي أَلْقَى تَبَارِيحُ  
أُحْدَى بُلْبَابَاتٍ حَتَّى دُونَ مَرْتَلَا \* أَرْضُ بَقِيَعَاتِهَا الْقَيْصُومُ وَالشَّيْخُ

فبلغها شعره فخرمت منه ، فقيل لها : اذكر به لزوجك ، فإنه سينكر عليه قوله ، فقالت :  
كلًا والله لا أشكوه إلا إلى الله ، ثم قالت : اللهم إن كان نوءٌ بأشبي ظالمًا فاجعله طعامًا  
للريح ، فطرب الدهر من ضرره ، ثم إنه غدا يومًا على فارس فهبت ريحٌ فتزل فاستتر  
بأسنانه ، فمصفت الريح نخدشه غصنٌ منها ، فذمى وورم به ومات من ذلك .

(١) هذا أحد الوجوه في الفعل الواقع بعد كذا : الرفع على أن ما كافة لها عن السمل ، والنصب على أن  
ما زائدة وكى عاملة لها بعدها ، وقد روى بالوجهين :

إذا أنت لم تنفع فضررنا \* يريد المتي كما يضر ويضع

(٢) مغيرة ، يريد بها الصلاة المهدية . (٣) سوح : جمع ساحة وهي القضاء . (٤) تباريح  
الشوق : توهجه ، قال السيد محمد مرتضى : قال شيخنا وهو من البلوخ التي لا مفردة لها وقيل : مفردة ترويج  
وأسمعه المحدثون وليس ثبت . (٥) قال في اللسان : القيصوم ، ما طالع من الشب ، ثم قال :  
والقيصوم من نبات السهل قال أبو حنيفة : القيصوم من المذكورين الأمراء وهو طيب الرائحة من دباحين البر  
ودونه هذب وله نورة صفراء وهي تهنئ على ساق وتطول .

## (ب) الغزل العذري

جميل<sup>(١)</sup>

قال نُصَيْبُ مولى عبد العزيز بن مروان: قَدِمْتُ المِثْنَةَ فسألتُ عن أعلم أهلها بالشعر، فقيل لي: الوليد بن سعيد الأثعبي، فوجدته بشعب سَلَع مع عبد الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن أَزْهر، فإِنَّا بجلوس إذ طلع علينا رجل طويل بين المتكئين يقود راحلة

(١) هو جميل بن عبد الله بن معمر بن هذرة، وكان شاعرا فصيحا مقدما جامدا للشعر والرواية. اشتهر بحبه بشية ابنة عمه، ولذلك حرف بجميل بشية، وكانا يقيان في وادي القرى، وكان أول عهده بها رعى صنبرة. ومن أرائق نظمه فيها قوله:

وأقول ما قاد المودة بيننا \* بوادي بفيض يا بينين صباب

وقلت لما قولاً بلغت مثله \* لكل كلام يا بينين جواب

ولم يحسكن راحا حتى صارت شابة، فأعذ بنظم القصائد فيها حتى اشتهر امره. وأتت مرة أن توبة بن الحبر صاحب ليل مرى هذرة فرأته بشية بهجت نظرا إليه وجميل حاضرا فثارت الغيرة في قلب جميل، فقال لتوبة: من أنت؟ قال: أنا توبة بن الحبر، قال: هل لك في الصراع؟ قال: ذلك إليك؛ فأعطته بشية ملادة حمراء فأزروها، ثم صاومه فصرعه جميل. ثم قال: هل لك في القتال؟ قال: نعم، فخاصمه فنفضله جميل. ثم قال: هل لك في السباق؟ قال: نعم. فسابقه فسبقه جميل. فقال له توبة: يا هذا، إنما فضل ذلك برجح الخالصة، ولكن احبط بنا الوادي، فهبط، فصرعه توبة ونفضله وسبقه.

وكان عند بشية مثل ما عند جميل، ولما رأت ماضيه فيها زادت شغفا به، ولكنها لم تكونا يجتهدان إلا حلبة على مرصد. ولم يكن جميل يظلم من الرقباء، لكنهم لم يستطيعوا رديه بريية. وأخباره معها كثيرة لا يسعها هذا المقام. ولم يزل يصنع بها سرا عن أهلها، فأخبرا بالثكوى منه إلى المامل، فظفر إلى الإبن حتى مرل المامل. وانظم أهل بشية الشام، فرحل جميل بهم، فصرصوه وشكوه إلى عتبرته، فضعه أهله وهدوه، فاقطع صبا، وأغبرا بلأ إلى مصر، وعاملها جسد العزيز بن مروان، فأحسن وقادته، ومرض هالك ومات. وكان طول الإقامة عرص بين المتكئين جميل الخليفة حسن البرة، توفي سنة ٨٢ هـ.

وجليل ديوان شعر كبير كان مشهورا في أيام ابن خلكان ولم يقف على غيره، ولكن من أشعارا مجموعة في كتابه من نسخة خطية في مكتبة برلين.

أظهر الكلام على جميل في الألفية ج ٧ ص ٧٧ وج ١ ص ٨٠ وابن خلكان ج ١ ص ١١٥ وتزارة الأدب ج ١ ص ١٩١ والشعر والشعراء ص ٢٦٠

عليها بركة حسنة، فقال عبد الرحمن بن حسان لعبد الرحمن بن أذهر : يا أبا جبر، هذا جميل فادعه لعله يُنشدنا، فصاح به عبد الرحمن : هيا جميل، فأنفقت فقال : من هذا ؟ فقال : أنا عبد الرحمن بن أذهر، فقال : قد علمت أنه لا يمتري على إلا منك، فأتاه، فقال له : أنشدنا، فأنشدهم :

ونحن متعنا يوم أول نساءنا \* ويوم أقي والأسنة ترعف<sup>(١)</sup>  
يحب الفواني البيض ظل لوائنا \* إذا ما أمانا الصارخ المتلهف  
نسير أمام الناس والناس خلفنا \* فإن نحن أومانا إلى الناس وقفوا  
فأى مسة كلت في رماحه \* كما قد أمانا والمفانير يصف  
وصكنا إذا ما معشر نصبوا لنا \* ومررت جوارى طيرهم وتيفوا<sup>(٢)</sup>  
وضعتا لم صاع القصاص رهينة \* بما سوف نوفيها إذا الناس طفوا<sup>(٣)</sup>  
إذا استبق الأقدام مجدا وجنتنا \* لنا مرقا مجيد وللناس مرقف

ثم قال له : أنشدنا هزجا، قال : وما المزج ؟ لعله القصير، قال : نعم، فأنشده :

رسم ديار وقفت في طلكه \* كدت أقضى الحياة من جلله<sup>(٤)</sup>  
موحشا ما ترى به أحدا \* تسج الرشح ترب معتدله  
وصريعا بين التمام ترقى \* طازفات المدب في أسله  
بين عطاء رائش فبلى \* فالنسيم الذي إلى جبهله  
واقفا في ديار أم جسير \* من يحيى يومه إلى أصله  
يا خليلات أم جسير \* حين يدنو الضجيج من غلله<sup>(٥)</sup>  
روضة ذات حنوة وتراعى \* جاد فيها الرشح من سبله<sup>(٦)</sup>  
يلنا نحن بالأراك معا \* إذ بدا راكب على جماله

(١) ترعف : تقطردا . (٢) تيفوا : من البياقة، وهي زجر الطير والاختيار بأسمائها ومساكنها بأحواشها، فيسند أو يشام . (٣) التلهف : قص الكيل . (٤) من أجله . (٥) الغلل : جمع غلة، وهي ما يتوارى فيه أو شمار تحت التوب . (٦) السبل : المطر .

فَتَأْمُرْتُ<sup>(١)</sup> ثُمَّ قُلْتُ لَهَا \* أَكْرَمِيهِ حَيْثُ فِي زُجْلِهِ  
فَطَلَانَا بِنَعْمَةٍ وَأَتَكْنَا \* وَشَرِبْنَا الْحَلَالَ مِنْ قُلْلِهِ  
قَدْ أَصَوْنُ الْحَدِيثَ دُونَ أَيْج \* لَا أَخَافُ الْأَذَاةَ مِنْ قَبْلِهِ  
غَيْرَ بَيْضٍ لَهُ وَلَا مَلِيحٍ \* غَيْرَ أَنِّي أَتُحْتُ<sup>(٢)</sup> مِنْ وَجَلِهِ  
وَخَلِيلٍ صَافِيٍّ مَرْتَضِيٍّ \* وَخَلِيلٍ فَارِقَتْ مِنْ مَلَكِهِ

ثم افتاد راحلته موليا، فقال ابن الأَزهري : هذا أشعر أهل الإسلام، فقال ابن حسان :  
نعم والله وأشعر أهل الجاهلية، والله ما لأحد منهم مثل هجائه ولا نسيه، فقال عبد الرحمن  
ابن الأَزهري : صدقت .

قال محمد بن سَلَام : كان لكثير في النسب حظ وافر، وجميل مقدم عليه وعلى  
أصحاب النسب في النسب، وكان جميل صادق العبابة والعشق، ولم يكن كثير بعاشق  
ولكنه كان يتقوّل، وكان الناس يستحسنون بيت كثير في النسب، وهو :  
أُرِيدُ لِأَنسِي ذِكْرَهَا فَكُنَّا نَمَّا \* تَمَثَّلُ لِي لَيْسَ بِكُلِّ سَبِيلٍ  
وَدَايْتُ مِنْ يَفْضُلٍ عَلَيْهِ بَيْتَ جَمِيلٍ :

خَلِيلِي - فَمَا عَشْتَا هَلْ رَأَيْتَا \* قَتِيلًا بَكَى مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ قَبِيلٍ

قيل إن بثينة واعدت جميلا أن يلتقيا في بعض المواضع، فأتى لوعدها، وجاء أعرابي  
يستضيف القوم، فأنازله وقرّوه، فقال لهم : قد رأيْتُ في بطن هذا الوادي ثلاثة نفر متفرقين  
منوارين في الشجر وأنا خائف عليكم أن يسلبوا بعض إلبكم، فعرفوا أنه جميل وصاحبها،  
لجسوا بثينة ومنعوها من الوفاء بوعده، فلما أسفر له الصبح انصرف كثيبا سيئ الظن بها  
ورجع إلى أهلها، فجعل نساء الحى يَقْرَعْنَهُ بِذَلِكَ وَيَقُلْنَ لَهُ : إنما حصات منها على الباطل  
والكذب والغدر، وغيرها أولى بوصلك منها، كما أن غيرك يحظى بها، فقال في ذلك :

(١) تأمرت : ملت . (٢) أُنَحْتُ : حذروا .

فأجبتُها بالقول بعد تسرُّ \* حيَّيْنِيَّةَ عنِ وِصَالِكِ شاعِلِ  
 أُبَيِّنُ لَكَ قَدَ مَلَكِي فَأُصَيِّحِي <sup>(١)</sup> \* وَخُذِي بِحَقِّكَ مِنْ كَرِيمٍ وَاصِلِ  
 فَارْتَبِ عَارِضِي طِينًا وَصَلِّهَا \* بِالْجِدِّ تَخْلُطُهُ بِقَوْلِ الْهَازِلِ  
 لَوْ كَانَ فِي صَدْرِي كَقَدْرِ قُلَامِي \* فَضْلًا وَصَلِّكَ أَوْ أُنْثَى رَسَائِلِ  
 وَيَقُلَنَّ لَكَ قَدْ رَضِيَتْ بِبَاطِلِ ■ مِنْهَا نَهَلْ لَكَ فِي اجْتِنَابِ الْبَاطِلِ  
 لِيُرْآَنَّ عَنْكَ هَوَايَ ثُمَّ يَصَلِّتَنِي \* وَإِذَا هَوَيْتُ فَا هَوَايَ بِزَائِلِ  
 صَادَتْ فَوَادِي يَابُتِينَ حَبَالِكُمْ \* يَوْمَ الْجَحْنُونَ وَأَخْطَاكَ حَبَائِلِ  
 مَتَّيْنَتَنِي قَلَوِي مَا مَتَّيْنَتَنِي \* وَجَعَلْتَ حَاجِلٌ مَا وَعَدْتَ كَاجِلِ  
 وَتَنَاقَلْتُ لَمَّا رَأَيْتُ كَلْفِي بِهَا \* أَحْبَبْتُ إِلَيْكَ بِذَلِكَ مِنْ مَتَنَائِلِ  
 وَأَطْلَعْتُ فِي هَوَاذِلَا فَهَجَرْتَنِي \* وَعَصَيْتُ فَيْكَ وَقَدْ جَهَدَنَ هَوَاذِلِ  
 حَاوَلْتَنِي لِأُبَيِّنَ جَبَلَ وَصَالِكُمْ \* مَنَى وَلَسْتُ وَإِنْ جَهَدَنَ بِفَاعِلِ  
 فَوَدِدْتُكُمْ وَقَدْ سَمِعْتُمْ بِهِجْرَكُمْ \* لَمَّا سَمِعْتُمْ لَهُ بِأَفْوَقِ نَاصِلِ <sup>(٢)</sup>  
 بَعْضُكُمْ مِنْ غِيْظِ عَلِيٍّ أَنَا هَلَا \* وَوَدِدْتُ لَوْ بَعْضُكُمْ صُمٌّ جَنَائِلِ  
 وَيَقُلَنَّ لَكَ يَابُتِينَ بِغِيْلَةٍ \* تَمْنَى فِدَائِكَ مِنْ ضَيِّقٍ بَاخِلِ

وقال جميل في وعد بثينة بالطلاق وتأخرها قصيدة أولها :

بَا صَاحِبِ مِنْ بَعْضِ الْمَلَامَةِ أَقْصِرْ \* إِنَّ الْمُنَى لَيَفْءُ أُمَّ الْمُسْوَرِ

ومنها :

وَكَاثِبَ طَارِقَهَا عَلَى عَالِي الْكَرَى \* وَالنَّجْمِ وَهَذَا قَدْ دَنَا لَتَقْوَرِ  
 يَسْتَأْذِنُ رِيحَ مَدَامِيَّةٍ مَجْزُوءَةٍ \* بِذِكْرِ مَسِيكِ أَوْ تَحْيِيكِ الْعَنَبَرِ <sup>(٣)</sup>

(١) أجمعى : أحسن النعم . (٢) الأفوق : السهم الذي كسره ، وهو مشق رأس السهم حيث يقع الوز . واصل : لا فصل فيه . (٣) يستأذن : يشم .

ومنها :

إني لأحفظ غيبكم ويسرني \* اذ تذكرين بصالح أن تذكرى  
ويكون يوم لا أرى لك مسلاً \* أولتني فيه على كائنهم  
بإلتني البقي المنية بقتة \* إن كان يوم لقائكم لم يقتد  
أو أستطيع مجدداً عن ذكركم \* فيفبق بعض صباي وشكرى

وفيه يقول :

لو قد تجن كما أجن من الهوى \* لعذرت أو لظلمت إن لم تعذر  
واقه ما للقلب من علم بها \* غير الظنوف وغير قول الخير  
لا تحسي أني هربك طائماً \* حدثك لمعرك رائح أن تهجرى  
فلتبكين الباكات وإن أبح \* يوما بسررك معلماً لم أضد  
يهواك ما حشيت الفؤاد فإن أمت \* ينبح صدأ صدك بين الأبر  
إني إليك بما وعدت لناظر \* نظرت الفقير إلى الغنى المكث  
بعد الديون وليس يجهز وعداً \* هذا الغريم لنا وليس بمعير  
ما أنت والوعد الذي تديتني \* إلا كبرقي بحاية لم تظفر  
قلبي نصحت له فردت نصيحتي \* فتى هربت به منه تكثري

وقال في إخلاصها لأمه هذا الموضع :

ألا ليت ريعان الشباب جديداً \* ودهراً تولي يا بئير يعود  
فتفتي كما كنا نكون وأنتم \* قريب واذا ما تبذلون زهيداً  
وما أنس يملأ شيء لا أنس قولها \* وقد قربت يضيئ امرئيد<sup>(١)</sup>  
ولا قولها لولا الميؤن التي ترى \* أتيتك فاعذرنى فذلك جدود  
خليتي ما أخفى من الوجد ظاهراً \* ودسي بما قلت الفداء شهيد

(١) النضر : المهرول من الإبل وغيرها .

أَلَا قَدْ أَرَى وَاللَّهِ أَنَّ رَبَّ عَتِيقٍ \* إِذَا الدَّارَ شَطَطَتْ بَيْنَنَا مَسْتَرِيدٍ  
 إِذَا قُلْتُ مَا بِي يَا بَشِينَةً قَاتِلٍ \* مِنْ الْحَبِّ قَالَتْ ثَابِتٌ وَيَزِيدٍ  
 وَإِنْ قُلْتُ رُدِّيْ بَعْضَ عَقْلِ أَحْشَبِهِ \* مَعَ النَّاسِ قَالَتْ ذَلِكَ مِنْكَ بَعِيدٍ  
 فَلَا أَنَا مُرْدُودٌ بِمَا جِئْتُ طَالِبًا \* وَلَا حُبُّهَا فِيمَا يَبِيدُ يَبِيدُ  
 بِحَرْبِكَ الْجَوَازِي يَا بَشِينَ مَلَامَةٍ \* إِذَا مَا خَلِيلُ بَارَتْ وَهُوَ حَمِيدٍ  
 وَقُلْتُ لَهَا بَنِي وَبَنِيكَ فَاعْلَمِي \* مِنْ اللَّهِ مِيثَاقٌ لَهُ وَعَهْدُودٍ  
 وَقَدْ كَانَتْ حُبِّكُمْ طَرِيقًا وَتَالِدًا \* وَمَا الْحَبُّ إِلَّا طَارْفٌ وَتَلِيدٍ  
 وَإِنْ عَرَوْضُ الْوَصْلِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا \* وَإِنْ سَبَّهَتْهُ بِالْمَنَى لَعَلَّ عَمُودٍ  
 فَأَنْفَيْتُ عَيْشِي بِاتِّظَارِي نَوَاحِي \* وَأَبْلَيْتُ ذَلِكَ الدَّهْرَ وَهُوَ جَدِيدٍ  
 فَلَيْتَ وَشَاءَ النَّاسُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا \* يَدُوفٌ لَمْ تُشَأْ طَاعُطٌ سُودٌ <sup>(٢)</sup>  
 وَلَيْتَ لَمْ فِي كُلِّ مُتَمَتِّي وَشَارِقِي \* تَضَاعَفُ أَكْبَالُ لَمْ وَقُودِ  
 وَيَحْسَبُ نِسْوَانٌ مِنَ الْجَهْلِ أَنِّي \* إِذَا جِئْتُ لِأَيَّامٍ كُنْتُ أُرِيدُ  
 فَأَقِيمُ طَرَفِي بَيْنَهُنَّ فَيَسْتَوِي \* وَفِي الصِّدْرِ يَوْمٌ يَبْنِي بَعِيدِ  
 أَلَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ أَبْيَتَنَ لَيْلَةً \* بِوَادِي الْقُرَى إِلَى إِذَا لَسَعِيدِ <sup>(٣)</sup>  
 وَهَلْ أَهْمِيْعُنَ أَرْضًا تَقْطُلُ رِيَاحُهَا \* لَهَا بِالثَّنَائِيَا الْقَوَايِدُ وَثِيدِ <sup>(٤)</sup>  
 وَهَلْ أَلْقَيْتُ سَعْدِي مِنَ الدَّهْرِ مَرَّةً \* وَمَا رَيْتُ مِنْ حَبْلِ الصَّبَاءِ جَدِيدِ  
 وَقَدْ تَلَقَّى الْأَهْوَاءُ مِنْ بَعْدِ يَأْسِيَةٍ \* وَقَدْ تَطَلَّبُ الْحَاجَاتُ وَهِيَ بَعِيدِ  
 وَهَلْ أَزْبَحْتُ حَقًّا عِلَاقَةً شَيْئَلَةً \* بِحَرْقِ ثُبَاهِيَا سَوَاهُمُ قُودِ <sup>(٥)</sup>  
 عَلَى ظَهْرِ مَرْهُوبٍ كَأَنَّ نَسْوَةً \* إِذَا جَازَ هُلَاكَ الطَّرِيقِ رُقُودِ

(١) المرض : الطريق في مرض الجرب في مفرق ، يريد الطريق الى وصلها . (٢) يدوف : يخلط . وطاعط : جمع طاعط وهو من في لسانه حمة ، وأراد بالطاعط هنا : الخوال . (٣) القاروايات : الخاليات . (٤) الرويد : الصوت العالي الشديد . (٥) الحرف : الناقة للضامرة الصلبة . والملادة : المشقة الصلبة . والشملة : السريعة . والحرق : الأرض الراسخة . والساحية : الناقة الضامرة .



سَبَّحَنِي بِمَنِّ جُودِرٍ وَسَطَرِ دَرَبٍ \* وَصَدَرَ كَفَاوَرِ اللَّجَبِ وَجِيدٍ <sup>(٢)</sup>  
 تَزَيَّفَ كَمَا زَاغَتْ إِلَى سِلَافَتِهَا \* مُبَاهِيَةً طَيَّا الرِّشَاحِ مَيُودِ <sup>(٣)</sup>  
 إِذَا جَعَتْهَا يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ زَائِرًا \* تَمَرُّضَ مَقْرُوضِ الْيَدَيْنِ صُودِ  
 يَصُدُّ وَيُفْضِي عَنْ هَوَايَ وَيُغْنِي \* دُنُوبًا طَلِبًا إِنَّهُ لَعُودِ  
 فَأَصْرِمُهَا خَوْفًا حَكَايَ مُجَانِبٍ \* وَيَنْقُلُ عَنَّا مَرَّةً فَنُودِ  
 لَمَنْ يَمُطُّ فِي الدُّنْيَا قَرِينًا كَهْلًا \* فَتُكَلِّفُكَ فِي عَيْشِ الْحَيَاةِ رَشِيدِ  
 يَمُوتُ الْمَوْسَى مَتَى إِذَا مَا لَقِيَتْهَا \* وَيَحْيَى إِذَا فَارَقَتْهَا فَيَعُودِ  
 يَقُولُونَ جَاهِدْ يَا جَمِيلُ بَغْزَوَةٍ \* وَأَيَّ جِهَادٍ غَيْرَهُنَّ أُرِيدِ  
 لِكُلِّ حَدِيثٍ يَنْهَنُ بِشَاشَةٍ \* وَكُلِّ قَتِيلٍ يَنْهَنُ شَهِيدِ  
 وَمَنْ كَانَ فِي حَيٍّ بُتْنِيَّةً يَمْتَرِي \* فَرَّقَاهُ ذِي ضَالٍّ عَلَى شَهِيدِ  
 أَلَمْ تَهْلِكْ يَا أُمُّ ذِي الْوَدْعِ أُنَى \* أَضَاكَ ذِكْرَاكَ وَأَنْتِ صُلُودِ

بعثت أمةً لبثينة إلى أبيها وأخوها وقالت لهما: إن جملاً عندها الليلة، فأتياها مشتملين على سيفين، فرأياه جالسا منها بحجرة يحدتها ويشكو لها به، ثم قال لها: يا لبثينة، أرايت وذي إياك وشقني بك ألا تجزيينيه؟ قالت: بماذا؟ قال: بما يكون من المتعابين، فقالت له: يا جميل، أهذا تبني! والله لقد كنت عندي بعيداً منه، ولئن طودت تمرضاً برية لا رأيت وجهي أبداً! فضحك وقال: والله ما قلت لك هذا إلا لأعلم ما عندك فيه، ولو علمت أنك تجيبيني لعابث أنك تجيبين غيري، ولو رأيت منك مساعدة لضربتك بسفي هذا ما استمسك في يدي، ولو أطاعتني نفسي لمجرئك بحجرة الأبد، أو ما سمعت قولي:

وَإِنِّي لَأَرْضِي مِنْ بُتْنِيَّةٍ بِالَّذِي \* لَوْ أَبْصَرَهُ الْوَاشِي لَقَرَّتْ بِلَايِلِهِ  
 بَلَا وَيَالَا أَسْتَطِيعُ وَبِالْأُنَى \* وَبِالْأَمَلِ الْمَرْجُو قَدْ خَلَبَ أَمَلُهُ  
 وَبِالنَّظَرَةِ الْعَمَلِ وَبِالْحَوْلِ يَفْضِي \* وَأَوَّاهُ لَا تَلْسُقُ وَأَوَائِلُهُ

(١) الفانور: الخوان من رخام أرضة أرذمب. (٢) في البيت إلهاء، وهو اختلاف حركة الروي

بالرفع والدرس. (٣) زاف: ينجثر. (٤) أي ناسية.

فقال أبوها لأخنها : قم بنا ، فإ يبنى لنا بعد اليوم أن نمتع هذا الرجل من لغائها ،  
فانصرفا وتركاهما .

ومن قول جميل :

إِنَّ الْمَنَازِلَ هَبَّتْ أَطْرَافِي \* وَأَسْتَجَمَتْ آيَاتُهَا بَحْوَانِي  
فَقَرَأْتُ لَوْحَ بَنِي الْحَبَيْنِ كَأَنِّي \* أَنْضَاءُ رَسِيمِ أَوْسُطُورِ كِتَابِي  
لَمَّا وَقَفْتُ بِهَا الْقُلُوصُ تَبَادَرْتُ \* مِنِّي الدَّمْعُ لِفَرْقَةِ الْأَحْجَابِ  
وَذَكَرْتُ عَصْرًا يَا بَشِينَةَ شَاقِي \* وَذَكَرْتُ أَيَّامِي وَشَرَّخَ شَبَابِي

لما نذراهل بشينة دم جميل وأهدره لم السلطان ضاقت الدنيا بجميل ، فكان يصعد  
بالليل على قوز رمل يتلسم الريح من نحو حى بشينة ويقول :

أَيَا رِيحِ الشَّامِ أَمَا تَرَيْنِي \* أَهْمِي وَأَنْخِي بِأَدَى الْعُجُولِ  
هَيَّ لِي تَسْمَةً مِنْ رِيحِ بَائِنٍ ■ وَتُنِّي بِالْهَبُوبِ إِلَى جَبِيلِ  
وَقُولِي يَا بَشِينَةُ حَسْبُ نَفْسِي \* قَلِيلُكَ أَوْ أَقْلُ مِنْ الْقَلِيلِ

ومن قوله :

يَبْكُ جَبِيلٌ كُلُّ سُوءٍ أَمَّا لَهُ \* لَدَيْكَ حَدِيثٌ أَوْ إِلَيْكَ رَمْلٌ  
وَقَدْ قُلْتُ فِي حُبِّي لَكُمْ وَصَائِي \* عَاسَنَ شَعْرَ ذِكْرِهِنْ يَطُولُ  
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَوْلِي رِضَاكَ فَعَلَّامِي \* هَبُوبَ الصَّبَا يَبْنِي كَيْفَ أَهْوُلُ  
فَأَغَابَ مِنْ عَيْنِي خَيَالُكَ لَحْظَةً \* وَلَا زَالَ عَنْهَا وَالْخِيَالُ يَزُولُ

ومنه :

خَلِيلُ عَوْجَا الْيَوْمِ حَتَّى تُسَلِّمًا \* عَلَى عَذْبَةِ الْأَنْيَابِ طَيِّبَةِ النَّشِيرِ  
أَلَيْهَا بَا ثُمَّ اشْفَعَا لِي وَسَلًّا ■ عَلَيْهَا سَقَاها اللهُ مِنْ سَائِغِ الْقَطْرِ

(١) القوز : المستبر من الرمل ، وقال الأزهري : إنه الكتيب المشرق .

إذا ما دنت زدت اشتياقاً وإن نأت \* جِزَعْتُ لَدَى الدارِ مِنْهَا وَلِلْبَعْدِ  
أبَى الْقَلْبِ إِلَّا حَبَّ بَشَنَةً لَمْ يَرِدْ \* سَوَاهَا وَحَبَّ الْقَلْبِ بَشَنَةً لَا يَجِدِي  
وَفِيهَا يَقُولُ :

سَلَى الرِّكَبَ هَلْ نُجِنَا لَمَعْنَاكَ مَرَّةً \* صُدُورَ الْمَطَايَا وَهِيَ مُوقَرَةٌ تُحْدِي<sup>(١)</sup>  
وَهَلْ فَاضَتْ الْعَيْنُ الشَّرُوقَ بِمَائِهَا \* بَيْنَ أَجْلِكَ حَتَّى أَخْضَلَ مِنْ دَمْعِهَا بُرْدِي  
وَأَنِى لَأَسْتَجِرَى لَكَ الطَّيْرَ جَاهِدًا \* تَجْرِي بَيْنَ مَنْ لِفَائِكَ أَوْ سَعِدِ  
وَأَنِى لَأَسْتَبْكِي إِذَا الرِّكَبُ غَرَدُوا \* بِذِكْرِكَ أَنْ يَحْيَا بِكَ الرِّكَبُ إِذْ يَحْدِي  
فَهَلْ تَجْزِي بَيْنَ أُمِّ عَمْرٍو وَبُودَهَا \* فَاتَتْ النَّدَى أَخَى بِهَا فَوْقَ مَا أَبْدَى  
وَكَلَّ عَمَّ لَمْ يَزِدْ فَوْقَ عَهْدِهِ \* وَقَدْ زِدْتُهَا فِي الْحَبِّ مَنَى عَلَى الْمَهْدِ  
وَمِنْ قَوْلِهِ فِيهَا :

لَهَا فِي سَوَادِ الْقَلْبِ حَبٌّ وَمَنْعَةٌ \* هِيَ الْمَوْتُ أَوْ كَادَتْ عَلَى الْمَوْتِ تُشْرِفُ  
وَمَا ذَكَرْتُكَ النَّفْسُ يَا بَشْتُ مَرَّةً \* مِنْ الدَّهْرِ إِلَّا كَادَتْ النَّفْسُ تَلْفُ  
وَالَا اعْتَرَفَنِي زَفَرَةٌ وَاسْتَكْنَاهُ \* وَجَادَ لَهَا تَهَجُّلٌ مِنَ الْعَيْنِ يَذْرِفُ  
وَمَا اسْتَطَرَفَتْ نَفْسِي حَدِيثًا نَحْلَةً \* أُسْرُهُ إِلَّا حَدِيثُكَ أَطْرَفُ  
وَأَوَّلُ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ :

أَمِنْ مَتَرٍ قَفَرٍ مَقَّتْ رَسُومَهُ \* تَمَلَّكَ تَفَادِيهِ وَنَجَاهُ حَرَجُفُ<sup>(٢)</sup>  
فَأَصْبَحَ قَفَرًا بَعْدَ مَا كَانَ أَهْلًا \* وَجُمِلُ الْمُنَى تَشْتُو بِهِ وَتُصَيِّفُ  
فَطَلَبْتُ وَمُسْتَأْنٍ مِنَ الدَّمْعِ هَامِلٌ \* مِنَ الْعَيْنِ لَمْ تُجِبْ بِالْأَدَارِ بِتَرِفِ  
أَتُصَيِّفُ جَمَلَ قَتَعِدَلٍ يَلِينَا \* إِذَا حَكَمْتُ وَالْحَاكِمُ الْعَدْلُ يُنْصَفُ  
تَلَقَّتْهَا وَابِلِجْسُمٍ مَنِ مَصْصَحٌ \* فَمَا زَالَ يَنْتَبِي حَبٌّ جَمِلٌ وَأَضْمُفُ

(١) موقرة : محبة الوقور وهو الحمل - وعذى البري ينعنى : أسرع وزج بقوائمه .

(٢) الحرجف : الرمح الباردة الشديدة الحبوب .

الى اليوم حتى مُلَّ جسمى وَثَقْنِي \* وَأَكْرَثُ من نَفْسِي الَّذِي كُنْتُ أَعْرِفُ  
 قَنَاءَةً من الخُرَابِ مَا فَوْقَ حَقْوِهَا \* <sup>(١٢)</sup> وَمَا تَحْتَهُ مِنْهَا نَقًّا يَتَقَصَّفُ  
 لَهَا مُقْتَنَارِيمٌ وَجِيدٌ جَدَائِدُهُ \* وَكُنْشَعُ كَطَلِ السَّابِرَةِ أَهْبَفُ  
 وَلَسْتُ بِنَاسِ أَهْلِهَا حِينَ أَتَوَلَّوْا \* وَجَالُوا عَلَيْنَا بِالسُّيُوفِ وَطَوَّفُوا  
 وَقَالُوا جَمِيلٌ بَاتَ فِي الْحَيِّ عِنْدَهَا \* وَقَدْ جَعَرَدُوا أَسْيَافَهُمْ ثُمَّ وَقَفُوا  
 وَفِي الْبَيْتِ لَيْثُ الْغَابِ لَوْلَا خَفَافُهُ \* عَلَى نَفْسِ جَمِيلٍ وَالْإِلَهِ لَأُرْطَفُوا  
 تَمَنَّتْ وَقَدْ كَادَتْ مَرَارًا تَطْلُمْتُ \* إِلَى حَرْبِهِمْ نَفْسِي وَفِي الْكَفِّ مَرْهَفُ  
 وَمَا سَرَّتْنِي غَيْرُ الَّذِي كَانَ مِنْهُمْ \* وَمَنِي وَقَدْ جَاءُوا إِلَى وَأَوْجَفُوا  
 فَكَمْ مُرْتَجِّجٌ أَصْرًا أُتِيجَ لَهُ الرَّدَى \* وَمِنْ خَائِفٍ لَمْ يَتَّقِصْهُ التَّخَوُّفُ  
 وَمِنْهَا :

أَلَنْتُ هَتَفْتُ وَرَفَاءُ نَزَلَتْ سَفَاهَةً \* تُبَكِّي عَلَى جَمِيلٍ لَوْرَقَاهُ تَهْنِفُ  
 فَلَوْ كَانَتْ لِي بِالْقَصْرِ بِاصْبَاحِ طَافَةٍ \* صَرَمْتُ وَلَكِنِّي عَنِ الْقَصْرِ أَهْنِفُ

قيل : إن مروان طلب الى جميل أن ينزل فيرجز به ، وهو يريد أن يمدحه ، فنزل

جميل فقال :

أَنَا جَمِيلٌ فِي السَّنَامِ الْأَعْظَمِ \* الْفَارِجِ النَّاسِ الْأَعَزِّ الْأَكْرَمِ  
 أَحْمِي ذَهَابِي وَوَجِدْتُ أَفْرَمِي \* كَانُوا عَلَى ظَرْبِ طَوْدٍ خَضِرِمْ <sup>(١٦)</sup>  
 \* أَمِيبًا عَلَى النَّاسِ فَلَمْ يَسْتَمِ \*

فقال : مدَّ عن هذا ؛ فقال جميل :

لَهْفًا عَلَى الْبَيْتِ الْمَعْدِي لَهْفًا \* مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ قَدْ اسْتَكْفَا  
 وَلَوْ دَعَا اللَّهَ وَمَدَّ الْعَكْفَا \* لَرَجَحْتُ مِنْهُ الْبِلَادُ رَجْفَا

(١) الحقو : الحصر . (٢) يتقصف : يهيل ويتقطع بعضه عن بعض . (٣) البداية :  
 الفزالة . (٤) والساري : توب من أجد الثياب منسوب الى سايور على غير قياس . (٥) يرجز به : يشده  
 أرحوة . (٥) أقرم : جمع قرم (بالفتح) وهو السيد العظيم . (٦) خضرم : عظيم .

وطلب ذلك إليه الوليد فقال :

أنا جميل في السنام من معذ • في الذروة العليا والركن الأشد  
والبيت من سعد بن زيد والعقد • ما يفتي الأعداء مني ، ولقد  
أضري بالشتم لساني ومرد • أفود من شئت وصعب لم أفد  
فقال له الوليد : اركب لاحلك الله ! وما مدح جميل أحدا قط .

ومن قول جميل في مرأجة جواس بن قطبة ، وكان ذلك بوادي القرى :

يا أم عبد الملك آصيريني • فيثني صري أو صليسي  
أبكي وما يدريك ما يبكي • أبكي حذار أن تخارقي  
وتجمل أبعد مني دوني • إن بني عمك أوصوني  
أن يقطعوا رأسي إذا لقوني • ويقفلوني ثم لا يدوني<sup>(١)</sup>  
كلا ورب البيت لو لقوني • شفعا ووزرا لتواكلوني<sup>(٢)</sup>  
قد علم الأعداء أن دوني • ضربا كإزاح القاض الجوني<sup>(٣)</sup>  
ألا أسب القوم إذ سبوني • بلى وما مر على دفين  
وساحبات بلوى الجحوني • قد جرّوني ثم جرّوني  
حتى إذا شابوا وشيوني • أنزلهم الله ولا يحزوني  
أشباه أعيار على معين • أحسن حس أسيد حرون  
فهو يضربطن من اليقين • أنا جميل فتعروني  
وما تَنَمْتُ فتتكروني • وما أعنيكم لتسألوني

(١) يدعى : من الدية وهي ما يسطى لولي القاتل من المال بدل النفس . (٢) تواكلوني : تركوني .

(٣) أوزعت الناقة بيوتها : رمت به دفعة دفعة . ومنه العدة توزع بالدم أي ترمى به كذلك .

أُتِيَ إِلَى عَادِيَّةٍ طَحُونٌ \* يَلْشُقُ ضُفَا السَّيْلِ ذُو الشُّوْنِ  
عَمْرُؤُا <sup>(١)</sup> رُجِحَ السَّيْفِ \* ذُو حَدَبٍ إِذَا يَرَى مَجُونِ <sup>(٢)</sup>  
\* تَحَلَّلَ أَحْقَادُ الرِّجَالِ دُونِي \* <sup>(٣)</sup>

ومن قوله يمدح أخواله من جندام :

جُذَامُ سَيْوْفِ اللَّهِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ \* إِذَا أَرِيتَ يَوْمَ اللِّقَاءِ أَرَامَ  
هُمْ مِنْهُمَا مَا يَبْنِي مِصْرَ فُذَى الْقَرْيِ \* إِلَى الشَّامِ مِنْ جِلٍّ بِهِ وَحَرَامِ  
بِضْرِبِ يَزِيلُ الْهَامَ عَنْ سَكَاتِهِ \* وَعَلَيْنِ كَيْزَاعُ الْخِصَاصِ تَوَامِ  
إِذَا قَصُرَتْ يَوْمًا أَكْثَفُ قَبِيلَةٍ \* عَنْ الْمَجْدِ نَالُهُ أَكْثَفُ جُذَامِ

اجتمع جميل وعمر بن أبي ربيعة بالأبطح، فأنشد جميل قصيدته :

لَقَدْ قَرِحَ الْوَأَشُونُ أَنْ صَرَمْتُ حَبْلِي \* بُيْتِنَةٌ أَوْ أَبَدْتُ لَنَا جَانِبَ الْبُخْلِ  
يَقُولُونَ مَهْلًا يَا جَمِيلُ وَإِنِّي \* لِأَقْسِمُ مَا بِي عَنْ بُيْتِنَةٍ مِنْ مَهْلٍ  
أَحَلُّتُ فَقَبِلَ الْيَوْمَ كَانَ أَوَانُهُ \* أُمُّ أَخْتِي فَقَبِلَ الْيَوْمَ أَوَمَدْتُ بِالْقَتْلِ  
لَقَدْ أَنْصَحُوا حَرْبِي نَبِيهَا ظَمِينَةٍ \* لَطِيفَةٍ عَلَى الْبَطْنِ ذَاتِ شَوَى بَزَلٍ  
وَكَمْ قَدْ رَأَيْتُ سَاحِيًا بَنِيْمَةٍ \* لَا تَرْمِي يَعْمِدُ بِكَفٍّ وَلَا رَجَلِي  
إِذَا مَا تَرَا جَمْنَا الَّذِي كَانَ يَبْنِي \* جَرَى الدَّمْعُ مِنْ عَيْنِي بَيْتِنَةً بِالْكَعْمَلِ  
كَلَانًا بَنَى أَوْ كَادَ يَبْكِي صَبَابَةً \* إِلَى الْإِفْرِهِ وَاسْتَعَجَلَتْ عَهْرَةً قَبْلَ  
فَلَوْ تَرَكْتُ حَقْلِي مَعِي مَا طَلَبْتُهَا \* وَلَكِنْ طَلَّابِيهَا لِمَا فَاتَ مِنْ عَقْلِ  
فَيَا وَجْهَ نَفْسِي حَسْبَ نَفْسِي الَّذِي بَهَا \* وَيَا وَجْهَ أَهْلِي مَا أُصِيبَ بِهِ أَهْلِي  
وَقَالَتْ لَا تَرَايَ لَهَا لَا زَعَافٍ \* قِيَمَارٌ وَلَا كُؤْسٌ الثَّنَايَا وَلَا تُسْلِي <sup>(٤)</sup>

(١) يَزِف : يجهلها نسر . (٢) ذُو حَدَب : ذُو مَوْج . (٣) جُهُون : معوج .  
(٤) أَرِيتَ : اشتدَّت . (٥) الكس : حركة : قصر الأستان أو صغرها أو لصوقها بسنوعها .  
وطلعت سه ولته فهي تملأه : تراكت أستانها .

إذا حَيْثُ شَمْسُ النَّهَارِ أَجْيَتْهَا \* بالكسبة الديباج والخُرْدَى انْقَمِلْ  
تَدَاوِينَ فَاسْتَجْمَعْنَ مَشْيًا بَدَى الْفَضَى \* دَرِبِ الْقَطَا الْكُدْرَى فَالْدَمْتُ السَّهْلَ  
أَذَا أَرَقْنَ أَوْ فُزَعْنَ لَمَنْ حَوَّلَهَا \* قِيَامَ بَنَاتِ الْمَاءِ فِي جَانِبِ الصُّعْلِ<sup>(١)</sup>  
أَجِدْكَ لَا أَلْقَى بُثْنَةً مَرَّةً \* مِنَ التَّهْرِ إِلَّا خَائِضًا أَوْ عَلَ رِجْلِ  
خَلِيلِي فَمَا عَشْتُهَا هَلْ رَأَيْتَا \* تَبْلًا بَكَى مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ قَبْلُ  
أَبْدَتْ مَعَ الْهَلَاكِ ضَيْقًا لِأَهْلِهَا \* وَأَهْلٍ قَرِيبٍ مُوسِعُونَ ذَوُو فَضْلِ  
أَلَا أَيُّهَا الْبَيْتُ الَّذِي حَبِلَ دُونَهُ \* بِنَا أَنْتَ مِنْ بَيْتِي وَأَهْلِكَ مِنْ أَهْلِي  
ثَلَاثَةٌ أَيُّهَا يَتِيمُتُ أَحَبَّهُ \* وَبِشَانِ لَيْسَا مِنْ هَوَايَ وَلَا شَكْلِي  
وَقَالَ فِي هَجْرَةِ هَجْرَتِهِ لِمَا يَأْخُذُ بِشَيْئَةٍ :

أَلَمْ تَسْأَلِ الرَّبَّ الْقِسْوَاءَ فَيَنْطَلِقُ \* وَهَلْ تُخْبِرُكَ الْيَوْمَ بَيْدَاءُ سَمَلِكُ<sup>(٢)</sup>  
وَقَفْتُ بِهَا حَتَّى تَجَلَّتْ عَمَائِي \* وَبَلَّ الْوَقُوفُ الْأَرْحَى الْمُسَوِّقُ<sup>(٣)</sup>  
تَعَزَّ وَانْ كَانَتْ طَلِكُ كَرِيمَةٍ \* لَعَلَّكَ مِنْ رِقَى لِبَنَتِهِ تُمَتَّقُ  
لَعَمْرُكَ إِنَّ الْيَمَادَ لَشَائِنِي \* وَبَعْضُ بَعَادِ الْبَيْنِ وَالنَّأَى أَشَوْقُ  
لَعَلَّكَ مَحْزُونٌ وَمُبْدٍ صَبَابَةٍ \* وَمُظْهِرُ شَكْوَى مِنْ أَنَاسٍ تَفَرَّقُوا  
وَبَيْضُ خَرِيرَاتٍ تُلْقَى خُصُورَهَا \* أَذَا لَمَنْ أَعْجَازُ يُخَالُّ وَأَسْوَقُ  
عَزَائِرُ لَمْ يَلْقَيْنِ بِؤْسَ مَعِيشَةٍ \* يَحْنُ بِهِنَّ النَّظِيرُ الْمُسْتَوْقُ  
وَضَلَلْتُ مَنْ وَجَدَ الْبَيْنَ بَعْدَ مَا \* سَرِمْتُ وَأَحْشَانِي مِنَ الْخَوْفِ تَحْفُوقُ  
مَعِيَ صَابِرٌ قَدْ أَخْلَصَ الْقَيْنَ صَقْلَهُ \* لَهُ حِينَ أُغْشِيهِ الضَّرْبَةَ رَوَّقُ  
فَلَوْلَا أَحْيَائِي ضِيقُنْ دَرَكًا بِزَائِرٍ \* بِهِ مِنْ صَبَابَاتِ الْبَيْنِ أَوَّلُ<sup>(٤)</sup>

(١) بَنَاتِ الْمَاءِ : مَا يَأْتِي الْمَاءَ مِنَ السَّيْلِ وَالطَّيْرِ وَالضَّفَادِعِ (أَنْظِرِ الْخُضْفَ وَالْخُضْفَ إِلَيْهِ) .

(٢) الْقِسْوَاءُ : الْمَاءُ الْقَلِيلُ عَلَى الْأَرْضِ لَا حَقَّ لَهُ . (٣) الْمَلَاكُ : الصَّالِكُ . (٤) الْعَمَلُ :  
الْقَاعُ الصَّغِيرُ . (٥) الْأَرْحَى : الْقَبِيلُ النَّبِيْبُ نَسَبُهُ إِلَى أَرْحَبَ وَهُوَ قَبِيلَةٌ مِنْ هَذَانِ تَلَسَّبَ  
إِلَيْهَا التَّجَانُّبُ الْأَرْحِيَّةُ . وَالْمُسَوِّقُ : الْحَسَنُ الْمَزِينُ . (٦) أَوَّلُ : بَعْدُ .

تُسَوِّدُ بِقَضْبَانِ الْأَرَاكِ مُفْلَجًا \* يُسَمِّعُ فِيهِ الْفَارِسِيَّ الْمُرَوِّقَ  
أَبْنَةُ لَلْوَصْلُ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا \* نَضَامُثَلٍ مَا يَنْضَوُ الْخَضَابُ فَيُخَالِقُ  
أَبْنَةُ مَا تَنَافَتْ إِلَّا كَأَنِّي \* بِجِسْمِ الثَّرِيَا مَا نَأَيْتُ مُعَلَّقُ

قال الرشيدُ لِإِسْحَاقَ الْمَوْصِلِيَّ : أَنَسَدْنِي أَحْسَنَ مَا يُحِبُّ فِي عَتَابِ حُبِّ وَهُوَ ظَالِمٌ  
مَتَعْتَبٌ ، فَأَنْشَدَهُ قَوْلَ جَمِيلٍ :

رَدَّ الْمَاءَ مَا جَاءَتْ بِصَفْوِ ذَنَائِبِهِ \* وَدَعَهُ إِذَا خِضَّتْ بِطَرَقِ مَشَارِبِهِ<sup>(١)</sup>  
أَعَاتِبُ مَنْ يَهْلُو لَدَى عَتَابِهِ \* وَأَتْرُكُ مَنْ لَا أَشْتَبِي وَأَجَابِيهِ  
وَمَنْ لَذَّةُ الدُّنْيَا وَإِنْ كُنْتُ ظَالِمًا \* عَنَافَتُكَ مَظْلُومًا وَأَنْتَ تَمَاتِيهِ

وَمِنْ قَوْلِهِ فِي زِيَارَةِ لَهُ :

زُودًا بِشَيْئَةٍ فَالْحَبِيبُ مَرُورُ \* إِنْ الزِّيَارَةَ لِلْحَبِّ يَمِيرُ  
إِنْ التَّرَجَّلُ أَنْ تَلْبَسَ أَمْرُنَا \* وَأَعْتَقْنَا قَدْرَ أَحْمَرٍ بِكُورِ  
إِنِّي عَشِيَّةٌ رُحْتُ وَهِيَ حَزِينَةٌ \* تَشْكُو إِلَى صَابَاةٍ لَصَبُورِ  
وَقَوْلِي بَتَّ عِنْدِي فَدَيْتُكَ لَيْلَةً \* أَشْكُو إِلَيْكَ إِنْ ذَاكَ يَمِيرُ  
فَرَأَاهُ مَيْسَامٌ كَأَنَّهُ حَدِيثُهَا \* دُرٌّ تَحْتَدَّرُ نَقْلُهُ مَشُورِ  
مُخْطُوطَةُ التَّنْبِيْنِ مُضْمَرَةٌ الْخَتْمِ \* رِيًّا الرُّوَادِفِ خَلْفَهَا تَمَكُورِ<sup>(٢)</sup>  
لَا حُسْنَهَا حُسْنٌ وَلَا كَدَالَمَا \* دَلٌّ وَلَا كُكُوفَارَهَا تَوْقِيرِ  
إِنْ اللِّسَانُ بِذِكْرِهَا لَمَوْكَلٌ \* وَالْقَلْبُ صَادٌّ وَالْخَوَاطِرُ صُورِ  
وَلَيْتَ جَزَيْتَ الْوَدَّ مَتَى مِثْلَهُ \* إِنْ بِذَلِكَ يَا بُشَيْرُ جَدِيرِ

وَعَدَلَهُ فِيهَا أَبْنُ عَمِّهِ رَوْقٌ ، فَقَالَ :

لَقَدْ لَأَمَنِي فِيهَا أَخٌ ذُو قَرَابَةٍ \* حَبِيبٌ إِلَيْهِ فِي مَلَامَتِهِ رُشْدِي  
وَقَالَ أَفِيضْ حَقِّي مَتَى أَنْتَ هَاتِمٌ \* بَيْنَانَةٍ فِيهَا قَدْ تُمِيدُ وَقَدْ تُبْدِي

(١) الطُّرُق : الماء الذي غَوَسَتْه الأيْلُ رَجَلَتْ لِهْ وَبِئَرَتْ .

(٢) مَحْطُوطَةُ الْخَتْمِ : مَعْدُونَتُهُمَا . وَالْمَوْكُورَةُ : الْمَطْوِيَّةُ الْخَلْقُ .



قلْتُ له فيها قَضَى اللهُ ما ترى \* على - وهل فيا قَضَى اللهُ من رَدَّ  
 فإن يَكُ رُشْدًا حَبِبا أَوْ غَوَايَةً \* فقد جُئْتُه، ما كان مني على عَمْدٍ  
 لقد جِئَ ميثاقُ من الله بيننا \* وليس لمن لم يُرَفِّقْ الله من عهدٍ  
 فلا وأَيُّها الخَلِيفَ ما خَنْتُ مَهْدَهَا \* ولا لي عِلْمٌ بالذي فعلتُ بعدى  
 وما زادها الواثِقون إلا كرامةً \* على - وما زالت هَدَيْتُها عندي  
 أفي الناس أَمْثالي أَحَبُّ بِلَاحُكُمْ \* كَأَلَى أَمْ أَحَبَّتْ من بينهم وحدي  
 وهل هَكَذَا يَلْقَى الْمُجِبُّونَ مثل ما \* لَقِيتُ بها أم لم يَجِدْ أَحَدٌ وجدي

وقال فيها :

خَلِيلِي عَوجًا اليَوْمَ حَتَّى تُسَلِّمًا \* على مَدْبِةِ الأَيناي طَيِّبَةِ النُّشْرِ  
 أَلَيْبَ بها ثم أَشْفِعا لي وَسَلِّبَ \* عليها سَقَلَهَا اللهُ من مَالِغِ القَطْرِ  
 وَبُوحًا بِذِكْرِي عند بَيْتِهِ وَأَنْظُرًا \* أَرْتَاحَ يَوْمًا أَمْ تَهْتَشُّ إلى ذِكْرِي  
 فإن تِلْكَ لم تَقْطَعْ قُوَى الوَدِّ بَيْنَنَا \* ولم تَنْسَ ما سَلَفْتُ في سَالَفِ التَّحَرُّ  
 فَكَيْفَ يَرَى مِنْهَا أَشْتِيائِي وَلَوْعَةً <sup>(١)</sup> \* بَيْنِي وَغُرْبٌ مِنْ مَدَامِهَا يَحْزَنُ  
 وَإِنْ تِلْكَ قد حَالَتْ عن العَهْدِ بَدَلًا \* وَأَصْبَحْتُ إلى القَوْلِ الْمُؤَنَّبِ وَالْمُزَيَّرِ  
 فَسَوْفَ يَرَى مِنْهَا صُدُودٌ وَلَمْ تَكُنْ \* - بِنَفْسِي - من أَهْلِ الخِيَانَةِ وَالْقَدَرِ  
 أَعُوذُ بِكَ اللَّهُمَّ أَنْ تَنْسَحَطَ النُّوَى \* بِبَيْتِهِ في أَدْنَى حَيَاتِي وَلَا حَزَمِي  
 وَجَاوِرٌ إِذَا مَا مِثُّ بَيْنِي وَبَيْنَهَا \* فيا حَبِذا مَوْتِي إِذَا جَاوَرْتُ قَبْرِي  
 عِدْمَتُكَ مِنْ حَبٍّ أَمَّا مِنْكَ رَاحَةٌ \* وما بِكَ عَنِّي مِنْ نَوَانٍ وَلَا قَتَرِ  
 أَلَا أَيُّهَا الحُبُّ المَبْرَحُ هل ترى \* أَخَا كَلَفٍ يُقَرِّى بِحَبٍّ كَأَ أُغْرِى  
 أَجْدَلُكَ لَا يَمِيلُ وَقَدْ يَلِي الهَوَى \* ولا يَتَمَيَّحِي بِبَيْتِهِ لِلزُّمَرِ

(١) هكذا وردت «فكيف» ولعلها فسوف ليستقيم بها السياق .

ومن قوله فيها :

فِي تَسْلُوكِكَ النَّفْسُ بِالْخُطَّةِ الَّتِي \* تُطِيلُ تَحْوِيضَ بِهَا وَوَعْدِي  
نَفْدَ طَالَمَا مِنْ غَيْرِ شَكْوَى قَبِيحَةٍ \* رَضِينَا بِحُكْمِكَ مِنْكَ غَيْرَ سَدِيدِ

ومنه :

بُشَيِّنَ سَلْبِي بَعْضَ مَالِي فَإِنَّمَا \* يَبِينُ عِنْدَ الْمَالِ كُلِّ بِخِيلِ  
فَإِنِّي وَتَعَكُّرَ الزَّيَارَةِ نَحْوَكُمْ \* لَبَيِّنَ يَدَيَّ هَجَرِ بُشَيِّنَ طَوِيلِ  
فِيالَيْتَ شَعْرَى هَلْ تَقُولِينَ بَعْدَنَا \* إِذَا نَحْنُ أَزْمَعْنَا غَدًا لِرَحِيلِ  
أَلَا لَيْتَ أَيَّامَا مَعْظِينَ رَوَائِعُ \* وَلَيْتَ النَّوَى قَدْ سَاعَدْتَ بِهَيْلِ

ومنه :

أَتَعْجَبُ أَنْ طَرِبْتُ لِمَصَوْتِ سَادٍ \* حَتَّى بَرَّزَ لِي سِرُّ بَيْطَانِ وَادٍ  
لَا تَعْجَبْ فَإِنَّ الْحُبَّ أَمْسَى \* لَبِثْنَا فِي السَّوَادِ مِنَ الْقَوَادِ

ومنه :

خَلِيلٌ عَوِجًا بِالْحَلَّةِ مِنْ جُمْلٍ \* وَأَتَرَاهَا بَيْنَ الْأَصْفَرِ وَالنَّجِيلِ  
تَقِفُ بَيْنَ يَدَيْهَا رِسْمَهَا إِلَيَّ \* تَعَاقِبُهَا الْأَيَّامُ بِالزَّوْجِ وَالْوَبِيلِ  
فَلَوْ دَرَجَ الْفَتْلُ الصَّبَا رُحِيلُهَا \* لَأَتَدَبَّ أَعْلَى جِلْدُهَا مَدْرَجُ الْفَتْلِ  
وَأَحْسَنُ خَلْقِ اللَّهِ جَيْدًا وَمُقَلَّةً \* تُسَبِّحُ فِي السَّوَانِ بِالشَّادِنِ الْفُطْلِ<sup>(١)</sup>

ومن قوله :

أَيْمُنْكَ مَرَى يَا بَشَّتَ طَلْفُكَ تَأْوِيَا \* هُدُوا فَهَاجَ الْقَلْبَ شَوْقًا وَأَنْصَبَا  
عَجِبْتُ لَهُ أَنْ زَارَنِي النَّوْمُ مُضْجَعِي \* وَلَوْ زَارَنِي مُسْتَقِظًا كَأَنَّ عَجَبَا

لَمَّا قَدِمَ جَمِيلُ مِنَ الشَّامِ بَلَغَ بِشَيْئَةِ خَبَرُهُ ، فَرَأَسْتُهُ مَعَ بَعْضِ نِسَاءِ الْحُلِيِّ تَذَكُّرُ شَوْقِهَا  
إِلَيْهِ وَوَجَدَهَا بِهِ ، وَطَلَبَهَا لِلْعِيْلَةِ فِي لِقَائِهِ ، وَوَعَدْتُهُ لِمَوْضِعٍ يَلْتَقِيَانِ فِيهِ ، فَسَارَ إِلَيْهَا وَحَدَّثَهَا

(١) الفتل : الرمح الثام من كل شيء .

طويلاً وأخبرها خبره بسدها ، وقد كان أهلها رصدها ، فلما فقدوها تبعها أبوها وأخوها  
حتى هجا عليهما ، فوثب جميلٌ فانتضى سيفه وشذ عليهما ، فأتقياه بالحرب ، وناشدته بئينة  
الله إلا أنصرف ، وقالت له : إن أقت فضحتي ، ولعل الحى يلعنوك ، فأبى وقال :  
أنا مقيم وأمضى أنت وليصنعوا ما أحبوا ، فلم تزل تناشده حتى أنصرف وقال في ذلك ،  
وقد هجرته وأهطع التلاقي بينهما مدة :

هى البدرُ حسناً والنساء كراكب \* وشتان ما بين الكواكب والبدر  
لقد فضلت حسناً على الناس مثل ما \* على ألف شهر فضلت ليلة القدر

وقال :

لقد خفتُ أن يتأتى الموتُ عتوة \* وفى النفس حاجاتُ اليك كما هيأ  
وإني لتثنى الحفيظةُ كلاً \* لفيك يوماً أن أبك ما يب  
ألم تعلمى يا ملهبة الرق أنى \* أغل إذا لم أسق ريق صايداً  
ورحل إلى مصر فأدركته بها منيته ، فزعموا أنه قال حين حضرته الوفاة :

صدع النوى وما كفى بجيل \* وتوى بمصر نواة غير قفول  
ولقد أبحر الذيل في وادى القرى \* تشوان بين مزارع ونخيل  
قوى بئينة فاندبى بسويل \* وابكى خليلك دون حكل خليل

ولما أنشئت بئنة قول جميل قالت :

وإن سلوى عن جميل لساعة \* من التهر ما حانت ولا حان حينها  
سواء طينا يا جميل بن معمر \* إذا مت بأساء الحياة ولينها

وقال :

رحل الخليلط رحالم بسواد \* وحداً على أثر البخيلة حادى  
ما إن شمرت ولا سمعت بيئهم \* حتى سمعت به الغراب ينادى

لَمَّا رَأَيْتَ الْيَنَّ قُلْتَ لِصَاحِبِي \* صَدَعَتْ مُصَدَّعَةُ الْقُلُوبِ فَوَادِي  
بَانُوا وَغَوْدَرُ فِي الدِّيارِ مُتَمِّمٌ \* كَيْفَ بِذِكْرِكَ يَا بَيْتُنِي صَادِي

وقال أيضا :

خَلِيلٌ هَلْ فِي نَفْثَةِ بَعْدِ تَوْبَةٍ \* أَدَاوِي بِهَا قَلْبِي عَلَى الْخُورِ  
إِلَى رُجِّ الْأَكْفَالِ هَيْفَ خُصُورُهَا \* عَذَابُ التَّنْأِيَا رِيْقُهُنَّ طُهُورُ  
تَذَكَّرْتُ مِنْ أَحْمَقَتِ قُرَى الدُّدُونَةِ \* وَهَضْبُ لَيْثِيَا وَالْهَضْبُ وَغُورُ  
فَقُلْتُ لِمَ يَنْبِكُ الْبُوجَيْنِ صَبْرٌ \* يُمِيجُهَا بَرِّحُ الْمَوَى قَمُورُ  
عَلَى ابْنِي بِالْبَرِّقِ مِنْ تَحْوِ أَرْضِهَا \* إِذَا قَصُرَتْ عَنْهُ الْعِيُونُ يَصِيرُ  
وَإِنِّي إِذَا مَا الرِّيحُ يَوْمًا تَسَسَّتْ \* شَامِيَّةٌ عَادَ الْعِظَامُ قُتُورُ  
أَلَا يَا غُرَابَ الْبَيْنِ لَوْ نَكَ شَاخُ \* وَأَنْتَ بَرَوَاتِ الْفِرَاقِ جَدِيرُ  
فَإِنْ كَانَ حَقًّا مَا أَتَقُولُ فَأَصْبَحْتُ \* مُهْمُوكٌ شَقِيٌّ وَالْجَنَاحُ كَبِيرُ  
وَدُرْتُ بِأَعْدَاءِ حَبِيْبِكَ فِيهِمْ \* كَمَا قَدْ تَرَانِي بِالْحَبِيبِ أَدُورُ  
وَكَيْفَ بِأَعْدَاءِ كَأَنَّ عِيُونَهُمْ \* إِذَا حَانَ لَيْثِيَانِي بُيُوتُهُ عُورُ  
فَإِنِّي وَإِنْ أَصْبَحْتُ بِالْحَبِيبِ هَالِكًا \* عَلَى مَا بَيْتِي مِنْ قَدَى لَحِيرُ

وله أيضا :

فَلَوْ أُرْسِلْتُ يَوْمًا بَيْتُنِي تَبْنِي = يَمْنَى وَلَوْ عَزَّتْ عَلَى يَمْنَى  
لَأَعْطَيْتُهَا مَا جَاءَ يَمْنَى رَسُوكَا \* وَقُلْتُ لَهَا بَعْدَ الْيَمْنِ سَلِيْنِي  
سَلِيْنِي مَا لِي يَا بَيْتُنِي فَنَامَا = بَيْنَ عِنْدَ الْمَالِ كُلِّ ضَبْنِ  
فَمَا لَكَ لَمَّا خَبَرَ النَّاسُ ابْنِي \* أَسَأْتُ بِظَهْرِ الْغَيْبِ لَمْ تَسَلِيْنِي  
فَأُبَلِّ مُدْرًا أَوْ أَحْمَى بِشَاهِدِ \* مِنَ النَّاسِ عَدُوٌّ أَنَّهُمْ ظَامُونِي  
وَلَسْتُ وَإِنْ عَزَّتْ عَلَى هَائِلِ \* لَهَا بَعْدَ صَرْمِ يَا بَيْتُنِي صَلِيْنِي

(١) الله بالهم والتشديد : قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين .

وَتَبَّخْتُ قَوْماً فِيكَ قَدْ نَذَرُوا دِينِي \* فَلَيْتَ الرِّجَالِ الْمُؤْمِدِينَ لِقَائِي  
إِذَا مَا رَأَوْنِي مُقْبِلًا عَنْ جَنَابِي \* يَقُولُونَ مَنْ هَذَا وَقَدْ عَرَفُونِي

وله أيضا :

تَنَادَى آلُ بَنِيهِ بِالرَّوَّاحِ \* وَقَدْ تَرَكُوا فَوَازِكَ غَيْرَ صَاحٍ  
فِيَالِكَ مَنْظَرًا وَمَسِيرَ رَكْبٍ \* تَحْيَانِي حِينَ أَمَعَنَ فِي الْفِيَّاحِ  
وَبِالَّذِ كُفَّةٌ ظَفِيرَتْ بِغِلٍ \* كَمَا ظَفِيرُ الْمَاعِصِرِ بِالْفَيْدِاحِ  
أُرِيدُ صِلَاحَهَا وَتَرِيدُ قَتْلِي \* فَشَقَّ بَيْنَ قَتْلِي وَالصِّلَاحِ  
لَعَنُ أَيْبِكَ لَا تَجِدِينَ عَهْدِي \* كَعَهْدِكَ فِي الْمَوْتَةِ وَالسَّاحِ  
وَلَوْ أُرْسِلَتْ تَسْتَهْدِينِ نَفْسِي \* أَنَاكِ بِهَا رَسُولُكِ فِي سَرَّاحِ

وله أيضا :

فَإِنْ يَكُ جُنَّائِي بِأَرْضِ سِوَاكُمْ \* فَإِنَّ فَوَادِي حَضْرِكِ النَّهْرِ أَجْمَعُ  
إِذَا قُلْتُ هَذَا حِينَ أَسْلُو وَأَجْتَرِي \* عَلَى صِرْطِهَا ظَلَّتْ هَا النَّفْسُ أَشْفَعُ  
وَأِنْ رُمْتُ نَفْسِي كَيْفَ آتَى لَصْرِطِهَا \* وَرُمْتُ صِلْوَدَا ظَلَّتْ إِلَيْنِ تَتَمَعُ

وله أيضا :

أَلَمْ تَعْلَمِي بِأَعْدَابَةِ الْمَاءِ أَنِّي \* أَظَلُّ إِذَا لَمْ أَشُقْ مَاءِيكَ صَادِيَا  
وَمَا زِلْتُ بِى بِأَيُّنٍ حَتَّى لَوْ أَنِّي \* مِنْ الْوَجْدِ أَسْتَبِيكِ الْحَمَامُ بِكِي لِيَا  
وَدِدْتُ عَلَى حُبِّ الْحَيَاةِ لَوَ أَنِّي \* يُزَادُ لَهَا فِي عَمْرِهَا مِنْ حَيَاتِنَا

وله أيضا :

وَقُلْتُ لَهَا أَعْتَلَّتِ بَغِيرُ ذَنْبٍ \* وَشَرُّ النَّاسِ ذُو أَعْمَالٍ الْبَغِيلُ  
فَقَاتِنِي إِلَى حَكَمٍ مِنْ أَهْلِ \* وَأَهْلِكَ لَا يَجِيفُ وَلَا يَمِيلُ  
فَقَالَتْ أَبْتَنِي حَكَمًا مِنْ أَهْلِي \* وَلَا يَدْرِي بِنَا أَلْوَالِي الْمَحُولُ  
فَوَلَّيْنَا الْحُكُومَةَ ذَا مَحْبُوفٍ \* أَمَا دُنْيَا لَهُ طَرُفٌ كُلِّيلُ

فقلنا ما قَضَيْتَ به رَضِينَا \* وَأَنْتَ بِمَا قَضَيْتَ به كَفِيل  
 فضاؤلك ناضد فأحكم علينا \* بما تهوى ورأيك لا يقبل  
 فقلت له قُتِلْتُ بِسِرِّ جُرْم \* وَغِبُّ الظلم مَرَّتَهُ وَيَسِيل  
 فَسَلْ هَذِي مَتَى تَقْضِي دُيُونِي \* وهل يقضيك ذو الملِك المَطُول  
 فقالت إن ذا كَتِيبٌ وَبَطْلٌ \* وَشَرٌّ مِنْ خُصُومَتِهِ طَوِيل  
 أَأَقْبَلُهُ وَمَالِي مِنْ سِلَاح \* وما بي لو أَقْبَلْتَهُ حَوِيل<sup>(١)</sup>  
 ولم أَخْذُهُ له مَالًا قِيْلَتِي \* له دَيْنٌ عَلَى كَمَا يَقُول  
 وعند أميرنا حُكْمٌ وَمَدْل \* ورأى بِمَدِّ ذَلِكُمْ أَصِيل  
 فقال أَسِيرُنَا هَاتُوا شُهُودَا \* فقلت شهيدنا الملك الجليل  
 فقال يَمِينَهَا وَبِلَاكِ أَفْضَى \* وكلُّ قضاائه حَسَنٌ جَمِيل  
 قَبِلْتُ حَلْفَهُ مَا لِي لَدِيهَا \* قَبِيرٌ أَذْهِيهِ وَلَا قَبِيل  
 فقلت لها وقد غَلِبَ التَّعْزَى \* أَمَا يُقْضَى لَنَا يَا بَاقِي سُوْلُ  
 فقالت ثم زَجَّجْتُ حَاجِبِيهَا \* أَطَلْتُ وَلَسْتُ فِي شَيْءٍ تُعْطِيل  
 فلا يَجِدَنَّكَ الْأَعْدَاءُ عِنْدِي \* فَتَنْكَلَنِي وَإِيَّاكَ النَّعْكَول  
 وله أيضا :

حَلَقْتُ يَمِينًا يَا بَيْتِنَا صَادِقَا \* فَإِنْ كُنْتُ فِيهَا كَاذِبًا فَعَمِيْتُ  
 إِنْ كَانَ جِلْدُ فِرْدَوْسِيكَ مَسْنِي \* وَبِأَشْرَفِي دُونَ الشَّعَارِ شَرِيْتُ<sup>(٢)</sup>  
 ولو أن رَأَى الموتُ يَرِقُّ جَنَازَتِي \* بَمَنْطِقِيهَا فِي النَّسَاطِقِينَ حَبِيْتُ  
 وقال أيضا :

فقد لَأَنَّ أَيَّامُ الصَّبَا ثُمَّ لَمْ يَكُنْ \* مِنْ الدَّهْرِ شَيْءٌ يَعْدِلُهُنَّ يَلِينُ  
 ظِلْعَاتِي مَا فِي قُرْبَيْنٍ لَدَى هَوَى \* مِنْ النَّاسِ إِلَّا شِقْوَةٌ وَقُتُوبُ

(١) الحويل : القوة والحظ والقدر على الصوف . (٢) يقال : شرى جلده : حرج عليه الشرى ، وهو بنور صغار حرس كما ذكره مرة تحت دفعة واحدة غالباً وتشتد ليلاً لبطارحاً يثور في البدن دمة .

وَاكَلْتَهُ وَالْهَمُّ ثُمَّ تَرَكْتَهُ • وفى القلب من وجد بهن رهين  
 فَوَاحِشَنَا إِنْ حِيلَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا • وياحين نفسى كيف فيك تعين  
 فَشَيْبَ رَوَعَاتُ الْفِرَاقُ مَفَارِقِي • وَأَنْشَرَنُ نَفْسِي فَوْقَ حَيْثُ تَكُونُ  
 شَبِهْتُ بِأَنِّي لَمْ تَقْصِرْ مَوَدَّتِي • وَأَنَّى بِكُمْ حَقِّي الْمَاتِ ضَمِيرُ  
 وَأَنْتَ فَوَادِي لَا يَلِينُ إِلَى هَوَايَ • سِوَاكَ وَإِنْ قَالُوا بَلَى سَلِيلُ  
 وَإِنِّي لَأَسْتَفْشِي وَمَا بِي نَعْسَةٌ • لَعَلَّ لِقَاءَ فِي الْمَنَامِ يَكُونُ  
 وَلَمَّا عُلُوْتُ الْأَلْبَتِينَ تَسْوَوْتُ • قُلُوبَ إِلَى وَادِي الْقَرَى وَصِيُونُ  
 كَانَ دَمُوعَ الْعَيْنِ يَوْمَ تَحَمَّلْتُ • بَشِيرَةً يَسْقِيهَا الرِّشَاقُ مَعِينُ  
 وَرَحَنَ وَقَدْ وَدَعْنِي عِنْدِي لُبَانَةٌ • لِيَأْنَسَ سِرٌّ فِي الْفَوَادِ كَيْفُ  
 كَيْفَ الرَّغَى لَمْ يَسْلِمِ النَّاسُ أَنَّهُ • تَوَلَّى فِي قَوَارِ الْأَرْضِ وَفَوَادِيهِ  
 فَإِنَّ دَامَ هَذَا الصَّرْمُ مِنْكَ فَوَاتِي • لِأَفْخِرُ هَارِي الْجَانِينِ رَهِينُ  
 لَكَيْلَا يَقُولَ النَّاسُ مَاتَ وَلَمْ أَهْنُ • عَلَيْكَ وَلَمْ تَهْتَمْ مِنْكَ قُرُونُ

## (ج) الغزل الصناعي

(١)  
كثير

قال أبو الفرج قال محمد بن عبد العزيز: ما قصّد القصيدة ولا نعت الملوكة مثل كثير.  
وقال إبراهيم بن سعد: إني لأروى لكثير ثلاثين قصيدة لو رقي بها مجنون لأفاق، وكان بعض أصحاب الحديث يأتونه، وهو خبيث النفس، فيسألونه عن شعر كثير فتطيب نفسه ويحمدشهم. وقال عبد الله بن أبي عبيدة: من لم يجمع من شعر كثير ثلاثين لامية فلم يجمع شعره. وكان ابن أبي عبيدة يمل شعره ثلاثين ديناراً، ومثل مصعب: من أشعر الناس؟ فقال: كثير بن أبي جمعة، وقال: هو أشعر من جرير والفردق والرأعي وعائشهم، يعني الشعراء. ولم يدرك أحد في مديح الملوكة ما أدرك كثير. وقال محمد بن سلام: كان كثير شاعراً أهل الجواز، وهو شاعر غفل ولكنه متفوص حظه بالعراق. وقال يونس النحوي: كثير أشعر

(١) هو كثير بن عبد الرحمن من نخاعة، ويعرف بكثير مرة، نسبة إلى مشيخته التي كان يشب بها. وكان يدخل على عبد الملك ويشده، وكان راغضباً شديد التصب لآل أبي طالب، وكان عبد الملك يعرف ذلك فيه فلا يكرهه، فإذا أراد أن يصفه بشئ، حلفه بئى. وكان له صديق اسمه خنشق الأسدي، شديد التشيع مثله، وبلغ من جرأة خنشق هذا أنه وقف مرة في الموسم والناس مزدحون وقال: «أيها الناس، إنكم على غير حق، قد تركتم بيت نبيكم وألحقتم وهم الأئمة» فوثب عليه الناس، فضرّبوه ودموه حتى فظوه، ودفن خنشق بقنوة، فقال إذا ذلك كثير يرثيه.

أصادة حجاج كعب ومالك \* حل كل مجل ضامر البطن بحق

بمريسته فيها نساء محبر \* لأزهر من أولاد مرة معرق

والقصيدة طويلة. أما مشوقته مرة فهي بنت حميد بن وقاص من ضمرة، وكانت من أحسن النساء وأدبين وأعقلهن. ويقال إنه لم ير لها وجهاً إلا أنه أسبغ بها قلبه لما ذكر له عنها. وماتت ببعض أهلها فقاراً: «مد شبرت نفسك وفجرت صاحبتي فأكففت نفسك» قال: «إني لا أذكرها بما تكرهون».

واقف خروجه من مصر في عام الجلاء، فبهم حل وأحله فزيره فاني إلا أن يلقهم، فقص له بعضهم في بعض الطريق وقبضوا عليه وسلبوه في بيفة حار ورطبوها عليه فزبه صديقه خنشق فأطلعه وألحقه ببلادهم. وكان كثير دسماً قليلاً أحمر أبيض عظم الهامة فيها. وأكثر أشارة في مرة هذه. توفي سنة ١٠٥ هـ، وأخباره كثيرة مجسدة في الأغاني (ج ١١ ص ٤٦) و(ج ٨ ص ٢٧) و(ج ٧ ص ٧٨) والشعر والشعراء (ص ٣١٦) وابن خلكان (ج ١ ص ٤٣٣) والمند القريب (ج ١ ص ١١٥ و ٢٠٣) ونزارة الأدب (ج ٢ ص ٣٨١) وله ديوان شرحه أبو عبد الله الرشيدى من نسخة خطية في الاسكوريال.



أهل الإسلام، وكان ابن أبي حَفْصَةَ يمجّبه مذهبه في المديح جداً، ويقول: كان يستقصي المديح، وكان فيه مع جودة شعره خُطَلٌ وعُجْب. وقال المسور بن عبد الملك: ما خُسرَ مَنْ يروى شعر كثيرٍ وجميل ألا تكون عنده مغنيتان مطربتان .

وكان قصيراً، قال الواقسي: رأيتُ كثيراً يطوف بالبيت، فمن حديثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فكذّبه . وكان إذا دخل على عبد العزيز بن مروان يقول: طأطأه رأسك لا يصبه السقف . وقال كثير: في أي شيء أعطى هؤلاء الأخوص عشرة آلاف دينار؟ قالوا: في قوله فيهم:

وما كان مالى طارفاً من تجارة • وما كان ميرايا من المال مُتَلَدَا  
ولكن عطايا من إمام مبارك • ملأ الأرض معروفاً وجوداً وسودنا  
فقال كثير: إنه لغير عقيم الله! ألا قال بما قلت:

دع عنك سألَى إذ فلت مغلبها • وأدكر خليلك من بني الحكيم  
ما أعطيتني ولا سألتهما • ألا وإني لحماجرى صكرى  
إني متى لا يمكن نوالها • عندي بما قد فعلتُ أحسنهم  
مُبْدَى الرضا عنهما ومنصرف • عن بعض ما لو فعلتُ لم أَلِم  
لا أنزّر النازل الخليل إذا • ما أحصل نَزْد الطُود لم تَرَم

وطلب من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان أرضاً له يقال لها: غُرْب، وقدم بين يدي طلبه تلك الأبيات:

جرتك الجوازي عن صديقك نغرة • وأدناك ربّي في الرقيق المقرب  
فإنك لا يعطى طيسك ظلاماً • علوّ ولا تنأى عن المنظرِ  
وإنك ما تمنع فإنك ما يسع • بحسبى وما أعطيت لم تنعقب  
فقال له: أرغب غُرْباً؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: آتتوها له، ففعلوا .

(١) يقول: لا أطمح عليه بالمساواة، يقال: نزرته إذا أهدت طيسه، والظهور: العاطفة على أولاد غيرها . ولم ترم: لم ترم .

وَسَبَ كَثِيرٌ لَكثَرَةِ نَسِيبِهِ بَعْرَةَ الضَّمْرِيَّةِ إِيَّاهَا، وَعُرِفَ بِهَا قَلِيلٌ : كَثِيرَ عِزَّةٍ، وَهِيَ عِزَّةُ ابْنَةِ حَمِيدَ بْنِ وَقَاصٍ. وَكَانَ ابْتِدَاءَ عَشْقِهِ إِيَّاهَا أَنَّهُ مَرَّ بِنِسْوَةٍ مِنْ بَنَى حَمْرَةٍ وَمَعَهُ جَلَبٌ غَنَمٍ، فَأَرْسَلَ إِلَى عِزَّةَ وَهِيَ صَغِيرَةٌ، فَقَالَتْ : يَقُلْنَ لَكَ النِّسْوَةُ : يَمْنَأُ كِبَشًا مِنْ هَذِهِ الْغَنَمِ وَأَتَسَلِّطُ بِمَنْهَ إِلَى أَنْ تَرْجِعَ، فَأَعْطَاهَا كِبَشًا، وَأَعْجَبَتْهُ، فَلَمَّا رَجَعَ جَاءَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ بِدِرَاهِمَةٍ، فَقَالَ : وَأَيْنَ الصَّبِيَّةُ الَّتِي أَخَذْتُ مِنْكِ الْكِبَشَ ؟ قَالَتْ : وَمَا تَصْنَعُ بِهَا وَهَذِهِ دِرَاهِمُكَ ؟ قَالَ : لَا أَخَذْتُ دِرَاهِمِي إِلَّا مِنْ دَفْعَتِ الْكِبَشِ إِيَّاهَا، وَنَحْرِي وَهُوَ يَقُولُ :

قَضَى كُلُّ ذِي دِينَ فَوْقَ غَرِيمَةٍ • وَعِزَّةٌ مَحْطُولٌ مُعَسَّى غَرِيمَتِهَا

فَكَانَ أَوَّلَ لِقَائِهِ إِيَّاهَا • ثُمَّ قَالَ فِيهَا :

نَظَرْتُ إِلَيْهَا نَظْرَةً وَهِيَ عَاتِقٌ • عَلَى حِينِ أَنْ شَبَّتْ وَإِنْ نُهَوِّدُهَا  
وَقَدْ دَرَّعُوهَا وَهِيَ ذَاتُ مَوْصِدٍ • مَجُوبٌ وَلَمَّا يَلْبَسُ الدَّرْعَ رِيْدُهَا  
مِنْ الْخَيْفَرَاتِ الْبَيْضِ وَدَّ جَلِيسَتِهَا • إِذَا مَا انْقَضَتْ أَحْدُوْنُهُ لَوْ تَيْسِدُهَا  
نَظَرْتُ إِلَيْهَا نَظْرَةً مَا يَسُرُّنِي • بِهَا حُمُرُ أَنْعَامِ الْبِلَادِ وَسُودُهَا  
وَكَنتُ إِذَا مَا جِئْتُ سَعْدَى بِأَرْضِهَا • أَرَى الْأَرْضَ تَطْوِي لِي وَيَدْنُو بَعِيدُهَا  
فَمُ أَحَبَّتْهُ بَعْدَ ذَلِكَ عِزَّةُ أَشَدَّ مِنْ حُبِّهِ إِيَّاهَا •

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ الْأَسْمَئِيِّ : دَخَلَتْ عِزَّةٌ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَقَدْ تَحَجَّرَتْ ؛ فَقَالَ لَهَا : أَلَأَنْتِ عِزَّةٌ كَثِيرٌ؟ فَقَالَتْ : أَنَا عِزَّةُ بَنْتِ حَمِيدٍ؛ قَالَ : أَنْتِ الَّتِي يَقُولُ لَكَ كَثِيرٌ : لَمَسَّةُ نَارٍ مَا تَبُوحُ كَانِهَا <sup>(١)</sup> • إِذَا مَا رَمَقَتْهَا مِنَ الْبَعْدِ كَوَكَبُ

لَمَّا الَّذِي أَعْجَبَهُ مِنْكَ ؟ قَالَتْ : كَلَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَقَدْ كُنْتُ فِي عَهْدِهِ أَحْسَنَ مِنَ النَّارِ فِي اللَّيْسَةِ الْقَرَّةِ • وَرَوَى أَنَّهُ قَالَتْ لَهُ : أَعْجَبَهُ مِنِّي مَا أَعْجَبَ الْمُسْلِمِينَ مِنْكَ حِينَ صَبَّرَكَ خَلِيفَةً، وَكَانَتْ لَهُ مِنْ سُدَّاءِ يَنْفَعِيهَا، فَضَحِكُ حَتَّى بَدَتْ، فَقَالَتْ لَهُ : هَذَا الَّذِي أَرَدْتُ أَنْ أَبْدِيهِ؛ فَقَالَ لَهَا : هَلْ تَرَوْنِ قَوْلِي :

(١) مؤمَّد : أَيْسُ الْأَصْدَةِ (بِالْفَهْمِ) وَهِيَ صَبْرٌ يَلْبَسُ تَحْتَ الْخُرُوبِ • وَالْمَجُوبُ : الْقَبْرِصُ ذُو الْبَلْبِ •

وَالرَّائِدُ (يَمُزُّ وَلَا يَمُزُّ) : التَّرَبُّ • (٢) تَبُوحُ : مَحْمَدُ •

وقد زعمت أنى تغيرت بعدها • ومن ذا الذى يا عز لا يتغير  
تفسير جسمى والخلق كالتى • عيشت ولم يتغير بمرىء غير

قالت : لا أروى هذا، ولكنى أروى قوله :

كانى أنادى صخرة حين أعرضت • من الصم لو تمنى بها الصم زلت  
صفوفا فما تلقاك إلا بخيلة • فمن مل منها ذلك الوصل ملت

فأمر بها ، فأدخلت حل مائكة بنت يزيد ، فقالت لها : أرايت قول كثير :

قضى كل ذى ذن فوى غريمه • وعزة تطول معنى غريمها

ما هذا الذى ذكره ؟ قالت : قبلة وعدته إياها ، قالت : أنجز بها وعلى إثمها •

وما قال فيها

خلى هذا رسم عزة فأعفلا • قلو صيكا ثم أبكا حيث حلت

وما كنت أدري قبل عزة ما البكا • ولا موجهات القلب حتى تولت

فقد حلفت جهدا بما تحرت له • قريش غداة المأزيم<sup>(١)</sup> وصلت

أناديك ما حج أريج وكبرت • بميقا غزال رقيقة وأهلت<sup>(٢)</sup>

وكانت تقطع الحبل بينى وبينها • كنانة نلرا وقت فاحلت

فقلت لها يا عز كل مصيبة • اذا وطئت يوما لها النفس ذلت

ولم يبق إنسان من الحب مبيعة • ثم ولا غمها إلا تجلت

كانى أنادى صخرة حين أعرضت • من الصم لو تمنى بها الصم زلت

صفوفا فما تلقاك إلا بخيلة • فمن مل منها ذلك الوصل ملت<sup>(٣)</sup>

أباحث حصى لم يرعه الناس قبلها • وحلت تلاها لم تكن قبل حلت

(١) المأزيم : بين عزة والمزدقة •

(٢) فيما غزال : بمكة حيث يزل الناس فيها

الى الأبطح • وأناديك : أجالسك ، أعوذ من الذى والادى بجما وما المجلس •

(٣) الصفوح : المرصعة •

فلبت قلوبى عند عزة قُيِّدَت \* بحبل ضعيف عُرِّ منها فضلت  
 وغودر في الحلى المقيمين رَحْلَهَا \* وكانت لها باغ سواى قُيِّدَت<sup>(١)</sup>  
 وكنت كذى رجلين رجل صحيحة \* ورجل رعى فيها الزمان فقتلت  
 وكنت كذات الظلغ لما تحاملت \* عل ظلمها بعد العثار استقلت  
 أريد الثواء عندها وأظنها \* اذا ما أظنا عندها المكنك ملت  
 فما انصفت، أما النساء فيفضت \* الى وأما بالنسوال فضت  
 يكلفها القيران شقى وما بها \* هوانى ولكن ليلك استذت  
 هيتا مريثا غير داء محامي \* لعزة من أعراضنا ما استقلت  
 فوالله ما قاربْتُ إلا تباعدت \* بهرم ولا أكرتُ إلا أقلت  
 فان تكن العتي فأهلا ومرحبا \* وحقت لها العتي لدينا وقلت  
 وإن تكن الأخرى فإن وراءنا \* تادح<sup>(٢)</sup> لو سارت بها العيسُ كُلت  
 خليل<sup>(٣)</sup> إن الملاجية طلعت \* قلوبكما وثاقي قد أكتت  
 فلا يمددُ وصل لعزة أصبحت \* بعاقبة أسبابه قد تولت  
 أيسى بنا أو أحسنى لا ملومة \* لدينا ولا مقلبة إن تقلت  
 ولكن أنيسلى وأذكرى من مودة \* لنا خلة كانت لديكم فطلت<sup>(٤)</sup>  
 فإني وإن صلت لثمن وصادق \* عليها بما كانت إلينا أزلت<sup>(٥)</sup>  
 فإأ بالناعى لعزة بالجوى \* ولا شامتُ إن تمل عزة زلت  
 فلا يحسب الواشون أن صبايى \* بعزة كانت غمرة فتجلت  
 فأصبحتُ قد أبلات من ذنبي بها \* كما أذنت هتاء ثم استبلت

(١) بلى : ذهبت . (٢) التى : الإحتاب ، يقال : طابى فلان فأحتبه اذا نزعته عما يترك طبعه ،  
 والعنى الاسم والإحتاب المصدر (٣) التادح : التناوز . (٤) الطلح : المضى الذى سقط من الأعيان .  
 (٥) طلت : هدرت . (٦) أزلت : أسطعت . (٧) يقال : بل من مرضه وأبل واستدل اذا  
 برأ . والهياء : التى أسابها داء الهيام ، وهو داء يهيب الإبل من ماء كثرة مستقما قوم فى الأرض لارتى .

فوالله ثم الله ما حَلَّ قَبْلَهَا • ولا يَسُدُّهَا من غُلَّةٍ حيث حَلَّتْ  
وما مَرَّ من يومٍ على كيومها • وإن عَظُمَتْ أَيَّامُ أُخْرَى وَجَلَّتْ  
وأَضَحَّتْ بأَعْلَى شَاهِدِي من فِرَادِهِ • فلا القَلْبُ يَسْلَاها ولا العَيْنُ مَلَتْ  
فِيَا عَجَبًا لِلْقَلْبِ كَيْفَ أَهْرَافُهُ <sup>(١)</sup> • وللشَّسِّ لِمَا وُطِنَتْ كَيْفَ ذَلَّتْ  
وَإِنِّي وَتَبَيَّيْتُ بِعِزَّةٍ بَعْدَ مَا • تَخَلَّيْتُ عَمَّا بَيْنَنَا وَتَحَلَّيْتُ  
لِكُلِّ رُتِيحِي ظِلُّ النِّعَامَةِ كُلِّهَا • تَبَوَّأُوا مِنْهَا لِلْقَيْلِ أَضْحَكْتُ  
كَأَنِّي وَإِيَّاهَا تَصَابَةُ مُجْجَلٍ • رَجَّاهَا فَلَمَّا جَاوَزْتُهُ أَسْتَهَلَّتْ  
فَإِنْ سَأَلَ الرَّأْثُونَ فِيهِ هَجْرَتَهَا • قُفِّلَ نَفْسُ حُرٍّ سَلَّيْتُ قَسَلْتُ  
قَالَ أَبُو سَلَامٍ : كَانَ كَثِيرَ مَدْعِيَا وَلَمْ يَكُنْ عَاشِقًا ، وَكَانَ جَمِيلَ الصَّبَابَةِ وَالْعَشَقِ .  
وَأَخْبَرْتَهُ عِزَّةَ ذَاتِ مَرَّةٍ فَوَجَدْتَ عِلَامَةَ ذَلِكَ ، وَكَانَتْ مُتَقَبَّةً فَاسْفَرْتُ ، فَأَلْبَسَ <sup>(٢)</sup> وَلَمْ يَنْطِقْ  
وَبُهِتَ ، فَلَمَّا مَضَتْ أَنْشَأَ يَقُولُ :

أَلَا لَيْتَنِي قَبْلَ الَّذِي قُلْتُ شَيْبًا لِي • مِنَ السَّمِّ خَفَضَ حَاضِ بِمَا أَلْدَرَارِجِ <sup>(٣)</sup>  
فَتَ وَلَمْ تَسْلَمْ عَلَيَّ خِيَانَةً • وَكَمْ طَالِبٌ لِلرَّيْحِ لَيْسَ بِرَايِحِ  
أَبُوهُ بِذَنبِي ، إِنِّي قَدْ ظَلَمْتُهَا • وَإِنِّي بِيَاقِ سَرَّهَا غَيْرَ بَايِحِ  
وَمِنْ قَوْلِهِ يَمْلِحُ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ :

وَلَيْتَ فَلَمْ تَنْسَمُ عَلَيَّ وَلَمْ تُخَفْ • بَرِيًّا وَلَمْ تَتَّبِعْ مَقَالَةَ مُجْجَرِمِ  
وَقَاتَ فَعَبِدْتُ الَّذِي قُلْتَ بِالذِّى • فَعَلْتُ فَاضْحَى رَاضِيًا كُلُّ مُسْلِمِ  
أَلَا إِنَّمَا يَكْفِي الْفَتَى بَعْدَ زَيْنِهِ • مِنَ الْأَوْدِ الْبَاقِي بِقَافِ الْمَقْصُومِ  
لَقَدْ لَيْسَتْ لَيْسَ الْمَلُوكُ بِبَاهِيَا • تَرَأَى لَكَ الدُّنْيَا رَكْفٌ وَمِعْصَمِ  
وَتَوَيْضُ أَحْيَانًا بَيْنَ مَرِيضِيَّةٍ • وَتَيْمٍ عَنْ مِثْلِ الْجَمَانِ الْمُنْظَمِ

(١) أَهْرَافُهُ : اصطبارُهُ ، يُقَالُ : تَزَلَّتْ بِهِ مَعْجِبَةٌ فَوَجَدَ حُرُوفًا ، أَيْ صُبُورًا .

(٢) أَلْبَسَ : أَكْسَرَهُ زَيْنَ . (٣) الدَّرَارِجُ : دَرِيَّةٌ حَرَاءٌ ، مَخْطُةٌ بِسَوَادٍ نَظِيرٍ ، وَهِيَ مِنَ السَّوْمِ

الْقَائِلَةِ ، وَالْقَرَارِجُ جَمْعُ . وَالْخَفَضُ : قَطْعُ أَسْوَدٍ لَا خُشُورَةَ فِيهِ تَهَيَّأَ بِهِ الْإِبِلُ الْجَبَرُ .

فَأَحْرَضَتْ عَنْهَا مُشْمِرًا كَانَمَا \* سَقَتَكَ مَدُونًا مِنْ مِمَامٍ وَعَلَقَمَ  
 وَقَدْ كُنْتَ مِنْ أَجْبَالِهَا فِي مُنَجِّجٍ \* وَمِنْ بَحْرَهَا فِي مُزِيدِ الْجُودِ مُقَعَمَ  
 وَمَا زِلْتَ سَبَاقًا إِلَى كُلِّ غَايَةٍ \* صَعِدَتْ بِهَا أَعْلَى الْبِنَاءِ الْمَقْدَمِ  
 فَلَمَّا أَتَاكَ الْمُلْكُ عَقَّبُوا وَلَمْ يَكُنْ \* لَطَالِبِ دُنْيَا بَعْدَهُ مِنْ تَكَلُّمِ  
 تَرَكْتَ الَّذِي يَفْقَى وَإِنْ كَانَ مُوقَفًا \* وَأَثَرَتْ مَا يَسْقَى بِرَأْيِ مُصَنَّمِ  
 فَأَحْضَرْتَ بِالْفَنَاءِ وَتَشَمَّرْتَ لِلذِّى \* أَمَامَكَ فِي يَوْمٍ مِنَ الْهَوْلِ مَظْلَمِ  
 وَمَا لَكَ أَنْ كُنْتَ أَخْلَيفَةً مَانِعٌ \* سِوَى اللَّهِ مِنْ مَالٍ رَغِيبٍ وَلَادِمِ  
 سَمَا لَكَ هِمٌّ فِي الْقِسْوَادِ مُؤَرِّقٍ \* صَعِدَتْ بِهِ أَعْلَى الْمَالِىِ رُسُلِمِ  
 فَايِنْ شَرِقَ الْأَرْضِ وَالْقَرَبِ كُلِّهَا \* مُنَادٍ يَنَادِي مِنْ فَصِيحٍ وَأَعْجَمِ  
 يَقُولُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ظَالِمُنِي \* بِأَخْذِ لَدِينَارٍ وَأَخْذِ لَدِرْهِمِ  
 وَلَا بَسِطَ كَفٌّ لِأَكْرَمِيهِ ظَالِمٌ لَهُ \* وَلَا السَّفِكُ مِنْهُ ظَالِمًا لَمْ يَخْجَمِ  
 فَلَوْ يَسْتَطِيعُ الْمَسَامُونَ نَفْسَمُوا \* لَكَ الشُّطْرُنُ مِنْ أَعْمَارِهِمْ فَيَرْتَدِمِ  
 فَمِشَتْ بِهِ مَا تَجَّ قَدَّ رَاكِبٌ \* مُفِيدٌ مُطِيفٌ بِالْمَقَامِ وَزَمَنِمِ  
 فَأَرْبَحُ بِهَا مِنْ صَفْقَةِ يُبَايَعِ \* وَأَعْظَمُ بِهَا أَعْظَمُ بِهَا ثُمَّ أَعْظَمِ  
 وَمِنْ نَسِيهِ بَعْرَةٌ لَهَا أُتْرِجَتْ إِلَى مِصْرَ :

لَعَزَّةٌ مِنْ أَيَّامِ ذِي الْقَعْنِ شَاقِقِي \* يَضَاهِي قَرَارَ الرُّوضَتَيْنِ رُسُومِ  
 هِيَ الدَّارُ وَحُشًّا فَيَرُ أَنْ قَدْ يَجْلُهَا \* وَيَفْقَى بِهَا نَخْصَ عِلِّ كَرِيمِ  
 لَهَا رِيسُومُ الدَّارِ لَوْ كُنْتُ عَالِمًا \* وَلَا بِالْإِسْلَاعِ الْمُقْبُورَاتِ أَهْمِ  
 سَأَلْتُ حِكْمًا أَيْنَ شَطَّتْ بِهَا التَّوَى \* نَخْبَرُنِي مَا لَا أَحَبُّ حَكِيمِ  
 أَجِدُّوْا فَمَا آلُ عَزَّةٍ عُذْبَةٌ \* فَبَانُوا وَأَمَّا وَاسِطُ لَقِيمِ  
 لَعَمْرِي لَنْ كَانَ الْقَوَادُ مِنْ الْهَوَى \* بَقِيَ سَقَمًا إِنِّي إِذَا لَسَقِيمِ

(١) مدونًا : مخلوطًا ، داف الدوا ، والضران يدور : خلطه . (٢) منقذ : مسرع .

(٣) أوت الدار : خلعت من ساكنها . (٤) هو أمير السائب بن حكيم .

ومنها :

- ولستُ برأيه نحو مصريها • وإن بدت إلا فعلتُ أشيم
- فقد يقعد النكس الذي عن الهوى • عزوفاً وبصيو المرء وهو كريم
- وقال خليل ما لها إذ لقيتها • غداة السنأ فيها عليك وجوم<sup>(١)</sup>
- فقلتُ له إن المودة بيننا • على غير لحش والصفاء قديم
- وإن أعرضتُ عنها تجلداً • على المهد فيما بيننا لمقيم
- وإن زماناً فوق الدهر بيننا • وينتصم في صرفه لمشوم
- أفي الحق هذا أن قلبك سالم • صحيح وقلبي في هوالك سليم
- وأن يسمى منك داء مخامرا • وجسمك موفور عليك سليم
- لعمرك ما أنصفتني في مودتي • ولكنني بأعز منك حلیم
- فلما ترقى اليوم أبدي جلادة • فإني لعمري تحت ذلك كلم
- ولستُ أبنة الضمير منك بنافم • ذنوب العدى إني إذا لقلوم
- وإني لنو وجيد إذا عاد وصلها • وإني على ربي إذا لكرم

ومن نسيبه بها :

- لمرّة أطلالُ أبت إن نكلنا • تبيع مغايبها الفؤاد المكنا
- وكنتُ إذا ما جئتُ أجلان مجلسي • وأظهرن مني هيبّة لا تجهما
- يُحاذرن مني غيرة قد عرفها • قديماً فإ يضحكن إلا تبسما

ومنه :

- خليلٌ عوجاً منكاً سامةً معي • على الرّبع نقض سامةً ونودع
- ولا تُعجلاني أن ألي يدنسة • لمرّة لاحت لي بليداء بلقع
- وقولا لقلبي قد سلا راجع الهوى • واللعين أذري من دموطك أودعي
- فلا عيش إلا مثل عيش مضى لنا • مصيباً ألقا فيه من بعد مريع

(١) وجم : سكت على عيط .

ومنه :

بليلى وجارات الليلى كأنها \* نجاج الفلا تَحْدَى بين الأباعر  
أَتَقَطِّعُ يَاعِزَّ مَا كَانَتْ بَيْنَا \* وشاجرنى ياعِزَّ فيك الشواجر  
إذا قيل هذا بيتُ عَزَّةَ قاذى \* اليه الهوى وأستمع لى البوادر  
أُصَدِّ وى مثل الجنون لى رى \* رِوَاةُ النَحَا أَنى لَيْشِكَ هاجر  
ألا ليت حظى منك ياعِزَّ أنى \* إذا بَنَيْتُ باع الصبر لى عنك تاجر

ومنه :

وما زلتُ من ليل لَدُنْ طَوَّ شاربى \* الى اليوم أُخْفِى حَبَّأً وأداجنُ  
وأحمل فى ليل ضفائى مَعَشَر \* وتَحْمَلُ فى ليل على الضفائى

ومنه :

وأنى لأرى قوبها من جلالها ■ وإن أظهر وأغشا نصحت لم جهدى  
ولو حاربوا قوى لكنتُ لقومها \* صديقاً ولم أحمل على حربها حقدى

ومنه :

هَلَا سَأَلْتُ مَعَالِمَ الْأَطْلَالِ \* بالجزع من حُرْضٍ <sup>(١)</sup> وهنَّ يَوَالٍ  
سَقِيًّا لَمَزَةً خُلَّةً سَقِيًّا لَهَا \* اذْ بَحْنُ بِالْمَصْغَبَاتِ <sup>(٢)</sup> مِنْ أَمَلَالٍ  
إِذَا لَا تَكَلَّمْنَا وَكَانَ كَلَامُهَا \* فَفَلَا قَوْلُهُ مِنَ الْأَنْفَالِ

ومنه :

أَلَا حَيًّا لَيْلِ أَجَدَ رَجَبِى \* وَأَدَبَ أَحْصَا بى قَدًّا بِقَوْلِ <sup>(٣)</sup>  
تَبَيَّنَتْ لَهُ لَيْلِ تُذْهِبُ عَقْلَهُ \* وَشَاقَتْكَ أُمُّ الصَّلْتِ بَعْدَ دُھُولِ  
أُرِيدُ لِأَتَمْسَى ذِكْرَهَا فَكَأَنَّمَا \* تَمَثَّلُ لى لَيْلِ بِكُلِّ سَبِيلِ  
إِذَا دُرِّكَتْ لَيْلِ تَفَشَّتْكَ مَعْرَةً \* تُعَلِّ بِهَا الْعَيْنَاتِ بَعْدَ مَهْوُولِ

(١) حُرْض : واد من وادى فتاة ، من المدينة على ميلين .

(٢) أَمَلَال : أراد طلال ، وهو منزل على طريق المدينة من مكة . (٣) قَوْل : رجوع .



وكم من خليل قال لي هل سألتها \* فقلت له ليس أضرب خليل  
وأبعده تَيْلًا وأوشكه<sup>(١)</sup> قَيْلًا \* وإن سئلت عرقًا فشر مسؤل  
حلقت رب الرافعات<sup>(٢)</sup> الى يتي \* خلال الملا يمدن كل جديل  
تراها رفاقًا ينهز مساول<sup>(٣)</sup> \* ويمدب بالإهلال كل أصل<sup>(٤)</sup>  
تواهنن بالبحاج من بطن تحلة<sup>(٥)</sup> \* ومن عزير وانجبت خبت طفيل  
بكل حرام خاشع متوجه<sup>(٦)</sup> \* الى الله يدعوه بكل تقيل  
على كل مدعان الرواح مديدة<sup>(٧)</sup> \* ونحشة ألا تبعد هزيل  
شوايد قد أرتجن دوت أجنة<sup>(٨)</sup> \* وهوج تبارى في الازقة حول<sup>(٩)</sup>  
يمن امرئ مستغليظ من ألية<sup>(١٠)</sup> \* ليكذب قيا قد ألح يقيل  
لقد كذب الواشون ما بحث عندهم \* بليل ولا أرسلكم رسول<sup>(١١)</sup>  
فان جاءك الواشون عني بكذبة \* قروها ولم يأتوا لها يحويل<sup>(١٢)</sup>  
فلا تعجل بالليل أن تفهمي \* بنصيح أتي الواشون أم يحول<sup>(١٣)</sup>  
فان طبت نفسا بالعطاء فابزلي \* وخير المطا باليسل كل جزيل  
ولما فاجبال<sup>(١٤)</sup> الى فانسى \* أحب من الأخلاق كل جميل  
وان تبدل لي منك يوما مودة \* فقدمما تحذت القرض عند بلول  
وان تبغلي باليل عني فانسى \* نوكتني نفسى بكل يتيل  
ولست براض من خليل بنائل \* قليل ولا راض له بقليل

- (١) أوشكه : أسره . والقيل : البيض . (٢) الرافعات : الإبل ، والملا : الفضاء ، والجديل : زمام يجردل أى مضمود . (٣) الأصل : الشئ . (٤) أصل : وطين تحلة : بستان بنى حاصر ، وعزور : ثنية الجلفة . وانجت : المظن من الأرض . وطغيل : موضع . (٥) الغيل : الطريق . (٦) المدان : المدة . ومعدة : قد عودت السفر . (٧) الشوايد : الشائعات الأذتاب ، وأرتجن : أظنن أرسامهن على أولادهن ، والحول : جمع حائل وهو الذى لا تنقح . (٨) الألية : الجن . (٩) فرعها من القرية ، يقال فرى فرى . والحول : والحمل ، والحالة . (١٠) الجهرل : الهماهي .

وليس خليل بالكلول ولا الذي \* اذا غبت عنه باهى بخيل  
ولكن خليل من يديم وصاله \* ويحفظ سرى عند كل دُخيل<sup>(١)</sup>  
ولم أر من لي نوالاً أعدّه \* ألا ربما طالبت غير مُنيل  
يلومك في ليل وعقلك عندها \* رجالٌ ولم تذهب لهم بعقول  
يقولون ودّع عنك ليلاً ولا تهم \* بقاطمة الأقران ذات حليل  
لما نعتت نفسي بما أمروا به \* ولا نجت من أفواهم بفتيل<sup>(٢)</sup>  
تذكّرت أتراباً لمزة كالهما \* حبيبٌ يلبط ناعم وقبول  
وكنْتُ اذا لاقيتهن كائن \* محالعةً على سلاف شموس  
ناطرن حتى قلت لسن بواركا \* رجاء الأمانى أن يفلت مقيل<sup>(٣)</sup>  
فأبتن لي من بينهن تهمها \* وأخلفن علي إذ ظننت وقيل  
فلأياً يلاي ما قضين لبانه \* من الدار وأستقلن بعد طويل  
فلما رأى وأستيقن البين صاحي \* دعا دعوة يا حبسترتن سلول  
فقلت وأسررت الندامة ليني \* وكنْتُ أمراً أفتش كل عدول  
سلكتُ سبيل الرانحات عشية \* مخارم نصع أو سلكن سبيل<sup>(٤)</sup>  
فأسمعت نضاباً بالهوى قبل أن أرى \* عوادي تأتي بيننا وشكول<sup>(٥)</sup>  
تدبّت على ما فاتني يوم بنم \* فباحسرتنا إلا يربت عويل  
كان دموع العين وأهية الكل<sup>(٦)</sup> \* وعث ماء غرب يوم ذاك يعيل

- (١) الدخيل : الذي ينسب الى قوم وليس منهم . (٢) أى ما ووبت . (٣) الأتراب : الأقران . واللبط : اللون وهو الجلد أبيضاً . (٤) ناطرن : تلهطن ، وأصل الناطر : التطف . (٥) العوادي : العوايد . واللبط : البط . واللبانة : اللبابة . (٦) المخارم : جمع خرم وهو مقطع ألف الجبل . نصع : جبل أسود بين الصغراء وبلع . (٧) العوادي : الصوارف . (٨) الكل : جمع كلبه وهو الزئفة تكون في أصل حروء المزداد . والفرب : الدنو المقطعة .  
وربيل : ضمير

تَكْتَفِيهَا خُرْقٌ تَوَاطَلَنَ خَرْزُهَا \* فَأَجْمَلْتَهُ وَالسَّيْرَ غَيْرَ بِجَمِيلٍ <sup>(١)</sup>  
 أَيْمَى غِلَافُ الْقَوْرِ يَاعْتَرِ بِعَدَمِ \* أَلَى إِذَا مَا بَنَتْ غَيْرَ بِجَمِيلٍ  
 كَفَى حَزَنًا لِلْعَيْنِ أَنْ رَدَّ طَرَفُهَا \* لَمَسْرَةَ عَيْرٍ أَذْنَتْ بِرَحِيلٍ  
 وَقَالُوا نَأَتْ فَاخْتَرَمَنِ الصَّبْرَ وَالْبُكََا \* فَفَلَتَ الْبُكَاءُ أَشْفَى إِذَا لَقِيلَ  
 تَوَلَّيْتُ عَمَزُونَا وَقُلْتُ لِمَ صَاحِي \* أَفَأَنْتِي لَيْسَ بِغَيْرِ قَبِيلٍ  
 لَمَسْرَةَ إِذْ يَحْتَلُّ بِالْخَيْفِ أَهْلُهَا \* فَأَوْحَشَ مِنْهَا الْخَيْفُ بَعْدَ حُلُولِ  
 وَبَدَّلَ مِنْهَا بَعْدَ طَوْلِ إِقَامَةِ \* تَبَثُّ نَكْبَاهُ الْعَيْنِ جَفُولِ <sup>(٢)</sup>  
 لَقَدْ أَكْثَرَ الْوَاشُونَ فِيْنَا وَفَيْكُمُ \* وَمَالُ بَنِي الْوَاشُونَ كُلِّ يَمِيلِ  
 وَمَا زِلْتُ مِنْ لَيْلٍ لَدُنَّ طَوَّ شَارِبِي \* إِلَى الْيَوْمِ كَلَّقَصَى بِكُلِّ سَبِيلِ <sup>(٣)</sup>

وله :

إِذَا مَا أَرَادَ الْغَزْوُ لَمْ تَنْ هَمَّهُ \* حَصَانٌ عَلَيْهَا نَظْمٌ دُرٌّ زِينُهَا  
 نَهَتْهُ فَلَمْ تَرَ التَّهَى عَاقَهُ \* بَكَتُ فَبَكَى مِمَّا كَتَبَهَا قَطِينُهَا <sup>(١)</sup>  
 وَلَمْ يَنْبِيهِ يَوْمَ الصَّبَابَةِ بَنُهَا \* غَدَاةً اسْتَهَلَّتْ بِالْدموعِ شُؤُونُهَا  
 وَلَكِنْ مَضَى ذُو مِرَّةٍ مُتَثَلِّثٌ \* بُسْنَةً حَقٍّ وَاصِحٍ مُسْتَبِينُهَا

وله في مدح عبد الملك بن مروان :

أَحَاطَتْ يَدَاهُ بِالْخِلَافَةِ بَعْدَ مَا \* أَرَادَ رِجَالُ آمُرُونَ اخْتِيَالَهَا  
 لَهَا أَسَاسُهَا عَنُودٌ عَنْ مَوْدَةٍ \* وَلَكِنْ يَحْدُ الْمَشْرِقُ اسْتِقَالَهَا  
 وَكَنتَ إِذَا نَابَتْكَ يَوْمًا مِثْمَةٌ \* نَبَتْ لَهَا أبا الْوَلِيدِ نِيَالَهَا  
 سَمَوْتَ فَأَدْرَكَتِ السَّلَاةُ وَإِنَّمَا \* يُلْقَى عَلَيْاتِ الْمَلَأَمِنْ سَمَا لَهَا  
 وَصَلَتْ فَنَالَتْ كَفْكَ الْمَجْدِ كُلَّهُ \* وَلَمْ تَبْلُغِ الْإِيْدَى السَّرَاحِي مَصَالَهَا

(١) خُرْقٌ : جمع ثوب ، وهو الذي لا تحس العدل ، وأجملته : أرسنته ، والجمل الغليظ : يريد أنهن  
 أغفلن الإسن را دفن السير . (٢) النكباء : الرماح التي تنب بين مهدي دحيمي ، واليعول : التي تذهب الزراب .  
 (٣) طرمود الشارب : نباله ، (٤) القطن : الخدم ، (٥) نهت : أعمده ،

وله أيضا :

أَهاجَكَ بَرَقَ آخِرَ اللَّيْلِ وَاصْبُ \* تَصَنَّنَهُ فَوْشُ الْجَبَا فَاَلْسَارِبُ  
 بِحُرٍّ وَبِسَاتِي تَسَاوَا كَانَهُ \* بَيْقَةُ حَادٍ جَلَّجُلُ الصَّوْتِ جَالِبُ  
 تَأَلَّقَى وَأَحْمَسُوْنِي وَخَسِمَ بِالرِّبَا \* أَحْمُ الذُّرَى ذُو هَيْدَبٍ مُتَرَاكِبُ  
 إِذَا حَرَّكَتَهُ الرِّيحُ أَرْزَمَ جَانِبُ \* بَلَا هَزَقٍ مِنْهُ وَأَوْبَضَ جَانِبُ  
 كَمَا أَوْبَضَتْ بِالْعَيْنِ ثُمَّ تَبَسَّمَتْ \* تَرْجِيمُ بَدَا مِنْهَا جَبِينُ وَحَاجِبُ  
 يَمِجُّ النَّدَى لَا يَذْكُرُ السَّيْرَ أَهْلَهُ \* وَلَا يَرْجِعُ الْمَاشِي بِهِ وَهُوَ جَادِبُ

وله أيضا :

سَبَّحْتُكَ فِي الدُّنْيَا تَسْفِيكَ عَلَيَّكُمْ \* إِذَا غَالَهُ مِنْ حَادِثِ الدَّهْرِ غَالُهُ  
 وَيُخَيِّنِي لَكُمْ حُبًّا شَدِيدًا وَرَهْبَةً \* وَلِلنَّاسِ أَشْغَالٌ وَحُبٌّ شَاغِلُهُ  
 وَحُبِّكَ يُبْسِنُنِي مِنَ الشَّيْءِ فِي يَدِي \* وَيُذِيلُنِي مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَزَاوِلُهُ  
 صَكْرِيْمٌ يَمِيتُ السَّرَّ حَتَّى كَانَ \* إِذَا اسْتَبَحُّوْهُ عَنْ حَدِيثِكَ جَاهِلُهُ  
 يَوَدُّ أَنْ يُنَمِّي سَقِيًّا لَهَا \* إِذَا تَمَيَّتَ عَنْهُ بِشَكْوَى تَرَأْسُهُ  
 وَرِيحُ الْمَرْوِفِ فِي طَلَبِ الْمَلَا \* لِيُتَحَمَدَ يَوْمًا عِنْدَ لَيْلِ شِمَائِلُهُ  
 فَلَوْ كُنْتُ فِي كَيْلٍ وَبُحْتُ بَلَوَعَتِي \* إِلَيْهِ لِأَنْتَ رَحْمَةً لِي سَلَامِلُهُ

وله أيضا :

أَقُولُ لِمَاءِ الْغَيْبِ أَمِينٌ لَعَلَّهُ \* بَمَا لَا يَرَى مِنْ غَائِبِ الْوَجْدِ يَشْهَدُ  
 فَلَمْ أَدْرُ أَنَّ الْعَيْنَ قَبْلَ فِرَاقِهَا \* فَلَدَاةُ الشَّبَابِ مِنْ لَاحِجِ الْوَجْدِ يَحْمَدُ  
 وَلَمْ أَرِ مَثَلَ الْعَيْنِ صَلَّتْ بِمَاتِهَا \* عَلَى وَلَا مَثَلِي عَلَى الدَّمْعِ يُحْسَدُ

(١) البطاخي : السحاب المرتفع بعضه فوق بعض . (٢) أَرْزَمَ : صَوَّتَ . (٣) الْفَرْقُ :  
 هَذِهِ صَوْتُ الرِّيحِ . (٤) تَرْجِيمُ : امْرَأَةٌ حَسَّاءُ . (٥) كَلِمٌ : لَهْفٌ أَوْ دَيْدَمٌ .

وله أيضا :

تَسْمَعُ الرعدَ في الخيلة منها • مثل هَزَمَ الفُرومَ في الأشوكِ<sup>(١)</sup>  
وترى البرقَ عارضا مُسْتَطيرا • مَرَحَ البُلقي جُلنَ في الأجلال  
أو مصابيحَ راهبٍ في يَفاج • سَغَمَ الزَّيتَ ساطعات الذُّبال<sup>(٢)</sup>

وله أيضا :

فياحِزْ إِنْ وائشَ وَشَى بِي عِنْدَك • فلا تُكْرِمِيه أن تقولى له أهلا  
كما لو وشى وائشَ بعزة هِنْدنا • لَقُلْنَا تَرَجَحَ لا قَرِيبَ ولا سَمَلا

(١) القروم : الفحول التي أعطيت من الحبل عليها وتركت للخدمة .

(٢) الأشوال : الإبل التي مضى على حملها أو وضعها سبعة أشهر فارتفع ضرعها وجف لبنها .

## (د) الغزل القصصي

١ - أخبار قيس بن الملقح (المجنون)<sup>(١)</sup>

قال الأصمغاني عن عديته عن ابن دأب قال : قلت لرجل من بني عامر : أنعرف المجنون وترى من شعره شيئا ؟ قال : أوقد فرغنا من شعر العقلاء حتى تروى أشعار المجانين ! إنهم لكثير ! قلت : ليس هؤلاء أعني ، إنما أعني مجنون بني عامر الشاعر الذي قتله المشق ، فقال : هيهات ! بنو عامر أغلظ أكبادا من ذلك ، إنما يكون هذا في هذه العنانية الضعاف قلوبها ، السخيفة عقولها ، الصلبة رءوسها ، فأما نزار فلا .

وقال الرباعي سمعت الأصمعي يقول : رجلان ما عرفنا في الدنيا قط إلا بالاسم : مجنون بني عامر ، وابن القرية<sup>(٢)</sup> ، وإنما وضعهما الرواة .

وقال المدائني : المجنون المشهور بالشعر عند الناس صاحب ليل قيس بن معاذ من بني عامر ، ثم من بني عقيل ، أحد بني عمير بن عامر بن عقيل ، قال : ومنهم رجل آخر يقال له : مهدي بن الملقح من بني جمعة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة .

وقال ابن الكلبي : حدثت أن حديث المجنون وشعره وضعه قتي بن أمية كان يهوى أخته م له ، وكان يكره أن يظهر ما بينه وبينها ، فوضع حديث المجنون وقال الأشعار التي يروونها الناس للمجنون ونسبها إليه .

(١) هو قيس بن الملقح ، ويقال : أين ماذ بن مزاحم من بني عامر بن صعصعة ، ويعرف بمجنون ليل ، نسبة إلى ليل التي كان ينشقها وهو مشهور ، ولكن بعض أهل النقد من طلباء الشعريون أن قصته موضوعة ، ومنها رجل من بني أمية كان يحب أخته م له ويكره أن يظهر ما بينه وبينها ، فوضع حديث المجنون وقال الأشعار التي ينسبها الناس للمجنون ، وقد زاد الناس فيه بعد ذلك . ويؤكد ذلك أن كثيرا مما ينسب إليه من الأشعار رويت لغيره ، فقصته إذا من قبيل الشعر التمثيلي (درام) الذي يراد به تمثيل بعض الفضائل . وهي تمثل المشق مع التشف ، وأردل لها أصلا قليلا وزاد فيه الرواة كما فعلوا بقصة عترة التي تمثل الشجاعة والمشق ، وعلى كل حال فإن بين الأشعار المنسوبة إلى المجنون طائفة تمثل شماتة المجنون كما هي على طبيعتها . وأخبار المجنون في الألفاظ (ج ١ ص ١٦٧) والشعر والشعر (ص ٣٥٥) وتزانة الأدب (ج ٢ ص ١٧٠) . (٢) الصلعة ، صغر الرأس . (٣) هو أدهب ابن زيد بن تمس والقرية أمه قتله الجاهلي لانه لا ين الأسمه .

وعن حماد بن طالوت بن عباد : أنه سأل الأصمعي عنه ، فقال : لم يكن مجنوناً ، بل كانت به لؤثة أخذتها المشق فيه ، كان يهوى امرأة من قومه يقال لها ليلى ، وأسمه قيسُ ابن مُعاذ .

وذكر عمرو بن أبي عمرو الشيباني عن أبيه أنه أسماه قيسُ بن مُعاذ .  
وذكر شعيبُ بن السَّكَن عن يونسَ التَّحَوِي أن اسمه قيسُ بن الملوّح ، قال أبو عمرو الشيباني : وحدثنى رجل من أهل اليمن أنه رآه ولقبه وسأله عن اسمه ونسبه ، فذكر أنه قيسُ بن الملوّح .

وذكر هشام بن محمد الكلبي أنه قيسُ بن الملوّح ، وحدثن أن أباه مات قبل اختلاطه ، فمقر على قبره ناقته وقال في ذلك :

عسرتُ على قبر الملوّح ناقتي \* بنى السرح لما أن جفاه الأفارُبُ  
وقلتُ لها كوني عَصِيماً لِنَاقِي \* غداً راجلٌ أمشي وبالأيسر راکِبُ  
فلا يُعِدُّكَ اللهُ يا ابنَ مُرَاحِمٍ \* فكلُّ بكأس الموت لاشك شاربُ

وقال الأصمعي : سألت أعرابياً من بني طامر بن صَمْعَصَمَة عن المجنون العاصري فقال : عن أيهم تسألني ؟ فقد كان فينا جماعة رُمُوا بالجنون ، فمن أيهم تسأل ؟ فقلت : عن الذي كان يُشَبَّب بِلَيْلى ، فقال : كلُّهم كان يُشَبَّب بِلَيْلى ، فأنشدني بعضهم ، فأنشدني لمُرَاحِم بن الحارث المجنون :

ألا أيها القلبُ الذي جُفِّ هائمٌ \* يَلِيلى وليداً لم تُقَطِّعْ نائمُ  
أفئ قد أفاق الماشقون وقد أُنِي \* لك اليوم أن تلقى طيباً تلاميذُ  
أجِدُّكَ لا تُنسيك لَيْلى مُبِسةٌ \* تُمِرُّ ولا عهدٌ بطولِ تَقادُمة

(١) يقال : احتط عقله إذا تير ونفسه .  
(٢) ذو السرح : واد بأرض نجد .  
(٣) عصياً ، أى مسقوفة ، وأصل القِر : قطع القوائم ثم أخلق بمعنى النحر . قال ابن الأثير : كانوا يقرنون الإبل على قهود الخرق أى يجرونها ويقولون : إن صاحب القِر كان يقرن الأضياف أيام حياته فكأنه يمثل صنمه بعد مواته . وإنما أطلق القِر على النحر لأنهم كانوا إذا أرادوا نحر البعير عقره فلا يشرد عنه النحر إله من عبادة عبدة ، (٤) أي : حان وقرب .

قلت : فأنشدني لغيره منهم ، فأنشدني لمعاد بن كليب المجنون :

ألا طالبا لأعبت ليلي وقادني \* إلى اللهو قلب ليسان تبوع  
وطال أمراء الشوق عيني كلبا \* نزلت دموعا تستعيد دموع  
فقد طال إمسائي على الكبد التي \* بها من هوى ليل القداة صدوع  
قلت : فأنشدني لغير هذين من ذكرك ، فأنشدني لمهدي بن الموح :  
لو آت لك الدنيا وما عديت به \* سواها وليس بائق عنك بينها<sup>(١)</sup>  
لكنت إلى ليل فقيرا وإنما \* يقود إليها ود نفسك حينها

قلت له : فأنشدني لمن ين من هؤلاء ، فقال : حسبك ! فواكه إن في واحد من هؤلاء  
لمن يؤذن بمفلكم اليوم .

وقال الجاحظ : ما ترك الناس شعرا مجهول القائل قيل في ليل إلا نسبوه إلى المجنون ،  
ولا شعرا هذه سبيله قيل في ليلي إلا نسبوه إلى قيس بن دريح .

قال أبو الفرج : وأنا أذكر ما وقع إلى من أخباره جملا مستحسنة ، متبرتا من العهد  
فيها ، فإن أكثر أشعاره المذكورة في أخباره ينسبها بعض الرواة إلى غيره وينسبها من  
حكيت عنه إليه ، وإذا قدمت هذه الشريطة برئت من عيب طاعن ومتبع للعيوب .

أخبرني بغيره في شقفه بلسي جماعة من الرواة ، ونسخت ما لم أسمع من الروايات  
وجمعت ذلك في سياقة خبره ما أنسق ولم يختلف ، فاذا اختلفت نسبت ككل رواية  
إلى راويها .

فمن أخبرني بغيره أحمد بن عبد العزيز الجوهري وحيب بن نصر الملهي ، قال :  
حدثنا عمر بن شبة عن رجاله وإبراهيم بن أيوب عن ابن قتيبة ، ونسخت أخباره من  
رواية خالد بن مخلوم وأبي عمرو الشيباني وأبن دأب وهشام بن محمد الكلبي وإسحاق بن  
الخصاص وغيرهم من الرواة .

(١) الامتداد : الاستعداد . (٢) بهذا معنا وصلها لأنه من أسماء الأعداء ، يطلق على الرسل والفرقة ،



قال أبو عمرو الشيباني وأبو حنيفة : كان المجنون يهوى ليلي بنت مهدي بن سعد بن مهدي بن ربيعة بن الحارث بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وتكنى أم مالك ، وهما حينئذ صبيان ، فعلق كل واحد منهما صاحبه وهما يرعبان مواشي أهلها ، فلم يرالا كذلك حتى كبرا فحُجِبَتْ عنه ، قال : ويدل على ذلك قوله :

تَلَعَّتْ لَيْلِي وَهِيَ ذَاتُ ذُؤَابَةِ<sup>(١)</sup> \* وَلَمْ يَبْدُ لِلْأَرْبَابِ مِنْ ثَنِيهَا حُمٌّ  
صَغِيرِينَ نَزَعِي الْبَهْمَ يَا لَيْتَ أَنَا \* إِلَى الْيَوْمِ لَمْ تَكْبُرْ وَلَمْ تَكْبُرِ الْبَهْمُ

وقال ابن الكلبي : كان سبب عشي المجنون ليلي ، أنه أقبل ذات يوم على ناقة له كريمة وعليه حلتان من حُللِ الملوك ، فتر بأمرأة من قومه يقال لها : كريمة ، وعندها جماعة نسوة يتحدثن ، فبين ليلي ، فأعجبته جماله وكأله ، فدعونه إلى التزويج والحديث ، فنزل وجعل يتحدثن وأمر عبداً له كان معه فقهرهن ناقةه ، وظل يتحدثن بقية يومه ، فبينما هو كذلك ، إذ طلع عليهم فتى عليه بردة من برد الأعراب يقال له : "مُنَازِلُ" يسوق يعزى له ، فلما رأيته أقبلت عليه وترك المجنون ، ففيض وخرج من عندهن وأنشأ يقول :

أَأَعِصِرُ مِنْ جِرَا كَرِيمَةٍ نَاقِي \* وَوَصِّلِي مَفْرُوشَ لَوْصَلِ مُنَازِلِ  
إِذَا جَاءَ قَعْقَعَنَ الْحُسْلَى<sup>(٢)</sup> وَلَمْ أَحْكُنْ \* إِذَا جِثَّ أَرْضَى صَوْتَ تِلْكَ الْخَلَاخِلِ

حتى ما آتَتْضَلْنَا<sup>(٣)</sup> بِالسَّهَامِ نَفْثُهُ \* وَإِنْ نَزِمَ رَشَقًا<sup>(٤)</sup> عِنْدَهَا فَهُوَ نَاضِلٌ  
قال : فلما أصبح ليس حلتاه وركب ناقة له أخرى ومضى متعرياً لهن ، فالتى ليلي قاعدة يفتاء بيتهما وقد علق حبه بقلبا وهويته ، وعندها جويريات يتحدثن معها ، فوقف بهن وسلم ، فدعونه إلى التزويج وقال له : هل لك في محادثة من لا يسفله عنك مُنَازِلٌ ولا غيره ؟ فقال :

(١) الذؤابة : شر الناصية .

(٢) أى من أجل ، يقال : ضلت ذلك من حراك أى من أجلك وما أنشئت على هذا :

أمن جراً بنى أسد حضبت \* ولو شتم لكان لكم جوار

(٣) أى تاربنا بالسهم ، ونضله : غلبه . (٤) الرشق : رى أهل النضال ما معهم من السهام

في جهة واحدة .

إلى لَعْمَرِي، فَنَزَلَ وَقَعَلَ مِثْلَ مَا فَعَلَهُ بِالْأَمْسِ، فَأَرَادَتْ أَنْ تَعْلَمَ، هَلْ لَهَا عِنْدَهُ مِثْلُ مَا لَهُ عِنْدَهَا، فَجَلَسَتْ تُعْرِضُ عَنْ حَدِيثِهِ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ وَتُحَدِّثُ غَيْرَهُ، وَقَدْ كَانَ عَلِيٌّ بِقَلْبِهِ مِثْلُ حَبِّهَا إِيَّاهُ وَشَفَقَتَهُ وَاسْتَمْلَحَهَا، فَبَيْنَا هِيَ تُحَدِّثُهُ، إِذَا أَقْبَلَ فَقِيٌّ مِنَ الْحَيِّ قَدَعَتَهُ وَسَارَتْهُ بِسَرَارٍ طَوِيلًا، ثُمَّ قَالَتْ لَهُ: أَنْصَرَفَ، وَنَظَرْتُ إِلَى وَجْهِ الْمَجْنُونِ قَدْ تَغَيَّرَ وَأَنْتِجِعُ لَوْنَهُ وَشَقِيٌّ عَلَيْهِ فَعَلُهَا، فَأَنْشَأَتْ تَقُولُ:

كَلَانَا مُظْهِرٌ لِلنَّاسِ بِفَضَا • وَكُلٌّ عِنْدَ صَاحِبِهِ مَكِينٌ  
تُبَلِّغُنَا الْيَوْمَ بِمَا أَرَدْنَا • وَفِي الْقَلْبَيْنِ تَمَّ هَوَى دَفِينِ

فَلَمَّا سَمِعَ الْبَيْتَ شَقَّ شَفَقَةً شَدِيدَةً وَأَغْمَى عَلَيْهِ، فَكَثَرَ عَلَى ذَلِكَ سَاعَةً، وَنَضَحُوا الْمَاءَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أَتَقَى وَتَمَكَّنَ حَبُّ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا فِي قَلْبِ صَاحِبِهِ حَتَّى بَلَغَ مِنْهُ كُلُّ بَلِغٍ.

وَعَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ الْعَقِيلِ قَالَ: لَمَّا شُيِّرَ أَمْرُ الْمَجْنُونِ وَلَيْلٍ وَتَنَاشَدَ النَّاسُ شَعْرَهُ فِيهَا، خَطَبَهَا وَبَذَلَ لَهَا تَمْسِينَ نَاقَةَ حِمَاءَ، وَخَطَبَهَا وَرَدَّدَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْعُقَيْلِ وَبَذَلَ لَهَا عَشْرًا مِنَ الْإِبِلِ وَرَاضِعِيهَا، فَقَالَ أَهْلُهَا: نَحْنُ نَحْبِرُوهَا بِبَنِكَا، فَبَيْنَ أَخْتَارَتْ تَرْجُوهُ، وَدَخَلُوا إِلَيْهَا فَقَالُوا: وَاقِفِي لَنْ لَمْ تَخَارِي وَرَدَّا لِنُتَقَلَّ بِكَ، فَقَالَ الْمَجْنُونُ:

أَلَا يَا أَيْلَ إِنْ مَلَكَتِ فِينَا • خِيَارَكَ فَاظْطَرِي لِمَنِ الْخِيَارُ  
وَلَا تَسْتَبْدِلِي مَعِيَ دَنِيًّا • وَلَا بَرًّا إِذَا حُثَّ الْقَتَارُ<sup>(٢)</sup>  
يُهْرَوِلُ فِي الصَّغِيرِ إِذَا رَأَاهُ • وَتُسَجِّزُهُ مُبَاتٌ يَكَارُ  
فَسَلُّ ثَائِمٍ مِنْهُ نِكَاحٌ • وَمَنْ لِي يَمُولِي مِنْهُ أَتَقَارُ  
فَاخْتَارَتْ وَرَدَّا فَتَرْجُوهُ عَلَى كَرِّهِ مِنْهَا.

وقال:

أَيَا وَجْهٍ مَنَ أَمْسَى يَحْسُ عَقْلُهُ • فَأَصْبَحَ مَذْهُوبًا بِهِ كُلُّ مَنْهَبِ  
خَلِيًّا مِنَ الْخِلَالِ إِلَّا مُعَدَّرًا • بِضَاحِكُنِي مَنَ كَانَ يَسْوِي تَجَنُّبِي

(١) البرم: العقيل. (٢) القار: ريح الهم المشوى. (٣) تحس: سلب. (٤) هو القصر الذي لا غدر له ولكنه يتكلف المذمر، ومنه قوله تعالى: (وجاء المذرون من الأعراب ليؤذن لهم).

إذا ذكرت لي عقلت وراجعت • رواح عقل من هوى متشعب  
 وقالوا صحیح ما به طیف جنیة • ولا الم إلا بافتراء التکذیب  
 وشاهد وجدی دمع عینی وحبا • برى الخم عن أحناء عظمی ومنکی  
 تجنبت لی أن یلج بک الهوی • وهیات کان الحب قبل التجنبت  
 ألا إنما غادرت یا أم مالک • صدی أنما تلعب به الریح یلعب  
 فلم أر لی بعد موقف سامة • بحیف منی ترى حمار المحصب  
 ویدی الحقی منها إذا قذفت به • من البؤد أطراف البنان الخضب  
 فاصبحت من لیلى الفداة کناظر • مع الصبح فی أعقاب یحیم مغرب

قال أبو الفرج : أنشدنی الأخفش عن أبی سمید السکری عن محمد بن حبيب

للجنون :

فوالله ثم الله إلى لائب • أفکر ما ذنبی إلیها وأعجب  
 ووالله ما أدري علام قتلنی • وای أموری فیک یا لیل أركب  
 أنقطع حبل الوصل فالموت دونه • أم أشرب رنقا متکلم یسرب  
 أم أهرب حتى لا أری لی مجاورا • أم أصنع ماذا أم أبوح فأغلب  
 فایهما یا لیل ما ترتضینه • فانی المظلوم وإنی لمعتب

وقال :

عرضت علی قلبی العزاة فقال لی • من الآن فأیام لا أعزاک من صبر  
 إذا بان من تهوی وأصبح نائیا • فلا شیء أجدی من حلوک فی القبر

(١) الرائع : جمع رائحة ، أى مرانة . (٢) الأحاء : جمع حو وهو کل شیء ، فیه أوجاج کظم  
 الججاج ( العظم الذى ینبت علیه الحاجب ) وألحى والفضح . (٣) الصدى : الجسد من الآدى بدو موته ،  
 ویطلق علی الرجل النحیف البسید ، كما یم یطلق علی العورت الذى یسمه المحضوت عقب صاحبه راجعا إلیه من  
 نحو الجبل والبناء المرتفع .

وداع دعا إذ نحن بالحنيف من مَن \* فهيج أطراب الفؤاد وما يدري  
دعا باسم ليل غيرها فكأنما \* أطار بيلي طائرا كان في صدري  
دعا باسم ليل ضل الله سعيه \* وليلى بأرض عنه نازحة قفر

وقال :

أيا جيل تمارت بالله خليا \* سبيل الصبا يخلص إلى تسبيها  
أجذ بردها أو تشفى من حرارة \* حل حصيد لم يبق إلا حميمها<sup>(١)</sup>  
فأق الصبا ربح إذا ما تسمت \* على نفس محزون تجلت همومها

وقال :

أيا حرجات الحى حيث تعالوا \* يذى سلم لا جادكن ربيع<sup>(٢)</sup>  
وحياتك اللاتي بمنعرج اللوى \* يلبى إلى لم تباهن رؤسوع  
تدمت على ما كان منى ندامة \* كما يندم المغبون حين يبيع<sup>(٣)</sup>  
فقدتكم من نفس شعاع فأتى \* نيتك عن هذا وأنت جميع<sup>(٤)</sup>  
فقرت لى غير القريب وأشرقت \* اليك شأيا ما لهن طلوع<sup>(٥)</sup>

وله :

يا صاحبي الميا في بمسألة \* قد مر حين عليها أيماحين  
إني أرى رجعات الحب تفتلي \* وكان في بشها ما كان يكفني<sup>(٦)</sup>  
لا خير في الحب ليست فيه قارعة \* كأت صاحبا في تزج موتن<sup>(٧)</sup>

(١) الأطراب : جمع طرب وهو خفة تفرى الشخص من شدة الفرح أو الحزن . (٢) حميمها : أصلها .

(٣) الحرجات : جمع حرجة وهي العيصة ، وصحبت بذلك لضيها ، وقيل : الشجر المكثف ، وهي أيضا الشجرة تكون بين الأشجار لا تفصل إليها آفة وهي ما دعى من المسال . (٤) ذوسلم : موضع بالجهاز .

(٥) يقال : نفس شعاع إذا نشر رأيا فلم تنجبه لأمر جزم . (٦) البجع : ضة المخرق .

(٧) أشرقت : ظهرت وأزهرت . (٨) التنايا : جمع ثنية وهي الطريقة في الجبل ، وقيل : هي العقبة ، وقيل : هي الطريق المال فيه ، يريد أن الوصول إلى لى صعب لا يستطعمه . (٩) الموتون : المضروب على الوتين ، وهو مرق سبق بياض القلب .

إِنْ قَالَ عُدَّاهُ مَهْلًا فَلَا نَ لِمِ • قَالَ الْهُوَى غَيْرُ هَذَا الْقَوْلِ يَتَنَبَّئُ  
الَّتِي مِنَ الْيَاسِ تَارَاتٍ فَتَقُتُّ • وَالسَّرَجَاءُ بِشَانَاتٍ فَتُحْبِنُ

وله :

أُسْتَقْبِلِي نَفْعَ الصَّبَا غِمَّ شَاتِي • يَرِدُ شَيَا أُمَّ حَسَّانَ شَاتِي  
كَانَتْ عَلَى أَنْبَايَا الْخَمْرِ تَجْهَى • جَاءَ الدُّنَى مِنْ أَمْرِ اللَّيْلِ عَاتِي<sup>(١)</sup>  
وَمَا شِئْتُهُ إِلَّا بَعْضِي تَقَرُّسًا • كَمَا شِئِمَ فِي أَمَلِ السَّعَابَةِ بَارِي

وروى الأصمعي له قوله :

أَخَذْتُ حَاسِنَ كُلِّ مَا • ضَلَّتْ حَاسِنُهُ بِحُسْنِهِ  
كَادَ الْفَزَالُ يَكُونُهَا • لَوْلَا الشَّوَى وَلُشَوْرُ قَرْنِهِ

قال : وهو الغائل :

وَلَمْ أَرَ لِي بِعَسَدٍ مَوْفِقٍ سَاعِدٍ • بِخَفِيفٍ مَنَى نَزِيٍّ وَهَارٍ الْمُحْصِبِ  
وَيُبْدِي أَخْصَى مِنْهَا إِذَا قَدَفَتْ بِهِ • مِنَ السَّبْرِ أَطْرَافَ الْبَنَانِ الْمُخْضِبِ  
فَاصْبَحْتُ مِنْ لَيْلٍ الْغَسَادَةِ تَخَاطُرٍ • مَعَ الصَّبْحِ فِي أَقْصَابِ نَجِيمٍ مُغْرِبِ  
إِلَّا إِنَّمَا غَادَرْتُ يَا أُمَّ مَا لَكَ • صَدَى إِنَّمَا تَذْهَبُ بِهِ الرَّيْحُ يُلْهَبِ

وقال :

يَقُولُ أَنَاسٌ عَلَى مَجْنُونٍ حَامِي • يَوْمٌ سُكِّلُوا قُلْتُ أُنَى لِمَا يَبَا  
وَقَدْ لَانِي فِي حُبِّ لَيْسَى أَقَارِبِي • أُنَى وَأُنَى عَمِي وَأُنَى خَالِي وَخَالِيَا  
يَقُولُونَ لَيْلَى أَهْلُ بَيْتِ عَدَاوَةٍ • بِنَفْسِي لَيْسَى مِنْ عَدُوٍّ وَمَالِيَا  
وَلَوْ كَانَ فِي لَيْلَى شِدْدًا مِنْ خُصُومَةٍ • لَلَّوَيْتُ أَعْنَاقَ الْمَلِطَى الْمَلَاوِيَا<sup>(٢)</sup>

(١) شجها : مزجها . العائق : البكر التي لم تن من أهلها ، والظاهر أنها ليست مرادة  
هنا وأن كلمة «عائق» محوطة عن «عائق» وهو السائق في التنبؤ أي التنبؤ .  
(٢) الملاوي : جمع ملوى وهو مصدر ملى من لوى بمعنى خلف .

وقال :

ألا ما لبيل لا ترى عند مضجعي \* بليل ولا يتحري بذلك طائر  
 بل إنك عجم الطير تجرى إذا جرت \* بليل ولكن ليس للطير زاجر  
 أ زالت عن العهد الذي كان بيننا \* بذى الأثيل أم قد غرثها المقادر  
 فوافقه ما في القرب لي منك راحة \* ولا البعد يسليني ولا أنا صابر  
 وواقه ما أدرى بأية حيلة \* وأى مراع أو خطار أخاطر<sup>(١)</sup>  
 وثأته إن الدهر في ذات بيننا \* هل لها في كل حاي لجائر  
 فلو كنت إذ أنمعت هجري تركيني \* جميع القوى والمقل مني وافر<sup>(٢)</sup>  
 ولكن أياي يحفل عنيرة \* وبالزعم أيام جناها التجاور<sup>(٣)</sup>  
 وقد أصبح الود الذي كان بيننا \* أمانني نفس والمؤمل حائر  
 تعمري لقد رقت أيام مالك \* حياتي وسأقتني إليك المقادر<sup>(٤)</sup>

وقال :

يا للرجال لهم بات يعرفوني \* مستطرف وقديم كان يعينني  
 على غيرهم ملي غير ذي عديم<sup>(٥)</sup> \* يأتي فيمطلي ديني ويلويني<sup>(٦)</sup>  
 لا يذكر البعض من ديني فيذكره \* ولا يحدثني أن سوف يقضيني  
 وما كسكركي شكر لو يوافيني \* ولا متى حكمتاه إذ يمتني

(١) الخطار : مصدر من خطر بمعنى راحن .

- (٢) جمع : مجتمع . (٣) الحفل : المودة ويطلق على الموضع البكر الذي لم يزدح فيه قط .  
 وعنيرة : موضع بين البصرة ومكة . والزعم : موضع على ستة أميال من زبالة ، وزبالة : نزل معروف بطريق  
 مكة من الكوفة . (٤) رقت : كدرت ، والترقيق كما يطلق على التكثير يطلق على ضلله الذي هو التصفية .  
 (٥) ملي : بالهز أي قصة هي . قال صاحب اللسان : وقد أولع فيه الناس بترك الهزل وتشديد الياه .  
 (٦) عدم أي قفروا منه الدم بضم العين وسكون الهمزة . قال صاحب اللسان : اذا ضمت أوله خففت قلت :  
 الدم واذ ضمت أوله قلت قلت : الدم . (٧) يلوين : يملق ، يقال : لواء ديه وبديه : مظهره .

أُطْلِئْتُ وَصَبَبْتُ النَّاسَ كُلَّهُمْ \* فِي أَمْرِهِ ثُمَّ يَأْتِي فَهُوَ يَعْصِيَنِي  
خَيْرِي لِمَنْ يَبْغِي خَيْرِي وَيَأْمُلُهُ \* مِنْ دُونِ سَمَرِي وَسَمَرِي خَيْرُ مَا مَوْنِ  
وَمَا أَشَارِكُ فِي رَأْيِي أَحَا ضَمِيفٌ \* وَلَا أَقُولُ أُنْصِرُ مَنْ لَا يُؤَيِّنِي

وله :

أَلَا أَيُّهَا الْبَيْتُ الَّذِي لَا أَزُودُهُ \* وَإِنْ حَلَّهْ شَخْصٌ إِلَى حَيْبُ  
هَجْرَتِكَ إِشْفَاقًا وَزُرْتُكَ خَافًا \* وَفِيكَ عَلَى الْبَهْرِ مِنْكَ رَقِيبُ  
سَأَسْتَعِيبُ الْيَأْمَ فَيْكَ لَعْلَهَا \* بِيَوْمِ سُورٍ فِي الزَّمَانِ رُوبُ

وَبَلَغَ الْمَجْنُونُ أَنَّ أَهْلَ لَيْلٍ يَرِيدُونَ قَهْلَهَا إِلَى التَّقْنِي : فقال :

كَأَنَّ الْقَلْبَ لَيْلَةً قِيلَ يُنْدَى \* بَلِّسَ الْعَامِرِيَّةُ أَوْ يَرُخُ  
قَطَاةً عَزَّهَا شَرَكُ فَبَاتَتْ \* مُجَاذِبَةً وَقَدْ عَلِقَ الْجَنَاحُ

فَلَمَّا تَلَّتْ لَيْلٍ إِلَى التَّقْنِي : قال :

طَرِبَتْ وَشَافَتْكَ الْجُحُودُ الدَّوَانِعُ \* غَدَاةٌ دَعَا بِالْبَيْنِ أَسْفَعُ نَارُغُ  
شَخَا قَاهُ نَعْبًا بِالْفِرَاقِ كَأَنَّهُ \* حَرْبٌ سَلِيبٌ نَارُغُ الدَّارِ جَارُغُ  
فَقُلْتُ أَلَا قَدْ بَيْنَ الْأَمْرِ فَأَنْصِرِي \* نَفْدَ رَاعِنَا بِالْبَيْنِ قَبْلَكَ رَائِعُ  
سُقِيتَ سُمُومًا مِنْ غُرَابٍ فُاتِنِي \* تَبَيَّلْتُ مَا خَبِرْتُ مَذْأَنْتَ وَاقِعُ

(١) الضعف هكذا بالتركيب : لفظة في الضعف بالفتح والكسرة . ويستعمل في ضعف الرأي والمقل ،  
وأنشد عليه ابن الأعرابي هذا البيت . ويستعمل في ضعف الجسم وأنشد عليه :  
ومن يلق خيرا يفتخر الله به عليه \* على ضعف من حاله وخود

(٢) يروا تقي : يساعده .

(٣) الخول في الأصل : المهادج واحدها حل ثم اتسع فيها وصارت تستعمل في الإبل التي عليها المهادج .  
والدوانع : المتدعة في السر . (٤) كذا في أغلب النسخ وزين الأسواني . وفي ب ، سمه :  
«أهم» والأسفع والأهم متاهما واحد وهو الأسود . والنازع : المخرج . والمراد بالأسفع النازع «الغراب» .  
(٥) شخا قاه يشعوه وشخاه : قحه . (٦) نعبا : صباحا وتصويتا . (٧) الحريب : من  
سلب حريته وماه الذي يقزم به أمره . (٨) بين بمعنى تين ، ومنه المثل : «قد بين الصبح لدى عينين» .

أَلَمْ تَرَ أَنِّي لَأُحِبُّ الْوُدَّ \* وَلَا يَبْدِلُ بِهِمْ أَنَا قَانِعٌ  
 أَلَمْ تَرِدَارَ الْحَيِّ فِي رَوْقِ الضَّمْحَى \* بِحَيْثُ أَتَخَنَّتْ لِلْهَضْبَيْنِ الْأَجَارِعُ<sup>(١)</sup>  
 وَقَدْ يَتَنَاهَى الْإِلْفُ مِنْ بَعْدِ أَلْفَةٍ \* وَيَصْدَعُ مَا بَيْنَ الْخَلِيطَيْنِ صَادِعُ  
 وَكَمْ مِنْ هَوًى أَوْ جِعْرَةٍ قَدْ أَلْفَهُمْ \* زَمَانًا فَلَمْ يَنْجِعَهُمُ الْبَيْنُ مَانِعُ  
 كَأَنِّي غَدَاةَ الْبَيْنِ مَيِّتٌ جَوِيَّةٌ \* أَخُو ظِلْمًا سُدَّتْ عَلَيْهِ الْمَشَارِعُ<sup>(٢)</sup>  
 تَحُلَسُ مِنْ أَوْشَالِ مَاءِ صُبَابَةٍ \* فَلَا الشَّرْبُ مَبْذُولٌ وَلَا هُوَ نَاقِعُ<sup>(٣)</sup>  
 وَبَرِضَ تَقَلُّ بِالْعَبِيرِ كَأَنهَا \* نَعَاجُ الْمَلَا جِيئَتْ عَلَيْهَا الْجَرَامِعُ<sup>(٤)</sup>  
 تَحْلَنُ مِنْ وَادَى الْأَرَاكِ فَامْضَتْ \* لَهَنَ بِأَطْرَافِ الْعَيُونِ الْمَدَامِعُ<sup>(٥)</sup>  
 فَمَا رَمَى رِيحَ الدَّارِ حَتَّى تَشَابَهَتْ \* هِجَاتُهَا وَالْجُلُوبُ مِنْهَا الْخَوَاضِعُ<sup>(٦)</sup>  
 وَحَتَّى حَلَنَ الْخُورُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ \* وَخَاضَتْ سُلُوكُ الرِّقْمِ مِنْهَا الْأَكَارِعُ<sup>(٧)</sup>

(١) الهضبان : منى هبة وهي الزاوية أو الجبل المنبسطة على الأرض أو الجبل المنحرف من هجرة واحدة ، والأجارع : جمع أبرع ، والأجارع كالجرعاء : الأرض ذات الخزونة تشاكل الزول أو الرملة المبهلة المستوية أو القطعة من الزبل لا تثبت شيئا ( انظر الحسان في مائق هضب وجرع ) . (٢) الهوى بمعنى المنهوى وهو الخيوط ، ومنه قول الشاعر :

هَوًى مَعَ الرِّكَبِ الْيَمَانِينَ مُصِيدٌ \* بِجَنِّبٍ وَجُنَّاقٍ بِمَصْكَةٍ مُرَوِّقٍ

(٣) الجسوبة : فضاء أملس سهل بين أرضين . (٤) تحلس الشيء : اتبه وأخلده غلصة . (٥) الأوشال : جمع وشل وهو الماء القليل ، والصباية : بقية الماء تبقى في الآثاء والسقاء . (٦) هو من تقع بمعنى روى . (٧) الملا : الصحراء . (٨) أى طلعت . (٩) هو دأقرب مكة . (١٠) معناه ما يرحس . يقال : ما دام المكان أى ما يرحس . (١١) الهجان : الأبل البيضاء الكريمة واحدا هجان . والجون : جمع جون يفتح الجيم وهو الأسود المشرب بجمرة ، ويطلق على الأسود الجحوم وعلى الأبيض فهو من أسماء الأضداد . (١٢) الخواضع : الأبل وإنما يقال لها خواضع لأنها تنخفض أعاتها حين يجدها السير ، قال جرير :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ بِالْحَلِيِّ خَوَاضِعٌ \* وَكَأَنَّهُنَّ قَطَا فَلَاةٌ يَجْهَلُ

(١٣) الجور : جمع حوراء وهي البيضاء أو من في عنها حور وهو شدة سواد القلعة في شدة بياضها . (١٤) السدول : جمع سدلى وهو ما يجلى به المروج من الثياب . (١٥) الأكارع : جمع أكرع والأكرع جمع كراع ، أو الأكراع كما يقول سيوريه جمع كراع على غير قياس . والكراع من الانسان : ما دون الركة إلى الكعب ، ومن الدابة قواعها مطلقا .



فلما استوت تحت الخلدور وقد جرى \* غير وسك بالرائب رادع<sup>(١)</sup>  
 أشرن بأن حثوا الحال فسد بدا \* من الصيف يوم لاغ الحمر ما تبع<sup>(٢)</sup>  
 فلما لحقنا بالحمول تباشرت \* بنا مقصرات غاب عنها المطامع<sup>(٣)</sup>  
 يرضن بالذل المليك وإن يرد \* جأهن مشغوف فهن موانع<sup>(٤)</sup>  
 فقلت لأصحابي ودمي تسيل \* وقد صدع الشمل المشتت صادع<sup>(٥)</sup>  
 ألب أبواب الخلدور تترضت \* ليعني أم قرن من الشمس طالع<sup>(٦)</sup>  
 وروى أن أبا المنون حج به ليدعوا لله عز وجل في الموقف أن يعافيه، فسار ومعه ابن  
 عمه زيد بن كعب بن مزاحيم، فترجملة يدعو حل أَيْكة فوقف يسكى، فقال له زيد:  
 أى شئ هذا؟ ما يسبك أيضا؟ سر بنا لنحقي الرفقة، فقال:

ألب هتفت يوما بوابد حمائم \* بكيت ولم يعذرني بالجلول عاذر<sup>(٧)</sup>  
 دعت ساق حريم ما علت الضمى \* فهاج لك الأحران أن ناح طائر<sup>(٨)</sup>  
 نغنى الضمى والضمى في مرصع<sup>(٩)</sup> \* كآب الأعلالي تحتها الماء حائر<sup>(١٠)</sup>  
 كأن لم يكن بالليل أو بطين أَيْكة \* أو أخرج من قول الأشاء حاضر<sup>(١١)</sup>

(١) المراد بالزاد هنا المردوع به الجسد أرثوب وهو العير والمسك . وأصل الزدع التلغ بالطيب  
 والضران، يقال : قيس رادع ومردوع أى فيه أثر الطيب والضران، وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما :  
 « لم ينه عن فيه من الأدوية إلا عن المخرقة التي تردع الجلد » أى تنفض صلبها عليه . (٢) المسامع :  
 الطويل . (٣) مقصرات : جمع مقصرة أى داحلة في القصر وهو العنى، يقال : أجهت قصرا  
 أى عتيا، وأقصرت أى دخلنا في قصر العنى، كما تقول أسيتا من المساء من أخصرت الجارية إذا بلغت عصر شبها،  
 أو من أخصرت أى دخلت في العصر (انظر لسان العرب مادة قصر) .

(٤) تدعو : تصوت وتنج . (٥) ساق حريم : أصله صوت القارى ويطلق على الذكر من  
 القارى نسبة له باسم صوته وهو المراد هنا (انظر لسان مادلوق و) . (٦) المهيضة : المهزلة  
 المتأيلة . (٧) حائر : متردد . (٨) الليل : اسم لقدة وموانع والظاهر أن المراد هنا واد  
 لئى جسده وهم قوم المنون . (٩) الأَيْكة : الفيضة الخلفة الأخبار لم نجد في الكتب التى يلدنا  
 « أَيْكة » ولا « بطن أَيْكة » اسما لموضع خاص كما هو المناسب للسياق . (١٠) الجرع : منصف الوادى  
 وله هنا اسم لموضع خاص وقد يكون جرع بن جاز وهو واد بالجماعة . (١١) الأشاء : موضع بالجماعة  
 فيه لحمل . ولعل كلمة « تول » محذوفة عن « آل » وقال : صفار الفعل واحدة تالة .

يقول زيادٌ إذ رأى الحَيَّ هَجَرُوا \* أَرَى الحَيَّ قد ساروا فهل أنت سائرُ  
وإني وإن غَلَّ التَّفَادُّمُ حاجتي \* مُلِمٌّ على أوطانٍ لَيْسَ فَنَاطِرُ

كان المجهنُّ وليَّ وهما صَبِيانِ يَرَعِيانِ غنا لأهلها عند جبلٍ في بلادها يقال له  
التوباد، فلما ذهب عقله وتوحَّش، كان يميء إلى ذلك الجبل فيقيمُ به، فإذا تذكَّر أيام  
كان يُطيف هو ووليُّ به جِرْعَ جزعا شديدا وأستوحش فهام على وجهه حتى يأتى نواحي  
الشام، فإذا تاب إليه عقله رأى بلدا لا يعرفه فيقول للناس الذين يلقاهم : بأني أتم، أين  
التوباد من أرض بني عامر ؟ فيقال له : وأين أنت من أرض بني عامر ! أنت بالشَّام  
عليك بنهم كذا فأمه، فيمضى على وجهه نحو ذلك النجم حتى يقع بأرض اليمن، فيرى بلدا  
يُنكرها ويقوما لا يعرفهم فيسألهم عن التوباد وأرض بني عامر، فيقولون : وأين أنت من  
أرض بني عامر ! عليك بنهم كذا وكذا، فلا يزال كذلك حتى يقع على التوباد، فإذا رآه  
قال في ذلك :

وأجهشتُ للتوباد حين رأيته \* وكَبَّرَ للرحمن حين رآني  
وأذريتُ دمعَ العين لما عرفته \* ونادى بأعلى صوته فدعاني  
فقلتُ له قد كان حولك جيرة \* وعهدى بذلك الصَّرم منذ زمان  
فقال مَضَوْا وأستودعوني بلادهم \* ومن ذا الذي يبقى على الحدَّيان  
وإني لأبكي اليومَ من حَذَرِي غدا \* فِرَاقَكَ والحَيَّاتِ مُجْتَمَعانِ  
يَبْصَالًا وَتَهَنَاتًا وَوَبَلًا وَدِيمَةً \* وَحُصًّا وَتَسْجَامًا إلى هَمَلَاتِ (٧)

- (١) هجروا : ساروا في وقت الهجرة . (٢) حال التثنية : ذهب به . (٣) التوباد (بالهال  
المهمل) وهو المرافق لما في معجم ما استعجم للبكري إذ قال في ضبطه : هو بفتح أوله وياء معجمة بوحدة وodal  
مهملة وأشد عليه : \* أجهشت للتوباد حين رأيته \* . البيت .  
وضبطه فيقول بالهال المعجمة فقال في معجمه : « توباد » بالفتح ثم السكون والياء موحدة وآخره ذال معجمة :  
جبل بمجد . (٤) أجهشت : تهيأت اليك . (٥) يقال : حنت البها . تهتن هتنا وهتنا أي صبت .  
(٦) يقال : سمعت السحابة سطرها تسجما وتسجما إذا صمت . (٧) الهملان : فيض العين بالدمج .

وكان المجنون يسير مع أصحابه فسمع صاحبا يصيح : يا ليلي في ليلة ظلماء أو توهم ذلك ، فقال لبعض من معه : أما تسمع هذا الصوت ؟ فقال : ما سمعت شيئا ، قال : بلى ، والله هاتف يهتف بليلى ، ثم أنشأ يقول :

أَهْوَلُ لَأَدْنَى صَاحِبِي كَلِمَةً \* أُسِرْتُ مِنَ الْاَقْصَى أَجِبْ ذَا الْمُنَادِيَا  
إِذَا سِرْتُ فِي الْأَرْضِ الْفَضَاءِ رَأَيْتِي \* أَصَانِعُ زَعْرَ أَنْ يَمِيلَ حِيَالِيَا  
يَجِدُنَا إِذَا كَانَتْ يَمِينًا وَإِنْ تَكُنْ \* شِمَالًا يُنَازِعُنِي الْهَوَى عَنْ شِمَالِيَا

خطب ليلي صاحبة المجنون جماعة من قومها فكبرتهم ، فخطبها رجل من قبيص مؤسر فريضته ، وكان جملا فترجها ونرج بها ، فقال المجنون في ذلك :

أَلَا لَيْلٌ لَيْلٌ كَلَمَةٍ أَصْبَحَتْ \* تَقَطُّعُ إِلَّا مِنْ تَقِيفِ حِيَالِيَا  
فَقَدْ حَبَسُوهَا تَحْبَسُ الْبَدَنَ وَاتَّقَى \* بِهَا الرِّيحُ أَقْوَامُ تَسَاحَتْ مَا مَأَى  
خَالِيَتِي هَلْ مِنْ حِيلَةٍ تَعْلَمَانِيَا \* يَدُنِي لَنَا تَكَلَّمَ لَيْلَى أَحْتِيَالِيَا  
فَإِنْ أَتَمْنَا لَمْ تَعْلَمَاهَا فَلَسْنَا \* بِأَقْوَبِ بَاغٍ سَاجِدَةً لَا يَنَالِيَا  
كَأَنَّ مَعَ الرِّكَبِ الَّذِينَ أَغْتَدَوْا بِهَا \* عِلَامَةُ صَيْفٍ زَعَزَعْنَا تَتَمَالِيَا  
نَظَرْتُ بِمُقْضَى سَبِيلِ جَوْشَنُ إِذْ فَتَدَا \* تَحَبُّ بِأَطْرَافِ الْخَضَائِمِ (١)  
بِشَاقِيَةِ الْأَحْزَانِ هَبَّ شَوْقَهَا \* جَمَاعَةُ الْأَلَاِفِ ثُمَّ زَالِيَا  
إِذَا أَلْتَفَتْتُ مِنْ خَلْفِهَا وَهِيَ تَعْتَلَى \* بِهَا الْعَيْسُ جَلَّ عَثَرَةُ الْعَيْنِ حَالِيَا

(١) الرجل : ما يوضع على الجير لركوب ثم يمر به عن البير .

(٢) المتحفة في الأصل : الشاة أو الشاة يسليها صاحبها رجلا يشرب لها ثم يردّها إذا انقطع اللبن ، ثم كثر استعمالها في كل موهوب . (٣) يقال أصحت ماله : استأصله وأخذته ، وقال مسعود بن مسعود : أصحت مذهب . وأصحت تجارة : عثبت وحرمت ، ولم نجد في كتب اللغة « ناسحت » على وزن قاعل من هذه المادة

(٤) . لم نجد في بلاد العرب ما يسمى جوشن إلا جملا في غرض طلب . (٥) الخادم (بالراء المهملة) : جمع مخرم وهو الطريق في الجبل أو الزبل .

وله :

وَأَحْسُسُ عَيْكَ النَّفْسَ وَالنَّفْسُ صَبَّةٌ \* يَذْكُرُكَ وَأَتَمَّتْهُ إِلَيْكَ قَرِيبُ  
خَافَةٌ أَنْ تَسْعَى الْوُشَاةُ بَطْنِيَّةً \* وَأَحْرُسُكَ أَنْ يَسْتَرِيبَ مَرِيبُ  
فَقَدْ جَلَّتْ نَفْسِي - وَأَنْتَ أَجْرَبَتُهُ \* وَكُنْتَ أَحَرَّ النَّاسِ - عَيْكَ تَطِيبُ  
فَلَوْ شِئْتُ لَمْ أَغْضَبْ عَلَيْكَ وَلَمْ يَزَلْ \* لَكَ الدَّهْرُ مَتَى مَا حَيْثُ نَصِيبُ  
أَنَا وَالَّذِي يَسْأَلُ السَّرَّاءَ تَرْكَلَهَا \* وَيَسْأَلُ مَا تُبْدِي بِهِ وَقَفِيبُ  
لَقَدْ كُنْتُ مِنْ تَصْطَلِي النَّفْسُ خَلَّةً \* لَهَا دُونَ خُلَانِ الصَّفَاءِ مُجُوبُ

٢ - قيس بن ذريح<sup>(١)</sup>

من شعر قيس :

يَقُولُونَ لَبَنِي فَنَسْتُ كُنْتُ قَبْلَهَا \* بِخَيْرٍ فَلَا تَسْتَمِ عَلَيْهَا وَطَلَّقِي  
فَطَاوَعْتُ أَعْدَائِي وَعَاصَيْتُ نَاصِي \* وَأَهْرَرْتُ عَيْنَ الشَّامِتِ الْمُتَخَلِّقِ  
وَوَدِدْتُ وَبَيْتَ أَفْقَى عَصَبِيَّتِهِمْ \* وَحُمِلْتُ فِي رِضْوَانِهَا كُلِّ مُوَبِّقِ  
وَكُلَّفْتُ خَوْضَ الْبَحْرِ وَالْبَحْرُ زَانِرٌ \* أَيْلُتُ عَلَى أَثْبَاجِ مَوْجٍ مَغْرَقِ

(١) هو قيس بن ذريح الكلابي من ليث بن بكر كان منزل قومه بلساهر المدينة . من لبعض حاجته بغيرهم  
بن كعب بن خزاعة فرأى لبني بنت الحباب الكلبية ، وكانت فتاة جميلة ، فطلبها ، فطلبها من أبيه لكنه إياها لمكانه من  
الثروة ، وكان يريد أن يزوجه من بنات حمومة حتى يحفظ ثرائه في أهله ، فطارب قيس وتحمست نفسه وذهب ،  
فاستشغل بأعني من الرضاع ، الحسن بن علي ، فوجد ما أحب وترزجها ومكنا زمانا ، وشغل قيسا حب لبني  
عن مواصلة أمه فاضطلعت على زوجه وسمت بها هند أمة مفضلة عدم الولد سلبا ترك به إلى شرها ، فطلب إليه أبوه  
أن يطلقها فأبى ، فما زال به بالزهد والورع حتى أجابه إلى طلبه ، وكان في ذلك القضاء الأخير على ما لقيس من حظ  
وعقل في هذه الحياة ولم ينقطع بزواجه غيرها ، وطارت نفسه شامعا وذهب على وجهه يتنعم أخبارا لبني ويرمخ شدة  
في آثارها ، وبق طول حياته يساقط من نفسه على شره غيرها في شقاء ، بدته وإهدار دمه حتى قفلت النفس الأخير .  
وأخبار قيس كثر في الأثافي (ج ٨ ص ١١٢) والشر والشراء (ص ٣٩٩) وله ديوان ممدوح ، ومنه نسخة  
في مكتبة الإسكندرية بالبرلين .

كَأَنِّي أَرَى النَّاسَ الْمَحْبِينَ بِسَدَا • عَصَاةَ مَاءِ الْخَنْطَلِ الْمُتَفَاتِقِ  
فَتَنَكَّرَ عَنِّي بِسَدَا كُلِّ مَنْظَرٍ • وَيَكْزُ سَمِي بِسَدَا كُلِّ مَنْطِقِ

ونخرج قيس في فِتْيَةٍ من قومه واعتل على أبيه بالصيد ، فأتى بلادَ لُبْنَى ، فخلل يتوقع  
أن يراها أو يرى من يُرْسِلُ إليها ، فأشتغل الفتيان بالصيد ، فلما قضوا وطهرهم منه رجعوا إليه  
وهو واقف ، فقالوا له : قد عَرَفْنَا مَا أَرَدْتَ بِإِخْرَاجِنَا مَعَكَ وَأَنْتَ لَمْ تُرِدِ الصَّيْدَ وَإِنَّمَا أَرَدْتَ  
لِقَاءَ لَبْنَى وَقَدْ تَعَدَّرَ عَلَيْكَ ، فَأَنْصَرَفَ الْآنَ ، فَقَالَ :

وَمَا حَائِمَاتُ حُحْنٍ يَوْمًا وَلَيْلَةً • عَلَى الْمَاءِ يَفْشَيْنَ الْعَيْصَى حَوَائِي  
حَوَائِي لَا يَصُدُّنَّ عَنْهُ لَوْجُهُ • وَلَا هُنَّ مِنْ بَرْدِ الْحِيَاضِ دَوَائِي  
يَرَيْنَ حَبَابَ الْمَاءِ وَالْمَوْتُ دُونَهُ • فَهَرَبَ لِلْأَصْوَاتِ السَّقَاةَ رَوَائِي  
بِأَجْهَدِ مِنِّي حَرٍّ شَوْقِي وَلَوْعَةٍ • عَلَيْكَ وَلَسَكُنَّ الْعَدُوَّ مَدَائِي  
خَلِيلِي إِنِّي مَيِّتٌ أَوْ مَكْلَمٌ • لُبْنَى بِسَرَى قَامِضِيَا وَدَوَائِي  
أَنْتَ حَاجَتِي وَحَدِي وَيَأْتِبُ حَاجِي • قَضَيْتُ عَلَى هَوِي وَخُوفِ جَنَانِي  
فَلَأَنِّي أَحَقُّ النَّاسِ إِلَّا تُحَاوِرَا • وَتَطْرِحَا مِنْ لَوْشَاءِ شِفَانِي  
وَمَنْ قَادَنِي لَوْتُ حَتَّى إِذَا صَغُتْ • مَشَارِبَهُ السُّمِّ الدُّخَانِي سِفَانِي  
فَأَقَامُوا مَعَهُ حَتَّى لَقِيَهَا •

لَمَّا أَلَحَّ دَرِيحٌ عَلَى أَبْنَةِ قَيْسٍ فِي طَلَاقِ لَبْنَى فَأَبَى ذَلِكَ قَيْسٌ ، طَرَحَ ذَرِيحَ نَفْسَهُ  
فِي الرَّمْضَاءِ وَقَالَ : لَا وَاللَّهِ لَا أَرِي هَذَا الْمَوْضِعَ حَتَّى أَمُوتَ أَوْ يُجْلِيَا ، فَلَمَّا قَوْمَهُ مِنْ كُلِّ  
نَاحِيَةٍ فَقَطَّمُوا عَلَيْهِ الْأَمْرَ وَذَكَّرُوهُ بِاللَّهِ وَقَالُوا : أَفَعَمَلُ هَذَا بِأَبِيكَ وَأَمَلُكَ إِنْ مَاتَ شَيْخُكَ  
عَلَى هَذِهِ الْحَالِ كُنْتَ مُعَيَّنًا عَلَيْهِ وَشَرِيكَ فِي قَتْلِهِ ، فَفَارَقَ لَبْنَى عَلَى رَغْمِ أَنَّه وَقَلَّةُ صَبْرِهِ  
وَبِكَامٍ مِنْهُ حَتَّى يَكُنْ لَهَا مِنْ حَضْرَاهَا ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

أَقُولُ نَلْقَى فِي غَيْرِ جُرْئِمٍ • أَلَا بِنِي ، بِنَفْسِي أَنْتِ ، بِنِي  
فَوَاللَّهِ الْمَنْظَرُ لَتَرَعُ نَفْسِي • وَقَطَعَ الرَّجُلُ مِنِّي وَالْمَحْبِينَ

• أَحِبُّ إِلَى يَأْتِيَنِي فِرَاقًا • فَبَكَى لِلْفِرَاقِ وَأَسْعَدَنِي  
ظِلْمَتُكَ بِالطَّلَاقِ بِغَيْرِ حَرَمٍ • فَقَدْ أَذْهَبَتْ آخِرَتِي وَبَدَنِي  
قال : فلما سمعت بذلك لبني بكت بكاء شديداً ، وأنشأت تقول :  
رَحَلْتُ إِلَيْهِ مِنْ بَلَدِي وَأَهْلِي • بَلَا زَانِي جِزَاءَ الْخَاشِعِينَ  
فَمَنْ رَأَى فَلَا يَفْتَرِّ بَعْدِي • بِحُلُوِّ الْقُصُولِ أَوْ يَبُولِ الدَّفِينَا  
فلما آنقضت عِنتها وأرادت الشخصَ إلى أهلها أُنزِلَتْ برحلة تُحْمَلُ عليها ، فلما  
رأى ذلك قيسٌ داخله أمرٌ عظيمٌ وأشتدَّ لهفه ، وأنشأ يقول :

بِأَنْتَ لَبِنِي فَأَنْتَ الْيَوْمَ مَبْنُولٌ • وَإِنَّكَ الْيَوْمَ بَعْدَ الْحَزَمِ مَغْبُولٌ  
فَأَصْبَحْتَ عَنْكَ لَبِنِي الْيَوْمَ نَازِحَةً • وَكَلَّ لَبِنِي - مَا الْخَيْرَاتُ - مَعْسُولٌ  
هَلْ تَرَجِعُنَّ نَوَى لَبِنِي بِمَاقِبَةٍ • كَمَا عَهَدْتُ لِيَالِي الْمَشَقِّ مَقْبُولٌ  
وَقَدْ أَرَانِي بَلَبِنِي حَقٌّ مُقْتَنِعٌ • وَالشَّمْلُ يَجْتَمِعُ وَالْجُلُ مَوْصُولٌ  
فَصُرْتُ مِنْ حَبِّ لَبِنِي حِينَ أَذْكَرُهَا • الْقَلْبُ مَرَّتَيْنِ وَالْمَقْلُ مَدْخُولٌ  
أَصْبَحْتُ مِنْ حَبِّ لَبِنِي بِلْ تَذْكَرُهَا • فِي كُرْبَةٍ فَفَوَّادِي الْيَوْمِ مَشْفُولٌ  
وَالْجَسْمُ مَتَى مَنُوكُ لِفَرْقَتِنَا • يَبْرِيهِ طَوْلُكَ سَسْقَامٌ فَهُوَ مَنُحُولٌ  
كَأَنِّي يَوْمٌ وَلَّتْ مَا تَكْكَلْنِي • أَخُوهُيَا مِمَّ مَصَابُ الْقَلْبِ مَسْلُوكٌ  
أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ لَبِنِي إِذَا تَفَارَقَتْنِي • عَنْ غَيْرِ طَوْعٍ وَأَمْرٍ الشَّيْخُ مَفْعُولٌ

ثم أرتحلت لبني ، فجعل قيس يقبل موضع رجلها من الأرض وحول خباتها ، فلما  
رأى ذلك قومه أقبلوا على أبيه بالعدل والألوم ، فقال ذريح لما رأى حاله تلك : قد جئيتُ  
عليك يا بُنَيَّ ؟ فقال له قيس : قد كنتُ أخبرك أني مجنون بها فلم ترص إلا بقتلي ، فانه  
حسبك وحسبُ أي . وأقبل قومه يسئلونه في تفصيل التراب ، فأنشأ يقول :  
فَا حُجِّي لَطِيبُ تَرَابِ أَرْضٍ • وَلَكِنْ حَبٌّ مِنْ وَطْنِي التُّرَابِ  
فهذا فعل شيعتينا جميعاً • أَرَادَا لِي الْبَلِيَّةَ وَالْعَذَابَ

وله قصيدة طويلة في تطلقه لبي يقول فيها :

فَوَاكِدِي وَعَاوِدِي رُدَّاعِي \* وَكَانَ رَأَى لَبِي كَأَجْدَاعِ<sup>(١)</sup>  
تَكْتَفِي الْوُشَاةُ فَأَزْعِمُونِي \* فَيَأْتِيَهُ لَلْوَاشِي الْمَطَاعِ  
فَأَصْبَحْتُ الْقَدَاةَ الْيَوْمُ نَفْسِي \* عَلَى شَيْءٍ وَلَيْسَ بِمُسْتَطَاعِ  
كَتَبُونِي يَعْصُ عَلَى يَدِيهِ \* تَبَيَّنَ حَبْنَهُ بِسَدِّ الْيَاعِ  
بِدَارِ مِضْمِجَةٍ تَرَكَّتْ لُبْسِي \* كَذَلِكَ الْحَيَّيْنِ يُهْدَى لِلضَّاعِ  
وَقَدْ مَشْنَا نَلَّةَ الْمَيْشِ حِينًا \* لَوْ أَنَّ الدَّهْرَ لِلْإِنْسَانِ رَاعِي  
وَلَكِنِّي الْجَمِيعَ إِلَى آتِرَائِي \* وَأَسْبَابَ الْخُتُوفِ لَهَا دَرَّاعِي

واجتمع إليه نسوة فأطْلَنَ الجُلُوسَ عنده وحادثته وهو ساءَ عنهنَّ، ثم نادى : يا لبي،  
فقلن له : مالك ويحك ؟ فقال : حَدَّثْتُ رجُلًا « ويقال : إن دماء الإنسان باسم أحبَّ  
الناس إليه يُذهب حَدَرُ الرجل، فناديتها لذلك . وقال :

إِذَا حَدَّثْتُ رَجُلًا تَذَكَّرْتُ مِنْهَا \* فَنَادَيْتُ لُبْسِي بِاسْمِهَا وَدَعَوْتُ  
دَعَوْتُ إِلَى لَوْ أَنَّ نَفْسِي تُطْلَعُنِي \* لِفَارِقَتِهَا مِنْ حَبَا وَقَضَيْتُ  
بَرَّتْ نَبْلَهَا لِلصَّيْدِ لُبِّي وَرَيْتُ \* وَرَيْتُ أُخْرَى مِثْلَهَا وَبَرَّيْتُ  
فَمَا رَمَنِي أَقْصَدَتْنِي بِسَمِهَا \* وَأَخْطَأْتُهَا بِالسَّهْمِ حِينَ رَيْتُ  
وَفَارَقْتُ لُبْسِي ضَلَّةً فَكَأَنِّي \* قُرْبْتُ إِلَى الْعَيُوقِ ثُمَّ هَوَّيْتُ<sup>(٢)</sup>  
فِيَالَيْتَ أَنِّي مِتُّ قَبْلَ فِرَاقِهَا \* وَهَلْ تَرِجَعُ فَوْتَ الْفَضِيَّةِ لَيْتُ  
فَصَرْتُ وَشِخْيَ كَالَّذِي عَثَرْتُ بِهِ \* غَدَاةَ الْوَعَى بَيْنَ الْبُدَاةِ كَيْتُ  
فَقَامْتُ وَلَمْ تَضُرْهُ إِلَّا سَوِيَّةَ \* وَفَارَسُهَا تَحْتَ السَّابِكِ مَيْتُ  
فَارَبَّ يَكْ تَهَيَّأْ بِلُبْسِي غَوَايَةَ \* فَقَدْ يَأْذِرُجِي بَنَ الْحَبَابِ غَوَيْتُ

(١) الرِّدَاع : الكس، وهو رجوع المرض . (٢) الجداع : الموت . (٣) هروم أحمضي

في طرف الهجرة الأيمن يتوالى لا يتقدمها .

فلا أنت ما أملت في رأيتك • ولا أنا لبي والحياة حويت  
 فوطنٌ لهلك منك نفساً فإني • كأنك بي قد يا ذريح قضيت  
 ومرض قيس، فسأل أبوه قبيات الحى أن يعدنه ويحشنه أو يلقى بمضن، ففعل  
 ذلك، ودخل إليه طبيب ليدويه والفتيات معه، فلما اجتمعن عنده جعل يحادثه وأطلق  
 السؤال عن سبب علته، فقال :

تعلق روى روحها قبل خلقنا • ومن بعد ما كنا أطفالاً وفي المهيد  
 فزادنا زدينا فأصبح نائياً • وليس اذا متنا بمُصير المهيد  
 ولصكته باق على كل حادث • وزائرنا في ظلمة القبر والمهد  
 فقال له الطبيب : إن مما يسليك عنها أن تتذكر ما فيها من المساوى والمعائب ،  
 فان النفس تنبوحيث تشاء وتسو ويخف ما بها .

فلما طال على قيس ما به أشار قومه على أبيه بأن يزوجه امرأة جميلة فلعله يسلو بها  
 عن لبي، فذهاه الى ذلك فأباه وقال :

لقد خفت ألا تقع النفس بعدها • بشيء من الدنيا وإن كان مقنناً  
 وأزجر عنها النفس اذ حيل دونها • وتأبى إليها النفس إلا تطلماً  
 ولما تزوجت لبي بأخرأتى موضع خباثتها فنزل عن راحلته وجعل يملك موضعها<sup>(١)</sup>  
 ويخرج خذله على ترابها ويبيك بحر بكاء ثم قال :

الى الله أشكو فقد لبي كما شكنا • الى الله فقد الوالدين يتيم  
 يتيم جفاه الأقربون بنفسه • غيلاً وعهد الوالدين قديم  
 بكت دارهم من ناهم قهلت • دموى فأتى الجازعين اليوم  
 أمستيربيكى من الشوق والهوى • أم آخر بيكى شمسوه ويسم  
 تبيضني من حب لبي علائق • وأصناف حب هوطن عظيم

(١) يملك : يخرج في التراب .



ومن يتعلق حبُّ لُبِّي فؤاده \* يمتُّ أو يعيش ما عاش وهو كليمٌ  
 فإني وإن أجمعتُ عنك تجملنا \* على المهد فيها بيننا لتقسم  
 وإن زمانا شئتَ الشملَ بيننا \* وبينكم فيه العدا لمشومٌ  
 أفي الحلق هذا أن قلبك فارغٌ \* صحيحٌ وقلبي في هوالك سقيمٌ  
 وقال في رحيل لُبِّي عن وطنها وانتقالها الى زوجها بالمدينة وهو مقيم في حبيها :  
 بانت لُبِّي فهاج القلب من بانا \* وكان ما وعدتُ مطلا وليانا<sup>(١)</sup>  
 وأخلفتك مني قد كنتُ تأملها \* فأصبح القلبُ بعد الين حيرانا  
 الله يدرى وما يدرى به أحدٌ \* ماذا أجمع من ذكرائك أحيانا  
 يأكل الناس من قرن الى قديم \* وأحسن الناس ذا ثوب وعمرانا  
 نعم الضجيع بعيد النوم تجليسه \* اليك متمكنا يوما وبغضانا  
 لا بارك الله فيمن كان يحسبك \* إلا على المهد حتى كان ما كانا  
 حتى استفتت أخيرا بعد ما تكهت \* فبت للشوق أذرى الدمع تهبانا  
 إن تصيرى الجبل أو تمسى مفارقةً \* فالدهر يُحدث للإنسان ألوانا  
 وما أرى مثلكم في الناس من بشرٍ \* فقد رأيتُ به حيا ونسوانا

وشكا أبو لبني معاوية تعرض قيس لأبنته بعد طلاقها، فكتب معاوية الى الأمير  
 يهدير دمه إن ألم بها، وأن يشتد في ذلك؛ فكتب مروان في ذلك الى صاحب المراء الذي  
 ينزله أبو لبني كتابا وكيدا، ووجهت لبني رسولا الى قيس تعلمه ما جرى وتحننه؛ وبلغ أباه  
 الخبر، فعاتبه وتجهمه، وقال له : انتهى بك الأمر الى أن يهدير السلطان دمك؛ فقال :  
 فإن يجبروها أو يئمل دون وصلها \* مقالة وإش أو عيبد أمير  
 فلن يمنوا حتى من دأب البكا \* ولن يذهبوا ما قد أجرت ضغيري  
 الى الله أشكو ما ألاق من الهوى \* ومن حرق تمنادى وزفير

(١) الليان : التي والمطل، قال أبو الهيثم، لم يحن من المصادر على فلان إلا ليان .

ومن حرق للحب في باطن الحشى \* وليسيل طويل الحزن غير قصير  
 سابكى على نفسى بعين غزيرة \* بكاء حزينا في الوثاق أسير  
 وكما جيتا قبل أن يظهر الهوى \* بأنهم حالى غبطة وسرور  
 فإبرح الواشون حتى بدت لهم \* بطون المسوى مقلوبة لظهور  
 لقد كنت حسب النفس لودام وصلنا \* ولعكنا الدنيا متاع غرور  
 وقال في إهدار معاوية دمه إن هو زارها :

إن تك لبني قد أتى دون قربها \* حجاب منيع ما اليه سبيل  
 فإن نسم الجوق يجمع بيننا \* ونبصر قرن الشمس حين تزول  
 وأرواحنا بالليل في الحى تثق \* ونسلم أيا بالنهار قبيل  
 ومجتمعا الأرض القسار وفوقنا \* سماء نرى فيها النجوم تجول  
 إلى أن يعود الدهر سائما وتنقضى \* ترات بهاها عندنا وذول<sup>(١)</sup>

ولما أنصرف الناس من الحج مرض قيس مرضا شديدا فلم يأته رسولها عائدا، فقال :

أبني لقد حلت عليك مصيبتى \* غداة غدا إذ حل ما أتوقع  
 ثميننى نيلًا وتلوينى قلى \* فنفسى شوقا كل يوم تقطع  
 وقلبك قط لا يلين لما يرى \* فواكيدى قد طال هذا التضرع  
 ألومك في شانى وأنت مليمة \* لعمري وأجنى للحب وأقطع  
 أخبرت أنى فيك ميت حصرى \* لما فاض من عينيك للوجد مدع  
 ولكن لعمري قد بكيتك جاهدا \* وإن كان دأى كله منك أجمع  
 صبيحة جاء العائدات يمدننى \* ففلت على العائدات فجمع  
 فقال له جئت اليه وقد قضى \* وقائله لا بل تركها يزع  
 لما غشيت عينيك من ذاك عبة \* وعينى على ما بى بكرك تدمع  
 إذا أنت لم تبكى على جنازة \* لديك فلا تبكى غدا حين أرفع

(١) ذمول : جمع ذمل وهو التآثر .

ومن شعره قوله :

أتبكي على بُنى وأنت تركتها \* وكنت عليها بالملأ أنت أقدر  
فإن تكن الدنيا بلُبنى تَقَلِّبُ \* على فللدنيا بطورٌ وأظهر  
لقد كان فيها للأمانة موضع \* وللكف مُرَادٌ وللعين منظر  
وللنَّاسِ العطشانِ رى بريقها \* وللروح المختالِ نحرٌ ومسكر  
كأنى لها أرجوحة بين أجيل \* إذا ذُكرَ منها على القلب عطر

وقوله :

لقد عذبني يا حب لبنى \* ففزع إنما يموت أوحية  
فأنة الموت أروح من حياة \* تلوم على التباعد والشتات  
وقال الأقربون تمرّ منها \* فقلت لهم اذا حانت وآتت

وقالت له لبنى : أئشدنى ما قلت فى ذلك، فأنشدنا قوله :

أطالع من نفسى بقايا حُشاشة \* على رمقٍ والعائذات تعود  
فإن ذُكرت لبنى هَشَّتْ لذكرها \* كما هَشَّ للشذى الدرور وليد  
أجيب بلبنى من دعائى تجلدا \* وبى زفرت نجل وتعود  
تعبد الى رُوح الحياة وإبنى \* بنفسى لو عايتنى لأجود

وفيها يقول :

ألا ليت أياماً مضين تعود \* فإن عُدت يوماً لبنى لسميد  
سقى دار لبنى حيث حلت وخيمت \* من الأرض منهل النمام رعيد  
على كل حالٍ إن دنت أو تباعدت \* فإن تمدد من فالدنو مزيد  
فلا اليأس يسلى ولا القرب فافى \* ولبنى منوع ما تكاد تجود  
كأنى من لبنى سليم مسهد \* بظل على أيدى الرجال يمد  
رمضى لبنى فى الفؤاد بسهما \* وسهم لبنى للفؤاد صيد

سلاكل ذي شجر علمت مكانه \* وقلبي للبني ما حبيت ودود  
وقائلة قد مات أو هو ميت \* والنفس من أن تفيض رصيد

وعاتبته على تزوجه، خلف أنه لم ينظر إليها ملء عينيه، ثم قال :

ولقد أردت الصبر عك فاعني \* علق بقلبي من هوالك قديم  
يبني على حديث الزمان ورّيه \* وصلى جفائك إنه لكريم  
فصرّيته وخصّيت وهو بدائه \* شتاف بين مصصح وسقيم  
وأرّيه زمنًا فاذّ بحاله \* إن المحب عن الحبيب حليم

فلم يزل معها يحتملها ويشكو إليها حتى أُمسى، فانصرفت ووعدته الرجوع إليه من غد  
فلم يرجع، وشاع خبره، فلم يرسل إليه رسولا، فكتب هذين البيتين :

بنفس من قلبي له الدهر ذاكر \* ومن هو عني مُعرض القلب صابر  
ومن حبه يزداد هندسى جيّة \* وحيّ لديه مخلّق المهد دائر

وقال ابن أبي حنق لقيس يوما : أنشدني أحرا ما قلت في لبني، فأنشده :

وأني لأهوى النوم في غير حينه \* لعل لقاء في المنام يكون  
محدثي الأحلام أنى أراكم \* فياليت أحلام المنام يقين  
شيدت باني لم أحل عن موقّة \* وأني بكم لو تاملين ضنين  
وأن فؤادي لا يلين إلى هوى \* سواك وإست قالوا بلى سيلين

وقال عبد الملك بن عبد العزيز : أنشدت أبا السائب المخزومي قول لقيس :

أحبك أصنافا من الحب لم أجِد \* لها مثلا في سائر الناس يوصف  
فمن حب الحبيب ورحمة \* بمسرقى منه بما يكلف  
ومنن ألا يعرض الدهر ذكرها \* على القاب إلا كادت النفس تتلف  
وحب بدا بالهضم واللون ظاهرا \* وحب لدى تقصى من الروح الطنف

وقصيدة قيس العينية من جيد شعره وهي :

عَفَا سِرْفٌ مِنْ أَهْلِهِ فُسْرَاوُعٌ \* بَجْنَبَا أَرِيكَ فَالْفَلَاحُ الدَّوْلَعُ<sup>(٢)</sup>  
فَقَفَقَةُ فَالْأَخْيَابُ أَخْيَافُ ظَلِيَّةٍ \* بِهَا مِنْ لُبْنَى عَخْرَفُ وَمَرَايَعُ<sup>(٣)</sup>  
لَعَلَّ لُبْنَى أَنْ يُحْمَ لِقَائُهَا \* بِبَعْضِ الْبِلَادِ إِنْ مَا حَمَّ وَاقِعُ<sup>(٤)</sup>  
يَجْزِعُ مِنَ الْوَادِي خَلَاءَ أَيْسُهُ \* عَفَا وَتَحَطَّطَ الْعَيُونُ الْخَوَادِعُ<sup>(٥)</sup>  
وَلَمْ يَدَا مِنْهَا الْفِرَاقُ كَمَا بَدَا \* بَطْهَرُ الصَّفَا الصُّبْدُ الشَّقَوُ الشَّوَالِعُ<sup>(٦)</sup>  
تَمَنَّتْ أَنْ تَلْقَى لَبْنَانَكَ ، وَالْمَنَى \* تُعَاصِيكَ أَحْيَانًا وَحِينًا تَطَاوَعُ  
وَمَا مِنْ حَبِيبٍ وَاقِعٍ لَحْبِيهِ \* وَلَا ذِي هَوًى إِلَّا لَهُ الدَّهْرُ فَالْجِعُ  
وَطَارَ غِرَابُ الْبَيْنِ وَأَنْشَقَّتِ الْعَصَا<sup>(٧)</sup> \* بَسِينٌ كَمَا شَقَّ الْأَذِيمُ الصَّوَانُ  
أَلَا يَاجِرَابُ الْبَيْنِ قَدْ طَرَبَ بِالذِي \* أَحَازِرُ مِنْ لُبْنَى فَهَلْ أَنْتَ وَاقِعُ  
وَأَنْتَ لَوْ أَبْلَغْتَهَا قَيْلَكَ اسْلَبِي \* طَوْتُ حَرَّتَا وَأَرْفَضَ مِنْهَا الْمَدَامُ<sup>(٨)</sup>  
أَتَبَكَّى عَلَى لُبْنَى وَأَنْتَ تَرْكَبُهَا \* وَكَسَّكَ كَلَامُ قَيْسٍ وَهُوَ طَائِعُ  
فَلَا تَبْكِيَنَّ فِي إِثْرِي نَدَامَةً \* إِذَا تَرَفُّعَ مِنْ يَدِكَ النِّوَازِعُ  
فَلَيْسَ لِأَمْسٍ حَاقِلٌ اللَّهُ جَمَعَهُ \* مُشِتٌ<sup>(٩)</sup> وَلَا مَا فَسَوَى اللَّهُ جَامِعُ  
كَأَنَّكَ لَمْ تَقْنَعْ إِذَا لَمْ تَلْقَها \* وَإِنْ تَلَقَّها فَالْقَلْبُ رَاضٍ وَقَانِعُ

- (١) وردت هذه القصيدة برمتها في انتخاب الأملاني لأبي علي الفسالي (ج ٢ ص ٣١٤ - ٣١٨ طبعة دار الكتب المصرية) .  
(٢) سرف وسراوع وأريك : واضح . والفلوح واحدتها فلة وهي ميل ما ارتفع من الأرض إلى بطن الوادي . والدواع : جمع دافعة وهي التي تدفع الماء .  
(٣) أخفاف ظلية : موضع . والحرف : المنزل الذي يقام فيه في الخريف . والمرابع : جمع مربع وهو الموضع الذي يقام فيه في الربيع .  
(٤) سم : قدر .  
(٥) جنع الروادي : منطقة . وهفا : دوس . والخوادع واحدتها خادعة وهي التي لا تنام ، يقال : خلعت عنه مخدع إذا لم تنم ، وأتيناهم بهمسد ما خلعت العين .  
(٦) الصفا : الصخر . والصلب : الصلب الذي إذا أصابه شيء صلد أي صارت . والشوابع : جمع شاة وهي الظاهرة .  
(٧) أي ظفرت الجمجمة .  
(٨) أروض : سأل ولا يكون إلا سبلا مع تفرق .  
(٩) مشت : مفروق .

فياظُبُ خَبْرِي، إذا شَطَطَ النوى <sup>(١)</sup> • بُلْبُيْ وصَدَّتْ عَنكَ، ما أَنتَ صانع  
 أَنْصِرُ لِلْبَيْنِ المِشْتَ مع الجوى • أم أَنْتَ أَمْرٌ نَأْسِي الحياءَ بِخَارِعُ  
 فإنا إِنَّا إِنَّا بَأْنْتِ لُبْنِي بهاجع • إذا ما أَسْقَلْتَ بِالنَّيَامِ المضَاجِعُ  
 وكيف يَنَامُ المرءُ مُسْتَشِعِرَ الجوى • ضَمِيعُ الأَمْسَى فِيهِ نِكَاسٌ رَوَّادِعُ <sup>(٢)</sup>  
 فلا خَيْرَ في الدنيا إذا لم تَوَارِنَا • لُبْنِي ولم يَجْمَعْ لَنَا الشَّمْلُ جَامِعُ  
 أَلَيْسَتْ لِبْنِي تَحْتَ سَقْفٍ يُكْتَبَا • وإِيَّايَ هَذَا إِنَّا نَأْتِ لِي نَافِعُ  
 وَيَلَسُنَا اللَّيْلُ البِهِمُ إذا دَجَا <sup>(٣)</sup> • وَبُصْرُ ضَوْءِ الصَّبْحِ والفَجْرِ سَاطِعُ  
 تَطَلَّأُ تَحْتَ رَجُلِيَا بِسَاطِعًا وَبَعْضُهُ • أَطَاهُ بِرَجُلِي لَيْسَ يَطْوِيهِ مَانِعُ  
 وَأَفْرَحُ إِنْ تُمَسِّي بِخَيْرٍ وَإِنْ يَكُنْ • بِهَا حَدَّثْتُ الْغَادِي تَرْغِي الرَوَائِعُ <sup>(٤)</sup>  
 كَأَنَّكَ يَدْعُ لَمْ تَرَ النَّاسَ قَبْلَهَا • وَلَمْ يَطْلُنْكَ الدَّهْرُ فِيمَنْ يَطَالِعُ  
 فَقَدْ كُنْتُ أَبْيَى وَالنَّوَى مُطْمَئِنَّةً • بَنَّا وَبِكُمْ مِنْ عِلْمٍ مَا الْبَيْنُ صَانِعُ  
 وَأَهْجُرُكُمْ هَجْرَ الْبَيْضِ وَحُبُّكُمْ • عَلَى حَكِيدِي مِنْهُ كَلُومٌ صَوَادِعُ  
 وَأَعِجَلُ لِلْإِشْفَاقِ حَتَّى يَشْفُقَى • خَافَقَةُ شَهِطِ الدَّارِ وَالشَّمْلُ جَامِعُ  
 وَأَعِجِدُ لِلْأَرْضِ الَّتِي مِنْ وَرَائِكُمْ • لِيَرْجِعَنِي يَوْمًا عَلَيْكَ الرَوَائِعُ  
 فَيَا قَلْبُ صَبْرًا وَأَعْتَرَاكَ مَا تَرَى • وَبِأَحِبِّهَا قَعٌ بِالَّذِي أَنْتَ وَاقِعُ  
 لِمَعْرِى لَمَنْ أَمْسَى وَأَنْتَ ضَمِيمُهُ • مِنَ النَّاسِ مَا اخْتَبِرْتُ عَلَيْهِ الْمُضَاجِعُ  
 أَلَا تَلِكِ لُبْنِي قَدْ تَرَأَيْتِ مَرَارَهَا • وَلِلْبَيْنِ غَمٌّ مَا يَزَالُ يَسْأَزُعُ  
 إِذَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا الْجَوَى فَكَفَى بِهِ • جَوَى حُرْقِي قَدْ مُتَّحِنَتَا الْأَضَالِعُ  
 أَبَانِسَةً لَبْنِي وَلَمْ تَقْطَعْ الْمَدَى • يَوْصِلِي وَلَا صَرِيحَ فَيَأْسَ طَامِعُ

(١) شَطَطَ : بَدَّتْ . (٢) المُسْتَشِعِرُ : الَّذِي لَيْسَ الشَّارِعُ وَهُوَ التُّرْبُ الَّذِي عَلَى الْجَسَدِ . وَالْجَوَى :  
 الْجَوَى الْبَاطِنُ . وَالْأَمْسَى : الْحَزَنُ . وَنِكَاسٌ : جَمْعُ نَكَسٍ بِالْفَهْمِ . دُرَّادَعٌ : جَمْعُ رَادَعَةٍ وَهِيَ الَّتِي تَزِدُّهُ مِنَ الْحَرَكَةِ  
 وَتَنْصَرِفُ . (٣) دَجَا : أَلْبَسَ بَطْلَانُهُ كُلَّ شَيْءٍ . (٤) الْبِيسَاطُ : مَا بَسَطَ مِنَ الْقَرَشِ .  
 (٥) تَرْغَى : تَحْزَنُ . (٦) أَصْرَفَ : ذَلَّ وَانْقَادَ .

(١) تهدئ : تسكنه . (٢) وجبات : خففات . (٣) المائي من العين : الجانب الذي على  
(٤) الأشاحج : عروق ظاهر الكبد . (٥) الطوار : جمع ماء وهي التي صلت على  
ولد فيها . والدراسج : جمع ماجة وهي التي تمه حنبها على جهة واحدة .

## الشعر السياسي

أوضحنا لك في المجلد الأول ما لاستعمال الشعر من أثر في كثير من الحركات السياسية واستحداث العزيمات وإنهاض الهمم في الانقلابات الاجتماعية، وبيننا مينةً آستعمال الشعر في الأغراض السياسية في عصر الدولة الأموية، وذكرنا عدة أمثلة تبين ما وصل إليه هذا النوع الطريف، ووجدناك بذكر قصيدة النعمان بن بشير في هذا الباب . وها هي ذى :

النعمانُ بنُ بَشِيرٍ<sup>(١)</sup>

قال أبو الفرج الأصفهاني :

لما كثر الهجاء بين عبد الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن الحَكَم بن أبي العاصي وتخاصما، كتب معاوية إلى سعيد بن العاصي، وهو عامله على المدينة، أن يصليد كل واحد منهما مائة موط، وكان ابن حسان صديقاً لسعيد وما مدح أحداً غيره قط، ففكر أن يضربه أو يضرب ابن عمه، فأمسك عنهما؛ ثم ولي مرءاً، فلما قدم أخذ ابن حسان فضربه مائة موط ولم يضرب أخاه، فكتب ابن حسان إلى النعمان بن بشير وهو بالشام، وكان كبيراً أثيراً ميكياً عند معاوية، قال :

(١) هو النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري، من الخوارج أهل يثرب، لكنه ساير معاوية، فكان معه في واقعة جيفين، ولم يكن مع معاوية في تلك الواقعة من الأنصار سواه . وقد اجتذبه بسطائه ودعائه وكان يراعى جانبه، وكثيراً ما سمع توسطه للأنصار عنده . وعاش النعمان المذكور إلى خلافة مروان بن الحكم، وكانت يتولى حصص فلما أفضت الخلافة إلى مروان دعا إلى ابن الزبير وخالف على مروان بعد قتل الضحاك، فلم يصبه أهل حصص إلى ذلك، فهرب منهم فبحره وأحذركه وقلعه . وكان على سايرته بن أمية شديد التصب للأنصار، ولذلك عند ما علم بقبضة الأخطى في القطن عليهم رد عليه . والنعمان بن بشير من العربيتين في الشعر خلفاً عن سلف فإن جده وأباه وعمه وأولاده وأحفاده كلهم شعراء . وهو أول ولود ولد في الإسلام من الأنصار، وآخر من دل الكوفة لمعاوية بن أبي سفيان . وله ديوان مطبوع في الهند . توفي سنة ٦٥ هـ . وترى أخبار النعمان بن بشير في الأغاني (ج ١٤ ص ١١٩) وأمالى القائل (ج ٣ ص ٨) والنفق الفريد (ج ٣ ص ١١٢ طبع مصر سنة ١٣٠٥ هـ) وفي سيرة ابن هشام وابن خلكان وابن الأثير وغيرها . (٢) أثيراً : مكرماً .



ليت شعري أغائب أنت بالشا • م خليلي أم راقدٌ مُعَلِّبُ  
 أية ما يكن فقد يرجع الفا • ثُب يوما ويوقظ الوَسَاتِ  
 إن عمرا وطامرا أبوين • وحراما قَدَمَا على العهد كانوا  
 أَنهَم ما يُنوك أم قلة الكُتَّاب أم أنت عاتب غضبان  
 أم جَفَاء أم أَعَزَّتكَ القَرَّاطِيْسُ أم أصرى به عليك هَوَان  
 يسوم أثبت أن ساقى رُضْتُ • وأنتكم ذلك الرُّكبان  
 ثم قالوا إن ابن عمك في بَلَسوى أمور أتى بها الحدَّان  
 فليست الأرحام والودَّ والصُّحْبَة نيا أنت به الأزمان  
 إنما الرُّمَحُ فاعلمن قنأة • أو كععض الميدان لولا السَّنان

قال أبو الفرج الأصبهاني :

دخل النعمان بن بشير على معاوية لما هاجم الأخطل الأنصار ، فلبس مثل بين يديه  
 أنشأ يقول :

معاوي ألا تُطِئنا الحق تُسترف • ليلى الأزد تشدودا عليا التَّامِ  
 أَيَسْتُمْنَا عِندُ الأراقم ضَلَّةٌ <sup>(١)</sup> • وماذا الذي تُجدي عليك الأراقم  
 فإني تارٌّ دُونَ قطع لِسانه • فدُونك من رُضيه حنك الدراهم  
 وراعي رويدا لا تُسْمنا ذَنِيَّة • لهلك في ضِبِّ الحوادث نادم  
 متى تَلَقَّ منا عُصْبَة تَزْرِجِيَّة • أو الأَوْس يوهأ تخفرك الحارم  
 وتلقاك خَيْلٌ كاتِعا مُسْتَعْبِرَةٌ • تَطاطِيطُ <sup>(٢)</sup> أَرْسَالٍ عليها الشُّكَّام <sup>(٣)</sup>  
 يُسَوِّمها العُمران : عمرو بن عامر • وعمرانٌ حتى تُسْبَحَ الحارم  
 ويبدو من الخود العزيرة يَجْهَلها • وتَبِيضُ من هَوَلِ السيوف المُقَادِم  
 فَطَلَبَ شَعْبُ الصُّدَحِ بَدَأَ لِيَتَّامِه • فَتُفْرِيه فالآت والأمرُ سالم

(١) الأراقم : حق من بنى تلب • (٢) تطاطيط : متفرقة • (٣) الشكائم : جمع

شكبة وهي الهدية المعترضة في فم الفرس .

وَأَلَا فَتَوْبَى لَأَمَّةٍ تُبْعِيهٗ \* تَوَارِبُ آبَائِي وَأَبْيَضُ صَارِمٍ  
 وَاسْمُ رُحْطَى كَأَن كُتِبَ \* نَوَى الْقَسْبَ فِيهَا لَهْدِي خُتَارِمٍ  
 فَإِنْ كُنْتُ لَمْ تُشْهَدْ بِبَدْرِ وَقِيعةٗ \* أَذَلَّتْ قُرَيْشًا وَالْأَسُوفُ رَوَاغِمِ  
 فَسَائِلُ بِنَا حَيٍّ لَوْ بَنَ غَالِبِ \* وَأَنْتَ بِمَا يَخْفَى مِنَ الْأَمْرِ عَالِمِ  
 أَلَمْ تَبْسُدْ يَوْمَ بَدْرٍ سَيُوفَنَا \* وَلَيْلِكَ عَمَّا نَابَ قَوْمَكَ قَاتِمِ  
 ضَرَبْنَاكُمْ حَتَّى تَفْزُقَ جَمْعُكُمْ \* وَطَارَتْ أَكْصَفُ مِنْكُمْ وَجَاهِمِ  
 وَطَاذَتْ عَلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ عَرَّاسُ \* وَأَنْتَ عَلَى خَوْفِ عَلَيْكَ التَّهَامِ  
 وَغَفَّتْ قُرَيْشٌ بِالْأَنَامِلِ يَنْفِصَةُ \* وَمِنْ قَبْلِ مَا عَصَيْتَ عَلَيْكَ الْأَدَامِ  
 فَكَلَّمَا فِي كُلِّ أَمْرٍ نَكِيدُهُ \* مَكَانَ الشُّبَا وَالْأَمْرِ فِيهِ تَقَامِ  
 لِمَا إِنْ رَمَى رَأْيٌ فَأَوْحَى صَفَاتَا \* وَلَا ضَامِنًا يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ ضَائِعِ  
 وَإِنِّي لِأَغْضَى عَنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ \* سَتَرْتُ بِهَا يَوْمًا إِلَيْكَ السَّلَامِ  
 أَصَابِعُ فِيهَا عَبْدٌ تَمَسَّ وَأَخَى \* لَيْلَتِكَ السَّيِّئِ فِي النَّفْسِ مَنَى أَكَاثِمِ  
 فَمَا أَنْتَ وَالْأَمْرَ الَّذِي لَسْتَ أَهْلُهُ \* وَلَكِنْ وَلَّى الْحَقُّ وَالْأَمْرَ هَاشِمِ  
 إِلَيْهِمْ يَصِيرُ الْأَمْرُ بَعْدَ شَتَاتِهِ \* فَمَنْ لَكَ بِالْأَمْرِ الَّذِي هُوَ لَا زِمِ  
 يَوْمَ شَرَعَ اللَّهُ الْهَدْيَ فَأَهْتَدَى بِهِمْ \* وَمِنْهُمْ لَهُ هَادٍ لِمَا هُوَ خَاتِمِ

فلما بلغت القصيدة معاوية أمر بدفع الأخطل إليه ليقطع لسانه، فاستجار يزيد ابن معاوية، فغضه منه، وارضى النعمان حتى كف عنه .

وقال عمرو بن أبي عمرو الشَّيبَانِي عن أبيه : لما ضرب مروان بن الحكم عبد الرحمن ابن حسان الحدَّ ، ولم يضرب أخاه حين تَهَاجَبَا وتَقَادَفَا ، كتب عبدُ الرحمن إلى النعمان ابن بشير يشكو إليه ، فدخل إلى معاوية ، وأُتِىَ يقول :

يَا بَنَ ابْنِي سَفِيَانٌ مَا مِثْلُنَا \* جَارَ عَلَيْهِ مَلِكٌ أَوْ أَمِيرِ  
 أَذْكَرُ بِنَا مُقَدِّمَ أَفْرَاسِنَا \* بِالْحِنُو إِذْ أَنْتَ إِلَيْنَا قَصِيرِ

واذا كَرَّ غَدَاةَ السَّاعِدَى الَّذِي \* آتَرَكُمْ بِالْأَمْرِ فِيهَا بِسِيرِ  
 فَاحْذَرُوا عَلَيْهِمْ مِثْلَ بَذْرِ وَقَدْ \* مَرَّ بِكُمْ يَوْمَ بَيْدَرٍ عَمِيرِ  
 إِنَّ أَبْنَ حَسَّانَ لَهُ ثَائِرٌ \* فَأَعْطِهِ الْحَقَّ تَصِحَّ الْمُدُورِ  
 وَمِثْلَ أَيَّامٍ لَنَا شَتَّتَتْ \* مُلُكًا لَكُمْ أَمْرُكُ فِيهَا صَفِيرِ  
 أَمَا تَرَى الْأَزْدَ وَأَشْيَاعَهَا \* يَجُولُ خُرْزًا كَانِلَاتٍ تَزِيرِ  
 يَجُولُ حَوْلَى مِنْهُمْ مَعْتَرٌ \* إِنْ صَلَّتْ صَالُوا وَهَمُّ لِي نَصِيرِ  
 يَا بِي لَنَا الْقَسِيمَ فَلَا يُعْتَلِ \* عِزٌّ مَنِيعٌ وَصَدِيدٌ كَبِيرِ  
 وَعَنْصَرٌ فِي عِزِّ بَرْثُومِيَّةٍ \* عَادِيَّةٌ تَقْلُ عَنْهَا الْمَخُورِ



# مُلْحَقُهُ

## الكتاب الثاني

### باب المنشور

شرحنا لك في المجلد الأول ما كانت عليه الكتابة في عصر العباسيين من جودة اللفظ،  
ومنانة الأسلوب، وجلالة المعنى، ووضوح القصد وبساطته . وعودناك بذكر طرف  
من رسائل القوم في ذلك العصر الزاهي الزاهر؛ وإليك ما وعدناك به :

#### ١ - مُشَاوَرَةُ المهديّ لأهل بيته في حرب نُرْسَانَ

قال ابنُ عبد ربه في العقد الفريد :

هذا ما تراجع فيه المهديّ ووزرائه وما دار بينهم من تدبير الرأي في حرب نُرْسَانَ أيامَ  
تَحَامَلَت عليهم العيالُ واعتفت ، فحملتهم الدلالةُ وما تقدم لهم من المكانة على أن تَكُونُوا بَيْعَتَهُمْ ،  
ونقضوا موثقتهم ، وطرردوا العيال ، وأكثروا بما عليهم من انقراجٍ ، وحمل المهديّ ما يُجِبُّ من  
مصلحتهم ويكره من عنتهم على أن أقال عَثَرَتَهُمْ ، وأغفر زَلَّتَهُمْ ، وأحتمل دَلَّتَهُمْ ، نَطَوَّلُوا بالفضل  
وَأَسَاطَا بالعفو ، وأخذنا بالهجة ورفقا بالسياسة ؛ ولذلك لم يزل مُدَحِّمُهُ اللهُ أَعْيَاءَ الخِلافةِ وقَلْدَهُ  
أُمُورَ الرعيّةِ رَيفِقًا بِمَدَارِ سُلْطَانِهِ ، بصيرا بأهل زمانه ، باسطًا لِلْعَمَلَةِ في رِيعَتِهِ ، تَسْكُنُ إِلَى كَفِّهِ  
وَتَأْتِسُ بِعَفْوِهِ وَتَتَّقُ بِحِلْمِهِ ؛ فَإِذَا وَقَعَتِ الْأَقْضِيَةُ الْإِلَازِمَةُ وَالْحَقُوقُ الْوَاجِبَةُ ، فَلَيْسَ عَسَدُهُ

هَوَادَة ولا إغضاء ولا مَدَاهَنَة ، اِثْرَة لَمَحَى وَيَمَا بِالْعَدَلِ وَأَخَذًا بِالْحَزْمِ ، فَدَعَا أَهْلَ نَحْرَاسَانَ الْاِغْتِرَارُ بِجَهْلِهِ وَالثَّقَّةُ بِعَفْوِهِ أَنْ كَسَرُوا الْخِرَاجَ وَطَرَدُوا الْعِيَالِ وَسَلَّوُوا مَا لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْحَقِّ ، ثُمَّ خَلَطُوا اِجْتِنَابًا بِاعْتِذَارٍ ، وَخُصُومَةً بِإِفْرَارٍ ، وَتَنَصُّلاً بِاعْتِلَالٍ ؛ فَلَمَّا أَتَمَّ بِذَلِكَ إِلَى الْمَهْدِيِّ نَجَحَ إِلَى مَجْلِسِ خَلَاتِهِ وَبَسَّثَ إِلَى نَفَرٍ مِنْ ثَمَنَتِهِ وَوُزَرَائِهِ ، فَأَعْلَاهُمُ الْحَالُ وَأَسْتَنْصَحَهُمُ لِلرَّعِيَّةِ ، ثُمَّ أَمَرَ الْمَوَالِيَ بِالْإِبْتِدَاءِ ، وَقَالَ لِلْعَبَّاسِ بْنِ مُحَمَّدٍ : أَيُّ عَمٍّ تَمَقَّبَ قَوْلُنَا وَكُنْ حَكِيمًا بَيْنَنَا ، وَأَرْسَلَ إِلَى وَلَدَيْهِ مُوسَى وَهَارُونَ ، فَأَحْضَرَهُمَا الْأَمْرَ وَشَارَكَهُمَا فِي الرَّأْيِ ، وَأَمَرَ مُحَمَّدُ بْنُ الْبَيْتِ بِمُحَافَظَةِ مِرَاجِعِهِمْ ، وَإِثْبَاتِ مَقَاتِلِهِمْ فِي كِتَابٍ .

فَقَالَ سَلَامٌ صَاحِبُ الْمَظَالِمِ :<sup>(١)</sup>

أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ ، إِنَّ فِي كُلِّ أَمْرٍ غَايَةً ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ صِنَاعَةً ، اسْتَفَرَّغْتَ رَأْيَهُمْ ، وَاسْتَفَرَّغْتَ أَشْغَالَهُمْ ، وَاسْتَفْتَدْتَ أَحْمَارَهُمْ ، وَذَهَبُوا بِهَا وَذَهَبَتْ بِهِمْ ، وَغُرِفُوا بِهَا وَغُرِفَتْ بِهِمْ ؛ وَهَذِهِ الْأُمُورُ الَّتِي جَعَلْنَا فِيهَا غَايَةً ، وَطَلَبْتَ مَعُونَتَنَا عَلَيْهَا أَقْوَامٌ مِنْ أَبْنَاءِ الْحَرْبِ وَسَاسَةِ الْأُمُورِ وَقَادَةِ الْجُنُودِ وَفُرْسَانِ الْمَرَاهِزِ وَإِخْوَانِ التِّجَارِبِ ، وَأَبْطَالِ الْوَقَائِعِ ، الَّذِينَ رَمَحْتَهُمْ بِحِجَالِهَا ، وَقَيَّاهُمْ بِظُلُمَاتِهَا ، وَعَصَبْتَهُمْ شِدَائِدُهَا ، وَقَرَّبْتَهُمْ نَوَاجِدُهَا ؛ فَلَوْ تَحَجَّجْتَ مَا قَبْلَهُمْ ، وَكَشَفْتَ مَا عِنْدَهُمْ ؛ لَوَجَدْتَ نَفَازًا تَوَدُّدَ أَمْرِكَ ، وَتِجَارِبَ تَوَافُقَ نَظَرِكَ ، وَأَحَادِيثَ تَقْوَى قَلْبِكَ ؛ فَأَمَّا نَحْنُ مَعَايِشِرُ عَمَلِكَ ، وَأَصْحَابُ دَوَاوِينِكَ ، فَحَسَنٌ بِنَا وَكَثِيرٌ مِمَّا أَنْ تَقُومَ بِثَقَلِ مَا حَمَلْنَا مِنْ عَمَلِكَ ، وَأَسْتَوْدِعْتَنَا مِنْ أَمَانَتِكَ ، وَشَغَلْتَنَا بِهِ مِنْ إِمْضَاءِ عَدْلِكَ ، وَإِنْفَازِ حُكْمِكَ ، وَإِظْهَارِ حَقِّكَ .

فَأَجَابَهُ الْمَهْدِيُّ : إِنَّ فِي كُلِّ قَوْمٍ حِكْمَةً ، وَلِكُلِّ زَمَانٍ سِيَاسَةً ، وَفِي كُلِّ حَالٍ تَدْبِيرًا يَبْطِلُ الْآخِرُ الْأَوَّلَ ، وَنَحْنُ أَعْلَمُ بِزِمَانِنَا وَتَدْبِيرِ سُلْطَانِنَا .

(١) كَسَرُوا الْخِرَاجَ أَيُّ كَفَّوْا عَنْ آدَائِهِ . (٢) هُوَ ابْنُ الْبَيْتِ بْنُ نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ . وَكَانَ أَرْسَلَ الْمَهْدِيُّ إِلَيْهِ الْبَيْتَ لِمُحَارَبَةِ الْقَنْعِ فَلَمْ يَتَّكِنْ مِنْهُ . وَكَانَ أَبْنُوهُ مُحَمَّدٌ هَذَا مِنْ تَخْلَابِ الْمَهْدِيِّ وَلَمْ يَحْرِفْ سِوَةَ وَقَائِهِ . (٣) هُوَ سَلَامُ بْنُ الْأَبْرَشِ ، أَسَمُهُ الْمَنْصُورُ ثُمَّ قَوِيَ النُّفُوزُ فِي أَيَّامِ الْمَهْدِيِّ . (٤) الْمَرَاهِزُ : مَحْرِكُ الْبَلَايَا وَالْمُحَرِّبُ فِي النَّاسِ .

قال : نعم أيها المهديّ، أنت مُتَّبِعُ الرَّأْيِ، وَتَبِيعُ الْمُقَدَّةَ، قَوِيَّ الْمُنَّةِ<sup>(١)</sup>، بَلِغَ الْفِطْنَةِ، مَعْصُومَ النَّيَّةِ، مَحْضُورَ الرُّوِيَّةِ، مُؤَيَّدَ الْبَدِيَّةِ، مُوَفَّقَ الْعَزِيَّةِ، مُعَانٍ بِالظُّفْرِ، مَهْدِيَّ إِلَى الْخَيْرِ، إِنْ هَمَمْتَ تَقَى عِزَّكَ مَوَاقِعَ الْفَلَقِ، وَإِنْ أَجْتَمَعْتَ صَدَعَ فَعْلِكَ، لَمْ تَبْسُ الشَّكَّ، فَأَعِزِّمْ يَدَ اللَّهِ إِلَى الصَّوَابِ قَلْبَكَ، وَقُلْ يُنْطِقُ اللَّهُ بِالْحَقِّ لِسَانَكَ، فَكَتَّ جُنُودَكَ جَمَّةً، وَخَرَّائِكَ حَامِرَةً، وَنَفْسَكَ مَحْيِيَّةً، وَأَمْرَكَ نَافِذًا .

فأجابه المهديّ : إِنَّ الْمُشَاوَرَةَ وَالْمُسَاطَرَةَ بِأَيِّ رَحْمَةٍ، وَفَتْحًا بِرَكَّةٍ لَا يَهْلِكُ عَلَيْهِمَا رَأْيٌ، وَلَا يَتَغَيَّرُ<sup>(٢)</sup> مَعَهُمَا حَزْمٌ، فَأَشِيرُوا بِرَأْيِكُمْ، وَقُولُوا بِمَا يَحْضُرُكُمْ، فَإِنِّي مِنْ وَرَائِكُمْ، وَتَوَفِّيقُ اللَّهِ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ .

قال الربيع :

أيها المهديّ، إِنْ تَصَارِيفُ وُجُوهِ الرَّأْيِ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّ الْإِشَارَةَ بِبَعْضِ مَعَارِضِ الْقَوْلِ يَسِيرَةٌ، وَلَكِنْ نَحْرَاسَانِ أَرْضٌ بَعِيدَةُ الْمَسَافَةِ، مُتَرَاخِيَةُ الشُّقَّةِ، مُتَفَاوِيَةُ السَّبِيلِ؛ فَإِذَا أَرْتَأَيْتَ مِنْ مُحْكَمِ التَّدْيِيرِ، وَمُبَرِّمِ التَّقْدِيرِ، وَلُبَابِ الصَّوَابِ، رَأْيًا قَدْ أَحْكَمَ نَظْرُكَ، وَقَلْبُهُ تَدْيِيرُكَ، فَلَيْسَ وَرَاءَهُ مَذْهَبٌ طَاعِنٌ، وَلَا دُونَهُ مَسَاقٌ لِحُصُونَةِ طَائِفٍ؛ ثُمَّ أَجَبْتَ الْبُرْدَ بِهِ، وَأَنْطَوَتْ الرُّسُلُ عَلَيْهِ، كَانَ بِالْحَرَى أَلَّا يَصِلَ إِلَيْهِمْ مُحْكَمُكَ إِلَّا وَقَدْ حَدَثَ مِنْهُمْ مَا يَنْقُضُهُ؛ فَمَا أَتَمَّرْنَا أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْكَ الرُّسُلَ، وَتَرَدَّ عَلَيْكَ الْكُتُبُ بِمَحَاقِقِ أَخْبَارِهِمْ، وَشَوَارِدِ آثَارِهِمْ، وَمَصَادِرِ أُمُورِهِمْ؛ فَتُحَدِّثَ رَأْيَا غَيْرَهُ وَتَتَدَبَّرَ تَدْبِيرًا سِوَاهُ؛ وَقَدْ أَفْرَجْتَ الْحَقَّ، وَتَحَلَّلْتَ الْمُقَدَّ، وَاسْتَرَضَيْتَ الْحِقَابَ، وَأَمْتَدَّ الزَّمَانُ، ثُمَّ لَعَلَّكَ مَوْقِعَ الْإِنْعِرَةِ مَجْمُودُ الْأَوَّلَى؛ وَلَكِنْ الرَّأْيُ لَكَ أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ — وَفَقَّكَ اللَّهُ — أَنْ تُصَرِّفَ إِجَالَةَ النَّظَرِ، وَتَقْلِبَ الْفِكْرَ، فِيمَا جَمَعْتَنَا لَهُ، وَاسْتَشَرْتَنَا فِيهِ مِنَ التَّدْيِيرِ لِحُرِّهِمْ، وَالْجَلِيلِ فِي أَمْرِهِمْ، إِلَى الطَّلَبِ لِرَجُلٍ ذِي دِينٍ

(١) المنية : الفتنة . (٢) لا يتغير : لا يمتنع . (٣) معارض الكلام ما عارض به ولم يصرح به الجواب بالشيء من الشيء . (٤) الحجاب : هي، تظفده المرأة تعلق به مائلين الحجب تشبهه على راسها .

فاضل، وعقل كامل، وورع واسع، ليس موصوفاً بهوى في سواك، ولا مثبماً في أثره عليك، ولا ظليماً على دخلية مكروهة، ولا منسوباً الى بدعة محذورة؛ فيقدح في ملكك، ويربض الأمور لعبرك؛ ثم تُسند اليه أمورهم، وتغوض اليه حريمهم، وتأمره في عهدك ووصيتك إياه بلزوم أمرك ما لزمه الحزم، وخلاف تنبك إذا خالفه الرأي عند استحالة الأمور، واشتداد الأحوال التي يتفحص أمر الغائب عنها، ويثبت رأي الشاهد لها؛ فإنه إذا فعل ذلك فواب أمرهم من قريب، وسقط عنه ما يأتي من بعيد، تمت الحيلة وقويت المكيدة، وتقد العمل وأحد النظر، إن شاء الله.

قال الفضل بن العباس :

أيها المهدي، إن ولي الأمور وسائن الحروب وما تحي جنوده، وقرق أمواله في غير ما يضيق أئمة حربه، ولا ضغطة حال اضطرت به؛ فيقدم عند الحاجة إليها، وبعد التفرقة لها عديداً منها فاقد لها، لا يثق بقوة، ولا يصول بعة، ولا يفرج الى ثقة؛ فالرأي لك أيها المهدي — وفكك الله — أن تعني خزائنتك من الإنفاق للأموال، وجنودك من مكابدة الأسفار، ومقارعة الأخطار، وتغيير القتال، ولا تُسرع للقوم في الإجابة الى ما يطلبون، والعطاء لما يسألون؛ فيفسد عليك أدبهم، وتجري من رعييتك غيرهم؛ ولكن أغرهم بالحيلة، وقاتلهم بالمكيدة، وصارعهم بالبن، وخاتلهم بالرفق، وأبرق لهم بالقول، وأرعد نحوهم بالفعل؛ وأبست البعوث، وجند الجنود، وكتب الكتاب، وأعقد الآلية، وأنصب الرايات، وأظهر أنك موجه اليهم الجيوش مع أحنق قوادك عليهم، وأسوهم أثراً فيهم، ثم أذسس الرسل، وأبثت الكتب، وضع بعضهم على طمع من وعدك، وبعضاً على خوف

(١) ظليماً : مثبماً . ودخلة مكروهة : أي نية سيئة . (٢) ربه أي أئمة .

(٣) أبرق وأرعد بمعنى تهدد وتوعد . (٤) البعث : الجيوش .



من وعيدك؛ وأوقد بذلك وأشباهه نيرانَ التصادم فيهم ، وأغرس أشجار التنافس بينهم ، حتى تملأ القلوب من الوحشة ، وتطوى الصدور على البغضة ، ويدخل كل من كل الحذر والحيية ؛ فإت مرام الظفر النعيلة ، والقتال بالحيلة ، والمناصبة بالكتب ، والمكايدة بالرسول ، والمقارعة بالكلام اللطيف المدخل في القلوب ، الموى الموقع من النفوس ، المعقود بالهيج ، الموصول بالحيل ، المبني على اللين الذي يستميل القلوب ؛ ويسترق العقول والآراء ، ويستميل الأهواء ، ويستدعي المواتاة ، أنفد من القتال بطلات السيوف وأسنة الرياح ؛ كما أن الوالى الذى يستنزل طاعة رعيته بالحيل ، ويفرق كلمة عدوه بالمكايدة ، أحكم عملا والطرف منظرًا وأحسن سياسة من الذى لا ينال ذلك إلا بالقتال ، والإتلاف للأموال والتفريط والخطار<sup>(١)</sup> .

وليعلم المهدي أنه إن وجه لقتالهم رجلا لم يسر لقتالهم إلا بجنود كثيرة ، تخرج عن حال شديدة ، وتقدم على أسفار ضيقة ، وأموال متفرقة ، وقواد غششة ؛ إرب أمتهم استغفدوا ماله ، وإن استنصه جهم كانوا عليه لا له .

قال المهدي : هذا رأى قد أسفر نوره ، وأبرق ضوؤه ، وتمثل صوابه للعيون ، ومجد حقه في القلوب ، ولكن فوق كل ذى علم علم ؛ ثم نظر الى ابنه علي فقال : ما تقول ؟

قال علي :

أيها المهدي ، إئت أهل خراسان لم يتلقوا عن طاعتك ، ولم يتعصبوا من دونك أحداً يقدس في تفسير ملكك ، ويربض الأمور لفساد دولتك ؛ ولو فعلوا لكان الخطب أيسر ، والشان أصغر والحال أدل ، لأن الله مع حقه الذى لا يتحدله ، وعند موعدة الذى لا يتخلقه ، ولكنهم قوم من رعيته ، وطلاقة من شيعته الذين جعلك الله عليهم ولياً ، وجعل العدل بينك وبينهم حاكماً ، طلبوا حقاً ، وسألوا إنصافاً ، فإن أجبت الى دعوتهم ونفست عنهم<sup>(٢)</sup>

(١) الخطار : الاضرار علىهلك .

(٢) هست عنهم : فرجت عنهم .

قبل أن يتَلاَمَّ منهم حال، أو يحدث من عندهم فتق؛ اطعت أمر الرب، وأطاعت نائرة الحرب، ووقرت خزائن المال، وطرحت تفرير القتال، ومن الناس تجمل ذلك على طبيعة جودك، وصحبة حاكم، وإحتياج خليقتك، ومعدلة نظرك، فامنت أن تُنسب إلى ضعف، وأن يكون ذلك فيما بقي دربة؛ وإن متعتهم ما طلبوا ولم يُجيبهم إلى ما سألوا، أعتدلت بك وبهم الحال، وساويتهم في ميدان الخطأ؛ فما أرب المهدي أن يعيد إلى طائفة من رعيته، مقرين بمملكته، مدعين لطاعته، لا يخرجون أنفسهم عن قدرته، ولا يوثقوا من عبوديته، فيملكهم أنفسهم ويخلع نفسه عنهم، ويقف على الحيل معهم، ثم يجازيهم سوء في حد المنازعة ومضار المخاطرة؛ أريد المهدي - وفقه الله - الأموال؟ فلمرى لا ينالها ولا يظفر بها إلا بإتفاق أكثر منها، مما يطلب منهم وأضعاف ما يدعى قبلهم، ولو نالها لحملت إليه، أو وضعت بخزائنها بين يديه، ثم تجافى لهم عنها وطال عليهم بها، لكان مما إليه يُنسب وبه يُعرف من الجود الذي طبعه الله عليه، وجعل قوة عينه ونهية نفسه فيه؛ فإن قال المهدي: هذا رأى مستقيم سديد في أهل الخراج الذين شكوا ظلم عمالنا، وتجامل ولائنا؛ فاما الجنود الذين نقضوا موافيق المهود، وأنطقوا لسان<sup>(١)</sup> الإرجاف وفتحوا باب المصيبة وكسروا قيد الفتنة، فقد ينبغي لهم أن يجعلهم نكالا لغيرهم وعظة لسواهم؛ فيعلم المهدي أنه لو أتي بهم مغلولين في الحديد، مقرنين في الأصقاف؛ ثم أُلحس لحقن دماهم عفو، وإزالة عثرتهم صفه؛ وأستبقاهم لما هم فيه من حزبه، أولن بإزائهم من مدق، كما كان بدعا من رأيه، ولا مُستَكرا من نظره، لقد عابت العرب أنه أعظم الخلفاء والملوك عفوًا، وأشدّها وقفاً، وأصدقها صولة؛ وأنه لا يتعاطمه عفو،

(١) نائرة الحرب: ما اشتعل وأخذ منها.

(٢) الإجماع: مصدر أجمع الراك. إذا أحسن الفرو.

(٣) الخريطة: وهاء من آدم وغيره.

(٤) الإرجاف: مصدر أرجف القوم إذا خاضوا في أعيار الفتن على أن يوقعوا في التماس الاضطراب من غير أن

ولا يَنكأده<sup>(١)</sup> صفح، وإن عظم الذنب وجل الخطب، فالرأى للمهدى - وفقه الله تعالى - أن يحل عُقْدَةُ الغيظ بالرجاء لحسن ثواب الله في العفو عنهم، وإن يذكر أَوَّلَ حالاتهم وضِيعَةِ عِياليتهم، يرأ بهم ونوسمًا لهم؛ فإنهم إخوان دولته، وأركان دعوته، وأساس حقّه الذين بعزّتهم يصول، وبمجتّهم يقول؛ وإنما مثلهم فيا دخلوا فيه من مَسَاخِطه، وتعرضوا له من معاصيه، وأنطووا فيه عن إجابته، ومثله في قلة ما غيّر ذلك من رأيه فيهم، أو قِل من حاله لهم، أو تغير من نعمته بهم، كمثل رجلين أخوين متناصرين متايزين، أصاب أحدهما خَبَلٌ عارضٌ، وهو حادث، فنهب الى أخيه بالأذى، وتحامل عليه بالمكروه، فلم يزد أخوه إلا رِقَّةً له وأُطْفًا به، واحتيالاً للمداواة مرضه ومراجعة حاله، عطفًا عليه ويرأ به ومرحمة له.

فقال المهدى: أما على فقد كوى سمّت اللبان، وقصّ القلوب في أهل نراسان، ولكل تبا مستقو، ثم قال: ما ترى يا أبا محمد؟ يعنى موسى أبه.

فقال موسى:

أيها المهدى، لا تَسْكُن الى حلاوة ما يجرى من القول على ألسنتهم، وأنت ترى الدماء تسيل من خَلل فعلهم؛ الحال من القوم ينادى بِمُضْمَرَةٍ شرّ، وخَفِيَةٍ حقد؛ قد جعلوا المعاذير عليها سِتْرًا، واتخذوا الليل من دونها حِجَابًا؛ رجاء أن يدايموا الأيام بالتأخير، والأمور بالتطويل؛ فيكسروا حيل المهدى فيهم، ويفتروا جنوده عنهم حتى يتلاصم أمرهم، وتتلاحق مآذئهم، وتستهفل حربهم، وتستمر الأمور بهم، والمهدى من قوهم في حال غيرة ولباس أمتية، قد قترها وأنس بها وسكن إليها، ولولا ما أجمعت به قلوبهم، وبردت عليه جلودهم من المناصبة بالقتال، والإشمار للفراع عن داية ضلال، أو شيطان فساد، لرهبوا عواقب أخبار الولاة، وغبّ سكون الأمور؛ فليشأد المهدى - وفقه الله -

(١) لا ينكأده: لا يبتنى طيه.

أزّره لهم ويكتّبه كاتبه نحوهم ، وليضح الأمر على أشد ما يحضره فيهم ، ويؤقر أنه لا يعطيهم خطّة يريد بها صلاحهم إلا كانت دُرّة إلى فسادهم ، وقوّة على معصيتهم ، وداعية إلى عودتهم ؛ وسبباً لفساد من يحضرته من الجنود ، ومن يباه به من الوفود ، الذين إن أقروهم تلك العادة ، وأجروهم على ذلك الأرب ، ولم يترجّح في فتحي حادثٍ وخلاف حاضِر ، لا يصلح عليه دين ، ولا تستقيم به دنيا ، وإن طلب تغييره بعد استحكام العادة ، واستقرار الشريعة ، لم يصل إلى ذلك إلّا بالمقوبة المفرطة ، والمؤونة الشديدة ، والرأي للهدى وقفه الله — ألاّ يُقبل عثرتهم ، ولا يقبل مُعذرتهم ، حتى تطلّهم الجبوش ، وتأخذهم السيوف ، ويستجيرهم <sup>(١)</sup> بهم القتل ، ويُحدّق بهم الموت ، ويُحيط بهم البلاء ، ويُطبق عليهم النذل ؛ فإن فعل المهديّ بهم ذلك ، كان مقطّعة لكل عادة سوء فيهم ، وهزيمة لكل بادرة شرّ منفسم ، وأحتمال المهديّ مؤونة غزواتهم هذه يَضَع عنه غزوات كثيرة ، ونفقات عظيمة .

قال المهديّ : قد قال القوم فأحك يا أبا الفضل .

فقال العباس بن محمد :

أيها المهديّ :

أما الموالى فأخذوا بفُروع الرأى ، وسلّكوا جَنَابَات الصواب ، وتمدّروا أموراً قُصّر بنظرهم ضئاً أنه لم تأت تجارتهم عليها .

وأما الفضل فأشار بالأموال ألاّ تُتفق ، والجنود ألاّ تفرّق ، وبألا يعطى القرم ما طلبوا ، ولا يبدّل لهم ما سألوا ، وجاءهم بأمر يبين ذلك استصغاراً لأمرهم وأستهانة بحجربهم ، وإنما يتبيح جسيماَت الأمور صفارها .

(١) يستجر : يشتد ويغوى .

وأما عليّ فأشار بالّين وإفسراط الرّفق، وإذا جرّد الوالى لمن تحمط<sup>(١)</sup> أمره وسفه حقه، الّالين بحثاً والغير محضاً، لم يخلطهما بنسبة تعطف القلوب عن لينه، ولا يسرّجهم إلى خيره، فقد ملكهم الخلع<sup>(٢)</sup> لعدوهم ووسّع لهم الرّجّة لثنى أعناقهم؛ فإن أجاوبوا دعوته وقبلوا لينه من غير خوف اضطهرهم ولا شدّة، فتزوّ<sup>(٣)</sup> في روعهم يستدعون بها البلاء إلى أنفسهم، ويستصرخون بها رأى المهديّ فيهم؛ وإن لم يقبلوا دعوته ويسرعوا لإجابته بالّين المحض وانخبر الصّراح، فذلك ما عليه الظنّ بهم والرأى فيهم، وما قد يُشبهه أن يكون من مثلهم، لأن الله تعالى خلق الجنّة وجعل فيها من النعم المقيم والملك الكبير ما لا يحطّر على قلب بشر ولا تدركه الفكر ولا تعلمه نفس؛ ثم دعا الناس إليها ورغبهم فيها، فلو لا أنه خلق ناراً جعلها لهم رحمة يسوقهم بها إلى الجنّة، لما أجاوبوا ولا قبلوا .

وأما موسى فأشار بأن يصحبوا بنسبة لالين فيها، وأن يرموا بشرّ لا خير معه، وإذا احتر الوالى لمن فارق طاعته، وخالف جماعته، الخوف مفرداً، والشّر مجزّأ، ليس معهما طمع ولا لين يثنيهم، أشتت الأمور بهم، وأقطعت الحال منهم إلى أحد أمرين : إما أن تدخلهم الحيّة من الشدّة، والألفّة من الدّلة، والامتصاص من القهر، فيدعوهم ذلك إلى التبادى فى الخلاف، والاستبسال فى القتال، والاستسلام للوت، وإما أن يتقادوا بالكره، ويذعنوا بالقهر على بغضية لازمة، وعداوة باقية، تورت النفاق وتغيب الشقاق؛ فإذا أمكنهم فرصة، أو ثابت لهم قدرة، أو قويّت لهم حال، عاد أمرهم إلى أصعب وأغلظ وأشدّ مما كان .

(١) حط الأمر : ازدراه . وسفه حقه : استهجه وبغضه .

(٢) المدرج مدار .

(٣) التزوّ : التزوّد إلى الشرّ .

(٤) حسب الشىء : لواه وشقه .

وقال في قول الفضل :

أيها المهديّ، اكْتَفَى دليلاً، وأوضح برهاناً، وأبَيَّنْ خيراً بأن؛ قد أجمع رأيه وَحَرَمَ نظره  
على الإرشاد بِعِثَةِ الجيوش اليهم، وتوجيه البُعث نحوهم، مع إعطائهم ماسألوا من الحق،  
وإجابتهم إلى ما سألوه من العدل .  
قال المهديّ : ذلك رأيي .

قال هارون :

ما خَطِطْتُ الشَّيْءَ أيها المهديّ؛ إلّين، وانتظم أمر الدنيا بالدين، فصارت الشدة أمرَ  
إِطْطامٍ لما تَكَرَّه، وعاد اللين أهدى قائد إلى ما تُحِبُّ ؛ ولكن أرى غير ذلك .<sup>(١١)</sup>

قال المهديّ :

لقد قلت قولاً بديعاً ، خالفت فيه أهل بيتك جميعاً ؛ والمرءُ مؤثّقٌ بما قال، وطَئِنِ  
بما آدعى حتى يأتي بيينة عادلة، وجمّة ظاهرة، فأخرج عما قلت .

قال هارون :

أيها المهديّ، إن الحرب خُذعة، والأعاجم قومٌ مَكْرَةٌ ؛ وربما اعتدلت الحسائلُ بهم،  
وأثقت الأهواءُ منهم ؛ فكانت باطن ما تُسِرُّون على ظاهر ما يُعلِنون ، وربما أفترقت  
الحالآن، وخالف القلبُ اللسان ، فانطوى القلب على عَجْوِيَّةٍ تُبْطِنُ ، واستمرَّ بدخُولِهِ  
لَا تُعْلَنُ ، والطبيبُ الرقيقُ بَطِيْهٌ ، البصيرُ بأمره ، العالمُ بمقدّمِ يده وموضعِ مِيسَمِهِ ؛ لا يتعجّلُ<sup>(١٢)</sup>  
بالدواء ، حتى يقع على معرفة الداء ، فالرأيُ للمهديّ — وفقه الله — أن يُفَرِّقَ باطنَ أمرهم  
قَرْمِيسَةً، ويَحْضِظَ ظاهرَ حالهم بِمَحَضِّ السَّقاءِ بِمَتَابَعَةِ الكُتُبِ ، ومظاهرة الرسل ، ومُؤَالاةِ<sup>(١٣)</sup>

(١) القظام هنا : القطع والاستئصال .

(٢) ظنين بما ادعى : منهم بدعواه .

(٣) الجسم : المكواة يومئذ بها الخيوان .

(٤) قرأ الآية : فتح قاعها وكشف عن أسنانها ينظر ما سبها . والمرس من العراب ما دخل في التامة .

العيون ، حتى تُهتِك حجب عيونهم ، وتُكشَف أعْطية أمورهم ؛ فإنْ أفرجتِ الحال ، وأفضتِ الأمور به الى تغيير حال أو داعية ضلال ، أشقلت الأهواء عليه ، وأفقد الرجال اليه ، وأمتدت الأعناق نحوه بدين يتقدونه ، وإثم يستحلونه ، عصَبهم بشدة لا لين فيها ، ودمامهم بعقوبة لا عفو معها ، وإنْ أفرجت العيون ، وأهتُصرت الستور ، ورُفعت الحُجُب ، والحالُ فيهم صريعة ، والأمورُ بهم معتدلة في أرزاقٍ يطلبونها ، وأعمالٍ يُنكرونها ، وظُلُماتٍ يُدعونها ، وحقوقٍ يُسألونها ، بمائةٍ سابقتهم ، ودالةٍ متصمتهم ؛ فالرأي للهدى — وفقه الله — أن يتسع لهم بما طلبوا ، ويتجافى لهم عما كرهوا ، ويسمب من أمرهم ما صدعوا ، ويرقى من قذَهِم ما قطعوا ، ويؤلى عليهم من أحيوا ، ويدأوى بذلك مرض قلوبهم ، وفساد أمورهم ؛ فلئما المهدي وأقنته ، وسواد أهل مملكته ، بنزلة الطيب الرقيق ، والوالد الشفيق ، والرأي المحزوب الذي يمثال لمرابض غنمه ، وضوال رعيته ، حتى يرى المريض من داء عاتيا ويرد الصحة الى أنس جماعتها ؛ ثم إنْ نراسان بخاصة الدين لهم دالةٌ مجمولة ، ومائةٌ مقبولة ، ووسيلةٌ معروفة ، وحقوقٌ واجبة ؛ لأنهم أبداً دولته ، وسيوف دعوته ، وأنصار حقه ، وأعوان عدله ؛ فليس من شأن المهدي الاضططاعان عليهم ، ولا المؤاخذه لهم ، ولا التوقيف بهم ، ولا المكافأة بإساءتهم ، لأن مبادرة حسم الأمور ضعيفة قبل أن تقوى ، ومحاولة قطع الأصول ضئيلة قبل أن تنظف ، أحرز في الرأي ، وأصح في التدبير من التأخير لها والتهاون بها ، حتى يأتهم قليلاً بكثيرها ، وتجتمع أطرافها الى جمهورها .

قال المهدي : ما زال هارون يقع وقع الحبا حتى خرج خروج القنذع من الماء ، وأفسل أنسلال السيف فيما أَدعى ، فدعوا ما سبق موسى فيه أنه هو الرأي ، وثق بسده هارون ، ولكن من لأعنة الخليل وسياسة الحرب وقادة الناس إن أمن بهم اللجاج ، وأفرطت بهم المالة ؟ .

(١) المالة : الحرمة والوسيلة .

(٢) التوقيف بهم : التشديد عليهم .

قال صالح :

لسنا نبلغ أيها المهديّ بدوام البحث وطول الصكر أدنى فُرَاسة رأيك ، وبعضَ لحَفَطات  
نظرك ، وليس يتَقَصَّ عنك من بيوتات العرب ورجال الصَّحْم ذو دين فاضل ، ورأى  
كامل ، وتدبير قوى ؛ تسَلِّده حركك ، وتستودعه جندك ، ممن يَحْتَمِلُ الأمانةَ العظيمةَ ،  
ويَقْطُلُ بالآعباء الثقيلةَ ؛ وأنت بحمد الله ميونُ النُّبْيَةِ ، مبارك العزيمةَ ، مَجْبُور التجارب ،  
محمود العواقب ، معصوم العزم ؛ فليس يقع اختيارُك ، ولا يقف نظرك على أحد تولىه  
أمرُك ، وتُسند إليه نورك ، إلَّا أراك الله ما تحبُّ ، وجمع لك منه ما تريد .

قال المهديّ : إنِّي لأرجو ذلك لتقديمِ مادةِ الله فيه ، وحسنِ معاونته عليه ؛ ولكن  
أحبُّ الموافقة على الرأي ، والأختبار للشارة في الأمر المهم .

قال محمد بن اللَّيْث :

أهلُ حِراسانِ أيها المهديّ ، قوم دَوُّ عِزَّةٍ وَمَنَّةٍ ، وشياطينَ خَدَعَةٍ ؛ زُرُوعُ الحِمِيَّةِ فيهم  
نابتة ، وملايسُ الأَنَفَةِ عليهم ظاهرة ؛ فالروية عنهم عازِبة ، والسَّجَلَةُ فيهم حاضرة ؛ تسبق  
سبوقهم مطرهم ، وسوقهم عدلهم ، لأنهم بين يسفلة لا يعدو مَبْلَغُ عقولهم مَنَظَرُ عيونهم ،  
وبين رؤساء لا يَلْجُمُونَ إلا بشدَّة ، ولا يَفْطُمُونَ إلا بالترُّ ؛ وإن ولى المهديّ عليهم وضيعا  
لم تَنقُدْ له العظاءُ ، وإن ولى أمرهم شريفاً تحامل على الضمضاء ؛ وإن أَمَرَ المهديّ أمرهم ،  
ودافع حُرْبهم ، حتى يُصِيبَ لنفسه من حَسَمِهِ ومواليه ، أو بَنَى عمه أو بنى أبيه ؛ ناصحا  
يَتَّقَى عليه أمرهم ، وبقَّةً تجتمع له أَمَلًاؤهم بلا أَثَقَةٍ تَلْزَمهم ، ولا حِمِيَّةٍ تَدْعُلهم ، ولا مصيبة  
تَغْفرهم ؛ تَنَقَّست الأيامُ بهم ، وتراخت الحلالُ بأمرهم ؛ فدخل بذلك من الفساد الكبير ،  
والضياع العظيم ، ما لا يتلافاه صاحبُ هذه الصِّفَةِ وإن جدَّ ، ولا يستصاحبه وإن جَهد ،

(١) ميون النُّبْيَةِ : أى مبارك النفس ينجح فيما يحاوله . ومجبور التجارب : خير بها .

(٢) العازب : الغائب .

(٣) العدل : اسم مصدر من العدل بمعنى القوم وده المثل "سبق السيف العدل" يهرب لما قد مات .



إلا بعد دهر طويل وشركير؛ وليس المهدي — وفقه الله — فاطماً عاداتهم، ولا قارياً صفاتهم، يمثل أحد رجلين لا ثالث لهما . ولا عدل في ذلك مهما :

أحدهما لسان ناطق موصول بسمعك، ويد ممثلة لعينك، ومحفرة لا تُزعزع، ووهمة لا يُقنى؛ وبإزك لا يُفزع صوت الجبل، نقي العرض، نزيه النفس، جليل الخطر، قد اتّضعت الدنيا عن قدره، وسمّا نحو الآخرة بهمة، فجعل الفرض الأقصى لعينه نصيباً، والفرض الأدنى لقدمه موطناً؛ فليس يقبل عملاً، ولا يتعدى أملاً؛ وهو رأس ممالك، وأنصح بى أبيك؛ رجل قد عدّى بلطف كرامتك، ونبت في ظل دولتك، ونشأ على قوائم أدبك؛ فإن قلّدتَه أسمرهم، وحلتَه يقلهم، وأسندت إليه ثغرهم؛ كان قفلاً فتحه أمرُك، وباباً أغلقه نهيُك؛ فجعل العدل عليه وعليهم أميراً، والإنصاف بينه وبينهم حاكماً؛ وإذا حكم النصقة وسلك المقتلة، فأعطاهم ما لهم وأخذ منهم ما عليهم، غرس في الذي لك من صدورهم، وأسكن لك في السويدة داخل قلوبهم؛ طاعة راسخة العروق، بإسقة الفروع، متألفة في حواشي عوامهم، متمكنة من قلوب خواصهم؛ فلا يبقى فيهم ريب إلا نفوه، ولا يلزمهم حق إلا أدوه؛ وهذا أحدهما .

والآخر عود من غيظتك؛ ونبعة من أرومتك، نقي السن كهل الحبل راجع العقل محمود الصرامة مأمون الخلاف؛ يجرّد فيهم سيمه، ويسطّ عليهم خيره بقدر ما يستحقون، وعلى حسب ما يستوجبون؛ وهو فلان أبها المهدي، فسقطه — أعزك الله — عليهم، ووجهه بالحيوش اليهم، ولا تمنك ضراعة<sup>(١)</sup> سنه، وحدائمه<sup>(٢)</sup> ولده؛ فإن الحلم والشفقة مع الحداثة خير من الشك والجهل مع الكهولة؛ وإنما أحدائكم أهل البيت فيما طبعكم الله عليه، واختصكم به من مكارم الأخلاق، وعحامد الفعال، وعحاسن الأمور، وصواب التدبير، وصرامة الأنفس؛ كفيراخ عتاق الطائر الحكمة لأخذ الصيد بلا تدريب، والعارفة

(١) ضراعة سه : تبايه وحدائمه سه .

(٢) عتاق الطير : كرام الطير .

لوجوه الثقة بلا تأديب؛ فالعلم والعزم والحزم والجدود والثبوت والرفق ثابت في صدوركم، مزروع في قلوبكم، مستحسب لكم، متكامل عندكم، بطابع لازمة، وغرائز ثابتة .

قال معاوية بن عبد الله :

إنّاء أهل بيتك أيها المهدي في الحلم على ما ذكر . وأهل خراسان في حال عز على ما وصف، ولكن إن ولي المهدي عليهم رجلا ليس بقديم الذكر في الجنود، ولا بنيه الصوّت في الحروب، ولا بطويل التجربة للأمر، ولا بمعروف السياسة للجيش والهيبة في الأعداء؛ دخل ذلك أمران عظيمان وخطران مهولان، أحدهما : أن الأعداء يفتنّزونها منه ويحتقرونها فيه ، ويحتثون بها عليه في النهوض به والمقارعة له ، والخلاف عليه ، قبل الاختبار لأمره ، والتكشّف لحاله والعلم بطباعه . والأمر الآخر : أن الجنود التي يقود والجيوش التي يسوس إذا لم يثثروا منسب البأس والنجدة ، ولم يعرفوه بالصّلة والهيبة ، أنكسرت شجاعتهم ، وماتت نجاتهم ، وأستأثرت طاعتهم إلى حين اختبارهم ، ووقع معرفتهم ؛ وربما وقع البوار قبل الاختبار ؛ وبياب المهدي - وفقه الله - رجل مهيب نبيه حينك صبت ؛ له نسب زالك وصوت عال ، قد قاد الجيوش وساس الحروب ، وتألف أهل خراسان ، وأجتمعا عليه باليقّة ، وثقوا به كل الثقة ؛ فلولا المهدي أمرهم ، لكفاه الله شرهم .

قال المهدي : جأنت قصد الرّمية ، وأبئت إلا عصية ؛ إذ رأى الحدّث من أهل بيتنا ، كراى عشرة حثماء من غيرنا ؛ ولكن أين تركتم ولي العهد .

قالوا :

لم يمتنا من ذكره إلا كونه شبيه جدّه ، ونسب جدّه ؛ ومن الدين وأهله ، بحيث يقصر القول عن أدنى فضله ؛ ولكن وجدنا الله عز وجل يحبّ عن خلقه ، وسرّ من دون عباده علم ما تخلف به الأيام ، ومعرفة ما تجرى عليه المقادير ، من حوادث الأمور ورّيب المنون

المُخْتَرِمَةَ لِحَوَالِي الْقُرُونِ وَمَوَاضِي الْمُلُوكِ ، فَكَيْفَها شُسُوعُهُ عَنْ مَحَلَّةِ الْمَلِكِ وَدَارِ السُّلْطَانِ وَمَقَرِّ  
الإِمَامَةِ وَالْوِلَايَةِ وَمَوَاضِي الْمَدَائِنِ وَالْخِزَانِ ، وَاسْتَقَرَّ الْجُنُودُ وَمَعْدِنُ الْجُودِ ، وَجَمَعَ الْأَمْوَالُ  
الَّتِي جَمَلَهَا اللَّهُ قُطْعًا لِدَارِ الْمَلِكِ وَمُضَيِّدَةً لِقُلُوبِ النَّاسِ وَدَمَانَةً لِإِخْوَانِ الطَّمَعِ وَتَوَارِ الْفِتَنِ ،  
وَدَوَاعِيَ الْبِدْعِ وَفِرْسَانَ الْقُبَالِ وَأَبْنَاءَ الْمَوْتِ . وَقُلْنَا : إِنْ وَجَّهَ الْمَهْدِيُّ وَلِيًّا عَهْدَهُ لَخَدَثَ  
فِي جَيُوشِهِ وَجُنُودِهِ مَا قَدْ حَدَثَ بِجُنُودِ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ ، لَمْ يَسْتَطِعِ الْمَهْدِيُّ أَنْ يُعْقِبَهُمْ  
بِفَيْهِهِ إِلَّا أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَيْهِمْ بِنَفْسِهِ ؛ وَهَذَا خَطَرٌ عَظِيمٌ وَهَوْلٌ شَدِيدٌ ، إِنْ تَنَقَّسَتْ الْأَيَّامُ بِمَقَامِهِ ،  
وَأَسْتَدَارَتْ الْحَالَ بِإِمَامِهِ ، حَتَّى يَقَعَ عَوْصٌ لَا يَسْتَعْنِي عَنْهُ ، أَوْ يَحْدُثَ أَمْرٌ لَا يَدْرِيهِ ،  
صَارَ مَا بَعْدَهُ مَا هُوَ أَعْظَمُ هَوْلًا وَأَجَلٌ خَطَرًا لَهُ تَبَعًا وَبِهِ مُتَّصِلًا .

قال المهدي :

الْمُخْطَلَبُ أَيُّسَرُّمْ تَذْهَبُونَ إِلَيْهِ ، وَعَلَى غَيْرِ مَا تَصِفُونَ الْأَمْرَ عَلَيْهِ ؛ نَحْنُ أَهْلُ الْبَيْتِ  
تَجْرِي مِنْ أَسْبَابِ الْقَضَايَا وَمَوَاقِعِ الْأُمُورِ ، عَلَى سَابِقٍ مِنَ الْعِلْمِ وَمَحْتَرِمٍ مِنَ الْأَمْرِ ؛ قَدْ  
أَنْبَأَتْ بِهِ الْكِتَابُ ، وَنَبَأَتْ عَلَيْهِ الرُّسُلُ ؛ وَقَدْ تَنَاهَى ذَلِكَ بِأَجْمَعِ الْبَنَاءِ وَتَكَامُلِ بَحْذَانِيهِ  
عِنْدَنَا ؛ فِيهِ نُذِيرُوعِلَ اللَّهُ تَتَوَكَّلْ . إِنَّهُ لَا يَدْرِي لَوْلَى عَهْدِي وَلَوْلَى عَهْدِ عَفِيٍّ بَعْدِي أَنْ يَقُودَ  
إِلَى خِرَاسَانَ الْبُعُوثِ ، وَيَتَوَجَّهَ نَحْوَهَا بِالْجُنُودِ .

أَمَّا الْأَوَّلُ فَإِنَّهُ يُقَدِّمُ إِلَيْهِمْ رِسْلَهُ ، وَيُسَمِّلُ فِيهِمْ حَيْلَهُ ؛ ثُمَّ يُخْرِجُ نَسِيطًا إِلَيْهِمْ حَتْفًا  
عَلَيْهِمْ ، يَرِدُ إِلَّا يَدْعُ أَحَدًا مِنْ إِخْوَانِ الْفِتَنِ وَدَوَاعِيَ الْبِدْعِ وَفِرْسَانَ الْقُبَالِ ، إِلَّا تَوَطَّاهُ  
يُحَرِّقُ الْقَتْلَ ، وَالْبَهْسَ قِنَاعَ الْقَهْرِ ، وَقَلْبَهُ طَوْقَ الذَّلِّ ، وَلَا أَحَدًا مِنَ الَّذِينَ عَمِلُوا فِي فَسْ  
جَنَاحِ الْفِتْنَةِ ، وَإِنْ حَادَ نَارُ الْبِدْعَةِ ، وَنُصْرَةُ وَلَاةِ الْحَقِّ ، إِلَّا أَجْرَى عَلَيْهِمْ دَيْمَ فَضْلِهِ ، وَجَدَاوِلَ  
نَهْسِهِ ؛ فَإِذَا نَحَرَاجَ مُزْمِعًا بِهِ مُجْبِمًا عَلَيْهِ ، لَمْ يَسِرْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى تَأْتِيَهُ أَنْ قَدْ عَمِلَتْ حَيْلُهُ ،  
وَكَدَحَتْ كُنْثَى وَتَفَدَّتْ مَكَائِدُهُ ؛ فَهَذَا تُنَافِرَةُ الْقُلُوبِ ، وَوَقَعَتْ طَائِرَةُ الْأَهْوَاءِ ، وَاجْتَمَعَ

(١) شسوعه : ابتذاله .

(٢) سمعت ودأبت حتى أثرت .

(٣) وقعت طائرة الأهواء : نحد غضبها وسكن روحها .

عليه المختطفون بالرضا ؛ فيمل نظرا لهم ، ويرأهم ، وتعطف عليهم ، الى عدو قد أخاف سبيلهم ، وقطع طريقهم ، ومنع هجأتهم بيت الله الحرام ، وسلب تجارتهم رزق الله الحلال .

وأما الآخر فانه يوجه اليهم ، ثم تمتد له الحجة عليهم ، بإعطاء ما يطلبون ، وبذل ما يسألون ؛ فاذا سمحت الفرق بقراباتها له ، وجئ أهل النواحي بأعناقهم نحوه ؛ فأصبحت اليه الأفئدة ، واجتمعت له الكلمة ؛ وقدمت عليه الوفود قصبة لأؤل ناحية تجعت بطاعتها وألفت بأزيئها ؛ فألبسها جناح نعمته ، وأنزلها ظل كرامته ، وخصها بعظيم حياته ؛ ثم ضم الجماعة بالمأئلة ، وتعطف عليهم بالرحمة ؛ فلا تبقى ناحية دانية ولا فرقة قاصية ، إلا دخلت عليها بركته ، ووصلت اليها منفعة ؛ فأغنى فقيرها ، وجبر كسيرها ، ورفع ضيعها ، وزاد رقيعها مائلا ناحيتين ؛ ناحية يغلب عليها الشقاء ، وتستميلهم الأهواء ، تستخف بدعوتها ، وتطعن عن إجابته ، وتناقل عن حقه ، فتكون آخرهن بيتا وأبطأ من يوجه ؛ فيصطلي عليها موجدته ويتنى لها علة ، لا يلبث أن يجتد بحق يلزمهم وأمر يجب عليهم ، فتستلجمهم الجيوش ، وتأكلهم السيوف ، ويستحق بهم القتل ، ويحيط بهم الأسر ، ويُغنيم التلبع ؛ حتى يضرب البلاد ، ويؤتم الأولاد ؛ وناحية لا يسط لهم أمانا ، ولا يقبل لهم عهدا ولا يجعل لهم ذمة ؛ لأنهم أول من فتح باب الفرقة ، وتزعج جلاب الفتنة ، وبعض في شق المصا ؛ ولكنه يقتل أعلامهم ، ويأسر قوادهم ؛ ويطلب هربهم في بلج البحار ، وقلل الجبال ، وتعمل الأودية ، ويطون الأرض ، تقتيلا وتغليلا وتكيلا ؛ حتى يدع الديار خرابا ، والنساء أياى ؛ وهذا أمر لا نعرف له في كتبنا وقتا ، ولا نصحح منه غير ما قلنا نفسيرا .

وأما موسى ولحقه عهدي فهذا أوان توجهه الى نخراسان ، وحلوله بخرجان ؛ وما قضى الله له من الشفوص اليها ، والمقام فيها ، خير للساكنين مغبة ، وله بإذن الله عاقبة من المقام ، بحيث يقرر في بلج بجهورنا ، ومدافع سيولنا ، ومجامع أمواجنا ؛ فيتصاغر عظيم فضله ،

وَيَتَذَابُ مَشْرِقَ نَوْرِهِ ، وَيَتَقَلَّلُ كَثِيرَ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنْهُ ؛ فَمَنْ يَصْصِبُهُ مِنَ الْوُزَرَاءِ وَيُخْتَارِلُهُ مِنَ النَّاسِ .

قال محمد بن الليث :

أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ : إِنَّ وَلِيَّ عَهْدِكَ أَصْبَحَ لَأَتَمَّكَ وَأَهْلَ مَلَّتِكَ عَلَمًا ، قَدْ تَنَتَّ بِحَوْهٍ أَعْنَاقُهَا ، وَمَدَّتْ سِمَتَهُ أَبْصَارُهَا ؛ وَقَدْ كَانَ لِقَرَبِ دَارِهِ مِنْكَ ، وَعَمَلِ جَوَارِهِ لَكَ ، عَطَّلَ الْخَالِ عَقْلَ الْأَمْرِ وَاسِعَ الْقُدْرَ ؛ فَأَمَّا إِذَا أَفْرَدَ بِنَفْسِهِ وَخَلَا بِنَظَرِهِ وَصَارَ إِلَى تَدْيِيرِهِ ، فَإِنْ مِنْ شَأْنِ الْعَامَةِ أَنْ تَتَفَقَّدَ تَخَارِجَ رَأْيِهِ ، وَتَسْتَنْصِفَ لِمَوَاقِعِ آثَارِهِ ، وَتَسْأَلَ عَنْ حَوَادِثِ أَحْوَالِهِ فِي بَرِّهِ وَصَرْحَتِهِ وَإِقْسَاطِهِ وَمَعْدَلَتِهِ وَتَدْيِيرِهِ وَسِيَاسَتِهِ وَوُزَرَائِهِ وَأَحْصَاءِهِ ؛ فَمِنْ يَكُونُ مَا يَسْبِقُ إِلَيْهِمْ أَغْلَبَ الْأَشْيَاءِ عَلَيْهِمْ وَأَمْلَكَ الْأُمُورَ بِهِمْ وَأَلْزَمَهَا لِقُلُوبِهِمْ ، وَأَشَدَّهَا أَسْتِمَالَةً لِأَرْيَاهِمَ وَعَطْفًا لِأَهْوَائِهِمْ ؛ فَلَا يَفُتَا الْمَهْدِيُّ — وَقَعَهُ اللَّهُ — نَاطِرًا لَهُ فِيَا يَفُؤُى عُمْدَ مَمْلَكَتِهِ ، وَيُسَدِّدُ أَرْكَانَ وَلَايَتِهِ ، وَيَسْتَجْمِعُ رِضَا أَمْتِهِ بِأَمْرِ هُوَ أَرْزَنُ لِحَالِهِ وَأَظْهَرُ لِحَالِهِ ، وَأَفْضَلُ مَقْبَلَةٍ لِأَمْرِهِ ؛ وَأَجَلُ مَوْقِفًا فِي قُلُوبِ رَعِيَّتِهِ ، وَأَحْسَدُ حَالًا فِي نَفُوسِ أَهْلِ مِلَّتِهِ ؛ وَلَا أَدْفَعُ مَعَ ذَلِكَ بِاسْتِجْجَاعِ الْأَهْوَاءِ لَهُ ، وَأَبْلَغُ فِي أَسْتِعْطَافِ الْقُلُوبِ عَلَيْهِ ، مِنْ مَرَحْمَةِ نَظَرِهِ مِنْ فَعْلِهِ ، وَمَعْدَلَةٍ تَنْتَشِرُ عَنْ أَثَرِهِ وَحُبَّةٍ لَتَغِيرُ وَأَهْلَهُ ، وَأَنْ يَخْتَارَ الْمَهْدِيُّ — وَقَعَهُ اللَّهُ — مِنْ خِيَارِ أَهْلِ كُلِّ بَلَدَةٍ ، وَقُفَّاهِ أَهْلَ كُلِّ مِصْرٍ ؛ أَقْوَامًا تَسْكُنُ إِلَيْهِمُ الْعَامَةُ إِذَا ذُكِرُوا ، وَنَانِسُ الرِّعْيَةِ بِهِمْ إِذَا وُصِفُوا ؛ فَمَنْ سُبِّهَلْ لَهُمْ عِمَارَةُ سُبُّلِ الْإِحْسَانِ وَفُتِحَ بَابُ الْمَعْرُوفِ ، كَمَا قَدْ كَانَ فُتِّحَ لَهُ وَسُبِّهَلْ عَلَيْهِ .

قال المهدى : صدقت ونصحت ، فَمِنْ يَثُ فِي أَبْنَةِ مُوسَى فَقَالَ :

أَيُّ يَخْجُ ، إِنَّكَ قَدْ أَصْبَحْتَ لِسَمْتِ وَجْهِ الْعَامَةِ نَضِيًّا ، وَلِمَقْبَلِ أَعْطَافِ الرِّعْيَةِ غَايَةً ؛ لِحَسَنَتِكَ شَامِلَةٍ ، وَإِسَاءَتِكَ نَائِيَةٍ ، وَأَمْرِكَ ظَاهِرٍ ، فَمَلِكٌ يَتَقَوَّى اللَّهُ وَطَاعَتُهُ ، فَاحْتَمَلْ

(١) يَتَذَابُ : يَجْتَثِبُ . (٢) تَتَفَقَّدُ تَخَارِجَ رَأْيِهِ : أَيُ تَفْصَحُ عَنْ وَجْهِهِ رَأْيِهِ وَتَدْيِيرِهِ . (٣) أَمْلَكَ الْأُمُورَ : أَسْبَطَهَا . (٤) السَّتْ : الْمَذْهَبُ وَالْقَصْدُ . (٥) الْأَصْلَافُ : جَمْعُ صُفٍّ وَهُوَ الْجَانِبُ .

تُحِطُّ النَّاسُ فِيهِمَا ، وَلَا تَطْلُبُ رِضَاهُمُ بِخِلَافِهِمَا ؛ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَافِكَ سَبَّ أَسْخَطَهُ  
 عَلَيْكَ إِثْرًا لَكَ رِضَاهُ ، وَلَيْسَ بِكَائِكَ مِنْ يُسْخِطُهُ عَلَيْكَ إِثْرًا لَكَ رِضَاً مِنْ سِوَاهُ . ثُمَّ أَعْلَمَ  
 أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فِي كُلِّ زَمَانٍ قَرَّةً مِنْ رُسُلِهِ ، وَبَقَا مِنْ صَفْوَةِ خَلْقِهِ وَخِيَايَا لِنُصْرَةِ حَقِّهِ ، يَجِدُّ  
 حِجْلَ الْإِسْلَامِ بِدَعْوَاهُمْ ، وَيَسْتَدُّ أَرْكَانَ الدِّينِ بِنَصْرَتِهِمْ ؛ وَيَتَخَذُ لِأَوْلِيَاءِ دِينِهِ أَنْصَارًا ، وَعَلَى  
 لِقَامَةِ عَدْلِهِ أَعْوَانًا ؛ يَسْتَدُونَ الْخَلَلَ وَيَقِيمُونَ الْمَيْلَ ، وَيُدْفَعُونَ عَنِ الْأَرْضِ الْفَسَادَ ؛ وَإِذَا  
 أَهْلُ خِرَاسَانٍ أَصْبَحُوا أَيْدِي دَوْلَتِنَا ، وَسَيُوفُ دَعْوَتِنَا الَّذِينَ فَسَدُوا بِطَاعَتِهِمْ ،  
 وَتَسْتَصْرِفُ زُلُوفَ الْعَظَائِمِ بِمَنَاصِحَتِهِمْ . وَتُدَايِعُ رَبِّيبَ الزَّمَانِ بِعِزَائِهِمْ ، وَتُزَاحِمُ رُكْنَ الْقَدَرِ  
 بِبِصَائِرِهِمْ ؛ فَهَمَّ عِمَادُ الْأَرْضِ إِذَا أُزْجِفَتْ كُنْفُهَا <sup>(١)</sup> ، وَخُوفُ الْأَعْدَاءِ إِذَا بَرَزَتْ صَفْعَتُهَا ،  
 وَحِصُونُ الرِّعْيَةِ إِذَا تَضَايَعَتْ الْحَالَ بِهَا ؛ قَدْ مَضَتْ لِمَ وَقَائِعُ صَادِقَاتٍ ، وَمَوَاطِنُ صَالِحَاتٍ ؛  
 أَتَمَّحَدْتُ نِيرَانَ الْفَتَنِ ، وَقَسَمْتُ دَوَائِي الْبَدْعِ ، وَأَذَلْتُ رِقَابَ الْجَبَّارِينَ وَلَمْ يَنْفَكُوا كَذَلِكَ  
 مَا جَرُّوا مَعَ رِيحِ دَوْلَتِنَا ، وَأَقَامُوا فِي ظِلِّ دَعْوَتِنَا ، وَأَعْتَصَمُوا بِحَبْلِ طَاعَتِنَا ؛ الَّتِي أَعَزَّ اللَّهُ  
 بِهَا ذِيئَتَهُمْ وَرَفَعَ بِهَا صَمَمَتَهُمْ ؛ وَجَعَلَهُمْ بِهَا أَرْبَابًا فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ ، وَمُلُوكًا عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ  
 بَعْدَ لِبَاسِ الذِّلِّ ، وَقِنَاعِ الْخُوفِ ، وَلِإِطْبَاقِ الْبِلَاءِ وَمُخَالَفَةِ الْأَمْسِ ، وَجَهْدِ الْبَاسِ وَالضَّرِّ ؛  
 فَظَاهِرٌ عَلَيْهِمْ لِبَاسُ كِرَامَتِكَ ، وَأَنْزِلُكُمْ فِي حَدَائِقِ نِعْمَتِكَ ؛ ثُمَّ أَعْرِفْ لِمَ حَقَّ طَاعَتِهِمْ ،  
 وَوَسِيلَةَ دَأْتِهِمْ ، وَمَا تَهَيَّأَتْ سَابِقَتُهُمْ ، وَحُرْمَةُ مَنَاصِحَتِهِمْ ؛ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ ، وَالتَّوَسُّعِ عَلَيْهِمْ ،  
 وَالْإِثَابَةِ لِحُسْنِهِمْ ، وَالْإِقَامَةَ لِمُسِيئَتِهِمْ .

أَيُّ نَجَى ، ثُمَّ عَلَيْكَ الْعَائِدَةُ فَاسْتَدْعِ ضَاهَا بِالْعَدْلِ عَلَيْهَا ، وَاسْتَجْلِبْ مَوَدَّتَهَا بِالْإِنصَافِ  
 لَهَا ؛ وَتَحَسَّنْ بِذَلِكَ لِرَبِّكَ ، وَتَوَقَّ بِهَ فِي عَيْنِ رَحْمَتِكَ ، وَاجْعَلْ عَمَالَ الْعُدْرِ وَوَلَاةَ الْحُجَّجِ  
 مَقْسَمَةَ بَيْنِ عَمَلِكَ ، وَنَصْفَةَ مِنْكَ لِرَعِيَّتِكَ ، وَذَلِكَ أَنْ تَأْمُرَ قَاضِيَ كُلِّ بَلَدٍ ، وَخِيَارَ أَهْلِ كُلِّ  
 مِصْرٍ ، أَنْ يَخْتَارُوا لَأَنْفُسِهِمْ رِجَالًا تَوَلَّيَهُمْ أَمْرَهُمْ ، وَتَجْعَلَ الْعَدْلَ حَاجِمًا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ ؛ فَإِنْ  
 أَحْسَنَ حُمِدَتِ ، وَإِنْ أَسَاءَ عُدِرَتْ . هَؤُلَاءِ عَمَالُ الْعُدْرِ وَوَلَاةُ الْحُجَّجِ ، فَلَا يَسْقُطَنَّ عَلَيْكَ

(١) الكف : جمع كف وهو الجانب . وأرجعت : زلزلت .

ما في ذلك اذا انتشر في الآفاق ، وسبق الى الاسماع ، من اعتقاد السنة المرجفين ، وكنت  
قلوب الحاسدين ، وإطفاء نيران الحروب ، وسلامة عواقب الأمور ؛ ولا يَنْفَكُ في ظِلِّ  
كرامتك نازلاً ، وبِعْراً حبلك متعلقاً رَجُلَان : أحدهما كريمة من كرائم رِجَال العرب ،  
وأعلام بيوتات الشرف ؛ له أدبٌ فاضل ، وحلم راجح ، ودين صحيح . والآخراه دين غير  
مغموز ، وموضع غير مدخول ، بصير بتقليب الكلام وتصريف الرأي وأتقاء العرب ووضع  
الكتب ، عالم بحالات الحروب وتصاريف الخطوب ؛ يضع آداباً نافعة وآثاراً باقية ، من  
محاسنك وتحسين أمرك وتحليلة ذكرك ؛ فتستشير في حرك ، وتُدْخِلُه في أمرك ؛ فَرَجُلٌ  
أصبته كذلك فهو يأوى الى محلى ، ويرعى في خُضرة جناني ؛ ولا تدع أن تختار لك من  
فقهاء البُلدان ، وخيار الأمصار ، أقواما يكونون جيرانك ومُتَارِك ، وأهل مُشاوَرَتك فيها  
تُورِد ، وأصحاب مناظرتك فيها تُصَبِّر . فسير على بركة الله ، أحبك الله من عونه وتوفيقه  
دليلاً يَهْدِي الى الصواب قلبك ، وهادياً يُنْطِقُ بالخير لسانك . وكتب في شهر ربيع الآخر  
سنة سبعين ومائة ببغداد .

(١) الكريمة : صاحب الكرم . كرائم الرجال : أحابر رجال العرب وأحاسنهم . (٢) غير مغموز :

غير مطعون : وفيه مدخول ؛ لا يَدْخُلُه فساد .

## ٢ - رسالة أبي الربيع محمد بن اللَّيْث التي كتبها للرشيد الى قُسْطَنْطِين ملك الروم

من عبد الله هارون أمير المؤمنين الى قسطنطين عظيم الروم: سلامٌ على من أتبع الهدى،  
فإني أحمد الله الذي لا شريك معه، ولا ولد له، ولا إله غيره، الذي تعالى عن شبه  
المقصورين بعظمته، واحتجب دون الخلقين بعزته، فليست الأبصار بمُدركة له، ولا  
الأوهام بواقعة عليه، انفراداً عن الأشياء أن يُشبهها، وتعالى أن يشبهه شيء منها، وهو  
الواحد القهار، الذي ارتفع عن متبالم صفت الفاعلين، ومذاهب لغات العالمين، وفكر  
الملائكة المقربين، فليس كَيْفُهُ شيء، وله كلُّ شيء، وهو على كلِّ شيء قدير.

أما بعد، فإن الله جلَّ شأؤه وتباركت أسمائه، قال لنبيه صلى الله عليه وسلم فيما أنزل  
من آيات الوحي اليه: ﴿ اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِهِمْ بِآيِ  
هِ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِدِينَ ﴾ . فرأى  
أمير المؤمنين من أحسن قوله وأفضل فعله، أن يكون الى سبيل ربه داعياً، وبرسوله  
صلى الله عليه وسلم مناسياً، ولقوله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَنَحْمِلَ صَالِحًا وَقَالَ  
إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ موافقاً . وكنت من كتب الله المنزل، وآياته المفصلة، وحلقه الكبير  
بحيث رجا أمير المؤمنين استماعك لموعظتيه؛ وانتفاك مجادلتيه انتفاعاً بتيك كبير وخلق  
عظيم قد بؤت بأوزارهم مع وذريك، وأحتملت من آتائهم الى إثمك، فأحب أن يدعوك  
ومن رجا أن ينتفع بدعوته معك، الى كلمة سواء بيننا وبينك ألا نعبد إلا الله ولا نُشْرِكُ به  
شيئاً ولا يُخْصِدَ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله؛ فإن تولَّيتَ عن ذلك رغبة عنه،  
أو تركتموه زهادة فيسه، فأشهدوا بأننا مسلمون . واستمعوا ما أمير المؤمنين واصلكم لكم،  
ومحجَّج به إن شاء الله عليكم، بقلوب شاهدة وأذان واعية، ثم اتبعوا أحسن ما تستمعون .  
ولا قوة إلا بالله .



فأف الله عز وجل يقول فيها أنزل من كتابه وأَقْصَصْ على عباده : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ . إن الله تبارك اسمه وتعالى جدّه ، وصَفَ فيها أنزل من آياته ، وشرح من بيناته ، الأُمَمَ الماضية ، والْقُرُونِ الخالية ، والمال المتفرقة ، الذين يعملون مع الله الهمة الأخرى لا بُرْهانَ لهم بها ، ولا حجة لهم فيها ، فقال : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَذَّبْتُهُ الْقَاهِلُ إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ثَلَاثَةٌ خَيْرٌ لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وِلْدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ .

قالت العرب الذين يبدون الملائكة وأهل الكتاب الذين يقولون ثالثُ ثلاثة بائِئِمَا آية يا محمد ترم أن الله إله واحد ، فأنزل الله عز وجل في ذلك آية تُشْهِدُ لها العقول ، وتؤمن بها القلوب ، وتعرفها الأبواب ، فلا تستطيع لها ردا ، ولا تُطِيق لها جحدا ، ذكر فيها اتصال خلقه واتفاق صنعه ، يُوقِنُ الجاهلون من العرب ، والضالون من أهل الكتاب ، أن الله السماء والأرض ، وما بينهما من الهواء والخلق ، واحد لا شريك له ، خالق لا شيء معه ، فقال : ﴿ إِنِّي فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْتَعِمُ النَّاسُ ﴾ . فنفكر في تفسير هذه الآية من كلام الرب عز وجل ، وما أوضح فيها من بيان الخلق ، فإنه ما مِنْ مَفَكٍّ ينظر فيها ذكر الله فيها مما بين السماء والأرض ، إلّا رأى من اتصال بعض ذلك ببعض ، مثل ما رأى في تدبيره نفسه ، وصرّف من اتصال خلقه ، فيما بين ذوائب شؤون رأيسه الى أطراف قنديه . وفي ذلك أوضح آية أوّسح آية وأبين دلالة ، على أن الذي خلقه وصنعه إله واحد لا إله معه ، ولا من شيء أبنده ، ولا حل مثالي صنعه . قد ترون بعبودكم وتعلمون بعقولكم ، أن الله عز وجل خالق للأنام الأرض ، وجعلها موصولة بالخلق ، فليس يدحوها إلا لهم ، ولا يُدِيمها إلا معهم ، وجعل ذلك الخلق متصلا

بالتبث، لا يقوم إلا به، ولا يصالح إلا عليه . وجعل ذلك التبث الذى جعله متاعاً لكم ومعاشاً لأنامكم، متصلاً بالماء الذى ينزل من السماء بقدر معلوم، لمعاش مقسوم، فليس ينجم التبث إلا به ولا ينجا إلا عنه . وجعل السحاب الذى يسطه كيف يشاء متصلاً بالريح المسخرة فى جزء الماء ينثره من حيث لا تعلمون، وتسوقه وأنتم تنظرون، كما قال عز وجل: ﴿وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ مَحَابِّ فُسْقَتِهِ إِلَى بَدْمِيَّتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ . ووصل الريح التى يصرفها فى جزء الماء بما يؤثر فى خلق الهواء من الأزمنة التى لا تبث الهواجر إلا ببقائها، ولا يزول عنه برد إلا بزوالها، ولولا ذلك لظل راکداً بالحر الميت، أو مائلاً بالبرد القاتل . ووصل الأزمنة التى جعلها متصرفة متلونة بجسير الشمس والقمر الدائنين لكم المختلفين بالليل والنهار عليكم . وجعل مسيرهما الذى لا تعرفون عدد السنين إلا به، ولا مواقع الحساب إلا من قبيله، متصلاً بدوران الفلك الذى فيه يسبحان، وبه يافلان، ووصل مسير الفلك بالسماء للناظرين سواء، فهذا خلق الله عز وجل، ما فيه تبارك ولا ترأى ولا تفاوت، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ﴾ . ولو كان لله شريك أو معه ظهير عليه، يمسك منه ما يرسل، ويرسل منه ما يمسك، أو يؤثر شيئاً من ذلك عن وقت زمانه، أو يعمله قبل نجيء إبانته، لتفاوت الخلق، ولتباين الصنع، ولفسدت السموات والأرض، ولذهب كل إله بما خلق، كما قال عز وجل — وكذب المبطلين —: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَأَنَّهُمْ كَادِبُونَ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا لَمْ يَنْصَرِفْ عَلَيْهِمْ عَلَى بَعْضِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ .

والعجب: كيف يصف مخلوق ربه، أو يعمل معه إلها غيره، وهو يرى فيما ذكر الله من هذه الأشياء صنعة ظاهرة، وحكمة بالغة، وإتقان متفقا، وتديراً متصلاً، من السماء والأرض، لا يقوم بعضه إلا ببعض، متجلباً بين يديه، مائلاً نصب عينيه، يناديه إلى صانعه، ويدله على خالقه، ويشهد له على وحدانيته، ويهديه إلى ربوبيته، ﴿فَعَسَى أَنْتَ

تَمَّ يُشْرِكُونَ أَتَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ . حَقًّا مَا كَرَّرَ هَؤُلَاءِ الْجَاهِلُونَ بِهِمْ الضَّالُّونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، فِي خَلْقِ اللَّهِ النَّظَرَ ، وَلَا رَجَعُوا كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْفَكْرَ . وَلَوْ أَعْمَلُوا فِكْرَهُمْ وَأَجْهَدُوا نَظَرَهُمْ ، فَمَا تَسْمَعُ آذَانُهُمْ وَتَرَى أَبْصَارُهُمْ ، مِنْ حَوَادِثِ حَالَاتِ الْخَلْقِ ، وَعَجَائِبِ طَبَقَاتِ الصَّنْعِ ، لَوَجَدُوا فِي أَقْرَبِ مَا يَرُونَ بِأَعْيُنِهِمْ : مِنَ التَّالِيفِ لِتَرْكِيبِ خَلْقِهِمْ ، وَالْإِثْرِ فِي التَّدْبِيرِ بِصُنْعِهِمْ ، مَا يَدُلُّمْ عَلَى تَوْحِيدِ رَبِّهِمْ ، وَيَقِفُ بِهِمْ عَلَى انْفِرَادِهِ بِخَلْقِهِمْ . فَانْهَمَ يَرُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ بِأَعْيُنِهِمْ وَيَجِدُونَ بِقُلُوبِهِمْ ، أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ صَنْعَةً بَعْدَ صَنْعَةٍ ، وَمَحْلُوقَةٌ طَبَقَةً عَنْ طَبَقَةٍ ، وَمَقُولَةٌ حَالًا إِلَى حَالٍ : سُلَّالَةٌ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ نُطْقَةٌ مِنْ مَاءٍ مَيِّينٍ ، ثُمَّ عَلَقَةٌ ، ثُمَّ مُضْغَةٌ ، ثُمَّ عَظْلًا ، كَسَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَحْمًا ، وَنَفَخَ فِيهِ رُوحًا ، فَإِذَا هُوَ خَلْقٌ آتَرَ ، فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ، الَّذِي خَلَقَ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ، مِنْ مَاءٍ قَلِيلٍ ضَمِيمٍ ذَلِيلٍ ، خَلَقًا صَوْرَهُ بِقَطْعِطٍ ، وَقَدَرَهُ بِتَرْكِيبٍ ، وَأَلْفَسَهُ بِاجْتِرَاءٍ مُتَفَقَّةٍ ، وَأَعْضَاهُ مُتَصِلَةٍ ، مِنْ قَدِيمٍ إِلَى سَاقٍ إِلَى نَفْذٍ إِلَى مَا فَوْقَ ذَلِكَ : مِنْ مَقَاصِلَ مَا يُعْلَنُ أَوْ عَجَائِبَ مَا يُبْهِنُ ، لِيَعْلَمَ الْجَاهِلُونَ وَيُؤْمِنَ الْجَاهِدُونَ ، أَنَّ الَّذِي صَنَعَ ذَلِكَ وَخَلَقَهُ وَدَبَّرَهُ وَقَدَرَهُ وَهَيَّأَ ظَاهِرَهُ وَبَاطِنَهُ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ . فَلَا يَدَّهِنُ ذِكْرُ هَذَا صَنْعًا عَنْكُمْ ، وَلَا تَسْقُطُ حِكْمَتُهُ جَهْلًا بِهِ عَلَيْكُمْ ، وَفَكَّرُوا فِي آيَاتِ الرُّسُلِ وَبَيِّنَاتِ النُّذُرِ ، فَإِنْ فِي ذَلِكَ فِكْرًا لِلْبَصِيرِينَ ، وَبَصَرًا لِلتَّحِيرِينَ ، وَذِكْرًا لِلْعَابِدِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

وَأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَاصِفًا لَكُمْ ، وَمَقْتَصِرًا مِنْ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ، مَا فِيهِ شَهَادَاتٌ وَاعْتِفَاتٌ ، وَعَلَامَاتٌ بَيِّنَاتٌ ، وَبَسْتَدَى بِذِكْرِ آيَاتِ نَبِينَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنْهَا فِي الْوَحْيِ إِلَيْهِ ، فَإِنَّهُ مَا أَحَدٌ يَقْرَعُ آيَاتِ النُّبُوَّةِ قَلْبَهُ ، وَيَحْصُنُ بَيِّنَاتِ الْهُدَى عَقْلَهُ ، إِلَّا قَادَتْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لَا يَجِدُ إِلَى انْكَارِ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ سَبِيلًا . فَأَزْدَتْ أَنْ تَكُونُوا عَلَى عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ وَبِقِيْنٍ وَثِقَةٍ مِنْ أَمْرِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَقِّهِ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ . فَأَحْضُرُ كِتَابَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَهْمَكِ ، وَأُلْقِ إِلَى مَا هُوَ وَاصِفٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ سَمْعَكَ . إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَصْطَفَى الْإِسْلَامَ لِنَفْسِهِ ، وَاخْتَارَ لَهُ رُسُلًا مِنْ خَلْقِهِ ، وَابْتَعَتْ كُلُّ رُسُلٍ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ، لِيَبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتْلُونَ ، وَيَسَلِّمَهُمْ مَا يَجْهَلُونَ : مِنْ تَوْحِيدِ

الرب وشرائع الحق ﴿لَيْلًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ .  
 فلم تزل رسل الله قائمة بأمره ، متوالية على حقه ، في مواضي الدهور ، وتوالي القرون ،  
 وطبقات الزمان ، يصدق آخرهم بنبوة أولهم ، ويصدق أولهم قول آخرهم ، ومفاتيح دعوتهم  
 واحدة لا تختلف ، وبما جمع ملتهم ملتزمة لا تفرق ، حتى تناهت الولاية والوراثة التي بنى  
 عبس عليه السلام عليها وبشر بها ، الى النبي الأُمِّي الذي اتخذه الله لوحيه ، واختاره بعلمه ،  
 فلم يزل ينقله بالآباء الأخيار ، والأُمّهات الطواهر ، أئمة قائمة ، وقرنا فقرنا ، حتى استخرجه  
 الله في خير أوان ، وأفضل زمان ، من أثبت محادثة رومات البرية أصلا ، وأعلى ذواثب نبغات<sup>(١)</sup>  
 العرب قوما ، وأطيب منابت أغياص قريش مغرسا ، وأرفع ذرى مجد بنى هاشم سمسكا :  
 محمد صلى الله عليه وسلم خيرها عند الله وخلقه نفسا ، حل حين أوحشت الأرض من أهل  
 الإسلام والإيمان ، وأمتلات الآفاق من عبدة الأصنام والأوثان ، وأشتعلت البدع في الدين ،  
 وأطبقت الظلم على الناس أجمعين ، وصار الحق رسما عافيا ، خلقا باليا ، ميتا وسط أموات ،  
 ما إن يحسبون للهدى صوتا يسعونه ، ولا للدين أثرا يتبعونه . فلم يزل صلى الله عليه وسلم  
 قائما بأمر الله الذي أنزل إليه ، يدعوهم الى توحيد الرب عز وجل ، ويحذرهم عقوبات  
 الشر ، ويحادلهم بنور البرهان ، وآيات القرآن ، وعلامات الإسلام ، صابرا على الأذى ،  
 محملا للكره ، قد ألهمه الله عز وجل أنه مظهر دينه ، ومغزى تمكينه ، وعاصمه ومستخلفه  
 في الأرض ، فليس يتليه ريب ، ولا يلويه هيب ، ولا يعنيه أذى ، حتى اذا فهرت البيئات  
 البائهم ، وهبرت الآيات أبصارهم ، وخصم نور الحق محجبتهم<sup>(٢)</sup> ، فلم تمتنع القلوب من المعرفة  
 بدونت صيده ، ولم تجد القول سبيلا الى دفع حقه . وهم على ذلك مكذبون بأقوالهم ،  
 وجاحدون بأقوالهم ، كما قال الله عز وجل العليم بما يسرون ، الخابرا بما يعلنون : ﴿لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ إِنَاءٌ أَن يَقْبَأُوا عداوة ، وحسدا ولجاجة ، افترض

(١) محادثة : جمع محنة ، وهو الأصل . (٢) أرويات : جمع أرومة ، وهي الأصل .

(٣) نهات : أصول كريمة . (٤) أغياص قريش : أولاد أمية بن عبد شمس الأكبر ، وهم : العاص  
 وأبوه العاص والبعس وأبوه البعس والعويس . (٥) في الأصل : "نظرة" .

الله عليه قتالهم ، وأمره أن يجرّد السيّف لهم ، وهم في عصاية يسيّرة ، وعدّة قليلة ، مستضعفين مستذلّين ، يخافون أن يقطّعتهم العرب ، وتدأى عليهم الأمم ، وتستحلّهم<sup>(١)</sup> الحروب ، فأوأم في كتفه ، وأيدهم بنصره ، وأنذرهم بمقدمة من الرعب ، ومشغلة من الحق ، وجنود من الملائكة ، حتى هزم كثيرا من المشركين بقائهم ، وغلب قوّة الجنود بضعفهم ، إنجازا لوعده ، وتصديقا لقوله : ﴿ وَإِنِّ جُنْدًا لَّهُمُ الْقَالُونَ ﴾ فأحسن النظر وقب الفكر في حالات النبي صلى الله عليه وسلم من الوحي قائم الله ، لتجد مذاهب فكره وتصاريف نظرك ، مضطربا واسما ، ومعتدنا نافعا ، وشعوبا جمّة ، كلّها خير يدعوك الى نفسه ، وبيان ينكشف لك عن تحضيه . وآخر أمير المؤمنين ما كنت قائلا لو لم تكن البعثة للنبي — صلى الله عليه وسلم — بلفتك ، ولم تكن الأنبياء بأموره تفزرت قبلك ، ثم قامت الهجة بالاجتماع عندك ، وقالت الإمامة المختلفة لك : إنه يتم بين ظهوراني مثل هذه الضلالات المستاصلة ، والجماعات المستأسدة ، التي ذكر أمير المؤمنين : من قبائل العرب ، وجماهير الأمم ، وصناديد الملوك ، نعيم قد نصب لها وغرى بها ، يجهل أحلامها ، ويكفر أسلافها ، ويفرق الألقا ، ويلعن آباءها ، ويضلّ أديانها ، وينادى بشهاب الحق بذنبا ، ويجهز بكلمة الإخلاص الى من تراعى عنها ، حتى حميت العرب ، وأنفيت العجم ، وغضبت الملوك ، وهو على حال ندائه بالحق ودعائه اليه ، وحيدا فريدا ، لا يتخيل بهم غصبا ، ولا يرهّب عنتا ، يقول الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَالُكَ رِيسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ أكنت تقول نيا تجرى الأقاويل به وتقع الآراء عليه ، إلا أنه أحد رجلين : إما كاذب يجهل ما يفعل ويعمى عما يقول ، وقد دطا الحلف الى نفسه ، وأذن الله لقومه في قتله ، فليست الأثام بما دة ولا الحائل بآبئة له إلا ريتك تستلحمه أسبابهم ، ويهض به حلماؤهم ، غضبا لرّبهم ، وأنفة لدينهم ، وحمية لأصنامهم ، وحسنا من عند أنفسهم . وإما صادق

(١) أصله تدأى خلقت إحدى تأديه ، ومعناه يجمعون عليهم ويتألون بالعداوة .

(٢) تستحلهم : تطلق عليهم حلما ومباحا . (٣) المستأسدة : القوية . (٤) تستلحمه :

تعلق به رقتب .

بصير بموضع قدمه وصرى نبله ، قد تكفل الله عز وجل بحفظه ، وحجبه بعزه ، وجعله في حريمه ، وعصمه من الخلق ، فليست الوحشة بواصلية مع جمعية الله اليه ، ولا الهية بدخلة مع عصمة الله عليه ، ولا سيوف الأعداء بماذون لها فيه . ثم إن آيتكم يا أهل الكتاب لو قيل لكم : إن الرجل الذي يدعى العيصمة ويتحل المنصة ، قد نجحت الأمور به على ما قال ، وسلمت الحال له فيما آدعى ، حتى نصب لمارات العرب ، وجماعات الأمم ، يقاتل بن طارمه من خالفه ، ومن تابعه من مائه ، جادا مشمرا ، محتسبا وانقا بموعد الله ونصيره ، لا تأخذه لومة لائم في ربه ، ولا يوجد لديه غيرة في دينه ، ولا يلفته خذلان خاذل من حقه ، حتى أمر الله دينه ، وأظهر تمكنه ، وأقادت الأهواء له ، وأجتمعت الفرق عليه ، ألم يكن ذلك يزيد حقه يقينا عندكم ، ودعوته ثبوتا فيكم ، حتى تقول الجماعة من حلمانكم وأهل الحنكة من ذوى آرائكم : ما كان الرجل ، اذ كان وحيدا فريدا قليلا ضعيفا ذليلا معروفا بالعقل ملسوبا الى الفضل ، ليحترى أن يقول : إن الله عز وجل أوحى اليه فيما أنزل من الكتاب عليه أن يعصمه من العرب جميعا ويمنعه من الأمم طوا ، حتى يبلغ رسالات ربه ، ويظهره على الدين كله ، ويدخل الناس أفواجا في دينه ، إلا وهو على ثقة من أمره ، ويقين من حاله .

فسبحان الله ! يا أهل الكتاب ما آيين حق النبي صلى الله عليه وسلم لمن طلبه ، وأسأله لمن قصد له . وأستعملوا في طلبه ألبابكم ، وأرفعوا ... أبصاركم ، تنظروا بعون الله اليه ، وتقفوا ان شاء الله عليه ، فإن علامات نبوته وآيات رسالته ، ظاهرة لا تخفى على من طلبها ، جملة لا يحصى عددها ، منها خواص تعرفها العرب ، وعوام لا تدفعها الأمم ، فاما الخواص المعروفة لدينا ، المعلومه عندنا ، التي أخذتها الأبناء عن الآباء ، وقيلها الأتباع عن الأسلاف ، فأمور قد كثرت البينات فيها ، وتداولت الشهادات عليها ، وثبتت المصحح بها ، وتراخت الأيام ببعضها ، حتى رأينا عيانا ، وقيلناه إيقانا ، فهي أظهر فينا من الشمس ،

(١) كذا في الأصل . (٢) محارات العرب : أحزابها النظمية . (٣) غيرة : ملعن . (٤) بياض في الأصل بمقدار كلمة .

وأئين لدينا من التهار؛ ولكن غيبت الأزمان عنكم أمرها، ولم ينقل الآباء اليكم علمها، وما لا يُدرَك إلا بالسمع موضوع المجمة عن العقل، فليس أمير المؤمنين يُحتاج لكم، ولا قاصد اليكم من قبيلها. وأما الآيات العوام والدلالات الظاهرة في آفاق الأرضين، القاطعة بفتح الميطلين، التي لا تنكر عقول الأمم وجوب حقها، ولا تدفع الباب للأعداء محجة أمرها، فسويوها أمير المؤمنين مسالك اسماعكم، ويعيد بها حجة الله في أعناقكم، من وجوه جمّة وأبواب كثيرة، إن شاء الله: منها أنه لم تزل الشياطين، فيها خلا من فقرات الرسل وتدرّات النذر، تصعد إلى سماء الدنيا، وتُصبّ للآطى فسترق السمع وتحفظ العلم، وتنزل به إلى كلّ أفالك أئيم، يتنون أكاذيبهم على واضح صدقه، ويُنفقون إباطيلهم بحسب حقه، خلطاً لباطل فيه، وسروها للعباد عليه. فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم وأنزل آيات القرآن إليه، حُرسَت السماء بالنجوم، ورُبيت الشياطين بالشُّب، وأنقطعت الأباطيل، وأضمحلّت الأكاذيب، وخلص الوحي، فبطلت الكُهان، وضلت السُعار، وكذبت الأحلام، وتعبّرت الشياطين، فكانت آية بيّنة، وعلامة واضحة، وحجة بالغة، بهر قرائح العقول، وتحرق حُجب الغيوب، فلا يقوم مع ضيائها ظلمة، ولا يثبت عند مُحكماتها شُبّهة، ولا يُقيم معها في محمداً صلى الله عليه وسلم شك، لا من إجماعه خاصة ولا ممن جاء بعده عامة. وإنما جعلها الله عز وجل آية باقية في القارين، وحراسة ثابتة من الشياطين، لأن الله جل وعلا جعل نبينا صلى الله عليه وسلم آخر النبيين؛ فليس باعثاً بعده نبياً يكلّب أفاويل الكهنة، ويقطع أخاير الجنة.

وستقول، فيما يذهب إليه الظن ويقع عليه الرأي، أنت ومن عقل من أمتك وأهل ملتك: هذه آية حاسمة وحجة قاطعة بيّنة قائمة، مستعيلة لأمرها، مستغنية بنفسها، لا يُحتاج إلى ما قبلها، ولا يتشكل على ما بعدها، إن أقرت المقول بما نقول، أو قامت البيّنة على ما تدعى، بلى، ثم نقول: وأنى لك بالبيّنة، ولستأ نقر بكاذبك، ولا تؤمن برسولك،

ولا تقبل قولك فيما قد سبقنا وإياك زمانه ، وحجبت الغيوب عنا وعك علمه ، فارجع اليكم إن قتم ذلك ؛ فإن وجدنا القضاة قبل طلب البنات .

وليس يعمل أمير المؤمنين فيما يتأزك ويحاجك فيه حاكما غير عقلك ، ولا قاضيا سوى نفسك ؛ ولكنه يذكرك الله الذي إليه معادك وعليه حسابك ، لما جعلت التفهم لسانه مرئيا لك ، وركبت حدودها في جوابك ، عادلا بالقسط ، قاضيا بالحق ، قاضيا بالصدق ولو على نفسك ، ناظرا بالآخرة لدينك ؛ فلقد وفق الله لك آية ، وأهدى اليك بينة ، لا تستطيع دفعها تحجبها عن عقلك ، ولا يحجبها لنورها دون بصرك ، فلا تدفع الآية بقولك ، والبنية بلسانك ، بجدا بقطع وصول الحجج اليك ، ويد تلقى أبواب التفهم عنك ؛ فإن اللسان لك مدلول حيث شئت ، ومتفاد تصرفه فيما هويت ؛ ولكن أنصب نفسك للفهم وأنت شهيد ، وأريد الحق وقبوله فيما تريد . فإذا تصورت البنات مجسدة في قلبك ، وتبينت الحجج ممثلة لنظرك ، قد أضاء صوابها لك وقرع حقها قلبك ، فاجعل القول بها شعارا للسان به متصلا . وأفهم المسئلة فهمك الله الحق ، وجنك الجحد ، ما تقول أنت ومن قبلك في رجل كان يتبا ضعيقا أجيأ سايها لاهيا عائلا حاملا ، لم ينل كتابا ، ولم يتعلم خطا ، ولم يك في تحفة علم ، ولا إرب ملك ، ولا معدن أدب ، ولا بيت نبوة ، فترافقت الأيام به ، وأتصلت الحائل بأمره ، حتى خرج الى العرب عامسة والقبائل كافة ، وحيدا طريدا شريدا ، مخذولا مجهولا ، مجفوا مريأ بالمقوق لألتهم ، مقذوبا بالكذب على أصنامهم ، منسوبا الى الهجر لأديانهم ، وهم يجمعون على دعوة العصبية ، وحجة الجاهلية ، معادون متباغون ، مختلفنة أهوائهم ، متفرقة أملاؤهم ، يسافكون الدماء ، ويتساوون النساء ، ويستحلون الحرم ، لا تمتنعهم ألفة ، ولا تمصمهم دعوة ، [ولا] يتحسروهم رة ، فألف قلوبها ، وجمع شيعتها ، حتى تناصرت القلوب ، وتواصلت النفوس ، وترانذت الأيدي ؛ ثم اجتمعت الكلمة ، وأتفتت الافئدة ، حتى صار غاية الملقى رحالهم ، ونهاية الملتجع



أَسْفَارِهِمْ ، وَصَارُوا لَهُ حِزْبًا مُتَفَقِينَ ، وَجُنُودًا مُطِيعِينَ ، بَلَا دُنْيَا يُسْطَهِهَا لَهُمْ ، وَلَا أَمْوَالٌ أَفْاضَهَا بِهِمْ ، وَلَا سُلْطَانٌ لَهُ عَلَيْهِمْ ، وَلَا مُلْكٌ سَلَفَ لَأَيَّانِهِ فِيهِمْ ، وَلَا نِبَاهِيَّةٌ كَانَتْ لَهُ بَيْنَ ظَهْرَانِيَّتِهِمْ .  
أَتَقُولُ إِنَّهُ [مَا] قَالَ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَّا يُوْحِي عَظِيمٌ ، وَتَنْزِيلُ كَرِيمٍ ، وَحِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ! فَإِنْ قُلْتَ ذَلِكَ فَقَدْ أَفْرَرْتَ أَنْ عَجَدَا صِلَى اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَسُولٌ ، وَتَرَكْتَ مَا كُنْتَ تَقُولُ إِنَّهُ لَمْ يُدْرِكْهُ وَلَمْ يَلْفِهِ إِلَّا بِعَقْلِ سَيِّدٍ ، وَنَظَرِ عَبِيدٍ ، وَرِفْقٍ لَطِيفٍ ، وَرَأْيٍ وَثِيقٍ ، اسْتَبَى بِهِ عَقُولُ الرِّجَالِ ، وَاسْتَمَالَ عَلَيْهِ أَفْعَدَةُ الْعَوَامِ . فَإِنْ قُلْتَ ذَلِكَ فَأَنَا سَائِلُكُمْ بِالْهَلِكِ الَّذِي تَعْبُدُونَ ، وَدِينِكُمُ الَّذِي تَتَّبِعُونَ ، لِمَا صَدَقْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَجَنَّبْتُمْ الْهَوَى عَنْكُمْ : أَنْ تُؤْمِنَ قُلُوبُكُمْ ، وَتُفْسِدَ عُقُولُكُمْ ، وَيَحْتَمِلَ نَظَرُكُمْ ، أَنْ عَجَدَا صِلَى اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي وَصَفْتُمُوهُ بِكُلِّ الْعَقْلِ ، وَبَيَانِ الْفَضْلِ ، وَرِفْقِ التَّدْبِيرِ ، كَانَ يَقُولُ لِرِجَالَاتِ الْعَرَبِ ، وَجَمَاعَاتِ الْأُمَمِ ، [و] دُعَاةَ قَرَيْشٍ : إِنْ مِنْ آيَاتِ نُبُوِّى ، وَذِلَالَاتِ رِسَالَتِي . وَعلامَاتِ زَمَانِي ، إِنْ الشَّيَاطِينُ تَزْمِي بِجُحُومِ السَّمَاءِ ، وَلَمْ تَكُنْ تَزْمِي بِهَا فِيمَا خَلَا ، ثُمَّ يَجْعَلُ ذَلِكَ كِتَابًا يُقْرَأُ ، وَفَرَاغًا يُتْلَى ، وَهُوَ كَاذِبٌ فِيمَا تَلَا ، وَمُبْطَلٌ فِيمَا ادَّعَى ، إِبْطَالًا تَدْرِكُهُ حَيَوتُ النَّاسِ الْغَائِرِينَ ، وَكَذِبًا يَظْهَرُ لَجَمِيعِ الْعَالَمِينَ ! سُبْحَانَ اللَّهِ ! أَرَأَيْتُمْ أَنْ لَوْ كَانَ فِيمَا قَالَ مِنَ الْكَافِظِينَ ، وَعَلَى مَا ادَّعَى مِنَ الْإِثْمِينَ ، ثُمَّ حَاولَ إِبْعَادَ الْقُلُوبِ ، وَاتَّقَالَ الصُّدُورَ ، وَانْفَارَ النُّفُوسَ ، وَتَفَرَّقَ الْجَمْعُ ، أَكُنْ يَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ !

فِيَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا يَحْلُكَنَّكُمْ الْإِثْمُ لِنَيْسِكُمْ عَلَى اللَّعِبِ بِتَوْحِيدِكُمْ ! فَلَمَعَمُ اللَّهُ لَنْ تَذَارَكُكُمْ أَنْفُسُكُمْ وَنَاعَمْتُمْ نَظَرَكُمْ لَتَعْلَمَنَّ أَنَّ عَجَدَا صِلَى اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ حَاولَ الْكُذْبَ أَوْ رَامَ الْإِفْلَاقَ ، لِمَا كَانَ يَتْرَكُ جَمِيعَ الْأَرْضِ ، وَمَا يَنْبِىءُ عَنْ بَعْضِ الْخَلْقِ وَيُظْهِرُ لِبَعْضٍ ، وَيَقْعِدُ لِسَاءِ الْمُتَصَلِّةِ بِالْبَصَرِ ، الْبَارِزَةِ لِلنَّظَرِ ، الَّتِي لَا تَخْفَى عَلَى بَشَرٍ ، وَلَا تَغِيبُ عَنْ أَحَدٍ ، فَيَدْعِي فِيهَا كَذِبًا ظَاهِرًا ، وَإِفْكَارًا بَارِزًا مَكْشُوفًا ، لَا يَبْقَى صَغِيرٌ وَلَا كَبِيرٌ وَلَا ذَكَرٌ وَلَا أُنْثَى ، إِلَّا عُرِفَ أَنَّهُ إِفْكٌ وَزُورٌ ، وَكَذِبٌ وَغُرُورٌ ، وَلَا سِيَّأَ إِذَا كَانَ يُقَالُ ذَلِكَ إِلَى أَقْوَامٍ أَكْثَرُهُمْ أَعرَابٌ ، لَيْسَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ حِجَابٌ ، إِنَّمَا يُرَاوُونَ الْكَوَاكِبَ وَيَتَفَقَّدُونَ الْغُيُومَ ، فَأَبْعُدْ عَهْدَ آخِرِهِمْ بِهَا تَفَقُّدَهَا وَنَظَرَهَا إِلَيْهَا ، سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ ، أَوْ لَيْلَةً أَوْ لَيْلَتَيْنِ .

لعمرك الله لو عقرت العرب من أمر النبي صلى الله عليه وسلم على كذب لكان أول من يؤايسه به ويحاذله فيه أعداؤه من قريش عامة، وحساده من جيته خاصة، ونظراؤه من أهل بيته ذبّة الذين كانوا يستمعرون لكلّ طريق، ويقعدون له على كل سبيل، ويساملون من أمره عن كل ذى حادٍ، فيتعلقون بالحروف المشككة، والآيات المشتبهة، جدلاً وخصومة بها، وطلعنا وإلحاداً ومنازعة فيها، حتى لقد وصفهم الله بفعلهم، وأخبر عن ذلك من أمرهم، فقال عز وجل: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خِصْمُونَ﴾ وما كان الله عز وجل ليقول ذلك ولا لأحد أن يقوله على الله في أمرهم إلا عن خصومية شديدة، ومنازعة بايعة، ومجادلة معروفة. فأحسن النظر لنفسك، ولا تهملكن شفقة على ملكك؛ فأيم الله لئن قلت إن النجوم شيء كانت العرب تراه يميونها وتعرفه بقاؤها، فما كان عهد صلى الله عليه وسلم، وهو عارف بها غير جاهل لها، ليقول فيها إلا حقاً، ويتعمل فيها إلا صدقاً، لقد ثبتت فروع كلامك فيها على أسس، ووصلت آخر قولك له بأقوله، شوها على ما ذكرت من عقيدته، ولو ما أقولت من نظره، ولكلك لا تجد مع الإقرار بذلك بدءاً من التصديق برسالته، ولا مذهبا من الإيمان بنبوته.

ولئن زعمت أنه أدعى أمر النجوم كذباً وأتخلفها باطلاً، عارفاً كان بها أم جاهلاً، لقد نسبتك من الخطأ الذي لا يعمى عن بصره إلى ما يحيط فيه بنسرك، فأكدت نفسك، وتركت قولك: إنه لم يكن التاليف لقلوب العرب واجمع لشيتت القبائل، إلا برأى سديد، وعقلي أصيل، ورفق بالغ، إلى أحد أمرين لا نجد لكلامك وجهها تذهب إليه فيهما، ولا تخيلاً تضعه عليه سواهما: إما أن تقول: إنه آلف قلوب العرب، وفترج مجموع الأمم بتزويل الوحى، فتؤمن أنه نبي، وإما أن تقول: فعل ذلك بجهل، وهذا قول لا يقبل. كيف يصفه أحد من الجاحدين به المكذّبين له بعبادة، أو يرمونه بجهالة، وهم يحوزون به حدود الأنبياء، ويرفعونه فوق أمور العلماء، ويحفظون به مراتب الحكماء، ومنازل الناس

تكثيراً لعلمه ، وتسليداً لعقله ، وتثبيتاً لفضله ، فيما لا يقدر الخلق عليه ولا تهتدى الألسن اليه ؛ حتى لقد تحلوه فعل الرب الذي لا يقدر عليه الخلق في وجوه كثيرة وأنحاء جمة : من ذلك أنه اذا قالت البقايا من أمتنا : كان مجد صلى الله عليه وسلم يُجبرنا بالقبوب قبل ظهورها ، ويصِفُ الأمور قبل حلولها ، ويتجاوز [ما يكون] في زمانه من ذلك الى ما يكون في زماننا غيباً أطلعه الله عز وجل عليه ، أضافوا ذلك علماً اليه ، فقالوا : كان أعلم الناس بمواقع النجوم ، وأبصرهم بمنازل البروج ، وأنظروهم في دقائق الحساب . كيف ولم يكن انجهاز دار نجوم ولا عمل حساب ولا ممدن أدب ! بل كيف والمنجم يقيس ويخطئ ، ويشك فيما يدعى ، وهو أخوصواب لا شك فيه ، وفارس صديق لا قياس معه .

ومن ذلك أنه اذا قالت العلماء من المسلمين : كان نبينا صلى الله عليه وسلم [علما] بباطن أخبار النبيين ، وخفي قصص القرون الأولين ، قالوا : كان أحياء الناس قديماً ، وأسرعهم سرية ، وأسرعهم أخذاً ، ينتج ذلك وبحسبه ، وقد رواه وعلمه . سبحان الله ! أولا يعلمون أن المتعلم معروف المعلم ، متفاوت الحالات ، متنقل الطبقات ، وأنه ما أحد يؤدب صغيراً أو يطلب العلم كبيراً ، إلا وله درجات في علمه ، وتارات في أخذه ، ومنازل في تعلمه ، تارة تلبذ ، وتارة مقارب ، وأخرى حاذق ، وبكل ذلك موصوف من أهله ، معروف عند قومه ، ظاهر لطيفته ، مستفيض في عشيرته ، لا يجهل أمره ، ولا يخفى ذكره ، ولا يئسى عند مواضع الحاجة اليه ، وتارات الاحتجاج به عليه . ولو كان ذلك معروفاً فيهم ، أو موجوداً لديهم ، أو ظاهراً عندهم ، لما أمره الله عز وجل أن يحتج عليهم ويقول في ذلك لهم : لقد ليئت فيكم حُمراً من قبله ، لا أتلو قرآناً ، ولا أدعي حياءً ، أفلا تعقلون !

وأيام الله ! لو كانوا يعقلون أو ينظرون ، لعلموا أن معلمه على غير الملة التي يعرفون ، لأنه لم من المخالفين ، وعليهم من الطاعنين ، بذكر قصائم قولهم ، ومعايب أمرهم ، وتحازي أسلافهم ، وعوازل أديانهم ؛ وإنه لو كان معلمه نصرانياً لدعا الى النصرانية ، أو يهودياً

لدعاه إلى اليهودية ، أو مجوسياً لدعاه إلى المجوسية . ولو لم يكن له معلّم لمّا وقع على الحقيقة هدايةً من تلقاء نفسه ومعرفته بقوة عقله . ولو كان معلمه الشيطان لمّا دعاه إلى عبادة الرحمن ، ولا أمره بهجر الأوثان ، وكسر الأصنام ، وصلة الأرحام ، والإصلاح في الأرض ؛ كيف [و] كان الشيطان يصدّ الناس عن سبيله ، ويُرْهِدُهم في دينه ، وينهاهم عن طاعته ، ويخرجهم من عبادته ، ويدخلهم في مَسَاطِطِهِ ، ويحملهم على معاصيه ! إنه إذا رَحِمَ بهم ، ناظرٌ لهم ، شفيقٌ عليهم ، كأنه هو المبعوث إليهم ، كلا ! ما كان يُنْقِذُهم من حَبَائِلِهِ ، ويخلصهم من مَصَائِدِهِ ، ويخرجهم من ولايته وطاعته وسلطانه ويُدْعِيهِمْ وَتَتَبِعُهُ وَحِزْبِهِ ، إلى غير ذلك من أمره . وما كان لينهى العرب أن يقتلوا أنفسهم ، ويتناحوا حرّهم ، ويؤدّوا ذرّيتهم ، ولا يقول لهم : لم تعبدون تحيت المجارة التي جعلها الله لكم عارا ، وتَدْرُونَ عبادة الربّ الذي خلقكم أطوارا ! هيات ! لقد ذهبتُم بالشيطان الرجيم إلى صراط العزيز الحكيم ، فقلتم قولا تنكروا العقول ، وتدفعه القلوب ، وتستوحش منه النفوس . ألا تسمعون إلى قول الله عز وجل : ﴿ قَهْلَ عَصِيَّتُهُ إِنَّ تَوَلَّيْتُمْ أَرْبَ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ . أُولَئِكَ الَّذِينَ كَتَبَهُمُ اللَّهُ فَاَصْحَمَهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ ﴾ فإِذَا كَانَ الشَّيْطَانُ لِيَرْضَى لِلْعَرَبِ بِاللُّغَةِ وَالْبَيْتِ وَالْعَمَى وَالصَّمَمِ ، فَاتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

ومنها أنه إذا قالت الفقهاء والحكماء : أمانا عُد — صلى الله عليه وسلم — بكلام لم تسمع الآذان بمثله ، ولم تقع القلوب على لُغَتِهِ ، له رَوْنٌ حَبَابِ الْمَاءِ ، وَزَيْجٌ يعلو ولا يعلو وعجائب لا تَبَيُّ ولا تَفْقَى ، وَجِدَّةٌ لَا تَتَغَيَّرُ ، [قالوا] : كان عُد — صلى الله عليه وسلم — أبلغهم قولاً ، وأحسنهم وصفاً . فإِذَا سَبَّحَانَ اللَّهَ ! أَلَا يَمَانُونَ أَنْ لَوْ كَانَ الْقُرْآنُ كَلَامًا لِلْعِبَادِ لَمَا أَثَرَتْ الْأَعْدَاءُ مِنْ ... .. بفضله ، ولا تَحْزَنُ الْقِبَالُ طَرًّا عن مثله ، وهو يناديهم في الكتاب ويخاطبهم في الوحى ، بصوت رفيع ، ونداء سميع ، فيقول : هَانُوا سَوَّةً مِنْ مِثْلِهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، وهم فرسان الكلام ، وإخوان البلاغة ، وأبناء الخطب ، وأهل عداوة له وبغى

عليه ، فستحسر الأبصار ، وتثقل الأسماع ، وتعمق الألسن ، وتخرس الخطباء ، وتمعجز البلقاء ، وتحرر الشعراء ، وتستسلم الكهّان . ثم لقد قايست البصراء بالكلام والعلماء بالمنطق ، بين ما بأيدينا من كلام النبي - صلى الله عليه وسلم - وما جاء به من كلام الوحي ، فإذا بينهما بون بعيد وتفاوت شديد ، ليس يشبهه له ولا ملان ولا قريب . وكذلك ينبغي لكلام الرب عز وجل أن يعلو كلام الخلق ، وألا يشبه قول العباد في تأليفه وأحاديثه ومعانيه وجميع ما فيه ؛ لأن الله عز وجل لا يشبهه شيء من ذلك أنه إذا قال المسلمون : كان محمد - صلى الله عليه وسلم - يرى ماضى أسلافنا وصلىح آبائنا من المعجائب العظام ، والآيات العجائب ، ما هو جديد عندنا ، بين قلوبنا فم يعف أثره ، ولم يدرس خبره ، ولم يتقادم عهدُه : من شجرة ناداها فأقبلت ثم أمرها فرجعت ، ومن نحو بعير تظلم ، وذئب تكلم ، وأشياء لذلك كثيرة ، ونظائر له عجيبة ، قالوا : كان محمد - صلى الله عليه وسلم - كاهنا حاذقا ، وساحرا ماهرا ، يُشبه بالخيال ، ويأخذ بالأبصار . كيف والجوع الكثيرة تصدر من الأطعمة اليسيرة والمياه القليلة ، شيئا رواء ، يكون ذلك والسحر سواء ، والأخذ بالعيون لا يجرى في البطون ! ولو كانوا ينظرون ليدبرهم ويصنفون من أنفسهم ، لعلموا أن أمر الساحر يدور على إفك وغرور ، وأن محمد - صلى الله عليه وسلم - آثاراً قائمة ، ومنافع دائمة . ثم لو كانت الكهانة والسحر يُلْفَن مثل هذا من الأمر ، لبطلت آيات الكتب ، وعلامات الرسل ، ولَمَلَّت الشبهة ، وسقطت المحجة ، وكَذَبَت النبوة ، ولَبَطَل . <sup>(١)</sup> [يفعله] عيسى عليه السلام : من إبرائه الأكمة والأبرص وإحيائه الموتى . فلا يكون التقليد للرجال مبلغ علمك ، ولا القبول لدعواهم بلا بينة .

ومن ذلك [أنه] إذا قالت البصراء من أمتنا والعلماء بمننا : كان النبي - صلى الله عليه وسلم - أمياً لا يحسن الكتاب وحافظاً لا ينسى القرآن ، وقليلاً يجتمع العقل السديد والحفظ السريع والسيان البلي ، قالوا : كان أخط الناس يوماً ، وأذكاهم حفظاً ، كان يكتب بالنهار ، ويدرس بالليل .

ولعمري إن لو كانت الحلال كما يقولون والأمر كما يصفون ، لما خَفِيت الصحف له ، ولا اكْتُمِيت الدراسة عليه ، ولكان يطبق سترها من أهله ، ولا حجابها دون قومه . وكيف نُؤْمِن القلوب ونُحَرِّق العقول أن رجلا كبيرا حَمَلَ علما كثيرا وِحِكْمًا جَمًّا : من آيات متشابهة ، وسُور متوالية ، وهو صاحب أسفار مترامية ، وأخو حريب دأمة ، لا يبطئ لفظه ، ولا يسقط حفظه ! أولا أن الله عز وجل كفاه أن يُحَرِّك به لسانه ، وَصَيَّن له جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فقال عز وجل : ﴿ سَتَقِرُّكَ فَلَا تَنسَى ﴾ (١) فلم يكن يسقط وأوًّا ولا ألفًا ، ولا ينسى كلمة ولا حرفًا . ما أَمِنَ هذا وأعجبه ! وأعجب منه المتكلمه .

وأما قولهم في الخط وإخثارهم في الكتاب ، فإن الله عز وجل جعله أَمِيًّا لِيُثَبِّت حِجَّتَهُ ، ويصدق مقاليته ، وإيلا يَشْكُ المبطلون في أمره ، ويقولون : تَعَلَّم من غيره ؛ فإنه قد قال ذلك بطائِف من مُتَافِسة العرب وطوائِف من كَفَرَةِ العجم ، فنطقت [ به ] الأعداء من جبرته ، والحسدة من عشيرته ، الذين بلغوا [ ما بلغوا ] من مجادلة حقه ، ومخاصمة ربه ، كفاة لمن قُرِب ، وكلاء لمن بَعُد ، فيما لم تكن العرب واقعة عليه ، ولا الأمم مهتدية إليه ، لأنهم قد أحاطوا من علم خبره ، وخفي أثره ، بما كان عن غيرهم محتجبا ، ومن سواهم مكتئا . وقالوا : لو كان محمد صلى الله عليه وسلم يتعلم من بشر أو يختلف إلى أحد ، لما خفى عنا (٢) ولسقط علينا . وحقا لو كان محمد صلى الله عليه وسلم يختلف إلى أحد صغيرا ، أو يتعلم من بشر كبير ، لَعَرَفَ ذلك أَتْرَابُهُ المختلفون معه ورفقاؤه والمقتدون ، ولما جهل ذلك من حوله من جبرته نصره ، ولا من معه من أهل بيته ذرية ، الذين عليهم يورث ومن قبلهم يُصَدِّر ، ولكن شائعا عند حَقِّم معانمه وجيرة موضعه الذين كان يختلف إليهم ، ويتأذب بين ظُهُورائِيهم . ولو كانوا بذلك عالمين ، أوفيه من أمره شاكين ، ثم يَلْعَنهم وتَقَرَّر قبلهم أنه يقول : إنا لله عز وجل أَوْسَى إليه ، فيما أُنزل من الكتاب عليه : ﴿ وَمَا كُنْتُ تَسْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحُطُّهُ بِمِثْلِكَ إِذَا لَأَرَاكَابُ الْمُطِطِّلُونَ ﴾ لخاصمه منهم من كَفَر ،

(١) في الأصل : « متراعية » . (٢) في الأصل : « ... ولا يسقط حقه ولولا أن ... » . (٣) زيادة عليها الكلام . (٤) في الأصل : « لا أنهم ... » . (٥) في الأصل : « ولا سقط » .

ولكفر به منهم من آمن . ثم يدعى ذلك قرآنا ، ويتحمله وحيا ؟ أما كان يرغب أن ينشر في الأفرين ، ويخرج إلى الأبيدين ، فبطل مجته ، وتنقص دعوته ، وتسقط نبوته ، وينفرا أصحابه الذين لم يفسروا معه في المجاهدة أنفسهم ، ويدخلوا عند الشدائد مبهجم ، وينفقوا فيه على الحاجة أموالهم ، متناصبين لأهل الشرق والغرب والعجم وكل الأمم ، وهم قبلون مستضعفون عائلون جاهلون ، لا طلبا لدنيا ولا طمعا في منال ، إلا لما اتعبوا من قوله ، وعرفوا من صدقه . ولولا أنه أخبرهم ووعدهم أن يفلب كسرى ويصرطهم ، فصعدوا بقوله ، وآمنوا بوعده ، حتى قويت البصائر ، وصرمت العزائم ، وقويت النبات ، فنبسط النفوس ، وتنجعت القلوب ، وحلت الأبدان ، لما وقع لهم طمع فيه ، ولا ذهب لهم وهل إليه . فكن من ذلك على يقين لا يخطئه شك ، ومعرفة لا يخطئها ريب ، إن شاء الله .

ومن ذلك أنه إذا قال المسلمون : ما من فعال محمود ، ولا مقال معروف ، ولا خاق كريم ، ولا أدب فاضل ، إلا وقد أذب الله عز وجل به مجدا صلى الله عليه وسلم وأزله في الكلاب إليه ، فكان يأمر بالمكارم ، ويحض على المحامد ، ويميل بالخاص التي ليس فيها مدخل لشبهة طاعين ، ولا معلق لجملة قائل ، ولا معجز لبصيرة عائب ، ولا موضع لخصومة بشر ، في وعد أو عهد ، أو حل أو عقد ، أو مقال أو فعال ، أو غير ذلك من الأمور — قالوا : أمور تحمل عليها نفسه ، ودعاه إليها عقله ، وصبر عليها ، لما أتمل ورجا فيها . سبحان الله ! وما أتمل بها وأرجى منها ؟ إن قالوا : الدنيا ، فلقد اكذبهم إدبارها عنها ، حيث أمكنته القدرة منها ، وأعرته الحال عليها . وإن قالوا : حب الأثرة ، فقد جعل نفسه للسامين أسوة : في سبأهم وقصاصهم ، وحذودهم وحقوقهم ، وغير ذلك من أمورهم . وإن قالوا : الملك ، فلقد كان أشد الناس لربه تواضعا ، وأعظمهم في جنبه تصاعضا ، ما إن أكل متكئا قط إلا مرة ، ثم قد كهيئة الفزع لها النادم عليها ، فقال :

”اللهم إني عبدك ورسولك“ . وإن قالوا : النعيم ، فمن كان أيسر منه مَعَاشًا ، وأخشن رِيشًا ، وأغلظ مأكلا ! وكيف يذوق المِيش أو يمسد لذيق النعيم ، من حرم السكر والخمر ، ونهى عن الديباج والقرّ ، وكان أكثر دهره صائمًا ، وأطول ليله قائمًا ! فإن قالوا : طلب الصوت ورغب في الدين ، فذلك ما لم يطلبه أحدٌ في حبّ الصوت والتماس الحمد لما صبر مفاضب قومه ، وملاوم أهله ، وشتائم العرب وتوعد العجم ، وأستهزاء قريش ، يرمونه بالعقوق ، ويقذفونه بالجنون ، ويهتونه بالسحر ، وليس يدرى ما يهجم به الأمر .<sup>(١)</sup>

أم يقولون طلب تائيل الملك لقومه ، وأراد توطئة الولاية لأقاربه فكيف يطلب لقومه ما قد زهد فيه نفسه ! أم كيف يطلب لهم عز الملك وقد أوطأهم الذل ثم القتل . لعمري الله أن لو أراد الملك لأقاربه ، وأراد طلب السلطان لذوى رحمه ، لوكد لهم عقدا لا يجل ، ولا يرم لهم أمرًا لا يقض ، ولا تل لهم في عتفوان أمره ملكًا لا يخرج من أيديهم ، ولا يريح أبدًا نهم ، امتثالاً لصلبكم وأخذاء على مثالكم ، مع أقاويل جمّة ونظائر كثيرة ، لا يستقيم لهم معها أن يقولوا إن هذا صلى الله عليه وسلم قلب العرب وقهر العجم ، أو قال في أمر السلطان والنجوم بكذب .

فإن قلتم إن هذا صلى الله عليه وسلم كان في قوة عقله وبيان فضله ، على ما قلنا وقتم وصددنا به نحن وأنتم ، ولكن هفت العلماء وزلت الحكماء وأخطأت القلوب ؛ فقد يعلم أمير المؤمنين - وأنتم بذلك من العالمين - أن خطأ قلوب العلماء تخطأ دائرة الرجا ، ليست العلماء بخطئة إلا المزة والتئين ، كما لا تخطئ الرجا إلا الحبة والخبتين . ومثل الذي نسبتم الى النبي صلى الله عليه وسلم من الخطأ عندكم والجهل في أنفسكم ، كثيرٌ لا يحصى أحد ، ولا يبلغه عدد . وأمير المؤمنين وأصف بعضه لكم ، ومورد ما حضر كتابه إن شاء الله لكم . وأيم الله على ذلك لو قالت العلماء من المسلمين هبوا هذا صلى الله عليه وسلم كان

(١) الصوت : الذكر الحسن كالصوت . (٢) كذا وردت هذه الجملة في الأصل وهي مضطربة .

(٣) في الأصل : ”ولا ينوح ...“ .



في أسر النجوم من المخطئين، فكيف أخطأت العرب وهفت الأثم في ترك مجادلته ورفض منازعته، وكيف لم تقل العلماء من إفادته والحكام من حكمتهم، توبخاً منهم له، وتعبيراً لمن آمن معه : هذا أمرٌ من أوضح الأكاذيب وأبطل الأباطيل؛ فلا يثبت مع قولهم إيماناً، ولا يُقيم على شرحهم إنسان . فإن قلت : فلمل ذلك قد كان، ولكنه درج على طول الأزمان، فكيف إذا صدقت العرب بنبوته، ولم تكفر القبايل برسائه، وهم يسمعون كذباً لا ينفع معه صدقٌ كان قبّله، وباطلاً لا يُعصم معه حقٌ حذت بعده . وإن قلت : أدخلهم بالقهر وضبطهم بالقتل وأكرههم بالسيف، فما بال القليل من المسلمين الذين قهروهم الكثير من المشركين، ما بالهم آمنوا وصدقوا، وصبروا وصابروا، وجعلوا وجاهدوا، كيف لم تنكسر عزائمهم، وتنبص بصرهم، ويرجعوا إلى دينهم، ويهربوا عن توحيدهم! كلا ! لو كان الأمر على ما تقول، لأرفض القوم عن الرسول، ولكان صلى الله عليه وسلم أول مقتول أو مخذول . فاحس النظر فيما تلعب الأهواء براك اليه من آيات النبي صلى الله عليه وسلم . وإن جمعت الدعوى بك، فقايل : قد مالت به الأهواء في الباطل، فقال : إنه إلا يكن الأنبياء ذكرك النجوم في ضعفها بين الحكماء منها ذكراً في كتبها، فجعلت المنقص من الكواكب بين الأعمام،<sup>(٢)</sup> دليلاً على أمر يحدث تلك الأيام، ولا ما هذا الاختلاق يلق به الجاهل للفساق . ما ان وضعت الحكماء ذلك في الكتب، إلا لبال مثلت السماء من التهب . والله لو آدعيت غير ذلك فكان حقاً، وكانت القالة منكم صدقاء لما كانت الدعوى بنافضة لآية النجوم حجة، ولا مدخلة على أحد فيها شبهة؛ لأن رمياً يقع قوط السنين من الكواكب، لا يُبطل رجباً قد ملأ السماء من كل جانب . ثم لو لم تكن النجوم آية دائمة، وحجة بالغة، ودلالة قاهرة، وعلامة باهرة، وأمرة ظاهرة، وشهادة قاطعة، وبدنة عادلة، وداعية قائمة، تُبطل أطنان المشركين، وتردع أقاويل المناققين، لما كان النبي صلى الله عليه وسلم يُعظم أمرها، ولا ليكر في آي القرآن ذكرها، رهبة

(١) كذا في الأصل . (٢) في هذا الموضع اضطراب . (٣) في الأصل "دافعة" ...

لما هضبة أحياء العرب ، ومعرفة بمجادلة إخوان الكتب ، الذين لو وجدوا فيما كُتِبَ به اليك أمير المؤمنين من أمر النجوم وأحتج [به] عليك من ذكر الرجوم ، موقعا لظن أو معاملا بطعن أو مغمزا لقول ، لناصبوه اذا بالمجادلة ، وكأشْفُوهُ بالمنازعة ، وجاهرُوه بالقول الذي لا يستطيع له ردا ، ولا يطبق له محمدا ، ولكنها آيةٌ ملأت الأقطارَ <sup>(١)</sup> كثرةً ، وحسرت الألبصار قوة ، قد وجَّلت العقول ، ووهَّمت القلوب ، وملأت النفوسَ جَزَبا ووجعا ، وفَزَعًا شغلهم عن الأولاد ، وأذهلهم عن البلاد ، حتى بلغ أمير المؤمنين وتقرَّر عند فقهاء المسلمين أن الله عز وجل ، لما ملأ السماء حُرَّاسًا ، وأحدث لها رَصَدًا ، وخلق فيها شُعبًا ، ذكرت العقلاء من العرب ، وقَعَّت الله عز وجل في الكتب ، بقوم نُوح وطارق وثمود ، وأشباههم من مؤلَّي تلك الجنود ، الذين كانوا أشدَّ بطشا ، وأكثر جمعا ، فانقرجت أيديهم عن كرائم أموالهم ، وأرسلت أنفسهم متأتين عَقْدِهِمْ . وإن أهل الطائف لما فعلوا ذلك بأموالهم ، وأجمعوا فيه الخروج إلى فقراتهم ، قام فيهم رجلٌ منهم ذويس وعقل فقال :

يا معشر العرب ، لا تُهْلِكُوا أنفسكم قبل أن تَهْلِكُوا ، ولا تخرجوا من أموالكم قبل أن تخرجوا ، تفقدوا مواقع نجوم السماء ، وكواكب بدور الدجى ، فإن كانت النجوم التي حدث الرُّى بها والنجوم التي أُخْلِيَتْ الأموال لها ، هي لبرُوج الشمس والقمر ومساي الحيوان والشجر ، فهي جوائح الاستئصال ، المُتَلَفَةُ الأُنَفس والأموال ؛ وإن كانت النجوم التي حدث التذف بها ، إنما هي نجومٌ خُلِقَتْ اليوم ، فليست المعرفة بواقعية على مُبتدأها ، ولا الأبصارُ بلا حقيقة متناهية ، فأيسكوا العَقْدَ عليكم والأموال ، فإنه أمر يحدث في إحدى هذه الليال .

فإن قلت : وكيف وقعت الأمور في هذا الرجل كالمَيَّان ، وصارت المقاتلة منه كوثي الأذنان ، أنبأك أمير المؤمنين أن أوصية الفقه من المسلمين ، الذين حملوا الينا سُنن الدين ، هم

(١) كذا في الأصل . (٢) البعد : جمع عقدة وهي النجمة أو المقار الذي اقتناه صاحبه .

أَدَّوْا ذَٰلِكَ الْبَيِّنَاتِ ، وَأَبْقَوْهُ غَفْرًا... عَلَيْنَا ، فَإِنْ يَتَّفَكَ مِنْهُمْ مُفْتَخِرٌ يَقُولُ : أَبْرَأُ الَّذِي حَسِبَ عَلَى الْعَرَبِ الْأَمْوَالَ وَالْعَقْدَ ، فَإِنْ يَذْفَعُ الْقَوْلَ فِي ذَٰلِكَ مِنْهُ أَحَدٌ . هِيَاتِ مَا كَانَتْ الْعَرَبُ لِقَرْصٍ عِنْدَ الْفَخَّارِ ، إِلَّا بَطُولٌ هُوَ أَتَيْنُ فِيهَا مِنْ ضَوْءِ النَّهَارِ . فَافْهَمْ مَا كَتَبَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذَا الْبَيْتِ ، وَلَا يَكُنِ التَّعَلُّلُ فِيهَا بِالشُّبُهَاتِ أَوْثَقَ مَا لَدَيْكَ ، فَإِنَّهُ قَوْلٌ حُجَّةٌ إِلَّا وَدَى جَنْبِهَا شِبْهُةٌ تَحْتَلُّ لِلْمَقُولِ ، وَتَعْرِضُ لِلْقُلُوبِ ، وَتَحْتَلُّ فِي الصَّدُورِ ، فَلَا يَثْبُتُ مَعَهَا تَحْيِيلُهَا ، وَلَا يُقِيمُ لِعَرْضِهَا بَشَرٌ إِلَّا مَنْ وَزَنَ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ بِمِيزَانٍ عَادِلٍ ، لَا يَمِيلُ إِلَى تَغْرِيطٍ ، وَلَا يَنْقُطُ فِي تَقْصِيرٍ . وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمَقُولَ مَوَازِينَ لِلْأُمُورِ ، فَرَزُّوا مَا سَمِعُوا مِنْ مَجْمُوعِ كَلَامِ الرِّبِّ عَزَّ وَجَلَّ بِمَا تَتَّقُونَ بِهِ الشُّبْهَةَ عَنِ الْحَقِّ ، وَلَا تُحْيِلُوا اللَّسَانَ ، فَتُخْضِرُوا الْمِيزَانَ .

وَسَبَّحُ لِلْأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِمَا جَاءَ عَنْ ذِكْرِ مَا كَتَبَ بِهِ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِ النُّجُومِ وَالرُّجُومِ وَالشُّبُهَاتِ فِي الْقُرْآنِ وَالرَّوَايَةِ وَالْكِتَابِ ، فَالْتَفِقُوا النَّظَرَ فِي صِحَّةِ مَعَانِيهِ ، وَتَحَوُّوا الْهَوَى عَنْ شُبْهَةٍ مَا وَقَعَتْ فِيهِ : قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا مَهَابِيعَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ۖ وَقَالَ : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَجَعَلْنَاهَا مِنْ كُتْلٍ شَبَاطٍ رَجِيمٍ ۖ ﴾ وَقَالَ : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا زِينَةَ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ۖ ﴾ . وَإِنْ شَطَبَ عَنِ الْحَقِّ شَاطِبٌ ، أَوْ ذَهَبَ إِلَى الْبَاطِلِ ذَاهِبٌ ، لَا يَعْرِفُ مَذَاهِبَ كَلَامِ الْعَرَبِ ، وَلَا وَجْهَ مَعَانِي الْكِتَابِ ، وَلَا تَفْسِيرَ آيِ الْقُرْآنِ ، فَقَالَ : إِنَّمَا جُعِلَتْ الْكَوَاكِبُ وَالْمَهَابِيعُ حِفْظًا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلسَّمَاءِ ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالَّذِينَ .

فَإِنْ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ مَا فِيهِ بَيَانٌ مِمَّا يُبْطِلُ دَعْوَاهُ الَّتِي لَا بَيِّنَةَ عَلَيْهَا ، وَيَكْذِبُ مَقَاتِلَهُ الَّتِي لَا شُهُودَ لَهَا ، فَقَالَتْ الْجَنُّ - بِجَعَلِ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَوْلَهَا وَحْيًا - وَبِهِ مِنْهَا صِدْقًا : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجدْنَاهَا مُلْتَئِحَةً حَرِيبًا شَدِيدًا وَثِقًا ۖ ﴾ . أَلَا تَرَوْنَ أَنَهَا كَانَتْ الْجَنُّ لَمَسَتْ السَّمَاءَ فَلَمْ تُجِدْهَا مَلْتَئِحَةً حَرِيبًا شَدِيدًا وَثِقًا ، وَقَعَدَتْ الشَّيَاطِينُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلْسَّمْعِ

(١) يَاحُضُ بِالْأَصْلِ بِمَقْدَارِ كَلِمَةٍ . (٢) فِي الْأَمْرِ « عَنْ شَيْءٍ إِنَّمَا أَخْبَرُ » .

فلم تجد شُبا ولا رصدا، أو لا يسمعون إلى ما يحقُّ ذلك ويسدِّده ويصدِّقه ويشهد له من قول الله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَن تَتَوَلَّى الشَّيَاطِينُ تَتَوَلَّىٰ كُلُّ قَوْمٍ مَّا يَكُونُ السَّمْعُ وَكَثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ مع قول الجن أمام حُرست السماء ورُبيت الشياطين : ﴿ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرَبٍ يَمُنُّ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِكُمْ هُمُ رِشْدًا ﴾ . فاذا أعلم في ذلك فكركم ، وقبِّلتم فيه نظركم ، فكتمتم على برهان يقين ، ونور مستبين ، من استطاعة الجن للاستماع ، وقدرة الشياطين على الاستراق ، وإمكان السماء للعمود في تلك الحال الأولى ، ففكروا في الحال الأخرى حيث حرست الآيات أن تعارض باطلا بحق ، وثمنت الشياطين أن تتزل بصدق ، وأمنتعت السماء أن يصعد إليها شيطان ، فقال الله عز وجل : ﴿ وَآتَيْنَاكَ بِهِ الشَّيَاطِينَ وَمَا يَبْهَتِي لَهُمْ وَمَا يُسْطِيعُونَ أَنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ عُزَّوُونَ ﴾ . قَالَتِ الْجِنُّ : ﴿ وَأَنَا كَمَا تَقَعُدُنَا مَقَاعِدَ السَّمْعِ قَسَنَ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدُ لَهُ شُوبًا رَصْدًا ﴾ إن في قولهم الآن لأعظم نور وبيان . وأبين من ذلك لكم وأصح لمن عقل إن شاء الله منكم ، إخبار الله عز وجل حين جعلت الكواكب حفظا من كل شيطان مارد ، أنهم ﴿ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقْسِدُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ مع إخباره في الحال الأولى أنهم يسعون ويقعدون ويتلون ويستطيعون ويتلون على ملك سليمان ، فكن لهذا من الحافظين ، وفيه من المفكرين .

ومن آيات النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما نفرت القبائل من أعلام الشرك بجموعها ، وتذاعت القادة من صناديد الكفر باتباعها حذرا على غير لها أقبلت من الشام بصنوف رعايب أموال عظام ، فكانت العير والتغير طائفتين : طائفة ذات عثة كثيرة وشوكة شديدة ، وطائفة ذات أموال رخيصة ورجال قليلة وفروسة ممكنة ، أخرج الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم ووعده ومن معه من المسلمين إحداهما ، ففكر المؤمنون جموع المشركين ، وأراد الله عز وجل أن يقطع دابر الكافرين ، ويشيد بذلك أركان الدين ، فلما ترامت الفتتان ، وتناوشت الفرسان ، وتلاقى الناس ، وقبل ذلك ما قال الله عز وجل :

(١) كذا وردت هذه الجملة في الأصل وهي غير واضحة .

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّوا الدُّبُرَ﴾ قبض النبي صلى الله عليه وسلم قبضةً [من تراب] حثاها في وجوههم ، فلم يثناه دون مناخرهم وحيونهم ، فانصرفوا منهزمين بلا كثير قتال من المسلمين . يا أهل الكتاب ، فانيأى آية أعظم حجة وأوضح بينة وأقهر غلبة من هذه التي لو صدرت الأمور بلا تحقيق لها ، لانفضت الجموع من المسلمين كفارا بها . إشارة الله المسلمين بإمداد الملائكة المقتزين ، وهزيمة غير المشركين ، التي تجت الامور عليها ، وتاهت الحال بهم اليها . أم قبضة من تراب يسير ، ما ملأ المناخر من عدد كثير .

فلئن قلتم : إن هذه آيات بينات ، وعلامات واحضات ، ولكنا [لا] نقر لكم بها ولا تؤمن بقولكم فيها .

أتؤمنون أن محمدا صلى الله عليه وسلم مع ما نسبتموه من الفضل اليه ، كان يخلفها كذبا من تلقاء نفسه ، ثم يدعيها وحيا من عند ربه ، وهو لا يدري لعل الأمور [تقع] بخلاف ما يقول ، فيظهر كذبه ، ويرفض تبعه . وإن تزعم أن أصحابه كانوا كثيرا أقوياء ، نشاطا جلداء ، لكن على معرفة بقوتهم وبقين من غلبتهم ، فقد قال الله عز وجل : ﴿وإن فريقا من المؤمنين لكاظمون يحاذيوك في الحق بعد ما تبين كأنهم يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾ . ولم يكن الرسول ولا غيره ليخير أصحابه من أمورهم بما يجهلون من أنفسهم ، ثم يدعي ذلك تنزيلا من ربه . هذا لا تقبله الآراء ، ولا تحقر به الحكاه ، ولا يحتمل النظر .

أم نقولون : إنما أراد محمدا صلى الله عليه وسلم بشارته لم وإخباره ما أخبرهم من هزيمة الله عدوهم ، أن يشجع جبهتهم ويقوى ضعفهم ، فكيف إذا لم يبق لها كان يرى من كثرة المشركين وقوتهم ، وضعف المسلمين وقتلهم ، بظهور الأنبياء على خلاف قوله ، وأن محمدا أخبر على غير ظنه ، فيقع ظفر بكذب نبوته ، ويقطع حجتة ، ويكون له ما بعده ! وكيف إذا لم ينسب الأمر إلى نفسه ويُنحى الخبر عن ربه ، ليكون الخطر أصغر والثبات أيسر ، إن جرت الأقدار بما يحذر ، أو وقعت الأمور على ما يكره . ولكنه أجهت في كتاب .

(١) في الأصل « ويزعم أن أصحابه ... » والكلام عليه غير واضح . (٢) هكذا في الأصل .

مسطور، ورق منشور . فعلى لعمر الله يدل على النبوة التي كان بها وانما، ويهدى الى الوحي الذي كان اليه ساكنا .

وان عرض لنظرك، أو وقع في خلدك، أن الله عز وجل عزّد محمدا صلى الله عليه وسلم الغلبة وأجره على المنعة، فكان يجري على عادة قد عرفها، ويدلك جاذبة قد خبّرها؛ فلقد كانت الهزيمة في أول وقعة أوقفها الله، ثم لقد دالت الحرب فيها بعد سجالاتها بينه وبينهم : تارة عليه لم، وأخرى له عليهم . فهاجسوا الله عز وجل في نظركم، وقلّبوا فيها يقول أمير المؤمنين فكرم . فلعمري الله ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول للملوك المشركين : إن الله همزكم بريئة من تراب وهو يعلم أنه عنده من الكاذبين . فاحضركم في هذا فهمك، وأصبر له وإن خصمك؛ فإن هذه آية عظيمة، وحجة بليغة، وبينة عجيبية، في ثابة العرب.

وأعجب من هذه والطف، وأكثر منها وأعظم، الآية في غلبة العجم . واستمع : أمر الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يقول للمؤمنين - وكانوا كما قال الله عز وجل قليلا مستضعفين - : إن قبائل العرب ستخرب عليكم، وإن الله سيمزيمهم لكم، وحيّا أنزله في الكتاب، فقال : ﴿ جُند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ ؛ فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد منازل هذا القول عليه بدهور طويلة وسنين كثيرة، محبوسين محصورين في حومة الموت وعسكر الخسوف وخندق الفهر وذلل الحصر، سوادهم الأعم وجلهم الأعظم حفاة صراة عالة، إخوان دير، وأصحاب وبر، لا قوة بهم، ولا منعة لهم، ولا أسلحة عندهم، ولا عدة معهم، قد أحذقت العرب بمسكرم وأطاحت القبائل بخندقهم، وسالت الأحزاب تصديقا لحلم الله عليهم، تريد أن تزلزل أقدامهم وتهريق دماهم؛ فكان المؤمنون كما وصف الله عز وجل من سوء الحال، وضيق المال، وشدة الكفّاط،<sup>(١)</sup> فإن الله قد وصف لهم حالهم، وأذكرهم فعلهم، ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ليصف لهم عن الله ما يجهلون، ولا ليزكرهم من أمره ما لا يعرفون؛ حذرا أن تتكسر

(١) في الأصل : "فما يد... " . (٢) الكفّاط : الله، والدة .

عزائهم وتغير بصائرهم ، فتنزيم أفئدتهم وتموت مجديتهم ، وتختلف كلمتهم ؛ فقال الله عز وجل : ﴿ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ قُرُونِكُمْ مِنْ أَسْفَلٍ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاقِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا . هُنَا لِكَ آيَتُنِي الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزَلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ حتى قالت طائفة منهم لأهل المدينة : ﴿ أَأَهْلٌ يَقْرِبُ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَأَرْجِعُوا ﴾ وقالت طائفة أخرى : يا رسول الله ، إن بيوتنا عورة ، فأذن لنا . يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ بِعُورَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ . فبيناهم على تلك الحال قد أجمعت العرب بتفريقهم في الجبال ، وتقسيمهم بالقداح ، وأخذهم بالأيدي ، إذ قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما بينهم به من علم الغيوب ، ويبشرهم به من أمر الفتوح : " إن الله سينصركم على جمع الروم ويفلب لكم جنود فارس فيهزيم لكم جنودهم ويؤدبكم قصورهم ويستخلفكم في الأرض من بعدهم ويبدلكم من بعد خوفكم أمناً " . وعداً صدقه الكتاب ، وإشارة نطق بها الوحي ، فقال : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَمَلَأُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ . فقال أقوامٌ وأُناسٌ آرتابوا حين تضايقت الحال ، وتزلزلت الأقدام ، وطارت القلوب ، ودارت العيون ، وأشرف الموت : مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا أَيْعَدُنَا هَزِيمَةً جَمُوعِ الْأَحْزَابِ ، وَقَطَعَ قُصُورَ الشَّامِ ، وَغَلَبَةَ جُنُودَ كَسْرَى ، وَقَدْ سَالَتِ الْقَبَائِلُ عَلَيْنَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَأَحْصَى الْمَوْتُ بَنَاءَ كُلِّ مَكَانٍ ، فَبَيْنَمَا فِي مَسْغِيَةٍ مِنْ الْجَمُوعِ ، وَبِجَهْدَةٍ مِنَ الْخَوْفِ ، وَضَنْسِكٍ مِنَ الْحَالِ ، مَقْهُورِينَ مَقْمُوعِينَ . وقالت الخاطبة من المؤمنين حين عنايتوا الجموع من المشركين ، وذكروا ما خبرهم الله من تخزيهم عليهم ومسيرهم إليهم : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ . فبينما أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في مضائق تلك الحال ، وشدة ذلك الخصال ، وعموم تلك البلايا الباهظة ، والأموال الفادحة ، التي قد أخذَ بأنفاسهم عنها ، وبلغ

مجهودهم كرهها، رافعين الى الله عز وجل أيديهم، يقابون في السماء أميئتهم، إذ أرسل الله على تلك الجنود الكثيفة والجموع العظيمة والأحزاب المقتدرة، ريحاً من الأرض وجنوداً من السماء، قَطَّعَتِ الأَبْنِيَّةَ، وَطَيَّرَتِ الأَمْتَةَ، وَسَفَّتِ التُّرَابَ فِي الْعِيُونِ، وَقَدَفَتِ الرُّعْبَ فِي الْقُلُوبِ، فَوَلَّوْا مُدْرِرِينَ، وَخَرَجُوا مِنْهُمْ زَمِينَ، لَا يَلْوِي وَالِدٌ عَلَى وَلَدٍ، وَلَا مَوْلُودٌ عَلَى أَحَدٍ. أَمَرَ صَدَقَ اللهُ فِيهِ قَوْلُهُ، وَأَنْجَزَ بِهِ وَعْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، وَذَكَّرَ الْمُؤْمِنِينَ نِعْمَتَهُ فِيهِمْ، وَصَرَّفَهُمْ مِنْهُ بِهِمْ، فَقَالَ: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ إِنَّ اللَّهَ لَظَنُونًا﴾. وقال عز وجل: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِفَيْضِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ ما كان الله عز وجل ليقص على المسلمين في أنفسهم، إلا ما قد رأوه بأعينهم.

لولا أن هذا ما لا يَنْكَرُهُ عقلك ولا يدْفَعُهُ نظرك، لما جادلْتُك بِالْكِتَابِ، وَلَا نَزَعْتُكَ بِالْتَّزِيلِ. وإني لأتُركُ من آياتِ النبي صلى الله عليه وسلم وعلاماتِ الوحي، ما هو أعظم من هذا وأبين وأجل وأوضح. ولكن ليس لي أن أحاجُكَ من آياتِ القرآن، إلا بما عليه شاهدٌ من بُرْهَانٍ، وعبر من بَيَانٍ؛ لا يستطيع عقلُكَ رَدًّا لَهُ ولا قَلْبُكَ بِحُجَّةٍ لَهُ. وكيف ينسب لسانُكَ أو يمتري قلبُكَ أن يقول: إن هذا صلى الله عليه وسلم أخبر أصحابه بالكذب وهم يهابون، فاقص عليهم من أمورهم ما لا يعرفون! لا! ما يسوغُ لكَ ولا يَجِبُ لَكَ، ولا يَقْبَلُ مِنْكَ أن هذا صلى الله عليه وسلم يقوله من تلقاء نفسه؛ كيف! أما كان يخاف أن يكذبه أصحابه، وتنتقل أحواله، وتنقضي أموره! لعمر الله لو وصفت بهذا من لا يُعْرِفُ بفضل ولا يُنْسَبُ إلى عقل، لما كان سائلًا لَكَ ولا جائرًا مِنْكَ، فكيف تصف به من يُعْرِفُ عن الناس قدره، ويفضِّلُ عليهم عقله! وتُفَرِّقُ لَكَ لَمْ تَرَفِ الدُّنْيَا أَحَدًا صَنَعَ [ما صنع] وبلغ ما بلغ! فأَيُّ آيَةٍ قِيَا اقْتَصَّ عَلَيْكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أعظم أو بَيِّنَةٌ أعجب: أَمَا كَانَ يَتَلَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي الْكُتُبِ مِنْ أَجْمَاعِ قِبَائِلِ الْأَحْزَابِ بِجُنُودٍ عَظِيمَةٍ قَبْلَ أَجْتَاعِهِمْ بِسِتْنِينَ



كثيرة ، أم ما كان يُنادى به القرآن من الخزيمة لهم وينطق به الوحي من الفتح عليهم ، أم قول النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : <sup>(١)</sup> « إن الله عز وجل يؤمن خوفكم ويؤمن نصركم على الأعداء » وهو على تلك الحال ثم تحجّت الأمور على ما قال ، أم عسكران مطابقان وجيشان متقابلان ، باتت الرمح تحوس أحدهما حتى انتهوا ، وبات الآخرون منها في عافية وشفقة حتى أصبحوا ؟ فأحسن النظر في أمرك ، والتبّت في دينك إن شاء الله .

وأعلم أن من أعظم الآيات وأبين الدلالات ، على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وحقه ، وأن ليس يتقول شيئا من تلقاء نفسه ، أنه قال في عَفْوَانِ أمره : <sup>(٢)</sup> « إن الله عز وجل سَيُظْهِرُ دِينِي عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا » وجاء مع ذلك بأثره عن ربه ، في كتاب مخطوط وتزليل محفوظ . فإني أمر به لك أدل ، أو أجهل عندك أعجب ، إذ كنت بلذوته مصدقا ، ولرسالة محققا . الخبر الذي أخبره ، أم الفعل الذي صدّقه ؟ لئن نظرت بعقلك وقلت في نفسك : كيف ترقّت إلى هذا نيته وأرتفعت نحوه همته ، أم كيف آمنتك إليه طمته وقويت عليه رويته ؟ بل كيف دعت إليه نفسه ، وتجمعه عليه قلبه ، ودخل فيه طمعه ، وطاعه فيه لسانه ، وهويذكر جنود كسرى ، وجموع الروم ، وملوك الترك ، وملوك الشرك ، وقبول الجن ، وصناديد الأمم ؟ إن هذا لعجيب ، ولا سيما إذا لم يكن في إرث ملك قاهر ، ولا كنف من غائب ، ولا معدن علم سالف .

ولئن أعدت النظر وكررت ، فقلت : كيف وافق خبره أثره ، وكيف صدق فعله قوله ، حتى غلب الشرق والغرب ! إن هذا لعجب ! وأعجب من هذا أمر بذلك أمير المؤمنين عليه ، ويهدرك إن شاء الله إليه : لو قلت لأهل مملكتك ومن قبلك من أمك : هل يلدكم أو تتر قبلكم ، أنه كان في الدهر الأول ، والمصر الخالي ، أحد مثل محمد - صلى الله عليه وسلم - دأبت الأمور به مثل حاله من الوحدة والضعف والبلة والقلة ، وصدرت الحل به كفعاله في الغلبة والمنعة ، والظهور والظهور ، وغير ذلك ؟ لقالوا لا .

(١) في الأصل : « أما كان ... » . (٢) تحوس أحدهما : تنشأ وتنبه . وفي الأصل « تحوس ... » بالثين المعجمة وهو تحريف . (٣) في الأصل : « دأى أمر بذلك ... » .

ثم أنت لا تؤمن بآقائه، ولا تَقْرُ رسائله، إلفاً لدينك، وضناً بملكك، وطمعاً في قليل من الدنيا قد نَعَا الله إليك، ورغبة في صُبابية عيش غير باقية في يديك، فهذا حَبِّبٌ . وأعجب من هذا أمرُ يَفُكُّ أمير المؤمنين على نور حقه، ويوضح لك إن شاء الله بيان أمره : أصبحت العرب طراً والأممُ جميعاً في عهد صلى الله عليه وسلم ثلاثة لا رابع لهم ولا تَخْرُجُ لفق من بينهم : رجلٌ مصدِّقٌ به من المؤمنين، ورجلٌ مكذِّبٌ به من الكافرين، ورجلٌ شاكٌّ فيه من المنافقين .

فأما الشاكُّ فلما قيل له : أخرجتَ نفسك من الحق، وأبرأتها من الصواب، وأفترت عليها بالخطأ، لقولك : لا بد أن يكون الحق في التصديق أو التكذيب، ولست على واحد منهما، اعتزل عنها .

وأما المكذِّب فلما قيل له : أنت مُنكر والمنكر ليس بمدح، ومن لم يدع لم يَزِمه بينة ولا يسأل عن حجة، اتبع صاحبه . وأيم الله على ذلك، لو سئل هذا المدعى عن بيته وكشيف مجته، ف قيل له : من أين عَرَفَ قلبك، وأيقنت نفسك إيقاناً لا يجالجه شك، ومعرفته لا يشوبها ريب ولا ينازعها شبهة، أن محمداً صلى الله عليه وسلم ليس برسول، لست أدري ما يقول، لأنه لا يستطيع أن يقول على الرسل، ولا أن يتكذب على الكتب، فيقول : قد أخبر الله فيها أنه لا يبعث نبياً، ولا يُنزل وحياً في كتاب مسطور، بعد التوراة والإنجيل والزبور . بل قد يجد أهل الكتاب في أقاويل رسلهم وأخاير كُتُبهم، أن الله تبارك وتعالى يُنزل كتاباً جديداً أو كلاماً حديثاً، بعد خراب بيت المقدس في آخر الزمان، ولم يُنزل بعد ذلك كتاباً إلا القرآن .

وأما الرجل المصتق بمحمد صلى الله عليه وسلم ف قيل له : أما أنت فقد أدعيت، والمدعى يسأل عن الحجة ويُقبل منه البينة، فما بينتك ومن يشهد لك؟ فقال : ألم تقولوا : إن الحق لا يخرج من بيننا، ولا بد أن يكون مع بعضنا ؟ قالوا بلى ! قال : فإيه بينة أحق وأعدل، وأى شهود أذك وأفضل من شهادتك بسقوط صاحبي وثبوت

الحق من بعدهما في يَدَيَّ؟ قالوا : إن الأمرَ لكما نقول، ولكنَّ البينةَ أشقَى للصُدُورِ؛ فأقامَ بينةً من الكتاب، وشهوداً من الوحى، وآياتٍ سوى ذلك عظاماً، وبَيِّنَاتٍ عَوامٍ، من كلامٍ لا يَقْدِرُ عليه الخَلْقُ، وَصِدْقٍ لا يَكُونُ إلَّا من قِبَلِ الربِّ، شديداً بما أوردته أمير المؤمنين عليه السلام، وكتبَ به في صدر كتابه هذا اليك، مما قد تشهدُ له قلوبُ الأمم، وَرُزْغُهُ فَعَالُ العرب .

فلما أقامَ بَيِّنَتَهُ، وثبتَّ حُجَّتَهُ، وَوَجَّبَ حَقَّهُ، وَقَضَى به له، قيل له : وكيف توسعت الأمور عليك، وضاعت المقالة لك، أن تقول : إن الله لا يبعث نبياً بعد محمد — صلى الله عليه وسلم — ولا وحياً ينزل غير القرآن، فأبطلت الكتب المهدية، وأكذبت الوثيقة، ولم تترك وحياً غير القرآن، ولم يميز للنصارى أن تقول : لا نبعث بعد عيسى عليه السلام، ولا كتاب خلف الإنجيل، وعن ذلك من أخبار الكتب ما قلنا كل منتهى بعد نبينا كذاب، فشاعت وجازت الحجة، ووضح المذنب. وأما النصارى فيجدون في أولئك كتبهم، وأقاويل رسلهم، أن الله عز وجل، يبعث نبياً حديثاً، وينزل كتاباً جديداً، فليس لهم أن يكذبوا نبهنا — صلى الله عليه وسلم —. ولا أن يردوا كتابنا .

فهؤلاء الثلاثة . أما الشاك فسقط، وأما المنكربطل، وأما المصدق فثبت ثبوتاً ليس فيه مدخل شبهة، ولا موضع لجة، ولا معلق لمنازعة . وذلك أن المنكربلوجوب حقه، والشاك في ثبوت صدقه، لا يبعد بدا من أن يُنْحَى الصدق عن الخلق، ويحل الدنيا من الحق، وهذا قول المكذبين برههم، الشاكين في بعثهم، فأحسن النظر في معانيه يتكشف لك عما فيه، إن شاء الله .

ومن أبين آياته وأدلِّ علاماته — صلى الله عليه وسلم — ووسع له فيما صدر إليه : أنه لما أخبرت النصارى واليهود أنهم لم يجدوا محمداً — صلى الله عليه وسلم — في التوراة والإنجيل موصوفاً مكتوباً، تجمعت العلماء منهم، وتدارست الكتبُ فيما بينهم؛ فلما نظروا

(١) في هذه الجملة غرض لم نوفق إلى كشف سببه وإن كان المراد منها واضحاً .

الى اسمه وعائود بنّته ، وكانوا يعرفونه كما يعرفون آبائهم ؛ ويستفتحون بذكره على من سواهم ، [كفرت] طائفة حسداً من عند أنفسهم ، وبتحداً من بعد ما تبين لها ، وأمنت طائفة ، تصديقاً بكلمها ، وخوفاً من ربها .

فلعمراً لله لو [لا] أن الذين آمنوا بحقه وصدقوا بأمره ، رأوا صفته عياناً ، وقيلوا نعمته إيقاناً ، لما فارقوا أديانهم ، ولا جادلوا إخوانهم ، حتى وقفهم على اسمه ونسبه ، وصفته وعلامته ، وهم علماء بنى إسرائيل ، وحملوا الإنجيل : من أهل الكتاب الذين احتج الله عز وجل بهم على العرب ، فقال عز وجل : ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ . ولعمراً لله إنها لآية عظيمة ، وحجة بليغة ، ذكرها الله في كتابه ، وجعلها على العرب من بيناته ، فقال لهم : ﴿ قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوَلَا تُؤْمِنُونَ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا وَعَدُ رَبَّنَا لَمَقُولًا ﴾ . يقولون : وعدنا أن يرسل رسولا ، فقد أرسله ، وحقق قوله ، وصدق وعده . واحتج النبي صلى الله عليه وسلم بذلك وذكره . ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ليُجادل ويحتج في أمرهم بكذب وباطل ، ولم يكن يقول للنصارى واليهود ، فيما ذكر الله من صدق الموعود : إنه في التوراة والإنجيل مكتوب موجود ، إلا وهو من ذلك على حق يقين ، ونور مستبين . وكيف كان يستشهد من التوراة والإنجيل بكذب ، ويتقول عليهم الباطل ، مع حرصه على تصديق أهل الكتاب ليستدعى به إيمان أحياء العرب . أما كان يعلم أنه إذا قال لهم : إنه موجود في متاني كتبهم ، وثبت على أفواه رسلهم ، فلم يجدوا خبره يقينا ، ولا وصفه مستبينا ، أنهم سيذنبون عنه إدبارا ، تزداد به العرب نفارا ، إلا أن يقولوا خطأ من علمه ، وهواء من خبره ، فكيف لم يخطئ إذا في كتبهم حرفا غيره ، ولم يخالف منها شيئا سواه ، سبحان الله ! لقد أكثر المؤمنون العجب من ذهاب الأسافة بهم ، فآثم إن تنكر ما يقولون لكم ، مما ليس لذى لب أن يأذن له أن يؤمن به ، ولا أن ينبت إليه .

(١) سمعه، يقولون : إن أنبياء الله ورسوله ، المبعوثين بالرحمة الى خلفه ، لطلعت النبوة منهم ، ووقعت الأخبار المنزلّة عليهم ، على صفائر الأمور ، وغوامض الخطوب ، فصار الناس عليها ، وأشاروا لهم الى طلبها ، فهي مكررة في مثنائ كتبهم ، ويطون صفحاتهم ، وأقاويل رسلهم ، وتركوا من كلام الله النبأ العظيم ، والأمر الكبير ، واللذ كر الحكيم ، الذي ملك آفاق الأرضين ، وأستفاض على جميع السالين ، لم يذكره بخير يأمرون به ، ولا بشرّ يشنون عنه ؛ كلا ! ما ترك الله على هذا خلقه ، ولا بهذا وصف بـ « بـارك وتعالى نفسه ، إنه لأرحم الراحمين ، وأحكم الحاكمين » .

وإئن رجعت الى قلبك ، لتتوثّق في نفسك : لعمر الله لو كان هذا الأمر الذي طلع طلوع الشمس ، وأمتدّ أمتداد النهار فيبلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وسُؤل الآفاق وحُزوتها ، حقاً وصدقاً وعدلاً ، لبُشرت الكتب به ، وتبأت الرسل عليه ، ودعيت التذرّ اليه ، تريناه له وترغبنا فيه ، وأمرأ به . ولو كان ضلاله وجهالة وحميّة ، لتقدّموا في التّعذير منه ، والتّرهيد فيه ، والتّشبيط به ؛ فيدعو ذلك الى أن تنظروا الى كتب الأنبياء وأقاويل الرسل . فإمّ الله إئن طلبت لتجدته ، وإئن أجهدت لتوقّف . وما الصواب بمنوع ، ولا الخسرُ بمحذور . ولقد كانت العالمة بالكتب والبصراء بتأويل تجده ، ولكنها كانت تكتمه بحريف كلام الكتب عن مواضعه ، وصرف تأويل الحكم الى أشباهه ، حسداً من عند أنفسهم وبغياً بعد ما تبين لهم . ثم لقد اتّخذتم بهم وجرّمت معهم وأخذتم عنهم ، بلا حجة لكم ، ولا قوّة معكم إلا الاتّقاء بالآباء والأكابر للأثار . فأنتي الله في نفسك ، وأنتهم الرجال على دينك ، ولا تجعل النظر الى غيرك من ذوى الشك في القلوب ، والفسخ في ... والتهم في التعتيل ، الذين لهم يمرض لأرائهم ويقع في أوهامهم أن يقولوا : فلعلّ ما يتسلو عليكم أمير المؤمنين من آيات القرآن ، ويقرّع لكم من حجج الوحي شيءٌ زيد

(١) هكذا في الأصل . (٢) في الأصل «أن ينظروا ...» بياء التبية . (٣) كما في الأصل .

ونظّم أن كلمة بعد «في» سقطت من الناصح سيوا .

في المصاحف بعد النبي صلى الله عليه وسلم . وهذا ما لا يعتمد عليه عقل صحيح ولا نظر قوى ، وذلك الشاك في شهادات الرجال ، متفقة من بلدان وأصناف مختلفة ، وشعوب وقبائل متفرقة ، ليس يدعواهم الى ما شهدوا ديناً ، ولا يحملهم على ما اتفقوا عليه دنياً ، لا يستقيم له أن يؤمن بما لم تدركه جوارحه وتحيط به حواسه ، لإسقاطه حجة الإجماع وإبطاله شهادة العوام . واتفق المختلفين دلالة واضحة . فهو سائلكم عن الحق في الإنجيل والبيئة على التوراة ، شكاً في الرب وتكثيراً بالرسول ، لما كنت قائله له أو يحبه به في كتابكم ، فأجبه بمنزلة في كتابنا وإن كانت الأحوال منها غير معتدلة ولا مؤلفة ولا مرتفعة ولا واحدة ، تمتد حالهما ، ويتفق أمرهما ، من كتابكم ، لم تنزل به الملائكة وحيا كالقرآن ، ولم يشافه المسيح به أصحابه باللسان ، إنما كان فصلاً أثبت من بعده ، ولم يكن الفعال موضوعاً بعده . وليس يكتب أمير المؤمنين بهذا اليك شكاً فيه ، ولا يورده عليكم مربية به .

ولقد علم أمير المؤمنين أن كتب الله عز وجل محفوظة ، وأن حجيجه مخزونة ، لا يزداد فيها على تقدم عهد ، ولا ينقص منها على تقارب دهر ، وأن ذلك ثبت في الإنجيل من بعد عيسى عليه السلام ، وأنه قال لمن اجتمع اليه من الحوارين : " بالوصى اكلمكم ، والأمثال أضرب لكم " . فأمثلة المضروبة كلام ، وكلامه الرائع وحى . ولكن ما بال الشك يُنفى عن كتابكم ، بحجة الاجتماع عليه عندهم ، وهو على ما وصّف أمير المؤمنين لكم ، وسبان في تنزيل كتابنا ، وقد أدرك شهادة دينه ، إما ما قرباً من عهده ومعاينة وحيد واجتماع على حفظه ، هذا حكم مختلف .

فقل للذين يشكون فيه ويرتابون به : أوقعوا أوهاكم على حالات الأوقات التي تعرفون ووعوا بطبقات الرجال الذين يهتمون .

فإن قالوا : أمّا طبقات الرجال التابعين ، وحالات زمان أمير المؤمنين ، فذلك ما لا يسوغ الأفاويل فيه ، ولا تدخل الشبهة عليه ، لانتشار القرآن وأمداد الزمان ،

(١) في الأصل : « لا يستقيم له أن يؤمن له بما ... » . بزيادة " له " . وهي قلقة في موضعها فلها زيت من الناس . (٢) في هذا الموضع اضطراب في الكلمات ، والمراد واضح . (٣) كذا في الأصل .

وكثرة الحجة لآياته فيهم ، ولحفظه لسانه منهم ؛ ولكن الدين الذي نزل به القرآن ، وقبض النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم . وكيف يوقع نعمة أو دخول شبهة ، على أقوام [ لبث ] النبي صلى الله عليه وسلم عشرين حجة فيهم يتلو كتاب الله عز وجل في كل عام عليهم ، حتى سمّوه في صدورهم ، وحفظوه في قلوبهم ، وكرّر في آذانهم مسموعاً ، وأمر على أبصارهم مكتوباً ، وبرى على ألسنتهم مثلاً ، وجمعه كثير منهم محفوظاً ، ثم توارثوه فيهم وتداولوه فيما بينهم ، حتى أدّوه البنا ، وأوفوا به عندنا ، من مواضع متفاوتة ، وأصناف وأجناس متباينة ، على كلمة واحدة ! .

فإن قالوا : اتفقت الرجال على الزيادة فيه وأمكنتم الحال من الحمل عليه ، فليعلموا أن المؤمنين المخلصين ليسوا في الزيادة متهمين ، وأن المنافقين الملعدين ليسوا على ذلك بقادرين . وكيف يقدر القليل من المنافقين على مخالفة الجمع من المؤمنين ، بعد ما حفظته قلوبهم ، ووعته أسماعهم ، ثم تكتم القدرة لهم وتستر الزيادة منهم ! هذا ما لا يقدر عليه منافق ، ولا يطيقه مشرك ولا فاسق . وأيم الله أن لو قدرت اليهود على الزيادة في الإنجيل ، لأنفسدوا كتابكم وغيروا دينكم ؛ ولو جعل الله المنافقين على الزيادة في كتابه قادرين ، لبذلوا ديننا وغيروا حالنا . ولو كانوا لذلك مُمَرِّين وعلى ذلك مقتدرين ، لكان الذي كتب به أمير المؤمنين البكر ، وأورده من جميع الله عليكم ، أولى ما تلقون ، ورأس ما تعترفون . فلا تُلقين إلى ما قاله [المفضل] سمحك ، ولا تُنصبت الدهر إليه ذهك ، فإنه اتخذ الشك في كتابنا ذريعة إلى الإخلال بكتابك ، وسألت إلى الشك في دينك وعلة في الطعن على مالك ، ولكن قل يا ولي الشيطان : أتى وقع لك إيمان بأفك من ولد فلان ؟ أمقول : شيدت الجيرة ، واجتمعت الشيرة ، وأتفق المختلفون ، فذهب الشك ، وزال الريب ، ووقع الإيقان ، من غير العيان ؟ صدقت . فبأل الشك فيما اجتمعت العانة على القول به ، واتفقت الجماعة في الشهادة عليه من آيات الكتب وبيّنات الرسل ! وإن ذهب بهذا عن أمره ، وباعده

(١) في الأصل "في دينه ... " . (٢) كذا بالأصل .

عن شبهه ، فنؤمن أنه من نطفة خُلِقَ ، ومن رَحِمٍ نَجَحَ ، فإن جحدوا بي ألا يؤمن بما لا يرى ، فقل : أرايت لو كنت سميماً أسمى ، أكنت تؤمن بشيء مما في الدنيا : من سماء أو هواء ، أو بحر أو سبع ، أو أرض أو جبل ، أو شبه ذلك مما لم يدركه العيان ولم يقبله إلا عن الناس ؟ فإن قال نعم ، فقل : فهل لك إلا بالاجتماع الكفر بالرب<sup>(١)</sup> ، وما لدائه دواء غير الصلب . فأتيت الله إذ كنت إماماً وقائداً لأهل ملكك ، لا تقدمهم إلى النار فتحمل أوزارهم مع وزرك .

فإن من آيات الوحي ، وأدلة علامات النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يتدع في الدين أمراً من تلقاء نفسه ، ولا يتقدم في الأمور بين يدي ربه . والله أظهر فيها أنزل من الكتاب أموراً كان يحبسها صلى الله عليه وسلم مستورة ، فقال تأديباً له ، وإخباراً لمن آمن من بعده : ﴿ وَإِذْ نَقُولُ لِلَّذِي أَتَمَّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَنُفِخِ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ . وقال : ﴿ عَسَى وَتَوَلَّى أَنْتَ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه يَرْى أَوْ يَكْمُنُفَعُهُ الذُّكْرَى أَمَا مِنْ أَسْتَفْتَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْى وَأَمَا مِنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى كَلَّا أَنْهَا تَذَكُّرَةٌ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ تَبَيَّنَّاكَ لَقَدْ كُنْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً إِذَا لَفَظْتَكَ لَظْفُفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا نَصِيراً ﴾ . وقال له حين صرف قلبه عن بيت المقدس إلى البلد الحرام حين سكنت القلوب إليها ، وأبست النفوس بها : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ . وكانت القبلة التي صرفه الله إليها وأمره بها عظيمة على المنافقين واقعة بخلاف الكافرين ، كبيرة<sup>(٢)</sup> إلا على الذين هدى الله من المؤمنين ، فإنهم قالوا : إذا اختلفت القبلتان واختلفت الجهتان ، كانت الطاعة فيهما واحدة لا اختلاف فيها ولا افتراق عليهما . وكيف تختلف الطاعة من رجل يتي بأمر الله عز وجل ثم هدم يوحى الله .

(١) كما في الأصل . (٢) في الأصل : "من آمن من بعده إذ يقول ... " وظاهر إن كلمة "إذ يقول" غير مقيدة هنا ، فقلها زيدت سهواً من النسخ . (٣) في الأصل : "كثيرة ... " .



فإن قلت : إن الله حَوَّلَهُ عن أفضل القبليين وأقوم الجاهليين ، فلا سواء في الفضل البين والغير السر : قبله سَلَطَ الله عليها الكافرين ولم يمنعه من الظالمين ، وقبله منعهما بمنزلة من عنده ، وعَصَمَهَا بنير ما حَوَّلَ من خلقه ولا حرمة يدعيها أحدٌ من فيها ؛ فأرسل طيراً أبابيل ترمى الأعداء بمجارة من يحيل ، فجعلهم كعصف ما كول . فإن قل : هذا خبر تُنكره ، وقول لا نعرفه ؛ فبأي حديث بعد هذا تؤمن ، وتشهد الله عز وجل أنه من قبله ، وأتم تعلمون أنه أنزل الله عز وجل سورة الفيل على قوم أدركه منهم بشر كثير .

فإن قلت : إن محمداً صلى الله عليه وسلم خَبرهم بما عاينوه وأدركوا خلافة ، قل : إنه أراد أن يعرفهم عنه ويوحشهم منه ، وأحب أن يرموه بالكذب ، ويقذفوه بالحق ، ويصمونه بالجنون ، ويظنون به الظنون ، كلا ! ما كان نبي ولا غير نبي ليجاهد أقواماً بخلاف ما رأت أبصارهم وشاهدت آباؤهم ، فيغيرهم بخلاف ما شهدوا ، وتكذب ما عاينوا . فلا تكون في هذا من المعتزين ، ولا بأمر الفيل من المكذبين .

فلعمرو الله لو كان من أمر النبي صلى الله عليه وسلم ما تلعد أنت وقومك إليه لما قام معه رجلان ولا أختلف فيه سيفان . وإن فيما صنع الله عز وجل بالفيل وأتباعه ، دلالة على قبلة الله وأنبياؤه . فأتى الله ! فقد شرح أمير المؤمنين علامات النبي صلى الله عليه وسلم وكشف الأغشية لك عن النور بآيات الوحي . فإن مالت الأهواء بك ، وغلبت الأسافرة عليك ، وحضرك الرؤساء الذين يعملون مع الله آلهة أخرى بلا حجة عندهم ، ولا سلطان أئامهم قل : أنبؤني عما أجمعت عليه النصرانية وذهبت إليه بهم المعاني من تشقيق الكلام وتصريف الكتب : أحرف تتعسفونها ، أم لغة تعرفونها ؟ فإن قالوا : إنهم بغير لغة يتكلمون ، فهم إذا قوم يلعون . وإن قالوا : إنهم يتكلمون بلغة معروفة ومعاني معلومة ، فقل : أخبروني عن قولكم : أب وأبن ، أهما ما تستعرف العقول من المنطق ويقع في القلوب من المعنى أم لا ؟ فإن قالوا : لا ، ليس ذلك بالذي

تذهب أوهام العباد إليه ، ولا بالذي تقع الحقائق في الآباء والأبناء عليه ، إنما هو كقول الله عز وجل في التوراة لإسرائيل : ”بكرى“ لا يعنى ولادة الرحم ، وكقول المسيح عليه السلام للحواريين : ”أنتم إخواني“ لا يعنى أخوة النسب ، فذلك قول لا يجحدون معه بدءاً من أن ينسبوا عيسى عليه السلام عبداً . وإن قالوا : بل هو ما تجرى به ألسن العباد ، ويقع في قلوب انطلق من الولادة المعروفة والأبوة المصلومة ، فليخبرونا متى كان الأب والدا ، والأب مولودا . أقبل الولادة أم بعدها ؟ فإن قالوا : قبلها ، رجعوا عن القول الأول بتثبيت الأبوة . إلا أن ذلك ليس بالشئ الذي تذهب إليه الأوهام ، ولا بالمعنى الذي يقع في قلوب الأنام .

ولا بد إذا سقطت الولادة المعروفة وبطلت الأبوة الموجودة ، أن يقولوا : إن الأب والابن آسمان مطلقا على غير معنى ، ونسبان أضيفا الى غير حق ، فيقترنون أن عيسى عليه السلام خالق مثلهم ، وأنهم يتكلمون بغير لغة أحد منهم .

وإن قالوا : إنما كان الابن مولودا والأب والدا بعد الولادة ، فقد أقروا بأن الابن حدث مخلوق وعبد مريبوب ، لقولهم إنه لم يكن حتى ولد ، ولم يولد حتى خلق . وقيل لمن يقول الزور العظيم ، ويقذف بالإفك المبين : أليس الأب أباً على حياله ولم يزل ، والابن أبنا يُجِل ، وروح القدس كذلك ؟ فإن قالوا : نعم ، فقد أقروا بأنهم ثلاثة متباينة ، وقعت عليهم ثلاثة أسماء متفاوتة ، وتركوا قولهم : إنهم ثلاثة أصلهم واحد .

وإن قالوا : الأب والابن وروح القدس واحد ، ولكن بعضه أب وبعضه ابن وبعضه روح القدس ، فقد دخلوا في التحديد الذي هو عيب عندهم ، وقالوا في التبعض بما هو كفر قبلهم . وإن قالوا : ليس مُبْعَضاً ، ولا جزءاً ، ولا محدوداً ، ولا ثلاثة متباينين ، فإذا هم قوم يلعبون : يقولون : الأبُ ابنٌ ، والابن أب ، والوالد مولود ، والمولود والد ، والكبير صغير ، والصغير كبير ، والقليل كثير ، والكثير قليل . وهذا من أبين المحال وأخلف المقال . وليس من المنطق مالا يوجد في لغة عرب ولا عجم ، ولا لسان أمة من الأمم . وإنما

أرسل الله عز وجل كل نبيّ بلسان قومه ليبين لهم، فُضِّلَ الله الظالمين . ولولا ذلك لآ فُهِمَتِ الأُمَمُ مذاهبَ أقاويل الرسل ولا معاني أحاديث الكتب . فلا تَطْعُ الذنوبُ يلعنون بأنفسهم ، ويتكلمون بفسير لفتهم، ويقولون : الثلاثة واحد ، والواحد ثلاثة ؛ وهذا حال في تجاري المقال، ومعاني الفعال .

لعمركم أن أتهمت عقول الأساقفة على دينك ، وأهتمت بالنظر في توحيدك ، لتعلم أن الواحد لا يكون ثلاثة وأن الثلاثة لا تكون واحداً، إلا على وجه ماله شأن يقول به ، ولا منه تخرج تستريح إليه . فإني نحوه سيمك ، وأُنصِتُ إليه فهمك ؛ فإن أمير المؤمنين وإمامه لك ، وليس واقفاً إلا على المخلوقين ، ولا لازماً غير المحدودين، ولا داخلاً على رب العالمين : وهو أن يكون الشيء أصله واحد وأجزائه كثيرة، من نحو الإنسان ، وهو أصل يجمعه اسم ، وله أجزاء تزيها أسماء ؛ فليس الجزء بالأصل ، ولا الأصل بالجزء ، ولكن الجزء بعض الأصل . فإذا أردت الجزء، قلت يد الإنسان وتسمع الإنسان، ولولا أنه محدود مخلوق مجزأ لمبعض لما جاز هنا القول فيه ولا دخل هذا المثل عليه ؛ وكذلك الشمس : الأصل واحد، وهي شمس ، والأجزاء كثيرة وهو عين الشمس وضوء الشمس وشعاع الشمس ودقيقها وغليظها وحرورها وأعلامها وأسفلها وأشباه ذلك .

فإن قلت : سميت كل جزء من الأجزاء على حياله إنساناً، وكل جزء من الشمس دون أصله شمساً، ونسبت فعل الأصل الى بعض أجزائه، وتركت أن تنسب الأصل فاعلاً ببعض الأجزاء ، كما تقول : بسط الإنسان يده، ومشي برجله ، ونظري عينه، ثم ضربت ذلك الله عز وجل مثلاً وجعلت الله له قياساً، فقلت : الأصل واحد، وهو الله عز وجل، والأجزاء كثيرة وهي أب وآبن وروح القدس، وكل جزء منها إله على حياله ورب دون غيره، لم نجد بداً أن نُلحِقَ اليدَ والعينَ والنفسَ بالأب والآبن وروح القدس ، فكثرتُ الهنك ، وتحددت ربيك ، وتوكلتُ قولك : إن الله ليس محدوداً ولا مجزأ ولا مبعضاً إلا أن يكون إنما تريد مذاهب الأسماء فتقول : المعنى واحد، وهو الله عز وجل ، والأسماء أب وآبن وروح القدس .

فإن صكَّنتَ تقول هذا وكنتَ إنما تعبد أسماء، فما تجد بداً من أن تعبد الأسماء كلها وتقول : إنها آلهة على حيالها ، حتى تقول باسم أرحمى ، وبثاني اغفر لى . فأتقوا الله يأهل الكتاب ، فإن الله عز وجل ليس بأب ولا أبن ولا أسم ، ولكن له الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يُلمدون في أسمائه سيجزَّونَ ما كانوا يعملون .

فإن أشارت الأساقفةُ الى بعض الإنسان باليد والرجل وأشباه ذلك وقالوا ليس إنساناً ، قتل لا ، ولكنه الإنسان ، وقل هو إنسانٌ بكاله . وكذلك إن أشاروا الى بعض الشمس فقالوا : أليس هذا الشمس طالما ، قل لا ، ولكنه بعضها ، ولو كانت الأسماءُ التي تقع أبصاركم عليها وتشير أيديكم اليها من الشمس والسماء والهواء شمساً وهواءً وسماءً لكانت الشمس والهواء والسماء أكثر مما يلغنه الإحصاء . ولو قصدت بالإجابة لمسالك هذه الأودية ، لبطلت المجمع الداحضة وأنقطعت الأقاويل المناقضة . وسل من قبلك من أساقف أمثك وتمايسة أهل ملئك الذين يزعمون أن عيسى المسيح ، ويرفعونه أن يكون عبداً : على أى شيء وقع اسمُ المسيح من عيسى : على الروح أم الجسد أم على كليهما ؟ فإن قالوا : وقع على الروح نفسه ، لأن الروح إلهٌ دون غيره ، فقد أقروا بأن إلههم يأكل ويشرب ، ويمشي ويركب ، لأنهم يمدون ذلك من فعل عيسى مبنياً قبلهم ، موصوفاً عندهم . فإن قالوا : وقع اسمُ المسيح على الجسد بعينه ، فكان الجسد هو المسيح إذاً دون غيره ، والمسيح إذاً مخلوقٌ عندهم ، والإله إنسانٌ إذاً مثلهم ، فلم يمدون المخلوق ويدعون من خلقه وبراه . وإن قالوا : وقع الاسم على الروح والجسد جميعاً ، فلن يمدوا مخرباً ولا بداً ولا محيصاً ، إذا أوقعوا الاسمَ عليهما ، من أن يضيفوا الأعمال إليهما ، فيقولوا : إن الجسد المخلوق هو خلقهم ، وإن الروح الخالقة قد ماتت قبلهم ، وذلك لما يمدون من ذكر موت عيسى عليه السلام في الكتب عندهم وفي الإنجيل الذى قبلهم . وسل من قبلك عن الأب والآبَن ، فقل أهما أعظم وأيهما أصغر ؟ فإن قالوا : الأب أعظم والآبَن أصغر ، فقد جعلوهما متباينين . وإن قالوا : هما واحد وكلاهما عظيم ، وليس الأب أعظم من الآبَن ،

ولا الآن بأصغر من الأب، فقد نُقِضَ حينئذ جوابهم، وأُكْذِبَ المسيح عليه السلام  
كلامهم، حيث يقول: <sup>(١)</sup> «لو كنتم تحبوني لفرحتم حيثُ أذهب إلى أبي فأنا إلى أبي أعظم  
منّي» فلم يقل أعظم منّي، إلا وهو مقرباً أنه أصغر منه. وسلمهم عن قول المسيح: <sup>(٢)</sup> «أنا  
أذهب إلى أبي وإلهم»، فقل: مَنْ هذا الإله الذي ذهب عيسى إليه مصل الله عليه  
وسلم: إله في السماء متباين منه منقطع عنه؟ فهما إذاً اثنان متباينان، أم إله كان به متصلاً  
وكانا جميعاً واحداً؟ فكيف إذاً يجوز له أن يقول إذاً أذهب إليه! إلا أن يقولوا: إن  
بعضه ذهب إلى بعض! وهذا مما لا يجوز عندهم في حق الرب عز وجل.

وسئل مَنْ قِيلَ: أُنْتَرَجَ المسيح من بطن أمه مريم بكاله حتى كان البطن منه فارغاً  
وكان هو منه بكاله خارجاً؟ فإن قالوا: نعم، فقد أنكسر قوطم: إن الله بكل مكان.  
وإن قالوا: لم يخرج المسيح ولم يخل البطن، فقد كذبوا إذاً في قوطم: إنه قد نزع،  
وأقربوا أنه قد ولد. فعلى الله عما يصفون، وتزه عما يشركون. وسئلهم لم يهبط عيسى  
إلى بطن مريم، وتجسّد بالحم والدم؟ فإن قالوا: ليمحق الخطايا من الأرض ويريد  
الشيطان من الخلق، فنقل: كيف إذاً لم يربطه عن نفسه! وكيف جلا به من اليهود  
بصلبه! ولم سلط على أهل دينه يُتَّبَعُونَ في كل شعب ويُقتلون بكل واد!

وقل للذين يقولون: إن الخلق في كل مكان من السماء والأرض وغير ذلك: أجماع  
أعظم: المحيط المشتعل، أم المحيط المشتعل عليه كما يقولون؟ تعالى الله عما يشركون.  
فإن قالوا: إنما ألتحم بعضه دون بعض، فقد حُدوا وبعضوا ونقصوا وأنتقصوا،  
وأما قالوا فلن يجدوا بداً من أن يقولوا: إن بعض المسيح الذي جعلوه ربهم، وهو إله  
عندهم، ميت بعضه حيّة، وإن بعضه حيّ طيب، لأنهم زعموا أنه ألتحم بجسد حيّ فيه

(١) الوارد في الإنجيل يوحنا (فصل ١٤ آية ٢٨ ج ٣ ص ١٨٦ من الكتاب المقدس مطبعة بيروت سنة ١٨٨٢م):  
«لو كنتم تحبوني لكنتم تفرحون بأني أذهب إلى أبي لأن الأب هو أعظم منّي».

(٢) الوارد في الإنجيل يوحنا (فصل ٢٠ آية ١٧ ج ٣ ص ١٩٦ من الكتاب المقدس): «إني صاعد إلى  
أبي وأبيكم وإلى وإلهم» (٣) كذا بالأصل.

رُوح، فلا بدّ أن يدخل عليه ما يدخل على الأجسام الحية من الخوف والفرح والطمع وأشباه ذلك، وهو عندهم كفر عظيم وإنك مبین . فاتقِ عقوبة الله ربك، ولا تمسَّ مِكْجاً على وجهك، ولكن أطلبْ وأتمسَّ وأجسَّ؛ فقد قال عيسى عليه السلام في الإنجيل :  
 «مَنْ سَأَلَ أُعْطِيَ وَمَنْ طَلَبَ وَجَدَ وَمَنْ اسْتَفْتَحَ فَتُحِّعَ لَهُ» .

اجمع العلماء والبصراء [الذين] عندك، والأساقفة والرهبان الذين قبلك، قل : لأى شيء نسبتهم للمسيح إلهاً وجعلتموه رباً؟ ونجد الله سماء في الكتاب أبناً، وقد تجمدونه قال :  
 «إنى أذهب إلى أبى وأبيكم وإلى وإلهكم أيضاً» . وهذا كلامٌ يحتمل وجهين أحدهما أولى به، وقولٌ لا يحتمل إلا وجهها وهو الرؤيوية . أم كيف تنظرون إلى كلامه : «أذهب إلى أبى وأبيكم» . فتقيدونها في نفسه وقد قالها فيه وفى ضيره !

فاتقِ الله وكن من القائمين بالحق، الموصدين للرب . إن أمير المؤمنين قد ضرب لك أمثالا جمة، وسرف اليك مسائل كثيرة، وبين لك من آيات النبي صلى الله عليه وسلم وعلامات الرُوح قليلا من كثير، واضحا من تفسير، لا تمتنع العقول من التصديق به، ولا القلوب من الإقرار به .

وسيدرك لك أمير المؤمنين من علامات النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل، ما يكتفى به، إن شاء الله، وبالسيرة منه؛ لأن كتب الله عز وجل محفوظة، ومُجمَّعة محروسة، لا يزداد فيها ولا ينقص منها . وإذا وجدت فيها كلمة تدلُّك على حق وتهذيك إلى رشد، فليست واجداً أخرى تُصدِّك عنه وتشكِّكك فيه، إذا تلى ذلك بالحق ووضع على الصدق . ولكن ضلت اليهود والنصارى بتعريف تأويل الكلام، وتصريف تفسير الكتب . وأمير المؤمنين يسأل الله العصمة والتوفيق .

(١) الوارد في إنجيل متى (فصل ٥ آية ٢٤ ج ٣ من الكتاب المقدس) : «من سأل فأعطه . ومن أراد أن يقرض منك فلا تمتنع» . والوارد في إنجيل لوقا (فصل ١١ آية ١٠ ج ٣ من الكتاب المقدس) . «من يسأل يسلي ومن يطلب يجد ومن يفرح يفرح له» .

من ذلك ما قد شهد به عيسى عليه السلام عندكم وبينه في الإنجيل لكم ، إذ قال للحواريين <sup>(١)</sup> : "أنا أذهب وسيأتيكم البار قليط روح الحق الذي لا يتكلم من قبل نفسه إنما يقول كما يقال له ، وهو يشهد على وأنتم تشهدون لأنكم معي من قبل الناس بالخطيئة ، وكل شيء أعد الله لكم يخبركم به " . وترجمة البار قليط : أحمد . هذا ما لا شك ولا صريّة فيه ، وهو الذي يُخبر بما وعد الله المؤمنين وصالحى الحواريين في القرآن ، ولستم تجدون ذلك في التوراة ولا في الإنجيل .

ومن ذلك قول أشعيا النبي عليه السلام : "فقل لى : اقم بطارا ما ترى بخبرى ؟ قال : أرى راكبين بعيرين مقبلين أحدهما يقول لصاحبه : سقطت بابل وأصنامها المنحوتة " . ولستنا نعلم نبيا ركب بعد موسى صلى الله عليه وسلم بعيرا إلا محمدا صلى الله عليه وسلم كثيرا . ومن ذلك قول داود عليه السلام : "اللهم ابث جاعل السنة كي يعلم الناس أنهم بشر" يقول : كي يتبين الناس أن عيسى عليه السلام إنسان . ولستنا نعلم نبيا وضع سنة تُنسب إليه إلا محمدا صلى الله عليه وسلم . أما عيسى فإنه نصب سنة موسى عليه السلام .

ومن ذلك قول حبقوق المتنبئ في زمان دانيال : "جاء الله من السماء والقديس من جبال فاران ، وأملأت السماء من تمجيد أحمد وتقديسه ، ومسح الأرض بيمينه ، وملاك رقاب الأمم " . وقال أيضا : "تضيء لنوره الأرض ، ويحمل خيله في البحر" . فالى من

(١) راجع إنجيل يوحنا (فصل ١٤ آية ٢٦ وفصل ١٥ آية ١٦ آية ١٣ ج ٣ ص ١٨٨ من الكتاب المقدس) .

(٢) راجع نبوة أشعيا (فصل ٢١ آية ٩ ج ٢ ص ٣٤٨ من الكتاب المقدس) . (٣) كلا بالأصل ، ولم نرفق الى تصحيحه . (٤) في الأصل : « المنصرة » وقد استأثفت في أثبات ما أئتمناه بالكتاب المقدس .

(٥) راجع سفر المزامير (فصل ٩ آية ٢١ ج ٢ ص ٥٢ من الكتاب المقدس) . (٦) راجع نبوة حبقوق (فصل ٣ آية ١٥ ج ٢ ص ٧٠٩ من الكتاب المقدس) . (٧) في الأصل : "من الهان ... " .

(٨) راجع نبوة حبقوق (فصل ٣ آية ١٥ ج ٢ ص ٧٠٩ من الكتاب المقدس) .

ينحو هذا القول، وإلى أين يذهب بهذا المعنى؟ لئن ذهب به إلى غير الذي [تجمل] خيله في البحر، وبدأ من جبال فاران أمره، وغلب على الأرض ومسحها، ومك رقاب الأمم كلها، لقد تركتم الحق وأنتم تعلمون.

ومن ذلك قول داود عليه السلام في الزبور: <sup>(١٣)</sup> «صَدَقُوا وَسَبِّحُوا الرَّبَّ تَسْبِيحًا حَدِيثًا سَبَّحُوا الَّذِي هَلَّلَهُ الصَّالِحُونَ». ليفرح إسرائيل بخالفه ويتوب صهيون من أجل أن الله اصطنع له أمته، وأعطاه النصر وسد الصالحين بالكرامة، يسبحونه على مضافهم، ويكبرون الله بأصوات عالية، بأيديهم سيوف ذات شفتين، لينتم الله من الأمم الذين لا يعبده، ثم يقيد ملوكهم بالقيود وأشرافهم بالأغلال. «فأيتما أمة يكبرون الله بأصوات وأذان الصلوات الدائمة وعلى كل شرف وعند كل حرب، وأيتما أمة كانت سيوفها ذات شفتين إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم!

ومن ذلك قول أشعيا: <sup>(٥)</sup> «سَبِّحُوا الرَّبَّ تَسْبِيحًا حَدِيثًا، وَسَبِّحْهُ مِنْ آفَاقِ الْأَرْضِ فَرِحَ بِكَوْنِ فِي بَيْتِ فَيَارَ». وبنوفار قریش أهل فاران الذي نزل فيه القرآن. وأيتما أمة تسبح من آفاق الأرض إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم. عدى ألكدى.

ومن ذلك قول أشعيا: <sup>(٨)</sup> «جَدَى الَّذِي وَجِبَ بِهِ حَيِّ الَّذِي بَشَرَتْ بِهِ نَفْسِي أُنْفِضَ عَلَيْهِ رُوحِي، يُوصِي الْأَتَمَّ بِالْوَصَايَا، لَا يَضْحَكُ وَلَا يُسْمَعُ صَوْتُهُ فِي الْأَسْوَاقِ، وَيَفْتَحُ الْعَيْنُونَ الْعُورَ، وَيُسْمِعُ الْأَذَانَ السَّمَّ، وَيُخَيِّ الْقُلُوبَ الْغُلْفَ، وَمَا أُعْطِيَهُ لَا أُعْطِي فِيهِ، أَحَدٌ يَمْدُ اللَّهُ حَمْدًا حَدِيثًا، تَهْلِيلُهُ يَأْتِي مِنْ أَقْصَى الْأَرْضِ، يَجُوزُ الْمَسَاءَ بِشِدَّةِ أَمْوَاجِهِ، وَيَمْرَحُ وَكُورَهَا، سَكَتَانَا يَمْدُونَ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ، وَيَكْبَرُونَهُ عَلَى كُلِّ رَابِعَةٍ».

(١) زيادة يدل عليها ما قبلها. (٢) في الأصل: «رمحها...». (٣) راجع سفر المزمور (فصل ١٤٩ آية ١ — ٤ ج ٢ ص ١٥٧ من الكتاب المقدس). (٤) في الأصل «هلكه الصالحون...». (٥) راجع نبوة أشعيا (فصل ٤٢ آية ١٠ ج ٢ ص ٣٧٦ من الكتاب المقدس). (٦) كذا في الأصل، ولعله محرف عن «فوج». والفوج: الجماعة من الناس. (٧) كذا في الأصل، ولم ندر طائفتين التكتين ولا لذكرهما معنى. (٨) راجع نبوة أشعيا (فصل ٤٢ آية ١ — ١٠ ج ٢ ص ٣٧٦ من الكتاب المقدس). (٩) كذا في الأصل.



ومن ذلك قول داود عليه السلام في المزموار الخامس والأربعين ، يقول الله عز وجل  
 لمحمد في الزور : <sup>(١)</sup> «انصبت رحمتي على شفيعك من أجل ذلك باركتك الدهر» ، <sup>(٢)</sup> قلّد  
 السيف على الأعم ، أيها الجبار على الأعم بالقتل والأسر والسباء بهالك ومحمدك أحمد سلب  
 البر منك كلمة الحق وذلك لك الأشياء سيفك بحسمه يمينك ونباك مسمومة وسقط  
 عند الأعم . « فأى نبى كان على الأعم جبارا ولم يأذن الله قتالا إلا نبينا صلى الله عليه وسلم .

ومن ذلك في آخر التوراة <sup>(٣)</sup> : « جاء الله تبارك وتعالى من سيناء وأشرف من ساعير  
 وأستبان واستعلن من جبال قارآن ، وجاء عن يمينه ربوات القديسين » . وتفسير هذا  
 أن الله عز وجل أنزل التوراة على موسى في طور سيناء ، وأنزل الإنجيل على عيسى عليه  
 السلام في جبل ساعير وهو جبل بالشام ، وأنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم في جبال  
 قارآن وهي بلاد مكة . وأنتم تجدون ذلك في كتبكم مكرا وتعريفه جيما بلفتكم .

ومن ذلك قول الله عز وجل لموسى عليه السلام «سأقيم لهم من إخوانهم مثلك أجعل  
 كلامي على فهمه ولا يتكلم إلا بما أمره به» . فئن إخوانه بنى إسرائيل إلا بنو إسماعيل !  
 أما تعلم أن لو كان الله عز وجل يعنى أحدا منهم لقال لهم : أقيم لكم نيا منكم ! .

فإن قلتم إنما قال من إخوانكم ، وهو يريد من أنفسكم ، فهب أمير المؤمنين قبل هذا  
 الخلف منكم ووسع في هذا المجال لكم ، فكيف تصنعون يقول الله عز وجل في التوراة :  
 «مثل موسى في بنى إسرائيل لا يقوم» فهل تجدون من هذا مخربا ، ومن الإيمان أن المعنى  
 وقع على محمد صلى الله عليه وسلم بذا .

- (١) راجع سفر الزبور (نزل ٤٤ « وفي بعض النسخ ٤٥ » آية ٣ — ٨ ج ٢ ص ٧٩ من الكتاب المقدس) .  
 (٢) في الأصل : « في نسخة وأربعين زمودا » . (٣) في الأصل : « من أجل ذلك باركك الدهر . واستمنا في تصحيحها بالكتاب المقدس الذي وردت فيه الجملة هكذا : « وقد انسكت النعمة على شعيتك فذلك باركتك الله إلى الأبد » . أما الباقي فمرفوع إلى تصحيحه فأثبتناه كما وردت بالأصل ..  
 (٤) راجع سفر شئنة الاشرع (فصل ٢٣ آية ٢ ج ١ ص ٤٤٣ من الكتاب المقدس) .  
 (٥) راجع سفر شئنة الاشرع (فصل ١٨ آية ١٥ ج ١ ص ٣١٨ من الكتاب المقدس) .

ألا تسمع قول الله عز وجل : « اجْعَلْ كَلِمَتِي عَلَىٰ فَمِّهِ كَمَا يُعْتَقِي بِهِ ، أَمْحَىٰ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ » .

أوليس قد أمر عيسى عليه السلام حَوَارِيَّهٖ أَنْ يَقُولُوا فِي صَلَوَاتِهِمْ <sup>(١)</sup> : « يَا أَبَانَا الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقْدُسَ اسْمُكَ » . كيف صار عيسى دونهم أبنا ، وصار له دونهم أبأ ، وهم يقولون : يَا أَبَانَا ! أم كيف لم يُجْعَلْ سَلِيَانُ بْنُ دَاوُدَ إِمَامًا وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِدَاوُدَ : « يُؤَدُّ لَكَ غُلَامٌ يُسَمَّى لِي وَأَسْمَى لَهُ » <sup>(٢)</sup> ، وَلَمْ لَا يَجْعَلُونَ إِسْرَائِيلَ إِمَامًا وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ : « أَنْتَ يَكْرِي » ! بل لَمْ لَا يُسَمُّونَ الْمُؤْمِنِينَ طَائِفَةً وَالْحَوَارِيَّينَ خَاصَّةً [ألمة] ، وَقَدْ قَالَ الْمَسِيحُ لِلْحَوَارِيِّينَ : أَنْتُمْ إِخْوَتِي ، وَقَدْ قَالَ فِي الْإِنْجِيلِ : « أَصْطَلِكُلْ مِنْ آمِنْ بِي سُلْطَانًا يُدْعَى لَهُ » . وَإِنْ كَانَ هَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ لِلْمَسِيحِ إِخْوَةٌ أَفَلَا تَجْعَلُونَهُمْ كُلَّهُمْ أَلَمَةً ! وكيف يقولون : إِنَّ عِيسَى ابْنَ اللَّهِ ، وَهُوَ يَقُولُ فِي مَوَاضِعَ جَمَّةٍ وَأَمَّا كُنْ كَثِيرَةً إِنَّهُ ابْنُ الْإِنْسَانِ ! فكيف يكون ابْنُ الْإِنْسَانِ ابْنَ اللَّهِ ؟ وَمَعَى كَانَ ذَلِكَ ؟ لَنْ قَالُوا : إِنَّ عِيسَى لَمْ يَزَلْ ابْنُ الْإِنْسَانِ ، لَقَدْ جَعَلَاوُا مَعَ اللَّهِ إِنْسَانًا قَدِيمًا وَجَعَلَاوُا اللَّهَ إِنْسَانًا حَدِيثًا ، وَجَعَلَاوُا الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ لَمْ يَزَلْ ، وَابْنَ الْإِنْسَانِ فَمَا حَدَثَ . وَهَذِهِ أُمُورٌ مُتَنَاقِضَةٌ ، وَجَمِيعٌ دَاحِضَةٌ ، وَأَقَاوِيلُ فَاحِشَةٌ .

فَإِنْ قَالُوا : إِنَّمَا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ لِأَنَّهُ رُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ ، فَلْيَعْبُدُوا الْمَلَائِكَةَ فَلِأَنَّهُمْ فِي السَّمَاءِ قَبْلَهُ ، وَإِدْرِيسَ فَقَدْ رَفَعَهُ اللَّهُ وَغَيْرَهُ . وَإِنْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْمَسِيحَ لِأَنَّهُ لَمْ يُخْلَقْ مِنْ ذَكَرٍ ، قَادِمٌ وَحَوَاءٌ لَمْ يُخْلَقْ مِنْ ذَكَرٍ وَلَا أُنْثَى ، وَلَمْ يَقَعْ مِنْ غَمِّ الرَّحِمِ وَضِيقِ الْبَطْنِ وَحَالِ الصَّبَا فَيَا [وَقَعَ] فِيهِ الْمَسِيحُ .

وَإِنْ قَالُوا : إِنَّمَا نَعْبُدُ عِيسَى لِأَنَّهُ أَحْيَا الْمَوْتَى ، فَمَا أَحْيَا حَزَقِيلَ أَكْثَرَ ، وَمَا كَانَ مِنَ الْيَسَّعِ تَمْلِيذُ الْيَاسِ عَجَبٌ ؛ لِأَنَّهُ أَحْيَا الْمَوْتَى بَعْدَ مِائَتِينَ مِنَ السَّنِينَ . وَإِنْ طَلَبْتُمْ ذَلِكَ فِي سِيرِ الْمَلُوكِ عِنْدَ قِصَّةِ الْيَسَّعِ أَصْبَحْتُمُوهُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

(١) راجع الإنجيل متى (فصل ٦ آية ٩ ج ٣ ص ١٠ من الكتاب المقدس) . (٢) في الأصل : « وصار دونه أبأ ... » . (٣) لم نجد هذا في الإنجيل . (٤) حزقيال نبأ به الله تعالى إلى بني إسرائيل ، وهو الذي أحيا الله به القدم الذين نرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، فأحياهم الله تعالى بعد موتهم بدعوته . وهو ما يشير إليه قوله تعالى : (ألم ترأى الذين نرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت) الآية .

وإن كانوا إنما يعبدون المسيح من أجل الأسقام التي أبرأ والمعائب التي أَرَى ،  
 فعجايبُ موسى وأعجب وآياته أعظم . أين ما ذكرت لك من [عجايب] عيسى من عجائب  
 موسى : من انقلاب البحر له ، وسلوك الجيش معه ! أم أين ذلك من حجر يضربه فينفجر  
 بعيون الماء ، ويحمله معه حيث شاء ! بل أين تلك وهذه وغير هذه من الآيات من حبس  
 يُوسُفُ الشمس ثلاث ساعات ! وكل ما صنع موسى وعيسى وغيرهما بإذن الله وأمره وقدره  
 وقضائه . فأتق الله وكن من القائلين بالحق ، الموحدين للرب ، ولا تقل على عيسى ما لم  
 يَقُلْ ، فإنكم لا تجدونه قال لكم في شيء من كتبكم : اعبُدوني فلاي ربكم . تعالى الله عما يقول  
 الظالمون ، ويذهب إليه الجاحدون .

وإن أمير المؤمنين قد أحب أن ينصح لك ، في أول داريك بك وأهم شأنيك لك ،  
 فذلك إلى الإسلام وأمرك بالإيمان الذي به تدخل الجنة وتنجو من النار . فإن قبلت  
 لحظك أصبت ، ونفسك أحرزت ، ولك ما السامين ، وعليك ما عليهم . وإن رددت  
 نصيحة أمير المؤمنين فيما فيه الخطأ في آخرتك ، فإن أمير المؤمنين ينصح لك فيما فيه الصلاح  
 في عاجلتك : من إعطاء الجزية التي يحقن الله بها دماءكم ويحزم بها سيئاتكم ، ويعملها قواماً  
 لمعاشكم ، وصلاًحاً لبلادكم ، وتوفيراً لأموالكم ، وأماناً لجنابكم ، ومسعةً لسيركم ، وبركةً على  
 فقرائكم ، ورضى لأهل الحاجة والفاقة والمُسْكِنَة منكم .

وإن يذكر أمير المؤمنين في الجزية لكم من حلول الأمن فيكم ، وعموم العافية لماكم ،  
 واستقامة البركة عليكم ، وكف أيدي المسلمين عنكم ، وبسطها على الأعداء منكم ، شيئاً إلا  
 وفي قليل ما كان من أشباه ذلك أيام تلك القدية التي كان الله أجرى نعمتها لكم على يده ،  
 وفتح بركتها عليكم من قبله ، ما يدلُّكم على صدق أمير المؤمنين فيما يذكر ، ويشهد له على  
 حقه فيما يقول إن شاء الله . فقد تعلمون أن الله قد أدخل على كل طرف من أطرافكم ،

(١) إشارة إلى قصة يوشع بن نون قى موسى طيبا السلام واستيقظاه الشمس ؛ فقد روى أن يوشع قاتل  
 الجبارين يوم الجمعة ، فلما أدبرت الشمس للغروب خاف أن تغيب قبل فراخه ويدخل السبت فلا يحل له قتالهم فيه ،  
 ف دعا الله تعالى ، فرد له الشمس حتى فرغ من قتالهم . (٢) السرب : الطريق .

وصُف من أصنافكم، بتلك الفدية، أموراً عظيمة البركة، واسعة المنفعة، في أمور غير واحدة :

منها : أن قادة جنودكم وساسة حربكم، كانوا بعد وقوع أمرها وأستحكام عقدها، فراغاً لمحاربة أعدائكم ومناصية من ناوأكم، بين أن يستجمعوهم في بلادهم ويتلوا عليهم في ديارهم، ولا يهربون تعقب بئران ساروا في أرضهم، ولا يتحفون طراداً إن اجتمعوا لقتالهم أن يقيموا في خفيض ودعة، وأمن وسعة، مع الأزواج والأولاد والعيال والأوطان والرباع والتمال، وهم اليوم يتربون الجيوش من كل شعب ويتحفون المحتوف في كل وقت، لا يهدأ لهم جاش، ولا يسكن لهم قزع، ولا ينأى لهم ليل، ولا يأمن فيهم حال، قد قطعت الهوم دابرهم، وأضمرت المخاوف جئوبهم، وأستأصلت الجنود أموالهم .

ومنها : أن أهل الحراثة وإخوان العارة، في بلادك وأطراف أرضك، كانوا سراعاً إلى عمارة أرضهم وإصلاح ما تحت أيديهم، فيما لا قوام لهم ولا لمعاشهم إلا به، ولا بقاء لدينهم إلا معه؛ قد آمنوا الجيوش ومعرتها، والجنود وبادرتها، وانتشروا للعارة، وأبتكروا في الزراعة، فارقوا رموس الجبال والحقام النياض، وراحوا في أوساط أوطانهم وظلال محالهم، يشققون الأنهار، ويفرسون الأشجار، ويهجرون العيون، حتى تمت الأموال، وأخضرت الحلال، وأغصب الجنتاب، وأصبحوا اليوم عن الزراعة ممسكين، وللميراث تاركين، وبغيرها مشغلين في إصلاح آلات الحرب، وإحراز العيال في الحصون، ورم القلاع للبلاء، وتحريش الحصون للبلاء، قد آتقلوا عن منابت البر وكرائم الأرض، ومجارى المياه، إلى أوثال الجبال، وأشجار النياض، وبتلون الأودية؛ فليس يملكون من عمارة بلادهم، ولزوم أوطانهم، [و] من تناول شأركم وقوام معاشهم مثل ما كانوا يملكون، ولا يتالون من خفص العيش ويطلب الأمن ولذة الدعة، قريباً مما كانوا يتالون .

ومنها : أن لإخوان التجارات ، وأصحاب الأموال وأهل الطُّلف والحافر ، كانوا يتناولون ما شارفهم من بلادنا وما قاربهم من أسواقنا ، فينتفون تجارتهم ويُسلون بضائعهم ، فتعظم الأرباح وتضعف الأثمان . وكانت الباعة من تجار المسلمين وغيرهم من الذين ، يتناولونهم للبيع لهم ويتناولونهم للشراء منهم ، نعمت البركة وسهلت المنفعة ، حتى نالت الرماء في جبالها وأصاها ، والنساء في غزولهن وعمل أيدين فضلا عن غيرهن .

ومنها : أنك ومن قبلك من ذوى العباداة والزهادة والتأله والنسك والنيات ، كنتم على طائفة من أيام الرضا بالحرب ، وسلامه من أوزار الحص على قتل الخوف ، قد تجوتم من معصية المسيح في الدنيا التي نهاكم عنها ، والأموال التي أمركم بها ، من نحو قوله : ”مَنْ لَعَنَ خَدَّكَ الْيَمِينَ فَمَا كَانَ مِنَ الْأَسِيرِ ، وَمَنْ أَتَرَ عَ قَبْصِكَ فَأَعِطَهُ كَسَاكَ ، وَمَنْ لَعَنَكَ فَافْضَرْ لَهُ ، وَمَنْ شَقَّكَ فَأَغْرِضْ عَنْهُ“ .

ومنها : أن من بأقاصى بلادك ونواحي حوزتك ، قد ذاقوا تلك الأيام من لذة الخلف ، ودعة الحال ، وحلاوة الأمن ، ورقاية العيش ، وسعة العافية من سياء أزواجهم ، وقيض أولادهم ، وحطم معاشهم ، وأسر دجالهم ، وضميمة بقرهم وغنمهم ، وإفساد شجرهم وثمارهم ، وإجلاء عن مساكنهم وأوطانهم ، ما لم يكن لهم رأى يعرفه ، ولا ظن يئله ، ولا طمع يُقار به ، ولا أمل يذهب إليه . وما قد عرفت الخاصة من بطارتكم ، والعامه من أهل ملتكم به : من رافقكم بهم ، ورحمكم لهم ، وشَفَقْتُمْ عليهم ، وأُتْرِكْتُمْ لإياهم ، وبركة ولايتكم ملككم ، ومنفعة سياستكم أمرهم ، ما قد أزدادوا لكم به محبة ، وفي بقاكم رغبة ، ولأمركم طاعة ، وعلى ملككم شفقة ، وفيما نابكم نصيحة ، مع ما قد أزددتم بذلك من الهية في صدور الأعداء ، والشرف في قلوب النظراء ، والعظم في عيون الأمم ، حتى أقروا لكم بقوة عزائم المقول ، وفضل سياسة الأمور ، وصحة تدبير الملك ، وصدق النية ، ولطف الحيلة التي

(١) في الأصل : ”من بلادهم ...“ . (٢) كما في الأصل . (٣) راجع انجيل متى (نصل ٥ آية ٣٩ ج ٣ ص ٩ من الكتاب المقدس) .

جعلوا نسبة عملكم بها ، وجعل رأيكم فيها ، على أنكم نظرتُم لضعافتكم حتى قُووه ، ولضعفائكم حتى استَغفوا ، ولقرايتكم حتى بدوا وحيو وفعوا المسلمين من أيام الحروب وأوزار القتال ، ومعصية المسيح عليه السلام ، ولأعدائكم الأبعدين وجيرتكم الأقربين ، حتى كنتم من فرائضكم ، واشتغالكم من أصرركم بها ما أوطأتموه لحر بحر القتل ، وذلل الأسر وغلبة القهر ، والإذمان والاستسلام . وإما كفيتموهم بالصلح ، وأستوثقتم منهم بالزهن .

فإذا ذكرت ما كان من هذا وأشباهه وأمثاله في القديّة ، فاعلموا أن أمثاله وأضعافه مقيم معكم في الجزية ، فلا يكون لك رأيٌ غيرها ولا أمر سواها ؛ فلقد أكثر أمير المؤمنين العجب من أصرركم ، وأطاع تقليب الفكرة في بعضكم ، فظن أن إخراجكم من جميع ما كنتم فيه إلى خلافه مما أصبحتم عليه من انتظار وقعات الحروب ، وصولات الجنود وأكل الحدود ، وتوقع الجلاء والسباه والقتل ، والأسر والحصر ، شيئا آخذكم الله عز وجل فيه عن أنفسكم وكيّدا استدرككم به لما علم من قلوبكم .

ألا إن أعجب عذركم وأفظمه كان عند أمير المؤمنين إذ بلغه جرائتكم على الله عز وجل في نقض عهده ، واستخفافكم بحقه في خُفَر ذمته ، وتهاونكم بما كان منكم ، وأنتم تعاملون أن موثيق اليهود ونذور الأيمان الذي وضعه الله عز وجل حرماً بين ظهراي خلقه ، وأماناً أفاضه في عباده ، لتسكن إليه نفوسهم ، وتطمئن به قلوبهم ، وليتعاملوا به فيما بينهم ، ويقسموا به من دنياهم ودينهم ؛ فما من ملك من الملوك ولا أمة من الأمم ، تبيح جحى الله عز وجل ، تتأونا به وجراً عليه ، إلا أجرى الله عليهم دائرة من دول الأعداء ، وأنزل عليهم عذاباً من السماء . وقد رجا أمير المؤمنين أن يُجرى الله نعمته منكم بأيدي المسلمين ، بعد إذ كان أعتقد عهدكم ، وأخذ ميثاقكم بالإيمان المفلّطة ، واليهود المؤكدة ، التي قد اعتقدتها في رقابكم ، وحملها على ظهوركم ، فاشهدتم الله بها على أنفسكم ، وقسمت بها من حولكم ، وحكم بها بطارتكم وأساقفتكم . فلا الله آفتيتكم ، ولا من الناس أستحييتكم ، نكاً للعهد ، وبفضا الساميين ،

وَسَتَرًا بِالْأَمَانَةِ ، وَإِبَاحَةً لِلْحَيَاةِ . فَوَقَّعُوا الْعُقُوبَةَ ، وَانْتَظَرُوا النَّيْبَ ؛ فَقَدْ وَثَّقَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مَا هُوَ حَالٌّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ .

وَمِنْ أَسْبَابِ مَا يَرِيدُ اللَّهُ مِنَ الْإِنْتِقَامِ مِنْكُمْ ، مَا قَدْ أُنْزِعَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَعَزِمَ عَلَيْهِ ، وَقَذَفَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ : مِنْ الْإِرَادَةِ وَالنِّيَّةِ وَالرَّغْبَةِ فِي إِسْطَاءِ الْجِيُوشِ بِأَدْنَىكُمْ ، وَاسْتِبَاءِ الْمَقَاتِلَةِ أَرْضَكُمْ ، وَالتَّفَرُّغِ لَكُمْ مِنْ كُلِّ شُغْلٍ ، وَإِلْإِثَارِ الْجِهَادِ كَمِ عَلَى كُلِّ عَمَلٍ ، حَتَّى تَوْثِقُوا بِاللَّهِ وَأَنْتُمْ طَائِعُونَ أَوْ كَارِهُونَ ، وَتَوْثِقُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدِ وَأَنْتُمْ صَاغِرُونَ . فَكُونُوا عَلَى عِدَّةٍ مِنَ الْجِزْيَةِ ، وَيَقِينُ مِنَ الْإِجْتِاجِ الَّذِي لَا طَاقَةَ لَكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِهِ ، وَلَا صَبْرَ لَكُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّ جُنُودَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَارِغَةٌ كَثِيرَةٌ ، وَنَحْرَائِشُهُ طَامِرَةٌ وَافِرَةٌ ، وَنَفْسُهُ حَمِيَّةٌ بِالْإِتِّفَاقِ ، وَيَدُهُ مَطْلُوعَةٌ بِالْبَيْتِ ، وَالْمُسْلِمُونَ نَسَاطَ الْيَمِّ ، مُنْقَلِبُونَ عَلَيْكُمْ ، قَدْ عَزَّمَهُمُ اللَّهُ فِي لِقَائِكُمْ عَادَةً يَرْجُونَ أَنْتَظَارَ مِثْلِهِ ، وَأَبْلَاهُمْ فِي قِتَالِكُمْ بِلَاءٌ مِنْ أَمْثَلِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَكَلَّمَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ نَذِيرَهُ بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِهِ ، وَمُقَدِّمَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ جِيُوشِهِ ، إِلَّا أَنْ تَوْثِقُوا الْجِزْيَةَ عَنْ أَلْفِي دِينَارٍ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهَا ، وَحَدَاكُ وَمِنْ قَبْلِكَ عَلَيْهَا ، رَحْمَةً لِلضُّعْفَاءِ الَّذِينَ لَا تَرْحَمُهُمْ ، وَتَوَجُّعًا لِلْمَسَاكِينِ مِمَّا لَا تَوَجُّعُ مِنْهُمْ مِنَ الْجَلَاءِ وَالسَّيَاءِ وَالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَالْقَهْرِ ، وَقَسَاوَةِ مِنْ قُلُوبِكُمْ ، وَأَثَرَةٍ لَأَنْفُسِكُمْ ، وَأَعْتَصَامًا بِخَوَاصِكُمْ ، وَإِجْلَاءً لِعَوَامِكُمْ الضُّعْفَاءِ الْفُقَرَاءِ الْمَسَاكِينِ الَّذِينَ لَا تَحْتَمُونُهُمْ بِقُوَّةٍ ، وَلَا تَدْفَعُونَ عَنْهُمْ بِجَهْلَةٍ ، وَلَا تَرَاغِبُونَ فِي الرَّحْمَةِ لَمْ تَتَمَتَّعْطَفْ عَلَيْهِمْ ، أَدَبَ الْمَسِيحِ إِيَّاكُمْ ، وَقَوْلَهُ فِي الْكَتَابِ لَكُمْ : ” طُوبَى لِلَّذِينَ يَرْجُونَ النَّاسَ ؛ فَإِنَّ أَوَّلَكَ أَصْفِيَاءُ اللَّهِ وَنُورُ بَنِي آدَمَ “ .

وَأَيَّمُ اللَّهُ لَوْ يَعْلَمُ مَنْ قَبْلَكَ مِنَ الْمَسَاكِينِ وَالزَّرَاعِيْنَ وَالْفُقَرَاءِ وَالضُّعْفَاءِ وَالْعَمَلَةِ بِأَيْدِيهِمْ ، مَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لِحَدَثِهِمْ عَلَيْهِ وَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ ، مِنْ لِيَاوِيهِمْ ، وَإِزَالِهِمُ الْأَرْضَ الرَّاسِعَةَ ، وَإِمَّاكَانَهُمْ مِنْ مَسَائِلِ الْمَيَاءِ السَّائِغَةِ ، وَالْعَدْلِ عَلَيْهِمْ مِمَّا لَا تَبْلُغُهُ أَنْتَ وَلَا تَقَارِبُهُ ، رَفَقًا بِهِمْ وَنَظَرًا لَمْ وَأَحْسَانًا إِلَيْهِمْ ، مَعَ تَحْلِيلَتِهِ إِيَّاكُمْ وَأَدْبَانَتِهِمْ ، لَا يُكْرَهُمْ عَلَى خِلَافِهَا وَلَا يَجْزِيهِمْ عَلَى

غيرها ، لاختاروا قرب أمير المؤمنين :لى قريك ، وجواره على جوارك ، ولأخذوا أنفسهم وأموالهم وأولادهم وأزواجهم وعيالاتهم ، مما يحمل بهم في كل عام ويقعون من كل غزاة . فائق الله وأقبل ما عرض عليك من الجزية ، ولا يمنعك ما فيه الخط لك ولأهل مملكك . ونحن على رجاء أن الله لا يؤخر ذلك منكم ويدفعه عنكم ، إلا ليجعله على يد أهل بيت النبوة والرحمة ، ولأهل الوراة فيهم للكتاب والحكمة ، الذين لا يدخل عليكم في الإذعان [لهم] وأداء الجزية اليهم حية ولا قبيصة ولا طار ، والذين يقون لكم بما يعقدون ، ويتبعون فعلهم ما يقولون .

ثم أمير المؤمنين بخاصة لما جعل الله عليه رأيه وفيه نظره من البر والرحمة والإقسط والوفاء بالعقود والعهود والشروط ، نظراً لسينه وخوفاً من ربه ، ولما قذف الله في قلبه وقلوب المسلمين من المحبة والطاعة والأثرة ، ولما جعلهم الله عليه من أجتاع الكلمة ، وأتفاق الأئمة ، والنصائح في السر والعلانية ، وما عوده الله من نصب له يجاذبه ورماه بمكابدة ، وعصاه بحيلة : من النصر العزيز ، والفتح القريب ، والظفر المبين . فابذل من الجزية ما شئت ، وسم منها ماهويت . وأعلم أن أمير المؤمنين ليس يحسدك عليها حاجة به إليها ولا للمسلمين ، ولكن طاعة لربه وأثرة لحقه ، وليجعلها سبباً لما يريد أن يجري فيما بينه وبينكم . وإنه إنما كان قبول المهدي — رحمه الله — القدية منكم ، بطلبة أمير المؤمنين كانت إليه ، والحاجة كانت فيها عليه ؛ ولم يكن من رغبة فيها ، ولا حاجة إليها ، ولا استعظام لها ، ولقد كان يعطى في المجلس الواحد مراراً أمثالها ، ولكن ذلك كان رأى أمير المؤمنين يومئذ فيكم . فأما اليوم إذ استبان له غدركم وتقصمكم ونكثكم واستخفافكم بدينكم وجراتكم على ربكم ، فليس بين أمير المؤمنين وبينكم : إلا الاسلام أو الحرب المحلية ، إن شاء الله . ولا حول بأمر المؤمنين ولا قوة إلا بالله ؛ عليه يتوكل وبه يثق وإياه يستعين . والسلام على من أتبع الهدى .

(١) في الأصل : " ولا يتدلوا ... " . (٢) كذا في الأصل وهو غير واضح ولعل أصل الجملة " ولا يمنعك الشيطان ما فيه ... الخ " فسقط هذا أرغوه سبوا من النص . (٣) كذا في الأصل :



## ٣ - رسالة يحيى بن زياد في تقرير الرشيد

أما بعد، فإني أسأل الله لأمر المؤمنين في غير أمور، أحسن ما عوّده في سالفها من السلامة التي حرمه بها من المكاره، والعز الذي قهر له به الأعداء، والنصر الذي مكن له في البلاد، والهدى الذي وهب له به المحبة، والرفق الذي أدّله به الحلب، والاستصلاح الذي آتت له به الرعية، حتى يكون بما أعطاه من ذلك، وما هو مستقبل به منه، أمد خلقائه في الخير ذكراً، وأيقاهم في العدل أثراً، وأطوهم في العمر مئة، وأحسنهم في المعاد مقبلاً.

ثم محمد الله الذي جعل نعمته على أمير المؤمنين شواهد منه على منزلة منه ومكانه عنده ولا يحتاج معها إلى شهادات المؤمنين، ولا صفات المقرّطين، ثم جعل ذكر نعمته على أمير المؤمنين ومناصحتها والمجاهدة لمن كادها فريضة أوجبها على العباد، ومحبة أمتهم بها، ورفقاً مبرز به بينهم، فمن أصبح من رعيته أكثر شغله أن يستعمل لسانه في صفته، ويزكر عاينه وفضائله، وجوب حقه وطاعته، فقد أصبح أثراً أولى الأمور وأحسنها مغبة في دنياه ودينه، ومن بدل ذلك عن قدره عليه، ودقعه بعد معرفة، فلم يدعه إلا عن خذلان حاق به، أو بدعة استقامته، كانت محبة الله لأمر المؤمنين عليه هي الكافية لمؤنته. وقد كان علماء الناس وجهالهم يسوون في عام المعرفة بفضل أمير المؤمنين، فأما الخائن فلاهل الفضل فيه فضيلهم، غير أنه مما كان من ذلك فقد أصبحوا وهم في كل منازل ثلاث: حاسد محب الحسد بصره عن مواقع الصواب أن يراه، والنعمة أن يشكرها، والحق أن يؤدبه، وكانت معرفته عليه وبألا، وحسده إلى الضر به قائداً. أو دونه. فاده الهوى إلى البدعة وأخرجته الضلالة من الجماعة، فهو عرضة لسوء الأدب أو سيف النكال، لم يوحش الله أحداً يفقده، ولم يعز أحداً بمولاته. وموقع معصوم استنقذه [ق]

(١) في الأصل: «الغير». (٢) في الأصل: موقع معصوم ثم استنفذ بولاة الخ.

بمؤالاة أمير المؤمنين من غل الحسد ويدع الآراء وجبّله على محبة الهوى ، فهو إن نظر فبعينه ينظر ، وإن قال فيلسافه يقول ، لا يأمن حتى يعلم أن أمير المؤمنين قد استوطأ مهاد الخفض ، ولا يزال له طليعة رأي توفى على خطة حرم وغامض فطنة ، تغلغل إلى لطيف منفعة و [ تكون ] سهم مكيدة نحو عروة ، قد علم أن يوم أمير المؤمنين يومه ، وأن فده غده ، فهو وإن تموض لأداء الحق في نصيحته ينظر لنفسه نظر من لا يأمل السلامة إلا بسلامته ، ولا البقاء إلا ببقائه . وقد رجوت بالفراة التي جعلها الله لي به ، والواجب الذي عرفته من حقه ، والعظيم الذي حملته من معرفته ، ألا يكون أحد ينظر إليه بين الإشفاق أقوم ما جعله الله أهله مني ، فإن أبلغ الذي أردت فيتوبق الله ، وإن أقصر فمن مثلي ما حاولت قصر المجتهد .

فأقول ما أنا ذا ذكره من فضله : أن الله قدم له الصنيع في سابق علمه ، فجعل محبته خير العائد منصرفاً ، ثم أختار له أياً فأباً لا ينقله من أب إلى أب إلا نقل معه وإليه فضيلة العنصر الذي هو منه حتى صيره بعد فضائل آبائه إلى أفضل بدنة ، فكان خير خلف من خير سلف ، وأفضل ولد من أفضل أئمة ، وأرضى إمام من أئمة ، ثم أختار له مكارم الأخلاق ، وألبسه جمال الصورة ، فلا تعلم نحن ولا آباؤنا خليفة أبعد في حلمه من ذلك ، ولا في هيئته من تجبر ، ولا في شدة من عفف ، ولا في لينه من وهن ، ولا في آتائه من غفلة ، ولا في اقتصاده من بخل ، ولا في بخله من إضاعة ، ولا أرق وجهها عند لقاء ، ولا أحسن إشرا عند تحية ، ولا أغزر دعماً عند موعظة ، ولا أرين قياداً عند تذكير بالله منه .

ثم أفضت إليه الخلافة في المسال ما فيه من القلة ، وفي الناس ما فهم من الإحراج ،<sup>(٢)</sup> فما دمع عن مال يعطيه عن قلة ، ولا قطع عادة توسعة على رعيته ، ثم استندز الحلب برفقة ، فكلماً دز له منه تخبط فؤقه طائفة من جُنْده حتى سقاهاهم بعد التفريق رياء ، وبعد التهل

(١) في الأصل : "مودة" . (٢) الإحراج : الضيق وفي الأصل : "الاستخراج" .

(٣) الشخب (بالضم) : ما تخرج من تحت يد الخالب عند كل غزوة وبصرة للفرع . (٤) فوه الشئ : أخطاه إياه قليلاً قليلاً .

عَلَا؛ ثم ساس رعيته بألن السياسة فعفا عن مذهبه ولو شاء لعاقب، وآتَن خائفها ولو طلب لأدرك، ودفع بالحسنة السيئة ولو كَافًا لفسد، فإِبرَح صُنِعَ اللهُ لَهُ يَفْضُ بِمُوجِ الضلالة بلا قتال، ويُزَلِّله النَّصْرُ بِلا مَكَاثِرَةٍ، حتى فرغ سُفْله من كان لا يُفْرُغُ من الوزراء، ونام بسره من كان لا ينام من العامة، وأطمأنت بنا آتته للأسفار دار من كان لا ينسأل انخفاض من الجنود حتى استوطئوا مَرْكَبَ الأَمْنِ فكلهم ضَيِّينٌ بمفارقته. أما ذُو النِّبَةِ فَرَكَنَ إلى النَّقْصِ. وأما من لا يبدله ففعل ما كان يُؤْخِذُ به من الاستكراه. وأما الحشَرُ من الجنود والرَّعَاعُ فغلبت عليهم عادةُ الهَوْنِ، حتى لو رأيتهم يُمِذُّهُ الأَمْرُ فما يُمِذُّهُ الأَمْرُ غَنَاءُ عنده ولا نشاطًا ولا حداً إِنْ وَكَّله إلى قُوَّته، وقواه بماله <sup>(١)</sup>.

فلما رأى ما رأى من تَحَاذُلِ العامة، وتواكُلِ الجنود، وتُرُورِ النِّبَةِ، ومُجُودِ الحَلْبِ، واستكلاّبِ العَمَالِ على الخيالة، وجرأة الرعية على منع الحق، ومال الفراغ بكثير من الناس عن القصد، فحزرت الأهواء، واستمرت يراُنُ العصبية، وجاشت صدور الحسدة وأشياهم بالأمان، وظنوا أن لا شدة معه، وأن عفوه لا تكبر بعده، وأمير المؤمنين يرميهم بين بصيرة، وأذن مِصْبِخَةٍ، وقلْبٍ يَقْظَانٍ؛ وقد وقُرَّ الحِلْمُ أن يَنْفَ لَأَوَّلِ بُوادر السفهاء، فهو ينتظر بالمدبر أن يقبل، وبالمسائد أن يعتدل، وبالمغلوب على رأيه أن يتدكَّرَ فيبصر، ثم في أثرهم تسمير من قَدَمِ الرُّوْيَةِ قبل العجلة، والعفو قبل العقوبة، والتثبت قبل الإقدام، فاتخذ روابط ألقبها على الجسلة والنشاط، ليست لهم سوايُ تدعوهم إلى الإدلال، وقسموهم إلى كثير لم يتألو؛ إنما همهم أن يتفاضلوا في النجدة، ويستوجبوا بالقضاء، ثم تفرقهم على خواص خدمه، فإذا أراد أن يتناول بهم فرصة ممكنة، أو عدوا غاط، أو رائق قنني قبل الساعة، يغمس يده إلى أيهم أراد، فينفذ لأمره ولم يتحرك فيه مشير، ولم يخرج به توقيع، ولم يخص فيه عاقبة، ولم يطلع منه على مكيدة، فلم نعلم أننا رأينا جندا

(١) في الأصل : « بماله آه » . (٢) في الأصل : « إن وكه إلى قوته ولا نشاطا ولا حدا وقواه

بماله » . (٣) غاط : دخل .

أسرع نهضة إذا مروا ، وأحسن إجابة إذا دُعوا ، وأفضل غناء إذا استكفوا من جُنده .  
ثم قصد بنفسه حتى مثل بين النواحي الى اهدمها له قسداً في البيضة ، وانتقاصاً من  
الأطراف ، فاقى ناحية الشام فوطئها وطأة جمع الله بها لحم شتات الفرقة ، وأخذ بها بينهم  
نار الفتنة .

وأما الجزيرة فإنه ألفاها وهي كالبحر النبل ، فاستصل الله به منها شاة الباء ، وأطلقا به  
عنها بوابر السفهاء ، وخير أمير المؤمنين من منزله الذي هو به منزلاً جمع من بسطته  
في الموضع ، ورفاهيته في المعاش ، أنه حامل للجنود ، جامع للرافق ، فباشر أمره أمراً ،  
حتى إذا استدبره منها مبرم ، استقبل بسده جسام متقيض ، وإذا اشتم من مغوره مغراً  
لم يرض حتى يفتتح من حصون أعدائه حصناً ، وإذا قضى الله عنه حجة ، وصل خطوه  
منها عزراً ، ثم رأينا ما عزم الله به عليه من ترك الصوائف مراً<sup>(١)</sup> قريباً للذي كان من محمود  
أهل الشام لما كانوا فيه من النعمة ، فلم تتشكك في أنه توفيق من الله له وافق حفظاً  
عليهم حتى استباحوا الحرم ، وتساكوا الدماء ، وتعضوا ما بينهم من مبرم حبل الإسلام .

ومن ذلك أن أرمينية كانت فيها جنود تخرج عليهم أطاع تحمل اليها ، بعد اعترافهم  
بإخراجهم الأموال من كور الشام ، فلما رأى ذلك فعل كذا وكذا ، فلم يتوكل على الله في أمر  
فوكله الى نفسه ، ولم يكتف به في حفظ طرف أو قاصية نفي إلا كفاه مؤنته ، ولم أن  
ما يدخل من أضعاف العافية من عوارض الليل ، إنما هو بتقدير من الله لا يتمتع بعذر ،  
ولا يستطيع دفعه بحيلة ، يصيب فيه أقواماً بالبلايا والتحصيص ، ويقسم فيه لأقوام الأجر  
والجهاد والسعادة ، فرأى أن في عاجل ما يرفع عن أهل أرمينية من ضرر مؤنتهم  
ويعطيهم نفعاً للرعية ، وإجمالاً للقي ، ووفقاً بالمائة مع اقتصاده في الأبواب على أكلاف  
صحتها ، وفي سائر أرمينية على المقاتلة من أهلها ، ولم يزل منذ أراه الله ذلك ، يكتفيه مؤونة  
ذاك النفر ، ويكف عنه بوائقه ، حتى كأنه في هدوء الأحداث عنه ، ومكون الأئدة من

(١) الصوائف : جمع صافرة وهي النزرة في الصيف .

رَوَعَاتِهِ مَصْرُومٍ مِنَ الْأَمْصَارِ ، وَإِسْطُ الْحَقَّةِ مَأْمُونٌ النَّارَةِ . فَلَمَّا أَغْنَمَ حَقَاقُنُ مَا أَغْنَمَ ، وَاتَّهَزَ  
الْفُرْصَةُ مُبَادِرًا ، لَمَّا قَدْ اِئْتَمَرَ مِنْ مَعَاجِلَةِ الْمُؤْمِنِينَ إِيَّاهُ ، فَكَانَتْ حِينَ بَلَغَهُ ذَلِكَ مِنْ إِعْظَامِهِ  
إِيَّاهُ بِسَبَبِهِ لَهُ ، وَمَا أَنْصَبَ فِيهِ مِنْ بَدَنِهِ ، وَأَشْهَرَفِيهِ مِنْ لَبْلِهِ ، وَأَنْصَبَ فِيهِ مِنْ نَهَارِهِ ، لَمْ يَعْلَمْ  
الَّذِي يَكُونُ مِنْ أَشْتَبَاهِهِ فِي الْأَزْمِنَةِ الْمَاضِيَةِ قَبْلَهُ ، وَأَنَّهُ بِذَلِكَ يُلْجَدُ عَالِمٌ ، غَيْرَ أَنَّ حَيَّتِهِ  
لِلْإِسْلَامِ وَشَفَقَتِهِ عَلَيْهِ وَامْتِنَاعِهِ مِنْ أَنْ يَتَنَاوَلَ شَيْءٌ مِنْ أَطْرَافِهِ ، قَدْ زَادَ ذَلِكَ عِنْدَهُ قَدْرًا  
فِي الْعِظَمِ ، وَتَفَانًا فِي الْخَطْبِ ، حَتَّى أَكَلَ الْبَيْتَ بِأَكْثَرِ الْعِدَدِ ، وَأَكَلَ الْعُدَّةَ ، وَأَسْتَقْبَلَ  
أَهْلَ الْكُورِ وَالْأَمْصَارِ ، وَدَبَّ لَهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ مَنْ لَمْ يَتْرِكْ بَسَدَهُ نَهَائِيَةً فِي التَّخْيِيرِ ، وَكَانَ  
قَدْ صَرَفَ بَالَهُ إِلَى هَذَيْنِ الثَّقَرَيْنِ مِنَ الْخَزَرِ وَالرُّومِ ، وَإِلَى هَذَيْنِ السَّدُوقَيْنِ الْحَارِيَيْنِ لَهُ مِنَ  
الْمَارِقَةِ الْمُتَعَصِّبَةِ .

فَلَمَّا بَلَغَ اللَّهُ فِي أَحْكَامِ أَمْرِهِمَا مَا بَلَغَ ، لَمْ يَسْتَفْنِ عَنْ إِعَادَةِ النَّظَرِ فِي أَمْرٍ غَيْرِهِمَا مِنْ  
نَوَاحِيهِ لِيَسْتَمِرَّ بِهِ ، وَإِرَادَتِهِ فِي أَقْوَامٍ يُدَافِعُ ظُنُونَهُمْ بِهِ فِي أُخْرَى ، وَلَمْ يَغْيَرْهُمَا أَنْ مَا شِئِلَ  
مَنْ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ مِنَ الْأَمْنِ وَالْقَرَاخِ نَبِيْجُهُ مَكْرُوهَةٌ ، فَشَحَصَ عَنْهَا لِحَقِيقِ ذَلِكَ مُؤَيَّرًا  
لَا يُنْقَضُ وَلَعْنَتُهُ عَلَى أَحْبَبِهِمَا وَأَخْشَنَ عَيْشَتِهِ عَلَى أَلْيَنِهِمَا ، فَلَمَّا ظَهَرَتْ لَهُ الْعَوْرَةُ أَقْدَمَ إِقْدَامَ  
ذِي الْحِجَّةِ ، فَلَمْ يَرْمِثْهَا نَارًا خَبَتْ ، وَصَحَابَةً أَقْشَعَتْ ، لَمْ يَسْفِكْ بِهَا دَمَ أَمْرِيٍّ مُسْلِمٍ صَبْرًا ،  
وَلَمْ يَلْتَهِكْ فِيهَا حُرْمَةً مُحَرَّمٍ إِباحَةً .

وَذَلِكَ أَنَّهُ بَسَطَ يَدَهُ بَسْطًا مِنْ يُرِيدُ الْأَسْتِصْلَاحَ لِأَمْنٍ يُرِيدُ الْأَسْتِقَامَ ، فَلَمْ يَلِثَ الظَّالِمُ  
أَنْ رَجَعَ عَنْ ظُلْمِهِ ، وَالنَّاطِقُ أَنْ صَحَّتْ عَنْ بَذَعَتِهِ ، وَالتَّاكُثُ أَنْ رَجَعَ إِلَى قَصْدِهِ ، وَأَزْدَادُ  
الْبَرِّ عَلَى الْبَرَاءَةِ فَرِحُوا ، وَالسَّالِمُ بِالسَّلَامَةِ أَغْتَبَاعًا ، وَلَمْ تَرْمِثْهُ فِيهَا أَفْضَى اللَّهِ بِهِ إِلَيْهِ مِنْ  
خِلَافَتِهِ ، وَبَحَلَّ مِنْ أُمُورِ عِبَادِهِ ، أَمَّا لَيْلُهُ بِمُتَابَعَةِ رَبِّهِ فِيهَا وَأَسْتِمَاعَتِهِ إِيَّاهُ فَسَاهِرٌ ،  
وَأَمَّا تَهَارُهُ فِي حَلَبِ قَبِيلِهِ وَإِحْكَامِ أُمُورِهِا فَتَنِيْبٌ ، وَأَمَّا صَنَقَاتُهُ عَلَى قِرَائِنِهَا وَأَهْلِ الْحَاجَةِ  
بِخَارِيْجَةٍ ، وَأَمَّا تَجَلُّسُهُ مِنْ قَهْقَاهِهَا وَصُلَحَاتِهَا فَفَاقَصٌ ، وَأَمَّا غَلْظَتُهُ عَلَى ظَالِمِهَا فَتَقِيدَةٌ ، وَأَمَّا  
أَفْضَالُهُ لِمُظْلَمِهَا فَهَسُوطَةٌ ، وَلَقَدْ كَانَ الْحَقُّ أَلَزَمَ أَقْوَامًا اسْتَوْجَبُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَأُمُورِهِمْ ،

إنا نعلم أن ما ترك أكثر، وأنه لولا ما خفف من الوطأة على أقوام لحل الواحد منهم. مثل الذي حمله للجميع، ولكنه رضى بالعفو، وبتفانفساً عن الاستقصاء، فأوجب أن يسطر يداً ينظفه ويتبعها أخرى بلين؛ فكان من ذلك نظره في هذه البقايا التي هي في المسلمين ومال الله، غير أن الله جعله قيّمه فيه، وفي أخذه وصرفه في وجوهه؛ فلما رأى صراوة العمل بها ومصانعتهم دوتها، وأن قد صارت كالسنة اللازمة لا يدعها عفيفهم تورطاً، ولا شربهم تنزهاً، أحب مع توفيره للمسلمين فيهم، أن يتحدث لهم أدباً يقطع به عنهم أهل الضراوة، ويتوفّر به ذوو الاستخفاف بالأمانة، والأمر للتبعية؛ أن عليهم من تفقده وأدبه عينا ترمق، ويبدأ تقيض، ولو أنه حين هم بأخذ تلك البقايا حمل على المؤسّر بقدر يساره، وأخذ المصّر بطاعته، كان قد أنصف، كلا! ولكنه أحب أن يستبق قوة، ولا يبلغ من المكثّر جهداً، وأختصر بهم على العسر من ذلك، كزماً في القدرة حين رأى موضع الرق، وتحقّق عن العلة حين عرّف مكان النذر؛ فأى نعمة أعظم، وأى بلاء أحسن من هذه البقايا! كانت في أيديهم جُماماً، فلما أطلع طلوعها، وأخذ ما أخذ، وترك ما ترك، محلاً مع ما جعل الله في ذلك من [كلمات] <sup>(٢)</sup> المقصر من المال المؤذية التي لم تكن تفسد أرواحهم، فليس منهم أحد إلا وكان منه له واعظ ألا يكسر شيئاً من الخراج تضييعاً، أو يأخذ غلواً أو ينفقه إسرافاً، أو يتركه إرهاباً.

فلما تفرغ من علاج الداء الخوف وأستأصله، ومن القى المتفرق لجمعه، ومن الأمور المعلقة فأحكمها، استخلف على القيام بذلك من يحويه عقله عن حذر، ولا إضاعة عن حفظ، ولا لين عن تشدد، ولا يستعمل الألف عن تقصير ما أبرم، ولا مزاولة ما أحكم، ولا قسح ما أغلق، ولا إغلاق ما فتح، فلان خيرة أبويه، وخبث بطنه، وجوهر أرومته، الفاتت سبباً، البيت مدلواً، الراح عرقاً، المتفجر بجرّاً، المحمود أمراً، القائل فصلاً،

(١) الضراوة: الهيج بالنسبة والإغراء به. (٢) في الأصل: «لم» والسياق يقتضيه ما أتينا به.

(٣) وضمت هذه الكلمة لأنها تنفق والسياق، ومكانها في الأصل يابض. (٤) الفلول: الطعام أو الشراب الذي يدخل في الجوف.

الحاكم عدلاً، ثم أنصرف بما آفاده الله من الأجر إلى جناحه الذي كان مده على من خلف من الأهل والأموال والرعايا والجنود، فلان سلبية ضلّبه، وثمره قلبه، المحتك مع ققاء سنّه عقلاً، والمأمون مع شدّة شكيته حملاً، والمحصّد مع لينه وتعطفه أمراً، الشبيه بأمر المؤمنين إن نطق نطقاً، وإن نظر لحظاً، وإن سئل جوداً، وإن احتصر عوداً، وإن ساس رفقاً، وإن غضب حليماً، وإن وصّف عابساً، وإن كتم قهماً، وإن قدر عفواً، وإن لقي بشراً، وإن نازع قلباً، وإن قارع علقراً؛ فكان عند ظنّه به، رطابة للحرمة، وحزماً في المكيّدة، وحلباً للفيء، وحياطة للغائب، ومباشرة للشاهد؛ هذا قليلٌ من كثير. ممّا جعلك الله أهله، وإنما أقصرت عليه لأنّي رأيت المتكلمين من الخطباء ترثوه، وأنّ ما سمعت من الكتب المقروءة لم تنظمه، فأجبت أن يعلم أمير المؤمنين أن له في كلّ أمرٍ عيل به في رعيته حجة واضحة، وعذراً معروفاً، إن قام به متكلمٌ في خاصية حسن موقعه، وإن قرئ به كتابٌ في عاتق، قويّت به حجته.

والحمد لله الذي جعله وذريته أولياء هذه النعم، والمختصين بهذه الفضائل، ونسأله أن يُبيّنه وإياهم للدين الذي سدهم عوّته، والحق الذي أقرّبهم جادّته، والعدل الذي أوضح بهم أعلامه، حتى يكونوا ورثة هذه الأمة وخلفاءها في غابر الدهر، وباقيات الأيام؛ مستقلين بالعدل، موفّقين للسداد، معصومين من الشبهات، مستوحين مع فضائل الدنيا لأفضل كرامات المعاد. والسلام.

(١) هذه الرسالة ورسالة أبي الربيع محمد بن الليث السابقة من كتاب اختيار المنظوم بالخبر لابن طيفور.

## كتب الرشيد

١ - كِتَابُ عَهْدِ الْبَيْعَةِ<sup>(١)</sup>

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَذَا كِتَابُ لِعَبْدِ اللَّهِ هَارُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، كَتَبَهُ مُحَمَّدُ بْنُ هَارُونَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي حُجَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ ، وَجَوَازٍ مِنْ أَمْرِهِ ، طَائِعًا لِمُكْرَهٍ ، إِنْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَّى أَلَى الْعَهْدِ مِنْ بَعْدِهِ ، وَصِيرَ الْبَيْعَةِ لِي فِي رِقَابِ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا ، وَلَّى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ هَارُونَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْعَهْدَ وَالْخِلَافَةَ ، وَجَمِيعَ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ بَعْدِي ، بِرِضَا مَنِّي وَتَسْلِيمٍ ، طَائِعًا غَيْرِ مُكْرَهٍ . وَلَوْلَاهُ نَخْرَاسَانَ وَتَنْفُورَهَا ، وَكُورَهَا وَحَرَبَهَا ، وَجَنْدَهَا وَتَحَارِجَهَا ، وَطَرَاظَهَا وَبَرِيدَهَا ، وَبَيُوتَ أَمْوَالِهَا وَصَدَقَاتِهَا ، وَعُشْرَهَا وَعُشُورَهَا ، وَجَمِيعَ أَعْمَالِهَا فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدِهِ ، وَشَرَطْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ هَارُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، بِرِضَا مَنِّي وَطِيبِ نَفْسٍ ، أَنْ لَا تَمْنَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ هَارُونَ عَلَى الْوَفَاءِ بِمَا عَقَدَ لَهُ هَارُونُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ : مِنَ الْعَهْدِ وَالْوِلَايَةِ وَالْخِلَافَةِ ، وَأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا بَعْدِي ، وَتَسْلِيمِ ذَلِكَ لَهُ وَمَا جُعِلَ لَهُ مِنَ وَلَايَةِ نَخْرَاسَانَ وَأَعْمَالِهَا كُلِّهَا ، وَمَا أَقْطَعَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قِطْعَةٍ ، أَوْ جَعَلَ لَهُ مِنْ عَقْدَةٍ أَوْ ضَيْعَةٍ مِنْ ضَيْعَاهُ ، أَوْ أَتْبَاعٍ مِنَ الضَّبَاعِ وَالْعُقَدِ ، وَمَا أَعْطَاهُ فِي حَيَاتِهِ وَتَحْتَهُ مِنْ مَالٍ ، أَوْ حُلِيِّ أَوْ جَوْهَرٍ ، أَوْ مَتَاعٍ أَوْ كُسُوفٍ ، أَوْ مَتَرٍ أَوْ دَوَابٍّ ، أَوْ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ ، فَهُوَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ هَارُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، مُوقَرٌّ عَلَيْهِ مَسْأَلُهُ . وَقَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ كُلَّهُ شَيْئًا شَيْئًا ، فَإِنْ حَدَّثَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ حَدَّثَ الْمَوْتَ ، وَأَقْصَتِ الْخِلَافَةَ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ هَارُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَفَعَلَ مُحَمَّدٌ إِتْقَانًا مَا أَمَرَهُ بِهِ هَارُونُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فِي تَوَلِيهِ عِبْدَ اللَّهِ بْنِ هَارُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ نَخْرَاسَانَ وَتَنْفُورَهَا ، بِرِضَا مَنِّي وَتَسْلِيمٍ إِلَى أَهْلِ بَيْتِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِقَرَمَاسِينَ ، وَأَنْ يَمْنَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى نَخْرَاسَانَ وَالزَّيْ ، وَالْكُورِ

(١) هذا العهد ورد في تاريخ يعقوبي (ج ٢ ص ٢٠٢ طبعه لندن) وفيه عبارات تخالف ما أثبتناه هنا

عن الطبري . (٢) قرامسين : موضع بين الزبيدية ومكة .



التي سماها أمير المؤمنين حيث كان عبد الله ابن أمير المؤمنين من معسكر أمير المؤمنين وغيره، من سلطان أمير المؤمنين، وجميع من ضم إليه أمير المؤمنين حيث أحب من لدن الرضى إلى أقصى عسقل خراسان، ليس لمحمد ابن أمير المؤمنين أن يحول عنه قائدا ولا مقودا ولا رجلا واحدا من ضم إليه من أصحابه الذين صممهم إليه أمير المؤمنين؛ ولا يحول عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولايته التي ولّاه إياها هارون أمير المؤمنين : من نفور خراسان وأعمالها كلها، ما بين عمل الرضى عما يلي قمتان إلى أقصى خراسان، ونفورها وبلادها، وما هو منسوب إليها ولا شقصه إليه، ولا يفرق أحدا من أصحابه وقواده عنه، ولا يؤتى عليه أحدا، ولا يبعث عليه ولا على أحد من عماله وولاة أموره <sup>(١)</sup> بدارا ولا محاسبيا ولا عاملا، ولا يَدْخُل عليه في صغير من أمره ولا كبير ضررا، ولا يحول بينه وبين العمل في ذلك كله برأيه ويتدبره، ولا يعرض لأحد من ضم إليه أمير المؤمنين من أهل بيته وصحابته، وقضاته وعماله، وكتابه وقواده، وخدمته ومواليه وجنده، بما يلتبس بإدخال الضرر والمكره عليهم في أنفسهم، ولا قراباتهم ولا مواليتهم، ولا أحد يتنسل منهم؛ ولا في دماهم ولا في أموالهم، ولا في ضياعهم ودورهم، وديارهم وأمتعتهم، وزيقفهم ودوابهم، شيئا من ذلك صغيرا ولا كبيرا؛ ولا أحد من الناس بأمره ورأيه وهواه، وبترخيص له في ذلك، وإدجان منه فيه لأحد من ولد آدم، ولا يحكم في أمرهم، ولا أحد من قضاته ومن عماله، ومن كان بسبب منه، بغير حكم عبد الله ابن أمير المؤمنين ورأيه ورأى قضاته؛ وإن رجع إليه أحد ممن ضم أمير المؤمنين إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين، من أهل بيت أمير المؤمنين وصحابته، وقواده وعماله وكتابه وخدمته، ومواليه وجنده، ورفض أئمنه ومكتبه ومكانه مع عبد الله ابن أمير المؤمنين، عاصيا له، أو مخالفا عليه، فعلى محمد ابن أمير المؤمنين رده إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين، بصرفه ولقاءه، حتى يُنفذ فيه رأيه وأمره؛ فإن أراد محمد ابن أمير المؤمنين خلق عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية العهد من بعده، أو عزل عبد الله ابن أمير المؤمنين

عن ولاية خراسان، ونفورها وأعمالها، والذي من حدّ عملها مما يلي ههذان، والكور التي سماها أمير المؤمنين في كتابه هذا، أو صرف أحد من قواده الذين ضمتهم أمير المؤمنين إليه، من قديم قريامين، أو أن يتّقصه قليلا أو كثيرا، مما جعله أمير المؤمنين له، بوجه من الوجوه، أو بحيلة من الحيل، صغرت أو كبرت، فاعبد الله بن هارون أمير المؤمنين الخلافة بعد أمير المؤمنين، وهو الملقب على محمد بن أمير المؤمنين، وهو ولي الأمر من بعد أمير المؤمنين، والطاعة من جميع قواد أمير المؤمنين هارون، من أهل خراسان وأهل العطاء، وجميع المسلمين في جميع الأجناد والأصهار لعبد الله بن أمير المؤمنين والقيام معه، والمجاهدة لمن خالفه، والنصر له والذب عنه، ما كانت الحياة في أبدانهم، وليس لأحد منهم جميعا من كانوا أو حيث كانوا أن يخالفوه ولا يتقصيه، ولا يخرج من طاعته، ولا يطيع محمد بن أمير المؤمنين في شئ عدا الله بن هارون أمير المؤمنين، وصرف المهدي عنه من بعده إلى غيره، أو يتقصه شيئا مما جعله له أمير المؤمنين هارون، في حياته وصحته، وأشترط في كتابه الذي كتبه عليه في البيت الحرام، وفي هذا الكتاب، وعبد الله بن أمير المؤمنين المصدق في قوله، وأتم في حل من البيعة التي في أعناقكم لمحمد بن أمير المؤمنين هارون، إن نقص شيئا مما جعله له أمير المؤمنين هارون، وعلى محمد بن هارون أمير المؤمنين أن يتفاد لعبد الله ابن أمير المؤمنين هارون، ويسلم له الخلافة، وليس لمحمد بن أمير المؤمنين هارون، ولا لعبد الله ابن أمير المؤمنين، أن يتفاد القاسم ابن أمير المؤمنين هارون، ولا يقدم عليه أحدا من أولادهما وقربائهما، ولا غيرهم من جميع البرية، فإذا أفضت الخلافة إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين، فالأمر إليه في إرضاء ما جعله أمير المؤمنين من العهد للقاسم بعده، أو صرف ذلك عنه إلى من رأى من ولده وإخوته، وتقديم من أراد أن يقدم قبله، وتصيير القاسم بن أمير المؤمنين بعد من يقدم قبله، يحكم في ذلك بما أحبّ ورأى، فعليكم معشر المسلمين إنفاذا ما كتب به أمير المؤمنين في كتابه هذا، وشرط عليهم وأمر به، وعليكم السمع والطاعة لأمر المؤمنين فيما ألزكم وأوجب عليكم لعبد الله بن أمير المؤمنين،

وعهد الله وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذم المسلمين ، واليهود والمواثيق التي أخذ الله على الملائكة المقربين والنبیین والمرسلين ، ووكلها في أعناق المؤمنين والمسلمين ، لتؤمن لعبد الله أمير المؤمنين بما سمى ، ولمحمد وعبد الله والقاسم بنى أمير المؤمنين بما سمى ، وكتب في كتابه هذا وأشترط عليكم ، وأقرتم به على أنفسكم ؛ فإن أنتم بآلتم من ذلك شيئا ، أو غيرتم أو نكثتم ، أو خالفتم ما أمركم به أمير المؤمنين ، وأشترط عليكم في كتابه هذا ، فبرئت منكم ذمة الله ، وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وذم المؤمنين والمسلمين ، وكل مال هو اليوم لكل رجل منكم ، أو يستفيده إلى خمسين سنة فهو صدقة على المساكين ، وعلى كل رجل منكم المثنى إلى بيت الله الحرام الذى بمكة خمسين حجة ، نكرا واجبا ، لا يقبل الله منه إلا الوفاء بذلك ؛ وكل مملوك لأحد منكم ، أو يملكه فيما يستقبل إلى خمسين سنة حر ، وكل امرأة له فهي طالق ثلاثا البتة ، طلاق الحرج لا مثنوية فيها ، والله عليكم بذلك كفيلا وراج ، وكفى بالله حسيبا .

#### ٢ - نسخة الشرط الذى كتب عبد الله بن أمير المؤمنين

##### بخط يده في العكبة

هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، كتبه له عبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، في حقبة من عقله ، وجواز من أمره ، وصلى نية فيما كتب في كتابه هذا ، ومعرفة بما فيه من الفضل والصالح له ولأهل بيته وجماعة المسلمين .

إن أمير المؤمنين هارون ولانى العهد والخلافة ، وجميع أمور المسلمين في سلطانه ، بعد أبى محمد بن هارون ؛ ولانى في حياته ثغور نراسان وكورها وجميع أعمالها ، وتشرط على محمد بن هارون الوفاء بما عقد لى من الخلافة ، ولولاية أمور العباد والبلاد بعده ، ولولاية نراسان وجميع أعمالها ، ولا يترضى لى فى شيء مما أفتطنى أمير المؤمنين ، وأتباع لى من الضياع والعقد والرياع ، وأبتعت منه من ذلك ، وما أعطانى أمير المؤمنين من الأموال ، والجواهر والكساء ، والمتاع والدواب ، والوقيق وغير ذلك ؛ ولا يترضى لى ولا لأحد من

على وكجاني بسبب محاسبة، ولا يتبع لي في ذلك، ولا لأحد منهم أبداً، ولا يدخل على ولا عليهم، ولا على من كان معي؛ ومن استعنت به من جميع الناس مكرهاً في نفس ولا ديم ولا شعر ولا بشر ولا مال، ولا صغير من الأمور ولا كبير، فاجابه الى ذلك وأقر به، وكتب له كتاباً أكد فيه على نفسه، ورضى به أمير المؤمنين هارون، وقبلة وعرف صدق نيته فيه؛ فشرطت لأمر المؤمنين، وجعلت له على نفسه أن اسمع لمحمد، وأطيع ولا أعصيه؛ وأنصحه ولا أغشه، وأوفى بيمينته وولايته، ولا أغدر ولا أنكث، وأنفذ كُتبه وأمره، وأحسين مؤازرته وجهاد عدوه في ناحيتي؛ ما وقي لي بما شرط لأمر المؤمنين في أمري، وسمي في الكتاب الذي كتبه لأمر المؤمنين، ورضى به أمير المؤمنين، ولم يتبعني بشيء من ذلك، ولم تنقض أمراً من الأمور التي شرطها أمير المؤمنين لي عليه؛ فإن أحتاج محمد ابن أمير المؤمنين إلى جند، وكتب إلى يامرني بإشخاصه إليه، أو إلى ناحية من النواحي، أو إلى مدون من أعدائه خالفه، أو أراد نقض شيء من ساطانه أو سلطاني الذي أسنده أمير المؤمنين إلينا، وولانا إياه، فعلى أن أنفذ أمره، ولا أخالفه ولا أقصر في شيء كتب به إلى؛ وإن أراد محمد أن يولي رجلاً من ولده العهد والخلافة من بعدي، فذلك له ما وقي لي بما جعله أمير المؤمنين إلى؛ وأشترطه لي عليه، وشرط على نفسه في أمري؛ وعلى إنفاذ ذلك والوفاء له به لا أنقص من ذلك ولا أغیره ولا أبدله ولا أقدم قبل أحداً من ولدي ولا قريباً ولا بعيداً من الناس أجمعين؛ إلا أن يولي أمير المؤمنين هارون أحداً من ولده العهد من بعدي، فيلزمي ومحمد الوفاء له، وجعلت لأمر المؤمنين ومحمد على الوفاء بما شرطت وسميت في كتابي هذا، ما وقي لي محمد بجميع ما اشترط لي أمير المؤمنين عليه في نفسي، وما أعطاني أمير المؤمنين من جميع الأشياء المنسبة في هذا الكتاب الذي كتبه لي؛ وعلى عهد الله وبناقه، ودفعة أمير المؤمنين وذمتي، وذم آبائي وذم المؤمنين؛ وأشد ما أخذ الله على النبيين والمرسلين من خلقه أجمعين، من عهوده ومواثيقه، والأيمان المؤكدة التي أمر الله بالوفاء بها، ونهى عن نقضها وتبديلها؛ فإن أنا نقضت شيئاً مما شرطت

وسميت في كتابي هذا، أو غيرت أو بقلت أو نكثت أو غدرت، فبرئت من الله عز وجل، ومن ولايته ودينه، وعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقيت الله يوم القيامة كافرا مشركا، وكل أمرأة هي لي اليوم، أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثا البتة، طلاق الحرج، وكل مملوك هو لي اليوم، أو أملكه إلى ثلاثين سنة، أحرار لوجه الله وعلى المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكة ثلاثين حجة، نذرا واجبا على في عني، حافيا راجلا لا يقبل الله مني إلا الوفاء بذلك، وكل مال لي أو أملكه إلى ثلاثين سنة هدي بالغ الكعبة، وكل ما جعلت لأمر المؤمنين، وشرطت في كتابي هذا لازما لي، لا أغير فيه، ولا أنوي غيره. وشهد سليمان بن أمير المؤمنين، وفلان وفلان. وكتب في ذي الحجة سنة ست وعشرين ومائة.

### ٣ - نسخة كتاب الرشيد إلى العمال

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، فإن الله ولي أمير المؤمنين وولي ما ولاه، والحافظ لما استعاه، وأكرمه به من خلافته وسلطانه، والصانع له فيما قدم وأثر من أموره، والمنعم عليه بالنصر والتأييد في مشارق الأرض ومغاربها، والكافي والحافظ والكافي من جميع خلقه، وهو المحمود على جميع آلائه، المستول تمام حسن ما مضى من قضائه لأمر المؤمنين وعادته الجميلة عنده، والهام ما يرضى به ويوجب له حليبه أحسن المزيد من فضله، وقد كان من نعمة الله عز وجل عند أمير المؤمنين وعينك وعند عوام المسلمين ما تولى الله من محمد وعبد الله أجي أمير المؤمنين من تبليغه بما أحسن ما أثبت الأمة ومدت إليه أعناقها، وقذف الله لها في قلوب العامة من المحبة والمودة والسكون اليها والثقة بهما ليعاد دينهم ويقوم أمورهم وجمع ألفتهم وصلاحي دهمائهم وقبح المخذور والمكروه من الشينات والفرقة عنهم حتى أقروا اليها أزميتهم، وأعطوهما بيعتهم، وصفقات أيمانهم بالعهود والمواثيق وركيد الأيمان المغلظة عليهم، وأراد الله فلم يكن له مرد، وأمضاه فلم يقدر أحد من العباد على نقضه ولا إزالته، ولا صرف له عن محبته ومشيتته، وما سبق في علمه منه، وأمر المؤمنين يرجو تمام التعمة

عليه وعليهما في ذلك، وعمل الأمة كافة لاعتاقب لأمر الله ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمه؛ ولم يزل أمير المؤمنين منذ أجمعت الأمة على عقد العهد لمحمد ابن أمير المؤمنين من بعد أمير المؤمنين، ولعبد الله ابن أمير المؤمنين من بعد محمد ابن أمير المؤمنين يُعْمَلُ فكره ورأيه ونظره ورويته، فيما فيه الصلاح لها وجميع الرعية؛ واجتمع للكلمة، والألم للشتت، والدفع للشتات والفرقة، والحسم لكيد أعداء النعم من أهل الكفر والنفاق، والنيل والشفاق، والقطع لأتالمهم من كل فرصة يرجون إدراكها وأتهازها، منهما بانتقاص حقهما، ويستخير الله أمير المؤمنين في ذلك وبسأله العزيمة له على ما فيه الخير لها، وجميع الأمة والقوة في أمر الله وحقه وأتلاف أهوائهما، وبصلاح ذات بينهما، ومحصنة من كيد أعداء النعم، ورد حسدكم ومكرهم وبقيهم وسعيهم بالفساد بينهما، فعزم الله لأمر المؤمنين على الشُّخُوص بهما إلى بيت الله وأخذ البيعة منهما لأمر المؤمنين بالسَّمْع والطاعة والإنفاذ لأمره، واكتساب الشُّرط على كل واحد منهما لأمر المؤمنين ولها بأشدّ المواثيق والعهود، وأغلظ الإيمان والتوكيد، والأخذ لكل واحد منهما على صاحبه بما آلتس به أمير المؤمنين اجتماع ألفتهما ومودتهما وتواصلهما ومؤازرتهم ومكاتفتهما على حسن النظر لأنفسهما، ولرعيتهما أمير المؤمنين التي أسترطاهما، والجماعة لدين الله عز وجل وكتابهِ وسُنَنِ نبيه صلى الله عليه وسلم، والجهاد لعدو المسلمين من كانوا وحيث كانوا وقطع طمع كل عدوٍّ مظهر للعداوة ومُسرِّطاً، وكل منافق ومارق، وأهل الأهواء الضالة المضلة من فرقة تكيد بكيد توقعه بينهما، وبَدْحَس يُدَحَس به لها، وما يتمس أعداء الله وأعداء النعم وأعداء دينه من العُزْب بين الأمة والسعي بالفساد في الأرض، والدَّهْء إلى البدع والضلالة، نظراً من أمير المؤمنين لدينه ورعيته، وأمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ومناصحة الله وجميع المسلمين، وقِيّاً عن سلطان الله الذي قدّره وفوّده فيه للذي حمّله إياه، والاجتهاد في كل ما فيه قُرْبُهُ إلى الله، وما يُنَال به رضوانه والوسيلة عنده.

فلما قَدِمَ مَكَّةَ أَطهرَ لمحمد وعبد الله رأيه في ذلك وما نَظَرَ فيه لها ، فَقِيلَ كُلُّ مادماهما إليه من التوكيد على أنهما بقبوله ، وَكُتِبَ لِأَمير المؤمنين في بَطْنِ بَيْتِ الله الحرام بِمُخطوط أيديهما بِمُحضَّرٍ مِنْ شَهِدِ المَؤمِنِ مِنْ أَهلِ بَيْتِ أَمير المؤمنين وقَوادِهِ ، وَصَحَابَتِهِ وَقُضَاتِهِ ، وَحِجَّةِ الكعبة وشهاداتهم عليهما ، كَتَابِينَ أَسْتودعهما أَمير المؤمنين المَحَبَّةَ ، وَأَمْرَ بِتَعلِقِهما في داخل الكعبة ؛ فَلَمَّا فَرَّغَ أَمير المؤمنين من ذلك كُلِّهِ في داخل بَيْتِ الله الحرام وبطن الكعبة ؛ أَمَرَ قُضَاتِهِ الَّذِينَ شَهِدُوا عليهما وَحَضَرُوا كَلاهما أَنْ يُعْلِيُوا جَميعَ مَنْ حَضَرَ المَوسِمَ مِنَ الحَاجِّ وَالْعُمَّةِ وَفُودِ الأَمصارِ ، مَا شَهِدُوا عليه مِنْ شَرَطِهما وَكَلاهما وَقِراءة ذلك عليهما ، لِيُفَهِّمُوهُ وَيَعُوهُ وَيَعْرِفُوهُ وَيَحْفَظُوهُ وَيُؤدُّوهُ إِلَى إِخوانِهِمْ وَأَهْلِ بِلدانِهِمْ وَأَمصارِهِمْ ، ففعلوا ذلك ، وَقُرِئَ عليهما الشَّريطانِ جَميعاً في المَسجدِ الحرامِ ؛ فَانصَرَفُوا وَقَدْ أَشْتَرَفُوا ذلك عِندَهُمْ ، وَاجْتَمَعُوا الشَّهادَةَ عليه ، وَعَرَفُوا نَظَرَ أَمير المؤمنين وَصانِيَتَهُ بِصَلاحِهِمْ ، وَحَقَّقَ دِمايَهُمْ وَلَمْ شَتِّمَهُمْ ، وَإِطْفَأَ بِحِمرةِ أَعْداءِ الله وَأَعْداءِ دينِهِ وَكِتابِهِ وَجَماعةِ المُسْلِمِينَ عَنْهُمْ ، وَأَظْهَرُوا الدُّعَاءَ لِأَمير المؤمنين والشُّكْرَ لِمَا كانَ مِنْهُ في ذلك ، وَقَدْ تَسَخَّحَ لَكَ أَمير المؤمنين ذِيكَ الشَّريطَيْنِ اللّذينِ كَتَبَهما لِأَمير المؤمنين أَبْناءُ مُحَمَّدٍ وَعَبْدِ اللهِ في بَطْنِ الكعبةِ في أَسفلِ كِتابِهِ هَذا ؛ فَاحمَدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلى ما صَنَعَ مُحَمَّدَ وَعَبْدَ اللهِ وَلِيَّيْ عَهْدِ المُسْلِمِينَ حَمْدًا كَثيرًا ، وَأَشْكِرُهُ بِبِلالِهِ عِندَ أَمير المؤمنين وَعِندَ وَلِيِّ عَهْدِ المُسْلِمِينَ وَعِندَكَ وَعِندَ جَماعةِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَثيرًا ؛ وَأَقْرَأُ كَتابَ أَمير المؤمنين عَلى مَنْ قَبْلَكَ مِنَ المُسْلِمِينَ وَأَنْفِئَهُمُ إِياهُ ، وَنُفِّهُهُ بِهِ بَيْنَهُمْ وَأَبْنَتَهُ في الدِّيانِ قَبْلَكَ ، وَقِيلَ قَوادِ أَمير المؤمنين وَرَعِيَتِهِ قَبْلَكَ ، وَأَكْتُبُ إِلَى أَمير المؤمنين بِما يَكُونُ في ذلك ، إِنْ شاءَ اللهُ . وَحَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ ، وَبِهِ الحَوْلُ والقُوَّةُ وَالطُّولُ . كَتَبَهُ إِسماعيلُ بْنُ صَبيحٍ يَومَ السَّبْتِ لِسَبْعِ لَيالٍ بَقِيْنَ مِنَ المَهِزَمِ سَنَةِ سِتٍّ وَثَمَانِينَ وَمِائَةٍ .

## باب المنظوم

صوّرتنا لك بالمجلد الأول حالة الشعر في صدر الدولة العباسية وذكرنا لك جملة صالحة من شعراء ذلك العصر ووعدناك بذكر مختارات من شعرهم ، وإليك ما وعدناك به .

### ١ - بِسَارُ بْنُ بُرْدِ الْعُقَيْلِيِّ<sup>(١)</sup>

سأله المهدى لما دخل عليه فقال له : فيمن تُتَبَدِّ يا بشار؟ فقال : أُمّا اللسان والزُّبِّي-  
فَعَرِيَّانَ ، وأما الأصل فَعَجِيَّانَ ، كما قلْتُ في شعري يا أمير المؤمنين :  
وَبَنَيْتُ قَوْمًا بِهِمْ جِنَّةٌ \* يَقُولُونَ مَنْ ذَا وَكُنْتُ الْقَلَمُ  
أَلَا أَيُّهَا السَّائِلِي جَاهِدُوا \* لِيُصْرِفَنِي أَنَا أَنْفُ الصَّكَّامِ

(١) هو أبو معاذ بشار المرثي بـرد ، أشعر نحضرى الدهنين ، ورأس الشعراء المحدثين ، ومهد طريف الإحترام ، والبداع للفننين ، وأحد البلاء المكفوفين . وأصله من مرس طمارستان من سبي الهلب بن أبي صفرة ، ووقع ملك أرويه لبني عقيل بن كعب ، فنشأ بشار فيهم وترى في منازلهم ، واغطف إلى الأحراب الضاربين بالبصرة حتى خرج نافلة زمانه في الفصاحة والشعر . وكان أكله مجدو والوجه ، قبيح المنظر ، مفرط الطول ، ضخم الجثة ، متوكد الذكاء ، صادق الحس ، لطيف الدواة ، شديد المهورن والاستخفاف بالناس ، كثير الاستئثار بالدين ، قليل المبالاة لقرئجه فيه ، متبها بالزئفة شمويا ، متعصبا على العرب ، شديد التبرم بالناس ، نهائيا لأعراسهم ، لا يسلم من لسان خليفة ولا سوقة ، وكان من سعادة الرجل من أهل البصرة ألا يعرف بشارا ولا بشار يعرفه ، فانه إن لم يسمه في مرثه أصابه في ماله . وقال بشار الشعر ولم يبلغ عشرين ، وما بلغ الحلم إلا وهو نحضرى مئة لسانه . وقد أجمع رواة الشعر وقدرته على أن بشارا هو رأس المحدثين وأسبقهم إلى سيطرة البديع ، وطرق أبواب المجهون والخلاعة والفزل الرقيق الحضرى ، والهباء المخذوع .

وأما أول من جمع في شعره بين جنالة العرب ورفقة المحدثين ، وفتح عن المادى الحقيقة ، والأخيلة الطليقة ، حتى عد شعره برعنا بين الشعر القديم والحديث ، ورجازنا بين طير عليه الثمر من مرابع البداوة إلى مقاصير الحضارة .  
وقد طرق كل باب من أبواب الشعر اتقى هرمت فيه وأراني طليعا ، وظف عليه الهباء والتشبيب بالقساء وانطربج به من الخلد المألوف عند أهل زعمه ، حتى أنكرو عليه البلاء والمتروصون لما رأوا من سوء أثره في شبان البصرة .  
وقد سناه المهدي عن التشبيب ، فكان إذا مالت له نفسه يذكره ما بشار ، ويقول : إن الخليفة معته من كذا وكذا وأنه له مطيع .

وضمن ذلك بعض قصائد مدح بها الخليفة ، فلم يزد على أن يحبه الجائرة ، ويحبه على ذلك وزيره يعقربين داود ، وكان متروفا ، فيهاها ، فكان ذلك الزئدقة سبب قتله . توفي سنة ١٦٧ هـ وقد نيف على التسعين . ونجد ترجمته في الأغانى (ج ٣ ص ١٩ وج ٦ ص ٧) وابن خلكان (ج ٨ ص ٨٨) والشعر والشعراء (ص ٤٧٦) والقهرست (ص ١٥٩) .



نَمَتْ فِي الْكَرَامِ بَنَى عَامِي \* فَرَوَى وَأَصْلَى قُرَيْشَ السَّجَمِ  
فَأَنَّى لِأَخَى مَقَامَ الْفَسَقِ \* وَأُصْحَى الْفَتَاةَ لَمَّا تَعْتِمِ

وكان أبو دُلَامة حاضراً ، فقال : كَلَّا ! لَوَجَّهَكَ أَفْبَحَ مِنْ ذَلِكَ ، وَجِئْتُ مَعِ وَجْهَكَ ،  
فَقَالَ بَشَارُ : كَلَّا ! وَاقِهِ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَصْدَقَ عَلَى نَفْسِهِ وَأَكْذَبَ عَلَى جَلِيسِهِ مِنْكَ ، وَاقِهِ  
إِنِّي لَعَوِيلُ الْقَامَةِ ، عَظِيمُ الْهَامَةِ ، تَأَمُّ الْأَلْوَاحِ ، أَصْبَحُ الْخَلْدَيْنِ ، وَلَوْ بِمُسْتَرْقَى الْمُزَوْرَيْنِ  
لَلْعَيْنِ فِيهِ مُرَادٌ . ثُمَّ قَالَ لَهُ الْمَهْدِيُّ : مِنْ أَى الْعَجَمِ أَصْلُكَ ؟ فَقَالَ : مِنْ أَكْثَرِهَا  
فِي الْفُرْسَانِ وَأَشَدَّهَا عَلَى الْأَعْرَانَ ، أَهْلُ مَطَّحَاتَيْنِ ، فَقَالَ مَعْصُ الْقَوْمِ : أَوْلَيْكَ الصُّغْدُ ،  
فَقَالَ : لَا ! الصُّغْدُ تَجَارُ ، فَلَمْ يَرُدِّ ذَلِكَ الْمَهْدِيُّ .

وكان بشار كثير التلون في ولاته ، شديد التشيع والتمصب للعجم ، مرةً يقول يقتخر  
بولائه في قيس :

أَمِنْتُ مَصْبَرَةَ الْقَحْطَاءِ إِنِّي \* أَرَى قَيْسًا نَسَبٌ وَلَا تُضَارُ  
كَانَ النَّاسُ حِينَ تَغِيْبُ عَنْهُمْ \* نَبَاتُ الْأَرْضِ أَخْطَاءُ الْقَطَارِ  
وَقَدْ كَانَتْ يَتَدَمَّرُ حَيْلُ قَيْسٍ \* فَكَانَتْ لَتَدْمُرُ فِيهَا دِمَارُ  
بِحَىٍّ مِنْ بَنِي عَيْلَانَ شُورِسَ \* يَسِيرُ الْمَوْتُ حَيْثُ يُقَالُ سَارُوا  
وَمَا نَلَقَاهُمْ إِلَّا صَبَدْنَا \* يَرَى مِنْهُمْ وَهُمْ حِرَارُ

ومرةً يتبرأ من ولاء العرب فيقول :

أَصْبَحْتُ مَوْلَى ذِي الْجَلَالِ وَمَعْصِي \* مَوْلَى الرَّبِّبِ جُدُّ بَعْضِكَ فَالْفَقْرِ  
مَوْلَاكَ أَكْرَمُ مِنْ تَمِيمِ كُلِّهَا \* أَهْلُ الْقِمَالِ وَمِنْ قُرَيْشِ الْمَشْعَرِ  
فَارْجِعْ إِلَى مَوْلَاكَ خَسِيرُ مَدَائِقِ \* سَبِيحَانُ مَوْلَاكَ الْأَجَلُ الْأَكْبَرِ

وقال يقتخر بولاء بني عَقِيل :

أَتْنِي مِنْ بَنِي عَقِيلِ بْنِ كَعْبٍ \* مَوْضِعَ السِّيفِ مِنْ طَلِّ الْأَعْيَانِ

وَوُلِدَ بَشَارُ أُمِّى ، فَمَا نَظَرَ إِلَى الدُّنْيَا قَطُّ ، وَكَانَ يَشْبَهُ الْأَشْيَاءَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ فِي شَعْرِهِ ،  
فَيَأْتِي بِمَا لَا يَقْدِرُ الْبَصَرُ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ ؛ فَقِيلَ لَهُ يَوْمًا وَقَدْ أَتَشَدُّ قَوْلُهُ :  
كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رَعُوسِنَا \* وَأَسْيَافُنَا لَيْسَ تَهَارَى كَوَاكِبُهُ  
مَا قَالَ أَحَدٌ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا التَّشْبِيهِ ، فَمِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا وَلَمْ تَرَ الدُّنْيَا قَطُّ وَلَا شَيْئًا فِيهَا ؟  
فَقَالَ : إِنْ عَدِمَ النَّظَرُ يَقْوَى ذِكَاةُ الْقَلْبِ وَيَقْطَعُ عَنْهُ الشَّغْلُ بِمَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ ،  
فَيَتَوَقَّرُ حُسَّهُ وَتَذَكُّوْقَرِيحَتُهُ ؛ ثُمَّ أَتَشَدُّمُ قَوْلُهُ :

عَمِيْتُ جَنِينًا وَالذِّكَاةُ مِنَ الْعَمَى \* جَلَفْتُ عَجِيبَ الْفَقْرِ لِلْعِلْمِ مَوَالَا  
وَقَافَضَ ضِيَاءَ الْعَيْنِ لِلْعِلْمِ رَافِدَا \* بَقْلِي إِذَا مَا ضَيَّعَ النَّاسُ حَصِيلَا  
وَشَعْرِي كَتَوَّرَ الرُّوحُ لَأَمَّ مَتُّ بَيْنَهُ \* بِقَوْلِ إِذَا مَا أَحْرَنَ الشَّعْرُ أَشْهَلَا

وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ تَبَرُّمًا بِالنَّاسِ . وَكَانَ يَقُولُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ذَهَبَ بِبَصَرِي .  
فَقِيلَ لَهُ : وَلَمْ يَأْبَأْ مُعَاذُ ؟ قَالَ : ثَلَاثَا أَرَى مَا أَيْفَضُ .  
قَالَ الْأَصْمَعِيُّ : بَشَارُ خَاتَمَةِ الشُّعْرَاءِ ، وَإِلَّهِ لَوْلَا أَنْ أَبَاهُ تَأَخَّرَتْ لِفَضْلَتِهِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْهُمْ .  
وَقِيلَ لِأَبِي عُبَيْدَةَ : أَمْرُوَانُ أَشْعَرُ أَمْ بَشَارُ ؟ فَقَالَ : حَكَمَ بَشَارٌ لِنَفْسِهِ بِالْأَسْتِظْهَارِ ،  
إِنَّهُ قَالَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ أَلْفَ بَيْتٍ جَبِيْدٍ ، وَلَا يَكُونُ عَدَدُ الْجَبِيْدِ مِنْ شَعْرِ شُعْرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ  
وَالْإِسْلَامِ هَذَا الْعَدَدُ ، وَمَا أَحْسَبُهُمْ بَرُّوْا فِي مِثْلِهَا ، وَمَرْوَانَ أَمْدَحُ لِلْوَلَدِ .

وَسُئِلَ الْأَصْمَعِيُّ عَنْ بَشَارٍ وَمَرْوَانَ أَيُّهُمَا أَشْعَرُ ؟ فَقَالَ : بَشَارُ ؛ فَسُئِلَ عَنِ السَّبَبِ لِذَلِكَ ؛  
فَقَالَ : لِأَنَّ مَرْوَانَ سَلَكَ طَرِيقًا كَثُرَ مِنْ يَسْلُكِهِ ، فَلَمْ يَلْتَقِ بِمَنْ تَقْدِمُهُ وَشَرِكُهُ فِيهِ مِنْ كَانَ  
فِي عَصَرِهِ ، وَبَشَارُ سَلَكَ طَرِيقًا لَمْ يُسَلِّكْ وَاحْسَنَ فِيهِ وَتَفَرَّدَ بِهِ ، وَهُوَ أَكْثَرُ تَصَرُّعًا وَفَنُونَ  
شَعْرِي ، وَأَعَزُّرُ وَأَوْسَعُ بَدِيْعًا ، وَمَرْوَانَ لَمْ يَتَجَاوَزْ مَذْهَبَ الْأَوَّلِ .

وَقِيلَ لِبَشَارٍ : لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ شُعْرَاءِ الْعَرَبِ شَعْرًا إِلَّا وَقَدْ قَالَ فِيهِ شَيْئًا أَسْتَنْكَرْتَهُ الْعَرَبُ  
مِنْ أَلْفَاظِهِمْ وَشَلَّتْ فِيهِ ، وَإِنَّهُ لَيْسَ فِي شَعْرِكَ مَا يُشَلُّكَ فِيهِ ؛ قَالَ : وَمِنْ أَيْنَ يَا أَيْتَنِي الْخَطَأُ ؟  
وَوُيِدْتُ هَآ هُنَا ، وَنَشَأْتُ فِي مَجُورٍ ثَمَانِينَ شَيْخًا مِنْ قُصَّصَاءِ بَنِي عُقَيْلٍ مَا فِيهِمْ أَحَدٌ يَعْرِفُ كَلِمَةً

من الخطأ، وإن دخلتُ إلى فسائهم ففسائهم أفصح منهم، وأيقمتُ فأُبديتُ<sup>(١)</sup> إلى أن أدركتُ،  
فإن أين يأتي الخطأ ؟ .

كان جرير بن المنذر السدوسي يفاخر بشاراً، فقال فيه بشار :

أمثل بن مضر وأهل \* فقدتُك من فاعلما أجش  
أف النوم هذا أبا منذر \* نظيراً رأيتُ وغيرا يُحكش  
رأيتُك والفخر في مثلها \* كماجنة غير ما تطيح

كان بشار يهوى امرأة من أهل البصرة، فوأسلها يسألها زيارته، فوعده بذلك ثم  
أخلفته، وجعل ينظرها ليته حتى أصبح، فلما لم تأته أرسل إليها ليعاتبها فاعتذرت بمرض  
أصابها، فكتب إليها بهذه الأبيات :

يا ليت ترأد نُصُكرا \* من حُب من أحببتُ يكر  
حوراء انت نظرتُ إليه \* لك سقتُك بالعينين نمر  
وكانت رجع حديثها \* قطع الراض كسين زمر  
وكانت تحت لسانها \* هاروت ينفث فيه ممر  
وتخال ما جمعتُ عليه \* ثيابها ذهباً وعطر  
وكانت بارد الشرا \* ب صفاً وصادف منك فطر  
جنيّة أنسية \* أو بين ذلك أجل أمرا  
وصفك أنى لم أخط \* بشكاة من أحببتُ مخر  
إلا مقالة زالسي \* تترت لي الأخران تخر  
متخسماً تحت الهوى \* حشراً وتحت الموت حشرا

وكان إصحاق الموصلي لا يمتدّ بشار ويقول : هو كثير التخليط في تثره، وأشعاره مختلفة

لا يشبه بعضها بعضاً، أليس هو القائل :

(١) أبدت أي أخرجت إلى البادية .

إِنَّمَا عَظُمُ سُلَيْمَى حُبِّي \* قَصَبُ السُّكْرِ لَا عَظَمُ الْجَلِّ

وَإِذَا أُذْنِيَتْ مِنْهَا بِصَلَا \* فَلَبِ الْمِسْكُ عَلَى رِيحِ الْبَصَلِ

لوقال : كلُّ شيءٍ جيد ثم أضيف إليه هذا لزيّفه . وكان يُقدّم عليه مروان ويقول : هو أشدُّ استواءً شعر منه ، وكلامه ومذهبه أشبه بكلام العرب ومذاهبها ، وكان لا يمدّ أبانؤاس البتّة ولا يرى فيه خيرا .

قال الجاحظ : كان بشار خطيبا صاحب مشور ومزدوج وتجميع ورسائل ، وهو من المطبوعين أصصاب الإبداع والاختراع ، المتفتّنين في الشعر ، الفاعلين في أكثر أجناسه وضروبها . وقال الشعر في حياة جرير وتعرض له ، وحكى أنه قال : هويتُ جريرا فأعرض عني ، ولو هاجاني لكنتُ أشعر الناس ، وكانت يدين بالرجعة ، ويكفر جميع الأئمة ، ويصوّب رأى إبليس في تقديم النار على الطين ، وذكّر مثل ذلك في شعره فقال :

الْأَرْضُ مُطْلِمَةٌ وَالنَّارُ مُشْرِقَةٌ \* وَالنَّارُ مَعْبُودَةٌ مَدَّ كَانَتْ النَّارُ

وَقَالَ بَعْضُ الرُّوَاةِ لِأَبِي عَمْرٍو : مَنْ أْبَدَعَ النَّاسُ يَتَا؟ قَالَ الَّذِي يَقُولُ :

لَمْ يَطْلُ لَيْسَلُ وَلَكِنْ لَمْ أُنِّم \* وَقَفَى عَنِّي الْكَرَى طَيْفُ الْوَمِّ

وَإِذَا قُلْتُ لَهَا جُودَى لَنَا \* نَحْرِجَتْ بِالصَّمْتِ عَنْ لَا وَنَمِّ

رَوْحِي يَا عَبَسَدَ عَنِّي وَأَعْلَى \* أُنِّى يَا عَبَسَدَ مَنْ لَمْ وَدَمِّ

إِنِّ فِي بُرْدِي جَمِيعَا نَاحِلَا \* لَوْ تَوَكَّأْتُ عَلَيْهِ لَأَكْتَهَمَ

وهذه الأبيات لبشار .

قال : فمن أمدح الناس ؟ قال الذى يقول :

لَمَسْتُ بِكَتْفِي صَكْفَهُ أَبْنَى الْعَنَى \* وَلَمْ أَدْرِ أَنَّ الْجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُمْنِي

فَلَا أَنَا مِنْهُ مَا أَفَادَ ذُووُ الْغَنَى \* أَفْنَدْتُ وَأَعْدَانِي فَأَتَقَلَّبْتُ مَا عِنْدِي

وهذه الأبيات لبشار .

ودخل بشار على إبراهيم بن عبد الله بن حسن، فأنشده قصيدة يهجو فيها المنصور  
ويشير عليه برأى يستعمله في امره، فلما قُتل إبراهيم خاف بشار، فقلب الكنية وأظهر أنه  
كان قاتلها في أبي مسلم، وحلف منها أبياتا، وأولها :

أبا جعفر ما طول عيش دائم \* ولا سالم عما قليل بسالم

قلب هذا البيت فقال : أبا مسلم :

صل الملك الجبار بفتح الردي \* ويصرعه في المأزق المتلاحم  
كانك لم تسمع بقتل متوج \* عظيم ولم تسمع بقتك الأظالم  
تقتم كمرى رهطه بسيوفهم \* وأمسى أبو العباس أحلام فائم

يعني الوليد بن يزيد

وقد كان لا يخشى انقلاب مكيدة \* عليه ولا جرى التحوس الأثام  
مُقيماً حل اللذات حتى بدت له \* وجوه المنايا حاسرات التام  
وقد ترد الأيام غراً وربما \* وردت ككوحا باديات الشكام  
ومروا قد دارت على رأسه الرجا \* وكان لا أجرت نزر الجرائم  
فاصبحت تهرى سادرا في طريقهم \* ولا تنقى أشباه تلك النقام  
تجردت للإسلام تفو سبيله \* وتقرى مطاه ليوث الضرام<sup>(١)</sup>  
لما زلت حتى استنصر الدين أهله \* عليك فعادوا بالسيوف الصوام  
فرم وذا ينجيك يا بن سلامة \* فلست بناج من مضج وضام

جعل موضع "يا بن سلامة" "يا بن وشيكة" وهي أم أبي مسلم

لما الله قوما رأسوك عليهم \* وما زلت مرموسا خبيث المطاعم  
أقول لئسارم عليه جلالة \* فذا أريجيا طاشقا للكارم  
من الفاطميين الذعة الى الهندى \* يجهارا ومن يهدبك مثل ابن قاطم

(١) مطاه : ظهروه

هذا البهتُ حذفه بشار من الأبيات :

سراج لعين المستقى وتارة \* يكون ظلما للعدو المزاحم  
إذا بلغ الرأي المشورة فاستمين \* برأى نصيح أو نصيحة حازم  
ولا يجعل الشورى عليك غضاضة<sup>(١)</sup> \* فإن التلواقي قوة للقوادم<sup>(٢)</sup>  
وما خيركف أسك الفل أختها \* وما خير سيف لم يؤيد بقائم  
وخل الهويتا للضعيف ولا تكن \* تؤبما فإن الحزم ليس بنائم  
وحارب إذا لم تمط إلا لسلامة \* شبا الحرب خير من قبول المظالم<sup>(٣)</sup>  
وأذن على القرى المقرب نفسه \* ولا تشهد الشورى أمرا غير قائم  
فإلك لا تستطرد ألم بالمنى \* ولا تبخل العيا بغير المكارم  
إذا كنت قدأ هرك القوم مقبلا \* وإن كنت أدنى لم تنز بالعزائم  
وما قرع الأقوام مثل مشيع<sup>(٤)</sup> \* أريب ولا جل العى مثل عالم

قال أبو عبيدة : ممية بشار هذه أحب إلى من ميمى جرير والفرزدق . وقال الأصمعي  
لشمار : يا أبا معاذ ، إن الناس يُعجبون من أبياتك في المشورة ، فقال له : يا أبا سعيد ، إن  
المشاوِير بين صواب يفوز بجزته ، أو خطأ يُشارك في مكروهه ، فقال له : أنت في قولك هذا  
أشعر منك في شعرك .

توفي ابن لبشار بخرع عليه ، فقيل له : أجز قدمته ، وقرط أقرطته ، وذخر أحرزته ؛  
فقال : ولد دونه ، وكل تعجلته ، وغيب وعدته فانتظرتنه ، والله لئن لم أجزع للنقص  
لا أفرح للزيادة . وقال يرشيه :

(١) الغضاضة : المنقصة . (٢) التلواقي : الرشات الصغيرات التي في جناح الطائر إذا ضحكها غصيت ،  
وأحدثها خافقة صد القوادم . (٣) النل بالنم : الحديدة التي تجمع بين يد الأسير وحقه ونسب الجلمعة .  
(٤) الشبا بالفتح جمع شباة وهي من كل شيء حده . (٥) المشيع : الشجاع .

أَجَارَسَا لَا تَجْزَعِي وَأَيْنِي \* أَنَانِي مِنَ الْمَوْتِ الْمُطْلَقِ تَصِيبي  
 بَحْثُ عَلِ رُغْمِي وَتُخْفِي رُزْنَهُ \* وَبُذُلُ أَجْمَارَا وَجَالِ قَلْبِي  
 وَكَانَ كَرِيمَانِ الْعُرُوسِ غَالَهُ \* ذَوِي بَعْدِ إِشْرَاقِ بَيْتِ وَطِيبِ  
 أَصْبَهْتُ بِهِ فِي حِينَ أَوْرَقَ غَصْنُهُ \* وَالْقِيَّ عَلَى الْهَلْمِ كَلَّ قَرِيبِ  
 عَجِبْتُ لِإِسْرَاعِ الْمُنِيَّةِ نَحْوَهُ \* وَمَا كَانَ لَوْ مَلَيْتَهُ بِسَجِيبِ

قيل لبشار : إنك لتجيء بالشيء المجهين المتفاوت ، قال : وما ذاك ؟ قيل : بينا نقول  
 شعرا يُشير النقع ويُخْلَع به القلوب مثل قولك :  
 إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضْبَةً مُفْصَرِيَّةً \* هَتَكَ حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ غَطَّرَ الدَّمَآ  
 إِذَا مَا أَحْرَقْنَا سَيْلًا مِنْ قَبِيلَةٍ \* ذُرَى مِنْبَرٍ مَصَّلَ عَلَيْنَا وَسَلَّمَآ  
 نقول :

رَبَابَةٌ رَبَّةُ الْبَيْتِ \* تَصَبَّ الْحَلَّ فِي الزَّيْتِ  
 لَهَا عَشْرَ دَجَاجَاتٍ \* وَدِيكَ حَسَنُ الصَّوْتِ

فقال : لكل وجه ، فالقول الأول جد ، وهذا قلته في ربابة جاريتي ، وأنا لا أكل البيض من  
 السوق ، وربابة لها عشر دجاجات وديك ، فهي تجمع لي البيض ، فهذا عندها أحسن من  
 « قَفَانِيكَ » عندي . وسأنته جارية ، خنية لبعض ولد سليمان بن علي ، وكانت محسنة بارعة  
 الظرف ، أن يذكرها في قصيدة ولا يذكر فيها اسمها ولا اسم سيدها ويكتب بها إليها ، فانهصرف  
 وكتب إليها :

وَنَاتِ كُلَّ كَانَ الْبَدْرَ صَوْرَتُهَا \* بَاتَتْ نَفْسِي عَمِيدَ الْقَلْبِ مَسْكُونَا  
 « إِنَّ الْعَيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ \* قَتَلْتَنَا ثُمَّ لَمْ يُجَيِّبَنَّ قَتْلَانَا »  
 فَقُلْتُ أَحْسَنِيَتِ يَأْسُوْلِي وَيَا أَمْلِي \* فَأَتَمِّمْنِي جَسْرًا لِكِ اللَّهِ إِحْسَانَا  
 « يَاجَبْنَآ جَبَلَ الرَّيَّانِ مِنْ جَبَلِ \* وَجَبْنَآ سَاكِنُ الرَّيَّانِ مَنْ كَانَ »  
 قَالَتْ فَهَلَا قَدَّكَ النَّفْسُ أَحْسَنُ مِنْ \* هَذَا لِمَنْ كَانَ صَبَّ الْقَلْبِ حَيْرَانَا

« يا قوم أذني لبعض الحى عايشة » والأذن تمسق قبل العين أحيانا »  
 فقلت أحسنت أنت الشمس طالمة » أضربت في القلب والأحشاء نيرانا  
 فاصممتي صوتا مطريا هزجا » يزيد صبا حبا فيك أشجانا  
 يا ليتني كنت نفاحا مقلبة » أو كنت من قصب الرمان ريحانا  
 حتى إذا وجدت ريحي فاعجبها » ونحى في خلوة مثلت إنسانا  
 غرقت مودعا ثم أشتت طريا » تشدو به ثم لا تخفيه كتمانا  
 « أصبحت أطوع خلق الله كلهم » لأكثر الخلق لي في الحب عصيانا »  
 فقلت أطربتنا يازين مجلسنا » فهات إنك بالإحسان أولانا  
 لو كنت أعلم أن الحب يقتلني » أعددت لي قبل أن أفاك أكفانا  
 ففتت الشرب صوتا موقعا رملا » يذكي السرور ويبيد العين ألوانا  
 « لا يقتل الله من دامت مودته » والله يقتل أهل الغدر أحيانا »

كان الزوار يسمون في قديم الدهر إلى أيام خالد بن برمك السؤال، فقال خالد : هذا والله أسم استغفله لطلاب الخير، وأرفع قدر الكرم عن أن يسمى به أمثال هؤلاء المؤمنين، لأن فيهم الأشراف والأحرار وأبناء النعم، ومن لعله خير ممن يقصد وأفضل أدبا، ولكننا نسميهم الزوار، فقال بشار يمدحه بذلك :

حدّا خالد في فعله حنو برمك \* فحمد له مستطرف وأصيل  
 وكان ذوو الآمال يدعون قبله \* بلفظ على الإعدام فيه دليل  
 يسمون بالسؤال في كل موطن \* وإن كان فيهم نايه وجليل  
 ... فسماهم الزوار سترنا عليهم \* فاستأره في المهتدين سُدُول

وقال بشار هذا الشعر في مجلس خالد في الساعة التي تكلم خالد بهذا في أمر الزوار، فأعطاه لكل بيت ألف درهم .



دخل بشار على عُقْبَةَ بْنِ سَلَمٍ فَأَنشَدَهُ بَعْضَ مَدَائِحِهِ فِيهِ ، وَعِنْدَهُ عُقْبَةُ بْنُ رُوْبَةَ يَنْشُدُهُ رَجَزًا يَمْدَحُهُ بِهِ ، فَسَمِعَهُ بَشَارٌ وَجَعَلَ يَسْتَحْسِنُ مَا قَالَهُ إِلَى أَنْ فَرَغَ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى بَشَارٍ فَقَالَ : هَذَا طِرَازٌ لَا تُحْسِنُهُ أَنْتَ يَا أَبَا مُعَاذٍ ، فَقَالَ بَشَارٌ : أَلَيْ يَقَالُ هَذَا ! أَنَا وَاللهُ أَرَجُّمُكَ وَمِنْ أَيْبِكَ وَجَدْتُكَ ، فَقَالَ لَهُ : عُقْبَةُ أَنَا وَأَبِي فَتَحْنَا لِلنَّاسِ بَابَ الْغَرِيبِ وَبَابَ الرَّجْزِ ، وَإِنِّي لَخَلِيقٌ أَنْ أَسْتَدَّ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ بَشَارٌ : أَرْحَمُهُمْ رَحِمَكَ اللهُ ، وَلَمَّا كَانَ مِنْ غَدٍ فُدَا عَلَى عُقْبَةَ ابْنِ سَلَمٍ وَعِنْدَهُ عُقْبَةُ بْنُ رُوْبَةَ ، فَأَنشَدَهُ أَرْجُوزَهُ الَّتِي مَدَحَهَا فِيهَا :

يَا طَلَّلَ الْحَيَّ بِذَاتِ الصَّمْدِ \* يَا اللهُ حَتَّى كُنْتُ بِمَدَى  
أَوْحَشْتُ مِنْ دَعْدٍ وَتَرَبَّ دَعْدٍ \* سَقِيَا لِهَيْمَاءِ أَيْتَةِ الْأَيْتَةِ  
قَامَتْ تَرَامَى إِذْ رَأَيْتُ وَحْدَى \* كَالشَّمْسِ تَحْتَ الزُّبُرِجِ الْمَقْدِ<sup>(١)</sup>  
صَدَّتْ يَحْدُ وَجَلَّتْ عَنْ حَدِّ \* ثُمَّ انْتَلَتْ كَالْفَنَسِ الْمُرْتَدِّ  
عَهْدِي بِهَا سَقِيَا لَهُ مِنْ عَهْدٍ \* تُخَالِفُ وَعْدًا وَتَنْفِي بِوَعْدِ  
فَتَحْنُ مِنْ جَهْدِ الْهَوَى فِي جَهْدٍ \* وَزَاهِرٍ مِنْ سَيْطِ وَجَعْدِ  
أَهْدَى لَهُ الدَّهْرُ وَلَمْ يَسْتَهْدِ \* أَغَوَّافُ نَوْرِ الْحَبْرِ الْمَجْدِ  
يَلْقَى الضَّحَى رِيحَانَهُ بِسَجْدِ \* بَدَلْتُ مِنْ ذَاكَ بُكًى لَا يُجْدِي  
وَافَقَ حَقًّا مِنْ سَعَى بِجَدِّ \* مَا ضُرَّ أَهْلَ النَّوْلِ ضَعْفُ الْجَدِّ  
الْحُرُّ يُلْحَى وَالْعَصَا لِلْعَبْدِ \* وَلَيْسَ لِلْعُفِّ مِثْلُ الرَّدِّ  
وَالنَّصْفُ يَكْفِيكَ مِنَ التَّمْدَى \* وَمَصَاحِبُ كَالنَّيْلِ الْمُدِّ  
حَلَّتْهُ فِي رَقْعَةٍ مِنْ جِلْدَى \* أَرْقَبُ مِنْهُ مِثْلُ يَوْمِ الْوَرْدِ  
حَتَّى مَضَى غَيْرَ قَبِيدِ الْفَقْدِ \* وَمَا دَرَى مَا رَغْبَى مِنْ زُهْدِ  
إِسْلَمَ وَحْيِيَّتُ أَبَا الْمُلْدِ \* مِفْتَاحُ بَابِ الْحَدَثِ الْمُنْسَدِ  
مُشْتَرَكُ النَّيْلِ وَرَى الزُّنْدِ \* أَغَرَّ لَبَّاسَ ثِيَابِ الْحَمْدِ

(١) الزبرج : الزينة من وثى أربوج .

ما كان نبي لك غير الوذ • ثم شاء مثل ربح الوذ  
 نسجته في محكمات النسج • فالهس طرازي غير مستند  
 لله أيامك في معد • وفي نبي حطان غير معد  
 يوماً بذى بلخفة<sup>(١)</sup> عند الحدة • ومثله أودعت أرض الهند  
 بالمرهفات والحديد السرد • والمقربات<sup>(٢)</sup> المبعديات الجرد  
 اذا الحيا اكدي بها لا تكدي • تلحم أمراً وأموراً شدي  
 وابن حكيم ابن ألك يدي • أصم لا يسمع صوت الرد  
 حيتته بصفية المعة • فانتد مثل الجبل المنه  
 كل أمرئ رهن بما يؤدى • ورب ذى تاج كريم الجدة  
 كآل صكسرى وكآل برد • أنكب جاف عن سبيل القصد  
 فصلته عن ماله والولد •

فطرب عقبة بن سلم وأجرل صلته، وقام عقبة بن رؤبة فخرج عن المجلس ينجزي وهرب  
 من تحت ليلته فلم يعد إليه •

قال الجاحظ : فانظر الى سوء أدب عقبة بن رؤبة وقد أجمل بشار محضه وعشرته،  
 فغالبه بهذه المقابلة القبيحة، وكان أبوه أعلم خالق الله به، لأنه قال له وقد فاتحه بشعره :  
 أنت يا بنى ذهبان الشعر، اذا ميت مات شعرك معك، فلم يوجد من يرويه بعدك، فكان  
 كما قال له، ما يعرف له بيت واحد ولا خبر غير هذا الخبر القبيح الإخبار عنه، الدال على  
 سففه وسقوطه وسوء أدبه •

وقال بشار في هوى له كانت باليصرة، ثم خرجت مع زوجها الى عمان :  
 هوى صاحبي ربح الشمال اذا جرت • وأشقى لقلبي أن تهب جنوب  
 وما ذاك إلا أنها حين تنهى • تنأى وفيها من حبيبة طيب

(١) ملحة : موضع بد الناج وبد إمرة في طريق البصرة الى مكة، ومنه يوم ملحة لبنى يربيع على قابوس  
 ابن الخنزين ماء الهاء • (٢) المقربات : الخيل التي يقرب مربطها وسقطها لكرامتها •

عَذِيرِي مِنَ الْعُدَالِ إِذْ يَتَعَلَّوْنِي \* سَقَاها وما في الماذلين ليب  
يقولون لو عَزَّيْتَ قَلْبِكَ لأَرَعَوِي \* فقلت وهَلْ للعاشقين قلوب  
أذا نَفَلَتْ القُومُ الجُلُوسُ فَإِنِّي \* مُكِبٌّ كَأَنِّي فِي الجَمِيعِ غَرِيب  
جاء أَبُو الشَّعْمَقِ إِلَى بَشَّارٍ شَكَوَ إِلَيْهِ الضَّيْقَ وَيَحْلِفُ لَهُ أَنَّهُ مَا عِنْدَهُ شَيْءٌ ، فَقَالَ لَهُ  
بَشَّارٌ : وَاللَّهِ مَا عِنْدِي مَا يَنْفِكَ ، وَلَكِنْ قُمْ مَعِيَ إِلَى عُبَيْةَ بْنِ سَلَمٍ ، فَقَامَ مَعَهُ ، فَذَكَرَ لَهُ  
أَبَا الشَّعْمَقِ وَقَالَ : هُوَ شَاعِرٌ وَلَهُ شُكْرٌ وَثَاءٌ ، فَأَمَرَ لَهُ بِخَمِيسَةٍ دَرَاهِمَ ، فَقَالَ لَهُ بَشَّارٌ :  
بِأَوَاحِدِ الْعَرِيبِ الَّذِي \* أُمَمِي وَلَيْسَ لَهُ تَطْيِيرُ  
لَوْ كَانَتْ مِثْلُكَ آخِرًا \* مَا كَانَ فِي الدُّنْيَا تَغْيِيرُ  
فَأَمَرَ لِبَشَّارٍ بِأَتْنِي دَرَاهِمَ ، فَقَالَ أَبُو الشَّعْمَقِ : نَفَعْتَنَا وَنَعَمْنَاكَ يَا أَبَا مَعَاذٍ ، فَجَعَلَ  
بَشَّارٌ يَضْحَكُ .

دَخَلَ زَيْدٌ بْنُ مَتَصُورٍ الْحَيْرِيَّ عَلَى الْمَهْدِيِّ وَبَشَّارٌ بِيَدِهِ يُنْشِدُهُ قَصِيدَةً أَمْتَدَحُهُ  
بِهَا ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ زَيْدٌ ، وَكَانَتْ فِيهِ غَفْلَةٌ ، فَقَالَ : يَا شَيْخُ ، مَا صَنَعْتُكَ ؟ فَقَالَ :  
أَتَقَبُّ اللُّؤْلُؤَ ، فَضَحِكُ الْمَهْدِيُّ ، ثُمَّ قَالَ لِبَشَّارٍ : أَغْرُبُ وَيلَكَ ! أَلَتَنَادَرُ عَلَى خَالِي ؟  
فَقَالَ لَهُ : وَمَا أَصْنَعُ ؟ يرى شَيْخًا أَعْمَى يُنْشِدُ الْخَلِيفَةَ شِعْرًا وَيَسْأَلُهُ عَنْ صِنَاعَتِهِ .  
وَقَفَّ عَلَى بَشَّارٍ بَعْضُ الْحُجَّانِ ، وَهُوَ يَنْشِدُ شِعْرًا ، فَقَالَ لَهُ : أَسْتُرُّ شِعْرَكَ هَذَا كَمَا تَسْتُرُّ  
عَوْرَتَكَ ، فَصَبَقَ بَشَّارٌ بِيَدِهِ وَغَضِبَ ثُمَّ قَالَ لَهُ : وَمَنْ أَنْتَ ؟ وَيلَكَ ! قَالَ : أَنَا — أَعَزَّكَ اللَّهُ —  
رَجُلٌ مِنْ بَاهِلَةَ ، وَأَخُوَالِي سَلُولُ ، وَأَصْهَارِي عَكْلُ ، وَأَسْمِي كَلْبٌ ، وَمَوْلَدِي بِأَصْبَاخٍ <sup>(١)</sup> ،  
وَمَتَرَنِي بِظَفَرِ بِلَالٍ ، فَضَحِكُ بَشَّارٌ ، ثُمَّ قَالَ : أَذْهَبَ وَيلَكَ ! فَأَتَتْ عَتَبَةُ لَوْمَكَ ، قَدْ عَلِمَ أَنَّ  
أَنْتَ أَتَيْتَ مِنِّي بِمَحْصُونٍ مِنْ حَدِيدٍ .

مَرَّ بَشَّارٌ بِرَجُلٍ قَدْ رَمَحَتْهُ بَغْلَةٌ وَهُوَ يَقُولُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ شُكْرًا ، فَقَالَ لَهُ : بَشَّارُ اسْتَرَدَّ زَيْدُكَ .  
وَمَرَّ بِهِ قَوْمٌ يَحْمِلُونَ جَنَازَةً وَهُمْ يُبْرِعُونَ الشَّيْءَ بِهَا ، فَقَالَ : مَا لَكُمْ مَسْرِعِينَ ؟ أَتَرَاهُمْ سَرَقُوهُ  
فَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ يُلْحَقُوا فَيُؤْخَذَ مِنْهُمْ .

(١) مِنْ قَرَى الْجَاهِلَةِ لَيْلَى مِير .

رفع غلامٌ بشار إليه في حساب نفقته جلاءَ امرأةٍ عشرةَ دراهم، فصاح به بشار وقال :  
والله ما في الدنيا أعجب من جلاء امرأةٍ أعمى بعشرة دراهم، والله لو صِدِّثت عينُ الشمس  
حتى يبقى العالمُ في ظلمةٍ ما بلغت أجرهُ من يجالوها عشرة دراهم .

قال قُدامةُ بنُ نُوح : كان بشارٌ يحشو شعره إذا أعوزته القافية والمعنى بالأمساء التي  
لا حقيقة لها، فمن ذلك أنه أنشد يوما شعرا له فقال فيه : « غنى للغريض يا بن قنان »  
فقبل له : من أين قنان هذا ؟ لسنا نعرفه من مَفْنَى البصرة، قال : وما عليكم منه ؟ ألكم قبله  
دينٌ فطالبيوه ، أو ثارٌ تريدون أن تُدركوه ، أو كَفَلْتُ لِكَم به ، فإذا غاب طالبتموني  
براحضاره ، قالوا : ليس بيننا وبينه شيء من هذا ، وإنما أردنا أن نعرفه ، فقال : هو رجل  
يعقلى ولا يخرج من بيتي ، فقالوا له : إلى متى ؟ فقال : منذ يوم وكِد أن يموت ، وذَكَر  
أيضا في هذه القصيدة « البردان » فقبل له : يا أبا معاذ ، أين البردان هذا ؟ لسنا نعرفه  
بالبصرة ، فقال : هو بيت في بيتي سمّيته بالبردان ، أفليكن من سمّيتي داري وبيوتها شيء  
فتسألوني عنه ؟ .

قالت امرأةٌ لبشار : أرى رجل أنت لو كنت أسود الخفية والرأس ، قال : أما علمتِ  
أن بيض البُرَّة أشهر من سود الغربان ؟ فقالت له : أما قولك فحسن في السمع ، ومن لك  
بأن يحسن شيبك في العين كما حسن قولك في السمع ؟ فكان بشار يقول : ما أخطأت قط غير  
هذه المرأة .

دعاه رجل إلى منزله فأكل وشرب ، ولما أراد الانصراف فاستجاره للرجل وأخذت  
بيده ، فلما صار بالصحن أوما إليها ليقبلها ، فأرسلت يدها من يده ، فجعل يبول في العرصة  
ويخرج مولى الجارية فقال : مالك يا أبا معاذ ؟ فقال : أذنبْتُ ذُنُبا ولا أبرح أو أقول شعرا ،  
فقال :

أَتُوبُ إِلَيْكَ مِنَ السَّيِّئَاتِ • وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ فَتَقَاتِي  
تَاوَلْتُ مَا لَمْ أَرِدْ نَيْلَهُ • عَلَى جَهْلِ أَمْرِي وَفِي سَكْرَتِي

وَوَاقَهُ وَاللَّهُ مَا جَعَلَهُ \* لَيْسَ مِنْهُ وَلَا كَانَ مِنْ هَمِّي  
وَالَا قَتُّ إِذَا ضَامَعَا \* وَعَدَّ بِي اللَّهُ فِي مَيْتِي  
فَمَنْ نَالَ خَيْرًا عَلَى قُبُلَتِي \* فَلَا بَارِكَ اللَّهُ فِي قُبُلِي

لما كثرت أسمتارُ نساء البصرة وشبَّانها بشعرٍ بشار، وقال سوار بن عبد الله ومالك بن دينار: ما شيء أدمى لأهل هذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى، وما زالا يقطَّانه وكان وإصل بن عطاء يقول: إن من أخدع حياثل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الأعمى المَلْحِد، فلما كثرت ذلك وأتته خبره إلى المهدي تنهاه عن ذكر النساء وقول التشبيب، وكان المهدي من أشد الناس غيرة، فقال في ذلك:

يَا مَنْظَرًا حَسَنًا رَأَيْتُهُ \* فِي وَجْهِ جَارِيَةٍ قَدِيتُهُ  
بَعَثْتُ إِلَيَّ تَسْؤُمِي \* تَوَبَّ الشَّبَابُ وَقَدْ طَوِيْتُهُ  
وَاللَّهُ رَبِّ مُحَمَّدٍ \* مَا إِنْ غَدَرْتُ وَلَا تَوَيْتُهُ  
أَتَمَسَّكَ عَنكَ وَرِيحًا \* عَرَضَ الْبَلَاءُ وَمَا أَبْتَنَيْتُهُ  
إِنْ الْخَلِيفَةُ قَدْ آتَى \* وَإِذَا أَبِي شَيْفٌ أَبَيْتُهُ  
وَمُخَضَّبٌ رَخِيسُ الْبَنَى \* نَبِيٌّ عَلَى مَا بَكَيْتُهُ  
وَيُسْوِقُنِي بَيْتُ الْحَبِيدِ \* سَبَّ إِذَا أَذْكُرْتُ وَأَيْنَ بَيْتِهِ  
قَامَ الْخَلِيفَةُ دَوْلَةً \* فَصَبَرْتُ عَنْهُ وَمَا قَلْبِي  
وَنَهَانِي الْمَلِكُ الْهَمَامَا \* مِمَّنْ عَنِ النِّسَاءِ وَمَا عَصَيْتُهُ  
لَا بَلَّ وَفِيَتْ فَلَمْ أُرْضَعْ \* عَهْدًا وَلَا رَأْيًا رَأَيْتُهُ  
وَأَنَا الْمُطَّلَّ عَلَى الْعِدَا \* وَإِذَا غَلَا الْحَمْدُ أَشْتَرَيْتُهُ  
أُصْنِفِي الْخَلِيلَ إِذَا دَنَا \* وَإِذَا نَأَى عَنِّي نَأَيْتُهُ  
وَأَمِيسَلُ فِي أُنْسِ التَّنْدِي \* مِمَّنْ مِنَ الْحَيَاءِ وَمَا أَشْتَبَيْتُهُ  
وَكَانَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ يَشْدُ هَذِهِ الْآيَاتِ وَيُسَحِّنُهَا وَيَجْعِبُ بِهَا .

وكان لبشار خمسة نداء، فأت منهم أربعة وبقى واحد يقال له : البراء، فركب في زورق يريد عبور دجلة العوزاء ففرق، فكان بشار يقول : ما خير في الدنيا بعد الأصدقاء، ثم رثى أصدقاءه بقوله :

يا بن موسى ماذا يقول الإمام \* في فناء بالقلب منها أيام  
 بث من حبها أوقر بالكأ \* س وينفو على فؤادي الهيام  
 لم يكن بينها وبينى إلا \* كُتِبُ الماشقين والأحلام  
 يا بن موسى أسقى ودع عنك سئى \* إن سلمي يحى وفي آحشام  
 رب كأس كالسبيل تملأ \* بث بها واليوم حتى نيام  
 حُبست للشراة في يث رأس \* حَتَقَتْ عَائِسا عليها النعام  
 نَفَحَتْ نَفْحَةً تَهَزَّت ندي \* بشيم وأشقى عنها الزُكَّام  
 وكأنت المتلول منها إذا را \* ح شَجَّ في لسانه زُرام<sup>(٢)</sup>  
 صَدَنَتْهُ الشُّمُولُ حتى يعيد \* ه أنكسار وفي المفاهيل خَام  
 وهو باقى الأطراف حيث به الكأ \* سُ وماتت أوصله والكلام  
 ونفى يشرب المدامة بالما \* ل ويمشى يروم ما لا يُرام  
 أغدَّتْ كَأْسُهُ الدنانير حتى \* ذَهَبَ العَيْنُ واستقر السَّوام  
 تركنه الصبياء يرو بعين \* نام إنسانها وليست تنام  
 جُرْحٌ من شربة تُصَلُّ بأنرى \* وبكى حين سار فيه المدام  
 كان لي صاحباً فأودى به الدهر \* ر وفارقته عليه السلام  
 بقيّ الناس بعد هلك ندأما \* ي وقوتنا لم يشعروا ما الكلام  
 بكُزُور الأيسار لا كَيِّدٍ فيه \* ما ليَاغ ولا عليها منام

(١) بيت رأس : قرية بالشام من قرى حلب ينسب إليها الخمر .  
 ودم حار يعرض للعباب الذي بين الكبد والأعضاء ثم يصل الى الدماغ .  
 كرضى .  
 (٢) البرسام : علة يهذى فيها وهو  
 (٣) حيث بالإدغام لغة في حتى  
 (٤) الأيسار : جمع يسر، وهو اللاعب بالقداح .

يا بن مومي قدَّ الحبيب على العي \* من قدَّاه وفي الفؤاد مسقام  
كيف يصفون النعم وحيداً \* والأخلاء في المقابر هام  
فيسَّتهم على أم المنايا \* فأناتهم بعنف فناموا<sup>(١)</sup>  
لا يبيض السَّجَام عني طليم \* إنما غايه الحزين السَّجَام  
وقال في نهي الخليفة إياه عن ذكر النساء :

واقه لولا رضا الخليفة ما \* أعطيتُ هنيئاً على في تبحر  
وربما خير لأبن آدم في ال \* كره وشق الهوى على البدن  
فاشرب على أثرة الزمان فـ \* تلقى زماناً صفاً من الأثر  
الله يُعطيك من فواضله \* والمرء يفضي حيناً على الكثر<sup>(٢)</sup>  
قد عشتُ بين الرِّيحان والزَّ \* هر في نيل مجلس حسن  
وقد ملأتُ البلاد ما بين يني \* مور إلى القبروان فاليمين  
شِعراً تُصلِّ له العوائق والشَّ \* يبُّ صلاة الفؤاد للوتر  
ثم نهاني المهديُّ فأنصرفتُ \* نسي صليح الموفق اللِّقن  
فالحمد لله لا شريك له \* ليس بباقي شيء على الزين

وأنشد المهديُّ قصيدته التي أولها :

تجالَّت عن فُهي وعن جارتِي فُهر \* وودعتُ نهما بالسلام وبالبشر  
وفاقت سُلَيْمى فيك حنا جلادة \* محلك دان والزَّيَّارة عن عفر<sup>(٣)</sup>  
أخى في الهوى ما أراك جَقُوننا \* وقد كنتُ تقفوا على العُمر واليسر  
تأقلت إلا من يد استفيها \* وزورة أسلاك أشدَّ بها أزدى  
وأخرجني من وزر خمسين حجة \* فني هاشميُّ يفتشيز من الوزر

(١) فسَّتهم : حسدتهم . (٢) الكثر واحداً كثره وجرى وجرى تفرق في البن من رده يساء علاجه .

(٣) العفر : قلة الزيارة ، يقال : ما تأتينا إلا عن عفرأى بعد قلة زيارة وطول عهد .

دَفَنْتُ الهوى حَيًّا فَلَسْتُ بِزَائِرٍ \* سَلِمَى وَلَا صَفْراءَ مَا قَرَّرَ الْقَمَرِى  
وَمُصَفَّرَةً بِالزَّعْفَرَانِ جُلُودَهَا \* إِذَا أَجْتَلَيْتُ مِثْلَ الْمَفْرُطَةِ الصَّغِيرِ  
فَرَبِّ تَقَالِ الزَّوْفِ هَبْتُ تَلَوْنِى \* وَلَوْ شَهِدْتُ قَبْرِى لَصَلَّاتُ عَلَى قَبْرِى  
تَرَكْتُ لِمَهْدَى الْأَنَامِ وَصَالِهَا \* وَدَاعَيْتُ عَهْدًا بَيْنَنَا لَيْسَ بِالْخَسْرِ  
وَلَوْلَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٌ \* لَقَبَلْتُ فَاها أَوْ لَكَانَ بِهَا فِطْرِى  
لَمَعْرِى لَقَدْ أَوقَرْتُ نَفْسِى خَطِيئَةً \* لِمَا أَنَا بِالْمُزَادِ وَقُرَا عَلَى وَقْرِى  
تَسَلَّى عَنِ الْأَحْبَابِ صَرَامُ خُلَّةٍ \* وَوَصَالِ أَتْرَى مَا يُقِيمُ عَلَى أَصْرِى  
وَرَكَّاضِ أَفْرَاسِ الصَّبَابَةِ وَالْهوى \* جَرَتْ حِجَابًا مِمَّ اسْتَقَرَّتْ فَلَا تَجْرِى  
فَأَصْبَحْنَ مَا يَرْكَبْنَ إِلَّا إِلَى الْوُغَى \* وَأَصْبَحْتُ لَا يُزْدِى عَلَى وَلَا أَزْدِى  
فَهَذَا وَإِنِى قَدْ شَرَعْتُ مَعَ الثَّقَى \* وَمَاتَ هُمُومِ الطَّارِقَاتِ فَمَا تَسْرِى

ثم قال يصف السفينة :

وعذراء لا تجسرى بلحم ولا دَم \* قَلِيلَةٌ شَكْوَى الْأَيْنِ مُلْجَمَةُ الدُّبُرِ  
إِذَا طَلَعَتْ فِيهَا الْقُلُوبُ تَسْتَخْصِمُ \* بِفُرْسَانِهَا لَا فِي وُحُوشٍ وَلَا وَغْرِ  
وَإِنْ قَصَصْتُ زَلَّتْ عَلَى مَتْنَعِبٍ \* ذَلِيلُ الْقَوَى لَا شَيْءَ يَفْرِى كَمَا تَفْرِى  
تَلَاغِبُ تَيَّارِ الْبَحُورِ وَرَبْمَا <sup>(١)</sup> \* رَأَيْتُ فُجُوسَ الْقَوْمِ مِنْ جَرِيهَا تَجْرِى  
إِلَى مَلِكٍ مِنْ هَائِمٍ فِي بُسُوفٍ \* وَمِنْ حِمِيرٍ فِي الْمُلْكِ وَالْمَسَدِ الدُّثْرِ <sup>(٢)</sup>  
مِنَ الْمُشْتَرِّينَ الْحَمْدَ تَنْدَى مِنَ التَّنْدَى \* يَدَاهُ وَيَنْدَى طَارِضَاهُ مِنَ الْعِطْرِ  
فَالزَّمْتُ حَبْلَى حَبْلٍ مِنْ لَا تُبْسِئُهُ \* عَفَاءُ النَّدَى مِنْ حَيْثُ يَدْرِى وَلَا يَدْرِى  
بِخَلِّكَ عَهْدُ اللَّهِ يَدَّتْ خِلَافَةً \* نَزَلَتْ بِهَا بَيْنَ الْفِرَاقِ وَالْقَسْرِ  
وَعِنْدَكَ عَهْدٌ مِنْ وَصَاةِ مُحَمَّدٍ \* قَرَعَتْ بِهِ الْأَمْلَاقُ مِنْ وَلَدِ النَّظْرِ

(١) كان قد قال : تَيَّارُ الْبَحُورِ هُمَا بِهِ ذَلِكَ سَيُورِيهِ ، بِلَحْمِهِ تَيَّارُ الْبَحُورِ .

(٢) الدُّثْرُ : الكثير .



ولما أُنشِد الوليد بن يزيد قولَ بشار :

أيها السَّاقِيانِ صُبَا شَرَابِي \* وَأَسْقِيَانِي مِنْ رِيْقِي بِبَضَاءِ رُودِ<sup>(١)</sup>  
 إِنَّ دَائِي الْقَلَامُ وَإِنَّ دَوَائِي \* شَرْبُهُ مِنْ رُضَابِ تَنْفَسِ بَرْدِ  
 وَلَمَّا مَضَيْتُكَ كَفَرْتُ الْأَقَامِي \* وَحَدِيثُكَ كَالْوَفَى وَفَى الْبُرُودِ  
 نَزَلْتُ فِي السَّوَادِ مِنْ حَبَةِ الْقَدِ \* سَبَّ وَنَالَتْ زِيَادَةُ الْمُشْتَرِدِ  
 ثُمَّ قَالَتْ نَقَلَكَ بَدَ لَيْسَ \* وَاللَّيَالِ يُنِيلُ كُلَّ جَدِيدِ  
 صَدَّهَا الصَّبْرُ عَنْ لِقَائِي وَعَنْدِي \* زَفَرَاتُكَ يَا كَلْنَ قَلْبَ الْحَدِيدِ

طَرِبَ الوليدُ وقال : مَنْ لِي بِمَنْجِ كَأْسِي هَذِهِ مِنْ رِيْقِي سَأَلِي ، فَيَرَوِي ظِمْنِي ، وَتُعَلِّقُ عَلَيَّ ،  
 ثُمَّ يَكِي حَتَّى مَنِّجَ كَأْسَهُ بِدَمْعِهِ ، وَقَالَ : إِنَّ فَاتِنَا ذَلِكَ فَهَذَا .

مَدَحَ بشارُ خَالِدَ بْنَ بَرِّمَكٍ فَقَالَ فِيهِ :

لَعَمْرِي لَقَدْ أَجْدَى عَلَّ أَبْنُ بَرِّمَكِ \* وَمَا كُلُّ مَنْ كَانَ الْغَنَى عِنْدَهُ يُجِدِي  
 حَلَبْتُ بِشَعْرِي رَاحَتَهُ فَدَرَّتَا \* سَهْمًا كَمَا دَرَّ السَّحَابُ مَعَ الرَّدِ  
 إِذَا جَنَّتْهُ لِلْحَمْدِ أَشْرَقَ وَجْهُهُ \* إِلَيْكَ وَأَعْطَاكَ الْعِصْرَامَةَ بِالْحَمْدِ  
 لَهُ نِسْمٌ فِي الْقُصُومِ لَا يَسْتَنْبِيهَا \* بَرَاءَ وَكَيْلِ التَّاجِرِ الْمُنْدِ بِالْمُنْدِ  
 مُفِيدٌ وَمُتَلَاغٌ سَبِيلُ ثَرَاتِهِ \* إِذَا مَا غَدَا أَوْ رَاحَ كَالْهَزَرِ وَالْمُنْدِ  
 أَخَالَذُ إِنِّ الْحَمْدَ يَبْقَى لِأَهْلِهِ \* جَمَالًا وَلَا تَبْقَى الْكُنُوزُ عِلَّ الْكَدِ  
 فَأَعْطِمُ وَكُلُّ مَنْ عَارَةً مُسْتَرْدَّةً \* وَلَا تُثَبِّحُهَا إِنِّ الْوَارِيَّ لِلرَّدِ

فَاعْطَاهُ خَالِدٌ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ يُعْطِيهِ فِي كُلِّ وَفَادَةٍ خَمْسَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ،  
 وَأَمْرُ خَالِدٍ أَنْ يَكْتُبَ هَذَانِ الْبَيْتَانِ فِي صَدْرِ مَجْلِسِهِ الَّذِي كَانَ يَجْلِسُ فِيهِ ، وَقَالَ أَبْنُ بَحْبِ  
 ابْنُ خَالِدٍ : آخَرُ مَا أَوْصَانِي بِهِ أَبِي الْعَمَلُ بِهَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ .

(١) انزود : الشابة الحسنة الناحية .

وكان إسحاق الموصلي يظعن على شعر بشار ويضع منه، ويذكر أن كلامه مختلف لا يشبه بعضه بعضاً، فقليل له : أقول هذا لمن يقول :

إذا كنت في كل الأمور معاتباً \* صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه  
تعيش واحداً أوصل أهلك فإنه \* <sup>(١)</sup>معارف ذنب مرة ومجانبه  
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى \* <sup>(٢)</sup>فلمت وأى الناس تصفو مشاربه

وهي من حرر قصائده، ملح بها عربن هبنة، ومنها قوله :

يخاف المنايا إن ترملت صاحبي \* كان المنايا في المقام تناسبه  
فقلت له إن العراق مقامه \* وخيم إذا هبت عليك جنابه  
لأنني نبي عيلان إن فاعلمهم \* تزيد على كل الفعال مراتبه  
أولئك الأتق شقوا العمى بسيرهم \* عن العين حتى أبهر الحلق طالبه  
وجيش بجنع الليل يزحف بالحصا \* وبالشوك وانطوى حمرًا تغالبه  
غدونا له والشمس في خدر أمها \* تظلمنا والطلل لم يحسر ذائبه  
بضرب نوب الموت من ذاق طعمه \* وتذكر من نجي الفرار مثالبه  
كأن ثمار النقع فوق رهوسنا \* وأسياقنا ليل تهاوى كواكبها  
بهنا لهم موت الفجأة إننا \* بنو الموت خفاق طينا سبابه <sup>(٣)</sup>  
فراحوا فزيق في الإسار ومثله \* قتيل ومثل لآذ بالبحر هاربه

ومنها :

إذا الملك الجبار صعر خده \* مشينا إليه بالسيوف تعاتبه  
رؤيدا تصاهل بالعراق جياذنا \* كأنك بالفضالك قد قام نأديه  
وسام أسروا ومن دونه الشجا \* وهول كعج البحر جاشت غواربه

(١) معارف ذنب : مخالفه ومركبه من لارف الطبيعة إذا خالفها . (٢) القلى : ما يسقط

في الشراب من ذهاب أوعيه . (٣) البهاث : جمع سبية ، وهي شقة من الكنان رقيقة يريد بها الألوية .

أَحَلَّتْ بِهِ أُمُّ الْمُنَايَا بِنَاتِهَا \* بِأَسْيَافِنَا إِنَّا رَدَىٰ مَن نَحَارُهُ  
وَكَا إِذَا دَبَّ الْمَدُّ لَسْخَطُنَا \* وَرَاقِبْنَا فِي ظَاهِرٍ لَا نَر\_اقِبُهُ  
رَكِبْنَا لَهُ جَهْرًا بِكُلِّ مُتَقَيِّفٍ \* وَأَبْيَضَ تَسْتَقَى الدَّمَاءِ مَضَارِبُهُ  
وَمِنْهَا :

فَلَبَّ تَوَلَّى الْحَيَّ وَأَحْصَرَ الثَّرَى \* لَقَى الصَّيْفَ مِنْ نَجْمٍ تَوَقَّدَ لِأَهْبِهِ  
وَطَارَتْ عَصَائِفُ الشَّقَاقِ وَأَكْنَسَى \* مِنْ الْأَلِّ أَمْثَالَ الْمَبْرَةِ نَاضِبِهِ  
ضَدَّتْ عَانَهُ تُشْكُو بِأَبْصَارِهَا الصَّدَى \* إِلَى الْجَلَابِ إِلَّا أَنَهَا لَا تَخَاطِبُهُ  
وَمِنْ حَسَنِ شِعْرِهِ :

لَوْ كُنْتُ تَلَقَّيْنِ مَا تَلَقَّى قَسَمَيْتِ لَنَا \* يَوْمَا نَعِيشُ بِهِ مِنْكُمْ وَنَبْتَهِجُ  
لَا خَيْرَ فِي الْعِيشِ إِنْ تَأَكَّدَا أَبَدًا \* مَا فِي التَّلَاقِ وَلَا فِي قُبْلَةِ حَرْجٍ  
مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ لَمْ يَظْفَرْ بِمَاجِدِهِ \* وَفَازَ بِالطَّيِّبَاتِ الْفَنَائِكُ اللَّهُجُ  
أَشْكُو إِلَى اللَّهِ هُمَا مَا يَفَارِقُنِي \* وَثُرْنَا فِي فَوَادِي الدَّهْرِ تَمْتَلِجُ  
وَقَالَ يَهْجُو عبيد الله بن قُرْظَةَ :

حَلِيلِي مَنْ كَتَمْتُ إِعِينَا أَخَاكَ \* عَلَى دَهْرِهِ إِنْ الْكَرِيمَ مُعِينُ  
كَأَنَّ عبيد الله لم يَلْقَ مَا جَدَا \* مَخَافَةَ أَنْ يَرْجُو نَدَاءَ حَزِينِ  
وَلَا تُجْزَلَا بِجُلِّ آبْنِ قُرْظَةَ إِنَّهُ \* وَلَمْ يَدْرُ أَنَّ الْمَكْرِبَاتِ تَكُونُ  
فَقُلْ لِأَبِي يَحْيَى مَتَى تُتْرِكُ الْعِلَا \* وَفِي كُلِّ مَعْرُوفٍ طَلِكٌ يَمِينُ  
إِذَا جِئْتَهُ فِي حَاجَةٍ سَلَّ بَابَهُ \* فَلَمْ تَلْقَهُ إِلَّا وَأَنْتَ كَيِّفُ  
وَقَدْ عَلَى خَالِدِ بْنِ رِيكَ فَأَنْشُدْهُ :

أَخَايَ لَمْ أَخْطِطْ إِلَيْكَ بِذِكْرَةٍ \* مَسْرُورٍ أَنِّي خَافِي وَأَنْتَ جَمَّادُ  
أَخَالِدُ بَيْنَ الْأَجْرِ وَالْحَدِّ حَاجَتِي \* فَأَتِيهِمَا تَأْتِي فَأَنْتَ عِمَادُ

(١) المائة : القطعة من الحبر . والجواب : ذكرها ، ومعنى شكروا الصدى بأبصارها أن اللطش قد تبين في أحداقها  
فغارت ، وهذا من أحسن ما وصف به الحار والآن . (٢) أي لم اطلب ممرطك منسلا اليك بهذا أو قرابة .

فإن تُعطى أفرغ عليك مداعى • وإن تاب لم يُضرب على سَدَا  
ركابى على حَرْبٍ وقلى مشيع • ومالى بأرض الباغين بلاد  
إذا أنكرتني بِلدة أو نكرتها • نَحَرْتُ مع البَازي على سَواد

فدعا خالد بأربعة آلاف دينار في أربعة أكياس، فوضع واحدا عن يمينه، وواحدا عن شماله،  
وآخرين يديه، وآخر خلفه، وقال: يا أبا معاذ، هل استقل العباد؟ فلمس الأكياس ثم قال:  
استقل والله أيها الأمير.

قال أبان بن عبد الحميد: نزل في ظاهر البصرة قوم من أعراب قيس بن عيلان،  
وكان فيهم بيان وفصاحة، فكان يسار يأتهم وينشدهم أشعاره التي يمدح بها قيسا، فيجلونه  
لذلك ويعطونه، وكان نساؤهم يجلسن معه ويتحدثن إليه وينشدهن أشعاره في الغزل،  
وكننت كثيرا ما أتى في ذلك الموضع فاسمع منه ومنهم، فأتيتهم يوما فاذا هم أرتحلوا، فحفتُ  
إلى يسار فقلت: يا أبا معاذ: أعليت أن القوم قد أرتحلوا؟ قال: لا، فقلت: فاعلم، قال:  
قد علمت لا علمت، ومضيت، فلما كان بعد ذلك بأيام سمعتُ الناس ينشدون:

دعا بفراق من تهوى أبان • ففاض الدمع وأحرق الجنان  
كان شرارة وقعت بقلبي • لها في قلبي ودى أسنان  
إذا أنشدت أو كسمت عليها • رياح الصيف هاج لها دخان

فعلمت أنها لبشار، فأنيت فقلت: يا أبا معاذ، ما ذنبك؟ قال: ذنب غراب البين،  
فقلت: هل ذكرتني بنير هذا؟ قال: لا، فقلت: أنشدك الله ألا يزيد، فقال: أمض  
لشأنك فقد تركتك.

مدح يسار المهدي فلم يعطه شيئا، فقيل له: لم يستجِد شعرك، فقال: والله لقد  
قلت فيه شعرا لو قيل في الدهر لم يُحش صرْفُه على أحد، ولكنا نكذب في القول فيكذب  
في الأمل.

مدح بساو سليمان بن هشام بن عبد الملك، وكان مقياً بجزان ونخرج اليه، فأنشده قوله فيه :

نَأْتِكَ عَلَى طُولِ التَّجَاوُرِ زَيْنُ بْنُ \* وما شعرت أن النوى سوف تَشْعَبُ  
يرى الناسُ ما تَلْقَى زَيْنُ بْنُ إِذْ نَأَتْ \* عَجِيْبًا وَمَا تُخْفِي زَيْنُ بْنُ أَعْجَبُ  
وَقَاعِلَةٌ لِي حِينَ جَدَّ رَحِيلُنَا \* وَأَجْفَانُ عَيْنِيَا تَجُودُ وَتَسْكُبُ  
أَطَاذُ إِلَى حَرَابٍ فِي غَيْرِ شَيْعَةٍ \* وَذَلِكَ شَأْنُ عَنْ هَوَاهَا مُعْزَبُ  
فَقُلْتُ لَهَا كَلْفَتْنِي طَلَبُ الْغَنَى \* وَلَيْسَ وَرَاءَ ابْنِ الْخَلِيفَةِ مَدْعَبُ  
سَيَكْنِي قَتَى مِنْ سَعِيهِ حَدِّ سِفِهِ \* وَصُكُورٌ عِلَاقِي<sup>(١)</sup> وَوَجْنَاهُ ذُطِبُ<sup>(٢)</sup>  
إِذَا اسْتَوْغَرْتُ دَارَ عَلَيْهِ رَمَى بِهَا \* بَنَاتُ الصُّبُورِ مِنْهَا رُكُوبٌ وَمُصْعَبُ  
فَمَسَدِي إِلَى يَوْمٍ أَرْتَحِلُ وَمَسَائِلُ \* بَرُورِكَ وَالرَّحْلُ مِنْ جَاءَ يَطْرِبُ  
لَمَلِكٍ أَنْ تَسْقِيَنِي أَنْتَ زُورِي \* سُلَيْمَانَ مِنْ سِرِّهِ الْوَاجِرِ تُعْقِبُ  
أَغْرَى هِشَامِي الْقَنَاءَ إِذَا أَتَيْتِ \* تَمَّتْهُ بُلُورٌ لَيْسَ فِيهِ كُوكَبُ  
وَمَا قَصِدْتُ يَوْمًا خَلِيلِي خَيْلَهُ \* فَتَصْرَفَ إِلَّا عَنْ دَعَاءِ تَصَبُّبُ

فوصله سليمان بخمسة آلاف درهم، وكان يَحْتَلُّ، فلم يَرْضها وأنصرف عنه مغضباً،

فقال :

إِنْ أَمْسَ مِنْقَبُضُ الْيَدَيْنِ عَنِ النَّدَى \* وَعَنْ الْمَدْقِ مَخْتِيسُ الشَّيْطَانِ  
فَلَقَدْ أَرُوحَ عَلَى الْكُثَامِ مَسْلُطًا \* تَلْجُ الْمَقِيلُ مِنْتَمُ النَّدْمَانِ  
فِي ظِلِّ عَيْشٍ عَشِيرَةٍ مَحْمُودَةٍ \* تَنْدَى يَدِي وَيُخَافُ قَرَطُ لِسَانِي  
أُزْمَانُ خَيْبَتِي الشَّبَابِ مَطَاوِعُ \* وَإِذَا الْأَمِيرُ عَلَى مَنْ حَرَانِ  
رِيمٌ بِأُحْيَايَةِ الْمَرَاقِ إِذَا بَدَا \* بَرَقَتْ عَلَيْهِ أَصْكَالُهُ الْمَرْجَانِ  
فَاكْتَلَّ بِعَبْدَةٍ مَقْتَلِكٍ مِنَ الْقَدَى \* وَيُوشِكُ رُؤْيَاهَا مِنَ الْعَمَلَانِ  
فَلْقَرَبُوبٍ مِنْ تَهْوَى وَأَمْتُ مَتِيمٌ \* أَشْنَى لِدَائِكَ مِنْ بَنِي مَرَوَانِ

(١) اللقاي : الزيل النظم . (٢) وجنا، ذطبا أى تافة شديدة سريعة .

قَدِمَ بَشَارَ عَلَى الْمَهْدِيِّ بِالرَّصَافَةِ فَدَخَلَ عَلَيْهِ فِي الْبُسْتَانِ، فَأَنْشَدَهُ مَدِيحًا فِيهِ تَشْيِيبَ  
حَسَنٍ، فَهَا هِيَ عَنِ التَّشْيِيبِ لِقِيَرَةٍ شَدِيدَةٍ كَانَتْ فِيهِ، فَأَنْشَدَهُ مَدِيحًا يَقُولُ فِيهِ :

كَأَنَّمَا جَعَلَهُ أَبْسَرُهُ \* وَلَمْ أَجِدْ رَاغِبًا وَمُحْتَابًا  
يَزِينُ الْمُبَرَّ الْأَسْمَ بِمَعْقِيَةٍ \* بِهِ وَأَقْصَوَالِهِ إِذَا خَطَبَا  
نُتِمَ قَلَاهُ فِي النَّسِيدِ كَمَا \* يُنْتَمِ مَاءُ الرِّيحَانِ مُنْتَبَهَا  
قَالَ : وَقَدْ طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُشَدَّهُ شَيْئًا مِنْ غَزَلِهِ :

وَقَالِي هَاتِ شَوْقَنَا فَقُلْتُ لَهُ \* أَنَا نَمُّ أَنْتَ يَاعَمْرُو بْنُ سَمْعَانَ  
أَمَا سَمِعْتَ بِمَا قَدْ شَاعَ فِي مُضَرٍ \* وَفِي الْخَلِيفَيْنِ مِنْ بَكْرٍ وَحَقَّطَانِ  
قَالَ الْخَلِيفَةُ لَا تَلْسِبْ بِجَارِيَةٍ \* إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَشُقَّ بِعَصِيَانِ

وَقَالَ لَهُ الْمَهْدِيُّ : قُلْ فِي الْحُبِّ شَعْرًا وَلَا تَطُلْ، وَأَجْمَلِ الْحُبَّ قَاضِيًا بَيْنَ الْحَصِينِ  
لَا تُسَمِّ أَحَدًا، فَقَالَ :

أَجْعَلِ الْحُبَّ بَيْنَ حَيٍّ وَبَيْنِي \* قَاضِيًا إِنِّي بِهِ الْيَوْمَ رَاضٍ  
فَاجْتَمَعْنَا فَقُلْتُ يَا حِبَّ نَفْسِي \* إِنْ صَبِي قَلِيلَةً الْإِعْمَاضُ  
أَنْتَ عَذْبَتِي وَأَمْلَحْتُ جَسْمِي \* فَأَرْحَمُ الْيَوْمَ دَائِمَ الْأَمْرَاضِ  
قَالَ لِي لَا يَحِلَّ حَكْمِي عَلَيْهَا \* أَنْتَ أَوَّلُ بِالسَّعْمِ وَالْإِعْرَاضِ  
قُلْتُ لِمَا أَجَابَنِي بِهَوَاهَا \* تَمِيلُ الْجَوْذُ فِي الْهَوَى كُلِّ قَاضٍ

فَبَعَثَ إِلَيْهِ الْمَهْدِيُّ : حَكَمْتَ عَلَيْنَا وَوَأَفَقْنَا ذَلِكَ، فَأَمَرَ لَهُ بِأَلْفِ دِينَارٍ .

وَقَالَ بَشَارٌ فِي عَشْقِ السَّمْعِ :

يَا قَوْمُ أَذْنِي لِبَعْضِ الْحَى عَاشِقَةٌ \* وَالْأَذُنُ تَعَشَّقُ قَبْلَ الْعَيْنِ أَحْيَانًا  
قَالُوا بَيْنَ لَا تَرَى تَهْدِي فَقُلْتُ لَهُمْ \* الْأَذُنُ كَالْعَيْنِ تُوفِّي الْقَلْبَ مَا كَانَا  
هَلْ مِنْ دَوَاءٍ لِمَشْغُوفٍ بِجَارِيَةٍ \* يَلْسُقُ بَلْقِيَانَهَا رَوْحًا وَرِيحَانًا

وقال في مثل ذلك :

قالت عُقَيْلُ بن كعب إذ تعلقها \* قلبي فاضحى به من حبها أثر  
أنى ولم ترها تهينى فقلت لم \* إن الفسؤاد يرى مالا يرى البصر  
أصبحت كاللحائم الحيران مجنباً \* لم يقض ويدا ولا يرى له صدر

وقال :

يزهدنى في حب عبدة معشر \* فلو بهم فيها مخالفة قلبي  
فقلت دعوا قلبي وما أختار وأرتضى \* فبالقلب لا بالعين يُصردوا الحب  
فما تبهر العينان في موضع الهوى \* ولا تسمع الأذنان إلا من القلب  
وما الحسن إلا كل حسن دعا الصبا \* وألف بين العشق والعاشق الصب

وقال :

يا قلب مالى أراك لا تحبر \* إياك أحنى وعندك الخبر  
أدعت بعد الألى مضوا حرقاً \* ما ضاع ما استودعوك إذ بكروا

وقال :

إن سئمتي والله يكلوها \* كالسكر يزاد على السكر  
بلغت عنها شكلاً فاعجبني \* والسقم يكتيك غيبة البهر

وقال وقد مدح المهديّ خرمه :

خلّى إن الأمر سوف يهيق \* وإن يسارا في غسد تخليق  
وما كنت إلا كالزمان أنا صحا \* صحوث<sup>(١)</sup> وإن ماق الزمان أروق  
أدماه لا أسطيع في قساة الثرا \* تُزوراً ووشتاً والقيل محيق  
خذى من يدى ما قل إن زماننا \* شموّس ومعروف الرجال رقيق  
لقد كنت لأرضى بأدنى معيشة \* ولا يستكى بخلاً على رقيق

(١) ماق : حق في زيارة .

خليلٌ إن المال ليس بنافع \* إذا لم ينل منه أخٌ وصديق  
 وكنتُ إذا ضاقت على <sup>(١)</sup> محلة \* تيممتُ أخرى ما على تضيق  
 وما خاب بين الله والناس عايل \* له في التقي أوفى المحامد سُوق  
 ولا ضاق فضلُ الله من متعفف \* ولكن أخلاق الرجال تضيق

هجا بشار يعقوب بن داود وزير المهدي فقال :

بنى أمةً هبوا طال نومكم \* إن الخليفة يعقوب بن داود<sup>(٢)</sup>  
 ضاعت خلافتكم يا قوم فالتسوا \* خليفة الله بين النسي والعود

فاتهمه عند المهدي بالزندقة وقال : إنه قد هجا المهدي ، فأمر ، فضرب بالسياط حتى مات .

(١) المحلة : منزل القوم . (٢) أصله من الموال ، وقد استوزره الخليفة المهدي وسلبه الأمور كلها واشتغل هو بالقهر .



٢ - حمادُ بنُ عَمْرٍو<sup>(١)</sup>

« ولو أني أحببت أن أختص حمادا لوصفته قبل كل شيء بحمته الطبع ، وسوء الخلق ، وجب الانتقام ، والإصرار إليه ، ثم بالصراحة في القول ، والملازمة بينه وبين العمل ، ويكره التفاني والانصراف عنه ، لا يعنيه أرضى الناس عنه أم يخطوا عليه ، ثم بحمته اللسان ومضيئه وإقداعه وكلفه بفاحش القول وبجته عن أسوته وأقبحه ، ثم بالسخرية من الناس وأزدرائهم ، لا على أنه يتخذ ذلك فلسفة وأصلا من أصول الحياة كالوليد ومطيع وأبي وأوس ، بل على أنه يتخذ ذلك وسيلة من وسائل الشعراء يخلص بها كلما ضاقت عليه المذاهب وأخذت عليه ، أو دعت إلى ذلك حاجة . لم يكن حماد يفتل بما يفتل به الناس من الوفاء والانصراف عن الشافض ، وإنما كان صديقا مخلصا حتى تبدوله حاجة أو تسخه له فرصة أو تضطره ضرورة ، فإذا صدقته قد استعالت إلى عداء ، وإذا هو ليس أقل صدقا وإخلاصا في العداء منه في المودة والحسب : فقد مدح يحيى بن زياد وأثنى عليه صديقا ونال جوارحه ، ثم كان الخلاف فهجاه . وصادق بسارا وصافاه ، ثم آخنها فلم يعرفا في الخصومة رحمة ولا رقة . وصافي مطيما وأحبه ومدحه واكثر في الثناء عليه ، ثم آخنها في امرأة حرة وفي غلام مرة أخرى ، فهجاه وأقذع في هجائه . وكان على هذا كله يؤثر شعره وضروراته على البر بالناس في معاملتهم : هما ذات يوم رجلا يقال له حشيش وجعل اسمه قافية لهذا الشعر وأراد أن يبالغ في ذمه فشبهه بحشيش ، وكان يحشش هذا رجلا من أهل البصرة

(١) هو حماد بن يحيى بن عمرو مولد عامر بن صمصمة . نشأ في الكوفة ثم واسط . وعاصر البربريين ، لكنه نبغ في الدولة العباسية بعد أن تادم الوليد بن يزيد الأموي . وهاه بشداد أيام المهدي معه مطيع بن أناس ويحيى بن زياد . وكلهم من المجبدين في دينهم . وحماد من الشعراء المجهدين ، وكان ما جلت نظرها خليقا متبها في دبه مرما بالندقة . وأدرك بشار بن برد وله معه أحاج قاسقة ، ولم يكن يجاب كثيرا ولا صغيرا ، علما كان أو خليفة . توفي سنة ١٦١ هـ . وتجد ترجمته في الأثافي (ج ١٣ ص ٧٣) وابن خلكان (ج ١ ص ١٦٥) والشعر والشعراء (ص ٤٩٠) والفهرست (ص ٩١) . (٢) من بحوث صديق الفكتنظ حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية .

وإدعاً لا يعرف حماداً ولا يعرفه حماد، فلما قرأ الرجل هذا الشعر جزع له وسافر من البصرة حتى بلغ الكوفة فعاتب حماداً؛ فقال له حماد ضاحكاً معتذراً: لا بأس عليك فإن هذا من أكام القافية ولن أعود إليه .

وكان السبب في مهاجمة حماد وبشار أن حماداً كان نديماً لبنايع بن عتبة، فسأله بشار فتعير حاجة له من نافع فأبطأ عنها، فقال بشار فيه :

مَوَاعِيدُ حَمَادٍ سَمَاءٌ حَمِيلَةٌ \* تَكْشِفُ عَنْ رَعْدٍ وَلَكِنْ سَتَرْتُ  
إِذَا جِئْتَهُ يَوْمًا أَحَالَ عَلَى عَيْدٍ \* كَمَا وَعَدَ الْكَوْنُ مَا لَيْسَ يَصْدُقُ  
وَفِي نَافِعٍ عَنِّي جَفَاءٌ وَإِنِّي \* لِأَطْرُقُ أَخِيَانًا وَذُو اللَّبِّ يَطْرُقُ  
وَلِلنَّفَرِيِّ قَوْمٌ فَلَوْ كُنْتُ مِنْهُمْ \* دُعِيتُ وَلَكِنْ دُونِي الْبَابُ مَعْقُوقُ  
وَمَا زِلْتُ أَسْتَأْنِيكَ حَتَّى حَمَرْتَنِي \* بُوْعْدَ بَكَارَى الْأَكْلِ يَنْفُخُ وَيَنْفُوقُ

فغضب حماد وأكثد نافعاً الشعر فرفع بشاراً، فقال بشار :

أَبَا عَمْرِو مَانِي طَلَايِيكَ حَاجَةٌ \* وَلَا فِي الدِّي مَنِينًا هُمُ أَجْمَعُونَ  
وَعَدْتُ فَلَمْ تَصْدُقْ وَقُلْتَ قَدْ أَغْدَا \* كَمَا وَعَدَ الْكَوْنُ شَرًّا مُؤَخَّرَا

فكان ذلك سبب التهاجي بين بشار وحماد . وكان بشار يرى حماداً بالزندقة ، وفي ذلك يقول :

إِبْنُ نَهْيٍ رَأْسٌ عَلَى تَقِيلٍ \* وَأَحْيَالُ الرُّمُوسِ خَطْبٌ جَلِيلُ  
أَدْعُ غَيْرِي إِلَى عِبَادَةِ الْإِلَهِ \* مَنْ لِي فِي بَوَاحِدٍ مَشْغُولُ  
يَا بْنَ نَهْيٍ بَرِئْتُ مِنْكَ إِلَى اللَّهِ جَهَارًا \* وَذَاكَ مَسْنَى قَلِيلِ

فأشاع حماد هذه الأبيات لبشار، وجعل فيها مكان : « لِي فِي بَوَاحِدٍ مَشْغُولُ » « لِي فِي عَنْ وَاحِدٍ مَشْغُولُ » ليصيح عليه الزندقة والكفر بالله تعالى . فما زالت الأبيات تدور في الناس حتى انتهت إلى بشار، فاضطرب منها وجزع وقال : أشاط ابن الفاعلة بدعي، والله ما قلت إلا « لِي فِي بَوَاحِدٍ مَشْغُولُ » ففترها حتى شيرت في الناس .

كان رجلٌ من أهل البصرة يدخل بين حماد وبشار على اتفاقٍ منهما ورِضًا بأن ينقل  
إلى كل واحد منهما وعنه الشعر، فدخل يوماً إلى بشار فقال له : إيه يا فلانُ ، ما قال ابن  
الفاعلة؟ فأنشده :

إن قَاهُ بَشَارٌ عَلَيْكَ فَقَدْ • أُمِئْتُ بِشَارًا مِنَ النَّيِّ  
فقال بشار : بأى شئٍ ويحك؟ فقال :

وذاك إذ سَمِيتُهُ بِاسْمِهِ • ولم يكن حُرًّا أُسْمِيهِ  
قال : تَخَفَنْتَ مِنْهُ، فبأى شئٍ كُنْتَ أَصْرَفَ! إيه، فقال :

فصار إنسانًا يَذْكُرِي لَهُ • ما يَتَنِي مِنْ بَعْدِ ذِكْرِيهِ!  
فقال : ما صَنَعَ شَيْئًا، إيه ويحك! فقال :

لَمْ أَلْجُ بِشَارًا وَلَكِنِّي • هُبْتُ نَفْسِي بِبِشَارِيهِ  
فقال : على هذا المعنى دار وجوله حام . وتأم الأبيات :

لَمْ آتِ شَيْئًا فَقَدْ فُيَا مَضَى • وَلَسْتُ فُيَا عَشْتُ آتِيهِ  
أَسْوَأُ لِي فِي النَّاسِ أَحَدِيَّةً • مِنْ خَطَا أَخْطَأَتِهِ فِيهِ  
فَأَصْبَحَ الْيَوْمَ لَيْسَ لَهُ • أَحْظَمُ شَأْنًا مِنْ مَوَالِيهِ

وقال بشارُ لراوية حماد : ما هجانى به اليوم حماد؟ فأنشده :

أَلَا مَنْ مَبْلُغٌ عَنِّي أَلِ • نَذَى وَالِدُهُ بُرْدُ

فقال : صدق ابنُ الفاعلة فما يكون؟ فقال :

إِذَا مَا نَسِبَ النَّاسُ • فَلَا قَبْلَ وَلَا بَعْدُ

فقال : كَذَبَ، أين هذه العَرَصَاتُ من عَقْلِي! فما يكون؟ فقال :

وَأَعْمَى قَلْبَابٌ<sup>(١)</sup> مَا • عَلَى قَادِفِهِ حُدُّ

(١) القلطان : الذى لا يفكر.

فقال : كذب ، بل عليه ثمانون جلدَةً ، هيه ، فقال :

وَأَعْمَى يُسَيِّئُ الْقِرْدَ \* إِذَا مَا عَيِيَ الْقِرْدُ

فقال : والله ما أخطأ حين شتيتي بقرد ، حَسْبُكَ حَسْبُكَ ! ثم صَفَّقَ بيديه وقال :  
مَا حِيلَتِي ! يَرَانِي فَيُشَتِّبَنِي وَلَا أَرَاهُ فَأُشَبِّههُ . وتعمَّم الأبيات :

دَيْقٌ لَمْ يَسْرُحْ يَوْمًا \* إِلَى تَجَسُّدٍ وَلَمْ يَفْقُدْ

وَلَمْ يُحْضَرْ مَعَ الْحُضْبَا \* رِي فِي خَيْرٍ وَلَمْ يَبْسُدْ

وَلَمْ يُخَشَّ لَهُ دَمٌ \* وَلَمْ يُرْجَ لَهُ حَمْدٌ

جَرَى بِالنَّحْسِ مُدَّ كَانَ \* وَلَمْ يُعْمَرْ لَهُ سَعْدٌ

هُوَ الْكَلْبُ إِذَا مَاتَ \* فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ قَقْدٌ

وقال علي بن مهدي : أجمع علماء البصرة أنه ليس في هجاء حماد بن محمد لبشار إلا أربعون بيتاً معدودة ، ولبشار فيه من الهجاء أكثر من ألف بيت جيد . وكلُّ واحدٍ منهما هو الذي هتَكَ صاحبه بالزندقة وأظْهَرها عليه ، وكانا يجتمعان عليها ، فسقط حماد وهتَكَ بفضل بلاغة لبشار وجودة معانيه ، وبقي لبشار على حاله لم يسقط ، حتى عُرف مذهبه في الزندقة فقتل به .  
ومن أغلظ ما هجا به حماد لبشاراً :

تَهَارَهُ أَخْبْتُ مِنْ لَيْلِهِ \* وَيَوْمَهُ أَخْبْتُ مِنْ أَمْسِهِ

وَلَيْسَ بِالْمُقْلِعِ عَنْ قِيَّةٍ \* حَتَّى يُوَارَى فِي تَرَى رَمْسِهِ

كان حماد صديقاً ليعلي بن زياد ، فظهر ليعلي تورعاً وقرآناً وزُوراً عما كان فيه وهجر حماداً وأشباهه ، فكان إذا ذُكر عنده تَلَبَّه وذَكَرَ تَهَنَّكهُ ومُجَوَّهه ، فبلغ ذلك حماداً فكتب إليه :

هَلْ تَذْكُرُنَّ نَجْمِي إِلَيْهِ \* لَمْ يَكْ عَلَى الْمُضْمَرَةِ الْفَلَاحِ

أَيَّامٌ تُطِيسُنِي وَتَأْ \* خُذْ مِنْ أَبَارِيقِ الرِّصَاحِ

إِنْ كَانَ سُكُّكَ لَا يَتِي \* سَمُّ بَغِيرِ شَتْمِي وَأَنْتَقَاصِي

أَوْ كُنْتَ لَسْتَ بِغَيْرِذَا \* لَكَ تَسَالُ مَزَلَّةُ الْخِلَاصِ

فعليك فاشتمُ آمِنًا • كلُّ الأمان من الفِصَاصِ  
وأقعد وُقْمٌ بي ما بدا • لك في الأدنى والأقصى  
فلطالما زكَّيتني • وأنا المقسمُ حل المعاصي  
أيامَ أنت إذا دُكر • تُتْ مناضلٌ معي مُتاعٍ<sup>(١)</sup>  
وأما وأنت على أرتكا • بالمؤوقات من الحِراسِ  
وبنا مواطِبُ ما بنا • في البرِّ أهلةُ العِراسِ

فاتصل هذا الشعرُ بـ يحيى بن زياد، فنسب حمادا إلى الزيدقة ورماه بالخروج عن الإسلام؛ فقال حماد فيه :

لا مؤمنٌ يُسرِّفُ إيمانه • وليس يبي بالحق الكافر  
منافقٌ ظاهره ناسكٌ • مخالفٌ الباطن للظاهر

كان حمادُ صديقاً لحُرَبْتُ بن أبي الصَّلْتِ الثَّقَفِي، وكان يعبه بالبخل، وفيه يقول :  
حُرَيْثُ أبو الفضل ذو خيرة • بما يُصليحُ المَعِدَ الفاسده  
تخوفُ عُثْمَةَ أضيافه • فودعهم أكلةً واحده

ومن قوله :

ألا قُلْ لعبدِ الله إنك واحدٌ • ومثلك في هذا الزمان كثيرُ  
قطعت إخواني وظلَّيَّ وهجرني • وليس أنى من في الإخاء يهود  
أديم لأهل الردِّ وُدِّي وإني • لمن رام هجرى ظلَّيَّ لمُجسود  
ولو أن بغي رآني لقطعتُه • وإني يقطع الراسين جدير  
فلا تحسبن مني لك الردَّ خالصة • لِمِزُّ ولا أني إليك فقير  
ودونك حقِّي منك لستُ أريده • طَوَّالَ الليالي ما أقام يُرِيرُ<sup>(٢)</sup>

(١) مناص : «دافع» من قولهم ناصاه ناصاة : أخذ كل باصية صاحبه • (٢) ثير : اسم جبل •

كان حماد صديقا لحفص بن أبي بردة ، وكان حفص أعمش أفضس أعصب مقبح الوجه ، فاجتمعوا يوماً على شراب وجعلوا يتناشدون ويتحدّثون ، فأخذ حفص يقطع على مرقش ويصيب شعره ويُبَحِّثُه ؛ فقال له حماد :

لقد كان في حينك يا حفص شافعٌ \* وأنفٌ ككثير المودِّ عما تبعُ  
تَبَّعُ لَحْنًا في كلام مرقش \* ووجهك ميني على الخمر أجمع  
فأذناك إقواء وأنفك مكفأ \* وعيناك إبطاء فانت المرقع  
ومن قوله :

إلى أحبك فاصبي \* لأن لم تكني تعامينا  
حبا أقل قليله \* بجميع حب العالمينا

وأُفْسِدَ بشار قول حماد عجرد :

أني كُفْتُ عن لومي فأنت لا تدري \* بما فصل الحب المبرح في صدري  
أني أنت تلحاني وقلبك فارغ \* وقلبي مشغول بالحوالح بالبحر  
دوائى ودائى عند من لورأيته \* يقلب حيله لأفصرت عن زجري  
فأقسم لو أصبحت في لوعة الهوى \* لأفصرت عن لومي وأطنبت في صدري  
ولكن بلأى منك أنك تاصح \* وأنت لا تدري بأنت لا تدري

فطرب بشارهم قال : وبلكم أحسن والله ! من هذا ؟ قالوا : حماد عجرد ؛ قال : أوه وكثمتوني والله بقبصة يومى لهم طويل ، والله لا أعلم بقبصة يومى طعاما ، ولأصومن غما بما يقول النبطي مثل هذا .

قال محمد بن الفضل السلولي : لقيت حماد عجرد بواسط وهو يمشى وأنا راكب ، فقلت له : أطلق بنا إلى المنزل ، فإني الساعة فارغ لتحدث ، وحسنت عليه الدابة ، فقطع شغل عارض لي لم أقدر على تركه ، فاضيت وأُسَيْتُه ، فلما بلغت المنزل خفتُ شره فكتبت إليه :

(١) النيل : ماء ، قضيب البعر ، والود : البعر .

أَبَا عُمَرَ أَغْفِرُهَا هُدَيْتَ فَأَتَى • قَدْ أَذْنَبْتُ ذَنْبًا غَظِيظًا غَيْرَ طَائِدٍ  
فَلَا تَجِدُنِي فِيهِ عَلَى فَأَتَى • أَقْرَبُ بِإِجْرَائِي وَلَسْتُ بِمَائِدٍ  
وَهَبْهُ لَنَا تَفْدِيكَ فَغَمِي فَأَتَى • أَرَى رَيْمَةً أَنْ كُنْتُ لَسْتُ بِوَائِدٍ  
وَعُدْ مِنْكَ بِالْفَضْلِ الَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ • فَإِنَّكَ ذُو فَضْلٍ طَرِيفٍ وَتَالِدٍ

فأجابني عن الأبيات :

مُحَمَّدُ يَا أَبَا الْفَضْلِ إِذَا التَّحَامِدِ • وَيَا هِجَةَ النَّادِي وَزَيْنَ الْمَشَاهِدِ  
وَحَقِّكَ مَا أَذْنَبْتَ مِنْذُ مَرَفَتِي • عَلَى خَطَا يَوْمَا وَلَا مَعْدِ طَائِدِ  
وَلَوْ كَأَنَّ مَا أَلْفَيْتَنِي مَتَسَرِّمًا • إِلَيْكَ بِهِ يَوْمًا تَسْرِعُ وَاجِدِ  
وَلَوْ كَانَ ذُو فَضْلٍ يُسَمَّى لَفَضْلُهُ • بِغَيْرِ اسْمِهِ سُمِّيَتْ أُمُّ الْقَلَائِدِ

فبينما رقعته في يدي وأنا أقرأها إذ جاءني رسوله برقعة فيها :

قَدْ غَفَرْنَا الذَّنْبَ يَا ابْنَ آلِ • فَغُضِّلَ وَالذَّنْبُ عَظِيمٌ  
وَمِيسِرٌ أَنْتَ يَا ابْنَ آلِ • فَغُضِّلَ فِي ذَاكَ مُلِيمٌ  
حِينَ تَحْشَانِي عَلَى الذَّنْبِ • سَبَّ كَمَا يُحَقِّقُ الْكَلِيمُ  
لَيْسَ لِي إِنْ كَانَ مَا خَفَى • سَتَ مِنَ الْأَمْرِ حَرِيمٌ  
أَنَا وَاللَّهِ وَلَا أَفَى • حَزْرٌ لِلْفَيْضِ كَطُورِ  
وَبِأَصْحَابِي وَلَا رِي • بَنَاءٌ بِرٍّ وَرَحِمِ  
وَبِمَا يُرْضِيهِمْ عِنْدَ • يَ وَرُضِينِي عَلِيمِ

كان عثمان بن شيبة مبعثلاً وكان حماد يهجوهُ ، فجاء رجل كان يقول الشعر إلى حماد

فقال له :

أَعْنَى مِنْ غِنَاكَ بَيْتُ شِعْرِ • عَلَى قَرَى لَعْنَانِ بْنِ شَيْبِهِ

فقال :

فَإِنَّكَ إِنْ رَضِيتَ بِهِ خَلِيلًا • مَلَأْتَ يَدَيْكَ مِنْ فَقْرٍ وَخَبِيرٍ

(١) أي لو كان لك ذنب ما مذهب سرما إليك بالمكافأة .

فقال له الرجل : جَزَاكَ اللهُ خيراً ففسد عِرْفاني من أخلاقه ما قَطَعَنِي عن مدحه وصنعت وجهي عنه .

لما مات محمد بن أبي العباس طَلَبَ محمد بن سليمان حمادَ عَجْدٍ لما كان يقول في أخته زينب من الشعر ، فعلم أنه لا مُقَامَ له معه بالبصرة ، فاستجار بقبر أبيه سليمان بن علي وقال فيه :

مِنْ مُقَرٍّ بِالذَّنْبِ لَمْ يُوجِبِ الدَّ • لَهُ عَلَيْهِ يَسِيرٌ إِفْرَارًا  
لَيْسَ إِلَّا بِفَضْلٍ حَلَمَكِ يَدَ • تَبَدُّ بِلَاءٍ وَمَا يُعَدُّ أَفْئَارًا  
يَا ابْنَ بَيْتِ النَّبِيِّ أَحْمَدَ لَا أَجِدُ • حَلَّ إِلَّا إِلَيْكَ مِنْكَ الْفِرَارُ  
غَيْرَ أَنِّي جَعَلْتُ قَبْرَ أَبِي أَيُّو • مَبَلًى مِنْ حَوَادِثِ الدَّهْرِ جَارًا  
وَحَرِيٌّ مِنْ اسْتِجَارِ بِلْدَاكَ الْ • مَقْبِرِ أَنْ يَأْمَنَ الرَّدَى وَالْعِتَارُ  
لَمْ أَجِدْ لِي مِنَ الْعِيَادِ مُجِيدًا • فَاسْتَجَرْتُ التُّرَابَ وَالْأَحْجَارُ  
لَسْتُ أَطَافُ مِنْكَ فِي بُفَيْةِ الْمَرْءَةِ حَقَاقَاتٍ كُلُّهَا أَوْ نِزَارًا  
فَأَنَا الْيَوْمَ جَارٌ مِنْ لَيْسَ فِي الْأَر • ضِ مَجْمِعٍ أَعْرُ مِنْهُ حَوَارُ  
يَا ابْنَ بَيْتِ النَّبِيِّ يَا خَيْرَ مَنْ حَقَّ • مَثَلُ إِلَيْهِ الْقَوَارِبُ الْأَكْشَارُ  
إِنْ أَكُنْ مَذْنِبًا فَأَنْتَ أَبْنُ مِنْ كَا • دِ لِمَنْ كَانَ مَذْنِبًا فَخَارُ  
فَأَعَفَّ عَنِّي فَقَدْ قَدَّرْتُ وَخَيْرُ الْ • مَفْهُومًا قُلْتُ : كُنْ ، فَكَانَ أَقْبَدَارُ  
لَوْ يُطِيلُ الْأَعْمَارَ جَارٌ لَمْزُ • كَانَ جَارِي يُقُولُ الْأَعْمَارُ

فقال : والله لا يَلُتُّ قَبْرَ أَبِي من دمه ؛ فهرب حماد إلى بغداد ، فمَآذَ بِجَعْفَرِ بْنِ الْمَنْصُورِ فأجاره ، وقال : لا أرضى أَوْ تَهْجُوَ مُحَمَّدَ بْنَ سُلَيْمَانَ ، فقال بهجوه :

قُلْ لَوَجَّهَ الْخَطْبُ ذِي الْمَارِ إِلَى • سَوْفَ أَهْدِي لَزَيْنَبَ الْأَشْعَارُ  
قَدْ لَعَمْرِي قَدَّرْتُ مِنْ شِدَّةِ الْخَو • فِيدَ وَأَنْكَرْتُ صَاحِبِي نَهَارُ  
وَطَلَنْتُ الْقُبُورَ تَمْنَعُ جَارًا • فَاسْتَجَرْتُ التُّرَابَ وَالْأَحْجَارُ



كُنتَ عِنْدَ اسْتِجَارَتِي بِأَيِّ أَيْدٍ • حُوبَ أُبْنَى صَلَافَةٍ وَخَسَارَا  
 لَمْ يُبَيِّرْنِي وَلَمْ أُجِدْ فِيهِ حَقًّا • أَشْرَمَ اللَّهُ ذَلِكَ الْقَبْرَانَا  
 فَبَلَغَ هَجَاؤُهُ مُحَمَّدَ بْنَ سَلِيَانَ فَقَالَ : وَاللَّهِ لَا يُفْلِتُنِي أَبَدًا ، وَإِنَّمَا يَزِدَادُ حَقًّا بِلِسَانِهِ ! وَلَا وَاللَّهِ  
 لَا أَعْفُو عَنْهُ وَلَا أَتَنَافَلُ أَبَدًا .

ومن قوله :

إِنَ الْكَرِيمِ لِيُخْفِي عَنْكَ عُسْرَتَهُ • حَتَّى تَرَاهُ غَنِيًّا وَهُوَ بِجَهْدِ  
 وَلِلْبَحِيلِ عَلَى أَمْوَالِهِ عِلٌّ • زُرُقُ الْعِيُونِ عَلَيْهَا أَوْجُهُ سُودِ  
 إِذَا تَكْرَمْتَ أَنْ تُعْطِيَ الْفَقِيلَ وَلَمْ • تَقْدِرْ عَلَى سَعْيَةٍ لَمْ يَظْهَرْ الْجُودِ  
 أَتَرَى بِخَيْرٍ تَرْجَى لِلنَّوَالِ هَا • تَرْجَى الثَّارُ إِذَا لَمْ يُورِقِ الشُّودِ  
 بُتُّ النَّوَالِ وَلَا تَمْتَكِ قَلْبُهُ • فَكُكُلْ مَا سَدَّ فَقْرًا فَهُوَ عُمُودِ

وقال أيضا :

كَمْ مِنْ أُنْجٍ لَكَ لَسْتَ تُشْكِرُهُ • مَا دَمْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فِي يُسْرِ  
 مُتَصَحِّحٌ لَكَ فِي مَوَدَّتِهِ • يَلْفَاكَ بِالْتَّرْحِيبِ وَالْيُسْرِ  
 بِطَرِيٍّ الْوَفَاءُ وَفَا الْوَفَاءُ وَيَدُ • حَتَّى الْقَدَرُ يَجْتَهِدَا وَفَا الْغَدْرِ  
 فَإِذَا عَدَا ، وَالتَّهْمُ ذُو غَيْرِ ، • دَهْرٌ عَلَيْكَ مَتَا مَعَ الدَّهْرِ  
 فَارْتَضَ بِإِحْمَالٍ مَوَدَّةَ مَنْ • يَقْبَلُ الْمُفْسِلَ وَيَسْقُ الْمَثْرَى  
 وَعَلَيْكَ مَنْ حَالَاهُ وَاحِدَةٌ • فِي الْعُمُرِ إِنَّمَا كُنْتَ وَالْيَسْرِ  
 لَا تَحْلُطُ لَهُمْ بِسِرِّهِمْ • مِنْ يَحْلُطُ الْعَقِيَانِ بِالضُّفْرِ !

وهو القائل في محمد بن طلحة :

زُرْتُ أَمْرًا فِي بَيْتِهِ مَرَّةً • لَهُ حَيَاءٌ وَلَهُ خَيْرٌ  
 يَكْرَهُ أَنْ يُفْتَحَ إِخْوَانُهُ • إِنَّ أَدَى الثُّخْمَةِ مَحْذُورُ  
 وَيَسْتَوِي أَنْ يُؤْجَرُوا عَنْدهُ • بِالْعَصُومِ وَالصَّائِمِ مَا جُودُ  
 يَا ابْنَ أَبِي شُهَدَةِ أَنْتَ أَمْرٌ • بِصِغَةِ الْإِبْدَانِ مَعْرُورُ

وهو القائل في محمد بن أبي العباس السفاح :

أرجوك بعد أبي العباس إذ بانَا • يا أكرم الناس أعراقاً وأغصافاً  
لوجع عودٌ على قوم عَصَارَتِهِ • لمَجِّ عودك فينا المسك والبانَا

قيل : إن حماداً مضى إلى الأهواز ، فأقام هناك مُسْتَتِراً ، وبلغ حمدا خبره فأرسل مولى له إلى الأهواز ، فلم يزل يطلبه حتى ظفر به فقتله غيلة . وقيل : إنه خرج من الأهواز يريد البصرة ، فربس برآز في طريقه ، فبرض بها ، فأضطر إلى المقام بسبب علة ، فأشدت مرضه فمات هناك ودُفن على تلّسية . وكان بشاراً بلغه أن حماداً عليل ، ثم نُعي إليه قبل موته ، فقال بشار :

لو عاش حماد لمونا به • لسكرته صار إلى النار

فبلغ هذا البيت حماداً قبل أن يموت وهو في السبّاق<sup>(١)</sup> ، فقال يرثه عليه :

نُبئتُ بشاراً تَمَانَى ولَد • حوت برآني الخالق الباري  
يا ليتني ميتٌ ولم أَلْجِه • فَم ولو صرْتُ إلى النار  
وأي شيء هو آخر من أن • يُقال لي يَأْسِبُ بشار<sup>(٢)</sup>

فلما قتل المهدي بشاراً بالطليحة اتفق أن حُل إلى منزله ميتاً ، فدُفن مع حماد على تلك التلّسية ، فترها أبو هشام الباهلي الشاعر البصري الذي كان يُهاجى بشاراً ، فوقف على قبريهما فقال :

قد تَبِع الأعمى قفا عَجْرَد • فأصبط جَارِثٌ في دار  
قالت بِقَاعُ الأرض لا مَرْحَبًا • بِقُرْب حمادٍ وبشار  
تَجَاوَرَا بَعْد تَنَائِيهما • ما أَبْقَصَ إلْخَارَ إلى إلْخَار  
صارا جِيعًا في يَدَي مَالِك • في النارِ والكُفَّارِ في النارِ

(١) السبّاق : الاحتضار . (٢) السب : الكثير السباب .

٣ - مروان بن أبي حفصة<sup>(١)</sup>

« لم يكن مروان متصرفاً في فنون الشعر، ولعله لم يعد منها فناً أو فتيماً؛ فلست نعرف له غزلاً إلا هذا الغزل الذي تعود الشعراء أن يبدعوا به مدائحهم؛ ولست نعرف له هجاء إلا هذا النحو من الهجاء الذي يضطر إليه الشعراء السياسيون حين يدافعون عن مذهبهم ويهاجمون خصومهم. على أن موقف مروان كان في هذا دقيقاً جداً، فهو لم يكن ينصر بني العباس على بني أمية فيبلغ منهم ما يريد، ويهجوم في حرية؛ وإنما كان السيف هو الذي أنتصر للعباسيين من بني أمية، وكان العباسيون في حاجة إلى من ينصرهم على العلويين وأتباعهم من بني هاشم، ولم يكن هجاء العلويين يسيراً! كان الذين يأباه في ذلك الوقت، وكانت كرامة الخلافة العباسية نفسها تأباه أيضاً، فالعلويون من بني هاشم وهما هم هجاء للعباسيين؛ ومن هنا سلك مروان وأمثاله من الشعراء السياسيين الذين ناضلوا عن حقوق العباسيين مسلحاً الدفاع والمناظرة الشريفة البريئة من الشتم والقذف، فكان دفاعهم أبلغ، وكانت مناظراتهم أحسن وقفاً من هجاء أولئك الشتامين المسرفين في الشتم؛ ثم لا نعرف

(١) هو من الشعراء الموال أصل جده من بني أصطخر، وكان غلاماً اشتراه عثمان بن عفان روجه لمروان بن الحكم، وأقام يده يد بالإقامة، وقد اختلفوا في حقيقة نسب مروان على كره الشيعة لأنه من موال بني أمية وقد حارب معهم، وكان شجاعاً مجرباً، فلما نبغ في الشعر قدم بغداد ومدح المهدي ثم الرشيد، وكان يتقرب إليه بهجاء العلويين، وهو من القصور المقدسين، أذل من غيره وقوة به ممن بن زائدة الجواد المشهور بقصيدة قوية مدحه بها، مظهرها:

ممن بن زائدة الذي زدت به \* شرطاً على شرف بنو شياب

ولكنه اشترى على الخصوص بقصيدة لامية مدح بها منها مظهرها:

بنو مطهرم القفاء كأنهم \* أسود لم في بطن عفان أشبل

فأجازه عليها بمال كثير، فكانت كلها زاده من صلاء زاده مروان مدحا. توفي سنة ١٨١ هـ. وتجد أخباره في الأغانى (ج ٩ ص ٣٦) وابن حلكان (ج ٢ ص ١٣٠) والشعر والشعراء (ص ٤٨١) وثرثرة الأدب (ج ١ ص ٤٤٧) والفهرست لأبن النديم (ص ١٦٠).

(٢) من بحوث صديق الله ككروطه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية.

لمروان مجنوناً ولا عبثاً، فلم يكن كما قلنا ماجناً ولا عابثاً وإنما كان بخيلاً، والبخل والعبث شيان لا يتفقان، ومن ضنَّ على نفسه بالطمع وطبَّيات الطعام لم يستبح لنفسه مجراً ولا ما تستبجه الخمر. ثم لا نعرف لمروان نفراً وما تحسب أنه فاعراً أو مال إلى الفخر، فقد كان رجلاً عملياً يمتنيه أن يظفر بالمكانة والثروة وكان يضنُّ بوقته وجهده على الفخر الذي لا يفيد. لم يعرض إذن إلا لفئتين أثبتين: المدح والزَّناء، وهو في المدح أشعر منه في الزَّناء وهذا كبحي، فهو راغب حين يمدح، يطلب المال ويحرص على أن يظفر به، فمعقول أن يُعجِد وأن يبلغ من الإجادة حظاً عظيماً؛ أما في الزَّناء فهو لا يرقب ولا يطلب مالا وإنما يأتي بههد وبشكر صليبة. ومعقول أن وقفه هذا لا يدفعه إلى الإجادة إلا أن يكون حساساً دقيقاً الشعور راقى النفس، ولم يكن مروان من هذا كلة في شيء، وإنما كان كما قلت لك رجلاً عملياً يريد المال. على أن زَّناءه لمعني ليس بالردى وكذلك رثاؤه للهدى، وهل نستطيع أن نعد زَّناءه للهدى رثاء! هو مدح لأنه عزاء للخليفة الجديد، ففيه ذكر للخليفة الراحل، والثناء على وراثته، وفيه المثوبة والمطاء. فهو إلى المدح أقرب منه إلى الرثاء.

أما مَنح مروان فن آيات المدح العربي، ونحن لا نحفظ منه إلا متفرقات قليلة ولكنها تكفي لنحكم أن مروان كان قد اتقن المدح وبرع فيه، بل نحسب أنه برز في هذا الفن على غيره من المعاصرين، ولكن مَنح مروان ينقسم إلى قسمين متميزين:

أحدهما المدح بالمعنى الشائع المعروف، وهو موجه لمعن بن زائدة، فهو يفتن في وصف مَن بالجلود والكرم والشجاعة والحب، ثم يفتن في مدح بني شيان الذين ينزع إليهم معن، وهو لا يخرج في مدحه هذا عن سُنَّة الشعراء من قبله، ولكنه جيد المعاني مُتقاهاً، حسن الألفاظ صافياً.

وأما القسم الثاني فهو هذا المدح السيامي الذي كان يُشده الخلفاء من بني العباس، وهو مدح إن شئت ولكنه يمتاز عن المدح المعروف بما فيه من هذا النضال السيامي

الذى كان يحتاج الى مهارة وفطنة ودقة وخفة ، والذى كان يضطر صاحبه الى أن يظهر العلويين دون أن يؤذيههم ، وإلى أن ينصر العباسيين دون أن يزدري خصوصتهم ، وقد بلغ مروان من ذلك ما أراد ، فقد أغضب العلويين لأنه آذاهم أو هجاهم فيما يعتقد ، بل لأنه كان خصما قويا جنيدا ماهرا في الخصام .

ثم هناك شيان لا بد من الإشارة اليهما ليكمل رأينا في مروان ، ولنستطيع أن نحكم على شعره حكما معلا إن صح هذا التعبير :

الأول : أت مروان لم يكن عراقيا ولم يرض الإقامة في العراق ولم يطل عشرة العراقيين من أهل الجبّون والعبّس ، وإنما كان من أهل البصرة أقام فيها لا يترجها إلا وافدا على أمير أو وزير أو خليفة ، فإذا أنشد قصيدته وظفر بجائزته عاد الى البصرة وأقام فيها عامه ثم استأنف الرحلة . ولهذا أثره في شعر مروان ، فهو أقرب الى شعر الجاهليين والإسلاميين منه الى شعر المحدثين من شعراء الحضارة العباسية ، تفرقه فتجد عليه هذه المسحة التي تملأ أو تكاد تملأ من الدعابة والحفّة ، وتتنازع بشيء من الجلال والرصانة ، يمثّل البادية تمثيلا صحيحا ؛ ولهذا أثره من وجهة أخرى ، فقد رضى علماء اللغة جميعا عن مروان وأحبوه من هذه الناحية ، وما أشك أنا في أنهم كانوا يودّون لو استطاعوا إثباته على بشار وأبي نؤاس ، لأنه كان أقرب منهما الى الأسلوب البدوي القديم ، ولكن أئى لهم ذلك ! وقد سلّط الله عليهم لسان بشار وأبي نؤاس فاضطروا الى أن يحابوا هذين الشاعرين ويتلقوهما ، وأجمعوا أو كادوا يجمعون على تصديم بشار وإثباته على مروان . ومع ذلك فليس الى المقارنة سبيل بين الشاعرين اذا اتخذنا وجهة البحث والنقد ، هذه الوجهة التي كان يعنى بها علماء اللغة وهي وجهة المانة والرصانة في اللفظ والأسلوب ، لا يقاس الى مروان في هذا أحد من شعراء المراق ، أما اذا اتخذنا وجهة أخرى للنقد ، اذا اتخذنا اختلاف الفنون التي طرّقها الشاعر ، وقرب المأخذ ، والدنو من أذهان الناس والقدرة على تمثيل حياتهم ، فليس مروان يقاس الى بشار ولا الى أبي نؤاس بنوع خاص ؛ على أت من علماء اللغة من استطاع أن يكون شجاعا شريفا في فنّه لا يخاف

ولا يهاب فصدّق نفسه وصدّق الناس، وآثر مروان على غيره من الشعراء المعاصرين، وهذا العالم اللغوي هو ابن الأعرابي الذي ختم الشعر بمروان وأبى أن يدون لأحد من المخدّثين بعده، والذي كان يُشدد مع الإعجاب الشديد هذه الأبيات الجيدة من شعر مروان، وهي:

بَنُو مَطَرٍ يَوْمَ الْقِيَامِ كَانَهُمْ \* أَسْوَدُهَا فِي بَطْنِ خَفَّانٍ أَشْبَلُ  
هُمْ يَمْنَعُونَ الْجَارَ حَتَّى كَأَنَّهَا \* يَطَارُهُمْ بَيْنَ السَّمَاءِ مَنَزَلُ  
لَهَا مِمَّ فِي الْإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ \* كَأَقْلَمٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ  
هُمْ الْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دَعَا \* أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطُوا أَطَابُوا وَأَجْرُوا  
وَلَا يَسْتَطِيعُ الْفَاعِلُونَ فَعَالَهُمْ \* وَإِنْ أَحْسَنُوا فِي النَّاتِبَاتِ وَأَجْمَلُوا

وكان ابن الأعرابي يقول: لو أنّ معنّا أعطى مروان كلّ ما يملك بهذه الأبيات لمّا بلغ حقه.

الثاني: أنّ مروان لم يكن سريعاً في الشعر ولا متعجلاً ولا مسترعلاً مع الطبع وإنما كان بطيئاً متعطلاً. كان يبعد الشعر لأنه كان يهوده. كان يسلك هذه الطريقة التي يزعم الرواة أنّ زهيراً كان يسلكها في هذه القصائد التي يُسمونها الحوَلِيَّاتِ، كان يُنفق أشهراً في إنشاء القصيدة وأشهر في إصلاحها وأشهر في عرضها حتى إذا استقام له هذا كله أخذ قصيدته لمدوحه خليفة كان أو وزيراً أو أميراً، فليس عجيباً مع هذه الأناة أن يخلو شعره مما يُستنكر وأن يبرأ من الضعف والوحشية معاً. ولقد يُحدثنا الرواة بطائفة من أخبار مروان مع اللغويين والشعراء الذين كان يعرض عليهم شعراً قبل أن يُشده الخلفاء. ولست أُشير إلّا إلى سيرته مع بشار فلها معناها. كان مروان يعرض القصيدة على بشار ويسأله رأيه فيها فلا يحميه بشار بأنها جيّدة أو بأنها رديئة، بل يُقدّر له قيمة القصيدة مائلاً، فيقول: سيعطونك عليها كذا وكذا... وقد صدق بشار مرتين فأظهر له مروان العجب من ذلك، فقال بشار: ألم أقل لك إنّ أعلم الغيب! ولم يكن يعلم الغيب،

وإنما كان يفهم مروان ويفهم الخلفاء، ويفهم الميول السياسية التي كان من شأنها أن يُجزل حفظ مروان من المطاء .

كان مروان متناقضا ولكنه تناقض مفهوم، كان شديد الحرص على الإجابة، فكان يشك في شعره، ويستشير فيه الشعراء والنحاة، ولكنه كان مع ذلك مُعجبا بنفسه لا يقدم عليها أحدا بعد هؤلاء الشعراء الثلاثة : الأخطل والفرزدق وجبرير . وأسمع رأيه فيهم وفي نفسه، فقد عَقَّده شعرا لِيُثَبَّت كما يقول :

دَهَبَ الْفَرَزْدَقُ بِالْفَخَّارِ وَأَتَمَّا \* حُلُوُ الْقَسْرِ يَضِي وَضْرُهُ لِحَيْرِيرِ  
وَلَقَدْ هَجَا فَأَمَضَ أَخْطَلُ تَغْلِيْبَ \* وَحَوَى إِلَهِي بَيَانَهُ الْمَشْهُورِ  
كُلُّ الثَّلَاثَةِ قَدْ أَجَادَ فِدْحَهُ \* وَهَجَا قَدْ سَارَ كُلُّ مَسِيرِ  
وَلَقَدْ جَرَيْتُ فُقْتُ خَيْرَ مَهْلَلٍ \* يَحْرَاهُ لَا قَرِيفَ وَلَا مَبْهُورِ  
إِنِّي لَأَنْفَ أَنْتَ أَجْبَرُ مِدْحَهُ \* أَبَدًا لَفَيْرِ خَلِيفَةِ وَوَزِيرِ  
مَا حَضَرْتُ حَسَدُ اللَّعَامِ وَلَمْ يَزَلْ \* ذُو الْفَضْلِ يَحْسُدُهُ ذُو الْتَقْصِيرِ

أما رأى مروان في النقد فبديع، كان يُنشد الشعر لكرمى القيس ويقول : هو أشعرُ الناس، ثم ينشد شعر الأعشى ويقول : هو أشعرُ الناس، ثم ينشد شعر زهير ويقول : هو أشعرُ الناس، حتى إذا أنشد لطائفة كثيرة من الشعراء، فرأهم جميعا أشعرَ الناس، قال ضاحكا : الناس أشعرُ الناس ! ولست أعرف رأيا كهذا الرأى يمثلُ الشك في نقد الناقدين المعاصرين والسخرية بهذا النقد .

وننقل من ذلك الوصف الرابع إلى ذكر نبذة صالحة من أخباره وأشعاره .

دخل مروان بن أبي حَفْصَةَ على المهدي بعد وفاة معن، فأنشده مديحا فيه، فقال له المهدي : أَلَسْتَ النَّال :

أَلَقْنَا بِإِسْمَاءَ بَعْدَ مَعْنٍ \* مُقَامَا لَا تُرِيدُ بِهِ زَوَالَا  
وَقَلْنَا إِنْ تَرَحَّلْ بَعْدَ مَعْنٍ \* وَقَدْ ذَهَبَ النَّوَالُ فَلَا نَوَالَا

فقد ذهب النوال فيما زعمت، فلم جئت تطلب نوالنا؟ لا شيء لك عندنا . فلما كان من العام المقبل تظلف حتى دخل مع الشعراء، وإنما كانت الشعراء تدخل على الخلفاء كل عام مرة، فقتل بين يديه، وأنشد — بعد راجع أو خامس من الشعراء — :

طَرَقَتْ زَائِرَةٌ خَلَى حَيَايَا • بِيضَاءُ تَخْلِطُ بِالْجَسَالِ دَلَالَهَا  
قَادَتْ فَوَازِكُ فَاسْتَقَادَ وَمِثْلَهَا • قَادَ الْقُلُوبَ إِلَى الصَّبَا فَأَمَالَهَا  
فَكَأَنَّمَا طَرَقَتْ بِنَفْخَةِ رَوْضِيَةِ • تَهْتَّتْ بِهَا دِيمُ الرِّبْعِ يَطْلَاهَا  
بَاتَتْ تَسَائِلُ فِي الْمَنَامِ مُعْرَسًا • بِالْيَدِ أَثْنَتْ لَا يَمَلُّ سَوَالَهَا  
فِي فِتْنَةٍ مَجْمُوعًا غِرَارًا بَعْدَ مَا • سَفُوهَا مُرَاعِشَةُ السُّرَى وَمِطَالَهَا  
فَكَأَنَّ حَشْوَهُ نِيَابِسُ هِنْدِيَّةٍ • نَحَلَتْ وَأَغْلَتِ الْقِيُونَ صِبَاغَهَا  
وَضَعُوا الْخُدُودَ لَدَى سَوَاهِمِ جَنَحٍ • تَشْكُرُ كُلُّهُمْ صِفَاحَهَا وَكَلَامَهَا  
طَلَبَتْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَوَاصِلَتْ • بَعْدَ السُّرَى يَفْتَقِرُهَا أَصَابَهَا  
تَزَعَّتْ إِلَيْكَ صَوَادِيًا فَتَقَادَفَتْ • تَطْوِي الْفَلَاحَ حُرُوتَهَا وَرَمَالَهَا  
يَبْنِي تَاجِيَةً يَمُزُّ مِرَاحَهَا • بَعْدَ النُّحُولِ تَلِيْلَهَا وَقَدَاهَا<sup>(١)</sup>  
هُوَ جَاءَ تَدْرِعَ الرُّبَا وَتُسْقَى • شَقَّ الشَّمْسُ إِذَا تَرَاعَ جَلَالَهَا  
تَبْصُرُ إِذَا دَفَعَ الْقَطِيعُ كَمَا نَجَتْ • تَحْرِيءُ<sup>(٢)</sup> بَادَرَتْ الظَّلَامَ رِثَالَهَا<sup>(٣)</sup>  
كَالْقَوْسِ سَاهِمَةُ أُنْتُكَ وَقَدِ تَرَى • كَالْبُرُجِ تَمَلُّ رَحْلَهَا وَجِبَاهَهَا  
وَفِيهَا يَقُولُ هَلْ تَطْلِسُونَ مِنَ الْمَاءِ مُجُومَهَا • بَا كَفَمَكِ أَوْ تَسْتَرُونَ هَلَالَهَا  
أَوْ تَجَسَّدُونَ مَقَالَةً عَنْ رَبِّكُمْ • جَبْرِئِلُ بَلَّغَهَا النَّهْيَ فَقَالَهَا  
تَشَدَّدَتْ مِنَ الْأَنْفَالِ أَنْرَاقِيَةِ • بِقُرْآنِهِمْ فَأَرَدْتُمْ إِبْطَالَهَا  
وَمِنْهَا أَحِبَّا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٌ • مُسْتَنَ النَّبِيِّ حَرَامَهَا وَحَلَالَهَا  
مَلِكٌ تَفْتَرِعُ نَبْعَةً مِنْ هَاشِمٍ • مَدَّ إِلَهُ عَلَى الْأَنَامِ ظِلَالَهَا  
جَبِيلٌ لَا مَبْذَلَ لَوْلَوْ بَرَكَتُهُ • رَأَى جِبَالًا عَدُوَهَا فَزَالَهَا

(١) الطويل : العتيق . (٢) تَجَبَّج : تَبَرَّج . (٣) الخرجاء : النعامة . (٤) الرقال : فراخ النعامة وأحدها رال .



لَمْ يَفْتَشْهَا مِمَّا يَتَخَفُ عَظِيمَةً • إِلَّا أَجَالَ لَهَا الْأُمُورَ مُجَلَّافًا  
 حَتَّى يُخْرِجَهَا أَمْرٌ مُهْدَبٌ • أَلْقَى إِلَيْهِ مُعْرِجًا أَمْتًا  
 ثَبَّتْ عَلَى زَلَالِ الْحَوَادِثِ رَاكِبٌ • مِنْ صَرَفَتْ لِكُلِّ حَالٍ حَالَهَا  
 كَلَّا يَدِيكَ جَعَلْتَ فَضْلَ نَوَالِهَا • لِلْسَالِمِينَ وَلِلْعَدُوِّ وَبَالَهَا  
 وَقَعْتَ ، وَاقِمْهَا بِعَفْوِكَ أَنْفُسَ • أَذْهَبَتْ بِعَدِّ غَفَاةٍ أَوْجَافَهَا  
 وَنَصَبْتَ نَفْسَكَ خَيْرَ نَفْسٍ دُونَهَا • وَجَعَلْتَ مَالَكَ وَاقِيًا أَمْوَالَهَا  
 هَلْ تَعْلَمُونَ خَلِيفَةً مِنْ قَبْلِهِ • أَجْرَى لِقَائِهِ إِلَى أَجْرَى هَا  
 طَلَعَ الدَّرُوبُ مُشْمَرًا عَنْ سَاقِهِ • بِالْجَلِيلِ مُنْصَبِلًا يُجِدُّ نَعَالَهَا  
 قُوْدٌ تَرِجُ إِلَى آخِرِ لُوجْهِهِ • نُورٌ يُضِيءُ أَمَامَهَا وَيُخْلِقُهَا  
 فَصُرْتُ حَائِلَهُ عَلَيْهِ تَقْلَصْتُ • وَلَقَدْ تَحْفَظُ قَيْنَهَا فَاطَافَهَا  
 حَتَّى إِذَا وَرَدَتْ أَوَائِلُ خَيْلِهِ • جِيحَانٌ بَثَّ عَلَى الْعَدُوِّ رِجَالَهَا <sup>(١)</sup>  
 أَحْمَى بِلَادَ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ • وَأَبَاحَ سَبِيلَ بِلَادِهِمْ وَجِيَالَهَا  
 أَدْمَتْ دَوَابِرَ خَيْلِهِ وَشَكِيمَهَا • ظَارَتْهُمْ وَأَلْحَقَتْ أَطْلَافَهَا  
 لَمْ يُبْقِ بِعَدِّ مُقَارَاها وَطَرَادَهَا • إِلَّا تَحَاوَزَهَا <sup>(٢)</sup> وَإِلَّا آتَهَا  
 دَفَعَ الْخَلِيفَةُ نَظِيرِي وَرَأْسِي • بِسَدِّ مَبَارَكَةٍ شَكَرْتُ نَوَالَهَا  
 وَجُسَيْدَتْ حَتَّى قَبْلِ أَصْبَحٍ بَاغِيَا • فِي الْمَشِيِّ مُتَرَفِّ شَيْئَةً مُخَالِفًا  
 وَلَقَدْ حَذَوْتُ لَنْ أَطَاعَ مِنْ عَصَى • نَمَلًا وَرَيْتَ عَنِ النَّهْرِ مِثَالَهَا

فَزَحَفَ الْمُهْدِيُّ مِنْ صَدْرِ مُصَلَّاهُ حَتَّى صَارَ عَلَى الْبَسَاطِ إِعْجَابًا بِمَا سَمِعَ ، ثُمَّ قَالَ :  
 كَمْ هِيَ ؟ قَالَ : مِائَةٌ بَيْتَ ، فَأَمَرَ لَهُ بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، فَكَانَتْ أَوَّلُ مِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ أُعْطِيَهَا  
 شَاعِرٌ فِي أَيَّامِ بَنِي الْعَبَّاسِ ، وَهَكَذَا فَعَلَ مَعَهُ الرَّشِيدُ لَمَّا أُنْشِدَهُ قَصِيدَتَهُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

لَمَعْرُكَةٍ مَا أُنْشَى قَدَاةَ الْمُحْصَبِ • إِشَارَةً سَأَلَنِي بِالْبَيْتَانِ الْمُخْضَبِ  
 وَقَدْ صَدَرَ الْمُجْتَاجُ إِلَّا أَقْلَهُمْ • مَصَادِرُ شَيْءٍ مُوَبَّكًا بِعَدِّ مُوَبَّكٍ

(١) الرمال : القطع من الجبل واحدا رملة • (٢) التمايز : الاتساع •

قال مروان : دخلتُ على المهدي في قصر السلام، فلما سَلَّمْتُ عليه وذلك يَقْبُحُ يُخطئه على يعقوب بن داود، فقلت : يا أمير المؤمنين، إن يعقوب رجل رَافِضِيٌّ، وإنه سمعى أقول في الوراثة :

أَنْ يَكُونَ وَلَيْسَ ذَاكَ بِكَائِنْ \* لَيْتَى الْبَنَاتِ وَرِاثَةُ الْأَعْمَامِ  
فَذَلِكَ الَّذِي حَمَلَهُ عَلَى خِدَاوَتِي، ثُمَّ أَتَشَدَّدْتُهُ :

كَاتَبَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدًا \* لَزَأَخَهُ بِالنَّاسِ لِلنَّاسِ وَالِدُ  
فَقَالَ لَهُ الْمَهْدِيُّ : وَاللَّهِ مَا أُعْطِيكَ إِلَّا مِنْ صُلْبٍ مَالِي، فَأَعِزَّنِي، وَأَمَرَنِي بِثَلَاثِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ  
وَكِسَانِي حُبَّةً وَمُطَرَفًا، وَفَرَضَ لِي عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَمَوَالِيهِ ثَلَاثِينَ أَلْفًا أُخْرَى .

لَمَّا قَدِمَ مَعْنٍ مِنْ الْيَمَنِ دَخَلَ عَلَيْهِ مَرْوَانَ وَالْمَجْلِسَ غَاضً بَاهِلَهُ، فَأَخَذَ بِعِصَايَ الْبَابِ  
وَأَنشَأَ يَقُولُ :

أَرَى الْقَلْبَ أَمْسَى بِالْأَوَانِسِ مَوْلَا \* وَإِنْ كَانَ مِنْ عَهْدِ الصَّبَا قَدْ تَمَتَّعَا  
وَيَقُولُ فِيهَا :

وَلَمَّا سَرَى أَلْهَمَ الْغَرِيبَ قَرِيبُهُ \* قَرَى مِنْ أَزَالِ الشُّكِّ عَنْهُ وَأَزْمَعَا  
عَزَمْتُ فَصَجَلْتُ الرَّحِيلَ وَلَمْ أَكُنْ \* كَنَيْ لَوْثَةٍ لَا يَطْلُعُ الْحَسَمُ مَطْلَعَا  
فَأَمْتُ رَكَابِي أَرْضَ مَعْنٍ وَلَمْ تَزَلْ \* إِلَى أَرْضِ مَعْنٍ حَيْثَمَا كَانَ نُزْمَا  
نَحَابِثُ لَوْلَا أَنَّهُا تُحَقِّرُنَا لَنَا \* أَبْتُ عِزَّةً مِنْ جِهْلِهِمَا أَنْ تَوْزَمَا  
كَسُونَا رِحَالُ الْمَيْسِ مِنْهَا غَوَارِبًا \* تَدَارَكَ فِيهَا النَّيُّ صَبِيغًا وَمَرِيضَا  
فَلَبَقْتُ صَنْعَاءَ حَتَّى تَوَاضَعْتُ \* ذُرَاهَا وَزَالَ الْجَهْلُ عَنْهَا وَأَقْلَمَا  
إِلَى أَنْ قَالَ :

وَمَا الْغَيْثُ إِذْ حَمَّ الْبِلَادَ بِصُوبِهِ \* عَلَى النَّاسِ مِنْ مَعْرُوفٍ مَعْنٍ يَا وَصَمَا  
تَدَارَكَ مَعْنٍ قَبْصَةَ الدِّينِ بَعْدَمَا \* خَشِينَا عَلَى أَوْتَادِهَا أَنْ تَنْزَعَا

(١) الميس : غير عظيم تخطئه الرجال . (٢) النى : الضم .

أقام على الفئس المخوف وهائيم \* فساق سباما بالأسنة مضعاً  
مقام آمرى بابى سوى الخلعة الى \* تكون لدى غيب الأحاديث أنما  
وما أحجم الأعداء عنك بقية \* عليك ولكن لم يروا فيك مطمعا  
رأوا مخدراً قد جربوه وطابنوا \* لدى غيله منهم مجراً ومصرطاً  
وليس بثانيه اذا شئت أن يرى \* لدى نحوره ذوق الأسنة شرتنا  
له راحتان الفيت والحنف فيهما \* أبى الله إلا أن تضرنا وتفعنا  
لقد دوح الأعداء معاً فاصبحوا \* وأسمعهم لا يدفع الذل مدفعاً  
نجيب مناجيب وسيد سادة \* ذرى المهدي من قرعى زلار تقوفا  
لبانث خصال الخير فيه وأكثت \* وما كُنت محسا مسنوه وأديما  
لقد أصبحت في كل شرق ومغرب \* بسيفك أعتاق الميريين خضما  
وطلعت خدود الحضرميين وطاة \* لها هذ ركب منهم قضمصما  
فأقموا على الأذنان إقامه معشير \* يرون لزوم السلم ألق وأودعا  
فلو مدت الأيدي إلى الحرب كلها \* لكفوا وما تدوا إلى الحرب أصبما  
فقال له ممن : احتكم، قال : عشرة آلاف درهم، فقال ممن : رجينا عليك تسعين ألفاً،  
قال : ألقني، قال : لا أقال الله من يقيك .

لما مات المهدي وقدت الصرب على موسى الهادي يهنئونه بالخلافة ويمزونه عن  
المهدي، فدخل مروان فأخذ بمضادق الباب وقال :

لقد أصبحت تختال في كل بلدة \* بغير أمير المؤمنين المقابر  
ولو لم تسكن بانه في مكانه \* لما بحثت بكي عليه المنابر  
مرض عمرو بن مسعدة فدخل عليه مروان وقد أبلى من مرضه، فأشأ يقول :  
صح الجسم يا عمرو \* لك التميميص والأجر  
وقه طيناً الحم \* د والينة والشكر  
فقد كان شكا شوقاً \* إليك التهي والأمر

قال موسى بن يحيى : أوصلنا الى مروان بن أبي حفصة في وقت من الأوقات سبعين ألف درهم ، وجمع اليها مالا حتى تمت مائة ألف وخمسين ألف درهم وأودعها يزيد بن مزيد ، فبينما نحن عند يحيى بن خالد إذ دخل يزيد بن مزيد ، وكانت فيه دُعاية ، فقال : يا أبا علي ، أودعني مروان خمسين ومائة ألف درهم ، وهو يشتري الخبز من البقال ؟ فغضب يحيى ثم قال : عليّ بمرّوان ، فأتي به ، فقال له : قد أخبرني أبو خالد بما أودعته من المال وما تنبأه من البقال ، والله سأمرّي من أثر البخل عليك أضّرّ من الفقر لو كان بك . ويروى أنه قال له : والله للبلبل أسوأ عليك أثرا من الفقر لو صرّرت اليه فلا يتخلّ . وقال صر بن شبة قال مروان : ما فريحت بشيء قطّ فرحى بمائة ألف وهبها لي أمير المؤمنين المهديّ ، فوزنتها فزادت درهما ، فاشتريت به لحما . وقال جهّم بن خلف : أتينا البسامة فنزلنا على مروان بن أبي حفصة فأدعانا تمرا وأرسل غلامه بقلّس وسكرجة ليشتريّ زبّة ، فلما جاء بالزيت قال لغلامه : ختنّي ، قال : من قلّس ! كيف أخونك ؟ قال : أخذت القلّس لنفسك وأستوهبت الزيت . وقال الثوريّ : مرّ مروان بن أبي حفصة في بعض سفرائه وهو يريد معنى امرأة من العرب ، فأضائه ، فقال : لله عليّ إن وهب لي الأمير مائة ألف أن أهب لك درهما ، فأعطاه ستين ألف درهم ، فأعطاهما أربعة دنانير . وقال أبو دلامة : أشتري مروان لحما ينصرف درهم فلما وضعه في القدر وكاد ينضج دعاه صديق له ، فردّه على القصاب بنقصان دنانير ، فشكاه القصاب وجعل ينادي هذا لحم مروان ، وظنّ أنّه يأنف لذلك ؛ فبلغ الرشيد ذلك فقال : ويحك ! ما هذا ؟ فقال : أكره الإسراف .

دخل مروان على موسى الهادي فأنشده قوله فيه :

تَنسَاهُ يَوْمًا بِأَيْسِهِ وَنَوَالِهِ • هَا أَحَدٌ يَدْرِي لَأَيِّهِمَا الْفَضْلُ

فقال له الهادي : أيّما أحب اليك ؟ أألاون ألفا معجّلة ، أم مائة ألف تدوّن في الدواوين ؟ فقال له : يا أمير المؤمنين ، أنت تحمين ما هو خير من هذا ، ولكنك أُنسيته ، أفناذن لي أن أدركك ؟ قال : نعم ؛ قال : تُعجل لي الثلاثين ألفا وتدوّن المسائة ألف في الدواوين ، فضحك وقال : بل يُعجلان جميعا ، لحمل اليه المال أجمع .

قال محمد التوفلي : أجتاز مروان برجل من بأهله من أهل إمامة، وهو يُشيد قوما كان جالسا اليهم شعرا مدح به مروان بن محمد، وأنه قُتل قبل أن يلقاه ويُشيد إياه، أوله :

مروانُ وابنُ محمدٍ أت الذي \* زيدت به شرفا بنو مروان

فأعجبته القصيدة، فأهل الباهلي حتى قام من مجلسه، ثم أتاه في منزله فقال له : إني سمعت قصيدتك وأعجبني، ومروان قد مضى ومضى أهله، وفاتك ما قلبرت عنده. أفتبغني القصيدة حتى أتخلها، فإنه خير لك من أن تبقى عليك وأنت فقير؟ قال : نعم، قال : بكم؟ قال : بثلاثمائة درهم، قال : قد آتيتك، فأعطاه الدراهم وحلقه بالطلاق ثلاثا وبالإيمان المخرجة ألا يتخلها أبدا، ولا ينسبها إلى نفسه ولا يُشيد بها، وأنصرف بها إلى منزله فقبر منها أبياتا وزاد فيها وجعلها في مَن، وقال في ذلك البيت :

مَنُ بنُ زائدة الذي زيدت به \* شرفا على شرف بنو شيان

وفد بها إلى مَن حتى أرى وأتسمت حاله، فكان مَن أول من رفع ذكره وتوه به . وله فيه مدائح بعد ذلك شريفة ومراث حسنة . قال مروان : كان المنصور قد طلب مَن بن زائدة طلبا شديدا وجعل فيه مالا، لخدني مَن باليمن أنه أضطر لأشدة الطلب إلى أن قام في الشمس حتى لَوَحَتْ وجهه، وخَفَفَ عارضيه ولبسته، وليس جُبة صوف غليظة، وركب جملا من الجمال الثقاله ينضى إلى البادية فيقيم بها، وكان قد أُلِيَ في حرب يزيد ابن عمر بن هُبَيْرَة بلاء حسنا غاظ المنصور ووجد في طلبه، قال مَن : فلما ترحلت من باب حرب يعني أسود متقلدا سيفا حتى إذا غيبُ عن الحرس قبض على خطام جملي فأناخه وقبض على، فقلت له : مالك؟ قال : أنت طلبة أمير المؤمنين، قلت : ومن أنا حتى يطلبن أمير المؤمنين؟ قال : مَن ابن زائدة، قلت : يا هذا، أتق الله، وأين أنا من مَن؟ قال : دع هذا عنك، فأنا والله أعرف بك منك، فقلت له : فإن كانت القصة كما تقول، فهذا جوهر حملته معي بقي بأضعاف ما بذله المنصور لمن جاءه بي، لخذ ولا تسبك دمي، قال : هانه، فأخرجته إليه، فنظر إليه ساعة وقال : صدقت في قيمته، ولست قابله حتى أسألك

عن شيء ، فإن صدقتني أطلقك ، قلت : قل ، قال : إن الناس قد وسَّعوك بالحدود فأخبرني ، هل وهبتَ قط ما لك كآه ؟ قلت : لا ، قال : فينصِّفه ؟ قلت : لا ، قال : فثقلته ؟ قلت : لا ، حتى بلغ العشر ، فاستحييتُ ، قلت : أظن أني قد فعلت هذا ، فقال : ما أراك فعلته ، أنا والله راجل ورزق من أبي جعفر عشرون درهما وهذا الجوهر قيمته آلاف الدنانير وقد وهبته لك ، وهبتك لنفسك وبلودك الماثور عنك بين الناس ، ولتعلم أن في الدنيا أجود منك فلا تهجيك نفسك ، ولتُحقَّر بعد هذا كل شيء فعله ولا تُثوِّق عن مكرمة ، ثم رمى بالقد في حجرى وخلَّ خطام البعير وأنصرف ، قلت : يا هذا ، قد والله فضحتني وأفسدت دى أهون عليّ مما فعلت ، نخذ ما دفعته اليك فإني غني عنه ، فضحك وقال : أردت أن تكذِّبني في مقامى هذا ، والله لا أخذه ولا آخذ بمعروف ثمتا أبدا ومضى ، فوراثة لقد طلبته بعد أن أمنت وبذلت لمن جاءني به ما شاء ، فما عرفت له خيرا وكان الأرض آبتلته . وكان سبب رضا المنصور عن ممن أنه لم يزل مستترا حتى كاث يوم الهاشمية<sup>(١)</sup> ، فلما وثب القوم على المنصور وكادوا يقتلونه ، وثب ممن وهو متلثم فانتضى سيفه واثل فأبلى بلاء حسنا وذب القوم عنه حتى نجا وهم يحاربونه بعد ؛ ثم جاء والمنصور راكب على بغلة ولجأهما بيد الربيع فقال له : تنع فإني أحق باللقام منك في هذا الوقت وأعظم فيه غناء ، فقال له المنصور : صدق فادفعه إليه ، فأخذه ولم يزل يقاتل حتى أنكشفت تلك الحال ، فقال له المنصور : من أنت ؟ لله أبوك ! قال : أنا عليك يا أمير المؤمنين ممن بن زائدة ؛ قال : قد أمنتك الله على نفسك ومالك ومثلك بضطع ، ثم أخذه وخلع عليه وجأه وزينته ، ثم دعا به يوما فقال له : إني قد أمتلك لأمر فكيف تكون فيه ؟ قال : كما يحب أمير المؤمنين ؛ قال : قد وليتك اليق فابسط السيف فيهم حتى يُنقَضَ حلف ربيعة واليمن ، وأبلغ من ذلك ما يحب أمير المؤمنين ؛ فولاه اليمن وتوجه إليها فبسط السيف فيهم حتى

(١) مدينة بناها السفاح بالكوفة وذلك أنه لما دلى الخلافة نزل بقصر ابن هيرة واستمر بناءه وجمعه مدينة وسماها الهاشمية ، فكان الناس يسيرونها إلى ابن هيرة حل العادة ، فقال : ما أرى ذكر ابن هيرة يسقط عنها ، فرفضها وبنى حياها مدينة سماها الهاشمية وزرها .

أسرف . قال مروان : وقَدِمَ معن بعقب ذلك فدخل على المنصور ، فقال له بعد كلام طويل :  
قد بلغ أمير المؤمنين عنك شيء لولا مكثك عنده ورأيه فيك أنفصب عليك ؛ قال :  
وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : إعطاؤك مروان بن أبي حفصة ألف دينار لقوله فيك :

معنُ بنُ زائدة الذي زيدتُ به \* شرقاً على شرف بنو شيبان  
إن حُدَّ أيام الفعّال فأنما \* يوماه يومٌ تَدَى ويومٌ طلعان

فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أعطيتُ ما بَلَكَ لهذا الشعر ، وإنما أعطيتُه لقوله :

ما زِلْتُ يومَ الهاشميّة مُعَلِّناً \* بالسيفِ دونَ خليفةِ الرحمن  
فكنتُ حَوَازِته وكنتُ وفاءه \* مِن وقعِ كلّ مهتدٍ وسنان

فاستحيا المنصور وقال : إنما أعطيتُه ما أعطيتُه لهذا القول ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ؛  
والله لولا عَفاة الشُّعْبة لأُكسِمتُه من مفاتيح بيوت الأموال وأُجِئتُ إِيّاها ؛ فقال له المنصور :  
لَهْ دَرَكٌ من أهرابي ! ما أهونَ عليك ما يَعرِزُ على الرجال وأهل الحزم !

وأختم هذه الترجمة بموت مروان بِقِصَّةِ قاتله . روى صاحب الأغاني عن زجل  
يقال له صالح بن عطية الأصبهم أنه قال :

لما قال مروان :

أني يكونُ وليس ذاك بكَائي \* لبني البنات وِرْاثَةُ الأعمام

لَرِمَتْهُ وعاهدتُ الله أن أغتاله فأقتله أَيْ- وَقَتِ امْكُنِي ، وما زلتُ الأليفة وأُبرّه ، وأكسب  
أشعاره حتى خُصِمْتُ به فأيس بي جدا ، وعرفتُ ذلك بنو حفصة جميعا فأنسوا بي ،  
ولم أزل أطلب غِرَّةً حتى مريض من حُمَّى أصابته ، فلم أزل أظهر له الجزع عليه ولألازمه  
والأطفه حتى خلالي البيت يوما ، فوثبتُ عليه فأخذتُ بحلقه فما فارقه حتى مات ، ففرجت  
وتركتُه فخرج إليه أهلُه بعد ساعة فوجدوه ميتاً وأرتفعتُ الصَّبيحة ، فحضرتُ وتباكتُ  
وأظهرتُ الجزع عليه حتى دُفِنَ وما قِطِنَ لما فُعلتُ أحد ولا آتَهمني به .

### ٤ - أبو دُلَامَة<sup>(١)</sup>

كَانَ أَوَّلَ مَا حُفِظَ مِنْ شِعْرِهِ وَأُسْنِيتُ الْجَوَاهِرُ لَهُ، قَصِيدَةُ مَدَحِهَا أَبُو جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ وَذَكَرَ قَتْلَهُ أَبُو مُسْلِمٍ يَقُولُ فِيهَا :

أَبَا مُسْلِمٍ خَوْفُنِي الْقَتْلُ فَأَنْتَحَى • عَلَيْكَ بِمَا خَوْفُنِي الْأَسَدُ الْوَرْدُ

أَبَا مُسْلِمٍ مَا غَيَّرَ اللَّهُ نَعْمَةً • عَلَى عِبْدِهِ حَتَّى يُغَيِّرَهَا الْعَبْدُ

أَنْشَدَهَا الْمَنْصُورُ فِي مَحْفَلٍ مِنَ النَّاسِ فَقَالَ لَهُ : أَحْتَكِمْ، فَطَلَبَ عَشْرَةَ آلَافٍ دِرْهَمًا، فَأَمَرَ لَهُ بِهَا، فَلَمَّا خَلَا قَالَ لَهُ : يَا هَ، أَمَا وَاللَّهِ وَاقِعَ تَعَدِّيَتْهَا لِقَتْلِكَ .

أَمَرَ أَبُو جَعْفَرٍ أَصْحَابَهُ بَلْبُسَ السَّوَادِ وَقِلَاسَ طُولِيٍّ تَدْعُمُ بَعِيدَانِ مِنْ دَاخِلِهَا، وَأَنْ يُعْلِقُوا السَّيْرُوفَ فِي الْمَنَاطِقِ وَيَكْتُبُوا عَلَى ظُهُورِهِمْ : (تَسْبِيحُكَ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) فَقَالَ أَبُو دُلَامَةِ :

وَكَمَا تَرْجَى مِنْ إِمَامٍ زِيَادَةً • بِلْغَادِ بَطُونٍ زَادَهُ فِي الْقِلَاسِ

تَرَاهَا عَلَى هَامِ الرِّجَالِ كَأَنَّهَا • دِنَانٌ يَسْوِدُ جُلُوتَ الْبَرَاسِ

وَدَخَلَ إِلَى الْمَنْصُورِ مَرَّةً فَأَنْشَدَهُ :

إِنْ الْخَلِيطُ أَجَدَّ الْبَيِّنَ فَانْتَجِعُوا • وَزَوْدُوكَ خَبَالًا، يُلْتَمَسَا صَنَعُوا

وَاللَّهُ يُعْلِمُ أَنَّكَ كَادَتْ لِيَهْنُومَ • يَوْمَ الْفِرَاقِ حَصَاةُ الْقَلْبِ تَنْصِيدُ

عَجِبْتُ مِنْ صِبْغَتِي يَوْمًا وَأَمْهِمَ • أُمُّ الدُّلَامَةِ لَمَّا هَاجَبَهَا الْحَزَنُ

(١) هُوَذَا بَنُ الْجَلُونَ ، وَاسْمُ أَبِي دُلَامَةِ نَسَبُهُ إِلَى أَبِيهِ دُلَامَةَ ، وَهُوَ كُوفِي الْمَنْشَأُ أَسَدُ الْقُرُونِ مَوْلَى لِقَى أَسَدَ ، وَكَانَ أَبُو جَعْفَرٍ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَاحْتَضَرَ . أَدْرَكَ أَبُو دُلَامَةَ أَوَّلَ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ ، وَلَكِنْ نَبَغَ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ، وَاقْتَضَعَ إِلَى أَبِي الْعَبَّاسِ السَّفَاحِ وَالْمَنْصُورِ وَالْمُهَدِي ، وَكَانُوا يَتَّبِعُونَهُ وَيُحِبُّونَهُ وَيَسْتَعِينُونَ بِحَاسِهِ وَفِرَادِهِ ، وَفِيهِ دَهَابَةٌ وَظَرْفٌ ، لَا يَخْلُوقُ حَدِيثَهُ مِنْ نَكْتَةٍ أَوْ مَلْعَةٍ ، وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ مَسْلُودًا فِي جِلَّةِ الْمُتَمِيمِينَ بِالزُّنْدَقَةِ وَفَسَادِ الدِّينِ ، وَكَانَ يُشْرِبُ الْخَمْرَ وَلَا يَحْضُرُ صَلَاةَ وَلَا فَرُصًا . تَوَفَّى سَنَةَ ١٦٦ هـ . وَأَخْبَارُهُ فِي الْأَخْلَافِ (ج ٩ ص ١٢٠) وَابْنُ خُلْدُونَ طَبَعَ بِإِلَاقٍ (ج ١ ص ٢٦٧) وَالشَّعْرَاءُ وَالشَّعْرَاءُ (ص ٨٧) وَالنَّاسِمِيُّ (ج ١ ص ١٣٢) وَالْمُسْتَارِفُ (ج ٢ ص ٤٣) . (٢) فِي الشَّعْرَاءِ وَالشَّعْرَاءُ : "أَبَا جَعْفَرٍ" . (٣) فِي النَّاسِمِيِّ ج ٢ ص ٣٧١ طَبَعَ أَرَادَ "فَرَادَ الْإِمَامَ الْمُسْلِمِيَّ" .



لا بارك الله فيها من مُنْبِئَةٍ \* هَبَّتْ تِلْوَ عِيَالٍ بِمَدِّ مَا هَجَمُوا  
وَنَحَرَ مُشْتَبِهُ الْأَلْوَانِ أَوْجُهَنَا \* سُودٌ قَبَاحٌ وَفِي أَسْمَانِنَا شَمْعٌ  
إِذَا تَنَسَّكَ إِلَى الْجُرُوعِ قَلْتُ لَهَا \* مَا هَاجَ جُوعُكَ إِلَّا الرِّىُّ وَالشَّبَعُ  
لَا وَالَّذِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَضَى \* لَكَ الْخِلَافَةَ فِي أَسْبَابِهَا الرِّقْعُ  
مَا زِلْتُ أُخْلِصُهَا كَمَنْبِي فَتَأْكُلُهُ \* دُونِي وَدُونَ عِيَالٍ هُمْ تَضْطَجِعُ  
تَوَهَّاهُ مَشْنَأَةً فِي بَطْنِهَا يَحْمَرُّ<sup>(١)</sup> \* وَفِي الْمَقَاصِلِ مِنْ أَوْصَالِهَا قَدَحُ  
ذَكَرْتُهَا بِكَلَابِ اللَّهِ حُرْمَتِنَا \* وَلَمْ تَكُنْ بِكَلَابِ اللَّهِ تَتَلَفَعُ  
فَانْتَرَفَعَتْ<sup>(٢)</sup> ثُمَّ قَالَتْ وَهِيَ مُغْفَبَةٌ \* أَنْتَ تَسْلُوكَ كَلَابِ اللَّهِ بِالْحُكْعِ  
أُخْرِجْ تَبَجِّعْ لَنَا مَالًا وَمَزْدَرَةً \* كَمَا لِحِيسَانِنَا مَالٌ وَمُزْدَرَعُ  
وَأَخَذْتُ خَلِيفَتَنَا عَنَّا بِمَسَالَةٍ \* إِنَّ الْخَلِيفَةَ لِلشُّوَالِ يَخْفَعُ  
فَضَحَكَ أَبُو جَعْفَرٍ وَكَتَبَ لَهُ بَضِيعَةً .

كَانَ رَاقِفًا بَيْنَ يَدَيِ السَّهَّاحِ فَقَالَ لَهُ : سَلَى حَاجَتُكَ ، قَالَ : كَلْبٌ أَنْصِيدُ بِهِ ، قَالَ :  
أَعْطُوهُ إِيَّاهُ ، قَالَ : وَدَابَّةٌ أَنْصِيدُ عَلَيْهَا ، قَالَ : أَعْطُوهُ دَابَّةً ، قَالَ : وَغَلَامٌ يَصِيدُ بِالْكَلْبِ  
وَيَقُودُهُ ، قَالَ : أَعْطُوهُ غَلَامًا ، قَالَ : وَجَارِيَةٌ تُصْلِحُ لَنَا الْعَبِيدَ وَتُطْعِمُنَا مِنْهُ ، قَالَ :  
أَعْطُوهُ جَارِيَةً ، قَالَ : هَؤُلَاءِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عِبِيدُكَ ، فَلَا يَدَّ لِمَنْ دَارِي يَسْكُونُهَا ، قَالَ :  
أَعْطُوهُمْ دَارًا تَجْمَعُهُمْ ، قَالَ : فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لِمَنْ ضَبِيعَةٌ فَمِنْ أَيْنَ يَمِيشُونَ ؟ قَالَ : قَدْ أَعْطَيْتُكَ مَائَةَ  
جَرِيرِبٍ حَاصِرَةٍ ، وَمَائَةَ جَرِيرِبٍ ظَامِرَةٍ ، قَالَ : وَمَا الْفَاصِرَةُ ؟ قَالَ مَا لَا نَبَاتَ فِيهِ ، فَقَالَ : قَدْ  
أَقْطَعْتُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَحْمَةً أَلْفَ جَرِيرِبٍ ظَامِرَةٍ مِنْ فَيَافِي بَنِي أَسَدٍ ، فَضَبِيحُكَ وَقَالَ :  
اجْعَلُوهَُا حَاصِرَةً ، قَالَ : فَأَذَّنَ لِي أَنْ أَقْبَلَ بِذَلِكَ ، قَالَ : أَمَا هَذِهِ فَتَنْصَحُهَا ، قَالَ : وَإِنَّهُ مَا مَنَعَتْ  
عِيَالِي شَيْئًا أَقَلَّ ضَرَرًا عَلَيْهِمْ مِنْهَا ، قَالَ الْخَاطِطُ : فَانْظُرْ إِلَى حِدْقِهِ بِالسَّالَةِ وَلُطْفِهِ فِيهَا ، ابْتَدَأَ

(١) البجر : خروج السرة وتزويدها وظلها أصلها . والفدح : أمر جاج في الرسخ من اليد أو الرجل حتى يتقلب

(٢) أي غضبت .

الكف والقدم إلى السليما .

بكلب تسهل القصة به وجعل يأتي بما يليه على ترتيب وفكاهة حتى نال ما لو سأله بديهة  
لما وصل إليه .

قال علي بن سلام : كنت أسقى أبا دلامة والسندی إذ خرجت بنت لأبي دلامة ،  
فقال فيها أبو دلامة :

فا وَلَدَتِكَ مَرِيْمُ أُمِّ عِيسَى \* وَلَا رَبَّكَ لَقَبَاتِ الْحَكِيمِ  
أَجْزُ يَا أَبَا عَطَاءَ ، فقال :

ولكن قد تَضَمَّنْتُك أُمُّ سُوَيْدٍ \* إِلَى لَبَّائِهِ وَأَبُ لَسِيمِ  
فضحك لذلك ، ثم غدا أبو دلامة إلى المنصور فالتفت في الرَّجَبَةِ يُصَلِّحُ فيها شيئا يريد ، فأخبره  
بقصة ابنته وأفسده البتين ، ثم أندفع فأنشده بعدها :

لو كان يَقْعُدُ فوقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ \* قَوْمٌ لَقِيلَ أَقْعَدُوا يَا آلَ عِبَّاسٍ  
ثم أَرْتَقُوا فِي شُعَاعِ الشَّمْسِ كُلُّكُمْ \* إِلَى السَّيَاءِ فَاتَمَّ أَطْهَرُ النَّاسِ  
وقَدِّمُوا الْقِسْمَ الْمَنْصُورَ رَأْسَكُمْ \* فَالْمِيزَ وَالْأَنْفَ وَالْأُذُنَانِ فِي الرَّاسِ  
فاستحسنها وقال : بأى شيء تحب أن أُعِينَكَ عَلَى قُبْحِ ابْنِكَ هذه ؟ فأخرج خرطلة كان  
قد خاطها من الليل ، فقال : تملأ لي هذه دراهم ، فقلتُ فَوَسَّعتُ أربعة آلاف درهم .  
لما تَوَقَّى أبو العباس السَّفَاحَ دخل أبو دلامة على المنصور والناس عنده يعزونه ، فأنشأ  
أبو دلامة يقول :

أَمْسَيْتُ بِالْإِتِّبَارِ يَا ابْنَ مُحَمَّدٍ \* لَمْ تَسْتَطِيعْ عَنْ عَقْرِهَا تَحْوِيلًا  
وَعَلَى طَلِكِ وَوَيْلَ أَهْلِ كُلِّهُمْ \* وَيْلًا وَعَوَّلًا فِي الْحَيَاةِ طَوِيلًا  
فَلَنِيكَيْنِ لَكَ الْنِسَاءُ بِعَبْرَةٍ \* وَلِيهِ كَيْنٌ لَكَ الرِّجَالُ عَوِيلًا  
مَاتَ النَّدَى إِذْ مِتَّ يَا ابْنَ مُحَمَّدٍ \* بَلَّغْتَهُ لَكَ فِي التَّرَابِ عَدِيلًا  
إِنِّي سَأَلْتُ النَّاسَ بِمَدَكَ كُلَّهُمْ \* فَوَجَدْتُ أَمِيعًا مَنْ سَأَلْتُ بِخِيَلًا  
إِلَيْشَقَوْني أَثَرْتُ بِمَدَكَ لَتِي \* تَدْعُ الْعَزِيزَ مِنَ الرِّجَالِ ذَلِيلًا  
فَلَأَحْلِقَنَّ يَمِينُ حَقِّ بَرَّةٍ \* بِاللهِ مَا أُعْطِيتُ بِمَدَكَ سُّوَلًا

فأبكى الناس قوله ، فغضب المنصور غضبا شديدا وقال : لئن سمعتك تُنشد هذه القصيدة لأقطعن لسانك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن أبا العباس أمير المؤمنين كان لي مكرما ، وهو الذي جاء بي من البدو كما جاء الله بإخوة يوسف اليه فقل كما قال يوسف لإخوته : ( لَا تَبْرِبَ إِلَهُكُمُ الْيَوْمَ يَنْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ) فسرى عن المنصور وقال : قد أفلتاك يا أبا دلامة ، فسل حاجتك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قد كان أبو العباس أمر لي بعشرة آلاف درهم وخمسين ثوبا وهو مريض ، ولم أقبضها . فقال المنصور : ومن يعرف هذا ؟ فقال : هؤلاء ، وأشار إلى جماعة ممن حضروا ، فوثب سليمان بن خالد وأبو إلهم فقالا : صدق أبو دلامة نحن نعلم ذلك ، فقال المنصور لأبي أيوب الخزاز وهو مغيظ : ياسليان ، اذهبها اليه وسيبره الي هذا الطاغية « يعنى عبد الله بن علي » وقد كان خرج بناحية الشام وأظهر الخلفاء ، فوثب أبو دلامة فقال : يا أمير المؤمنين إني أعيذك بالله أن أخرج معهم ، فوالله أني لمشغوم ، فقال المنصور : امض ، فإن يئني يغلب شؤك فأخرج ، فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أحب لك أن تجزب ذلك مني حل مثل هذا العسكر ، فإني لا أدري أيهما يغلب ، أيُّك أم شؤي ، إلا أني بنفسى أوثق وأعرف وأطول تجربة ، قال : دعني من هذا فلألك من الخروج بد ، فقال : إني أصيدك الآن ، شهدت والله تسعة عشر صكرا كلها هزمت وكنت سببا ، فإن شئت الآن حل بصيرة أن يكون عسكرك العشرين فافعل ، فاستغرب أبو جعفر فمخكا وأمره أن يتخلف مع عيسى بن موسى بالكوفة .

قال أبو دلامة : إني في المنصور أوالمهدى وأنا سكران ، خلف ليخرجني في بيت حرب ، فأخرجني مع روج بن حاتم المهلبى لقتال الشراء ، فلما التقى الجمعان قلت لروج : أما والله لو أن تحتى فرسك ومعى سلاحك لأثرت في عدوك اليوم أثرا ترتضيه ، فضحك وقال : والله العظيم لأدفعن ذلك إليك ولا أخذتك بالوفاء بشروطك ، ونزل عن فرسه ونزع سلاحه ودفعهما إلى ودعا بغيرهما فاستبدل بهما ، فلما حصل ذلك في يدي وزالت عني حلاوة الطمع قلت له : أيها الأمير هذا مقام المائد بك ، وقد قلت أباينا فاسمها ، قال : هات ، فأنشدته :

إني استعرتك أن أقدم في الوحي \* إقطاعي وتنازل وحسراب<sup>(١)</sup>  
 فهيب السيوف رأيها مشهورة \* فتركها ومضيت في الحسراب  
 ماذا تقول لسايبه وما يرى \* من واردات الموت في اللثاب

فقال : دَع عَنْكَ هَذَا وَسَتَمَّ، وبرز رجل من الخوارج يدعو للبارزة : فقال : انخرج  
 إليه يا أبا دلامة، فقلت : أَسْأَلُكَ اللَّهَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ فِي دِينِي، قال : والله لتُخْرِجَنِي، فقلت :  
 أَيُّهَا الْأَمِيرُ فَإِنَّهُ أَوَّلُ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ وَأَخْرُجُ يَوْمَ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا وَأَنَا وَاللَّهِ جَائِعٌ مَا شَبِعَتْ  
 مَنِي جَارِحَةٌ مِنَ الْجُوعِ، فَرُلِي بَنِيَّ أَكَلَهُمْ ثُمَّ أُنْرَجُ، فَأَمْرٌ لِي بِرَغِيفَيْنِ وَدَجَاجَةٍ، فَأَخَذْتُ  
 ذَلِكَ وَبَرِزْتُ عَنِ الصَّفِّ، فَلَمَّا رَأَى الشَّارِي أَقْبَلَ نَحْوِي وَعَلَيْهِ قُرُوقٌ فَدَاصَبَهُ الْمَطَرُ فَأَبْتَلُ  
 وَأَصَابَتْهُ الشَّمْسُ فَأَتَمَّلُ وَصِيَاهُ تَقْدَانُ<sup>(٢)</sup>، فَأَسْرِعُ إِلَيَّ، فقلت له : حُلِي رَسْلِكَ يَا هَذَا، كَمَا أَنْتَ،  
 فَوَقُفْ، فقلت : أَتَحْتَلُّ مِنْ لَا يَقَاتِلُكَ ؟ قال : لَا، قلت : أَتَحْتَلُّ رَجُلًا عَلَى دِينِكَ ؟ قال :  
 لَا، قلت : أَتَسْتَعْمَلُ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تَدْعُو مَنْ تَقَاتِلُهُ إِلَى دِينِكَ ؟ قال : لَا، فَاهْذَبْ عَنِّي  
 إِلَى لَعْنَةِ اللَّهِ، قلت : لَا أَفْعَلُ أَوْ تَسْمَعُ مِنِّي، قال : قُلْ، قلت : هَلْ كَانَتْ بَيْنَنَا قَطُّ عِدَاوَةٌ  
 أَوْ رِيَّةٌ أَوْ تَصِرْفَنِي بِحَالٍ تُخَفِّطُكَ عَلَيَّ أَوْ تَعْلَمُ بَيْنِي وَبَيْنَ أَهْلِكَ وَرِيَّةً، قال : لَا وَاللَّهِ، قلت :  
 وَلَا أَنَا وَاللَّهِ أَتُحِيرُكَ إِلَّا بِجَمِيلِ الرَّأْيِ، وَإِنِّي لِأَهْوَاكَ وَأَتَعْمَلُ مَذْهَبَكَ، وَأُدِينُ دِينَكَ، وَأُرِيدُ  
 السُّوَاءَ لِمَنْ أَرَادَهُ لَكَ، قال : يَا هَذَا جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا فَانصِرِفْ، قلت : إِنْ مَعِيَ زَادًا أَحَبُّ  
 أَنْ أَكُلَهُ مَعَكَ وَأَحَبُّ مَوَالِكَكَ لَنَا كَدُّ الْمَوْقِدَةِ بَيْنَنَا وَيَرَى أَهْلُ السَّكْرِ هَوَانَهُمْ عَلَيْنَا، قال :  
 فَاضْلُ، فَتَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ حَتَّى اخْتَلَفْتُ أَعْنَاقُ دَوَابِّنَا، وَجَمَعْنَا أَرْجُلَنَا عَلَى مَعَارِفِهَا وَالنَّاسُ قَدْ ضَلُّوا  
 حَتِّيكَا، فَلَمَّا اسْتَوْفِينَا وَدَعَيْنِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ : إِنَّ هَذَا الْجَاهِلُ إِنْ أَقْبَتَ عَلَى طَلَبِ الْمُبَارَاةِ  
 نَدَخِي إِلَيْكَ تَتَعَبِنِي وَتَتَعَبُ نَفْسُكَ، فَإِنْ رَأَيْتَ إِلَّا تَهَرَّزَ الْيَوْمَ فَأَفْعَلْ، قال : قَدْ فَعَلْتُ،  
 ثُمَّ أَنْصَرَفْتُ وَأَنْصَرَفْتُ فَقُلْتُ لِرُوحٍ : أَمَا أَنَا فَقَدْ كَفَيْتُكَ قِرْنِي، فَقُلْ لِعَمْرِي أَنْ يَكْفَيْتَكَ قِرْنَهُ  
 كَمَا كَفَيْتَكَ، فَأَمْسَكَ، وَخَرَجَ آخِرُ يَدِهِ إِلَى الْبَرَاةِ، فَقَالَ لِي : انْخَرِجْ إِلَيْهِ، فقلت :

(١) الحراب بمعنى المحاربة وفي الأغانى « حراب » . (٢) هكذا بالأصل وعليها : افعل، من  
 قولهم افعلت يده : تعقبته .

لَآتَى أَعْوَدُ بَرُّوحٍ أَنْ يَقْدَمَنِي \* إِلَى الْبَرَّازِ فَتَحَزَى فِي بَنُو أَسَدٍ  
لَآتَى الْبَرَّازِ إِلَى الْأَفْرَانِ أَعْلَمُهُ \* مِمَّا يَفُوقُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ  
قَدْ حَالَفْتُكَ الْمَنَابِإَ إِنْ سَمَعْتُ لَهَا \* وَأَصْبَحْتُ لَجْمِيعِ الْخَلْقِ بِالرَّصَدِ  
إِنَّ الْمُهَلَّبَ حَبَّ الْمَوْتِ أَوْرَثَكُمْ \* وَمَا وَرِثْتُ اخْتِيَارَ الْمَوْتِ عَنْ أَحَدٍ  
لَوْ أَنَّ لِي مُهْجَةً أُخْرَى بَخَلْتُ بِهَا \* لَكُنْتُهَا خُلِقْتُ فَرْدًا فَلَمْ أُجِدْ  
فَضْحَكَ وَأَعْفَانِي .

قال أبو أيوب المورياتي لأبي جعفر وكان يشأ أبا دلالة : إن أبا دلالة مُتَكَيَّفٌ عَلَى  
الْجَمْرِ، لَهَا يَحْضُرُ صَلَاةٌ وَلَا مَسْجِدٌ وَقَدْ أَفْسَدَ فِتْيَانُ الْعَسْكَرِ، فَلَوِ أَمْرُهُ بِالصَّلَاةِ مَعَكَ لَأُجِرْتَ  
فِيهِ وَفِي غَيْرِهِ مِنْ فِتْيَانِ عَسْكَرِكَ بَقَطْعِهِ عَنْهُمْ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ أَبُو دِلَالَةَ قَالَ لَهُ : مَا هَذَا الْجُهُونُ  
الَّذِي يَبْلُغُنِي عَنْكَ ؟ فَقَالَ : يَا أُنْبِيَا الْمُؤْمِنِينَ مَا أَنَا وَالْجُهُونُ وَقَدْ شَارَفْتُ بَابَ قَهْرِي ، قَالَ :  
دَعْنِي مِنْ أَسْتِكَانَتِكَ وَتَضَرُّعِكَ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَفُوتَكَ الظُّهْرُ وَالْعَصْرُ فِي مَسْجِدِي ، فَتُنَّ فَاتِنَاكَ  
لَأَحْسَنَ أَدَبِكَ وَلَأَطِيلَنَّ حِسَابَكَ ، فَوَقَعَ فِي شُرُوزِ الْمَسْجِدِ أَيَّامًا ، ثُمَّ كَتَبَ قِصَّةَ وَدَفَعَهَا  
إِلَى الْمُهْدِيِّ فَأَوْصَلَهَا إِلَى أَبِيهِ وَكَانَ فِيهَا :

أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّ الْخَلِيفَةَ لَزْنِي <sup>(١)</sup> \* بِمَسْجِدِهِ وَالْقَهْرَ مَالِي وَلِلْقَهْرِ  
أَصْلِي بِهِ الْأَوَّلَى جَمِيعًا وَعَصْرَهَا \* فَوَيْلٌ مِنَ الْأَوَّلَى وَوَيْلٌ مِنَ الْعَصْرِ  
أَصْلِيهِمَا بِالْكَرْهِ فِي غَيْرِ مَسْجِدِي \* فَهَلَالِي فِي الْأَوَّلَى وَلَا الْعَصْرَ مِنْ أُنْجَرِ  
لَقَدْ كَانَ فِي قَوْمِي مَسَاجِدُ جَمَّةً \* وَلَمْ يَنْشَرْحْ يَوْمًا لِفَتْيَانِهَا صَدْرِي  
يَكْلَفُنِي مِنْ بَعْدِ مَا شَبِهْتُ خُطَّةً \* يُحِطُّ بِهَا عَنِّي الثَّقِيلُ مِنَ الْوِزْرِ  
وَمَا ضَرَّهُ فَإِنَّهُ يَغْفِرُ ذَنْبِي \* لَوْ أَنَّ ذُنُوبَ الْعَالَمِينَ عَلَى ظَهْرِي  
فَقَالَ : صَدَقَ ، مَا يَغْفِرُنِي ذَلِكَ ، وَاللَّهِ لَا يَصِلُ هَذَا أَبَدًا ، فَدَعُوهُ بِسَمَلٍ مَا يَشَاءُ .

(١) لَزْنُهُ بِالْفَتْحِ : أَزْهَمُهُ .

وقال المهديُّ في سبِّه : قد أعفيناك من هذا الحال ، ولكن على ألا تدعَ القيامَ معنا في ليالي شهر رمضان فقد أَطَّلَ ، فقال : أفعل ، قال : فإنك إن تأخرت لشرب الخمر علمتُ ذلك والله إن فعلت لأحدنك ، فقال أبو دلامة : البلية في شهر أخف منها في طول الدهر ، سمًّا وطاعة ، فلما حضر شهر رمضان لزم المسجد ، وكان المهديُّ يبعث إليه في كل ليلة حُرَيِّبًا يحيي به ، فشق ذلك عليه وفزع إلى الخيزران وإلى أبي عبيد الله وكلَّ من يلوذ بالمهديِّ ليشفعوا له في الإعفاء من القيام ، فلم يجبهم ، فقال له أبو عبيد الله : الدالُّ على الخير كفاعله ، فكيف شكرته ؟ قال : أتمُّ شكر ، قال : عليك برِطْبة فإنه لا يخالفها ، قال : صدقت ، ثم رفع إليها رُقعة يقول فيها :

أبْلِغْ رِطْبةً أَنِّي ■ كنت عبداً لأبيها  
فمضى يرحمه الله \* ه وأوصى بي إليها  
وأراها تَسِيَّتَنِي \* مثل نِسْبانٍ أخوها  
جاء شهر الصوم يمشي \* يَشْبِيه ما أَشْتَهِيها  
فأَتَدَا لِي لَبْلَةٌ القَد \* ر كَأَنِّي أَشْفِيها  
تَطْلُعُ القَبْلَةُ شهراً \* جَبْهَتِي لا تَأْتِيها  
ولقد عشتُ زماناً \* في قِيافٍ وجيها  
في لِيَالٍ من شتاء \* كنت شيخاً أَصْطَلِيها  
فأَعْدَا أَوْقَدَ ناراً \* لِضِيَابِ أَشْتَوِيها  
وَصَبُّوحٍ وَغَبُّوقٍ \* في عِلَابِ أَحْسَمِيها  
ما أَبَالِي لَبْلَةَ القَد ■ ر ولا تُسْمِعِينِيها  
فَأَطْلِي لِي قَرْجاً من \* ه وأجري لك فيها

فلما قرأت الرُقعة صَحِكَتْ وأرسلت إليه : أَصْطَلِحْ حَتَّى تَمْضِيَ لَيْلَةُ القَدْرِ ، فكتب إليها :  
إني لم أسألكَ أبْت تَكْلِمَةٍ في إعفائي عما قَالَا ، وإذا مضتْ ليلة القدر فقد نَفِيَ الشَّهْرُ ،  
وكتب تحتها أبيتانا :

خافي إيلك في نفس قد أجتضرت \* قامت قيامتها بين المصلينا  
 ما ليللة القدر من همى فاطلبها \* إني أخاف المنايا قبل عشرينا  
 باليلة القدر قد كسرت أرجلنا \* باليلة القدر حقا ما مُتينا  
 لا بارك الله في خير أوتله \* في ليلة همد ما كنا ثلاثينا

فلما قرأت الرقعة ضحكك ودخلت الى المهدي فشعنت له اليه وأشدته الأبيات ،  
 فضحكك حتى استلقى ودعا به وريلة معه في الجملة ، فدخل ، فانزعج رأسه اليه وقال : قد  
 شقنا ريلة فيك وأمرنا بك بسبعة آلاف درهم ، فقال : أما شفاعه سيدي في حتى أعفيتني  
 فأعفاها الله من النار ، وأما السبعة الآلاف فما أعجبتني ما فعلته إما أن تُشمتها بثلاثة آلاف  
 فتصير عشرة أو تُقصي منها ألفين فتصير خمسة آلاف ، فإني لا أحسن حساب السبعة ،  
 فقال : قد جعلتها خمسة ، فقال : أعيدك بالله أن تختار أدنى الحالين وأنت أنت ، نصرت  
 به المهدي ساعة ، ثم تكلمت فيه ريلة ، فأتتها له عشرة آلاف درهم .

شرب أبو دلالة في بعض الحانات فسكرو وأنصرف وهو يميل ، فلقبه السمس ، فأخذوه  
 وقالوا له : من أنت ، وما دينك ؟ فقال :

دينى على دين بني العباس \* ما ختم الطير على القوطاس  
 إني أصطحبت أربعا بالكاس \* لقد أدار شربها برامى  
 \* فهل بما قلت لكم من باس \*

فأخذوه ومضوا ونرقوا ثيابه وسأجه ، وأتى به أبو جعفر ، وكان يؤتى بكل من أخذه  
 السمس ، فحبسه مع الدجاج في بيت ، فلما أفاق جعل ينادى غلامه مرة وجاريته مرة ،  
 فلم يجبه أحد ، وبينما هو في ذلك إذ سمع صوت الدجاج وزقأ الديوك ، فلما أكر قال له  
 السجان : ما شأنك ؟ قال : وبلك من أنت ؟ وأين أنا ؟ قال : في الحبس وأنا فلان

(١) الساج : الطليسان الأعصر ، وقيل الأسود .

السَّجَّانُ، قال : من حَسَنَى ؟ قال : أمير المؤمنين، قال : ومن خَرَقَ طَيْلَسَانِي؟ قال :  
الحَرَسُ، فطلب منه أن يَأْتِيَهُ بِوَاوٍ وَقِرطاس، ففعل، فكتب إلى أبي جعفر :  
أمير المؤمنين فدتك نفسي \* سلام حَسَنَتِي وَتَعَرَّفَتِ سَابِجِي  
أمن صَفْرَاءَ صَافِيَةِ الْمِزَاج \* كَانَ شُعَاعُهَا لَهَبُ السَّرَاجِ  
وقد طَيِّخْتُ بِنَارِ اللَّهِ حَتَّى \* لَقَدْ صَارَتْ مِنَ التُّطْفِ النَّضَاجِ  
تَهَشُّ لَهَا الْقُلُوبُ وَتَشْتَهِيهَا \* إِذَا بَرَزْتَ تَرَقُّقُ فِي الرِّجَاجِ  
أُقَادُ إِلَى السَّجُونِ بِغَيْرِ جُرْمٍ \* كَأَنِّي بِمَعْشَرِ عُثَالِ الْخِرَاجِ  
ولو معهم حُبِسْتُ لَكَانَ سَهْلًا \* وَلَكِنِّي حُبِسْتُ مَعَ الدَّجَاجِ

فدعا به وقال : أين حُبِسْتَ يَا أَبَا دَلَامَةَ؟ قال : مع الدَّجَاجِ، قال : فَاكُنْتَ تَصْنَعُ؟  
قال : أَقُورِقُ مَعَهُنَ حَتَّى أَصْبِحْتُ، فضحك وخرق سبيلَه وأمر له بِجَائِزَةٍ، فلما خرج قال له  
الرَّيْبَعُ : إِنَّهُ شَرِبَ الْخَمْرَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَهُ : وَقَدْ طَيِّخْتُ بِنَارِ اللَّهِ، يَعْنِي  
الشَّمْسُ؟ فَأَمَرَ بِرَدِّهِ، ثم قال : يَا خِيْتُ، شَرِبْتَ الْخَمْرَ؟ قال : لَا، قال : أَفَلَمْ تَقُلْ : طَيِّخْتُ  
بِنَارِ اللَّهِ تَعْنِي الشَّمْسُ؟ قال : لَا وَاقْتِهِ مَا عَنَيْتُ إِلَّا نَارَ اللَّهِ الْمُؤَقَّدَةَ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى فَوَادِ  
الرَّيْبَعِ، فضحك وقال : خُذْهَا يَا رَيْبَعُ وَلَا تُؤَاوِدَ .

صام الناس في سنة شديدة الحر على عهد المهدي، وكان أبو دَلَامَةَ يَنْتَهِزُ جَائِزَةَ أَمْرِ  
له المهدي بها، فكتب إليه أبو دَلَامَةَ رَقْعَةً يَشْكُو فِيهَا أَذَى الْحَرِّ وَالصَّوْمِ، وهي :

أَدْعُوكَ بِالرَّحِمِ الَّتِي قَدْ جَمَعْتُ \* فِي الْقَرَبِ بَيْنَ قَرِينَا وَالْأَبْسَدِ  
إِلَّا سَمِعْتَ وَأَنْتَ أَكْرَمُ مِنْ مَتَى \* مِنْ مُلْشِدٍ يَرْجُو جَزَاءَ الْمُلْشِدِ  
جَاءَ الصَّيَّامُ فَصُمَّتْهُ مَتَعِدًا \* أَرْجُو رَبَّاءَ الصَّائِمِ الْمُتَعِدِ  
وَلَقِيْتُ مِنْ أَمْرِ الصَّيَّامِ وَحَرًا \* أَمْرَيْنِ قَيْسًا بِالْعَذَابِ الْمُؤَصِّدِ  
وَجَعَلْتُ حَتَّى جَبَنِي بِشَجْوَجَةٍ \* مِمَّا يَنْتَاطِحُنِي الْحَصَا فِي الْمَسْجِدِ  
فَأَمَنْ بِشَرِيحِي بِمَطْلَكِ بِالْدَى \* أَسْلَفْتَنِيهِ مِنَ الْبَلَاءِ الْمُرْصِدِ



فلما قرأ المهدي رُفَعَتْه غضب وقال : أئى قرابة بنى وبنيك ؟ قال : رحم آدم وحواء ،  
أَسْبَيْتَهُمَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! فضحك وقال : لا والله ما نَسَبْتُهُمَا ، وأمر بتسجيل ما أجاز به  
وزاد فيه ، وأنشده أيضا في ذم الصوم :

هَلْ فِي الْبِلَادِ لِرِزْقِ اللَّهِ مُفْتَرَشٌ \* أَمْ لَا فَنِي جُلَيْدِهِ مِنْ خُشْنَةِ بَرَشٍ<sup>(١)</sup>  
أَصْحَى الصِّيَامِ مُنِيخًا وَسَطَ عَرَصَتَنَا \* لَيْتَ الصِّيَامَ بِأَرْضِ دُونِهَا جُرَشٌ  
إِنْ صُمْتُ أَوْجَعَنِي بَطْنِي وَأَقْلَقَنِي \* بَيْنَ الْجَوَانِحِ مَسَّ الْجُوعِ وَالْعَطَشُ  
وَأِنْ نَجَرْتِ بِلِيلٍ نَحْوَ مَسْجِدِهِمْ \* أَضْرَبَنِي بَصَرُ قَدِّ خَاتَمِ الْعَمَشِ

دخل أبو دلامة على سعيد بن دعلج مولى بني تميم فقال :

إِذَا جِئْتَ الْأَمِيرَ فَقُلْ سَلَامٌ \* عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ الرَّحِيمِ  
وَأَمَّا بَعْدُ ذَاكَ فَعَلَى غَرِيمٍ \* مِنَ الْأَعْرَابِ قُبْحٌ مِنْ غَرِيمِ  
غَرِيمٍ لَا زُمْ بِنِجَاءِ بَنِي \* زَوْجِ الْكَلْبِ أَصْحَابِ الرَّقِيمِ  
لَهُ مَائَةٌ عَلَى وَصْفِ أَثَرِي \* وَنِصْفُ النَّصْفِ فِي صَكِّ قَدِيمِ  
دِرَاهِمٍ مَا انْتَفَعْتُ بِهَا وَلَكِنْ \* وَصَلْتُ بِهَا شَيْوَخَ بَنِي تَمِيمِ  
أَتَوْنِي بِالشَّيْطَانِ يُسْأَلُونِي \* وَلَمْ أَكُ فِي الْعَشِيرَةِ بِاللَّيْمِ  
فَأَمَرَ لَهُ بِمِائَتَيْنِ وَنِصْفَةِ سَبْعِينَ دِرْهَمًا وَقَالَ : مَا أَسَاءَ مِنْ أَنْصَفٍ ، وَقَدْ كَلَّأْتُكَ عَنْ  
قَوْمِكَ وَزِدْتُكَ مَائَةً .

دخل أبو دلامة على المهدي فأنشده قصيدته في بقلته المشهورة :

أَعْلَانِي ، بِقَلَّةٍ يَسْتَأْمِنُنِي ، \* حَرِيرِي فِي الْخَسَارَةِ وَالضَّلَالِ  
فَقَالَ تَيِّبُهُمَا قُلْتُ أَرْتَبِّطُهَا \* بِمُحْكَمِكَ إِنِّي بَيْنِي وَغَيْرِهَا  
فَأَقْبَلْتُ ضَاكِحًا نَحْوِي سُرُورًا \* وَقَالَ أَرَاكَ سَمِعًا ذَا بَمَالِ  
هَلَمْ إِلَى يَخْلُوبِ خِلْدَا \* وَبَا يَدْرِي الشَّقَّ لِمَنْ يُحَالِ

(١) البرش : قط بيض في الجلد .

فقلتُ بأربعين، فقال أحسنُ • إلى فإني مثلك ذو رِجال

فأتركُ خمسة منها لعلِّي • بما فيه يصيرُ من انقبال

فقال المهدي : لقد أفلتُ من بلاء عظيم ، قال : والله يا أمير المؤمنين لقد مكثت شهرا أتوقع صاحبها أن يردّها، ثم ألتسده :

فأبدئي بها يا ربَّ طَرَقًا • يكون جمالُ مرَكِّبِه جمالي

فقال لصاحب دوابه : خبره من الإصطبل بين مركبين ، قال : يا أمير المؤمنين إن كان الاختيارُ لي وقعتُ في شرٍّ من البغلة ، ولكن مرُّه أن يختار لي ، فاختار له .

خاصم رجل أبا دلامة في داره فارتضا إلى عافية القاضي ، فأنشأ أبو دلامة يقول :

لقد خاصمتني ذُهاةُ الرجال • وخاصمتُها سَنَةٌ وإفيه

فأدحضَ الله لي حِجَّةً • ولا خيبَ الله لي قافية

ومن خفت من جورِهِ في القضاء • فليست أخافُكَ يا عافية

فقال له عافية : والله لأشكوكَ إلى أمير المؤمنين ، ولأعلمَنَّ أنَّكَ هجوتني ، قال : إذا يَزِيكَ، قال : وليَّه؟ قال : لأنك لا تعرف المديح من الهجاء، فبلغ ذلك المنصور فضحك وأمر لأبي دلامة بمجازة .

دخل أبو دلامة على المهدي وعنده إسماعيل بن محمد وعيسى بن موسى والعباس ابن محمد ومحمد بن محمد بن إبراهيم الإمام وجماعة من بني هاشم فقال له : أنا أعطى الله عهدا لئن لم تنهج واحدا مني في البيت لأقطعن لسانك، فنظر إليه القوم، فكلما نظر إلى واحد منهم غمزه بأن عليه رضاه، قال أبو دلامة : فعلمتُ أني قد وقعت وأنها عزمته من عزيماته لا بد منها، فلم أر أحدا أحق بالهجاء مني، ولا أدعني إلى السلامة من هجاء نفسي، فقلت :

ألا أبلغُ لديك أبا دلامه • فليس من الإكرام ولا كرامه

إذا لبس العامة كان قسدا • ويخزيرا إذا ترزع العامة

جمعت دَمَامَةً وجمعت لَوَماً • كذاكَ اللّوْمُ تَتَّبِعُهُ الدَّمَامَةُ  
فإنَّكَ قد أَصَبْتَ نَعِيمَ دُنْيَا • فلا تَفْرَحْ قَعْسَدَ دُنَيْتِ الْقِيَامَةِ  
فضحك القوم ولم يبق منهم أحد إلا أجازه .

خرج المهديّ وعليّ بن سليمان الى الصيد، فسَنَحَ لَهَا قَطِيعٌ مِنَ الْقَبَاءِ، فَأُرْسِلَتْ  
الكلاب وأُجْرِيت الخيل، فرمى المهديّ ظبياً بسهم فصرعه، ورمى عليّ بن سليمان، فأصاب  
بعض الكلاب فقتله، فقال أبو دلامة :

قد رَمَى المهديّ ظبياً • شَكَ بِالسَّهْمِ فَوَادَهُ  
وعليّ بن سليمان • نَ رَمَى كَلْباً فَصَادَهُ  
فهنيئاً لَهَا كُلُّ أَمْرٍ يَأْكُلُ زَادَهُ

فضحك المهديّ حتى كاد يسقط عن سرجه وقال : صدق والله أبو دلامة؛ وأمر له بجائزة  
سَلِيَّةٍ، فَلَقَّبَ عَلِيّ بن سليمان صَائِدَ الْكَلْبِ، وَصَلَّى بِهِ .

أَنشَدَ أَبُو دِلَامَةِ الْمَنْصُورُ يَوْمَا :

هَاتِيكَ وَالذَّقِ عَجُوزٌ هِمَّةٌ <sup>(١)</sup> = مِثْلُ الْبَالِيَةِ يَدْرِعُهَا فِي الْمَشْجَبِ <sup>(٢)</sup>  
مَهْزُولَةٌ الْقَمِيَّينَ مِنْ يَرَاهَا يُقْسِلُ • أَبْصَرْتُ غُولا أَوْ خِيَالَ الْقَطَارِبِ <sup>(٣)</sup>  
مَا إِنْ تَرَكْتُهَا وَلَا لَابَنُهَا • مَا لَا يُؤْمَلُ غَيْرَ بَكْرِ الْأَجْرِيبِ  
وَدَجَائِئُهَا تَهْمَسُ بِرُحَى الْيَسَمِ • لَمَّا يَبْضُنْ وَفِرْعَوْنُ مُقْرَبِ <sup>(٤)</sup>  
كَتَبُوا إِلَى مَحْصِفَةِ مَطْبُوعَةٍ • جَعَلُوا عَلَيْهَا طِبْنَةً كَالْعَقْرَبِ  
فَعَلِمْتُ أَنَّ الشَّرَّ عِنْدَ فِكَكَهَا • فَفَكَّكَتُهَا عَنْ مِثْلِ رِيحِ الْجَوْرَبِ  
وَإِذَا شَدِيدُهُ بِالْأَفَاعَى رُقِشَتْ • يُوعِدُنِي بِتَلْمِظٍ وَتَسْوِيبِ  
يُسْكُونُ الْإِلْجُوعَ أَهْلُكَ بَعْضُهُمْ • تَرَى بِهَلْ لَكَ فِي عِيَالِ الرُّبِ

(١) هِمَّةٌ : هَرَمَةٌ . (٢) الْمَشْجَبُ : خَشَبَاتُ مَوْزَةٍ مَصْرُوعَةٍ تَوْضَعُ عَلَيْهَا الْيَابِ وَتَنْتَرُ .

(٣) الْقَطَارِبُ : ذَكَرُ الْبِلَانِ . (٤) الْمَرْبُ : الْأَبْيَضُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ .

لا يسألوك فِرَ طَلَّ صَحَابِيَّةُ • تَشَاهُمُ مِنْ مَسِيلِكَ الْمُتَحَلِّبِ  
يا باذل الخليات يابنَ بَذُولِهَا • وَأَبْنَ الْكَرَامِ وَكُلَّ قَرِيمٍ مُنْجِبِ  
أَتَمُّ بَنُو الْعَبَّاسِ يُعَلِّمُ أَنْصَحَهُمُ • قَدِيمًا فَوَارِسُ كُلِّ يَوْمٍ أَشْهَبِ  
أَحْلَسَ خَيْلَ اللَّهِ وَهِيَ مُغَيَّرَةٌ • يَخْرُجْنَ مِنْ خَلَلِ الْفُجَارِ إِلَّا كَهَبِ

فأمر له بدار يسكنها وكسوة ودراهم، وكانت الدار قريبة من قصره، فأمر أن تزد  
في قصره بعد ذلك حاجة دعت إليها، فدخل عليه أبو دلالة فأنشده قوله :

يابن عم النبي دعوة شيخ • قد دنا هدم داره ودماره  
فهو كالماخض التي اعتادها العُلْدُ • حتى قُضِرَتْ وما يقتر قراره  
إن تُحْزَ عُسْرَةٌ بِكَفَيْسِكَ يَوْمًا • فَبِكَفَيْسِكَ عُسْرُهُ وَيَسَارُهُ  
أَوْ تَدَّخَهُ فَلْيَسَّارِ وَأَتَى • وَلِإِذَا وَأَنْتَ حَتَّى بَوَارُهُ  
هل يخاف الهلاك شاعر قوم • قُدِّمْتُ فِي مَدِينِهِمْ أَشْهَارُهُ  
لَكُمْ الْأَرْضُ كُلُّهَا فَأَعْرِوْا • شَيْخَكُمْ مَا أَحْتَوَى عَلَيْهِ جِدَارُهُ  
فَكَأَنَّ قَدْ مَضَى وَخَلَّفَ فِيكُمْ • مَا أَعْرَيْتُمْ وَأَقْفَرْتُمْ مِنْهُ دَارُهُ  
فاستعبر المنصور وأمر بتعويضه دارا خيرا منها ووصله .

دخل على المهدي يوما وعنده مُحْرِزٌ وَمُقَاتِلٌ أَبْنَا ذُوَالْ يَمَانِيَانِهِ عَلَى تَقْرِيبِهِ أَبَا دِلَالَةَ  
ويعيانه عنده فقال :

أَلَا أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ هَلْ أَنْتَ مُجِيرِي • وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَهَلْ أَنْتَ سَائِلِي  
أَلَمْ تَرْجَمْ الْمُجِينِينَ مِنْ لِحْيَتَيْهِمَا • وَكَلَّهْمَا فِي طَوْلِهَا ضِرْطَائِلِي  
وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَهَلْ أَنْتَ مُكْرِمِي • بِحَقْلِهِمَا مِنْ مُحْرِزٍ وَمُقَاتِلِي  
فَإِنْ يَأْذَنُ الْمَهْدِيُّ لِي فِيهِمَا أَقْلُ • مَقَالًا كَوَقْعِ السِّيفِ بَيْنَ الْمُقَاتِلِ  
وَلَا تَدْعَنِي وَالْمَهْمُومُ تَتَوَجَّئُ • وَقَلْبِي مِنَ الْعُلَجِينَ جَمُّ الْبَلَابِلِ

(١) يقال : فلان من أحلاس الخيل ، أي من واضعها ورساتها والملازمين ظهورها .

فقال : أوأخذ لك منهما عشرة آلاف درهم يُقْدِيَانِ بهما أعراضهما منك ، قال :  
ذلك إلى أمير المؤمنين ، فأخذها له منهما وأمسك عنهما .

دخل على أم عبيدة حاضنة موسى وهارون ، فدفع إليها رقعة قد كتبها إلى الخيزران فيها :

أبلغني سيدي بالآل \* يا أم عبيدة

أنها أرشدنا الله \* وإن كانت رشيدة

وعدتني قبل أن تح \* مرج للرج وليده

فتأيت وارسل \* ت بعشرين قصيدة

كلما أخلقن أخلف \* ت لها أخرى جديده

ليس في بيتي للعب \* يد فراشي من قصيدة

فقد عجبنا عجز \* ساقها مثل القديده

وجهها أبيض من حو \* ت طري في قصيدة

ما حياة مع أني \* مثل عرسى بسعيدة

فلما قرئت عليها الأبيات ضحك وأستعادت منه لقوله : « حوت طري في قصيدة »

وجعلت تضحك ووهبت له جارية .

دخل يوما على المهدي لحادثته ساعة وهو يضحك وقال له : هل بقي أحد من أهل لم  
يصلك ؟ قال : إن أمتني أخبرتك وإن أعفيتني فهو أحب إلي ، قال : بل تخبرني وأنت  
آمن ، قال : كلهم قد وصلني إلا حاتم بن العباس ، قال : ومن هو ؟ قال : عمك العباس  
ابن محمد ، فالتفت إلى خادم على رأسه وقال : جأ عقه ، فلما دنا منه صاح به أبو دلامة :  
تَح يا عبد السوء لا تُخَبِّرْ مولاك وتُكِنِّه عهده وأمانه ، فضحك المهدي وأمر الخادم  
فتنحى عنه ، ثم قال لأبي دلامة : ويلك ! والله عمي أبخل الناس ، فقال أبو دلامة : بل  
هو أغنى الناس ، فقال له المهدي : والله لو كنت ما أعطاك شيئا ، قال : فإن أنا أتيت

فأجأزني ؟ قال : لك بكل درهم تأخذه منه ثلاثة دراهم ، فأنصرف أبو دلامة فحفر للعباس قصيدة ، ثم فدا بها عليه وأنشده :

فَبِ بالديار وأى النهر لم تحِف \* على المنازل بين الظُهر والضحف  
وما وقوفك فى أطلال منزلة \* لولا الذى أمتد رجعت من قلبك الكيف  
ان كنت أصبحت مشغوقا بساكنها \* فلا وربك لا تُسفيك من شغف  
دع ذا وقُل فى الذى قد فاز من مُضر \* بالمعكرات وعز غير مُقترف  
هذى رسالة شيخ من بنى أسد \* يُبذى السلام الى العباس فى الصُحف  
تخطها من جوارى المصر كاتبنة \* قد طالما ضربت فى اللام والألف  
وطالما اختلفت صيفا وشاتية \* الى مُعلمها باللوح والصُكف<sup>(١)</sup>  
حتى اذا تهتد التُدابير وأتلا \* منها وخيفت على الإسرار والقرى  
صينت ثلاث سنين ما ترى أحدا \* كما يصون نهار ذرة الصُدف  
فبينما الشيخ يهوى نحو مجلسه \* مُبايدا لصلاة الصبح بالسُدف<sup>(٢)</sup>  
حانت له تحفة منها فأبصرها \* مُطلة بين تحفها من العرف  
نحس والله ما يدرى فدا يُميذ \* أنتر مُكشفا أم غير مُكشف  
وجاءه الناس أفواجا بماتهم \* ليُفيلوا الرجل المُغشى بالنطف  
ووسوسوا بقران فى سامعه \* نفاقه الجُن والإنسان لم يحف  
شيئا ولكنه من حب جارية \* أُمى وأصبح موقوفا على التلّف  
قالوا لك الولي ما أبصرت قلت لم \* تطلعت من أعلى القصر ذى الشرف  
قلت أَيْكُمْ والله يُجبره \* يُعين قوته فيها على ضعف  
فقام شيخ يهوى من رجالهم \* قد طالما خدع الأقوام بالحلف  
فابتاعها لى بالقي . يروى فأتى \* بها الى قاتلها على كفى

(١) الكف : حطم مريض يكون فى أصل كف الحيوان كانوا يكتون فيه لفة القراميس .

(٢) السدف : الضو وأتبال الصبح .

فَبَيْنَ ذَاكَ كَمَا إِذَا جَاءَ صَاحِبُهَا • بَيْنَ الدَّرَاهِمِ بِالْمِيزَانِ ذِي الْكِفِّ  
وَيَذْكُرُ حَقَّ عَلَى زَيْدٍ وَصَاحِبِهِ • وَالْحَقُّ فِي طَرْفٍ وَالْعَيْنُ فِي طَرْفٍ  
وَبَيْنَ ذَاكَ شَبُودٌ لَا يَضُرُّهُمْ • أَكُنْتُ مَعْتَرِفًا أَمْ غَيْرَ مَعْتَرِفٍ  
فَإِنْ يَكُنْ مِنْكَ شَيْءٌ فَهُوَ حَقُّهُمْ • أَوْ لَا فَإِنِّي مَدْفُوعٌ إِلَى التَّلَفِّ

فَضَحَكَ الْعَبَّاسُ وَقَالَ : وَيْحَكَ ! أَصَادِقُ أَنْتَ ؟ قَالَ : نَعَمْ وَاللَّهِ ، قَالَ : يَا غُلَامُ أَدْنِعْ  
إِلَيْهِ أَلْفَ دِرْهَمٍ مِنْهَا ، فَأَخَذَهَا ثُمَّ دَخَلَ عَلَى الْمَهْدِيِّ فَأَخْبَرَهُ الْقِصَّةَ وَمَا أَتَّحَالَ لَهُ ، فَأَمَرَ لَهُ  
الْمَهْدِيُّ بِسِتَّةِ آلَافِ دِرْهَمٍ ، وَقَالَ لَهُ الْمَهْدِيُّ : كَيْفَ لَا يَضُرُّكُمْ ذَلِكَ ؟ قَالَ : لِأَنِّي مُعْذِرٌ  
لَا شَيْءَ عِنْدِي .

دَخَلَ عَلَى إِسْحَاقَ الْأَزْرَقِ يَوْمَئِذٍ ، وَكَانَ إِسْحَاقُ قَدْ مَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا ثُمَّ تَعَاثَى مِنْهُ  
وَأَفَاقَ ، فَكَانَ مِنْ ذَلِكَ ضَعِيفًا وَعِنْدَ إِسْحَاقِ طَبِيبٌ يَصِفُ لَهُ أَدْوِيَةَ تَقْوِي بَدَنِهِ ، فَقَالَ  
أَبُو دَلَامَةَ لِلطَّبِيبِ : أَتَصِفُ هَذِهِ الْأَدْوِيَةَ لِرَجُلٍ أَضْعَفُهُ الْمَرَضُ ؟ مَا أَرَدْتُ وَاللَّهِ إِلَّا قَتْلَهُ ،  
ثُمَّ أَكْتَفَتْ إِلَى إِسْحَاقِ فَقَالَ : اسْمِعْ أَيُّهَا الْأَمِيرُ مَنِي ، قَالَ : هَاتِ مَا عِنْدَكَ يَا أَبَا دَلَامَةَ ،  
فَأَنشَأَ يَقُولُ :

تَحَّ عَنْكَ الطَّبِيبُ وَاسْمِعْ لِنَعْيٍ • إِنِّي نَاصِحٌ مِنَ النَّصَاحِ  
ذُو بَحَارِيْبٍ قَدْ تَقَلَّبْتُ فِي الصَّحَرِ • لَدَهْرًا وَفِي السَّفَامِ الْمُتَلَحِّ  
غَادِ هَذَا الْكَجَلِ كُلِّ صَبَاحٍ • مِنْ مُتُونِ الْفَقِيَةِ السَّطَّاحِ  
فَإِذَا مَا عَطِشْتُ فَاشْرَبْ ثَلَاثًا • مِنْ حَتِيقٍ فِي الشَّمِّ كَالْثَفَاحِ  
فَمِنْ عِنْدِ الْمَسَاءِ فَاصْكُفْ عَلَى ذَا • وَعَلَى ذَا بِأَعْظَمِ الْأَفْصَاحِ  
تَقْوَى ذَا الضَّعْفِ مِنْكَ وَتَلْقَى • عَنْ لَيْلٍ أَمَحَّ هَذَى الصَّحَّاحِ

فَضَحَكَ إِسْحَاقُ وَعَوَّاهُ وَأَمَرَ لِأَبِي دَلَامَةَ بِخَمْسِمِائَةِ دِرْهَمٍ ، وَكَانَ الطَّبِيبُ نَصْرَانِيًّا  
فَقَالَ : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّكَ يَا رَجُلُ « يَرِيدُ يَا رَجُلُ » وَقَالَ الطَّبِيبُ : أَقْبِلْ مَنِي أَصْلَحَكَ اللَّهُ

ولا تسألني عن شيء فُدَّامَه، فقال أبو دلالة : أما وقد أخذتُ أجرة صَفَقتي وقضيت الحق في نَصَح صديق فأنمتَ له الآن أنت ما أحببت .

دخل على المهديّ وبين يديه سَلَمَة الوصيف واقفا، فقال : إني أهديت إليك يا أمير المؤمنين مَهْرًا ليس لأحد مثله ، فإن رأيتَ أن تُسَرِّفني بقبوله ، فأمر بإدخاله إليه ، فخرج وأدخل إليه دابَّته التي كانت تحته ، فاذا يَرَوْن عَظْمُ عَجُفٍ هَرِمٍ ، فقال له المهديّ : أيّ شيء هذا؟ ألم تَزعمُ أنه مَهْرٌ؟ قال له : أو ليس هذا سَلَمَة الوصيف بين يديك قائمًا، تسميه الوصيف وله ثمانون سنة، وهو عندك وصيف ؟ فاذا كان سَلَمَة وصيفًا فهذا مَهْرٌ، فجعل سَلَمَة يَسْتَمِعُه والمهديّ يَضْحَك، ثم قال المهديّ لسَلَمَة : ويلك ! إن لهذه منهُ أَخَوَاتٍ، وإن أتى بها في تَحْفِلٍ قَضَحَك، فقال أبو دلالة : والله لأفضحه منهُ يا أمير المؤمنين، فليس من مَوَالِيكَ أحد إلا وقد وصلاني خبرُهُ ، فإني ما شربت له المَاء قطُّ، قال : فقد حكمت عليه أن يشتري نفسه منك بألف درهم حتى يتخلص من يدك ، قال : قد فعلت على ألا يعاود ، فقال له : ما ترى؟ قال : أفعل ، فلولا أتى ما أخذت منه شيئًا قطُّ ما فعلت معه مثل هذه ، فبُضِيَ سَلَمَة لِحَمَلِهَا إِلَيْهِ .



### ٥ - أبان بن عبد الحميد اللاحق<sup>(١)</sup>

ذكرنا و الحمد الأول أن أبانَ كان صديقاً للبرامكة متصلاً بهم أشد اتصال، يستشيرونه ويعتمدون عليه في تدبير أمورهم، جلتها وهرطها، صعبها وهينها، وكانوا قد اتخذوه أديبهم الرسمي، و بالغوا في ذلك حتى جعلوا إليه امتحان الشعراء وتقدير ما يستحقون من الجوائز والصلوات، فغضب الشعراء لذلك، وكان أشدهم غضباً أبو نواس الذي كان يكره البرامكة كرها شديداً، وكانت بينه وبين أبان مهاجاةً ذكرها صاحب الأغاني.

وكان أبان صديقاً للمعلل بن غيلان، وكانا مع صداقتهما يتعاضدان بالهجاء، فيهجو المعلل بالكفر وينسبه إلى الشؤم، ويهجو أبان وينسبه إلى القساء الذي تُهَجَّى به عبد القيس وبالقصص، وكان المعلل قصيراً، فسعى في الإصلاح بينهما أبو عبيدة المهلبى، فقال له أخوه عبد الله وهو أسن منه: يا أحمى إن في هذين شرّاً كثيراً ولا بد من أن يُخرجاه، فدعهما ليكون شرهما بينهما وآلاً ففاه على الناس.

ومن قوله يهجو أبا النضر:

إذا قامت بوايك \* وقد هتكن أمتارك  
أُبَلِّغُكِ عِلَّ قَبْرِ \* لك أم بلغن أحجارك  
وما ترك في الدنيا \* إذا زرت فداً نارك  
ترى في سقر الموتى \* وإبليس فداً جارك  
بلى ترك بايك \* ودنياك وأوتارك  
ونعمان بنات الله \* مل قد أليس أطارك  
تعالى الله ما أقبه \* مع إذ وليت أدبارك

(١) تجد ترجمته في الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٢٩. وقد ذكرناه هنا لمناسبة ذكر ما عثرنا عليه من منظومته لكتاب كلية ودسة. وقد أضفنا هنا ما لم تذكره في ترجمته هناك.

خرج أبان من البصرة طالبا للاتصال بالبرامكة ، وكان الفضل بن يحيى غائبا فقصده ، فأقام ببابه مدة مديدة لا يصل إليه ، فتوسل إلى من وصل له شعرا إليه ، وقال له :

يا عنز التدي يا جوهر الجو \* هير من آل هاشم بالبطاح  
إت ظننى ، وليس يُخلف ظننى \* بك فى حاجتى سبيل التناج  
إت من دونها لمصمت باب \* أت من دون قفله مفتاح  
ناقت النفس يا خليل السناج \* نحو بحر التدي مجارى الرياح  
ثم فكرت كيف لى وأستخرت الله عند الإمساء والإصباح  
وأستدحت الأمير أصلحه الله بشعر مشهر الأوضاح

فقال : هات مديحك ، فأعطاه شعرا فى هذا الوزن وقافيته ، ترى فيه أن الرجل مُجَبَّب بنفسه ، مدلل بملبه وأدبه ، تياه لا حد لثيبه وغروره :

أنا من بنىة الأمير وكثر \* من كنوز الأمير ذؤاد باج  
كاتب حاسب خطيب أديب \* ناصح زائد على النصح  
شاعر مُفلق أخف من الريه \* شة مما يكون عند الخناج

وهى طويلة ذكرناها فى المجلد الأول .

وكان أبان شديد الحرص على المسال يُضغى فى سبيله بأشياء كثيرة ، منها العقيدة والرائى . وكان يحسد مروان بن أبى حنيفة لمكانه من الرشيد ولظفره بالصلوات الضميمة والجوائز السنية ؛ فقد آتتهى الأمر بنى العباس مع مروان بن أبى حنيفة إلى أن كانوا يمتحنونه بالبيت ألف درهم ، ففاظ ذلك أبان وأراد أن يصيب من أموال الرشيد ما كان يصيب مروان ، فعاتب أبان البرامكة على تركهم إيصاله للرشيد وإيصال مديحه إليه ، فقالوا له : ما تريد من ذلك ؟ فقال : أريد أن أحظى منه بمثل ما يحظى به مروان بن أبى حنيفة ، فقالوا : إت لتلك مذهبا فى هجاء آل أبى طالب وذمهم ، به يحظى وعليه يُعطى ، فاسلكه حتى تفعل ، قال : لا أستحل ذلك ، قالوا : فاصنع ، لا يجيء طلب الدنيا إلا بما لا يحل ! فقال أبان :

تَسَدَّتْ بِحَقِّ اللَّهِ مَنْ كَانَ مُسْلِمًا \* أَمَّ بِمَا قَدْ قُلْتُهُ الصَّغْمَ وَالسَّرَبَ  
 أَمَّ رَسُولِ اللَّهِ أَقْرَبُ زُقْلَةً \* لَدَيْهِ أَمْ أَبْنُ الْعَمِّ فِي رُبِّيَةِ النَّسَبِ  
 وَأَيُّهُمَا أَوْلَى بِهِ وَبِهِدِهِ \* وَمَنْ ذَا لَهُ حَقُّ الثَّرَاثِ بِمَا وَجَبَ  
 فَإِنْ كَانَ عَبَّاسُ أَحَقَّ بِتِلْكَكُمْ \* وَكَانَ عَلَى بَسَدٍ ذَاكَ عَلَى سَهَبِ  
 فَأَبْنَاءُ عَبَّاسٍ هُمْ يَرْتُونَهُ \* كَمَا الْعَمُّ لِأَبْنِ الْعَمِّ فِي الْإِرْثِ قَدْ تَحَبَّبَ  
 وَهِيَ طَوِيلَةٌ .

فقال الفضل : ما يَرِدُ على أمير المؤمنين اليوم شيء أعجب من أبحاثك ، فركب فأنشدها  
 الرشيد ، فأمر لأبان بعشرين ألف درهم . ثم اتصل مدحه للرشيد بعد ذلك وخص به .  
 وكان أبان هجاء قبيح اللسان ، وكان مع هذا شريفاً فاسياً يؤثر الشر ويحسد فيه لئله .  
 وقد روى له أبو الفرج قصة تمثل نصيبه من القسوة وحب الشر ، كما أنها تعطينا صورة  
 من شعره ومن الحياة في عصره . قالوا : كان يقيم بالقرب من أبان رجلٌ تقنيٌ يقال له : محمد  
 ابن خالد ، وكان صديقاً لأبان ، فتزوج محمد هذا حفيفةً معروفةً هي عمارة بنت عبد الوهاب ،  
 وكانت عمارة غنيمةً موفورة الثروة ، فاغتاط أبان لهذا الزواج ، وقال هذه القصيدة التي  
 بلغت عمارة فأفسدت زواجها :

لَمَّا رَأَيْتُ السَّبْزَ وَالشَّارَةَ \* وَالْفَرْشَ قَدْ ضَامَتْ بِهِ الْحَارَةَ  
 وَاللُّوْزَ وَالسُّكَّرَ يُرَى بِهِ \* مِنْ فَوْقِ ذِي الدَّارِ وَذِي الدَّارَةِ  
 وَأَحْضَرُوا الْمَلْهَيْنِ لَمْ يَتْرَكُوا \* طَبْلًا وَلَا صَاحِبَ زَمَانَةٍ  
 قُلْتُ : لِمَاذَا قِيلَ : أَعْجُوبُهُ \* مُحَمَّدٌ زَوْجُ عَمَّارَةِ  
 مَاذَا رَأَيْتُ فِيهِ وَمَاذَا رَجَعْتُ \* وَهِيَ مِنَ السُّوَانِ مُخْضَرَةٌ  
 أَسْوَدَ كَالسُّفُودِ يُنْسَى لَدَى التَّنُورِ \* بِلِ عِمْرَاكَ قِيَارُهُ  
 يُجْرَى عَلَى أَوْلَادِهِ نَحْمَةً \* أَرْغَفَةً كَالرَّيْشِ طَيَارُهُ

وأهله في الأرض من خوفه • إن أفرطوا في الأكل سيّره  
 ويحك فزى وأعصى ذابه • فهذه اختك فرّره  
 إذا غفا بالليل فاستيقظي • ثم أطفئ<sup>(١)</sup> إنك طفّارة  
 فصعدت نائلة سلّما • تخاف أن تصعده الفارة  
 "سرور" غرّبتها فلا أفلحت • فإنها الخناء غرّارة  
 لو نلت ما أبليت من ريقها • إن لها نقشة محّارة

فلما بلغت هذه القصيدة عمارة هربت، حرّم من جهتها مالا عظيما. والثلاثة الأبيات  
 الأخيرة التي أوّلها • فصعدت نائلة سلّما • زادها في القصيدة بعد أن هربت .

جلس أبان ليلة في قوم فتلبّ أباً عبيدة فقال : يقدر في الأنساب ولا نسب له . فبلغ  
 ذلك أبا عبيدة فقال في مجلسه : لقد أغفل السلطان كل شيء حين أغفل أخذ الجزية  
 من أبان اللاتقي ، وهو وأهله يهود ، وهذه منازلهم فيها أسفار التوراة وليس فيها  
 مصحف ، وأوضح الدلالة على يهوديتهم أن أكثرهم يدعى حفصه التوراة ولا يحفظ  
 من القرآن ما يصلّ به . فبلغ ذلك أبان فقال :

لا تُتَيْمَنَ عن صديقي حديثا • وأسئد من نشر النقام  
 وأخيفض الصوت إن نطقت بليل • وألّفت بالنهار قبل الكلام

قال عيسى بن اسماعيل : كان مجلس أبي زيد الأنصاري فذكروا أبان بن عبد الحميد ،  
 فقالوا : كان كافرا ، فغضب أبو زيد وقال : كان جاري لما فقدت قراءته في ليلة قط .



وكان أبان يفوق الشعراء في شيء نحسب أنه هو الذي سبق إليه ، فقد ابتكر في الأدب  
 العربي فنّا لم يتعاطله أحد من قبله ، وهو فنّ الشعر التعليمي ، طرّق فيه فنونا مختلفة من العلم  
 والحكمة والدين . وقد تحدّث أبو الفرج أنه نظم للبرامكة كتاب «كليلة ودمنة» ليسهل عليهم

(١) طهر : وثب في ارتفاع .

حفطه ، فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار ، وأعطاه الفضل بن يحيى خمسة آلاف واكتفى جعفر بأن يكون راويته . وروى أبو الفرج أبا ناساً أربعة من هذا النظم ، وقد عثرنا على قطعة من كتاب مخطوط يوجد في دار الكتب المصرية تحت رقم (٥٩٤) تاريخ ، وهو كتاب «الأوراق» للصولي . وفي هذا الكتاب قطعة صالحة من نظم أبيان لكيلة ودمنة ، فرأينا أن ننبتها هنا ، لأن المنظومة ضاعت ولم يبق منها إلا الأبيات الأربعة التي رواها أبو الفرج . وها هي ذى :

هَذَا كِتَابٌ كَلِبٌ وَيَحْتَنُ \* وَهُوَ الَّذِي يُدْعَى كَلِيلَهُ دِمْنَةً  
فِيهِ دَلَالَاتٌ وَفِيهِ رُشْدٌ \* وَهُوَ كِتَابٌ وَضَعَتْهُ الْمُنْدُ  
قَوَّصَفُوا آدَابَ كُلِّ عَالِمٍ \* حِكَايَةُ عَنْ أَلْسِنِ الْبَهَائِمِ  
فَالْحِكَاةُ يَتَرَفَعُونَ فَضْلَهُ \* وَالسَّخْفَاءُ يَسْتَهْوُونَ هَزْلَهُ  
وَهُوَ عَلَى ذَلِكَ يَسِيرُ الْخِلْفُ \* لَدُّهُ عَلَى اللِّسَانِ عِنْدَ الْفِيْظِ  
يَا نَفْسُ لَا تَشَارِكِي الْجَهْلَ لَا \* فِي حَبِّ مَذْمُومٍ كَأَنْتِ قَدْ زَالَا  
يَا نَفْسُ لَا تَشْقَى وَلَا تَعْنَى \* فِي طَلَبِ الدُّنْيَا وَلَا تَعْنَى  
مَا لَمْ يَنْبُلْهُ أَحَدٌ إِلَّا تَنْدَمُ \* إِذَا تَوَلَّى ذَلِكَ عَنْهُ وَسِيمٌ<sup>(١)</sup>  
دُنْيَاكَ بِالْأَحْبَابِ وَالْإِخْوَانِ \* كَشْفَةِ الْأَلَامِ وَالْأَحْزَانِ  
وَهِيَ وَإِنْ نِيلَ بِهَا السُّرُورُ \* آفَاتُهَا وَغَمُّهَا كَثِيرٌ  
يَا نَفْسُ لَا يَحِلُّ لَكَ حُبُّ أَهْلٍ \* وَلَا أَدَانِيكَ عَلَى أَنْ تَمْلِكِي  
فِي جَمْعٍ مَا يَرْضَاهُمْ فَإِنَّهُ \* يَضْرِبُ مِنْ أَمْثَالِ ذَلِكَ الدُّخْنُ<sup>(٢)</sup>  
يُنَالُ قَوْمَ عَرَفَاتِهَا وَتَحْتَرِقُ \* رَأْيٌ بِهِ يَرْضَى أَخُو الرَأْيِ الْحَقُّ  
وَجِدْتُ ذَا الشُّكِّ الَّذِي قَدْ نَكَّرَا \* فَزَادَهُ تَفَكُّيْهُ تَوْفُرَا<sup>(٣)</sup>  
وَقُلْ لَنَا رِضَى أَهْلَانَا \* وَنَحْمٌ مِنْ سُرُورِهِ تَمَانَا

(١) ندم وحزن . (٢) الدخنة : نحو يدخن به الثياب أو البيت في الأصل : «الدخنة» بالجمع وهو تعريف .

وترك الدنيا لمن يشق بها \* ومن يقامى الكد من أنصابها  
فمنعها نجا من الشرور \* ونال أقصى ظاية السرور  
ثم حفت عن كل فإن نفسه \* فلقى السعد وخاب نحسه  
وأبصر الثواب في القيامة \* فأمن الحسرة والندامة  
ومثل الدنيا كبرق الخلب \* من يضر منه بسقي يكذب  
وهو قيسا مثل نوم النائم \* تحريه أضغاث حلم الحالم  
حتى إذا استيقظ صار هـا \* ما كان في النوم به ألما  
فكيف بالصبر على أيام \* عما قليل هـن لا تهرام  
وكيف والدنيا بلاء كلها \* لا يأمن الآفات فيها أهلها  
أشهد أن الله فرد واحد \* أقر أو أنكر ذاك جاحد  
ليس له كفوا ولا ندأ أحد \* لم يلد الله ولا له ولد  
وإني بما عملت مرترب \* ما كان منه من فيج وحسن

#### من باب الأسد والثور

وإث من كان دنى النفي \* يرضى من الأرفع بالأخس  
كثيل الكلب الشقى البائس \* يفرح بالعظم العتيق البائس  
وإن أهل الفضل لا يرضيهم \* شيء إذا ما كان لا يعنيهم  
كالأسد الذي يعبد الأرنبا \* ثم إلى القيء المهجته هربا  
فيرسل الأرنب من أظفاره \* ويتبع المير على أدباره  
والكلب من رقة ترضيه \* بلقمة تقيدها في فيه  
فمن يعيش ما عاش غير خامل \* له سرور دائم ونائل  
فهو وإن كان قصير المير \* أطول عمرا من حليف فقير  
ومن يشق في وحشة وضيق \* وقلة المعروف في الصديق

(١) في الأصل "ثم هير" والهير : الحمار .

فهو وإن عَمَّرَ طَوْلَ دهرِهِ \* ليس بمغبوط بطولِ عمرِهِ  
وقيل أيضا إنه قد ينبغي \* للرجل الفاضل فيما ينبغي  
أَلَّا يُرَى إِلَّا مَعَ الْأَمْلاكِ \* أَوْ يَسُدَّ اللَّهُ مَعَ النَّسَائِكِ  
كالقيل لا يصلحُ إِلَّا مَرَكَبًا \* لميك أو راعيًّا مَسِيًّا  
قال له السَّيِّحُ لقد سمعتُ \* وكنل ما تقول قد فهمتُ  
لكنني لستُ أظنُّ ما تظنُّ \* بالنور من غش بلى ظنِّي حسنٌ  
قال له ممنهُ من فم أُنِي \* وهذه من حاله هي التي  
رفعتَه حتى تمدى طوره \* وكان هذا لك منه شكره  
وتلك أخلاق اللئيم الفاجر \* الكافر المفسود غير الشاكر  
ما إن يزال ناصحا قضا \* حتى يرى من حاله ارتفاعا  
فمندها يسمو إلى ما فوقها \* إلى التي لا تستطيع أوقها<sup>(١)</sup>  
وربما كان هلاكُ الشجر \* في حُسْنِ الثمن وطيب التمر  
وذنب الطاووس فهو زينه \* كذلك أحيانا وفيه حينه  
وباذل النصع لمن لم يشكره \* كطارج في سبيح ما يذره  
لا خير للمائل في ذي المنظره \* إن هو لم يحمله عند الغبرة  
وليس في الصديق ذي الصفاء \* خير إذا لم يك ذا وفاء  
الرجل المائل من لا يشكره \* كاس سم وآنس دار يطره<sup>(٢)</sup>  
فالحبل الثابت في أصوله \* لا تقدر الريح على تحويله  
والناقص العقل الذي لا رأى له \* يظن إذا ما نال أدنى منزلة  
مثل الحشيش أيما ريح جرت \* مالت به فأقبلت وأدبرت  
الأهل والإخوان والأحوان \* عند ذوى الأموال حيث كانوا

(١) الأملك : المراك . (٢) كذا في الأصل وله : « بل الفن الحسن » .  
(٣) أوقها : ثقلها . (٤) في الأصل هكذا " غره " .

والمال هادى الرأى والمرقۃ \* وهو على كل الأمور قوۃ  
 والمال فيه العز والجمال \* والنال حيث لا يكون المال  
 ورتبا دعا الفقير فقره \* الى التى يُجَبِّطُ فيها أجره  
 فيخسر الدين كما كان خسر \* دنياه والخسران ما لا يخسر  
 وليس من شئ يكون مدحا \* لذى النفسى إلا يكون برحا  
 على الفقير ويكون ذمّا \* كذلك يُدعى وبه يُسمى  
 فإن يكن تَجَدُّا يقولوا أهوج<sup>(١)</sup> \* كذلك عند الحرب لا يرج  
 وهو إذا كان جوارفا سيّدا \* سُمي للفقير مضيقا مُسيّدا  
 أوبك ذا حِلْمٍ يُقَلُّ ضِعْفُ \* أوبك بساما يُقَلُّ ضِعْفُ  
 الرجل العاقل فيما يُسدى \* مقتبَطٌ بكسبه للحميد  
 لأنه باع قليلا فانيا \* وأفاض من ذاك كثيرا باقيا  
 فأهبط الناس الكثير نائله \* ومدرك النجع لديه سائله  
 فلا تَدُنُّ ذا غنى غنيا \* حتى يكون ماجدا سرّيا  
 وأعلم بان الملك المشاورا \* ذا العقل فيما نابه الموارا  
 فإنه يُعَضُّ بالتأييد \* يقف به عن كثرة الجنود  
 والحازم التابع أمر الحزمه \* النصحاء غير أهل التهمه  
 يزداد حزنا بهم ورُشدا \* زيادة البحر إذا ما مُبدا  
 بما يُصَبِّ فيه من أنهاره \* حتى يمسح الموج من تياره  
 والموت من مات كريما صابرا \* خير من العيش ذليلا صاغرا

ولم ينقل لنا الصولى فى كتابه إلا هذه القطعة ، وبعد أيات فى هذا ناطل الكتاب  
 معروف ، ولكنه قد تجاوز نظم الكتب المعروفة الى تأليف كتب منظومه ، فنظم قصيدة  
 طويلة فى الصوم والزكاة ، روى منها الصولى طارفا .

(١) الهوج : الحنى . وفى الأصل : «هوج» باللام وحر تحريف .



فقليل لأبأن يحد أن نظم كلية ودمنة : ألا تعمل شعرا في الزهد ؟ فصل قصيدة  
مزجوجة في الصيام والزكاة ، وترجتها :

”قصيدة الصيام والزكاة \* نقل أبأن من فم الرواة“

وها هي ذى القصيدة :

هذا كتاب الصوم وهو جامع \* لكل ما قامت به الشرائع  
من ذلك المتزل في القرآن \* فضلا على من كان ذا بيان  
ومنه ما جاء عن النبي \* من عهده المتبع المرفوع  
صلى الإله عليه وآله \* كما هدى الله به وعلمنا  
وبعضه على اختلاف الناس \* من أثر ما مضى ومن قياس  
والجامع الذي إليه صاروا \* رأى أبى يوسف مما اختاروا  
قال أبو يوسف أمّا المفترض \* ف رمضان صومه إذا عرّض  
والصوم في كفارة الآثام \* من حيث ما يجرى على اللسان  
ومعه الحج وفي الظهار <sup>(١)</sup> \* الصوم لا يدفع بالإتكار  
وخطأ القتل وحلق المحرم \* لرايه الصيام فافهم <sup>(٢)</sup>  
فومضات شمرة معروف \* وصومه مفترض موصوف  
والصوم في الظهار إن لم يقدر \* مظاهر يوما صلى محسّر  
والقتل إن لم يك عمدا قتله \* فإن ذلك في الصيام مثله  
شهران في المسقة كمالين \* متصلات لا مفترقان  
والجنت في رواية مقبولة \* ثلثه أيامها موصولة  
ومثلها في عتة الأيام \* للحريم الحائض في الإجماع  
ثلاثة يصومها إن حلقا \* لا بأس إن تابعها أو فرقاً

(١) الظهار مصدر ظاهر الرجل من امرأته إذا قال لها : أنت علي كظهر أمي ، فكأن بالظهر من البطن تأدياً .

(٢) في الأصل : ”موظف“ .

والصوم في التمتع ان لم يحيد ■ هَذَا وَكَانَ بِالصَّيَامِ يَفْتَدِي  
 صِيَامُ أَيَّامٍ مُؤَقَّتَاتٍ \* ثَلَاثَةٌ فِي الْجِ مَفْرُوضَاتٍ  
 وَبَعْدَ مَا يَرْجِعُ صَوْمُ سَبْعَةٍ \* عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ فِي التَّمَتُّعِ  
 أَمَّا الثَّلَاثَةُ الَّتِي فِي الْجِ ، فَكَانَ مَنْ أَدْرَكَتْ مِنْ مَحَجٍّ  
 أَوْ ضِعْفِهِ مَنْ بَرَى أَنْ يَرَوِيَهُ \* يَقُولُ يَوْمًا قَبْلَ يَوْمِ التَّرْوِيَةِ  
 وَيَوْمَهَا وَصَوْمُ يَوْمِ عَرَفَةَ \* مُؤَلَّفَاتِ الصَّوْمِ لَا تَخْتَلِفُ  
 قَالُوا وَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يُقَرِّقَا \* فَذَلِكَ مَا لَيْسَ عَلَيْهِ ضَبَقًا  
 إِنْ كَانَ ذَلِكَ الصَّوْمُ مِنْهُ بَعْدَمَا \* يَكُونُ فِي عُمَرِيَّةٍ قَدْ أَحْرَمَا  
 وَلَوْ أَرَادَ الصَّوْمُ فِي شَوَّالٍ \* مِنْ بَعْدِ أَنْ يَوْجِبَ بِالْهَلَالِ  
 عُمَرَتَهُ لَكَانَ ذَلِكَ مُجْزِئًا \* بِذَلِكَ يُفَقُّ مِنْ أَى مُسْتَفْتَا  
 وَهِيَ طَوِيلَةٌ جَدًّا

ونحسب أن مكانه من البرامكة هو الذى حمله على اختراع هذا الفن؛ فقد كان مكانه  
 منهم مكان المؤدب لصبيانهم وشبابهم، وكان من الحق عليه أن يسهل لهم العلم تسهلاً .  
 وليس من شك في أن هذه الأموال التى أصابها من البرامكة حينما نظم كلبلة ودمنة قد  
 أطمعته، فنظم القصائد الأخرى ليصيب مثل ما أصاب .

أخبار حمدان بن أبان بن عبد الحميد بن أبان ومختار من شعره

قال أبو بكر الصولي: حدثني محمد بن زياد قال: كانت في عبد الصمد بن المعذل عربة  
 اذا سكر، فمر يد يوما في مجلس فيه حمدان بن أبان بن عبد الحميد بن أبان، وكان آنذا<sup>(١)</sup> فقال  
 لهم: كاره إلى وحدي، وأخذته وكشفه وجعله في بيت وأخلق بإبه، وقال: اذا أصبحتم  
 فأطلقوه، وأنصرف؛ فبلغه أن عبد الصمد حلف لهجوته سنة، فقال حمدان بهجوه:

قل لعبد الصمد الأح \* حق لا تغضب طيَّة  
 وصل أملك فاعضب \* واكوها في المني كَيَّة  
 أملك العفلاء جاء \* بني بسلمى ورقية  
 وهي سافت ليلَّة فا \* طمة أخرى اليَّة  
 ففضينا فيهم الحق \* ولَبنا السوية

وقد ذكر الصولي في كتابه الأوراق ما اختاره من قصيدة حمدان بن أبان بن عبد الحميد  
 ابن أبان في وصف الحب وأهله وهي طويلة، قال :

ما بال أهل الأدب \* منا وأهل الكعب  
 قد وضعوا الآداب \* وأتبعوا الكتائب  
 لكل فن دفتر \* مقطوع عبر  
 فسرقت أجناسا \* وملئوها الناسا  
 بالجيل الرقيقه \* والفطن الدقيقه  
 فأرشدوا الضلالا \* وملئوا الجهالا  
 سوى المخبين فلم \* يروا لهم حق الذم  
 في علم ما قد جهلوا \* وما به قد أبشروا  
 قد ظلمت رؤوسهم \* واستمرت عيوبهم  
 وحالفوا السادا \* وخالفوا الرقادا  
 فليهم طويل \* ونومهم قليل  
 أبلانهم خيلة \* متعبه طيلة  
 نفوسهم حزينة \* مشغوفة رزينة  
 ظاهرة غوهم \* باطنة كلوهم

باكية عيونهم \* قريحة جفونهم  
 إن ظلموا لم يظلموا \* وإن شكوا لم يرحموا  
 أحبابهم في ليل \* وفي دوام الطرب  
 صافية ألوانهم \* ضاحكة أسنانهم  
 قد سكنوا القصورا \* وقارنوا السوروا  
 تفرغوا للهجر \* والنوى والفدر  
 عاشق هوامهم \* بالله ما أقسامهم  
 وعلمهم وعبد \* إقرارهم بحود  
 يؤمى لأهل العشق \* أهل الضنا والرق  
 ليس لهم وسيلة \* ولا وجوه حيلة  
 رأيت لك خذلوا \* وفي هوانهم وحلوا  
 أن أريد المفقلا \* الجاهل المفقلا  
 إلى الطريق الواضح \* عند البلاء الفادح  
 وأبتدى كتابا \* للوصف بابا بابا  
 يا أيها الناس فموا \* وصيتي وأستموا  
 فني صفاي عجب \* وفي كتابي أدب  
 قصيدتي مقومة \* أنفاؤها ونظمه  
 فيها هوى العشاق \* ومنية المشتاق  
 وصفت أهل العشق \* ولم أبل من حق  
 فاصبح مقالا صادقا \* يا من بيت عاشقا  
 لحب ختارين \* هما اللتان  
 الصبر والرفق معا \* يوما إذا ما اجتمعا

(١) في الأمل \* لوصف باب بابا \*

في عاشقٍ مهجور \* مباعدٍ مفرور  
 قفى قريبا وطرا \* وبلفاه الوطرا  
 ما الحسن والإحسان \* والملك والسلطان  
 يندل وصل الإلف \* وصكمره للطرف  
 ما حسن في العين \* أحسن من الفين  
 يوما إذا ما ألقيا \* في مجلس فاشنيا  
 مداومين للنظر \* قد أبطا كحل حذر  
 يبادران الخلو \* ويظهران الصبوة  
 مساعدتين أتعفا \* باثا ولم يفترقا  
 هوامها مخزونة \* سرهما مدفونة  
 مداريت أصبعا \* للناس لم يفتضعا  
 من حرب الحب عرف \* ما بين ملك وأسف  
 لن يبلغ الصب المني \* إلا بصير ومنا  
 إن الهوى ضروب \* وأمره عجيب  
 وأهله أطوار \* فيه لهم أوطار  
 للعامل الشريف \* والأحق السخيف  
 فثمهم مرزوق \* محبب معشوق  
 على اضطراب الخلق \* منه وسوء الخلق  
 تفضي له الأوطار \* وتعمل الأشعار  
 مقرب ما يقصى \* مطاوع ما يعصى  
 ومنهم محسروم \* محارف مشنوم

على جمال هيئته \* وحسنه وبهجته  
 ومنهم من يُقدِّم \* ينال حباً رغداً  
 من غير سعى وطلب \* وغير كد ونصب  
 قد ذاك الأسعد \* والبعث منه أجود  
 إذ فاز بالذات \* وذرك الحاجات  
 ومنهم من يتعب \* في حبه ويدأب  
 أسقمه طول الهوى \* وشقه وجد الهوى  
 فذاك صعب قد شقي \* يؤتى له ما ذا لقي  
 ومنهم البصير \* العاقل النحرير  
 يمتلئ المجران \* ويميل الأحزان  
 فلا يزال مبتل \* حتى ينال أملا  
 ومنهم العميد \* الجاهل البليد  
 يحب بالتضجير \* والجهل والتكبر  
 يلقى الحبيب باهتا \* فلا يزال ساحتا  
 ومنهم من يهوى \* بالغيث ياقى عفوا  
 فيزركُ القموصا \* مسجلاً هموما  
 فذاك حب الغيب \* ليس به من عيب  
 من دونه حجاب \* ودونه أجواب  
 لما لذك آتت \* وليس منه مكث  
 حتى يرى مقهورا \* في حبه محسورا  
 ومنهم جبار \* في حبه أزورا  
 يهوى إذا ما عشيها \* ورهته قد غلغا

يَلْتَمِ الْبَاجِئُ \* نَافِيسُ الْبَاجِئِ  
فَذَلِكَ حُبُّ الْقَوِي \* وَفِيهِ كَرْبُ الْمَوْتِ  
وَمِنْهُمْ مَنْ لِلنَّظَرِ \* يَهْوَى وَلَمْ يَهْدِ الْبَصَرُ  
إِذَا رَأَى خَلِيلَهُ \* دَاوَى بِهِ غُلِيلَهُ  
يَكْتُمُ مَا يَفْصِي \* مِنْ أَعْيُنِ الْجُلَاسِ  
وَمِنْهُمْ مَنْ أَقْتَصَرَ \* عَلَى الْحَدِيثِ وَالنَّظَرِ  
غَايَتُهُ السَّلَامُ \* وَاللَّحْظُ وَالْكَلَامُ  
مَدَائِعُ مِنْ حُبِّهِ \* يَكْتُمُ وَجَدَ قَلْبِهِ  
يَنْفِي الْهَوَى وَيَنْكَرُهُ \* وَبِالتَّجَرُّبِ يَسْتَرْهُ  
فَذَلِكَ حُبُّ الْعَاقِلِ \* حُبُّ أَدِيبٍ كَامِلِ  
وَبَعْضُهُمْ لَا يَقْنَعُهُ \* إِلَّا عَمُودُ يَدْعُهُ  
قَدْ طَلَبَ الْحَرَامَا \* وَأَتَقَسَّ الْأَنَامَا  
فَذَلِكَ حُبُّ التَّهْنِجِ \* الْمَاجِنِ الْمُتَعَلِّجِ  
حَقٌّ لَهُ الْحَرَمَاتُ \* وَالْمَنْعُ وَالْخِذْلَانُ  
وَبَعْضُهُمْ مَدَائِقُ \* مَعَانَتْ مَلَأَتْ  
مُسْتَعْمِلٌ لِلْكَذِبِ \* مُحَرَّفٌ فِي الْكُتُبِ  
فَذَلِكَ حُبُّ الزُّورِ \* يَلْسَعُ كَالزُّبُورِ  
وَبَعْضُهُمْ عَمِيدُ \* غَايَةُ مَا يَرِيدُ  
خَلَوُهُ مِنْ يَهْوَاهُ \* فِي مَشْهَدٍ يَلْقَاهُ  
لَفْظُهُ مُسَارِقُهُ \* مَيْتُهُ مُعَاقِقُهُ  
مَحْكَاةٌ حُبِّهِ \* فِي بُعْدِهِ وَقُرْبِهِ  
فَذَلِكَ حُبُّ يَكِيدُ \* نِيرَانُهُ لَا تَحْمَدُ

وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَفِ \* بِالْحَبِّ حِينَ يُسْفَفُ  
 إِذَا الْحَبِيبُ صَدَا \* وَلَمْ يُنْثَلْهُ وَدَا  
 تَاهَ عَلَيْهِ وَحَزَنٌ <sup>(١)</sup> \* وَصَدَّ عَنْهُ وَحِمَقُ

وقال في آخرها :

قَدْ تَمَّ مَنَى وَصَفُ \* وَلَمْ يَحْتَقِ الرَّصْفُ  
 وَأَنْفَضَتِ الْقَصِيدَةُ \* مَحْبُوبُهُ حَمِيدُهُ  
 وَالْحَمْدُ لِلرَّحْمَنِ \* ذِي الْعِزِّ وَالسُّلْطَانِ  
 وَالذَّمُّ لِلشَّيْطَانِ \* ذِي الْعَرَمِ وَالطُّغْيَانِ <sup>(٢)</sup>

(١) - حزن : ضن عليه ويبتل .

(٢) - العرم : الشدة والشراسة . وفي الأصل : « العزم » .



٦ - منصور النعمري<sup>(١)</sup>

كان ذا حيلة سياسية ، فأدرك أن الرشيد يسره أن يُمدح بنى الإمامة عن عليّ والظعن عليه ، لما كان يراه من تنسديم مروان بن أبي حفصة بسبب ذلك ، فسلك مذهبه ونحا نحوه — والشعراء يومئذ إنما يطلبون الكسب — لكنه لم يصريح بالهجاء والسب كما فعل مروان ؛ ومن قوله فيه قصيدة مطلعها :

أمير المؤمنين اليك خُضُنَا • عِمَارَ الْمَسْوَلِ مِنْ بَلَدِ شَعْبِ  
بِخُوصِ كَالْأَهْلَةِ خَائِفَاتِ • تَلَيْنَ عَلَى السُّرَى وَعَلَى الْحَجِيرِ  
حَمَلْنَا إِلَيْكَ أَهْمَالًا مُثَالًا • وَمِثْلَ الصَّخْرَةِ الْبُتْرَ الْبَنِيرِ  
فَقَدْ وَقَفَ الْمَدِيحُ بِمُتَنَاهِ • وَغَايَتِهِ وَصَارَ إِلَى الْمَصِيرِ  
إِلَى مَنْ لَا تُشِيرُ إِلَى رَسُولٍ • إِذَا ذُكِرَ الْبُنْدَى كَفَّ الْمُشِيرِ

وذكر في القصيدة يحيى بن عبد الله بن حسن فقال :

يَذُلُّ مِنْ رِقَابِ بْنِ عَلِيٍّ • وَمَنْ لَيْسَ بِالْمَقِّ الصَّغِيرِ  
مَنْتَ حَلَّ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ يَحْيَى • وَكَانَ مِنَ الْخُتُوفِ عَلَى شَفِيرِ

(١) هو منصور بن الزريقان بن سلمة النعمري الرقي ، من النعمريين فاسط ، ثم من ديرة بن زرار ، شاعر من شعراء الدولة العباسية . من أهل الجزيرة ، وهو تلميذ كلثوم بن عمرو التماري ودارسها ، من أخيه ، ومن بعده اسحق ، وبعده تشيه . وصفه التماري للفضل بن يحيى بن خالد وقرئته عنده حتى استقدمه من الجزيرة واستصحبه ، ثم وصله بالرشيد وجرت به ذاك به وجرى التماري وحشة حتى تهاجرا وتناقضا وسعى كل واحد منهما في هلاك صاحبه ، فأذن له النعمري قد مدح الفضل بقصيدة وهو عقيم بالجزيرة ، فأوصلها التماري إليه واستقره له وسأله استصحابه ، فأذن له في القدوم ، لحظ عنده ، وعرف مذهب الرشيد في الشعر وإرادته أن يصل مدحه إياه بنى الإمامة من ولد علي بن أبي طالب عليهم السلام والظعن عليهم وطع منزه في ذلك مما كان يلقه من تقديم مروان بن أبي حفصة وتفضيله إياه على الشعراء في الجوائز ، فسلك مذهب مروان في ذلك ونحا نحوه ، ولم يصرح بالهجاء والسب كما كان يفعل مروان ولكنه حام ولم يقع وأودأ ولم يحقق ، لأنه كان يتشيع ، وكان مروان شديد الدائرة لآل أبي طالب وكان يتناقض من نية قوية يقصد بها طلب الله تعالى فلا يبين ولا يذم . ونجد أعباره في الأغانى (ج ١٢ ص ١٦ وج ١٧ ص ١٢٢ و ١٤١) .

ولقد تخلص الى شيء ليس عليه فيه شيء وهو قوله :

فإن شكروا فقد أنصت فيهم \* وإلا فالندامة للكفور  
وإن قالوا بنو بنت حق \* وردوا ما يناسب للذكور  
وما لبني بنات من رأت \* مع الأعمام في ورق الزبور

ومنها :

بن حسن ورهط بن حسين \* عليك بالسداد من الأمور  
فقد ذقم قراع بن أبيك \* غداة الروح بالبيض الذكور  
أحين شفوكم من كل وثر \* ومثوكم الى كنيف وغير  
وجادوكم على ظما شديد \* سقيم من توالم الغزير  
لما كان المقوق لم جزاء \* بفطهم وأدى للثبور  
وإنك حين تملهم أذاة \* وإن ظلموا لمزور الضمير

فقال له : صدقت وإلا فعلت وعلى ، وأمر له ثلاثين ألف درهم .

وأنشد الرشيد يوما قصيدته التي أولها :

ما تنقضي حسرة متى ولا جزع \* إذا ذكرت شبابا ليس يجمع  
باب الشباب وفاتني ولذته \* صروف دهر وأيام لها خدع  
ما كنت أوفي شبابي كنهه غرته \* حتى أنقضى فاذا الدنيا له تبع

فقال الرشيد : أحسن ! وإله لا ينهي أحد بعش حتى يحطركم رداء الشباب .

ومن قوله فيها يمدح الرشيد :

أي أمرى بات من هارون في خط \* فليس بالصلوات الخمس ينقح  
إك المكارم والمعروف أوديه \* أحلك الله منها حيث يجتمع<sup>(١)</sup>

(١) رواية الأمازي : "نفع" .

إِذَا رَفَعْتَ أَمْرًا فَإِنَّهُ يَرْفَعُهُ \* وَمَنْ وَصَّيْتَ مِنَ الْأَعْوَامِ مُنْضِعٌ  
تَقْبِي فِدَاؤُكَ وَالْأَبْطَالُ مُعْلَمَةٌ \* يَوْمَ الرِّقَى وَالْمُنَايَا صَابِهَا فَرَجٌ

ومن قوله يملح الرشيد :

يَا مَنَزِلَ الْحَى ذَا الْمَنَانِ \* لَأَنْتُمْ صَبَاحًا عَلَى يَلَاكَا  
هَارُونَ يَا خَيْرَ مَنْ يُرَى \* لَمْ يُطْلَعْ أَفَقٌ مِّنْ عَصَاكَ  
فِي خَيْرِ دِينٍ وَخَيْرِ دُنْيَا \* مِنْ أَفْقَى اللَّهِ وَأَهْلَاكَ

وانهيك بقصيدته التي رفعت السيف عن ربيعة بن صبيح بعد أن جرده فيها الرشيد

وهي التي يقول فيها :

وَقَدْ عَلِمَ الْمُتَدَوُّنُ وَالْجَوْدُ وَالنَّحَا \* بِأَنْتَ عَيَافٌ لِمَنْ مَرَّ بِأَيْلٍ  
وَلَوْ عَمِلُوا فِينَا بِأَمْرِكَ لَمْ يَكُنْ \* يَسْأَلُ بَرِيًّا بِالْأَدَى مُتَابِلٍ  
لَنَا مِنْكَ أَرْحَامٌ وَنَعْتَدُ طَاعَةً \* وَبِأَسَا إِذَا أَصْطَلَكَ الْقَنَا وَالْقَنَابِلُ<sup>(١)</sup>  
وَمَا يَحْفَظُ الْإِحْسَانَ مِثْلَكَ حَافِظٌ \* وَلَا يَصِلُ الْأَرْحَامَ مِثْلَكَ وَاصِلُ  
جَعَلْنَاكَ قَامِعَنَا مَعَاذًا وَمَفْرَجًا \* لَنَا حِينَ عَصَيْنَا الْخَطُوبُ الْخَلَائِلُ  
لَأَنْتَ إِذَا مَازَتْ بِوَجْهِكَ عُوْدٌ \* تَطْلَمَنَّ خَوْفَ وَأَسْتَقَرَّتْ بِلَابِلُ

اجتمع جماعة من الشعراء ببغداد وفيهم منصور الغمرى، وكانوا على تبيذ، فأبى منصور أن يشرب معهم، فقالوا له : إنما تعاف الشراب لأنك رافضى، وتسمع وتصفى إلى الفناء، وليس تركك التبيذ من ورع، فقال :

خَلَا بَيْنَ قَدَمَائِي مَوْضِعٌ جَلَسِي \* وَلَمْ يَبْقَ عِنْدِي لِلْوِصَالِ نَصِيبُ  
وَرَدَّتْ عَلَى السَّاقِ قَبِيضٌ وَرَبْمَا \* رَدَدْتُ عَلَيْهِ الْكَاسَ وَهُوَ سَلِيبُ  
وَأَيُّ أَمْرٍ لَا يَسْتَنْهَشُ إِذَا جَرَتْ \* عَلَيْهِ بَنَانُ كَفْهَرٍ خَضِيبُ

(١) مفردة قبل بفتح فسكون ثم فتح : الطاعة من الناس .

قال الفري : كنت واقفا على جسر بغداد أنا وعبيد الله بن هشام ، وقد وخطني الشيب يومئذ ، وعبد الله شاب حديث السن ، فاذا أنا بقصرية طريفة قد وقفت ، لمجلت أنظر إليها وهي تنظر الى عبيد الله ثم انصرفت ، وقلت فيها :

لما رأيت مسوأم الشيب منتشراً \* في لمتي وعبيد الله لم يشيب  
ملكت سهمين من عيلك فانتضلا \* على سببة ذي الأذيال والطرب  
كذا الغواني نرى منهن قاصدة \* الى الفروع ممررة عن الخشب  
لا أنت أصبحت تعقد بيننا أرباً \* ولا وعيشك ما أصبحت من أربي  
إحدى ونحسين قد أنضبت جدتها \* تحسول بيني وبين اللهو واللعب  
لأحسبني وإن أغصيت عن بصري \* غفلت عنك ولا عن شأنك السج  
غضب الرشيد على منصور الفري لما أنشد قصيدته في مدح العلويين وأولها :  
شاء من الناس رابع هامل \* يسلون النفوس بالباطل  
وفيها يقول :

ألا مساعير يفضبون لها \* بسلة البيض واللقنا الذابل  
فغضب من ذلك غضباً شديداً وقال للفضل بن الربيع : أحضره الساعة ، فبعث الفضل في ذلك ، فوجده قد توفى ، فأمر بنهشه ليحرقه ، فلم يزل الفضل يطفئ له حتى كَفَّ عنه .  
واليك قصيدته في مدح العلويين تقلا عن الشعر والشعراء لابن قتيبة ، لأن صاحب الأغاني أغفلها ولم يذكر منها إلا البيتين السابقين :

شاء من الناس رابع هامل \* يملون النفوس بالباطل  
تقتل ذرية - ألهي وير \* جون جنان الخلود للقاتل  
ويك يا قاتل الحسين لقد \* ثوت بحمل يسوء بالامل

(١) كذا في الأصل ولله : \* لا أنت أصبحت بمقد بينا أرب \* يسكن العمل بمقد للضرورة وتسكن العمل في الضرورة وارد منه قول امرئ القيس : \* اليوم أشرب غير مستحب \* إنما من الله ولا رائل (٢) في الشعر والشعراء "مما لبت" .

أَيَّ حَبَاءٍ حَبَّوَتْ أَحْمَدَ فِي \* حُفْرِهِ مِنْ حَرَارَةِ النَّاصِلِ  
 بَأَى وَجْهَ تَلْقَى النَّبَى وَقَدْ \* دَخَلَتْ فِي قَسَلِهِ مَعَ الدَّاهِلِ  
 هَلُمَّ فَاطْلُبْ غَدًا شِفَاعَتَهُ \* أَوْ لَا فَرِّدْ حَوْضَهُ مَعَ النَّاهِلِ  
 مَا الشَّكُّ عِنْدِي فِي حَالِ قَاتِلِهِ \* لَعَنِي أَشْكُ فِي أَخْلَاذِلِ  
 نَفْسِي فِدَاءَ الْحُسَيْنِ حِينَ غَدَا \* إِلَى الْمَنَاسِبِ غُدُوًّا لَا قَائِلِ  
 ذَلِكَ يَوْمٌ أُنْمَى بِشَفَرَتِهِ \* عَلَى سَنَامِ الْإِسْلَامِ وَالْكَاهِلِ  
 حَتَّى مَسَى أَنْتَ تَعْجِينَ أَلَا \* تَتَرَلَّى بِانْقِصَامِ نِقْمَةِ الْعَاجِلِ  
 لَا يَجْعَلُ اللَّهُ إِنْ حَلَّتْ وَمَا \* رُبُّكَ بِمَا يَرِيدُ بِالْفَافِلِ  
 وَعَاذِلِي أَنَّى أَحَبَّ بَسْنَى \* أَحْمَدَ فَأَتْرِبُ فِي نَيْمِ الْعَاذِلِ  
 قَدْ دَفُتْ مَا دِينَكُمْ عَلَيْهِ فَا \* وَصَلْتُ مِنْ دِينِكُمْ إِلَى طَائِلِ  
 دِينَكُمْ جَفَوْتَ النَّبَى وَمَا لَ \* حِجَابِي لَأَكْلِ النَّبَى كَالْوَاوِلِ  
 مَظْلُومَةِ وَالنَّسِيِّ وَالْهَامَا \* تَذِيرُ أَرْجَاءِ مُقْلَةٍ حَائِلِ  
 أَلَا مَصَالِيْتُ يَفْضَحُونَ لَهَا \* بِسَلَةِ الْبَيْضِ وَالْقَنَاقِلِ

وقال أيضا :

آلَ النَّبَى وَمَنْ يُحِبُّهُمْ \* يَتَطَامَنُونَ عِفَالَةَ الْقَتْلِ  
 أَمِنُوا النَّصَارَى وَالْيَهُودَ وَهُمْ \* مِنْ أُمَّةِ التَّوْحِيدِ فِي أَرْزِلِ<sup>(١)</sup>  
 وَأَشِيدَ الرَّشِيدِ هَذَا بَعْدَ مَوْتِهِ فَقَالَ : لَعَنَ اللَّهُ مَنْ أَتَيْتُهُ ثُمَّ أَحْرَقَهُ .

ومن جيد شعره قوله في الرشيد :

يَا زَائِرِنَا مِنْ أَلْيَامِ \* حَيَّاكُمَا اللَّهُ بِالْإِلَامِ  
 يُحْزِنُنِي أَنْ أَطْفَأَ فِي \* وَلَمْ تَتَّأَلَا يَسْوَى الْكَلَامِ

(١) الأزل : الضيق والشدة .

لم تَطْرُقَانِي وَبِي حَرَاكٌ • إِلَى حَلَالٍ وَلَا حَرَامٍ  
 قَهَبَاتٌ لِلْهَوِّ وَالْتِصَابِي • وَالْفُجْوَاني وَالْأَدَامِ  
 أَقْصَرَ جَهْلِي وَتَأَلَّبَ يَحْلِي • وَنَهَى الشَّيْبُ مِنْ عُرَامِي<sup>(١)</sup>  
 عَمَرْتُ أَيْسَا لَقَدْ تَوَلَّتْ • سَالِمَةً أَنْتَدُ مِنْ عِذَامِي<sup>(٢)</sup>  
 اللَّهُ يَحْيِي وَتَرْبُ يَحْيِي • لَيْلَةَ أَعْيَاهَا مَرَامِي  
 أَذْثَنَانِي بِكُلِّ تَهْمِيرٍ • وَغَرَّانِي بِعِ السُّوَامِ  
 وَأَنْطَلَوْنَا لِي عَلَى سَلَامٍ • وَالشَّيْبُ شَرٌّ مِنَ الْمَكَلَامِ  
 بُولَدُكَ هَارُونَ مِنْ إِمَامٍ • بِطَاعَةِ اللَّهِ ذِي الْاِعْتِمَامِ  
 لَهُ إِلَى ذِي الْجَلَالِ قُرْبِي • لَيْسَتْ لَعْنَدٌ وَلَا إِمَامِ  
 يَسْبِقُنِي عَلَى أُمَّةٍ تَمَنَّى • أَنْ لَوْ تَقِيهِ مِنَ الْحِمَامِ  
 لَوْ اسْتَطَاعَتْ لِقَائَتَهُ • أَحْمَارُهَا قِسْمَةُ السَّهَامِ  
 يَا خَيْرَ مَاضٍ وَخَيْرَ بَاقٍ • بِعِنْدِ النَّبِيِّينَ فِي الْأَنَامِ  
 مَا اسْتَوْدَعَ الدِّينُ مِنْ إِمَامٍ • حَامَى عَلَيْهِ كَمَا تُحَامِي  
 يُونُسَ مِنْ رَأْيِهِ بِرَأْيٍ • أَصْلَقُ مِنْ سَلَةِ الْحُسَامِ

وقال :

أَعْمِرُ كَيْفَ حَاجَةٌ • طَلَبْتُ إِلَى صَمِّ الصَّخُورِ  
 اللَّهُ دَبُّ مَدَائِكُمْ • كَيْفَ انْتَسَبَ إِلَى الْغُرُورِ  
 أَنْبَ الْأَيَّالِ صِغْتِي • وَوَسَمْتِي سِمَةَ الْكَبِيرِ  
 أَطْفَانُ نُورٍ شَيْبَتِي • وَفَرَشَتْنِي كَنَفُ الْغَبُورِ  
 وَلَقَدْ تَبَيَّنْتُ أَنَا بَيْسِلِي • يَحْيِيَنَّ رُفْقَانِ التَّحُورِ

(١) الغرام : الحدة . (٢) الدم الشفة كالعض بالأسنان .

٧ - السيد الحميري<sup>(١)</sup>

« لم يكن السيد الحميري من أنصار الحسن والحسين، أو عبارة أصح لم يكن من أنصار ولد الحسن والحسين، وإنما كان من النكسائية الذين كانوا ينصرون الابن الثالث من أبناء علي: محمد بن خولة الحنفية، والذين كانوا يدينون بأنه لم يمت وإنما تقيب عن الناس وأحتجب عنهم حيناً وسيعود فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، فلم يكن على السيد الحميري بأس أن يمدح بني العباس ويتقرب منهم مادام صاحبه محمد بن الحنفية لم يعد من غيبته بعد. ثم نستطيع أن نميز هذا الشاعر بمحصلة لم نرها في شاعر من الذين تحدثنا عنهم، وهي أنه كان شخصاً ضعيف العقل شديد الإيمان بالخرافات والأوهام، ويظهر أن هذه المحصلة جاءت من مذهبه نفسه في الرحمة، فقد أسرف في هذا المذهب كما أسرف في مدح العلويين والإيمان بهم حتى وصفهم من الخير والكرامة بما يقبل وما لا يقبل، فكان كل خير يمكن أن ينسب إلى العلويين، ورضيه العقل أم لم يرضه، وكان كل شر يمكن أن ينسب إلى خصوم العلويين، ورضيه العقل أم لم يرضه، وكان يكفي أن نسمع رجلاً من أهل القصص ورواة الأساطير يروي كرامة من الكرامات يضيفها إلى أحد العلويين حتى ينفلخ فيها قصيدة طويلة جيدة، ويغخذ هذه القصيدة وسيلة إلى ذم السلف والنهي عليه.

(١) هو اسماء بن محمد بن يزيد بن ديسمة بن مقفع الحميري والسيد لقبه ويكنى أبا تمام، كان شاعراً متقدماً مطبوخاً، يقال إن أكثر الناس شغراً في الباطنية والاسلام ثلاثة: شاروا بر الناعية والسيد، فانه لا يلم إن أحداً قدر على تحصيل شر أحد منهم أجمع، وإنما مات ذكره وهجر الناس شره لما كان يفرط فيه من سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه في شره ويستعمله في فتنهم والطن طعنهم شره من هذا الجنس وغيره لذلك وهجره الناس تحقوا وتربوا، وله طراز من الشعر ومذهب فلاح في أو بقارب، ولا يعرف له من الشعر كثير، وليس يتخلو من مدح بني هاشم أو ذم غيرهم مبر هو عنه ضد لم - توفي سنة ١٧٣ هـ - ويعد ترجمته وأخباره في الأغانى (ج ٧ ص ٢) ولغات الوفيات (ج ١ ص ١٩).

(٢) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية.

وحَصْلَةُ أُخْرَى تَقَرُّ بِهِ مِنَ الزَّانِقَةِ الَّذِينَ عَاصَرُوهُ وَلَكِنَّا تَجْعَلُ الصَّلَاةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ  
ضَعِيفَةً وَاهِيَةً فِي الْوَقْتِ نَفْسُهُ .

وهي أنه كان يستبيع ضروباً من اللُّهُوِّ والمنكر، ويُسرف في شرب الخمر وغير ذلك من  
ألوان العبث، لا لأنه كان يَحْسُدُ الدين أو يُرَدِّدُهُ بل لأنه كان يَدُلُّ على صاحب الدين؛  
كان يحب النبي صلى الله عليه وسلم وآله ويمتدحهم مودته ونصره، ويعتقد أنهم سيعرفون له  
ذلك وسيشفعون له في ذنوبه وآثامه لِأَنَّهُ قَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ مَدْحِ العلويين ونصرهم على  
خصومهم، وكان بنو هاشم وبنو علي خاصة يُطْلِمِعُونَهُ فِي ذَلِكَ وَيَعْتَرِفُونَ لَهُ بِهِ، فَإِذَا ذُكِرَ  
لَهُمْ أَنَّهُ يَلْهُو وَيُشْرِبُ الخمر قالوا: وأيّ ذَنْبٍ يعظم على الله أن يغفر لرجل من أنصار أهل  
البيت! بل قال أحدهم: إِنْ مَنْ أَحَبَّ آلَ عَلِيٍّ لَمْ تَزَلْ لَهُ قَدَمٌ إِلَّا ثَبَتَتْ لَهُ أُخْرَى، وَعَلَى  
هَذَا كَانَ السَّيِّدُ المَجْبُورِيُّ يَلْهُو آمَنًا فِي دِينِهِ وَدُنْيَا، يَعْتَمِدُ فِي دِينِهِ عَلَى العلويين، ويعتمد  
فِي دُنْيَا عَلَى العباسيين، يَقْدَرُ أَنَّ العلويين سيشفعون له عند الله، ويعلم أَنَّ العباسيين  
يَتَّقُونَ شَرَّهُ وَيُؤَثِّرُونَ مَدْحَهُ عَلَى هِجَاؤِهِ، وَكَانَ مِنْ مُعَاصِرِيهِ مَنْ يَكْرَهُ ذَلِكَ وَيَقْتُضِيهِ كُلَّ  
الْمَقْتِ، وَيُضْمِرُ لِلسَّيِّدِ عِدَاءً وَحَقْدًا لَا يَبْدِيهِ عِدَاءً وَلَا حَقْدًا، وَمِنْ هَؤُلَاءِ سَوَّارُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ  
الْعَتْرِيُّ قَاضِي البَصْرَةِ للمنصور، فَقَدْ كَانَ الْعِدَاءُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّيِّدِ شَدِيدًا، وَكَانَ قَدْ أَجْمَعَ  
أَلَّا يَقْبَلَ لِلسَّيِّدِ شَهَادَةً، وَكَانَ قَدْ سَمِيَ بِالسَّيِّدِ عِنْدَ الْمَنْصُورِ فَرِصَةً، وَكَانَ السَّيِّدُ قَدْ هَجَّاهُ  
فَاسْتَرْفَى فِي هِجَاؤِهِ، فَشَكَكَ ذَلِكَ إِلَى الْمَنْصُورِ فَتَنَاهُ الْمَنْصُورُ عَنْهُ وَأَمَرَهُ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْقَاضِي  
فِيَعْتَذِرَ إِلَيْهِ، وَأَبَى الْقَاضِي أَنْ يَقْبَلَ مَعْذَرَتَهُ، فَاسْتَأْنَفَ السَّيِّدُ الْهَجَاةَ وَأَخْلَجَ فِيهِ . وَيَقَالُ  
إِنَّ سَوَّارًا أَمَةً شُهِدُوا عَلَى السَّيِّدِ بِالْمَرْقَةِ لِيَقْطَعَ يَدَهُ، فَعَلِمَ السَّيِّدُ ذَلِكَ فَجَزَعَ وَفَزَعَ  
إِلَى الْمَنْصُورِ، فَغَزَلَ الْمَنْصُورُ سَوَّارًا مِنَ الْقَضَاءِ لِلسَّيِّدِ أَوْ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَلْبَثْ سَوَّارٌ أَنْ مَاتَ  
فَتَبِعَهُ السَّيِّدُ بَعْدَائِهِ وَبُغْضِهِ وَهِيَاؤُهُ .

قال أبو جعفر الأعرج: كَانَ السَّيِّدُ اسْمُهُ تَائِمُ الْقَامَةِ، أَشْنَبَ ذَا وَقَرَةٍ، حَسَنَ الْإِلْفَافِ  
جِيلِ الْخَطَابِ، إِذَا تَخَلَّصَتْ فِي عِمَاسٍ قَوْمٌ أَعْطَى كُلَّ رَجُلٍ فِي الْمَجْلِسِ نَصِيحَةً مِنْ جَدِيهِ؛



وقال الفرزدق : إن ههنا لرجلين لو أخذَا في معنى اللباس لما كُتبا معهما في شيء : السيد الجعفي وعمران بن حطان السدوسي ، ولكن الله عز وجل قد شغل كل واحد منهما بالقول في مذهبه ؛ وقال الأصمعي : لما أُنشِدَ شيئا من شعره : ما أسلكه لطريق الفحول لولا مذهبه ، ولولا ما في شعره ما قُدِّست عليه أحدا من طبقته ؛ وكان أبو عبيدة يقول : أشعرُ المُحدَّثين السيد الجعفي وبشار .

وكان السيد يذهبُ مذهب الكيسانية ويقول برأمة محمد بن الحنفية ، وله في ذلك شعر كثير .

وقف السيد على بشار وهو يُلشد الشعر ، فأقبل عليه وقال :

أبها المادحُ العباد يُعطى \* إنَّ لله ما بأيدي العباد  
فاسأل الله ما طلبت اليهم \* وأرجُ تفع المَترِّل المَواد  
لا تُنزل في الجواد ما ليس فيه \* ويُسمَّى البَحِيل باسم الجواد

قال بشار : هُنَّ هذا ؟ ففرقه ، فقال : لولا أنَّ هذا الرجل قد شُغل عنا بمدح بني هاشم لشغلنا ، ولو شاركنا في مذهبنا لتعينا .

ومن قول السيد :

أعيرُ رَسمي بالثوبين قد دَرَّ ■ عَفْنَه أهاضيبُ السحاب والمطر  
وجرت به الأذيال رِيحان حُلْفَةٍ \* صَبَا ودُجُور بالعشيات والبكر  
منازلُ قد كانت تكوُنُ بِجُوهَا ■ هَضِيمُ الحَقِيرِ الشَّوْى يَحْمُرُهَا النَّظَرُ  
فَطَوَّفَ الخَطَا مُحَصَّنَةً بِجَنَّةٍ ■ كَأَنَّ حَيَاها مَنَّا دَارَةَ القَمَرِ  
رَمَتْنِي بِبُعْدٍ قَرِيبٍ بِهَا النَّوَى ■ فَإِنَّهُ وَلَّى أَقْصَى مِنْ حَبْدَةِ الوَطَرِ  
ولمَّا رَأَى خَشْيَةَ البَيْنِ هُوجِمَا ■ أَكْفَكُفْ نِي أَدْمَا بِبُضَا دُرِّ  
أشارتُ بِأطرافِ لِي وَدَمْعِهَا ■ كَنَظْمِ بَحَّانٍ حَانَهُ السَّلْكُ فَانْتَرُ  
وقد كنتُ مِمَّا أَحْدَثَ البَيْنَ حَازِرَا ■ فَلَمْ يَنْ عَنِّي مِنْهُ خَوْفِي وَالْحَذَرُ

لما استقام الأمر لبني العباس قام السيد إلى أبي العباس السفاح حين نزل عن المنبر فقال :

دُونَكُمْوْهَا يَا بَنِي هَاشِم \* بِقُدُّوْا مِنْ عَهْدِهَا الدَّارِ سَا  
دُونَكُمْوْهَا لَا عَلَا كُتُبُ مِنْ \* كَانَتْ عَلَيْكُمْ مُلْكُهَا نَافِيسَا  
دُونَكُمْوْهَا فَالْبِسُوا تَاجَهَا \* لَا تَقْدَمُوا مِنْكُمْ لَهُ لَا بِنَا  
لَوْ خَيْرُ الْمُنْبَرِ فُرْسَانُهُ \* مَا اخْتَارَ إِلَّا مِنْكُمْ فَارِ سَا  
قَدْ سَاسَهَا قَبْلَكُمْ سَاسَةٌ \* لَمْ يَتْرَكُوا رَطْبًا وَلَا يَابِ سَا  
وَلَسْتُ مِنْ أَنْ تَلْكُوهَا إِلَى \* مَهْبُطِ عَيْسَى فِيكُمْ آيِ سَا

وبعث هذه الأبيات إلى المهدي يسأله ألا يعطى آل بكر وعمر من مال الدولة :

قُلْ لِّبَنِي عَبَّاسٍ سَيِّ مُحَمَّد \* لَا تُعْطَيْنَ بَنِي عَدَى دَرَهْمَا  
إِحْرِمْ بَنِي قَيْمٍ بِنَ صُرَّةِ إِيْهِمْ \* شَرَّ السَّبْرِيةِ آخِرَا وَمُقْدَمَا  
إِنْ تُعْطَوْا لَنْ يُشْكِرُوا لَكَ نِعْمَةً \* وَيَكَاذِبُونَكَ بِأَنْ تُنْتَمَ وَتُشْتَمَا  
وَإِنْ أَثْنَتْهُمْ أَوْ أَسْتَعْمَلَتْهُمْ \* خَازِنُكَ وَأَخْذُوا خَرَا جِكَ مَقْتَمَا  
وَلَنْ مَتَعْتُمْ لَقَدْ بَدَّوْكُمْ \* بِالْمَنْعِ إِذْ مَلِكُوا وَكَانُوا أَظْهَمَا  
مَتَعُوا ثَرَاتُ مُحَمَّدِ أَعْمَامِهِ \* وَيَدِهِ وَأَبْنَاهُ عِدِيلَةُ صَرِيْمَا  
وَتَأْمُرُوا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُسْتَخْلَفُوا \* وَكَفَى بِمَا فَعَلُوا حَنَالِكَ مَاثِمَا  
لَمْ يُشْكِرُوا مُحَمَّدَ إِنْصَامُهُ \* أَفِيْشْكِرُونَ لِفَيْرِهِ إِنْ أُنْعِمَا  
وَاللَّهِ هَـنَّ عَلَيْهِمْ مُحَمَّد \* وَهَدَاهُمْ وَكَسَا الْجَنُوبَ وَأَطْمَا  
يُحْمِ أَنْجَبُوا لَوْصِيَّهِ وَوَلِيَّهِ \* بِالْمُنْكَرَاتِ بَغَرُّوْهُ الْعَلَمَا

أنشد الشيخ جعفر بن محمد هذه الأبيات يذكر فيها قبر الحسين :

أَمْرٌ زَلَّ عَلَى جَدَّتِ الْحُسَيْنِ \* مِنْ قُضْلٍ لِأَعْظَمِيهِ الزَّكِيَّةِ  
أَعْظَمًا لَا زَيْتَ مِنْ \* وَطَفَاءَ سَاكِةِ رَوِيَّةِ  
وَإِذَا صَرَزَتْ بِقَبْرِهِ \* فَأَظْلُ بِهِ وَقَفَ الْمُطِيَّةِ

وَأَبِيكَ الْمُطَهَّرَ لَطَفٌ • بِهَرِّهِ وَالْمُطَهَّرَةَ النَّقِيَّةَ  
كِبْكَاةً مُعْوَلَةً أَنْتَ • يَوْمًا لِرَاحِدِهَا الْمُنِيَّةَ

فَانْخَسَدَتْ دُمُوعُ جَعْفَرٍ عَلَى خَدَّيْهِ وَأَرْتَفَعَ الصَّرَاخُ وَالْبَكَاءُ مِنْ دَارِهِ حَتَّى أَمْرَهُ بِالْإِمْسَاكِ  
فَأَمْسَكَ .

وَمِنْ قَوْلِ السَّيِّدِ فِي إِمَامَةِ ابْنِ الْحَنْفِيَّةِ :

أَلَا يَا أَيُّهَا الْجَدِيلُ الْحَقِّي • لَنَا مَا نَحْنُ وَبِحَاكِ وَالسَّاءُ  
أَتَبَصَّرُ مَا تَحُولُ وَأَنْتَ كَهْلٌ • تَرَاكُ طَبِيعُكَ مِنْ وَرَجِّ رِيَاءٍ  
أَلَا إِنَّ الْأَمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ • وَلَوْلَا الْحَقُّ أَرْبَعَةٌ سِوَاهُ  
عَلِّ وَالثَّلَاثَةُ مِنْ بَنِيهِ <sup>(١)</sup> • هُمْ أَسْبَاطُهُ وَالْأَوْصِيَاءُ  
فَأَقْبَى فِي وَصِيَّتِهِ الْيَهُودُ • بِكَوْنِ الشُّكِّ مَنَا وَالْمَرْءُ  
بِتَبَسُّمِ أَوْصِيائِهِمْ وَدَعَا إِلَيْهِ • بِجَمْعِ الْخَلْقِ لَوْ تَبَيَّنَ الدُّعَاءُ  
فَيَسْبِطُ سَبْطَ إِيمَانٍ وَحِلْمٍ • وَيَسْبِطُ غِيَّتَهُ كَرَبْلَاءُ  
سَقَى جَذْعًا تَضَمَّنَتْهُ مُلْكٌ • هَتُوفُ الرِّعْدِ مُرْجِزٌ رَوَاهُ  
تَقَطَّلَ مُظَلَّةٌ مِنْهَا عَزَائِلُ <sup>(٢)</sup> • عَلَيْهِ وَتَقْتَدِي أُخْرَى مِلَاهُ  
وَيَسْبِطُ لَا يَذُوقُ الْمَوْتَ حَتَّى • يَقُودَ الْخَلِيلَ بِقَدَمِهَا الْإِوَاهُ  
مِنْ الْبَيْتِ الْمُحْجَبِ فِي سُرَاةٍ • شُرَاةٌ لَفَ بَيْنَهُمُ الْإِخَاءُ  
عَصَائِبُ لِرُسْدُونَ أَغْرَاجِلُ • بِمَكَّةَ قَائِمٌ لَمْ أَنْتَهَاهُ

وَأَنْشَدَ الْعَبْدُ قَصِيدَتَهُ الَّلَامِيَّةَ الَّتِي أَوَّلُهَا :

هَلْ عِنْدَ مَنْ أَحْبَبْتَ تَنْوِيلُ • أَمْ لَا فَاكُ الْمَوْتِ تَفْضِيلُ  
أَمْ فِي الْحَقِّ مِنْكَ جَوَى بِاطِلُ • لَيْسَ تُنَادِيهِ إِلَّا بِاطِيلُ

(١) هم الحسن والحسين وزهيد • (٢) اللزلاء : مصب الماء من الزاوية ونحوها ، ويقال : أزلت

السَّيَاهُ، حَزَالَهَا إِشَارَةٌ إِلَى شِدَّةِ دَفْعِ الْحَارِطِ لِنَشْبِهِ بِزَوْجِهِ مِنْ أَفْوَاهِ الْمَرَادَاتِ .

مَلَقْتَ يَا مَغْرُورُ خَدَاةً \* بِالْوَعْدِ مِنْهَا لَكَ تَحْقِيلُ  
رِيًّا رَدَّاحَ النُّومِ نَحْصَانَةً \* كَانَتْهَا أَدْمَاءُ عُطْبُولُ  
يَسْفِيكَ مِنْهَا حِينَ تَغْلُوبُهَا \* ضَمُّ إِلَى النُّحْرِ وَتَقْيِيلُ  
وَذَوَى رِيٍّ طَيِّبٍ طَمَمَهُ \* كَانَتْهُ بِالْمَسْكِ مَعْلُولُ  
فِي نَسْوَةٍ مِثْلَ الْمَهَا تُخَرِّدُ \* تَضَيِّقُ عِزِّيَ الْخِلَافِيْلُ

يقول فيها :

أَفْسِمَ بِاللهِ وَالْإِنْسِ \* وَالْمَرْءِ عَمَّا قَالَ مَسْئُولُ  
إِنْ عَلَى بَنِي طَالِبٍ \* عَلَى التَّقَى وَالْبَرِّ جَبُولُ

فقال : أحسن والله ما شاء، هذا والله الشعر الذي يهجم على القلب بلا حجاب .

قيل للسيد : مالك لا تستعمل في شعرك من الغريب ما تُسأل عنه كما يفعل الشعراء ؟  
قال : لأن أقول شعرا قريبا من القلوب يلته من سمعه، خير من أن أقول شيئا مُمَقَّدا  
تضلل فيه الأوهام .

تقدم السيد إلى سوار القاضي ليشهد عنده، فلم يرض به، فقام مُضْطَبًّا من مجلسه،  
وكتب رُقْعَةً يقول فيها :

يَا أَمِيرَ اللهِ يَا مَنْشُورُ يَا خَيْرَ الْوَلَاةِ  
إِنَّ مَسْوَارَ بَنِي عَبْدِ اللهِ مِنْ شَرِّ الْقَضَاةِ  
تَعَنَّى بَحْلِي \* لَكُمْ خَيْرُ مَوَاتٍ  
جَدُّهُ سَارِقُ فَتْرٍ \* بَجْرَةٌ مِنْ بَحْرَاتٍ  
لِرَسُولِ اللهِ وَالْقَا \* ذُنُوبُهُ بِالْمُنْكَرَاتِ  
وَأَبْنُ مَنْ كَانَ يُبَادِي \* مِنْ وَرَاءِ الْحُجْرَاتِ  
يَا بَغْسَاءُ أَخْرِجِي الْبِنَا \* إِنَّا أَهْلُ هُنَاتِ  
مَدْحُنَا الْمُدْحَ وَنَزَّ \* مِ يَصْبُ بِالزُّفْرَاتِ  
فَاكْفَيْهِهِ لَا كِفَاءُ اللهُ شَرُّ الطَّارِقَاتِ

قيل : فلما قرأها سوار وثب من مجاسه وقصد أبا جعفر المنصور، وهو يومئذ نازل بالجسر، فسبقه السيد إليه فأنشده :

قل للإمام الذى يُنَجِّى بطاعته \* يوم القيامة من مُجْبُوحة النار  
لا تُسْتَعِنُ وجزاك الله صالحاً \* يا خَيْرَ مَنْ دَبَّ فى حُكْمِ سِوَار  
لا تُسْتَعِنُ بخبيث الرأى ذى صَبَاف \* جَمِّ الميسوب عظيم الكِبَرِ جَبَّار  
يُضِيحُ المصنوم لديه مِنْ تَجَرُّه \* لا يرفوف اليه لحظ أبصار  
تيمناً وِكِبْراً ولولا ما رَفَعَتْ له \* من ضَبْعِه كان عينَ الجائع العارى

ودخل سوار، فلما رآه المنصور تبسم وقال : أما بلغك خبر إياس بن معاوية حيث قبل شهادة الفرزدق واستتراد فى الشهود ؟ فإحوجك للتعرض للسيد ولسانه ! ثم أمر السيد بمصالحته .

دخل السيد على المهديّ لما باع لأبيه موسى وهارون، فأنشأ يقول :

ما بال تجرى دُمْعُك الساجم \* أيمس قَدَى بات بها لازم  
أَمْ مِنْ هَوَى أَنْتَ لَهُ سَاهِم \* صابئةً مِنْ قَلْبِكَ الماسم  
أَلَيْتَ لا أمدح ذا نائل \* مِنْ مَعشَرِ غيرِ بنى هاشم  
أُولِيَّتْهُمْ عندى يَدُ المصطفى \* ذى الفضل والمُنْ أبى القاسم  
فَاتَهَا بِيضَاءُ مَعْدُوَّة \* جَزَأُهَا الشُّكْرُ عَلَى العالم  
جَزَأُهَا يَحْفَظُ أبى جعفر \* خَلِيفَةَ الرِّحْمَنِ والقاسم  
وِطَاعَةَ المهدىّ ثُمَّ أبْنَه \* موسى عَلَى ذى الإِدْبَةِ الحازم  
وَالرَّشِيدَ الرَّاسِخَ المَرْتَضَى \* مُتَرَضِّسٌ مِنْ حَقِّهِ اللازم  
مُلْكُهُمْ نَحْمُسُونُ مَعْدُوَّة \* بِرَغْمِ أَنْفِ الحاسدِ الرافم  
لَيْسَ عَلَيْنَا مَا يَقْسُوا غَيْرُهُمْ \* فى هذه الأئمة مِنْ حَاكِم  
حَتَّى يَرْدُّوهُا إِلَى هَابِط \* عَلَيْهِ عَيْبَى مِنْهُمْ نَاجِم

ومن شعر السيد :

ما جرت خَطْرَةٌ على القلب مني \* فبك إلا استترت عن إصحابي  
من دموع تهرى فإن كنت وحدى \* خاليا أسعدت دموعى اتحابي  
إن جئ إليك قد سلّ جسمى \* ورماني بالشيب قبل الشباب  
لومتعتّ اللقاء شفى بك صبا \* هاتم القلب قد قوى في التراب

ومما قاله في الحبس :

قف بالديار وحييا يا مَرِيع \* وأسأل وكيف يُجيب من لا يسمع  
إنّ الديار خلّت وليس يهوها \* إلا الضوايح والحمام الوقع  
ولقد تكونت بها أواس كالدنى \* بجمل وعزّة والرباب وبروع  
حبور نواهم لا تُرى في مثلها \* أمثال من الصيانة أربع  
فغيرت بعد تأليف وتجمع \* والدمر صاح مُشكّت ما يتجمع  
فاسلم فإنك قد نزلت بتراب \* عند الأمير تُفرّ فيه وتنفع  
تؤذى هوائك إذا نطقت بحاجة \* فيه وتشفّع عنده فتشفّع  
قل للأمير إذا غفرت بحلوة \* منه ولم يك عنده من يسمع  
هب لي الذي أحبه في أحمد \* وبنيه إنك حاصد ما تزرع  
يخشى آل محمد بعبدة \* في الصدر قد طويّت عليها الأضلع

وقال يهجو امرأة واريث مؤسّر من خلّانه، وكانت تعيل زوجها على إسرانه :

أقول باليت لي في يدي حنيق \* من العناوة من أعدى أعاديها  
يعلوها فوق رعن ثم يملدها \* في هوة قد هدنى يومها فيها  
أو ليتها في غمار البحر قد عصفت \* فيه الرياح فهاجت من أواذها<sup>(٢)</sup>

(١) الرن : أنف يتقدم إلى رن جمه رعون ورنان . والجبل : الطويل ودعوى الجهر فتدعى : أى دحرجه  
تدحرج . (٢) الأواذى : أمواج البحر ، فردها أدنى .

أُولَئِكَ قَدَدَتْ يَوْمًا إِلَى فَرَسِي \* قَدْ شُدَّ مِنْهُ إِلَى هَادِيهِ هَادِيَا  
 حَتَّى يَرَى لَهَا مِنْ حُضْرَةِ زَيْمًا <sup>(١)</sup> \* وَقَدْ أَتَى الْقَوْمَ بَعْدَ الْمَوْتِ نَاعِيَا  
 قَدْ بَكَاهَا فَلَا جَعَتْ مَدَامَعُهُ \* لَا أَمْنُ لِلَّهِ إِلَّا عَيْنُ بَاكِيَا

وقيل : إِنَّ أَمْرَ قَصِيدَةٍ لَهُ هِيَ قَوْلُهُ :

أَشَاقَتَكَ الْمَنَازِلُ بَعْدَ هُنْدٍ \* وَتَرْبِيهَا وَفَاتِ الْبَلِّ دَهْدٍ  
 مَنَازِلُ أَفْقَرَتْ مِنْهُنَّ سَحَتْ \* مَعْلُكُنَّ مِنْ سَبِيلِ وَرَمَدٍ  
 وَرِيحَ حَرْجِفٍ تَسْتَنُّ فِيهَا \* بِسَاقِ التَّرْبِيبِ تُلْهِمُ مَا تُسَدِّى  
 أَلَمْ يَلُفْكَ وَالْأَنْبَاءُ تَبَيُّ \* مَقَالُ عَمْدٍ فِيَا يُؤَدِّى  
 إِلَى ذِي عَلَيْهِ الْمَسَادَى عَلَى \* وَخَوْلَةُ خَادِمٍ فِي الْبَيْتِ تَرْدِي  
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ خَوْلَةَ سَوْفَ تَأْتِي \* بَوَارِي الزُّنْدِ صَافِي الْغَلِيمِ تَجِدُ  
 يَفُوزُ بِكُنْهِي وَأَسْمَى لَأَتِي \* نَحْلَتُهُمَا هُوَ الْمَهْدَى بَعْدَى  
 يُفَسِّبُ عَنْهُمْ حَتَّى يَقُولُوا \* تَضَمَّنَهُ يَطْلِيَّةٌ بِعَلِّ حُلْدٍ  
 سَتِينَ وَأَنْهَرَا وَيُرَى بَرَضَوِي \* بِشُعْبِ بْنِ أَمْسَارٍ وَأُسْدٍ  
 مَقِيمٌ بَيْنَ آرَامٍ وَبَعِيرٍ \* وَحَفَّابُ تَرْوُحٍ خِلَالِ دُبْدٍ <sup>(٢)</sup>  
 تَرَاغِيهَا السَّبَاعُ وَلَيْسَ مِنْهَا \* مُلَاقِيَتٌ مُفْتَرِمًا بِحَدِّ  
 أَمِينَ بِهِ الرَّدَى فَرَتْنِ طَوْرًا \* بَلَا خَوْفٍ لَدَى حَرَمِي وَيُورِدُ  
 حَلَقْتُ رَبِّ مَكَّةَ وَالْمَصَلَّى \* وَبَيْتِ طَاهِرِ الْأَرْكَانِ قَرْدٍ  
 يَطُوفُ بِهِ الْجَمِيعُ وَكُلُّ طَائِمٍ \* يَحْتَمِلُ لَدَيْهِ وَقَدْ بَسَدَ وَقَدْ  
 لَقَدْ كَانَ ابْنُ خَوْلَةَ غَيْرَ شَكٍّ \* صَفَاءَ وَلَا تَبِيَّ وَخُلُوصَ وَدَى  
 فَمَا أَحْسَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ فِيَا \* أَمِيرُومَا أَبُوحَ بِهِ وَأُبْسَدِي  
 سَوَى ذِي الْوَحْيِ أَحْمَدُ أَوْ عَلِيٌّ \* وَلَا أَزْكَى وَأَطْيَبُ مِنْهُ عُنْدِي

(١) الزيم : المخرق من اللحم . (٢) الخفان : صغار النعام .

وَمَنْ ذَا بَيْنَ خَوْلَةٍ إِذْ رَمَتْنِي \* بِأَسْمِهَا الْمُنِيَّةِ حِينَ وَعَدْتِي  
يُذِيبُ عَنْكُمْ وَيُسَدِّ مَا ■ تَسَلَّمُ مِنْ حَصُونِكُمْ كَسَدْتِي  
وَمَا لِي أَنْ أُصْرَّ بِهِ وَلَكِنْ ○ أَقُولُ أَنْ يُؤْتِيَ يَوْمُ فَقِيدِي  
فَأُدْرِكَ دَوْلَةً لَكَ لَسْتُ فِيهَا \* بِجَبَّارٍ تَتَوَصَّفُ بِالْعُسْدِي  
عَلَى قَوْمٍ يَتَوَقَّعُونَ فِيكُمْ عَلَيْنَا \* لَتُعْصِدِي مِنْكُمْ بِأَخِيرِ مُعْصِدِ  
لَتَعْلُنَّ بِنَا عَلِيمٌ حَيْثُ كَانُوا \* بِغُورٍ مِنْ تِهَامَةٍ أَوْ بِقَيْدِ  
إِذَا مَا نِيرَتْ مِنْ بَلَدٍ حَرَامٍ \* أَلَى مَنْ بِالْمَدِينَةِ مِنْ مَعَدَةٍ  
وَمَاذَا عَزَّوْهُمْ وَالْخَيْرُ مِنْهُمْ \* بِأَشْوَسَ أَعْصَلَ الْأَنْبِيَابِ وَرَدِ  
وَأَنْتَ لَمْ تَنْ بَغَى وَعَدَا وَأَذْكِي \* عَلَيْكَ الْحَرْبَ وَأَسْتَدْرَاكَ مُرْدِ



٨ - سلم بن عمرو الخناس<sup>(١)</sup>

كان منقطعاً الى ابرامكة والى الفضل بن يحيى خصوصاً من بينهم ، وفيه يقول أبو العتاهية :

إنما الفضل لسلم وحده \* ليس فيه لیسوی سلم دَرَكَ

وكان هذا أحد الأسباب الى فساد ما بينه وبين أبي العتاهية . وسلم يقول أبو العتاهية وقد سجّ مع عتبة :

واقه واقه ما أبالي متى \* ما مث يا سلم بعد ذا السفير  
اليس قد طُفْتُ حيث طافَتْ وقب \* لمت الذي قبَلْتُ من الجير

وله يقول أبو العتاهية وقد حُس ابراهيم الموصل :

سَلَم يا سَلَم ليس دونك يَر \* حُس الموصل فالعيش مر  
ما استطاب اللذات ، مَدَسكن المَط \* بَق رَأْس اللذات والله ، حُر  
تَرَكَ الموصل مَنْ خَلَق الله \* هُ جميعاً وعيشهم مُقَشِّر

(١) هو سلم (ربنا لسان) بن عمرو أحد سواي أبي بكر الصديق ، نشأ في البصرة ، وكان شاعراً مطبوعاً متصرفاً في فنون الشعر ، وكان مظاهراً بالخلاعة والمسوق والمجون ، وزاد شاعرية وتحرراً بالشعر على يد بشارة لأنه كان رابته وتلميذه ، أخذ عنه واختلف من يجره ونسج على منواله ، وكثيراً ما أخذ أقواله فيسلفها ريمسها كما نسخ هذا البيت :

من راقب الناس لم يظفر بمحاجته \* وفاز بالطيبات القاتك الهمج

بجميعه :

من راقب الناس مات غمًا \* وفاز بالذلة الجبور

فبلغ به بشارة فغضب وأسم ألا يدخل عليه ولا يفيد دأداً حياً ، فاستشفع اليه بكل صديق حتى رضى ورجعه وقته بمحضرة كانت يسده . وكان صدقاً لابراهيم الموصل الملقب المشهور ولأبي العتاهية . وكان يمدح ابرامكة وعصوما الفضل بن يحيى . توفي سنة ١٨٦ هـ . ويوجد ترجمته في الأناضول ج ٢١ ص ١١٠ وابن خلكان ج ١ ص ١٩٨

لما قال بشار قصيدته الميمية في عمر بن العلاء وهي التي يقول فيها :

إذا نبتك صعب الأمور \* فنبه لها عسراً ثم تم  
فني لا يبيت حل دمنية<sup>(١)</sup> \* ولا يشرب الماء إلا بدم

بعث بها مع سلم إلى عمر بن العلاء، فوافاه، فأنشده إياها، فأمر لبشار بمائة ألف درهم، فقال له سلم : إن خادك - يعني نفسه - قد قال في طريقه فيك قصيدة؛ قال : فإنك هُناك أ قال : تسمع ثم تحكم؛ قال : هات، فأنشده :

قد عزني الباء لما لي دواء \* مما ألقى من حسان النساء  
قلب صحيح كنت أسطوبه \* أصبح من سلمى بلاء حياء  
أنفاسها يسك وفي طرفها \* يحرقوما لي خيرها من دواء  
وعذتي وعداً فأوفي به \* هل تصلح الخمر إلا بماء

ويقول فيها :

كم كربة قد مسني ضرها \* ناديت فيها عمر بن العلاء  
فأمر له بمشقة آلاف درهم، فكانت أقل عطية سيرة وصلت إليه .

ومن قوله يرفي بأقوت بنت المهدي :

أودى بأقوت ريب الزمان \* مؤسفة المهدي والخيزران  
لم تنطوي الأرض على مثلها \* مولودة من لها الوالدان  
بأقوت يا بنت إمام المهدي \* أصبحت من زينة أهل الحنان  
بكت لك الأرض وسكانها \* في كل أفق بين مانس وجان

دخل سلم على الفضل بن يحيى في يوم تبريز والمدايا بين يديه، فأنشد :

أمن ربح تسائله \* وقد أقوت منازل  
بجلي من قوى الأطالا \* يا حب ما يرأسله

رُويْدُكُمْ عَنْ الْمَشْعُو • فِي إِنْ الْحَبَّ قَاتِلُهُ  
 بَلَّائِلُ صَدْرِهِ تَبْرَى • وَقَدْ نَامَتْ عَوَازُهُ  
 أَحَقُّ النَّاسِ بِالْتَضْيِيبِ • لِمَنْ مِنْ تُرْجَى فَوَاضِلُهُ  
 رَأَيْتُ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ • قَدْ مَا صَحَّتْ حَمَالُهُ  
 فَلَسْتُ أَرَى قُبَى فِي النَّاسِ • سِوَا الْقَضَلِ فَاضِلُهُ  
 يَقُولُ لِسَانُهُ خَيْرًا • فَتَفْعَلُهُ أُنَامِلُهُ  
 وَتَهْمَا يُرْجَحُ مِنْ خَيْرٍ • فَإِنْ الْفَضْلَ فَاضِلُهُ

وكان إبراهيم الموصلي وابنه إسماعيل حاضرين، فقال لإبراهيم: كيف ترى وتسمع؟ قال:  
 أحسن مرئي وسموعي، وفضل الأمير أكثر منه، فقال: خذوا جميع ما أهدى إلى اليوم  
 فاقبضوه بينكم أنلانا إلا ذلك الثمنال، فإني أريد أن أهديه اليوم إلى دنانير، ثم قال:  
 لا والله ما هكذا تفعل الأحرار، يقوم ويوقع الهم ثمته ثم يهديه، فقوم بالف دينار، فحملها  
 إلى القوم من بيت ماله وأقسموا جميع الهدايا بينهم.

كان المهدي يعطي مروان وسأما الخاسر عطية واحدة، فكان سلم يأتي باب المهدي  
 على البرذون القاري، قيمته عشرة آلاف درهم بخرج ولحام مفضضين، ولباسه الخنز  
 والوشى وما أسبه ذلك من الثياب الغالية الأثمان، ورائحة المسك والطيب والغالية تفوح  
 منه، ويحيى مروان بن أبي حفصة عليه قروكل<sup>(١)</sup> وفيص كرايس وعامة كرايس وخفاكل<sup>(٢)</sup>  
 وكساه غليظ، وهو مبتن الرائحة، وكان لا يأكل اللحم حتى يقرم إليه بخلًا، فإذا قرم أرسل  
 غلامه فاشترى له رأسًا فأكله، فقال له قائل: أراك لا تأكل إلا الرأس، قال: نعم أصرف  
 سعره فأمن خيانة الغلام ولا اشتري لحمًا فيطبخه فيأكل منه، والرأس أكل منه ألوانا: أكل  
 من عينيه ألوانًا ومن ظفصيته<sup>(٣)</sup> ألوانًا ومن دماغه ألوانًا.

(١) قصير • (٢) الكرايس: جمع كرايس وهو الفلن • (٣) أي عصاره وكثير العرف  
 غليظه • (٤). النافضة: أصل اللسان •

كان سلم قد بُلي بالكيمياء، فكان يذهب بكل شيء له باطلاً، فلما أراد الله عز وجل أن يصنع له عرف أن باب الشام صاحب كيمياء عجيباً، وأنه لا يصل إليه أحد إلا ليلاً، فسأل عنه، فذُكر له عليه . قال : فدخلت إليه الى موضع معور<sup>(١)</sup>، فدفقت الباب<sup>(٢)</sup> نفرج إلى، فقال : من أنت عافاك الله؟ فقلت : رجل معجب بهذا العلم، قال : فلا تشهرني فإني رجل مستور إنما أعمل الفوت، قلت : إني لا أشهرك إنما أقتبس منك، قال : فاسكنم ذلك، وبين يديه كوز شبيه صغير<sup>(٣)</sup>، فقال لي : اقلع عروته، فقلعتها، فقال : اسبكها في البوتقة<sup>(٤)</sup>، فسبكها، فأخرج شيئاً من تحت مصلاه فقال: دُزّه عليه، فقصت، فقال: أفرغه، فأفرغته، فقال : دعه معك، فاذا أصبحت فأخرج فيعه وعُد إلى، فأخرجته الى باب الشام فبعت الخقال أحد وعشرين درهماً ورجعتُ إليه فأخبرته، فقال : اطلب الآن ما شئت، قلت : يُفيدني؟ قال : بخمسة درهم على ألا تعمله أحداً، فأعطيته وكتب لي صفةً فامتحنمتُ فإذا هي باطلة، فعدتُ إليه، فقبل لي : قد تحول وإذا عروة الكوز الشبيه من ذهب مركبة عليه، والكوز شبه، ولذلك كان يدخل إليه من يطلبه ليلاً ليخفي عليه، فانصرفت وعلمت أن الله عز وجل أراد بي خيراً وأن هذا كله باطل .

قال أبو المستهل : دخلت يوماً على سلم وإذا بين يديه قراطيس فيها أشعار يرثي بعضها أم جعفر، وبعضها جارية غير مسمّاة، وبعضها أقواماً لم يموتوا، وأم جعفر يومئذ باقية، فقلت له : ويحك ما هذا؟ فقال : تحدثت الحوادث فيطالبننا بأن نقول فيها ويستعجلوننا ولا يجمل بنا أن نقول غير الجيد، فنعذ لهم هذا قبل كونه، فمتى حدثت حادثاً أظهرنا ما قلناه فيه قديماً على أنه قيل في الوقت .

دخل سلم على الرشيد فأنشده : \* حتى الأحبة بالسلام \* فقال الرشيد : حياهم الله بالسلام، فقال سلم : \* أعلى ودّاج أم مقام \* فقال الرشيد : حياهم الله على أي ذلك كان، فأنشده :

لم يبق منك ومنهم \* غير الجلود على العظام

(١) معور : مخوف . (٢) الشبه : التماس الأمر . (٣) البوتقة : الوعاء الذي يذيب فيه الصاغ .

فقال له الرشيد : بَلْ مِنْكَ ، وأمر بإخراجه ، وتطير منه ومن قوله ، فلم يسمع منه باقى الشعر ولا أتاه به شيء .

استوهب اصحاب الموصلى من الرشيد تركة سلم ، وكان قد مات عن خير وارث ، فوهبها له قبل أن يتسلمها صاحب الموارث ، فحصل منها على خمسين ألف دينار ، وروى أنه رُفِعَ الى الرشيد أنب سألما قد توفى وخلف مما أخذ منه خاصة ومن زُبَيْدة ألف ألف وستمائة ألف درهم سوى ما خلفه من عقار وضيعة مما اعتقده قديما ، فقبضه الرشيد وتظلم اليه مواليه من آل أبي بكر الصديق رضوان الله عليه ، فقال : هذا خادى ونديمي ، والذي خلفه من مالى فانا أحق به ، فلم يعطهم إلا شيئا يسيرا من قديم أملاكه .

(١) املكه .

٩ - رِبْعَةُ الرَّقِيعِ<sup>(١)</sup>

كان مُتَقَطِعًا عن الحضارة ، بعيدًا عن مجالسة الخلفاء ، فَأُتِيلَ ذِكْرُهُ بسبب ذلك ؛  
لكنهم كانوا يستقيمونه اليهم . وأوّل من فعل ذلك المهديّ ، فدحه ونال جوائزَه ؛ وكان  
أبن المعتز يرى ربيعة أشعرَ غَزَلًا من أبي نُوَاس ، لأنّ في غَزَلِ أبي نُوَاس بردًا كثيرًا ،  
وغَزَلَ هذا سليمٌ عَذْب سهل ، ولذلك فُكِّ شَهْرَتُهُ بَلَّتْ إلى بلاط الخليفة . وكان يمدحُ  
غير الخلفاء ويَنالُ جوائزَهم ويُعوذُ إلى بلده ، وإن قصر أحدٌ في إعطائه هِجَاء ، وله في ذلك  
حديثٌ مع العباس بن محمد بن حل من أمراء بني العباس .

ومن قوله يمدح يزيد بن حاتم المهلب ويحجو يزيد بن أسيد السلمي :

حَلَفْتُ بِمَيْتَا فَيْرَ ذِي مَثْنَوِيَةٍ \* يمينَ امرئٍ آلٍ بها غيرَهم  
لَشَتَانِ مَا بَيْنَ الْيَزِيدَيْنِ فِي الْبُندَى \* يَزِيدُ مُسْلِمٌ وَالْأَغَرُّ ابْنُ حَاتِمِ  
يَزِيدُ مُسْلِمٌ سَالِحُ الْمَالِ ، وَالْفَتَى \* أَخُو الْأَزْدِ لِلْأَمْوَالِ غَيْرُ مُسَالِمِ  
فَهَمُّ الْفَتَى الْأَزْدِيّ - إِتْلَافُ مَالِهِ \* وَهَمُّ الْفَتَى الْقَيْسِيّ - جَمْعُ الدَّرَاهِمِ  
فَلَا يَحْسَبُ التَّمَتُّمُ إِلَى هَجْوَتِهِ \* وَلَكِنِّي فَضَّلْتُ أَهْلَ الْمَكَارِمِ

قال رجلٌ لربيعه : يَا أَبَا أُسَامَةَ ، مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ هَجَوْتَ رَجُلًا مِنْ قَوْمِكَ وَفَضَّلْتَ  
عليه رجلًا من الأزد ؟ فقال : أَخْبَرْتُكَ ، أَتَمَقْتُ فَلَمْ يَبْقَ لِي إِلَّا دَارِي ، فَرَهْنْتُهَا عَلَى نَحْبَانَةٍ  
درهم ، وَرَحَلْتُ إِلَيْهِ إِلَى أَرْمِينِيَّةَ ، فَأَعْلَمْتُهُ بِمَكَانِي وَمَدَحْتُهُ ، وَأَقَمْتُ عِنْدَهُ حَوْلًا ، فَوَهَبَ لِي

(١) هو أبو أسامة ربيعة بن ثابت من موالى سليم ، ويكنى أبا شبابة ، وكان يزل الرقة ، وبها مولده ومشوّه ،  
فأخصه المهديّ اليه ، فدحه بسدة قصائد وأثابه عليها ثوابًا كبيرًا ، وهو من المكثريين المحبسين ، وكان ضريرًا  
وانما أُجِلَ ذِكْرُهُ وأسقطه عن طبقة بده من العراق وتركه خدمة الخلفاء ، ومحاطة الشراء ومع ذلك فاحدم بفضلًا  
مقدّمًا له . وتجد أخباره في الأغاني (ج ١ ص ٣٨) بخاتمة الأدب للبدادي (ج ٣ ص ٥٥) .

(٢) أي لا استثناء فيها .

(٣) هو يزيد بن أسيد (بضم الهمزة) من بيتة بن سليم ، وأخو الأزد هو يزيد بن حاتم بن ربيعة بن المهلب .

خمسمائة درهم، فتحملت وصرت بها الى منزلي، فلم يبق معي كبير شيء، ففزلت في دار يديركا، فقلت: لو أتيت يزيد بن حاتم، ثم قلت: هذا ابن عمي فعل بي هذا الفعل فكيف بغيره! ثم حملت نفسي على أن أتتبه، فأعلم بمكاني، فتركني أسهرا حتى سحرت، فاكرهت نفسي من الجمالين. وكتبت بيتا في رقة فلقينته في دهبان، والبيت:

أَرَأَيْي وَلَا تُكْفِرَنَّ اللَّهَ رَاجِعًا • بِحُفَى حُتَيْنٍ مِنْ يَزِيدِ بْنِ حَاتِمٍ

فوقعت الرقة في يد حاجبه، فأوصلها اليه من غير علمي ولا أمرى، فبعث حنفي، فلما دخلت عليه قال: هيه أُنشدني ما قلت، فتمنعت، فقال: والله لأُنشدنَّ، فأنشدته، فقال: والله لا ترجع كذلك، ثم قال: أُنزعوا حُفَيَّه، فَنَزَعَا حُفَاهُمَا دَانِيرَ وَأَمْرَ لِي بِمَلَأَانِ وَتَوَارَ وَكُمِّي، ألا ترى لي أن أمدح هذا وأهجو ذاك؟ قلت: بلى والله، وسار شِعْرِي حتى بلغ المهدي، فكان سبب دخولي اليه.

قيل لأبي زيد النحوي: إن الأصمعي قال: لا يقال شتان ما بينهما، وإنما يقال: شتان ما هما، وأنشد قول الأعشى: «شتان ما يؤتى على كورها» فقال: كذب الأصمعي، يقال: شتان ما هما وشتان ما بينهما، وأنشد لربيعه الرقي: «لشتان ما بين اليزيدين» وفي استنهاد مثل أبي زيد هل دفع قول مثل الأصمعي بشعر ربيعة كفاية له في تفضيله. أمتدح ربيعة العباس بن محمد بن علي بقصيدة لم يسبق إليها حسنا، وهي طويلة، يقول فيها:

لَوْ قِيلَ لِلْعَبَّاسِ يَا بْنَ مُحَمَّدٍ • قُلْ «لَا» وَأَنْتَ تَحْلَدُ مَا قَالَمَا

مَا إِنْ أَمَدُّ مِنَ الْمَكَارِمِ خَصْلَةً • إِلَّا وَجَدْتُكَ عَمَّهَا أَوْ خَالَفَا

وَإِذَا الْمُلُوكُ تَسَابَرُوا فِي بَلَدٍ • كَانُوا كَوَاكِبَهَا وَكَانَتْ هَلَاكُمَا

إِنْ الْمَكَارِمَ لَمْ تَرَلْ مَعْقُولَةً • حَتَّى حَلَلْتَ بِرَاحَتِكَ عَقْلَمَا

فبعث اليه بدينارين، وكان يقدرو فيه الفين، فلما نظر الى الدينارين كاد يمين غيظا وقال للرسول: خذ هذين الدينارين فهما لك على أن ترده الرقة الي من حيث لا يدري العباس، ففعل الرسول ذلك، فأخذها ربيعة وأمر من كتب في ظهرها:

مدحك يذخه السيف المهل \* لتجري في الكرام كما جرى  
فهبها يذخه ذهب ضياعا \* كذبت عليك فيها وأقررت  
فانت المرء ليس له وقاء \* كافي إن مدحك قد زينت

ثم دفعها الى الرسول وقال : ضَمَّها في الموضوع الذي أخذتها منه ، فردَّها الرسول ؛ فلما كان من الغد أخذها العباس فنظر فيها ، فلما قرأ الأبيات غضب وقام من وقته فركب إلى الرشيد ، وكان أثيراً عنده يُعَلِّمه ويقدمه ، وكان قد همَّ أن يحطِّب إليه ابنته ، فرأى الكراهة في وجهه ، فقال : ما شأنك ؟ فقال : هجاني ربعة الرق ، فأحضر ، فقال له الرشيد : تهجو عني وأثر الخلق عندي ؟ لقد هممت أن أضرب عنقك ، فقال : والله يا أمير المؤمنين لقد مدحني بقصيدة ما قال مثلها أحد من الشعراء في أحد من الخلفاء ، ولقد باليت في الثناء وأكثر في الوصف ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمره بإحضارها ! فلما سمع الرشيد ذلك منه سكن غضبه وأحب أن ينظر إلى القصيدة ، فأمر العباس بإحضار الرقعة ، فتلکا عليه العباس ، فقال له الرشيد : سألتك بحق أمير المؤمنين ألا أمرت بإحضارها ، فعلم العباس أنه قد أخطأ وعطل ، فأمر بإحضارها ، فأحضرت ، فأخذها الرشيد وإذا فيها القصيدة بينها ، فاستحسنها وأستجدها وأغجب بها وقال : والله ما قال أحد من الشعراء في أحد من الخلفاء مثلها ، لقد صدق ربعة وبر ، ثم قال للعباس : كم أثبتت عليها ؟ فسكت العباس وتغير لونه وجرى ريقه ، فقال ربعة : أتابني عليها يا أمير المؤمنين بدينارين ، فتوهم الرشيد أنه قال ذلك من الموجهة على العباس ، فقال : يجياني يا ربي بك أتابك ؟ قال : وحياتك يا أمير المؤمنين ما أتابني عليها إلا بدينارين ، فغضب الرشيد غضباً شديداً ونظر في وجه العباس وقال : سوء لك ! أي حال قعدت بك عن إتابته ؟ الأموال ؟ فوالله لقد مولئك جهدي ، أم أنقطع المأذة عنك ؟ فوالله ما أنقطع ، أم أضلک ؟ فهو الأصل لا يذانيه شيء ، أم نفسک فعلت ذلك بك حتى فضحت آباك وأجدادك وفضحتني



وَفَسَّكَ ؟ فَتَكَسَّ الْمَبَاسُ رَأْسَهُ وَلَمْ يَنْطِقْ ، فَقَالَ الرَّشِيدُ : يَا غَلَامُ ، أُعْطِ رِبْعَةَ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ وَجِلْعَلَهُ وَأَجْلِلْهُ عَلَى بَغْلَةٍ ، فَلَمَّا حُمِلَ الْمَسْأَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَلِيسَ الْجِلْعَلَةُ قَالَتْ : بِحَيَاتِي يَارِاقُ لَا تَذْكُرْهُ فِي شِعْرِكَ لَا تَعْرِضُ وَلَا تَصْرِيحًا ، وَقَرَّرَ الرَّشِيدُ عَمَّا كَانَ هَمُّهُ بِهِ أَنْ يَتَرَقَّجَ إِلَيْهِ ، وَظَهَرَ لَهُ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ جَفَاءٌ كَثِيرٌ وَأَطْرَاحٌ لَهُ .

قال أبو بشر : كُنْتُ حَاضِرًا رِبْعَةَ الرِّقَى يَوْمًا وَجِئْتُهُ أَمْرَأَةً فَقَالَتْ : نَقُولُ لَكَ فَلَانَةَ إِنْ بُنِيَ مَوْلَايَ عَجُومَةٌ فَإِنْ كُنْتُ تَعْرِفُ لَهَا عَوْدَةً فَأَفْعَلْ ، فَقَالَ أَكْتُبْ لَهَا أَبَا شُرْهَذَةَ الْعَوْدَةِ :

يَقُولُوا يَحْيَا بِأَسْمِ الْهِدَى • لَا يَعْزِضُ السُّتْمُ لَنْ قَدْ شَقَى  
أَعْيَدُ مَوْلَاتِي وَمَوْلَاتَهَا • وَأَبْتَهَا بِعَوْدَةِ الْمُصْطَفَى  
مِنْ شَرِّ مَا يَعْزِضُ مِنْ حَلَّةٍ • فِي الصَّبْحِ وَاللَّيْلِ إِذَا اسْتَدَلَّا

فَقُلْتُ لَهُ : يَا أَبَا ثَابِتٍ ، لَسْتُ أَحْسِنُ أَنْ أَكْتُبَ يَقُولُوا يَحْيَا ، فَكَيْفَ أَكْتُبُهَا ؟ قَالَ أَنْضِجُ الْمِسْدَادَ مِنْ رَأْسِ الْقَلَمِ فِي مَوْضِعَيْنِ حَتَّى يَكُونَ كَالثَّقَلَيْنِ<sup>(١)</sup> ، وَأَدْفَعُ الْعَوْدَةَ إِلَيْهَا لِأَنَّهَا نَاعِمَةٌ ، فَفَعَلْتُ وَدَفَعْتُهَا إِلَيْهَا ، فَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ جَاءَتْ الْجَارِيَةُ وَهِيَ لَا تَتَمَلَّكُ حَتْمًا ، فَقَالَتْ لَهُ : يَا بَعْجُونَ مَا فَعَلْتَ بِنَا إِكْدَانًا فَتَضَعُ بِنَا صِنْعَتًا ؟ قَالَ : لَهَا أَصْنَعُ ! أَشَاهِرُ أَنَا أَمْ صَاحِبَ تَعَاوِيدٍ ! .

وَأَتَّفَقَ لِلزُّقَى أَيْضًا مِثْلُ ذَلِكَ مَعَ مَعْنَى بِنِ زَائِدَةٍ ، وَقَدْ تَقَبَّيْتُ فِي بَعْضِ قَدَمَاتِهِ إِلَى الْعِرَاقِ ، فَدَحَسَهُ ، فَلَمْ يَبْهَشْ لَهُ ، فَهَبَّاهُ بِقَصِيدَةٍ مَطْلُوعًا :

مَعْنُ يَا مَعْنُ يَا بِنِ زَائِدَةَ الْكَلْبِ الَّذِي فِي الذَّرَاعِ لَا فِي الْبَيْتَيْنِ  
لَا تُفْخَاخِرْ إِذَا نَفَخْتَ بِأَبَا • إِلَيْكَ وَتَفَرَّ بِمَمْلَكَ الْحَوَافِرِ<sup>(٢)</sup>

(١) العود : الزينة يرق بها الانسان من فرع ارجنون أو مرض . (٢) الثفت الصاق البصر بغير الزاقي في القعدة عند الزينة .

(٣) الحوافر : هو الحارث بن شريك الشيباني ، سمى بذلك لأن نيس بن طاحم التميمي سخره بالبحر حين حاف أن يخرجه ، وقد ظهر بذلك سواربن حبان المخزومي فقال :  
ونحن حفرًا الحوافر بطله • سقته نجيبًا من دم الجوف أشكلا

ومن غَزَلَه أَيْبَاتٌ يُغْنِي بِهَا، وَهِيَ :

وَرَزَمُ أَتَى قَدْ تَبَدَّلَتْ خُلَّةٌ<sup>(١)</sup> • سِوَاهَا وَهَذَا الْبَاطِلُ الْمَقْصُولُ  
لَقَا اللَّهَ مِنْ بَاعِ الصَّدِيقِ بَغِيرِهِ • فَقَالَتْ نَمِ حَاشَالَهُ إِنْ تَكُ تَفْعَلُ  
سَتَعْرِمُ إِنْسَانًا إِذَا مَا صَرَمْتَنِي • بِحَبِّكَ فَأَنْفَارُ بَسَدِهِ مِنْ تَبَدَّلِ

(١) الخلة : الخلية .

١٠ - السرقاشي<sup>(١)</sup>

كان سَهْلَ الشعر معبوتاً ، وكان مُقْطِعاً إلى آل بَرْك ، مُسْتَعْتَباً بهم عن سواهم ،  
وكانوا يَصُولُون به على الشعراء ، ويُرْوُونَ أولادهم أشعاره ، ويُدُونُونها القليل والكثير منها ،  
تَعْصِباً له ، وحَفَظاً لخدمته ، وتَوْنِيّاً باسمه ، وتحريكاً لنشاطه ، حَفِظَ ذلك لهم . فلما نَكَبُوا  
صار إليهم في حُسْنِهِمْ ، فأقام معهم مدة أيامهم يُنْشِدُهُمْ ويُسَامِرُهُمْ حتى ماتوا ، ثم رَأَاهُمْ  
فأكثر من رَأَاهُمْ ، فمن ذلك قوله في جعفر :

كَمْ هَاتِفٍ بِكَ مِنْ بَاكِ وَبَاكِئَةٍ • يَا طَيْبَ الضَّيْفِ إِذْ تُدْعَى وَبِجَارِ  
إِنْ يُدَمِّمَ الْقَطَرُ كُنْتَ الْمَرْنُ بَارِقَهُ • لَمَعَ الدَّانِيَرُ لَا مَا خَيْلَ السَّارَى

وقوله :

لَعَمْرُكَ مَا بِالْمَوْتِ عَارٌ عَلَى الْفَتَى • إِذَا لَمْ تُعْصِبْهُ فِي الْحَيَاةِ الْمَعَارِ  
وَمَا أَحَدٌ سِوَى وَإِنْ كَانَ سَالِياً • بِأَسْمَ مَا خَبَّرَهُ الْقَبْرِ  
وَمَنْ كَانَ يَمَّا يُحَدِّثُ النَّهْرُ جَارِئاً • فَلَا يَدَّ يَوْمًا أَنْ يَرَى وَهُوَ صَابِرِ  
وَلَيْسَ لَذَى عَيْشٍ عَنِ الْمَوْتِ مُقَهَّرٌ • وَلَيْسَ صِلَى الْأَيَّامِ وَاللَّهْرِ غَايِرِ  
وَكُلُّ شَبَابٍ أَوْ جَدِيدٍ إِلَى الْبَلِّ • وَكُلُّ أَمْرٍ بَوْمًا إِلَى اللَّهِ صَائِرِ  
فَلَا يُبْعِدُكَ اللَّهُ عَنْ جَعْفَرَا • يُرْوَى وَلَوْ دَارَتْ عِلَّ الدُّوَارِ  
فَلَا تَبْتَ لَا أَتَمُّكَ أَبْجَكَ مَا دَعَتْ • صِلَ قَرِيبَ وَرَقَاءَ أَوْ طَارَ طَائِرِ

ومن ذلك قوله لما صُيِّبَ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى وَأَجْتَازَ بِهِ الرِّقَاقُ : وهو مصلوبٌ على

الْخُذْعِ ، فوقف يبكي ثم قال :

(١) هو الفضل بن عبد الصمد مولد سرقاش ، وهو من أهل البصرة . توفي سنة ٥٢٠٠ . ونجد ترجمته

في الألفاظ ( ج ١٥ ص ٣٥ ) وديفات الرقيات ( ج ٢ ص ١٢٥ ) والشعر والشعراء ( ص ٥١٥ ) .

(٢) الماير : الماير .

أما والله لولا خوف وإش • وصرت للخليفة لا تسام  
 تطقتا حول جذعك وأسنتكنا • كما للناس بالبحر أسلأ  
 فما أبصرت قبلك يابن يحيى • حصاماً حنقه السيف الحسام  
 على اللذات والدنيا جميعا • ودولة آل برمك السلام

فكتب أهل الأخبار بذلك إلى الرشيد، فأحضره فقال : ما حملك على ما قلت ؟ فقال :  
 يا أمير المؤمنين كان إلى محسناً ، فلما رأيته على الحال التي هو عليها حزني إحسانه لما ملكت  
 نفسي حتى قلت الذي قلته ؛ قال : ولم كان يُجرى عليك ؟ قال : ألف دينار في كل سنة ،  
 قال : إنا قد أضعفناها لك .

ومن قوله يصف جارية :

صفت وحسن أوزنا القلب لومة • تضرر في أحشاء قلب من  
 تمثلها نفس ابني فانتفى • عليها بطرف الناظر المتبسم  
 بجملتي حبى لها فوق طاقى • من الشوق دأب الحائر المتقهم

١١ - أبو العتاهية<sup>(١)</sup>

قال أحمد بن زهير: سمعت مصعب بن عبد الله يقول: أبو العتاهية أشعر الناس،  
فقلت له: بأي شيء استحق ذلك عندك؟ فقال بقوله:

تعلقتُ بآمالٍ • طُولِ أَىِّ آمَالٍ  
وأقبلتُ على الدنيا • مُلِحًا أَىِّ إقبالٍ  
أيها هذا تجهُّزُ • خِراقِ الأهلِ والمالِ  
فلا بد من الموت • على حال من الحال

ثم قال مصعب: هذا كلام سهل حق لا حشو فيه ولا نقصان، يعرفه العاقل ويقر به  
الجاهل. وكان الأصمعي يستحسن قوله:

(١) هو أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد، أطلع أهل زمانه شعرا وأكثرهم قولاً وأميلهم لفظاً،  
وأسمهم بديهة وأرتجالاً، وأول من فتح للشعراء باب الوصف والزعميد في الدنيا والهي عن الافتراء بها، وأكثر  
من الحكمة.

ولد بين الثمسة، ١٣٠ هـ ونشأ بالكوفة في عمل أهله. وكانوا باعة جرار، إلا أنه ربا بنفسه عن عمله وقال  
الشعر في صباه وامتزج بلحمه ودمه حتى صار كما قال هو عن نفسه «لو شئت أن أجعل كلامي كله شعرا لقلت»  
فدفع صوته وسلك طريق علماء الكوفة. ثم قدم بغداد ودمع المهدي وعرف بعض خدم قصر الخلافة  
وجواريه فتشقق منهم فتاة تدعى حنية، ولما يس منها لها منها بعض الشيء. ودرس كثيرا من مذاهب المتكلمين  
والشعبة والجلابية والزهادة فكان يسلك كل مذهب منها مدة ثم يتخل عنه إلى الآخر حتى اختار له من كل ذلك  
عقيدة مختصة أصغت به إلى الباطنة والزيد في الدنيا وقولا ومعيشة على الإفراط منه في حب المال والجوع له  
واليليل به على الأهل والولد والتقدم.

ولم يأت عصر الرشيد حتى أضرب من الفزل وقصر قوله على الزيد في الدنيا وانفذ كبر الموت وأهله، وهو في خلال  
ذلك يمدح الخليفة وملكه الدولة ويأخذ جوائزهم، ثم عرضته حال انتعج بها من قول الشعر البتة حتى حبه الرشيد  
لعدم تليخه ما اقترحه عليه من القول فيه ثم أطلقه بعد أن أجاب طلبه، وعاد القول الشعر على عادته فيه وترك القول  
والحمية، وبقى على ذلك مدة الرشيد والأمين وأكثر أيام المأمون. توفي سنة ٢١١ هـ.

وله ديوان مطبوع في بيروت سنة ١٨٨٧ ونجسة أخباره في الأغانى ج ٣ ص ١٢٦ ريج ٦ ص ١٨٦  
رج ٨ ص ٢٤ وابن خلكان ج ١ ص ٧١ وطيقات الشعراء ص ٩٧ والفهرست ص ١٦٠.

أَنْتَ مَا اسْتَفْنَيْتَ عَنْ صَا • حَيْكَ الدَّهْرَ أَخُوهُ  
فَإِذَا أَحْجَجْتَ إِلَيْهِ • سَامَةً مَجَّكَ فُسُوهُ

وَأَنْشُدْ لَهُ سَلَّمَ الْقَائِمِرَ :

سَعَكُنْ يَتَقَى لَهُ سَكُنُ • مَا بَعْدَ إِذْ ذُنُ الزَّمَنِ  
نَحْنُ فِي دَارٍ يَحْبِرُنَا • يَبْلَاهَا نَاطِقُ لَيْسَ  
دَارُ سُوءٍ لَمْ يَمُ فَرَحُ • لِأَعْرَى فِيهَا وَلَا حَزَنُ  
فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْفُسَنَا • كُلُّنَا بِالْمَوْتِ مُرْتَبِنُ  
كُلُّ نَفْسٍ عِنْدَ مَيْتِنَا • حَقُّهَا مِنْ مَالِهَا الْكَفَنُ  
إِنْ مَالُ الْمَرْءِ لَيْسَ لَهُ • مِنْهُ إِلَّا ذِكْرُهُ الْحَسَنُ

وقال عبد الله بن عبد العزيز العمري : أشعر الناس أبو العتاهية حيث يقول :

مَا ضَرَّ مَنْ جَعَلَ التَّرَابَ مِهَادَهُ • إِلَّا يَنَامُ عَلَى الْحَوِيرِ إِذَا قَبِيعُ

وقيل لأبي العتاهية : كيف تقول الشعر؟ قال : ما أردته فقط إلا مثل لي ، فأقول  
ما أريد وأترك ما لا أريد . وكان يقول : لو شئت أن أجعل كلامي شعرا كله لفعلت .

حمُّ الرشيد فصار أبو العتاهية إلى الفضل بن الربيع برقة فيها :

لَوْ عَلِمَ النَّاسُ كَيْفَ أَنْتَ لِم • مَا تَوَا إِذَا مَا أَيْتَ أَجْمَعُهُمْ  
خَلِيفَةُ اللَّهِ أَنْتَ تَرَجَّحُ بَالِنَا • سِ إِذَا مَا وَدَّيْتَ أَنْتَ وَهْمُ  
قَدْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّ وَجْهَكَ يَنْدُ • نَحْيَ إِذَا مَا رَأَى مُعْصِدُهُمْ

فأنشدها الفضل بن الربيع الرشيد ، فأمر بإحضار أبي العتاهية ، فما زال يسأله ويحدثه  
إلى أن برئ ، ووصل إليه بذلك السبب مألٌ جليل . وقد حدث ابن الأعرابي بهذا  
الحديث ، فقال له رجل بالجلس : ما هذا الشعر بمستحق لما قلت ، قال : ولم ؟ قال :  
لأنه ضعيف ، فقال ابن الأعرابي ، وكان أحد الناس ، الضعيف والله عقلك لا شعرك

أبي العتاهية، ألائي العتاهية تقول إنه ضعيف الشعر! فوائه ما رأيتُ شاعرا قط أعطج  
ولا أقدر على بيت منه، وما أحسب مذهبه إلا ضربا من الشعر، ثم أفسد له :

قطعتُ منك حبال الآمال ، وحططتُ عن ظهر المطى رجال  
وبستُ أن أبقى لشيء نلتُ مم ، ما فيك يا دنيا وأنت يبق لي  
فوجدتُ برد اليأس بين جوانحي \* وأرحتُ من حل ومن ترحال  
يا أيها الطير الذي هو من غدي \* في قبره ممسوق الأوصال  
حذفتُ المنى عنه المشمر في الهدى \* وأرى منك طويلة الأذيال  
جبلُ ابن آدم في الأمور كثيرة \* والموت يقطع جيلة الخصال  
مالي أراك لحز وجهك مخلقا \* أخلقتُ يا دنيا وجسوه رجال  
قيستُ السؤال فكان أعظم قيمة \* من كل عارفة جرت بسؤال  
فإذا أتيتُ بئيل وجهك ساللا \* فابذله للتصكرم المفضال  
وإذا خشييتُ قسرا في بلدة \* فاشد يدك بساجل الترحال  
وأصبر على غير الزمان فإنما \* فرج الشدائد مثل حل عقال

ثم قال للرجل : هل تعرف أحدا يحسن أن يقول مثل هذا الشعر؟ فقال له الرجل :  
يا أبا عبد الله، جعلني الله فداك، إني لم أزد عليك ما قلت، ولكن الزهد مذهب  
أبي العتاهية، وشعره في المديح ليس كشعره في الزهد، فقال: أفليس الذي يقول في المديح:

وهارون ما لمزن يشقى من العبدى \* إذا ما العبدى بالرق قصت حناجره  
وأوسط بيت في قريش لبئسه \* وأول عز في قريش وأخسره  
وزحف له تحكي البروق سيوفه \* وتحكي الرعدة القاصفات حوافره  
إذا حيمت شمس النهار تضاحكت \* إلى الشمس فيه يرضه ومغافره  
إذا نكب الإسلام يوما بنكبة \* فهارون من بين البرية غافره  
ومن ذافوت الموت والموت ملرك \* كما لم يقت هارون ضد يافره

فتخلص الرجل من شرّ ابن الأعرابي بأن قال له : القول كما قلت ، وما كنت سمعت له مثل هذين الشعرين ، وكتبهما عنه .

قال ثُمّامة بن أنس بن أَشدن أبي العنابية :

إذا المرء لم يُتّق من المال نفسه • تملكه المال الذي هو ماله  
ألا إنما مالى الذى أنا مُتّق • وليس ليّ المال الذى أنا تاركه  
إذا كنت ذا مال فبادر به الذى • يَحِقّ وإلا استهلكته ماله

فقلت له : من أين قضيت هذا ؟ فقال : من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”إنما لك من مالك ما أكلت فأفريت أو لبست فألبيت أو تصدقت فأضيت“ . فقلت له : أنؤمن . بأن هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه الحق ؟ قال : نعم ؛ قلت : فلم تحبس عندك سبعا وعشرين بكرة في دارك ولا تاكل منها ولا تشرب ولا تزني ولا تقسمها ذخرا ليوم تفرك وفاقيت ؟ فقال : يا أبا معن ، والله إني ما قلت هو الحق ، ولكني أخاف الفقر والحاجة إلى الناس ؛ فقلت : وبيم تريد حال من أفقر على حالك وانت دائم الحرص ، دائم الجمع ، ضحج على نفسك ، لا تشتري الخمر إلا من عيد إلى عيد ؟ ففرك جواب كلامي كله ، ثم قال لي : والله لقد اشتريت في يوم عاشوراء لحما وتوابعه وما يتبعه بخمسة دراهم ؛ فلما قال هذا القول أضحكني حتى أذهلتني عن جوابه ومعاتبته ، فاستكت عنه وعلمت أنه ليس ممن شرح الله صدره للإسلام .

زار مرة عمرو بن مسعدة فحجب عنه ، فلم يزل يتره ، فاستبطاه عمرو ، فكتب إليه :

كفّنى الياض عنك فإر • قبح طرقي اليك من كسبل  
إني إذا لم يكن أذى نقة • قطعت منه سبائل الأمل

وكتب إليه مرة أخرى :

مالك قد حلت عن إخطاك وأسد • تبدلت يا عمرو شيمة كبد  
إني إذا الباب تاه حاجبه • لم يك عندي في حجره نظره<sup>(١)</sup>

(١) النظرة : التأخير والإمهال .



لَسَمَ تَرْجَوْتُ لِلْحَسَابِ وَلَا \* يَوْمَ تَكُونُ الْمَاءُ مُنْقَطِرَةً  
لَكِنْ لَدُنْيَا كَالظَّلِّ يَهْجُبُهَا \* سَرِيعَةَ الْإِقْضَاءِ مُنْتَشِرَةً  
قَدْ كَانَ وَجْهِي لَدَيْكَ مَعْرِفَةً \* فَالْيَوْمِ أَمْنِي خَرًّا مِنَ التَّنَكُّرِ

جلس المهدي للشعراء يوما فأذن لهم، وفيهم بشار وأتبع، وكان أتبع يأخذ عن بشار ويعظمه، وكان في الغوم غير هذين أبو العنابية، قال أتبع: فلما سمع بشار كلام أبي العنابية قال: يا أخا سليم، أهدنا ذلك الكوفي الملقب؟ قلت: نعم، قال: لا جزي الله خيرا من جمعنا معه؛ ثم قال له المهدي: أنشد، فقال: ويحك! أو يستنشد أيضا قبلنا؟ فقلت: قد ترى؛ فأنشد:

إِلَّا مَا لِسَيِّدَتِي مَا لَهَا \* أَدْلَا فَاغِيلَ إِذْ لَهَا  
وَالْأَقِيمِ تَجَمُّتْ وَمَا \* جَنَّتْ سَقَى اللَّهِ أَطْلَالَهَا  
إِلَّا إِنِّ جَارِيَةٌ لِلْإِمَا \* مَقْدَأْسِكِنْ الْحَسَنِ يَرْبَاهَا  
مَشَتْ بَيْنَ حُورٍ قِصَارِ الْخَطَا \* تُجَاذِبُ فِي الْمَشَى أَكْفَالَهَا  
وَقَدْ أَتَبَ اللَّهُ تَعْمَى بِهَا \* وَأَتَبَ بِاللَّوْمِ عُذْبَاهَا

فقال بشار لأتبع: ويحك يا أخا سليم! ما أدرى من أي أمرية أعجب، أم من ضعف شعره أم من تشبيهه بجارية الخليفة وهو يسمع ذلك بأذنه؟ حتى أتى على قوله:

أَتَتْهُ الْخِلَافَةُ مُقَادَةً \* إِلَيْهِ تُجَرَّرُ أَذْيَاهَا  
فَلَمْ تَسْكُ تَصْلُحْ إِلَّا لَهُ \* وَلَمْ يَكْ يَصْلُحْ إِلَّا لَهَا  
وَلَوْ رَأَاهَا أَحَدٌ غَيْرُهُ \* لَزُلْزِلَتْ الْأَرْضُ زَلْزَالَهَا  
وَلَوْ لَمْ تَطْلُعْ بَنَاتُ الْقُلُوبِ \* لَمَّا قَوَّلَ اللَّهُ أَعْمَالَهَا  
وَأَنَّ الْخِلَافَةَ مِنْ بَيْضِ «لَا» \* إِلَيْهِ لِيُبَيِّضَ مِنْ قَالَهَا

فقال بشار لأتبع وقد آهت طربا: ويحك يا أخا سليم، أترى الخليفة لم يطر عن فراشه طربا لما يأتي به هذا الكوفي!

ولما آتته منصور بن عمار بالزندقة، لأنه لا يذكر في شعره الجنة والنار وإنما يذكر الموت، قال فيه :

يا وأعظ الناس قد أصبحت متها \* إذ حيت منهم أمورا أنت تأتيها  
كاللأس الثوب من عرى وعورته \* للناس بادية ما إن يواربها  
فأعظم الإثم بعد الشرك فعائمه \* في كل نفس عماها عن مساويها  
عمرانها بعبوب الناس تبصرها \* منهم ولا تبصر العيب الذي فيها

وقيل له : زعم الناس أنك زنديق، فقال : والله ما دعى إلا التوحيد ، ف قيل له قل شيئا يتحدث به عتك، فقال :

ألا إنا كنا بائد \* وأى بنى آدم خالِد  
وبلّوهم كان من ربهم \* وكلّ الى ربه مائد  
فيا عجباً كيف يعصى الإله أم كيف يمسده الجاحد  
وفى كلّ شيء له آية \* تدل على أنه واحد

وسمع الجاحظ مرة من ينشد أرجوزة أبي العتاهية التي سماها "ذوات الأمثال" حتى أتى على قوله :

بالشباب المريح التصابي \* روائح الجنة في الشباب

فقال للنشد : فف، ثم قال : أنظروا الى قوله : «روائح الجنة في الشباب» فإن له معنى كمنى الطرب لا يقدر على معرفته إلا القلوب، وتمعجز عن ترجمته الألسنة إلا بعد التطويل وإدامة التفكير، وخير المعاني ما كان القلب الى قبوله أسرع من اللسان الى وصفه . وهذه الأرجوزة من بدائع أبي العتاهية، ويقال : إن فيها أربعة آلاف مثل، منها قوله :

حسبك مما تبغيه القوت \* ما أكَثَرُ القوت لمن يوت  
الفقر فيما جاوز العكفا \* من أتى الله رجاً وخافا  
هى المقادير قلبي أو قدّر \* إن كنت أخطأت فلا أخطأ القدر

لِكُلِّ مَا يُؤْذِي وَإِنْ قَلَّ أَلَمْ \* مَا أَطْوَلَ اللَّيْلَ عَلَيَّ مِنْ لَمْ يَتَمْ  
مَا أَتَنَعَ الْمَرْءُ بِمَثَلِ فَقِيلَ \* وَخَيْرُ دُخْرِ الْمَرْءِ حُسْنُ فَصْلِهِ  
إِنْ التَّسَادُ ضَلَّهِ الصَّلَاحُ \* وَرُبَّ حَيْدٍ جَرَّهُ الْمُزَاحُ  
مَنْ جَمَلَ الْفُتَامُ عَيْنًا هَلَكَا \* مُبْلِكُ الشَّرِّ بَكَاغِيهِ لَكَ  
إِنْ الشَّبَابَ وَالْفَرَاحَ وَالْجِلْدَ \* مَقْسَدٌ لِلرَّءِىِّ مَقْسَدُ  
يُغْنِيكَ عَنْ كُلِّ فَيْحٍ تَرْكُهُ \* يَرْتَبِنُ الرَّأْيَ الْأَحْسِيلُ شُكُّهُ  
مَا حَيْشُ مَنْ آفَتْهُ بَاقِيَةٌ \* نَفْسٌ عَيْشًا صَكَلَهُ فَنَازِلُهُ  
يَارُبُّ مَنْ احْطَطْنَا بِجَهَنَّمِ \* قَدْ سَرَّ اللَّهُ بِذِي حَمْدِهِ  
مَا تَطْلُعُ الشَّمْسُ وَلَا تَغِيْبُ \* إِلَّا لِأُمْرِ شَأْنُهُ عَجِيبُ  
لِكُلِّ شَيْءٍ مُعْبِدٌ وَجُوهٌ \* وَأَوْسَطُ وَأَصْفَرُ وَأكْبَرُ  
مَنْ لَكَ بِالْهَيْضِ وَكُلُّ مُتَمَرِّجٍ \* وَسَاوِسُ فِي الصَّدْرِ مِنْهُ تَمْتَلِجُ  
وَكُلُّ شَيْءٍ لَاحِقٌ بِجُوهَرِهِ \* أَصْفَرُهُ مُنْصَلٌّ بِأَكْبَرِهِ  
مَا زَالَتِ الدُّنْيَا لَنَا دَارَ أَدَى \* مِمَزُوجَةِ الصُّفَى بِالْوَانِ الْقَدَى  
الْخَيْرُ وَالشَّرُّ بِهَا أَرْوُاجُ \* لَذَا نِتَاجُ وَلَذَا نِتَاجُ  
مَنْ لَكَ بِالْهَيْضِ وَلَيْسَ تَحْضُ \* يَجُتُّ بِبَعْضٍ وَيَهْلِكُ بِبَعْضٍ  
لِكُلِّ إِنْسَانٍ طَيِّمَتَانِ \* خَيْرٌ وَشَرٌّ وَهُمَا ضِدَانِ  
إِنَّكَ لَوْ تَسْتَشِيقُ الشَّحِيحَا \* وَجَنَّتْهُ أَتَى شَيْءٌ رِيحَا  
وَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ إِذَا مَا عَدَا \* بَيْنَهُمَا بَوْنٌ بَيْنَهُمَا جَدَا  
عَجِبْتُ حَتَّى نَعْنَى الشُّكُوتُ \* صِرْتُ كَمَا قَاتَى حَائِرُ مَبْهُوتُ  
كَذَا قَفَى اللَّهُ فَكَيْفَ أَصْنَعُ \* الْعَمْتُ إِنْ صَاقَ الْكَلَامُ أَوْصَعُ

ومن قول أبي التاهية في الوحدة والتبرم بالناس :

بَرِمْتُ بالناس وأخلاقهم \* قَصِرْتُ أَسْتَأْنِسُ بالوَحْدَةِ  
مَا أَكْثَرَ النَّاسَ لِعَمْرَى وَمَا \* أَظْلَمَ فِي حَاصِلِ الْعَيْتَةِ

قال الأصمعي : شعر أبي التاهية كساحة الملوك ، يقع فيها الجوهر والذهب والتراب  
والخزف والنوى .

كان أبو التاهية لا يفارق الرشيد في سفر ولا حضرا إلا في طريق الحج ، وكان يجري  
عليه في كل سنة خمسين ألف درهم سوى الجوائز والمعان ، فلما قدم الرشيد الرقة ليس  
أبو التاهية الصوف وتزهّد ، وترك حضور المائدة والقول في الغزل ، وأمر الرشيد بحبسه  
لخيس ، فكتب إليه من وقته :

أَنَا الْيَوْمَ لِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَشْهُرُ \* يَرُوحُ عَلَى أَلَمٍ مِنْكَ وَيَكْرُ  
تَذَكَّرُ أَمِينَ اللَّهِ حَقِّي وَمُحِبِّي \* وَمَا كُنْتُ تُؤَلِّقُنِي كَذَلِكَ يُدَكِّرُ  
لِيَالِي تُدْنِي مِنْكَ بِالْقَرَبِ مَجْلِسِي \* وَوَجْهُكَ مِنْ مَاءِ الْبِشَاشَةِ يَقَطِّرُ  
فَمَنْ لِي بِالْعَيْنِ الَّتِي كُنْتُ مَرَّةً \* إِلَى بِهَا فِي سَالِفِ الدَّهْرِ تَنْظُرُ  
فلما قرأ الرشيد الأبيات قال : قولوا له : لا بأس عليك ، فكتب إليه :

أَرِقْتُ وَطَارَ مِنْ عَيْنِي النَّعَاسُ \* وَهَامَ السَّامِرُونَ وَلَمْ يُؤْأَسُوا  
أَمِينَ اللَّهِ أَمْنُكَ خَيْرُ أَمِينٍ \* عَلَيْكَ مِنَ التَّقِي فِيهِ لِيَاسُ  
نُؤَاسُ مِنَ السَّمَاءِ بِكُلِّ بَرٍّ \* وَأَنْتَ بِهِ تَسُوسُ كَمَا تُؤَاسُ  
كَأَنَّ الْخَلْقَ رَكَّبَ فِيهِ رُوحُ \* لَهُ جَسَدٌ وَأَنْتَ عَلَيْهِ رَاسُ  
أَمِينَ اللَّهِ إِنْ الْخَيْسَ بَاسُ \* وَقَدْ أُرْسَاتَ لَيْسَ عَلَيْكَ بَاسُ

وكتب إليه أيضا في الحبس :

وَكَلَّفَنِي مَا حُلَّتْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ \* وَقُلْتُ سَابِقِي مَا تُرِيدُ وَمَا تُهَوِّي  
فَلَوْ كَانَ لِي قَلْبَانِ كَلَّفْتُ وَاحِدًا \* هَوَالَهُ وَكَلَّفْتُ الْخَلِيلَ لِمَا يُهَوِّي

فاتر باطلالة .

كان الهادى واجدا على أبى التاهية للازمته أخاه هارون فى خلافة المهدي، فلما ولى موسى الخلافة قال أبو التاهية بمدحه :

بَضْطَرِبَ الطُّوفَ وَالرَّجَاءُ إِذَا ■ حَرَكَ مُوسَى الْقَضِيبَ أَوْفَكَرَ  
مَا أَيْتَنَ الْفَضْلُ فِي مَغِيْبٍ وَمَا ■ أَوْرَدَ مِنْ رَأْيِهِ وَمَا أُصْدِرَ  
فَكَمْ تَرَى عَزَّ عِنْدَ ذَلِكَ مِنْ ■ مَعَشَرَ قَوْمٍ وَنَلَّ مِنْ مَعَشَرَ  
يُبْخِرُ مِنْ مَسِّهِ الْقَضِيبُ وَلَوْ ■ يَمْسُهُ فَيَرِيهِ لِمَا أُتْمِرَ  
مَنْ مِثْلُ مُوسَى وَمِثْلُ وَالِدِهِ أَلِ ■ مَهْدِيٍّ أَوْ جَدِّهِ أَبِي جَعْفَرٍ

لرضى عنه ، فلما دخل عليه أنشده :

لَهْفَى عَلَى الزَّمَنِ الْقَصِيرِ ■ بَيْنَ الْخَوْدَيْنِ وَالسَّيْرِ  
لِإِذْ نَحْنُ فِي غَرْفِ الْحِنَا ■ نِ نَعُومٍ فِي بَحْرِ السَّرُودِ  
فِي قُبَّةٍ مَلَكُوعَيْنَا ■ نَ الدَّهْرِ أَمْثَالُ الصُّبُورِ  
مَا مِنْهُمْ إِلَّا الْجَسُودُ ■ رُ عَلَى الْهَوَى غَيْرَ الْخَصُودِ  
يَتَمَاوَرُونَ مَدَامَةً ■ صَبَاءَ مِنْ حَلَبِ الْعَصِيرِ  
عِذْرَاءَ رِيَّاهَا شُمَا ■ عُ الشَّمْسِ فِي حَرِّ الْمُهْجِرِ  
لَمْ تَكُنْ مِنْ نَارٍ وَلَمْ ■ يَتَأَقَّ بِهَا وَضْرُ الْقَنُودِ  
وَمُقَرَّطَسَقِي يَمْشِي أَمَا ■ مِ الْقِسْمِ كَالرَّيْثَانِ الْغَرِيرِ  
بِزَجَاجَةٍ تَسْتَخْرِجُ أَلْ ■ رَ الدِّينِ مِنَ الضَّمِيرِ  
زَهْرَاءَ مِثْلَ الْكَوْكَبِ أَلِ ■ رَى فِي كَفِّ الْمُنْدِيرِ  
تَرَعُ الْكَرِيمَ وَلَيْسَ يَدِ ■ رَى مَا قَيْسِلُ مِنَ دَيْرِ  
وَيُحْصِرَاتُ رُزْنَتَنَا ■ بَعْدَ الْهَدَقِ مِنَ الْخَلُودِ  
رِيًّا رَوَادِفَهْرٍ يَلُ ■ بَسْنَ الْخَوَاتِمِ فِي الْخَصُودِ  
غُرَّ الْوُجُوهِ مُجَجَّبَا ■ تِ قَاهِرَاتِ الطُّرْفِ حُورِ

مُتَّعَمَاتٍ فِي النَّعْمِ \* سِيمَ مُتَّعَمَاتٍ بِالْعَبِيرِ  
 يَرْفُلُ فِي حُلِّ الْمَهَا \* سِنَ وَالْجَاهِدِ وَالْحَرِيرِ  
 مَا إِنَّ يَرَيْنَ الشَّمْسَ إِلَّا الْفَرْطَ مِنْ حُلِّ السُّتُورِ  
 وَالْإِ أَمِيرَ اللَّهِ مَهْ \* رَبُّنَا مِنَ الدَّهْرِ التَّشْوَرِ  
 وَإِلَيْهِ أَتَيْنَا الْمَطَا \* يَا بِالرَّوَّاحِ وَالْبُحُورِ  
 صُعْرُ الْخُدُودِ كَأَنَّمَا \* جُتَّعْنَ أَجْنَمَةُ النُّسُورِ  
 مُتَّسِرَاتٍ بِالْفُطُلَا \* مِ عَلَى السُّهُولَةِ وَالْوُجُورِ  
 حَتَّى وَصَلْنَ بِنَا إِلَى \* رَبِّ الْمَدَائِنِ وَالْقُصُورِ  
 مَا زَالَ قَبْلَ فِطَامِهِ \* فِي سِنِّ مُكْتَبِلِ الْكَبِيرِ

استنشد المأمون أحسن ما قال في الموت فأنشده :

أُنْسَاكَ حَيَاكَ الْمَنَا \* فَطَلَبْتَ فِي الدُّنْيَا التَّبَا  
 أَوْفَقْتَ بِالْدُّنْيَا وَأَنْدَ \* سَتَ تَرَى جَمَاعَهَا شَتَا  
 وَعَزَمْتَ مِنْكَ عَلَى الْحَيَا \* قَ وَطَوَّلَهَا عَزَمَ مَا بَتَا  
 يَا مَنْ رَأَى أَبَوَيْهِ فِيهِ \* سَمَنْ قَدْ رَأَى كَانَا هَمَا  
 هَلْ فِيهِمَا لَكَ عِبْرَةٌ \* أَمْ خَلَّتْ أَتَكَ أَفْلَا  
 وَمَنْ الَّذِي طَلَبَ التَّقْدُّ \* سَتَ مِنْ مَنِيَّتِهِ فَقَا  
 كُلُّ نَصَبِهِ الْمَنْدُ \* لَمْ أَوْ تَبَيَّنَتْ يَبَا

دخل أبو العتاهية على المأمون فأنشده :

مَا أَحْسَنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالَهَا \* إِذَا اطَّاعَ اللَّهُ مَنْ تَلَا  
 مَنْ لَمْ يُؤَاسِ النَّاسَ مِنْ فَضْلِهَا \* عَرَضَ لِلْإِدْبَارِ إِقْبَالَهَا

فقال له المأمون : ما أجودَ البيتَ الأول، فأما الثاني فما صنعت فيه شيئا، الدنيا تُدِيرُ عَمَّنْ وَاسَى مِنْهَا أَوْضَقُ بَهَا، وَإِنَّمَا تُوجِبُ السَّاحَةَ بِهَا الْأَجْرَ وَالضَّرَّ بِهَا الْوِزْرَ، فقال : صدقت

يا أمير المؤمنين، أهل الفضل أولى بالفضل وأهل النقص أولى بالنقص، فلما كان بعد أيام عاد فأنشده :

كم غافل أودى به الموت \* لم يأخذ الأهبة للقتل  
من لم تزل نعمته قبله \* زال عن النعمة بالموت

فقال له : أحسنت، طيبت المعنى، وأمر له بعشرين ألف درهم :

كان أبو العتاهية يبيع كل سنة، فإذا قدم أهدى إلى المأمون برّاً ومطراً ونعلاً سوداء ومبأويك أراك، فيبعث إليه بعشرين ألف درهم، فأهدى مرة له كما كان يهدي كل سنة إذا قدم، فلم يلبه ولا يست إليه بالوظيفة، فكتب إليه أبو العتاهية :

خبروني أن من ضرب السنّة \* جدّاً ييضاً وصُفراً حسنه  
أحدثت لكنني لم أرها \* مثل ما كنت أرى كل سنة

فأمر المأمون بعلم العشرين الألف وقال : أخفله حتى ذكّرنا .

أنشد المأمون بيت أبي العتاهية يخاطب سلماً الخامس :

تعالى الله يا مسلم بن عمرو \* أنزل الحرص أعتاق الرجال

فقال المأمون : إن الحرص مُفسد للدين والمروءة ، والله ما عرفت من رجل قط حرصاً ولا شرّاً فوجدت فيه مُصططماً، فبلغ ذلك سلماً فقال: ويلي على الحرار الزنديق جمع الأموال وكثرها وعبا البدور في بيته ثم تزهد مرأاةً ونفاقاً، فأخذ يتيّف إلى إذا تصدّيتُ للطلب .

كان الرشيد مما يعجبه غناء الملاحين في الزلازل إذا ركبا، وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم، فقال : قولوا لمن معناه من الشعراء : يعملوا هؤلاء شعراً يفنون فيه، فقبل : ليس أحد أقدر على هذا من أبي العتاهية وهو في الحبس، فوجه إليه الرشيد : قل شعراً حتى أسمعه منهم ، ولم يأمر بإطلاقه، فغاضه ذلك وقال : والله لأقولن شعراً يحزنه ولا يُسرّه، فعمل شعراً ودفعه إلى من حفظه من الملاحين، فلما ركب الحفافة سمعه وهو :

خَانَكَ الْغُرْفُ الطُّمُوحُ \* أَيُّهَا الْقَلْبُ الْبُخْرُ  
 لِدَوَاعِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ \* دُنُّوْ وَنُزُوْ  
 هَلْ لِمَطْلُوبٍ بِذَنْبٍ \* تَوْبَةٌ مِنْهُ تَصُوحُ  
 كَيْفَ إِصْلَاحُ قُلُوبٍ \* إِنَّمَا هِيَ قُرُوحُ  
 أَحْسَنَ اللَّهُ بِنَا \* إِنَّا الْخَطَايَا لَا تَفُوحُ  
 فَإِذَا الْمُسْتَوْرُ بِنَا \* يَبِينُ تَوْبَتُهُ فُضُوحُ  
 كَمْ رَأَيْنَا مِنْ عَزِيزٍ \* طَوَيْتَ عَنْهُ الْكُشُوحُ  
 صَاحٍ مِنْهُ بِرَحِيلٍ \* صَاغَحُ الدَّهْرِ الصَّدُوحُ  
 مَوْتُ بَعْضِ النَّاسِ فِي الْأَرْ \* ضَ عَلَى قُومٍ قُرُوحُ  
 سَيَصِيرُ الْمَرْءُ يَوْمًا \* جَسَدًا مَا فِيهِ رُوحُ  
 يَبِينُ حَقِيقَتِي كُلَّ حَقٍّ \* عَلَّمَ الْمَوْتَ يَلُوحُ  
 صَكَّنَا فِي غَفْلَةٍ وَالْ \* حَمُوتُ يَفْضُو وَيُوحُ  
 يَسْنِي الدُّنْيَا مِنَ الدَّاءِ \* جَاءَ غَبُوقٌ وَمَصْبُوحُ  
 رُخْنٌ فِي الْوُثَى وَأَصْبَحَ \* مِنْ عَلَيْهِنَ الْمُسُوحُ  
 كُلُّ نَطَاجٍ مِنَ الدَّهْرِ \* مَرَّ لَهُ يَوْمًا نَطُوحُ  
 نَحْنُ عَلَى نَفْسِكَ يَا مَسَّ \* نَكْبَيْنُ إِنْ كُنْتَ تَسُوحُ  
 تَقُوتُنَّ وَإِنِّي نَحْمُ \* مَرَّتْ مَا عَمَّرُنُوحُ

فلما سمع ذلك الرشيد جعل يبكي ويتعجب ، وكان الرئيد من أغزر الناس دموعا  
 في وقت المَوْعِظَةِ ، وأشدَّهم حَسَفًا في وقت الغضب والنِّقَاطَةِ ، فلما رأى الفضلُ بنَ الرِّبيعِ  
 كثرة بكائه أومأ إلى الملاحين أن يسكتوا .

لما عقد الرشيد العهد لبنيه الثلاثة : الأمين والمأمون والمؤمن ، قال أبو العناهيم :

رَحَلْتُ عَنْ الرَّبِّعِ الْحَيْلِ قَعُودِي \* إِلَى ذِي زُخُوفٍ جَمَّةٍ وَجُنُودِ  
 وَرَأَيْتُ بِرَأْيِ اللَّيْلِ فِي حِفْظِ أَمَّةٍ \* يَدَافِعُ عَنْهَا الشَّرَّ غَيْرَ رَقُودِ



بِالْوَيْةِ جَبْرِئِلُ يَقْسُدُ أَهْلَهَا \* وَرَايَاتِ نَصْرِ حَوْلَهُ وَبُنُودِ  
 تَجَنَّبَ عَنِ الدُّنْيَا وَأَيْقَنَ أَنَّهَا \* مُفَارِقَةٌ لَيْسَتْ بِدَارِ خُلُودِ  
 وَشَدَّ عُرَى الْإِسْلَامِ مِنْهُ بِفَتْنَةٍ \* ثَلَاثَةِ أَمَلَاكِ وَلَاةِ عُهُودِ  
 هُمْ خَيْرُ أَوْلَادِهِمْ خَيْرُ وَالِدِ \* لَهُ خَيْرُ آبَاءٍ مَضَتْ وَجُدُودِ  
 بَنُو الْمُصْطَفَى هَارُونَ حَوْلَ سَرِيرِهِ \* نَخِيرُ قِيَامِ حَوْلَهُ وَقُعُودِ  
 تَقَلَّبَ أَلْحَاطُ الْمَهَابَةِ بَيْنَهُمْ ■ صِيونَ ظِلَاءِ فِي قُلُوبِ أَسُودِ  
 جُدُودِهِمْ شَمْسُ أُنْتُ فِي أَهْلَةٍ ■ تَبَدَّلَتْ رَأْيَ فِي نَجْمِومِ مَعُودِ  
 فَوَصَلَهُ الرُّشِيدُ بِصِلَةٍ مَا وَصَلَ مِثْلَهَا شَاعِرٌ أَقْطَ .

١٢ - مُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ<sup>(١)</sup>

أحد الشعراء المقلقين والبلغاء المبدعين

قال الشعر في صباه، ولم يتجاوز به الأمراء والرؤساء، مكثفياً بما يناله من قليل العطاء، ويُنفقه على ملاذّه مع إخوانه من خُلاء الشعراء، ثم أقطع إلى يزيد بن يزيد الشَّيباني قائم الرشيد، ثم اتصل بالخليفة هارون الرشيد وعُدّ من شعرائه، ومدحه ومدح البرامكة وحسن رأيهم فيه . ولما أصبح الحِلّ والمقد بيد ذى الرِّاستين الفضل بن سهل وزير المأمون في أول خلافته قربه وأدناه : لأنه كان من خاصته قبل وزارته، وولاه أعمالاً بِجُرْجَان اكتسب منها ألف ألف درهم ثم لزم مثله إلى أن أنفقها في اللذات ، وعاد إلى الفضل فقلّبه الضياع بأصهبان فاكتسب منها ألف ألف أيضاً . ولما قُتل الفضل لزم مثله ونسك ولم يدح أحداً إلى أن مات بِجُرْجَان .

ومسلم أول من تكلف البديع في شعره وأستكثر منه في قوله ، وسبقه بِشار إلى ذلك إلا أنه لم يبلغ شأو مسلم فيه . وقد عدّ العلماء هذا التصنّع والتكلف إفساداً للشعر، إذ قد تبعه في ذلك الشعراء مثل البحتري وأبي تمام وابن المعتز وغيرهم .

(١) هو مسلم بن الوليد مولى الأنصار يلقب صريع الوفاى ، شاعر متقدم من شعراء الدولة العباسية ، منشوء بولده المكونة . وهو فيما زعموا أول من قال الشعر المعروف بالبديع ، وهو لقب هذا الجنس البديع والعليف ، وتبعه فيه جماعة ، وأشهرهم فيه أبو تمام الطائي ، فانه جعل شعره كله مذهبا واحداً به ، ومسلم كان متقناً متصرفاً في شعره . قال محمد بن يزيد : كان مسلم شاعراً حسن الخط ، جسيده القول في الشراب ، وكثير من الرواة يقرنه بأبي نواس في هذا المضى ، وهو أول من عقد هذه المأان الطريقة واستخرجها . وقال القاسم بن مبرويه : أول من أفسد الشعر مسلم بن الوليد ، جاء بهذا الفن الذى سماه الناس البديع ثم جاء الطائي يمدّه ففطن فيه . توفى بِجُرْجَان سنة ٨٢٠ م وله ديوان مطبوع في ليدن سنة ١٨٧٥ م . وتجد أخباره في الأغانى (ج ١٣ ص ٩) والشعر والشعراء (ص ٥٢٨) والمقد الفريد (ج ١ ص ١٤٢) .

وقد مزج مسلم كلام البدويين بكلام الحضريين ، فضمنه المعاني اللطيفة ، وكساه الالفاظ الغريبة ، فله جلاله البدويين ، ورقة الحضريين .

لقى مسلم أبانواس فقال له : ما أعرف لك بيتا إلا فيه سَقَطٌ ؛ قال له : فما تحفظ من ذلك ؟ قال : قل أنت ما شئت حتى أريك سَقَطَكَ فيه ؛ فأنشد :

ذَكَرَ الصُّبُوحَ بِسُحُرةِ فارتاحا \* وأملَهُ ديكُ الصُّباحِ صياحا

فقال له مسلم : فلم أمله وهو الذي أذكره وبه ارتاح ؟ فقال أبو نواس : فأنشدني شيئا من شعرك ليس فيه عِلَلٌ ؛ فأنشده مسلم :

عاصي الشهابِ فراحَ خير مُقَنَّد \* وأقام بينَ عزيمةٍ ومُجَدَّد

فقال له أبو نواس : قد جعلته رائحا مقيا في حالة واحدة وبيت واحد ، فتنشأها وتُسمّاها ساعةً ، وكلا البيتين صحيح المعنى .

اجتمع أصحاب المأمون عنده يوما ، فأفاضوا في ذكر الشعر والشعراء ، فقال له بعضهم : أين أنت يا أمير المؤمنين من مسلم بن الوليد ؟ قال : حيث يقول ماذا ؟ قال : حيث يقول وقد رثي رجلا :

أرادوا يُعَفِّفُوا قَبْرَهُ عن صدقه \* فطُيِبَ ترابُ القبرِ دَلَّ على القبر

وحيث مدح رجلا بالشجاعة فقال :

يحمود بالنفس إذ ضَرَّ الجِوَادُ بها \* والجِوَدُ بالنفس أفضى غاية الجود

وهما رجلا يقيح الوجه والأخلاق فقال :

قُبِّحَتْ مناظرُهُ حينَ حَبَرَتْه \* حَسُنَتْ مناظرُهُ لِقَعِ الخَبَرِ

وتنازل فقال :

هوَى يميّةٌ وحبيبٌ يابئ \* أنت لقيَ بينهما معسَّب

فقال المأمون : هذا أشعر من خضمّ اليوم في ذكره .

قال يزيد بن مزيّد : أرسل إلى الرشيد يوما في وقت لا يرسل فيه إلى مثل ، فأتته لباساً سلاحاً مستعداً لأمر إن أَرَادَهُ مِنِّي ، فلما رَأَى ضحكك إلى ثم قال : يا يزيد ، خبرني من الذي يقول فيك :

تراه في الأمن في دِرْعٍ مُصَافَةٍ • لَا يَأْمَنُ الدَّهْرَ أَنْ يُدْعَى عَلَى عَجَلٍ  
ضَائِقِ الْعَيْنِ طَمُوحَ الْعَيْنِ هَمَّتْ • فَكَ النَّسَاءِ وَأَسْرُ الْفَالِكِ الْخَطَلِ  
فقال : لا أعرفه يا أمير المؤمنين ؛ فقال : سَوْءَةٌ لَكَ مِنْ سَيِّدٍ قَوْمٍ يُدْمَحُ بِمَثَلِ هَذَا  
الشعر ولا يعرف قائله ، وقد بلغ أمير المؤمنين فرواه ووصل قائله ، وهو مسلم بن الوليد !  
فانصرفت فدعوت به ووصلته ووليته .

وروي أنه دخل على الرشيد فقال له : يا يزيد ، من الذي يقول فيك :  
لَا يَتَّبِقُ الطَّيْبُ خَذْيَهُ وَمُفْرِقَهُ • وَلَا يُسَّحُّ عَيْنُهُ مِنَ الْكُحْلِ  
إِذَا أَتَتْهُ سَيْفُهُ كَانَتْ مَسَالِكُهُ • مَسَالِكُ الْمَوْتِ فِي الْأَبْدَانِ وَالْقُلُوبِ  
وإن خَلَّتْ بِمَحْدِثِ النَّفْسِ فِكْرُهُ • حَى الرَّجَاءِ وَمَاتِ الْخُوفِ مِنْ وَجَلِ  
كَأَلَيْتَ إِنْ هَمَّتْهُ فَاَلْمُوتَ رَاحَتُهُ • لَا يَسْتَرْجِعُ إِلَى الْأَيَّامِ وَالْأَوَّلِ  
فقال : لا أعرف قائله يا أمير المؤمنين ، فقال له هارون : أيقال فيك مثل هذا الشعر  
ولا تعرف قائله ! فخرج من عنده تجملاً ، فلما صار إلى منزله دعا حاجبيه فقال له : من  
بالباب من الشعراء ؟ قال : مسلم بن الوليد ؛ قال : وكيف حَبَّبَتْهُ عَيْنِي ، فلم تُعَافِنِي بِمَكَانِهِ !  
فقال : أخبرته أنك مُضَيِّقٌ ، وأنه ليس في يدك شيء تعطيه إياه ، وسألتُه الإمساك والمُقَامَ  
أياماً إلى أن تَسْعَ ، فأنكر ذلك وقال : أدخله ، فأدخله إليه ، فأشده قوله فيه :

أُجْرِتُ<sup>(١)</sup> حَبْلَ خَلِيعٍ فِي الصَّبَا غَرِيبٍ • وَتَمَرَّتْ هِمُّ السُّدَالِ فِي عَدْلِي  
هَاجَ الْبِكَاةِ عَلَى الْعَيْنِ الطُّمُوحَ هَوَى • مُفْسِرٌ<sup>(٢)</sup> مِنْ تَوْدِيْعٍ وَحُمَلٍ  
كَيْفَ السُّلُوْ قَلْبِ رَاحٍ مُجْتَبَلَا • يَهْنِئُ بِصَاحِبِ قَلْبٍ غَيْرِ مُجْتَبَلٍ

(١) أُجْرِتُ فلا ربه : تركته وشأنه ، والخلع : القى خلعه طواره في الصبا . (٢) الطموح :  
المرقة في النظر إلى الأوبة . ومفرق : مقسم .

نَاصَى العِزَّةَ غَدَاةَ الْبَيْتِ مُنْمِلٌ \* من الدسوع جرى في إثر منمِلٍ<sup>(١)</sup>  
 لولا مُدَارَاةُ دَمْعِ الْعَيْنِ لَا تَكْشِفُ \* متى سرَّازٌ لم تَظْهَرِ ولم تُجْهِلْ  
 أَمَا كَفَى الْبَيْتِ أَنْ أَرَى بِأَسْمِهِ \* حتى رَمَانِي بِلُحْظِ الْأَعْيُنِ التَّجْهِلْ  
 مِمَّا جَعَلَنِي وَإِنْ كَانَتْ مَنَى صَدَقَتْ \* صَبَا بِهِ خُلْسُ التَّسْلِيمِ بِالْمَقْلِ  
 مَاذَا عَلَى الدَّهْرِ لَوْ لَانَتْ عَرِيضَتُهُ \* وَرَدَّ فِي الرَّأْسِ يَسْتِي سَكْرَةُ الْفَزَلِ  
 جُرْمُ الْحَوَادِثِ عِنْدِي أَنَّمَا اخْتَلَسَتْ \* متى بَنَاتُ غِذَاءِ الْكُرْمِ وَالْيَكَلِ<sup>(٢)</sup>  
 وَرُبَّ يَوْمٍ مِنَ اللَّيَالِي مُحْضَرٌ \* قَصْرُهُ بِلِقَاءِ الرَّاحِ وَالْخُلُجْلِ  
 وَيَسْلَةُ خُلِيسَتِ الْعَيْنِ مِنْ سَيْفَةٍ \* هَتَكَتْ فِيهَا الْعَبَا عَنْ بَيْضَةِ الْجَمَلِ  
 قَدْ كَانَ دَهْرِي وَمَا بِي الْيَوْمَ مِنْ كَيْفٍ \* شَرِبَ الْمَدَامَ وَعَرَفَ الْقَيْنَةَ الْمُطْلِ  
 إِذَا شَكَّوْتُ إِلَيْهَا الْحَبَّ خَفَرَهَا \* شَكَاوِي فَاحْضَرْ خَذَاهَا مِنْ انْجَمِلِ<sup>(٣)</sup>  
 كَمْ قَدْ قَطَعْتُ وَعَيْنُ الدَّهْرِ رَاقِدَةٌ \* أَبَاسَهُ بِالْعَبَا وَاللَّهْوِ وَالْجُنْدِ  
 وَكَلْبِي الْفَرَسُ أَصْفَانِي مَوْدَعَةً \* كَأَلَانِهِ بِمَدْحٍ فِيهِ مُتَّخِلٌ<sup>(٤)</sup>  
 وَبِلَادَةُ لَهْطَايَا الرُّكْبِ مُنْضِيَةٌ \* أَنْضِيَتْهَا بِوَجِيفِ الْأَيْتَنِ الدُّكْلِ<sup>(٥)</sup>  
 فِيمَ الْمَقَامِ وَهَذَا النِّجْمُ مُعْتَرِضًا \* دَنَا النَّبَاءُ وَحَانَ السَّيْرُ فَارْتَحِلِ<sup>(٦)</sup>  
 يَا مَائِلَ الرَّأْسِ إِنْ اللَّيْثُ مُقْتَرِسٌ \* مَيْسَلُ الْجَاهِمِ وَالْأَعْنَاقِ فَاعْتَصِلِ  
 حَذَارٍ مِنْ أَسَدٍ ضَرْفَامَةٍ بِكَلِيلِ \* لَا يُورِنُ السَّيْفَ إِلَّا مَهْجَةُ الْبَطْلِ  
 لَوْلَا يُزِيدُ لِأَمْحَى الْمَلِكِ مُعْطَرِدًا \* أَوْ مَائِلَ السُّمُكِ أَوْ مُسْتَرْتِمِ الطُّوْلِ<sup>(٧)</sup>  
 سَلَّ الْخَلِيفَةُ سَيْفًا مِنْ بَنَى مَكْرٍ \* أَقَامَ قَائِمُهُ مَنْ كَانَ ذَا مَيْلِ  
 كَمْ صَالٍ فِي دَرَا تَجْهِيْدِ مَمْلَكَةٍ \* لَوْلَا يُزِيدُ بَنَى شَيْبَانٍ لَمْ يَصِلْ

(١) أى لم تظن بى . (٢) يريد انجر والجوارى . (٣) محضرة أى حضرة اللات . وانخل :  
 جمع خلة وهى الصدقة . (٤) خفرها أى رده عليها انخرجهى شدة الحياة . (٥) أى خشار .  
 (٦) منضية : متعبة . والوجيف : ضرب من السير . والاضمارات . . (٧) يريد بالنجم  
 النريا . ومعترضا : متعبا . (٨) معطردا أى مخذولا . وضرب السك والطلول مثلا .

ناب الإمام الذي يَفْتَرُّ عنه اذا \* ما أَقْرَبَتِ الحَرْبُ عن أنبيائها المُصَلِّينَ  
 من كان يَحْتَمِلُ قَرْنًا عند موقفه \* فإن قَرْنَ يزيد غيرُ مُحْتَمِلِ  
 مَدَّ الثَنُورَ يَزِيدُ بعد ما أَقْفَرَجَتْ \* بِقَائِمِ السَّيْفِ لا بِالخَطَلِ وَالْجَيْلِ  
 كم قد أَذَاقَ حِمَامَ الموت من بَطَلٍ \* حَامِيَ الحَقِيقَةِ لا يُؤَوِّي من الوَهْلِ  
 أَغْرَأَ أَبْيَضُ بَغْيَشِي أَبْيَضُ لا \* يَرْضَى لِمَوْلَاهُ يَوْمَ الرُّوعِ بِالْفَقْلِ  
 يَفْقَشُ الوَغَى وشَهَابُ المَوْتِ في يده \* يرى القَوَارِسَ والأبطال بالشَّعْلِ  
 يَفْتَرُّ عند أَقْطَارِ الحَرْبِ مَبْتِمًا \* اذا تَغَيَّرَ وجه الفَارِسِ البَطَلِ  
 مُؤَيِّدٌ على مُهْجٍ واليَوْمُ ذُو رَجٍّ \* كأنه أَجَلٌ يَسْعى الى أَمَلِ  
 يَنْكَلُ بِالرُّقَى ما يَتَيَّأُ الرِّجَالُ بِهِ \* كَالْمَوْتِ مُسْتَعِجِلًا يَأْتِي على مَهَلِ  
 لا يُلْفِضُ الحَرْبَ إِلَّا رَيْثَ يَنْتَجِبُهَا \* من هَالِكٍ وَأَسِيرٍ غَيْرِ غَشَلِ  
 إن شِمْ بَارِقُهُ حَالَتِ خِلَافَتُهُ \* بينَ المَظْطَةِ والإِمْسَاكِ والعِلَلِ  
 يُغْنِي المَنَايا المَنَايا ثم يَفْرُجُهَا \* منَ النُّفُوسِ مُطْلَأَتِ على القَبْلِ<sup>(١)</sup>  
 لا يَرْحَلُ النَّاسُ إِلَّا لِحَسَوِ مَجْرَمِهِ \* كَالْبَيْتِ يَضْحِي اليه مُتَقِي السَّبْلِ<sup>(٢)</sup>  
 يَقْرِي المَنِيَّةَ أرواحَ الحُكَاةِ كَمَا \* يَقْرِي الضُّيُوفَ نُصُومَ الكُومِ والبَزْلِ<sup>(٣)</sup>  
 يَكْسُو السَّيُوفَ دِمَاءَ التَّاكِيهِنَ بِهِ \* ويَحْمِلُ الهَامَ تَحِيانَ القَنَا الذُّبُلِ  
 يَسْدُو فَتَسْدُو المَنَايا في أَسِنَّةِ \* شَوَارِعِهَا تَحْتَدِي النَّاسَ بِالْأَجَلِ  
 اذا طَلَّتْ نَفْثَةً عن غِيبِ طَاعِنِهَا \* حَتَّى لها المَوْتُ بينَ البَيْضِ والأَسَلِ  
 قد عَوَّدَ الطَّيْرَ عَادَاتٍ وَيَقْنَنُ بِهَا \* فَهَتَّ يَتَمَنَّى في كُلِّ مُرْتَمَلِ  
 تَرَاهُ في الأَمْنِ في دِرْعٍ مُضَاعَفَةٍ \* لا يَأْمَنُ البَهْرَ أن يَدْعَى على عَجَلِ  
 ضَافِي العَيْنَانِ طُمُوحَ العَيْنِ هَمَّتْ \* فَكَلَّ العَنَاءَ وَأَسْرَ الفَتَاكِ الخَطَلِ<sup>(٤)</sup>  
 لا يَبْقِي الطَّيْبُ خَدَيْهِ وَمَقْرَقَهُ \* ولا يَمْسَحُ عَيْنِيهِ مِنَ الكُحْلِ

(١) الجبل : اللقدان . (٢) بيت الحرام . (٣) الكوم : النظام الأستة واحدها كوما .

والجبل : جمع بابل وهو ماله تسعة أحرار . (٤) جمع حان وهو الأسير ، والخطل : ذو الخطل وهو الخطأ .

إذا انتضى سيفه كانت ممالئكه \* ممالك الموت في الأبدان والقُلل  
 وإن خَلَّتْ بحديث النفس فِكْرُهُ \* حتى الرجاء ومات الخوف من وجَل  
 كالليلت إن هِجَنه فالسوت راحته \* لا يستريح الى الأيام والدُول  
 إن الحوادث لما رُمِنَ هَضْبته <sup>(١)</sup> \* أزمعن عن جار شيطان بمُسْتَقْل  
 فالذهي يَغِيظُ أولاه أوآخره \* اذ لم يكن كان في أعماره الأول  
 إذا الشريكي لم يفخر على أحد \* تحكلم الفخر عنه غير مُتَّعِل  
 لا تُكْذِبَنَّ فإن الحلم معدنه \* ورائته في بني شيطان لم تَزَلْ  
 سلوا السيوف فاعشوا من يحاربهم \* تحبط بها غير ما تُكَلِّم ولا تُكَلِّم  
 الزائديون قسوم في رماحهم \* خوف الخيف وأمن الخائف الوجَل  
 كبيرهم لا تقصوم الراسيات له \* ساءما وطفلهم في هدى مُكْتَبَل  
 إسم يزيد لها في الدين من أود \* اذا سلبت وما في الملك من خَلَل  
 أثبت سوق بني الإسلام فاطأنت \* يوم الخليج وقد قامت على زَلَل  
 لولا دفاؤك بأش الروم اذ بَكَرَتْ \* عن عِزَّة الدين لم تأمن من الشَّكَل  
 ويوسف البرم قد صَبَحَتْ عسكره \* بعسكر يلفظ الأقدار ذى زَجَل  
 غافضته يوم عبر الأنهر مُهْلَه \* وكان محتجزا في الحرب بالمُهْل  
 والمارق ابن طريف قد دَلَقَتْ له <sup>(٢)</sup> \* بعسكر للناسيا مُسَوِّل طَعَل  
 لما رآك مُجَدًّا في مَنِيه \* وإن دَفَعَكَ لا يُسْطاع بالحيل  
 شام السَّيْئال فابرت اللقاة له \* مقدَّم الخطو فيها غير مُثَكِّل  
 ماتوا وأنت غليل في صدورهم \* وكان سيفك يَسْتَفِي من الفَلَل

- (١) هذا مثل، يريد لما رامت الحوادث من استعاريه . (٢) نسبة الى شريك، وهو أحد أجداد يزيد .  
 (٣) حكنا في الأصل . ومعناه أن الكلية محرقة من (اطأنت) أى أثبت . وهي وزن الفعل من وطأ .  
 وكانت اوطأ ثم قلبت فاء الاتصال تاء وأدغم المثل في المثل . (٤) فترة الدين : جماعة الاسلام .  
 (٥) أحد الخوارج على الرشيد . (٦) غافضه : قاضاه على غرة . (٧) هو الوليد بن طريف الشامي .

لو أنّ غير شريكٍ أطاف به • فاز الوليدُ يفتح الناضلَ الحِمْلَ<sup>(١)</sup>  
 وقتَ الدين يوم الرّسّ فاحتلت • منه قوائمٌ قد أوفت على مِيل  
 ما كانت جمعهم لها لقيتهم • إلا كمثل قوائم ربيع مُنجِفَل  
 تابوا ولو لم يتوبوا من ذنوبهم • لأب جهشك بالأمرى وبالنقل  
 كم آمن لك فائي الدار مُتَنَع • أخرجته من حصون الملك والنَّحْل  
 يابى لك الدّم في يومك إن دُكر • عَضِبُ حُسامٍ ومرض غير مُبْتَدَل  
 وما رقيق غزاةٍ من بيوتهم • لا يَنكُلون ولا يؤتون من نَكَل  
 خَلَّت أجسادهم والطير ما كَفَّة • فيها وأفقتهم هاما مع القَل  
 فانخرها لك في شيطان من مثل • كذلك ما لبسني شيطان من مَثَل  
 كم مشهيد لك لا تُحصى ماثره • قَسَمْتُ فيه كرزى الإنسان والنَّجَل  
 لله من هاشم في أرضه جَبَل • وأنت وأبئك رُكُنَا ذلك الجبل  
 قد أعظموك فادّعى لِحِينَة • إلا المُضِلَّة تَسْتَرِ<sup>(٢)</sup> بالفضل  
 يا ربّ مكرومة أصبحت واحدا • أحييت صناديدَ رَأْمُها فلم تُنْثَل  
 تَسَاوَل الناس بالدينيا وزُخرفها • وأنت من بلك المعروف في شُغْل  
 أقسمت ما دُب عن جَنَوَاك طالبها • ولا دُفعتَ آفاتِ الحسد بالمَزَل  
 يابى لسائك منَع الجود سائلة • لما يَجْلجِل بين الجود واليَحْل  
 صَدَقْتَ ظَنّي وصَدَقْتَ الظنونَ به • وَحَطَ جودك عَقَدَ الرَّعْل عن جَمَل

فقال له يزيد : قد أمرنا لك بخمسين ألف درهم فاقبضها وأعذر ؛ فخرج الحاجب فقال  
 لمسلم : قد أمرني أن أرهن ضيعة من ضياعه على مائة ألف درهم : نحسون ألفا منها لك  
 ونحسون ألفا لثقتك ، فأعطاه إياها . وكتب صاحب الخبر بذلك الى الرشيد ، فأمر يزيد  
 بماتحي ألف درهم وقال : إقبض الخمسين ألفا التي أخذها الشاعر وزده مثلها ، وحُدِّ

(١) الناضل : المصيب . والنصل منه . (٢) الرس : وادى أذربيجان . (٣) تستر بالفضل :  
 تابع بالسر . والمضلة : الداهية .



مائة ألف لغفتك، فأثكَّ صبيته وأعطى مسلماً محسناً ألفاً أخرى. ولما أنشدته :  
« لا يعبق الطيب » البيت . قال بخاريته : حرم علينا مسلم الطيب .

كان داود بن يزيد بن حاتم المهلبي يجلس للشعراء في السنة مجلساً واحداً، فيقصدهونه لذلك اليوم وينشدونه، فوجه إليه مسلم راويته بقصيدته التي أولها : « لا تدعُ بي الشوق » فقدم عليه يومَ جلوسه للشعراء ويلفقه بقبّ خروجه عنده ، فتقدم إلى الحاجب وحسّر لثامه عن وجهه ، ثم قال له : أستأذن لي إلى الأمير؛ قال : ومن أنت ؟ قال : شاعر ، قال : قد أنصرم وقتك وأنصرف الشعراء وهو على القيام؛ فقال له : ويحك ! إني قد وفدتُ على الأمير بشعراً قالت العرب مثله ، وكان مع الحاجب أدبٌ يفهم به ما يسمع ، فقال : هاتِ حتى أسمع ، فإن كان الأمر كما ذكرت أوصلتك إليه ؛ فأنشدته بعض القصيدة ، فسمع شيئاً يقصر عنه الوصف ، فدخل حل داود فقال له : قدم على الأمير شاعر بشعراً ما قبل فيبك مثله ؛ فقال : أدخل قائله ؛ فلما مثل بين يديه سلّم وقال : قدمت على الأمير — أعزّه الله — بمدح يسمعه فيعلم تقدّمي على خبري ممن أمتدحه ؛ فقال : هات ، فلما أفتتح القصيدة وقال : « لا تدعُ بي الشوق » استوى جالساً وأطرق حتى أتى الرجل حل آخر الشعر ، ثم رفع رأسه إليه فقال : أهذا شعرك ؟ قال : نعم أيها الأمير ؛ قال : في كم قلته يا فتى ؟ قال : في أربعة أشهر أبقاك الله ؛ قال : لو قلته في ثمانية أشهر لكنت محسناً ، وقد اتهمتكَ ، بلودة شعرك وخمول ذكرك ، فإن كنت قائل هذا الشعر فقد أنظرْتُكَ أربعة أشهر في مثله ، وأمرت بالإجراء عليك ، فإن جفتنا بمثل هذا الشعر وهبت لك مائة ألف درهم وإلا حرمتكَ ، فقال : أو الإقالة أعزَّ الله الأمير ، قال : قد أقتلك ؛ قال : الشعر لمسلم بن الوليد وأنا راويته والوافد عليك بشعره ؛ فقال : أنا ابن حاتم ، إنك لما انتحيت شعره فقلت : « لا تدعُ بي الشوق » إني غير معمود سمعت كلام مسلم يناديني ، فأجبت نداءه وأستويت جالساً ؛ ثم قال : يا غلام ، أعطه عشرة آلاف درهم ، وأجل الساعة إلى مسلم مائة ألف درهم . وهذه هي القصيدة :

لا تَدْعُ فِي الشَّوْقِ إِلَى غَيْرِ مَعْسُودٍ \* نَبَى النَّهْيِ عَنْ حَوَى الْهَيْفِ الرَّمَادِيدِ<sup>(١)</sup>  
 لَوْ شِئْتُ لَا شِئْتُ رَاجِعْتُ الْعَبَا وَمَشَتْ \* فِي الْعَبْوِ وَفَاتَنِي بِجَمْلُودِ<sup>(٢)</sup>  
 سَلْ لَيْلَةَ الْخَيْفِ هَلْ أَمْضَيْتُ آخِرَهَا \* بِالزَّاحِ نَحْتِ نَسِيمِ الْخُرْدِ الْغَيْدِ  
 تَجِجَتْهَا بُلُغَابُ الْمَزْنِ فَأَغْرَلَتْ \* نَسِيمِينَ مِنْ بَيْنِ مَحْلُولٍ وَمَعْقُودِ<sup>(٣)</sup>  
 كَلَّا الْجَدِيدِينَ قَدْ أَطْمِئْتُ حَبْرَتَهُ \* لَوَّالِ مِنْ إِلَى عُمَرُ وَتَخْيِيدِ<sup>(٤)</sup>  
 أَهْلًا بِوَانِدَةٍ لِلشَّيْبِ وَاحِدَةٍ \* وَإِنْ تَرَكَتُ بِشَخْصٍ غَيْرِ مَوْدُودِ  
 لَا أَجْمَعُ الْحِلْمَ وَالصَّبَاءَ قَدْ سَكَنْتُ \* نَفْسِي إِلَى الْمَاءِ عَنْ مَاءِ الْعَنَاقِيدِ  
 لَمْ يَبْقَ فَنَدٌّ عَنْهَا وَلَا كَبَرٌ \* لَكِنْ مَحْوُوتٌ وَخُصْنِي غَيْرِ مَحْضُودِ  
 أَوْفَى فِي الْحِلْمِ وَأَقْنَادُ النَّهْيِ طَلَقًا \* شَاوَى وَعِفْتُ الصَّبَّاءِ مِنْ غَيْرِ تَفْنِيدِ  
 إِذَا تَجَمَّعَتْ فِي إِلَهَاتِ عَرَبِ بِلَدٍ \* نَازَعَتْ أَرْضًا وَلَمْ أَحِضِلْ بِتَهْيِيدِ  
 لَا تَطْلِيحُ الْمُنَى عَنْ جَهْدِ مَطْلَبٍ \* وَلَا أَحُولُ لشيءٍ غَيْرِ مَوْجُودِ<sup>(٥)</sup>  
 وَجَهْلِي كَأَطْرَادِ السَّيْفِ مُتَحَيِّزٍ \* مِنْ الْأَدْيَالِ مَسْجُورِ الصَّبَاخِيدِ  
 تَمَشَّى الرِّيَّاحُ بِهِ حَسْرَى مُؤَيَّةً \* حَيْرَى تَلُودُ بِأَطْرَافِ الْجَلَامِيدِ  
 مُوقِفُ الْمُتَرَبِّعِ لَا تَمْضِي السَّبِيلُ بِهِ \* إِلَّا التَّغْلُّلُ رِيًّا بِمَدِّ تَهْيِيدِ  
 قَرَيْبُهُ الْوَعْدُ مِنْ خَطَاةٍ مَرُوحٍ \* تَفْسُرِي الْفَلَاةَ بِأَرْقَالٍ وَتَوْخِيدِ<sup>(٦)</sup>  
 الْبِكَ بَادَرْتُ إِسْفَارَ الصَّبَاحِ بِهَا \* مِنْ جُنْعِ لَيْلِ رَحِيْبِ الْبَاعِ مَمْدُودِ  
 وَسَلْدَةِ ذَاتِ حَوَلٍ لَا سَبِيلَ بِهَا \* إِلَّا الْقُنُونُ وَالْأَمْسَرُحُ السَّيْدِ  
 كَأَنَّ أَعْلَامَهَا وَالْأَلَّ يَرْكُبُهَا \* بُلْدٌ تَوَافَى بِهَا تَرُّ إِلَى عَيْدِ

(١) لا تدع في الشوق، أي لا تدعني مشتاقا . ومأله دميل من معنى ذلك فقال : لا تدعني صريح الفوائد قلت  
 كذلك ، وكان لهذا القالب كارهيا . ومعصود : عاشق ، والحيف : الضامرات المتصرد . (٢) أي ذهبت  
 بجملدي . (٣) اغترلت : اختلطت ، ويريد بالسجين : ما رل الماء من انخسار أسرع فيه الماء ، فله ،  
 وما رل منها القناع بين على حاله لم يجله الماء بعد . (٤) الحبرة : الصميم .  
 (٥) الفتد : القرم . والمضرد : الواهن . (٦) أي لا تدهمني الى نفسها . (٧) الخطارة : النافذة  
 فرك ذنبا . والسرح : الحفيفة .

كَفَلْتُ أَهْوَالَهَا عَيْنًا مَوْزَنَةً • إِلَيْكَ لَوْلَاكَ لَمْ تُكْمَلْ بِتَمِيمٍ  
 حَتَّى أَتَيْتُكَ بِبَنِي الْأَمَالِ مُطْلَبًا • لَلْهُمَّ عِنْدَكَ فِي مِيرَالِ عَسُودٍ  
 مِنْ بَعْدِ مَا أَلْقَيْتُ الْأَيَّامُ لِي عَرَضًا • مُلْقَى رَهْنٍ لِحَدِّ السَّيْفِ مَعْفُودٍ<sup>(١)</sup>  
 وَسَاوَرَتْنِي بَنَاتُ الدَّهْرِ فَأَمْتَحَنْتُ • رَبَّنِي بِمُحَالَةٍ شَبَاهَ جَارُودٍ<sup>(٢)</sup>  
 إِلَى بَنِي حَاتِمٍ أَدَّى رُكَايِنًا • خَوْضُ الدَّبِي وَسَرَى الْمَوْرِيَةِ الْقُودِ  
 تَقْلُوبِي النَّهَارَ فَإِنَّ لَيْلًا تَمُطُّهَا • بَاتَتْ تَحْمُطُهَا مَاتِ الْقِرَادِيدِ<sup>(٣)</sup>  
 مِثْلَ السَّامِ بَعِيدَاتِ الْمَقِيلِ إِذَا • أَلْقَى الْمَجِيرُ بِنَا فِي كُلِّ مَصِغُودٍ  
 حَلَّتْ يَدَاوُدَ فَأَمْتَحَنْتُ وَأَمْتَحَلَهَا • حَدَّوْا النَّمَالَ عَلَى أَيْنٍ وَتَمْرِيدٍ<sup>(٤)</sup>  
 أَعْطَى فَاغْنَى الْمُنَى أَدْنَى عَيْطَتِهِ • وَارَقَ الْوَعْدَ نُجْمًا غَيْرَ مَنَكُودِ  
 وَاللهُ أَطْفَأَ نَارَ الْحَرْبِ لَذُ سَمِيرَتِ • شَرْقًا بِمَوْفِدِهَا فِي الْفَرْبِ دَاوُدِ  
 لَمْ يَأْبَ أَحْمَرًا وَلَمْ يَطْلُحْ عَلَى حَدَثِ • إِلَّا أُعِينَتْ بِتَوْفِيقِ وَتَسْلِيدِ  
 مُوجِبُ الدُّرَى تَتَلَقَّى الظُّنُونُ لَهُ • عَنْ كُلِّ مُلْتَمَسٍ مِنْهَا وَمَعْفُودِ  
 تُحْمَى الْأُمُورُ لَهُ مِنْ نَحْوِ أَوْجُهِهَا • وَإِنْ سَلَكُنْ سَبِيلًا غَيْرَ مَوْرُودِ  
 إِذَا أَبَاحَتْ حَيِّ قَوْمَ حَقُوبَتِهِ • غَادَى لَهُ الْعَفْوَ قَوْمًا بِالْمَرَاغِيدِ  
 كَالْبَيْتِ بَلْ مِثْلُهُ الْبَيْتُ الْمَهْصُورُ إِذَا • غَنَى الْحَسِيدُ غِنَاءً غَيْرَ تَفْرِيدِ  
 يَلْقَى الْمُنِيَّةَ فِي أَمْثَالِ عُدَّتِهَا • كَالسَّيْلِ يَقْنِفُ جَاهُودًا بِجَاهُودِ  
 إِنْ قَصَرَ الرَّيْحُ لَمْ يَمَسَّ أَنْطَاطًا عُدْدًا • أَوْ عَرَدَ السَّيْفُ لَمْ يَهْمُ بِتَفْرِيدِ  
 إِذَا رَعَى بَلَدًا دَانَى مَنَاهِلَهُ • وَإِنْ بَنِينَ عَلَى تَحْطِيطِ وَتَجْعِيدِ  
 جَرَى فَأَدْرَكَ لَمْ يُعْتَفَ مِنْهُنَّ • وَأَسْتَوْدَعُ الْبَهْرَ أَنْفَاسَ الْهَبَاوِيدِ<sup>(٥)</sup>

(١) الزهين : الأمير . والمعفود : المرفق الحليد . (٢) الحلة : السلة الجذبة . و الجارود :  
 المتجرده من النبات . (٣) تمطها : سأل بها . والقرايد : جمع قردة وهو المنفع من الجبال .  
 (٤) السام : طائر شبه القطا . والصيغود : شدة الحر . (٥) التفريد من الحرده : وهواه يصعب الإبل  
 في قوائمها . والأين : الثعب . (٦) البهر : هو ما يبرى الإنسان عند المدر من اللث وتنايع النفس .

آلُ الْمُهَلِّبِ قَوْمٌ لَا يَزَالُ لُحْمٌ \* رِقِّ الصَّرِيحِ وَأَسْلَابُ الْمَسَاوِدِ<sup>(١)</sup>  
 مُظْفَرُونَ يُصِيبُ الْحَرْبُ أَنْفُسَهُمْ \* إِذَا الْفِرَارُ تَحَطَّى بِالْحَاجِدِ<sup>(٢)</sup>  
 تَجَلَّ مَنَاجِبٌ لَمْ يَعْدَمِ يَلَانُهُمْ \* فَسَى بَرْحَى لِقَيْضٍ أَوْ لَتَوَكِيدِ  
 قَوْمٌ إِذَا هَذَا شَامَتْ سَيُوفُهُمْ \* فَإِنَّا حُقِّلُ الْكُومِ الْمُقَاجِدِ<sup>(٣)</sup>  
 تَقَى إِسْدَاؤُكَ يَا دَاوُدُ إِذْ عَلِقْتَ \* أَيْدَى الرَّدَى بِنَوَاصِي الضُّمْرِ الْقُسُودِ  
 دَاوَيْتَ مِنْ دَائِهَا قُرْمَانٌ وَأَنْتَصَفْتَ \* بِكَ النُّونُ لَأَقْوَامٍ مُجَاهِدِ  
 مَلَاتَهَا قَرْعًا أَخْضَى مَا قَلَّهَا \* مِنْ كُلِّ أَيْلُغٍ سَأَى الطَّرْفُ صَنِيدِ<sup>(٤)</sup>  
 لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى أَدْنَى بِلَادِهِمْ \* أَلْقَى إِلَيْكَ الْأَقَاصِي بِالْمُقَابِدِ  
 لَسْتُمْ بِيَدِ اللَّغْوِ مُتَّصِلِي \* بِهَا الرَّدَى بَيْنَ تَلْيِينٍ وَتَشْدِيدِ  
 أُنَيْتَهُمْ مِنْ وَرَاءِ الْأَمْنِ مُطْلِعَا \* بِالْخَيْلِ تَزْدَى بِأَبْطَالٍ مَنَاجِدِ  
 وَطَارَ فِي أَثَرٍ مِنْ طَارِ الْفِرَارِ بِهِ \* خَوْفٌ بِمَارِضِهِ فِي كُلِّ أُخْدُودِ  
 فَاتُوا الرَّدَى وَطَلَبَاتُ الْمَوْتِ تَنْشُدُهُمْ \* وَأَنْتَ نَصَبَ الْمَنَازِبِ غَيْرُ مَدْشُودِ  
 وَلَوْ تَلَيْتَ دِيَارَ لَهَا رَوَيْتَ<sup>(٥)</sup> \* مِنْهُ وَلَكِنْ شَاهَا عَنُو مَزُودِ  
 أَحْرَزَهُ أَجَلٌ مَا كَادَ يُحْزِرُهُ \* قَتَرَ يَطْلُوعِي عَلَى أَحْشَاءِ مَقْنُودِ<sup>(٦)</sup>  
 وَرَأْسُ يَهْرَانٍ قَدْ رَكِبَتْ قُلُقُهُ \* لَدَنَا كَفَاهُ مَكَلَنَ اللَّيْلِ وَالْجِدِ  
 قَدْ كَانَ فِي مَعَزَلٍ حَتَّى بَعَثَ لَهُ \* أَمَّ الْمَيْتَةِ فِي أَبْنَائِهَا الصِّيدِ  
 أَجْبَحُ أَمْ أَسَلَّتْهُ الْفَائِضَاتُ إِلَى \* حَدٍّ مِنَ السَّيْفِ مَنْ يَمَاقِي بِهِ يُودِ  
 أَلْحَقْتَهُ ضَاحِيِيهِ فَاسْتَوَى بِهِمْ \* ضَرْبٌ يَفَرِّقُ ضَبَابَاتِ الْقَهَاجِدِ<sup>(٧)</sup>

(١) رِقِّ الصَّرِيحِ، أى استبعاد الحر، والمقاريد: الانحداد واحده ملود. (٢) الهجاء: الجلباء.  
 جمع مجاهد. (٣) الهذء: الفترة. (٤) الأيلغ: المتكبر.  
 (٥) شَاهَا: سبقها. ومزود: مرعوب. (٦) المقنود: الذى أميب فواده. (٧) الضبات:  
 أرمال الراس. والقهاجيد: جمع قهوة وهى العظم الناقى فى مؤخر الراس بين القفا وأعلى الراس.

أَعْدَرُ مِنْ قَوْمٍ حَرْبٍ صَبَرَتْ لَهَا \* يَوْمَ الْحُصَيْنِ شِمَارٌ غَيْرَ مَحْجُودٍ  
 يَوْمَ اسْتَضَيْتْ بِيَعْنَانِ طَوَائِفُهَا <sup>(١)</sup> \* عَلَيْكَ مِنْ طَالِبٍ وَتِرًا وَتَحْقُودٍ  
 نَاهَضْتَهُمْ ذَائِدَ الْإِسْلَامِ تَقَرَّعُهُمْ \* عَنْهُ ثَلَاثٌ وَمَشَقَى بِالْمَوَاحِدِ  
 تَجُودُ بِالنَفْسِ إِذْ أَنْتَ الْقَيْنِ بِهَا \* وَالْجُودُ بِالنَفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجُودِ  
 تَلَكَ الْأَزَارِقُ إِذْ ضَلَّ الدَّلِيلُ بِهَا \* لَمْ يُخْطِطْهَا الْقَصْدُ عَنْ أَسْيَافِ دَاوُدَ  
 كَانَ الْحُصَيْنِ يُرَبِّي أَنْ يَفُوزَ بِهَا \* حَتَّى أَخَذَتْ عَلَيْهِ بِالْأَخَادِيدِ  
 مَا زَالَ يَنْصُفُ بِالنُّعْمَى وَيَنْمِطُهَا \* حَتَّى اسْتَقَلَّ بِهِ عُرْدٌ عَلَى عُودِ  
 وَضَعَتْهُ حَيْثُ تَرْتَابُ الزَّيَاحُ بِهِ \* وَتَحْسُدُ الْعَلِيَّ فِيهِ أَضْبَعُ الْيَدِ  
 تَفْدُو الضُّبُورَى فَتَرِيْمُهُ قَتَيْبُهَا \* تَسْتَشِقُ الْحَيَّوْ أَعَاسًا بِتَصْمِيدِ  
 يَتَبَنُّ أَفْيَاهُ طَوْرًا وَمَوْقِفَهُ <sup>(٢)</sup> \* يَلْقَى فِي عَاقِي مِنْهُ وَتَجْسِيدِ  
 فَكَانَ فَارِطٌ قَوْمَ حَانَ مَكْرَهُهُمْ \* بَارِضٌ زَادَتْ شَقَى فِي الْمَوَارِيدِ  
 يَوْمَ جُرَاشَةِ إِذْ شِيَانُ مُوجِفَةٍ <sup>(٣)</sup> \* يَتَّخِذُونَ مِنْكَ إِشْلُو مِنْهُ مَقْدُودِ  
 زَاخَفْتَهُ بَابِنِ سَفِيَانٍ فَكَانَ لَهُ \* نَشَاءُ يَوْمَ يَطْلُورُ الْغَيْبَ مَشْهُودِ  
 نَجْمًا قَلِيلًا وَوَأَقَى زَجَرُ عَاطِفِهِ \* بِرُيُوسِهِ طَيْرَ مَنَحُورِ وَدَسْعُودِ  
 وَلَّى وَقَدْ جَرَعَتْ مِنْهُ الْقَنَا جُرْمًا \* سَى الْخَافِيَةِ مَيْثَا غَيْرَ مَدُودِ  
 زَالَتْ حُشَّاشَتُهُ عَنْ صَدْرِ مُتَعَدِّلِ \* دَانِي الْكَوْبِ بِعِيدِ الصُّدْرِ أُمْلُودِ <sup>(٤)</sup>  
 إِذَا السَّيُوفُ أَصَابَتْهُ تَقَطَّعَ فِي \* سُرَادِقِ بِحَسَاوِي الْخَيْلِ مَمْدُودِ  
 يَفْدِي بِمَا تَحْتَهُ مِنْ خِلَافِهِ \* حُشَّاشَةُ الزُّكُفِ مِنْ جَرْدَاءِ قَيْدُودِ <sup>(٥)</sup>  
 حَلَّ اللَّوَاءِ وَحَالَ الْخِطَرِ طَائِدَهُ \* فَمَاذَ بِالْخِلْدَرِ تَرْبُ الْكَكَابِ الرُّودِ

(١) أعدر : جاء ، ما ينفرد به . (٢) أي أغرت طوائفها . (٣) ترتاب : أي تستنكر .

(٤) الأفياء : جمع في ، وهو القتل آثر التبار . والجسد : القوم . (٥) موجفة : سرية .

(٦) أملود : أمس . (٧) الجرداء : نصيرة الشعر . والقيدرد : الناقة الطويلة الظهر .

وإن يكن شَبها حرباً وقد نَحَدت \* فثأرياً حيث لا هَيْد ولا هَيْد<sup>(١)</sup>  
 كَلَّ مَلَّتْ به في مثل حُطْنَه \* قَتَلَا وَأَخْبِجَتْه في غير مَلْعُود  
 طافوا رِضالك فعاقَتْهم بِقُوَّتِهِمْ<sup>(٢)</sup> \* عن الحِياة مَنابِهِمْ لِمَوْعُود  
 وَأَنْتَ بالسَّنَدِ اذْهَاجُ الصَّرِيحِ بِهَا \* وَأَسْتَفْذَتْ حَرْبُهَا كَيْدَ المَكَايِيدِ  
 وَأَسْتَفْزِدُ القَوْمَ كَأَسَا مِنْ دِمَائِهِمْ<sup>(٣)</sup> \* وَأَحْدَقَ المَوْتَ بِالْكَرَارِ وَالْجَيْدِ  
 رَدَدْتَ أَهْمَالَهَا القَصْوى مَحْتَسَةً \* وَشِمْتَ بِالْبَيْضِ عَوْرَاتِ المَرَاصِيدِ  
 كُنْتَ المَهْلَبَ حَتَّى شَكَّ عَالِمُهُمْ \* ثُمَّ انْفَسَدَتْ وَلَمْ تُسَبِّقْ بِتَسْوِيدِ  
 لَمْ يَقْبَلِ السَّلْمُ إِلَّا بَعْدَ مَقْدَرَةٍ \* وَلَا تَأَلَّفَتْ إِلَّا بَعْدَ تَبِيدِ  
 حَتَّى أَجَابوكَ مِنْ مَسْتَأْنِ حَنْدَرٍ \* رَاجِعٍ وَمُتَظَرِّ حَفَا وَمُتَمُودِ  
 أَهْدَى إِلَيْكَ عَلَى الشَّحْنَاءِ أَلْفَتَهُمْ \* مَوْتُكَ تَفَرَّقَ فِي شَقَى عِبَادِيدِ  
 وَفِي يَدِكَ بَقَايَا مِنْ سَرَاتِهِمْ \* هُمْ لَدَيْكَ عَلَى وَعْدٍ وَتَوَعِيدِ  
 إِنْ تَمُتْ عَنْهُمْ فَأَهْلُ العَفْوَانَتْ وَإِنْ \* تُخَضِّعُ الْعِقَابَ فَأَمْرٌ غَيْرُ مَرْدُودِ  
 إِسْمِعْ فَإِنَّكَ قَدْ هَيَّجْتَ مَلْحَمَةً \* وَقَدَدْتَ مِنْهَا بِأَرْوَاحِ المَصَادِيدِ  
 أَفْزَيْفَ أَبَا مَالِكٍ فِيهَا يَكُوكُهَا \* وَيَسْعُ فِيهَا بِجَهْدٍ مِنْكَ مَجْدُودِ  
 يَعْصِي بِعِزِّكَ أَوْ يَحْصِرُ بِشَاوِلِكَ أَوْ \* يَفْرَى بِجَهْدِكَ كَلَّ فِيهِ مَحْدُودِ  
 لَا يَعْصِمُكَ حِمَى الإِسْلَامِ مِنْ مَلِكٍ \* أَقْبَتْ قَتْلَهُ مِنْ بَعْدِ تَأْوِيدِ  
 كَفَيْتَ فِي المُلْكِ حَتَّى لَمْ يَقِفْ أَحَدٌ \* عَلَى ضَبَاعٍ وَلَمْ يَحْزَنْ لِمَقْفُودِ  
 أُعْطِيَتْهُمْ مِنْكَ نَصَبًا لَا كِفَاةَ لَهُ \* وَأَيَّدُوكَ بِرُكْنٍ غَيْرِ مَهْدُودِ  
 لَمْ يَبْعَثِ النُّهْرُ يَوْمًا بَعْدَ لَيْلَتِهِ \* إِلَّا أَتْبَعْتَهُ لَهَ بِالْبَاسِ وَالْجُودِ  
 أَجْرَى لَكَ اللهُ أَيَّامَ الحِياةِ عَلَى \* فَضْلِ حِمِيدٍ وَجَدَّ غَيْرِ مَنَعُودِ

(١) كلان يزيد بن زبيد الإيلي . (٢) بقوتهم ، أى قناتهم . (٣) الأمال : جمع أمل ، وهو

الشيء المحبوب ، ويراد به الصعب ، ونجاسة : مذلة .

لا يفقد الدين خيلا أنت قائدها \* يُمهِّدَنَّ في كل ثغر غير مهسود  
مَحَلَّاتٍ إذا أَبَتْ غنائمها \* ومُقَدِّمَاتٍ على نصر وثأبيسد  
هناك أنك مَغْدَى كُلِّ لَيْمَسٍ \* جُودًا وإنك ماوى كل مطرود  
تستأنف الحمد في دهر أوائله \* موسومة بقعال منك محمود  
إذا عزمْتَ على أمر بطشت به \* وإن أَلَّتْ فَنَيْلًا فَيَرَّ تصريد  
عُودَتْ تفسك عادات خُلِّقَتْ لها \* صِدْقُ الحديث وإنجاز الموايد

دخل الوليد على الفضل بن سهل لينشده شعرا، فقال له : أيها الكهل ، إلى أهلك  
عن الشعر فسل حاجتك ؛ قال : بل ستم اليَدَ عندي بأن تسمع ، فأشده :  
دُمُوعُهَا من حِذَارِ البَيْنِ نَسَكِبُ \* وَقَلْبُهَا مَغْرَمٌ من حَرْهَا يَجِبُ  
جَدَّ الرَحِيلِ به عنها ففارقها \* لِيَبْنِيَّهَ اللَّهُو واللذات والطرب  
يهوى المسيرَ إلى مَرَوْ ويحزبه \* فَرَأَيْتُهَا فَهُوَ ذُو نَفْسَيْنِ يَرْتَقِبُ  
فقال له الفضل : إلى لأهلك عن الشعر ، قال : فأغنى بما أحبت من عملك ، فولاه  
البريدَ بِمَرْجَانٍ<sup>(١)</sup> .

هما مسلم قريشا ونظر بالأبصار بشعر يمثل لك ناحية من نواحي العصبية بين القبائل  
وهو يعتبر ، إلى حد ما ، من الشعر السياسي ، فقال :

قل لمن تاه إذ بُشَّ عن جهلا \* ليس بالثَّيِّهِ يَفْخَرُ الأحرارُ  
فَتَنَاهَوْا وَأَقْصَرُوا فَلَقد جَا \* رت عن القصد منك الإبصار  
أَيْتُكُمْ حَاطَ ذَا جَوَارٍ بِعَزٍّ \* قبل أن تحتويه من الدار  
أَوْرَجَا أَنْ يَفْضُوتَ قوما بوتر \* لم تزل تمنطيمُ الأوتار  
لم يكن ذاك فَيْكُمُ فَدَعُوا الفخ \* مر بما لا يسوغ فيه أفتخار  
وَنَزَارَا ففانبروا تَفَضَّلُوهم \* ودعوا من له عَيْدٌ نزار

(١). بلدة عظيمة كانت بالقرب من بحر قزوين إلى الجنوب الشرق منه .

فبنا عزة منكم النذل والده \* سر عليكم بريه كزار  
 حاذروا دولة الزمان عليكم \* لانه بين أهله أطوار  
 قترذوا وبحر للحالة الأو \* لى وللاوحد الأذل الصغار  
 فانزرتنا لما بسطنا لها الفخر \* رقرش ونفرها مستعار  
 ذكرت عزة وما كان فيها \* قبل أن تستعيرنا مستعار  
 إنما كان عزة في جبال \* ترتقيها كما ترتقى السورار  
 أيها الفاحرون بالمر والدم \* رلقسوم مساوهم والفقار  
 أخبرونا من الأعرأ المند \* مصور حتى أعتل أم الأنصار  
 فلما المر قبل عز قريش \* وقرش تلك الدهور تيجار

فابرى له آبن فنبريه فقال :

ألا أنزل أمير المؤمنين بئسليم \* وأفلق به الأحشاء من كل مجرم  
 ولا تريخن عن قتله باستنابة \* فما هو عن شتم النبي مجرم  
 ولا عن مساواة له ولقومه \* قريشا بأصداء لئاد وجرم  
 ويغفر بالأنصار جهلا على الذي \* بنصرته فازوا بحفظ ومنم  
 وسموا به الأنصار لا عز قائل \* أراد قريشا بالمقام المذم  
 ومنهم رسول الله أزي من أتى \* الى نسب زك وبجد مقم  
 وما كانت الأنصار قبل احتصامها \* بنصر قريش في المحل المعظم  
 ولا بالألى يعلون أقدار قومهم \* صداء وخولان ونظم وسيلهم  
 ولعنكم بالله عاذوا ونصبرهم \* قريشا ومن يستمعهم الله يعهم  
 فمزروا وقد كانوا ويطيون فيهم \* من النذل في باب من المزيم  
 يسومهم الفطيون مالا يسامه \* كريم ومن لا يشكر الظلم يظلم  
 وإن قريشا بالمآثر فضلت \* على الخلق طرا من نصيح وأعجم



فإل هذا اليلج ضلّ ضلاله • • • يمد اليهم كَفَّ أَعْيَمَ أَعْمَ  
 يُسأى قريشا مسلمٌ وهُمُ هُمُ • • • بمولى يَمَانِي وَيَت مَهْدَم  
 إذا قام فيه غيرهم لم يكن لهم • • • مقام به من لؤم مَبْنَى وَمَدَم  
 جَعَسَيْسُ أَشْبَاهُ الْقُرُودِ لَوْ أَنَّهُمْ • • • يَبَاعُونَ هَا أَبْتِيعُوا جَمِيعًا بَدْرَهُمْ  
 وما مسلمٌ من هؤلاء ولا أُنَى • • • ولكنه من نَسْلٍ عُلِجَ مُلْكُهُمْ  
 تولى زمانا غيرهم قَتَّ أَدْعَى • • • اليهم فلم يَكُرْ وَلَمَّا يُكْرَمُ  
 فإن يك منهم فالنضير ولقُهِم • • • واليه لا من يدعى بالسَّعْمُ  
 وإن تدعُ الأنصار مولى أَيْمُهُمْ • • • بقافية تَسْتَكِرُ الْجِلْدُ بِالْقَمِ  
 عِقَابًا هُمْ فِي إِفْكَهِمْ وَأَذْعَاتِهِمْ • • • لِأَقْلَفٍ مَقْشُوشِ النَّزَاعِ مُوسَمُ  
 فلا تدعوه وأنسفوا منه تَسَاوَا • • • يَنْتَكِرُوهُ مِنْ مَقَالٍ وَمَا هُمُ  
 وَإِلَّا فَفَضُّوا الطَّرْفَ وَأَنْتَظَرُوا الرَّدَى • • • إذا أَخْلَقْتَ فِيكُمْ صَوَارِدَ أُسْهِى  
 ولم يَجِدُوا عَنْهَا يَحْنًا يَحْنَكُمْ • • • إذا أَطْلَعْتَ مِنْ كُلِّ فِجٍّ وَمَعْلَمُ  
 وأنتم بنو أذُناب من أُنْتُمْ لَهُ • • • ولستم بأبناء السَّامِ الْمُقْدَمِ  
 ولا يَبْنَى الرَّأْسُ الرِّفِيعَ عَمَلُهُ • • • فَيَسْمُو بِكُمْ مَوْلَى مُسَامٍ وَيَتَمَى  
 فكيف رَضِيتُمْ أَنْ يُسَأَى نِيْكُمْ • • • بِبَيْتِكُمُ الرِّثِّ الْقَصِيرِ الْمُهْنَمُ  
 سَاحِطٌ مِنْ سَأَى النَّبِيِّ تَقَاوُلًا • • • عَلَيْهِ وَأَكْوَى مُنْجَاهِ بِمِيسَى  
 أَيْسَدَلُ بَيْتٌ بِسَفَرِيٍّ بِكَعْبَةٍ • • • تَوْتَهَا قَرِيشٌ فِي الْمَكَانِ الْحَزَمِ  
 قَرِيشٌ خِيَارُ اللَّهِ وَاللَّهُ خَصَّهُمْ • • • بِذَلِكَ فَاتَمَّ أَيْمًا الْيَلِجُ وَأَرْغَمُ  
 ومن تدعى منه الولاء مؤنر • • • إذا قِيلَ لِلْجَارِ إِلَى الْمَجْدِ أَفْلَمِ  
 وكان مسلم قال قصيدته في قريش وكدها، فوقعت إلى ابن قَبْرٍ وَأَجَابَهُ عَنْهَا، فَاسْتَعْلَ  
 عليه وهتكه وأغرى به السلطان، فلم يكن عند مسلم في هذا جواب أكثر من الانتفاء منها

ونُسبتا إلى ابن قنبر والأدعاء عليه أنه ألصقها به ونسبها إليه ليعرضه للسلطان وخافه، فقال  
ينفى من هذه القصيدة :

دعوت أمير المؤمنين ولم تكن \* هناك ولكن من يخف يَحْتَم  
وانك إذ تدعو الخليفة ناصرا \* لكألترقى في السماء بُسْم  
كذلك العدى تدعوه من حيث لا ترى \* وإن تَوَهَّه تَمُتْ في التوهم  
هجوت قريشا حامدا وتحترق \* رويدك يظهر ما تقول فُيْعَلْ  
إذا كان مثل في قبيل فإنه \* على ابن لوى قصرة غير منهم  
سيكشفك التمديل ما قد قُتِي \* به فتأثر عارفا أو تَعْدَم  
لأن قريشا لا يقادر وُدّها \* ولا يُسْتَجَال عهدُها بالترحم  
مضى سلف منهم وصلّى بقبهم \* لنا سلف في الأول المتقدم  
جروا بغريتنا سابقين بسبقهم \* كما أتيت كُفّ نواشرهم  
وان الذي يسعى ليقطع بيلنا \* ككئس اليربوع في حجر رُفْم  
أضلك قرع الأبدان طريقها \* فأصبحت من عبياتها في تَهْم  
وخانتك عند الحربى لما أتبتها \* تميمٌ لحاولت الصلا بالنقح  
فأصبحت ترمينى بسهمى وتنتى \* يدى بيسدى أصابت نارك فاضرم

ثم هجاه ابن قنبر بقصيدة أولها :

قُلْ لِهَيْدِ النَّظِيرِ مُسْلِمُ الْوُف \* يد الدّينى اللّهم مِنْخِ النَّصَاب  
إِخْسَ يَا كَلْبَ إِذْ نَعَتْ لَانِ \* لستُ من يَحِبُّ نَجَّ الْكَلَاب  
أَفَارَقْتِ وَمَنْصَبِي مَنْصَبُ الْعَزْ \* وبقى في ذروة الأحساب  
أَنْ أَحْطَ الرِّفْعِ مِنْ تَهْمِكَ بِنَى \* بمهاجة أَوْشَبِ الْاَوْشَاب  
من إذا سِيلَ مِنْ أَبْوَهْ بَدَا مِنْ \* هـ حياءٌ يَحْيِيهِ رَجْعَ الْجَوَاب

وإذا قيل حين يُقِيل من أن \* ست ومن تَعْتَرِي في الأنساب  
 قلت هاجي ابن قبر قنسر بد \* ست بدكري غفرا لذي اللساب  
 وهي قصيدة طويلة فلم يجبه عنها مسلم بشيء فقال فيه ابن قبر أيضا :  
 لستُ أنفيك إن سواي ثقاكا \* من أبيك الذي له مُتَكاكا  
 ولماذا أنفيك يا ابن الوليد \* من أبي إن ذكرته أخراكا  
 ولو أني طلبتُ الأم منه \* لم أجده إن لم تكن أنت ذاكَا  
 لسو سواه أبوك كان جملنا \* إذا الناس طأوعونا أباكَا  
 حالك دهرًا بغير حلقٍ لبُرْد \* ونحسوك الأشعار أنت كذاكا

ثم هاجه بشعر أقدَح فيه، فحسب إليه قوم من مشايخ الأنصار واستعانوا بمشجعة من قراء  
 تميم وذوى الفضل والعلم، فحشوا معهم إليه، فقالوا: ألا تستحي من أن تهجو من لا يبيحك!  
 أنت بدأت الرجل فاجابك، ثم عدت فكف، وتجاوزت ذلك إلى ذكر أعراض الأنصار التي  
 كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهجمها ويذم عنها وبصونها لغير حال أحلت ذلك منهم،  
 فما زالوا به يعظونه ويقولون له كل قول حتى أمسك عن المناقضة لمسلم فانقطعت .

ولمسلم بن الوليد :

وإني وإسماعيل يوم ودّاعه \* لكالفمد يوم الروح فارقه النصل  
 أما والجبالات المُنزلات بيانا \* وسائل أقتها المودة والوصل  
 لما خنتُ عهدا من إخاء ولا نأي \* بذكرك نأي عن ضيبي ولا شغل  
 ولقي في مالي وأهلي كائني \* لتأييك لا مألٍ لدى ولا أهل  
 يُذكرنيك الدين والفضل والجمي \* وقيل انتحنا والحلم والعلم والجهل  
 فالنالك ع \* مذمومها متزها \* وألقاك في محمودها ولك الفضل  
 وأحمد من أخلاقك البخل إنه \* بمرضك لا بالمال حاشاك البخل  
 امتجعا مَرُوا بأهمال همة \* دَخَ الثقل وأحمل حاجة ما لها ثقل

شَاءَ كَعْرِفَ الطَّيِّبُ يَدِي لِأَهْلِهِ \* وليس له إلا بَنَى خَالِدَ أَهْلِهِ  
فَإِنْ أَغْشَى قَوْمًا بِعَدَمِهِمْ أَوْ أَزَوْرَهُمْ \* فَكَالْوَحْشِ يَسْتَنْذِنُهُ لِلْقَنْصِ الْمُحَلِّ

وله يَزِيدُ بْنُ مَرْزُوقٍ :

أَحَقُّ إِنَّهُ أَوْدَى يَزِيدُ \* تَأْتَلُّ أَيْهَا النَّاعِي الْمَشِيدُ  
أَتَدْرِي مِنْ نَعِيَّتِ كَيْفَ فَاهَتْ \* بِهِ شَفَاتُكَ كَانَ بِهِ الصَّعِيدُ  
أَحَامِي الْمَجِيدَ وَالْإِسْلَامَ أَوْدَى \* فَمَا لِلْأَرْضِ وَبِحَكِّ لَا تَجِيدُ  
تَأْتَلُّ هَلْ تَرَى الْإِسْلَامَ مَالَتْ \* دَعَائِمُهُ وَهَلْ شَابَ الْوَلِيدُ  
وَهَلْ رُشِمَتْ سَيُوفُ بَنِي زَرَادٍ \* وَهَلْ وُضِعَتْ عَنْ الْخَلِيلِ الْبُودُ  
وَهَلْ نَسَقَى الْبِلَادَ عِشَارُ مُزْنٍ \* يَدْرِئُهَا وَهَلْ يَخْضَرُ عَمُودُ  
أَمَّا هُتِلَتْ لِمَصْرَعِهِ نَزَارُ \* بَلَى وَتَقَوَّضَ الْمَجِيدُ الْمَشِيدُ  
وَحَلَّ ضَرْبُهُ إِذْ حَلَّ فِيهِ \* طَارِيفُ الْمَجِيدِ وَالْحَسَبِ التَّلِيدُ  
أَمَّا وَاللَّهِ مَا تَنَفَّلَتْ عَيْنِي \* طَلِيكَ بِدَمْعِهَا أَبَدًا تَجْمُودُ  
فَإِنِ تَجْمُدُ دَمُوعَ لَيْمٍ قَوْمٍ \* فَلَيْسَ لِدَمْعِ ذِي حَسَبٍ جَمُودُ  
أَجْعَدُ يَزِيدُ تَحْتَرِبُ الْبُؤَاكِي \* دَمُوعًا أَوْ تُصَانُ لَهَا خُدُودُ  
تَبْكُكَ قُبَّةُ الْإِسْلَامِ لَمَّا \* وَهَتْ أَطْنَابُهَا وَوَهَى الْعَمُودُ  
وَيَبْكُكَ شَاعِرٌ لَمْ يُتَّقِ دَهْرُ \* لَهُ نَشْبَا وَقَدْ كَسَدَ الْقَصِيدُ  
فَإِنْ يَدْعُو الْإِمَامُ لِكُلِّ خَطْبٍ \* يَنْوِبُ وَكُلَّ مُعْضِلَةٍ تُشَوِّدُ  
وَمَنْ يَمْحَى الْخَبِيرَ أَنَا تَعَايَا \* بِمِثْلَةِ نَفْسِهِ الْبَطْلُ الْجَوِيدُ  
فَإِنْ تَهْلِكُ يَزِيدُ فَكُلَّ حَى \* فَرِيْسٌ لِلنَّبَاةِ أَوْ طَرِيدُ  
أَلَمْ تَعَجَّبْ لَهُ أَنَّ الْمَنَايَا \* فَتَكُنْ بِهِ وَهْنٌ لَهُ جَنُودُ  
لَقَدْ عَزَى رُبْعَةً أَنْ يَوْمًا \* عَلَيْهَا مِثْلُ يَوْمِكَ لَا يَعُودُ

١٣ - العباس بن الأحنف<sup>(١)</sup>

قال إبراهيم بن العباس يصفه : كان والله ممن اذا تكلم لم يحب سماعه أن يسكت ، وكان فصيحاً جميلاً طريفاً اللسان ، لو شئت أن تقول كلامه كله شعرٌ لقلت .

وقال صالح بن عبد الوهاب : كان العباس من عرب ثمرسان ومنشؤه ببغداد ، ولم تزل العلماء تقدمه على كثير من المحدثين ، ولا تزال قد ترى له الشيء البارع جداً حتى تلحقه بالمحسين .

وقال الجاحظ : لولا أن العباس بن الأحنف أحنق الناس وأشهرهم وأوسعهم كلاماً وخاطراً ، ما قدر أن يكثر شعره في مذهب واحد لا يجاوزُهُ ، لأنه لا يهجو ولا يمدح ولا يتكسب ولا يتصرف ، وما نعلم شاعراً ألزم فناً واحداً لزومه فأحسن فيه وأكثر .

أشيد الحِمَا زِيَّ للعباس بن الأحنف :

لا جَزَى اللهُ دمعَ عيني خيراً \* وجَزَى اللهُ كلَّ خيرٍ لساني

تم دمي فليس يكتم شيئاً \* ورأيت الأسارى ذاك كتمان

كنت مثل الكتاب أخفاه طي \* فاستندوا عليه بالعنوان

ثم قال : هذا والله طرازٌ يطلب الشعراء مثله فلا يقدرُون عليه .

(١) كان العباس شاعراً غزلاً مطبوعاً من شعراء الدولة العباسية ، وله مذهب حسن ، وله بياضة شعره رونق ، وله بياضة مدونة ولطف ، ولم يكن يجاوز الزلل إلى مدح ولا هجاء ، ولا يتصرف في شيء من هذه الحامى . وقوله أبو العباس المبرد في تحباب الرضة على نظرائه وأغلب في وصفه ، وقال : رأيت جماعة من الزواة للشعر يقدمونه ، قال : وكان العباس من الطراف ولم يكن من الخلفاء ، وكان غزلاً ولم يكن فاسقاً ، وكان ظاهر النعمة ملوك المذهب شديد التقرب ، وذلك بين في شعره ، وكان قصده النزول وشغفه النسب ، وكان حلواً مقرباً غزلاً غزير الفكر واسع الكلام كثير التصرف في النزول وحده ، ولم يكن هجاء ولا مدحاً . وله ديوان مطبوع مع ديوان ابن بطونح بالأسطوانة سنة ١٢٩٨ هـ ويوجد أخباره وأشعاره في الأغانى ( ج ٨ ص ١٥ ) وابن خلكان ( ج ١ ص ٣٤٦ ) والشعر والشعراء ( ص ٥٢٥ ) .

وكان أبو الهذيل اللَّاف يُغضبه وياعنه لقوله :

إذا أردتُ سلواً كان ناصركم • قلبي وما أنا من قلبي بمتصير  
فأكثروا أو أقلوا من إساءةكم • فكل ذلك محمول على القدير

فكان أبو الهذيل يلبّنه ويقول : يعقيد الكفر والفجور في شعره ، فقال العباس — وقال  
عبد بن يحيى : وأظن أنه يجوبه أبا الهذيل وما سمعتُ للعباس هجاء غيره — :

يأمنُ يكذب أخبار الرسول لقد • أخطأت في كل ما تأتي وما تذر  
كدبت بالقدّر الجارى عليك فقد • أنك مئى بما لا تشهى القدير

قيل للأصمعي : ما أحسن ما تحفظ للحدثين ؟ قال : قولُ العباس بن الأحنف :

لو كنت عاتبة لسكن روعتي • أملى رضاك وزدت غير مراقب  
لكن مللت فلم تكن لي حيلة • صدّ المولى خلاف صدّ العاتب

وما أشده له إبراهيم بن العباس :

قالت ظلومُ سبيّة الظلم • مالى رأيك ناهل الجسيم  
يأمن رعى قلبي فأقصده • أنت السلم بموضع السهم

ولشعره الغزليّ وقع في النفس ، فانهم كانوا يفتنون كثيرا منه كقوله :

لو كنت عاتبة لسكن روعتي • أمل رضاك وزدت غير مراقب  
لكن مللت فلم تكن لي حيلة • صدّ المولى خلاف صدّ العاتب

وأشده له الأصمعي :

أناذنون لصبّ في زيارتك • فعندكم شهوات السمع والبصر  
لأبضير السوء إن طال الجلوس به • عفت الضمير ولكن فاسق النظر

فقال : ما زال هذا الفقي يدخل يده في جرابه فلا يخرج شيئا حتى أدخلها فأنزع هذا ،  
ومن أدمن طلب شيء ظفر ببعضه .

وقال سبيد بن جند : ما أعرف أحسن من شعر العباس في إخفاء أمره حيث يقول :

أُرِيدُكَ بِالسَّلامِ فَأَتَقِيمُ \* فَأَعِيدُ بِالسَّلامِ إِلَى سَوَاكِ  
وَأَكْثِرُ فِيهِمْ ضَعْفَى لِيَخْفَى \* فَيَسِيَّ ضَاكُ وَالْقَلْبُ بِاِكْ

ومما تمثّل به الوائق في شرّكان بينه وبين بعض جواريه :

عَدَلُ مِنْ اللَّهِ ابْنَانِي وَأَصْحَكَا \* فَأَلْجَدُ اللَّهَ عَدَلُ كُلِّ مَا صَنَعَا  
الْيَوْمَ أَبَى عَلَى قَلْبِي وَأَنْدُبُهُ \* قَلْبُ أَلْحَ عَلَيْهِ الْحَبُّ فَأَنْصَدَعَا

ومما تمثّل به أيضا في مثل ذلك :

أَمَا تَحْسَبُنِي أَرَى الْعَاشِقِينَ \* عَلَى نَمِّ لَسْتُ أَرَى لِي تَطِيرَا  
لَعَلَّ الَّذِي بِيَدِيهِ الْأُمُورُ \* سَيَجْعَلُ فِي الْكُرْهِ خَيْرًا كَثِيرَا

وقال الزّبير : ابن الأحنف أشعرُ الناس في قوله :

تَعْتَلُ بِالشَّغْلِ عَنَّا مَا تَكَلَّمْنَا \* الشَّغْلُ لِلْقَلْبِ لَيْسَ الشَّغْلُ لِللِّدَنِ

ويقول : لا أعلم شيئا من أمور الدنيا خيرا وشرا إلا وهو يصلح أن يتمثّل فيه بهذا النصف الأخير .

وقال إصحاق : لقد طُرِفَ ابْنُ الْأَحْنَفِ في قوله — يَصِفُ طَوْلَ عَهْدِهِ بِالنُّومِ — :

قِفَا خِبْرَانِي أَيُّهَا الرِّجَالُ \* عَنِ النَّوْمِ إِنْ الْمَجْرَعُ عَنْهُ نَهَانِي  
وَكَيْفَ يَكُونُ النَّوْمُ أَمْ كَيْفَ طَعْمُهُ \* صِفَا النَّوْمِ لِي إِنْ كُنْتُ تَصِفَانِ

على قلة إعجابه بمثل هذه الأشعار .

قال أحمد بن إبراهيم : رأيت سامة بن عاصم ومعه شعر العباس بن الأحنف ، وقلت

مثلك أمرتك الله بعمل هذا فقال : ألا أجمل شعر من يقول :

أَمَاتُ إِذْ أَحْسَنْتُ ظَنِّي بِكُمْ \* وَالْحَزْمُ سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ  
يُفْلِقُنِي الْبُشُوقُ فَاتَيْنُكُمْ \* وَالْقَلْبُ مَمْلُوءٌ مِنَ الْيَاسِ

وقال أحمد بن إبراهيم: أتاني أعرابي فصيحٌ ظريف، بغفلتُ أكتب عنه أشياءً حسناً،  
ثم قال: أنشدني لأصحابكم الحقيين، فأنشدته للعباس بن الأحنف:  
ذُكُوتُكُ بِالْفُتُوحِ لِمَا نَجِمْتُهُ \* وبالراحِ لِمَا قَابَلْتُ أَوَجَةَ الشَّرْبِ  
تَذَكَّرْتُ بِالْفُتُوحِ مِنْكَ سَوَالِفًا \* وبالراحِ طَلَمًا مِنْ مَقْبَلِكِ الْعَذْبِ  
فقال: هذا عنده وأنت تكتب عني! لا أنشدك حرفاً بعد هذا.

وقال عبد الله بن العباس بن الفضل: ما أعرف في العراق أحسن من قول ابن الأحنف:  
سَبَّحَانَ رَبِّ الْمَلَا مَا كَانَ أَغْفَلِي \* عَا رَمَنِي بِهِ الْأَيَّامُ وَالزَّمَنُ  
من لم يَدُقْ فِرْقَةَ الْأَحْبَابِ ثُمَّ يَرَى \* آثَارَهُمْ بِسَلَمٍ لَمْ يَدِرْ مَا الْحَزَنُ  
قال حُصَيْن بن الصَّبَّاح: لوجاء العباس بقول ماقاله في بيتين في أبياتٍ لعُذْر، وهو قوله:  
لَعَمْرُكَ مَا يَسْتَرْجِي الْمَحَبُّ حَتَّى يَسُوحَ بِأَسْرَارِهِ  
فَقَدْ يَكْتُمُ الْمَرْءُ أَسْرَارَهُ \* فَتُظْهِرُهُ بِبَعْضِ أَشْيَارِهِ  
ثم قال: أما قوله في هذا المعنى الذي لم يتقدمه فيه أحد فهو:

الْحُبُّ أَمْلُكَ لِلْفَوَادِ بِفَهْمِهِ \* مِنْ أَنْ يَرَى لِلْمَتَرِ فِيهِ نَصِيبُ  
وَإِذَا بَدَأَ سِرَّ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ \* لَمْ يَتَّسِدْ إِلَّا وَالْفَقُّ مَغْلُوبُ

وقال أبو العتاهية: ما حسدتُ أحداً إلا العباس بن الأحنف في قوله:  
إِذَا امْتَنَعَ الْقَرِيبُ فَلَمْ تَسْأَلْهُ \* عَلَى قَرَبٍ فَذَلِكَ هُوَ الْبَعِيدُ

وقال الكندي: العباس بن الأحنف مكيحٌ ظريفٌ حكيمٌ جزلٌ في شعره، وكان قليلاً  
ما يرضى الشعر، فكان يُشْدِّدُله كثيراً:

إِلَّا تَتَجَبَّوْنَ كَمَا أَعْجِبُ \* حَبِيبٌ يُسَى وَلَا يُعْتَبُ  
وَأَبْنَى رِضَاهٍ عَلَى تَخْطَلِهِ \* فَيَأْبَى عَلَيَّ وَيَسْتَصْرِيبُ  
فَيَأْبِتُ حَفْظِي إِذَا مَا أَسَا \* تَأْتُكَ رَحَى وَلَا تَنْقَضُبُ



وكان إبراهيم الموصلي مشغولاً بشعر العباس في كثير من شعره، فما غنى فيه :  
 وقد بُكيت ماء الشباب كأنها \* قضيبٌ من الرِّيحان رَيَّانٍ أخضرُ  
 همُ كَتَمُونِي سِرِّهم حين أَرَمُوا \* وقالوا أَتَدنا للرواح وبَكُرُوا  
 ومنه :

تمنى رجالٌ ما أحبوا وإنما \* تمنيتُ أن أشكر إيك وتسما  
 أرى كلَّ معشوقين غيري وغيرها \* قد استمذبا طولَ الهوى وتمنا

ومنه :

بكى عني لأشواج \* من الحزن وأوجاع  
 وإني كلَّ يومٍ عندكم يحظى بي الساعي  
 أبيض الدهر إن عشت \* بقلب منك مُرتاع  
 وإن حلَّ بي البعد \* سينتاني لك الناعي

وقال الواثق جلسائه : أريد أن أصنع لحناً في شعر معناه أن الإنسان كلُّهُ من كان  
 لا يقدر على الاحتراز من عدوه، فهل تعرفون في هذا شيئاً؟ فأشدوه ضرباً من الأشعار،  
 فقال : ما جئتم بشيء مثل قول العباس بن الأحنف :

قلبي إلى ما ضرتني داعي \* يكثرُ أسفاي وأوجاعي  
 كيف احتراسي من عدوي إذا \* كانت عدوي بين أضلاعي  
 أسلمني لهبٌ أشباعي \* لما سقى بي عندها الساعي  
 لقلبي أبقي على كلِّ ذا \* يؤشك أن ينعاني الناعي

ومما غنى فيه من شعره :

أبيي الذين أنفقوني مودتهم \* حتى إذا انطفأوا للهوى رقدوا  
 وقال إبراهيم بن العباس : ما رأيت كلاماً محدثاً أجزل في رقة ، ولا أصعب في سهولة ،  
 ولا أبلغ في إيجاز ، من قول العباس بن الأحنف :  
 تمالي نجمد دارس المهدي بيتنا \* سكلانا على طول الحفاه مألوم

وأُنفذ إبراهيم بن العباس للأحنف :

إن قال لم يفعل وإن سئل لم • يستدل وإن عوتب لم يعتب  
صب بمصيانى ولو قال لى • لا تشرب البارد لم أشرب  
إليك أشكو رب ما حل بى • من صد هذا المذنب المغضب

ثم قال : هذا والله الكلام الجسّ المعنى ، السهل المورد ، القريب المتناول ، المليح  
اللفظ ، العذب المستمع .

ومما عُنى فيه من شعره :

نام من أهدى لى الأرقا • مستريحاً سامى قلعا  
لو بيت الناس كلهم • بسهادى بيض الحدا  
كان لى قلب أعيش به • فاصطلى بالحب فاحترقا  
أنا لم أرزق مودتك • إنما للعبد ما رزقا

وقال ابن المعتز : لو قيل : ما أحسن شيء تعرفه لقلت : شعر العباس بن الأحنف :

قد صعب الناس أذيال الظنون بنا • وفرق الناس فينا قولهم فرقا  
فكاذب قد رمى بالحب خيركم • وصادق ليس يدرى أنه صدقا

ومما تمثّل به الفضل بن الربيع فى أمر كان بينه وبين إحدى جواريه :

تجعل عظيم الذنب ممن تحبه • وإن كنت مظلوماً فعل أنا ظالم  
فإنك ألا تنفّر الذنب فى الهوى • يغارقك من شهوى وأنتك راغم

أُنفذ محمد الموصلى قصيدته التى يقول فيها :

كل شيء أقوى عليه ولكن • ليس لى بالفراق منك يدان

بجعل يستحسنه ويردده ، فقال له عبد الله بن ربيعة الرقي : أنت القدأ لمن ابتدأ هذا

المعنى فأحسن فيه حيث يقول — وهو العباس بن الأحنف — :

سَلَيْتَنِي مِنَ السُّرُورِ ثِيَابًا \* وَكَسَيْتَنِي مِنَ الْمَعُومِ ثِيَابًا  
كَلِمًا أَغْلَقْتُ مِنَ الْوَصْلِ يَابًا \* فَتَحْتُ لِي إِلَى الْمُنَى يَابًا  
عَدَيْتَنِي بِكُلِّ شَيْءٍ سِوَى الصَّدْقِ ذَقْتُ كَالصَّدُودِ عَذَابًا

قال الزَّيَّاشِيُّ — وقد ذُكِرَ عنده العباسُ بن الأحنف — : والله لو لم يقل من الشعر  
إلا هذين البيتين لكفياً :

أَحْرَمَ مِنْكَ بِمَا أَقُولُ وَقَدْ \* نَالَ بِهِ الْعَاشِقُونَ مِنْ عَشَقُوا  
صَرْتُ كَأَنِّي دُبَالَةٌ نَصَبْتُ \* تُعْطَى لِلنَّاسِ وَهِيَ تَحْتَرِقُ

ألف الرشيد العباس بن الأحنف، فلما خرج إلى نُرَاسَانَ طال مقامه بها، ثم خرج إلى  
أَرَمِيَّةَ والعباس معه، فاشتاق إلى بغداد، فعارضه في طريقه، فأنشده :

قَالُوا نُرَاسَانَ أَقْصَى مَا يُرَادُ بِنَا \* ثُمَّ الْقُقُولُ قَدْ جِئْنَا نُرَاسَانَ  
مَا أَقْدَرَهُ أَنْ يُدْنِي عَلَيَّ تَحِيَّطُ \* سَكَانَ دِجْلَةَ مِنْ سَكَانِ جِيحَانَا  
مَضَى الَّذِي كُنْتُ أَرْجُوهُ وَأَمَلُهُ \* أَمَا الَّذِي كُنْتُ أَخْشَاهُ فَقَدْ كَانَ  
مِنْ الزَّمَانِ أَصَابُنَا فَلَا نَظَرْتُ \* وَعُدْتُ بِصُنُوفِ الْحَجَرِ أَلْوَانَا

فقال له الرشيد : قد اشتقت يا عباس، وأذنت لك خاصة، وأمر له بثلاثين ألف درهم .

وقال مُصَنَّبُ الزُّيَرِيِّ : العباس بن الأحنف وعمر بن أبي ربيعة ما ابتدلا شعرهما  
في رغبة ولا رهبة، ولكن فيما أحبا، فلزما فئا واحدا لولزمه غيرهما من يكثران مخارها  
لضعف فيه .

١٤ - ابن مُنَازِر<sup>(١)</sup>

كَانَ يُحَوِّثُ حَدىَّ بَنِ زَيْدٍ فِي شِعْرِهِ ، وَيُعِيلُ إِلَيْهِ وَيَقْدِمُهُ ، وَقَدْ مَدَحَ آلَ بَرَكٍ  
وغيرهم . وَلَمَّا كُتِبَتِ الْبَرَامِكَةُ وَأَتَتْ الْوِزَارَةَ إِلَى مَدِينَةِ الْفَضْلِ بْنِ الرَّبِيعِ أَصْبَحَ شِعْرَاءُ  
الْبَرَامِكَةِ فِي خَطَرٍ ، فَأَرَادَ ابْنُ مُنَازِرٍ أَنْ يَتَقَرَّبَ إِلَى الرَّشِيدِ طَلَبًا لِلرِّزْقِ ، فَأَغْنَمَ ذَهَابَهُ إِلَى الْخَلِّ  
وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ يَوْمَ التَّرْوِيَةِ بِقَصِيدَةٍ ، فَلَاحَ الْيُسْرَى وَجِهَ الرَّشِيدُ ؛ فَقَالَ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ  
لِلرَّشِيدِ : هَذَا شَاعِرُ الْبَرَامِكَةِ ! فَمَسَّ الرَّشِيدُ ؛ فَقَالَ الْفَضْلُ : مُرَّه أَنْ يُبَشِّدَكَ قَوْلُهُ  
فِيهِمْ : أَنَا بَنُو الْأَمْلَاقِ مِنْ آلِ بَرَكٍ ، فَأَمْرُهُ ، فَأَعْتَذَرَ ، فَأُلْحَ عَلَيْهِ ، فَأَنشَدَهُ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ  
الَّتِي يُطَرِّقُ بِهَا الْبَرَامِكَةَ :

أَنَا بَنُو الْأَمْلَاقِ مِنْ آلِ بَرَكٍ \* فَيَا طَيْبَ أَخْبَارٍ وَيَا حَسَنَ مَنَظَرٍ  
إِذَا وَرَدُوا بِطُلَمَاءَ مَسْكَةٍ أَثَرَقَتْ \* يَحْيَى وَالْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى وَجَعَفَرُ  
فَنُظِّلُ بِفَدَادٍ وَيَحْمِلُونَ الدَّبِي \* بِمَكَّةَ مَا حَجَّوْا ثَلَاثَةَ أَفْرَ  
فَمَا صَلَّحَتْ إِلَّا بِالْجُودِ أَكْفُهُمْ \* وَأَرْجَلُهُمْ إِلَّا لِأَعْوَادٍ مِثْرَ  
إِذَا رَاضَ يَحْيَى الْأَمْرَ ذَلَّتْ صِعَابُهُ \* وَحَسْبُكَ مِنْ رَاجٍ لَهُ وَمُدَبَّرُ  
تَرَى النَّاسَ إِجْلَالًا لَهُ وَكَأَنَّهُمْ \* خَرَانِيقُ مَاءٍ تَحْتَ بَازٍ مُصْرِصِرِ<sup>(٢)</sup>

وَلَمَّا قَرَّخَ مِنْهَا أَتْبَعَ ذَلِكَ قَوْلَهُ : « كَانُوا أَوْلِيَاءَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِمَا مَدَحْتُمُ » فَأَمَرَ  
الرَّشِيدُ أَنْ يُطْعَمَ ، فَلَطَمُوهُ ، وَأَمَرَ أَنْ يُسْحَبَ ، فَسَحَبُوهُ وَخَرَجَ لَا يَلْقَى عَلَى شَيْءٍ ؛ فَلَقِيَهُ

(١) هو محمد بن مناذر ، مولد لبي ربيع ، يكنى أبا جعفر ، شاعر مصبح ، مقدم في العلم باللغة وإمام  
فيها ، حتى أخذ عنه أكابر أهلها . وكان في أول أمره يتبعهم عدل عن ذلك ، فحبها الناس زهتكم وخلع وتلف  
أمر أراض أهل البصرة حتى نفى منها إلى الحجاز ، فمات هناك سنة ١٩٨ هـ . وقد أعياره في الأغانى (ج ١٧ ص ٩)  
والشعر والنثر ، (ص ٥٥٣) . (٢) القرانين : جمع شروق ، وهو طائر مائي أسود وقيل أبيض  
يشبه الكوكب . (٣) مصصر : صائح بشدة .

أبو نواس فدفع إليه صُرَّةً فيها ثلثمائة دينار ، وقال له : استعن بهذه وأعذرنى . ولم يعد  
أبن مناذر يرى خيراً بعد البرامكة .

قال الحسن بن علي كذا عند باب سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ وقد هَرَبَ منا وعنده الحسن بن علي  
السَّخَنَاجُ وَرجلٌ من أصحاب الرشيد ، فخلا بهم وليس يأذن لنا ، فجاء أبن مناذر ففُرب من  
الباب ثم رفع صوته فقال :

يُهدرو وبالزُّهرى والسَّلف الألى \* بهم تَبَثَّتْ رِجْلاك عند المقام  
جعلت طَوَالَ الدهر يوماً لصالح \* ويوماً لصَبَّاحٍ ويوماً لحاتم  
ولحسن التَّخَنُّاجُ يوماً ودونهم \* خَصَّصْتِ حَسْبًا دُونَ أَهْلِ المَوَاسِمِ  
نظرتُ وطالَ الفِكرُ فيكَ فلم أجِدْ \* رَحَاكَ جَرَتْ إِلَّا لِأَخْذِ الدِّراهِمِ

فخرج سُفْيَانُ وفي يده عصا وصاح : خذوا الفاسق ، فهرب أبن مناذر منه وأذن لنا فدخلنا .  
كان الرشيد قد وصلَ أبن مناذرَ مَرَّاتٍ صَلَاتٍ سَنِيَّةٍ ، فلما مات الرشيدُ رآه بقوله :  
من كان يَتَكَبَّرُ لِلْمَلَا \* مَلِكًا وَلِلْهَيْمِ الشَّرِيفِ  
فَلَيْكَ هَارُوتُ الخَلِيبِ \* فَمَنْ لَخَلِيفَةِ الخَلِيفِ

قال علي بن محمد النوفلي : رأيتُ أبن مناذرَ في الحج سنة ثمان وتسعين ومائة وهو قد كُفِّ  
بصره تقوده جُوزِيْرِيَّةٌ حرةٌ وهو واقف يشتري ماءً قَرِيبَةً ، فرأيتُه وَرَحَّ التَّوْبِ والبدن ، فلما  
صرنا الى البصرة أُنقِنا وفاتته في تلك الأيام .

كان يحيى بن زياد يُرمَى بالزندقة ، وكان من أطرف الناس وأنظفهم ، فكان يقال :  
أطرف من الزنديق ، وكان الحارثي ، واسمه محمد بن زياد ، يُظهر الزندقة تظاهرًا ، فقال فيه  
أبن مناذر :

يا أبن زياد يا أبا جعفر \* أظهرت دينًا غير ما تُخفى  
مُزِنْدَقُ الظاهر باللفظ في \* باطن إسلام فتى عَفٍ  
لست زنديق ولعكبا \* أردت أن تُوسم بالظفر

ومن قوله يرى سفيان بن عيينة :

يُخْشِي من الحكمة نُؤَارَهَا \* ما تشهى الأُنْسُ أُلوانا  
يا واحد الأُمّةِ في عِلْمِهِ \* لَقِيتَ من ذى العرشِ غُفْرانا  
راحوا بسفيان على نَحْشِهِ \* والعِلْمُ مَكْسُوبٌ أَكْفَانا  
إن الذى غُوْدِرَ بالمُعْصَى \* هَدَى من الإسلام أركانا  
لا يُبْعَدُكَ اللهُ من مَيِّتٍ \* وَرَثَتِهَا وَأَحْزَانا

خطب أبو أمية امرأة من قَبِيْلَةِ قُرَيْشٍ عَنْهَا، وَتَصَدَّقُ لِلْقَاضِي أَنْ يَضُمَّنَّ مَالًا مِنْ أَمْوَالِ الْبَيْتِ فَلَمْ يُجِبْهُ إِلَى ذَلِكَ وَلَمْ يَتَّقِ بِهِ، فَقَالَ فِيهِ أَبْنُ مَنَازِرَ :

أَبَا أُمَيَّةَ لَا تَنْصَبْ حِلًّا فَا \* جَزَاءُ مَا كَانَ فِيهَا بَيْنُنَا الْفَضْبُ  
إِنْ كَانَ رَدُّكَ قَوْمٌ عَنْ قَاتِهِمْ \* فَفِي كَثِيرٍ مِنَ الْخُطَابِ قَدْ رَغِبُوا  
قَالُوا عَلَيْكَ دِيُونٌ مَا تَقُومُ بِهَا \* فِي كُلِّ حَالٍ بِهَا تُسْتَحْدَثُ الْكُتُبُ  
وَقَدْ تَقَعَّمْ مِنْ نَحْسِينَ غَايِبَتَا \* مَعَ أَنَّهُ ذَوِ عِيَالٍ بَعْدُ مَا انْتَحَبُوا  
وَفِي الْإِثْمِ الْقَاضِي فَلَا يَمُوتُ \* فَلَيْسَ فِي تِلْكَ لِي ذَنْبٌ وَلَا ذَنْبُ  
أُرِدْتُ أَسْوَالَ إِثْمٍ تُضَعِّمُهَا \* وَمَا يَضْمَنُ إِلَّا مَنْ لَهُ تَنْسَبُ

قَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى قُلْ فِي الرَّشِيدِ شِعْرًا تَصِفُ فِيهِ الْأَلْفَةَ بَيْنَنَا، فَقَالَ :

قَدْ تَقَطَّعَ الرَّحِمُ الْقَرِيبُ وَتَكْفَرُ النَّفْسُ \* نَمَى وَلَا حَكْمًا رَبُّ الْقَلْبَيْنِ  
يُدْنِي الْهَوَى هَذَا وَيُدْنِي ذَا الْهَوَى \* فَإِذَا هُمَا نَفْسٌ تَرَى نَفْسَيْنِ

١٥ - صالح بن عبد القدوس<sup>(١)</sup>

كان منهما بالزندقة، فيبلغ إلى المهديّ خبرُ زندقته، فبعث إليه يستقيمه من دمشق،  
وكان قد رحل إليها وهو شيخ طاعن في السن، فلما جاء بغداد ومثّل بين يدي المهديّ  
قال له المهديّ: ألسنتَ الفائل :

والشيخ لا يتركُ أخلاقه \* حتى يُورَى في ثرى رَمْسِه  
قال : بلى يا أمير المؤمنين ! قال : وأنت لا تترك أخلاقك حتى تموت ؟ فأمر به ،  
فقتل وصُلب على جسر بغداد سنة ١٦٧ هـ . وأكثر شعره في الحكيم الفلاسفة ،

ومن أحسن أقواله القصيدة التي منها ذلك البيت، وهو يقول فيها :  
لا يَبْلُغُ الأعداءُ من جاهلٍ \* ما يَبْلُغُ الجاهلُ من نفسه  
والشيخ لا يتركُ أخلاقه \* حتى يُورَى في ثرى رَمْسِه  
إذا أُرْعَوَى عادَ إلى جهله \* كذى الضنأ عادَ إلى نكسه  
وإك من أدبته في السبِّ \* كالعود يُسقى الماءَ في غرسه  
حتى تراه مُورقاً ناضراً \* بعد الذي أبصرت من يُسه  
وقوله :

لا يُحِبُّكَ من يَصُونُ ثِيَابَه \* حَذَرَ الثُّبَارِ وعِرضُهُ مَبْدُول  
ولربما أَفْقَرَ الفَقِيَّ فَرَأَيْتَه \* دَمِنَ الثَّيَابِ وعِرضُهُ مَفْسُول

(١) هو صالح بن عبد القدوس بن عبد الله بن عبد القدوس، من حكاية الشعراء، منهم بالزندقة، قوى الطاعة،  
له منزلة سامية عند أهل مذهبه - نشأ في البصرة، وكان يقص على الناس ويظلم - توفي سنة ١٦٧ هـ . ونجد  
أكثر أخباره في فوات الوفيات ( ج ١ ص ١٩١ ) والهمري ( ج ١ ص ٢٦ ) .

وكان فيه ميل الى العزلة والانعطاع عن الناس شأن الفلاسفة؛ ومن ذلك قوله :

أَنْسَتْ بَوَحْدَتِي وَلَمْ تُمْتْ بِي ۞ فَمَ الْعَزْلَى وَتَمَّ السُّرُورُ  
وَأَدْبَنِي الزَّيْمَانُ فَلَيْتَ أَنِّي ۞ هَجَرْتُ فَلَا أَزَارُ وَلَا أَزُورُ  
وَلَسْتُ بِقَائِلٍ مَا دُمْتُ حَيًّا ۞ أَقَامَ الْجُنْدُ أَمْ نَزَلَ الْأَمِيرُ

وهو القائل :

إذا لم تستطع شيئا فدمه ۞ وجاوزه الى ما تستطيع

وله قصيدة حكيمة أخلاقية بدیعة، وهي التي يقول فيها :

الْمَرْءُ يَجْمَعُ وَالزَّمَانُ يُفَرِّقُ ۞ وَيَنْظِلُ يَرْفَعُ وَالطَّلُوبُ تُعْزِزُ  
وَالْأَنْبَاءُ يُبَادِي عَاقِلًا خَيْرُهُ ۞ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ صَدِيقٌ أَحَقُّ  
فَأَرْبَا بِنَفْسِكَ أَنْ تَصَادُقَ أَحَقًّا ۞ إِنْ الصَّدِيقَ عَلَى الصَّدِيقِ مُصَدِّقٌ  
وَزِينِ الْكَلَامَ إِذَا نَطَقْتَ فَإِنَّمَا ۞ يُبْدِي عَقْلٌ ذَوِي الْعُقُولِ الْمُنْطِقُ  
وَمِنْ الرِّجَالِ إِذَا اسْتَوَتْ أَخْلَاقُهُمْ ۞ مَنْ يُسْتَشَارُ إِذَا اسْتَشِيرَ فَيُطْرَقُ  
حَتَّى يَحْمَلَ بِكُلِّ وَادٍ قَلْبُهُ ۞ فَيَرَى وَيَعْرِفُ مَا يَقُولُ فَيَنْطِقُ  
لَا أَفْقَيْنَكَ ثَاوِيًا فِي غَرْبِهِ ۞ إِنْ الْغَرِيبَ بِكُلِّ سَهْمٍ يُرْشِقُ

وله منها :

مَا النَّاسُ إِلَّا عَامِلَاتُ فَعَائِلٍ ۞ قَدْ مَاتَ مِنْ عَطِشٍ وَأَحْرَقَ  
وَالنَّاسُ فِي طَلَبِ الْمَعَاشِ وَإِنَّمَا ۞ بِالْجَدِّ يُرْزَقُ مِنْهُمْ مَنْ يُرْزَقُ  
لَوْ يُرْزَقُونَ النَّاسُ حَسَبَ حَقُولِهِمْ ۞ أَلَيْتَ أَكْثَرَ مَنْ تَرَى يَتَصَدَّقُ  
لَعَكَهُ فَضْلُ الْمَلِكِ عَلَيْهِمْ ۞ هَذَا عَلَيْهِ مُوسِعٌ وَمُضِيقٌ  
وَإِذَا الْجَنَازَةُ وَالْعَرُوسُ تَلَاخِيَا ۞ وَرَأَيْتَ دَمْعَ نَوَاحٍ يَتَرَقَّرُ  
سَكَتَ الَّذِي تَبِعَ الْعَرُوسَ مَهْتَا ۞ وَرَأَيْتَ مَنْ تَبِعَ الْجَنَازَةَ يَنْطَلِقُ  
بَيْنَ الَّذِينَ إِذَا يَقُولُوا يَكْذِبُوا ۞ وَمَنْ يَقُولُوا يَصْدُقُوا



وله من قصيدته المعروفة بالزينية :

وإبدأ مدوك بالتحية ولتكن \* منه زمانك خافاً تترقب  
وأخذه إن لاقيه متبهاً \* فاليت يبدو نابه إذ ينقب  
إن المدو وإن تقدم عهد \* فالحد باقي في العصور مضى  
وإذا الصديق لقيه مخلصاً \* فهو المدو وحقه يجنب  
لا خير في ود امرئ متعالي \* حلو اللسان وقله يتلعب  
يلك يحلف أنه بك واثق \* وإذا توارى عنك فهو المقرب  
يمطبك من طرف اللسان حلاوة \* ويروغ منك كما يروغ العلب  
وصيل الكرام وإن رموك بمقوفة \* فالصنع عنهم والتجاوز أصوب  
وأختر قرينك واصطفه تهازراً \* إك القرين إلى المقارن ينسب  
إك الغنى من الرجال محكراً \* وتراه يرجى ما لديه ويهرب  
ويش بالترجب عند قدومه \* ويقام عند سلامه ويقرب  
والفقر شين للرجال فإنه \* حقاً يهون به الشريف الأنسب  
وأخفى جناحك للأقارب كلهم \* بتدليل وأسمع لهم إن أذنوا  
ودع الكدوب فلا يكن لك صاحباً \* إن الكدوب يسين حراً يصعب  
ويزن الكلام إذا نطقت ولا تكن \* ثرثرة في شكل ناد تحطب  
وأحفظ لسانك وأحترز من لفظه \* فالمرء يسلم باللسان وبهطب  
والمرء فاكتمه ولا تنطق به \* إك الزباجة كتمها لا يسمع  
وكذلك سر المسر إن لم يقوه \* نشرته السنة تريد وتكذب  
لا تحجزن فالحرص ليس بزالد \* في الرزق بل يسقي الحرص ويتعب

وَارْزُقِ الْأَمَانَةَ وَالْحَيَاةَ فَاجْتَنِبْ \* وَاعْدِلْ وَلَا تَغْلِيظْ يَطْلُبُ لَكَ مَكْسَبٌ  
 وَإِذَا أَصَابَكَ نَكْبَةٌ فَاصْبِرْ لَهَا \* مَنْ ذَا رَأَيْتَ مُسْلِمًا لَا يُنْكَبُ  
 وَإِذَا رُمِيَ مِنَ الزَّمَانِ بِرَيْبَةٍ ■ أَوْ نَالِكَ الْأَمْرُ الْأَشَقَّ الْأَضْعَبُ  
 فَاضْرَعْ لِرَبِّكَ إِنَّهُ أَدْنَى لِمَنْ \* يَدْعُوهُ مِنْ جَبَلٍ الْوَرِيدُ وَأَقْرَبُ  
 وَأَحْذَرُ مَصَاحِبَةَ اللَّغِيمِ فَإِنَّهُ \* بُعْدَى كَمَا يُعْدَى الصَّبِيحُ الْأَجْرَبُ  
 وَأَحْذَرُ مِنَ الْمَظْلُومِ سَهْمًا صَائِبًا \* وَأَعْلَمُ بَأْسَ دُعَاةٍ لَا يُحْجَبُ  
 وَلَقَدْ نَصَحْتُكَ إِنْ قِيلَتْ نَصِيحَتِي \* وَالنَّصِيحُ أَغْلَى مَا يُبَاعُ وَيُوهَبُ

١٦ - سَعِيدُ بْنُ وَهَبٍ<sup>(١)</sup>

كان شاعراً مطبوخاً ومات في أيام المأمون، وأكثر شعره في الغزل والتشبيب بالمذكر، وكان مشغولاً بالغلمان والشراب، ثم تنسك وتاب ورجع راجلاً على قدميه ومات على توبة وإفلاج ومذهب جميل، ومات وأبو العتاهية حي وكان صديقه فراه .

أخبر علي بن سليمان الأخفش عن محمد بن مزيد قال : حدثت عن بعض أصحاب أبي العتاهية قال : جاء رجل إلى أبي العتاهية ونحن عنده، فسأزه في شيء، فبكى أبو العتاهية، فقلنا له : ما قال لك هذا الرجل يا أبا إسماعيل فأبكاك ؟ فقال — وهو يحدثنا لا يريد أن يقول شعرا — :

قال لي مات سعيد بن وهب \* رحم الله سعيد بن وهب  
يا أبا عثمان أبكتني \* يا أبا عثمان أوجعت قلبي

قال : فسجبنا من طبعه، وإنه يحدث فكان حديثه شعرا موزونا .

وكان سعيد بن وهب الشاعر البصري مولى بن سامة قد تآب وترهد وترك قول الشعر، وكان له حشرة من البتين وعش من البنات، فكان إذا وجد شيئا من شعره خرقه وأحرقه، وكان أمراً صديق، كثير الصلاة، يزني في كل سنة عن جميع ما عنده، حتى إنه ليزني عن فقة كانت على امرأته .

وكان سعيد بن وهب يتمشق غلاما ينشطر يقال له سعيد، فبلغه أنه تولى أنه يجرحه،

فقال فيه :

(١) هو سعيد بن وهب أبو عثمان مولى بن سامة بن لؤي بن نصر، مولىه ومنشؤه بالبصرة ثم سار إلى بغداد فانام بها . وكانت الكتابة صناعته ، فنصرف مع البراءة فاصطنعوه وتقدم عندهم . ونجد أخباره في الأغانى ( ج ٢١ ص ١٠٤ ) .

مَنْ عَذِرِي مِنْ سَيِّ \* مَنْ عَذِرِي مِنْ سَعِيدِ  
أَنَا بِالْقَسَمِ أَجَاهُ \* وَيَحْيَى بِالْحَمِيدِ

ونظر سعيد بن وهب إلى قوم من كتّاب السلطان في أحوال جميلة، فأنشأ يقول :

مَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا لَهُ شَارَةٌ \* فَصَحْنُ مِنْ نَفَاطَةِ الدُّنْيَا  
تَمِيقُهَا مِنْ كَثَبِ حَسْرَةٍ \* كَانُوا لَقَطَطَ بِلَا مَعْنَى  
يَعْلُوهَا النَّاسُ وَأَيَّامُنَا \* تَذْهَبُ فِي الْأَرْدَلِ وَالْأَدْنَى

وحدث حماد بن إسحاق عن أبيه قال : كان سعيد بن وهب لي صديقاً، وكان له أبن يكنى أبا الخطاب من أكيس الصنبيان، وأحسنهم وجهاً وأدباً، فكان لا يكاد يفارقه في كل حال، لشدة شغفه به ورقة عليه، فمات وله عشر سنين، فخرج عليه جزعاً شديداً وأقطع عن لذاته، فدخلت إليه يوماً لأعائته على ذلك وأستمطقه، فحين رأى ذلك في وجهي فاضت دموعه، ثم أتعب حتى رحمته، وأنشدني :

صَبْرٌ جُودِي عَلَى أَبِي الْخَطَّابِ \* إِذْ تَوَلَّى غَضِبًا بِمَاءِ الشَّبَابِ  
لَمْ يُقَارِبْ ذَنْبًا وَلَمْ يَتَلَفِ الْجُدَّ \* حَتَّى مَرَّ بِمُطَهَّرِ الْأَتْرَابِ  
فَقَدَّرَتْهُ جَنَّتِي إِذَا مَا سَعَى أَثَرُ \* مَرَاهُ مِنْ جَمَاعَةِ الْأَتْرَابِ  
إِنْ قَدَّمَ مَوْجِشًا لِدَارِي فَقَدْ أَصَدَّ \* سَبَّحَ أُنْسَ الْأَثَرِ وَزَيْنَ التَّرَابِ  
أَحْمَدُ اللَّهِ يَا حَبِيبِي فَإِنِّي \* بِكَ رَاجٍ مِنْهُ عَظِيمَ الثَّوَابِ  
فَمَ نَاشِدُنِي إِلَّا إِذَا كَرِهَ بَشِيءَ مَا جِئْتُ إِلَيْهِ، قَعَمْتُ وَلَمْ أَحَاطْ بِهِ بِحَرْفٍ .

دخل سعيد بن وهب على الفضل بن يحيى في يوم قد جلس فيه للشعراء، فجلسوا ينشدونه ويأمرهم بالجوأثر حتى لم يبق منهم أحد، فالتفت إلى سعيد بن وهب كالمستنطق، فقال له : أيها الوزير، إني ما كنت أستعديتُ لهذه الحال، ولا تقدمتُ لها عندي مقدمةٌ فأعير فيها،

(١) وجاء يروجاومجاه : فخر به باليد أو بالسكين . وخفت الهزّة ما هنا الشعر .

ولكن قد حضرنى بيتان أرجو أن ينوبا عن قصيدة؛ فقال : هاتيهما ، فرب قليل أبلغ من الكثير؛ فقال سعيد :

مَدَحَ الْفَضْلُ نَفْسَهُ بِالْمَعَالِي \* فَصَلَّاهُ عَنْ مَيْمِنَا بِالْمَقَالِ  
أَمَرُونِي بِمَدْحِهِ قُلْتُ كَلَّا \* كَبَّرَ الْفَضْلُ عَنْ مَدْحِ الرِّجَالِ

قال : فطرب الفضل وقال له : أحسنت والله وأجبت ، ولئن قل القول وتزو ، لقد أتسع المعنى وكثر ، ثم أمر له بمثل ما أعطاه كل من أنشده مديحا يومئذ ، وقال : لا خير فيما يحيى بعد بيتك ، وقام من المجلس ، وخرج الناس يومئذ بالبيتين لا يتناشدون سواهما .

وحديث آخر يروي قال : كان الفضل بن يحيى ينافس أخاه جعفرا وبنافسه جعفرا ، وكان أنس بن أبي شيخ خاضعا يجعفر ، ينادمه ويأنس به في خلواته ، وكان سعيد بن وهب بهذه المنزلة للفضل ، فدخلت يوما إلى جعفر ودخل إليه سعيد بن وهب لحادثه وأنشده وتدارله ، وحكى عن المتتارين وأتى بكل ما يسر ويطرب ويضحك ، وجعفر ينظر إليه لا يزيد على ذلك ، فلما خرج سعيد من عنده تجاهلت عليه وقلت له : من هذا الرجل الكثير الهديان ؟ قال : أو ما تعرفه ؟ قلت : لا ؛ قال : هذا سعيد بن وهب صديق أئمة أبي العباس وخلصانه وعشيقه ؛ قلت : وأى شيء رأى فيه ؟ قال : لا شيء والله إلا القدر والبرد والفتنة ، ثم دخلت بعد ذلك إلى الفضل ، ودخل أنس بن أبي شيخ لحادثه ونذر وحكى عن المضحكين وأتى بكل طريفة ، فكانت قصة الفضل معه قصة جعفر مع سعيد ، فقلت له بعد أن نرج من حضرته : من هذا المبرم ؟ قال : أو لا تعرفه ؟ قلت : لا ؛ قال : هذا أنس بن أبي شيخ صديق أئمة الفضل وعشيقه وخاصته ؛ قلت : وأى شيء أعجبه فيه ؟ قال : لا أدري والله إلا القدر والبرد وسوء الاختيار ؛ قال : وأنا والله أعرف بسعيد وأنس من الناس جميعا ، ولكنني تجاهلت عليهما وساعدتهما على هوامهما .

وحديث مسرور بن بانة قال : كان في جوارى رجل من البامكة ، وكانت له جارية شاعرة طريفة يقال لها حسناء ، يدخل إليها الشعراء ويسألونها عن المعاني ، فتأتى بكل

مُسْتَحْسِنٍ مِنَ الْجَوَابِ ؛ فَدَخَلَ إِلَيْهَا سَعِيدُ بْنُ وَهْبٍ يَوْمًا وَجَلَسَ إِلَيْهَا فَخَادَتْهَا طَوِيلًا  
ثُمَّ قَالَ لَهَا بَعْدَ ذَلِكَ :

حَاجِثُكَ يَا حَسَنًا • ؕ فِي جَنِينٍ مِنَ الشَّعْرِ  
وَنَيْلًا طَوِيلُهُ شَبِيرٌ • وَقَدْ يُوقَى عَلَى الشَّيْرِ  
لَهُ فِي رَأْيِهِ شَقٌّ • تَطُوفُ بِالنَّدَى يَبْرَى  
إِذَا مَا جَفَّ لَمْ يَبْرَى • كَدَى بَرٌّ وَلَا يَبْرَى  
وَأَنْتَ بُلٌّ أَتَى بِاللَّهِ • جَبَّ الْعَاجِبِ وَالسَّعْرِ  
أَجْبَى لَمْ أَرِدْ لِحْنًا • وَرَبَّ الشَّفْعِ وَالْوَرَى  
وَلَكِنْ صُفْتُ أَبْيَأًا • لَهَا حَقٌّ مِنَ الزَّحْرِ

قَالَ : فَغَضِبَ مَوْلَاهَا وَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَقَالَ : أُنْفَحِشْ عَلَى جَارِيَتِي تَخَاطَبُهَا بِالْحَنَى ؟ فَقَالَتْ  
لَهُ : خَفِّضْ طَلِيكَ ، لَهَا ذَهَبٌ إِلَى مَا طَلَنْتَ وَإِنَّمَا يَعْنِي الْقَلَمُ ؛ فَمَرَرَى عَنْهُ ، وَضَحَكَ سَعِيدُ  
وَقَالَ : هِيَ أَهْلُ مِنْكَ بِمَا سَمِعْتُ .

١٧ - الحسن بن وهب<sup>(١)</sup>

حدث ميمون بن هارون : قال : كنا عند الحسن بن وهب فقال ليّان : غنّني :  
 أَنَاذُورَتَ لَصَبٍّ فِي زِيَارَتِكَ \* فَصَدَّكَ شَهَوَاتُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ  
 لِأَيُّضِيرُ السُّوءَ إِنْ طَالَ الْجُلُوسُ بِهِ \* عَثَفَ الضَّمِيرُ وَلَكِنْ فَاسَقُ النَّظَرُ  
 قال فضحك ، ثم قالت : فأى خير فيه إن كان كذا أو أى معنى ؟ فجلجل الحسن من  
 بادرها عليه ، وتجيبتا من حدة جوابها وفطنتها .

وحدث محمد بن عيسى قال : جاء عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع إلى الحسن  
 ابن وهب ، وعنده بنان جارية لمحمد بن حماد ، وهي نائمة سكرى وهو يبكي عندها ، فقال له :  
 مالك ؟ قال : قد كنت نائما فجاءتني فأنبهتني وقالت : اجلس حتى تشرب بخلست ،  
 فوالله ما غنّت عشرة أصوات حتى نامت ، وما شربت إلا قليلا ، فذكرت قول أشعر  
 الناس وأظرفهم العباس بن الأحنف :

أبكى الذين أذأقوني مودّتهم \* حتى إذا أبغضوني للهوى رقدوا  
 فأنا أبكى وأشد هذا البيت .

وحدث محمد بن موسى بن حماد قال : دعا الحسن بن وهب إبراهيم بن العباس فقال  
 له : اركب وأجبتك حشيا فلا تنتظرنى بالغداة ، فأبطأ عليه ، وأسرع الحسن في شربه فسكّر  
 ونام ، وجاء إبراهيم فراه على تلك الحال ، فدعا بدواة وكتب :

رُحْنَا إِلَيْكَ وَقَدْ رَاحَتْ بِكَ الرِّيحُ \* وَأَسْرَعَتْ فَيْسُكَ أَوْدَارُ وَأَفْرَاحُ

وحدث أيضا محمد بن موسى قال : نظر إبراهيم بن العباس الحسن بن وهب وهو  
 مجبور فقال له :

عَيْنَاكَ قَدْ حَكَّ مَيِّدُ \* نَتَكُ كَيْفَ كُنْتَ وَكَيْفَ كُنَّا

وَلَرَّبِّ صَيِّبٍ قَدْ أَرَتْ \* لَكَ مَيِّتٌ صَاحِبُهَا عَيَانَا

(١) كان الحسن بن وهب حسن الشعر والبلاغة ، نبيد اللسان ، حلو البيان كأخيه سليمان ، وكان مرثيا بالثناء .  
 ويحمد طرفا من أخباره في الأثافي ( ج ٩ ص ٢٦ وج ٢٠ ص ٥٤ ) وزهر الآداب ( ج ٣ ص ٤٤ ) .

فأجابه الحسن بن وهب بمشرين بيتا وطالبه بمثله ، فكتب إليه أربعة أبيات وطالبه بأربعين بيتا . وأبيات إبراهيم :

أبا على خيرُ قولك ما • حصلتُ أنجسه ومُحصره  
ما عندنا في البيع من ضَبَرٍ • لستقلُّ بواحد عشره  
أنا أهلُ ذلك غيرُ عَشِيمٍ • أرضى القديمَ وأفتنى أثره  
ها نحن وقيناك أربعة • والأربعون لديك منتظره

وقال صبيد الله بن سليمان : لعمري ما في الكتاب أشعرُ من أبي إسحاق وأبي علي (يعني عمه الحسن بن وهب) .

حدث علي بن يحيى قال : قلت لإسحاق بن إبراهيم الموصلي ، وقد جرى ذكرُ أحمد بن يحيى المكي ، : يا أبا محمد ، لو كان أبو جعفر أحمد بن يحيى المكي مملوكا كم كان يساوى ؟ فقال : أخبرك من ذلك ، انصرفت ليلته من دار الوائلي ، فاجترتُ بدار الحسن بن وهب فدخلتُ إليه ، فإذا أحمد عنده ، فلما قام لصلاة العشاء الانعرة قال لي الحسن بن وهب : وكم يساوي أحمد لو كان مملوكا ؟ قلت : يساوي عشرين ألف دينار . قال : ثم رجع ففنى صوتا ، فقال لي الحسن بن وهب : يا أبا محمد ، أضعفها . قال : ثم تفنى صوتا آخر ، فقلت للحسن : يا أبا علي أضعفها ، ثم أردتُ الانصراف فقلت لأحمد ضئبي :

لولا الحياءُ وأن السير من خلقي • إذا قصدتُ اليك الدهرَ لم أقيم  
أليس عندك سرٌّ لتي جعلت • ما أبيض من قادمات الرأس كالحم

ففتاه أحمد بن يحيى المكي فأحسن فيه كلَّ الإحسان ، فلما قُتُّ للانصراف قلت للحسن : يا أبا علي ، أضعف الجميع ، فقال له أحمد : ما هذا الذي أسمعُك تقولانه ولست أدري ما معناه ؟ قال نحن تَبَيُّك وتَسْرِيك منذ الليلة وأنت لا تدري .

وحدث محمد بن موسى قال : كان أبو تمام يَشْقُ غلاما تَحَرَّى الحسن بن وهب ، وكان الحسن يتعشي غلاما روميا لأبي تمام ، فرآه أبو تمام يوما يعبث بغلامه ، فقال له :



والله انّ أعنت<sup>(١)</sup> الى الروم لتركمن الى الخزر؛ فقال له الحسن: لو شئت حَكَمْنَا واحتَكَمْتَ؛ فقال له أبو تمام: أنا أشبهك بداود عليه السلام وأشبه نفسي بخصمه؛ فقال الحسن: لو كان هذا منظوماً خفناه، فأما وهو مثورٌ فلا، لأنه عارض لا حقيقة له؛ فقال أبو تمام:

أبا عليٍّ بهرِفِ الدهرِ والنَّيَرِ \* وبالحوادثِ والأيامِ فاعْتَرِ<sup>(٢)</sup>  
أذكرتني أمرَ داودِ وكنتُ فتى \* مصرَفَ القلبِ في الأهواءِ والفكرِ  
أعندك الشمسُ لم يحطِ الغَيْبُ بها \* وأنت مُضْطَرِبُ الأحشاءِ للقمَرِ  
إن أنت لم تهركِ السيرَ الحثيثَ الى \* جآئِرِ الرومِ اعتقنا الى الخَزِرِ  
إن القُطُوبَ له مَنى محلٌّ هوى \* يحلُّ في محلِّ السمعِ والبصرِ  
وربَّ أمتع منه جانبٌ وجي \* أمسى وتكته مَنى على خطري  
جرتُ فيه جنودُ العزمِ فأنكشفتُ \* عنه غيَابته عن بَحْرَةِ هَدِيرِ  
سبجان من سبخته كلُّ جارية \* ما فيك من طمعانِ العينِ بالنظرِ  
أنت المقيمُ لها تَقْدُروا وحلُّه \* وفعله أبداً منه على مَسْغَرِ

وحدث وهب بن سعيد قال: جاء زُحَيْلُ إلى الحسن بن وهب في حاجة بعد موت أبي تمام، فقال له رجل في المجلس: يا أبا عليٍّ، أنت الذي تَطْعَمُ على مَنْ يقول:  
شهدتُ لقد أفوتُ مغائركَ بعدى \* ومحت كما تحت وشائع من بُردِ  
وأنجسدتم من بعد إتهام داركم \* فيادعُ النجْدُني على ساكني نَجْدِ  
فصاح زُحَيْلُ: أحسن والله! وجعل يردّد:

\* فيادعُ النجْدُني على ساكني نَجْدِ \*

ثم قال: رحمه الله، لو كان ترك لي شيئاً من شعره لقلت: إنه أشعر الناس.

(١) أعنت: أمرت. (٢) وردت هذه الأبيات في الأمانى ولها بعض ألفاظ تحمل الآداب، ما بينها هنا كما وردت في ديوان أبي تمام.

وحدث أحمد بن عبيد الله بن ناصح قال : قلت لدعبل وقد عرض علي قصيدة له  
يمدح بها الحسن بن وهب أوقفا :

• أأذلني ليس الموى من هوانيا •

فقلت له : ويحك أقول فيه هذا بعد قولك :

أين محل الحى يا حادى • ستر سفاك الزامح النادى

وبعد قولك :

قالت سلامة أين المال قلت لها • المال ويحك لاقى الحمد فاصطعبا

وبعد قولك :

فعلى أماننا يجرى الندى • وعلى أسيافتنا يجرى المهج

والله إني أراك لو أنشدته إياها لأمر لك بصنع ، فقال : صدقت والله ، ولقد نهتني  
وحدثني ، ثم مرّ بها .

وحدث محمد بن موسى قال : أنشدني الحسن بن وهب لمحمد بن عبد الملك أبياتا  
يرثي بها سكرانه أم آبنه عمر ، وجعل الحسن يتعجب من جودتها ويقول :

يقول لي الخللان لو زرت قبرها • فقلت وهل غير الفؤاد لها قبر

على حين لم أحدث فاجهل قدرها • ولم أبلغ السن التي معها الصبر

وحدث محمد بن يزيد قال : دامت الأمطار بـ «سرم رأى» ، فتأخر الحسن بن وهب  
عن محمد بن عبد الملك الزيات ، وهو يومئذ وزير والحسن يكتب له ، فاستبطأه محمد ،  
فكتب إليه الحسن يقول :

أوجب العذرفى ترانى اللقاه • ما توالى من هذه الأنواع

لست أدري ماذا أقول وأشكو • من سماء تعوقني عن سماء

غير أنى أدعو على تلك بالثك • لي وأدعو لهذه بالبقاء

فسلام الإله أهديه غفها • لك منى ياسيد الوزراء

وحلت محمد بن موسى قال : اغتسل الحسن بن وهب فتأخر عن محمد بن عبد الملك  
أياماً كثيرة ، فلم يأتهم رسوله ، ولا تعرف خبره ، فكتب إليه الحسن قوله :

أيها الوزير أبتلك الله \* به وأبشاك لي بقاء طويلاً  
أجيبلاً تراه يا أكرم الناس \* من لكيا أراه أيضاً جيبلاً  
إنني قد ألفت عشراً طيبلاً \* ما ترى مريضاً إلى رسولاً  
إن يكن موجب التعميد في الصبر \* حجة منّا على منك طويلاً  
فهو أولى ياسيد الناس برأ \* واقفاداً لمن يكون طيبلاً  
فلماذا تركتني عرضة الله \* من الحاسدين جيبلاً  
الذنب ؟ لما صلت سوى الشكر \* ير قريناً لتي ودخيلاً  
أم ملال ؟ فما حلتك للصا \* حب مثل على الزمان ملولاً  
قد آتى الله بالشفاء ما أم \* يرف مما أتكت إلا قليلاً  
وأكلت التراج وهو غداء \* أقلت متى عليه أقولاً  
بعد ما كنت قد حلت من إليه \* لية عبثاً على الطباع قبيلاً  
ولعل قيمت قبلك آتية \* لك ضلّا إن وجدت فيه سبيلاً

فأجابه محمد بن عبد الملك :

دفع الله عنك نائبة الدهر \* بر وحاشاك أن تكون طيبلاً  
أشهد الله ما علمت وما ذا \* لك من العذر جائزاً مقبولاً  
ولعمري أن لو علمت فلأزدد \* تنك حولاً لكان عندي قليلاً  
أتى أرتجي وإن لم يكن ما \* كان مما أقمت إلا جيبلاً  
أن أكون الذي إذا أضر الإخ \* بلاص لم يتيش عليه كفيلاً  
ثم لا يسئل المودة حتى \* يعمل الجهد دونها مبذولاً  
فإذا قال كان ما قال إذ كا \* ن بعيداً من طبعه أن يقولاً

فاجعلن لي إلى التماق بالعد \* رسيلا إن لم أجد لي سيلا

فقد بما ما جاد بالصفح والعد \* وما سأل الخليل الخليل

وكتب محمد بن عبد الملك إلى الحسن بن وهب وقد تأخر عنه :

قالوا جفاك فلا عهد ولا خبر \* ما ذا تراه دهاء قلت أيلول

شهر تجد جبال الوصل فيه ها \* عقد من الوصل إلا وهو محلول

وكان محمد قد ندبه لأن يخرج في أمر مهم فأجابته الحسن فقال :

إني يحول أمري أعليت رتبته \* حفظه منك تعظيم وتبجيل

وأنت عدته في تيل هتبه \* وأنت في كل ما يهواه مأمول

ما ظاني عنك أيلول بلذته \* وطيبه ولعم الشعر أيلول

الليل لا قصر فيه ولا طول \* والجوايف وظهر الكاس مرحول

والود مستنطق عن كل معجبة \* بضحي بها كل قلب وهو متبول

لكن توقع وشك البين عن يلد \* تحله فوكاه الميز محلول

ما لي إذا ثمرت بي عنك مبتكرا \* دهم البقال أو الموسج المراسيل

إلا رعائتك الاتي يعود بها \* حذ الحوادث عني وهو مفلول

وكان الحسن بن وهب يسير محمدا على مسنة<sup>(١)</sup>، فعذل عن المسنة لثلاث بضيق محمد

الطريق، فظن محمد أنه أشفق على نفسه من المسنة، فعذل عنها ولم يساعده على طريقه،

وظن بنفسه أن يصيبها ما يصيبه، فقال له محمد :

قد رأيتك إذ تركت المسنة \* وحاذيتني يسار الطريق

ولعمري ما ذاك منك وقد جدت بك الجسد من فعال الشقيق

فقال له الحسن :

إن يكن خوفي الخوف أراي \* أن ترائي مشبها بالعقوق

فلقد جارت الظنون على المش \* فبق والظن مولج بالشقيق

(١) المسنة : ما يضي في وجه السيل .

عَدُّ السَّيِّدِ الْأَجَلُ وَقَدْ سَا \* رَعَى الْجُلُوفَ مِنْ بَيْنِ الطَّرِيقِ  
فَأَخَذَتْ الشَّهَالَ بَقِيًّا عَلَى السَّيِّدِ إِذْ هَالَى سُلُوكُ الْمِضْبِيقِ  
إِنْ عِنْدِي مَوْتٌ لَكَ حَازَتْ \* مَا حَوَى طَاشِقُ مِنَ الْمَشُوقِ  
طَوْدٌ عِزٌّ خُصِصَتْ مِنْهُ يَرْ \* صَارَ قَدْرِي بِهِ مَعَ الْبُيُوقِ  
وَبِنَفْسِي وَآخِيقِي وَأَبَى الْبِرِّ وَعَمَى وَأُشْرِقِي وَصَدِيقِي  
مَنْ إِذَا مَا رُوِّعْتُ أَمِنْ رَوْعِي \* وَإِذَا مَا شَرِيعْتُ سَوَّعُ رِيقِي  
وَحَدَّثَ الْمُبَرَّدُ قَالَ : اسْتَسْقَى الْحَسَنُ بْنُ وَهَبٍ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ نَيْنِيزًا بَيْلِدَ الرُّومِ  
وَهُوَ مَعَ الْمُعْتَصِمِ ، فَسَقَاهُ وَكَتَبَ إِلَيْهِ :

لَمْ تَلْقُ مِثْلَ صَاحِبٍ \* أُنْدَى يَدًا وَأَمَّ جُودًا  
يَسْقَى النَّسِيمَ بَقْفَرَةً \* لَمْ يَسْقِ فِيهَا الْمَاءُ عُمُودًا  
صَفْرَاءَ صَافِيَةٍ كَأَنَّ \* بِكَاسِهَا دُرًّا تَقْصِيدًا  
وَأَجُودٌ حِينَ أَجُودَ لَا \* حَيْصَرًا بِنَاكَ وَلَا يَلِيدًا  
وَإِذَا اسْتَقَلَّ بِشِكْرَهَا \* أَوْجِبَتْ بِالشُّكْرِ الْمَزِيدًا  
خُذْهَا إِلَيْكَ كَأَنَّهَا \* كُنَيْسَتْ زُبَايْنَتًا عَقُودًا  
وَأَجْعَلْ عَلَيْكَ بَانَ نَقْوٍ \* مَ بِشْكْرَهَا أَبَدًا عُمُودًا

وَمِنْ جَيِّدِ شِعْرِهِ قَوْلُهُ :

بَابِي كَرِهْتُ النَّارَ لَمَّا أُوقِدْتُ \* فَمَرَفْتُ مَا مَعْنَاكَ فِي إِهَادَا  
هِيَ ضَرَّةٌ لَكَ بِالتَّمْسَاعِ ضَيَائِهَا \* وَبَحْسَنَ صَوْرَتِهَا لَدَى إِيقَادَا  
وَأَرَى صُلَيْعَكَ بِالْقُلُوبِ صُلَيْمَهَا \* بِسَيِّئَاتِهَا وَأَرَادَ صَحَا  
تَرْتَجِّكَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ بِحَسَنِهَا \* وَضَيَائِهَا وَصَلَاحِهَا وَفُسَادَا

وَمَاتَ الْحَسَنُ بْنُ وَهَبٍ فَرَّاهُ أَخُوهُ سَلْيَانُ بْنُ وَهَبٍ :

مَضَى مَذْمُومٌ مَرَّ الْمَالَى وَأَصْبَحَتْ \* لِأَلِي الْجِنَا وَالْقِسْوَى لَيْسَ لَهَا نَقْمُ  
رَأَضِي نَجِيَّ الْفَعْرِ بِسَدِّ فِرَاقِهِ \* إِذَا هُمْ بِالْإِنْصَاحِ مَنَظْقُهُ كَنَقْمُ

وكتب الحسن بن وهب يشكر :

مَنْ شَكَرَكَ عَلَى دَرَجَةٍ رَفَعْتَهُ إِلَيْهَا ، أَوْ ثَرَوَةٍ أَقْدَرْتَهُ عَلَيْهَا ، فَإِنَّ شُكْرِي لَكَ عَلَى مُهِجَةٍ  
أَحْيَيْتَهَا ، وَحُشَاةٍ أَبْقَيْتَهَا ، وَرَمَقٍ أَمْسَكْتَ بِهِ ، وَقَتٍّ بَيْنَ التَّلَفِّ وَبَيْنِهِ ، فَلِكُلِّ نِعْمَةٍ مِنْ  
نِعَمِ الدُّنْيَا حُدٌّ تَنْتَهِي إِلَيْهِ ، وَمَدَى يُوقِفُ عِنْدَهُ ، وَغَايَةٌ مِنَ الشُّكْرِ يَسْمُو إِلَيْهَا الطَّرْفُ ، خِلا  
هَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي فَاقَتْ الْوَصْفَ ، وَأَطَالَتِ الشُّكْرَ وَتَجَاوَزَتْ قَدْرَهُ ، وَأَنْتَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ غَايَةٍ ،  
رَدَدْتَ عَنَّا كَيْدَ الْعَدُوِّ ، وَأَرْغَمْتَ أَنْفَ الْحَسُودِ ، فَحَنَّا نَلْجَأُ مِنْكَ إِلَى ظِلِّ ظِلِّكَ ، وَكَتَيْفُ  
كَرِيمٍ ، فَكَيْفَ يُشْكِرُ الشَّاكِرُ ، وَإِنْ يَبْلُغُ جُوهْدَهُ الْمُجْتَهِدُ ، — .

١٨ - أُمِّجَعُ السَّلْبِيّ<sup>١)</sup>

كان متصلا بالبرامكة وله فيهم أشعار كثيرة، منها قوله في يحيى بن خالد وكان قد غاب :

قد غاب يحيى فما أرى أحدا \* يأتس إلا بذكره الحسين  
أوحشت الأرض حين فارقتها \* من الأيادي العظام والميزن  
لولا رجاء الإياب لا تصدعت \* قلوبنا بصدده من الحزن

وقال أيضا :

رايتُ بقاء الخبير في كل وجهه \* لفتية يحيى مستكين خضعا  
فإن يمس من في الرقبتين مؤملا \* لأوية يحيى نحوها متعلما  
فما وجهه يحيى وحده غاب عنهم \* ولكن يحيى غاب بالخبر أجمعا

وقال فيه أيضا :

إذا غاب يحيى عن بلاد تفيث \* وثشرق إن يحتلها فطيط  
وإن فعال الخبير في كل بلدة \* إذا لم يكن يحيى بها لغريب

وقال فيه حين أعتل :

لقد قرعت شكاة أبي علي \* قلوب معانير كانت صحاحا  
فإن يدفع لنا الرحمن عنه \* صروف الدهر والأجل المتاحا

(١) هو أُمِّجَعُ بْنُ عَمْرِو بْنِ وَهْدِ الشَّرِيدِ بْنِ مَطْرُودِ السَّلْبِيِّ، وكان يكنى أبا الوليد، شاعر إسلامي عجمي، نشأ بالبصرة، وقال الشعر وأجاد فيه حتى عدّ من الفحول، وكان الشعر يورث في ربيعة واليمن، ولم يكن لقيس شاعر، فلما نجم أُمِّجَعُ وقال الشعر انتحرت به نيس. وأقنع إلى البرامكة ومدحهم وأختص، بجعفر فأصفاه مدحه، فأعجب به وحضر ووصله إلى الرشيد ومدحه فأعجب به أيضا وأمدّه بالمال فأثرى وحسنت حاله في أيامه، وتقدم عنده، وله فيه المدائح المختارة، والقصائد السائرة. وتجد أشعاره وأخباره في الأغاني (ج ١٧ ص ٣٠) والشعر والشعراء (ص ٥٦٢).

فقد أسمى صلاح أبي علي \* لأهل الأرض كلهم صلاحاً  
إذا ما الموت أخطاه فلنأ \* نبأ الموت حيث غذا وراحاً  
وهو القائل ،

ليس للساقيات إلا \* من له وجه وقاح  
ولسان طرمذار \* وغدو ورواح  
إن أكن أبطالاً \* جمة عني فالقحاح  
فعل الجهد فيها \* وعلى الله النجاح

ويستجاد له في مدح الرشيد :

وصلت بذلك السيف يوم تقطعت \* أيدي الرجال وزلت الأقدام  
وعلى علك يا أبت حم محمد \* رصدين ضوء الصبح والإفلام  
فإذا تنبه رصته وإذا غفا \* سلت عليه سيوفك الأحلام  
ويستجاد له أيضاً قوله :

غدا يتفرق أهل الهوى \* ويكثر باك ومسترجع  
وتختلف الأرض بالطاعين \* وجوها كسند ولا تجتمع  
وتفنى الطلول ويبقى الهوى \* ويصنع ذو الشوق ما يصنع  
وأنت تبكي وهم جبهة \* فكيف يكون إذا ودعوا  
أطمع في العيش بعد الفراق \* فبئس لعمرك ما تطمع

وفيها يقول في جعفر بن يحيى :

بنيته مثل تدبيره \* متى هتبه فهو مستجيب  
إذا هم بالأمر لم ينه \* هجوع ولا شادن أفرع  
ففي كفه للشيء مطلب \* وللسر في صدره موضع



وكم قاتل إذ رأى بهجتي \* وما في فضول الفنى أصح  
 فلما في ظلال ندى جعفري \* يهز ثياب الفنى أضح  
 وما خلقه لأمرئى مطع \* ولا دونه لأمرئى مفتح

وهو القاتل في محمد بن منصور بن زياد يرثيه :

أنى فنى الجسد إلى الجسد \* ما مثل من أنى بوجود  
 أنى فنى أصبح معروفا \* منتشرا في البيض والسود  
 أنى فنى مص الترى بدمه \* بقية الماء من السود  
 قد نل الدهر به ثلثة \* جانيها ليس بمسود  
 أنى فنى كان ومعروفا \* يلا ما بين كرى اليد  
 فاصبعا بعد تسايهما \* قد جمعا في بطن ملحود  
 الآن نخشى عثايت الندى \* ومدوة البخل على الجسد

ويستجاد له قوله في إبراهيم بن عثمان بن نيك وكان صاحب شرط الرشيد وكان  
 جبارا جبوسا :

في سيف إبراهيم خوف واقع \* بلوى التفاق وفيه أمن المسلم  
 ويبيت بكلا والميون هواجع \* مال المضيع ومهجة المستسلم  
 جعل الخطام بأف كل مخالف \* حتى استقام له الذى لم يخلف  
 لا يصلح السلطان إلا شدة \* تنفى البرى بفضل ذنب الحرم  
 ومن الولاة مقم لا يتنى \* والسيف تظفر شفراته من الدم  
 منعت مهايتك القوس حديثا \* بالأمر تكرمه وإن لم تعلم

وقال لأخيه :

أبت غفلات قلبك أن تزوحا \* وكأس لا تزالها صابوحا  
 كأنك لا ترى حسنا بخيلا \* بعينك يا أحنى إلا قبيحا

وَيُسْتَجَادُ لَهُ قَوْلُهُ فِي الرَّشِيدِ :

لَا زِلْتَ تَشْرُ أَعْيَادًا وَتَطْوِيهَا \* تَمُضِي بِهَا لَكَ أَيَّامٌ وَتَتْلِيهَا  
مُسْتَقْبَلًا جِلْدَةَ الدُّنْيَا وَبَهْجَتَهَا \* أَيَّامُهَا لَكَ نَظْمٌ فِي لَيَالِيهَا  
الْعِيدُ وَالْعِيدُ وَالْأَيَّامُ بَيْنَهُمَا \* مَوْصُولَةٌ لَكَ لَا تَقْفَى وَتُقْنِيهَا  
وَلَيْتَنِكَ النُّصْرُ وَالْأَيَّامُ مَقْبِلَةٌ \* إِلَيْكَ بِالْفَتْحِ مَعْقُودًا نَوَاصِيهَا

وَيُسْتَجَادُ لَهُ قَوْلُهُ بِمَدْحِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ صَبِيحٍ :

لَهُ نَظَرٌ لَا يَضْمُضُ الْأَمْرُ دُونَهُ \* تَكَادُ سُبُورُ الْغَيْبِ عَنْهُ تَزُوقُ

وَهُوَ الْقَائِلُ :

وَمَا تَرَكَ الْمُدَّاحُ فِيكَ مَقَالَةً \* وَلَا قَالَ إِلَّا دُونَ مَا فِيكَ قَائِلُ

وَقَالَ أَيْضًا :

مَضَى أَبْنُ سَمِيدٍ حِينَ لَمْ يَبْقَ مَشْرِقُ \* وَلَا مَغْرِبُ إِلَّا لَهُ فِيهِ مَادِحُ  
وَمَا كُنْتُ أَدْرِي مَا فَوَاضَلُ كَفَهُ \* عَلَى النَّاسِ حَتَّى غَيْبَتِهِ الصَّفَاغُ<sup>(١)</sup>  
فَاصْبِحْ فِي لَحْدٍ مِنَ الْأَرْضِ مَيْتًا \* وَكَانَتْ بِهِ حِيَا تَضِيْقُ الصَّبَاغُ<sup>(٢)</sup>  
سَابِجًا مَا فَاضَتْ دُمُوعِي فَإِنْ تَقْنَضُ \* فَحُسْبُكَ مَتَى مَا تُجِئُ الْجَوَاغُ<sup>(٣)</sup>  
فَإِنَّا مِنْ رُزْءٍ وَإِنْ جُلَّ جَانِزُ \* وَلَا بِمَرُورٍ بَعْدَ مَوْتِكَ فَارِجُ  
كَأَنَّ لَمْ يَمُتْ حَتَّى سِوَالِكَ وَلَمْ يَقُمْ \* عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَيْكَ النَّوَاغُ  
لَنْ حُسْنَتْ فِيكَ الْمَرَاثُ وَذِكْرُهَا \* لَقَدْ حَسَلَتْ مِنْ قَبْلُ فِيكَ الْمَدَاغُ

(١) الصفاغ : أجار مرض تغطي بها الثوب . (٢) الصفاغ : جمع صمغ : وهي الأرض

الجرداء المستوية الواسعة ذات حصى صغار . (٣) الجواغ : الضلوع .

١٩ - علي بن الجهم<sup>(١)</sup>

كان علي بن الجهم قد هاجم بختيشوع، فسبّه عند المتوكل بحسبه المتوكل. فقال علي بن الجهم في حسبه عدة قصائد كتب بها إلى المتوكل، فأطلقه بعد سنة ثم فناه بعد ذلك إلى نجرسان. فقال أول ما حُيس قصيدة كتب بها إلى أخيه، أولها قوله :

تَوَكَّلْنَا عَلَى رَبِّ الْمَاءِ \* وَسَأَمَّا لِأَسْبَابِ الْقَضَاءِ  
وَوَطَّنَا عَلَى غَيْرِ آلِيَالِ \* نفوسًا ساءتْ بِعَدِ الْإِبَاءِ  
وَأَفْنِيَةُ الْمُلُوكِ عَجَبَاتٌ \* وَابُّ اللَّهِ مَبْدُولُ الْفَنَاءِ  
هِيَ الْأَيَّامُ تَحْكُمُنَا وَتَأْسُو \* وَتَأْتِي بِالسَّعَادَةِ وَالشَّقَاءِ  
وَمَا يُغْنِيهِ الثَّرَاءُ عَنِ الْغِي \* إِذَا مَا كَانَتْ مَحْظُورَ الْعَمَاءِ  
حَلَبْنَا الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ وَمَرَّتْ \* بِنَا عُقْبُ الشَّدَائِدِ وَالرَّخَاءِ  
وَجَرَبْنَا وَجَرِبَ أَوْلُونَا \* فَلَا شَيْءَ أَعَزُّ مِنَ الْوَفَاءِ  
وَلَمْ تَدِجِ الْحَيَاءُ لِمَسْ ضَرَّ \* وَبَعْضُ الضَّرِّ يَذْهَبُ بِالْحَيَاءِ  
وَلَمْ يَحْزَنْ عَلَى دُنْيَا تَوَلَّتْ \* وَلَمْ تُسَبِّقْ إِلَى حَسَنِ الْعِزَاءِ  
تَوَقَّى النَّاسُ يَابْنَ أَبِي وَائِي \* فَهُمْ تَبِعُ الْخُصَاةَ وَالرَّجَاءِ

(١) هو عربي قرشي شاعر فصيح مطبوع، وقد عصى بالمتوكل حتى سار من جلسائه ثم أبغضه لأنه كان كثير السعاية إليه بتدمايه فكان إذا خلا به عرفه أنهم يسيرونه ويطلبونه، فكتف الخليفة من ذلك فلا يجد له حفيقة، ففناه إلى خراسان بعد أن حبسه مدة. وكان مذهبه في الشعر مذهب مرمران بن أبي حفصة في هجاء آل أبي طالب ومذمهم والإغراء بهم وهجاء الشيعة كقوله :

ورافضة تقول بشعب رضوي \* إمام، خاب ذلك من إمام  
إمام من له عشرون ألفا \* من الأتراك مشقة السهام

وله أقوال في الفزل والفتاب وفي الوصف، توفي سنة ٢٤٩ هـ. ويوجد أخباره في الأغانى (ج ٩ ص ١٠٤) وابن خلكان (ج ١ ص ٤٩٧).

ولا يقرّك من وفيد إخاء \* لأمر ما قدّا حسن الإخاء  
 ألم تر مظهرين على ضياء \* وهم بالأمس إخوان الصفاء  
 فلما أن بليت قدّوا وراحوا \* على أشدّ أسباب البلاء  
 أثبت أخطارهم أن ينصروني \* بمالي أو بجاه أو ثراء  
 وخافوا أن يقال لهم خذلتم \* صديقاً فادّمعوا قدّم الجفاء  
 تظّافرت الروافض والنصارى \* وأهل الإعتزال على هجائي  
 وطاؤون وما ذبح إليهم \* سوى على بأولاد الزناء  
 فيخشي شوع يشهد لأبن عمرو \* وعزّوك لهارون المراني  
 وما أجدناه بنت أبي تميم \* بجدناه آل اللسان على الخفاء  
 إذا ما عدّ مطعكم رجلاً \* فافضل الرجال على النساء  
 عليكم لعنة الله أبشداء \* وعوداً في الصباح وفي المساء  
 إذا تميم للناس قالوا \* أولئك شرّ من تحت السماء  
 أنا المتوكّل هوى ورأيا \* وما بالواقفية من خفاء  
 وما حبس الخليفة لي بساير \* وليس بمؤمى منه التباي

كان سبب حبس المتوكّل على بن الجهم أن جماعة من الجلّساء سمّوا به اليه وقالوا له :  
 إنه يفتش الخدم وينعزهم ، وإنه كبير الطعن عليك والعيب لك والإضرار على أخلاقك ،  
 ولم يزالوا به يؤذون صدره عليه حتى حبسه ، ثم أبلغوه عنه أنه هجاه فغاه إلى نخراسان  
 وكتب بأن يعلّب إذا ورد بها يوماً إلى الليل ، فلما وصل إلى الشاذليّ حبسه طاهر بن  
 عبد الله بن طاهر بها ، ثم أخرج فعلّب يوماً إلى الليل مجزّداً ثم أنزل ، فقال في ذلك :

لم يتصبوا بالشاذليّ ضيّة الإستيف مسبوقة ولا مجهولا  
 تصبوا بحمد الله ملء قلوبهم \* شرقاً وملء صدورهم تهيلا  
 ما أزداد إلا رقة بنكوله \* وأزدادت الأعداء عنه كولا

هل كان إلا الليث فارق غيـله \* فرأيتـه في مجـل محـولا  
 لا يأمـن الأعداء من سـداته \* شـدا يـفـصل هـائمهم تفـصيلا  
 ما عابه أن بـزعه لبأسـه \* فالسيف أهول ما يرى مسـولا  
 إن يـتـلـل فالبنـر لا يـزرى به \* إن كان ليلـة تـمـه مـبـدولا  
 أو يـسـلـوه المـال يـجـزن فقـده \* ضيـفا ألم وطـارقا وزيدا  
 أو يحبسـوه فليس يـجـتـس سائر \* من شعره يـدع العـزير ذليلا  
 إن المصائب ما تـمـتـت دينـه \* نـيـم وإن صـبـت عليه قليلا  
 والله ليس بـسـافـل من أمره \* وكفى بـرك ناصرا ووـكيلا  
 ولتـعـلمن إذا القلوب تـكـشـفت \* عنها الأـكـنة من أضـل سـبيلا

وكتب المتنوكل الى طاهر بن حيد الله بإطلاق على بن الجهم، فلما أطلقه قال :

أطاهر إني عن نـحـاسـان راحـل \* وسـتـخـبر عنها فـا أنا قائل  
 أأصدق أم أكني عن الصدق أيا \* تحـيـرت أذنه اليك المحافل  
 وسارت به الركبـان وأصـطـفقت به \* أكـف قـيـان وأجـتبه القـبائل  
 وإن يسأل الحمد والذم عالم \* بما فيهما ناعى الرية ناضل  
 وحققا أقول الصدق إني لسائل \* اليك وإن لم يـطـط بالود مائل  
 ألا حرمـة تـزعمى ألا عقـد ذمـة \* لجـار ألا مـل لقـسول متـناكـل  
 ألا منصف إن لم يـجـهد متـفـطـلا \* طـيـبا ألا قاض من الناس عادل  
 فلا تـطـعـن عـيـفا على أـمـسـلا \* لـقـد بـك ما عـفـت على الأناـمل  
 أطاهر إن المحسن لائق محسن \* إليك وإن تجـسـل لائق باـخل

فقال له طاهر : لا تقل إلا خيرا، فإني لا أقبل بك إلا بما تحب، فوصله وحمله

وكساه .

وقال علي بن الجهم للوكل :

عفا الله عنك ! ألا حرمة • تجود بعفوك أن أبعدا  
لئن جَلَّ ذنبٌ ولم أعتد • لأنت أجلُّ وأعلى يدا  
ألم تر عبداً عدّا طوره • ومولى عفا ورشيداً هدى  
ومُفِيداً أمي تلافيته • فعاد فأصلح ما أفسدا  
أقلنى أقالك من لم يزل • يقيك ويصرفك الردى

وأحسن شعر قاله فى المجلس قصيدته التى أوتها :

قالوا حُبِسْتَ فقلتُ ليس بضائرى • حَبَسَى وَايَ مُهَنِّدٍ لَا يُنْعَمُ  
أَوْ مَا رَأَيْتُ اللَّيْثَ يَأْلَفُ غِيْلَهُ • كِبَرًا وَأَرْبَاشَ السَّبَاعِ تَرَدُّ  
والشمس لولا أنها محبوبة • عن ناظرِكَ لَمَّا أَضَاءَ الْفَرْقُ  
والبدْرُ يَذْكُرُهُ السَّرَّارُ فَتَجَلَّى • أَيَّامُهُ وَكَانَهُ مَتَجَدِّ  
والغيثُ يَحْصُرُهُ النَّهْمُ لَمَّا يُرَى • إِلَّا وَرَيْقُهُ يَرَاعُ وَيَرْعُدُ  
والزَّامِيَةُ لَا يُفِيمُ كَمُوبَهَا • إِلَّا التَّقَافُ وَجَدُوهُ شَوْقُودُ  
والنَّارُ فِي أَجْجَارِهَا خَبُوءَةٌ • لَا تُصْطَلَّى إِنْ لَمْ تُنْزَها الْأَزْنُدُ  
والجلس ما لم تَفْشَهِ لَدُنِّيَّةٍ • شَمَاءَ نَعَمِ الْمَنْزِلُ الْمُتَوَدَّدُ  
بِتِ يَحْدُدُ لِلْكَرِيمِ كَرَامَةً • وَيُزَارُ فِيهِ وَلَا يَزُورُ وَيُحَدِّدُ  
لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْجِلسِ إِلَّا أَنَّهُ • لَا يَسْتَذِلُّكَ بِالْجَبَابِ الْأَعْبُدُ  
كَمْ مِنْ عَظِيمٍ قَدْ تَخَطَّاهُ الرَّدَى • فَنَجَا وَمَاتَ طَبِيبُهُ وَالْعُودُ  
يَا أَحْمَدُ بَنَى إِي دَوَادِ إِنَّمَا • تَدْعَى لِكُلِّ عَظِيمَةٍ يَا أَحْمَدُ  
أَبْلُغْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَدُونَهُ • خَوْضُ الرَّدَى وَخَاوِفُ لَا تَتَفَدُّ  
أَتَمَ بَنُو حِمَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ • أَفَلَمْ يَمْشَرْعِ النَّبِيُّ مُحَمَّدُ  
مَا كَانَ مِنْ كَرَمٍ فَاتَمَّ أَهْلُهُ • كَرَّمَتْ مَفَارِسُكُمْ وَطَابَ الْحَيْدُ

أَيُّ السَّوِيَّةِ بَابُ مُحَمَّدٍ \* خَعَمٌ تَحَرُّبُهُ وَأَخْرُ يُجْعِدُ  
 إِنْ الَّذِينَ مَعَا إِلَيْكَ بَاطِلٌ \* حَمَادٌ نَمِيكَ الَّتِي لَا تُجْعِدُ  
 شَهْدُوا وَغَنَبْنَا عَنْهُمْ فَتَحَكُّوا \* رَيْنَا، وَلَيْسَ كِفَائِي مِنْ يَشْهَدُ  
 لَوْ يَجْمَعُ انْخِصَاءٌ عِنْدَكَ جُلُوسٌ \* يَوْمَا لَبَانَ لَكَ الطَّرِيقُ الْأَقْصَدُ  
 فَبَأَى جُرْمٌ أَصْبَحَتْ أَعْرَاضُنَا \* نَهْبًا تَقْسِمُهَا اللَّهُمُّ الْأَوْغَدُ

خرج علي بن الجهم إلى الشام في قافلة فخرجت عليهم الأعراب في خُصاف<sup>(١)</sup>، فهرب من  
 كان في القافلة من المقاتلة وثبت علي بن الجهم، فقاتلهم قتالا شديدا وناب الناس إليه  
 فدفعهم ولم يَحْطُوا بشيء. فقال في ذلك :

صَبَرْتُ وَمِثْلُ صَبْرِهِ لَيْسَ يُنْكَرُ \* وَلَيْسَ عَلَى تَرْكِ التَّشَعُّمِ يُنْكَرُ  
 غَرِيزَةٌ حَرٌّ لَا أَخْلَاقٌ تُكَلِّفُ \* إِذَا خَامَ فِي يَوْمِ الْوَعَى الْمُتَصَبِّرُ<sup>(٢)</sup>  
 وَلَمَّا رَأَيْتَ الْمَوْتَ تَهْفُو بِنُودِهِ \* وَبَانَتْ عَلَامَاتُ لَهُ لَيْسَ تُنْكَرُ  
 وَأَقْبَلْتَ الْأَعْرَابُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ \* وَثَارَ تَحْجَاجُ أَسْوَدَ اللَّوْنِ أَكْثَرُ  
 بِكُلِّ مُشِيحٍ مُسْتَمِيتٍ مُشْتَرٍ \* يَحْصِلُ بِهِ طَرَفُ أَقْبُ مُشْتَرٍ<sup>(٣)</sup>  
 بَارِضُ خُصَافٍ حِينَ لَمْ يَكْ دَافِعٌ \* وَلَا مَانِعٌ إِلَّا الصَّفِيقُ الْمَذْكَرُ  
 فَغُلَّ فِي عَيْنِي عَظِيمٌ جَمْعُهُمْ \* عَزِيمَةٌ قَلْبٍ فِيهِ مَا جَلَّ يَصْفُرُ  
 بِمَعْقَرِكَ فِيهِ الْمَنَافَا حَوَاسِرُ \* وَثَارَ الْوَعَى بِالْمُشْرِفَةِ تُسَمَّرُ  
 فَاصْطَلَتْ وَجْهِي عَنْ ظُلُمَاتِ سِيَوْفِهِمْ \* وَلَا انْحَزْتُ عَنْهُمْ وَالْقَنَابُ نَتَمَّرُ  
 وَلَمْ أَكْ فِي حَسْرِ الْكِرِيمَةِ مُجْعَا \* إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحَرْبِ لِلْيُودِ مُصَدَّرُ  
 إِذَا سَاعَدَ الطَّرْفُ النَّفَى وَجَنَانُهُ \* وَأَمْسَرَ خَطْفُ وَأَيْبَسُ يُبْتَرُ  
 فَذَلِكَ وَإِنْ كَانَ الْعَكْرِمُ بِنَفْسِهِ ■ إِذَا أَصْطَلَتْ الْأَهْطَالُ فِي النُّعْ عَسْكَرُ

(١) برية بين إلس وطلب . (٢) خام : تكسر وجبن .

(٣) المشيح : المانع لما وراء ظهره . والأقرب من التحليل : الحقيق الخضر الضامر البليغ .

مَنْهُمْ مِنْ أَنْ يَنْالُوا قُلَامَةً • وَكَتُبْتُ لَهَا بِهَا وَالْأَيْسَّةُ تَقَطَّرُ  
وَتَلِكُ بِحَيَايَا قَدِيمًا وَحَدَّثًا • بِهَا عُرِفَ الْمَاضِي وَعَزَّ الْمُؤْتَرِ  
أَبْتُ لِي قَرُوبُ أَنْجَبْتِي أَنْ أَرَى • وَإِنْ جَلَّ خَطْبُ خَاشِعًا أَنْصَجِرَ  
أُولَئِكَ أَلَّ اللَّهُ فَيَهْرُبُ بِنَ مَالِكٍ • بِهِمْ يُجَبَّرُ الْعَلَمُ الْكَبِيرُ وَيُكْسَرُ  
هُمْ أَلَمْ يَكِبْ الْعَالَى عَلَى كُلِّ مَنْكِبٍ • سَيُوفُهُمْ تَقْنَى وَتُقْنَى وَتُقْفِرُ

كَانَ عَلَى بْنِ الْجَهْمِ بِمَاشِرَ جَمَاعَةٍ مِنْ قِيَانٍ بِغَدَادٍ لَمَّا أُطْلِقَ مِنْ حَبْسِهِ وَرُدَّ مِنَ النِّفَى،  
وَكَانُوا يَتَقَابَنُونَ بِغَدَادٍ وَيَزْمُونَ مَنْزِلَ مَنْزِلٍ بِالْكَرْخِ يُقَالُ لَهُ الْمَفْضَلُ، فَقَالَ فِيهِ عَلَى بْنِ الْجَهْمِ:

زَنَا بِبَابِ الْكَرْخِ أَطْلَبَ مَنْزِلَ • عَلَى مُحْسِنَاتٍ مِنْ قِيَانِ الْمَفْضَلِ  
فَلَا بَيْنَ سُرُجٍ وَالْقَرِيضِ وَمَعِيدَ • بِدَائِعٍ فِي أَسْمَاعِنَا لَمْ تَبْدَلِ  
أَوَانِسَ مَا لِلضَيْفِ مِنْهُنَّ حَتْمَةً • وَلَا دِهْنَ بِالْجَلِيلِ الْمَجْلَلِ  
بَسْرًا إِذَا مَا الضَيْفُ قَلَّ حَيَاؤُهُ • وَيَفْعَلُ عَنْهُ وَهُوَ غَيْرُ مُفْعَلٍ  
وَيُكْسِرُ مِنْ ذَمِّ الْوَقَارِ وَأَهْلِهِ • إِذَا الضَيْفُ لَمْ يَأْتَسْ وَلَمْ يَلْبَسْ  
وَلَا يَدْفَعُ الْأَيْدَى الْمَرِيضَةَ غُرَةً • إِذَا نَالَ حَقًّا مِنْ لُبُوسٍ وَبَاكِلِ  
وَيُطْرِقُ إِطْرَاقَ الشَّجَاعِ مَهَابَةً • يُطْلِقُ طَرَفَ النَّظَرِ الْمَتَامِلِ  
أَشْرِيْدَ وَأَعْمَزَ بِطَرَفٍ وَلَا تَخَفَ • رَقِيبًا إِذَا مَا كُنْتَ غَيْرَ مُبْغَضٍ  
وَأَعْرِضْ عَنِ الْمَصْبَاحِ وَالْفَجِّ بِمَثَلِهِ • فَإِنْ نَعَدَ الْمَصْبَاحُ فَادْنُ وَقَبِّلِ  
وَسَلِّ غَيْرَ مَمْنُوعٍ وَقُلْ غَيْرَ مَسْكُوتٍ • وَتَمَّ غَيْرَ مَدْعُورٍ وَبِقَمِّ غَيْرِ مُعْجَلِ  
لَكَ الْبَيْتُ مَا دَامَتْ هَدَايَاكَ جَمَّةً • وَكَتَبْتُ مَلِيًّا بِالْأَيْسَةِ الْمَعْلَلِ  
فَبَايَدُ بِأَيَّامِ الشَّجَابِ فَإِنَّهَا • تَقْضَى وَتَقْنَى وَالْقَوَايِدُ تَجْعَلُ  
وَدَعَ عَنْكَ قَوْلَ النَّاسِ أَتَلَفَ مَالَهُ • فَلَاغَ فَاغْنَى مُدِيرًا غَيْرَ مُقْرِيلِ  
هَلِ الدَّهْرُ إِلَّا لَيْسَةً طَرَحَتْ بَنًا • أَوَانِسُهَا فِي يَوْمِ لَمْ يَسْ مَعْجَلِ  
سَقَى اللَّهُ بِبَابِ الْكَرْخِ مِنْ مُنْتَرَةٍ • إِلَى قَصْرِ وَضَّاحٍ فَرَكَةٍ زَلَزَلِ



سَاحِبِ أَذْيَالِ الْفَيَافِ وَنَسْرِجِ الْـ \* حَصْبَانِ وَمَثْوَى كُلِّ نَحْرٍ مُدْبِلِ  
لَوْ أَنَّ أَمْرًا الْقَيْسَ بْنَ خَجْرٍ يَحْلُمَا \* لَأَقْصَرَ عَنْ ذِكْرِ الدُّخُولِ وَحَوْمِلِ  
إِذَا لَرَأَى أَنَّ مَنَاحِ الْوَدِّ شَادِنَا \* مُقْصِرِ أَذْيَالِ الْفَنِيَا غَيْرَ مُسَيِّلِ  
لِذَا اللَّيْلِ أَدْنَى مَضْجِجِي مِنْهُ لَمْ أَقُلْ \* «صَغُرَتْ يَبْعَرِي يَا أَمْرًا الْقَيْسَ فَاذِلِّي»

دخل على بن الجهم يوما على عبد الله بن طاهر في غداة من غداوات الربيع وفي السماء  
ضيم رقيق، والمطر يهيم قليلا ويسكن قليلا، وقد كان عبد الله عزم على الصبح ففاضته  
حظية له، فتنقص عليه عزمه وفقر، فخر على بن الجهم بالظهر وقيل له: قل في هذا المعنى  
لعله ينشط للصباح، فدخل عليه فأنشده:

أَمَا تَرَى الْيَوْمَ مَا أَحْلَى شَمَائِلَهُ \* حُصْرٌ وَغَيْمٌ وَأَوْرَائُ وَإِرْدَادُ  
كَأَنَّهُ أَنْتَ يَا مَنْ لَا شَبِيهَ لَهُ \* وَصَلٌّ وَهَبْرٌ وَتَقْرِيْبٌ وَإِبْهَادُ  
فَبَاكِيرِ آلِاحِ وَأَشْرِبَهَا مُتَّقَةً \* لَمْ يَنْدِرْ مِثْلَهَا كِبَرِي وَلَا عَادُ  
وَأَشْرِبْ عَلَى الرُّوسِ إِذَا لَحَتْ زَخَائِرُهُ \* زَهْرٌ وَنُورٌ وَأَوْرَائُ وَأَوْرَادُ  
كَأَنَّمَا يَوْمُنَا فَعِلَ الْجَبِيْبُ بِنَا \* بَلٌّ وَبُحْلٌ وَإِبَادُ وَمِبَادُ  
وَلَيْسَ يَذْهَبُ عَنْ كُلِّ فَعْلٍ كُفُّ \* نَحْيٌ وَرُشْدٌ وَإِصْلَاحٌ وَإِفْسَادُ

فاحسن الأبيات يوم أمر له بثلاثمائة دينار وحمله وخلع عليه.

لما أطلق عبد الله بن طاهر على بن الجهم من الحبس أقام معه بالشاذياخ مدة، فخرجوا  
يوما إلى الصيد، واتفق لهم مَرَجٌ كثير الطير والوحش وكانت أيام الزعفران، فاصطادوا  
صيدا كثيرا حسنا، وأقاموا يشربون على الزعفران، فقال على بن الجهم يصف ذلك:

وَطَلْنَا رِيَاضَ الزَّعْفَرَانِ وَأَمْسَكْتُ \* حِلْيَةُ الْهَيَاةِ الْيَعْنَ حِمْرَ الدَّرَارِجِ<sup>(١)</sup>  
وَلَمْ تَحْمِلْهَا الْأَذْفَالُ مِنَّا وَإِنَّمَا \* أَجْنَتَا حِمَاها بِالْكَلاِبِ الْبَوَارِجِ<sup>(٢)</sup>  
بِمَسْتَرَوِحَاتِ سَابِجَاتِ بَطُونِهَا \* عَلَى الْأَرْضِ أَمْثَالُ الْأَسْهَامِ الْزَوَارِجِ<sup>(٣)</sup>

(١) واحده دراج (ضمة الدال) يشهد الرام وهو ملازم على خلقه الصل إلا أنه ألفف.

(٢) الزايج من السام: الذي يمشى على وجه الأرض ثم يمشى.

ومستشرفات بالهوادى كأنها \* وما عُنِفَتْ منها رؤوس الصَّوَابِجِ  
 ومن دالعاتِ السُّنَا فكانها \* يلحى من رجال خاضعين كواضع  
 قَلْبِنَا بها الشَّيْطَانُ قَلْبًا كأنها \* أناملُ إحدى الغانياتِ الحَوَاجِجِ  
 قتل لبغاة الصَّيْدِ هل من مُفَاجِرٍ \* بصيدٍ وهل من واصفٍ أو غَارِجِ  
 قَرَنًا بُرَاةً بالعِشْقِ وَحَوْمَتِ \* شواهيئنا من بعد صيد الرواحِجِ  
 لما فُلِحَ ابنُ أبى دُوادٍ نَمِيتَ به على بن الجهم وأظهر ذلك له وقال فيه :

لم يبقَ منك سوى خَيَالِكَ لَأَمَّا \* فوق الفِراشِ مَمْتَدًا يَوْمَادِ  
 فَرِحْتَ بِمَصْرَعِكَ الرِّبِّيَّةِ كُلَّهَا \* مَنْ كَانَ مِنْهُمْ مُوقِفًا بِمَعَادِ  
 كَمْ جَلَسَ اللَّهُ قَدْ عَطَلَتْهُ \* كَى لَا يُحَدِّثَ فِيهِ بِالْإِسْنَادِ  
 وَلَكِنْ مَصَابِيحَ لَنَا أَطْفَانُهَا \* حَتَّى تَزُولَ عَنِ الطَّرِيقِ الْهَادِ  
 وَلَكِنْ صَكْرِيَّةٌ مَعْشِيرُ أَرْسَلَهَا \* وَعَدَّتْ أَوْتَهَتْ فِي الْأَفْيَادِ  
 إِنْ الْأَسَارَى فِي السَّجُونِ تَفْزَجُوا \* لِمَا أَتَيْتَكَ مَوَاصِبُ الْعَوَادِ  
 وَغَدَا لِمَصْرَعِكَ الطَّرِيبُ فَلَمْ يَحْدِ \* شَيْئًا لَدَاكَ حِيلَةُ الْإِرْتَادِ  
 فُلِّقِ الْهَوَانَ مَعِجَلًا وَمَوْجَلًا \* وَاقِهِ رَبِّ الْعَرْشِ بِالْمَرْصَادِ  
 لَا زَالَ فَايْلُكَ الَّذِي بِكَ دَائِبًا \* وَلِحُمَّتْ قَبْلَ الْمَوْتِ بِالْأَوْلَادِ

ومن جيد شعره قوله :

نطق الهوى بجوى هو الحق \* وملكنى فليترك الرُّقْ  
 رِقْقًا بقلي يا معذِّبه \* رِقْقًا وليس لظالم رِفْقُ  
 وإذا رأيتك لا تُكَلِّمْنِي \* ضاقت على الأرض والأثْقُ

وله أيضا :

يا رحمةً للغريب بالبلد النَّا \* زَجِ مَا ذَا بِنَفْسِهِ صَنَّا  
 قَارَقَ أَحْبَابَهُ لِمَا آتَفَعُوا \* بِالْعَيْشِ مِنْ بَعْدِهِ وَمَا آتَفَعَا

(١) الرواح : الملاح الذي يصاد به الصقور ونحوها من جوارح الطير .

٢٠ - علي بن جبلة<sup>(١)</sup>

قال المأمون يوما لبعض جلسائه : أقيم علي من حضر من يحفظ قصيدة علي بن جبلة  
الأعمى في القاسم بن عيسى إلا أتشدنيها ؛ فقال له بعض الجلساء : قد أقيم أمير المؤمنين  
ولا بد من إبرار قسمه ، وما أحفظها ولكنها مكتوبة عندي ؛ قال : قم فحفظي بها ، ففسي  
وأناها بها وأتشدده إياها ، وهي :

ذاد ردّ القى عن صدره \* وأرعوى والهُوم من وطيره  
وأبت إلا البكاء له \* صمكت الشيب في شعره  
ندي أن الشباب مضي \* لم ألقه مدي أشيره  
وأنقضت أيامه ساءلاً \* لم أجذ حولاً على غيره  
حسرت عني بشاشته \* وذرى الممود من قيره  
ودم أهلدت من رثا \* لم يرد عقلاً على هديره  
فأت دون الصبا هتة \* قلبت فوق على وتيره  
جاوتاً ليس الشباب لمن \* راح تحباً على كبره  
ذهبت أشياء كنت لها \* صارها حلبي إلى صوره<sup>(٢)</sup>

(١) هو علي بن جبلة الأنباري والمكوك لقبه ، وهو من الحوالم أبناء الشيعة الخراسانية من أهل بغداد ، ولد  
في الحيرة منها ونشأ فيها ، وكان ضريراً منذ ولادته مثل بشار بن برد ، وهو شاعر مطبوع طيب القصد جليل ، لطيف  
البيان ، مداح حسن التصرف ، وقد استغنى شعره في مدح أبي دلف الميملي وأبي غانم حميد بن عبد الحميد الطوسي ،  
وزاد في تفضيلهما وتفضيل أبي دلف خاصة حتى فضل ربيعة على مضر ، فاستاء المأمون من ذلك وطلبه أبيات فالحا  
المكوك في أبي دلف منها :

كل من في الأرض من عرب \* يرب ياديه إلى حضيره  
مسير منسك مصكرة \* يكسها يوم مفتخره

توفي سنة ٢١٣ هـ . وتجد أكثر أعباره في الأغاني (ج ١٨ ص ١٠٠) وابن خلكان طبع بولاق (ج ١  
ص ٤٩٥) والشعر والشعراء (ص ٥٥٠) (٢) صارها : أمانها .

دَعَّ جَدًّا حَقَّانَ أَوْ مُعْتَرٍ ■ فِي بَيْتَانِيهِ فِي مُصَرِّهِ  
وَامْتَدَحَ مِنْ وَائِلِي رَجُلًا ■ عَصْرُ الْأَفَاقِ فِي عَصْرِهِ  
الْمُنَايَا فِي مَنَاقِيهِهِ ■ وَالْعَطَايَا فِي ذَرَا حُجْبِيهِ  
مِلْكُ تَشْدَى أَمَامِهِ ■ كَانِبِلَاحِ النَّوْمِ عَنْ مَعْرِهِ  
مُسْتَهْلٍ عَمِبَ مَوَاهِبِهِ ■ كَابِتِهَامِ الرُّوضِ عَنْ زَهْرِهِ  
جِبَلٌ عَزَتْ مَنَاصِبُهُ ■ أَمِنَتْ عَدَنَاتِهِ فِي أُتْبَرِهِ  
أَخْبَا الدُّنْيَا أَوْ ذُلِّهِ ■ يَرِنُ مَبِيدَاهُ وَجُتْخَرِهِ  
فَإِنَّا وَلَّى أَبُو دَلِيلٍ ■ وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ  
لَسْتُ أَدْرَى مَا أَقُولُ لَهُ ■ غَيْرَ أَنَّ الْأَرْضَ فِي حَقَرِهِ  
يَادَوَاهُ الْأَرْضُ إِنْ فَسَدَتْ ■ وَيَدِيلُ الْيُومِ مِنْ عُسْرِهِ  
كُلٌّ مِنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرِيبٍ ■ يَرِنُ بَادِيهِ إِلَى حَقَرِهِ  
مُسْتَهْلٍ مِنْكَ مَكْرَمَةٍ ■ يَكْكُسِيهَا يَوْمَ مُفْتَحَرِهِ

وفيها يقول :

وَرُحُوفٌ فِي صَوَاهِلِهِ ■ كَصِهَابِ الْحُمْرِ فِي أَنْصَرِهِ  
قُدَّتْهُ وَالْمَوْتُ مَكْتَمُنٌ ■ فِي مَذَاهِكِهِ وَمُسْتَجِرِهِ  
فَرَمْتُ حَقْوِيهِ مِنْهُ يَدٌ ■ طَوَّبَ الْمَشْهُورَ مِنْ مَبِيطِ نَظَرِهِ  
زَرَقَهُ وَالْجَبَلُ طَائِسَةٌ ■ تَحُلُّ الْبُؤْسَ عَلَى عَقْرِهِ  
خَارِجَاتٍ تَحْتَ رَايَتِهِ ■ تَكْرُوجُ الطَّيْرُ مِنْ مَوْكِرِهِ  
وَعَلَى التَّمَانِيَةِ نَجَّتْ بِهِ ■ عَوِجَةُ ذَائِدِهِ مِنْ صَدْرِهِ  
عَمَّطَ النَّمَاثُ صَفَوَاتِهِ ■ فَرَدَّدَتْ الصَّفَافِي فِي كَدْرِهِ  
وَلَقَرَقُورُ أَدْرَبَتْ رِجْلًا ■ لَمْ تَكُنْ تَرْنَدُ فِي فَيْسِكِرِهِ

قَدْ تَأَيَّتَ الْبَقَاءَ لَهُ \* فَأَبَى الْمُحْتَرَمُ مِنْ قَدْرِهِ  
وَطَسَخَى حَتَّى رَفَعَتْ لَهُ \* خُطَّةً شَمَاءَ مِنْ ذِكْرِهِ  
فَنَضِبَ الْمَامُونُ وَأَغْتَاطُوا، وَقَالَ : لَسْتُ لِأَبَى إِنْ لَمْ أَقْطَعْ لِسَانَهُ أَوْ أَسْفِكَ دَمَهُ .

وكان يمدح حميد بن عبد الحميد، فلما سمع حميد هذا فى أبى دلف قال : أى شىء  
بَقِيَتْ لَنَا بَعْدَ هَذَا مِنْ مَدْحِكَ؟ فَقَالَ :

إِنَّمَا الدُّنْيَا حُمَيْدٌ \* وَأَيَادِيهِ الْإِحْسَامُ  
فَإِذَا وَلَّى حُمَيْدٌ \* فَعَلَّ الدُّنْيَا السَّلَامَ

وهو القائل فى حميد :

دِجْلَةٌ تَسْقَى وَأَبُو غَازٍ \* يُطْعِمُ مَنْ تَسْقَى مِنَ النَّاسِ  
وَالنَّاسُ جِسْمٌ وَإِمَامُ الْهَدْيِ \* رَأْسُ وَأَنْتَ الْعَيْنُ فِي الرِّأْسِ

وقال الحسن بن سهل :

أَعْطَيْتَنِي يَا وَلَى الْحَقِّ مَبْدَأًا \* عَطِيَّةَ كَافَاتٍ مَدْحِي، وَلَمْ تَرِنِي  
مَا سَيَّمْتُ بِرَيْكَ حَتَّى نَلْتُ رَيْقَهُ \* كَأَنَّمَا كُنْتُ بِالْجُدَى تُبَادِرُنِي

وهو القائل فى حميد :

إِلَى أَكْثَرِمْ خَطَّانٍ \* وَصَلْنَا السَّهْبَ بِالسَّيْبِ  
إِلَى مَجْتَمَعِ النَّيْلِ \* وَمُلَقَى أَرْحَلِ الرُّكْبِ  
حُمَيْدٌ مَفْرَعُ الْأُمْدِ \* مَنَ فِي الشَّرْقِ وَفِي الْغَرْبِ  
كَأَنَّ النَّاسَ جِسْمٌ وَهُوَ \* حَوْمَتُهُ مَوْضِعُ الْقَلْبِ  
إِذَا سَأَلْتَ أَرْضًا هُ \* يَنْبِتُ أَمْنَةً السَّرْبِ  
وَإِنْ حَارَبَهَا حَلَّتْ \* بِهَا رَاضِيَةُ السَّقْبِ  
إِذَا لَاقَى رَيْجَ الْمَوْتِ \* تَ بِالنَّشْطَةِ وَالشَّعْبِ  
وَبِالْمَادِيَةِ الْخَضِيرِ \* وَبِالْمَنْدِيَةِ الْقَضْبِ

عسداً مجتمع القلب \* له جنـدٌ من الرُعبِ  
 فيافوزَ الذي وإلى \* وبأبوسى أذى الذنبِ  
 أيا ذا الجود فاسلِّمْ ما \* بحرثِ حُفْبٍ إلى حُفْبِ  
 فأنت الفيثُ في السِّلْمِ \* وأنت الموتُ في الحربِ  
 وأنت الجامعُ الصار \* قُ بين البعد والقربِ  
 بك الله تلافى لنا \* من بعد العثر والنكِبِ  
 وردَّ البيضَ والبيضَ \* إلى الأضدادِ والنجبِ  
 بإقدامك في الحربِ \* وإطعامك في اللزبِ  
 فكَمْ أمنتَ من خويفِ \* وكَمْ أشفيتَ من شغبِ  
 وكَمْ أصلحتَ من خُطْبِ \* وكَمْ أيمتَ من خُطْبِ  
 وما تمهـرَها إلا \* يـرَاكَ الطعنُ والضربِ  
 تناهتْ بك خطـاطـبُ \* إلى النـايـةِ والحسبِ  
 ففانت شرفَ الأحيـا \* فـوتَ الرأـسَ للمـجـبِ<sup>(١)</sup>

وبما أسرف فيه فكفر أو قارب الكفر قوله في أبي دلف :

أنت الذي تُنزل الأيامَ متقلِّباً \* وتثقلُ الدهرَ من حالٍ إلى حالٍ  
 وما مددتَ مـدى طـرفٍ إلى أحدٍ \* إلا قضيتَ بأرزاقٍ وأجالٍ  
 تـزورُ مخطـاطـمـي البـيـضِ راضيةً \* وتستهلُّ فبكي أوجهُ المالِ

وقال فيها :

كأنَّ خيلَكَ في أنشاءِ عثرتي \* أرسلالَ قَطْرِ تهايمٍ فوقَ إرسالِ  
 يخرجن من غمرات الموتِ ساميةً \* تُشرُّ الأناملَ من ذى القِوَّةِ العبالِ

(١) العجب : أصل الذنب .

وقال أيضا :

جلاء مشيب نزل \* وأنس شباب رحل  
طوى صاحب صاحب \* كذاك اختلافي الدؤل  
أعاذلني أقصيري \* كفالك المشيب العذل  
بدا بدلا بالشبا \* ب ليت الشباب البدل  
جسلا ولعنه \* تحاماه حور المقل

وقد كان حميد ركب يوم عيد في جيش عظيم لم ير مثله ، فقال علي بن جبلة يصف ذلك :

غدا بأمر المؤمنين ويمنه \* أبو ظم غدو الندى والسحاب  
وضاقت لها الأرض من كل موكب \* أحاط به مستطيا للواكب  
كان سمو النقع والبيض فوقهم \* سماوة ليل قرنت بالكوكب  
فكان لأهل العيد عيد بنسكهم \* وكانت حميد عيتم بالموهب  
ولو لا حميد لم تبلغ عن الندى \* يمين ولم يدرك غنى كسب كاسب  
ولو ملك الدنيا لما كان سائل \* ولا أعام فيها صاحب فضل صاحب  
له ضحكة تستغرق المال بالندى \* على عبة تضيي القنا بالترائب  
ذهبت بأيام العلاء فاردأ بها \* وصرمت عن مساك شاور المطالب  
وعذلت مبل الأرض حتى تعذلت \* فلم ينأ منها جانب فوق جانب  
بلغت بأدنى الحزيم أبعد قطرها \* كأنك منها شاهد كل غائب

شخص علي بن جبلة إلى عبد الله بن طاهر إلى خراسان ، وقد مدحه فأجرل صلاته ، واستأذنه في الرجوع فسأله أن يقيم ، وكان بزه يتصل عنده ، فلما طال مقامه أشتاق إلى أهله فدخل إليه فأنشده :

راعه الشيب إذ نزل \* وكفاه من العذل  
واقضت مدة العيب \* واقضى الله والنزل

قد لعمري دَمَلَتْهُ • يَخْضَبُ فِي أَدَمَلِ  
 فَأَيُّكَ لِلشَّيْبِ إِذْ بَدَأَ • لَا عَلَى الرَّبْعِ وَالطَّلَلِ  
 وَصَلَّ اللَّهُ لِلْأَمِيَّةِ • بِرِعْزَى الْمَلِكِ فَاتَّصَلَ  
 مَلِكٌ عَزُوبُهُ الزَّيْمَا • نُبُّ وَأَفْعَالُهُ الدُّوَلِ  
 يَحْكُمُ رَوْيَ، يَجِدُهُ • يَضْرِبُ الضَّارِبُ الْمَثَلِ  
 وَإِلَى ظِلِّ عَسْرَةٍ • يُلْجَأُ الْخَائِفُ الرَّجُلِ  
 كُلُّ خَلْقٍ سِوَى الْإِمَامِ • مِمَّا لَا نَعَامَهُ حَسُولِ  
 لَيْسَ حِينَ جَادَلَى • بِالْعَفْوَ جَادَ بِالْقَتْلِ  
 فَضَحَكَ وَقَالَ : أَيْبَتُ إِلَّا أَنْ تُوحِشَنَا ، وَأَجْزَلَ صِلَتَهُ وَأَذْنَ لَهُ .

دخل على بن جبلة العكوك على حميد الطوسي في أول يوم من شهر رمضان ، فأنشده :  
 جَعَلَ اللَّهُ مَدْخَلَ الصُّومِ فَوْزًا • تَحْمِيدٌ وَمُنْعَةٌ فِي الْبَقَاءِ  
 فَهُوَ شَهْرُ الرِّيحِ لِلْقُرْآنِ • وَفَوَائِ التَّنْمِاتِ وَالصَّهْبَاءِ  
 وَأَنَا الضَّامِنُ الْمَسْلُومَ مَا • قَرَاهَا مُقْطِعًا بِطُغُولِ الظُّلَمَاءِ  
 وَكَأَنِّي أَرَى التَّنَادَى عَلَى الْحَسَةِ • نَفْ يَرْجُونَ صَبِيحَهُمْ بِالْمَسَاءِ  
 قَدْ طَوَى بَعْضُهُمْ زِيَارَةَ بَعْضٍ • وَاسْتَعَاذُوا مَصَاحِفًا بِالْفَنَاءِ  
 وَفِيهَا يَقُولُ :

تَحْمِيدُ — وَأَيْنَ مِثْلُ حَمِيدٍ — • نَخَرَتْ طِيَّءٌ عَلَى الْأَحْيَاءِ  
 جَوْدُهُ أَظْهَرَ السَّيَاحَةِ فِي الْأَرْضِ • ضِ وَأَغْنَى الْمَقْوَى عَنِ الْإِقْوَاءِ  
 مَلِكٌ يَأْسُلُ الْعِبَادُ تَنَاهَا • مِثْلَ مَا يَأْمَلُونَ قَطْرَ السَّمَاءِ  
 صَافَهُ اللَّهُ مُطِيعِ النَّاسِ فِي الْأَرْضِ • ضِ وَصَاحِ السَّعَابِ لِلْإِسْقَاءِ

فأمر له بخمسة آلاف درهم ، وقال : استمن بهذه على نفقة صومك ، ثم دخل إليه ثاني  
 سؤال فأنشده :



علّاني بصفو ما في الدّان \* وأترك ما يقوله الساذن  
 وأسبقا فاجع المتية باليد \* يش فكل على الجسدين فاني  
 علّاني بشرة تذهب اله \* ثم وتشي طسوارق الأخران  
 والقيّا في مسامح سدا الصو \* ثم روي الموصلي أودحان  
 قد أنا شسؤال فاقبل العيد \* ش وأصدي قمرأ على رمضان  
 نيم حوئ الفسقى على ثوب الدهر \* ير صمغ القيان واليبدان  
 وكؤوس تجرى بماء كروم \* ومطى الكؤوس أيدي القيان  
 من عقار يميمت كل احتشام \* وشتر النّدمان بالنّدمان  
 وكانت الميزاج قدح منها \* شرأ في مهابك العيفان  
 فاشرب الراح وأعص من لأم فيها \* إنها نعم حسنة الفتيان  
 وأصحب الدهر بارتحال وحل \* لا تحف ما يصوره الحادنان  
 حسب مستظهر على الدهر ركنا \* بميمد ردا من الحدنان  
 ملك يقتنى المكارم كثرأ \* وتراه من أكرم الفتيان  
 خلقت راحتا لجود والبأ \* س وأمواله لشعر اللسان  
 ملكته على العباد معأ \* وأقزت له بنو خطان  
 أريحي النّدا جميل الحيا \* يده والسباح معتقدان  
 وجهه مشرق الى متففيه \* ويده بالبيت تنفجران  
 جعل الدهر بين يديه قسم \* من عسرف جزل وجر طمان  
 فاذا سار بانجيس لحرب \* كل من نص به الخافان  
 واذا ما هزته لنوال \* ضاق عن رحب صدره الأفتان  
 غيث جذب إذا أقام ربيع \* بتفتى السليب كل مكان  
 يا أبا غام بقيت على الدهر \* ير وطلت ما جرى العصران

ما تُبَالِي إِذَا عَدَّتْكَ الْمَنَايَا \* مَنِ أَصَابَتْ بِجُحُكٍ وَجَرَافٍ  
 قَدْ جَعَلْنَا إِلَيْكَ بَعَثَ الْمَطَايَا \* هَرَبًا مِنْ زِمَانِ الْخَوَانِ  
 وَجَعَلْنَا الْحَاجَاتِ فَوْقَ عِصَايَا \* ضَامِنَاتِ حَوَائِجِ الرِّكَانِ  
 لَيْسَ جُودٌ وَرَاءَ جُودِكَ يُنَا \* بٌ وَلَا يَمْتَنِي لِفَيْرِكَ طَانِ

فأمر له بعشرة آلاف درهم، وقال: تلك كانت للصوم تخففت وخففنا، وهذه للفطر  
 فقد زدتها وزدناك .

ولما مات حميد الطوسي رثاه بفصيدته العينية المشهورة التي تُعد من نادر الشعر  
 وبديعه، وهي :

أَلَدِهْرِي تَبْكِي أُمَّ عَلِيٍّ الدَّهْرُ تَجْزَعُ : وَمَا صَاحِبُ الْأَيَّامِ إِلَّا مُقْعَعُ  
 وَلَوْ سَمَّيْتُ عَنْكَ الْأَمِيَّ كَانَ فِي الْأَمِيَّ \* عِزَاءُ مَعَزٍ لِلْيَبِّ وَمَقْنَعُ  
 تَمَزَّ بِمَا عَزَّيْتَ غَيْرَكَ إِنَّمَا \* يَهَامُ الْمَنَايَا حَامَاتُ وَوَقْعُ  
 أَهْمُنَا يَوْمٌ فِي مُجِيدٍ لَوْ أَنَّهُ \* أَصَابَ عُرُوشَ الدَّهْرِ ظَلَّتْ تَضْمَعُ  
 وَأَدَبْنَا مَا أَدَبَ النَّاسَ قَبْلَنَا \* وَلَكِنَّهُ لَمْ يَبْقِ لِلصَّبْرِ مَوْضِعُ  
 أَلَمْ تَرَ لِلْأَيَّامِ كَيْفَ تَصَرَّعَتْ \* بِهِ ، وَبِهِ كَانَتْ تُكَادُّ وَتُدَلَّعُ  
 وَكَيْفَ التَّقَى مَثْوًى مِنَ الْأَرْضِ ضَيْقُ \* عَلِ جَبَلِي كَانَتْ بِهِ الْأَرْضُ مُنْعُ  
 وَلَا أَقْضَيْتُ أَيَّامَهُ أَنْفَضْتُ الْأَمَلَا \* وَأَعْصَى بِهِ أَنْفُ النَّدَى وَهُوَ أَجْدَعُ  
 وَرَاحَ عَدُوُّ الدِّينِ جَذْلَانٍ يَتَحَيَّ \* أَمَانٌ كَانَتْ فِي حَشَاءٍ تَقْطَعُ  
 وَكَانَ مُجِيدٌ مَقِيلًا رَكْعَتْ بِهِ \* قَوَاعِدُ مَا كَانَتْ عَلَى الضَّمِيمِ تَرْكُعُ  
 وَكَنْتُ أَرَاهُ كَالرَّزَايَا رُزْنَتَهَا \* وَلَمْ أَدْرَأَنَّ الْخَلْقَ تَبْكِيهِ أَجْمَعُ  
 حِمَامٌ رَمَاهُ مِنْ مَوَاضِعِ أَمْنِهِ \* جَمَامٌ ، كَذَلِكَ الْخَطْبُ بِالْخَطْبِ يُقْدَعُ  
 وَلَيْسَ يَغْوِي أَنْ تُصِيبَ مَنِيَّةٌ \* جَمَى اخْتَبَا أَوْ أَنْ يَنْزِلَ الْمُنْعُ  
 لَقَدْ أَدْرَكْتُ فِينَا الْمَنَايَا بِثَارِهَا \* وَحَلَّتْ بِخَطْبٍ وَهَيْبِهِ لَيْسَ يُرْفَعُ

تَمَاءٌ مُجِيدًا لِلرَّايَا إِذَا غَسَتْ \* تَنَادَ بِأَطْرَافِ الرِّيحِ وَتَوَزَّعَ  
وَلَأَزْهَقَ الْمَكْرُوبَ ضَاقَتْ بِأَمْرِهِ \* فَلَمْ يَدْرِ فِي حَوَائِثِهَا كَيْفَ يَصْنَعُ  
وَالْبَيْضُ خَلَّتْهَا الْبُحُورُ وَلَمْ يَدْعُ \* لَهَا غَيْرَهُ دَاعِيَ الصَّبَاحِ الْمَفْزَعُ  
كَانَ حَيْدًا لَمْ يَقْدُ جَيْشُ عَسْكَرٍ \* إِلَى عَسْكَرِ أَشْيَافِهِ لَا تَرَوُّعُ  
وَلَمْ يَبْعَثْ الْخَيْلَ الْمَغِيرَةَ بِالضُّحَى \* مِرَاحًا وَلَمْ يَرْجِعْ بِهَا وَهَى غُلُّعُ  
رَوَاجِعِ يَحْمِلُ النَّهَابَ وَلَمْ تَكُنْ \* كُنَائِثُهُ إِلَّا عَلَّ النَّهَبَ تَرْجِعُ  
هَوَى جِبِلُّ الدُّنْيَا الْمَنِيْعُ وَغَيْثُهَا \* حَرِيْعُ وَطَائِفِ الْعَكْمَى الْمَشِيْعُ  
وَسَيْفُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَرَعْمُهُ \* وَمِفْتَاحُ بَابِ الْخَلْبِ وَالْخَلْبُ أَنْفُوعُ  
فَاقْنَمَهُ مِنْ مُلْكِهِ وَرِبَاعِهِ \* وَتَالَهُ قَقَّرُ مِنَ الْأَرْضِ بَلَقُوعُ  
عَلَى أَى شَيْءٍ تَشْتَكِي النَّفْسُ بِمَدِّهِ \* إِلَى شَجْوِهِ أَوْ يَنْتَرِ الدَّمْعُ مَدْمَعُ  
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّمْسَ حَالَّ ضِيَائِهَا \* عَلَيْهِ وَأَضْحَى لَوْنُهَا وَهُوَ أَسْفَعُ  
وَأَوْحَشَتِ الدُّنْيَا وَأَوْدَى بِهَاؤُهَا \* وَأَجْدَبَ مَرَطَاهَا الَّذِي كَانَ يَمْرُوعُ  
وَقَدْ كَانَتْ الدُّنْيَا بِهِ مَطْمَئِنَّةً \* فَقَدْ جَمَلَتْ أَوْدَانُهَا تَنْقَلَعُ  
بَكَى فَقَدَهُ رُوحُ الْحَيَاةِ كَمَا بَكَى \* نَدَاهُ النَّدَى وَأَبْنُ السَّبِيلِ الْمُدْنَعُ  
وَفَارَقَتِ الْبَيْضُ الْخِلْدُورَ وَأَبْرَزَتْ \* عَوَاطِلَ حَمَرَى بِمَدِّهِ لَا تَقْنَعُ  
وَأَيْقَظُ أَجْفَانًا وَكَانَتْ لَهَا الْكُرَى \* وَنَامَتْ عِيُونُ لَمْ تَكُنْ قَبْلَ تَهَيُّعُ  
وَلَكِنَّهُ مَقْدَارُ يَوْمٍ تَوَوَّى بِهِ \* لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُ نَهَالٌ وَمَشْرَعُ  
وَقَدْ رَأَى اللَّهُ الْمَلَأَ بِمُحَمَّدٍ \* وَبِالْأَمْسَلِ يَتَمَّى فَرَعُهُ الْمُنْشَرَعُ  
أَغْرَى، عَلَى أَسْيَافِهِ وَرِمَاحِهِ \* تُقْتَمُّ أَنْفَالُ الْخَيْلِ وَالْجَمْعُ  
حَوَى عَنْ أَبِيهِ بَلَدٌ رَاحَتِهِ النَّدَى \* وَطَعَنَ الْكَلْبُ وَالزَّاعِيَةُ شُرْعُ

(مطبعة دار الكتب المصرية ٥٤٩/١٩٣٧/٢٠٠٠)

# عصر المأمون

بقلم

الدكتور

أحمد فريد رفاعي

المفتش بوزارة الداخلية

المجلد الثالث

(حقوق الطبع محفوظة للمؤلف)

[الطبعة الثالثة]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٢٨ - ١٣٤٦ م



# فهرست

## المجلد الثالث من عصر المأمون

### ملحق الكتاب الثالث - عصر الأمين والمأمون

#### باب المشور :

|    |   |
|----|---|
| ١  | نصوص كتب الأمين والمأمون - نص كتاب الأمين الى المأمون ... ..  |
| ٢  | نص كتاب الأمين الى أخيه صالح ... ..                           |
| ٥  | القول بخلق القرآن ( ما كتبه المأمون الى ولاته ) ... ..        |
| ١٧ | عهد طاهر بن الحسين ... ..                                     |
| ٢٦ | رسالة الخبيس ( ما كتبه المأمون الى أهل خراسان ) .. ..         |
| ٣٨ | ما كتبه السيدة زبدة الى المأمون - ما كتبه المأمون لثيا ... .. |
| ٣٩ | رسالة أحمد بن يوسف ... ..                                     |

#### رسائل سهل بن هارون :

|    |  |
|----|--|
| ٤٨ | وصفه وتاريخ حياته - ما حكاه الجاحظ عنه ... ..          |
| ٤٩ | أ. حكاية دجبل انزعاض الشاعر عنه ... ..                 |
| ٥٠ | كتبه وطريقته في التأليف ... ..                         |
| ٥٢ | من كلام له في كتابه ثعلبة وطرفة ... ..                 |
| ٥٣ | ما كتبه الى صديق له أبل من ضف - رسالته في الجبل ... .. |
| ٥٧ | نقش من شعره ... ..                                     |

#### رسائل عمرو بن مسعدة :

|    |  |
|----|--|
| ٥٩ | وصفه وتاريخ حياته ... ..   |
| ٦١ | من كلام له - ما كتبه الى الحسن بن سهل - ما كتبه الى المأمون ... .. |
| ٦٢ | من حكاية ... ..  |

| صفءة |  |
|------|--|
| ٦٤   | ماكتبه الى بعض الرؤساء .....                       |
| ٦٥   | ففىء من شعره .....                                 |
| ٦٦   | حكاية له .....                                     |
| ٧٠   | ما قاله أبو محمد عبد الله بن أروء التيمى فيه ..... |

رسائل الجالحظ :

|     |  |
|-----|--|
| ٧٢  | وصفه وتاريخ حياته — رسالته فى بن أمة .....     |
| ٨٠  | ماكتبه الى بعض إخوانه فى ذم الزمان .....       |
| ٨٢  | وصفه لقرىش وبنى هاشم .....                     |
| ٨٣  | ماكتبه فى الاعتذار — ماكتبه فى الاستعطاف ..... |
| ٨٤  | ماكتبه فى ذم الحسن — دفاعه عن مؤلفاته .....    |
| ٩٢  | ماكتبه فى أخذ البرىء بذبء الخنءب .....         |
| ٩٨  | ماكتبه فى أسام البيان .....                    |
| ١٠١ | ماكتبه فى مدح الكتب .....                      |
| ١١٥ | ماكتبه فى الترغيب فى اصطناع الكتب .....        |

باب الرسائل :

|     |  |
|-----|--|
| ١٢٨ | الفصول المتنبئة من الرسائل المختارة فى كل فن — كتب رجل الى صديق له .....     |
| ١٣١ | فصل لسعيد بن حمء .....   |
|     | فصل فى هدية — فصل فى شعاعة — فصل لرجل عيمى — فصل لأحمد بن يوسف               |
| ١٣٣ | فصل فى الصنع لأبى على — فصل لأحمد بن يوسف .....                              |
| ١٣٤ | فصل لمقال بن شبة — فصل فى التوديع — فصل فى الصنع — جواب فى فتح .....         |
| ١٣٥ | فصل فى الصنع عن الجفاء — فصل فى الاعتذار .....                               |
| ١٣٦ | الى الأمرن من عامل — فصل لابن الكلى .....                                    |
| ١٣٧ | فصل لإبراهيم بن اسماعيل بن دارء .....  |
| ١٣٨ | فصل لمروء بن سمعة .....  |
| ١٣٨ | فصل لميسى بن راضع الى الفضل بن ربيع — فصل لجل بن يزيد .....                  |
| ١٣٩ | وله فى الخطر — وله الى بعض إخوانه .....                                      |
| ١٤٠ | فصل لابن أعين كاتب الخيزران — فصل لابن الكلى — فصل لعل بن غيدة الى ابن الكلى |
| ١٤١ | فصل لمارة — فصل لسعيد بن عبد الملك .....                                     |



|      |  |
|------|--|
| صفحة |  |
| ١٤٢  | فصل لجبل بن يزيد الى بعض اخواته — وله الى بعض اخواته أيضا ... ..               |
| ١٤٤  | فصل في شكر... ..   |
| ١٤٥  | فصل في صفة الجنة ... ..  |
|      | ما كتبه جعفر بن محمد الأخت الى رجل لم يكتبه — ما كتبه الفضل بن يحيى الى رجل    |
| ١٤٦  | يشاوره في أمر حدث — ما كتبه أحمد بن يوسف الى إسماعيل بن إبراهيم الموصلي — توسل |
|      | ما كتبه طاهر بن الحسين الى الفضل بن سهل — ما كتبه محمد بن الجهم — ما كتبه      |
| ١٤٧  | محمد بن مسعر — ما كتبه ابن وهب في الاعتذار ... ..                              |

تتبعه:

|     |   |
|-----|---|
| ١٤٨ | التحيد الأول — التحيد الثاني ... ..   |
|     | صدر محمد مفرد — صدر محمد آخر — محمد مختار لكتاب نزيهة بن خازم في فتح                  |
| ١٤٩ | الصنارية — محمد لأحد بن يوسف الى الولاية عن الخليفة ... ..                            |
|     | محمد لإبراهيم بن العباس في فتح إسماعيل بن إسماعيل — التحيد الثاني — محمد له مبتدأ     |
| ١٥٠ | مقام بين يدى الخليفة ... ..   |
| ١٥١ | محمد ثان — محمد ثالث ... ..   |
| ١٥٣ | محمد في فتح لابن العباس ... ..  |
| ١٥٣ | وله في فتح ابن البيهت لما نظريه ... ..  |
| ١٥٤ | وله صدر كتاب الخليفة في محمد الله ومحمد ... ..  |
| ١٥٥ | محمد لأحد بن يوسف في صدر رسالة الخليفة التي كانت تقرأ بمفراسان ... ..                 |
| ١٥٦ | محمد للعباس في مقام له بين يدى المأمون — محمد لبيد الحيد في أبي العلاء الحارثي ... .. |
|     | محمد في فتح الى أمير لقائمة — صدر محمد لثلاث بن عبد الحيد في خطبة مرسلة — محمد        |
| ١٥٧ | لبيد الحيد في فتح ... ..  |
| ١٥٨ | محمد ثامن ... ..  |
| ١٥٩ | محمد لأنس بن أبي شيخ — محمد لبيد الحيد في فتح يظم فيه أمر الاسلام ... ..              |
| ١٦٠ | محمد لبيد الحيد أيضا ... ..   |
| ١٦١ | محمد لقائمة — محمد لزيد بن علي — محمد في الاسلام ... ..                               |
| ١٦٢ | محمد لأبي عبد الله ... ..   |
| ١٦٣ | صدر رسالة في الخليفة لإبراهيم بن المهدي ... ..  |
| ١٦٤ | محمد في الاسلام وما آمن به على أهله ... ..  |
| ١٦٥ | محمد في الجهاد وما يثبت به النبي صلى الله عليه وسلم ... ..                            |

| صفحة |   |
|------|---|
| ١٦٨  | تحميد في فتح لسعيد بن حميد ... ..   |
| ١٦٩  | تحميد لابن المقفع ... ..  |
| ١٧١  | تحميد لفسان بن عبد الحميد — تحميد لأحمد بن يوسف في فتح السند ... ..                   |
| ١٧٢  | تحميد لأبي عبد الله — تحميد لسعيد بن حميد ... ..                                      |
| ١٧٣  | فيا يقترظ به الخليفة ... ..   |
| ١٧٧  | تحميد لأبي عبد الله ... ..  |
| ١٨٠  | ما يكتب به في المظالمين وقت الحرب ... ..  |
| ١٨١  | ما يكتب به في صفة المظالمين ... ..  |
| ١٨٤  | ما يكتب به في البصاة — ما يكتب به في مدح نوازل الجيوش وصفة الأولياء في أسوارهم ... .. |
| ١٨٧  | وصف الأولياء في الكتب ... ..  |
| ١٨٨  | ما يقترظ به أمير المؤمنين في أوامر الكتب — سعيد بن حميد ... ..                        |
|      | التصاميد في أوامر الكتب :   |
| ١٨٨  | تحميد لسعيد بن نصر — تحميد لإبراهيم بن العباس — تحميد لأبي سعيد الله ... ..           |
| ١٩٢  | البهاء لأمر المؤمنين في أوامر الكتب ... ..  |

### مختار ما كتب من باب التهانى في كل فن :

|     |  |
|-----|--|
|     | تهنئة خليفة بظفر — ما كتبه إبراهيم بن المهديّ إلى المحتشم عتبه بمخرجه من أرض الروم |
| ١٩٣ | بهنّ فتح عمورية ... ..   |
| ١٩٤ | ما كتبه أحمد بن يوسف إلى عبد الله بن طاهر عتبه بظفر — تهنئة خليفة بمهج ... ..      |
| ١٩٥ | تهنئة بولاية — تهنئة لسعيد بن حميد إلى بعض اخوانه ... ..                           |
| ١٩٧ | ما كتبه محمد بن مكرم إلى أحمد بن دينار ... ..                                      |
| ١٩٨ | تهنئة بزل عامل من حمه ... ..   |
| ١٩٩ | ما كتبه محمد بن مكرم إلى إبراهيم بن المدر ... ..                                   |
| ٢٠٠ | تهنئة بزريج وبناء بأهل ... ..  |
| ٢٠١ | تهنئة بمرور كتبها العباس بن الحسن الطائي إلى المؤمن ... ..                         |
| ٢٠٤ | ما كتبه ابن المقفع إلى صديق له ولدت له جارية ... ..                                |
| ٢٠٥ | تهنئة لعبد بن مكرم إلى نصراني أسلم ... ..  |

### باب المنظوم :

|     |                |
|-----|----------------|
| ٢٠٦ | أبرنواس ... .. |
| ٢٤٩ | النشاي ... ..  |

فهرس المجلد الثالث

(ز)

| صفحة |                               |
|------|-------------------------------|
| ٢٥٥  | دمبل                          |
| ٢٦٥  | حسبى بن الصالح                |
| ٢٧٨  | محمد بن عبد الملك الزيات      |
| ٢٨٣  | ابن الزيات                    |
| ٢٨٦  | الخرمى                        |
| ٢٩٥  | عبد الله بن طاهر              |
| ٢٩٨  | ما قيل في هجاء الأيمن وروثانه |
| ٣٠٣  | هجاء يحمى بن أكرم             |
| ٣٠٥  | وصف ثورة بلداد وجرىتها        |



# مُلْحَقُهُ

## الكتاب الثالث

### باب المنشور

#### (١) نصوص كتب الأمين والمأمون

١ — نص كتاب الأمين الى المأمون؛ وهو الكتاب الذي أشرنا اليه في الجزء الأول .  
إذنا ورد عليك كتاب أخيك — أحاذه الله من فقلبك — عند حلول ما لا مرّة له  
ولا مدفع، مما قد أخلف وتنازع الأئم الخالية، والقرون الماضية، بما عراك الله به .  
وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ شَأْؤُهُ ، قد آخَسَارَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْصَلَ الدارين، وَأَجَزَلَ الحظين،  
فَقَبَضَهُ اللَّهُ طَاهِرًا زَاكِيًا، قد شَكَرَ سَعِيَهُ، وَغَفَرَ ذَنْبَهُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ . فَقُمْ فِي أَمْرِكَ قِيَامَ  
ذِي الْحِزْمِ وَالْعِزْمِ، وَالنَّاظِرِ لِأَخِيهِ وَنَفْسِهِ، وَمُطْلَاطِنَهُ وَعَامَةِ الْمُسْلِمِينَ . وَإِيَّاكَ أَنْ يَغْلِبَ  
عَلَيْكَ الْجُرْعُ، فَإِنَّهُ يُحِيطُ الْأَجْرَ، وَيُعْقِبُ الْوِزْرَ؛ وَصَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ حَبًّا وَمِثْقَالَ  
وَأَنَا لَهُ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ . وَخُذِ الْبَيْعَةَ عَلَى مَنْ قَبْلَكَ، مِنْ قَوَادِكُ وَجُنْدِكَ، وَخَاصَّتِكَ  
وَعَامَّتِكَ، لِأَخِيكَ هَمِّ لِنَفْسِكَ، هَمِّ لِلْقَاسِمِ ابْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، عَلَى الشَّرِيطَةِ الَّتِي جَعَلَهَا لَكَ  
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ : مَنْ نَسَخَهَا لَهُ وَإِبَاتَهَا، فَإِنَّكَ مُقَلَّدٌ مِنْ ذَلِكَ ، مَا قَلَّدَكَ اللَّهُ وَخَلِيفَتُهُ .  
وَأَعْلَمُ مَنْ قَبْلَكَ رَأَى فِي صَلَاحِهِمْ، وَسَدِّ حَتْمِهِمْ، وَالتَّوَسُّعَةِ عَلَيْهِمْ؛ فَنَ أَنْكَرْتَهُ عِنْدَ  
بَيْعَتِهِ، أَوْ أَتَمَمْتَهُ عَلَى طَاعَتِهِ، فَابْعَثْ إِلَى بَرَأْسِهِ مَعَ خَبَرِهِ . وَإِيَّاكَ وَإِقَالَتَهُ، فَإِنَّ النَّارَ أَوْلَى

به . واكتب الى عمال قنورك ، وأمرأه أجنادك ، بما طرقتك من المصيبة بأمر المؤمنين ؛ وأعلمهم أن الله لم يرض الدنيا له ثوابا ، حتى قبضه الى روضه وراحته وجنته ، مغبوطا محمودا ، قائدا لجميع خلفائه الى الجنة إن شاء الله . ومُرهم أن يأخذوا البيعة على أجنادهم ، وخواصهم وعوامهم ، على مثل ما أمرتك به ، من أخذها على من قبلك ؛ وأوعز اليهم في ضبط قنورهم ، والقوة على عدوهم ، إلى متفق حالاتهم ، ولأن شعثهم ، وموسع عليهم ، ولأن في تقوية أجنادى وأنصارى . ولكن كتبك اليهم كتابا عامة لتقرأ عليهم ، فإن ذلك ما يستجيبهم ، ويسطو أملاهم . وأعمل بما تأمر به لمن حضرك ، أو نأى عنك من أجنادك على حسب ما ترى وتُشاهد . فإن أخاك يعصرف حسن اختيارك ، وصحة رأيك ، وبعد نظرك ، وهو يستحفظ الله لك ، ويسأله أن يشد بك عضده ، ويجمع بك أمره ، إنه لطيف لما يشاء . وكتب بكر بن العتيريين يئى وإملانى في شوال سنة ١٩٢ هـ

٢ — وهذا خطاب محمد الأمين الى أخيه صالح .

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا ورد عليك كتابي هذا ، عند وقوع ما قد سبق في علم الله ، ونفذ من قضائه ، في خلفائه وأوليائه ، وجرى به سنته في الأنبياء والمرسلين ، والملائكة المقربين ، فقال : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ . فاحمدوا الله على ما صار اليه أمير المؤمنين ، من عظيم ثوابه ومرافقة أنبيائه ، صلوات الله عليهم ، إننا إليه راجعون ، وإياه نسأل أن يمحس الاخلافة على أمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم . وقد كان لهم عصمة وكهفا ، وبهم ردوفا رحسبا .

فنشر في أمرك ، وإياك أن تلقى بيدك ، فإن أخاك قد آخارك لما آستمنضك له ، وهو متفقذ مواقع فقدائك ، فحق ظنه ، ونسأل الله التوفيق . وخذ البيعة على من قبلك ، من ولد أمير المؤمنين ، وأهل بيته ومواليه وخاصسته وعامته لمحمد أمير المؤمنين ، ثم أبعده الله ابن أمير المؤمنين ، ثم للقاسم ابن أمير المؤمنين ، على الشريعة التي جعلها

أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — من فسحها على القاسم أو إثباتها . فإت السعادة وإئتمن في الأخذ بعهدة والمُهيئ على مناجحه .

وأعلم من قبلك من الخاصة والعامة رأي في استصلاحهم ، ورد مظلهمهم ، وتفقد حالاتهم ، وأداء أرزاقهم ، وأعطياتهم عليهم . فإن شغب شاغب ، أو نعر ناعر ، فأسط به سطوة تجعله نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للتقين . وأصمهم إلى الميمون ابن الميمون الفضل بن الربيع ولد أمير المؤمنين وخده وأهله ؛ ومُرّه بالمسير معهم فيمن معه ، وجنده ورباطه ؛ وصير إلى عهد الله بن مالك أمر العسكر وأحداثه ، فإنه ثقة على ما على مقبول عند العامة ؛ وأصمهم إليه جميع جد الشرط ، من الروابط وغيرهم ، إلى من معه من جنده ؛ ومُرّه بالجد واليقظ ، وتقديم الخزم في أمره كله . ليلة ونهاره .

فإن أهل العداوة والفتاق لهذا السلطان يقتنمون مثل حلول هذه المصيبة ؛ وأقر حاتم بن هرمثة على ما هو عليه ، ومره بممارسة ما يحفظ به قصور أمير المؤمنين ، فإنه ممن لا يُعرف إلا بالطاعة ، ولا يدين إلا بها ، بماقد من الله ، مما قدم له من حال أبيه المحمود عند الخلفاء ؛ ومُر الخدم بإحضار روابطهم ، من يُسُد بهم وبأجنادهم مواضع انخلل من عسكرك ، فإنهم حد من حدودك ؛ وصير مُقَدِّمَكَ إلى أسد بن يزيد بن مزيّد ، وسائقك إلى يحيى بن مُعَاذ ، فيمن معه من الجنود ، ومرها بما يوثق في كل ليلة .

وأزِم الطريق الأعظم ، ولا تَمُدُّوهُ المراحل ، فإن ذلك أرفق بك ؛ ومُر أسد بن يزيد ، أن يفتقر رجلا من أهل بيته أوقواده ، فيصير إلى مقدمته ، ثم يصير أمامه ، لتبينة المنازل ، أو بعض الطريق ؛ فإن لم يَحْضُرْكَ في عسكرك بعض من سميت ، فاختر لمواضع من يتق بطاعته ، ونصيحته وهيبته ، عند الموات ؛ فإن ذلك لن يُوَزِّدَكَ ، من قوادك وأنصارك ، إن شاء الله .

ولماك أن تُنْفَذَ رأيا ، أو تُهَيِّمَ أمرا ، إلا برأى شيخك ، وبقية آبائك ، الفضل بن الربيع ، وأقرّر جميع الخدم على ما في أيديهم من الأموال والسلاح والخزائن وغير ذلك ؛

ولا يُخْرِجُ أَحَدًا مِنْهُمْ ، مِنْ ضَمْنِ مَا بَعِيَ ، إِلَى أَنْ تَقْدُمَ عَلَيَّ . وَقَدْ أَوْصَيْتُ بِكَرْبِنِ الْمُعْتَمِرِ  
بِمَا سَبَقَ لَكَ ، وَأَعْمَلُ فِي ذَلِكَ بِقَدْرِ مَا تَسَاهَدُ وَتَرَى . وَإِنْ أَمَرْتُ لِأَهْلِ الْعَسْكَرِ بِعَطَاءٍ  
أَوْ رِزْقٍ فَلْيَكُنِ الْفَضْلُ بِنِ الرَّبِيعِ الْمُتَوَلَّى لِإِعْطَائِهِمْ ، عَلَى دَوَاوِينَ يَتَّخِذُهَا لِنَفْسِهِ ، بِمُحَضَّرٍ  
مِنْ أَصْحَابِ الدَّوَاوِينَ ؛ فَإِنَّ الْفَضْلَ بِنِ الرَّبِيعِ لَمْ يَزَلْ مِثْلَ ذَلِكَ لِمَهْمَاتِ الْأُمُورِ . وَأَنْفِذْ  
إِلَيَّ عِنْدَ وَصُولِ نَجَّابِي هَذَا إِلَيْكَ إِسْمَاعِيلَ بْنَ صَبِيحٍ ، وَبَكَرَ بْنَ الْمُعْتَمِرِ ، عَلَى مَرَكَبَيْهِمَا  
مِنَ الْبَرِيدِ ؛ وَلَا يَكُنْ لَكَ حُرْجَةٌ وَلَا مُهْلَةٌ ، بِمَوْضِعِكَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ ، حَتَّى تُوجَّهَ إِلَى  
بِعْسْكَرِكَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْخِزَانِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . أَخُوكَ يَسْتَدْفِعُ اللَّهُ عَنْكَ ، وَيَسْأَلُهُ لَكَ  
حَسَنُ التَّائِيدِ بِرَحْمَتِهِ . وَكُتِبَ بِكَرْبِنِ الْمُعْتَمِرِيِّ يَدِيْ وَإِمْلَأْنِي فِي شَوَّالِ سَنَةِ ١٩٣ هـ .



## (ب) القول بخلق القرآن

وهالك مثلاً مما كتبه المأمون إلى ولاته في الأخذ بمنهجه في القول بخلق القرآن، وهو ما أرسله إلى عاتل إسحاق بن إبراهيم وما يرويه لنا الطبري مما حصل .  
أما الكتاب فهو :

أما بعد ، فإن حق الله على أئمة المسلمين وخلفائهم الاجتهاد في إقامة دين الله الذي استحفظهم ، وموارث النبوة التي أوتيتهم ، وأثر العلم الذي استودعهم ، والعمل بالحق في رعيته ، والتشهير بطاعة الله فيهم ؛ والله يسأل أمير المؤمنين ، أن يوقفه لعزيمة الرشد وصريحته ، والإقسط فيما ولّاه الله من رعيته ، برحمته ويمته ؛ وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم ، والسواد الأكبر ، من حشو الرعية ، وسفلة العامة ، من لا نظره ولا روية ، ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته ، ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه ، في جميع الأقطار والآفاق ، أهل جهالة بالله وعي عنه ، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به ، وتكوير عن واضحاته وأعلامه وواجب سبيله ، وقصور أن يقدروا الله حق قدره ، ويعرفوه كنه معرفته ، ويفترقوا بينه وبين خلقه ، لضعف آرائهم ، ونقص عقولهم ، وجفائهم عن التفكير والتذكر ؛ وذلك أنهم ساءوا بين الله تبارك وتعالى ، وبين ما أنزل من القرآن ، فاطبقوا مجتمعين ، وآتفقوا غير متماجين ، على أنه قديم أول ، لم يخالفه الله ، ويحدثه ، ويخترعه ، وقد قال الله عز وجل في مُحْكَم كتابه ، الذي جماله لما في الصدور شفاءً ، وللمؤمنين رحمةً وهدى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ۚ فَكُلِّ مَا جَعَلَهُ اللَّهُ فَقَدْ خَلَقَهُ ، وَقَالَ : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۚ وَقَالَ عز وجل : ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ ۚ فَاخْبِرْ أَنَّهُ قَصَصٌ لَأُمُورٍ أَحَدُهُ بَعْدَهَا ، وَتَلَا بِهِ مُتَقَدِّمَهَا ، وَقَالَ : ﴿ أَلَمْ نَكْتُبْ أَفْكَتَ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ۚ ۚ وَكَلَّمَ مُحْكَمٌ مُفَصَّلٌ ، فَلَهُ مُحْكَمٌ مُفَصَّلٌ ، وَاللَّهُ مُحْكَمٌ كُتَابُهُ وَمُفَصَّلُهُ ، فَهُوَ خَالِفُهُ وَمُبْتَدِعُهُ

ثم هم الذين جادلوا بالباطل، فدعوا إلى قوطم، ونسبوا أنفسهم إلى السنة، وفي كل فصل من كتاب الله قصص من نلأوته، مبطل قوطم، ومكذب دعواهم، يرذ عليهم قوطم ويحلهم، ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة؛ فاستطالوا بذلك على الناس، وغرأوا به الجهال، حتى مال قوم من أهل السمات الكاذب، والتخشع لغير الله، والتقصيف لغير الدين إلى موافقتهم عليه، ومواطنتهم على سيئ آرائهم، تزيتا بذلك عندهم، وتصمتا للرياسة والعدالة فيهم، فتركوا الحق إلى باطلهم، واتخذوا دون الله وليجة إلى ضلالتهم، فقيلت بتركيتهم لهم شهادتهم، وفذنت أحكام الكتاب بهم، على دغل دينهم، وفعل أديعهم، وفساد نيأتهم ويقينهم؛ وكان ذلك غايتهم التي إليها جروا، وإياها طلبوا في متابعتهم، والكذب على مولاهم، وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب، ألا يقولوا على الله إلا الحق، ودرسوا ما فيه، أولئك الذين أحمهم الله، وأعمى أبصارهم، ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانُ﴾، أم على قلوب أفاها. فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة، وروس الضلالة، المنقوصون من التوحيد حطا، والمنحسوسون من الإيمان نصيبا، وأوعية الجهالة وأعلام الكذب، ولسان إبليس الباطل في أوليائه، والمائل على أعدائه، من أهل دين الله، وأحق من يؤتم في صدقه، وتطرح شهادته، ولا يؤثق بقوله ولا عمله، فإنه لا عمل إلا بعد يقين، ولا يقين إلا بعد استكمال حقيقة الإسلام، وإخلاص التوحيد، ومن عمى عن رشده وحظه، من أهل الإيمان بالله وبتوحيده، كان عما سوى ذلك من عمله، والقصد في شهادته، أعمى وأضل سبيلا، ولعمري أمير المؤمنين أن أعمى الناس بالكذب في قوله، وتخص الباطل في شهادته من كتب على الله ووحيد، ولم يعرف الله حقيقة معرفته، وأن أولاهم بر شهادته، في حكم الله ودينه من رذ شهادة الله على كتابه، وبهت حق باطله، فأجمع من يحضرك من القضاة، وأقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك، فأبدا بامتناعهم فيما يقولون، وتكشيفهم عما يعتقدون، في خلق الله القرآن وإحدايه، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله، ولا واثق

فأقلده الله، وأستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه، وخلّص توحيده ودينه، فإذا أقروا بذلك، ووافقوا أمير المؤمنين فيه، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة، فُرِّمَ بِنَصِّ مَنْ يَحْضُرُهُمْ مِنَ الشُّهُودِ عَلَى النَّاسِ، وَمَسَّالَتُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ فِي الْفِرَاقِ، وَتَرَكَ إِثْبَاتَ شَهَادَةِ مَنْ لَمْ يُقَرِّأْهُ مَخْلُوقٌ مُخَدَّثٌ وَلَمْ يَرَهُ، وَالْإِمْتِنَاعَ مِنْ تَوْقِيفِهَا عِنْدَهُ؛ وَأَكْتَبَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا يَأْتِيكَ، عَنْ قَضَاءِ أَهْلِ حَمَلِكَ فِي مَسَائِلِهِمْ، وَالْأَمْرَ لِمَنْ يَمَثِلُ ذَلِكَ، ثُمَّ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ، وَتَفَقَّدَ آثَارَهُمْ، حَتَّى لَا تُتَفَقَّدَ أَحْكَامُ اللَّهِ، إِلَّا بِشَهَادَةِ أَهْلِ الْبَصَائِرِ فِي الدِّينِ، وَالْإِخْلَاصِ لِلتَّوْحِيدِ؛ وَأَكْتَبَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا يَكُونُ فِي ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَكُتِبَ فِي شَهْرِ رَجَبِ الْأَوَّلِ سَنَةِ ٢١٨ هـ .

وكتب المأمون، إلى إسماعيل بن إبراهيم، في إخطاص سبعة نفر، منهم : محمد بن سعد كاتب الواقدي، وأبو مسلم مستحل يزيد بن هارون، ويحيى بن معين، وزهير بن حرب أبو خيثمة، وإسماعيل بن داود، وإسماعيل بن أبي مسعود، وأحمد بن النورقي، فأخطصوا إليه، فامتنعهم، وسألهم عن خلق القرآن، فأجابوا جميعاً أن القرآن مخلوق، فأخطصهم إلى مدينة السلام، وأحضرهم إسماعيل بن إبراهيم داره، فشنَّ أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء، والمشايخ من أهل الحديث، فأقروا بمثل ما أجابوا به المأمون فغلى سبيلهم، وكان ما فعل إسماعيل بن إبراهيم من ذلك بأمر المأمون .

وكتب المأمون بعد ذلك إلى إسماعيل بن إبراهيم :

أما بعد، فإن من حق الله على خُلَفَائِهِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَأَمَانُهُ عَلَى عِبَادِهِ، الَّذِينَ ارْتَضَاهُمْ لِإِقَامَةِ دِينِهِ، وَحَمَلِهِمْ رِيَايَةَ خَلْقِهِ، وَإِمْرَاءَهُ حُكْمَهُ وَسُنَّتَهُ، وَالْإِتِّسَامَ بِعَدْلِهِ فِي بَرِيَّتِهِ، أَنْ يَتَّهَدُوا اللَّهَ أَنْفُسَهُمْ، وَيَتَصَحَّحُوا لَهُ فَيَا أَسْتَحْفَظُهُمْ وَقُلْدَهُمْ، وَيَذَلُّوا عَلَيْهِ — تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى — بِفَضْلِ الْعِلْمِ الَّذِي أَوْدَعَهُمْ، وَالْمَعْرِفَةِ الَّتِي جَعَلَهَا فِيهِمْ، وَيَهْدُوا إِلَيْهِ مَنْ زَاغَ عَنْهُ، وَيَرُدُّوا مَنْ أَدْبَرَ عَنْ أَمْرِهِ، وَيَنْتَجُوا لِرَايَاهُمْ سَمْتَ نَجَاتِهِمْ، وَيَقْفُوهُمْ عَلَى حُدُودِ إِيمَانِهِمْ، وَسَبِيلِ فَوْزِهِمْ وَعَصَمَتِهِمْ، وَيَكْشِفُوا لِمَنْ عَنْ مُقْطِعَاتِ أُمُورِهِمْ، وَشُبُهَاتِهَا

عليهم، بما يدفعون الرب عنهم، ويعود بالضيء والبيئة على كافتهم؛ وأنت يؤثروا ذلك من إرشادهم وتصبرهم، إذ كان جامعا لقنون معانهم، ومستظلا لحظوظ عاجلتهم وأجلتهم، ويتذكروا أن الله مُرْصِدٌ من مسايلهم عما حملوه، وبجازاتهم بما أسلفوه، وقدموا عنده؛ وما توفيق أمير المؤمنين، إلا بالله وحده، وحسبه الله وكفى به. ومما بينه أمير المؤمنين برويته، وطالعه بفكره، فتبين عظيم خطره، وجليل ما يرجع في الدين من وكفه وضرره ما ينال المسامون بينهم من القول في القرآن الذي جعله الله إماما لهم، وأثرا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصفه محمد صلى الله عليه وسلم بأفيا لهم، وأشتباهه على كثير منهم، حتى حسن عندهم، وترين في عقولهم، ألا يكون مخلوقا، فتعوضوا بذلك لدفع خلق الله، الذي بان به عن خلقه، وتفرّد بجلالته من ابتداع الأشياء كلها بحكمته، وإنشائها بقدرته، والتقدم عليها بأوليته، التي لا يبلغ أولاهها، ولا يدرك مداها، وكان كل شيء دونه، خلقا من خلقه، وحدثا هو المحدث له، وإن كان القرآن ناطقا به، ودالا عليه، وقاطعا للاختلاف فيه، وضاهوا به قول النصارى، في أدعائهم في عيسى بن مريم أنه ليس بمخلوق، إذ كان كلمة الله، والله عز وجل يقول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾. وتأويل ذلك: إنا خلقناه، كما قال جل جلاله: ﴿وَجَعَلْ مِنْهَا زُوجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾. وقال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾. ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾. فسوى عز وجل، بين القرآن، وبين هذه الخلائق، التي ذكرها في شية الصنعة، وأخبر أنه جاعله وحده، فقال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾. فقال ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن، ولا يحاط إلا بمخلوق، وقال لئيه صلى الله عليه وسلم: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَعَبَلَ بِهِ﴾. وقال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾. وقال: ﴿قَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾. وأخبر عن قوم ذمهم بكذبهم، أنهم قالوا: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشِيرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾. ثم أكذبهم على لسان رسوله، فقال لرسوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾. فسمى الله تعالى القرآن قرآنا وذكرنا، وإيماننا ونورا وهدي ومباركا وعربيا

وقصصا، فقال : ﴿ تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ .  
 وقال : ﴿ قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ .  
 وقال : ﴿ قُلْ قَاتُوا بِشَرِّ سُورٍ مِثْلِهِ مُقْتَرَاتٍ ﴾ . وقال : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ  
 وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ . فجعل له أوَّلًا وآخرًا ، ودلَّ عليه ، أنه محدودٌ مخلوق ، وقد عظم هؤلاء  
 الجهلةُ بقولهم في القرآن ؛ التَّم في دينهم ، والخرَج في أمانتهم ، وسهلوا السبيل لعدوِّ  
 الإسلام ، وأعتقوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم حتى عرَّفوا ، ووصفوا خلق الله وفعاله  
 بالصفة التي هي لله وحده وشبهوه به ، والإشباه أولى بخلقهِ ، وليس يرى أمير المؤمنين .  
 لمن قال بهذه المقالة خطأ في الدين ، ولا نصيباً من الإيمان واليقين ، ولا يرى أن يُعصَلَ  
 أحداً منهم محلُّ الثقة في أمانة ولا عدالة ولا شهادة ، ولا يَصْنَعُ في قول ولا حكاية ، ولا تولية  
 لشيء من أمر الرعية ؛ وإن ظهر قصد بعضهم ، وعُرف بالسداد مُسندٌ فيهم ، فإِنَّ الفروع  
 مردودة إلى أصولها ، ومجولة في الحمد والذم عليها ، ومن كان جاهلاً بأمر دينه ، الذي  
 أمره الله به ، من وحدانيته ، فهو بما سواه أعظم جهلاً ، وعن الرشيد في غيره أعمى وأضل  
 سبيلاً .

فاقرأ على جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحاق الفاضل كتاب أمير المؤمنين ، بما  
 كتب به إليك ، وانصصهما عن عليهما في القرآن ، وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين  
 على شيء من أمور المسلمين ، إلَّا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده ، وأنه لا توحيد لمن لم يُقرَّ  
 بأن القرآن مخلوق ، فإنَّ فلا يقول أمير المؤمنين في ذلك فتقدَّم بهما في امتحان من يُحضر  
 مجالسهما ، بالشهادات على الحقوق ، ونصهم عن قولهم في القرآن ، فمن لم يقل منهم أنه  
 مخلوق ، أبطلأ شهادته ، ولم يقطعا حكماً بقوله ، وإن ثبت عناقته بالقصد والسداد في أمره ،  
 وأفعل ذلك بمن في سائر عملك من القضاة ، وأشرف عليهم إشرافاً يزيد الله به ذا البصيرة  
 في بصيرته ، ويمنع المرتاب من إغفال دينه ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منكَ  
 في ذلك إن شاء الله .

ثم ننظر ما حصل بعد ذلك مما يرويه لنا الطبري قال :

فاحضر إسماعيل بن إبراهيم لذلك جماعة من الفقهاء والحكام والمحدثين ، وأحضر أبا حسان الزبائدي ، وبنتر بن الوليد الكندي ، وعلى بن أبي مقاتل ، والفضل بن غانم ، والذبال بن الهيثم ، وتيجادة ، والقواريري ، وأحمد بن حنبل ، وقتيبة ، وسعدويه الواسطي ، وعلى بن الجعد ، وإسحاق بن أبي إسرائيل ، وأبن الحرث ، وأبن عتبة الأكبر ، ويحيى ابن عبد الرحمن العمري ، وشيخا آخر من ولد عمر بن الخطاب ، كان قاضي الرقة وأبا نصر النخار وأبا تميم القطيعي ، ومحمد بن حاتم بن ميمون ، ومحمد بن نوح المصروب ، وابن الفرخان ، وجماعة منهم النضر بن يحيى ، وابن علي بن عاصم ، وأبو العوام الأتزاز ، وابن مجيع ، وعبد الرحمن بن إسماعيل ، فأدخلوا جميعا على إسماعيل ، فقرأ عليهم كتاب المأمون هذا مرتين ، حتى فهموه ، ثم قال لبشر بن الوليد : ما تقول في القرآن ؟ فقال : قد عرفت مقاتلي لأمر المؤمنين غير مرة ، قال : فقد تجد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى ، فقال : أقول القرآن كلام الله ، قال : لم أسألك عن هذا ، اخلوق هو ؟ قال : الله خالق كل شيء ، قال : ما القرآن شيء ؟ قال : هو شيء ، قال : فاخلوق ؟ قال : ليس بخالق ، قال : ليس أسألك عن هذا ، اخلوق هو ؟ قال : ما أحسن . غير ما قلت لك ، وقد استعذبت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه ، وليس عندي غير ما قلت لك ، فأخذ إسماعيل بن إبراهيم رقعة كانت بين يديه ، فقرأها عليه ، ووقفه عليها ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله أحدا فردا لم يكن قبله شيء ، ولا بعده شيء ، ولا يشبهه شيء من خلقه ، في معنى من المعاني ، ولا وجه من الوجوه ، قال : نعم ، وقد كنت أضرب الناس على دون هذا ، فقال للكتاب : أكتب ما قال .

ثم قال لمي بن أبي مقاتل : ما تقول يا علي ؟ قال : قد سمعت كلامي لأمر المؤمنين في هذا غير مرة ، وما عندي غير ما سمع ، فأثخنه بالرقعة ، فأقر بما فيها ، ثم قال : القرآن مخلوق ؟ قال : القرآن كلام الله ، قال : لم أسألك عن هذا ، قال : هو كلام الله وإن أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا ، فقال للكتاب : أكتب مقالته .

ثم قال للذيال نحووا من مقالته لعلّ بن أبي مقاتل ، فقال له مثل ذلك . ثم قال لأبي حسان الزيّادي : ما عندك ؟ قال : سأل عما شئت ، فقرأ عليه الرقعة ، ووقفه عليها فافتر بما فيها . ثم قال : من لم يقل هذا القول فهو كافر ، فقال : القرآن مخلوق هو ؟ قال : القرآن كلام الله والله خالق كل شيء ، وما دون الله مخلوق ، وأمير المؤمنين إمامنا وبسببه سمعنا عامة العلم ، وقد سمع ما لم نسمع ، وعلم ما لم نعلم ، وقد قلده الله أمرنا ، فصار يُقيم حجّتنا وصلاتنا ، ويؤدّي إليه زكاة أموالنا ، ويجاهد معه ، ويزي إمامته إمامة ، وإن أمرنا اثبتنا ، وإن نهانا آتينا ، وإن دعانا أجبتنا ، قال : القرآن مخلوق هو ؟ فأعاد عليه أبو حسان مقالته ، قال : إن هذه مقالة أمير المؤمنين ، قال : قد تكون مقالة أمير المؤمنين ولا يأمر بها الناس ، ولا يدعومها بها ، وإن أخبرني أنّ أمير المؤمنين أمرك أن أقول قلت ما أمرتني به ، فإنك الثقة المأمون عليه ، فإني أبلغتني عنه من شيء ، فإن أبلغتني عنه بشيء صرت إليه ، قال : ما أمرني أن أبلغك شيئاً ، قال حل بن أبي مقاتل : قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفرائض والمواريث ، ولم يحصلوا الناس عليها ، قال له أبو حسان : ما عندي إلا السمع والطاعة ، فرى آتياً ، قال : ما أمرني أن أمرك ، وإنما أمرني أن أمتحنتك .

ثم عاد إلى أحمد بن حنبل ، فقال له : ما تقول في القرآن ؟ قال : هو كلام الله ، قال : أخلق هو ؟ قال : هو كلام الله لا أزيد عليها ، فامتحنه بما في الرقعة ، فلما أتى إلى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وأمسك عن لا يُشَبِّهُ شَيْءٌ من خلقه ، في معنى من المعاني ، ولا وجه من الوجوه ، فاعترض عليه ابن البكاء الأصغر ، فقال — أصلحك الله — : إنه يقول : سمع من أذن ، بصير من عين ، فقال إسماعيل لأحمد بن حنبل : ما معنى قوله سمع بصير ؟ قال : هو كما وصف نفسه ، قال : فما معناه ؟ قال : لا أدري هو كما وصف نفسه ، ثم دعا بهم رجلاً رجلاً كلهم يقول : القرآن كلام الله ، إلّا هؤلاء نفر قتيبة ، وعبيد الله بن محمد بن الحسن ، وابن عُلَية الأكبر ، وابن البكاء ، وعبد المنعم بن إدريس

ابن بنت وهب بن مثنى، والمظفر ابن مَرْجَا، ورجلا ضريرا ليس من أهل الفقه . ولا يُعرف بشيء منه إلا أنه دُثِر في ذلك الموضع، ورجلا من ولد عمر بن الخطاب قاضى الرقة، وابن الأجر، فأما ابن البكاء الأكبر فإنه قال : القرآن مجعول لقول الله تعالى : (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا)، والفرقان مُحَدَّث لقوله : (مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٌ) قال له إسماعق : فالجعول مخلوق؟ قال : نعم، قال : فالفرقان مخلوق؟ قال : لا أقول مخلوق ولكنه مجعول، فكتب مقالته، فلما فرغ من امتحان القوم وكتب مقالاتهم اعترض ابن البكاء الأصغر فقال — أصلحك الله — إن هذين القاضين أئمة، فلو أمرتهما فأعادا الكلام ! قال له إسماعق : هما من يقوم بحجة أمير المؤمنين، قال : فلو أمرتهما أن يُسيمانا مقاتلما لَحَكِي ذلك عنهما ! قال له إسماعق : إن شِهدت عندهما بشهادة فستعلم مقالاتهما إن شاء الله؛ فكتب مقالة القوم رجلا رجلا ووجهت الى المأمون . فكث القوم تسعة أيام ثم دعا بهم . وقد ورد كتاب المأمون، جواب كتاب إسماعق بن إبراهيم في أمرهم . وهالك هو مانجهله ختاماً لكلتنا .



بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد، فقد بلغ أمير المؤمنين كتابك جواب كتابه، كان إليك فيما ذهب إليه متصنعة أهل الفيلة، ومُتمسو الرئاسة فيما ليسوا له بأهل من أهل الملّة، من القول في القرآن، وأمرتك به أمير المؤمنين، من امتحانهم، وتكشيف أحوالهم، وإحلالهم محالهم، تذكرك إحضارك جعفر بن عيسى، وعبد الرحمن بن إسماعق، عند ورود كتاب أمير المؤمنين، مع من أحضرت من كان ينسب الى الفقه، ويُعرف بالخلوس للحديث، وينصب نفسه للفتيا بمدينة السلام، وقرأته عليهم جميعاً كتاب أمير المؤمنين، ومسألتك إياهم عن اعتقادهم في القرآن، والدلالة لهم على حظهم، وإطباقتهم على نفي التشبيه، واختلافهم في القرآن، وأمرتك من لم يقل منهم إنه مخلوق بالإمساك عن الحديث والفتوى، في السر والعلانية، وتقدمت الى السّنيدي، وعباس . ولى أمير المؤمنين بما



تَسَدَّتْ بِهِ فِيهِمْ إِلَى الْقَاضِيَيْنِ بِمَثَلِ مَا مَثَّلَ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، مِنْ أَمْتِحَانِ مَنْ يَحْضُرُ  
جَمَاعَتَهُمَا مِنَ الشُّهُودِ ، وَبَثَّ الْكُتُبَ إِلَى الْقَضَاةِ فِي النَوَاحِي مِنْ عَمَلِكَ بِالْقُدُومِ عَلَيْكَ ،  
لِيَحْمِلَهُمْ وَيَتَحَنَّنَ عَلَى مَا حَدَثَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتَبَيَّنَتْ فِي آخِرِ الْكُتُبِ أَسْمَاءُ مَنْ حَضَرَ  
وَمَقَالَاتِهِمْ ، وَفَهُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَا اقْتَصَصْتَ ؛ وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَحْمَدُ اللَّهَ كَثِيرًا كَمَا هُوَ أَهْلُهُ ،  
وَيَسْأَلُهُ أَنْ يَصَلِّيَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَيَرْغَبَ إِلَى اللَّهِ فِي التَّوْفِيقِ  
لِعَاقِبَتِهِ ، وَحَسَنَ الْمَعُونَةِ ، عَلَى صَالِحِ نِيَّتِهِ بِرَحْمَتِهِ .

وَقَدْ تَدَبَّرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَا كَتَبْتَ بِهِ مِنْ أَسْمَاءِ مَنْ سَأَلْتَ عَنِ الْقِرَآنِ ، وَمَا رَجَعَ  
إِلَيْكَ فِيهِ كُلُّ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَمَا سَرَحْتَ مِنْ مَقَالَتِهِمْ ؛ فَأَمَّا مَا قَالِ الْمُرُورُ بِشَرِينِ الْوَلِيدِ  
فِي تَقْيِ الشَّيْبَةِ ، وَمَا أَمْسَكَ عَنْهُ مِنْ أَنْ الْقِرَآنَ مَخْلُوقٌ ، وَأَدَّعَى مِنْ تَرْكِهِ الْكَلَامَ فِي ذَلِكَ  
وَأَسْتَعْمَادِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَدْ كَذَّبَ شَرُّ فِي ذَلِكَ وَكَفَرَ ، وَقَالَ الزُّورَ وَالْمُنْكَرَ ، وَلَمْ يَكُنْ  
يَسْرَى بَيْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَبَيْنَهُ فِي ذَلِكَ ، وَلَا فِي غَيْرِهِ ، عَهْدٌ وَلَا نَظَرٌ أَكْثَرَ مِنْ إِنْخِبَارِهِ  
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَعْتَادِهِ كَلِمَةَ الْإِخْلَاصِ وَالْقَوْلَ بِأَنَّ الْقِرَآنَ مَخْلُوقٌ ، فَادَّعَى بِهِ إِلَيْكَ ،  
وَأَعْلَمَهُ مَا أَعْلَمَكَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ ذَلِكَ ، وَانْصَبَصَ عَنْ قَوْلِهِ فِي الْقِرَآنِ ، وَاسْتَبَكَّهُ مِنْهُ ،  
فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَرَى أَنْ تَسْتَبِيحَ مَنْ قَالَ بِمَقَالَتِهِ إِذْ كَانَتْ تِلْكَ الْمَقَالَةُ الْكُفْرَ الصَّارِحَ وَالشَّرْكَ  
الْحَضُّ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ تَابَ مِنْهَا فَأَشْهَرُ أَمْرِهِ ، وَأَمْسَكَ عَنْهُ ، وَإِنْ أَصْرَ عَلَى شَرْكَهِ ،  
وَدَفَعَ إِنْ يَكُونُ الْقِرَآنَ مَخْلُوقًا بِكُفْرِهِ وَإِلْحَادِهِ ، فَاضْرِبْ عَقَبَهُ ، وَأَبْعَثْ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ  
بِرَأْسِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَكَذَلِكَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُهْدِيِّ فَامْتَحَنَهُ بِمَثَلِ مَا تَمَحَّنَ بِهِ بَشَرًا ، فَإِنَّهُ كَانَ  
يَقُولُ بِقَوْلِهِ ، وَقَدْ بَلَّغْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْهُ بِالْعَلَمِ ، فَإِنْ قَالَ إِنَّ الْقِرَآنَ مَخْلُوقٌ ، فَأَشْهَرُ أَمْرِهِ  
وَأَكْشَفُهُ ، وَإِلَّا فَاضْرِبْ عَقَبَهُ ، وَأَبْعَثْ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِرَأْسِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي مُقَاتِلٍ فَقُلْتُ لَهُ : أَلَسْتَ الْقَائِلُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّكَ تَحْمِلُ وَتَحْمَرُّ  
وَالْمَحْكَمُ لَهُ بِمَثَلِ مَا كَلَّمْتَهُ بِهِ ، مِمَّا لَمْ يَنْهَبْ عَنْهُ ذِكْرُهُ ؛ وَأَمَّا الذُّبَابُ بْنُ الْهَيْثَمِ ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ  
كَانَ فِي الطُّغَامِ الَّذِي كَانَ يَتَّيَرَفُهُ فِي الْأَنْبَارِ ، وَفِيهَا يَسْتَوِلِي عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ مَدِينَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ

أبى العباس ما يشقه ، وأنه لو كان مقتنيا آثار سلفه ، وسالكا مناهجهم ، ومُتَحَذِّيا سبيلهم ، لما خرج إلى الشرك بعد إيمانه ؛ وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبى العوام ، وقوله أنه لا يُجَيِّن الجواب في القرآن ، فأعلمه أنه صبيٌّ في عقله ، لا في سنه ، جاهل ، وأنه إن كان لا يُجَيِّن الجواب في القرآن فسَيُحْسِنُه ، إذا أخذه التأديبُ ، ثم إن لم يفعل كان السيف من وراء ذلك إن شاء الله .

وأما أحمد بن حنبل ، وما تكتب عنه ، فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عَرَفَ نَحْوَى تلك المقالة ، وسبيله فيها ، وأستدلَّ على جهله ، وآفته بها ؛ وأما الفضل بن غانم ، فأعلمه أنه لم يَخَفْ على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر ، وما أكتسب من الأموال في أقل من سنة ، وما تَجَرَّبَتْه وبين المُطَلَّب بن عبد الله في ذلك ، فإنه من كان شأنه شأنه ، وكانت رغبته في الدينار والدرهم رغبته ، فليس بِمُسْتَكْرَأَتٍ يبيع إيمانه طمعا فيهما ، وإيثارا لعاجل نفعهما ، وأنه مع ذلك انقائل لعلَّ بن هشام ما قال ، والمخالف له فيما خالفه فيه ، فما الذي حال به عن ذلك ، ونقله إلى غيره ؛ وأما الزَّيْدِيُّ ، فأعلمه أنه كان مُتَّعِلا لأقرب دعيٍّ كان في الإسلام يُخَوِّلُ فيه حَكْمُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان جديرا أن يسلك مسلكه فانكر أبو حسان أن يكون مولى لزياد ، أو يكون مولى لأحد من الناس ، — وذكر أنه إنما تُسَبِّح إلى زياد لأمر من الأمور — وأما المعروف بأبى نعيم التَّيَّار ، فإن أمير المؤمنين شبه خسارة عقله بخسارة مَتَّعْرَه ؛ وأما الفضل بن الفرَّخَان ، فأعلمه أنه حاول بالقول الذي قاله في القرآن أخذَ الودائع التي أودعها إياه عبد الرحمن بن إسحاق وغيره ، ترَبَّصا بمن استودعه ، وطمعا في الاستغفار لما صار في يده ، ولا سبيل عليه عن تقادم عهده ، وتطاول الأيام به ، فقل لعبد الرحمن بن إسحاق لاجرك الله خيرا عن تقويتك مثل هذا ، وإيتمامك إياه ، وهو معتقِدٌ للشرك ، منسلخٌ من التوحيد .

وأما محمد بن حاتم ، وابن نوح ، والمعروف بأبى مَعْمَر ، فأعلمهم أنهم مشاغيل بأكل الرِّاء ، عن الوقوف على التوحيد ، وأن أمير المؤمنين لو لم يستحلَّ محاربتهم في الله ومجاهدتهم ،

ألا لإربابهم، وما نزل به كتاب الله في أمثالهم، لاستحل ذلك، فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شركاً، وصاروا للنصارى مثلاً؛ وأما أحمد بن شجاع، فاعلمه أنك صاحبه بالأمس، والمستخرج منه ما استخرجته من المال الذي كان استحلّه من مال عليّ بن هشام، وأنه ممن الدينار والدرهم دينه؛ وأما سعدويه الواسطيّ فقل له: قبح الله رجلاً بلغ به التصنع للحديث، والترين به، والحرص على طلب الرئاسة فيه، أن يمّتي وقت المحنة فيقول بالتقرب بها: متى يمتحن فيجلس للحديث؛ وأما المعروف بسجادة، وإنكاره أن يكون سميع من كان يجالس من أهل الحديث، وأهل الفقه، القول بأن القرآن مخلوق، فاعلمه أنه في شغله بإعداد النسوى، وحكّه لإصلاح سجادته، وبالودائع التي دفعها إليه على بن يحيى وغيره ما أذهله عن التوحيد وألغاه، ثم سلّه عما كان يوسف بن أبي يوسف، ومحمد بن الحسن، يقولانه إن كان شاهدهما وجالسهما؛ وأما القواريريّ فقبحا تكشف من أحواله، وقبيله الرشا والمصانعات ما أبان عن مذهبه، وسوء طريقته، وتحافة عقله ودينه، وقد أتهى إلى أمير المؤمنين أنه يتولى جعفر بن عيسى الحسنى مسائله، فتقدم إلى جعفر بن عيسى في رفضه، وترك الثقة به، والاستئانة إليه.

وأما يحيى بن عبيد الرحمن المَعْرِيّ، فإن كان من ولد عمر بن الخطاب بطوابعه معروف؛ وأما محمد بن الحسن بن علي بن عاصم فإنه لو كان مقتدياً بمن مضى من سلفه لم يتحلّ اللّعة التي حَكَيْت عنه، وإنه بعد صبي يحتاج إلى تعلّم، وقد كان أمير المؤمنين وجهه إليك المعروف بأبي مُمَيْر، بعد أن نصّه أمير المؤمنين من محبته في القرآن، فجَمَعَهُ عنها، وبلّغ فيها، حتى دعا له أمير المؤمنين بالسيف، فافترّ ذمياً، فانصصه عن إقراره، فإن كان مقياً عليه فأشهر ذلك وأظهره إن شاء الله؛ ومن لم يرجع عن شركه من سميّت لأمر المؤمنين في كتابك، وذكره أمير المؤمنين لك، أو أسك عن ذكره في كتابه هذا، ولم يقل إن القرآن مخلوق، بعد بشر بن الوليد، وإبراهيم بن المهدي، فاحملهم أجمعين، مؤثّقين

الى عسكر أمير المؤمنين مع من يقوم بحفظهم ، وحراستهم في طريقهم ، حتى يؤتيهم الى عسكر أمير المؤمنين ، ويسلمهم الى من يؤمر بتسليمهم اليه ، لينصّبهم أمير المؤمنين ، فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعا على السيف إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله ؛ وقد أنفذ أمير المؤمنين كتابه هذا في خريطة بُندارية ، ولم ينظر به اجتماع الكتب الخراطمية مُعجلا به ، تقربا الى الله عز وجل بما أصدر من الحكم ، ورجاء ما أعتد ، وإدراك ما أمل ، من جزيل ثواب الله عليه ، فأنفذ لما أذاك من أمر أمير المؤمنين ، وعجل إجابة أمير المؤمنين بما يكون منك في خريطة بُندارية مفردة عن سائر الخرائط ، لتعرف أمير المؤمنين ما يعملونه إن شاء الله . وكتب سنة ٢١٨ هـ .

## (ج) عهد طاهر بن الحسين

قال ابن طيفور : ولما عهد طاهر بن الحسين الى عبد الله أبته هذا العهد، تنازعه الناس وكتبوه وتدارسوه، وشاع أمره حتى بلغ المأمون، فدعا به وقرئ عليه، وقال : ما أثنى أبو الطيب شيئا من الدين والدنيا، والتدبير والرأي، وإصلاح الملك والرعية، وحفظ البيعة، وطاعة الخلفاء، وتقويم الخلافة الا وقد أحكمه، وأوصى به، وتقدم فيه . وأمر أن يكتب بذلك الى جميع العال في نواحي الأعمال . ولما كان هذا العهد من الوثائق التاريخية التي لها قيمتها العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية أثرتا ذكره على ما فيه من طول رغبة منا في ألا يغفلوا كتابتنا من هذا الأمر العظيم القيمة والخطير، وهما كه :

« عليك بتقوى الله وحده لا شريك له، وخشيته ومراقبته ومزاياه تحفظه، وحفظ رعيته، وأزيم ما ألبسك الله في العافية بالذكر لمعادك، وما أنت صائر اليه، وموقوف عليه، ومسئول عنه، والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله ويحييكم يوم القيامة من عذابه وأليم عقابه، فإن الله قد أحسن اليك، وأوجب عليك الرافة بمن آسرتك أمرهم من عباده، وأزيمك العدل عليهم، والقيام بحقوقه وحدوده فيهم، والذب عنهم، والدفع عن حريمهم وبضمتهم، والحقق لدمائهم، والأمر بسبلهم، وإدخال الراحة عليهم في معاشهم، ومؤاخذك بما فرض عليك من ذلك، وموقفك عليه، ومسايلك عنه، وميثيق عليه بما قدمت وأخرت، ففرغ لذلك فكرك وعقلك وبصرك ورويتك، ولا يذهلك عنه ذغل، ولا يسغلك عنه شغل، فإنه رأس أمرك وملاكك شائك، وأقل ما يوقفك الله به لرشدك، وليكن أول ما تلزم به نفسك وتنسب اليه فإياك، المواظبة على ما اقترض الله عليك من الصلوات الخمس، والجماعة عليها بالناس قبلك في موافقتها على سننها في إسباغ الوضوء لها وأففتاح ذكر الله فيها، وتزل في قراءتك، وتمكن في ركوعك وسجودك وتشهدك، ولتصدق فيها لربك بيتك، وأحضرض عليها جماعة من معك وتحت يدك، وآداب عليها فلإنها كما

قال الله تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، ثم أتبع ذلك الأخذ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمثابرة على خلافته ، وأقتفاء آثار السلف الصالح من بعده ، وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله وتقواه ، ولزوم ما أنزل الله في كتابه ، من أمره ونهيه ، وحلاله وحرامه ، وإتمام ما جاءت به الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قم فيه بما يتيقن الله عليك ، ولا تخل عن العدل فيما أحببت أو كرهت ، لقريب من الناس أو بعيد ، وآخر الفقه وأهله ، والدين وملتهم وكتاب الله والعاملين به ، فان أفضل ما تزين به المرء الفقه في دين الله ، والطالب له والحث عليه ، والمعرفة بما يتقرب به إلى الله ، فإنه الدليل على الخير كله ، والقائد له ، والآخر به ، والناسي عن المعاصي والموبقات كلها ، وبها مع توفيق الله تزداد العبادة معرفة بالله ، عز وجل ، وإجلالا له وتذكرا للدرجات العلى في المماد ، مع ما في ظهوره للناس من التوقير لأمره والهيبة لسلطانه ، والأئسنة بك والثقة بمدلك . عليك بالاعتصام في الأمور كلها فليس شيء أيتن نفعا ولا أضرر أمنا ولا أجمع فضلا من القصد ، والقصد داعية إلى الرشد ، والرشد دليل على التوفيق ، والتوفيق متقاسم إلى السعادة ، وقوام الدين والسنن المسادية بالاعتصام ، فآثره في دنياك كلها ، ولا تقتصري طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة ، والسنن المعروفة ومعالم الرشد ، فلا غاية للاستكثار من البر والسعي له ، اذا كان يطلب به وجه الله ومرضاته ، ومراقبة أوليائه ، في دار كرامته .

وأعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث العز ، ويحصن من الذنوب وأنت لن تحوط نفسك ومن يليك ، ولا تستصلح أمورك ، بأفضل منه ، فاته ، وأهتد به تم أمورك ، وتزد مقدرتك ، وتصلح خاصتك وعامتك ، وأحسن الظن بالله عز وجل ، تستقم لك ربيتك ، والنفس الوسيلة إليه في الأمور كلها ، تستنم به النعمة عليك ، ولا تنقض أحدا من الناس ، فيما توليه من عملك ، قبل تكشف أمره بالتهمة ، فإن إيقاع التهم بالبراءة والظنون السيئة بهم مأمم ، وأجعل من شأنك ، حسن الظن بأصحابك ، وأطرد عنك سوء الظن بهم ، وأرفضه عنهم ، يفتك ذلك على أصطناعهم ورياضتهم ، ولا يحدت عدو الله الشيطان في أمرك مغمرا ،

فإنه انما يكتفى بالقليل من وَهْنِكَ فيدخلُ عليك من الغم، في سوء الظن، ما يَنْتَصُ عليك  
لنَازَةِ عَيْشِكَ، وأَعْلَمُ أَنَّكَ تَجِدُ بِحَسَنِ الظن، قُوَّةَ وَرَاحَةٍ، وَتَكْتَفِي بِهِ مَا أَحْبَبْتَ كِفَايَتِهِ مِنْ  
أَمُورِكَ، وَتَدْعُو بِهِ النَّاسَ إِلَى مَحَبَّتِكَ، وَالِاسْتِقَامَةِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا لَكَ. وَلَا يَمْنَعُكَ حَسَنُ الظَّنِّ  
بِأَهْلِيكَ، وَالِإِزَافَةُ بِرَعِيَّتِكَ، أَنْ تَسْتَعْمِلَ الْمَسْئِلَةَ وَالبَحْثَ عَنْ أُمُورِكَ وَالْمُبَاشَرَةَ لِأُمُورِ  
الْأَوْلِيَاءِ، وَالِإِطَاةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَالنَّظَرَ فِي حَوَائِجِهِمْ، وَحَمْلَ مَقَاتِلِهِمْ، آثَرُ عِنْدَكَ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ، فَإِنَّهُ  
أَقْوَمُ لِلدِّينِ، وَأَحْيَا لِللسنة، وَأَخْلَصُ نِيَّتِكَ فِي جَمِيعِ هَذَا، وَتَفُزُ بِتَقْوِيمِ نَفْسِكَ، تَفُزُ مَنْ  
يَعْلَمُ أَنَّهُ مَسْئُولٌ عَمَّا صَنَعَ، وَيَجُوزُ بِمَا أَحْسَنَ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الدِّينَ حِرْزًا وَعِزًّا، وَرِزْقًا مِنْ  
أَتَجَعُهُ وَعِزِّزَهُ، فَاسْلُكْ مِنْ تَسْوِسِهِ وَتَرْطَاةِ نَهْجِ الدِّينِ، وَطَرِيقَةِ الْهُدَى، وَأَقِمْ حَدُودَ اللَّهِ  
فِي أَهْوَائِهِ الْجَرَائِمِ عَلَى قَدَرِ مَنَازِلِهِمْ، وَمَا اسْتَحَقُّوه، وَلَا تُعْطِلْ ذَلِكَ وَلَا تَهَؤُنْ بِهِ، وَلَا  
تُؤْخِّرْ عَقِبَةَ أَهْلِ الْعُقُوبَةِ، فَإِنَّ فِي تَفْرِيطِكَ فِي ذَلِكَ، لِمَا يُفْسِدُ عَلَيْكَ حَسَنَ ظَنِّكَ،  
وَأَعِزِّمْ عَلَى أَمْرِكَ فِي ذَلِكَ بِالسَّنَنِ الْمَعْرُوفَةِ، وَجَانِبِ الشُّبْهِ وَالبِدْعَاتِ، يَسْلَمْ لَكَ دِينُكَ،  
وَتَقُمَّ لَكَ مَرْوَةٌ، وَإِذَا عَاهَدْتَ عَهْدًا قَبْلَ بِهِ، وَأَذَا وَصَلْتَ الْخَيْرَ فَأَنْجِزْهُ، وَأَقْبِلِ الْحَسَنَةَ،  
وَأَدْفَعْ بِهَا، وَأَغِيضْ عَنْ عَيْبِ كُلِّ ذِي عَيْبٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ، وَأَشْدُدْ لِسَانَكَ عَنْ قَوْلِ الْكَذِبِ  
وَالزُّورِ، وَأَبْيِضْ أَهْلَهُ، وَأَقْصِ أَهْلَ النِّيمَةِ، فَإِنَّ أَقْلَ فُسَادِ أَمْرِكَ فِي عَاجِلِ الْأُمُورِ  
وَأَجَلِهَا، تَفْرِيطُ الْكَذِبِ، وَالْجُرْأَةُ عَلَى الْكَذِبِ، لِأَنَّ الْكَذِبَ رَأْسُ الْمَآثِمِ، وَالزُّورِ  
وَالنِّيمَةِ خَاتِمَتُهَا، لِأَنَّ النِّيمَةَ لَا يَسْلُمُ صَاحِبُهَا، وَقَاتِلُهَا لَا يَسْلُمُ لَهُ صَاحِبُهَا وَلَا يَسْتَقِيمُ لَطِيفُهَا  
أَمْرٌ، وَأَحِبَّ أَهْلَ الصِّدْقِ وَالصَّلَاحِ، وَاعْنِ الْأَشْرَافَ بِالْحَقِّ، وَوَاوِلِ الضُّعَفَاءَ، وَصِلِ  
الرَّحِمَ، وَأَبْتَغِ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ، وَعِزَّةَ أَمْرِهِ، وَأَلْقِ فِيهِ ثَوَابِهِ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ، وَأَجْتَنِبِ  
سُوءَ الْأَهْوَاءِ وَالْجُودَ، وَأَصْرِفْ عَنْهَا رَأْيَكَ، وَأَظْهِرْ مِنْ ذَلِكَ لِرَعِيَّتِكَ، وَأَنْعِمْ بِالْعَدْلِ  
سِيَاسَتَهُمْ، وَقِمْ بِالْحَقِّ فِيهِمْ، وَبِالْمَعْرِفَةِ الَّتِي تَنْتَهِي بِكَ إِلَى سَبِيلِ الْهُدَى، وَأَتْلِكْ تَهَكُّمَ عِنْدَ  
الغَضَبِ، وَآخِرَ الْوَقَارِ وَالْحَلَمِّ، وَإِيَّاكَ وَالْحِدَّةَ وَالطَّبِشَ وَالْفُرُورَ فَإِنَّكَ بِسَبِيلِهِ، وَإِيَّاكَ أَنْ

تقول : إني مُسلَّطٌ أفضل ما أشاء فان ذلك سريعٌ فيك إلى نقص الرأي ، وقلة اليقين بالله وحده لاشريك له ، وأخلص لله وحده النية فيه ، واليقين به ، وأعلم أن الملك لله ، يعطيه من يشاء ، وينزعه ممن يشاء ولن نجد تغير النعمة ، وحلول النعمة ، إلى أحد أسرع منه ، إلى حيلة النعمة ، من أصحاب السلطان ، والميسوط لهم في الدولة ، إذا كفروا بنعم الله وإحسانه وأستطالوا بما آتاهم الله من فضله ، ودع عنك شره نفسك ، ولكن ذخايرك وكنوزك التي تدخر وتكثُر ، البر والتقوى ، والمعدلة ، وأستصلاح الرعية وعمارة بلادهم ، والتفقد لأموهم ، والحفظ لدمائهم ، والإخانة للمهوفهم ، وأعلم أن الأموال إذا كثرت وذُخِرَت في الخزان ، لا تُشكر ، وإذا كانت في إصلاح الرعية ، وإعطاء حقوقهم ، وكف المؤونة عنهم ، تمت ودبت ، وصلحت به العامة ، وتزيتت به الولاة ، وطاب به الزمان ، وأعتقد فيه العز والمنفعة ، فليكن كثرت خزائنك تفريق الأموال في عمارة الإسلام وأهله ، ووفر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم ، وأوف رعيته من ذلك حصصهم ، وتعهد بما يصلح أمورهم ومعايشهم ، فإنك إذا فعلت ذلك قوت النعمة عليك ، وأستوجبت المزيد من الله ، وكنت بذلك على جباية تراجك ، وجمع أموال رعيته وعملك أقصد ، وكان الجميع لما شملهم من عدلك وإحسانك أسلس لطاعتك ، وأطيب نفسا بكل ما أردت ، فاجهد نفسك ، فيما حدثت لك في هذا الباب ، ولتعلم حسبك فيه ، فإنما يبقى من المال ، ما أتفق في سبيل حقه ، وأعيرف للشاركين شكرهم ، وأنبهم عليه ، وإياك أن تُنسك الدنيا وضرورها هَوَلُ الأخرى ، فتهاون بها بحق عليك ، فان التهاون يوجب التفريط والتفريط يورث البوار ، ولكن عملك لله ، وفيه تبارك وتعالى ، وأرج الثواب ، فإن الله قد أسبغ عليك نعمته في الدنيا ، وأظهر لديك فضله ، فاعتصم بالشكر ، وعليه فاعتمد ، يزدك الله خيرا وإحسانا ، فان الله يشيب بقدر شكر الشاكرين ويرة المحسنين ، وقضاء الحق فيما حمل من النعم ، وأبس من العافية والكرامة ، ولا تحتقرن ذنباً ، ولا تملأن حاسدا ، ولا ترجمن فاجرا ، ولا تصلن كفورا ، ولا تهادنن عدوا ، ولا تصدقن بئسا ، ولا تأمنن غدارا ، ولا توالين فاسقا ، ولا تبقين ظوياً ، ولا تمحدثن



مُرَائِيًا ، وَلَا تَحْقِرَنَّ إِنْسَانًا ، وَلَا تَزِدَنَّ سَائِلًا فَقِيرًا ، وَلَا تَجِبَنَّ بَاطِلًا ، وَلَا تَلَا حِفْظَنَّ  
مُضْحَكًا ، وَلَا تُخْلِفَنَّ وَعْدًا ، وَلَا تَهْجُنْ غَيْرًا ، وَلَا تَطْهَرَنَّ غَضَبًا ، وَلَا تَأْتِيَنَّ بِذَخَاءٍ ،  
وَلَا تَمْشِيَنَّ مَرَحًا ، وَلَا تَرْكَبَنَّ سَفَهًا ، وَلَا تُخْطِئَنَّ فِي طَلَبِ الْآخِرَةِ ، وَلَا تَدْفَعِ الْيَأْمَ عِيَانًا ،  
وَلَا تُقِمِّضَنَّ عَنِ الظَّالِمِ رَهْبَةً مِنْهُ ، أَوْ غَافَةً ، وَلَا تَطْلُبَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ فِي الدُّنْيَا ، وَكَثِيرَ  
مُشَاوَرَةِ الْفُقَهَاءِ ، وَاسْتَعْمِلْ نَفْسَكَ بِالْحِلْمِ ، وَخُذْ عَنِ أَهْلِ التَّجَارِبِ وَذَوِي الْعُقُلِ وَالرَّأْيِ  
وَالْحِكْمَةِ ، وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ أَهْلَ الدَّقَّةِ وَالْبَغْلِ ، وَلَا تَسْمَعْ لِمَنْ قَوْلًا ، فَلَنْ  
ضَرِّهَمُ أَكْثَرَ مِنْ مَنْفَعَتِهِمْ ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَسْرَعَ فُسَادًا لِمَا اسْتَقْبَلَتْ فِي أَمْرِ رَعِيَّتِكَ مِنْ  
الشُّعْخُ ، وَأَعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا كُنْتَ حَرِيصًا ، كُنْتَ كَثِيرَ الْأَخْذِ ، قَلِيلَ الْعَطِيَّةِ ، وَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ  
لَمْ يَسْتَقِمْ لَكَ أَمْرُكَ إِلَّا قَلِيلًا ، فَإِنَّ رَعِيَّتَكَ إِنَّمَا تَعْتَقِدُ عَلَى مَحَبَّتِكَ بِالْكَفِّ عَنِ أَمْوَالِهِمْ ،  
وَتَرْكِ الْجُورِ عَلَيْهِمْ ، وَيَدْوِمُ صَفَاءُ أَوْلِيَاكَ لَكَ ، بِالْإِنْفِصَالِ عَلَيْهِمْ ، وَحَسَنَ الْعَطِيَّةِ لَهُمْ ،  
فَاجْتَنِبِ الشُّعْخَ ، وَأَعْلَمْ أَنَّهُ أَوَّلُ مَا عَصَى بِهِ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ ، وَإِنَّ الْعَاصِيَ بِمِثْلَةِ نَزَرِي ،  
وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، ﴿وَمَنْ يُؤَيِّتْ مَخَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فَسَهِّلْ طَرِيقَ الْجُودِ  
بِالْحَقِّ ، وَاجْعَلْ لِلْسَّامِعِينَ كُلِّهِمْ مِنْ نَيْتِكَ حِظًّا وَنَصيبًا ، وَأَيُّقِنَنَّ أَنَّ الْجُودَ مِنْ أَفْضَلِ أَعْمَالِ  
الْعِبَادِ ، فَأَعِدِدْهُ لِنَفْسِكَ حَقًّا ، وَأَرْضَ بِهِ عَمَلًا وَمَذْهَبًا ، وَتَفَقَّدْ أُمُورَ الْجَنَّةِ فِي دِرَاوِينِهِمْ ،  
وَمَكَاتِبِهِمْ ، وَأَدِرِّرْ عَلَيْهِمْ أَرْزَاقَهُمْ ، وَوَسِّعْ عَلَيْهِمْ فِي مَعَاشِهِمْ ، لِيُكْسِبَ بِذَلِكَ اللَّهُ فَاقَتَهُمْ ،  
وَيَقُومَ لَكَ أَمْرُهُمْ ، وَيَزِيدَ بِهِ قُلُوبَهُمْ فِي طَاعَتِكَ وَأَمْرِكَ ، خُلُوصًا وَإِنْشِرَاحًا ، وَحَسَبُ  
ذِي سُلْطَانٍ مِنَ السَّعَادَةِ ، أَنْ يَكُونَ عَلَى جَنْدِهِ وَرَعِيَّتِهِ ، رَحْمَةٌ فِي عَدْلِهِ وَحِيطَةٌ وَإِنْصَافُهُ  
وَعَنَاتِيهِ ، وَشَفَقَتُهُ وَرَبِّهِ وَتَوَسُّمَتُهُ ، فَرَايِلَ مَكْرِهِ إِحْدَى الْبَلِيَّتَيْنِ ، بِاسْتِشْعَارِ تَكَلُّمَةِ الْبَابِ الْآخِرِ  
وَلِزُومِ الْعَمَلِ بِهِ تَلَقُّى أَنْ شَاءَ اللَّهُ نَجَاحًا وَصِلَاحًا وَفَلَاحًا .

وَأَعْلَمْ أَنَّ الْقَضَاءَ مِنْ اللَّهِ ، بِالْمَكَانِ الَّذِي لَيْسَ مِثْلُهُ شَيْءٌ مِنَ الْأُمُورِ ، لِأَنَّهُ مِيزَانُ اللَّهِ الَّذِي  
تَعْتَدِلُ عَلَيْهِ الْأَحْوَالُ فِي الْأَرْضِ ، وَبِلِقَامَةِ الْمَدَلِّ فِي الْقَضَاءِ وَالْعَمَلِ تَصْلُحُ الرِّعْيَةُ ، وَتُكْوِنُ  
السَّبِيلَ ، وَيَنْصَبُ الْمَظْلُومُ ، وَيَأْخُذُ النَّاسُ حَقُوقَهُمْ ، وَتَحْسُنُ الْمَعِيشَةُ ، وَيُؤَدَّى حَقُّ

الطاعة، ويرزق الله العافية والسلامة، ويقوم الدين، ويجري السنن والشرائع، وعلى مجاريها  
يُنْتَجَزُ الحَقُّ والعدل في القضاء . وأستند في أمر الله ونورع عن التطف وأمض لإقامة  
الحدود، وأقلل المجلة، وأبعد من الضجر والقلق، وأقنع بالقسمة، وتُسَكِّنُ رِيحُكَ،  
وَبَقَرَتِكَ، وانتفع بغيرتك، وانتبه في صمتك، وأسدد في منطقك، وأنصف الخضم،  
وقيف عند الشبهة، وأبلغ في الحجّة، ولا يأخذك في أحد من رعيّتك مُعَابَاةً ولا مُجَامَلَةً،  
ولا لوم لائم، وثبتت وثاق، وراقب وأنظر، وتدبر وتفكر، واعتبر وتواضع لربك، وارأف  
بجميع الرعيّة، وسلط الحق على نفسك، ولا تسرعن الى سفك دم، فإن الدماء من الله يمكن  
عظيم انتهاكها كلها بغير حقها، وأنظر هذا الخراج الذي استقامت عليه الرعيّة، وجعله الله  
للإسلام عزّاً ورفعة، ولأهله سعةً ومَنَمَةً، ولعدوه وعدوهم كِبَناً وغيظاً، ولأهل الكفر  
من معاملتهم ذلّاً وصغاراً، فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية، والعُمرُوم فيه،  
ولا تدعن منه شيئاً عن شريف لشرفه، وعن غنى لغناه، ولا عن كاتب لك، ولا أحد  
من خاصّتك، فلا تأخذن منه، فوق الاحتمال له، ولا تكلفن أمراً فيه شَطَط، وأحل  
الناس كلهم على مَرِّ الحَقِّ، فإن ذلك أجمع لألقيتهم، وألزم لرضى العامة، واعلم أنك جعلت  
برولايتك خازناً وحافظاً، وراعياً، وانما متى أهل عملك رعيّتك، لأنك راعيهم، وقيمهم،  
تأخذ منهم ما أعطوك، من عقومهم ومقدرتهم، وتشفق في قوام أمرهم وصلاحهم،  
وتقوم أودهم، فاستعمل عليهم في كَوْرِ عملك، ذوى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة  
بالعمل، والعلم بالسياسة واللعاف، ووسع عليهم في الرزق، فإن ذلك من الحقوق اللازمة  
لك فيها تقلّدت، وأسند اليك، ولا يشغلنك عنه شاغل، ولا يصيرفك عنه صارف، فإنك  
متى أثرته، وقت فيه بالواجب، استبدعت به زيادة النعمة من ربك، وحسن الأحداث  
في عملك، واستعجرت به المحبة من رعيّتك، وأعنت على الصلاح، فذرت الخيبرات  
ببلدك، وفشت العمارة بناحيستك، وظهر الخصب في كورك، وثرّ خراجك، وتوفرت  
أموالك، وقويت بذلك على ارتباط جنسك، وإرضاء العامة، بإفاضة العطاء فيهم من

نفسك، وكنت محمود السياسة، مَرَضَ الصِّدْقُ فِي ذَلِكَ عِنْدَ عَدُوِّكَ، وَثَبْتُ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا، ذَا عَدْلٍ وَقُوَّةٍ، وَآلَةٌ وَصْدَةٌ، فَنَافِسُ فِي هَذَا، وَلَا تَقْدَمُ عَلَيْهِ شَيْئًا، مُجِدَّ مَغْبَةِ أَمْرِكَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَأَجْعَلُ فِي كُلِّ كُورَةٍ مِنْ عَمَلِكَ أَمِينًا، يُخْبِرُكَ أَخْبَارَ عَمَلِكَ، وَيَكْتُبُ إِلَيْكَ بِسِرِّيَّتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ، حَتَّى كَأَنَّكَ مَعَ كُلِّ عَامِلٍ فِي عَمَلِهِ، مُعَايِنٌ لِأَمْرِهِ كُلِّهِ، وَإِنْ أَرَدْتُ أَنْ تَأْمُرَهُ بِأَمْرٍ، فَانْظُرْ فِي عَوَاقِبِ مَا أَرَدْتُ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنْ رَأَيْتَ السَّلَامَةَ فِيهِ وَالْعَافِيَةَ، وَوَجُودَ فِيهِ حَسَنِ الدِّفَاعِ، وَالتَّصَحُّعِ وَالصَّبْرِ فَامْنُضِهِ، وَإِلَّا تَوَقَّفْ عَنْهُ، وَارْجِعْ أَهْلَ الْبَصَرِ وَالْعِلْمِ، ثُمَّ خُذْ فِيهِ عُدَّتَهُ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا نَظَرَ الرَّجُلُ فِي أَمْرٍ مِنْ أَمْرِهِ، قَدْ وَاتَاهُ عَلَى مَا يَهْوَى، فَتَقَوَّاهُ عَلَى ذَلِكَ وَاعْتَجَبَهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْظُرْ فِي عَوَاقِبِهِ أَهْلَكَهُ، وَيَقْبُضُ عَلَيْهِ أَمْرُهُ، فَاسْتَعْمِلِ الْحَزْمَ فِي كُلِّ مَا أَرَدْتُ وَبَاشِرُهُ بَعْدَ عَوْنِ اللَّهِ بِالْقُوَّةِ، وَاكْثِرِ اسْتِخَارَةَ رَبِّكَ، فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ، وَأَفْرَغْ مِنْ عَمَلِ يَوْمِكَ، وَلَا تُؤَخِّرْ لِنَفْسِكَ، وَاكْثِرِ مِبَاشَرَتِهِ بِنَفْسِكَ، فَإِنْ لَغِثَ أُمُورًا وَحَوَادِثُ تُهْلِكُكَ عَنْ عَمَلِ يَوْمِكَ الَّذِي أَتَرْتُ، وَأَعْلَمُ أَنَّ الْيَوْمَ إِذَا مَضَى ذَهَبَ بِمَا فِيهِ، وَإِذَا أَتَرْتَ عَمَلَهُ أَجْتَمَعَ عَلَيْكَ أَمْرَ يَوْمَيْنِ، فَشَغْلَكَ ذَلِكَ حَتَّى تُعْرِضَ عَنْهُ، فَإِذَا أَمَضَيْتَ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ، أَرَحْتَ نَفْسَكَ وَبَذَلْتَ، وَأَحْكَمْتَ أُمُورَ سُلْطَانِكَ، وَانْظُرْ أَحْرَارَ النَّاسِ وَذَوِي الشَّرَفِ مِنْهُمْ، ثُمَّ اسْتَبِقْنِ صِفَاءَ طَوَيْتِهِمْ، وَتَهْذِيبَ مَوَدَّتِهِمْ لَكَ، وَمُظَاهَرَتِهِمْ بِالتَّصَحُّعِ وَالْحَافِظَةِ عَلَى أَمْرِكَ، فَاسْتَخْلِصْهُمْ، وَأَحْسِنِ إِلَيْهِمْ، وَتَعَاهَدْ أَهْلَ الْبُيُوتَاتِ مَنْ قَدْ دَخَلَ عَلَيْهِمُ الْحَاجَةُ، فَاحْتَمِلْ مُؤَوِّدَتِهِمْ وَأَصْلَاحَ حَالِهِمْ، حَتَّى لَا يَجِدُوا نَظْمَتَهُمْ مَسًّا، وَأَفْرِدْ نَفْسَكَ لِلنَّظَرِ فِي أُمُورِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، وَمَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى رَفْعِ مَقَالَتِهِ إِلَيْكَ، وَالْمَحْتَقِرَ الَّذِي لَا عِلْمَ لَهُ بِطَلَبِ حَقِّهِ، فَامْسَأَلْ عَنْهُ أَخْفَى مَسْأَلَةٍ، وَوَكِّلْ بِأَمْتَالِهِ أَهْلَ الصَّلَاحِ مِنْ رَعِيَّتِكَ، وَصَرِّحْ بِرَفْعِ حَوَائِجِهِمْ وَحَالَاتِهِمْ إِلَيْكَ، لِنَظَرِنَاهَا بِمَا يَصْلُحُ اللَّهُ بِهِ أَمْرَهُمْ، وَتَعَاهَدْ ذَوِي الْبِأْسَاءِ وَتَبَائِلَهُمْ وَأَرْزَاقَهُمْ، وَاجْعَلْ لَهُمْ أَرْزَاقًا مِنْ بَيْتِ الْمَالِ اقْتَدَاءً بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَهْلِهِ اللَّهُ فِي الْعَطْفِ عَلَيْهِمْ وَالصَّلَةِ لَهُمْ، لِيُصْلِحَ اللَّهُ بِذَلِكَ عَيْشَهُمْ، وَيَرْزُقَكَ بِهِ بَرَكَهَ وَزِيَادَةً، وَأَجْرًا لِلْأَمْوَالِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ، وَقَدَّمَ حِمْلَهُ

القرآن منهم، والحافظين لأحكامه، في الحراية على غيرهم، وأنصّب لمرضئ المساكين دوراً  
تؤويهم، وقواماً يرفقون بهم، وأطباء يعالجون أسقامهم، وأسعفهم يشعّونهم، ما لم يؤد ذلك  
إلى سرف في بيت المال، وأعلم أن الناس إذا أُعطوا حقوقهم، وأفضل أمانيتهم لم يرضهم  
ذلك، ولم تطب أنفسهم، دون رفع حوائجهم إلى ولاتهم؛ طمعا في نيل الزيادة، وفضل  
الرفق منهم، وربما يرم المتصفح لأمر الناس لكثرة ما يرد عليه، ويشغل فكره وذهنه، ومنها  
ما يناله به مؤونة ومشقة، وليس من يرضى في العدل ويعرف محاسن أموره في العاجل  
وفضل ثواب الآجل، كالذي يستقبل ما يقربه إلى الله، ويتمسرح به، وأكثر الإذن  
للناس عليك، وأبرز لهم وجهك، وسكن لهم أحراسك، وأخفّض لهم جناحك، وأظهر لهم  
بشرک، وإن لم في المسألة والمنطق، وأعطف عليهم بمودك وفضلک، وإذا أعطيت فأعط  
بساحة وطيب نفس، وأتمس الصنيعة والأجر، غير مكدر ولا متأن، فإن العطية على ذلك  
تجارة مريضة أن شاء الله، وأعتبر بما ترى من أمور الدنيا، ومن معنى من قبلك، من أهل  
السلطان والرياسة، في القرون الخالية والأهم البائدة، ثم اعتصم في أحوالك كلها بأمر الله،  
والوقوف عند محبته، والعمل بشريعته وسننه وإقامة دينه وكتابه، واجتنب ما فارق ذلك  
وخالفه، ودعا إلى تحفظ الله، وأعرف ما يجمع عمالك من الأموال، وينفقون منها،  
ولا يجمع حراما، ولا تنفق إسرافا، وأكثر مجالسة العلماء، ومشاورتهم ونحاطتهم، ولكن  
هواك اتباع السنن وإقامتها، وإبتار مكارم الأمور ومعالها، ولكن أكرم دُخلائك وخاصتك  
عليك من إذا رأى عينا فيك لم تمنعه هيتك من إنباء ذلك اليك، في مير، وإعلامك  
ما فيه من النقص، فإن أولئك أنصيح أوليائك ومُظاهريك، وأنظر عمالك الذين يحضرتك،  
وكتّابك فوقك لئلا رجل منهم في كل يوم وقتا يدخل عليك فيه بكتبه ومؤامراته  
وما عنده من حوائج عمالك وأمر كورك ورعتك، ثم فرغ لما يورده عليك من ذلك  
سمك وبسرك، وفهمك وعقلك، وكرّر النظر اليه والتدبير له، فما كان موافقا لمزج والحق  
فامضه وأسخر الله فيه، وما كان مخالفا لذلك فاصرفه إلى التنبه فيه والمسألة عنه،

ولا تمنن على وعيتك ولا على غيرهم بمعروف تأتيه اليهم ، ولا تقبل من أحد منهم إلا  
 الوفاء والاستقامة والعون في أمور أمير المؤمنين ، ولا تضع المعروف إلا على ذلك ،  
 وتفهم كتابي اليك ، وأكثر النظر فيه ، والعمل به ، واستعن بالله على جميع أمورك واستخره ،  
 فإن الله مع الصالح وأهله ، وليكن أعظم سيرتك ، وأفضل رغبتك ، ما كان لله رضا ،  
 ولدينه نظاما ، ولأهله عزّا وتمكينا ، ولذمة وآلة عدلا وصلاحا ، وأنا أسأل الله أن يحسن  
 عونك وتوفيقك ، ورشدك وكلامك ، وأن يزل عليك فضله ورحمته ، بتمام فضله عليك ،  
 وكرامته لك ، حتى يجعلك أفضل أمثالك نصيبا ، وأوفرهم حظا ، وأسنانهم ذكرا وأمرأ ، وأن  
 يهلك عدوك ومن تأواك ونفى عليك ، ويرزقك من رعتك العافية ، ويمحز الشيطان  
 عنك ويواسوه ، حتى يستعلى أمرك بالعمز والقوة والتوفيق ، إنه قريب مجيب .

## (د) رسالة الخليس

من عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين، الى المبشرين على الحق، والناصرين للدين،  
من أهل خراسان وغيرهم من أهل الإسلام : سلام عليكم ، فإن أمير المؤمنين يتوحد اليكم  
الله الذي لا إله إلا هو ، ويسأله أن يُصلّي على عهد عبده ورسوله .

أما بعد ، فالحمد لله القادر القاهر ، الباعث الوارث ، ذى العزم والسلطان ، والنور  
والبرهان ، فاطر السموات والأرض وما بينهما ، والمتقدم بالحق والحقول على أهلها ، قبل  
استحقاقهم لثوابه ، بالمحافظة على شرائع طاعته ، الذى جعل ما أودع عباده من نعمته ، دليلا  
هاديا لهم الى معرفته ، بما أفادهم من الأبواب ، التى يفهمون بها فصل الخطاب ، حتى اقتنوا  
علم موارد الاختبار ، وثقفوا مصادر الاعتبار ، وحكوا على ما بطن بما ظهر ، وعلى ما غاب بما  
حضر ، وأستدلوا بما أراه من بالغ حكمته ، ومثقفين صنعته ، وحاجة متزائل خلقه ومتواصله ،  
الى القوم بما يلمه ويصائبه ، على أن له بارئاً أنشأه وأبتدأه ، ويسر بعضه لبعض . فكان  
من أقرب وجودهم ، ما يباشرون به من أنفسهم فى تصرف أحوالهم ، وفنون انتقامهم ،  
وما يظهرون عليه من المعجز عن التأتى لما تكاملت به قواهم ، وتمت به أدواتهم ، مع أثر  
تدبير الله عن وجل وتقديره فيهم ، حتى صاروا الى انطلقته المحركة ، والذرة المعجبة ،  
ليس لهم فى شئ منها تَلَطَّف يَحْمُونُهُ ، ولا مَقْصِدٌ يَعْتَمِدُونَهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، فإنه قال تعالى  
ذِكْرُهُ : ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ رَبَّكَ بِالْكَرِيمِ الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَىْ صُورَةٍ مَّا  
شَاءَ رَبُّكَ﴾ . ثم ما يتفكرون فيه من خلق السموات ، وما يحيرى فيها من الشمس والقمر  
والنجوم مسجرات ، على مسير لا يثبت العالم إلا به من تصاريف الأزمنة التى بها صلاح  
الحَرْث والبلل ، وإحياء الأرض ، ولفاح النبات والأشجار ، وتعاور الليل والنهار ، وحر الأيام  
والشهور والسنين التى تُحْصَى بها الأوقات ، ثم ما يوجد من دلائل التركيب فى طبقات  
السقف المرفوع ، والمهاد الموضوع ، باختلاف أجزائه وأكتافها ، ونحو الأنهار وإرساء

الجبال . ومن الباطن الشاهد ما أخبر الله عز وجل به من إنشائه الخلق ، وحدوثه بعد أن لم يكن متقرباً في النساء ، وثباته إلى أجله في البقاء ، ثم تحاره مُنْقِصاً إلى غاية الفناء . ولولم يكن له مُقْتَضَحٌ عدد ولا مُنْقَطَعٌ أمد ، ما أزداد ينشوء ، ولا تَحْقِيقُهُ نقصان ، ولا تفاوت على الأزمان ؛ لأَنَّهُ ما لا حد له ولا نهاية ، فبِمُمكن الاحتمال للنقص والزيادة . ثم ما يوجد عليه منفعة من ثبات بعضه لبعض ، وقوام كل شيء منه بما يستره ، فيبده استبداده إلى منتهى نفاذه ؛ كما أحتج الله عز وجل على خلقه ، فقال : ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ كُلُّ مِّنْ عَلَيْنَا فَاَن يَشَاءُ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْبَلَدَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ . وكل ما تقدم من الأخبار عن آيات الله عز وجل ودلالاته في سمواته التي بطن ، وأطباق الأرض التي دحا ، وآثار صنعه فيها براً وذكراً ، ثابت في فطر العقول ، حتى يستحضر أولى الزينغ ما يدخلون على أنفسهم من الشبهة فيما يعملون له من الأُستداد والانداد . جل عما يُشركون . ولولا توحيده بالتدبير ، عن كل معين وظهير ، لكان الشركاء جُدراء أن تختلف بهم إرادتهم فيما يخلفون ، ولم يكن الخلف في إثباته وإزالته ليخلو من أحد وجهيه ، وأيهما كان فيه فالعجز والنقص مما آناه وبرأه . جل البديع خالق الخلق ومالك الأمر عن ذلك وتعالى طواً كبيراً ؛ كما قال سبحانه : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ . ثم من عظيم نعمة الله عز وجل على خلقه آفتاده إياهم ، وأنه يستددهم ويُدِّهم على منافعهم ، ويحببهم مضارهم ، ويهديهم لما فيه صلاحهم ، ويرغبهم في المحافظة على التمسك بدين الله عز وجل ، الذي جملة عصمة لهم وحاجراً بينهم .

ولولا ما تقدم به من تلافهم واستدراكهم بفضل رحمة ، لاجتاحهم التلف ، لتقصرو معرفتهم عن التأنى لأقواتهم ومعاينتهم ، ولم يكونوا ليقصروا على حفظهم وأقسامهم عما بنوا عليه من الجمع والرغبة ، ولتألكوا ابني بعضهم على بعض ، وعدوان قويمهم على ضعفهم ، ولكنته بعد تعرضه إياهم مُلك قدرته وجلالة عزته ، بعث إليهم أنبياء ورسله مبشرين ومنذرين ،

بِالآيَاتِ الَّتِي لَا تَنَالُهَا أَيْدِي الْخَالِقِينَ ، فَرَضُوا بِمَا قُصِّطَ بَيْنَهُمْ ، وَارْتَدَعُوا عَنِ التَّبَاغِي وَالْتِغَالُمِ ،  
لَمْ يُعْدُوا مِنْ الذُّوَابِ الْجَسِيمِ وَخُوفُوا مِنَ الْعِقَابِ الْإِيمِ ؛ وَلَمْ يَكُونُوا لِيُطْعِمُوا أَمْرًا  
لِأَمْرٍ وَلَا نَهْيًا لِنَهْيٍ ، إِلَّا بِحُجَّةٍ يَبِينُ بِهَا الْحَقُّ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ مِنَ الْمُبْطِلِينَ ، وَتَخْوِيفٍ  
يَتَّقُونَ بِهِ مُقَارَفَةً مَا حُرِّمَ عَلَيْهِمْ ، وَرِجَاءٍ يَحْتَسِمُونَ لَهُ مَوْثِقَةً مَا تُعْبَدُوا بِهِ . فَانْتَفَحَ اللَّهُ عَنْ  
وَجَلِّ بِأَيُّهِمْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَعَمَّنَهُ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لَهُ -  
سُجَا الْقَنَصِ فِي وَحْيِهِ الْمَنْزِلِ - وَكَرَّمَ وَلَدَهُ وَفَضَّلَهُمْ ، فَقَالَ جَلِّ وَعِزِّ : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ  
وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوُجُوهِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ .  
وَجَعَلَ مَا قَطَرَهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْعَطْفِ عَلَى ذُرِّيَّتِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ سَبِيلًا لِمَا أَرَادَ مِنْ بَقَائِهِمْ وَتَسْلِيمِهِمْ ،  
وَمَا أَخَصَّصَهُمْ بِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْفَهْمِ حُجَّةً عَلَيْهِمْ ، لِيَتَّبِعِينَ طَاعَتَهُمْ ، وَيَبْجُوهُمْ أَهْلُهُمْ أَحْسَنُ  
عَمَلًا . وَلَمْ تَزَلْ رُسُلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى خَلْقِهِ تَتَرَى بِالنُّورِ السَّاطِعِ ، وَالْبَرْهَانِ الْقَاطِعِ ،  
لَا يَجِدُونَ لِمَا يُورِدُونَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْحَقِّ الْقَاهِرِ مَرَدًّا وَلَا مَدَقَمًا ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ :  
﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ بِآيَاتِنَا فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ  
حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . فَلَمْ يَجِدِ الْمَكِيدُونَ مَسَاغًا إِلَى دَفْعِ مَا أَقِيمَ عَلَيْهِمْ مِنْ لَازِمِ الْحُجَّةِ ،  
إِلَّا الْمَعَانِدَةَ وَالْمُجَاهِدَةَ . وَكَانَ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، يُعْتَمَدُونَ فِي أَعْصَارِ الْخَلْقِ ،  
تُذَرُّ لِلْأَمَمِ ، حَتَّى خَتَمَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالنَّبِيِّ الْأُمِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فِيهِمَّةٌ فَرْدًا  
وَحِيدًا لَا طَاضِدَ لَهُ وَلَا رَافِدَ ، إِلَى قَوْمٍ يَعْبُدُونَ أَصْنَامًا بِجَهْلٍ ، وَجِهَارَةً صَمًّا ، فَكُتِبَ بِهِ  
الْقَوْمُ الَّذِينَ يُبْثُ فِيهِمْ أَوَّلُ مَا دَعَاهُمْ ، وَرَامَهُ مَوْلُكُ أَقْطَارِ الْبِلَادِ بِتَوْجِيهِ الْأَجْنَادِ ،  
وَمُرَافِقَةِ الْقِسْوَةِ وَالْمَتَادِ وَبِفِي الْفُتُوائلِ ، وَنَصَبِ الْحِبَالِ ، وَهُوَ يَدْعُو إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ  
بِمَا أَمَرَهُ بِهِ ، إِذْ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُجَّةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ  
بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ . ثُمَّ جَاهَدَ بَيْنَ أَطَاعَةِ مَنْ عَصَاهُ ، وَبَيْنَ اتِّبَاعِهِ مَنْ خَالَفَهُ ، حَتَّى  
أَمَرَ اللَّهُ كَلِمَتَهُ ، وَأَظْهَرَ دَعْوَتَهُ ، وَأَكَلَى لِعِبَادِهِ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ . فَلَمَّا آخَتَرَ اللَّهُ لَهُ  
مَا لَدَيْهِ ، وَأَخْتَصَّ بِهِ عَنْدهُ : مِنَ التَّعْيِينِ الْمُقِيمِ ، وَالْجَزَاءِ الْكَرِيمِ ، بَعْدَ اسْتِقَامَةِ الدِّينِ



ودخول الناس فيه أفواجا، خلفه، إذ حتم به الأنبياء، بالبررة النجاء من أذانيه ومُحمته، لإقامة الشرائع المُفترضة، وإنفاذ حكم الله المنزل، وأقفاء السنة الماثورة وحفظها له في قرابته ومحبي دعوته، وإتماما لما أوجب له من الفضيلة، وقريب الوسيلة، وإنجازا لما وعده من إظهار ما بعثه به، من دينه الذي أصطفاه وأرتضاه. وكان اختيار أولى الفضل من مُحمته وعصبته لإرث خلافة، ومن عظيم الزلف التي رغب إلى الله فيها أنبياءه، وبما أقص في منزل وحيه، وأخص تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بما أمره به من مسألة أمته تصيير مودته في القربى جزاءه من تبعه على الرسالة، وهداه من الضلالة، فكانت فضيلتهم عزيمته من الله عز وجل، دون طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ألزمه تأديته إلى خلفه وألزمهم أدائه، فقال عز وجل: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾. ودل بما أخبر به وأظهره من تطهيره لياهم وإنهاؤه للرجس عنهم، على أصطفائه لهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. وكان مما أوجب لهم به حق الوثابة في حكم تنزيه قوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾. ثم قرن طاعتهم بطاعته، فقال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾. وأحلهم من النباهة والصبت بالمحل الذي أعل به أمرهم ورفع به ذكركم، لما أحب من التبيين في الدلالة عليهم، والهداية إليهم، فإنه يقول عز وجل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾. ولو كان الأمة المقلدون أمر عباده خاملة أنسابهم، منقطعة أسباطهم، غير مخصوصين بفضيلة يرتزهم بها دون غيرهم، لم تعد طليقتهم عقد خلافة لهم، وأن تكون من المُفترضات على كافة الأمة، أو على بعض دون بعض، فإن كان لأهل الشرق والغرب من ذوى النقص والكمال أن يختاروا لأنفسهم، فليس في اجتماع آرائهم مع تفردهم واختلافهم طمع آخر أيام الدهر. وإن كان إلى خاصية دون عامة، فستحتاج العامة من طلب معرفة تلك الحال إلى مثل ما احتاجوا إليه في أئمتهم، إذ لم يكن أهل الأرتباب والطلب من أعلام الآفاق ليتواطسوا على اتفاق،

لنفاذ آجالهم قبل بلوغهم غاية الاجتهاد في الفحص والتكشيف، وحاجتهم الى اختبار البلدان، وتمحيص أولى الفضائل بالاحتحان، وما هو حاق عليهم من الشبه في اختيارهم، والاختلاف فيمن عَسُوا أن يَحْبُوهُ وَيُقَدِّمُوهُ، حتى تهالك الرعية بتظالمها بينها، وَيَطْرُق من يليها من الأمم لِيَأْهَا؛ إذ لا ذائد عنها ولا مُحَامَى. فإذا أُلْزِمَت الْأَنَسَةُ الْحَاجَةُ إِلَى نَصَب الْحُكَّام لإقامة الدين، وتقسيط الحقوق من المسلمين، ومجاهدة عدوهم من المشركين، لم يكن لهم في الإمام عليهم تحازُّزٌ إلى التخلص من حقه إليهم، ولا ريب عند المعرفة برأفة الله ورحمته، ولطفه وحكمه، في دفعه عن عباد ما لم يجعل في حيلتهم له وسعاً، ولا في حيلتهم له تدركاً، وكفايته إياهم ما يُعْجِزُهُم من البحث والتنقيب عن ولاية أمرهم، بَنَصْبِهِ إياهم، وما دفعهم إليه من الدرجة التي أعلاها وأسناها، إذ وصل نسبهم برسول الله صلى الله عليه وسلم، وأقرض مودتهم على خلقه، ولم يَنْسِبْهُمْ جَهْلُهُمْ للغرض الذي لزمهم له، ولم يَجِبْ عليهم فرضٌ في معرفة من سواهم. ولم يزل سياقُ أئمة الهدى مُطَّرداً، ونظامهم مُتَّصلاً، بتلقاه كبار عن كبار، ويؤدِّيه أول إلى آخر، حتى تناسل الى أمير المؤمنين، وهو حال دار دعوته، وبين أنصاره من أهل ثراسان، فنظر به خيرهم، وعرفوا ما تصرفت به أحوالهم، وظهر لهم من بيان محبته على من نازعه في الأمر، وشاهدوا من إبلاعه في العذر، واستظهاره بالتأني والصبر، ما أراح عنهم الشبهة وكشط الحيرة، حتى استأثروا<sup>(١)</sup> بنوَصَه بحقه، وخافوا الزيف على أديانهم فيما أعطوه من صفة أعانهم، وهو ماض على عادته، مستديم للوادة، متلوم على المراجعة، بالغ غاية ما في وسعه من الرخصة في دفع الولاية التي نَهَتْهَا الرعية، حتى ضاق عليه في دينه ترك القيام بما أنهضه الله به من ثقلها وقلة من حملها، وخاف المخلوع فانبعث بالشر والفرقة، فتناول أولياء الحق باغيا طاعيا، لما أراد الله من تأييدهم عليه بالبيان والتمجيد التي يجب لها قلبه، ويثبت بها في عضده، ويقبل الله ما شرفكم به من النصر والغلبة فيه التي جعلها الله للثنين. فانجمت

لكم معشر أهل نُرَاسان في دولة أمير المؤمنين ثلاثَ حِلَالٍ أَخَصَّصَ اللهُ بِفَضِيلَتِهَا، وَمُنَى مِرَاتِبِهَا، دُونَ ثَلَاثِ شَبَقَاتِكُمْ وَضَرْكِكُمْ .

أما الأولى من اللواتي خَصَّصَ اللهُ بِهِنَّ، فإِتَقَدَّمُ لِأَسْلَافِكُمْ مِنْ نُصْرَةِ أَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ، وَالْقَائِمِينَ بِمِرَاتِبِهِ مِنْ آبَاءِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

وأما الثانية، فَمَا أَتَرَكُمُ اللهُ بِهِ مِنْ نُصْرَتِهِ فِي دَعْوَتِهِ الثَّانِيَةِ .

وأما الثالثة، فَمَا تَهْتَدِمُ بِهِ مِنْ صَحَّةِ ضَمَائِكُمْ، وَمَحْضِ مُنَاصَحَتِكُمْ .

وأما الثلاث اللواتي هُنَّ لَكُمْ وَلِغَيْرِكُمْ :

فَهِنَّ مَا أَتَى اللهُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَصْنَاقِ الْمُسْلِمِينَ : مِنْ الْمَهْدِ الَّذِي أَخْذَ إِصْرَهُ، وَأَهْلَهُمُ الْوَفَاءَ بِهِ وَالْقَسَاكَ بَوَالِقِي عَصِمَتِهِ، عِنْدَ مَحَاوِلَةِ الْمُخَالُوعِ بِأَحَاوِلِ مِنَ الْإِعْلَانِ بِالرَّدَّةِ، وَاتِّمَاسِ مِنْ تَبْدِيلِ مَعَالِمِ الدِّينِ وَتَغْفِيَةِ آثَارِهِ ، فَلَمْ يُلَفِّ الرِّجَةَ سُدًى مَهْمَلِينَ، لَا جَامِعَ لِأَصْرِهِمْ، وَلَا ضَامًّا لثَرَمِهِمْ .

وَمِنْهُنَّ مَا أَفَادَكُمْ اللهُ وَإِيَّاهُمْ مِنَ الْغَيْرِ، عِنْدَ حُلُولِ الْغَيْرِ بَيْنَ غَدَرٍ وَخَرٍّ، تَذَكُّرَةَ لِأَوَّلَى النَّبِيِّ، وَحِجَّةَ بِالْغَنَةِ عَلَى مَنْ أَدْبَرُوتُوا، لِيَهْتَدِيَ مَنَاصِيرُ وَيَتَغَيَّظَ مُزْدَجِرُ، ( وَيُحِصِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيُخَيِّقَ الْكَافِرِينَ ) . وَمِنْهُنَّ أَجْتِمَاعُ أَهْلِ الْفَضْلِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ : مِمَّنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ نَصْرٌ وَلَا أَزْرٌ فِي الدَّعْوَةِ الْأَوَّلَى عَلَى الْمَشَايِصَةِ فِي الدَّعْوَةِ الثَّانِيَةِ، فَاصْبَحَ دُعَاةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ الْحَرَمَيْنِ وَالْمَصْرَيْنِ وَمَدِينَةِ السَّلَامِ وَالْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ مِنْ غَارٍ أَوْ أَمْجَدٍ مِنَ الْمُتَمَسِّكِينَ بِذَمِّهِمْ الْمُؤَفِّينَ بِسُنْدُورِهِمْ، مِنْ إِخْوَانِكُمْ، وَإِنْ كَانَ اللهُ قَدْ قَتَلَكُمْ فِي الْأَصْرَيْنِ جَمِيعًا بِتَفَوُّقِ حَالِكٍ عَلَى غَيْرِكُمْ، يَتَذَكَّرُونَ مِنْ مَعَاضِدَتِكُمْ وَمِكَائِلَتِكُمْ بِمَا جَعَلَهُ اللهُ عِزًّا وَجَلَّ أَلْفَةً لَكُمْ وَمَوَدَّةً بَيْنَكُمْ، يَبِيدُهَا مَا كَانَ الشَّيْطَانُ يَتَرَعَّ بِه بَيْنَ أَهْلِ التَّبَاعِدِ فِي الْأَنْسَابِ، وَالتَّنَائِي فِي الْأَوْطَانِ مِنْ إِقْطَاعِ الْعِدَاوَةِ وَالْبِقْضَاءِ، وَالْإِنْطِواءِ عَلَى الْأَحْقَادِ وَالذَّمِّ، وَطَلْبِ تَهْدِيمِ الْإِخْنِ، وَصَارَ أَهْلُ السَّمَوِّ إِلَى الدَّرَجَةِ الْعُلْيَا وَالْإِعْتِصَامِ بِالرُّوَّةِ الْوُفْقِ مِنْ أَوْلِيَاءِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَشُعَبَتِهِ، مَنْشُرَةً صُدُورَهُمْ بِمِكَائِلَتِهِ، مُنْبَسِطَةً أَيْدِيَهُمْ بِمُجَاوَنَتِهِ عَلَى حَقِّهِ،

منفسحة آمالهم في إذكاء ناره على عدوه والإثخاف في بلاده وأفتاح ممتنع حصونه ، بما جمعهم الله عليه من الألفة ، ورفع عنهم من الحمية والعصبية ، راجين عودتهم الى أحسن ماضى عليه سلفهم ، في عهد نبيه صلى الله عليه وسلم ، من سلامة الصدور ، وصلاح ذات الدين ، واجتماع القوى على مجاهدة من شاقهم ، قد أفرد الله عنهم نفرة التحارب والتجاذب ، وجعل ما كان يسعى به بعضهم من الإعداد لبعض ، زيادة في ريمهم ، وحداً في شوكتهم ، لائتلافهم في دولة أمير المؤمنين المجددة المؤيدة بصدق الضائر ، ونفاذ البصائر . وإلى الله يرضب أمير المؤمنين في إعانتة على صالح نيته ، وتبليغه منتهى سؤاله وغاية همته ، في اعزاز دينه وإذلال من صده عن سبيله ، إنه سميع قريب .

ومن أقوى الأسباب إلى استدعاء الشكر على النعمة تذكر ما كانت عليه الحال قبلها ، فاستديموا الإفاضة فيما رفع الله من خاساتكم وأعطى من أقداركم ، بنصرة أهل بيت نبيكم صلى الله عليه وسلم ، وما أباككم الله في الدعوة الأولى مما لا يؤدى حقه إلا بعون الله وتوقيفه ، فإنه ارتاح لم يطفه وتوقيفه ، فأنا لم رغائب الأقسام وسنى الخطوات ، ورفع درجاتهم . ودرج خلوهم وأحقابهم من بعدهم ، بعد إذ هم مستضعفون يخافون أن يخطئهم الناس ، مدعون يقهر صدوقهم واستثنائه عليهم ، ثم لم يلبثوا أن صاروا الى الحال التي يرونهم بها من الغفلة والبهجة ، إلا أنهم أخذوها بحقها ، وكانت في أيدي الظلمة من أهل بيت اللعنة وأتباعهم بحسبه الباطل وحنة الابتلاء ، ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ . وليس أحد منكم بخارج من المحنة بما أُلِيس من النعمة ، وإن كنتم أهلها الآخذين لها بحقها ، بل الذى يلزمكم استدامتها والقيام بحفظها ، على حسب ما أولاكم الله منها ، فربما كان الذى يُغيب أهلها من الغفلة والاعتقار ويُلهيهم بها من حبورها وسرورها ، أعظم إنما وهو بما يخاف على أهل البطالة والصبر من ضعف العزم وقلة الصبر ، لما يستولى عليهم من استكانة الدلة ، والاعتقار بالتقصير ، والفرع الى ربهم في تنفيس كُرهِم ، فإنه

تبارك وتعالى قد وصف أهل الطبقتين فقال : ﴿ وَإِنَّا نَعْتَمِدُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَهْرَضَ وَتَائِي  
يَحَابِيهِ وَإِذَا مَسَّهُ التَّرْفُودُ دَعَا عَرِيضِيًّا ۚ فَمَا جَعَلْنَا إِذَا أُنْجِيَ اللَّهُ سَمِيْعًا وَأَطْعَمَكُمْ بِطَلْقَتِكُمْ ،  
إِلَى حِيَاطَةٍ مَا أَوْدَعَكُمْ اللَّهُ مِنْ مَنَّتِهِ وَرَأْسَةً مَا آتَاكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، بِالشُّكْرِ الْفَتْرَى لَزِيدٌ .  
فَعَمَّهَدُوا مَعْشَرَ شَيْعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَكُمْ بِتَذَكُّرٍ مَا سَهَّلَ أ - لَكُمْ مِنَ الْحَزُونَةِ ، وَذَلَّلَ لَكُمْ  
مِنَ الصُّعُوبَةِ ، وَحَكَّمَ لَكُمْ بِهِ مِنَ النَّصْرِ ، عَلَى مُرَاقِ الْمَلَةِ وَمُخَالَفِي أَهْلِ الْقَلْبَةِ ، وَأَبَاحَكُمْ  
مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، فَاصْبَحْتُمْ بَيْنَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ حُمَاةَ الدِّينِ ، وَأَنْصَارَ الْأَئِمَّةِ الرَّاشِدِينَ ، وَحَصُونَةَ  
كَافَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، بَعْدَ مَا اجْتَنَّتْ اللَّهُ بِكُمْ قُرُوفَ الْغَاقِ ، وَأَبَادَ بِكُمْ صَنَائِدَ الضَّلَالَةِ ، وَشَرَّدَ مِنْ  
لَمْ تَسْتَحْمِلْهُ سِيُوفُكُمْ ، وَأَضْرَعَ إِلَيْكُمْ مَنْ أَدْعَى وَأَسْتَسْلِمَ ، وَقَدْ اسْتَشْرِفَكُمْ مَعْشَرَ شَيْعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ  
أَهْلُ الشَّكَّانِ ، وَلَا حَظَّ لَكُمْ بِأَعْيُنِ الْحَسَدِ وَالْمَافَسَةِ ، فَبَيْنَ ذَلِكَ بُجْهِرٌ مُعَالِيٌّ ، وَمُسْتَسَّرٌ مَدَاهِنٌ ،  
وِدَاخِلٌ فِي عِدَادِكُمْ ، وَوَالِجٌ فِي سَوَادِكُمْ ، يَرَى أَمْنَهُ بَيْنَ ظُهُورِكُمْ ، فَطَعَهُ عَلَيْكُمْ فِي دُونِكُمْ  
بِرِيْسَةِ التَّوْبَةِ وَخُدْعِ التَّشْبِيهِ ، أَيْسَرُ عَلَيْهِ كُفَّةٌ وَأَعْظَمُ فَيْكُمُ خِرَابٌ وَنِكَايَةٌ ، فَتَوْفَقُوا هَذِهِ  
الطَّبَقَةَ أَشَدَّ التَّوَقُّ ، فَإِنَّ أَكْثَرَ مَنْ يَلْبِغُ إِلَى اسْتِبَاحَةِ الْحِيلَةِ ، مَنْ عَزَّزَ عَنِ الْمُبَادَاةِ وَالْإِصْحَارِ ،  
وَعِنْدَ ظُهُورِ الْحَازِمِ وَظُلُمَتِهِ يَحْتَرِزُ مِنْ لَطِيفِ الْخُدْعِ وَخَفَى الْاسْتِدْرَاجِ .

وَأَحْذَرُوا مَعْشَرَ شَيْعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ اسْتِمْرَاءِ الطَّرَاهَةِ ، وَالرُّكُونِ إِلَى رَاحَةِ الدَّمَةِ مَا قَدْ  
رَأَيْتُمْ وَبَالَهُ عَادَ عَلَى أَهْلِهِ ، وَأَوْرَثَتْهُمْ عَوَاقِبُهُ طَوْلَ النَّدَمِ وَالْحَسْرَةِ ، فَإِنَّكُمْ قَدْ كُنْتُمْ فِي حَالِ الْمَرَاغِبَةِ  
لِعَدُوِّكُمْ ، وَانْطَرَفَ لِبَاقَتِهِ مُتَقِظِينَ مُتَحَفِّظِينَ لِمَا كَانَ يَرُومُكُمْ بِهِ مِنْ خُتْلِهِ وَجِلِهِ ، ثُمَّ أَفْضَيْتُمْ  
إِلَى الْخِيَةِ وَقَدْ جَهَدْتُمْ السَّيِّئَ وَمَسَّكُمْ النَّصَبُ ، وَسَلَّطَى الشَّيْطَانُ فِي أَمَانِيكُمْ أَنْ قَدْ اكْتَفَيْتُمْ  
بِمُسَالَفٍ مَا قَاسَيْتُمْ ، وَيَجِدُ مِنْ ضَعْفِ الْعَزَائِمِ مُعِينًا دَاعِيًا إِلَى اعْتِنَامِ الْخَفَضِ ، وَالْإِخْلَادِ  
إِلَى الْأَرْضِ ، مَا لَمْ تَعْتَصِمُوا بِمَا عَالَيْتُمْ مِنَ الْإِعْتِبَارِ ، وَتَمَثَّلُوا مَوَاضِيَ الْأَثَارِ فَيَنْ سَلَفَ مِنْ  
الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ ، وَمَا أَفْضَتْ بِهِ إِلَيْهِ الْعَزَّةُ مِنْ زَوَالِ النِّعَمِ وَوُقُوعِ النِّعْرِ ، فَإِنَّكُمْ جَمِيعٌ مَا خَوَّلَكُمْ  
اللَّهُ وَأَفَادَكُمْ مُرَبِّينَ بِمَا أَرْزَمَكُمْ مِنْ حِيَاطَتِهِ وَاسْتِنَائَتِهِ ، فَقَدْ وَجِبَتْ عَلَيْكُمْ الْحُجَّةُ بِمَا نَحَضَّكُمْ اللَّهُ

عليه ، وعظمت عليكم المنة بما هذاكم اليه ، وأراكم من آياته ومثلاته فيمن خلا قبلكم ما فيه أبلغ الإنذار والإنذار لكم . ومن أجمع له اقتناء صواب من تقدمه الى ما يتبعث من نفسه ، فكانه قد آخبر بالتجربة ، مع استمداده بما يستفيد ، ويستريد ما يفتح لبه ورأيه ، وأيقنوا أنكم لن تصلوا الى من سواكم ، ممن هو أعسر طاعة عليكم وأعدر بمعصيتكم ، حتى تبدوا باستصلاح أنفسكم ، وأنه لن يرجى لكم القوة على مجاهدة عدوكم حتى تقووا على مجاهدة أهوائكم ، فإن على كل امرئ رية من أمره ، وغطاء من غيبة ، لا يكشفه إلا صحة المعرفة ، والإنذان بالنصفه ، فهناك يؤمن عليه الجهل والمعانده ، وإذا أمنت هاتان الثلثان أنسدت بإذن الله ظلم الآفات ، وتوق المكاره ، فإنه لا يخاف الضلال على من أهدى ، ولا اعتماد الجور على من أنصف من هوى .

ولكن أول ما نتمهدون به أنفسكم ، وتناهبون عليه من صالح أدبكم تناصفت الحق بينكم ، بتقديم أهل الفضائل والآثار المحموده منكم وتفخيم أمركم ؛ فقد علمت أن منكم المبرز القائل الذي لا يدرك شأوه ولا يوازي بلاؤه ، حين كشف الإبله ضمائر السقوب وجلا مشبهات الظنون ، فصرح بالمحاربة بعد التقدم في المحجة ، وفاء بمؤكد العهد وركوبا منه لهائل الخطر ، غير هائب مع محبة الحق ما برق لديه الناكس المخلوع ورعد ، ولا مستوحش فيما تقود به الى من تولى وأدبر ، حتى أتى الغاية التي أجرى بها في الله عز وجل وفي خليفته ، ثم لرؤسائكم من أهل المشايعة والمكافئه والنصرة والحظ الجزيل والأثر الممين ، ثوابهم واجب وحققهم لازم ، ثم منكم من يحفظ لسلفه وأوله من الآياه الذين يحفظون ولايتهم ، فإن الله عز وجل يقول في ذكر النيمين : ﴿ وَأَمَّا الْخِطَابُ فَكَانَ لِقَلَامَيْنِ يَبْتِمِنُ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ الآية . وقال على لسان يعقوب لابنه يوسف : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ الآية . وأمير المؤمنين يرى توريث الحكمة والذمام سنة عليه في أخلاقه التي يرعاها ويحافظ عليها ؛ كما أنه يرى وراثة التركة فريضة واجبة ، فيغلب السلف الصالح عنده من المزية والفضل ما يتلون به أهل الفناء بأنفسهم ، ثم

يتلوه من أقدى [بهم] وأحدى بهديهم . والسابق المتقدم من أعتد بلاء نفسه الى بلاء  
سلفه ، ثم يتبعه بعدد الميلي بنفسه ، ثم يتلوها المتوَسَّل بآياته ، ثم الصاعد به هواه ورأيه ،  
طبقةً طبقةً ؛ فليقتصر كلُّ أمرئٍ منكم على المرتبة التي أحلَّه بها سَمِيهٌ ، وليُسلك الى  
الازدياد فيما بالزيادة من نفسه ؛ فإن من الفُتُوْق العظيمة على أهل الدُّوَل ما يَرِغ به  
الشیطان بينهم ، ويكثر عندهم ما يكون منه ، فيوافق من الحَيْف للأفئس ما يجيد به مساغا  
الى ما يروم من إيقاع الشحنة بينهم ، وتثبيت الإحْن في صدورهم ، بعد التآزروالتناصر .  
ومنى يجمع المرءُ لمزِيَّة من فوقه ، واغباط من دونه كُفًى ما ترك . وان تخلص نياتكم . وتسلم  
صنائكم ، حتى تَمَحَضُوا شُكْر ما أوليهِ إخوانكم ، وتعتدوا ما نالهم شاملًا لكم ، وتُجانبوا طريفة  
من اقتصر بأمنيته على خاصته ، وتعتب فيما أوثره أهل الفضل دونه ، وكُنْ عِظَةً فيما  
نهاكم الله عنه من ذلك ؛ يقول الله عز وجل : ﴿وَلَا تَحْنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِعَبْكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾  
الآية . ولا يَتَمَسَّق أحد مودته عن سوء نية بحسن مداراة في ظاهره ، فإن الله مقلد كلِّ  
أمرئٍ رُبْقَةً عمله ومُطَوِّقَهُ طَوْقَ سريره . ولا يندرك فيما يلزمه لإمامه ؛ فإنه إنما يندرك  
في حظه ويَحْضُ قِسْمه ، ويَحْضُ نفسه . ثم لا يقتصر على استصلاحها حتى يتناول من  
كانت مِنته عليه من أقربيه وحسويه ، فإن يسير ما هو مُعَانٍ من تأديتهم لا ينشَب أن  
يتجاوز أدنى المراتب الى أقاصيها ، وقربها الى مُتَنَاهِيها ، حتى يستفيض شاملًا عظاما ، بعد أن  
بدأ محالًا خاصا .

واعلموا أن أمير المؤمنين متفقد من تقيفكم وتقويمكم على صالح الأدب  
ومحمود السيرة ، ما لا يتفقد به من مِوَاكُم ؛ فإنه إن كان يُوجِب على نفسه استصلاح الرعية  
وحكهم على ما فيه رُشدُهم وقوامهم ، لما يلزمه من فضل العناية بالأخص والأولى  
فالأولى ، فإن في أخلاقكم من التقديم في التأديب والتمهيد ، وجوها من الضرر : منها :  
أنكم أولى بحسن الطاعة وسرعة الإجابة ، للطف محلكم وقرب مكانكم عند أمير المؤمنين .

ومنها : أنكم يأنس بكم المؤمنون ويقتدي بكم التابعون ؛ فحق قصرتم وأخلتكم ، أقتنى  
أكرم من نصبت له أعلما ، ثم لم يكن لكم أن تزوا عليه ، ولا أن تأخذوا فوق يده ، بل كان  
قينا أن يكون يسومكم الرضا بمنى ما سمعتموه ، ثم تجرى هذه العادة في الطبقات ، حتى يطرد  
السياق ، الى أن يستفيض الفساد في حشو الناس وعامتهم ، فلا تنفى قوة ولا حزم ولا  
شدة ، إلا المجز والاضاعة ؛ ثم يجد الأعداء مساعا الى الطعن والعيب ، فلا يملكون أن  
يرهبوكم ويستولي عليكم الفشل ؛ فإن الأيدى إنما تبسط بنفاذ المزائم ، والمزائم إنما تنفذ  
بثبات المحمة ، والمحمة إنما تثبت إذا كانت عن الحق . وإذا أضيع أول هذه الرسوم ، التي  
رسم لكم أمير المؤمنين ، تبعته تواليه وشفعته لواحقه ، ووجد العدو الملاحظ مكان العورة ،  
مطمعا في إهمال ما كان يمهله من الفتوة ، ويتوقع به من مناهزة الفرصة ، ولكن ما تفيضون  
فيه وتعتدون ظهورها على طاعين إن طعن في دولتكم ، ما أطم الله أمير المؤمنين : من شمول  
رعيته بالعدل ، وفرش الأمر في مضمراتها ومنقلبتها ، ورفع به عنهم من سير الجلود ، وبسط  
به يده من إثابة أهل البلاء ، وتقدم الجرائم لأولى الزلل ، والإبلاغ في دماء من عاند وشاق  
الى التوبة والإثابة ، وإقالة العثرة بعد القدرة ، والحقن لمباح الدماء ، فلم تعلموه صبر محملا ،  
ولا هتكت لأحد ممن أظفره الله به سيرا ، ولا وقفه على عودة . ثم تولى الله أمير المؤمنين ،  
في حروبه شرفا وغربا ، التي أغناه الله عن الإطباب في وصف صنع الله لكم فيها ،  
لاستفاضة أخبارها في دعامتكم ، مع ما أحب من مطالعته إياكم ببالغ أدبه وشفاف  
عطفه ، أن ينتكب من الإسهاب ، في غير ما محمد له ورأى من تهريج أسماعكم وأذهانكم ،  
لوعى ما اتبس أن تموه من تبصيركم حقلكم ، وتنبهكم على رشدكم . وحسب أمير المؤمنين  
في نفسه وفيكم الله ، وكفى به مينا .

ولما أمير المؤمنين مع ما تقتدم به اليكم لعل ثمة من حياطة الله خلقة التي جعلها  
عزرا لدينه وقواما لخلقته ، وأنه ليس بها ممن أدبر عن حقها آقتلال بل من خلغ  
ربقتها وأضاع حظها منها ، جلب الخلة والحاجة وتحسران الدنيا والآخرة . ولما أتى



الْمُقَصَّرُونَ فِي إِعْظَامِ حَقِّهَا مِنْ ضَمَنَ الرِّبَا عَنْ بُلُوغِ مَا تُقْضَى بِهِمْ إِلَيْهِ مَصَادِرُ الْعَوَاقِبِ ، وَتُؤَدِّهِمْ إِلَيْهِ رَوَاجِعُ مَا قَدَّمُوا ، فَلَا يَكُونُونَ بِمَعْلُومٍ غَيْرِ مُتَجَاوِزِينَ بِهِمْ ، وَفِيهِمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ إِلَى مَا يُجْتَنَى .<sup>(١)</sup>

وَاسْتَدْبَرُوا مَعِشَرَ الْمَسَامِينِ سَائِغَ النِّعْمَةِ بِمُحَمَّدٍ مُوَلِّيَهَا وَالْمُنْطَوِّلِ بِهَا . وَقَدْ تَرَوْنَ مَا كُنْتُمْ فِيهِ قَبْلَهَا وَمَا آلَتْ إِلَيْهِ حَالٌ مِنْ سُلْبِهَا ، ثُمَّ يُعِيبُ النَّدَامَةَ حِينَ لَا مُسْتَعْتَبٌ وَلَا نَظَرَةٌ يُمكنُ فِيهَا اسْتِفَالَةُ الْفَارِطِ بِتَقْصِيرٍ وَلَا هَفْوَةٍ زَالٍ . وَثَقُّوا مِنْ رِعَايَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٍ أَنْتَارَكُمْ ، وَمَا مَضَى مِنْ بَلَاءٍ كُلِّ أَمْرٍ مِنْكُمْ ، بِمَا تَطْمَئِنُّونَ إِلَيْهِ وَتَتَوَقَّعُونَ عَادَتَهُ ، بَأْسَى مَا تَرْفِيعُ إِلَيْهِ آمَالَكُمْ وَتَسْمُو إِلَيْهِ مَهْمُكُمْ ، إِلَى مَا يَدْنِي رَأْيُ اللَّهِ لِمَنْ تَمَسَّكُ بِهِدَاهُ ، وَأَعْصَمُ بِتَقْوَاهُ ، وَجَاهِدَ عَنْ حَقِّهِ ، وَأَفَاءَ بِأَمْرِ عَهْدِهِ مِنْ بَزِيلِ ثَوَابِهِ وَكَرِيمِ مَأْبَاهِ ، إِلَى الدَّارِ الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ : وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا .

أَحَبُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَعَهَّدَ بِعَظْمَى تَلْبِهِمْ عَلَى حَقِّكُمْ ، وَتُبْتُ مِنْ بَصَائِرِكُمْ ، وَتَقَطَّعَ مِنْ طَمَعِ الشَّيْطَانِ وَحَزَنِهِ فِيكُمْ ، لِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ إِرْشَادِكُمْ ، وَيرْجُو مِنْ تَأْدِيَةِ حَقِّ اللَّهِ عَنْ وَجَلِ فِيكُمْ ، وَلِئِنْ رَأَى مِنْ أَتْصَالِكُمْ مَجْبِلُهُ ، وَمَا يَشْمَلُهُ مِنَ الصَّبِيحِ فِيَا وَلَا كَمُ اللَّهِ بِهِ ، وَتَوَلَّاهُ لَكُمْ .

وَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَسْأَلُ اللَّهُ الَّذِي دَلَّ عَلَى الدَّعَاءِ تَطَوُّلًا ، وَتَكْفُلُ بِالْإِجَابَةِ حَتَّى ، قَسَالَ عَنْ وَجَلِ : ( اذْعُرْنِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ) ، أَنْ يَجْمَعَ عَلَى رِضَاهِ الْقَتْمِ ، وَأَنْ يَصِلَ عَلَى الطَّاعَةِ حَبْلَكُمْ ، وَأَنْ يُتِمَّكُمْ بِأَحْسَنِ مَا أَوْدَعَكُمْ مِنْ مَنَّةٍ ، وَيُوزِنَكُمْ عَلَيْهَا مِنْ شُكْرِ ، مَا يُوَاصِلُ لَكُمْ مِنْ يَدِهِ ، وَأَنْ يَكْفِيَكُمْ كَيْدَ الْكَافِرِينَ ، وَحَسِيدِ الْبَاقِينَ ، وَيَحْفَظَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِيكُمْ بِأَفْضَلِ مَا حَفِظَ بِهِ أَمَامَ هَدْيٍ فِي أَوْلِيَائِهِ وَشِيعَتِهِ ، وَيَجْعَلَ عَنْهُ ثَقْلَ مَا حَمَلَهُ مِنْكُمْ . وَبِاللَّهِ يَسْتَعِينُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، عَلَى مَا يَنْوِي مِنْ جَزَائِكُمُ بِالْحُسْنَى ، وَحَمْلِكُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُنَى ، وَبِهِ يَرْضَى نَاصِرًا وَوَلِيًّا ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

(١) كِتَابُ الْأَصْلِ .

وللأُمون — لما كتبت إليه السيِّدة زُبَيْدة بعد مقتل ولدها الأمين خطابها

الآتي تستعطفه :

كُلُّ ذَنْبٍ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ عَظُمَ صَغِيرٌ فِي جَنْبِ عَفْوِكَ . وَكُلُّ زَلٍّ وَإِنْ جَلَّ حَقِيرٌ عِنْدَ صَفْحِكَ . وَذَلِكَ الَّذِي مَوَدَّكَ اللَّهُ فَأَطَالَ مَدَّتَكَ ، وَتَمَّ نِعْمَتَكَ ، وَأَدَامَ بِكَ الْخَيْرَ ، وَرَفَعَ بِكَ الشَّرَّ .

هذه رُقعة الوالِدة التي ترجوك في الحياة لنوابث الدهر ، وفي الممات لحيل الذكر . فإنَّ رَأَيْتَ أَنْ تَرْحَمَ ضَعْفِي ، وَأَسْتَكَاتِي ، وَقَلَّةَ حَيَاتِي ، وَأَنْ تَهَيَّلَ رَحِمِي ، وَتَحْتَسِبَ فِيَّ جَعْلَكَ اللَّهُ لِي طَالِبًا وَفِيهِ رَاغِبًا فَاقْبَلْ ، وَتَذَكَّرْ مَنْ لَوْ كَانَ حَيًّا لَكَانَ شَفِيعِي إِلَيْكَ .

فكتب إليها المأمون :

وَصَلَّتْ رُقْعَتُكَ يَا أُمَامَ ، أَحَاطَ لِكَ اللَّهِ وَتَوَلَّىكَ بِالرَّعَايَةِ ، وَفَقَّتُ عَلَيْهَا وَسَاءَنِي — شَهِدَ اللَّهُ — جَمِيعُ مَا أَوْضَحْتِ فِيهَا ، لَكِنَّ الْأَقْدَارَ نَافِذَةٌ ، وَالْأَحْكَامَ جَارِيَةٌ ، وَالْأُمُورَ مُتَصَرِّفَةٌ ، وَالْمَخْلُوقُونَ فِي قَبْضَتِهَا ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى دِفَاعِهَا ، وَالْدُنْيَا كُلُّهَا إِلَى شَتَاتٍ ، وَكُلُّ حَيٍّ إِلَى مَمَاتٍ ، وَالْفَسْدُ وَالْبَنَى حَتْفُ الْإِنْسَانِ ، وَالْمَكْرُورُ رَاجِعٌ إِلَى صَاحِبِهِ . وَقَدْ أَمَرْتُ بِرَدِّ جَمِيعِ مَا أَخَذْتُ لَكَ ، وَلَمْ تَعْقِدِي ثَمَنَ . مَضَى إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ إِلَّا وَجْهَهُ . وَأَنَا بَعْدَ ذَلِكَ لَكَ عَلَى أَكْثَرِ مَا تُخْتَارِينَ ، وَالسَّلَامُ .

(٥) أحمد بن يوسف<sup>(١)</sup>

رسالة ممتعة لأحمد بن يوسف ذكرها ابن طيفور في اختيار المنظوم والمشور وهي :

أحمد فالحمد لله الفاهر القادر، الخالق الرازق، فاطر السموات والأرض، الذي أحاط بكل شيء علما، ونطق به خبرا، وأتقنه حكمة وعاما، وألف بين مختلفه ومختلفه، ليدل بقوام بعضه على بعض، على اتصال تدبير مشيئته ومبتدعه، وأنه أحد صمد، لا ضد له ولا يد، إذ قدر له حاجته ثم شدّها ببلاغها إلى الغاية التي جعلها، فقال جل وعز ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ وحكى عن نبيّه موسى عليه السلام، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَقَّهُ ثُمَّ هَدَى ﴾، وقال الله تعالى ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلَاهُ تَقْصِيلًا ﴾ ثم لم يكلف العباد من شكره كفاه نعمته، بل رضى منهم باليسير، وقبل منهم الغفوة، وجعل طاعتهم إياه مائدة عليهم يجزى الخلف في دينهم ودنياهم، ليناه عن عبادتهم، وأنساع قدرته بالتطوّل عليهم، مُنْتَبِحا وخائما، وإدنا وعائلا .

والحمد لله الذي أصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم، نبيا لرسائله، وأتمنه على وحده، وأنزل عليه كتابه العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه. تنزيل من حكيم حميد، فأدّى إلى خلقه الرسالة، وأسنتهم من الضلالة، وصدّع بأمر ربه وجاهد في سبيله، ونصح لأئمة حتى أتاه اليقين من ربه، بعد استنارة الحق، وظهور الحق، فصلى الله عليه بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا قد تلافى من الهلكة، وجمع الألفة بعد الفرقة، وأوضح الهدى بعد الدروس، ومعلم الرشد بعد الظلوس، وكان بالمؤمنين رحما .

والحمد لله الذي قفى على آثار المرسلين، والأئمة الراشدين، الهادي اتقى، الفاهر الزكي، الإمام المأمون أمير المؤمنين، أعز الله نصره، فسّد ثلثتهم، ورأب صدعهم وثلّده خلافتهم، وجعله لكافة المساكين غيانا ورحمة، وجعل ما ألهمه من العدل والإحسان

(١) راجع ما كتبناه ص ٢١ الفصل السادس من انتخاب الثالث في العهد الأول .

اليوم، مئة عليه ورحمة دُحَرها له، دون الخلفاء قبله، فيما أظهر من فضل زمانه على الأزمنة، وسياسة من تقدمه، ومنع الرعية من عطفه ونظره، ما لا يحل عنهم أو به ولا يؤدي عنهم شكره، إلا هو لا شريك له، وأحسن الله جزاء أمير المؤمنين ومثوبته، على صلته رحم رسول الله صلى الله عليه وسلم، التي هي رحمه وقربته، واختياره لولاية عهده الأمير الرضى علي بن موسى، حفظه الله، حين أحمد سيرته، ورضى محبته، وعرف استقلاله، بما قلده في هديته، ودينه ووفائه، بما أكد الله به عليه، من عهد أمير المؤمنين أيده الله، في أعتابه من ازله وأساسه بما شقق رأيه، وأنفذ تدبيره، حين هم لاستصلاح ما استرعا الله، من أمور عباده، لما أتقى القائم بدعوته، ورئيس شريعته، الأمير ذا الرياستين رحمه الله، فاقبضه مكانها ظهيرا ووزيرا دون من سواه، فأتبع منهاج أمير المؤمنين أيده الله، وسار بسيرته، شرقا وغربا، وغورا ونجدا، مؤفيا بعهده، قائما بدعوته، مقتفيا لأثره وسنته، لحسن الله به الأدواء، ووقع به الأعداء، من ضاة الأمم، وطواغيت الشرك، وآباد على يده، أهل الشقاق والنفاق، في كل أفق وطرف، بجدة أمير المؤمنين أعزاه الله، وبركة سياسته ودولته، وتجمع سعى من قام بصرة من قام بحقه، وأثار برهانه، حتى توفاه الله عز وجل، حين بلغ همته وغايته، وحكم أجله، وأقطعت مدته، سعيدا حميدا، شهيدا نقيدا، عند إمامه أكرمه الله، وعند الخاصة والعامة، وكان من إجلال أمير المؤمنين، الحادث الذي نزل به، فأحيا آثاره، بوصف محاسنه، في مشاهدته ومجاهدته، وترحمه عليه عند ذكره، وحفظه في ثمنه، وأهل حرمة، ونبين كان يمد الله على طاعته ونصيحته، ما أتم به نعمته، عندنا وعندكم، معشر الشيعة، فقد أصبح أمره بكم متصلا، وموقعه من جماعتكم متفخا، يقضيكم ما قبضه، ويسيطركم ما بسطه من أومة الهدية، وحسن الثقي، وقد علمتم معشر أهل الجبال والتهى، والطاعة لله عز وجل وخليفته، وذوى النقاء والبلاء، في دعوته من أهل خراسان وغيرهم ممن حضرت أمتهن الله قلبه بوفاء العهد والاستبصار في حق أمير المؤمنين أبقاه الله، والمجاهدة دونه، والصبر على سواطن الصدق والآراء، والتب عن البيضة والحريم،

والمُتَحَمِّلِينَ لِلنَّصَبِ، والمُصَانِبِ الَّتِي انْتَجَلَتْ، حَتَّى كَانَ لَمْ يَكُنْ، وَبَقِيَ أَجْرُهَا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ،  
وَمَجْمُودٌ ذِكْرُهَا شَائِعًا فِي الْبَاسِ، إِنْ نِعِمَّ اللَّهُ، قَدْ جَلَّتْ وَلَطَفَتْ، وَخَصَّتْ وَحَمَّتْ، وَعَلَتْ  
وَسَمَّتْ، وَتَمَّتْ وَدَامَتْ، حَتَّى قَصَرْنَا عَنْ مُوَازِينِهَا، وَالْإِحَاطَةِ بِأَدَائِهَا، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَنَا  
مَعِشَرُ إِخْوَانِنَا سَبَبٌ إِلَى مَكَافَاةِ بَلَاءِهِ بِالْعَمَلِ، فَحِجْنُ جُذْرَاهُ إِنْ نَجْتَمِدُ فِي الْقَوْلِ، وَنُظَنِّبُ  
فِي الْوَصْفِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ، فَقَدْ جَعَلَ ذِكْرَ النِّعَمِ مِنْ أَسْبَابِ الشُّكْرِ، وَقَدْ جَعَلْنَا  
أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَيَّدَهُ اللَّهُ مِنَ الْحَيَاةِ وَالْكَرَامَةِ، وَجَزِيلَ الْخِطِيطَةِ، وَسَيِّئَ الرِّبَةِ الَّتِي قُرِئَ بِهَا عَلَيْكُمْ  
كِتَابُهُ مَا يَسْتَفِرِقُ جَهْدَنَا، وَيَسْتَفْرِغُ وَسْعَنَا، فَنُضْرِبُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلِيَّ الرِّبَةِ، وَمُؤَنِّ  
السُّؤْلِ وَالطَّلِبَةِ، فِي إِعَانَتِنَا عَلَى تَأْدِيَةِ مَا وَجِبَ لَهُ، فِيَا مَنَعْنَا مِنْ فَوَائِدِهِ وَنَحْمَلُهُ، ثُمَّ نَسْتَرْفِدُكُمْ  
وَنُسْتَمِينُكُمْ عَلَى شُكْرِهِ، وَإِمْدَادِنَا بِمَا بَلَّغْتَهُ طَائِفَتُكُمْ فِي السَّيِّئِ لَهُ فَقَدْ آدَنَّا نَقْلُ مَا حَمَلْنَا، وَنَقْلُ  
مَا طَوَّقْنَا، وَعَظَمْتُ فَاغْتِنَا إِلَى اسْتِمَالِ الْقَوَى مِنَ الْأَنْفُسِ وَالْخَامَةِ، وَالْخَالِصَةِ وَالْمُسَامَةِ،  
فِي جَزَاءِ مَا جَلَّلَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِينَا مِنْ سُنَّتِهِ، وَشَيْئَانَا مِنْ تَالِدِ أَيْدِيهِ وَطَائِفِهَا، وَقَدْ يَرِ  
وَحَدِيثِهَا، وَكَيْفَ يُوجَدُ إِلَى مُوَازَاةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلَ بِذِلِّ جَهْدٍ، أَوْ بُلُوغِ حَشْدٍ، فَإِذَا  
نَقْتَدِي بِهَدَاهُ، وَنَعْشُو بَنُورَهُ فِي دِينِنَا، وَلَيْسَ نَحْزُنَا عَنْ أَنْ نَحْزِي حَقَّهُ، بِوَاضِعِ عَنَّا مَوْوَنَةِ  
الدُّرُوبِ فِي التَّحْزِي لِتَأْدِيَتِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، قَدْ أَخْبَرَ بِفَضَائِلِ الشُّكْرِ وَمَنَاقِبِهِ، وَجَعَلَهُ  
مِنْ أَسْمَائِهِ، ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى ﴿مَا يَقُولُ اللَّهُ بِعَدَائِكُمْ  
إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾. وَقَالَ تَعَالَى ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعِفْهُ  
أَكْرَمَ وَيُغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾. وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ رَضِيَ لِنَفْسِهِ، لِأَجْلَالِنَا عَنْ  
النَّسِيبَةِ إِذْ كَانَ أَكْثَرُ مَا نَسْتَعْمِلُهُ، وَنَعْرِفُهُ فِي مَكَافَاةِ مَنْ مِنْ تَطَوُّلِ، ثُمَّ نَقِي بِذِكْرِ فَضْلِهِ  
فِي الْعِبَادَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَفْتَحَ أَوَّلَ مَا عَلَّمَ خَلْقَهُ بِالْحَمْدِ، وَجَعَلَهُ بَدْءَ كِتَابِهِ، وَخَاتَمَهُ  
دَعْوَةَ أَهْلِ جَنَّتِهِ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ، ﴿وَائْتِرُدُّوْهُمْ إِنْ أَحْمَدُهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، وَخَلَقَ اللَّهُ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَمَنْ بَرًّا وَدَرًّا فِي الْحَيَاةِ لِيَبْلُوَ عِبَادَهُ بِشُكْرِهِ، وَأَعَادَ الْجَنَّةَ فِي الْأَجَرَةِ  
لِمَنْ شُكِرَهُ، وَالنَّارَ لِمَنْ كَفَرَهُ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ

كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۖ»، وقال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾، لجعل التقوى واقعة، والشكر مرجعاً لبذل على ارتفاع رتبته، وعلو درجته عنده، وقال لنبيه موسى عليه السلام : ﴿إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ رِسَالَاتِي وَيَكَلَامِي لَخَذَ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ . فلم يكافئه إلا أخذ ما أعطاه، والشكر على ما آناه، وأخبر بعزته في العباد، فقال تعالى : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾، فآية نعمة أجل قدراً، وأسمى أمراً، معشر الشيعة من نعمة أمير المؤمنين، أيده الله، عند الأمير ذى الرياستين، ومراتبه التي رتبها، فإنه أعطاه رئاسة الحرب، ورئاسة التدبير، وعقد له على رأسها علماً في رواية دعوته، وقلده سيفهما وختمه بحاتم الخلافة، وخاتم الدولة، وجعل صلاته بين صاحب حربته، وصاحب شرطته، ومسيره بين أمير المؤمنين وبينهما، أمامه وخلفه، وصير له الجلوس على الكرسي بمحضته، في صدر كل مجلس جلس، إلا أن يؤثر به من أحب من أبناء الخلفاء، وقدمه في دخول دار الأمير راجعاً إلى أفضى مكان يتمي إليه أحد من بني هاشم، لأنه منهم، وأعظمهم غناء عنهم، فسماء صاحب دعوته وسيفه على عدوه وبابه الذي يدخل إليه منه، وولاه خروله في أقطار الأرض، ومقدمته بمحضته، وقلده من الثغور ما قد علمت، بما أفردته في عهده، إلى ما أنقذه من أمره، في جميع سطاته ومملكه، من مشارق الأرض ومغاربها، وأين يأتي الوصف على ما فضله به، وقدمه وشرفه على الناس كافة، ولكنا نخطئ بذكره، ثم نكل السامعين إلى ما يرجعون إليه من المعرفة التي لا تبلغها الصفة، ثم لم يكن ما أكرمه به في حياته بأعلى مما أكرمه به في وفاته، تولى غسله وتكفينه، ومباشرته لمجاهزته، إلى حفرة بيده، وقاسى من النقص، وبرساء الحزن، وإذراء العبرة، وإراقة الدماء محال بينه وبين الكلام، وكذا يمنع من القول والدعاء في صلاته بلبه، من الحكم، وحفظ أهل الحرمه، به رعاية له فيهم، ووفاء بعهده من بعده، وأقر حاضته، وقواده ونعماله، وكتابه على مراتبهم، وحيد بمجده، وذم بذمه، وحيد بلجده، وتل كبريته، نظراً وعظماً، فلم يبق عليه في إحياء ذكره، وبلوغ كل ما يحبه في حياته غاية إلا أتى من ورثها،

وأمر بقراءة قُتُوحه ، كما كانت تُقرأ على عهده ، وأضاف كل ما حَدَّث من بعده الى ما تقدَّم من سعيه ، وأخبر أنه كان سبَّبه ، والمفتنَّع به ، وولى محمد بن الحسن خلافته ، ونَصَّبه مَنَصِّبه ، وأقامه مقامه الى أن جَدَّد العهد لى ، فاستخلفته على ما ولى بمحضرة ، ثم تنابعت كتب أمير المؤمنين ، أكرمه الله بعد مصابب الأمير ذى الرِّياستين ، بما لا يقارب التفضيل ، والإطلاق والتفويض الذى كنتم سمعتم به وبلغكم ، فلم يكن يرى وراءه عجالة ، ولا فقه مَصْغداً ، حتى جَدَّد لنا من كرامته ، ما قد قُرى عليكم فى كتابه ، فبلغ بنا ما لم تكن الهم تبلُّغه ، والأمانى تُحيط به ، لولا ما منحنا الله عز وجل من الترقى فى الفضل ، الى ما تحسّر من دونه الأبصار ، وتقطع دونه الآمال ، وإنما اقتصصناه وذكرنا ما أبلانا وأمصططع عندنا من بلائه بدعائنا الى الله عز وجل ، وإلى طاعته بالعدل والإحسان الى رعيته والنظر بالصنيع ، والأخذ بالفضل ، والأمر بالمعروف ، وصلة المروءة بالوفاء بالعهد ، والشكر للئن ، ورعاية الأخلاق الحمودة ، وإحطاء أهلها ، وإقامة سوقها ، حتى تنافسوها وتَشَّاحوا فيها ، وصارت هى الدَّرَائِع اليه ، والوسائل عنده ، فلو تأمل متأمل أهل الرِّزقة ، والأثرة لديه ، لو جَدَّ الأَخْص فالأَخْص ، والأعلى قدراً عنده هو الأفضل ديناً ومروءة ، فلو لم يكن فى الحظوة عنده إلا إيجابها لصاحبها محبة المحبة ، والزَّاهة عن كل ظنة ، لكان فيها أعظم النبطة ، وأعدل الشهادة والدلالة ، وسنُصَّ عليكم بما أخبرناكم عنه مالا سبيل الى جُهد وإنكاره ، بوضوح مثاله ومنائره ، أو ليس الجاهِد عن دين الله ، والمُحامى عن بَيضة المسامين ، والمُؤامى لا غلط عدوهم شوكة ، وأخوفهم عداوة ، والمُنْجِج فى بلادهم ، بمن كان لا يرام ، ولا يُحاول لاغتصابها به وشنة مَقاساته ، حتى أذعن جبقويه بالمُبودية له ، ثم أباح حربته حين تمرد عليه ، حتى بلغ السَّي الى ولده ، وحاربونا به ، وتغلَّغَت خيولُه ، حتى توصَّلت الى مُقْبته ، ومنتهى عِزّه ، أو ليس مُسَكِّن التَّجِج بالشرق ، حتى خَبَّت النيران فيه ، وأذعن رؤساؤها وقادتها . أو ليس غازی بلاد بابل حين طغى أميرها ، وبذل وثَنَّت وقض ، حتى أجمُت أرومته ، وأباح حرَّمه ، وأراح المسالمين من معزته ، أو ليس سادَّ الثغور ، ومُحصَّن

عَوَاتِهَا ، والمباشر لتدبيرها ، والمُسَعَّدَا المُسَكِّدَةُ الْمُتَّحِجِ فِيمَنْ أَرَادَهَا ، وَقَالَكَ الْعَاثُ ، مِنْ رِقَا  
 الإِسَارِ ، وَنَاشِرِ الرَّحْمَةِ عَلَى فَقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَضَعَةِ أَسْمِهِمْ وَأَهْلِ الْمَسْكِنَةِ ، وَالْحَلَّةِ مِنْهُمْ ، وَقَاسِمِ  
 الصَّدَقَاتِ فِي أَهْلِهَا ، وَعَاصِرِ الْمَوْسَمِ وَمَحْصَنِهِ مِنَ الْآفَاتِ حِيَاطَةَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي تَجَمُّعِهِمْ ،  
 وَمَا يَتَقَرَّبُونَ بِهِ إِلَى رَبِّهِمْ ؛ وَهَلْ أَقْرَبَ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمَةِ مَا أَقْرَبَ لَهُ فِي الْمَلِكِ وَالذِّينِ وَالْعَزَّةِ  
 وَالتَّوَاضُعِ وَالسَّعَةِ ، وَالْبَذْلِ وَالْقُدْرَةِ ، وَالْعَفْوِ وَالْغُلْفَةِ ، وَالْبَيَانِ فِي مَوَاضِعِهَا ، وَالنُّسْكِ مَعَ  
 الْأَهْلِ ، وَالسُّطُوَةِ مَعَ الْإِقَالَةِ ، وَهَلْ تَرَكَ مَعْتَرِ الْأَوْلِيَاءِ وَالْإِخْوَانِ فِي الدِّينِ غَايَةً لَمْ يَسْمُ بِهَا إِلَى  
 شَرَفِهَا ، وَعَلَى مَرَاتِبِهَا ، وَمُسْتَرَادِ الْخَطِّ فِي عَاجِلٍ وَأَجَلٍ ، لَمْ يَلْفَنَاهُ وَنَخْتَارَ لَنَا خَاصَّ مَكْرَمَتِهِ ،  
 وَمُذْتَرِّعَاتِهِ ، أَرْشَدَنَا إِلَى الدِّينِ ، وَسَلَّكَ بِنَا سُبُلَ الْجَنَّةِ ، حَازَ لَنَا الْمَلِكُ ، فَلَمْ يَبْقَ وَرَاءَهُ  
 مَا مَلَكَائِي غَايَةً ، وَوَرَدَ بِنَا الْحُرُوبَ وَسَاسَهَا لَنَا ، فَلَمْ يَدَعْ غَايَةً لِلتَّعْلِيمِ وَالتَّدْرِيَةِ ، سُلِّطَ عَلَيْنَا  
 بِسُلْطَانِ اللَّهِ الَّذِي أَنَاهُ فَلَمْ يَدَعْ غَايَةً فِي التَّقْلِيدِ وَالْفَقْهِ ، فَكَمَّ عَلَيْنَا الْفَضَائِلَ ، ثُمَّ فَضَّلْنَا بِهَا ،  
 غَلَبَ لَنَا الْأَهْلَ ، ثُمَّ خَوَّلَنَاهَا . عَلَّمَنَا طَرَائِقَ الشَّرَفِ ، ثُمَّ شَرَّفَنَا بِهَا . أَخْبَرَنَا عَنِ الْأَنْبِيَاءِ فَكَفَّعْنَا  
 مَوْثُوقَةَ الْقَامِسِ ، وَأَغْنَانَا بِمَا عِنْدَهُ فِيمَا ، أَخَذَ عَلَى أَيْدِينَا الْخَيْرَ لِلرَّعِيَةِ ، فَوَهَّبَ لَنَا شُكْرَهَا ، وَصَدَّقَ  
 مَقَالَتَنَا عِنْدَ الشَّيْخَةِ ، وَأَتَقَدَّ أَمْرُنَا فِي التَّدْبِيرِ .

فِيَا أَيُّهَا الْإِمَامُ الْمَنْصُورُ الْمَهْدِيُّ الرَّشِيدُ حُزَّتْ فَضَائِلُ الْآبَاءِ ، وَاهْتَدَيْتَ بِهَدْيِ  
 الْأَنْبِيَاءِ ، أَنْشَكَرَكَ عَنِ الْإِسْلَامِ ، فَانْتَ الْقَائِمُ بِهِ الدَّاعِي لَهُ ، وَالنَّاصِرُ لِحَقِّهِ ، أَمْ تَشْكُرُكَ  
 عَنِ الْأَمْصَارِ ، فَانْتَ الْمُفْتَنُجُ لِمَتْنَعِهَا عَنَّا ، وَالْمُنْتَطَوِّلُ عَلَى أَهْلِهَا بِالرَّحْمَةِ ، وَالْمُنْعِطِفُ عَلَيْهِمْ  
 بِحَسَنِ الْقَائِلَةِ بِسَدِّ مَا هِيَجَتْ مِنْكَ سُورَةُ الْفُضْبِ ، فَاطْطَفَأْتَ نَارَهَا ، وَأَنْحَدَّتْ لَهَبُهَا ،  
 وَعُدَّتْ عَلَى مَنْ سَفِهَ ، وَأَضَاعَ حَقَّقَهُ ؛ أَمْ تَشْكُرُكَ عَلَى الْمَسَاجِدِ ، فَانْتَ الَّذِي أَسْتَشْنَاهُ عَلَى  
 التَّقْوَى ، وَحَمَرْتَهَا بِتَبَاوُلَةِ الْقُرْآنِ ، وَطَهَّرْتَ الْمُنَابِرَ وَرُكْبَتَيْهَا ، تَمْلُوهَا صَاحِبًا ، وَتَنْطِقُ عَلَيْهَا  
 صَادِقًا ، وَتَدْعُو إِلَى الرُّشْدِ عَلَيْهَا نَاصِحًا ، وَتَحْمَمُ الْقُرْآنَ قَبْلَ أَنْ تَبْدَأَهَا حَسَنًا ، وَتَتَلَوْنَ مِنْ قَوَارِعِهِ ،  
 مَا تَصْبِغُ لَهُ الْأَسْمَاعُ ، وَتَلِينُ لَهُ الْقُلُوبُ ؛ أَمْ تَشْكُرُكَ عَلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ، وَالرَّكْنِ وَالْمَقَامِ ،  
 وَالْحَجَرِ وَزَنْزَمِ ، وَسَّاعِرِ الْحَجِّ ، وَأَنْتَ ذَبَبْتَ عَنْهَا ، وَأَعَدَّتْ إِلَيْهَا عَهْدَهَا ، فِي مَبْعَثِ نَبِيِّهَا ،



صلى الله عليه وسلم ، فأمنتَ النازعَ إليها ، من كلِّ فجٍّ عميقٍ ، والحالينَ بها من الركوعِ والسجودِ ، أم تشركُك عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فيما حفظتَ فيه من عِزِّه ، بعفوكَ عن مجرميهم ، ومضاعفتك نوابِ مجسّمهم ، وإحيائك من أمرهم ، ما كان قد أندرس وأنطمس ، بعدَ الفناءِ بنبي الله صلى الله عليه وسلم ، وقد راعيتَ منه في قرابته وقرابتك ، وذوى رحمة ورحمك ، ماضِيعَ الناسِ ، ووَصَلتَ منهم ما كان وصله ، إذ كان الله عز وجل ، قد قرَضَ صِلَةَ الأرحامِ ، فكان أطوعَ خَلْقِ الله عز وجل فيما قرَضَ عليه . أم تشركُك عن العوامِ ، فقد ألبستَ المسلمين ثوبَ الأمنِ ، وأذقتهم طعمَ السَّعةِ والرِّفاهةِ ، ومدّتَ بينهم بالإتصافِ ، وتولّيتَ دونهم النَّصَبَ ، وآثرتهم الراحةَ . أم تشركُك عن الملوكِ والقوادِ والأجنادِ ، فانتَ الذي رفعتَ منازلهم ، ووقرتَ عددهم ، فلم يكن في دهرِ أحدٍ من الخلفاءِ أسعدٌ ولا أحظى منهم في سلطانتك ، بما بذلتَ لهم من المعاونِ ، وولّيتهم من الثغورِ والأبصارِ ، وأدرتَ عليهم من الأرزاقِ والخواصِّ ، أم تشركُك عن الأحكامِ والسُّنَنِ ، فانتَ الذي أُنِجحتَ سبيلها ، فأوجبتَ قَرْضها ، ونافستَ في أهلها ، أم تشركُك عن الأعداءِ فانتَ الذي بدأتهم بالهزيمةِ ، ودعوتهم إلى القَبِيئَةِ والإِنابةِ ، ثم ثَبَّتَ مَقْبِلًا بالعفوِ ، وتَعَشَّتْهم بعدَ البؤسِ ، وأنشئتَهم من الوَحْشَةِ ، أم تشركُك على مكارمِ الأخلاقِ ، وأنتَ الذي بَثَّ وطائها ، ونفِيتَ عنها أضيءَ أدها ، ولو نَطَقَتْ بالفضلِ ، لنطقتَ بِشركك ، في إزالتك إياها عن العلمِ ، وإخطالك من أعزى إليها . أم تشركُك عن الثغورِ ، فانتَ الذي تَمَتَّتْها ، وحصَّنتَ عورتها ، أم تشركُك عن السِّلَفِ ، فانتَ الذي أشدَّتْ بفعالهم ، وحَفَظْتَهُم في أبنائهم ، أم تشركُك عن بُرِّ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وعن القَضْبِ الذي شَغَبَ به ، حتى جعلتهما زِينتك ، وسموتَ بهما في أعيادك ، صدَّ حَشْدُكَ ، على الطُّهورِ والزَّكَاةِ ، والنَّسكِ والتقوى ، أم تشركُك عن المسلمين في رعابتك إياهم ، وما تُرْعِيهم من حَتَابِكَ ، وتنفي عنهم من الآفاتِ ، وتَمَلِّ عنهم من جبايرةِ الكفرِ ، وتَقْضِ من جيوشِ الشُّرْكِ والنَّكْتِ ، وتَضَعُ من الحُصُونِ المُتَضَعَةِ ، وتَسَهِّلُ من الطُّرُقِ الوَعْرَةِ ، أم تشركُك عن تواضعك لله عزَّ وجلَّ وإِصْلاحِ

المسلمين طلبا للرفعة عند الله. أم تشركك عن الدين وقد جعلت السلطان عبدا وقائدا ومنقذا .  
وكان ما هورا بجماعة آمرا ، وآلة للعوة فجعلت القوة له آلة ، فيأمن اتصل شكره بشكر الله عز  
وجل ، ونعمته بنعمة الله تعالى وطاعته ، بطاعة الله فوهب الله لك شرف المنازل ، ورقاك  
درج الفضائل ، وجزاك الله عنا وعن غيرنا ، مما شكر من ناطق أو صامت ، جزيل الثواب  
ورفيع الدرجات ، وأمتك ما أتاك وأمتع الأمة ما آتاهم منك ، والحمد لله ذي الرغبات ،  
ومتِّم الصالحات ، شكرا لرب العالمين ، فإنه مبلِّغ طاقتنا ، ومُنْتَهَى جَهْدنا ، وبه نستعين  
على تأدية فرائضه ، أنه لا يعين على ذلك الا هو ، أحببتُ أن نسُكِّر اليكم أمير المؤمنين  
أيده الله ، إذ ورد على من أُنعمه وأفضاله ، ما لا يبلغه بالفعل ، وأن يكون ما اقتصصنا  
عليكم ، داعيا لكم ، الى أن تسكروه عنا ، وعن أنفسكم ، وعن الإسلام والمسلمين ، ورجوت  
بما وثقنا الله له ، فيما شرحنا وأوضحنا ، من الدلالة والبيان أن يكون مجتمعا يتشعب به من  
حضرنا ، ومن عسى أن يؤدّي اليه الخبر عنا ، أو حدث بعدنا ، وضننت بهذه المكرمة الرائعة ،  
والمأثرة البارعة ، التي أدّتها الله لأمر المؤمنين ، أعز الله نصره ، وأفرده بها ، دون الأئمة  
والخلفاء ، أن تمر بالاسماع صفحا ، وتجتاز على القلوب سهوا ، حتى تؤكد بالشواهد والبرهان ،  
ليبقى ذكركها ونفعها في الخلوف والأعقاب ، ونحن نسأل الله عز وجل الذي جمع بأمر المؤمنين  
— مد الله في عمره — ألفتنا ، وعلى طاعته أهواءنا وضامرنا ، وأنا لنا من الغبطة في دولته  
وسلطانه ، ما لم تحويه شيعة إمام ، ولا أنصار خليفة ، أن يتم نور أمير المؤمنين ، ويعل كعبه ،  
ويتقنا ببقائه ، حتى يبلغه سؤله وهمته في الاستتار من البر وأدخار الأجر ، واستيجاب  
الحمد والشكر ، وأن يلزم به الشَّعْث ، ويرأب به الصدع ، ويصلح على يديه الفساد ويرتق  
به قُتُوب هذه الأمة ، ويُنشِئ بسياسة وتكايته في عدوها ، ويتابع الفتوح في بلدانهم حتى  
يؤتيه من نُجُوح السبي ، ورفائب الحظ في الدنيا ، ما يُحْزِل عليه ثوابه في الآخرة ، وأرشد  
نجباءه واصفياءه ، الذين يقول لهم ، (فَأَتَاهُمُ اللَّهُ تَوَابًا دُنْيَا وَحَسَنَ تَوَابٍ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ  
يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) .

ومن توقيعاته نقلاً من كتاب الصلوة .

وقع الى عامل ظالم « الحق طريق واضح لمن طلبه تهديده يحجته ولا تخاف عثرته  
وتؤمن في السر مغيبته فلا تستقلن منه ولا تعدلن عنه فقد بالغت في مناصحتك فلا تخوجني  
الى معاودتك فليس بعد التقديم اليك إلا سطوة الإنكار عليك » .

ووقع في عناية بإنسان الى بعض العال « أنا بفلان تام العناية وله شديد الرعاية وكنت  
أحب أن يكون ما أرعيتك طرفك من أمره في كتابي مستودعاً تتمك من خطابي فلا تعدلن  
بعنايتك الى غيره ولا تمنحن بمقدك سواء حتى تنيله إرادته وتجاوز به أمنيته إن شاء الله » .

وفي كتاب ابن طيفور من توقيعات أحمد بن يوسف الشيء الكثير فارجع اليه  
إن شئت .

(و) وسائل سهل بن هارون<sup>(١)</sup>

من كلامه :

حكى الجاحظ قال : — لقي رجل سهل بن هارون فقال : هب لي ما لا ضرر به عليك ؛ فقال : وما هو يا أحمى ؟ قال : درهم ؛ قال : لقد هونت الدرهم وهو طامع الله في أرضه

(١) هو من أبناء الحرس وكان من رجالات البلاطة والعلم والحكمة في ددلى الرشيد والمأمون ، وقد وضع كتابا حاكى به كتاب طيبة دومة وسماه « ثمة وعطرة » . وكان ثم بيت الحكمة (مدير دارالكتب) في عهد المأمون . وله سهل بن هارون في مدينة ميسان بين واسط والبصرة ، وفي رواية في دستبان كورة بين الأهواز وواسط والبصرة ، في أواخر النصف الأول من القرن الثاني تقديرا ، ولا يعرف من نسب إلا أنه سهل بن هرون بن راهون (راهون) ركنيته أبرهمور ، فارس الجنس ، أهوازي أو عوزي الموطن ، هراق المنشأ ، تحول إلى البصرة . سرق ثم عرف ، وكانت البصرة إذ ذاك مدينة العلم في الدولة الإسلامية ، بل مدينة العلم في العالم كله ، أركا قيل فيها في الإسلام ، ونزاة العرب « حوت من العلم الأساني أسوله وفروعه ، ومن القاميين حل تيمم مصافحه وطوله ، فندى روحه بلان مجالسها ومجالسها ، واستأثر قلبه بما اقتبس من نور مدارفها فتخرج بلباسها ، ولا شك أنهم كانوا طيقة عالية جدا ، في كل مطلب من مطالب الآداب . وقيل : أن سهل بن هارون كان شيعيا ، وشيعه العراق في زعمه كانوا على الإطلاق متميزة ، ولم يؤرخه أنه ينحصر أحدا من الصحابة الكرام ، بل عرف بالاعتدال مع الأموات ، باعتداله مع الأحياء ، وبأنه حاض غمار مباحث الكلام التي كانت على أشد حاريتها إذ ذاك ولا سيما في البصرة ودار السلام بغداد ، وأتهموه بأنه كان مع الشيوعيين الذين يصغرون شأن العرب ، ولا يرون لهم على البصير فضلا ، وإذا صحت هذه التهمة فمن الصعب التوفيق بين مذهب من يقول بالنسرية ومن يقول بالتشيع ، على ألقى الذي فسره به بعد قرون .

وصفه الجاحظ فقال : « كان سهل سهلا في نفسه ، عتيق الوجه ، حسن الشارة ، بعيدا من القدامة (الشيخ) معتدل القامة ، مقبول الصورة ، يقضى له بالحكمة ، قبي الخيرة ، وريقة الذهن ، قبي الخاطبة ، وريقة المنهج ، قبي الانحياز ، وبالنبل ، قبي الكشف (التهور) » . وكان الجاحظ مازحه ورائحه ، وقيل لفرافله ومله إبراهيم بن ذكوان كاتب الهادي وروزيه ، بينك وبين سهل بن هارون صداقة فأنته لنا كي تعرف ، فقال : « هو كاشف ، وازن العلم ، واسع الحلم ، إن حوشت لم يكتف ، وإن موزع لم يصب ، كالنبت أين وقع ، تقع ، وكالشمس حيث أوت ، أحببت ، وكالأرض ما حبها حلت ، وكالسا . ظهور لنتسه ، ونافع لهد من أحر إليه ، وكالحواء الذي تقطف منه الحياة بالنعم ، وكالرائق يمشي بها المقروء ، وكالسا . التي قد حسنت بأصناف النور » . هـ . مورثان جعيلان في وصف سهل مزجها مصروان مبدعان ماثا بقر به ، ونهبا بملقه وخلقه .

وأتهموه سهل بن هارون بالضل وأوردوا له قصصا وقوادع . وربما كان اتهامه بالضل مبالغا فيه تراه في النكتة والتائدة هـ . من محاضرة للاستاذ الباحث السيد محمد كرمي ألقاها بالجمع العلمي العربي بدمشق ونشرها بجلى الجميع والمتخلف .

لا يعصى ، وهو عَشْرُ العشرة ، والعشرة عشر المائة ، والمائة عشر الألف ، والألف دية المسلم ، ألا ترى الى أين انتهى الدرهم الذى هوئنته ، وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم ! فانصرف الرجل ، ولولا أنصرفه لم يسكت .

وحكى دَعْبِلُ الخزاعى الشاعر قال : أقمنا يوما عند سهل بن هارون ، وأطلنا الحديث حتى أضرب به الجوع ، فدعا بغذائه فَأَتَى بِصَحْفَةٍ فيها مَرَقٌ تحته ديك هَرِمٌ ، فأخذ كسرة وتفقد ما فى الصحفة فلم يجد رأس الديك فسقى مطرقا ، ثم قال للفلام : أين الرأس ؟ قال : رميته به ، قال : ولم ؟ قال : لم أظنك تأكله ، قال : ولم ظننت ذلك ! فوالله إني لأمقت من يرى برجله فكيف برأسه ! ولو لم أكره ما صنعت الا للطيرة والقال لكِهته ، أما علمت أنب الرأس رئيس يتفاد به ، وفيه الحواس الخمس ، ومنه يصيح الديك ، ولولا صوته ما أريد ، وفيه فرقه الذى يتترك به ، وعينه التى يضرب بصفتها المثل فيقال : شراب كمين الديك ، ودماغه عجب لوجع الكلى ، ولم أر عظما قط أهش تحت الأسنان منه ، وإن كان بلغ من بُبُلِكَ أنك لا تأكله ، فعندنا من يأكله ، أو ما علمت أنه خير من طرف الجَلَنَاح ومن رأس المُنْق ! أنظر أين ربيته ؟ فقال : والله ما أدري ، قال : أنا والله أدري ! إنك رميته به ، والله فى بطنك ، فافقه حبيبك .

ومن مؤلفاته كتاب البخل .

ولما صنف سهل كتابه فى البخل أهده الى الحسن بن سهل وأستلمه ، فكتب إليه الحسن : قد مدحت ما ذمه الله ، وحسنت ما قبضه الله ، وما يقوم بفساد ممالك صلاح لفظك ، قد جعلنا ثواب مدحك فيه قبول قولك ، فما تُعطيك شيئا .

وأتهم سهل بن هارون بالبخل وأورد له فى ذلك قصص ونوادير وعده الجاحظ من "متعاقلي البخل" وأنتخب العلماء "قال : ما علمت أن أحدا جرد فى البخل كتابا إلا سهل بن هارون ، وأبا عبد الرحمن الثورى ، والبخل فى القرم غالب فى الجملة ، غلبة الكرم على

طباع العرب ، فاقضى ذلك التفريط الذى رآه سهل فى تبذير العرب ، أن يُبلى لقومه بأرامه المفرطة فى الاقتصاد والإمساك . وما شُهد قط تفريطٌ ألا وإلى جانبه إفراط .

كتبه وطريقته فى التأليف :

كان سهلُ بن هارون مُتقطع القرنين فى صنوف العلم والآداب ، وناهيك بعالم كبير كالجاحظ كان يؤلف الكتابَ الكثيرَ المعانى ، الحسنَ النظم ، فينسبُه الى نفسه فلا يرى الأسماع تُصنِى اليه ، ولا القلوب تَيمُّ نحوه ثم يؤلف كما قال عن نفسه ، ما هو أقص منه مرتبة وأقل منه فائدة ، فيَحُلُّه عبد الله بن المقفع ، أو سهل بن هارون ، فيُقْبِل الناس عليها ، ويسارعون الى نسخها .

ويقال إن طريقة سهل فى كتابته طريقةُ أمير المؤمنين على بن أبى طالب لا يتكلف لكلامه ، فلا يُشاهد فيه الناقد أثر التعمُّل ، بل لا يكلف بغير إرسال النفس على سبيلها ، فهو وأبنُ المقفع والجاحظ على غرار واحد .

وقيل إن سهلاً كاتبُ سلاطين ، والجاحظُ مؤلفُ دواوين . وكان كلامه نعمةً موسيقيةً تعرف أتناء مجلته من رتتها بعد أن ملكت عليك مشاعرك ، لا يحفلُ بالأصباح إلا إذا جاءت عَفْوُ الخطاير ، شانُ بُلغاء الصدرِ الأول . وكان يقول الشعرَ أكثرَ شعره مما أملاه قلبه ، فى غرض من أغراض المجتمع . وعده الجاحظ من الخطباء والشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار ، والكتب الجار المحلدة ، والسرايحسان المولدة ، والأخبار المدقنة . ولقبه مرةً بالكتاب ، ولعل لقب الكتاب فى شرفه أكبر من عالم . وذكره ابن النديم فى البلغاء وقال : إنه شاعرٌ مُقِلٌّ ، وعده فى الشعراء الكتاب . وقال : إنه كان ممن يعمل الاستمرار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم هو وعبدُ الله بن المقفع وعلى بن داود كاتب زبيده . وشعره خمسون ورقة . أما الدهشة ففى تأليفه ، فله ديوان رسائله ، وكتاب الفرو والتعلب ، وكتاب اسباسيوس ( أسانوس ) فى اتخاذ الإخوان ، كتاب أسد بن أسد ، كتاب تحفة العقل ، كتاب حبيب الملك والسياسة ، كتاب الى عيسى بن أبان

في الفضاء، كتاب الفرس، كتاب الفزاليين، كتاب ندود وودود وأندود، كتاب الرّياض، كتاب ثعلبة وعفراء، (وفي رواية ثعلبة وعفراء) على مثال كتاب كلبية ودمنة، قلّده في أيّوايه وأمثاله .

وقال المسعودي : يزيد عليه أى على كلبية ودمنة في حسن نطقه وقد صنّفه للأماون .  
ومن تأليفه : كتاب الهزلية والمخزوميّ، كتاب الرّاقم والعنّاء إلى غير ذلك من المصنّعات التي لم تُبقِ الأيام وبالأأسف على واحد منها فيما علمنا .

دخل سهل على الرشيد وهو يُضاحك الأماون؛ فقال : اللهم زده من الخيرات، وأبسط له من البركات، حتى يكون في كلّ يوم من أيامه مُزيّياً على أمسه، مُقصراً عن غده، فقال الرشيد : يا سهل، مَنْ رَوَى من الشعر أحسنه وأرصنه، ومن الحديث أفصحه وأوضحه، إذا رام أن يقول لا يُعجزه القول؟ فقال سهل : يا أمير المؤمنين، ما ظننت أن أحدا يتقدمني إلى هذا المعنى، قال بل أعتنى همدان حيث يقول :

رَأَيْتُكَ أَمِيسَ خَيْرٍ بَنَى لَوْيَ \* وَأَنْتَ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْكَ أَمِيسَ

وَأَنْتَ ضَرّاً تَرِيدُ الْخَيْرَ ضَعْفًا \* كَذَلِكَ تَرِيدُ سَادَةَ عِيدِ شَمْسٍ

وقد شهّد مقتل البرامكة في سنة ١٨٧ هـ وحدث فيما كان عليه يحيى وجعفر من البلافة فقال : إنَّ تَجَاعَى الخطب، ومُجْبَرَى القريض عيالٌ على يحيى بن خالد بن برمك وجعفر بن يحيى، ولو كان كلامٌ يتصوّرُ درّاً، ويُجْهِلُ المتنطق السريّ جوهرّاً، لكان كلامهما، والمُتَنَقِّ من لفظهما، ولقد كانا مع هذا عند كلام الرشيد في بدئته وتوقيعاته في كُتُبِهِ، فثنين عيين، وبجاهلين آميين، ولقد عُمِرَت معهم، وأدركت طبقة التكلين في أيامهم، وهم يرون أن البلافة لم تُستكمل إلا فيهم، ولم تكن مقصورة إلا عليهم، ولا آفادت إلا لهم، وأنهم محض الأناام، ولُبّاب الكرام، وبلغ الأيام، عَشَقَ منظر، وجودة مخبر، وجزالة متنطق، وسهولة لفظ، وزاهة نفس، وأكتمال خصال، حتى لو فاحرت الدنيا بقليل أيامهم، ولما توريد

من خصّالهم ، كثير أيام من سواهم من لدن أتم أيهم الى النفع في الصور ، وآتعات أهل القبور ، حاشا أنبياء الله المكرمين ، وأهل وحيه المرسلين ، لما باهت إلّا بهم ، ولا عولت في الفخر إلّا عليهم ، ولقد كانوا مع تهذيب أخلاقهم ، وكرم أعرافهم ، وسعة آفاقهم ، ورفق ميثاقهم ، وميسور مذاقهم ، وبهاء إشرافهم ، ونقاوة أعراسهم ، وتهذيب أغراضهم ، وأكثالٍ خلال الخير فيهم ، الى ملء الأرض مثلهم في جنب محاسن المأمون كالنقشة (التفلة) في البحر ، والخرّدة في المهيّة القفر .

قبل : وهذا الكلام على ما فيه من حقيقة في بيان سمايا البرامكة والرشيد والمأمون لم يحنتم بالنصفة الحقّة ، ومال به سهل الى المصانعة ، وخرجه على نحو مبالغة القُرس ، في الإطراء والمآلق لوليّ الأمر .

وروى بعض الرواة أن المأمون كان استقل سهل بن هارون ، وقد دخل عليه يوما والناس على مراتبهم ، فتكلّم المأمون بكلام ذهب فيه كلّ مذهب ، فلما قرّخ من كلامه أقبل سهل بن هارون على الجمّيع فقال : ما لكم تسمعون ولا تهوّن ، وتُشاهدون ولا تفقهون ، وتفهمون ولا تستعجبون ، وتستعجبون ولا تشّصفون ! والله إنه ليقول ويفعل في اليوم القصير ما قَلَّ بنو مروان في الدهر الطويل ، عربكم كمجمكم ، وعجمكم كمبيدكم ، ولكن كيف يُعرّف بالدواء من لا يشعرُ بالداء . فرجع المأمون فيه الى الرأى الأول ، وعرف أنه الرجل كلّ الرجل ، فقزّ به وأدناه على النحو الذي كان عليه في عهد والده .

ومن كلام له في كتابه ثعلبة وعفرة :

”اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مُقتدماً قبل الذي تجودون به من تفضلكم ، فإنّ تقديم النافلة مع الإبطاء في الفريضة شاهدٌ على وهن العقيدة ، وتقصير الرؤية ، ومُضِرٌّ بالتدبير ، ومُغَلٌّ بالاختيار ، وليس في نفع محمد به عوض من فساد المروعة ، ولزوم النقيصة “ .



وهذا مأخوذ من قوله في يحيى بن جعفر :

صَدُوْهُ يَلَادُ الْمَالِ فَيَا يَسُوْبُهُ \* مَنُوعٌ إِذَا مَا مَنَعُهُ كَانَ أَحْرَبًا  
مُدَّلَّلٌ نَفْسٍ قَدْ أَبَتْ خَيْرَ أَنْ تَرَى \* مَكَارِهِ مَا تَأْتِي مِنَ الْعَيْشِ مَقْنَا

وكتب الى صديق له أبل من ضعف :

”بافنى خبر الفترة في السامها وأنحسارها ، والشكاة في حلولها وأرحالها ، فكاد يشغل

القلق بأقوله عن السكون لآخره ، وتَهَلَّ الحيرة في أبتدائه ، عن المسرة في آتتهائه ، وكان

تَغَيَّرُ في الحالين بقدرهما أرتياحاً للأولى ، وأرتياحاً للآخرى “ .

+

وكتب في البخل :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أصْلَحَ اللَّهُ أَمْرَكُمْ وَجَمَعَ تَحْتَكُمْ وَتَحْتَكُمْ الْخَيْرَ وَجَعَلَ مِنْ أَهْلِهِ . قَالَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ :  
يَا مَعْشَرَ بَنِي تَيْمٍ ، لَا تُسْرِعُوا إِلَى الْفِتْنَةِ فَإِنَّ أَمْرَ النَّاسِ إِلَى الْقِتَالِ أَقْلُهُمْ حَيَاةً مِنَ الْفِرَارِ .  
وَقَدْ كَانُوا يَقُولُونَ : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَرَى الْعُيُوبَ جَمَّةً فَتَأْمَلْ عَيْبًا فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَعْيبُ النَّاسَ  
بِفَضْلِ مَا فِيهِ مِنَ الْعَيْبِ . وَمَنْ أَعْيَبَ الْعَيْبَ أَنْ يَعْيبَ مَا لَيْسَ بِهِ . وَقَبِيحٌ أَنْ تَنْهَى  
مُرِيدًا وَأَنْ تُقَرِّىَ مُشْفِقًا . وَمَا أَرَدْنَا بِمَا قُلْنَا إِلَّا هِدَايَتَكُمْ وَتَقْوِيَتَكُمْ ، وَإِصْلَاحَ مَا سَدَكُمْ ،  
وإِبْقَاءَ النِّعَةِ عَلَيْكُمْ . وَمَا أَخْطَأْنَا سَبِيلَ حُسْنِ النِّيَّةِ فِيَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ . وَقَدْ تَأَمَّلُوا  
أَنَا مَا أَوْصَيْنَاكُمْ إِلَّا بِمَا أَخْتَرْنَاهُ لَكُمْ ، وَلَأَنْفُسَنَا قَبْلَكُمْ ، وَشُهِرْنَا بِهِ فِي الْأَفَاقِ دُونَكُمْ ، ثُمَّ نَقُولُ  
فِي ذَلِكَ مَا قَالِ الْعَبْدُ الصَّالِحُ لِقَوْمِهِ : ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَى مَا أَنْتُمْ عَنْهُمْ إِنِ ارِيدُ  
إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ فَمَا كَانَ أَحَقَّنَا  
مَنْكُمْ فِي حُرْمَتِنَا بِكُمْ أَنْ تَزْعُمُوا حَقَّ قَضَيْنَا بِذَلِكَ الْبَيْعِ عَلَى مَا رَعَيْنَاهُ مِنْ رَاجِبِ حَقِّكُمْ ،  
فَلَا الْعُدْرَ الْمَسْطُوعَةَ بَلَّغْتُمْ وَلَا بَوَاجِبَ الْحَرَمَةِ قُتِمَتْ . وَلَوْ كَانَ ذِكْرُ الْعُيُوبِ يُرَادُ بِهِ نَحْرُ لُبَانَا  
فِي أَنْفُسِنَا مِنْ ذَلِكَ شَغْلًا ،

عِثْمُونِي بِقَوْلِ الْخَادِمِ : أَجِدِي الْعَجِينَ فَهُوَ أَطْلَبُ لَطْعَمِهِ وَأَزِيدُ فِي رَبْعِهِ <sup>(١)</sup> . وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَمْلِكُوا الْعَجِينَ فَإِنَّ أَحَدَ الرَّبْعَيْنِ <sup>(٢)</sup> .

وَعِثْمُونِي حِينَ خَضَعَتْ عَلَى مَا فِيهِ شَيْءٌ تَمِينُ مِنْ فَالَكِيَّةٍ رَطْبِيَّةٍ نَقِيَّةٍ وَمِنْ رَطْبَةِ غَرِيبةٍ عَلَى عَبْدٍ نَهَمَ وَصَبَى جَشِيعَ <sup>(٣)</sup> وَأَمَةٍ لِكَهَاءٍ وَزَوْجَةٍ مُضِيعَةٍ .

وَعِثْمُونِي بِأَنَّهُمْ وَقَدْ خَتَمَ بَعْضُ الْأَثَمَةِ عَلَى مِرْوَدٍ سَسَوِيْقٍ وَعَلَى كَيْسٍ فَارِغٍ <sup>(٤)</sup> . وَقَالَ : طَيْبُهُ خَيْرٌ مِنْ طَلِيَّةٍ ، فَامْسِكْتُمْ عَنْ خَتَمٍ عَلَى لَأْشَى وَعِثْمْتُمْ مِنْ خَتَمٍ عَلَى شَيْءٍ .

وَعِثْمُونِي أَنْ قُلْتُ لِلْفَلَاحِ : إِذَا زِدْتَ فِي الْمَرْقِ فَزِدْ فِي الْإِنْضَاجِ لِيَجْتَمَعَ مَعَ التَّائِمِ بِالْعَلَمِ طَيْبُ الْمَرْقِ .

وَعِثْمُونِي بِمُخَصِّفِ النَّعْلِ وَبِتَصْدِيرِ الْقَمِيصِ وَحِينَ زَعَمْتُ أَنْ الْمُخْصُوفَةَ مِنَ التَّعَلِّعِ أَبْنَى وَأَقْوَى وَأَشْبَهُ بِالنَّشْدِ وَأَنْ التَّرْقِيعَ مِنَ الْحَزْمِ وَالتَّقْرِيطِ مِنَ التَّضْيِيعِ . وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْصِفُ نَعْلَهُ وَيَرْقِّعُ ثَوْبَهُ وَيَقُولُ : لَوْ أَهْدَى إِلَى ذِرَاعٍ لَقَبِلْتُ ، وَلَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ . وَقَالَتِ الْحِكْمَاءُ : لَا جَدِيدَ لِمَنْ لَمْ يَلْبَسِ الْخَلْقَ . وَبَعَثَ زِيَادُ بْنُ جُلَّالٍ يَرْتَادُ لَهُ مُحَدَّثًا وَأَشْرَطَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ حَافِلًا فَأَنَاءَ بِهِ مُوَافِقًا فَقَالَ لَهُ : أَكُنْتُ بِهِ ذَا مَعْرِفَةٍ ؟ قَالَ : لَا ، وَلَكِنِّي رَأَيْتَهُ فِي يَوْمٍ قَافِلًا يَلْبَسُ خَلْقًا وَيَلْبَسُ النَّاسُ جَدِيدًا ، فَتَفَرَّسْتُ فِيهِ الْعَقْلَ وَالْأَدَبَ . وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الْخَلْقَ فِي مَوْضِعِهِ مِثْلُ الْجَدِيدِ فِي مَوْضِعِهِ ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا وَتَمَامًا بِهِ مَوْضِعًا كَمَا جَعَلَ لِكُلِّ زَمَانٍ رَجُلًا وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالًا . وَقَدْ أَخْبَانِي أَنَّ اللَّهَ بِالْقِسْمِ وَأَمَاتَ بِالْإِدْوَاءِ وَأَغْصَصَ بِالْمَاءِ . وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الْإِصْلَاحَ أَحَدُ الْكَاسِيَيْنِ كَمَا زَعَمُوا أَنَّ قِلَّةَ الْعِيَالِ أَحَدُ الْيَسَارَيْنِ . وَقَدْ جَبَرَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ يَدَ عَتَرٍ وَأَمَرَ مَالِكُ بْنُ أُنْسٍ

(١) الربع : النماء والزيادة . (٢) إملاك السبين : إتمام جمته . (٣) الكهأ : الخفاء . (٤) المِرْوَد : وهاء الزاد . والسويق : طعام يُلَفُّ مِنْ خُطَّةِ أَوَّلِ الشَّعِيرِ . (٥) - عَفَّ النَّعْلُ : نَزَعَهَا . (٦) تصدير القميص : أَنْ يَجْعَلَ لِنَصْرِهِ بِلَاةً .

يَذَرُكَ التَّمَلُّ . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من أكل بَيْضَةً فقد أكل دَجَاجَةً .  
ولكس سالم بن عبد الله جِلْدُ أَصْحِيَّة . وقال رجل لبعض الحكماء : أريد أن أهدى إليك  
دجاجة . فقال : إن كان لابد فاجعلها بَيُوضًا .

وعبتمونى حين قلتُ : من لم يعرف مواضع السَّرَفِ في الموجود الرخيص لم يعرف  
مواضع الاقتصاد في المُنْتَجع العالى . ولقد أتيتُ بماء للوضوء على مبلغ الكِفَايَةِ وأَسَدُ من  
الكفاية ، فلما صرت الى تفريق أجزائه على الأعضاء الى التوفير عليها من وَضِيعَةِ الْمَاءِ<sup>(١)</sup>  
وجدتُ في الأعضاء فَضْلاً عن الماء ، فصابتُ أن لو كنتُ سَلَكْتُ الاقتصاد في أوائله  
لخرج آخره على كفاية أوله ولكان نصيب الأول كنصيب الآخر ، فعبتمونى بذلك وشغتم  
على ؛ وقد قال الحسن وذَكَرَ السَّرَفَ : أما إنه ليَكُونُ في الماء والكَلالِ فلم يَرْضَ بذكر  
الماء حتى أَرَدَ الْكَلالَ .

وعبتمونى أن قلت : لا يَفْتَرِكُ أَحَدُكُمْ بطول عمره وتقويس ظهره وِرْقَةً عَظْمَهُ ووهن  
قُوَّتِهِ وأن يرى نحوه أَكْثَرَ ذُرِّيَّتِهِ ، فيدعوه ذلك الى إخراج ماله من به وتحويله الى مكان  
غيره وإلى تحكيم السَّرَفِ فيه وتسلط الشهوات عليه ، فلهذه يكون مُمَرًّا وهو لا يدري ،  
وممدوداً له في السنّ وهو لا يتسعر ، ولعله أن يَرْزُقَ الْوَلَدَ على البأس ويَحْدُثُ عليه من آفات  
الدهر ما لا يَحْطُرُ على بال ولا يَذْكُرُه عقل ، فيستردّه من لا يَرُدُّهُ ويُظْهِرُ الشكوى الى من  
لا يرحمه أَصْعَبَ ما كان عليه الطَّلَبُ وأَقْبَحَ ما كان به أن يَطْلُبَ ، فعبتمونى بذلك ؛  
وقد قال عمرو بن العاص : ” إِعْمَلْ لَدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا ، واعمل لآخرتك كأنك  
تموت غداً “ .

وعبتمونى بأن قلت : يَأْتِ السَّرَفُ والتبذير الى مال الموارث وأموال الملوك وأن  
الحفظة لئال المكتسب والفنى المحتلب والى من لا يُعْرَضُ فيه ذهاب الدين وأهتضام  
العرض وتَصَيِّبِ الْبَدَنِ وإهتاج التَّلْبِ أَسْرَعُ ومن لم يحسب نفقته لم يحسب دَخْلَهُ

ومن لم يحسب الدخل فقد أضاع الأصل . ومن لم يعرف الغنى قدره فقد أودن الفقر وطاب نفساً بالذل .

وعبتموني بأن قلت : إن كسب الحلال يضمن الإثاق في الحلال . وإثا الخبيث يتبع إلى الخبيث ، وإثا الطيب يدعو إلى الطيب ، وإثا الإثاق في الهوى يحجب دون الهدى ، فعبتم عليّ هذا القول ، وقد قال معاوية : لم أرتب ذيراً قط إلا وإلى جنبه حق مضى . وقد قال الحسن : إن أردتم أن تعرفوا من أين أصاب الرجل ماله فانظروا فماذا يتفق له فإن الخبيث إنما يتفق في السرف . وقلت لكم بالشفقة عليكم وحسن النظر مني لكم وأتم في دار الآفات ، والجوائح غير مأمونات : فإن أحاطت بمال أحدكم آفة لم يرجع إلا إلى نفسه . فأحذروا التعم باختلاف الأمكنة فإن البلية لا تجري في الجميع إلا بموت الجميع .

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في العبد والأمة والشاة والبعير : توفوا بين المناسيا . وقال ابن سيرين لبعض البحرين : كيف تصنعون بأموالكم ؟ قالوا : نفزقها في السفن فإن عطب بعض سيم بعض . ولولا أن السلامة أكثر ما حملنا أموالنا في البحر . قال ابن سيرين : " تحسبها تحرقاء وهي صناع " .

وعبتموني بأن قلت لكم عند إشفاق عليكم : إن الغنى كسراً وللسال كثرة فمن لم يحفظ الغنى من سكره فقد أضاعه ، ومن لم يرتبط المال بخوف الفقر فقد أهمله .

فعبتموني بذلك وقد قال زيد بن جبلة : ليس أحد أقصر عقلاً من غنى أئمن الفقر ، وسكر الغنى أكثر من سكر الخمر . وقد قال الشاعر في يحيى بن خالد بن برمك :  
وهوبُ تلاد المال فيما يتوبه • متويع إذا ما منته كان أحرابا

وعبتموني حين زعم أني أقدم المال على العلم ، لأن المال به يقاد العلم وبه تقوم النفس قبل أن تعرف فضل العلم ، فهو أصل والأصل أحق بالتفضيل من الفرع ، فقامت :

(١) هذا مثل يضرب لمن تظن به الغفلة وعرفان يظن . (٢) التوبة : التوراة أو القرية .

كيف هذا ؟ وقد قيل لرئيس الحكاء : الأغنياء أفضل أم العلماء ؟ قال : العلماء . قيل له : فما بال العلماء يأنون أبواب الأغنياء أكثر ما يأتى الأغنياء أبواب العلماء ؟ قال : ذلك لمعرفة العلماء بفضيل المسال وجَهْل الأغنياء بحق العلم . فقلت : حالهما هي الفاضية بينهما . وكيف يستوى شيء حاجة العامة إليه وشيء يقضى فيه بعضهم عن بعض .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر الأغنياء باتخاذ العتم والفقراء باتخاذ المدجاج . وقال أبو بكر رضي الله عنه : إني لأبغض أهل بيت يُنفقون نفقة الأيام في اليوم الواحد . وكان أبو الأسود الدؤلي يقول لوُلِدَ : إذا بسط الله لك الرزق فأبسط وإذا قبض فاقبض .

وعبتموني حين قلت : أفضل الغنى على القوت إنما هو كفضل الآلة تكون في البيت إذا احتيج إليها استعملت وإن استغني عنها كانت عبدة . وقد قال الحصين بن المنذر : ودِدْتُ أن لي مثل أحد ذهباً لا أتعف منه شيء . قيل له : فما كنت تصنع به ؟ قال : لكثرة من كان يخدمني عليه لأن المسال مخدم . وقد قال بعض الحكاء : عليك بطلب الغنى فلو لم يكن فيه إلا أنه عز في قلبك ودل في قلب صدوك لكان الحظ فيه جسيماً والنفع فيه عظيماً .

ولسنا ندع سيرة الأنبياء وتعلم الخلفاء وتاديب الحكاء لأعصاب اللهو ، ولستم على تزدون ولا رأي تفتنون ، فقدموا النظر قبل العزم وأدركوا مالكم قبل أن تُدركوا مالكم . والسلام عليكم .

وسهل هو القائل :

تَقَسَّمِي هَمَّانٍ قَدْ كَسَفَا بَالِي \* وَقَدْ تَرَكََا قَلْبِي مَحَلَّةَ بَلْبَالٍ  
هَمَّا أَذْرِيَا تَدْمَعِي وَلَمْ تُكْرِ صَبْرِي \* وَهَبَةُ خَدَّ ذَاتِ يَمِيطٍ وَخَفَالٍ  
وَلَا قَهْوَةَ لَمْ يَبْقَ مِنْهَا سِوَى الدَّمِي \* عَلَى أَنْ تُحَاكِيَ الدَّوْرَ فِي رَأْسِ ذِبَالٍ

تَحَلَّلْ مِنْهَا جُرْمُهَا وَمَا صَكَتْ \* لَهَا نَفْسٌ مَعْدُومٌ عَلَى الزَّمَنِ انْطِلَالِ  
 وَلَكِنَّا أَبْيَى بَيْنَ بَخِيَّةٍ \* عَلَى حَدِيثِ تَبَيَّنِي لَهُ عَيْنُ امْشَالِ  
 فِرَاقُ خَلِيلٍ لَا يَقُومُ بِهِ الْأَمَى \* وَخَلَّةٌ حُرٌّ لَا يَقُومُ بِهَا مَالِ  
 قَوَّاحِمَرِي حَتَّى مَتَى الْقَلْبُ مُوجِعٌ \* لَنَقَرِ خَلِيلٍ أَوْ تَعْدُرُ إِفْضَالِ  
 وَمَا الْفَضْلُ إِلَّا أَنْ تَجُودَ بِنَائِلِ \* وَإِلَّا لِقَاءَ الْخَلِّ ذِي انْطِلَاقِ الْعَالِي

وهو القائل :

إِذَا أَمَرْتُ ضَاقَ حَتَّى لَمْ يَصُقْ خُلِّي \* مِنْ أَنْ يَرَانِي غَيًّا عَنْهُ بِالْيَاسِ  
 لَا أَطْلُبُ الْمَالَ كِي أُغْنِيَ بِفَقْرَتِي \* مَا كَانَ مَطْلَبُهُ فَقْرًا مِنَ النَّاسِ

( ز ) عمرو بن مسعدة<sup>(١)</sup>

كان كاتباً بليفاً، جَزَلَ العبارة وجيَّزها، سديد المقاصد، فضله شائع، ونُبله ذائع؛  
أشهر من أن يُنسى عليه، أو يُدَلَّ بالوصف إليه؛ قد وليَ للأمون الأعمالَ الجليلة، وألحق  
بنيوى المراتب النبيلة. وسمَّاه بعضُ الشعراء وزيراً لعظم منزله لا لأنه كان وزيراً، وهو قوله:  
لقد أسعد الله الوزيرين مسعدة \* وبُثَّ له في الناس سُكَّرٌ ومحمد

(١) هو عمرو بن مسعدة بن سعد بن صول . وصول (بضم الصاد) كان رجلاً تركياً وكانت ملك  
وأخوه فيرز مل جرجان ومجسا بعد التركة وشيئاً بالقرص .

بدأ عمرو بن مسعدة في خدمة الدولة عاملاً من العيال فظهرت كفايته وبلاطه ، وبالبلاط توصل الى الخليفة  
صلى الله عليه وآله أحد أفراد فلال في رجائه ، قال أحد بن يوسف الكاتب : دخلت يوماً على الأمون ويده كتاب يماره  
فراءته تارة بعد أخرى ، ويصعد فيه ويصوب ، فلما مررت على ذلك مدة من زمانه انفتحت الى وقال : يا أحد أراك  
مفكرًا فلما تراءى منى ، قلت : تم ، فقال : ان في هذا الكتاب كلاماً ظيها ما سمعت الرشيد يقول في البلاط ، زم  
أن البلاط إنما هي التباعد عن الاطالة ، والتقرب من معنى البينة ، والدلالة بالقليل من اللفظ ، مل الكثير من  
الحق ، وما كنت أقوم أن أحدا يقدر على ذلك . وقال : هذا كتاب عمرو بن مسعدة اليها ، ففكرت فإذا فيه :  
« تكلمي الى أمر المؤمنين » ومن لميل من قواده ، وروساء أجناده ، في الانقياد والطاعة ، على أحسن ما تكون طاعة  
جند تأثرت أرزاقهم ، واتقياد كفاة تراخت أخطابهم ، فاعطت لذلك أسوأهم ، والثالث معه أمورهم . فلما  
قرأته قال : ان استحسانى اياك بعض أن أمرت لجنه قبله بأخطابهم لسببة أشهر ، وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه  
من حل محله في صناعته . وفي رواية أن الأمون أمر لعمرو بن مسعدة برزق مائة أشهر وأنه قال لأحد من يوسف :  
لله دحروما أبلغه ! الا ترى الى إدماجه المسألة في الأخبار ، وإضافته سلطانه من الاختار .

وكان عمرو بن مسعدة وكنيته أبو الفضل أبيض أحر الوجه ، وكان الأمون يسميه الزوى لياض وجهه وكان  
يغضب ويقول بأذنة ستة سبع عشرة ومائتين . ولم يصرف منشأه وعوده وأساتيدَه وفاة ما عرفناه أنه كان أحد  
إخوة أروبة أحسن أيهم — وكان كاتباً أيضاً — ترجمهم كل الإحسان حتى جاءت من أحدهم هذه البلاط  
الناذرة التي كان من أثرها أن أصبح عشير الأمون ، وكان هو أبو مراد ثابت بن يحيى يكيان بن يديه ومضلعان  
معه ومنازحاته . ولكن يصل الرجل الى هذا المقام مع مثل هذا الخليفة العظيم في كل شؤون يجب أن يتولى على  
صفات عالية يتر مظهرها في الأثران والأثراب .

قال عمرو بن مسعدة : كنت أرفع بين يدي جعفر بن يحيى البرمكي فرجع اليه فلما نه دقة يستزونه في رواهم  
فرضي بها الى وقال : أجبني هنا فكنتيت : « قليل دائم خير من كثير منقطع » فغضب بيده على ظهره وقال : =

فهو كما كتب الحسن بن سهل إلى محمد بن سماعة القاضي وقد احتاج إلى رجل يؤيِّله بعض الأعمال فقال : إنه يريد رجلاً جامعاً لحِصَالِ الخير ، ذا عِفَّةٍ وتزَاهة طِعمَةٍ ، قد هدَّبتَه الأدب ، وأحكته التجارب ، ليس بظَنِينٍ في رأيه ، ولا بَطْعُونٍ في حَسَبِه إن أُؤْتِنَ على الأسرار قام بها ، وإن قُلِدَ مُهِمًّا من الأمور أجزأ فيه ، له سنٌّ مع أدبٍ ولسان ، تُعَقِّده الرزانة ، ويسكته الحلم ، قد فُسر عن ذكاءٍ وفِطْنَةٍ ، وعص على قارحة من الكمال ، تكفيه الخِطَّةُ ، وتُرشد السكنة ، قد أبصر خدمة الملوك وأحكمها ، وقام في أمور مُعَيَّدة فيها ، له أناةُ الوزراء ، وصولةُ الأمراء ، وتواضُعُ العامِاء ، وفهمُ الفقهاء ، وجوابُ الحكماء ، لا يبيح نصيب يومه بجرمان فده ، يكاد يسترق قلوب الرجال بِمِخْلَاقَةِ لسانه ، وحُسنِ بَيَانِه ، دلائلُ الفضل عليه لأخمةٌ ، وأماراتُ العلم له شاهدةٌ ، مُضْطَلِّعًا بما استنهض ، مستغَلًّا بما حمل .

== أي وذير في جلدك . وقد شهد لعمرو بن مسعدة بالبلاغة أحيان البيان في عصره ونهم الفضل من سهل فقال فيه : إنه أبلغ الناس ، ومن بلاغته أن كل أحد إذا سمع كلامه ظن أنه يكتب مثله فإذا رآه بعد طيله . وهذا كما قيل لأحد العلماء : ما حد البلاغة ؟ فقال : التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يقدر على مثلها ، فإذا رآها استعصبت عليه .

ولم يؤثر عن عمرو أنه ألف في موضوع خاص وألفرد مسألة في التأليف ، ومعه ابن النديم في الشراء الكتاب ولم يذكر إلا أنه لأخيه جعاش خمسين ورقة من الشروحي من الضائع أيضاً . والثواب أن مهام الدولة لم تترك له وقتاً يصرفه في دوس خاص ، أو وضع كتاب أو رسالة ، وما تخطه الطباء والأدباء من كلامه ، فهو مما صدره بالمناسبات ، ورياء له المسيجون به ، وما أعظم المفقود منه . والمظنون أن لو كانت جمعت له رسالته على إيجازها لكان منها ديوان كبير ، لأن من صرف أعواماً طويلة وهو نابض على رماحه يبالغ بها الموضوعات السياسية والإدارية في ذلك المجتمع العظيم لاشك أنه يجمع له صفحات كثيرة . وهذا كان عقلاً معروفاً بالإيجاز . ٨١ من محاضرة للاستاذ الباحث محمد كرد علي نشرها بمجلة المجمع العلمي العربي . وفي عمرو بن مسعدة قال محمد الينقي وقد احتل :

قالوا أجز الفضل مثل قلقت ثم • قسى القضاء له من كل حمود

يا ليت طمسه في غير أمثله • أجز العليل وإن في غير ما جود

وتجد ترجمته في معجم الأدباء لياقوت (ج ٦ ص ٨٨) وابن خلكان (ج ١ ص ٥٥٥) والوافي بالوفيات الصفدى (ج ٥ ص ٥٠٢) قسم ثالث من الأصل المتوفر في المخطوط بدار الكتب المصرية .  
(١) في الأساس : ومن الجواز ثلاث طبخ الطعمة ومحيث الطعمة (بالكسر) وهي البجعة التي منها يرتق (يعود الحرفة) . (٢) أجزأني كذا : كفاً . (٣) فرعن ذكاء ، وفطنة ، أي جوب واعتر . فيها . (٤) وعص على قارحة : تخاية من بلوغه درجة الكمال .



ومن كلام حمّو بن مسعدة :

أعظم الناس أجراً ، وأنهم ذكراً ، من لم يرض بموت العدل في دولته ، وظهور الحق في سلطانه ، وإيصال المنافع الى رعيته في حياته ، وأسعد الرعاة من دامت سعادة الحق في أيامه ، وبعد وفاته وانقراضه .

وقال : انلخط صور الكُتُب تُردّ اليها أرواحها .

وقال : انلخط صورة ضئيلة لها معانٍ جليلة ، وربما ضاى عن العيون ، وقد ملا اضطار القنون .

وقال : لا تستصحب من يكون استقامته بمالك وجهك ، أكثر من إمتناعه لك بشكر لسانه وفوائده عليه ، ومن كانت غايته الاحتيال على مالك وإطرائك في وجهك ، فإن هذا لا يكون إلا ردىء الغيب ، سريعاً الى الدم .

وكتب الى الحسن بن سهل :

أما بعد ، فإنك ممن اذا غرس سقي ، وإذا أسس بني ، ليستم تشييد أسسه ، ويحني غمار غرسه ، وشاؤك عندي قد شارف الدروس ، وغرسك مشف على اليبوس ، فتمارك بناء ما أسست ، وسقي ما غرست إن شاء الله .

وكتب الى بعض أصحابه في شخص يمز عليه :

أما بعد ، فوصل كتابي اليك سالم والسلام . أراد قول الشاعر :

يُديروني عن سالم وأديهم • وجلدة بين العين والألف سالم

أى يحل منى هذا المحل .

وكتب الى المأمون في رجل من بني ضبة يستشف له بالزيادة في منزله وجعل كتابه

تسريضا :

أما بعد ، فقد استشف في فلان يا أمير المؤمنين لتطولك على ، في إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتقون به ، وأعلته أنت أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفين ، وفي ابتدائه بذلك تعدي طاعته والسلام .

فكتب إليه المأمون : "قد عرفنا توطئتَكَ له ، وتعرضتَ لنفسك ، وأجبتك اليهما ، ووافقناك عليهما". وقوله : "إن أمير المؤمنين لم يمحط في مراتب المستشفعين ، وفي ابتدائه بذلك تعدى طاعته" : من الكلام السري الذي يدل على مبلغ أدب عمرو وبُعدِ قُوِّره في السياسة ووقوفه على رُوح عصره ونفسية انطفاؤه .

قَدِمَ رجل من أبناء دَهَاقِين<sup>(١)</sup> قريش ، على المأمون لِعِدَّة سلفت منه ، فطال على الرجل انتظارُ خروج أمر المأمون ، فقال لعمرو بن مسعدة : تَوَصَّلْ مِنِّي رُقْعَةً إِلَى أمير المؤمنين تكون أنت الذي تكتبها تكن لك على نعمتان . فكتب : "إِن رَأَى أمير المؤمنين أَنَّ يَفْكَ أَسْرَ عبيده من رِبْقَةِ الْمُطَّل بِقضاء حاجته ، أَوْ يَأْذَنَ لَهُ بِالانصراف إلى بلده فَعَلْ إِن شَاءَ اللهُ " .

فلما قرأ المأمون الرقعة دُعا عَمْرًا فجعل يَتَجَبَّب من حسن لفظها ، وإيجاز المراد . فقال عمرو : فما نَتِجْتُهَا يَا أمير المؤمنين ؟ قال : الكتاب له في هذا الوقت بما وعدناه ، لِثَلَاثَتَائِمَ فضلُ استحساننا لكلامه ، وبِجَاهِزَةِ مائة ألف درهم ، صِلَةً عن دناءة المُطَّل ، وَسِمَاجِيَةِ الإغفال .

وهذا مما يدل على سعة عقل المأمون وولوعه بالبلاغة وقدره أهلها حقَّ قدرهم ، دَعَا ما هنالك من نفس ما أَحَبَّتْ إِلَّا الْجُودَ وَالْعَطَاءَ .  
ومن حَكَمَ عمرو بن مسعدة :

العبودية عبودية الإخاء . لا عبودية الرِّق . الوَدَّ أعطف من الرِّحِم . إن الكريم لَيَرْتَحَى من المعرفة ما رعى الوَصْلُ من القرابة . عليكم بالإخوان فإنهم زِينَةٌ في الرِّاء ، وَعُدَّةٌ لِلْبِلَاء . مَثَلُ الإخْوَانِ مَثَلُ النَّارِ ، قَلِيلُهَا مَنَافِعٌ ، وَكَثِيرُهَا بَوَارٌ . النفس بالصدق ، أَنَسُ مِنْهَا بِالْعَشِيقِ ، وَغَزَلُ المودة ، أَزْقُ مِنْ غَزَلِ الصَّبَابَةِ . من حقوق المودة ، عَفْوُ الإخْوَانِ ، والإغضاء عن تقصيرين إِنْ كَانَ . ذَكَرَ رجلٌ رجلاً فقال : حَسْبُكَ أَنَّهُ خَلَقَ كَمَا تَشْتَهَى إِخْوَانُهُ . المودة قرابة

(١) الدهاقين : الزعماء أرباب الأملوك بالسواد ، وأحدم دهقان (يكسر الهاء مزب) .

مستفادة . ما تواصل اثنان فدام تواصلهما ، الا فضلهما أو فضل أحدهما . أسرع الأشياء انقطاعا مودة الأشرار . المحروم من حريم صالحى الإخوان . لقاء الخليل شفاء الغليل . قلعة الزياره ، أمان من الملاله . إخوان السوء كشجر النار يحرق بعضه بعضا . علامة الصديق اذا أراد القطيعة أن يؤخر الجواب ، ولا يتدنى بالكاتب . لا يفسدك الظن على صديق قد أصلحك اليقين له . من لم يقدم الامتحان قبل الثقة ، والثقة قبل الأُس ، أثمرت مودته دما . اذا قدمت الحرمة ، تشبهت بالفراية . التائب حياة المودة . ظاهر التائب خير من باطن الحقد . ما أكثر من يعاتب لطلب علة ، ويبقى الود ما بقى التائب . تكون الحقد فى الفؤاد ككثون النار فى الزناد . التريب بعيد بعداوته ، والبعد قريب بمودته . لا تأمن عدوك وإن كان مقهورا ، واحذره وإن كان مفقودا ، فإن حد السيف فيه وإن كان مغمودا لا تترص لعدوك فى دولته ، فإنها اذا زالت كفئك مؤنته . نصح الصديق تأديب ، ونصح العدو تأنيب .

روى البيهقي قال : أخبرنا بعض اصحابنا قال : شهدت المأمون يوما وقد خرج من باب البستان ببغداد فصباح به رجل بصري : يا أمير المؤمنين إني تزوجت بامرأة من آل زياد وإن أبا الرازي فزق بيننا وقال : هي امرأة من قريش ؟ قال : فامر عمرو بن مسعدة فكتب الى أبي الرازي :

إنه قد بلغ أمير المؤمنين ما كان من الزبانية وخلع إياها إذ كانت من قريش . فحق تحاكمت اليك العرب ؟ لا أتم لك فى أنسابها ، ومضى وكفك قريش يابن الخناء بأن تلصق بها من ليس منها ؟ نخل بين الرجل وامرأته ، فأن كان زياد من قريش ، إنه لأبن شمية بنى هاشرة ، لا يقتخر ، بقرابتها ولا يتطاول بولادتها . ولئن كان ابن عبيد ، لقد باء بامر عظيم ، اذ آذى الى غير أبيه ، لحظ تجملة ، ومالك قهره .

وأمر المأمون عمرو بن مسعدة أن يكتب لرجل به عناية الى بعض النبال فى قضاء حقه ، وأن يختصر كتابه ما أمكنه ، حتى يكون ما يكتب به فى سطر واحد ، لا زيادة عليه . فكتب عمرو :

كتابي إليك كتابٌ واثقٌ بمن كُتِبَ إليه ، معنيٌّ بمن حُبِّبَ له ، ولن يضيع بين الثقة والعناية حاملُهُ .

وكتب الى بعض الرؤساء ، وقد تزوجت أمه فسأه ذلك ، فلما قرأها ذلك الرئيس تسلى بها ، وذهب عنه ما كان يَحْمِلُهُ . وقيل : إن هذه الرسالة من إنشاء ابن العَيمِد وهي :

الحمد لله الذي كَشَفَ عنا سِتْرَ الحَسْرَةِ ، وهَدَانَا لِسِتْرِ العَوْرَةِ . وَجَدَعَ بِمَا شَرَعَ من الحَلَالِ أَنْفَ النِّعَةِ ، وَمَنَعَ مَنَ عَصَلَ الْأُمَهَاتِ ، كَمَا مَنَعَ مَنَ وَأْدِ الْبَنَاتِ ، اسْتِزَالَا لِلنَّفُوسِ الْأَبْيَةِ ، عَنِ الْحَبِيَةِ حِمِيَةِ الْجَاهِلِيَةِ ، ثُمَّ عَرَضَ لِحَزِيلِ الْأَجْرِ ، مَنَ اسْتَسْلِمَ لَوَاقِعِ قَضَائِهِ ، وَعَوَّضَ جَابِلَ الذَّنْحِ مَنَ صَبَرَ عَلَى نَازِلِ بِلَايِهِ ، وَهَبَاكَ الَّذِي شَرَحَ لِلتَّقْوَى صَدْرَكَ ، وَوَسَّعَ فِي الْبَلَوَى صَبْرَكَ ، وَالْهَمَكَ مِنَ التَّسْلِيمِ لِمَشِيئَتِهِ ، وَالرَّضَا بِقَضِيَّتِهِ ، مَا وَقَفَكَ لَهُ مِنْ قَضَاءِ الْوَاجِبِ فِي أَحَدِ أَبْوَابِكَ ، وَمَنْ عَظَّمَ حَقَّهُ عَلَيْكَ ، وَجَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى جُذْهَ مَا تَجَزَّاهُ مِنْ أَنْفٍ ، وَكَظَمَتَهُ مِنْ أَنْفٍ ، مَعْدُودًا فَمَا يُعْظَمُ بِهِ أَجْرُكَ ، وَيُجْزَلُ عَلَيْهِ ذُنُوبُكَ ، وَقَرَّنَ بِالْحَاضِرِ مِنْ امْتِنَانِكَ بَفْعَلِهَا ، الْمُتَنَظِّرِ مِنْ ارْتِمَاضِكَ بِدَقِّهَا ، فَتَسْتَوِي بِهَا الْمَصِيبَةُ ، وَتُسْتَكْمَلُ عَنْهَا الْمُثْرَةُ ، فَوَصَلَ اللَّهُ لِسِيدِي مَا اسْتَشْعَرَهُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى عُرْسِهَا ، بِمَا يَكْتَسِبُهُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى نَفْسِهَا ، وَعَوَّضَهُ مِنْ أَسْرَةِ فَرَشِهَا ، أَعْوَادَ نَعَشِهَا ، وَجَعَلَ تَعَالَى جُذْهَ مَا يَنْتَمِ بِهِ عَلَيْهِ بِعَدَا مِنْ نِعْمَةٍ ، مَعْرَى مِنْ نِقْمَةٍ ، وَمَا يُولِيهِ بَعْدَ قَبْضِهَا مِنْ مِغْنَةٍ ، مُبْرَأً مِنْ مِحْنَةٍ ، فَأَحْكَمَ اللَّهُ تَعَالَى جُذْهَ ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ ، جَارِيَةً عَلَى غَيْرِ مُرَادِ الْخَالِقِينَ ، لَكِنَّهُ تَعَالَى يَخْتَارُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ فِي الْعَاجِلَةِ ، وَأَبْقَى لَهُمْ فِي الْآجِلَةِ ، اخْتَارَ اللَّهُ لَكَ فِي قَبْضِهَا إِلَهَهُ ، وَقُدَّوْهَا عَلَيْهِ ، مَا هُوَ أَنْفَعُ لَهَا ، وَأَوْلَى بِهَا ، وَجَعَلَ الْقَبْرَ كُفُوًا لَهَا وَالسَّلَامَ .

وقال عبد العزيز بن يحيى المكيّ الذي ناظر بِشْرَ بْنَ غِيَاثِ الْمُرَبِّيعِيّ بحضرة أمير المؤمنين في مسألة خَلَقَ الْقُرْآنَ :

جاءني خليفة عمرو بن مسعدة ومعه جمعٌ من الفرسان والرجال الخفاني مكرماً على دابته حتى صار الى باب أمير المؤمنين فاقفني حتى جاء عمرو بن مسعدة فدخل بغلس في شجرته

التي كان يجلس فيها ثم أذن لي بالدخول عليه فدخلت فلما صرت بين يديه أجلسني ثم قال لي : أنت مقيم على ما كنت عليه أو قد رجعت عنه ؟ فقلت : بل مقيم على ما كنت وقد ازدادت بتوفيق الله تعالى إياي بصيرة في أمري ؛ فقال لي عمرو بن مسعدة : أيها الرجل ، قد حملت نفسك على أمر عظيم ، وبلغت الغاية في مكروهاها ، وتمزجت لما لا قيام لك به في مخالفة أمير المؤمنين ، وأصبحت بما لا يثبت لك به حجة على مخالفتك ، ولا لأحد غيرك ، وليس وراءك بسد الحجة عليك إلا السيف ، فانظر لنفسك وبادر أمرك ، قبل أن تقع المناظرة وتظهر عليك الحجة ، فلا تنفعك الندامة ولا يقبل منك معذرة ولا تقول لك عثرة ، فقد رحمتك واشفقت عليك مما هو نازل بك ، وأنا أستقبل لك أمير المؤمنين وأسأله الصفع عن جرمك ، وعظيم ما كان منك إذا أظهرت الرجوع عنه والتدم على ما كان ، وأخذ لك الأمان منه وإجلاثة ، فإن كانت لك ظلامة أزلتها منك وإن كانت لك حاجة قضيتها لك ، فانما جلست رحمة لك مما هو نازل بك بعد ساعة إن أفتت على ما أنت عليه ورجوت أن يخلصك الله تعالى على يدي من عظيم ما أوقعت نفسك فيه .

## شعره :

فقلنا أمثلة قليلة من نثر عمرو بن مسعدة ، أما شعره فقليل جدا . ذكر المترجمون له أنه كان له فرس أدوم أغر ، لم يكن لأحد مثله قراة وحسنا . فبلغ المأمون خبره ، وبلغ عمرو ابن مسعدة ذلك . فخاف أن يأمر بقتله إليه فلا يكون له فيه تجمدة ، فوجه به إليه هدية وكتب معه :

يا إماما لا يُدَا \* نيبه إذا صد إمام  
فضيل الناس كما يقد \* قبل نقصانا تمام  
قد بهتنا يحسوا \* مثله ليس يرأم  
فسرس يزي به لل \* حسن مرج وبقام  
دونه الخيل كما م \* لك في الفضل الأنام

وَجْهَهُ صَبَحٌ وَلَكِنْ • سَاثِرَ الْجَسْمِ ظِلَامٌ  
وَالَّذِي يَصْلُحُ لَلْو • نَى عَلَى الْعَبْدِ حَرَامٌ

وعمره هو القائل :

وَمُسْتَمْدِبٌ لِلْهَجْرِ وَالْوَصْلُ أَعْدَبُ • أَكَايِمُهُ حُسْبَى فَيْتَأَى وَأَقْرَبُ  
إِذَا جَدْتُ نَفْسِي بِالرَّضَا جَادَ بِالْجَفَا • وَيَزَعُمُ أَنَّي مُذْنِبٌ وَهِيَ أَوْ ذَنْبُ  
تَعَلَّمْتُ أَلْوَانَ الرِّضَا خَوْفَ هَجِيرِهِ • وَعَلِمَهُ حُسْبَى لَهُ كَيْفَ يَفْقَبُ  
وَلِي غَيْرُ وَجْهِ قَدْ عَرَفْتُ طَرِيقَهُ • وَلَكِنْ بَلَ قَلْبِي إِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ

ووقع مرة في ظهر رُقْمَةَ لرجل :

أَعَزُّزْ عَلَى بَأْسِي أَنْتَ طَالِبُ سُهُ • لَمْ يُمْكِنِ التُّنَجُّ فِيهِ وَأَقْضَى أَمْدُهُ

ولعمرو بن مسعدة حكايات منها ما حكاها القاضي التنوخي<sup>(١)</sup> في كتاب الفرج بعد الشدة :

قال عمرو بن مسعدة : كنت مع المأمون عند قدومه من بلاد الروم حتى إذا نزلت الرُقْمَةَ قال : يا عمرو، ما ترى الرَّجِيحِيَّ قَدْ احْتَوَى عَلَى الْأَهْوَازِ، وَهِيَ سَلَةُ الْخَيْرِ وَجَمِيعُ الْمَالِ قَبْلَهُ وَطَمَعُ فِيهَا، وَكُتِبَتْ مُتَّصِلَةً بِمَهْلِكِهَا، وَهُوَ يَتَعَلَّقُ وَيَتَرَبَّصُ بِالدَّوَارِ؟ فقلت : أنا أكفي أمير المؤمنين هذا، وأنفذ من يضطره إلى حَمَلِ مَا عَلَيْهِ، فقال : ما يقضى هذا، فقلت : فيأمر أمير المؤمنين بأمره، فقال : فانرج إليه بنفسك حتى تُصَفِّقَهُ بِالْحَدِيدِ، فتصاحله إلى بغداد وتقبض على جميع ما في يده من أموالنا، وتنتظر في أعمالنا وترتب لها عمالاً، فقلت : السمع والطاعة، فلما كان في غَدٍ دخلت عليه فقال : ما فعلت فيما أمرتك به ؟ قلت : أنا على ذلك، قال : أترى أن تنجي في غَدٍ مَوْدَعًا؟ قلت : السمع والطاعة، فلما كان في غَدٍ حَجَّتْهُ مَوْدَعًا، فقال : أريد أن تحلف لي أنك لا تقيم ببغداد إلا يوماً واحداً، فاضطربت من ذلك إلى أن حضني وأستحلفني ألا أقيم فيها أكثر من ثلاثة أيام، فخرجت

(١) راجع (ج ٢ ص ٣٥ طبعة الهلال) . والبغد الفريد لابن جرير (ج ٢ ص ٢١١ طبعة بولاق) .

حتى قدمت بغداد ، فلم أقم بها إلا ثلاثة أيام وأخبرت في زلالي أريد البصرة وجبل لي في الزلالي خيش واستكثرت من الثلج لشدة الحر .

فلما صرت بين جرجان وجبل سمعت صوتا من الشاطئ يصيح : يا ملاح، فوفعت  
تخفيف الزلالي وإذا بشيخ كبير السن جالس حامير الرأس حافي القدمين حلق القميص، قلت  
للعلام : أجبه، فاجابه، فقال : يا غلام، أنا شيخ كبير السن على هذه الصورة التي ترى،  
وقد أحرقتني الشمس وكادت لتلغني ، وأريد جبل، فاحملوني معكم فارتب الله بحسن أجر  
صاحبكم، قال : فستشمه الملاح وأنتهز، فادركتني رقة عليه وقلت : خذوه معنا، فتقدمنا  
السطح ومحمنا به وحملناه ، فلما صار معنا في الزلالي وأخذنا نتقدم فدفعت إليه قبضا  
ومنديلا وغسل وجهه واستراح وكأنه كان ميتا واد إلى الدنيا فحضر وقت الغذاء وتقدمت  
وقلت للعلام : هات يا كل معنا، فجاء وقعد على الطعام ، فاكل أكل أديب نطيف غير  
أن الجوع أثر فيه، فلما رُفعت المائدة أردت أن يقوم ويفسل يده ناحية كما تفعل العامة  
في مجالس الخاصة فلم يفعل، ففسلت يدي وتذمت أن أمر بقيامه ، فقلت : قدموا له  
الطشت ففسل يده، وأردت بعدها أن يقوم لأنام فلم يفعل، فقلت : يا شيخ ، أي شيء  
صناعتك؟ قال : حائك أصليحك الله، فقلت في نفسي : هذه الحياكة علمته سوء الأدب،  
فتناومت عليه ومددت رجلي فقال : قد سألني عن صناعتي وأنت أعزك الله ما صناعتك؟  
فأكبرت ذلك وقلت : أنا جئت على نعي هذه الحياكة ولا بد من احتياها، أترأه الأحق  
لا يرى زلالي وفلساني ونعني وأن مثلي لا يقال له هذا! فقلت : كاتب، فقال : كاتب  
كامل أم كاتب ناقص فإن الكاتب بحسبة، فأبهم أت ؟ فورد على قول المالك موردا  
عظيما وسمعت كلاما أكبرته وكنت متكا بغلست، ثم قلت : فصل الخمسة قال :

نعم، كاتب نراج يحتاج أن يكون علما بالشروط والطبوس والحساب والمساب  
والبوق والفتسوق والرتوق . وكاتب أحكام يحتاج أن يكون علما بالحلال والحرام

(١) في العقد الجديد : « بين دير مرقل ودير الماهول » .

والاحتجاج والإجماع والأصول والفروع . وكاتبٌ مَعُونَةٌ يحتاج أن يكون عالمًا بالفصاح  
والخسود والجراحات والمواثبات والسياسات . وكاتبٌ جَيِّشٌ يحتاج أن يكون عالمًا بِمُجْلِ  
الرجال وشيآت الدوابِّ ومُدَاراةِ الأولياء وشيئا من العلم بالنسب والحساب ، وكاتبٌ رسائل  
يحتاج أن يكون عالمًا بالصدور والفصول والإطالة والإيجاز وحُسنِ البلاغة والخط، قال :  
فقلت : إني كاتبٌ رسائل، قال : فأسألك عن بعضها ، قلت : قل ، فقال لي :

أصلحك الله ، لو أن رجلا من إخوانك تزوج أهلك فأردت أن تكتبه مهنتا فكيف  
كنت تكتبه ؟ فكرتُ في الحال فلم يخطر ببالي شيء ، فقلتُ : ما أرى للتهينة وجهًا ،  
قال : فكيف تكتب إليه تمزيه فكرتُ فلم يخطر ببالي شيء ، فقلت : اعفني ، قال :  
قد فعلت ، ولكلّ لست بكاتبٌ رسائل ، قلت : أنا كاتبٌ نرجح ، قال : لا بأس ، لو أن  
أمير المؤمنين ولّاك ناحية وأمرك فيها بالعدل والإنصاف وتقضى حاجة السلطان فيظلم اليك  
بعضهم من مسأحيك وأحضرتهم للنظر بينهم وبين رعيّتك ، خلف المسأح بالله العظيم لقد  
أنصفوا وما ظلموا ، وحلفتُ الرعيّة بالله إنهم لقد جاروا وظلموا ، وقالت الرعيّة : قف معنا  
على ما مسحوه وأنظر من الصادق من الكاذب ، فخرجتُ لتقف عليه ، فوقفوا على براح  
شكّلهم قائل قنا ، كيف كنت تمسحه ؟ قلت : كنت أخذ طولله على أعراجه وعرضه ثم  
أضربه في مثله ، قال : إن شكلي قائل قنا أن يكون زاويّاه محدوديتين وفي تحديده تقويس ،  
قلت : فأخذ الوَسَطَ فأضربه في العَرْض ، قال : إذا بينتني عليك العمود ، فأمكنني ،  
فقلت : ولستُ كاتبٌ نرجح ، قال : فإذا ما أنت ؟ قلت : أنا كاتبٌ قاض ، قال : أرايتَ لو أن  
رجلا توفي وخلف امرأتين حاملتين إحدهما حُرّة والأخرى سَرِيّة ، فولدت السريّة غلاما  
والحرّة جارية ، فعَدَّتْ الحُرّة الى ولد السريّة فأخذته ، وتركّت بدله الجارية فاغتصبا  
في ذلك ، فكيف الحكمُ بينهما ؟ قلتُ : لا أدري ، قال : فليست بكاتبٌ قاض ، قلتُ :  
فأنا كاتبٌ جيش ، فقال : لا بأس ، أرايتَ لو أن رجلين جاء اليك لتُحْلِمَهما وكلّ واحد  
منهما اسمه وأُمُّ أبيه كاسم الآخر إلا أن أحدهما مشقوّ الشفة العليا والآخر مشقوّ



الشفة السفلى ؟ كيف كنت تحليهما ، قال : قلت : فلان الأفلح وفلان الأعلم ، قال : إن رزقهما مختلفان وكل واحد منهما يبيع في دعوة الآخر ، قلت : لا أدري ، قال : فلست بكااتب جيش ، قلت : أنا كاتب معونة ، قال : لا تبالي ، لو أنك رجلين رُفعا إليك قد تبيع أحدهما الآخر شجرة موضحة ، وضع الآخر شجرة مأمونة ، كيف كنت تفصل بينهما ؟ قلت : لا أدري ، قال : لست إذا كاتب معونة ، اطلب لنفسك أيها الرجل شغلا غير هذا ، قال : فصغرت إلى نفسي وغاظني ، فقلت : قد سألت عن هذه الأمور ويجوز ألا يكون عندك جوابها كما لم يكن عندي ، فإن كنت عالما بالجواب فقل ، فقال :

نعم ، أما الذي تزوج أمك فتكتب إليه : أما بعد ، فإني الأمور تجري من عند الله بغير محبة عباده ولا اختيارهم ، بل هو تعالى يختار لهم ما أحب ، وقد بلغني تزويج الوالدة خا الله لك في قبضها ، وإني القبور أكرم الأزواج وأستر العيوب والسلام .

وأما براح قاتل قنا فتمسح العمود حتى إذا صار عددا في يدك ضربته في مثله ومثل ثلثه فما خرج فهو المساحة .

وأما الجارية والغلام فيوزن لبن الاثنين ، فأيهما كان أخف فالجارية له .

وأما الجنديان المتفقا الأيمنين ، فإن كان الشق في الشفة العليا قيل فلان الأعلم ، وإذا كان في الشفة السفلى قلت فلان الأفلح .

وأما صاحب الشجيتين فلصاحب الموضحة ثلث الدية ، ولصاحب المأمونة نصف الدية ، فلما أجاب بهذه المسائل تعجبت منه وامتحنه بأشياء كثيرة غيرها فوجدته ماهرا في جميعها حاذقا بليغا ، فقلت : ألست زعمت أنك حائك ، فقال : أنا أصلحك الله حائك كلام ولست بحائك نساجة ، وأنشأ يقول :

ما صرُّ بُؤْس ولا نعيم \* إلا ولي فيهما نصيب  
فذقتُ حلوا وذقتُ مرًا \* كذلك عيشُ الفتى ضروب  
نوائب الدهر أدبني \* وإنما يوصفُ الأديبُ

(١) الموضحة : الشجة التي تبدي وضع النظام .

قلت : فما الذي بك من سوء الحال ؟ قال : أنا رجلٌ كاتبٌ دامت عُطاتي ، وكثرت عيَّتي ، وتواصلت محنتي ، وقلت حيتي ، فخرجت أطلبُ تصرفاً فقطع عليَّ الطريقَ فصرْتُ كما ترى ، فشبَّت على وجهي ، فلما لآح لي الزَّلالُ استغثتُ بك ، قلتُ : إني قد خرجتُ إلى مُتَصَرِّفٍ جليلٍ أحتاجُ فيه إلى جماعةٍ مثلك ، وقد أمرتُ لك بِخُطَّةٍ حَسَنَةٍ تصلحُ لمثلِكَ ونعمسةٍ آلافِ درهمٍ تُصلحُ بها أَمْرَكَ ، وتُنفِذُ منها إلى عيالك ، وتُقَوِّى نفسَكَ بِبَاقِهَا ، وتصيرُ معي إلى عَمَلِي فأولِّيكَ أَجَلَهُ ، فقال : أحسنَ اللهُ بجزائك إذا تجددتُ بِمِثْلِ أَمْرِكَ ، ولا أقومُ مقامَ معذِرِ البك إن شاء الله ، وأمرتُ بِتَقْيِضِهِ ما رَسَمْتُ لَهُ قَبْضَهُ ، وانحدر إلى الأهوازِ معي ، بفعلته المناظرَ للرَّجْحَى والمُحاسِبَ له بِمُضَرَّتِي ، والمستخرجَ لِمَا عليهِ ، فقام بذلك أحسنَ قيامٍ وعظمتُ حاله معي ، وحدثتُ نعمته إلى أحسنَ ما كانت عليه .

وفي حمرون مسعدة يقول أبو محمد عبد الله بن أيوب التيمي :

أَعِنِّي عَلَى بَارِقِ نَاضِبٍ \* خَفِيَّ كَوَحِيكِ بِالْحَاجِبِ  
كَانَتْ تَأَلُّقُهُ فِي السَّمَاءِ \* يَدَا كَاتِبٍ أَوْ يَدَا حَاسِبِ  
فَرَوَى مَنَازِلَ تَذَكُّرُهَا \* يُبَيِّجُ مِنْ شَوْقِكَ الْغَالِبِ  
ضَرِيبٌ يَمِيزُ لِأَوَّلَانِهِ \* وَيَسِيحُ عَلَى عَصَرِهِ الدَّاهِبِ  
كَفَاكَ أَبُو الْفَضْلِ عَمْرُو النَّدَى \* مَطَالَعَةُ الْأَمْسِلِ الْكَاذِبِ  
وَصَدِيقُ الرَّجَاءِ وَحُسْنُ الْوَفَاءِ \* لِعَمْرُو بْنِ مَسْعَدَةَ الْكَاتِبِ  
مَرِيضُ الْقِتَاءِ طَوِيلُ الْبِنَا \* فِي الْمِرْزِ وَالشَّرَفِ الشَّاقِبِ  
بَنِي الْمَلِكِ طَوْدُهُ لَهُ يَنْتَه \* وَأَهْلُ الْخِلَافَةِ مِنْ غَالِبِ  
هُوَ الْمُرْتَقَى لَصُورِفِ الزَّمَانِ \* وَمُتَمَصِّمُ الرَّاغِبِ الرَّاهِبِ  
جَوَادٌ بِمَا مَلَكَتْ كَفُّهُ \* عَلَى الضَّيْفِ وَالْجَارِ وَالصَّاحِبِ  
بَادِمُ الرِّكَابِ وَوَشْيُ الثِّبَا ■ بِِ الطَّرْفِ وَالطُّفْلَةِ الْكَاعِبِ  
تَوَمَّلْهُ لِحَسَامِ الْأَمْسُورِ \* وَزَجْوِهِ لِقَلِيلِ الْكَارِبِ

خَصِيْبُ الْجَنَابِ مَطِيرُ السَّحَابِ \* بِشِمَتِهِ لَيْتَ الْجَنَابِ  
 يُرَوِّى الْقَنَا مِنْ نَحْوِ الْعِدَا \* وَيُفْرِقُ فِي الْخُودِ كَالْعَلَابِ  
 إِلَيْكَ تَبَدَّدَتْ بِأَكْوَارِهَا \* حَرَجِجٌ فِي مَهَمِّهِ لَاحِبِ  
 كَانَتْ نَعَامًا تَبَارَى بِهَا \* بِوَايِلٍ مِنْ بَرْدٍ عَاصِبِ  
 يَرِدُّنَ نَدَى كَفْكَ الْمُرْتَمِي \* وَيَقْضِيْنَ مِنْ حَقِّكَ الْوَاجِبِ  
 وَفِيَّ مَا أَنْتَ مِنْ خَابِرٍ \* بِسَجِّلٍ لِفُورٍ مِنْ خَارِبِ  
 قَسْنَى الْعِدَا بِكُلُوسِ الرَّدَى \* وَتَسْقِيْ مَسْغَلَةَ الْعَالِبِ  
 وَهَكِّمِ رَاغِبٍ نَلْتَهُ بِالْعَمَلَا \* وَكَمْ نَلَتْ بِالْمُطْلَفِ مِنْ هَارِبِ  
 وَتِلْكَ انْخِلَاقُ أُعْطِيَتْهَا \* وَفَضْلٌ مِنَ الْمَنَاعِ الْوَاجِبِ  
 كَسَبَتْ الثَّنَاءَ وَكَسَبُ الثَّنَا \* أَوْ أَفْضَلُ مَكْسَبِ الْكَاسِبِ  
 يَقِينُكَ يَجْلُو سِتْوَرُ الدُّجَى \* وَطَنُكَ يُخَمِّرُ بِالْفَنَابِ

## رسائل الجاحظ

## رسالته في بني أمية

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : <sup>(١)</sup> أطال الله بقاءك ، وأتم نعمته عليك ، وكرامته لك . أعلم أرشد الله أمرك ، أت هذه الأمة قد صارت بعد إسلامها ، والخروج من جاهليتها ، إلى طبقات متفاوتة ، ومنازل مختلفة : فالطبقة الأولى عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكر وعمر ، رضي الله عنهما ، وست سنين من خلافة عثمان رضي الله عنه ، كانوا على التوحيد الصحيح ، والإخلاص المحض ، مع الأنفة واجتماع الصكيلة على الكتاب والسنة ، وليس هناك عمل قبيح ، ولا بدعة فاحشة ، ولا نزع يد من طاعة ، ولا حسد ولا غل ولا تأول ، حتى كان الذي كان : من قتل عثمان ، رضي الله عنه ، وما أتتكم منه ، ومن خبطهم أيامه بالسلاح ، وبسج بطنه بالحراب ، وفقر أوداجه بالمشاقص ، وشذخ

(١) هو إمام الأدب أبو عثمان عمرو الجاحظ بن بحر بن محبوب الكوفي البصري صاحب التصانيف المهمة والرسائل المبدعة . وقد تقدم الكلام عليه في المجلد الأول من هذا الكتاب ( ص ٢١١ ) .  
وله حوالي سنة ١٦٠ هـ مدينة البصرة ونشأ بها فتأثر كل فن . ومارس كل علم عرف في زمانه مما وضع في الإسلام أو نقل عن الأمم الأرائق فأصبح له مشاركة في كل ما يقع عليه الحس أو يضطر باليال فهوارية . متكلم . فيلسوف . كاتب . مصنف . مترجم . شاعر . مؤرخ . عالم بالحيوان والنبات والحوات . وصاف لأحوال الناس وديعوا معاشهم واضطرابهم وأحلامهم رحيلهم إلا أنه غلب عليه أمران : الكلام على طريقة المعتزلة فهو بذلك إمام الطائفة الجاحظية من المعتزلة والأدب المزروع بالفلسفة والفكاهة فهو أول من ألف الكتب الجسامية فنثرته ككتاب البيان والبيان وكتاب الحيوان وغيرها .

وكان غاية في الذكاء ودقة الحس وحسن الفراسة إلى دعابة فاضية ، وقلة اعتداد بما يأخذ به الناس أقسمهم ويستهولونه من الرسوم والمادات وأنواع الصبغة الملحية وعدم مبالاة بوقوع المترفين فيه . وكان مصما بسواد كثير المزاولة لإخوانه وكان على دمامة خلقه وتنافس خلقه غفيف الروح ، فكذلك المجلس ، غاية في النور وطيب الفكاهة وسلاوة الكلام وهو على الجملة أحد أفاض العالم وأحد حجج اللسان العربي . توفي سنة ٢٥٥ هـ ببغداد بمقبرة الخيزران . وتجد ترجمته في معجم الأدباء لبلاوت ( ج ٦ ص ٥٦ — ٨٠ ) وابن خلكان ( ج ١ ص ٥٥٣ ) .  
(٢) في الأصل : « المخلص » .

هامته بالعمد، مع كفه عن البسط، ونبيه عن الامتناع، مع تعريفه لم قبل ذلك : من  
كم وجه يجوز قتل من شهد الشهادة، وصلى القبلة، وأكل الذبيحة، ومع ضرب نسائه  
بمحضرته، وإلحاق الرجال على حرمة، مع اتقاء ثالثة بنت الفرافصة عنه بيدها، حتى أطوا<sup>(١)</sup>  
إصبعين من أصابعها، وقد كشفت عن قناعها، ورفعت عن ذيلها ليكون ذلك رادعا لهم،  
وكاسرا من غريبتهم، مع وطئهم في أضلاعه بعد موته، وإلحاقهم على المذبلة جسده مجزوا  
بعد بصره، وهي الجزرة التي جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم كفنا لبناته وأيامه وعقائله،  
بعد السب والتعطيش والحصر الشديد، والمنع من القوت، مع احتجاجة عليهم وإلحاقهم لهم،  
ومع اجتماعهم على أن دم الفاسق حرام، كدم المؤمن، إلا من ارتد بعد إسلام، أو زنى  
بعد إحسان، أو قتل مؤمنا على عمد، أو رجل عدا على الناس بسيفه فكان في امتناعهم  
منه عطية، ومع اجتماعهم على ألا يقتل من هذه الأمة، ولا يُجهز منها على جريح،  
ثم مع ذلك كله دُفروا عليه وعلى أزواجه وحريمه وهو جالس في عجرابه ومُصمَّعه يلوح  
في عجزه، لن يرى أن موحدًا يُقدم على قتل من كان في مثل صفته وحاله .

لأجرم لقد احتلبوا به دما لا تطير رغوته، ولا تسكن فورته، ولا يموت ثأره، ولا يكفل  
طالبه، وكيف يضيع الله دم ولّيه، والمتقم له، وما سمعتا بدم يبي بن زكريا عليهما  
السلام، فلا غلبته، وقُتل ساحفه، وأدرك بظالمته، وبلغ كل محبته، كديمه رحمة الله  
عليه .

ولقد كان لم في أخذه، وفي إقامته للناس، والاقتصاص منه، وفي بيع ما ظهر من  
رباعه، وحدائقه، وسائر أمواله، وفي حبسه بما بقي عليه، وفي طمره حتى لا يُنسى،  
بذكرك، ما يُنهيهم عن قتله إن كان قد ركب كل ما قد فوه به، وأدعوه عليه، وهذا كله  
بمحضرة جلّة المهاجرين والسلف المقدسين، والأنصار والتابعين .

(١) قال في شرح القاموس : كل ما في العرب من هذا الاسم «فراصة» فهو ضم الفاء الا فراصة أيا نالة  
فهو بالفتح لا غير . (٢) أطوا : قتلوا . (٣) حض بضم هاء بضم طيه متبدلين .

ولكنّ الناس كانوا على طبقاتٍ مختلفة، ومراتبٍ متباينة : من قائل ومن شاذّ على عضده، ومن خاذل عن نصرته، والعاجز ناصر بإرادته، ومطيع بحسن نيته، وإتباع الشكّ منّا فيه، وفي خاذله، ومن أراد عزله والاستبدال به؛ فأما قائله، والمعين على دمه، والمؤيد لذلك منه، فضلالٌ لاشكّ فيهم، ومُراقٍ لا امتراء في حكمهم، على أنّ هذا لم يُعدّ منهم الفجور: إِمّا على سوء تأويل، وإمّا على تعمد للشقاء، ثم ما زالت الفتن متصلة، والحروب متدافة، كحرب الجبل، وكوقائع صفين، وكيوم الثُهران، وقبل ذلك يوم الزابوقة<sup>(١)</sup>، وفيه أسرا بن حنيفة، وقتل حكيم بن جبلة، إلى أن قتل أشقاها علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، فأسعده الله بالشهادة، وأوجب لقاتله النار واللعة؛ إلى أن كان من اعتزل الحسن عليه السلام الحروب وتخلّيته الأمور، عند انتثار أصحابه، وما رأى من الخلل في عسكره، وما عرّف من اختلافهم على أبيه، وكثرة تلونهم عليه، فعنها استوى معاوية على الملك، واستبدّ على بقية الشورى، وعل جماعة المسلمين، من الأنصار والمهاجرين، في العام الذي سُمّوه عام الجماعة، وما كان عام جماعة، بل كان عام فرقة وفقرى وقبيلة، والعام الذي تحوّلت فيه الإمامة ملكاً كسروياً، والخلافة غضباً قبصرياً، ولم يُعدّ ذلك أجمع الضلال والفسق. ثم ما زالت معاصيه من جنس ما حكيّا، وعلى منازب ما ربّنا، حتى رَدّ قضية رسول الله صلى الله عليه وسلم رداً مكشوفاً، وبجحد حكمة بجحد ظاهر، وفي ولد الفِرَاش وما يجب للعاهر، مع اجتماع الأمة أنّ مُتَبِّعة لم تكن لأبي سفيان فراشاً، وأنه إنما كان بها عاهراً. ففرج ذلك من حكم الفجار إلى حكم الكفار، وليس قتل مجرّب عن عدى، وإطعام عمرو بن العاص نجاج مصر، وبيعة يزيد الخليج، والاستئثار بالقيء، واختيار الولاء على الهوى، وتعطيل الحدود بالشفاعة والقراءة، من جنس مجد الأحكام المنصوبة، والشرائع المشهورة، والسُنَنِ المنصوبة، وسواء في باب ما يستحق من الكفار بجحد الخطاب، وردّ السنة إذا كانت السنة في شهرة الكتاب وظهوره، إلا أنّ أحدهما

(١) الزابوقة : موضع قريب من البصرة كانت فيه وقعة الجبل أوّل الهار .

أعظم ، وعقاب الآخرة عليه أشد ، فهذه أول كُفْرَةٍ ، كانت من الأئمة ، ثم لم تكن إلا فمين يدعى إمامتها ، والخلافة عليها ، على أن كثيرا من أهل ذلك العصر قد كفروا بترك إكفاره ، وقد أُرْبِتْ عليهم نَابِتَةُ عَصْرنا ، ومُتَبَدِّعَةُ دَهْرنا ، فقالت : لا تَسْبُوهُ ، فإن له محبة ، وسب معاوية بدعة ، ومن يُبْقِضْهُ فقد خالف السنة ، فزعمت أن من السنة ترك البراءة ، فمن يحد السنة ، ثم الذي كان من يزيد آبنه ، ومن عماله ، وأهل نُصْرته ، ثم غزو مكة ، ورمى الكعبة ، واستباحة المدينة ، وقتل الحسين عليه السلام ، في أكثر أهل بيته ، مصابيح الظلام ، وأوتاد الإسلام ، بعد الذي أعطى من نفسه ، من تفريق أتباعه ، والرجوع إلى داره وحره ، أو الذهاب في الأرض ، حتى لا يُحْسَّ به أو للمقام حيث أُمِرَ به ، فأبوا إلا قتله ، والتزول على حكمهم ، وسواء قتل نفسه بيده ، أو أسأماه إلى عدوه ، وخُزِرَ فيها من لا يرد غلبه إلا بِشُرْبِ دمه ، فاحسبوا قتله ليس بكفر ، وإباحة المدينة ، وهتك الحرمه ، ليس بمحبة ، كيف تقولون في رمي الكعبة ، وهدم البيت الحرام ، وقبلة المسامين ؟ فإن قُتِمَ ليس ذلك أرادوا بل إنما أرادوا المتحز به ، والمنحصرن بحيطانه ، أفما كان في حق البيت وحرمة أن يحصروه فيه ، إلى أن يُعْطَى بيده ! وأى شيء بقي من رجل ، قد أخذت عليه الأرض إلا موضع قدمه ! واحسبوا مارووا عليه من الأشعار ، التي قولها شرك ، والتقتل بها كفرا ، شيئا مصنوعا ، كيف تصنع بتقر القضيبي بين شقيق الحسين عليه السلام ، وحمل بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم حواسر على الأقباب العارية ، والإيل الصعاب ، والكشف عن عورة علي بن الحسين عند الشك في بلوغه ! على أنهم إن وجدوه ، وقد أنبت قتلاه وأن لم يكن أنبت حملوه ، كما يصنع أمير جيش المسامين ، بذراى المشركين ، وكيف تقول في قول عبيد الله بن زياد لإخوته وخاصته ، دعوني أقتله ، فإنه بقية هذا النسل ، فأحيم به هذا القرن ، وأميت به هذا الداء ، وأقطع به هذه المادة !

خبرونا علام تُدَلِّ هذه التسوة ، وهذه النلظة ! بعد أن شقوا أنفسهم بقتلهم ، والوا ما أحبوا فيهم ، أتتلى على نصب ، وسوء رأي وحقد ، وبغضاء وفاق ، وعلى يقين مدخوب

وإيمانٍ مخرج ! أم تدلّ على الإخلاص ، وعلى حبّ النبي صلى الله عليه وسلم ، وإحفظ له ، وعلى براءة الساحة وصحة السريرة ! فإن كان كل ما وصفنا لا يعدو القسق والضلال ، وذلك أدنى منازل ، فالفاسق ملعون ، ومن نهى عن نهى الملعون فلعون .

وزعمت نابعة عصرنا ، ومبتدعة دهرنا ، أن سبّ ولادة السوء فتنةٌ ، ولعن الجورة بدعةٌ ، وإن كانوا يأخذون السبّ بالسمي ، والولّى بالولّى ، والقريب بالقريب ، وأخافوا الأولياء ، وأمنوا الأعداء ، وحكموا بالشفاعة والهوى ، وإظهار الغدر والتهاون بالأمة ، والقمع للزوجة ، وأنهم في غير مداراة ولا تقية ، وإن عدا ذلك إلى الكفر ، وجاوز الضلال إلى الجحْد ، فذلك أضلّ ممن كف عن شتمهم ، والبراءة منهم ، على أنه ليس من استحق اسم الكفر بالقتل كمن استحقه برّة السنة وهدم الكعبة ، وليس من استحق اسم الكفر بذلك كمن شبه الله بخلقه ، وليس من استحق الكفر بالتشبيه كمن استحقه بالتجوير ، والنابذة في هذا الوجه أكفر من يزيد وأبيه ، وابن زياد وأبيه ، ولو ثبت أيضا على يزيد أنه تمثل بقول بن الرّعي :

ليت أشياخي بيدي شهدوا \* جزع الخرزج من وقع الأسل  
لاستطاروا واستهلوا قرصا \* ثم قالوا يا يزيد لا تمسل  
قد قتلنا الفر من ساداتهم \* وعدلنا بيد فاعسل

كان تجوّر النابذ لربه ، وتشبيهه بخلقه ، أعظم من ذلك وأقطع ، على أنهم مجمعون على أنه ملعون من قتل مؤمنا ، متعمدا أو متاولا ، فإذا كان القاتل سلطانا جائرا ، أو أميرا عاصيا ، لم يستحلوا سبّه ، ولا خلعه ، ولا نفيه ، ولا عيبه ، وإن أخاف الصلحاء ، وقتل الفقهاء ، وأجاع الفقير ، وظلم الضعيف ، وعطل الحدود والثغور ، وشرب الخمر ، وأظهر الفجور ، ثم ما زال الناس يتسكعون مرة ، ويداهونهم مرة ، ويقارونهم مرة ، ويشاركونهم مرة إلا بقية ممن عصاه الله تعالى ذكره ، حتى قام عبد الملك بن مروان ، وابنه الوليد ،



وعاملهما الحجاج بن يوسف، ومولاه يزيد بن أبي مُسْلِم، فاعادوا على البيت بالهدم، وعلى حَرَم المدينة بالقزْو، فهدموا الكعبة، واستباحوا الحُرمة، وحزّلوا قبلة واسط، وأنحروا صلاة الجمعة، إلى مُقَيَّرِ بَيْنِ الشَّمْس، فإن قال رجل لأحدهم : اتق الله فقد أتحت الصلاة عن وقتها، قتله على هذا القول يجهارا غير ختل، وعَلَانِيَةً غير سرّ، ولا يُعْلَم القتل على ذلك إلّا أَفْهِح من إنكاره، فكيف يكفر العبد بشيء ولا يكفر بأعظم منه !

وقد كان بعض الصالحين ربّما وعظ البليابة، وخوفهم العواقب، وأراهم أنّ في الناس قَبِيَّة يَهْتَوْنَ عن الفساد في الأرض، حتى قام عبد الملك بن مُروان، والحجاج بن يوسف، فزجرا عن ذلك، وصاقبا عليه، وقتلا فيه، فصاروا لا يَتَنَاهَوْنَ عن منكر فعلوه؛ فأحسِبْ نحويل القبلة كان خطأ، وهدم البيت كان تأويلا، وأحسِبْ ما رَوَوْا من كلّ وجه، أنّهم كانوا يزعمون أنّ خليفة المرء في أهله <sup>(١)</sup> أرفع عنده من رسوله اليهم، باطلا وسموعا مولدا، وأحسب وِثْمَ أيدي المسلمين ونقش أيدي المسلمات، وردّهم بعد الهجرة إلى قُرَاهم، وقتل الفقهاء، وسب أئمة الهدى، والتنصّب لِعِترة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يكون كفرا؛ كيف تقول في جمع ثلاث صلوات فيمن الجمعة، ولا يُصَلُّونَ أَوْلَاهنَّ، حتى تصير الشَّمْسُ على أطلى الجُدُرَان، كاللَّاءِ الْمُعْصَفَر، فإن نطق مسلمٌ، خُيِّطَ بالسيف، وأخذته العُمد، وثُكَّ بالزُمَام، وإن قال قائل : اتق الله أخذته العِرة بالإثم، ثم لم يرَضْ إلّا بنثر دِمَاغِهِ على صدره، وبصلبه حيث تراه عِصَالُهُ، ومما يَدُلُّ على أنّ القوم لم يكونوا إلّا في طريق التمرّد على الله عزّ وجلّ، والاستخفاف بالدين، والتهاون بالمسلمين، والابتذال لأهل الحق، أكملُ أمرائهم الطعامة، وشربهم الشَّرَاب على منابرهم أَيَّامَ جَمْعِهِمْ وِجْموعهم، فَعَلَّ ذلك حُبَيْش بن دُبْلَةَ، وطارق مولى عثمان، والحجاج بن يوسف، وغيرهم، وذلك إنّ كان كفرا كلّ فلم يبلغ كفر نابتة

(١) يشير بذلك الى ماورد عن الحجاج انه قال في كلام له : ويحكم أخليفة أحدكم في أهله أكرم عليه أم رسولهم، يريد بذلك تفضيل مقام الخلافة على مقام الزناة ويئل هذا رى الحجاج بالكفر وقد عقد ابن عبد ربه

في العقد الفريد فصلا فيمن زعم ان الحجاج كان كافرا وأرجع العقد الفريد ج ٣ ص ٢٢

(٢) في الأصل : « حسن » وهو خطأ والصواب ما أبتناه كما في شرح التاموس والطبرى .

عصرنا، وروافض دهرنا، لأن جنس كفر هؤلاء غير كفر أولئك. كان اختلاف الناس في القدر على أن طائفة تقول كل شيء بقضاء وقدر، وتقول طائفة أخرى كل شيء بقضاء وقدر إلا المعاصي، ولم يكن أحد يقول إن الله يعذب الأبناء لينفي الآباء، وإن الكفر والإيمان مخلوقان في الإنسان، مثل العمى والبصر، وكانت طائفة منهم تقول إن الله يرى لا تزد على ذلك، فإن خافت أن يُظن بها التشبيه قالت يرى بلا كيف تفزأ من التجسيم والتصوير، حتى نبئت هذه النابتة، وتكلمت هذه الرافضة، فقالت جسيما، وجعلت له صورة وحدًا، وأكفرت من قال بالرؤية على غير التجسيم والتصوير، ثم زعم أكثرهم أن كلام الله حسن وبين ومجبة وبرهان، وأن التوراة غير الزبور، والزبور غير الانجيل، والانجيل غير القرآن، والبقرة غير آل عمران، وأن الله تولى ناليفه، وجعله برهانه على صدق رسوله، وأنه لو شاء أن يزيد فيه زاد، ولو شاء أن ينقص منه نقص، ولو شاء أن يبدله بقله، ولو شاء أن ينسخه كله بغيره نسخ، وأنه أنزله تنزيلا، وأنه فصله تفصيلا، وأنه بالله كان دون غيره، ولا يقدر عليه إلا هو، غير أن الله مع ذلك كله لم يخلقهم، فأعطوا جميع صفات الخلق، ومنعوا اسم الخلق.

والعجب أن الخلق عند العرب إنما هو التقدير نفسه، فلما قالوا: خلق كذا وكذا، ولذلك قال: ((أحسن الخلقين)). وقال: ((وتخلفون إنكرا)) وقال: ((وإذ تخلق من الطين كهيمته الطين)) فقالوا: صنعته وجعلته وقدرته، وأنزله ونصّله وأحدثه، ومنعوا خلقه، وليس تأويل خلقه أكثر من قدره، ولو قالوا بذكر قولهم: قدره ولم يخلق خلقه ولم يقدّره، ما كانت المسألة عليهم إلا من وجه واحد، والعجب أن الذي منعه بزعمه أن يزعم أنه مخلوق، أنه لم يسمع ذلك من سلفه، وهو يعلم أنه لم يسمع أيضا من سلفه أنه ليس بمخلوق، وليس ذلك بهم، ولكن لما كان الكلام من الله تعالى عندهم على مثل خروج الصوت من الجوف، وعلى جهة تقطيع الحروف، وإعمال اللسان والشفقتين، وما كان على غير هذه الصورة والصفة فليس بكلام، ولما كان عندهم على غير هذه الصفة،

وكما لِكَلَامِنَا غَيْرَ خَالِصِينَ ، وجب أن الله عز وجل لكلامه غير خالقي ؛ إذ كما غير خالقيين  
لكلامنا ، فأتَمَّا قالوا ذلك ، لأنهم لم يجدوا بين كلامنا وكلامه قرْفاً ، وإن لم يُقَرُّوا بذلك  
بالستهم فذلك معناه وقصدُهم .

وقد كانت هذه الأمة لا تتجاوز معاصيها الإثم والفضائل ، إلا ما حكيَّت لك عن جنى أمية ،  
وجنى مروان ، وعملهم ، ومن لم يَدْنِ بِإِكْفَارِهِمْ حَتَّى تَجَمَّتِ النَوَابِتُ ، وتابعتها هذه العوام ،  
فصار الغالبُ على هذا القرن الكفرَ ، وهو التشبيه والجبر ، فصار كفرهم أعظم من كفر من  
مضى في الأعمال التي هي الفسوقُ ، وشركاء من كفر منهم بتوليهم ، وترك إكفارهم ، قال  
الله عز وجل من قائل : ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْهُمْ مِنْكُمْ فَلَهُ مِنْهُمْ ﴾ .

وأرجو أن يكونَ الله قد أغاثَ المُحَقِّقِينَ ، ورحمهم وقوى ضَعْفَهُمْ ، وكَثَرَفَتَهُمْ ، حتى  
صارُوا رُؤَوساً في هذا الدهرِ الصَّعْبِ والزمنِ الفاسدِ أَشَدَّ استِصْباراً في التشبيه من  
عَلَيْقِنَا ، وَأَهْلَمَ بِمَا يَلِزَمُ فِيهِ مَنْ ، وأَكْشَفَ للفتنِاع من رُؤُوسَانَا ، وصاروا الناس وقد انتظموا  
معانِ الفسادِ أَجْمَع ، وبلغوا غَايَاتِ البدع ، ثم قروا بذلك العصبية التي هلك بها عالمٌ بعد  
عالم ، والحمية التي لا تُبْقِي دينا إلا أَفْسَدَتْهُ ، ولا دنيا إلا أَهْلَكَتْهَا ، وهو ما صارت إليه العجم  
من مذهبِ الشُّعُوبِيَّةِ ، وما قد صار إليه الموالى من الفُخْرِ على العجم والعرب ، وقد تجمت  
من الموالى نَاجِمَةٌ ، ونبتت منهم نَابِتَةٌ ، زعم أن المولى بولائه قد صار عربياً ، لقول النبي  
صلى الله عليه وسلم : « مَوَالِي الْقَوْمِ مِنْهُمْ » ولقوله : « الْوَلَاءُ لِحِمَّةٍ كُلِّحِمَةٍ النَّسَبِ لَا لِبَيْعٍ  
وَلَا يُؤْهَبُ » .

قال : فقد علمنا أن العجم حينَ كانَ فيهم المُلْكُ والنِّبُوَّةُ كانوا أَشْرَفَ من العرب ،  
ولمَّا حَوَّلَ ذلك إلى العرب صارت العربُ أَشْرَفَ منهم ، قالوا : فنحن معاشرُ الموالى  
بقدريتنا في العجم أَشْرَفَ من العرب ، وبالحديث الذي صار لنا في العرب أَشْرَفَ من العجم ،  
وللعرب القديمُ دون الحديث ، ولنا خَصْمَتَانِ جَمِيعَا وَافِرَتَانِ فِيْنَا ، وصاحبُ الخَصْمَتَيْنِ

(١) كذا في الأصل ، وله : وصاروا شركاء الخ . (٢) معانِ بفتح الميم والعين : المبالاة والمزول .

أفضل من صاحب الخصلة ، وقد جعل الله المولى بعد أن كان عجميا عربيا بولائه ، كما جعل حليف قريش من العرب قريشيا بحلفه ، وجعل اسماعيل بعد أن كان أعجميا عربيا ولولا قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن اسماعيل كان عربيا » ما كان عندنا إلا أعجميا لأن الأعجمي لا يصبر عربيا ، كما أن العربي لا يصبر أعجميا ، فإنما علمنا أن اسماعيل صيرته الله عربيا بعد أن كان أعجميا ، بقول النبي صلى الله عليه وسلم ، فكذلك حكم قوله « مولى القوم منهم » وقوله : « والولاء لجمعة » ، قالوا : وقد جعل الله إبراهيم عليه السلام أبانا لم يلد ، كما جعله أبانا لمن ولد ، وجعل أزواج النبي أمهات المؤمنين ، ولم يلدن منهم أحدا ، وجعل الجار والد من لم يلد في قول غير هذا كثير قد أتينا عليه في موضعه ، وليس ادعى إلى الفساد ، ولا أجلب للشتم من المفارقة ، وليس على ظهرها إلا غفور (ألا قليل) وأتى شيء أغبط من أن يكون عبدك يزعم أنه أشرف منك ، وهو مفضى أنه صار شريفا بعقيدك إياه .

وقد كتبت - مد الله في عمرك - كتابا في مُناخرة حَقَطان ، وفي تفضيل عدنان ، وفي ردِّ الموالي إلى مكانهم من الفضل والنقص ، وإلى قدر ما جعل الله تعالى لهم بالعرب من الشرف ، وأرجو أن يكون عدلا بينهم ، وداعية إلى صلاحهم ، ومُنبهة عليهم ولهم ، وقد أردت أن أرسل بالجزء الأول اليك ثم رأيت ألا يكون إلا بعد استئذانك ، واستئذارك ، والانتباه في ذلك إلى رغبتك ، فأراك فيه موفق إن شاء الله عز وجل وبه الثقة .

### وكتب إلى بعض إخوانه في ذم الزمان

بسم الله الرحمن الرحيم

حفظك الله حفظ من وثقه للقناعة ، وأستعمله بالطاعة ؛ كتبت إليك وحالي حال من كتفت غمومه ، وأشككت عليه أموره ، وأشتبه عليه حال دهره ، وتخرج أمره ، وقُلَّ عنده من يثق بوفائه ، أو يحمّد مغبة إخطائه ، لاستحالة زماننا ، وفساد أيماننا ، ودولة أئذنا ؛ وقدما كان من قدم الحياء على نفسه ، وحكم الصدق في قوله ، وآثر الحق في أموره ، ونبتد المشتبهات عليه من شؤونه ، تمت له السلامة ، وفاز بوفور حفظ العافية ، وحمد مغبة مكروه

العاقبة ؛ فنظّرنا إذ حال عندنا حكمه ، وتمحّلت دولته ؛ فوجدنا الحياء متصلا بالحرمان والصدق آفة على المال ، والقصد في الطلب بترك استئصال الفحّة ، وإخلاق العِرض من طريق التوكّل دليلا على سخافة الرأى ، إذ صارت الخطوة البالغة ، والنعمة السابعة ، في لؤم المشيئة ؛ وسناء الرزق من جهة عماشاة الرءاء ، وملأسة معزة العار ؛ ثم نظرنا في تعقب المتعقب لقولنا ، والكاشر مجتنب ؛ فألقنا له علما واحشا ، وشاهدا قائما ، ومثارا بينا ؛ إذ وجدنا من فيه السفولية الواضحة ، والمتالب الفاضحة ، والكذب المبرّح ، والخلف المصرّح ، والجهالة المفرطة ، والراككة المستخفة ، وضعف اليقين والاستنبات ، وسرعة الغضب والجراءة ، قد استكمل سروره ، واعتدلت أموره ، وفاز بالسهم الأغلب ، والحظ الأوفر ، والتقدير الرفيع ، والجواز الطامع ، والأمر النافذ ؛ إن زلّ قيل حكم ، وإن أخطأ قيل أصاب ، وإن هذى في كلامه وهو يقظان قيل رؤيا صادقة من نسمة مباركة ؛ فهذه مجتنبنا والله على من زعم أنّ الجهل يفيض ، وأنّ التوك يردى ، وأنّ الكذب يضّر ، وأنّ الخلف يُزرى ؛ ثم نظرنا في الوفاء والأمانة والنبل والبسالة وحسن المذهب وكمال المروءة وسعة الصدر وقلة الغضب وكرم الطبيعة ، والفائق في سعة صلبه ، والحاكم على نفسه ، والغالب لخواه ، فوجدنا فلان بن فلان ؛ ثم وجدنا الزيان لم يُنصفه من حقه ، ولا قام له يوظائف فرضه ، ووجدنا فضائله القائمة له قاعدة ؛ ؛ فهذا دليل أنّ الطلاح أجدى من الصلاح ، وأنّ الفضل قد مضى زمانه ، وعصّت آثاره ، وصارت الدائرة عليه كما كانت الدائرة على ضده ؛ ووجدنا العقل يشقى به قربنه ، كما أنّ الجهل والحق يحظى به خدينه ؛ ووجدنا الشعر ناطقا على الزيان ، ومُعربا عن الأيام حيث يقول :

تَمَاقَى مع الحق إذا ما لَقِيتَهُم \* وَلَا قِيمَ بِالْجَهْلِ فَعَلْ أَحْسَى الْجَهْلُ  
وَحَلَّطَ إِذَا لَاقَيْتَ يَوْمًا مَخَلَّطًا \* يُخَلِّطُ فِي قَوْلٍ صَحِيحٍ وَفِي هَزَلٍ  
فَأَنى رَأَيْتَ المرءَ يَشْقَى بِعَقْلِهِ \* كَمَا كَانَ قَبْلَ الْيَوْمِ يَسْعَدُ بِالْعَمَلِ

فَبَقِيتُ — أبقاك الله — مثل من أصبح على أوفاز،<sup>(١)</sup> ومن النقلة على جهاز، لا يسوغ له نعمة، ولا تطعم عينه غمضة، في أهاول بيأكره مكروها، ويأروحه عقابها، فلو ألت الداء أجيّب، والتضرع يُسج، لكانت المدّة العظمى، والرّجفة الكبرى، فليت أى أحم ما أستبطئه من النّفخة، ومن بقاة الصّيحة، قضي خان، وأذن به فكان، فوالله ما عدّبت أمة برّجفة، ولا ريج ولا سقطة، عذاب عني برؤية المغايطة المذمنة، والأخبار المهلكة، كأن الزمان يؤكل بعداى، أو يُصّص بأياى، فما عيش من لا يسر باخ شفيق، ولا يصطليح في أول ناره، إلا برؤية من يكفه، ويضمه بطلته، فقد طالت القمّة، وواطبت الكربة، وأدهمت الظلمة، وتحد السراج، وتبأط الأفرج.

### وصف الجاحظ لقريش وبنى هاشم

فد علم الناس كيف كرم قريش وسفاؤها، وكيف عقولها ودعاؤها، وكيف رأيها وذكاؤها، وكيف سياستها وتديرها، وكيف إيمازها وتحسبها، وكيف رجاحة أعلامها إذا خف الحليم، وحة أذهانها إذا كل الحديد، وكيف صبرها عند اللقاء، وثباتها في اللأواء، وكيف وفائها إذا استحسن الصدر، وكيف جودها إذا حب المال، وكيف ذكرها لأحاديث غد، وقلة صدودها عن جهة القصد، وكيف إقرارها بالحق وصبرها عليه، وكيف وصفها له ودعاؤها إليه، وكيف سماحة أخلاقها، وصونها لأعرافها، وكيف وصلوا قديمهم بحديثهم، وطرفهم بتليدهم، وكيف أشبه علايتهم سرهم، وقولهم فعلهم، وهل سلامة صدر أحدهم إلا على قدر بُعد غديره، وهل غفلته إلا في وزن صديق ظنه، وهل ظنه إلا كيقين غيره.

(١) أى على سفر.

### وكتب في الاعتذار :

أما بعد فنعم البديل من الزلة الاعتذار، وبس العوض من التوبة الإصرار، وإن أحق من عطفك عليه بحملك من لم يستشفع إليك بفريك، وإني بمعرفتي بمبلغ حلمك وغاية صفوك، ضمنت لنفسي العفو من زلتها عندك، وقد مسنى من الألم ما لم يتفقه غير مواهبك .

وله في الاستعطاف :

ليس عندي أعزك الله سبب ولا أقدر على شفيح إلا ما طبعك الله عليه من الكرم والرحمة والتأمل الذي لا يكون إلا من نتائج حسن الفطن وإنبات الفضل بحال المأمول وأرجو أن تكون من الشاكرين فتكون خير متعب، وأكون أفضل شاكر، ولعل الله يجعل هذا الأمر سببا لهذا الإنعام، وهذا الإنعام سببا للإيقاع إليكم والكون تحت أجنحتكم، فيكون لا أعظم بركة، ولا أنقى بقية من ذنب أصبحت فيه، وبمثلك — جعلت فداك — ماد الذنب وسيلة، والسيئة حسنة، ومثلك من أقلب به الشر خيرا والفرم غنا .

من عاقب فقد أخذ حظه، وإنما الأجر في الآخرة، وطلب الذكر في الدنيا، على قدر الاحتمال وتجرع المرار وأرجو، ألا أضيع وأهلك فيما بين كرمك وعفوك، وما أكثر من يعفو عن صغر ذنبه وعظم حقه، وإنما الفضل والثناء العفو عن عظيم الحرم ضعيف الحرم، وإن كان العفو عظيما مستطرفا من غيركم فهو بلاد فيكم، حتى ربما دعا ذلك كثيرا من الناس إلى مخالفة أمركم، فلا أتم عن ذلك تتكأون، ولا على سالف إحسانكم تتدمون، وما مثلكم إلا كمثل عيسى بن مريم عليه السلام حين كان لا يتوكل من بني إسرائيل إلا أسمعوه شرا وأسمعهم خيرا، فقال له تتعون الصفا : ما رأيت كاليوم كلب أسمعوك شرا أسمعتم خيرا فقال : كل أمرئ ينفق مما عنده وليس عندكم إلا الخير ولا في أوعيتكم إلا الرحمة " وكل إناء بالذي فيه ينضح " .

## وله في دَمّ الحسد :

الحسد - أبقاك الله - داءٌ يَهْلك الحسد ، علاجه عسير وصاحبه شحير وهو باب غامض ، وما ظهر منه فلا يُدَوَّى وما يُبْطِن منه مُدَاوِيه في عَناء ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « دَبَّ اليك داءُ الأمم من قبلكم : الحسدُ والبغضاء » . الحسد عَقِيد الكفر ، وحليف الباطل ، وضد الحق منه تُؤَلَّدُ العداوة وهو سبب كُلِّ قطيعة وفراق كل جماعة ، وقاطع كل رَحِم من الأقرباء ويُحْدِثُ التفرق بين القرناء ، وملقح الشر بين الخلقاء .

## دفاع الجاحظ عن مؤلفاته :

وقد ذكر الجاحظ جُلَّ مؤلفاته في كتاب "الحيوان" ودافع عنها بعد أن وصفها فقال :<sup>(١)</sup>  
جَنَّبَكَ الله الشبهة ، وعَصَمَكَ من الخِيرة وجعل بينك وبين المعرفة نَسْبا ، وبين الصدق سببا ، وَحَبَّبَ اليك الثبوت ، وزَيَّنَ في عينك الإنصاف ، وأَذَاكَ حلاوة التقوى ، وأَشْعَرَ قلبك عِزَّ الحق ، وأودع صدرَكَ بَرْدَ اليقين ، وطرد عنك ذُلَّ الطمع ، وعَرَّفَكَ ما في الباطل من الدَّلالة ، وما في الجهل من القِلَّة ، وَلَعَمْرِي لقد كان غير هذا الداء أَصَوَّبَ في أمرك ، وأَدَلَّ على مقدار وَزْنِكَ ، وعلى الحال التي وَضَعْتَ نفسك فيها ، ووسَّمت عِرْضَكَ بها ، وَرَضَيْتَها لِدِينِكَ حِظًا ، ولِرَوْعِكَ شُكْلًا ، فقد انتهى الى مِلْكِكَ على أُمِّي الصَّحاق ، وَتَمَلَّكَ على ، وطمعَكَ على مَعْبُودٍ ، وتَقَصَّصَكَ له في الذي كان جرى بينهما في مساوئ الديك ومحاسنه ، وفي ذكر منافع الكلب ومضايقه ، والذي نحرِبُا اليه من استقصاء ذلك وجميعه ، وَمِنْ تَبَعِهِ ونظمه ، وَمِنْ الموازنة بينهما ، والحكم فيهما .

ثم عَيَّنَ بِكَلَامٍ حَيْلَ اللصوص ، وَكَلَامٍ غِشِّ الصَّاعَاتِ ؛ وعَيَّنَ بِكَلَامٍ المَلَحِّ والطَّرَفِ ، وما حَرَّمَ من النوادر وَبَرَّدَ ، وعاد بارِدُها حارًا بفرط برِّه ، حتى أَمْتَعَ بِأَكْثَرِ من أَمْتَاعِ الحارِ ؛ وعَيَّنَ بِكَلَامٍ أحتجاجات البُخلاء ، ومناقضتهم للسُّمَّاء ، والقوى في الفرق بين

(١) احتدنا في تصحيح هذه الفصول على الأصل القنطرة في المخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٨٠ : آداب ، لأن النسخة المطبوعة من كتاب الحيوان بخط طيبة السادة بمصر في غاية التعريف وملاهي بالأخطاء .



الصدق اذا كان ضارا في العاجل، والكذب اذا كان نافعا في الآجل، ولم جعلنا الصدق أبدا محمودا، والكذب أبدا مذموما، والفرق بين القنعة وإضاعة الحرمة، وبين الإفراط في الحجة والأففة، وبين التقصير في حفظ حق الحرمة، وقلة الأكرات بسوء القالة؛ وهل القنعة آكساب وعادة، وبعض ما يعرض من جهة الديانة ولبعض التزبد فيه والتعصن به، أو يكون ذلك شيئا في طبع الحرية وحقيقة الجهورية، ما كانت العقول سليمة، والألفاظ متينة، والأخلاق متبيلة؛ وعينى بكتاب الصرحاء والمهجناء، ومفاتيح السودان والحرمان، والموازنة بين حق النطولة والمومة؛ وعينى بكتاب الزرع والنخل، والزيتون والأعشاب، وأقسام فضول الصناعات، ومراتب التجارات؛ وبكتاب فضل ما بين الرجال والنساء، وفرق ما بين الذكور والإناث، وفي أى موضع يتلن ويفضلن، وفي أى موضع يكن المفضليات والمفضولات، ونصيب أيهما في الولد أوفر، وفي أى موضع يكون حقهن أوجب، وأى عمل هو بين أليق، وأى صناعة هى فيها أبلغ؛ وعينى بكتاب القحطانية وكتاب العدنانية في الرد على القحطانية، وزعمت أنى تجاوزت فيه حد الحجة، الى حد العصية، وأنى لم أصل الى تفضيل العدنانية إلا بتقص القحطانية؛ وعينى بكتاب العرب والموالى، وزعمت أنى بحست الموالى حقوقهم، كما أنى أعطيت العرب ما ليس لهم؛ وعينى بكتاب العرب والعجم، وزعمت أن القول فى فرق ما بين العرب والعجم هو القول فى فرق ما بين الموالى والعرب، ونسبتنى الى التكرار والتزاد، والى التكثير والجهل بما فى المعاد من الخطل، وحمل الناس المؤن؛ وعينى بكتاب الأصنام، وبذكر اعتلالات الهند لها، وسبب عبادة العرب إياها، وكيف آختلفا فى جهة العلة مع اتفاقهما على جملة الديانة، وكيف صار عباد البسدة والمتمسكون بعبادة الأوثان المنصوتة، والأصنام المنجورة، أشد الناس إلغا لما دانوا به، وشعفا بما تعبدوا له، وأظهرهم جدنا، وأشدهم على من خالفهم ضغنا، وبما دانوا صباية ومحببا، وما الفرق بين البد والوثن، وما الفرق بين الوثن والصنم، وما الفرق

(١) البسدة جمع بد، وهو بيت فيه الصنم أو الصنم قسمة كاللأ، دويد.

بين الذئبية والجنسية ، ولم صوروا في محاريبهم وبيوت عباداتهم صور عظامهم ورجال دعوتهم ، ولم تأتوا في التصوير ، وتجردوا في إقامة التركيب ، وبالغوا في التحسين والتفخيم ، وكيف كانت أولية تلك العبادات ، وكيف انقرفت تلك السَّل ، ومن أى شئ كانت خُدع تلك السَّنة ، وكيف لم يزالوا أكثر الأصناف عددا ، وكيف شمل ذلك المذهب الأجناس المختلفة !

وعبتي بكتاب المعادن ، والقول في جواهر الأرض ، وفي اختلاف أجناس الفلزات ، والإخبار عن ذائبها وجامدها ، ومخلوقها ومصنوعها ، وكيف يُسرّع الانقلاب إلى بعضها ويُبطئ عن بعضها ، وكيف صار بعض الألوان يصيغ ولا يصيغ ، وبعضها ينصبيغ ولا يصيغ ، وبعضها يصيغ وينصبيغ ، وما القول في الإكسير والتلطيف ، وعبتي بكتاب فرق ما بين هاشم وعيد شمس ، وبكتاب فرق ما بين الجن والإنس ، وفرق ما بين الملائكة والجن ، وكيف القول في معرفة الهدم واستطاعة الصغريت ، وفي الذي كان عنده علم من الكتاب ، وما ذلك العلم ، وما تأويل قولهم : كان عنده اسم الله الأعظم ، وعبتي بكتاب الأوقاف والزبايات ، وما القول في الأرزاق والإنفاقات ، وكيف أسباب الثمير والترقيع<sup>(١)</sup> وكيف تجنب التجار الخرقاء ، وكيف الاحتياض للودائع ، وكيف التسبب إلى الوصايا ، وما الذي يوجب لهم التعديل ، ويصرف إليهم باب حسن الظن ، وكيف ذكرنا غش الصناعات والتجارات ، وكيف التسبب إلى تعارف ما قد سترُوا ، وكشف ما مؤهوا ، وكيف باب الاحتراز منه والسلامة من أهله ! وعبتي برسائي ، وبكل ما كتبت به إلى إخواني وخُطائي من مزج وجذ ، ومن إفصاح وتربيض ، ومن تقافل وتوقيف ، ومن هجاء لا يزال وشمه باقيا ، ومديح لا يزال أثره ناميا ، ومن ملصق ، تُضجك ، ومواعظ تبكي ، وعبتي برسائي الهاشميات ، وأحشاجي فيها ، وأستقصائي معانيها ، وتصويري لها في أحسن صورة ، وإظهارى لها في أتم حلية ، وزعمت أني قد خرجت بذلك من حد المعتدلة إلى حد الزائدة ،

(١) الثمر والترقيع : نمو المال واصله .

ومن حدّ الاعتدال في التشجّع والاقتصاد فيه الى حدّ السرف والإفراط فيه، وزعمت أن  
مقالة الزيدية خطبة مقالة الرافضة ، ومقالة الرافضة خطبة مقالة الغالية ، وزعمت أن  
في أصل القضية ، والذي جرت عليه العادة أن كل كبير فأوله صغير ، وأن كل كبير فألما  
هو قليل يجمع الى قليل ، وأنشدت قول الراجز :

قد يلحق الصغير بالجيل \* وإنما القرم من الأفيال<sup>(١)</sup>  
\* ويحقق النخل من القيسيل \*

وأنشدت قول الشاعر :

رُبَّ كبيرٍ هاجه صغير \* وفي البحور تفرق البحور  
وقلت وقال يزيد بن الحكم :

وأعلم بئى فإنه \* بالعلم يتفجع العليم  
إنك الأمور دقيقتها \* مما يبيح له العظيم

وقلت وقال الآخر :

صار جداً مامراًحت به \* رُبَّ جدٍّ سافه اللب

وأنشدت قول الآخر وهو عنزة<sup>(٢)</sup> :

ما تنظرون بحق ورثة فيكم \* تفضي الأمور ودهطورة غيب  
قد يبعث الأمر الكبير صغيره \* حتى تظلل له النماء تهبب

وقالت كَبَشَةُ بنت معديكرب :

جدمهم يسبد الله أنف قومه \* ونى ما زينا أن سب راعي الخنزير

وقال الآخر :

أيّه ناري قدح القادح \* وأى جدّ بلغ المايح

(١) الأفيال : صغر الإبل .

(٢) والصواب أن البيتين لغزوه وما من جملة أبيات في ديوانه .

وتقول العرب : « العَصَى من المَصْبِيَّة ولا تِلْد الحَيَّة إلا حَيَّة » ؛ وعبت كُتَّابِي في خَاتَمِي القرآن ، كما عبت كُتَّابِي في الرِّدِّ على المُشَبِّهَةِ ؛ وعبت كُتَّابِي في أصول الفُتْيَا والأحكام ، كما عبت كُتَّابِي في الأحْضَاج لنُظُم القرآن ، وَغَرِيب تَالِيفِهِ ، وَبَدِيع تَرْكِيبِهِ ؛ وعبت مُعَارَضَتِي الرِّبْدِيَّة ، وَتَفْضِيلِي الاعتِرَالِ على كُلِّ نَحْلَةٍ ، كما عبت كُتَّابِي في الوعد والوعيد ، وَكُتَّابِي على النصارى واليهود ؛ ثم عبت جُمْلَةَ كُتُبِي في المعرفة ، وَأَقْنَمْتُ تَهْجِيئَهَا بِكُلِّ حِيلَةٍ ، وَصَفَرْتُ مِنْ شَأْنِهَا ، وَحَطَّطْتُ مِنْ قُدْرَتِهَا ، وَاعْتَرَضْتُ عَلَى نَاصِحِيهَا وَالْمُسْتَفْعِينَ بِهَا .

وعبت كُتَابَ الجَوَابَاتِ وَكُتَابَ الرِّسَالِ ، وَكُتَابَ الرِّدِّ على أَصْحَابِ الإلْهَامِ ، وَكُتَابَ النُّجْمَةِ فِي تَثْبِيتِ نُبُوءَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَكُتَابَ الْأَخْبَارِ ؛ ثُمَّ عَبْتُ كُتَّابِي إِنْكَارِي بِصِرَةِ غَنَائِمِ الْمُتَرَدِّ ، وَبَصِيرَةِ كُلِّ جَاهِدٍ وَمُلْجِدٍ ، وَتَفْرِيقِي بَيْنَ اعْتِرَاقِ الْمُعْرُوفِينَ أَسْتَبْصَارِ الْحَقِّ ؛ وَعَبْتُ كُتَابَ الرِّدِّ على الْجَهْمِيَّةِ فِي الْإِدْرَاكِ ، وَفِي قَوْلِهِمْ فِي الْجِهَالَاتِ ، وَكُتَابَ الْفِرْقِ مَا بَيْنَ النَّبِيِّ وَالْمُتَنَبِّئِ ، وَالْفِرْقِ بَيْنَ الْحِلِيلِ وَالْمَخَارِقِ ، وَبَيْنَ الْحَقَائِقِ الظَّاهِرَةِ وَالْأَعْلَامِ الْقَاهِرَةِ ؛ ثُمَّ قَصِدْتُ إِلَى سَابِغِي هَذَا بِالنَّصْنِيفِ لِقُدْرِهِ ، وَالتَّهْجِيزِ لِنُظْمِهِ ، وَالْإِعْزَازِ عَلَى لَفْظِهِ ، وَالتَّخْفِيفِ لِمَعَانِيهِ نَزَّيْتُ عَلَى نَحْوِهِ وَسَبَّكِهِ ، كَمَا زَيَّيْتُ عَلَى مَعْنَاهُ وَلَفْظِهِ ، ثُمَّ طَعَنْتُ فِي الْفُرُوضِ الذِّي إِلَى نَزْعِنَا ، وَالْغَايَةِ الَّتِي إِلَيْهَا أُجْرِنَا ، وَهَذَا كُتَابُ مَعْنَاهُ أَتَيْنَهُ مِنْ أَسْمِهِ ، وَحَقِيقَتُهُ أَتَتْ مِنْ لَفْظِهِ ، هُوَ كُتَابُ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُتَوَسِّطُ الْعَامِّي ، كَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْعَالَمُ الْخَاصِّي ، وَيَحْتَاجُ إِلَيْهِ الرِّيَاضُ ، كَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْخَالِاقُ .

أما الرِّيَاضُ فَلتَلْعَمُ وَالذَّرْبَةُ ، وَلتَتَرَبَّبُ وَالرِّيَاضَةُ ، وَلتَتَمَرَّنَ وَتَمَكِّنَ الْعَادَةَ ، إِذَا كَانَ جَلِيلُهُ يَتَقَدَّمُ دَقِيقُهُ ، وَإِذَا كَانَتْ مَقْدَمَانُهُ مُرْتَبَةً ، وَطَبَقَاتُ مَعَانِيهِ مُتَرَلِّةً ؛ وَأما الْخَالِاقُ فَلْيَكْفِيَاةُ الْمُؤَوَّنَةِ ، وَلَا تَأْكُلْ كُلَّ مَنْ التَّقَطَّ كُتَابًا جَامِعًا ، وَبَابًا مِنْ أُمِّهَاتِ الْعِلْمِ مَجْمُوعًا كَانَ لَهُ غُنْمُهُ ، وَعَلَى مُؤَلِّفِهِ غُرْمُهُ ، وَكَانَ لَهُ نَفْعُهُ ، وَعَلَى صَاحِبِهِ كَدُّهُ ، مَعَ تَعَرُّضِهِ لِمَطَاعِنِ الْبُغَاةِ ، وَلِإِعْزَازِ

(١) الفهرستة الثمين : من لم يهرب الأمور ، واجاهل الآله .

(٢) أجهنم : قصدا .

المنافسين، ومع عَرْضِهِ عَقْلَهُ الْمَكْدُودَ عَلَى الْعُقُولِ الْتَارِغَةِ، وَمَعَانِيَهُ عَلَى الْجَهَابَةِ، وَتَحْكِيمِهِ فِيهِ الْمُنَاوِلِينَ وَالْحَسَدَةَ، وَمَتَى ظَفَرَ بِمَنْلِهِ صَاحِبَ عِلْمٍ، أَوْحَمَّ عَلَيْهِ طَالِبُ فِقْهِ، وَهُوَ وَادِعٌ رَافِعٌ، وَنَشِيطٌ جَامٍ، وَمُؤَلِّفٌ مُتَعَبٌ مَكْدُودٌ، فَقَدْ كُنِيَ مَوْوَنَةً جَمْعَهُ، وَخَزَنَةً وَتَابِعَهُ، وَطَلِبَهُ، وَأَغْنَاهُ ذَلِكَ عَنْ طُولِ التَّفَكُّيرِ، وَاسْتِنْفَادِ الْعَمْرِ، وَقَلَّ الْحَدُّ، وَأَدْرَكَ أَقْصَى حَاجَتِهِ، وَهُوَ يُجْتَمِعُ الْقُوَّةُ، وَعَلَى أَنَّ لَهُ حِنْدَ ذَلِكَ أَنْ يَجْعَلَ مُجِسُومَهُ عَلَيْهِ ضَرْبًا مِنَ التَّوْفِيقِ، وَظَفَرَهُ بِهِ بَابًا مِنَ التَّسْلِيدِ .

(وهذا كتاب) تَسْتَوِي فِيهِ رَغْبَةُ الْأُمَمِ، وَنُشَابُهُ فِيهِ الْعَرَبُ وَالْعَجَمُ، لِأَنَّهُ وَإِنْ كَانَ صَرِيحًا أَعْرَابِيًّا، وَإِسْلَامِيًّا جَمَاعِيًّا، فَقَدْ أَخَذَ مِنْ طُرُقِ الْفَلَسَفَةِ، وَجَمَعَ بَيْنَ مَعْرِفَةِ السَّيَاحِ وَعِلْمِ التَّجَرِبَةِ، وَأَشْرَكَ بَيْنَ عِلْمِ الْكُتَابِ وَالسَّنَةِ، وَبَيْنَ وَجْدَانِ الْحَاسَةِ وَإِحْسَاسِ الْفَرِيَةِ، وَيُسْتَبِيهِ الْفِتْيَانُ كَمَا يُسْتَبِيهِ الشُّيُوخُ، وَيُسْتَبِيهِ الْفَاتِكُ كَمَا يُسْتَبِيهِ الْبَاسِكُ، وَيُسْتَبِيهِ الْأَلْعَابُ ذُو اللَّوْهِ كَمَا يُسْتَبِيهِ الْإِلَهِيُّ ذُو الْحَزْمِ، وَيُسْتَبِيهِ النَّفْلُ كَمَا يُسْتَبِيهِ الْإِدْيَبُ، وَيُسْتَبِيهِ الْفَيْءُ كَمَا يُسْتَبِيهِ الْفَيْطَنُ، وَصَبَّتْ بِحِكَايَةِ قَوْلِ الْعَثْمَانِيَةِ وَالضَّرَّارِيَةِ وَأَنْتَ تَسْمَعُنِي أَقُولُ فِي أَقُولُ كِتَابِي: وَقَالَتِ الْعَثْمَانِيَةُ وَالضَّرَّارِيَةُ، وَكَمَا سَمَعُنِي أَقُولُ: وَقَالَتِ الرَّافِضَةُ وَالزُّيْدِيَّةُ، فَحَكَتْ عَلَى النَّصِيبِ لِحِكَايَتِي قَوْلَ الْعَثْمَانِيَةِ، فَهَلَّا حَكَتْ عَلَى بَالِشَيْعٍ لِحِكَايَتِي قَوْلَ الرَّافِضَةِ، وَهَلَّا كُنْتُ عَنْدَكَ مِنَ الْعَالِيَةِ لِحِكَايَتِي مُجْمَعِ الْعَالِيَةِ، كَمَا كُنْتُ عَنْدَكَ مِنَ النَّاصِبَةِ لِحِكَايَتِي قَوْلِ النَّاصِبَةِ، وَقَدْ حَكَيْتَا فِي كِتَابِنَا قَوْلَ الْإِبَاضِيَّةِ وَالصُّفِّيَّةِ، كَمَا حَكَيْتَا أَقَاوِيلَ الْأَزَارِقَةِ وَالنَّجْدِيَّةِ، وَعَلَى هَذِهِ الْأَرْكَانِ الْأَرْبَعَةَ بُنِيَتِ الْخَارِجِيَّةُ، وَكُلُّ أَمَمٍ سِوَاهَا فَإِنَّمَا هُوَ فَرْعٌ وَنَتِيجَةٌ وَأَشْتِقَاقٌ مِنْهَا، وَمَحْمُولٌ عَلَيْهَا، فَهَلَّا كَمَا عَنْدَكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْخَارِجَةِ، كَمَا صَرْنَا عَنْدَكَ مِنَ الضَّرَّارِيَّةِ، وَالنَّاصِبَةِ! وَكَيْفَ رَضِيتَ بِأَنْ تَكُونَ الشَّيْعَةُ إِلَى أَعْرَاضِ النَّاسِ أَسْرِعَ مِنَ الْمَارِقَةِ! اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ تَكُونَ وَجَدْتَ حِكَايَتِي عَنِ الْعَثْمَانِيَةِ وَالضَّرَّارِيَةِ أَشْبَعَ وَأَجْمَعَ، وَأَنْتُمْ وَأَجُودُ صَنْعَةً، وَأَبْدُ غَايَةً، وَرَأَيْتُنِي قَدْ وَخَّنتُ حَقَّ أَوْلِيائِكَ بِعَدَمِ مَا قَوَيْتُ بِأَطْلِ أَعْدَائِكَ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ لَكُنَّا شَاهِدُكَ مِنَ الْكُتَابِ حَاضِرًا، وَبِرَهَائِكَ عَلَى مَا أَذْهَبْتَ وَأَضَاعَ .

وعني بكاتب العباسية فهلا عيتي بحكاية مقالة من ادعى وجوب الإمامة ، ومن يرى الامتناع من طاعة الأئمة الذين زعموا أن ترك الناس سدى بلا قيم أرد عليهم ، وهؤلاء بلا راجع أريج لهم ، وأجدر أن يجمع لهم ذلك بين سلامة العاجل ، وغنيمة الآجل ، وأن تركهم تشرا لا نظام لهم أبعد لهم من المفساد ، وأجمع لهم على المراشد ؛ بل ليس ذلك بك ، ولكنه لما بهرك ما سمعت ، وملا صدرك الذي قرأت ، وأبلك وأبطرك فلم تنهج للحجة وهي لك معترضة ، ولم تعرف المقاتل وهي لك بادية ، ولم تعرف باب المخرج إذ جهلت باب المدخل ، ولم تعرف المصادر إذ جهلت الموارد ؛ ورأيت أن سبب الأولياء أشقى لدائك ، وأبلغ في شقاء سقمك ؛ ورأيت أن إرسال اللسان أحضر لذة ، وأبعد من النصب ، ومن إطالة الفكرة ، ومن الاختلاف إلى أرباب هذه الصناعة ؛ ولو كنت حين فطنت لمجزك وصلت نقصك بتمام خبرك ، واستكنيت من هو موقوف على كفاية مثلك ، وحبس على تقويم أشباهك ، كان ذلك أزين في العاجل ، وأحق بالمشورة في الآجل ، وكنت إن أخطأتك الغنيمة لم تحط بك السلامة ، ولقد سلم عليك المخالف ، بقدر ما أبطل به منك الموافق ؛ وعلى أنه لم يبتل منك إلا بقدر ما ألزمت من مؤونة تنيفك ، والشاغل بتقويك ؛ وهل كنت في ذلك إلا كما قال العربي : \* وهل يضّر السحاب نبع الكلاب ؟ \* وإلا كما قال الشاعر :

هل يضّر البحر أمّتي زائرا \* أرئت رعى فيه ظلام بمحجر

وهل حالنا في ذلك إلا كما قال الأول :

ما ضرّ تغلب وإيل أحمسوتها \* أم بليت حيث تتأطع البحرين

وقال حسان :

ما أبلى أنبّ بالحزن تيس \* أم لحاني بظهير غيب لئيم

وما أشك أنك قد جعلت طول إعراضنا عنك مطية لك ، ووجهت جانبنا عنك إلى الخوف منك ، وقد قال زفر بن الحارث لبعض من لم يرحق الصفيح بفعل العفو سببا إلى سوء القول :

فَإِنْ عُدْتُ وَإِلَهُ الَّذِي فَوْقَ عَرْشِهِ \* مَسْحُكٌ مَسْنُونٌ الْفَرَارِينَ أَرْزَقَا  
فَإِنْ دَوَاءَ الْجَهْلِ أَنْ تُضْرَبَ الْعُلَى (١) \* وَأَنْ بُغْسَ الْعَرِيضِ حَتَّى يُفْرَقَا

وقال الأول :

وما نفي عنك قوما أنت خالفهم \* كمينل ولفك جهالا بجهال  
فاقس إذا حذبوا وأحدب إذا قيسوا \* ووازيب الشر مثقالا بمثقال

وقال الآخر :

وضفائني دوايتها بضغائني \* حتى يمتن وبالخسود خسودا  
وإني وإن لم يكن عندي سنان زفر بن الحارث، ولا معارضة هؤلاء : الشر بالشر،  
والجهل بالجهل، والحق بالحق، فإن عندي ما قال المسعودي :

قَسَا تَرَابُ الْأَرْضِ مِنْهَا خُلِقْنَا \* وَفِيهَا الْمَعَادُ وَالْمَصِيرُ إِلَى الْخَيْرِ  
وَلَا تَجِبَا أَنْ تَرِيحَا قَسَا \* فَا حُيِيَ الْأَفْوَامُ شَرًّا مِنَ الْكِبَرِ  
فَلَوْ شِئْتُ أَذْلَى فِيمَا فِيهِ وَاحِدٌ \* عَلَانِيَةً أَوْ قَالَ عِنْدِي فِي سِرِّ  
فَارَبْنَا أَنَا لَمْ أَمْرٌ وَلَمْ أَتْهُ عَنْكَ \* ضَحِكْتُ لَهُ حَتَّى بَلَغَ وَيَسْتَشِيرِي

وقال التبر بن توكب :

جَزَى اللَّهُ عَنِّي حَمْسَةَ بَنَةِ نَوَيْلٍ \* جَزَاءَ مَغْسَلٍ بِالْأَمَانَةِ كَاذِبٍ  
بِمَا خَبَرْتُ عَنِّي الْوَشَاةَ لِيَكْذِبُوا \* عَلَى وَقْدِ أَوَّلِيَّتِي فِي النَّسَائِبِ

يقول : أخرجت خبري إلى من يشتهي أن أعاب عنده .

ولو شئت لما رضناك من القول بما هو أقيع أثرا، وأبغى وثما، وأصدق قبلا، وأعدل  
شاهدا، وليس كل من ترك المعارضة فقد صفع، كما أنه ليس كل من عارض فقد انتصر،

(١) العلى : الأعتاق .

(٢) العريض : الذي يتعرض للناس بالشر .

(٣) كذا في الأصل ، وفي السان في مادة بلع : ضاحكت حتى يبلع ويستشير .

وقد قال الشاعر قولاً إن فهمته كُفَيْتْنَا مؤونة المعارضة ، وكفيت نفسك لزوم العار ، وهو قوله :

إِنْ كُنْتَ لَا تَهْبُ ذِي لِيَا \* تَعْرِفُ مِنْ صَفْحِي عَنِ الْجَاهِلِ  
فَأَخْشَ سَكُوتِي آذَانًا مُنْصِتًا \* فَيْكَ لَسْمُوحُ خَنَا الْغَائِلِ  
فَالسَامِعُ الذَّمُّ مُقْتَرَبُهُ \* كَالْمَطْلَعِ الْمَاكُولِ لِلْآكِلِ  
مَقَالُهُ السُّوءُ إِلَى أَهْلِهَا \* أَسْرَعُ مِنْ مُنْجِلِ سَائِلِ  
وَمَنْ دَعَى النَّاسَ إِلَى ذَنْبِهِ \* ذَنَّبُوهُ بِالْحَقِّ وَبِالْبَاطِلِ  
فَلَا تَهْجُ إِنْ كُنْتَ ذَا إِرْبِيَّةٍ \* حَزَبَ أُنَى التَّجْزِيَةِ الْعَاقِلِ  
فَإِنَّ ذَا الْعَقْلِ إِذَا هَجَّهَ \* هَجَّتْ بِهِ ذَا حَبْسِلِ خَابِلِ  
يُنْصَرُّ فِي حَاجِلِ شَلَاتِهِ \* عَلَيْكَ غِيبُ الضَّرْرِ الْإِجْلِ

وقد يقال : إنَّ العفو يُفسدُ من اللِّيم بقدر إصلاحه من الكريم ؛ وقد قال الشاعر :

وَالْعَفْوُ عِنْدَ كَيْلِبِ الْقَوْمِ مَوْعِظَةٌ \* وَبَعْضُهُ لَسَعِيهِ الْقَوْمِ تَدْرِيبٌ

فإن كُنا قد أسانا في هذا التفرغ والتوقيف ، فالذي لم يأخذ فينا بِحُكْمِ القرآن ، ولا بأدب الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولم يفرغ إلى ما في البطن الصحيحة ، أو إلى ما توجبُه المقاييسُ المطردة ، والأمثال المضروبة ، والأشعار السائرة ، أو إلى بالإساعة ، وأحقَّ باللائمة ، قال الله جلَّ شأوه : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسٍ أَغْرَقُوا ﴾ وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام : " لَا تَجْنِ يَمِينَكَ عَلَى شِمَالِكَ " وهذا حُكْمُ الله جلَّ وعزَّ ، وآدابُ رسوله ، والذي أنزل به الكتاب ، ودلَّ عليه في مُجْمَعِ العقول .

### أَخَذَ الْبَرِيءُ بِذَنْبِ الْمَذْنِبِ

ثم قال في أخذ البريء بِذَنْبِ الْمَذْنِبِ : فأما ما قالوا في المثل المضروب ، " رَمَيْتُنِي بِدَاهِيَا " وأنسلت . ، وأما قول الشعراء وذم الخطباء لمن أخذ إنساناً بِذَنْبِ غيره ، وما ضربوا في ذلك من الأمثال ، كقول النابغة حيث يقول في شعره :

وَكَلَّفَتْنِي ذَنْبَ امْرِئِي وَتَرَكْتَهُ \* كَيْدِي الرُّمُوكِيُّ غَيْرُهُ وَهُوَ رَامِعُ



وكانوا إذا أصاب إيلهم المُرْكُورُ السليم لذهب المرء عن السقيم فاسقموا الصحيح من غير أن يبرئوا السقيم، وكانوا إذا كثرت إبل أحدهم فبليت الألف فقصوا عين الفعل، فإن زادت الإبل على الألف فقصوا عينه الأخرى، فذلك المفقأ والمعنى اللذان سمعت بهما قال الفرزدق :

غلبتْكَ بالمفقأ والمعنى \* وبليت المجتبي<sup>(١)</sup> والخلفات

وكانوا يزعمون أن المفقأ يطرد عنها العين والسواف<sup>(٢)</sup> والقارة فقال الأول :

فَقَاتْ لها عَيْنَ الفَعِيلِ تَبِيحًا \* وفيهِنَّ رَعْلَةُ المِيسَمِ والحِطَامِ  
الرَّمْلَةُ : التي تُسْقَى أَذْنُهَا وتترك مدلاةً لكرمها .

وكانوا يقولون في موضع الكفارة والأمنية، كقول الرجل إذا بلغت إلى كذا وكذا، وكذلك غنمى نبتت عند الأوتان كذا وكذا عتيرة، والعتيرة: من نُسك الرحبة، والجمع عتائر، والعتائر من الشاة، فإذا بلغت إبل أحدهم أو غنمه ذلك العدد استعمل التأويل وقال : إنما قلت : لئى أذبح كذا وكذا شاة، والظباء: شاة، كما أن الغنم شاة، فجعل ذلك القران كله مما يصيد من الظباء، فلهذا يقول الحارث بن حِزَّاة البشكري :

حَتَّى باطلا سُدُوخًا كما تَمُدُّ \* تَرْعُنْ مِجْرَةَ الرِّبِيعِ الظُّبَاءَ

بعد أن قال :

أُمَ عَلِينَا جُنَاحُ كَنْدَةَ أَنْ يَمُدَّ \* نَمُ غَازِيَوْمَ وَمَنَا الْجَسْرَاءُ

وكانوا إذا أوردوا البقر فلم يشرب، إما لكدر الماء وإما لقلة العطش، ضربوا النور ليقتحم الماء لإثارة البقر تتبعه كما تتبع النور الفحل، وكما تتبع أثَرُ الوحش الجمار، فقال في ذلك حوف بن الخريج :

تَمَنَّتْ طَيِّقٌ جَهْلًا وَجُبْنًا \* وَقَدْ خَالِيَهُمْ فَأَبَوْا خَلَايَ

جَهْوَى أَنْ يَهْوَتْ جِبَالُ سَلَمَى \* كَضَرْبِ النُّورِ لِلْبَقْرِ الظُّبَاءَ

(١) في اللسان مادة « قَاتَا » « المعنى » . (٢) كذا في الأصل وفي السان « المجتبي »

بالهاء المهملة . (٣) السواف : مرض الإبل . (٤) كذا في الأصل وفي اللسان مادة «ر » « وظلما » .

وقال في ذلك أنس بن مُثَرِّكة في قتله سُلَيْك بن السُّلَكَة :

إِنِّي وَقَتْلُ سُلَيْكَا ثُمَّ أَعْفَلُهُ \* كَالثَّوْرِ يُضْرَبُ لِمَاعَاتِ الْبَقْرِ  
(١) أَنْتِ لَلسَّرِ إِذْ تَفْتَحِي حَلِيَّتَهُ \* وَإِذْ يُسَدُّ عَلَى وَجْهَاتِهَا الثَّقَرُ (٢)

وقال الهَيْبَانُ الْفَهْمِيُّ :

كَمَا ضُرِبَ الْيَسُوبُ أَنْ عَافَ بَاقِرٌ \* وَمَا ذَنْبُهُ أَنْ عَافَتْ الْمَاءَ بَاقِرُ

وَلَا كَانَ الثَّوْرُ أَمِيرَ الْبَقْرِ، وَهِيَ طَئِيعُهُ كَهَاطَةِ إُنَاثِ النَّحْلِ لِلْيَسُوبِ سَمَاءَ بَاقِرٍ أَمِيرِ  
النَّحْلِ .

وَكَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّ الْجَلْحَ هِيَ الَّتِي تَصَدُّ الْبَرَانَ عَنِ الْمَاءِ حَتَّى تُمَسِكَ الْبَقْرُ عَنِ الشَّرْبِ  
حَتَّى تَهْلِكَ، وَقَالَ فِي ذَلِكَ الْأَعْمَشِيُّ :

وَأِنِّي وَإِنْ كَلَفْتُمُونِي وَرَبِّكُمْ \* لِأَعْلَمَنَّ مَنْ أَمْسَى أَحَقُّ وَأَحْوَا  
لِكَالْثَّوْرِ وَالْجَلْحُ يُضْرَبُ ظَهْرُهُ \* وَمَا ذَنْبُهُ أَنْ عَافَتْ الْمَاءَ مَشْرَبَا  
وَمَا ذَنْبُهُ أَنْ عَافَتْ الْمَاءَ بَاقِرٌ \* وَمَا إِنْ تَعَافَى الْمَاءُ إِلَّا لِيُضْرَبَا

كَأَنَّهُ قَالَ : إِذَا كَانَ يُضْرَبُ أَبَدًا لِأَنَّهَُا عَافَتْ الْمَاءَ، فَكَأَنَّهَُا إِنَّمَا عَافَتْ الْمَاءَ لِیُضْرَبَ؛  
وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَنْصُورِ النَّحْلِيِّ فِي ذَلِكَ :

لِكَالْثَّوْرِ وَالْجَلْحُ يُضْرَبُ وَجْهُهُ \* وَمَا ذَنْبُهُ إِنْ كَانَتْ الْجَلْحُ ظَالِمَةً

وقال نَهْشَلُ بْنُ جَرَّيٍّ :

أَتَرَكُ عَارِضٌ وَبَنُو عَدِيٍّ \* وَتَقْصِرُ دَارُهُمْ وَمَعَهُ بَرَاءُ  
كَدَابِ الثَّوْرِ يُضْرَبُ بِالْمَرَاوِي \* إِذَا مَا عَافَتْ الْبَقْرُ الظُّلْمَاءُ  
وَكَيْفَ تَكْطِفُ الشَّعْرَى سَمِيلًا \* وَبَيْنَهُمَا الْكَوَاكِبُ وَالسَّمَاءُ

(١) في اللسان : « غضبت » . (٢) في الأصل « وإن » والتصويب عن اللسان .

(٣) الفخر : السير الذي في مؤخر العرج .

وقال أبو نؤيرة بن حصين حين أخذه الحكم بن أيوب ذنب العتوق :

أبا يوسف لو كنت تعلم طاعتي \* وتصحي إذا ما هتفتي بالحق  
ولا ساق سراق العرافة صالح \* نبي ولا كلفت ذنب العتوق

وقال خدش بن زهير حين أخذ بدماء بني عارب :

أكلف قتل معشر لست منهم \* ولا دارهم دارى ولا نصرهم نصرى  
أكلف قتل اليريس صيص شواحيط \* وذلك أمر لم تُسَفِّ له قدى

وقال الآخر :

إذا عركت عجل بنا ذنب طيهر \* عركنا بتم آلات ذنب بن يجل

ولما وجد اليهودى أبا حنيس الضبابي في منزله لخصاه فمات، وأخذ حنيس بن عيس  
بجناية اليهودى قال قيس بن زهير : أناخذنا بذنب فربنا، ونسالنا العقل، والقاتل يهودى  
من أهل تيماء؟ قال : والله لو قتله هيف الريح لوديتهموه، فقال قيس لبنى عيس : الموت  
في بنى دبيان خير لكم من الحياة في بنى عامر، ثم أنسا يقول :

أكلف ذا الخصبين إن كان ظالما \* وإن كنت مظلوما وإن كنت شائنا  
خصاه أمر من أهل تيماء طابن \* ولا يدم الإنسان والجن طابنا  
فهلا بنى دبيان أمك هابل \* وهنت يهيف الريح إن كنت راهنا  
إذا قلت قد أفلت من شر حنيس \* أتانى بأمرى شره متباطنا  
فقد جعلت أبا جدنا تجتويكم \* كما تجتوى سوق المضاه الكازنا

ولما قتل لقمان بن عاد أخته وهى صخر بنت لقمان قال حين قتلها : ألسيت امرأة ؟  
وذلك أنه تزوج عدة نساء وكلهن خنن في أنفسهن، فلما قتل أنحراهن وزل من الجبل كان  
أول من تلقاه صخر أخته، فوثب عليها فقتلها، وقال وأنت أيضا امرأة، وكان قد ابتلى أيضا  
بأن أخته كانت مجنونة، وكذلك كان زوجها، فقالت لإحدى نساء لقمان : هذه ليلة طهرى

وهي ليك، فدعني أُمّ في مضجعتك، فإن لقمانَ رجلٌ مُتَجَبِّ، فعسى أن يقع عليّ فأُنجِبَ،  
فوقع على أخته فحملت بِأَقِيم وفي ذلك قول النّازبِ تَوَلَّى :

لَقِمَ بُنْ لَقْمَانٍ مِنْ أُخْتِهِ \* فَكَانَ أَبْنُ أَخْبَ لَهُ وَابْنًا  
لِأَلَى حَقٍّ فَاسْتَحْصَنَتْ \* عَلَيْهِ فَعُزُّهَا مُقْلِمًا  
فَأَحْبَبَهَا رَجُلٌ عَمَّكَ \* بِغَادَةٍ بِهِ رَجُلًا مُحْكَمًا

فصريت العربُ في ذلك المثلَ بقتل لقمانَ ببنه مُحْكَمًا فقال خُفَافُ بْنُ نَدْبَةَ في ذلك :  
وَعَبَّاسٌ يُدْبِ لِي الْمَنَاسِيَا \* وَمَا أَذْنَبْتُ إِلَّا ذَنْبَ مُحْكَمٍ

وقال في ذلك ابنُ أَثَبَّةَ :

أَتَجَمُّعُ تَيْسًا بِلَيْلٍ إِذَا نَأَتْ \* وَهَرَانَهَا بِلُغْمًا كَمَا ظَلِمَتْ مُحْكَمُ

وقال الحارثُ بْنُ عُبَادَ :

قَنَزَبًا مَرْبُوطَ النِّسَامَةِ مَنَى \* لَقِيعَتْ حَرْبٌ وَائِلٌ عَنْ حِيَابِ  
لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عِلْمُ الْإِلَهِ \* وَلَئِنْ بَجَرَهَا الْيَوْمَ صَالِي

وقال الشاعر وأظنه ابنُ المَقْقَعِ :

فَلَا تَلِمِ الْمَرْءَ فِي شَأْنِهِ \* فَرَبٌ مَلُومٌ وَلَمْ يُذْنِبِ

وقال آخر :

لَعَلَّ لَهُ عَذْرَا وَأَنْتَ تَلُومُ \* وَكَمْ لَاحِمٌ قَدِ لَامَ وَهُوَ مُلِيمٌ

وقال بعض العرب في قتل بعض الملوكِ سِيَمَارَ الرُّومِيِّ : فَإِنَّهُ لَمَّا عَلَا الْخَوَرَنَقَ، وَرَأَى  
بُنْيَانًا لَمْ يَرِ مِثْلَهُ، وَرَأَى ذَلِكَ الْمُسْتَشْرِفَ، وَخَافَ إِنْ هُوَ اسْتَبْقَاهُ أَنْ يَمُوتَ فَيَبْنَى مِثْلَ ذَلِكَ  
الْبُنْيَانِ لِمَلِكٍ آخَرٍ، فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِيَ مِنْ فَوْقِ الْقَصْرِ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ الْكَلْبِيُّ فِي شَيْءٍ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ  
بعض الملوك :

جزائي جزاه الله شراً جزائه \* جزاء سيفار وما كان ذا ذنب  
يسوى رصه البنيان سبهين حجة \* يعلل عليه بالقراميد والسكب  
فلما رأى البنيان تم تحوفه \* وأض كمثل الطود ذي الباذخ الصعب  
فقلن سمنار به كل حبة \* وفاز لديه بالمودة والقرب  
فقال اقدفوا بالعلاج من رأس شاهي \* فذاك لعمرك من اعظم الخطي

وجاء المسلمون يروى خلف عن سلف، وتابع عن سابق، وآخر عن أول، أنهم  
لم يختلفوا في عيب قول المجتاج : لا أخذت، السبي بالسمي والولي بالولي، والجار بالجار،  
ولم يختلفوا عن لمن شاعرهم حيث يقول :

إذا أخذ البريء بغير جرم \* تجنب ما يحاذره السقيم

قال : وقيل لعمرو بن عبيد إن فلاناً لما قدم رجلاً ليضرب عنقه قيل له : إنه  
مجنون، قال : لولا أن المجنون يبدع افلا خلعت سبله، قال فقال عمرو : وما خلق الله النار  
إلا بالحق .

ولما قالت التغلبيّة لمجحف بن حكيم في وقعة النهش : فص الله عمارك، وأطال سهادك،  
وأقل رمادك، فوالله إن قتلت إلا نساء أسافلين دمي، وأعالين ندي، فقال لمن حوله : لولا  
أن تبد هذه مثلها خلعت سبلها، فبلغ ذلك الحسن فقال : إن المجحف جُدوة من نازجهم .  
قال وقدم رجل عند الأخنف بن قيس الكفاة بالسمن، فقال عند ذلك الأخنف : رب  
ملوم لا ذنب له ؛ فهذه السية سرت فينا ؛ وما أحسن ما قال سعيد بن عبد الرحمن  
ابن حصان :

وإن أمرأى يسمي ويصيح سالماً \* من الناس إلا ما جئني لسعيد

وقلت : وما بأهل العلم والنظر، وأصحاب الفكر والعبر، وأرباب التحل، والعلماء  
بخارج المال، وورثة الأنبياء، وأعوان الخلفاء، يكتبون كتب الظرفاء والمثعاه، وكتب  
الفراخ والخلفاء، وكتب الملاهي والفكاهات، وكتب أصحاب الخصومات والمزاة، وكتب

أصحاب العصبية، وحمية الجاهلية، حتى كأنهم لا يحاسبون أنفسهم، ولا يوازنون بين ما عليهم ولهم، ولا يخافون تصفح العلماء، ولا لائمة الأدباء وتشتف الأكفاء، ومساءة الجلوساء، فهلاً أمسكت رحمك الله عن عينا، والطنن عليها، وعن المشورة والموعظة، وعن تخويف ما فيه سوء العاقبة الى أن تبلغ حال العلماء، ومراتب الأكفاء .

### أقسام البيان

وبعد أن تكلم في تقسيم العالم الى ثلاثة أقسام، وذكر أقسام الحيوان، قال في أقسام البيان :

ووجدنا الحكمة على ضربين : شئٌ جميلٌ حكمةٌ وهو لا يعقل الحكمة ولا عاقبة الحكمة ، وشئٌ جملٌ حكمةٌ وهو يعقل الحكمة وطاقة الحكمة ، فاستوى بدين الشئ العاقل وغير العاقل في جهة الدلالة على أنه حكمة، واختلفا من جهة أن أحدهما دليلٌ لا يستدلُّ، والآخر دليلٌ يستدلُّ، فكلُّ مُستدلٍّ دليلٌ، وليس كلُّ دليلٍ مُستدلاً، فشارك كلَّ الحيوان سوى الإنسان جميع الجساد في الدلالة وفي عدم الاستدلال، واجتمع للإنسان بأن كان دليلاً مُستدلاً، ثم جملٌ للمستدلِّ سببٌ يدلُّ به على وجوه استدلاله، ووجوه ما نتج له الاستدلال، ومثلاً ذلك بياناً، وجعل ذلك البيان على أربعة أقسام : لفظٍ وخطٍ وعقدٍ وإشارة، وجعل بيان الدليل الذي لا يستدلُّ تمكينه المُستدلِّ من نفسه واقتياده كلَّ من فكر فيه الى معرفة ما استغزى من البرهان، وحشى من الدلالة، وأودع من عجيب الحكمة؛ فالأجسامُ الخرسُ الصامتةُ ناطقة من جهة الدلالة، ومُعربةٌ من جهة صحة الشهادة، على أن الذي فيها من التدبير والحكمة تلوحان لمن استغبرهما، وينطقان لمن استنطقهما كما يخبر الخُزالُ ويؤد اللون عن سوء الحال، وكما ينطق السَّمْنُ والنُفْرَةُ عن حسن الحال، وقد قال الشاعر :

فعاوجوا فاشنؤا بالذى أنتَ أهله \* ولوسكنوا أئنت طيك الحقائق

وقال آخر :

مَيَّ تَكُ في عدوٍّ أو صديقٍ \* تخبرك العيونُ عن القلوب

وقد قال المكي في صدق شبه الذئب، وفي شدة حسه وأسترواحه :

يستخير الرِّيحُ إذا لم يَسْمَعْ \* بمثل مِرْغاج الصفا الموقِع

وقال عترة وهو يصف نعيب غراب :

حَرِقَ الحَنَاجُ كَانَ سَكَنِي رَأْسِهِ \* جَآمَانُ بِالْأَخْبَارِ هَشٌّ مُوَلِّعٌ

وقال الفضل بن عيسى بن أبان في قصصه : سل الأرض فقل : مَنْ شَقَّ أُنْهَارَكَ ،  
وَعَرَسَ أَشْجَارَكَ ، وَجَنَى عِمَارَكَ ؛ فإن لم تجبك حوارا ، أجابتك اعتبارا ، فموضوع الجسم  
ونصبته دليل على ما فيه ، وداعية إليه وتنبيه عليه ، فالجماد الأبكم الأنوس من هذا الوجه  
قد شارك في البيان الإنسان الحلي الناطق ؛ فمن جعل أقسام البيان خمسة فقد ذهب أيضا  
مذهبا له جواز في اللغة ، وشاهد في العقل ، فهذا أحد قسمي الحكمة ، وأحد معنيي  
ما استخزنه الله تعالى من الوديعه .

القسمه الأخرى ما أودع صدورُ صنوف سائر الحيوان من ضروب المعارف ، وفطرها  
على غريب الهدايات ، ومختر حناجرها له بضرب النغم الموزونة ، والأصوات الملحنة ،  
والمخارج الشجية ، والإغاني المطربة ، فقد يقال : إن جميع أصواتها معذلة ، وموزونة  
موقعة ، ثم الذي سهل لها من الرفق العجيب في الصنعة مما ذلله الله تعالى لمنافيتها وأكفها ،  
وكيف فتح لها من باب المعرفة على قدر ماهايا لها من الآلة ، وكيف أعطى كثيرا منها من  
الحس اللطيف ، والصنعة البديعة عن غير تأديب وتقيف ، وعن غير تقويم وتلقين ، وعن  
غير تدريج وتمرين ، فبلغت بعفوها ومقدار قوتى فطرتها من البديهة والارتجال ، ومن  
الابتداء والاقتضاب ، ما لا يقدر عليه حدائق رجال الأرى ، وفلاسفة علماء البشر بريد  
ولا آلة ، بل لا يبلغ ذلك من الناس أكلهم خصالا ، وأعظم جلالا ، من جهة الارتجال  
والاقتضاب ولا من جهة التسعف والاقتدار ، ولا من جهة التقديم فيه ، والتأني له ،  
والترتيب لمقدماته ، وتمكين الأسباب المهيئة عليه فصار جهد الإيمان الثاقب الحس ،  
الجامع القوي ، المتصرف في الوجوه المتقدم في الأمور يعجز عن عفو كثير منها ، وينظر إذ نظر

الى ضروب ما يحىء منها كما أعطيت العنكبوت ، وكما أعطيت السُرَّة ، وكما علم النحل ، بل عرف التَّنَوُّط من بديع المعرفة ، ومن غريب الصنعة في غير ذلك من أصناف الخلق . ثم لم يوجد لهم العجز في أنفسهم في أكثر ذلك إلا عما قوى عليه الحمح والحنشاش وصغار الحشرات ، ثم جعل الإنسان ذا العقل والتمكين ، والامتطاعة والتصرف ، وذا التكلف والتجربة ، وذا الثاق والمنافسة ، وصاحب الأذخار والمتفقد لشأن العاقبة متى أحسن شيئا كان كلُّ شيء دونه في الغموض عليه أسهل ، وجعل سائر الحيوان وإن كان يحسن أحدها ما لا يحسن أحده في الناس متى أحسن شيئا عجيبا لم يمكنه أن يحسن ما هو أقرب منه في الظن ، وأسهل منه في الرأي ، بل لا يحسن ما هو أقرب منه في الحقيقة ، فلا الإنسان جعل نفسه كذلك ، ولا شيء من الحيوان اختار ذلك ، فأحسنّت هذه الأجناس بلا تعلم ما يجتمع على الإنسان ، وإن تعلم فصلا لا يحاوله إذا كان لا يطمع فيه ، ولا يحسدها إذا كان لا يأمل اللحاق بها ، ثم جعل تعالى وعتر هاتين الحجتين إزاء عيون الناظرين ، ونجاء اسماع المعتبرين ، ثم حث على التفكير والاعتبار ، وعلى الاعتاض والازدجار ، وعلى التعوُّف والتبني ، وعلى التوقُّف والتذكُّر ، فجعلها مذكرة منبهة ، وجعل الفطر تنشئ الخواطر ، وتحويل بأهلها في المذهب ، ذلك رب العالمين ، سبحان الله رب العالمين .

وهذا كتاب موعظة وتبريد ، وتفقه وتبنيه ، وأراك قد عيَّته قبل أن تنف على خدمته ، وتنفكر في فصوله ، وتذكر آخره بأوله ، ومصادره بموارده ، وقد غلطك فيه بعض ما رأيت في أشائه من مزيج لم تعرف معانيه ، ومن بطلالة لم تدرك غورها ، ولم تدرك لم آتيت ولأى علة تكلفت ، وأى معنى أريغ بها ، ولأى جد احتمل ذلك الهزل ، ولأى رياضة تجشمت تلك البطالة ، ولم تدرك أن المزاج جد إذا اجتلب لأن يكون علة ليجد ، وأن البطالة موقار وزمانه إذا تكلفت لتلك العاقبة ، ولما قال الخليل بن أحمد : لا يصل أحد من علم النحو الى ما يحتاج اليه حتى يتعلم ما لا يحتاج اليه ، قال أبو شمر : إذا كان لا يصل الى ما يحتاج اليه إلا بما لا يحتاج اليه فقد صار ما لا يحتاج اليه يحتاج اليه ، وذلك



مثل كتابنا هذا، لأننا إن حملنا جميع من يتكلف قراءة هذا الكتاب على مَرَّ الحَقِّ، وصُعوبة  
الحِدِّ، ونَقْلِ المَوَازِينِ وحَقِيقَةِ الوَفَارِ، لم يصبر عليه مع طوله إلَّا من قد تجرَّد للنمِّ وفيهم  
معناه، وذاق من قَمَرَتِهِ، وأستشعر من عِزِّهِ، ونال من سروره على حَسَبِ ما يورث الطول  
من الكَدِّ، والكثرة من السَّامة، وما أكثر من يُقاد إلى حِفْظِهِ بالسَّواجِرِ، وبالسَّوقِ  
العنيفِ، وبالإخافة الشَّديدة .

### مدح الكتب

ثم ذكر فقراتٍ حساباً في مدح الكتب فقال :

ثم لم أدرك رَضِيَّتَ بالظنِّ على كَلِّ كِتَابٍ لِي بعينه، حتى تجاوزت ذلك، إلى أن عَيْتَ  
وضِعَ الكتبِ كيفما دارت بها الحال، وكيف تَصَرَّفَتْ بها الوجوه، وقد كنت أعجب  
من عَيْتِكَ البَعْضَ بلا عِلْمٍ، حتى عَيْتَ الكَلَّ بلا علم، ثم تجاوزت ذلك إلى التشجيع، ثم  
تجاوزت التشجيع إلى نُصَبِ الحُسرِ، فعبت الكتاب ونعم النَّخْرُ والعُسدة، ونعم الخليل  
والعمدة، ونعم النَّشْوة والزَّهْة، ونعم المَشْتَفَل والحِرْفَةُ، ونعم الأُنَيْسُ ساعة الوَحْدَةِ، ونعم  
المَعْرِفَةُ بِلادِ الغُرْبَةِ، ونعم القَرِينِ والنَّخِيلِ، ونعم الوَازِرِ والتَّزِيلِ، والكَتَابُ وَطَاءٌ مَلَى  
عَلَمًا، وطَافَتْ حَيْثُ طَافَا، وإِنَاءٌ نُحْنِ مَزَاحًا وَجِدًا، إِنْ شئتَ كَانَ أَيْنَ مِنْ تَحْيَانٍ  
وَإِثْلٍ، وَإِنْ شئتَ كَانَ أَعْيَانٍ بِأَقْلٍ، وَإِنْ شئتَ مَحْكَبٌ مِنْ بَوَادِرِ، وَإِنْ شئتَ عَجِبَتْ  
مِنْ غَرَائِبِ فَوَائِدِهِ، وَإِنْ شئتَ أَهْنَكِ نَوَادِرِهِ، وَإِنْ شئتَ تَهْنِكِ مَوَاعِظِهِ، وَمَنْ لَكَ  
بِوَاعِظِ مَلِكِهِ، وَبِزَاجِرِ مُفَرِّقِهِ، وَبِنَاسِكِ فَائِكِ، وَبِنَاطِقِ أُنْحَرَسِ، وَبِبَارِدِ حَارِّ، وَفِي الْبَارِدِ الْحَارِّ  
يقول الحسن بن هانئ :

قُلْ لِهَبِيرٍ إِذَا أَتَى وَشَدَا \* أَقْلُ أَوْ أَكْثَرُ فَأَنْتَ مِهْدَارُ  
بُخْتِ مَنْ شَتَّةَ الْبُرُودَةِ حَتَّى صَرَتْ عِنْدِي كُنَاكُ النَّارِ  
لَا يَعْجِبُ السَّامِعُونَ مِنْ صَفَتِي \* كَذَلِكَ التَّلَجُّ بِأَرْدُ حَارُ



وقال آخر :

يَقُومُ مِنْ مَيْلِ الْغَلَامِ الْمُوَدَّبُ \* وَلَا يَنْفَعُ التَّادِيْبُ وَالرَّاسُ أَشْبَبُ

وقال آخر :

أَدَبْتُ عِرْمِي بِدَمْعٍ مَا هِرْمْتُ \* وَمِنْ الْعَنَاءِ رِيَاضَةُ الْحَرَمِ

وقد قال ذو الرقة لعمري بن عمر : اَكْتُبْ شِعْرِي فَالْكَاتِبُ أَعْجَبُ إِلَيَّ مِنَ الْخَفِظِ ،  
إن الأعرابي ينسى الكلمة قد سهرت في طلبها ليلة ، فيضع في موضعها كلمة في وزنها  
ثم يُلْشِدُهَا النَّاسَ ، وَالْكَاتِبُ لَا يَلْتَمِسُ ، وَلَا يُبَدِّلُ كَلَامًا بِكَلامٍ ،

وعبت الكاتب ولا أعلم جارا أبز ، ولا خليطا أنصف ، ولا رفيقا أطوع ، ولا مدببا  
أخضع ، ولا صاحبا أظهر كفاية ، ولا أقل جناية ، ولا أقل إملالا وإبراما ، ولا أقل  
خللا وإجراما ، ولا أقل غيبة ، ولا أبعد من فضيحة ، ولا أكثر أعجوبة وتصرفا ، ولا أنل  
صلفا وتكلفا ، ولا أبعد من مرء ، ولا أترك شغب ، ولا أزهد في جدال ، ولا أكف  
عن قتال ، من كاتب ، ولا أعلم قرينا أحسن مواناة ، ولا أعجل مكافاة ، ولا أحضر  
معونة ، ولا أخف مؤونة ، ولا شجرة أطول عُمرًا ، ولا أجمع أمرا ، ولا أطيّب عمرة ،  
ولا أقرب عُجى ، ولا أسرع إدراكا ، ولا أوجد في كل إبان من كاتب ، ولا أعلم نتاجا  
في حدائث سنه ، وقرب ميلاده ، ورخص عمنه ، وإمكان موجوده ، يجمع من التداير  
العجيبة ، والعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحود الأنهان اللطيفة ، ومن  
الحكم الرقيقة ، والمذاهب القديمة ، والتجارب الحكيمة ، ومن الأخبار عن القرون  
الماضية ، والبلاد المتراخية ، والأمثال السائرة ، والأهم البائدة ما يجمع لك الكتاب .

وقد قال الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ  
بِالْقَلَمِ ﴾ وصِف نفسه تبارك وتعالى جده بأن علّم بالقلم ، كما وصَف نفسه بالكرم ، وأَعْتَدَ  
ذلك في نِعْمَةِ الْعِظَامِ ، وفي أياديه الحسام ، وقد قالت : القلم أحد اللسانين ،  
وقالوا : كل من عَرَفَ فَضْلَ النِّعَةِ في بيان اللسان كان بفضل النعمة في بيان القلم

أعرف ، ثم جعل هذا الأمر قرآنا ، ثم جعله في أول التنزيل ، ومُستفتح الكتاب ، ثم أعلم - يرحمك الله تعالى - أن حاجة بعض الناس الى بعض صفة لازمة لطلبائهم ، وخلقنا قائمة في جواهرهم ، وثابتة لا تزلزلهم ، ومحيطة بجماعتهم ، مشتملة على أدانيهم وأقصائهم ، وحاجتهم الى ما غاب عنهم ، مما يعيشهم ويحييهم ، ويأخذ بأرماقهم ، ويصلح بهم ، ويجمع شملهم ، والى التعاون على ذلك ، والتوازر عليه كحاجتهم الى التعاون على معرفة ما يحضرهم ، والتوازر على ما يحتاجون من الارتفاق في أمورهم التي لم تغب عنهم ، حاجة الغائب موصولة بحاجة الشاهد ، لاحتياج الأدنى الى معرفة الأقصى ، واختلال الأدنى الى معونة الأقصى ، معان متضمنة ، وأسباب متصلة ، وحال متقيدة ، وجعل حاجتنا الى معرفة أخبار من كان قبلنا حاجة من كان قبلنا الى أخبار من كان قبلهم ، وحاجة من يكون بعدنا الى أخبارنا ، ولذلك تهتمت في الكتب البشارات بالرسول ، ولم يُسخر لهم جميع خلقه إلا وهم يحتاجون الى الارتفاق بجميع خلقه ، وجعل الحاجة حاجتين : إحداهما قوام وقوت ، والأخرى لذة وإمتاع ، وازدياد في الأكلة ، وفي كل ما أجدل النفوس ، وجمع لهم المتاد ، وذلك المقدار من جميع الصنفين وفق لكثرة حاجاتهم وشهواتهم ، وعلى قدر اتساع معرفتهم ، وبعد غورهم ، وعلى قدر احتمال طبع البشرية ، ونفسرة الإنسانية ، ثم لم يقطع الزيادة عنهم إلا لعجز خلقهم عن احتياها ، ولم يميز أن يفترق بينهم وبين العجز إلا بعدم الأعيان ، اذا كان العجز صفة من صفات الخلق ، وتنا من نُعوت العبد ، ولم يمتلئ الله تعالى أحدا يستطيع بلوغ حاجته بنفسه دون الاستعانة ببعض من يخفله ، فادانهم مُسخر لأقصاهم ، وأجلهم مُبسر لأدقهم ، وعلى ذلك أحوج الملوك الى السوق في باب ، وأحوج السوق الى الملوك في باب ، وكذلك الفنى والفقير ، والعبد وسيدّه .

ثم جعل الله تعالى كل شئ للإنسان حولا وفي يده مذكلا مُبسرا ، إما بالاحتيال له ، والظلف في إراخته وأستقائه ، إما بالصولة عليه والفتك به ، وإما أن يأتيه سهواً ورهواً ، وعلى أن الإنسان لولا حاجته اليها لما احتال لها ، ولكل صال عليها ، إلا أن الحاجة تفترق

في الجنس والجهة، وفي الحظّ والتقدير، ثم تعبّد الإنسان بالفكر فيها، والنظر في أمورها، وبالأعتبار بما يرى، ووصل بين عقولهم، وبين معرفة تلك الحكم الشريفة، وتلك الحاجات اللازمة بالنظر والتفكير، والتتقّب والتتقير، والتنبّه، والتوقف، ووصل معارفهم بموافع حاجاتهم إليها، وتشاعرهم بمواضع الحكم فيها بالبيان عنها، وهو البيان الذي جعله الله تعالى سبباً فيما بينهم، ومُعَبِّراً عن حقائق حاجاتهم، ومُعَرِّفاً لمواضع سَدِّ الخَلَّةِ، ودفع الشبهة، ومُدَاوَةَ الخِيرة، ولأنّ أكثر الناس عن الناس أفهم منهم عن الأشباح المسائلة، والأجسام الجامدة، والأجرام الساكنة التي لا يُعَرَفُ ما فيها من دقائق الحكم وكنوز الأدب، وينابيع العلم، إلا بالعقل اللطيف الناقب، وبالنظر التام النافذ، وبالأداة الكاملة، وبالأسباب الوافرة، والصبر على مكروه الفكر، والاحتراز من وجوه الخدع، والتحفّظ من دواعي الهوى، ولأنّ الشكل أفهمهم عن شكله وأسكن إليه وأحبّ به، وذلك موجود في أجناس البهائم وضروب السباع، والصبيّ عن الصبيّ أفهم وله آلف، واليه أنزع، وكذلك العالم والعالم، والجاهل والجاهل، وقال الله عزّ وجلّ لنبيه عليه الصلاة والسلام : ﴿لَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ لأنّ الإنسان عن الإنسان أفهم، وطبائعهم أأنس، وعلى قدر ذلك يكون موقع ما يسمع منه؛ ثم لم يرض من البيان لم يصف واحد، بل جمع ذلك ولم يفرق، وكثر ولم يُقل، وأظهر ولم يُخف، لجعل أصناف البيان التي بها يتعارفون معانيهم، والتّرجمان الذي اليه يرجعون عند اختلافهم في أربعة أشياء وفي خصلة خامسة، وإن قصصت عن بلوغ هذه الأربعة في جهاتها، فقد تكمل بجنسه الذي وضع له، وصرف إليه .

وهذه انحصال الأربع : هي اللفظ والخط والإشارة والمقدّم والخصلة الخامسة : ما أوجد من حيّة الدلالة، وصدق الشهادة، ووضوح البرهان في الأجرام الجامدة الصامتة، والساكنة الثابتة، التي لا تنيس ولا تفهم، ولا تحس وتتحرك إلا بداخل دخل عليها، أو عند ممسك حتّى عنها بعد تقييده كان لها؛ ثم قسم الأقسام، وربّط المحسوسات، وحقق

الموجودات ، فجعل اللفظ للسامع ، وجعل الإشارة للناظر ، وأشرك بين الناظر واللامس ، في معرفة العَقد إلا بما فضّل الله به تعصيب الناظر في ذلك على نصيب اللامس ، وجعل الخط دليلا على ما غاب من حوائجه عنه ، وشبها موصولا بينه وبين أعوانه ، وجعله خازنا لما لا يأمن نسيانه مما قد أحصاه وحفظه ، وأتقنه وجمعته وتكلف الإحاطة به ، ولم يجعل للشام والذائق في ذلك نصيبا .

ولولا خطوط الهند لضاع من الحساب الكثير البسيط ، ولَبَطَلَت معرفة التضاعيف ، ولَعَلِمُوا الإحاطة بالباورات ، وباورات الباورات ، ولو أدركوا ذلك لما أدركوه ألا بعد أن تَغْلُظُ المؤونة ، وتنقص المؤنة ، ولصاروا الى حال معجزة وحُصور ، وإلى حال مضية وكلال حدّ ، منع التشاغل بأور لولا فقد هذه الآلة لكأن أريج لم ، وأرد عليهم أن يصرفوا ذلك الشغل في أبواب منافع الدّين والدنيا ، ونفع الحساب معلوم ، وإنحلت في موضع فَعَدَهُ مَعْرُوفَةٌ ، قال الله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ ثم قال : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانٌ ﴾ وبالبيان عرّف الناس القرآن ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَمَعَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِيُعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ ﴾ فاجترى الحساب بجري البيان وألحق البيان بالقرآن ، وحسبان منازل القمر عرفنا حالات المَدَدِ والجَزَرِ ، وكيف تكون الزيادة في الأهلة وأنصاف الشهور ، وكيف يكون النقصان في خلال ذلك ، وكيف تلك المراتب وتلك الأقدار .

ولولا الكُتُبُ المدقّنة ، والأخبار المُخَدَّدة ، والحيك المخطوطة التي تحصر الحساب وغير الحساب ، لَبَطَلُ أَكْثَرُ الْعِلْمِ ، ولَغَلَبَ سُلْطَانُ التَّسْيَانِ سُلْطَانُ الذِّكْرِ ، ولما كان للناس مَفْرَعٌ الى موضع أَسْتَدَكَار ، ولو تم ذلك لحُرِمْنَا أَكْثَرَ النِّفْعِ ، إذ نَحْنُ قَدْ عَلِمْنَا أَنَّ مِقْدَارَ حِفْظِ النَّاسِ لِعَوَاجِلِ حَاجَاتِهِمْ وَأَوَاجِلَهَا لَا يَبْلُغُ مِنْ ذَلِكَ مِثْلًا مَذْكُورًا ، ولا يَبْغِي فِيهِ عَنَاءٌ مَحْمُودًا ، ولو كُنْكَتْ عَائِمَةٌ مِنْ يَطْلُبِ الْعِلْمِ ، وَيَصْطَلِحُ الْكِتَابَ ، أَلَّا يَزَالَ حَافِظًا لِقَهْرِ سَكْنِهِ لِأَعْجَرِهِ ذَلِكَ ، وَلَكُنْكَتْ شَطَطًا ، وَلَشَقَلَهُ ذَلِكَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا هُوَ أَوْلَى بِهِ ، فَهَمَّكَ

لمعانى كلام الناس ينقطع قبل انقطاع فهم عين الصوت مجودا ، وأبعد فهمك لصوت صاحبك ومعاينك ، والمعاين لك ما كان صياحا قيرا ، وصوتا مضمتا ، وندا خالصا ، ولا يكون مع ذلك ألا وهو بعيد من المفاهمة ، وعطل من الدلالة ، بفعل الله جل وعز اللفظ لأقرب الحاجات ، والصوت لأنفس من ذلك قليلا ، والكتاب للنازح من الحاجات .

فأما الإشارة فأقرب المفهوم منها رفع الحواجب ، وكسر الأجفان ، ولئى الشفاء ، وتحريك الأعناق ، وقضى جادة الوجه ، وأبعدا أن تأوى بثوب على مقطع جبل تجاه عين الناظر ، ثم ينقطع عملها ، ويدرس أثرها ، ويموت ذكرها ، وتصير بعد كل شئ فضّل عن آتئها مدة الصوت ، وتنتهى الطرف فى الحاجة ، الى التفاهم بالخطوط والكتب ؛ فأى نفع أعظم ، وأى مرفق أعون من الخط ، والحال فيه كما ذكرنا !

وليس لأعقد حفظ الإشارة فى بعد الغاية ، ولا للإشارة حفظ الخط فى بعد الغاية ، فلذلك وضع الله عز وجل القلم فى المكان الرفيع ، ونوه بذكره فى المنصب الشريف حين قال : **(لَنْ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)** فأقسم بالقلم كما أقسم بما يحفظ بالقلم إذ كان اللسان لا يتماطى شأوه ، ولا يسقى غباره ، ولا يجرى فى حليته ، ولا يتكلف بعد غايته ، ولكن لما كانت حاجات الناس بالحضرة أكثر من حاجاتهم فى سائر الأماكن ، وكانت الحاجة الى بيان اللسان حاجة دائمة رأكدة ، وراينة ثابتة ، وكانت الحاجة الى بيان القلم أمرا يكون فى الغيبة وعند النائية ، ألا ما خصت به الدواوين ، فإت لسان القلم هناك أبسط ، وأثره أعم ، فلذلك قدموا اللسان على القلم ، فاللسان الآن أنما هو فى منافع اليد والمرايق التى فيها ، والحاجات التى تبلّغها ؛ فمن ذلك حفظها وقسطها من منافع الإشارة ، ثم نصيبها فى تقويم القلم ، ثم حفظها فى التصوير ، ثم حفظها فى الصناعات ، ثم حفظها فى العقّد ، ثم حفظها فى الدفع عن النفس ، ثم حفظها فى إيصال الطعام والشراب الى القم ، ثم التوضؤ والامتناسح ، ثم استنقاذ الدناير والمدراهم ، ثم لمس الثياب ، وفى الدفع عن النفس أصناف الرنى ، وأصناف الضرب ، وأصناف الطعن ، ثم الضرب التقن بالعود وتحريك الور ، ولولا ذلك لبطل الطرب كله أو عامته ؛ وكيف

لا تكون كذلك ولما ضرب الطبل والدفّ وتحريك الصفاقيين، وتحريكُ خرواق المزمار، وما في ذلك من الإطلاق والحبس، ولو لم يكن في اليد إلا إمساك العنان والزمام والحطام، لكان ذلك من أعظم الحفظوط .

وقد اضطربوا في الحكم بين المقد والإشارة، ولولا أن مَفْزانا في هذا الكتاب سوى هذا الباب لقد كان هذا مما أحبّ أن يعرفه إخواننا وخطائنا، ولا ينبغي لنا أيضا أن نأخذ في هذا الباب من الكلام إلا بعد الفراغ مما هو أولى بنا منه، إذ كنت لم تنازعني، ولم تعب كُتُبِي من طريق فضل ما بين المقد والإشارة، ولا في تمييز ما بين اللفظ وبينهما، وأنما قصّدتنا بكلامنا إلى الإخبار عن فضل الكتب .

والكتاب هو الذي قيّد على الناس كُتُبُ عِلْمِ الدين، وحساب الدواوين، مع خِصّة ثقله، وصغر حجمه، صامت ما أسكته، وبلغ إذا استنطقته، ومَن لك بمُسامر لا يتبدّل في حال شُغْلِكَ، ويدعوك في أوقات نشاطك، ولا يحوجك إلى التجميل له، والتلذذ منه، ومَن لك بزارئ شملت جعل زيارته غيباً، ووروده نحساً، وإن شئت لزمك لزوم ظلمك، فكان منك مكان بعضك .

والقلم مكثّف بنفسه ولا يحتاج إلى ما عند غيره، ولا بد لبيان اللسان من أمور: منها: إشارة اليد، ولولا الإشارة لما فهموا منك خاص الخاص، إذا كان أخصّ الخاص قد يدخل في باب العام، إلّا أنه أدنى طبقاته، وليس يكتفي خاص الخاص باللفظ عما آذاه، كاستفهام عام العام، والطبقات التي بينه وبين أخصّ الخاص .

والكتاب هو المجلس الذي لا يطردك، والصديق الذي لا يفرك، والرفيق الذي لا يملك، والمستميع الذي لا يستريدك، والبحار الذي لا يستبطئك، والصاحب الذي لا يريد استخراجه عندك بالملق، ولا يعاملك بالمكر، ولا يخذلك بالنفاق، ولا يحتال لك بالكذب..



والكتاب هو الذى إن نظرت فيه أطال إمتاعك ، وتخذ طيباك ، وبسط لسانك ،  
وجود بسانك ، ونغم ألفاظك ، ويصح نفسك ، وعمر صدرك ، وتمتلك تعظيم العوام ،  
وصداقة الملوك ؛ وعرفت به فى شهر ما لا تعرفه من أفواه الرجال فى دهر ، مع السلامة  
من الغم ، ومن كد الطلب ، ومن الوقوف بباب المكتسب بالتعليم ، وبالجلوس بين يدي من  
أنت أفضل منه خلقا ، وأكرم عرفا ، ومع السلامة من مجالسة البغضاء ، ومقارنة  
الأغبياء .

والكتاب هو الذى يطيعك بالليل كطاعته بالنهار ؛ ويطيعك فى السفر كطاعته فى الحضر ؛  
ولا يعتل بنوم ، ولا يعتريه كلال السهر ؛ وهو المعلم الذى إن أفقرت لم يحقرك ، وإن  
قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة ؛ وإن عزلت لم يدع طاعتك ، وإن هبت ريح  
أعدائك لم ينقلب عليك ؛ ومتى كنت منه متعلقا بسبب ، أو متصفا بأذى حبل ، لم تضطرك  
معه وحشة الوحدة الى جليس سوء ؛ ولو لم يكن من فضله عليك ، وإحسانه إليك ،  
إلا متعة لك من الجلوس على بابك ، والنظر الى المأذنة بك ، مع ما فى ذلك من التعرض  
للحقوق التى تآزم ، ومن فضول النظر ، ومن عادة الخوض فيما لا يتنك ، ومن ملبسة  
صغار الناس ، ومن حضور ألفاظهم السافطة ، ومعانيهم الفاسدة ، وأخلافهم الردية ؛  
وجها لا تتم المذمومة ، لكان فى ذلك السلامة ثم الفائدة ، وإحراز الأصل مع استفادة الفرع ،  
ولو لم يكن فى ذلك إلا أن يشغلك عن تحف المنى ، وعن اعتياد الراحة ، وعن اللعب ،  
وكل ما أشبه اللعب ، لقد كان فى ذلك على صاحبه أسبق النعمة ، وأعظم المنة ؛ وقد علمنا  
أن مثل ما يقطع به الفزاع نهاهم ، وأصحاب الفكاهات ساعيت ليلهم ، هو الشئ الذى  
لا ترى فيه مع النيل أثرأ فى أزدبائى فى تجربة ولا فى عقل ، ولا فى مروءة ولا فى صون  
عرض ، ولا فى إصلاح دين ، ولا فى تخير مال ، ولا فى تربية صنية ، ولا فى ابتداء برنامج .  
قال أبو عبيدة قال المهلب لبنيه فى وصيته : يا بني لا تحفوا فى الأسواق إلا على  
زاد أو زقاق .

وصدقني صديق لي قال : قرأت على شيخ شامي كتابا فيه مائتا عطفان ، فقال لي : ذهبت المكارم إلا من الكتب ؛ وسمعت الحسن اللؤلؤي يقول : عبرت أربعين عاما ما قلت ولا بيت التكاثر إلا والكتاب موضوع على صدري ؛ وقال ابن الجهم : اذا غشيتي النعاس في غير وقت نوم وبتس الشيء النوم الفاضل عن الحاجة ، تناولت كتابا من كتب الحكم فاجد أعترازي للفوائد ، والأريحية التي تعزيني عند الظفر ببعض الحاجة ، والذي يفتي قلبي من سرور الاستبانة ، وعز التبين ، أشد إيقاظا من تيق الحيرة ، وهذه الحمد .

وقال ابن الجهم : اذا استحسنت الكتاب واستجذته ، ورجوت منه الفائدة ، ورأيت ذلك فيه ، فلو ترؤني وأنا ساعة بعد ساعة أبصركم بيق من ورقه خافة استنفاده ، وأقطع الجادة من قبله ، وإن كان المصحف في عظيم الحجم ، وكان الورق كثير العدد ، لرأيت كيف تم عيشي ، وكل سروري .

وذكر القتيبي كتابا لبعض القدماء فقال : لولا طوله ، وكثرة ورقه ، لنسخته ؛ قال ابن الجهم : لكنني ما رغيت فيه إلا الشيء الذي زهدك فيه ، وما قرأت كتابا قط كبيرا فأخلائني من فائدة ، وما أحصى كم قرأت من صغار الكتب تفرجت منها كما دخلت .

وقال القتيبي : ذات يوم لآبن الجهم : ألا تتعجب من فلان ! نظر في كتاب الإقليدس مع جارية سلموية في يوم واحد وساعة واحدة ، فقد فرغت الجارية من الكتاب وهو بعد لم يحكم مقالة واحدة ، على أنه حرّ اختيار وتلك أمة مقصورة ، وهو أحرص على قراءة الكتب من سلموية على تعليم جاريته ؛ قال ابن الجهم : قد كنت أظن أنه لا يفهم منه شيئا واحدا ، وأراك تزعم أنه قد فرغ من مقالة ؛ قال القتيبي : وكيف ظننت بهذا الظن كله وهو رجل ذولسان وأدب ؟ قال : لأني سمعته يقول لأبيه : كم أنفقت على كتاب كذا وكذا ؟ قال : أنفقت كذا وكذا ؛ قال : أما رغيت في العلم أني ظننت أني أفق قليلا وأكتسب كثيرا ، فاما اذ صيرت أفق الكثير وليس في يدي منه إلا الموايد فأنى لأريد

العلم بشيء . والإنسان لا يعلم حتى يتكثر سماعته ، ولا بد من أن تصير كتبه أكثر من سماعه ، ولا يعلم ولا يجمع ولا يختلف حتى يكون الإتفاق عليه من ماله ألذّ عنده من الإتفاق من مال عدوه ، ومن لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب ألذّ عنده من عشاق القيان ، والمستهترين بالبليان ، لم يبلغ في العلم مبلغاً رصياً . وليس ينفع بإضافه حتى يؤثّر لذة اتخاذ الكتب إشار الأعرابي فرسه باللبن على عياله ، وحتى يؤمل في العلم مالا يؤمل الأعرابي في فرسه .

وقال إبراهيم بن السّديّ مرّة : وجدت أنّ الزنادقة لم يكونوا حُرّصاء على المغالاة بالورق النقي الأبيض ، ولا على تحوير الحبر الأسود البراق ، ولا على استجادة الخط والإرغاب لمن يخط ، فإني لم أركورق كتبهم ورقاً ، ولا كالخطوط التي فيها خطأ . وإني غيرت مالا عظيماً مع حتى لال وبغضى للغرم ، لأنّ سجناء النفس بالإتفاق على الكتب دليل على تعظيم العلم ، وتعظيم العلم دليل على شرف النفس وعلى السلامة من سُكر الآفات . وقلت لإبراهيم : إنّ إفساق الزنادقة على الكتب كافئاً للنصارى على البيع ، ولو كانت كتب الزنادقة تُكتب حكمة ، وكتب فلسفة ، وكانت مقاييس تبين ، أو لو كانت كتبهم كتباً تعترف الناس أبواب الصناعات ، أو سبل الحسب والتجارات ، أو كتب إرفاق ورياضات ، أو بعض ما يتعاطاه الناس من الفطن والأدب ، أو كان ذلك لا يهزّب من غنى ، ولا يباعد من مأم ، لكانوا ممن قد يجوز أن يُقال بهم تعظيم البيان والرغبة في التبيين ، ولكنهم ذهبوا فيها مذهب الديانة على طريق تعظيم الملة ، فأنما إنفاقهم في ذلك كافئاً لمجوس على بيت النار ، وكافئاً للنصارى على صُلبان الذهب ، أو كافئاً الهند على سدنة البُدّ ، ولو كانوا العلم أرادوا لكان العلم لهم ممرضاً ، وكتب الحكمة لهم مبدولة ، والطرق إليها سهلة معروفة ، فما لهم لا يصنعون ذلك إلا بكتب ديانتهم كما يُنزف النصارى بيوت عبادتهم ، ولو كان هذا المعنى مُستحسنًا عند المسلمين ، وكانوا يرون أنّ ذلك داعية إلى العبادة وابعثه على الخشوع ، لَبَنُوا في ذلك بَعْقُوهم ما لا يسلغه النصارى بنائية الجُهد.

وقد رأيتم مسجداً دمشق حين استجاز هذه السبيل ملكاً من ملوكها ، ومن رآه فقد علم أن أحداً لا يرويه ، وأن الروم لا تسخو أنفسهم به ؛ فلما قام عمر بن عبد العزيز جلّه بالجلال ، وغطاه بالكرايس<sup>(١)</sup> ، وطبخ سلاسل القناديل حتى ذهب عنها ذلك التلألؤ والبريق ، وذهب إلى أن ذلك الصنيع بجانب لسنة الاسلام ، وأن ذلك الحسن الرائع والهامس الدقائق مذهلة للقلوب ، مشغلة دون الخشوع ، وأن البال لا يكون مجتمعا وهناك شيء يفرقه ويعترض عليه .

والذي يدلنا على ما قلنا أنه ليس في كتبهم مثل سائر ، ولا خبر طريف ، ولا صنعة أدب ، ولا حجة غريبة ولا فلسفية ، ولا مشكلة كلامية ، ولا تعريف صناعة ، ولا استخراج آلة ، ولا تعليم فلاحه ، ولا تدبير حرب ، ولا مقارعة عن دين ، ولا مناضلة عن محلة ؛ وجله ذكر النور والظلمة ، وتنازع الشياطين ، ونسأفد المغاريت ، وذكر الصنديد والتبويل بعمود السنخ ، والاختبار عن شقرون وعن المسامة والهامة ، وهذري وعي ودعوى وتخرافه ومضغ وتكذب ، لا ترى فيه موعظة حسنة ، ولا حديثاً مؤثراً ، ولا تدبير معاش ولا سياسة عامة ، ولا ترتيب خاصة ؛ فأى كتاب أجهل ، وأى تدبير أفسد من كتاب .  
يوجب على الناس الطاعة واليُخوع بالديانة على جهة الاستبصار والمحبة ، وليس فيه صلاح معاش ، ولا تصحيح دين ، والناس لا يطيعون إلا ديناً أو دنياً .

فأما الدنيا فإفامه سُوقها وإحضار نفعها . وأما الدين فأقل ما يُطمع في استجابة العامة واستمالة الخاصة ، أن يصور في صورة مُغلطة ، ويُؤد تمويه الدنبار البرج والدرهم الزائف الذي يغلط فيه الكثير ويعرف حقيقته القليل . فليس اتفاقهم عليها من حيث ظننت . وكل دين يكون أظهر اختلافاً وأكثر فساداً يحتاج من الترقيع والتقوية ومن الاحتشاد له والتقليظ فيه إلى أكثر من غيره .

(١) الكرايس جمع كرايس : ثوب من القطن الأبيض خفيف : الثوب النخس ، فارسي مزيج .

وقد علمت أن النصرانية أشد انتشاراً من اليهودية تبعداً ، فعلى حسب ذلك يكون تزيدهم في توكيده ، واحتفالهم في إظهار تعظيمه .

وقال بعضهم : كنت عند بعض العلماء فكنيتُ أكتبُ عنه بعضاً وأدع بعضاً ، فقال لي : اكتب كل ما تسمع ، فإن أخس ما تسمع خير من مكانه أبيض . وقال إنجيل بنُ أحمد : تكثر من العلم لتعرف ، وتقل منه ليحفظ . وقال أبو إسحاق : القليل والكثير للكتب ، والقليل وحده للصبر ، وأشد قول ابن يسير :

أَمَا لَوْ أَعَى كُلِّ مَا سَمِعْتُ \* وَأَحْفَظُ مِنْ ذَلِكَ مَا أَجَمَعُ  
وَلَمْ أَسْتَفِدْ خَيْرَ مَا قَدْ جَمَعْتُ لِقِلِّهِ هُوَ الْعَالَمُ الْمُتَنَبِّعُ  
وَلَكِنْ نَفْسِي إِلَى كُلِّ نَوْءٍ \* عِجْ مِنَ الْعِلْمِ سَمْعُهُ تَزْعُ  
أَشَاهِدُ بِالْحَقِّ فِي تَجَلُّسِي \* وَعِلْمِي فِي الْبَيْتِ مُسْتَوْدَعُ  
فَلَا أَنَا أَحْفَظُ مَا قَدْ جَمَعْتُ وَلَا أَنَا مِنْ جَمْعِهِ أَشْبَعُ  
وَمَنْ يَكُ فِي عِلْمِهِ هَكَذَا \* يَكُنْ دَهْرُهُ الْقَهْقَرَى يَرِجُ  
إِذَا لَمْ تَكُنْ حَافِظًا وَإِيَّاهُ \* بِهَمِّكَ لِلْعِلْمِ لَا يَنْفَعُ

قال أبو إسحاق : كلف ابن يسير الكتب ما ليس عليها ، إن الكتب لا تُحصى الموق ، ولا يُحصى الأحق عاقلاً ، ولا البليد ذكياً ، وذلك أن الطبيعة إذا كان فيها أدنى قبول فالكتب تشجع وتفتق وتزيه وتشتي ، ومن أراد أن يعلم كل شيء فينبغي لأهله أن يداووه ، فإن ذلك إنما تصوره له لشيء اعتراه . فمن كان عاقلاً ذكياً حافظاً فليقتصد إلى شيتين أو ثلاثة أشياء : فلا يترع عن الدرس والمطاربة ، ولا يدع أن يتر على سماعه وعلى بصره وعلى ذهنه ما قدر عليه من سائر الأصناف فيكون عالماً بنواصير ويكون غير غفل من سائر ما يجري فيه الناس ويخوضون فيه ، ومن كان مع الدرس لا يحفظ شيئاً إلا نسي أكثر منه فهو من الحفظ من أفواه الرجال أبعد .

وحدثني موسى بن يحيى قال : ما كان في خزانة كتب يحيى وفي بيت مدرسه كتاب إلا وله فيه ثلاث نسخ .

وقال أبو عمرو بن السلاء : ما دخلت على رجل قط ولا مررت ببابه فرأيتَه ينظر في دفتر وجليسه فارغ اليد إلا اعتقدت أنه أعقل منه وأفضل .

قال أبو عمرو وقيل لنا يوماً : إن في دار فلان ناساً قد اشتملوا على سوءة ، وهم جلوس على تحفة لم وعندهم طنبور ، قال : فذكرنا عليهم في جماعة من رجال الحى ، فإذا فنى جالس في وسط النار وإذا أجهابه حوله ، وإذا هم بيض المني ، وإذا هو يقرأ عليهم كتاب شعر ، فقال الذى كان سعى بهم : السوءة في ذلك البيت ، وإن دخلتموه فترثتم بها ، قال قلت : والله لا أكشف فنى أجهابه شيوخ وفي يده دفتر علم ولو كان في ثوبه دم يمي بن زكرياء . قال وأشد رجل يؤس النجوى قوله :

أُستودِعَ العلمُ قِرطاساً فضيعه \* فنبس مُستودِعَ العلمِ القراطيسُ

قال فقال يونس : قائله الله ، ما أشد صباهته بالعلم وأحسن صباهته له ! إن علمك من روحك ، ومالك من بدنك ، فضعه منك بمكان الروح ، وضع مالك بمكان البدن .

وقيل لابن داعة وأخرج كتاب أبي الشمقمق وإذا هو في جلود كوفية ودفتين طائفيتين وبخط عجيب ، فقبل له : لقد ضيع درهمه من تجود لشعر أبي الشمقمق ، قال : لا جرم والله إن العلم ليُعطيك على حساب ما تُعطونه ، ولو استطعت أن أودعه سويداء قلبي وأجمله مخطوطاً على ناظرى لمعلت .

ولقد دخلت على إصحاق بن سليمان في امرته ، فرأيت السامعين بين يديه والرجال مثولاً كأن على رؤوسهم الطير ، ورأيت فرشته ورتبه ، ثم دخلت عليه وهو معزول ، وإذا هو في بيت كتبه وحواليه الأسفاط والرفوف والقماطر والدفاتر والمساطر والمخار ، فب رأيتَه قُط أنعم ولا أنبل ولا أغيب ولا أجزل منه في ذلك اليوم ، إلا أنه جمع مع المهابة المحبة ، ومع القسامة الخلاوة ، ومع السؤدد الحكمة .

(١) كنا في الأصل ، ولها زائدة . (٢) الفرقة : الهيئة .

وقال ابن داحية : كان عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب لا يجالس الناس ، وتزل مقبرة من المقابر ، وكان لا يكاد يرى إلّا وفي يده كتاب يقرؤه ، فسئل عن ذلك وعن نزوله المقبرة ، فقال : لم أر أوعظ من قبر ، ولا أمتع من كتاب ، ولا أسلم من الوحدة ؛ ف قيل له : فقد جاء في الوحدة ما قد جاء ، قال : ما أسفدها للجاهل وأصلحها للماقل !

وضروب من الخطوط بعد ذلك تدل على قدر منفعة الخط ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ كَرَامًا كَاتِبِينَ يَعْمَلُونَ مَا تَأْمُرُونَ ﴾ وقال الله عز وجل : ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ وقال : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَجْهِهِ ﴾ وقال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ وقال : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ .

### الترغيب في اصطلاح الكتب

( وبعد أن تكلم في الخط في الأرض عند التفكير وما قيل في ذلك من الأشعار ، وذكر الخط ومقدار الحاجة إليه ، وتاريخ الشعر قبل الإسلام ، وبيان أن فضيلته مقصورة على العرب ، استطرد القول بالترغيب في اصطلاح الكتب ) فقال :

« إن على من شكر المعرفة بمفاوى الناس وصراشيدهم ومضارهم ومنافعهم ، أن يحتل يقل مؤنتهم في معرفتهم ، وأن يتوهم إرشادهم وأن جهلوا فضل ما يسدى إليهم . ولن يُصان العلم بمثل بذله ، ولن تُستبق النعمة فيه بمثل نشره . على أن قراءة الكتب أبلغ في إرشادهم من تلاقيهم ، إذ كان مع التلاقي يستند التصنع ، ويكثر التظالم ، ويحيط العصبية ، وتقوى الحجة ؛ وعند المواجهة والمقابلة يستند حب التلبه ، وشهوة المباهاة والرياسة مع الاستعجاء من الرجوع ، والأتمة من الخضوع ؛ وعن جميع ذلك تحدث الضغائن ويظهر التباين ؛ فإذا كانت القلوب على هذه الصفة وعلى هذه الهيئة ، أمتنت من التعرف ، وعميت عن موضع الدلالة ؛ وليست للكتب علة تمنع من ذلك اليقينة ، وأصابة الحجة ، لأن المتوحد درسها والمنقرد

بقَمَّ معانيها ، لا يباهي نفسه ، ولا يُغالب عقله ، وقد علم من له بياهي ، ومن أجله يغالب ؛ والكتاب قد يفضل صاحبه ويتقدم مؤلفه ، ويرجح قلمه على لسانه بأمر :

منها ، أن الكتاب يُقرأ بكل مكان ، ويظهر ما فيه على كل لسان ، ويوجد مع كل زمان على تفاوت ما بين الأعصار ، وتباعد ما بين الأمصار ؛ وذلك أمر يستحيل في واضع الكتاب ، والمتنازع بالمسألة والجواب ؛ ومناقلة اللسان وهدايته لا تجوزان لمجلى صاحبه ، ومبلغ صوته ؛ وقد يذهب الحكم ويتقَيَّ كُتبه ، ويفقِّ العقل ويبقى أثره . ولولا ما تسمت لنا الأوائل في كتبها ، وغلّدت من عجيب خبثها ، ودوّنت من أنواع مسيرها ، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، ونصحا بها كل مُستغني كان علينا ، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم ، وأدركنا ما لم تكن تُدرِكهُ إلا بهم ، لقد خَسَّ حفظنا من الحكمة ، وضعف سبيلنا إلى المعرفة ؛ ولو أُلْهِمْنَا إلى قدر قوتنا ، ومبلغ خواطرننا ، ومنتهى تجربتنا لما تدرَكه حواسنا وقشاهده نفوسنا ، لقد قلّت المعرفة ، وقصُرَت الهمة ، وانتقصَت المنة ، وماد الرأى حقيا ، وانطاطر فاسدا ، ولكلّ الحُدُ ، وتبدد العقل . وأكثُر من كتبهم نفعاً ، وأشرف منها خطراً ، وأحسن موقعاً ، كُتِبَ الله تعالى التي فيها الهدى والرحمة ، والإخبار عن كل صِرة ، وتعريف كل سيئة وحسنة . وما زالت كتب الله تعالى في الألواح والصحف والمهاريق والمصاحف ، فقد قال الله عز وجل : ﴿ أَلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ وقال : ﴿ مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ . ويقال لأهل التوراة والإنجيل : أهل الكتاب . ويبنى أن يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا . على أننا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا ، كما أن من بعدنا يجد من العبرة أكثر مما وجدنا ، فيما ينظر العالم بإظهار ما عنده ، وما يمتنع الناصر لمحق من القيام بما يلزمه ، وقد أمكن القول ، وصالح الدهر ، وهوى نجم التقية ، وهبت ريح العلماء ، وكسد اليمى والجمل ، وقامت سوق البيان والعلم . والإنسان ليس يجد في كل حال إنسانا

(١) المهاريق جمع مهراق ، وهو ثوب حرير أبيض يسقى بالصنغ ويصقل ثم يكتب فيه ، فارسي مريب .



مدرسه وموقوما يتقفه، والصبر على إفهام الرِّبِّض شديد، وصرف النفس عن مغالبة العالم أشد منه هما .

والمعلم يجد في كل مكان الكتاب عتيذا، وبما يحتاج إليه قائما . وما أكثر من فزط في التعلم أيام نحول ذكره وأيام حداثة سنه . ولولا جِباد الكتب وحسنها، وميبتها وتخصرها، ثم تحوكت همم هؤلاء لطلب العلم، ونازعت إلى حب الأدب، وأنفت من حال الجهل وأن تكون في غمار الحشو لتدخل على هؤلاء من الضرر والمضرة والجهل وسوء الحال ما صمى ألا يمكن الإخبار عن مقدار له ألا بالكلام الكثير .

ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه : تفقهوا قبل أن تُسودوا . وقد تجمد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء محسن سنه ، ولا يعدد فيها ولا يحصل قاضيا ، وما هو إلا أن ينتظر في كتب أبي حنيفة وأشابه أبي حنيفة، ويحفظ كتب الشروط في مقدار سنة أو سنتين حتى تمز يباه فتظن أنه باب بعض المال ، وبالحرى ألا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكما على مصر من الأمصار، أو بلدة من البلدان .

وينبغي لمن كتب كتابا ألا يكتبه إلا على أن الناس كلهم له أعداء ، وكلهم عالم بالأمور ، وكلهم متفرغ له ؛ ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه ينسب ويحتقر، ولا يثق بالراى الفطير ، فإن لا ابتداء الكتاب فتنة ونجبا ، فإذا سكنت الطبيعة وهذأت الحركة، وتراجعت الأغلاط، وعادت النفس وإفرة ، أعاد النظر فيه وتوقف عند فصوله توقفت من يكون وزن طمعه في السلامة أقص من وزن خوفه من العيب، ويفهم معنى قول الشاعر :

إن الحديث تفر القوم خلوته \* حتى يكون لهم عي وإثار

ويقف عند قولهم في المثل : "كل مجر في الخلاء يسر" ، فيخاف أن يعتريه ما يعتري من أجرى فردة وحده ، أو خلا يقامه عند فقد خصومه وأهل المزية من أهل صناعته . ولعلم أن صاحب القلم يعتريه ما يعتري المؤدب عند ضربه وعقابه ؛ لما أكثر من يعزم على

عشرة أسواط فيضرب مائة، لانه أبدأ الضرب وهو ساكن الطباع فأراه السكون أن الصواب في الإقلال، فلما ضرب تحرك دمه فأشاع فيه الحرارة وزاد في غضبه، فأراه الغضب أن الرأي في الإكثار؛ وكذلك صاحب القلم، فما أكثر من يتدنى الكتاب وهو يريد مقدار سطرين فيكتب عشرة. والحفظ مع الإقلال أمكن، وهو مع الإكثار أبعد.

واعلم أن العاقل إن لم يكن بالمشيع فكثيراً ما يفتن من ولده ويحسن في عينه منه القبيح في عين غيره، فليعلم أن لفظه أقرب إليه نسباً من ابنه، وحركته أفسح به ريماً من ولده؛ لأن حركته شيء أحدثه من نفسه وبذاته، ومن عين جوهره فصلت، ومن نفسه كانت، وأما الولد كالحفلة يتخطها، وكالثغامة يذفها، ولا سواء إخراجك من نفسك شيئاً لم يكن منك، وأظهر لك حركة لم تكن حتى كانت منك؛ ولذلك نجد فتنة الرجل بشعره وفتنه بكلامه وكنته، فوق فتنته بجميع نعمته.

وليس الكتاب إلى شيء أحوج منه إلى إلهام معانيه حتى لا يحتاج السامع بما فيه إلى الروية فيه. ويحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة والحشوي، ويحطه عن غريب الأعراب، ويحشى الكلام. وليس له أن يسد به جثا وينقصه ويصقيه ويؤرقه حتى لا ينطق إلا باللب واللمر، وباللفظ الذي قد حذف فضوله وتعرق زوائده، حتى عاد خالصاً لا شوب فيه؛ فإنه إن فعل ذلك لم يفهم عنه إلا بأن يجتهد لهم إلهاماً وتكراراً، لأن الناس كلهم قد تمردوا المبسوط من الكلام، وصارت أفهامهم لا تزول على عاداتهم إلا بأن تعطس عليها وتؤخذ بها؛ ألا ترى أن كتاب المنطق الذي قد وسم بهذا الاسم لو قرأته حل جميع خطباء الأمصار وبناء الأعراب لما فهموا أكثره، وفي كتاب إقليدس، كلام يدور وهو عربي وقد صفي، ولو سمعه بعض الخطباء لما فهمه، إلا بأن يفهمه من يريد تعليمه؛ لأنه يحتاج إلى أن يكون قد حرف جهة الأمر، وتمود اللفظ المنطوق الذي استخرج من جميع الكلام.

وقد قال معاوية بن أبي سفيان رضى الله تعالى عنهما لصبحار العبدي : ما الإيجاز ؟ قال أن يجيب فلا يُطع ، وتقول فلا تُحطى ، قال معاوية : أو كذاك تقول . قال مُحَارٌّ : أقفني يا أمير المؤمنين ، لا تُحطى ولا تُطع . فلوات مسائلك عن الإيجاز فقلت : لا تُحطى ولا تُطع وبحضرتك خالد ابن صفوان لما عرّف بالبدية وعند أول وهلة أتت قولك لا تُحطى مُضمّن بالقول ، وقولك لا تُطع مُضمّن بالجواب . وهذا حديث — مجازى — قد ارتضوه ورووه ، ولو أن قائلا قال لبعضنا : ما الإيجاز ؟ لظننت أنه كان سيقول الاختصار والإيجاز ، ليس يعني به قلة عدد الحروف واللفظ . وقد يكون السبب من الكلام من أتى عليه فيما يَسْمَعُ بطن طومار فقد أوجز ، وكذلك الإطالة . وإنما ينبغي أن يحذف بقدر مالا يكون سببا لإفلاقه ولا يُردّد وهو يُكتفى في الإفهام بسطره ، فما قُبل من المقدار فهو الخطأ .

وقلت لأبي الحسن الأُخفش : أنت أعلم الناس بالحو ، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كأها ؟ وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها ، وما بالك تُقدّم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم ؟ قال : أنا رجل لم أضع كتبى هذه لله ، وليست هى من كتب الدين ، ولو وضعتها هذا الوضع الذى تدعوى إليه قلّت حاجاتهم إلى فيه ، وأتم غايى المأثلة ، فإذا أضع بعضها هذا الوضع المفهوم لدعّوهم حلاوة ما فهموا إلى التماس فهم ما لم يفهموا ، وأنا قد كسبت في هذا التدبير اذ كنت إلى التكبّس ذهبت ، ولكن ما بال إبراهيم النظام وفلان وفلان يكتبون الكتب لله برعهم ، ثم يأخذها مثل في موافقته وحسن نظره وشدة عنايته ، فلا يفهم أكثرها ؟

وأقول لو أت يوسف السَّميْعِي كتب هذه الشروط أيام جالس سلمان بن ربيعة شمرين للقضاء فلم يتقدّم إليه رجلان والقلوب سليمة والحقوق على أهلها موفّرة ، لكان ذلك خطأ ولقوا ، ولو كتب في دهرنا شروط دهر سلمان لكان ذلك غرارة ونقصا ،

وجَهَلًا بالسياسة وما يَصْلُح لكلِّ دهرٍ، ووجدنا الناس إذا خَطَبُوا في صُلح بين العِشائر أَطالوا، وإذا أُنْشِدوا الشعر بين السَّاعِطِينَ في مدح المملوك أَطالوا، فلإِطالة مَوْضِعٍ وليس ذلك بِمَحْمَلٍ، ولإِقلال مَوْضِعٍ وليس ذلك مِن عَجْزٍ.

ولو لا أَنَّى أَتَكل على أَنك لا تَمَلِّ باب القول في البعر حتَّى تَخْرُجَ الى الفيل، وفي الذِّرة حتَّى تَخْرُجَ الى البعوضة، وفي المقرب حتَّى تَخْرُجَ الى الحِيسَة، وفي الرُّجُل حتَّى تَخْرُجَ الى المرأة، وفي الذِّبَّان والتَّحَلُّ حتَّى تَخْرُجَ الى الغِرْبَان والعِقبَان، وفي الكَلْب حتَّى تَخْرُجَ الى الديك، وفي الذَّبِّ حتَّى تَخْرُجَ الى الضَّبِّع، وفي الطَّلَف حتَّى تَخْرُجَ الى الحافِر، وفي الحافِر حتَّى تَخْرُجَ الى الخُفِّ، وفي الخُفِّ حتَّى تَخْرُجَ الى البُرْثَن، وفي البُرْثَن حتَّى تَخْرُجَ الى الخُفِّب، وكذلك القول في الطَّيْرِ وطائفة الأصناف، آرايتَ أَت ذلك يُوجب المَلال، ويُنْقِب الفترة المانعة من البلوغ في الفهم، وتَعْرِف ما يُحتاج منه الى التَّعْرِف، فرايتَ أَن جُلَّة الكتاب وإن كَثُر عدد ورقه، أَت ذلك ليس بِمما تَمَلِّ من كثرة قراءته أَبدا وتَعَدَّ على فيه بالإِطالة، لآله وإن كان كتابا واحدا فآله كُتِبَ كثيرة، وكلُّ مصحف منها أُم على حِدَةٍ. فإن أَراد قراءة الجميع لم يَكل عليه الباب الأوَّل حتَّى يَهْجُم على الثاني، ولا الثاني حتَّى يَهْجُم على الثالث، فهو أَبدا مُسْتَفِيد ومُسْتَطْرِف، وبعضه يَصْكونُ جَماعا لبعض، ولا يزال نشاطُه زائدا، ومتى خَرَجَ من آي القرآن صار الى آثر، ومتى خَرَجَ من آثر صار الى خبر، ثم يَخْرُجُ من الخبر الى شعر، ومن الشعر الى نوادر، ومن النوادر الى حِكْم عَقْلِيَّة ومقاييس سِدَاد، ثم لا يترك هذا الباب فلعله أَن يكون أَثقل، والمَلالُ اليه أَسْرَع، حتَّى يُضَيِّق به الى مَرْح وفكاهة والى مُخَفِّف وتُرَافَة. ولست أراه مُخَفِّفاً إِذ كنت أَنما استعملت سِيَرَة الحِكماء ومأدبة العُلَماء، ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب أُنْجِز الكلام مُخْرِج الإشارة والوَحْي والحَسْذَف، وإذا خاطب بنى إِسرائيل أَوْحَى عنهم جعله مبسوطا وزاد في الكلام. فأصوب العمل أَتباع آثار العُلَماء والإِحتذاء

مثال القدماء ، والأخذ بما عليه الجماعة . وقال ابن تيسير في صفة الكتب  
كلمة له :

أَقْبَلْتُ أَهْرَبَ لَا أَلُو مُبَاعَدَةً \* فِي الْأَرْضِ مِنْهُمْ فَلَمْ يُخَصِّصْ أَهْرَبَ  
يَقْصُرُ أَرِيسَ فَا وَالتَّ خَضِيقُهُ \* إِلَى التَّوَارِيسِ فَلَمَّا خُورَ فَانْقَرِبَ  
فَأَيْمًا مَوْبِلٍ مِنْهَا أَعْتَصَمْتُ بِهِ \* لَيْسَ وَرَائِي خِيَّتًا مِنْهُمْ الطَّلَبُ  
لَمَّا رَأَيْتُ بَأْسَ غَيْرٍ مُعْجِزِهِمْ \* قُوَّةً وَلَا هَرَبًا قَرِيبَ اخْتِجِبُ  
وَصِرْتُ فِي الْبَيْتِ مَسْرُورًا بِهِ جِدَلًا \* جَارًا لِبُوءَةٍ لَا تَصْكَوِي وَلَا تَغْشَى  
قَرْدًا تُحْدِثُنِي الْمَوْتِ وَيَنْطَلِقُ لِي \* عَنْ عِلْمٍ مَا غَابَ عَنْي مِنْهُمْ الْكُتُبُ  
هُمْ مُؤَسَّسُونَ وَالْأَلْفُ غَنِيَتْ بِهِمْ \* فَلَيْسَ لِي فِي أَيْنِسٍ غَيْرِهِمْ أَرَبُ  
يَقِيهِ مِنْ جُلَسَاءٍ لَا جَلِيسَهُمْ \* وَلَا عَشِيرَهُمْ لَلشُّوْرِ مُرْتَبِبُ  
لَا بَادِرَاتٍ الْأَدَى يَخْشَى رَفِيقَهُمْ \* وَلَا بَلَاغِيهِ مِنْهُمْ مِنْطَقُ ذَرِبُ  
أَقْبُوا لَنَا حِكْمًا تَبَقَّى مِنْهَا \* أُتْرَى أَلْيَالِي عَلَى الْأَيَّامِ وَأَتَسَّعَبُوا  
فَأَيْمًا أَدَبٍ مِنْهُمْ مَدَدَتْ يَدِي \* يَوْمًا إِلَيْهِ فِدَائِي مِنْ يَدِي كُتُبُ  
إِنْ شِئْتُ مِنْ مُحْكَمِ الْأَكْبَارِ يَرْفَعُهَا \* إِلَى النَّسَبِ يُفَاتُ بِرَوْعَةِ مُجِبُ  
أَوْ شِئْتُ مِنْ عَرَبٍ عَلِمًا بِأَوَّلِهَا \* فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَتَنَبَّسُ بِهِ الْعَرَبُ  
أَوْ شِئْتُ مِنْ سَيْرِ الْأَمْلَاجِ مِنْ تَحِيٍّ \* تُنْهَى وَتُخْذَرُ كَيْفَ الرَّأْيِ وَالْأَدَبُ  
حَتَّى كَأَنِّي قَدْ شَاهَدْتُ عَصْرَهُمْ \* وَقَدْ مَضَتْ دُونَهُ مِنْ تَعْرِفِهِمْ حَقُّ  
يَا قَائِلًا قَصَّرْتُ فِي الْعِلْمِ نُيُوسُهُ \* أَمْسَى إِلَى الْجَهْلِ فِيمَا قَالَ يَنْتَسِبُ  
إِنِّي الْأَوَائِلُ قَدْ بَانُوا بِعُلْيَاهُمْ \* خِلَافَ قَوْلِكَ قَدْ مَاتُوا وَقَدْ ذَهَبُوا  
مَا مَاتَ مِنَّا أَمْرٌ أَبَى لَنَا أَدَبًا \* يَكُونُ مِنْهُ إِذَا مَا مَاتَ يُكْتَسَبُ

وقال أبو وجحة وهو يصف صحيفة كُتِبَ له فيها بستان وسقا :  
 راحت بستان وسقا في حقيقتها \* ما حلت حملها الأدنى ولا السددا  
 ولا رأيت قلوفا قبلها حلت \* سمين وسقا ولا جابت بها بددا  
 وقال الراجز :

تعلن آت الحواة والقلم \* تنق ويغني حديث الدهر الغم

يقول خالك الذي تكتبه على يتي فتأخذني به وتذهب غني فيا يذهب . وما يدل على  
 نفع الكتاب أنه لولا الكتاب لم يحزن أن يعلم أهل الرقة والموصل وبقاد وواسط ما كان  
 بالبصرة وحدث بالكوفة في بياض يوم ، فتكون الحادثة بالكوفة غدوة فبعلمها أهل البصرة  
 قبل المساء .

وفلك مشهور في الحسام الهدى : اذا جُمِلت بُردا قال الله جل وعز ، وذكر سليمان  
 وملكه الذي لم يؤت أحدا مثله ، فقال : ﴿ وَتَقَدَّرَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِي لَا أَرَى الْمُهَنْدَ ﴾ الى  
 قوله : ﴿ أَوْ لَا ذِمَّةَ أَوْ لِيَأْتِنِي يُسْلُطَانِ مُبِين ﴾ . فلم يلبث أن قال المهند : ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ  
 سَبِيلٍ نَبِيًّا يَقِينُ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَعْلِكُهُمْ وَأُوتِيتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهَكَ عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ .  
 قال سليمان : ﴿ أَذْهَبَ يَكْأبِي هَذَا فَأَلْفَهُ إِلَيَّ ﴾ وقد كان عنده من يبلغ الرسالة على تمامها من  
 عِفريت ومن بعض من عنده علم من الكتاب فرأى أن الكتاب أبهى وأنبل وأكرم وأنعم  
 من الرسالة عن ظهر لسان وإن أحاط بجميع ما في الكتاب . وقالت ملكة سبا : ﴿ يَا أَيُّهَا  
 الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ فهذا مما يدل على قدر اختيار الكتب وقد يرد بعض  
 الحلة التجار وبعض الأدباء والحكام أن يدعو بعض من يجري مجراه في سلطان أو أدب الى  
 مأدبة أو ندام أو خروج الى متنته أو بعض ما يتبته ذلك ، فلو شاء أن يبلغه الرسول إرادته  
 ومعناه لأصاب من يحسن الأداء ويصدق في الإبلاغ فيرى أن الكتاب في ذلك أسمى  
 وأنبه وأبلغ ولو شاء النبي صلى الله عليه وسلم ألا يكتب الكتب الى كسرى وقيصر والنجاشي

والمُقَوِّس وإلى بنى الحَلْدَنَدَى وإلى العَبَاهِلَةِ من حِمير وإلى هَوْدَةَ بن علي وإلى الملوك العظاء والسادة الثَّجَباء لفعل ولوجَد المُتَبَلِّغ المَعصُومَ من الخطأ والتبديل، ولكنَّه عليه السلام علم أنَّ الكتاب أشبه بتلك الحال، وألِيقَ بتلك المراتب، وألِيقَ في تعظيم ما حواه الكتاب، ولو شاء الله أن يجعل البشارات على الأليسة بالمرسلين ولم يودعها الكتب ففعل ولكنَّه تعالى وعزَّ علم أنَّ ذلك أتمَّ وأكمل، وأجمع وأنبئ؛ وقد يكتُب بعض من له مرتبة في سلطان أو ديانة إلى بعض من يسأله أو يتجرى مجراه فلا يرضى بالكتاب حتَّى يتخرمه ويحتِّمه، وربما لم يرض بذلك حتَّى يمتنونه ويُعظمه.

قال الله جل وعزَّ: ﴿أَمْ لَمْ يَنْبَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ النَّبِيِّينَ﴾ فذكر صحف موسى الموجودة وصحف إبراهيم البائدة المصدومة ليُعرف الناس مقدار النفع والمصلحة في الكتب. قالوا: وكانت فلاسفة اليونانية تَوَرَّثَ البنات العِين وتوزَّت البنين العَيْن؛ وكانت تَصِلُ المعجز بالكفاية والمؤونة بالكلفة وكانت تقول: لا تَوَرَّثُوا الزَّيْنَ من المال إلَّا ما يكون عَوْنًا له على طلب المال، وأغذوه بحلاوة العِلْمِ وأطعموه على تعظيم الحكمة ليصير جمعُ العِلْمِ أَغْلَبَ عليه من جمع المال، وليرى أَنَّهُ العَدَّة والعَتَادُ، وَأَنَّهُ أَكْرَمُ مُسْتَفَادٍ، وكانوا يقولون: لا تَوَرَّثُوا الزَّيْنَ من المال إلَّا ما يَسُدُّ الخَلَّةَ، ويكون له عَوْنًا على دَرَكَ الفضول. إنَّ كَانَ لا بدَّ من الفضول، فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ فَاسِدًا زادت تلك الفضول في فساده، وإنَّ كَانَ صَالِحًا كَانَ فيما أَوْرَثْتُمُوهُ من العِلْمِ، وبقيت له من الكفاية ما يَكْفِيهِ الحال، فَإِنَّ الحال أَفْضَلُ من المال، ولَأَنَّ المال لم يَزَلْ تابعًا للحال، وقد لا يَتَّبِعُ الحالُ المال، وصاحب الفضول بِمَرَضٍ فَاسِدٍ وَعَلَى شَفَا إِضَاعَةٍ مع تمام الحُكْمَةِ واجْتِنَاعِ القُوَّةِ؛ فسا ظَنُّكُمْ بها مع غُرَارَةِ الحسدائَةِ وسوء الاعتبار وفِلَّةِ التَّجَرِبَةِ! وكانوا يقولون: خير ميراث ما كسبكَ الأركان الأربعة، وأحاط بأصول المنفعة وتخلَّى لك حلاوة المحبة، وبقي لك الأُحْدُوثة الحسنة، وأعطاك حاجل الخير وأجله، وظاهره وباطنه، وليس يجمع ذلك إلَّا أكرام الكتب النفيسة المُشْتَمِلَةُ على ينابيع العِلْمِ، والجامعة لكنوز الأدب ومعرفة الصناعات وفوائد الإِرْفَاق؛

وحجج الدين الذي يصححه وعند وضوح برهانه تسكن النفوس وتتج الصلح الصدور، ويمود القلب معمورا، والمز راسخا، والأصل فسيحا، وهذه الكتب هي التي تزيد في العقل وتصححه، وتداويه وتصلحه، وتهديه وتنفي الخبيث عنه، وتفيدك العلم وتصادق بينك وبين الحق، وتؤمّلك الأخذ بالثقة وتجلّب الحلال وتكسب المال. ووراثه الكتب الشريفة والأبواب الرفيعة منبهة للورث وكثر عند الوارث، إلا أنه كثر لا يجب فيه الزكاة ولا حق السلطان، وإذا كانت الكنوز جامدة يتقصها ما أخذ منها كان ذلك الكثر مائما يزيده ما أخذ منه، ولا يزال بها المورث مذكورا في الحكاه ومثمنا باسمه في الأسماء، وإماما متبوعا، ومائما متصوبا، ولا يزال الوارث محفوظا، ومن أجله محبوبا ممنوعا، ولا تزال تلك المحبة نامية ما كانت تلك الفوائد قائمة ولما تزال فوائدها موجودة ما كانت الدار دار حاجة، وإن يزال من تعظيمها في القلوب إنزما كان من فوائدها على الناس أثر.

وقالوا: متى وزّته كتابا وأودعته عيما فقد وزّته مايفل ولا يستقل، وقد وزّته الضيعة التي لا تحتاج إلى إنارة، ولا إلى سقى، ولا إلى إسجال بإيقار، ولا إلى شرط ولا تحتاج إلى أكار ولا إلى أن يثار، وليس عليها عشر ولا للسلطان عليها نخرج، وسواء أفدته عيما أو وزّته آلة علم، وسواء دفّعت إليه الكفاية أو ما يجلب الكفاية، وأتمما تجرى الأمور وتُصعّرف الأفعال على قدر الإمكان، فمن لم يقدر إلا على دفع السبب لم يجب عليه إحضار المسبب، فكتب الآباء تهيب للأحياء، ونحيا لذكر الموتى.

وقالوا: متى كان الأب جامعا بارعا وكانت موارثه كتبنا بارعة، وآدابا جامعة، كان الولد أجدر أن يرى التلم حظا وأجدر أن يسرع التعلم إليه ويرى تركه خطأ، وأجدر أن يجرى من الأدب على طريق قد أنشج له، ومنشج قد وطى له، وأجدر أن يسرى إليه عرق من تجله وسقى من غرسه، وأجدر أن يحمل بدل الطلب للكتب النظر في الكتب، فلا يأتي عليه من الأيام مقدار الشغل بجمع الكتب، والاختلاف في سماع العلم، إلا وقد بلغ بالكفاية غاية الحاجة وأتمما تُفسد الكفاية من تمت آدابه، وتوافقت إليه أسبابه، فاما



الحدّ الثّالث، والرّيس، والمُنقوص الفقير. فغير موارِيثه الكِفَايَةُ إلى أن يبلّغ التّمام، ويكفل اللَّغْلَبَ .  
 فغير ميراث وُزِّت كُتُبُ وعلم، وغير المُوَرِّثِينَ من أُوْرث ما يَجْمَع ولا يُفَرِّق، ويُبَصِّر ولا  
 يُعْمِي، ويُعْطِي ولا يأخذ، ويحسود بالكلِّ دون البعض، ويدع لك الكثر الذي ليس  
 للسلطان فيه حق، والرّكاز الذي ليس للفقراء فيه نصيب، والنعمة التي ليس للمحاسد فيها  
 حيلة، ولا للصّوص فيها رغبة، وليس لتقصم عليك فيه حجة، ولا على الجار فيه مؤونة .

وأما ديمقراط فإنّه قال: ينبغي أن يعرف أنّه لا بدّ من أن يكون لكلِّ كتاب علم وضعه  
 أحدُ من الحكماء ثمانية أوجه، منها الهِمة والمُنفعة، والنّسبة والصّحة، والرّصنّف والثّاليف،  
 والإستاد والتّدير، فأولها أن تكون لمصاحبه هِمة، وأن يكون فيها وضع مُنفعة، وأن يكون له  
 نسبة ينسب إليها، وأن يكون صحيحاً، وأن يكون على صنف من أصناف الكتب معروفاً به،  
 وأن يكون مؤثّقاً من أجزاء خمسة، وأن يكون مُسنداً إلى وجه من وجوه الحكمة، وأن يكون  
 له تدير موصوف . فذكر أن أبقراط قد جمع هذه الثّمانية الأوجه في هذا الكتاب وهو  
 كتابه الذي يُسمّى «أفُور يُسمُوا» تفسيره: كتاب الفصول. وقولك وما بلغ من قدر الكتب  
 مع لوم أصله، وخُبت طبعه، وسُقوط قدره، ومهانة نفسه، ومع قِلّة خبره وكثرة شرّه،  
 واجتماع الأهم كلّها على استسقاطه واستسفالها، ومع ضربهم المثل في ذلك كلّ به، ومع  
 حاله التي يعرف بها من العجز عن صّولة السّباع، وأقتدارها، وممن تمنعها وتشرّها  
 وتوحشها، وقِلّة إسماعها، وعن مسألة البهائم وموادعتها، والتّمكن من إقامة مصالحتها،  
 والانتفاع بها، إذ لم يكن في طبعها دفع السّباع عن أنفسها، ولا الإحتيال لمعاشها، ولا  
 المعرفة بالمواضع الحرّيزة من المواضع المُخوفة . ولأنّ الكتاب ليس بسبع تام ولا بهيمة ناتئة  
 حتى كآله من الخلق المركّب، والطّبائع المُلققة، والأخلاق المُجْتَلِبَة، كالقبُل المتلّون في أخلافه  
 الكثير العيوب المتولدة عن مزاجه، وشرّ الطّبائع، اتّجاهه الأعراف المتضاربة والأخلاق  
 المتفاوتة، والعناصر المتباعدة، كالراعي من الحُمَام الذي ذهب عنه هِدَايَةُ الحَمَام، وشكل  
 هديره وسرعة طيرانه، وبطل عنه عُمر الوَرَشَان، وقوّة جناحه، وشِدّة عصبه، وحسن

صوته، وشجا حلقه، وشكل لحونه وشدة إطرابه، وأحاطه لوقع البنادق، وجرح الخالب .  
وفي الراعي أنه مُسرول مُثقل، وحدث له عظم بدن وقيل وزن لم يكن لأبيه ولا لأمه .  
وكذلك البغل نخرج من بين حيوانين يلدان حيوانا مثلهما ويعيش نتائجهما ويبقى بقاها،  
وهو لا يعيش له ولد وليس بقديم، ولا يبقى للبغلة ولد وليس بعاقر؛ فلو كان البغل عقيما  
والبغلة عاقرا لكان ذلك أزيد في قوتها وأتم لشئتهما، فمع البغل من الشبق والنمط ما ليس  
مع أبيه، ومع البغلة من الشوس وطلب السفاد ما ليس مع أمها؛ وذلك كله قدح في القوة  
ونقص في البنية، ونخرج غُرموله أعظم من غراميل أعمامه وأخواله، فترك شيهما وزرع  
الى شيء ليس له في الأرض أصل، ونخرج أطول عُمرًا من أبيه وأصبر على الأثقال من  
أبيه؛ أو كاهن المذكرة من النساء، والمؤنث من الرجال، فإنه يكون أخبث نتاجا من البغل  
وأفسد أحرافا من السمع، وأكثر صوبا من العسبار،<sup>(١)</sup> ومن كل خلق خلق إذا ترك من  
ضد، ومن كل شجرة مُطعمه بخلاف؛ وليس يتقرب مثل ذلك الخلاص من الدجاج،<sup>(٢)</sup>  
ولا الورداني من الحمام؛ وكل ضئف دخل على الحلقة، وكل رقة عرّضت للحيوان، فعلى  
قدر جنسه وعلى وزن مقداره وتمكّنه يظهر العجز والعيب . وزعم الأصمعي أنه لم يسبق  
الحلبة فرس أهدم قط . وقال محمد بن سلام لم يسبق الحلبة إبان قط ولا بقاء .

والهداية في الحمام والقوة على بعد الغاية إنما هي للصمّة من الخضر . وزعموا أن  
النّيات كلها ضئف ونقص، والنّية: كل لون دخل على لون . وقال الله جل وعز: ﴿قَالَ إِنَّهُ  
يَقُولُ إِنَّمَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَمَّاةً لِأُشَيْةٍ فِيهَا﴾ . وزعم عثمان  
أبن الحكم أن ابن المذكرة من المؤنث يأخذ أسوأ إخصال أبيه وأردأ إخصال أمه فتجتمع

(١) السبع بكر السبع وإسكان الميم والعين المهملة: ولد الذئب من الضبع وهو سبع مركب فيه شدة الضبع  
وقوتها رجاء الذئب وغفته (راجع حياة الحيوان للقمي ج ٢ ص ٣٢) . (٢) العسبار بكر العين والعين  
الساکة والأشياء صابرة: ولد الضبع من الذئب وجمعه صابرة (راجع حياة الحيوان للقمي ج ٢ ص ١٣٩) .  
(٣) الخلاص: الولد بين أبيض وأسود، والذئب بين دجاجة بين هندية وعارسية . (٤) الورداني  
الراء المهملة طائر متولد بين الوردان والحمام وله غرابة لون وظرافة قد .

فيه عظام الدواهي وأعيان المساوي، وأنه إذا خرج كذلك لم يُجمع فيه أدب ولا يطمع في علاجه طيب، وأنه رأى في دور حيف فتي أجتمعت فيه هذه الحصال، فأكان في الأرض يوم ألا وهم يتعدّون عنه بشيء يصغر في جنبه أكبر ذنب كان ينسب إليه .

وزعمت أنة الكلب في ذلك كان حنّتي الذي هو لا ذكر ولا أنثى، أو كان حنّتي الذي لما قُطِع منه ما صار به الذكر فحان يخرج من حدّ كمال الذكر فيفقدان الذكر، ولم يكمل لأن يصير أنثى للفرزة الأصلية وبقية الجواهرية، وزعمت أنه يصير كالنبيذ الذي يفسده إفراط الحرق، فيخرجه من حدّ الخلل، ولا يدخله في حدّ التنبذ . وقال مرداس بن خنّام :

سَقَيْنَا حَقَالًا بِالنَّوِيَّةِ شِرْبُهُ • فَالَتْ بُلْبُ الْكَاهِلِي عِفَالِ

فَقَلْتُ أَصْطَحِيحُهَا يَا عِفَالُ فَإِنَّمَا • هِيَ الْخَمْرُ خَلَّتْهَا بِجِبَالِ

وَمَيِّتُ بَأَمِ الْخَلِّ حَبَّةٌ قَلِيلُهُ • فَلَمْ يَتَمِشْ مِنْهَا ثَلَاثَ لَيَالِ

بفعل الخمر أتم الخلل قد يتولد عنها ، وقد يتولد عن الخلل إذا كان خمرًا مرة الخمر .

وقال سعيد بن وهب

هَلَا وَأَنْتَ بِمَاءِ وَجْهِكَ تُسْتَهَى • رُودُ الشَّبَابِ قَلِيلُ شَعْرِ الْعَارِضِ

فَالْآنَ حِينَ بَدَتْ بِخَذْلِكَ لِحْيَةٌ • فَهَبْتَ بِمِلْكِكَ مَلءَ كَفِّ الْقَارِضِ

مَشَلَّ السَّلَافَةُ حَادَ نَحْمَرٍ عَصِيرُهَا • بَعْدَ اللَّذَافَةِ خَلَّ نَحْمَرُ حَامِضِ

ويصير أيضا كالشعر الوسط والفناء الوسط ، والنادرة الفائرة التي لم تخرج من الخمر

الى البرد فتضحك السن ولم تخرج من البرد الى الخمر فتضحك السن .

## باب الرسائل

١٠ - الفصول المنتخبة من الرسائل المختارة في كل فن<sup>(١)</sup>

كتب رجل الى صديق له :

إن آباءك شادوا أكارمهم بالفضائل التي كانت فيهم ، وإنك قد كنت أخذت في مَدْرَجَتِهِمْ فأوفيت على غايَتِهِمْ ، ثم أخطبلك الهوى ببعض جَدِيدِكَ وجودك ، من لباس فضلك الذي كنت تطول به على أكفائك ، وتعلك به أعتة كافة جندك ، وألقيت مالك على شرِّ عواقبه عليك لا لك إن زلت مكاره بوادره منك .

فصل - قيل : إن مروءة الرجل في نفسه تسبِّ لقوم آخرين ، فإنه إذا فعل الخير عُرف له ، وبقِيَ في الأعتاب والأصحاب ، ولقيته يوم الحساب .

فصل - إن حقَّ الله على المسامين أن ينظروا في دينهم بالنصيحة لأئمتهم ، فإن الأئمة إذا صلحوا بَدَّلَ الهوى بالتقوى في قلوبهم ، وماتت سورة الغضب فيهم لأحلامهم ، وسكنت العاسة الى مدبهم وذات الإنصافهم . وإذا كان للحسن من الحق ما يُقنعه ، وللظالم من التَّكْثِيرِ ما يَقْصمه ، بَدَّلَ المحسنُ الحقَّ عليه رغبةً ، وذَلَّ المسيء بالحق عليه رهبةً . فأقول ما أمرك به ربَّاء الله وتقواه . فاما رجائوه فإن تُحْسِنَ به في الصَّنْعِ إذا أطلعتَه ، ويكون لك رِقاية إذا آثرته مطمئنا . وأما تقواه فإن تكون له فيها أَمْرُك به ونَهَاك عنه مُراقِبا ، فإن تَقِيَّةَ المؤمن تزد في أنشراح صدره ، وإن شلته خوفا تزد هواه على عقله .

(١) قلا من اختيار المنظوم والمنثور لأن طيفوا .

(٢) الجدلثة : الناصية والحالة والطريقة .

**فصل —** تَبِه إِذَا تُبِّتَ ، وَأَذْكَرَ إِذَا دُكِّرْتَ ، وَاسْتَفْعَ فَقَدْ وُعِظْتَ ، وَاسْمِعْ فَقَدْ نُودِيتَ ، نَبِّهَكَ الْوَعِيدُ ، وَحَذِّرَكَ الزَّاجِرُ ، وَأَمْرَكَ وَنَهَاكَ الْكِتَابُ ، وَتَعَتَكَ آثَارُ الْمَوْتِ ، وَدَعَاكَ إِلَى الْجَنَّةِ مَلِيٌّ جَوَادٌ ، فَالْخُذْ الْخُذْ ، فَقَبِلِ الْمَهْجَرَةَ يُرِيحُ الْمُدْلِجَ .

**فصل —** مَا نَظَرْتُ فِي مَعْرُوفٍ عِنْدَ أَحَدٍ ، فَوَجَدْتُهُ قَصُرَ عَنْ أَمَلِهِ وَكَانَ يُمْكِنُنِي أَنْ يَكُونَ أَكْثَرُ مِنْهُ ، إِلَّا عِدَدُهُ سَيِّئَةً لِي عِنْدَهُ ، لِأَنِّي ذُوْقُهُ مَا أَحَبُّ ، ثُمَّ مَنَعْتُهُ إِيَّاهُ ، وَكَأَنِّي قَصِدْتُ لِإِخْطَاصِ قَلْبِهِ . وَلَا نَظَرْتُ فِي مَعْرُوفٍ عِنْدَ أَحَدٍ فَوَجَدْتُهُ قَدْ تَنَاهَى عِنْدَ تَنَاهَى أَمَلِهِ وَكَانَ يُمْكِنُنِي أَنْ يَكُونَ أَكْثَرُ مِنْهُ ، إِلَّا رَأَيْتُنِي فِي ذَلِكَ وَاتَّزَّ لِنَفْسِي ، لِأَنَّهُ كَفَى قَبِيحًا لَهَا وَإِزْرَاءَ بَهَا ، أَنْ أَفْتَعُ ... فَضِلْ تَخَذَهُ بِمَثَلِ مَا أَفْتَعُ رَجُلًا مِنْ فَضْلِ يَخْذُهُ عَلَيْهِ .

**فصل —** مَا أَنْتَ تَمَنْ يَعْلمُ مِنْ جَهْلٍ بِهِ ، وَلَا تُحَسِّنْ مِنْهُ بَادِرَةَ زَلَّةٍ ، وَلَا يُقَابِلُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا عَرَفَ خَيْرَهُمَا فَأَتَرَهُ ، وَشَرُّهُمَا فَاجْتَنِبَهُ . وَقَدْ رَأَيْتُ مَا سَاقَتْ إِلَيْكَ الطَّاعَةُ مِنْ حَظِّ الْعَاجِلَةِ ، فَلَا تَتَمَوَّضْ لِرُؤَالِ مَا أَنْتَ فِيهِ ، فَتَخْشَى الْخَطِيقِينَ ، وَتَتَدَمَّرُ فِي الدَّارَيْنِ ؛ فَقَدْ رَأَيْتُ مَنْ عَانَدَ الْحَقَّ كَيْفَ صَرَّمَهُ اللَّهُ وَبَسَطَ يَدَ وَلِيِّهِ عَلَى سَفْكَ دَمِهِ ، وَإِحْلَالِ النِّقْمَةِ بِهِ ، فَصَارَ بَعْدَ أَنْ كَانَ فِي الْأَمْنَةِ مِثْلًا ، وَجَمِيعِ الْخَلْقِ غَايَةً وَأَمَلًا ، فَكَرَّةً فِي الْإِعْتِبَارِ ، وَعِظَةً لِلْأَبْصَارِ . فَلَا يُبْعِدُ اللَّهُ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَخَفَرَ ، وَذَهَبَ عَنِ الْحَقِّ وَأَذْبَرَ . وَأَنْتَ الْيَوْمَ مُحْكَمٌ فِي أَمْرِكَ ، غَيْرُكَ رَأْيُكَ ، تُدْعَى إِلَى حِفْظِكَ بِالْحِفْظِ الْجَزِيلِ بِتَدَلُّلٍ . فَاعْتَمِلْ مَا قَدْ هَدَفَ لَكَ وَهُوَ يُمَكِّنُ لِيَدِكَ ، فَإِنَّكَ إِنْ أَهْمَكَتَ وَزَارَعَيْتَ ، لَمْ يَكُنْ بِالْحَقِّ وَلِيِّهِ وَحِشَّةَ إِلَيْكَ ، وَمَضَتْ أَحْكَامُ اللَّهِ فِي نَصْرِهَا وَتَأْيِيدِهَا عَلَى أَذْلَالِهَا <sup>(١)</sup> ، وَصَغِيرَتْ يُدْكَ بِمَا لَا يُشْتَرَفُ لَكَ بِمِثْلِهِ ، وَأَخْطَرَتْ بِدَمِكَ وَأَسْلَمَتْهُ أَخْبَثَ مَسِيلٍ وَأَضَلَّ سَبِيلٍ ، حَيْثُ لَا تَبْكِي عَلَيْكَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ .

(١) يَبَاضُ فِي الْأَمَلِ . وَلَهُ : أَنْ أَفْتَعُ نَفْسِي بِفَضْلِ أَخْذِهِ بِمَثَلِ مَا أَفْتَعُ رَجُلًا آخَرَ .

(٢) عَلَّ أَذْلَالُهَا : عَلَّ رَجْعُهَا وَمَرْطُفُهَا .

**فصل** — الناس رجالان : عالم لا يخفى به عن الازدياد، وجاهل به أعظم الحاجة الى العلم ، وليس في كل حال يكون العالم لما يبتغيه من الأمور مِعْدًا ، ولا المتعلم على ما يستفيد منه قادرًا وقيًا .

**فصل** — إن أنت عطلتنا من أمورك ، وأعفيت ظهورنا من أفعالك ومؤوناتك ، وتركنا أغفالا في ولايتك من تهيبك ونحر يكك ، فقد أنزلتنا منزلة من لا خير عنده ، وجعلت نفسك أسوة من لا مِئين له ، وكفى بذلك ظلما .

**فصل** — إن إعلامي إياك ... <sup>(١)</sup> غير محمد شينا ، ولكنه أقرب من الجليل في معرفة عذر المعتذر ، وأحل للأئمة على المسيء المقتصر .

**فصل** — الذي أعتمدنا عليه من رأيك ، وثيق به من جميل نظرك ، قد خلطني بأهل صناعتك ، والخاصة من فئاتك ، وبسط أمل فيك الى غاية خير ريتي ، أو جزيل حظ يؤمل .

**فصل** — ليس يسوغ لأحد في الأمير آمل ، ولا يتوجه اليه منه رغبة ، ولا يلزمه في قضاء حقه ، وداناة مؤنته إلا وفضله مستغرق لها .

**فصل** — من أحمد الأمور وأجل المناهب ، ما كان آخره موصولا بأوله ، ومؤديا بذوه الى حمد عاقبته ؛ لحافظ على الأمور التي حسن فيها عند أمير المؤمنين أترك ، مستغلا فيها لكثير ما يكون منك ، مُتَعَدّا بها في النعم عنك ، والإحسان الواصل اليك ، فيا يوفقك الله له منها ويخصبك به من الفضل في اختيارها ، وأمير المؤمنين يستحفظه الله لك ، ويستمتع في النعمة فيك .

**فصل** — قد كان يجب أن تجعلنا بمنابة النعم علينا في خاصة الشاكين لفضلك ، ولا تجعلنا بتواتر الإساءات إلينا في عامة الشاكين لك .

(١) بياض في الأصل . ولعل الكلمة المروكة «جبايى» . والظاهر أن كلمة «محمد» محذرة عن كلمة «مجد» .

(٢) كذا بالأصل .

**فصل —** عِلِّيْ بِمَا بَخِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَخْلَاقَ الْأَمِيرِ أَكْرَمَهُ اللَّهُ، وَجَعَلَ طَبِيعَهُ رَأْيَهُ فِي بَسْطِ الْعَدْلِ عَلَى رَعِيَّتِهِ، وَبَيَّتَ الْفَضْلَ عَلَى مُتَمَيِّمِي فَضْلِهِ، يَبْعَثُنِي عَلَى الْكَلْبِ فِي مِثْلِ مَا كُنْتُ إِلَيْهِ فِيهِ، مِنْ ظُلُمَةِ مَظْلُومٍ يَسْتَعِيزُ فِيهِ بِعَدْلِهِ، وَحَاجَةِ مَلْهُوفٍ يَرْجِعُ فِيهِ إِلَى فَضْلِهِ، فَاجْمَعْ إِلَى مَا الْتَمَسَ مِنَ الثَّوَابِ فِي ذَلِكَ مُوَافَقَةَ رَأْيِ الْأَمِيرِ، وَإِذْكَارَهُ مَا يَجِبُ أَنْ يَذْكُرَهُ، فَزَادَ اللَّهُ الْأَمِيرَ مِنْ نِعَمِهِ، وَأَوْزَعَهُ مِنَ الشُّكْرِ عَلَيْهَا مَا يُوجِبُ لَهُ لِنُتَائِبِهَا عِنْدَهُ، وَتَرَادَفُهَا لَهُ .

**فصل —** أَنْتَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مِنْ أَحْتَمَلِ الصَّنِيعَةِ، وَقِيلَ الْأَدَبُ، وَصَلَتْ الْخَفِيَّةُ وَخَلَصَ عَلَى الْإِخْتِةِ وَحَسَنَ الظَّنِّ، فَاسْتَقَامَتْ طَرِيقَتُهُ وَقَدِمَهُ جَمِيلٌ مَذْهَبُهُ وَأَثَارُهُ، وَبَرَّتْ عَلَى قَصْدِ السَّبِيلِ طَاعَتُهُ، وَاسْتَدْتَدَتْ عَلَى السَّرِيرَةِ وَالْعَلَانِيَةِ مُنَاصَحَتُهُ، فَأَصْبَحَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتَنَاهَى فِي رِزْكَ وَتَكْرِمَتِكَ، إِلَّا رَأَى مُسْتَحَقًّا لَهَا وَيَأْ قَوْفُهَا، وَلَا يَرْفُكُ إِلَى دَرَجَةٍ إِلَّا رَأَى أَهْلًا لِأَشْرَفِهَا مِنْهَا، صُنْمًا مِنْ اللَّهِ لَكَ بِمَا وَقَفَكَ لَهُ مِنْ طَاعَتِهِ، وَوَهَبَ لَكَ مِنْ جَمِيلِ مَرَاتِبِهِ، وَالْمَكَانِ مِنْهُ وَالْأَثَرِ عِنْدَهُ .

**فصل —** فَضِّلْ مِشَارَكَتَنَا لِمَائِكَ فِي مَحَبِّبِ الْأُمُورِ وَمَكْرُوهِهَا بِجَمَلْنَا فِي السُّرُورِ بِالنِّعْمَةِ عِنْدَكَ — بِحَقْدِهَا اللَّهُ لَكَ — وَيُوجِبُ الشُّكْرَ بِمَا يَكُونُ لِحَقِّهَا قَاضِيًا، وَلَا يَزِيدُ فِيهَا مَوْجِبًا .

**سَعِيدُ بْنُ مُحَمَّدٍ —** شُفِّكَ يَقْطَعُنَا عَنْ مَطَالِبَتِكَ بِالْحَقِّ فِي جَوَابَاتِ كُتُبِنَا إِلَيْكَ، وَصَدَّقَ مَوَدَّتَنَا لَكَ بِمَعْنَا مِنَ التَّقْصِي فِي الْإِخْتِةِ عَلَيْكَ، وَمِنْ يَكْلُكُ إِلَى رَأْيِكَ فَإِنَّهُ لَا يَبْنِي بِكَ إِلَّا لَكَ، صَلَةَ إِخْوَانِكَ وَالتَّعَاهُدَ لِمِنْ رِزْكَ، بِمَا يُشْبِهُ فَضْلَكَ وَالنِّعْمَةَ طَبِيعَ فِكَ .

وَفُلَانُ بَنِي وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ أَقْدَمَهُ بِهَا عَلَى الْأَخُوَّةِ، لِأَنَّكَ تَعَلَّمَ قَرَبَ مَا بَيْنَ الْمَوَدَّةِ وَالْفَرَاةِ، وَقَدْ بَلَّوْتُهُ عَلَى الْحَالَاتِ كُلِّهَا، فَلَمْ يَزِدْنِي اخْتِبَارُهُ إِلَّا اخْتِيَارًا لَهُ؛ وَلَا أَعْلَمُ بِالْعَسْكَرِ جَلِيلًا إِلَّا وَهَوَى صَدِيقٍ، يُشْكِرُ بِشُكْرِهِ وَيُوجِبُ عَلَى نَفْسِهِ الْمِنَّةَ فَيَأْتِي إِلَيْهِ؛ فَأَتَانَا مِنْ بَيْنِ إِخْوَانِهِ فَلَسْتُ أَصِلُ عَنْ قَضَاءِ حَقِّهِ، وَلَا أَتَأَثَّرُ مِنْ مَعْرُوفِ أَمْسَدَى إِلَيْهِ؛ فَإِنْ رَأَيْتَ أَنَّ

تُحِلُّه بالحل الذي يستحقه بنفسه وسلفه ، فوالله ما رأيت سوقَ الأحرار أنفق منها عندكم أهل البيت ؛ أبقِ الله تبارك وتعالى باقيكم ورحم ماضيكم .

**فصل —** إن أحدًا ليس بمستغليص شيئًا من غَضارة عيش إلا من بين خلال مَكَارِهِ ، فمن آتَظَر بما جلَّ الدُّركُ آجِلُ الاستقصاء سَلَبته الأيامُ فُرْصته ، لأنَّ من صِناعَتها السَّلْبُ ، ومن شَرَطِ الزَّمانِ الإِفْطَاةُ .

**فصل —** إنَّ الأميرَ قد جَلَّ فضلُه عن أن يُحِيطَ به وصف ، أو يأتى على تَدَادِهِ اجتهاد ، فلو كان شيء أكثر من الشكر لكان الأميرُ يستحقه علينا ، وبِستَوجِه مَنَّا .

**فصل —** قد أصبح المختلفون مجتمعين على تحريفه ومُدْحِه ، حتى إنَّ العَدُوَّ يقولُ اضطرابًا ما يقوله الوليُّ اختيارًا ، والعبيد يثق من إنعامه علينا بما يثق به القريبُ خاصًّا .

**فصل —** المائلون إليه بين نِعَمٍ مُكْتَنِفَةٍ من تَالِيهِ به يَسْتَعِدِّمُونَهُ ، وطارِفٍ مِنْهُ يَسْتَعِدِّمُونَهُ ، ومَوَاهِبٍ مُتَجَدِّدَةٍ ، وفَوَائِدٍ مُتَرَادِفَةٍ ؛ هِيَ مَهْسُوطَةٌ به إلى بَرَكَةِ أَيَّامِهِ ، وَصُلُوْ حَظِّهِ<sup>(١)</sup> مَن أنصَلَ به ، فزادَهُ اللهُ من فَضْلِهِ ، وزادَ أَوْلِيَاءَهُ به وبِبرَكَةِ دَوْلَتِهِ .

**فصل —** أعتمدتُ أخًا لا يَدُمُ إِخَاؤُهُ ، ولا تُشْكُرُ أحوالُهُ ، على بعد الدار وقُربِهَا ، وأنصَلَ المكتبةَ وأتَقَطَّاعَهَا ، تجده مُتَصَرِّفًا معَكَ في الخطوب التي يَطْرُقُ بها الزَّمانُ ، وَيَدَا بِلَكَ في الأمور التي يُتَمَتَّحُ فيها الإِخْوَانُ .

**فصل —** أسأل الله أن يجعل ما تَقُولُ به فيه من الجلالة في القلوب والعيون عند الوليِّ والعدو موصولًا بالإنشاء في مُدَّتِهِ ، والإدَامَةِ لِعَزِّهِ وسلامته ، والأَعْلَاءَ لِيَدِهِ وكتبته .  
أحمد بن يوسف — عندى فلان وفلان ، فإن كُنا من شأنك فقد آذَنَّاكَ .

في صِفَةِ حَرْبٍ — كانت لَكَ الكَرَّةُ ، وعليهم الدَّبرَةُ ؛ فحملوا حَمْلَةً كاذِبَةً ، ائْتَمَّنَّاها بِأُخْرَى صادِقَةً .

(١) في الأصل : «حظ» والسياق يقتضى ما أثبتناه .



**فصل في هدية** - قد أهديتُ إليك من فنون كلامي وعيون مقال، دقتا ظريف المعاني، شريف المباني، صحيح الألفاظ، يلدُّ بأفواه الناطقين، ويلين على أسماع الصامتين.

**فصل في شفاعية** - لفلان قبلك حاجة، ليس يحتاج فيها إلى تعديلِكَ وتصفيتِكَ المبسوطين لمن لا يتوسل بمُحطَّتِكَ ومعرفتك، ولكنه يريد ما في ذلك العدل والإنصاف من الرِّفق والإحسان المذخورين للخاصة والإخوان.

**فصل لرجل تمحَّى** - ضَعُفَ حالي بدعوى إلى كثرة الطلاب، ومَعْرِفَتِي بِجِبِل. رَأَيْتُكَ تَحْجُزُنِي عَنِ الْإِلْحَاحِ عَلَيْكَ، خَوْفًا أَنْ أَكُونَ جَاهِلًا بِعَنَائِكَ، وَحَسَنَ نَظَرِكَ، وَالْكَرَمِ يَسْتَحْيِي بَعْضُهُ لِبَعْضٍ، وَيَبْعَثُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَدِينُ حِيلَتِهِ الْفِرْعُودُ عَلَى الْمَقُودِ، فَبَعَثَ كَرَمَهُ لِلنُّوُصِ، أَوْ ذَمَّاهُ هَوَاهُ إِلَى الْمُنْعِ، بَغَاءَ عَقْلِهِ عَلَى الْبَذْلِ، وَحَالِي جَانِحَةٌ لَدَى فَضْلِكَ وَنِعْمَةٌ أَلْفَ عَلَيْكَ مِنْ سَدِّ خَلَّتْهَا، وَمَدَاوِةٍ عَلَّيْهَا بِجَاهِكَ الْوَاسِعِ، وَرِفْدِكَ النَّافِعِ.

**أحمد بن يوسف** - قَدْ بَدَّلْتَ لَنَا مِنْ نَفْسِكَ أَحْمَرَ مَبْنُولٍ وَأَنْفَسَهُ، وَالْمُوَدَّةَ الَّتِي كَلَّمَا يُجِدُّ مِنْ صَاحِبِهَا، فَهِيَ لَهَا نَافِعٌ. وَثَقْنَا بِكَ وَاسْتَنَامْنَا إِلَى نَاحِيَتِكَ، عَلَى أَحْسَنِ مَا أَكَّدَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ. وَإِنْ كَانَ مَدَى اللَّقَاءِ بَيْنَنَا لَمْ يَطُلْ فَأَتَمَّلْ مِنْهُ مَا يَرْوَاهُ أَهْلُ الْوَفَاءِ وَالْخَالَصَةِ، وَيَقْصُرُ فِي الْمَحَافِظَةِ عَلَيْهِ وَعَلَى أَكْثَرِ مَنْهُ، مِنْ دُخْلَتِ نَيْتِهِ، وَضَعُفَتِ خُلَّتُهُ.

**فصل** - قَدْ أَصْبَحْتَ لِمَخَاصِةِ عُدَّةٍ، وَلِلْعَائِقَةِ عَصْمَةٍ، وَلِلْأَنَامِ نَفَقَةٍ فِي مَنَاصِحِكَ.

**فصل في الصفح لأخي علي** - إِنَّكَ الَّذِي قَرَطَ مِنْكَ، وَإِنْ تَجَاوَزَ مِنِّي مَا أَرْضَاهُ لَكَ، لَمْ يَبْلُغْ مَا يُغْضِبُنِي عَلَيْكَ؛ وَحَيْثُ أَتَيْتَنِي مَا يَخَالِفُنِي مِنْ قَوْلِكَ وَفِعْلِكَ، فَإِنَّكَ وَرَاءَهُ تَقْنَعُ دُنَى لِمَسَامَحَتِكَ وَصَفْحًا عَنْ زَلَّتِكَ؛ فَإِنْ تَأَمَّنَّا لَا تَحْتَنُكَ، وَإِنْ يَسُوْ ظُلْمُكَ فَإِنَّمَا نَحْتَاجُ إِلَى إِصْلَاحِهِ مِنْكَ.

**أحمد بن يوسف** - إِلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُهْدِيِّ فِي هَدِيَّةٍ اسْتَغْلَاهَا :

بَلَّغْنِي اسْتِقْلَالُكَ لِيَا الطَّفُفَتِكَ، وَالَّذِي لَحْنٌ عَلَيْهِ مِنَ الْإِنْسِ سَهْلٌ عَلَيْنَا قَلْبَةَ الْحَشْدِ لَكَ فِي الْبَرِّ، فَاهْبِثْنَا هَدِيَّةً مَنْ لَا يَحْتَشِمُ إِلَى مَنْ لَا يَتَّقِمُ.

كتب عَقَّال بن شَبَّه - إلى خالد بن عبد الله في شفاعته :

إِنَّ الله اخْتَبَكَ من جوهرة كرم ومَنْبَت شرف، وقَسَمَ لَكَ خَطَرًا شَهْرَتَهُ العرب وتَحَدَّثَتْ به الحاضرةُ والباديةُ، وأعانَ خَطَرُكَ بِقُدْرَةِ مَبْسُوطَةٍ، وَمِثْلَةِ مَلْعُوطَةٍ؛ بِجَمِيعِ أَكْفَائِكَ من جماهير العرب، يَعْرِفُ فضلكَ، وَيَسْرَتُهُ ما خَارَ الله لَكَ، وليس كلُّهم أدالَه الزمان ولا ساعده الحظُّ؛ وَأَنْتَ أَحَقُّ من تَعَطَّفَ على أهل البيوتات، وعادَ لهم بما يَبْقَى له ذِكْرُهُ وَيُحْسِنُ به نَشْرَهُ، مثْلُكَ . وقد وَجَّهْتُ إِلَيْكَ فلانًا، وهو من دُنْيَةِ قُرَاجِي، وذوَى الهَيْفَةِ من أُسْرَى، وعَرَفَ معروفَكَ؛ وَأَحْبَبْتُ أَنْ تُكَلِّسَهُ نِعْمَتَكَ وتَصْرِفَهُ إلَيَّ وقد أودعني وإِيَّاهُ ما تَجِدُهُ باقيًا على النَّشْرِ، جَمِيلًا في الشَّبِّ .

### فصل في التسوديع

أَسْتَوْدِعُ اللهَ الأميرَ بِأَحْسَنِ وَدَائِعِهِ، وأسأله أَنْ يَجْعَلَ لي كَنْفَهُ وَحِرْزَهُ، فقد أكرمَ المَثْوَى، وَأَحْسَنَ الْإِتِّبَاعَ؛ فَأُطَالُ اللهَ له البقاءَ، وأُدامَ عليه النِّمَاءَ .

### في الصِّفْحِ

بلغني كتابُكَ، تَذَكَّرْتُكَ إِلَيْكَ بِوَضْعِي عِنْدَكَ مَوْجِدَتِي، وَرَدَّيْتُ لَكَ إلى أَحْسَنِ ما عَيْدَتْ من مَزَلَّتِكَ عِنْدِي؛ وقد حَلَّتْ مِنَّا المَحَلُّ الذي خَطَطَاكَ فِيهِ بَأَنْفُسِنَا، وَأَدْخَلَاكَ مِنهُ مَدْخَلَ أَهْلِ نِقَتِنَا؛ وَلَسْتُ نَوَدِّي من جَهَالَةٍ بما أَنْتَ فِيهِ، وَلِبَعْضِ ما أَنْتَ عَلَيْهِ من التَّجَارِبِ تُسْتَفَادُ بِمِثْلِهَا الْعِزُّ، وَيُتَنَفَّعُ بِهَا في عَطْفِ الْأُمُورِ .

### جواب في فتح

كتب سالم بن هشام إلى يوسف بن عمر حين قَتَلَ زَيْدَ بن عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللهُ عَلَيْهِ :  
قد بلغَ أميرَ الْمُؤْمِنِينَ كِتَابُكَ بما أَيْلَى اللهُ في مِندَرِهِ السَّوَاءَ، وَأَنَّهُ لَمَّا عَصَيْتَهُمُ الْحَرْبَ، وَأَلْهَمَهُمُ الْحَدِيدَ، عَادُوا بِالسَّجْدِ الْجَامِعِ، قد أَكْذَبَ اللهُ ظَنُونَهُمْ، وَخَدَّلَ مَخْرَجَهُمْ، وَقَتَلَ إِمَامَ ضِلَالَتِهِمْ؛ وَحَفِظَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ما ضَيَّعُوا من حَقِّهِ، وحَاطَ لَهُ ما أَبَاحُوا من الغَدْرِ فِيهِ؛ وقد رَأَى أميرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ يَجْعَلَ من شُكْرِ اللهِ عَلَى نِعْمِهِ، الصِّفْحَ عَنْهُمْ، وتَعَمَّدَ حَرَمَهُمُ

وأن يعمهم من عدله ، بما يردّ به الجاهل عن جهله ، والغوي عن غوايته ، ويهدون مكانه من الله ، واستجابته لعزّه ونصره ؛ وأنه الخليفة المتّقى ، والإمام المتألف ؛ وأنه يُقدّم الغفر في الطاعة ، على المجتة في العقوبة ، والحسبة في الاستصلاح ، على القوة في التأييد ؛ فامسك عنهم بيديك ؛ فإنّ أمير المؤمنين قد وهب ذلك كلّ الله ، ورجا به ما ليس ضالما عنده من ثوابه .

### في الصفح عن الخفاء

لو كان من نازع الى العذر ، قدّناه عنان الحجر ، لم يكن أقرب منا الى الذنب ، ونحن نردّ عليك من نفسك ، ونأخذ لنفسك منك ، حتى يكون تركا إياك ، وعذرا فيه وافرا .

### فصل — الحمد لله على البلية التي طال أمدها ، وبعد ما بين طرقيها .

آخر — أقفرت في التثبت أنّ ذوى الجحى ، وقدمت المقدم من الأناة على العجلة ، وأطعت في أسرك النظر ، واتبعت الى العُدرة والمعرفة ، فلكت ما ملكك ، وحكبت على الذي حكم عليك ، فأخذت مثل الذي أعطيت .

فصل — بدء أسباب الأمور دليل على عواقب الأمل فيها ، والخيرة بعبد الله عز وجل .

### فصل اعتذار

لو كان الناس يقضون الحقوق التي يجب عليهم ، ويحافظون على الأمور التي تليهم ، لقلت اللائمة ، وخلصت المؤدّة ، وارتفعت أسباب العتاب ؛ ولكنهم عجزه متقوصون ، يضحقون عن العلم ، بأكثر ما تدركه عقولهم ، وتعوقهم عن ذلك أشغال لا يجب بها العذر ، ولا تستحق الإيثار ؛ ولم أزل طائب على نفسي فيما ضيّعت من مكاتبتك ، مع معرقي بفضلك ، وموقع ذلك عندك ، وما اعتذاري إليك ، سوء ظنّ بك ، ولا تخافة للآئنتك ؛ ولئن فعلت ما ظلمت ؛ غير أنّي أحببت أن أكفيك المؤونة ، فيما عسيت أن تقبض عنه من مقايستي ومعاتنتي ؛ وأنا أحب أن تقبل العذر ، وتعيّن على مستقبل البر .

**فصل -** أنت في زمان إن لم تغالط أهله ، وتختلهم على ما في أيديهم ، وتصبر على مكاره الأمور بعد المطالبة ، لم تصل إلى شيء ، ولم تجد أحدا ما على فضل منك وإن عرفه فيك ، ولم يفتنه من محاسنك شيء ، إلا رأى في مساوئ غيرك عروضا منه ؛ فكان بذلك ألعج ، وإليه أسكن ؛ فملك بالصبر ، فإن غايته إلى خير ، وأقل ما فيه أنك صاحبه لا يلوم نفسه ، ولا يلومه أحد ، ولما يظفر أو يدلل .

### إلى المأمون من عامل

قل من يسارع إلى بذل الحق من نفسه ، إذا كان الحق مضرا به ، وقل من يدع الاستعانة بالباطل ، إذا كان فيه صلاح معاشه ، وسبب مكتسبه ؛ وإذا تفرق الحق في أيدي جماعة فطولبت به ، تشابهت في الكره لئذله ، وتعاونت على دفعه ومنعه ، بالحيل والتبجح قولاً وفعلًا ؛ واحتاج المبتلى باستخراج ذلك الحق من أيديها ، إلى استعمال مجاهدتها ومصابرتها على الحيلة في مدافعتها .

### ابن الكلبي

كان خبر ما أبلاك الله في فلان بعد أمانه ما عزمت عليه من الأمان ، خبراً عظيم مكانه من أمير المؤمنين ، وحسن موقعه من الدين ؛ ثم ردف خبرك بإذعانه عند ما عصبه من بأسك ، ومسه من مؤلم إيقاعك للاستسلام ، وطلب عقد الأمان ؛ وإنك بذلت له ما طلب لا لرهبة بقيت في ناحيتك ، إلا الاحتذاء على مثال أمير المؤمنين وأدبه ؛ فكان لإياؤه ما عرضت عليه في أول أمره ذخيرة حفظ فيما كشفت عنه البلوى من محمود أمرك ، واجتمع لك في ذلك حفظان : الظفر آخراً ، والدرك لما حاولته أولاً ، فلا زلت على نصيبك من الحظ ، مؤيداً بالنصر والمعونة ، والحمد لله على ما حقق من الظن ... من هذه النعمة على يديك ويسعيك .

(١) يخاض في الأصل . ولعل الكلمة المتركة «وأتى» .

## ابراهيم بن اسماعيل بن داود الى ذى الرياستين

وصل الى كتابك بخط يدك المباركة، فلم أرق ليلاً أجمع، ولا إجازاً أكفأ من إطناب، ولا اختصاراً أبلغ في معرفة وفهم منه؛ وما رأيت كتاباً على وجازته، أحاط بما أحاط، وضربت طق في فلان فمطم ذلك سرورى، وقد يستعطف الظالم، ويستعجب المتجنى؛ وفي رفقك وعلمك بالأمور ما يصلح الفاسد، ويذل الصعب، ويقل المدبر، ولا يمنحك جور من جار عليك، من الاعتقاد في الجبة عليه، والأخذ بالثقة في أمره، فإن الله عز وجل لم يجعل عليك في ذلك متقصة ولا غضاضة، بل فيه الإعذار والإنذار والاستبصار، وقضاء حاجة النفس، مع التأدية الى السلامة، والأمن من الندامة.

فصل — أنا في حال عافية، تعجاوز الى حال نعمة، والمحمد لله حتى يرضى، فقد أرضى؛ فأنما ما أشرت به، وخبرت من إضفاء رأيك فيه، والإمساك عنه، فثلك جعل لمن نصحه شركاء في كل أمره، ولم يجعل رأيه قرضاً لبعضه أن يتعدى،<sup>(١)</sup> وذكرت أدب فلانية، وعندنا لفلانة الطمع المستقبل مع الإغرام المتقدم، مع أنه لا شيء لها عندنا قل ولا جل، ولو كان ما استحلنا حبسه صفقة كف، ولا تميم طرف؛ وذكرته أنه لا يستغني مثلنا عن مثليها، وأبدال الله كثيرة عديدة، وما بأن علينا فقد أحد من كان قبلها في دارنا، فحال بيننا وبينه حائل، ولا اختلنا له مع نظر الله تبارك وتعالى وأخلافه؛ وبعد. هذا فأحسن الله جزاءك، وحاط لي فيك ما أحب منك، وكفالك المهم وكفانيه بك، فإني تقوم نفس لو كانت لي أخرى مقامك في نصيحتي وبري، والاهتمام لي، بما أنا عنه ساهية لاهية من أمرى، لا أعدمنيك الله ولا النصيحة منك.

فصل — قال أبو جعفر اليرماني للحسن بن سهل ووعده شيئاً فأبطل عليه: أنا أعيرف تكامل الثقة فيك، ورجاحة الفضل بك، وأعلم أن ملك ربى على قوك،<sup>(١)</sup> وأنت إجازك أكثر من وعدك؛ فقدم لي من كرمك، ما أثمره لى أنت بلحقه المتأخر

(١) باض في الأصل . وما وضما يناسب المقام .

عنه ، وإلا فأتاني على ما أقول اذا سألتني من بعثته على شركك ، عما بلغه من الحظ على نيتك .  
فقال الحسن : تقول ما ينبغي ، فقال : فاضل ما ينبغي أقوله .

### عمرو بن مسعدة

وصل الى كتابك ، على غلط مني اليه ، وتطلع شديد ، وبعد عهد بعيد ، ولوم مني على ما مستني به ، من جفائك ، على كثرة ما تابعت من الكتب ، وعدمت من الجواب ، فكان أول ما سبق الي من كتابك السرور بالنظر اليه أنسا بما تجتهد لي من رأيك ، في المواصلات المكتوبة ، ثم تضاعف المسرة ، بخبر السلامة ، وعلم الحال في الهيئة ، ورأيتك بما تظاهرت من الاحتجاج ، في ترك الكتاب ، سالكا سبيل التخلص مما أنا مُحْطَص منه ، بالإغضاء عن إلزامك الهجبة ، في ترك الابتداء والإجابة ، وذكرت شغلك بوجوه من الأشغال كثيرة متظاهرة ممكنة ، لأجشمك متابعة الكتب ، ولا أحمل عليك المشاكلة بالجواب ، ويقتضي منك في كل شهر كتاب ، ولن [تُزَم] من نفسك في البر قليلا ، إلا أزميت نفسي عنه كثيرا ، وإن كنت لا أستكثر شيئا منك ؛ أدام الله مودتك وثبت إيماءك ، واستحاج لي منك فرائدك في متابعة الكتب ومهادتي فيها بخبرك موقفا إن شاء الله .

### عيسى بن واضح الى الفضل بن الربيع

قد أكد الله من حرمتي بك ، ووصل من الشعب بيني وبينك ماجعله ذخيرة ليوم الحاجة ، وعدة عند الحاجة .

### جبل بن يزيد

أما بعد فإن من حبيب الدنيا لم يخل من تصرف أحوالها ، وكثرة معاريف لخاصتها ، في اختراق الأنفس في خواصها ، وواقع البلايا بين ذلك فيما يجدها ، ويفر من الأشياء عليها ؛ وكان ذلك لا سبيل الى دفعه ، ولا حيلة لتسنان بها عند نزوله ، إلا الرضا عن الله عز وجل فيما قضى ، والتسليم لأمره في كل ما آتى ، والسكون الى الأمسوة التي تخرج الله سبيلها ، وخفف

(١) السياق يقتضي وضع هذه الكلمة ، وهي متروكة في الاصل .

بها مواقع المصيبات على أهلها؛ ثم الرجاء بعد ذلك لحسن ثواب الله، [وقد] جعله الله لمن لزم أمره وأجشم نفسه مكروهها في موطن الصبر على المصيبة، والشكر في حال العافية .

### وله في المطر

قد كنتُ كُتبتُ الى أمير المؤمنين أعلمه المطرة التي أصابتنا، وما أنزل الله بها من رحمته ثم عادت لنا بعدها من الله عائدة رحمة، بوليّ مطر أنزله الله بأحسن ما رأينا من المطر وبإبلا جوداً، لا يفتر غزيره ولا يزعوى جوده، إلا الى ديمة عن ديمة، يتراخى إليها يسيراً ثم تعود، فأقامت علينا سماءه مُسَهِّلةً بذلك وكذلك الى غروب الشمس؛ ثم أقطع مطرها يسكون من الريح، وتُتَوَدُّ من القز، وفضل من الله عظيم، ينشره رحمته، ويسبط به رزقه، فأسيغ النعمة، وأوسع البركة، وأبقى بمجد الله معارف الخصب والحي. والله محمود على آلائه ومشكور على بلائه، وما أنزل الله من سُقْيَاهُ ورحمته، بعد الذي أقبلت به السنة البرية والقصط وهدم الإمطار، وشدة ما بلغ الناس من القنوط وسوء الظنون .

### وله الى بعض إخوانه

أما بعد، فإن أعظم الأمور فيا بين الناس حقاً أمران: منهما الإخاء في الدين، فهو سبب وصية الله بين عباده بالألفة والمحبة التي آتت قرائن القلوب من بعضهم الى بعض، فاتصلت بحبالهم صرائر حبلها، وتقطعت فيا بينهم عاطفات وصلها، ومنهما مجاملة جميل الأعداء، وحفظ ما يحق لأهل حسن البلاء؛ ثم الصانع بعد ذلك في مواقفه فضائل بقدر ما جرت به أسبابها ولطفت مداخلها .

فصل — الصناعة ليست يزيدنا الأخلاق الجسيمة، ويزيد في أسبابها أو أضرار المودة؛ وقد جعلك الله في صناعتك مُقَدِّماً، وفي مودتك مُتَفَضِّلاً؛ فلا زالت عنك نعم الله، ولا برحت سكا لإخوانك، وأنسا وموضعا لما تستميتون من معروفك، وتستمتعون من يدبرك .

فصل - انت لك من قلبي لموضعا معمورا بالمودة والثقة ، والاسترسال  
والألفة ، فلا تُخرج فلانا من سعة جميل برك ، الى عتبي استحقاقه .

### آخر

قد طالبت الصباية اليك ، وللدهر عقيب عائدة بالنفع والصنع ، ولا سبيل لمن كان على  
مثل شاكلتك في أدبك وفضلك وإنصافك لإخوانك وبرك بهم ، وما توجه به على نفسك  
لهم مما يقصرون عن شأوك فيه .

### الكلبي

كان أسلافنا تفارضوا ديونا من الصفاء يستأديها كل عقيب من صاحبه ؛ وقد أوزنونا  
مودة لا تميز عن اكتساب مثلها .

### ابن أعين كاتب الخيزران

ليس يكون منك شيء وإن حسن ، إلا وحسن ظني بك بيلغه ، فاستم أحسن ما كان  
منك ، يتم لك أحسن ما يُحب مني . ولا يمتنعك الاكتفاء بحالك اليوم من طلب الزيادة  
في غد ؛ فإنه لقل شيء لا يزيد إلا نقص ، والزمان يحق الكثير ، كما يريو على الزيادة القليل .

### ابن الكلبي

أنت من أطول بمكانه وأثني بجميل رأيه ، وأعتمد على رفته ، وأرجو ذرك كل فضيلة  
به ؛ ومما أحب علمه مقترنم الله عز وجل لديك .

### علي بن عبيدة الى ابن الكلبي

وصل الله أيام عمرى باتباع موافقتك ؛ ولولا موعده أخذ علي ، لأطعنك فيما أمرت به ،  
متبعا مع إجابتك سرور نفسي برويتك في السلامة .

أما بعد ، فإني أصبحت وقد استفرغ الأمير مني كل مودة ونصيحة ، ومبلغ جهد  
وطاقة فيما عرفت له فيه موافقة .



**فصل -** فَاثَ الَّذِي شَعَبَ اللهُ بَيْنَنَا مِنَ التَّوَابِلِ وَالتَّكَابِ، يَدْعُونِي إِلَى مُتَابَعَةِ الْكَتَبِ الْبَيْسِ فِي تَهْدِ حَقِّكَ ، وَإِنْ كَانَ الْخَبْرُ عَنْ ظَاهِرِ الْحَالِ قَلْبًا يَفْنَى ، فَاثَ لَهُ مِنْ الْأَنْسِ وَالْمَوْقِعِ فِي الْكَتَبِ مَا لَيْسَ لِمُسْتَعْرِضَاتِ الْأَخْيَارِ .

**فصل -** قَدْ كُنْتُ أَعْلَمْتُ الْأَمِيرَ انْقِطَاعَ بَنِي فَلَانٍ إِلَى فَلَانٍ ، بِأَهْوَاهِهِمْ وَبِصَبْرِهِمْ وَشِرَاءِ مَا قَبِلَهُ بِغَيْرِهِ ، وَمَا كَانَ وَصَلَ إِلَيْنَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي جَهِلُوا إِصْرَهَا ، وَبَقِيَ لَنَا أَجْرُهَا وَذِكْرُهَا وَنَاقِلَتُهَا وَسَابِقَتُهَا ، فَتَحْنُ عِدَّةَ الْأَمِيرِ وَخَبَايَاهُ وَذَخَائِرُهَا ، وَمَنْ يَأْمَلُ يَوْمَهُ وَفَدَهُ ، وَلَا مُتَخَفِّي لَهُ عَنْهُ وَلَا مُقْتَصِرٌ دُونَهُ .

### عُمَارَةُ

بَلْغَنِي كِتَابُكَ بِصِفِّ كَذَا . فَإِنْ رَأَيْتُ أَلَّا تَعْتَمِدَ عَلَيَّ مَا لَصِقْتُ [بِهِ] مِنْ حُزْرِكَ ، وَأَعْلَمْتُ فِيهِ الْهَوَى مِنْ قَبُولِ حُزْرِكَ ، وَتَجَمُّعِي أَحَدًا مَنِ يُسَرُّ بِسُرُورِكَ ، وَيُسْرَكَ فِي مَهْمَاتِ أُمُورِكَ ، فَإِنِّي أَحْدُهُمْ وَأَوْسَطُهُمْ عِنَايَةً بِمَا عَنَّاكَ وَتَوَسَّطًا لِمَا عَمَّاكَ ، فَعَلْتُ .

**فصل -** وَالذَّنْبُ مِنْ دَارِكَ إِذِ الدَّارُ جَامِعَةٌ وَالْحَبْلُ مُتَّصِلٌ ، إِذْ نَحْنُ فِي الْإِسْتِيفَاءِ بِالْخَبْرِ وَالْعِلْمِ بِدُخْلَةِ الْحَالِ ، بِتَزَلُّةٍ مِنْ كُنْهِهِ يُعَانِي مَنْ يُشْتَاقُ إِلَيْهِ وَيَصْبِرُ بِهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، حَتَّى نَأْتِيَ النَّوَى ، وَأَنْتَ فِي اللَّقَاءِ وَالْإِنْفَارِ فِي كُلِّ أَمْرٍ وَعَلَى كُلِّ حَالٍ مَنْ لَا يُبْسِكُ فِي صِفَاءِ غَيْبِهِ ، وَصَدَقَ إِخْلَافُهُ .

**فصل -** مُشَارَكَتُنَا لِمَا يَكُ فِي مَحَبُوبِ الْأُمُورِ وَمَكْرُوهِهَا يَحْتَلِنَا مَحَلَّكَ فِي الْمُرُورِ بِالنِّعْمَةِ يَحْدِثُهَا اللهُ لَكَ ، وَيُوجِبُ مِنَ الشُّكْرِ عَلَيْنَا مِثْلَ الَّذِي يُوجِبُ عَلَيْكَ . فَوَصَّلَ اللهُ كُلَّ نِعْمَةٍ يَهْبِئُهَا لَكَ مِنَ الشُّكْرِ بِمَا يَكُونُ لِحَقِّهَا قَاضِيًا ، وَلِزَيْدٍ فِيهَا مُوجِبًا .

### سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ

كَتَبْتُ عَلَى شُغْلٍ فِي قِطْعٍ مِنَ الْقِرْطَاسِ ، وَلَمْ يَقْطَعْ بِي حَسَنُ الظَّنِّ بِكَ فِي قَبُولِكَ الْعِذْرِ ، وَتَحْسِينِكَ مَا أُنْتُ أَهْلٌ لِتَحْسِينِهِ ، فَإِنَّكَ تَقْبِلُ دُونَ حَقِّكَ ، وَتَهَبُ الذَّنْبَ فِيهِ ، فَيَكُونُ شُكْرُكَ (١) فِي الْأَصْلِ : « ... وَرَأَاهُ مَا قَبِلَهُ ... » : (٢) فِي الْأَصْلِ « طَلِبَا ... » وَهُوَ لَا يُؤَدِّي الْفَرَضَ الْمُرَادَ .

جاريا على سبيلين، كلاهما يُبين لك عن فضلك، ويوجب لك مالا يُقهر معه إلا مغبوت  
الحظ خسيس النصيب .

**فصل -** وقد ظهر من أمير المؤمنين في فلان بعد وفاته، ما هو أعدل شاهد على  
حسن مُنْقَلَبِهِ ، ورَدَّ اليك من رأيه وتفقدته ما أرجو أن يكون فيه أعظم العوض . والله  
أسأل أن يتوفى لك أمورك في السراء والضراء، والشدة والرخاء، والشكر وحسن المعزاء .

### جبل بن يزيد إلى بعض إخوانه

بسم الله علينا وعليك النعم ، وأجرل لنا ولك عاسن صالح القسَم . إن الله تبارك وتعالى  
أجرى بيننا وبينك لطيف مودة ، وخاص أخوة ، غير أن المعرفة قد مُجِدِّد بعد الخبرة ،  
والفقه إنما تعرف بعد التجربة ، وقد أحببت أن يعلم من قبلك الذي أحدث الله لك من  
حال دولتك ، وأن يعلم هل أبقيت لنا منك النعمة سعة ، أم تركت لنا منك صفة نعريف  
بها عهدك ونأمل بها واصلك ؟ فإن أصحاب السلطان ، بحال يُلَوِّى في التغير والانتقال ،  
إلا من نالته من الله تبارك وتعالى عصمة . فإن كنت على ما رجونا من الوفاء ، وحسن  
الحفظ للمودة والإخاء ، فنلتك لم يرض لنفسه إلا بأجل الأخلاق وأوقفها للسداد . وإن  
حجزك عن ذلك ما تاتي به الأقدار في متصرف الليل والنهار ، نَعذرُك بما نَعذرُ به أهل  
السلطان ، إذا غيبتهم الحال ، وتكرت شوائبهم بين الإخوان .

### وله إلى بعض إخوانه أيضا :

إعلم أني اليك مشوق ، وأنت صِلَة الإخوان كرم ، وخير الصلابة ما لم يكن لها وجه  
إلا الرجاء والحفظ وتجديد المودة وتصحيح الإخاء ؛ فإن الذي يكتب إخوانه على حال  
الرغبة يكتفي القائل كتابه حيث شاء ، إن أحب مال به إلى الصحة ، وإن شاء وضعه  
للرغبة ، والرغبة أملكهما به . والذي يكتب إخوانه على حال الضرورة ، فقد يستقطع الصلة<sup>(١)</sup>

(١) في الأصل : وأجزلنا ... . (٢) في الأصل : « ما قلبك » .

(٣) في الأصل : « راكمها ... » .

عند الحَدَثِ غُفَاةٌ المَلَمَةُ من الناس على القطيعة الشعاء المشهورة لإخوانه ؛ فإت الذى لا مَوَدَّةَ له قد يصل ذلك فى تلك القطيعة بأهل البلاء .

والكِتاب على مثل حالنا وحالك اليوم شاهدٌ على أن ذلك ليس إِلَّا مَحَنَةً الإِخاء والشُّوقِ الى المحادَّةِ بالكِتاب ، حين لا يلومك اللائمون لمتزلة البلاء تلك اللأئمة على التَّقصير ، ولا يُوضع منك الرغبة فى الإِطاع . إِيَّاكَ أَنْ تَمُتَ بِالأشغال أن كنت فى خاصة نفسك ، فإن أداء الحق وِصْلَةَ الإِخوان أعظمُ لخاصة بك خاصة . وأما أمرنا فى كل هذا كَأَمْرِكَ فى الذى يَسْتَفنى من خاصتك تلك التى لنا ، فإن لنا ما لك ، وهذه التى لنا لك ، أليس مَسْرَتَا مَسْرَكِ وما سلبنا . حفظا لك ، فهذه كذلك وذلك كهذى . والله يوفِّقنا وإِيَّاكَ . وأنت أبا يوسف . هكنا حال ما بيننا وبينك ما وصفت لأبى سعيد ، غير أنه سألنا أمرنا لم يسألناه قط ، فله فضل السبق علينا فى المسألة ، ولنا فضل المتزلة عليك فى اللأئمة . ولن أَدَعَكَ والفضل ، دون أن تَشْفَعَهُ بالعمل الذى هو صلة القول . وسلام عليك ورحمة الله ، وقضى الله عز وجل بالحسنى لنا ولك .

فصل — إتانى كتابك ، فأنعمت أن يَسْرَى بِسلامتك ، وما حاق فيه كرمُ برك ، ولطيف عنايةك ، ما لم أفقد فى حالة من حالاتك ، فكان الكِتاب مُصَدِّقا لما سلف ، مُبَشِّرا بما يستأنف ، مُدَكِّرا منك عهدا موصو<sup>(١)</sup> . مثاله طرفى وقلبي ، مُلَصِّقا ذِكْرَهُ بِلسانى وقلبي . فلا عِدَّتُكَ ، بل أمتنى الله بك فأطال ، وكثرتى بيقالك .

فصل — إتانى كتابك فطمان قلبي وطرفى ، بعد ما كان شاخصا اليه ، مُنْشَوِّقا الى رؤيته ، ثم ملائى سرورا ما رأيتُ فيه من آثار برك وكرم تفقدك . وأفضل ما عندى منك قبلة ، بما إن ذِكْرَهُ ، فلا سراحة الى الذِّكر ، وإن أمسكت ، فلامحز عن الشكر . فأما الضمير فبني على الإقرار بفضلك ، والنية خالصة بشرك . وقليل ذلك لك ، فأعطاك الله فأطاب ، ووهب فأجرل .

(١) فى الاصل : « حفاة السلامة من الناس... » . (٢) فى الاصل ياض . (٣) فى الأصل : « فالاستراحة » . ...

**فصل -** وصل الى كتابك نُقِيلُ لي حين نظرت الى أريدك تجزى قلبك في بطن صيحتك، أنك ماثل بين عيني: أنظر الى شخصك وأسمع من لفظك، فابتعث ذلك منى طربا شائقا، وصبا به هيجت الأحران وذكرت الإخوان. وكنت من إخواني الذين أنخر بسلامتهم للود الذي أجرى الله بيننا وبينك، فتواصلنا بحرمته، وتماطلنا بوصله.

**فصل -** إنا الله جعل عاقبة كل نعمة وإن عظمت، تبعا لأولها، وجعل الشكر عليها مباديا لتمامها وموجبا لأحسن الزيادة منها.

**فصل في شكر** - فإنا الله جعلك للخير ممدنا، وللفضل موصعا، فبما حملته نفسك من ثقل أعباء المروءة، وحملتها عليه من عظام المكارم، حتى صرت بما أنعم الله به عليك، ممتنى كل أمل وظاية كل رغبة. ثم ألبست النعمة لباس التواضع، وناسبت في الأخلاق من سبقته به عليك الأمور، حتى كأنهم في النعمة لك شركاء. وتحننت على الأقرين والتفتقرين من الإخوان والأقفاء، حتى كأنهم لك ولد، وأجبرت نفسك حين ساعدك الدهر، على طبيعة التقرب الى العامة، فكأنهم يبتلي اليك بدأو رغبته، ويمتاحت منك متاحة فضل، فلا عذمت ألا تزال تعيش سقطة، وتُجِيلُ عثرة، وتُسَدُّ خللا، وتُجِيلُ أملا، ولا عديم من شهد ذلك منك، أن يَسْتَمِ هذه النعمة عليك وصل نفسه به، فإنا من سعادة العامة أن يجعل سائرنا عند خيارها. ومن البلاء العظيم عليها الموجه لها، أن يخص شرارها بموضع رغباتها.

فالسلم كلاك الله بهذه النعمة، غير متفصص بها، ولا مكدر عليك صفوها، حتى تُسَامِكَ النعمة العاجلة الى النعمة الباقية، فإنا وإن علينا أن مر شأن الدهر القدران في العواقب فقد علينا أنك فيما أهدى الله اليك من النعمة، قد أدت حق الله عز وجل ثم حق إخوانك فيها، فكنت أحر من نال فضلك، كرما في السناء، ورضا في الأثرة، غير مُتَطَوِّلٍ لِمَا نأمل، ولا مُتَضَمِّعٍ لِمَا تحذر، فإنا تجزى شكر الماضي منك، ورجاء الباقي،

(١) في الأصل: "ولا مكدر عليها صفوها..."

فمرى تضييما منا في عقد الرأى ، وإزراء بنا في وثائق الأمور ، ألا تمتحك من أنفسنا مودة الولد ورقة الوالد . وإذا أعطاك أمرؤ ثمرة فواده ، فقد فرغ اليك من جميع حَقِّك ، لأن ذات يد امرئ في البذل أهون عليه من ذات نفسه في الشكر . وكفى لامرئ من أمرئ أن يستولى عليه حتى لا يدع لغيره فيه فضلا . وكفى بك لنا من غيرك . وكثير منا أن تقوى على أداء أدنى صنوف حَقِّك ، غير أن أوثق أمورنا فيك عند أنفسنا ألا نسأم النظر إلى فتاتك بهجين بك إن برزت ، وماذرين لك إن شُغِلت .

**فصل —** إن الهدى والضلالة يقتسمان دول الأزمنة ، لغير كرامة للباطل ، ولا هوان للحق . وأهل الحق كيف تصرفت أحوالهم في كرامة من الله عز وجل ، ونعمة بين دولة تكون لهم ، يقومون لله فيها بحقه ويظهرون هداه ودينه ، ودولة تكون للباطل ، يكونون فيها كهولا للغيبرات ، ومعدنا للحسنات ، يستكن الحق في صدورهم ، ويأوى البر والصدق إليهم ، فهم بين يوتي صبر وشكر ، ليس أحدهما دون صاحبه في الفضل .

وأهل الباطل كيف تصرفت أمورهم بين مخطط الله وصقوبته ، لأن الله تعالى لم يجعل في الباطل فرجا لأهله ، وإن كانت لهم دولة كانت إملاء واستدراجا ، وكانوا فيها على مدرجة هلكت وسبيل هيمة ، وإن كانت الدولة لأهل الحق ، كانوا فيها بين ذل وضم ، وخوف وجزع ، وقد سدت عليهم المطالع ، وضائق عليهم الأرض بما رحبت . ففى أى يومئتهم مستراحهم : أيوم دولتهم ، وهم لا يشكرون النعمة ولا يقطعون أسباب النعمة ؟ أم يوم علو الحق عليهم ، وهم لا يصبرون على الهينة ولا يتصبرون من العمى ؟ وأهل الحق بين حالى غيطة وحسبة ، وأهل الباطل بين حالى إملاء وهيمة .

**فصل فى صفة الجند —** إن الغالب على أهواء جماعة من نظام أولياء الأمير وجنوده إعظام الأمير ومعرفة فضله ، والتقرب الى الله بحبته ومناصحته وطاعته ، ومعاذة عدوه ، وتلك نعمة يمتدونها ويتقربون الى الله بها ، ويتوسلون الى الأمير يخرى قوم خالفوا .

**فصل - حل بين فلان وبين التمريد بهم والاجتياح لهم ، فات ذلك أرضى لربك ، وأجمع للألفة ، وأقوم لممود الخلافة الذى سدد الله دعائم الإسلام وأسس الدين به .**  
 وأعلم أن من حاط الله دينه ، ورمى عن قوفه الجماعة ، وعادى أهل النقص لها ، ابتغته الله آمنا من هول الحساب وضيق المحشر ، والله بنصره أحق وأولى . وكان الله بحيث افترض عليك ، فإنه قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ ﴾ .

**كتب جعفر بن محمد بن الأشعث الى رجل لم يكتبه**  
 لست بما صرفت الى من معروفك بأسرمنى ، بما أهديت الى من قضاء الحق عنك ،  
 وقلة ذوى الحرمة بك ، لأنك قد تصل من لا يثق ولا يانس إلا بن يتيمد عليه .

**كتب الفضل بن يحيى الى رجل يشاوره فى أمر حدث**  
 ليس كل امرئ وإن كان ذا عزيمة فى رأيه ، وأصالة فى عقله ، يستغنى عن مُكاشفة  
 أهل الراى ؛ لتوزيع الله عز وجل ، أقسام الفضل فى خلقه ، وإشراكه إياهم ، فى عطاياءه ؛  
 فرأيتك فى كذا .

**ركب ابراهيم بن المهدي الى أحمد بن يوسف ، فكتب أحمد**  
 الى إصحاق بن ابراهيم الموصلى  
 عندي من أنا عبده ، ومجتنا عليك ، إعلنا إياك .

### توسل

توسل رجل الى رجل بمحمد بن عبد الملك وادعى قرابته منه ، وبلغ ذلك محمدا فكتب  
 الى المتوسل اليه :

بلغنى أنك رجلا ادعى قرابتي ، وأورد عليك كتابا ذكر أنه مني ، وما أنكر أن يتخضع بي  
 من توسل بنسي ، إلا أنه من ادعى قرابة ، ولا قرابة له ، كان استعمال الشفاعة فى أمره أولى .

كتب طاهر بن الحسين الى الفضل بن سهل

أسمعك الله بخاربتك، التي بذلت فيها مجهجتك، ومهيج من هو موصول بك منا .

محمد بن الجهم

وليس في جميع الناس أعدل لك : من صديق مؤمل ، أو حميم راجح ، إن منتهما شتاك  
وبهتاك ، وإن أعتبهما بالهه اختالاك .<sup>(١)</sup>

محمد بن مسعر

قال : كنت أنا ويحي بن أكرم عند سُفيان ، فبكي سُفيان ، فقال له يحيى : ما يبكيك  
يا أبا محمد ؟ قال :

بعدُ جُالستُ من جالس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبليتُ بجالستكم ؟  
فقال له يحيى : مُصيبةٌ من جالست منهم يجالستهم لِمَاك بعدُ أصحاب رسول الله صلى الله  
عليه وسلم أعظمُ من مُصبتك بنا ؟ فقال : يا غلامُ ، أظنَّ السلطانَ سيحتاج اليك .

دخل ميمون بن مهران على بعض خلفاء بني أمية - وأحسبه عمر بن عبد العزيز - فقال  
له وقد قعد في أنريات مجلسه : عظمي ، فقال له : إنك لمن خير أهلِكَ إنَّ وقيتَ ثلاثاً ، قال :  
ماهن ؟ قال : السلطانُ وقدرته ، والشبابُ وغزوه ، والمسالُ وفنته ، فقال : أنت أولى بمكافئ  
مَنى فارتفع إلى ؟ فأجلسه معه على سريره .

ابن وهب في الاعتذار

لو لم نعتذرك لم نعتذر أنفسنا بقطيعتك ، فكُن لنا في لائمة نفسك ، كما كُنَّا لك في حذرك .

وفي مثله

ليس في الإساءة فضلٌ عن الاعتذار ، وفي طائدتك فضلٌ عن إساءتنا ، فن أبن يسقط  
بين فضلك والاعتذار !

(١) مكثا وردت في الأصل .

## آخر

فلان من حملة المعروف، يكثر عندهم قلبه في شكرهم، ويقل لهم كثيره في عظيم حقوقهم .

فصل - لمن عميت عن الرأي فيك، لقد أبصرته بك .

فصل - تنيب فأشتاق، وثق فلا أشقى .

## ٢ - فصول من رسائل مختارة في كل فن

وهي مثل مما كتب به الكاتب في أبواب لا نظير لها

فمن ذلك ما كتبت به في التحميد لله عز وجل في أوائل الفسوح وأواخرها وأوائل الكتب التي فيها تمجيد الله عز وجل .

## التحميد الأول

الحمد لله القادر القاهر، المتوحد بالسلطان والرياسة، والمتفرد بالبقاء والقدرة، والمتجبر بالكبرياء والعظمة، ذي الجلال والإكرام، والإفضال والإينام، والعز والبرهان، والأسماء الحسنى، والآل والأهل، الأول بلا غاية، والآخر بلا نهاية، الذي لا يبيط به وصف الواصفين، ولا تبلغ مدى عظمته أوهام المتوهمين، ولا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير؛ لا يؤدّه حفظ كبير، ولا يعزّب عنه علم صغير، يعلم حاشية الأعين وما تخفى الصدور، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حية في ظلمات الأرض ولا رطيب ولا يابس إلا في كتاب مبين .

## التحميد الثاني

الحمد لله الذي خلق الأشياء على غير مثال ولا رسوم، وأنشأها على غير حدود، ودبر الأمور بلامشیر، وقضى في الدهور بلا ظهير، وسبك السماء بقدرته، وبنها على إرادته، وأسكنها ملائكته الذين أصطفاهم لجوارته، وجعلهم على طاعته، وترفعهم عن معصيته،



وجعلهم حملة عرشه ، وسكان سماواته ، ورسله الى أنبيائه ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، ودحا الأرض وبسطها لكافة خلقه ، وقسم بينهم الأرزاق ، وقدر لهم الأقوات ، فهم في قبضته يتقلبون وعلى أفضيته يجرون ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

وصدر تمجيد مفرد

الحمد لله العلى مكانه ، المير برهانه ، التامة كلماته ، الشافية آياته ، والحمد لله ولى أوليائه  
وصدوا أعدائه .

وصدر تمجيد

الحمد لله الغالب الذى لا يُقَب ، والمُقَدِّر الذى لا يُعَان ، والمُنَجِّز وعده ، والمؤَيِّد أوليائه ، وانخاتم بالفتح والظهور لهم ، والمُدِيل من أعدائه ، ومحيط دائرة السوء بهم .

ولكتاب خزيمة بن خازم فى فتح الصنارية تمجيد مختار

أما بعد ، فالحمد لله ذى الملكوت والقُدرة ، والجبروت والعِزة ، والسلطان والقوة ؛ أهل المحامد كلها ، ومدبر الأمور ووليها ، وخالق الخلق وبارئها ، ومبتها ومحييها ، وباعثها ووارثها ؛ الذى أوجب على نفسه بما نفذ من مشيئته ، وسبق من علمه ، وثبت فى اللوح المحفوظ عنده إعزاز دينه ، وإظهار حقه ، وإعلاء كلمته ، وإبلاج حجته ، وإزهاق باطل أعدائه ؛ الصابرين عن طاعته ، والجاحدين لربوبية ، المكذِّبين بكتبه ورُسُله ؛ بلغ بذلك أمره ، ونطق به كتابه ؛ فإنه يقول تبارك اسمه فى المثل من فوقانه : ﴿ بَلْ تَقْدِفْ عَلَى الْبَاطِلِ قَيْدَمُهُ قَدْ آتَى هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ .

وتمجيد لأحمد بن يوسف الى الولاية عن الخليفة

أما بعد ، فالحمد لله ذى المِنَّة الظاهرة ، والنجح القاهرة ؛ الذى قطع بينه وبين عباده المَعْدرة ، ورادف عليهم البينة ، ومُهَلَّة النظرة ؛ وجعل ما أتاهم من حظوظ الدنيا بالقسم

(١) الفلج : السلب والنفير ، يقال فلج فلان على خصمه ، أى غلب ونفّر .

المكتوب، وما دَّعَر لهم من ثواب الآخرة بالنَّجَح المطلوب، فهم في العاجلة شركاء في النعمة، وفي الآجلة شقَّى في الرحمة؛ يُخصَّص بها أهلها المستفيعين بما ضرب لهم من الأمثال، وتصريف الحلال بسدِّ الحلال، المبادرين بأعمالهم إلى انقضاء مددِ آجالهم، قبل حلول ما يُتَوَقَّع، وفوت ما لا يُرْتَجِع.

### ومحمَّد لا إبراهيم بن العباس في فتح اسماعيل

الحمد لله مُعزِّ الحقِّ ومُبدِله، وقامِصِ الباطل ومُزِيلِه، الطالبِ فلا يفوته مَنْ طلب، والغالب فلا يُعْجزُه مَنْ غلب؛ مُؤَيِّدِ خليفته وعبدِه، وناصِرِ أوليائه وحزبه؛ الذين أقام بهم دعوتَه، وأهل بهم كلمته، وأظهر بهم دينه، وأدال بهم حقَّه، وجاهد بهم أعداءه، وأثار بهم سبيله؛ حمداً يَتَقَبَلُه ويرضاه، ويوجب أفضل عواقب نصره، وسواغ نجاته.

### التحميد الثاني

الحمد لله الغالب ذي القُدرة، والقاهر ذي العِزة، الذي لم يُقَالِ بالحقِّ باطلا في موطن من مواطن التَّحَاكُم بين عباده، إلَّا جعل أولياء الحق منهم حُزْبَه وجُنْدَه، وجعل الباطل بهم فلا منكروا، ودَحِيضاً زُهوفاً؛ إنْ نهَضَ به أوليائُه كانت مراصدُ عواقبه مُفَرَّقة ما جُمِعَ، ومُتَبَرِّكة ما أُعِدَّ، وفائدةً بأشباعه إلى مُصرِعِ الظالمين، حتى يكون الحقُّ الطالبِ الأعزَّ، والباطلُ المطلوبِ الأدلَّ؛ وأولياءُ الحقِّ الأتقيين يداً وأيداً، وأشياعُ الضلالِ الأخسرين أعمالاً وكيداً؛ قضاءُ الله وسُنَّتُه، وعادةُ الله وإرادَتُه، في الفِئَةِ المنصورة أن تَمُزَّ فلا تُرام، وأن يُمْكِنَ لها في الأرض كما يُمْكِنُ للذين من قبلها؛ وفي الفِئَةِ التاكِمين عنه، أن تَرَلَّ فتكون كَلْبَةً السُّفلى، وكلمةُ الله هي العليا، والله عزيز حكيم.

### ومحمَّد له مبتدأ مقام بين يدي خليفة

أما بعد، فالحمد لله الأول بلا أَيْدٍ يُحْصَى، والآخر بلا أَيْدٍ يَفْتَنَى؛ الظاهر خَلْقُهُ بعِزَّتِه، العزيز في سُلْطَانِهِ بِعَظَمَتِهِ، القَرْدُ في وحدانيَّتِه بِقُدْرَتِه، المدبِّرُ في ملكه بِجَبَّارَتِه، الذي نَأَى عن الأشياء أن يكون فيها تحويلاً، واتصل بها فلم يَكُ من عالمها خلياً، وهو فيها غير مُسْتَكِنٍ،

ومعها غيرُ مئاسٍ في بلج البحار، ومفاوز القفار، وسواخ الجبال، وكُتبان الزوال، مع كلِّ خَلْق، وفي كلِّ أَقْصَى، وعلى كلِّ شَرَفٍ ومكان، وفي كلِّ وقت وأوانٍ؛ موجود إنا طَلِبُ، وقريبٌ حيثُ نَدِبُ؛ عالمٌ خَفَيَاتِ الغيوب، وَخَطَرَاتِ القلوب، وما في السموات وما في الأرض، ما يكون من تَجَوُّي ثلاثةِ الأَهِو رابُعهم، ولا خَمْسَةِ الأَهِو سادُسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أَكْثَرَ إلَّا هو معهم؛ وما تسقط من ورقة إلَّا يعلمها ولا حَبَّةٌ في ظُلمَاتِ الأرض ولا رَطْبٌ ولا يابس إلَّا في كِتَابٍ مبين .

### وبحمد ثلاث ينلو الأول

الحمد لله اَلْمُتَعَالَى عن تشبيه الجاهلين، وتحديد الواصفين، وتكليف الناهيين؛ يُوصَفُ لا بِالرَّضِ وَالطُّولِ، وَيُنْتَعَى بِغَيْرِ الشَّيْءِ الْمَثُولِ، وَيُحَدُّ لَا بِالْمُلَاقِ الْمَعْدُودِ، وَالْجِسْمِ الْمَوْجُودِ؛ بَلْ يَنْتَاقِي مِنْ وَصْفِهِ، إِلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ مِنْ صُنْعِهِ، وَيُوقَفُ عَلَيْهِ مِنْ نَعْتِهِ، عَلَى مَا أَتَّخَذَهُ عَنْ نَفْسِهِ؛ وَكَيْفَ يُوصَفُ مَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ، وَيُحَدُّ مَنْ لَمْ يُحَدِّدْهُ بَلَدٌ؛ أَوْ يُشَبَّهَ غَيْرُ ذِي أَعْضَاءٍ، أَوْ يُكَيَّفَ غَيْرُ ذِي أَجْزَاءٍ؛ أَوْ رُقِيَ لَوْصِفٍ، وَلَوْ وَصِفَ لِمَثَلٍ، وَلَوْ مَثَّلَ لِكُلِّ لَهْ نَظِيرٍ؛ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ أَكْبَرًا، لَا تُحِيطُهُ الْأَفْطَارُ، وَلَا يَحْوِيهِ قَرَارٌ؛ وَلَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يَدْرِكُ الْأَبْصَارَ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ؛ لَا يَوْصَفُ أَوْلَاهُ، وَلَا يُدْرِكُ أَثَرَاهُ، وَلَا يَعْرِفُ مُنْتَاهَاهُ؛ عَظِيمٌ أَنْ يَحْصِرَهُ وَهْمٌ، وَجَلُّ أَنْ يُدْرِكَهُ فَهْمٌ، وَامْتَنَعَ أَنْ يَخَالَهُ حِلْمٌ، وَلَا يَغْيِرُهُ لَيْلٌ وَلَا يَوْمٌ؛ وَلَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ، وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ .

### وبحمد ثلاث

الحمد لله الَّذِي أَلْهَمَنَا مِنَ الْإِقْرَارِ بَرْبِيَّةً، وَالْإِيمَانِ بَوْحْدَانِيَّةً، وَأَنَّهُ غَيْرُ ذِي صَاحِبَةٍ يَسْكُنُ إِلَيْهَا مِنْ وَخْشَةٍ، وَلَا وَلَدٍ يَتَكَبَّرُ بِهِ مِنْ ضَعْفِ قِلَّةٍ، وَلَا شَرِيكَ يَسَاوَنُهُ مِنْ عِجْزِ قُدْرَةٍ، وَلَا ظَهِيرٍ يَكْفَاهُ لَمَلَلِ قُدْرَةٍ؛ مَا جَعَلَ لَنَا بِهِ أَوْثِقَ الْأَسْبَابِ لَدَيْهِ، وَأَرْجَى الْوَسَائِلِ

إليه ؛ إذ كان من أنكر ما دللنا الإقرار به يصير يَحْد ما أخفنا الاعتراف فيه ، إلى أليم عقوبته بالمعصية التي استحكت السُّخْطَة على أهلها ، وَحَلَّت النِّقْمَة بِمَنْ فارقها ؛ ثُمَّ جعلنا تَبِعَ إشراف كثير على أنفسنا في مشيئة منه ، بَسَطَ إليها آمالنا وأحسن عليها أطلعنا بكرم غضوه ، وعظيم حلمه ، وسعة رحمته ، التي وعد أهل الإيمان بها ؛ إذ صار من فارقهم في ذلك بما استهوت طبعهم ، بترينه لهم شياطينهم ، ورائت على أفئدتهم ... وما ظَلَمْتَهُ قُرْبَاهُمْ إلى الناس من كل طمع يُجْدَى وخير يُجْبَى ؛ جَزَاءَ بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، إِنْ الله لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بالله فَقَدْ حَرَّمَ عَمَلُهُ ، وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

### ومحمد يتلو الثالث في هذا المقام

الحمد لله الذي ابتدع لا من شيء ما أنشأ ، وابتدأ على غير مثال ما ابتدأ ؛ فجعل كثيرا من لطائف تديره ، وصنوف تديره ، وتصاريف أموره ؛ مُجِيبَا وَاضِحَةٍ ، وآياتٍ بَيِّنَةٍ ، وَصِرًا شَافِيَةً ؛ تَشْهَدُ لَهُ بِعِزَّةِ الْقُدْرَةِ ، وَفَاقَةِ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ ؛ تَخْلُقُ مَدَبَرًا بِلا مُشَوِّرَةٍ أَحَدٍ ، سَجًّا دَحَاقًا عَلَى الْمَاءِ عَلَى غَيْرِ سَنْدٍ ؛ مَبْسُوطَاتٍ فِي تَكَائِفِ أَجْزَائِهِنَّ ، عَلَى مَعِينِ مَاءِ مَسْخَرٍ مِنْ تَحْتِهِنَّ ، بَحْرٌ خَلَّاقٌ أَنْهَارًا ، وَقَدَرٌ فِيهِنَّ مِنَ الْمَاشِ أَقْوَانًا ، وَجَعَلَ لِقَافَ مِنَ الْجِبَالِ أَوْتَادًا ، ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ، فَقَالَ لَهَا وَالْأَرْضَ أَتَيْنَا طُوبًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَفَطَّرَ مِنَ الدُّخَانِ فِي خِفَتِهِ عَلَى الْمَوَدِّ سَبْعًا ، جَعَلَ بَيْنَهُنَّ مِنَ الْجَوِّ مَشْعَا ، سَبْعَ سَمَوَاتٍ طَيَافًا مُرْتَفِعَاتٍ ، بِلا دَعَائِمٍ قَبْلَهَا وَلَا عِلَاقَاتٍ ، يُمَسِّكُهُنَّ بِقُدْرَةٍ أَنْ يَرْتَضِعَنَّ فَوْقَ مَا مَحْسَبَتُهُ عَلَيْهِ ، وَأَنْ يَتَوَيَّنَ إِلَى قَرَارِ دُونَ مَا رَفَعَهُنَّ إِلَيْهِ ؛ فَأَتَقَنَّ صَنْعَهَا ، وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ؛ وَزَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِالْمَصَابِيحِ النَّارِ ، وَالشُّبُّبِ النَّاقِيَةِ ، وَالنَّجْمِ الرَّاحِمَةِ ؛ وَصَفَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ عَالَمًا لِلْهَتْدَى ، وَصَرَّاجًا لِلْبَصِيرِ ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ، وَأَوْقَاتًا لِاخْتِلَافِ السَّنِينَ ، وَمَعْرِفَةً لِكُلِّ حِينٍ ؛ لَا الشَّمْسُ يَبْقِي لَهَا أَنْ تَدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ

سابق النهار وكل في فلك يسبحون ؛ ففضاهن سبع سموات في يومين ، ولو شاء خلقها في أسرع من طرف العين ؛ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ؛ بلا معاناة لقول ، ولا ضعف من حول ؛ ثم أسكنهن من خلقه ملائكة اصطفاهم لعبادته ، واجتباهم لتبليغ رسالته ، معصومين من أن يشركوا بالله ، ما لم ينزل به سلطانا ، وأن يقولوا على الله إفكا وبهتان ؛ يسبحونه بالليل والنهار لا يفترون ولا يسأمون من عبادته ، ولا يستحسرون عن طاعته ؛ يخافون ربهم من فوقهم ويقبلون ما يؤمرون .

### ونحميد في فتح لابن العباس

أما بعد ، فالحمد لله الذي حمد نفسه ، وفرض حمده على خلقه ، وأعز دينه وأكرم بطاعته أوليائه ، وأكرم طاعته بأوليائه ، بغل جنده منهم المنصورين ، وحزبه منهم الغالبيين ؛ نجح بهم سبيله ، وأقام بهم محجته ، وجاهد بهم أعداءه ، وأظهر بهم حقه ، وقمع بهم الباطل وأهله ؛ وأعلى كلمتهم ، وأبد نصرهم ، وألف لهم وبهم ، ومكن لهم في الأرض ، جعلهم أئمة وجعلهم الوارثين .

والحمد لله المعز لسنينه ، المظهر لحقه ، الناصر لحلفائه ، المكن لحزبه ، المنتقم بهم من صدف عنه ، مؤيدا دينه بالنصر ، ليظهره على الأديان ، وسحقه بالعز ، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ وجنوده بالفلاح فهم الأولون إن استنصر بهم ، والأخرون إن كاد بهم ؛ والأقربون منه إخلاصا وعملا ؛ حمدا يؤازر نعمه ، ويثري مثله فواضله ومزيده .

### وله في فتح ابن البَيْهت لما ظفر به

أما بعد ، فالحمد لله ناصر أنبيائه وخلفائه ، وهادي أوليائه ، أولياء الحق وحزب الهدى ؛ الذين أقام بهم سبيل الرشاد ، ونصب بهم مناجح الدين ، فظهره على الذين كُله ولو كره المشركون .

## وله صدر كتاب الخميس في تمجيد الله وتمجيده

أما بعد ، فالحمد لله الذى جلت نعمة ، وتظاهرت منته ، وثابتت أباديه ، وعم  
إحسانه ، إلى كل شئ ، وخالفه ، وبارنه ومصوره ، والكلان قبله ، والباقي بعده ، كما قال  
في كتابه : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ . العالى فى مشيئته والقاهر  
فوق عباد ، المتعالى عن تشبيه خلقه ، ليس كمثل شئ ، وهو السميع البصير ، خالق العباد  
بقدرته ، وهادم برحمته ، وأوضح لهم السبيل الى معرفته بما نصب لهم من دلائله ، وأراهم  
مرتب عيره ، وصرفهم فيه من صنعه ، كما قال جل جلاله : ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ  
وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ  
رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ .

وذلك كله من خلقه إياهم بتثيله ما مثل لهم من الدلائل التى نصبها لهم ، والأعلام  
التي جعلها إزاء قلوبهم ، وأسماهم وأبصارهم ، وبسرهم خواطهم وفكرهم ، والهيئة  
التي هيأهم لها ليقع الأمر والنهى عليهم ، فلا يكلفهم فوق طاقتهم ، ولا يئسهم ما يذهب  
عنه وسعهم ، نظرا منه تبارك وتعالى إليهم ورحمة بهم ؛ ليؤمنوا به ويبسده ، فيستحققوا  
به ربه ورضوانه ، والخلود فى النعيم المقيم ، والظلل المديد ، والعيش الدائم ، كما قال  
تعالى ذكره : ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ . وكان من نظره ورافقه بهم أن  
بست فيهم أنيابه ورؤسله ، يدعونهم الى طاعته ، ويبتون لهم هداياه ، ويوضحون لهم سبيله ،  
ويهدونهم الى رحمته ، ويعدونهم ثوابه ، ويذرونهم عقابه ، ويسطون لهم توبته ،  
ويحذرونهم خطئه ، ويبتون لهم سنته وشرائعه ، ويكشفون لهم مواعظه ، ويعلمونهم  
كتابته وحكمته ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ لِيَمْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَلَدِهِ وَيُحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَلَدِهِ  
وَلِئَلَّهِ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ . وكان من رأيه بهم ، ونظره لهم ، أن بعثهم إليهم بالجميع الظاهرة ،  
والأعلام البينة ، والشواهد الناطقة ، التي أظهر بها صدقهم ، وأقام بها برهانهم ، وأوضح

بها دليلهم ، وأثابهم عمل سواهم ، ليكون أدعى لهم الى تصديقهم ، والقبول عنهم ، وأؤكد  
الحجة على من آتى ذلك منهم .

وتحميد أحمد بن يوسف في صدر رسالة الخميس التي كانت تقرأ بخراسان

أما بعد ، فالحمد لله القادر القاهر ، الباعث الوارث ، ذى العز والسلطان ، والنور  
والبرهان ، فاطر السماء والأرض وما بينهما ، والمتقدم بالمرء والطول على أهلها ، قبل  
استحقاقهم لشؤبه ، بالمحافظة على شرائع طاعته ، الذى جعل ما أودع عباده من نعمته ،  
دليلا هاديا لهم الى معرفته ، بما أفادهم من الألياب ، التى يفتهمون بها فصل الخطاب ، حتى  
أقننوا علم موارد الاختبار ، ووقفوا مصادر الاعتبار ، وحكوا على ما بطن بما ظهر ، وعلى  
ما غاب بما حضر ، واستدلوا بما أراه من بالغ حكمته ، ومُنقن صنعته ، وحاجة مترايل  
خلقه ومتواصله ، الى القوام بما يأنس ويصلحه ، على أثله بارئا هو أنشأه وأبدأه ، ويسر  
بعضه لبعض ، فكان من أقرب وجودهم ، ما يباشرون به من أنفسهم ؛ فى تصريف أحوالهم ،  
وفنون انتقالها ، وما يُظهرون عليه من المعجز عن التأتى لما تكلمت به قواهم ، وتمت به  
أدوائهم ، مع أثر التدبير والتقدير فيهم ، حتى صاروا الى الخلقة المحككة ، والصورة المعجبة ،  
ليس لهم فى شئ منها تطفئ يتيمونه ، ولا مقصد يتمدونه من أنفسهم ؛ فإنه قال تعالى  
ذِكْرُهُ : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ رَبِّكَ الْكَرِيمُ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَىْ صُورَةٍ  
مَا شَاءَ رَجَبَكَ ﴾ . وما يتفكرون فيه من خلق السماء ، وما يجرى فيها من الشمس والقمر ، والنجوم  
مُسخرات على مسير لا يثبت العالم إلا به ، من تصاريف الأزمنة ، التى بها صلاح الحُرث  
والنسل ، وإحياء الأرض ، ولفاح النبات والأشجار ، وتعاور الليل والنهار ، وتوالت السهور  
والأيام ، والسنين التى تُحصى بها الأوقات ؛ هم ما يوجد من دليل التركيب ، فى طبقات  
المسقف المرفوع ، والمهاد الموضوع ، باختلاف أجزائه والتتامها ، وتترق الانهار ، وإرساء  
الجبال ، ومن التثام الشاهد على ما أخبرته به من إنشائه الخلق وحدوثه بعد أن لم يكن ،  
مُترقيا فى البناء ، وشابهة الى أجله فى البقاء ، هم حمارة منقضية الى آخر القاء ، ولم يكن له

مُفتَّحٌ عددٌ ، ولا مُنْقَطِعٌ أمدٌ ، وما ازداد بنشوءه ، ولا تَحَفُّفٌ نُقصانٌ ، ولا تفاوتٌ على الأزمان ؛ لأنَّ ما لا حدَّ له ولا نهاية ، غيرُ مُمَكِّنٍ الاحْتِمالَ للنقص والزيادة ، ثمَّ أجري فيما ذكر من خلق الله وخلق الإنسان الى ذكر ما تفضَّلَ الله به على عباده الأنبياء ، وما اختصهم به من مبعث النبي صلَّى الله عليه وسلَّم ، الى ذكر الخلقاء أوَّلًا ، ثم الى ذكر المأمون ودولته .

### ومجيد للعباس في مقام له بين يَدَيِ المأمون

الحمد لله على نعمه علينا ، وإحسانه إلينا ، بالأرض المنبسطة ، والسماء المرتفعة ، والرياح المسخِّرة ، والأمطار النازلة ، والأوقات القائمة ، والمنافع الداعة ؛ والدين المبين ، والأدب القويم ؛ حمداً يكون اليه صاعداً ، ولَدَيْهِ نايماً ، ولَمُكْرَمَتِهِ مالئاً ، والحمد لله حمداً يُثَبِّتُ رضوانه ، ويورث إحسانه ، ويُوجِبُ مزيدَه ؛ فهو المنعم المحمود ، والمتَّطَوِّلُ المشكور ؛ لا إله إلا هو لا شريك له ، كما شهد الله وملائكته قائماً بالقِسْطِ لا إله إلا هو العزيزُ الحكيمُ .

### ومجيد لعبد الحميد في أبي العلاء الحروري

الحمد لله الناصر لدينه ، وأوليائه وخلفائه ، المظهر للحق وأهله ، والمُنْدِلُ لأعدائه وأهمل البدعة والضلالة ؛ الذي لم يجمع بين حق وباطل ، وأهل طاعة ومَعْصِيَةٍ ، إلَّا جعل النُصرة والفلاح والعاقبة لأهل حقه وطاعته ، وجعل الخزي والذلة والصغار ، على أهل الباطل والخلاف والمعصية ؛ حمداً يتقبله ورضاه ، ويوجب به لأمر المؤمنين وأهل طاعته الزيادة التي وعد من شكره ؛ والحمد لله على ما يتوسَّلُ من إعزاز أمير المؤمنين ونصرته وإفلاجه وإظهار حقه ، على ما وقع بأعدائه وأهل معصيته والخلاف عليه من سَطَوَاتِهِ وقهاتِهِ وبأسه ، فيما ولي أمير المؤمنين من موالاة من والاه ، وعداوة من بقى عليه وطاده ؛ لا يَحْكُمُ في شيء من الأمور الى نفسه ، ولا الى حوله وقوته ومكيدته ، فإنه لا حول ولا قوَّةَ لأمر المؤمنين إلا به .



## ومحمد في آخر فتح

الحمد لله المُنزِّلُ لِنَبِيِّهِ ، المُظْهِرُ لِحَقِّهِ ، الناصر لأوليائه ، المنتقم من أعدائه أهل الكفر؛  
المُنزِّلُ بهم من بأسه ، وَتَقَمَّتْهُ وَجْوَاحُهُ ، الذي لم يجمع بين أهل حقّه ، وباطل عدوّه ، في موطنٍ  
من مواطن النحاح ، إلّا جعل فيه لأوليائه الْبُفْظَرُ ، وأفرغ عليهم الصبر ، ومنحهم النصر؛  
وجعل الدائرة وسوء العاقبة على عدوه ، وأهل الكفر؛ حمدا كثيرا يرضاه من الشكر ،  
ويحسن به المزيد .

## ومحمد في فتح الى أمير لقمامة

الحمد لله الفتح العليم ، الذي خَصَّ الأمير بأفضل الكرامة وأتم النعمة ؛ وأحسن الولاية ،  
وأعظم الكفاية ؛ وحفظ ما استرماه ، وأعرض أوليائه ، وقمع بالمدلة أعداءه ، وجعل حسن  
العاقبة له ولأهل طاعته ، ودائرة السوء على أهل معاندته ؛ حمدا يحسن به القضاء ،  
وتزيد به التمام .

## وصدر محمد لغسان بن عبد الحميد في خطبة موجزة

الحمد لله الذي لا يُدْرَكُ خَيْرُ إلّا برحمته ، ولا يُنَالُ الفضلُ إلّا بنعمته ؛ وليّ التسديد  
للحسنات ، والعصمة من السيئات .

## محمد لعبد الحميد في فتح

الحمد لله العليّ مكانه ، المنير برهانه ، العزيز سلطانه ، الثابت كلماته ، الشافية آياته ، النافذ  
قضاؤه ، الصادق وعده ؛ الذي قدر على خلقه بملكه ، وعزّ في سماواته بعظمته ، ودبر الأمور  
بعلمه ، وقدرها بحكمه ، على ما يشاء من عزّزه ؛ مُبْتَدِئًا لها بِإِنْشَائِهِ إِيَّاهَا ، وقدرته عليها ،  
واستصغارها عظيمها ، نافذة إرادته فيها ، لا تجرى إلّا على تقديره ، ولا تنتهي إلّا إلى تأجيله ،  
ولا تقع إلّا على سبق من حُكْمِهِ ، على كلّ ذلك بلطفه وقدرته ، وتصريف وجهه ؛ لا تمحل  
لها عنه ، ولا سبيل لها غيره ، ولا علم أحدٌ بخفاياها ومما فيها إلّا هو ؛ فإنه يقول في كتابه  
الصادق : ﴿ وَنَدُّهُ مَفَاتِيحُ الْقَيْبِ ... ﴾ إلى آخر الآية .

## وتحميد ثالث

الحمد لله الذى علا بالحبب التى استتر بها عن جميع خلقه ، واستغنى بها عنهم لما توحد به دونهم من عبادة الذين فطرهم على المعرفة ، رعوفا عليهم بمنه وتطولا وهو فيا يُمضى من أقداره ، مفصلا لهم بابتدائه خلقهم فى أحسن قويم ، وإعطائه إياهم حاجل كل خير مقسوم ، وتسخيرهم لهم جميع ما فى السموات والأرض ، وبسطه لهم فى معاشهم أوسع الرزق ، وإسباغه عليهم فيها أفضل النعم التى لطفت فبطنت ، وعظمت فظهورت ، وليست فعمت ، وانتشرت فخللت ، وكثرت فلا يحصيا عاد ، وجرئت فلا يؤدى حق ما أقرض منها شاكرا ، فإنه يقول : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

والحمد لله الذى لم يقتصر بهم فى إكرامه وتفضيله إياهم على عاجل ، فإنه مضمحل زائل مما أعطاهم إياه ولم يكلمهم فى معرفة خالقهم تبارك وتعالى ، وتوالت النعم عليهم ، والاحسان إليهم ، والارتياش لهم ، ولا فى مئتنى سبيل طاعته ، وأداء حقه ، وشكر نعمته ، واستيجاب غبطة ألمعاد إليه الى أن يعوا ذلك بعقولهم ، والنظر فيه بالبابهم ، والتصريف له على أهوائهم ، فإنه لو أبلغ ذلك إليهم ، وأفردهم فيه الى أنفسهم ، وكلهم فيا أمرهم به الى مقدرتهم ، لحارت عنه منهم الألبصار ، ولتاهت فيه منهم العقول ، ولأضلهم عن قصده المعنى ، ولسال بهم الى غيره الهوى ، ولا استحكم عليهم شرك الردى ، ولكنه بعث فيها أنبياء الهادين ، يدعوهم الى الصراط المستقيم ، بنوره المضيء ، ودينه القويم ، وآياته البينة ، وكُتبه الفارقة التى بين فيها محابه ومكرهه ، وطاعته ومعصيته ، وثواب الفريقين فى ذلك من عباده ليحذروا ما حذرهم فيه من خطئه ، ونزل بهم فيه من نعمته ، وليسارعوا فيما جعل لأهله به الى أفضل المثوبة ، وأحسن العاقبة فى الدنيا والآخرة ، وكشف لهم الجهالة ، وهدى من الضلالة ، وبصرهم سبيل الحق ، وبين لهم معالم الإسلام ، ليرجع جائر ، ويقصد زائل ، ويعرف جاهل ، وليعبد الرب بما وحد به نفسه ، وليستبين العلم ، ويستغنى الحق ، وليتقن من الله الثواب بلزوم دينه الذى شرع ، وأداء فرائضه التى قرض ، وإيثار طاعته التى أوجب ، وليكون لله

الحجة البالغة على عباده فيما تركوا من ذلك وسقّوها بعد استبانتهم لهم ، واستغاضته فيهم  
واعذاره بهم ، فانه يقول : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنْ هَٰذَا مِنْ بَيِّنَةٍ وَمِنْ حَىٍّ مَنِ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ  
لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ويقول ﴿ لَيَجْزِي الَّذِينَ آسَأُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنِ ﴾ .

### لأئس بن أبي شيخ

الحمد لله الذي بالقلوب معرفته ، وبالمقول حجته ، الذي بعث محمداً صلى الله عليه وسلم  
أميناً فوق له ، ومبلغاً فأدى عنه فحج به المنكر ، وثأف به المذنب ، وثبت به المستبصر ، الى  
أن توفاه على منهاج طاعته ، وشرعية دينه ، ثم أورثكم عهده وخصبكم بكلمة التقوى ، وجعلكم  
الأمة الوسطى .

### ولعبد الحميد في فتح

يُعَظِّمُ فِيهِ أَمْرَ الْإِسْلَامِ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

أما بعد ، فالحمد لله الذي أصطفى الإسلام ديناً رضى شرائعه ، وبين أحكامه ونور هُدهاه ،  
ثم كَتَبَهُ بِالْعَزِيزِ الْمُؤَيَّدِ ، وَأَيَّدَهُ بِالظَّفَرِ الْفَاهِرِ ، وَأَزْرَهُ بِالسَّعَادَةِ الْمُتَجَبِّةِ ، وَجَعَلَ مَنْ قَامَ بِهِ  
دَاعِيَا إِلَيْهِ مِنْ جُنْدِهِ الْعَالِيَيْنِ ، وَأَنْصَارَهُ الْمُسْلِمِينَ ، كَلَّمَ قَهَرَهُمْ مَدُونًا أَوْ رُومًا بِرِأْسِهِمْ  
الْمَامُولَةَ ، وَأُمُومَهُمُ الْمُثْرِيَةَ ، وَدَارَهُمُ الْقُسْيِيَةَ ، وَدَوَّلَهُمُ الْمَطُولَةَ ، أَمْرًا حَتَمَهُ عَلَى نَفْسِهِ ، ثُمَّ  
جَعَلَ مَنْ عَانَدَهُمْ وَأَبْتَنَى غَيْرَ سَبِيلِهِمْ مُسْلِمًا قَدْ آسَنُوهُ ذِلَّةَ الْكُفْرِ بِظُلُمِهَا ، وَحَيْرَةَ الْإِهْلَالَةِ  
بِحَوَارِهَا ، وَتَبَهُ الشَّقَاءِ بِمَقَاوِيهِ ، وَكَلَّمَ أَزْدَادُوا لِدَعْوَةِ الْحَقِّ إِبَاءً ، أَزْدَادَ الْحَقِّ إِلَيْهِمْ أَرْزَاقًا ،  
وَطَلَبَهُمْ مُعْكَوفاً ، وَفِهِمُ إِمَامَةً ، إِلَى أَنْ يَحِلَّ بِهِمْ عِزُّ الْعَلِيَّةِ وَنَجَاةُ الْمُتَجَاوِزِ ؛ رَاغِبِينَ فِيهَا شَوْقَهُمْ  
إِلَيْهِ ، مُحَافِظِينَ عَلَى مَا نَدَبَهُمْ لَهُ ، قَدْ بَدَّلُوا فِي طَاعَةِ اللَّهِ دِمَاعَهُمْ ، وَقَبَلُوا الْمَعْرَضَ عَلَيْهِمْ فِي مَبَايِعَةِ  
رَبِّهِمْ لَمْ يَنْفَعِهِمُ الْجَنَّةُ . مَحْمُودٌ صَبْرُهُمْ ، مُسْتَبَلِّمٌ بِهِمْ عِزُّهُمْ ، إِلَى خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

والحمد لله الذي أكرم محمداً صلى الله عليه وسلم بما حفظ له من أمور أمته ، أن اختار  
لنوايرث نبوته ما أصرار إلى أمير المؤمنين من تطويقه ما حُلَّ بِمَحْسَنٍ هُوَضَ بِهِ وَلُفَّ عَلَيْهِ ،  
وَمُنَافَسَةٍ فِيهِ ، أَنْ فَعَلَ وَفَعَلَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي تَمَّ وَصَدَهُ لِرَسُولِهِ وَخَلِيفَتِهِ فِي أُمَّةٍ نَبِيَّةٍ مُسَدِّدًا

له فيها أعظم عليه . والحمد لله المعز لدينه ، المتوكل نصرأته بنبيه المتخلى عن عا داهم وناوأهم ، حمدا يزيد به من رضى شُكْرِهِ ، وحدا يعلو حمد الحامدين من أوليائه الذين تكاملت عليهم نِعْمَتُهُ فلا توصف ، وجلت أياديه فلا تُحصى ، الذى تحملنا ما لا قوة بنا على شكره إلا بمونه ، وبالله يستعين أمير المؤمنين على ذلك ، واليه يرضب ، إنه على كل شىء قدير .

### ولعبد الحميد أيضا

أما بعد ، فالحمد لله الذى أصطفى الإسلام لنفسه ، وأرضاه ديناً للملائكة ، وأهل طاعته من عباده ، وجعله رحمةً وكرامةً ونجاةً وسعادة لمن هدى به من خلقه ، وأكرمهم وفضلهم وجعلهم بما أنعم عليهم منه أوليائه المقربين ، وحزبه الغالبين ، وجنده المنصورين ، وتوكل لهم بالظهور والفتوح ، وقضى لهم بالعز والتمكين ، وجعل من خالفه ومزب عنه وابغى سبيل غيره أعداءه الأتقين ، وأوليائه الشيطان الأخسرين ، وأهل الضلالة الأسفلين ، مع ما عليهم فى دنياهم من اللذل والصفار ، وما تجل لهم فيها من الخذلان والانتقام ، إلى ما أعد لهم فى آخرتهم من الخزي والهوان المقيم ، والعذاب الأليم ، إنه عز وجل ذو انتقام .

### وفى ذكر الإسلام وأهله وما فضلهم الله تعالى به

أما بعد ، فالحمد لله الذى عظم الإسلام تعظيماً ، وفضله تفضيلاً ، فلم يبق ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، ولا إمام لأهل حق مهتد إلا كان به ، واتصل إلى ولاية الله بما هداه له منه ، وليس فى دين الله الذى ارتضى ، وخيرته من أهل الإسلام الذين اصطفى ، تفاسد ولا تقاطع ، ولا تناسد ، ولا تقاطع ولا تدابر ، ولكنهم كما وصفهم الله عز وجل بالائتلاف والتراسخ ، والتواد والتناصر ، قلوبهم متفقة ، وأهوائهم مؤلفة ، وأيديهم على أهل معصيته ميسوطة ، أعوانا على الحق ، وإخوانا فى الدين ، ألب الله بينهم ، وجعل الإسلام سببهم ، فقال فى كتابه : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ إلى آخر الآية . فهذه صفة الله أهل دينه فيما بينهم ، وكذلك كان أسلاف الحق قبائهم ، فى تواد وتباضعهم ، وتواصلهم وتعاضدهم ، وبذلك كان أهل السماء ، فلم يختلفوا فيه ، ولم يرغبوا عنه ، ولم يتحدثوا مثالا غيره ، وبه يدعى

فه الباقيون من خلقه ، المتمسكون بحقه الى يوم القيامة ، سنة مسنونه ، وشريعة متبوعة ، لا يتفنون بها بدلا ، ولا يريدون عنها حولا ، فأهل طاعة الله أهل سلامة في دنياهم ، وإخوان كما قال الله عز وجل في آخرتهم ، لم تنقطع الولاية فيما بينهم ، لا تقطع الدنيا عنهم ، ولكن الله وصلها بالآخرة لهم ، بجمعهم في داره وجواره ، كما آلف في الدنيا بين قلوبهم ، وعصم بالإسلام ألقمتهم .

### تمجيد

الحمد لله المُنِيب على حمده وهو ابتداءه ، والمُنِيع بشكره وعليه جزاؤه ، والمُنِىء بالإيمان وهو عطاؤه .

### ولقأمه

الحمد لله الذى أكرم الإسلام وفصله ، وشرّفه وعظمه ، وأعلى مرتبته ، وجعل أهله القائمين به ، وإماميدين عليه ، وأوليائه وحزبه الذين قضى لهم بالتحسين ، والظهور على الذين كله ولو كره المشركون .

### ولزيد بن على رحمة الله عليه خطبة.

الحمد لله الواصل النعم بالشكر ، والشكر بالزيد ، حمد من يعلم أن الحمد فريضة واجبة ، وإن تركه خطيئة مهلكة ، وأؤمن بالله إيماناً نقي إخلاصه الشّرك ، وبيقينه الشّك ، وأتوكل عليه توكل الوائقي به ثقة أهل الرجاء ، ومفرج أهل التوكل .

### تمجيد في الإسلام

الحمد لله الذى اختار الإسلام ديناً لنفسه ، وأنبيائه ورسله ، وشرّفه وعظمه ، وأثاره ، وأظهره ، وزهه وأعزّه ومنعه ، ولم يقبل غيره ، ولم يعمل حُسن الجزاء إلا لأهله ، الذين كتب لمن أسعده بالوليعة فيه منهم الرضوان والمغفرة والرافة ، وعلى من خالفه وابتغى غير سبيله الحسرة والندامة ، والنّلة والصغار في الآخرة والأولى ، والمات والمُتّحيا ، إذ يقول الله عز وجل ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ فَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَالِ سِرِينَ ﴾

والحمد لله الذي اجتبى محمداً صلى الله عليه وسلم بما اصطفاه من نبوته، واختاره له من رسله، وحباه بفضيلته، وأجتهه من أفضل عماري العرب، وأشرفها منصباً، وأعزها حسباً، وأكرمها نسباً، وأوراهها زناجداً، وأرفعها عماداً، فبعثه بالنور ساطعاً، وبالحق صادقاً، وبالهدى آمراً، وعن الكفر زاجراً، وعلى النبيين مهيمناً، وإلى سبيل ربّه داعياً، وبالكذب عاملاً، فبلغ عن الله الرسالة، وعدى من الفضائل، وانتاش من الملكة، وأنجى معالم الدين وأدى فرائضه، وبين شرائعه، وأوضح سننه، ونصح لأمة، وجاهد في سبيل الله حق جهاده حتى أئاه اليقين، صلى الله عليه وسلم.

### تمجيد لأبي عبيد الله

الحمد لله الذي شرع لإظهار حقه وإنفاذ ما سبق قضائه فيمن ذرأ وبراً من عباده، بإدخال من أراد أن يُخل في رحمته، والحجاز ما حق له من العبادة على خلقه، باستدائه خلقهم، ومظاهرتهم الآلاء عليهم، وإحسانه البلاء عندهم، وإبلاغه في الحجج إلى عامتهم، ديناً رضي به لنفسه وملائكته الذين أسكن سماواته ورسله، فآمن على وجهه من لم يرض إلا به، ولم يقبل إلا إياه، ثم كان ما أعز به نفسه، وأظهر به نوره، وأراد أن يسلبه عباده، تحقيقاً لما سبق به علمه، وإنفاذاً لما جرت به مقاديره، إن يستلماً شرع من دينه، وأصطفى لتسبيحه وتقديسه من ملائكته المقربين، من ارتقى واختار من أنبيائه ورسله المجتبيين، لتبليغ رسالته وإظهار حقه، وأسبغ<sup>(١)</sup> من أراد سعادته من خلقه بالرحمة التي أطلعت عليهم وعثمتهم، ليمدّ مخلصاً له، محموداً بما استحمد به إلى خلقه، مشهوداً له بما أشهد به من كلمة الحق، فكان منهم التبليغ لما أرسلوا به، والنصيحة لمن أرسلوا إليه، غير مختلفين فيما بعثوا له، ولا متفرقين فيما استعملوا فيه، يدعوه آخر إلى ما داهم إليه أول، فيصدق بلك بعضهم بعضاً، ويهتدون إلى الحق وإلى طريق مستقيم، فضت رسل الله وأنبيأوه على ذلك سالكين منهاج الحق وسيله، والدعاء إلى الله عز وجل وإلى

طاعته ، هادين مهدين غير مجوسين شيئا مما كانوا أهله في المنزلة عند الله ، والقربة منه ،  
والوسيلة إليه ، هم ومن آمن بهم وعززهم ، وأتبع النور الذي أنزل معهم ، حتى تقضت  
بهم الأعمار ، وتقطعت بهم الآثار ، ونفختمهم في الأجل .

وكذا لأبي عبيد الله

الحمد لله الذي جعل الإسلام رحمة قدمها لعباده قبل خلقه إياهم ، واستجابهم إياها  
منه ، فاصطفاه لنفسه وشرعه لهم ديناً يدينون به ، ثم جعل تحديده وحبه ومتابعة رُسُلِهِ رحمة  
تلافاً لهم بما بعد تقديمها ، ومنة ظاهرها عليهم قبل استيجابهم لها ، تطولاً على العباد بالبقاء ،  
وإعذاراً إليهم بالحجج ، وتقديرة بالوعد ، وإنذاراً إليهم عواقب مخفلة في المعاد .

والحمد لله الذي أتممت محمداً صلى الله عليه وسلم بهداه وشرائع حقه على فترة من الرسل ،  
وطموس من معالم الحق ، ودروس من سبل الهدى ، عند الوقت الذي بلغ في سابق علمه  
ومقاديره ، أن يجتبي لدينسه الأصفياء ، ويختار له الأولياء ، الظاهرين بحقه ، القاهرين لمن  
ابتنى سبيلاً غير سبيله ، فعظم حرمة ، ووسع حوزته ، وصدع بأمره ، وجاهد عن حقه  
في حومات الضلالة وظلمات الكفر ، بالحق المبين ، والسرّاج المُنير ، ثم جعله مصداقاً لمن  
سبقه من الرسل ومُجنداً لِمَا يَبْثُوا له وهدي ورحمة ، ثم جعل لدينه وظائف وظفها على  
أهله ، وشرائع شرعها لهم لا يَكُلُّ دينهم إلا بها ، وجعل أداها إليه ، واعتصامهم بها إماماً  
لدينه ، ونظاماً لنوره ، وقواماً لحقه ، واستجاباً لِمَا وَعَدَ عليه من ثوابه ، وأَمَنَّا لِمَا أَوْعَدَ من  
خالفه من عقابه ؟ فليس يسع أهل الإيمان بالله الذين أكرمهم به وأجل لهم فضله وأجره ،  
وجعل لهم عزّه وعُلُوّه ، واختار لهم الثلبة والعاقبة على من فارقه في إلا معرفتها ، وأدأوها  
بما يُستكمل به حدودها ، ومما لها من كذا وكذا .

إبراهيم بن المهدي — صدر رسالة له في الخميس

الحمد لله الذي اختار الإسلام ديناً لنفسه ، ورضى أن يعبدَه مَنْ في سَمَواتِهِ من الملائكة  
المقرئين ، وَمَنْ في أرضه من النبيين والمُرسلين ، وَمَنْ آمن بالنور الذي هداهم له من الظلمات ،

واختار لرسائله في سابق علمه ، والذكر الحكيم عنده ، محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأنزل عليه كتابه وجعل طاعته وطاعة نبيه صلى الله عليه وسلم موصولةً بكذا فقال : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ .

### تمجيد

الحمد لله المتكبر في جبروته المتعزّز بسلطانه ، المتعالى في سمواته ، المحتجب عن خلقه ، فلا تُذكرُك في الدنيا أبصارُ الناظرين ، ولا تُحيط به أوهامُ التوهمين ، ولا تبلغه صفاتُ الواصفين ، الذى لا يؤوده عظيم ، ولا يفوته مطلوب ، ولا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء ، وهو السميع العليم .

### تمجيد آخر

الحمد لله الحكيم العدل ، الذى فصل بين الحق والباطل ، ففضّ قضاؤه في خلقه ، وحكم فهمهم بقرى حكمه على إرادته ، يقضى بالنصر والتأييد ، والعز والفتح ، والتمكين للحق وأهله ، وبالنذل والوقيم والغزى والصغار للباطل وأهله ، وجعل ذلك من فضله وحكمه عادةً جاريةً باقيةً ، وستة ماضيةً ، لا رادّ فيما قضى منه لقضائه .

والحمد لله الذى اختص محمداً صلى الله عليه بكلماته ، وأصطنعه لرسالاته ، وأنزل عليه كتابه العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد ، بما أحلّ وحرم ، ورضى ومخط ، وأمر به ونهى عنه ، وجعله خاتم النبيين والمُهيمن عليهم ، وكتابه الذى أنزل ، آخر الكتب المصليق بها النبي صلى الله عليه وسلم .

تمجيد في الإسلام وما آمن به على أهله من مبعث النبي

صلى الله عليه وسلم ، وهو في صدر الجهاد

أما بعد ، فإن لدين الله الذى ارتضاه لنفسه ، ولين اصطفاه من خلقه ، واجتباؤه من عباده وجعله معلماً بين الهدى والضلالة ، وفُرْقاناً بين الحق والباطل ، وحاجزاً بين الكفر والإيمان ، وظوائف وظلها على أهلها ، وشرائع شرعها لهم ، بفعل أدامها إليه ومقرقتها له ، ومحافظتهم عليها ،



واعتصامهم بها قواماً لدينه ، ونظاماً لنوره ونبأنا لحقه ، واستجاباً لما وعد من ثوابه ، وأما لما أُوعد من عقابه ؛ فليس يَسعُ أهل الإيمان بالله والإقامة على حقه من المسلمين الذين ستمهم المسلمين بالإسلام ، وأحرز لم فضله وعزّه ، وأصار لهم الغلبة على من خالفهم وفارقهم بما رَكَبُوا إليه من الصدود عن سبيله ، والتكذيب بكتبه ورسوله ، وذلّتهم فيه قُرباؤهم ، وقادتهم إليه أهواؤهم ، من المَلَل الضلالة ، والأديان المجموعة ، التي لم يَتَرَل بها من الله سُطُلًا ، ولا كُتُب ولا برهان ، إلا معرفتها وأداؤها بما يُستَجَل من حُدودها ومعاملها .

تحميد في الجهاد وما بعث به النبي صلى الله عليه وسلم  
أما بعد ، فإن الله خلق الخلائق بقدرته ، وقدر الأمور بعلمه ، وأخذ على ما مضى من مشيئته ، من غير أن يكون له ظهير في ملكه ، أو معين على ما يرى من محائب خلقه ، واحتذاء منه على سابق من صنعة غيره ، فوحّد نفسه بما تفرد به دون غيره من خلقه ، ليعبد مُخلصاً مَبْرَأً من الأنداد ، إماماً لنوره ، وتميزاً لتوحيده ، وتأييداً لدينه ، وإعلاءً لمن أحصم به ، وإفلالاً لمن خالفه وعَدَّ عنه وعَبَدَ غيره ، وإحقاقاً لكتابه ، فإنه يقول : ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ، الآية ﴾ بذلك أنزل كُتُبَه ، وأرسل رُسُلَه ، وأحجج بهم وبما أنزل إليهم على من مضى من القرون السالفة ، والأُمم الخالية ، يدعو آخرهم إلى ما سبق إليه أوّلهم ، من عبادته وتوحيده ، لا يستوحشون من قِلّة ، ولا يؤتون من كَثَرَة ، يُعزّم الله بقوّته ، ويُؤيّد بهم بجندِه ، وينصرهم وينصر بهم إلى أن بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بما خصّهم به ، وجعله مُصَدِّقاً لهم ، ومُهِيمناً عليهم ، وخاتم النبيين بعدهم ، يعيى لأمر الله ، وبجاهد من لم يَهِبْه إلى الدخول في دين الله ، فأظْهَره الله وأثار حقه ، وأرْهَقَ عدوّه ، وأَنْجَزَ له ما وُعدَه وأتمّ بذلك النعمة عليه وعلى من اتّبعه ، فإنه يقول : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى ﴾ .

### تحميد في فتح

الحمد لله الفَتّاح العليم ، الرحمن الرحيم ، العزيز الحكيم ، الذي أعزّ الإسلام بقُدْرته ، وأيّدَه بنصره ، فلم يَلْجُد فيه مُلْجِدٌ ، ويَسعُ في تشييت الكلمة وشقّ العصا ساع ، ويُوضِع

في الكفر والمصبة موضع، ويمتنع من قضائه وإرادته مُمتنعٌ إلا أنَّهُ الله وقصمه، وأضرع  
خَدَه، وأتمس جَدَه، وضلل سببه، وعجل بواره واستنصاه، حمدا دائما لا انقطاع له،  
ولا نفاذ لمُدته .

### تمجيد ثالث

والحمد لله الذي اختار الإسلام وشرفه، وكرمه وطهره، وأظهره وأعزّه، وفطر عليه  
ملائكته، وبعث به أنبياء ورُسُلَه، واختار له خيرته من خلقه عَمَّداً صلى الله عليه، فبعثه  
برسالته، وأكرمته بوحيه، وأصطفاه على خلقه، يُبشِّرُ بالجنة مَنْ أطاعه، ويُنذِرُ بالنار مَنْ  
عصاه، وجعله دينه القيم الذي لا يقبل ديناً غيره ولا يُثيب أحداً إلَّا عليه .

### تمجيد في فتح

الحمد لله العزيز في ملكوته القاهر فوق برِّيَّته، الذي خلق الخلق بقدرته، وأنقذ فيهم  
إرادته ومشيئته، وقدر كل شيء وأتقنه وأحكمه، وأحاط علما به، فلا يعزب عنه مثقال  
ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلَّا في كتاب مبين .

### صدر تمجيد في فتح

الحمد لله الذي ابتدع الخلق لا من شيء، وجعل الليل والنهار كهفاً ومستجناً لكل  
شيء، بقدرته تجرَّت البحار، وجرَّت لمواقبتها الأنهار، فدار وتطارد الليل والنهار، لا إله  
إلَّا هو ربُّ العرش العظيم .

والحمد لله الذي فات بعظمته أبصار المرتئين، وعلا بجده عن خطرات الحاسبين،  
وأحتجب بأستار جبروته عن مواقع فكر المحصلين المتعمقين؛ فلم تحو الكعبة، ولم  
يقع عليه أدوات التحصيل والكيفية، ولا أدركه هاجس نبض ولا كلفة، ولم ينسب  
إلى زيادة في حين، ولا إلى قصير في شهر ولا سنين، فكل أمره — عز وجلاله —  
تمام ودوام، وكل صفات صنعه اعتدال وكآل؛ وكل ما دونه يحتمل فيه الفناء والزوال،  
ليس كشئ شيء وهو السميع البصير .

والحمد لله الذى عرفنا ربه بآية إماما ، ونهجه لنا سبيل طاعته منا وإكراما ، وتعبدا  
بفرضه تقويا وعمليا وأماننا ؛ فقامت علينا وصلى الخلق مجته ، بالصانع بأمره ، والمُسَلِّق  
لرسلته ، والمجاهد فيه حق جهاده ، حمد صلى الله عليه وسلم ، والحمد لله الذى أعز دينه ، وأظهر  
تكمينه ، ونهر وليه ، وخذل عدوه ، وأوقع بأسه ونهضته بحل القرية ، وجُرُومة الضلالة ،  
ومناخ الشرك ، ومركز الكفر ؛ بعد طول الإملاء ، والاعتداء فى سَفَك الدماء ، والمثلة  
بالأسرى ، وقلة المراقبة والأرعوا .

### تحميد

الحمد لله حمدا يكون رضاه منتهاه ، والمزْدُ من فضله جزاءه . والحمد لله حمدا إليه يتناهى  
حد الحمدين ، وشكرُ الشاكرين . والحمد لله الذى لا يُحصى نعمائه ، ولا تُحصى آلاؤه ، ولا  
يُكافأ بلاؤه ، ولا يُبلغ شكره إلا بمَنه وتوفيقه ؛ حمدا يرضاه ويتقبله ، ويذكره لذنه ، ويوجب  
ما تأذن للشاكرين من يده .

### تحميد على فتح

أما بعد ، فالحمد لله الواحد القهار ، العزيز الجبار ، ذى المنّ والإمام ، والجلال والإكرام ؛  
الذى أصطفى الإسلام ديننا ، وأصطفى له من عباده أهلا هداهم له ، وأكرمهم به وبين  
لم ما يأتون ، ولم يتركهم فى ريب من أمرهم ، ولا شبهة من دينهم ؛ فله المجة البالغة لِمَلك  
مَن هلك عن بينة ، ويحيى مَن حى عن بينة ، وإنا لله أسئح علم .

والحمد لله الذى ختم بمحمد صلى الله عليه وسلم النبوة ، وأتعبه لتبليغ الرسالة ، وبمنه إلى  
خَلقه كافة ، قُبِلَ رسالته ، وصدع بأمره ، وقام فيما بهته له بحقه ، ثم أنجز له وعده ، وأتم له  
كلمته ، وأظهر دين الإسلام به على الدّين كُلّه ولو كره المشركون .

### تحميد فى فتح

أما بعد ، فالحمد لله الأوّل الآخر ، الظاهر الباطن ، الولي الحميد ، القوي العزيز ؛  
الذى لا يُقدرُ العبادُ قدره ، ولا يُحصىون نعمه ، ولا يبلون شكره ؛ المحيط بكلّ شيء علما ،

وأنحصى كل شيء عدداً؛ فلا يحجزه كبير، ولا يمزب عنه صغير، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه، سبحانه وتعالى عما يشركون .

### تمجيد

الحمد لله المتوحد بالخلق والأمر، قادراً قاهراً أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، وملائه عظمة، ووسعه عدلاً، وأتقنه صنناً، والحمد لله الذي أعز بالخلق من أطاعه، وأذل بالباطل من عصاه، وجعل الطاعة والجماعة حِزاً حريزاً، وموتلاً منيفاً؛ فلم يجمع بين أهل كفر وإيمان، وطاعة وعصيان، إلا توحّد بالصنع لأهل طاعته، وأجمع سعيهم، وأعلى كلمتهم، وأفانج مجتهم، وأنزل بأهل الكفر المماندين عنه، الرادين لأمره الذلة والصغار في عاجلهم وآجلهم؛ حمداً يكون ليزيده موجياً، وليفقه مؤدياً .

### تمجيد في فتح لمعبد بن حميد عن وصيف

أما بعد ، فالحمد لله الحميد المجيد، الفعال لما يريد، الذي خلق الخلق بقدرته، وأمضاه على مشيئته ، ودبره بعلمه ، وأظهر فيه آثار حكمته التي تدعو العقول إلى معرفته ، وتشهد لذوى الأبواب بربوبيته ، وتدل على وحدانيته؛ لم يكن له شريك في ملكه فينازعه ، ولا معين على ما خلق فتزعم الحاجة إليه ؛ فليس يتصرف عباده في حال إلا كانت دليلاً عليه ، ولا تقع الأبصار على شيء إلا كان شاهداً له ، بما رسم فيه من آثار صنعه ، وأبان فيه من دلائل تدبره ، إحداراً بحجته ، وتظوئاً بنعمته ، وهداية إلى حقه ، وإرشاداً إلى سبيل طاعته ، وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ؛ وله المثل الأعلى في السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم .

والحمد لله العزيز القهار ، الملك الجبار ، الذي أصطفى الإسلام وأختاره ، وأرتضاه وطهره ، وأعلاه وأظهره ؛ فجعله حجة أهله على من شاقهم ، ووسيلتهم إلى النصر على من عاد في حقهم ، وآبئى غير سبيلهم ؛ وبعث به رُسلاً يدعون إلى حقه ، ويهتدون إلى سبيله ،

بِالْآيَاتِ الَّتِي يَسَيِّئُونَ بِهَا عَنِ الْمُخْلُوقِينَ، وَيُوجِبُونَ بِهَا الْحُجَّةَ عَلَى الْخَاطِئِينَ؛ حَتَّى أَتَيْتُ كَرَامَةَ اللَّهِ إِلَى خَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ، وَحَامِلِ كِتَابِهِ، وَبِفَتْحِ رَحْمَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ عَلَى حِينِ قُرَّةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَأَخْتِلَافٍ مِنَ الْمَلَلِ، وَدُثُورٍ مِنَ أَعْلَامِ الْحَقِّ، وَأَسْتِعْلَاءٍ مِنَ الْبَاطِلِ؛ وَالنَّاسُ عَانِدُونَ عَنْ سَبِيلِ رَبِّهِمْ، يَتَسَافَكُونَ دِمَاعَهُمْ، وَيُحِيلُونَ مَاحَرَمَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ؛ وَأَيَّدَهُ بِالْبِرْهَانِ الْوَاضِعِ، وَالْجَمِّعِ الْقَوَاطِعِ، وَالْآيَاتِ الشَّوَاهِدِ؛ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ الْعَزِيزَ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَبِيدٍ، وَجَعَلَ فِيهِ أَوْضَحَ الدَّلِيلِ عَلَى رِسَالَتِهِ، وَأَعَدَّ الشَّوَاهِدَ عَلَى بُيُوتِهِ؛ إِذْ عَجَزَ الْمُخْلُوقُونَ عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ عَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ، وَكَثْرَةِ الْأَعْدَاءِ وَالْمَنَازِعِينَ؛ يَتَحَدَّثُهُمْ بِهِ فِي الْمَوَاسِمِ، وَيَقْصِدُهُمْ بِحُجَّتِهِ فِي الْمَحَافِلِ؛ وَلَا يَزِدَادُونَ عَنْهُ إِلَّا حُسُورًا وَعَجْزًا، وَلَا تَزِدَادُ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ إِلَّا تَظَاهِرًا وَعُلُوًّا؛ ثُمَّ أَيَّدَهُ بِالنَّصْرِ بِأَنْصَارِ آتَفَ بَيْنَهُمْ بِطَاعَتِهِ، وَجَمَعَهُمْ عَلَى حَقِّهِ، وَلَمْ شَعْنَهُمْ بِنُصْرَةِ دِينِهِ، بَعْدَ الشَّقَاقِ الْمُتَّصِلِ بَيْنَهُمْ، وَالْحَرْبِ الْمُفْرَقَةِ لِمَجَاعَتِهِمْ؛ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ((هُوَ الَّذِي أَبَدَلَكَ نَبُصْرَهُ بِالْمُؤْمِنِينَ)). وَقَدَّمَ إِلَيْهِ وَعَدَهُ بِالنَّصْرِ وَالْتِمَاسِ، لِيُجْعَلَ بُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ، وَحُجَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ، وَدَلِيلًا عَلَى مَا بَعَثَهُ بِهِ مِنَ الدِّينِ؛ فَهَزَمَ بِالْقَلِيلِ مِنْ عَدَدِهِمُ الْكَثِيرَ مِنْ عَدَدِ أَعْدَائِهِمْ، وَغَلَبَ بِضُعْفَائِهِمْ أَهْلَ الْقُوَّةِ مِمَّنْ نَاوَأَهُمْ؛ فَقَلَّ بِهِ حُدُودُهُمْ، وَفُضَّ جَمُوعُهُمْ، وَأَفْتَحَ حَصُونَهُمْ، وَحَرَّرَ مَعَاظِلَهُمْ؛ وَأَظْهَرَ بِحُجَّتِهِ وَنَصْرِهِ عَلَيْهِمْ، وَأَتَمَّزَ سَابِقَ وَعْدِهِ لَهُمْ وَفِيهِمْ، وَاللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ .

### محمد لابن المفتح

الحمد لله ذِي الْعَظَمَةِ الْقَاهِرَةِ، وَالْآلَاءِ الظَّاهِرَةِ؛ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ وَلَا يَمْتَنِعُ مِنْهُ، وَلَا يُدْنِغُ قَضَاؤُهُ وَلَا أَمْرُهُ، ((وَأَمَّا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)). . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ الْخَلْقَ بِعِلْمِهِ، وَدَبَّرَ الْأُمُورَ بِحُكْمِهِ، وَأَنْفَذَ فِيهَا آخْتَارَ وَأَصْطَفَى مِنْهَا عَزَمَةً؛ بِقُدْرَةِ مَنْهٍ عَلَيْهِا، وَمَلَكَتَهُ مِنْهَا، لَا مُتَّقِبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا شَرِيكَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ، وَمُخْلِقَ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ؛ مَا كَانَ لِلنَّاسِ الْخِيَرَةُ فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِهِمْ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ.

والحمد لله الذى جعل صَفْوَةَ ما آختر من الأمور دينَه الذى أَرْضَى لنفسه ولن أراد كرامته من عباده، فقام به ملائكتُه المقربون، يُعْظَمُونَ جلاله، ويُقَدِّسون أسماءه، ويذكرون آلاءه، لا يَسْتَحْصِرُونَ عن عبادته ولا يَسْتَكْبِرُونَ، يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ، وقام به مَنْ آختر من أنبيائه وخُلفائه وأوليائه فى أرضه، يُطِيعُونَ أمره، وَيُؤْتُونَ عن محاربه، وَيُصَدِّقُونَ بوعده، وَيُوفُونَ بعهده، وَيَأْخُذُونَ بِحَقِّه، وَيُجَاهِدُونَ عدوه، وكان لهم عند ما وعدهم مِنْ تصديقه قولهم وإفلاجه حجتهم، وإعزاز دينهم، وإظهاره حقهم، وتمكينه لهم، وكان لعدوه وعدوهم عند ما أوعدهم من نزيه، وإحلاله بأسهم، وأنقامه منهم، وغضبه عليهم، مضى على ذلك أمره، ونفذ فيه قضاؤه فيما مضى، وهو محضيه ومنفذه على ذلك فيما بقى، ليم نوره ولو كره الكافرون، وليحقق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون .

والحمد لله الذى لا يَقْضِي فى الأمور ولا يُدَبِّرُها غيرُه، ابتدأها بعلمه، وأمضاها بقدرته، وهو وليها ومنهاها، وولى الخيرة فيها، والإمضاء لما أحب أن يُقْضَى منها، يخلق ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يُشْرِكُونَ .

والحمد لله الفتاح العليم، العزيز الحكيم، ذى المُنِّ والطول، والقدرة والحول، الذى لا تُمْلِكُ لما فتح لأولياته من رحته، ولا دافع لما أنزل بأعدائه من نعمته، ولا راد لأمره فى ذلك وقضائه بفعل ما يشاء، ويحكم ما يُريد .

والحمد لله المُنِيب بعبده ومنه استداؤه، والمُنِيب بشكره وعليه جزاؤه، والمُنِيب بالإيمان وهو عطاؤه .

### لا خسر

الحمد لله الذى يَتَطَوَّلُ بِالنِّمَّةِ، وَيُعْطِي الْخَيْرَ مَنْ يَشَاءُ وَيُنِيبُ عَلَيْهِ .

## تحميد لغسان بن عبد الحميد

كاتب جعفر بن سليمان في المطر :

الحمد لله الذي نَسَرَ رحمته في بلاده، وبَسَطَ سَعَتَهُ على عبادِهِ، الذي لَا يَزَالُ الْعِبَادُ مِنْهُ فِي رِزْقٍ يَنْقَسِمُونَهُ، وَفَضْلٍ يَنْظُرُونَهُ، لَا يَنْقُضُهُ مَا قَبْلَهُ، وَلَا يَنْقُضِي مَا بَعْدَهُ .

## لأحمد بن يوسف في فتح السند

الحمد لله وَلِيَّ الْحَمْدِ، وَأَهْلِي الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، خَالِقِي الْخَلْقِ، وَمُدَبِّرِي الْأَمْرِ، الْمُسَيِّغَ عَلَى عِبَادِهِ وَالْمُوجِبَ عَلَيْهِمْ نَجَّتَهُ، فَلَيْسُوا يَرْجُونَ إِلَّا سِمَةً فَضَّلَهُ، وَلَا يَحْذَرُونَ إِلَّا مَا آجَتْرَحُوا مِنْ مَعْصِيَتِهِ؛ لِمَا سَبَقَ مِنْ جَزِيلِ إِحْسَانِهِ، وَتَظَاهَرِ مِنْ أَمْتَانِهِ، وَتَقَدَّمَ بِهِ الْإِعْذَارُ وَالْإِنْتِذَارُ، لِذَلِكَ لَا يَسْتَحِيفُ بِمَا عَظُمَ مِنْهُمَا إِلَّا مَنْ اسْتَحْوِذَ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ، وَأَسْتَوَى عَلَيْهِ الْخُلْدَانُ، وَقَادَهُ الْحَقِيْنُ إِلَى مَوَارِدِ الْهَلَكَةِ .

## التحميد الثاني

الحمد لله الذي أَعْطَانِي الْإِسْلَامَ دِينًا فَطَّهَرَهُ وَأَسْنَاهُ، وَأَظْهَرَهُ وَأَعْلَاهُ؛ وَزَيَّنَهُ بِكُلِّ حَسَنَةٍ، وَبَقِيَ عَنْهُ كُلُّ سَيِّئَةٍ، وَجَعَلَهُ إِلَى مَذْخُورِ كَرَامَتِهِ سَبِيلًا وَاصِلًا، وَسَبِيلًا نَهْجًا، وَبَعَثَ بِهِ جَدًّا صَبَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ لِيَهْدِيَ مَنْ كَانَ حَيًّا، وَيَحْيِيَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ .

## تقريره في الخليفة

الحمد لله الذي أَعْطَانِي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ خَلِيفَتَهُ، وَتَلَاقَى الْأُمَّةَ بِسُلْطَانِهِ، بِفَعْلِهِ الْقَائِمِ فِيهِمْ بِقِسْطِهِ، وَالْمُسْتَشِيرِ فِي أَلْتَّاسِ مَصْلَحَتِهِمْ هَمَّهُ .

## لأحمد بن يوسف

عن ذِي الرِّيَاسَتَيْنِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ دَاوُدَ صَدْرِ فَتْحٍ :  
(١١)  
أما بعد ، فالحمد لله الذي حَفِظَ مِنْ دِينِهِ مَا صَبَّحَ الْمَلْعُونُونَ، وَرَأَى مِنْهُ مَا [فَرَّقَهُ] الصَّدْعَةُ؛ وَأَعَادَ مِنْ حَبْلِهِ مَا حَاوَلُوا تَقْضِيَهُ، حَتَّى أَعَادَ لِعِبَادِهِ أَحْسَنَ أَلْقَتِهِمْ، وَرَدَّ إِلَيْهِمْ أَجَلَ  
(١) يَبَاضُ فِي الْأَصْلِ . وَمَا أُتْبِئْتَهُ يَنْسَبُ الْمَقَامُ .

عَوْدِهِمْ ، من الاستشلاء بعد التردى في حُمِّ المعاطب ، والاستنقاذ بعد التوريط في المهالك ؛  
 وبلغ خليفته القائم بحقه ، المؤتم بكابه ، الذائد عن حريم الدين ، ووراث الدين ، أجل  
 ما بلغ لخلفاء الراشدين المهديين ، من إعلاء الكلمة ، وغلبة الأعداء ، والفوز بالعاقبة التي  
 وعدّها المتقين ، وفرضه لما أشعر قلبه ، وشرّح له صدره ، من إضاء حكم الفرائض الموجبة ،  
 واقتفاء السنن الهادية ، حيث سلك به من المناهج ، حمدا يوازي نعمه ، ويبلغ أداء شكره ،  
 ويوجب مزيدة .

والحمد لله على ما خصنا به من إعلاء الدرجة ، وإسناء الرتبة ، في مشايعة أمير المؤمنين  
 — أيده الله — والمجاهدة عن حقه ، والوفاء لله بما عهده له ؛ لا نريد بما كان منا إلا وجهه ،  
 ولا نسعى فيه إلا لرضاه ؛ حمدا لا يحصى عدده ، ولا يتقطع أمده .

#### تمجيد لأبي عبيد الله

أما بعد ، فالحمد لله ذي الآلاء والقُدرة ، والطول والعزة ؛ الذي أصطفى الإسلام ديناً  
 لنفسه ، وملائكته وأنبيائه ومن كرم عليه من خلقه ؛ فبعث به محمداً صلى الله عليه وسلم اختصاصاً  
 له في ذلك بكراماته ، وأصطفاه له به على عبادته ؛ فأعزّه ومنعه ، وكفاه وحاطه ، وتوكل لأهله  
 بالعلم والتسكين ، والظهور والتأييد ؛ فلم يُلحد فيه ملحد ، ولم يَزغ عن قبول حقه زائغ ، بعد  
 إغذار الله إليه ، وإعادة الجبهة لله عليه ، إلا أنزل به من النزل والصغار والاجتياح والاستئصال  
 ما يجعل له فيه قعاً ؛ حمداً كثيراً دائماً مُرضياً له ، مؤمناً من غيره ، وجباً لأفضل مزيد ثوابه .

#### تمجيد لسعيد بن حميد في فتح

أما بعد ، فالحمد لله المنعم فلا يبلغ أحد شكر نعمته ، والقادر فلا يُعارض في قدرته ،  
 والعزیز فلا يُنال في أمره ، والحكم العدل فلا يُردّ حكمه ، والتاثير فلا يكون نصره إلا للحق  
 وأهله ، والمسالک لكل شيء فلا يخرج أحد عن سلطانه ، والمهادي إلى سبيل رحمته فلا  
 يضل من أنقاد لطاعته ، والمقدم إغذاره ليُطاهر به مجتبه ؛ الذي جعل دينه لعباده رحمة ،  
 وخلافته عصمة ، وطاعة خلفائه فرضاً واجباً على كافة الأمم ؛ فهم المستحفظون في أرضه



على ما بحث به رُسله ، وأُمنّاؤهُ على خلقه فيما دعاهم إليه من دينه ، والحاملون لهم على منافع حقه ، لئلا تُشعَبَ بهم الطرق المخالفة لسبيله ، والهادون لهم إلى صراطه ليجمعهم على الحاجة التي تدب إليها عبادته ؛ بهم يُحيى الدين من البُغاة الطاغين ، وحُفِظَت معالم الحق من الغواة المخالفين ، مُحْتَجِينَ على الأُهم بكتاب الله عز وجل الذي آستعملهم به ، ورُعاة للأُمر بحق الله الذي آخِناهم له ؛ إن جادلوا كانت مُجبة الله معهم ، وإن حاربوا فالنصر لهم ، وإن جاهدوا كان في طاعة الله نصرهم ، وإن بغاهم علُو كانت نِكاية الله سائلةً دونهم ، ومُعقلاً لهم ، وإن كادهم كائد فأنقذهم بالله في عونهم ؛ نصبهم الله لإعزاز دينه ، فن عاداهم فأثما عادى الذين عزبهم وحُرس بهم حقه ، ومن ناوأهم فأثما طعن على الحق الذي تكلّوه حراسهم ، جيوشهم بالرُعب منصوره ، وكثائبهم بسلطان الله من عذوقهم صهوة ، وأيديهم بذبها عن دين الله عالية ، وأشياعهم بتناصرهم غالبية ، وأحزاب أصدائهم ببغيهم مَقموعةٌ ، ومُجتَمِهم عند الله وسَلَفه داحضةٌ ، ووسائلهم إلى النصر مردودةٌ ، وأحكامُ الله بخذلانهم واقعةٌ ، وأقدارُهُ بإسلامهم إلى أوليائِهِ جاريةٌ ، وعادتهُ فيهم وفي الأُهم السالفة والقرون الخالصة ماضيةٌ ، ليكون أهل الحق على نِقةٍ من إنجاز سابق الوعد ، وأعدائِهِ محجوجين بما قُتِم إليهم من الإنذار ، مُعجّلة لهم نِقمة الله بأيدي أوليائِهِ ، مُعدّا لهم العذاب عند رُدِّهم إليه نِزْراً موصولاً بنواصبهم في دُنياهم ؛ وعذابُ الآخرة من ورائهم وما الله بظلام للعبيد . وصلى الله على محمد وآمينه المصطفى ، ورسوله المرتضى ، والمُنقذ من الضلالة والعمى ، صلاةً ناميةً بركاتها ، دائماً أتصالها ، وسلّم تسليمًا .

والحمد لله تواضعاً لعظمته ، والحمد لله إقراراً بربوبيته ، والحمد لله اعترافاً بقصور أنفسي منازل الشكر عن أدنى منزلةٍ من منازل كرامته .

### فما يُقرِّط به الخليفة

والحمد لله الذي حاز لأُمير المؤمنين وِرائته ، وساق إليه خِلافته ، بالحاجة منها إليه ، والارغبة منه عنها ، وأستخلص من خلقه من جعله ظهيراً للحوادث ، وعُدّة للنوازل ؛ فلما

أفضت الخلافة إليه حيدر إمامه أحاجلته ، وكشف قناعه لخاربهته ؛ فالحمد لله الذي اختص أمير المؤمنين بخلافته ، وأرتضاه لولاية أمر أمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، والقيام بحقه ، والدب عن حرمانه ، وحاط له ما استرناه من ذلك ، وقّله بحسن الولاية والكفاية ، وتوكل له بالحفظ والتأييد ، والنصر والغلبة والظهور على من عند عن طاعته ، وصدف عن حقه ، وأبتنى غير سبيله ؛ كرامة من الله تطول بها عليه ، ومئة منه توحد بها له .

والحمد لله الذي جعل نية أمير المؤمنين عزيمته ، وفكره ورويته ، منذ أفضى الله بالخلافة إليه ، وجعله القائم بإرث نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وأستحفظه من عباده وبلاده فيما فيه عن الدين ، ونظام أمر المسلمين وترهين الشكر ، وإذلال الأعداء ، وإعجاؤهم وولعهم ، وتحصين البيضة ، وإعجاء الثغور ، ولم المكنش ، وضم الأطراف ، لا يفتأ عن ذلك فائى ، ولا يذهب له عن خفق كبير أمره وصغيره ومقابلته ذاهل ؛ يستقل كثير ما ينبق من الأموال في سد الثغور ، وتحصينها وحراستها ، لما يرجو فيه من جسم الخط ، وجريل اللئيم ، وكثير الأجر ؛ تقربا الى الله واحتسابا له في جنب ثوابه ، وكرم ما به ، حتى راب به الصمد ، ورتق به الفتق ، وأتم به السبل ، وأقام به الموج ، وأفجع به الحجج ، وأعل به الدرج ، وأزهق به الباطل ، وأحيا به الحق ، وأشام به سيوف أهل الفضالة والفتنة ؛ لا تأخذه في القيام بحق الله والانتصار لدينه ، والانتصاح لأمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، والدب عن حوزتهم ، والزمي من ورائهم ، ودفع بأفقه أهل الشقاق والنفاق والخلاف والمعصية عنهم فترة ولا سامة ؛ توفيقا من الله ، وتسليدا لحرمته ، وتأيدا لعزومه ، إذ كان لله شاكرا ، ولدينه ناصرا ، وبحقه قائما ؛ وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله وحده ، عليه يتوكل وعليه يتوكل المتوكلون .

والحمد لله الذي لم يزل منذ أفضى الى أمير المؤمنين بخلافته ، وحياته بكرامته ، يتحصنه بالخيرة في كل ما أمضى من أمره ، ويتولاه بالتوفيق في كل ما أبرم من تديره ، ويعمل عنه

(١) هكذا وردت في الأصل . ولم نوق الى تحقيقها .

أعباء ما حمله ، وُعيّنه بتأييده على ما قلّده ، ويحيطه بحيل الصنع فيها ولاه وأستحفظه ،  
ويُلمّحه جهاد عدوه ، ويحبّوه بنصره ، حمدا قاضيا لحق نعمته ، مُوجبا أفضل مزيده .

والحمد لله الذي أوثق أمير المؤمنين موارث نبوته ، وصبر اليه مقاليد خلافته ،  
وأوجب ذلك له بالقرابة برسوله صلى الله عليه وسلم ، والوراثة لوراثته من عُصْبته وأولى الناس  
به ، ثم أعز نصره ، وأعلى كلمته ، وأفلج مجته ، وأظهر على المشركين والمنافقين ، ومن حادّه  
وصانده من الناكثين والمساكين ، والباغين والمصلدين ، فأنس جدودهم وفعل وفعل .

والحمد لله الذي عرّف أمير المؤمنين منذ استخلفه في أرضه ، وأتمّنه على خلقه ، من  
عظيم نعمه ، ولطيف صنّعه ، وحيل بلائه ، وأعزّاز نصره ، وأعلاء يده وكلمته ، وإفلاج  
مجته على من ضاده وحادّه ، إنّ الله عظيم طولُه ومِنّة أرقى أمير المؤمنين لدينه ، وأصطنعه  
لتلافقه ، فلاه سرّها ، وردّاه بهاتها وحالها ، فاستعمله بالكتاب والسنة والحق والعدل  
فيها ، فأيدّه بقوّته ، وأعزّه بنصره ، وحاطه بكفائته ، وتولّى الصنع له في جميع أموره ، فلم  
يَكِدْه كائد ، ويُمَانِدْه مُعانِد ، ويمرّق عن طاعته الواجبة مارق ، ويُليّد في إمامته مُلحد ،  
تمن يُمالِن بمعصية وشقاق ، أو يتطوى على غِلّ وِنفاق ، إلّا أوهن الله كيده ، وأنّس جدّه ،  
وعاجل المبادئ بعداوته ، الشاهر على الدّين والمسلمين سيفه ، باصطلام وبوار ، وأمكن  
منه بذلّه وصغار ، وقتل المسرّ غيرة ، المُنتطوى على غِلّه بغيظه وعَمّه ، وأماته بذاته وحسرتّه ؛  
إنجازا منه جلّ ثناؤه لوعده ، وإتماما لكلمته فيما وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات من  
أستخلافهم في أرضه ، والفتك في دينه ، وله الحمد دائما ، والشكر خالصا ، كما هو أهلُه وكما  
يُذِنِي أَنْ يُعْجِدَ وَيُشْكِرَ ، لا إله إلّا هو الواحد القهار .

والحمد لله الذي لم يبق لأمر المؤمنين عدوا من الناكثين والجاحدين ، والمشركين  
والمنافقين ، حاول نقضا لإمامته التي صيرها الله اليه ، وقتلده إياها ، أو صاول جيشا من  
جيشه التي أَعَدّها لِمُعاماة عن دين الله ومحاربه ، وإقامة سننه ومِماله ، إلّا أحلّ به النّعمة ،  
وأصابه الى الصغار والنّلة ، واليوار والهلكة ، وبجّله الى ناره وعذابيه .

والحمد لله الذي لم يزل يتولى أمير المؤمنين بمباطلته ، ويتوحد له من إعزاز نصره وإعلاء كلمته ، وإفلاج مجته ، ونأييد أوليائه وأنصار حقه ؛ وأنزل البأس والثقمة والمثلات والسطوة بمن عانده ، والذّب عن حريم المسابن وأهله ؛ بما يبين به عن مكانه منه ، ومنزله عنده ؛ حمدا ربنا بذلك كما هو أهله ومستحقه ، مشكورا بعظيم منه فيه وطوله ، مسؤولا لتسام أحسن عائدته وماضى سنته ؛ فإن الله المحمود على نعمه ، المشكور بالآله ، لم يزل ما يتوحد به لأمر المؤمنين بسلطانه من التعزيز ، وفي أوليائه من التأييد بنصره ، عادة يتبين بها برهانه ، ويُفْلَج بها مجته ، ويَدُلُّ بها على كرامته عليه ، ويُخبر بها عن منزلته عنده ؛ ويعمل ما نزل بأعدائه المتولين عنه ، الراغبين إلى غيره ، المُلتصدين في حقه ، عظة لمن قسا قلبه ، ورأى عليه سوء عمله ، ليكون ما يعطيه من البسط في ملكه ، والتمهيد فيها خولة له ، ويؤاqqه من السطوة بمدقوه ، والتذكيل بمن خالفه ، مجتنب متظاهرين ، وعبرتين حسن في معصم<sup>(١)</sup> معصم ، ونحو نالج ، ولشجب<sup>(٢)</sup> [شاجب] ويهلك هالك ، وقد مضت من الله المشيئة ، ووضح منه الإحذار ، وكان الله بعباده عليا ، وبأعمالهم خيرا .

والحمد لله الذي أكرم أمير المؤمنين بخلافته : وجعله وارث وحيه ، وقَّمه بكتاب في عبادته ، وأكرم هذه الأمة التي جعلها خير أمة أخرجت للناس به ؛ فهو الميمون في تديره المنهج حيوله ، الميمون النقية ، الموفق الرأي والسياسة ؛ فإن الله عز وجل خلق الخلاق بقدرته ، وأختارهم بعلمه ، فاختر أمير المؤمنين لخلافته ، وأصطنعه للقيام في العباد والبلاد بأمره وقسطه ، وألمه إقامة أحكامه وفرائضه ، والعمل بحقه وعذله ، وأبلى أهل الشرك به ، وأتمها إلى أيام دولته ، وحفظها عنمن قلبه ؛ حتى حازله أبحرها ، وأبقى له سماءها وزكراها ، ونشر عنه أهدوتها وسماعها ؛ وفتح عليه البلدان القاصية ، والمدائن الثنائية ، التي لم تكن ترام من أهلها ، ولا يطمع في زوالها ؛ وذلت له الملوك القديم عتوها وعنادها ، والأئم المستصعب مراسها وجهادها ، الحامية في آباد الدهور حماها ؛ فأفخذ فيهم مكيدته ، وأنجح

(١) كذا في الأصل ، ولها بالنص . (٢) كذا في الأصل ، ولها وليشجب .

سعيه، ورماهم بالتخويف، وملاً قلوبهم رعباً منه ؛ فاذعن مُدْعُوهم بطاعته ، وأقنادهوا لأمره ، وصاروا يداً وأحوا ناً لأوليائه على أعدائِهِ .

أما بعد ، فإنَّ أعظم النعم قدراً ، وأجلّها أمراً ، وأسرّها مَوْقِعاً ، وأوجبها شُكْراً ، ما عمَّ الإسلامَ والمسلمينَ نِعْمُهَا ، وعادتْ عليهم عائِدَتُهَا ، وجعل الله فيه عزَّ الدين ، وقُلَّ المشركين ؛ وقد جعل الله ذلك في خلافة أمير المؤمنين أطال الله بقاءه بيمينه وبركاته ، وما أخلص الله من نيّته وطاعته ، وتأدية حقّه فيما استحقّله من أمر دينه وعباده ، وفروغ له نفسه ، وأنصب فيه بدنه ، وأسهر فيه ليله ، من حيّاطة حريم الإسلام ، والزيادة في حدودها مُتصلاً مُتتابعاً ، والنعم مظاهرة ومُتوافرة ، فسَهْل الصعب ، وذَلَّلَ له العزيز ، وقصَمَ عتاة الأعداء ومتكبريهم ، والمستعصين والمستعصيين منهم ، في آباد السهول على من رامهم ، وفتح عليهم حصون مدائنهم ؛ ومنحهم قلاعهم ، وأنفذ مكيذته فيهم ؛ فبين مقتول ومأسور ، وشريد طريد عن محلّته ، وموضع عزّه ونِعْمته ، مُستسلم مُعطي قيادته باخع بطاعته ؛ وكذا فإنَّ الله بمنه وطوّله قد أوصل لأُمير المؤمنين من صنّعه له فيما قبله من خلافته ، وحيّاطته لإياها فيما يحوطه من دينه ، وعزّفه من كفايته فيما قام به من حقّه ، وأيده من نصره فيما جاهد عنه في سبيله ، ما قد جعل النعمة به طامة ، والشكر به لازماً ، وإيّته به واجبة ، والشمع عظيمًا ؛ فالحمد لله على نعمه في ذلك كثيرًا .

والحمد لله الذي جعل اجتihad أمير المؤمنين ومقام أمره وتدييره ، في آناء الليل ونهاره ، فيها فيه صلاحُ عباده ، وإعزازُ دينه وإقامةُ حقّه .

### تحميد

الحمد لله الذي لمّا أنقض من الطاعة لولاة الأمر من خلفائه جعل أولئها ناطقة عن فضل أولئها ، وبوادئها مُحمّرة عن حبيد عواقبها ، وبواردّها مُبشرة بالعلوّ في مصادرها ، بما يقيّبه أهلُها من السعادة في الماضين من أوليائها القاعمين بحقّها ؛ وعاد من الشّقوة على مُقارفي المصيبة المُحمدين إليها ؛ حين أقبلت بهم هوائى القن ، وكشفت لهم تواليها عن البوار

والملككة ؛ مُعتذرين حين لا عذر ولا حجة ، طالين لتأرب بعد أن كانت منازلُ السلامة بهم مطمئنة ، وخائفين وقد كانت سُبل الأمن لهم واضحة ؛ قد جعلتهم النعمة الواقعة بهم أمثالا سائرة ، وفزقت بينهم وبين النعم الشاملة ، وحصلت السعادة لمن آتفت بهم باقية ، سنة من الله فيهم ماضية ، وعادة جارية ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا .

والحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين لخلافته فخرس به دينه من البغاة الناكبين عنه ، وأختصه بأعلاء رُتب كرامته ، وأفترض طاعته على عبادِه ، وجعلها بمواقفها في دينه نظاما لسائر فرائضه ، فشاركها مفارق لمصمة حقه ، خارج من جملة الأمة التي سبقت لما رحمتُه ، يستنصر أشياع الباطل والله خائفه ، ويُطالب الحق والله غالبه ، ويطلب مالا سبيل له إليه والله طالبه ، حتى يخلصه أجله عن أمه ، وأقدارُ الله فيه عن تقديره ، ونفوذُ قضاء الله فيه عن نفوذ حيله ، فضلاً من الله على أوليائه وقضاءً منه عدلاً في أعدائه ، والله ذو الفضل العظيم .

والحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين لرعاية عبادِه ، وحفظ بلادِه ، وتنفيذ أحكامِه ، وإقامة حدودِه ، جمع به الألفة ، وكف به بوائق الفتنة ، وأصلح به أمور الأمة ، وسكن به الدهماء ، ودفع به عظيم البلاء ، وأقنذ به من الجُهد والآواء ؛ وجند رعيته العبر الشافية ، والعظة الناهية ، وجعل همه السعى لربه ، وطلب الحق الذي أوجبه له من خلافته ، ليؤدى فوضه في الأمانة التي حملها ؛ فيوجب له بذلك مالا يزول ولا ينقطع من ثوابه ، فأعمل رأيه في الرأفة بمن ولّاه أمره ، وإليحاطة له ، والعناية بصلاحهم ؛ فأعطاه لين الموعظة في وقت الثاني ، والفوز لإقامة الحجة والبيّنة ، وشدة السطوة على من غمط النعمة وعند به الإصرار عن التورع والفتية ؛ منا من الله وتفضلا ، وإحساناً وتطوّلاً ، والله ذو فضل عظيم .

ويسأل الله أمير المؤمنين مُبتدئاً ومُعقِّباً ، وأوّلًا وآخراً ، وقبيل كلّ مسألة ، وأمام كلّ رغبة ، ومقدمة كلّ طلبية ؛ أن يُصلّي على صفوته من عبادِه ، ويخبره وخاتم أنبيائه ورُسُلِه ، تجد عبده ورسوله ، أفضل صلواته ، ويُبارك أكثر بركاته ، وأن يُديم له كرامته ، ويُجبري عنده أجل عاداته ، ويُتم له ما أختص به من إحسانه ؛ حتى يملأ الأرض عدلاً وقسطاً ،

والإسلام تأييدا وعِزًّا، والشُّرك ذُلًّا وقَعًّا؛ إِنَّهُ وَلِيَ كُلِّ نِعْمَةٍ، وَمُنْتَهَى كُلِّ رَغْبَةٍ، وَغَايَةُ كُلِّ حَاجَةٍ .

وَلَمْ يَزَلْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْذُ الْوَقْتِ الَّذِي أَفْضَى إِلَيْهِ بِخِلَافَتِهِ ، وَأَكْرَمَهُ بِرَحْمَتِهِ مِنْ إِرْثِ نُبُوَّتِهِ ، يَتَلَقَّى عَظِيمَ النِّعْمَةِ فِي ذَلِكَ بِالْإِخْلَاصِ لِلنِّبْيَةِ وَالطَّوْفِيَةِ فِي الصَّفْحِ عَنْ كُلِّ زَلَّةٍ ، وَالْإِقَالَةِ لِكُلِّ عَثْرَةٍ ، وَالتَّعَمُّدَ لِلْهَفْوَةِ وَقَبُولَ الْفَيْقَةِ ، وَالْإِنَابَةَ مَنْ عَظُمَ جُرْمُهُ ، وَجَلَّ ذَنْبُهُ ، وَظَنَّ أَنَّ لَا تَوْبَةَ لَهُ ؛ وَكَلِمَةَ جَدَّدَ اللَّهُ لَهُ نِعْمَةً ، جَدَّدَ لَهُ فِي ذَلِكَ نِيَّةَ حَسَنَةٍ ، شَكَرًا لِلَّهِ حَزْرًا وَجَلَّ عَلَى مَا ابْتَدَأَهُ بِهِ ، وَارْتِهَانًا لِنِعْمَةٍ عِنْدَهُ ، وَاسْتِرَادَةً مِنْ جِبِلِّ مَوَاهِبِهِ ، وَتَقْدِيمَ الْإِهْتِمَامِ بِمَا فِيهِ صَلَاحُ رَعِيَّتِهِ ، وَاسْتِقَامَةُ أُمُورِهَا ، وَجِبَاطَتُهَا وَالذَّبُّ عَنْهَا ، وَكَفُّ الْأَذَى وَالْمَكْرُوهِ عَنِ الدَّانِي وَالْقَاصِي مِنْهَا ؛ وَيَخْتَلِصُ إِلَى ذَلِكَ بِكُلِّ مَا يَسِيلُ إِلَيْهِ السَّبِيلَ وَيَسْتَعِدُّ فِيهِ ، وَيَسْمَلُ لِكَثْرَةِ أَوْقَاتِ دَهْرِهِ فِي كُلِّ مَا لَفَتْهُ تَحَبُّتُهُ نَظَرًا لَهَا ، وَحَدَبًا عَلَى كَافَتِهَا ، وَإِشْفَاقًا مِنْ سَوْءِ حَالِهَا ؛ إِذَا كَانَ لَهَا وَالِدًا بَرًّا ، وَرَاعِيًا كَالِيًّا ، وَنَاضِرًا لَطِيفًا ، وَيَسْتَعْمَلُ كُلَّ مَا يَرْجُو اسْتِلَاقَهَا ، وَالْإِبْقَاءَ عَلَى أَحْوَالِهَا ، وَالسَّلَامَةَ لَهَا فِي دِينِهَا وَدُنْيَاهَا ؛ وَيَنْصَبُ لِدَافِعِ ذَلِكَ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ ، وَيُذَيِّبُ فِيهِ نَفْسَهُ ، وَيَجْعَلُهُ شُغْلَهُ دُونَ ضَرَرِهِ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَصْطَفَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِخِلَافَتِهِ ، وَأَكْرَمَهُ بِإِرْثِ نُبُوَّتِهِ ، وَجَعَلَ خِلَافَتَهُ خِلَافَةً يُؤْمِنُ وَبِرْكَةٍ ، وَلَطِيفٍ وَسَعَادَةٍ ؛ انْتِشَارَ بِهَا أَوْلِيَائِهِ مِنْ مَوَارِدِ الْمُلْكَةِ فَرَفَعَ مَنَازِلَهُمْ ، وَشَرَّفَ دَرَجَتَهُمْ ، وَأَعْلَى كَيْسَهُمْ ، وَأَذَلَّ بِهَا أَعْدَاءَهُمْ ، وَجَدَّدَ دَوَائِرَهُمْ ، وَرَدَّدَ دَائِرَةَ السُّوءِ عَلَيْهِمْ ؛ وَجَبَّاهُ مَرْيَةَ نَصْرِهِ وَتَحَكُّمِهِ ، وَاعْمَازَهُ تَأْيِيدِهِ ، وَإِظْهَارِهِ عَلَى مَنْ نَازَاهُ وَعَقَدَ عَنْ حَقِّهِ ، وَصَدَفَ عَنْ طَاعَتِهِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَمَّا اخْتَارَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ خِلَافَتَهُ فَأَيَّدَهُ بِهَا ، جَعَلَ الْحَقَّ نِيَّتَهُ ، وَاعْمَازَ الدِّينِ بَغْيَتَهُ ، وَجَاهِدَةَ أَعْدَاءِ اللَّهِ شَرَفًا وَغُرْبًا وَبِرًّا وَبِحِرَا نَهْمَتَهُ وَإِرَادَتَهُ ؛ ثُمَّ يَسِرُ فِي ذَلِكَ لِمَا أَحْسَنَ بِهِ صَوْنَهُ ، عَلَى مَنْ اسْتَحَقَّقَهُ وَقَلَدَهُ ، فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَنِعْمَةً ، وَاهْتَدَى حَلِيمٌ حَكِيمٌ .

والحمد لله الذي كان لسابق علميه وسالف قضائه ، الذي لا يستطيع الناس رده ، ولا منعه ولا صرفه ، ما ولى أمير المؤمنين من خلافته ، وما أبتمته له من التصريدية ، والطلب لحقه ، والجهاد لأعدائه ؛ وأحسن في ذلك عونه فيه وبلاؤه ، وأيده في نفسه ، لم يتقصه خذلان خاذل ، ولا مخالفة من خالف ، ولم يزد أمره في شيء من ذلك إلا تماما وإحكاما ، حتى أظهر حقه ، وأفلىح مجتته ، وعحق باطل أعدائه ، وأدحض مجبهم ؛ وجعل أهل طاعته حربه الغالين ، وجنّده المنصورين ؛ وجعل عدوه وعدوك حرب الشيطان الخاسرين ، وأولياؤه الأذنين ؛ بغير حول من أمير المؤمنين في شيء مما ولّاه وأبلاه ، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

### لأبي عبيد الله

والحمد لله الذي أكرم أمير المؤمنين بما أصاب اليه من الخلافة وإرث النبوة ، وجعله القائم بأمر عباده وبلاؤه ، والمخفي لسننه ، والذائب عن دينه وحقه ، والمتأصب لأهل الشرك والإنحود به ؛ ثم نصره وأظهر فضل أيامه ودولته ، ومكن له في بلاد عدوه ، وجعل كنيته العليا وأنصاره الغالين ، ومن ناواه من أهل الخلاف الأذنين المقهورين ؛ وعرفه من نعمته في ذلك وميته وجليل صنعه وعادته ، أحسن ما عود أحدا من أولياؤه الذائنين عن الإسلام وأهليه ؛ حمدا متتابعا لا انقطاع له ولا أنصرام ، دون بلوغ حقه ، وقد كان كذا وكذا .

### ما يكتب به في المخالفين في وقت الهزيمة

نكصوا على أديارهم منكوبين مهزومين ، قد ضرب الله وجوههم ، وقت في أعضادهم ، ومنع الأولياء أكاثهم ؛ فقتلوه في كل فج ، وعلى رأس كل تلة ومهرب ومسلك ؛ أباد الله خضرأهم وغضرائهم ، وحصد شوكتهم ، وفل حذهم ، وأبأخ نيران ضلالتهم وكفرهم ، وشق منهم الصدور ، وأدرك منهم الإحرن ؛ وقفل المسلمين أموالهم وفرارهم ، وجعلهم لهم حولا وعبيدا ، وأوزهم أرضهم وديارهم ، وأحل الله بهم من الباس والثقة والجأحة



والظهور والعلبة جزاء من الله لمن أخذ إلى المصيبة وآبى غير سبيله المسلوك . وكذلك يفعل الله بالقوم الظالمين ، ويستدرجهم من حيث لا يعلمون ، إن الله لا يخلف الميعاد . ثم أنزل الله عز وجل من صار إلى الأمصار منهم هرباً ، وأعتصم بالحصون ، وتعوذ بالجلال ، ولاد بالقلع ، ولبأ إلى الأودية ، من صيأ صيهم ، وأمكن من نواصيهم ، واستخرجهم من أوزارهم ومعاقلهم ومتعوذهم ، وأخذ أسيراً ذليلاً منكواً خائفاً قد نصب الوجع قلبه وملا الرعب صدره ، متوقفاً أن ينزل الله به من القهات والمثلثات مالا مرد له عن مثله من القوم الظالمين ، وفشت في الكفرة الجراحات ، وعضت السيوف ، وشرعت فيهم الفنا ، وهزتهم نار الحرب ، وغالط التزل ، ومارسهم الأبطال ، واستحق فيهم القتل ، فصبرهم الأولياء أحسن صبر ، فلم يطيقوا بالموت مراماً ولا على الحرب مقاماً .

#### في صفة الخالعين

الناصبين لدين الله ، المكذبين بآياته ، الجاحدين رساله ، الجاحطين معه إلهاً ، لا إله إلا هو ، لطول مدتهم ، وشدة شوكتهم ، وصعوبة مرامهم ، وقطعهم السبل وأتاهتهم الحارم وسفكهم الدماء التي أوجب الله على من سفكها بنير حلتها وأقترف وأحتمل وزرها ، ألم العذاب وشديد العقاب ، فأبوا إلا تمادياً في ضلالتهم ، وعتوا في طغيانهم ، وثبوتاً على عصيانهم ، ومقاماً على كفرهم ، لأعدائه السالفة ، وغوائله المتقدمة ، وبوائقه المشجعة ، فوقف ميلاً بين نكل التقدم وحقيقة الاصطلام في التأخر ، دعاهم إلى الفينة والمراجعة والإجابة وقبول الأمان والدخول في الطاعة ، آستظهاراً بالهجة عليهم ، ورجاءً لصنع الله فيهم . فلما بلغهم نزول فين معي ، جمع أصحابه ، وضم جنده ، وتحزز في معسكره ، وخذلق على منزله ، وأحقرس بجبهده ، فأثقت معسكرى ، وأنا مع ذلك في كل يوم أوجه رُسل وأدعوه إلى حظته ، من طاعة أمير المؤمنين والدخول في أمانه ، وأعلمه أن له نظراً ممن عظم الطاعة ، وسيفه الجماعة ، وقد ركضوا في الفتنة عمرهم وسعوا فيه دهرهم ، فانتشر خبرهم ، وكثر تبعهم ، وكبر وزرهم ، وثقل وقهرهم ، ثم أذعنوا لطاعتهم ، وأستقلوا

ناهضين من عَثَرَتِهِمْ ، ومتعشين من زَلَّتِهِمْ ، ففُفِرَتْ ذُنُوبُهُمْ ، وَقِيلَتْ تَوْبَتُهُمْ ، وَفُسِحَ لَهُمْ فِي أَمَانِهِمْ ، وَشُرُفَتْ مَازِلُهُمْ ، وَاسْتَبَدَّلُوا بِالْخَوْفِ أَمْنًا ، وَبِالذِّلِّ عِزًّا ، فَأَبَى بِمِيلِ الْهَوَى ، وَظَلَبَةَ الشَّقْوَةَ ، وَاسْتَعْلَى الْغَوَايَةَ ، وَالْقَدْرَ الْمَحَارِبَ ، وَالْقَضَاءَ الْمَحْتَوَمَ . وَتَقَدَّمَتْ فِي مَوَاقِفِهِمْ وَتَرَفَّعَتْ فِيهِمْ ، وَالْأَخْذَ بِالْمُخَنَقِ مِنْهُمْ ، مَنْ غَيْرَ قَتَالٍ ، وَلَا تَنَاوُلِ سِلَاحٍ ، وَلَا تَنَاوُسِ صِيَالٍ <sup>(١)</sup> ، وَعَرَضَتْ عَلَيْهِمُ التَّوْبَةُ ، وَدَعَوْتُهُمْ إِلَى الْإِنَابَةِ ، وَأَعْطَيْتُهُمُ الْأَمَانَ ، وَأَعْلَمْتُهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ قَبِلُوا حِمْدَتَهُمْ ، وَأَعَدَّتْ نَارَ الْحَرْبِ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ ، وَإِنْ أَبَوْا إِلَّا تَمَادِيًا فِي غَيْبِهِمْ وَنَكْوَاصًا عَلَى شِقَائِهِمْ ، وَلَيْتَ مَنْاجَتَهُمْ وَعَرَفْتُ مِنَ اللَّهِ الْخَلِيقَةَ فِي مَحَارِبِهِمْ ، وَأَسْتَعْتَهُ عَلَيْهِمْ وَأَسْتَكْفِيَهُ أَمْرَهُمْ ، وَرَجَوْتُ حَسَنَ عِلْدَتِهِ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَمْثَالِهِمْ . ثُمَّ وَجَّهْتُ الْأَوْلِيَاءَ فَغَضُّوا نَحْوَ عَسْكَرِهِمْ لِيَلَاوِهِمْ مُتَفَرِّقُونَ فِي رِحَالِهِمْ ، مُغْتَرِفُونَ فِي أَوْطَانِهِمْ ، قَدْ آمَنُوا خَدْعَ الْحَرْبِ وَمَكْرَهَا وَمَكِيدَتَهَا ، وَوَقَعَةَ الْبَيَاتِ وَهَوْلَهَا ، إِلَّا طَائِفَةً مِنْهُمْ أَهْلَ عَدَدٍ وَعُدَّةٍ ، وَبِأَسَافِهِمْ قُوَّةٍ ، اتَّخَذُوا اللَّيْلَ جِهْلًا ، وَسَرَّوْا نَحْوَنَا يَرْجُونَ غَيْرَنَا وَيَأْمُكُونُ غَفْلَتَنَا ، فَوَقَفَ جُنْدُنَا بِمَكَانِهِمْ آخِذِينَ أَهْبَتِهِمْ ، مُمْسِكِينَ بِالطَّاعَةِ فِيمَا بِهِ أَمْرُهُمْ ، فَاسْرَعَتْ إِلَيْهِمْ مِنْ أَعْدَائِهِمْ طَائِفَةٌ فَدَفَعُوهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَنَالُوهُمْ بِمِحْرَاحَاتٍ مَعَ قَتْلِ مَنْهُمْ عِنْدَ تَنَاوُسِهِمْ ، ثُمَّ نَكَبُوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ ، وَرَجَعُوا الْقَهْقَرَى عَلَى أَعْقَابِهِمْ إِلَى الْبَاقِينَ مِنْ سَرِيَتِهِمْ ، فَاسْتَنْجَاشُوهُمْ فَاجَاهَمُ بِالْمَكَانِفَةِ وَالْمَوَازِرَةِ ، وَأَقْبَلُوا بِمِجَنَّتِهِمْ وَحَنَقِهِمْ حَتَّى حَمَلُوا حِمْلَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، وَضَاقَ الْقَضَاءُ وَطَارَتْ أَفْنَدَةُ جُنْدُنَا رُجْبًا مِنْ حَمَلَتِهِمْ ، وَبَلَّغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ مِنْهُمْ ، إِلَّا طَائِفَةً قَلِيلَةً مِنْ لَوَاخِ الْحَرْبِ وَمَوَاضِي رَوَاحِظِهَا وَأَشْيَالِ لَيْدَتِهَا ، تَزَيَّنُوا بِالطَّاعَةِ فَأَمَّا حَسَنُ الْعَاقِبَةِ ، وَنَصْرُوا الدِّينَ ، فَوَرَقُوا بِالْمُتَكِبِينَ ، اسْتَدْبَوْا إِلَيْهِمْ ، وَوَقَفُوا لَهُمْ ، وَازْدَادُوا بِصِيرَةٍ فِي أَمْرِهِمْ ، وَفَعَالًا وَجِدَالًا فِي أَجْتِهَادِهِمْ وَبِجَاهِدَتِهِمْ ، فَتَبَتُوا قَائِمِينَ بِالْقَسْطِ فِي أَحْوَالِهِمْ ، قَائِلِينَ بِالْعَدْلِ فِي أَمْلَانِهِمْ ، يَسْأَلُونَهُمُ الْكَرَّةَ بَعْدَ الْكَرَّةِ ، وَيَعِدُّونَهُمُ الْعَلْبَةَ ، وَيُؤْمِنُونَهُمُ السَّلَامَةَ ، وَيُضْمِنُونَ لَهُمُ الْغَنِيمَةَ ، فَضَاوُوا إِلَيْهِمْ ، وَرَجَعُوا إِلَى الْحَقِّ لِقَاءَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ ، فَشَانَعُوا سَاعَةَ الْفَتَى

(١) الصيال مصدر صال على قرنه : سطا عليه .

بعد تراميهم إرشاقاً ، بالسهم فلما رأى أعداء الله جحشهم ، وعرفوا صدقهم ، وخافوا حشدهم ،  
نكصوا على أعقابهم ، يريدون التفات بمسكرهم ، وتحرك أصحابنا في طلبهم ، ورجعوا سوء  
الصباح لهم ، فامنعوا في أثرهم ؛ فلما أحسوا الفساق أعطوهم الضمة ولووا إلى ديارهم  
لا يلوى قريب على قريب ، ولا ذورحم على حبيب ؛ ونالهم القتيّ ففسرتهم ، وعظمت  
هائمهم السيوف فكشتمهم ، وحيل بينهم وبين الدخول من باب مسكرهم ، فأخذوا في غير طريقه  
منهزمين ، قدفل الله حشدهم ، وقُلل كثرتهم ، وقتل عاقبتهم ، ورجع أصحابنا إلى معسكر أعدائهم  
بعسد التشريد والتفريق بجماعتهم ، فأحاطوا بهم في آخر ليلتهم ، فلما رأوا غفلتهم ، وأمنوا  
غيرتهم ، وانهزوا مكان الفرصة منهم أحاطوا بهم وهم نائمون ، فازون غافلون متفرقون ،  
فوضعوا السلاح فيهم ، ضرباً بالسيف ، وطعنا بالرمح ، وضرباً بالأعمدة ، وذبحوا بالشفار ،  
لا يشؤون من جرحوا ، ولا يُقيفون من كلوا ، غير مدفوعين ولا ممنوعين ، حتى آثنت  
السيوف ، وتحطمت القتيّ وأندقت الأعمدة ، وكَلَّت الشفار ، وبقيت منهم عدة يسيرة  
وشرذمة قليلة ممن لم ينله القتل ، فأخذوا أسرى ، وأوثقوا حديدًا ، وكَبَلُوا قيودًا ، وكان  
أول رأس أثنى بخبره بشيرهم وأسرع به إلى فو المعرفة منهم رأس عدو الله المسارق<sup>(١)</sup>  
الباغي ، الشاق لعصا المسلمين ، ملأني رئيس ضلاتهم ، وقائد جهالتهم ، ومستغوى  
جماعتهم ، ففرقه بجليته ونعته وصفته في عدد كثير من رموس قواده وأهل الفتنة وأئمة  
البدعة ، فلم يلبثوا إلا ريثما تصدعوا في كل جبل وتجر ، منهزمين هارين ، لا يستطيعون لما  
أتاهم من عذاب الله دفعا ولا منعا يأيد ولا قوة ؛ ولا يلجئون إلى دكن وعصمة ، قد نشئت  
بهم نظامهم ، وفارقهم وجوههم وأعلامهم ، فأخذهم أسرا قمرًا قدمهم نصب ، وملأ  
قلوبهم الرعب وتخزمتهم الوقائع ، ونخبتمهم الهزائم ، وتحيفهم القتل ، وغلَب الله عز وجل  
لأمير المؤمنين على حصنه الذي كان مُناف عزّه ، وموضع متعته في نفسه ، وجمعت عدته ،  
ومادة قوته ، ففوزوا عساكرهم ، وأقشعوا عن حصنهم يتبع آخرهم أولهم ، متحيرين متلذذين ،

(١) في الأصل : «عظيم» . (٢) في الأصل «رأس عدو الله» :

أذلة خاسرين، فنفقوا لا نظام لهم ولا جامع لشتاتهم، فلما استحوذ القتل فيهم، وقُذت  
الطراحات في عامتهم، وطاحتهم الحرب بكلكتها، وألما وقع حديد أنبيائها ومساخرها،  
قذف الله الرعب في قلوبهم وزلزل بهم أقدامهم، فوَلَّوْا منزمين مغلولين، وركب المسلمون  
أَكْثَافَهُمْ، يقتلونهم في رهوس جبالهم، وخلال غياضهم، وبطون أوديتهم، ومقاصي  
تلاعهم، وفي كل ناحية من نواحيهم، حتى عجز الليل دونهم، وأعجزوهم هربا في معاقلهم.

### وفي العصاة

حتى إذا ظن أن قد عزَّ بضلَّاله، وتحصن بمعاقله، وأستكمل قواه، وكَنَفَ تدبيره،  
وجلا إلى مانع منه ودافع عنه، عطفَت عليه عواطف الحق بأولياء الحق وأنصاره،  
ناقضين ما أبرم، ومتداولين ما سَدَّ، ومتوقِّلين إلى غيِّه بصائرهم، وإلى باطله بحققهم، فاستتَرَلَّ  
عن موضع عزِّه قسرا، وأمكن الله أوليائه أسرا؛ سنة الله فيمن عَسَدَ عن سبيله، وأخذ  
في دينه، ومرَّقَ عن الطاعة وثائقها، وأستبدل بالحق ومنهاجه، ولن تَجِدَ لسنة الله تبديلا،  
ولن تَجِدَ لسنة الله تحويلا، ولن تَجِدَ من دونه مُتَّحِدا ولا نصيرا؛ حتى إذا تراءى الجمعان  
تبرا الشيطان من حربه، وأرهق الله باطلهم بحقه، وجعل الفلج والظفر لأولى الحزبين به،  
بذلك جرت سنة الله في المأزمين من خلقه، وذلك ما وعد من تمسك بأمره وطاعته.

### وفي مدح قواد الجيوش وصفة الأولياء في أحوالهم

لما بَلَا من طاعته، وأختبر من نصيحته، ومُنَّ نقيته، وشَدَّة شكيته، وصحة  
عزمته، وصدق نيته، وقُتِل وطاَته على أعداء الله وأعداء الدين والمسلمين، وعلمه بمراوضة  
الحرب وممارستها، ومكايده الأعداء ومواقفتهم فيها، فشمر تسمير أهل الحسبة وحسن الظن  
بأهله من غير وثية ولا فترة ولا بقاء جد ولا اجتهاد، راجيا أن يُجْحِجَ الله سعيه، ويُفْلِحَ  
حجته، ويظهره على عدوه من الاستقلال الذي حمله، والاضطلاع بما أسند إليه، والاستئثار  
لسيرته، والآتياء إلى أمره، والقبرل لأذيه، والخفوف بما يستنفضه له من حروبه وأمره مثل  
الذي جعل عند فلان: يفضِّلهم بطوله، ويعطوهم بحاسنه، ويتقدّمهم بحسن بلائه وعتابه،

ومواقفه ومساعيه، لم يختبره أمير المؤمنين في جميع خصاله إلا وجده عند الاختبار والتحصيل سالكا لمناهجه، قابلا لأمره، متبعا لأثره، ساميا بهيمته إلى أقصى الغايات وأعلى الدرجات، حتى صار عند أمير المؤمنين مقدما في القدر والرتبة، مخصوصا بالمرتلة والرفعة، يرى ذلك قليلا في كثير ما وجب بطاعته ونصيحته، فبارك الله عليه وليا ظهيرا . فأقدموا متوكئين على الله مسلمين لأمره صابرين على ما نالهم من الألاء والجهد والتعب وكلب الشتاء وحارة القيظ، وصعوبة المأرم من أعداء الله الكفرة، يرجون نصر الله ويحجز ما وعد الصابرين والمجاهدين في سبيله من الطغر والنصر والقبلة على عدوهم، توحد به من نصرهم وأعزهم أن كان الله عز وجل تكفل لأوليائه بالنصر والعز والحيطة، وجعل حسن العاقبة لهم، وكُتبت من حادهم وأخذ إلى المصيبة والكفر والأسر، ليكونوا بذلك عظة ونكالا لمن أمهله الله منهم، ولتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، والله عز وجل حكيم، أعظمهم غنا، وأحسنهم بلاء، وأشدهم صولة، وأقسامهم نكاية، وأنهم سريرة، وأمضاهم عزية، وأربطهم جاشا، وأصدقهم بأسا، وأملأهم للأقران، وأرعاهم لوثائق الإيمان، وأشدتهم تحديبا على السلطان، فأزره بهم، وحصن أطراف خلافته بأيديهم، فكفوه المهمل وقاموا بدونه بالعلم، غير مستطيلين بقاء، ولا متعرضين لطلب جزاء، قد تعيدهم الوفاء، وضوا بقربة الولاء، فأنب الله جعل آباءه أعلاما في الطاعة يهدون إليها وأولئك قادة إلى سبيل النصيحة يمسك المناهجون بآثارهم فيها، باقيا على كثر الأيام ذكر مساعيمهم، وزائفة على تصرف الأيام حقوقهم، ويأديا للعيون حميد أفعالهم، لا تنصم الأخبار عن سالف لهم إلا وصلوه بمحادث، ولا يتقدم لهم من بلائهم أول إلا أتبعه آخر. ففلان يجري في أمره على منهاج قد أوصوه له، ويسلك في الطاعة طريقا قد سبأوا له مذاهبه، ويمسك بعرا وثيقة قد رأى آثارها على من تقلده، والله محمود . ولم يزل الله يعترف أمير المؤمنين في كل ما أسنده إلى فلان من أعماله وقلده من أموره، المبالغة في قضاء الحق عليه وبن الثبينة فيما يتولاه، والاجتهاد في كل ما تفر به من الله وحليفته . وأمير المؤمنين يحمد الله على ما يخصه

به من نعمته، وإياه يستعين على قضاء حقه، إنه سميع قريب . فإن كتابك ورد على أمير المؤمنين بما لم يزل يتطلع إليه منك ويؤمله عندك، ويرجو أن يوفقك الله فيه لرشدك، ويؤثرك منه بحفظك، للذي كان يبلغه وينتهى إليه من خبرك، في أحوالك وتصرفك في خصال الخير، وتشقك في درجتها، مساميا لأهل الفضل في مراتبهم، مترينا بصالح أفعال الملوك في قصد سيرتهم، وحسن طريقهم، ولين أكافهم . لحقق الله ظنه بك، وأجاب دعاءه لك، وبلغ بك أمنيته، وأعطاه فيك رغبته . وكنت فيما هديت له بالقيادك إليه راغبا، ودخولك فيه محسبا، مستوليا على أسنى الأمور مؤونة، وأفضلها ذخيرة، وأعلاها درجة، وخيرها عاقبة، وأعمها سلامة، وأمنها كهفا، وأبقاها شرفا، وأعدلها حكما، وأطولها سلما، مستحقا بذلك على الله عز وجل زيادة الملك فيها، وبهاء الثروة، وأنيسا ط القصرة، وأتساح المملكة، وظهور القلبية وعز النكبين، والنصرة في الدار التي حبيت فيها بقليل ما ترجو أن تصير إليه من ثواب الله عز وجل وحسن مجازاته بالنعيم المقيم في دار الأبد، ومحل الأبد، بما لا يبلغه إحصاء، ولا يكون له انتهاء، وملاؤه فرحا وأبتهاجا، وسرورا وجذلا، ورجاء لك من الله عز وجل حسن عونه وتوقيفه أن يقلب لك حل حفظك، وأن يأخذ إلى هواه بقلبك ويجعل فيما عنده رغبته، وإلى ذلك سموك وهمتك . وليس ينفك أمير المؤمنين مقتفرا فيك أثرا يحمد، ومتصفقا بخير يبهجه، ومستعدا نعمة من الله عز وجل يرجو اتصالها وأتساقها لديه بك، حتى يتناهى إلى الدرجة العليا، والغاية القصوى، فيما ينبغي<sup>(١)</sup> من أجتثاث أرومة الفسقة وقطع دابرهم . وبالله الثقة والحوال والوقوة، متوقفا من الله فيما فارقه من جهاد عدوه أتم مصادق وعد القامين بحقه، الصابرين في جنبه، وأحسن ما أبلى، ذاتنا عن حريم، ومحصنا آليضة، ومدافعا عن ملة، فشمس شاريا لله نفسه، طارعا عنه لباس الغفلة، متجافيا عن مهاد الوطأة، وليس تسخه الخلة والوحشة على من كنت قريبا منه، ولا يتمتع لأمر المؤمنين طرف أنت فيه، ولا أمر يعين عليه ويتمسك بسبب من أسباه .

(١) يماض في الأصل والسياق يقتض ما أتهناه .

## وصف الأولياء في الكتب

وصار أهل السُّمُو إلى الدرجة العليا، والاعتصام بالعروة الوثقى، من أولياء أمير المؤمنين وشيعته، مُشْرِحةً صدورهم بمكانته، مُنْبِطَةً أيديهم بمعاونته، وقسم لأمر المؤمنين من أولياء دينه وأئصاره، قَوْمٌ آزرهم بالنصر، وَكَتَفَهُم باليقين، وَأَلْفَ بصائرهم على الحق، وَأَيَّدَهُم بِمُؤَيَّدَاتِ التقوى، فَلَمَّا أَمَرَهُم أَطَاعُوا أَمْرَهُ، وَلَمَّا فَرَضُوا فِي ذَاتِ اللَّهِ طَاعَتَهُ، فَضِلَّ اللَّهُ نَصْرَهُمْ وَتَمَكَّنَتْهُمْ، فَجَاهَدُوا مُجَاهِدَهُمْ، مُسْتَبْصِرًا مُحْتَسِبًا، وَقَامَ قَائِمُهُم بِالْحَقِّ عَلَيْهِ مُخْلِصًا مُحْتَسِبًا، وَقَادَتْهُمْ طَلَائِعُ الدِّينِ وَدَوَاعِيهِ أَرْسَالًا قُدُّمًا، فَاتَّبَعُوا سَبِيلَهُ لَا نَاكِثِينَ عَنْ إِقْدَامِ، وَلَا مُتَوَقِّفِينَ عَنْ آرْتَابِ، وَلَا مُتَبَيِّبِينَ، مَعَ دَخَالَتِهِمْ وَبَصَائِرِهِمْ، صَدُوا وَلَا عَنَادًا، طَالِبِينَ بِنَارِ الدِّينِ بُغَاةً، وَبَطَوَائِلِ الْإِسْلَامِ عِدَاةً : مِنْ صَنُوفِ أُمَمِ الْكُفْرِ وَرَدَّةِ النِّفَاقِ وَأُتَمَّةِ الْمُلْحَدِينَ، مُتَقَلِّدِينَ لِلْحَقِّ وَنُصْرَتِهِ، وَلَئِنْ تَمَّ الْحَقُّ بِهِمْ وَمَضَى، وَلَئِنْ مَعَ الْحَقِّ مَنْ نَكَّثَ عَنْهُ بِالنَّسْتِهِمْ وَأَيَّدِيهِمْ، حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَعَاقِلَ الشُّرْكِ وَأُتَمَّةً، وَأَنَاحَ الْبَاطِلِ وَأَرْكَانَهُ، وَأَعْلَامَ الْبِدْعِ وَأَتْبَاعَهَا، فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَنِعْمَةً، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، إِنْ هَزَنَتْهُمْ قَطَعُوا قَطْعَ الْحُسَامِ، وَإِنْ أَجْرَيْتَهُمْ فِي عَظِيمَةٍ وَقَعُوا بِالْجِيَادِ، وَإِنْ اسْتَغْنَيْتَ دَامَ الْغَنَاءُ لَكَ عَنْ جَمِيعِ الْعَامِلِينَ، كَانُوا رَصْدًا لَكَ فَوْقَ أَهْلَاقِ الْحَاسِدِينَ .

## مَا يُقَرَّرُ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَوَائِرِ الْكُتُبِ

ليُعرفوا موقعَ نعمِ الله عند أمير المؤمنين، بِحُوطِهِ بِهِ فِي أَوَائِرِهِ، مِنَ النَّصْرِ وَالتَّمَكُّنِ، وَعَلَى أَعْدَائِهِ مِنَ الْوَقْمِ <sup>(١)</sup> وَالتَّوْهِينِ، وَيُشْكِرُ اللَّهُ عَلَى النِّعْمَةِ فِي ذَلِكَ، إِنْ الشُّكْرُ مُحْصَنٌ لِلنِّعَمِ، وَأَمَانٌ مِنَ الْغَيْرِ، لِيَتَحَلَّوْا مَوَاقِعَ النِّعْمَةِ عَلَيْهِمْ، فَيَا جَمِيعَ اللَّهِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ كَاتِبَتِهِمْ، وَبِحُوطِ مَنْ حَرَّمَ بِهِمْ، وَيُجَلُّ مِنْ بِأَسَدِهِ وَنِقْمَتِهِ بِنِ صَدَفٍ عَنْ سَبِيلِهِ وَحَاطِلِ تَشْتِيتِ جَمَاعَتِهِمْ وَتَوْهِينِ حَقِّهِمْ، وَيَقَابِلُونَ ذَلِكَ بِمَا تُرْتَبِطُ بِهِ نِعْمُهُ، وَيُسْتَنْزَرُ حَزِينُهُ .

سعيد بن حميد

ليشكروا الله على ما منح خليفته من هؤلاء المذاق الخارجين من جماعة المسلمين، فإن الشكر أمان من الغير ومادة للزهد .

### ٣ - التهاميد في أواخر الكتب

تحميد لسعيد بن نصر في آخر كتاب فتح له

الحمد لله المعز لدينه، المظهر لحقه، المؤيد لأوليائه، الصانع للإسلام وأهله، الناصر لطيفته، الحافظ لما أستحفظه، المتوحد بالنعمة عليه فيما حمله .

تحميد لإبراهيم بن العباس في آخر كتاب فتح

فالحمد لله المزيل لما يهدد المظلون، ويمكز به الماكرون، ويكبد به الملهدون، تمكيناً لعبده وخليفته، ودباً عن دينه وحقه، وإظهاراً لأوليائه وحزبه، وإمضاء لعزائمه وقدرته، منها قادراً، ومُغنياً ممهلاً، عدلاً إذا استدرج، متفضلاً إذا أنعم، حمداً يُستترزل به نصره، ويُبلغ به وضوئه، ويُتقى بمثله فواضل مزريده .

تحميد في فتح لإبراهيم بن العباس

والحمد لله بجميع محامده التي تُحمد بها، على جميع آلائه وجميل بلائه، فيما ولي به خليفته، ونصر به دينه، وأقام به حقه، وأعز به وليه، وقمع به من ألدّ عن سبيله، حمداً يؤذى حق نعمته، ويوجب به أفضل مزريده بمنه وطوله .

تحميد لأبي عبيد الله في آخر كتاب

فالحمد لله على ما يحدث لأمر المؤمنين في دولته وسلطانه، ولعامة المسلمين من صنعه وكراماته، في جسم الأمور ولطيفها، وخاصها وطامها، بما يجعله للنعمة تامة، وعلى ما يحل بعدوه من بأسه وقوارعه، ويوقع بهم من جوارحه وأستقصاله، ما يكون لموعوده إنجازاً، حمداً يبلغ رضاه ويستوجب مزريده .



## تمجيد آخر

الحمد لله الذي تَمَّ لأُمير المؤمنين نعمته ، وأكَل دعوته ، وجعل العاقبة فيه لمن أختاره لخلافته ، وردَّ إليه من شدَّ عنه من رعيته ، وأتى أمير المؤمنين بصنعه على حدِّ نيته وقدر أمنيته ، ولم يُفِضْ رأيه ، ولم يُخْلَفْ ظنه ، حمدا كثيرا دائما بما يزكو عنده فيقبله ، ويرفع إليه فيبلغ رضاه ، حمدا يكون لأُسبغ نعمه جزاء ، ولأُفضِّل إحسانه كِفَاءً ، ولأُزيد من فضله وإحسانه موجبا ، وإلى أعلى الدرجات عنده مؤذيا ، وللخلود في جتته وسيلة وسببا .

آخر :

الحمد لله الذي جمع لأُمير المؤمنين ما حَبَّاهُ بمزية نصره وتمكينه وإعزازه وتأيدته ، وإظهاره على من ناوأه وصدَّ عن حقه ، وصنَّف عن طاعته ، ووفَّقهُ لاختصاص فلان بما وَكَّلَهُ إليه وعصبه به من أعباء أموره وجلال أعماله ، وأجرى بفلان وعلى يديه وبركته ومساعدة جَدِّه ومُؤَيِّن طائرته ، من نتائج الفتح ، وتواتر النصر ، وإقبال الصنع ، وإعلاء الحق وإنارته ، وإزالة الباطل وإبادته ، حمدا يؤدِّي حقه ، ويرى عزه ، ويميز من أحسن <sup>(١)</sup> مزيده ، بكرمه وجوده .

آخر :

الحمد لله الذي أكرم أمير المؤمنين بالخلافة ، وخصَّه بالإمامة ، وقلَّده من أمور عباده وبلاده ما تولاه بكفائته وكلامته وتأيدته وحياطته ، حمدا يوجب المزيد من فضله .

## ولإبراهيم بن العباس

الحمد لله الذي أنجز وعده ، ونصر عبده ، وأيد جنده ، وجعل فتوح أمير المؤمنين شرقا وغربا مشفوعة بين إقامة حق وإدالة باطل وإزالة عائد وإبادة عائد وإقالة مستقيل .  
ويسأل الله أمير المؤمنين ، مسألة العبد سيده ومولاه رغبة إليه متذللا له أن يصلِّي أفضل صلواته عنده على أكرم أنبيائه .

(١) سقطت في الأصل كلمات ثابتتنا ما يقوم مقامها .

## دعاء أمير المؤمنين في الكتب والدعاء له

وأمير المؤمنين يسأل الله ربه ووليه ، أن يكشفه فيما حباه وأستحفظه عليه بأفضل تأييده وأعز نصره ، وأن يهب له مع كل نعمة يمجدها له حارسا من شكرها ، يتابع به أفضل مزيده ، فإن النعمة منه ، والشكر بتوفيقه ، والمزيد لمن شكره .

وأمير المؤمنين يسأل الله ربه وربكم وولّى النعم عليه وعليكم ، أن يلهم وإياكم أداء حقّه وشكر نعمته وحده عليها ، ويطوّقه وإياكم أفضل الأعمال وأرضاها عنده وأشدّها استيعابا لما وعد الشاكرين من مزيده ؛ إنه سميع قريب .

وأمير المؤمنين يسأل الله الذي ولّاه خلافته وأعلامه بها ، أن يطوّقه ما حله ، ويلهمه العدل بين رعيته ، ويلهمهم نصيحته وطاعته ، ويصلح أمرهم به في ولايته وخلافته . ويرغب إلى الله الذي آتاه بنصره ويمكن له بغير حول منه ولا قوة ، أن يلهم وإياكم شكره وذكروه وخشيته ، ويشمله وإياكم بطاعته ومَرْضَاتِهِ ومحَبَّتِهِ ، وأن يعزّفه وإياكم الزيادة في نعمه والنصر على عدوّه والتمكين في بلاده ؛ إنه ذو فضل عظيم .

والى الله يرغب أمير المؤمنين في إعانتته على نيّته وتبليغه منتهى سؤله وظاية همتهم وإعزاز دينه وإذلال من صدّ عن سبيله ؛ إنه سميع قريب . وأمير المؤمنين يسأل الله الذي دلّى على الدماء تطلّوا وتكفّل بالإجابة حتّى ، فقال : ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أن يجمع على رضاه ألفتكم وأن يصل على الطاعة حبلكم ، وأن يمتنع بأحسن ما عودكم من منّته ، ويؤزّعكم عليها من شكره ما يواصل لكم به مزيده ، وأن يكشفكم كيد الكاذبين ، وحسد الباغين ، ويحفظ أمير المؤمنين فيكم ، أفضل ما حفظ به إمام هدى في أوليائه وشيعته ؛ ويجعل عنه ثقل ما حله من أمركم ؛ والله يستعين أمير المؤمنين على ما ينوئ من جزائكم بالحسن ، وتحليمكم على الطريقة المثلى ، وبه يرضى لكم ناصرا ووليا ، وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا .

ويسأل الله أمير المؤمنين ، أن يُجسّن على صلاح نيّته وعونه ، وأن يتولّاه فيما استرعاه ، ولا يهّج جامعة ، لصلاح ما قلّده ، إنه سميع قريب .

ويسأل الله أمير المؤمنين الذي بيده مفاتيح مقاديره وفواضله ، أن يوصل أفضل صلواته على أفضل أنبيائه ، وأن يجعل ما أذخر لأمر المؤمنين إلى دولته وخلافته ، وجابه به من وسائل الخير عنده ، أن يجمع إلى أحسن توفيقه لما يرضى من شكره وحسن معونته على ما أصلح له به ، فإنه شاكر يحب من شكره ويوجب لمن وفق لشكره مزيداً منه وطولاًه وفضله وإنعامه ، إنه جواد كريم .

ويسأل الله أمير المؤمنين مبتدئاً ومُعقِّباً وأولاً وآخراً ، وقبل كل مسألة ، وأمام كل رغبة ومُقَدِّمة كل طلبية ، أن يوصل على صفوته من عباده وخير خلقه وخاتم أنبيائه ورسوله ، عده عبده ورسوله ، أفضل صلواته ، وبإياديه عليه أكثر بركاته ، وأن يديم له كرامته ، ويجري عنده على أجمل عاداته ، وأن يتم له ما أختصه به من إحسانه ، حتى يملأ الأرض عدلاً وقسطاً ، والإسلام تأييداً وعزاً ، والشرك ذلاً وقملاً ، إنه ولي نعمته ومُنْتهى كل رغبة ، وغاية كل حاجة ، وهو على كل شيء قدير .

وأمر المؤمنين يقول : الحمد لله طاعة لأمره ، واعتصاما من الفتنة بشكره ، واستدامة لبعثه المترايدة عنده ، إنه سميع قريب .<sup>(١)</sup>

وأمر المؤمنين ، سأل الله السامع كلام من جهر ، والعالم بغيب من أسر ، المطلق على صفات العباد ووسوستهم ، والمُسْتَقْدَم من إساءة رحمته ، والمُتَّقَن على من إساءة قدرته ، أن يجمع على الحق أهواءكم وينصركم على أعدائكم ويوصل ذات بينكم ولا يكلِّمكم في موطن من مواطن اللقاء ، والتحاكم والتناجز ، إلى أنفسكم ، ويكشفكم ويخفي بكم إنه سميع قريب .

### الدعاء لأمر المؤمنين في أواخر الكتاب

ونسأل الله أن يهبنا أمير المؤمنين ما صنع له ، ويُعينه على شكر ما أولاه ، إنه ولي ذلك وإنا إليه فيه راضون والسلام .

(١) في الأصل المائل ، وما أثبتناه صحيح .

ولسه :

ونسأل الله أن يَهَبَ أمير المؤمنين الكراماتُ التي يُنَابِعها ، والنعمُ التي يَظَاهرها عليه ،  
والفتوحُ التي جعلها في خلافة ، وولايته ودولته ، ويَسببُ له من المعرفة بحقه في ذلك والشكر  
له بحسن بلائه فيه ، ما يبلغ أعظم رغبة وأقصى أمنية ، من ذخائر الخير وفضيلة الأجر  
وحسن الثواب في الدنيا والآخرة .

أَسأل الله لأَمير المؤمنين في غابر أموره ، أحسنَ ما عَوَّده في سالفها ، من السلامة التي  
حرس بها من المكارِه ، والعزَّ الذي قهر له به الأعداء ، والنصر الذي مَكَّن له في البلاد ،  
والهدى الذي وهب له به المحبة ، والرفق الذي أدت له به الحلب ، والاستصلاح الذي  
أنسقت له به الرغبة ، حتَّى يَكُونَ بِها إعطاه من ذلك ، وما هو مُستَقْبِل به ، أبعد خلفائه  
ذكرا ، وأبقاهم في العدل أئرا ، وأطولهم في العمر مُدَّة ، وأحسنهم في المعاد مُتَقَلِّبا .

أَسأل الله لأَمير المؤمنين نعمة لا تزول ، وكرامة لا تنفد ، وعزا لا يضام ، ونصرا  
لا يفلب ، وكفاية ينظم بها جميع الصلاح ، حتَّى لا يَكُونَ بِأَوَّل من ذلك أسعد منه بآثر ،  
ولا بفاض أمره منه بمستقبل .

أَسأل الله لأَمير المؤمنين في عاقبة كلِّ نعمة أفضل ما وهب له في عاجلها ، حتَّى يجعل  
كلَّ نعمة أنعم بها عليه ، وكرامة حازها له ، موصولةً بانتمام ، محوطةً بالحفظ ، مكلَّوةً من الغير ،  
ممدودةً الى طول غايات البقاء ؛ لا يشوب صفوها كدر ، ولا سلامتها فير ، ولا سرورها  
تنفيس ؛ وهما الله أمير المؤمنين الظفر ، وأدام له عادة النصر والتمكين الموضح ، ومُجْتَمِع  
المُدْحِقَة بحجة أعدائه ، والقلبة المظهرة لحقه ، المُجْتَاحَة لمن خالفه ؛ ثم لا يرحم نعمة الله  
راحة بمنله في الأولياء نصرا ، وفي الأعداء إبادة ، وفي الناكثين تنكيلا .

سرا لله أمير المؤمنين بما أهدى له من كفايته ، وساحطه به من منته ، وأيده به من  
نصره ، وجعله وما أسطره من دينه وسلطانه ، في كنفه الذي لا يُسْبَاح وتحت يده المسانعة  
وجنّاحه المحفوظ .

أدام الله لأمر المؤمنين السرور بما يُقْدَى به عيون أعدائه في تمكينه وتوحيدهم، ونَصْرِهِ وخِذْلَانِهِمْ، وإِعْزَازِهِ والمُجَاهِدَةِ لَمْ يَزَلْ نِعْمَةً اللهُ تَرْبِدُهُ فِي قُوَّةِ الظَّفَرِ، وَعِزَّةِ النِّصْرِ، وَتَقْصِيدِهِ مِنْ آفَاقِ الْأَرْضِ بِالْبِشَارَاتِ وَالْفَتْوحِ، حَتَّى تَمَلَّأَ لَهُ مَا بَيْنَ طَرَفَيْ مُلْكِهِ أُنْتَا وَعِزَا، وَيَمَلَأُ بِهِ قُلُوبَهُ أَعْدَائِهِ خَوْفًا وَرِعْبًا، وَيَعْتِمِدُ عَلَى خِلَافِهِ سَطْوَةً وَسَيِّدًا .

### أحمد بن يوسف

وَهَذَا اللهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ نِعْمَةً، وَمَلَأَهُ كِرَامَتَهُ، وَأَوَّلَى لَهُ قُتُوْبَهُ، وَأَدَامَ إِعْزَازَهُ، وَتَوَلَّى حِيَاطَتَهُ وَكَفَايَتَهُ، فِيمَا دَنَا مِنْهُ وَمَا طَابَ عَنْهُ، وَأَطَالَ بِقِيَامِهِ وَالِامْتِنَاعِ بِهِ .

### مختار ما كتب من باب التهاني في كل فن

#### تهنئة خليفة بظفر

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَمَعَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَعَ الْعَلَّةِ الْمُجْتَمِعَةِ، وَمَعَ الظَّفَرِ الْمَعْدَرَةِ، وَجَمَعَ لِعَدُوِّهِ مَعَ الذِّلِّ السَّطْوَةِ، وَمَعَ دُخُوضِ الْجُمُعَةِ النُّكَالِ؛ فَلَمْ يَجْعَلْهُ وَالنَّاكِثِينَ مَوْطِنًا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ، إِلَّا جَعَلَ الْجُمُعَةَ عَلَيْهِمْ فِيهِ، وَلِسَانُ الْعَذْرِ فِيهِ مَعَهُ، وَيَدُ الظُّهُورِ فِيهِ لَهُ؛ ثُمَّ وَهَبَ لَهُ عِنْدَ الظَّفَرِ مِنَ الشُّكْرِ، وَعِنْدَ الْقَلْعِ مِنَ التَّوَاضُعِ، وَعِنْدَ الْقُدْرَةِ مِنَ الْعَفْوِ، مَا جَعَلَهُ مُسْتَوْجِبًا لِمَا أَصْبَغَ بِهِ، مُعَزِّفًا بِأَنَّ الْعَذْرَ مُنْقَطِعَ مَنْ نَكَبَهُ، وَأَنَّ مُسْتَرَادَ الْجُمُعَةِ وَمَطْلَبُ السَّلَامَةِ، فِي التَّمَسُّكِ بِطَاعَتِهِ وَمَنَاصِحَتِهِ، وَالْمُجَاهِدَةِ دُونَهُ .

وفي مثله :

أدام الله لأمر المؤمنين السرور بما يُقْدَى به عيون أعدائه .

وكتب إبراهيم بن المهدي إلى المعتصم يهنئه بخروجه عن أرض الروم

#### بعد فتح عمورية

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي تَمَّ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ غَزْوَتُهُ، فَأَذَلَّ بِهَا رِقَابَ الْمُشْرِكِينَ وَشَقَّى بِهَا صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ؛ ثُمَّ سَهَّلَ اللهُ لَهُ الْأَوْبَةَ سَالِمًا غَانِمًا، وَكَلَّا وَكَلَّا؛ وَلَيْبَسَتْهُ مَا كَتَبَ اللهُ لَهُ، عَمَّا

أحصاه فلا ينساه، ليقفه به موقفا يرضاه، فإنه عز وجل يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ الآية، فطوى الله لأمير المؤمنين نازح البعد بزا وبجرا، ووقاه وصب السفر سهلا ووعرا، وحاطه بحراسته كالنار، ودافع عنه بحفظه راعيا، حتى يوديه الى المحل من داره، والوطن من قراره، وجزاه عن الإسلام خاصة، وعن رعيته كافة، بخبره مستخلفا عليهم، وقائما مقامه فيهم هروث ابن أمير المؤمنين؛ فقد استخلفه رقيقا شقيقا، حليما وقورا، يقظان ساكنا؛ لم يشتد عليه امر، ولم ينتشر عليه طرف، ولم يضع معه سبيل، ولم يستخط وليا مكافا، ولاعدوا مخالفا، بلا سيف أشرعه، ولاسور أفرجه؛ فمثل جزاء أمير المؤمنين في تحيئه إياه، بخزائه الله على ما حفظ من وصاته، على محمود مقامه، إنه يجيب الداعي.

وكتب أحمد بن يوسف الى عبد الله بن طاهر

يهتته بظفر

بلني - فتح الله عليك - خروج ابن السري اليك، فالحمد لله الناصر لبيتنا المزدلولية وخليفته على عبادته، المذل لمن صد عن حقه ورغب عن طاعته؛ ونسال الله أن يظهر النعم ويفتح بلدان الشرك به؛ والحمد لله على ما والاك منذ طمنت لوجهك، فإننا نتذكر سيرتك في حربك وسامك، ونكثر التعجب لما وفقت له، من وضع الشدة والليان بوضعهما، ولا نعلم سائر جند ولا رعية عدل بينهم عليك، ولا عفا بعد القدرة عن أسفه وأضعفته عفوكم.

تهنئة خليفة بجحج

أصالح الله أمير المؤمنين وأراه من الزيادة في نعمه، ما يكون تماما لما ابتدأه به من فضله؛ والحمد لله على ما خص به أمير المؤمنين من كرامته، وأعطاه من الفضل في نيته، وجعله يستعين على دينه، بما بسط له في دنياه، ويحل على بدنه التصب فيما يتقرب به اليه؛ فيجفرو عن دعتيه على لينها، ويشخص عن طمأنينته على فضلها؛ إشارا لآخرته، وأداء لحق ربه؛ بادره بذلك ليكرم به، ثم يستعمل فيه نفسه، تقربا اليه، فيسعد به بالإذن

في ذلك حين كان من الله له ، وبالعَمَل فيه حين كان لله منه ؛ فيكون قبوله الخير حين يعرضه له ، دليلاً على قبوله الخير عنه حين يعمل لربه ؛ وكان من ذلك ما إذن الله لأُمير المؤمنين في زيارة نبيه صلى الله عليه وسلم العام ، وموافاة مشاعره العظام ، في وقتها من الأيام ، التي لا توافي إلا معها . ولا تكون مناسكة إلا فيها ؛ فكتب الله له في ذلك الآثار الصالحة والأعمال المبرورة ، فدخل في الإحرام له بتعظيم حقه ، ونزع منه بقضاء نسكه ، أجراً عقده الله عليه في آتباته ، ثم آتته له باستيفائه .

### ولمحمد بن مكرم تهنئة لحاج

بَلَّغَكَ اللهُ الرِّضَا فِي أَمَلِكَ مِنْ مُجِيعِ كُلِّ حَاجَةٍ وَإِبْلَاحِ كُلِّ أُمْنِيَةٍ ، وَتَقَبُّلِ كُلِّ دَعْوَةٍ خَصَّصْتَ بِهَا نَفْسَكَ أَوْ عَمِمْتَ بِهَا أَحَدًا مِنْ أَهْلِكَ ، فِي جَمَاعٍ وَقَوْدَةٍ ، وَمُعْتَرِلِ قَرَارَةٍ ، فَكُنْتَ شَافِعًا مِنْ شَاهِدِكَ ، وَوَافِدًا مِنْ غَابِ عَنكَ ، يَسْتَفْتِحُ بِدَعَاكَ ، وَيُرِيحُ بِرُكَّةِ مُحَضَّرِكَ ، وَالْقُرْبَةَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِفَضْلِ جَاهِكَ .

### تهنئة بولاية

رَبِّى مَا أَحْدَثَ اللَّهُ لَكَ مِنَ الْوَلَايَةِ ، لَنَا خَاصًا وَإِلَيْنَا وَاصِلًا .

آخر :

وَلَمْ تَحْطَفْنِي النِّعْمَةَ إِذْ أَصَابَتْكَ ، وَلَمْ تَتَعَذَّنِي إِذْ دَخَلْتَ بَكَ ، وَلَمْ أَخُلْ مِنْ لَازِمِ شُكْرِكَ ، وَمَا يُنْفِلُكَ اللَّهُ مِنْهَا ، إِذْ قُلْدَتْهَا ، اعْتِدَادًا بِكُلِّ مَا طَوَّقْتُ مِنَ الْيَمْنِ ، وَإِيصَابًا عَلَى نَفْسِي مَا حَلَمْتُ مِنَ الشُّكْرِ .

### ولسعيد بن حميد الى بعض إخوانه

مَرَّرَكَ اللهُ بِتَنَاجِيهِ نِعَمِهِ ، وَتَرَادُفِ إِحْسَانِهِ ، وَزَادَكَ مِنْ فَوَاضِلِ أَقْسَامِهِ . بَلَّغْنِي — أَكْرَمَكَ اللهُ — مَا وَهَبَ اللهُ لَكَ مِنْ سُلْطَانِكَ ، فَقَوَّكَ اللهُ عَلَى مَا اسْتَرْكَكَ . وَرَزَقَكَ الشُّكْرَ عَلَى مَا أَوْلَاكَ .

وفي مثل ذلك :

أكل الله لك السعادة ، وزادك في الكرامة ، وخصّصك بدوام النعمة . بلغني ما وهب الله لك من سلطانك ، فسررت به ، وسألت الله إتمام نعمه عليك فيه بتأييدك ، وتوفيقك للعدل في سيرتك ، وعزّس المحبة لك في قلوب رعيّتك ، وأن يُعينك عليه ، ويرزقك السلامة في الدين والدنيا .

وله في مثله :

أنا أهني بك العمل الذي وليته ، ولا أهنئك به ، لأن الله أصاره الى من يُورده موارد الصواب ، ويصدره مصادر الخيرة ، ويصونه من كل حلال وتقدير ، ويُضيقه بالرأي الأصيل ، والمعرفة الكاملة ، قرن الله لك كل نعمة بشكرها ، وأوجب لك بطوله التزيد منها ، وأوزعك من المعرفة بها ما يصونها من الفتن ، ويحوطها من النقص .

آخر :

قد وليت من العمل ما أسأل الله عز وجل أن يرزقك بركة بدنه وعاقبته ، ويعطيك الرضا ممن وليت له وعليه .

آخر :

هناك الله هذه النعمة المقبلة ، الدالّ أولها على تمامها ، وأوزعك شكرها .

آخر :

أسعدك الله بهذه الولاية وجعلها مباركة ، تنتقل بظل السلامة منها ، وتبيل الكفاية فيها الى أملك بنهايته ورجائك بنهايته ، ووزعك السلامة ممن وليت له وعليه .

آخر :

سرّك الله بما جدد لك من هذه المتزلة ، وقمعك بهذه الولاية ، وأرضى عنك من وليت له ومن وليت عليه .



## وكتب محمد بن مكرم الى أحمد بن دينار :

نحن من السرور أيسر الأمير بما قد استفاض من جيل أثرك فيما نل من أعمالك ،  
 وذكرك إياها بحزمك وعزمك ، وأنتياشك<sup>(١)</sup> أهلها من جور من ولهم قبلك ، وسرورهم بتناول  
 أيامك والكون في ظل يدك وجناحك ، في إهانة من تحضه ونعمه نعمتك ، وتحول به  
 الحول حيث حالت بك ، فالحمد لله الذي جعل العاقبة لك ، ولم يرد علينا آمالنا فيك  
 منكوسة ، كما ردها على غينا في غيرك . ولوددت أن أباك كان عاين آثارك هذه ومنذيك ،  
 وإن كان الافتراق لم يقع بينكما حتى علم أنك خلفه ، وألقى اليك بأمره ومعاقد نفسه ،  
 وجعلك موضع اختصاصه وأثرته ، وصرف ذلك عن كان لا يستحقه ، ودم سالف رأيه  
 فيك وفيه وسد آثره ، ثم نعمة اتصلت لك بما قبلها ، انتظمت بها أمورك فاعتدلت ،  
 وتلاحمت عليها وآسقت ، ما منحت في كاتبك ، ومستقر نفقتك ، وحامل أعبائك ، من  
 الكفاية والنصيحة ، ووضعه عن قلبك مؤونة التهمة والقص لأثره ، وإدخاله راحة الطائفة  
 اليه وروح الثقة به ، لا كما اجتلي أخوك ، فإنه صحبه نفلط عليه أمره ، وأفتى أسرارها الى  
 صاحب بريده ، فأنفل ذلك بينهم ، وقطع جبالهم ، حتى تهجت آثاره مع حسنها ووضوحها ،  
 وصيرت يده من حفظ عمله ، ولزيمه الذم من أهله ، فهذه كُتبه لى ، في أطراح نصيحة له  
 كانت فيه ، ويسألنى أن أخص اليه كتابا يحل ثقله ، ويفتح له ما أرتجيه من أمره . وهذا  
 من سماعة جدك ، ويمن طائررك ، وإقبال الأمور اليك ، وسعيها على طريق موافقتك ،  
 وهبتا هناك الله نعمة خاصها وعامتها ، وأوزرك شكرها ، وأوجب لك بالشكر أحسن الجزيد فيها .

## تهنئة بعزل

كتب رجل الى مالك بن طوق لما عزل عن عمله :

أصبحت والله فاضحا متعيا : أما فاضحا فللكل وإل قبلك بحسن سيرتك ، وأما متعيا

فللكل وإل بعدك أن يلحقك .

(١) انتياشك أهلها : استفادهم .

## فصل

سواء علينا أوليت أم صُرفت، إنا لنشهد بك الولاية، بما يَسُطُّ الله من يدك ببذل العُرف، ونهنتك بالعرف بما يلحقك من ثناء ما أسلفت من الجبيل، ولا نخاف عليك أن تخارق عملا وأنت محلُّ له، ولا أن تصعبه وليس به فاقَةُ اليك. فهناك الله النعمة، وأعانك على الشكر، وأيدك بالمزيد.

## تهنئة بعزل عامل عن عمله

بإفنى صَرفك، نغار الله لك، وهناك لطيف نظره وجليل إحسانه، فإني أرى الرجل عند خروجه من العمل سالما نقياً من مآثمه ودَاسه، أولى بالتهنئة منه عند دخوله فيه، وأرى الدناء له عند بدء تلبُّسه به بالخلاص منه معصوماً بريثاً من تبعاته ورواجع آكامه، أولى بمن عُيِّيَ به وأحبَّ صلاحه، ولذلك قدِّمتُ تهنيتك.

## ولسعيد بن حميد في مثله الى بعض إخوانه :

حَفِظَكَ الله بحفظه، وأسَخَّ عليك كرامته، وأدام اليك إحسانه. إن سرورى بصرفك، أكثر من سرورى أهلك بما خُصَّوا به من ولايتك. وقد كنتُ — أعزك الله — فيما يُربأ بك عنه، بما أنت عليه في قدرك وأستبالك؛ ولكنَّا رجونا أن يكون سببا لك الى ما تستحق، فطينا نفسا بالذى رجونا. فالحمد لله الذى سلمك منه، ونسأله تمام نعمة عليك وطينا فيك، بتبليغك أملك وآمالنا فيك، وشفاعة ما كان من ولايتك بأعظم الدرجات وأشرف المراتب؛ ثم خَصَّكَ الله بجمل الصنع، وبفك غاية المؤمنين. إن من سعادة الوالى — حفظك الله — وأعظم ما يُحَصُّ به فى عمله وولايته السلامة من بوائق الإثم، ونوائب الدنيا وشرها، والعاقبة مما يُخَاف منها؛ وقد خَصَّكَ الله منها بمنة وطوله ما نرجو أن يكون سببا لك الى تَبُلِّ ما تستحق من المراتب. والله نسأل ليزاك شكرا ما من به عليك، وتبليغك غاية أملك فى جميع أمورك، برحمته وفضله.

## آخر :

ما أحسن ما كَشَفْتَ عنك الولاية، وأَجَل ما أبرز منك العمل ، قد كَسَبك الله حمد  
ولایتك وعَزَل عنك لأَعتما ، بما أَنتشر عنك من عَدْلِكَ ، وظَهَر من معروفك ، فإذا ساءك  
هذا فليَسْرُرك .

## وكتب محمد بن مكرم الى ابراهيم بن المديبر :

الحمد لله رب العالمين حمداً يَجُوزُ حمدَ الحامدين ، الذى جعل قضاءه خيرة لك ، فإن  
زادك نعمة وفَقَّك لشكرها ، وإن أَسْحَنَكَ بِلَوَى من نَفَث حاسد أو كَيْد كائد ، إنار  
برهانك وأَفْلَح مُجْتَهِدك وجمع بين وَلِيَّكَ وعدوك في الشهادة لك ، وإن نَقَلَ أَمْرًا عن  
يدك ، فرَبَّما يَرْجِعُه اليك غَنَلاً لِفَقْدِكَ . هذا الى ما جعل عندك من خواص النعم التي إن  
ذكرناها فأنطربنا أو تَجَوَّزنا فَنَقْصُرُنا ، كان غايتنا الى الحُسُور دون مَدَى غايتك . وقد زادك  
الله بهذا الحادث فضلاً عظيماً ، لما ظهر من وَلِيَّةِ العامة اليك وتعلُّمها الى ما كانت فيه :  
من لِينِ إنصافك وكَرِيمِ أخلاقك ، ووَحْشِيَةِ الخاصية لما قَدَّعَتْ من حُسن مُعاملتك وكثير  
تَفَضُّلِكَ . وأيقن أهلُ الرأى والتأمل لصفِحات الأمور ، أنَّ كُلَّ ما تَرَجَّعَ عنك فَعَسَا  
اليك وتصل به غيره ، حتى تستقر في يدك عِرا الأمور ومعاقدُها ، وتُفَضَّحَ بِرَأْيِكَ وتَدِيرَ  
أُبوأُيُهَا ومغالقُهَا ، فَلْيَهْنِكْ أنَّ كُلَّ ما زاد غيرك نقصاً زادك فضلاً ، وكلَّ ما نقص من الرجال  
وحطَّها الحَقُّ بك شرفاً . فزادك الله وزادنا منك ، وجعلنا من بَقِيَّةِ رَأْيِكَ ، ويقدمه  
أَخْتِيَارُكَ ، وَيَقَعُ من الأمور بموافقتك ، ويمرر منها على سبيل طاعتك .

## وكتب سعيد بن حميد الى بعض إخوانه :

جعلني الله من السوء والمكروه فبدالك ، وأطال في الخير والسرور بقائك ، وأتم نعمة  
عليك ، وأحسن منها مَرِيدَكَ ، ولَبَّغَكَ أَقْصَى أُنْبِيَّتِكَ ، وقَدَّمَنِي أَمَامَكَ ، وقَدَّيْفَنِي ما أَخْضَرَا لِقَائَكَ ،  
فَسُرِّرْتُ من حيث يَنفَعُ لك من لا يعرف قدر النعمة عليك ، ولا يراك بين استحقاقك .

ولئن ساءنى ما ساء إخوانك من عزك، لقد سرّنى ما سرّ الله لك . والحمد لله الذى جعل انصرافك محمودا، وقضى لك فى عاقبتك الحسنى، وأقول :

ليبتك أن أصبحت مجتمع الحمد \* ورأى المعالي والمخامى عن المجد  
وأنت صلت الأحرار فيها وليته \* ففوت ما بين الفؤاد والرشد  
فلا يحسب الباغون عزك منفا \* فأت الى الإصدار عاقبة الورد  
وما كنت إلا السيف جرد للوعى \* فأخذ فيها ثم رد الى الغمد  
وقد قال الأول :

فن يكن بورود العزل مكتبا \* فأنى يورود العزب مسرور  
بعد الولاية عزل يستبين به \* طوّل الولاة وبعد العزل تأمير

أما ما عندى مع تصور العاقبة لك فى نفسى، فيمسنى فى أحرك فى حال المحنة ما يخصنى منه فى وقت تجدد النعمة . وبحسب ضميرك الشاهد على ما عندى ما أجده لك فى نفسى . فلا زلت فى نعم متتابعة متجددة، ولا علمت الثروة والزيادة؛ وبلغ الله أقصى أملك، وأمل أخيك لك، وكبت أعداءك، وجعلنى وفاءك المقدم عنك . أحب أن تشرح لى صورة الأمر إلّا ما تأذت، وكيف كان الابتداء؛ فإنى لا أشك أنها حيلة ونية من عز صاحب الخليل القدر؛ ولها عاقبة منه إن شاء الله محمودة، وتنفى من ذلك الى ما تسكن إليه همى، إن شاء الله .

### تهنئة بتزويج وبناء بأهل

بطائر اليمين فليكن هذا البناء، وبأسباب السعادة فليتمل عقد هذا الاجتماع، وبكل ذكاه الولد، وثمره العدد، فلتجرك لك الأقدار، وفى أطول غايات البقاء فلتدُم هذه البقعة والسرور .

### تهنئة بتزويج

بلغنى تزويجك من فلانة، فبالرفاء والبنين، تهنئة السلف الصالحين، وبلغ سنة المجتهدين المتبحرين، وتقول على يمين الطائر، وسعادة الجسد، ونماء العدد، وأتفاق الهوى، وطيب

المناسحة، وأجتماع الشُّمل، وثبات الرِّيع، وتَمَلُّ النِّعم. أسأل الله الذي قضاه أن يجعلها لك سَكَنًا، ويعملك لها عَجَبًا، وأن يُؤَخِّرَ حِمَامَهَا الى آتِهَا تَنَسُّكَ عنها، وجعلك جائرًا تَرْبُهَا، ووَلَّيْتَ المالَ وهتاءة العيش وملاهة الفوائى بعدها .

### تهنئة لغسان بن عبد الحميد بتزويج

قد بلغنى بجمع الأمير أهله على الحال التي جمعهم عليها من نعمة الله عليه . فالحمد لله على كل ما يرى الأمير فيها له فيه نعمة . فأسأل الله أن يجعل الطائر في ذلك مَمْنُونًا، والشَّمل مجتمعا ، والبركة عظيمة ، والأمر سليمة ؛ وكذلك فقد عَظَّمَ الله القَسمَ منه لزوجه ، جَعَلَ الأمير سَكَنًا لها، وأجرى المودة والرحمة بينهما ، فإنه يقول عز وجل : ﴿ جَعَلْ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةَ وَرَحْمَةٍ ﴾ . فلما كان الأمير هو المنظور اليه ، وهى المنظور اليها ، اختارها الأمير لنفسه واختار نفسه لها ، وأراد الله عز وجل أن يزيداهم قَضاها في نفسها فَضْلا باختيار الأمير إياها ، واختصاص الله لها بالأمر دون غيرها ؛ فكان ذلك فضلا من الله زِينَةً بفضل، وكرامة من الله وَصَلَ بَعْضُهَا ببعض . فترغب الى الله عز وجل في أن يزيد الأمير في كُلِّ سَعَةٍ مبسوطة، ونعمة مقسومة، ويعطيه في ذلك شكرا يكون لرضاه مُوجِبا، كما أعطاه فضلا كان الشكر له به واجبا ؛ ثم يَمْلِكُ الأمير ذلك بأحسن ما مَلَى أَحَدًا من خَلْقِهِ كرامةً اصطلمها عنده .

### تهنئة بمولود

كتب العباس بن الحسن الطالبي الى المأمون يهنئه بمولود له :

قد كان اجذلنى ما أحدث الله لأمر المؤمنين من الموهبة التي ليس، وإن كان أولى بها من غيره ، بأعظم فيها حظًا من رَعِيَّتِهِ . فعمّر الله لك يا أمير المؤمنين قلوبهم بنور الحكمة وأبصارهم حتى يَسُدَّ بهم عَضْدُكَ ، وَيُسَدَّ بِهِمْ ثُلُوكُكَ، وَيُلْقِيَهُمُ الغاية المأمول لهم بلوغها بعدك، غير مُقَعَّد بك مهل ، ولا مُحَلَّ بك أَجَل ، ولا مُكَذَّبَك أَهْل ، ولا مُنْقَطعة أيامك، حتى تُحْتَرَمُ أَنْفُسًا قبلك .

وكتب أحمد بن يوسف الى بعض إخوانه يهته بمولود له :

بارك الله في مولودك الذي أنالك، وهنالك نعمته بعطيشه ، وملأك كرامته بفائدته ،  
وأدام سرورك بزيادته ، وجعله باراً تقياً ، مميّزنا مباركا زكياً ، ممنودا له في البقاء ، مُبْلِغاً غاية  
الأمَل ، مشدودا به عَضْدُك ، مُكْتَثِّراً به وَلَدُك ، مُدَاماً به سرورك ، مدفوعاً به الآفات عنك ،  
مشغوعاً بأكثر العدد ، من طيب الولد .

وله في مثل ذلك :

هنالك الله هذه الفائدة التي أفادكها ، وبارك الله في الهبة التي رزقكها ، وشفعها بإخوة  
متواترين ، يَسُرُّوكَ في حياتك وَيُخَفِّفُونَكَ في عَقَبِكَ .

تهنئة بمولود

كتب رجل الى رجل يهته بمولود :

جُعِلَتْ فِدَاهُ . للبقاء مولودك ، في السناء نباته ، وفي الثمن شبابه ، وصل البركة ميلاده .

تهنئة بمولود

كتب الحسن بن سهل الى ذى الرياستين :

إنه ليس من نعم الله ، وفوائد قسّمه — وإنْ خُصَّ موقعها ووجب شكرها — نعمةٌ تعدل  
النعمة في الولد ، لنماها في العدد ، وزاداتها في قوة العضد ، وما يُتَعَمَّلُ به من عظيم بهجتها ،  
وُربى من باقى ذكرها في الخُلوْف والأعقاب ، ولاحق بركتها في الدعاء والاستغفار . وإن  
الله قد أفادك وأنالك غلاماً ميريّاً ، سَمَّيته فلاناً ، فكان ميلاده عند فتح الله على أمير المؤمنين .  
فرجوت أن تكون موافاته بالنصر الذي أظهرنا الله به على عدو الدين والمسلمين من دلائل  
بركته ويُمْنه ، وشواهد سعادته والسعادة به . فبارك الله لأمر المؤمنين في طارف نعمه  
وتالدها ، وشَقَّع له قديم منته بمجاشها ، ورزقه ذكوراً طيبين مهذّبين ، يأنس بهم ربعة ،  
ويتصل بهم نجاحه ، ويصلحهم ذرية زاكية ، وبقية صالحة .

آخر :

بلغنى الذى وهب الله لك ، فجعله الله ذخرا سليا ، وعقبا كريما .

عَمْرُو بْنُ مَسْعَدَةَ إِلَى الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ

أما بعد ، فات هبة الله لك هبة لأمر المؤمنين ، وزيادته إياك فى عدده لمهلك عنده  
ومكانك فى دولتك من دولته . وقد بلغ أمير المؤمنين أن الله وهب لك فضلا سريا ، فبارك  
الله لك فيه ، وجعله بازا تقيا ، مباركا سعيدا زكيا .

تهنئة بمولود

الحمد لله الذى رضى منا يسير القول عند عظيم النعمة ، حمدا نستوجب به بقاء هذه  
الموهبة للبناء والفائدة ؛ فات نعمة الله وإن كانت لم تزل متتابعة ، فقد كان ما يقبض الأمل  
منا ذكر أفراد الأمير بنفسه وقلة نسله ، وما لا يؤمن من انقطاع الذكر بغوات الأجل ،  
ومن دثور الأنام ، بواقع الحزام ، وقد أصبحنا من الله من يدين فى فُسحة المهمل ، ومده  
مواقع الأجل ، لمن أراد فيه موضع أملنا فى حسن الخلافة من الأمير وإحياء ذكره .

تهنئة بمولود

سرورك سرور يحصى منه ما يحصى ، وتلبنى فيه النعمة ما تلبسك ، والحمد لله على  
النعمة فيك وعندك .

كتب أحمد بن يوسف الى بعض إخوانه يهنئه بمولود :

أما بعد ، فقد بلغنى من متجدد نعم الله عز وجل عليك ، وإحسانه إليك فيما رزقك  
من الهبة ما أشتد جذلى به ، وسالت الله أن يشفعه بأمثاله ؛ ولذلك أقول :  
قد شفع الواحد بالوفاة \* وأرغم الأنف من الحاسد  
أبا حسين قرعينا بما \* أعطيته من هبة المساجد

قد قلتُ لِمَا بَشَّرُونِي بِهِ \* بِوَدِّكَ فِي الْمَوْلُودِ لِلْوَالِدِ  
إِنَّا نَرْجُو وَاقِدًا مِثْلَهُ \* وَالطَّائِرُ الْمِيحُونُ لَا وَافِدِ

وله الى بعض إخوانه يهتته بمولود :

أما بعد ، فإنه ليس من أمر يجعل الله لك فيه سرورا وفرحا ، إلا كنتُ به بهجًا ، أعتدُ فيه بالنعمة من الله الذي أوجب عليّ من حَقِّكَ وعِرْفَانِي من جميل رأيكَ . فزادكَ الله خيرا ، وأدام إحسانه اليكَ . وقد بلغني أَنَّ الله وَهَبَ لَكَ غلاما سريّا ، أكمل لك صُورته ، وأتمَّ خلقه ، وأحسن البلاء فيه عندكَ ، فاشتدَّ سروري بذلك ، وأكثرت حمد الله عليه . فبارك الله فيه ، وجعله بارًا تقيا ، يُسَدِّدَ عَضُدَكَ ، وَيُكثِّرَ مَدَدَكَ ، وَيُقِرُّ عَيْنَكَ .

وكتب إسحاق بن يحيى الى بعض إخوانه يهتته بابتنة له :

رُبَّ مَكْرُوهٍ أَحَبُّ مَسْرَةٍ ، وَمَحْبُوبٍ أَحَبُّ مَعْرَةٍ . وَخَالِقُ الْمُنْفَعَةِ وَالْمُضَرَّةِ ، أَعْلَمُ بِمَوَاضِعِ الْخَيْرَةِ .

كتب ابن المقفع الى صديق له ولدت له جارية :

بارك الله لك في الابنة المستفادة ، وجعلها لك زينا ، وأجرى لك بها خيرا ، فلا تكرها ، فإنهنَّ الأثمات والأخوات ، والعلمات والخلالات ، ومنهنَّ الباقيات الصالحات ، وربَّ غلام ساء أهله بعد مسرتهم ، وربَّ جارية فرحت أهلها بعد مسامتهم .

وكتب عبد الحميد بن يحيى الى أخ له في مولود ولد له وهو أول مولود كان :

أما بعد ، فإن مما أعزف من مواهب الله ، نعمة خُصِّصْتُ بِمَزِيَّتِهَا ، وَأَصْطَفَيْتُ بِخُصِّيصَتِهَا ، كَانَتْ أَمْرِي مِنْ هِبَةِ اللَّهِ وَلِدَا سَمِيَّتِهِ فَلَانَا ، وَأَمَلْتُ بِبَقَائِهِ بَعْدِي حَيَاةً وَذِكْرِي ، وَحَسُنَ خِلَافِي فِي سُرُورِي ، وَإِشْرَاكَ إِيَّايَ فِي دُعَائِهِ ، شَافِعَا إِلَى رَبِّهِ عِنْدَ خُلُوتِهِ فِي صَلَاتِهِ وَتَجَمُّعِهِ ، وَكُلَّ مَوْطِنٍ مِنْ مَوَاطِنِ طَاعَتِهِ ، فَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى شَحْضِهِ تَحَوُّكَ بِهِ وَجِدِي وَظَهَرِ بِهِ



سرورى، وتعطفت عليه منه أنه الولد، وتولت عني به وخشة الوحدة، فانا به جيل  
في متجيب ومشهدى، أحاول مس جسده بيدي في الظلم، وتارة أعانقه وأرشقه، ليس يعلله  
عندى عظيما الفوائد، ولا منفسات الرغائب، سرتني به واهبه لى على حين حاجتي،  
فشد به أزرى، وحملني من شكره فيه ما قد آذنى بتقل حمل النعم السالفة الى به، المقرونة  
سراؤها في المعجب بقدر ما يدركني به من رقة الشفقة عليه، مخافة مجاذبة المنايا إياه،  
ووجلا من عواطف الأيام عليه. فأسأل الله الذى أمتن علينا بحسن صنعه في الأرحام،  
وتأديته بالزكام، وحرسه بالعافية، أن يرزقنا شكر ما حملنا فيه وفي غيره، وأن يجعل ما يهب لنا  
من سلامته والمثقة في صمره موصولا بالزيادة، معروفا بالعافية، معوطا من المكروه، فإنه  
المثان بالمواهب والواهب بالمنى، لا شريك له. تحلى على الكلاب اليك لعلم ما سرتني به  
على بحالك فيه وشرك إياي في كل نعمة أسداها الى ولئ النعم. وأهل الشكر أولى  
بالمزيد من الله جل ذكره. والسلام عليك.

#### تهنئة بنقلة الى دار جديدة

تناهى الى تفتلك الى الدار التي أرجو أن يجعلها الله نقلة المكروه عنك، ونقلة السرور  
إليك، ودوام نعمة الله عليك. جعلها الله لك أيم دار وأعظمها بركة، ووصل نعمة فينا  
عندك ونعمة عندنا فيك.

#### تهنئة لمحمد بن مكرم الى نصراني أسلم

أنا أقول الحمد لله الذى وفقك لشكرك، وعرفك هدانيته، فطهر من الأرياب قلبك،  
ومن الإقتراف عليه لسانك. وما زالت غايلك ممتلة لنا جيل ما وهب الله لك، حتى كأنك لم  
تزل بالإسلام مؤسوما، وإن كنت على غيره مقبيا، وكذا مؤملين لى صرت اليه، شفقين  
لك مما كنت عليه، واذكاد إشفافنا يستعمل رجاءنا، أنت السعادة بما لم تزل الأنفس  
تعد منك. فأسأل الله الذى تورك في رأيك وأضاه لك سبيل رشدك، أن يوفقك  
لصالح العمل، وأن يؤتيك في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ويقيك مذاب النار.

## باب المنظوم

١ - أبو نواس<sup>(١)</sup>

كان أبو نواس ينادم ولده المهدي ويلازمهم فلم يلق مع أحد من الناس غيرهم ،  
ثم نادى القاسم بن الرشيد ولقى منه أشياء كرهها وكُرِهَتْ له ، ففارقه .

(١) هو أبو علي الحسن بن هاني ، الشاعر المخنن ، إجماع المايين ، صاحب البيت الطائر ، والشعر السائر ،  
ورأس المحدثين بعد بشر ، وهو فارسي الأصل . ولد بقرية من كورة خوزستان سنة ١٥٠ هـ ونشأ يتيماً فقدمت به  
أمه البصرة بعد سنتين من مولده ، فعمل العربية ورغب في الأدب ، فلم يمتأ به بحاله وأسلبته إلى طار والبصرة ،  
فكثت عنده لا يفتر من مائة الشعر والاختلاف إلى الأدب ، والمجان ، إلى أن صادفه عند الطار والبة بن الحباب  
الشاعر الماجن الكوفي في إحدى قدامته إلى البصرة ، فأعجب كل منهما بالآخر ، فأنجبه والبة معه إلى الكوفة ،  
فبق معه ومع قدامته من خلفاء الكوفة وتخرج طبعهم في الشعر وقافهم جميعاً . وقدم بغداد وقد أربت سسه على  
اللائلين ، فأنزل ببعض الأمراء ومدهم ، وبلغ خبره الرشيد فأذن له في مده ، فدهه بقصائد طلائع ومجسمه مرة  
على حجره مضى .

وكان يقصد بعض عمال الولايات ويمدهم ومنهم الخصب عامل مصر ، ثم أقطع إلى ملح محمد الأمين ،  
وثبت عنده بعض ما يوجب تعزيره فسبه ، ولم يلبث بعد تخرجه من السجن أن مات ببغداد .

وكان أبو نواس جميل الصورة ، فكه المحضر ، كثير الدعاية ، حاضر البديهة ، متينا في اللغة والشعر والأدب ،  
متعبا في الحياة على المخرقة . وأجمع أكثر علماء الشعر وقدرته وغول الشراء على أن أبا نواس أشعر المحدثين بعد بشر  
وأكثرهم تفتنا وأصنهم قولاً وأبدعهم عمالاً مع دقة لفظ وبدع معنى ، وأنه شاعر مطبوع برز في كل فن من  
فنون الشعر .

واعتاز عن كل لشراء بقصائده انحرافات ومقطعاته المخرجات ، وكان شعره لقاح الفساد والقذوة السيئة ، لغفه  
القول من أوصاف الخوشت إلى المذكر والتفريج بذلك عن مألوف العرب وآدابهم إذ لم يكن ذلك معروفاً قبله . وبطل  
شيطانه وأبى . وزاد على ذلك اتقارده بالإبداع في وصف الخمر فكان نموذج سوء الفن فآثر ، فافتن بشعره الشبان  
في زمانه وبسده وساكوه وظب طبعهم هذا المذهب حتى صار الشاعر لا يمسد طريقها إلا إذا مزج شعره بشيء من  
ذلك وإن لم يقع في محظوراته .

ورمضه عبد الله الجاهلي فقال : كان أغرف الناس مطلقاً ، وأحزوم أدباً ، وألدم على الكلام ، وأسرهم  
جواباً ، وأكثرهم حياة ، وكان أبيض اللون ، جميل الوجه ، طبع التمدد والاشارة ، ملتب الأعضاء بين الطريق  
'عزير القصير' ، مسنون الوجه ، قائم الأنف ، حسن العينين والمضجك ، حار الصورة ، لطيف الكف والأطراف ، وكان  
فصيح اللسان ، جيد البيان ، عذب الألفاظ ، حلو الشئال ، كثير النوادر ، وأظم الناس كيف تكلمت العرب ، =

ثم جلس أبو نواس الى الناشئ الراوية فقرأ عليه شعر ذى الرمة، فأقبل الناشئ على أبيه هائى وقال له : إن حاش أبنتك هذا وقال الشعر ليقلته بلسان شتوم .

ثم اتصل بوالية بن الحباب الأسدي ، لقيه بدار النجاشي - الأسدي - والى الأهواز للنصور، فقال له والية : إني أرى فيك عيال فلاح، وأرى أنك لا تضعيها، وستقول الشعر وتملوغيه، فأصعني حتى أخرجك ؟ فقال : ومن أنت ؟ قال : أبو أسامة ؟ قال : والية ؟ قال : نعم ؛ قال : أنا والله جملتُ فِدَاكَ في طلبك، وقد أردتُ الخروجَ الى الكوفة والى بغداد من أجلك ؛ قال : ولماذا ؟ قال : شهوة لقلائك ولأبيات سمعتها لك ؛ قال : وما هي ؟ فأنشده :

ولها ولا ذنب لها \* حب كاطراف الزمان

جرحت فؤادي بالهوى \* فالقلب مجروح النواحي

سلّ الخليفة صارماً \* هو للفساد وللصلاح

أجدها كف أبي الوليد يداً مبارية الرياح

ألقى بجانب خصره \* أمقى من الأجل المتكاح

وكأنا ذرّ الحب \* عليه أنفاس الرياح

لفضى معه، ثم سأله أن يخرج الى البادية مع وفد بنى أسد ليتعلم العربية والغريب، فأخرجه مع قوم منهم، فأقام بالبادية سنة ؛ ثم قدم ففارق والية ودجع الى بغداد .

وكان أبو نواس متكلماً جيداً راوية غفلاً، رفيق الطبع ثابت الفهم في الكلام اللطيف .

ويدل على معرفته بالكلام أشياء من شعره، منها قوله :

وذات خد مورد \* ضيّبة المتجرّد

تأمل العين منها \* محاسناً ليس تتفسد

= رواية فلا شمار ، علامة بالأخبار ، كان كلامه شمر موزون . قرئ له ١٩٩ هـ . وقد ترجمه وأخبره وأشاعره في كتاب خاص باسم « أخبار أبي نواس » لابن منظور طبع مصر سنة ١٩٢٤ والافتاح (ج ١٨ ص ٢) و (ج ٦ ص ١١٠ ، ١٧٠ ، ١٨٦) و (ج ١٦ ص ١٤٨) وابن خلكان (ج ١ ص ١٣٥) وطبقات الادباء (ص ٩٦) والشعر والشعراء (ص ٥٠١) والفرهست (ص ١٦٠) والمقد القرطبي (ج ٣ ص ٣٢٧) .

فبعضه قد تساهى \* وبعضه يتولد  
والحسن في كل شيء \* منها مُعاد مرزد  
ومنها قوله :

يا عاقِدَ القلب عني \* هلا تذكرتَ حلًا  
تركتَ عني قليلًا \* من القليل أقلًا  
بهكاد لا يَحْزَى \* أقل في اللفظ من لا

ومنها قوله في امرأة أسبها حُسن :

إن اسم سُسن لوجهها صفةٌ \* ولا أرى ذا في غيرها بُعْما  
فهى إذا تُميت فقد وُصِفَتْ \* فيجمعُ الاسمَ معنيينَ معًا

ومن قوله فيما يتعلق بالحكمة :

قل لُهيرو إذا حدَا رَشَدًا \* أقلُّ أو أكْثَرُ فانت مهْذَرُ  
مُطِنْتُ من شِلَّةِ البرودة حَتَّى صرْتُ عِنْدِي كَأَنَّكَ النَّارُ  
لا يَسْجِبُ السامعون من صفتي \* كذلك الطلجُ باردٌ حارٌ

هذا شيء أخذهُ أبو نواس من مذهب حكام الهند، فانهم يقولون: إن الشيء إذا أفرط  
في البرودة انقلب حاراً، وقالوا: إن السُّنْدِلَ يحلُّ منه اليسير فيبرد، فإذا أَكْثَر منه سخن .

قالوا : كان أبو نواس دعياً يخلط في دعوته . فمن ذلك قوله بهجو عرب البصرة :

ألا كل بصرى يرى أنما العُلا \* مُكَمَّهٌ مُخَمَّقٌ لُحْنٌ جَرِينُ<sup>لأبو</sup>  
فان تفرسوا نَحْلًا فان فِرَاسنا \* ضرابٌ وطنٌ في التحورِ تَطِينُ  
فان ألك بصرى فان مُهاجِرى \* يَمْشِقُ ولكن الحديثَ فنونُ  
مجاوِز قوم ليس يسنى وبينهم \* أو أصر إلا دعوةً وظنونُ  
إذا مادعا باسمي العريف أجبتُه \* الى دعوة مما على تَبُونُ

(١) المكهة : الفراش الكثيرة . والسحق : الطويلة ، يريد النخل . والجرين هنا : موضع مجنّف التمر .

ثم هما البين في هذه القصيدة بقوله :

لأُزِدَّ عَمَّانَ بِالْمَلْبَبِ زُرَّةً \* إذا أَصْفَرَ الْأَصْوَامُ ثُمَّ تَلِينُ  
وبكر ترى أن النبوة أنزلت \* على مِسْمَعٍ فِي الرَّحْمِ وَهُوَ جَعِينُ  
وقالت تميمٌ لا زرى أن واحدا \* كأحفنا حتى المماتِ يكونُ  
فما لمتُ قيساً بعدها في قُبَيْبَةٍ \* ونغير به إن الصغار فنوتُ  
وإنما أنشأ أبو نواس بالبصرة وليس له بدمشق قبل ولا بعد .

ومما هما به البين أيضا قوله هاشم بن حديج :

وردنا على هاشم مصره \* فبارت تجارتنا عنده

يقول فيها :

رأيتك عند حضور الخلوا \* ن شديدا على العبد والعبيده  
وتحشد حتى يضآك الجليل \* من شذالك عليه من الحده  
وتختم ذاك بغفر عليه \* يكندة فاسلح على ككنده  
فإن حديها له هجرة \* ولكنها زمن الرده  
وما كان إيمانكم بالرسول \* سوى قتلكم صهره بـمده  
تعدونها في مساعيكم \* ككمد الأهلة معنده  
وما كان قاتله في الرجال \* يحمل لظهر ولا يرشده  
فلوشهدته قريش البطا \* ح لما تحشت ناركم جهلده<sup>(١)</sup>

وقوله أيضا :

ما منك سلبى ولا أطلالها الدروس \* ولا نواطق من طير ولا ترؤس  
يا هاشم بن حديج لو عددت أبا \* مثل القامس لم يلاق بك الدوس  
إذا أصبح الملك النماط وأفده \* ومن قضاة أمرى عنده حوس

(١) الهش : فترابله من الهش .

فابتاعهم بإخاء الدهر ما عمروا \* فلم ينل مثلها من مثلهم أنس  
 أو رحت مثل حوى في مكاربه \* هيات منك حوى حين يئس  
 أو كالسومل اذ طاف الهام به \* في تحفل تحب الأصوات يرتجس  
 فاختار ثكلاً ولم يشدر بدمته \* إذ قبل أشرف تر الأوداج تنجس  
 ما زاد ذلك على تيه خُصصت به \* وكيف بتبديل غير السوء القرس  
 وقوله :

يا هاشمُ بنَ حَديجٍ ليس نغفرُكم \* بقتل صهر رسول الله بالسِّدِّ  
 أدجتم في إهاب العير جتته \* فبئس ما قدمت أيدىكم لعد  
 إن تقتلوا ابنَ أبي بكرٍ فقد قُتِلت \* مُجرأً بدارةً ملحوبٍ بنو أسيد  
 وطردوكم إلى الأجيال من أجا \* طرد النعام إذا ما تاه في البلد  
 وقد أصاب شراحيلاً أبو حنيس \* يوم الكلاب فما دافعهم بيد  
 ويوم قستم لريد وهو يقتلكم \* قتل الكلاب لقد أبرحت من ولد  
 وكل كندية قالت لجارتها \* والدمع ينهل من مقي ومنفريد  
 ألقى امرأً القيس تشبيبً بغاية \* عن ثاره وصفات النوء والويد  
 وقد رنى أبو نواس خلفاً الأحمر بعد موته بقصائر من شعره، منها قصيدته التي أولها  
 وقوله :

لو كان حي واللاً من التلث \* لو ألت شفوؤه في أعل شفع  
 أتم فرج أحزته في بلف<sup>(٢)</sup> \* مرغب الألفاد لم يا كل بكف  
 كأنه مستعقد من النمرف \* هاتيك أو عصمه في أعل شرف  
 تزوغ في الطبايق والتزعج<sup>(٣)</sup> الألف \* أودى جماع العلم مذ أودى خلف

(١) واللا : تاجيا . ورائت : جلات . والشوواء : الغياب . وروس الجبال :

(٢) الجلف : العارفي الجبل . ومرغب : صار ذا زغب، وازغب مسفار الریش . والألفاد جمع لعد بالضم

وهو لجة في الحق . (٣) الطبايق والتزعج : نوطان من الشعر .

من لا يَعدُّ العلمَ إلا ما عَرَفَ \* قَلِيْدُمُ من العِيَالِمِ انْشُسَفَ  
كَمَا مَتَى نَشَأُ مِنْهُ نَفْسَتِرِفَ \* رَوَايَةُ لَا تُجَنِّي من الصَّحَفِ  
ومنها قوله يرثيه :

لَا تَقُلْ الْمَمُومُ في المَضَابِ وَلَا \* شَفَوَاهُ تَقْدُو فَرْخَيْنِ في بَلْفِ  
يُكْنِهَا الحِوُّ في النَّهَارِ وَيُو \* وَيَهَا سَوَادُ الدَّبَجِ إِلَى شَرَفِ  
تَحْنُو بِجُؤْشُوْشِهَا<sup>(١)</sup> عَلَى صَرِيمِ \* كَفَيْدَةُ الْمُتَحَنِّي من الحَرْفِ  
وَلَا شَبُوبَ بَاتَتْ تَرْوَاهُ النَّشْتَةُ مِنْهَا بِوَابِلِ قَصِفِ  
دَائِنِ عَلَى الْأَرْضِ وَالْوَصِيدِ وَفِي \* بَيُّوْ أَمِينِ الْإِيَادِ ذِي هَدَفِ  
دِيدَنُهُ ذَاكَ طَوَّلَ لَيْلَتِهِ \* حَتَّى إِذَا أَنْجَابَ حَاجِبُ السَّنَفِ  
غَدَا كَوَقَفَ الْمَلُوكُ يَنْهَضُ السَّقِطُ<sup>(٢)</sup> مِنْ مَنِيْبِهِ وَالْعَكِيفِ  
كَأَنَّ شَدْرًا وَهَتْ مَعَاقِدُهُ \* بَيْنَ صَلَاةِ الْمَلْعَبِ الشَّنَفِ  
وَأَخْدَرِي صُلْبِ النَّوَاهِقِ صَلَاحِ<sup>(٣)</sup> أَمِينِ الْفُصُوصِ وَالْوُطُفِ  
مَنْفَرِدٍ فِي الْفَلَاةِ تُوسِمُهُ \* رِيًّا وَدَا يَحْتَلِيهِ مِنْ عَلَفِ  
مَا تَرَكَ الْمَوْتَ مِنْ أَوَّلِ شَجَا \* بَادَتْ بِتِلْكَ الْفَلَالِ وَالشَّنَفِ  
لَمَّا رَأَيْتُ الْمَنُوتَ آخِذَةً \* كُلَّ شَدِيدٍ وَكُلَّ ذِي ضَمَفِ  
بَتْ أَعَزَّى الْفَلَوَادِ عَنْ خَلْفِ \* وَبَاتَ دَمْسِي إِلَّا يَفِضُ يَكِيفِ  
أُنْسَى الرِّزَايَا مَيْتٌ لِحُفَّتْ بِهِ \* أُمْدَى رَهِيْنِ السَّرَابِ فِي جَدَفِ

- (١) القليلم : البئر الفزيرة . والعياليم : جمع علم وهو البئر الكثيرة الماء . وانظف جمع غنم ينفه  
وهي البئر التي حفرت في جادة فتبع منها ماء غزير لا ينقطع . (٢) ابطلشوش : الصدر . والضم :  
فرخ العقاب . (٣) الشيوب : الشاب من الفيران والغنم . والثرّة : منزلة من منازل القمر .  
(٤) الوصيد : بيت كالخليفة يتخذ من الجادة لئلا أي الغنم وغنمها في الجبال . والإياد : التراب يجعل حول  
الحوض أو أنشياء يقوى به أو يمنع ماء المطر . والهدف : كل منقطع من بناء أو كتيب يدل أو جبل .  
(٥) ينهض : يتساقط ويتنفض . والسقطة : الحمار الصغير أو المتتابع العظيم القنطرة أو لى حودن الرذاذ وابل  
الهدو أو صغاره .

كَانَ يُسْنَى بِرَفَقَةٍ عُلْفًا \* فِي غَيْرِ عِيٍّ مِنْهُ وَلَا عُنْفٍ  
يُحِبُّ عَنْكَ الَّتِي عُشِّيتَ بِهَا \* مِنْ قَبْلُ حَتَّى يَسْفِكَ فِي لَطْفٍ  
لَا يَبْهَمُ الْحَاءَ فِي الْقِرَاءَةِ بِالْخَا \* وَلَا لَامَهَا مَعَ الْأَلِفِ  
وَلَا يُعْصَى مَعْنَى الْكَلَامِ وَلَا \* يَكُونُ إِشَادُهُ عَنِ الصُّحُفِ  
وَكَانَ مِنْ مَعْنَى لَنَا حَلْفًا \* فَلَيْسَ مِنْهُ إِذْ بَانَ مِنْ خَلْفٍ

واختلف أبو نواس الى أبي زيد فكتب النريب من الألفاظ، ثم نظري نحو سيويه،  
ثم طلب الحديث فكتب عن عبد الواحد بن زياد ويحيى القطان وأزهر السَّانِ وغيرهم،  
فلم يتخلف عن أحد منهم، وأدرك الناس فعمل، ثم قديم بغداد بعد ذلك .

وكان أيضا يتنزه ويُدعى للغزديق . ثم وقع بينه وبين الحكم بن قنبر المازني، فهجاه  
الحكم وذكر برة المود وبقي عليه وتكبه . ولما قال أبو نواس قصيدته التي يهجو بها  
خنيف، وهي :

أَلَمْ تَرَيَنَّ عَلَى الظَّلَلِ الطَّيَّاسَ \* عَفَاهُ كُلُّ أَحْمَمٍ ذِي أَرْجِيحَاسٍ <sup>(٢)</sup>  
وَذَايِ الرَّبِّ مُرْتَكِمٌ حَصَاهُ \* نَسِيجِ الْمِيثِ مِمْتَقَةِ الدَّهَاسِ <sup>(٣)</sup>  
سَوَى سَفْعِ أَعَارِثِهَا اللَّيَالِ \* سَوَادِ اللَّيْلِ مِنْ بَعْدِ أَغْبَاسِ <sup>(٤)</sup>  
وَأُورِقِ حَالِفِ الْمَشْوَاةِ هَابِ \* كَضَاوِي الْفِرَاحِ مِنَ الْهَلَّاسِ <sup>(٥)</sup>  
مَنَازِلُ مِنْ عُقْبَرَةٍ أَوْ مُلَيَّي \* أَوْ الدَّهْمَاءِ أَخِيَتْ بَنَى الْجِمَاسِ  
كَأَنَّ مَعَاوِدَ الْأَوْضَاحِ مِنْهَا \* بِجِيْدِ أَغْنِ قَوْمَ فِي الْيَكَّاسِ  
وَيَقِيمُ عَنْ أَهْرَ كَأَنَّ فِيهِ \* مُجَاجَ سُلَافَةٍ مِنْ بَيْتِ رَاسِ <sup>(٦)</sup>  
فَإِنْ نَا مَبْلَغٌ حَمْرًا رَسُولًا \* فَضْدَ ذَكْرَتٍ وَدَلَّكَ غَيْرَ نَاسِ

- (١) سناه تسنية : مثله رفته . (٢) طلاس بالكسر : داورس . والأهم : السحاب . والاريجاس :  
الزعمد . (٣) المقة : جبل في الرمل .  
(٤) الاغباس : يماض فيه كدرة . والسفع : يرد بها الأفاعي . (٥) الهلاس : الضمور وهاب :  
لونه لون الهباء . (٦) بلدة بالشام تسب إليها الخمر .



فلم أَهْرُكْ هَجْرِيَّ وَلَكِنْ \* نَوَائِبُ لَا نَزْلَ لَهَا تُعَاسَى  
 نَوَائِبُ تَمِيزُ الْأَدْبَاءَ عَنْهَا \* وَبَيَّاهُ دَوْنَهَا اللَّيْنُ النَّطَاسَى  
 وَقَدْ نَلَقْتُ عَنْ أَحْسَابٍ قَوْمِ \* هُمْ وَرَثَةُ مَكَارِمِ ذِي نُوَّاسِ  
 فَإِنْ تَكُ أَوْقَدْتَ لِلْهَرَبِ نَارَ \* فَأَعْطَيْتُ خَوْفَ الْحَرْبِ رَاسِي  
 سَأَلَنِي خَيْرَ مَا أَيْلَى مُحَايِمِ \* إِذَا مَا النَّبِيلُ الْيَمِّ بِالْقِيَاسِ<sup>(١)</sup>  
 وَتَمَتَّتِ الْوَائِلِيَّتُ بِهَا قِرَابَتِ \* بَيْنَ وَتَمَّتْ رَهْطُ أَبِي فِرَاسِ  
 وَقَالَتْ كَاهِلٌ وَبَنُو قُضَيْنِ \* حَتَّى تَكُ إِنْسَانًا لَنَا بِنَاسِ  
 فَا بِأَلَى النَّجَاجِ تَمَّتْ بَشْتِنِي \* وَفِي زَمْعَاتَيْنِ دُمُ الْفِرَاسِ  
 وَمَا حَامَتْ عَنْ الْأَحْسَابِ إِلَّا \* لَسْتُ تَرْفَعُ ذِكْرَهَا بِأَبِي نُوَّاسِ

عارضه الحكم وهياه ، فانقلب على الترابية وأدعى أنه من حاء وحكم ، فجزه يزيد بن منصور الجهمي خال المهدي وقال له : أنت خوزي ، فالك ولحاء وحكم ! فقال له : أنا مولى لهم ، فتركوه ، وقال بعضهم لبعض : إنه لطريف اللسان غزير العلوم فدعوه ، وبهذا الولاء يتمصّب لنا ويكابد عنا ويوجو الترابية ؛ فكان كما قالوا وكما غلنوا ، فانقلب الى اليمن وصلّ عن كنيته بأبي فراس واكتفى بأبي نواس ، تشبهاً بكنية ذى نواس كما كانت اليمن تكتفى ، وندم على هياه ايمن ، ووجدتهم له أنصروا ولدعوته أقبل ، فاعتذر الى هاشم بن حديج الكندي من هياهه ، ومدّح اليمن فقال :

أهَاشِمُ خَدَمْتَنِي رِضَاكَ وَإِنْ أَتَى \* رِضَاكَ عَلَى نَفْسِي فَفَسِّرْ مُلُومَ  
 فَأَقْسَمُ مَا جَاوَزْتُ بِالشِّمِّ وَالِدِي \* وَصِرْخِي وَمَا مَرَقْتُ فَيَرَّ أَدْيِي  
 فَمَسَدْتُ بِمَقْوَى هَاشِمٍ فَأَذْنُ \* كَرِيمٌ أَرَاهُ فَوْقَ كُلِّ صَكْرِي  
 وَإِنْ أَمَرْتُ أَغْضَى عَلَى مِثْلِ زَلَّتِي \* وَإِنْ جَرَحْتُ فِيهِ لِيَحْدُ حَلِمِ  
 تَطَاوَلَ فَوْقَ النَّاسِ حَتَّى كَانَمَا \* يَرَوْنِ بِهِ تَجَمُّ أَمَامَ مُجُومِ

إذا امتازت الأحساب يوما بأهلها \* أتاخ الى مادنية وصمم  
الى كل معصوب به التاج يقوى \* اليه أيا دى عامي وتمم

وكان قبل أن يفتي لليمن ويدعى لزار يتماجم في شعره، فن ذلك قوله :

فاسقنيها وغن صو \* نأ، لك الخليل، أعجبا  
ليس في نص دمنية \* لا ولا زجر أشاما

وكان الجاحظ يقول : ما أعرف لأبي نواس شعرا يفضل هذه القصيدة وهي :

ودار ندأى عطلوها وأدبوا \* بها أترمنهم جديد ودارس  
مسايب من جر الزقاق على الترى \* وأضفأت ربحان جنى ويا بس  
حبست بها صهي بختدت عهدهم \* وأنى على أمثال تلك الحابس  
ولم أدر منهم غير ما شيدت به \* بشرق سابط الديار الباس  
أقنا بها يوما ويوما وثالثا \* ويوما له يوم الترحل خامس  
تدار علينا الراخ في صعيدية \* حبتها بأنواع التصاوير فارس  
قرايتها كسرى وفي جنباتها \* مها تويها بالقوى الفوارس  
فألخمر ما زرت عليه جيوها <sup>(١)</sup> \* ولما ما دارت عليه القلائس

وقوله يصف كرمه وعبر عنها بالهجمة وهو يريد الدنان :

لنا هجمة لا يدرك الذئب نخلها \* ولا راعها نزو الفمالة والخطر  
إذا امتنحت ألوانها مأل صفوها \* الى الكت إلا أن أوبارها خضر  
وإن قام فيها الحالبون أقتهم \* بتجلاء ثقب الجوف دزتها انخر  
مسارحها الغرى من نهر صرصر \* فططر بل فالصالحية فالمتسر

(١) يعنى أن الخمر مصبوب فيها الى حلق الصور صرفا . وقوله : « ولما » يعنى أنهم صبرا الماء في مزجها حتى

علا روعها .

تَرَأْتُ أَبَى سَاسَانَ كَسَرَى وَلَمْ تَكُن \* مَوَارِيثَ مَا أَهَتْ تَسْمُ وَلَا بَكَ  
قَصَرْتُ بِهَا لَيْسَى وَلَيْلَ ابْنِ حُرَّة \* لَهُ حَسْبُ ذَلِكَ وَلَيْسَ لَهُ وَفَسُرُ  
وَفِي تَعَاظِمِ أَبِي نَوَاسٍ فِي شِعْرِهِ يَقُولُ الرَّقَاشِيُّ يَهْجُوهُ :

بَنَاطِي فَأَذَا قِيلَ لَهُ \* أَنْتَ مَوْلَى حَكِيمٍ قَالَ أَجَلُ  
هُوَ مَوْلَى اللَّهِ إِذْ كَانَ بِهِ \* لَاحِقًا فَاللهُ أَعْلَى وَأَجَلُ  
وَاضِعًا نَسَبَتَهُ حَيْثُ اشْتَمَى \* فَأَذَا مَا رَأَيْتَ رَيْبُكَ رَحَلُ

فَقَالَ أَبُو نَوَاسٍ يَهْجُوهُ :

هَجَوْتُ الْفَضْلَ دَهْرِي وَهُوَ عِنْدِي \* رَقَاشِي كَمَا زَعَمَ الْمَسْرُورُ  
فَلَمَّا سُوِّلْتُ عَنْهُ رَقَاشٌ \* لِنَعْلَمَ مَا تَقُولُ وَمَا يَقُولُ  
وَلَمَّا أَتَى نَصَبَنَا إِلَيْهَا \* لِنَعْلَمَ مَا يُقَالُ وَمَا تَقُولُ  
وَجَدْنَا الْفَضْلَ أَبَدًا مِنْ رَقَاش \* مِنَ الْأَثْنِ آدَعَتْ فِيهَا الْقَبُولُ  
وَجَدْنَا الْفَضْلَ أَكْرَمَ مِنْ رَقَاش \* لِأَنَّ الْفَضْلَ مَوْلَاهُ الرَّسُولُ  
يُرِيدُ بِذَلِكَ قَوْلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أَنَا مَوْلَى مَنْ لَا مَوْلَى لَهُ» .

وَقَالَ أَيْضًا يَهْجُوهُ :

قُلْ لِلرَّقَاشِيِّ إِذَا جَعَلَهُ \* لَوْ مِتَّ يَا أَحْمَقُ لَمْ أَهْجُكَ  
لَأَتْنِي أَكْثَرُ عَرْضِي وَلَا \* أَفْرُكُهُ يَوْمًا إِلَى عِرْضِكَ  
إِنْ تَهْجِي تَهْجُ فَنِي مَا جَدَا \* لَا يَبِغُ الطَّرْفُ إِلَى مِثْلِكَ  
دُونَكَ عِرْضِي فَأَهْجُهُ رَاشِدًا \* لَا تَدْنُسُ الْأَعْرَاضُ مِنْ هَجْوِكَ  
وَاللَّهُ لَوْ كُنْتُ جَرِيرًا لَمَّا \* كُنْتُ بِأَهْيَ لَكَ مِنْ أَمْلِكَ

وَقَالَ أَيْضًا يَهْجُوهُ :

يَا عَرَبِيًّا مِنْ صِنْعَةِ السُّوقِ \* وَصِنْعَةِ السُّوقِ ذَاتُ تَشْتِيقِ  
مَا رَأَيْتُكُمْ يَأْتَرُونَ فِي رَجُلٍ \* يَدْخُلُ فِيكُمْ مِنْ خَلْقِ مَخْلُوقِ

ويعمل الوطْبَ والمِلَابَ ولا \* يصْلُحُ لآلِ الحَمَلِ اِبرق  
لقد ضربنا بالطبل أنك في السَّقوم صحَّحْ وصيِّحْ في السُّوق  
قد أخذ الله من رِقَاشٍ على \* تركهمُ المجدَّ بالمواثيق  
فالناس يسعونُ للملا قُدَمَا \* وهم وراءُ مكسرو السُّوق<sup>(١)</sup>  
هذا كذا كم وفي الهياج اذا \* هيج فما شئت من بَوَاشيق

وقال أيضا بجوه :

أصبح الفضلُ ظاهرَ التَّيه \* وذلك مذ صِرْتُ أَهَاجِيه  
لله شعري، أَيْ مِقْوَاهِيه \* لكل من دوني قَوَافِيه  
كم ين فضل منذ هَاجِيته \* وينته قبل أَهَاجِيه  
فالحمد لله وإنت كنت لم \* أحفلُ بقوم تصحوا فيه  
رَضِيْتُ أَنْ يَشْتَمَنِي سَاقِطُ \* شَيْئِي خَيْرٌ مِنْ مَوَالِيه

وكان أبو نواس في دعاويه يتماجَّن ويعبث ويخفي نسبه واسم أمه ثلاثاً يهجي ، وذلك مشهور عنه ، ولو غضب هو نفسه على أبيه لهجاه ولم يتحشم . والمذكور من أمره أنه كان مولى الحكيمين ، يفتخر باين ويمدحهم لذلك ، ويمدح العجم ويدكرهم لأنه منهم ، فذلك قال في العجم ما قال .

قال أبو الفرج الأصفهاني : كان أبو عبيدة يقول : ذهبت الينُ بجِدِّ الشعر وهزله : امرؤ القيس بجِدِّه ، وأبو نواس بهزله . وكان يقول : ذهبت الينُ بجِدِّ الشعر في قديمه وحديثه : امرؤ القيس في الأوائل ، وأبو نواس في المحدثين . وكان يقول : شعراء الين ثلاثة : امرؤ القيس وحسان بن ثابت وأبو نواس . وقال أيضاً : أبو نواس في المحدثين مثل امرئ القيس في المتقدمين ، فتح لهم هذه الفطن ودلهم على المعاني وأرشدهم إلى طريق الأدب والتصرف في فنونه . وكان يقول : يجبن من شعر أبي نواس قوله :

(١) جمع باشق وهو اسم طائر، أجهى مغرب .

بَتَيْنَا عَلَى كَسْرِي سَمَاءَ مُدَامِيَّة \* مَكَلَّلَةً حَافِئَهَا بَجِيمِ  
فَلَوْ رَدَفِي كَسْرِي بَنَ سَاسَانَ رُوحَهُ \* إِذَا لَأَصْطَفَانِي دُونَ كُلِّ نَدِيمِ

وسئل يعقوب بن السكيت عما يختار روايته من أشعار الشعراء، فقال: إذا أردت من الجاهليين فلا كسرى القيس والأعشى، ومن الإسلاميين فجعير والفرزدق، ومن المحدثين فلا أبي نواس خُصَّب. وقيل: للعتي من أشعر الناس؟ قال: عند الناس أم عندي؟ قيل عند الناس؟ قال: امرؤ القيس؟ قيل: فعندك؟ قال: أبو نواس.

وقال عبد الله بن محمد بن عائشة: من طلب الأدب فلم ير شوعر أبي نواس فليس بتأم الأدب. وسئل: من أشعر المحدثين؟ فقال: الذي يقول:

كَأَنَّ شَيْبَاهُ أَطْلَعَ \* مِنْ أَرْزَاوِهِ قَرَأَ  
يَزِيدُكَ وَجْهَهُ حَسَنًا \* إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظْمًا  
بَعِيرٌ خَاطِلُ التَّفْتِي \* مَرُّ مِنْ أَجْفَانِ الْحَوَا  
وَوَجْهٌ سَارَى لَوْ \* تَصُوبُ مَائِهِ قَطْرًا  
وَقَدْ خَطَّتْ حَوَاضَتُهُ \* لَهُ مِنْ عَنِيرِ طُرْدَا

وقال إبراهيم بن العباس الطويل: إذا رأيت الرجل يحفظ شعر أبي نواس علمت أن ذلك عنوان أدبه ورائد طَرَفه.

وكان أبو نواس يقول عن نفسه: سُلِّتُ عَنْ طَبَقَةٍ مِنْ تَقْدِمِي مِنَ الشُّعْرَاءِ وَعَلَوْتُ عَنْ طَبَقَةٍ مِنْ مَعَى وَمِنْ بَيْعِي بَيْدِي، فَأَنَا نَسِيجٌ وَحِيدِي.  
وحدث جماعة من الرواة بمن شاهد أبا نواس قالوا: كان أقل ما في أبي نواس قول الشعر، وكان خُلا راوية طامًا.

وقال أبو عبيدة: بلغني أن أبا نواس يتماطى قَرَضَ الشعر فتلقاني وهو سكران ماطر شاربه بعد، فقلت له: كيف فلان عندك؟ فقال: هميل الظل، جامد النسيم، فقلت: زد، فقال: مظلم الهواء، متن الفتاء، فقلت: زد، فقال: غليظ الطبع، بارد الشكل؛

قلت : زد ، فقال : وَنَحْمُ الطَّلْعَةَ ، عَصِرَ الظُّلْمَةِ ، قلت : زد ، قال : نَأَى الْجَنَابَاتِ ، بارد الحركات ، قال : نَغْفَقْتُ عَنْهُ ، فقال : زدنى سؤالاً ، أزدك جواباً ، فقلت : « كفى من القلادة ما أحاط بالعتق » .

وقال سليمان بن أبي مَهْلٍ لأبي نواس : ما الذى أَسْتَجِيدُ من أجناس شعرك ؟ فقال : أَسْمَارِي فى الخمر لم يُقَلْ مثَلُها ، وأَشْعَارِي فى الفزل فوق أشعار الناس ، وهما أجود شعري إن لم يَزَاحِمْ غزلى ما قلته فى الطَّوْدِ .

وكان يقول : ما قلت الشعر حتى رَوَيْتُ لستين امرأة من العرب منهن الخنساء ولبلى ، فما ظنك بالرجال ؟ وائى لأروى سبعمائة أرجوزة ما تُعرف .

وكان قد استأذن خَلْقاً فى نظم الشعر ، فقال : لا أَذْنُ لك فى عمل الشعر إلا أن تحفظ ألف مقطوع للعرب ما بين أرجوزة وقصيدة ومقطوعة ، فغاب عنه مدة وحضر إليه فقال له : قد حفظتها ، فقال : أنشدنا ، فأنشده أكثرها فى عدة أيام ، ثم سألها أن يأذن له فى نظم الشعر ، فقال له : لا أَذْنُ لك إلا أن تنسى هذه الألف أرجوزة كأنك لم تحفظها ، فقال له : هذا أمر يصعب على فإنى قد أتقنت حفظها ، فقال له : لا أَذْنُ لك إلا أن تنساها ، فذهب الى بعض الديرة وخلا بنفسه وأقام مدة حتى نسىها ، ثم حضر فقال : قد نسيتها حتى كأن لم أكن قد حفظتها قط ، فقال له : الآن فانظم الشعر .

وكان أبو نواس يقول : لا أكاد أقول شعراً جيداً حتى تكون نفسى طيبة ، وأكون فى بستان موزق ، وعلى حال أرتضيا من صليّة أوصِلَ بها أو وعِدَ بصلية ، وقد قلت وأنا على غير هذه الحال أشعاراً لا أرضاها . وكان يعمل القصيدة ثم يتركها أياماً ، ثم يعرضها على نفسه فيُسْقِطُ كثيراً منها ويترك صافيها ، ولا يسره كل ما يَنْدَفِى به خاطره . وكان يمه الشعر فى الخمر فلا يعمل إلا فى وقت نشاطه . ولم يكن فى الشعر بالبطيء ولا بالسريع بل كان فى مثلة وَسْطَى .

وكان الأصمعي يقول : يسجيني من شعر الشاعر يث واحد قد أجاد قائله وهو :

ضعيفَةٌ كَرَّ الطَّرْفُ تَحَسَّبَ أَنهَا \* قَرِيبَةٌ عَهْدُ الْإِثَاقَةِ مِنْ سُقْمٍ  
وَأَنَّى لَأَتَى الْأَمْرَ مِنْ حَيْثُ يُتَّقَى \* وَيَعْلَمُ سَهْمِي حِينَ أَنْزَعَ مِنْ أَرْحِي

قال العتّابي لرجلين تناظرا في شعر أبي نواس : والله لو أدركت الحديث الجاهلية ما نُقِلَ عليه أحد .

وقال أبو عمرو الشيباني : أشعرُ الناس في وصف النمر ثلاثة : الأعشى والأخطل وأبو نَواس .

قال محمد بن عمر : لم يكن شاعراً في عصر أبي نواس إلا وهو يحسده لميل الناس إليه وشبهوتهم لمعاشرته ، وبعد صيته وقُرب لسانه .

وقال أبو حاتم : سئل أبو نواس عن شعره فقال : إذا أردت أن أجد ، قلت مثل قصيدى « أيها المتأب عن عُفْرِه » ، وإذا أردت الهبت قلت مثل قصيدى : « طاب الهوى لعميده » ، فأما الذى أنا فيه وحدى وكله جيدٌ فلذا وصفت النمر .

وقال أبو ذكوان : كنا عند التوزي فذكرت عنده أبا نواس ، فوضع منه بعض الحاضرين ، فقال له التوزي : أهول هذا لرجل يقول :

يُضَاغَةُ النَّاسِ وَيَجُونُهُ \* كَأَنَّهُ الْجَنَسُ وَالنَّارُ

ويقول :

لَمَّا جَازَهُ جُودٌ وَلَا حَلَّ دُونَهُ \* وَلَكِنْ يَصْبِرُ الْجُودُ حَيْثُ يَصْبِرُ

ويقول :

قَتَمْتُ فِي مَفَاصِلِهِمْ \* كَتَمْتُ الْبَرِّ فِي السَّقَمِ

قال ابن الأعرابي يوما جلسائه : ما أشعر ما قال أبو نواس في النمر؟ فقال بعضهم :

إِذَا عَبَّ فِيهَا شَارِبُ الْقَوْمِ خُتَهُ \* يُقْبَلُ فِي دَاجٍ مِنَ الْبَلْبَلِ كَوْبًا

وقال آخر :

كَانَ كِبَرِيٍّ وَصُغْرَى مِنْ قَفَاقِمِهَا \* حَصْبَاءُ دَرَّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ التَّهَبِ

وقال آخر :

تَرَى حَيْثُ مَا كَانَتْ مِنَ الْبَيْتِ مَشْرِقًا \* وَمَا لَمْ تَكُنْ فِيهِ مِنَ الْبَيْتِ مَغْرِبًا

وقال آخر :

فَكَانَ الْكَؤُوسَ لَنَا بِجُودِ \* دَائِرَاتُ بَرُوجِهَا أَيْدِينَا

وقال آخر :

صَفَرَاءُ لَا تَنْزِلُ الْإِحْزَانُ سَاحَتَهَا \* لَوْ مَمَّهَا حَجَرٌ مَسَتْهُ سَرَّاءُ

فقال ابن الأعرابي : إن هذا كله لشاعر أنفرد بالإحسان فيه ، وتقدم من سبقه ومن تأخر عنه ، ولكنه أشعر من هذا كله في قوله :

لَا يَنْزِلُ اللَّيْلُ حَيْثُ حَلَّتْ \* فَدَمَرُ شُرَّابِهَا نَهَارُ

قال مسلم بن هرام : لَقِيتُ أَبَا الْآتَاهِيَةَ فَقُلْتُ لَهُ : مَنْ أَشْعَرُ النَّاسِ ؟ قَالَ : تَرِيدُ

جَاهِلِيًّا أَوْ إِسْلَامِيًّا أَوْ مُؤَلَّدَهَا ؟ قَالَ : كُلُّهُ أُرِيدُ ، قَالَ : الَّذِي يَقُولُ فِي الْمَدِيحِ :

إِذَا نَحْنُ أَتَيْنَا عَلَيْكَ بِصَالِحٍ \* فَأَنْتَ كَمَا نَكُنِي وَفَوْقَ الَّذِي نَكُنِي

وإن جَوَّيْتُ الْأَنْفَاطُ يَوْمًا بِمَدْحِهِ \* لَفِيكَ إِنْسَانًا فَأَنْتَ الَّذِي نَعْنِي

والذي يقول في الزهد :

أَلَا رَبِّ وَجْهِ فِي التُّرَابِ حَيِّقِي \* وَيَارَبِّ حُسْنٍ فِي التُّرَابِ رَقِيقِي

وَيَارَبِّ حَرَمٍ فِي التُّرَابِ وَتَجْدِيدِي \* وَيَارَبِّ رَأْيٍ فِي التُّرَابِ وَتَبْيِيقِي

فَقُلْ لِقَرِيبِ الدَّارِ لِمَنْكَ رَاحِلٌ \* إِلَى مَتْنٍ نَاقِي الْمَحَلِّ تَحْيِيقِي

وَمَا النَّاسُ إِلَّا هَالِكٌ وَأَبْنُ هَالِكٍ \* وَذُو تَسْبِيٍّ فِي الْمَسَالِكِينَ حَرِيقِي

إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَيْبٌ تَكْشِفُ \* لَهُ عَنْ عَدُوٍّ فِي ثِيَابِ صَدِيقِي



وكان يقول : سبقني أبو نواس الى ثلاثة أبيات وِدِدْتُ أنى سبقته إليها بكل ما قلته فإنه أشعر الناس فيها ، منها قوله :

يا كبر الذنب عفو الله \* له من ذنبك أكبر

وقوله :

مَنْ لم يكن لله منهما \* لم يُيس عتاجاً الى أحد

وقوله :

إذا امتحن الدنيا ليَبْ تَكشَفَتْ \* له عن ملوَن ثياب صديقي

ثم قال : قلت في الزهد ستة عشر ألف بيت وِدِدْتُ أن أبا نواس له ثلثها بهذه الأبيات .

وقال الجاحظ : سمعت النّظام يقول ، وقد أنشد شعراً لأبي نواس : كأن هذا الفقى بُجِيع له الكلامُ فاختار أحسنه . وقال بعضهم : كأن المعاني حُسِبَتْ عليه ، فأخذ حاجته وتوزق الباقي على الناس . وقال أبو حاتم : كانت المعاني مدفونة حتى أثارها أبو نواس .

حدثت الحسين بن الخصب الكاتب ، قال : قال أحمد بن يوسف الكاتب : كنت أنا وعبدُ الله بن طاهر عند المأمون ، وهو مستلقي على قفاه ، فقال لعبد الله بن طاهر : يا أبا العباس ، مَنْ أشعر مَنْ قال الشعر في خلافة بني هاشم ؟ فقال : أمير المؤمنين أصرُف بهذا وأعلى عينا ، فقال له المأمون : على ذلك قُفِّلْ ، تكلم أنت يا أحمد بن يوسف ، فقال عبد الله بن طاهر : أشعرهم الذى يقول :

ويا قبرٍ منى كنت أوَّلَ حُفرة \* من الأرض حُطَّت للسماعة منزلا

قال أحمد بن يوسف الكاتب : فقلت : بل أشعرهم الذى يقول :

أشبهت أعدائى فصرْتُ أُحِبُّهُمْ \* لئذ كان حَقِّى منك حَقِّى منهم

فقال المأمون : يا أحمد أبيتَ إلا غَزَلًا ! أين أتم من الذى يقول :

يا شقيقَ النَّفس من حَكِّم \* نِمْتُ عن لَيْلى ولم أتم

فقلنا : صدقت يا أمير المؤمنين .

وكان المأمون يقول : لو سُلَّت الدنيا عن نفسها فَنَطَقْتُ ، لما وصفت نفسها  
كما وصفها أبو نواس في قوله :

إذا امتحن الدنيا ليُبَّ تَكَشَّفَتْ \* له عن عدوِّ في ثياب صديقي  
وَرَدَّ على العتابي بحلبِ عِدَّةٍ من الـيَكَار من أهل قُسْرين ، فدخلوا وسَلَمُوا ، وكان في يده  
رُقْعَةٌ ينظر إليها ، فقال لهم : لقد سَلَكَ صاحبُ هذه الرُقْعَةِ وادياً ما سَلَكَه أحدٌ قبله ؛  
فَنظَرُوا فإذا هو شرأبى نواس في جنان جارية آل عبد الوهَّاب الثقفى ، وهو قوله :  
رَجَّعَ الكَرَى بين الجفونِ حَيْثُ \* عَنَى عليه بُحَى عليك طويلاً  
يا فاضلاً ما أَقْلَعْتُ لحظاً تُه \* حتى تَسْحَطَ بينهن قَبِيلُ  
أَحْلَلْتُ قُلَى من هِوَالِكَ حَيْلَةً \* ما حَلَّهَا المشروبُ والمأْكُولُ  
بِكالِ صورتك التي من دوني \* بِتَغْيِيرِ التشبيهِ والتَّثْيِيلِ  
فوقَ القصيرةِ والقصيرةِ فوقها \* دونَ السَّمينِ ودونَها المهزولُ  
وما أَنشدَه الثَّانِي لأبي نواس فقال أحسن وأجاد :

متأَيُّهُ بِجَالِهِ صَليُّ \* لا يَسْتَطَاعُ كَلَامُهُ نِيهَا  
لِلمُحْسِنِ في وَجْهَاتِهِ يَدْعُ \* ما إنْ يَمْلَأُ الدَّرَسَ قَارِيهَا  
لو كانتِ الْأَشْيَاءُ تَعْقِلُهُ \* أَجْلَلَنَّهُ إِجْلَالُ بَارِيهَا  
لو تَسْتَطِيعُ الْأَرْضُ لَأَتَهَبَضْتُ = حتى يَصِيرَ جَمِيعُهُ فِيهَا

وقوله :

إن السَّعَابَ تَسْجِي إذا نَظَرْتُ \* إلى نَدَاكَ ففَاسَتْهُ بِمَا فِيهَا  
حتى تَهْتَمَّ بِإِقْلَاجِ فِجْمَعِهَا \* خوْفُكَ من السُّعْطِ من إِجْلَالِ مَنْشِهَا

قال محمد بن صالح بن يَتِيمِ الكَلَّابِي : لما دخلتُ العِراقَ صرْتُ إلى مدينة السلام  
فَسَأَلْتُ عَمَّنْ بها من الشُعراءِ المُحْسِنِينَ ، وذلك في أيامِ خِلافةِ الأَمينِ أو عند موتِهِ قبل  
دخولِ المأمون بِسِيرٍ ، فَقِيلَ لِي : قد ضَلَبَ عَلَيْهِمُ قَتَّى من أَهلِ البصرة يُقالُ لَهُ الحَسَنُ

ابن هاني ويعرف بأبي نواس ، وقد كنت سمعتُ شيئا من شعره ، فأتاني فني كان من أهل الأدب ، فقلت له : هل نروى لأبي نواسكم هذا شيئا ؟ قال : أروى له أبياتا في الزهد وليس هو من طريقته ، فقلت أنشدنيها ، فأنشدني :

أخى ما بال قلبك ليس يتَّقَ \* كأنك لا تفطن الموتَ حَقًّا  
ألا يا بنَ الذين فَنُّوا وبَادُوا \* أما والله ما ذُهِبُوا تَبَسُّقًا  
وما للنفس عندك من مُقَام \* إذا ما استكملت أجلا وِرْثًا  
وما أحدٌ زادك منك أَحَقُّ \* ولا أحدٌ بذنبك منك أَشَقُّ  
ولا لك غيرَ هوى الله زاد \* إذا جعلت إلى اللهوات تَرَقُّ

فقلت له : أحسن والله ! قال : أفلا أنشدك أحسن من هذا ؟ قلت بلى ، فأنشدني في رثاء محمد الأمين :

طوى الموت ما بيني وبين محمد \* وليس لما تطوى المنية ناسر  
فلا وصل إلا عبة تستديها \* أحديث نفس مالها الدهر ذاكُر  
لئن عمرت دور بن لا أودّه \* لقد عمرت من أحب المقابر  
وكننت عليه أحذر الموت وحده \* فلم يتق لي شيءٌ يجله أحذر  
فقال : بحق ما غلب هذا على أهل الأدب وقدموه على غيره .

قال محمد بن جعفر الأصم : كنا عند أبي نعيم ، فسلنا قول عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها حين ذكرت شعر يزيد بن أبي أرقب :

ذهبَ الدين يُسَاسُ في أكتافهم \* وقيتُ في خَلْفِ بكاء الأجر

ولقد أنشدني أبو نعيم أبياتا ، قلنا : أنشدناها ، فقال :

ذهبَ الناسُ فاستقلوا وصَرَّتْنا \* خَلَّفَ في أرادل النساين  
في أناس تملهم من عديد \* فإذا قشَّروا فليسوا بناس

كما جئتُ أبتنى الفضلَ منهم \* بدروني قبل السؤالِ بياس  
وبصكروا لي حتى تمتتُ أُنِّي \* مُفلتٌ عند ذاك رأساً براس

ثم قال : أتدرون لمن الشعر؟ قلنا : لا، قال : للحسن بن هاني .

قال أبو عبد الرحمن الضرير : رأيتُ مسلم بن الوليد يُجرّحان وهو يتولاها، فسألني عن خَلَقَتُ من الشعراء؛ فقلت له : أما من الكوفيين فأبو نواس، وهو مُقدم عندهم؛ فقال : ويحك ! كيف يتقدم وهو يقول : رَوَيْدَكَ يَا إِنْشَانُ لَا أَنْتَ تَقْفَرُ أَرَأَيْتَ قَوْلُهُ : « تَقْفَرُ » نَحْرِيَتْ مِنْ بَيْنِ فَكَيْ شَاهِرٍ قَطْ ! ثم قال : ويحك ! وكيف يكون كذلك وهو يُجِيل ويخطفُ من صفة المخلوق إلى صفة الخالق؟ فقلت : مثل ماذا من قوله؟ قال : أما فيما أحال فكقولهُ : وَأَخَفَتْ أَهْلَ الشَّرِكِ حَتَّى إِنَّهُ \* تَتَخَاكُ التُّطْفُ الَّتِي لَمْ تُخْلَقِي  
وهذا من الإغراق المستحيل في القول ومما لوس على مذهب القوم ؛ وأما في تَحْطِيهِ بصفة المخلوق إلى صفة الخالق فكقولهُ :

يَحْتَلُّ أَنْ تَلْحَقَ الصِّفَاتُ بِهِ \* فَكَلَّ خُلُقِي خُلُقَهُ مِثْلُ  
وكقولهُ :

\* بَرَىءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ لَيْسَ لَهُ مِثْلُ

ومما قيل عن أبي نواس إن الشعر إنما هو بين المدح والهجاء وأبو نواس لا يُحسِنُهما، وأجود شعره في الخمر والطرد، وأحسنُ ما فيهما ما خُوذَ لَيْسَ لَهُ وَإِنَّمَا سَرَقَهُ، وَحُسْبُكَ مِنْ رَجُلٍ يَرِيدُ الْمَعْنَى لِيَأْخُذَهُ فَلَا يُحْسِنُ أَنْ يَتَلَقَّى عَلَيْهِ حَتَّى يَجِيءَ بِهِ قَبِيحًا، مِثْلُ قَوْلِهِ : « وَذَاوِنِي بِالْقِيَامَةِ هِيَ الدَّاءُ » أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ الْأَعْمَشِيِّ : « وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا » وَالَّذِي أَخَذَهُ مِنْهُ أَحْسَنُ . وَمِنْهَا أَيْضًا قَوْلُهُ : « إِنَّ الشَّبَابَ مَطِيَّةُ الْجَهْلِ » أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ النَّابِغَةِ الْجَعْدِيِّ : « فَإِنَّ مَطِيَّةَ الْجَهْلِ الشَّبَابُ » . وَقَوْلُهُ : « كَطَلْعَةِ الْأَشْهُطِ مِنْ إِيَّاهُ » أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ أَبِي النُّجُمِ : « كَطَلْعَةِ الْأَشْهُطِ مِنْ كِسَاهُ » . وَلَكِنْ رُوِيَ أَبُو نَوَاسٍ فِي شِعْرِهِ أَنْ سَارَ وَجَمَلَهُ النَّاسُ وَقَدَّمَهُ أَهْلُ عَصْرِهِ، وَإِنْ لَمْ يَلِكْ عَلَى ذَلِكَ لِأَشْيَاءَ حَسَنًا لَا يَدْفَعُهَا وَلَا يَطْرَحُهَا إِلَّا جَاهِلٌ بِالْكَلَامِ أَوْ حَاسِدٌ .

ومن أحسن مدائح أبي نواس قوله من أرجوزته التي يمدح بها الفضل بن الربيع وهي :

وبلدة فيها زود \* صغراء تحظى في صعر  
مرّت إذا الذئب اقتصر \* بها من القوم الأثر  
كان له من الجوز \* كل حين ما أشكر<sup>(١)</sup>  
ولا تملأه شعر \* ميت النساخ الثغر  
عسفتها على خطر \* وقرير من القرد<sup>(٢)</sup>  
بيازب حين قطر \* يسؤه حين الأثر<sup>(٣)</sup>  
لا متشك من سدر \* ولا قريب من خور<sup>(٤)</sup>  
كأنه بعد الضمر \* وبعد ما جال الضمر<sup>(٥)</sup>  
وأتمح في طسر : \* جاب رباع المتصر<sup>(٦)</sup>  
يحدو بحقب كالأثر \* ترى بأبج القصر<sup>(٧)</sup>  
منه توشم الجدد \* رعين أبكار الخضر  
شهرى ربيع وصفر \* حتى إذا الفحل جفر<sup>(٨)</sup>  
وأشبهه السقى الإبر \* ونش أذخر النفر<sup>(٩)</sup>  
قلن له : ما تأمر ؟ \* وهن إذ قلن : أشر  
غير عواص ما أمر \* صكأنها لمن تقرر  
ركب يشيمون مطر \* حتى إذا الظل قصر

- (١) المرت : الأرض لا نبات فيها ، واقتصر الأثر : اقتناه وتبعه . (٢) الجرد (بضم الجيم) :  
ما يذبح من الشاة ذكرًا كان أو أنثى ، واحدة : جرة . وما أشكر : لم يثبت له الشكر وهو الضعيف من الشعر  
الذى لا يكاد يظهر . (٣) صفها : سلكها متخطيًا ، والقر : انظر . (٤) السد : الثبير .  
(٥) الضمر (بالضم وبضمين) : الخزال . والضمر : جمع ضفار (بالفتح) وهو ما يشبه به الجير من شعر مضغور .  
(٦) الجاب : الحار الذي يظلم من حر الوحش . (٧) الأبياج جمع شيع وهو وسط الشيء ، والقصر  
جمع قصرة وهي أصل المتى . (٨) جعر : امتنع عن الغراب .  
(٩) السقى : كل جهر له شوك ، ونش : نضب ، والقر : جمع قوة وهي الوعدة المستندة من الأرض .

يَمْنَنَ مِنْ جَنَنِ هَجْرٍ \* أَخْضَرَ طَلَمَ الْعَصْرِ  
 وَبَيْنَ أَحْقَافِ الْقَتْرِ \* سَارَ وَابِسَ لِلْسَّيْرِ  
 وَلَا تِلَاوَاتِ السُّورِ \* يَمْسَحُ مِرْنَانًا لِبَسِ  
 زُمْتُ بِمَشْزُورِ الْمِرْزِ \* لَا أُمُ حُلُقُومِ النَّفْرِ  
 حَتَّى إِذَا اصْطَفَى السَّطْرَ \* أَهْدَى لَهَا لَوْ لَمْ تَجْمَرْ  
 دَهْيَاءَ يَمْدُودَهَا الْقَدَرُ \* فَنِلْتَكَ عَنَسٌ لَمْ تُدَرْ  
 شَيْبًا إِذَا الْآلُ ظَهَرَ \* لَا إِلَيْكَ كُلُّنَا السَّقَرُ  
 خُوصًا يُجَاذِبُ النَّظَرَ \* قَدْ انْطَوَتْ مِنْهَا السَّرَرُ  
 حَتَّى الْقَرَارَى الْخَبَرُ<sup>(١)</sup> \* لَمْ تَقْعُدْهَا الطَّيْرِ  
 وَلَا السَّيْحُ الْمَزْدَجِرُ \* بِاقْضِلُ الْقَوْمِ الْبَطَرُ  
 إِذْ لَيْسَ فِي النَّاسِ عَصَرُ \* وَلَا مِنْ الْخُوفِ وَزَرُ  
 وَزِلْتُ لِأَحَدَى الْكُبَرِ \* وَقِيلَ عَمَاءُ الْغِيَرِ  
 فَالنَّاسُ أَبْنَاءُ الْحَدَرِ \* قُرِجَتْ هَاتِيكَ الْقَمَرُ  
 عَنَّا \* وَقَدْ صَابَتْ بَقَرُ<sup>(٢)</sup> \* كَالشَّمْسِ فِي تَخْفِيفِ بَشَرِ  
 أَحْيَا مُجَارِيكَ الْخَطَرُ \* أَبُوكَ جَلَى عَنْ مُضَرِ  
 يَسُومُ الرُّوَاقِ الْخَضِرَ \* وَالْخُوفُ يُقْسِرِي وَيَذَرُ  
 لَهَا رَأَى الْأَمْرَ الْعَطَرُ<sup>(٣)</sup> \* قَامَ حَكْرِيًّا فَانْتَصَرُ  
 كَهَوَّةِ الْعَضْبِ الذَّكْرِ \* مَا مَسَّ مِنْ شَيْءٍ هَبَرِ<sup>(٤)</sup>

(١) المراتان : الفوس . (٢) زمت : شغلت ، ومشزور معقول ، والمرز : جمع مرة وهي قوة الفتل ،

والعلام : الشدب ، والتمر : كسر الليل . والعرث شبه الدقيق بالأرتار وحلقم العيران . (٣) القرارى : الخياط

(٤) القتر : القرار ، يقال إذا وقع الأمر موقه : صابت بقروقت بقرو . قال طرفة بن العبد البكري :

كنت منهم كالخيل رأسه \* فانجلى اليوم ضلالي ونحر

سادرا أحسب في رشدا \* فتناهت وقد صابت بقرو

(٥) اشتد . (٦) هبر : قطع .

وَأَنْتَ تَقْنَأُ الْإِنْسِرَ \* مِنْ ذِي مُجُولٍ وَغَرَرٍ  
 مَعِيدٍ وَرَدٍّ وَصَدَرٍ \* وَإِنْ عَلَا الْأَمْرَ أَقْبَرُ  
 فَايْنَ أَحْمَابُ النَّمِرِ \* اذْشَرُوا كَأْسَ الْخِفَرِ<sup>(١)</sup>  
 وَفُصِّرُوا فِيمَنْ فُصِرَ \* هِمَاتٍ لَا يَخْفَى الْقَمَرُ  
 أَصْحَرَتْ اذْذَبُوا الْخَمَرَ \* شَكَرًا ، وَحَرْمًا شَكَرَ<sup>(٢)</sup>  
 فَاللَّهُ يُعْطِيكَ الشَّيْبَ \* وَفِي أُعَادِيكَ الْفَقْرُ<sup>(٣)</sup>  
 وَاللَّهُ مِنْ شَاءَ نَصَرَ \* وَأَنْتَ إِنْ خِفْنَا الْخَصَرَ<sup>(٤)</sup>  
 وَهَرَّ دَهْرٌ وَصَكَّرَ \* عَنْ نَاجِدِيهِ وَبِمَرٍ<sup>(٥)</sup>  
 أَغْنَيْتَ مَا أَغْنَى الْمَطَرُ \* وَفِيكَ أَخْلَاقُ الْبَسَرِ  
 فَانْ أَيْوَا إِلَّا الْعَمَرُ \* أَمَرْتُ حَبْلًا فَاسْتَرْ<sup>(٦)</sup>  
 حَقِّي تَرَى تِلْكَ الزَّمَرُ \* تَهْوِي لِأَنْقَانِ الثَّغَرِ<sup>(٧)</sup>  
 مِنْ جَذْبِ الْوَلَى لَوْ تَرَى \* إِلَيْهِ طَوْدًا لِأَنَاطَرِ<sup>(٨)</sup>  
 صَعِبَ إِذَا لَاقَى أَبْرَ \* وَإِنْ هَفَا الْقَوْمُ وَقَرَّ  
 أَوْ رَهَبُوا الْأَمْرَ جَمَرَ \* ثُمَّ تَسَاجَى فَفَقَرَ  
 عَنْ شِقْشِقٍ ثُمَّ هَدَرَ \* ثُمَّ تَسَاجَى فَنَفَقَرَ<sup>(٩)</sup>  
 بِذِي سَيْبٍ وَصُدِّرَ \* يَمْضِي أَطْرَافُ الْوَبَرِ<sup>(١٠)</sup>  
 هَلْ لَكَ وَالْمَلِ خَيْرٌ \* فِيمَنْ إِذَا غَبَتْ حَضَرُ<sup>(١١)</sup>  
 أَوْ تَالِكَ الْقَوْمُ تَارَ \* وَإِنْ رَأَى خَيْرًا شَكَرَ  
 \* أَوْ كَانَ تَقْصِيرَ عِلَرُ \*

(١) المقر: المر (٢) أصحرت: رزئت إلى الصحراء. وديوا الخمر: مشوا مخضين. والخمر: ما سترك من شجر أو بناء أو نحوه. (٣) الخمر والقوة. (٤) الضيق. (٥) كثر أيدى عن ناجديه، وبسر: حبس. (٦) أي أحكمت حله. (٧) جمع قفرة وهي قرة النحر. (٨) الأولى: الشديد الخسوف. (٩) أخرج ما تلقى. (١٠) السيب: تمر القتب والمعروف بالناسية، والمزج جمع حذار. (١١) قصد لفظ هل الاستهانة فأدخل عليها الألف واللام.

ولما عمل أبو نواس القصيدة التي أوفى : \* ومستعيد إخوانه بثرائه \* بلغت  
الأميين ، فبعث إليه ، وعنده سليمان بن جعفر . فلما دخل عليه قال له : يا عاصمَ ظنَّ أنمه  
العاصرة ، ويا مدعى ولاية حاءَ وحكم ! أتدري بآبن الخفاء من توليت وإلى من أذعيت ؟  
إلى الأيم قبيلتين في أئمن ، طُلُوجُ باغين . أنت تكتسب بشعرك أو مساحَ أيدى الناس اللثام ،  
وتقول : \* ولا صاحب التاج المحجَّب في القصر \* أما والله ما نلتَ مني شيئاً بعد ذلك  
أبداً ! فقال له سليمان بن أبي جعفر : إى والله ! نعم هو مع هذا من كبار الثنوية<sup>(١)</sup> (وكان يرمى  
بذلك) ؟ فقال له محمد الأميين : وهل يشهد عليه شاهد بشيء من ذلك ؟ فأتاه سليمان بعثة  
نفر ، فشبهوا عليه أنه شرب في يوم مطير فوضع قدحه تحت السماء في المطر فوقع فيه  
المطر ، فقالوا له : ما تصنع بذلك ويحك ؟ قال : أتم ترعون أنه ينزل مع كل قطرة  
ملك ، فك ترائي أشرب من الملائكة ! ثم شرب ما في القلح ؛ فغضب محمد ، وأمر به  
إلى السجن . فذلك قول أبي نواس :

ياربَّ إنَّ القومَ قد ظلموني \* وبلا إقترافٍ ممطَّلٍ حسبوني  
وإلى الجهود بما عرفت خلاقه \* ربِّي إليك يَكْتُمُهم تَسبوني  
ما كان إلَّا الجُرَى في مَيْدانِهِم \* في صكَلِ نَحْزِي والمُجَانَّةِ ديني  
لا العذرُ يُقْبَلُ لي ويُفَرَّقُ شاهدي \* منهم ، ولا يَرْضَوْنَ حَلْفَ يميني  
ما كان — لو يدرون — أولَّ عَجَبًا \* في دار مَنَقَصَةٍ ومَنْزِلِ هُونِ  
أما الأميينُ فليستُ أرجو دَفْعَهُ \* عَنِّي ، فربَّ لي اليوم بالمأمون

فبلغت أبيأته المأمون ، فقال : والله لئن لحقته لأغتibe عني لأؤقتله . فمات قبل دخول  
المأمون بغداد .

لما وصلت الخلافة إلى محمد الأميين وولَّى الفضل بن الربيع الوزارة ، تفرغ محمد  
للنهر والصيد والنزهة ، وكان لا يخرج إلا لصيد أو لنزهة . فخرج ذات يوم وقد أسر الجند

(١) الثنوية أصحاب الاثنين الأتليين وهم الذين يزعمون أن النور والظلمة أزليان قد يمان . بخلاف الميوس

فإنهم قالوا يحدث الفلام .



والقوَادَ فركبوا ، وليس ثيابه وتقلد سيفه ، وأُعدَّت الحِصَانَاتُ والزَّلاجاتُ في دِجَلَةٍ ، فقال له اسماعيلُ بنُ صُيَّحٍ - وكان كاتبَ سرِّه - : يا أمير المؤمنين ان قوَادَكَ وجندَكَ وطائِمَةَ رعيَتِكَ قد خَبِلَتْ نفوسُهُمْ ، وساءت ظنونُهُمْ ، وكَبُرَ عندهم ما يرونُ من احتِجَاكِ عنهم ، فلو جِلسْتَ لهم ساعة من نهار فدخلوا عليك ! فإن في ذلك تسكيناً لهم ومراجعةً لآمالهم ! فجلس في مجلسه وأذن للناس عامةً فدخلوا على مراتبهم ومنازلهم ، وقام الخطباءُ فخطبوا ، والشعراءُ فأنشدوا ، فلم يكن أحدٌ منهم يتمدَّى الى الاطتاب والتطويل ، إلا أُمِرَ بالسكوت ومُتَّع من القول .

وقام فيمن قام أبو نواس ، فقال : يا أمير المؤمنين ! هؤلاء الشعراءُ أهلُ سَجَرٍ ومَدَرٍ ، وإبلٍ ووصيفٍ للبقر وبيوتِ الثَّسَرِ ، قد جَفَّتْ ألقاظُهُمْ ، وغُلِظَتْ معانيهم ، ليس لهم بَصَرٌ بمدحِ الخلفاءِ وكثيرِ مكارِمِهِمْ ، فان رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في إنشاده فليعمل ، فأذن له فأنشده :

أيا دارِها بالماءِ حتى تُبْلِغَها • فلن تُكْرِمَ الصُّبَّاءَ حتى تُبَيِّنَها  
أظلي بها حتى إذا ما ملكتها • أهنَّتْ لإكرامِ الخليلِ مَصُونِها  
وصفراءَ قبلَ المَرْجِ بيضاءَ بعده • كأنَّ شعاعَ الشمسِ لِقَالِدِ دُونِها  
ترى العينَ تستعفيك من لَمَآنِها • ومُحْمَرُّ حتى ما يُعَيِّلُ جَفُونِها  
تُزَوِّجُ بِنَفْسِ المَرْءِ عما يَسُوهُ • ويُجْعِلُهُ أَلَا يَزَالُ قَرِينِها  
كأنَّ يوافيتا رَوَاكِدَ حَوْلِها • وَزُرْقَ سَنَانِيَرٍ تديرُ عُيُونِها  
وتُطْمِئِنُّ حَلَّ الدَّهْرِ منها بِجُودِ • دلفتُ اليها فاستلَّتْ جَبِينِها  
كأنَّا حُلُولٌ بينَ أَكْثَافِ رَوْضَةٍ • إذا ما سَلَبْنَاها مع الليلِ طِينِها

الى أن أكمل القصيدة . فقال له محمد : ألم أُنْهَكَ عن شربِ الخمر ! قال : بلى يا أمير المؤمنين ، والله ما شربْتُها منذ نهيَتَنِي عنها ومنعتَنِي من شُرْبِها ، وأنا الذي أقول :

(١) الحِرَاقَات : ضرب من السفن فيها مراكب نيران يرمى بها لاحتراق البعير .

أَيُّهَا الرَّاحِطُ بِاللَّوْمِ لَوْ مَا \* لَا أَذُوقُ الْمَدَامَ إِلَّا شَيْبًا  
 نَالِي بِالسَّلَامِ فِيهَا لِإِمَامٍ \* لَا أَرَى لِي خِلَافَهُ مُسْتَقِيمًا  
 فَاصْرِفَاها إِلَى سِوَايَ فَإِنَّ \* لَسْتُ إِلَّا حِلَّ الْحَدِيثِ نَدِيمًا  
 كَبُرْ حَقِّي مِنْهَا إِذَا هِيَ دَارَتْ \* أَنْ أَرَاهَا وَأَنْ أَشْمُ النَّسِيمَا  
 فَكَأَنِّي وَمَا أَزْبَنْ مِنْهَا \* قَعْدِي يُحْسِنُ التَّحْكِيمَا<sup>(١)</sup>  
 كُلُّ عَن حِمْلِهِ السِّلَاحَ إِلَى الْحَرِّ \* بَ فَاَوْصَى الْمُطِيقُ إِلَّا بَقِيَا

فَتَبَسَّ مُحَمَّد، وَقَالَ لَهُ : أَحْسَنْتَ ! وَقَامَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ فَأَتَشَدُّ :

تَرَقَّى فِي فَضْلِ اللَّهِ الْإِمِينُ \* وَزَايَلَهُ الْمُشَاكِلُ وَالْقَرِينُ  
 وَأَوْرَقَ زَهْرَةُ الثَّقَوِيَّ وَعَزَّتْ \* خِلَافَتُهُ وَصُدِّقَتِ الظُّنُونُ  
 تَمَسُّ مِنْابِرَ الْخُلَفَاءِ مِنْهُ \* يَدُ بَخْلَافِ طَاعَتِهَا الْمُنُونُ  
 يَخَافُ الْخُوفُ صَوْلَتَهُ وَيَرْجُو \* نَدَاهُ الْجِسْدُ فَهُوَ لَهُ خَدِينُ

فَقَالَ عِدَّةٌ مِّنْ حَضَرٍ : قَدْ أَوْجَزَ وَأَجَادَ، أَكْرَمَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! فَقَالَ أَبُو نَوَاسٍ : أَشْعَرُ مِنْهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي يَقُولُ :

إِلَّا يَا خَيْرَ مَنْ رَأَيْتَ الْعِمُونَ \* تَفْلِسُكَ لَا يُحْسُ وَلَا يُكُونُ  
 وَفَضْلُكَ لَا يُحْتَدُّ وَلَا يُجَارَى \* وَلَا تُحْيِي حَيَاظَتَهُ الظُّنُونُ  
 فَانْتَ كَسِيجُ وَحْدِكَ لَا شَبِيهَ \* تُحَاشِيهِ عَلَيْكَ وَلَا خَدِينُ  
 حُلِقَتْ بِلا مَشَاكِلَةٍ لِّشَيْءٍ \* فَانْتَ الْفَرَقُ وَالْفِلَانُ دُونُ  
 كَانَ الْمَلِكُ لَمْ يَكُ قَبْلُ شَيْئًا \* إِلَى أَنْ قَامَ بِالْمَلِكِ الْإِمِينُ

قَالَ : فَفَضَّلَهُ مُحَمَّدٌ وَأَحْسَنَ جَائِزَتَهُ . وَيُقَالُ : إِنَّهُ قَالَهَا بَدِيهًا .

(١) القعدى من الخواارج : الذى يرى رأى القعدة الذين يرون التسليم حقا، غير أنهم قعدوا عن الخروج

ثم نهض محمد من مجلسه ذلك، فركب الحِراقة الى الشَّيْبَةِ، واصطَلَّتْ له الخيل وعليها الرجال على شاطئ دجلة، وحمِلَتْ معه المطايخ والخزائن. وكان ركوبه حِراقة<sup>(١)</sup> على مثال الأسد. فما رأى الناس منظراً كان أبهى ولا ميسراً كان أحسن من ذلك المنظر والمسير. وركب أبو نواس معه يومئذ وهو يناديه، فقال :

تَسْفِرُ اللَّهُ لِلْأَمِينِ مَطَايَا \* لَمْ تَسْفِرْ لِهَاصِبِ الْمَحْرَابِ<sup>(٢)</sup>  
فَإِذَا مَا رَكَابُهُ سَرَتْ بِحَرًّا \* سَارَ فِي الْمَاءِ رَاكِبًا لَيْتَ غَايَ  
أَسَدًا بِأَسْطَا ذِرَاعِيهِ يَدُو \* أَهْرَتَ الشَّدَقِ كُلَّخَ الْأَنْيَابِ<sup>(٣)</sup>  
لَا يَمَانِيهِ بِالْجِهَامِ وَلَا السُّو \* طَ وَلَا تَحْزِنُ رَجُلَهُ فِي الرُّكَابِ  
تَحْجِبُ النَّاسَ إِذَا رَأَوْكَ عَلَى صَو \* رة لَيْتَ تَمَرُّ مَرَّ السَّحَابِ  
سَيِّحُوا إِذَا رَأَوْكَ سَرَتْ عَلَيْهِ \* كَيْفَ لَوْ أَبْهَرُوكَ فَوْقَ الْعُقَابِ  
ذَاتَ زَوْرٍ وَيَنْسِرُ وَجَنَاحَ \* بَيْنَ نَشْقِ الثُّبَابِ بَعْدَ الْعُيَابِ  
تَسِيْقُ الطَّيْرَ فِي السَّمَاءِ إِذَا مَا اس \* تَمَجَّلُوها بِجَيْشِيَّةٍ وَذَهَابِ  
بَارَكَ اللَّهُ لِلْأَمِينِ وَأَبْهَا \* وَأَبْقَى لَهُ رَدَاءَ الشَّبَابِ  
مَلِكٌ تَهْصُرُ الْمَدَائِخُ عَنْهُ \* هَائِي مَوْفِقِي الصَّبَاحِ

ويقال : ان هذا الشعر قاله أبو نواس في محمد، وقد ركب حِراقة الدُّفَيْنِ، فقال له شيخ الى جانبه: إني الله يا هذا ! فقال له أبو نواس : يا شيخ، إن الله لم يسخر لهابب الهرايب الدُّفَيْنِ، وقد سخر له ما هو خير من الدُّفَيْنِ، فأى شيء تكرر من هذا ؟

قال ابن حبيب : كنت مع مؤنس بن عُمَرَانَ، ونحن نريد الفضل بن الربيع ببغداد، فقال مؤنس : لو دخلنا على أبي نواس في السجن فسلمنا عليه ! ففعلنا ؛ فقال أبو نواس

(١) وذلك أنه كان ثلاثين ثلاث من السفن المرسومة بالحراقات لركوبه خاصة، وهي اليك والعقاب والفقيرين . (٢) صاحب الهرايب هو سليمان بن داود طيه السلام لأنه بن بيت المقدس . (٣) أهريت الشدق : واسمه . وكان الخيل الأنياب : كاشرها .

المؤنس: أين تريد؟ فقال: أريد أبا العباس الفضل بن الربيع، قال فبلغه رقعةً أعطيكها، قال: نعم، فاعطاه رقعة فيها:

ما من يد في الناس واجدة \* كيد أبو العباس مولاها  
نام البُغاة على مضاجعهم \* وسرى الى نفسي فأحياها  
قد كنتُ خِفْتُكَ ثم أَمْنِي \* من أن أخافك خوفاً الله  
فغوت عني غفو مقتدر \* وجبت له تقسم فأنالها

فكانت هذه الأبيات سبب خروجه من السجن .

إنصرف أبو نواس من بعض المواخير سكراناً، فمر بمسجد قد حضرت فيه الصلاة، فدخل فقام في الصف الأول، فقرأ الإمام: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ فقال أبو نواس من خلفه: لبيك، فلما قضيت الصلاة لبيوه وقالوا له: يا كافر تشهد عليك بالكفر ودفعوه. فبلغ خبره الرشيد، فدعا له حمدويه صاحب الزندقة، وأحضر أبا نواس فقال له حمدويه: يا أمير المؤمنين، إن هذا ماجن، وليس هو بحيث يُطقن<sup>(١)</sup> فقال له الرشيد: ويحك! إنه وقع في نفسي منه شيء، فامتحنه. قال: نطق له صورة ماني، وقال له: أبصق عليها، فأهوى أبو نواس بفيه لبقاً عليها، فقال له حمدويه: قد قلت لك يا أمير المؤمنين إنه ماجن. قال: ودعا برجل من الزنادقة مشهور، وقال له: ابصق عليها، فقال: وما معنى البصاق! إنه من أخلاق الشرك ولا أفعله، وأبى أن يفعل. فقال الرشيد لبعض خدم القصر: امض بهذا (يعني أبا نواس) الى السندی، فقل له: أذبه وأطلقه،

(١) لبيوه: أخطأ إليه، وهو موضع القلادة في الصدر. (٢) هو ماني بن فاك الحكيمة، التي ظهر في زمن سابور ذي الاكخاف بن ازدشير، وقتله بهرام بن هرم بن سابور، وذلك بعد عيسى عليه السلام. اتخذ له دنيا بين الحبسية والنصرانية. وكان يقول بقوة المسيح عليه السلام، ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام. حكى محمد بن هارون المروفي أبي عيسى الوراق، وكان في الأصل مجوسياً طوطاً يذاهب القوم، أن الحكمي ماني زعم أن من صنع مركب من أصلين قديمين: أحدهما نور والآخر ظلمة، وأنهما أزيلان لم يزلوا وان يزالا، وأنكر وجود شيء الا من أصل قديم، وأنهما لا يزالان قرتين حساستين سميتين بصيرتين، وهما مع ذلك في النفس والصورة والقلم والتدبير متضادتان، وفي الحيز متعاذيتان تحاذي الشخص والظل.

(انظر الملل والنحل للدمري)

وبهذا (يعني الزنديق) فقل له : احبسسه قبلك الى أن تستنيبه، فان تاب وإلا قتلناه .  
 قال : ففضي بهما الخادم ، فلما صار في آخر الصحن ، قال أبو نواس للخادم : الى أين  
 تذهب بنا ؟ قال : الى السندی ؛ قال : فما تقول له ؟ قال : أقول له : يحبس قبلك  
 حتى تستتاب أو تقتل ، ويؤذّب هذا ويطلقه . قال : فرجع أبو نواس يده ولطمه ، وقال  
 له : يا بن الزانية ، من الساعة نسيت ! . وبصر بهم الرشيد ، فقال : ردوهم ؛ فقال  
 لأبي نواس : ما هذا الذي رأيت منك ؟ قال : أراد والله أن يهلكني ويطرحنى بحب  
 أنسى أبدا أو أبقي مخلدا ، سلّه يا أمير المؤمنين عن الرسالة ، فإذا هو قد ضيها ؛ فضحك  
 من أبي نواس وأطلقه .

قال رُزَيْن الكاتب : اجتمعنا يوما أنا وأبو نواس وعل بن الخليل في سوق الكرخ ،  
 وكنا نجتمع وتناشد الأشعار وتذاكر الأخبار وتحدث بها . فقال أبو نواس : أدبر من  
 كان في نفسي وكان أسرع الخلق في طاعتي ، فما أدري ما أحال له ؟ فقال علي بن الخليل  
 يمازحه : يا أبا علي ، سل شيخك وأستاذك يعطفه عليك ؛ فقال له أبو نواس : من تعني ؟  
 قال : من أنت في طاعته ليلك ونهارك (يعني ابليس) فإني لم يقض لك هذه الحاجة ،  
 فما ينبغي لك أن تسأله مسألة ولا أن تفر عينه بمصيبة ؛ فقال : هو أمد رأيه من أن يحل  
 بي أو يخذلني ؛ واقضي مجلسنا ذلك . فلما كان بعد أيام اجتمعنا في ذلك الموضع ، وأخذنا  
 في أحاديثنا ، فضحك أبو نواس ؛ فقلنا له : ما أضحكك ؟ فقال : ذكرت قول علي بن  
 الخليل يومئذ : سل شيخك يعطفه عليك . حينئذ قد سألته يا أبا الحسن فقضى الحاجة ،  
 وما مضت والله ثلثة حتى أتاني من غير أن أبث اليه ومن غير أن أستزيره ، فعاتبني  
 واسترضاني ، وكان الغضب منه والتجني ، وأحسب الشيخ (يعني ابليس) كان يتسمع علينا  
 في وقت كلامنا ؛ وقد قلت أبياتا في ذلك ؛ فقلنا : هاتها ، فأنشد :

لما جفاني الحبيب وامتنعت \* عني الرسالات منه وانطرب  
 واشتد شوقي فكاد يقتلني \* ذكر حبيبي وألمهم والفيكر

دعوتُ إبليسَ ثم قلتُ له \* في خلوةٍ والدموعُ تتصدر :  
أما ترى كيف قد بُليتُ وقد \* أفرحُ جفنى البكاء والسهر ؟  
إن أنت لم تُلقِ لى المودةِ في \* صدر حبيبي وأنت مقتدر  
لا قلتُ شعرا ولا سمعتُ غنًا \* ولا جرى في مفاصلي السَّكر  
ولا أزالُ القُرآنَ أدْرُسُه \* أروح في درسه وأبتكرُ  
وأزيم الصومَ والصلاةَ ولا \* أزال دهرى بالخير أتمرُ  
فأ مضتُ بسد ذاك ثالثةً \* حتى ألقى الحبيبُ يعتذرُ  
ويطلب الودَّ والوصالَ على \* أفضل ما كان قبلَ يهجرُ  
فيا لها مِنَّةً لقد عظمْتُ \* عندى لإبليس ما لها خطرُ

لما أقدم أبو نواس على الخُصيب بمصر أذن له وعنده جماعة من الشعراء فاستنشدته ، فقال له : هنا جماعة من الشعراء هم أقدم دنى وأسن ، فأذن لهم في الإنشاد ، فان كان شعري نظير أشعارهم أُنشدتُ وإلا أمسكتُ ، فاستنشدهم الخُصيبُ ، فأنشدوا مديحا في الخُصيب ، فلم تكن أشعارهم مقاربةً لشعر أبي نواس ، فتهنأ أبو نواس ثم قال : أُنشدك أيها الأمير قصيدةً هي بمنزلة عصا موسى لتلقف ما يأكفون ؟ قال هات ، فأنشدته قصيدته التي أولها :  
أجارةً يبتئنا أبوك غيُورُ \* ويمسورُ ما يرجى لديك عسيرُ  
حتى أتى على آخرها ، فانقص الشعراء من حوله .

ويقال : إن أبا نواس كان خرج الى مصر في زى الشطار <sup>(١)</sup> وتطعيمهم بطرزة قد صَفَّها وتُزين واسعين وذيل مجرور ونعل مطبق ، وكان خروجه مع سِلْجان بن أبي سهل ، فلما دخل على الخُصيب بهذه الصورة أزدراء واستخف به ، وكان تُورد عليه كتبُ الحِلَّةِ بمن

(١) هو الخُصيب بن عبد الحميد البجلي أمير مصر على الخراج . وإليه تنسب منبة الخُصيب بالرجه القليل وليس بابن صاحب نهر أبي الخُصيب ، ذلك جِد للتصور يقال له مرزوق . وكان هذا رثيبا في أراضيه .  
فانتقل الى بغداد وصار كاتب مَهْرويه الرأى ، ثم انتقل الى الامارة .  
(٢) الشطار : جمع شاطر وهو من أعيا أهله غيبا .

بباب السلطان، ووردت كتب أبي نواس فيها فقرأها ولم يستشده، فأنصرف مهموماً، وجاءه أهل الأدب فاستمعوا شعره وكتبوه وأنشدوه لخصيب؛ فاستحضره فأنشده :

أَجَارَةَ يَتِيمِنَا أَبُوكَ غَيُورٌ \* وَمَيُسُورٌ مَا يُرَى لَدَيْكَ عَسِيرٌ  
فَأَنْ كُنْتَ لَا خَلَاً وَلَا أَنْتَ زَوْجَةٌ \* فَلَا يَرَحُّ دُونِي عَلَيْكَ مُسَوِّرٌ  
وَجَاوَرْتُ قَوْمًا لَا تَزَاوَرُ بَيْنَهُمْ \* وَلَا وَصَلَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُسَوِّرٌ  
لَهَا أَنَا بِالْمَشْغُوفِ ضَرْبَةً لَا زِيْپَ \* وَلَا كُلُّ مُلْطَانٍ عَلَى قَدِيرٍ  
وَأَتَى لَطَرُفَ الْعَيْنِ بِالْعَيْنِ زَائِرٌ \* فَقَدْ كَدْتُ لَا يَخْفَى عَلَى ضَمِيرٍ  
كَأَنَّ ظِلَّ الرَّيْحِ مَا كُنْتُ لَهَا \* عُقَابٌ بِأَرْسَاغِ الْبَيْنِ نُسُورٌ<sup>(١)</sup>  
طَوْتُ لَيْلِيْنَ الْقَوْتُ عَنْ ذِي ضُرُورَةٍ \* أَزْيَبٌ لَمْ يَنْتَ عَلَيْهِ شَعِيرٌ<sup>(٢)</sup>  
فَأَوْفَتْ عَلَى عَلِيَاءٍ حِينَ بَدَا لَهَا \* مِنَ الشَّمْسِ قَرْنٌ وَالضَّرِيبُ يَمُورُ<sup>(٣)</sup>  
تَهْلُبُ طَرَفًا فِي حِجَابِيْ مَفَارِقَةٍ \* مِنَ الرَّأْسِ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِ دُرُورٌ<sup>(٤)</sup>  
وَلَمَّا قَالَ أَبُو نَوَاس :

تَقُولُ الَّتِي مِنْ يَتِيمِنَا خَفَّ مَرَكَبِيْ : \* مَرْزُوقٌ لَنَا أَنْ نَرَاكَ تَسِيرُ  
أَمَّا دُونَ مَصْرِ الْغَنَى مُتَطَلِّبٌ ؟ \* بَلَى إِنَّ أَسْبَابَ الْغَنَى لَكَثِيرُ  
فَقُلْتُ لَهَا وَأَسْتَعِجِلْتَا بَوَادِرُ \* جَرَتْ بِحَرَى فِي جَمْرَيْنِ عَمِيرُ  
ذَرِينِي أَكْثَرَ حَاسِدِيْكَ بِرَحْلَةٍ \* إِلَى بَلَدٍ فِيهِ الْخَصِيبُ أَمِيرُ

قال له الخصيب : أَذَا يَكْثُرُ حَسَادُهَا وَتَبْلُغَ أَمَلُهَا، وَأَمْرُ لَهَا بِالْفِ دِينَارٍ .

(١) انظم : الصديق . (٢) التندور : خروج العظم من موضعه أو زواله وفي البيت من سوء التركيب ما فيه ، والتقدير فيه كما ظلت عقاب لما بأرساغ البين تندور الريح ما كنة . (٣) أزيب تصغير أزيب وهو القرخ ذو الأزيب أى الریش المتيق العين . والشكير : الریش أوّل ما يبيت . (٤) الضريب : اللج أو الجليل . ويمور : يهرك أو يهيج . ويذهب أو يهيل على وجه الأرض . (٥) الحجابان حتى حجاج وهو العظم الذى يبيت عليه شعر الحجاب . والندور : ما يندور في العين من الدماء .

وتماها :

إذا لم تَزُرْ أَرْضَ الخصبِ رَكابنا \* فأي فتي بعدَ الخصبِ زورا  
 فما جازه جودٌ ولا حلَّ دونه \* ولكن يصير الجودُ حيث يصير  
 فتي يشتري حسنَ الشتاء بماله \* ويعلم أن الدائرات تَدورُ  
 ولم ترَ عني سودداً مثلَ سُوَيْدٍ \* يحلُّ أبو نصرٍ به وبسير  
 وأطرق حَيَاتُ البلادِ حُلِيَّة \* خَصِيْبَةُ التَّصميمِ حينَ تُسورُ<sup>(١)</sup>  
 سموت لأهل الجورِ في حالِ أمنهم \* فاحضروا وكنل في الوتاقِ أسيرُ  
 إذا قام غتته على الساقِ حُلِيَّة \* لها خطوهُ عندَ القيامِ قصيرُ  
 فمن يك أمسى جاهلاً بمقالتي \* فأت أميرَ المؤمنين خَيْرُ  
 فما زلتُ تُولِيهِ النصيحةَ يافعا \* إلى أن بدا في العارضين قنيرُ<sup>(٢)</sup>  
 إذا ظاله أمرٌ فإنا كَكفَيْتِه \* وإما عليه بالكفَاءِ تُشيرُ  
 إليك رمت بالقومِ هُوجٌ كأنما \* جاجها تحت الرِّحالِ قبورُ  
 رحلن بنا من عَفْرِقُوفٍ<sup>(٣)</sup> وقد بدا \* من الصبحِ مفتوقِ الأديمِ شَمِيرُ  
 فما تَحَدَّثُ بآلِه حتى رأيتها \* مع الشمسِ في صيفي أَبَاحُ تَقُورُ<sup>(٤)</sup>  
 وعُشْرَن من ماء النقيبِ بَشْرِيَّة \* وقد حان من ديك الصباحِ زَمِيرُ  
 ووافين إشرافا كأنس تَدْمِيرِ \* وهنَّ إلى رُعبِ المدخنِ صُورُ<sup>(٥)</sup>  
 يؤمِّن أهلُ القوطتين كأنما \* لها عندَ أهلِ القوطتين نُورُ  
 وأصبحنَ بالجلولانِ يَرْمُضُنَّ صَحْرَهَا \* ولم يبق من أجراحهن شَطُورُ  
 وقاسينَ ليلا دونَ يَلسانٍ لم يكن \* سَتَا صبيحه للناظرينَ بُشِيرُ  
 وأصبحنَ قد فُوزْنَ من نهرِ فطرس \* وهنَّ عن البيتِ المقدسِ زُودُ<sup>(٦)</sup>

(١) تسود : تلب . (٢) القنير : الشيب . (٣) عفرقوف : اسم موضع .

(٤) تحدت : حرلت .

(٥) صور : مائلات . (٦) يرمضن : يكرهن . (٧) زود : جمع زرداء بمعنى مائلة .



طوالب بالركبان غرة هاشم \* وفي القوما حاجين شقور<sup>(١)</sup>  
ولما أتت فسطاط مصر أجارها \* على ركبها أن لا تزال مجير  
من القوم بسام كان جينته \* سنا الفجر يسرى ضوءه وينير  
زها بالخصيب السيف والرمح والوعى \* وفي السلم يزهر منير وسرير  
جواد إذا الأيدي كففت عن الندى \* ومن دون عورات النساء غيور  
له سلف في الأعجمين كأنهم \* إذا استؤذنوا يوم السلام بدور  
وإني جدير إذ بلغتك بالني \* وأنت بما آملت منك جدير  
فإن تولي منك الجيـل فاهله \* وإلا فإني طائر وشعكور

وقال يمدح العباس بن الفضل بن الربيع وأجاد :

ساد الملوكة ثلاثه ما منهم \* إن حصّلوا إلا أغر قريع  
ساد الربيع وساد فضل بعده \* وعلت عباس الكريم فروع  
عباس جاس إذا احتدم الوعى \* والفضل فضل والربيع ربيع

وقال يماثل عمر الوراق :

يا من جفاني وملا \* نسيت أهلا وسهلا  
ومات مرحبنا \* رأيت مالى قلا  
إني أظنك تحيى \* فيما فعلت التيرل<sup>(٢)</sup>  
تلقاه في الشر ينأى \* وفي الرخا يتدل

وله في غرة النفس :

ومستعيد إخوانه يقرّاه \* لبست له كبرا أبر على الكبر  
إذا ضممتي يوما وإياه تحفل \* يرى جانبي وعزرا يزيد على الوعر

(١) جمع شقر وهو الأمر الملتصق بالقلب المهم له .

(٢) القرى : كان مجير وكان لا يسمع لأحد شيئا إلا جاء اليه ودخله ولا يخلف عن طعام لأحد ، وإذا سمع

بعضومة لم يقرب ذلك ، فضرِب به المثل حتى قيل لعير من طيور الماء يرقى عليه : القرى .

أخافقه في شحكه وأجره \* على المنطق المبرور والنظر الشزري  
وقد زادني تيمًا على الناس أني \* أراي أغانهم وإن كنت ذا فقر  
فوالله لا يبدي لساني لجانة \* إلى أحد حتى أغيب في قبيري  
فلا يطمعن في ذلك مني طامع \* ولا صاحب التاج المحجب في القصر  
فلولم أريث نفسي لكانت صيانتي \* عن الناس حسبي من سؤالي من الفخر  
دخل أبو نواس بعد ما نكسك على قوم من إخوانه عندهم شراب ومغن، فعرضوا عليه  
الجلوس فأبي، وأخذ الدواة والقرطاس وكتب :

إذا لم تشه نفسك عن هواها \* وتحمين صوتها فاليلك عني  
فاني قد شيعت من المعاصي \* ومن إدمانها وشيعت مني  
ومن أسوا وأقع من لبب \* يرى متطنا في مثل سقي

ومن شعر أبي نواس :

حتى المصلي وأقويت الكُتُب \* يسقي فالربداين فاللهب  
منازل قد عمزتها بقعا \* حتى بدا في عذارى الشهب  
في فتية كالسيوف هزهم \* شرخ شايب وزانهم أذب  
ثم أراب الزمان فاقسموا \* أيدي سبأ في البلاد فانشعوا  
لن يخلّف الدهر مثلهم أبدا \* على هيات شائهم عجب  
لما تيقنت أن روحهم \* ليس لها ما حيث متقلب  
أبليت صبرا لم يئله أحد \* واقسمني مارب شعب  
لذلك أتى إذا رزئت أحّا \* فليس يبنى وينه نسب  
قطربل مربي ولي بقرى ال \* كرخ مصيف وأمي العنب  
ترضعتي درها وتلجفتي \* بطلها والمجير يتهب  
إذا تلتسه الغصون جلّتي \* فينك<sup>(١)</sup> ما في أدعيه جرب

(١) القينان : الغال الكنف ، والجرب ، أي لا خال فيه .

تَبَيَّنَتْ فِي مَأْتَمِ حَمَامِهِ • كَمَا تَرَى الْقَوَائِدُ السُّبُ  
يُهْبُ شَوْقِي وَشَوْقُهُنَّ مَعًا • كَأَنَّمَا يَسْتَحِفُّنَا الطَّرِبُ  
فَقَمْتُ أَخْبَرَالِي الرِّضَاعِ كَمَا • تَحَامِلُ الطِّفْلُ مَسَّهُ السَّغْبُ  
حَتَّى تَخْبِرْتُ بَنَاتَ دَسَكْرَةَ • قَدْ عَجَمَتْهَا السَّنُونُ وَالْحَقْبُ  
هَتَكْتُ عَنْهَا وَاللَّيْلُ مَتَكَّرٌ • مَهْلِكُ اللَّسَجِ مَالَهُ هُذْبُ  
مَنْ تَسْجُ تَرْقَاهُ لَا تُسَدِّدُهَا • أَيْخَانَةُ فِي السَّرَى وَلَا طُئْبُ  
ثُمَّ تَوَجَّهْتُ خَصَرَهَا بِسَبَابِهَا • بِأَشْفَى بِلَاءَاتِ كَأَنَّهَا لُحْبُ  
فَاسْتَوَسَّقِ الشَّرْبُ لِلنَّدَامِ وَأَجِدُ • بِرَاهَا عَلَيْنَا الْخَيْرُ وَالْقَرِيبُ  
أَقُولُ لِمَا تَحَاكَّيَا شَبَابًا • أَيُّهَا لَلتَّشَابُهِ الذَّهَبُ  
هُمَا مَسَوَاءٌ وَفَرَّقِي بَيْنَهُمَا • أَنَّهُمَا جَامِدٌ وَمُنْسِكِبُ  
مَلَسَ وَأَمَّا لَهَا مَحْفَرَةٌ • صُورٌ فِيهَا الْقُسُوسُ وَالصُّلْبُ  
يَتَلَوَّنُ لِمَجْلِيهِمْ وَفَوْقَهُمْ • سَمَاءٌ تَحْمِرُ نَجْوَاهَا حَبِيبُ  
كَأَنَّهَا لَوْلَا تَبَدَّدَهُ • أَيْدِي عَدَاوِي أَقْضَى بِهَا اللَّعِبُ

ومن جيد شعره قوله لما منعه الأمين من شرب الخمر، وذلك أن المأمون أمر الخطباء  
بخراسان أن يعيِّبوا الأمين بشعر أبي نواس ويقولوا هو جليسه وتدينه وينشدوا على المنابر  
شعره، ففعله الأمين فقال :

غَنَّا بِالطَّلُولِ كَيْفَ يَكُنَّا • وَأَسْقَيْنَا نُعْطُكَ الثَّنَاءَ الثَّمِينَا  
مَنْ سُلِّفَ لِي كَأَنَّهُ كُلُّ طَيْبٍ • بَخْنِي غَضَبٌ أَن يَكُونَا  
أَكَلَ الدَّهْرُ مَا تَجَسَّمُ مِنْهَا • وَتَبَقَّى لِبَابِهَا الْمَكْنُونَا  
ثُمَّ تَلَجَّتْ فَاسْتَضَحَّتْ عَنِ لَائِي • لَوْ تَجَمَّرَتْ فِي يَدِ لَأَقْنِينَا  
وَإِذَا مَا لَمَسْتَهَا فَهَبَاءٌ • تَمْنَعُ الْكَفَّ مَا تُبَيِّحُ الْعُسُونَا

في كؤوس كأنهم نجوم \* جاريات برؤسها أيديا  
طالعات من السقايا علينا \* فاذا ما غرين يغررن فينا  
لو ترى الشرب حولها من بعيد \* قلت قوم من قرة يصطلونا  
وغزاي يديرها بينات \* ناعيات يردها العسر لنا  
ذالك عيش لودام لي غير آني \* عفته مكرها وخفت الأيما  
أدير الكأس حان أن نسقينها \* وأقصر العود إنه يلهينا  
ودع الذكر للطلوب إذا ما \* دارت الكأس بسرة ويمينا

ومن قول أبي نواس يمدح العباس بن عبد الله بن جعفر بن أبي جعفر:

غرّد الديك الصّدوح \* فاصفني طاب الصّبوح  
اسقني حتى تراني \* حسنا عندي القبيح  
فهوة تذكر نوحا \* حين شاد الفلك نوح  
نحن نخفيها ويأبى \* طيب عريف فيفبوح  
فكان القوم نهي \* بينهم مسك ذبيح  
أنا في دنيا من العبي \* اس أقصدو وأروح  
هاشمي عبادي \* عنده يقلو المديح  
علم اليهود كتاب \* بين حينه يألوح  
كل جو يا أميري \* ما خلا جودك ريح  
إنما أنت عاليا \* أبدا ما تستريح  
يحي صوت الماي ما \* منك يشكو ويصبح  
ما لهذا أحد فو \* ق يديه أو تصيح  
جئت بالأموال حتى \* قيل ما هذا صحيح  
فهو بالمال جواد \* وهو بالعرض شيخ  
صور اليهود مثالا \* وله العباس روح

قال محمد بن عبيدة : لقيت أبا نواس بعسكري مُكْرَمَ فقلت له : أحب أن تنشدني من  
شعرك شيئاً تَغْنَنَ به على غمري ، فأشدني :

يَكْفِي الكَرِيمَ من الكَلَا \* م لِمَ بِمَادَنه أَقْلُهُ  
والشَّيْءُ شَيْءٌ لَمْ يَزَلْ \* بِأَدَقِّه يَأْتِي أَجَلُهُ  
إِنْ لَمْ يُصَبِّكَ من الكَرْدِ \* مِمَّ الحُرِّ وَابِلُهُ فَطَلُهُ  
يُبْذِي مَكْرَمَهُ كَمَا \* يَبْذِي فِرْنَدَ السَّيْفِ سَلَّهُ  
وَالنَّزْلُ يُوقِعُ نَفْسَهُ ■ مَتَمِّدًا فِيهَا يُسِيلُهُ  
وَالْحُرِّيَّ كَرِمَ نَفْسَهُ \* بِالصَّفْحِ عَنِ لَأْيِيلِهِ

وقال أبو نواس يمدح الأمين :

صَبَّهْتُ عَلَى الأَمِينِ ثِيَابَ مَدْحِي \* فَكُلُّ النَّاسِ حَسَنٌ وَأَمْتَجَانَا  
وَلَوْلَا فَضْلُهُ مَا جَادَ شَمِيرِي \* وَلَا أَعْطَيْتِي الْفَطْنَ الْقِيَانَا  
وَقَالُوا قَدْ أَجَدْتَ فَقُلْتُ إِنِّي \* وَجَدْتُ الْقَوْلَ يَكْفِي بِلَهَادَا

ومِنْ نَحْرِيَانِهِ :

ذَكَرَ الصَّبُوحَ بِسُحُورٍ فَارْتَاخَا \* وَأَمْلَهُ دَيْكُ الصَّبَاحِ صَبَاحَا  
أَوْفَى عَلَى شَرَفِ الْجِدَارِ بِسُدُفِيَةٍ ■ غَيْرَدًا يَصْفُقُ بِالْجَنَاحِ جَنَاحَا  
فَأَذَرَ صَبَاحَكَ الصَّبُوحَ وَلَا تَكُنْ \* كَسُوفَيْنِ غَدَاً عَلَيْكَ شِعْخَا  
إِنَّ الصَّبُوحَ جَلَاءُ كُلِّ غَمَرٍ \* بَدْرَتْ يَدَاهُ بِكَأْسِهِ الإِصْبَاحَا  
وَعُذِيرِي لَذَاتِ مِثْلٍ صَاحِبٍ \* تَقَنَّتْ مِنْهُ فَكَاهَتْ وَمَزَانَا  
نَهْنُهُ وَاللَّيْلُ مَلْتَمِسٌ بِهِ ■ وَأَزَحْتُ عَنْهُ نَعْمَاسَهُ فَانْزَاخَا  
قَالَ ابْنِي الْمَصْبَاحَ ، قُلْتُ لَهُ أَكْتَبُ \* حَسْبِي وَحَسْبُكَ ضَوْؤُهَا مَصْبَاحَا  
نَسَكْتُ مِنْهَا فِي الزَّجَاجَةِ شَرَبَةً \* كَانَتْ لَهُ حَتَّى الصَّبَاحِ صَبَاحَا

من قهوة جاءك قبل مزاجها \* عطلاً فالبسها المزاج وشاحاً  
شكّ الزلّ نؤادها فكانها \* أهدت اليك برمجها تمّاحاً  
صفراء تفرّس النفوس فلا ترى \* منها بهنّ سوى السباتِ راحاً  
ومنها :

لا تبيك ليل ولا تطرب الى هند \* وأشرب على الورد من حمراء كالوريد  
كأنما اذا التحدث في حلق شاربها \* أجذته حمرتها في العين وانلبد  
فانلبر ياقوتة والكأس لؤلؤة \* من حكف لؤلؤة مشوقة القيد  
تسقيك من طرلها حمرا ومن يدها \* حمرا فلا لك من سكرين من يد  
لي تشوان ولتسدمان واحدة \* شئ خُصصت به من دونهم وعدي

كان الأحمى يفضل أبا نواس على شعراء زمانه بهذه القصيدة :

أما ترى الشمس حلت الجلا \* وطاب وقت الزمان واعتدلاً  
وفنت الطير بعد عجمتها \* واستوفت النمر حولها كلاً  
واكتست الأرض من زخايرها \* ونفى ثياب نخاله حلاً  
فاشرب على جدة الزمان فقد \* أصبح وجه الزمان مقبلاً  
من قهوة تلهب الموم فلا \* أزهب فيها السلام والعدلاً  
كرخية ترك الطويل من العيد \* ش قصيراً وتسط الأملأ  
تلمع لمع السراب في قلع الـ \* قوم اذا ما حبابها انصلا  
يقول صرف اذا مزجت له \* من لم يكن للكثير محملاً  
فسيق هذا بقدر طاقه \* وأحمل على ذا بقدر ما احتملا  
عجنا بشيين من طبائعها \* حسن وطيب ترى به المشلا

كان أبو نواس لا يَسْتَشْدُ شيئا من شعره إلا أنشد هذه القصيدة :

وَحَيْثُمَا طُلُوعُ بَرَأْسِ مُنِيْفَةٍ \* تَهْتُمُّ بِدَأْمَنِ رَامِهَا بِزَلِيلِ<sup>(١)</sup>  
 إِذَا عَارَضَتْهَا الشَّمْسُ قَاءَ ظِلَالِهَا \* وَإِنْ وَاجَهَتْهَا أَذْنْتُ بِدُخْوِي  
 حَقَطْنَا بِهَا الْأَنْفَالَ قُلَّ هِجْرَةٍ \* عَبُورِيَةٍ تُدَكِّي بِغَيْرِ قَيْلِ  
 ثَأْنَتْ قَلِيلًا عَمَ فَاثَتْ بِمَذَقَةٍ \* مِنْ الظَّلِّ فِي رَثِّ الْأَبَاءِ مَنِيْلِ<sup>(٢)</sup>  
 كَأَنَّا لَدَيْهَا بَيْنَ عِطْفَى نَعَامَةٍ \* جَفَا زَوْرُهَا عَنْ مَبْرَكٍ وَمَقِيلِ  
 حَلَبْتُ لِأَهْجَابِي بِهَا دِرَّةَ الصَّبَا \* بِصَهْبَاءٍ مِنْ مَاءِ الْكُرْمِ تُمُولِ  
 إِذَا مَا أُنْتُ دُونَ اللَّهِاءِ مِنَ الْفَقَى \* دَبَّاهِمُهُ مِنْ صَدْرِهِ بِرَمِيلِ  
 فَلَمَّا تَوَلَّى الشَّمْسَ يَجْنَعُ مِنَ الدُّبَى \* نَصَابِيْتُ وَأَسْتَجْمَلْتُ فَيْرَ جَمِيلِ  
 وَعَاطِيْتُ مِنْ أَهْوَى الْحَلِيثِ كَمَا بَدَا \* وَذَلَلْتُ صَمْبًا كَلْبَ فَيْرَ ذَلِيلِ  
 فَنَفَى وَقَدْ وَسَدْتُ يُسْرَى خَدَّهُ \* أَلَا رُبَّمَا طَالَبْتُ فَيْرَ مُنِيْلِ  
 وَأَنْزَلْتُ حَاجَاتِي بِحَقْوَى مُسَاعِدِ \* وَإِنْ كَانَ أَدْنَى صَاحِبِ وَخِيلِ  
 وَأَصْبَحْتُ أَلْحَى السَّكْرَ وَالسُّكْرَيْنِ \* أَلَا رُبُّ إِحْسَانٍ عَلَيْكَ تَقِيلِ  
 صَكْنِي حَرًّا أَنْ الْجَوَادَ مَقْتَرٌ \* عَلَيْهِ وَلَا مَعْرُوفٌ عِنْدَ يَمِيلِ  
 مَا بَنَى النَّفَى إِمَّا جَلِيْسَ خَلِيْفَةٍ \* يَقُومُ سِوَاهُ أَوْ خُفِيَ مَسِيلِ  
 بِكُلِّ فَنَى لَا يُسْتَطَارُ جَنَانُهُ \* إِذَا نَوَّهَ الزُّنْفَارُ بِاسْمِ قَيْلِ  
 لَتَخْمَسَ مَالَهُ اللَّهُ مِنْ كُلِّ فَاجِرٍ \* أُمْنِي بِطَنَةِ اللَّطِيَّاتِ أَكُولِ  
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَالَ عَوْنٌ عَلَى النَّدَى \* وَلَيْسَ جَوَادٌ مَقْتَرٌ كَجَمِيلِ

(١) الناطور : حافظ النخل والكرم والزرع وفي البارع : الناطور والناطور بالهاء المهملة حافظ الزرع ، من كلام أهل السواد وليس عربي محض . (٢) الزليل مصدر كالأليل . (٣) أى منزى هاجرة ، وصورية نسبها الى الشعرى المبرور وأيام طلوعها أيام الحر الشديد . (٤) يعنى الشمس ، أى توقفت فى البرقة زوالها . وفاتت بمذقة ، أى دخلت عليهم من تلك الخيبة انطلقت الى ثبوت حل الأبناء الضعيف من القصب الرث فلم تفر الشمس عليهم لم تمنعهم الخيبة بستر قوى فيصير ظلا ولكنه شمس وظل ، فشبهت بالحدوق من اللبن ، أى المزوج .

فإن استزيد أنشد هذه القصيدة الأخرى :

كان الشباب مطية الجهل \* ومحسن الضحكات والمزحل  
 كان الجمال إذا أردت به \* ومثبت أخطر صيت العمل  
 كان البليغ إذا نطق به \* وأصاحت الآذان للُملي  
 كان المشفق في مآربه \* عند الفتاة ومدرك التبلي  
 والآمرى حتى إذا حزمت \* نفسي أمان يدى بالفعيل  
 فالآن صرت إلى مقاربة \* وحطت عن ظهر الصبارخي  
 والراح أهواها وإن رزأت \* بلغ المماشى وقلت فظلي  
 صفراء مجدها مرآزبها \* جلّت عن النظراء والمثلي  
 تُخرت لآدم قبل خلقه \* فتقدسته بنظرة القبلي  
 فإناك شيء لا تلاميسه \* إلا بمسني غريزة العقل  
 فتروى منها العير في بئر \* حر الصفيحة ناصع سهل  
 فإذا علاها الماء ألهمها \* حبيباً شوية جلاجل الجليل  
 حتى إذا سكنت جوائعها \* خطت بمثل أكارع القليل  
 خطيت من شئٍ وجمعت \* غفيل من الإعجم والشكل  
 فاصذر أخاك فإنه رجل \* مررت مسامحه على العدل

ومن طيب شعره، والشطر الأول من القصيدة لفظ ابن النونية :

أعاذك ما حل وجهي قُصوم \* ولا عِرْضِي لأبي من يسوم  
 يفضني على الفتيان أني \* أبيت فلا ألام ولا ألوم  
 أعاذك إن يصكن برّداي رثا \* فلا يمتك بينهما كريم  
 شققت من الصبا واشتق مني \* كما اشتقت من الكرم الكروم  
 فإست أسوم للذات نفسي \* مياومة كما دفع الغريم



وتمتصلي بأسباب المعالي • له في كل مكرمة قديم  
 رفعت له النداء بقم ففعلها • وقد أخذت مطالعها النجوم  
 بتفدية تزال النفس فيها • وتختن الحسوة والعموم  
 فقام وقت من أخوين هابا • عل طرب وليلهما يسيم  
 أجز الزقي وهو يحتر رجلا • يحور به الناس ويستقيم  
 سيل الندمان ما أولته منها • وسلها ما احتوى منها الكريم  
 كلا الشخصين متمصلا ولكن • قضت وطرا وزنا منها يسيم

وقال :

إني صرفت الهوى الى قر • لم يهذه البيوت بالنظر  
 اذا نامت تهاطاهك آل • بإقرار أنه من البقر

ومن قسوله :

يا شقيق النفس من حكي • تمت عن ليلى ولم أتم  
 فاستقي البركى أختمرت • بخمار الشيب في الرجم  
 تمت أنصابت الشباب لها • بعد ما جازت مدى الحرم  
 فوى لليوم السقى بزلت • وهى ترب الدهر في القدم  
 عقت حتى لو اتصلت • بسان ناطقي وقم  
 لا تحبث في القوم مائلة • ثم قصت قصصة الأمم  
 فرحتا بالمزاج يد • خيقت للسيف والقلم  
 في تدامى سادة زهير • أخذوا اللذات من أتم  
 فتمشت في مفاصلهم • كتمتني البرة في السقم  
 فعلت في البيت اذ مريجت • مثل فعل الصبح في الظلم  
 فاهتدى سارى الظلام بها • كاهتداء السفر بالعلم

ومن طَرْدِيَّاتِ أَبِي نَوَاسٍ فِي صِفَةِ الْكَلْبِ :

أَنْتَ كَلْبٌ أَهْلُهُ مِنْ كَدِّهِ \* قَدْ سَعِدْتُ جُدُودَهُمْ بِحِدِّهِ  
فَكُلَّ خَيْرٍ عِنْدَهُمْ مِنْ عَيْنِهِ \* وَكُلَّ رِفْدٍ نَالَهُمْ مِنْ رِفْدِهِ  
يَنْظُرُ مَوْلَاهُ لَهُ كَعَبْدِهِ \* بَيْتُ أَذَى صَاحِبٍ مِنْ مَهْنِهِ  
وَأَبْ عَمْرَى جَلَّاهُ بِبِرْدِهِ \* ذَا غُرَّةٍ مَحْجِلًا بِزَنْدِهِ  
تَلَدُّ مِنْهُ الْعَرُ حَسَنَ قَدِّهِ \* يَا حُسْنَ شِدْقِيهِ وَطَوَّلَ قَدِّهِ  
تَلَقَّى الطَّبَاءُ حَتَّى مِنْ طَرْدِهِ \* يَضْرِبُ كَأَسَا شُدَّهَا مِنْ شَدِّهِ  
\* يَا لَكَ مِنْ كَلْبٍ فَسِيحٍ وَحِدِهِ \*

### أَبُو نَوَاسٍ وَجَنَان

قال أبو الفرج : كانت جَنَانُ هَذِهِ جَارِيَّةُ آلِ عَبْدِ الْوَهَّابِ بْنِ عَبْدِ الْمَجِيدِ التَّنْفُذِيِّ ، وَكَانَتْ حُلُوةً بَجِيلَةِ الْمَنْظَرِ أَدِيبَةٍ ، وَيُقَالُ : إِنَّ أَبَا نَوَاسٍ لَمْ يَصْدُقْ فِي حُبِّ امْرَأَةٍ غَيْرِهَا ، وَقِيلَ لَهُ يَوْمًا إِنَّ جَنَانَ قَدْ عَزَمَتْ عَلَى الْحُجَّ ، فَكَانَ هَذَا سَبَبَ حُبِّهِ وَقَالَ : أَمَا وَاللَّهِ لَا يَفُوتُنِي الْمَسِيرُ مَعَهَا وَالْحُجَّ عَاطِي هَذَا إِنْ أَقَامَتْ عَلَى مَزِيَّتِهَا ، وَقَالَ وَقَدْ حَجَّ وَطَدَ :

أَلَمْ تَرَ أَنِّي أَفْتِنْتُ عَمْرَى \* بِمَطْلِبِهَا وَمَطْلِبِهَا عَمِيرُ  
فَلَمَّا لَمْ أَجِدْ سَبِيلًا إِلَيْهَا \* يَتَرَبَّصُّ وَأَعْيَتُنِي الْأُمُورُ  
حَجَّجْتُ وَقُلْتُ قَدْ حَجَّجْتُ جَنَانَ \* فَيَجْمَعُنِي وَإِيَّاهَا الْمَسِيرُ

قَالَ مَنْ شَهِدَهُ حِينَ حَجَّ مَعَ جَنَانَ وَقَدْ أَحْرَمَ : لَمَّا جَنَّهُ اللَّيْلُ جَعَلَ يَأْتِي بِشَمْرٍ وَيَحْدُو بِهِ وَيَطْرِبُ ، فَفُتِّي بِهِ كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ وَهُوَ قَوْلُهُ :

إِلَهِنَا مَا أَعْسَدَلَكَ \* مَلِيكَ كُلِّ مَنْ مَلَكَ  
لَيْسَ لَكَ قَدْ لَبِثْتُ لَكَ \* لَيْسَ لَكَ إِنْ الْحَمْدُ لَكَ  
وَالْمَلِكُ لَا شَرِيكَ لَكَ \* وَاللَّيْلُ لَمَّا أَنْ حَلَكَ

والساجحات في القلَّك \* على مجاري المُنسَلَك  
 ما خاب عبد أملك \* أنت له حيث سَلَكَ  
 لولاك يا ربَّ هلَّك \* كلُّ نبيٍّ ومَلَكَ  
 وكلَّ من أهل لك \* سبح أو ليَّ فلَّك  
 يا مخطئاً ما أغضبك \* عجل وبادر أجلك  
 واختم بخير عملك \* ليسك ان الملك لك  
 والحمد والنعمة لك \* والعز لا شريك لك

وفيها يقول :

جفَّ عيني قد كاديس \* فقط من طوبى ما اختلج  
 وفؤادي من حرج \* لك والهجير قد نضج  
 خبرني فدعك نفه \* حى وأهل متى الفرج  
 كان مبعأنا خرو \* ج زياد قد خرج  
 أنت من قتل عائد \* بك في أخيق الحرج

قال الأصفهاني : قال محمد بن إبراهيم بن كثير الصوفي : دخلنا على أبي نواس نعوذه  
 في علته التي مات فيها ، فقال له علي بن صالح الهاشمي : يا أبا علي ، أنت في أول يوم من أيام  
 الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا ، وبينك وبين الله عز وجل هنأت ، فنبأ إلى الله عز وجل ،  
 فبكي ساعة ثم قال : سائِدوني سائِدوني ، ثم قال : أَخَوْفُ بالله عز وجل وقد حدثني حماد  
 ابن مسلم عن زيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
 " لكل نبي شفاعَةٌ وإنِّي اختبأتُ شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي يومَ القيامة " أفتراني  
 لا أكونُ منهم ؟

ومن قوله في مرض موته :

دَبَّ فِي السَّقَامُ عَلَوًا وَسُقْلًا . وَأَرَانِي أَهْوَتْ عُضْوًا فُعْضُوًا  
 لَيْسَ تَمِضِي مِنْ لَحْظَةٍ بِي إِلَّا ٢ نَفَصْتَنِي بِمِرْهَا فِي جُزْوًَا  
 ذَهَبَتْ جِدَّتِي بِحَاجَةِ نَفْسِي ٤ وَتَطَلَّبْتُ طَاعَةَ اللَّهِ إِنْضَوًْا  
 هَفَفَ نَفْسِي عَلَى لَيْلٍ وَأَيَا ٦ م تَجَاوَزْتُهُنَّ لَيْلًا وَلَمْضَوًْا  
 قَدْ أَسَانَا كُلَّ الْإِسَاءَةِ فَالِدَا ٨ هُمْ صَفْعًا عَنَّا وَغَفْرًا

ثم قال :

شِعْرِي أَنَاكَ مِنْ لَفْظٍ مَيِّتٍ ١٠ صَارِيْنِ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَفَقَا  
 قَدْ بَرَّثَ جِسْمَهُ الْحَوَادِثُ حَتَّى ١٢ كَادَ عَنْ عَيْنِ الْخَلَائِقِ يَحْتَقَى  
 لَوْ تَأَمَّلْتَنِي لَتُبَيَّرَ وَجْهِي ١٤ لَمْ يَهْنُ مِنْ كَلَابِ وَجْهِي حَرْقًا  
 وَلَكُونَتْ طَرَفُ عَيْنِكَ فِيمَنْ ١٦ قَدْ بَرَاهُ السَّقَامُ حَتَّى تَعْنَى

وكان عمر أبي نواس تسعا وخمسين سنة ، وكانت وفاته قبل دخول المأمون مدينة

السلام بست سنين (سنة ١٩٨) .

٢ - العتّابي<sup>(١)</sup>

قال أحمد بن سَهْل: تذاكرنا شعرَ العتّابي فقال بعضنا: فيه تكلف، ونصره بعضنا،

فقال: شيخ حاضر، ويحكم! أيقال إن في شعره تكلفاً وهو القائل:

رُسِلَ الضميرُ إليك تَنزِيًّا \* بالشوقِ ظالِمةً وحسري

مترجِّباتٌ<sup>(٢)</sup> ما يَبِيه \* نَعلُ الوِثامِ بعدَ مَسَرَى

ما جَفَّ للعَيْنِ بِه \* لَدُنْكَ يَاقِيَرُ الْعَيْنِ جَعْرَى

فَأَسْلَمَ سَلِيمَتٌ مُبَرَّآ \* مِنْ صَبَوْنٍ أَبْدَأَ مَعْرَى

(١) هو كلقم بن عمرو بن أيوب النخعي القتيبي من ولد عتاب بن أسيد ثم من بني تغلب بن وائل، شاعر مرسِل يلحن مطبوع منصرف في فنون الشعر مقدم، من شعراء الدولة العباسية، وكان مقطعا إلى البراءة فوسفوه للرشيده ووصلوه به، فبلغ عنده كل مبلغ وعظمت هوائمه منه.

وكان حسن الاعتدال في شعره ورسالته وله مصنفات في الخلق والأدب واللغة وكان يقيم في رأس عين ببسدا من ددر الخلفاء والأمراء، وبلغ الرشيد قصيدة قالها فأعجب بها فطلب إخطاحه إليه بلقاء وماله قميص غليظ وافرقة وخشف، وعلى كنفه ملحمة حافية بغير سراويل، فلما دفع الخمر يقدوه إلى الرشيد أمر بأن تخرش له هجرة وتقام له وظيفة ففعلوا، فكانت المائدة إذا قدمت إليه أخذتها راقعة وملها وخلط الخلع بالتراب فأكلها، فإذا كان وقت اليوم نام على الأرض، وانلهم يتقدونه ويتعجبون من فعله. وسأل الرشيد عنه فأخبروه فأمر بطرده فخرج حتى أتى يحيى بن سعيد الغليل وهو في منزله فسلم عليه وانسحب به فحسب به وقال له: «ارتفع» فقال «لم أترك الجيوس» قال «لما حاجتك» قال «دابة أبلغ عليا إلى داس عين» فقال: يا غلام، أعطه الفرس القلاني فقال: لا حاجة لي في ذلك ولكن تأمر أن تشتري لي دابة أبلغ عليا فقال لللاء: «امض معي فأبيع له ما يريد» فضى منه ففعل به الثاني إلى سوق الحمر فقال الغلام: إنما أمرني أن ابتاع لك دابة فقال له: «أضغ اليه فتمه» فدفعه إليه فركب الحمار مرابا برمحته عليه انصرف، فضى منه فاشترى حمارا بمائة وخمسين درهما وقال: ادفع اليه فركب الحمار مرابا برمحته عليه وبردقة وساقه مكشوفتان، فقال له يحيى بن سعيد: «فضحتي! أنبل يحمل مثلك على هذا!» فضحك وقال: «ما رأيت قردا يسترجب أكثر من ذلك» ومضى إلى داس عين.

توفي سنة ٢٢٠ هـ وتجد أحبابه في الأغانى (ج ١٢ ص ٢) وفوات الوفيات (ج ٢ ص ١٣٧).

(٢) أي متبلمات بالقليل حتى يسهل اليك.

إن الصبابة لم تدع \* متى سوى عظيم مبرى  
ومدامع عبرى على \* كبدك عليك الدهر حرى

أويقال إنه متكلف وهو الذى يقول :

فلو كان للشكر شخصين \* إذا ما تأمله الناظر  
لمنكته لك حتى تراه \* لتعلم آتى أمرؤ شاكر

ويجد الرشيد على العتابي قد دخل سراً مع المتظلمين بفيران، فقتل بين يدي الرشيد وقال له : يا أمير المؤمنين، قد آذنتي الناس لك ولنفسى فيك، وردنى آبتلاؤهم الى شركك، وما مع تذكرك قناعة بفيرك، ولنعم الصائت لنفسى كنت لو أعاتنى عليك الصبر، وفى ذلك أقول :

أخضني المقام العمر إن كان غرنى \* سناً خلط أوزلت القدمين  
أتركنى جنب المعيشة مفترأ \* وكفأك من ماء الندى يكفان  
وتجلى سهم المطامع بسد ما \* بثلث يمين بالندى ولسانى

فأعجب الرشيد قوله، ونحرج وطيله الخلع، وقد أمر له بجائزة .

كلم العتابي يحيى بن خالد فى حاجة بكلمات قليلة، فقال له يحيى : لقد نزر كلامك اليوم وقيل، فقال له : وكيف لا يقل وقد تكفنى ذل المسألة وحرية الطلب وخوف الرد؟ فقال : والله لئن قل كلامك لقد كثرت فوائده، وقضى حاجته .

قال يحيى بن خالد البرمكى لولده : إن قدرتم أن تكتبوا أنفاس كلنوم بن عمرو العتابي فضلا عن رسائله وشعره ، فلن تروا أبدا مثله .

وقف العتابي بباب المأمون يلتمس الوصول اليه ، فصادف يحيى بن أكثم جالسا ينتظر الإذن، فقال له : إن رأيت أمرتك الله أن تذكر أمرى لأمر المؤمنين إذا دخلت فافعل ، قال له : لست أمرتك الله بمجابهة ، قال : فإن لم تكن حاجبا فقد يفعل مثلك ما سألت ، وأعلم أن الله عز وجل جعل فى كل شى زكاة، وجعل زكاة المال رقة المستعنين ، وزكاة الجاه إغاثة الملهوف ، وأعلم أن الله عز وجل مقبل عليك بالزيادة إن شكرت ، أو التغير إن كفرت .

وإني لك اليوم أصلح منك لنفسك، لأنني أدعوك إلى آزيداد نعمتك وأنت تأتي، فقال له يحيى: أفعَلْ وكرامة، ونرج الإذن ليحيى، فلما دخل لم يبدأ بشيء بعد السلام إلا أن أستاذن المأمونَ للعتابي، فأذن له .

وقيل له : لو تزوجت، فقال: إني وجدت مكابدة العفة أسرعة من الاحتياَل لمصلحة العيال .

قال دِمِيل : ما حدثت أحدا قط على شعركا حدثت العتابي على قوله :

هَيْبَةُ الْإِخْوَانِ قَاطِعَةٌ \* لِأَيِّ الْحَاجَاتِ عَنْ طَلَبِهِ

فإذا ما هَيْبَتْ ذَا أَمَلٍ \* مات ما أَمَلَتْ مِنْ سَبَبِهِ

كان العتابي جالسا ذات يوم ينظر في كتاب، فتر به بعضُ جيرانه، فقال : أيش ينفع العلم والأدب من لا مال له ؟ فأشدد العتابي قوله :

يَا قَاتِلَ اللَّهِ أَقْوَامًا إِذَا تَقَفُّوا \* ذَا اللَّبِّ يَنْظُرُ فِي الْأَدَابِ وَالْحِكْمِ

قَالُوا وَلَيْسَ بِهِمْ إِلَّا نَفَاسُهُ <sup>(١)</sup> \* أَنَاغُ ذَا مِنْ الْإِقْتَارِ وَالْمُسْتُمْ

وَلَيْسَ يَدْرُونَ مَا الْحِفْظُ الَّذِي حُرُّوا \* — لِحَاظِ اللَّهِ — مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ قَوْمِ

ومن قوله أيضا :

لَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا أَنَاثُكَ ثَرَوَةً \* فَأَصْبَحَتْ ذَا يُسْرِ وَقَدْ كُنْتَ ذَا عُسْرِ

لَقَدْ كَشَفَ الْإِثْرَاءُ مِنْكَ تَحَايَاً \* مِنْ اللُّؤْمِ كَانَتْ تَحْتَ سِتْرِ مِنَ الْفَقْرِ

وقال أيضا :

رَحَلَ الرَّجَاءُ إِلَيْكَ مَغْتَرِبًا \* حُسِدَتْ عَلَيْهِ نَوَائِبُ الدَّهْرِ

رَدَّتْ إِلَيْكَ نَدَامَى أَمَلٍ \* وَشَا إِلَيْكَ عَنَانُهُ شُكْرَى

وَجَعَلَتْ عَتَبَكَ عَتَبَ مَوْعِظَةٍ \* وَرَجَاءَ عَفْوِكَ مَتْنِي أَمَلٍ

لما سعى منصورُ التَّمَرِيُّ بالعتابي إلى الرشيد أخفاظ عليه قطبه، فسأته جعفر بن يحيى

عنه مدة وجعل يستعطفه عليه حتى استل ما في نفسه وأمنه، فقال يمدح جعفر بن يحيى :

ما زلتُ في تحمرات الموت مُطَرَّحًا \* قد ضاق عني فسيحُ الأرض من حبلٍ  
ولم تزلْ دائباً تسعى بلطفك لي \* حتى أختلستَ حياتي من يدَي أجلي  
عاد عبد الله بن طاهر وإسحاق بن إبراهيم بن مُصعب كلثوم بن عمرو العتّابي في علّة  
أعنتها، فقال الناس : هذه خُطرة خطرتُ ، فبلغ ذلك العتّابي ، فكتب الى عبد الله بن  
طاهر :

قالوا الزيارة خُطرة خطرتُ \* ويحارُّ برّك ليس بالخطر  
أبطلُ مقاتلهم بثانية \* تستفيدُ المعروف من شكري  
فلما بلغت أبايئة عبد الله بن طاهر ضحك من قوله وركب هو وإسحاق فعاداه مرة  
ثانية .

كانت له امرأة من باهلة ، فلما مضى الى رأس حين قالت له : هذا منصور القمري :  
قد أخذ الأموال لطلّى نساءه وبني داره واشترى ضياعاً وأنت هنا كما ترى ، فأشأ يقول :  
تولم صل ترك الغنى باهليّة \* ذوى الفقر منها كل طرف وتالد  
رات حولها التّسوان برّغلن في الثرى \* مقلّدة أعناقها بالفساد  
أسرك أنى نلتُ ما نال جعفر \* من العيش أو ما نال يحيى بن خالد  
وأت أمير المؤمنين أغصني \* مفصهما بالمُرَهفات البّوارد  
رايتُ رقيعات الامور مشوبة \* بمستودعات في بطون الأساود  
دعني تجفني ميتي مطمئنة \* ولم انجمم حولك تلك الموارد

لما قديم العتّابي مدينة السلام على المأمون أذن له ، فدخل عليه وعنده إسحاق بن إبراهيم  
الموصل ، وكان العتّابي شيخاً جليلاً نبيلاً ، فلم فردّه عليه وأدناه وقربه حتى قرّب منه ، فقبل  
يده ، ثم أمره بالجلوس بفلس ، وأقبل عليه يسأله عن حاله وهو يجيبه بلسان ذائق طائق ،  
فاستظرف المأمون ذلك وأقبل عليه بالمداعبة والمزاح ، فظن الشيخ أنه استخف به ، فقال :  
يا أمير المؤمنين ، الإبناس قبل الإبناس<sup>(١)</sup> ، فاشتبه على المأمون قوله ، فنظر الى إسحاق مستغهما ،

(١) الإبناس : دحرة الناقة الى الحلب .



فأومأ إليه وعَزمه على معناه حتى فهم، فقال: يا غلام، أَلَفَ دينار، فَأَيُّ ذَلِكَ، فوضع بين يدي العتَابِي وأخذوا في الحديث، وعَزم المأمُونُ إِسْحَاقَ بنَ إِبراهيم عليه، بفعل العتَابِي لا يأخذ في شيء إلا عارضه إِسْحَاقُ، فبقي العتَابِي متعجباً، ثم قال: يا أمير المؤمنين، أَتَأْذَنُ في سؤال هذا الشيخ عن اسمه؟ قال: نعم سَلْ، فقال لِإِسْحَاقَ يا شيخ، من أنت وما اسمك؟ قال: أنا من الناس وأسمي كُلُّ بَصَلٍ، فتيبم العتَابِي وقال: أما أنتَ فمُعرُوفٌ وأما الاسمُ فَتُكْرَهُ، فقال إِسْحَاقُ: ما أَقلَّ إنصافك! أَتُتْرَكُ أن يكونَ اسمي كل بَصَلٍ، واسمك كلثوم، وكلثوم من الأسماء، أو ليس البصل أَطيب من الثوم؟ فقال له العتَابِي: لله ذلك! لما أَتَيجُك، أَتَأْذَنُ لي يا أمير المؤمنين في أن أصله بما وصَّيتني به؟ فقال المأمُونُ: بل ذلك موفرٌ عليك وقامرٌ له بمثله: فقال له إِسْحَاقُ: أما إِذْ أَفْرَرْتَ بهذه فتوقفتني تَجِدُنِي، فقال: ما أَظُنُّكَ إلا إِسْحَاقَ الموصِلَ الذي يَتَنَاهَى الينا خبره، قال: أنا حيثُ ظننتُ، وأقبل طيه بالتحية والسلام، فقال المأمُونُ — وقد طال الحديث بينهما —: أما إِذْ قد أَتَفَقَّعْنَا على المودةِ فانصرفا متبادمين، فانصرف العتَابِي إلى منزل إِسْحَاقَ فأقام عنده.

قال عثمانُ الوَرَّاقُ: رأيت العتَابِي يأكل خبزاً على الطريق بيساب الشام، فقلت له: وَيَحْكُ! أما تَسْتَحْيِي؟ فقال لي: أَرَأَيْتَ لو كُنَّا في دارٍ بها بَقَرٌ كنتَ تَسْتَحْيِي وتَحْتَنِمُ أن تأكل وهي تراك؟ فقال: لا، قال: فاصبر حتى أَطعمك أَنهم بقر، فقام فَوَعَّظَ وقَصَّ ودعا حتى كثر الزحام عليه ثم قال لم: روى لنا غير واحد أَنه من بَلَغَ لسانه أَرْبَعَةَ أَفْهَمَ لم يدخل النار، فما بقي أَحَدٌ إلا أخرج لسانه يومئذ به نحو أَرْبَعَةِ أَفْهَمَ وبَقَدَّرَه حتى يبلغها أم لا، فلما تَفَرَّقُوا قال لي العتَابِي: أَلَمْ أَخْبِرْكَ أَنهم بقر؟

قال الفضل: رأيت العتَابِي بين يدي المأمُونِ وقد أَسَّسَ، فلما أراد القيام قام المأمُونُ فأخذ بيده واعتمد الشيخ على المأمُونِ، فإزال المأمُونُ يَنْهَضُهُ رويداً رويداً حتى أَفْهَمَ فَنَهَضَ.

وكتب كلثوم بن عمرو العنابي الى صديق له يستجديه :

أما بعد — أطال الله بقاءك وجعله يمتد بك الى رضوانه والجنة — فإنك كنت  
عندنا روضة من رياض الكرم، تبتجع النفوس بها، وتستريح القلوب اليها، وكنا نغنيها  
من النجعة<sup>(١)</sup> أستمأما لزهرتها، وشفقة على خضرتها، وأدخارا لثمرتها، حتى أصابنا سنة<sup>(٢)</sup>  
كانت عندي قطعة من سني يوسف أشد علينا كلبا، وغابت قطتها، وكذبنا غيوبا،  
وأخفينا بروقها، وفقدنا صالح الإخوان فيها، فاتعمعتك<sup>(٣)</sup>. وأنا بانتجاعى إياك شديد الشفقة  
عليك، مع علمي بأنك موضع الرائد، وأنت تغفل عن الحاسد. والله يعلم أني ما أعدك  
إلا في حومة الأهل. وأعلم أن الكريم اذا استعيا من إعطاء القليل ولم يمكنه الكثير،  
لم يعرف جوده ولم تظهر همته. وأنا أقول في ذلك :

إذا تكومت عن بذل القليل ولم • تقدر على سعة لم يظهر الجود  
بث السؤال ولا تمنحك قوته • فكل ما سة فقرا فهو محمود.

قبل قضاطره جميع ماله .

(١) النجعة : طلب الكلا في موضعه . (٢) الكلب : التعلط وبلاء الشتاء ومرض يصيب  
الكلاب . (٣) الرائد : الطالب . (٤) الحومة هنا : الجاعة والطائفة .

### ٣ - دَعْبِل<sup>(١)</sup>

شاعر متقدم مطبوع عجماء خبيث اللسان، لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا أولادهم ولا ذريته أحسن إليه أم لم يحسن، ولا أفلت منه كبير أو صغير.

وكان دعبل من الشيعة المشهورين بالميل إلى على صلوات الله عليه. وقصيدته: «مدارس آيات خلّت من تلاوة» من أحسن الشعر وفانر المدائح المقلّدة في أهل البيت عليهم السلام، وقصد بها أبا علي بن موسى الرضا بخراسان، فأعطاه عشرة آلاف درهم من الدراهم المضروبة باسمه وخلع عليه خلعة من ثيابه، فأعطاه بها أهل قم ثلاثين ألف درهم، فلم يبعها فقطعوا عليه الطريق فأخذوها، فقال لهم: إننا إنما نرد الله عز وجل وهي محزمة عليكم، فذمّوا إليه ثلاثين ألف درهم، فخلّف آلًا يبيعها أو يعطوه بنصفها ليكون في كفنه، فأعطوه فردّهم، فكان من أكفائه.

قال إبراهيم بن المهدي للمهدي لأماون قولاً في دعبل يمزحه عليه، فضحك الأماون وقال: إنما تمحّضني عليه لقوله فيك:

يا معشر الأجناد لا تفتنطوا \* وأرضوا بما كان ولا تأسخطوا  
فسوف تخطون حنينية<sup>(٢)</sup> \* يلتها الأمرد والأتمط  
والمعبديات<sup>(٣)</sup> لقوادكم \* لا تدخل الكيس ولا تربط  
وهكذا يرزق قواده \* خليفة مضمضه الربط

(١) هو دعبل بن علي بن رزيق من خزانة، أصله من الكوفة وجاء بغداد يطلب من الرشيد. وهو شاعر مطبوع عجماء. خبيث اللسان، لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا وزرائهم ولا ذريته أحسن إليه أم لم يحسن، ولا أفلت منه كبير أو صغير، فكان الناس يحافونه ويتقونه حتى الأماون فانه عجماء شديداً راحتل ذلك منه. توفي سنة ٢٤٩ هـ. وتجد أخباره في الاغانى ج ١٨ ص ٢٩ وابن خلكان ج ١ ص ١٧٨ والشعر والشعراء ص ٣٩٠ والفهرست (ص ١٦١).  
(٢) يريد أصواتاً منسوبة إلى حنين الجريد المني.  
(٣) يريد أصواتاً منسوبة إلى صبي المني.

قَدْ حَقَّ الصَّبْكُ بِأَرْزَاقِكُمْ \* وَصَحَّحَ الْعَزَمَ فَلَا تَسْخَطُوا  
بَيْتَهُ إِبْرَاهِيمَ مَشْثُومَةً \* يُقْتَلُ فِيهَا الْخَلْقُ أَوْ يَقْتَحِلُوا

فقال له إبراهيم : فقد والله هلاك أنت يا أمير المؤمنين ، فقال : دع هذا عنك فقد عفوت عنه في هجائه أيأى لقوله هذا ، وصححك . ثم دخل أبو عبد ، فلما رآه المأمون من بُعد قال لإبراهيم : دعبل يحسر على أبي عبد في الهجاء ويحجم عن أحد ! فقال له : وكأن أبا عبد أبسط يدا منك يا أمير المؤمنين ؛ قال : لا ! ولكنه حديد جاهل لا يؤن ، وأنا أعلم وأصفح ، والله ما رأيت أبا عبد مقبلا إلا أصحكني قولك دعبل فيه :

أُولَى الْأُمُورِ بَقِيَّةٌ وَفَسَادٌ \* أَمْرٌ يَدْرُهُ أَبُو عَبْدِ  
نَحَرَّقِي عَلَى جِلْسَانِهِ فَكَأَنَّهُمْ \* حَضَرُوا الْمَلْحَمَةَ وَيَوْمَ جِلَادِ  
يَسْطُو عَلَى كَأْبِهِ بِدَوَاتِهِ \* لَقَضَمَخَ بِدَمٍ وَتَضَعُ يَدَا  
وَكَاثَهُ مِنْ دَيْرٍ هِرَاقِلُ مُفْلَتٌ \* حَرِيدٌ يَحْزِي سِلَاسِلَ الْأَقْيَادِ  
فَاشْدُدْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَثَاقَهُ \* فَاصْحُحْ مِنْهُ بَقِيَّةَ الْحَسَادِ  
وكان «بقيّة» هذا مجنونا في البهارستان .

قال أبو خالد الخزازي لدعبل : ويحك ! قد هجوت الخلفاء والوزراء والقواد وتوتت الناس جميعا ، فانت دهر لك كله شريد طريد هارب خائف ، فلو كفت عن هذا وصرفت هذا الشر عن نفسك ! فقال : ويحك ! اني تأملت ما تقول فوجدت أكثر الناس لا يلتفت بهم إلا على الرهبة ، ولا يبالى الشاعر وإن كان مُجيدا إذا لم يُخَفْ شره ، ولئن بقيت كل عرضة أكثر من يرغب اليك في تشريفه ، ويعيوبُ الناس أكثر من محاسنهم ، وليس كل من شرفه شرف ، ولا كل من وصفته بالجلود والمجد والشجاعة ولم يكن ذلك فيه أنتفع بقولك ، فاذا رأك أوجعت عرض غيره وفضحتته أثقالك وخاف من مثل ما جرى على الآخر ، ويحك يا أبا خالد ! إن الهجاء المقذع أخذ بضيم الشاعر من المديح المضرع ، فضحك أبو خالد وقال : هذا واقع مقال من لا يموت حتف أنفه .

كان سببُ خروج دعبيل من الكوفة أنه كان يَشْتَرُ ويصحب الشُّطَار، فخرج هو ورجل من أَتَجَعَ فيما بين العشاء والعَتَمَة، فجلسا على طريق رجل من الصَّيَّافَة، وكان يروح كل ليلة بكيسه الى منزله، فلما طلع مَقِيلًا اليهما وشبا اليه بِجَرَحَاه وأخذًا ما في كُفِّه، فاذا هي ثلاث رُمَانَات في خِرْقَة، ولم يكن كيسه ليلتذ معه، ومات الرجل مكانه، واسترد دعبيل وصاحبه وجَدَ أولياء الرجل في طلبهما وجَدَ السُّلْطَانُ في ذلك، فطال على دعبيل الاستِئْثَار فاضطر الى أن هرب من الكوفة، لما دخلها حتى لم يبق من أولياء الرجل أحد.

قال أحمد بن خالد: كايوما بدار صالح بن علي من عبد القَهِس ببغداد ومعا جماعة من أصحابنا، فسقط على سطح البيت ديك طار من دار دعبيل، فلما رأيناه قلنا: هذا صَبِيدنا، فأخذناه، فقال صالح: ما تصنع به؟ قلنا: نذبحه، فذبحناه وشويناَه. ونخرج دعبيل فسأل عن الديك فعرف أنه سقط في دار صالح، فطلبه منا فوجدناه وشربنا يومنا، فلما كان من الغد نخرج دعبيل فضلَّ الغداة ثم جلس على باب المسجد—وكان ذلك المسجد يجتمع الناس يجتمع فيه جماعة من العلماء ويتأهبهم الناس—فجلس دعبيل على باب المسجد وقال:

أَسْرَ الْمُؤَذِّنَ صَالِحٌ وَضِيؤُهُ \* أَسْرَ الْكَيِّ هَمًّا خِلَالِ الْمَاقِطِ

بَعَثُوا عَلَيْهِ بَنِيهِمْ وَبَنَاتِهِمْ \* مِنْ بَيْنِ نَائِضَةٍ وَآخِرِ سَامِطِ

يَتَنَازَعُونَ كَأَنَّهُمْ قَدْ أَوْقَوْا \* خَاقَانُ أَوْ هَزَمُوا قِبَالَ نَاعِطِ<sup>(١)</sup>

نَهَشُوهُ فَأَثَرَعَتْ لَهُ أَسْنَانُهُمْ \* وَتَهَشَّمَتْ أَفْقَاؤُهُمْ بِالْحَسَاطِ

فكتبها الناس عنه وَمَضُوا، فقال لي أبي، وقد رجع الى البيت: ويحك! ضاقت عليك المأكَل فلم تجدوا شيئًا تاكلونه سوى ديك دعبيل! ثم أئسنا من الشعر، وقال: لا تدع ديكا ولا دجاجة تقدر عليه إلا اشتريته وبعثت به الى دعبيل وإلا وقعنا في لسانه، ففعلت ذلك. قال أحمد بن أبي كامل: كان دعبيل ينشد كثيرا هجاء له، فأقول له فيمن هذا؟ فيقول ما استحققه أحدٌ بينه بعد، وليس له صاحب، فاذا وجد على رجل جعل ذلك الشعر فيه وذكر اسمه في الشعر.

(١) قبيلة من همدان، وأصله جبل زلرابه ففسروا اليه.

كان دعبيل يختلف الى الفضل بن العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث، وهو خزيجه ونفيمه وأدبه، فظهر له منه جفاء وبلغه أنه يعيبه ويذكره وينال منه، فقال بهجوه :  
يا بُؤس للفضل لو لم يأت ما عَابَهُ \* يستفرغ العَم من سَمَاء قِرْصَانَةٍ  
ما إن يزال وفيه العيبُ يجمعه \* جهلا لأعراض أهل المجد عِيَابُهُ  
إن عابني لم يَعِْبْ إلا مؤدِّبَهُ \* ونَفَسَهُ عاب لما عاب أَذَابُهُ  
فكان كالكلب ضَرَّاهُ مَكَلَّبُهُ \* لغيره فعدا فاصطاد كَلَابُهُ  
كان دعبيل يقول : ما كانت لأحد قط عندي مِنةٌ إلا تَمَنَيْتُ موته .

كتب دعبيل الى أبي نَهْشَل بن حُميد الطوسي قوله :

إنما العيشُ في مُنادمة الإخوان \* ن لا في الجلوس عند الكُتاب  
وبصرف كأنها ألسن البر \* في إذا استمرضت رقيق السحاب  
إن تكونوا تركتم لذة العيد \* ش حذار العقاب يوم العقاب  
فدموني وما ألدَّ وأهوى \* وأدفعوا بي في صدر يوم الحساب

قال محمد بن زكريا الفرضاني : سمعت دعبلا يقول في كلام جرى «لَيْسَكَ» فأنكرته عليه ؛  
فقال : دخل زيد الخليل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : «يا زيد ما وُصِفَ لي  
رجل إلا رأيته دون وصفه لَيْسَكَ» يريد غيرك .

قال عمرو بن مَسْعُود : حضرت أبا دُلْف عند المأمون وقد قال له المأمون : أي شيء  
تروي لأخي خُزاعة يا قاسم ؟ فقال : وأى أخى خُزاعة يا أمير المؤمنين ؟ قال : ومن تعرف فيهم  
شاعرا ؟ فقال : أنا من أنفُسهم فأبر الشَّيْص ودعبيل وابن أبي الشَّيْص ودادود بن أبي رزين ،  
وأما من مواليتهم فظاهر وأبنة عبد الله ، فقال : ومن عسى من هؤلاء أن يُسأل عن شعره  
سوى دعبيل ! هات أي شيء عندك فيه ؛ فقال : وأى شيء أقول في رجل لم يسلم عليه أهل  
بيته حتى يجاهم ، فقرن إحسانهم بالإساءة وبذلمهم بالمنع وجودهم بالبخل ، حتى جعل كل  
حسنة منهم بإزاء سيئة منه ؛ قال : حين يقول ماذا ؟ قال : حين يقول في المطلب بن عبد الله

آبن مالك، وهو أصدق الناس له وأقربهم منه، وقد وفد إليه الى مصر فأعطاه الجوزيل وولاه، ولم يمنعه ذلك أن قال فيه :

إِضْرِبْ نَدَى طَلْعَةِ الطُّلُوعَاتِ مَتِينًا \* بِسُؤْمِ مُطَلِّبٍ فِينَا وَكُنْ حَكِيمًا

تُخْرِجُ شُرَاعَةً مِنْ لُؤْمٍ وَمِنْ كَرَمٍ \* فَلَا تَحْصِلْ لَهَا لَوْ مَا وَلَا كَرَمًا

فقال المأمون : فأنله الله ! ما أغوصه وأطفه وأدهاه، وجعل يضحك، ثم دخل عبد الله آبن طاهر فقال : أى شئ تحفظ يا عبد الله لدعبل ؟ فقال : احفظ أبياتا له فى أهل بيت أمير المؤمنين ؛ قال : هاتيا ويحك ! فأقشده :

سَقِيًّا وَرَمِيًّا لَأَيَّامِ الصَّبَابَاتِ \* أَيَّامِ أَرْفُلٍ فِي أَمْوَابٍ لَذَاتِي

أَيَّامِ غَضَنِ رَطِيبٍ مِنْ لَيَّانَتِهِ \* أَصْبَوَالِي خَيْرِ جَارَاتٍ وَتُكَّاتِ

دَعِ عَيْتَكَ ذِكْرَ زَيْمَانَ فَاتِ مُطَلِّبُهُ \* وَأَقْلَبْ بِرَحْلِكَ عَنْ مَتْنِ الْجَهْلَاتِ

وَأَقْصِدْ بِكُلِّ مَدْيَحٍ أَنْتَ قَائِلُهُ \* نَحْوَ الْهَذَاهُ بَنَى بَيْتَ الْكَرَامَاتِ

فقال المأمون : إنه قد وجد واقع مقلدا فقال، ونال ببعد ذكركم ما لا يتاله فى وصف غيرهم.

ومن قول دعبل وفيه غناء :

أَيُّ الشَّبَابِ وَأَيُّهُ سَلَكَا \* لَا أَيْنَ يُطْلَبُ ضَلُّ مِنْ هَلَكَا

لَا تَحْجِي يَا سَلَمُ مِنْ رَجُلٍ \* ضَلَّكَ الشَّيْبُ بِرَأْسِهِ فَبُكِي

يَا لَيْتَ شَعْرَى كَيْفَ يَوْمُكَ \* يَا صَاحِبِي إِذَا دَرِي سَفِكََا

لَا تَأْخُذُوا بِقُلَامَتِي أَحَدًا \* قَلْبِي وَطَرْنِي فِي دَمِي أَشْتَرَكَا

قال إبراهيم بن المدبر : لقيت دعبل بن علف قلت له : أنت أجسر الناس عندى

وأقدمهم حيث تقول :

إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ سَيَوْفُهُمْ \* قَتَلْتُ أَخَاكَ وَشَرَقْتُكَ بِمَقْعَدِ

رَفَعُوا عَمَّاكَ بِدَمٍ طَوِيلٍ نَمُولُهُ \* وَأَسْتَفْذُوكَ مِنَ الْخَضِيضِ الْأَوْهَدِ

وأولها :

أخذ المشيب من الشباب الأغيد \* والناثبات من الأنام بمَرَصِد  
فقال : يا أبا إسحاق ، أنا أحمل خَشْبَتِي منذ أربعين سنة ، فلا أجد من يصليني عليها .

كان دعبيل يخرج فيغيب سنين يدور الدنيا كلها ويرجع وقد أفاد وأثرى ، وكانت  
الشراة والصماليك يقوِّنه فلا يؤذونه ويؤاكلونه ويشاربونه ويترنونه ، وكان إذا لقيهم وضع  
طعامه وشرا به ودعاهم إليه ودعا بخلاميه : نغنف وشعف ، وكانا مغنيين ، فاقعدهما يفتيان  
وسقاهم وشرب معهم وأنسدهم ، فكانوا قد عرفوه وألفوه لكثرة أسفاره ، وكانوا يواصلونه  
ويصلونه . وأنشد دعبيل لنفسه في بعد أسفاره :

حلَّلتُ محلاً يقصر البرقُ دونه \* ويسجز عنه الطيفُ أن يجفَّشاً

قال البعري : دعبيل بن علي أشعر عندي من مسلم بن الوليد ، لأن كلام دعبيل  
أدخل في كلام العرب من كلام مسلم ، ومذهبه أشبه بمذاهبهم ، وكان يتعصب له .

كان المصمم يفتض دعبلا لطول لسانه . وبلغ دعبلا أنه يريد اغتياله وقته ، فهرب  
إلى الجبل ، وقال بهجوه :

بكي لِسَنَاتِ الدِّينِ مَكْتَلِبٌ صَبٌ \* وفاض بفرط الدمع من عينه غَرِبُ  
وقام إمام لم يكن ذا هِدَايَةٍ \* فليس له دِيبٌ وليس له لُبُ  
وما سكَّاتِ الأَنْبِيَاءِ تَأَنَّى بِمَثَلِهِ \* يُمَلِّكُ يَوْماً أَوْ تَدِينُ لَهُ الْعُرُبُ  
ولكن كما قال الدين تَتَابَعُوا \* من السَّلَفِ الْمَاضِينَ اذْ عَظُمَ الْخَطْبُ  
ملوك بني العباس في الْكُتُبِ سَبْعَةٌ \* ولم تَأْتِ عَنْ ثَامِنٍ لَمْ تُكْتَبِ  
كذلك أهل الكهف في الكهفِ سَبْعَةٌ \* خِيَارٌ إِذَا عُدُّوا وَثَامِنُهُمْ كَلْبُ  
وإني لأعطي كلَّهم عنك رِفْعَةً \* لأنك ذو ذَنْبٍ وليس له ذَنْبُ  
لقد ضاع مُلْكُ النَّاسِ اذْ سَاسَ مُلْكُهُمْ \* وَصَيَّفُ وَأَشْنَسَ وَقَدْ عَظُمَ الْكَرْبُ  
وقضيل بن مروان يُسَلِّمُ ثَلَاثَةً \* يظن لها الإسلام ليس له شَعْبُ



بأمانات المحتشم قال محمد بن عبد الملك الزيات برثيه :

قد قلت إذ غيبوه وأنصرفوا \* في خير قبر تلجئ مدفون  
 لن يهبر الله أمة فقدت \* مثلك إلا بمثل هارون  
 فقال دعبل يمارضه :

قد قلت إذ غيبوه وأنصرفوا \* في شر قبر لشر مدفون  
 اذهب إلى النار والمذابح \* خلقك إلا من الشياطين  
 ما زلت حتى عقدت بئمة من \* أضرت بالمسلمين والدين  
 وقال في ذلك وفي قيام الوائقي :

الحمد لله لا صبر ولا جهد \* ولا عزاء إذا أهل البلاد قدوا  
 خليفة مات لم يحزن له أحد \* وأنرقام لم يفرح به أحد  
 ولقد أحسن في وصف سفر سافره، فطال ذلك السفر طيه، فقال فيه :

ألم يأن للسفر الذين تمحلوا \* إلى وطن قبل الممات رجوع  
 فقات ولم أملك سواي عبدة \* تطلق بما صممت عليه ضلوع  
 تبين فكم دار تصدق شملها \* وتكمل شيت عاد وهو جميع  
 كذلك الليالي صرهن كما ترى \* لكل أناس جدب ودر يسع

ثم قال : ما سافرت قط إلا كانت هذه الأبيات نصب عيني في سفري وظهرت في وسلي حتى أعود .

ومن قول دعبل وفيه غناء :

سرى طيف ليلى حين آن هبوب \* وفضيت شوقا حين كاد بذبوب  
 فلم أدر مطروفا يحلل برحلة \* ولا طارفا يقري المني ويثيب  
 ومن قوله :

لقد عجت سأمي وذالك عجب \* رأيت في شيا عجلته حطوب  
 وما شيتني كبرة غير أني \* بهير به رأس القطيع يشيب

وقال في صالح بن عطية الأحمم وكان من أقيح الناس وجهاء، وخاطب فيها المعتصم :

قل للإمام إمام آل محمد \* قول أمرئ حبيب عليك محام

أنكرت أن تفرعنك صنعة \* في صالح بن عطية الجحام

ليس الصنائع عنده بصنائع \* لكنهن طوائف الإسلام

أضرب به جيش العدو فإنه \* جيش من الطاعون واليرسام

قال أبو تمام : ما زال دعبل مائلا إلى مسلم بن الوليد مقولا بأستاذيته، حتى ورد عليه  
بجرجان بلغاه مسلم، وكان فيه بخل، فهجوه دعبل وكتب إليه :

أبا محمد كذا عقيدي مودة \* هوأنا وقبأنا جميعا معا

أحوطك بالنيب الذي أنت حاطلي \* وأجزع إشفافا من أن تتوجعا

فصيرني بعد استكالك منيما \* لنضي عليها أزهب الخلق أجمعا

غششت الهوى حتى تداعت أصوله \* بنا وأبتذلت الوصل حتى تقطعا

وأزلت من بين الجوامع والحقى \* ذخيرة وقد طالما قد تمنا

فلا تلحني ليس لي فيك مطعم \* تغزفت حتى لم أجد لك مرعا

فهبك يميني استاككت فقطعتها \* وجفمت قلبي صبره فتشجعنا

ثم تهاجرا لها ألقيا بعد ذلك .

اجرى الرشيد على دعبل رزقا سنيا، فكان أول من حرّضه على قول الشعر، فوالله ما بلغه  
أن الرشيد مات حتى كافاه على فعله من العطاء السني والنفي بعد الفقر والرفعة بعد الخسول  
بأقيح مكافأة، وقال فيه يهجو من قصيدة مدح بها أهل البيت عليهم السلام :

وليس حي من الأحياء نعلمه \* من ذي يمان ومن بكر ومن مضر

إلا وهم شركاء في دماهم \* كما تشارك أئسادا على جرد

قتل وأمر وتحريق ومنهبة \* فعل الغزاة بأرض الروم والخز

أرى أمية معذورين إن قتلوا \* ولا أرى لبني العباس من ضر

إِرْبَعُ يَطْلُوسُ عَلَى الْقَبْرِ الزَّكِيِّ إِذَا \* مَا كُنْتَ تَرْتَعُ مِنْ دِينَ عَلَى وَطَرِ  
قَبْرَانِ فِي طُلُوسٍ خَيْرُ النَّاسِ كُلِّهِمْ \* وَقَبْرُ شَرِّهِمْ هَذَا مِنَ الْعِبَرِ  
مَا يَنْفَعُ الزَّجْسَ مِنْ قَرَبِ الزَّكِيِّ وَلَا \* عَلَى الزَّكِيِّ بِقَرَبِ الزَّجْسِ مِنْ ضَرَرِ  
هَيَاتَ، كُلِّ أَمْرٍ زَهْنٌ بِمَا كَسَبَتْ \* لَهُ إِدَاهُ نَحْسُهُ مَا شَلَّتْ أَوْ فَلَّرَ

استدعى بعض بنى هاشم دعبلا وهو يتسول للمتصم ناحية من نواحي الشام، فقصده  
إليها فلم يقع منه بحسن ظن وجفاه، فكتب إليه دعبل :

دَلِّتَنِي بِسُرُورٍ وَمَعْدَكَ فِي \* مُتَلَاظِمٍ مِنْ حَوْمَةِ السَّرَقِ  
حَتَّى إِذَا شِمْتَ الْعَدُوَّ وَقَدْ \* شُهِرَ انْتِفَاصُكَ شُهْرَةَ الْبَلَقِ  
أَنْشَأْتَ تَخْلُفَ أَنْ وَدَّكَ لِي \* صَائِفٍ وَجِطِكَ غَيْرَ مُنْجَلِقِ  
وَحَسْبَتَنِي قَفْعًا بِقَرْقَرَةٍ \* فَوَطِئْتَنِي وَطْئًا عَلَى حَقِّ  
وَنَهَبَتَنِي مَعَا عَلَى غَرَضٍ \* تَرْمِيَنِي الْأَعْدَاءُ بِالْحَدَقِ  
وَوَلَنْتَ أَرْضَ اللَّهِ ضَبَقَةً \* عَنِّي وَأَرْضَ اللَّهِ لَمْ تَنْفَقِ  
مَنْ غَيْرِ مَا جُرِّمَ سِوَى نِقَةٍ \* مَنَى بِوَعْدِكَ حِينَ قُلْتَ نَبِي  
وَمَوْدَةٍ تَحْمُو عَلَيْكَ بِهَا \* نَفْسِي بَلَاءَ مَنْ وَلَا مَلَقِ  
فَقَى سَأَلْتُكَ حَاجَةً أَبَدًا \* فَاشْدُدْ بِهَا قَفْلًا عَلَى غَلَقِ  
وَقَفَّ الْإِخَاءُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ \* هَارٍ فِيهِ بَيْعَةُ ابْتِلَاقِ  
وَأَعَدَّ لِي قَفْلًا وَجَامِعَةً \* فَاشْدُدْ يَدَيَّ بِهَا إِلَى عُنُقِ  
أَعْقِبِكَ مِمَّا لَا تَحِبُّ بِهَا \* وَأَسُدُّ عَلَى مَذَاهِبِ الْأُنُقِ  
مَا أَطْوَلَ الدُّنْيَا وَأَهْرَضَهَا \* وَأَدَّتَنِي بِمَسَالِكِ الطَّرْفِ

دخل دعبل على عبد الله بن طاهر فأنشده وهو يفقد :

جِئْتُ بِلَا حُرْمَةٍ وَلَا سَبَبٍ \* إِلَيْكَ إِلَّا بِجُرْمَةِ الْأَدَبِ  
فَاقْبِضْ ذِمَامِي فَإِنِّي رَجُلٌ \* غَيْرُ مُبَاحٍ عَلَيْكَ فِي الطَّلَبِ

فانتقل عبد الله ودخل الحرم ووجهه إليه بصره فيها ألف درهم ، وكتب إليه :

أعجلتنا فاناك عاجل ربنا \* ولو آتتظرت كثيره لم يقل

نغذ القليل وكن كأنك لم تقل \* ويكون نحن كأننا لم نفعل

مات دجيل بقرية من قرى السوس ، بعث إليه مالك بن طوق من ضرب ظهره

بمكاز لها رُج مسموم فمات من شد .

٤ - حسين بن الضحك<sup>(١)</sup>

« شاعر ظريف شديد الظُرف ، ربما أتنقطع نظيره في شعراء العصر العباسي كله ، وهو مع ظرفه وإسرافه في المجون ، قليل الفحش في اللفظ . غير مثاليك على القول الإجم والالفاظ المنكرة ، لا يتخيرها ولا يقصد إليها ، وإنما يعرض لها إذا اضطُر إليها اضطراباً وهو على ظرفة ورقة حاشيته وحرصه على نقاء اللفظ وطهره شاعر بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، مجود إذا فكر ، مظفر إذا بحث ، موقف إلى اللفظ المتين ، والأسلوب الرصين في غير جفوة ولا غلظة ، لا يعرف التكلف في لفظ ولا معنى ، وإنما ينطلق لسانه مع بحيثته ، وبعيته سهلة مرسلّة غنية غزيرة المادة ، لا تكاد تنضب ، ولا ينالها إعياء أو كلال ، وحياته كلها عبر وعظات ولكنها عبر وعظات مبتسمة ليست بالمظلمة ولا العابسة ولا بالتي تذك وتفرح ، وتجعل للحزن والأسى إلى قلبك سهلاً ، ولملك لا تجد من شعراء هذا العصر رجلاً مثله ، تقرأ أخباره فتظنّ مبتسماً منذ تبدئ إلى أن تنتهي دون أن تهأس أو تنقلب . وربما تجاوزت الابتسام إلى الإغراق في الضحك من حين إلى حين ، ولكلّ لن تترك الابتسام إلى الحزن الشديد . وربما أعتزتك في طريقك بحبابة محزنة ولكن هذه السحابة رقيقة هادئة هينة ، فهي أضعف من أن تزيل ابتسامك . وكان هذا الشاعر من المعمرين ، بلغ المائة أو كاد ، وعاصر طبقات من الشعراء ، وألواناً من حاشية الخلفاء ، ولكنه ظلّ محتفظاً بشخصيته الواحدة المبتسمة ، تغير الناس وأختلفت الظروف ، وظلّ هو واحداً

(١) هو مولد بأهله ، وله في البصرة وثناً فيها وتادم الخلفاء من بن العباس ، وكان خليفاً فاسداً وكان مع ذلك حسن التصرف في النظم ولشعره قبول ورواق ، فهو من الحفنين له معان جديدة في الحركة ابن أنوارس يأخذها عنه ، ومع أن ابن أنوارس مات سنة ١٦٨ هـ ، والضحك مات سنة ٢٥٠ هـ فقد تعاصرا لأن مولدهما متقارب لأن ابن الضحك عمر كثيراً . وهو أول من تادم الأئين له فيسه مدائح كثيرة ، وصرحها طويلاً حتى قارب مائة السنة ومات في خلافة المستعين أو المنصور . وتجد أخباره في الأغاني (ج ٦ ص ١٧٠) وابن خلكان (ج ١ ص ١٥٤) . (٢) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بجامعة المصرية .

لم يتغيره كان خليعا ، بل كان يُعرف بالخليع ، وكان كثير المجون مُسرفا فيه ، وما أحسب أن أبانواس سبقه الى لثة أو برز عليه في مأثم ، ولكنه على خلافه وإسرافه في المجون وتهالكه على اللذات ، احتفظ طول حياته بشيء من كرم الخلق وطهارة العنصر وجودة الأصل ، كأنما كانت هذه الآذات والآثام تنزلق على نفسه وأخلاقه انزلاقا دون أن تترك فيها أثرا باقيا ، وإنما كانت الآثار التي تتركها لياليه الساهرة ، وأيامه المملوءة بالعبث ، هذه الأشعار الجميلة الحلوة التي سأظهرك على طرف منها .

فلم يكن هذا الرجل كغيره من الشعراء الذين إنما كانوا يصلون الى الخلفاء بعد الجهد والكد ، وبعد التلطف وحسن الحيلة ؛ وإنما كان متصلا بالخلفاء اتصالا شديدا ، يماشروهم ويرافقهم ويتدخل في حياتهم الخاصة ، وربما تدخل الى أكثر مما ينبغي . وكان الخلفاء يمحون عنه ، ويحرمون على عشرته ويبدلون في ذلك غير قليل من الإلحاح والمطاء ، وكان شعره كله أو أكثره مرآة لحياة القصر في أيام طائفة غير قليلة من الخلفاء .

فترى من هذا الوصف أنه شاعر أديب ظريف مطبوع ، حسن التصرف في الشعر جلو المنهج ، لشعره قبول ورويق صاف ، وكان أبو نواس يأخذ معانيه في النمر فيغير عليها ، وإذا شاع له شعر نادر في هذا المعنى نسبته الناس الى أبي نواس ، وله معان في صفتها أربع فيها ، وهاجي مسلم بن الوليد فانتصف منه ، وله غزل كثير جيد ، وهو من المطبوعين الذين تملأ أشعارهم ومذاهبهم جملة من التكلف .

قال : أنشدت أبا نواس قصيدتي التي قلتها في النمر وهي :

بُلِّدَتْ مِنْ نَفَسَاتِ الْوَرْدِ بِالْأَلَّةِ <sup>(١)</sup> \* وَمِنْ صَبُوحِ دُرِّ الْإِبِلِ وَالنَّشَاءِ

فلما انتهى منها الى قولي

حتى إذا أنشدت في البيت وأخضرت \* عند الصبوح بسلامين أمكفاء

فُضِّتْ خَوَاتِمُهَا فِي نَعْتٍ وَأَصْفِهَا \* عن مثل رقراقة في جفن مرءاه <sup>(٢)</sup>

(١) الآ : ثم جهر واحدة آء . (٢) المرءاء : التي لا تكمل .

فصمق صمقة أفزعني وقال : أحسنت والله يا أشقر، فقلت : ويلك يا حسر . إنك أفزعني والله، فقال : بلى والله أنت أزععني ورععني ، هذا معنى من المعاني التي كان فكرو لا بد أن ينتهي إليها أو أغوص عليها وأقولها ، فسبقتني إليه واختلست معي ، وسعلم لمن يروى إلى أم لك ؟ فكان والله كما قال ، سمعت من لا يعلم رويها له :

لما قدم المأمون من نهرسان أمر بأن يُسمّى له قوم من أهل الأدب ليجالسوه ويسامروه ، فذكر له جماعة فيهم الحسين بن الضحّاك ، وكان من جلساء محمد المفلوح ، فلما رأى اسمه قال : أليس هو الذي يقول في محمد :

هلا بقيت لست فاقنا \* أبدا وكان لغيرك التلّف

فلقد خلقت خلافا سلقوا \* ولسوف يؤيّد بك الخلف

لا حاجة لي فيه ، والله ولا يراني أبدا إلا في الطريق ، ولم يعاقب الحسين على ما كان من هجائه له وتعريضه به ، وأتحدّر حسين إلى البصرة فأقام بها طول أيام المأمون .

قال أبو صالح بن الرشيد : دخلت يوما على المأمون ومعى بيتان للحسين بن الضحّاك ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أحب أن تسمع مني بيتين ، فقال : أنشدّهما ، فأنشدتهما :

حمدنا الله شكرا إذ حبّانا \* بنصرك يا أمير المؤمنين

فانت خليفة الرحمن حقّا \* جمعت سماحة وجمعت ديننا

فقال : لمن هذان البيتان ؟ فقلت : لمدّيك يا أمير المؤمنين حسين بن الضحّاك ، قال : قد أحسن ، فقلت : وله يا أمير المؤمنين أجود من هذا ، فقال : وما هو ؟ فأنشدته قوله :

أجرني فإني قد طمّئت إلى الوعد \* متى تُجزّ الوعد المؤكّد بالتهنّد

أعيذك من خلف الملوك وقد بدا \* تقطّع أنفاس عليك من الوجع

أيضل فرد الحسن عني بنائل \* قليل وقد أفرده بهوى فرد

رأى الله جسد الله خير عباده \* فليكنه والله أعلم بالعبد

ألا إنما المأمون للناس عصمة \* ممّيّة بين الضلالة والرشد

فاطرق ساعة ثم قال : ما تطيب تسمى له بخير بمد ما قال في أبي محمد ما قال .

ومن قوله يرى مجدا الأمين :

أطِلَّ حَرَّتَا وَأَبْكَ الإِمَامَ مُحَمَّدَا \* يحزن وإن خِفتَ الحسام المهندا  
فصَلَّاتِمْتِ الأَشْيَاءُ بِعَدِّ مُحَمَّد \* ولا زَالِ تَكُنُّ الْمَلِكُ مِنْهَا مَبْتَدَا  
ولا فَرِحَ الْمَأْمُونُ بِالْمَلِكِ بَعْدَهُ \* ولا زَالِ فِي الدُّنْيَا طَرِيدَا مُشْرِدَا

ولحسن في محمد الأمين مَرَاتٍ كثيرة جياد، وكان كثير التحقق به والمؤالة له لكثرة إفضاله عليه، وميله إليه، وتقديمه إياه، وبلغ من جزعه عليه أنه خُوِّلَ فكان يُنكر قتله لما بلغه ويدفعه ويقول: إنه مستتر وأنه قد وقف على دُعائه في الأمصار يدعو إلى مراجعة أمره والوفاء ببعثته ضَيَّا به وشفقة عليه .

ومن جيد مرثيه إياه قوله :

سألونا أَنْ يَفْ بَحْنُ ؟ فقلنا \* من هَوَى نَجْمُهُ فَكَيْفَ يَكُونُ؟  
بَحْنُ قَوْمِ أَصَابِنَا حَدَّثَ الدَّهْ \* سر فقلنا لَرَبِّهِ نَسْتَحْيِي  
نَقَمْنِي مِنَ الْأَمِينِ إِيَّاهَا \* لَهْفَ هَمِي وَأَيْنَ مَتَى الْأَمِينِ

ومن جيد قوله في مرثيه إياه .

أَحْزَى بِأَحْمَدَ عَنْكَ نَفْسِي \* معاذ الله والأبدى الحسام  
فَهَلَا مَاتَ قَوْمٌ لَمْ يَمُوتُوا \* ودُفِعَ عَنْكَ لِي يَوْمَ الْحِمَامِ  
كَأَنَّ الْمَوْتَ صَادَفَ مِنْكَ غُفَا \* أَوْ اسْتَشْفَى بِقَرْنِكَ مِنْ مَقَامِ

وقال أيضا يرثيه :

يا خَيْرَ أَمْرَةٍ وَإِنْ زَعَمُوا \* إِنْ عَلَى عَيْنِكَ لَكُنْتُ أَسْفُ  
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ لِي كَبْدَا \* حَزَى عَلَيْكَ وَمَقَلَّةٌ تَكْفُ  
وَلَنْ نَحْيِيَتْ بِمَا رَزَيْتُ بِهِ \* إِنْ لِأَحْمَدَ فَوْقَ مَا أَصَفُ  
هَلَّا بَقِيتَ لَسَبْدَ فَاقْتَنَا \* أَبَدَا وَكَانَ لِعَيْنِكَ التَّلَفُ  
فَلَقَدْ خَلَقْتَ خَلْقًا سَلَفُوا \* وَلَسَوْفَ يُعْرِزُ بِعَدْلِكَ الْخَلَفُ



لا بَاتَ رَهْطُكَ بَعْدَ هَفْوَتِهِمْ \* إِنْ لَرَهْطِكَ بَعْدَهَا شَيْفٌ <sup>(١)</sup>  
 هَتَكُوا بِحَرَمَتِكَ الَّتِي هَتَكْتَ \* حَرَمُ الرِّسُولِ وَدُونَهَا السُّجُفُ  
 وَتَبَّتْ أَقَارِبُكَ الَّتِي خَدَّاتُ \* وَجِيعُهَا بِاللَّيْلِ مَعْدُوفُ  
 لَمْ يَفْعَلُوا بِالشَّطِّ إِذْ حَضَرُوا \* مَا تَفْعَلُ الْغَيْرَانَةُ الْأَنْفُ  
 تَرَكُوا حَرِيمَ آيِهِمْ نَقْلًا \* وَالْمُحَصَّنَاتُ صَوَارِخُ هَتَفُ  
 أَبَدَتْ مُخَلَّعَلَهَا عَلَى دَهَشٍ \* أَبْكَارُهُنَّ وَزَيْتُ التَّنَصُّفِ  
 سُلِّيتَ مَاجِرُهُنَّ وَأَجْتُيْتُ <sup>(٢)</sup> \* ذَاتُ الثَّقَابِ وَنُوزَعُ الشَّنْفِ  
 فَكَأَنَّهُنَّ خِلَالَ مُنْتَهَبٍ \* دُرٌّ تَكْشِفُ دَوْنَهُ الصَّنْفِ  
 مَلِكٌ تَحْتَوِي مَلِكُهُ قَدْرٌ \* قُوَاهُ وَصَرْفُ الْبَحْرِ غَنَافِ  
 هِيَ بَاتَ بَعْدَكَ أَنْ يَدُومَ لَنَا \* عِزٌّ وَأَنْ يَبْقَى لَنَا شَرَفُ  
 لَا هَيْبُوا مُخَفَّ مَشْرِفَةٌ \* لِلْفَادِرِينَ تَحْتَهَا الْجَدَفُ  
 أَقْبَعْدَ عَهْدِ اللَّهِ تَقْتُلُهُ \* وَالْقَتْلُ بَعْدَ أَمَانَةٍ سَرَفُ  
 فَسْتَعْرِفُونَ ضِدًّا بِعَاقِبَةٍ \* عِزُّ الْإِلَهِ فَأُورِدُوا وَقَفُّوا  
 يَا مَنْ يَحْتَوِي نَوْمَهُ أَرْقُ \* هَدَّتِ الشَّجُونُ وَقَلْبُهُ هَفُ  
 قَدْ كُنْتُ لِي أَمَلًا غَنِيْتُ بِهِ \* فَضَى وَحَلَّ عَمَلُهُ الْأَسْفُ  
 مَرِجَ النَّظَامِ وَعَادَ مُتَكْرِنًا \* مُرْفَا وَأَنْتَ بَعْدَكَ الْعُرْفُ  
 فَالْشَّمْلُ مَنَشَرُ لِقَدْرِكَ وَالْ \* مَدْنِيَا سُدَى وَالْبَالُ مَنَكْسَفُ

وقال أيضا يرثيه :

إِذَا دُكِرَ الْأَمِينُ تَتَى الْأَمِينَا \* وَإِنْ رَقَدَ الْخَلِيٌّ حَتَّى الْجُفُونَا  
 وَمَا بَرَحْتُ مَنَازِلَ بَيْنَ بُصْرَى \* وَهَكَالَوَادِي مُتَبَجِّحَ لِي شُجُونَا  
 عِرَاضُ الْمَلِكِ خَلَوِيَّةٌ تَهَادَى \* بِهَا الْأَرْوَاحُ تَنْسُجُهَا فَنُونَا

(١) مبعض منك . (٢) جمع معجر بالسر وهو ثوب تمتع به المرأة أى تشده على رأسها .

نَحْضُونَ عَرَّ مَا كُنْهَا زَمَانٌ • تَلْعَبُ بِالْقُرُونِ الْأَوَّلِينَ  
 فَشَقَّتْ شَمْلَهُمْ بَعْدَ اجْتِمَاعِ • وَكُنْتُ بِحَسَنِ أَقْتِهِمْ ضَمِينَا  
 فَلَمْ أَرِ بَعْدَهُمْ حُسْنًا بِسَوَاهِمِ • وَلَمْ تَرَوْهُمْ حَيَوْنَ النَّاطِرِينَ  
 فَوَا أَسْفَا وَإِنْ شِئْتَ الْأَمَادَى • وَأَوْ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ  
 أَضَلَّ الْعُرْفَ بِمَدَكِ مُتَعَمِّرِهِ • وَرَفَعَهُ عَنِ مَطَايَا الرَّاغِبِينَ  
 وَكُنْ إِلَى جَنَابِكَ كُلَّ يَوْمٍ • يَرْحَنُ عَلَى السَّعُودِ وَيَفْتَدِينَا  
 هُوَ الْجَلْبُلُ الَّذِي هُوَتِ الْمَعَالَى • يَلْدَتُهُ وَرِيعُ الصَّالِحِينَ  
 سَتَدْبُ بِمَدَكِ الدُّنْيَا جَوَارَا • وَتَلْدُ بِمَدَكِ الدِّينِ الْمَهْصُونَا  
 فَقَدْ ذَهَبَتْ بِشَاشَةِ كُلِّ شَيْءٍ • وَعَادَ الدِّينَ مَطْرُوحَا مَهِينَا  
 تَعْقِدُ عَرَّ مَتَّصِلٍ بِكَمَرِي • وَمِلَّةً وَذَلَّ الْمُسْلِمُونَا

وقال أيضا يرثيه :

أَسْفَا عَلَيْكَ سَلَاكَ أَقْرَبُ قُرْبَةً • مَنَى وَأَحْزَانِي عَلَيْكَ تَزِيدُ

قال أبو العباس محمد بن يزيد الأزدي : حسين بن الضحاك أشعر المحدثين حيث يقول :

أَيُّ دِيَاغِلَةٍ حُسَيْنِ • هِيَجَتْ لَوَمَةً حَزَنِي  
 إِذْ رَمَانِي الْقَمَرُ الزَّا • هَرَمَ عَنِ فَتْنَةِ جَفْنِ  
 بِأَبَى شَمْسٍ نَهَارِ • بَرَزْتُ فِي يَوْمِ دَجْنِ  
 قَرِيبَتِي بِالْمَنَى حَذِ • لِي إِذَا مَا أَخْلَفْتَنِي  
 تَرَكْنِي بَيْنَ مَبْعَا • دِ وَخُلُفٍ وَتَجَرٍّ  
 مَا أَرَى فِيَّ مِنَ الصَّبِّ • مَوَةَ إِلَّا حَسَنَ ظَنِّي  
 إِنَّمَا دَامَتْ عَلَى الْقَدِ • رَلْمَا تَعْرِفُ يَسْتَنِي  
 أَسْتَعِذُّ اللَّهَ مِنْ إِعْرَا • ضَ مِنْ أَعْرَضَ عَنِّي

لما ولى المعتصم أمر بكتابه بالقدوم عليه ، فلما دخل وسلم أستاذنه في الإنشاد ،  
فأذن له ، فأنشده قوله :

هَلَا سَالَتْ تِلْكَ الشَّاقِ \* وَتَنَتَ قَبْلَ فِرَاقِهِ يَسْلَاقِ  
إِنْ الرَّقِيبَ لَيْسَ تَرِيَبُ تَسْفَا \* صُعْدَا إِلَيْكَ وَظَاهِرَ الْإِقْلَاقِ  
وَلَنْ أَرَيْتُ لَقَدْ نَظَرْتُ بِقَلَا \* عَبَّرَى عَلَيْكَ تَحْيِيَةَ الْآمَاقِ  
فَضَى الْقَدَاةُ خِلَافِي مَرْقَبِ \* جَمَلِ الْوَدَاعِ إِشَارَةَ الْبِعَاقِ  
إِذْ لَا جَوَابَ لِمُفْجَعٍ مُتَحَيِّرِ \* إِلَّا الدَّمُوعُ تُصَانُ بِالْإِطْرَاقِ

حتى انتهى الى قوله :

خَيْرُ الْوَفُودِ مَبْشَرٌ بِخِلَافَةِ \* خَصَّتْ بِهَيْجَتِهَا أَبَا إِحْمَاقِ  
وَافَتِهِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ سَلِيمَةٍ \* مِنْ كُلِّ مُشْكَلَةٍ وَكُلِّ شِقَاقِ  
أَعْطَلَنِي صَفْقَتَهَا الضَّاهِرُ طَاعَةً \* قَبْلَ الْأَكْثَفِ بِأَوْرَدِ الْمِيثَاقِ  
سَكَنَ الْأَنَامُ إِلَى إِمَامٍ سَلَامِيَةٍ \* عَفَّ الْقَضِيمُ بِمَهْدِ الْأَخْلَاقِ  
لَغَمَى رَحِيمَتَهُ وَدَافِعَ دُونَهَا \* وَأَجَارَ مُلْقَهَا مِنَ الْإِمْلَاقِ

حتى أتمها ، فقال له المعتصم : أدن مني ، فدنا منه ، فلما فقه جوهرها من جوهر كان بين  
يديه ، ثم أمره بأن يخرجها من فمه ، فأخرجها وأمر بأن ينظم ويدفع اليه ويخرج الى الناس  
وهو في يده ، ليعلموا موقعه من رأيه ، ويعرفوا فضله ، فكان أحسن ما مَدَحَ به يومئذ .

ومن شعره قوله :

أَمِيرَ اللَّهِ تَقَى بِاللَّهِ \* لَمْ تُعْطَ الصَّبْرُ وَالْثَّوْبَةُ  
يَكْبَلِي الْأَمْرَ إِلَى اللَّهِ \* كَلَالَهُ اللَّهُ ذُو الْقُدْرَةِ  
لَنَا التَّصَرُّعُونَ لِلَّهِ \* وَالْكَفَرَةُ لَا الْفَسَرَةَ  
وَاللُّزَاقُ أَعْدَا \* تِلْكَ يَوْمُ السَّوْدِ وَالذَّبَرَةِ  
وَكُلُّهُمْ تَلْفِظُ الْمَوْتَ \* كَرِيهَ طَعْمُهَا مُرَّةَ

سَقَوْنَا وَسَقَيْنَاهُمْ \* وَلَكِنْ هِمَّ الْحَرْه  
كَذَاكَ الْحَرْبُ أَحْيَانَا \* عَلَيْنَا وَلَنَا مَرَّة

ومن قوله في غضب حظية للوائق من زيارته أخرى في نوبتها :

خَفِضْتُ أَنْ زُرْتُ أُخْرَى خِطَّةً \* فَلَهَا الشُّكَى لَدَيْنَا وَالرَّضَا  
يَا قَدْرَكَ النَّفْسُ كَانَتْ هَفْوَةً \* فَاغْفِرْهَا وَأَصْفَحْهَا مَا مَضَى  
وَأَتْرَكَ الْعَدْلَ عَلَى مَنْ قَالَهُ \* وَأَنْسَى جُرْئِي إِلَى حَكَمِ الْقَضَا  
فَلَقَدْ نَبِيتُنِي مِنْ رَقْدَتِي \* وَعَلَى قَلْبِي كَكَيْرَانَ الْقَضَا

كان الواائق يتعطل جارية له فانت، فخرج عليها وترك الشراب أياما، ثم سلاها وعاد الى حاله، فدعا الحسين ليسة وقال له : رأيت فلاة في النوم فليت نومي كان طلال قليلا لا تمتع بلغائها، فقل في هذا شيئا، فقال :

لَيْتَ عَيْنَ الْبَهْرِ مَا خَفَّتْ \* وَرَقِيبَ اللَّيْلِ مَا رَقَدَا  
وَأَقَامَ النَّوْمُ فِي مَدَنِهِ \* كَالَّذِي كَانَ وَكُنَا أَبَدَا  
بِأَبِي زَوْرٍ تَلَفَّتْ لَهُ \* فَتَنَفَسْتُ إِلَيْهِ الصُّعَدَا  
بَيْنَمَا أَضْحَكَ مَمْرُورًا بِهِ \* إِذْ تَقَطَّعْتُ عَلَيْهِ صَكِيدَا

لما أعيته الحيلة في رضا المأمون عنه رمى بأمره الى عمرو بن مسعدة وكتب اليه :

أَنْتَ حَلَوْدِي مِنْ بَيْنِ هَذِي الْمِضَابِ \* وَشِهَابِي مِنْ دُونَ كُلِّ شِهَابِ  
أَنْتَ يَا عَمْرُو قُوَّتِي وَحَيَاتِي \* وَلِسَانِي وَأَنْتَ ظُفُفْرِي وَنَابِي  
أَتُرَانِي أَنْسَى أَيْدِيكَ إِلَيَّ \* حِينَ إِذَا أَسْوَدَ نَاقِلُ الْأَمْحَابِ  
أَيْنَ أَخَذَ فَكَ الرِّضْيَةِ حَالَتِ \* فَإِنْ أُمِّ أَيْمَنَ رِقَّةُ الْكَتَابِ؟  
أَنَا فِي ذِيَةِ السَّحَابِ وَأَطْمَأْ \* إِنَّ هَذَا لَوَصْمَةٌ فِي السَّحَابِ  
فَمَ إِلَى سَيِّدِ الْبَرِيَّةِ عَنِي \* قَوْمَةٌ تَسْتَجِجُ حُسْنَ الْخَطَابِ  
فَلَعَلَّ إِلَاهَهُ يُطْلَعُنِي عَنِّي \* بِكَ نَارًا مِثْلَ ذَاتِ الْكُتَابِ  
فَلَمْ يَزَلْ عَمْرُو يُطْلِفُ لِلْمَأْمُونِ حَتَّى أَوْصَلَهُ إِلَيْهِ وَأَذَرَهُ أَرْزَاقَهُ .

ولما عفا المأمون عنه أمر بإحضاره، فلما حضر سلم، فرد عليه السلام رداً جافياً،  
ثم أقبل عليه فقال : أخبرتني عنك، هل عرفت يوم قيل أحنى محمد هاشمية قُتلت أو  
هُتكت ؟ قال : لا، قال : فما معنى قولك :

وسرّب طباء من ذؤابة هاشم \* هتّعن بدعوى خيرى وميت  
أردّ يدًا منى إذا ما ذكرته \* على كبد حرمى وقلب مفتت  
فلا بات ليل الشامتين بغيطة \* ولا بلغت آمالمهم ما تمتت

فقال : يا أمير المؤمنين ، لوعة عليّتي ، وروعة فاجأتني ، ونعمة فقدتها بعد أن غمرتني ،  
وإحسان شعركه فأنطقني ، وسيد فقدته فأقلقني ، فإن عاقبت فيحققك ، وإن عطفك  
بفضلك ، فدمعت عينا المأمون وقال : قد عفوت عنك ، وأمرت بإدرا رزقك ،  
وإعطائك ما فات منه ، وجعلت حقوقك امتناعي من استخدامك .

ومن قوله :

وكالوردة الحمراء حيا بأحمر \* من الورد بمشى في قراطين كالورد  
له صبات عند كل تحية \* بعينه تستدعي الحليم إلى الوجد  
تمتت أن أسمى بكفيه شربة \* تزكّني ما قد تسبّت من العهد  
سقى الله دمرا لم أبت فيه ليلة \* خلياً ولكن من حبيب على وعد

ومن قوله :

وأراي مضمّح لعزته \* قلت له إذ خلوت مكتنا  
تُحِبُّ بالله من يخصك بال \* هو لما قال لا ولا تمّا  
ثم تولى بمقتضى خجل \* أراد رجع الجواب فاحتشما  
فكنت كالمبتلى بجلبته \* برأ من السقم فابتدأ سقا

وقال في هوى له :

طارمٌ بحبيبه \* مطريق من التيه  
يوسفُ الجمالِ وفير \* حورٌ في تعديهِ

لا وحقاً ما أنا فيه \* من عطف أربيه  
 ما الحياة نافسة \* لي على تأييه  
 النعم يسئله \* والجمال يطفئيه  
 فهو غير مكترث \* للذي ألاقه  
 تأييه تزهده \* في رغبتي فيه

ومن قوله في هوى له :

إن من لا أرى وليس يراني \* نصب عيني ممثلاً بالأمان  
 بأبي من ضمه وضميري \* أبداً بالغيث يتجيان  
 نحن شغفان إن نظرت ورو \* حان إذا ما أختبرت يسترجان  
 فإذا ما هممت بالأمر أو هم \* بشيء بدأته وبداني  
 كان وفقاً ما كان منه ومنى \* فكأنني حكيتُه وحكاني  
 خطرات الجفون مناً سواء \* وسواء تحرك الأبدان

ومن قوله :

قدبت من قال لي على تحفه \* وغض من جفته على حوره  
 سمع بأشعارك المليح فما \* ينقك شاد بها على وقره  
 حسبك بعض الذي أذهت ولا \* حسب ليصم لم يقض من وطره  
 وقلت يا مستعير سألته الـ \* يخشع وحسن الفتور من نظره  
 لا تترك الحبيب من طرب \* عاود فيك الصبا على كبره

ومن قوله :

سائل بطيفك عن ليلى وعن مهري \* وعن نسايع أنفاسي وعن فكري  
 لم يحل قلبي من ذكراك إذ نظرت \* عني اليك على صحوى ولا مسرى  
 سقياً يسوم سرورى إذ تنازعني \* صفو الملامة بين الأئس والخقر

وَفَضَّلْ كَأْسَكَ يَا بُنَيَّ فَأَشْرِبْهُ \* جَهْرًا وَتَشْرِبْ كَأْسِي غَيْرَ مُسْتَرِ  
وَكَيْفَ أَشْمِلُهُ لَنِي وَأَزِمَهُ \* نَحْصِرِي وَتَرْفَعُهُ كَتْفِي إِلَى بَصْرِي  
فَلَيْتَ مُدَّةَ يَوْمِي إِذْ مَضَى سَلْفًا \* كَانَتْ وَمُدَّةَ أَيَّامِي عَلَى قَدَرِ  
حَتَّى إِذَا مَا أَنْطَلَوْتُ عَنَّا بِشَاشَتِهِ \* صِرْنَا جَمِيعًا كَنَّا جَارِئِينَ فِي الْحَفَرِ  
وَمِنْ قَوْلِهِ لَهْوِي كَانَ لَهُ :

تَعَزَّيْبِيَّاسَ عَنِ هَوَايَ فَإِنِّي \* إِذَا أَنْصَرَفْتُ فَمَعِي فَهِيَّاتٌ عَنْ رَدِّي  
إِذَا خُتِمَ بِالْغَيْبِ وَدَى فَالْكَمِ \* تَدُلُّونَ إِدْلَالَ الْمُقِيمِ عَلَى الْعَهْدِ  
وَلَوْ مِنْكَ بَدَ فَاجْتَنِبْنِي مَذْمُومًا \* وَإِنْ خِلْتَ أَنِّي لَيْسَ لِي مِنْكَ مِنْ بَدَ  
لَمَّا وَفَى الْوَائِقِ انْخِلَافَةَ أَشْنَدَهُ حُسَيْنٌ :

أُكَلِّمُ وَجْدِي فَإِنْ يَنْكَرُ \* بَيْنَ لَوْشَكُوتٍ إِلَيْهِ رَحِمُ  
وَأَنِّي عَلَى حَسَنِ ظَنِّي بِهِ \* لِأَحْذَرُ أَنْ يُحْتَمَ أَنْ يَحْتَمِ  
وَلِي عِنْدَ لَحْظَتِهِ رَوْعَةٌ \* تَحَقِّقُ مَا ظَنَّنَهُ الْمُتَمَمِ  
وَقَدْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّ لِي \* عِيبَ وَأَحْسِبُهُ قَدْ عَلِمَ  
وَأَنِّي لَأُغْضِ عَلَى لَوْعَةٍ \* مِنَ الشُّوقِ فِي كَيْدِي تَضْطَرُّمِ  
عَشِيَّةً وَذَهَبَتْ عَنْ مَقْلَةٍ \* مَفْضُوحٍ وَزَفَرَةٍ قَلْبِ سِدِّمِ  
فَإِنْ كَانَ عِنْدَ النَّوَى مُسْعِدٌ \* سِوَى الْعَيْنِ تَمْزِجُ دُمْعًا بِدَمِ  
سَيَذْكُرُنِي بَانَ أَوْطَانَهُ \* وَيَسْكُو الْمُقِيمِينَ مِنْ لَمْ يُقِيمِ

كُتِبَ إِلَى الْحُسَيْنِ بْنِ رَجَاءٍ فِي يَوْمِ شَكٍّ، وَقَدْ أَمَرَ الْوَائِقِ بِالْإِفْطَارِ، فَقَالَ :  
هَزَزْتُكَ لِلْمَصْبُوحِ وَقَدْ نَهَانِي \* أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الصَّيَامِ  
وَعِنْدِي مِنْ قِيَانِ الْمَصْرَعِ عَشْرٌ \* تَطْلُبُ بِهِنَّ عَاطِيَةُ الْمَدَامِ  
وَمِنْ أَمَثَالِهِنَّ إِذَا أَنْتَشَيْنَا \* تَرَانَا نَجْنِي تَمْرَ النِّسْرَامِ  
فَكَنْ أَنْتَ الْجَوَابُ فَلَيْسَ شَيْءٌ \* أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حَدْفِ الْكَلَامِ

فوردت رقعته ، وقد سبقه إليه محمد بن الحارث بن بُسْطَرُ ووجه إليه بسلام نظيف الوجه  
ومعه ثلاثة غلابة أقران حسان الوجه ، ومعه رُقعة كتبها كما تكتب المناشير ، وختمها  
في أسفلها وكتب فيها يقول :

يَسْرُ عَلَى أَسَمِ اللَّهِ يَا أَشَدَّ \* كَلَّ مِنْ غَصَنِ الْجَيْنِ  
فِي ثَلَاثٍ مِنْ بَنِي الرُّومِ \* مِثْلَ إِلَى دَارِ حُسَيْنِ  
أَتَخِصُّ الْكُهْلَ إِلَى مَوْ \* لَكَ يَا قُتْرَةَ هِنِي  
أَرَاهُ الْمُنْفَ إِذَا أَسْتَمَّ \* هَيَّ وَمَالِيهِ بَدِينِ  
وَدَجَّ اللَّفْظُ وَخَاطَبَ \* لَهُ بِغَمَزِ الْحَاجِبَيْنِ  
وَأَحْذَرُ الرَّجْعَةَ مِنْ وَجْهِ \* يَهْكَ فِي خُفَى حُنَيْنِ

فَضَى مَعَهُمْ .

ومن قوله لمن أعرض عنه :

تَلَيْسَ عَلَيْنَا أَنْ رُزِقَتْ مَلَا حَةً \* فَهَلَّا عَلَيْنَا بِعَضَى يَهْكَ يَا بُدَّ  
لَقَدْ طَالَ مَا كُنَّا مِلَاحًا وَرَبْمَا \* صَدَدْنَا وَتَبْنَا ثُمَّ غَبَرْنَا الدَّهْرُ

وله في هوى مُجِيب عنه :

عَلَّقَ مِنْ لَا كَانَ ظُلْمٌ \* لَمْ يَحْيِيهِ حَمَاءُ  
أَرْصَدَ الْبَابَ رَهْيِدٍ \* مِنْ لَهُ فَاسْتَفَاءُ  
فَإِذَا مَا أَتَانِي قَرِينُ \* وَلِقَائِي مَتَاءُ  
جَعَلَ اللَّهُ رَهْيِدٍ \* لَهُ مِنَ السُّوءِ فِدَاءُ  
وَالَّذِي أَفْرَحَ فِي الشَّاءِ \* دَنَى قَلْبِي وَلَوَاءُ  
كَكُلِّ مُشْتَقٍّ إِلَيْهِ \* مِنْ السُّوءِ فِدَاءُ  
يَتِيًّا مِنْ حَالَتِ الْأَحَدِ \* بِرَأْسِ مِنْ دُونَ مُنَاءُ



أمره المتوكل بأن ينادمه ويلزمه ، فلم يطق ذلك لكبر سنه ، فقال للتوكل بعض من حضر عنده : هو يطبق الذهب الى القرى والمواخير والسكر فيها ويعجز عن خدمتك ؛ فبلغه ذلك ، فدفع الى أحمد بن حمدون أبياتا قالها وسأله إيصالها ، فأوصلها الى المتوكل ، وهي :

أما في ثمانين وثمانيًا \* حذير وإن أنا لم اعتذر  
فكيف وقد جرت بها صاعدا \* مع الصاعدين يتسع أثر  
وقد رفع الله أعلامه \* عن ابن ثمانين دون البشر  
سوى من أصر على فتنة \* وألحد في دينه أو كفر  
وإني لمن أسراء الإله \* به في الأرض نصب صروف القدر  
لأن يقض لي هملا صالحا \* أطلب وإن يقض شرًا غفر  
فلا تلح في كبير هدي \* فلا ذنب لي أن بلغت الكبر  
هو الشيب حل بعقب الشباب \* فمن ذا يلوم إذا ما حذر  
وإني لقي كنف مفيد \* وعز بنصر أبي المتصر  
يأري الرياح بفضل السما \* ج حتى تبدل أو تقهر  
له أصد الوحى ميراثه \* ومن ذا يخالف وحى السور  
وما للفسود وأشباهه \* ومن كذب الحق إلا الجمر

فلما أوصلها شيخها بكلام يمزحه وقال : لو أطلق خدمة أمير المؤمنين لكان أسعد بها ؛ فقال المتوكل : صدقت ، وأمر له بعشرين ألف درهم .

### • — محمد بن عبد الملك الزيات<sup>(١)</sup>

كان محمد شاعرا مجيدا لا يُقاس به أحد من الكتاب ، وإن كان إبراهيم بن العباس مثله في ذلك ، فإن إبراهيم مُقِلٌ وصاحب قصار ومقطعات . وكان محمد شاعرا يُعطي فيجيد ، ويأتي بالقصار فيجيد ؛ وكان ليغا حسن اللفظ إذا تكلم وإذا كتب .

ولما تولى محمد الوزارة اشترط ألا يلبس القباء ، وأن يلبس الدرّاعة ويتقلد عليها سيفاً بجمائل ، فأُجيب الى ذلك .

وكان يقول : الرحمة خورٌ في الطبيعة ، وضعف في المنة ، ما رحمتُ شيئاً قط ، فكانوا يطعنون عليه في دينه بهذا القول ، فلما وُضع في الثقل والحديد قال : آرحوني ، فقالوا له : وهل رحمت شيئاً قط فترحم ؟ هذه شهادتك على نفسك وحُكْمك عليها .

لما ماتت أمّ أبيه عمرو ثاها بقصيدة منها :

يقول لي الخللان لو زُرت قبرها \* فقلت وهل غير الفؤاد لها قبر

على حين لم أحدث فأجهل قبرها \* ولم أبلغ السن التي معها الصبر

ومن شعره قوله :

ما أعجب الشيء ترجوه ففحرمه \* قد كنت أحسب أني قد ملأت يدي

مالي اذا غبت لم أذكر بصالحه \* وإن مرّضت فطال السقم لم أعد

(١) هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبيان بن حزة واشتهر بابن الزيات لأن جده (أبا) كان يجهل الزيات من مواضعه الى بغداد ، وكان أدبياً شاعراً طلياً بالحوالفة ، وله ديوان شعر ومجموعة رسائل جيدة ، وكانت في أول أمره من جملة الكتاب ثم صار وزيراً لمتهم ولأبيه الراضي . ولما تولى المتوكل قبض عليه وأمر بإدخاله في تنود من حديد كان ابن الزيات أحده لتذيب المصاوير وأرباب الأفراد من المطالين بالاموال وقبده بخمسة عشر رطلا من حديد ، ثم أمر بإخراجه بعد أن مكث فيه أربعين يوماً ، فوجدوه ميتاً وذلك سنة ٢٣٣ هـ . وبعد ترجمته في الألف ( ج ٢٠ ص ٤٦ ) وابن خلكان ( ج ٢ ص ٧٨ ) .

ومن شعره قوله :

ألم تَجِبْ لِمَكْتَلِبِ حَزِينٍ \* خَدِينِ صَبَابَةٍ وَحَلِيفِ صَبِيرٍ  
يَقُولُ إِذَا سَأَلَتْ بِهِ بِخُسَيْرٍ \* وَكَيْفَ يَكُونُ مَهْجُورٌ بِخَيْرٍ

وكان لمحمد رثون أشهب لم ير مثله فرأه وحسنا، فسعى به محمد بن خالد إلى المعتصم ووصف له فراشته، فبعث إليه المعتصم فأخذه منه، فقال محمد بن عبد الملك يرثيه :

كيف العزاء وقد مضى لسبيله \* عا فودعنا الأحسم الأشهب  
دَبَّ الوُشَاةُ فأبسدوك وربما = يمدّ القتي وهو الأحب الأقرب  
لله يومَ نابت عني ظاعنا = وسُلبتُ قربك أي علق أسلب  
نفس مفرقة أقام فريقتها \* ومضى لطيفته فريقتي يحب  
فالآن اذ كُملت أذاتك كلها \* ودعا العيون اليك لو لم يجيب  
وأخير من سر الحداث خيرها \* لك خالصا ومن الخلق الأغرب  
وغدوت طنان الجمام ككأنا \* في كل عضو منك صنيع يضرب  
وكان سرجك إذ هلاك غمامة \* وكأنا تحت الغمامة ككوكب  
ورأى قلبك بك الصديق جلالة \* وغدا العذو وصدره يتلهب  
أنساك لا زالت إذا منيته = نفسي ولا زالت يميني تنكب  
أضمرت منك الياس حين رأيتني \* وقوى حبالي من قولك تقضب  
ورجعت حين رجعت منك بحسرة \* لله ما فصل الأحسم الأشهب

ولما وثب إبراهيم بن المهدي على الخلافة أقترض من مياسير التجار مالا، فأخذ من عبد الملك أبي محمد عشرة آلاف درهم وقال له : أنا أردتها إذا جاءني مال، ولم يتم أمره، فاستغنى ثم ظهر ورضى عنه المأمون، فطالبه الناس بأموالهم، فقال : إنما أخذتها للسلبيين وأردت قضاءها من قيتهم، والأمر الآن لي خيري، فعزل محمد بن عبد الملك قصيدة خاطب فيها المأمون ومضى إلى إبراهيم بن المهدي فأقرأه إيادها وقال : والله لئن لم تعطني

المال الذي اقترضته من أبي لأوصلن هذه القصيدة الى المأمون، تخاف أن يقرأها المأمون فيتبدر بما قاله ، فيوقع به، فقال له : خذ مني بعض المال ونجم على بعضه ، ففعل ؛ والقصيدة قوله :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّيْءَ لِلشَّيْءِ حِلَّةٌ \* تَكُونُ لَهُ كَالنَّارِ تُشَدُّ بِالزُّنْدِ  
 صَحَّ ذَلِكَ جَرَّبْتُ الْأُمُورَ وَإِنَّمَا \* يَذُكُّ مَا قَدْ كَانَ قَبْلُ عَلَى الْبَعْدِ  
 وَطَقَى بِإِبْرَاهِيمَ أَنَّ مَكَانَهُ \* سَيَبِثُ يَوْمًا مِثْلَ أَيَّامِهِ التَّكْدِ  
 رَأَيْتُ حُسَيْنًا حِينَ صَارَ مُحَمَّدٌ \* بِغَيْرِ أَمَانٍ فِي يَدَيْهِ وَلَا تَقْدِ  
 فَلَوْ كَانَ أَمْضَى السَّيْفِ فِيهِ بِضْرَةٌ \* فَصِيرَهُ بِالْقَاعِ مُتَغَيِّرًا انْتِدِ  
 إِذَا لَمْ تَكُنِ الْبُنْدُ فِيهِ بَقِيَّةً \* فَقَدْ كَانَ مَا بُلِّغْتُ مِنْ خَيْرِ الْبُنْدِ  
 هُمْ قَتَلُوهُ بَعْدَ أَنْ قَتَلُوا لَهُ \* ثَلَاثِينَ أَلْفًا مِنْ كُفُولٍ وَمِنْ مُرْدِ  
 وَمَا نَصَرُوهُ عَنْ يَدِ سَلَفَتِ لَهُ \* وَلَا قَاتَلُوهُ يَوْمَ ذَلِكَ عَنْ حَقْدِ  
 وَلَيْسَ كُنْتَ النَّذْرَ الصُّرَاحَ وَخَفَةَ الْإِ \* حُلُومَ وَبُعْدَ الرَّأْيِ عَنْ سُنَنِ الْقَصْدِ  
 فَذَلِكَ يَوْمٌ كَانَ لِلنَّاسِ عَجْرَةً \* سَبَقَ بِقَاءِ الرَّحَى فِي الْمَجَرِ الصَّلْدِ  
 وَمَا يَوْمُ إِبْرَاهِيمَ إِنْ طَالَ عَمْرُهُ \* بِأَجَدَ فِي الْمَكْرُوهِ مِنْ يَوْمِهِ عِنْدِي  
 تَذَكَّرَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَقَامَهُ \* وَأَيَّامَهُ فِي الْهَزْلِ مِنْهُ فِي الْحَدِّ  
 أَمَا وَالَّذِي أَمْسَيْتُ عَبْدًا خَلِيفَةً \* لَهُ شَرُّ إِيْمَانٍ الْخَلِيفَةُ وَالْعَبِيدِ  
 إِذَا هَزَّتْ أَعْوَادُ الْمَنَابِرِ بِأَسْنِيَّتِهِ \* تَقْفَى بِلَيْسَ أَوْ عِمِّيَّةَ أَوْ هِنْدِ  
 فَوَاللَّهِ مَا مِنْ تَوْبَةٍ تَزَعَّتْ بِهِ \* إِلَيْكَ وَلَا مِثْلِي إِلَيْكَ وَلَا وَدِّ  
 وَلَكِنْ إِخْلَاصَ الضَّمِيرِ مُقَرَّبٌ \* إِلَى اللَّهِ زُلْفَى لَا تَيْسِدُ وَلَا تُكْدِي  
 أَتَاكَ بِهَا كَرَاهَا إِلَيْكَ بِأَنْفِهِ \* عَلَى رَحْمِهِ وَأَسْتَأْذَرَ اللَّهَ بِالْحَمْدِ  
 فَلَا تَتَرَكَّنِ لِلنَّاسِ مَوْضِعَ شُبْهَةٍ \* فَإِنَّكَ تَجْزَى بِحَسَبِ الَّذِي تُسَدِّ  
 فَقَدْ غَلَطُوا لِلنَّاسِ فِي نَصَبِ مِثْلِهِ \* وَمَنْ لَيْسَ لِلنَّصُورِ بَابٌ وَلَا الْمَهْدِي

فكيف بمن قد بايع الناس وألقت \* بيعة الرُكبان قُورًا إلى نجد  
ومن مكّ تسليم الخلافة سمعه \* يُأدى به بين السَّباطين من بُعد  
وأي امرئ سُمي بها قط نفسه \* ففارقها حتى يُغيب في الخلد  
وتزعم هذى النابية أنه \* إمام لها فيا تُمر وما تُبدي  
يقولون متى وأية مُنة \* تيم بصمّل الرأس جَوْن القفا جعد  
وقد جعلوا رُخص الطعام بهذه \* زعمًا له باليمن والكوكب السَّعد  
إذا ما رأوا يوما فلاةً رأيتهم \* يَحْتَوْن عُنَانًا إلى ذلك المهد  
واقباله في العيد يُوجِف حوله \* ويَجِفُّ الجياد واصطلاك القنا الجرد  
ورجاله يمشون بالبيض قبيله \* وقد تبعوه بالقضيب والبرد  
فإن قلت قد رام الخلافة قبله \* فلم يُؤت فيما كان حاول من جعد  
فلم أجزه إذ خيب الله سعيه \* على خطأ إذ كان منه على محمد  
ولم أرض بعد العفو حتى رفضه \* ولتَمَّ أولى بالتفمّد والرَّعد  
فليس سِواءَ خارجي رعي به \* إليك سقاء الرأي والرأي قد يُردى  
تَعَادَتْ له من كل أوب عصابة \* متى يُوردوا لا يُصدروه عن الورد  
ومن هو في بيت الخلافة تلتقى \* به وبك الآباء في ذروة المنهد  
فولاك مولاهُ وجندك جُنْدُه \* وهل يجمع القَيْن الحُسامين في غمد  
وقد رآني من أهل بيتك أني \* رأيت لهم وجداً به أيما وجد  
يقولون لا تبعد من أبي مائة \* صبور على الأواء ذي مرة جلد  
قدما وهانت نفسه دون مُلكنا \* عليه لدى الحال التي قل من يُقدي  
على حين أعطى الناس صفقاً أكتفهم \* على بن موسى بالولاية والمهد  
فما كان فينا من أبي الضمير فيه \* كرم كفى ما في القبول وفي الرد  
وجرد إبراهيم للوت نفسه \* وأبدي سلاحاً فوق ذي ميمة نهدي

وأعلى ومن يبلغ من الأمر جهده \* فليس بمذموم وإن كان لم يجهد  
فهذه أمور قد يخاف ذور النبي \* مغيثها والله يمد يدك للتشديد  
وكانت الخلافة في أيام الواثق تنور على إيتاخ وكاتبه سليمان بن وهب، وعلى أشناس  
وكاتبه أحمد بن الخصب، فعمل محمد بن عبد الملك قصيدة وأوصلها إلى الواثق على أنها  
لبعض أهل المسكر، وهي :

يا بن الخلف والأملك إن شئوا \* حُرِّتِ الخلافة عن آباءك الأول  
أجرت أم رقلت عينك عن نجب \* فيه البرية من خوف ومن وهل  
وليت أربعة أمر العباد معا \* وكلهم حاطب في جبل محتبل  
هذا سليمان قد ملكت راحته \* مشارق الأرض من سهل ومن جبل  
ملكته السند فالتحزين من عدن \* إلى الجزيرة فالأطراف من ملل  
خلافة قد حواها وحده فقيت \* أحكامه في دماء القوم والتفيل  
وابن الخصب الذي ملكت راحته \* خلافة الشام والغازين والتفيل  
فيل مصر فيهر الشام قد جرى \* بما أراد من الأموال والحلل  
كانهم في الذي قصمت بينهم \* بنو الرشيد زمان القمم للدول  
حوى سليمان ما كان الأمين حوى \* من الخلافة والتبليغ للأمل  
وأحمد بن خصب في إمارته \* كالقاسم بن الرشيد الجاعم السبل  
أصبحت لا ناصح ياتيك مستترا \* ولا علانية خوفا من الحيل  
سل بيت مالك أين المال تعرفه \* وسل خراجك عن أموالك الجمل  
كم في حبوسك من لا ذنوب لهم \* أمرى التكذب في الأقياد والكجل  
سميت باسم الرشيد المرتضى فيه \* تسمى الأمور التي تخرج من الزلل  
عش فيهم مثل ما عانت يدها معا \* على البرامك بالتهديم للقلل  
فلما قرأ الواثق هذا الشعر غافقه ، ونكب سليمان بن وهب وأحمد بن الخصب ،  
وأخذ منهما ومن أسبابهما ألفي ألف دينار فجعلها في بيت المال .

٦ - أَيْنُ الْبَوَابِ<sup>(١)</sup>

لما أُنِيَ المأمونُ بشعر آبن البواب الذي يقول فيه :

أَيَحْتَلُّ قَرْدُ الْحَسَنِ قَرْدُ صِفَاتِهِ \* عَلَى وَقْدِ أَفْرَدْتُهُ بِهِوَ قَرْدِ  
رَأَى اللَّهُ عَبْدُ اللَّهِ خَيْرَ عِبَادِهِ \* فَمَلَّكَهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْعَبْدِ  
إِلَّا إِنَّمَا الْمَأْمُونُ لِلنَّاسِ عِصْمَةٌ \* نَمِيزَةُ يَمِينِ الضَّلَالَةِ وَالرُّشْدِ

فقال المأمون : أليس هو القائل :

أَعْنَى جُودًا وَأَيْكَالِي مُحَمَّدًا \* وَلَا تَدْنَسَا دِمْعًا عَلَيْهِ وَأَسْعِدَا  
فَلَا فِرْحَ الْمَأْمُونُ بِالْمَلِكِ بَعْدَهُ \* وَلَا زَالَ فِي الدُّنْيَا شَرًّا مَطْوُونَا  
وَاحِدَةً بِوَاحِدَةٍ ، وَلَمْ يَصْلُهُ بَشْيٌ \* وَلَمَّا سَخِطَ عَلَيْهِ قَالَ قَصِيْدَةً يَمْدَحُهُ بِهَا ، وَدَسَّ مَنْ  
غَنَاهُ فِي بَعْضِهَا لَهَا وَجَدَ مِنْهُ نَسَاطًا ، فَسَالَ : مَنْ قَائِلُهَا ، فَأُخْبِرَ بِهِ ، فَوَضِيَ عَنْهُ وَرَدَّهُ إِلَى رِسْمِهِ  
مِنَ الْخِدْمَةِ ، وَهِيَ :

هَلْ لِلْحَبِّ مُبِينٌ \* إِذْ شَطَّ عَنْهُ الْقَرِينُ  
فَلَيْسَ يَبْكِي لَشَجْوَالٍ \* حَزِينٌ إِلَّا الْحَزِينُ  
يَا ظَالِمًا غَابَ عَنْهُ \* فِدَاةُ بَارِئِ الْقَطِيعِ  
أَبْكَى الْعِيُونَ وَكَانَتْ \* بِهِ تَقَرُّ الْعِيُونَ  
يَا أَيُّهَا الْمَأْمُونُ أَلَا \* مَجَارِكُ الْمَيْمُونِ  
لَقَدْ صَفَّتْ بِكَ دُنْيَا \* لِلْسَّالِمِينَ وَدِينِ  
عَلَيْكَ نُورٌ جَبَلَالٍ \* وَنُورٌ مُلْكٌ مُبِينِ

(١) هو عبد الله بن خطاب من أهل بختارى ، ورجل مجتهد وحنيفة من رعية أبي الجراح بن يوسف ، فَنَزَلُوا  
عنده بواسطة ، فَاصْطَلَمَهُمْ سَكَنُهَا ، فَاصْطَلَمَهَا وَنَزَلُوهَا طَوِيلَ أَيَّامٍ بَنِي أُمَيَّةَ ، ثُمَّ انْقَطَعُوا مِنَ الدَّوْلَةِ السَّاسِيَّةِ إِلَى الرِّبْعِ  
لِخُدَمِهِ ، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ هَذَا يَخْتَلِفُ الْقُضْلُ بْنُ الرِّبْعِ عَلَى حُجَّةِ الْخُلَفَاءِ ، وَكَانَ صَالِحَ الشَّرْعِ تَلِيَهُ وَدَارِيَةً لِأَخْبَارِ  
الْخُلَفَاءِ حَالِيًا بِأَمُورِهِمْ .

القول منك قَمَال \* والظن منك يَقِين  
 ما من يديكَ شِمَال \* ككنا يديكَ يَمِين  
 كأنما أنت في الجَو \* د والتقى هَارُونَ  
 مَنْ نال من كل فَضْل \* ما ناله المأمُون  
 تألَّف النَّاسُ مِنْهُ \* فَضْلُ وجود وَلِين  
 كالْبدر يَدُو عليه \* سَكِينَةٌ وسُكُون  
 فالرَّزق من راحتيه \* مَقْسَم مضمُون  
 وكل خَصْلَة فَضْل \* كانت فمنه تَكُون

ومما يفتى فيه قوله :

أَفنى أيما القلب المصنَّب كم تصبُو؟ \* فلا النَّأى عن سَأَمِكَ يُسَلِّ ولا القُرْبُ  
 أقول غَدَاةً استَضربتِمْ عَظِي؟ \* من الحب كَرْبٌ ليس يُشْبِهُه كَرْب  
 إذا أبصرتِكَ العَيْنُ من بُعد غَايَة \* فادخلتِ شكا فيكَ أثْبَتَكَ القلب  
 ولو أن رَكْبًا يَمْشِي لَقَادِم \* نَسِيكَ حتى يَسْتَدِلَّ بِكَ الرِّكَب

أملق ابن البواب حين جَفَاه الخليفة وعَلَّت سِنُّهُ عن الخدمة، فَرَحَلَ إلى أبي دُلْفَ  
 القاسم بن عيسى وبداه بقصيدة، فوهب له ثلاثين ألف درهم وعاد بها إلى بغداد، فما  
 نفدت حتى مات، وهي قوله :

طَرَفْتُ صَائِمةً القلوب رِبَابُ \* ونَأَتْ فليس لها اليك مَاب  
 وتصبرتُ منها العهود وفُتِلَتْ \* من دون نَيْلِ طَلابها الأَبواب  
 فلا مُدِيقَ عن الهوى وِطْلَابِه \* فالنَّبْ فيه بَلِيَّةٌ وعَذَاب  
 وأخْصُ بالمدح المَهْلَب سَيِّدَا \* نَقَاعَتُهُ <sup>(١)</sup> لِلجُنْدِ رِطَاب  
 وإلى أبي دُلْفَ رحلتُ مَطِيئِي \* قد شَقَقَهَا الإِرقال والإِغْطَاب

(١) الإرقال :؟ ضرب من الخشب .



تعلو بنا قُلَلُ الجبال ودونها \* مما هَوَتْ أهوية وشعاب  
 فاذا حلتُ لدى الأمير بأرضه ■ نلتُ المنى وتقصيت الآرابُ  
 مَلِكٌ تَأْتِلُ عن أبيه وجده ■ بجَدنا يقهر دونه العُسلابُ  
 وإذا وُزئت قديم ذى حَسَبٍ به \* خَضَعَتْ لفضل قديمه الأصحاب  
 قومَ صَلُوا أَملاكَ كُلِّ قبيلة \* فالناسُ كلهم له أذئاب  
 ضَرَبَتْ عليه المكيناتُ قباها \* فعلا العمودُ وطالت الأطناب  
 عَقِمَ النساءُ بمثله وتعلَّت \* من أن تُضَمَّنَ مثله الأصلابُ

٧ - الخُرَيجِي<sup>(١)</sup>

كان متصلا بمحمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة، وله فيه مدائح يجيّد، ثم رثاه بعد موته، فقليل له : يا أبا يعقوب، مدائحك لآل منصور بن زياد أحسن من مراثيك وأجود، فقال : تكّما يومئذ نعمل على الرجاء، ونحن اليوم نعمل على الوفاء، وبينهما بون بعيد .

وهو القائل في حبيبه :

أُصْنِى إِلَى قَائِدِي لِيُخْبِرَنِي \* إِذَا أَتَيْنَا حَمْرًا يُحْيِيَنِي  
أُرِيدُ أَنْ أُعْطِيَ السَّلَامَ وَأَنْ \* أَفْضَلَ بَيْنَ الشَّرِيفِ وَالنُّونِ  
أَسْمِعْ مَا لَا أَرَى فَأَعْرِضْهُ أَنْ \* أَخْفَى وَالسَّمْعُ غَيْرُ مَأْمُونِ  
لَهُ حِسِّيَ الَّذِي جُعِلَتْ بِهَا \* لَوْ أَنَّ دَهْرًا بِهَا يُوَاتِيَنِي  
لَوْ كُنْتُ خَيْرَتْ مَا أَخَذْتُ بِهَا \* تَمِيمٌ فَوْجٌ فِي مُلْكِ قَارُونِ  
حَقٌّ إِخْلَافِي أَنْ يَعُودُونِي \* وَأَنْ يُعْزَاوَعَنِي وَيَكُونِي

وهو القائل :

إِذَا مَا مَاتَ بَعْضُكَ فَأَيْكَ بَعْضًا \* فَإِنَّ الْبَعْضَ عَنْ بَعْضٍ قَرِيبُ  
يُمْنِي الطَّيِّبُ شَفَاءٌ حَقِي \* وَهَلْ غَيْرُ الْإِلَهِ لَهَا طَلِيبُ

(١) هو إصطاق بن حسان ويكنى أبا يعقوب، من الميم، وهو القائل :

إِنَّ أَمْرًا مِنْ سَرَاةِ الصُّنْدِ الْبَسِي \* حَرَقَ الْأَحَابِيثَ جَدًّا طَلِبُ الْخَبَرِ

وكان مولد ابن خزيمة الذي يقال لأبيه : خزيمة العام . وهو خزيمة بن عمرو بن بقرمة بن عوف . سمعته بن ذبيان .  
وهو أبو يعقوب الخُرَيجِي بعد ما أسرى، وكان يقول في ذلك شعرا، فله قوله :

إِنَّ تِلْكَ حَقِّي خَيْبًا نَوْرًا \* فَكَمْ لَهَا نَوْرَيْنِ خَيْبًا  
ظَلَمَ بِسَمِّ نَلِيٍّ وَلَسْكَتَا \* أَدَّى نَوْرِي إِلَى مَرِي  
فَأَسْرَجَ فِيهِ لِي نَوْرَهُ \* سَرَّاجًا مِنَ الْعِلْمِ يَشْفِي الْعَمِي

وقال يذكر بغداد والفتنة التي كانت بها :

قالوا ولم يَلْمِ الزمانُ بيدُ \* بداد وتَعَثَّرَ بها عواثرُها  
إذ هي مثلُ العروسِ بأدْبِها \* مُهَوَّلٌ للفسقِ وحاضِرها  
جَنَّةُ دُنْيَا وِدَارٌ مَقْبَلَةٌ \* قَلَّ مِنَ النَّائِبَاتِ وَارْتِهَا<sup>(١)</sup>  
دَرَّتْ حُلُوفُ الدُّنْيَا لساكنِها \* وَقَلَّ مَسُورُها وَعَاسِرُها  
وَأَفْرَجَتْ بِالنَّعِيمِ وَأَتَجَمَّعَتْ \* فِيهَا بِلْدَانُها حَوَاضِرُها  
فَالْقَوْمُ مِنْهَا فِي رَوْضَةِ أَقْب \* أَشْرَقَ غَبَّ الْفَطَارِ زَاهِرُها  
مِنْ غَرَّةِ الْعَيْشِ فِي بُلْهِنِيَّةِ \* لَوْ أَنَّ دُنْيَا يَوْمَ عَامِرِها  
دَارُ مَلُوكٍ رَسَتْ قَوَاعِدُها \* فِيهَا وَقَعَتْ بِهَا مَنَارِها  
أَهْلُ الْعِلَا وَالْقَرَى وَأَدْيَةِ الْ \* غَفَرِ إِذَا عُدَّتْ مَفَانِرُها  
أَفْرَاحُ تُعْمَى فِي إِرْثِ مَمْلَكَةٍ \* شَدَّ عُراها لَهَا أَكْبَارُها  
فَلَمْ يَزَلْ وَالزَّيْمَاتُ ذُو غَيْرِ \* يَفْدَحُ فِي مُلْكِها أَصَاغِرُها  
حَتَّى تَسَاقَتْ كَأَسَا مُنْمَلَةٍ \* مِنْ فِتْنَةٍ لَا يُقَالُ طَائِرُها  
وَأَفْتَرَقَتْ بَعْدَ أَلْفَةِ شَيْعَةٍ \* مَقْطُوعَةٌ بِئْسَ أَوَاصِرُها  
يَا هَلْ رَأَيْتِ الْأَمْلَاقَ مَا صَبَحَتْ \* إِذْ لَمْ يَرَّعْها بِالنَّصِيحِ زَاهِرُها  
أُورِدَ أَمْلَاقُنَا ضَوْسَهُمْ \* هُسُوءَةً عَنَى أَجَبَتْ مَصَادِرُها  
مَا صَرَّها لَوْ وَقَتْ بِمَوَاقِفِها \* وَأَسْحَكَتْ فِي الثُّقَى بَصَائِرُها  
وَلَمْ تُسَايَفْ دِمَاءُ شَيْعَتِها \* وَتَبَعِلَ فِتْنَةُ تُكَايِرِها  
وَأَفْتَنَتْها الدُّنْيَا الَّتِي جُمِعَتْ \* لَهَا وَرَغَبُ النُّفُوسِ ضَائِرُها  
مَازَالَ حَوْضُ الْأَمْلَاقِ [...] \* مَسْجُورُها بِالْهَسْوَى وَسَائِرُها  
تُبْقَى فُضُولُ الدُّنْيَا مُكَاثَرَةً \* حَتَّى أُجِيتَ صَكْرُها ذَخَائِرُها

تبيع ما جمع الأئمة لا \* أبناء لا أربحت متاجرها  
 يا هل رأيت الخنازير زاهرة \* يروق عين البصير زاهرها  
 وهل رأيت القصور شاردة \* تحبكن مثل الدمي مقاصرها  
 وهل رأيت القرى التي غرس الـ \* أملاكك محضرة دساصكرها  
 محفوفة بالكروم والتخيل والـ \* ترشحان قد دبت عجايرها<sup>(١)</sup>  
 فلنما أصبحت خلأيا من الـ \* بإنسان قد دبت عجايرها<sup>(١)</sup>  
 ففرا خلأ تعوى الكلاب بها \* ينكر منها الرسوم دائرها  
 وأصبح البؤس ما يفارقها \* إلقاها والسرو هاجرها  
 بزند ورد والياسرية والـ \* شطين حيث آتت مهابرها  
 وبالزحى وانكيزدانية الـ \* حكيا التي أشرفت قناطرها  
 وقصر حيدويه حيرة وهدي \* لكل نقص زكت سرائرها  
 فأمين حراسها وحارسها \* وأين تجبورها وجايرها  
 وأمين خصيانها وحشوتها \* أين سكناها وطامرها  
 أين الجسرادية الصقالب والـ \* أحشش تعدو هذلا مشافرها  
 بنصديق الجند عن مواكبها \* تعدو بها سرا ضوايرها  
 بالسند والهند والصقالب والـ \* خوبة شيت بها برارها  
 طيرا أبابيل أرسلت عبا \* يقدم سودانها أحامرها  
 أين الظباء الأبقار في روضة الـ \* حلك تهادى بها غرائرها  
 أين غفصاراتها ولذتها \* وأين عجبورها وحابرها  
 بالمسك والعنبر الجماني والـ \* يلتهج مشبوبة مجاميرها  
 يرقن في الخنز والمهاجد والـ \* حوشى مخطومة مزامرها

(١) كذا في الطبري في حوادث سنة ١٩٧ هـ، طبع بلائ وطبع أوربا .

فاين رقاصها وزامرها \* يبين حيث آتته حناجرها  
 تكاد اسماعهم تُسَلَّ اذا \* عارض عيداتها مزاهرها  
 أمت بكفوف الحار خالية \* يسعها بالجحيم ساعرها  
 كأنها أصبحت بساحتهم \* طاد ومستهم صراصرها  
 لا تعلم النفس ما يأتها \* من حادث النهر أو يياكرها  
 تُضحي ونسي درية غرضها \* حيث استقرت بها شراشرها  
 لأسهم النهر وهو يرشقها \* تحنطها مرة وباقرها  
 يابوس بفساد دار مملكتها \* دارت على أهلها دوائرها  
 أمهلها الله ثم عاقبها \* لما أحاطت بها كباثرها  
 بالخسيف والقذف والحريق وبال \* حارب التي أصبحت لئامورها  
 كم قد رأينا من المعاصي بها \* كالساهر السوء ... ..  
 حلت بفساد وهي آمنة \* داهية لم تكن تُحاذرها  
 طالعها السوء من مطالعه \* وأدركت أهلها جزاؤها  
 رقى بها الدين واستخف بذى الـ \* بفضل وعز النسك فاجرها  
 وخطم العبد أنف سيده \* بالزعم وأستبدت بخادرها  
 وصار رب الجيران فاسقهم \* وأبتر أمر الدروب ذامرها  
 من ير بفساد والجنود بها \* قد ربقت حولها عساكرها  
 كل طعنوت شبهة بأسلة \* تسقط أحيائها زماجرها  
 تلقى ببقى الردى أو ألسنها \* يرمقها لقاء طامرها  
 والشيوخ يعدو حزما كتابه \* يُقيم أعجازها يماورها  
 وزهير بالقول مأسدة \* مرقومة صلبة مكاسرها  
 كتاب الموت تحت الوية \* أبح منصورها وناصرها

يعلم أن الأقدار واقعة \* وقعا على ما أحب قادرها  
 فتلك بقدار ما بين من ال \* مدله في دورها عصارها  
 محنوفة بالردى منطقة \* بالصقر محصورة جبارها  
 وبين شط الفرات منه الى \* دجلة حيث آتته مآبرها  
 صهادى السفراء نافر \* تركض من حولها أشاقرها  
 يحرقها ذا وذلك يديها \* ويشنى بالنهاب شاطرها  
 والكنج أسواقها معلقة \* يستن عيارها وطايرها  
 أنجرت الحرب من سوايقها \* آساد غيل غلبا أساورها  
 من البوارى ترأسها ومن ال \* جحوص اذا استلأمت مفاقرها  
 تفدوا الى الحرب في جواشها ال \* صوف اذا ما عدت أساورها  
 صكائب الميرش تحت رايته \* ساعد طسارها مقامرها  
 لا الرزق تبغى ولا العلاء ولا \* يحشرها للقاء حاشرها  
 فى كل درب وكل ناحية \* خطارة يستل خاطرها  
 بمثل هام الرجال من قلق ال \* صخور يزود المقلع باثرا  
 كأنما فوق هامها عذف \* من القطا الكدر حاج نافرها  
 والقوم من تحتها لم ذبل \* وهى تراقى بها خواطرها  
 بل هل رأيت السيوف مصنة \* أشهرها فى الأسواق شاهرها  
 والخيال تستن فى أرقها \* بالترك مسنونة خنجرها  
 والنقط والنار فى طرائفها \* وهابا للدخان عامرها  
 والنهب تعدو به الرجال وقد \* أبدت خلاجيلها حرائرها  
 منصوبات وسط الأرقعة قد \* أبرزها للميون سائرها  
 كل رؤود الضمى غبابة \* لم تبد فى أهلها محاجرها

بَيْضَةً خَذِرَ مَكُونَةٌ بَرَزَتْ ■ للناس مَشْهُورَةٌ غَدَاثُهَا  
تَعُثَّرُ فِي ثَوْبِهَا وَتُصِجِّلُهَا \* صَكْبَةٌ خَبِلَ زَيْعَتُ حَوَافِرِهَا  
تَسْأَلُ أَيْنَ الطَّرِيقَ وَاهَةً \* وَالنَّارُ مِنْ خَلْفِهَا تَبَادِرُهَا  
لَمْ تَجْتَمِلِ الشَّمْسُ حَسَنَ بَهْجَتِهَا \* حَتَّى آجَلَتْهَا حَرْبٌ تُبَاشِرُهَا  
يَا أَهْلَ رَأَيْتِ التَّكَلِّيَ مُؤَلَّوَةً \* فِي الطَّرِيقِ تَسْعَى وَالْجَهْدُ بِأَهْرِهَا  
فِي أَثَرِ نَعَشٍ عَلَيْهِ وَاحِدُهَا \* فِي صَدْرِهِ طَمَعَةٌ يُسَاوِرُهَا  
فِرْعَاءُ تُلْقِي الشَّارَ مِنْ يَدِهَا \* يَهْزَأُ بِالسَّانِبِ شَاجِرُهَا <sup>(١)</sup>  
تَتَفَكَّرُ فِي وَجْهِهِ وَتَهْتَفِ بِأَلِ \* شَكْلُ وَصَرِّ الدَّمِ مَوْعِ خَامِرِهَا  
غَرَّضَ بِالنَّفْسِ ثُمَّ أَسْلَمَهَا \* مَطْلُوعَةٌ لَا يُخَافُ ثَاوِرُهَا  
وَقَدْ رَأَيْتِ الْفِتْيَانَ فِي عَرَصَةِ آلِ \* حَمْرُوكَ مَعْفُورَةٌ مَنَاقِرِهَا  
كُلُّ فَتَى مَنَاعُ حَقِيقَتِهِ \* تَشْقَى بِهِ فِي الْوَعَى مَسَاعِرِهَا  
بَالَتْ عَلَيْهِ الْكَلَابُ تَهْتَشُّهُ \* مَغْضُوبَةٌ مِنْ دَمِ أَظَافِرِهَا  
أَمَّا رَأَيْتِ الْخَلِيُولَ جَائِلَةً \* بِالْقَوْمِ مَعْكُوبَةٌ دَوَائِرِهَا  
تَعُثَّرُ بِالْأَوْبَةِ الْحَصَانِ مِنْ آلِ \* قَتَلَتْ وَظَلَّتْ دَمًا أَشَاعِرِهَا  
يَطْلُتُ أَكْبَادُ فِتْيَةٍ مُجْدٍ \* يَفْلَاقُ هَامَاتِهِمْ حَوَافِرِهَا  
أَمَّا رَأَيْتِ النِّسَاءَ تَحْتَ الْجَبَا ■ نَبِقَ تَعَادَى شُعْتَا ضَفَائِرِهَا  
عَقَائِلُ الْقَوْمِ وَالْعَجَائِرُ وَالِ \* مُنَسَّسٌ لَمْ تُحْتَبَرْ مَعَاصِرِهَا  
يَحْمِلُنَ قَوَاتٍ مِنَ الطَّاحِنِينَ عَلَى آلِ \* أَكْتَافٍ مَعْصُوبَةً مَعَاصِرِهَا  
وَذَاتُ عَيْشٍ ضَمِنَكَ وَمُقْبِصَةٌ \* تَسْلُخُهَا خَنْزِرَةٌ تُمَازِرُهَا  
تَسْأَلُ عَنْ أَهْلِهَا وَقَدْ سُيِّلَتْ ■ وَأُبْتُرَ عَنْ رَأْسِهَا غَفَائِرُهَا  
يَا لَيْتَ مَا وَاللَّهِ ذُو دُوَلٍ \* تُزْبِي وَأُخْرَى تُخْنِثِي بِوَادِرِهَا

(١) كذا في هامش النسخة الأوربية من العري . وفي نسخة بركات وأوربا (في ملها) :

\* فِرْعَاءُ بَنَى الشَّارَ مَرِيدُهَا \* وَهِيَ رَايَةُ ظَاهِرِهَا التَّحْرِيفُ وَلِسَادُ الْمَعْنَى .

هل ترجعن أرضنا كما غنيت \* وقد ساءت بنا مصايرها  
 من مبلغ ذا الرياستين رسا \* لا تثنى للنصيح شاعرها  
 بأن خير الولاة قد علم الذ \* أس اذا عددت ماثرها  
 خليفة الله من برته ال = حامون سائبها وجارها  
 سميت إليه آمال أمته \* منقادة برها وفاجرها  
 شاموا حيا العدل من تحايه \* وانحسرت بالثني بصايرها  
 وأحمدوا منك سيرة جلّت ال \* شك وأخرى صحت معاذرها  
 وأستجمعت طامة برقتك له \* حامون تجليها وغازها  
 وأنت تسمع في الملين له \* ومقالة ما يكفل ناظرها  
 فاشكر لذي العرش فضل نعمته \* أوجب فضل المزيد شاكرها  
 وأحذر فداء لك الرعية وال \* اجناد مأسورها وأمرها  
 لا تردن حمرة بنفسك لا \* يصدر عنها بالرائ صايرها  
 طيبك مخضابها فلا تلج ال \* قمر متجسة زواجرها  
 والقصد إن الطريق ذو شبيب \* أشامها وعثها وجائرها  
 أصبحت في أمة أوائلها \* قد فارقت هبتها وأواجرها  
 وأنت سرسورها وسائبها \* فهل على الحق أنت قاسرها  
 أدب رجالا رأيت مسيرتهم \* خالف حكم الكتاب سائرهم  
 وأمدد إلى الناس كف مرحة \* نسد منهم بها مفافرها  
 أمكك العدل إذ هممت به \* وواقفت مده مقاديرها  
 وأبصر الناس قصد دجهم \* وملككت أمة أخايرها  
 فشرع أعاننا إليك اذا ال \* اذات يوما جت عشائرها  
 كم عندنا من نصيحة لك في ال \* وقربى عزت زوافرها



وحرمية قُرِبَتْ أَوَاصِرُهَا \* منك وأمرى هل أنت ذاكرها  
سَمَى رَجَالٍ فِي الْعِلْمِ مَطْلَبُهُم \* رَانَحُهَا بِأَكْرَ وَبَاكِرُهَا  
دُونِكَ غِرَاءَ كَالْوَذِيلَةِ لَا \* تفقد في بلدة سَوَائِرُهَا  
لَا طَمَعًا قَلْبُهَا وَلَا يَطْلُرَا \* لكل نفس تُؤَامِرُهَا  
سَيَرَهَا اللَّهُ بِالنَّصِيحَةِ وَالْ \* عَشِيَةِ فَاسْتَدَجَتْ مَرَاتِهَا  
جَاءَتْكَ تَحِيَّكَ لَكَ الْأَمْرُ كَمَا \* يَنْشُرُ بَرَّ التَّجَارِ نَاشِرُهَا  
حَمَلَتْهَا صَاحِبَا أَخَا ثِقَةٍ \* يَطْلُلُ عَجَبًا بِهَا يُحَاضِرُهَا

ومن جيد شعره قوله :

النَّاسُ أَخْلَاقُهُمْ شَيْءٌ وَإِنْ جُبِلُوا \* عَلَى تَسَابُهِ أَرْوَاحٍ وَأَجْسَادِ  
لِخَيْرٍ وَالشَّرِّ أَهْلٌ وَكُلُّوْا بِهِمَا \* كُلُّ لَهُ مِنْ دَوَاعِي نَفْسِهِ هَادِ  
مِنْهُمْ خَلِيلٌ صَفَاءُ ذُو عَافِيَةٍ \* أَرَسَى الْوَفَاءُ أَوَائِيهِ بِأَوْتَادِ  
وَمُشْعَرُ الْقَدْرِ مَحْنَى أَضَالُهُ \* عَلَى سِرِّهِ تَحْمُرُ غُلَّهَا بِادِ  
مُشَاكِسٌ خَدِيعَ جَنَمِ غَوَائِلِهِ \* يُبْدِي الصَّفَاءَ وَيَخْفِي ضَرْبَةَ الْهَادِي  
بَاتِيكَ بِالْبَنَى فِي أَهْلِ الصَّفَاءِ وَلَا \* يَنْسُفُكَ يَسْعَى بِإِصْلَاحٍ لِإِفْسَادِ

ومن جيد شعر الخرمي قوله :

أَضَاحِكَ ضَيْفِي قَبْلَ إِثْرَالِ رَحْلِهِ \* وَيُحْصِبُ عِنْدِي وَالْمَحَلَّ جَدِيدِ  
وَمَا لِحِصْبِ الْأَضْيَافِ أَنْ يَكْثُرَ الْقَرَى \* وَلَكِنَّمَا وَجْهَ الْكَرِيمِ خَصِيمِ

ومن جيد شعره قوله :

زَادَ مَعْرُوفَكَ عِنْدِي عِظَمًا \* أَنَّهُ عِنْدَكَ عَقُورٌ صَغِيرِ  
وَتَنَاسِيهِ كَأَنَّهُ لَمْ تَأْتِهِ \* وَهُوَ عِنْدَ النَّاسِ مَشْهُورِ كَبِيرِ

وهو القائل :

وَإِنْ أَشَدَّ النَّاسِ فِي الْحَشْرِ حَمَرَةً \* لَمْ يُورِثْ مَالِي غَيْرَهُ وَهُوَ كَاسِبِهِ  
كَفَى سَفَهًا بِالْكَهْلِ أَنْ يَتَّبَعَ الصَّبَا \* وَأَنْ يَأْتِيَ الْأَمْرَ الَّذِي هُوَ طَائِبِهِ

وَيُسْتَجَادُ لَهُ قَوْلُهُ :

وَيَدُونَ التَّسَدَّى فِي كُلِّ قَلْبٍ ثَلَاثَةٌ \* لَهَا مَصْعَدٌ وَعَرٌّ وَمُنْعَدَرٌ سَهْلٌ  
وَوَدَّ الْفَقِي فِي كُلِّ بَيْلٍ ثَلَاثَةٌ \* إِذَا مَا أَنْقَضَى لَوْ أَنَّ نَائِلَهُ جَزَلٌ  
وَأَعْلَمُ سَلْبًا لَيْسَ بِالظَّنِّ أَنَّهُ \* لِكُلِّ أَنْاسٍ مِنْ ضَرَائِبِهِمْ شَكْلٌ  
وَأَقْ أَعْلَاءَ الزَّمَانِ غَنَاءُ لَهُمْ \* قَلِيلٌ إِذَا الْإِنْسَانُ زَلَّتْ بِهِ التَّلَلُ  
تَزَوَّدَ مِنَ الدُّنْيَا مَتَاعًا لِنَفْسِهَا \* فَكَيْفَ تَمَرَّتْ حَذَاءُ وَأَنْصَرَمَ الْحَبْلُ  
وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا هَامَةٌ الْيَوْمِ أَوْ غَدٍ \* لِكُلِّ أَنْاسٍ مِنْ طَوَارِقِهَا أَلْكُلُ

وَفِي هَذَا الشَّعْرِ يَقُولُ :

أَبَا لَصْبُغْدَ بَأْسٌ إِذَا تَمَرَّنِي بِجُمْلٍ \* سَفَاهًا وَمِنْ أَخْلَاقٍ جَارَتِي الْجَهْلُ  
إِنْ تَفْخَرِي يَا جَمَلٌ أَوْ تَجْعَلِي \* فَلَا تَفْرَ إِلَّا فَوْقَهُ الدِّينَ وَالْعَقْلُ  
أَرَى النَّاسَ شَرْطًا فِي الْحَيَاةِ وَلَا يُرَى \* لِقَبْرِ عَلَى قَبْرِ عِلَاءٍ وَلَا فَضْلُ  
وَمَا ضَرَّتْنِي أَنْ لَمْ تَلِدْنِي يُحَايِرُ \* وَلَمْ تَشْتَمَلِ بِحَرْمٍ عَلَيَّ وَلَا عَمَلُ

وَهُوَ الْقَائِلُ :

مَا أَحْسَنَ الْفَقِيرَةِ فِي حِينِهَا \* وَأَفْبَحَ الْفَقِيرَةِ فِي كُلِّ حِينٍ  
مَنْ لَمْ يَزَلْ مَتْنَمًا عِرْسَهُ \* مَتْنَمًا فِيهَا لِرُبِّ الظُّنُونِ  
أَوْشَكَ أَنْ يُفْرِجَهَا بِالَّذِي \* يَخَافُ أَنْ يُرْزَا لِلْعِيُونِ  
حَسْبُكَ مِنْ مَحْمِيْنَهَا وَضَمُّهَا \* مِنْكَ إِلَى عِرْضٍ مَحْمِيْغٍ وَدِينِ  
لَا تَطْلُعُ مِنْكَ عَلَى رَيْبَةٍ \* فَيَتْبَعُ الْمَقْرُونُ جَبَلَ الْفَرِينِ

٨ - عبد الله بن طاهر<sup>(١)</sup>

كان يحمل من علو المنزلة وعظم القدر ولطف مكان من الخلقاء، يُستفتى به عن التفريط له والدلالة عليه، وأمره في ذلك مشهور عند الخاصة والعامة، وله في الأدب مع ذلك المحل الذي لا يُدفع، وفي السباحة والشجاعة ما لا يقاربه فيه أحد.

وكان أديبا غريفا جيد الغناء، نسب إليه صاحب الأغاني أصواتا كثيرة أحسن فيها وقتلها أهل الصنعة عنه، وله شعر رافع ومسايل ظريفة، فمن شعره قوله :

نحن قومٌ نُلِينَا الحَسَنَ النُّجْجَ \* لعلَّ على أتنا تُلِينُ الحديدا

طَوْرُ عَ أَيْدِي القُطْبَاءِ تَقْتَادُنَا الْعِي \* بن وقتاد بالطلعاب الأسودا

تَمْلِكُ الْعَبِيدَ شِم تَمْلِكُنَا إِلِي \* مَضُ المصوناتُ أَعْيُنَا وَخَدُونَا

تَنْقُ سَعَطُنَا الْأَسْوَدَ وَيُخْشَى \* تَحْفَظُ الخشفتين يَدَي الصِدُونَا

فَرَاتُنَا يَوْمَ الْعُسْكِرِيَةِ أَحْمَرَا \* رَا وَفِي السَّلِيمِ لِلْفَوَاتِي عَيْسَا

أعطاه المأمون مائة مصر لستة، تراجها وضياعها، فوجهه كله وفرقه في الناس ورجع صفرا من ذلك، ففاظ المأمون فعله، فدخل إليه يوم مقدمه، فأنشده أبياتا قالها في هذا المعنى، وهي :

(١) هو أبوالباس عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق كان سيديا نبيلًا طالى الهدية شيما، وكان المأمون كثير الاعتماد عليه، حسن الانصات إليه لذاته ورواية خلق والده وما أسلفه من الطاعة في خدمته، وكان واليا على الله شرو فلما خرج بأك الخزي على خراسان وأوقع الخوارج بأهل قرية الحمراء من أعمال نيسابور وأكثروا فيها الفساد وأصل الخبر المأمون بعث إلى عبد الله وهو بالديور يأمره بالخروج إلى خراسان، فخرج إليها وحارب الخوارج وقدم نيسابور في رجب سنة ٢١٥ هـ. وكان الحارث قد أقطع شيما تلك السنة، فلما دخلها مطرت مغرا كثيرا، فقام إليه رجل يزأ من حاقوه وأنشده :

قد لحط الناس في زمانهم \* حتى إذا جئت بجث بالدر

غيثان في ساعة لنا قدما \* فسرحنا بالأمير والمطر

تولى الشام والعراق ومصر . وتوفي سنة ٢٣٠ هـ . ونجد ترجمته في ابن خلكان (ج ١ ص ٣٩٩) والأغاني (ج ١١ ص ١١) .

نَفْسِي فِدَاؤُكَ وَالْأَعْيُنُ خَاضِعَةٌ \* لِلنَّائِبَاتِ أَيْبَا غَيْرِ مَهْتَمَةٍ  
إِلَيْكَ أَقْبَلْتُ مِنْ أَرْضِ أُمْتُهَا \* حَوَّيْنِ بِسَدِّكَ فِي شَوْقِي وَفِي أَلَمِ  
أَقْفُو مَسَاعِيكَ الْإِلَهِ خُصِّصْتَ بِهَا \* عَلَوُ الشَّرَاكِ عَلَى مِثْلِ مِنَ الْإِدَمِ  
فَكَانَ قَضَائِي فِيهَا أَقْبَى تَبَعٌ \* يَا سَنَنْتَ مِنَ الْإِلْهَامِ وَالنِّعَمِ  
وَلَوْ وَكَلْتُ إِلَى نَفْسِي عَيْنَتْ بِهَا \* لَكِنْ بَدَأَتْ فَلَمْ أَعْجِزْ وَلَمْ أَلَمِ

فضحك المأمون وقال : والله ما تقيست عليك مكرمة نلتها ، ولا أعودتة حسن عندك ذكرها ، ولكن هذا شيء اذا عودته نفسك افقرت ، ولم تقدر على كم شعتك وإصلاح حالك . وزال ما كان في نفسه .

لَمَّا فَتَحَ عَبْدُ اللَّهِ مَصْرَ سَوْفَهُ الْمَأْمُونُ تَوَاجَعَا ، فَصَعِدَ الْمُنْبَرُ فَلَمْ يَزَلْ حَتَّى أَجَازَ بِهَا كُلَّهَا ثَلَاثَةَ آلَافٍ أَلْفِ دِينَارٍ أَوْ نَحْوَهَا ، فَأَنَاهُ مُعَلُّ الطَّائِي وَقَدْ أَعَامَاهُ مَا صَنَعَ بِالنَّاسِ فِي الْجَوَائِزِ وَكَانَ عَلَيْهِ وَاجِدًا ، فَوَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ تَحْتَ الْمُنْبَرِ فَقَالَ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، أَنَا مُعَلُّ الطَّائِي وَقَدْ بَلَغَ مِنِّي مَا كَانَ مِنْكَ مِنْ جَفَاءٍ وَظُلْمٍ ، فَلَا يَنْظُرُنَّ عَلَيَّ قَلْبُكَ ، وَلَا يَسْتَحْفِنُكَ الَّذِي بَلَغَكَ ، أَنَا الَّذِي أَقُولُ :

يَا أَعْظَمَ النَّاسِ عَفْوًا عِنْدَ تَقْدِيرَةٍ \* وَأَظْلَمَ النَّاسِ عِنْدَ الْجُودِ لِفَالِ  
لَوْ أَصْبَحَ النَّيْلُ يَجْرِي مَاءَهُ ذَهَبًا \* لَمَّا أَشْرَفْتُ إِلَى تَرْزُفٍ يَمْتَلِئُ  
تُغْلِي بِمَا فِيهِ رِقَى الْحَمْدِ تَمْلِكُهُ \* وَلَيْسَ شَيْءٌ أَمَاحَ الْحَمْدِ بِالْعَالِي  
تَفَكُّ بِالْيُمُورِ كَفَّ الْعُسْرَ مِنْ زَيْنِ \* إِذَا اسْتَطَالَ عَلَى قَوْمٍ بِإِفْلَاحِ  
لَمْ تَحْضُلْ كَثُفَكَ مِنْ جُودٍ يُخْتَصِّطُ \* وَمُرْهَفٍ قَانِلٍ فِي دَائِسِ قَتَالِ  
وَمَا بَتَّلتُ رَجِيسَ الْخَيْلِ فِي بَلَدٍ \* إِلَّا عَصَفَنَ بَارِزًا فِي أَجَالِ  
إِنْ كُنْتُ مِنْكَ عَلَى بَابٍ مَنَلَتْ بِهِ \* فَإِنَّ شُكْرَكَ مِنْ قَلْبِي عَلَى بَالِ  
مَا زِلْتُ مُقْتَضِبًا لَوْلَا جَاهِرَةٌ \* مِنَ السُّنَنِ خُضْنٌ فِي صَدْرِي بِأَقْوَالِ

فضحك عبد الله وسر بما كان منه وقال : يا أبا السمراء، أقرضني عشرة آلاف دينار ف  
أمسيت أملكها، فأقرضه فدفعها إليه .

كان موسى بن خاقان مع عبد الله بن طاهر بمصر، وكان نديمه وجليسه، وكان له مؤثرا  
مقدما، فأصاب منه معروفا كثيرا وأجازه بجوائز سنوية هناك وقبل ذلك، ثم إنه وجد عليه  
في بعض الأمر بغفاه وظهر له منه بعض ما لم يحبه، فرجع حينئذ إلى بغداد وقال :  
إِنْ كَانَ عَيْدُ اللَّهِ خَلَاتَا \* لَا مُبْدَأَ حُرْفًا وَإِحْسَانًا  
لِحَسْبِنَا اللَّهُ رَضِينَا بِهِ \* ثُمَّ بَعَدَ اللَّهُ مَوْلَانَا

يعني به المأمون، وغنت فيه جاريته وسمعه المأمون، فاستحسنه ووصله وإياها، فبلغ  
ذلك عبد الله بن طاهر، ففاطله ذلك وقال : أجل ! صبتنا المعروف إلى غير أهله فضاغ .  
ولم يد الله إلحان صاغها، فنما ومن مختارها وصدورها ومقدمها لحنه في شعر أخت  
حاصية فإنه صوت نادر جيد صحيح العمل مُردوج النغم، بين لين ويشدة على رسم الحدائق  
من التقدمة، وهو :

هَلَا سَقَيْتُمْ بَنِي سَهْمٍ أَسِيرَكُمْ \* تَقْبَلُ فِدَائِيكَ مِنْ ذِي غُلَّةٍ هَبَادِي  
الطاعنُ الطعنةَ النجلاءَ يتبعها \* مُضَرَّجٌ بَعْدَ مَا جَادَتْ بِلُزْزَادِ

ومن غنائه أيضا :

رَاحَ مَحْبِيٍّ وَطَوَّدَ الْقَلْبَ دَاءُ \* مِنْ حَبِيبِ طِلَالِهِ لِي عَنَاءُ  
حَسَنُ الرَّاىِ وَالْمَوَاعِيدِ لَا يُؤْتِنِي لَشَىءٌ مِمَّا يَقُولُ وَفَاءُ  
مَنْ تَعَزَّى عَنِ مَحَبِّ فُلَانِي \* لَيْسَ لِي مَا حَيْثُ عَنْهُ عَزَاءُ

## ما قيل في هجاء الأمين ورثائه

قيل في هجائه :

لم تُبَيِّكْ لِمَاذَا الطَّرَبُ \* يَا إِبَاهُ مُوسَى وَتَرْوِجُ اللَّعِبُ  
 وَلِئْتَرَكِ الْغَمْسُ فِي أَوْقَاتِهَا \* حَرَمًا مِنْهَا عَلَى مَاءِ الْعَنْبِ  
 وَشَلِيفٍ أَنَا لَا أَبْكِي لَهُ \* وَعَلَى كَوُزٍ لَا أَخْضِي الْمَلْعَبِ  
 لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ مَا حَدَّ الرِّضَا \* لَا وَلَا تَعْرِفُ مَا حَدَّ الْغَضَبِ  
 لَمْ تَكُنْ تَصْلُحُ لَكَ وَلَمْ \* تُعْطِكَ الطَّاعَةَ بِالْمَلِكِ الْعَرَبِ  
 أَيُّهَا الْبَاكِي عَلَيْهِ لَا بَكَتْ \* مِثْلَ مَنْ أَبْكَاكِ إِلَّا لِلْمَحَبِ  
 لَمْ نُبَيِّكْ لِمَا عَرَضَتْهَا \* لِلْبَغَائِقِ وَعَلَوْرَا السَّلْبِ  
 وَلَقَوْمٍ صَبَرُوا أَعْبَدًا \* لَمْ يَسْدُوا عَلَى الرَّأْسِ الدُّعْبِ  
 فِي مَذَابٍ وَحِصَارٍ مُجْهِدٍ \* سَدَّدَ الطَّرِيقَ فَلَا وَجْهَ طَلَبِ  
 زَعَمُوا أَنَّكَ حَى حَاشِرٍ \* كُلٌّ مِنْ قَدْ قَالَ هَذَا قَدْ كَذَبِ  
 لَيْتَ مَنْ قَدْ قَالَهُ فِي وَحْدَةٍ \* مِنْ جَمِيعِ ذَاهِبٍ حَيْثُ ذَهَبِ  
 أَوْجِبَ اللَّهُ مِلِينًا قَسَلَهُ \* فَأَذَا مَا أَوْجِبَ الْأَمْرَ وَجِبِ  
 كَلْبٌ وَآلَهُ عَلَيْنَا يَنْتَهَ \* غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَكُتِبِ

وقال عبد الرحمن بن أبي الهذيل يرثيه :

يَا غَرْبُ جُودِي قَدْ بُتُّ مِنْ وَدِّيهِ \* فَقَدْ فَقَدْنَا الْغَزِيرَ مِنْ دِيْمِيهِ  
 أَلَوْتُ بِدِينِكَ كُلَّ نَائِبَةٍ \* وَصِرْتُ مُغْفَى لَنَا عَلَى نِقْمِيهِ  
 أَصْبَحَ لِلْوُتْ عِنْدَنَا عِلْمٌ \* يَضْحَكُ سِوَى الْمُنُونِ مِنْ عِلْمِيهِ  
 مَا أَمْسَتْ تَزَلَّتْ دَرَّةُ الْمُنُونِ عَلَى \* أَكْرَمِ مَنْ حَلَّ فِي تَرِيحِيهِ  
 خَلِيفَةُ اللَّهِ فِي بَرِّيَّتِهِ \* تَقْصُرُ أَيْدِي الْمُلُوكِ عَنْ شِيْمِيهِ

يَفْتَرَّ عَنْ وَجْهِهِ سَنَا قَر \* يَنْشَقُّ عَنْ نَوْرِهِ دُجَى ظُلُمَةٍ  
 ذُلِّلَتْ الْأَرْضُ مِنْ جَوَانِبِهَا \* اِذْ أَوْلَعَ السَّيْفُ مِنْ نَجِيمِ دَمَةٍ  
 مَنْ سَكَتَ نَفْسُهُ لِمَصْرُوعَةٍ \* مِنْ عُمَمِ النَّاسِ أَوْ ذَوَى رَجَمَةٍ  
 رَأَيْتُهُ مِثْلَ مَا رَأَى بِهِ \* حَتَّى تَذُوقَ الْأَمْرَ مِنْ سَقَمَةٍ  
 كَمْ قَدْ رَأَيْنَا عِزَّ مَمْلُوكَةٍ \* يُنْقَلُ عَنْ أَهْلِهِ وَعَنْ خَدَمِهِ  
 يَا مَلِكَا لِمَسْ بِعَدِهِ مَلِكٌ \* نَحْنُ الْإِنْيَاءُ فِي أُمَمِهِ  
 جَادَ وَحَى الَّذِي أَلَمَّتْ بِهِ \* نَحْمُ غَزِيرَ الْوَكَيْفِ مِنْ دِقَمِهِ  
 لَوْ أَهْمَمَ الْمَوْتُ عَنْ أَحَى تَقِيَةٍ \* أَسْوَى فِي الْعِزِّ مُسْتَوَى قَدَمِهِ  
 أَوْ مَلِكٍ لَا تَرَامُ سَطْوَتُهُ \* إِلَّا مَرَامَ الشُّنَيْمِ فِي أَرْجَمِهِ  
 خَلَدَكَ الْعِزُّ مَا سَرَى سَدَفُ \* أَوْ قَامَ طِفْلُ الْعَشَى فِي قَدَمِهِ  
 أَصْبَحَ مُلْكُكَ إِذَا أَتَرْتَهُ بِهِ \* يَقْرَعُ سَنُّ الشَّقَاةِ مِنْ تَدَمِهِ  
 أَتَرُدُّو الْعَرْشَ فِي عِدَاكَ كَمَا \* أَتَرَفُ فِي عَادِهِ وَفِي إِدْرَمِهِ  
 لَا يُبْعَدُ اللَّهُ صَبِيرَةٌ تَلَيْتُ \* نَحْمِي دَائِعَ دَعَاةٍ فِي حَرَمِهِ  
 مَا كُنْتُ إِلَّا حَكْمُ ذِي حُكْمٍ \* أَوْ لَحَ بَابُ السُّرُورِ فِي حُلَمِهِ  
 حَتَّى إِذَا أَطْلَقْتَهُ رَقْدَتُهُ \* عَادَ إِلَى مَا آعَقَرَاهُ مِنْ عَدَمِهِ

وقال أيضا يرثيه :

أَقُولُ وَقَدْ دَنَوْتُ مِنَ الْفِرَارِ \* سَقَيْتُ الْغَيْثَ يَا قَهْرَ الْقَرَارِ  
 رَمَتْكَ يَدُ الزَّيْمَانِ بِسَهْمِ عَيْنٍ \* فَصِرْتَ مُلُوحًا بِدُخَانِ نَارِ  
 أَيْنَ لِي عَنْ جَمِيعِكَ أَيْنَ حَلَاوَا \* وَأَيْنَ مِزَارِهِمْ بَعْدَ الْمَزَارِ  
 وَأَيْنَ مُحَمَّدٌ وَأَيْنَاهُ مَالِي \* أَرَى أَطْلَالَهُمْ سُودَ الدِّيَارِ  
 كَأَن لَمْ يُؤْتَسُوا بِأَنْبَسِ مُلْكٍ \* يَطُولُ عَلَى الْمُلُوكِ بَخِيرُ جَارِ  
 إِمَامٌ كَانَ فِي الْحَدَثَانِ عَوْنًا \* لَنَا وَالْغَيْثُ يَمْنَحُ بِالْفِطَارِ

لقد ترك الزبائن بنى أبيه \* وقد غمرتهم سُود البحار  
 أضاعوا شمسهم بخرت بنحس \* فصاروا في القلām بلا نهار  
 وأجلوا عنهم قرا منيرا \* وداسنهم خيول بنى الشّرار  
 ولو كانوا لهم كفوا ومثلا \* اذا ما توجّوا تيجان عار  
 الا بان الامام ووارثاه \* لقد صرّم الحشى منا بنار  
 وقالوا انسلد بيع فقلت ذلّا \* بصير يابى عيه الى صغار  
 كذاك الملك يبيع أوليسه \* اذا قطع القرار من القرار  
 وقال مقدّم بن صبيح يريته :

خليل ما أنتك به المخلوب \* فقد أعطاك طاعته النّجيب  
 تدلت من شاربخ النسايا \* متايا ما تقوم لها القلوب  
 خلال مقابر البستان قبر \* يجاور قبره أسد غريب  
 لقد عظمت مُمبيته على من \* له في كل مَكْرمة نصيب  
 حل أمثاله العبرات تُدرى \* وثبتك في مآتمه الجيوب  
 وما أدخرت زُبيدة عنه دما \* تُخصّ به النسيبة والنسب  
 دحوا موسى ابنه لبكاه دهر \* على موسى ابنه تدخل الحزيب  
 رأيتُ مشاهد الخلفاء منه \* خلاء ما بساحتها يجيب  
 لتيّسك أنى كهل عليه \* أذوب وفي الحشى كيد تدوب  
 أصيب به البعيد غفرت حنا \* وعابن يومه فيه المرّيب  
 أنادى من بطون الأرض شخصا \* يحترّك النداء فما يجيب  
 فنّ نعت الحروب اليه نفسا \* لقد رُفعت بمصره الحروب



وقال خزيمة بن الحسن يرثيه على لسان أم جعفر :

لخير أيام قام من خير عنصر \* وأفضل أيام فوق أعواد منبر  
لوارث علم الأولين ولهمهم \* وللك المأمون من أم جعفر  
كبتت وعين مستحل دموعها \* إليك أين عني من جفوني وتجرى  
وقد مسني ضرر وذل كآبة \* وأرق عيني يا ابن عني تفكرى  
وهمت لي لاقيت بعد مصابه \* فأمرى عظيم منكرك جده منكر  
سأشكو الذي لاقيته بعد فقده \* إليك شكاة المستهام المفهر  
وأرجو لما قد مر بي مذ فقدته \* فانت لبني خير رب مفير  
أنى طاهر لاطهر الله طاهرا \* فما طاهر فيا ألى بطهر  
فأخرجني مكشوفة الوجه حاسرا \* وأتعب أموالى وأحرق أذرى  
يعز على هارون ما قد لقيته \* وما مر بي من ناقص الخلق أعور  
فان كان ما أسدى بأمر أمرته \* صبرت لأمر من قدر مقدر  
تذكر أمير المؤمنين فراقى \* فديتك من ذى حمة متذكر

وقال أيضا يرثيه :

سبحان ربك رب العزة الصمد \* ماذا أصبنا به فى صبحه الأحد  
وما أصيب به الإسلام قاطبة \* من التضعف فى ركته والأرد  
من لم يصب بأمر المؤمنين ولم \* يصبح بمهلكة والم فى صمد  
فقد أصبت به حتى تبت فى \* عقل ودين ودينى وفى جسد  
يا ليلته يشتكى الإسلام ممثبا \* والمألون جميعا آخر الأبد  
غدرت بالملك الميمون طائفة \* وبالإمام والظرفاة الأسد  
سارت إليه المنايا وهى تريهه \* فواجهته بأفاد ذوى عسد  
بشورجين وأغترام بقودهم \* قرئ بالبيض فى قمص من الرزد

فصافوه وحيذا لا معين له \* عليهم غائب الأنصار بالمد  
 بفرعوه المنايا غير متمتع \* قدأياك من مستسلم فرد  
 يلقى الوجوه بوجه غير مبتذل \* أبهى وأنى من الشهوة الجسد  
 واحسرتا وقرين قد أحاط به \* والسيف مرقد في كف مرقد  
 فما تحولك بل ما زال متصبا \* منكس الرأس لم يبدئ ولم يعد  
 حتى اذا السيوف وافى وسط مرقه \* أذرتة عنه يداه فصل متد  
 وقام فاعتقت كفاه لبتة \* كضيق شرس مستسلم ليد  
 فاجتره ثم أموى فاستقل به \* للأرض من كف لث مخرج حرد  
 فكاد يقتله لو لم يكاره \* وقام منفيا منه ولم يكعد  
 هذا حديث أمير المؤمنين وما \* قصت من أمره حقا ولم أزد  
 لا زلت أثبه حتى المات وإن \* اخفى عليه الذى أخفى على لبد

وذكر عمر بن شبة أن محمد بن أحمد الهاشمي حدثه أن لبابة أبة علي بن المهدي قالت

البيتين الآتين وقيل أنهما لابنة عيسى بن جعفر وكانت مملكة بمحمد :

أبكك لا للنسيم والأنس \* بل للعالي والرحم والعرس  
 أبكى على هالك جعت به \* أرمتي قبل ليلة العرس

هَجَاءُ يَحْيَى بْنِ أَكْثَمَ<sup>(١)</sup>

وعدناك في المجلد الأول أن نذكر مثلاً من الهجاء قاله بعض الشعراء في يحيى بن  
أكثم، وها هو ذا :

أَزَقَهُ بَرَّحُ الْمَسْوَى وَسَدَّمَهُ \* وَهَلَهُ الْحُبُّ فَبَاتَ يَالْمَةُ  
طَوْرًا يُصَانِيهِ وَطَوْرًا يُسْتَمُّهُ \* مِثْلَ الْحَرِيقِ فِي الْحَشَا يُضَرَّمُهُ  
فَقَاضَيْتِ الْعَيْنَ بَدْمَعَ تَسْجُمُهُ \* نَمَتْ عَلَيْهِ كُلُّ شَوْقِي يَكْتُمُهُ  
وَبَاحَ بِالْحُبِّ الَّذِي يُبْجِحُهُ \* وَبَاتَ وَالْقَلْبُ يُسَاسِي هِمَّهُ  
مَنْ لَحِبٍ قَدْ تَرَاهُ يَرْجُمُهُ \* أَصْبَحَ بِالْبَاءِ عَارِ آفَتُهُ  
طَالَ تَصَانِيهِ وَطَالَ سَقَمُهُ \* وَبَلَى الْجِسْمَ وَرَقَّتْ أَعْظَمُهُ  
يَشْهَدُنِي اللَّهُ عَلَى مَنْ يَغْلِبُهُ \* يَمْنَعُهُ طَعْمُ الْكَوْثَى وَيَحْرِمُهُ  
وَأَمَّا لَهُ يَصْرِمُ مَنْ لَا يَصِيرُهُ \* أَصْبَحَ هَذَا الدِّينَ رِثَا رِمَتِهِ  
عَظَلَهُ الْجُورُ وَطَالَ قِدَمُهُ \* نَحَّتْ مِنَ الْجُورِ عَلَيْهِ دِيمُهُ  
فَبَادَ مَفْنَى رَبْعِهِ وَأَرْثَمُهُ \* إِلَّا بِقَايَا قَوْمِهِ وَجَمَتُهُ  
أَوْطَنَهُ الْجُورُ فَاضْحَى مَعْلَمُهُ \* يَرُودُ فِيهِ شَاؤُهُ وَقَمَتُهُ  
مَنْ يَشْهَدُ الْجُورُ فَنَحْنُ تَعْلَمُهُ \* أَتَوَكَّ قَاضٍ فِي الْبِلَادِ نَعْلَمُهُ  
يَقُولُ حَقًّا لَا تُثْمِتُ تَرْجَمُهُ \* مَذَّوْنِي الْحَكَمَ أُبَيِّحُ حَرَمُهُ  
وَأُشْرِكْتُ مِنَ الْقَضَاءِ حُرْمُهُ \* وَأَضْطَرَبْتُ أَرْكَانَهُ وَدَعَمُهُ  
وَأَفَقَ يَبْلِيهِ وَنَحْنُ نَهْدِمُهُ \* يَا لَيْتَ يَحْيَى لَمْ يَلِدْهُ أَكْثَمُهُ<sup>(٢)</sup>  
وَلَمْ تَطَأْ أَرْضَ الْعِرَاقِ قَدَمُهُ \* مَلْصُونُهُ أَخْلَاقُهُ وَشَيْبُهُ

(١) أنظر ما كتبتاه عن يحيى بن أكثم في المجلد الأول (ص ٤٤٠) .

(٢) حذفنا بعد هذا البيت

أربعة أبيات رأينا أنها تنافي الآداب العامة .

والله والله لقد حلّ دمه • لو أن للدين عمادا يدعّمه  
 يميل عنه الميل أو يقومه • لكان قد رنّ عليه مآتمه  
 أرجو ويقضى الله لا يسألهم • من وجهه هذا ولكن يقصمه  
 • بالسيف إذ حلت عليه قمه •

---

## وصف ثورة بغداد وحريقها

أما ما أصاب بغداد من سلب ونهب وتحريق وتخريب وقتل شعواء وقتل ودماء،  
فانا نترك الكلمة في ذلك لشعراء ذلك العصر .

قال الأعمى يصف دمار الحرب :

تقطعت الأرحام بين العشائر ■ وأسأهم أهل التقي والبصائر  
فذلك انتقام الله من تخلفه بهم \* لما أجترموا من ركوب الكجائر  
فلا نحن أظهرنا من الذنب توبة \* ولا نحن أصلحنا فساد المرائر  
ولم نستمع من واعظ ومدحّر \* فمتجّع فينا وعظناه وأمر  
فأبك على الإسلام لما تقطعت \* عراه ورجى ضرره كل كافر  
فأصبح بعض الناس يقتل بعضهم \* لمن بين متهور عزيز وقاهر  
وصار رئيس القوم يعمل نفسه \* وصار رئيسا فيهم كل شاطر  
فلا فاجر للبر يحفظ حرمة \* ولا يستطيع البر دقما لفاجر  
تراهم كأمشال الذئاب رأث دما \* فأمنته لا تأوى على زجر زاجر  
وأصبح فساق القبائل بينهم \* تسئل على أفرانها بالفساجر  
فأبك لقتلى من صديقي ومن أخ \* كريم ومن جار شفيقي مجاور  
ووالدة تبكى بحزين على أنها \* فيكي لها من رحمة كل ظائر  
وذات حليل أصبحت وهي أيم \* وتبكي عليه بالدموع البوادر  
تقول له قد كنت عزا وناصرا \* فقيب عني اليوم عزى وناصرى  
وأبك لإحراق وهدم منازل \* وقتل وإنهاب اللهى والنخائر

وإبرار ربّات الخلدور حواسرا • خرجن بلا شمسي ولا بآذر  
 تراها حيارى ليس تعرف مذهباً • نوافر أمثال الطبء النوافس  
 كأن لم تكن بغداد أحسن منظراً • وملهى رأته عين لآه وناظر  
 بلى هكذا كانت فأذهب حسنها • وبد منها الشمل حكم المقادر  
 وحل بهم محل بالناس قبلهم • فاحتوا أحاديثا لباد وحاضر  
 أبغداد يا دار الملوك ومحتى • صروف المنايا مستقر المنابر  
 ويا جنة الدنيا ومطلب الغنى • ومستبط الأموال عند الضرائر  
 أبني لنا ابن الذين عهلتهم • يحلون في روض من العيش زاهر  
 وأين ملوك في المراكب تقتدى • تشبه حسنا بالنجوم الزواهر  
 وأين القضاة الجاكون برأيهم • لورد أمور مشكلات الأوامر  
 أو القباطون الناطقون بحكمة • ورصف كلام من خطيب وشاعر  
 وأين مراح الملوك عهدها • منزعة فيها صنوف الجواهر  
 ترشق بماء المسك والورد أرضها • يفوح بها من بعد ريح الجواهر  
 وروح الندامى فيه كل عشيّة • الى كل قياس كريم العناصر  
 وأين قيات تستجيب لضمها • اذا هولباها حين الزامر  
 وأين الملوك الفُر من آل هاشم • وأشياهم فيما اكتفوا بالعادر  
 يروحون في سلطانهم وكأنهم • يروحون في سلطان بعض العشار  
 يحادل عما نالهم كبرائهم • قناتهم بالكثرة أيدى الأصاغر  
 فأقيم لو أن الملوك تناصروا • نزلت لها خوفاً رقاب الجبابر

وقال عمرو بن عبد الملك الوزّاق يبكي بفساد ويهجو ظاهراً ويؤرض به :

من ذا أصابك يا بفساد بالعين \* ألم تحوى زماناً فُسرة العين  
 ألم يكن فيك أقوامٌ لم شرف \* بالصالحات والمعروف يلقون  
 ألم يكن فيك قومٌ كان مسكنهم \* وكان قريبهم زينا من الزين  
 صاح الزمان بهم بالبين فانقضوا \* ما ذا الذي يفتني لوعة البين  
 استورع الله قوماً ما ذكرتهمو \* ألا تحتر ماء العين من عيني  
 كانوا ففرقةهم دهرٌ وصدمهم \* والتهم يصدع ما بين الفريقين  
 كم كان لي مُسعِد منهم على زمني \* كم كان منهم على المعروف عون  
 لله در زمان كان يجمعنا \* أين الزمان الذي ولى ومن أين  
 يا من يُتروّب بفساداً ليمرّها \* أهلكك نفسك ما بين الطريقين  
 كانت قلوبُ جميع الناس واحدة \* حيناً وليس يكون العين كالذين  
 لما استبهتهم فرقتهم فرقا \* والناس طراً جميعاً بين قلوبين

ولبعض فتيان بفساد :

بكيث دماً على بفساد لما \* فقدت غصارة العيش الأنيق  
 تبدلنا هموماً من سرور \* ومن سمة تبدلنا يضيّق  
 أصابتنا من الحساد عين \* فأفنت أهلها بالمتجنيق  
 فقومٌ أحرقوا بالنار قسراً \* وثائفة تسوح على غريق  
 وصاعقة تُنادى وأصابها \* وباكيةً للقدان الشفيق  
 وحوراء المدامع ذات دق \* مضحكةً للجاسد بالخَلُوق  
 تَهْتَز من الحريق الى اتهاب \* ووالله يغتر الى الحريق

وَمَا لِيُفُتُّ الْفَزَالَةُ مُقَلَّتِيهَا \* مَضَاهَا كَلَّاءُ الْبُرُوقِ  
 حَيَّارَى كَالْمَدَايَا مُبْجِجَاتِ \* عَلِيمِ التَّلَاثِدِ فِي الْخُلُوقِ  
 يُبَادِلِينَ الشَّقِيقَ وَلَا شَفِيقُ \* وَقَدْ فَقِدَ الشَّقِيقُ مِنَ الشَّقِيقِ  
 وَقَوْمٌ أُخْرِجُوا مِنْ ظِلِّ دُنْيَا \* مَتَاعُهُمْ يُبَاعُ بِكُلِّ سُوقِ  
 وَمُقْتَرَبٌ قَرِيبُ الدَّارِ مُلَقَّ \* بِلَا رَأْسٍ بِقَارِعَةِ الطَّرِيقِ  
 تَوْسَطَ مَنْ قَتَلَهُمْ جَمِيعَا \* لَا يَدْرُونَ مِنْ أَىِ الطَّرِيقِ  
 فَلَا وَلَدٌ يُقْسِمُ عَلَى أَبِيهِ \* وَقَدْ هَرَبَ الصَّدِيقُ مِنَ صَدِيقِ  
 وَمَهْمَا أُنْسَ مِنْ شَيْءٍ تَوَلَّى \* فَاذْكُرْ دَارَ الزَّوْفِيقِ



## بيان المصادر العربية والافرنجية الهامة

التي عوّلتا عليها في المراجعة لكتاب عصر المأمون

تثبت لك هنا الهام من مراجع الكتاب هذا دواوين الشعراء ومعجمات المفسر  
التي أشرنا اليها في مواضعها من الكتاب وهوامشه . وهي :

المصادر باللغة العربية :

- |   |   |
|---|---|
| تاريخ دمشق لابن عساكر، مخطوط .                                      | تاريخ الطبري ، طبعة مصر وليدن .                                       |
| تاريخ المشاركة لصليبا بن يوحنا ، مخطوط .                            | تاريخ الكامل لابن الأثير، طبعة مصر.                                   |
| تاريخ بغداد لخطيب البغدادي ، مخطوط .                                | تاريخ مروج الذهب للسعودي ، طبعة مصر وباريس .                          |
| تاريخ بغداد لابن طيفور (الجزء السادس) طبعة أوربا .                  | تاريخ يعقوبي ، طبعة لندن بإشراف المسيو هتسما .                        |
| تاريخ التشريع الاسلامي للرحوم الخضرى بك، طبعة مصر .                 | تاريخ أبى الفدا للوك المؤيد ، طبعة الأستانة .                         |
| تاريخ الآداب السلطانية والنوئل الاسلامية لابن طباطبا ، طبعة أوربا . | تاريخ علماء الأندلس لأبى الوليد عبد الله محمد بن يوسف ، طبعة أوربا .  |
| تاريخ النجوم الزاهرة لابن تغريبرى ، طبعة أوربا .                    | تجارب الأمم لابن مسكويه ، طبعة مصر.                                   |
| البده والتاريخ لأبى زيد البلخى ، طبعة باريس سنة ١٨٩٩ «أرنتس لرو» .  | تاريخ العبر والمبتدا والخبر لابن خلدون ، طبعة مصر .                   |
| الآثار الباقية للبيرونى ، طبعة ليسك .                               | الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى ، طبعة لندن .                      |
|   | نظم الجوهر لابن البطريق ، طبعة أكسفورد سنة ١٦٥٩ لستشرك ادوارد بوكوك . |

- مختصر تاريخ الدول لأبي الفرج الملقب،  
طبعة بيروت .
- تاريخ الامتقاق، طبعة أوروبا .
- فتوح الشام للواقدي، طبعة مصر .
- نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، طبعة  
مصر .
- ولاة مصر وقضائها للكندى، طبعة  
بيروت .
- مختصر أخبار الخلفاء لابن الساعى،  
طبعة مصر .
- كشف الفنون لحاجى خليفة، طبعة  
الأستانة وليسك ومصر .
- المستطرف للإبشيمى، طبعة بولاق .
- معجم البلدان لياقوت الحموى، طبعة  
ليسك ومصر .
- المزهر للسيوطى، طبعة بولاق .
- الأحكام السلطانية للساوى، طبعة  
أوروبا .
- أعلام الناس للاتيدى، طبعة مصر .
- كتاب المعارف لابن ختية، طبعة أوروبا .
- معجم الأدياء لياقوت الرومى، طبعة  
مصر وأشرف مرجليوث .
- الفهرست لابن النديم، طبعة ليسك .
- طبقات الأئمة لابن صاعد، طبعة بيروت .
- طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة،  
طبعة مصر .
- تراجم الحكماء للقفطى، طبعة مصر .
- طبقات الأدباء لعبد الرحمن الأتبارى،  
طبعة مصر .
- وفيات الأعيان لابن خلكان، طبعة  
مصر .
- فوات الوفيات لابن شاكر الكنتى،  
طبعة مصر .
- الملل والتعلل للشهرستانى، طبعة مصر .
- ألف باه ليوسف البلى، طبعة مصر .
- مسالك الأيصار لابن فضل الله العمري،  
طبعة دار الكتب .
- فتوح البلدان للبلاذرى، طبعة ليدن .
- كتاب البلدان لابن الفقيه الحمغانى،  
طبعة ليدن .
- كتاب البلدان لليعقوبى، طبعة ليدن .
- مسالك الممالك للاصطخري، طبعة  
ليدن .
- المسالك والممالك لابن حوقل، طبعة  
ليدن .
- أحسن التقاسيم للقدسى، طبعة ليدن .
- المسالك والممالك لابن خرداذبه، طبعة  
ليدن .
- الأعلاق النفيسة لابن رسته، طبعة ليدن .
- حسن المحاضرة للسيوطى، طبعة مصر .
- بلوغ الأرب فى أحوال العرب للألوسى  
طبعة بغداد .
- مقدمة الياذة هو بروس تعريب الإستاقى  
طبعة مصر .

كتاب الكشكول للعامل، طبعة مصر.  
 سراج الملوك للطرطوشي، طبعة مصر.  
 كتاب الخراج لقدامة بن جعفر، طبعة  
 لندن.  
 كتاب الخراج لأبي يوسف، طبعة  
 بولاق.  
 تاريخ الوزراء المنسوب للصولي، طبعة  
 بيروت.  
 أشهر مشاهير الاسلام، للرحوم رفيق  
 العظم بك، طبعة مصر.  
 كتاب نفع الطيب، طبعة مصر وأوروبا.  
 مفاتيح العلوم للخوارزمي، طبعة مصر.  
 مفيد العلوم للخوارزمي، طبعة مصر.  
 كتاب المواهب الفتحية للرحوم  
 الشيخ حمزة فتح الله، طبعة مصر.  
 كتاب السيرة لابن هشام، طبعة مصر.  
 مقدمة ابن خلدون، طبعة مصر.  
 خطط الشام للاستاذ محمد كرد علي،  
 طبعة دمشق.  
 مجموعة مجلة المشرق، طبعة بيروت.  
 مجموعة مجلة المجمع العلمي، طبعة دمشق.  
 مجموعة مجلة الهلال، طبعة مصر.  
 مجموعة مجلة المقتطف، طبعة مصر.  
 بعض فصول وباحث من المجلة  
 الأسبوعية.  
 حديث الأربعماء للدكتور طه حسين،  
 طبعة مصر.

حضارة الاسلام في دار السلام بجميل  
 مدكور، طبعة مصر.  
 كتاب الأغاني للأصبهاني، طبعة بولاق  
 والسامى.  
 الجزء الأول من كتاب الأغاني، طبع  
 مطبعة دار الكتب المصرية.  
 نهاية الأرب، طبع مطبعة دار الكتب  
 المصرية والنسخة الفتوغرافية  
 بالدار.  
 صبيح الأعشى، طبع مطبعة دار الكتب  
 المصرية.  
 كتاب التاج المنسوب للماحظ، طبع  
 مطبعة دار الكتب المصرية.  
 كتاب الأملال لأبي علي التتالي، طبع  
 مطبعة دار الكتب المصرية.  
 كتاب الكامل للبردي، طبعة مصر.  
 كتاب البيان والتبيين للماحظ، طبعة  
 مصر.  
 العمدة لابن رشيقي، طبعة مصر.  
 كتاب المحاسن والمساوي للبيهقي، طبعة  
 فردريك شوالى.  
 كتاب المحاسن والاضداد للماحظ، طبعة  
 لندن.  
 كتاب البهلاء للماحظ، طبعة مصر.  
 كتاب الحيوان للماحظ، (نسخة  
 فتوغرافية محفوظة بدار الكتب  
 المصرية).

حلبة الكيت، طبعة بولاق .  
 خزانة الأدب لابن حجة الحموي، طبعة بولاق .  
 خزانة الأدب للبغدادي، طبعة بولاق .  
 محاضرات الفلسفة لستلثاته بالجامعة المصرية .  
 محاضرات علم الفلك بالجامعة المصرية .  
 للسنور كروثينو، طبعة روما .  
 مفتاح السعادة ومصباح السيادة .  
 لطاشكبري زاده، طبعة حيدرآباد .  
 محاضرات الشيخ عبد الوهاب النجار بالجامعة المصرية .  
 محاضرات المرحوم الشيخ محمد المهدي بالجامعة المصرية .  
 محاضرات الأستاذ الخضرى بك في تاريخ الأمم الإسلامية، طبعة مصر .  
 محاضرات الأستاذ الخضرى بك في تاريخ الدولة الأموية، طبعة مصر .  
 التقدير الإسلامى للمرحوم جورجى بك .  
 زيدان، طبعة مصر .  
 تاريخ آداب اللغة العربية للمرحوم جورجى بك زيدان، طبعة مصر .  
 طبقات ابن سعد، طبعة أوروبا .  
 طبقات الشافعية للسبكي، طبعة مصر .  
 المنشور والمنظوم لابن طيفور .  
 رسالة بنى أمية للمحافظ، خطية .

منهل الرؤاد في علم الانتقاد لقسطاكي الحمصى بك، طبعة مصر .  
 محاضرات الأستاذ الاسكندري المدرس بدار العلوم، طبعة مصر .  
 الوسيط للأستاذ الاسكندري المدرس بدار العلوم، طبعة مصر .  
 أدبيات اللغة العربية للأستاذ مصطفى صادق الرافى، طبعة مصر .  
 أدبيات اللغة العربية للمرحوم عاطف بركات بك وزملائه، طبعة مصر .  
 مهذب الأغاني للمرحوم الخضرى بك، طبعة مصر .  
 بلاغة العرب للدكتور أحمد ضيف، طبعة مصر .  
 الشعر والشعراء لابن قتيبة، طبعة ليدن .  
 طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجهمى، طبعة ليدن ومصر .  
 كتاب الأذكياء لابن الجوزى، طبعة مصر .  
 العقد الفريد للكات السعيد، طبعة مصر .  
 العقد الفريد لابن عبد ربه، طبعة مصر .  
 لطائف المعارف للشمالي، طبعة ليدن .  
 صيوان الأخبار لابن قتيبة، طبعة دار الكتب وأوروبا .

- كتاب الوزراء والكتاب لأبي عبد الله  
محمد بن عبدوس الجهشيارى طبعة  
فيينا سنة ١٩٢٦
- كتاب الاشتقاق لابن دريد الأزدي  
طبعه جوتتجن سنة ١٨٥٤  
الأوراق للصولي، خطية .
- مطبوعات تذكاري جيب الإنجليزية  
وخاصة مؤلفات الأستاذين  
مرجليوث وبرون .
- زهر الآداب للمصري، طبعة مصر .
- المشتبه في أسماء الرجال للذهبي، طبعة  
أوربا .
- الوافي بالوفيات للصفدي (المحفوظ  
بدار المكتبة المصرية تحت  
رقم ١٢١٩) .
- أخبار أبي نواس لابن منظور، طبعة  
مصر .
- رسائل البغساء للأستاذ محمد كرد علي،  
طبع مصر .
- جمهرة أشعار العرب لأبي زيد، طبعة  
مصر .
- المفضليات للضيبي، طبعة مصر .
- حماسة البحتري، طبعة بيروت .
- الصناعات لابن هلال المسكري، طبعة  
مصر .
- الموشى لأبي الطيب، طبعة أوربا .
- ديوان الحماسة لأبي تمام، طبعة مصر .
- مجانى الأدب وشرحه، طبعة بيروت .
- مختارات البارودي، طبعة مصر .
- حياة الحيوان للدميري، طبعة مصر .
- عيون التنوير لابن شاعر الكنتي  
(أجزاء منه محفوظة بدار الكتب  
المصرية) .
- الفرج بعد الشدة للتنوشي، طبعة مصر .

## المصادر الانجليزية :

- Histoire des Arabes par Cl. Huart: Paris.  
 Life of Mohamet by Sir W. Muir. (London).  
 The Life and Teachings of Mohammed and the Spirit of Islam by  
 Ameer Ali. (London).  
 D. S. Margoliouth: Mohammed and the Rise of Islam. (London)  
 in "Heroes of the Nations' Series".  
 H. Lammens: "Etudes sur les régnes des Califs. Omalyades Moawia  
 1<sup>er</sup> et Yasid 1<sup>er</sup>". (Beyrouth).  
 Library of Universal History (N. Y.).  
 History of Arabic Literature: Cl. Huart. (London).  
 A Literary History of Persia: Ed. G. Browne. (London).  
 A Literary History of the Arabs by R. A. Nicholson. (London).  
 Short History of the Saracens by Ameer Ali, (London).  
 The Caliphate: its rise decline and fall by Sir W. Muir. (London).  
 Annals of the Early Caliphate by Sir W. Muir. (London).  
 Baghdad during the Abbasid Caliphate by G. le Strange. (Oxford).  
 Encyclopaedia of Islam. (Luzac).  
 Encyclopaedia Britannica. (London).  
 La Grande Encyclopédie. Paris.  
 The Historians' History of the World by H. S. Williams.  
 (New York).  
 Ency. of Religion & Ethics by I. Hastings. (London).  
 The History of the Decline and Fall of the Roman Empire by  
 Gibbon. (London).  
 The History of Philosophy in Islam by J. de Boer translated by  
 Jones. (London).  
 Muhammedanische Studien by Ignaz Goldziher, (Halle).  
 Histoire des Musulmans d'Espagne Jusqu' à la Conquête de l'Anda-  
 lusie par les Almoravides by R. Dozy. (London).  
 Development of Muslim Theology, Jurisprudence and Constitu-  
 tional Theory by D. B. Macdonald. (London).  
 Margoliouth's Works Etc.  
 R. Dozy: Supplément aux Dictionnaires Arabes. 1927.  
 Bibliothek Arabischer Historiker und Geographen: Hans V. Mzik,  
 (Leipzig).

---

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٨/٥٤٩/٢٠٠٠)

---







